

الجـــزء الثانى

تأليف

(الميرالاى اسمعيل سرهنك ناظر المدارس الحربية)

(حقوق الطبع محفوظة للمؤلف)

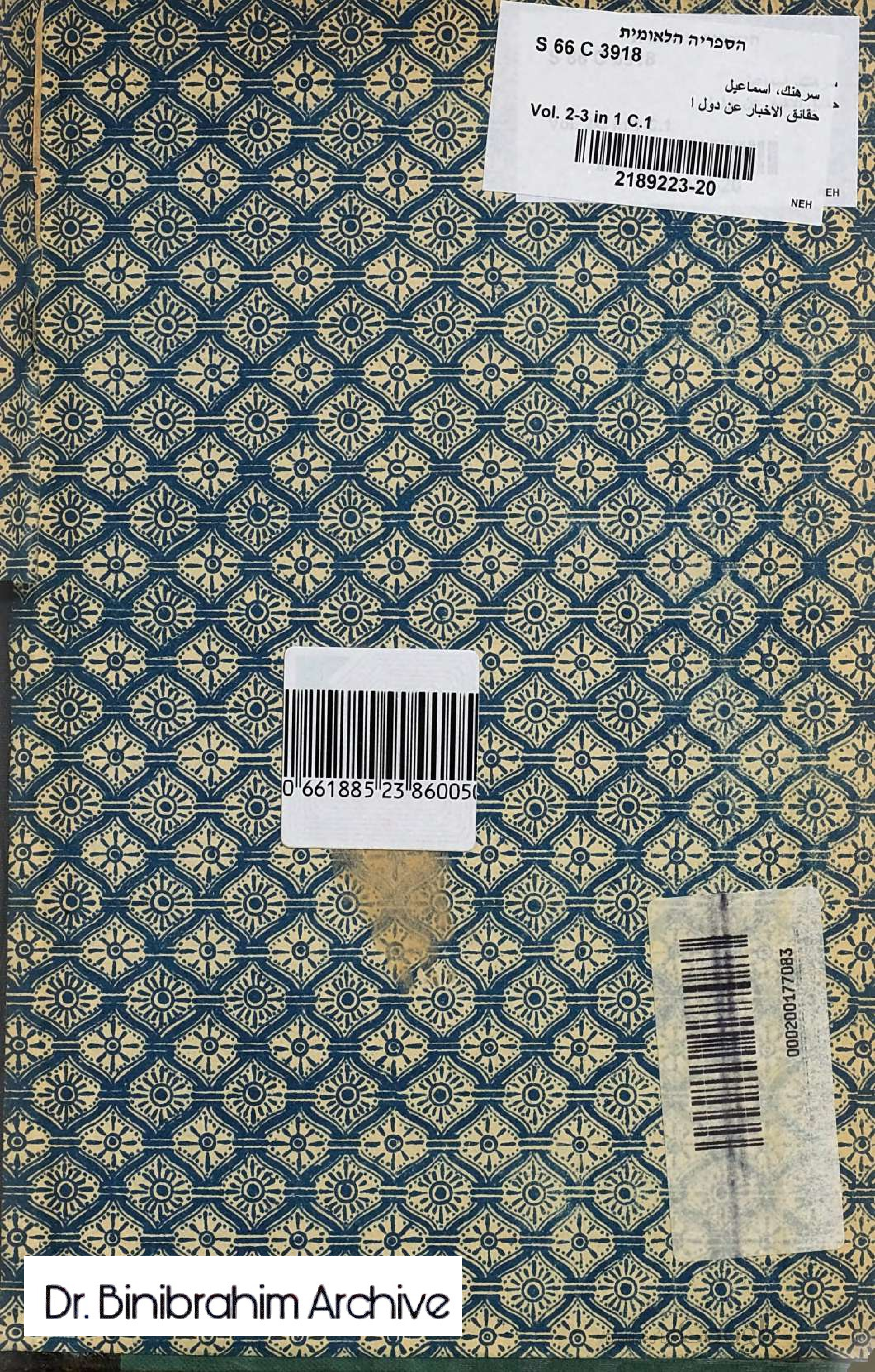
(الطبعة الاولى)

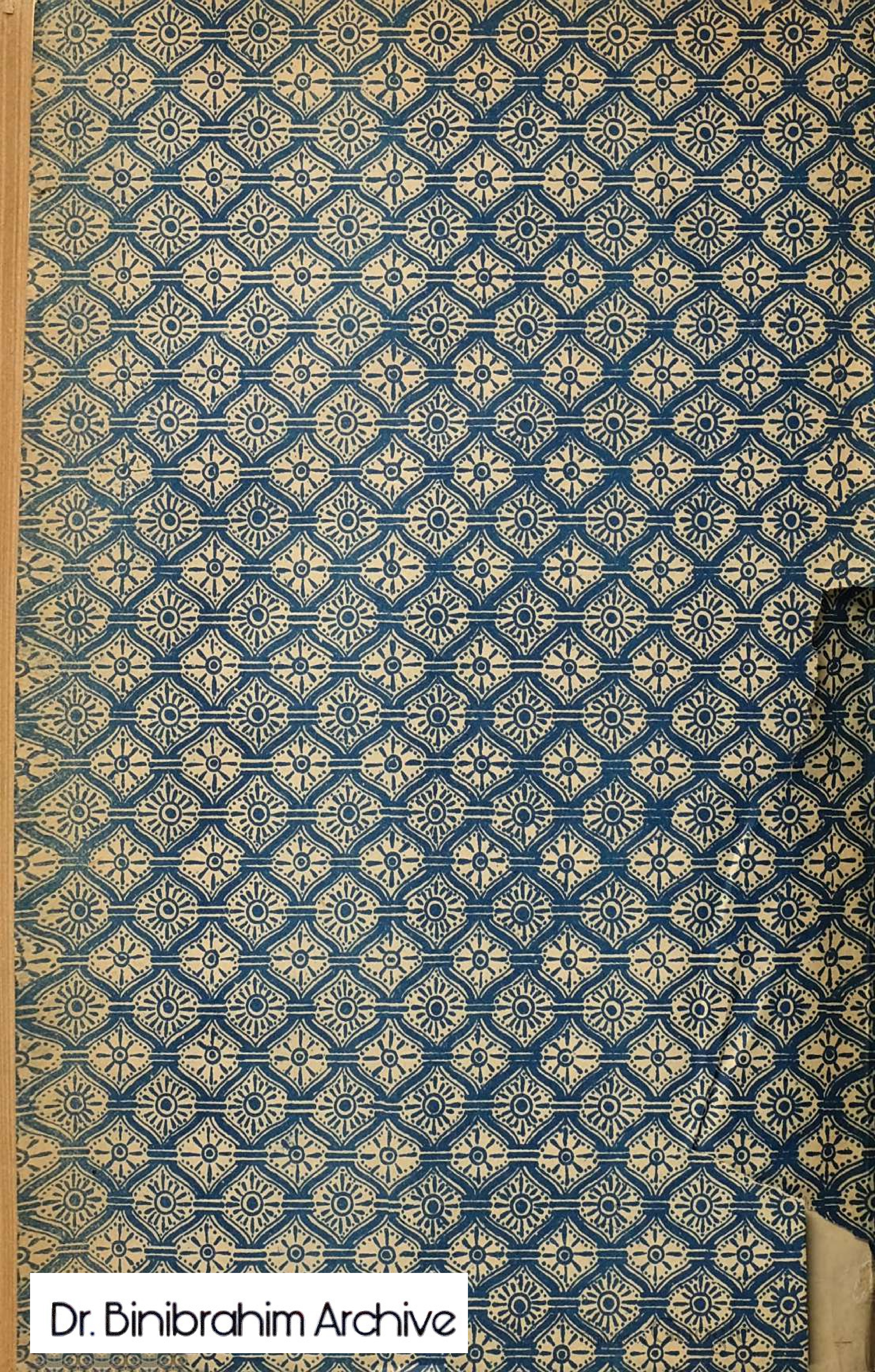
بالمطبعة الميرية ببولاق مصر المحمية

ســـنة ١٣١٤ هجرية

Dr. Binibrahim Archive

Digitized by Google


הספריה הלאומית
S 66 C 3918
سرهنك، اسماعيل
حقائق الاخبار عن دول ا
Vol. 2-3 in 1 C.1
2189223-20
NEH
0 661885 23 86005
000200177083
Dr. Binibrahim Archive


Dr. Binibrahim Archive

Digitized by Google

(فهرست)

الجـــــزء الثانى

(من حقائق الاخبار عن دول البحار)

Dr. Binibrahim Archive

Digitized by Google

﴿ فهرست الجزء الثاني من حقائق الاخبار عن دول البحار ﴾

نظامات

Digitized by Google

صحيفة

Digitized by Google

صحيفة

Digitized by Google

(فهرست الفوائد والمطالعات الموجودة بأسفل الصحائف)

Digitized by Google

فهرست الفوائد والمطالعات الموجودة بأسفل الصحائف

حرف

Digitized by Google

فهرست الفوائد والمطالعات الموجودة بأسفل الصحائف

فهرست الفوائد والمطالعات الموجودة بأسفل الصحائف

(بيان الخطا والصواب الواقع بهذا الجزء)

صحيفة	سطر	خطا	صواب
٤٤٦	٢٢	محمد على	شبرجهاد
٥١٠	١	استانلى	أمين باشا
٥٧٢	١٢	قاضلع	قاضع

Digitized by Google

Sarkenk, I.: Haqa'iq al-akhbar



الجـــــزء الثانى

تأليف

(الميرالاى اسمعيل سرهنك ناظر المدارس الحربية)

(حقوق الطبع محفوظة للمؤلف)

(الطبعة الاولى)

بالمطبعة الميرية ببولاق مصر المحمية

ســـنة ١٣١٤ هجرية

Dr. Binibrahim Archive

Digitized by Google

S 66 C 3918
2-3
892.781:387.091:909



(الباب الاول)

(مقدمة في الملاحة والبحرية في الديار المصرية)

﴿ الفصل الاول ﴾

(الملاحة والبحرية عند المصريين القدماء)

اعلم أن ابتداء الملاحة عند المصريين يكاد يكون من الامور المجهولة بالكلية ومع ذلك فقد روى كثير من المؤرخين أن أول من صنع السفن بعد الطوفان هو منا أى مصرايم فى نحو ٥٠٠٠ ق م (٥٦٢٦ ق ه) عندما دخل الديار المصرية وعمرت به وبعائلته ويؤيد هذا القول ان صح ما رواه تقى الدين أحمد المعروف بالمقريزى فى تأليفه الشهير بالخطط (ص ١٩ ج أول) حيث قال ان قليمون الكاهن خرج من مصر ولحق بنوح عليه السلام وآمن به هو وأهله و ولده وتلامذته وركب معه فى السفينة وزوج ابنته من بنصر بن حام بن نوح فلما خرج نوح من السفينة وقسم الارض بين أولاده وكانت ابنة قليمون قد ولدت لبنصر ولدا اسماه مصرايم فقال قليمون لنوح ابعث معى يا نبى الله ابنى حتى أمضى به الى بلدى وأظهره على كنوزى وأوقفه على علومه ورموزه فأنفذه معه فى جماعة من أهل بيته وكان غلاما مراهقا فلما قرب من مصر بنى له عريشا من أغصان الشجر وستره بحشيش الارض ثم بنى له بعد ذلك فى هذا الموضع مدينة وسماها درسان أى باب الجنة فزرعوا وغرسوا الاشجار والاجنة من درسان الى البحر فصارت هنالك زروع وأجنة وعمارة وكان الذى مع مصرايم جبابرة فقطعوا الصخور وبنوا المعالم والمصانع وأقاموا فى أرغد عيش ويقال ان أهل مصر أقاموا عليهم مصرايم بن بنصر ملكا فى أيام تالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشد ابن سام بن نوح فملك مصر وهى مدينة منيعة على النيل وسماها باسمه ويقال إن مصرايم غرس الاشجار بيده وكانت ثمارها عظيمة بحيث تشق الاترجة نصفين فيحمل على البعير نصفها وكان القثاء فى طول أربعة عشر شبرا ويقال انه أول من صنع السفن بالنيل وان أول سفينة كانت ثلثمائة ذراع طولا

Dr. Binibrahim Archive
Digitized by Google

طولا في عرض مائة ذراع اهـ وقال غيره ان المصريين كانوا واقفين على أحوال السفن قبل أن ظهر في اليونان أخبار سفينة الارغونوط التي كان المصريون يدعونها سفينة ايسيس والارغونوط المذكورة مشهورة أيضا باسم ارغو ويقال عنها في الميتولوجية ان مينرفة هي التي رسمتها وعلمتها لتسهل على الناس ركوب البحر وفي رواية أخرى ان هذه السفينة عبارة عن السفينة التي بناها دانائوس ليهرب بها مع بناته من أخيه اجيبتوس وهي لدى الرومان عبارة عن سفينة بانوس ونقشوا صورتها على مسكوكاتهم وذكر بلوترخوس (بلوتارك) [1] أنها سفينة أوزيريس وقد شوهدت على بعض الكرات القديمة دالة على سفينة نوح عليه السلام فان صح ذلك كان مصرايم صنع السفينة الاولى على شكلها الا انه في مبدإ دخوله مع عائلته الى الديار المصرية لم يكونوا يعرفون ما في صنع السفن من الأهمية الى أن ارتفعت مياه النيل فصاروا يمشون على طريقة ينتقلون بها من مكان الى آخر فجمعوا بعض الاخشاب وربطوها ببعضها وصاروا يعبرون بها فوق نهر النيل وهي المسماة عند العامة بالرواميس (الرَّمث) ثم بعد ذلك أخذت صناعة السفائن تتقدم بين المصريين حتى أتقنوها خصوصا بعد اختلاطهم بقبائل وأقوام الكنعانيين والعبرانيين الذين كانوا قد خاطروا بالجولان بسفنهم داخل البحر المتوسط الابيض وباشروا الاسفار الطويلة فيه وهم المعروفون أيضا بالفينيقيين الذين امتازوا على سائر شعوب العصر القديم في سلوك البحار واتقان صناعة السفن واتخذوا لهم على كثير من سواحل البحر المذكور نزلات تجارية وقال بعض المؤرخين إن الملاحة بديار مصر زادت أهمية من بعد ما أخضعت فراعنة مصر بلاد فينيقية التي كانت أساطيلها أشهر أساطيل العصر القديم تجول في البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر حتى ان سيدنا سليمان بن داود عليهما السلام لما شرع في اتمام بناء الهيكل المشهور بمدينة أورشليم في حوالي سنة (١٠١٥ ق م) اهتم بزيادة أساطيله بميناء اسيونجابير [2] (Asion - Gaber) الواقعة على ساحل البحر الاحمر وصار يسيرها من تلك الميناء بواسطة ملاحين من فينيقية لجلب الاخشاب والذهب والحجارة الثمينة من البلدان البعيدة حتى قيل انها أرسلت الى أرض أوفير وجلبت منها الذهب وان حيرام ملك صور ساعده في بناء الهيكل المذكور وكانت أساطيله تنقل خشب الارز والصنوبر من السواحل القريبة من غابات لبنان الى فرضة يافا التي كان يسميها العبرانيون وقتئذ (جوبا) (zoppé) أي الظريفة وقال آخرون ان السفينة الأولى التي صنعها مصرايم بعد توطنه بديار مصر كانت على شكل سفينة نوح عليه السلام التي صنعها من خشب الساج وقيل من خشب الشمشاد وقيل أيضا انها كانت من خشب الصنوبر كما قاله المرحوم الشيخ الالوسي في تفسيره الكبير المسمى روح المعاني وقال المشار اليه أيضا كان رأس

---

(١) بلوتارك Plutarque مؤرخ يوناني شهير ولد في خيرونيا Chéronée من بيوتيا سنة ٥٠ ميلادية ودرس علومه بمدينة أثينا وساح ببلاد أسيا ومصر وكان معلما للادريانوس بمدينة رومية ولما عاد الى وطنه انتخبوه أميرا للمدينة أثينا وهو مؤلف كتاب شهير يسمى حياة عظماء الرجال يذكر فيه ترجمة كل واحد من اليونان بازاء آخر من الرومان ويقابل بينهما وقصده من ذلك أن يظهر ان اغريقية ليست أقل درجة من رومية ومات وله من العمر سبعون سنة

(٢) اسيونجابير سميت هذه المدينة فيما بعد برنيس وهي مدينة قديمة من بلاد العرب لاتزال اطلالها باقية الآن بين العقبة وقصر البدوي

الفلك كرأس الديك وجؤجؤها كجؤجؤ الطير وذنبها كذنب الديك ولها أبواب في جنبها ومشدودة بدسر ومطلية بالقار وطولها كان ثلثمائة ذراع وعرضها خمسون وارتفاعها في السماء ثلاثون وأخرج ابن جرير وغيره عن الحسن قال كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع وصنع لها بابا في وسطها واختلف في المدة التي تم صنعها فيها ما بين ثلاث سنين وأربعين سنة وستين وكذا الموضع الذي صنعت فيه فقيل في الكوفة وقيل في الهند وقيل في أرض الجزيرة وفي أرض الشام اهـ

وقال بعض المؤرخين أيضا انه بعد ما انتشرت صناعة السفن في الديار المصرية كثرت الملاحة بها في داخل النيل ثم صاروا يخرجون بها الى البحر الملح وينقلون تجارتهم من مكان الى آخر فأخذت عند ذلك أهمية وصناعة السفن والملاحة تتزايد بين المصريين منذ نحو سنة ٤٥٠٠ قبل المسيح وقد أيد ذلك ماريت باشا مدير دار التحف المصرية في تأليفه الذي ترجمه المرحوم أبو السعود أفندي المسمى فرجة المتفرج وقال أيضا حضرة الفاضل أحمد كمال بك في تاريخه الشهير وغيره من المؤلفين أقوالا عن الملاحة والاساطيل عند المصريين نلخص منها ما يأتي

من تأمل الى النقوش البارزة الموجودة على جدران القبور والآثار القديمة الكائنة في تربة ابيس المصور عليها صورة القوارب والزوارق المصرية التي كانت تستعملها القدماء يتضح له أن فن الملاحة في نهر النيل كان معلوما من قبل ٧٠٠٠ سنة وقد قال المؤرخون ان خانوفر رع (رعنوسر) الذي يسميه مانيتون رتورس سادس ملوك الدولة الخامسة التي كانت قاعدتها جزيرة أسوان (٣٤٣٣ ق م) هو أول ملك أتقن صناعة المراكب والفلك التي كان المصريون يستعملونها في تلك الحقبة العصرية فلهذا ظهر أن المصريين كانوا من قبل ذلك بعدة عالمين طرق الاسفار في البحار بطريقة تشبه الطريقة الجاري عليها العمل بديار مصر لغاية هذا العصر تقريبا وكانوا يستعملون الشراع والمجاذيف في سفرهم واذا صعدوا النيل كانوا ينصبون العود المعروف عند الملاحين بالصاري ويشدون عليه قلاعا عريضا من بعا الاعلى هيئة المثلث كالجاري في عصرنا هذا نقول فيكون المصريون عرفوا استعمال الشراع في سير السفائن بالالهام الالهي قبل باقي الامم البحرية القديمة ولعل أولئك الامم أخذوه عن المصريين أو عرفوه بعد ذلك من نقوش المصريين واذا انحدروا من أعلى النيل أنزلوا القلع ونكسوا الصاري واستعملوا المجاذيف ويظهر أن الشراع المثلث اخترع في مصر ليتلقف الريح من العلو وذلك بعد ما عمل حول شواطئ نهر النيل الجروف المرتفعة التي صنعتها القدماء لمنع طغيان مياهه عند الفيضان على الاراضي الزراعية المنخفضة فصارت تلك الجروف تمنع تأثير الريح على الشراع المربع المنخفض فالتزموا بالبحث عن شكل آخر فاخترعوا الشراع المثلث ويعلم من صور وأشكال السفن الصغيرة المصرية التي وجدت في النواويس والقبور ضمن الآثار العتيقة أن مقاعد السفن التي كانوا يتخذونها على ظهر (كوكرته) السفائن في ذلك العهد كانت مصنوعة في وسطها لا في مؤخرها وانها كانت ضيقة مستعرضة كما أن السفن كانت كذلك ومع هذا فقد كانت المسافة المتروكة فيما بين المقعد وما يسمى بجنب السفينة (الابانده) متسعة اتساعا كافيا ليسع الجذافين يعملون بمجاذيفهم ولم يكن المصريون في ذلك الوقت يعرفون الدفة على الحالة المستعملة بالسفائن في هذا العصر وانما كانوا يستعملون بدلا عنها مجدافا أو مجدافين أو ثلاثة مجاذيف ذات ألواح عريضة يربطونها في السفينة بحبال لهدايتها الى حيث شاؤا وهذه كانت

Digitized by Google

الحالة فى السفن المستعملة فى النيل أما السفائن المعدة للاسفار البحرية فقد كانت أكبر وأكثر صلابة من سفن النيل غير أن شكلها كان واحدا وكيفية استعمالها واحدة أيضا وأول سفينة حربية صنعت بالديار المصرية على ما نعرف هى السفينة التى استصحبها معه الوزير أونا الشهير عند ما أرسله الملك (مرنرع) الاول رابع ملوك الدولة السادسة الاسوانية (٣١٩٥ ق م) مع أسطول جسيم من مراكب وصنادل عادية الى بلاد آبيها والى جزيرة اسوان لجلب الاحجار اللازمة لبناء هرمه وناوسه ومن هناك أقلع الى بلاد حانوب الشهيرة بجودة الاحجار لاحضار سفرة بحرية كبيرة للمشروبات

وأمر الملك سعنخ كارع تاسع ملوك العائلة الحادية عشرة الطيبية (٢٥٠٠ ق م تقريبا) أحد كبار رجال دولته المدعو حنو بأن يبنى سفائن على البحر الاحمر ويتوجه بها الى بلاد العرب لاحضار الصمغ العطرى أى البخور الذى جمعه رؤساء الصحراء للملك خوفا منه فتوجه الامير المذكور من قفط برا ومعه ثلاثة آلاف رجل وصنع فى أثناء سيره محطات وآبارا ولما وصل الى الساحل أنشأ سفنا لنقل تلك المحصولات وكانت أشكال تلك السفن كأشكال سفن بحر النيل فلما تمت أقلع بها وقصد بلاد والك ومنها توجه الى رهان لجلب الاحجار النفيسة ولذا قال المؤرخون ان حنو هذا هو أول فاتح للطريق الموصل من قفط الى بلاد العرب وأول منشئ للسفائن المصرية فى البحر الاحمر ولما دعا الملك تحوتمس الاول الملقب رعاخبرن ثالث ملوك العائلة الثامنة عشرة الطيبية فى آخر مدته ابنته حع ناسو لتشاركه فى الحكم (١٦٩٠ ق م) وكانت حكومة مصر تحكم على بلاد الشام لان تحوتمس الثانى كان قد فتحها بغير حروب وصارت فينيقية تحت حكم مصر وازدادت الفوائد البحرية بالديار المصرية بعد أن كانت قليلة الاهمية للأوهام الدينية المانعة من السفر فى البحار وعزمت تلك الملكة بعد انفرادها بالحكم على الاستيلاء على بلاد بون وبلاد تونوتر لتوسيع ملكها بضم هذه البلاد الشهيرة بالاخشاب النفيسة والصمغ والعطريات والذهب والفضة واللازورد والحجارة النفيسة والمتاجر الاخرى فصنعت فى البحر الاحمر مراكب حربية وشحنتها بالجيوش وقادتها بنفسها ثم أقلعت بهم القتال بلاد بون المذكورة ويروى أنها استصحبت معها كثيرا من ملاحى الفينيقيين ولما وصلت الى تلك البلاد حاربت أهلها وانتصرت عليهم فكانت هى أول ملوك مصر الذين قادوا الاساطيل فى البحر الملح

وصورة هذه الغزوة البحرية منقوشة على جدران مبانى جهة القرنة بالمحل الذى يقال له الدير البحرى ومن نظر الى تلك الجدران يرى صورة كل سفينة بدقائق هيئتها وحقائق شكلها وكيفيتها بغاية الاتقان الظاهر للعيان فترى السفينة المصرية سائرة فى بحر ذى أمواج خضر وتشاهد فيه من أصناف الاسماك العجيبة وأنواع الحيوانات المائية الغريبة ما يخترق البحار من كل جانب ويقاوم قوة التيار وتشاهد السفن ذات الشراع وعليها جذافين منحنين على مجاذيفهم يساعدون سيرها وضباط جنود واقفين على أقدامهم هاجرين لذة منامهم فى حجرات منظمة على أطراف ظهر السفينة ولا يخفى خصوصا على الناظر فى ذلك المنظر الرائق حسن وترتيب كل سفينة ويرى أن مقدم السفن المصرية فى ذلك العهد كان مقطوعا على شكل قرمة قائمة كما فى النوع المسمى

Digitized by Google

بالقنجة (١) وهو مصبوغ بالازرق بحيث يتخيل للناظر اليه كأنه متخذ من حديد وانه قرن للسفينة معد للطعن به فى جنب سفائن الاعداء (٢) ويرى فى الرسم المذكور أن مؤخر سفائن المصريين كان ملتويا فى غاية الظرف على شكل زهر السدر الذابل والسوارى كانت غليظة الجرم مركبة من قطعتين من الخشب متحدتين بمجوعتين احداهما مع الاخرى بأربطة من الحبال وثيقة ويرى الناظر فى أطرافها العليا بكرات لتسهيل ما يحصل فيها من الحركات وعلى أحد جانبيها فى الرسم خمسة عشر جذافا يجاذيفهم يعملون و يجتهدون فيما هم به يشتغلون وبذلك يعلم أن بالجانب الآخر خمسة عشر مثلهم يعملون عملهم فيكون لكل سفينة ثلاثون جذافا ولا حاجة للكلام على ما يظهر للعيون من تلك الاشرعة العظيمة والقلوع الرائعة الجسيمة

واذا ساغ لنا أن نعتمد على ما وجد من النسبة الصحيحة بين جرم الآدميين وأبعاد السفن المصرية المصورة على الجدران المذكورة صح لنا أن نقول بأن السفن المصرية كان لها من الطول بقدر قامة الرجل من البحارة المرسومة صورهم فيها ثلاث عشرة مرة أعنى نحو ٢٢ مترا وتكون هذه السفن هى عين البوارج الحربية الكبيرة والسفائن العسكرية الشهيرة التى نقلت منذ أكثر من ٣٥٠٠ عام مضت جنود الدولة المصرية لشن الغارة على بلاد اليمن وقد علم كما لا يخفى من التأمل فى هذه الواقعة البحرية أن سفن أسلاف المصريين فى ذلك العصر لم تكن جسيمة القدر هذا وقد دلت صور مناظر أخرى كالرسم الذى نحن بصدد وصفه هنا كذلك موجودة على بعض أطلال ناحية القرنة على أن اسلاف المصريين كانوا ينشؤن من السفن الحربية ما هو أعظم والحاصل أن من تأمل فى آثار أبنية جهة القرنة المذكورة يظهر له نموذجات كبيرة من سفائن قدماء المصريين ذات الشراع المنقوشة بجميع أنواع النقش المتنوعة ملونة بسائر ألوان الصبغ عليها من ستين الى سبعين جذافا وبها عدد كثير من الدواب كالبقر والحمير والقرود والاحمال المربوطة من أصناف البضائع وغيرها وعلى ذلك يقتضى أن تكون الدرجة التى بلغتها الصناعة البحرية عند الامة المصرية فى ذلك العهد من أعلى الدرجات ولذلك مدح اليونان قوتها و بالغوا فى الثناء عليها وقد ذكر المؤرخ اليونانى الشهير ديودور الصقلى أن فرعون مصر سيزوستريس (رمسيس الثانى) كان اهتم بأمر البحرية المصرية فشيد جملة سفن فى البحر الاحمر والبحر الابيض المتوسط و بعث من البحر الاحمر من مينا القصير التى كانت تسمى قديما (فيلوتيراس أو أمان Philoteras ou Œman) اسطولا جسيما يزيد عن ثلثمائة سفينة حربية واستولى على سواحل هذا البحر وعلى جزائره ومدنه وثغوره وعلى جزائر بحر الهند وأرسل أيضا اسطولا مثله الى سواحل فينيقية فاستولى عليها وعلى كثير من جزائر بحر الارخبيل بعد أن هزم اليونان فى عدة وقائع بحرية بينما كان يفتح الفتوحات الكثيرة فى أواسط آسيا كما فتح فى افريقية وكانت فتوحاته كما روى البعض أكثر مما افتتحه اسكندر المقدونى الشهير

(١) وقد استعمل البنادقة هذا الشكل فى سفنهم واستعمله أيضا العثمانيون فى أوائل بحريتهم وكانوا يسمون السفينة التى على الشكل المذكور غالمه باش

(٢) لا يبعد ان شكل مقدم المدرعات التى صنعت أخيرا أخذ من هذا النوع وجعل قرن الصادمة من أسفل خط الماء لان الرومان كانوا يصنعون سفنهم على ذلك الشكل و يجعلون القرن المذكور من أسفل و يرى على خط سطح الماء

Digitized by Google

وفى ابتداء عهد رمسيس الثالث أول ملوك الدولة الطيبية المتممة للعشرين قامت عليه البدو وهددوا شرقى البلاد وخرجت عن طاعته ولايات الشام وأغار الليبيون على غربى المملكة فاستعد لحربهم فلما علم أهل آسيا الصغرى والجزائر اليونانية بهذه الثورات والحروب أرادوا الخروج عن طاعته فشنوا الغارة أيضا واندفعوا بجيوشهم وأساطيلهم على سواحل مصر فقابلتهم جيوش الملك وسفنه الحربية وحصلت واقعة هائلة بقرب مصب النيل الذى كانت فيه الاساطيل كحائط قد بنى بالسفن والمراكب الحربية والزوارق الغاصة من مقدمها الى مؤخرها بشجعان المقاتلين وانتهت بانتصار المصريين بعد أن أوقعوا باعدائهم وغرقت سفنهم وأموالهم وبعد هذا الانتصار وانقياد الثوار للطاعة أرسل الملك رمسيس فى البحر الاحمر سفنا الى بلاد العرب لجلب الخيرات منها الى مصر قال الفاضل أحمد بك كمال فى كتابه العقد الثمين نقلا عن ورقة هريس عن لسان هذا الفرعون انى أرسلت سفنا وأغربة فيها ملاحون عديدة وعمال كثيرة ورؤساء من الملاحين للمدد وكشافون وحساب لصرف ما يلزم لهؤلاء الخدمة من المؤنة وشحنت فيها أيضا كثيرا من الاشياء النفيسة وسارت السفن فى البحر الاحمر الى أن وصلت بلاد بون من غير أن يصيبها ضرر فشحنت الخدمة الاغربة والسفن من خيرات تونوتر (أى البقيع) ومن تحفها الى أن قال حتى ملؤا السفن بالاشياء التى لا تحصى عددا وأتى معهم أبناء رؤساء تونوتر بالجزية ووصلوا الى قفط سالمين ورست هنالك السفن بتلك الخيرات ثم حملتها الرجال والحمير الى مراكب النيل الراسية تجاه قفط اه وبعد ذلك أرسل هذا الملك تجريدات أخرى فى البحر الاحمر الى شبه جزيرة الطور فأخضعتها وأدخلتها ضمن أملاك مصر

وقال ديودور الصقلى أيضا ان سيزوستريس أنشأ على النيل سفينة كبيرة يبلغ طولها ما يعادل ١٤٠ مترا قال بلين أو بلينوس (١) أيضا ان أحد الملوك المعروفين بالبطالسة ولعله بطليموس الثانى أنشأ سفينة فى الطول كالقدر المذكور مع كون مساحتها من الخشبة السفلى المركبة عليها المعروفة عند الملاحين بالقرينة حتى ظهرها الظاهر من أعلاها (الكورزيطه) يبلغ ٢٤ مترا وعليها أربعمائة بحار وأربعة آلاف جذاف ونحو ثلاثة آلاف جندى نعم ان هذه الارقام ربما كان فيها مبالغة غير أنها لا تزال تدل على أن الامم المعاصرين لاسلاف المصريين كانوا يحترمون البحرية المصرية ويتطرون اليها بعين الاعتبار ولا يبعد ذلك لأن القوة البحرية المصرية فى عهد بطليموس الاول كانت أكبر وأعظم قوة فى العالم البحرى (٢٩٣ قم) لأن السفن التى كانت بدور صناعته كانت نحو ٣٥٠٠ سفينة بين كبيرة وصغيرة حربية وتجارية وكان له مزيد العناية بالفنون البحرية وعمارات السفن حتى كان عنوانه فى دواوين مقدونيا قبطان الاساطيل وقد ارتقت فى أيامه الملاحة المصرية وكثرت التجارة العمومية البحرية كما سنفصله فى محله

ومما يؤيد اهتمام الدول التى حكمت مصر بأمر الملاحة والبحرية أن فرعون مصر نيخاوس الثانى (٦١٢ قم) الملقب نابرع أحد ملوك الدولة السادسة والعشرين الصاوية اعتنى بأمر الاساطيل اعتناء زائدا عندما قصد أن يسترجع لحكمه بلاد الشام كأسلافه لما من غائلة

(١) كايوس بلين pline هو عالم من علماء الطبيعيات رومانى ولد بمدينة كوم سنة ٢٣ للميلاد وله تاريخ طبيعى مشهور لا يزال العلماء يقدرونه حق قدره ومات فى ثورة بركان ويزوف سنة ٩٧

الاشوريين فانتدب لذلك كثيرا من المهندسين اليونانيين لبراعتهم اذذاك فى فن سلوك البحار وصناعة السفن وأوعز اليهم بانشاء المعامل البحرية لصناعة السفن وتغيير شكل المراكب المصرية القديمة الى مراكب حربية جديدة تسير بالمجاذيف والشراع على هيئة سفن اليونانيين المسماة بالاغربة فقاموا بتنفيذ أمره وشيدوا له الاساطيل القوية وبها تمكن من الانتصار على أعدائه واسترجع جميع الديار الشامية فاصبحت سواحل فينيقية خاضعة لامره وازدادت الاعمال البحرية فى الديار المصرية ثم تشبث عشر وعمهم لفائدة التجارة وهو معرفة محيط قارة افريقية والوقوف على مسالكها البحرية على وجه الحقيقة ولاشك أن هذا المشروع كان من أجسم المشروعات لان رحلته البحرية أكبر رحلة علمت فى تلك الاعصار الجاهلية فاستخدم فى سفنه المصرية جماعة من الفينيقيين وأمرهم بأن يسافروا فى البحر الملح من عند خليج السويس ويتوجهوا نحو الجنوب فسافروا كما أمرهم ومكثوا فى سفرهم هذا نحوا من ثلاث سنين تتبعوا فيها السواحل وقطعوا بسفنهم تلك المجاهل حتى وصلوا الى رأس الرجاء الصالح ثم صعدوا الى الشمال حتى بلغوا بحر الزقاق أو أعمدة هرقل أو هرقول المسمى الآن بمضيق جبل طارق ومنه دخلوا الى البحر الابيض المتوسط حتى وصلوا الى بلاد مصر ورووا ماشاهدوه أثناء سفرهم وماظهر لهم من الاماكن والمسافات وبذلك علمت سواحل افريقية وما حولها من البحار على وجه يقرب من الصحة مع ما كانت عليه الملاحة من الصعوبات فى ذلك العصر وزيادة على ذلك فان هؤلاء الملاحين كانوا يضطرون للاقامة بالسواحل مدة فصل الشتاء والزوابع ولما كانت سفنهم لاتحتوى على كمية الزاد الذى يلزمهم مدة سفرهم كانوا يبذرون بالاماكن الخصبة الحبوب التى يقتاتون منها وينتظرون نضجها وحصدها ثم يقلعون كما كانت هذه عادة الملاحين القدماء فى أسفارهم الطويلة وهذا لاشك يجعل الاسفار البعيدة محفوفة بالاخطار سيما وان القدماء كانوا يعتقدون أن الاقيانوس هو الحد الفاصل بين العالم المعروف وتتشذو به حيوانات هائلة مع ضعف سفنهم ومعرفتهم القليلة بالاسفار البحرية وقلة تمرنهم على ادارة سفنهم الغير المحكمة البناء فلذلك لم يجسر أحد أن يبتعد عن طرف البر كثيرا واذا نظرنا الى ما كان عليه علم الجغرافيا وفن سلوك البحر فى ذلك العصر من الطفولية فلا بد أننا نعجب غاية العجب من أن ملكا من ملوك مصر فى ذلك العصر أى قبل نحو ٢٥٠٠ عام من الدهر أمكنه أن يقوم بعمل جليل مثل هذه الرحلة التى لم يتيسر للامم المتأخرة أن تقوم بها الا منذ نحو ٣٨٥ سنة أى عندما قامت ملوك البرتغال وأرسلوا أساطيلهم تحت قيادة ماجلان وفاسكودوغاما الارتياد تلك الاطراف ومع ذلك يمكننا القول بأن البحرية المصرية اذا كانت نالت فى خلال تلك الحقبة العصرية قوة حركة ونشاط واهتمام كان أكثره فى البحر الاحمر لان قوتها فيه كانت أزيد بكثير من قوتها بالبحر المتوسط الابيض ولهذا اهتم أولا سيزوستريس ثم الملك نخاوس بعمل ترعة توصل البحر الاحمر بالبحر المتوسط الابيض لجمع أساطيلهما فى الجهة التى كانا يرغبان جمعها فيها لغزواتهم البحرية من جهة ولتسهيل التجارة من جهة أخرى وهى عين الفكرة التى قصدها بعدهما بطليموس الثانى الملقب فيلادلف الا أن الكل لم يتمكنوا من اتمام هذا المشروع العظيم بالطريقة التى قصدوها وهى توصيل البحرين ببعضهما مباشرة ولكنهم تمكنوا من اتمام عملهم الى الدرجة التى سنذكرها فى محلها وهى توصيل البحرين المذكورين ببعض ترع النيل وكان مشروعهم هذا من أعظم المشروعات

Digitized by Google

تسهيلا للتجارة والمنافع الحربية وهو الذى نفذه فرديناند دولسبس فى عصرنا الحاضر وفتح ترعة السويس المالحة

والحاصل أن اهتمام الدول المصرية القديمة بأمر القوة البحرية والملاحة جعلتهم يقهرون أكثر الممالك المعاصرة لهم وتمكنوا بها من توسيع ممالكهم ومد نفوذهم على أكثر جزائر وبلاد آسيا والبحر الاحمر وافريقية وجزائر اليونان وسوريا ولما استولت الفرس على الديار المصرية انحطت قوة مصر البحرية واستبد عمالهم فيها بأنواع المظالم فكانت نيران الثورات مغطاة بستار الاستبداد ولما عين الملك ارطخشيارش من قبله أخاه اخيمنس واليا على مصر خلع المصريون طاعة حكومة الفرس قال تى سيديد المؤرخ ما معناه انه فى أيام هذا الوالى ظهرت الثورات (٤٧٨ ق م) فى أكثر جهات المملكة الفارسية فقام المصريون للتخلص من عبودية الفرس وانتخبوا ايناروس ابن بسامتيك ملكا عليهم وكان أميرا على مدينة ماريا وتعاهد مع اليونان وطلب منهم المساعدة بالاساطيل وكان اليونان فى وقتها جالة سفن حربية صنعوها فى جزيرة قبرص فأرسلوا له أسطولا مركبا من مائتى سفينة فدخلت النيل وحاربت الفرس فى عدة وقائع ولما وصلت مصر واقتتل الطرفان تمكن ايناروس من قتل اخيمنس نائب الفرس وفى أثناء ذلك هجمت السفن الاثينية التى كانت تحت قيادة الاميرال خاريتميدس على السفن الفينيقية التابعة للعجم فاغرقت منها ثلاثين سفينة وأسرت منها عشرين ثم هاجم اليونان والمصريون منفيس وخلصوها من يد الفرس واجتهد ارطخشيارش فى التحيل على فصل جنود اليونان عن جنود مصر بمساعيه لدى مدينة اسبارطه فتمكن من مرغوبه وأعاد مصر الى قبضة الفرس ثانية وجعل سرطاماس الفارسى واليا عليها الأن ملوك الدولة الصاوية لم تخمد همتهم فى طلب الاستقلال فكانت الحروب مستمرة مع الفرس ثم تعاهد الملك نفريتس الاول مع اسبارطه (٤٠٣ ق م) واستمر كل من الملك اخوريس ومن خلفه من ملوك الدولة المذكورة يحارب الفرس بمساعدة أساطيل اسبارطه الى أن انقرضت وقامت الدولة المتممة للثلاثين المعروفة بالسمنودية التى فى عهد ملوكها نقطانب الاول وطاخوس ونقطانب الثانى كانت مصر مركز حروب مع الفرس وأساطيل اليونان واسبارطه تمخر فى سواحل مصر ونيلها مشحونة بالجيوش لمساعدة المصريين على الفرس الى أن أقل نجم الفرس من مصر بظهور اسكندر المقدونى

وكان قدماء المصريين يصنعون سفنهم على أجناس مختلفة فسفن الاهالى تصنع بأقل كلفة عن سفن الملوك والأمراء والأعيان ووجوه الناس حتى ان الاهالى كان يمكنهم ان يميزوها من بعد وتعرفها من شكلها ولمن هى السفينة بمجرد رؤيتهم لها قال العالم المصرى المرحوم على باشا مبارك فى صحيفة ٣٠ من الجزء الثانى عشر من الخطط التوفيقية ان سفن الملك وعائلته كانت مميزة عن باقى السفن بل ما هو خاص بالملك مميز عما هو خاص بعائلته وكانت سفن الامراء مميزة على حسب درجاتهم بحيث لا تشتبه بسفن العائلة الملوكية أو غيرها وكذلك سفن الاعيان وغيرهم وذلك لان سفن الملك كانت مركبة من أربع طبقات بعضها فوق بعض ارتفاع كل طبقة عشرة أقدام وكانت مذهبة من داخلها وخارجها ومزينة بجميع الصور والنقوش التى كانت فى المعابد وكان يشاهد بها التماثيل والهياكل وصور الكواكب والبروج وكانت سفن الامراء ورؤس الجيوش وحكام المديريات

Digitized by Google

مركبة من ثلاث طبقات ارتفاع كل طبقة تسعة أقدام وكانت غير مذهبة جميعها بل كانت الالوان تتناوب مع الذهب فى الزينة لأجل أن تتميز عن سفن الملوك وكانت صورة المقدس ابريس ممنوعة منها لانها منقبة مختصة بالملك وسفن القسس وضباط العسكر والاعيان مركبة من طبقتين ارتفاع كل طبقة منها ثمانية أقدام وهى مزينة بأنواع الالوان وكان ممنوعا منها ادخال صورة المقدس ابريس والمقدس أورودس والسفن المستعملة فى نقل الاشياء التجارية وسفن عامة الناس مركبة من طبقة واحدة لجلوس المسافرين وليس فيها نقوش بل هى مصبوغة بلون بسيط لاغير والطبقة المذكورة هى عدة أو بعضها داخل بعض كأود السفن المسماة فى زماننا بالذهبيات وكان الموجود من أنواع السفن المذكورة كثيرا جدا حتى قال بعضهم انها تبلغ ثمانين ألف سفينة وكان جميعها يرى فوق النيل فى مدة زيادته وهذا فضلا عما كان يوجد من غيرها وكان أيضا كثيرا جدا وهو مخصص بباقى طوائف الاهالى اه

وقد يعلم شكل الزوارق التى كانت تستعملها قدماء المصريين فى النيل من الزورق الذى وجدته دار التحف المصرية فى تابوت والدة الملك أموزيس أول ملوك الدولة الثامنة عشرة وهو الآن من محفوظات دار التحف بالجيزة وهذا الزورق من الذهب الابريز تحمله عربة ذات عجلات من البرونج وهو أشبه بالقوارب المعروفة فى الاستانة بالقايق أو بالقنجات المستعملة بمدينة البندقية والقذافون به من الفضة الخالصة وفى وسطه صورة شخص صغير الجسم بيده بلطة وعصا معوجة وفى مؤخر الزورق المذكور صورة ملاح يقبض على يده دفة هى عبارة عن مقذاف ذى لوحة عريضة يدير بها سير السفينة حسبما كان معروفا فى ذلك العصر وفى مقدمه صورة منشد قائم على قدميه ينظم عملية القذافين على توقيع المغانى وعلى القرب منه صورة طغراء الملك احيس او اموزيس داخل الخانة الملوكية كما هو المعروف

قالوا والسفن المصرية أنواع كثيرة ترى أشكالها من المرسوم منها على جدر الهياكل والمعابد كالمرسوم منها على حيطان معبد الكرنك ويرى من بينها سفينة لا ينقص طولها عن أربعين قدما ولما كانت السفن لدى المصريين يرمز بها البعض معتقداتهم الدينية كان منها نوع مقدس يخرجونه أيام المهرجانات والاعياد ويطوفون به فى موكب حافل وكان لكل معبد جملة منها ويصنع أغلبها من الخشب النفيس وأحيانا تكون من الذهب أو الفضة الخالصة وكانوا يجعلون فى وسط السفينة المقدسة مقعدا أوناووسا يضعون فيه تمثال معبودهم ويسترونه بغطاء كبير وفى الاعياد العمومية كانت الكهنة تخرج من المعابد تحمل على أكتافها ألواحا من الخشب عليها سفينة من تلك السفن المقدسة وورد فى الكتابات التى بالقاعة الكبرى ذات العمد بمعبد الكرنك ان الملك سيتى الاول والد رمسيس الثانى أهدى للمعبود آمون رع سفينة مموهة بالذهب ومرصعة بالاحجار الكريمة ومصبوغة بالالوان الزاهية وكان فى مقدمها تمثال المعبود رع فكانت لجمالها تضىء كالشمس المشرقة واذا أتت مدينة طيبة هلل لها العالم احتفاء وا كبارا

ومن السفن المصرية المحفوظة بدار التحف السفينتان اللتان وجدتا أخيرا بدهشور سنة (١٨٩٤ م) بجوار الهرم البحرى وكانتا مدفونتين فى الرمال ويظن أن دفنهما فى تلك البقعة كان بعد استعمالهما فى نقل جثة الملك أوسرتسن الثالث أحد ملوك العائلة الثانية عشرة (٢٤٥٠ ق م)

وهما

وهما من خشب السنط و يشبهان صنادل السفن الحربيـة الموجودة الآن وهما بغاية الاتقان وألواحهما مركبة على بعضها متقاطعـة متخالفة فوق عيـدانهما بمعنى ان الالواح الداخلية متجهة من قريتـة السفينة الى حافتها والخارجية ممتدة فى اتجاه المقدم والمؤخر و يظن أن ذلك بقصـد المتانة من جهة ومنع تحلب الماء من جهـة أخرى وليس بداخلهما قاعـدة لا فى وسطهما ولا فى غـيره من فراغ الداخـل وطول احـداهما ١٢ مترا وعرضها متران وطول الاخرى عشرة أمتار وعرضها متر وأحد وثمانون سنتيمترا وليس بهما مسامير من الحديد أصلا لان المصريين لم يكونوا عرفوا الحـديد فى ذلك العصر

﴿ الفصـل الثانى ﴾

(الملاحة والبحرية فى عهد البطالسة)

كانت الملاحة والبحرية فى مدة دولة البطالسـة التى قامت بعد اسكندر الاكبر (٣٢٣ ق م) أعظـم وأشهر وأزهى أدوار البحرية فى مصر لانه بعـد أن استقل بطلموس الاول الملقب سوطير باحكام مصر التى كانت وقتئذ من أعظم ممالك الدنيا اتخـذ مـدينة الاسكندرية قاعدة له وكانت هـذه المدينة أصبحت مركزا لتجارة أوروبا وآسيا وافريقية تتردد عليها السـفائن من أغلب ثغور البـلاد المذكورة فاهـتم بطلموس المذكور بأمر القوة البحرية كما اهـتم بالقوة العسكرية البرية فشـيد دورا للصـناعة فى كثير من ثغور مملكته حتى انه بعـد قليل من الزمن صارت له قوة بحـرية عظيمـة بلغت أساطيلها أكثر من ٣٥٠٠ سفينة بين كبيرة وصغيرة فتمكن بها من حماية تجارته الواسـعة وانتشرت أعلامه باطراف البحار وأضحت محترمة عند جميع الملل والدول و بقوته البحرية هذه تمكن من الاستيلاء على بلاد القـيروان وجزيرة قبرص وازدادت بعد ذلك سـفنه التجارية حتى بلغت نحو ثلاثة آلاف سـفينة ولما وقع الخلاف بينـه و بين دمتريوس ملك مقـدونيه بخصوص السواحل الشرقية عنـدما هاجم دمتريوس المذكور بأساطيله سواحل آسـيا يريد الاستيلاء على جميع البلاد الشرقية باتحاده مع أبيه انطيغونيوس (Antigones) اضـطره الى التنحى عنها وحافظ على جزيرة قبرص بهـمة أخيـه منيلاس (Ménélas) وعلى أرض البقاع وفينيقيـة اللتين كانتا قد خضـعتا له منذ مدة وجـيزة و بواسـطة انتصاره فى غزة على دمتريوس استرجـع صور وصـيدا بقوة أساطيله المصرية الا أنه فقدهـما بعد ذلك عند انكسار كيلس أحد قواد عسكره فى ميونيا وليديا و بعد أن ساد السـلام مدة وجيزة انتشبت نار الحرب ثانية (٣١١ ق م) و بقيت مدة طويلة بدون أن ترجح كفة النصر لاحد الفريقين وأخـيرا لما قصد دمتريوس استخلاص جزيرة قبرص من يد البطالسة ساق اليها أساطيله المؤلفة من ١١٨ سـفينة حربيـة و بعض سفن أخرى من أساطيـل محالفيه فاسرع بطلموس لمساعدة أخيـه حاكم قبرص وساق عمارة مشـكلة من ١٤٠ سفينة حربيـة ومائتى سفينة مسـلحة بها من الجنود اثنا عشر ألف مقاتـل فتقابل الخصمان فى مياه قبرص و بعد حروب يطول شرحها تقابلت الاساطيـل بجوار سلاميس وحصلت بينهما واقعـة بحرية هائلة انتصر فيها دمتريوس وأفضت الى أن بطلموس فقد جزيرة قبرص ثم تتبعه دمتريوس باساطيـله الى مملكته الاصلية فقاومـه ودفعه عن بلاده بعـد أن أتلف أكثر سـفنه ثم

Digitized by Google

بالنجدات القوية التي أرسلها بطليموس الى قبرص مع الاساطيل استحق أن يلقب بسوتير أى المخلص وهو اللقب الذى عرف به في التواريخ وبعد ذلك لما قام دمتريوس يريد الهجوم على آسيا ثانية بقصد الاستيلاء على جميع البلاد التي كان يحكمها أبوه ساق بطليموس أساطيله لمحاربة دمتريوس وأخذ سفنه الحربية ولما دخل باساطيله المصرية بحر اليونان وجد أن معاهديه من ملوك الطوائف كفوه مؤنة الحرب حيث كسروا دمتريوس في معركة ابسوس التي قتل فيها انطيغوس وأسروا دمتريوس وسلبوا امنه ولاية مقدونيه ثم مات في أسره واكتفى بطليموس سوتير باسترجاع القيروان وجزيرة قبرص وقد وصف القبس أميرال الفرنسوى جوريان دولاغرافيير (Jurien de la Gravière) واقعة سلاميس هذه في الجزء الاول من تأليفه عن بحرية البطالسة والرومان وصفا مطولا فقال ما ملخصه ان البحرية المصرية التي ابتلع خليج اكسيوم سفنها الاخيرة أخذت مدة البطالسة تقدما وانتشارا كان يظن عدم صحته اذا لم تكن قوة انكلتره البحرية في الايام الحاضرة تؤيد ما يمكن أن ينتظر من أمة جعلتها تجارة الهند في مقدمة الامم ثروة وقد ذكر كل من المؤرخين ابيان (Appien) وأتينيه (Athénée) الاساطيل البحرية التي كانت لبطليموس فيلادلف قال ابيان المذكور ان بطليموس المذكور كان لديه ألفا سفينة من النوع المعروف بالغالى وألف وخمسمائة طويلة من ذوات الثلاثة صفوف من المقاذيف وثمانمائة سفينة من النوع الكبير المسمى غانجه باش وأما أتينيه فان بطليموس المذكور كان عنده سفينتين بكل واحدة منهما ٣٠ صفا من المجاذيف وواحدة بها ٢٠ صفا وأربعة بكل واحدة ١٣ صفا واثنتين بكل واحدة ١٢ صفا وأربع عشرة سفينة بكل واحدة ١١ صفا وثلاثين سفينة بكل واحدة تسعة صفوف وسبعا وثلاثين سفينة كل واحدة بها سبعة صفوف وخمس سفائن بكل واحدة ستة صفوف وسبعة عشر على رواية وفي أخرى ٤١٧ سفينة بكل واحدة منها أربعة صفوف من المجاديف و ٣٤ في رواية وفي أخرى ٨٣٤ سفينة بعضها ثلاثة صفوف وبعضها صفان وبعضها صف واحد وكان عند بطليموس هذا زيادة عن ذلك في دور صناعته نحو أربعة آلاف سفينة تجارية كان يرسلها الى الجزائر حتى الى السواحل البعيدة من بلاد ليبيا وقال آخرانه كان يرسلها الى سواحل بلاد ليسيا (Lycie) وهى اقليم بآسيا كان اذ ذاك لملوك مصر

ومؤسس هذه القوة البحرية هو بطليموس لاغوس وقد كان يميل ميلا زائدا من صغر سنه للبحر وما يختص به حتى ان أخصامه كانوا يلقبونه سخرية به قبودان البحر وقد هزمت أساطيل هذا القائد الذى كان يحبه اسكندر و يوصف بمعرفته جيدا طرق الانتصار مع ذلك في أول حرب بحرى لان سوء حظه أوقعه مع خصم عنيد كان قهره بمدينة غزة الا أنه انتقم لهزيمته في مياه قبرص وهذا الخصم الحديث السن هو دمتريوس بن انطيغون أمير بلاد فريجيا وقد اشتهر دمتريوس هذا بمهارته في حصار المدن بحيث انه لقب فيما بعد بآخذ المدن وقد ظن المؤرخ بلوتارك ان في امكانه عمل مقارنة بين دمتريوس بوليوركيت وانطونيوس الرومانى الا انه مع ذلك يوجد بين هذين الشخصين الشهيرين فرق واضح فأولهما رجل بحر حنكته الوقائع وأما ثانيهما فكان لا يحسن الادارة كثير الاغلاط حينما يترك الارض و ينزل في سفينة وقد اجتهد انطيغون والد دمتريوس في توسيع الولاية التي خصته عند تقسيم ممالك اسكندر حتى صار بعد زمن ملكا على آسيا وقد كانت جنوده كثيرة

متعودة

Digitized by Google

متعودة على الطعن والنزال صادقة فى خدمته ولم يكن ينقصه غير السفائن ولقد كانت الاساطيل فى القرن الرابع قبل الميلاد تبنى بسرعة كما أنها كانت تمحى وتزول كذلك وان الاساطيل التى كان جمعها اسكندر سابقا لم تكن الا أخشابا بالية بعد موته بقليل من السنوات

ولما عزم انطيغون على تشييد السفن أمر بقطع الاخشاب من غابات لبنان وطوروس وأمر بها فنقلت الى الشاطئ وأخذ صناع رودس وصيدا وبيبلوس وطرابلس فى العمل حتى انه بعد قليل ظهرت فى سياه كيليكيا عمارة مؤلفة من ٢٤٠ سفينة مقذافية ممتدة من خليج ابسوس الى الرأس المقدس ليست أساطيل أثينا فى جانبها الا عبارة عن زوارق وكان يوجد بين هذه السفن سفن ذات أربعة صفوف وخمسة صفوف وتسعة صفوف بل وعشرة صفوف من المقاذيف خلاف ١٣٠ سفينة ليس لها أسطحة (كوكرته) وقد أخذ انطيغون من أول الامر كقائد حقيقى من قواد اسكندر فى عمل الاعمال العظيمة ولما تم له بناء هذه الاساطيل جعلها تحت قيادة ولده دمتريوس وأرسلها الى تحرير الاثينيين وفك ربقتهم من الخضوع الى كسندر وقد ساعدت المقادير دمتريوس لانه أراد اجراء عمل خيرى فتمكن فى بضعة أيام بمساعدة الرياح من قطع المسافة البحرية التى تفصله عن بلاد أتيكه ولم يكن أحد اغاية هذا الوقت يفتكر فى وجود عمارة لانطيغون لهذا ظنت حامية بلدة مونيشى (Munychie) احدى ثغور أثينا قدعا أن هذه الاساطيل هى لبطليموس ففتحت لها مدينة بيره فرضتها بلا تخوف وفى سنة ٣٠٦ قبل الميلاد تمكنت أثينا بمساعدة هذا المخلص من القيام من عبودية كساندر ولفرحها بنوال حريتها أقامت تمثالين من الذهب لانطيغون ودمتريوس ولقبتهما بالقاب المعبودات المخلصة

ولما كان من يمتلك آسيا الصغرى أو مصر لا يمكنه أن يستغنى عن جزيرة قبرص كانت هذه الجزيرة من الملحقات التى يتنازعها على الدوام ملوك سوريا وملوك مصر ولذلك قامت الحرب بين دمتريوس و بطليموس وتلاقيا على الشاطئ الشرقى من هذه الجزيرة حذاء سلاميس و بالقرب من المكان المشيدة عليه الآن بلدة فاماغوسطه وقد كان منيلاس أخا بطليموس يحتل سلاميس وهى مدينة ذات فرضة عظيمة الاهمية وبهذه المدينة حكم سابقا ايفاغوراس (Evagoras) والتجأ اليها كانون بعد هزيمة اغوس بوتاموس ولما حاصر دمتريوس منيلاس أسرع ملك مصر وأتى بنفسه لمساعدة أخيه المحاصر وكان بمعيته عمارة مؤلفة من ١٤٠ سفينة حربية و ٢٠٠ سفينة مسطحة أنزل بها ١٢٠٠٠ من الرجالة وكان دمتريوس يمكنه أن يوجه على خصمه ١١٨ سفينة وما خلا الثلاثين شانية الاثينية التى لم يكن بها غير أربعة صفوف من المجاذيف كانت جميع سفن دمتريوس الاخرى تحمل على الاقل خمسة صفوف من المجاذيف وكان غالب سفائن الفينيقيين ذات سبعة صفوف من المجاذيف

وأخذ ضباط العمارتين فى تصفيف سفنهم للقتال وأخذ الكهنة فى العمارتين يتضرعون الى المعبودات بنوال النصر وكان الجنود يؤمنون على دعواتهم باصوات عالية فعند ذلك أدرك كل من دمتريوس و بطليموس أن الحرب ستكون هائلة دموية وروى ديودور الصقلى أن قلبيهما كانا يخفقان بشدة ولم يكن يفصل العمارتين عن بعضهما الا مسافة قليلة تبلغ خمسمائة متر وعلى هذا البعد كانت الاساطيل تنقض على بعضها اعادة ولما استعدت العمارتان أمر دمتريوس رئيس

اشاراته برفع الترس المذهب فوق رأسه ولما رأى جنود العمارة ذلك ضجوا وهللوا وفرحوا وأخذت الابواق في سفن بطليموس تصفر للحرب وصرخت الابطال تطلب النزال بحيث اهتزت جوانب الكون الاربعة ولقد كانت الحرب في الشوانى بذلك الوقت متشابهة ولم يعد في الامكان استعمال قرون السفن بالمهارة والرشاقة التى كان يستعملها بها الاثينيون وسواء كان المحاربون هم من أمثال دوريا أو باربا روس أو داندالو أو بيزان أو روجير دولوريا أو برنس سالرن أو خلفاء اسكندر الاكبر فالحرب أحوالها واحدة فيبتدأ أولا بالترامى بالنبال والسهام والاحجار أو بالمقذوفات بعد اختراع الآلات النارية ويعقب ذلك سريعا وبلا تعبية تصادم أجسام الرجال والالتحام وتلاصق السفن واستعمال الاسلحة البيضاء في مدة الاختلاط الدموى وكان المتقاتلون كصارعين اشتدت بهم الحمية وشرهت نفوسهم الى شرب الدماء فلم يكونوا كبحارة اليوم يجتهدون في استعمال كل أنواع التعبيات الدقيقة العلمية الممكنة كما يشاهد في الحروب البحرية الآن وكيف كان يتأتى لهم ذلك وهم على تلك السفن الضخمة الغير المنتظمة التركيب وكان دمتريوس واقفا على مؤخر سفينته ولما أحاطت به الاعداء أخذ يطعن بعضهم برمحه ويضرب الآخر بسيفه وكان يتقى النبال التى تقذف عليه اما بأن يحيد عنها يمنة أو يسرة أو يتلقاها على درقته وقد قتل ثلاثة من مقدميه كانوا بجانبه وكثرت المقاذيف وبحبت السفن يتبع بعضها بعضا مربوطة بالخاطيف الحديدية وفي تلك الاثناء غرق كثيرون وسقط كثيرون في قاع السفن واحمرت ساحة القتال بامواج الدماء وتغطت بالانقاض والاعضاء بحيث أصبحت تشبه مجزرة

واعلم انه بزوال الشوانى من بين الاساطيل في هذه الايام انعدمت المحاربات الدموية التى ليست واقعتا أبوقير والطرف الاغر الا كتناوشات لها ثم ان دمتريوس نجح في تشتيت شمل الجناح الايمن من العمارة المصرية ثم صار هذا الجناح الاولى نجاحا ثانيا ولما كانت النصرة لبطليموس في جناحه الايسر سعى على غير فائدة في ارجاع القتال الى حالته الاولى الا أنه رأى بعد ذلك بقليل سفنه منهزمة تبحث عن سلامتها في الهرب وتقع الواحدة بعد الاخرى في قبضة عدوه فعند ذلك لم يبق له الا طريقة واحدة يستعملها للنجاة فابتعد عن سفن الاعداء بكل قوة مجاذيفه حتى تمكن من الوصول الى فرضة سيتيوم (Citium) (١) ولم يتعطل من سفن دمتريوس الا نحو العشرين واستولى من خصمه على أربعين سفينة طويلة ومائة سفينة نقلية عليها نحو ثمانية آلاف من الجنود المصرية وبحبت سفنه ثمانين سفينة متخربة تركها بحارتها وقادتها الى الشاطئ حيث معسكره ولما رأت سلاميس ما فعله هذا القائد قدمت له طاعتها ويظهر أن الطبيعة أوجدت أهل مقدونيه لكى يقيسوا قوتهم مع جنود دو بليوس عند محاربته لقرطاجنة وقد وجدوا من جنود أوكتاڤيوس أخصاما أشداء أقوياء ولما خضع العالم الرومية أى وقت أمكنها فيه أن تعرض الفرق العسكرية الموجودة بهذه السفن الضخمة التى خلدت ذكر انتصار سلاميس فرقا أخرى على سفن أكثر سرعة وخفة بحيث كان يمكن الظن بان سفن الاثينيين ربما تعود الى الوجود ثانية وكان يمكننا أن نشاهد على البحار تقدما جديدا في البحرية اذا لم يصر أوكتافيوس امبراطورا ويغلق مدة عدة قرون ولاول مرة أبواب هيكل جانوس اهـ

(١) سيتيوم مدينة وثغر قديم بجزيرة قبرص على الشاطئ الجنوبي الشرقي منها وكانت للفينيقيين وتسمى الآن شيتي

وكان لبطليموس الاول المذكور شغف واهتمام زائد بأمر التجارة البحرية فانشأ للسفن منارة الاسكندرية بجوار المينا البحرية لتهتدى بها عند قدومها على السواحل المصرية فزاد بها فوائد السياحات والملاحة وازيادة عنايته بالفنون البحرية وعمارات السفن لقبه دوان مقدونيه بقبودان الاسطول كما تقدم وقد اكتسبت مدينة الاسكندرية فى عهده ثروة وافرة من المعاملات البحرية وبقوة أساطيله وسع بنوه أملاك مصر فصار لها مملكة القيروان وسواحل الشام وبلاد العرب المجاورة لمصر وجزيرة قبرص وجزائر بحر الروم وأغلب سواحل الاناضول الجنوبية وبعض سواحل الروم ايلى وذكر بعض المؤرخين أن مصر فى أيامه كان فى وسعها الحصول على مائتى ألف من العساكر المشاة وأربعين ألفا من الفرسان وثلثمائة من الافيال الحربية وعلى ألفى عربة مسلحة بالمناشير والمناجل وكان بمخازن مملكته ٣٠٠,٠٠٠ طقم مجهزة من الزرد خلاف قوته البحرية السابق ذكرها ومع الصرف على هذه القوة الجسيمة كان يبقى فى خزينته كل سنة من الايراد السنوى ما قيمته ٥٠٠,٠٠٠ من الدنانير المصرية ولما أراد اعتزال الاحكام فى آخر أيامه أجلس ابنه فيلادلفوس على التخت (٢٨٥ ق م) وكان صبيا ولقبه ببطليموس الثانى وصار يرشده ويدربه على الاحكام ثم مات بعد سنتين من ذلك ولما استقل بطليموس الثانى بالمملكة سار على سياسة والده من تقوية البلاد وتوسيع التجارة وتوطيد العلاقات مع الدول المعاصرة له فوسع نطاق العلوم والمعارف والتجارة والملاحة ومد الاسفار البحرية الى كثير من الجهات وأوجد أساطيل عظيمة فى البحر الاحمر أرسلها لاكتشاف طرق البحار فاكتشفت البلاد التى على سواحل بحر فارس وسواحل الحبشة وجزيرة العرب وبحر الهند وغيرها كما سيأتى مفصلا فى تاريخه وأرسل جملة سفائن الى الممالك الهندية والمشرقية وكانت سفائنه تقلع من مينا القصير التى كانت مورد تجارة بلاد النوبة والعرب والعجم والهند وغيرها واستمرت القوة البحرية فى زهو تمام مدة دولة البطالسة تقريبا ففى زمن بطليموس الثالث الملقب بريجيطه أوافرجيت كان ملك الشام انطيوخوس متزوجا ببرنيقة أخت بطليموس المذكور فلما هربت قبض عليها سيلوقوس الثانى ملك الشام وقتلها وقتل ابنها فقامت بذلك حرب بين مصر والشام وقاد بطليموس المذكور الجيوش بنفسه وتقدم بها الى الشام وسير الاساطيل الحربية فاستولت على سواحل الشام والاناضول وحازت شهرة عظيمة وفى عهد بطليموس الرابع المعروف بفيلاتوطور اشتعلت الحرب ثانية بين مصر والشام (٢٢٢ ق م) وكان لملك مصر وملك الشام سفن حربية تساعد الجنود البرية فتلاقيا فى جهة صيدا ولما كانت القوة البحرية متكافئة لدى الطرفين لم تستظهر احداهما على الاخرى الا أن الجنود المصرية انتصرت فى واقعة رفح (رافيا) واستولت على كثير من المدن وتم الامر بعد ذلك بعقد هدنة لسنة واحدة وفى عهد بطليموس الخامس الملقب ابيفانوس (١٩٧ ق م) ضعفت المملكة المصرية لسوء تصرفه فلاحت لملك الشام فرصة الانتقام من واقعة رفح السابقة الذكر وعقد معاهدة مع فيلبس ملك مقدونيا وهجم فيلبس باساطيله وجيوشه على جنق قلعة وبوغاز كليبولى وعلى بلاد الروم ايلى وكان فيهما من عهد فيلادلفس حاميات مصرية ورباطات عسكرية وهجم ملك الشام على أملاك مصر بالديار الشامية وجهات الاناضول فساقت مصر الاساطيل وانتصرت على ملك الشام نصرة عجيبة على سواحل الشام ثم انهزمت الجيوش المصرية فضاعت بذلك جميع البلاد التى كانت لمصر فى الاناضول وبعد ذلك نزع

Digitized by Google

نجم الدولة الرومانية فى تلك الاطراف وتعاهد الرومان مع مصر ولما صعد بطليموس السادس (١٧٥ ق م) الملقب فيلوباطور أعاد ملك الشام انطونيوس الخصام مع مصر ولم يمكن الرومان مساعدة بطليموس المذكور فانهزمت جيوش وأساطيل مصر هزيمة منكرة وبعد أن استولى ملك الشام على أكثر ما كان لمصر بسواحل الشام وجزيرة قبرص دخل انطونيوس مصر وأسر بطليموس ثم قامت بعد ذلك الفتن بين العائلة البطليموسية الى أن استتب الامر لبطليموس الثامن وأخذ يسلك مسلك أسلافه فى احياء شأن الدولة فقوى الاساطيل واهتم بأمر زيادة التجارة وسير بعثة علمية على اسطول مصرى من البحر الاحمر للاستطلاع على أحوال البحر المحيط الهندى تحت رياسة القائد هودوشيش القوزيقى وكان هذا الرئيس جسورا على اقتحام أسفار البحار يحسن الارصاد الفلكية فطاف حول افريقية فى هذه السياحة ووقف على ما فى البحر الهندى من الجزائر والبلاد وكانت هذه أول سفرة سافر فيها المصريون لمثل هذا العمل الجليل الذى كان المرشد الاول البرنس هنرى ولى عهد يوحنا الاول ملك البرتقال فى مشروعاته البحرية التى شاد من أجلها أول مدرسة بحرية فى بلاده ولكن هذا البرنس لم يعش حتى يحصد أثمار مطالعاته التى قام بها مشاهير ملاحى البرتقال فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى كما ذكر

أما من تولى بعد ذلك من ملوك البطالسة مثل بطليموس التاسع والعاشر والحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر فانهم كانوا قد تولوا جميعا فى حداثة سنهم فتركوا أمور المملكة فى يد أوصيائهم يديرونها حسب أغراضهم ولم يلتفتوا الا الى اللذات والشهوات فابتدأ حينئذ الاختلال فى المملكة وسقطت شوكتها البحرية وصارت الاساطيل لا تأتى من الاعمال ما يستحق الذكر فطمع فى الديار المصرية جيرانها من دول البحار واستمرت الحروب مع ملوك الشام بدون انقطاع تقريبا فالتزموا بأن يوسطوا دولة الرومان فى الخلاف بينهم وبين أعدائهم من هؤلاء الملوك لان دولة الرومان كانت هى الدولة صاحبة السطوة فى الوقت المذكور لها الكلمة النافذة على جميع ممالك البحر المتوسط الابيض وبذلك زادت مداخلة الدولة الرومانية فى الاحوال المصرية سيما بعد أن ملكت كليوبطره ابنة أوليتس وكانت آخر البطالسة وفى أول أمرها نازعها أحد إخوتها الملك وتحزب معه الاهلون فاستنجدت بالرومان فساعدها يوليوس قيصر وأعاد لها الملك الى أن خلا لها الجو واتفق فى سنة (٣٦ ق م) أن انطونيوس واكتافيوس القائدين الرومانيين كانا فى حرب مع مارقوس بروتس فأمدت كليوبطره بروتس المذكور بعمارة بحرية مصرية فبلغ انطونيوس ذلك وهو فى طرسوس ولما كان فعلها مخالفا للمعاهدات استدعاها انطونيوس الى طرسوس للمحاكمة فركبت نهر قرهصو على سفينة جميلة مزخرفة بالذهب ومجاذيفها من الفضة يخرج منها عند التجذيف أصوات موسيقية مطربة وكانت كليوبطره من أجمل النساء فلبست أفخر ما لديها من اللباس الثمين وجعلت حولها الجوارى فى أحسن ما يكون من الزى والترتيب ونشرت الاعطار النفيسة بالسفينة ولما بلغت طرسوس وشاهدها انطونيوس شغف بها ولم يعد يخالف أمرها وأصدر الحكم كما شاءت وعادت الى مصر منصورة وبعد قليل لحقها انطونيوس فأكرمت مثواه ولقبها بملكة الملوك ودعا ابنها قيصرون بذلك أيضا وشرع فى تنفيذ مقاصد كليوبطره حيث كانت التمست منه أن يضيف الى المملكة المصرية جميع مدن السواحل الشرقية الواقعة على

بحر

Digitized by Google

بحر سفيد لتوسيع ملك مصر وان يضيف الى مصر أيضا جزيرة قبرص وقسما من الاناضول وبلاد يهوذا الموصوفة بالبلسم في تلك الازمان وكذا بلاد العرب والحجاز الموصلة الى بحر الهند لتعيد بذلك مجد التجارة الى الاسكندرية التي كانت تجارتها أخذت تتلاشى ولقد أخذ الغرام بقلب انطونيوس مأخذا أنساه واجباته نحو وطنه ولم يعد يفتكر بأن عمله هذا مضعف لمصالح الجمهورية الرومانية

ولما عرض أوكتافيوس الرئيس الثاني ملحوظاته عن أعمال انطونيوس على مجلس الجمهورية الذي كان بمنزلة محكمة عليا حكم المجلس بعزل انطونيوس من رياسة الجمهورية واشهار الحرب على ملكة مصر (٣٢ ق م) وقاد أوكتافيوس الجيوش والاساطيل الرومانية البالغ عدد سفنها ٢٥٠ سفينة ولما استعد انطونيوس لملاقاة خصمه أقلع بخمسمائة سفينة من أساطيل آسيا وأساطيل البطالسة التي أمدته بها كليوباتره وكان القائد عليها من طرفها دمتريوس بوليوكريت (Démétrius Poliorcéte) قال العلامة المرحوم رفاعه بك في الجزء الاول من كتابه أنوار توفيق الجليل صحيفة ٢١٨ ما يأتي ملخصا انه استعد كل من الفريقين للحرب وخرجت كليوباتره للغزو وأصحبت معها انطونيوس الى محل الواقعة البحرية وهو مدينة أكسيوم التي هي مدينة أزيو (ارطه) بساحل الروم ايلي وأمدت كليوباتره أنطونيوس وحزبه بمائتي سفينة بحرية واجتهدت في إحياء همة الجنود ونشاطهم لكي تنتصر على أوكتافيوس ويكون انتصار السفن المصرية عائدا عليها بالمجد والفخار فجعلت مدار الحرب على جنودها البحرية لتغلب خصمها بجندها فحصل القتال بين سفن الرومانيين والسفن المصرية وكانت الحرب بينهما سجالا فلم ينتصر أحد الفريقين على الآخر انتصارا قطعيا حاسما للنزاع فبينما الامر كذلك اذ سارت ستون سفينة من سفن كليوباتره بقوة المجاذيف وانفصلت من بين سفن أنطونيوس وهربت صوب جزيرة مورة وفيها الملكة كليوباتره هاربة من القتال فارة من مضمار النزال إما لان الحرب أفزعها والطعن والضرب روعها فخافت على نفسها من الهزيمة التي عاقبتها ذميمة أو أنه حصل بينها وبين أوكتافيوس اتفاق سري ودسائس مكتومة ومواعدة بينه وبينها فغدرت بقرينها حيث وجدته قرين سوء فلما رآها انطونيوس قد أدبرت وولت مدبرا وراءها ما جبنا منه أو اقتفاء أثرها لتعلقه بها وعدم قدرته على فراقها وبالجملة فقد هرب كل منهما الى مصر فاقتفى أثرهما أوكتافيوس وسلمت اليه كليوباتره مدينة فرما التي هي مفتاح الديار المصرية وأرادت بهذه الخيانة أن تتحبب اليه حتى ينتهي الحال بها أن تنفصل من انطونيوس وكان انطونيوس لسوء حظه يعتمد على أمانتها ولا يخطر له ببال أنها سلمت مدينة فرما قصدا ولو قيل له ذلك لا يصدقه لاسيما وأنه في يوم وصول أوكتافيوس أمام مدينة فرما كان انطونيوس دخل الاسكندرية وأطلع الملكة على دفتر العساكر الذين حاربوا معه وامتازوا في الواقعة وفي اليوم الثاني من دخوله الاسكندرية خانته الاربان وتحزبوا عليه مع خصمه وانفصلت عنه العساكر المشاة وانضمت السفن المصرية الى سفن قيصر ون ولا شك أن هذه فعلة كليوباتره لانها جردت أنطونيوس من جميع الجنود حتى من السفن البحرية اه ثم عمدت كليوباتره بعد ذلك الى الحيلة فاخفت نفسها وكل أمتعتها وأشاعت أنها ماتت ولما علم انطونيوس بذلك لم يعد يهوى الحياة بعدها وأمر أحد عبيده بأن يقتله الا أن العبد لما رفع السيف

Digitized by Google

وهم يطعن سيده لم تسمح نفسه بذلك بل طعن به ذاته فخر قتيلا ويقال ان انطونيوس لما رأى ذلك خجل وتناول خنجرا وطعن به نفسه فمات وبعد ذلك استولى أوكتافيوس على مدينة الاسكندرية ولم تنل كليوباتره ما كانت تظنه وقتلت نفسها كما سيأتي مفصلا في بابه وانقرضت دولة البطالسة واستولى الرومان على مصر وأساطيلها

قال الويس أميرال جوريان دولاغرافيير بعد أن شرح واقعة أكسيوم شرحا عسكريا بحريا ان واقعة أكسيوم مكثت أربع ساعات قتل فيها كما رواه بلوتارك نحو خمسة آلاف رجل وتلك خسارة ضعيفة بالنسبة لاساطيل عديدة كالتي كانت باكسيوم وبالنسبة ليوم حاز هذه الشهرة وروى آخرون ان مدة القتال استمرت ١٤ ساعة قال من روى هذا الخبر ان القتال ابتدأ الساعة الخامسة صباحا وانتهى في الساعة السابعة مساء ولم تحدث واقعة بحرية طال زمنها كهذه الواقعة الا القليل وقد قدر المؤرخ أوروزو (Oroso)[1] ما فقدته أساطيل انطوان فقط باثني عشر ألف قتيل وستة آلاف جريح ومن المحقق أن ثلاثمائة سفينة سلمت الى أوكتافيوس في اليوم الثاني من سبتمبر (٣١ ق م) وبعد ذلك بسبعة أيام سلمت أيضا جنود كانيديوس الى أوكتافيوس وبينما كانت بلاد اليونان التي تخلصت من ثقل نير العبودية تصفق استحسانا لانتصارات أوكتافيوس ذهب انطونيوس ونزل ببلاد ليبيا أما كليوباتره فانها استمرت سائرة نحو مصر ولسوء حظ انطونيوس تخلى عنه جميع أتباعه من قواد وحكام وجنود وأخذوا ينفصلون عنه الواحد بعد الآخر ويتركون دعوته وفي تلك الاثناء كان أوكتافيوس وصل الى سوريا ثم توجه انطونيوس الى مصر اه

﴿ الفصل الثالث ﴾

البحرية عند الرومان

سبق ذكر البحرية عند الرومان بالجزء الاول ومع ذلك فقد رأينا من المفيد والمهم أن نذكر هنا ملخص ما قاله الاميرال جوريان دولاغرافيير في الفصل الثالث والسادس من الجزء الاول من تأليفه عن بحرية البطالسة والرومان لاشتماله على بعض معلومات لم نذكرها فيما تقدم قال اعلم أن الرومان لم يكن لهم ذكر في البحار قبل الحروب البونيقية الا أنهم لما اضطروا لبناء الاساطيل أخذت قوتهم ترتقي في البحار شيأ فشيأ عندما شرعوا في حروبهم الاولى مع قرطاجنه خصوصا في زمن القناصل ماركوس (Marcus) واتيليوس (Attilius) وريكلوس (Regulus) ولوسيوس (Lucius) ومانيلوس (Manlius) وصار لهم الشأن الاول بعد الواقعتين البحريتين اللتين حصلتا في اكنوم (Ecnom) (٢٥٦ ق م) وفي جزيرة اجادس (Œgades) (٢٤٢ ق م) حيث انتصرت فيهما أساطيلهم على أساطيل قرطاجنه وكانت التجريدة الاولى تحت قيادة ريكلوس ومانليوس والثانية تحت قيادة القنصل لوتاسيوس ولما قوى أمر الرومان في البحار تمكنوا بأساطيلهم العديدة من مد فتوحاتهم بآسيا وافريقية وأكثر جهات أوروبا وغيرها وصار أكثر ثغور البحر المتوسط الابيض يخفق عليه علمهم وبعد انتصار أوكتافيوس على أنطونيوس وكليوباتره في واقعة اكسيوم كما سبق استولى الرومان على أساطيل البطالسة والقطر المصري وصار أوكتافيوس رئيس المجلس الجمهورية ثم تلقب بلقب امبراطور وأخيرا دعي اغسطس

(١) مؤرخ وكهنوتي كان بالقرن الخامس من الميلاد وله عدة كتب منها تاريخ ضد عباد الاوثان

ونحولت

Digitized by Google

وتحولت الجمهورية الرومانيـة من جمهورية الى ملوكية واتسع نطاق الرومان فى زمنه وقد رأى هذا الامبراطور لزوم اتخاذ محطات بحرية فى أكثر جهات المملكة لحماية أملاكها الشاسعة بالاساطيل ولذلك أخذ يبنى سفنا عديدة فى فرضتى اكيلى (Aquilée) وفريجوس (Frejus) وغيرهما وخصص لجون نابولى أسطولا عظيما ووضع أقوى أساطيله فى رأس مسينى وجعل لبحر الادرياتيك أسطولا وللبحر الاسود أسطولا آخر وجعل لنهر الدانوب أسطولا من سفائن خفيفة يمكن جعلها جسرا عند اللزوم ومد منها جسر كوكسين (Cuxin) وخصص لسواحل الشام أسطولا كما خصص للقطر المصري أسطولا آخر واتخذ كارباثوس (Carpathos) بجزيرة رودس محطة عمومية كما جعل فى مياه بريطانيا أسطولا فى سوم (Somme) وجعل لنهر الرين أساطيل مخصوصة وبذلك بلغت قوة الرومان البحرية فى أيامه درجة عظيمة قبض بها على صولجان البحر الابيض المتوسط والبحر الاسود وبحر الادرياتيك والمحيط الاطلنطيقى وتمكن من مد أسفاره البحرية بالبحر الاحمر والمحيط الهندى والى كثير من السواحل الشرقية اه

ويفهم من هذه الرواية وروايات كثيرة أخرى أن ابتداء البحرية لدى الرومان كان وقت حروبهم مع قرطاجنه ولكن خالفهم فى هذه الرواية كثيرون أيضا وقالوا ان الرومان كان لهم قبل هذا الوقت أساطيل حربية وممن أثبت هذا القول المؤرخ الانكليزى جون كرولك الذى قال انه بعد أن تغلب الرومان على تاركان سكستوس (Sextus Tarquin) وانتخبوا بروتس للقنصلية عقد مع قرطاجنه معاهدة ورد فى أحد بنودها أن لا يتجاوز أحد المتعاهدين أو المتفقين معه نقطة صار تعيينها فى المعاهدة وبذلك يثبت جليا أن الرومان كانت لهم قوة بحرية فى زمن بروتس وقال هذا المؤرخ أيضا انه قبل فتوحات دوويليوس بنحو مائتى سنة أى فى سنة ٢٨٠ من بناء رومة هاجم الرومان فرضة انتيوم (Antium) واستولوا منها على عشرين سفينة حربية من نوع الغالى ونقلوها الى نهر التبر وأوقفوها فيه أمام دار الصناعة وروى أيضا أنه فى سنة ٤٥٠ من بناء رومية عندما انتخب الاهالى اثنين من التريبون فى السينانو أقاموا أحدهما المدعو دسيوس موس (Mus Decius) مأمورا لنظارة البحرية الرومانية فاذا لم يكن للرومانيين سفن وقتها فلا يعقل تعيين مأمور لها ولا يصح أن ينسب الى أمة اشتهرت بالعقل أن تعينه على لا شئ وروى غيره من المؤرخين مثل فاليريوس (Valerius) أنه فى نحو سنة ٤٧٥ من بناء رومية ظهرت أمام تارنتوم (Tarentum) دونانمة رومانية مشكلة من عشر سفن من نوع الغالى تحت قيادة أحد التريبونيين المسمى كورنيليوس (Cornelius) ولما كان أهل تارنتوم يفوقون الرومان فى البحرية ساقوا عليهم أساطيلهم وتمكنوا من اغراق سفينة رومانية وأسروا أربع سفن أخرى ومن كل ذلك يتضح أن رومية كانت تملك أساطيل حربية قبل الحرب البونيقية الاولى الا أنها كانت ضعيفة

ولما قامت الحروب الداخلية فى مملكة الرومان فى أوائل القرن الرابع للميلاد وتصادمت القوتان البحريتان الرومانيتان بعضهما حدث من ذلك انقراض بحرية دولة الرومان العظيمة قال المؤرخ روزيموس انه فى سنة ٣٢٣ م جهز قسطنطين لاخيه لوسينيوس أسطولا يدافع به يتكون من مائتى سفينة حربية بكل سفينة ثلاثون مقذافا ونحو ألفى سفينة للنقل غير معينة القدر وتمكن لوسينيوس من الحصول على ثمانين سفينة مصرية ومثلها فينيقية وستين سفينة من بلاد ايونية

ودوريه وثلاثين من قبرص وعشرين من قوريه وثلاثين من بثنيه وجهزله الافريقيون خمسين سفينة وبذلك بلغت عمارته ٣٥٠ سفينة ومما يدل على تقدم الرومانيين فى انشاء السفن أن قسطنطين أمر بنقل احدى المسلات المصرية من مدينة الاسكندرية الى رومية وكانت هذه المسلة تامة لم يعتد عليها أحد الى ذلك الوقت وكان طولها ١١٥ قدما وثقلها ١٥٠٠ طونيلاطه وقد أنشأ لها الرومان سفينة لنقلها لا يمكن أن يكون طولها أقل من ١٥٠ قدما وحولتها لا تنقص عن ألف طن وناهيك ما يلزم لذلك من آلات جر الاثقال التى استعملت فى رفع تلك المسلة ووضعها بالسفينة

ولما مات ثيودوسيوس سنة ٣٩٥ م واقتسم ولداه هونوريوس وأركاديوس المملكة الرومانية بينهما وجعلاها مملكتين شرقية وغربية كما مر بك فى الجزء الاول من هذا الكتاب وصارت مصر من أقسام المملكة الشرقية التى تعرف بالبوزنطية وبدولة الروم السفلى اعتنق المصريون الديانة المسيحية وأخذت الدولة البوزنطية تشيد الاساطيل وتهتم بأمر القوة البحرية وترسل سفنها فى البحر الاسود لتوسيع نطاق التجارة مع معظم البلاد الساحلية فمن وقتئذ صارت سفنها الحربية والتجارية تجول فى سواحل سوريا والديار المصرية وصارت تنقل الغلال من مصر الى القسطنطينية واستمرت السفن التجارية المصرية على نشاطها القديم فى البحر الاحمر وغيره تتردد على ثغور بلاد العرب والحبشة والسواحل الهندية وتنقل منها التجارة الى الاسكندرية التى كانت لم تزل مركز التجارة المشرقية والمغربية وفى عهد جوستانيان امتنعت من الجولان عند مصاب أنهر الهند وخليج كامباى وبقيت تسافر الى سيلان فقط وان أمعنت فى السفر زيادة عن ذلك فلا تتعدى مدينة كوسماس (Cosmas) ولما كانت مملكة الحبشة قد ارتبطت بالكنيسة المصرية من سنة ٣٢٠ م وأقام بطريرك الاسكندرية فرومنتيوس أسقفا للحبشة زادت العلاقات التجارية بين الطرفين وروى بعض المؤرخين انه عندما جهز كالب ملك اكسوم حملة للاغارة على بلاد العرب لفتح مملكة اليمن (٥٧٠ م) ورأى أن السفن التى كانت مستعملة بتلك السواحل صغيرة الحجم استعان بالسفن المصرية التى كانت تمخر بالبحر الاحمر على نقل جيوشه وأفياله من السواحل الحبشية الى ساحل العرب فساعدته على مرغوبه وكانت الاساطيل البوزنطية وقتئذ تتركب من أنواع مختلفة من السفن الحربية فكان يتألف من السفن الجسيمة بها الاسطول المرابط فى الثغور المهمة ولا يتحرك من مكانه الا للتعليم أو لعمل مهم وأما باقى السفن الخفيفة التى من نوع الاغربة والشوانى فكانت مجهزة بالشراع والمجاذيف وهى التى جعلت مستعدة لكل الاعمال الحربية البحرية حتى فى الانهر لخفتها وسرعة حركاتها وكانت أغلب الاساطيل التى تعين لمصر مشكلة من هذا النوع لتتمكن من الصعود فى النيل بغاية السهولة وبقيت التجارة البحرية فى الديار المصرية على زهوها الى أن أخذت الدولة الشرقية فى الانحطاط والتقهقر من زمن هرقل (٦١٠ ق م) وكان الاقباط يشاهدون قرب سقوطها تهديد الفرس لها من الحدود الشرقية والمغاربة ينتظرون الفرص ليستقلوا فى بلادهم الافريقية وبقيت على ذلك الى أن استولى العرب على الديار المصرية تحت قيادة عمرو بن العاص رضى الله عنه (٦٤٠ م – ١٨ هـ) ومات هرقل وولداه فجهز نائب السلطنة البوزنطية عمارتين من السفن وقصد أن يسترد كرسى مصر أى الاسكندرية من المسلمين فرست سفن الروم على مين فاروس مرتين فدافعها عمرو بن العاص عن مدينة الاسكندرية وثبت قدم الاسلام فيها وأخذ يهتم باصلاح شؤن مصر وتوطيد الملك فيها كما سبق شرح

ذلك

Digitized by Google

ذلك في الجزء الاول ولم يكن بالسواحل المصرية وقتئذ الا بعض سفائن للتجار وما غنمه المسلمون منها من الروم وقت الفتح والمراكب التي تمخر بالنيل

(الفصل الرابع)

الملاحة والبحرية المصرية في دول الاسلام الاولى

قال العلامة المقريزي في صحيفة ١٨٩ من الجزء الثاني من خططه ولما جاء الله تعالى بالاسلام لم يكن البحر يركب للغزو في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وأول من ركب البحر في الاسلام للغزو العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه وكان على البحرين من قبل أبي بكر رضي الله عنه فأحب أن يؤثر في الاعاجم أثرا يعز الله به الاسلام على يديه فندب أهل البحرين الى فارس فبادروا الى ذلك وفرقهم أجنادا على أحدها الجارود بن المعلى رضي الله عنه وعلى الثاني سوار بن همام رضي الله عنه وعلى الثالث خليد بن المنذر بن ساوى رضي الله عنه وجعل خليدا على عامة الناس فحملهم في البحر الى فارس بغير اذن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان عمر رضي الله عنه لا يأذن لاحد في ركوب البحر غازيا كراهة للتغرير بجنده اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وخليفته أبي بكر رضي الله عنه فعبرت تلك الجنود من البحرين الى فارس فخرجوا في اصطخر وبازائهم أهل فارس عليهم الهربذ فحالوا بين المسلمين وبين سفنهم فقام خليد في الناس فقال أما بعد فان الله تعالى اذا قضى أمرا جرت المقادير على مطيته وان هؤلاء القوم لم يزيدوا بما صنعوا على أن دعوكم الى حربهم وانما جئتم لمحاربتهم والسفن والارض بعد الآن لمن غلب فاستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين فأجابوه الى القتال وصلوا الظهر ثم ناهزوهم فاقتتلوا قتالا شديدا في موضع يدعى طاوس فقتل من أهل فارس مقتلة عظيمة لم يقتتلوا مثلها قبلها وخرج المسلمون يريدون البصرة اذ غرقت سفنهم ولم يجدوا في الرجوع الى البحر سبيلا فاذا بهم وقد أخذت عليهم الطرق فعسكروا وامتنعوا وبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه فاشتد غضبه على العلاء رضي الله عنه وكتب اليه بعزله وتوعده وأمره بأثقل الاشياء عليه وأبغض الوجوه اليه بتأمير سعد بن أبي وقاص عليه وقال الحق بسعد بن أبي وقاص بمن معك فخرج رضي الله عنه من البحرين بمن معه نحو سعد رضي الله عنه وهو يومئذ على الكوفة وكان بينهما تباين وتباعد وكتب عمر رضي الله عنه الى عتبة ابن غزوان بأن العلاء بن الحضرمي حمل جندا من المسلمين في البحر فأقطعهم الى فارس وعصاني وأظنه لم يرد الله عز وجل بذلك فخشيت عليهم أن لا ينصروا وأن يغلبوا فاندب لهم الناس وضمهم اليك من قبل أن يجتاحوا فندب عتبة رضي الله عنه الناس وأخبرهم بكتاب عمر رضي الله عنه فانتدب عاصم بن عمرو وعرفجة بن هرثمة وحذيفة بن محصن ومجزاة بن ثور ونهار بن الحارث والترجمان ابن فلان والحصين بن أبي الحر والاحنف بن قيس وسعد بن العرجاء وعبد الرحمن بن سهل وصعصعة ابن معوية رضي الله تعالى عنهم فساروا من البصرة في اثني عشر ألفا على البغال يجنبون الخيل وعليهم أبو سبرة بن أبي رهم رضي الله عنه فساحل بهم حتى التقى أبو سبرة وخليد حيث أخذت عليهم الطرق وقد استصرخ أهل اصطخر أهل فارس كلهم فأتوهم من كل وجه وكورة فالتقوا هم وأبو سبرة فاقتتلوا ففتح الله على المسلمين وقتل المشركون وعاد المسلمون بالغنائم الى البصرة ورجع أهل البحرين الى منازلهم فلما فتح الله تعالى الشأم ألح معوية بن أبي سفيان وهو يومئذ على جند دمشق

Digitized by Google

والاردن على عمر رضى الله عنه فى غزو البحر وقرب الروم من حمص وقال ان قرية من قرى حمص ليسمع أهلها نباح كلابهم وصياح دجاجهم حتى اذا كاد ذلك يأخذ بقلب عمر رضى الله عنه اتهم معوية لانه المشير فأحب عمر رضى الله عنه أن يردعه فكتب الى عمرو بن العاص وهو على مصر أن صف لى البحر وراكبه فان نفسى تنازعنى اليه وأنا أشتهى خلافها فكتب اليه يا أمير المؤمنين انى رأيت البحر خلقا كبيرا يركبه خلق صغير ليس الا السماء والماء ان ركد أحزن القلوب وان زل أزاغ العقول يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة هم فيه كدود على عود ان مال غرق وان نجا برق فلما جاءه كتاب عمرو كتب رضى الله عنه الى معوية لا والذى بعث محمدا بالحق لا أحمل فيه مسلما أبدا انا قد سمعنا أن بحر الشام يشرف على أطول شئ فى الارض يستأذن الله تعالى فى كل يوم وليلة أن يفيض على الارض فيغرقها فكيف أحمل الجنود فى هذا البحر الكافر المستصعب وتالله لمسلم واحد أحب الى مما حوته الروم فاياك أن تعرض لى وقد تقدمت اليك وقد علمت مالقى العلاء منى ولم أتقدم اليه فى مثل ذلك وعن عمر رضى الله عنه أنه قال لا يسألنى الله عز وجل عن ركوب المسلمين البحر أبدا وروى عنه ابنه عبد الله رضى الله عنهما أنه قال لولا آية فى كتاب الله تعالى لعلوت راكب البحر بالدرة

ثم لما كانت خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه غزا المسلمون فى البحر وكان أول من غزا فيه معوية بن أبى سفيان وذلك أنه لم يزل بعثمان رضى الله عنه حتى عزم على ذلك وقال تنتخب الناس ولا تقرع بينهم خيرهم فمن اختار الغزو طائعا فاحمله وأعنه ففعل واستعمل على البحر عبد الله بن قيس الحاسى حليف بنى فزارة فغزا خمسين غزوة من بين شاتية وصائفة فى البر والبحر ولم يغرق فيه أحد ولم ينكب وكان يدعو الله تعالى أن يرزقه العافية فى جنده ولا يبتليه بمصاب أحد منهم حتى اذا أراد الله عز وجل أن يصيبه فى جنده خرج فى قارب طليعته فانتهى الى المرفا من أرض الروم فثار به الروم وهجموا عليه فقاتلهم فأصيب وحده ثم قاتل الروم أصحابه فأصيبوا اهـ

ولما صدر أمر الخليفة بالتصريح بركوب البحر أخذت العمال تصنع السفن فصنع فى مصر جملة سفائن أخذت أشكالها من سفن الروم التى استولى عليها عمرو بن العاص فى واقعتى الاسكندرية وأول من خرج قائدا على أسطول مصر المركب من مائتى سفينة لغزو قبرص عبد الله بن سعد بن أبى سرح سنة (٢٨ هـ) ثم فى سنة (٣٤ هـ) قاد أسطولا آخر تألف من مائتى سفينة وغزا فى البحر قال المقريزى لما أتاه قسطنطين بن هرقل فى ألف مركب يريد الاسكندرية سار عبد الله فى مائتى مركب أو تزيد شيأ وحاربه فكانت واقعة ذات الصوارى التى نصر الله تعالى فيها جنده وهزم قسطنطين وقتل جنده ومن حديث هذه الغزوة كما قاله المقريزى أن عبد الله بن سعد لما نزل ذو الصوارى أنزل نصف الناس مع بسر بن أرطاة فى البر فلما مضوا أتى آت الى عبد الله بن سعد فقال ما كنت فاعلا حين ينزل بك ابن هرقل فى ألف مركب فافعله الساعة وكانت مراكب المسلمين مائتى مركب ونيفا فقام عبد الله ابن سعد بين ظهرانى الناس فقال بلغنى أن ابن هرقل قد أقبل اليكم فى ألف مركب فأشيروا على فما كلمه رجل من المسلمين فجلس قليلا لترجع اليهم أفئدتهم ثم قام الثانية فكلمهم فما كلمه أحد فجلس ثم قام الثالثة فقال انه لم يبق شئ فأشيروا على فقام رجل من أهل المدينة كان متطوعا مع عبد الله بن سعد فقال أيها الامير ان الله جل ثناؤه يقول كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين فقال عبد الله اركبوا فركبوا وانما فى كل مركب نصف شحنته لانه قد خرج النصف الآخر الى البر مع

Digitized by Google

بسهم فلقوهم فاقتتلوا بالنبل والنشاب وتأخر ابن هرقل لئلا تصيبه الهزيمة وجعلت القوارب تختلف اليه بالاخبار فقال مافعلوا قالوا قد اقتتلوا بالنبل والنشاب فقال غلبت الروم ثم أتوه فقال مافعلوا قالوا قد نفد النبل والنشاب فهم يرمون بالحجارة فقال غلبت الروم ثم أتوه فقال مافعلوا قالوا قد نفدت الحجارة وربطوا المراكب بعضها ببعض يقتتلون بالسيوف قال غلبت الروم وكانت السفن اذذاك تقرن بالسلاسل عند القتال قال فقرن مركب عبد الله يومئذ وهو الامير بمركب من مراكب العدو فكان مركب العدو يجتر مركب عبد الله اليهم فقام علقمة بن يزيد القطيفي وكان مع عبد الله بن سعد في المركب فضرب السلسلة بسيفه فقطعها فسأل عبد الله امرأته بعد ذلك بسيسة ابنة حمزة بن يشرح وكانت مع عبد الله يومئذ وكان الناس يغزون بنسائهم في المراكب من رأيت أشد قتالا قالت علقمة صاحب السلسلة وكان عبد الله قد خطب بسيسة الى أبيها فقال له ان علقمة قد خطبها وله على فيها رأى فان تركها أفعل فكلم عبد الله علقمة فتركها فتزوجها عبد الله بن سعد ثم هلك عنها عبد الله فتزوجها بعده علقمة بن يزيد ثم هلك عنها علقمة فتزوجها بعده كريب بن أبرهة وماتت تحته وقيل مشت الروم الى قسطنطين بن هرقل في سنة ٣٥ فقالوا أنترك الاسكندرية في أيدي العرب وهي مدينتنا الكبرى فقال ماأصنع بكم ماتقدرون أن تمالكوا ساعة اذا لقيتم العرب قالوا اخرج على أننا نموت فتبايعوا على ذلك فخرج في ألف مركب يريد الاسكندرية فسار في أيام غالبة الرياح فبعث الله عليهم ريحا فغرقتهم الا قسطنطين فانه نجا بمركبه فألقته الريح بصقلية فسألوه عن أمره فأخبرهم فقالوا شتت النصرانية وأفنيت رجالها لودخلت العرب علينا لم نجد من يردهم فقال خرجنا مقتدرين فأصابنا هذا فصنعوا له الحمام ودخلوا عليه فقال ويلكم يذهب رجالكم وتقتلون ملككم قالوا كأنه غرق معهم ثم قتلوه وخلوا من كان معه في المركب قال أبو عمرو الكندي وانما سميت غزوة ذي الصواري (زواره) لكثرة صواري المراكب واجتماعها اهـ وهذه الواقعة تسمى في كتب الفرنج بواقعة فونيكه (Phœniconte) البحرية لوقوعها بالقرب من فونيكه وبعد هذه الواقعة ازدادت أساطيل الاسلام بسرعة حتى ان أساطيل معوية تمكنت من فتح بوغاز كليبولي سنة ٦٥٥ م وأخذ معوية يهتم بتجهيز الاساطيل ثم قصد في سنة ٦٦٨ م فتح القسطنطينية الا أنه لم يوفق لذلك وأصاب أساطيله من الحريق بالنار الاغريقية ماتقدم للذكره مماكان سببا في رجوع المسلمين عنها

قال المقريزي ان أول ماأنشئ الاسطول بمصر في خلافة أمير المؤمنين المتوكل على الله أبي الفضل جعفر بن المعتصم عندما نزل الروم دمياط في يوم عرفة سنة ثمان وثلاثين ومائتين وأمير مصر يومئذ عنبسة بن اسحق فلكوها وقتلوا بها جمعا كثيرا من المسلمين وسبوا النساء والاطفال ومضوا الى تنيس فأقاموا باشتومها فوقع الاهتمام من ذلك الوقت بأمر الاسطول وصار من أهم مايعمل بمصر وأنشئت الشواني برسم الاسطول وجعلت الارزاق لغزاة البحر كما هي لغزاة البر وانتدب الامراء الى الرماة فاجتهد الناس بمصر في تعليم أولادهم الرماية وجميع أنواع المحاربة وانتخب له القواد العارفون بمحاربة العدو وكان لاينزل في رجال الاسطول جبان ولاجاهل بأمور الحرب هذا وللناس اذ ذاك رغبة في جهاد أعداء الله واقامة دينه لاجرم أنه كان لخدام الاسطول حرمة ومكانة ولكل أحد من الناس رغبة في أن يعد من جملتهم فيسعى بالوسائل حتى يستقر فيه وكان من غزو الاسطول بلاد العدو ماقد شحنت به كتب التواريخ فكانت الحرب بين المسلمين والروم سجالا ينال المسلمون من العدو كما ينال منهم ويأسر

بعضهم بعضا لكثرة هجوم أساطيل الاسلام على بلاد العدو فانها كانت تسير من مصر والشام وافريقية فلذلك احتاج خلفاء الاسلام الى الفداء وكان أول فداء وقع عال فى الاسلام أيام بنى العباس ولم يقع فى أيام بنى أمية فداء مشهور وانما كان يفادى بالنفر بعد النفر فى سواحل الشام ومصر والاسكندرية وبلاد ملطية وبقية الثغور الجزرية الى أن كانت خلافة أمير المؤمنين هرون الرشيد فكان الفداء الاول باللامس من سواحل البحر الرومى قريبا من طرسوس سنة ١٨٩ هـ وملك الروم يومئذ نقفور بن أشبراق وكان ذلك على يد القاسم بن الرشيد وهو معسكر بمرج دابق من بلاد قنسرين فى أعمال حلب ففودى بكل أسير كان ببلاد الروم من ذكر وأنثى وحضر هذا الفداء من أهل الثغور نحو خمسمائة ألف انسان بأحسن ما يكون من العدد والخيل والسلاح والقوة قد أخذوا السهل والجبل وضاق بهم الفضاء وحضرت مراكب الروم الحربية بأحسن ما يكون من الزى معهم أسارى المسلمين فكان عدة من فودى به من المسلمين فى اثنى عشر يوما ثلاثة آلاف وسبعمائة أسير وأقام ابن الرشيد باللامس أربعين يوما قبل الايام التى وقع فيها الفداء والثانى كان فى خلافة الرشيد أيضا باللامس فى سنة اثنتين وتسعين ومائة وكان ملك الروم نقفور وكان القائم به ثابت بن نصر بن مالك الخزاعى أمير الثغور الشامية حضره ألوف من الناس وكان عدة من فودى به من المسلمين فى سبعة أيام ألفين وخمسمائة من ذكر وأنثى اهـ

وبعد أن استبد أحمد بن طولون بالديار المصرية وتقلد خراجها مع المعونة والثغور الشامية اهتم بأمر الاساطيل اهتماما لامثيل له فزاد فى بناء السفن وتجهيزها بالآلات والرجال ليتمكن بها من المحافظة على الثغور وكانت دار صناعة بجزيرة الروضة فى أيامه عامرة وهى أول صناعة عملت بفسطاط مصر بنيت فى سنة أربع وخمسين من الهجرة وكان ينشئ بها الحربيات والشلنديات وغيرها من أنواع السفن وصار له بها الهيبة فى قلوب أعدائه ونفذ بها جميع مقاصده فى السواحل الشامية وغيرها وقد بلغت أساطيله الدرجة العليا من القوة العظيمة ولما قام الخلاف بينه وبين الموفق وعزم الموفق على الايقاع بابن طولون وبلغه ذلك أخذ يهيئ أسباب الدفاع فتأمل الى مدينة الفسطاط فوجدها لا تؤخذ الا من جهة النيل فأمر ببناء حصن على الجزيرة ليكون معقلا لحرمه وذخائره واتخذ مائة مركب حربية سوى ما ينضاف اليها من العلابيات والحمائم والعشاريات والسنابيك وقوارب الخدمة وعمد الى سد وجه البحر الكبير وأن يمنع ما يجىء اليه من مراكب طرسوس وغيرها من البحر المالح الى النيل بأن توقف هذه المراكب الحربية فى وجه البحر الكبير خوفا مما يجيء من مراكب طرسوس وذلك فى سنة (٢٦٣ هـ) واجتهد أحمد بن طولون فى بناء المراكب الحربية وأطافها بالجزيرة وأظهر الامتناع من موسى بن بغا قائد الموفق بكل ما قدر عليه وقبل أن يقع قتال بين الطرفين مات موسى ابن بغا (٢٦٤ هـ) واطمأن ابن طولون قال ابن اياس فى تاريخه انه لما مات أحمد بن طولون (٢٧٠ هـ) كان من مخلفاته من المراكب الحربية والشوانى ألف مركب ثم اعتنى بنوه من بعده بانشاء المراكب الحربية فى هذه الصناعة وبقيت القوة البحرية فى أيامهم حافظة لشأنها وفى أول حكم ابنه أبو الجيش خمارويه بعث بمراكب حربية فى البحر لتقيم على السواحل الشامية (٢٧١ هـ) ولما ولى أبو موسى هرون بن خمارويه يوم خلع أبو الجيش قامت طائفة من الجند وكاتبوا ربيعة بن أحمد بن طولون ودعوه للقيام فاشتعلت نار الفتن وبعث المكتفى محمد بن سليمان الكاتب للحملة على بنى

Digitized by Google

طولون ونزل حمص وبعث المراكب الحربية من الثغر الى سواحل مصر وسيرهرون سنة ٢٩١ هـ المراكب الحربية فالتقوا عراكب محمد بن سليمان فى تنيس وبعد حروب استظهرت مراكب محمد بن سليمان عليها وملك أصحابه تنيس ودمياط ومن وقتئذ أخذت بحرية بنى طولون فى الانحطاط الى أن انقرضت

أما فى عهد الدولة الاخشيدية فقد انحطت القوة البحرية المصرية لاسباب الفتن التى كانت قائمة فى عهدهم قال المقريزى لما قدم الامير أبو بكر محمد بن طغج الاخشيد أميرا على مصر من قبل الخليفة الراضى عوضا عن أحمد بن كيغلغ فى سنة ٣٢٣ هـ وقد كثرت الفتن فلم يدخل عيسى بن أحمد السلمى أبو مالك كبير المغاربة فى طاعته ومضى ومعه بجكم وعلى بن بدر ونظيف النوشرى وعلى المغربى الى الفيوم فبعث اليهم الاخشيد صاعد بن الكلكم عراكبه فقاتلوه وقتلوه وأخذوا مراكبه وركب فيها على بن بدر وبجكم وقدموا مدينة مصر أول يوم من ذى القعدة فأرسوا بجزيرة الصناعة وركب الاخشيد فى جيشه ووقف حيالهم والنيل بينهم وبينه فكره ذلك وقال صناعة يحول بينها وبين صاحبها الماء ليست بشئ فأقام بجكم وعلى بن بدر الى آخر النهار ومضوا الى جهة الاسكندرية وعاد الاخشيد الى داره فأخذ فى تحويل الصناعة من موضعها بالجزيرة الى دار خديجة بساحل مصر القديم فى شعبان سنة ٣٢٥ هـ وابتدأ فى انشاء المراكب بها اهـ وقال أيضا لما كانت الفتن بعد موت كافور الاخشيدى طرق الروم دمياط لعشر خلون من رجب سنة ٣٥٧ هـ فى بضع وعشرين مركبا فقتلوا وأسروا مائة وخمسين من المسلمين اهـ ولو كانت أساطيل الاخشيد فى وقتها قوية لم تجسر الروم على مهاجمة السواحل المصرية وفى خلال ذلك كانت دولة العبيديين بافريقية طامعة فى الاستيلاء على مصر ففى سنة ٣٠٧ هـ أقبلت مراكب صاحب افريقية الى الاسكندرية عليها سليمان الخادم فقدم ثمل الخادم صاحب مراكب طرسوس فالتقيا برشيد فى شوال فاقتتلا فبعث الله ريحا على مراكب سليمان ألقتها الى البر فتكسر أكثرها وأخذ من فيها باليد وقتل أكثرهم وأسر من بقى وسيقوا الى الفسطاط فقتل منهم نحو سبعمائة رجل وبعد ذلك مضى ثمل الخادم فى مراكبه الى الاسكندرية فقاتل من بها من أهل افريقية فظفر بهم ونقل أهل الاسكندرية الى رشيد وعاد الى الفسطاط ومضى فى مراكبه الى اللاهون ومازالت الاسكندرية وأعمالها والاخشيديون فى اضطراب الى أن قدمت جيوش المعز لدين الله مع القائد جوهر فى سنة ٣٥٨ هـ وملكتها وانقرضت بعد ذلك الدولة الاخشيدية وقامت فى مصر دولة الفواطم

قال المقريزى وقويت العناية بالاسطول فى مصر منذ قدم المعز لدين الله وأنشأ المراكب واقتدى به بنوه وكان لهم اهتمام بامور الجهاد واعتناء بالاسطول وواصلوا انشاء المراكب بمدينة مصر والاسكندرية ودمياط من الشوانى الحربية والشلنديات والمسطحات وتسييرها الى بلاد الساحل مثل صور وعكا وعسقلان وكانت جريدة قواد الاسطول فى آخر أمرهم تزيد عن خمسة آلاف مدونة منهم عشرة أعيان يقال لهم القواد وتصل جامكية كل واحد منهم الى عشرين دينارا ثم الى خمسة عشر دينارا ثم الى عشرة دنانير ثم الى ثمانية ثم الى دينارين وهى أقلها ولهم اقطاعات تعرف بأبواب الغزاة الى أن قال وكان يعين من القواد العشرة واحد فيصير رئيس الاسطول ويكون معه المقدم والقاوش فاذا ساروا الى الغزو كان هو الذى يقلع بهم وبه يقتدى الجميع فيرسون بارسائه ويقلعون باقلاعه ولابد أن

Digitized by Google

يقدم على الاسطول أمير كبير من أعيان أمراء الدولة وأقواهم نفسا ويتولى النفقة فى غزاة الاسطول الخليفة بنفسه بحضور الوزير فاذا أراد النفقة فيما تعين من عدة المراكب السائرة وكانت فى أيام المعز لدين الله تزيد عن ستمائة قطعة وآخر ماصارت اليه فى آخر الدولة الفاطمية نحو الثمانين شونة وعشر مسطحات وعشر حمالات فما نقص عن مائة قطعة فيتقدم الى النقباء باحضار الرجال وفيهم من كان يتعيش بمصر والقاهرة وفيهم من هو خارج عنهما فيجتمعون وكانت لهم المشاهرة والجرايات فى مدة أيام سفرهم وهم معروفون عند عشرين عريفا يقال لهم النقباء ولايكره أحد على السفر الى أن قال فاذا تهيأ الانفاق أدخل الغزاة مائة مائة فيقفون فى أخريات من هو واقف فى الخدمة من جانب واحد نقابة نقابة وتكون أسماؤهم قد رتبت فى أوراق لاستدعائهم بين يدى الخليفة الى أن قال وكانت مقررة لكل واحد خمسة دنانير صرف ستة وثلاثين درهما بدينار فيسلمها له النقيب وتكتب باسمه وبيده فاذا تم ذلك ركب الوزير من بين يدى الخليفة وانقضى ذلك الجمع فاذا تكاملت النفقة وتجهزت المراكب وتهيأت للسفر ركب الخليفة والوزير الى ساحل النيل بالمقس خارج القاهرة وكان هناك على شاطئ النيل بالجامع منظرة يجلس فيها الخليفة برسم وداع الاسطول ولقائه اذا عاد فاذا جلس هو والوزير للوداع جاءت القواد بالمراكب من مصر الى هناك للحركات فى البحر بين يديه وهى مزينة بأسلحتها ولبوسها وفيها المنجنيقات تلعب فتنحدر وتقلع بالمجاذيف كما يفعل فى لقاء العدو بالبحر المالح ويحضر بين يدى الخليفة المقدم والرئيس فيوصيهما ويدعو للجماعة بالنصر والسلامة ويعطى المقدم مائة دينار والرئيس عشرين دينارا وتنحدر الى دمياط وتخرج الى البحر المالح فيكون لها ببلاد العدو صيت وهيبة فاذا وقع لهم مركب لايسألون عما فيه سوى الصغار والرجال والنساء والسلاح وماعدا ذلك للاسطول والعادة أنه اذا غنم الاسطول ماعسى أن يغنم لايتعرض السلطان منه الى شئ البتة الا ماكان من الاسرى والسلاح فانه للسلطان وماعداهما من المال والثياب ونحوهما فانه لغزاة الاسطول لايشاركهم فيه أحد فاذا قدم الاسطول خرج الخليفة أيضا الى منظرة المقس وجلس فيها للقائه وقدم الاسطول مرة بألف وخمسمائة أسير وكانت العادة أن الاسرى ينزل بهم فى المناخ وتضاف الرجال الى من فيه من الاسرى ويمضى بالنساء والاطفال الى القصر بعد مايعطى منهم الوزير طائفة ويفرق مابقى من النساء على الجهات والاقارب فيستخدمونهن ويربونهن حتى يتقن الصنائع ويدفع الصغار من الاسرى الى الاستاذين فيربونهم ويتعلمون الكتابة والرماية ويقال لهم الترابى وفيهم من صار أميرا من صبيان خاص الخليفة ومن الاسرى من كان يستراب به فيقتل ولم يعرف قط عن الدولة الفاطمية أنها فادت أسيرا من الفرنج بمال ولا بأسير مثله وقال المقريزى آخر ماصارت اليه الاساطيل فى آخر الدولة الفاطمية نحو ٨٠ شونة وعشر مسطحات وعشر حمالات فما نقص عن مائة قطعة قال المقريزى أيضا ورأيت بخط الاسعد بن مماتى أن عدة الجيوش بمصر فى مدة أيام رزيك بن الصالح طلائع كانت ٤٠,٠٠٠ فارس و ٣٦,٠٠٠ راجل وزاد غيره وعشرة شوانى بحرية فيها عشرة آلاف مقاتل وهذا عند انقراض الدولة الفاطمية وقال أيضا لم يزل الاسطول معتنى به فى دولة الفواطم الى أن كانت وزارة شاور ونزل مرى ملك الفرنج على بركة الحبش فأمر شاور بتحريق مصر وتحريق مراكب الاسطول فحرقت ونهبها العبيد فيما نهبوا اه

وكانت السفن الحربية فى زمن الفواطم تصنع فى جملة جهات لتعدد دور الصناعات المصرية

Digitized by Google

فى أيامهم منها صناعة المقس وصناعة الجزيرة وصناعة مصر والاسكندرية ودمياط قال ابن أبى طى فى تاريخه عند ذكر وفاة المعز لدين الله انه انشأ دار الصناعة التى بالمقس وأنشأ بها ستمائة مركب لم ير مثلها فى البحر على مينا وقال المسبحى ان العزيز بالله بن المعز هو الذى بنى دار الصناعة التى بالمقس وعمل المراكب التى لم ير مثلها فيما تقدم كبرا وثاقة وحسنا قال المقريزى وكانت جميع مراكب الاساطيل لاتنشأ الا بالصناعة التى بالجزيرة فانكر الوزير المأمون ذلك وأمر بان يكون انشاء الشوانى وغيرها من المراكب النيلية الديوانية بالصناعة بمصر وأضاف اليها دار الزبيب وأنشأ المنظرة بها واسمه باق الى الآن عليها وقصد بذلك أن يكون حلول الخليفة يوم تقدمة الاساطيل ورميها بالمنظرة المذكورة وأن يكون ماينشأ من الحرانى والشلنديات فى الصناعة بالجزيرة قال ولما وفى النيل ستة عشر ذراعا ركب الخليفة والوزير الى الصناعة بمصر ورميت العشاريات بين أيديهما ثم عديا فى احداها الى المقياس وقال ابن الطوير الخدمة فى ديوان الجهاد ويقال له ديوان العمائر وكان محله بصناعة الانشاء بمصر للاسطول والمراكب الحاملة للغلات السلطانية والاحطاب وغيرها وكانت تزيد على خمسين عشاريا ويليها عشرون ديماسا منها عشرة برسم خاص الخليفة أيام الخليج وغيرها ولكل منها رئيس ونواتى لايبرحون ينفق فيهم من مال هذا الديوان وبقية العشاريات الدواميس برسم ولاة الاعمال المميزة فهى تحرلهم وينفق فى رؤسائها ورجالها أينما كانوا من مال هذا الديوان وتقيم مع أحدهم مدة مقامه فاذا صرف عاد فيه وخرج المتولى الجديد فى العشارى المرسى بالصناعة ولايخرج الابتوقيع باطلاقه والانفاق فيه وللشارفين بالاعمال عشاريات دون هذه وفى هذا الديوان برسم خدمة مايجرى فى الاسطول نائبان من قبل مقدم الاسطول وفيه من الحواصل لعمارة المراكب شئ كثير واذا لم يف ارتفاعه بمايحتاج اليه استدعى له من بيت المال مايستدخله قال وكان من أهم أمورهم احتفالهم بالاساطيل والاجناد ومواصلة انشاء المراكب بمصر والاسكندرية ودمياط من الشوانى الحربية والشلنديات والمسطحات الى بلاد الساحل حين كانت بأيديهم مثل صور وعكا وعسقلان اهـ

وفى وزارة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب للعاضد وصل الفرنج الى دمياط سنة ٥٦٥ وهم فيما يزيد على ألف ومائتى مركب فخرجت العساكر من القاهرة وقد بلغت النفقة عليهم زيادة على ٥٠٠,٠٠٠ دينار فأقامت الحرب مدة ٥٥ يوما وكانت صعبة شديدة واتهم فى هذه النوبة عدة من أعيان المصريين بمالأة الفرنج ومكاتبتهم وقبض عليهم الملك الناصر وقتلهم وكان سبب هذه النوبة أن الغز لما قدموا الى مصر من الشام صحبة أسد الدين شيركوه تحرك الفرنج لغزو ديار مصر خشية من تمكن الغز بها فاستمدوا اخوانهم أهل صقلية فأمدوهم بالاموال والسلاح وبعثوا اليهم بعدة وافرة فساروا بالدبابات والمجانيق ونزلوا على دمياط فى الاساطيل التى ذكرناها وأحاطوا بها بحرا وبرا واشتد الامر على أهل دمياط وهم ثابتون على محاربة الفرنج فسير صلاح الدين الى نور الدين محمود بن زنكى صاحب الشام يستنجده ويعلمه بأنه لايمكنه الخروج من القاهرة الى لقاء الفرنج خوفا من قيام المصريين عليه فجهز اليه العساكر شيأ بعد شئ وخرج نور الدين من دمشق بنفسه الى بلاد الفرنج التى بالساحل وأغار عليها واستباحها فبلغ ذلك الفرنج وهم على دمياط فخافوا على بلادهم من نور الدين أن يتمكن منها فرحلوا عن دمياط بعد ماغرق

Digitized by Google

لهم نحو الثلثمائة مركب ومن وقتئذ رتبت المقاتلة على البرجين وشدت مراكب الى السلسلة ليقاتل عليها ويدافع عن الدخول من بين البرجين اهـ من المقريزى والذى جعل الفرنج يستطيلون على أرض مصر بهذه الصفة أن العناية لم تكن موجهة بمصر اذذاك لامر الاساطيل عقب سقوط دولة الفواطم قال الفاضل محمد شكرى أفندى فى تاريخه المسمى بالاسفار البحرية العثمانية ماملخصه

قد تكلم كثير من مؤرخى أوروبا عن أساطيل العرب ومدحوا تقدمهم فى سلوك البحار وفن صناعة السفن لكن صاحب التاريخ العمومى الانكليزى جون كارنوك (John Charnoch) خالفهم فى ذلك حيث قال عند كلامه على وقوعات بحرية عموم الملل ان العرب توفقوا فى كثير من الاسفار البحرية الا انهم لم يعدوا فيها كخادمين لترقيات الفنون والصنائع البحرية حيث كانت أسفارهم المذكورة لغرض مخصوص يقصدون منه تنفيذ آمالهم فقط وغير ذلك من الاقوال التى أظهر فيها التعصب على العرب ونسبهم الى الجهل فى الاعمال والفنون البحرية وهو يقصد من ذلك اسقاط منزلتهم فى تاريخه بعبارات سقيمة فرارا من الاقرار لهم بالفضل المتقدم ولا يذكر أن دول أوروبا أخذت فى القرون الوسطى عن العرب التمدن وآثار العمران وأكثر العلوم والمعارف لاننا لونظرنا الى الزمن الذى ظهر فيه الاسلام وتقدم بجيوشه العربية بالفتوحات حتى فازت بالاستيلاء على الاندلس وصار العرب متاخمين لامم الفرنج نجد أن ذلك الزمن كان عقب انقراض دولة الرومان الغربية وقيام أقوام الجرمانيين وقبائل الشمال الوحشيين واستيلائهم على أكثر بلاد أوروبا واطفائهم نور العلم منها حتى لم يبق وافيها من آثار مدينة الرومان شيأ يذكر فأخذت العرب من وقتئذ تهتم بنشاطهم المشهور فى تحسين وترقية أمور دولتهم فتقدموا فى كثير من المعارف والعلوم حتى أتقنوا صناعة السفن وصاروا مهرة فى سلوك البحار ويمكن أن نعدهم أول الاقوام الذين قاموا بالاكتشافات فى البحر المحيط الاطلنطيق ويؤيد ذلك رواية الجغرافى العربى الشهير العلامة الادريسى عند كلامه على الملاحين المعروفين بالمغرورين الذين قاموا فى الوقت المذكور بكل نشاط لهذا العمل المفيد لفن الجغرافيا فاقلعوا بسفنهم من اشبونة (ليسبون) عاصمة البرتقال الآن بقصد البحث عن أراض جديدة فى المحيط الاطلسى فاكتشفوا جزائر قناريه وقال انه عند عودتهم الى الساحل الافريقى رسوا بسفنهم أمام قرية من أعمال مراكش عرفت الآن باسفى ويقال ان هذا الاسم اشتق من أن أولئك الملاحين لما وصلوها وعرفوا بعدهم عن بلادهم الاندلسية قالوا وا أسفى تأثرا فاطلق هذا اللفظ على الثغر المذكور وصار يعرف بذلك وروى غيره أنه بعد هذا الاكتشاف اتخذ العرب جزائر الخالدات (قناريه) المذكورة مبدأ للاطوال ورسموا خرطهم على حسابها واعتبرها كذلك فيما بعد كثير من علماء أوروبا والحاصل أن المعارف كانت عند العرب فى ارتقاء دائم باجتهاد علمائهم الافاضل الذين ملؤا الارض بعلمهم وترجموا كتب العلوم العديدة من اللغة اليونانية وشرحوها وصنفوا عنها عدة مؤلفات ارتقت بها العلوم الرياضية والفلكية وعلم الهيئة والنجوم وكانت هذه العلوم الواسطة الكبرى فى تقدم فن الملاحة عندهم وهم أول من استعمل الابرة المغناطيسية (البوصله) فى أسفارهم البحرية وتمكن ملاحوهم بواسطتها من معرفة الشمال والجنوب بالضبط بعد أن كانوا لا يهتدون الى الطريق فى البحار الا بضوء النجوم ومواقعها

وبالسواحل

Digitized by Google

وبالسواحل البحرية التى كانوا لايفتؤن يراقبونها مدة سفرهم وبعد ذلك تمكنوا من الامعان فى أسفارهم والابعاد عن البر فاستاز وابذلك عن باقى ملاحى الامم المعاصرة لهم

وكانت سفنهم فى العهد المذكور تعد من أشهر السفن لاتقانهم فن انشائها وصناعتها فكان يوجد بدور صناعاتهم من العمال المهرة عدد لا يحصى كانوا فى الصناعة كأساتذة ذلك العصر وكان ملاحو العرب يسافرون بتلك السفن الاسفار الشاسعة لجلب التجارة وينقلون كثيرا من البضائع من ثغور الهند والصين الى جميع البلاد التى كانت تحت حكمهم ولما اخترع العرب الساعات التى هى أساس ساعات الكرونومتر عند أوروبا استفادت العلوم البحرية كثيرا وزادت تجربتهم تقدماوأكثروا من التوغل بين غمار البحور المجهولة وسكن كثير من شعوبهم وقبائلهم عدة جزائر من البحر المحيط الهندى فعرب بهم منها جاوه وسوماتره وجزائر القمر وأكثر سواحل افريقية الجنوبية وغيرها ويحق أن تعدّ العرب من أولى العزائم والهمم فى الاعمال البحرية وأول الخادمين لترقية فنونها وصنائعها فى الوقت الذى لم يكن لدولة من دول أوروبا فيه اسم يذكر وقد أجمع المؤرخون على أن دول أوروبا أخذت عنهم فى القرون الوسطى صناعة الآلات الحربية والادوات البيتية والفنون الزراعية وكثيرا من العلوم ووسائط العمران ونقلت اليهم من الاندلس أكثر الحرف والصنائع والحبوب والاشجار المثمرة ثم لما أخذ الانحطاط فى دول الاسلام بالمغرب وقامت دول الافرنج باطماعهم للاستيلاء على ثغور تلك البلاد وكانت ممالك جنوه والبنادقة وساردينيا وصقلية وغيرها من دول ايطاليا أخذت ترتقى فى سلوك البحار حتى نالت الشهرة والامتياز فيه دون سائر الممالك الاوروباوية بما أخذوه عن العرب من الفنون والصناعة وصارت سفنهم تتردد الى جميع فرض البحر المتوسط الابيض خصوصا بعد أن تعلموا وتلقوا من البلاد الاسلامية كثيرا من العلوم والفوائد النافعة مدة الحروب الصليبية فنقلوها معهم عند عودتهم الى بلادهم وصارت بعدئذ أساطيل دول ايطاليا تتقدم فى سلوك البحار حتى اجتازت بوغاز جبل طارق وزارت اسبانيا وسواحل فرانسا الغربية بل وانكلترة كما أنها كانت تمخر فى سواحل الشرق فى مياه الاستانة والبحر الاسود فى أواخر الدولة البوزنطية

وقد روى بعض المؤرخين أنه لما قامت بعد ذلك حكومة البرتغال واسبانيا بالاكتشافات فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلادى استعمل خريستوف كولمبوس مكتشف أمريقا وفاسكودوغاما مكتشف طريق الهند فى أسفارهما الخرائط التى وجدوها عند العرب وكان لتلك الخرائط فى الوقت المذكور قيمة ممتازة لاشتهار أصحابها بالمعلومات البحرية حتى ان فاسكودوغاما استخدم فى أثناء سفره رجالا من العرب يدلونه على الطريق الذاهب من رأس عشم الخير الى الهند وباشاراتهم فاز ونجح فى أسفاره واكتشافاته التى وصل بها الى الساحل الهندى الجنوبى وبذلك علا ذكره وطار أمره وجذب اليه أبصار أوروبا وحمل أهلها على الاقتداء به ولما ترددت أساطيل البرتغال على السواحل الهندية وأحست بذلك أساطيل العرب التى كانت تربح المكاسب العظيمة من نقل التجارة الهندية الى الثغور العربية اضطرت لمدافعة أهل البرتغال لمنعهم عن هذا الطريق قال المؤرخ البرتغالى القس جيروم أوزاريو (Jérome Osario) فى تاريخه ما ملخصه أنه لما وصلت أساطيل البرتغال الى البلاد الهندية بعد مرورها من سواحل

جزيرة العرب أخذت سفنهم تحارب أساطيل البرتقال وفى احدى الوقائع استظهر الاسطول البرتقالى على سفن العرب وكان من بين سفنهم سفينة جسيمة قاومت البرتقال مقاومة تذكر لانها أضرت كثيرا باسطولهم وكانت سفينة العرب المذكورة مع متانتها وجودة صناعتها مسلحة تسليحا متقنا وكان سطحها الخارجى مكسوا بالجلود وكان هذا الكساء يعد اذ ذاك من أعظم الترقيات المهمة فى فن صناعة السفن وقال ان طائفتها كانوا على جانب عظيم من الدراية والمهارة فى فن الملاحة وقد ظهرت فى وقت القتال منفعة هذا الجلد لانه كان كحائل منيع ودرع قوى يصد هجمات سفن البرتقال حتى انها قاومت مقذوفات المدافع البرتقالية وحراقاتهم وكانت تلك الجلود تعد وقتئذ من أهم آلات وسلاح الحرب وقد أطنب المؤرخ المذكور فى شجاعة العرب وسرعة حركاتهم الحربية ومهارتهم فى ادارة السفينة وقال انهم تمكنوا من مقاومة المقذوفات التى أطلقتها عليهم سفن البرتقال مدة ساعات حتى لم تصب سفنهم بمقذوف منها ثم لما اجتمعت سفن البرتقال أخيرا وسلطوا مدافعهم على تلك السفينة تمكنوا بعد محاربة عدة ساعات من إصابتها بمقذوف واحد خرقها ولما أحس رجالها الابطال بالهلاك لاشراف سفينتهم على الغرق وكانوا يعلمون أن العدو لا يقبل منهم الامان ألقوا بأنفسهم جميعا فى البحر وصاروا يسبحون بكل قوتهم ليخرجوا الى الساحل الذى كان على بعد بعض أميال من محل الواقعة ولكن قساوة البرتقاليين ساقتهم الى أن أطلقوا على أولئك المساكين القنابل حتى أغرقوا معظمهم وهذا لا شك أمر مغاير للانسانية يعد من الاعمال الوحشية اهـ

قال المقريزى فلما كان زوال الدولة الفاطمية (٥٦٧ هـ) على يد السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب اعتنى بأمر الاسطول وأفرد له ديوانا عرف بديوان الاسطول وعين لهذا الديوان الفيوم بأعمالها والحبس الجيوشى فى البرين الشرقى والغربى وهو من البر الشرقى بهتين والاميرية والمنية ومن البر الغربى ناحية سفط ونهيا وسيم والبساتين خارج القاهرة وعين له أيضا الخراج وهى أشجار من سنط لا تحصى كثرة فى البهنساوية وسفط ريشين والاشمونين والاسيوطية والاخميمية والقوصية لم تزل بهذه النواحى لا يقطع منها الا ما تدعو الحاجة اليه وكان فيها ما تبلغ قيمة العود الواحد منه مائة دينار وعين له أيضا النطرون وكان قد بلغ ضمانه ثمانية آلاف دينار ثم أفرد لديوان الاسطول مع ماذكر الزكاة التى كانت تجبى بمصر وبلغت فى سنة زيادة عن خمسين ألف دينار وأفرد له المراكب الديوانية وناحية اشناى وطنبدى وسلم هذا الديوان لاخيه الملك العادل أبى بكر محمد ابن أيوب فأقام فى مباشرته وعماله صفى الدين عبد الله بن على بن شكر وتقرر ديوان الاسطول الذى ينفق فى رجاله نصف وربع دينار بعد ما كان نصف وثمن دينار اهـ وقبل هذا الوقت كانت قامت دول أوروبا باطماعها وقصدت الاستيلاء على الشرق فاشتعلت نيران الحروب الصليبية وامتلكوا أكثر السواحل الشامية وأخذت أطماعهم وتعصباتهم تتزايد حتى انهم قصدوا الاستيلاء على كعبة الاسلام فلما بلغ صلاح الدين الايوبى خبر تقدمهم على الحدود الحجازية عاد الى مصر مسرعا وأنشأ مراكب فى دور صناعتها وحملها مفصلة على الجمال (٥٦٨ هـ) الى ساحل أيلة (بحر العقبة) فألفها وألقاها فى البحر وشحنها بالجنود وبعد تجهيزها أقلع ذلك الاسطول وحاصر به مدينة ايلة برا وبحرا فافتتحها عنوة وأخذ بعد ذلك يقوى أساطيله فى البحر الاحمر وفى خلال ذلك قام البرنس

Digitized by Google

ارناط صاحب الكرك وعزم نهائيا على محاربة المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم السلام قال ابن خلدون ما ملخصه فانشأ أسطولا مفصلا وحمل أجزاءه الى صاحب أيلة وركبه على ما تقتضيه صناعة انشاء السفائن وقذفه في بحر السويس وشحنه بالمقاتلة وأقلعوا به وأرسل فرقة منه أقامت على حصن أيلة تحاصره وفرقة سارت نحو عيذاب وأغاروا على سواحل الحجاز وأخذوا ما وجدوا به من مراكب التجار وطرق الناس منهم بلية لم يعرفوها لانه لم يعهد بحر السويس افرنجي محارب ولا تاجر وكان بمصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب نائبا عن أخيه صلاح الدين فعمر وجهز أسطول مصر وشحنه بالمقاتلة وقالع به حسام الدين لؤلؤ الحاجب قائد الاساطيل بديار مصر فبدأ باسطول الفرنج الذي يحاصر أيلة ففرقهم كل ممزق وبعد الظفر بهم أقلع في طلب الفرقة الثانية من أسطولهم الذي قصد عيذاب فلم يجدهم فرجع الى رابغ فأدركهم بساحل الحوراء وكانوا عازمين على طروق الحرمين واليمن والاغارة على الحاج فلما أطل عليهم لؤلؤ بالاسطول أيقنوا بالتغلب وتراموا على الحوراء وأسلموا اليها واعتصموا بشعاب ساحلها فنزل لؤلؤ من مراكبه وجمع خيل الاعراب هنالك وقاتلهم فظفر بهم وقتل أكثرهم وأسر الباقين وأرسل بعضهم الى منى فقتلوا بها أيام النحر وعاد بالباقي وبما غنمه من سفنهم الى مصر والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء ثم بعد ذلك حاصر صلاح الدين قلعة الكرك الى أن فتحها عنوة وقتل البرنس ارناط بيده حرصا على الوفاء بنذره بعد أن عرفه بقدرته وبما كان رومه من الحرمين اه

وفي خلال ذلك قصد الفرنج الاسكندرية من صقلية (٥٦٩ ﻫ) بأسطول مؤلف من مائتي سفينة تحمل الرجالة و ٣٦ طريدة تحمل الخيل وست مراكب كبار تحمل آلة الحرب وأربعين مركبا تحمل الازواد وكانت عدة الرجال خمسين ألفا والفرسان ١٥٠٠ فوصلوها على حين غفلة من أهلها في ٢٦ الحجة فخرج أهل الاسكندرية بالسلاح ليمنعوهم من النزول وأبعدوا عن البلد فأمرهم الوالي بملازمة السور ونزل الفرنج الى البر وتقدموا الى المدينة ونصبوا عليها الدبابات والمنجنيقات وقاتلوا أشد قتال وصبر لهم أهل البلد وكان العسكر عندهم قلائل ورأى الافرنج من شجاعة أهل الاسكندرية وحسن سلاحهم ماراعهم وسيرت الكتب في الحال الى صلاح الدين ودام القتال ووصل من العساكر الاسلامية كل من كان قريبا من الاسكندرية فقويت بهم نفوس أهلها وأحسنوا القتال والصبر وهاجوا الفرنج ببسالة حتى وصل المسلمون الى الدبابات[1] فأحرقوها وصبروا القتال فدام القتال الى آخر النهار فانجلى عن نصر المسلمين فعادوا الى المدينة مستبشرين بفتور حرب الافرنج وكثرة القتل والجراح فيهم فأتى البشير بقدوم صلاح الدين فعاود المسلمون القتال واشتد خوف الافرنج فهاجمهم المسلمون عند اختلاط الظلام ووصلوا الى خيامهم فغنموا ما فيها من الاسلحة وغيرها وأكثروا القتل في رجالتهم فهرب كثير منهم الى البحر وقربوا شوانيهم ليركبوا فغرق البعض ونجا البعض وغاص بعض المسلمين في الماء وخرقوا بعض الشواني فغرقت فهرب الباقون وهذه الحادثة من أهم الحوادث التي جرت على الاسكندرية في الحروب الصليبية ثم سار صلاح الدين من مصر الى ساحل الشام لغزو الفرنج فيها وكانت حروبه مع الفرنج متواصلة وكان الفرنج ضيقوا على جيوشه بعكا وجاء الخبر بوصول الاسطول من مصر

(١) قال في القاموس الدبابة مشددة آلة تتخذ للحروب فتدفع في أصل الحصن فينقبون وهم في جوفها

فجهز الافرنج أسطولا لقتاله وشغلهم صلاح الدين بالقتال ليتمكن الاسطول من دخول عكا فلم يشتغلوا عنه وقاتلوا الفريقين برا وبحرا ودخل الاسطول الى مرسى عكا سالما والله تعالى أعلم بغيبه ثم اشتد الحصار على عكا حتى قلت الميرة فأرسل صلاح الدين الى الاسكندرية ليبعث الاقوات فى المراكب الى عكا وبعث الى بيروت بمثل ذلك فبعثوا مركبا منها ونصبوا فيها الصلبان يوهمون أنه للافرنج حتى دخلوا المرسى وجاءت بعد ذلك الميرة من الاسكندرية (٥٨٦ هـ) ثم تتابعت امدادات الافرنج من وراء البحر لاخوانهم المحاصرين لعكاء وحضر لهم ستة مراكب عظيمة مشحونة بالمقاتلة والسلاح فقوى الافرنج فى عكاء وكان صلاح الدين يصابحهم كل يوم عن مراجعة البلد وتقدم الى أسامة فى بيروت بتجهيز ما عنده من المراكب والشوانى الى مرسى عكاء ليشغل الافرنج أيضا فبعثها ولقيت خمس مراكب انكليزية فى البحر وكان ريكاردوس ملك انكلترة أرسلها أمام ريكاردوس فكان على جزيرة قبرص طامعا فى ملكها فغنم أسطول المسلمين المراكب المذكورة بما فيها ونفذت كلمة صلاح الدين الى سائر النواب باعمال مثل ذلك فجهزوا الشوانى وملؤا بها مرسى عكا حتى ان صلاح الدين استنجد الموحدين ليرسلوا له الاساطيل فلم يجيبوه الى طلبه ولم يكن فى الاسلام وقتئذ قوة بحرية غير قوة الموحدين قال ابن خلدون لما قام صلاح الدين يوسف بن أيوب بملك مصر والشام لعهده باسترجاع ثغور الشام من يد أمم النصرانية وتطهير بيت المقدس منهم تتابعت أساطيلهم بالمدد لتلك الثغور من كل ناحية قريبة لبيت المقدس الذى كانوا قد استولوا عليه فأمدوهم بالعدد والاقوات ولم تقاومهم أساطيل الاسكندرية لاستمرار الغلب لهم فى ذلك الجانب الشرقى من البحر وتعدد أساطيلهم فيه وضعف المسلمين منذ زمان طويل عن ممانعتهم هنالك كما أشرنا اليه قبل فأوفد صلاح الدين على أبى يعقوب المنصور سلطان المغرب لعهده من الموحدين رسوله عبد الكريم بن منقذ طالبا مدد الاساطيل لتحول فى البحر بين أساطيل الفرنج وبين مرامهم من امداد النصرانية بثغور الشام وأصحبه كتابه اليه فى ذلك من انشاء الفاضل البيسانى يقول فى افتتاحه فتح الله لسيدنا أبواب المناجح والميامن حسبما نقله العماد الاصفهانى فى كتاب الفتح القسى فنقم عليهم المنصور تجافيهم عن خطابه بأمير المؤمنين وأسرّها فى نفسه وحملهم على مناهج البر والكرامة وردهم الى مرسلهم ولم يجبه الى حاجته من ذلك اهـ وفى رواية أخرى أنه جهز له بعد ذلك مائة وثمانين أسطولا ومنع النصارى من سواحل الشام ولكن لم يرد فى التواريخ التى وقفنا عليها شئ عن حركة تلك الاساطيل وقد نجم عن هذا التهاون الطفيف أن خسر صلاح الدين الذى كان يدافع عن بيضة الاسلام ع وما خسائر وافرة فلا حول ولا قوة الا بالله لانه فى تلك الاثناء انتهى ملك انكلترة من امر جزيرة قبرص وملكها وعزل صاحبها وبلغ عكا فى خمس وعشرين مركبا مشحونة بالرجال والاموال ولقى فى طريقه مركبا للمسلمين جهز من بيروت الى عكا وفيه ٧٠٠ مقاتل فقاتله للقبض عليه فامتنع أهله ودافعوا عن أنفسهم ولما علموا أنهم مأخوذون لا محالة ويئسوا من الخلاص نزل مقدمهم يعقوب الحلبى أو الحلى غلام ابن شقتين وخرق المركب فأغرقها ولم يمكن الفرنج من أن يظفروا بها وبرجاله وذخائره هذه كانت حالة القوم مدة عز الاسلام ووقت أن كان رجاله لا يرون الفخر الا فى المدافعة عن أوطانهم وروى هذه الحادثة الفاضل محمد شكرى أفندى صاحب كتاب الاسفار البحرية العثمانية بما يخالف رواية ابن خلدون وقد رأينا من المفيد ذكرها هنا ليقف عليها المطالع قال الفاضل المذكور نقلا عن

Digitized by Google

المؤرخ الانكليزى جون كارنوك (John Charnoch) انه فى الحملة الصليبية الثالثة لما قصد كوردوليون ملك انكلتره الذهاب الى بلاد الشام خرج بأساطيل كثيرة وبعد أن استولى على قبرص وغادرها قاصدا سواحل الشام فى مائتى سفينة لاقى فى طريقه سفينة جسيمة من أساطيل صلاح الدين وكان يقودها قائد يدعى الامير يعقوب وبعد ان هاجمها بسفنه ودارت رحى الحرب بينه وبين من فى الاسطول الاسلامى عدة ساعات ومات من رجالها نحو المائتين تمكنت سفن كوردوليون من القبض على تلك السفينة التى كانت له غنيمة غالية القيمة لانها لم تقع فى قبضة الانكليز الا بعد أن قاومتهم مقاومة عنيفة وقتلت من رجالهم عشرة أمثال من قتل منها وفى رواية جون كارنوك هذا أن السفينة المذكورة كانت كبيرة الحجم جدا فكان بها ألف وخمسمائة نفر وهذا يدل على أن فن انشاء السفائن كان فى ارتقاء عند الاسلام وقال المؤرخ المذكور أيضا انه بعد ذلك أمر ريكاردوس بقتل من بقى من رجال السفينة المذكورة وعددهم ١٣٠٠ نفس ولم يرثوا لحالتهم بل ألقوهم قطعا فى البحر ولم يكن ينتظر هذا الامر من هذا الملك الذى اشتهر بالفروسية والاقدام حتى ان جون كارنوك لم يظهر أسفا واستنكارا لهذا الامر الفظيع بل مدح فعل ريكاردوس اهـ ملخصا هذا ولما مات صلاح الدين وانتشرت الفتن بين أولاده فى البلاد وأهمل القوم حراسة ممالكهم أهملوا أمر القوة البرية والبحرية الا عند مسيس الحاجة قال المقريزى ولما مات السلطان صلاح الدين بن أيوب استمر الحال فى الاسطول قليلا ثم قل الاهتمام به وصار لا يفكر فى أمره الا عند الحاجة اليه فاذا دعت الضرورة الى تجهيزه طلب له الرجال وقبض عليهم من الطرقات وقيدوا فى السلاسل نهارا وسجنوا فى الليل حتى لا يهربوا ولا يصرف لهم الا شئ قليل من الخبز ونحوه وربما أقاموا الايام بغير شئ كما يفعل بالاسرى من العدو فصارت خدمة الاسطول عارا يسب به الرجال واذا قيل لرجل فى مصر يا أسطولى غضب غضبا شديدا بعدما كان خدام الاسطول يقال لهم المجاهدون فى سبيل الله والغزاة فى أعداء الله ويتبرك بدعائهم الناس اهـ ولما علم الفرنج بضعف بحرية الدولة الايوبية أكثروا من الهجوم بسفنهم على بلادها وكثيرا ما نالوا منها ما قصدوه

قال المقريزى أيضا ثم لما انقرضت دولة بنى أيوب وتملك الاتراك المماليك مصر أهملوا أمر الاسطول الى أن كانت أيام السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى (٦٥٨ هـ) فنظر فى أمر الشوانى الحربية واستدعى برجال الاسطول وكان الامراء قد استعملوهم فى الحراريق وغيرها وندبهم للسفر وأمر بعدّ الشوانى وقطع الاخشاب لعمارتها واقامتها على ما كانت عليه فى أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب واحترز على الحراج ومنع الناس من التصرف فى أعواد العمل وتقدم بعمارة الشوانى فى ثغرى الاسكندرية ودمياط وصار ينزل بنفسه الى الصناعة بمصر ويرتب ما يجب ترتيبه من عمل الشوانى ومصالحها واستدعى بشوانى الثغور الى مصر فبلغت زيادة عن أربعين قطعة سوى الحراريق والطرائد فانها كانت عدة كثيرة وذلك فى شوال سنة ٦٦٩ هـ ثم سارت تريد قبرص وقد عمل ابن حسون رئيس الشوانى فى أعلامها الصلبان ريدبذلك أنها تخفى اذا عبرت البحر على الفرنج حتى تطرقهم على غفلة فكره الناس منه ذلك فلما قاربت قبرص تقدم ابن حسون فى الليل ليهجم الميناء فصدم الشونة المقدمة شعب فانكسرت وتبعتها بقية الشوانى فتكسرت الشوانى كلها وعلم بذلك متملك قبرص فأسر كل من فيها وأحاط بغنائمهم وكتب الى السلطان يقرعه ويوبخه وان شوانيه

Digitized by Google

قد تكسرت وأخذ ما فيها وعدتها احدى عشرة شونة وأسر رجالها فحمد السلطان الله تعالى وقال الحمد لله منذ ملكنى الله تعالى ما خذل لى عسكر ولا زلت لى راية الى أن قال وأمر بانشاء عشرين شونة وأحضر خمس شوانى كانت على مدينة قوص من صعيد مصر ولازم الركوب الى صناعة العمارة بمصر كل يوم فى مدة شهر المحرم سنة سبعين وستمائة الى أن تجهزت فلما كان المحرم سنة ٦٧١ زاد النيل ولعبت الشوانى بين يديه فكان يوما مشهودا اه باختصار وقال أيضا وفى سنة ٦٩٢ تقدم السلطان الملك الاشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون الى الوزير الصاحب شمس الدين محمد بن سلعوس بتجهيز الشوانى فنزل الى الصناعة واستدعى الرئيس وهيأ جميع ما تحتاج اليه الشوانى حتى كملت عدتها نحو ستين شونة وشحنها بالعدة وآلات الحرب ورتب بها عدة من المماليك السلطانية وألبسهم السلاح فأقبل الناس لمشاهدتهم ثم ركب السلطان من قلعة الجبل واستعرض أسطوله وكانت جموع المتفرجين لا تحصى وبرزت الشوانى واحدة بعد واحدة وقد عمل فى كل شونة برج وقلعة تحاصر والقتال عليها والنفط يرمى عليها وعدة من النقابين فى اعمال الحيلة فى النقب ومامنهم الامن أظهر فى شونته عملا معجبا وصناعة غريبة يفوق بها على صاحبه وتقدم ابن موسى الراعى وهو فى مركب نيلية فقرأ قوله تعالى بسم الله مجريها ومرساها ان ربى لغفور رحيم ثم تلاها بقراءة قوله تعالى قل اللهم مالك الملك الآية هذا والشوانى تتواصل بمحاربة بعضها بعضا الى أن أذن بصلاة الظهر فمضى السلطان بعسكره عائدا الى القلعة اه باختصار وبقى الاهتمام بأمر الاساطيل يتزايد ونحو وجهها للغزو فى البحار سنويا متواصل حتى صارت لهم فى قلوب الاعداء هيبة تذكر ففى سلطنة الناصر محمد بن قلاوون جهز الشوانى بالعدد والسلاح والنفطية والازودة (٧٠٢ هـ) وعين لها جماعة من أجناد الحلقة وألزم كل أمير مائة بارسال رجلين من عدته وألزم أمراء الطبلخاناه والعشروات باخراج كل أمير من عدته رجلا وندب الامير سيف الدين كهرداش المنصورى الزراقة الى السفر بهم ومعه جماعة من مماليك السلطان الزراقين وزينت الشوانى أحسن زينة واستعرضها السلطان كالعادة ثم سارت الى ميناطرابلس ثم ساروا ومعهم عدة من طرابلس وهاجوا جزيرة أرواد من أعمال قبرص واستولوا على ما فيها وهدموا أسوارها وعادوا الى طرابلس وأخرجوا من الغنائم الخمس للسلطان واقتسموا ما بقى منها بينهم ووصل خبر لمصر أن صاحب قبرص أرسل الى ملوك الفرنج يستصرخهم ليساعدوه على محاربة المصريين وانهم أرسلوا عدة مراكب لمساعدته وكان ذلك أيام سلطنة الملك الاشرف أبى المعالى زين الدين وبعد قليل أتت مراكب قبرص ورودس وأخذت تهاجم السواحل المصرية ولكن فم بحر دمياط وقتئذ كان مسدودا أمامهم لانه فى مدة الملك الظاهر بيبرس البندقدارى الصالحى كان أخرج من مصر عدة من الحجارين فى سنة ٦٥٩ فقطعوا كثيرا من القرابيص وألقوها فى بحر النيل الذى ينصب من شمالى دمياط فى البحر الملح حتى ضاق وتعذر دخول المراكب منه الى دمياط ولذلك أخذت مراكب الفرنج تسطو على كل مركب تجارى لمصر فتعطلت التجارة من ذلك

وفى سنة ٨٦٧ هاجم صاحب قبرص ثغر الاسكندرية باسطول جسيم عدده ٧٠ مركبا فقتل ونهب وأسر وهرب الناس فلما بلغ السلطان خبر ذلك أمر بتجهيز المراكب الحربية وعهد الى

الاتابكى

Digitized by Google

الاتابكى يلبغا بمباشرة هذه المهنة فشيد فى زمن قليل نحو مائة غراب وجهزها المحاربة أولئك القرصان الذين قطعوا الطريق على سفن تجار مصر فانكمشت بعد ذلك سفن قرصان الروم مدة خصوصا لما أخذت القوة البحرية فى الترقى وصارت الملوك تخرج بنفسها فى الاساطيل لزيارة السواحل والثغور المصرية وتقصد بهذه الزيارة إرهاب سفن قرصان الروم التى كانت تسطو على كل سفينة تجارية وغير تجارية فأرسل الاشرف قايتباى سنة ٨٧٨ أسطولا مشكلا من جملة أغربة حربية تحت إمرة الامير محمد بن قجماس (قاچمز) لتعقيب أسطول الروم الذى كان حضر الى فم ثغر دمياط وتعدى على أهاليه بالنهب والسلب وقبل عهد قنصوه الغورى بسنتين كانت سفن البرتقال اكتشفت طريق الهند من جهة رأس الرجاء الصالح بمعرفة فاسكودوغاما (٩٠٤ هـ - ١٤٩٨ م) ثم أرسلوا فرانسوا دالميدا (François d'Almeida) بالاساطيل والرجال وأخضعوا بلاد كجرات وسواحل دكن وجزيرة هرمز الواقعة فى فم خليج العجم وأخذت سفنهم تمخر فيما بين البصرة وعدن وتتعدى على كل سفائن مصر والعرب التجارية وتنهبها وتستولى عليها وبذلك انقطع طريق التجارة بين الهند ومصر خصوصا بعد بنائهم قلعة فونا فى ساحل دكن قال الحاج احمد راشد بك فى تاريخ اليمن وصنعاء ما ملخصه ان السلطان مظفر شاه ملك كجرات والسلطان عامر ملك اليمن أرسلا الى قانصوه الغورى يطلبان منه المساعدة فارسل الغورى سنة ٩١٣ هـ خمسين سفينة حربية وجيوشا وافرة تحت قيادة الامير حسين الكردى أحد أمراء مصر لمطاردة سفن البرتقال التى كان يقودها فرانسوا دالميدا وبعد وقائع عادت سفن مصر بعد أن فقدت جملة سفائن ثم التزم الامير حسين بالعودة مارا على جدة وصادر عدة من تجارها وأظهر لاهلها القسوة والظلم وأخذ منهم أموالا طائلة ليعوض بها على نفسه ما أضاعه أمام سفن البرتقال عامله الله بما يستحقه وفى سنة ٩١٧ هـ أقلع بالاسطول يقصد كجرات ثانية بعد أن شيد بجدة قلعة أزال بها حاميته اهـ وروى بعض المؤرخين أن البنادقة كانوا يساعدون بسفنهم السفن المصرية فى هذه الغزوة البحرية لان تحويل البرتقال لتجارة الهند عن طريق رأس عشم الخير أضر بهم ضررا بليغا لاشتغال مراكبهم التجارية بنقل تجارة الهند الى ثغر السويس وبعد أن تحمل الى الاسكندرية تحملها سفنهم أيضا الى أوروبا ولهذا فانهم أعدّوا أسطولا عظيما فى السويس واتحدوا مع أساطيل قنصوه فى تلك الحروب وحفروا عند المكان المسمى عيون موسى مجارى لتوصيل المياه العذبة الى حوض بنوه هناك على ساحل البحر الاحمر لتتزود الماء منه سفنهم ولا تزال آثار تلك الاعمال باقية فى تلك الجهة للآن وكانت العلوم البحرية ترقت فى ذلك الوقت بازدياد التجارة والتمدن فأصبح القوم أشد مقاومة وإقداما وكان لممالك ايطاليا حينئذ الشهرة والامتياز فى التمدن وفى الاسفار البحرية وكانت سفنهم تتردد على جميع فرض البحر المتوسط الابيض خصوصا الاستانة وسوريا ومصر

وكان للغورى خلاف أساطيل السويس جملة أساطيل بالبحر الابيض المتوسط حتى انه فى سنة ٩١٨ هـ عندما التجأ اليه الامير كركود أخو السلطان سليم الاول ابن السلطان بايزيد خان طالبا مساعدته على أخيه أمده الغورى بأسطول مركب من عشرين سفينة حربية تساعده على نزع السلطنة من يد أخيه وقد تلاقى هذا الاسطول مع أساطيل العثمانيين بسواحل سوريا وبعد واقعة

بحرية انهزمت السفن المصرية ووقع غالبها في قبضة المراكب العثمانية وفي رواية أخرى أنه أصاب سفن الغوري زوبعة شديدة بددت معظمها فاستولى الاسطول العثماني على ما بقي منها وفي سنة ٩١٩ هـ وصل خبر الى السلطان عامر سلطان اليمن ان ١٨ سفينة برتقالية أقبلت الى عدن واستولت عليها ثم تحقق أنهم ارتدوا عنها خائبين لتيقظ أميرها ولكنهم قصدوا المخا والحديدة وفتكوا بأهلهما ثم احتلوا جزيرة قران وقتلوا جميع حاميتها وأهالي البلد ثم أقلعوا منها وقصدوا زيلع فأحرقوا مدينتها وعادوا ثانية الى عدن وحاربوها الا أنهم لم ينالوا منها وكان السلطان عامر استنجد بالغوري فأرسل الغوري أسطولا الى تلك المياه تحت قيادة الامير حسين الكردي المار الذكر وتلاقى مع أسطول البرتقال الذي كان يحاصر عدن وكان تحت قيادة الفونسو البوكرك (١) (Albuquerque) فحاربه وأجلاه عنها وكان البوكرك المذكور قبل ذلك هاجم كالكوتا من أعمال الهند واستولى عليها وعلى غوا وملقا ولما انتصر عليه المصريون أمعن في عرض البحر الا أنه انتهز فرصة عودة الاسطول المصري الى مياه اليمن وعرج بسفنه على سواحل الحبشة يحاول الاستعانة بالنجاشي على المصريين وخابره في أمر تحويل مصب النيل الى البحر الاحمر ليميت بلاد مصر لشدة كراهته للمصريين وكان يظن ذلك من الامور السهلة ولكنه لم ينجح وضايقته الاساطيل المصرية واحتلت جزيرة قران ثم أخذت الاساطيل المذكورة تحارب الدولة العامرية واستولت منها على كثير من بلاد اليمن ثم أقلع الامير حسين الى عدن وهاجمها واستولى على زيلع وغيرها ثم أتاه الامير سلمان أحد أمراء مصر في مدد فأرسله بسفن بها الجنود لمرافقة سفن تجار عدن التي أقلعت قاصدة بلاد الهند وكان سلمان هذا من طائفة لوندات جزائر الغرب له إلمام بالحروب البحرية ولما التحق بالغوري عينه قائدا عاما على أساطيله التي بالبحر الاحمر ورأسه على خمسين غرابا وأرسله لمرافقة الامير حسين الكردي كما ذكر لانه كان بلغه أن دولة البرتقال عينت في سنة ١٥١٧ م - ٩٢٢ هـ الاميرال ديغو (Diego) باسطول جسيم لمطاردة سفن ملوك مصر بمياه بلاد العرب ومنعهم من ارسال الجيوش الى بلاد الهند فمر بسواحل عادل وزيلع وبربرة (وكانت علاقة البرتقال مع الحبشة متصلة من سنة ١٤٩٢ عندما أرسل يوحنا الثاني ملك البرتقال بدر ودوكوفلهام الى بلاط النجاشي اسكندر للتفتيش على برستر جون أحد رجال البرتقال الذي انقطع خبره في الوقت المذكور ولما مات اسكندر وخلفه على تخت الحبشة النجاشي داود وكان صغير السن قامت جدته هيلانه مدة بوكالة الملك فأرسلت وفدا الى البرتقال فأتتها سفارة من لسبون في نحو سنة ١٥٢٠ فكان ذلك باعثا على دخول البرتقاليين كثيرا في مصالح البلاد المذكورة وكانت أساطيلهم لا تنقطع عن سواحل الحبشة وقد صدرت أوامر الى اسطفان داغاما نائب ملك البرتقال في الهند أن يساعد الحبش بجيش قليل في حربهم مع مسلمي عادل وهي الحرب التي انتشبت نيرانها في نحو سنة ١٥٢٨ وكان قد مضى عليها اثنتا عشرة سنة وبناء على ذلك نزل الى البر في مصوع تحت قيادة خرستوفورس داغاما أخي نائب الملك أول جيش أوروبي ودخل الحبشة سنة

---

(١) هو ملاح برتقالي كبير يلقب بالكبير وبالمريخ البرتقالي أصله من عائلة ملوك البرتقال وسيأتي ذكره مفصلا في تاريخ دولة البرتقال

Digitized by Google

١٥٤١ وكان عدده ٤٥٠ جنديا ومعه ستة مدافع وقد استظهر على عساكر المسلمين فى معارك كثيرة الا أن عساكره انكسرت أخيرا وقتل هو فى معركة مهمة سنة ١٥٤٢ م وفى خلال ذلك كانت الاساطيل البرتقالية لم تزل تمخر فى بحار الهند وتتردد كثيرا على ثغور البحر الاحمر وخصوصا سواحل الحبشة تعاكس التجارة وتتعدى على سفائن المسلمين فى تلك المياه الى أن استولى العثمانيون على الديار المصرية وصارت أساطيلهم تحارب البرتقاليين فى المياه المذكورة حتى منعت تعدياتهم واطمأنت ثغور بلاد العرب من شرهم)

﴿ الفصل الخامس ﴾

(البحرية بمصر فى عهد ولاة الدولة العثمانية)

اعلم أنه بعد أن دخلت مصر تحت حكم الدولة العلية العثمانية على الصورة المشروحة فى هذا التاريخ ورتب بها السلطان سليم القوة اللازمة لحراستها كانت الاساطيل العثمانية تتردد كثيرا على السواحل المصرية وبعد عودة السلطان الى القسطنطينية أخذ خير الدين بك الوالى بمساعدة خيرى بك أمير الامراء فى اصلاح المراكب الموجودة بالنيل ولم يكن لمصر وقتها بالبحر الاحمر أغربة لان الاغربة التى كانت لقنصوه الغورى انقرضت وضاع معظمها ومابقى منها حجزته الامراء المصرية بجهات اليمن تحت قيادة سلمان رئيس السابق ذكره حتى انه فى عام ٩٢٥ هـ لما أتت الاخبار من مكة بأن فى البحر المالح قبالة جدة نحو أربعين مركبا من مراكب الفرنج يعيثون فى البحر ويقطعون على التجارة الطرقات لم يجد والى مصر لديه قوة بحرية يرسلها لذلك فأرسل جماعة من المماليك الجراكسة وغيرهم يبلغ عددهم ثلثمائة برا صحبة الحاج يقيمون بجدة خوفا من أن يطرقها بعض الفرنج على حين غفلة ثم اهتم خير الدين بك بأمر تشييد السفن فى دار صناعة بولاق قال ابن اياس فى تاريخه بصحيفة ٢١٤ من الجزء الاخير ان ملك الامراء عرض المراكب الاغربة التى أنشأها ولعبت قدامه فى البحر وانشرح من ذلك سنة ٩٢٦ هـ اهـ

ولما جلس السلطان سليمان القانونى بعد وفاة السلطان سليم (١٩ القعدة ٩٢٦ هـ) اهتم بأمر الثغور البحرية فرتب نظامات مخصوصة لادارة السواحل المصرية والامور البحرية فيها وعين ثلاثة قبودانات لمصر أحدهم لثغر دمياط والثانى لثغر السويس والثالث لثغر الاسكندرية سمى كل منهم قبودان بك وجعل تعيينهم وتغييرهم يتعلق رأسا بارادته السلطانية لان أحوال البحار وعبث أساطيل الفرنج فيها جعل الدولة تهتم فى ذلك الوقت اهتماما زائدا بأمر الثلاثة ثغور المذكورة لاعتبارها وقتئذ أبواب القطر المصرى فكانت الدولة ترسل حاميتها رأسا من الاستانة تحت قيادة القبودانات المذكورين وتمدها كل سنة بما يلزمها من الذخائر الحربية ولم يكن هؤلاء القبودانات يعتبرون أنهم من جيوش مصر الا باعتبار اقامتهم فى تلك الثغور المصرية وبما يستولونه من المرتبات من الخزينة المصرية ولم يكونوا تحت أوامر البلاد فى شىء ما فأوامرهم كانت ترد اليهم رأسا من دار الخلافة وكثيرا ما كان يوجد تحت قيادة هؤلاء القبودانات أغربة حربية ماعدا قبودان السويس وقد اهتم أمير الامراء بمصر بأمر القوة البحرية حتى انه فى سنة ٩٢٧ توجه بنفسه الى بولاق وكشف

Digitized by Google

على المراكب التى عمروها هنالك فأنزلوها الى البحر قدامه ثم عاد الى القلعة وصار يتردد على دار الصناعة حتى اطمأن باله وورد فى صحيفة ٢٧٤ من الجزء الاخير من تاريخ ابن اياس أنه حضرت مراكب من الاغربة التى كان عمرها ملك الامراء وأرسلها صحبة الاروام والمغاربة البحارة فلما دخلوا الى البحر المالح وجدوا جماعة من الفرنج يعيثون فى سواحل البحر المالح يعنى السواحل المصرية فأوقعوا بهم وقاتلوهم فانكسر الفرنج وقبضوا عليهم وأسروهم واحتووا على مراكبهم فوجدوا فيها بضائع وجوخا وأصنافا فاخرة فأخذوا جميع ما كان فيها وقبضوا على من كان فيها من الفرنج ووضعوهم فى الحديد وأرسلوهم الى ملك الامراء الى أن قال فى صحيفة ٢٧٧ فى أواخر هذه السنة ان ملك الامراء جهز مراكب أغربة وفيها جماعة من المقاتلين فتوجهوا الى البحر المالح وقد بلغه أن جماعة من الفرنج يعيثون فى السواحل على المسافرين فلما توجهوا الى البحر المالح وجدوا مراكب فيها تجار من الفرنج ومعهم بضائع بنحو خمسين ألف دينار فتقاتلوا معهم فكسروا الفرنج وقبضوا عليهم وأحاطوا بما معهم من البضائع اه

وفى عام ٩٢٨ هـ تزايد شر الفرنج على سواحل البحر الهندى حتى بطلت التجارة تقريبا فأخبر الوالى بالحاصل دار الخلافة وكان اهتمام خير الدين باشا الوالى بأمر البحرية المصرية يفوق الوصف لانه كان لا يفتر عن التوجه فى أغلب الاوقات الى بولاق للتفتيش على المراكب الاغربة التى كان يبنيها ويعمرها هنالك ويستعرضها قدامه فى البحر ذهابا وايابا وهو ينظر اليها والنفوط تشتعل فأحبته الامة لاهتمامه بشؤنها أيضا وبقى خير الدين باشا فى نشاطه هذا الى أن أدركته الوفاة بمرض جلدى سنة ٩٢٨ هـ وفى سنة ٩٤٤ هـ استغاث بهادرشاه حاكم كجرات من بلاد الهند بالسلطان سليمان القانونى لتعديات أساطيل البرتقال على بلاده قائلا انها مستمرة على العبث فى السواحل الهندية دائبة السطو على كل سفينة لمنع المواصلات التجارية التى كانت بينها وبين الديار المصرية فأصدر السلطان أوامره الى الخادم سليمان باشا والى مصر وكان السلطان يثق به كثيرا بتجهيز دونمنا فى البحر الاحمر لتسير صحبة الجنود العثمانية الى بحر الهند فشيد ستين غرابا وثلاثين سفينة وجهزها بالمدافع والادوات الحربية فى زمن وجيز وأقلع بها من ثغر السويس ومر فى ذهابه بعدن وقتل أميرها عامر بن داود وستة نفر من أصحابه ونصب عليها أحد ضباطه المسمى بهرام بك وترك معه بعض الجنود والمدافع ثم أقلع الى الهند ومع ما بذله من الجهود بجهات ديو لم يتمكن من طرد البرتقال عن تلك الاطراف فعاد الى عدن ومنها الى مخا وخلع والى اليمن ونصب مكانه مصطفى بك نائب غزة سابقا ثم عاد الى مصر

وقد ذكر هذه التجريدة الاميرال الفرنسوى جوريان دولاغرافيه فى صحيفة ٢٥٢ من كتابه فى البحرية المسمى دورياوباربا روس قال اعلم ان جمهورية البنادقة والدولة العثمانية كانا لا يحسنان انتخاب الوقت لاصلاء نيران القتال وتجديد ما كمن بينهما من العداوة بالحروب بأوروبا ولم يكونا يفطنان لما هنالك من المنفعة العظيمة لان يجمعا فى بحار الهند سفنهما ويتصدا سويا ضد العدو العام الذى كان يهدد دول البحر المتوسط الابيض بنزع التجارة من أيديهما أى تجارة الشرق الاقصى التى كانت تعود على الدولتين المذكورتين بالمكاسب العظيمة وانه قبل سنة ١٥٢٥ م لم يكن ظهر العلم العثمانى فى الجهات التى كانت تجلب منها سفن العرب متاجر الهندستان وفى هذا الزمن أرسل

السلطان

السلطان سليمان فى البحر الاحمر الملاح سليمان رئيس ومعه عشرون شانية للاغارة على سواحل بلاد اليمن وادخال قبائلها تحت طاعة العثمانيين وكانوا يخضعون لملوك مصر الى وقت استيلاء السلطان سليم عليها وبعد ذلك بنحو عشرين سنة اشتبك القتال بين أمير بلاد كجرات والبرتقال ولما تضايق الامير المذكور التمس المساعدة من السلطنة العثمانية فأمر السلطان الخادم سليمان باشا أمير أمراء مصر بأن يبنى دونمة بمدينة السويس و يترأس عليها وكانت الاخشاب اللازمة لذلك تأتى بحرا من أضاليا ثم تنقل على النيل الى مدينة القاهرة ومن هنالك تحملها الجمال الى السويس ولما تمت المعدات شيد وادونمة قوية فى مدة بعض شهور عدد سفنها ٧٦ سفينة من كل الانواع والاشكال وقد كان السفر الى بلاد الهند فى القرن السادس عشر الميلادى يحتاج لنوعين من الادلاء (قلاووز) [1] نوع يراقب السفر من السويس الى غوا وكالكوتا و يتبع فى البحر الاحمر الطريق المسمى عند البحارة طريق الوسط (المجره) والآخر يراقب السفر عند العودة تجنبا الرياح التى تهب عادة من الشمال فيمر بالسفن من بين الصخور القريبة من شواطئ بلاد العرب وكان قيام الخادم سليمان باشا من ثغر السويس فى ٢٢ يونيه سنة ١٥٣٨ م ووصوله الى عدن فى ٥ أغسطس من السنة المذكورة ثم أقلع من عدن فى التاسع عشر من الشهر المذكور وقطع المحيط الهندى بسرعة حتى رسا فى اليوم الثانى من سبتمبر أعنى بعد مضى ٧٢ يوما من خروجه من مصر على بعد بعض أميال من الشاطئ الذى احتله البرتقال من جزيرة ديو منذ سنة ١٥٣٥ م وكان أمير كجرات يحاصر حصن ديو منذ ٢٦ يوما وكان يساعده فى هذا الحصار رجل يدعى

---

(١) القلاووز المعروف عند الفرنج بيلوت (Pilote) هو الدليل الذى تأخذه السفن عند دخول المينات أو عند مرورها على السواحل الخطرة أو المضايق الصعبة وأرباب هذه الوظائف يكونون فى العادة عارفين بفنون الملاحة لتسيير السفن وواقفين على تأثير الارياح ومجارى المياه والتيارات مطلعين على الحسابات الفلكية وغيرها مما بين بطرق سير المراكب وواقفين على أحوال السواحل والثغور ومسالك المينات ومواقع الصخور المائية والمحال الغير العميقة والمواقع الخطرة فى المسالك والمرافئ وعند السواحل لهم المام بالتخطيط ورسم البحار وكانت السفن فى الاعصر القديمة لا تسير بدونهم لانهم كانوا هم الملاحين الخبيرين المجربين العارفين بأحوال المد والجزر والهواء وغير ذلك مما يعين السفن على المسير ولذلك كان لا ينتظر من رئيس السفينة مهما كان حاذقا عارفا أن يكون عالما بأحوال الامكنة كلها كملاح خبير خصوصا وانه فى العصر السابقة كثيرا ما كان يعهد لقواد البر الرياسة على المراكب الحربية فكانت القوانين تقضى باستخدام القلاوزة وفرضت لهم مرتبات مخصوصة وقضت بأنه عندما يكون القلاووز مشتغلا بتسيير السفينة يكون رؤساء السفن عبارة عن قواد أو مدبرين تتعلق بهم ادارة السفن فقط وروى المؤرخون أن جمهورية البنادقة عندما قصدت انشاء قوتها البحرية استعانت بقلاوزة من اليونان ثم نبغ فيها كثيرون منهم كابوت (Gean Cabot) الذى صار القلاووز الاول لدى حكومة الانجليز ولما ارتقت الفنون البحرية وأنشئت لها المدارس وعلم فيها فن تخطيط البحار وفن سلوكها قل احتياج المراكب الحربية اليهم قبل التجارية بزمن ثم انقطع استخدامهم فى السفن تقريبا فى الاسفار الطويلة وبقيت وظائفهم محصورة عند السواحل والدخول الى المين وفى البحر الاحمر خصوصا لكثرة شعوبه وقد سنت الدول نظامات مخصوصة لقلاوزة سواحلها وفرضها جعلوهم تحت نظر مديرى ادارات المين والفنارات وقيدت أسماؤهم فى دفاترها وجعلت لهم مرتبات مخصوصة على تلك الاعمال ومن النظامات التى وضعت لهم أيضا أن يكتبوا على شراعات قواربهم ومؤخرها اسم صنعتهم بالحرف الكبير واسم الثغر التابعين له وفرضت على من يطلب القلاووز رفع علم مخصوص عرفى عند جميع الملاحين

Digitized by Google

ظافر أصله نصرانى من مدينة أوترنت اعتنق الاسلام ثم فى اليوم الثامن من شهر سبتمبر اقترب سليمان باشا من الشاطئ وأنزل من معه من جنود البحرية والمدافع وفى أول اكتوبر استولى على حصون البرتقال الامامية بعد عدة مناوشات وفى آخر هذا الشهر أمر بالهجوم العام على الحصن المذكور فردّه البرتقال بقوة وفقد فى ذلك من رجاله نحو أربعمائة نفر وبينما كان يدبر أمر هجوم آخر بلغه قرب مجيء الدونما البرتقالية فأنزل جنوده الى السفن فى الحال وترك للاعداء مدافعه وفى اليوم الخامس من شهر نوفمبر تقدم نحو سواحل كجرات وكانت الرياح تعاكسه الى أن وصل الى مدخل خليج كوتش ومن هنالك أقلع نحو بلاد مصر وفى اليوم الخامس من شهر ديسمبر استقبل أمام مدينة عدن وكان فى الثالث والعشرين من الشهر المذكور أمام مدينة مخا ولم يصل الى مدينة السويس الا فى منتصف شهر يونيه من السنة المذكورة وقد مضت هذه الاربعة شهور ونصف وهو يجول بين الصخور طورا بالشراع وطورا بالمجذاف وقد روى أسير بندقى رافق الخادم سليمان باشا فى هذا السفر أن الصخور فى هذا الممر كثيرة (أى الممر الكائن بين شواطئ بلاد العرب وسلسلة الصخور المذكورة) بحيث انه يستحيل على أى ملاح مهما كان عليه من الدربة أن يعرفها جميعها ولذلك كان القلاووز يجلس عند مقدم السفينة (البروة) يصيح على الدوام قائلا أورسه ويوجى (ومعناهما جلب السفينة فوق الريح أوتحته) واعلم أن قلاوزة الطريق الداخلى بالبحر الاحمر هم على معرفة تامة بالسباحة حتى انك تراهم فى أمكنة كثيرة حيث لا يمكن القاء المرسى لعدم موافقة قاع البحر يذهبون سباحة و يغوصون ليتحسسوا الصخور والشعاب لشبك الخاطيف فيها وقد عادت تجريدة سليمان باشا البحرية بنتائج مهمة فى البحر الاحمر وان كانت لم تأت بالفائدة المطلوبة فى بلاد الهند وذلك لانه استولى على عدن وطرد أميرها ابن داود لاتهامه بموالاة البرتقال وأسس أيضا بما اتخذه من أنواع الحيل و بقوة السلاح حكومة جديدة ببلاد اليمن وجلب معه من بلاد الهند ١٤٦ أسيرا بعضهم هنود والبعض الآخر من البرتقال وقد قتلهم جميعا قبل أن يصل الى السويس وأرسل رؤسهم الى القسطنطينية وكلف بهذه المأمورية وكيله (خسرو باشا وكان نائبا عنه فى مصر مدة غيابه فى التجريدة) قال الويس أميرال الذى عربناعنه هذه الرواية ان تجريدة سليمان باشا هذه عادت علينا معاشر الاوروباويين بفائدة بحرية عظيمة لانها علمتنا ان طرق الملاحة بالبحر الاحمر و بالمحيط الهندى فى القرن السادس عشر من التاريخ الميلادى لا تختلف أصلا عن الطرق التى وصفها الناس مؤلف السياحة المسماة حولان فى بحر أريتريه (Erythrée) ومن المعلوم ان البهارات والحرير المجلوبة الى أوروبا اذ ذاك زادت أثمانها من زمن كلوديوس و يوستانيانوس وان الانقلاب التجارى الذى أحدثه البرتقاليون نتج من تغيير فى الاقتصاد المالى المتبع قبل ذلك و بسببه فقد التوازن تماما بين القوى فى ممالك الجنوب وممالك الشمال اهـ

وفى سنة ٩٥٨ هـ صدرت أوامر الى على باشا الذى ولى مصر سنة ٩٥٦ هـ بتسيير أسطول السويس ثانية الى مياه الهند واستخلاص عدن وكان أهلها خلعوا رداء الطاعة واتفقوا مع البرتقال وسلموهم قلعتها وهزموا الحامية المصرية التى كان سليمان باشا الخادم تركها هنالك فبعد أن

تجهزت

Digitized by Google

تجهزت السفائن وشحنت بالمهمات والادوات الحربية عينت الدولة بيرى رئيس (١) وهو من مشاهير الملاحين قائدا عاما عليها وأقلع بها من السويس واستخلص مدينة وقلعة عدن من يد الاعداء بعد عدة وقائع وعاد ظافرا وفى سنة ٩٥٩ أقلع ثانيا باسطول مركب من ثلاثين سفينة بين غراب وشانية وقصد السواحل اليمنية وبعد أن ساعد نشار مصطفى بك على اخضاع الثائرين فى بلاد اليمن أقلع منها وخرج الى المحيط الهندى واستولى على قلعة مسقاط وأغار على جزيرة هرمز ودوخ البرتقال فى تلك الاطراف ثم وصل الى البصرة ولما بلغه أن أسطول البرتقال صار على وشك الحضور الى مياه تلك الاطراف رأى انه اذا بقى فى البصرة تعسر عليه المرور من بوغاز هرمز لاستيلاء البرتقال على جزيرته سيما وان أدوات وآلات السفن الباقية تحت قيادته قد فنى معظمها فأقلع من مينا البصرة بعد أن ترك فيها كثيرا من سفنه الواهية وعاد الى فرضة السويس ولما قدم للدولة تقريرا بأعماله عينت بدله مراد رئيس (٢) لقيادة أسطول السويس وأرسلته برا ومعه ما يلزم من الادوات للسفن الراسية بالبصرة وبعد أن نظم سفن الاسطول بها ترك لمحافظتها سفينتين حربيتين وخمسة أغربة وأقلع بالباقى يقصد السويس وكان أسطوله يتركب من ١٧ سفينة فلم يصادفه فى طريقه موانع حتى وصل معبر هرمز وهناك قابل أسطولا جسيما للبرتقال كان يمخر فى تلك المياه كأنه ينتظر الدونمنا العثمانية فالتزم مراد رئيس أن ينازله ودارت رحى الحرب بين الطرفين من الصباح الى المساء وأصيب الطرفان بخسائر وافرة واستشهد من الدونمنا العثمانية سليمان رئيس قبودان سفينة القائد مراد رئيس ورجب رئيس قبودان احدى السفن الاخرى وخلق كثير من رجال المراكب ولكون بعض السفن أصابتها تلافات عظيمة التزم مراد رئيس أن يعود ثانية الى مينا

---

(١) بيرى رئيس هو من أشهر قبودانات العثمانيين الذين اكتسبوا الشهرة فى عصر السلطان سليمان القانونى وكان حفيد الكمال رئيس المشهور السابق الكلام عليه فى تاريخ الدولة ورافق وهو صبى كمال رئيس فى كل أسفاره التى أجراها بالبحر المتوسط الابيض واكتسب المهارة والشهرة فى فن سير السفائن والمحاربات البحرية ثم عين فى سنة ٩٥٩ هـ قبودانا بالبحرية الايالة المصرية وقاد أسطول السويس المركب من ٣١ سفينة ومخر به فى البحر الاحمر وبحر عمان ودخل خليج البصرة المعروف ببحر فارس واستولى فى أثناء سفره على عدة ثغور كمسقط وهرمز وغيرهما وغنم منها غنائم وافرة جدا ولما وصل الى البصرة وبلغه خبر قدوم الدونمنا البرتقالية لتعقيبه ترك جميع سفن الاسطول بالبصرة كاذكر حرصا على تخليص غنائمه وعاد بثلاثة منها تحمل الغنائم المذكورة وفى عودته غرقت منه احدى السفن الثلاث المذكورة أمام بلاد البحرين من ساحل العرب ثم عاد الى السويس بسفينتين فقط ولما بلغ مسامع الحضرة الشاهانية خبر هذه الخسائر أمرت باعدام القبودان المذكور فنفذ الامر عليه بالقاهرة وأرسلت الغنائم التى جلبها الى دار السعادة ولصاحب الترجمة مؤلف وأطلس فى جغرافية البحر الابيض المتوسط وبحر الارخبيل بكتبخانة جامع نور عثمانية باستانبول منمر بنمرة ٣٠٠٤ وهما يشهدان لصاحبهما بسعة الاطلاع والتدقيق والمعرفة ويظهر منهما ما كانت عليه البحرية العثمانية فى الوقت المذكور من المعلومات الكاملة والدقة التامة فى فن سير السفائن والجغرافية (قاموس الاعلام)

(٢) مراد رئيس هذا أصله من أهالى فاس ولحق بالبحرية العثمانية وكان معدودا فى زمن السلطان سليمان القانونى من مشاهير أمراء البحرية العثمانية اشتهر فى كثير من المحاربات البحرية والفتوحات العثمانية وكانت وفاته سنة ١٠١٢ هـ (١٦٠٣ م) بجزيرة رودس ودفن فيما خارج القلعة وبنى بجانب ضريحه جامع صغير وصارت خواص المسلمين وعوامهم يترددون على ضريحه للتبرك والزيارة وكان رحمه الله مستخدما مدة ما متصرفا بسنجقية القطيف اهـ من الاسفار البحرية العثمانية

Digitized by Google

البصرة ولما كتب للدولة بما حصل عينت بدله سيد على قبودان وهو من علماء البحرية والفلك وله معرفة تامة بمسالك بحار الهند حتى انه ألف عنها كتابا نفيسا وصف به تلك البحار وكيفية السير فيها وقد وجد هذا القبودان أيضا فى أكثر الغزوات البحرية مع خير الدين باشا بار باروس ولذا كانت البحرية العثمانية تعتمد عليه ولما تعين رئيسا للبحرية العثمانية بالبحر الاحمر سنة ٩٦٠ هـ أمرته الدولة بارسال السفن الباقية بميناء البصرة الى ثغر السويس لتقوية الاسطول العثمانى هنالك وبعد أن جهز سفنه بما يلزم أقلع بها من البصرة وتقابل فى طريقه باسطول البرتقال فحاربه بجوار مسقاط وكانت سفن البرتقال ثلاثة أمثال سفنه ومع ذلك انتصر عليها انتصارا عظيما ثم تقدم بقصد السويس وفى أثناء سيره هبت عليه زوبعة شديدة اضطرته لان يتبع مجرى الريح لعدم قدرته على مقاومتها بتلك السفن التى تخرب معظمها من كثرة الحروب الى أن ألقته الرياح أخيرا على سواحل الهند فغرق منه بعض السفن ولما خافت طوائف السفن الباقية من شدة الارياح والامواج التزم بالوقوف على سواحل كجرات وأخرج منها الطوائف الباقية وجرد السفن من آلاتها وسلمها هى والسفن الى محافظ فلعتها ثم عاد براهو ومن بقى معه من الملاحين وعددهم خمسون مارا ببلاد بلوجستان والعجم حتى وصل الى الاستانة بعد أن تكبد من المشقات مالا يوصف وقد ألف القبودان المذكور فى ذلك رحلة مفيدة

هذا وقد استمرت ولاة الدولة فى مصر يشيدون الشوانى والاغربة والاساطيل فى بعض الثغور المصرية حتى صار لها قوة بحرية مخصوصة طوائفها من رجال اللوندات كالذين كانوا بأساطيل أوجاقات بلاد المغرب كان لهم ذكر فى أكثر الحروب البحرية لمشاركتهم أساطيل الدولة فى معظم الوقائع البحرية هذا خلاف السفائن التى كانت للديار المصرية فى البحر الاحمر لتأمين طرق المواصلات بينها وبين البلاد الحجازية والسواحل اليمنية وثغور الدولة بالبحر الاحمر

وفى النصف الاخير من القرن الثانى عشر الهجرى أخذت القوة البحرية فى مصر فى الانحطاط لضعف حالة اللوندات من جهة واشتغال ولاة الدولة فى الارتباكات والاضطرابات الداخلية التى أوجدتها طوائف الجنود من الجهة الاخرى وذلك لان الجنود صاروا يحمون بعض التجار والمزارعين والملاحين ليقاسموهم الارباح ويمنعوهم من أداء حقوق الحكومة التى كانت تمكن الولاة بها من تعزيز القوة البحرية وبعد تمكنهم من ابطال هذه الحماية المضرة ظهرت بمصر أحزاب أخرى تدعى بالقاسمية والفقارية اضطربت الامور فى أيامهم اضطرابا وظهرت منازعات عديدة ثم أخذت أمراء المماليك تستبد بالامور ووقع بينهم خصام أشغل البلاد مدة وكانوا حزبين أيضا محمدية نسبة الى محمد بك أبى الذهب وعلوية نسبة الى على بك الكبير ونشأ عن ذلك أن أهمل الولاة صناعة اللوندات فسقطت القوة البحرية التى كانت لهم بمصر وأخذت الدولة ترسل من طرفها السفائن تارة لنقل مال خراج القطر المصرى الى الاستانة وتارة لخفارة المراكب التجارية الحاملة للارزاق والذخائر واستمر الحال على ذلك الى عهد السلطان الغازى عبد الحميد خان الاول وفى أيامه تمرد كل من مراد بك وابراهيم بك وأظهرا العصيان للاوامر السلطانية ومنعا الخراج جملة سنين وأكثرا من ظلم العباد فأرسل السلطان القبودان حسن باشا الجزائرى ببعض سفائن حربية ونقالية وبها قدر كاف من الجيوش العثمانية (١٢٠٠ هـ) فلما وصل الى ثغر الاسكندرية وقع الرعب فى قلوب الامراء المذكورين وأرادوا

التخلص

Digitized by Google

التخلص مما وقعوا فيه فارسلوا اجلة هدايا الى القبودان باشا المذكور مع جماعة من العلماء منهم الشيخ أحمد العروسي والشيخ محمد الحريري وغيرهما ولما قابلوه عرضوا عليه امتثال الامراء للاوامر وطاعتهم للخليفة وكان ذلك حيلة من الامراء المصريين حتى يتأهبوا فلم تنطل هذه الحيلة على القبودان وانتقل بالمراكب والجيوش الى رشيد ودخل النيل وتقابل مع جموع الامراء بجوار قرية تدعى محلة العلويين بمركز فوة من مديرية الغربية فحاربهم وبدد شملهم وهم ابراهيم بك بامتلاك أبواب القلعة بمصر لما بلغه الخبر فمنعه محمد باشا والى مصر وشرع جماعة الامير ين العاصيين فى عمل المتاريس جهة السبتية ببولاق للتحصين وأخذوا يسلحونها بالمدافع وقبل أن يتموا التحصين وصل القبودان المذكور بسفنه وعساكره الى مصر فهرب العصاة الى الصعيد وبعد حروب يطول شرحها طلبوا الصلح من القبودان فاجابهم وبعد أن أقام الغازى حسن باشا بجهات الصعيد أربع سنوات وعاد الى مصر وكانت الاحوال بها هادئة والاعمال جارية شرع فى تشييد ترسانة بالجيزة وأنشأ بها سفائن أميرية وانتخب لها اقليونجيه من النصارى الاروام وجعل عليهم رئيسا منهم يدعى نيقولا وجعل له نفوذا عظيما وحيثية وافرة حتى انه فيما بعد أكثر من التعدى على سفن الاسلام والفرنج معا وكان من أسباب حملة الفرنساويين على مصر ما أتاه هذا الرئيس من المظالم فى حق تجار الفرنساويين كما قاله العلامة المرحوم جودت باشا فى تاريخه ثم عينت الدولة عبدى باشا واليا على مصر وعاد الوالى المنفصل والقبودان باشا بالدونمنا الى استانبول وفى عهد السلطان سليم خان الثالث ازدادت أهمية البحرية العثمانية بما أدخل فيها من الاصلاحات وكانت عنايته السلطانية موجهة لازدياد قوة الدونمنا فعززها بالسفن الجسيمة التى أمر بتشييدها كالغلايين والفراقيط والشهدية وغير ذلك وخصص بعضها لحماية الثغور وأرسل بعضها للمياه المصرية فكان فى ثغر الاسكندرية منها ثلاث سفن حربية تحت قيادة ادريس بك قبودان السفينة المسماة عقاب بحرى عندما فاجأنا بليون بونابارت الديار المصرية بجيوشه وأساطيله سنة (١٢١٣ هـ ١٧٩٧ م) ولما طلب بونابارت من ادريس بك أن يرفع العلم الفرنساوى بدلا من العلم العثمانى توقف عن اجابة هذا الطلب وطلب الاقلاع من الميناء فصرح له نابليون بذلك فأقلع الى الاستانة وأخبر بما حصل كما سبق ذكره وكان أبو بكر باشا والى مصر وقتئذ هرب الى غزة ولم يمض زمن طويل على استيلاء نابليون على ثغر الاسكندرية حتى اشتعلت نار واقعة أبوقير الشهيرة التى أباد فيها الاميرال نيلسون قائد الاسطول الانكليزى الدونمنا الفرنساوية الراسية أمام ساحل أبوقير تحت قيادة الويس أميرال بروبس وقتل فى الواقعة قبل احتراق سفينته الكبيرة أوريان كما أتى وبأتى فى هذا الجزء ان شاء الله وفى مدة السنوات الثلاث التى تملكت فيها فرانسا الديار المصرية كانت بالسواحل المصرية والشامية الاساطيل الانكليزية التى تحت قيادة الاميرال رالفابركرومبى والاميرال سدنى سميث والاميرال اللورد كيث (Keith) وكانت الدونمنا العثمانية التى يقودها ميرالاى زاده حسين باشا الردوسلى تمخر على الدوام عند السواحل المصرية لمنع السفن الفرنساوية من التقرب اليها وبقيت على ذلك حتى انجلت الجنود الفرنساوية من الديار المصرية (١٨٠١ م) ولما عقدت الدولة الصلح مع فرانسا بمعاهدة باريس أخذت سفائن الدولة تتردد على الثغور المصرية كما كانت ثم طرقت الدونمنا الانكليزية ثغر الاسكندرية مع الجيوش البريتانية وكانت تحت قيادة الاميرال السيرجون دوكورث والجنود تحت قيادة الجنرال فريزر

Digitized by Google

ولما استولوا على ثغر الاسكندرية (١٨٠٧ م) وتقدموا الى رشيد قهرهم محافظها وقتل وأسر منهم عددا وافرا ثم عقدوا شروط الصلح مع محمد على باشا والى الديار المصرية وأخلوا الاسكندرية سنة ١٢٢٢ ﻫ (١٨٠٧ م) وكان ذلك بعد سبعة شهور من أخذهم لها كما سيأتى فى بابه

﴿ الفصل السادس ﴾

(البحرية المصرية فى عهد العائلة المحمدية العلوية)

لما استقر محمد على باشا فى الولاية المصرية سنة ١٢٢٠ ﻫ اهتم باصلاح شؤون الحكومة باجمعها فسلم المصالح لمن يثق بهم من رجاله فتقدمت البلاد بسرعة ولما عهد اليه السلطان محمود كما سيجيء أمر اخضاع الوهابيين لما استفحل أمرهم لم يكن له مراكب بالبحر الاحمر فقطع الاخشاب وفصلها فى دار صناعة بولاق ونقلها برا الى السويس وشيد هناك ثمانية عشر مركبا (١٢٢٢ ﻫ) من أنواع مختلفة ونقل بها جيوشه الى ينبع وقد كانت هذه الحالة سببا لاهتمام محمد على باشا بأمر الاساطيل حيث وجه همته للحصول على أساطيل فى البحر المتوسط الابيض وأوصى التجار بأن يبتاعوا له سفائن حربية من البلاد الاجنبية فابتاعوا له منها قدرا وافرا وجمل بها ملاحين من الاجانب أولا ثم استخدم كثيرا من قبودانات سفن التجار بالاسكندرية وبذلك أصبح له فى زمن قريب أساطيل قوية مسلحة بالمدافع [1] على الطراز الذى كان يستعمل فى ذلك الوقت وتمكن بها من ارهاب سفن قرصان الروم الذين كانوا لا ينفكون عن التعرض للسفن المصرية بين قياسات ونقابر وهى التى كانت تشتغل على الدوام بنقل البضائع من الثغور الى داخل نهر النيل وقد ساعد بهذه الاساطيل أيضا الدولة العثمانية فى كثير من حروبها كما علمته وستعلمه ولما احترقت أساطيله مع أساطيل الدولة فى واقعة ناوارين كما ذكر فى تاريخ الدولة العثمانية ورأى انه لم يبق لديه الا القليل من المراكب شرع فى تكوين دونمة أخرى من السفن الحربية التى كان أوصى عليها فى بلاد أوروبا ثم اهتم كثيرا بانشاء دار صناعة بثغر الاسكندرية فجلب من أوروبا عدة آلات لتعميق المينا واشترى جملة أماكن من خط الصيادين أدخلها فى دار الصناعة الموجودة آثارها للآن وتم العمل منها سنة ١٨٣١ م وجرى العمل بانشاء السفن الحربية فيها بنشاط واجتهاد بحيث لم يمض شهر يونيه من السنة المذكورة حتى أنزلوا أول سفينة

---

(١) المدافع هى أهم آلات الحروب وتصنع عادة من الحديد لقذف الكرات الحديدية فتهدم أو تهشم ما أصابته وقد ورد فى تواريخ الصينيين أن المدافع كانت معروفة عندهم منذ سنة ٦١٨ ق م وأيد هذا القول العلامة بارى (Barye) فى تقرير قدمه الى الاكادميه الفرنساوية سنة ١٨٥٠ م وقد استعمل العرب المدافع فى عدة حروب وكانوا يصنعونها من الخشب ويحزمونها بالحبال ويطلونها بالطلاء المتانة ثم أخذها عنهم الطليان فاستعملوها فى حصار مدينة فلورانس سنة ١٣٢٥ م واستعملها ادوارد الثالث ملك انكلترا فى حربه ضد فرانسا سنة ١٣٤٦ فى موقعة كريسى وكان فم المدفع وقتئذ أوسع من أسفله وقد تفننت المعامل باوروبا فى صناعة المدافع واستعملت الدول البحرية فى أساطيلها أضخم المدافع فاشتهرت فى أساطيل المانيا مدافع كروب (Krupp) وفى انكلترا اشتهرت مدافع معمل ارمسترونغ (Armstrong) وفى فرانسا اشتهرت مدافع كانت (Canet) وفى أساطيل اسبانيا اشتهرت مدافع هونتوريا (Hontoria) وفى أساطيل الروسيا اشتهرت مدافع اختراع أوبوكهوف (Oboukhoff) وبلغت أكبر المدافع الآن ١٢٤ طونيلاته

حربية

حربية من نوع القباق تحمل مائة مدفع وكانت عناية المرحوم محمد على باشا بأمر البحرية شديدة حتى انه وسع الميناء وصرح لسفن الفرنج التجارية والحربية بالدخول فى الميناء الغربية ولم يكن يصرح لها بذلك من عهد الدول القديمة الى زمن احتلال نابليون بونابرت الديار المصرية فانه استعمل هذه الميناء لمرسى المراكب التجارية الكبيرة الاوروباوية وكانت سفن الفرنج ترسو قبل ذلك بالميناء الشرقية لا غير وهى ميناء كثيرة الاخطار لكثرة الصخور بها وتسلط الرياح الشرقية والشمالية عليها خصوصا وان عمق مياه البحر فيها غير كاف فكان يحصل لكثير من السفن التى تقصدها فى زمن الارياح أضرار بل قد تلف بعضها ومن وقت صدور هذا التصريح أخذت السفن الاجنبية تتوارد بالتجارة فاتسع نطاق الاخذ والعطاء والمبادلة بالقطر المصرى ولما كان مدخل هذه الميناء صعبا وضع واجلة علامات بالبر والبحر تهتدى بها رؤساء البوغاز وقبودانات السفن عند دخولهم وخروجهم قال العالم الفاضل المرحوم على باشا مبارك فى صحيفة ٥٢ من الجزء السابع من الخطط ماملخصه ان الترسانة كانت تشتمل على جميع ما يلزم لانشاء وترميم المراكب الحربية وغيرها وقد أحضر لها محمد على باشا سنة ١٨٢٩ م من مدينة طولون من مملكة فرانسا المهندس الحاذق موسيو سيريزى وجعله باشمهندسا للترسانة ورقاه الى رتبة البكوية فصار يعرف بسيريزى بك ثم وصل الى درجة لواء وكان الرئيس على انشاء وعمارة السفن بتلك الميناء رجل من الوطنيين يسمى الحاج عمر وكان صاحب ادارة ومعرفة غريبة واقدام على مثل هذه الاعمال مع الاصابة فلما حضر مسيو سيريزى اتحد معه وساعده فى جميع أعماله وفى ظرف خمس سنين من ابتداء سنة ١٨٢٩ تم جميع مواضع الترسانة مثل ورشة الحبال المعروفة بالتيالة وورشة الحدادين وورشة القلوع والسوارى والبصل [1]

---

(١) البوصلة البحرية أو الابرة المغناطيسية هى آلة مركبة من ابرة مغناطيسية وضعت لمعرفة النقط الاصلية فالابرة المغناطيسية متصلة بأسفل دائرة من الورق السميك أو من الرق قائمة على ابرة المحور وعلى الدائرة المذكورة أسماء الجهات الاربعة وتقاسيمها الثانوية ودرجات المحيط ويوجد جهة القطب الشمالى للابرة علامة أمامها علامة للقطب الجنوبى وقد صنع من البوصلات أنواع وأشكال نوع لتبيين اتجاه المراكب ونوع لتبيين اتجاه الكواكب وهذه تسمى ببوصلة الانحراف أو (كرزيز) وبها قائمان يسميان بالهدفين موضوعين على اطار من النحاس لسهولة تعيين اتجاه الكواكب ويبعض بصل هذا النوع نظارة صغيرة قائمة فى أحد الهدفين لينظر منها الراصد وامام بعات من زجاج ملون لمنع تأثير شعاع الشمس وفى الغالب توضع هذه البصل فى صندوق من النحاس الاحمر أو الاصفر وتجعل على قائم من النحاس أو الخشب ويربط هذا القائم بمسامير من النحاس على سطح السفينة فى خط المنتصف قريبا من دولاب الدفة بشرط أن يكون الخط الاسود المرسوم فى ظرف البوصلة على سمت اعتدال منتصف السفينة من جهة الطول وهى معلقة فى داخل صندوقها على اطارين لتكون أفقية الوضع على الدوام مهما تحركت المركب وتكون الابرة مغطاة بغطاء زجاجى لمنع دخول الهواء والغبار اليها قال المؤرخون ان أول من عرف البوصلة الصينيون واستعملوها فى البر منذ نحو أربعين جيلا ولا يوجد دليل على استعمالها فى البحار الا فى القرن التاسع الميلادى فى أسفارهم الى خليج الفرس والبحر الاحمر وعن الصينيين أخذها الهنود وعن هؤلاء أخذها العرب وقال قوم ان القدماء لم يستخدموا الا الحديد المغناطيسى بتعويمه على قطعة من خشب الفلين وقال غيرهم ان فلافيو جيوجا من نابولى (Flavio Gioja) هو مخترع الابرة المغناطيسية سنة ١٣٠٠ ميلادية وخالفهم فى ذلك الدكتور جلابرت (Jallabert) الذى قال انه أتى بابرة القبلة من الصين الى ايطاليا نحو سنة ١٢٩٥ بواسطة مركو بولو البندقى (Marco Polo) وقد ثبت بالبراهين أنها استخدمت فى فرانسا نحو سنة ١١٥٠ م وكذلك فى سفن دول الاسلام بسوريا وفى سفن النرويج قبل سنة ١٢٦٦ وقد ورد فى مؤلفات كثيرة ان العرب هم الذين اخترعوها وأخذها منهم الفرنج مدة الحروب الصليبية

Digitized by Google

والنظارات [1] والمخازن وأمر أيضا فانتخبوا من شبان الاهالى من جميع المديريات العدد اللازم للقيام باحتياجات المراكب وعلموهم جميع ما تحتاج اليه السفن على أيدى معلمين من البلاد الخارجية فاختص كل جماعة منهم بفرع من فروع انشاء المراكب حتى أتقنوها وشيدوا فى زمن قليل سفنا كثيرة حربية فى غاية الاتقان لاتنقص عن سفن الاوروباويين فى شئ وبذلك استغنت الحكومة المصرية نوعا عن شراء السفن من البلاد الاجنبية الا أن جميع ما يلزم لانشاء المراكب وعمارتها مثل الحديد والنحاس والخشب كان يجلب من البلاد الاجنبية ولاحتياج الامر اليها كان أربابها يتغالون فى أثمانها جدا وليتها كانت من الانواع الجيدة بل كانت رديئة فان الخشب كان يأتى من جهات القرمان وبلاد ايطاليا غير مستوف لشروط الانتفاع به ولهذا كانت المراكب التى تصنع منه يسرع اليها العطب وتحتاج للاصلاح بعد زمن قليل ومع كل ذلك لم تضعف همة العزيز فى انشاء المراكب وكثيرا ما كان تجار المراكب يثبطون عزيمته ويبدون له ما لا مزيد عليه من الصعوبات وكثرة المصاريف ويدخلون عليه بكل حيلة ليصرفوه عن هذا العزم كل ذلك لانهم كانوا يربحون أرباحا كثيرة من بيعهم المراكب للحكومة المصرية مع أن المراكب التى كانت تشترى منهم مع ارتفاع أثمانها جدا كانت إما قديمة أو غير جيدة الصنعة فلم يلتفت الى تثبيطهم ولم تقعد همته بل ازدادت رغبة فى تلك الاعمال ورتب لها مجلسا أناط به جميع لوازم المراكب وجعل رئيسه مسيو سيريزى المذكور وأنشأ مدرسة لتعليم صنعة السفن وما يتعلق بها وكان المشتغلون بانشاء المراكب وتعميرها اذ ذاك نحو ٨٠٠٠ نفس من الاهليين الذين تربوا على أيدى المعلمين من الافرنج وغيرهم وقد أتقن الصنعة منهم نحو ١٦٠٠ نفس فاستغنت بذلك الحكومة المصرية عن شراء المراكب من الخارج وكان المعين لها على هذا العزم موسيو سيريزى فكان دائما يبدى له من محاسن تلك الاعمال ونتائجها ما يحمله على تنجيزها فلهذا تعصب الافرنج على موسيو سيريزى المذكور وضيقوا عليه حتى ألجؤه الى الاستعفاء من تلك الوظيفة وبلغ ما بنى وعمر فى مدته وعلى يديه من السفن الحربية ٤٥ سفينة تحمل ١٢٣٤ مدفعا وخصص لها من الجنود ١٠٠٠٠ نفس وجعل رئيسها موسيو بسيون بك وبعد موته تولاها موسيو هسار وبهما حصلت الكفاية فى انشاء الدونما ثم لتتميم جميع منافع الترسانة وزيادة الامن على السفن الصادرة والواردة بنى الفنار الموجود الآن برأس التين ولما كانت سفن الدونما وغيرها من المراكب لاتستغنى عن حوض [2] فى المينا

(١) النظارة آلة فى طرفيها زجاجات من الزجاج التى تشاهد بها الاجسام البعيدة ويستعملها الملاحون كثيرا لكشف السفن والسواحل وغيرهما وكذا تستعمل لكشف الاجرام السماوية ويسميها الافرنج بالتلسكوب والنظارة الكبيرة التى تدعى دوربين وكذا النظارة المقربة استنبطها جميعا فينوس وهو هولاندى ويقال ان أولاده هم الذين اكتشفوها بينما كانوا يلعبون بان وضعوا زجاجة مجوفة أمام زجاجة محدبة وذلك سنة ١٦٠٩ م وكذلك قيل ان أول نظارة فلكية اخترعها يوحنا ليبرسهى من ميدلبورغ فى هولانده سنة ١٦٠٨ م ثم تفنن فيها الفيلسوف اسحق نيوتون والبارون هرشل وروس وغيرهم وقال آخرون ان اختراع النظارة كان فى سنة ١٦٤٦ ميلادية واشتغل بهذا العمل كثيرون فاخترع واتستون الانكليزى النظارة ذات العينين سنة ١٨٣٨ م

(٢) الحوض عبارة عن محل فى البحر متصل بالبر يختار لذلك بحيث يكون عميقا أو يعمق بالكراكات حتى يصلح لدخول المراكب الكبيرة فيه ويحاط ببناء متين من الاحجار أو يعمل من حديد أو من الخشب ويكون طوله عادة يسع أكبر سفينة فى البحر أو يسع جملة سفائن خلف بعضها ويكون عرضه بنسبة ذلك ويعمل له فم من جهة الماء يسد بباب وفى هذا الباب منافذ تفتح وتغلق حسب الارادة فاذا أريد ادخال سفينة به للعمارة مثلا يفتح الباب فيدخل =

Digitized by Google

لاصلاح ما يحتاج منها للاصلاح أمر المرحوم أيضا فشيدوا بالمينا حوضا أتى على وفق المرام وانتفع به الخاص والعام فجميع تلك الاعمال كانت سببا القوة السفن الحربية وكثرتها ولم تزل السفن تكثر و يجلب لها من البلاد الخارجية ما يلزم من الاسلحة والآلات حتى قويت الدونما المصرية وأحرزت ما كانت فاقتها به دونما الدولة العلية من العدد والعدد والتعليمات النافعة التى لم تسمح الديار المصرية بمثلها فى الاعصر الخالية وجعل موسيو بسيون و يس أمير الاعلى اجميعها وأعطاه العزيز رتبة الميرالاى وكان قبل ذلك من ضباط الدونما الفرنساوية وحاصل أمره أنه كان سنة ١٨١٥ ميلادية فى مينا رشفور بسفينة حين كان نابليون بونابرت يريد الهرب من بلاد فرانسا فتعهد له أن يوصله الى بلاد أمريكا وقبل منه نابليون ذلك فاستعد بسيون لهذا الامر ووضع فى سفينته جملة براميل فارغة مصفوفة بعضها بجوار بعض ليخفيه فيها فهيأ نابليون جميع ما يلزم لسفره وتواعد مع بسيون على أن ينتظره بجزيرة اكس فلما اجتمع معه فى الميعاد وجده قد رجع عن العزم على السفر معه وأخبره أنه كتب الى أميرال الدولة الانكليزية أن يأخذه عنده ثم شاع خبر توافقه معه على اخفائه فخاف بسيون عاقبة ذلك وقد حصل بالفعل رفته لهذا السبب فصار يشتغل بالتجارات والاسفار فى سفينة لزوجته الى أن حضر سنة ١٨٢٠ م بمدينة الاسكندرية وكان العزيز اذ ذاك مهتما بانشاء السفن فعرض له بطلب الخدمة والمعيشة تحت ظله فجعله ملاحظا السفن الجارى انشاؤها فى بلاد أوروبا ثم جعله قبطانا للفرقطون المسمى بالبحيرة الذى أنشئ بمرسيليا وكان به ٦٤ مدفعا ولم يزل يترقى الى أن أخذ رتبة البكوية ثم صار ميرالايا على الدونما المصرية بتمامها كما قلنا وكان وقتئذ قد بلغ عددها وعدد رجالها على ما ذكره كلوت بك فى تأليفه ٣٤ سفينة حربية مجموع عساكرها البحرية ١٥,٦٤٣ وشغالة الترسانة بالاسكندرية ٤٠٧٦ المجموع ١٩,٧١٩ والمدافع التى كانت بها وقتئذ ١٣٦٤ ومصروفات العساكر والرجال البحرية يبلغ ٧,٥٠٠,٠٠٠ والمنصرف على المبانى العسكرية ١,٨٧٥,٠٠٠ والمنصرف على ترسانة بولاق ٤١٢,٥٠٠ يكون المنصرف على القوة البحرية جميعه ٩,٧٨٧,٥٠٠ فرنك اهـ وسيأتى كل ذلك مفصلا فى أبوابه من هذا التاريخ

ولما كانت عناية العزيز بأمر البحرية وتقدمها فى ازدياد انتخب كثيرا من ضباطها الذين نبغوا فى مدارسها البحرية التى أسسها على نسق بحرية فرانسا وأرسل منهم جملة ارساليات لفرانسا وانكلترة لاتمام تعليمهم الفنون البحرية والحربية وفن صناعة السفن وغيرها وبعد أن أتموا ذلك عادوا الى الاوطان وخدموا الدونما المصرية بعلومهم وفنونهم فتعين منهم كل من محمد بك الاستانبولى الذى تلقى فن انشاء السفن بانكلترة وحسن بك السعران الذى تلقى هذا الفن فى فرانسا رئيسين لقسم

= الماء و يمتلئ الحوض حتى يوازى سطح البحر فتدخل السفينة من غير مشقة ثم يسد الباب و ينزح الماء منه بواسطة وابور يحرك طلومبات تأخذ الماء من الحوض من مجار مجعولة لذلك فى جدرانه وعادة تتم هذه العملية بعد ساعات بحسب كبر الحوض وصغره حتى تستقر السفينة على مراكز من أخشاب مجعولة فيه تسمى اسقربن قائمة فوق أرضية الحوض وتكون فى هذه الحالة مستندة على أخشاب أخرى تسمى المناطيل تحفظها من الميل وتستمر واقفة كذلك مدة عمارتها طالت أو قصرت و بعد انتهاء العمارة تفتح منافذ الباب فيدخل الماء حتى يملأ الحوض فترتفع السفينة مع الماء ولا شئ يمنعها من الخروج من الحوض سوى فتح الباب أما الاحواض الطويلة التى تسع عدة سفن فانهم متى أرادوا أن يدخلوا فيها سفينة محتاجة لاصلاح مدة زمن طويل جعلوا لها قسما خاصا بها من الحوض وفصلوه عن بقية الحوض لمنع دخول الماء الى هذا القسم فكأن الحوض حوضان ومتى انتهى اصلاحها أطلقوا الماء كالعادة

Digitized by Google

ادارة الصناعة الهندسية وانشاء السفن بدار صناعة الاسكندرية فكانت لهما اليد البيضاء فى انشاء السفن الحربية وتعميرها وتعين الباقون بصفة قبودانات بالسفن لتدريب طوائفها على الاعمال البحرية وترجم بعضهم عن كتب الاوروباويين عدة مؤلفات مفيدة فترجم جركس محمود قبودان كتابا فى فن الحرب البحرى وترجم عبد الحميد بك الديار بكرلى مؤلفا فى مقياس السفائن وترجم محمد شنان أفندى قانون البحرية وترجم عثمان نور الدين باشا كتاب القواعد البحرية وآخر فى السياسة البحرية أى قانون العقابات وترجم أحمد خليل أفندى المهندس قانون نامه من بحريه وكتابا فى فن الطوبجية البحرية وترجم هؤلاء أيضا وغيرهم كثيرا من القوانين واللوائح والنظامات البحرية المستعملة فى سفن أساطيل فرانسا وانكلترة ونشرت على ضباط البحرية واتبعت أحكامها بالدونمنا المصرية فازدادت بها انتظاما وقوة وصارت فى زمن قليل تحاكى أعظم بحريات أوروبا ونشأ بها قواد مهرة من الوطنيين كانت لهم الشهرة فى ذلك العصر فعين عثمان نور الدين باشا سرعسكرا على الدونمنا ثم خلفه موطش باشا وتعين حسن باشا الاسكندرانى مدير العموم دار صناعة الاسكندرية ومصطفى بك الرباله المعروف بيشكاكى مفتشا بالدونمنا ومحمد راشد بك ناظر الترسانه ومخازنها وأمين بك الاستانبولى وكيلا الديوان عموم الدونمنا وقد أظهر الجميع كفاءة ونشاطا واهتماما عظيما خلد والهم بهذكرا حسنا

ولما كان محمد على باشا ميالا الى الاطلاع على دقائق التاريخ كان يبحث عن الطريق الذى قدم دول أوروبا فظهر له أن سبب ارتقاء شأنها وزيادة ثروتها واتساع تجارتها آتى معظمه من اهتمام ملوكها بأمر الاساطيل والتجول بها فى البحار المفتوحة الابواب لاكتساب الثروة من اتساع الصلات التجارية مع البلدان الاخرى وبذلك تمكنوا من امتلاك كثير من المستعمرات فى أغلب سواحل المسكونة ولهذا كانت ملوكهم تتسابق الى ازدياد قواتهم البحرية حتى انهم أدرجوا فى سلكها كثيرا من أمراء العائلة الملوكية فتشرف شأنها ومال الناس للدخول تحت رايتها واهتم كثير منهم بانشاء الشركات البحرية التى عادت على بلادهم بالمنافع الجمة لذلك اعتنى المرحوم محمد على باشا بأمر الاساطيل وزيادة عدد سفنها وعلم ولده المرحوم محمد سعيد باشا الفنون البحرية ولما حصل منها على القدر اللازم جعله سوارى باحدى سفن العمارة المسماة دمنهور ومازال يترقى فى البحرية الى أن صار سرعسكر الدونمنا وهذه الوظيفة توازى وظيفة الاميرال الاول فى البحرية وقد ترقت البحرية فى أيامه حتى وصلت الى درجة فاقت بها قوة بحرية معظم الدول التى حكمت بلاد مصر لان قوة بحرية دولة البطالسة التى أطنب بها جميع مؤرخى البحار وان كانت بلغت فى القدر والعدد درجة عظيمة الا أن الترقى الذى حصل فى فن انشاء السفن وفى المعلومات الجغرافية والفلكية وفى علوم البحرية وفى صناعة السفن فى هذا الوقت جعل العزيز يصنع مراكبه الحربية على القدر الذى لا ينقص عن سفن أعظم دول البحار وقد كان بدونانمته من صنف القليون فقط أحد عشر قليونا يحمل كل واحد منها مائة مدفع به من الجنود ١٠٤٥ نفرا فبهذه الاساطيل التى كانت حصونا سابحة فوق البحر والتى يدفع بها كل من قصد البلاد بالشر نالت مصر هيبة قوية بحيث كانت تعد بين دول البحار كما شهد لها بذلك كثير من مؤرخى البحار

ولم تقتصر أعماله البحرية على البحار المالحة فقط بل أرسل عدة ارساليات فى نهر النيل لاكتشافه ومد نفوذه وتجارته الى أقصى جهاته كما سيأتى فى تاريخه وقد عادت هذه الارساليات على علم الجغرافيا بالتقدم العظيم وقد كتب البكباشى البحرى سليم قبودان وكان رئيس الارسالية الاولى رحلة ذكر فيها تفاصيل السياحة بالنيل الاعلى وقد رافقه فى رحلته الثانية التى ابتدأت فى ٢٣

نوفبر

نوفمبر سنة ١٨٤٠ م ١٢٥٦ ﻫ الموسيو درنوبك وكل من ساباتيي الفرنساوى وفرنه الالمانى فسارت هذه الارسالية فى النهر الابيض من الخرطوم مسافة خمسمائة فرسخ ولم تجد من الانهر المهمة التى تصب فيه الانهر ين عظيمين يجتمعان به فى شماله ويختلطان به أحدهما نهر سوباط ويقال له نهر جوجب يخرج من شرقى بلاد سافاو يرسم حول بلاد كفا انعطافات شبيهة بانعطافات النهر الازرق وثانيهما بحر الغزال وهو يصب فى بحيرة نو المسماة كور ولما وصلت تلك الارسالية الى جزيرة جانكر وجدت بالقرب منها كثبانا من الرمال والصخور بالنيل تمنع سير السفن منعا كليا ولما رست سفن الارسالية على هذه الجهات ووجدت هذه الموانع اقتصرت على أخذ الاستعلامات اللازمة والاستفهامات النافعة فيما يختص بمنابع النيل ثم قفلت راجعة ووصلت الى الخرطوم فى ١٨ مايو من سنة ١٨٤١ م ١٢٥٧ ﻫ وقدم أعضاؤها خريطة وتقريرا عن اكتشافاتهم أما التجريدة الثالثة فسافرت حينما كان أحمد باشا المنيكلى حكمدار العموم السودان خرجت فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٤١ م وبرفقتها عشرة مراكب مسلحة بالمدافع فلم يأت عملها بشئ جديد سوى اتمام الناقص من الاكتشافات الاصلية واكمال نواقص خريطتها ولما عاد الموسيو درنوبك الى مصر أمره العزيز برسم خريطة عمومية من منبع النيل الى الخرطوم ومنها الى أبى حمد

ولما ارتقى المرحوم ابراهيم باشا على الاريكة المصرية كانت البحرية آخذة فى السير بطريق التقدم على النظام الذى سنه لها والده محمد على باشا وقد سر رجال البحرية لما يؤملونه فيه من ابلاغها على يديه أوج الارتقاء لما اشتهر به من الاعمال التى عادت على هذا القطر السعيد بالهيبة لدى جميع الممالك فهو فى الحقيقة يعد مشاركا للمؤسس الاصلى فى تقدم البحرية المصرية كما نقدمت العسكرية وباقى فروع الادارة المصرية وان كانت مدة حكمه قصيرة لا تزيد عن السبعة شهور لانه رحمه الله قد تولى ولاية مصر بطريق الوكالة عن والده فى ربيع سنة ١٢٦٤ ﻫ وفى شهر رمضان من السنة المذكورة سافر الى دار الخلافة لتقديم فروض الشكر لجلالة السلطان على قليون بنى سويف قبودانه حسين شرين بك ترافقه فرقة من الاسطول المصرى كما سيأتى ذكره ولما وصل الى مياه الارخبيل انتقل من القليون الى الباخرة العثمانية التى أرسلت له ولما نال فرمان الولاية وعاد الى مصر اشتغل أولا بأهم الامور فأتم حصون واستحكامات ثغر الاسكندرية على الطريقة التى رسمها رئيس هندسة الاستحكامات اذ ذاك المدعو جاليس بك كرغبة العزيز والده وشحنها بالاسلحة والمدافع والجنود وأصدر أمره الى رئيس البحرية بانشاء مائتين وخمسين سفينة مدفعية من نوع الشالوبات تحمل كل واحدة منها مدفعين لحفظ البوغازات والاشاتيم والملاحات وبهذه القوة الجديدة زادت البحرية متانة واستعدادا ولذلك قال بعض المؤرخين إن ولاية ابراهيم باشا على مصر وان كانت قصيرة فى الحس لكنها طويلة فى المعنى بما نالته البحرية وغيرها من التقدم ولو مد الله فى عمره لنالت البحرية المصرية على يديه أسمى درجة وأكمل غاية

ولما تولى المغفور له عباس باشا الاول (١٢٦٥ ﻫ) وجه أفكاره وعنايته للاعمال المفيدة المهمة كانشاء الخطوط الحديدية ومد السلوك التلغرافية فاستخدم أكثر ضباط وملاحى السفن الحربية فى إقامة الجسور للخطوط المذكورة وغيرها وبقيت الاساطيل مهملة خالية من الملاحين

Digitized by Google

وقد نسب بعض كبراء البحرية تحويل أنظار العزيز عن الاساطيل الى النفور والاغبرار الحاصل بينه وبين المرحوم سعيد باشا الذى كان وقتئذ سرعسكر اللدونما وقد قام فى خلال هذه الغايات من رجال كبار البحرية بأحوال مضرة فاسدة ليتالوا من جانبها نفوذ أغراضهم وفى مقدمتهم محمد خسرو بك الذى كان ناظر الترسانة حيث أساء معاملة العمال حتى ألجأ كلا من محمد بك الاستانبولى مدير أعمال هندسة البحرية والانشا آت وأمين بك وكيل ديوان الدونما الترك الخدمة بل والمهاجرة من البلاد خوفا على أنفسهما لانهما كانا من المنسوبين الى سعيد باشا وغير ذلك من الاعمال وقد تسبب من ذلك تعطيل أمور دار الصناعة والاساطيل وانحطت درجتها وبقيت السفن الحربية فى أماكنها لا تتحرك الى أن قامت الحروب المعروفة بحرب القريم بين الروسيا والدولة العلية العثمانية سنة ١٢٦٩ هـ (١٨٥٣ م) وطلبت الدولة من الحكومة المصرية النجدات كما تقتضيه الفرمانات فاصدر المرحوم عباس باشا عند ذلك الاوامر الى دار الصناعة بتجهيز الاساطيل وقام كل من أحمد بك الجوخدار وكيل ديوان الدونما وكان محبوبا لدى العموم ومحمد خسرو بك ناظر الترسانة المبغوض من عموم أفرادها بما يجب عليهما وأخذا يجهزان السفائن وبمراكب لنقل الجيوش المصرية المراد ارسالها الى دار الحرب وصدر أمر آخر فى أواخر رمضان سنة ١٢٦٩ هـ باستدعاء كثير من الضباط والعساكر البحرية المشتغلين بانشاء الطرق الحديدية والتلغرافات ليعودوا الى سفنهم ولم يمض زمن قليل حتى تجهزت عمارة مركبة من ١٢ سفينة حربية بها ستمائة وثلاثون مدفعا عقد لواؤها المرحوم حسن باشا الاسكندرانى سافر عليها من الجنود البرية عشرون ألف جندى جعلت قيادتهم لسليم باشا الشهير بابى طربوش وأحمد باشا المنكلى وخرجت هذه القوة فى شوال من سنة ١٢٦٩ ومن هذا الوقت عادت الاعمال نوعا الى دار الصناعة التى أخذت تجهز المعدات اللازمة الى ذلك الاسطول الذى بقى بمياه الحرب وكان هذا آخر الاساطيل الحربية التى جهزتها الحكومة المصرية من سفن عمارة محمد على الكبير وقد اشتهر رجال هذه القوة فى تلك الحروب كما سيأتى فى بابه من هذا الكتاب ولما كان عباس باشا رحمه الله يميل الى الاقتصاد ألغى فى أول حكمه الجيش ولم يبق منه الا القليل وأبطل جميع المعامل التى كان جده أنشأها فى كثير من بلاد القطر حتى أصبحت خالية خاوية بعد أن كانت تقدمت وراجت مصنوعاتها بين عموم المصريين لجودتها وقلة أثمانها هذا فضلا عن التقدم الذى حصل لابناء البلاد فى فنون الصنائع المختلفة وفى أثناء حروب القريم السابق ذكرها أرسل المرحوم عباس باشا الاول ارساليتين علميتين خلاف بعضهما الاولى للكشف على المواقع التى يمكن للجيوش الاقامة فيها بالحدود المصرية غربى الاسكندرية ومعرفة الاماكن التى يمكن للسفن الاجنبية أن تقرب منها وترسو عليها فى تلك السواحل والثانية للكشف على جميع فرض وميناءات السواحل المصرية الغربية الواقعة على بحر الروم وكان مع الارساليتين المذكورتين من قبل البحرية العلامة البحرى سليمان قبودان حلاوه وقد أنجزت هاتان الارساليتان مأموريتهما ورسمت خريطتين (١) مفصلتين

(١) الخريطة قطعة من القماش أو الورق مرسوم عليها قارة أو بعض قارة وعند الملاحين قطعة من الورق أو القماش مرسوم عليها قسم من بحر أو بحر بتمامه مع السواحل والجزر القريبة منه بحيث تكون شاملة لما فى تلك السواحل والجزائر من تعاريج وأنهار ورؤس وجبال وما أشبه ومرسوم عليها أيضا خطوط الاطوال والعروض وما هو ضرورى لاهتداء الملاحين والخرائط على نوعين خرائط مسطحة وخرائط كروية فالخرائط المسطحة هى التى يستعملها

Digitized by Google

وفى مدة حروب القريم المذكورة كانت المواصلات والاخبار لا تنقطع بين الاستانة والديار المصرية بواسطة وابورى النيل وأسيوط وهما الباخرتان اللتان اشتهرتا بسرعة السير فى الدونمة المصرية وقتئذ لأن أغلب سفنها الحربية كانت شراعية فلهذا استعملت الترسانة الباخرتين المذكورتين فى نقل المهمات والذخائر ونقل رسائل البريد ما بين ثغر الاسكندرية وميدان الحرب حيث كانت الجيوش المصرية وكان عبد الحميد بك الديار بكرلى قومندانا الباخرة النيل وخليل شفتر قبودان قومندانا الاسيوط

ولما ارتقى محمد سعيد باشا على كرسى الولاية المصرية بعد قتل عباس باشا (١٢٧٠ هـ ١٣ أغسطس ١٨٥٤) اهتم بأمر الوقوف على حقيقة منابع النيل فبعث بالامير عبد الحليم باشا الى السودان وجعل تحت أمره عدة سفائن نيلية وأحال عليه أمر تفتيش ادارات السودان

الملاحون فى الاسفار القريبة أما الخرائط الكروية فيرسم عليها كل البحار والاوقيانوسات وما على سواحلها من البلدان والفرض وتكون عليها خطوط الاطوال والعروض وغيرهما وقد أجمع المؤرخون على ان المصريين كانوا يعرفون رسم الخرط من قديم وكذلك كانت الخرط معروفة عند الاسرائيليين قال المؤرخ الشهير هيرودوت ان الفرس فى عهد دارا كانوا واقفين على رسم الخرط وقال غيره ان رسم الخرط انتظم بعد انتشار علم الجغرافيا وقد كان الفينيقيون أول من نجح فى توسيع المعارف الجغرافية حيث طافوا جميع السواحل بالبحر المتوسط الابيض وعبروا بوغاز جبل طارق وطافوا على سواحل الاطلنطيق فى أوروبا وافريقية ثم اتسع نطاق الجغرافيا أيضا بالرحلة البحرية التى أرسلها نخاو ملك مصر سنة (٦٠٠ ق م) للطواف حول سواحل افريقية واتسعت أيضا باسفار هنون (Hannon) الملاح القرطاجنى فى القرن الخامس قبل الميلاد لانه بعد أن عبر بوغاز جبل طارق بستين سفينة تتبع ساحل افريقية حتى وصل الى جون بنين وذهب آخرون الى انه لم يتجاوز نهر نون ويقال ان يونياني أناكسمندر (Anaximandre) هو الذى كشف كروية الارض ونظم عليها أصول رسم الخرائط وممن أفاد هذا الفن بثياس البحار من مسيليا سنة ٣٢٠ ق م حيث دخل الاطلنطيق ومر بسواحل اسبانيا وبلاد الغالة ودخل بريطانيا واكتشف جزيرة ظنها البعض جزيرة اسلانده وحسبها البعض شتلانده وفى رحلته الثانية دخل بحر البالطيق وقد حاول ايراتوستين (Eratosthène) الجغرافى الشهير الذى نبغ من مدرسة الاسكندرية (٢٧٦ ق م) تخطيط خرائط عن بحر سفيدو وضع عليها العروض والاطوال ويقال ان مدرسة الاسكندرية كانت تعرف شكل الارض الكروى وخطوط الاطوال والعروض وكانت البلدان الواقعة على بحر الروم معروفة عندهم معرفة تكاد تكون صحيحة وقد أتى استرابون الجغرافى الشهير فى كتبه بجملة تصحيحات بعد رحلته الشهيرة وذلك فى نحو سنة ٣٠ ق م وكذا الجغرافى الرومانى هو عبونيوس ميلا فى عهد الامبراطور كلوديوس ثم اشتغلت علماء العرب بهذا الفن فألف ابن أبى شيبة عبيد الله بن عبد الله كتاب المسالك والممالك وابن حوقل فى القرن الرابع الهجرى وألف ابن الوردى خريدة العجائب وكتب ابن فضل الله العمرى فى القرن الثامن مسالك الابصار فى ممالك الامصار وهو ٢٠ مجلدا وألف ياقوت الحموى معجم البلدان فأفاد به الملاحين وعلم الجغرافيا وألف سليمان ابن أحمد المهرى عن اسفار فى البحر المحيط الشرقى كتابين أحدهما يدعى عمدة المهرة وآخر يدعى تحفة الفحول وثالثا يدعى المنهاج الفاخر فى علم البحر الزاخر وألف أبو حنيفة الدينورى كتاب الانواء فأفاد بذلك علماء الملاحة وقد رسم العرب الخرائط العظيمة التى كانت أول مساعد للاكتشافات التى قام بها ملاحو اسبانيا والبرتغال فى القرن الخامس عشر والسادس عشر للميلاد فكانت لهم من أكبر الوسائل حيث هدتهم الى ما قصدوه من البلاد والاماكن ولما رأت دول أوروبا أن فى رسم الخرائط البحرية فائدة عظمى للبحرية خصصت لها ادارات مخصوصة للقيام بهذا الامر المهم ورتبت كل من انكلترة وفرانسا ادارات لذلك وهى المسماة بالهيدروغراف (Hydrographe) أى الطبوغرافية الملاحية

وفحص أحواله ثم بعد عودة العزيز من دار الخلافة على الباخرة المصرية النيل ورجوع الاساطيل والعساكر من حرب القريم الى ثغر الاسكندرية توجه بنفسه الى الخرطوم سنة ١٨٥٧ م ١٢٧٤ ﻫ وبعد أن اطلع على أحوال السودان أصدر الاوامر باجراء ما يلزم لاصلاح أحواله واتخاذ دار صناعة فى مدينة الخرطوم وقسم البلاد السودانية الى خمس مديريات جعلها سنار وكردفان والتاكه وبربر ودنقله ولما عاد الى القاهرة وجه عنايته للاساطيل وأصدر الاوامر الى ناظر الترسانة فأعاد العمال اليها ولما قصد أن يصلح ما تخرب من سفن الدونانما المصرية أتت أوامر سلطانية تأمره بالمنع بدعوى أنه لا حاجة لها فى الوقت المذكور وقد شاع وقتئذ بين بعض رجال البحرية أن السبب فى اصدار الدولة هذا الامر سعى سفير احدى الدول البحرية التى ساعدت الدولة فى حرب القريم وصار لها بعدئذ النفوذ الكبير فى الاستانة لان ارتقاء الحكومة المصرية فى البحار ينافى مصالحها وقد كان هذا المنع سببا لأن فقدت مصر جميع أساطيلها فان سفائنها التى كانت تخربت بقيت على حالتها حتى وصلت مع الزمن لدرجة الاضمحلال ولما نظر العزيز أن السفن صارت غير صالحة بالمرة واذا أريد اعادة اصلاحها تكلفت مصاريف توازى أثمانها أمر بتكسيرها ومع كل ذلك لم تفتر همة محمد سعيد باشا عن الاهتمام بأمر البحرية فانه أمر بابتياع جملة بواخر حديدية منها فرويت حربى يسمى سياح البحر وهو الذى صار تكبيره وتحويله فيما بعد بانكلترة الى فرقاطة سميت محمد على ثم أصلح اثنين من الفرقاطات الباقية من سفن الدونانما القديمة وكذا أصلح وابورى النيل وأسيوط وابتاع فى سنة ١٢٧٨ ﻫ وابور رفيض جهاد وجعله لركوبته وعين على قيادته مصطفى ددش قبودان وآخر يدعى حسين قبودان الردوسلى وعين سليمان قبودان حلاوة مأمور الحساب سفرية الوابور المذكور وأحيل عليه تصحيح ساعات الكرونومترفيه وكان من البواخر التى ابتاعها المرحوم سعيد باشا من أوروبا باخرتان مدرعتان من نوع الدوبة المدرعة عرفا بزرخ نمرة واحد وزرخ نمرة اثنين وكان ابتاعهما لاستعمالهما داخل نهر النيل عند الحاجة وفى هذا الوقت كانت أكثر دول أوروبا آخذة فى صناعة المدرعات وتغيير أكثر أساطيلها الخشبية الى مدرعات حيث ظهرت منفعتها ومتانتها فى الحروب وكانت دولة فرانسا أول من أحدثت السفن المدرعة سنة ١٢٦٨ م وقد نفى بعضهم هذه الرواية مدعيا أن المدرعات كانت معلومة من القديم لان كثيرا من الامم كانت تكسو سفنها من الخارج بألواح معدنية فقد وجد ضمن أساطيل قرطاجنة فى الحرب البونيقية سنة ١٤٦ ق م نحو ١٢٠ سفينة قرطاجنية مدرعة بالحديد وفى سنة ١٣٥٤ م استعمل الملك بطرس المخيف (Pierre le Cruel) ملك قسطيله فى أساطيله من الخارج ألواح النحاس لوقايتها من الحريق وكذا كسى النورمانديون فى القرن الثانى عشر سفنهم من الخارج بالواح الحديد لوقايتها من المواد المحرقة وصنعوا فى جانبيها حواجز لوقاية الجذافين والجنود المقاتلة من مقذوفات العدو وكانت أيضا سفن شارلكان (Charles V) التى أرسلها الى تونس سنة ١٥٣٠ م مصفحة من الخارج بالرصاص وكانت بين أساطيل جنوة التى قادها اندريا دوريا فى محاربته خير الدين باشا باربروس كثير من السفن المصفحة من الخارج بالرصاص وقالوا أيضا ان أول سفينة صنعت من الحديد كانت بانكلترة فى الجهة التى تدعى برادلى (Bradley) (١٧٨٧ م) وأول سفينة تجارية سارت فى البحار

كانت

كانت فى سنة ١٨٠٧ م وشرح ذلك البعض حيث قالوا ان أول من شرع فى عمل الآلة البخارية هودينيس باپين وكان طبيبا بروتستانتيا فرنساوى الاصل سنة ١٦٩٠ م ثم ركب تلك الآلة على سفينة صغيرة فى وادى فولدا فى كاسل سنة ١٧٠٧ م ولكن لسوء حظه قام على سفينته بعض الرعاع فى وادى الويزر وكسروها ولم يعد فى وسعه تجديدها ثم اعتنى فى هذه الاعمال النافعة جس واط المشهور وحسن الاختراع وكاد ينجح نجاحا تاما فى صناعة السفينة البخارية التسير بواسطة دواليب من الجانبين (طارات) ولم تساعده المقادير على اتمامها ثم تداول هذا العمل أياد كثيرة ولكن لم تنجح تماما حتى سنة ١٨٠٣ م حيث أنزل روبرت فلطن الاميركانى أول سفينة بخارية تامة بدواليب فى نهر السين بباريس مذ كان فى فرانسا وصادفته عراقيل منعته من تميم عمله فذهب فلطن المذكور الى امريكا وطنه وهناك تمكن من صنعها سنة ١٨٠٧ م كما سبق وكانت تسمى كلارمون وسافرت من نيويورك الى فيلادلفيا أما آلة الذنب المسماة بالرفاس فالمخترع لها هو المهندس اريكسون من أهل أسوج فى البلاد المتحدة الاميركانية أيضا سنة ١٨٤٤ واستعملت من وقتئذ فى السفن

ثم وجه محمد سعيد باشا عنايته للملاحة فى بحر النيل فأوجد له مصلحة خاصة سميت بالانجرارية وأصلح دار صناعة بولاق وابتاع جملة بواخر وصنادل ولم يمض زمن طويل حتى بلغ عدد بواخر هذه المصلحة خمسين باخرة غير المراكب الشراعية تختلف قوة الواحدة منها بين ٤٠ و ١٤٠ حصانا وكان بهذه المصلحة أيضا واحد وستين صندلا حمولة أصغرها ١٥٠ اردب وحمولة أكبرها ١٦٥٠ اردب وعين لادارتها عدة ضباط وملاحين من رجال الدونانمه المصرية ولما بطل العمل بدار صناعة الاسكندرية تشتت صناعها فى أنحاء القطر المصرى وراء قوتهم وابتاع العزيز أيضا أربعة بواخر للبحر الاحمر وهى الحجاز ونجد والقبارى وجدة وكانت مكسوة بألواح الحديد ليست معدودة من سفن الحرب وبها سافر الى الحجاز لاداء الفريضة وقد دخلت هذه السفن فيما بعد ضمن سفن الشركة المجيدية التى تشكلت بالديار المصرية بمقتضى الفرمان السلطانى الصادر فى أول فبراير من سنة ١٨٥٧ م ١٢٧٣ هـ ولما صار لمصر عدة بواخر فى البحر الاحمر رأى المشار اليه من اللزوم ايجاد بعض الورش فأمر بها فشيدت وشيد أيضا حوضا من الحجر بالسويس لاصلاح تلك البواخر عند الحاجة عهد ببنائه لشركة أجنبية فرنساوية تعرف بشركة دوسو (١٨٦٢ م) ١٢٧٨ هـ بلغت تكاليفه ٨٫٨٠٠٫٠٠٠ فرنك ومع ذلك فانه لم يتم الا فى زمن المرحوم اسماعيل باشا وأعاد فتح المدرسة البحرية وانتخب لها من تلامذة المدارس الحربية العدد الكافى ونبغ بهذه المدرسة كثير من الضباط الذين سيأتى ذكرهم فى هذا التاريخ ويروى أن أحد أمراء البحرية قال فى حضرة المرحوم سعيد باشا لقد كثر عدد الضباط المتخرجين من المدارس البحرية الا أنه ليس لمصر من السفن ما يكفى لتوظيف هؤلاء الضباط فأجابه سعيد باشا ان المدرسة البحرية لابد من وجودها وتخريج ضباط أكفاء منها لان ذلك يحتاج لزمن بخلاف الحصول على السفن فانه أمر سهل لانه متى مكنتنا الفرص اشترينا منها ما يلزمنا الا اننا لا نجد من يديرها من القواد المهرة المتدربين فى مدة لا تنقص عن العشرين سنة وهو قول صواب ورأى جيد وكان رحمه الله لما زاد فى عدد البواخر الحديدية وشكل منها القومبانية المجيدية

Digitized by Google

ورأى أن الحوض الجرى الذى شيده المرحوم والده محمد على باشا صغير الحجم لا يسع البواخر المذكورة لكبر حجمها وان اشتغالها فى أعمال البريد والتجارة وخلافهما يجعلها فى أغلب الاوقات عرضة لغوائل كثيرة مثل ملاطمتها الصخور أو الرمال أو بعضها بعضا وكذا قد يزول طلاؤها من قاعها المغمور فى الماء من طول اقامتها فى البحر ويلتصق بأسفلها المحار ويتراكم على بعضه فيقلل سيرها المعتاد فلذلك لا تستغنى ولو مرة فى كل سنة عن الاصلاح والمسح والطلاء بالدهان فى داخل الاحواض أمر بتشييد حوض كبير بجانب الحوض الصغير السابق ذكره وأن يشيدوا فى رأسه أيضا قزاقا من الحجر على شكل مزلقان لتسحب فوقه السفن الى البر فتكون الفائدة مزدوجة حيث يمكن بوجودهما اصلاح جملة بواخر فوق القزاق المذكور وبداخل الحوض وقد أنيط هذا العمل ببعض مهندسى الاوروباويين وبعد أن تم القزاق وجعلوا فى نهايته آلة بخارية لسحب السفن وشرعوا فى تشييد الحوض أمام القزاق المذكور تعطلت الاعمال مرة واحدة وكان ذلك فى عهد نظارة حافظ خليل باشا للبحرية ويروى أنه كان أول الساعين فى ذلك لانه أخذ الاخشاب والخوازيق التى كانوا غرسوها لهذا العمل بثمن بخس واستخدمها فى الفرضة الكائنة أمام شوادر الحطب باسكندرية وكان المرحوم سعيد باشا أنعم عليه بها ليأخذ ايرادها لنفسه

وفى أيام المرحوم سعيد باشا سعى الموسيو فردينان دولسبس وقدم طلبا بفتح قنال السويس وذكر فيه المنافع التى تعود على الديار المصرية من فتحه لانه الطريق الاقرب بين ثغور جميع بلاد أوروبا وثغور البلاد الهندية الغنية والشرق الاقصى وبذلك يتحول طريق السفائن التجارية الاوروباوية التى كانت تقطع الطريق الطويل حول افريقية مارة برأس عشم الخير الى القطر المصرى فتسهل المواصلات ويعود على مصر خصوصا فوائد جمة وبعد أن تقابل دولسبس المذكور مع العزيز عدة مرار وسعى بكل الوسائط الممكنة وأفهم بعض حاشيته أهمية ذلك سمح محمد سعيد باشا بمنح الشركة الغير المعلومة الاعضاء التى قال عنها الموسيو دولسبس المذكور فى تقريره امتياز انشاء القنال المذكور وكان ذلك فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٥٤ م ١٢٧١ هـ وقد ساعد سعيد باشا الشركة بكل ما أمكنه كما سيأتى فى تاريخه

ولما قبض اسمعيل باشا على الاريكة المصرية (١٢٧٩ هـ) وكان يريد ترقية أحوال البلاد أعاد للبحرية المصرية حياة جديدة وأنشأ شركة البواخر المعروفة بالقومبانية العزيزية بعد أن أبطل القومبانية المجيدية السابقة فكانت من أعظم الاسباب فى جلب المنافع للبلاد واتساع تجارة مصر وبعد أن كانت الديار المصرية تحت تحكم السفن الاجنبية تخلصت من تلك السيطرة وترقت حالة سفنها حتى زاحمت سفن جميع الدول فى مزاياها وصارت تمخر فى كل البحار المجاورة لمصر وشاركت غيرها من الشركات الاجنبية فى جر المنفعة فكانت تتردد فى أوقات معينة على بلاد اليونان وبلاد سوريا وثغور الاناضول الواقعة على البحر الرومى والدردنيل وغاليبولى والاستانة وغيرها وتمر فى البحر الاحمر على ثغور مصوع وسواكن وينبع وجدة والحديدة وعدن وغيرها من ثغور بلاد العرب وتصل أيضا الى زيلع وبربرة وغيرها وفتح المدارس البحرية بعد اندراسها وأحضر لها مهرة المعلمين والاساتذة من انكلترة وغيرها وأعاد دار الصناعة عمالها وأمر المرحوم عبد اللطيف باشا ناظر

Digitized by Google

البحرية وقتئذ بمباشرة انشاء السفن الحربية الجديدة التى أمر بعدها فأنشأ سفينة بخارية حربية من نوع الفرو يت دعيت لطيف ثم أنشأ فرويت آخر سمى الصاعقة انتهى العمل فيه أيام نظارة المرحوم شاهين باشا للبحرية وسلحهما بالمدافع الجديدة من نوع الارمسترونغ وأهدى الخديو المشار اليه للسلطان عبد العزيز وابوراجر يا يدعى فيض جهاد كان لركوبته الخاصة وسمى فيما بعد بالسلطانية وكان سلفه المرحوم سعيد باشا أهدى للسلطان أيضا فرقاطة حربية وهى المعروفة الآن باسم مخبر سرور ولما تم للقومبانية العزيزية ما يلزمها من السفن وكان تعين لادارتها احمد بن شرين باشا أحضروا اليها من أنحاء القطر ضباط البحرية الخالين من الخدمة وطلبوا اليها أيضا كثيرا من عساكر البحرية خصوصا الخدمتها وبذلك صارت أكثر الشركات الاجنبية نظاما وقد بلغ عدد سفنها بالبحر الابيض المتوسط ١٩ باخرة وبالبحر الاحمر عشر سفائن أخرى وحصلت مصر بذلك زيادة عن توارد محصولات الاقطار المختلفة على انتظام ادارة البريد وزيادة العمارية فى سائر الثغور المصرية وترقى البحرية وبلغ عدد سفن الاسطول الحربى المصرى ١٨ سفينة قوة آلاتها معا ٤٥٨٠ حصانا بخاريا تستهلك من الفحم الحجرى كل سنة ١١٫٠٠٠ طونيلاتة منها فى البحر الرومى سفن المحروسة ومصر والغربية ومحمد على ولطيف والصاعقة وأسيوط ومخبر ونور الهدى ويتبع ذلك سبع سفن شراعية ووابور يدعى البحى وزرخان نمرة واحد ونمرة اثنين وسفن البحر الاحمر هى شير جهاد ودنقلة والطور وسنار والخرطوم وشندى ومنودواسوان والجعفرية ثم لما عزم المرحوم اسمعيل باشا على ابطال الشركة العزيزية ابتاع جميع أسهمها وحولها الى شركة جعلها خاصة بالحكومة المصرية وسماها بالبوستة الخديوية ولازالت موجودة للآن وسفنها تمخر فى البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر بين ثغور الدولة العثمانية والحكومة المصرية

ومن الاصلاحات البحرية التى تمت فى عهد الخديو المشار اليه أن نظارة البحرية وقتئذ رأت ان ساعات [1] الكرونومتر الموجودة بكافة بواخرها تحتاج الى التصحيح فى أغلب الاوقات لضبط

---

(١) تطلق الساعة على الآلة المعروفة لقياس الزمن فالساعات عند الفلكيين على ثلاثة أنواع الساعة النجمية وهى المعول عليها عندهم والساعة الشمسية الوسطى والساعة الشمسية الحقيقية ويساوى كل منها $\frac{1}{٢٤}$ من النهار فالساعة الشمسية الوسطى تعين بالساعات المتقنة الضبط والساعة الشمسية الحقيقية تعين بحركة الشمس والساعة النجمية المستعملة فى المراصد تضبط للوقت النجمى وتعرف بالساعة الفلكية وتصنع بطريقة مخصوصة وتقابل كل يوم مرارا على الفلك ليتحقق ضبطها ويجعل اليوم فيها ٣٦٠ درجة فتكون الساعة ١٥ درجة ومن هذه الساعة ساعات الكرونومترا المستعملة عند الملاحين وفى كافة السفائن الحربية والتجارية وهى ساعة محكمة الصناعة مضبوطة الحركة وهى مركبة على بندول معتدل يصنع من معدنين مختلفين النحاس الاحمر والصلب ولما كان النحاس يقبل التمدد والانكماش اكثر من الصلب اتخذوا فى المعامل طريقة وهى انه قبل وضع هذا البندول فى الساعة يضعونه فى درجة عظيمة من الحرارة مدة من الزمن ثم يضعونه فى درجة مثلها من البرودة مدة أخرى وذلك لعدم تأثير البرودة أو الحرارة على حركة الساعة عند انتقال السفن مدة الاسفار من المنطقة الباردة الى المنطقة الحارة أو بالعكس والملاحون يستعملون هذه الساعة لاستخراج طول الامكنة المراد معرفتها لان سيرها يكون عادة على وقت نصف نهار يوم متوسط المكان المعتبر وحدة الاطوال وتوضع عادة فى جهات المركب الخالية من الاهتزاز والحركة وقبل اختراع الساعات كان الملاحون يستعينون فى قياس أوقاتهم بمراقبة سير الشمس من الشروق الى الغروب هذا بالنهار أما فى الليل فيعرفون الساعات بمراقبة حركات النجوم السيارة وحركة القمر واستمروا على ذلك الى أن وصلوا الى اختراع آلة أسهل من تلك المراقبات وأول آلة وضعت لمعرفة الوقت كانت الساعة الشمسية أو المزولة وهى قطعة من الحجر بها خطوط على

Digitized by Google

ارصادها وحسابها فى مدة أسفارها فقررت انتخاب أحد ضباطها الشهيرين فى فن الارصاد الفلكية للقيام بهذه المأمورية المهمة فانتخبت الصاغقول أغاسى مصطفى قبودان شاهين وسلمته جميع ساعات الكرونومتر فى نحو سنة ١٨٦٩ م (١٢٨٦ ﻫ) وأصدرت منشورا لعموم السفائن تعلمهم بذلك فصارت تلك السفائن عند عودتها من الاسفار الى المينا ترسل له جميع ساعاتها لتصحيحها ثم رأى المرحوم عبد اللطيف باشا لزوم تعميم الفائدة بالميناء فأصدر أمرا باقامة عمود فوق سطح المدرسة البحرية التى كانت فى الطبقة العليا من ورشة التيالة وان توضع عليه كرة وأمر مأمور اصلاح الساعات المذكورة أنه متى عين زمن الزوال أعلم ذلك بجعل الكرة المذكورة تسقط الى أسفل العمود ومتى حصل ذلك أطلق فى الحال مدفع من احدى البواخر الحربية المصرية وكل ذلك فى وقت الزوال تماما لتصلح بموجبه السفن المصرية والسفائن الاجنبية الراسية فى الميناء ساعاتها فكان ذلك من أحسن الاعمال ومازال ذلك متبعا حتى سنة ١٨٨٢ م حيث أحيل العمل المذكور على مصلحة اللمانات والفنارات ولما كثرت السفن بمصر ورأى الخديو المشار اليه أن ارسالها الى الخارج لاصلاحها وطليها بالاصباغ يكلف الحكومة أموالا كثيرة سيما وانه نقص عكنه مداركته أوجد بثغر الاسكندرية حوضا عائما من الحديد لاصلاح السفن صنعه أحد معامل فرانسا سنة ١٢٨٥ ﻫ طوله مائة وأربعون مترا وعرضه ٣٣ مترا وعمقه ١١ مترا وزنته ٣,٨٠٠,٠٠٠ كيلوغرام وبداخله آلتان بخاريتان لتفريغ مياهه قوتهما ٢٥ حصانا بخاريا بلغت قيمة انشائه ١٢٦,٣٣٦ جنيها مصريا ولها بابان يستعملان متى كانت السفن التى تدخل فيه

عدد ساعات النهار توضع مستقبلة للشمس وفى وسطها قضيب من الحديد يلقى ظله على تلك الخطوط فيعرف من ذلك الظل الوقت ويروى أن اختراعها كان فى نحو سنة ٨٠٠ ق م ونسب بعض المؤرخين اختراعها الى لانكسيمندروس الايونى سنة ٦٠٠ ق م ولكن استعمالها فى رومة كان فى نحو سنة ٢٩٢ ق م فقط ولما اخترعت الساعة الرملية المستعملة لهذا اليوم أخذ الملاحون عموما يستعملونها فى سفنهم ولا يعرف أصل منشئها وذكرها المؤرخ بيروس الكلدانى (Berose) فى سنة ٥٤٠ ق م ولما كانت الساعتان المذكورتان لا تفيان بالمطلوب لتغير مجرى الظل فى الاولى بحركة الارض وتأثير الرطوبة على الرمل فى الثانية أخذ العلماء يبحثون على أحسن آلة لقياس الزمن حتى ظهرت الساعة المائية واستعملت فيها قوى الصناعة ويقال انها كانت مستعملة فى الصين وفى بلاد اشور وبين المصريين قبل الساعة الشمسية فحقيقة منشئها مجهولة وقد نسب البعض اختراعها اليونان وقالوا ان كتسيبوس أحد علماء الاسكندرية أدخل عليها اصلاحا جليلا سنة ٢٣٥ ق م ولم يستعملها الرومان فى رومية الا فى سنة ١٥٨ ق م وقد أخذها العرب عن اليونان أيضا وتفننوا فى صناعتها وان الخليفة هرون الرشيد أهدى الامبراطور شارلمان فى أواخر القرن الثامن الميلادى ساعة مائية ذات ثقل لم يكن لها مثيل فى أوروبا وقتئذ وأما مبدأ اختراع الساعات المستعملة الآن فمجهول أيضا قال بعض المؤرخين ان كثيرا من العلماء يتنازعون شرف هذا الاختراع ولكن أشهر من عرف به بوليتيانوس سنة ٥١٠ م وأحسن اصلاح أدخل فى صناعة الساعات كان لجربرت الراهب الذى رقى فى مراتب الكهنوت حتى جلس على كرسى البابوية سنة ٩٩٩ م باسم سلفستروس الثانى وكان من أعلم أهل زمانه وأكثر من الاشتغال فى الآليات حتى اتصل سنة ٩٩٦ م وهو أسقف مقدبرغ الى عمل ساعة ذات ثقل ذكرها أكثر المؤرخين ولم يزل القوم يتدرجون فى تحسين الساعات الى أن حسنوا صناعتها وتنوعوا فى عملها على اشكال حتى توصلوا لعمل الساعة الدقاقة فى القرن الحادى عشر الميلادى وقد اشتهرت الساعة التى صنعها هنرى روفيك أو ويك سنة ١٣٧٠ م وأهداها الى شارلس الخامس ملك فرانسا ويقال انها كانت قريبة الشبه بالساعات المستعملة فى الوقت الحاضر ثم تتابع التحسين حتى بلغ من الاتقان درجة رفيعة واشتهرت معامل بلاد السويسره خصوصا مدينة جنيفه بها وفرانسا وليفربول من انكلترة وبعض معامل المانيا والولايات المتحدة وأوجدوا كثيرا من الساعات الفلكية

للاصلاح

للاصلاح جسيمة وثقلها أزيد من المقرر له فتقفل الابواب المذكورة و ينزح الماء من داخله وتصلح فيه وهو غاطس فى البحر أما السفن الخفيفة فيسحبها وتتم عمارتها وهو سابح وبهذا الحوض سهل العمل بدار الصناعة وتوفرت لها مبالغ من الاموال و يمتاز هذا الحوض على الحوض المبنى بانه ينقل الى أى مكان أريد وأعماله أسهل من أعمال حوض البناء بكثير سيما وان الحوض الاول الذى كان من البناء فى عهد ساكن الجنان محمد على باشا لم يكن يسع كل السفن الجديدة لعظم أبعادها ولما وجد هذا الحوض الجديد بثغر الاسكندرية كثر تردد السفن الاجنبية على ميناها للاصلاح وقد ترتب على ذلك زيادة عن الايراد المتحصل للحكومة استمرار توارد البواخر الاجنبية الى ذلك الثغر وتمكن الحكومة من صيانة سفنها الحربية والتجارية مما يصيبها من الاضرار وصار بالميناحوضان عم نفعهما المراكب الاهلية أيضا لانه قبل انشاء الحوض العوام كانت المراكب الاميرية ربما شغلت الحوض البناء المذكور مدة طويلة فتتعطل مراكب الاهالى المحتاجة الى الاصلاح مدة فتتوقف بسبب ذلك تجاراتهم ومما لاريب فيه أن حكم المرحوم اسمعيل باشا امتاز بتقدم جليل فى الاعمال الحربية لما وجهه نحوها من العناية كما وجه عنايته لكثير من المنافع التى عادت على القطر بالفوائد كما سيجىء ولما صدر فرمان المرحوم السلطان عبد العزيز سنة ١٢٨٤ ﻫ (١٨٦٧ م) باحالة قائمقاميتى سواكن ومصوع على الحكومة المصرية اتسعت دائرة البحرية وصارت سفن مصر تتردد على فرضتهما ولما تم فتح قنال السويس فى ٢٩ نوفبر سنة ١٨٦٩ (١١ شعبان سنة ١٢٨٦) وأقيم له الاحتفال العظيم الذى لم يرمثله ورأى المرحوم اسمعيل باشا بثاقب فكره أن متاجر الدول الشرقية والغربية لابد أن تتحول اليه وخاف من أن التجار ينتقلون الى المدينة الحديثة العهد التى شيدت عند طرفه الشمالى المسماة بورت سعيد و يجعلونها مركزا لتجارتهم سيما وانهم أخذوا فى ذلك بالفعل اهتم بتحسين فرضة الاسكندرية وتنظيمها وجعلها فى مأمن من فعل الرياح المختلفة فأنشأ جسرا عظيما من الاحجار الصناعية يقى الفرضة من الامواج وهذا الجسر ممتد بين رأس التين وجهة العجمى وجعل به طريقا كالباب لسلوك السفن الواردة الى الميناء والخارجة منها وأنشأ رصيفا لتسهيل الشحن والتفريغ وأرصفة أخرى ممتدة فى الميناء وغير ذلك مما سيأتى الكلام عليه وكان المتعهد بهذا العمل شركة انكليزية تدعى شركة جرنفلد (١٨٦٨ م)

وقد اهتم أيضا ببناء ميناء الثغر السويس بجانب الحوض الذى شرعوا فى انشائه من زمن المرحوم سعيد باشا وأعطى مقاولة اتمام الحوض واعمال ميناء السويس (١٨٦٧) الى شركة اخوان دوسو وقد تمت هذه الاعمال سنة ١٢٩١ ﻫ (١٨٧٤) و بذلك كثر سير سفن التجارة فى البحر الاحمر حتى كادت تضارع تجارة البحر الابيض المتوسط وعادت اليها شهرتها القديمة نوعا ومن أعماله التى أعانت كثيرا على تقدم الملاحة أن شيد عدة فنارات فى جملة نقط بين الاسكندرية و بورت سعيد على البحر المتوسط الابيض وفى كثير من جهات البحر الاحمر لاهتداء السفن ليلا وقد عادت هذه الفنارات بالفوائد الكثيرة على الملاحة من جهة وبايرادات ذات شأن على المالية المصرية من الجهة الاخرى وزاد الخديو عدد بواخر بحر النيل ونظمت مصلحة الانجرارية تنظيما جديدا وبلغ عدد السفن التجارية بها ٥٨ سفينة منها ٢٨ خاصة بمصالح الدائرة السنية والباقى للمصالح العمومية ومقدار قوة تلك السفن ١٤٠٠ حصان تستهلك فى السنة ٢٦٢٥ طنا من الفحم الحجرى ووسع دار صناعة

Digitized by Google

الخرطوم وأوجد فيها كثيرا من الصناع ونقل اليها نحو ١٨ وابورا بخاريا وصنع فيها كثيرا من المراكب الشراعية فأفادت هذه السفن والبواخر في الاكتشافات والتجريدات والحملات التي ساقها الى أكثر جهات السودان لتوسيع أملاكه خصوصا عندما أرسل السير صموئيل بيكر (Sir Samuel Baker) الانكليزي لاكتشاف منابع النيل (١٨٧٠ - ١٨٧٣ م) وساعدت أيضا الجنود التي أرسلها الى قلب افريقية حتى بلغت البلاد الواقعة عند الدرجة الاولى من شمالي خط الاستواء فاتسعت أملاك مصر بالسودان حتى بلغت أطرافها تلك الحدود وظنوا أن ذلك أقرب الوسائط لمنع النخاسة وابطال التجارة بالرقيق وتعين السير صموئيل بيكر حاكما عاما على المقاطعات الاستوائية وبقي فيها الى أن استعفى سنة ١٨٧٣ وعادت أعماله بفائدة مهمة حيث أنشأ محطة بحرية عند ملتقى نهر صوبات بالنيل للقبض على المراكب التي تسرق العبيد سماها بالتوفيقية ولما كان الجنرال غوردون باشا (Gordon) حاكما على مديرية خط الاستواء (١٨٧٣م - ١٨٧٦م) اهتم بأمر المحطة المذكورة وشدد في ضبط الارقاء وقلت أهمية بلدة شكا أشهر مراكز النخاسين عند بحر الغزال وكانت الرياسة فيها للزبير باشا حيث كان له فيها قصر وجيش منظم بالسلاح لاقتناص الرقيق ولما تعين غوردون باشا حكمدار العموم السودان سنة ١٨٧٩ م عين انكليزيا يدعى جسي مديرا لمديرية بحر الغزال فقام هذا المدير بعدة أعمال نافعة في مديريته وبنى القناطر على الانهار ومجاري المياه وساعد الاهالي على مد المراكب وأنشأ السفائن واجتهد في منع النخاسة فقام عليه النخاسون تحت رياسة سليمان بن الزبير فحاربهم وكان غوردون وقتئذ في الخرطوم يصلح دوائر الحكومة فقاد جيشا حتى وصل محلة العصاة ودخل على القوم وحده فوجد نحو ثلاثة آلاف عبد وعدة أمراء كلهم شاكي السلاح فخاطب رؤساهم وطلب منهم التسليم فسلموا وأطاعوا وفي مقدمتهم سليمان بن الزبير باشا ومن هذا الوقت جعله غوردون حاكما على بحر الغزال ثم اهتم غوردون بعد ذلك أيضا بتحسين طرق المواصلات وسير المراكب في البحر حتى لا تكون شلالات النيل عقبة قائمة في طريق الملاحة به وبينما كان غوردون مشتغلا بالاعمال المفيدة اذ خلع سليمان ابن الزبير عصا الطاعة فوجه عليه جيشا وكسره وقتله وأعاد السكينة الى ربوعها والمعاملات الى أصلها وبذلك حافظ على المواصلات البحرية بالنيل وقد نالت البحرية المصرية في عهد الخديو اسماعيل باشا فخرا بما أجرته من الاسفار البعيدة فسافر مصطفى بك العرب في أول حكمه بالفرقاطة المسماة بالابراهيمية سنة ١٢٨٠ هـ من ثغر الاسكندرية الى بلاد الانكليز ثم سافر من هنالك وطاف حول افريقية على طريق رأس عشم الخير الى أن دخل البحر الاحمر ورسا على السويس وذلك قبل فتح القنال وهنالك غيرت نظارة البحرية اسم الفرقاطة وسمتها شيرجهاد وسافر بعد ذلك أيضا سليمان قبودان حلاوه بوابور سمنود وطاف حول افريقية سنة ١٢٨١ هـ ثم عاد سالما الى السويس بعد أن تكبد جملة مشقات في توصيل حجاج المغاربة الى بلادهم وهم الذين نقلهم من الاسكندرية عند سفره وكان كلما مر بهم على ثغر ردوه ولم يصرح واله بدخوله خوفا من الوباء المنتشر بين أولئك الحجاج ثم ذهب الى بلاد الانجليز لاصلاح السفينة وبعد ذلك سار للسياحة حول افريقية فكانت مدة سفره من لوندره الى السويس نحو ثلاثة شهور وستة أيام عدا فيها الايام التي رسا فيها بجزيرة ماديرا وجزيرة القديسة هيلانه ورأس عشم الخير وعدن لاخذ الفحم وغيره من اللازم للباخرة

ولما

ولما كانت الاسفار بالسفن القدعة بالبحر المحيط الاطلنطيقي والمحيط الهندى المحيطين بقارة افريقية محفوفة بالاخطار أمرت نظارة البحرية ضباط السفينتين المذكورتين بمراقبة البارومتر (١) والترمومتر (٢) للوقوف على التغيرات الجوية وحركاتها وأن يسجلوا ما يشاهدونه من التغيرات فى دفاتر مخصوصة تعرف عند الملاحين بالجرنال كل ذلك ليمكنهم اتقاء أخطار التغيرات الجوية فيبادروا الى الالتجاء الى أقرب فرضة

وأرسل الخديو اسماعيل باشا رحمه الله فى سنة ١٢٨٣ هـ عدة سفائن مع الجيوش التى بعثها لمساعدة الدولة فى ثورة الاروام بجزيرة كريد وقد أتت هذه السفائن باعمال عظيمة فى سواحل الجزيرة المذكورة كما سيأتى ذلك وأرسل أيضا فى ١٧ فبراير من سنة ١٨٧٥ م (١٠ محرم سنة ١٢٩٢ هـ) تجريدة بحرية مركبة من باخرتين حربيتين وهما فرقاطة محمد على وقرويت لطيف ووابورين نقالين وهما طنطا

(١) البارومتر هو آلة معدة لقياس ضغط الهواء والمستعمل منه فى السفن الحربية والتجارية على أشكال متعددة منها ما يسمى بالبارومتر ذى الطشت وهو عبارة عن أنبوبة زجاجية مملوءة بالزئبق مركبة على لوح من الخشب مقسم الى أقسام ميليمترية أو سنتيمترية وبارومتر فورتين وهو كالسابق ولكنه سهل النقل وزجاجته مثبتة بين قطع معدنية وله عضادة تتحرك بمسمار يعلم منها ارتفاع أو انخفاض الزئبق عند حدوث تغير فى الهواء ومنها البارومتر ذو الممص وهو يتركب من انبوبة منحنية ذات فرعين فرع طويل مغلق يقوم مقام أنبوبة البارومتر الاول والثانى مفتوح ويقوم مقام الطشت ويعرف فيه ضغط الهواء بقياس الفرق بين سطحى الزئبق فى الانبوبتين من الارقام المرقومة فوق الخشبة المثبت عليها والبارومتر الساعى وهو ذو ممص يسبح فوق سطح الزئبق ولكن حركة الضغط تعلم من تحرك العقرب من اليمين الى اليسار أو بالعكس على الاقسام المرقومة على دائرته والبارومتر المعدنى وهو مؤسس على مرونة المعادن وله عقرب يتحرك على دائرته وظرفه من المعدن ويعلم به ضغط الهواء من الانخفاض الذى يحصل على الانابيب المعدنية بزيادة الضغط أو بقلته وبذلك يتحرك العقرب أمام وجه ساعة الدرج وقد أجمع المؤرخون على ان أول من اهتدى الى معرفة ثقل الجو هو توريشلى (Torricelli) التليانى تلميذ غليلى (Galilée) واستمر على التجارب حتى اكتشف التموجات التى تحدث فى أعلى عمود الزئبق بسبب تغيرات الهواء وفى سنة ١٦٤٥ م نشر ملاحظاته على ذلك الا أنه مات بعد ذلك بقليل قبل أن يتمكن تماما من اكتشافه العظيم الا أن بسكال (Pascal) الفرنسوى اشتغل بعده بذلك وأتم امتحاناته فى ١٩ سبتمبر سنة ١٦٤٨ م وفى تلك السنة استعمل أول بارومتر منتظم وأخذ العلماء فى اتمام ما ينقصه وانتشر استعماله فى البحر والبر وقد استمر العلامة بوبس بلوت من أترخت فى ملاحظاته هو وعلماء آخرون وقرروا له نسبا عددية وتمكن من اكتشاف النواميس التى تجرى عليها حركة مركز الهبوط البارومترى للعواصف وحمل حكومة هولاندا سنة ١٨٦٠ م على انشاء لجنة لمراقبة الهواء ووضع علامات للعواصف فاقتدت بها انكلترة سنة ١٨٦١ وفرانسا سنة ١٨٦٣ وأمريكا المتحدة سنة ١٨٧٠ وقد بلغ الآن الكمال وتمكن العلماء من اتقان البارومتر حتى حققوا به اختلافات الارتفاعات بضبط لا يعادله ضبط حساب المثلثات

(٢) الترمومتر آلة تقاس بها درجات الحرارة وتستعملها المراكب الحربية والتجارية كميزان تعرف به تقلبات الحرارة وهى مؤسسة على الخاصية التى بها تتمدد السائلات بالحرارة وتتقلص بالبرودة والمفضل من السوائل الزئبق والكحول وقد آثروا الزئبق لانه لا يغلى الا على درجة حرارة مرتفعة جدا واختاروا الكحول لانه لا يتجمد باعظم درجات البرودة المعروفة وكان أول استعمال الترمومتر فى جرمانيا سنة ١٦٢١ م ومخترعه كرنيليوس دربيل الهولاندى ونسبه البعض الى سنكتوريوس الايطاليانى وسمى أولا زجاجة الهواء وكان فى مبدئه آلة خشنة غير مضبوطة ثم أصلحها بويل والاكاذيميون الفلورنسيون ثم ان ريومور استعمل الزئبق للترمومتر وهو الذى اخترع الآلة والسلم المنسوبين الى فارنهيت من امستردام سنة ١٧٢٠ م وأما فارنهيت فهو الذى ركب الآلة وشهرها فشاع أمرها بأوروبا فى النصف الاول من القرن الثانى عشر الميلادى

Digitized by Google

ودسوق بهما أو رطة من المشاة و بلوك من الخيالة و بطارية مدافع جعلها تحت قيادة الاميرال مكيلوب باشا والكولونيل لوبج والميرالاى عبد الرزاق بك وكيل المدرسة البحرية وقتئذ الى جهات مصب نهر جوبا أو الجب من بلاد الصومال لاكتشافه وفتح البلاد الواقعة عليه وتوصيلها بالاملاك المصرية التى فتحها الكولونيل غوردون باشا باسم مصر فى جهات خط الاستواء الا أن انكلترة اعترضت على ذلك على لسان اللورد دربى سنة ١٨٧٦ م وكانت القوة المصرية تقدمت مع الكولونيل لوبج واليوزباشى حسن أفندى واصف أركان حرب التجريدة (الآن بك ومدير الجيزة) نحو ١٥٠ ميلا فى النهر المذكور فالتزم الخديو بأن يوقف هذه التجريدة وأمر قائدها بالعودة الى ثغر السويس وكانت وقتئذ أكثر السفن المصرية مشتغلة بنقل الجيوش الى حرب الحبشة وفتح هرر وبعد انتهاء ذلك أرسل عدة سفن عليها قوة عسكرية مصرية لمساعدة الدولة فى حرب الصرب والجبل الاسود (١٨٧٦ م) ثم لما اشتعلت نيران حروب الروسية سنة ١٨٧٧ أرسل جيشا آخر على كثير من السفائن المصرية ورافق تلك السفن أسطول حربى عثمانى حتى أوصلها الى الدردنيل وبقى بعض تلك السفن تساعد الدولة هنالك كما سيأتى وكان الخديو المشار اليه من أول ولايته يميل جدا الا أن يرى له من الاساطيل المدرعة قوة عظيمة يحافظ بها على سواحل مصر البحرية ولذلك كان أوصى على ثلاث مدرعات بفرنسا وأوصى على اثنتين بترستة ولما تمت أرسل اليها من مصر طوائفها سنة ١٨٦٨ م لاحضارها الا أن الدولة العثمانية اعترضت على ذلك ومنعت من أن يكون لمصر قوة بحرية كهذه لان الفرمانات لا تبيح لها ذلك وابتاعت الدولة منها تلك السفن وتصرح للخديوية المصرية بانشاء سفائن حربية بسيطة ويروى أن هذا المنع أتى عن ايعاز احدى الدول التى حذرت المرحوم السلطان عبد العزيز من عاقبة التساهل مع مصر فى ذلك وهو قول مقبول تؤيده خطة دول أوروبا نحو ممالك الشرق عموما الا أن الرسميات لم تثبت هذه الرواية والحاصل أن هذا المنع أضعف القوة البحرية فى الديار المصرية فاقتصرت مصر على استعمال ما أوجده الخديو من البواخر العادية والسفن الاميرية السابق ذكرها

ولما تبوأ كرسى الخديوية المصرية المرحوم محمد باشا توفيق سنة ١٢٩٦ ﻫ (١٨٧٩ م) كانت البلاد المصرية محاطة بالمصائب السياسية والمشاغل الدولية على حالة لم يسبق لها مثال فى الاعصر الخالية وكان أهم أسباب تلك المشاكل العسر المالى ولما تعين المستر بارنج والمسيو دى بلنيار مفتشين عاليين للمالية أخذا فى اجراء الاقتصاد بكثير من فروع الحكومة لتسوية الاحوال المالية ولما اقتصدا من ميزانية الجيش والبحرية مبلغا وافرا وكان الوكيل فى البحرية قاسم باشا اضطر هذا الاقالة كثير من ضباطها وملاحيها فتعطلت بذلك عدة بواخر ومنع أيضا ما كان يصرف سنويا للسفائن الحربية من الادوات والآلات وربط عدة منها داخل رصيف الترسانة وباعت البحرية فرقاطة شير جهاد وابور شندى اشتراهما تاجر انجليزى بمبلغ ٥٢٠٠ جنيه مصرى (١٨٨٠ م) فكسرهما وباع أنقاضهما ومهماتهما بمبلغ وافر وفى خلال ذلك انتهزت دولة ايتاليا فرصة الارتباك المالى الواقعة فيه الحكومة المصرية خصوصا بعد صدور قانون التصفية (١٢٩٧ ﻫ — ١٨٨٠ م) الذى تقرر فيه خفض ميزانية البحرية وابقاء سبعة مراكب فقط بطوائفها وهى المحروسة ومحمد على بثغر الاسكندرية والصاعقة وجعلت لغير تلامذة المدرسة

Digitized by Google

البحرية وأوقفوها بمدينة بورت سعيد والجعفرية والطور ومخبر بالبحر الاحمر أما ما بقى من السفن فعطلوها عن الحركة وأخذت تسعى فى الحصول على مستعمرة بساحل الدناقيل من البحر الاحمر فاحتلت احدى الجزائر القريبة من تلك السواحل بنداخلها مع مشايخ العربان القاطنين هنالك ولما تحققت من ثبات مركزها وتغاضى الحكومة المصرية صاحبة البلاد عن الاحتجاج على عملها هذا خطت خطوة ثانية واحتلت جهة اصاب المقابلة للجزيرة المذكورة وكان امتلاك الحكومة الخديوية لهذه البلاد بمقتضى الفرمان السلطانى الصادر فى ١٢ جمادى الاولى سنة ١٢٩٠هـ (٨ يوليو سنة ١٨٧٣ م) وهو الذى منحت فيه مصر قائمقامية سواكن ومصوع وتوابعهما فى مقابلة مبلغ من المال تؤديه للدولة سنويا وأظهرت حكومة ايطاليا اذ ذاك أن الغرض من احتلالها هذه النقط جعلها مخازن لفم وابوراتها المتجولة بتلك الجهات وللضعف الذى أصاب بحرية مصر صارت غير قادرة على اجراء أى عمل تحفظ به باقى سواحلها فى البحر الاحمر وأخيرا قررت تعيين محافظ عام لتلك السواحل وهو على رضا باشا وأصحبته ببعض المأمورين وخصصت له وابور الجعفرية سوارية على بك شكرى وعينت معه من قبل البحرية القائمقام محمد أمين توفيق بك (الآن باشا) فأخذ يتجول فى تلك الاطراف وفى خلالها قتل الاهالى ضابطين وعشرة عساكر طليانية فى جهة بيلول وكأن ايطاليا كانت عرضتهم للخطر قصد التجنى من وراء ذلك ثمرة كما تفعل دول أوروبا متى أرادت اختلاق أسباب تمكنها من نوال مقاصدها واحتجت على الحكومة المصرية فالتزمت الحكومة بتحقيق ذلك وأمرت على رضا باشا المذكور بالذهاب الى تلك الجهة وبعد أن أجرى التحقيق مع مشايخ الاهالى بحضور مندوب من ايطاليا فرض عليهم عقابات متنوعة كما سيأتى مفصلا فى بابه وقد عد أرباب السياسة عمل الحكومة المصرية هذا كاعتراف منها بوجود جنود طليانية فى سواحلها بجهات الدناقيل وبعد ذلك تعين أمين توفيق بك المتقدم الذكر ناظر الدار الصناعة مكان موسى بك الذى أحيل على المعاش وكانت البحرية أرسلت تلامذة المدرسة للتمرين فى قرويت الصاعقة على السواحل المصرية (١٨٨١ م) وفى تلك الاثناء ارتبكت أحوال مصر لقيام المهدى وأشياعه بالثورة فى السودان المصرى لضعف القوة العسكرية هنالك الناشئ عن الاقتصادات التى حصلت بميزانية العسكرية وكان اشتداد ثورة المهدى فى آخر ولاية المرحوم محمد رؤف باشا حتى كادت الملاحة فى النيل الاعلى تتعطل بالمرة وشكلت الحكومة بعدئذ نظارة جديدة للسودان تحت رياسة عبد القادر حلمى باشا وأحالت عليه أيضا حكمدارية عموم السودان فتوجه الى الخرطوم بعد عودة رؤف باشا وأخذ يهتم فى تسكين الثورات واصلاح الاحوال وكاد يصل الى المطلوب ولكن تغيرت الظروف واستدعته الحكومة الى مصر فبقيت الاحوال والاهوال تزداد رداءة وفى هذا الوقت تظلم بعض ضباط البحرية من معاملة وكيل البحرية لهم فى مسائل الترقيات وغيرها فتشكل مجلس حربى بأمر نظارة الحربية والبحرية للتحقيق وفى خلال التحقيق صدرت الاوامر باحالة قاسم باشا المذكور على المعاش وعين بدله محمد كامل باشا قومندانا للمحروسة ووكيلا للبحرية معا وبينما كانت الحكومة المصرية مشتغلة باطفاء ثورة المهدى فى السودان اشتعلت نيران الفتنة بمصر وهى الفتنة التى قام بها رجال الجهادية تحت رياسة زعيمهم عرابى فنشأ عنها اختلال نظام

Digitized by Google

المملكة وتداخلت الدولتان فرانسا وانكلترة وأرسلتا أساطيلهما الى ثغر الاسكندرية ١٣ جمادى الثانية سنة ١٢٩٩ ﻫ (٢ مايو ١٨٨٢ م) فكانت أساطيل الاولى تحت قيادة الكونترامبرال كونراد (Conrad) والثانية تحت قيادة الويس أميرال السر بوشمب سيمور (Beauchamp Seymour). واشتدت الارتباكات بتصميم عرابي وحزبه على مطالبهم وزادت الدولتان عدد سفنهما الحربية في مياه مصر ثم قدم المعتمد السلطاني المشير ابراهيم درويش باشا على وابو رعز الدين وقدمت سفن أخرى لبعض الدول الاوروباوية فوقفت حركة التجارة وفي أوائل شهر يونيو زاد الخوف وأخذت الاجانب تتوارد من داخلية القطر الى ثغر الاسكندرية هربا من الاضطراب واستشار وأميرالى الاسطولين والقناصل فوافق الاميرالان على وجوب تسليح الافرنج استعدادا للدفاع واستنكر القناصل الجنرالية هذه الطريقة الا أن الاجانب رأوا أن يعتمدوا على استعدادهم الخصوصي مع أنه صدر الامر لاميرالى الاسطولين بحمايتهم عند الاقتضاء فكان هذا التسليح سببا لزيادة الاضطرابات لانه بمجرد ظهور مشاجرة بسيطة بين مالطي وحمار مصري في الشارع الابراهيمي قرب مخفر اللبان قامت الفرنج تطلق الغدارات من منافذ المنازل وسلت الخناجر وكثر الزحام واستفحل الخصام بين الرعاع والفرنج وسالت الدماء وحطم بعض الاهالي أبواب بعض المخازن ونهبوها وكان محافظ الثغر وقتئذ عمر لطفي باشا فنتج من ذلك مهاجرة جميع الاوروباويين وبينما كانت الدول تتذاكر في المؤتمر الذي عقدوه في الاستانة لمقاومة العرابيين كان رجال الجهادية يحصنون القلاع ويجهزون الجنود ويدخرون الازواد والمعدات وقد قدرت قوة العرابيين وقتئذ بنحو ١٣٠٠٠ من الجنود معهم ٤٩٧ مدفعا من مدافع الجبال والصحراء لكل مدفع ٥٠٠ حشوة من البارود ولهم ١٥٠,٠٠٠ بندقية ونحو ٢٧,٠٠٠,٠٠٠ من الفشنك وكان بقلعة الجبل بالقاهرة ٤٢ مدفعا من المدافع القديمة التي كانت في السفن المصرية على عهد محمد على باشا ولها ٢١٠٠٠ حشوة وكان في طوابي الاسكندرية أكثر من ٢٢٥ مدفعا بينها عدد قليل من مدافع ارمسترونغ التي تصلح لخرق المدرعات أما باقي المدافع الجديدة التي من النوع المذكور فكانت وضعت من عهد الخديو اسمعيل باشا في استحكامات أبوقير وغيرها من السواحل المصرية وكان بالاسكندرية والسواحل الاخرى من الطوبجية نحو ١٢٠٠٠ جندي وبينما كانت الدول تلح على الباب العالي بارسال جيش عثماني الى مصر بادرت دولة انكلترة وأرسلت أمرا الى الاميرال سيمور قائد أسطولها تعلمه بأنها عزمت على التداخل بالقوة فلهذا استعد وأخذ يرسل يوميا بعض سفنه الصغيرة لسبر عمق المياه حول استحكامات الاسكندرية ومراقبة حركات الجنود المصرية ولما كان يبحث عن طريقة يستحل بها انفاذ مرغوبه أنذر الحكومة المصرية بأنها اذا لم تكف عن تعزيز الاستحكامات وتنزيل المدافع التي ركبتها حديثا فوق تلك الحصون اضطر الى اطلاق مدافعه على المدينة وبينما كانت المخابرات جارية بينه وبين الحكومة في هذا الخصوص خرجت جميع سفائن الدول الاخرى خارج الميناء ولما امتنع عرابي وأعوانه عن اجابة مطلوب الاميرال طلب الاميرال من المرحوم الخديو توفيق باشا على يد المستر كولفن المراقب الانكليزي النزول الى احدى السفن منعا لما عسى أن يصيبه من الخطر فلم يقبل وفي صباح ٢٤ شعبان سنة ١٢٩٩ ﻫ (١١ يوليو سنة ١٨٨٢ م) أطلقت السفن الانكليزية مدافعها على حصون المدينة وأجابتها الحصون المصرية ولكنها لم تؤثر في

الدوارع

الدوارع الانكليزية لعدم تمرن طوبجيتها على اطلاق تلك المدافع من عهد وضعها وغير ذلك من الاسباب التى سيأتى ذكرها وظلت المقذوفات تخرج من السفن والقلاع الى ما بعد ظهر ذلك اليوم وقال قومندان احدى سفن الولايات المتحدة الاميريكانية المدعو غودريش (Caspar F. Goodrich) فى تقريره الرسمى الذى قدمه لاميرالية الولايات المتحدة المطبوع فى واشنطون سنة ١٨٨٥ بعد أن وصف القلاع والحصون وأنها قديمة العهد وأنها من زمن محمد على باشا لم يتجدد فيها شئ سوى وضع بعض مدافع من عمل ارمسترونغ فى عهد الخديو المرحوم اسمعيل باشا ان قواد القلاع المصرية غلطوا فى ترك قوائم مانعة الصواعق فى مراكزها فوق جبخانات قلاع الاسكندرية يوم الضرب لان تلك القوائم كانت كاشارات ساعدت طوبجية المدرعات الانكليزية على تحرير الاطلاق عليها حتى تمكنوا من احراق الجبخانات وبذلك تدمرت القلاع بسرعة اه وقد أبت فرانسا الاشتراك فى هذا العمل ولذا أمرت أميرالها بعدم الضرب وانتهت هذه المسائل باحتلال القطر المصرى بالجيوش التى ساقتها انكلتره بعد ئذ وذلك بعد واقعة التل الكبير التى حصلت يوم ١٢ سبتمبر سنة ١٨٨٢ كما سيأتى مفصلا فى هذا التاريخ وعقب هذا الاحتلال حرر اللورد غرنفيل ناظر خارجيتها (١٨٨٢) لائحة مشهورة بشأن مصر أرسلها الى سفراء الحكومة البريطانية لدى الباب العالى والدول الاوروباوية ومن نصوصها بخصوص قنال السويس أن يكون فى جميع الازمنة والاوقات حراما باحا للمرور جميع السفن من أى جنس وراية كانت وأن يعين فى زمن الحرب المدة التى تضطر سفن الدول المتحاربة الى قضائها فى الترعة المذكورة ولكن لا يسمح لها بانزال معدات وذخائر حربية على ضفاف الترعة وأن لا يرخص لدولة ما أية كانت فى القيام بأمور عدوانية فى الترعة وفيما جاورها أو فى المياه المصرية حتى لو كانت تلك الدولة هى الدولة العثمانية ولا تجرى هذه الاحكام على الوسائل اللازمة للدفاع عن مصر وانه يجب على كل دولة نشأ عن سفنها ضرر ما فى الترعة أن تتحمل نفقات تعويض الضرر وأن تتخذ مصر ما يمكنها من الوسائل لمراقبة الشرط المتعلق بعدم نقل شئ من ضفاف الترعة الى سفن الدول المتحاربة أو انزال شئ اليها من محمولها وأنه لا يجوز انشاء حصون واستحكامات على خط الترعة أو فى جوارها وأن لا يكون لاحد حق استعادة النظر فى هذه المواد بدعوى أنها مجحفة بما للحكومة المصرية من حقوق التملك وكان لهذه اللائحة شأن عظيم بين دول البحار وخصوصا عند شركات الملاحة فى عموم الدول وهذه اللائحة هى التى وردفيها أن يكون لجناب خديو مصر مستشار مالى بدل المراقبة الثنائية التى تم الامر بالغائها بالدكريتو الصادر فى ١٨ يناير سنة ١٨٨٣ عقب مجئ اللورد دفرين الى مصر وانتخب المستشار المالى السير ادغار ونسنت بعد ذلك ولما شكل الجناب الخديوى وزارة المرحوم شريف باشا كان عمر لطفى باشا للنظارة الحربية والبحرية وتعين المرحوم حسين شيرين باشا وكيلا للبحرية فأخذ رتب بعض الضباط والعساكر البحرية فى وابورات المحروسة ومحمد على والصاعقة وأرسل الصاعقة الى بورت سعيد وكانت تحت قيادة بروفولجو بك النمساوى الذى رقى فيما بعد الى رتبة لواء وبقيت باقى المراكب الاميرية الاخرى مربوطة داخل الميناء ولمرض وكيل البحرية المومى اليه قام مقامه باعماله معاون أول البحرية المرحوم ابراهيم بك عربكيرلى ثم سافر الوكيل المومى اليه لاوروبا لتبديل الهواء سنة ١٨٨٣ فتوفى هناك وخلفه فى وكالة البحرية مصطفى باشا العرب وأحيل ابراهيم بك المذكور على المعاش وتعين اسمعيل بك ابراهيم مهندسا أولا للترسانة بطلب الوكيل الذى

لما كان يميل الى الوفر أخذ يسعى فى ايجاد الطرق اللازمة لذلك فصدرت للبحرية أوامر بتشكيل لجنة للنظر فى أمر المراكب المربوطة فشكلت اللجنة سنة ١٨٨٤ تحت رياسة الفريق البحرى فريدريكو باشا النمساوى مدير مصلحة وابورات البوستة الخديوية واعضاؤها موريس باشا مدير اللمانات والفنارات وحسين فهمى باشا قومندان وابور المحروسة واسمعيل بك ابراهيم باشمهندس الترسانة وآخرون فنظرت فى حالة جميع الوابورات البحرية ومعداتها ورأت مايصلح منها ومالا يصلح وبعد المداولة أقروا على أن مايصلح منها فى البحر الابيض هو وابور المحروسة وفرقاطة محمد على وقروبت الصاعقة أما فى البحر الاحمر فوابور الجعفرية ومخبر والطور وأن تباع وابورات مصر والغربية وسنار والخرطوم وكذا باقى المراكب الصغيرة ولما صادقت الحكومة على ذلك اشترى وكيل البحرية المذكور هو وبعض شركائه فى ذلك وهم اسمعيل بك ابراهيم ورستم بك العلايلى وسعد الله بك حلابه وناضورى بك وابورى الغربية ومصر بمبلغ ١٤،٠٠٠ جنيه مصرى وكان مصر مشترى بمائة وستين ألف ليره فرنسوية والغربية بمائة وستة وثلاثين ألف ليره فرنسوية واشترى الموسيو أرشل سفينتى الخرطوم وسنار بمبلغ زهيد أما مابقى فقد كسرت وبيعت قطعا وأخذ مصطفى باشا العرب مع صنيعته اسمعيل بك المهندس المذكور فى بيع جميع أدوات وآلات دار الصناعة فباعا مابها من الادوات والمعدات الحربية والغير الحربية التى كانت مخازنها ملأى بها منذ عهد ساكن الجنان محمد على باشا الكبير

هذا ولما حضر اللورد نورثبروك الذى انتدبته حكومة الانكليز للنظر فى مقتضيات الديار المصرية سنة ١٨٨٤ م وتقديم تقرير مفصل بذلك كان مما أشار به إلغاء البحرية المصرية لتمام الاقتصاد فاحيل وكيلها مصطفى باشا العرب ومن معه من المأمورين على المعاش (١٨٨٥ م) وتعين حسين فهمى باشا قومندان المحروسة مأمور الاشغال البحرية ريثما يتم بيع مابقى من أنقاض وآثار البحرية المصرية وأغلقت معاملها التى تقاسمتها مصالح خفر السواحل ومصالح أخرى كالفنارات واللمانات وغيرها وألحقت باخرة المحروسة بميزانية المعية السنية اتباعا لما قال به اللورد المشار اليه وأضيفت مصاريف فرقاطة محمد على وقروبت الصاعقة والجعفرية ومخبر الى ميزانية مصلحة اللمانات والفنارات التى يرأسها الاميرال مورنس باشا (١٨٨٥ م) وتقرر أيضا عدم استعمال الحوض الحجرى الذى بناه المرحوم محمد على باشا بدعوى انه لا يفى بحاجات السفن الكبيرة لصغره وعدم التمكن من صرف المياه منه تماما عند الحاجة وبيعت الآلة المعدة لاخراج مائه وألحقت ادارة الحوض العوام الذى بميناء الاسكندرية بمصلحة وابورات البوستة الخديوية وكذا حوض السويس الحجرى مع المعامل التى كانت بجانبه فى ميناء ابراهيم التابعة لقومندانيتها الملغاة أيضا عند الغاء البحرية كما تقدم

هذا ولما تعاظمت الثورة بالسودان وتداخلت انكلترة عسكريا لاخمادها وتخليص الجنرال غوردون باشا الذى كانت أرسلته الحكومة المصرية لاخلاء السودان وحاصره الثوار فى الخرطوم وسيرت الخلاصة حملة فى سنتى ١٨٨٤ و ١٨٨٥ وأرسلت مع جنودها عساكر مصرية من طريق النيل جهزت مصر فى ذلك الوقت عدة سفن من بواخر الانجرارية النيلية وسلحتها بالمدافع وقد تمكنت بها من نقل الذخائر والجنود الى بعض جهات النوبة وجلب الانكليز أيضا معهم عدة سفن أخرى

Digitized by Google

وفى خلال تلك الوقائع غرقت بعض البواخر المصرية التى كان أرسلها الجنرال غوردون مع خشم الموس باشا الضرب بربر بالقنابل ثم انكسرت الباخرتان الاثنتان أرسلهما ثانيا مع الباشا المذكور لتوصيل كتابه الى قائد جيش الحملة المذكورة ثم لما أشار الانكليز على الحكومة المصرية بترك السودان (١٨٨٣ م) وحصل ما حصل الى ان سقطت عاصمة الخرطوم فى يد المتمهدى وخرجت من تلك البلاد العساكر المصرية تعطلت الملاحة فى جميع القسم الاوسط من النيل وفقدت مصر (١٨٨٥ م) أيضا دار صناعة الخرطوم وما كان بها من البواخر والسفن والآلات والادوات التى أوجدتها بها منذ فتحها لهذه البلاد كما أنها فقدت من ثغورها على البحر الاحمر والمحيط الهندى فى ذلك الوقت بربرة وزيلع وتاجوره ومصوع بعد أن صرفت على اصلاحها القناطير المقنطرة من الذهب والفضة

وفى خلال سنة ١٨٨٥ المذكورة أظهرت انكلترة رغبة الاتفاق مع الدولة العلية على تسوية المسئلة المصرية وعينت من قبلها مندوبا عاليا وهو السير دروموندو وولف وأرسلته الى الاستانة للمداولة والمذاكرة مع رجال الدولة فصادف سقوط سعيد باشا من الصدارة وخلفه فيها كامل باشا وقرر الباب العالى ارسال معتمد عال من طرف الدولة وعينت لذلك دولة الغازى أحمد مختار باشا رئيس قومسيون التفتيش العسكرى ثم حضر السير درومندو ولف الى مصر فى أواخر اكتوبر وحضر بعده الغازى المشار اليه فى شهر نوفمبر وعقب وصوله أخذ يجتمع بالمعتمد الانكليزى ويتبادل النظر فى المسئلة وكانت الجلسات تعقد برياسة الخديو المرحوم توفيق باشا ثم وضع الغازى لائحته المشهورة بخصوص تنظيم الجيش المصرى وغير ذلك مما يختص بالمسئلة المصرية فاعترضت الحكومة الانكليزية على لائحته وكانت وزارة المحافظين فى انكلترة قد سقطت فى أثنائها وقام مقامها وزارة الاحرار فبقيت المسئلة المصرية معلقة كما كانت الى الآن وسيأتى ذكر ذلك بأوفى بيان

ولما رأت الدولة العثمانية صاحبة السيادة على مصر الاتفاق مع انكلترة على شروط لاخلاء القطر المصرى من الجنود الانكليزية وتحررت الشروط اللازمة وأراد الجناب السلطانى التصديق عليها سنة ١٨٨٧ م اعترضت كل من فرانسا والروسيا على هذا الاتفاق لكونه تم بدون استشارتهما ولذلك رجع الباب العالى عن التصديق على هذا الوفاق الذى كانت صادقت عليه ملكة الانكليز وكل ذلك حدث بعد عودة المندوب الانكليزى العالى وبعد حصول مخابرات بين الدولتين المذكورتين وقد ظهر فى تلك السنة محرر السير درومندو ولف المندوب العالى الانكليزى عصر كتبه الى المركيز سالسبورى ذكر فيه ما لفرانسا من الحقوق فى المسئلة المصرية ولتعلقه بحق الملاحة فى قنال السويس أوردنا منه القسم المختص بذلك وهو ان حقوق فرانسا تنقسم الى قسمين وهما أولا الاعتراف لها بخدمها العظيمة فى فتح ترعة السويس وثانيا مراعاة الفوائد التى اعترفنا بها عند اشتراكها معنا فى ادارة مصر ثم ان فرانسا انفصلت عنا بارادتها فى سنة ١٨٨٢ وبنى عليه فسخ الاشتراك المذكور وأى المراقبة الثنائية غير أن ذلك لا يمحو تاريخ الاعوام الغابرة وعلى كل حال فترعة السويس هى أول وجه يلزم مراعاته فى هذا المقام وقيل ان ترعة السويس فى زمن الحرب ربما تخربها أو تسدها الدونمة الانكليزية على أنه لا يجوز لدولة محاربة أن تتلف لغايات عملا كهذا ينتفع منه سائر العالم على أن هذه الترعة هى قطعة من البحر الاحمر تمخر فيها سفن التجارة على اختلاف أعلامها

Digitized by Google

ولانكلترمهما الثلاثة أرباع التجارة فوجودها ضروري لاملاك انكلترة في الهند ومستعمراتها فاذا أبرم اتفاق دولي لحفظ حرية القنال لتجارة سائر الدول فيكون ذلك مفيدا لنا جدا ولما كانت هذه مقاصدنا وجب علينا ايجاد وفاق سياسي تحمى به القنال من كل أخطار وتقى مصر من كل هجوم واعتداء ومن المعلوم أن حيادة القنال لاتتم الا اذا تمتعت البلاد المحيطة به وكذا الترعة الحلوة بمثل هذه المزايا ويوجد شرطان ضروريان للوفاق المستقبل وهما (أولا) حيادة القنال لحفظه على الدوام مفتوحا بصفة قطعة من البحر حائزة مزايا الخصوصية (ثانيا) تأسيس هيئة لحماية القطر المصرى نفسه تضمنه من التعدى وتسمح بتخفيض عدد القوة العسكرية الى ما يناسب حالة سلم دائم ولكن بالنظر لموقع مصر الجغرافي أرى من اللازم أن الحيادة تضمن حقوق حرية السفر في القنال لجميع الأمم وأن لا يكون الغرض منها منع السفر فيه كما في باقي الاحوال اه وقد جرت المخابرة في هذا الخصوص زمنا بين حكومة انكلترة والموسيو وادنكتون سفير فرانسا في لوندره والموسيو فلوران وزير خارجية فرانسا في باريس على قواعد منها أنه بمقتضى هذه الحيادة تكون عمارات الدول على الدوام حرة في اجتياز الترعة التي لا يمكن أن تحصن ضفافها وأن يعهد الى لجنة دولية مراقبة تنفيذ هذه التسوية واستمرت المخابرات بين الدول مدة وأخيرا تقررت شروطها وصادقت الدول عليها وفي ٣ نوفمبر سنة ١٨٨٧ ظهرت في الجرائد الفرنساوية بباريس ولاهمية هذا الوفاق في الملاحة داخل قنال السويس المعتبر جزأ من أجزاء مصر المهمة أدرجناه في ذيل هذه الصحيفة ليكون تذكارا مهما في مقدمة الملاحة المصرية (١)

(١) (البند ١) تكون الملاحة حرة في قنال السويس بأزمنة الحرب والسلم على حد سواء وتباح الملاحة فيه الى كل باخرة حربية أو تجارية بدون أدنى استثناء وتتعهد الدولتان المتعاقدتان بان لا تلقيا أقل عثرة في سبيل الملاحة سواء كان ذلك في وقت الحرب أو في وقت السلم ولا يجوز لاى دولة أن تحاصر القنال (البند ٢) تعترف الدول المتعاقدة بضرورة لزوم ترعة المياه الحلوة الى قنال السويس ومن ثم يتعين عليهن مراعاة مواثيق حكومة الجناب الخديوى مع الشركة العمومية المتعلقة بترعة المياه العذبة ويتعهدن برعاية الترعة والمساقى المتفرعة عنها (البند ٣) تتعهد الدول المتعاقدة أيضا بعدم الحاق الضرر في مهمات وبنايات وأشغال قنال السويس وترعة المياه الحلوة (البند ٤) لا تقام على ضفاف القنال معاقل أو حصون يمكن استخدامها للتهديد بسلامة القنال ولا يجوز احتلال عساكر في أية نقطة كانت سواء كانت عند مدخل القنال أو على عرضه (البند ٥) تباح الملاحة في القنال للبواخر الحربية في زمن الحرب ولا يجوز اجراء تظاهرات عدوانية أو أعمال حربية عند حدود القنال أو عند مدخله أو على ضفافه وانما تباح الاعمال الحربية خارجا عن المناطق التي تحددها القنال اللجنة المختلطة المكلفة بالملاحظة (البند ٦) لا يباح في زمن الحرب للدول المتحاربة أن تنزل على شاطئ القنال أو على مدخله عساكر ولا أن تأخذ منه اذخيرة أو مؤنات حربية (البند ٧) يجرى مفعول منطوق البند السادس على جميع السفن الحربية (البند ٨) لا يجوز للدول ان تشيد أبنية حربية في مياه القنال ولا في بحيرة التمساح أو في البحيرات المرة ويباح للبواخر الحربية أن ترسو في زمن الحرب عند مدخل القنال في بورت سعيد والسويس بشرط أن لا يتجاوز عددها باخرتين لكل دولة (البند ٩) على قناصل الدول الموقعة على هذا الوفاق ان يسهروا على تنفيذ شروطه ومتى تراءى لهم أن حالة القنال أو المرور فيه تهدد بعلهم ان يعقدوا جلسة لاتخاذ الاحتياطات اللازمة ويخبروا الحكومة المصرية بالخطر الذى يهدد القنال حتى تتخذ أفضل الوسائل لتأمين حالة القنال والمرور فيه وعلى القناصل المتقدمى الذكر أن يعقدوا جلسة واحدة في كل عام تأكيدا للتنفيذ بنود هذا الوفاق ويحق لهم عند اللزوم أن يطلبوا توقيف أى عمل وازالة كل ما من شأنه أن يلقى العثرات في سبيل حرية الملاحة (البند ١٠) يتعين على الحكومة المصرية بمقتضى الحقوق المخولة لها بفرمانات الباب العالى أن تتخذ الوسائل اللازمة لاحترام تنفيذ بنود الوفاق ومتى عجزت الحكومة المصرية عن القيام بهذه المهمة عليها أن تخبر الباب العالى حتى يتداول في شأن ذلك

وكانت

Digitized by Google

وكانت مصلحة الانجرارية بنهر النيل فى أوّل عهد الخديو المرحوم توفيق باشا باقية على حالتها التى كانت عليها مدة والده وبعد دفع الثورة انفصلت عنها ادارة وابورات الركائب الخديوية ببحر النيل واتبعت بالمعية السنية وأحيل قومندانها المرحوم أحمد باشا حسنين على المعاش وتعين مكانه على بك عبادى وبقيت مصلحة الانجرارية تابعة لنظارة الاشغال العمومية وكانت الحكومة عقدت شروطا مع شركة كوك أجازتها فيه بتشغيل بعض البواخر المذكورة فى نقل السوّاح وذلك من عهد الخديو الاسبق اسماعيل باشا (١٢٩٠ ﻫ) فى مقابلة مبلغ تدفعه للحكومة كالاتفاق بينهما واستمر ذلك حتى استعملت شركة كوك المذكورة هذه السفن لنقل الجيوش الانكليزية فى حملة سنتى ١٨٨٤ و ١٨٨٥ حينما تقدمت لرفع الحصار عن الخرطوم كما سبق ثم بعد ذلك اقتصدت نظارة الاشغال فى هذه المصلحة وأوقفت سير بعض تلك البواخر وأحالت ناظرها اسرهنك بك على المعاش ثم باعت الى شركة كوك المذكورة كثيرا من بواخرها وكسرت ما لا ينفع منها وأبقت بعضها الاشغالها الضرورية وللاعمال اللازمة لادارة التحف المصرية وفى خلال ذلك زادت مصلحة خفر السواحل بعض بواخرها وابتاعت بعض مراكب شراعية من انكلترة واستخدمت فيها بعض وطنيين وصارت تستعمل هذه البواخر والمراكب فى أمر مراقبة السواحل المصرية لمنع تهريب الاشياء الممنوع دخولها من جمارك الحكومة بمقتضى نظاماتها وفى سنة ١٨٨٧ م وضعت مصلحة اللميانات علامات عوّامة كبيرة على طرفى مدخل بوغاز الاسكندرية ووضعت على طابية كوم الناضورة بعض آلات للارصاد الجوّية وأقامت هناك سارية ارتفاعها ١٤٠ قدما ووضعت فيها كرة تسقط كل يوم بانتظام وقت الزوال بدل التى كانت فوق مدرسة البحرية بالترسانة كما سبق وعينت هناك مراقبين من الملاحين للاخبار بقدوم المراكب القادمة على الثغر لتقوم مصلحة اللميانات بواجباتها ثم تقرر تعميق بوغاز مينا الاسكندرية حتى تدخله المراكب من تلقاء أنفسها بدون عائق أو واسطة وعهد هذا العمل الى احدى الشركات الانجليزية وباشرت عملها وهو كسر الصخور الموجودة به تحت مراقبة مصلحة اللميانات فتظلم من هذا الامر رؤساء البوغاز الذين يتعيشون من هذه المهنة التى ورثوها عن آبائهم وأجدادهم فنظرت الحكومة فى شكواهم وأحالت أمرهم على مصلحة اللميانات فسنت لهم نظاما حفظت لهم به بعض تلك الحقوق وفى أوّل سنة ١٨٨٧ قررت نظارة الحربية

مع الدول الموقعة لاتخاذ الوسائل فى سبيل وقاية القنال (البند ١١) الاقتراحات المدوّنة فى البنود ٤ و ٥ و ٦ و ٨ لا تجعل أدنى عائق لجلالة السلطان الاعظم وسموّ الخديو أن يتخذا جل الوسائل فى سبيل حماية القطر المصرى واعادة الامن فيه فى حالة انعدامه ومتى أراد جلالة السلطان أو سموّ الخديو أن يجريا أعمالا حربية فى القنال انقيادا لاحكام الضرورة واعادة للراحة والامن فى القطر المصرى اذا حدثت فيه ثورة فعليهما أن يشعرا الدول بذلك (البند ١٢) اجراء الاحتياطات المخولة للباب العالى فى البند العاشر والحادى عشر من هذا الوفاق لا يمنع حرية الملاحة فى القنال ولا يجوز اقامة الحصون دائما على القنال (البند ١٣) تعترف الدول المتعاقدة بحق المساواة فى التمتع بحرية الملاحة وأن لا يجوز لواحد منهن أن تسعى بالنسبة للقنال لتوسيع نطاق أراضيها أو تجارتها أو لنوال امتيازات فى النظامات الدولية التى يمكن ادخالها بعد هذا الوفاق والدولة العلية هى الدولة المالكة لاراضى القنال (البند ١٤) هذا الوفاق وجميع ما انطوت عليه بنوده لا يمس قط بحقوق العظمة السلطانية ولا بحقوق الجناب الخديوى المخولة لسموه بالفرمانات (البند ١٥) هذه الشروط لا ينقضى أجلها بانقضاء الاجل المعين لشركة قنال السويس (البند ١٦) هذه الشروط أيضا لا تمس الشروط المقررة للقرنتينات المصرية (البند ١٧) يتعين على الدول المتعاقدة أن تطلع بقية الدول التى لم تمض على الوفاق بقصد التوقيع عليه اﻫ

Digitized by Google

والبحرية أن لا يطلق مدفع الزوال فى ثغر الاسكندرية من كوم الناضورة وأن يحال أمر اطلاقه على فرقاطة محمد على التى كانت تحت قيادة محمد أمين توفيق باشا وأن يطلق الحصن المذكور سهما ناريا فى الفضاء عند شبوب حريق فى المدينة وأن يطلق سهمين اذا كان الحريق فى السفائن داخل الميناء ويطلق من تلك الفرقاطة مدفع واحد بعد خروج كل سهم وذلك لاخذ الاحتياطات اللازمة وفى هذه السنة صدر الامر بتوقيف سير باخرتى الجعفرية والطور بالبحر الاحمر وأحيلت بعض رجالهما على البوستة الخديوية وبعضهم على المعاشات ثم بيعا بعد كسرهما وكسر وأيضا وابور القصير بالبحر الاحمر

ولما تبوأ خديوينا الحالى عباس حلمى باشا الثانى ادام الله ايامه الاريكة الخديوية بمقتضى الفرمانات المؤيدة لحقوق الوراثة الخديوية (١٣٠٩ هـ ١٨٩١ م) وجد البلاد المصرية مشتغلة برد هجمات الدراويش عن حدودها القبلية وعن جهات طوكر وسواكن ورجال الانكليز آخذين فى تنفيذ الاصلاحات التى رسمها لهم اللورد دوفرن فى لائحته الشهيرة صرف العناية فى التوفيق بين المصلحتين لامكان السير فى جادة السلام والامان وأخذ يستطلع المقاصد والرجال للوصول الى أحسن الطرق التى يأمل أن تعود على القطر السعيد بالفوائد والارتقاء ومن أعماله التى عادت على البحرية ببعض الترقى اصلاحه باخرة المحروسة المخصصة لركوب الحضرة الخديوية فأصلح مراجلها سنة ١٨٩٤ بعد أن قررت الحكومة بيع فرقاطة محمد على وقرويت الصاعقة لعدم صلاحيتهما للعمل (١٨٩٣ م) وأحالت طوائفهما على المعاش وأخذت نظارة الحربية احدى بواخر البوسطة وهى باخرة البحيرة وخصصتها للاعمال بالبحر الاحمر وكانت الحكومة قررت الغاء المدرسة البحرية الا أن العزيز حفظه الله أمر بابقائها فشكلت ثانية بوابور المحروسة الا أنهم اختصروها وجعلوا بها خمسة تلامذة فقط ورتبوا لهم ما يلزم من المعلمين وخصصوها لتخريج الضباط الذين يلزمون فى المستقبل لبواخر الحكومة بحر النيل وللبوستة الخديوية وعراكب خفر السواحل فكان فى ذلك بعض مداركة الضرر ولميله حفظه الله الى الاسفار البحرية أوصى باحد معامل مدينة غلاسكو على يخت خصوصى نفيس جدا سمى بصفاء البحر طوله مائتا قدم وعرضه ٢٧ قدما ومحموله ٧٠٠ طن وقوة آلاته ألف ومائتا حصان بخارى ولما تم بناؤه أرسل من مصر الميرالاى البحرى على بك عبادى قومندان الركائب الخديوية ببحر النيل مع ثلاثة ضباط آخرين من وابور المحروسة فاحضروه الى ثغر الاسكندرية فى شهر سبتمبر سنة ١٨٩٤ وفى سنة ١٨٩٥ قررت الحكومة بناء على مارآه المستر روف الانكليزى مدير مصلحة البوستة الخديوية باجراء بعض اقتصادات فى المصلحة وصارت سفنها لا تقف على كافة الثغور التى كانت تمر عليها قبلا فجعلوا فى البحر المتوسط الابيض سفريات أسبوعية مستعجلة بين الاسكندرية والاستانة رأسا تقطعها السفينة فى ٥٦ ساعة فقط وخصصوا لها ثلاث بواخر وهى توفيق ربانى والقاهرة والبرنس عباس أما الثغور التى صارت لا تقف عليها السفن فهى بهذا الخط بيريه واندروس وتينوس وسيرا وساقز وازمير وكابسولى ومديللى والقلعة السلطانية والغوا بذلك ما كان لهذه المصلحة من العمال والوكلاء بتلك الثغور هذا أما خط سوريا فابقوه على ما كان عليه أى عرا أسبوعيا على يافا وبيروت وطرابلس ومرسين ا ثم منعوا السفن من الوقوف بمدينة بورت سعيد وخصصوا

لهذا

لهذا الخط بواخر الشرقية والدقهلية وجعلوا باخرة الفيوم كاحتياطى له أما بالبحر الاحمر فجعلوا معاد السفريات به فى كل خمسة عشر يوما فتخرج السفن من السويس وتمر بعدن جدة وسواكن والغوامة وتكميل ينبع ومصوع والحديدة وخصصوا له بواخر الرحمانية والمحلة ومسير وشبين والبحيلة يشتغل منها اثنان والثلاثة الباقية تكون سفنا احتياطية وجعلوا وابور ينبع لتكرير المياه فى زمن الحج وقرروا تكسير وابورات المنصورة والزقازيق والحديدة ودمنهور وباعت المصلحة أنقاضها بألف جنيه مصرى ويقال انه عندما أشيع ذلك طلب أحد تجار عدن المدعو قهوجى الهندى مشترى باخرة المنصورة بثلاثة آلاف جنيه وطلب الناضورى بك والحدينى وغيرهما من التجار المصريين ابتياع بعض البواخر ولكن صادف أن طلبهم علم يوم أن ابتدأت المصلحة فى تكسيرها وبيع أنقاضها ولم يبق للحكومة الآن من كل بواخرها المذكورة الا احدى عشرة باخرة فقط وهى السابق الكلام عليها وللقسم البحرى من مصلحة خفر السواحل الآن سبعة وابورات وهى نور البحر وعباس وظريف ووردة وسريع والنيل ومخبر سرور وزورقان بخاريان وسبع سفن شراعية صغيرة وهى نسيم وطير البحر والنمر وغزالة ومبروكة وبسيل وزولا وبعض زوارق أخرى بجميعها من الطوائف بحسب المرتب الذى اعتمدته المصلحة المذكورة من أول أغسطس سنة ١٨٩٦ تسع وعشرون ضابطا وتسعة عشر مهندسا ميكانيكيا وثمان وثلاثون وقادا و ٤٢٧ ملاحا فيكون الجميع ٥١٣ ولم يبق الآن من سفن نظارة البحرية المصرية الملغاة سوى وابور المحروسة التى نسأل الله حفظه حتى يبقى لمصر الأسيفة تذكارا من مجدها البحرى القديم وبقى ببحر النيل خمس بواخر مخصصة للحضرة الفخيمة الخديوية وهى فيض ربانى وفيض ظفر وفيروز وزينة البحرين وهيهيه ومن أعمال مولانا الخديو أيضا التى عادت على البحرية المصرية بالفوائد ايجاده لميناء قصر المنتزه العامر جعلها خاصة بسموه بحيث يمكن للسفن الصغيرة الخديوية أن ترسو وتقلع منها عند الحاجة وقد بلغت تكاليفها نحو ثمانية عشر ألف ليرة مصرية ومن أميال مولانا الخديو الى اصلاح وتمييز أمر البحرية المصرية يتضح أن سموه يسعى فى أن يكون لمصر بحرية وأساطيل تحافظ بها على سواحلها وقت الحاجة مثل كل الممالك الواقعة على البحار نسأل الله تحقيق ذلك قريبا

الباب الثانى

(تاريخ مصر)

﴿ الفصل الاول ﴾

(جغرافية مصر الطبيعية ونهر النيل والملاحة فيه)

مصر بلاد عظيمة واقعة فى الشمال الشرقى من افريقية بين الدرجة ٣١ والدقيقة ٣٠ والدرجة ٢٤ والدقيقة ٥ من العرض الشمالى وحدودها الطبيعية من جهة الشمال بحر الروم أو البحر الابيض المتوسط ومن الشرق خليج السويس وقنال السويس والبحر الاحمر ومن الغرب صحارى ليبيا ومن الجنوب بلاد النوبة المبتدئة فى الحقيقة من شلال اسوان هذا أما حدها السياسى من

جهة الشرق خط مفروض مار بمدينة العقبة بحيث يجعلها شرقا ومدينة العريش بحيث يجعلها غربا وكان قدماء المصريين يدعونها باسم كيم أى السوداء نسبة الى تربتها الشديدة السواد أو بالنسبة للون سكانها القدماء على قول وكان قدماء اليونان واللاطين يدعونها باسم اجبتيوس (Ægyptius) ومعناه بالعربية القبط نسبة الى الطائفة التى هى بقية قدماء أهل مصر وأما اسمها باللغة القبطية فهو كيمى ومعناه أرض حام بن نوح وذكرت فى التوراة باسم مصرايم نسبة الى مصرايم بن حام بن نوح وأرض مصر عبارة عن وادى يكتنفه جبلان من الشرق والغرب وهما جبال ليبيا وجبال العرب وهذا الوادى تارة يضيق وتارة يتسع وأضيق مكان فيه عند جبل السلسلة القريب من ادفو ثم يتسعان قليلا قليلا حتى اذا حاذيا مصر العتيقة أى الفسطاط تباعدا كثيرا وامتد شرقيهما الى الاسكندرية وغربيهما الى بحر القلزم ويبلغ مسطح مصر بما يشتمل عليه من الجبال والصحارى والارض الزراعية نحو ٢٤٠٠٠٠٠٠٠ هيكتار ومحيطها ٨٠٠٠ كيلومتر وطولها ٢٦٠٠ كيلومتر ومتوسط عرضها يبلغ ٧٦٥ كيلومترا تقريبا ويختلف ارتفاع قمم هاتين السلسلتين فلا يزيد أعلاها عن ٣٥٠ مترا ولا ينقص أخفضها عن ٥٠ مترا ولما كانت سلسلة الجبال العربية مكونة من جبال منفصلة عن بعضها تعددت أسماؤها لدى السكان فمن أشهرها جبل البرمات عند اسوان وجبل السلسلة بين اسوان واسنا وجبل الطوق بمدينة قنا وجبل الشيخ الهريدى بمديرية جرجا وجبل أبوفودة بمديرية أسيوط وجبل الطير بمديرية المنيا وجبل الحامور بمديرية بنى سويف والجبل المقطم بالقرب من القاهرة أما سلسلة جبال ليبيا فلما كانت قممها أكثر انخفاضا كانت جبالها غير مشهورة واعلم أن سلسلة الجبال العربية يقطعها عدة وديان تصل بين النيل والبحر الاحمر أعظمها وادى القصير وبه عدة مقالع استخرج منها القدماء الاحجار ولا يزال يشاهد هنالك للآن أطلال مدن وقرى كانت تسكنها العمال

وبالصحراء العربية التى بين النيل والبحر الاحمر سلسلة أخرى تمتد عرضا من رأس بناس الى اسوان وهى الحد الفاصل بين بلاد النوبة ومصر وتسمى بسلسلة الشلالات وعلى سواحل البحر الاحمر سلسلة ثالثة موازية لساحله مكونة من عدة جبال أشهرها جبل زبارى بحذاء مدينة ادفو والى الشمال منه أمام أسيوط تقريبا جبلان آخران هما جبل القطرة وجبل الدخان وعلى ساحل خليج السويس جبل يسمى بجبل الغويب وغربى مدينة السويس جبل عتاقه وبالقرب من بحيرة التمساح جبل جنيفه وأحجاره جيرية بخلاف أحجار الجبال السابقة الذكر فكلها صوانية بين جبوبية ونارية وسماقية وقد استخرج قدماء المصريين والرومان من هذه الجبال الاحجار النفيسة خصوصا السماق المختلف الالوان الذى استخرجوه من جبل الدخان وأخذ المصريون من هنالك المسلات والاحجار الصلبة الجسيمة التى صنعوا منها تماثيلهم وتماثيل معبوداتهم وبجميع المدن العظيمة التى على ساحل البحر الابيض المتوسط أحجار نفيسة بين حمراء وزرقاء وخضراء جلبها الرومان وملوك القسطنطينية من مصر وشيدوا بها معابدهم ومبانيهم وقد أهملت الآن كل هذه المقالع الا مقالع الجبل المقطم ومن معادن مصر أيضا زيت الفحم الحجرى وله ينابيع كثيرة بالقرب من خليج السويس واستخرج القدماء أيضا الزمرد من جبال الصحراء العربية كما هو مشهور ومعلوم وبشبه جزيرة الطور التابعة لمصر كثير من الجبال الشامخة أشهرها جبل سيناء وجبل كثرينا وجبل سربال وجبل التيه ومن

جبالها

جبالها استخرج القدماء الحديد والنحاس والفيروزج ولا يزال بدو تلك البلاد يلتقطونه للآن ويبيعونه ويوجد الذهب أيضا جنوبي اسوان وكان قدماء المصريين يستخرجونه هنالك بكمية وافرة وعربان العبابدة يلتقطونه الآن من مجاري السيول ويبيعونه للتجار والرخام الاصفر الكهرماني اللطيف وجبله يبعد ثمان ساعات عن بني سويف شرقا ومنه جلب المرحوم محمد علي باشا رخام جامعه الذي بقلعة الجبل ومن المعادن بمصر أيضا الملح وهو جيد مشهور والنطرون وغيرهما ولولا عدم وجود المواد الاولية الضرورية لاستخراج المعادن ونقص المواصلات لامكن استغلال هذه المعادن وكان يعود منها على الامة والاهالي ربح وافر

أما صحراء ليبيا فهي عبارة عن نجد رملي خال من السكان به عدة واحات مسكونة تمتد من الجنوب الى الشمال موازية لمجرى النيل وأشهرها واحة بريس والواحة الخارجة والواحة الداخلة وواحة فرافرة والواحة البحرية ثم واحة سيوه وهي بالشمال الغربي بالقرب من بلاد برقة وبكل هذه الواحات ينابيع طبيعية وآبار صناعية يستقي منها السكان ويروون مزارعهم

وبالقسم الشمالي من الدلتا أو مصر السفلى عدة بحيرات أكبرها بحيرة المنزلة وهي شرقي الفرع الشرقي بين مدينتي دمياط وبورسعيد ويبلغ مسطحها ١٧٠,٠٠٠ فدان وتتصل بالبحر الملح وقد تحول قسم عظيم منها الى أرض وهو القسم الذي فصله قنال السويس جهة الشرق وهذه البحيرة كثيرة الاسماك جدا يعود منها على الحكومة سنويا دخل وافر وبالقرب منها يستخرج الملح وبحيرة البرلس وهي بين فرعي النيل أصغر من المنزلة وتتصل بالبحر الملح من مكان واحد وتتسع زمن الفيضان حتى تبلغ ثلاثة أمثالها ثم من التحاريق وبحيرة ادكو وبحيرة أبوقير وهما غربي فرع رشيد ولقلة مياههما وعدم اتصالهما بالبحر سيتحولان عما قليل الى أرض زراعية سيما وان احدى الشركات تشتغل الآن في تجفيفهما وبحيرة مريوط وهي أكبر من البحيرتين السابقتين واقعة جنوبي الاسكندرية وكل هذه البحيرات آخذة في الجفاف تدريجيا بما يجلبه النيل معه سنويا من الطمي والمواد الاخرى وكلها قليلة العمق وببلاد مصر خلاف هذه البحيرات بحيرات أخرى أقل أهمية وهي بحيرة قارون بمديرية الفيوم واليها ينصرف ما زاد من مياه ذلك الاقليم بعد سقيه والبحيرات التي يخترقها قنال السويس وهي بحيرة البلح وبحيرة التمساح والبحيرة المرة وفي غربي الدلتا سبعة مستنقعات قليلة العمق تسمى بحيرات النطرون تستخرج الحكومة منها كل سنة ما يزيد عن أربعين ألف قنطار من النطرون

واعلم أن مصر واقعة على بحرين عظيمين وهما بحر الروم وبحر القلزم كما تقدم وطول سواحلها على بحر الروم ٨٧٠ كيلومترا وذلك من خليج سلوم آخر نقطة في حدودها الشمالية الغربية الى العريش شرقا وأرض هذا القسم الواقع بين ولاية طرابلس والدلتا فقر قليل السكان والنبات تكثر به الكثبان أما سواحلها الممتدة على البحر الاحمر فطولها ١٣٠٠ كيلومتر منها ٥٠٠ كيلومتر من العقبة الى السويس و ٥٠٠ كيلومتر أخرى من السويس الى القصير وثلثمائة كيلومتر من القصير الى رأس بناس وهذه السواحل صخرية مرتفعة قليلا أكثر انسنانا وتعرجا من ساحل البحر الرومي

أما نباتات مصر فكثيرة مختلفة وكلها مما ينبت في المنطقة المعتدلة أو الحارة ومنها ما يزرع

Digitized by Google

فى الاراضى التى يسقيها النيل مباشرة عند فيضانه ومنها ما يزرع فى الاراضى الاخرى ويساق اليها الماء بالترع أو المساقى وهى جميع أنواع الحبوب والجوارش والبذور والكوامخ كالخردل والانيسون والسمسم والقرطم والحلبة والزعفران والبرسيم والسلجم والقثاء والبطيخ والقاوون بأنواعه والقطن وهو من أهم محصولاتها والكتان والذرة والتبغ وقصب السكر والنيلة والارز وهو من أجود أنواعه والورد وهو يزرع فى جهات الفيوم والقليوبية لاستخراج مائه وفى ديار مصر من الاشجار الكمثرى والتفاح والخوخ والليمون والعنب والنارنج والمشمش والرمان والموز والجميز والخرنوب والتمرهندى والحناء والاقاقيا وخيار الشمبر والدفلى والصفصاف واللبخ والاثل والسنط وغيرها كثير والنخل وهو أكثر أشجارها وقد استنبتوا بها الآن عدة أشجار أخرى جلبت من البلاد الاجنبية أما الماشية فى مصر فقليلة لقلة المراعى الطبيعية ومن حيواناتها الداجنة الخيل والجمال والبغال والحمير والجواميس والضأن والبقر والمعز والدجاج والحمام وحيواناتها البرية قليلة لعدم المأوى لها ففيها الضباع والغزلان وابن آوى وفرس البحر والتمساح وغيرها وفيها من أنواع الطيور الاليفة والبرية عدد عظيم

وهواء اقليم مصر مختلف باختلاف الفصول ففى أيام الفيضان يكون رطبا حارّا ومن شهر دسمبر الى مارث يكون باردا وفى هذه المدة تكون أرض مصر كبستان موشى بمروج خضراء منثور بها النخيل ومن مارث الى وقت فيضان النيل يشتد الحرّ وتكثر الامراض الوبائية وأمراض العينين ووقوع الامطار فى مصر نادر جدا الا على الشواطئ البحرية وذلك لان الرياح الشمالية الغالبة هناك تطرد الابخرة الصاعدة من البحر الى الجنوب وبين الاعتدال الربيعى والمدار الصيفى تهب ريح الجنوب وهى حارّة يابسة وتسمى بريح الخماسين

النيل والملاحة فيه — نهر النيل هو أكبر أنهار الدنيا القديمة وأطول أنهار العالم ويتكون من نهرين أصليين يسمى الاول بالبحر الابيض والآخر بالبحر الازرق الذى ينبع من بحيرة دمبعه ببلاد الحبشة على ارتفاع ١٨٠٠ متر عن سطح البحر ويصب فيه عدة نهيرات تأتى من جبال بلاد الحبشة ويجرى الى الشمال الغربى ويلتقى بالبحر الابيض عند مدينة الخرطوم ثم يصب فيه نهير عطبرة المسمى قديما استابوراس من الجنوب الشرقى عند بلدة الدامر أما البحر الابيض فقد تمكن العلماء من اكتشاف منابعه والوقوف على مخارجه حتى وصلوا الى الدرجة الثالثة من العرض الجنوبى وهناك وجدوه يخرج من بحيرتى فكتوريا نيازا العظيمة والبرت نيازا المنصبة اليهما مياه الجبال المجاورة على ارتفاع يبلغ ألف ومائتى متر عن سطح البحر الرومى ويخرج من الاولى نهر يصب فى الثانية من طرفها الشمالى الشرقى ثم يخرج من الثانية نهر النيل الابيض المذكور ويجرى الى الشمال ويلتقى بالنيل الازرق عند مدينة الخرطوم كما تقدم ثم يتجه شمالا مارا من وسط بلاد النوبة ويدخل أرض مصر عند مدينة اسوان وهناك الشلال الاوّل أو الآخر للنيل والشلال صخور كثيرة تظهر رؤسها فوق سطح الماء عند انحطاط مياهه ويسير النيل نحو الشمال حتى يصل الى مدينة القاهرة وبعد أن يبارحها بما يزيد عن عشرين كيلومترا يصل الى المكان المعروف ببطن البقرة حيث القلعة السعيدية والقناطر الخيرية يتفرع الى فرعين يصل الشرقى منهما الى دمياط والغربى الى رشيد ويصبان فى البحر المتوسط الابيض ولما كانت الارض المحصورة فى هذه المسافة

Digitized by Google

بين فرعى النيل تشبه مثلثا رأسه القناطر الخيرية وقاعدته البحر سماه اليونان بالدلتا لمشابهته حرف الدال عندهم وسميت هذه الدلتا فى عهد الخديو الاسبق اسمعيل باشا بروضة البحرين وهى الآن عبارة عن مديريتى المنوفية والغربية وفى الدلتا يتشعب النيل الى شعوب وفروع عديدة تصب جميعها فى البحر الابيض المتوسط أو فى البحيرات القريبة منه بعد أن تروى أراضى وقرى ومدن الوجه البحرى أما ما عدا ذلك من الاراضى فانها برارى وصحارى قاحلة قليلة السكان على العموم

وكان النيل فى الزمن السابق سبعة فروع كلها تصب فى البحر الملح وهى أولا الفرع البوبسطى أو البيلوزى (Pélusiaque ou Bubastique) ويعرف الآن بترعة أبو المنجا وكان يصب فى البحر بالقرب من قرية الطينة أو الفرما ومكانه ظاهر الى الآن والثانى الفرع الطانيتيكى (Tanitique) ويعرف الآن ببحر مويس والثالث الفرع المنديسى (Mendesien) ويعرف الآن ببحر أشمون الرمان ويصب فى بحيرة المنزله الرابع الفرع الفاطميتيكى ويعرف الآن بفرع دمياط (Phatmétique) الخامس الفرع السبنيتى (Sebennyte) ويعرف الآن بترعة مليج السادس الفرع البولبيتينى (Bolbitine) وكان جزأ من فرع رشيد ويخرج من الفرع الكانوبى (Canopique) الآتى ذكره بالقرب من بلدة الرحمانية السابع الفرع الكانوبى (Canope) ويسمى أيضا الهرقليوتيكى أو النقراتيكى وهو عبارة عن فرع رشيد قال المؤرخون انه من يوم أن عرف سكان الديار المصرية الملاحة فى نهر النيل صاروا يسيرون بسفنهم فيه وفى كافة فروعه بلا عوائق حتى قالوا ان صخور الشلالات الموجودة جنوبى اسوان ليست مخوفة بالنسبة لسير السفائن وان كانت تعطل السفر الى البلاد القبلية نوعا وكأن هذه الشلالات وجدت لتكون حدّا فاصلا لسير السفن بين البلاد المصرية والبلاد التابعة لها على ساحلى النيل بالنوبة والسودان المصرى وان التيارات المائية الجارية بين تلك الصخور لا تكون مانعة من السير فيه بالكلية وقد اتخذ الاهالى لمرور السفن بين تلك الشلالات طرقا مخصوصة يعرفونها كربطها بأحبال وجرها من الساحل بين تلك الصخور حتى تمر منها بسلام ويقال ان جبل السلسلة الكائن بين ادفو واسوان فى جانبى النيل من الشرق والغرب كان فى الاصل جبلا واحدا وكان معترضا أمام النيل كالشلالات المذكورة فقطعه القدماء ومر النيل منه وبذلك صار جبلين يكتنفانه وسمى بجبل السلسلة لسلسلة كانت تمدها القدماء معترضة بين الجبلين لمنع مرور سفن النوبة مدة الحروب التى كانت بين شعوبها وبين دول الفراعنة وكانت تؤخذ عندها الرسوم المقررة على السفن وكان أغلب سفن السودان التى تقصد مصر بالبضائع وغيرها ترسو فى موردة وادى حلفا حيث كانت من القديم أشهر الموارد لاتساعها وتجمع فيها السفائن الصاعدة أو المنحدرة بالمتاجر المصرية والسودانية على البرين وكان شلال حلفا المعروف أيضا بشلال عكه يعد أعظم شلال بعد شلال اسوان لان طوله يبلغ ١٢,٠٠٠ متر ويبلغ أعلى ارتفاع صخوره عن سطح الماء ٤٠ مترا وينحدر الماء من فوق تلك الصخور على مدرجات كانت تعطل السفن فى الازمان السالفة عن العبور فيه خصوصا أيام احتراق النيل ثم أصلح فى أيام الخديو المرحوم محمد على باشا الكبير اصلاحا سهل سير السفن فيه أكثر أيام السنة ولكون مجرى النيل فى جهات كروسكو ينعطف الى الشمال الغربى بصورة قوس كبير فهناك الرياح الشمالية والشمالية الغربية لا تساعد سير

Digitized by Google

السفن الصاعدة فيسحبها الملاحون بالحبال المسماة باللبان ويوجد بجهات ابريم صخور فى النهر تعطل سير السفن قليلا أما المسافة الواقعة بين شلال عكه وشلال حنك الكائن عند أبو فاطمة البالغة ٢٣٢ ميلا فانه يوجد بها أحد عشر شلالا وهى شلال كتنجره وشلال سمنه وشلال ميدو شلال أمبحول وشلال طنجور وشلال اللاموليه وشلال عكاشه وشلال دال وشلال عماره وشلال كجبار وشلال شعبان ومعظم هذه الشلالات غير مخيف وتمر بينها المراكب بلا عوائق كبيرة ماعدا شلالات دال وكجبار وحنك فان المرور منها به بعض الصعوبة الا أنه فى زمن الفيضان تمر منها السفن بسهولة وهناك شلالات أخرى بين دنقله وأبو حمد أشهرها شلال أدرمى الذى هو الرابع فى الدرجة وشلال أومى وبين أبو حمد وبربر شلال فوجرات وشلال أبو هشيم وشلال البقاره وشلال الامور وهو الخامس فى الدرجة ولا يصعب المرور بأغلب هذه الشلالات زمن النيل خصوصا أما فى زمن التحاريق فتتعطل الملاحة فى تلك الجهات تقريبا الا بالمراكب الصغيرة التى لا تحتاج الى مياه عميقة وترى فى أغلب الاوقات السفن مجتمعة فى أكثر الموارد وأشهر هذه الموارد موردة حلة مدير بة دنقله وعليها تمثالان قديمان أصلهما من الحجر أتى بهما اليها من ناحية البرقل فى سنة ١٢٧٦ ه وموردة الدبة وموردة امبحول وهى على رأس العطمور المذكور بالبها وموردة مراوى وهناك أثر هيكل من البرابى القديمة وموردة أبو حمد وهى فى أول العطمور المعروف بهم الواصل الى كروسكو وكانت العادة قديما أن السفن تشحن البضائع من موردة كروسكو الى الشلال الاول فان كان وقت فيضان النيل أمكن للسفن أن تستمر فى السفر لحد اسوان والا نقلت من السفن عند ناحية الشلال وحملت على الجمال الى اسوان ثم تنقل ثانية الى سفن تصدر بها الى الجهات البحرية ويوجد فى أكثر الموارد المذكورة الصناع والنجارون فتصنع فيها السفن العظيمة والمراكب الخفيفة والزوارق وغير ذلك من أدوات المراكب أما الملاحة بين بربر والخرطوم فلا يعيقها الا الشلال السادس المعروف بشلال سبلوكا وهو واقع فى جنوبى المتمه ولكنه سهل العبور

أما الملاحة فى جهات البحر الابيض وغيرهمن بلاد السودان الواقعة على ساحلى النيل ومنابعه فسهلة جدا الان السفن لا تقابل فيها موانع كبيرة وتسمى السفينة التى تمخر فى النهر بتلك الجهات بالنقيرة وتصنع عادة من خشب السنط بهيئة بسيطة توافق السفر هناك خصوصا بين الشلالات بحيث اذا حصل لها خلل أمكن تعميرها فى بضع ساعات وحمولة الواحدة فى الاكثر نحو ٣٠٠ اردب وان السفر بالسفن فى النيل بتلك الجهات لا يعتريه عطل الا فى نحو شهرين من السنة وذلك عند اقتراب فيضان النيل بسبب شدة التيار الواقع من التقاء البحر الابيض والازرق ببعضهما ووجود بعض صخور حجرية بالقرب من ملتقى الانهر وكانت أزيلت بمعرفة الحكومة المصرية فى عهد المرحوم الخديو الاسبق اسماعيل باشا مدة اصلاح دار صناعة الخرطوم عندما أوجد البواخر فيها لاشغال حكمدارية السودان فسهل بذلك السفر بتلك الاطراف والحاصل أن صعوبة الملاحة فى هذا النهر لا تكون الاوقت ما يكون على حالته الاعتيادية بحيث لا يصلح لسير السفائن الكبيرة التى يزيد وسقها عن ١٣٠٠ قنطار ولكن عند فيضانه تجرى فيه السفن الكبيرة باعظم شحن ويكون عمقه حينئذ نحو أربعين قدما انكليزيا ويقال ان مياهه فى وقت التحريق لا تزيد فى بوغاز دمياط عن ثمانية أقدام وفى بوغاز رشيد عن خمسة أقدام أما فى زمن فيضان النيل فيزيد عمق المياه بهما عن ٤٣ قدما بحيث

يمكن

يمكن أن تسير فيها أكبر السفن الحربية التي تحمل ٢٤ مدفعا وتصل الى القاهرة وقد ثبت عند أرباب المعارف الباحثين عن أحوال النيل أن علة فيضانه هي وقوع الامطار الغزيرة في الجبال المجاورة لمنبعه فتنحدر اليه مخلوطة بالطفل والطين الموجودة بتلك الجبال فتستقي منه أراضي مصر وغيرها ويرسب هذا الطين فوق الاراضي الزراعية فيكسبها مادة تقوى بها على تغذية النباتات ولذلك كلما ازداد فيضان النيل زاد الخصب في بلاد مصر والزيادة تبتدئ في أواخر سبتمبر (١٥ توت) وتأخذ في التناقص في شهر دسمبر (أواخر هاتور) من كل سنة

واعلم أن شاطئ الدلتا يتقدم تدريجيا داخل البحر لاسيما عند مصبيه وقد حسبوا ما يوجده النيل من الاراضي بهذه الكيفية فكان متوسطه سنويا عبارة عن مترين ونصف وعما يجلبه النيل من الطمي والمواد الاخرى التي ترسب على الارض الزراعية حدث في أرض وادي النيل ارتفاع بلغ بحسب تقدير أهل الفن نحو متر وربع في كل قرن وكان البحر الملح في الازمنة الغابرة يغمر بلاد الدلتا باجمعها وبما يجلبه من الطمي سنويا انحسرت مياه البحر عنها بالتدريج ونشأ منها هذه الارض الزراعية حتى ان هيردوت المؤرخ الشهير قال ان مصر هبة من هبات النيل

﴿ الفصل الثاني ﴾

(الثغور البحرية بمصر)

من تأمل في السواحل المصرية الواقعة على ريف البحر المتوسط الابيض والبحر الاحمر يرى أن الطبيعة أوجدت فيهما جملة أجوان ورؤس اتخذها القدماء مينا وثغورا صارت مع الزمن من أعظم الفرض التجارية خصوصا لما اعتنت باصلاحها الدول التي حكمت الديار المصرية وهذه الثغور منها قديم ومنها حديث فالقديمة هي مدينة *الطينة* أو الفرما المعروفة قديما بمدينة أواريس (Avaris) أو بيلوز (Peluse) وكانت تبعد عن البحر الابيض بقدر ميلين وكانت فرضتها لا تخلو من السفن الواردة والصادرة بأنواع السلع ومحل هذه المدينة بقرب الآن من مدينة بورت سعيد على الضفة الشرقية من القنال وفي زمن الفراعنة كانت حصن القطر من جهة الشرق وكان يقيم بها الحراس لحفظ البلاد من الطوارئ وذكر المؤرخون أهمية هذه المدينة والوقائع الحربية التي حصلت فيها في المدة القديمة حيث هاجمها العدو ثلاث عشرة مرة تقريبا فأول من هجم عليها الهكسوس أي الرعاة المشهورون بالعمالقة سنة (٢٨٥٠ ق م) ثم هجم عليها الفرس أربع مرات هجم عليها قمبيز عند اغارته على مصر (٥٢٥ ق م) وفي زمن كسرى ارتخشيارش الاول (٤٠٠ ق م) وفي زمن كسرى ارتخشيارش الثاني (٣٧٧ ق م) وفي زمن دارا ملك الفرس (٣٤٤ ق م) ثم هجم عليها اسكندر المقدوني (٣٣١ ق م) ومن فرع النيل المضاف الى هذه المدينة دخلت أساطيل اسكندر حين استيلائه على مصر وفي مدة البطالسة هجم عليها برديكاس حاكم الشام فلم ينجح (٣٢١ ق م) وهجم عليها انتيغون (٣٠٠ ق م) وانتيفوس ملك الشام (٢٧٠ ق م) وانطيوتوس فلم يتمكن من دخول الديار المصرية وفي زمن القيصر مارك أوريل الروماني هجم عليها اجاليوس رئيس الجيوش الرومانية فارتدخائبا (٥٥ ق م)

وهجم عليها أوكتافيوس رئيس الجيوش الرومانية (٣٠ ق م) - وقانوب (Canope) وهى من المدن القديمة فى مصر السفلى وكانت واقعة عند مصب النيل المضاف اليها ويقال انها سميت كذلك باسم دليل بحرى كان لمنيلاس مات فيها من لدغة ثعبان واشتهر سكانها بفساد أخلاقهم ومحلها الآن بلدة أبوقير - راقوده (Rakotis) بلدة شيدها الفراعنة على ساحل البحر الرومى فى غربى قانوب لتكون معقلا وكانت تعد قديما حصنا للديار مصر من جهة الغرب وقد شيد اسكندر المقدونى بالقرب منها أوعلى أطلالها مدينة الاسكندرية هذا خلاف مصبات النيل السبعة التى كانت تعد قديما كفرض أيضا لان السفن كانت تصعد منها الى أعلى النيل وكانت الفراعنة يسدون هذه المصبات بالاحجار ويحصنونها لمنع أساطيل العدو من دخول البلاد ولمنع مياه البحر الملح من أن تهجم على الارض الزراعية فتفسدها وكانت هذه الثغور أول باعث للدول القديمة على اتخاذ الاساطيل وكان البطالسة اتخذوا فى معظمها دور صناعات جعلتهم فى مقدمة دول البحار

وكان للديار المصرية على سواحل البحر الاحمر جملة ثغور أيضا ذكرها ديودور الصقلى ومن أقواله يظهر أن البحر الاحمر كان آخره بحيرة التمساح وكان به فرضة لمدينة ارسينوى (Arsinoë) ويستفاد من قول استرابون أيضا وبلين وغيرهما أن فرضة هذه المدينة كانت بقرب بلدة سيرا بيوم أنشأها أحد البطالسة وسماها باسم أخته وجعلها فى آخر البحر الاحمر ولعلها فرضة بطولمايس (Ptolémaïs) القديمة التى عدها المؤرخون من الفرض الشهيرة بمصر وكانت فى ولاية ارسينوئينس وذهب بطليموس الى أنها كانت فرضة لمدينة ارسينوى وكانت قصبة مقاطعة هيروبوليتس وسميت أيضا كليوبتريس (Cleopatris) ويقال انها كانت من أحسن الفرض وكان بطليموس فيلادلف قد وسعها وحسنها ووصل بينها وبين النيل بقناة صناعية وبقيت زمنا طويلا من أهم المراكز التجارية الشرقية فى مصر وكانت مداخيلها للملكة ارسينوى ويظهر من هذه الاقوال أن البحر الاحمر كان قد تأخر عن بركة التمساح بتغلب الرمال على ذلك المضيق الواقع بين البحيرة المرة وبركة التمساح المذكورة وصار آخره سيرا بيوم عند البحيرة المرة المذكورة وكان لمدينة القلزم (Clysmos) خلاف الفرضة المذكورة فرضة عظيمة ينسب اليها بحر القلزم ويقال انه بالقرب منها أغرق فرعون سيدنا موسى عليه السلام ولم يكن بالقلزم ماء ولا شجر ولا زرع وانما يحمل الماء اليها من آبار بعيدة وكانت فرضتها من أشهر الفرض التجارية أيضا منها تحمل المتاجر الى الحجاز واليمن وقال المسبحى فى حوادث سنة ٣٨٧ فى شهر رمضان سامح أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله أهل مدينة القلزم مما كان يؤخذ من مكوس المراكب اهـ وقد خربت هذه المدينة الآن ويعرف اليوم موضعها بالسويس وكان لمصر فى العهد القديم أيضا على البحر الاحمر فرضة ايلة (Alama ou Ailath) الواقعة على خليج العقبة فيما بين مصر ومكة سميت بأيلة بنت مدين بن ابراهيم عليه السلام وأيلة حد الحجاز وقد كانت مدينة جليلة القدر على ساحل البحر الملح بها التجارة الكثيرة وأهلها أخلاط من الناس وكانت كثيرة النخل والزروع ويقال ان بجانبها جرت الواقعة بين الحبش وعرب اليمن وألقى ملكهم ذونواس الحميرى نفسه فى البحر أنفة من

وقوعه

Digitized by Google

ووقوعه فى أسر الحبشة وقد شيد أحمد بن طولون بأيلة قلعة مع وجود أطلالها للآن وفى مدة صلاح الدين الايوبى حصلت فيها واقعة بحرية بين أساطيله وأساطيل ارناط أمير الكرك كما مر فى المقدمة ثم حاصرها الايوبيون براو بحرا حتى فتحوها أما الآن فهى خربة لا اعتبار لها سوى أنها من منازل الحج المصرى ويقال لها عقبة ايلة وعيذاب وكانت على ساحل بحر القلزم قبالة قوص أكثر بيوتها أخصاص وكانت من أعظم مراسى الدنيا لان مراكب الهند واليمن كانت تحط فيها البضائع ولما اتسع نطاق التجارة فى زمن البطالسة أمر بطليموس الاول بعمل طريق فى صحراء عيذاب أولها من مدينة قفط بالصعيد الاعلى وبخيم المحطات وصهاريج لخزن الماء ورتب فيها العساكر لخفارة المحطات وأمن التجارة فتبعها الناس وسارت فيها أغلب تجارة البحر الاحمر فكانت المراكب تأتى من جميع من الشرق الاقصى وبحار الهند وغيرها الى عيذاب بالمتاجر وتحملها الجمال من عيذاب الى بحر النيل عند مدينة قفط وهنالك تنزل فى مراكب النيل فتسير بها اما الى مصر واما الى بحر الروم فتدخل البلاد الافرنجية وغيرها قال أبو الفداء فى تقويم البلدان وابن خلكان وغيرهما ما ملخصه ان ميناء عيذاب من أجل مراسى الدنيا بسبب ان مراكب اليمن والهند تحط فيها وتقلع منها زيادة على مراكب الحجاج الصادرين والواردين وأناس من أهلها ذوو يسار الامن له الجلبة (السفينة) والجلبتان تحمل الحجاج ذهابا وايابا فهى تعود عليهم برزق واسع وفى بحر عيذاب مغاص اللؤلؤ فى جزائر قريبة منها ويستخرج منه جوهر نفيس له قيمة فالناس يذهبون الى تلك الجزائر فى الزوارق ويقيمون فيها فيعودون بما قسم لهم وقال أيضا وجلاب هذا البحر لا يستعمل بها مسمار البتة انما هى مخيطة بأمراس من قشر جوز الهند المسمى بالنارجيل ويخللونها بدسر من عود النخل فاذا فرغوا من انشاء الجلبة على هذه الصفة سقوها بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن القرش وهو أحسنها والقرش حوت عظيم فى البحر يبتلع الغرقى والقصد بدهنون الجلاب لتليين عودها وترطيبها لكثرة الشعاب المعترضة فى هذا البحر وأخشاب هذه الجلاب مجلوبة من الهند واليمن وشراعها حصر منسوجة من خوص شجر المقل فجميعها متناسبة فى اختلاف البنية ووهنها فسبحان مسخرها على تلك الحال ولاهل عيذاب فى الحجيج أحكام الطواغيت لانهم يشحنون المراكب بهم حتى يجلس بعضهم على بعض كأنها أقفاص الدجاج المملوءة حرصا على الكراء حتى يستوفى صاحب الجلبة ثمنها فى مرة واحدة ولا يبالى بصنع البحر فيها ويذكر أن سليمان بن داود عليهما السلام كان اتخذها سجنا للفراعنة ويقال ان مدينة عيذاب كانت قريبة من مدينة برنيس القديمة التى بناها بطليموس فيلادلف على البحر الاحمر بينها وبين القصير القديمة ١٨٠٠ غلوة قال ابن سعيد وعرض البحر بين عيذاب وجدة درجتان وهى أشبه بالضيعة منها بالمدن اه

برنيس مدينة تجارية كانت بمصر العليا قديما واقعة على الخليج العربى فى نهاية خليج صغير ولم يكن لها ميناء الا أن أهميتها كانت بالنسبة لتجارة بلاد العرب والهند وللطريق الذى بينها وبين مدينة قفط وهى الطريق التى أنشأها بطليموس فيلادلف وسماها باسم أمه ولم تزل بعض أطلالها موجودة للآن قرب رأس بناس ومع وجود هذه الفرض والثغور القديمة لمصر كانت أكثر

الدول التي حكمت مصر في الاعصر الخالية لاتصنع أساطيلها الا في داخل النيل ثم تسوقها من الجداول والمصاب الى البحر الاحمر والبحر الابيض المتوسط عند الحاجة ولذلك كانت مراكز الاساطيل المصرية في أغلب أدوار الدول القديمة داخل نهر النيل كما تقدم ذكر ذلك في مقدمة هذا الكتاب وقد اشتهرت ثغور البحر المتوسط الابيض والبحر الاحمر في عهد البطالسة والرومان بما أدخل فيها من الاصلاحات العظيمة هذا

أما الفرض المصرية الموجودة الآن فهي الآتية الاسكندرية - هي أكبر ثغور مصر بل وافريقية جميعها وأشهرها وبها دار الصناعة المصرية وتبعد عن القاهرة بنحو ١١٢ ميلا الى الشمالي الغربي في عرض ٥″ ١١′ ٣١° شمالا و ٥″ ٥١′ ٢٩° طولا لخط نصف نهار غرونيج وهي قائمة على لسان بين البحر الرومي وبحيرة مريوط وقد صارت ثغرا تجاريا بعد أن اختطها اسكندر المقدوني سنة ٣٣٢ ق م على أطلال قرية راقوده (Rakotis) السابقة الذكر وكان اسكندر عهد أمر بنائها الى دينوكراتس [1] او دينوخارس فأحسن عمارتها ولما كملت انتقل تخت الملك من مدينة منف اليها فصارت دار المملكة بديار مصر ولم تزل على ذلك حتى فتحها الاسلام سنة ٢٠ هـ بعد أن حاصرها أربعة عشر شهرا وأزال من مصر حكم دولة الروم السفلى كما أزالها من سوريا فانتقل تخت الملك الى الفسطاط ولما ظهرت هذه المدينة قصدها التجار وأخذت السفن التجارية والحربية تتردد عليها وكانت في أيام البطالسة محطا كبيرا للتجارة أوروبا وممالك البحر المتوسط والشرق الاقصى ومركزا للعلوم والمعارف تأسست بها مدارس طار صيتها اقصدها العلماء والفلاسفة من كل مكان ونبغ بها عدة من فحول الرجال وكان بها أكبر دور صناعات البطالسة الذين اشتهروا بالقوة البحرية والحربية والتجارية وبعد أن خضعت للرومانيين وصارت القسطنطينية عاصمة للامبراطورية الشرقية لم تفقد الاسكندرية أهميتها التجارية بل كانت فرضتها باقية مركزا لعموم السفائن التجارية الاوروباوية وغيرها وكان بها المنارة الشهيرة التي تعد من عجائب الدنيا وسبق الكلام عليها بالجزء الاول وهي التي بناها أحد ملوك البطالسة فوق جزيرة فاروس وجعل في أعلاها مرآة من نوع الاحجار الشفافة ليشاهد منها مراكب البحر اذا أقبلت من رومية على مسافة تعجز الابصار عن ادراكها وقد هدمت هذه المنارة سنة ٧٤٤ هـ وشيد فوقها بعد ذلك بمدة البرج المعروف الآن بقلعة قايتباي وكانت على طرف لسان من الارض قد ركب البحر جنبيه عند مدخل مينا الاسكندرية الشرقي لان المينا القديمة التي كانت أمام المدينة العتيقة لم تكن ترسو فيها المراكب لبعدها وقتئذ عن العمران وكان البحر يفصل قديما جزيرة فاروس عن المدينة فغلبت عليه الرمال فالتصق البر بالجزيرة وصار لها بذلك فرضتان الفرضة الشرقية المذكورة والفرضة الغربية التي اعتنى باصلاحها وتعميقها ساكن الجنان محمد علي باشا الكبير رأس العائلة المحمدية العلوية سنة ١٨٣٠ م كما تقدم وصارت من وقتئذ أشهر ثغر بالديار المصرية ثم صرح لمراكب الفرنج بالدخول فيها وكانت قبل ذلك لا يصرح لهم بل كانوا لا يرسون الا في

(1) دينوكراتس (Dinocrate) مهندس مقدوني وهو الذي أصلح هيكل مدينة افسوس الذي أحرقه أروستراتس (Erostrate) في القرن الرابع قبل الميلاد وعهد اليه اسكندر تشييد مدينة الاسكندرية

المينا

Digitized by Google

المينا الشرقيــة مع أخطارها كما سبق وبهذا التصريح كثر تردد المراكب على هــذا الثغر فجلبت اليــه الخيرات من جميع فرض البحر المتوسط الابيض وغيره وزاد اقبال التجار وأهل الاســفار عليها وكثرت بذلك أسـباب الاخذ والعطاء خصوصا بعــد أن شـيد فيها المرحوم المشار اليه دار الصــناعة والحوض الحيرى الجرى وجميع ماتحتاجه السفن خصوصا الحوض الذى لاتستغنى عنه المراكب لعمارتها فزاد تواردالمراكب عليها وسهل نقــل بضائع القطر الى البلاد الاجنبية من هذه المينا بترعــة المحمودية التى تخترقها وصارت المراكب الآتيــة من داخــل القطر تسـير فيها حتى تدخل المينا وتوصل محمولها الى السفن الكبيرة فلذلك كانت المراكب النيلية الذاهبة الى ذلك الثغر كثيرة جــدا وقــد جلب المـاء العــذب الى المينا بواسطة أنابيب لتأخذ المراكب التجارية والحربية مايلزمها منه بسهولة ثم انه بعــد أن أتم المرحوم سعيد باشا السكك الحــديدية سهلت النقليات التجارية وأخذت أهــمية فرضة الاسكندرية تتزايد الا أنه لم يعمل بها أعمال مهمة الى زمن الخــديو اسماعيل باشا الذى لما رأى أن كثيرا من التجارة تحول الى طريق القنال بعــد فتحه وخشى من أن هذا التحويل يقلل من أهــمية ثغر الاسكندرية وجه عنايته لاصــلاح حالة المينا وعمــل بها حوضا من الحــديد لعمارة السفن فحصــل من ذلك منافع عامة وسهولة تامــة فزادت الرغبــة وأمنت السفن بها من فعل الرياح المختلطــة أيضا بســد المينا بالجسر الذى أقاموه هنالك بالصخور الصناعية التى ألقوها بالبحر من رأس التين الى البوغاز ولتسهيل الشحن والتفريغ جعــل فى دائرهــا من ابتداء المرسى المعروف بمرسى الانكليز جهة القبارى الى الحوض المبنى فى الترسانة أرصفة جيــدة البناء ولوقاية السفن التى ترسو على الارصــفة من الاهوية عمل جسر من الحجر فى داخــل المينا ممتــد من الجنوب الى الشمال فكانت هــذه الاعمال سببا لزيادة الرغبــة فى المينا وزاد تردد السفن العظيمة المختلفة الاوروباوية والامريكانية عليها وجعــل لوقوف الســفن الحربية مكان مخصوص وقــد تردد عليها فى سنة ١٨٧٢ م ٢٩٥٣ ســفينة مع أنه فى ســنة ١٨٣٧ لم يرد عليها سوى ١١٦١ ومن هــذا يعــلم أن مقــدار المراكب الواردة عليها آخــذ دائمــا فى الزيادة وأشــهر الحوادث التى حصــلت بالاسكندرية من يوم وجودها الثورة التى قامت فى عهد البطالسة والرومان سنة ٤٧ ق م فأخمد قيصر العصــيان ويقال ان المكتبة المشهورة التى كانت بهذه المدينة احترقت فى ذلك الوقت وفى ســنة ٦١١ م أرسل كسرى أبرويز ملك العجم قائده شاهين ففتحها وأرسل مفاتيحها الى ابرويز ثم ان ابرويز ردها الى القياصرة وفى سنة (٦٤٠ م ــ ٢٠ ه) فتحها المسلمون على يد عمرو ابن العاص كما مر فى الجزء الثانى ثم هاجمها أساطيل الروم عدة مرات فردوا خائبين وفى سنة ٢١٠ ه أقبل عليها طائفة من أهل الاندلس وكان الوالى على مصر عبدالله بن طاهر والناس فى فتنة ابن السرى ونصر بن شبث وغيرهما فارسوا بأساطيلهــم فى الاسكندرية ورئيسهم يدعى أبا حفص وتغلبوا عليها وكان ذلك قبــل قدوم ابن طاهر فلما قدم أرســل يطلبهم الى الحرب ان لم يدخلوا فى الطاعــة فأجابوه وسألوا الامان على أن يرتحلوا عنها الى بلاد الروم فأعطاهــم الامان فرحلوا الى اقريطش (كريد) ثم هاجمها العلويون كما مر بك فى أوائل القرن الرابع الهجرى وفى سنة ٥٦٢ ه ملك الاسكندرية أســد الدين شيركوه كما تقدم وفى ســنة ٥٦٩ ه قصدها الفرنج من صقلية بأســطول جسيم كما مر فى المقدمة فعادوا مقهورين وكانت واقعة من أهم وقائع الحروب الصليبية وفى سنة ١٧٩٨ م

Digitized by Google

استولى عليها الفرنساويون واستمرت فى حوزتهم الى سنة ١٨٠١ فأخذها الانكليز وأقاموا فيها الى سنة ١٨٠٣ م ثم لما ارتقى المرحوم محمد على باشا على الديار المصرية أصلح شأنها كما ذكرناه واعتنى بأمرها خلفاؤه من بعده الى يومنا هذا وهى الآن من أجل الثغور والمدن بالديار المصرية وبها من السكان أكثر من ثلثمائة ألف نفس ولها مجلس بلدى لادارة أحوالها أعضاؤه من الوطنيين والاجانب وتعتبر العاصمة الثانية بمصر وترتبط مع أكبر مدن الديار المصرية وأشهرها بطريق حديدى ولم يبق من آثار هذه المدينة الشهيرة القديمة للآن سوى عمود السوارى وبعض آثار أخرى لا أهمية لها ثم انه فى سنة ١٨٨٢ م أطلقت عليها المدرعات الانجليزية قنابلها فأخربت حصونها وسيأتى ذكر ذلك

مطروح — وهى مرسى للمراكب على البحر الملح واقعة غربى الاسكندرية على بعد ٢٠٠ ميلا ما بين الاقطار المصرية وايالة طرابلس الغرب حميمة — وهى مرسى للمراكب الصغيرة واقعة أيضا غربى الاسكندرية بينها وبين مطروح ورأس الكنائس — وهى فرضة ترسو بها المراكب الكبيرة على بعد ستة أميال من رأس العقيلى واقعة أيضا غربى الاسكندرية وتبعد عن مطروح السابقة ٣٥ ميلا تقريبا الى الشرق وقد اتخذت مصلحة خفر السواحل فى تلك المراسى رباطات من عمالها لمنع دخول الاشياء المهربة أو التى لا يصرح بدخولها أرض مصر

أبوقير — فرضة تبعد ١٢ ميلا من شرقى الاسكندرية واقعة بالقرب من مكان بلدة قانوب أو كانوبوس القديمة التى لا يعرف مكانها الآن بالتحقيق لان تراكم الرمال والتغير الذى حصل فى الساحل على ممر الزمن قد أضاعه ويقول بعضهم انها فى موقع تابوسيريس (Thaposiris) القديمة (أبوصير) أو بوزيس ولما كانت من الفرض التى يمكن الدخول منها الى البلاد المصرية اعتنى بتحصينها ساكن الجنان محمد على باشا الكبير ولقلة عمق الماء بميناها تلتزم المراكب الكبيرة أن تقف خارجها ومدخل فرضتها ضيق جدا ولهذه البلدة وفرضتها شهرة تاريخية وفيها آثار كثيرة وأطلال قديمة ومساكن منحوتة بالصخور وفى ميناها هذه المدينة حدثت الواقعة البحرية المشهورة بين الدونما الانكليزية التى كانت تحت قيادة الاميرال نلسون وبين الدونما الفرنساوية التى كانت تحت امرة الاميرال برويس سنة ١٧٩٨ م وهى التى مر ذكرها فى تاريخ الدولة العلية وربما تعرضنا لذكرها بتاريخ مصر وفى سنة ١٧٩٩ حدثت فيها وقائع بربة ذات شأن عظيم بين العثمانيين والروسيين والانكليز من جهة وبين نابليون بونابارت من الجهة الاخرى وفى سنة ١٨٠١ استولى الانكليز على أبى قير من يد الفرنساويين ثم تركوها وتتصل مع رشيد والاسكندرية بطريق حديدى

رشيد — واقعة عند مصب الفرع الغربى المسمى أيضا بفرع رشيد على الضفة اليسرى منه قال بعض المؤرخين ان رشيد هى المدينة اليونانية القديمة المدعوة ميتيليس وذكر غيرهم أنها فى موقع مدينة كانوب الشهيرة وهذا الثغر يبعد عن الاسكندرية بنحو ٣٦ ميلا الى الشمال الشرقى والمدينة تبعد عن البحر الرومى بنحو ستة كيلومترات وهى من أشهر ثغور الديار المصرية وقد اشتهرت باللطافة والعمارة والبهجة والازهار بناها العرب سنة (٢٥٦ هـ ٨٧٠ م) وكانت فى القرن التاسع الميلادى ذات أهمية قليلة ثم حازت من كرامه ما عاما كان يرد اليها من المتاجر التى كانت تنقل اليها بالنيل وذلك بسبب انسداد الترعة التى كانت تصل مصر بالاسكندرية قديما وبعد فتح ترعة المحمودية أخذت أهميتها تتناقص أماميناؤها فأمين لكنه صعب المدخل لتراكم الرمال

فيه

فيه وقد حصل بقرب رشيد سنة ٣٠٦ ﻫ واقعة بحرية بين اسطول المقتدر بالله العباسي و بين اسطول القائم العلوي فظفرت مراكب المقتدر وأحرقوا كثيرا من مراكب القائم العلوي وهلك أكثر جنودها وأسروا منهم كثيرا وقال المؤرخون انه في القديم كان مرسى جميع المراكب مدينة فوه فلما تراكمت الرمال في بوغاز هذا الفرع تعسر وصول المراكب الواردة من الخارج اليها فشيدوا مدينة رشيد وكانت قبل ذلك قرية صغيرة ولما زار بلون الديار المصرية سنة ١٥٣٠ م قال ان رشيد أصغر من فوه ولما استولت الدولة العلية على القطر المصري أهمل أمر الخلجان فبطل رسو المراكب على مدينة فوه بالكلية وقامت مقامها رشيد وأخذت من حينئذ في التقدم والاهمية والعمارية لكثرة واردات البضائع الاجنبية والمصرية عليها حتى بلغت سنة ١٧٧٧ م أعظم درجة وفي شهر يوليو من سنة ١٧٩٨ استولى عليها الفرنساويون مدة احتلالهم مصر بلا قتال و بينما كانت الجنود الفرنساوية الذين تحت قيادة القائد بوسرد تحفر أساس بيت عند قلعة سان جوليانس وجدوا حجرا كبيرا من الصخر عليه كتابة بثلاث لغات اليونانية والهيروغليفية والديموتيقية ولما استولى الانكليز على الاسكندرية حين اخراجهم الفرنساويين من مصر أخذوا الحجر المذكور الى بلادهم كما أخذوا أشياء كثيرة أخرى من آثار المصريين القدماء ثم ان الملك جورج الثالث أهدى الحجر المذكور الى المتحف البريطاني ولا يزال به للآن و يعرف بحجر رشيد ومن الكتابات التي على هذا الحجر تمكن العلماء من حل رموز الخط المصري القديم وكان أول من نجح في ذلك تماما الموسيو شمپليون الفرنساوي كما هو معلوم و بعد خروج الفرنساويين من مصر حاول الانكليز سنة ١٨٠٧ م الاستيلاء على رشيد فأخفق سعيهم كما مر و يأتي أيضا بتاريخ مصر الحديث وهي الآن ليست محافظة من محافظات مصر بل جعلت مركزا لبلاد الارز الشرقية منذ قليل وذلك مما خفض من شأنها كثيرا حتى أصبح قسم كبير منها بلا سكان وسكانها الآن لا يتجاوزون ١٥ ألف نسمة

البرلس — ثغر عظيم من ثغور مصر واقع على ساحل البحر الرومي بين فرعي النيل عند البحيرة المضافة اليه المسماة قديما بوتيكوس لاكوس (Buticus Lacus) وكان على الساحل الجنوبي من هذه البحيرة بلدة قديمة تدعى بوتو أطلالها ظاهرة للآن وعلى ساحلها الغربي بلدة صغيرة الآن تدعى البرلس تابعة لمديرية الغربية وفيها قلاعة على شاطئ البحر و بشرقيها أشتوم البرلس وفي غربيها اشتوم برج المعدّية قال بلين في بعض مؤلفاته ان هذا القسم كان يسمى بتنينو وجعله بطليموس بين فرع النيل الغربي وفرع فرموطان و يؤخذ من كلامه أن البرلس مدينة كانت قاعدة هذا القسم وكانت تسمى بوطو وعلى شاطئ هذه البحيرة جملة قباب لجماعة من الصالحين يقال لهم الشرفاء العامرية و جميع بلاد البرلس لا يصل اليها ماء النيل الا قليلا وأكثر شربهم من الحفائر ولها ملاحة تنسب اليها وهي من أعظم ملاحات مصر لجودة ملحها قال ياقوت و ينسب الى البرلس جماعة من أهل العلم منهم أبو اسحق البرلسي وكان حافظا ثقة مات بمصر سنة ٢٧٢ ﻫ وكان سكن البرلس فقط ومولده بصور من بلاد السواحل وأبوه من أهل الكوفة و ينسب الى البرلس من المتأخرين عبد الجواد بن نور الدين البرلسي المصري خطيب جامع الازهر وكان فاضلا عالما شاعرا مات في رمضان سنة ١٠٣٤ ﻫ والمراكب الشراعية التي تقصد البرلس أكثر ترددها يكون في فصل البطيخ لجودة زراعته فيها

Digitized by Google

دمياط – هي من أشهر الثغور المصرية واقعة على رأس الفرع الشرقي للنيل عند مصبه في نقطة عرضها ٥٥َ ٣١ْ شمالي خط الاستواء وطولها ٤٧َ ٣١ْ شرقي غرنويج قال المقريزي دمياط كورة من كور أرض مصر بينها وبين تنيس اثنا عشر فرسخا ويقال سميت بدمياط من ولد أشمن بن مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام وقيل انها كلمة سريانية أصلها دمط أي القدرة وذكر في سائر تواريخ العرب أن دمياط مدينة قديمة بنيت في زمن قليمون بن اتريب بن قبطيم ابن مصرايم على اسم غلام كانت أمه ساحرة قليمون وهي مشهورة بطيب هوائها وبشماليها يمر فرع النيل المضاف اليها وعرض النيل هناك نحو مائة ذراع وعليه من جانبيه برجان وكان قديما يوضع بينهما سلسلة حديد عليها حرس لا يخرج مركب الى البحر ولا يدخل الا باذن وكانت تعد من ثغور الاسلام العظمى اه وفي زمننا هذا تعد من المدن العظيمة في مصر السفلى تبعد عن مصب النيل تسعة كيلومترات تقريبا وعن القاهرة بنحو ١٦٠ كيلومترا الى الشمال الشرقي واهلها تجارة واسعة في الارز وغيره وكان بينها وبين البحر خليج عظيم تمر منه السفائن الكبيرة فردم في أيام بيبرس البندقداري سنة ٦٥٩ هـ لمنع سفن العدو من الدنو اليها للحروب التي كانت قائمة في ذلك الوقت وكانت سفن قرصان الفرنج تسطو دائما على سواحل مصر للغنائم فأصبحت بهذا الردم بعيدة عن البحر لا يمكن للسفن الكبيرة الدنو منها فصارت من وقتئذ ترسو على مسافة فرسخين من الساحل ومن أشهر حوادثها أنه في سنة ٩٠ هـ في أيام الوليد بن عبد الملك نزل عليها الروم وأيضا في سنة ١٢١ هـ مدة خلافة هشام بن عبد الملك نازلوها في ٣٦٠ مركبا وقتلوا كثيرا من أهلها وسبوا النساء وفي خلافة المتوكل على الله وولاية عنبسة بن اسحق الضبي على مصر نزل عليها الروم يوم عرفة سنة ٢٣٨ فملكوها وغنموا ما بها وقتلوا أهلها وسبوا النساء فأمر المتوكل باقامة حصن يقيها من ذلك فشرعوا في بنائه في رمضان سنة ٢٣٩ هـ وأنشئ من ذلك الوقت الاسطول بمصر ثم طرقها الروم باسطول مركب من مائتي سفينة فأقاموا يعيثون في السواحل شهرا ولما كانت الفتنة بعد موت كافور الاخشيدي طرقها الروم في رجب سنة ٣٥٧ هـ في أكثر من عشرين مركبا فقتلوا وأسروا وفي أيام الخليفة الفائز بنصر الله الفاطمي ووزيره طلائع بن رزيك نزل عليها الروم أيضا في ستين مركبا (٥٥٠ هـ) فعاثوا وقتلوا كثيرين وفي أيام العاضد لدين الله نزلوا عليها في أكثر من ١٢٠ مركبا (٥٦٥ هـ) فخرجت الجيوش من القاهرة وحاربتهم ٥٥ يوما حتى التزموا أن يرحلوا عنها وفي سنة ٥٧٧ هـ رتبت المقاتلة على البرجين وشدت مراكب الى السلسلة التي بينهما ورمّ شعث السور وأتقنت السلسلة وفي سنة ٥٨٨ أمر السلطان صلاح الدين بقطع أشجار البساتين بدمياط وحفر خندقها وعمل جسرا عند السلسلة وفي سنة ٦١٥ هـ هاجمها الفرنج وكان صاحبها الملك الكامل بن الملك العادل وملكوا البرج بعد قتال أربعة شهور وقطعوا السلاسل ونصب الملك الكامل جسرا عظيما فقطعوه بعد قتال شديد متتابع فأمر بتغريق مراكب النيل لتمنع الفرنج عن العبور فعمدوا الى خليج هناك يعرف بالازرق كان النيل يجري فيه قديما فحفروه وعمقوه وأجروا فيه الماء وأصعدوا مراكبهم واستفحل أمر الفرنج وبعث الكامل الرسل الى البلاد يستنجدهم فأتته النجدات من كل النواحي واتفق موت أبيه الملك العادل بالشام فضعف عزم المسلمين وخاف الكامل من الفشل وحصلت أمور يأتي ذكرها نجم عنها استيلاء الفرنج على دمياط ولما دخل الفرنج مدينة دمياط

بعد

Digitized by Google

بعد حصارها ١٩ شهرا (٦١٦ هـ) وضعوا السيف فى الناس وكان يوما يشيب له الولدان وبنى السلطان الكامل المنصورة وتجهز فيها لصد الفرنج وتقدم المسلمون بشوانيهم أمام المنصورة وعدتها مائة قطعة وحالت العرب بين الفرنج ودمياط حتى سار الملك الاشرف أخو الكامل وأخوه الملك المعظم وغيرهم بالنجدات وانتشب القتال وأسر المسلمون عدة مراكب من الفرنج وتم الامر بتسليم الفرنج دمياط الى الكامل (٦١٨ هـ) وفى سنة ٦٤٧ هـ عاد الفرنج بمراكبهم الى دمياط وكان الملك الصالح بن الكامل حصنها وكان مريضا فمات بالمنصورة وقام بالامر الامير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ وكتم موت السلطان خوفا من الفشل ثم انتشب القتال وأخذ المسلمون كثيرا من سفن الفرنج (٦٤٨ هـ) وأسروا ملك الفرنسيس لويز التاسع وأخاه وكثيرا من أمراء الفرنساويين وجنودهم وذلك مدة الحملة الصليبية الثامنة وسجنوهم بالمنصورة بمكان معروف عند أهل تلك المدينة للآن ولما كانت ولاية الملك الاشرف موسى أرسل المماليك الى دمياط لتخريبها خوفا من عودة الفرنج اليها فوقع الهدم فى أسوارها (٦٤٨ هـ) وأتموا تخريبها حتى محيت آثارها فلما ملك بيبرس البندقدارى أرسل الحجارين سنة ٦٥٩ هـ لردم فم بحر دمياط فردم كما مر وصارت المراكب غير قادرة على الوصول اليها ومن وقتئذ انحطت أهمية دمياط الحربية وهذه المدينة الآن من أعظم ثغور مصر يقيم بها محافظ وسكانها يبلغون ٣٥,٠٠٠ نسمة وبها مسجد قديم أسس زمن الفتح وتتصل مع غيرها من مدن مصر بطريق حديدى

بورت سعيد — فرضة شهيرة حديثة من فرض الديار المصرية واقعة فى أول الخليج المالح المسمى قنال السويس غربى مكان مدينة الطينة القديمة بثمانية وعشرين ألف متر على ساحل البحر أسست سنة ١٨٥٩م — ١٢٧٧ هـ أى حينما شرعوا فى حفر قنال السويس وهى واقعة على ٤٥ً ١٥َ ٣١ْ من العرض الشمالى و١٥ً ١٨َ ٣٢ْ من الطول الشرقى لخط نصف نهار غرنويج وكيفية بنائها أنه عندما أخذ العمال يتواردون من فرانسا وغيرها للعمل فى القنال نزلوا على ساحل البحر عند مبدا الترعة فى أكواخ من القصب اتخذوها ليأووا اليها ثم بنيت دور ومساكن فى محل اقامتهم وأخذت تلك المساكن فى الكثرة وأقيمت بها الاسواق حتى صارت من أشهر مدن مصر الساحلية كما هى الآن قال المرحوم على مبارك باشا فى خططه وسميت بورت سعيد باسم المرحوم سعيد باشا أيضا الذكره ولسهولة تفريغ مهمات العمل الواردة فى السفن عمل جسر من الخشب يمتد فى البحر الى قدر كاف لمرسى المراكب وتفريغها وعمل عند نهاية ذلك الجسر فى داخل البحر برج من خشب ارتفاعه عشرون مترا وجعل بأعلاه منارة تهتدى بنورها المراكب التى تقصد هذه الجهة الى أن قال ثم شيدت ببورت سعيد مخازن كبيرة ومصانع لعمل الآلات والكراكات ومستشفى لمعالجة المرضى وكنيستان احداهما للروم والاخرى للكاتوليك وجامع للمسلمين وكذلك حصلت عمارات ومنازل عظيمة وشيدت بها فرضة بأرصفة من الحجر وجرك وركبت آلتان بخاريتان على ترعة الاسماعيلية لايصال الماء الحلو الى مدينة بورت سعيد بواسطة أنابيب من الحديد وفى أثناء ذلك ظهرت شركة دسوا خوان فى عمل الاحجار الصناعية وهى التى بنت ميناء بورت سعيد وصيرتها على هيئتها الحاضرة وكثر تردد المراكب اليها من جميع بلاد أوروبا حاملة للمواد اللازمة للاعمال من حديد ونحاس ومأكولات وخلافها على طرف القومبانية وبعض

Digitized by Google

السفن يأتي اليها مشحونا من أوروبا أيضا بالبضائع التجارية للبيع على الشغالة وغيرهم وتأتي اليها مراكب ببضائع القطر المصري من نحو المنزلة والمطرية ودمياط ورشيد لما وجدوا من الارباح ورواج السلع وفي سنة ١٨٦٧ م جرت مراكب البوسطة ونحوها في الخليج بين هذه المدينة ومدينة الاسماعيلية ووردت عليها البضائع الشامية وأقيمت وابورات تجارية من طرف وكلاء خمس قومبانيات وفي سنة ١٨٦٨ م كان انتهاء أعمال المولصين أي الرصيفين ولما تم فتح القنال سنة ١٨٦٩ م أخذت ميناء بورت سعيد المستجدة تزهو وتتزايد عمارتها وما فيوما حتى صارت من أعظم الثغور ولما رغبت الحكومة بعد ئذ أن تستولي من القومبانية على كرك البضاعة الواردة الى ميناء بورت سعيد والصادرة عنه مثل الجاري في باقي ثغور القطر طبق نص الشروط عارضتها الشركة بدون وجه حق وتداخل في ذلك قنصل دولة فرانسا ثم بعد مداولات انفقت معها على أن تعطى الحكومة للشركة ٣٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك في مقابلة التنازل عن المعارضة الواقعة من الشركة في كرك بورت سعيد ولما صدر أمر المرحوم اسماعيل باشا الى القومبانية باقامة فنارات على ساحل البحر لهداية السفن شيدت أربعة فنارات على ساحل رشيد والبراس وعلى مصب فرع دمياط والرابع في مدينة بورت سعيد بقرب مبدا المولص الغربي ونوره كهربائي يضطرب ويرتعش وله بعد كل ثلاث ثوان غمضة وهي الآن من أعظم ثغور مصر وبها يقيم محافظ عموم قنال السويس وقد وصلوا اليها الماء العذب بترعة تخرج من الاسماعيلية واتصلت أيضا مع مدن القطر بطريق حديدي بنته شركة القنال وسكانها نحو ٢٠,٠٠٠ نسمه

الاسماعيلية — لما وصل العمل في القنال الى بحيرة التمساح شيدوا على ساحلها عند ترعة الماء العذب مدينة عرفت أولا بمدينة التمساح ثم سميت الاسماعيلية باسم المرحوم اسمعيل باشا الخديو الاسبق تذكارا لبقاء اسمه وقد كثرت العمارة بهذه المدينة فيما بعد وكانت هذه البحيرة قديما آخر البحر الاحمر كما ذكرناه ثم اندرس أمرها وبعد أن عاد العمار اليها بعد فتح القنال اتخذت مرسى للسفن المارة من القنال وهي مرسى حسن جدا يسع كثيرا من السفن قال المؤرخون انه في عهد رمسيس الكبير كان ينصب ما يفيض من ماء النيل الى هذه البحيرة وان ماء البحر الاحمر كان يصل اليها في الازمنة السابقة لوجود الآثار الدالة على ذلك وسميت بحيرة التمساح لكثرته فيها قديما وبعد أن سميت بالاسماعيلية افتكر المرحوم الخديو الاسبق أن يتخذها فرضة حربية ويشيد فيها دارا للصناعة العسكرية ويبني بها السفن الحربية التي كان ينوي ايجادها ولولا الموانع السياسية التي منعته من اتمام هذا المشروع خصوصا بعد تسوية الخلاف الذي قام بين الشركة والحكومة المصرية وأجازت الشركة للحكومة بعمل استحكامات ومبان أخرى لمستخدمي الادارة كالبوستة والكمرك وثكنات العساكر على نفس الاراضي المخصصة للشركة وعارضت الدول في اقامة الاستحكامات حول القنال ويقيم بها الآن وكيل محافظة تابع لمحافظ عموم القنال وهواؤها ردئ تفشو بها الحمى وفي سنة ١٨٨٢ م اتخذها الانجليز قاعدة أعمالهم العسكرية لما أرادوا مهاجمة جيش عرابي المتحصن جهة التل الكبير كما سيأتي

والى الجنوب من الاسماعيلية بحيرة تدعى البحيرة المرة كانت قديما فرضة للديار المصرية

مدة

مدة البطالسة وشيدوا عليها مدينة تدعى ابطولومايس وهذه البحيرة من أشهر البحيرات المصرية واقعة بين السويس وبحيرة التمساح وميناها عميقة جدا تسع كثيرا من الاساطيل والسفن وكانت ترسو بها السفن التى تمر من القنال مساقبل ايجاد الضوء الكهربائى الذى ينير الآن شاطئ القنال الآن ويساعد السفن على المرور فى أى وقت ولاتساعها تتسابق فيها البواخر ليتقدم بعضها على بعض فى عبور القنال وهى زيادة على ذلك أمينة جدا يصلح اعتبارها من أعظم الفرض المصرية الا انها ليست ذات فائدة تجارية الآن

السويس – ثغر من أشهر ثغور مصر واقع على الجانب الغربى من خليج السويس وفرضة لتجارات جزيرة العرب والهند والسودان وكل ثغور الشرق الاقصى تبعد عن القاهرة بنحو ١٣٥,٠٠٠ مترا الى الشرق وقد خلفت مدينة القلزم القديمة السابق الكلام عليها قال المقريزى ان مدينة القلزم قد خربت ويعرف الآن موضعها بالسويس اه ولم نقف على تاريخ تجددها ولا متى سميت باسم السويس ولا سبب تسميتها بذلك قال المرحوم على باشا مبارك فى الخطط ما ملخصه ولاهمية موقعها من الديار المصرية من حيث تحصينها وسدعورتها من هذه الجهة ومرور الحجاج عليها صادرا وواردا وكثرة المتاجر الواردة على ميناها كان لها أهمية فى جميع الاعصر وفيها دائما من طرف حاكم مصر رباط من العساكر المحافظين ولها حاكم يقيم بها ومحل للجمرك تؤخذ فيه عوائد البضائع الواردة الى مصر ولوقوعها فى النهاية الشرقية من مصر كان ينقل اليها من مصر على الحيوانات ما يلزم ايصاله اليها حتى المراكب التى يقتضى الحال انشاءها بميناها وقد حصل ذلك غير مرة فمن ذلك ما فى حوادث سنة ٩٢٧ من ابن إياس ان الامير تنم الناظر من طرف ملك الامراء على وقف الدشيشة كان قد صنع مركبا عظيمة فى الجزيرة الوسطى لينقلها الى هناك لحمل مغل الدشيشة وكان طولها ١٢٠ ذراعا وبها فرن وطاحون وصهريج للماء الحلو ومقعد واصطبل للخيل فلما أتم المركب اليها ملك الامراء فى سادس عشر رجب فتفرج عليها ثم فك أخشابها الامير تنم وأرسلها على ظهور الابل الى الطور وقد حصل مثل ذلك زمن العزيز محمد على باشا حين أراد بناء القصر أرسل الى السويس أخشابا وأدوات عمارة وبنى بها قصرا لنفسه وكذلك حمل اليها على ظهور الابل عدة سفن حين عزمه على حرب الوهابية وكثر تردد مراكب الانكليز فى البحر الاحمر لقرب هذا الطريق عن طريق عشم الخير (١٨٤٥ م) وفى زمن المرحوم سعيد باشا أنشئت السكة الحديد من القاهرة الى السويس فازداد ورود المراكب التجارية على ميناء السويس وكثر التردد عليها والى ذلك الوقت كانت المراكب تقف فى ماء بعيد العمق على مسافة كبيرة من البر وتنقل بضائعها الى البر فى زوارق صغيرة ولما كانت المصاريف اللازمة لذلك جسيمة عين لجنة لنظر ساحل البحر وتعيين المحل اللائق لرسيان مراكب الحكومة ومراكب الشركات فاختاروا الجوة فى البحر تحت جبل عتاقه لانهم وجدوها تفى بالمقصود من الامن على المراكب وسهولة نقل البضائع وقدموا له تقريرا بعمل مولص هناك طوله أربعمائة متر تشحن المراكب وتفرغ عليه (١٨٥٨ م) ولما كان لابد فى مثل هذه الميناء من وجود حوض لترميم المراكب وعمارتها عند الاقتضاء شرعوا فى انشاء حوض (١٨٦٠ م) ولما قبض المرحوم الخديو اسمعيل باشا على زمام الاحكام زاد الاهتمام بانشاء الحوض المذكور حتى

Digitized by Google

ثم و بنوا هنالك مبانى أخرى أفادت السفن كثيرا كالارصفة والمنارات والمواصل وأنشؤا لمراكب الحكومة ميناء واسعة تبلغ مساحتها ١٦٠٠٠٠ متر مربع محاطة بجسور وأرصفة متينة للشحن والتفريغ سميت بميناء ابراهيم و بنوا بجانبها الى الغرب ميناء أخرى مسطحها ٢٣٠٠٠٠ متر مربع لمراكب التجارة وأقاموا أمام المينتين من جهة البحر جسرا من الدبش والاحجار لوقاية المراكب بعد دخولها الميناء جعلوا به فتحة لدخول المراكب وخروجها وهذه الميناء الجديدة واقعة فى جنوبى المدينة على نحو ميل داخل البحر من البحر الاحمر وتتصل بالمدينة بجسر من الدبش والتراب ومدوا عليه أشرطة حديدية لنقل البضائع وفى شرقى ميناء الحكومة المذكورة ميناء أخرى صغيرة لقومبانية القنال يسكن حولها عمال القومبانية وترسو عليها سفنهم الصغيرة وشيدوا بجانب الحوض بعض المعامل لاصلاح السفن و بجانبها ميناء صغيرة للصنادل والفلايك

و بخليج السويس أيضا عدة أماكن تصلح لرسيان السفن أشهرها المكان الكائن جنوبى رأس ملعب عمقه اثنا عشرة قامة والمكان الذى بجوار رأس أبو باقا على بعد ١٥ ميلا الى الشمالى الغربى من رأس غريب عمق مائه ثمان قامات وأكثر السفن تقصد هذا المكان لتحتمى فيه من الرياح الجنوبية وكذا من الجنوب الشرقى الجون الكائن فى رأس شوقير بعد ميل منه تقريبا وعمق الماء فيه لا يزيد عن أربع قامات

الطور – فرضة من أشهر الفرض القديمة وهى على ساحل خليج السويس على مقربة من جبل الطور المعروف أيضا بجبل سينا ترد عليها متاجر الشام ومصر والهند والمواصلات بينها و بين السويس لا تنقطع بواسطة القوافل وفى زمن الحج تقصدها البواخر من مصر وغيرها وترسل اليها الدولة العلية والحكومة المصرية الاطباء والخيام والمأكولات والادوية لاجراء الحجر الصحى الذى يقام عادة على جميع حجاج الجهات الشمالية عند عودتهم الى بلادهم سواء كان طريقهم قنال السويس أو المرور من الديار المصرية ولهذا يتعين على جميع البواخر التى تشتغل بنقل الحجاج من أى ملة كانت الذهاب بهم الى فرضة الطور حتى تمضى أيام الحجر الصحى هنالك وهذه الفرضة كثيرة الصخور وعمق المياه فيها لا يتجاوز تسع قامات وهى تابعة لمحافظة السويس و بها من السكان نحو ثلاثة آلاف نسمة

ومن المراسى الشهيرة بهذا الخليج أيضا مرسى الشيخ رياح وهو فرضة واقعة على بعد خمسة أميال الى الجنوب الشرقى من الطور تقصدها المراكب الصغيرة وقت العواصف وعمق الماء فى داخلها لا يزيد عن ثلاث قامات وتكثر بها الصخور ومتى اضطرت البواخر الكبيرة وقصدتها فانها ترسو فى داخل جون الفرضة المذكورة وعمق الماء به سبع قامات وهنالك مراس أخرى بجانب هذه الفرضة ضربنا عن ذكرها صفحا لعدم أهميتها

القصير – هى من الفرض القديمة المصرية واقعة على ساحل البحر الاحمر الافريقى فى نقطة عرضها ٦ َ ٢٦ ْ شمالى خط الاستواء وفيها قلعة قديمة تظهر للآتى اليها من بعد اثنى عشر ميلا تقريبا والطريق الواصل منها الى قنا مطروق بالقوافل و يسمى طريق الرصفة به جملة محطات فيها آبار عذبة الماء بعضها من عمل المرحوم الخديو محمد على باشا الكبير والبعض قديم جعلت لاستقاء المسافرين

فى

Digitized by Google

فى هذا الطريق وتقصدها على الدوام السفن الشراعية والبواخر التجارية وتكثر فيها التجارة فى زمن الحج عدد أهلها نحو ٢٢٤٥ نفسا وتجارتهم فى الغلال والبن والصابون والفلفل والسجاجيد والكوفيات والمربى وغير ذلك وبها ديوان محافظة ومحل للصحة وميناء للسفن وكانت الرغبة فى القصير لقصر مسافة البحر الى الحجاز فلما كثرت السفن البخارية بهذا البحر وصارت تنقل الحجاج الى ينبع وجدة من ميناء السويس واتصلت سكة الحديد بالسويس تحولت الرغبة الى السويس بسبب السهولة وقال المرحوم على مبارك باشا فى الخطط القصير ميناء على بحر القلزم تبعد ثلاثة أيام الى الغرب من قوص فى مفازة وهى فرضة قوص وقال أيضا القصير هى بيرنيس المدينة القديمة التى كانت على البحر الاحمر بينها وبين القصير القديم المسمى ميوهورموس ألف وثمانمائة غلوة كما فى البيريل وفى بعض العبارات أن بينهما خمسين فرسخا وهو غير القصير الجديد المسمى عند العرب الجديدة وهو فى جنوب القديم بقليل وبين بيرنيس ومدينة قفط التى على الجانب الشرقى للنيل ٢٥٨ ميلا رومانيا وهى ٥٩ فرسخا وقال بلين ان بين قفط وبيرنيس مسافة اثنى عشر يوما وقال ابيفان ان بيرنيس فى محاذاة جزيرة اسوان والذى وضع هذه المدينة هو بطلموس فيلودولفوس وسماها باسم والدته ورتب فيها المحافظة بقيت الى زمن الرومانيين ولم تزل آخذة فى العظم وكثرت فيها المتاجر الى زمن مديد اه من كتاب استرابون وقال هو وبلين أيضا انها لم تكن ميناء للسفن بل كانت فى آخر خليج أطلق عليه الرومانيون اسم طارنوس تدخل فيه السفن وبعد تفريغها ترجع الى ميناء بعيدة عنها تسمى عند الرومانيين ميناء فيوسهرموس باسم مدينة كانت هناك وكان عندها مدينة أخرى تعرف بالمدينة البحرية وكانت تلك الميناء أقرب الى مدينة قفط من بيرنيس وهذا هو السبب فى عدم جعل الميناء عليها وسمى ديودورا صقلى هذه الميناء بميناء الزهرة وذكر هو واسترابون وغيرهما أن الميناء كانت بقرب الجبل الاحمر الذى هو على مسافة ١٦ فرسخا من القصير فكانت الميناء فى جنوبه على نحو فرسخ ونصف وكان فى الميناء عمارة متسعة بعيدة عن البحر بنحو فرسخين بينها وبين البحر ثلاث جزائر الى أن قال وظن بعضهم أن مدينة بيرنيس هى القصير القديمة وان اسم القصير مأخوذ من اسم قوص لانها من أول طريقها وترد اليها بضائعها ثم تنشر فى الجهات لكن قد علمت أن بين بيرنيس والقصير مسافة وفى خطط انطونان ان مدينة بيرنيس فى موازاة اسوان وذكر بعضهم أقرب بعد بين قوص والبحر الاحمر ٤٠ ساعة بسير الجمل وقدر الساعة ٢٠٤٠ توازه عبارة عن ٢٥٠٠ استادة مقدونية فاستنتج من ذلك أن مدينة بيرنيس هى مدينة القصير اه

سواكن — هى فرضة عظيمة ومركز حكمدارية السودان الشرقى المصرى الآن يقيم بها محافظ عموم سواحل البحر الاحمر واقعة على ساحل البحر الاحمر فى عرض الدرجة ١٩ والدقيقة ٩ شمالى خط الاستواء والدرجة ٣٧ والدقيقة ٣ من الطول الشرقى لخط نصف نهار غرنويج وبينها وبين بربر طريق مطروق وفرضتها من أشهر فرض السودان التجارية يوجد فيها مخزن لحفظ الفحم الحجرى مبنى بجزيرة الشيخ عبد الله قبالة مركز المحافظة بقرب الميناء التى ترسو بها الوابورات وميناء سواكن عميقة حصينة محفوظة من تسلط الارياح مدخلها صعب العبور لما به من الشعوب ويرد اليها كما يصدر منها عموم التجارة السودانية ولهذا كانت تمر عليها أكثر البواخر التجارية وتتردد

عليها كثير من السفن الشراعية وترسو عادة البواخر الكبيرة بالجهة الشمالية من المكان المعروف بالشيخ عبد الله على عمق يختلف بين ٦ و ٨ قامات وقسم من هذه المدينة واقع على جزيرة صغيرة والقسم الآخر فوق القارة والمدينة محاطة ببعض طوابى لحمايتها من الطوارئ وهى تبعد عن جدة بنحو ٣١٠ كيلومترات الى الغرب وعدد نفوسها ١٠,٠٠٠ ولها تجارة متسعة فى الصمغ والسمسم والجلود وسن الفيل وريش النعام والقطن والبن الحبشى وشمع العسل والزباد والسمن والبرش والمواشى وشرب أهاليها من الآبار وفيها الآن آلة لتكرير الماء ولكثرة تجارتها وأهمية موقعها اعتد منها خط تلغرافى تحت البحر و يتصل بعدن ويكثر فى سواحلها صيد اللؤلؤ

مصوع — فرضة مصرية أضيفت الى الخديوية المصرية بفرمان صدر من المرحوم السلطان عبد العزيز سنة ١٢٨٣ مدة المرحوم الخديو اسماعيل باشا وهى واقعة بالشمال الشرقى من بلاد الحبشة على بحر القلزم مشيدة فى جزيرة تتصل بالبر بجسر طوله ١٨٠٠ متر أنشئ فى زمن الخديو المذكور (١٢٩٠ ﻫ) وعرضه عشرة أمتار وهى ميناء أمينة عامرة بها جملة أسواق و يقيم بها كثير من تجار الهنود والعرب وتجارتها تنحصر فى الجلود والصمغ والسمن والعسل والشمع وغيرها ومن مصنوعاتها الحلى المستعمل عندهم والاسلحة المعروفة لهم كالسيوف والحراب والنبل وأنواع من منسوجات الصوف وأشرطة من الجلد تشد على الاسرة والحصر والمشنات والفخار وقد كانت سابقا صغيرة فاتسعت وزاد عدد سكانها حتى بلغوا نحو ٤٠٠٠ نفس و بها جامعان بمنارتين أحدهما يعرف بجامع الشافعى والآخر بجامع المالكى و بها قلعة قديمة على رأس الجزيرة من جهة الشرق و بداخلها عدة صهاريج قديمة تملأ وقت الامطار وكان فى نية الخديو المذكور مد طريق حديدى منها الى الخرطوم مارا باعمر البلاد الموجودة جنوبى السودان الشرقى مثل كسلة التى كانت قاعدة الحكمدارية وقتئذ لاسيما وأراضى سنهيت والغضارف والقلابات الواقعة فى شمالى الحبشة موافقة جدا لمد الطرق الحديدية فلم تساعده المقادير ومصوع أشهر وأقدم الفرض فى ساحل الحبشة ومركز عمومى لتجارة الهند واليمن ومينا ها حصينة تسع كثيرا من السفن ولا تخلو فرضتها يوما ما من السفن الشراعية الاهلية لكثرة ترددها عليها فلذلك كانت المواصلات بينها و بين باقى ثغور البحر الاحمر والهند متصلة على الدوام ولما أشارت الدولة الانكليزية على الحكومة المصرية بترك السودان وجعل الحدود عند وادى حلفاء وصدر أمر الخديوى بذلك سنة ١٨٨٣ سمحت انكلترة بعد سقوط الخرطوم لايطاليا باحتلال زيلع أو مصوع أو بيلول فاحتلت مصوع فى ١٩ ربيع الثانى سنة (١٣٠٢ ﻫ ٨ نوفمبر ١٨٨٤ م) ولما احتلها الطليانيون اتسعت بها العمارة وقصدها التجار و بنت حكومة ايطاليا فيها ثكنات ومبانى لجنودها وعمالها فصارت الآن فى هيئة تعادل بعض مدن أوروبا

زولا — هى بلدة جنوبى مصوع تبعد عنها ثمان ساعات بسير الجمل يقال انها اتخذت ميناء من مدة اليونان وانهم شيدوا بها هيكلا جسيما وكانت ميناء شهيرة زمن البطالسة على شاطئ البحر الاحمر وفرضتها تسع عدة سفن ولما حاربت الحكومة الانكليزية الحبشة سنة ١٨٦٨ اتخذتها مركزا لسفنها وكانت أيضا تابعة للخديوية المصرية بالفرمان السلطانى الذى أخذت فيه مدينة مصوع كما سبق

الطور

Digitized by Google

تاجوره — فرضة على خليج عدن وهى على ساحل بلاد شوا وجنوبى الحبشة بالقرب من الجون المسمى قبة الخراب ومن هذه الفرضة خرج مونسنجر باشا بالجنود المصرية الذين دخل بهم الحبشة من بلاد شوا سنة ١٨٨٥ م وقتل هو وجيشه على مقربة منها كما سنفصله فى محله

زيلع — فرضة عظيمة واقعة على خليج عدن وهى ميناء مدينة هرر قاعدة بلاد السومال وكانت تابعة لمصر من القديم وسميت زمن البطالسة موسيلون (Mosyllon) موقعها فى ٢٢ ١١ عرض شمال خط الاستواء ٢٠ ٢٧ — ٤٣ شرقى خط نصف نهار غرنويج سكانها لا يزيدون عن ٥٠٠٠ نسمة أضيفت هى وتوابعها الى الاملاك الخديوية بالفرمان السلطانى الصادر فى جمادى الثانية سنة ١٢٩٢ هـ وعقب ذلك أرسل المرحوم الخديو اسماعيل باشا تجريدة تحت قيادة رؤف باشا وفتح مدينة هرر وتجر هذه المدينة فى البن والجلود والماشية وقد ذكرت فى كتب العرب قال ابن بطوطه وهى مدينة البربر وأهلها سودان شافعية وبلادهم صحراء مسيرة شهرين أو أكثر أما زيلع نفسها فهى مدينة كبيرة الا انها أقذر مدينة فى المعمورة وأنتنها الكثرة سمكها ودماء ما ينحر بها من الجمال وقال ياقوت زيلع جيل من السودان فى طرف أرض الحبشة وأرضهم تعرف بالزيلع فيها سوق يجلب اليها المعزى من بلاد الحبشة فتشترى جلودها وترمى أكثر مسالخها فى البحر وزيلع بالعين المهملة قرية على ساحل البحر من ناحية الحبش حدثنى الشيخ وليد البصرى وكان ممن جال فى البلدان قال وأكثر معيشة أهلها من الصيد وعندهم نوع من الخشب يطبخونه ويستخرجون منه ماء ثم يعقدونه كانه الزفت فان أكل منه الرجل لا يضره فان جرح موضع عقدار غرز الابرة وترك فيه أهلك صاحبه وذلك أن الدم يهرب من ذلك الجسم حتى يصل الى القلب ويجتمع فيه فيفجره فاذا أراد أحد اختباره جرح برأس الابرة ساقه فاذا سال منه الدم قرب ذلك السم منه فانه يعود طالبا لموضعه فان لم يبادره بقطعه من أوله قتله وهو من العجائب وهم يجعلون منه قليلا فى رأس السهم ويتوارون فى بعض الاشجار فاذا مرت بهم سباع الوحوش كالفيل والكركدن والزراف والنمر يرشقونه بذلك السهم فاذا خالط دمه مات لوقته فيأخذون جلودها وما منها ذو قيمة فى التجارة اهـ ولما صدر الدكريتو الخديوى فى سنة ١٣٠١ هـ ١٨٨٣ م بترك السودان انسحبت العساكر المصرية من هرر وزيلع واستولى الحبش على هرر وقتلوا كثيرا من سكانها وكانت قبل استيلاء مصر عليها مملكة اسلامية مستقلة واستولى الانكليز على زيلع (١٨٨٥ م) وفى مرفأ زيلع صخور كثيرة ولكنها أمينة ويتردد عليها كثير من السفن الشراعية التجارية وبعض البواخر ولها مواصلات مستمرة مع مدينة عدن وباقى سواحل العرب فميناؤها لا تخلو من المراكب فى جميع فصول السنة

بربرة — هى فرضة تجارية شهيرة فى شرقى افريقية مقابل عدن واقعة الى الجنوب من زيلع وكانت تسمى قديما مالى سكانها ١٢,٠٠٠ نسمة ويقام بهذه المدينة وبزيلع أسواق موسمية تجارية فى فصل الشتاء تقصدها التجار من بلاد عديدة وتقصد هذه المدينة القوافل من جميع بلاد السومال والسودان القريبة منها بجميع السلع وتصدر منها الماشية والجلود والبن والمر وريش النعام والعاج والصمغ العربى وغير ذلك قال أحمد رفعت أفندى فى كتابه اللغات التاريخية

Digitized by Google

والجغرافية ما ملخصه ان بربرة مدينة مركزية للسومال فرضتها شهيرة قبالة عدن وكانت قديما ذات تجارة واسعة في الرقيق والبن وغيرهما ويقام بها أسواق موسمية وأخبار تركتها الدولة العلية هي وأراضي عادل وزيلع للادارة المصرية وبذلك تمكنت مصر من ادخال هرر تحت طاعتها طوعا اه وبهذا الاستيلاء اتسعت أملاك مصر في تلك الجهات حتى اتصلت ببحر الغزال وقد اهتم الخديو الاسبق اسماعيل باشا بهذه المدينة لكثرة تجارتها ونصب عليها أول محافظ مصري وهو رضوان باشا البحري فأخذ في بناء جملة مبان للحكومة منها الجمرك والجامع والمحافظة والثكنات العسكرية وأجرى اليها الماء العذب في أنابيب من مسافة بعيدة فكثرت فيها العمارية ولما صدر الدكريتو باخلاء السودان سنة ١٨٨٣ م احتلتها الجيوش الانكليزية التي حضرت اليها من عدن بعد عودة حاميتها المصرية كما احتلت غوري وزيلع وغيرهما من الاملاك المصرية هنالك

﴿ الفصل الثالث ﴾

﴿ تاريخ مصر القديم ﴾

تمهيد — لا يخفى أن أكثر المؤرخين الذين كتبوا في تاريخ مصر استمدوا أخبارهم عنها من الآثار المصرية كالكتابات البربائية أو الهيروغليفية والمباني المختلفة ومما وصلهم من الاقوال المنقولة عن تاريخ مصر الذي ألفه باللغة اليونانية القسيس المصري مانيتون في حوالي سنة ٢٥٠ ق م لان نسخته الاصلية قد صالت عليها يد الدهر فأخفتها ضمن ما خفي من كتب الاولين ومما وصفه المؤرخ هيرودوت (١) اليوناني في كتابه الذي كتبه بعد أن وفد على مصر سنة ٤٥٠ ق م ومما قاله المؤرخ الشهير ديودور الصقلي (٢) اليوناني في كتابه الذي كتبه بعد سياحته في مصر سنة ٨ ق م وقد شرح فيه جغرافية مصر بطريقة أفادت أرباب الفن ومما قاله المؤلف بلوتارك الذي كتب باللغة اليونانية عن ديانة المصريين القدماء وآلهتهم سنة ٩٠ بعد الميلاد أما ما يخص تاريخها الحديث فقد ورد في كتب العرب والعثمانيين والاوروباويين أقوال كثيرة اقتطفنا منها أصحها رواية وأقواها سندا وقد قسمنا تاريخها القديم الى خمس طبقات والحديث الى دول أما طبقات القديم فهي الطبقة الاولى أو عصر الجاهلية الاولى ويمتد من العائلة الملوكية الاولى الى الحادية عشرة من سنة ٥٦٢٦ الى سنة ٣٥٢١ قبل الهجرة والطبقة الثانية أو عصر الجاهلية الوسطى ويمتد من العائلة الملوكية الحادية عشرة الى الثامنة عشرة من سنة ٣٥٢١ الى سنة ٢١٦٠ قبل الهجرة والطبقة الثالثة أو عصر الجاهلية الاخيرة ويمتد من العائلة الملوكية الثامنة عشرة الى الحادية والثلاثين من سنة ٢١٦٠ الى سنة ٩٥٤ ق ه والطبقة الرابعة عصر اليونانيين ومدة البطالسة من سنة ٩٥٤ الى سنة ٦٥٢ ق ه والطبقة الخامسة عصر الرومان من سنة ٦٥٢ ق ه الى سنة ١٨ هجرية ومن وقتئذ ابتداء حكم الاسلام وأوله دولة الخلفاء ثم الدولة الطولونية والدولة الاخشيدية والدولة الفاطمية

---

(١) هيرودوت مؤرخ شهير اغريقي ولد بمدينة هاليكارناس من آسيا الصغرى ولقب بابي التاريخ ويعتبر المؤرخون كتابه على ما فيه من الغلطات أحسن وأنفس وأصدق ما ألف في الازمنة القديمة عاش من سنة ٤٨٤ الى ٤٠٦ ق م

(٢) مؤرخ اغريقي عاصر الامبراطور أغسطس وله مؤلف شهير في التاريخ العام

والدولة

والدولة الايوبيـة ودولة المماليك والدولة العثمانية الى عصرنا الحاضر وقد جرت عادة المؤرخين أن ينسبوا كل عائلة للمدينة التي اتخذتها قاعدة لها هذا ان كانت وطنية أما ان كانت أجنبية فتنسب الى البلاد التي خرجت منها أو الى جنسها

(الطبقة الاولى أو عصر الجاهلية الاولى)

٥٦٢٦ - ٣٥٢١ ق ه

وردفي الآثار المصرية القديمة أن المصريين كانوا يعتقدون ان أول من حكمهم ثلاث دول من المعبودات حكموا على التوالى مدة تبلغ ١٢٣٠٠ (١) عام وأن مدينة طينة أو تيني التي بالوجه القبلى كانت دار ملكهم ومركز الحكم والعلم والديانة عندهم وقال بعض المؤرخين ان هؤلاء المعبودات حكموا مصر نحو ٥٧٣٠ عاما قبل الملك منا أى مصرايم وكانوا يدعون حورشسو وهم الكهنة خدمة المعبود حور والى الآن لم يتحقق أمر هؤلاء الملوك وكذا لم يمكن تعيين زمنهم الا بالتقريب المشكوك في صحته جدا والمعول عليه في تاريخ مصر هو الدول التي تشكلت بعد نزول المصريين وسكناهم حول النيل بعد الطوفان أما أسماء الملوك وعدد سنى تسلطنهم على رواية المؤرخ المصري مانيتون فلم تكن جميعها متتابعة ملكا بعد آخر بل كان هناك ملوك كثيرون متعاصرون منهم من كان مستقلا باقليم ومنهم من كان منفردا بقطاعة أخرى وسموا جميعا بالفراعنة جمع فرعون وهي كلمة مصرية أصلها (فارع) ومعناها نور الشمس كما رواه بعضهم وقد عدّ المؤرخون العائلات الملوكية التي حكمتها قبل فتوح الاسلام فكانت ثلاثين عائلة

العائلة الاولى - ومدتها ٣٠٥ سنوات وتسمى بالعائلة الطينية نسبة الى مدينة قديمة قرب ابيدوس المعروفة الآن بالعرابة المدفونة وقد اختلف المؤرخون في تاريخ ابتداء حكمها وأول ملوكها بالاتفاق هو منا أو منيس أو مصرايم وأصله من مدينة الطينة المذكورة وهو الذى أسس مدينة منف وأحاطها بجسر يعرف الآن بجسر قشيشة وجعلها دار ملكه وكان مصرايم هذا معتبرا بين شعبه ومهيبا عندهم حتى انهم عبدوه كاله وقال هيرودوت انه بنى هيكل مفتاح ووضع للعبادة نظاما مخصوصا وكان بطلا في الوغى حارب الليبيين وقال غيره انه حوّل النيل عن مجراه الاصلى وأصلح أحوال الرعية بتحسين الزراعة ونظم القوانين والاحكام وكانت مدة حكمه نحو ٦٢ سنة ومن أنباء موته انه ابتلعه تمساح وخلفه ابنه اوتيس ويقال انه تولى على مصر العليا في أيام أبيه مدة ٣٠ سنة وحكم بعده ٢٧ سنة وهو الذى شرع في تحسين مدينة منفيس وبنى فيها الهياكل والقصور وأسس القصر الملوكى وألف عدة كتب في التشريح ويقال ان في أيامه كان ملوك الدولة الثانية والثالثة متسلطين على بعض أطراف المملكة ومن أشهر ملوك هذه العائلة ونفس الاول وينسب اليه بناء هرم كوخوم أو كوكمه القريب من سقاره وهو أول هرم بنى بمصر

(١) غير خاف انه لم يكن للمصريين مبدأ يؤرخون به وكذا جميع الامم البائدة ولهذا اختلف المؤرخون اختلافا بينا في سنى العائلات والدول وأوردوها على سبيل التقريب حتى انك ترى الفرق عند البعض يبلغ الالف سنة بالزيادة أو بالنقص وقد اتبعنا في هذا المؤلف طريقا وسطا ولم نرتكب شططا واعتمدنا على كتاب حضرة الفاضل أحمد كمال بك في تاريخ مصر وعنه خصوصا لخصنا بعض الاقوال المختصة بتاريخ مصر القديم

Digitized by Google

العائلة الثانية الطيبية – ومدة حكمها ٣٠٢ من السنين وكان بين ملوك هذه العائلة وبين الملك مناقرابة ولم يعثر الباحثون على آثارها للآن وقال مانيثون انه لما استولى الملك بوثوس نزل على مدينة بوبست (تل بسطه) سخط من السماء خسف به الارض ومات فيها خلق كثير وذكر هذه الحادثة أيضا مؤرخوا العرب وفي مدتها أخذ المصريون يعبدون الحيوانات المقدسة كالثور أبيس بمنفيس ومن أحد ملوكها قانونا جوز فيه للنساء الجلوس على سرير الملك لحصر الملوكية في العائلة المالكة ويقال ان ثالث ملوك هذه العائلة المدعو بوسيريس أو بتيوتريس هو الذي بنى مدينة طيبة وجعلها التخت الثاني بمصر ويسمى آخر ملوك هذه العائلة خينمرس او حوتفا وهو آخر نسل منا

العائلة الثالثة المنفيسية – ومدتها ٢١٤ سنة وقد تقدمت العلوم والصنائع والفنون في مدة هذه العائلة وأتقنت الكتابة واتسعت الثروة ومن آثارها الباقية التمثال العجيب المسمى بابي الهول ويسميه المصريون حورمخي (١) أي شمس الافق وتسميه الفرنج اسفنكس وهو عبارة عن صخرة هائلة نحتت على شكل حيوان برأس آدمي وجثة سبع وكان على رأسه كتابة محيت بتقادم الاعصار ولم يزل تاريخ هذا التمثال مجهولا الى الآن رغما عن شدة البحث والتنقيب وآخر ملوك هذه الدولة يدعى سنفرو (كرفريس) وفي مدته ثار عليه سكان جبل الطور وتعدوا على حدود مصر فقاد جيشا وحاربهم وقهرهم واستولى على أرضهم وشيد فيها قلاعا وحصونا وبيوتا وآبارا وعين من قبله رجالا يستخرجون له منها النحاس والفيروزج وقد رسم نفسه هناك في صخرة بوادي مغارة ولما عاد الى مصر من هذه الغزوة شيد في حدود مصر البحرية حصونا وقلاعا بقيت الى زمن العائلة الثانية عشرة

العائلة الرابعة المنفيسية – ومدتها ٢٨٤ سنة اشتهرت مصر أيام ملوكها بما شيدوه من المباني العجيبة التي لا مثيل لها منها اهرام الجيزة ومن مشاهير فراعنتها الملك سوريس وسوفيس الاول (خوفو) وهو باني الهرم الاكبر (٢) وخفرع وهو صاحب الهرم الثاني ومنقورع (رتوئيسس) وهو صاحب الهرم الثالث والاهرام قبور لملوك مصر وعظمائها قال المرحوم على مبارك باشا في الخطط الجديدة الاهرام بفتح الهمزة جمع هرم مثل سبب وأسباب وأصل الهرم أقصى الكبر كما في القاموس ومنه اشتق الهرم للطاعن في السن وقال وقد انفردت مصر بهذه الاشكال فليس لها في غيرها امثال اهـ وقال ماريت باشا أما الاهرام فتبعد عن النيل بقدر ثمانية كيلومترات وثلثمائة متر وبناؤها من أغرب الاشياء حتى ان قدماء اليونان وغيرهم جعلوها أول

(١) الاسفنكس أو أبو الهول هو صورة على شكل سبع له رأس آدمي اشارة الى القوة والعقل وجعلها المصريون رمزا لكثير من الملوك المصورة أجسامهم على شكل سبع ويبلغ طول هذا التمثال تسعة عشر مترا وثمانين سنتيمترا وطول أذنه متر واحد و٩٧ سنتيمترا وطول أنفه متر واحد و٧٩ سنتيمترا واتساع فمه متران و٣٢ سنتيمترا وعرض وجهه من نتو الخد الى مثله أربعة أمتار و١٥ سنتيمترا وهو على ما به من العظم الجسيم كما علمته كانت صورته في غاية التناسب والاحكام فهو من أبدع ما صوره المصريون ومن أعظم الادلة على تقدمهم في العلوم والصنائع

(٢) ارتفاع الهرم الاكبر ١٤٦ مترا ونصف وطول كل ضلع من قاعدته ٢٢٧ مترا ونصف متر أما زاوية الميل في جميع الاهرام فهي ٤٥ و٥ٓ ٥ وارتفاع الهرم الثاني ٤٤٧ قدما انكليزيا وعرض قاعدته ٦٩٠ قدما وعلو الثالث ٢٠٣ أقدام وعرضه عند قاعدته ٥٣٢ قدما

العجائب

العجائب السبعة اهـ قال لبسيوس كان الملك عند المصريين متى تبوأ تخت الملك أخذ يبني هرما فيختار المكان وتمهد الارض بصخر صلد ويثقب على طريق مائل ويصنع على طرف ذلك الثقب مخدع مستطيل السطوح بقصد أن يكون مدفنا لجسد الملك بعد موته ووضعه في تابوت ويقيمون في الموضع الممهد بناء صغيرا مدرج الظاهر فان اتفق أن مات الملك بعد ذلك وضعوا التابوت الذي فيه جثته في ذلك البناء وملؤا ما بين الدرجات في ظاهره بحجارة هرمية حتى تستوي جدرانه فيصير البناء هرما صغيرا وان بقي الملك حيا الى السنة الثانية بنيت طبقة ثانية من الحجارة على جوانب ذلك الهرم الاربعة ويبنون طبقة ثالثة كذلك في السنة التالية وهكذا ما دام الملك حيا لكن الطبقات تصغر سنة فسنة ومتى مات الملك كفوا عن بناء طبقة أخرى كما ذكر ويكملون الهرم بما درجات تملأ بقطع مناسبة من الحجر أو بأن يزيدوا طبقة أخرى من الحجارة ويهذبوا ما نتأ منها حتى تستوي جوانب الهرم ومن البديهيات أن مثل تلك القبور بنيت لتبقى الى الابد وتقوى على التغيرات الجوية والحوادث الطبيعية اهـ وكان الملك خوفو المذكور من رجال الحرب حيث وجد مصورا في وادي مغارة وهو يقاتل طائفة بني عون وهم قبيلة من عرب البوادي كثيرا ما كانوا يتعدون على حدود مصر الشرقية ومن آثار هذه العائلة أيضا الايوان الغربي الموجود بمعبد فتاح بمنفيس وهو أعظم ايوان مزين بالصور والنقوش الغريبة والاشكال العجيبة

العائلة الخامسة — ومدتها ٢١٨ سنة وهي اسوانية وكانت قاعدة ملكها جزيرة أسوان وعدد ملوكها تسعة وأشهرهم أسركاف وسفرس (سحورع) ونفرا كريس (نفرفرع) ولم تعلم لها آثار الا الهرم الذي بسقارة المنسوب الى آخر ملوكها المسمى أوناس أو أونوس ولما فتح وسنة ١٨٨١ م لم يجدوا فيه سوى تابوت الملك وهو من المرمر الاسود وغطاؤه ملقى بعيدا عنه وكذا بعض أعضاء الملك وعظامه مع قطع من أكفانه ووجد في وسط الحجرة حفرة حفرت للبحث عن الدفائن قال أحمد بك كمال في العقد الثمين قد وجد في الصحيفة المصرية القديمة المحفوظة في انتيقة خانة توريتو بايطاليا ان الملك أوناس كان هو المتمم للقسم الاول من طائفة الفراعنة اهـ

العائلة السادسة — ومدتها ٢٠٣ سنوات وهي أسوانية أيضا وفي مدتها انحطت مصر عن درجتها وضعف أمر منفيس وثارت بلاد النوبة وكذا بعض قبائل سوريا ولما تولى أحد ملوكها المدعو مرنرع الاول (مثمسوفيس الاول) أمر وزيره أونا بان يبني له هرما وأرسله في سفن لجلب الاحجار فذهب ومعه سفينة حربية وهي أول سفينة حربية صنعت بمصر على ما نعلم ومن ملوك هذه العائلة نيتوكريس (نيتاقرت) وكانت من أجمل نساء عصرها وأفضلهن قيل كان لها أخ قتله بعض رجال دولتها بغضا وحسدا فانتقمت منهم بان أقامت لهم وليمة في محل متسع تحت الارض وكان له وصلة الى النيل فلما اتكأوا فيه وانهمكوا في الاكل والشرب أمرت بان ينساب عليهم ماء النيل ففتحت الوصلة المذكورة فماتوا عن آخرهم ثم قتلت نفسها مخافة أن يبطش بها من تحزب للمقتولين ويقال انها هي التي أتمت الهرم الثالث الذي تركه منكورع ناقص البناء واتخذت لها فيه محلا دفنت فيه

أما العائلات التي أتت بعد هذه العائلة الى العائلة الثانية عشرة فامرهم مجهول بالمرة وربما

كان لهم آثار مدفونة تحت الارض لم يقف عليها الباحثون للآن ويعلم من الآثار وأقوال المؤرخين أن مصر في تلك المدة كانت في حالة ضعف واضطراب واختلال وتفرقة وأشهر عمل حدث في تلك الحقبة العصرية اهتمام الملك سعنخ كارع آخر ملوك الدولة الحادية عشر الطيبية في ترتيب المواصلات بين مصر وبلاد العرب ونقش ذلك على حجر في دارى مغاره فترجم شاباس ذلك فكان ان حنو هو أول من فتح الطريق الموصل من قفط الى بلاد العرب بأمر الملك سعنخ كارع وجعل فيها خمس محطات وعيونا للماء فكانت سببا لترتيب المواصلات فيها وسلوكها بالقوافل التى كانت تأتى بالبضائع والسلع من بلاد الهند والعرب الى مصر واستمر هذا الطريق كذلك الى عصر اليونان والرومان اهـ

﴿ الفصل الرابع ﴾

﴿ الطبقة الثانية أو عصر الجاهلية الوسطى ﴾

٣٥٢١ — ٢١٦٠ ق هـ

العائلة الثانية عشرة — ومدتها ٢١٣ سنة وتعرف هذه العائلة بالطيبية وملوكها ثمانية أولهم امنمحعت الاول وتسميه اليونان أمنمس وكانت مصر في مدته في راحة وسلام واعتنى بأمر سكانها وحاول بعضهم قتله في سنيه الاخيرة ولكن لحسن حظه نجا من الهلاك وقد أشرك هذا الملك ابنه اوسرتسن الاول معه في الملك ولما رآه متكبرا كتب له كتابا ينصحه وينهاه فيه عن هذا الخلق الذميم وغيره (١) وبعد موته خلفه ابنه أوسرتسن الاول وهو صاحب المسلة القائمة للآن بالمطرية وطولها عشرون مترا و ٢٨ سنتيمترا قال الفاضل أحمد أفندى نجيب في كتابه الاثر الجليل رأى عبد اللطيف البغدادى في سياحته بمصر سنة ١١٩٠ ميلادية جملة آثار بالمطرية منها مسلتان متوجتان من نحاس كالقمع ترتفعان ثلاثين ذراعا وسالا على بسيطهما وقال محمد بن ابراهيم الجزرى في تاريخه وفي رابع شهر رمضان سنة ٦٥٦ هـ وقعت احدى مسلتى فرعون التى بارض المطرية فوجد وداخلها مائتى قنطار من نحاس وأخذ من رأسها عشرة آلاف دينار وقال في موضع آخر ويستفاد من دقة صنعتها ووضعها على نصابها أنهم كانوا يستعملون وسائط ميكانيكية ولهم أعظم يد في الهندسة وصبر على مباشرة الاعمال الجسيمة اهـ وشيد أحد أمراء هذا الملك المقبرة العجيبة التى في بنى حسان بمديرية المنيا وبين الصور والنقوش التى عليها مشهد يشبه دخول سيدنا يعقوب مصر حتى ظن بعض المؤرخين ان أوسرتسن الاول هو فرعون يوسف عليه السلام ولكن المدة التى وجد فيها سيدنا يوسف لا توافق عصر هذا الملك وسيأتى التنبيه عليها ولا يستبعد أن يكون ذلك مشهد دخول سيدنا ابراهيم الخليل بن تارح عليه السلام لانه بعد أن خرج ابراهيم من النار وآمنت به زوجته سارة وهي ابنة عمه هاران فارق ابراهيم ومن آمن معه قومهم وهاجروا الى حران وأقاموا بها مدة ثم سار ابراهيم الى مصر وصاحبها

---

(١) اسمع قولى يا بنى حيث أصبحت حاكما على الاقاليم الثلاثة وهي الوجه البحرى والقبلى والنوبة فيلزمك أن تقتدى باحسن ما كانت تفعل أسلافك وأن تحافظ على حسن النظام بين رعيتك حتى لا ترجف منك قلوبهم ولا تسكن في معزل منهم ولا تعجب بنفسك ولا تقتصر في المصاحبة على الغنى والشهير دون المسكين والفقير ولا تبادر بتقريب الوافد اليك لان ضمائر غير مختبرة لك اهـ ورقة سالير

فرعون

Digitized by Google

فرعون قال أبو الفداء وكان اسمه سنان بن علوان وقيل طوليس فذكر جمال سارة لفرعون المذكور فاحضر سارة اليه وسأل ابراهيم عنها فقال هذه أختى يعنى فى الاسلام فهم فرعون المذكور بها فأيبس الله يديه ورجليه فلما تخلى عنها أطلقه الله تعالى ثم هم بها فجرى له كذلك فاطلق سارة وقال لا ينبغى لهذه أن تخدم نفسها وهبها هاجر جارية لها فاخذتها وجاءت الى ابراهيم ثم سار ابراهيم من مصر الى الشام وأقام بين الرملة وايليا اه وهذا التاريخ يقرب من زمن مجىء ابراهيم الى مصر ويطابق ما أورده مؤرخو الفرنج الذين يرتكنون على ما جاء فى التوراة وهو أن اليهود من نسل ابراهيم الذى دعى سنة ١٩٢١ ق م لان يترك قبيلته وأرض ميلاده وبيت أبيه ووعد بأن المسيح يأتى من نسله وتسمى اليهود عبرانيين من عابر والاسرائيليين من يعقوب الذى دعى اسرائيل أيضا ويهودا من يهودا بن يعقوب وهو جد يهوذا الذى كان له التقدم بين الاسباط الاثنى عشر ثم ان يعقوب وبنيه وعيالهم وهم سبعون نفسا انحدروا من أرض كنعان الى مصر سنة ١٧٠٦ ق م واستعبد المصريون نسلهم مدة ٢١٥ سنة وقد أشرك أوسرتسن الاول ولده امنمعت الثانى معه فى الملك ولما مات واستقل ابنه بالحكم كانت أيامه كلها حروبا مع الاثيوبيين ثم مات وخلفه أوسرتسن الثانى وهو الذى شيد عند الشلال الثانى قلعة سمنة الباقية آثارها الآن وعندها كتابة معناها منع السودان من تعدى هذا المكان ما لم يأتوا فى مراكب المعز والثيران وغيرها من الماشية ويظن أن السفينتين اللتين وجدتا فى دهشور ونقلتا الى متحف الجيزة وتقدم الكلام عليهما فى مقدمة هذا الجزء صنعتا فى أيامه وخلفه فى الملك امنمعت الثالث وقد اهتم هذا الملك أكثر من سلفائه ملوك هذه العائلة بالاعمال النافعة العائدة على مصر والمصريين بالسعادة والثروة ولما كان من المحقق أن سعادة مصر وشقاءها متوقفان على النيل بحيث ان فيضانه لا يكون زائدا عن حده فيغرق البلاد ولا ناقصا عنه فتجدب الارض اهتم هذا الملك فى عمل ما يدفع به هذين الخطرين الشديدين عن ديار مصر فأنشأ لذلك بحيرة عظيمة بوادى الفيوم ليخزن فيها ماء النيل الى وقت الحاجة وأقام حولها الجسور والسدود وجعل لها ترعتين احداهما لتجلب اليها ماء النيل وهى بحر يوسف والثانية لتصرف منها ما زاد متى كان الفيضان قليلا وتعرف هذه البحيرة عند اليونان ببحيرة موريس ومكانها الآن وادى الريان ومن أعظم أعماله أيضا قصر اللابيرنت البديع الصنعة وكان بالفيوم أيضا قرب البحيرة المذكورة زاره هيرودوت وأعجب به جدا وينسب الى اوسرتسن الثالث تأسيس مدينة الكرنك فى بلاد الصعيد وافتتاح بلاد الحبشة وآخر ملوك هذه العائلة يسمى امنمعت الرابع وقيل سبك نفرورع

العائلة الثالثة عشرة الطيبية والعائلة الرابعة عشرة السخاوية — ومدة الاولى ٤٥٣ سنة والثانية ١٨٤ سنة تقريبا — لم يذكر مانيثون هاتين العائلتين فى جدوله فلهذا تعسر الوقوف على تاريخهما حتى عثر الباحثون على بعض آثارهما محفوظة بدار التحف المصرية بالجيزة وذكر ماريت باشا أن لهاتين العائلتين جملة آثار بالانتيقخانة المصرية وبخزائن التحف باوروبا ولهما تماثيل هائلة بجهة تانيس ونقوش بعض النواويس القديمة باسيوط التى كانت تعرف فى كتب اليونان باسم ليكوبوليس (Lycopolis) أى مدينة الذئب لانهم كانوا يعبدونه بها وانقراض العائلة الاخيرة منهما نشأ عن عصيان الرعية على آخر ملوكها وفى مدتها كانت الاحوال مختلفة بمصر حتى أدى ذلك لتغلب العمالقة عليها

Digitized by Google

استيلاء العمالقة او الرعاة على مصر ومدته ٥١١ سنة — لا يخفى أن افتتاح الرعاة بلاد مصر كان من الحوادث الكثيرة الاهمية فى تاريخ مصر وقد اختلف المؤرخون فى أصل هؤلاء القوم فبعضهم يجعلهم من الامة العبرانية وبعضهم يقول انهم من أهل فينيقية ولكن هذه الاقوال لا تنطبق على هيئة أشكالهم المرسومة على الآثار المصرية لانهم كانوا يصورون على الاعمدة والصور كشعب موسومة أجسادهم بالوسم الازرق متشحين بجلود غنم فهذه الاشارات تدل على أمة عربية لا على شعوب عبرانية أو فينيقية وقال عنهم ماريت باشا ان قبائل الهكسوس يعنى العمالقة كانوا أخلاطا من العرب وأهل الشام وأكثرهم من الكنعانين كما ذكره مانيتون وكانت أكبر قبيلة حاكمة عليهم تسمى بالقلم الهرمسى خيتا وفى التوراة حيثين وفى تواريخ العرب عمالقة وقد دخلوا مصر من آسيا أتوا من جهة الشمال الشرقى واستولوا على الوجه البحرى تحت راية الوليد بن دومع وهو الذى يسمى عند اليونان سلاطيس فحارب مصر السفلى والوسطى وتغلب عليهما ولما استقر فى الملك أحرق المعابد وخرب الهياكل وبنى القلاع والحصون وشحنها بالمقاتلة ومهمات الحرب خوفا من هجوم المصريين وغيرهم من الطوائف الاجنبية على البلاد واتخذ مدينة منفيس تختا للمملكة واضطر ملوك مصر أن يهاجروا مع جماعة من رعيتهم الى الصعيد وحكموا هنالك بمدينة طيبة مقر الفراعنة وفى ذلك الوقت صار بديار مصر مملكتان وهما مملكة الفراعنة ومملكة الرعاة المتغلبين فى منفيس ثم انتهى الامر بفراعنة طيبة الى الخضوع الى العمالقة وكانوا يدفعون لهم خراجا ويأتمرون بأوامرهم وكان المصريون يكرهونهم وينفرون منهم لقساوتهم وكثرة جورهم وفى عصر هؤلاء الاقوام تكاثر ورود أهل آسيا الى مصر فاتخذ العمالقة منهم جنودا ليكونوا لهم أعوانا عند اللزوم ولم يمض على هؤلاء العرب زمن طويل حتى تدينوا بدين المصريين وتركوا ما هم عليه من الخشونة والغلظة وشرعوا فى احياء التمدن ونشر العلوم وتعلموا لغة المصريين وعلومهم وفى عهد الريان ابن الوليد المسمى عند اليونان أبوفيس وباللسان الهرمسى رعا كين أحد ملوك الدولة السادسة عشرة وفدت السيارة التى اشترت يوسف من اخوته بعد اخراجه من الجب فباعه رئيسها المالك الى قطفير (بدوفر) وزير مصر ودخل بعد ذلك فى خدمة الدولة المصرية بعد القصة المشهورة الواردة فى القرآن الشريف وما زال يوسف عليه السلام يترقى الى أن صار عزيز مصر ثم جاء يعقوب عليه السلام وأولاده الاحد عشر فأنزلهم يوسف عليه السلام جهة الشرقية وأقطعهم أرض جاشان المعروفة الآن برأس الوادى قال أبو الفداء وعاش يعقوب معهم مجتمعين سبع عشرة سنة ومات يعقوب وأوصى الى يوسف أن يدفنه مع أبيه اسحق ففعل يوسف ذلك وسار به الى الشام ودفنه عند أبيه ثم عاد الى مصر وكانت وفاة يوسف بمصر ودفن بها اه وورد فى التاريخ المسمى قطف الزهور أن دخول يوسف الى مصر كان بعد انقراض دولة الرعاة ويؤيد ذلك كلام مانيثون المؤرخ اذ يتكلم عن مدينة منف فيقول وعاش بها يوسف وتسلط على البلاد وفى زمن أقدر وأعظم فراعنة المملكة الجديدة بعد نفى الرعاة وخروجهم من البلاد اه ثم قامت حروب بين المصريين والهيكسوس بسبب مناقشات حصلت فى شأن الديانة وغيرها واستمرت أحكام البلاد فى أيديهم نحو ٢٦٠ سنة وقال بعضهم ٥١١ سنة ويصعب تعيين تاريخ مدقق لتلك الاعصار الاولية لعدم اتفاق المؤرخين

Digitized by Google

فى ذلك ومازالت البلاد تحت تسلطهم ولم يتمكن المصريون من اجلائهم عنها الا فى مبدإ ظهور الدولة الثامنة عشرة وتغلب احمس (اموزيس) الاول عليهم وقد أثبت المؤرخون للملوك الرعاة أعمالا حسنة فى عمارة البلاد المصرية وزيادة ثروتها فاذا قال عنهم البعض بانهم خربوا البلاد ودمروها فذلك فى أول أمرهم ومدتهم عبارة عن العائلات الخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة

﴿ الفصل الخامس ﴾

﴿ الطبقة الثالثة عصر الجاهلية الاخيرة ﴾

٢١٦٠ – ٩٥٤ ق م

العائلة الثامنة عشرة الطيبية ومدة حكمها ٢٤١ سنة وأول ملوكها يدعى احمس أو احعمس ومعناه ابن القمر وأصله من سلالة أحد ملوك العائلة السابعة عشرة وهو الذى حارب العمالقة ولما هزموه فى أول الحرب فر هاربا الى بلاد السودان وتزوج بابنة ملكها ليستعين به على طرد العمالقة ثم عاد بجيش عظيم وانضم اليه أقوام من المصريين ومازال يقاتل الهكسوس حتى هزمهم وألجأهم الى الاعتصام بقلعتهم المسماة أواريس فحاصرهم بها وورد فى بعض صحف البردى التى بالمتحف البريطانى ان أحمس هذا كان وقت حصار قلعة أواريس عند سكنترا أى رئيس الملاحين فى سفينة اسمها العجل وامتاز بالشجاعة فى عدة وقائع انتصر فيها ثم انتهت الحرب بفتح قلعة أواريس التى كانت تحت الحصار برا وبحرا فخرج منها الرعاة بشرط أن يأخذوا جميع منقولاتهم من مصر ومع ذلك فان احمس اقتفى أثرهم حتى أدخلهم قلعة شاروهن فى حدود أرض كنعان ولما هزم المصريون ملوك الرعاة استولى احمس على كل أرض مصر وقبض على أزمة الاحكام منفردا والتفت الى اصلاح مادمره الرعاة وقت الحرب فأصلح هيكل فتاح فى ممفيس وهيكل أمون رع فى طيبة ولم يبق فى مصر من عرب الرعاة الا طائفة مكثت بين الصحراء وفرع النيل الشرقى وأعقابهم القاطنون الآن حول بركة المنزلة وحرفتهم صيد الاسماك وقنص الطيور وملك احمس اثنتين وعشرين سنة وفى تلك الايام وجد كثير من صور الخيول منقوشة ومرسومة على الحجارة والصخور والمظنون أن هذه الحيوانات لم يكن لها وجود قبل دخول الرعاة الى مصر ويقال انهم هم الذين أدخلوها وملكت بعده زوجته المسماة احعمس نفرت ارى السودانية بالنيابة عن ابنها امنوفيس أو أمنحتب لصغر سنه ولما كبر وجلس على سرير الملك حصن مصر من الجانب القبلى ثم انتقل الى الوجه القبلى وعلى أعمالا نعلم من نقوش على أحجار قبره الكاب منسوبة الى أحعمس رئيس الملاحين القائل فيها انى أحضرت سفينة الملك أمنحتب حين جهز تجريدة لقتال الاتيوبيا لتوسيع حدود مصر اه ومكث ملكه احدى عشرة سنة وملك بعده تحوتمس الاول ومن عظيم أعماله انه زحف على بلاد الجزيرة (بين النهرين) وحارب الاشوريين وفى أيامه كانت بلاد اتيوبيا منبع الثروة المصرية فتأتى منها البضائع مشحونة فى مراكب تمر بالنيل الى مصر وله عمارات عظيمة منها جزء من معبد أمون بالكرنك ومسلتان احداهما موجودة للآن فى باب المعبد المذكور ثم خلفه تحوتمس الثانى بالاشتراك مع الملكة حاتازو بنت المتوفى ولكنه مات وبقيت الملكة منفردة بالحكم وهى التى قامت بتوسيع ملكها فصنعت فى

Digitized by Google

البحر الاحمر مراكب حربية وقادتها بنفسها الى بلاد بون كما ذكرناه فى المقدمة وخلفها تحوتمس الثالث وفى أيامه هجمت الجيوش المصرية على أهل الشام فأوقعت الرعب فى قلوبهم وانتصرت جنوده فى كل الحروب فاغتنت الامة المصرية بالجزية الوافرة التى أخذها من الاجانب ومن البلاد التى حملت له الجزية الحبش وسوريا وفينيقيه ومحا اسم أختها من الآثار ومن جملة آثاره المسلة التى نقلت الى الاسكندرية والمسلة الموجودة الآن فى القسطنطينية وأخرى فى رومية مكتوب عليها اسمه وله أيضا آثار أخرى عظيمة منها الرواق الملكى الموجود فى الكرنك وخلفه امنحتب الثانى فملك وقتا قصيرا وخلفه امنوفيس الثانى وكانت مملكة مصر وقتئذ فى حالة العظمة والسطوة وقد حارب الاشوريين وانتصر عليهم وفتح نينوى وفى السنة الثالثة من حكمه عاد فى البحر غانما الى مصر ووضع فى مقدم سفينته رؤس الذين قتلهم بنفسه وتولى بعده تحوتمس الرابع المذكور اسمه على اللوح الذى بين براثن أبى الهول وقام بعده أمنوفيس الثالث وبلغت صناعة النحت والبناء والتصوير فى أيامه أوج الكمال وكان من رجال الحرب العظام فأخضع كثيرا من البلاد وأخذ الجزية من أهل بلاد ما بين النهرين وحكم ٥٤ سنة وخلفه امنوفيس الرابع وله محاربات مع أمم آسيا منقوشة على جدران معبد الشمس التى محلها الآن تل العمارنة القريب من منية ابن خصيب وخلفه الملك آى وكان من عبدة الشمس أيضا وملك بعده توت عنخ آمن وله مقبرة بطيبة عليها نقوش تشخص السفن القادمة من السودان حاملة الجزية من غلال وثيران وخيول وغيرها وملكة السودانيين ورسولها قد خرجا من تلك السفن وركبت الملكة عربة جميلة تسحبها ثيران ومعها أمراؤها متواضعين أمام ملك مصر

العائلة التاسعة عشرة — أول ملوك هذه العائلة هو رمسيس الاول وكانت أحوال الامة المصرية قد ضعفت بسبب الثورات الحاصلة من تغيير ديانة المصريين الى عبادة الشمس التى دخلت مصر فى عهد الدولة الثامنة عشرة وينسب الى هذا الملك محاربة ملك الخيتا أو الحيثيين وغيرهم من الامم ومات وخلفه ابنه سيتى الاول فحارب الآسيين والشاسو والعرب وهو الذى ينسب اليه توصيل النيل بالبحر الاحمر بواسطة ترعة احتفرها وكان فمها عند تل بسطه وشيد خط استحكامات شرقى مصر وملك بعده رمسيس الثانى الشهير بسيزوستريس وطال ملكه زمنا طويلا وكان ملكا عظيما ظافرا كثير المغازى والغارات قد ملأ مشارق الارض بصيت فتوحاته وأرهب مغاربها بهيبة بأسه وسطوته كثرت فى زمانه الحروب وعظمت علوم مصر وتقدمت صنائعها تقدما حسنا ولم تشتهر حروب رمسيس الاكبر هذا بالكتابة فقط بل صوّرها مهرة المصوّرين فى تلك الايام بأبى سمبل وفى أماكن أخرى خصوصا صورة الواقعة الكبيرة التى حصلت فى قادش وحارب الخصمان فيها بشجاعة غريبة فترى فيها مركبات الخيتا وأحلافهم مصوّرة تنقلب على النهر وقد قتل فيها خلق كثير من كبار رجالهم منهم أخو ملك الخيتا وسائق مركبة ملكهم وقائد الجيش وقائد الفوارس ورسم فى احدى الصور ملك الخيليو وأوالخيبر يبو حليف ملك الخيتا ينقذ حاله من الغرق فى النهر وحاصل ذلك ان رمسيس توغل بالدخول بين جنود الاعداء حتى أحاطوا به من كل جانب وفى تلك الحال أخذ يدعو معبوده أمن رع فظهر له وشجعه بالكلام وأخذ بيده ونصره على العدوّ كما ورد عنه فى الآثار ثم

انتهت

انتهت تلك الحروب بدون أن يكون الظفر تاما لاحد المتحاربين ثم حصل الصلح والتحالف بين المصريين والحيثا وتزوج رعمسيس ابنة ملك الحيثا ثم قهر رعمسيس بعد ذلك الكنعانيين والاموريين وأهل سوريا وغيرهم وشيد جلائل المباني هيا كل ثم أخذ في توسيع ممالكه بالفتوحات العظيمة فجند الجنود وشرع في التغلب على الاقطار السودانية فاستولى عليها وضرب على أهلها خراجا يدفعونه كل سنة من الابنوس وسن الفيل والذهب وكان يرسل السفن لاستحضاره ثم بعث في البحر الاحمر عمارة بحرية مركبة من أربعمائة سفينة حربية فاستولت على سواحل هذا البحر وجزائره ومدنه وثغوره وعلى جزائر بحر الهند وجهز نظير ذلك جيشا بريا وقاده بنفسه الى بلاد آسيا ودخل به بلاد الهند ثم دخل بلاد التتار ووصل الى نهر الطونه واجتازه واستولى على جزائر بحر الروم بالاسطول الجسيم الذي ساقه في البحر المتوسط الابيض وقال بعض المؤرخين ان رمسيس الثاني امتد ملكه من نهر الكنج في آسيا الى نهر الدانوب أي الطونه في أوروبا وكان كلما فتح قطرا واستولى على مملكة شيد فيها هيا كل وآثارا تدل على نصراته وفتوحاته وأبقى فيها فرقة من الجنود المصرية ليستوطنوا فيها وينشروا ويبدوا بانتهم وعوائدهم وحكم هذا الملك ٦٧ سنة وورد عن كثير من المؤرخين المعتبرين تكذيب لاغلب هذه الفتوحات بالمرة وان ما وقع منها مبالغ فيه لاسباب ذكروها وهو الذي ضيق بحيرة التمساح ومهد الطريق الموصل لاستخراج المعادن من بلاد النوبة وطهر الترع وحصن حدود الصحراء لمنع اغارة العرب على مصر وكان محبوبا لدى أمته معظم الاسم وملك بعده ولده منفتاح الاول وكان طاعنا في السن فشرع في تشييد المباني العظيمة في طيبة ولما علم أهل آسيا بصعود منفتاح على التخت ظنوا فيه الضعف لتقدمه في السن فأرسلوا مراكبهم الحربية الى سواحل ليبيا من البحر الابيض من جهة الغرب مشحونة بالرجال من قبائل متعددة من يونان وصقليين وغيرهم وانضم اليهم مرمايو بن ريد ملك الليبيين وخرجوا من السفن وهجموا على مصر ومع ذلك فقد دلت النقوش الموجودة على الآثار أن مصر لم يدخلها عدو أجنبي منذ خروج العمالقة منها ولما أغار هؤلاء الاعداء على مصر بادر منفتاح باقامة الاستحكامات على ضفة فرع رشيد وتجنيد الجنود ولما تقدم العدو تقدم هو أيضا بجيوشه الكثيرة وهزمه واستولى المصريون على جميع آلاته ومؤنه وما كان معه وهذه هي أول واقعة حربية حصلت بين المصريين وأمم أوروبا

والذي عليه غالب المؤرخين أنه في عصر هذا الملك خرج بنو اسرائيل من مصر مع سيدنا موسى عليه السلام بعد معجزات كثيرة وذلك للمعاملة التي كان المصريون يعاملون بها بني اسرائيل فكانت الفراعنة يستعملونهم في تشييد المباني والعمارات وغيرها من الاعمال الشاقة وفي عهد رمسيس الثاني أمر بتشديد العذاب عليهم وسخرهم في نقل الاحجار وتشييد مدينة رمسيس وغيرها مما شيده ويقال ان ولادة موسى عليه السلام كانت وقت صدور هذا الامر وقال أبو الفداء لما ولدته أمه كان قد أمر فرعون مصر واسمه الوليد بقتل الاطفال فخافت عليه أمه وألقى الله تعالى في قلبها أن تلقيه في النيل فجعلته في تابوت وألقته والتقطته آسية امرأة فرعون وربته اه ولما شب أخذ يرأف بحالة الاسرائيليين وكان من أمره ما كان من الحوادث التي آل الحال فيها أن فرعون صرح لبني اسرائيل أن يسيروا مع موسى ثم ندم فرعون وسار بعسكره حتى لحقهم عند بحر القلزم وعند ذلك أمر الله موسى فضرب البحر بعصاه فانشق ودخل فيه هو وبنو اسرائيل وتبعهم فرعون

Digitized by Google

وجنوده فانطبق البحر على فرعون وجنوده وغرقوا عن آخرهم وقال بعض المؤرخين ان ذلك حصل مدة منفتاح الثاني والبعض قال انه فى مدة سيتوس الثاني ومن العجب أن قدماء المصريين يكتمون حادثة غرق فرعون و ينكرونها بالكلية خوفا من الفضيحة والعار فى الاجيال المستقبلة ولاعجب من كتمان المصريين هذه الحادثة لاننا نجد فى هذه الايام المتنورة من ينكرها أيضا اذ ينسبون انفلاق البحر الى حادثة طبيعية كالمد والجزر الدوريين وغير ذلك من التصورات التى لا تنطبق على ما ورد فى الكتب المنزلة وشرحه وفسره علماء الاديان

و بعد موت منفتاح الاول حصلت حروب أهلية مدة منفتاح الثانى لم يستدل على تفاصيلها للآن ولما مات منفتاح الثانى خلفه فى الملك ولده سيتوس الثانى الملقب منفتاح الثالث وكانت فى أيامه ارتباكات وقبل وفاته بنى له مقبرة عظيمة الصناعة فى بيان الملوك وملك بعده امنمس وحدث فى أيامه اختلالات داخلية أدت الى ورود الاجانب الى مصر بكثرة وتمكنوا فيها حتى اغتاظ المصريون ثم من ذلك ثم ملك بعده سبتاح باتفاق الوزير بابى مع زوجة سبتاح المسماة توسرت ولذا قال هذا الوزير فيما ورد عنه انى أزلت الباطل وأظهرت الحق لكونى أجلست الملك سبتاح على تخت والده ولكن استمر الخلل والاضطراب فى داخلية مصر واستقل ارزو الفنديقى بالملك مدة طويلة وأساء معاملة أهلها ولما طرد تولى بعده سيتخت مريرع فشرع فى ردع أبناء وطنه الذين حاولوا نزع الملك منه وقاتل الاجانب

العائلة المتممة للعشرين وتدعى بالرعمسيسية ومدتها ١٧٨ سنة — وتدعى بالطيبية أيضا

وأول ملوكها رمسيس الثالث وهو آخر مشاهير ملوك مصر وفى أول حكمه خرج عليه البدو وأهالى الشام والليبيون وعدة قبائل أخرى وهم الحيتا والترويون والعموريون والتكاريون والشرتنه والسازو وغيرهم فحاربهم وانتصر عليهم ولما علم أهل آسيا الصغرى والجزائر اليونانية بهذا الحرب أرادوا الخروج عن طاعته فشحنوا أساطيلهم بالجيوش واندفعوا على مصر من جهة الدلتا وتقابلت جيوشهم وسفنهم الحربية بجيوش وسفن المصريين وحصلت واقعة هائلة انتهت بنصرة المصريين على هؤلاء الاقوام كما ذكرناه فى المقدمة وأرسل رمسيس هذا فى البحر الاحمر سفنا الى بلاد العرب لجلب خيراتها ثم أرسل تجريدة حربية الى شبه جزيرة الطور وأخضع أهلها وقبل موته أشرك معه ابنه رمسيس الرابع فى الحكم ودفن فى بيان الملوك بمقبرة كبيرة صنعها لنفسه هناك فى مدة حياته وخلفه فى الملك ولده رمسيس الرابع فقام عليه أهل آسيا فحاربهم وانتصر عليهم و بعد ذلك فتح طريق قفط لتسهيل التجارة بين مصر و بلاد العرب وفى آخر مدة هذا الملك حصل اختلاف فى داخلية مصر فانتهز رمسيس الخامس فرصة ذلك واغتصب الملك لنفسه وكتب اسمه على الآثار بعد اسم سلفه قاصدا بذلك الانتساب الى العائلة الملوكية ولما كان يميل الى اعلاء شأن مصر والمصريين انشرحت الامة بولايته واستبشرت بطلعته حيث زادت الثروة فى مدنه وأصلح المعابد ورتب بها القربان وعمرها بالعطايا وخلفه رمسيس السادس وله مقبرة عظيمة النقش والرسوم فى بيان الملوك منقوش عليها وقائع فلكية ورموز دينية وجداول مقسمة الى ساعات وعليها مطالع الكواكب وغير ذلك من الغوامض الفلكية وقد تغلب على عدة أقاليم من بلاد السودان وخلفه رمسيس السابع ثم بعده رمسيس الثامن وليس لهما آثار ثم تملك رمسيس التاسع وله بعض أحجار فى معبد خونسو بطيبة ثم خلفه رمسيس العاشر وله جملة آثار بمتحف انكلتره ومقبرته بطيبة

Digitized by Google

وفي أيامه ضبط بعض لصوص كانوا تعدوا على كسر ونهب مقابر بعض ملوك العائلات الحادية عشرة والسابعة عشرة والثامنة عشرة ولكن لما أمر بالتحقيق اتضح براءة المتهمين وخلفه رمسيس الحادي عشر ومد سلطنته على بلاد الاثيوبيا وسوريا وخلفه رمسيس الثاني عشر وقد بنى كثيرا من الآثار وفي آخر حكمه ضعف أمره واستفحل أمر حرحور رئيس كهنة أمون حتى صار صاحب الحل والعقد في أحكام وسياسة الدولة ومازالت سلطنته تنمو حتى انتزع ملك مصر من رمسيس الثالث عشر آخر ملوكها

العائلة الحادية والعشرون الطيبية — وأول ملوكها حرحور الكاهن السابق الذكر وله بعض كتابات على هيكل خونسو مدح فيها نفسه ونفى في مدته من بقي من العائلة الرمسيسية الى الواحات الكبرى وتولى بعده الكاهن بعنخي ولضعفه قامت الفتن في مصر من العائلة الرمسيسية وخلفه ولده الكاهن بينوزم وفي أيامه ثارت فتنة بين أهالي الوجه القبلي والبحري بسبب نفي العائلة الرمسيسية في الواحات فلم يتمكن هذا الملك من اطفاء تلك الثورة وبعث ابنه منخبررع بقوة لذلك فاطفأ الفتنة ودعا نفسه برئيس كهنة أمون بدل أبيه المذكور وأحضر الرمسيسيين من منفاهم وفي آخر عهد هذه العائلة ضعف أمرها وخرج عن طاعتها كثير من البلاد وتولى ششنق بعد موت ميامون آخر ملوك الدولة التنيسية

العائلة الثانية والعشرون ومدتها ١٧٠ سنة — كان تخت هذه الدولة مدينة بسطة بالشرقية وأول ملوكها ششنق الاول وله أخبار منها أنه حارب رحعيم ملك فلسطين بجيش مؤلف من ١٢٠٠ عربة حربية و ٦٠,٠٠٠ فارس وكثير من المشاة فاستولى على فلسطين وسلب أموال هيكل سيدنا سليمان بن داود عليهما السلام وله آثار عديدة وملك بعده أوسوركون الاول ثم ملك بعده تاكلوت الاول وخلفه أوسوركون الثاني وخلفه ششنق الثاني وليس له آثار وخلفه تاكلوت الثاني وله بعض الآثار وخرج عليه الاتيوبيون جنوبا والاشوريون شمالا واستقلوا فضعفت مصر بخروج بعض ملحقاتها منها وفي عهد ششنق الثاني وبيماي وششنق الرابع ميامون آخر ملوك هذه الدولة تجزأت مصر الى ولايات صغيرة وانتزع الملك عائلة أخرى من التنيسين

العائلة الثالثة والعشرون ومدتها ٨٩ سنة — وكانت قاعدة ملكها مدينة بسطه وأول ملوكها بدوسابست وهو المؤسس لهذه العائلة وأخذ يقوي مملكته فانتزع طيبة من أيدي الاتيوبيين وفي مدة أوسوركون الثالث وبساموس وذت من ملوك هذه العائلة انقسمت مصر الى عشرين ولاية فكان لكل ولاية أمير مخصوص واستمرت مصر على ذلك الى أن ظهرت عائلة من صا الحجر بالوجه البحري ونزعوها من أيدي هؤلاء الامراء الذين أضعفوا قوتها بسوء تدبيرهم ولكن بقيت المنازعات بينهم وبين الاتيوبيين الى أن ظهر تفنخت الآتي وبعد حروب اتفق مع الاتيوبيين فجعلوه ملكا عليهم

العائلة الرابعة والعشرون الصاوية — عدد ملوك هذه الدولة خمسة أولهم تفنخت المذكور وكان يحكم احدى الولايات العشرين المتقدمة وكان حصن مدينته تحصينا قويا ولما قصد التغلب على مصر بتمامها شرع في اخضاع الملوك المجاورين له واستمر يحاربهم الى أن قويت شوكته وانقادت مصر اليه أولا فاستعان أخصامه بالملك بعنخي ملك اتيوبيا فبادر الى معونتهم ولكنه بعد أن

اخضع تفنخت المذكور جعله ملكاعلى كل الرؤساء الممتازين ثم توفى تفنخت المذكور وخلفه باكوريس وكان ضعيف البنية فسلك مسلك والده حيث شرع فى نزع مصر الوسطى والوجه البحرى من يد الامراء لعدم وجود من يعارضه من الاينيو بين فنجح فى عمله وجعل مصر مستقلة تحت حكمه ثم لما نازع الاينيو بين وقع فى قبضتهم وآل ملك مصر اليهم

العائلة الخامسة والعشرون الاينيوبية ومدتها ٥٣ سنة — وعدد ملوكها أربعة أولهم شاباكا أوسباكون ولما جلس شرع فى اصلاح نظام مصر وتدبيرها وقوى الجسور ثم طمعت فى مصر مملكة أشور وكانت قبل ذلك استظهرت على الفينيقيين والاسرائيليين وأهل فلسطين فرأى هؤلاء أن من الصواب أن يتحالفوا مع ملك مصر فهاداه هوشع ملك الاسرائيليين ثم عقد معه تحالفا ولكن محالفتهم لم تجد نفعا الان سلمناصر ملك اشور احتال على هوشع وأسره وحاصر مدينة السامرة قاعدته ولكنه مات فى خلال ذلك وتولى بعده سرجون على مملكة أشور ففتح السامرة ثم قاتل المتعاهدين وهزم جيوشهم وهرب شاباكا وكانت هزيمة الجنود المصرية سببا لقيام الامراء بالثورة فى مصر فطردوا السودانيين من أرضهم الى طيبة وشكلوا حكومة بالوجه البحرى وقام عليها استيفانتس ملكا ولما مات سباكون قام ابنه سيخون وأخذ يستعد لمحاربة ملوك الوجه البحرى وانتهز فرصة تفرق الكلمة بين المصريين فهاجمهم واستظهر عليهم وحكم جميع مصر ولكن بعد قليل قتله طهراقه وحكم بعده واستولى على منف وطيبة وأبطل عبادة ايدس منها ولما ظهر اشوربانيبال ملك أشور جعل يقرب اليه رؤساء الاقاليم المصرية المأسورين عنده لينال رضاهم ومساعدتهم وأعادهم الى مصر فاستولوا على الوجه البحرى ثم القبلى ولكن تم الامر أخيرا بدخول مصر تحت سلطة كوات ميامون الاينيوبى وكان من أشهر الملوك محبا للسياحة البحرية وكان يسعى فى أن يسود على كل الاراضى المحيطة بمملكته وقد توصل الى بعض المراد وكانت مدة حكمه ثلاثين سنة

وقد اتفق فى خلال الفترة التى كانت بين آخر ملوك العائلة الخامسة والعشرين وأول العائلة السادسة والعشرين أن أحد أمراء مصر المتعاهدين وهو المدعو بسامتيك قام واستعان بعساكر يونانية مجلكة واستخلص مصر من أيدى الامراء وكان أحد الكهان أخبر الامراء قبل ذلك أن من قدم منهم للمعبود قتاح شرابا فى اناء من المعدن صار ملكا على الاقاليم المصرية وكانوا مرة يشربون شرابهم بالهيكل فى أقداح من الذهب ولم تكن أقداح الذهب الموضوعة بينهم الا أحد عشر قدحا لسهو حصل من كاهن المعبد فبقى بسامتيك وهو أحدهم بلا قدح فنزع خوذته وكانت من الحديد أو البرونز فشرب فيها الشراب فتذكر رفقاؤه عند ذلك قول الكاهن فتعصبوا على بسامتيك ونفوه الى بعض مستنقعات الوجه البحرى خيفة أن يستبد بالملك وبعد وصوله اليها أحضر كاهنا وسأله عما يقع له فأخبره أنه لابد وأن يستبد وحده بملك مصر وأن ينصره على أقرانه الامراء رجال من حديد يقدمون عليه من جهة البحر فاتفق أن رست سفن بتلك الجهة بها لصوص من اليونان عليهم دروع من الحديد ولما تذكر بسامتيك قول الكاهن بادر الى هؤلاء الملاحين الوافدين وأكرم نزلهم ووعدهم بالانعام ان هم نصروه فانضموا الى حزبه من المصريين وبذلك تمكن من خلع الامراء واستبد بالملك وهو أول العائلة الصاوية

العائلة

Digitized by Google

العائلة السادسة والعشرون الصاوية ومدتها ١٣٨ سنة — عدد ملوك هذه العائلة ستة

أولهم بسامتيك السابق ذكره الذي بعد أن استبد بالملك كما تقدم شرع في احياء مصر واعادة رونقها القديم فاصلح المعابد وشيد الحصون والقلاع في مضايق طرق الشام من الشرق وفي ضواحي بركة المنزلة من الغرب وفي الشلال الاول من الجنوب كل ذلك لصد هجمات الاشوريين والايتيوبيين والليبيين وأكرم نزلاء اليونان وأقطعهم أرضا على ساحل فرع الطينة وفي خلال ذلك وفد قوم من الميليزيين سكان بعض جزر اليونان في ثلاثين سفينة ورسوا على ساحل بحر رشيد ونزلوا هنالك وأسسوا محلة عظيمة بامر الملك دعيت فيما بعد بالمعسكر الميليزى كما قاله استرابون وانضم الى هؤلاء الاقوام أقوام آخرون فكثروا وكان بسامتيك يجند منهم جنودا واستمر بسامتيك ينظم الجيوش الجديدة ويشيد السفن الحربية العديدة الى أن مات سنة ٦١١ ق م وخلفه ابنه نخاو الثاني فسلك مسلك مشاهير الفراعنة حتى ألبس الديار المصرية كساء الفخار وقصد توسيع مملكته فبعد أن أتم تنظيم الجيش الذي جيشه والده وجه همته لانشاء الاساطيل البحرية وأعد لذلك دار صناعة بقيت آثارها الى زمن هيرودوت وقد سبق وصفها في مقدمة هذا الكتاب وتمكن من اخضاع فينيقية وأكثر بلاد سوريا وتشبث بمشروع جسيم وهو اتصال بحر القلزم بالبحر الابيض بقطع برزخ السويس بحفر ترعة كان طولها أربع مراحل بحرية وعرضها يسع سفينتين ومبدؤها من مدينة بسطة وآخرها بركة التمساح حيث يبتدئ البحر الاحمر اذ ذاك وروى أنه بينما كان العمل جاريا أخبره الكهان بأن حظ الانتفاع بها يكون لدولة أجنبية فأمر في الحال بالكف عن العمل وبعد ذلك شرع في عمل آخر عظيم وهو أن بعض الملاحين من أهل صور وقرطاجنه كانوا قد اكتشفوا في سواحل افريقية بلادا بها كثير من الذهب والعاج وغير ذلك من الاخشاب والخيرات النفيسة ولكنهم لم يستغلوها للعداوة التي كانت قائمة بينهم ومنعوا أيضا سفن الاقوام الآخرين من الذهاب اليها فلما بلغ خبرها الملك نخاو أمر ملاحي الفينيقيين بأن يذهبوا بسفنهم لاكتشاف تلك البلاد فساحوا حول افريقية كما سبق في المقدمة ثم عادت تلك السفن ولم تحقق من مواقع تلك البلاد وكانت وقتئذ مملكة آشور انحطت بسبب حروبها مع البابليين فانتهز نخاو تلك الفرصة وسار بجيش عظيم وافتتح فلسطين وأكثر البلاد التي في طريقه وكافأ عساكره المجلوبة من اليونان لما عاد منصورا الى مصر ولكن ملك بابل نبوخذ نصر سير ابنه بختنصر بعد ذلك على رأس جيش لاسترجاع فلسطين والشام من يد المصريين وقبل أن يبلغ مقصوده بلغه موت أبيه فعاد الى بابل مسرعا بعد ان كان فتح الشام ثم بعد ذلك حاول نخاو الثاني الاستيلاء على الشام ثانية لما أمن غائلة البابليين فجمع الجيوش والاساطيل بدون أن يشعر به أحد ثم شرع في اثارة الحروب على دولة بابل ومع ذلك فانه لم يبلغ مقصده لان بختنصر قاوم جميع الثائرين وكسرهم وانتهك حرمة بيت المقدس وسلب جميع خزائن ملوك اليهود وبعد ذلك بسنتين مات نخاو المذكور وخلفه ابنه بسامتيك الثاني فقامت عليه أهل ايتيوبيا فتوجه لقتالهم وبعد انتصاره عاد سنة ٥٩١ ق م ومات بعد ذلك بقليل وخلفه ابنه وح ابرع (ابريس) وقد استنجد به صدقيا ملك اليهود على بختنصر ملك بابل وانضم اليهما أيضا ملوك المدن الفينيقية وقامت الحروب بين الطرفين فانتصر أيضا بختنصر على الملوك

Digitized by Google

المذكورين والتجأ اليهود الى مصر فاقطعهم ملكها أرضا بقرب دفنه فانتشروا فى كثير من البلاد وسكن بعضهم الصعيد ولم يعول المؤرخون على ما قاله المؤرخ يوسيفوس العبرانى [1] فى ذلك لمخالفته لاقوال هيرودوت حيث قال ان المصريين هزموا عساكر بابل وان سفن الملك وح أبرع كان بها ملاحون من اليونان فضربت السفن الفينيقية التى كانت فى خدمة البابليين ورفعت العساكر المصرية الحصار عن مدينة صيدا و بعد ذلك دخلت سواحل الشام تحت سلطة مصر رغما عن أنف بختنصر هذا ثم ثار أحمس أحد القواد المصريين على الملك وح أبرع وتمكن من القبض عليه وخلعه وسجنه ثم قتله الاهالى وكانوا يكرهونه لتفضيله الاجانب على المصريين وخلفه احمس الثانى المذكور المسمى أيضا أموزيس فحافظ على نفوذ مصر فى فينيقية وفتح جزيرة قبرص وضمها الى أملاكه وكان يخاف على ملكه من مملكة الفرس التى قوى أمرها فى ذلك الوقت فالتزم الحيادة وقت حروبهم مع البابليين ومع ذلك فانه لم يسلم من شرهم حيث أخذوا منه فينيقية وبحسن سياسته وتدبيره أمن من اغارتهم على بلاده فارتاحت مصر فى أيامه واعتنى باصلاح داخليتها فانسعت التجارة ولا سيما مع اليونان فزاد عددهم فى مصر حتى أناف على ما يقال عن مائتى ألف فاقطعهم أموزيس أرضا وشيدوا فيها مدينة أصبحت من أجل مدن مصر وحصنوها وسنوا لانفسهم نظامات صرح لهم أموزيس بالسير على مقتضاها ثم رأى أموزيس أن التحالف مع جمهورية أثينا يفيده اصد مطامع الفرس فعقد معها معاهدة وكان ملك الفرس وقتئذ هو كيروش واستمر أموزيس يشتغل بالتجهيزات والاستعدادات الحربية خوفا مما عساه أن يحدث ولما مات كيروش خلفه ابنه قمبيز وكان قمبيز يتربص الفرص لمحاربة المصريين وقد أكثر المؤرخون من روايات تعللاته لمحاربة مصر فقال هيرودوت ان قمبيز طلب أن يتزوج بابنة احمس ظنا منه أن أباها لا يقبل فيحاربه ولكنه قبل فتزوج بها فلما ناداها بابنة قمبيز قالت انها ليست بابنته فعلم أن ذلك مكيدة من احمس المذكور فحنق عليه وغزا مصر لذلك وقال غيره غير ذلك والحقيقة أن سبب طموح انظار الفرس لمصر هو كثرة ثروتها وخيراتها وموقعها المهم وكان بين حدود الشام وبين خان يونس وبحيرة سربونيس النازلة فيها مقدمات الجيوش المصرية مسافة تقرب من ٩٠ كيلومترا وكان قمبيز يخاف على عساكره من أن تضل فيها فتحير فى أمره ولكن قيض الله اليه رجلا يونانيا يدعى فانيس وفد عليه من الديار المصرية وكان قائد جيش فيها فاطلعه هذا اليونانى على حقيقة تلك البلاد ودله على الطريق الموصل اليها فكان فى ذلك اتمام مقاصد قمبيز على فتح مصر وباشارة هذا اليونانى أيضا عقد قمبيز شروطا مع مشايخ قبائل العرب الذين كانت لهم اليد على ذلك الطريق ليرخصوا له فى المرور منها ويأتوه بالماء لجيشه فوق جمالهم وعلى ذلك تقدمت جيوش الفرس وانتشب الحرب بينهم وبين المصريين

(١) يوسيفوس أو يوسف مؤرخ عبرانى ولد باورشليم سنة ٣٧ م من عائلات المكابيين ومات سنة ٩٥ م وقد اشتهر بعفته واجتهد كثيرا فى اطفاء الثورة التى أحدثها اليهود على رومية فلم ينجح ثم ان اليهود ولوه على بلاد الخليل وقد قاوم كلا من فسباسيان وطيطوس ثم خضع أخيرا وبشر فسباسيان بصعوده على تخت الدولة الرومانية فاحبه لذلك وساعد طيطوس فى حصار أورشليم وبعد ان استولى هذا القائد على المدينة المذكورة سار معه الى رومية وكافأه الرومان بالانعام عليه برتبة ورتبوا له وظيفة وهو صاحب كتاب تاريخ حروب اليهود ضد الرومان وخراب أورشليم وينقسم الى سبعة كتب وقد ترجم الى عدة لغات وله كتب أخرى معتبرة لدى المؤرخين

Digitized by Google

عنـد الطينة وكان بين الجيوش المصرية سرايا من اليونان والكاريين محكين والتحم الجيشان ودام القتال أياما ويقال ان فانيس أشار على قمبيز فوضع أمام جنوده كثيرا من الحيوانات المعظمة لدى المصريين كالقطط والثيران وبعض الطيور وغيرها فلم يتجاسروا على رمي السهام على عدوهم خوفا من أن تصيب تلك الحيوانات المقدسة عندهم فرجعوا القهقرى بمجرد هجوم العجم عليهم ولم يثبت منهم في صف القتال سوى عساكر اليونان والكاريين الذين لا يصدقون بهذه الاعتقادات واشتد القتال بينهم مدة مديدة انتهى فيها بأن تمت الغلبة للعجم واحتلوا مدينة الطينة ثم أرسل قمبيز رسلا من قومه لمدينة منف يطلب منها التسليم فركب الرسل سفينة يونانية ولما وصلوا الى منف ورآهم أهلها خرجوا من قلاعهم زمرا وقبضوا على السفينة وكسروها وقطعوا وذبحوا من كان فيها فغضب الفارسيون من فعلهم هذا الماعلموا به وتقدموا نحو منف وأحاطوا بها وحاصروها الى أن استولوا عليها عنوة وقتلوا ولدا الملك بسامتيك الثالث وكثيرا من أعيان المصريين المأسورين عندهم وبذلك خضعت مصر الى قمبيز سنة ٥٢٧ ق م وقبض قمبيز على بسامتيك وألزمه أن يشرب مقدارا كثيرا من دم الثيران فمات

العائلة السابعة والعشرون وهي الدولة الفارسية ومدتها ١٢١ سنة — لما فتح قمبيز ديار مصر لم ينتهك لها حرمة بل كان يحترم أميال أهاليها وأبقاهم على عبادتهم وأعاد الى أعيانهم امتيازاتهم واتخذ لنفسه ألقابا فرعونية قاصدا بذلك أن يوهم الناس أنه من نسل العائلات المصرية ونبش قبر اموزيس وأخرج جثته ومثل بها ثم أحرقها وكان يقصد أن يظهر للناس انه ينتقم من أموزيس لاغتصابه ملك مصر وكان افتتح مصر تأثير عظيم على جميع الامم المجاورة حتى انهم بادروا جميعا الى قمبيز بتقديم الهدايا والجزية واتخذ قمبيز مصر حصنا يستعين به على فتح بلاد افريقية فشرع في تجهيز ثلاثة جيوش كان يريد ارسال أحدها على مدينة قرطاجنة وخصص معه أسطولا عليه عسكر بحرية من الفينيقيين وأمرهم باخضاعها فامتنعوا للعلاقة الجنس التي تربطهم بسكانها وأرسل جيشا آخر من جنوده الفارسية به ٥٠,٠٠٠ مقاتل لمحاربة الامونيين سكان واحات سيوه فضلوا الطريق وثارت عليهم رياح أهلكتهم وقادهو بنفسه الجيش الثالث لفتح بلاد اثيوبيا ولم يتبع في سيره الطريق المسلوك القريب من شاطئ النيل بل انحرف عنه طلبا لتقريب المسافة فضل وخلص زاده ولحق جيشه الجوع حتى أكل الجنود بعضهم بعضا بعد ما أكلوا ما معهم من الحيوانات والجلود وغيرها ثم عاد مع من بقي ولما علم بما أصاب جيشه الذي كان أرسله لواحة أمون اعتراه شبه جنون وصار يرتكب أشنع الافعال والاقوال حتى انه لما وصل الى منف وجد أهلها يحتفلون بمهرجان لهم ديني فظنهم فرحين لخيبته فامر بقتل الكهنة وطعن العجل ابيس بخنجره وألقاه للكلاب تأكله وسخر بمعبوداتهم ونبش القبور ونهب جميع ما كان في المدافن القديمة من الجواهر وزاد في جورمحتى قتل أخته وغيرها بلاذنب ثم خرج من مصر بعد أن جعل أحد الاعاجم المدعو اريانديس نائبا عنه فيها وقصد بلاد فارس لاطفاء الفتنة التي أثارها غومات المجوسي الذي ادعى انه أخو قمبيز وكان لقمبيز أخ يدعى سمرديس كان قتله سرا قبل خروجه لحرب مصر خوفا من عصيانه في غيابه وبينما كان قمبيز يركب جواده وهو متوجه الى بلاده اندلق سيفه من غمده فجرحه فمات من ذلك وقيل مات غما وقيل قتل نفسه وانفرد غومات بملك فارس ثلاث سنوات

Digitized by Google

حتى اتضح لاهل فارس كذبه واغتصابه الملك فقتلوه وانتخب الاعيان أحدهم وهو دارا الاول ونصبوه ملكا فأخذ ينظم أمور المملكة ويخمد الثورات كما ذكر في الجزء الاول وأخذ دارا يبحث عن الوسائل التي يستجلب بها رضا المصريين فمن ذلك انه اتفق موت العجل أبيس في أول حكمه فجاء بنفسه الى المعبد وأظهر تأسفه الشديد ووعد بمبلغ وافر لمن يأتي بعجل آخر مثله فاحبه المصريون وقبل أن يبارح مصر زار معبد فتاح بمنف وأراد أن يضع تمثاله بجانب تمثال رعمسيس الثاني فمنعه الكهنة قائلين له انك لم تأت من الاعمال ما أتاه رمسيس الاكبر ملك مصر لانه فتح بلاد التتار فقال لهم دارا أؤمل أن أكون رمسيس ان طال عمري ثم امتثل لقول الكهنة ومن أعماله أنه مهد طرق التجارة القديمة فوصل البحر الابيض بالبحر الاحمر بترعة احتفرها ولذلك يوجد في كثير من المواضع ببرزخ السويس جملة أحجار قديمة مكتوب عليها اسم دارا ولما اتصل البحران ببعضهما وردت السفن بالتجارة من الهند الى الثغور المصرية وفتح طريق قفط الموصل الى البحر الاحمر وطريق أسيوط الى العرابة المدفونة وأسوان فعادت بذلك لمصر ثروتها القديمة ثم ثار اليونان بآسيا فسار بجيشه الكبير لقمعهم كما تقدم فاغتنم المصريون فرصة غيابه وقاموا على ولاة دارا وانتخبوا رجلا يدعى خبيش وعهدوا اليه بالحكم فاخذ يحصن مصر بالقلاع ليدفع هجوم الفرس وكان يهتم بتحصين الاباطح والاشاتيم ظنا منه أن الفرس ستهاجمه بحرا ولكن لما فاجأه شيارش الفارسي برا لم يثبت المصريون أمامه وانهزموا وأعاد الفرس ملكهم على مصر وعاملوا أهلها بالقسوة وعين أخاه اخمينس واليا على مصر وفي خلال ذلك جاهر الميديون بالعصيان فتوجه لاخضاعهم وفي أثنائها عصت اليونان ودمرت سفنه في واقعة بحرية كما سبق فعاد الى آسيا وخرجت أوروبا من يده وبقيت لهم بعض حاميات بالبوسفور (٤٧٨ ق م) ثم استعمل شيارش المخادعة واللين مع أهل أوروبا (٤٦٦ ق م) وهاجت أساطيل أثينا القيروان وليكيا وطردوا الفرس منهما ثم قتل شيارش على يد من تآمر عليه وخلفه ابنه ارتخشارشا قال توسيديد (Thucidide) [1] وفي خلال ذلك استقل المصريون وأقاموا عليهم ايناروس بن بسامتيك ملكا ولما عجز عن مقاومة الفرس طلب من اليونان المساعدة وكان عند اليونان وقتئذ سفن حربية صنعوها في جزيرة قبرص فارسلوا له منها مائتي سفينة فلما وصلت الى مصر كان وصولها مقرونا بانتصار المصريين على الفرس في مبدا الامر وقتلوا في الواقعة اخمينس نائب مملكة العجم بمصر وأرسلوا اشلوه الى ارتخشيارش ملك العجم وفي أثناء الحرب هجمت السفن الاثينية التي كانت تحت قيادة الاميرال خاربتيدس على السفن الفينيقية التابعة للعجم فاغرقت منها ثلاثين سفينة وأسرت عشرين ثم ركب المصريون واليونان النيل حتى وصلوا منفيس وخلصوها من يد العجم ولكن تمكنت العجم من القاء الشقاق بين أهل اسبارطه والاثينيين ثم أرسلوا القائد مجابيسوس على رأس جيش فارسي وقاتل المصريين حتى ألجأهم الى الاحتماء بجزيرة بروسوبيتس المصينة ثم سد العجم فرع النيل الذي به سفن اليونان وكان ذلك الفرع يحيط بالجزيرة المذكورة وبعد ئذ هجموا على الجزيرة وأسروا ايناروس وقتلوه وهلك غالب اليونان وفي تلك الاثناء أتت نحو خمسين سفينة يونانية جديدة لامداد المصريين ورست في المصب المنديسي فهجمت عليها السفن

(١) توسيديد مؤرخ يوناني شهير له تاريخ في حروب موره وكانت ولادته سنة ٤٧١ وموته سنة ٤٠١ ق م واشتهر التأليف المذكور بالضبط وطلاوة العبارة والتحقيق

Digitized by Google

الفينيقيـة ودمرت معظمها ودخل نانيراس بن ايناروس تحت طاعة العجم فقلدوه ملك مصر مكان أبيه وبقيت مصر بعد ذلك خاضعة لارتخشيارش الى أن مات سنة ٤٢٥ ق م ثم خلفه ارتخشارشا وبعده شيارش الثانى ثم سوغديانوس ثم دارا الثانى وفى أيامه استدعى المصريون أميرتيس من الاباطح وكان فيها يحارب العجم وأقاموه رئيسا عليهم فهزم من معه من الجوع وأخذ يطارد الاعجام المحتلة بالديار المصرية ومات دارا فى أثناء ذلك وملك المصريون وطنهم واستقل أميرتيس بالملك

العائلة الثامنة والعشرون الصاوية والتاسعة والعشرون الاشمونية ـ ومدة الاولى سبع سنين ومدة الثانية ٢١ سنة ـ كان أميرتيس مدة الفرس حاكما بعد أبيه على بعض الاقاليم المصرية وبعد أن دعاه المصريون وطرد العجم كما مر أسس العائلة الثامنة والعشرين وبعد ذلك اشتدت بمصر الفتن فسعى فى اطفائها وبعد أن تمكن من ذلك أخذ يصلح ما دمره الفرس ولكن عاجلته الوفاة وانتقل الملك بعده الى العائلة التاسعة والعشرين وأول ملوكها نفرتيس الاول فتحالف مع جمهورية اسبارطه وفى وقتها أعلنت اسبارطه الحرب على الفرس فأمدها نفرتيس بمراكب مصرية ملئت بالسلاح والذخائر الحربية ولكن اجيلاس قائد اسبارطه انهزم أمام الفرس فخاف ملك مصر سوء العاقبة فأخذ يستعد للدفاع ولكن ساعدته المقادير بحدوث بعض حروب أخرى أشغلت الفرس عن مصر ولما مات نفرتيس خلفه أخوريس وتعاهد مع قبرص وأثينة والقيروان وهاجمه الفرس فردهم على أعقابهم بالخيبة ومات سنة ٣٨٢ ق م وخلفه بساموتيس وفى أيامه قدم أفلاطون وغيره من حكماء اليونان مصر وبعده حكم نفرتيس الثانى وهو آخر العائلة التاسعة والعشرين

العائلة المتممة للثلاثين وتدعى بالسمنودية ومدتها ٣٨ سنة ـ وأول ملوكها نقطانب الاول وكانت الاحوال فى زمنه مضطربة لان دولة الفرس كانت ميالة الى استرجاع مصر تنتهز الفرص للحملة عليها ولما استعدت لذلك وجهت جيشا قويا من طريق الشام يبلغ ٢٠٠,٠٠٠ تحت قيادة فرناباز وبصحبته رجل من أثينا يسمى افيكرتيس وكانت جيوش مصر تحت قيادة خابرياس اليونانى وبعد أن وصل الفرس الى أشتوم أم فرج بالفرع المندسى تقابلوا مع طلائع الجنود المصرية وحصلت بينهما مناوشة انهزم فيها المصريون ثم اختلف القائد الفارسى مع رفيقه اليونانى ونشأ عن ذلك انهزام جيش الفرس بجوار منديس وبذلك تخلصت مصر من الفرس ثم مات نقطانب المذكور سنة ٣٦٤ ق م وخلفه تيوس أوتاخو وتحالف مع جمهورية اسبارطه وقلد خبرياس رياسة العساكر البحرية والبرية وكان الجيش المصرى يتألف اذ ذاك من ١٨٠٠٠ من الوطنيين و ١٠,٠٠٠ من اليونان المحكة ومن مائة سفينة حربية وأراد هذا الملك محاربة الفرس فى فينيقية فثار عليه الجنود وعزلوه ونصبوا عليهم نقطانب الثانى ملكا والتجأ تاخو الى ملك الفرس واستعد نقطانب لمحاربة العجم وكان ارتخشارشا الثانى ملك العجم مات وخلفه ابنه اخوس أو دارا اخوس فتقدم نحو صور وهزم حاميتها وكان المصريون مهتمين فى تحصين الحدود وأقاموا على أشاتيم النيل القلاع والحصون والسفن الحربية الكافية للدفاع ومع كل ذلك كسرهم الاعجام وانهزم نقطانب الى بلاد النوبة ودخلت مصر تحت حكم الفرس ثانية ومن ذلك الوقت بقيت مصر تحت سلطة الغرباء ولم يملك عليها ملك من أهلها

Digitized by Google

العائلة الحادية والثلاثون وهي دولة الفرس الثانية ومدتها ٨ سنوات — لما أخضع اخوس الملقب بارتخشارشا الثالث ديار مصر كانت دولة مقدونيا آخذة في الظهور والارتقاء فوجهت أطماعها الفتح بلاد آسيا من يد الفرس وفي ذلك الوقت مات ارتخشارشا الثالث وخلفه ابنه أرسيس وحكم سنتين ومات وقام بعده دارا الثالث وكان اسكندر المقدوني معاصراً له وفي أيامه تقهقرت دولة الفرس وبدا نجم اليونان بالاشراق كما شرحناه في الجزء الاول من هذا الكتاب فأخذ الاسكندر في الفتوحات وتوسيع مملكة أبيه فيلبش فدخل آسيا وفتح فيها الفتوحات العظيمة ولما تغلب على العجم استولى على مصر بعد موقعة انتهت بانهزام الفرس ويقال ان مصر سلمت له بدون حرب لشدة كرهها للاعجام فعامل الاسكندر أهلها بالعدل والاحسان وأبقاهم على ما هم عليه من عوائدهم الاصلية (٣٣٢ ق م)

(حضارة المصريين)

العلوم والصنائع والاختراعات — من تأمل في النقوش الموجودة على الآثار المصرية القديمة وفي أقوال المؤرخين يتضح له جلياً أن قدماء المصريين كانوا قد تقدموا في تلك الحقبة العصرية الى درجة عظيمة في التمدن والعمران وأتقنوا المعارف والفنون العقلية والفلسفة والكيمياء اتقاناً عجيباً وبرعوا في العلوم الرياضية والهيئة والنجوم والهندسة براعة غريبة لاسيما في فن الطب فانهم كانوا أتقنوه اتقاناً جيداً وكان الطبيب عندهم لا يتفرغ الا لمعالجة مرض واحد من الامراض فلهذا نجحوا فيه وبرعوا وكان علماؤهم لا ينفكون عن الاختراعات لتوسيع نطاق الصنائع فهم الذين اخترعوا آلة الحراثة وصبغوا الزجاج بألوان متنوعة وأوجدوا ورق البردي وكانوا يصنعونه من النبات المعروف بهذا الاسم وكانت لهم اليد الطولى في صياغة الذهب والفضة والاواني المختلفة فكان صياغهم يصيغون خواتم نفيسة وقلائد ثمينة يبيعون ويشترون بها وكانوا تقدموا في فن العمارة فشيدوا أفخر المباني وهاهي آثارهم وأبنيتهم العظيمة المدهشة دلائل ظاهرة على براعتهم في تلك الاجيال المظلمة وكانت تجارتهم منحصرة في غلالهم ومحصولاتهم وكان لهم اتصال مع الهند وغيرها من بلاد المشرق الاقصى بواسطة بلاد العرب فكانوا يرسلون الى تلك النواحي ما راج عندهم من الحبوب والمواشي والفخار والزجاج ويستبدلون بها منهم العطر والبهار والياقوت وغيره وكانوا قد برعوا في استخراج المعادن من ذهب وفضة وقير وزجج وغيرها فكانوا علماء في فن الجيولوجيه وفن قطع الاحجار والصخور وأما صناعة تحنيط الاجسام وبراعتهم فيها فقل عنها ما شئت من المدح فهي كافية لاظهار درجة تقدمهم وقد تكلم كثير من المؤرخين على طرق التحنيط وما كانوا يستعملونه فيها من العقاقير وغيرها ووصفوها بكلام مشبع يقرب من الحقيقة ولكننا لم نر الى عصرنا الحاضر من أمكنه اجراء هذا العمل ولا ما يماثله مع اعتناء أكثر دول أوروبا بحفظ الآثار والحاصل أن قدماء المصريين لم يتركوا علماً ولا فناً الا واشتغلوا به وبرعوا فيه

النظامات العسكرية والتربية الحربية — قد أورد الفاضل أحمد نجيب أفندي في تأليفه الاثر الجليل لقدماء وادي النيل فصولا كثيرة عن ذلك نلخص منها ما يأتي ان الجند كانت أعظم

Digitized by Google

طائفة بعد الطائفة الكهنونية وتنقسم الى جملة فرق تسمى بأسماء مختلفة كاسماء المعبودات منها فرقة (رع) وفرقة (أمون) وفرقة (فتاح) وغير ذلك وكان الملك هو الرئيس الاعظم وهو الذى يعين الرؤساء لجميع الفرق من أولاده وأقاربه أو من أولاد أعظم العائلات المصرية مع مراعاة الكفاءة والاهلية والدرجة وكانت الملوك أرباب الغز وتقود الجيوش بنفسها الى البلاد البعيدة وتدبر جميع حركة الاعمال وتقف فى ساحة الحرب على عرباتهم كباقى العسكر وهم شاكو السلاح ويحاطون بخفرهم الملوكى ورؤساء ضباطهم ويقذفون على العدو نبالهم ويضربونهم بالبلط وغير ذلك والغرض من هذا تشجيع عساكرهم وتثبيت أقدامهم فى مواقف القتال ومشاركتهم فى النصر أما جيش مصر فلم يعهد أنه كان به عساكر من الفرسان لان جميع الآثار واللوحات الحربية خالية عن ذلك ولكن كان المصريون يعرفون ركوب الخيل وأنواع الفروسية لكنهم لم يدخلوا هذا النظام فى جيشهم والدليل على ذلك أنه وجد فى كثير من النصوص صورة فارس يركض جواده

أما ما ذكرته التوراة من أن فرعون غرق فى البحر مع خيله وفرسانه وعرباته فهذا لا ينافى عدم وجود جيش من الفوارس لان الخيالة التى كانت معه كانت من الاهالى المتطوعة لا من الجيش وقال شمبليون فيجاك ما علمنا أنه كان لمصر عساكر خيالة وان الغرض من الفرسان المذكورة فى التوراة هم راكبوا العربات لا راكبوا الخيل وان التوراة ذكرت فى موضع آخر أن فرعون غرق فى البحر بخيله وعرباته وفوارسها أى المقاتلة الذين كانوا عليها الى أن قال ويؤيد صحة ما قلناه وهو خلو الجيش المصرى من جند الخيالة كيفية تربية العساكر وتمريناتها المختلفة المنقوشة على الآثار جميعها مشاة ولم تر للخيالة عليها أدنى ذكر وسكوتها دليل كاف على عدم وجودها به

الاسلحة وتربية الجنود — كانت تربية الجنود عبارة عن مصارعة ومنازلة مختلفة النوع والشكل فتارة ترى المتصارعين فى هيئة الهجوم أو الدفاع وتارة فى هيئة الكر والفر يتناوبان ذلك بالدور والترتيب فتراهما ينخفضان ويرتفعان وتارة يقعان ويقومان ويشتبكان ويفترقان ويغلب أحدهما الآخر فينهزم المغلوب ثم يعود غالبا ويستعمل كل واحد منهما ضروب المخاتلة والمراوغة والحيل والقوة وهما عاريان ليس عليهما غير منطقة عريضة تستر سوأتهما وكانت تربية العساكر وتمريناتهم تستغرق المدد الطويلة يدخل فيها جميع القواد والرؤساء كما يدخل فيها جميع العسكر على اختلاف طبقاتهم وكانوا يعودونهم من حين شبيبتهم على المكافحة والمقارعة ومنازلة بعضهم بعضا ويعلمونهم قواعد الحرب وأركانه حتى يشبوا على حب القتال واقتحام المعارك وكانت الاسلحة عندهم هى الحراب والمزاريق والرماح والقسى والنشاب والسيف والخنجر والدبوس والنصل والبلطة والشاطور والسكين والدرق والدروع والزرد والمغفر أو الخوذة

المعسكرات ونظامها — يرى على بعض الآثار كيفية المعسكر المصرى وهو مكان من الارض مربع محاط بأخشاب وأوتاد من كل جهاته وعلى بابه الديدبان (خفير النوبة) وفى الجهة المقابلة له خيمة الملك أو القائد العام وبجوارها الاسد المستأنس رابض وبداء مغلولتان وبجواره خفير من العسكر قائم وبيده عصا طويلة ثم مضارب الضباط وخيامهم وعلى جانبى باب المعسكر صفوف من الحمير والخيل بلا سروج وأمامها العلف والعليق ثم صفوف من العربات

Digitized by Google

الحربيـة مرتبـة من الجهـة المقابلة لصفوف الحيوانات أما الجهة الخالية ففيها السروج وأطقم العربات ومهمات الخيل وعلى يمين المعسكر بعض الجنـد يجرى الحركات العسكرية والتمرينات الحربيـة وفى جهـة أخرى عسـاكر الرديف تمـارس التعليمات وترى الاوامر العسكرية جارية على محور الطاعـة والامتثال وفى جهة أخرى صورة تنفيـذ العقاب على المجرمين من العساكر وبعض الضباط فوق عرباتهم يطوف على الجند للتفتيش وصدور الاوامر أو مباشرة تنفيذهـا وعلى الجهـة اليسرى من المعسكر بيمارستان الجند (المستشفى) والنقالات مرتكزة بجوارها ثم المرضى من الخيل والحمير والاطباء والبياطرة قائمون فى خدمتهم والطومارجية واقفـة تركب الادوية والجرع وتسقيها المرضى العسكر

تعبية الجيش للحرب — أما ترتيب سير الجيوش للغزو فتكون المشاة الثقيلة فى القلب وهى مثقـلة بالسـلاح وتكون العربات الحربيـة من أمامهـا ومن خلفها وعلى جوانبها وتكون المشاة الخفيفة فى المقـدمة وعلى النقط المخيفة ومتى دنوا من العدو عقد الملك حفلة جامعة يحضرها جميع رؤساء الجيش وضباطه ويتفقون على الحركة ثم يضجون جميعهـم بالدعاء والابتهال الى معبوداتهـم ويطلبون منهـم النصر والفوز على أعـدائهم ثم يستلم الملك قيادة الجند ويزحف بهم على العدو ومتى تم له النصر عليهم يقوم خطيبا بين ضباطه وهم يقدمون له الاسارى من الاعداء ويبادر كل فريق الى قطع اليـد اليمنى من كل ميت من الاعـداء ثم يحصونها ويقدمونها الى الملك ليعلم عـدد الاسرى والاموات

التجارة البحرية — قد سبق الكلام فى المقدمة على ما وصل اليـه قدماء المصريين من الاعمـال البحرية واتقان بناء السـفن وفن الملاحـة بالنيل وبالبحر الابيض والاحمر واجتهادهـم فى توسيع نطاق التجارة بارسال ما راج عنـدهم من أجناس المحصولات المصرية ومصنوعات البلاد النفيسة كالحلى من مصاغات الذهب والفضـة المنقوشة بالمينا والمعادن المشغولة وأوانى الفخار الجميلة وغيرها المتخـذة من الزجاج فى معامل مدينتى طيبة وقفط فى داخـل السـفن بالبحر الاحمر الى بلاد العرب وبلاد افريقية والهند وغـيرها من بلاد آسـيا وكانت تجارتهم المذكورة رائجة فى جميع الاسواق الخارجيـة والذى سهل لمصر ذلك وقوعها بين بحرين عظيمين وهـما البحر الابيض والاحمـر واعتناء أهلها بتشييد السفائن وتسييرها الى البـلاد البعيدة وبواسطة تلك السـفائن التى كانت تتردد دائما بين السواحـل المصرية وثغور تلك البـلاد قديما كتسبت فى خلال ذلك معرفة واسـتعدادا فى فن الملاحة وتمكنت من اكتشاف أقرب الطرق للبلاد الاجنبية وكانت تجلب منها مصنوعاتها الفاخرة كالاقمشـة المتخذة من الخز والابسطة والفراء والطيوب والبخور وسن الفيـل والاخشاب النفيسة واللؤلؤ والبهارات وغـير ذلك وترى منقوشا على الالواح فى الدير البحرى صورة شاطئ البحر الاحمـر وأهالى بونت تركت منازلها ذوات القباب البيضاء وأتت بمحصول أرضها وصنائعها فترى بعضـهم يكوم البخور ويجعـله أكوامـا كصبرة الحنطة والاسطول المصرى راس على تلك السواحل ثم ترى كيفيـة شحن السـفن وترتيب طـرود البضائع والخوابى والجرار والحيوانات كل نوع فى مكانه ثم سير السفن مع بعضها بالاشرعة والمجاذيف ثم تراها كانها وصلت الى مدينة طيبة وصارا حصاء جميع

مابها وغير ذلك من الصور التى تدل على تقدم المصريين فى أمر الملاحة وكانت بلاد الشام تبعث لها بالاخشاب اللازمة لعمل السفن لتوفر الغابات فى جبالها وكانت السفن المصرية التجارية تجول على الدوام فى البحار المجاورة لها وكان أكثر ملاحيها من أهالى فينيقيا المشهورة بالملاحة وقد وصلت تلك السفن حتى بلاد الهند

الحروب البحرية — كانت الاساطيل المصرية فى عهد دول الفراعنة الذين اهتموا بأمر البحار تساق فرقا الى مياه الحرب كما تساق الجيوش فتصطف المراكب الحربية أمام سفن العدو بقرب الساحل ثم تسير وتتحرك بالشراع والمذارى والمجاذيف لمقاتلة العدو وهى على أشكال حربية وأوضاع عسكرية وتصطف جنود الرماة على الساحل المقابل لها التساعدهم بالسفن من المصريين ويرمى الجميع بالنبل والنشاب على سفن العدو ويكون الملك قائما على قدميه وسط الجيش البرى يدير حركة القتال ومتى فاز بالنصر على العدو اتبعه عند الانهزام برا او بحرا ونصب القناطر على الانهار وعبر فوقها مع جنوده ودخل بلاد العدو واستولى عليها وأبادت عساكره القلاع والحصون أو أحرقتها وغير ذلك من الاعمال التى تقرب من الاحوال الجارية فى زماننا الحاضر وانما تختلف عنها فى الوضع فقط

أما أحكام قدماء المصريين فكانت مقيدة بالمجالس الملكية وكانت سطوة الفراعنة نافذة فى جميع الامة أما الكهنة فكانوا أصحاب الشرائع والعلوم ومن وظائفهم مسح الاراضى وتقسيط الخراج على الناس ولم يكونوا يدفعون مالا عن أملاكهم وكان لكل منهم كل يوم قسم من اللحوم المقدسة ومن لحم البقر والاوز ولم يكن يسمح لهم بأكل السمك وكانوا يحافظون جدا على نظافة أجسادهم وملابسهم أما الاراضى فكانت كلها للملك والكهنة والمحاربين ومن أشهر صنائع المصريين التحنيط فكانوا يأتون بالجسد الى المحنطين فيخرجون دماغ القحف من المنخرين ويخرجون الامعاء الا القلب والكليتين من ثقب فى الخاصرة ثم يغسلونها بخمر النخل ويردونها الى أجوافها او علؤن الرأس وأجواف الامعاء بالمر والقرفة وكل أنواع العطور ويدهنون الجسد بالزيوت العطرية مدة ثلاثين يوما ثم يوضع فى ماء النطرون أربعين يوما ثم يلف بلفائف مغموسة بالمر وتدهن اللفائف من خارج بماء الصمغ للوقاية من الهواء ثم يوضع فى تابوت من خشب أو من حجر ويدفن ومن هذه الاجساد ما هو باق الى يومنا هذا أما لغة المصريين فلم تكن تكتب بأحرف هجائية بل باشارات مستعارة من الاشباح الطبيعية وهى على نوعين الاول يشير الى أصوات نطقية والثانى يدل على جمل مختصرة وبقيت مجهولة الى أن وجد حجر رشيد واهتدى شمبليون الشهير لفك رموزها سنة ١٨٢٢ م

﴿ الفصل السادس ﴾

﴿ الطبقة الرابعة عصر اليونان ومدة البطالسة ﴾

٩٥٤ — ٦٥٢ ق ه أو ٣٣٢ — ٣٠ ق م

عصر اليونان — قد أجمع المؤرخون على ان الاسكندر بعد أن تغلب على جيوش دارا عند

Digitized by Google

ايبسوس من أعمال كيليكيا وأسر زوجته وأمه وابنتيه فتح سوريا ومدينة صور وتقدم منها الى مصر بجيوشه برا وأساطيله بحرا ودخلها من جهة مدينة الطينة وبعد معاركة انهزم الفرس وفتحت له مصر أبوابها فامتلكها هذا أما رواية اليونان فتختلف عن ذلك كما ستراه قالوا ما ملخصه انه بعد أن أخضع الاسكندر مدينة رومية وكثيرا من سلاطين وملوك وقبائل أورو بارجع الى جزيرة الاندلس ثم عزم على فتح الديار المصرية فأمر الملوك المتقدمين الذين في تلك النواحي أن يصنعوا له اثنتي عشرة ألف سفينة كبيرة وأن يركب في كل سفينة ألف مقاتل وأرسل فيلو بيوس وبطلوماوس وزيريه في البر لاخضاع المغاربة وأوصاهم بقوله اذا دخلتم أرض مصر فاجمعوا خراجها ولا تظلموا أحدا فيها ثم أمر بانزال السفن الى البحر وجعل انتياخوس على ثلاثة آلاف سفينة وفيرندوس وزيره الآخر على ثلاثة آلاف أخرى وسافكرس على ثلاثة آلاف سفينة أخرى وجعل له الرئيس الاعظم ونزل هو بذاته في الثلاثة آلاف سفينة الباقية ثم وجه كلا منهم الى جهة أماه وفلم يزل يسير الى المشرق وبعد أربعين يوما قطعوا البحر المتوسط فوصل الاسكندر أولا في سفنه كلها الى نهر النيل وفتح مصر وأمر أن تبنى هناك مدينة وسماها الاسكندرية نسبة الى اسمه وجعلها على نسق المباني المقدونية وأذن لكثير من أهل بلاد اليونان وأهالى المشرق أن يستوطنوا بها وفتح أبوابها لجميع الناس وأعدها مركزا جديدا لتجارة العالم فصارت كذلك وأتى هيكل جوبيتر أمون الكائن في الصحراء فهلك كثيرون من جيوشه في تلك الرمال وبعد أن قدم الذبائح فيه طلب من الكهنة أن يلقبوه بابن جوبيتر بعد أن أعطاهم هدايا وافرة فتلقب بابن جوبيتر ثم عاد الى مصر وكان وزيره سفليلوس وصل الى أرض كاميكا وهي فرمان وابتنى مدينة حصينة دعاها سلوقية ووصل الى أنطاكيه ووصل أيضا فيرندوس بسفنه الى بحر اسكندر وابتنى هناك مدينة سماها بورنطيه وكان الاسكندر مغتما بسبب السفن المذكورة والوزراء لانه لم يقف لهم على خبر وبعد أيام قلائل وفد عليه ثلاثة رسل من قبل وزرائه الثلاثة المذكورين فلما قرأ رسائلهم فرح جدا وبعد مدة قليلة وفدوا عليه جميعا وسار بهم الى اسيا وبدد شمل فارس وورث ملكهم ثم دخل بلاد الهند وانتصر على ملكها المسمى بوروس اهـ

وكان الاسكندر لما اختط مدينة الاسكندرية عين بنفسه محل المباني والهيا كل ما بين مصرية ومقدونية وهو دليل على أنه أباح الديانة المصرية وكان المهندس الذي باشر العمل يدعى ينوكراتس أو زنياركس اليوناني (٣٣٢ ق م) وبعد قليل أصبحت المدينة المذكورة مركزا لتجارة العالم ولما قصد الاسكندر العود الى آسيا لاتمام فتوحاته قلد ولاية مصر للامير اقليومنوس وبعد موت الاسكندر (٢٤ مايو سنة ٣٢٣ ق م) جاء بطلميوس الاول من بابل ووضع يده على مصر

مدة البطالسة - بطلميوس الاول (٣٢٣ - ٢٨٥ ق م) لما انقسمت مملكة الاسكندر الاكبر بين قواده وقعت مصر في نصيب بطلميوس هذا الملقب سوطير أي المخلص ولما كان يعرف مقام مصر واعتبارها وامتيازها بين الممالك أحسن التدبير والسياسة في حكمها واستمال عقول الاهالى وانتهز فرصة قيام أهالى المغرب على جمهورية القيروان فانطلق اليها بجنود كافية وأساطيل حربية وافية وهزم جمهوريتها واستولى عليها وضمها الى مصر ثم بلغه أن الامراء صمموا

Digitized by Google

على نقل جثة الاسكندر الى مقدونيا فسار بجنوده الى الشام واستولى على تابوت الاسكندر ودفنه في الاسكندرية كما حققه المؤرخون وبنى له فيها هيكلا عظيما يظن كثير من أرباب البحث أنه هو القبر المعروف بقبر نبي الله دانيال فمالت اليه القلوب ولما كان ملوك مصر من القديم يميلون الى ضم الشام الى مصر جهز لذلك الجيوش وتغلب على مدن السواحل الشامية ولكن بعد قليل أخذها منه انطيغونس بالقوة فاعتاض عنها باستيلائه على جزيرة قبرص ثم ان ديمتريوس بن انطيغونس قصد مصر فصده بطليموس بجيشه المؤلف من ٨٠,٠٠٠ من المشاة وأربعة آلاف من الفرسان وهزمه قرب غزة ولكن بعد ذلك بقليل جهز انطيغونس عمارة قوية وساقها تحت قيادة ولده على قبرص وانتصر هنالك على أساطيل بطليموس في واقعة سلاميس كما سبق في المقدمة ولما رأى بطليموس أن حروبه الخارجية لم يعد عليه منها كبير فائدة اختار السلم وشرع في تشييد الهياكل واصلاح المملكة فوجه مزيد عنايته لزيادة القوة البحرية فأكثر من السفن ووسع نطاق التجارة والمخالطات مع البلاد البعيدة وذكر بعض المؤرخين أنه كان لمصر في أيامه ما يزيد عن ٣٥٠٠ سفينة حربية بين كبيرة وصغيرة بخلاف سفنه التجارية المنشورة الاعلام بأكثر ثغور البحار وهو الذي شيد منارة الاسكندرية بجوار الميناء البحرية لمنافع التجارة وفوائد الملاحة كما بسطناه في المقدمة ورقى المعارف والعلوم بمدرسته التي شيدها بثغر الاسكندرية وكانت تدرس بها علوم ذلك الوقت من فلسفيات ورياضيات وطبيعيات وحكم وآداب وكانت المدرسة المذكورة تتصل بقصره الذي شيده بقرب عمود السواري المشهور وجلب كثيرا من علماء اليونان وغيرهم من سائر البلدان وغمرهم بالاحسان وبينما كان بطليموس مشتغلا بتقدم بلاده طمع دمتريوس في البلاد المشرقية وقصد أن يعيد الى مملكته ما كان يحكمه أبوه أنطيغونس منها فقاومه بطليموس وأخذ سفنه الحربية ودخلت الاساطيل المصرية تحت قيادة ولده فيلادلف الى بحر الارخبيل فوجد معاهديه من ملوك الطوائف كفوه مؤنة الحرب اذ قد غلبوا دمتريوس وأسروه ثم مات في أسره كما ذكرناه في المقدمة ومما حبب المصريين في بطليموس الاول اعتناؤه بالقوة العسكرية المصرية بحيث بلغت في أيام ٢٠٠,٠٠٠ من العساكر المشاة و٤٠,٠٠٠ من الفرسان وثلاثمائة من الافيال الحربية وألفي عربة مسلحة بالمناشير والمناجل وكان في مخازن المملكة ٣٠٠,٠٠٠ طقم مجهزة من الزرد وكان يبقى في الخزينة في كل سنة من الايراد السنوي بعد الصرف نحو مائة ألف كيس ولما مات سنة ٢٨٥ ق م خلفه ولده الاكبر

بطليموس الثاني (٢٨٥ – ٢٤٧ ق م) وكان يلقب بفيلادلف أي محب أخيه من باب التهكم لانه كان يبغض اخوته وكان سنه وقت جلوسه ٢٤ سنة ولم تقع مدة أيام ملكه الطويل حروب تستحق الذكر وقد سار سيرة أبيه وساعد اليونان على انطيغونس غوناتاس وبقيت قبرص والقيروان خاضعتين له وقد اعتنى بالوقوف على حقائق البلاد فاستكشف داخل بلاد افريقية وأرسل الاساطيل من البحر الاحمر فاكتشف سواحل بحر فارس وسعى أيضا في معرفة حقيقة منابع النيل فأرسل عدة ارساليات لذلك وبهذا صار له وقوف على أحوال السودان وقد وصل البحر الاحمر بالبحر الابيض كما وصلهما نخاوس ودارا الاول من قبل ففتح خليجا من فرع الطينة بالقرب من تل

Digitized by Google

بسطه وأوصله الى البحر الاحمر وأرسل السفائن لاكتشاف سواحل الحبشة وجزيرة العرب وبحر الهند وكان ينشط العلوم والمعارف وزاد في مكتبة الاسكندرية الشهيرة التي أسسها أبوه بما أمر بترجمته من الكتب منها ترجمة التوراة من العبراني الى اليوناني وسميت الترجمة المذكورة بالترجمة السبعينية لان مترجميها كانوا سبعين نفرا من علماء اليهود وأمر الكاهن مانيتون المصري بتأليف تاريخ لمصر باللغة اليونانية جمعه من الدفاتر الرسمية والاوراق القديمة التي كانت بالمعابد والهياكل وكانت اللغة اليونانية في أيامه قد امتدت الى أقاصي ممالك الارض وكانت مملكة مصر وقتئذ تحكم القيروان وسواحل الشام وبعض بلاد العرب وجزيرة قبرص وجزائر بحر الروم ودفع فيلادلف مهاجمات انطيوخوس ثيوس وأخرب مملكته وعقد محالفة مع الرومان بعد انتصارهم على ابيروس وشرع في بناء هيكل عظيم لزوجته التي هي أخته فلم يتمه ثم مات سنة ٢٤٧ ق م وحكم من بعده

بطليموس الثالث (٢٤٧ - ٢٢٢ ق م) وكان يلقب بافرجيتس أي المحسن وبعد زمن غير طويل قام الخلاف بينه وبين سيلوقوس الثاني ملك الشام وسبب ذلك أن ملك الشام المذكور قتل برنيقة أخت بطليموس عندما تغلب على زوجها انطيوخوس الثاني ولما انهزم سيلوقوس بعدوقائع تقدم بطليموس بجسارة الى آسيا العليا وطاف جهات بابل وسيس وفارس وبلوخستان ورد الى مصر تماثيل الآلهة التي كان قمبيز قد أخذها من مصر قديما وقد بذل مافي وسعه من المساعدات لارانوس الشاعر الفلكي اليوناني الشهير ودعا نفسه محاميا للاتحاد الاخائي ولما اضطر كليومن الثالث (Cléomène) الاسبرطي الى الهرب من بيلوبونيزه بعد انكساره في حربه مع المقدونيين أنزله بطليموس عنده على الرحب والسعة ثم حارب بطليموس بلاد ابتيوبيا واستولى عليها وبذلك امتد نطاق مملكته من ينابيع النيل الازرق الى مضيق باب المندب وأخضع جزيرة قبرص وبلاد برقة وليبيا وكان الفلكي الشهير اراتوستين موجودا في مدته ومات سنة ٢٢٢ وقيل سمه ابنه الآتي طمعا في الملك

بطليموس الرابع (٢٢٢ - ٢٠٥ ق م) وكان يلقب فيلوباتر أي المحب لابيه وكان قاسيا جدا واتهم بقتل أبيه بالسم كما تقدم ولم تأخذه الشفقة في قتل امرأة كليومن وأولاده ثم ألزمه وهو منفي أن يقتل نفسه وكان محاطا باتباع وحواش خداعين مملقين ولما أقبل انطيوخوس ملك سوريا بجيشه للاستيلاء على الولايات التي بيد المصريين صادف أولا نجاحا عظيما حتى خيل له أن ممالك عدوه صارت في قبضة يده ولكن عند حلول الخطر استفاق بطليموس من رقاده فنهض وحاربه بمدينة رفح واستظهر عليه وكان لكل من ملكي مصر والشام عدة سفن حربية تساعد جنوده البرية في هذه الواقعة فتلاقت السفن في جهة صيدا وكانت القوة البحرية من الطرفين متكافئة ومع ذلك فان السفن المصرية استولت على كل السواحل الشامية وكان بطليموس هذا ضعيف الرأي حيث كان وزيره سوسيبوس يدخل عليه الاراجيف واستمال عقله حتى أغراه على قتل أخيه وأعيان دولته وزوجته الملكة ارسينوي وكانت أخته فاحتقره رعاياه لارتكابه هذه الفظائع ومات مرذولا ممقوتا سنة ٢٠٥ ق م وخلفه ابنه

بطليموس الخامس (٢٠٥ - ١٨١ ق م) وكان يلقب ابيفانيس أي الماجد ولما جلس كان لم يزل قاصرا فوقعت في مملكته ارتباكات كان سببها وزيره الذي أقامه وكيلا عنه وهو

أغاسكليس لانه ظلم الرعية فأبغضوه فاقيم مكانه هيبومينوس وكان غير كفؤ لمنصبه فخلفه أكارتايان اريستومينوس فانتهز انطيوخوس فرصة صغر سن بطليموس ونهض لاسترجاع سوريا وفينيقية وتعاهد مع فيلبش ملك مقدونيا فهجم فيلبش على الدردنيل وكليبولى وعلى بلاد الروم ايلى التى كانت تابعة لمصر وهجم ملك الشام على سوريا فانتصرت أساطيل وجيوش مصر التى كانت تحت قيادة سكوباس وبعد ذلك تصالح انطيوخوس مع بطليموس على شرط أن يزوج الاول ابنته كليو باتره لبطليموس ويهب لها أقاليم الشام التى كانت محل النزاع بين الطرفين وكان انطيوخوس أراد فسخ المعاهدة وأرسل أساطيله على جزيرة قبرص لاخذها من يد مصر فالقتها الرياح على سواحل الاناضول فلم ينجح واشتغل بعد ذلك بحرب الرومان ولبث متمسكا بموالاة ملك مصر حسب العهود ثم قامت ثورات فى عدة أماكن من مملكته وأخيرا توفى بطليموس بسم دسه اليه بعض أعوانه سنة ١٨١ ق م

بطليموس السادس والسابع (١٨١ - ١١٧ ق م) السادس هو ابن المتقدم وكان يلقب فيلوماتر أى المحب لامه ولما خلف أباه كان ابن خمس سنوات وتولت أمه كليو بطره بالنيابة عنه ادارة المملكة وكانت على جانب عظيم من العقل والحكمة وسادت الراحة وعم الامن فى زمنها ولما ماتت اختلت الاحوال وقامت حروب بين بطليموس المذكور وبين ملك الشام انهزم فيها بطليموس وأخذ أسيرا ولما رأت أعيان البلاد ماحل بملكهم أقاموا أخاه بطليموس السابع مقامه (١٤٦ ق م) وبعد أربع سنوات من أسر بطليموس السادس رجع الى ملكه فاتخذ أخاه افرجيتس الذى تولى باسم بطليموس السابع شريكا له فى الملك ثم ان ملك الشام نهض لمحاربته ثانية وسار بجيشه الى ثغر الاسكندرية وحاصرها الا أن بوبيلوس سفير الرومانيين منعه عن قصده وفى رواية أن اليهود أشاعوا عنه أنه مات وهو يحاصر الاسكندرية فاضطربت أحوال الشام فالتزم أن يترك الحصار ويعود اليها ثم اختلف الاخوان فتوسط الرومانيون فى الامر وقسموا ملك مصر بين الاثنين فغضب بطليموس فيلوماتر وقامت الحرب بين الاخوين وتغلب بطليموس محب أمه على أخيه افرجيتس فى معركة وقعت بينهما على نهر العاصى ثم توفى بطليموس السادس ولما قصد أخوه بطليموس السابع اغتصاب الملك من كليو بطره امرأة أخيه وكانت تولت الحكم بالنيابة عن ابنها حتى يبلغ رشده وعدها بالزواج وبجعل ابنها ولى عهد للملكة فقبلت على هذا الشرط الا أنه سعى حتى قتله بعد ذلك وارتكب فظائع شنيعة أخرى ومازالت الاحوال مضطربة الى أن أدركته المنية (١١٧ ق م) وخلفه

بطليموس الثامن (١١٧ - ١٠٧ ق م) ويلقب بسوتير الثانى ويسميه العرب شوطار ولما تولى كانت أحوال الاسكندرية فى اضطراب من المظالم التى ارتكبها سلفه وبقى مدة تحت سلطة أمه كليو بطره وكان لين العريكة جدا ووسعت أمه فى ابعاده عن الملك لغرض فى نفسها فاشاعت أنه يسعى فى قتلها فثارت عليه الرعية فهرب الى قبرص ثم الى سوريا وبينما كان هناك يحارب الثوار القائمين عليه ولت أمه المملكة أخاه اسكندر الا أنه خاف العواقب بعد قليل فاختار الاعتزال وفر الى قبرص وكان أخوه سوتير يستعد فى سوريا يريد الهجوم على مصر فلما رأت كليو بطره قرب وصول الجيوش لمحاربتها دعت ابنها اسكندر من قبرص فعاد ولكنه لما اطلع على نواياها قتلها فهاج الشعب لذلك وثاروا عليه فهرب خوفا منهم فاستدعى أهالى الاسكندرية سوتير

Digitized by Google

ولما قدم قابلوه بالترحاب وفرحوا به وأجلسوه على التخت وعاش بعد ذلك فى أمن تام الى أن حضرته الوفاة وقد سلك فى آخر أيامه مسلك أسلافه حيث اهتم بترقية العلوم والفنون و بعث بعثة علمية لاكتشاف بحر الهند وكانت هذه أول سفرة سافر فيها المصريون لاستطلاع أحوال البحر المحيط الهندى تحت رياسة القائد هودوشيش القوزيقى وكان ممن اشتهر بالاسفار البحرية عارفا بالارصاد الفلكية وتعيين المواقع الجغرافيه فطاف حول افريقية وعين مواقع الجزائر والبلاد التى بالبحر الهندى

بطليموس التاسع (١٠٧ - ٨١ ق م) ويسمى باسكندر الاول وله عدة ألقاب فيلقب سوطير الثانى و بوطوتوس ولاطوروس وفى أيامه حصلت جملة حروب بين مصر وسوريا ثم قامت الحرب بينه و بين أخيه الذى خرج من مصر واستولى على بلاد برقة وقصد أن يستولى على قبرص فساق بطليموس أساطيله اليها و وقعت حروب بحرية بينها و بين أساطيل أخيه انتصر فيها على أخيه (٩٢ ق م) ثم وطد حكومته هنالك وأعاد لمملكة مصر علو شأنها وشوكتها البحرية بتعمير السفن التجارية والحربية وترقية فن الملاحة وروى أنه لما طلب سولا رئيس جمهورية الرومان من مصر الاعانة للقائد بوقولوس الذى أرسله لحرب مملكة كباد وكيا امتنع ملك مصر عن المساعدة وهذا يدل على شوكة مصر فى زمنه

بطليموس العاشر و بطليموس الحادى عشر (٨١ - ٥٢ ق م) والاول منهم مايعرف باسكندر الثانى والثانى يلقب باولينس أى الزامر وكان لاسكندر الاول ولد يسمى اسكندر الثانى أيضا وكان مقيما فى ديوان متريدات ولما جاء الامير سولا مع جيوش الرومان الى كبادوكيا لمحاربة متريدات انضم اليه اسكندر الثانى المذكور بأمل أن يعينه عند الفرصة على نوال ملك مصر و بعد انقضاء حرب متريدات أثار اسكندر رهذا على بطليموس العاشر حروبا جسيمة الى أن مات أخوه بطليموس العاشر سنة ٨٠ ق م ولما انفرد بطليموس الزامر تعاهد مع پومپيوس و يوليوس قيصر ملكى رومية وكان يهاديهما بالمبالغ الوافرة فأدى ذلك الى زيادة الضرائب فثار عليه رعاياه وطردوه ثم عاد بجيش جهزه له أغابينيوس حاكم سوريا وحكم ثلاث سنوات أخرى قتل فيها كثيرا من أمراء وأعيان مصر وصادر أموالهم

بطليموس الثانى عشر و بطليموس الثالث عشر (٥٢ - ٤٢ ق م) لما تولى بطليموس الثانى عشر الملك كان عمره ١٣ سنة وتزوج باخته كليو بطره وكان زمام الملك بيد أوصيائه ولكن الاهالى كانوا يبغضون كليو بطره و يريدون البطش بها فهربت الى الشام وفى هذه المدة قامت فتنة بين ملكى رومية يوليوس قيصر و پومپيوس قيصر ولما انهزم پومپيوس فر الى مصر محتميا ببطليموس الثانى عشر فما كان من هذا الا أنه قتله و بعث برأسه الى يوليوس قيصر فشق عليه ذلك وأمر باحضار بطليموس الثانى عشر وحبسه وأجلس أخته كليو بطره وطلب أهل الاسكندرية اعادة بطليموس عليهم انتقاما من كليو بطره فامتنع الرومان من ذلك وهربت كليو بطره الى سوريا مستنجدة بيوليوس قيصر ثم قامت حروب بين الرومان ومصر اشتركت فيها جملة أساطيل رومانية ولكن أهالى الاسكندرية غلبوا الرومان ولما هموا بالاستيلاء على سفنهم أغرقها يوليوس بيده وفى مدة

الحصار

Digitized by Google

الحصار أضرم الرومان النار بالمدينة حتى وصلت الى القصر الملوكى واتصلت بالكتبخانة الشهيرة فأبادت معظمها ثم أتى المدد ليوليوس من رومية فانتصر على المصريين وأطلق الرومان بطليموس الثانى عشر وبمجرد خروجه من السجن جهز عساكر مصر وهجم على الرومان فهزمه يوليوس وقبض عليه ثانية وأغرقه هو وكثيرا من عساكره فى النيل وعاد يوليوس الى بلاده (٤٨ ق م) بعد أن أجلس بطليموس الثالث عشر وكليو بطره على تخت مصر سوية فتزوجت كليو بطره أخاها المذكور ثم قتلته بالسم ليخلو لها الجو (٤٢ ق م)

كليو بطره وانقراض البطالسة (٤٢ - ٣٠ ق م) لما استتب الامر لكليو بطره بقيت تحت حماية رومية واتفق أن أنطونيوس واكتافيوس القائدين الرومانيين كانا يحاربان بروتس فأمدت كليو بطره بروتس بعمارة بحرية وكانت قد ولدت ولدا ادعته قيصرون (نسبة لقيصر والده) فكان هو الملك على مصر رسميا فلما بلغ انطونيوس أن ملكة مصر تساعد أعداءه وكان فى طرسوس استدعاها اليه للمحاكمة حيث خالفت العهود فركبت زورقا جيلا مموها بالذهب مجاذيفه من الفضة يخرج منه عند التجذيف أصوات موسيقية مطربة ولبست أفخر ما لديها من اللباس الثمين فزادها ذلك جمالا على جمالها ولما بلغت طرسوس وشاهدها انطونيوس وكان قلبه شغف بها حينما رآها فى رومية عندما التجأت الى مجلس الرومان بعد موت قيصر فازداد بها شغفا حتى أهمل أعمال الدولة ولم يخالف لها أمرا وبقيت معه على ذلك الى أن أشهرت المشيخة الرومانية الحرب عليها (٣٢ ق م) وحدثت واقعة اكسيوم البحرية السابق ذكرها فى مقدمة هذا الجزء ولما انتحر انطونيوس استولى أوكتافيوس على الاسكندرية وصمم على الايقاع بكليو بطره فاوجست خيفة منه وجعلت تستجلبه اليها وتخادعه بكل الطرق ولما لم تفز غرامها قتلت نفسها بثعبان (١٥ أغسطس ٣٠ ق م - ٦٥٢ ق ه) بعد أن قبض عليها وقيل فى موتها غير ذلك والله أعلم بالحقائق ومن ذلك الوقت صارت مصر اقليما رومانيا وهذه الدولة هى آخر دول الدور الجاهلى

﴿ الفصل السابع ﴾

﴿ *الطبقة الخامسة أو عصر الرومان* ﴾

٦٥٢ ق ه - ١٨ ه - ٣٠ ق م - ٦٤٠ م

لما أضافت الدولة الرومانية اقليم مصر لحكمها صارت ترسل اليها عمالا من قبلها يعينهم مجلس رومية وكان العامل منهم بيده جميع السلطة الادارية والعسكرية يتلقى أوامره مباشرة من مجلس رومية وليس لاحد عليه كلمة سوى المجلس المذكور أو قيصر الرومان وأول وال تعين عليها قورنليوس غالوس فاجتهد فى اصلاح ما أفسدته الفتن والحروب الاخيرة وخلفه فى ولاية مصر بطرنيوس وثارت عليه أهل الاسكندرية فحاربهم حتى قهرهم وأدخلهم تحت الطاعة وغزا بأمر أغسطس عرب الحجاز ولكن انهزمت جيوشه وفى تلك المدة انتهز أهالى السودان فرصة غياب العساكر الرومانية فى بلاد العرب وأغاروا على الديار المصرية واكتسحوا بلاد الوجه القبلى

Digitized by Google

والحاصل انه أتى على مصر فى أوائل حكم الرومان بعض أيام سعيدة الا أن غالب أيامها كانت ثورات وحروب ليس فى ذكرها كبير أهمية وسبب هذه الفتن على العموم أن بعض أولئك الولاة كان يسيء السيرة مع الرعية فتارة كان اليهود يظهرون العداوة لهم ويقاتلونهم فيعزلون وتارة عندما يتظلم المصريون للقياصرة كانوا يقابلون شكواهم بالاستهزاء والسخرية وكل ذلك بسبب ما يقع بين الطرفين من المجادلات الدينية خصوصا بعد ظهور الديانة المسيحية فكانت الاضطهادات ضد النصارى آخذة حدها وأشهر تلك الاضطهادات الاضطهاد الذى حصل بمصر فى أيام دقلديانوس أو ديوقليطس لانه بالغ فى ذلك وقتل من المسيحيين جماغفيرا بين كهنة وعامة وقد أرخ الاقباط بهذه الحادثة ويسمونه تاريخ الشهداء وهو يبتدئ من ١٣ يونيو سنة ٢٨٤ م (٣٣٩ ق ه) وكان على مصر من طرف الرومان عامل يدعى اجيلوس استبد بأحكامها فقاتله دقلديانوس وانتزع مصر من يده فكان ذلك فتحا جديدا لمصر ومفتاح سعادة للمصريين لان هذا القيصر بعد ما صار منه ما صار من الظلم عاد الى طريق الاستقامة والانصاف وسن لمصر قوانين خاصة بها عادت عليها بالرفاهية ولما نقل قسطنطين امبراطور الرومان تخت مملكته الى مدينة بيزانس ودعيت بالقسطنطينية (٣٠٦ م) أخذت حالة مصر فى الانحطاط لانتقال الاهمية الى هذا التخت الجديد الذى صار أعظم مدينة فى الشرق ولما توفى تيودوسيوس (٣٩٥ م - ٢٢٧ ق ه) أعقب ولدين وهما آرقاديوس وهنوريوس فورثا الحكومة الرومانية بتمامها واقتسماها فجعلاها مملكتين شرقية وغربية وجعلا عاصمة الشرقية بوزنطية وعاصمة الغربية رومية وكانا كلاهما حاكمين فى زمن واحد كما سبق ذكر ذلك فى الجزء الاول من هذا الكتاب فكان هذا الانقسام من أسباب انحطاط وانقراض هذه الدولة العظيمة وقد صارت مصر بعد هذه القسمة من أقسام الدولة الشرقية ولما تتبعت مصر لهذه الدولة أمر ارقاديوس أن تغلق هيا كل المصريين وتكسر أصنامهم ويعلن فى مصر دين النصرانية دون غيره فطلب أهل مصر منه أن يسوس أمرهم بما فيه المصلحة وحسم الفتن فبعث اليهم قوانين مشتملة على التشديد والزجر وأجبر الاهالى على القيام بواجباتهم تحت نواب دونه وكان عين تيوفيلس بطريقا بالاسكندرية ووضع تحت أمره والى مصر وأمرها فنال البطريق المنزلة العظمى وأخذت القساوسة تتداخل فى أمور الدولة حتى صار لهم الشأن الاول فلهذا كان الاضطراب مستمرا وكان بين الامة وأهل الدولة اختلاف دائم وكانت قياصرة القسطنطينية يسعون دائما فى تسكين الفتن الدينية فى أول ظهورها ومع كل ذلك لم تسكن نيرانها وتخمد الابصورة وقتية وقد اجتهد يوسطنيانوس القيصر الاول فى تحسين أحوال مصر وتعاهد مع الحبشة لجلب التجارة الى الاسكندرية ولكن نائبه كلف أهل الاسكندرية فوق طاقتهم واستعمل الجند فى اذلالهم فكانت هذه الامور سببا لكراهة الاهالى للحكومة وكانت أساطيل الروم لا ينقطع ورودها عن سواحل وثغور مصر وقد تكلمنا عن أحوال البحرية فى العهد المذكور فى مقدمة هذا الجزء بما فيه الكفاية وهنا نقول ان أول تجريدة بحرية مهمة ساقتها الدولة الرومانية الشرقية على ساحل افريقية كانت من طرف الامبراطور ماجوريان سنة ٤٥٧ م وكان القصد من ارسالها دفع الوندال عن افريقية وقد ضاع أسطول التجريدة المذكورة فى جون قرطاجنه ولم يكن الاسطول الذى أرسله بعده الامبراطور البوزنطى لاون

Digitized by Google

(٤٦٨ م) أكثر نجاحا من أسطول ماجوريان وفى عهد الامبراطور يوستنيانوس (٥٣٣ م) أرسل أسطولا جسيما مؤلفا من ٦٠٠ سفينة وجيشا قويا تحت قيادة بيساريوس الشهير لطرد الوندال فاستولى على قرطاجنة و بدد شمل الوندال وكانت مينا قرطاجنة وقتئذ من أشهر المين وأوسعها خرج منها أميلافرس قبل ذلك الى حرب سرقوسه بالف سفينة حربية وثلاثة آلاف سفينة للوسق ولهذا كانت من القديم تعد أكبر فرضة فى الساحل الافريقى والحاصل أنه بعد ما أسر الجنرال البوزنطى ملك الوندال أرسل فرقا من الاساطيل فاخضعوا اسردانيا وكورسيكا وجزائر باليارة ثم أخذت بعد ذلك الدولة الشرقية فى الانحطاط لمهاجمة البلغاريين لها من الشمال والفرس من الشرق والترك من الشمال الشرقى ولما ارتقى هرقل على تخت الامبراطورية الرومية الشرقية (٦٣٥ – ٦٤١ م) استنار الوجود بظهور كوكب الاسلام وتقدمت جيوشه فى الفتوحات ففتحوا فى عهد الخليفتين الاولين أكثر البلاد العراقية الواقعة على نهر الفرات واستولوا على الاقطار الشامية وكان أهالى القطر المصرى الاقباط يشنون من جور حكومة الروم وكثرة ضرائبها واستبداد عمالها وكان عقلاؤهم يتوقعون قرب سقوط دولة الرومان لتقدم العرب بالفتوحات فلذا كانوا ينتظرون أول فرصة لشق عصا طاعتها الى أن تم لهم ذلك بدخول جيش الاسلام مصر واخضاعها عنوة على يد القائد الشهير والبطل الكبير عمرو بن العاص رضى الله عنه (١٨ هـ – ٦٤٠ م) كما ذكر فى صحيفة ١٧٩ من الجزء الاول ومن ذلك الوقت انتهت المدة المسيحية وابتدأت المدة الاسلامية

﴿ الفصل الثامن ﴾

تاريخ مصر الحديث

﴿ أشهر أخبار الديار المصرية مدة عمال الخلفاء الامويين والعباسيين ﴾

٢٢ – ٢٥٥ هـ

لما أتم عمرو بن العاص فتح مصر واختط الفسطاط ولاه عمر بن الخطاب رضى الله عنه الفسطاط وأسفل الارض و ولى عبد الله بن أبى سرح على الصعيد فأجرى عمرو فى مصر حكما عادلا محمودا كما يظهر مما كتبه للخليفة فى بعض كتبه اذ عرض عليه ثلاثة أمور تعود بالنفع على مصر أولها عدم ازدياد الضرائب ثانيا حفظ جزء من الايراد العام لشق الجداول والترع واقامة الجسور والقناطر واصلاحها ثالثا تقسيم المال على الاراضى بحسب غلاتها ولما أصيبت جزيرة العرب بالمجاعة عام الرمادة كانت غلال مصر هى السبب فى خلاصها من القحط وكان أكبر مساعد لنقل الحبوب بالسهولة والسرعة الخليج الذى حفره عمرو بين النيل والبحر الاحمر وسماه خليج أمير المؤمنين قال ابن الحكم توفى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعلى مصر أميران عمرو بن العاص بأسفل الارض وعبد الله بن سعد على الصعيد فلما استخلف عثمان بن عفان عزل عمرو بن العاص و ولى عبد الله ابن سعد أميرا على مصر كلها وفى السنة الاولى من امارته (٢٤ هـ) سار من قبل الروم منويل الخصى الى الاسكندرية فسأل أهل مصر عثمان أن يرد عمرو بن العاص لمحاربته فرده واليا على الاسكندرية لمحاربة الروم بها حتى افتتحها وجمع لامير مصر هذا اصلاتها وخراجها ومكث أميرا

Digitized by Google

مدة خلافة عثمان كلها وغزا في خلالها عدة غزوات غزا افريقية (٢٦ هـ) وقتل واليها البطريق غريغوريوس أو جرجير وأسرت ابنته وفتح سبيطله وكانت تبعد عن قرطاجنة نحو ١٥٠ ميلا وغزا السودان حتى بلغ دنقله (٣١ هـ) وغزا باسطول مصر اسطول قسطنطين واستظهر عليه استظهارا باهرا في واقعة الصواري بجوار فرضة (زيواره) وكان أسطول مصر يتألف من مائتي مركب وأسطول الروم من ألف مركب (٣٣ هـ) وقاد أيضا الاسطول المصري في فتح قبرص (٣٣ هـ) وكان عمرو بن العاص عاد الى المدينة سنة ٢٧ هـ وفي نفسه من عثمان أمر كبير وجعل عمرو بن العاص يؤلب الناس على عثمان وكره أهل مصر عبد الله بن سعد بعد عمرو بن العاص قال الاسحاقي وكان ابن أبي سرح جبى خراج مصر فبلغ أربعة عشر ألف ألف دينار فنظر سيدنا عثمان الى عمرو وقال قد علمت أن اللقحة درت بعدك قال نعم ولكن أجاعت أولادها اهـ

وفي خلال اشتغال عبد الله بن سعد بالحروب نشأت بمصر طائفة يؤلبون الناس على حرب عثمان والانكار عليه في عزله عمرا وتوليته آخرين وكان معظم ذلك مسندا الى محمد بن أبي بكر ومحمد ابن أبي حذيفة حتى استنفرا نحوا من ستمائة راكب يذهبون الى المدينة لينكروا على عثمان فساروا اليها وسألوه أن يعزل عنهم ابن أبي سرح ويولي محمد بن أبي بكر أميرا فاجابهم الى ذلك فلما رجعوا اذا هم براكب فأخذوه وفتشوه فاذا في أداته كتاب الى ابن أبي سرح عن لسان عثمان بقتل محمد بن أبي بكر وجماعة معه فرجعوا وداروا بالكتاب على الصحابة فلام الناس عثمان على ذلك فحلف رضي الله عنه أن ماله علم بذلك وثبت أنه زوره على لسانه مروان بن الحكم وزور خاتمه فكان ذلك سبب تحريض المصريين على قتل عثمان حتى حصروه وقتلوه وفعل المصريون في المدينة من الشر مالا يفعله فارس والروم ونهبوا دار عثمان وعدلوا الى بيت المال فأخذوا ما فيه وكان فيه شيء كثير جدا (٣٥ هـ) وغير ذلك من الاقوال والافعال التي رواها المؤرخون وبعد موت عثمان تجدد النزاع على الخلافة وقامت الفتن وبقيت المدينة خمسة أيام بلا خليفة والمصريون يلحون على علي أن يبايعوه وهو يهرب منهم ويطلب الكوفيون الزبير فلا يجدونه والبصريون طلحة فلم يجبهم وبعد ذلك بايع القوم عليا رضي الله عنه وأشار عليه ابن عباس باستمرار نواب عثمان في البلاد الى حين آخر فأبى عليه وعزل عبد الله بن سعد بن أبي سرح عن مصر وولى عليها قيس بن سعد بن عبادة وكان محمد ابن أبي حذيفة لما بلغه حصر عثمان تغلب على الديار المصرية وأخرج منها ابن أبي سرح وصلى بالناس فيها فسار ابن أبي سرح فجاءه الخبر في الطريق بقتل عثمان فذهب الى الشام فأخبر معاوية بما كان من أمره بديار مصر وأن محمد بن أبي حذيفة قد استحوذ عليها فسار معاوية وعمرو بن العاص ليخرجاه منها فعاجلا دخول مصر فلم يقدرا ولم يزالا بها حتى خرج الى العريش في ألف رجل فتحصن بها وجاء عمرو بن العاص فنصب عليه المنجنيق حتى نزل في ثلاثين من أصحابه فقتلوا ثم سار الى مصر قيس بن سعد بن عبادة بولاية من علي فدخل مصر في سبعة نفر فرقي المنبر وقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين علي ثم قام قيس فخطب الناس ودعاهم الى البيعة لعلي فبايعوا واستقامت له طاعة بلاد مصر (٣٦ هـ) وسار فيها سيرة حسنة ولكن كانت أحوال الخلافة في اضطراب لان معاوية بن أبي سفيان أخذ يحزب الناس على علي رضي الله عنه بأنه هو السبب في قتل عثمان حتى انه كتب الى

Digitized by Google

قيس يدعوه الى القيام بطلب دم عثمان ووعده أن يكون نائبه على العراقين اذا تم له الامر فلما بلغه الكتاب وكان قيس رجلا حازما فلم يخالفه ولم يوافقه بل بعث بلاطف معه الأمر وذلك لبعده من علي وقربه من بلاد الشام ومامع معاوية من الجنود الكثيرة فسالمه قيس وتاركه ومع كل ذلك لم يخل من التهمة وأخيرا كتب الى علي رضي الله عنه يستعفي من ولاية مصر وقال له ابعث على عملك بمصر غيري فولى علي على مصر محمد بن أبي بكر وارتحل قيس الى المدينة ثم ركب الى علي واعتذر اليه وشهد معه صفين ولما قدم محمد مصر قرأ كتاب علي على الناس وخطبهم ثم بعث الى القوم المعتزلين الذين كان قيس وادعهم يقول ادخلوا في طاعتنا أو اخرجوا من بلادنا فقالوا دعنا حتى ننظر وأخذوا حذرهم ولما انقضت صفين وصار الامر الى التحكيم طمع أهل مصر في محمد بن أبي بكر واجترؤا عليه وبارزوه بالعداوة وندم علي بن أبي طالب على عزل قيس عن مصر لانه كان كفوأ لمعاوية وعمرو ابن العاص فلما فرغ علي من صفين وبلغه أن أهل مصر استخفوا بمحمد بن أبي بكر لكونه شابا ابن ست وعشرين سنة عزم على رد مصر الى قيس بن سعد ثم انه ولى عليها الاشتر النخعي فلما بلغ معاوية تولية الاشتر ديار مصر عظم ذلك عليه لانه كان طمع في انتزاعها من يد محمد بن أبي بكر وعلم أن الاشتر سيمنعها منه لحزمه وشجاعته وجاء الاشتر فنزل على صاحب الخراج بالقلزم فمات هنالك وقيل ان معاوية بعث الى صاحب القلزم فسمه على أن يسقط عنه الخراج وبلغ موته عليا فاسترجع واسترحم وحصلت أمور أخرى يطول شرحها وبقي محمد بن أبي بكر الى أن كان من أمر الحكمين ما كان واختلف أهل العراق على علي وبايع أهل الشام معاوية وقرر معاوية فتح مصر فجهز عمرو بن العاص في ستة آلاف فسار اليها واجتمعت عليه العثمانية وأراد محمد بن أبي بكر المقاومة وأخيرا تفرقت جموعه وهرب هو واختفى في خربة ودخل عمرو بن العاص فسطاط مصر ثم دل على محمد بن أبي بكر فجيء به وقد كاد يموت عطشا فقدمه معاوية بن حديج فقتله ثم جعله في جيفة حمار وأحرقه بالنار (٣٨ ﻫ) وكان عمرو أرسل الى محمد بن أبي بكر يطلب منه عدم المقاومة وكتب اليه يقول تنح عني بدمك فاني لا أحب أن يصيبك مني ظفر وان الناس قد اجتمعوا بهذه البلاد على خلافك فأغلظ محمد له في الجواب ثم كان ما كان وكتب عمرو بن العاص الى معاوية يخبره بما كان من الامر وأن الله قد فتح عليه بلاد مصر فأقام عمرو أميرا بمصر الى أن مات بها (٤٣ ﻫ) ودفن بالمقطم من ناحية الفج وكان طريق الناس اذ ذاك للحج وهو أول أمير مات بمصر

عمال خلفاء بني امية (٤٠ - ١٣٢ ﻫ) — لما قتل علي رضي الله عنه غيلة في الكوفة سنة أربعين من الهجرة ولي الخلافة ولده الحسن رضي الله عنه ولم يمكث الا ستة أشهر ثم بايع معاوية كما مر بالجزء الاول وكان عمرو بن العاص يدبر شؤن مصر بالصورة المذكورة وبعد موته ولى معاوية على ديار مصر ولده عبد الله بن عمرو وعمل له عليها سنتين وقيل بل أشهرا ثم عزله وولى عتبة بن أبي سفيان وجمع له معاوية الصلات والخراج وعقد عتبة لعلقمة بن يزيد على الاسكندرية في اثني عشر ألفا من أهل الديوان تكون بها مرابطة ثم خرج اليها مرابطا (٤٤ ﻫ) فمات بها واستخلف على مصر عقبة بن عامر الجهني وفي سنة ٤٦ ﻫ جهز عقبة بن عامر الجهني الاساطيل بثغر الاسكندرية وغزا البحر بأهل مصر وأهل المدينة جزيرة رودس ولكن فتحها كان سنة ٥٣ ﻫ عند

Digitized by Google

ماغزاها جنادة بن أبي أمية الازدي بالاسطول ونزلها المسلمون على حذر من الروم لانهم كانوا يعترضونهم في البحر ويأخذون سفنهم وكان معاوية يجزل لهم العطاء حتى خافهم الروم وكان معاوية ولى مسلمة بن محمد الانصاري على مصر وأمره أن يكتم ذلك على عقبة بن عامر حتى يقلع بالاسطول لغزو رودس (٤٧ هـ) وكانت ولايته سنتين وثلاثة أشهر ثم ولى معاوية على مصر وافريقية مسلمة بن مخلد الانصاري وجعل له الصلات والخراج والغزو فانتظمت غزواته في البر والبحر (٥٠ هـ) وفي إمارته نزلت الروم بأساطيلهم البرلس (٥٣ هـ) فاستشهد يومئذ وردان مولى عمرو بن العاص في جمع من المسلمين وهدم ما كان عمرو بن العاص بناه من المسجد وجدده ومن وقتئذ اهتم بأمر الاساطيل وأمر ببناء صناعة في الجزيرة فبنيت سنة ٥٤ هـ وأخذ يصنع ويصلح الاساطيل فيها وعامل الامة بالعدل وكان معاوية أراد أن يولي على مصر عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان بن ربيعة الثقفي فلم تقبله الاهالي لشهرته بسوء السيرة فأقر مسلمة بن مخلد في الولاية واستمر على إمرة مصر الى أن مات (٦٢ هـ) في خلافة يزيد فولى بعده سعيد بن يزيد بن علقمة الازدي (٦٢ هـ) وأعرض عنه أهل مصر لاستخفافهم به لصغر سنه واعتزل سعيد بعد سنتين من ولايته ثم وليها عبد الرحمن بن عتبة (٦٤ هـ) من قبل عبد الله بن الزبير عندما بويع بالخلافة بعد موت يزيد وقامت فتن بين الامويين والهاشميين فقصد مروان مصر ومعه عمرو بن سعيد الاشدق فقاتل عبد الرحمن فهزم عبد الرحمن وهرب ودخل مروان الى مصر فتملكها وجعل عليها ولده عبد العزيز (٦٥ هـ) وجعل له على الصلات والخراج ومات أبوه وبويع من بعده عبد الملك بن مروان فأقر أخاه عبد العزيز ووقع الطاعون بمصر (٧٠ هـ) فنزح عبد العزيز عنها ونزل حلوان فاتخذها داراله وبنى بها الدور والمساجد وعمرت في أيامه حتى كان لها شأن عظيم وجهز الاساطيل والبعوث في البحر لقتال ابن الزبير (٧٢ هـ) واستمر أميرا على مصر عشرين سنة ثم مات سنة ٨٦ فولى من بعده عبد الله بن عبد الملك وكان حدثا وكان أهل مصر يسمونه الكبس وهو أول من نقل الدواوين الى العربية وكانت لعهده بالقبطية وأول من نهى الناس عن لباس البرانس فأقام الى سنة ٩٠ هـ وعزله أخوه الوليد وولى قرة بن شريك العبسي وكانت الفتوحات الاسلامية اتسعت في زمن الوليد ودخلت جيوش الاسلام في أوروبا وفي هذا الوقت أخذ المسلمون يبنون الاساطيل فصارت تصنع السفائن في أكثر ثغور مصر وافريقية وكان قرة بن شريك المذكور ظلوما عسوفا وفي أيامه أمر الوليد ببناء الجوامع لما امتلأت بيوت الاموال من مال الخمس فبنى مسجد العيلة وهو أول مسجد بني بالفسطاط وكان في أصل حصن الروم عند باب يعرف بباب الريحان ومات قرة سنة ٩٦ فولى بعده عبد الملك ابن رفاعة فأقام ثلاث سنين وفي أيامه كانت ركبة القسطنطينية التي سيرها سليمان بن عبد الملك تحت قيادة مسلمة فارسل أمير مصر عمارة عظيمة أقلعت مع العمارة العربية التي خرجت من بحر الشام فكانت نحو ألف وثمانمائة سفينة أعظمها تحمل مائة رجل بجهازهم ولما وصلت الى القسطنطينية ونظرها الروم أمروا برفع السلسلة القاطعة للميناء لكي تدخل السفن وتتأمن داخل البوغاز واستعد مسلمة للهجوم برا وبحرا ولما وصلت المراكب الى حيث السلسلة وقفت متحيرة أن تدخل أو ترسو في مكانها خوفا من حيلة ما واذا بالنار الاغريقية قد اشتعلت من كل جانب وأحرقت أغلب الاساطيل (٩٩ هـ) وبعد موت سليمان خلفه عمر بن عبد العزيز فولى أيوب بن شرحبيل

Digitized by Google

(٩٩ ھ) على مصر وعطلت حانات الخمر فى أيامه وأرسل اليه الخليفة بارسال المدد للجيوش الشاتية فى ضواحى القسطنطينية فجهز أيوب عمارة عظيمة مؤلفة من أربعمائة سفينة وشحنها قمحا وأقلعت من الاسكندرية ولحقت بالعمارة الافريقية التى كانت مركبة من ثلاثمائة وستين سفينة ولما أوصلت الزاد الى جنود مسلمة حدث لها ما حدث للعمارة الاولى من التدمير ولم يخلص من سفنهما الا القليل ويقال انه لم ينج من كل تلك المراكب الا خمسة فقط جاءت بالاخبار الى الاسكندرية ومع كل ذلك استمر المسلمون على تجهيز المراكب فى مصر وأقاموا يغزون الصوائف كعادتهم ولما مات عمر بن عبد العزيز واستخلف يزيد بن عبد الملك أقر أيوب على مصر الى أن مات (١٠١ ھ) فولى بعده بشر بن صفوان الكلبى ولما ولاه افريقية استخلف أخاه حنظلة بن صفوان على مصر فأقام بها الى سنة ١٠٥ ھ ثم ولى محمد بن عبد الملك بن مروان وفى أيامه وقع وباء شديد بمصر فترفع محمد الى الصعيد ثم عاد وخرج عن مصر وتولى الحر بن يوسف من قبل هشام بن عبد الملك (١٠٥ ھ) ثم ولى حفص بن الوليد فأقام الى سنة ١٠٨ ھ وولى بعده عبد الملك بن رفاعة (١٠٩ ھ) وصرف فى السنة نفسها وولى أخوه الوليد فأقام الى أن توفى سنة ١١٩ ھ وفى أيامه انتقلت قبيلة قيس الى مصر فأنزلوا فى الحوف الشرقى [1] وولى بعده عبد الرحمن بن خالد الفهمى من قبل هشام بن عبد الملك وفى امرته نزل الروم على تروجة [2] فحاصروها ثم اقتتلوا وأسروا فصرفه هشام وولى حنظلة بن صفوان ثانيا فانتقض عليه القبط وفى سنة ١٢٢ ھ ولاه افريقية وأعيد الى مصر حفص بن الوليد فأقام ثلاث سنين ثم صرف وولى بعده سنة ١٢٨ ھ حسان بن عتاهية التجيبى ثم أعيد حفص بن الوليد وعزل لظهور فتنة فى مصر سنة ١٢٨ وولى الحوثرة بن سهيل الباهلى من قبل مروان فسار اليها فى آلاف من الجند فخافه أرباب الثورة من الاهالى وسألوه الامان فأمنهم ونزل بظاهر الفسطاط وقد اطمأنوا اليه فخرج اليه حفص ووجوه الجند فقبض عليهم وقيدهم فانهزم الجند وكان معه عيسى بن أبى عطاء على الخراج وبعث فى طلب رؤساء الفتنة فجمعوا له وضرب أعناقهم وقتل حفص بن الوليد ثم صرف مروان الحوثرة عن مصر (١٣١ ھ) وبعثه الى العراق فقتل واستخلف على مصر حسان ابن عتاهية وقيل أبا الجراح بشر بن أوس ثم صرفه عنها (١٣٢ ھ) وولى المغيرة بن عبد الله الفزارى وخرج الى الاسكندرية ومات (١٣٣ ھ) واستخلف ابنه الوليد بن المغيرة ثم صرفه الوليد بعد شهر وولى عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير على الصلاة والخراج وكان واليا على الخراج قبل (١٣٢ ھ) وهو أول من أمر باتخاذ المنابر فى الكور ولم تكن قبله بل كانت ولاة الكور يخطبون على العصى الى جانب القبلة وخرج القبط فحاربهم وقتل كثيرا منهم وفى خلال ذلك قامت الخلافة العباسية

عمال خلفاء العباسيين (١٣٢ – ٢٥٥ ھ) ـ لما ولى السفاح الخلافة وانهزم مروان الحمار وهرب الى الديار المصرية ولى السفاح نيابة الشام ومصر لصالح بن على بن عبد الله بن عباس فسار صالح

(١) قال ياقوت الحوف بالفتح وضبطه ابن خلكان بالضم وبمصر حوفان الشرقى والغربى وهما متصلان أول الشرقى من جهة الشام وآخر الغربى قرب دمياط يشتملان على بلدان وقرى كثيرة

(٢) تَرُوجة قرية بمصر من كورة البحيرة من أعمال الاسكندرية أكثر ما زرع بها الكمون وقيل اسمها ترنجه وكانت تروجة مدينة عظيمة متسعة ذات أسواق دائمة وقصور مشيدة ومساجد عامرة وبساتين وكانت تنزلها الملوك والامراء ثم أخنى عليها الزمان فخربت

حتى قتل مروان ببوصير السدر من أعمال مديرية الجيزة في ذى الحجة سنة ١٣٢ هـ وبعث برأسه الى العراق وانقضت بذلك أيام بني أمية ثم رجع صالح الى الشأم واستخلف على مصر أباعون عبد الملك بن أبي يزيد الازدى فأقام الى سنة ١٣٦ هـ ثم أعيد صالح بن على وخرج أبوعون بالجيوش الى افريقية بعد أن جهز المراكب من الاسكندرية الى برقة فمات السفاح واستخلف أبوجعفر عبدالله بن محمد المنصور فأقر صالحا وكتب الى أبي عون بالرجوع وورد الدعاة ثم بعد ذلك أعيد أبوعون سنة ١٣٧ هـ فأقام الى سنة ١٤١ هـ ثم ولى بعده موسى بن كعب التميمي من قبل أبي جعفر المنصور ومات بعد سبعة أشهر وولى محمد بن الاشعث الخزاعى ثم عزل (١٤٣ هـ) وولى نوفل بن الفرات ثم عزل وولى حميد بن قحطبة الطائى ثم صرف سنة ١٤٤ وولى يزيد بن حاتم المهلبي فأقام الى سنة ١٥٢ هـ ثم عزل لهزيمته أمام القبط عند ثورتهم وولى بعده عبدالله بن عبد الرحمن بن حديج من قبل أبي جعفر المنصور العباسي وهو أول من خطب بالسواد ومات سنة ١٥٥ هـ واستخلف أخاه محمد ابن عبد الرحمن بن حديج فأقام سنة وشهرين ثم ولى بعده موسى بن على اللخمى (١٥٥ هـ) فثارت القبط في أيامه فكسرهم ولما مات أبوجعفر (١٥٨ هـ) وبويع ابنه محمد المهدى أقر موسى بن على المذكور الى سنة ١٦١ هـ ثم ولى عيسى بن لقمان الجمحى ويعرف باللخمى من قبل المهدى على الصلات والخراج ثم ولى واضح مولى المنصور (١٦٢ هـ) ثم صرف من عامه وولى منصور بن يزيد الحميرى ثم ولى بعده يحيى بن داود أبو صالح الجرسى وكان أبوه تركيا ثم ولى سالم بن سوادة التميمى (١٦٤ هـ) ثم ولى على بن ابراهيم بن صالح العباسى (١٦٥ هـ) ثم ولى موسى بن مصعب مولى خثعم وكان ظالما فزاد الخراج والضرائب على أهل الاسواق فكرهه الناس وثاروا عليه فقاتلهم بالجند فانهزم وأسلمه أهل مصر للقائمين عليه فقتلوه (١٦٤ هـ) ثم ولى عامر بن عمرو ثم ولى الفضل بن صالح العباسى ثم عزل (١٦٦ هـ) ثم ولى على بن سليمان العباسى ولما مات الهادى (١٧٠ هـ) وبويع هرون بن محمد الرشيد أقر على بن سليمان فاظهر في ولايته الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ولما تطلع للخلافة وطمع فيها سخط عليه هرون الرشيد وعزله (١٧١ هـ) ثم ولى موسى بن عيسى من قبله على الصلات ثم صرف عنها (١٧٢ هـ) ثم ولى بعده مسلمة بن يحيى من قبل الرشيد على الصلات ثم صرف عنها (١٧٣ هـ) ثم ولى محمد بن زهير الازدى على الصلات والخراج وصرف بعد خمسة أشهر فولى داود بن يزيد الصلات وبعث بابراهيم بن صالح لاخراج الجند الذين ثاروا من مصر فدخل سنة ١٧٤ هـ وأخرج الجند الكثيرين الى المشرق والمغرب فساروا في البحر فأسرتهم الروم بمراكبهم فعزل عنها (١٧٥ هـ) ثم أعيد موسى بن عيسى على الصلات والخراج من قبل الرشيد وصرف عنها (١٧٦ هـ) وتولى جعفر بن يحيى البرمكى فاستناب عليها عمر بن مهران وكان شيعيا ردىء الشكل نكاية في عيسى بن موسى لانه بلغه عنه انه عامل على خلعه ثم ولى ابراهيم بن صالح وتوفى فكان مقامه بمصر شهرين وثمانية عشر يوما وقام بالامر بعده ابنه صالح بن ابراهيم مع صاحب شرطته خالد بن يزيد ثم ولى عبدالله بن المسيب (١٧٦ هـ) وصرف سنة ١٧٧ هـ فولى اسحق بن سليمان بن عباس على الصلات والخراج فزاد على المزارعين الضرائب فخرج عليه أهل الحوف فحاربهم وقتل كثير من أصحابه فكتب الى الرشيد بذلك فعقد لهرثمة بن أعين في جيش عظيم وبعث به فنزل الحوف فتلقاه أهله بالطاعة وأذعنوا فقبل منهم واستخرج الخراج وصرف اسحق عن مصر (١٧٨ هـ) وتولى هرثمة بن أعين من قبل الرشيد على الصلات والخراج وبعد أن أقام بمصر شهرين سار الى افريقية

ثم

Digitized by Google

ثم ولى عبد الملك بن صالح على الصلات والخراج فلم يدخل مصر واستخلف الرشيد عبد الله بن المسيب ابن زهير الضبي وصرف عنها (١٧٨ ﻫ) فولى عبيد الله بن المهدى العباسى على الصلات والخراج (١٧٩ ﻫ) فاستخلف ابن المسيب ثم قدم بعدها وصرف عنها بعد تسعة أشهر وأعاد الرشيد موسى ابن عيسى وولاه مرة ثالثة على الصلات فقدم ابنه يحيى بن موسى خليفة له ثم صرف (١٨٠ ﻫ) فولى الرشيد عبد الله بن المهدى ثانية على الصلات فقدم داود بن حباش خليفة له ثم صرف (١٨١ ﻫ) فولى اسماعيل بن صالح على الصلات فاستخلف عون بن وهب الخزاعى وكان اسماعيل هذا خطيبا مصقعا وصرف عن مصر سنة ١٨٢ ﻫ فولى اسماعيل بن عيسى وصرف بعد ثلاثة شهور فولى الليث بن الفضل البيوردى على الصلات والخراج وكان يخرج لتوصيل المال والهدايا الى الخليفة ويستخلف أخاه تارة وغيره أخرى وثار عليه أهل الحوف فثار بهم وأخيرا ولى محفوظ ابن سليمان الخراج وفى أيامه استعمل الرشيد حميد بن معيوب على الاساطيل التى بساحل الشأم ومصر وحارب قبرص فهزم أهلها وسبى وصرف الرشيد الليث عن الصلات والخراج (١٨٧ ﻫ) وبعث أحمد بن اسحق على الصلات مع محفوظ ثم ولى أحمد بن اسماعيل العباسى على الصلات والخراج (١٨٧ ﻫ) ثم صرف سنة ١٨٩ ﻫ ثم ولى عبد الله بن محمد العباسى وفى خلال ولايته نقض أهل قبرص العهد سنة ١٩٠ فغزاهم معتوق بن يحيى وكان عاملا على سواحل مصر والشام وتحت امرته الاساطيل فسبى أهل قبرص وردهم الى الطاعة وصرف الرشيد عبد الله ابن محمد عن مصر (١٩٠ ﻫ) وولى الحسين بن جميل الصلات (١٩١ ﻫ) فخرج عليه أهل الحوف وامتنعوا عن أداء الخراج وتمرد أيضا أبو النداء أيلة فى جوعه فبعث الرشيد جيشا وبعث الحسين بن جميل من مصر قائدا يدعى عبد العزيز فى عسكر فظفر عبد العزيز بأبى النداء ووصل جيش الرشيد الى بلبيس فأذعن أهل الحوف ودفعوا الخراج وصرف ابن جميل سنة ١٩٢ ﻫ فولى مالك ابن دلهم الكلبى على الصلات والخراج وصرف سنة ١٩٣ فولى الحسن بن التختاخ فثار فى أيامه الجند بمصر ووقعت فتنة عظيمة فعزل (١٩٤ ﻫ) وولى بعده حاتم بن هرثمة على الصلات والخراج فاخضع أهل الاحواف وغيرهم من الثائرين ودخل الفسطاط ومعه الرهائن ثم صرف (١٩٥ ﻫ) فولى جابر بن الاشعث الطائى من قبل الامين على الصلات والخراج وكان لينا فلما حدثت فتنة الامين والمأمون قام السرى بن الحكم يدعو الناس لمبايعة المأمون وخلع الامين فأجابوه (١٩٦ ﻫ) وأخرجوا جابر بن الاشعث فولى عباد بن محمد بن حيان من قبل المأمون على الصلات والخراج (١٩٦ ﻫ) وكانت الفتنة قائمة بين الامين والمأمون بشأن الخلافة ولما قتل الامين صرف عباد عن مصر سنة ١٩٨ وولى المطلب بن عبد الله الخزاعى من قبل المأمون على الصلات والخراج وصرف بعد سبعة أشهر فولى العباس بن موسى من قبل المأمون وفى أيامه ثارت الجند مرارا وكان الاضطراب زائدا وسجن المطلب ثم أخرج من الحبس وصرف سنة ١٩٩ ﻫ ونزل العباس بلبيس ودعا قيسا الى نصرته ثم مات فى بلبيس ويقال ان المطلب دس اليه السم فى الطعام فمات وكانت ولاية المطلب سنة وثمانية شهور ثم ولى السرى بن الحكم باجماع الجند وبعض الاهالى (٢٠٠ ﻫ) ثم ولى سليمان بن غالب على الصلات والخراج بمبايعة الجند (٢٠١ ﻫ) وقامت فتن داخلية ثم صرف وسجن وأعيد السرى بن الحكم ثانية من قبل المأمون فلم تقبل الاهالى ولايته وأخرج الجند سليمان

Digitized by Google

من الحبس وتتبع من حاربه وقوي أمره الى أن مات (٢٠٥ هـ) وتولى محمد بن السري وكان الجردى أحد الخوارج قد غلب على أسفل الارض فجرت بينهما حروب ثم مات محمد (٢٠٦ هـ) وتولى عبيد الله ابن السري بمبايعة الجند وكانت بينه وبين الجردى حروب الى أن قدم عبد الله بن طاهر من قبل المأمون فاستنقذ مصر من عبيد الله بن السري بعد حروب يطول شرحها (٢١١ هـ) وكان قدم الاسكندرية مراكب للاندلسيين التجؤا اليها بعد واقعة الربض التي أوقع فيها الحكم بن هشام بكثير من أهل قرطبة سنة ١٨٢ هـ وكانوا زهاء عشرة آلاف وكانوا قد أكثروا من الشرور بالاسكندرية وثاروا على عاملها فزحف اليهم عبد الله بن طاهر والى مصر من قبل المأمون فحاربهم وغلبهم وأجازهم بمراكبهم الى اقريطش (كريد) وملكوها وكان الامير معهم أبو حفص عمر بن عيسى ثم ملكها اولاده من بعده وعمرها الاندلسيون وشيدوا بها مدنا منها اقندية وكانوا يسمونها بالخندق وبقيت بأيديهم الى أن غزاها الروم سنة ٣٤٥ هـ وملكوها بعد حصار طويل كما مر بالجزء الاول وكان عبد الله بن طاهر على الصلات والخراج فقام عليها الجند فتحصن في بلبيس فالتفت عليه عصبة من أهلها وأنفذ المأمون اليه أن يقف عند حده ثم ولى بعده عيسى بن يزيد الجلوذى وفي سنة ٢١٣ ثار رجلان بمصر وهما عبد السلام وابن حليس فخلعا المأمون واستحوذا على الديار المصرية وتابعهما طائفة من القيسية واليمانية فولى المأمون أخاه أبا اسحق بن الرشيد نيابة مصر مضافة الى الشام فقدمها بالجيوش وافتتحها وقتل عبد السلام وابن حليس وأقام بمصر ثم ولى عليها عمير بن الوليد التميمي ثم صرف وأعيد عيسى بن يزيد الجلوذى فحاربه أهل الحوف وهزموه وأقبل أبو اسحق الى مصر في أربعة آلاف من أتراكه فهزم أهل الحوف وقتل أمراءهم ثم خرج الى الشام (٢١٥ هـ) ومعه جمع من الاسارى وولى على مصر عبدويه بن جبلة فخرج أناس بالحوف فبعث اليهم وحاربهم حتى ظفر بهم ثم صرف عبدويه وخرج الى برقة (٢١٦ هـ) وولى عيسى بن منصور الرافعي من قبل ابن اسحق وفي أيامه انتقضت عرب وأقباط أسفل الارض وأخرجوا العمال لسوء سيرهم وخلعوا الطاعة فقدم الافشين نحو برقة ثم خرج هو وعيسى فأوقعا بالقوم وأسرا منهم وقتلا ورجع موسى وسار الافشين الى الحوف وقتل جماعتهم وكانت حروب الى أن قدم أمير المؤمنين عبد الله المأمون مصر (٢١٧ هـ) فسخط على عيسى وحل لواءه ولامه على لباس البياض ونسب الحدث اليه والى عماله وسير الجيوش وأوقع بأهل الفساد وبعد أن أصلح ما اختل من أحوال البلاد عاد بعد تسعة وأربعين يوما وولى كيدرا وهو نصر بن عبد الله أبو مالك (٢١٨ هـ) ومات المأمون (٢١٨ هـ) وبويع أبو اسحق المعتصم ومات كيدر (٢١٩ هـ) فولى ابنه المظفر بن كيدر باستخلاف أبيه وخرج الى يحيى بن الوزير الجروى وقاتله لخروجه عليه حتى أسره ثم توفي المظفر (٢٢٠ هـ) وتولى مصر أبو جعفر اشناس فدعى له بها وتولى موسى بن أبي العباس من قبل اشناس على الصلات (٢١٩ هـ) وصرف (٢٢٤ هـ) فولى مالك بن كيدر الصغدى من قبل اشناس على الصلات وصرف سنة ٢٢٦ هـ وتوفي سنة ٢٣٣ هـ وولى على بن يحيى الارمني من قبل اشناس (٢٢٦ هـ) ومات المعتصم (٢٢٧ هـ) وبويع الواثق بالله فأقره (٢٢٨ هـ) ثم ولى عيسى بن منصور من قبل اشناس (٢٢٩ هـ) ومات اشناس وجعل مكانه ايتاخ فأقر عيسى ومات الواثق وبويع المتوكل فصرف عيسى (٢٣٣ هـ) ثم مات عيسى في قبة الهواء بمصر بعد عزله وتولى هرثمة بن نصر فورد عليه كتاب

المتوكل

المتوكل بترك الجدال فى أمر القرآن (٢٣٤ هـ) ومات هرثمة واستخلف ابنه حاتم بن هرثمة بن النضر ثم ولى على بن يحيى بن الارمنى ثانيـة وصرف ايتاخ (٢٣٥ هـ) واستصفيت أمواله بمصر وترك الدعاء له ودعى للمنتصر مكانه وصرف على بن يحيى وولى اسحق بن يحيى الجبلى من قبـل المنتصر الذى تولى عهد أبيه المتوكل على الله ثم ولى خوط عبد الواحد بن يحيى (٢٣٦ هـ) ثم صرف سنة ٢٣٨ وولى عنبسة بن اسحق من قبل المتوكل وفى مدته نزل الروم دمياط يوم عرفة سنة ٢٣٨ فملكوها وقتلوا بها جمعا كثيرا من المسلمين وسبوا النساء والاطفال فأمر المتوكل ببناء حصن دمياط وأنشأ من حينئذ الاسطول بمصر وكانت جميع السفن والاساطيل التابعة لمصر والشام تابعة لامير الاساطيل بالسواحل المذكورة ومن ذلك الوقت وقع الاهتمام بأمر الاسطول وصار من أهم ما يعمل بمصر وأنشئت الشوانى برسم الاسطول وجعلت الارزاق لغزاة البحر كما هى لغزاة البر وورد الكتاب بالدعاء للفتح بن خاقان (٢٤٢ هـ) فدعا له وعنبسة هذا هو آخر من ولى مصر من العرب وآخر أمير صلى بالناس فى المسجد الجامع وصرف سنة ٢٤٤ هـ فولى يزيد بن عبد الله من قبل المنتصر على الصلات وهو الذى منع من النداء على الجنائز وعاقب عليه وخرج الى دمياط مرابطا (٢٤٥ هـ) ورجع بعد شهرين فبلغه نزول الروم بالفرما فرجع اليها فلم يلقهم وتتبع الروافض وحملهم الى العراق وبنى مقياس النيل وكان تهدم من زلزلة فصار يعرف من وقتها بالمقياس الجديد وهو الباقى الى يومنا هذا (٢٤٧ هـ) ومات المتوكل فى أيامه وبويع ابنه المنتصر ومات الفتح بن خاقان فأقر المنتصر يزيد على مصر ثم مات المنتصر (٢٤٨ هـ) فورد كتابه بالاستسقاء لقحط كان بالعراق وخلع المستعين (٢٥٢ هـ) فخرج جابر بن الوليد بأرض الاسكندرية وكانت هناك حروب وقدم مزاحم ابن خاقان من العراق معينا ليزيد فى جيش كثيف فواقعهم حتى ظفر بهم ثم صرف يزيد سنة ٢٥٣ هـ وولى مزاحم بن خاقان على الصلات من قبل المعتز وثارت الحوف وتروجة وبعض جهات من الفيوم فأوقع بالثائرين وولى الشرطة أرجوز فمنع النساء من الحمامات والمقابر ومنع الجهر بالبسملة فى الصلاة بالجامع (٢٥٣ هـ) ولم يزل أهل مصر على الجهر بها منذ الاسلام ولما مات مزاحم سنة ٢٥٤ هـ استخلف ابنه أحمد ولم تطل أيامه حيث مات فى سنته بعد شهرين فاستخلف أرجوز بن أولغ طرخان التركى على الصلات فولى الصلات خمسة أشهر ونصفا وصرف وبعده ظهر نجم الدولة الطولونية بمصر كما سيأتى

(الفصل التاسع)

الدول التى استقلت ببلاد مصر

(الدولة الطولونية)

٢٥٥ — ٢٩٢ هـ

أصل هذه الدولة من عمال خلفاء العباسيين على مصر استقلت بها كما استقل غيرها فى أنحاء الدولة العباسية عندما ظهرت عليها علامات الضعف وتنسب الى رجل تركى يدعى طولون أصله من تركستان أخذ أسيرا فى احدى الوقائع الحربية وجىء به الى ابن أسد الصماحى عامل المأمون على بخارى فبعثه ابن أسد الى الخليفة ضمن المماليك الذين أرسلهم اليه (٢٠٠ هـ) فأعجب المأمون

بتناسب أعضائه وقوة بنيته فألحقه بحاشيته وصار يرقيه الى أن جعله رئيس حرسه ونال وظيفة أمير الستر ومكث طولون المذكور فى هذا المنصب نحوا من عشرين سنة مدة المأمون والمعتصم فلما توفى فى أيام المتوكل على الله (٢٣٩ هـ) رأى الخليفة فى ابنه أحمد الذى كان عمره وقتئذ ١٩ سنة اللياقة للقيام بوظيفة أبيه فألحقه بها وكان أحمد بن طولون قد اشتهر بين أقرانه بالعلم وحسن التربية والتقوى والشجاعة فأحبه كثير من العلماء ومال اليه معظم الاتراك منهم باركوج أحد كبراء حرس الخليفة المتوكل على الله فزوجه بابنته وهى التى ولدت له ابنه عباس ومع كون أحمد ابن طولون نشأ بين دسائس وثورات الاتراك السابق الكلام عليها فى الجزء الاول الا أنه لم يتداخل فيها بل اشتغل بتوسيع معارفه و واظب على تلقى علومه حتى انه سافر الى طرسوس لاخذ العلوم من مدارسها وصادف أنه فى أثناء عودته منها الى سامرا اهجم بعض قطاع الطرق على القافلة التى كان بها ليسلبوا ما معها من الاموال وكانت هذه الاموال محولة الى الخليفة المستعين بالله فأنكر عليهم أحمد بن طولون ذلك وحمل عليهم حملة منكرة هزمهم فيها واستخلص أموال الخليفة وكان سنه وقتئذ ٢٩ سنة فلما وصل الركب الى سامرا و بلغ الخليفة ذلك أنعم عليه بألف دينار وقربه اليه و وهبه احدى جواريه المسماة مية وهى التى رزق منها بابنه الثانى خاروية (٢٥٠ هـ) وكان هذا مبدأ ظهور أحمد بن طولون وشهرته وحافظ على الود حتى انه بعد خلع المستعين كتب المعتز الى أحمد بن طولون بقتل المستعين فامتنع عن قتله وأوصله الى القاطول على الدجلة وسلمه الى الحاجب سعيد بن صالح فضربه سعيد حتى مات ولم يقبل أحمد الدخول فى هذا الامر ولما وجهت ولاية مصر الى بابكيال أحد رؤساء الاتراك من قبل الخليفة المعتز بالله بن المتوكل (٢٥٤ هـ) لم يرغب هذا الرئيس أن يترك بغداد مركز نفوذه ويذهب الى مصر فاستخلف أحمد بن محمد بن المدبر أولا ثم أشرك معه أحمد بن طولون وقسم بينهما ادارة البلاد فوجه الى ابن المدبر جباية الاموال وجعل أحمد بن طولون على الادارة و باقى الوظائف العسكرية وكان ابن المدبر أحدث بمصر أنواعا من المظالم وأثقل الضرائب على الاهالى واضطرهم فنشأ عن ذلك الضرر والخراب وأخذت الامة تسعى للايقاع به ولما أحس بذلك اتخذ لحرسه مائة هندى من الاشداء المشهورين بالشجاعة يرافقونه فى كل جهة يتوجه اليها حفظا لحياته ولما وصل أحمد بن طولون بالجيش الذى ضم اليه فى رمضان سنة ٢٥٤ هـ خرج لملاقاته أحمد بن المدبر بحرسه وقدم له هدية ذات قيمة قدرت بعشرة آلاف دينار فلم يقبلها ابن طولون وطلب منه عوضا عنها المائة غلام فالتزم أن يرسلهم اليه و بذلك تحولت هيبة ابن المدبر الى ابن طولون وصادف قتل المعتز و بويع المهتدى (٢٥٥ هـ) فقتل المهتدى بابكيال المذكور واستعمل على مصر باركوج التركى وهو حمو أحمد فاستعمل صهره على مصر كلها منفردا (٢٥٧ هـ) بتقليد من الخليفة فقوى أمر أحمد بن طولون وعلا شأنه بعد أن تقلد خراج مصر مع المعونة والثغور الشامية قال ابن وصيف شاه لما تولى الامير أحمد بن طولون على مصر أخذ فى أسباب عمارة قراها وجسورها وقناطرها وحفر خلجانها وسد ترعها فاستقامت أحوال الديار المصرية فى أيامه بعد ما كاد أن يتلاشى أمرها الى الخراب وانحط خراجها فى أيام من تقدمه من العمال الى أن قال فلما تم أمر الامير أحمد بن طولون فى ولايته على مصر واستقامت أحواله بها استكثر من شراء المماليك الديالمة حتى بلغت عدتهم ٢٤٠٠٠ مملوك و بلغ ما اشتراه من العبيد الزنج ٤٠,٠٠٠ واستكثر من شناترة العرب حتى بلغت

عدتهم

عدتهم ... ٧٠٠ الف ولما كثرت جنوده عزم على الاستقلال فشرع فى تحصين البلاد وأكثر من آلات الحرب وأسس مدينة جديدة سماها القطائع تمتد من جبل يشكر الى سفح المقطم وقسمها بين رؤساء جيشه وشيد بها المساجد والبساتين والاسواق والمعامل والبيوت والحمامات واتخذ بها ميدانا للجيش وفى أيامه عصى أهل برقة (٢٦١ هـ) فبعث اليهم غلامه لؤلؤا وأمره أن يتلاطف بهم فان أطاعوا فيها والا جرد السيف فطمعوا أولا ثم أخذ لؤلؤ مدينتهم وقتل من كبرائهم وأسر وفى سنة ٢٦٢ هـ وقعت المنافرة بين أحمد بن طولون وبين الموفق العباسى فطلب الموفق من يتولى الديار المصرية فلم يجد أحدا الا خدم ابن طولون وهداياه كانت متصلة الى القواد بالعراق فكتب الموفق الى ابن طولون يتهدده بالعزل فأغلظ له ابن طولون الجواب فسير اليه الموفق جيشا كثيفا مع القائد موسى بن بغا فسار الى الرقة وخالف الامر فعاد الى العراق ومات (٢٦٤ هـ) وفى خلال ذلك كان ابن طولون يستعد للمدافعة وبنى الحصن بالجزيرة ليكون معقلا لماله وحرمه وذلك سنة ٢٦٣ هـ واجتهد فى عمل المراكب الحربية وأطافها بالجزيرة فاتخذ مائة مركب حربية سوى ما ينضاف اليها من العلابيات والحمائم والعشاريات والسنابيك والزوارق وقوارب الخدمة وعمد الى سد فم البحر الكبير وأن يمنع ما يجىء اليه من مراكب طرسوس وغيرها من البحر الملح الى النيل بأن توقف هذه المراكب الحربية فى وجه البحر الكبير خوفا من مراكب طرسوس ثم بعد ذلك مات أماجور التركى عامل دمشق وقام مقامه ابنه فتجهز ابن طولون للاغارة على الشام فكتب الى ابن اماجور يذكر له أن الخليفة قد أقطعه الشام والثغور فأجابه بالسمع والطاعة فسار أحمد واستخلف بمصر ابنه العباس فلقيه ابن اماجور بالرملة فأقره عليها وسار الى دمشق فملكها وأقر قواد اماجور على أقطاعهم وسار الى حمص فملكها وكذلك حماة وحلب وراسل سيما الطويل بانطاكية يدعوه الى طاعته ليقره عليها فامتنع فعاوده فلم يطعه فسار اليه أحمد وحصره وكان سيئ السيرة مع أهل البلد فدلوا ابن طولون على عورة المدينة فنصب عليها المجانيق وملكها وقتل سيما بعد قتال شديد (٢٦٥ هـ) ثم مضى الى طرسوس فدخلها ثم خرج عنها واستخلف عليها ومضى الى الشام فبلغه أن ابنه العباس خالف عليه بمصر وأخذ الاموال وسار الى برقة فلم يكترث بذلك ولم ينزعج له وثبت وبعد أن أتم أشغاله وحفظ أطراف البلاد وترك بحران عسكرا وبالرقة عسكرا مع غلامه لؤلؤ خرج من الشام وعقد على جيش وبعث به الى برقة فقاتل جيش العباس وهزمه (٢٦٧ هـ) وأسر العباس وأخذه الى والده فحبسه ثم خرج بنفسه فى عسكر عظيم قدر بمائتى ألف مقاتل (٢٦٧ هـ) فأقام بالاسكندرية واشتدت العداوة بينه وبين الموفق حتى أفضت الى أن الموفق أمر عماله بلعن ابن طولون على المنابر ففعلوا وفى سنة ٢٦٩ هـ حصلت بين عساكر ابن طولون وعساكر الموفق وقعة بمكة انهزم فيها جيش ابن طولون وثارت عليه عماله فى الشام فسار ثانية الى طرسوس فنازلها وكان البرد شديدا فسار عنها الى أذنة ثم الى المصيصة فنزلت به علة الموت فرجع الى مصر ولما وصلها (٢٧٠ هـ) تزايدت به العلة فمات وهو الذى بنى قلعة يافا وكانت المدينة بغير قلعة كما رواه ابن الاثير وأول جامع شاده بمصر جامع التنور ابتناه على قمة جبل المقطم وكذا شيد عدة مبان عظيمة أخرى فى مصر منها جامعه (١) الشهير فى جبل يشكر

(١) جامع ابن طولون هو من الجوامع العتيقة الانيقة الصنعة الواسعة البنيان ذكر المقريزى فى خططه ان موضع هذا الجامع يعرف بجبل يشكر قال ابن عبد الظاهر وهو مكان مشهور باجابة الدعاء وقيل ان موسى عليه السلام ناجى

Digitized by Google

وأعاد حفر ترعة الاسكندرية (١) ورمم مقياس النيل (٢) فى الروضة وغير ذلك وكان أحمد بن طولون حازما سديد الرأى صحيح الظن صاحب تدبير وحسن سياسة قال ابن خلكان انه كان حسن الصوت فى القرآن حافظا له ومع ذلك كان طائش السيف سفاكا للدماء يقال انه أحصى من قتله ابن طولون صبرا ومن مات فى حبسه فبلغ ١٨٠٠٠ قال ابن وصيف شاه لما توفى الامير أحمد بن طولون خلف من الاولاد ٣٣ ولدا منهم ١٧ ذكور وباقى ذلك اناث وخلف من الذهب العين عشرة آلاف ألف ألف دينار وخلف من المماليك المشتروات سبعة آلاف مملوك ومن العبيد السود أربعة وعشرين ألف عبد وخلف من الخيول سبعة آلاف فرس ومن البغال والحمير ستة آلاف رأس وخلف من الجمال عشرة آلاف جمل ومن المراكب الحربية والشوانى ألف مركب وغير ذلك اهـ وولى بعده ابنه خمارويه

ربه عليه بكلمات وذكر المقريزى أيضا أن الامير أبا العباس أحمد بن طولون شرع فى بنائه سنة ٢٦٣ وفرغ منه فى رمضان سنة ٢٦٥ فجاء من أحسن الجوامع وأبهجها وعمل فى مؤخره ميضاة وخزانة شراب فيها جميع الشرابات والادوية وبلغت نفقة بنائه مائة وعشرين ألف دينار وقد بقى هذا الجامع عامرا مع ما حوله الى زمن المستنصر الفاطمى ثم خربت القطائع والعسكر وفارق الناس هذه الجهة وخرب الجامع وما حوله وصارت المغاربة تنزل فيه بأباعرها عند ما تمر بمصر أيام الحج ولا تزال منه بقية عظيمة للآن

(١) ذكر استرابون هذا الخليج وقال انه كان على يمين الخارج من باب قانوب وكان يتصل بالنهر الاكبر وقبل ان يصل الى المدينة قانوب يصل الى ناحية بلوزه وهو محل قريب من الاسكندرية والى نيكوبوليس الواقعة على شاطئ الخليج المذكور وقال المرحوم على باشا مبارك فى الخطط ان خليج الاسكندرية كان محاذيا للسور المدينة القبلى على بعد ٣٠٠ متر منه وفمه الآن يجرى شرقى فم المحمودية بقدر ١٠٠٠ متر وكان من داخل المدينة معقودا غير مكشوف وترعة المحمودية التى حفرها العزيز محمد على باشا سنة ١٨٢٠ م كلها محل الخليج ما عدا الفم فانه فى المينا وهو بعض تعديلات جليلة وكان على الخليج القديم ثلاث قناطر بين الحفرة والبلد وعند حفر المحمودية تهدمت وقال بعض المؤرخين انه فى سنة ٢٦٠ هـ أعاد أحمد بن طولون حفر خليج الاسكندرية وكان قد سدته الرمال المحمولة اليه وذكر المقريزى انه فى سنة ٧١٠ هـ فى زمن السلطان الناصر محمد بن قلاون اشتغل ٤٠٠٠٠ عامل فى تطهير خليج الاسكندرية وبعد تطهيره قيس فوجد ٨٠٠٠٠ قصبة حاكمية من ابتداء فم النيل الى مشتيار ومن مشتيار الى الاسكندرية كذلك وكانت قرية مشتيار قديما مبدأ خروج الخليج من النيل

(٢) أجمع المؤرخون على ان قدماء المصريين كانوا يقيسون النيل عند فيضانه بمقياس غير ثابت لتقرير الخراج وكان هذا المقياس خشبة أو قصبة مقسومة الى أقسام معلومة فى طرفها حلقة وسمى المؤرخون هذا المقياس باسم نيلومتر أو نيلوأسكوب ولاعتنائهم بذلك كانت آلة المقياس تودع فى معبد له يسمونه سيرابيس ومعناه قياس النيل وذكر هيرودوت تلك المقاييس وأنها كانت متعددة منها فى منف ومنها فى طيبة وروى ان عمودا كان أقيم فى جهة جزيرة الدالتا وهى روضة البحرين لقياس النيل عند الفيضان وذهب البعض الى انه هو المقياس الموجود الآن وبنى الفرس فى حكمهم مقاييس جديدة وعمروا بعض القديم منها واعتنى البطالسة بذلك أيضا وحافظوا على القديم منها وأنشؤا مقياسا جديدا فى أرمنت المسماة فى زمنهم هيرمونتيس وآخر فى اسوان قرب معبد كنوفيس وفى زمن الرومان كانوا يقيسون فيضان النيل بمقياس منف ولما دخلت مصر فى قبضة الاسلام بنى عمرو بن العاص ثلاثة مقاييس الاول فى أسوان والثانى فى دندرة والثالث فى حلوان بأمر سيدنا عمر لترتيب الخراج وفى زمن المأمون أنشؤا مقياسين أحدهما بمحل يعرف باسم حورات والثانى باخميم وبقى المقياس بهما الى ان عمل مقياس الروضة بأمر المتوكل على الله وذكر ابن خلكان أن الذى وضع مقياس الروضة هو أحمد بن محمد الحاسب القرصانى بأمر المتوكل وبقى هذا المقياس الى يومنا هذا وفى زمن المرحوم الخديو اسماعيل باشا جدد مقياس جزيرة أسوان بمعرفة المرحوم محمود باشا الفلكى وجعل طول الذراع فيه ٥٤ سنتيمترا كما فى مقياس الروضة والتحاريق فيه على ذراع منه وغاية الزيادة ١٧ ذراعا فالزيادة الحقيقية فيه ١٦ ذراعا وفى مقياس الروضة ١٤ ذراعا

Digitized by Google

ابو الجيش خمارويه (٢٧٠ - ٢٨٢) - بويع له بعد وفاة أبيه وامتنع أخوه العباس من مبايعته فقتله فى السجن وبعث جيشا الى الشام تحت قيادة أبى عبد الله الواسطى وجيشا آخر تحت قيادة الايسر أو الاعسر وبعث مراكب حربية فى البحر تقيم على السواحل الشامية وأرسل الخليفة الموفق العباسى ابنه أحمد فى أربعة آلاف مقاتل ومعه اسحق بن كنداج ومحمد بن اسحق ابن أبى الساج فاستولى على قنسرين والعواصم وحارب أصحاب خمارويه فهزمهم فخرج خمارويه من مصر فى ٧٠ ألف مقاتل (٢٧١ ھ) والتقى بأحمد عند نهر أبى فطرس [1] وحاربه فانهزم خمارويه واستولى على عسكره فأتى سعد الايسر وحارب أحمد فهزمه ومضى الى دمشق فلم تفتح له وكان قد طمع فى البلاد الشامية واستخف بخمارويه ثم استولى على دمشق وكان خمارويه قد وصل الى مصر ولم يعلم بما فعل سعد فلما بلغه الخبر خرج ثانية الى الشام فلما كان بفلسطين عرضت له أمور اضطرته الى الرجوع فرجع الى مصر (٢٧٢ ھ) ثم خرج ثانية الى الشام وكان سعد قد خرج عن طاعته فقاتله وهزمه ثم ظفر به فقتله واستولى على دمشق (٢٧٣ ھ) ثم سار لقتال ابن كنداج فكانت الهزيمة أولا على خمارويه فانهزم جميع أصحابه وبقى هو ثابتا فى نفر قليل وشدد فى قتال ابن كنداج حتى هزمه واتبعه بأصحابه حتى وصلت عساكره الى سر من رأى بالعراق فعظم أمر خمارويه بهذه الواقعة وهابه الناس فكتب الى الموفق بالصلح فأجابه وكتب له بولايته على الشام ومصر والثغور ثلاثين سنة فسر بذلك وعاد الى مصر ودعا للموفق على المنابر بعد ان كان يدعو عليه وسكنت الفتن وأخذ فى اصلاح شأن ممالكه وثار أبو الساج داود بن دوست أحد عمال بنى الصفار فهزمه بعد حروب يطول شرحها وأسر من أتباعه وغنم (٢٧٦ ھ) وبعد سنة خرج الى الشام للنظر فى أحوالها وبعد عودته الى مصر بلغه وفاة الموفق (٢٧٨ ھ) ثم موت أخيه المعتمد (٢٧٩ ھ) ومبايعة المعتضد وهو أحمد بن الموفق فبعث خمارويه اليه بهدايا نفيسة وسأله ان يزوج ابنته قطر الندى من ولده المكتفى فقال المعتضد بل أنا أتزوجها فزفت اليه (٢٨١ ھ) وضربت بجهازها الامثال وبنى لها والدها على رأس كل منزلة تنزل فيها من مصر الى بغداد قصرا مفروشا بأفخر الرياش ووصلت بغداد فى أول محرم سنة ٢٨٢ وهى السنة التى قتل فيها خمارويه لانه لما جهز ابنته الى الخليفة وسيرها خرج بعساكره الى الشام ودخل دمشق فقتل بها فى ذى الحجة سنة ٢٨٢ وقيل فى سبب قتله انه كان كثير الفساد بالغلمان حتى انه يوما ظهر منه ذلك علانية فى الحمام فأنف الخدم من ذلك وكرهوه فاغتنموا الفرصة وذبحوه وقيل كان بعض خدمه يهوى جارية من جواريه فتهددها خمارويه بالقتل فاتفقت مع الخادم على ذبحه وقيل قتل على فراشه وغير ذلك فحمل فى صندوق الى مصر وصلى عليه ابنه جيش وكان لدخول تابوته مصر يوم عظيم وهول جسيم استقبلته جواريه وجوارى غلمانه ونساء قواده بالصياح وحل الغلمان أقبيتهم وسود بعضهم ثيابه وبعضهم شقها وكان منظرا يفتت الاكباد

جيش بن خمارويه (٢٨٢ - ٢٨٣ ھ) - لما قتل خمارويه اجتمع القواد صبيحة يوم قتله وأجلسوا جيشا على كرسى سلطانه فأفاض العطاء فيهم وسيق الخدم الذين تولوا قتل خمارويه

(١) نهر قرب الرملة مخرجه من جبل قرب نابلس

Digitized by Google

فقتل منهم نيفا وعشرين ولما ولي جيش كان صبيا غرا فعكف على لذاته وقرب الاحداث والسفلة وتنكر لكبار الدولة وبسط فيهم القول وصرح لهم بالوعيد فبسط القواد ألسنتهم فيه وشكا بعضهم الى بعض فعزموا على الفتك به وبلغه الخبر فلم يتلاف الامر ولا شاور من له اصابة رأي بل توعدهم جهارا فلما علموا ذلك اعتزل من عسكره أكابرهم وخرجوا في خاصة غلمانهم وساروا الى المعتضد العباسي فأكرمهم أحسن اكرام وخلع عليهم ورحب بهم واستمر جيش على حاله مع بطانته وكان طغج ابن جف مولى خمارويه من كبار الدولة وكان عاملا لهم على دمشق فخرج عليه وخلع طاعته وخرج ابن طغان أمير الثغور أيضا وأسقطا اسمه من الدعوة والخطبة على منابر أعمالهم فلما رأى بقية غلمان أبيه هذا التغاضي والغفلة تشاوروا فيما بينهم على خلعه ثم وثبوا بجيش فقتلوه ونهبوا داره ونهبوا مصر وأحرقوها وبايعوا الاخيه هرون وذلك لتسعة أشهر من ولايته (٢٨٣ هـ)

هرون بن خمارويه (٢٨٣ - ٢٩٢ هـ) - بعد قتل جيش أقعدوا أخاه هرون وفي سنة ٢٨٢ هـ اختل حال هرون بن خمارويه بمصر واختلف القواد عليه وانحل نظام مملكته فقام المعتضد يريد الاستيلاء على مصر فسار الى آمد (١) (٢٨٥ هـ) فافتتحها بالامان وكان صاحبها محمد بن أحمد بن عيسى بن الشيخ ثم سار المعتضد الى قنسرين فتسلمها وتسلم العواصم من نواب هرون بن خمارويه ويقال ان هرون قد كان سأل المعتضد أن يتسلم هذه البلاد منه وكانت وفاة المعتضد سنة ٢٨٩ هـ وخلفه المكتفي بالله الذي بعد أن هزم القرامطة (٢٩١ هـ) عزم على فتح مصر فبعث سنة ٢٩٢ هـ جيشا مع قائده محمد بن سليمان فاستولى على دمشق وسار حتى دنا من مصر فاستعد هارون للمدافعة الا أن غالب قواده غدروا به ولحقوا بعسكر الخليفة فخرج هرون فيمن بقي معه وجرى بينه وبين محمد بن سليمان وقعات ثم وقع في عسكر هرون خصومة أدت الى القتال فركب هرون ليسكن الفتنة فطعنه جندي من المغاربة برمح فقتله ولما قتل قام عمه شيبان بالامر ثم طلب الامان من محمد بن سليمان فأمنه ثم هرب شيبان تحت الليل فلم يوجد واستولى محمد بن سليمان على مصر وأمسك بني طولون وكانوا بضعة عشر رجلا واستصفى مالهم وقيدهم وحملهم الى بغداد وكتب الى المكتفي بالفتح وكان ذلك سنة ٢٥٢ هـ وهكذا انقرضت الدولة الطولونية بعد أن تملكت نحو ٣٨ سنة

عمال الدولة العباسية (٢٩٢ - ٣٢٣ هـ) - لما عزم محمد بن سليمان على الرجوع الى بغداد وكان المكتفي قد ولاه عليها ولى المكتفي مكانه عيسى بن محمد النوشري وقدم في منتصف سنة ٢٩٢ هـ وفي أول مدته خرج عليه أحد قواد بني طولون ويدعى ابراهيم الخليجي وكثرت جموعه وزحف الى مصر فخرج النوشري هاربا الى الاسكندرية وملك الخليجي مصر وبعث المكتفي العسكر مع فاتك مولى أبيه المعتضد وبدر الحمامي وعلى مقدمتهم أحمد بن كيغلغ فلقيهم الخليجي على العريش (٢٩٣ هـ) وهزمهم ثم تراجعوا وزحفوا اليه وكانت بينهم حروب تمت بظفر عسكر بغداد ودخلوا مصر وقبضوا على الخليجي وحبسوه وبعث الى بغداد حسب أمر الخليفة ورجع عيسى النوشري الى مصر في نصف سنة ٢٩٣ هـ وبقي بها الى أن توفي (٢٩٧ هـ) وقام بأمره ابنه محمد وولي

(١) مدينة قديمة بين النهرين يسميها الاتراك آميد وقره آمد لسواد حجارتها وهي مدينة ديار بكر

المقتدر

المقتدر على مصر أبا منصور تكين الخزرى وفى خلالها استفحلت دولة العلويين بالمغرب وجهز عبيد الله المهدى العساكر مع ابنه أبى القاسم (٣٠١ هـ) فملك برقة ثم سار الى مصر وملك الاسكندرية والفيوم وبلغ الخبر الى المقتدر فقلد ابنه أبا العباس مصر والمغرب وعمره يومئذ أربع سنين وهو الذى ولى الخلافة بعد ذلك ولقب الراضى ولما قلده مصر استخلف له عليها مؤنسا الخادم وبعثه فى العساكر الى مصر وحارب جنود عبيد الله حتى أرجعهم الى المغرب ثم أرسل عبيد الله العساكر ثانية سنة ٣٠٢ هـ مع قائده حامسة أو حباسة الكتامى وجاء فى أسطول فملك الاسكندرية وسار منها الى مصر وجاء مؤنس الخادم فى عساكر الخليفة فقاتله وهزمه فى أربع وقعات فاضطر حامسة أن يعود الى المغرب فقتله المهدى وعاد مؤنس الى بغداد وكان تكين الخزرى لم يزل واليا على مصر الى أن صرف عنها سنة ٣٠٣ هـ وولى مكانه ذكاء أبا الحسن الاعور ثم صرف المقتدر ذكاء سنة ٣٠٧ هـ وولى مكانه أبا منصور تكين الخزرى وكان عبيد الله المهدى قد جهز العساكر مع ابنه أبى القاسم بقصد الاستيلاء على بلاد مصر فملك الاسكندرية (٣٠٧ هـ) وسار الى مصر وملك الجزيرة والاشمونين من الصعيد وما اليه وكتب أهل مكة بطاعته فبعث المقتدر من بغداد مؤنسا الخادم بالجيش فحارب أبا القاسم فى عدة وقعات وجاء الاسطول من افريقية الى الاسكندرية فى ثمانين مركبا مددا لابى القاسم وعليه سليمان الخادم ويعقوب الكتامى فسار اليهم الاسطول من طرسوس فى خمسة وعشرين مركبا وفيها النفط والمدد وعليها أبو اليمن فالتقت العساكر فى الاساطيل بمرسى رشيد فظفر اسطول طرسوس باسطول افريقية وأسر كثيرا من جنوده منهم سليمان الخادم ويعقوب الكتامى أما سليمان فهلك فى محبسه بمصر وحمل يعقوب الكتامى الى بغداد فهرب منها الى افريقية واتصل الحرب بين أبى القاسم ومؤنس وكان الظفر لمؤنس ووقع الغلاء والوباء فى عسكر أبى القاسم ففنى كثير منهم بالموت فعاد الى المغرب بمن بقى من جيشه ورجع مؤنس الى بغداد ظافرا ثم صرف تكين عن مصر سنة ٣٠٩ هـ وولى المقتدر أحمد بن كيغلغ وصرف من عامه وأعيد تكين المرة الثالثة سنة ٣١٢ هـ وأقام واليا الى أن مات سنة ٣٢١ هـ وفى أيامه جدد المقتدر عهده لابنه أبى العباس على بلاد المغرب ومصر والشام واستخلف له مؤنسا (٣١٨ هـ) وولى مكان تكين ابنه محمد وبعث له القاهر بالخلع وثار به الجند فظفر بهم ثم صرف وولى أبو بكر محمد بن طغج الملقب بالاخشيد ثم صرف من عامه وأعيد أحمد بن كيغلغ ثم صرف سنة ٣٢٣ هـ وأعيد محمد بن طغج الاخشيد ثانية

استطراد مهم — كان العرب فى الجيل الثالث الهجرى المذكور متقدمين فى الاسفار البحرية وكانت سفنهم تمخر الى أقصى بلاد الهند والصين وجزائرهما ومدوا تجارتهم الى معظم بلادها وصنف علماؤهم عنها المؤلفات العديدة شرحوا فيها ما اكتشفوه من البلدان والاصقاع وما شاهدوه ولاحظوه من عجائب تلك الديار والبحار وروى أبو زيد الحسن وسليمان التاجر مصنفا سلسلة التواريخ المطبوع بباريس سنة ١٨١١ م كثيرا من أخبارهم اقتطفنا بعضها لتمام الفائدة ذكرا أنه فى سنة سبع وثلاثين ومائتين كانت أمور البحرية مستقيمة لكثرة اختلاف التجار اليها من العراق والبحرين وعمان وغيرها الى بلاد الصين يحملون منها على سفنهم الحرير والاقطان وغيرها الى

بلاد العرب وزار ابن وهب فى أحد أسفاره ملك تلك البلاد فأطلعه على كثير من عجائبها منها درج فيه صور الانبياء فلما رآها حرك شفتيه بالصلاة عليهم فسأله الملك عنهم فقال انهم الانبياء فقال من أين عرفتهم فقال مما صور فى أمرهم هذا نوح فى السفينة ينجو بمن معه لما أمر الله جل ذكره الماء فغمر الارض كلها بمن فيها وسلمه ومن معه فضحك الملك وقال أما نوح فقد صدقت فى تسميته وأما غرق الارض كلها فلا نعرفه وانما أخذ الطوفان قطعة من الارض (١) اهـ وورد فى الكتاب المذكور أيضا ان مما حدث فى زماننا هذا ولم يعرفه من تقدمنا أن البحر الذى عليه بحر الصين والهند يتصل ببحر الشام ولا يقوم فى أنفسهم ذلك حتى وجد فى بحر الروم خشب مراكب العرب المخرزة التى قد تكسرت بأهلها فقطعها الموج وساقتها الرياح بأمواج البحر فقذفت الى بحر الخزر ثم جرى فى خليج الروم ونفذ منه إلى بحر الشام وأن الخشب المخرز لا يكون الا لمراكب سيراف خاصة ومراكب الشام والروم مسمورة غير مخروزة وقالا أيضا وكانت مراكب أهل سيراف اذا وصلت من بحر الهند الى جدة أقامت بها ونقل ما فيها من الامتعة التى تحمل الى مصر فى مراكب القلزم اذ كان لا يتهيأ لمراكب السيرافيين سلوك ذلك البحر لصعوبته وكثرة جباله النابتة فيه وأنه لا ملوك فى شئ من سواحله ولا عمارة وأن المركب اذا سلكه احتاج فى كل ليلة الى أن يطلب موضعا يستكن فيه خوفا من جباله فيسير النهار ويقيم الليل وهو بحر مظلم كريه الروائح لا خير فى بطنه ولا ظهره وليس كبحر الهند والصين الذى فى بطنه اللؤلؤ والعنبر وفى جباله الجوهر ومعادن الذهب وذكر فى كتاب عجائب الهند بره وبحره وجزائره تأليف بزرك بن شهريار الناخذاه الهرمزى المطبوع فى أوروبا كثير من أخبار تلك الاسفار لخصنا منها ما يأتى وهو أن أهالى سيراف والبحرين وعمان اشتهروا بأمر سلوك البحر ونبغ من بينهم جملة من الربابين مثل أبى الحسن محمد بن أحمد بن عمر السيرافى وأبى الزهر البرختى الناخذاه والحسن بن عمر واسماعيل بن ابراهيم بن حرواس الناخذاه الذى كان من بقية نواخذة بلاد الذهب وعرف باسمعيلويه وعبهرة الربان الكرمانى ومحمد بن بابشاد وعمران الاعرج الربان الشهير وغيرهم ممن سافروا الاسفار الطويلة فى بحر فارس والهند والصين والقلزم فى أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجرى وساحوا السياحات المشهورة وكشفوا كثيرا من البلاد المجهولة وشاهدوا كثيرا من عجائب وغرائب تلك البلاد وبحارها مثل حيتان وأسماك هائلة القدر غريبة الشكل نادرة الوجود وطيورا كبيرة الجثم تشبه الوحوش الضارية اذا حطت على بلاد أخربتها وقرودا تقرب فى خلقتها وجوهها لبنى آدم وأفيالا مستأنسة تشترى وتبيع وغير ذلك مما يطول شرحه وحصره وورد فى هذا الكتاب أيضا أوصاف الزوابع والفراتين التى

(١) قد تضاربت أقوال العلماء فى أمر طوفان نوح عليه السلام فذهب علماء الاديان انه حصل فى سنة ٢٢٤٢ من خلقة آدم عليه السلام وانه كان عاما وأغرق كل الدنيا كما ذكرناه فى قصة الطوفان بالجزء الاول وأنكر ذلك الصينيون وتباينت فيه أقوال الهنود والفرس والعبرانيين وذهب آخرون الى انه موضعى وأنه أغرق البلاد والامم التى كان بها نوح عليه السلام فقط وأبدوا أقوالهم بروايات اعتمدوها وقال بيروز (Berose) المؤرخ الكلدانى فى تاريخه الذى ألفه فى القرن الرابع قبل الميلاد انه حصل قبل طوفان نوح عليه السلام طوفان فى عصر أنوش بن شيث وأتلف تلك المعمورة وقال غير بيان اليونان يذكرون حدوث طوفانين فى بلادهم أحدهما يسمونه دوكاليون (Deucalion) أغرق تساليا سنة ١٦٢٠ ق م والثانى يسمونه بطوفان أوجيجس (Ogygès) أغرق بوسيه وأتيكه سنة ١٨٢٠ ق م وغير ذلك من الحوادث

Digitized by Google

صادفوها أثناء أسفارهم المذكورة ويسمونها الحب وكانت اذا وقعت عليهم يطرحون قسما من حمولة سفنهم الى البحر منعا للغرق وكان متوسط طول سفنهم خمسين ذراعا بذراع العمل من شعر الابط الى طرف الاصبع الوسطى وكانوا يسمون مديرى السفن بالربابين ورؤساءها نواخذة وهى كلمة فارسية مفردها ناخذاه أى قبودان المركب ويسمون الدلاء أو القلاوزة عرافين وكانوا يسمون الهلب أو الخطاف أنجر وكان له عندهم أربعة قرون ويصنعونه من أوزان مختلفة متوسطها ٦٠٠ من والمن كما فى القاموس رطلان ويربطونه بحبال ضخمة وكان العرافون هم الذين يشبكونه فى الصخور المعروفة عندهم تحت الماء عند رسيان سفنهم التى كان لها أسماء مختلفة كالصندل والسنبوك والقطيرة وغيرها

﴿ الفصل العاشر ﴾

﴿ الدولة الاخشيدية ﴾

٣٢٣ - ٣٥٨ هـ

أصل هذه الدولة من أولاد ملوك فرغانة كان جدهم يدعى جف قدم بغداد فى أيام المعتصم العباسى فأقطعه اقطاعا بسرمن رأى عرف به وتوفى ببغداد سنة ٢٤٧ هـ وخرج أولاده الى البلاد يتصرفون ويطلبون المعيشة فاتصل أحدهم ويسمى طغج بلؤلؤ غلام أحمد بن طولون بمصر فاستخدمه على ديار مصر ثم انحاز الى اسحق بن كنداج فلم يزل معه ثم أخذه خمار ويه من اسحق وقدمه على جميع من معه وقلده دمشق وطبرية ولم يزل معه الى أن قتل خمارويه فرجع طغج الى الخليفة المكتفى فخلع عليه وكان الوزير حينئذ العباس بن الحسن فطلب من طغج أن يجرى معه مجرى التذلل كغيره فكبرت نفسه عن ذلك فأغرى به المكتفى فحبسه هو وابنه محمدا فتوفى طغج فى السجن وبقى محمد محبوسا ثم أطلق وخلع عليه ولم يزل يرصد العباس بن الحسن حتى أخذ بثأر أبيه وأخيه عبيد الله ثم خرج هاربا الى الشام سنة ٢٩٦ هـ وأقام متغربا بالبادية سنة ثم اتصل بابى منصور تكين الخزرى فكان أكبر أركانه وبقى من ضمن قواده الى سنة ٣١٦ هـ ثم فارق تكين لسبب وسار الى الرملة فولاه اياها المقتدر فاقام فيها الى سنة ٣١٨ فكتب اليه المقتدر بولاية دمشق فسار اليها ولم يزل بها الى أن ولاه القاهر بالله ولاية مصر (٣٢١ هـ) بعد موت تكين ثم صرف عنها وعاد الى دمشق وولى بعده مصر أحمد بن كيغلغ كما تقدم ثم أعيد اليها محمد بن طغج الاخشيد ثانية كما تقدم وأما أمراء هذه الدولة فهم على الترتيب الآتى

محمد بن طغج بن جف (٣٢٣ - ٣٣٤ هـ) - لما ولى مصر فى المرة الثانية ضم اليه الخليفة البلاد الشامية والجزيرة والحرمين وغير ذلك وقيل كان على مصر فقط كل أيام الراضى والذى ضم اليه ما ذكر من البلاد المتقى أخو الراضى وأقر على شرطته بمصر سعيد بن عثمان ثم وردت عليه الخلع من الراضى فلبسها ورسم الراضى بأن يزاد فى ألقابه الاخشيد (٣٢٧ هـ) وثار على الاخشيد فى أول أمره عيسى بن أحمد السلمى أبو مالك كبير المغاربة وآخرون فبعث عليه الاخشيد صاعد ابن الكلكم فى سفنه فقاتله الثوار وقتلوه وأخذوا سفنه وركب فيها منهم على بن بدر ويحكم وقدموا

Digitized by Google

مدينة مصر فأرسوا بجزيرة الصناعة وركب الاخشيد في جيشه ووقف حيالهم والنيل بينهم وبينه فكره الاخشيد ذلك وقال صناعة يحول بينها وبين صاحبها الماء ليست بشيء ومن وقتئذ أخذ في تحويل الصناعة من موضعها بالجزيرة الى دار خديجة بنت الفتح (٣٢٥ هـ) بساحل مصر القديمة وعندما ابتدأ في انشاء المراكب الحربية بها صاحت به امرأة فأمر بأخذها اليه فسألته أن يبعث معها من يحمل المال فسير معها طائفة فأتت بهم الى دار خديجة هذه ودلتهم على موضع منها فأخرجوا منه عينا وورقا وحليا وغيره وطلبت المرأة فلم توجد ولا عرف لها خبر وبعد ذلك أبطل الاخشيد صناعة الجزيرة وجعل موضعها بستانا يعرف بالمختار ثم وقع بين أصحاب أحمد بن كيغلغ فتنة أدت الى القتال فتحاربوا وانكسر أصحاب ابن كيغلغ وخرجوا من مصر على أقبح وجه واتصلوا بالقائم بأمر الله العلوي صاحب المغرب وحرضوه على أخذ مصر وهونوا عليه أمرها وكان في نفسه شيء من ذلك فجهز اليها الجيوش وبلغ الاخشيد ذلك فجمع العساكر وتهيأ للقتال وبينما هو كذلك اذ ورد عليه كتاب بخروج محمد بن رائق ومجيئه الى مكان يسمى الشامات فعرض عساكره وجهز جيشا في المراكب لقتال ابن رائق ثم خرج بنفسه (٣٢٨ هـ) واستخلف على مصر أخاه الحسين فوصل الاخشيد الى الفرما وكان ابن رائق بالقرب منه فسعى بينهما الحسن بن طاهر العلوي في الصلح فاصطلحا وعاد الاخشيد الى مصر فنقض ابن رائق الصلح فجهز الاخشيد جيوشه وخرج فالتقيا بالعريش فكانت بينهما وقعة عظيمة انكسرت فيها ميمنة الاخشيد وثبت هو في القلب ثم حمل بنفسه على أصحاب ابن رائق فأسر كثيرا منهم وأمعن في قتلهم وقتل أخوه الحسين وافترق العسكران ومضى ابن رائق نحو الشام وعاد الاخشيد الى الرملة بخمسمائة أسير وكان قتل أخي الاخشيد عز على محمد بن رائق فحنط جثته وكفنها وأنفذها مع ابنه مزاحم الى الاخشيد وكتب معه كتابا يعزيه فيه ويعتذر اليه ويحلف له انه ما أراد قتله وانه أرسل ابنه مزاحما اليه ليفتديه بالحسين ان أراد فاستعاذ الاخشيد بالله من ذلك واستقبل مزاحما بالرحب والقبول وخلع عليه وعامله بكل جميل ورده الى والده فكان ذلك سبب الصلح بينهما على أن يفرج ابن رائق عن الرملة ويحمل اليه الاخشيد عنها في كل سنة ١٤٠,٠٠٠ دينار ويكون باقي الشام في يد ابن رائق وان كلا منهما يطلق أسرى الآخر فتم ذلك وعاد الاخشيد الى مصر (٣٢٩ هـ) وعاد ابن رائق الى دمشق وفيها مات الخليفة الراضي وبويع أخوه المتقي فأقر الاخشيد على عمله بمصر فاستمر الاخشيد بمصر الى أن قتل ابن رائق في واقعة بينه وبين بني حمدان بالموصل (٣٣٠ هـ) فجهز الاخشيد جيوشه الى الشام ثم سار بنفسه في السنة المذكورة فدخل دمشق وأصلح أمورها وعاد الى مصر (٣٣١ هـ) وأخذ البيعة على المصريين لابنه أبي القاسم انوجور وحصلت في سنة ٣٣٣ هـ محاربات بين سيف الدولة بن حمدان وجيوش كافور قائد عسكر الاخشيد وانهزم كافور وملك سيف الدولة حمص وحاول الاستيلاء على دمشق وفي خلال ذلك خرج الاخشيد الى الشام وبعد وقائع عقد اتفاقا بينه وبين سيف الدولة عينت فيها حدود المملكتين وتأيدت بزواج سيف الدولة بابنة الاخشيد وفي هذه السنة خلع الخليفة المتقي العباسي وبويع المستكفي وفي سنة ٣٣٤ هـ خلع المستكفي وبويع المطيع لله وأقر الاخشيد على أعماله بمصر والشام وفي هذه السنة أيضا مرض الاخشيد بدمشق ومات ودفن في القدس وكان رحمه الله ملكا حازما حسن التدبير عارفا بأساليب الحرب يقظا في مصالح دولته مكرما

Digitized by Google

لجنده بلغت عدة مماليكه ثمانية آلاف مملوك وعدة جيوشه ٤٠٠,٠٠٠ وكان حريصا على نفسه يحرسه كل ليلة ألف مملوك ويضع الخدم بجوانب خيمته وولى مكانه ابنه أبو القاسم أنوجور

ابو القاسم انوجور محمد (٣٣٤ - ٣٤٩ ﻫ) - قال الذهبي فى العبر أنوجور معناه بالعربية محمود مقامه ولى وهو صغير فأقيم كافور الاخشيد الخادم الاسود أتابكا له فكان يدبر المملكة نيابة عن ابن سيده ولما بلغ سيف الدولة خبر موت الاخشيد لم يعمل بالمعاهدة التى بينه وبين مصر وسار بجيوشه الى دمشق واستولى عليها فلما علم كافور بذلك سار بالجيش ومعه أنوجور وتحارب الجيشان فى الرملة فانهزم سيف الدولة الى الرقة وأعاد كافور دمشق الى مصر وفى سنة ٣٤٥ ﻫ أغار ملك النوبة على مصر العليا فبعث كافور جيشا مع القائد محمد بن عبد الله الخازن من طريق البر وأنفذ أسطولا فى بحر النيل وآخر فى البحر الاحمر فنزل على الساحل من وراء النوبة لقطع خط رجعتهم فتضايق النوبيون وهربوا فاستولى المصريون على حصن ابريم ثم علت سن أبى القاسم أنوجور ورام الاستبداد بأمره وازالة كافور فلما شعر كافور بذلك قتله فيما قيل مسموما (٣٤٩ ﻫ) بعد أن حكم ١٤ سنة وتولى مكانه أخوه أبو الحسن

ابو الحسن على (٣٤٩ - ٣٥٥ ﻫ) - بويع له وكان كافور يدبر كل أعمال المملكة كما كان قائما عليها مدة أخيه أنوجور وفى سنة ٣٥١ حصل بمصر قحط لعدم وفاء النيل وتعاقب ذلك تسع سنوات واضطربت الاسكندرية وجهات البحيرة بسبب المغاربة الواردين اليها وفسد ما بين كافور وما بين على بن الاخشيد فمنع كافور من الاجتماع به واعتل على وفى خلال ذلك الاضطراب الداخلى زحف الروم تحت قيادة الامبراطور نيسوفورس فوكاس المعروف بنقفور (Nicéphore II Phocas) (٣٥٤ ﻫ - ٩٦٥ م) واستولوا على مدينة حلب دون قلعتها وحاربوا سيف الدولة بن حمدان وهزموه وأسرع حاكم دمشق من قبل الاخشيديين لمساعدة ابن حمدان بعشرة آلاف مقاتل فرجع ملك الروم وكانت وفاة على بن الاخشيد سنة ٣٥٥ ﻫ فاستقرت المملكة باسم كافور وهو من موالى أبى بكر محمد بن طغج كما قلناه

كافور الاخشيد (٣٥٥ - ٣٥٧ ﻫ) - لما استبد كافور بالامر دون بنى الاخشيد طلب من الخليفة المطيع لله أن يقره على ما كان للاخشيديين فكتب له المطيع بعهده على مصر والشام والحرمين وكناه العالى بالله فلم يقبل الكنية تواضعا واستوزر أبا الفضل جعفر بن الفرات وهكذا عادت سلطة العباسيين الى مصر من وقتئذ وصار يدعى لكافور على المنابر وكان كافور من أعاظم الملوك جوادا ممدوحا كثير الخشية لله والخوف منه وكان يدارى المعز العبيدى صاحب المغرب ويهاديه كما يهادى صاحب بغداد وصاحب اليمن وكان يجلس للمظالم فى كل سبت الى أن هلك وكانت وفاته فى ١٠ جمادى الاولى سنة ٣٥٧ ﻫ

أبو الفوارس احمد بن على بن الاخشيد (٣٥٧ - ٣٦٢ ﻫ) - لما هلك كافور اجتمع أهل الدولة وولوا أبا الفوارس ولم يكن له من العمر أكثر من احدى عشرة سنة فلم يقره الخليفة العباسى فى الحكم وقام بتدبير أمره الحسن ابن عمه عبد الله بن طغج وتولى قيادة العساكر شمول مولى جده والاموال جعفر بن الفضل واستوزر كاتبه جابر الرياحى وفوض أمر مصر اليه وحصل

Digitized by Google

انقسام فى العائلة الاخشيدية وارتبكت أحوال الدولة من الفتن التى كان يرى منها قرب انقراض الدولة الاخشيدية وصاروا يستنجدون بالعبيديين أصحاب المغرب فكان ذلك حل منيتهم وفى سنة ٣٥٨ ﻫ بعث المعز لدين الله قائده جوهر الصقلى الكاتب الى مصر لما علم حالتها وجهزه بمائة ألف مقاتل فسار بهم جوهر من القيروان الى مصر مارا ببرقة وملك الاسكندرية ثم الجيزة ثم جاز الى مصر وحاصرها وبها أبو الفوارس الاخشيدى وأهل دولته ثم فتحها بلا قتال ولا مشقة فى السنة المذكورة وقتل أبا الفوارس وكل من خاف منه وبعث بالاموال والغنائم الى القيروان وأصحبها وفدا من علماء وقضاة مصر وانقرضت بذلك دولة بنى طغج المعروفة بالاخشيدية

﴿ الفصل الحادى عشر ﴾

بنى عبيد المعروفين بالدولة الفاطمية

(٣٦٢ — ٥٦٧ ﻫ)

قد سبق الكلام على أصل وابتداء هذه الدولة وكيفية تأسيسها بتاريخ تونس من بلاد المغرب فى الجزء الاول من هذا الكتاب ولذلك نقول انه بعد أن توطدت أركانها وآل أمرها الى الخليفة معدّ أبى تميم الملقب بالمعز لدين الله بن القائم بأمر الله ثالث خلفائها كان حكمها ممتدا على كثير من ولايات افريقية والمغرب وجزائر مالطة وسردينيا وصقلية وغيرها من جزائر البحر المتوسط الابيض وكانت أنظارها ترنو من أول ظهورها للاستيلاء على القطر المصرى مثل الدول الفاتحة فلهذا أرسلت عدة جيوش على مصر الا أنها لم تفز بمرامها كما مر بك وسبب ذلك قوة الدولة الاخشيدية الى أن أصاب هذه الدولة الضعف بتفرق كلمتها كما تقدم ولما علم المعز ذلك جرد جيشا وسيره مع القائد جوهر الصقلى من موالى أبيه فدخل مصر واستولى عليها كما تقدم بلا ضربة ولا طعنة ولا ممانعة (٣٥٨ ﻫ) وخطب فى جامع عمرو باسم المعز لدين الله وأزال الشعار الاسود العباسى وألبس الخطباء الثياب البيض فبايعه الناس وبعد قليل أصبحت جميع البلاد المصرية خاضعة للدولة الفاطمية ثم أمر جوهر المؤذنين بالجوامع أن يؤذنوا بحى على خير العمل كاذان الشيعة فشق ذلك على الناس وما استطاعوا له ردا وصبروا لحكم الله ثم شرع جوهر فى بناء مدينة القاهرة ويقال انها سميت القاهرة لالقاء أحجار أسسها عند توسط المريخ المعروف عند علماء الفلك باسم القاهر ودعيت الفسطاط من وقتئذ بمصر القديمة وحول الى القاهرة كرسى المملكة بعد أن كان بالقطائع ثم أمر ببناء الجامع الازهر (٣٥٩ ﻫ) وكان تمامه سنة ٣٦١ ﻫ وجعل به دار كتب عظيمة جمع فيها أشهر المؤلفات وخصص له الفقهاء والعلماء فى كل علم فكانت تدرس فيه جميع العلوم النقلية والعقلية وأخذت شهرته من أيام المعز تنتشر فى آفاق المشرق والمغرب وقصده الطلاب من سائر الاقطار الاسلامية لطلب العلم وصارت بذلك القاهرة مقر العلوم والمعارف وبنى أيضا قصرين جعلهما لاقامة المعز عند قدومه الى مصر وبنى حول المدينة سورا فيه أبواب ولم يزل بعض هذه الآثار باقيا الى الآن ثم بعث جوهر الى مولاه يخبره بما تم وفى تلك الاثناء سير جوهر جيشا مع جعفر بن فلاح الى الشام فبلغ الرملة وبها الحسن بن عبد الله بن طغج وغيره من بواقى الاخشيديين فحاربهم ودخل الرملة عنوة فاستباحها ثم سار الى طبرية فوجد أهلها قد أقاموا الدعوة للمعز قبل وصوله فقصد دمشق

Digitized by Google

فافتتحها عنوة وأقام بها الخطبة للمعز وكان بدمشق الشريف أبو القاسم بن يعلى الهاشمي وكان مطاعا فيهم فجمع الاوباش والزعار وثار بهم في الجمعة الثانية ولبس السواد وأعاد الخطبة للمطيع العباسي فقاتلهم جعفر بن فلاح أياما وولى عليهم الهزائم وعاثت جيوش المغاربة في أهل دمشق حتى أذعنوا للطاعة (٣٥٩ هـ) ثم قبض على الشريف أبي القاسم بن أبي يعلى المذكور أول سنة ٣٦٠ هـ وبعث به الى مصر واستقام ملك دمشق لجعفر بن فلاح ثم لما وصلت المعز هذه الاخبار اعتزم على المسير الى مصر وبعد أن مهد المغرب كما تقدم في الجزء الاول ارتحل عنه (٣٦١ هـ) وسار ومعه بلكين بن زيري خليفته على افريقية والمغرب قليلا ثم ودعه ورده الى عمله وسار هو الى طرابلس في عساكره وهرب بعضهم الى جبل نفوسه فامتنعوا به وسار الى برقة فقتل بها شاعره محمد بن هانئ الاندلسي ولم يعلم قاتله ثم وصل الاسكندرية في شعبان سنة ٣٦٢ هـ وتلقاه أعيان مصر بها فأكرمهم ووصلهم ثم سار الى مصر فدخلها في خامس رمضان فنزل بالقصرين ثم سار اليه الحسن ابن أحمد القرمطي في جيش كثيف وحصلت حروب هائلة بين القرامطة وجيش المعز بالقرب من عين شمس (المطرية) وضعف جيش المعز عن مقاومتهم فاستشار أهل الرأي من أصحابه فقالوا ليس حيلة غير السعي في تفريق كلمتهم فراسل حسان بن الجراح الطائي أحد رؤسائهم ووعده بمائة ألف دينار ان هو خذل بين الناس فأرسل اليه الدراهم في أكياس أكثرها زيف ضرب النحاس وألبسه الذهب وجعله من أسفل الاكياس ووضع في أعلى الاكياس الدنانير الخالصة وركب في أثرها بجيشه فالتقى الجيشان ونشبت الحرب وانهزم حسان بالعرب فضعف جانب القرمطي فكسره المعز وقبض على جماعة منهم يبلغ عددهم ١٥٠٠ وأمر بضرب أعناقهم واقتفوا أثرهم الى بلدهم الاحساء والقطيف ثم سير المعز الجيوش مع القائد ظالم بن موهوب العقيلي فاستولى على دمشق (٣٦٤ هـ) من أبي النجا وابنه صاحبي القرمطي وكان المعز من أول دخوله مصر مهتما بتنظيم أحوالها فأكثر من صناعة السفن الحربية فزادت قوته البحرية وحصن الثغور البحرية ثم عادت الفتنة في دمشق وأرسل المعز القائد ريان الخادم وكان بطرابلس الى دمشق للنظر في أحوالها وتعريفه بحقيقة أمرها وأمره أن يصرف القائد أبا محمود عنها ولما استفحل الامر بدمشق عزم على قتال الثوار بنفسه فعاجلته منيته في ربيع آخر سنة ٣٦٥ وكان عمره لما توفي ٤١ سنة وهو أول الفواطم بمصر وكان يحب العدل والانصاف بين الرعية غير أنه كان رافضيا يسب الصحابة قال المسبحي ان المعز كان يميل الى علم الفلك فأخبره جماعة من المنجمين بأن عليه قطعا شديدا في يوم كذا من شهر كذا وأشاروا عليه أن يختفي في سرداب تحت الارض فعمل سردابا واختفى فيه نحو أربعة أشهر وكان جنده المغاربة ظنوا أنه رفع الى السماء فكان الفارس منهم اذا نظر الى السحاب في السماء ينزل عن فرسه ويقول السلام عليك يا أمير المؤمنين فلم يزالوا على ذلك حتى ظهر اه وكان عزل جوهرا القائد عن دواوين مصر وجبايته أموالها وعين بدله يعقوب بن كلس

العزيز بالله أبو منصور نزار (٣٦٥ – ٣٨٦ هـ) – لما توفي المعز ولي ابنه نزار هذا وتلقب بالعزيز وكتم موت أبيه الى عيد النحر فصلى بالناس وخطبهم ودعا لنفسه وعزي بأبيه وأقر يعقوب بن كلس على الوزارة وكان يهودي الاصل وأسلم وجهز القائد جوهر القتال افتكين الذي ترأس على الاتراك بعد سبكتكين وقصد الاستيلاء على دمشق واستنجد بالقرامطة فلما اقتربوا ارتحل جوهر

Digitized by Google

الى مصر فتبعه افتكين والقرامطة وأعلم جوهر العزيز بالحالة فسار العزيز بنفسه الى الشام وحارب افتكين والقرامطة واستظهر عليهم وقتل وأسر منهم خلقا كثيرا وقبض أخيرا على افتكين وعفا عنه وأنعم عليه وصحبه الى مصر وبقى بها معظما الى أن مات فيها (٣٧٢ ﻫ) وظن العزيز أن يعقوب بن كلس دس السم لافتكين لسبب المناظرة التى كانت بينهما للتقرب من الخليفة فاعتقله مدة ثم أخلى سبيله وفى سنة ٣٨١ ﻫ حضر باسيليوس الثانى ملك الروم (Basile II.) بالجيوش الى حلب ولقى أبا الفضائل بن سعد الدولة ومولاه لؤلؤا وكانا استنجداه على جيوش العزيز فسار معهم وافتتح حمص وسيروز ونبهما ٩٩١ م وحاصر طرابلس أربعين يوما وبلغ الخبر الى العزيز فعظم عليه واستنفر الناس للجهاد وبرز من القاهرة لغزو الروم ونزل ببلبيس فاعتورته الامراض وكان العزيز مغرما بالاكثار من الاساطيل قال المسبحى ان العزيز بالله بن المعز هو الذى بنى دار الصناعة التى بالمقس وعمل المراكب التى لم ير مثلها فيما تقدم كبرا وثاقة وحسنا وقال فى حوادث سنة ٣٨٦ ووقعت نار فى الاسطول وقت صلاة الجمعة لست بقين من شهر ربيع الآخر فاحرقت خمس عشاريات وأتت على جميع ما فى الاسطول من العدة والسلاح حتى لم يبق منه غير ست مراكب فارغة لا شئ فيها فحمل البحريون السلاح واتهموا الروم النصارى وكانوا مقيمين بدار مانك بجوار الصناعة التى بالمقس وحملوا على الروم هم وجموع من العامة معهم فنهبوا أمتعة الروم وقتلوا منهم مائة رجل وسبعة رجال وأخذ من بقى فحبس بصناعة المقس ثم حضر عيسى بن نسطورس خليفة أمير المؤمنين العزيز بالله ومعه يانس الصقلبى وهو يومئذ خليفة العزيز على القاهرة عند مسيره الى الشام ومعهما مسعود الصقلبى متولى الشرطة وأحضروا الروم من الصناعة فاعترفوا بانهم هم الذين أحرقوا الاسطول فكتب بذلك الى العزيز وضربت أعناقهم كلهم وكانت وفاة العزيز بالله فى بلبيس يوم ٢٨ رمضان سنة ٣٨٦ ﻫ بمرض القولنج المزمن والحصاة وسنه ٤٢ سنة

الحاكم بأمر الله بن العزيز (٣٨٦ - ٤١١ ﻫ) - لما ولى الاحكام جعل برجوان الخادم مدبر الدولة له كما كان لابيه العزيز وأعطى أبا محمد الحسن بن عمار لقب أمين الدولة وكان بين الموالى والكتاميين فى الدولة منافسة كانت كثيرا ما تفضى الى القتال من ذلك أنهم اقتتلوا سنة ٣٨٧ ﻫ فاركب المغاربة ابن عمار والموالى برجوان وكانت بينهم حروب شديدة ثم تحاجزوا واعتزل ابن عمار الامور وتخلى بداره عن رسومه وجراياته وتقدم برجوان بتدبير الدولة وكان كاتبه ينظر فى الظلامات ويطالعه بها وولى على برقة يانس صاحب الشرطة مكان صندل ثم قتل برجوان (٣٨٩ ﻫ) ورجع التدبير الى القائد أبى عبد الله الحسن بن جوهر وفى سنة ٣٩٠ ﻫ فصل الحاكم طرابلس عن المنصور بن بلكين بن زيرى صاحب افريقية وولى عليها يانس العزيزى من موالى العزيز وكثر عبث الحاكم فى أهل دولته وقتله إياهم وقطعه أيديهم حتى ان كثيرا منهم كانوا يهربون من سطوته وآخرون يطلبون الامان فيكتب لهم به السجلات وكان حاله مضطربا فى الجور والعدل والاخافة والامن والنسك والبدعة وأمر بسب الصحابة وكتب سبهم على أبواب المساجد ثم منع سبهم ومحا الكتابة ومنع صلاة التراويح عشر سنين ثم أباحها ومن غرائبه انه أمر بغلق الاسواق نهارا وفتحها ليلا فامتثلوا ومن النوادر فى ذلك انه رأى يوما نجارا يشتغل بعد العصر فوقف عليه وقال له ألم أنهكم عن هذا فقال ياسيدى أما كان الناس يسهرون لما كانوا يتعيشون بالنهار فهذا من جملة

Digitized by Google

المهر فتبسم وتركه وأعاد الناس الى أمرهم الاول والحاصل أنه كان جبارا عنيدا وشيطانا مريدا لم يل مصر بعد فرعون أشر منه رام أن يدعي الربوبية كما ادعاها فرعون فأمر الناس اذا ذكر الخطيب اسمه على المنبر أن يقوموا اجلالا واحتراما لاسمه وقال الشيخ شمس الدين الذهبي في تاريخه كان جماعة من جهال العوام يسجدون له كلما رأوه وادعى أنه يعلم الغيب فكان يقول لامرائه ووزرائه ما كانوا يفعلونه في بيوتهم بواسطة نساء جعلهم لذلك فكن يدخلن البيوت ويطالعنه بأحوالها سرا وأتى من فظيع الاعمال أشياء كثيرة مثل سد باب الحمام على النساء حتى متن فيه وأمر بحرق الكروم ومنع الناس من بيع العسل الاسود ومن أكل الملوخية والقرع وما أشبه ذلك قال ابن خلدون أما ما رمي به من الكفر وصدور السجلات باسقاط الصلوات فغير صحيح ولا يقوله ذو عقل ولو صدر من الحاكم بعض ذلك لقتل لوقته وأما مذهبه في الرافضة فمعروف اه

وتوفي الحاكم بأمر الله قتيلا عند عين حلوان بمصر وكان يركب حمارا ويطوف بالليل ويخلو بدار في جبل المقطم للعبادة ويقال لاستنزال روحانية الكواكب فصعد ليلة من الليالي في شوال سنة ٤١١ وركب على عادته ومشى معه خادمان فردهما واحدا بعد آخر في تصاريف أموره ثم افتقد ولم يرجع وأقاموا أياما في انتظاره ثم خرج مظفر الصقلي والقاضي وبعض الخواص الى الجبل فوجدوا حماره مقطوع اليدين واتبعوا أثره الى بركة الحبش فوجدوا ثيابه مزررة وفيها عدة ضربات بالسكاكين فأيقنوا بقتله ويقال ان أخته هي التي عملت على قتله لأمر يعلمه الله وينسب الى الحاكم هذا بناء بعض أماكن وتكميل بعض جوامع بالقاهرة فمن ذلك الجامع المنسوب اليه وهو الذي أسسه أبوه العزيز خارج باب الفتوح ثم أكمله الحاكم (٤٠٣ ﻫ) ولما تم سنة ٤٠٤ حبس عليه عدة قياسر وأملاك وفي أيامه توفي الامير جوهر الشهير فاتح مصر ووجدوا له من الاموال ما لا يحصى ولما اختفى الحاكم بأمر الله قام رجل يدعى حمزة (١) بن أحمد وكان وزيرا للحاكم وأخذ يبث تعاليم نسبها الى الحاكم ويقال انها انتشرت بين الطائفة المعروفة بالدروز

الظاهر بن الحاكم (٤١١ - ٤٢٧ ﻫ) - لما تحقق قتل الحاكم اجتمعوا الى أخته ست الملك فأحضرت علي بن دواس وأجلس علي بن الحاكم وكان صبيا لم يناهز الحلم وبايع له الناس ولقب بالظاهر لاعزاز دين الله وكانت عمته ست النصر أخت الحاكم هي القائمة بأمور دولته هي والامير سيف الدين بن رواش وفي أيامه اضطربت أحوال الديار المصرية والبلاد الشامية وفي سنة ٤١٥ ﻫ توفيت ست النصر أخت الحاكم وتركت من الاموال والجواهر والامتعة شيأ كثيرا ووجد لها أربعة آلاف جارية ما بين بيض وسود ومولدات منهن ١٥٠٠ أبكار وفي أيام هذا الخليفة أذن للاقباط بأجراء موسم الغطاس وكان في هذا الموسم يمتلئ البحر بالمراكب والزوارق مشحونة بالجموع فاذا دخل الليل زينت المراكب بالقناديل والشموع ونزل رؤساء القبط في المراكب

(١) وكان حمزة هذا من أعيان شيعته وكثيرا ما يكتب رسائل ويتلوها في امامة الحاكم ثم في لاهوته وجعل أساس تعاليمه ان الله يصدق الائمة السبعة الذين آخرهم الحاكم بامر الله وهو الذي يعرف بالقائم في آخر الزمان وكان حمزة يعضي بهادي المستجيبين المنتقم من المشركين والمرتدين بسيف مولانا جل ذكره وشدة سلطانه وحده وزعم أهل بدعته انه لم يمت بل اختفى متواريا في بستان داخل سرداب لما رأى من فساد الناس وانه حي وسوف يأتي في آخر الزمان

وفى سنة ٤٢٢ توفى الخليفة القادر بالله العباسى وخلفه على بغداد القائم بامر الله وتوفى الظاهر فى شعبان سنة ٤٢٧ هـ فولى ابنه أبو تميم معد ولقب بالمستنصر بالله

المستنصر بأمر الله (٤٢٧ – ٤٨٧ هـ) – لما بويع له بالخلافة بعد موت أبيه كان عمره سبع سنين فقام بأمره وزر أبيه أبو القاسم على بن أحمد الجرجراى ثم استوزر بعده الحسين بن على التازورى وفى سنة ٤٤٦ هـ قطع المعز بن باديس بالمهدية خطبة العلويين وخطب للقائم بامر الله العباسى فجرد عليه المستنصر الجيوش فلاقاهم المعز ومعه ثلاثون ألفا فهزم ودخل القيروان مهزوما ثم استولت جيوش المستنصر على القيروان وهرب المعز الى المهدية للتحصن بها ثم كانت الخطبة للمستنصر ببغداد على يد البساسيرى من مماليك بنى بويه عند انقراض دولتهم واستيلاء السلجوقية عليهم وسبب ذلك أنه بينما كان مقدم الاتراك ببغداد اذ قام بينه وبين بعض رجال الدولة وحشة أدت الى أن حدثت بينه وبين مخالفيه حروب اضطر فيها القائم بامر الله العباسى أن يخرج من بغداد وينزل مع رئيس رؤسائه على علم الدين قريش بن بدران صاحب الموصل وقال له الرئيس يا علم الدين أمير المؤمنين القائم يستزم بزمامك وزمام رسول الله وزمام العربية على نفسه وماله وأهله وأصحابه فأعطى قريش لحضرته زماما فنزل القائم والرئيس الى قريش وسار امعه باتفاق منه فأرسل البساسيرى يذكر قريشا بما عاهده عليه من المشاركة فى الأمر عقب حرب الموصل سنة ٤٤٨ ثم اتفقا على أن يتسلم البساسيرى رئيس الرؤساء لانه عدوه وبقى الخليفة عند قريش وحمل قريش الخليفة الى معسكره ببردته ونهبت دار الخلافة ثم سلم قريش الخليفة لابن عمه مهاوش بن المجلى أمير العرب فسار مهاوش والخليفة فى هودج الى حديثة عانة فنزلا بها وسار أصحاب الخليفة الى طغرلبك وكان وقتئذ ملك العراق فأتى طغرلبك اليها مع جيشه وأرجع الخليفة الى داره ثم سار لقتال البساسيرى فهزمه وأصحابه وقتله (٤٥١ هـ) وبعث برأسه الى الخليفة فصلبه ببغداد وفى سنة ٤٥١ وقع الغلاء العظيم بمصر فكان يعادل الغلاء الذى وقع فى زمن يوسف عليه السلام وقد أقام هذا الغلاء بمصر سبع سنين متوالية اشتد فيه الجوع فأرسل المستنصر الى امبراطور القسطنطينية قسطنطين دوكاس الحادى عشر (Constantin XI Ducas) يطلب منه ارسال الحبوب فقبل ولكنه مات قبل ارسالها (١٠٥٩ م) ولما تولت من بعده الامبراطورة ايدوكسى ماكريمبوليتيس (Macrembolitisse) (Eudoxie) أوقفت ارسالها حتى يعقد معها معاهدة هجومية ودفاعية فلم يقبل المستنصر وكانت أم المستنصر متغلبة على دولته وكانت تصطنع الوزراء وتوليهم وكانوا يتخذون الموالى من الاتراك للتغلب على الدولة وفى سنة ٤٥٤ هـ حصلت فتنة بين الاتراك والعبيد كانت سببا فى خراب الاقليم المصرى وسببها أن تركيا قتل عبدا وهو سكران فاجتمعت العبيد وقتلوه وبلغ ذلك الاتراك فاجتمعوا على مقاتلة العبيد وتقابل الفريقان فى بلدة كوم شريك وحصلت بينهما واقعة انهزم فيها العبيد فشق ذلك على والدة المستنصر لانها أمة ولانها كانت تساعدهم سرا وتجددت بينهما فتنة ثانية انهزم فيها العبيد أيضا وفروا الى الصعيد (٤٥٩ هـ) فازدادت قوة الاتراك بمصر واستخف رئيسهم ناصر الدولة حفيد ناصر الدولة بن حمدان بالخليفة وصار هو وبقية الامراء يطلبون منه أموالا حتى نفد جميع ما فى الخزينة والتزم أن يبيع ما عنده ثم

Digitized by Google

بعد ذلك سار ناصر الدولة لقتال العبيد في الصعيد لتجمهرهم فقتل منهم خلقا كثيرا وعاد الى القاهرة وأخذ يستبد بسلطنة مصر الى سنة ٤٦١ وحصر الاتراك مرة بدار المستنصر فأمرت والدته العبيد الذين بالدار أن يفتكوا بمقدمي الاتراك فلما هموا بذلك تمكن الاتراك من الهرب الى ظاهر البلد ومعهم ناصر الدولة الذى قاتل أولياء المستنصر فهزمهم وملك الاسكندرية ودمياط وقطع الخطبة منهما ومن سائر الريف للمستنصر وراسل الخليفة العباسي ببغداد وافترق الناس في القاهرة فرقا ثم ان ناصر الدولة استعطف المستنصر فعفا عنه ظاهرا ودخل القاهرة وأخبر ادس المستنصر اليه من قواد الاتراك من قتله وقتل أخاه فخر العرب وأنوا برأسهما الى المستنصر (٤٦٥ هـ) وقتلوا أيضا جميع بني حمدان بمصر وكان الخليفة استدعى أمير الجيوش محمود بدر الجمالى وهو أرمني الاصل من صنائع الدولة بمصر فأتى من الشام بالسفائن الى دمياط ثم وصل الى قليوب وهنالك أمر رؤساء الترك بالقبض على ايلدكوز فقتله وقتل الوزير ابن كرتية وبعض أمراء الاتراك واستقام له الامر (٤٦٧ هـ) وبعدئذ صارت لبدر الجمالى الكلمة النافذة فقلده الخليفة المستنصر امرة الجيوش والوزارة وجد في تسكين الاضطرابات الداخلية وفي احياء ما فقد من العمران فنشر العلوم والمعارف وسهل سبل التجارة وشيد جملة مبان نافعة وخفف الضرائب ولم يحصل في مدته ما يكدر الراحة وعاد الى الخليفة ما كان له من السلطة والاحترام وفي خلال ذلك أغار اتسز أحد الامراء التركمان على سوريا أثناء غياب بدر الجمالى عنها واستولى على القدس الشريف وطبرية ودمشق ثم تقدم نحو مصر في جيش مؤلف من عشرين ألف مقاتل وعسكر بجوار القاهرة وكانت الجيوش المصرية اذ ذاك مشتغلة باطفاء ثورة الصعيد فاضطربت أهالى القاهرة واضطر بدر الجمالى أن يصالح اتسز المذكور على مبلغ قدره ١٥٠,٠٠٠ دينار يدفعها له عند خروجه من مصر فقبل بذلك اتسز وكانت تلك حيلة من بدر الجمالى لانه تمكن من جمع الرجال وهجم بغتة على اتسز فهزمه بعد أن فتك بعسكره فتكا ذريعا وخسر التركمان جميع البلاد التى فتحوها في الشام فأعيدت الى حكم المستنصر ومات اتسز في دمشق موتة شنعاء ثم توفي أمير الجيوش بدر الجمالى سنة ٤٨٧ هـ بعد أن حكم في مصر عشرين سنة أحسن فيها الادارة وعمرها وقوى أسوارها ونظم جيوشها وماليتها وكان مهيبا محترما وبعد وفاته ببضعة أيام مات الخليفة المستنصر وسنه ٦٧ سنة وخمسة أشهر حكم منها ستين سنة لم يحكم مثلها قبله خليفة ولا ملك في الاسلام وكان ضعيف الرأى لقي أهوالا وشدائد في مدته وان كانت مصر عادت في آخر حكمه لرونقها القديم الا أن هذا لم يدم طويلا لان الدولة الفاطمية أخذت بعده في الانحطاط وفي أيامه سنة ٤٥٣ هـ هاجم روجر الاول النورماندى جزيرة صقلية واستولى عليها فخرجت من قبضة الفواطم كما ذكرناه في الجزء الاول من هذا الكتاب وخلفه ابنه الثاني المستعلى

المستعلى بالله بن المستنصر (٤٨٧ – ٤٩٥ هـ) – يقال ان المستنصر قبل وفاته كان عهد لولده نزار بالخلافة وكانت بينه وبين أبي القاسم الافضل عداوة فخشي بادرته وداخل عمته في ولاية أبي القاسم على أن تكون لها كفالة الدولة فشهدت بأن المستنصر عهد له بحضر فبويع وهو ابن ست سنين ولقب المستعلى بالله وأكره أخوه الاكبر على بيعته ففر الى الاسكندرية وبايعه هنالك افتكين مولى بدر الجمالى ولقبه المصطفى لدين الله (٤٨٨ هـ) فسار الافضل بالجيوش

Digitized by Google

وحاصر الاسكندرية فسلمت على الامان وأركب نزارا السفن الى القاهرة وقتل بالقصر وعاد الافضل ومعه افتكين أسيرا وقتله فعادت السكينة وكان الحكم وقتئذ للوزير الافضل المذكور وهو شاهنشاه ابن بدر الجمالى وعزم الافضل على استرجاع البلاد التى كانت خرجت عن الدولة الفاطمية ففتح القدس من يد ابنى أرتق بن أكسب وهما ايلغازى وسقمان بعد حصاره أربعين يوما (٤٩١ هـ) وكان تتش صاحب الشامات واختلف بعده ابناه رضوان ودقاق وكان دقاق بدمشق ورضوان بحلب فخطب رضوان فى أعماله للمستعلى بالله أياما قلائل ثم عاود الخطبة للعباسيين وبينما كانت الاحوال فى هذا الارتباك اذ قامت الحروب الصليبية وكان مبدؤها سنة ٤٩٠ هـ

الحروب الصليبية ــ لقد يأسف التاريخ على ذكر التعصبات الدينية العمياء التى قامت بسببها الحروب الصليبية المذكورة التى كان من أسباب ظهورها الضعف الذى أصاب خلفاء بنى العباس فى بغداد وخلفاء العبيديين الفواطم بمصر وهما الدولتان الاسلاميتان اللتان كانتا يتنازعان الحكم فى المدة المذكورة فطمع الفرنج فى ممالك الشام وذلك سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٧ م) وأول من أثار هذه الحروب راهب فرنسوى يدعى بطرس الناسك (Pierre l'Ermite) وكان ترهب وانفرد عن أهله وساح متنسكا فزار بيت المقدس وأخذته الحمية والتعصب لاستخلاص تلك الاماكن من أيدى المسلمين بدعوى أن زوار بيت المقدس من النصارى مضطهدون فلما رجع الى بلاد ايطاليا اجتمع بالبابا أوربانوس الثانى (Urbain II) وخاطبه فى ذلك فوافقه البابا وأمره أن يطوف ببلاد الفرنج يدعوهم ويحرضهم لانقاذ الاراضى المقدسة ففعل وحرك القلوب فى أوروبا على حرب الاسلام وفى خلالها كان الكسيس كومنينوس الاول (Alexis I^er Comnène) امبراطور القسطنطينية يحارب الاتراك بآسيا الصغرى وكان اليأس أخذ منه كل مأخذ خصوصا لما بلغه أن الاتراك استخدموا بعض اليونانيين الذين أمروهم فى بناء أسطول قوى فأرسل وفدا الى البابا يسأله المساعدة على الترك فدعا البابا الملوك المسيحيين لنجدة اخوانهم فى الدين وذلك بعد أن عقد عدة مجامع فى ايطاليا وفرانسا وألقى على مسامع من حضرها أقوالا استنهضا بها هممهم للبادرة بالاستعداد وفى المجمع الاخير الذى عقد بمدينة كليرمنت من أعمال فرانسا (١٨ نوفبر ١٠٩٥ م) نادى أوربانوس المذكور بالحرب الصليبية الأولى فنهض أحد الاساقفة وطلب من البابا أن يكون أول المجاهدين فى هذا السبيل فسلمه البابا راية الصليب وتبعه الجموع ورسموا جميعا على صدورهم صورة الصليب باللون الأحمر وجعلوا هذا العلامة على الاسلحة والالوية والرايات والبنود ومن وقتها سموا بالصليبيين وكانت الحملة الاولى الصليبية من سنة ١٠٩٧ الى ١٠٩٩ م وتجهزلها الفرنج وكان ملوكهم الحاضرون بغدوين أوبردويل (Baldwin-Boudouin) والقمص رعوند وغفريدو بوعوند وغيرهم من أمراء فرانسا وغيرها وطلبوا من صاحب صقلية المرور من بلاده فلم يمكنهم من ذلك على ما يقال فعزموا على التوجه الى الشام عن طريق القسطنطينية فمنعهم الامبراطور من الاجتياز ببلاده الا بشرط أنهم يحلفون له أنهم يسلمون له أنطاكية وغيرها من المدن التى كانت للروم متى امتلكوها وكان يخاف من الفرنج أن يستولوا على بلاده فلما قبلوا اشرطه صرح لهم قال ابن خلدون ما ملخصه كان بيت المقدس قد أقطعه تاج الدولة تتش للامير سليمان ابن ارتق التركمانى وقارن ذلك استفحال الفرنج واستطالتهم على الشام وخروجهم سنة ٤٩٠ هـ

ومروا

ومرّوا بالقسطنطينية وعبروا الخليج فنازلوا أولاً أنطاكية وأخذوها من يد باغيسان من قواد السلجوقية وخرج منها هارباً فقتله بعض الارمن فى طريقه وجاء برأسه الى الفرنج بانطاكية وعظم الخطب على عساكر الشام وسار كربوغا صاحب الموصل فنزل مرج دابق واجتمع اليه دقاق بن تتش وسليمان بن أرتق وطغتكين أتابك صاحب حمص وصاحب سنجار وجمع من كان هنالك من الترك والعرب وبادروا إلى أنطاكية لثلاثة عشر يوماً من حلول الفرنج بها وخرج الفرنج وتصافوا مع المسلمين فانهزم المسلمون وقتل الفرنج منهم ألوفاً واستولوا على معسكرهم وساروا الى معرة النعمان وحاصروها أياماً وهرب حاميتها وقتلوا منها نحواً من مائة ألف وصالحهم ابن منقذ على بلدة شيزر وحاصروا حمص وصالحهم عليها جناح الدولة ثم حاصروا عكا فامتنعت عليهم وأدرك عساكر الغز من الوهن مالا يعبر عنه فطمع أهل مصر فيهم وسار الافضل بن بدر بالعساكر لاسترجاع بيت المقدس فحاصرها ثم ملكها بالامان (٤٩٠ هـ) وأحسن الافضل الى سقمان وبلغازي وخلى سبيلهما وولى على بيت المقدس من يثق به ورجع الى مصر ثم سار الفرنج الى بيت المقدس وحاصروه أربعين يوماً (٢٢ شعبان ٤٩٢ هـ) ونصبوا عليه برجين ثم اقتحموه واستباحوه أسبوعاً وقتلوا من أهله سبعين ألفاً واغتنم الصليبيون غنائم كثيرة وجاء الصريخ الى بغداد صحبة القاضى أبى سعيد الهروى فكثر البكاء والأسف وتمكن الفرنج من البلاد وولوا على بيت المقدس غودفرى دو بوايون (Godefroy de Bouuillon) دوق دولورين وقام الدوج فيتال ميشيلى (Vital Michieli) رئيس جمهورية البنادقة بمساعدته بالاساطيل الكبيرة وكان ذلك سبباً فى امتداد تجارة هذه الجمهورية فى الشرق وحصولها على امتيازات وافرة (١٠٩٨ م) ولما بلغ خبر سقوط بيت المقدس الى مصر جمع الافضل الجيوش والعسكر واحتشد وسار الى عسقلان وأرسل الى الفرنج بالتهديد فأعدوا الجواب ورحلوا مسرعين فكبسوه بعسقلان على غير أهبة فهزموه واستلحموا المسلمين ونهبوا سوادهم وعادوا الى القدس واستولى تنكريد (Tancrède) من أمراء صقلية على طبرية وتقلد عليها الامارة ثم افتتح حصن حيفا بمساعدة أساطيل جمهورية البنادقة الذى منع عنها كل مدد وفى خلال اهلهامات غودفرى (٤٩٣ هـ) وقام بالامر بعده أخوه بقدوين (Baudoin) صاحب الرها وسار فى ملكه الفرنج الى سروج وقيسارية فملكوهما عنوة (١١٠٠ م) وملكوا ارسوف بالامان وفى سنة ٤٩٥ هـ سار صنجيل ريموند الى طرابلس وبعد حصار صالحوه على مال وخيل ثم ملك انطرسوس عنوة ثم ملك أعمال حمص وبعد ذلك استفحل أمر الفرنج بالشام وفى سنة ٤٩٥ مات المستعلى أبو القاسم أحمد فى منتصف صفر وبويع ابنه أبو على

الآمر بأحكام الله (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ) - ولى الخلافة وعمره خمس سنين ولم يل منهم أصغر منه وكان الفرنج الصليبيون فى نجاح لانقسام الممالك الاسلامية وقتئذ وفى سنة ٤٩١ هـ وصلت مراكب من بلاد الفرنج تحمل خلقاً كثيراً من التجار والحجاج فاستعان بهم صنجيل على حصار طرابلس وكان معظم تلك المراكب للبنادقة أرسلها الدوج أورديلاف فاليورو (١١٠٤ م) (Ordelafe Faliero) الذى خلف فيتال ميشيلى السابق ذكره على رياسة جمهورية البنادقة مساعدة للصليبيين فحاصروها براً وبحراً ولما يئسوا منها ارتحلوا الى جبيل وكانت عكا تابعة لمصر وحاكمها

Digitized by Google

بدعى زاهر الدولة الجيوشى وكان محاصرها الكونت صنجيل (Raymond de Saint-Gilles)
وطال زمن الحصار وحضر بودوان الاول (Baudoin) الذى خلف غودفروا دوبولون فى ملك
أورشليم (١١٠٣ م) وشدد الحصار عليها (١١٠٤ م) وبعد ثلاثة أسابيع دخلوها عنوة
وفتكوا بمن فيها وهرب زاهر الى مصر ولما كانت سنة ٥٠٣ ه وصل القمص ريوند بن صنجيل بمراكب
عديدة من سفن البنادقة وجنوه وبيزا مشحونة بالرجال والسلاح والميرة وحاصر طرابلس مع بقدوين
ملك القدس المذكور وملكوها عنوة لتأخر الاسطول المصرى بالميرة ثم استولى الفرنج على
بيروت أيضا ثم نازلوا صيدا برا وبحرا واسطول مصر يعجز عن انجادهم ثم زحفوا الى صور فى أبراج
الخشب المصفحة فاستأمن أهلها وكانت سفن البنادقة وجنوه وبيزة تساعد الصليبيين فى تلك الوقائع
حتى ان الصليبيين كافؤا أهالى جنوه على مساعدتهم لهم فى الحروب الصليبية الاولى المذكورة بأن
تنازلوا لهم عن قطعة من الارض فى ساحل فلسطين كأمثالهم ثم فى سنة ٥٠٤ قصد بقدوين
الديار المصرية فانتهى الى الفرما وفيها أصيب بمرض فمات بالعريش فى مكان يعرف برمال بودوين
(بردويل) فنقله أصحابه ودفنوه بكنيسة القيامة (١١١٨ م) وجلس مكانه ابن عمه بقدوين الثانى
ملكا لاورشليم وكانت الحروب قائمة بين المسلمين والصليبيين على ساق وقدم وكانت أحوال مصر فى
قلاقل واضطرابات مستمرة فلذلك لم تتمكن من المحافظة على أملاكها بسوريا والتزمت جانب
المدافعة وبينما كان بقدوين الثانى يدافع عن انطاكية (٥١٠ ه) لانقاذ جوسلين كونت
الرها أسره المسلمون ولم يطلقوه الا بفدية عظيمة وبعد ذلك حاول الاستيلاء على حلب فصادف فشلا
ومن حوادث مصر أن عرب لواتة أظهروا فيها الفساد (٥١٧ ه) فجمع المأمون بن البطائحى الذى
تولى الوزارة بعد قتل أمير الجيوش الافضل (٥١٥ ه) الجنود وقاتلهم وهزمهم فعادوا الى
المغرب وفى سنة ٥١٩ ه قبض الخليفة على وزيره أبى عبد الله البطايحى وصلبه هو واخوته
لتمردهم ثم اجتمع الفرنج سنة ٥٢٠ ه وساروا الى دمشق ونزلوا على مرج الصفر واستنجد
طغركين صاحبها أمراء التركمان من ديار بكر وغيرها فجاؤا اليه وخرج الى الفرنج والتقى معهم فسقط
طغركين فى المعترك فظن أصحابه انه قتل فانهزموا والفرنج فى اتباعهم وقد أثخنوا فى رجالة التركمان
الا أن فرقة من جيش التركمان كانت عادت الى معسكر الفرنج بينما كانوا يتعقبون المسلمين ونهبوه
وقتلوا من به ولما عاد الفرنج وجدوا خيامهم وأثقالهم منهوبة فانهزموا وفى خلال ذلك عظم أمر
الاسماعلية المشهورين بالباطنية وبالحشاشين (وقد تقدم ذكرهم بالجزء الاول صحيفة ٢٣٥)
وملكوا بانياس وفى سنة ٥٢٤ ه سعى أمير الباطنية فى قتل الآمر بأحكام الله فانفذ اليه أحد
رجاله فقتله فى ثانى يوم من شهر ذى القعدة وكان منهمكا فى اللذات والملاهى فخلفه ابن عمه الحافظ
لدين الله أبو الميمون عبد المجيد بن القاسم بن المستنصر بالله

الحافظ لدين الله (٥٢٤ - ٥٤٤ ه) - وكان وزيره يدعى هزار الملوك فلم ترضه العساكر
وثاروا وأقاموا أبا على بن الافضل وزراوقتلوا هزار الملوك وعاثوا فى القاهرة واستبد أبو على بالوزارة
(٥٢٤ ه) وقبض هذا الوزير على الخليفة وسجنه مقيدا فاستمر فى سجنه الى أن قتل أبو على
(٢٦ محرم سنة ٥٢٦ ه) فأخرج من معتقله وأخذ له العهد على الامراء والقواد وقد

اتخذ

Digitized by Google

اتخذ الحافظ هذا اليوم عيدا اسماه عيد النصر وصار يعمل كل سنة وقام يانس صاحب الباب بالوزارة الى أن هلك بعد تسعة أشهر فلم يستوزر الحافظ بعده أحدا وتولى الامور بنفسه الى سنة ٥٢٨ هـ حيث أقام ابنه سليمان ولى عهده مقام الوزير فلم تطل أيامه سوى شهرين ومات فعين مكانه ابن حيدرة فخنق ابنه حسن وسار بالفتنة ولما قتل حسن قام بهرام الارمنى وأخذ الوزارة وظاهره على ذلك بعض أمراء الدولة (٥٢٩ هـ) وكان مسيحيا فاشتد حذر المسلمين من المسيحيين وكثرت أذيتهم لهم فسار رضوان بن ولخشى وهو يومئذ متولى الغربية وجمع الناس لحرب بهرام وسار الى القاهرة فانهزم بهرام ودخل رضوان القاهرة واستولى على الوزارة (٥٣١ هـ) وأخذ فى اهانة حواشى الخليفة وهم بخلعه فتوحش الحافظ منه ومازال يدبر عليه حتى ثارت فتنة انهزم فيها رضوان وخرج الى الشام فجمع وعاد (٥٣٤ هـ) فجهز له الحافظ العساكر لمحاربته فقاتله وأخيرا قبض عليه واعتقله ولم يستوزر الحافظ أحدا بعده ثم هرب من معقله (٥٤٢ هـ) وأثار فتنة آلت الى قتله وفى سنة ٥٤٣ هـ شاع خبر قدوم روجر الثانى (Roger) ملك صقلية بالاساطيل الى الاسكندرية فاضطربت الاحوال بمصر وكأن هذا الملك لم يقنع بما ناله من أملاك الفواطم حتى طمع فى باقى ثغورهم فسار الى بلادهم قبل الآن بعمارة بحرية مؤلفة من ٢٥٠ سفينة وأغار على بلاد افريقية واستولى على جربه (٥٣٩ هـ) واستباح سكانها واستعبد نساءها ثم وضع يده على طرابلس الغرب (٥٤١ هـ) ثم على المهدية (٥٤٣ هـ) وهى مهدية العبيديين وكان قد هجرها أهلها بسبب القحط الذى استولى عليهم وقتئذ كما بسطناه فى الجزء الاول وفى خلال ذلك مات الحافظ فى منتصف سنة ٥٤٤ هـ وكانت الفتنة قائمة فاقيم مكانه ابنه الظاهر أبو منصور اسمعيل

الظاهر أو الظافر بأمر الله (٥٤٤ – ٥٤٩) – وكان هذا الخليفة كثير اللهو واللعب منهمكا فى اللذات يميل الى سماع الاغانى والتفرد بالجوارى وكانت فى أيامه حملة الصليبيين الثانية (١١٤٧ – ١١٤٩ م) وسببها الخوف الذى اعترى أهل أوروبا من فتوحات زنكى ونور الدين قال ابن الاثير ما ملخصه لما استولى المسلمون على الرها أخذ ظل الفرنج فى التقلص من المشرق فذهب القسوس والرهبان الى بلاد الفرنج يستنجدونهم على المسلمين ويخوفونهم استيلاءهم على أنطاكية واستردادهم بيت المقدس فتألبت أمم الفرنج من كل ناحية وسافر فى سنة ٥٣٠ ملك الفرنج لويس السابع (Louis VII) ومعه ملك الالمان كونراد الثالث (Conrad III) (١١٤٢ م) فى جموع عظيمة قاصدين بلاد الاسلام فتجمعوا بالقسطنطينية أولا ثم سافروا الى الشام فهلك منهم جمع كثير بدسائس امبراطور القسطنطينية مانويل الاول كومنينوس (Manuel Ier Comnène) ولما وصلوا الى الشام اجتمع عليهم عساكر بقدوين ممتثلين أمرهم فساروا جميعا بسرعة الى دمشق فحاصروها ودافع عنها عاملها معين الدولة ولما اشتد الامر بالميدان الاخضر بعث معين الدولة الى سيف الدين غازى بن زنكى يدعوه الى نصرة المسلمين فجمع عساكره وسار الى الشام واستدعى أخاه نور الدين من حلب ونزلوا على حمص فبعث معين الدولة الى طائفتى الفرنج من سكان الشام والواردين مع ملك الالمان يتهددهم بتسليم البلد الى صاحب الموصل ان لم يرحلوا ومازال يضرب بينهم وجعل لهم حصن بانياس طعمة فاجتمعوا الى ملك الالمان خوفا من صاحب الموصل وفتلوا له فى الذروة والغارب حتى رحل عن دمشق ورجع الى بلاده بطريق البحر (١١٤٩ م)

Digitized by Google

وفى سنة ٥٤٦ هـ جمع نور الدين محمود عساكره وسار الى بلاد جوسلين الثانى الفرنجى (١) وهى شمالى حلب وسار جوسلين فارس الفرنج فى عسكره نحو نور الدين فالتقوا واقتتلوا وانهزم المسلمون وقتل منهم وأسر جمع كثير ولكن بالحيلة التى عملها نور الدين ظفر التركمان بجوسلين وجاؤه اليه أسيرا ثم سار نور الدين الى قلاع جوسلين فلكها وهى عين تاب والراوندان ودلوك ومرعش وغير ذلك وفى سنة ٥٤٨ هـ ملك الفرنج مدينة عسقلان من يد خلفاء مصر واستطالوا على دمشق ووضعوا عليها الجزية وكان صاحبها مجير الدين وبينما كانت الحروب الصليبية قائمة بالشام نزلت مراكب صقلية على السواحل المصرية ونهبت وأحرقت تنيس (٥٤٨ هـ) وفى سنة ٥٤٩ هـ مات الظافر قتيلا وسبب قتله أن وزيره العباس شق عليه اشتغال الخليفة بالشهوات واعراضه عن الملك فاوعز الى ابنه نصر وكان صديق الظافر وكان الظافر يهواه لفرط جماله وأدبه فقتله تخلصا مما كان يتهمه به الناس وكتما الخبر ثم لما أشيع اتهم العباس أخوى الظافر وهما جبريل ويوسف بانهما قتلا الخليفة فقتلهما لذلك ومن مآثر الظافر الجامع الظافرى داخل باب زويلة وخلفه الفائز أبو القاسم عيسى

الفائز بنصر الله (٥٤٩ - ٥٥٦ هـ) - هو ابن الظافر أقامه فى الخلافة الوزير عباس المذكور وكان عمره خمس سنين ولما اطلع أهل القصر على حقيقة قتل الظافر أخذوا يعملون الحيلة لقتل عباس وابنه فكاتبوا الصالح طلائع بن رزيك وكان عامل الاشمونين فجمع طلائع الجموع وتقدم نحو القاهرة وفر عباس واستولى طلائع على الوزارة واستحضر الخادم الذى كان مع الظافر وسأله عن الموقع الذى دفن فيه سيده فدلهم عليه فاخرج الظافر وحمل مع ولديه المقتولين وانتشر البكاء والنوح فى الطرق الى أن واروهم التراب وقام طلائع بتدبير أحوال الدولة وكانت أخت الظافر الفرنج فى عسقلان بشأن عباس وشرطت لهم مالا ان قبضوا عليه فارسلوا الجنود فتلاقت معه فى الطريق فقتل عباس وقبض على ولده نصر وأرسل فى قفص من الحديد الى مصر مع من قبض المال وأخذ نصر وضرب ومثل به ثم صلبوه على باب زويلة (٥٥١ هـ) ومات الفائز سنة ٥٥٦ هـ وكانت دولة الفواطم قد ضعفت فى أيامه وانحطت قوتها البرية والبحرية ففى أوائل خلافته نزل على دمياط نحو ستين مركبا فى جمادى الآخرة سنة ٥٥٠ هـ بعث بها روجير صاحب صقلية فعاثوا وقتلوا ونزلوا على تنيس ورشيد والاسكندرية فأكثروا فيها الفساد ولما مات الفائز دخل الوزير الملك الصالح طلائع القصر وسأل عن يصلح للخلافة فاحضروا له رجلا كبيرا فقال له بعض أصحابه سرا لا يكون عباس أحزم منك حيث اختار الصغير فاعاد الصالح الرجل الى موضعه وأمر باحضار العاضد لدين الله أبى محمد عبد الله بن الامير يوسف بن الحافظ ولم يكن أبوه خليفة فبايع له بالخلافة وزوجه الصالح بابنته ونقل معها من الجهاز مالا يسمع بمثله

(١) جوسلين هذا هو ابن جوسلين الاول المعروف بدوكورتناى (de Courtenay) أمير فرنساوى رافق بلدوين الثانى الى فلسطين وجعله بلدوين أميرا على طبرية سنة ١١١٥ م ثم خلف بلدوين فى أميرية الرها سنة ١١١٨ م ولما مات وخلفه ابنه المذكور على الرها حاربته جيوش نور الدين وأسرته فى وقعة حلب ومات بها (١١٤٩ م) ولما قام ابنه جوسلين الثالث من بعده أسر أيضا سنة ١١٦٥ م وفداه صهره بلدوين الرابع سنة ١١٧٥

العاضد

العاضد لدين الله (٥٥٦ - ٥٦٧ هـ) - بويع له بالخلافة وعمره لا يتجاوز الاحدى عشرة سنة واستبد الصالح بالامور وازداد تمكنه من الدولة فثقل ذلك على أهل القصر لانه ضيق عليهم فدست عليه عمة العاضد من وقف له بباب القصر عند دخوله فطعنه بخنجر الا أنه لم يمت وحمل الى بيته وأرسل يعتب على العاضد فارسل العاضد الى الوزير يحلف له انه لا يرضى بذلك ولا علم له به وأمسك العاضد عمته وأرسلها الى طلائع فقتلها ثم مات بعدها (٥٥٦ هـ) وكان طلائع بن رزيك أرمنيا شجاعا جوادا فاضلا عاقلا سياسيا وولى العاضد بعده ابنه رزيك بن طلائع ولقب العادل وحسنت سيرته في الناس فعزل شاور بن مجير السعدى عن ولاية قوص وكان يخدم أباه الصالح طلائع فولاه الصعيد وكانت ولاية الصعيد أكبر المناصب في مصر بعد الوزارة فلم يقبل شاور العزل ونمت بينهما العداوة فسار شاور بجموعه نحو العادل الى القاهرة فهرب العادل وتعقبه شاور وأمسكه وقتله وانقرضت بقتله دولة بني رزيك واستقر شاور في الوزارة وتلقب بامير الجيوش وأخذ أموال بني رزيك وودائعهم ثم ان ضرغاما أحد الوزراء جمع جمعا ونازع شاور في الوزارة وقوى على شاور فانهزم شاور الى الشام مستنجدا بنور الدين فوعده نور الدين بالمساعدة ولما تمكن ضرغام من الوزارة قتل كثيرا من الامراء المصريين (٥٥٨ هـ) لتخلوله البلاد فضعفت الدولة لهذا السبب واختلت الاحوال وقدم الصليبيون فدعاهم ضرغام لمساعدته على خصمه ونازلوا بلبيس مدة ودافعهم المسلمون حتى عادوا الى بلاد الساحل وفي خلال ذلك قدمت جيوش نور الدين وعليها أسد الدين شيركوه أحد قواده وسار في صحبتهم ووصل أسد الدين والعساكر الى مدينة بلبيس فخرج عليهم أخو ضرغام بعسكر المصريين ولقيهم فانهزم ثم تقدم أسد الدين حتى نزل على القاهرة وخرج ضرغام من القاهرة فقتل وخلع العاضد على شاور وأعاده الى الوزارة وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة فغدر به شاور ولم يقم له بما كان تعهد به لنور الدين وأرسل الى اموري الاول (Amaury Ier) ملك الفرنج الذي خلف أباه بودوين الثالث (١١٦٥ م) في بيت المقدس يستمده فسارع الى تلبية دعوته ونصرته فلما اقترب الفرنج من مصر فارقها أسد الدين وقصد مدينة بلبيس وجعلها ظهرا يتحصن به وحاصره بها العساكر المصرية والفرنج ثلاثة أشهر وهو يغاديهم القتال ويراوحهم فلم يبلغوا منه غرضا فراسله الفرنج في الصلح والعود الى الشام فاجابهم الى ذلك وسار الى الشام (٥٥٩ هـ) ورحل الفرنج وعاد شاور الى القاهرة ثم في سنة ٥٦٠ هـ عاد أسد الدين شيركوه من الشام بالعساكر مرة ثانية فخرج شاور من القاهرة لقتاله واستدعى أموري لنجدته بجموع الفرنج وكانت له معه واقعة البابين الشهيرة ثم انهزم شاور الى القاهرة وسار شيركوه بعد الواقعة الاخيرة من الاشمونين الى الاسكندرية فخرج اليه أهلها وفيهم نجم الدين محمد بن وصال والى الثغر وقاضيه الاشرف بن الحباب وغيرهم وسلموه المدينة ثم سار منها يريد الاستيلاء على بلاد الصعيد واستخلف ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب على الاسكندرية في ألف فارس ثم حضر شاور ومعه أموري ملك الفرنج وحصروا صلاح الدين بالاسكندرية مدة ثلاثة أشهر فسار شيركوه اليهم فاتفقوا على الصلح على مال يحملونه الى شيركوه ويسلم اليهم الاسكندرية ويعود الى الشام فتسلم المصريون الاسكندرية في منتصف شوال وسار شيركوه الى الشام واستقر الصلح بين الفرنج والمصريين على أن يكون للفرنج بالقاهرة شحنة وتكون أبوابها بيد فرسانهم ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة ألف دينار ثم تمكن الفرنج

Digitized by Google

من البلاد المصرية وتحكموا على المسلمين بها وأفشوا فى المظالم وملكوا بلبيس فهرام ثم ساروا من بلبيس ونزلوا على القاهرة (٥٦٤ هـ) وحاصروها فاحرق شاور مدينة مصر خوفا من أن علكها الفرنج فتركها الناس بما خف من المتاع وبقيت النار بها أياما وأمر بحرق مراكب الاسطول المصرى فحرقت ونهبها العبيد فيما نهبوا وكان ذلك آخر العهد بأساطيل الفواطم بالديار المصرية ولما تفاقت الخطوب واشتد الكرب على أهل مصر أرسل العاضد الى نور الدين يستغيث به وأرسل فى الكتب شعور النساء وصالح شاور الفرنج على ألف ألف دينار يحملها اليهم فحمل اليهم مائة ألف منها وسألهم أن يرحلوا عن القاهرة ليقدر على جمع المال فرحلوا وكان نور الدين محمود بن زنكى صاحب الشام جهز العساكر مع أسد الدين شيركوه وأرسل معه عدة أمراء منهم ابن أخيه صلاح الدين يوسف ابن أيوب على كره منه وكان فى هذا السفر سعادته وملكه ولما قارب شيركوه مصر رحل الفرنج عنها الى الشام خوفا منه ودخل أسد الدين شيركوه مصر واجتمع بالعاضد وخلع العاضد عليه وعاد الى معسكره بالخلعة ثم أخذ شاور فى عمل الحيلة للايقاع بجيش نور الدين وخوفه ابنه الكامل من عاقبة الامر فلم يقبل ولما استشعر رؤساء عسكر نور الدين بما عزم عليه شاور أخذوا حذرهم وعزموا على الفتك بشاور واتفق أن شاور قصد معسكر شيركوه على عادته فقبض عليه الامراء وقتلوه (٥٦٤ هـ) وسمع العاضد الخبر ففرح وطلب من شيركوه انفاذ رأس شاور اليه حتى يراه فأرسلها ودخل شيركوه بعد ذا القصر وخلع عليه العاضد خلع الوزارة ولقبه بالملك المنصور أمير الجيوش وكتب له منشورا بالانشاء الفاضلى [1] ولما قتل شاور دخل ابنه الكامل القصر فكان آخر العهد به ولكن لم تطل مدة وزارة شيركوه حيث عاجلته الوفاة بعد شهرين ففوض العاضد الوزارة لصلاح الدين يوسف بن أيوب ولقبه بالملك الناصر ولما تولى الوزارة أبت جيوش نور الدين اطاعته لصغر سنه فأخذهم باللين حتى استجلبهم لولائه فعظم نفوذه وتمكن من أمور الدولة بأجمعها وأحسن تدبير أحكامها بما كان له من السياسة والكياسة فحسده جوهر الخصى مؤتمن الخلافة وحدثته نفسه بخلع صلاح الدين واتفق مع الامراء على الاستنجاد بالصليبيين وكتبوا لهم الكتب ولكن ضبطها أحد أصحاب صلاح الدين مع رجل بالبئر البيضاء قريبا من بلبيس وتتبع صلاح الدين أصحاب الدسائس والنوادر فنكل بهم وقتل جوهر الخصى المذكور (٥٦٤ هـ) وثارت الجنود المصرية بدسيسة من العاضد وحل شمس الدولة فخر الدين طوران شاه على الطوائف السودانية فبدد شملهم فى واقعة عظيمة حصلت بين القصرين قال بعض المؤرخين ان من غرائب الاتفاق أن الذى فتح مصر للدولة الفاطمية يدعى جوهرا والذى كان سببا فى زوالها يدعى جوهرا ثم أخذ صلاح الدين يرتب عمال

---

(١) بعد البسملة من عبد الله ووليه أبى محمد الامام العاضد لدين الله أمير المؤمنين الى السيد الاجل الملك المنصور سلطان الجيوش ولى الائمة مجير الامة أسد الدين أبى الحرث شيركوه العاضدى عضد الله به الدين وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته وأعلى كلمته سلام عليك فانا نحمد اليك الله الذى لا اله الا هو ونسأله أن يصلى على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى آله الطاهرين والائمة المهديين وسلم تسليما ثم ذكر تفويض أمور الخلافة اليه ووصايا أضربنا عنها للاختصار وكتب العاضد بخطه على طرة المنشور هذا عهد لم يعهد لوزير بمثله فتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلا لحملها فخذ كتاب أمير المؤمنين بقوة واسحب ذيل الفخار بأن اعتزت خدمتك الى بنوة النبوة (الجزء الثالث لابى الفداء)

Digitized by Google

الدولة فعين أخاه توران شاه على ولاية الصعيد وأقام على القصر بهاء الدين قره قوش الاسدى وكان خصيا أبيض فصار لا يجرى فى القصر صغيرة ولا كبيرة الا بأمر صلاح الدين وفى سنة ٥٦٥ هـ سارت الفرنج الى دمياط على ألف ومائتى مركب وحصروها وشحنها صلاح الدين بالرجال والسلاح والذخائر ولما امتد الحصار كتب صلاح الدين الى نور الدين يعلمه بالامر فخرج نور الدين وأغار على بلاد الفرنج بالساحل فرحلوا عن دمياط ناكصين على أعقابهم واهتم صلاح الدين من ذلك الوقت بتجهيز الاساطيل ولما تمت سار بها سنة ٥٦٦ هـ فغزا بلاد الفرنج قرب عسقلان والرملة وعاد الى مصر وفى سنة ٥٦٧ هـ قطع خطبة العاضد لدين الله آخر خلفاء العلويين بأمر نور الدين وأقام الخطبة العباسية وثقل مرض العاضد ومات يوم عاشوراء سنة ٥٦٧ هـ وعمره ٢١ سنة ومحا الله بموته دعوة العلويين وذهب بدولتهم فاستولى صلاح الدين على بلاد مصر عاملا لنور الدين وكان وقتئذ نور الدين يركب الاساطيل المصرية ويطوف البحر المتوسط على سواحل الشام ليمنع مرور الفرنج الوافدين الى أرض الشام والقبض على ما يرد الى الصليبيين من المؤن والذخائر فاستنجد الصليبيون بملوك أوروبا فلم ينجدوهم غير أن امبراطور القسطنطينية مانويل كومننوس أرسل أسطولا مؤلفا من ١٥٠ سفينة مشحونة بالذخائر والمؤن والرجال وبعد عدة وقائع مع المسلمين عاد مقهورا

﴿ الفصل الثانى عشر ﴾

﴿ الدولة الايوبية ﴾

٥٦٧ — ٦٤٨ هـ

قال ابن الاثير ما لخصه ان شيركوه وأيوب هما ابنا شاذى من بلد وين أصلهما من الاكراد الروادية قصدا العراق وخدما بهروز شحنة السلجوقية ببغداد وكان أيوب أكبر من شيركوه فجعله بهروز مستحفظا القلعة تكريت ولما قهرت عسكر الخليفة عماد الدين زنكى ومر على تكريت خدمه أيوب وشيركوه ثم ان شيركوه قتل انسانا بتكريت فأخرجهما بهروز من تكريت فلحقا بخدمة عماد الدين زنكى فأحسن اليهما وأقطعهما اقطاعات جليلة ولما ملك عماد الدين زنكى قلعة بعلبك جعل أيوب مستحفظا عليها ولما حاصرته عسكر دمشق بعد موت زنكى سلمها أيوب اليهم على اقطاع كبير شرطوه له وبقى أيوب من أكبر أمراء عسكر دمشق وبقى شيركوه مع نور الدين محمود بعد قتل أبيه زنكى وأقطعه نور الدين حمص والرحبة لما رأى من شجاعته وزاده عليهما وجعله مقدم عسكره ولما أراد نور الدين امتلاك دمشق أمر شيركوه فكاتب أخاه أيوب ليساعد نور الدين على قصده وأقاما مع نور الدين الى أن أرسل شيركوه الى مصر اهـ

صلاح الدين يوسف (٥٦٧ — ٥٨٩ هـ) — لما استقر صلاح الدين عاملا لنور الدين على مصر أحضر أباه واخوته وأهله فقدموا عليه من الشام وأقطعهم الاقطاعات العظيمة وفى سنة ٥٦٧ هـ جرى بين نور الدين وصلاح الدين وحشة فى الباطن لان صلاح الدين كان يميل الى الاستقلال ولذلك أخذ فى اعداد القوات ولما أحس نور الدين بذلك كتب اليه يستقدمه مع فرقة من رجاله

Digitized by Google

مظهر اله الاستنجاد به فى حرب مع الصليبيين عند الكرك وكان فى الحقيقة يقصد ابعاده عن مصر ليأمن غائلته فأدرك صلاح الدين ذلك ولكنه رأى اجابة طلبه وخرج من مصر حتى وصل الكرك ولما لم يجد فيها أحدا كرّ راجعا الى مصر وكتب لنور الدين يعتذر له بأنه بلغه عن بعض سفلة العلويين بمصر أنهم معتزمون على الوثوب فلم يقبل نور الدين عذره فى ذلك واعتزم على عزله من مصر فاستشار صلاح الدين أباه نجم الدين وكان خبيرا عاقلا حسن السيرة ذا حزم ورأى فأشار عليه بملاطفة نور الدين ومراعاته ففعل وأظهر الطاعة وكان ملك نور الدين محمود استفحل وهابه الاعداء فدخل بلاد الفرنج وعاث فيها ودمر ما مر به من القلاع والحصون وبينما كان يستعد لنزع مصر من يد صلاح الدين أدركته منيته سنة ٥٦٩ هـ وكان أسمر طويل القامة ليس له لحية شجاعا باسلا حسن السيرة عادلا ولما توفى قام ابنه الملك الصالح اسماعيل بالملك بعده وعمره احدى عشرة سنة وحلف له العساكر بالطاعة فى دمشق وأطاعه أيضا صلاح الدين بمصر وفى سنة ٥٦٨ هـ قصد السودان امتلاك مصر وهاجموا الصعيد وحصلت جملة حروب وأخيرا أنفذ صلاح الدين أخاه شمس الدولة فى جيش كثيف وأصحبه بعدة مراكب تحمل المؤن والذخائر فدخلت هذه الجنود بلاد النوبة وفتحوا ابريم ودوّخوا السودان وعادوا وفى سنة ٥٧٠ هـ أى بعد وفاة نور الدين سار ابن أخيه سيف الدين غازى من الموصل وملك جميع البلاد الجزيرية واجتمع الفرنج وحاصروا قلعة بانياس من أعمال دمشق فراسلهم أهل دمشق وتهددوهم بسيف الدين صاحب الموصل ثم صالحوهم على مال يبعثونه اليهم فتقررت الهدنة وبلغ صلاح الدين ذلك فانكره واستعظمه وكتب الى الصالح يقبح من تكب أهل دمشق وبعدهم بغزوة الفرنج وفى هذه السنة مات امالريك (Amalric) ملك الفرنج صاحب القدس قال ابن خلدون فعقبه فى الملك ابنه بلدوين الرابع وكان مجذما ولما رأى أهل دمشق أن العدو قد استفحل وأن ولد نور الدين طفل لا ينهض بأعباء الملك كاتبوا صلاح الدين فطار اليهم فخرج اليه أهل الدولة بعقدهم وسلموا اليه المدينة فاستخلف عليها أخاه سيف الاسلام طغركين بن أيوب ثم سار الى محاربة سيف الدين غازى صاحب الموصل فاستولى منه على حمص وحماة ثم زحف الى حلب وأقام محاصرا لها وبها الملك الصالح بن نور الدين فاجتمع أهل حلب وقاتلوا صلاح الدين وصدوه عن حلب وأرسل كمشتكين الى سنان مقدم الاسماعيلية أموالا عظيمة ليقتلوا صلاح الدين فأرسل سنان جماعة فوثبوا على صلاح الدين فقتلوا غيره فرحل صلاح الدين عن حلب بسبب نزول الفرنج على حمص فاسترجعها وملك بعلبك ثم سار الى ملاقاة سيف الدين فصدق عليه الحملة فانهزم سيف الدين وغنم سواده ومخلفه واتبع عساكر حلب حتى أخرجهم منها وقطع صلاح الدين حينئذ الخطبة للملك الصالح وأزال اسمه عن السكة واستبد بالسلطنة ورحل عن حلب (٥٧٢ هـ) ثم سار الى بلاد الاسماعيلية فنهبه وخربه وأحرقه ثم أتم مسيره الى مصر فأمر ببناء السور الدائر على مصر والقاهرة والقلعة التى على جبل المقطم اهـ (١) وقد ذكر العالم الفاضل المرحوم على مبارك باشا

(١) شيد القلعة على قطعة من جبل المقطم تشرف على مدينة القاهرة وأطرافها وكان فى ذلك المكان قديما قبة عرفت بقبة الهواء بنيت فى ولاية حاتم بن هرثمة على مصر وبها مات أمير مصر عيسى بن منصور بعد عزله سنة ٢٣٣ هـ ولما قدم المأمون الى مصر جلس بقبة الهواء المذكورة ولما بنى أحمد بن طولون القصر والميدان تحت قبة الهواء هذه كان كثيرا ما يقيم بها واعتنى بنو بنيها من بعده ثم خربت من بعدهم وتحولت وضمها الى مقبرة و بعض مساجد ولما شيد صلاح

فى الخطط الجديدة أن صلاح الدين بنى قلعة الجبل لتكون له معقلا وحصنا يعتصم به من أعدائه فانه كان يحذر من شيعة الفاطميين فاختار لها المحل الذى بنيت فيه وأقام على عمارتها الامير بهاء الدين قره قوش الاسدى وهدم ماهنالك من المساجد وأزال القبور وهدم الاهرام الصغار التى كانت بالجيزة وكانت كثيرة العدد ونقل أحجارها وبنى منها السور وقناطر الجيزة لسهولة نقل الاحجار اه وفى سنة ٥٧٣ هـ سار السلطان صلاح الدين من مصر الى ساحل الشام لغزو الفرنج فوصل الى عسقلان فاكتسح أعمالها ولم ير للفرنج خبرا فساح فى البلاد وانقلب الى الرملة فما راعه الا الفرنج مقبلين فى جموعهم وحصل بين الطرفين واقعتان قتل فيهما خلق من الجانبين وتمت الهزيمة على المسلمين ومضى السلطان منهزما الى مصر على البرية فى فل قليل وأسر الفرنج كثيرا من العسكر (١١٦٩ م) ثم طمع الفرنج بسبب بعد السلطان بمصر وهزيمته وحاصروا بلاد حماة مدة الى أن صانعهم المسلمون بالمال فرحلوا عنها وفى سنة ٥٧٦ هـ توفى سيف الدين غازى صاحب الموصل والجزيرة وله من العمر ثلاثون سنة وكان مشهورا بالعدل والعقل ثم توفى بعده الملك الصالح بن نور الدين صاحب حلب فسار صلاح الدين من مصر واستخلف فيها ابن أخيه ولما وصل الى الشام اجتمع الفرنج قرب الكرك ليكونوا على طريقه فهزمهم ثم أغار على بيروت وسواحل الشأم وانقلب الى الجزيرة وملك الرها والرقة وماردين ونصيبين وحصر الموصل وأقام عليها مجنيقا ثم تركها واحتل مدينة حلب وأقطعها أخاه الملك العادل ثم سار الى الكرك وضيق مخنقها ولم يتمكن من فتحها لكثرة جموع الفرنج فيها فسار الى نابلس وأحرقها ونهب وقتل وأسر وسبى ثم عاد الى دمشق ثم حاصر الموصل وأخيرا استقر الصلح بينه وبين صاحبها على شروط ثم مرض بحران مرضا شديدا حتى قطعوا الامل من شفائه ثم عوفى وعاد الى دمشق وفى سنة ٥٧٨ هـ أنشأ البرنس ارناط (Irnat) صاحب الكرك وتسميه الفرنج رينو وارنلد دوشاتيليون (Chatillon Renaud ou Arnold) أسطولا فى بحر أيلة وسير فيه فرقتين فرقة أقامت على حصن أيلة تحاصره وسارت الاخرى نحو عيذاب يفسدون فى السواحل ويقتلون المسلمين فى تلك النواحى ولم يعهد المسلمون بهذا البحر فرنجا قط وكان بمصر الملك العادل أبو بكر نائبا عن أخيه السلطان صلاح الدين فانشأ أسطولا فى بحر عيذاب وأرسله مع الحاجب حسام الدين لؤلؤ وكان يتولى الاسطول بديار مصر وكان مظفرا فيه شجاعا فسار لؤلؤ مجدا فى طلبهم وأوقع بالذين يحاصرون أيلة قتلا وأسرا ثم سار فى طلب الفرقة الثانية فبلغ رابغ فأدركهم بساحل الحوراء وتقاتلوا أشد قتال فاظفره الله بهم وقتل أكثرهم وفى سنة ٥٧٩ هـ نازل السلطان الكرك بعد أن حصن آمد وعبر نهر الاردن وأغار على بيسان وحرقها وأصاب بلدوين الرابع برص فى هذه السنة (١١٨٣ م) فأقام ابن أخته سبيلا من زوجها الاول وهو الكونت وليم دومونفرات ملكا مكانه باسم بلدوين الخامس وتوفى بلدوين الرابع وكان أرسل من قبله رسلا الى ملوك أوروبا يستنجدهم على صلاح الدين ومات بلدوين الخامس بعد سبعة أشهر من جلوسه ويقال ان أمه دست اليه سما لكى يكون الملك لزوجها الثانى المسمى لوسينيان فأنف أرناط وغضب وجاهر بالشقاق والانضمام

الدين القلعة انما بنى فى مكان القبة المحكى عنها قصره ولما أراد المرحوم محمد على باشا بناء مسجده الفاخر الذى بالقلعة أزال بقية قصر صلاح الدين وشيد المسجد المذكور مكانه

Digitized by Google

الى صلاح الدين وراسله فعلا فسار صلاح الدين بفرقة من عسكره الى الكرك وحاصرها (٥٨٠ هـ - ١١٨٥ م) وأمر ابنه الافضل بارسال بعث الى عكا ليكتسحوا نواحيها فصبحوا صفورية وبها جماعة من الفداوية والاسبتارية فبرزوا اليهم وكانت بينهم حروب شديدة تولى الله النصر فيها المسلمين فانهزم الفرنج وقتل مقدمهم ثم سار صلاح الدين بنفسه ونزل على طبرية وحصر مدينتها وفتحها عنوة بالسيف وكانت طبرية للقومص أرناط وكان قد هادن السلطان ودخل في طاعته فارسل الفرنج الى القومص المذكور القسوس والبطرك ينهونه عن موافقته السلطان ويوبخونه على فعله وما زالوا به حتى سار معهم واجتمع الصليبيون المتقى السلطان وحصلت بعد ئذ واقعة على سطح جبل طبرية قرب تل يقال له تل حطين كانت من أشهر الوقائع في التاريخ انتصر فيها صلاح الدين انتصارا باهرا طارت بذكره الاخبار وأسر واملك القدس والبرنس أرناط ومقدم الفداوية ثم استحضر صلاح الدين الاسرى وقتل ارناط بيده حرصا على الوفاء بنذره وقتل أسرى الفداوية والاسبتارية أجمعين لشدة أذاهم للمسلمين ثم استحضر الملك وأمنه وطيب قلبه ولما فرغ صلاح الدين نهض وفتح طبرية ثم سار الى عكا فنازلها ودخلها عنوة (٥٨٣ هـ) وأقطعها الابنه الافضل ثم فتح يافا وصيدا وجبيل وبيروت وحصون عكا وبعدها فتح عسقلان وما جاورها ثم بعث السرايا ففتحوا الرملة والداروم وغزة ومدن الخليل وبيت لحم والبطرون وكل ما كان للفداوية وكان أرسل وهو على حصار عسقلان يطلب حضور أسطول مصر فجاء به حسام الدين لؤلؤ الحاجب وأغار به على عدة نواحي ولما فتح صلاح الدين الفتوحات المذكورة سار الى بيت المقدس (رجب سنة ٥٨٣ هـ - ١١٨٨ م) ونزل عليه من الجانب الغربي وكان مشحونا بالمقاتلة والخيالة والرجالة ثم انتقل لمصلحة رآها الى الجانب الشمالي ونصب عليه المجانيق وضايقه بالزحف والقتال وكثرة الرماة وأخذ ينقب في السور مما يلي وادي جهنم فلما رأى العدو ما نزل به وظهرت له أمارات نصرة السلطان طلب الامان فأبى السلطان في أول الامر وقال لا أفعل بكم الا كما فعلتم بالمسلمين حين ملكتموه سنة ٤٨٠ هـ من القتل والسبي فقال له باليان قائد الصليبيين أن ذلك يضطرنا الى أن نقتل أولادنا ونساءنا ونحرق أموالنا ولا نتركم تغنمون ولا تسبون ونخرب الصخرة والمسجد الاقصى ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين الى غير ذلك من الاقوال فاستشار السلطان كبار قومه فأشاروا عليه بقبول طلبهم وسلمت اليه المدينة في ٢٧ رجب على شروط الصلح التي منها أن يؤدي الفرنج عن كل رجل عشرين دينارا فدية وربع هذه القيمة على كل امرأة وعن كل ذكر صغير أو أنثى دينارا واحدا فلما جمعت الاموال قسمها السلطان على جنده حسب القواعد المتبعة في ذلك وبعد هذا الفتح المبين خلف السلطان أخاه الملك العادل في بيت المقدس يقرر قواعدها وسار هو ففتح صور تجاه عكا ونظر في اصلاحها ثم قصد صور وكان الفرنج احتشدوا اليها بجموعهم فاحضر السلطان آلات الحرب ونزل عليها وقاتلها برا واستقدم أسطول مصر ليقاتلها بحرا ثم أرسل من حاصر هونين فسلمت أما صليبيو صور فارسلوا أسطولهم لملاقاة أسطول مصر فحصل بين الاسطولين حرب أسر الفرنج فيها خمس سفن وكان الشتاء قد أقبل فرحل السلطان عن صور الى عكا وبقيت الهدنة الى أن دخلت سنة ٥٨٤ هـ وكان الصليبيون لما اشتد الخطب عليهم بفتح القدس بعثوا الى بلادهم بخبر بيت المقدس واستنصار الفرنج لها فقام ملك الفرنسيس فيليب اغوست (Philippe II)

ومالك

وملك انكلتره ريكارد الاول الملقب بقلب الاسد (Richard Cœur de Lion) وملك الالمان فردريك الاول بار باروس (Fréderic Ier Barberousse) بحملتهم الصليبية الثالثة (١١٨٩ - ١١٩٢ م) وجمعوا عساكرهم فسار كل من فيليب ملك فرانسا على مراكب جنوه من عاصمتها وملك انكلتره باسطوله المركب من ١٥٠ سفينة شراعية بين حربية ونقالة وقصد ملك المانيا القسطنطينية فخاف اسحق انجلوس (Ishac-Angelus) امبراطور الروم من ازعاج مملكته من جيوش الصليبيين فمنع الاقوات عن عساكر فردريك الاول ولكنه عجز عن منعه من عبور البوسفور وكان امبراطور القسطنطينية عاهد صلاح الدين قبل ذلك على معرقلة مساعى الصليبيين فكتب الى السلطان يعلمه [1] ثم لما عبر ملك الالمان خليج القسطنطينية مر بمملكة قليج أرسلان السلجوقى وتبعهم التركمان يقاتلونهم وكان الفصل شتاء فهلك أكثرهم من البرد والجوع ولما وصلوا الى طرسوس وأرادوا عبور نهرها عرض لملكهم فردريك بار باروس أن يسبح فيه فهلك غرقا فملك الجنود بعده ابنه هنرى السادس (١١٩٠ م) وكان رافقه وأتموا المسير الى الشام فبلغوا طرابلس وقد أفناهم الموت قال ابن خلدون فركبوا البحر الى عكا (أى بعد أن تركوا طرسوس) ثم رأوا ماهم فيه من الوهن والخلاف فركبوا البحر الى بلدهم وغرقت بهم المراكب ولم ينج منهم أحد اهـ

ومات ابن ملك الالمان فى عكا وحزن الفرنج عليه حزنا عظيما وفى تلك الاثناء أرسل زيانى (Ziani) دوج [2] البنادقة أسطولا بقصد الاشتراك فى الحملة الصليبية الثالثة المذكورة طمعا فى المكاسب التجارية التى كانت أهالى بلاده تهتم بها كثيرا فاشترك الاسطول المذكور فى حرب عكا وغرق معظمه عند عوده بالجيوش الالمانية ثم وصل ملك الفرنسيس بحرا ثم وصل ملك الانكليز وكان شديد البأس عظيم الشجاعة وكان من خبره أنه وصل الى جزيرة قبرص ولم يرد أن يتجاوزها الا وأن تكون له وفى حكمه فاستولى عليها وزحف الى الشام ثم اتفق فرنج صور على الرحيل الى عكا ومحاصرتها فخرجوا فى ٨ رجب سنة ٥٨٥ وسلكوا طريق الساحل وأساطيلهم تحاذيهم فى البحر وفرق المسلمين تخطفهم من جوانبهم حتى وصلوا الى عكا وأحاطوا بها من البحر الى البحر حتى لم يبقوا للمسلمين اليها طريقا ونزل صلاح الدين قبالتهم وبعث الى الاطراف يستنفر الناس فجاءت عساكر الموصل وديار بكر وسنجار وسائر بلاد الجزيرة وغيرها وبقى المسلمون يغادون القتال ويراوحونه أشهرا فتتابعت أمداد الفرنج من وراء البحر لاخوانهم المحاصرين لعكا حتى جهد المسلمين بعكا الحصار وضاقت الاحوال وقلت الميرة وأرسل صلاح الدين الى الاسكندرية يطلب الاقوات فى المراكب الى عكا وبعث الى بيروت بمثل ذلك فبعثوا مراكبا ونصبوا فيها الصلبان يوهمون أنه للافرنج حتى دخلوا الى المرسى وجاءت بعده الميرة من الاسكندرية وحصلت بعد ذلك جملة وقائع

(١) الكتاب من ايسياكيوس انجلوس صاحب الروم الى النسيب سلطان مصر صلاح الدين المحبة والمودة قد وصل خط نسيبك الذى انفذت الى ملكى فما أظن ان نسيبك تسمع أخبارا ودية وانه قد سار فى بلادى الالمان ولا غرو فان الاعداء يرجفون باشياء كذب على قدر أغراضهم ولو تشتهى أن تسمع الحق فانهم قد تأذوا وتعبوا كثيرا وقد خسروا كثيرا من المال والدواب والرجال ومات منهم وقتلوا بالشدة وقد تخلصوا من أيدى أجناد بلادى وقد ضعفوا بحيث انهم لا يصلون الى بلادك فان وصلوا كانوا ضعافا بعد شدة كبيرة لا ينفعون جنسهم ولا يضرون نسيبك اهـ من ابن شادى

(٢) لقب لكل رئيس على جمهورية البنادقة وغيرها من جمهوريات بلاد ايطاليا

Digitized by Google

بحرية كما سبق فى المقدمة ولما اشتد حصار الفرنج لعكا وضعفت نفوس أهل البلد وهنوا بعثوا الى الفرنج فى تسليمها على أن يصالحوهم على الامان فيعطوهم مائتى ألف دينار و يطلقون لهم خمسمائة أسير و يعيدوا لهم صليب الصلبوت فأجابوا الى ذلك فدخل الفرنج عكا واستراحوا مما كانوا فيه ثم تخلف صلاح الدين عن وفاء الشروط فركب الفرنج وخرجوا الى ظاهر المدينة بالفارس والراجل وركب المسلمون اليهم وحملوا عليهم فانكشفوا عن موقفهم فوضع الفرنج السيف فى المسلمين الذين بالمدينة وقتلوا الاسرى وكانوا خلفهم فلما رأى صلاح الدين ذلك رحل الى ناحية عسقلان وأخربها ثم هم بترميم ما ثلم من أسوار القدس وسد فروجه وأمر بحفر خندق عليه فنقلت الحجارة للبنيان وكان صلاح الدين يركب الى الاماكن البعيدة و ينقلها على منكبيه فيقتدى به العسكر ثم سار ملك الانكليز مع بقية الفرنج وانهزموا الى يافا فأقاموا بها والمسلمون قبالتهم ثم ساروا الى قيسارية والمسلمون يتبعونهم ثم رحلوا الى ارسوف فسبقهم المسلمون اليها فحملوا على المسلمين وهزموهم ثم ساروا الى الداروم ثم الى القدس فانتهوا الى بيت قوجة على فرسخين من القدس فاستعد صلاح الدين للحصار فوفد عليه رسول الفرنج وعقدت الهدنة معه وكان سبب ذلك كما رواه ابن شاذى أن ملك انكلترة قد طال مغيبه عن بلاده وطال عليه البيكار فكاتب الملك العادل يسأله التوسط لدى السلطان فى الصلح فاجاب السلطان الى ذلك واتفق عليه رأى الامراء لما حدث عند العسكر من الضجر ونفاد النفقات فحالفوا على ذلك ولم يحلف ملك الانكليز بل أخذوا يده وعاهدوه واعتذر بأن الملوك لا يحلفون وقنع السلطان بذلك وكانت الهدنة على أن يستقر بيد الفرنج يافا وقيسارية وارسوف وحيفا وعكا مع أعمالها وأن تكون عسقلان خرابا وأذن للفرنج فى زيارة بيت المقدس وكان يوما مشهودا غشى الناس من الطائفتين من الفرح والسرور ما لا يعلمه الا الله وارتحل ملك انكلترة فى البحر عائدا الى بلده وأقام الكندهنرى (Henri de Champagne) صاحب صور بعد المركيس ملكا على الفرنج بسواحل الشام وتزوج بالملكة ازابيله (Isabelle) أرملة المركيس كونراد (Conrad) صاحب صور وكانت تملكهم قبله وكر صلاح الدين راجعا الى دمشق ثم أصيب بعرض اشتد عليه مات بليلة ٢٧ صفر سنة (٥٨٩ هـ - ١١٩٣ م) وكان سنه عند وفاته ٥٧ سنة ومدة حكمه ٢٤ سنة فى مصر و ١٩ فى سوريا وترك من الاولاد ١٧ ذكرا وأنثى واحدة وكان رحمه الله حليما كريما حسن الاخلاق متواضعا كثير التغافل عن ذنوب أصحابه ذا سياسة حسنة وهيبة عظيمة وعدل وافر شجاعا عظيم الجهاد غزواته كثيرة ومن شدة كرمه لم يركب فرسا الا وهو موهوب لانسان ودفن فى قلعة دمشق فى الدار التى كان مريضا فيها ثم ان ابنه الملك الافضل بنى له تربة بقرب الجامع وكانت دارا لرجل صالح ونقل جثته اليها يوم عاشوراء سنة ٥٩٢ هـ بمشهد حافل و يقال ان السلطان صلاح الدين عند تمام الصلح السابق ذكره أباح للفرنج أن يستوطنوا مصر فجاء منهم بعض التجار وأقاموا بقنطرة الموسكى التى بناها عز الدين ولما توفى صلاح الدين تقاسمت أولاده الملك فاستقر العزيز عثمان فى مصر و ولده الملك الافضل بدمشق

العزيز عماد الدين عثمان ٥٨٩ - ٥٩٥ هـ - لما بويع بملك مصر جدد الهدنة التى عقدها أبوه مع الكندهنرى ملك الفرنج ولم تمض سنة من حكمه حتى قام التحاسد بين الاخوة وتفرقت

Digitized by Google

كلمتهم واستحكمت الوحشة بين العزيز وأخيه الافضل فسار العزيز في عسكر مصر وحصر أخاه الافضل بدمشق وأرسل الافضل الى عمه العادل وأخيه الظاهر وابن عمه الملك المنصور صاحب حماة يستنجدهم فساروا الى دمشق وأصلحوا بين الاخوين ورجع العزيز الى مصر ورجع الباقي الى بلادهم واشتغل الافضل باللهو وفوّض أمر المملكة الى وزيره ضياء الدين بن الاثير فدبرها برأيه البعيد عن الصواب فعاد الملك العزيز عثمان وقصد الشام لحرب أخيه ولكن لم ينجح (٥٩١ هـ) فعاد الى مصر ليقرر أمورها ثم اتفق العزيز والملك العادل على الافضل وسارا بالجيوش الى دمشق ودخل العزيز من باب الفرج ودخل العادل من باب توما واضطر الملك الافضل على تسليم القلعة اليهما وانتقل بأهله وأخرج وزيره ضياء الدين مختفيا في صندوق خوفا عليه من القتل وكانت مدة حكم الافضل على دمشق ثلاث سنوات وشهرا وسلم العزيز البلدة الى العادل عمه وسارت الخطبة والسكة فيها للعزيز حسبما اتفقا عليه قبلا وفي خلال ذلك كان أمير بيروت المدعو أسامة يبعث الشواني للاغارة على الفرنج بالساحل فشكوا ذلك الى العادل فلم يكفهم فأرسلوا الى ملوكهم وراء البحر يستنجدونهم فأمدوهم بالعساكر وأكثرهم من الالمان أرسلهم هنرى السادس (Henri) امبراطور المانيا على أسطول عظيم أقلع بهم من فرضة مسيني من أعمال جزيرة صقلية وكانت الحملة الصليبية الرابعة (١١٩٦ - ١١٩٧ م) فوصل منهم جمع عظيم بالمراكب الى الساحل (٥٩٣ هـ) واستولوا على قلعة بيروت فسار الملك العادل صاحب الجزيرة الى يافا وأتته النجدة من مصر والجزيرة تلك المدينة وخربها وامتنع حاميتها بالقلعة فحاصروها وفتحوها عنوة واستباحوها فجاء الفرنج من عكا بصريخ اخوانهم فبلغهم وفاة الكونت هنرى (Henri Comte de Champagne) ملك القدس فرجعوا ثم اعتزموا ونازلوا تبنين (٥٩٤ هـ) فأرسل الملك العادل الى الملك العزيز صاحب مصر فسار العزيز بنفسه واجتمع بعمه على تبنين فرحل الفرنج على أعقابهم الى صور ثم اختاروا لهم ملكا صاحب قبرس اموري الثاني دولوسينيان (Amaury de Lusignan) فجاءهم وزوجوه بملكتهم ايزابيلا زوجة الكونت هنرى ثم تناوش المسلمون والفرنج القتال ثم تراسلوا مع الملك العادل في الصلح وانعقد بينهم في تلك السنة (١١٩٧ م) واتفق موت هنرى السادس امبراطور ألمانيا يوم ٢٨ سبتمبر ولما خلفه ابنه فردريك الثاني حاول أوتودوق صكصونيا وقتئذ الحصول على التخت فانتشبت بينهما في ألمانيا حروب أهلية استمرت ثماني سنوات أشغلتهما عن نجدة صليبي الشرق ثم رجع العادل الى دمشق وسار الفرنج الى بلادهم وكانت وفاة العزيز عماد الدين عثمان سنة ٥٩٥ هـ بعد أن حكم ست سنين وعمره ٢٧ سنة ويقال ان سبب وفاته أنه تقنطر به جواده أثناء صيده في الفيوم فأصابته من ذلك حمى فحمل الى القاهرة ومات فيها وخلفه ولده ناصر الدين محمد ولقب بالمنصور وكان رحمه الله في غاية الكرم والعدل والرفق بالرعية والاحسان اليهم وكان الغالب على دولة العزيز فخر الدين جهاركس وقد نسب اليه بعض المؤرخين اعادة المكوس التي كان والده أبطلها

المنصور بن العزيز ٥٩٥ - ٥٩٦ هـ لما خلف أباه كان عمره لا يتجاوز التسع سنوات فاتفق الامراء على احضار شخص من بني أيوب يقوم بنيابة الملك فعملوا المشورة بحضور القاضي

الفاضل فأشار بالملك الافضل وهو حينئذ بصرخد فارسلوا اليه فسار سريعا الى مصر وقبل الوصية ونودى به أتابكا (١) أى وصيا على ابن أخيه الا أن ذلك لم يطل لانه اتفق مع أخيه الظاهر على محاصرة دمشق ثم فى أثناء الحصار وقع الخلاف بين الاخوين الافضل والظاهر حتى تغير خاطر الظاهر على أخيه الافضل وترك قتال العادل فظهر الفشل فى العسكر وسار الافضل الى مصر وتبعه العادل وبعد حروب سلم الافضل القاهرة الى العادل فدخلها فى ربيع الآخر سنة ٥٩٦ ﻫ وسافر الافضل وأقام العادل بمصر على انه أتابك الملك المنصور محمد بن العزيز مدة يسيرة ثم خلع الملك المنصور المذكور واستقل هو بالسلطة فى مصر

العادل بن أيوب ٥٩٦-٦١٥ ﻫ — لما استقرت المملكة للملك العادل خضع له أكثر الامراء الايوبيين بسوريه ومن جملتهم ابن أخيه الظاهر ملك حلب فعادت المملكة المصرية الى ما كانت عليه من القوة فى مدة صلاح الدين بن أيوب واتحدت أجزاؤها وأرسل الجيوش وفتح كثيرا من البلاد مثل الرها وقلعة نجم وغيرها وفى خلالها أخذ البابا أنوسان الثالث (Innocent) يحرض الفرنج على الحرب الصليبية فقامت أمراء فرانسا وايطاليا بالحملة الخامسة المعروفة أيضا فى كتب الفرنج بالحملة الرابعة (١٢٠٢ م - ٥٩٩ ﻫ) وسار فى مقدمتهم بودوان كونت فلندر (Baudouin comte de Flandre) وبونيفاس ماركيز دومنفرات (Boniface, marquis de Monferrat) بالجيوش وكانت لا تنقص عن خمسة عشر ألف فارس وعشرين ألف راجل وطلبوا من الدوج هنرى داندولو (Enrico Dandolo) [٢] رئيس جمهورية البنادقة مساعدتهم بالاساطيل لانه لم يكن فى وسع أحد من أمراء أوروبا وقتئذ أن يقوم بذلك خلاف البنادقة لكثرة أساطيلهم وتقدمهم فى الملاحة فأظهر لهم فى أول الامر الصعوبات ثم تداول مجلس البنادقة فى ذلك وقبل نقل الجيوش المذكورة فى مقابلة مبلغ ثمانين الف بندقى (نحو ٤٫٥٠٠٫٠٠٠ فرنك) وقاد الدوج المذكور الاسطول بنفسه وكانت سفنه خمسمائة سفينة شراعية ثم بدأ بمحاصرة مدينة زارا فاستعان عليها بالصليبين ولما فتحت أضيفت الى أملاك

(١) أتابك لفظة تتارية مركبة من اتا ومعناها الاب وبك معناها الامير أو السيد وكانت تطلق فى الاصل على مربى أولاد الملوك ثم استعملت فى القرن الحادى عشر والثانى عشر لقبا لمن يتولى قيادة الجنود أو الصدارة العظمى بممالك العراق وايران وأول من تلقب بهذا اللقب عماد الدين زنكى بن آقسنقر وذلك لان السلطان محمود السلجوقى سلم اليه ولده فروخ شاه ليربيه واعلم ان هؤلاء القواد أو الرؤساء وان كان بعضهم استقل فى حكومته الا أنه لم ينل منهم أحد لقب سلطان والحكومات الاتابكية أربع وذلك ان الدولة الاتابكية التى حكمت بالموصل أيام الدولة السلجوقية التى رئيسها عماد الدين المذكور استقل أمراؤها فى ولاياتهم وبذلك انقسمت هذه الدولة الى أربعة أقسام أولهم أمراء سوريه والعراق وأولهم عماد الدين المذكور ومدة ولايتهم من سنة ٥٢١ - ٦٣١ ﻫ وهم الذين حدثت الحروب بينهم وبين الصليبيين فاستظهروا عليهم وثانيهم أمراء فارس بجهات شيراز وأولهم سنقر بن مودود وحكموا من سنة ٥٤٣ - ٦٦٣ ﻫ الى ان أخرجهم هولاكو وثالثهم أمراء أذربيجان ومملكتهم من سنة ٥٥٥ - ٦٢٢ ﻫ ورابعهم أمراء لارستان بخرم اباد وابتداء حكومتهم من أواسط القرن السادس الى أواسط القرن السابع

(٢) هنرى داندولو هذا ولد سنة ١١١٠ ومات ١٢٠٥ وكان سفير البنادقة فى القسطنطينية مدة ملكها مانويل كومنين ولخلاف وقع بين البنادقة وبين امبراطور القسطنطينية أمر الامبراطور بتسميل عينى هذا السفير ولما ارتقى داندولو دوجا على البنادقة وهو فى سن ٨٢ سنة حصلت الحملة الصليبية الرابعة فاشترك فيها كما ذكرنا

البنادقه

البنادقة ثم ذهبوا وحاصروا القسطنطينية مساعدة لامبراطورها الكسيس لانج (Alexis l'Ange) ابن اسحق لانج (Issaac l'Ange) الذى التجأ اليهم وبعد أن حاصروها فتحوها سنة ١٢٠٤ م قال ابن خلدون وكان هؤلاء الفرنج بعدما ملكوا الشام اختلفت أحوالهم فى الفتنة والمهادنة مع الروم التى كانت بايديهم من قبل وظاهرهم الروم على المسلمين فى بعض المرات فلكوا مدينة القسطنطينية (٦٠١ ﻫ) من الروم وكيفية الخبر عن ذلك أن ملوك الروم تصاهروا مع ملوك الفرنج وتزوجوا منهم بنتا للملك الروم فولدت ابنا ثم وثب على الملك أخوه فانتزع الملك من يده وحبسه فلحق الولد بملك الفرنج مستصرخا به فوصل اليهم وقد تجهز الفرنج لاستنقاذ بيت المقدس من يد المسلمين وانتدب لذلك ثلاثة من ملوكهم دموس البنادقة وهو صاحب الأسطول الذى ركبوا فيه وكان شيخا أعمى لا يركب ولا يمشى الا بقائد ومقدم الفرنسيس ويسمى المركيش والثالث يسمى كندفلندر وهو أكثرهم عددا فجعل الملك ابن أخته معهم وأوصاهم بمظاهرته على ملك القسطنطينية ولما وصلوا اليها خرج عم الصبى وقاتلهم وأضرم شيعة الصبى النار فى نواحى البلد فاضطربت العساكر ورجعوا وفتح شيعة الصبى باب المدينة وأدخلوا الفرنج وخرج عمه هاربا ونصب الفرنج الصبى وأطلقوا أباه من السجن واستبدوا بالحكم فعظم ذلك على الروم فوثبوا على الصبى وقتلوه وأخرجوا الفرنج من البلد فأقام الفرنج بظاهرها محاصرين لهم فاقتحموها وأفحشوا فى النهب ونجا كثير من الروم الى الكنائس وأعظمها كنيسة أياصوفيا فلم تغن عنهم ثم تنازع الملوك الثلاثة على الملك بها وتقارعوا فخرجت القرعة على الكندفلندر فلكها على أن يكون لدموس البنادقة الجزائر البحرية اقريطش وردوس وغيرها ويكون للمركيش الفرنسيس الخليج مثل نيقة وفيلادلف ولم تدم له فانها تغلب عليها بطريق من بطارقة الروم اسمه لشكرى ولم تزل القسطنطينية بيد الفرنج الى سنة ٦٦٠ ﻫ فقصدها الروم واستعادوها من الفرنج اﻫ وقال أيضا انه لما ملك الفرنج القسطنطينية من يد الروم تكالبوا على البلاد ووصل جمع منهم الى الشام وأرسوا بعكا عازمين على ارتجاع القدس من المسلمين ثم ساروا فى نواحى الاردن فاكتسحوها وكان العادل بدمشق استنفر العساكر من الشام ومصر وسار فنزل بالطور قريبا من عكا لمدافعتهم وهم قبالته وساروا الى كفركنا فاستباحوه ثم تراسلوا فى المهادنة على أن ينزل لهم العادل عن كثير من مناصف الرملة وغيرها ويعطيهم يافا ولما استقرت الهدنة أعطى العساكر دستورا وسار الى مصر وأقام فى دار الوزارة فقصد الفرنج حماة وقاتلهم صاحبها ناصر الدين فهزموه وفى سنة ٦٠٣ ﻫ أكثر الفرنج الغارات بالشام بحدثان ما ملكوا القسطنطينية فعجز المسلمون عن دفاعهم وأغار أهل قبرس فى البحر على أسطول مصر فظفر وامنه بعدة قطع وأسروا من وجدوا فيها فبعث العادل الى صاحب عكا يحتج عليه بالصلح فاعتذر بأن أهل قبرس فى طاعة افرنج القسطنطينية وأنه لا حكم له عليهم فخرج العادل فى عسكر الى عكا حتى صالحه صاحبها على اطلاق أسرى من المسلمين ثم نازل طرابلس ونصب عليها المجانيق وعاث العسكر فى بلادها وقطع قناتها ثم عاد عنها الى دمشق اﻫ وفى سنة ٦٠٤ ﻫ أرسل الخليفة العباسى الناصر لدين الله الامام الناصر الشيخ شهاب الدين السهروردى وصحبته كسوة التشريف للملك العادل وأولاده وخوطب العادل بشاهنشاه فقدم مصر وخلعها على الملك الكامل باحتفال ثم عادوا هم

الملك العادل بعمارة قلعة دمشق وألزم كل واحد من ملوك أهل بيته بعمارة برج من أبراجها وقال أبو الفداء دخلت سنة خمس وستمائة والملك العادل بدمشق وعنده ولداه الملك الاشرف والمعظم اه وأمر الملك الظاهر صاحب حلب باجراء قناة من حيلان الى حلب فأجريت بأموال كثيرة وفي سنة ٦٠٦ ﻫ استولى العادل على نصيبين والخابور ثم عاد العادل من البلاد الشرقية الى دمشق (٦٠٧ ﻫ) وأعطى ولده الملك المظفر غازي الرها مع ميافارقين (٦٠٨ ﻫ) ثم عمر الملك العادل قلعة الطور وجمع لها الصناع من البلاد والعسكر حتى تمت (٦٠٩ ﻫ) وكان العادل في الديار الشامية يصلح أمرها الى سنة ٦١١ ﻫ ثم عاد الى مصر ولما اجتمعت الفرنج في داخل البحر ووصلوا الى عكا في جمع عظيم وبلغ الخبر الملك العادل خرج بعساكر مصر وسار حتى نزل على نابلس فسارت الفرنج اليه ولم يكن معه من العساكر ما يقدر به على مقاتلتهم فاندفع قدامهم الى عقبة أفيق فأغاروا على بلاد المسلمين ووصلت غاراتهم الى نوى من بلد السواد ونهبوا ما بين بيسان ونابلس وغيرها وعادوا الى مرج عكا (٦١٤ ﻫ)

ثم في السنة التي بعدها قامت الفرنج بحملتهم السادسة التي تعرف في كتبهم بالخامسة (١٢١٧ - ١٢٢١ م) وكانوا تحت قيادة جان دو بريان (Jean de Brienne) زوج مارى بنت ولي عهد كونراد ومونفرات ملك القدس والقس بلاج (Legat Pelage) واندريا الثاني (André II) ملك المجر الذي أضطر أن يعود الى بلاده من الطريق ونزل عسكر الصليبيين على دمياط وحاصروها واستولوا عليها وزادت مياه النيل فاضطروا الى تركها للمسلمين بعد حروب طويلة قال أبو الفداء ثم دخلت سنة ٦١٥ ﻫ والملك العادل بمرج الصفر وجموع الفرنج بمرج عكا ثم ساروا منها الى الديار المصرية بحرا ونزلوا على دمياط وسار الملك الكامل ابن الملك العادل من مصر ونزل قبالتهم واستمر الحال كذلك أربعة أشهر وأرسل الملك العادل العساكر التي عنده الى ابنه الملك الكامل فوصلت اليه شيأ فشيأ ولما اجتمعت العساكر عند الملك الكامل أخذ في قتال الفرنج ودفعهم عن دمياط اه ثم رحل الملك العادل من مرج الصفر الى عالقين وهي عند عقبة أفيق فنزل بها ومرض واشتد مرضه ثم توفي هناك سابع جمادى الآخرة سنة ٦١٥ ﻫ وكان عمره ٧٥ سنة ومدة ملكه على مصر ١٩ سنة وكان رحمه الله حازما متيقظا غزير العقل سديد الآراء ذا مكر وخديعة صبورا حليما سعيدا اتسع ملكه وخلف ستة عشر ولدا غير البنات ودفن بالقلعة ثم نقل الى المدرسة العادلية بدمشق وخلفه ابنه الكامل

الكامل بن العادل ٦١٥ - ٦٣٥ ﻫ - وصل خبر موت العادل الى ابنه الكامل وهو في قتال الفرنج فعظم عليه ذلك جدا حتى أصاب الجند بعض الاختلال وبلغ ذلك الملك المعظم عيسى بن العادل فرحل لوقته من الشام ووصل الى أخيه الملك الكامل ونفى عماد الدين بن المشطوب رأس الفتنة الى الشام وكان على النيل برج حصين تمر منه الى سور دمياط سلاسل من حديد محكمة تمنع السفن في البحر الملح أن تصعد في النيل الى مصر فلما نزل الفرنج بذلك الساحل كما تقدم خندقوا عليهم وبنوا سورا بينهم وبين الخندق وشرعوا في حصار دمياط واستكثروا من الالات الحصار قال أبو الفداء وألح الفرنج على قتال ذلك البرج أربعة أشهر حتى ملكوه وعبروا الى البر المتصل بدمياط واشتدوا في قتالها وهي في قلة من الحامية لاجفال المسلمين عنها بغتة ولما جهدهم الحصار وتعذر عليهم القوت

استأمنوا

استأمنوا الى الفرنج فملكوها سنة ٦١٦ ﻫ واخذوا في عمارتها وتحصينها واقام الكامل قريبا منهم لحماية البلاد وبني المنصورة بقرب مصر عند مفترق البحر من جهة دمياط الى أن قال وفي سنة ٦١٨ ﻫ كان اجتماع الملك المعظم والملك الاشرف مع نجدة صاحب ماردين وعسكر حلب والملك الناصر صاحب حماة والملك الجاهد صاحب حمص واتصال الجميع بالملك الكامل على عزم قصد الفرنج وردّ دمياط منهم فاحاطوا بهم وضيقوا السبيل عليهم فاجابوا الى الصلح على تسليم دمياط واطلاق ما بأيديهم من أسرى المسلمين واطلاق ما بأيدى المسلمين من أسراهم وقرر الصلح الذكار نائب البابا وملك عكا وملوك فرنجة ومقدموا الفداوية والاسبارية وتسلم الكامل دمياط يوم الاربعاء تاسع عشر رجب ٦١٨ ﻫ اﻫ ثم سار الملك الكامل الى مصر وأخذ في تشييد العمارات والنظر في أمور الدولة فأقام قبة عظيمة على ضريح الامام الشافعي وأنشأ المدرسة الكاملية المعروفة بدار الحديث وحبس لها الحبوس وفي خلال ذلك قامت الفتن بين أبناء العادل واختلفوا بين بعضهم وبين أقاربهم وحصلت أمور يطول شرحها وفي تلك الاثناء قام البابا غريغوريوس التاسع (Grégoire IX) يحرض الفرنج على الحروب الصليبية فلما رفض فردريك الثاني (Frédéric II) امبراطور المانيا السفر حرمه البابا فالتزم أخيرا بالسفر بحرا بجيوشه وسميت سفرته هذه بالحملة الصليبية السادسة كما في كتب الفرنج (١٢٢٨ - ١٢٢٩ م) وكان الملك الكامل قد أرسل اليه فخر الدين يستدعيه الى قصد الشام يستعين به على أخيه المعظم فوصل الامبراطور سنة ٦٢٥ ﻫ وقد مات المعظم عيسى (٦٢٤ ﻫ) ولما وصل الامبراطور استولى على صيدا وكانت مناصفة بين المسلمين والفرنج وسورها خراب فعمر الفرنج سورها ثم ترددت الرسل بين الكامل وبين الامبراطور ولما طال الامر ولم يجد الملك الكامل بدا من المهادنة أجاب الامبراطور الى تسليم القدس اليه على أن تستمر أسوارها خرابا ولا يعمرها الفرنج ولا يتعرضوا الى قبة الصخرة ولا الى الجامع الاقصى ويكون الحكم في الرساتيق الى والى المسلمين ويكون لهم من القرى ماهو على الطريق من عكا الى القدس فقط ووقع الاتفاق على ذلك وتحالفا عليه وتسلم الامبراطور القدس ورجع الى عكا وركب البحر الى بلده (٦٢٦ ﻫ) وفي سنة ٦٣٥ سار الكامل الى دمشق واستولى عليها وكانت وفاة الملك الكامل بها في ٢٢ رجب من سنة ٦٣٥ المذكورة ودفن بقلعتها وكانت مدة حكمه ٢٠ سنة وكان رحمه الله ملكا جليلا مهيبا حازما حسن التدبير أمنت الطرق في أيامه وكان يباشر تدبير المملكة بنفسه واستوزر في أول ملكه وزير أبيه صفي الدين بن شكر فلما مات ابن شكر لم يستوزر أحدا بعده وكان الكامل يخرج بنفسه ينظر في أمور الجسور عند زيادة النيل واصلاحها فعمرت ديار مصر في أيامه وكان محبا للعلماء ويجالسهم ولما مات الملك الكامل بدمشق كان معه الملك الناصر داود صاحب الكرك فاتفق رأى الامراء على تحليف العسكر للملك العادل أبي بكر بن الكامل وهو حينئذ نائب أبيه بمصر فحلف له جميع العسكر

العادل بن الكامل ٦٣٥ - ٦٣٧ ﻫ - لما وصل خبر وفاة الملك الكامل الى مصر بايع المصريون ابنه سيف الدين أبا بكر الملقب بالعادل وعين الامير يونس بن مودود بن العادل أميرا على سوريا ولكنه تبادل مع الملك الصالح نجم الدين أيوب أمير ما بين النهرين فأتى الاخير الى سوريا وذهب

Digitized by Google

الاول الى ما بين النهرين وكان غرض الصالح بن الكامل اختلاس ملك مصر من أخيه العادل وفي خلال ذلك خرج صاحب الكرك الناصر داود الى القدس وكان الفرنج عمروا قلعتها فحاصرها وفتحها وخرب القلعة وخرب برج داود (٦٣٧ هـ) وفيها أفرج الناصر داود عن ابن عمه الملك الصالح أيوب من معتقله وكان قاصدا الاستيلاء على ديار مصر فوقع بنابلس في اعتقال الملك الناصر داود واعتقله في الكرك ولما خرج منها سارا الى قبة الصخرة وتحالفا على أن تكون ديار مصر للصالح أيوب ودمشق والبلاد الشرقية للناصر وسارا لمحاربة الملك العادل بن الكامل فبرز العادل بعسكر مصر ونزل على بلبيس لردهما ثم الا أن امراءه قبضوا عليه بدسيسة وقيدوه وخلعوه يوم الجمعة ٨ ذي الحجة سنة ٦٣٧ هـ وبايعوا أخاه الملك الصالح فسجنه بقلعة الجبل الى أن قتله الصالح بها (٦٤٠ هـ)

الصالح نجم الدين ايوب بن الكامل ٦٣٧ - ٦٤٨ هـ - قال أبو الفداء لما استقر الملك الصالح أيوب في ملك مصر وصحبته الناصر داود وحصل عند كل واحد منهما استشعار من صاحبه وخاف الناصر داود أن يقبض عليه فطلب دستورا وتوجه الى بلاده الكرك وغيرها وأمر بعد سنة بالقبض على أيبك الاسمر مقدم المماليك الاشرفية وعلى غيره من الامراء الذين قبضوا على أخيه وبايعوه مكانه وقتلهم ونصب مكانهم آخرين اهـ وشرع في بناء قلعة في جزيرة مصر المعروفة الآن بالمنيل والروضة واتخذها مسكنا لنفسه ويقال ان سبب بنائها أنه لما استكثر من مشترى المماليك ضاقت بهم القاهرة فصاروا يشوشون على الناس وينهبون البضائع من الدكاكين فضجت منهم الخلق فلما بلغه ذلك بنى لهم القلعة المذكورة بالروضة بالقرب من المقياس وأسكنهم فيها وجعل لهم حول تلك القلعة شواني حربية مشحونة بالسلاح لتكون معدة لقتال الفرنج ومن وقتئذ سماهم المماليك البحرية ثم في سنة ٦٤٢ وقع الخلاف بين الصالح بن الكامل وبين عمه الملك الصالح اسماعيل صاحب دمشق أدى الى القتال واستعان صاحب دمشق بالصليبيين الذين في عكا ووعدهم بجزء من بلاد مصر فخرجت الفرنج لمساعدته ولكنهم انهزموا بظاهر غزة واستولى الصالح أيوب على غزة والسواحل وبيت المقدس وعلى دمشق (٦٤٤ هـ) وهزم الخوارزمية شر هزيمة وأهم الحوادث التي حصلت في أيام الصالح أيوب قيام لويس التاسع (Louis IX) ملك فرانسا المعروف بسنت لويس (Saint Louis) بحملته الصليبية السابعة (١٢٤٨ - ١٢٥٢ م) وذكر جان دوجوانفيل (Joinville) وكان رافق ملك فرانسا في هذه الحملة أن اخوة الملك الثلاثة الفونس دوتولوز (Alphonse de Toulouse) وروبيرار توار (Robert d'Artois) وشارل دانجو (Charles d'Anjou) والملكة مارغريت زوجته (Marguerite) وكثيرا من الامراء والاشراف اشتركوا مع الملك في هذه الحملة وكانت القوة التي استصحبها معه مؤلفة من ٥٠,٠٠٠ مقاتل والاسطول يتركب من ١٢٠ سفينة كبيرة و ١٥٠٠ صغيرة وقصد أولا جزيرة قبرص وكان حاكمها وقتئذ هنري أصغر أولاد أموري دولوسينيان وذكر غيره أنه بعد وصوله اليها رتب جيشه ثم قصد ثغر دمياط (٦٤٧ هـ) وحاصرها ثم ملكها من بني كنانة كان أنزلهم الصالح بها حامية فلما بلغ الخبر الى الصالح وهو بدمشق كر راجعا الى مصر ونزل في عصائب المسلمين لقتالهم وقد أصابه بالطريق وعك وأرسل الجنود لحصارهم واستمر محاصرا لهم الى أن توفي

في

فى شعبان سنة ٦٤٧ هـ وكان رحمه الله مهيبا عالى الهمة عفيفا طاهر اللسان والذيل وأخفت زوجته شجرة الدر موته حذرا من الفرنج وتفرق الجنود وقامت بالامر أحسن قيام وكانت تركية لا نظير لها فى النساء والرجال بعد أن أخبرت أهل الدولة بما فعلت فاستحسنوه وبقى الامر على ذلك والناس تعلم أن السلطان مريض ولا سبيل لاحد عليه الى أن حضر ابنه توران شاه وكان غائبا بحصن كيفا فبايعوه ثم تقدم الفرنج الى المنصورة وجرى بينهم وبين المسلمين واقعة عظيمة فى مستهل رمضان ولم ينل الفرنج من المنصورة شيأ لقوة المسلمين ثم جمع ملك فرانسا جيوشه وسار بهم طالبا القاهرة فصبر المصريون الى أن عبر الفرنج الخليج المتفرع من النيل المسمى أشمون فقاتلوا هنالك قتالا شديدا وانجلت الحروب عن كسرة الفرنج برا وبحرا وأخذ المسلمون من مراكبهم اثنين وثلاثين مركبا منها تسع شوان فضعف الفرنج لذلك فارسلوا يطلبون أن يسلموا دمياط ويسلم السلطان لهم القدس وبعض السواحل الشامية وكان الصالح أراد أن يسلمها لهم أولا بشرط أن يرحلوا فطمعوا ولم يقبلوا فلم تقع الاجابة الى ذلك ثم أقام الفرنج قبالة المسلمين بالمنصورة وفنيت أزوادهم وانقطع عنهم المدد فى دمياط فلم يبق لهم صبر على المقام فرحلوا متوجهين الى دمياط وركب المسلمون أكتافهم وبذلوا فيهم السيف فلم يسلم منهم الا القليل وقتل منهم أكثر من ثلاثين ألفا وانحاز ملكهم لويز التاسع ومن معه من خواصه وأكابره الى بلد هنالك وطلبوا الأمان فأمنهم الطواشى محسن الصالحى ثم أحضروا الى المنصورة وقيد ملكهم وحبس فى دار ابن لقمان ووكل به الطواشى صبيح ثم انعقد الصلح معه على تسليم دمياط وأن يطلق هو ومن معه من أمرائه ويدفع ٨٠٠,٠٠٠ دينار وقيل أكثر من ذلك فأطلق وأقلع مع أصحابه الى عكا سنة ٦٤٨ هـ وفى خلال ذلك قتل الملك المعظم يوم الاثنين لليلة بقيت من المحرم ٦٤٨ هـ قتله بعض مماليك والده البحرية بعد نزوله بفارسكور ويقال ان أول من ضربه ركن الدين بيبرس الذى صار سلطانا فيما بعد فهرب الملك المعظم منهم الى البرج الخشبى الذى نصب له بفارسكور فأطلقوا فى البرج النار فهرب المعظم منه طالبا البحر ليركب فى حراقته فحالوا بينه وبينها فطرح نفسه فى البحر فادركوه وقتلوه وكانت مدة حكمه شهرين وأياما وكان يعتمد على بطانته ويطرح جانب أمراء أبيه فلذا قتلوه

شجرة الدر (٦٤٨ هـ) — لما قتل الملك المعظم اجتمعت الامراء واتفقوا على أن يقيموا شجرة الدر زوجة الملك الصالح فى المملكة وأن يكون عز الدين أيبك الجاشنكير الصالحى المعروف بالتركمانى أتابك العسكر وحلفوا على ذلك وخطب لشجرة الدر على المنابر وضربت السكة باسمها وكان نقش السكة المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة الملك المنصور خليل وكانت شجرة الدر قد ولدت من الملك الصالح ولدا مات صغيرا وكان اسمه خليل فسميت والدة خليل وكانت توقع بذلك ثم نصبت الاعلام السلطانية على حصون دمياط يوم الجمعة لثلاث مضين من صفر من هذه السنة ٦٤٨ وركب سان لويز البحر مع من سلم معه وأقلعوا الى عكا كما مر وانتشر خبر هذا النصر المبين فى سائر الاقطار ثم عادت العساكر الى القاهرة وبعد عودة ملك فرانسا الى بلاده جهز الجنود واستصحب معه أولاده الثلاثة واخوته وكثيرا من أقاربه وأعيان وأمراء بلاده وقصد تونس لأمر جرى بينه وبين ملكها وهى الحملة الصليبية الثامنة ويقال ان أخاه شارل دانجو ملك نابولى حرضه على ذلك لامر كان يضمره فى نفسه طمعا فى نوال تخت فرانسا وكان جيش سانت لويس ٦٠ ألف من ثلاثين ألف مقاتل

وعمارته مؤلفة من ثلاثمائة سفينة كبيرة وصغيرة وحاصر تونس سنة ٦٦٨ ﻫ (١٢٦٩ م) وكانت هذه الحملة هي آخر الحروب الصليبية التي قامت بها الفرنج على المسلمين وحصل لهذا الملك فيها ما حصل وأخيرا أصابه مرض الوباء ومات (١٢٧٠ م) كما ذكرناه في تاريخ تونس واجتمع أمراء الفرنج على ابنه الاكبر فيليب (Philippe le Bel) فبايعوه ولم ينل شارل دانجو ما أضمره وقد أخذت شجرة الدر تتقرب من أرباب الدولة فخلعت عليهم الخلع الثمينة وأنعمت عليهم بالرتب والمناصب وأمالت القلوب بتخفيض الضرائب ومع كل ذلك لم تصل الى ما ترغب وأنفذ أهل الشام الى الخليفة العباسي في بغداد يستفتونه في الامر فكتب اليهم ما معناه (اذا لم يكن بينكم من يصلح للسلطنة أقدم اليكم فأقيم عليكم من يحكم فيكم) فاستمسك مماليك مصر بهذه الفتوى وثار رفقاؤهم في دمشق وخلعوا طاعة شجرة الدر وقطعوا الدعاء لها وقامت حروب بين أمراء سوريا ومماليك مصر وتمكن عزالدين أيبك في هذه الثورات من الاستقلال بحكم مصر وألجأ شجرة الدر الى التنازل وانقرضت بها دولة بني أيوب

﴿ الفصل الثالث عشر ﴾

﴿ دولة المماليك الترك الاولى المعروفة بالبحرية ﴾

(٦٤٨ – ٧٨٤ ﻫ)

قال ابن خلدون إن الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل بن العادل قد استكثر من المماليك الترك ومن في معناهم من التركمان والارمن والروم وجركس وغيرهم الا أن اسم الترك غالب على جميعهم لكثرتهم ومزيتهم وكانوا طوائف متميزين بسمات من ينسبون اليه من نسب أو سلطان فمنهم العزيزية نسبة الى العزيز عثمان بن صلاح الدين ومنهم الصالحية نسبة الى الصالح أيوب ومنهم البحرية نسبة الى القلعة التي بناها الصالح بين شعبتي النيل ازاء المقياس بما أنهم كانوا حاميتها وكان هؤلاء البحرية شوكة دولته وعصابة سلطانه وخواص داره اﻫ وأما تسميتهم بالبحرية فلا نه لما أسكنهم الصالح قلعة الروضة التي بناها بالقرب من المقياس جعل حول تلك القلعة شواني حربية مشحونة بالسلاح وبأولئك المماليك فصاروا يتدربون على الاعمال البحرية وبذلك سموا البحرية كما تقدم وفي قول آخر ان نقطة اقامتهم يتفرع عندها النيل الى فرعين وكان يدعى عند نقطة تفرعه بالبحر لعظم اتساعه هناك فسمى هؤلاء المماليك بالمماليك البحرية ومنها اشتق اسم دولتهم

ايبك الجاشنكير (٦٤٨ ﻫ) — لما قامت المنازعات بخصوص ملك مصر اتفق كبراء الدولة على اقامة عزالدين أيبك الجاشنكير الصالحي في السلطنة لعدم تعود الاسلام على حكومة النساء لاسباب لا تخفى قال أبو الفداء فأقاموا أيبك المذكور وركب بالصناجق السلطانية وحملت الغاشية بين يديه يوم السبت آخر ربيع الآخر من هذه السنة ولقبوا الملك المعز وأبطلت السكة والخطبة التي كانت باسم شجرة الدر اﻫ وهو أول من تملك مصر من المماليك وتزوج بشجرة الدر فانضم حزبها الى حزبه ثم حصل انقسام بين حزبه وحزب الصالحية وفاز الاخير وألزموا أيبك الجاشنكير بمبايعة الاشرف في ٥ جمادى الآخرة سنة ٦٤٨ ﻫ

Digitized by Google

الاشرف مظهر الدين موسى ٦٤٨ - ٦٥٥ هـ - لما أقامه الامراء مشاركا للملك المعز عز الدين أيبك التركمانى بعد خلع الملكة شجرة الدر أم خليل وكان ذلك حين ورود الخبر باستيلاء الملك المغيث عمر بن العادل الصغير على الكرك والشوبك وأخذ الملك السعيد قلعة الصبيبة وكان عمره لما ملك ست سنين وصارت المراسيم تبرز عن الملكين لكن لم يكن للاشرف سوى الاسم وكانت الامور معلقة فى الحقيقة بالملك المعز ايبك وفى خلال ذلك قصد الملك الناصر يوسف صاحب الشام الديار المصرية فقام المعز أيبك التركمانى فى جماعة من البحرية وصد الناصر وبعد حروب انهزم الناصر الى الشام وتشتت جيشه وعاد أيبك الى القاهرة مع البحرية منصورين ثم عادت الحروب سنة ٦٤٩ هـ فى جهات غزة وأخيرا انتهت باستقرار الصلح بين الطرفين على شرط أن يكون للمصريين الى نهر الاردن وللملك الناصر ماوراء ذلك ٦٥٠ هـ وأخذ المعز أيبك يسعى للاستقلال بالسلطة فقتل خوشداشه افطاى الجدار ولما علمت البحرية بذلك هربوا من ديار مصر الى الشام فصفا له الجو فاستقل بالسلطة وأبطل اسم الاشرف موسى المذكور منها بالكلية (٦٥٢ هـ) ثم قامت حروب أخرى بين المعز ايبك وبين الناصر ومشى نجم الدين الباذراى فى الصلح بين المصريين والشاميين واتفق الحال على أن يكون للملك الناصر الشام جميعه الى العريش ويكون الحد بئر القاضى وهو بين الورادة والعريش وبيد المعز أيبك الديار المصرية وانفصل الحال على ذلك (٦٥٣ هـ) وفى ٢٣ ربيع الاول ٦٥٥ قتل الملك المعز ايبك قتلته امرأته شجرة الدر وسبب ذلك أنه بلغها انه خطب بنت بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وكان رحمه الله شديد المعاملة شجاعا شيد فى خلال حكمه عمارات عظيمة منها مدرسة دعاها المدرسة المعزية بناها على ساحل النيل فى مصر العتيقة

المنصور نور الدين ٦٥٥ - ٦٥٧ هـ - لما ظهر الخبر بقتل عز الدين أيبك أراد مماليكه قتل شجرة الدر فمانعت عنها المماليك الصالحية فاتفقت الكلمة على اقامة نور الدين على ابن الملك المعز ولقبوه الملك المنصور وعمره يومئذ خمس عشرة سنة ونقلت شجرة الدر من دار السلطنة الى البرج الاحمر وصلبوا الخدام الذين اتفقوا معها على قتل المعز ايبك وفى يوم ١٦ ربيع الآخر من السنة المذكورة قتلت شجرة الدر وألقيت خارج البرج وحملت الى تربة كانت عملتها لنفسها فدفنت فيها وكانت تركية الجنس وقيل أرمنية وحصلت حروب بين المصريين والمماليك البحرية وكان مع البحرية عسكر المغيث صاحب الكرك الذين التجؤا اليه بعد أن طردهم الملك الناصر يوسف صاحب الشام لما قاموا عليه يريدون أن يفتكوا به فهزمهم المصريون وكان مع البحرية بيبرس البندقدارى الذى صار ملكا بمصر كما سيأتى وأهم الحوادث التى حصلت فى عصر نور الدين استيلاء هلاكو ملك التتار على بغداد وانقراض الدولة العباسية كما بيناه فى الجزء الاول من هذا الكتاب قال ابن خلدون ان التتر من شعوب الترك وان الترك كلهم من ولد كومر بن يافث بن نوح عليه السلام ومساكنهم بلاد الصين مما وراء نهر سيحون وهم أمم كثيرة وسيحون نهر مما وراء النهر قرب خجندة بعد سمرقند وهو فى حدود بلاد الترك ويطلق أيضا على نهر الهند وأما جيحون فهو نهر خوارزم وجيحان نهر بالشام وفى سنة ٦٥٦ هـ كان استيلاء التتر على بغداد وانقراض الدولة العباسية اهـ ثم بعد ذلك سار التتار واستولوا على كثير من البلاد وفى خلال ذلك أقبل شرف الدين هبة الله من

Digitized by Google

الوصاية على نور الدين ونصب بدله سيف الدين قطوز ولقب باتابك ولما تمكن سيف الدين من المنصب استقدم اليه المماليك من الشام واتفق معهم على خلع نور الدين بدعوى صغر سنه وعدم لياقته للاحكام فانزلوه فى ٤ ذى القعدة سنة ٦٥٧ ﻫ وبايعوا سيف الدين قطوز

سيف الدين المظفر قطوز ٦٥٧ - ٦٥٨ ﻫ - لما بويع له بملك مصر لقب بالملك المظفر وكان علم الدين الغتمى وسيف الدين بهادر وهما من كبار المعزية غائبين فى رمى البندق فانتهز قطوز الفرصة فى غيبتهما وفعل ذلك ولما قدم الغتمى وبهادر المذكوران قبض عليهما قطوز أيضا واستقر فى ملك مصر وفى خلال ها سار هولاكو الى شرقى الفرات وفتح حوران واستولى على بلاد الجزيرة وأرسل ولده سموط بن هولاكو وفتح بلاد الشام جميعه وأخذ كل من الملك الناصر يوسف صاحب الشام والملك المنصور صاحب حماة بمحاربة التتار ثم ذهبا الى مصر بجيوشهما وقابلهما الملك المظفر قطوز بالصالحية وطيب قلوبهما ولما استفحل أمر التتار جهز الملك المظفر قطوز العساكر الاسلامية وخرج بهم الى الشام لقتال التتار فتقابل معهم وكانوا تحت قيادة كتبغا نائب هولاكو على الشام عند عين جالوت يوم ٢٥ رمضان سنة ٦٥٨ ﻫ وبعد وقائع انهزم التتار هزيمة قبيحة وأخذتهم سيوف المسلمين وقتل مقدمهم كتبغا واستؤسر ابنه وتعلق من سلم من التتار برؤس الجبال وتبعهم المسلمون فافنوهم وتعقبوا الفارين منهم وأعادت جيوش مصر فتح حماة ودمشق وباقى بلاد الشام وعادت منصورة ثم بعد ما قرر الملك المظفر قطوز أمر الشام سار من دمشق الى البلاد المصرية وكان اتفق البندقدارى الصالحى مع أنص مملوك نجم الدين الرومى الصالحى والهارونى وعلم الدين صوغان أوغلى على قتل المظفر قطوز وساروا معه يتوقعون الفرصة فلما وصل قطوز الى القصير بطرف الرمل وبينه وبين الصالحية مرحلة من القرين قتله هنالك بيبرس البندقدارى بمساعدة حلفائه وكان ذلك يوم ١٧ ذى القعدة من سنة ٦٥٨ ويقال انه نقل من القرين ودفن فى مدرسة بالقرب من زاوية الشيخ خلف وخلفه على ملك مصر الامير البندقدارى

ركن الدين بيبرس البندقدارى ٦٥٨ - ٦٧٦ ﻫ - ويعرف بالصالحى والنجمى لما قبض على الاحكام بمصر بعد قتله المظفر تلقب بالقاهر ثم تشاءم من ذلك وتلقب بالظاهر واستوزر بهاء الدين وجعل بيليك خازندارا له وكان من أكبر المتقربين اليه ثم أمن من بقى من عائلة قطوز وأبطل كثيرا من الضرائب وأعلنها على المنابر ولما قام أهل الشام بعصيانهم وبايعوا الامير سنقر حاكم حلب سار اليهم بجيشه وأخذ ثورتهم وعاد الى مصر وأخذ يصلح شؤنها الداخلية وفى خلال ذلك حضر من بغداد شخص من بنى العباس وبويع له بالخلافة فانتقلت الخلافة من وقتئذ الى مصر بعد انقراضها من بغداد كما مر

الخلافة العباسية بمصر - اعلم أنه فى شهر رجب من سنة ٦٦٠ ﻫ قدم شخص الى مصر من بنى العباس الذين سلموا من قتل التتار فى بغداد واسمه أحمد بن الظاهر بن الناصر فعقدوا له مجلسا بمصر حضره عز الدين بن عبد السلام شيخ الاسلام وغيره من القضاة والعلماء ومشايخ الصوفية والطرق وسائر الامراء وأرباب الدولة والسلطان الظاهر بيبرس بنفسه وأثبتوا نسبه وعلى هذا يكون عم المستعصم وجاء بجماعة من العرب العارفين به فشهدوا بنسبه فبايعه السلطان الظاهر بيبرس

والقضاة

والقضاة والعلماء والناس بالخلافة ولقبوه بالمستنصر بالله وبايع الملك الظاهر بيبرس بالسلطنة وفوّض اليه أمر البلاد الاسلامية وما يضاف اليها واحتفل السلطان به وصلى الامام أحمد بالناس صلاة الجمعة بجامع القلعة وخطب فيهم خطبة بليغة أثنى فيها على فضل الملك الظاهر الذى ردّ الخلافة لبنى العباس ثم جهز السلطان مع الامام أحمد جيشا لقتال التتار واسترداد بغداد وقبل أن يصل الى بغداد هزمه التتار وقتلوه ونهبوا ما كان معه وكان التتار تحت قيادة قره بغا نائب هولاكو على بغداد ثم حضر شخص آخر من بنى العباس الذين سلموا من قتل التتار يدعى أحمد أيضا فعقد له الملك الظاهر مجلسا جمع فيه القضاة وفعل به كما فعل أوّلا وكان قد حضر معه الامير عيسى بن مهنا وجماعة كثيرة من العرب فشهدوا بين يدى قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الاعز بان الامام أحمد هذا هو ابن حسن بن أبى بكر ابن الخليفة المسترشد ابن الخليفة المستظهر فثبت ذلك وحكم بصحته وبايعه الظاهر بيبرس والعلماء ولقبوه بالحاكم بأمر الله وتولى الخلافة وبايع الملك الظاهر بالسلطنة وأشركه السلطان فى الدعاء لا غير ومن وقتئذ صارت القاهرة مقر الخلفاء العباسيين يبايعهم سلاطينها وليس بيدهم من الملك والتصرف شئ بل الامر بيد السلاطين واستمر ذلك الى دخول السلطان سليم خان الاول مصر منة ٩٢٢ ﻫ وانتقال الخلافة الاسلامية لبنى عثمان كما سيأتى

وفى سنة ٦٦١ ﻫ جهز الملك الظاهر جيشا وسار به من مصر الى الشام وأغار على عكا وأعمالها وهى بيد الفرنج فغنم وهاجها ثانية وهدم برجا كان خارج البلد وهدم الكنيسة المسماة بالناصرة وبعث السرايا الى انطاكية وبلادها فغزوا وغنموا ثم فتح قيسارية من يد الفرنج وفتح طرابلس والقليعات وعرقا وفى خلالها قبض الظاهر على المغيث صاحب الكرك وأرسله معتقلا الى مصر وفى سنة ٦٦٤ ﻫ سار الظاهر بجيشه الى أرمينيا واستولى على عاصمتها سيس وعلى سائر بلادها وفيها فتح صفد وعاد الى مصر ثم توجه فى سنة ٦٦٦ ﻫ بجيش عظيم الى الشام وفتح يافا من يد الفرنج وملك انطاكية بالسيف وكذا بغراس (٦٦٩ ﻫ) ونازل حصن الاكراد وملكه ثم رحل الى حصن عكا ونازله الى أن ملكه وملك أيضا حصن القرين وفى سنة ٦٧٠ اقتحم الفرات وحارب التتار وهزمهم وعاد الى مصر وفى سنة ٦٧٣ توجه الى بلاد سيس ودخلها بجيشه وغنم ورجع الى دمشق وفى سنة ٦٧٥ غزا بلاد الروم بعساكره المتوافرة والتقى فى طريقه بجيش من التتار فقاتلهم وهزمهم وكان ملكهم يقال لهم بغا فهرب فتبعه السلطان الى نحو بلستين فكانت بينهما هنالك واقعة عظيمة قتل فيها من الفريقين نحو مائة ألف فانكسر بغا ملك التتار وهرب وتبعه السلطان الى زبيد ثم رجع بعد أن قتل كثيرا منهم وفى سنة ٦٧٥ ﻫ كان ابتداء عمل المحمل بأمر السلطان الظاهر بيبرس وصاروا يطوفون به فى مصر قبيل خروجه لترغيب الناس فى الحج وحثهم عليه ثم يسافرون به مع كثير من الحجاج من طريق البر وعند رجوعهم يزورون قبر فخر الكائنات عليه أفضل الصلاة والسلام وفى السنة المذكورة حج الملك الظاهر بنفسه وزار الحجرة النبوية وتصدق بصدقات كثيرة على أهل الحرمين وغسل الكعبة بيده بماء الورد ثم رجع وكانت وفاته فى دمشق يوم الخميس ١٨ محرم سنة ٦٧٦ ﻫ ومدة ملكه ١٧ عاما وكان رحمه الله ملكا عظيما جليلا مهيبا كثير الغزوات وكان المصريون يلقبونه بأبى الفتوحات لكثرة فتوحاته وخلف من الاولاد عشرة ثلاثة ذكور وسبع إناث ولما توفى الملك الظاهر كتم الامير بيليك نائب السلطنة خبر موته خوفا من التتار ثم احتاط على خزائن المال

Digitized by Google

وقصد مصر وهو يظهر مرض السلطان ورتب حضور الاطباء على العادة واستمر على ذلك حتى دخل مصر وطلع قلعة الجبل ثم أعلن موت السلطان وتسلطن ولده الملك السعيد وكان الظاهر رحمه الله محبا للعمار فجدد الحرم النبوى وجدد عمارة قبة الصخرة ببيت المقدس وأنشأ بمصر وأعمالها قناطر شبرامنت وعمر سور الاسكندرية وجدد بناء المنارة التى بها وردم فم بحر دمياط بالقراميص حتى لاتدخل اليه مراكب الفرنج كامر وأعاد شأن البحرية فعمر الشوانى وشحنها بالرجال وشيد دار الصناعة وصار يصنع فيها كثيرا من السفن وجدد عمارة الجامع الازهر وأعاد الخطبة فيه وعمر الجامع الكبير وشيد المدرسة التى بين القصرين وحفر الخليج ومن آثاره قناطر السباع التى عملت لتوصيل الماء من النيل الى قلعة الجبل وجعل عليها سباعا من الحجارة وبها سميت وهى المعروفة الآن بالعيون وكان يحضر بنفسه التمرينات العسكرية وحركات رمى النشاب والالعاب بالرمح ورتب البريد فكان يصل الخبر من الشام الى مصر فى أربعة أيام وصار بذلك يحكم فى ممالكه بالعزل والولاية وهو مقيم فى القلعة وعين فى مراكز البريد الخيل المعدة للركوب وجعل لها سواسا يعرفون بالسواطين ولا يركب أحد خيل البريد الا بمراسيم سلطانية وكان بمراكز البريد كل ما يحتاجه المسافر ولذلك كانت الطرق فى أمن فكانت المرأة تسافر وحدها من غير أن يصيبها خوف ولا ضرر

السعيد بركة محمد ناصر الدين برقة خان ٦٧٦ - ٦٧٨ هـ - بويع له بعد وفاة أبيه باتفاق الامراء ولقبوه بالملك السعيد وأقاموا له الامير بيليك الخازندار اتابكا وكان من مماليك والده فقام باعباء المملكة أحسن قيام ولكنه لم يلبث طويلا فمات واختار السعيد آق سنقر الفرقانى فاتح النوبة نائبا للسلطنة وبعد قليل قبض عليه وسجنه بثغر الاسكندرية ثم خنقه بها فخاف الامراء وأضمروا للسلطان السوء وحركوا ثورة بدمشق اضطر الملك السعيد أن يسير اليها بالجيوش واستصحب معه الامير سيف الدين قلاوون الصالحى وكان القائم بها شمس الدين سنقر أمير دمشق مدعيا الملك لنفسه وتلقب بالكامل فلما وصل السعيد ونزل بالقصر الابلق الذى كان شيده أبوه أخذ يتحرى أسباب الثورة فعلم انها دسيسة من الامراء اتفقوا عليها لخلعه فتركهم وعاد مسرعا الى مصر ونزل بقلعة الجبل فحضرت العساكر التى خرجت عن الطاعة بعد سفره وحاصروه بالقلعة (٦٧٨ هـ) فاضطر الى تسليم نفسه اليهم فسقط بذلك اعتباره وهموا بقتله فمنعهم الخليفة الحاكم بأمر الله العباسى من ذلك فخلعوه وأرسلوه الى قلعة الكرك (ربيع أول ٦٧٨ هـ) ومات فيها عقب سقوطه عن جواده وبايعوا أخاه سلامش بن بيبرس

سيف الدين سلامش ٦٧٨ هـ - لما بايعه الامراء بعد خلع أخيه لقبوه بالملك العادل وكان عمره سبع سنين ونصفا وأقاموا له الامير سيف الدين الالفى وصيا وكان يخطب له وللعادل على المنابر وكان الامر كله لوصيه المذكور ثم طمع فى الملك فقبض على جماعة من الامراء الظاهرية وأرسلهم لسجن الاسكندرية وأعقبها بخلع الملك العادل وأرسله مع أخيه سيدى خضر الى قلعة الكرك وطلب من الناس المبايعة لنفسه فبايعوه يوم الاحد ١٦ رجب من السنة المذكورة

سيف الدين قلاوون - ٦٧٨ - ٦٨٩ هـ - لما تمت له المبايعة بعد خلع العادل تلقب بالمنصور واستوزر فخر الدين وكان كاتب سره ثم جعل ابنه الملك الصالح ولى عهده (٦٧٩ هـ)

Digitized by Google

وفيها قامت ثورة في الشام فبعث قوة تحت قيادة الامير طرطباى لاخمادها فحارب الملك الكامل صاحب دمشق حتى اضطره الى التسليم وقبض عليه وجاء به الى القاهرة وسجن فيها وولوا على دمشق وأتباعها الامير حسام الدين لاجين (٦٨٠ هـ) وفي السنة التي بعدها حارب المصريون جيشين للتتار الاول كان تحت قيادة أباكه خان والثاني تحت قيادة منجوتيمورخان وكانا أغارا على الشام وهزمهما المصريون وقتل منجوتيمورخان وولى الباقي منهم الادبار وفي سنة ٦٨٠ هـ تمرد المماليك ونبذوا الطاعة فغضب السلطان غضبا أعمى بصره حتى لم يعد يميز المجرم من البريء وأعمل فيهم السيف ثلاثة أيام وغصت الاسواق بجثثهم رجالا ونساء ثم توسط العلماء فمنع القتل وندم السلطان على ما فرط منه كثيرا وبعد ذلك اهتم بتشييد المباني النافعة فبنى المستشفى الشهير المعروف بالبيمارستان وغيره من التكايا وفي سنة ٦٨٢ خرج السلطان بالعسكر لحفر خليج الاسكندرية وفي السنة التي بعدها أمر المنصور المماليك بتغيير ملابسهم ومنعهم من استعمال التحلي بالذهب والضفائر الطويلة وجعل ملابسهم على الزي العسكري وفيها فتح حصن مرقد بعد حصار ٣٣ يوما وفي سنة ٦٨٤ هـ نازل حصن المرقب وافتتحه وفي سنة ٦٨٦ أرسل جيشا مع علم الدين سنجر المسروري الخياط متولي القاهرة الى بلاد النوبة فغزا وغنم وعاد منصورا ثم توفي ابنه وولي عهده الملك الصالح علاء الدين علي بحمى محرقة (٦٨٧ هـ) فحزن عليه قلاوون حزنا شديدا ثم سار بجيشه الى الشام وفتح طرابلس عنوة وهدم كنيسة سان توماس ثم عاد الى مصر وبذا استخلص طرابلس من يد الفرنج بعد أن بقيت تحت سلطتهم ١٨٥ سنة وشهورا ولما دخل مصر حملت على رأسه القبة والطير وكان يوما مشهودا (٦٨٨ هـ) وفيها جاءت الاخبار بأن ملك النوبة هجم على مدينة أسوان ونهب أسواقها وأحرق أجرانها فجرد السلطان عليه الامير عز الدين أيبك الافرم فلما وصل الى هناك هرب ملك النوبة فتبعه القائد المذكور بعسكره الى آخر بلاد النوبة وغنم منها أشياء كثيرة وفي سنة ٦٨٩ هـ خرج السلطان الى الريدانية لغزو عكا فاشتد أمرضه ثم تزايد به المرض حتى توفي به يوم ٧ ذي القعدة من السنة المذكورة بعد أن حكم سبع سنوات وأشهرا وخلف ثلاثة أولاد من الذكور وكان رحمه الله ملكا شجاعا وبطلا مقداما في الحرب مغرما بمشترى المماليك حتى قيل انه تكامل عنده ١٢٠٠٠ مملوك وكان محبا للعمار ومن آثاره جامعه الشهير ومقامه وهما في البيمارستان الذي بين القصرين وقام بالامر بعده ابنه

الاشرف صلاح الدين خليل ٦٨٩ – ٦٩٣ هـ – لما استقر السلطان الملك الاشرف في المملكة قبض على الامير حسام الدين طرنطاى نائب السلطنة وسجنه ثم قتله وذلك لما كان بينه وبين الامير طرنطاى المذكور من العداوة من أيام والده وفوض نيابة السلطنة الى بدر الدين بيدار والوزارة الى شمس الدين محمد بن السعلوس وفي سنة ٦٩٠ سار الاشرف بالعساكر المصرية والشامية الى عكا وحاصرها وشدد عليها الحصار والقتال ولم يغلق الفرنج كل أبوابها بل كانت مفتحة وهم يقاتلون فيها وذكر في دائرة المعارف الفرنساوية انه في سنة ١٢٩١ م حاصر الاشرف عكا بعد ما استولى على طرابلس وكان بعكا وقتئذ نواب ملوك نابولى وقبرص وفرانسا وانكلترة والبابا وبطريرك أورشليم وبرنس انطاكيا وجماعة من عسكرية سان جان وفرسان التوتون الالمانيين ونواب مستعمرات البنادقة وجنوه وبيزه فاستصرخوا دول الفرنج فلم يجدوهم فدافعوا دفاع الابطال ثم

Digitized by Google

اضطروا أخيرا الى التسليم (١٦ يونيو سنة ١٢٩١) قال أبو الفداء وكان حاضرا وكانت منزلة الحموبين برأس الميمنة على عادتهم فكنا على جانب البحر والبحر عن يميننا اذا واجهناعكا وكان يحضر البنا مراكب مقبية بالخشب الملبس جلود الجواميس وكانوا يرموننا بالنشاب والجروخ وكان القتال من قدامنا ومن جهة المدينة ومن جهة يميننا من البحر وأحضروا بطة فيها منجنيق يرمى علينا وعلى خيمنا من جهة البحر فكنا منه فى شدة حتى اتفق فى بعض الليالى هبوب رياح قوية فارتفع المركب وانحط بسبب الموج وانكسر المنجنيق الذى فيه بحيث انه انحطم ولم ينصب بعد ذلك اه وبعد حروب يطول شرحها اشتدت مضايقة العساكر الاسلامية لعكا حتى فتحها الله تعالى عليهم وهرب جماعة من الفرنج فى المراكب ولما فتحت عكا وقع الرعب فى قلوب الفرنج الذين بساحل الشام فأخلوا صيدا وبيروت وتسلمها الشجاعى وكذلك هرب أهل صور فأرسل السلطان وتسلمها ثم تسلم انطرطوس واتفق لهذا السلطان من السعادة مالم يتفق لغيره من فتح هذه البلاد العظيمة الحصينة بغير قتال وخلصت الشام والسواحل من يد الفرنج بعد أن كانوا قد أشرفوا على أخذ الديار المصرية ثم عاد السلطان الى مصر وفى سنة ٦٩١ هـ سار الملك الاشرف بالجيوش الى قلعة الروم ونازلها وهى حصن على جانب الفرات فى غاية الحصانة ثم فتحت بالسيف (١١ رجب) ثم عاد السلطان الى مصر بعد أن أعطى الملك المظفر الدستور وفى سنة ٦٩٢ هـ أرسل الملك الاشرف وأحضر الملك المظفر محمودا صاحب حماة وعمه الملك الافضل على خيل البريد وأنعم عليهما وخرج السلطان على الهجن الى الكرك وجيوشه على طريق دمشق ورافقه صاحب حماة وعمه الى الكرك ثم سار ودخل دمشق وغيرها من بلاد الشام ونظم أحوالها وعاد الى مصر وفى محرم سنة ٦٩٣ هـ مات مقتولا قتله مماليك والده وهم بيدرا نائب السلطنة ولاجين الذى كان عزله عن نيابة السلطنة واعتقله وغيرهم من المماليك ولما قتل السلطان اتفق الجماعة الذين قتلوه على سلطنة بيدرا وتلقب بالملك القاهر وسار نحو قلعة الجبل ليملكها فاجتمعت مماليك الملك الاشرف وانضموا الى زين الدين كتبغا المنصورى وساروا فى اثر بيدرا فلحقوه على الطرانة واقتتلوا وانهزم بيدرا وأصحابه وتبعوا بيدرا وقتلوه ورفعوا رأسه على رمح واستتر لاجين وكان الاشرف رحمه الله من أجل الملوك اشتهر بالفتوحات وبالعمارات فانشأ قاعة الاشرفية بقلعة الجبل ومدرسة بالقرب من مزار السيدة نفيسة واليه ينسب الخان المشهور بخان الخليلى وخلفه أخوه محمد بن قلاوون

الناصر محمد بن قلاوون ٦٩٣ — ٦٩٤ هـ — بعد أن حصل ما حصل من قتل بيدرا وصل زين الدين كتبغا والمماليك السلطانية الى قلعة الجبل وبها علم الدين سنجر الشجاعى نائبا فاتفقوا على سلطنة الملك الناصر بن المنصور فأجلسوه على سرير السلطنة فى يوم مشهود وتقرر أن يكون الامير زين الدين كتبغا المنصورى نائب السلطنة وعلم الدين سنجر وزيرا وركن الدين بيبرس البرجى الجاشنكير أستاذ الدار ثم تتبعوا الامراء الذين تعصبوا على الاشرف وقبضوا عليهم وضربت رقابهم وأحرقت جثثهم ثم حصلت وحشة بين الامير زين الدين كتبغا وبين علم الدين سنجر الشجاعى ثم الامر فيها بقتل الشجاعى (٦٩٤ هـ) ولما خلا الجو لكتبغا طمع فى الملك فجعل الملك الناصر فى قاعة بقلعة الجبل وحجب عنه الناس ثم خلعه وتولى مكانه ونفاه الى الكرك ولقب نفسه بالملك العادل وخطب له بمصر والشام وضربت السكة باسمه

العادل

العادل كتبغا ٦٩٤ - ٦٩٦ هـ - لما بويع الملك العادل فى محرم من سنة ٦٩٤
جعل نائبه فى السلطنة حسام الدين لاجين المنصورى ثم أرسل وقبض على خشداشه عز الدين أيبك
الخازندار وعزله عن الحصون والسواحل بالشام ثم أفرج عنه واستناب موضعه عز الدين أيبك
الموصلى وفى سنة ٦٩٥ قدم من التتار عشرة آلاف نفس وافدين على بلاد الاسلام خوفا من غازان
ملك تبريز من العائلة الايلخانية وكان مقدمهم رجل يقال له طرغيه من أكبر أمراء المغول وكان متزوجا بابنة
منكوتمر بن هولاكو الذى انكسر جيشه على حمص قال أبو الفداء يقال لهذه الطائفة الوافدين
العويرانية وكان سبب قدومهم أن مقدمهم طرغيه هو الذى اتفق مع بيدرا على قتل كيختو بن ابغا
فلما ملك غازان قصد الامساك على طرغيه وقتله أخذا بثار عمه كيختو فهرب طرغيه وجماعته
المذكورون بسبب ذلك ولما قدموا الى الاسلام أرسل الملك العادل كتبغا أميرا لقائهم وأكرمهم
وأنزلهم بالساحل قرب قاقون وأدر عليهم الارزاق وأحضر كبراءهم عنده الى الديار المصرية
وأعطاهم الاقطاعات الجليلة وواصلهم بالخلع وقدمهم على غيرهم اهـ ويقال ان العادل أنزلهم
بالحسينية ورتب لهم الرواتب فاشتد التحاسد والتشاجر بين أهل الدولة والملك العادل وكان العادل
سار الى الشام وأقام بدمشق يقرر أمرها وفى أول سنة ٦٩٦ سار من دمشق بالعساكر يقصد مصر
فلما وصل الى نهر العرجا واستقر بدهليزه واستراحت مماليكه فى خيامهم ركب حسام الدين لاجين
المنصورى النائب بسنجق ونقاره وانضم الى لاجين بدر الدين البيسرى وقرا سنقر المنصورى وسيف
الدين قبجاق المنصورى والحاج بهادر الظاهرى وغيرهم من الامراء المتفقين وقصدوا الملك العادل
وبغتوه عند الظهر فى دهليزه بالمنزلة المذكورة فلم يمكنه أن يجمع أصحابه وركب فى نفر قليل فحمل عليه
نائبه لاجين المذكور وقتل بكتوت الازرق وبتخاص وكانا أكبر مماليك العادل فولى العادل كتبغا
هاربا راجعا الى دمشق وكان به مماليكه غزلو فقام معه بتأهب لقتال لاجين فلم يوافقه عسكر دمشق
ولما رأى منهم التخاذل خلع نفسه عن السلطنة وقعد بقلعة دمشق وأرسل الى حسام الدين لاجين
يطلب منه الامان فأعطاه صرخد

المنصور حسام الدين لاجين ٦٩٦ - ٦٩٨ هـ - لما هزم العادل كتبغا على ما ذكرناه
نزل حسام الدين لاجين بدهليزه على نهر العرجا واجتمع معه الامراء الذين وافقوه على الامر وشرطوا
عليه شروطا فالتزمها منهم على أن لا ينفرد عنهم برأى ولا يسلط مماليكه عليهم كما فعل بهم كتبغا
فاجابهم لاجين الى ذلك وأقسم لهم عليه وبعد ئذ حلفوا له وبايعوه بالسلطنة ولقب بالملك المنصور
وذلك فى محرم من السنة المذكورة ثم عاد الى مصر بجيوشه واستقر بقلعة الجبل وجعل سيف الدين
قبجق المنصورى نائب السلطنة بالشام وأفرج عن الامراء الذين حبسهم العادل ومنهم بيبرس
الجاشنكير وأخذ يرتب رجاله فى الوظائف ورد اقطاعات الاجناد اليهم وأخرجها بأسرها من دواوين
الامراء وجعل للامراء والاخيار ١١ قيراطا وللجنود ٩ قراريط ولما أمر بتخفيض مرتب الامراء
والاجناد الى عشرة قراريط تنكرت قلوب الاهالى منه وفى سنة ٦٧٩ هـ جرد الملك المنصور لاجين
جيشا كثيفا من الديار المصرية مع بدر الدين بكتاش الفخرى المعروف بامير السلاح ومعه كثير من
الامراء فساروا الى الشام ورسم بمسير عساكر الشام وساروا الى بلاد سيس من دربند مرى ومن

Digitized by Google

جهة بغراس من باب اسكندرونة واجتمعوا على نهر جيحان وشنوا الغارات على بلاد سيس وكسبوا وغنموا وفتحوا حموص وتل حمدون وكوبراوا النفير وحجر شغلان وسرفندكار ومرعش وهذه جميعها حصون منيعة وأمر الملك المنصور لاجين باستمرار عمارة هذه البلاد وكان ذلك من الآراء الفاسدة على ما سيظهر من عودة هذه البلاد الى الارمن عند دخول غازان البلاد وفى ١١ ربيع الثانى من سنة ٦٩٨ هـ مات المنصور لاجين مقتولا قتله كرجى وتوغان الكرمانى من المماليك وهو قائم يصلى العشاء فصاح عليهم القاضى حسام الدين الرازى وكان هو وجماعة من العلماء عند السلطان قائلا ويلكم كيف تقتلون أستاذكم فلم يلتفت لقوله أحد ومات وعمره ٦٣ سنة وكان رحمه الله موصوفا بالفروسية شجاعا بطلا دينا أبطل كثيرا من المكوس وبقى كرسى السلطنة خاليا ٤١ يوما تمكن فى خلالها سيف الدين طغجى من القبض على زمام السلطنة وتلقب بالملك القاهر ولم يحكم الا يوما واحدا ثم ذبحه المماليك واجتمع الامراء فى القلعة وتداولوا فيمن يولونه فوقع الاتفاق منهم على عودة الملك الناصر محمد بن قلاون من الكرك

الناصر محمد بن قلاوون ٦٩٨ - ٧٠٨ هـ - لما حصل ما ذكرناه من قتل لاجين وقتل طغجى وقرر الامراء مبايعة الناصر ثانية أرسلوا سيف الدين آل ملك وعلم الدين الجاولى الى الكرك فأحضراه الى مصر فصعد الى قلعة الجبل واستقر على كرسى ملكه يوم السبت ١٤ جمادى الاولى من السنة المذكورة وهى سلطنته الثانية وعين الامراء سيف الدين سلار نائب السلطنة و بيبرس الجاشنكير أستاذ الدار وفوض نيابة السلطنة بالشام الى جمال الدين آقوش الافرم وفى سنة ٦٩٩ هـ قصد غازان خان ملك التتار افتتاح سوريا فجهز الملك المظفر صاحب حماة الجيوش ولكنه مرض بعد ذلك ومات فوجه السلطان الناصر نيابة حماة الى قرسنقر فاستقر بها ثم سار الملك بالعساكر المصرية الى بلاد غزة بسبب حركة التتار ولم يمض القليل حتى حصلت واقعة عظيمة بين التتار والمسلمين انهزم فيها عساكر مصر وتبعهم التتار واستولوا على دمشق والقدس والكرك وكسبوا وغنموا من المسلمين شيأ عظيما ثم بعد مسير غازان عن الشام خرجت الجيوش من مصر وخرج السلطان الى الصالحية ثم تقرر مسير العساكر المصرية الى الشام تحت امرة سلار و بيبرس الجاشنكير فسار المذكوران وبلغ التتار بدمشق خافوا وساروا من وقتهم الى البلاد الشرقية وكان قبجق وبكتمر السلحدار والالبكى هربوا مع من معهم من دمشق والتحقوا بالسلطان ووصل سلار و بيبرس الجاشنكير الى دمشق وقررا أمور الشام ورتب فى نيابة السلطنة بدمشق الامير جمال الدين أقوش الافرم على عادته وجعل قطلوبك فى نيابة السلطنة بالساحل والحصون عوض سيف الدين كرد لانه استشهد فى الواقعة ثم عاد التتار الى الشام فأخذ السلطان من غالب الاغنياء بمصر والشام ثلث أموالهم لاستخدام المقاتلة وبعد تجرد جيشا جرارا للمقاتلة غازان فالتقى معه فى حمص (٧٠٠ هـ) وفيها جرد السلطان تجريدة تحت قيادة بدر الدين بكتاش أمير السلاح وأيبك الخازندار وأرسل معهما قوة أخرى من الشام فأغارت هذه الجنود على بلاد سيس (٧٠١ هـ) فأحرقت الزرع ونهبت ما وجدت وعادت وفى سنة ٧٠٢ هـ فتحت جزيرة ارواد من يد الفرنج الذين كانوا متحصنين فيها وكانوا يقطعون الطريق على المسلمين المترددين على ذلك الساحل فطلب سيف الدين استدمر الكرجى ارسال الاسطول اليها فعمرت الشوانى وسارت اليها وملكها وأسر وغنم ما بها وعاد الى الديار المصرية

Digitized by Google

وفيها عاد التتار الى الشام فأرسل زين الدين كتبغا عساكره وبعد حروب يطول شرحها انتصر السلطان الناصر عليهم فى واقعة مرج الصفر وولى التتار منهزمين مع قطلوشاه نائب غازان وهلك معظمهم فى الفرات وكان ذلك وقت زيادته وفيها مات زين الدين كتبغا وتولى بعده سيف الدين قبجق نيابة حماه وفى سنة ٧٠٣ ﻫ توفى غازان ملك التتار بنواحى الرى وخلفه أخوه خربندا ابن ارغون بن بغا بن هولاكو بن طاولى بن جنكيزخان وفى سنة ٧٠٤ ﻫ وصل الى مصر ركب كبير من المغرب وصحبتهم رسول من أبى يعقوب يوسف بن يعقوب المرينى ملك المغرب ومعه هدية عظيمة من الخيول والبغال عددها ٥٠٠ رأس من الخيل العربية بالسروج واللجم المذهبة ووصل الى مصر صاحب دنقلة وهو زنجى أسود اسمه اباى ومعه هدايا كثيرة من الرقيق والهجن والابقار والنمور والشب والسنباذج وطلب نجدة من السلطان فجردمعه جماعة من العسكر تحت امرة طقطبا نائب السلطنة بقوص وفى سنة ٧٠٥ أرسل قرا سنقر نائب حلب مع مملوكه قشمز جيشا للاغارة على بلاد سيس فلم ينجح بل فشلت جنوده وفى سنة ٧٠٨ ﻫ أظهر السلطان الناصر أنه يقصد الحجاز وسافر الى الكرك ولما وصلها بعث جمال الدين أقوش نائبه بالكرك الى مصر يعلم الناس أن السلطان كره الاقامة بمصر لتغلب بيبرس وسلار عليه وفى ٢٥ رمضان وصل كتاب الناصر الى المماليك بمصر حاملا بتنازله ومفوضا لهم الامر فى مبايعة من أرادوا فبايعوا الامير ركن الدين بيبرس الجاشنكير

المظفر ركن الدين بيبرس ٧٠٨ — ٧٠٩ ﻫ لما بايع الامراء بيبرس تلقب بالملك المظفر وأرسل الى نواب السلطنة بالشام فحلفوا له عن آخرهم وكتب تقليدا للسلطان بالكرك ومنشورا بما عينه له من الاقطاع وأرسلهما اليه وملك الفرنج الاسبتارية جزيرة رودس وأخذوها من صاحب القسطنطينية وشكلوا فيها حكومة تعرف بحكومة الشفاليه أى الفرسان وقد اشتهروا بعد ئذ باللصص فى البحار وصعب بسبب ذلك على التجار الوصول فى البحر الى هذه الجزيرة لمنع الاسبتارية لهم من الوصول الى بلاد الاسلام وفى أواخر هذه السنة قدم الفرنج بموافقة صاحب قبرص لغزو دمياط بحرا فاتفق الامراء فى القاهرة على اصلاح جسر النيل الممتد من القاهرة الى دمياط لئلا يتعذر على الجنود الذهاب من القاهرة الى دمياط أيام الفيضان وقد كان وصنع فى شهر واحد وفى سنة ٧٠٩ ﻫ سار جماعة من المماليك من مصر مفارقين طاعة بيبرس الجاشنكير ووصلوا الى الكرك وأعلموا السلطان الناصر بما الناس عليه من طاعته ومحبته فأعاد السلطان خطبته بالكرك ووصلت اليه مكاتبات عسكر دمشق يستدعونه وأنهم باقون على طاعته وجاءته النداآت من كل جانب فسار بمن معه من الكرك وقصد دمشق ونزل بالقصر الابلق وأعاد فيها الخطبة لنفسه وأمن الناس ولما تكاملت العساكر سار بهم تاسع رمضان يقصد ديار مصر ولما بلغ بيبرس الجاشنكير ذلك جرد عسكرا وقصد الصالحية لمقاومة السلطان ولكن لما وصل السلطان الى غزة قدم له الطاعة معظم عسكر مصر ولما تحقق بيبرس ذلك خلع نفسه من السلطنة وأرسل مع ركن الدين بيبرس الداودارى يطلب من السلطان الامان فأجابه وأعطاه صهيون الا أنه هرب الى الصعيد أولا

الناصر بن قلاوون ٧٠٩ — ٧٤١ ﻫ — لما وصل السلطان الى قلعة الجبل واستقر على سرير ملكه فى أول يوم من شوال وبعث من قبض على الملك المظفر الجاشنكير بقرب غزة وكان

Digitized by Google

بقصد المسير الى صهيون فاحضر مقيدا بالحديد فاعتقله بقلعة الجبل ثم قتل ثم قبض على سلار واحتاط على غالب موجوده لبيت المال وكان شيأ كثيرا (٧١٠ ﻫ) وفيها قلد السلطان الملك المؤيد اسمعيل أبا الفداء نيابة حماة والمعرة وبارين وقد أبطل السلطان عيد الشهيد الذى كان يفعله الاقباط زعما منهم أن النيل لا يزيد الا به وأبطل كثيرا من الضرائب الظالمة وفى سنة ٧١٥ ﻫ أرسل عسكرا ضخما من مصر ومن الشام وفتح ملطية من يد الارمن وكانت قاعدة الثغور وفى سنة ٧٢٠ ﻫ سارت عساكر من مصر والشام وحماة وحلب ودخلوا بلاد سيس ونازلوا قلعتها حتى بلغوا السور فغنموا غنائم كثيرة وفى سنة ٧٢٢ ﻫ توجهت العساكر المصرية حتى نازلوا اياس من بلاد سيس وحاصروها وملكوها بالسيف وفى سنة ٧٣٥ ﻫ غزا عسكر حلب بلاد سيس وضربوا فى جهات أذنة وطرسوس وأحرقوا الزرع واستاقوا المواشى وعادوا بمائتين وأربعين أسيرا وكانت العساكر عشرة آلاف سوى من تبعهم وكانت وفاة الناصر يوم ١٢ ذى الحجة من سنة ٧٤١ ومدته الاخيرة ٣٢ سنة وأشهر ومات وله من العمر ٥٨ سنة ودفن داخل القبة التى أنشأها قلاوون بين القصرين وكان رحمه الله محبا للعمارة أنشأ مرصدا فى الميدان (٧٢٩ ﻫ) وغير ذلك من القصور والجسور والجوامع وخلفه ابنه المنصور

المنصور سيف الدين ابو بكر ٧٤١ - ٧٤٢ ﻫ - بويع له بالسلطنة بعد وفاة أبيه وعين قوصون أتابك العسكر وجعل الامير طشتمر المعروف بحمص أخضر دوادارا ثم دبت عقارب الفتن بين الامراء ثم الامر فيها ان قوصون الاتابكى طلع القلعة وقبض على الملك المنصور وأرسله الى السجن بمدينة قوص مع أخويه وهما الامير يوسف والامير رمضان ثم أرسل قوصون خبرا الى متولى أعمال قوص بأن يقتل المنصور فى معتقله فقتله فكانت أيام ملكه ٤٠ يوما وخلفه فى ملكه أخوه

الاشرف علاء الدين كجك ٧٤٢ ﻫ - لما ولى الملك بعد قتل أخيه كان عمره سبع سنين واستقر طغردمر نائب السلطنة ثم تمكن قوصون من نفى النائب المذكور الى دمياط ثم أخذ يعلم السلطان كيفية التوقيع على المراسيم والتأشير عليها وصار الامر جميعه بيد قوصون ثم قامت عصبة ضده فى الشام تمت بأن الامير ايدغمش تمكن من القبض على قوصون وأرسله الى ثغر الاسكندرية مقيدا ثم خلع الاشرف بعد خمسة شهور وأيام واعتقل الى أن مات فى دولة أخيه الكامل شعبان وخلفه أخوه

الناصر شهاب الدين احمد ٧٤٢ - ٧٤٣ ﻫ - لما بويع له كان متغيبا فى الكرك فاستقدم وأجلس على سرير الملك وكان أكبر اخوته سنا ثم أمر بقتل سبعة من الامراء الذين كانوا فى سجن الاسكندرية ولذلك نفرت منه النفوس ولما قصد التوجه للكرك لتمضية فصل الشتاء فيها اتفقت الامراء على خلعه فخلعوه وولوا أخاه اسمعيل

الصالح علاء الدين ابو الفداء اسماعيل ٧٤٣ - ٧٤٦ ﻫ - بعد ما بويع بالسلطنة بعد خلع أخيه عزل بعض الامراء ونصب غيرهم وسار فى الناس سيرة حسنة وبسط العدل وأكثر فى الرعية العطاء وعامل خاصكية أبيه بالمعروف وأرسل سنة ٧٤٥ ﻫ تجريدة الى الكرك وحاصر

Digitized by Google

أخاه الناصر واستمر يرسل التجدات فنفد المال فضرب ما بقى عنده من السروج الذهب والكبابيش نقودا ثم اشتد الامر على الناصر فطلب الامان وسلم نفسه الى الجند فقيدوه وأرسلوا يعلمون الصالح فأمر بقتله فقطعوا رأسه وأرسلت الى القاهرة وفى خلالها عقدت مصر معاهدة تجارية مع جمهورية البنادقة (١٣٤٦ م) وكان دوجها وقتئذ يدعى مارينو فاليورو (Marino Falioro) فتح بها الملك الصالح الموانى المصرية لسفن الجمهورية المذكورة وصار عوجب البنادقة قنصل يقيم فى ثغر الاسكندرية لتمكين الروابط التجارية بين مصر وبلاده ثم مرض السلطان وكانت وفاته فى ١١ ربيع الاول من سنة ٧٤٦ ﻫ وفى أيامه أغارت التركمان مرات عديدة على بلاد سيس (٧٤٤ ﻫ) وخلفه أخوه شعبان

الكامل شعبان ٧٤٦ - ٧٤٧ ﻫ - لما بويع له بعد موت أخيه أخذ يعزل و يولى وينفى ويقتل فى الامراء ويصادرهم فكانت أعماله تخالف لقبه حتى تعصب عليه الامراء ثم هم أن يقتل أخويه حاجى وحسين فلم يمكنه خدام باب الدهيشة من ذلك فعاد الى بيت أمه خائفا واختفى فيه ولكن الامراء جدوا فى طلبه ثم قبضوا عليه وسجنوه فى الدهيشة ثلاثة أيام ثم قتلوه يوم ٣ جمادى الثانية من سنة ٧٤٧ ﻫ ويقال ان أمه كانت رومية ثم بايعوا أخاه حاجى

المظفر حاجى ٧٤٧ - ٧٤٨ ﻫ - لما تمت له البيعة بعد قتل أخيه الكامل قبض على كثير من الامراء وسجنهم بثغر الاسكندرية وقتل بعضهم ونصب غيرهم وأنعم عليهم وكان المظفر هذا مولعا بالطيور محبا لصنوفها حتى اشتغل بذلك عن تدبير الملك قال الشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة فى ترجمة الملك المظفر حاجى انه جعل السطح داره والشمس سراجه والبرج مناره وأطاع سلطان هواه وخالف من نهاه اﻫ ولما استخف بالامراء تغيرت عليه خواطرهم وخرجوا عليه وقامت بينه وبينهم الحرب فانهزمت فيها مماليك السلطان وقبضوا عليه وخنقوه ثم اتفقوا على تولية أخيه حسن

الناصر أبى المحاسن حسن ٧٤٨ - ٧٥٢ ﻫ بويع له بعد قتل أخيه حاجى وله من العمر ثلاث عشرة سنة وكان اسمه أولا سيدى قارى لحسنه ثم خلع الخلع على الامراء وفرق الاقطاعات على المماليك السلطانية ونصب البعض فى الوظائف الخالية وفى سنة ٧٤٩ ﻫ وقع الفناء بمصر وغلت الاسعار وذكر ذلك ابن حجر فى كتابه المسمى بذل الماعون فى أخبار الطاعون وفى سنة ٧٥١ ﻫ جرد السلطان تجريدة حاصر بها هندو التترى الذى أغار على سنجار فطلب هندو الامان فأمنه وأعيد اليها النائب السلطانى وبعد أيام قبض الناصر على جماعة من الامراء وسجنهم بثغر الاسكندرية فتعصب عليه الامراء باغراء الامير طاز وقبضوا عليه وسجنوه بالقلعة وخلعوه وولوا بعده أخاه صالحا

صلاح الدين صالح ٧٥٢ - ٧٥٥ ﻫ - بويع له بعد خلع أخيه الناصر ولما جلس على كرسى السلطنة استبد الامير طاز بالامر وصار صاحب الحل والعقد بالمملكة فاجتمعت فيه الكلمة حتى صار السلطان بالاسم فقط فتعصب الامراء عند ذلك على الامير طاز باغراء الامير بغا القبجرى وغيره وقامت نيران الفتن وحصلت حروب داخلية انهزم فيها الثوار وقبض السلطان على رؤساء الفتنة وسجنهم بالاسكندرية وأفرج عن الامير شيخو من سجنه وقربه اليه وفى سنة ٧٥٤ ﻫ مات الخليفة العباسى الحاكم بأمر الله وخلفه عمه المعتضد بالله وفى سنة ٧٥٥ تعصب الامير شيخو

Digitized by Google

العمرى مع جماعة من الامراء على السلطان وخلعوه وسجنوه وأزالوا ملكه بدسيسة أخيه الناصر وكان الصالح حسن السيرة عادلا ساس الرعية فى أيامه القصيرة أحسن سياسة وكان تقيا صالحا واتفق الامراء على اعادة الملك الناصر

الناصر حسن ٧٥٥ - ٧٦٢ هـ - لما خلع الصالح أخرجوا الناصر من سجنه وبايعوه مرة ثانية بحضور الشيخ جمال الدين بن نباتة ومن وقتئذ صار الامير شيخو والامير صرغتمش صاحبى الحل والعقد فى المملكة وفى سنة ٧٥٦ هـ أنشأ شيخو جامعا وخانقاه بالصليبة وغير ذلك من المبانى وحبس عليها الحبوس وفى سنة ٧٥٧ ابتدأ فى بناء مدرسته الشهيرة العجيبة قال ابن إياس فى تاريخه ان ايوانها بنى على قدر ايوان كسرى أنوشروان فى الطول والعرض اهـ ولما كملت نزل السلطان وصلى بها الجمعة وخلع على العمال الخلع السنية وبينما كانوا يحفرون أساسها اذ وجدوا مرساة مركب وهذا مما يثبت مرور النيل بتلك الجهة قديما وفى سنة ٧٥٨ هـ مات شيخو مقتولا ودفن فى خانقاه بالصليبة وكان أميرا دينا كثير العطايا والناصر حسن هو الذى أبطل عيد الشهيد الذى كان يفعله الأقباط وهدم كنيستهم التى بناحية شبرى الخيمة وحرق اصبع الشهيد الذى كان محفوظا بها فى صندوق وكانوا يعتقدون ويعتقد معهم جهلة المسلمين أن النيل لا يصعد الا اذا غسل فيه ذلك الاصبع وكان يحصل أيام ذلك العيد من المفاسد والفجور ما لا يجيزه شرع ولا يبيحه دين وتوفى السلطان الناصر قتيلا يوم ١٢ جمادى الاولى من سنة ٧٦٢ هـ ويقال ان قتله كان بمكيدة من الامير يلبغا وكان رحمه الله بطلا مقداما شجاعا محبا للرعية وخلف من الاولاد عشرة ذكور وخلفه فى الملك ابن أخيه المنصور محمد

المنصور محمد بن المظفر ٧٦٢ - ٧٦٤ هـ - تولى الملك وعمره أربع عشرة سنة وقام له الامير قشتمر المنصورى بنيابة السلطنة والامير يلبغا العمرى أتابك العسكر بتدبير أمور المملكة وأخرج السلطان من كان مسجونا من الامراء بالاسكندرية وأظهر الامير بيدمر الخوارزمى نائب الشام العصيان بعد عودته من غزو بلاد الارمن وفتح أذنة وطرسوس والمصيصة وغيرها فتوجه السلطان بالجيوش الى الشام ثم قبض على الخوارزمى وسجنه وعاد ظافرا وتوفى الخليفة المعتضد بالله واستقر مكانه ولده المتوكل على الله أبو عبد الله محمد وفى سنة ٧٦٤ هـ قبض الاتابكى يلبغا على السلطان المنصور وخلعه وولى مكانه ابن عمه شعبان بن حسن

الاشرف زين الدين شعبان ٧٦٤ - ٧٧٨ هـ - بويع له وسنه اثنتا عشرة سنة وأقر الامراء فى مناصبهم وفى سنة ٧٦٧ سطت مراكب صاحب قبرص على ثغر الاسكندرية وكانت سبعين سفينة حربية مشحونة بالمقاتلين فطرقوا المدينة وخرج نائب الاسكندرية مع جماعة من أهل البحيرة لمحاربتهم وبعد واقعة عظيمة بظاهر باب البحر انهزم النائب فدخل الفرنج المدينة ونهبوها ثم رحلوا عنها وعند ذلك صدرت المراسيم السلطانية بانشاء مائة غراب من المراكب الحربية وبعد اتمامها استعرضها السلطان فى يوم مشهود وعين للاسكندرية الامير بكتمر الشريف أحد مقدمى الالوف نائبا وتوجه اليها بمجموعه فزاد شأنها وكان الرئيس على الاساطيل شخص يدعى محمد لبطه وفى سنة ٧٦٩ هـ اتفق صاحب قبرص وصاحب رودس رئيس طائفة الاسبتارية على منازلة

Digitized by Google

طرابلس فجاؤا اليها فى مائتى مركب حربية وبعد حروب تمكن الفرنج من المدينة ونهبوا أسواقها وقتلوا بها جماعة من المسلمين وحضرت عساكر البلاد وحاربوهم فانكسروا كسرة قوية حتى اضطروا لترك ساحل طرابلس وفى سنة ٧٧٥ ﻫ أصيبت مصر وسوريا بقحط شحت فيه الغلال وخرج السلطان والعلماء والصلحاء والفقراء الى وراء قبة النصر وخطب هنالك القاضى شمس الدين ابن القسطلانى خطبة الاستسقاء واستمر الامر على ذلك نحو سنة ثم قامت حروب داخلية قصد بها بعض الامراء الايقاع بالسلطان وبعد وقائع يطول شرحها قبضوا عليه وقتلوه خنقا فى ٣ ذى القعدة من سنة ٧٧٨ ﻫ وخلفه على بن شعبان

المنصور على بن الاشرف شعبان ٧٧٨ - ٧٨٣ ﻫ - لما ولى الملك كان سنه سبع سنوات وأول من بايع له الخليفة المتوكل على الله ثم الامراء وبعد أن لبس الخلعة الملوكية فى باب السر قصد الايوان وبين يديه القبة والطير على رأسه وجلس على سرير الملك ساعة ثم دخل القصر الكبير ومد السماط حسب العادة المتبعة وحينئذ ثم أقر من أقره ونصب من نصبه من الامراء ثم حصلت أمور يطول شرحها بين الامراء اضطر فيها الامير اقتمر الحنبلى نائب السلطنة بالتخلى عن وظيفته وتوجه الى الشام واستقر فيها نائبا ونال الاتابكى أينبك البدرى منزلة عظيمة لدى السلطان حتى صار يتصرف فى أمور المملكة كما يشاء وبعد قليل هاجت العسكر عليه فهرب وحصلت فتنة بين الامراء فاز فيها الامير برقوق العثمانى فأقره السلطان أتابكا العساكر بمصر وكانت نيران الحروب الداخلية لا تنطفئ بمصر وعصت عربان البحيرة وهجموا على دمنهور ونهبوها وكان كبيرهم يسمى بدر بن سلام فأرسل الاتابكى برقوق عليهم قوة مع ثمانية من الامراء المقدمين فبددوا شمل العربان وهرب زعيمهم وعادوا منصورين (٧٨١ ﻫ) ولكن فى السنة التى بعدها عادت العربان بجموعهم ونهبوا البلاد فخرج اليهم الشعبانى أمير السلاح مع خمسمائة مملوك فكسروه ولما وصل نائب الاسكندرية بجيشه هزمهم وهربوا الى برقة وفى سنة ٧٨٣ ﻫ ظهر الوباء بمصر ووقع بسببه الغلاء وكانت وفاة الملك المنصور يوم ١٣ صفر (٧٨٣ ﻫ) وكان رحمه الله جميل الصورة حسن الشكل قليل الاذى مات وله من العمر اثنتا عشرة سنة وخلفه أخوه حاجى

الصالح حاجى بن الاشرف شعبان ٧٨٣ - ٧٨٤ ﻫ لما بويع له كان عمره لا يتجاوز الست سنوات وأجريت له الاحتفالات المعتادة وكان الاتابكى برقوق هو الذى يحمل أثناءها القبة والطير على رأس الملك وفى أول حكمه ثارت عربان بلاد البحيرة ونهبوا البلاد فجرد عليهم برقوق ستة أمراء وخمسمائة مملوك فحاربوهم حتى شتتوا شملهم وغنموا منهم غنائم وافرة ثم اتفق ان الشيخ الصفوى أبلغ الاتابكى برقوق خبر اتفاق بعض المماليك على قتله فعزم برقوق من وقتئذ على اظهار مقصده فجمع الخليفة المتوكل على الله والقضاة وأخبرهم بالحالة التعيسة التى وصلت اليها البلاد واختلال الامن ورحيل السكان من المظالم والتعديات وانه اذا لم تسلم البلاد لسلطان قوى ذى بطش ساءت الحالة أكثر مما هى وعم الاضطراب وبعد أن تداول المذكورون فى الامر طويلا قرروا خلع الملك الصالح ومبايعة الاتابكى برقوق وتم الامر بادخال الصالح الى دور الحرم مع اخوته بعد أن حكم سنة وسبعة شهور ومن يومئذ قامت دولة المماليك الثانية

Digitized by Google

(الفصل الرابع عشر)

(دولة المماليك الثانية المعروفة بالجراكسة)

٧٨٤ - ٩٢٣ هـ

اختلف المؤرخون فى أصل الجراكسة فمنهم من قال انهم من شعوب أواسط آسيا زحفوا الى البقعة الشمالية الغربية من بحر قزوين واستوطنوا فيها وينسب اليهم كثير من شعوب أوروبا ومنهم من قال انهم من قبائل سيبريا ونواحى بحيرة بيكال هاجروا منها فى القرن السادس الميلادى واستوطنوا فى الجبال الكائنة غربى بحر قزوين ومنهم من قال انهم من أصل عربى جدهم جبلة ابن الايهم بن الحارث بن أبى شمر الغسانى الذى ارتد الى النصرانية وهرب من قصاص عمر بن الخطاب الى القسطنطينية وتزوج بها وكثر نسله وصار منهم قبائل استوطنوا فى البقعة الواقعة غربى بحر الخزر بجهات قبرطاى وفى الجبال الكائنة بجنوب نهر ترك وعلى ساحل بحيرة قوبان وفساد هذا القول الاخير ظاهر لكل من وقف على علم التاريخ وأما كون بعض العلماء ألف فى ذلك تآليف يقصد بها نسبتهم الى العرب فهو من باب المداهنة والتملق قصد نوال مطمع أو حاجة اذ لم يقل أحد من العلماء الذين يعتد بأقوالهم بهذا القول وقد اشتهرت هذه الامة بالشجاعة وجمال الصورة ومعاضدة بعضهم بعضا واشتهر كثير من أمرائهم بمحامد الاخلاق والصلاح والفروسية وقد اقتنى منهم سلاطين مصر عددا وافرا وكانوا يستخدمونهم فى مصالح الدولة فارتقوا فيها لذكائهم وشهامتهم وأمانتهم حتى صارت اليهم حماية البلاد وصاروا يسكنون الحصون والقلاع ومازالوا يزدادون عددا وقوة حتى تمكن برقوق المذكور بواسطتهم من خلع الملك الصالح واستلام مقاليد السلطنة كما تقدم وهو أول ملوك الجراكسة بمصر

الظاهر سيف الدين برقوق ٧٨٤ - ٧٩١ هـ - لما بويع له بالسلطنة باقرار الخليفة العباسى المتوكل على الله تلقب بالملك الظاهر ثم أقر من أقره وقرب من أحبه من الامراء وفى سنة ٧٨٨ هـ بلغه أن الخليفة المتوكل يؤلب الناس على خلعه من السلطنة فجمع برقوق المشايخ والائمة والعلماء وقرر معهم خلع الخليفة فخلعه وحبسه فى القلعة ونصب بدله فى الخلافة عمر ولقبه الواثق بالله ولكن لم تطل أيامه فمات سنة ٧٩١ هـ فنصب مكانه أخاه زكريا ابراهيم وظهرت الفتن وامتد الاضطراب حتى خاف السلطان على نفسه فأمر نائب القلعة بأن يضيق على الخليفة المتوكل ثم استفحلت الفتنة فى الشام فأرسل السلطان الامير تغري بغا البخارى ليستطلع أخبار يلبغا الناصرى ولما سار بجيشه قبض الامير حسام الدين بن باكيش نائب غزة على طوالع جيشه وسجنهم وفى خلال ذلك أساء الخليفة أبو زكريا ابراهيم السيرة فخلعه السلطان وأعاد المتوكل على الله وخلع عليه الخلع وكان يلبغا الناصرى وصل بجيوشه من الشام الى الصالحية فاضطربت الاحوال وانسحبت جيوش الملك الظاهر التى أرسلها لصده فاضطر السلطان أن يخرج بنفسه الى المطرية ولما وصل اليها جموعه أخذ بعض المماليك يهرب ويلحق بيلبغا الناصرى فعاد السلطان الى القلعة ليحتمى بها وجهز الجنود وحصلت حروب طويلة بين الطرفين انتهت بانهزام الظاهر وفوز الامير يلبغا ثم أقر الخليفة

و يلبغا ومعهم الامراء على خلع برقوق ومبايعة الملك الصالح حاجى آخر ملوك المماليك البحرية ونفى برقوق الى الكرك فتم لهم الامر و بايع الناس الملك الصالح

الصالح حاجى ٧٩١ - ٧٩٢ هـ - لما جلس الصالح ثانيـة على سرير الملك تلقب بالملك المنصور وكانت الفتن لم تخمد تماما لانه بعـد جلوس هذا السلطان بقليـل قامت الفتن بين الامراء وهرب جماعة منهم الى الكرك واتفقوا على الظاهر برقوق وحرضوه على نوال السلطنة فخرج بجموعه الى الشام والتف حوله خلق كثير ثم تقـدم وحصلت بينه وبين عساكر الشام جملة حروب كان الفوز فى جميعها لبرقوق ولم تمض سـنة ٧٩١ حتى انضم معظم عسـاكر الملك المنصور الى الملك الظاهر برقوق فاضطربت الاحوال بمصر وأخيرا اجتمع المتوكل ومنطاش والامراء على خلع المنصور واعادة الملك الظاهر برقوق فدخل مصر يوم ٤ صفر سـنة ٧٩٢ هـ

الظاهر برقوق ٧٩٢ - ٨٠١ هـ - لما عاد الى السلطنة جدد له الخليفة المتوكل على الله المبايعة وتبعه الامراء والعلماء والاعيان وأخذ يدبر المملكة فأقر من أقره وعزل من عزله وسجن من سجنه ثم ختم ذلك بقتـل الملك المنصور حاجى وبعض رجال حزبه منعا للدسائس فوطد بذلك الامن فى أنحاء البلاد وفى خلال ذلك استفحل أمر تيمورلنك ونازل بغداد سـنة ٧٩٥ هـ وامتلكها من نائبها السـلطان أحمد بن أويس الذى قدم الى مصر مستنصرا بالظاهر برقوق فقابله الظاهر بالاكرام فى ربيع أول سنة ٧٩٦ وأخـذ يجهز الجيوش لمساعدته ثم خرج بها الى الشام واستصحب معـه السلطان أحمد بن أويس ثم بعث جيشا مع السلطان أحمـد يساعده على فتح بغداد فتم له ذلك وضرب السكة باسم السلطان برقوق وخطب له وبقى برقوق بجموعه فى الشام مترقبا قتال تيمورلنك وفى أثناء ذلك ورد عليه مكتوب تيمورلنك يهدده فيه ويتوعده بالذل والهوان وكان تيمورلنك طلب من برقوق قبل ذلك أن يسلمه قره يوسف أمير الدولة المادية وكان هرب من وجه تيمورلنك والتجأ الى مصر فلما قرأ برقوق كتاب تيمورلنك غضب غضبا شـديدا وجاوبه بجواب شـديد العبارة من انشاء ابن فضـل الله العمرى فلم يتجرأ تيمور على الاقدام لامتلاك مصر بل رجع الى بلاد خراسان لظهور فتنة هناك وكانت وفاة السلطان برقوق بداء الصرع ليلة الجمعة ١٥ شوال سنة ٨٠١ هـ وكان أوصى بالملك بعده الى أولاده بالتوالى ومات وله من العمر ٦٣ سـنة وكان رحمـه الله عادلا كريما أبطل كثـيرا من المكوس محبا للعمارة شـيد كثيرا من المبانى منها مدرسة سميت بالظاهرية وجامعه المعروف باسمـه للآن فى شارع النحاسين وجـدد بناء خزائن السلاح بثغر الاسكندرية والمجراة التى تجرى من النيل الى قلعة الجبل وهو أول من سعى فى مهادنة العثمانيين فكتب الى السـلطان يلدرم بايزيد المحررات الودية وبعثها مع أحد الامراء الى قونية وخلفه فى ملك مصر ابنه فرج

الناصر زين الدين فرج ٨٠١ - ٨٠٨ هـ - لما مات برقوق أجلسوا ابنه فرجا كما عهد اليه قبل موته و بايعه الخليفة المتوكل على الله والامراء كالعادة ثم خلع على الامراء وأقر منهم البعض وقبض على البعض وسجنهم بالاسكندرية بسبب الفتن التى قاموا بها وهرب بعضهم الى الشام منهـم الاتابكى ايتمش وكان الامـير تنم نائب الشام خرج عن الطاعـة فقاد الناصر جيشا وحاربه وكسره وقبض على كثير من الامراء الذين التفوا عليـه وحبسهم بقلعة دمشق منهم ايتمش النجاسى وتغرى بردى وقبغا اللكاشى و بيقجا طيفور وارغون شاه البيدمرى وغيرهم وفى سنة ٨٠٣ هـ أغار تيمورلنك

Digitized by Google

بجيوشه يقصد الشام ففتح فى طريقه سيواس من يد السلطان بايزيدخان العثمانى واستولى على ملطية وحلب وحمص من أملاك مصر فخرج الملك الناصر بالجيوش الى الشام ولما قصد تيمورلنك دمشق وكان الناصر فرج جاء لحمايتها ومعه الخليفة العباسى لم يقم بها لما قرب تيمور بل تركها وتوجه الى قبة يلبغا ثم خاف وارتحل منها أيضا الى مصر وأخذ يستعد للدفاع عنها ثم وردت الاخبار بانهزام جيوش بايزيد فى انقره وأسره (٨٠٤ هـ) فاضطربت أحوال الناصر ومال الى التزلف لتيمورلنك وعقد معه مصالحة وحصلت بينهما مودة ومهاداة فأرسل تيمور الى الناصر سلطان مصر هدية وفيلا وأمر الناصر فاعتقل كلا من السلطان أحمد بن أويس وقره يوسف حسب طلب تيمور بعد أن هربا من بغداد عندما أخذها تيمورلنك ثانى مرة (٨٠٦ هـ) وفى سنة ٨٠٧ هـ كان هلاك تيمورلنك بمدينة أترار الواقعة على نهر سيحون وحملوه الى سمرقند ودفنوه بها وتملك بعده حفيده خليل بن أميرشاه بن تيمور ومكث قليلا وهلك وتفرق ملكهم بأيدى المتغلبين فتغلب على بغداد ملوك من التركمان الى أن انتزعها منهم الشاه اسماعيل الصفوى (٩٠٦ هـ) ولما مات تيمور اغتنم الناصر فرج الفرصة فأفرج عن السلطان أحمد بن أويس وقره يوسف وأخذ يتأهب لاسترجاع الشام وكانت النفوس متغيرة على الناصر من يوم خضوعه لتيمورلنك من غير قتال وفى سنة ٨٠٨ هـ أطلق الدمرداش نائب حلب الامير حكم العوضى من السجن مع باقى الامراء وتعصب عليه الامراء بمصر فاضطربت أحوال الناصر ونزل من القلعة متنكرا ولما بلغ القائمين عليه ذلك خلعوه ونصبوا مكانه أخاه عبد العزيز (١٦ ربيع الاول ٨٠٨ هـ)

المنصور عز الدين عبد العزيز ٨٠٨ هـ — بويع له بعد خلع أخيه وصار الاتابكى بيبرس صاحب الحل والعقد بالمملكة فانخفض بذلك نفوذ المقر السيفى يشبك الشعبانى فتمنى عود الملك الناصر فرج فشكا ذلك الى المقر السعدى ابن غراب فى خلوة فقال له ابن غراب لا تهتم فى هذا الامر لان الملك الناصر عندى مختف ففرح يشبك ثم أخذ الاثنان فى أسباب تمليك الناصر الى أن أظهروه فاضطربت الاحوال وقام حرب بين رجال الحزبين انتصر فيها حزب الناصر وخلع عبد العزيز بعد سلطنته بشهرين ونصف وعاد أخوه الناصر الى تخته ثانية

الناصر فرج ٨٠٨ — ٨١٥ هـ — لما عاد الى كرسى السلطنة قبض على الاتابكى بيبرس واعتقله بسجن الاسكندرية ثم أقر من أقر من الامراء وأنعم على بعضهم بالعطايا ولم تمض أيام حتى مات الخليفة محمد المتوكل على الله فخلفه ابنه العباس فى الخلافة ولقب بالمستعين بالله ثم جرد الناصر الجيوش وغزا دمشق وافتتحها وفتح كثيرا من بلاد الشام واعتنى بالاصلاحات الداخلية فساد الامن فى أطراف البلاد ووقع الطاعون بالقاهرة سنة ٨١٣ هـ وكانت الفتن بين الامراء لا تنقطع والناصر يقبض على مماليك أبيه وينفى منهم ويقتل بقصد اطفاء نار تلك الثورات فنفرت قلوبهم منه فتسحبوا الى الشام والتحقوا بنوروز الحافظى والشيخ محمود أميرى دمشق وأعمالها وكانا خلعا طاعة الناصر فخرج الناصر يقود جيشا بنفسه ودخل الشام وحاربهما فانهزما وكان بين الامراء العاصين وبين الخليفة المستعين بالله العباسى تواطؤ على خلع الناصر وجلوس الخليفة ليعيد للعباسيين السلطة السياسية وبمجرد انهزام الناصر قرر الخليفة بخلعه ونادى بنفسه سلطانا وخليفة لنسبه ومنزلته

Digitized by Google

(٨١٥ هـ) ولما وصل الناصر مهزوماً الى تربة تم قبض عليه وسجن بدمشق ثم أثبتوا عليه الكفر بحكم الخليفة وقتلوه داخل البرج ودفن بمقبرة باب الفراديس بدمشق وكان الناصر فرج شجاعاً مقداماً كريماً غير أنه كان سفاكاً للدماء وكان محباً للتشييد المباني فأنشأ المدرسة التي بباب زويلة وعمر الجامع الذي بحوش القلعة الداخلي وجدد أشياء كثيرة غير ذلك

الخليفة العباسي المستعين بالله ٨١٥ هـ — لما قتل الناصر بويع المستعين بالله بالسلطنة ولم يتفق لخليفة قبله من بني العباس من عهد قيام خلافتهم بمصر انه تسلطن فأقر نوروز الحافظي نائباً على الشام بأجمعها وجعل الشيخ محموداً أتابكاً على العساكر المصرية وكان ذلك بدمشق ثم سافر الخليفة الى مصر ودخلها بموكب حافل وبعد أن استقر في القلعة أياماً قلائل أخذ يهتم باصلاح الاحوال وتنظيم أمور المملكة لينال ثقة الرعية ومحبتهم ولكن لما كان الشيخ محمود يقصد بثورته التي قام بها مع شركائه على الملك الناصر خدمة أغراضه الذاتية بدا له أن يتسلطن فأخذ من وقته يترقب الفرص لخلع الخليفة العباسي من كرسي السلطنة وصار يقرب الامراء ويظهر لهم ضعف الخليفة وأنه أجنبي عنهم ثم جعله الخليفة نائباً للملك لما أحس بذلك ومع ذلك لم يتحول عن مقصده بل بعد أيام قلائل اتفق مع القضاة وكتب محضراً بلزوم اقامة سلطان تركي له سطوة ليقمع أهل الفساد وكانت العرب ثائرة في مديريتي الشرقية والغربية وقتئذ وكثر منهم الفساد في البر والبحر فأجمعوا على خلع المستعين بالله من السلطنة وبقائه خليفة فقط وبايعوا الاتابكي الشيخ محمود وفي الحال سجن الخليفة في بعض غرف القصر

المؤيد ابو النصر شيخ المحمودي ٨١٥ — ٨٢٤ هـ — لما جلس على سرير السلطنة أجريت له الرسوم المعتادة ولقب بالملك المؤيد ثم خلع المستعين بالله من الخلافة وولى مكانه أخاه داود ولقب بالمعتضد بالله ثم قبض السلطان على بعض الامراء وسجنهم وأنعم على غيرهم ممن حضروا معه من الشام بالوظائف وأرضى الجند بالاقطاعات ولما بلغ نوروز الحافظي نائب الشام خبر خلع الخليفة حنق وأظهر العصيان بدعوى ان الشيخ خان الايمان والعهود فجرد شيخ الجيوش عليه سنة ٨١٦ هـ وحاصروه بدمشق حتى اضطروه الى التسليم وقطع رأسه وبعث بها الى القاهرة ثم عاد العسكر ظافراً بعد ان وطد أحوال الشام وفي أيام الملك المؤيد هذا وقع الطاعون بمصر سنتين اشتد فيهما الغلاء (٨٢١ هـ) وكان محباً للعمارة فشيد جامعه الشهير بالمؤيد بباب زويلة وأكمل عمارته سنة ٨٢٢ وأوقف عليه الحبوس وفي هذه السنة وردت عليه محررات من السلطان محمد خان بن يلدرم بايزيد تؤيد وتجدد الصلات القديمة والمحبة والارتباط الذي بين ملوك آل عثمان وبين سلاطين الدولة المصرية (١)

(١) من السلطان محمد خان غازى الى عزيز مصر أبو النصر الشيخ المحمودي تيمناً بذكر العزيز العلام الذي يبقى وجهه ذو الجلال والاكرام مد الله تعالى أطناب خيام دولة السلطاني الامامي الهمامي الاعظمي الاكرمي الاعلى الاعدلي الاشجعي الكاملي الكافلي المكملي المشيدي المنعمي الارفعي الاوسعي الجليلي الجميلي المعظمي المفخمي الزعيمي الكريمي المرابطي المثاغري الاولوي الاعلوي ملك الملوك في العالم أسوة الحكام بين الامم معين الاسلام والمسلمين غوث الملهوفين وغياث المظلومين ظهير الاقيال والخواقين قهرمان الماء والطين حامي سكان الحرمين الشريفين قائد حجاج الصفا والمروتين المخصوص بمحض اللطف الودودي عضد الملك والدين أبو النصر الشيخ المحمودي خلد الله تعالى أيام سلطنته واقباله وأدام أعوام عزه واجلاله ما دام الفلك وسبح السمك وبعد فلما كان مراسم المحبة بيننا مشيدة

Digitized by Google

ولما وصل جواب الملك المؤيد اتفق موت السلطان محمد وفي سنة ٨٢٤ اشتد المرض بالملك المؤيد حتى ألزمه الفراش فمات في ٩ محرم ودفن في جامعه المذكور وكان رحمه الله عاقلا عارفا بأحوال المملكة مقداما في الحروب محبا للعلماء أبطل كثيرا من المكوس وكان كثير العطايا للفقراء والصلحاء ميالا الى الطرب والملاهي عالما بفن الموسيقى محبا للحسان وخلفه في الملك ابنه أحمد

المظفر احمد والظاهر سيف الدين والصالح ناصر الدين ٨٢٤ — ٨٢٥ هـ ✦ تسلطن أحمد بعد موت أبيه وله من العمر سنة وثمانية أشهر وأيام وذلك بتعصب مماليك أبيه له ولكن بعد عودة التجريدة من الشام عارض الخليفة في مبايعته لصغر سنه خوفا على البلاد ثم عظمت شوكة سيف الدين أبي سعيد ططر بعد ظفره على الاتابكي الطنبغا نائب الشام وغيره من الامراء وخلع الملك المظفر وتسلطن هو بالشام ولقب بالملك الظاهر وطلق خوند سعادات أم الملك المظفر وكانت دست اليه السم لما خلع ابنها لغرض لوقته ودخل مصر وهو عليل فلم تطل أيامه فمات بعد ثلاثة أشهر وخلفه ابنه ناصر الدين محمد ططر وله من العمر احدى عشرة سنة تقريبا ولقب بالملك الصالح وتمكن الامير برسباي الدوادار من الامور وصار صاحب الحل والعقد وأخيرا تعصب له جماعة من الامراء وخلعوا الملك الصالح وبايعوا برسباي بعد ثلاثة أشهر ونصف وحبس الصالح في دور الحرم وكان برسباي هذا جركسي الاصل

كبنيان مرصوص وثابتة بالآيات والنصوص لزم علينا تجديد المصادقة القديمة وتمهيد المخالصة المستقيمة فالمحب المخلص عقب ابلاغ الدعوات الخالصات المستجابة واراهداء المدحات الوافيات المستطابة الصادرة عن خلوص الوداد وخصوص الاعتقاد يبدي الى علمه الكريم علم التكريم لازال محفوفا بأيسر من المطالب العالية البهية والمقاصد الرفيعة السنية ان هذا المحب المخلص منعه الاشتغال بدفع أعداء الله تعالى القاصدين لتخريب بلاد الاسلام وقتل المسلمين وقهرهم عن ارسال الرسل وابداء الاشواق ورفع الواقعات والآن لما وقع الفراغ بعون الله تعالى وفضله وبركات رسول الله صلى الله عليه وسلم من قهرهم واستئصالهم وتدميرهم وتخريب بلادهم وقتل أمرائهم وصناديدهم وأخذ حصونهم أراد تحريك سلسلة المحبة والاخلاص وابداء ما رسخ في القلب من المودة والاختصاص ووقع ما وقع بفضل الله تعالى من الفتح وارتفاع اعلام الدين وتدمير أعداء رب العالمين الى العلم الكريم لينشرح به القلب الكريم الذي قصده مدى الايام اعلاء كلمة الله تعالى ونصر أوليائه وقهر أعدائه وكفى بذلك فخرا وذخرا جهز الامير الخطير افتخار الامراء العظام ينبوع الالطاف والمكارم معدن المآثر والمفاخر عين الملوك العظام افتخار الحجاج والمعتمرين الحاج خير الدين خليل بك أدام الله تعالى عزه لينوب عن هذا المحب في اعلام ما في ضميره من فرط المحبة وصدق النية وخلوص الاعتقاد وصدق الطوية ويبدي أن الاخلاص الموروث الذي لهذا المحب ارث من آبائه لخدمته الشريفة على الزائد بتعاقب الليالي والايام وتكرر الشهور والاعوام شامخة البنيان راسخة الاركان لا يمكن أن يستنشق مشامها رائحة الزلل أو يخلط مياسمها شائبة الخلل وحمله من المشافهات ليرفعها الى المسامع الكريمة لازالت محفوفة بالسلامة والكرامة فالمأمول من اللطف التام والكرم العام الاصغاء اليها على عادته الحسنة البهية وسيرته الكريمة المرضية والمسؤول من شيم الجناب المنيف أن يشرف هذا المحب المخلص أحيانا بتشريفاته الكريمة المشرفة وكتبه المجلات المجلة وينبه باخباره السارة الدالة على انتظام أمور الدولة المظفرية القاهرة لازالت منصورة الاعلام ناصرة لدين الاسلام ليكون سببا للبهجة وانشراح الخواطر وان يعلم بسوانح المهمات التي في وسع هذا المحب اتمامها ليجد فيها مباهيا ويهتم بها كل الاهتمام ان شاء الله تعالى وأن يمكن التجار والقوافل القاصدين للبلاد نامن الورود حسبما يمكن لهم المنفعة ويسر برخ مبايعتهم موانعهم نفعا للعباد ليعينه الله الملك المتعالي في المهمات بفضله العظيم ويؤيده بملائكة السموات بلطفه العميم وكتب في رابع شوال سنة ٨٢٢ بمقام بروسه اهـ صحيفة ١٥٦ ج أول منشآت فريدون

Digitized by Google

الاشرف أبو النصر برسباى ٨٢٥ - ٨٤١ هـ لما انتخبه القضاة والامراء وجلس على سرير الملك تلقب بالملك الاشرف وخلع على كثير من الامراء بالمناصب فاستقامت الاحوال وراق له الوقت وزادت الخيرات لوفاء النيل فى أول حكمه فشبع الفقراء ثم فى سنة ٨٢٩ هـ أرسل أسطولا وجيشا وغزا قبرص وفتح مدينتها وأسر ملكها جان لوسينيان (Jean Lusignan) وجيء به الى القاهرة قال ابن اياس فكان يوم دخوله الى القاهرة يوما مشهودا وزينت المدينة سبعة أيام ودخل عسكر الفرنج وهم فى زناجير وملكهم راكب وعليه آلة الحرب اهـ واعترف ملك قبرص بسلطان مصر برسباى وقبل دفع الجزية وفى سنة ٨٣٣ هـ وقع الطاعون بالقطر المصرى وكان مخالفا لبقية الطواعين لوقوعه فى وسط الشتاء واستمر أربعة شهور وقد عقد الاشرف برسباى مع ملوك الفرنج والسلطان مراد خان العثمانى المعاهدات فبلغت مصر فى أيامه درجة وافية من الهيبة والوقار وكانت وفاة برسباى يوم ١٣ الحجة سنة ٨٤١ هـ بعد أن حكم ١٦ سنة وثمانية شهور وكان رحمه الله ملكا جليلا مبجلا منقادا الى الشريعة محبا لأهل العلم قال بعض من وصفه ان الاشرف برسباى أحد ملوك الجراكسة كان أرفعهم همة وأشدهم عزيمة وأكثرهم تدربا فى الاحكام محبا للعلماء رمم عدة مدن وشيد جملة مبان مفتخرة بالقاهرة منها جامعه المعروف بالاشرفية الكائن بسوق الوراقين ومدرسته التى فى خانقاه سرياقوس وزادت عظمته بقوة مماليكه الذين ابتاعهم فى أيامه وكانوا أكثر من خمسة آلاف وخلفه ولده جمال الدين

العزيز جمال الدين يوسف ٨٤١ - ٨٤٢ هـ لما بويع له بعد موت أبيه كان له من العمر ١٤ سنة فتلقب بالعزيز وأقر الاتابكى جقمق العلائى نائبا فصار الحل والعقد بيده ولم تمض أيام حتى دبت عقارب الفتن بين الاتابكى المذكور والامراء الاشرفية وصار العزيز سلطانا بالاسم فاشتدت الفتنة بين الاشرفية وبين المماليك السيفية والامراء المؤيدية والناصرية المتعصبين لجقمق فانتصر الآخرون على الاشرف وتم الامر بخلع العزيز وتولية الاتابكى جقمق بعد ثلاثة أشهر وخمسة أيام من حكمه فقبض عليه واعتقل بسجن الاسكندرية ولبث فيه مدة طويلة

الظاهر جقمق العلائى ٨٤٢ - ٨٥٨ هـ - بويع له بعد خلع العزيز بحضور الخليفة المعتضد بالله داود والقضاة الاربع وكان سنه يومئذ ٦٩ سنة فانفق على العسكر نفقة السلطنة وفرق على المماليك الاقطاعات كالجارى وقامت بعض ثورات فى أوائل حكمه بالشام وغيرها فأطفأها بحكمته ثم فى سنة ٨٤٥ هـ مات الخليفة داود وولوا مكانه أخاه سليمان بن المتوكل ولقب بالمستكفى بالله وفى سنة ٨٥٣ هـ توقف النيل عن الوفاء فرسم السلطان بأن تخرج الناس للاستسقاء فخرج الخليفة والعلماء والصلحاء نحو الصحراء عند الجبل الاحمر وبقى النقص مستمرا فشحت الحبوب وتزايد السعر وحصل من ذلك اضطراب ثم أعقب ذلك وقوع الطاعون ومات فيه خلق كثير وفى سنة ٨٥٥ توفى الخليفة المستكفى بالله سليمان وخلفه أخوه حمزة ولقب بالقائم بأمر الله وكانت سيرة هذا الخليفة مغايرة لسيرة سابقيه حيث ظهرت منه أمارات تدل على حبه للاستقلال بالسلطة فاحترس السلطان من دسائسه ولما رأى السلطان تقدمه فى السن وتوعكه خلع نفسه من السلطنة سنة ٨٥٧ وتنازل لابنه فخر الدين عثمان واستمر عليلا الى أن توفى يوم الثلاثاء ٤ صفر من السنة المذكورة وكان رحمه الله لين العريكة متواضعا محبا لفعل الخير يحب العلماء

Digitized by Google

المنصور عثمان ٨٥٧ هـ - لما تنازل له والده عن السلطنة وبايعه الخليفة والامراء جعل الامير تغري بغا دوادارا عوضا عن الامير دولانباى المؤيدى وأمر بالقبض على بعض الامراء وسجنهم وأنعم على غيرهم بالانعامات ولما كانت الخزينة فى عسر أخذ يبحث على طريقة ليصرف بها نفقة السلطنة على العسكر وفى خلالها قامت عليه المماليك الاشرفية والمؤيدية مع غيرهم بتحريض الخليفة حمزة القائم بأمر الله وكان يقصد خلع المنصور لينال ما يقصد وهو الاستقلال بالوظيفة فخاب فى مسعاه لانه بعد خلع المنصور بادر الامراء بمبايعة الاتابكى اينال بالسلطنة وبقيت نيران الحرب الداخلية مشتعلة بين اينال وحزبه والمنصور وحزبه مدة ثمانية أيام ثم انهزم المنصور عثمان وجموعه وقبضوا على المنصور وقيدوه وبعثوا به على حراقة الى ثغر الاسكندرية فسجن فيها بعد أن حكم ٤٣ يوما

الاشرف اينال العلائى ٨٥٧ - ٨٦٥ هـ - لما تم لاينال الامر وجلس على سرير الملك تلقب بالاشرف وأخذ يدبر أمر المملكة وينظر فى اصلاح الاحوال فكان من أول أعماله ان قلد الامراء المقربين اليه الوظائف السامية وخلع عليهم وثار عربان البحيرة فجرد عليهم العساكر مرتين الاولى تحت قيادة طوخ بانى بازق أمير المجلس والثانية تحت قيادة الامير جانم الاشرفى وبرسباى البجاسى فادخلوهم تحت الطاعة وفى سنة ٨٥٨ هـ انتهت عمارة جامع برديك صهر السلطان وكان شيده بخط قناطر السباع بطل على الخليج فاحتفل بفتحه ثم فى سنة ٨٥٩ هـ أظهرت المماليك العصيان بتحريض الخليفة القائم بأمر الله أيضا فخاف الاشرف أن يناله من هذه الفتنة ما نال سلفه فطلب السلطان الخليفة والمحضر بين يديه ووبخه بالكلام فلم ينطق بكلمة وأمسك لسانه عن الجواب ثم أمر به فسجن وأرسل فى حراقة الى سجن الاسكندرية فمات فيها ويقال انه بعد أن وبخه السلطان وقرعه أعلن بخلعه عن الخلافة فقال الخليفة من أين لك أن تخلع الخلفاء وابهم وحدهم أن يولوا و يعزلوا فلم يجبه الا بالنفى وقال ابن اياس لما أرادوا خلع الخليفة حمزة من الخلافة قال اشهدوا على أنى قد خلعت نفسى من الخلافة وخلعت السلطان اينال من السلطنة فاضطرب المجلس لذلك فقال قاضى القضاة علم الدين صالح البلقينى ان خلعه السلطان لا يصح وقد بدأ بخلع نفسه أولا ثم ثنى بخلع السلطان وهو غير مولى للخلافة فهدأت الافكار و بعد خلع الخليفة وقع الاتفاق على ولاية أخيه الجمالى يوسف بن محمد المتوكل ولقب بالمستنجد بالله ثم ان السلطان قبض على جماعة من المماليك الظاهرية ممن كانوا السبب فى الفتن ونفاهم الى الشام ولما وردت المكاتبات من السلطان العثمانى الغازى أبى الفتح محمد خان متضمنة أخبار فتحه القسطنطينية أرسل له الاشرف الهدايا والتهنئة (١) مع الخواجه ابن القاونى والامير قانى باى اليوسفى وفى سنة ٨٦١ هـ تعدى الأمير ابراهيم

(١) ضاعف الله تعالى نعم المقر الشريف العالى المولوى الاولوى الكبيرى العالمى العادلى المؤيدى العضدى الكهفى العونى الغوثى الغياثى الملكى السيدى الهمامى النظامى القوامى الظفرى الذخرى المهدى المشيدى المجاهدى المثاغرى المرابطى الظهيرى الناصرى معز الاسلام والمسلمين ناصر الغزاة والمجاهدين ملجأ الفقراء والمساكين زعيم جيوش الموحدين ممهد الدول مشيد الممالك عماد الملة حامى الثغور الاسلامية غياث الامة المحمدية ظهير الملوك والسلاطين عضد أمير المؤمنين ولازالت أخبار فتوحاته متواترة وركائب نصره فى ساحة الوجود سائرة وعرصة الهيجاء قائمة فالافلاك الدائرة تجرى بتأييده فيجعل لاوليائه العقبى وعلى أعدائه الدائرة أصدرناهذه المفاوضة الى المقر

ابن

ابن قرمان أمير التركان على الاملاك المصرية واستولى على طرسوس فجرد الاشرف عليه جيشا وأرسله تحت قيادة خشقدم أمير السلاح فانتصر عليه بعد وقائع واستولى على كثير من بلاده وفى سنة ٨٦٣ ﻫ حضر جاكم (Jacquin) ابن ملك قبرس وطلب من الاشرف نجدة فوعده بالنجدة وشرع من وقتئذ فى عمارة المراكب الحربية والاغربة بالجزيرة تحت ملاحظة الامير سنقر قرق شبق الزردكاش فظلم العباد بسبب الأخشاب فلما تجهزت الاغربة أرسلها مع جيش تحت قيادة الامير يونس الدوادار الى بلاد الفرنج ولكن لم يحصل من سفرها فائدة وعادت بدون نتيجة وكانت وفاة الاشرف يوم الخميس ١٥ جمادى الأولى سنة ٨٦٥ ﻫ وله من العمر ٨١ سنة وكان رحمه الله من خيار ملوك الجراكسة ينقاد الى الشريعة قليل العزل للقضاة وأرباب الوظائف وخلفه ابنه أحمد وكان متولى الأحكام فى آخر مدة أبيه

المؤيد أحمد بن الاشرف اينال ٨٦٥ ﻫ ـ لما تم له الامر وبايعه الخليفة والقضاة ولبس شعار الملك وهو العمامة السوداء والجبة والسيف البداوى خلع الخلع وأخذ يدير الاحكام بحزم وبعد

الكريم مهنئة له بهذا الفتح الذى ادخره الله لايام سعده وهذا النصر الذى من الله تعالى به على المسلمين وما النصر الا من عنده ونهدى اليه سلاما طاب نشره وضاع بشره وثناء يشنف الاسماع ذكره ونبدى لعلمه الكريم ان مكاتبته الرفيعة التى جهزت الينا على يد رسول المجلس السامى الاميرى الكبيرى الذخرى العضدى المؤتمنى الجمالى يوسف القانونى الناصرى أحسن الله وفادته ويسر بالخير اعادته وقفنا عليها وصرفنا وجه الاقبال اليها وسرحنا النظر فى زهر الخمائل من سطورها وشرحنا الخاطر بديع منظومها ومنثورها ووجدناها محلا من البلاغة عاليا لا تدرك ثناياه الاوهام ومنهلا من الفصاحة عذبا ازدحمت فيه غرائب المعانى وانتهينا الى ما أشار اليه مما يسره الله تعالى له من فتح القسطنطينية العظمى وما خصه الله تعالى به من آيات النصر ومنحه به من ألطافه الخفية وفهمنا ذلك مجملا ومفصلا ومفرعا وموصلا وكررنا حمد الله عز وجل على ما من به من هذا الفتح المبين وهذه النعمة التى تتضمن تثبيت قلوب المتقين على اليقين واعلاء كلمة الموحدين على الملحدين وهذه النصرة التى أصبحت بها كلمة الايمان منتشرة ووجوه الصادقين مبيضة وشفاه المسلمين بها ضاحكة مستبشرة ووجوه المشركين عليها غبرة ترهقها قترة أولئك هم الكفرة الفجرة وقد أعدنا الجواب من ذلك وعن جميع ما أشار اليه مفصلا على يد رسوله المجلس الجمالى المشار اليه اعلاه كما سيحيط به علمه الكريم بعد أن عاملناه بمزيد الانعام ووافر الاحترام وأفضنا عليه وعلى من معه من خلع التشريف والاكرام وأنعمنا عليهم من مائدة الاحسان التام وأعدناهم الى خدمتهم الكريمة على أحسن الوجوه وأجمل الحالات وجهزنا صحبتهم الواصل بهذه المكاتبة وهو المجلس العالى الاميرى الكبيرى المؤيدى الذخرى الاعزى الاخصى المؤتمنى المقربى السيفى برسباى الاشرفى أحد أمرائنا وأحد أخصائنا كتب الله تعالى سلامته وأدام سعادته وحملناه من السلام الوافى والاكرام الكافى ما هو أزكى من نشر الخزام ومن الحب الصافى والود الشافى ما لو تجسد لكان أصفى من ماء الغمام ومن الصداقة والاخلاص والموالاة والاختصاص ما هو على ذلك شهيد وله مبدئ ومعيد وجهزنا على يده من الهدية ما يؤكد أسباب الوداد والمحبة ويوثق عرى الاتحاد والصحبة كما هو دأب السالفين الاقدمين من الحكام والسلاطين (ثم ذكر أصناف الهدية وهى عبارة عن أقمشة وأسلحة وحيوانات غريبة وقد ضربنا عن ذكرها صفحا) ثم قال

فالمقر الكريم يأمل بتسلم ذلك وقبوله وان يشمل قاصدنا المشار اليه بحسن النظر وبنوله ويواصل باخبار المسرات وما يعن له من المهمات لتيسر الموافاة من الجهتين كما كان بين آبائه العظام وأجداده الكرام أنار الله براهينهم مع الاتحاف بالمودات والاهداء بالمصافاة والله تعالى يمتع الاسلام ببقائه ويجعل قواضبه القاضية فى أعدائه محكمة حتى تصبح جنود الملة المحمدية بتوالى فتوحاته منصورة الاعلام وتصير البلاد كلها بعزماته المؤيدة دار السلام ان شاء الله الملك العلام كتب فى العشرين من شهر ذى القعدة الحرام سنة سبع وخمسين وثمانمائة من الهجرة النبوية اه منشآت فريدون بك جزء أول

Digitized by Google

قليل ثارت عربان لبيد ووصلوا الى البحيرة ونهبوا الغلال فجرد عليهم السلطان العسكر وفى خلالها ثارت عليه المماليك الاشرفية والظاهرية والاينالية فاضطر السلطان الى محاربتهم فكسروه واختفى منهم فخلعوه وبايعوا الاتابكي خشقدم الرومى وكانت مدة المؤيد أربعة أشهر وثلاثة أيام وكان عاقلا كاملا كفؤا للسلطنة

الظاهر خوشقدم الناصرى ٨٦٥ – ٨٧٢ ﻫ – وأصله مملوك اغريقى جلبه الخواجه ناصر الدين وبه يعرف بالناصرى فاشتراه منه الملك المؤيد شيخ ثم أعتقه ولما بويع له قبض على المؤيد وأرسله الى سجن ثغر الاسكندرية وقرب من قرب به من الامراء وخلع عليهم الخلع وأنفق على العساكر نفقة كاملة فاستقامت أحواله أياما ثم قامت عليه المماليك وقصدوا عزله وتولية الأمير جرباش وبالفعل نادوا به سلطانا ولقبوه بالملك الناصر ولكن الظاهر تمكن من منع ثورتهم بحزمه كما أخمد ثورة الأمير جانم نائب الشام الذى قتله مماليكه فيما بعد (٨٦٧ ﻫ) ثم ان الظاهر لخوفه من ثورة المماليك جعل له مماليك كثيرة بلغ عددهم الاربعة آلاف فتقوى بهم على أعدائه ومازال مطاعا الى أن توفى يوم السبت ١٠ ربيع الأول من سنة ٨٧٢ ﻫ ودفن فى تربته التى أنشأها فى الصحراء وكان من أحسن السلاطين الذين حكموا مصر محبا للسلام فصيح اللسان

الظاهر بالباى المؤيدى ٨٧٢ ﻫ – لما توفى الظاهر خوشقدم اجتمع الامراء وبايعوا بالباى هذا ولقب بالظاهر وأصله جركسى من مماليك المؤيد شيخ أيضا وفى أول حكمه قامت فتنة بين الامراء وبينه فحاربهم ولكن جنده انهزم لسوء تصرفه فخلعه الامراء بعد شهرين الا أربعة أيام وقبضوا عليه وعلى كثير من رجاله وسجنوهم فى الاسكندرية وبه زالت الدولة المؤيدية وكان بالباى يعرف بالمجنون

الظاهر تمر بغا الظاهرى ٨٧٢ ﻫ – كان تمر بغا هذا رومى الجنس من مماليك الملك الظاهر جقمق تسلطن بعد خلع الظاهر بالباى باتفاق الامراء ولم تطل أيامه لان المماليك الخشقدمية والاينالية ثاروا عليه بتحريك الامير خيربك الذى كان يطمع فى الملك فقبضوا على الملك وظن خيربك انه نال مناه فجلس على سرير الملك وتلقب بالظاهر أيضا مثل أستاذه خشقدم وكان من جهة أخرى الاتابكى قايتباى رئيس الاينالية يطمع فى الملك أيضا فاتفق الاينالية على استمالة باقى الاحزاب اليهم وصرفهم عن خيربك وحصل الاتفاق بين الجميع على خلع تمربغا ومبايعة الاتابكى قايتباى فالتفوا حوله وصعد القلعة وقبض على المقر السيفى خيربك الذى كان رجع عن طمعه وقصد اعادة تمربغا الى كرسيه وعلى كثير من الأمراء وسجنهم وأرسل الظاهر تمربغا الى دمياط وكانت مدة سلطنته ٥٨ يوما

الاشرف قايتباى الظاهرى ٨٧٢ – ٩٠١ ﻫ – قايتباى هذا جركسى الجنس جلبه الخواجه محمود ثم اشتراه الملك الاشرف برسباى وبعد وفاته اشتراه الملك الظاهر جقمق وذكر القرطبى فى تاريخه أنه لما جلب قايتباى الى مصر للبيع كان معه رفيق آخر من المماليك فتحادثا مع الجمال فى ليلة من ليالى رمضان فقالا لعل هذه ليلة القدر والدعاء فيها مستجاب فليدع كل واحد منا بما يحبه فقال قايتباى أما أنا فأطلب سلطنة مصر من الله تعالى وقال الثانى وأنا أطلب أن أكون أميرا كبيرا

والتفتا

Digitized by Google

والتفتا الى الجمال وقالا له أى شئ تطلبه أنت فقال أنا أطلب من الله تعالى خاتمة الخير فصار قايتباى سلطانا وصار صاحبه أميرا كبيرا فكانا اذا اجتمعا يقولان فاز الجمال من بيننا رحمهم الله تعالى اهـ ولما جلس (٢ رجب ٨٧٢ هـ) كانت البلاد فى حالة اختلال واضطرابات فتمكن بحسن سجاياه وعلو همته من القبض على أزمة الاحزاب فساس الرعية أحسن سياسة وسلك السلوك الحسن و بسط يده بالعطايا والاعمال الخيرية وفى سنة ٨٨٤ هـ توفى الخليفة المستنجد بالله الجمالى يوسف وخلفه ابن أخيه عبد العزيز ولقب بالمتوكل على الله وفيها جدد الأمير يشبك الدوادار سلسلة الحديد بفم البحر الملح فى دمياط عند برج الملك الظاهر بيبرس البندقدارى وكان زنتها نحو مائتين وخمسين قنطارا لحصل النفع منها لصد مراكب الفرنج التى كانت تسطو على الثغر المذكور ولما وصلت اليه الاخبار بانتصار جيوش السلطان محمد خان الثانى على أوزون حسن وكان قبل ذلك استولى على العراق وآذربيجان و بلاد الملك أبى سعيد بن تيمور بخراسان بعد أن قتله (٨٧٣ هـ) وان أوزون حسن المذكور لما قصد مهاجمة بلاد قرمان (٨٧٦ هـ) فصده الأمير مصطفى ابن السلطان محمد خان الفاتح وأسره وأرسله الى أبيه بالقسطنطينية و بذلك اضطربت الأحوال بمصر لما كان بين أوزون حسن وملوك مصر من التحالف عند ذلك أسرع قايتباى بحشد الجيوش لتعزيز حامية الشام خوفا عليها من آل عثمان و بعد وفاة السلطان محمد الفاتح (٨٨٧ هـ) قام من بعده السلطان بايزيد الثانى فاراد أخوه السلطان جم منازعته فى الملك لانه أكبر منه سنا وجمع الجموع ثم استولى على بروسه ونهض السلطان بايزيد لقتاله فانهزم جم فى الواقعة التى حصلت بينهما بالمكان المعروف بسلطان أوكى والتجأ الى مصر مستنصرا بالملك الاشرف قايتباى فاكرم الاشرف وفادته قال خير الله افندى فى تاريخه وكان السلطان بايزيد يؤمل ان قايتباى يقبض على جم ويرسله اليه معتقلا فلما لم يكن ذلك غضب من قايتباى وجرد عليه جيشا فى سنة ٨٩٠ هـ وأرسله تحت قيادة قره كوز باشا أمير أمراء القرمان فالتزم قايتباى بأن يدافع عن بلاده و بعث جيشا من مصر مع الامير أوزبك وحصلت بين الطرفين وقائع هائلة بجوار حلب انكسر فيها العثمانيون وأسر المصريون منهم عدة قواد منهم هرسك زاده أحمد باشا ثم أرسل السلطان بايزيد خان جيشا آخر سنة ٨٩٢ هـ وهاجم صحراء جة ورفصده الامير أوزبك ثانية واستولى المصريون على مدينة أذنه (أطنه) ثم أرسل السلطان بايزيد جيشا ثالثا فى أواخر سنة ٨٩٥ هـ مع السردار داود باشا واسترد أذنه ثم مال الطرفان الى الصلح وانقلبت العداوة الى محبة اهـ وتنازل قايتباى للسلطنة العثمانية عن اذنه وطرسوس (٨٩٦ هـ) و يقال انه فى أثناء هذه الحروب جهز قايتباى عشرين سفينة حربية بقصد افتتاح القسطنطينية وأرسلها لهذا الغرض فلم ينجح وضاع معظمها فى سواحل سوريا ثم عاش قايتباى بعد ذلك خمس سنوات مشتغلا باتمام عماراته الكثيرة ومبانيه الفاخرة التى لا يزال بعضها للآن وكانت وفاته يوم الاحد ١٧ ذى القعدة من سنة ٩٠١ هـ بعد ان حكم ٢٩ سنة وأربعة أشهر وأياما قال ابن اياس ولم يطل ملك أحد من أبناء جنسه نظير ملكه وكان رحمه الله من أشهر الملوك عدلا ما أنى قط ولا سجن أحدا وافر العقل مترويا فى الامور محبا للعمار شيد العمارات الكثيرة منها جامعه المعروف باسمه وشيد بجانب

المسجد الشريف الذي جدده (٨٨٦ هـ) بعد الحريق الذي أصابه والمدرسة الشهيرة وأرسل اليها خزانة كتب وأوقف عدة قرى بمصر للمدينة المنورة وأنشأ برجا في رشيد وآخر في ثغر الاسكندرية في مكان المنارة القديمة لحماية المينا الشرقية وهو البرج المعروف الآن ببرج الظفر (٨٨٤ هـ) وخلفه في الملك ابنه محمد

الناصر ناصر الدين محمد وقانصوه خمسمائة ٩٠١ - ٩٠٤ هـ - لما جلس محمد مكان أبيه كان شابا يغلب عليه الهوى والحماقة ومن أفعاله الجنونية البربرية أن والدته كانت أعدت له جارية فسلخها حية وحشى جلدها بالثياب وخرج يظهر أستاذيته في السلخ فثارت عليه المماليك وخلعوه ونصبوا قانصوه الشهير بخمسمائة مكانه ولقبوه بالملك الاشرف وسبب تسميته بخمسمائة أنه كان بيع بخمسمائة دينار ولم تطل أيامه لان ازدياد الارتباك والاضطراب في أيامه وقيام المماليك على بعضهم أعجزه عن ضبط الامور حتى اضطر للتنازل عن الملك فالتزم الأمراء أن يعيدوا الملك الناصر محمدا ثانية وفي سنة ٩٠٣ هـ توفي الخليفة المتوكل على الله عبد العزيز وخلفه ولده يعقوب وتلقب بالمستمسك بالله واستمر الملك الناصر محمد منغمسا في لذاته ولهوه الى أن قتلها المماليك في جهة الجيزة بالقرب من قرية الطالبية وجاؤا به الى القاهرة على أسوإ حال ودفنوه في تربة أبيه ١٦ ربيع أول سنة ٩٠٤ هـ وبايعوا عمه قانصوه

الظاهر أبو النصر قانصوه والاشرف جانبلاط وطومان باي ٩٠٤ - ٩٠٦ هـ - يقال ان الملك الظاهر تردد في قبول السلطنة أولا لانه لم يجد نفسه كفؤا لها ولانه لا يعرف الا بلسان الجركس حيث جلب من بلده وهو كبير في السن ثم قبل أخيرا لشدة الحاحهم ومع ذلك فلم تطل مدته لانهم خلعوه بعد سنة وسبعة أشهر وبايعوا الأمير الكبير جانبلاط ولقبوه بالملك الأشرف ولم يتهنأ طويلا لعدم اتفاقهم جميعا عليه فخلع نفسه بعد ستة أشهر وبايعوا طومان باي وتلقب بالملك العادل فلم تطل مدته أيضا بل هجم عليه العسكر وقتلوه ظلما فلذلك لم يقدم أحد على السلطنة فاجتمع الأمراء وأرباب الدولة وتداولوا فيمن يليق للمنصب فاتفقوا على أن يولوا قانصوه الغوري لأنهم وجدوه لين العريكة سهل الازالة فعرضوا عليه الامر فقال لا أقبل الا بشرط أن لا تقتلوني ومتى أردتم خلعي فأخبروني وأنا أوافقكم وأنزل لكم عن الملك فعاهدوه على ذلك

الاشرف قانصوه الغوري ٩٠٧ - ٩٢٢ هـ - لما تمت له البيعة فرح العسكر بولايته وكان قانصوه كثير الدهاء ذا فطنة ورأى الا أنه كان شديد الطمع لكونه كان أقل الامراء مالا ولذلك كان كثير الظلم وكان محبا للعمارة فشيد عدة مباني مفتخرة منها جامعه المعروف باسمه ومدرسة الغورية ومدفنه الشهير وفي مدته كان أهل البرتقال اكتشفوا طريق الهند من جهة رأس عشم الخير (١٤٩٨ م) واستولوا على عدة ثغور بحرية وقطعوا طريق تجارة الهند عن مصر فأرسل الغوري جيشا من المماليك في أسطول الى الهند لطرد البرتقال وارجاع التجارة الى طريق مصر كما كانت فلم ينجح فيما أرادوا وانهزم الجيش وضاع كثير من السفن قال خير الله أفندي في تاريخه انه بينما كانت الاحوال المصرية مرتبكة باعمال المماليك ظهرت تعديات البرتقال على طريق الهند واستولوا على بعض بلادها ودخلوا بأساطيلهم الى البحر الاحمر فخافت حكومة مصر على طريق مكة المكرمة

Digitized by Google

فشيد الاشرف قلعة في جدة لانها فرضة الكعبة المشرفة وشحنها بالعدد والعساكر ولم تمض أيام من اتمامها حتى وصلت أساطيل البرتقال أمام جدة وأطلقت عليها المدافع فقابلتها القلعة بالمثل فخاف البرتقال سوء المنقلب فاقلعوا بسفنهم عنها فرأى الأشرف قانصوه ضرورة المحافظة على جدة فاستخدم سلمان رئيسا وأنشأ خمسة وعشرين غرابا حربيا في بحر السويس وجعله الامير عليها وشحن ذلك الاسطول بالجيوش وجعل قيادتها الحسين بك الكردى وأرسله لطرد أساطيل البرتقال عن طريق الهند فعرج سلمان رئيس الاسطول المذكور على سواحل اليمن واستولى على مدينتى صنعاء وزبيد تحت الدولة العامرية وضمها الى الاملاك المصرية ثم ترك حسين بك المذكور هناك حامية مع برسباى (بارس باى) أحد أمراء الجراكسة وجعله محافظا على تلك البلاد وأقلع بالاسطول الى عدن وغيرها من البلاد ثم عاد الى السويس وبعد أيام بعثه الاشرف ثانية لرد البرتقال ولكنه في كل أسفاره لم يأت بفائدة تذكر في هذا الخصوص بل لم ينجح في أعماله بالكلية (٩١٥ ﻫ) اه وذكر غيره من المؤرخين أن مراكب البنادقة اشتركت مع الاسطول المصرى المذكور في مطاردة البرتقال بالبحر الاحمر لاعادة التجارة الشرقية الى طريقها الاصلى لان انتقالها الى طريق عشم الخير أضر بالبنادقة جدا لما كانوا ينالونه من فائدة نقلها على سفنهم في البحر الاحمر ونقلها ثانية من ثغور مصر الشمالية الى أوروبا وقد تكلم المقريزى على ذلك فقال وفعل البندقانيون عند عيون موسى مجارى من البناء لتوصيل مائها الى حوض عملوه على ساحل البحر الاحمر لتنتفع به مراكبهم وآثار المجرى والحوض باقية الى الآن اه وقال خير الله أفندى وفي خلال سنة ٩١٤ ﻫ حدث بين الامير قورقود ابن السلطان بايزيد خان وكان حاكما على مغنيسيا وبين الصدر الاعظم على باشا الخادم اغبرار في الخواطر بخصوص ندماء الامير وهما بماله وغزالى حتى اضطر الامير أن يهاجر من البلاد فأظهر أنه يقصد أداء فريضة الحج وأنزل أمواله وأمتعته في ثلاث سفن وسافر الى ثغر الاسكندرية ولما بلغ قانصوه الغورى قدومه قابله بالترحاب واحتفل به في القاهرة ورتب له ثلاثة آلاف دينار صرية لمصروفه اليومى وغير ذلك فلما بلغ السلطان بايزيد خان حنق على الوزير المذكور وكان قورقود سافر الى الحج فعلا وبعد عودته الى مصر كتب السلطان بايزيد خان الى عزيز مصر الغورى يشكره على عنايته بمخدومه ويطلب منه رده ليتولى أحكام لواء انطاليه الذى ولاه أمره فرده الغورى الى والده معززا مكرما وكتب كتابا الى السلطان بايزيد خان يستعطفه عليه ويشكره على رضاه عنه وعلى توجيه ذلك المنصب الجديد اليه (١) ثم لما تنازل السلطان بايزيد خان عن السلطنة لولده السلطان سليم خان كما تقدم ذكره في تاريخ

---

(١) نحمدك يامن أوصل يوسف الى أبيه اسرائيل من مصر احسانه ونشكرك يامن جمع بين يعقوب وابنه الجميل بعد افتراقه وجرى عشيئته نيل السعادة وفق المرام وأنبت حب الحب من زراعة الشوق والغرام وطير الى مقامه حمام العراق وأعاد الى محله حلوم العراق وتلالأ بحكمته نجم الموافقه ونضا أبقدرته بدر المرافقه وتبسم بلطفه صبح الهدايه فضحك وجه الدنيا من طلوع شمس العناية ان للهجر رجالا * ورجالا للوصال ونصلى على سيدنا محمد الافصح الاملح وعلى آله وصحبه الاصلح الذى يروى من حوض شفاعته ظمآن بريد الذنوب من الامة وتكون حمايته سبيلا للدخول في بحبوحة الجنة صلاة تنفجر منها ينابيع رياض السالكين ويتبلج عنها غداة صباح الصالحين وبعد فلما انعكست أنوار المحبة وتشعشعت أشعة المودة وفاح نسيم المصادقة ولاح شميم الموافقة من الباب الرفيع والطود المنيع السلطانى الاعظمى الاكرمى الامجدى العونى الغوثى الغياثى المهدى المشيدى

Digitized by Google

الدولة العثمانية بالجزء الاول واستقر على تخت الملك نازعه أخوه أحمد وقصد كل منهما الآخر (٩١٩ هـ) بجيش عظيم فتقاتلا أمام مدينة يكى شهر فانتصر السلطان سليم وأمر بأخيه أحمد فخنق وقتل كثيرا من أمراء العائلة السلطانية تخلصا من شرورهم ومفاسدهم وكان الامير قورقود صغيرا غير مطالب بالملك فتعاهد مع أخيه على الطاعة له وأن يبقيه على سنجقية مغنيسيا وصار وخان ومع ذلك فلم يسلم من القتل بل قتله بعد أيام وكان الشاه اسمعيل الصفوى ملك العجم يتعصب للامير أحمد ويدافع عنه فلما قتل السلطان سليم الامير أحمد كما تقدم هرب ولداه وهما الامير مراد والامير علاء الدين والتجأ الاول منهما الى الشاه اسمعيل والثانى الى الغورى فأرسل السلطان سليم يطلبهما منهما فامتنعا عن ابعادهما فكان ذلك من أسباب قيام الحرب والقتال بين السلطان سليم واسمعيل شاه من جهة وبينه وبين الغورى من جهة أخرى ثم زحف السلطان على الشاه اسمعيل الصفوى اولا (٩٢٠ هـ) وكان يقود الجيش بنفسه ثم التقى الجيشان فى مكان يقال له چالدران وبعد قتال عنيف انهزم العجم هزيمة منكرة واستولى السلطان سليم على خزائن الفرس وأموالهم وهرب الشاه اسمعيل متحصنا بشوامخ الجبال ثم تقدم السلطان ودخل مدينة تبريز تخت العجم وصلى بها الجمعة وخطب

المظفرى المؤيدى الخاقانى المكرى المعظمى المفخمى المنصورى المعينى الاقدمى الاعلى المولوى الاولوى الارفعى الانفعى ناصب رايات المعدلة فى أوج النصفة ناشر رايات السلطنة من كتاب الخلافة ملك ملوك البر والبحر فاتح بلاد العداة بالعز والنصر ظل الله فى الارضين عون الاسلام والمسلمين قهرمان الماء والطين الغازى فى سبيل الله المجاهد لوجه الله الناصر لدين الله الناطق بما أنزل على الرسول من الله المؤيد من عند الله الملك المجيد الاخ الاعدل الاشجع أبو النصر السلطان بايزيد لا زالت أغصان حدائق سلطنته العلية مزينة بأكمام الاولاد وما برحت أشجار دوحة خلافته البهية مثمرة من أنوار الاحفاد تنور محفلنا من لمائع تلك الاعطاف وتعطر مجلسنا من روائح تلك الالطاف واطمأنت قلوبنا وقلوب الخاشعين من شر الوسواس لما علمتم بما قال عز من قائل (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس) فى حق ولدنا المخدومى الاعقلى الارشدى عضد الدولة العثمانية كبد الفلذة الاورخانية المنظور بعناية الله الودود أبو الفتح سلطان قورقود أطال الله بقاءه وزاد ارتقاءه الذى هو شعبة طاهرة من دوحتكم الزاكية وثمرة طيبة من نخل رياضكم العالية وغرة السعادة على جبهته لائحه ونجوم الدولة من نواحيه طالعه وكان قصوى منيتى وقصارى بغيتى أن يكون هو كالدر النضيد منتظما فى عقد جواهر سريره الاعظم ومنخرطا فى سلك عبده المكرم والحمد لله الذى رفع العسرة ودفع الكلفه وألف بين قلوبهم بالرأفه ووصل موكبه الى مقامه الاصلى وحصل وصوله الى وطنه الجبلى وتيسرت البهجة لكم عن قدومه وازدادت شفقتكم عليه واحسانكم اليه وفق رجائنا من تفويض ايالة الانطاليه اليه التى هى معظم ولاية الاناطولية مضيفا اليها لواء العلانية والمنوغاد ومثلها من النواحى والبلاد حيث نال خواصها المعينة الى مقدار ثلاثين مائة ألف درهم عثمانى وصدور مزيد عنايتكم فى حق هذا المخدوم المؤدب طبق ما قالوا رضا الرب عند رضا الاب فالمرجو من ألطافكم أن تزيدوا الشفقة اليه والمرحمة عليه على رغم أنوف الحساد حسما لاناطة أهل العناد وتسلسلوا سلسلة المحبة والوداد وتشدوا روابط الاخوة والاتحاد احياء لدأب آبائكم العظام واقتداء برسم أجدادكم الكرام طيب الله ثراهم وجعل فى الفراديس مثواهم ويكون معلوما لديكم ان القلب واللسان متفقان فى نطق ألفاظ الوفاق والروح والجنان متوافقان فى عدم مطالعة معانى النفاق ولا يتغير بدخل الموسوسين ولا يتزلزل بتحريك المفسدين بعزة رب العالمين والملائكة والناس أجمعين وجهزناه بمرافقة قاصدكم عمدة الاكابر والاعاظم نجم الدين قباد القائد زيد مجده وبالخير اعاد صحبة الاميرى الكبيرى الاشرفى الاجدى الاميرى بكتاى الخاصكى شرفه الله بحسن لقائكم واعاده بالخير من جنابكم بالهدايا والتحف المشروحة فى كتاب غير هذا فالمأمول القبول والانصراف بعد الوصول ان شاء الله تعالى الله يؤيدكم وينصركم ويديمكم الى يوم التناد فهو المراد

(منشآت فريدون بك جزء أول)

هناك

هنالك باسمه وكان يريد اتمام فتح بلاد ايران لولا غلاء الاقوات لان الغوري كان قطع الميرة ومنع السائرين بها اليه لما كان بينه وبين الشاه اسمعيل من الصداقة والارتباط حتى اتهم بعضهم السلطان الغوري بأنه كان على مذهب الشيعة ولما فرغ السلطان سليم من أمر الشاه اسمعيل عاد لما أقبل فصل الشتاء الى اماسيه وشتى فيها وبقيت الحرب متواصلة بينه وبين عساكر ايران وافتتح قلعة كماخ ومدينة ابيورد وأرسل وزيره فرهاد باشا لفتح بلاد مرعش والبستان فانتصر على أميرها واستولى عليها وقدمت مدينة آمد ان الطاعة فعين لها بيقلو محمد بك الآمدي واليا وفتح كثيرا من البلاد وفي خلالها أخذ الغوري يجهز الجيوش ويعد المعدات ولما بلغه ان الدونما العثمانية تقصد السواحل المصرية وكانت تحت قيادة جعفر قبودان أرسل كثيرا من المدافع الى ثغر الاسكندرية وعزز حصونها ثم خرج السلطان بجيش جرار من القسطنطينية (٩٢٢ هـ) يبلغ ١٥٠,٠٠٠ مقاتل وخرج الغوري أيضا من مصر بجيش كثيف وأخذ معه أمواله وخزائنه وقصد الشام والتقى الجيشان في مرج دابق بقرب حلب ودارت بينهما رحى الحرب واشتد القتال ثم انجلت الواقعة بانكسار جيوش الغوري وفقده وتحت سنابك الخيل وهربت بقية الجراكسة الى مصر كما ذكرناه في صحيفة ٥٢٨ من الجزء الاول واستولى السلطان سليم على أموال وخزائن الغوري وأدواته وسلاحه وكان الغوري افتتح دولته بالمصادرات والمظالم واختتمها بالفتن وسفك الدماء ثم بالضياع ولله الدوام والبقاء ومما ساعد العثمانيين كثيرا على سرعة الانتصار مهارتهم في اطلاق البنادق [1] والمدافع

الاشرف طومان باي ٩٢٢ – ٩٢٣ هـ – كان الغوري لما خرج بالجيش لملاقاة العثمانيين كما تقدم ترك نيابة السلطنة لابن أخيه طومان باي الثاني فلما جاء الخبر بالهزيمة وقتل الغوري بايعه

(١) البنادق جمع بندقية وهي آلة من سلاح الحرب تعرف بالنار ودة نسبة الى البارود الذي يقذف به الرصاص المسبولك كريا أو مستطيلا وتنسب الى بلاد البندقية حيث يقال ان أول من اخترعها هم الطليان وكثر استعمالها في سنة ١٤٣٠ م وذكر بعض المؤرخين ان هذا السلاح كان معروفا من القديم فكانوا يستعملون البندقية الهوائية وكانت على نوعين أخذ من شكل الاول منهما البنادق النارية الا أن الدفع بها كان يتم بضغط الهواء والثاني يقال له بالافرنجية سار باكان (Sarbacane) وهي أنبوبة طويلة خشبية أو معدنية يدخلون فيها سهما خفيفا أو حجرا أو رصاصة ثم ينفخون فيها من أحد طرفيها فيندفع ما فيها الى مسافة بعيدة وكان بعض سكان الجزر الهندية يستعملونها سلاحا للمحاربة ويدفعون بها سهاما صغيرة مسمومة واستعملها الايوبيون لرمي سهام نارية على الجيش الفرنساوي في حصار المنصورة (٦٤٧ هـ – ١٢٤٩ م) ولعل الطليان أخذوها عنهم ولما عرفت أهل أوروبا فوائدها اعتنت بأمرها وصارت تصنعها على أنواع مختلفة فاتقنوا أشكالها وتفننوا في آلاتها فبعد ان كانت تطلق بالشطفة والزناد اخترعوا لها الكبسول ثم اتقنوه واستبدلوه بالابرة وصار الكبسول من داخل ظرف البارود والرصاص وهذا النوع المستعمل في عصرنا على أشكال متنوعة ففي المانيا المستعمل صنف ماوزر (Mawsor) وصنف مانليشر (Mannlicher) وفي انكلترة صنف مارتيني هنري (Martini - Henry) وصنف لي ميدفورد (Lee Medford) وصنف انفلد سنايدر (Enfield - Snider) وفي فرانسا صنفي غراس (Gras) ولوبل (Lebel) وفي الروسيا صنفي بردان (Berdan) وموزين (Mosin) وفي ايطاليا صنفي فيترلي (Vetterli) وبيرطولدو (Bertoldo) وفي النمسا صنفي ورند (Wernd) ومانليشر (Mennlicher) وفي الدانمارك صنفي رامنتون (Remington) وكراج جورغانسن (Krag-Jorgensen) وفي السويد والنرويج صنفي كراج بترسون (Krag-Peterson) وجارمان (Jarmann) وينسب كل نوع من هذه البنادق الى السنة التي عمل فيها

Digitized by Google

الامراء فأخذ يهتم فى جمع الجنود وآلات القتال أما السلطان سليم خان فتعقب فل الجراكسة وأخذ بفتح البلاد فاستولى على البلاد الشامية ودخل مدينة حلب واستقبله أهلها وعلماؤها وصلحاؤها بالمصاحف وهنئوه بالفتح وسألوه الرفق والصفح فقابلهم بالجميل ولما دخل المدينة خطب له فيها ودعاله الخطيب بقوله خادم الحرمين الشريفين كما كانوا يصفون سلاطين مصر ففرح بذلك واستبشر وخلع على الخطيب حلته التى كانت عليه وكانت تساوى ٥٠,٠٠٠ غرش وبعد أن مكث بالشام ثلاثة أشهر ونصفا سار يريد البلاد المصرية وافتتح فى مسيره مدينة بيت المقدس وغزة وطبرية وصفد واللعون والرملة وغير ذلك ثم وصل الى مصر (١٣ محرم ٩٢٣ ه) فخرج طومان باى بجيشه الذى جمعه وكان يبلغ ٤٠,٠٠٠ من الجراكسة بقصد قتال السلطان سليم ومنعه من دخول مصر ووقع القتال بين الجيشين فى سهل بركة الحج ولم تثبت الجراكسة فى الواقعة الا ساعة واحدة وانكسر وافشل ريحهم وهرب طومان باى وعسكره بعد أن قتل منهم خلق كثير ثم قبض عليه وجىء به الى السلطان سليم خان مقيدا عليه علائم الذل والقنوط فأمر السلطان سليم بحل قيوده وأذن له بالحضور فى الاجتماعات التى كان يعقدها السلطان للنظر فى أمر البلاد وكان يسأله فى كثير من المسائل المتعلقة بها وبخراجها وادارتها واستمر على ذلك عشرة أيام ثم رأى السلطان لزوم قتله فأمر بشنقه تحت رواق باب زويله فصلب بكلاب من حديد كان باقيا هنالك الى عهد قريب وذلك يوم ٩ ربيع الاول من سنة ٩٢٣ ه وبقتله انتهت دولة الجراكسة بعد أن حكموا الديار المصرية ١٤٠ سنة تقريبا ومن وقتئذ صارت البلاد المصرية وتوابعها ولاية من الولايات العثمانية الكبيرة وانتقلت من يومئذ الخلافة الى سلاطين آل عثمان كما مر فى تاريخ الدولة وفى خلال ذلك عاد حسين بك الكردى وسلمان رئيس اللذان كان بعثهما الغورى فى أواخر سلطنته لاعانة حاكم كجرات بالاسطول المصرى بغنائم وافرة وكثير من أسرى البرتقال وتشرفا بالمثول أمام السلطان فنالا حسن الرعاية

﴿ الفصل الخامس عشر ﴾

﴿ أشهر حوادث الديار المصرية مدة ولاة الدولة العلية العثمانية ﴾

(٩٢٣ - ١٢٠٣ ه)

لما أتم السلطان سليم خان فتح ديار مصر ضبط خراجها ومتحصلاتها وكان مستقره مدة اقامته بمصر فى روضة البحرين فى كشك بناه فوق قاعات المقياس وكان يشرف على النيل والروضة والمقياس ثم أخذ فى تمهيد أمور المملكة وجعل خيربك أحد كبار قانصوه الغورى (وكان انضم مع الغزالى الى الجيش العثمانى قبل واقعة مرج دابق) واليا على مصر وجعل خير الدين باشا أمير الدونما العثمانية محافظا للقلعة وحدد لكل منهما حدودا مخصوصة لا يتعديانها فجعل واجبات الوالى ابلاغ الأوامر السلطانية لهيئة الحكومة والشعب ومراقبة تنفيذها وجعل له مجلس شورى من قواد الجيش الذى أبقاه فى مصر وكان اثنى عشر ألف جندى منها ستة آلاف من الفرسان ومثلها من المشاة وقسمها الى ستة أوجاقات عهد قيادتها الى خير الدين باشا محافظ القلعة وأمره بان لا يخرج منها الا

عند

Digitized by Google

عند اللزوم ووضع على كل أوجاق ضباطا بلقب أغا وكخيا وباش اختيار ودفتردارا وخزندارا وروزنامجيا كانت لكل منهم اختصاصات معلومة وكان مجلس الشورى يتألف من كافة ضباط الاوجاقات المذكورة وصار الباشا لا يقضى أمرا الا بمصادقتهم وكان لهم حق ايقاف الباشا عن العمل وتستأنف قراراتهم فى ديوان الاستانة عند الاقتضاء ولهم أن يطلبوا عزله عند الاشتباه فى مقاصده وكان خيره باى عرض على السلطان أن أبناء الجراكسة يريدون الدخول فى زمرة الاجناد فاجابه الى ذلك ولحفظ الموازنة بين الادارة والاوجاقات نصب اثنى عشر أميرا من أمراء المماليك الذين هم فى الاصل أعداء للفريقين على ادارة الاقاليم فكانت منفعتهم السياسية تحملهم على الانتصار للفريق الاضعف ليصدوا القوى عن الاستبداد وكان هؤلاء الامراء يعرفون بالصناجق وبهم صارت مصر منقسمة الى اثنى عشر قسما حربيا وكان الديوان الذى هو مجلس شورى الوالى يعينهم من أمراء المماليك الذين دخلوا تحت الطاعة العثمانية قال الشيخ عبد الله الشرقاوى فى كتابه تحفة الناظرين لما أراد السلطان التوجه الى الروم شاوره خيره باى على ابقاء أوقاف الجراكسة وهى نحو عشرة قراريط من أرض مصر فاجازه بابقائها على ما كانت عليه فتشوش وزيره وقال فنى مالنا وعساكرنا وتبقى لهم أوقافهم يستعينون علينا بها فقال السلطان سليم أين الجلاد وكانت احدى رجليه فى الركاب فضرب عنق الوزير الى أن قال عاهدناهم على أنهم ان مكنونا من بلادهم أبقيناهم عليها وجعلناهم أمراءها فهل يجوز لنا أن نخون العهد ونغدر واذا أدخلنا أبناءهم فى جندنا فهم أولاد مسلمين ويغارون على دارهم فرحم الله هذا الملك المعظم اهـ وقال الفاضل محمد محسن بك الكاتب الثانى للمندوب العالى للحضرة السلطانية فى مصر فى تأليفه دليل افريقية فى صحيفة ٦٧٤ ما ملخصه انه فى ٦ رمضان من السنة المذكورة عندما كان الجيش السلطانى مارا بالصالحية اذ دخل الصدر الاعظم يونس باشا فى حضرة السلطان وأظهر انفعاله من توجيه ولاية مصر الى خيره باى فتسبب من ذلك أن أصدر السلطان أمرا بقتله ونصب بدله فى مسند الصدارة محافظ دار السلطنة بيرى باشا وكان أهلا لهذا المنصب وأرسل بطلبه فى الحال اهـ وفى خلالها قام خيره باى أمير الامراء وخير الدين باشا قائد العساكر ببناء الشوانى فى ساحل مصر لتكوين قوة بحرية ولما تمت جعلوا فيها ملاحين من الروم والمغاربة وصاروا يخرجونها الى البحر الملح لحفظ السواحل المصرية من سفن الفرنج الذين كانوا يعيثون فيها وبقى خيره باى واليا على مصر الى ان مات فى ١٤ القعدة سنة ٩٢٨

ولما جلس السلطان سليمان القانونى على تخت الخلافة العثمانية بعد وفاة والده وجه عنايته للديار المصرية فاصلح ادارتها ونظم داخليتها وماليتها وجعل الاموال أقساما منها ما يرسل الى دار الخلافة ومنها ما يصرف على ادارة البلاد وتنظيمها ومنها ما يصرف على طوائف الجنود ما بين أمرائهم العثمانية وطائفة السباهية وطائفة اليكجرية وطائفة الكملية وطائفة الامراء الجراكسة وطائفة المماليك الجراكسة وطائفة مماليك أمير الامراء وغير ذلك وجعل بدل ديوان شورى الوالى ديوانين أحدهما كبير والآخر صغير فكانت أعضاء الديوان الصغير من الرجال السابق الكلام عليهم والديوان الكبير أعضاؤه القاضى وأمير الحج ومشايخ المذاهب الاربعة والمفتون ورؤساء الاشراف والمشايخ وجعل جميع الاراضى المصرية أنفسه ملكا وفرقها الى اقطاعات عهد بها للملتزمين يحرثها الفلاحون

Digitized by Google

و يزرعونها ولهم نصيب فيها ويورثها أعقابهم من غير أن يكون لهم حق التصرف فيها وعليهم خراج يدفعونه للملتزمين واذا مات المزارع من غير وارث يأخذها الملتزم واذا مات الملتزم من غير وارث تعود للسلطان وجعل لثغور الاسكندرية ودمياط والسويس قوادا وقبودانات وجعل تنصيبهم وعزلهم لارادته السلطانية وجعل الولاة يجددون كل سنة بفرمانات سلطانية فلما مات خيربك أمير الامراء اجتمع الامراء العثمانيون بالقلعة وتداولوا في الامر لمنع حدوث اضطرابات في الاوجاقات فتقرر بينهم بقاء الاحوال على ماهي عليه تحت رياسة خير الدين باشا محافظ القلعة ويعاونه كل من خضر باشا وسنان باشا من كبار رجال العسكرية حتى يحضر الوالي الجديد وعرضوا عن ذلك لدار الخلافة فوجه السلطان سليمان ولاية مصر الى زوج أخته الوزير الثاني مصطفى باشا فحضر الى مصر وصار يلقب بوزير الوزراء وعمم تنفيذ النظام الجديد الذي سنه السلطان لمصر في جميع أنحائها وغير بعض المأمورين وأدار شؤن البلاد سنة واحدة كما هو القانون ثم فصل عنها في شهر رجب ونصب بدله قاسم باشا المعروف بالكورجي ولما وصل مصر قوبل بالاحترام كالمعتاد وبعد قليل ظهر عصيان في بعض الجهات بتحريض كل من جانم أغا كاشف الفيوم والبهنسا واينال الطويل كاشف الغربية وقتلوا ابن بركات وبعض الجنود الذين أرسلوا معه لتسكين ثورتهم فاضطر بعدئذ قاسم باشا أن يجرد عليهم بعض الفرق وبذلك شتت شملهم ثم فصل بعد تسعة شهور من ولايته وولي بعده الوزير الثاني أحمد باشا (٩٢٩ هـ) وحضر الى مصر على غراب حربي وكان بين هذا الوزير وبين الصدر الاعظم ابراهيم باشا عداوة كبيرة فصمم أحمد باشا على العصيان في مصر وبمجرد وصوله (شوال) قصد تنفيذ مقصده فمانعه الينكجرية فأخذ يدبر لهم مكيدة يزيل بها وجودهم من مصر فاستمال بعض الامراء ولما كان الصدر الاعظم مطلعا على خبث هذا الوالي أصدر أوامر سرية الى أمراء مصر بقتل أحمد باشا المذكور وبعثها اليهم مع أحد القصاد وكان يدعى طاهر افا وصلها الى بعضهم ولكن وقع الامر الصادر لموسى بك أحد أمراء مصر المتقاعدين في يد الوالي فأخذ حذره وأظهر العصيان والتمرد جهارا وأمر أن يخطب له على المنابر وأن تضرب النقود باسمه وصعد القلعة وأخذ يقتل كل من ظن فيه الشبهة ويصادر الامراء بلا سبب ولكن لم تطل أيامه حيث تآمر عليه الاميران محمد بك وجانم الحمزاوي وقتلاه في الحمام (٩٣٠ هـ) وقد كان لما وصل خبر عصيانه الى دار الخلافة صمم السلطان سليمان على السفر الى مصر بنفسه ولكن منعه الصدر الاعظم ابراهيم باشا الذي سافر في الحال مع بعض المأمورين على عشرة أغربة في أوائل ذي الحجة من السنة المذكورة ولكن بالنسبة لاشتداد الزوابع اضطر الى أن يخرج الى ساحل الاناطول أمام جزيرة رودس ويسافر برا فوصل القاهرة في ٨ جمادى الآخرة سنة ٩٣١ هـ وأخذ يصلح شؤن الادارة المصرية ومع كبر سنه كان من أعظم الوزراء نشاطا وبعد قليل دعي الى الاستانة مع جانم الحمزاوي المذكور ونصب على ولاية مصر سليمان باشا الخادم بك بكوات الشام وكان الوزير المذكور أخذه معه من الشام وكان سليمان باشا هذا من المقربين للسراي السلطانية والخليفة يثق به كثيرا ثم عاد ابراهيم باشا في شوال من السنة المذكورة ولما وصل الاستانة وعرض تقرير مأموريته نال جانم الحمزاوي المذكور تقربا من الحضرة السلطانية وأعاده دفتردارا لمصر وقد أخذ سليمان باشا الخادم ينظر في أحوال مصر ويصلح ما فسد منها فعين الامير كيواني مأمورا لمسح الاراضي ورتب الضرائب على أحسن نظام وأوجد

Digitized by Google

دفاتر جديدة للحكومة وشيد كثيرا من المبانى النافعة وفى مدة ولايته الطويلة كثر تعدى البرتقال بسفنهم على بلاد البحر الاحمر وجهات الهند وسواحل بحرات التى استغاث ملكها بالسلطان سليمان القانونى فأصدر السلطان فرمانا الى سليمان باشا الخادم والى مصر بانشاء دونمنا كافية فى السويس وتجهيز جيش عظيم لقمع البرتقال فأخذ الوالى المذكور فى انشاء السفن بالثغر المذكور وبعد أن جهزها شحنها بالجيوش وقادها بنفسه (٩٤٤ هـ) واستصحب معه سلمان رئيس المتقدم الذكر ومر أولا على قران ثم استولى على عدن وتوجه الى الهند وحارب البرتقال كما ذكر فى مقدمة هذا الجزء وعاد منصورا الى السويس وكان خسرو باشا تعين واليا على مصر سنة ٩٤١ هـ بالنيابة عن سليمان باشا الخادم مدة قيامه بحملة الهند المذكورة فأتم خسرو باشا جميع الاصلاحات التى وضع أساسها كل من الصدر الاعظم ابراهيم باشا وسليمان باشا الخادم وكان المال المقرر ارساله سنويا للدار الخلافة من ايرادات مصر وقتئذ ثمانية أحمال ذهب فزاده خسرو باشا الى اثنى عشر حملا وعند ذلك طلبوه الى القسطنطينية وسأله ديوانها الكبير عن سبب هذه الزيادة خوفا من أن يكون أحدث ضرائب جديدة تضر بالاهالى لارضاء السلطان فأثبت أن النظام القديم الذى كان معمولا به قبل كان مختلا فلما انتظمت الادارة المصرية ظهرت هذه الزيادة فى الايرادات من غير أن يزاد شئ ما فى الضرائب الاصلية وان عدم ارسالها فى الثلاثة أعوام الماضية كان لصرف مبالغ وافرة فى التجهيزات الحربية وفى بناء السفن التى أقلع بها سليمان باشا الخادم ولما عاد سليمان باشا الخادم الى مصر استلم مقاليد الولاية ثانية وبقى فيها سنة وخمسة أشهر ثم دعى الى الاستانة فأسند اليه مسند الصدارة العظمى فكانت ولايته على مصر احدى عشرة سنة وعهدت ولاية مصر الى داود باشا (٩٤٥ هـ) وكان رجلا مستقيما كريم الاخلاق محبا للعلماء جمع من المؤلفات العربية شيأ كثيرا ومات فى مصر فحزن عليه الاهالى وله المآثر الخيرية مما خلد ذكره (٩٥٦ هـ) فمن مآثره المدرسة العظيمة التى بناها بسويقة اللالا بمصر وأوقف لها أوقافا باقية للآن ثم تولى بعده مصطفى باشا صقصغان ولكن لم تطل أيامه فصرف بعد أربعة شهور ونصف (٩٥٦ هـ) ثم تولى بعده على باشا الملقب بسميز وصدر له فرمان من دار الخلافة بتسيير الدونمنا لمحاربة البرتقال فى الهند فسار بها القائد البحرى الشهير بيرى رئيس من السويس مرتين (٩٥٨ هـ) ثم ترك الاساطيل بالبصرة وعاد الى السويس بمركبين فصدر الامر بقتله فقطعوا رأسه بالقاهرة كما سبق فى المقدمة وتعين بدله لقيادة الاساطيل مراد رئيس ولما عاد هذا الوالى الى دار الخلافة (٩٦٠ هـ) تقلب فى كثير من الوظائف الى أن ولى الصدارة العظمى (٩٦٨ هـ) فأحسن السلوك وتولى مصر بعده محمد باشا الشهير بدوقتراكين زاده فى أول صفر (٩٦١ هـ) وكان سيئ السيرة مبغضا عند الناس وفى أيامه سافرت الاساطيل العثمانية المصرية التى كانت ببحر البصرة والسويس تحت قيادة السيد على قبودان لمحاربة البرتقال كما سبق وتصرف هذا الوالى الى سنة ٩٦٣ هـ ثم عزل ودعى الى الاستانة للمحاكمة وقتل فيها وتولى بعده مصطفى باشا النشار وفى أيامه أصدر السلطان فرمانا بتجهيز الجيوش الى اليمن فحصل منه تراخ فى الامر فعزل بعد مدة قصيرة وتولى اسكندر باشا المعروف بالبستانجى (٩٦٣ هـ) ولما جاء سنان باشا لتجهيز الجيوش لليمن كانت الأوامر والنواهى بجميع ديار مصر بيده ولما توجه بالجيوش الى اليمن انفرد اسكندر باشا

البسنانجي بالاحكام وفي ولايته عمر المدرسة البديعة العجيبة البنيان التي كانت بباب الخرق المطلة على الخليج وهدمت أثناء فتح شارع محمد على وله غير ذلك من الاعمال العظيمة وأوقف أوقافا كثيرة ثم صرف سنة ٩٦٦ هـ وتولى مصر بعده على باشا المعروف بالخادم وبقي حاكما الى سنة ٩٦٨ هـ ثم فصل ونصب بدله الاشاهين مصطفى باشا وأقام ثلاث سنوات ثم عزل وتولى على باشا الصوفي سنة ٩٧١ هـ وبعد سنتين وثلاثة شهور فصل وتولى محمود باشا في رمضان (٩٧٢ هـ) وكان ظلوما جائرا مرتشيا ولما وصل الى مصر أهداه شيخ مشايخ الصعيد محمد بن عمر بخمسين ألف دينار فقبلها ثم دعاه اليه بعد ذلك وقتله وقتل أيضا الشيخ يوسف العبادي من القضاة لكونه لم يحضر لزيارته ووضع يده على أموال الدفتردار ابراهيم جلبي يوم وفاته فأساءت هذه المعاملة أصحاب الحمية من الاهالي والجند وبينما كان مارا في أول يوم من جمادي الاولى سنة ٩٧٥ هـ من بين بعض البساتين اذ أطلق عليه رجل عيارا ناريا فقتله ولم يقف أحد على القاتل ولما بلغ خبر قتله للاستانة كان السلطان سليم خان الثاني جالسا على تخت الخلافة بعد أبيه فأمر بتعيين سنان باشا بك بكوات حلب واليا على مصر فوصلها في ١٣ شعبان وأخذ ينظر في أحوالها ويتصرف في أمورها بحكمة وتدبر وبعد تسعة أشهر ونصف وردت عليه الاوامر السلطانية بان يستعد لفتح بلاد اليمن واسترجاعها من الزيديين القائمين فيها بالفتن فجهز فرقة من الجنود وقادها الى اليمن (٩٧٦ هـ) وأناب عنه في ولاية مصر جركس اسكندر باشا وقد تمكن هذا الوالي من فتح بلاد اليمن ثم أخذ في تمهيد أمورها واصلاح أحوالها وقد ألف القطبي تاريخا ضخما معتبرا عن هذه الفتوحات وسماه البرق اليماني في الفتح العثماني لم ينسج على منواله تاريخ وسنان باشا هذا هو الذي فرش الحجر الاسود الذي بعد صحن المطاف بالمسجد الحرام ولما رجع سنة ٩٧٩ هـ استلم ولاية مصر ثانية من اسكندر باشا الفقيه الجركسي المذكور وأخذ بتشييد المباني فشيد في بولاق تكية وجامعا الى الآن ونظر في كثير من الاصلاحات حتى أحبته الاهالي وبعد سنتين دعاه السلطان الى دار الخلافة ورقاه الى مسند الصدارة ثم بعثه لفتح تونس وتولى الصدارة بعد ذلك أربع مرات وكان من أعظم رجال الدولة له مآثر جمة وخيرات جسيمة لا تنقطع على توالي الايام في بلاد الشام ومصر والثغور والبنادر ووجه السلطان سليم ولاية مصر بعده الى حسين باشا (١٦ محرم ٩٨١ هـ) وفي ولايته حصل في مصر قحط وغلاء أعقبه وباء ولما جلس السلطان مراد خان الثالث على تخت الخلافة صرف حسين باشا (٩٨٢ هـ) عن مصر وولى مكانه خازنداره الخادم مسيح باشا ولما كان هذا الوالي يتصف بالعدل والعفة ويكره أهل الفساد قتل منهم نحو عشرة آلاف فخافه أصحاب المطامع من الحكام والكشاف فاستقام أمرهم وشيد في حياته مدرسة ومدفنا له بالقرافة أوقف عليهما أوقافا باسم الشيخ نور الدين القرافي لا بأس بها واستمر واليا خمس سنوات ثم فصل في ١٥ جمادي الاولى من سنة ٩٨٨ هـ وتولى بعده حسن باشا الخادم وكان يسمى بالنقيض لحصره الخدمة لمنفعته وكان محبا لجمع المال بأي وسيلة وعمر وكالة ببولاق تجاه دار الصناعة وصهريجا وكان ينوي ازالة دار الصناعة ليبني مكانها جامعا فلم تمكنه مدته من ذلك حيث صدر الامر بعزله بعد سنتين وعشرة أشهر من ولايته ولما خاف من العقاب هرب ليلا من القاهرة ثم قبض عليه وسجن (٢٤ ربيع الآخر ٩٩١ هـ) وتولى بعده ابراهيم باشا الوزير وحضر بفرمان سلطاني يأذن له بالتفتيش على أعمال حسن باشا المذكور ففرح لقدومه الناس وأخذ يفتش على ما اغتصبه سلفه فوجده شيأ كثيرا وكان الصفيق علنا بجامع السلطان فرج بن برقوق وكان لكل الحق في الادعاء على الوالي المذكور ولما تم

Digitized by Google

التحقيق وعرض ابراهيم باشا نتيجته أتى الامر اليه بقتل حسن باشا فقتله وتوجه بنفسه الى بئر الزمرذ فظفر منه بشيء نفيس ونظر في كثير من الامور وأصلحها ثم استعفى ودعى الى القسطنطينية سنة ٩٩٢ هـ وتولى بعده سنان باشا الثاني المعروف بالدفتردار فأساء التصرف ولما بلغت الشكاوى في حقه دار الخلافة عزل (٢٤ ربيع الآخر ٩٩٥ هـ) وولى السلطان مكانه أويس باشا ولما وصل الى شبرى قابل سنان باشا بوجه عبوس فخاف سنان باشا من ذلك ولما عاد الى مصر اختفى ليلا ولم يظهر له خبر ثم ظهر بعد مدة في القسطنطينية ولما كانت ادارة البلاد مهملة في زمن سنان باشا على الخصوص أثر ذلك في الجنود ولم تمض أيام على ولاية أويس باشا حتى ظهر لهيب الفتنة بين العسكر وذلك لانه لم يقصد ادخال أولاد العرب من المصريين في الجيش تذمر الجنود ولم يقبلوا أن يتشبه غيرهم بهم في لباسهم وهجموا على أويس باشا وأهانوه (٩٩٧ هـ) وقتلوا اثنين من القضاة فاضطر الى الاذعان لطلباتهم وفي هذه المدة حصلت زلزلة شديدة سقطت منها جملة منارات وبيوت وأعقبها ريح عاصف وتفرق جبل المقطم الى ثلاث فرق بالقرب من اطفيح وخرج منها ماء وفي شهر رجب سنة ٩٩٩ مات أويس باشا بداء السكتة ودفن بالقرافة وتولى بعده حافظ أحمد باشا الخادم وكان حاكما على قبرس وكان عالما حاذقا مدبرا محبا للعلماء والفقراء فأحبته الاهالي وعمر في مدته وكالة كبرى وأخرى صغرى وسوقا وقهوة وبيوتا ورتوعا في بولاق بجوار شون الحطب وغير ذلك من المباني ولما جلس السلطان محمد خان الثالث سنة ١٠٠٣ هـ على تخت الخلافة استدعى حافظ أحمد باشا المذكور الى القسطنطينية وجعله وزيرا وولى مكانه في مصر السيد محمد باشا الشريف فوصل مصر في ١٣ شوال ١٠٠٤ هـ وكان عالما مهيبا ذا سطوة وبصيرة قامت في أيامه ثورة كبيرة كاد يقتله فيها العسكر وطائفة السلحانية ولكنه تمكن بحذقه من ردعهم ورمم أروقة الجامع الازهر ورتب عدسا يطبخ للمجاورين به والفقراء ولما دعى الى الاستانة خرج من مصر بموكب عظيم وعلى رأسه عمامة خضراء (١٠٠٦ هـ) وتولى بعده خضر باشا ووصل الى مصر في ذي الحجة من السنة المذكورة وكان سيئ التصرف فأغضب الاهالي وكانت حركات العساكر غير مرضية وبعد ثلاث سنوات من حكمه عزل وتولى بعده السلحدار علي باشا المعروف بياوز (٩ صفر ١٠١٠ هـ) ولما وصل الى مصر تقدمت اليه شكاوى كثيرة في حق كاشف المنوفية وحاكم النحراوية فقتلهما فهابه الحكام وكان من رجال الحرب فلذلك كان يكرم الجند وكان قاسيا سفاكا للدماء حتى لقبه أهل مصر بالنمر وتظلم الاهالي من قساوته وفي مدته حصل الطاعون في مصر ثم أزاله الله بعد أن فتك بالقرى والامصار وانتشر في زمنه عصر تدخين التبغ ثم دعى الى الاستانة بعد سنتين وستة أشهر وعشرين يوما من ولايته وأناب عنه بيري بك أمير الحج (١٠١٢ هـ) واتفق في هذا الوقت جلوس السلطان أحمد خان على كرسي الخلافة فوجه مسند الصدارة العظمى الى ياوز علي باشا المذكور وجعل بيري بك المذكور واليا على مصر ولكن عاجلته الوفاة قبل وصول الخبر اليه بذلك أي بعد أربعة أشهر من نيابته وانتخب السناجق أمير اللواء عثمان بك الى أن يرد الفرمان عن يتصرف في الولاية وكان عثمان بك مشهورا بالعفة والاستقامة والعدل وكان له خط مليح فاق به مشاهير الخطاطين وكان أيضا من رجال الحرب المعدودين فتصرف ثلاثة شهور وثلاثة وعشرين يوما وولى السلطان أحمد خان بعد جلوسه على مصر حاجي ابراهيم باشا وكان مستقلا برأيه لا ينقاد الى النصح والشورى فثارت العساكر عليه واشتدت الفتنة

Digitized by Google

وصمموا وساؤها على قتل الوالي المذكور عند عودته من قطع جسر أبي المنجا وكان ذهب اليه ومعه محمد باشا خسرو ومصطفى أفندي عزمي قاضي مصر فتمكنوا من مرادهم وقتلوه بعد أن فتكوا بمحمد خسرو باشا (١٠١٣ هـ) وفي ذلك اليوم أرادوا تولية عثمان بك فلم يقبل فأقاموا قاضي العسكر مصطفى عزمي أفندي نائبا ولما علم ديوان الاستانة بقتل ابراهيم باشا ولى على مصر كورجي محمد باشا الخادم في ٦ رجب من السنة المذكورة فحضر على غراب حربي وألقته الرياح على ساحل دمياط ولما قدم مصر أخذ يبحث عن قاتلي ابراهيم باشا ولما قبض عليهم قتلهم شر قتلة فهابته الناس ولكن لم تطل مدته حيث صرف عن ولايته مصر بعد سبعة شهور و ١٧ يوما وتقلب في خدمات عديدة الى أن تولى الصدارة العظمى ثم في مدة السلطان مصطفى خان عاد الى مصر وأقام بها وهو كفيف البصر ولما انفصل كورجي محمد باشا ولى مصر بعده حسن باشا الدفتردار (ربيع أول ١٠١٤ هـ) وكان على ولاية اليمن وكان حسن الاخلاق أنشأ رواقا لليمنية في الازهر ولم يحصل منه بمصر لانفع ولاضر وعزل في ١٦ صفر ١٠١٦ هـ وولي بعده أوكوز محمد باشا ولما وصل الى القاهرة تقدمت له جملة شكاوى في حق كشاف المنوفية والغربية والبحيرة فعزلهم ونصب خلافهم وبذلك سكنت اضطرابات الاهالي ويقال ان كاشف الغربية لما انفصل تعصبت عليه العساكر وأرادوا قتله فهرب في احدى السفن الراسية على ساحل البحر فسقط في البحر وغرق (١٠١٧ هـ) ولما اشتدت الفتنة ساق الباشا جيشا تحت قيادة الامير مصطفى بك سردار العسكر فبدد شمل الثائرين واستمر محمد باشا بعد ذلك نافذ الكلمة الى أن عزل (١٠٢٠ هـ) وولي الصدارة بعد ذلك وله عمارات برشيد وغيرها وتولى بعده على مصر حاجي باشا وكانت مدته قصيرة ودعي الى دار الخلافة وولي مكانه محمد باشا الصوفي (١٠٢١ هـ) ووصل الى مصر في شهر شعبان وكان مستقيما يميل الى العدل وفي السنة الثانية من حكمه أتت بعض الفرق العسكرية من الاستانة للاقامة في مصر ولما أمر بارسال الزائد من الجنود الى اليمن بعد تجهيزهم صرف لهم استحقاقهم وأراد تسفيرهم لاخماد ثورة اليمن فثاروا عليه وحصل منهم مقاومة وأخيرا تغلب عليهم وساقهم الى السويس ومنها الى اليمن ثم عزل (١٠ ربيع الاول ١٠٢٤ هـ) وولي بعده أحمد باشا الدفتردار وكان سياسيا صاحب تدبير سهل الاخلاق ولما قامت الحرب بين الدولة والعجم جهز فرقة مؤلفة من ألف جندي وأرسلها امدادا للدولة تحت قيادة صالح بك واستمر أحمد باشا نافذ الكلمة الى أن صرف في صفر سنة ١٠٢٧ هـ وكان السلطان مصطفى خان تربع على دست الخلافة فولى لفكه لى مصطفى باشا السلحدار على مصر وثارت في ولايته بعض الاوباش من الجنود فأعادهم الى السكينة ثم عزل (١٠٢٨ هـ) وصادف خلع السلطان مصطفى خان وجلوس السلطان عثمان خان الثاني (١٠٢٧) فولي على مصر جعفر باشا (١٠٢٨ هـ) وكان في اليمن وحضر الى مصر وأقام فيها مدة في ولاية أحمد باشا ولما قامت الفتنة سافر الى دار الخلافة ثم عاد بفرمان الولاية وقوبل بالسرور وفي مدة ولايته تفشى في البلاد الطاعون حتى قفلت الاسواق وتعطلت الاعمال وعزل في شهر رمضان وعاد الى الاستانة وولي بعده مصطفى باشا (١٠٢٨ هـ) وتضرر أصحاب الاملاك والاموال كثيرا من أعماله لانه اغتصب منهم شيأ كثيرا وكثرت الجواسيس والوشاة ببابه وصاروا ينقلون اليه أخبار الناس ويزخرفون له أقاويل كاذبة فاختلت الاحوال وكان مصطفى باشا هذا ذا شجاعة واقدام قتل بيده زعيم الفتنة

الماضية

Digitized by Google

الماضية المدعو مصطفى بقجلى وظن الناس أن بقتله تقوم فتنة فلم يحصل شيء ثم عزل فى رمضان سنة ١٠٢٩ هـ وتولى بعده مرة حسين باشا الأرنؤد ولما حضر حبس مصطفى باشا المذكور ونظر فى حسابه ثم لما سافر الى دار الخلافة تبعه المتظلمون وهنالك أخذوا حقوقهم منه وبعد سنة من حكم حسين باشا حصل غلاء وارتفعت الاسعار وأعقبها وباء بقى ثلاثة شهور ثم عزل فى ربيع الآخر سنة ١٠٣١ هـ وسافر الى دار السعادة وقبل وصوله خلع السلطان عثمان خان الثانى وجلس السلطان مصطفى خان مرة ثانية وانفقت الاحزاب فولوا مرة حسين باشا والى مصر الصدارة العظمى (١٠٣١ هـ) وولى على مصر بوبرمحمد باشا رئيس البستانجية ولكنه لم يصل الى مصر بل عزل بعد ٧٠ يوما وكان النائب عن الوالى بمصر حسن أفندى الدفتردار ثم ولى على مصر السلحدار ابراهيم باشا ودخل مصر من ثغر رشيد فى شهر رمضان وأظهر فى ادارته حسن الاقتدار ولكن لم تطل أيامه فعزل وتولى مكانه قره مصطفى باشا (فى رمضان ١٠٣٢ هـ) ولما وصل قصد محاسبة ابراهيم باشا على مال الديوان فلم يستطع ذلك وقال ابراهيم باشا الصالح بك الذى أرسله الوالى الجديد اليه إنه يدفع ما عليه للسلطنة فى الاستانة وأقلع من اسكندرية فأطلقت طابية الفنار على سفينته بعض طلقات الا أنها لم تحدث لها ضررا وكان قره مصطفى باشا هذا يتجول بنفسه فى الاسواق وينظر فى الشكاوى وفى الاسعار ويحكم فى الجنايات بنفسه مخافته العسكر وحصل من أعماله هذه تأثير حسن فى قلوب الخلق وعظم فى أعينهم وله من العمارات والمدارس التى بناها شيء كثير ولما جلس السلطان مراد خان الرابع (١٠٣٢ هـ) عزل هذا الوالى عن مصر وولى مكانه على باشا الچشنه جى ولما حضر طلبت منه العساكر الأعطية المعتاد توزيعها عند تولية الوالى الجديد فتوقف القائمقام عيسى بك فى الصرف فرفضت العساكر عزل قره مصطفى باشا وألزموا على باشا بالعودة من حيث أتى ولما ركب البحر لم يساعد الريح سفينته على الاقلاع وأطلقوا عليها من قلعة فنار الاسكندرية بعض القنابل فاضطرت للهرب بعد كل صعوبة ثم أرسل الجنود من طرفهم مأمورا الى الاستانة فنال لهم فرمانا بابقاء قره مصطفى باشا فى الولاية (١٠٣٥ هـ) وظهر وباء شديد صار فى أثنائه الباشا يغتصب أموال المتوفين بغير حق كأنه الوارث العمومى لاهالى القطر فتقدمت فى حقه الشكاوى لدار الخلافة فعزله السلطان مراد خان وولى مكانه بيرام باشا (فى شعبان ١٠٣٧ هـ) وفى ولايته حصلت ثورات فى اليمن وكلفته الدولة باخمادها فساق عليها الجنود وحصل بسبب ذلك أمور مكدرة يطول شرحها وكان بيرام باشا هذا محبا للعلم والعلماء ذا ادارة حسنة ولذلك ازدادت فى زمنه التجارة والمكاسب فكثر بسببها الضرائب ثم دعى الى الاستانة وولى فيها الوزارة (١٠٣٨ هـ) وتولى على مصر مكانه طبان بصى محمد باشا وفى أوائل ولايته صدر له فرمان بارسال جيش لاطفاء ثورة اليمن فعين أمير الحج قانصوه بك مأمورا لاصلاح مقاطعة اليمن وبعد أن تجهزت الجيوش أظهر قانصوه بك المذكور بعض تعللات ولكنه اضطر أن يسافر بعد ذلك مع القوة التى كان عددها ٣٠,٠٠٠ مقاتل ومعها ٣٠ مدفعا (١٠٣٩ هـ) فأطفأ لهيب تلك الثورة وأصلح محمد باشا هذا ما هدمه السيل من الكعبة الشريفة بأمر السلطان ثم عزل عن مصر (١٠٤٠ هـ) وتولى بعده موسى باشا وكان سيء السيرة وفى أيامه سافر من مصر جيش لمساعدة الدولة فى حرب الفرس وعين لقيادته قيطاس بك ونشأ من ذلك ضرورة زيادة الضرائب ونصح قيطاس بك الوالى بمنع هذه الزيادة فقتله فقامت السناجقة على موسى باشا ومنعوه عن النظر

Digitized by Google

فى الاعمال فاضطر أن يسافر بحرا الى دار السعادة (فى محرم ١٠٤١ هـ) وتقدمت جملة شكاوى فى حقه من العلماء والامراء فولت الدولة مكانه البستانجى خليل باشا فأتى مصر فى شهر ربيع الاول وفى أوائل ولايته قامت ثورة بالحجاز زعيمها يدعى نامى الاشرف وهجم رجالها على مكة ونهبوها فكلفت الدولة خليل باشا باطفاء هذه الفتنة فارسل تجريدة مع الامير قاسم بك فحارب أولئك الثوار وقتل زعيمهم وعاد سنة ١٠٤٢ وفى هذه السنة استقال هذا الوالى من ولاية مصر وقد أثنى عليه الاهالى لعدله وقناعته وولى مكانه الامير اخوركور جى أحمد باشا ولما وصل طلبت منه الدولة ارسال الامداد والذخائر لمساعدة جيوشها التى أرسلتها لمعاقبة دروز لبنان وفتح بغداد فاعتذر بعدم امكان مصر القيام بذلك ثم طلبوا منه نقودا للاعانة العسكرية فاثقل الضرائب لذلك فشكته الاهالى فاستدعى الى الاستانة وهناك حكم عليه بالاعدام بعد اجراء التحقيق (١٠٤٥ هـ) وولى مكانه بكلربكوات ديار بكر وهو حسين باشا وكان سفاكا للدماء منها بالاموال الايتام أبطل شرب الدخان وعاقب بقتل من استعمله وعزل بعد سنتين (١٠٤٧ هـ) وولى مكانه قبو جى باشى جوان محمد باشا المعروف بسلطان زاده ولما وصل طلبت منه الدولة مساعدة حملة بغداد فارسل ١٥٠٠ جندى مع أمير الحج قانصوه بك (١٠٤٩ هـ) وعادوا بعد سنة وكان محمد باشا هذا طماعا جمع ثروة عظيمة وفى ولايته جلس السلطان ابراهيم خان على كرسى الخلافة فعزل محمد باشا وولى مكانه نقاش مصطفى باشا المعروف بالبستانجى (فى جمادى الآخرة ١٠٥٠ هـ) وكان نزيه النفس ولكن سوء أعمال حاشيته سلب الامان من البلاد فنصبوا من يدعى كنعان أفندى مأمور الضابطة فأعاد النظام وبعد قليل هاج العساكر لتأخير مرتباتهم وقد اتضح بعد النظر فى شكاويهم ان بعض ذوى الاطماع من المأمورين اختلس جانبا منها وكان قاضى مصر كلف بتحقيق ذلك ولما ظهرت الحقيقة أخذ الوالى المذكور يغير المأمورين الذين ظهرت إدانتهم وينصب بدلهم وقد اضطر بسبب ذلك الى الاستعفاء (١٠٥٢ هـ) وولى مكانه بكلربكوات ديار بكر مقصود باشا فلما حضر أجروا بعض التحقيقات فظهر له ان فى طرف كتخدا الوالى السابق وكاتبه مائتى كيسه ولذلك أخلى سبيل الذين كانت وقعت عليهم الشبهة من العمال وحصل فى مدة هذا الوالى وباء لم يسمع بمثله فكثرت الموتى حتى صاروا يدفنون بدون صلاة وخربت بسببه ٢٣٠ قرية من الوجه البحرى وأعقبه قحط وغلاء فى الاسعار وتآمر السناجق وفى مقدمتهم ماماى بك وعلى بك وشعبان بك ورضوان بك والدفتردار شعبان بك على الباشا لطلبه منهم تسديد رواتب الجيش وبقيت الاحوال مرتبكة والتجارة كاسدة فعزله السلطان (١٠٥٤ هـ) وولى مكانه الدفتردار شعبان بك موقتا ثم حضر الوالى الجديد أيوب باشا الى القاهرة فى ربيع الاول وكان من مأمورى السراى الشاهانية وكان نحيف الجسم متمرضا ومع ذلك تمكن من اصلاح بعض الامور لاستقامته ونزاهته ولكن لم تطل أيامه فاستقال وتفرغ للعبادة (فى ربيع أول ١٠٥٥ هـ) وولى بعده محمود باشا ابن حيدر اغا ولما لم يحسن الادارة زادت الامور ارتباكا كثورة البكيرية التى قامت بدسيسة رضوان بك وعلى بك ورفع البكيرية شكواهم الى السلطان فورد للوالى فرمان بقتل قانصوه بك وماماى بك فقتلهما ونفى غيرهما من الامراء وهرب البعض (١٠٥٧ هـ) ثم قام مصطفى كتخدا وغيره بفتنة أخرى فاستدعى الوالى محمود باشا الى الاستانة الا ان أرباب الثورة كانوا قبضوا عليه وحبسوه بالقاهرة وورد الخبر بولاية موستارى مصطفى باشا ١٠٥٧ هـ وفى تلك الاثناء انتقل السلطان

ابراهيم

Digitized by Google

ابراهيم خان الى الدار الآخرة وجلس ابنه السلطان محمد خان على كرسى الخلافة (١٠٥٨ هـ) وتعين شريف محمد باشا بدل مصطفى باشا المذكور ولما أتى حاسب الوالى المحبوس فوجد طرفه ٨١٠٠ دينار فحصلها منه ثم فصل مصطفى باشا الموستارى هذا (١٠٥٩ هـ) وتولى مكانه أحمد باشا الطرخونجى وعقب وصوله مصر وصل خبر بعزل الامير قيطاس محافظ جدة وخلفه فيها حاكم آخر يدعى حسن باشا وقد حصل بين حسن باشا و بين الشريف زيد شريف مكة منازعات أدت الى حروب قهر فيها الشريف زيد وفى أيام هذا الوالى اضطربت الاحوال وغلت الاسعار حتى خيف من المجاعة وأتاه أمر من دار الخلافة بنقل أمير الحاج رضوان بك لتصرفية جرجا بدلا من على بك الذى عين أمير الحاج ثم عزل أحمد باشا فى صفر سنة ١٠٦١ هـ وتولى مكانه عبد الرحمن باشا (١٠٦٢ هـ) ولم يكن له من النفوذ شئ لتغلب الامراء عليه حتى اضطر لان يعيد قيطاس بك لمحافظة جدة ثم عزل هذا الوالى وتعين مكانه خاصكى محمد باشا (فى شعبان ١٠٦٢ هـ) وفى أيامه أصلحت بعض الجوامع والاضرحة ولما مات على بك حاكم جرجا عين مكانه أحد مماليكه المسمى محمد بك وثارت بعض العساكر فقبض عليهم ونفى بعضهم وبذلك سكنت الفتنة ثم أرسل أحمد بك كبير بكوات الحبشة اليها فأصلح المختل من أمورها بقدر الامكان و بعد عودته مات رضوان بك أمير الحاج فتعين أحمد بك مكانه ثم حصلت بعض قلاقل واضطرابات تعصب فيها كتخدا الجاويشية ضد الباشا وكانت نهايتها انزال الوالى من القلعة وحبسه فى بيته الى أن صدرت الاوامر من الاستانة بعزله (١٠٦٦ هـ) وولى مكانه مصطفى باشا صهر ابن الخاليجى وفى مدته تحول النفوذ الى السناجق واعتصب الينكجرية واجتمعوا بالسلاح أمام الديوان وطلبوا النظر فى أمر علوفاتهم فدعا الوالى أمراءهم ونصحهم وو بخهم فلم يرتدعوا وحصل من ذلك عربدة كبيرة تمت بعزل الوالى (١٠٦٧ هـ) وولى مكانه الغازى محمد باشا ابن شهسوار فلم يتمكن من رتق الفتق وازدادت الارتباكات لخروج بعض الامراء عن حدودهم مما اضطره لان يعقد مجلسا مؤلفا من القاضى وشيخ الجامع الازهر والشيخ البكرى وغيرهم فقرروا بلزوم محاربتهم لعدم امتثالهم الاوامر السلطانية فجرد عليهم وحاربهم وقتل قانصوه أحد كبرائهم فى الواقعة وقدم محمد بك كاشف البهنسا الطاعة ومع كل ذلك قطع الوالى رأسه فى ملوى وعاد الى مصر ثم عزل هذا الوالى وخلفه مصطفى باشا الكورجى (١٠٦٧ هـ) ولما حضر شرع فى محاسبة سلفه عما لديه من الاموال ومطالبته بتروكات محمد بك المقتول ثم حبسه فى قصر يوسف صلاح الدين بالقلعة وكتب الى الاستانة بعدد سيئاته وما ارتكبه من المنكرات فصدر فرمان بقطع رأسه فقطعت سنة ١٠٦٨ هـ وانطفأت بذلك فى الظاهر الفتنة التى قامت فى مصر وقتئذ ثم عزل مصطفى باشا المذكور فى شهر رمضان من السنة المذكورة وولى مكانه الدفتردار ابراهيم باشا وحدثت فى مدته قلاقل واضطرابات شديدة بين أمراء مصر فعزل وتولى وال آخر يدعى ابراهيم باشا الدفتردار ولم يبق الا أياما ثم عزل ونصب بعده عمر باشا السلحدار وفى أيامه اشتد الهرج وانقسمت الامراء أحزابا وحصلت واقعة الصناجق وكانت واقعة هائلة بقيت فيها نيران الحرب بينهم مشتعلة فى شوارع القاهرة وضواحيها وامتد ذلك الى الاقاليم القبلية وجهز الوالى أثناءها عدة تجاريد ثم انتهت بقتل معظم أمراء الفقارية وانتصرت أحزاب القاسمية (١٠٧١ هـ) وبقى عمر باشا فى الولاية الى سنة ١٠٧٧ هـ ثم عزل وتولى بعده أحمد باشا ولم تطل أيامه حيث فصل بعد سنة وتولى بعده ابراهيم باشا

Digitized by Google

المعروف بالصوفى (١٠٧٨ ﻫ) ثم عزل بعد سنة أيضا وتولى مكانه قره قاش على باشا ومات فى القاهرة فخلفه الكتخدا ابراهيم باشا وفى أيامه ارتفع ثمن الفضة جدا لسبب لم نقف عليه ثم عزل سنة ١٠٨٥ ﻫ وولى مكانه حسين باشا ابن جانبولاد وأمرته الدولة بارسال ثلثمائة كيس غروش كلاب على حساب الغرش الكلب ٣٠ نصف فضة وكان الغرش الكلب فى مصر بأربعين نصف فضة ثم فصل فى سنة ١٠٨٧ ﻫ وتولى بعده أحمد باشا الدفتردار وصرف بعد سنة وولى بعده عبد الرحمن باشا وفى أيامه غلت الحبوب حتى بلغ ثمن اردب القمح ١٨٠ نصف فضة واردب الشعير ١٢٠ والفول كذلك مع ان النيل كان وافيا ثم عزل سنة ١٠٩١ ﻫ وتولى بعده عثمان باشا وفى أيامه زاد النيل كثيرا حتى غطى مابين الجبلين من الاراضى ونادى المنادون بذلك فى مصر وفى ولايته شيد ذو الفقار بك أحد الامراء جامعه المعروف باسمه بدرب الجماميز ثم عزل هذا الوالى سنة ١٠٩٤ ﻫ وولى مكانه حمزة باشا ولما كانت الدولة فى العهد المذكور مشتغلة بالحروب المتواصلة مع النمسا وغيرها ومرتبكة بالثورات الداخلية كما بيناه فى تاريخ الدولة بالجزء الاول انتهز الامراء فى مصر هذه الفرصة وقاموا يريدون الاستقلال واعادة حكومة المماليك فكانوا يهددون الولاة تارة باشهار السلاح وتارة بعقد الاتفاق فيما بينهم حتى جعلوا الولاة ألعوبة فى أيديهم ولما عزل حمزة باشا المذكور سنة ١٠٩٧ ﻫ تولى بعده حسن باشا كتخدا ولخوفه من اتحاد الاحزاب عليه واستبدادهم اضطر لان يوقع بينهم الفتنة ويضرب بعضهم ببعض فنجح وقامت بينهم مجادلات وحروب يطول شرحها وأخيرا تعين الامير ابراهيم بك أبو شنب شيخا للبلد ونصب الامير اسمعيل بك دفتردارا فعاد النظام وهدأت الاحوال وغلت الاسعار سنة ١٠٩٨ فضج الناس وأظهروا التذمر من الوالى فعزل من الولاية سنة ١٠٩٩ ﻫ وولى مكانه حسن باشا الداماد بفرمان من السلطان سليمان خان الثانى ولم تطل مدته فعزل بعد سنة وولى بعده ابراهيم باشا الصوفى سنة ١١٠٠ ﻫ ثم أحمد باشا الكتخدا (١١٠١ ﻫ) فعاجلته الوفاة سنة ١١٠٢ ﻫ فتولى مكانه على باشا الملقب بقلبج ويلقبه حضرة صاحب دليل افريقية بالخزينه دار ولما حضر عين الامير اسمعيل بك دفتردارا بدلا عن الامير مراد بك واهتم بارسال فرقتين عسكريتين تتركب كل واحدة منهما من ألف نفر الى كريد امدادا للدولة وفى أيامه ثارت العساكر على الامراء فتمكن هذا الوالى من ردعهم وكان فساد العساكر فى أيامه قد بلغ منتهاه حتى عجز عن ردع المفسدين وتأمين الرعايا وانقطع ورود الغلال الى الشون السلطانية وخلت الخزينة من الاموال واشتدت الامور وكانت كل طائفة من العساكر تأخذ فى حمايتها جملة من التجار أو المزارعين أو الملاحين فى البحر فيقتسمون معهم الارباح ويمنعونهم من أداء حقوق الحكومة فبذل الوالى كل جهده فى ابطال هذه الحمايات حتى أبطلها وحارب العربان فقمعهم ثم سكنت الامور نوعا وصرف فى ذى القعدة سنة ١١٠٦ ﻫ وتولى بعده اسمعيل باشا ولما حضر الى مصر وجد الفقر اشتد بجانب كثير من الناس اختص باطعام قسم كبير منهم ووزع ما بقى على الامراء ولاشتداد الفقر ظهر الوباء فى أيامه فمات به خلق كثير وكان هذا الوالى شديد الوطأة على عمال الحكومة واتفق أن شخصا من عمال المحكمة الشرعية يدعى محمد الزرقانى زور حجة ولما تبين تزويره أمر به فحلقت لحيته وساروا به فى الحارات والازقة ثم نفى الى الصعيد وثارت بعض العساكر فى ربيع الاول من سنة ١١٠٩ فعزل ونقل واليا على بغداد وتولى بعده

Digitized by Google

صارى حسين باشا البوشناقى ولما وصل الى مصر أرسل فرقة من الجنود المصرية امدادا للجيش السلطانى سافرت مع الامير يوسف بك المسلمانى وفى أيامه أوقع المغاربة ببعض الاهالى فقبض على جملة منهم وحبسهم ثم صرف فى ربيع الآخر من سنة ١١١٠ هـ وتولى بعده قره محمد باشا كتخدا الوزير الاعظم المعروف بعوجه زاده وفى خلال ولايته وردت الاخبار بجلوس السلطان أحمد خان الثانى على سرير الخلافة فعملت الزينات وشيد هذا الوالى كثيرا من المبانى النافعة مدة ولايته ثم نقل فى شهر جمادى الآخرة من سنة ١١١٦ هـ الى الشام وتولى مكانه محمد باشا رامى وفى أيامه نقصت زيادة النيل عن العادة فارتفعت الاسعار واشتد الكرب بالناس وظهر الطاعون ومات به خلق كثير وتولى الامير أيوب أمير الحج بدلا عن قيطاس بك ثم فصل هذا الوالى فى جمادى الاولى سنة ١١١٨ هـ وولى مكانه على باشا كتخدا حسين باشا وحضر على النيل مع اتباع عديدين يزيدون عن ألفى نفس وفى مدته قامت فتنة بين فرقة المتفرقة وفرقة العزب فقبض على رؤسائهما ونفاهم فسكنت فتنتهم وصادر الوالى السابق فى أمواله وحبسه ثم نفاه الى رودس ولما مات اسمعيل بك الدفتردار نصب مكانه أيوب بك ثم عزله ونصب مكانه الامير ابراهيم بك وفى سنة ١١١٩ هـ حبس هذا الوالى بناء على ما ورد من الاستانة لامور نسبت اليه وأخذ الدفتردار فى محاسبته وسؤاله عما فعله بأموال الحكومة وتولى بعده حسن باشا الداماد مرة ثانية ووصل من طريق النيل فى شهر شعبان وثار الينكجرية فى أيامه فتوسط العلماء والامراء فيما بينهم وبين الوالى فثابوا الى السكينة وأخذت عليهم المواثيق بأن لا يشقوا عصا الطاعة مرة أخرى وأعيد قيطاس بك لامارة الحج ثم ثار أهل الفساد ولم تنطفئ نورتهم الا بعد أن نصب ابراهيم بك أبوشنب لامارة الحج وأعيد قيطاس بك دفتردارا كما كان ثم فصل هذا الوالى سنة ١١٢١ هـ وولى مكانه القبودان ابراهيم باشا وسافر حسن باشا الى منصبه الجديد فى طرابلس وفى أوائل حكم هذا الوالى هطلت أمطار كثيرة لم ير مثلها حتى زاد النيل منها خمسة أذرع وتغير لونه وفصل ابراهيم باشا سنة ١١٢٢ هـ وتولى بعده كوسج خليل باشا وفى مدته ثارت العساكر وحاصروه بالقلعة وانقطع المرور من أكثر طرق القلعة نحو سبعين يوما وتخربت من ذلك جهات الدرب الاحمر والمحجر وقوصون وسوق السلاح والداودية والصليبة والسيوفية والخليفة ولما وضع الثوار المدافع على جبل المقطم وأطلقوها على القلعة وشددوا الحصار على الباشا خاف العاقبة فأرسل اليهم نقيب الاشراف فى الصلح وأجاب مطلوبهم ونزل مع أعوانه وأمواله الى المدينة وبقى محبوسا فيها سنة كاملة ونصب الثوار الامير قانصوه بك للولاية حتى ترسل الدولة واليا جديدا وولت الدولة مكانه شريف والى باشا (١١٢٣) وكان عربان الهوارة هاجوا مصر مع الامير محمد بك وقت الفتنة ونهبوها فأرسل الوالى عليهم جنودا تحت قيادة الامير محمد بك فتوسط ابراهيم بك أبوشنب فى الامر وعادت السكينة وأتت الهدايا للوالى من الاطراف كالعادة وفى أيامه قدم واعظ تركى وأخذ يعظ الناس فى جامع المؤيد وينهاهم عما جرت عادتهم بفعله مثل زيارة القبور وايقاد القناديل بالاضرحة وغير ذلك ويرمى فاعليها بالكفر فصدرت فتوى من الشيخ أحمد النفراوى أحد علماء الازهر بجواز ذلك فتعصب لهذا الواعظ خلق كثير وثاروا وحصلت أمور من ذلك يطول شرحها ثم عين الوالى من قبله ابراهيم بك وقيطاس بك لتأديب القائمين بالفتنة وقبض على البعض ونفى البعض وهرب الواعظ فعادت السكينة وفى تلك الاثناء عادت الجنود المصرية التى

Digitized by Google

كانت تحت قيادة بلطه جي محمد باشا بعد انتصاره الشهير على بطرس الاكبر في واقعة نهر بروت وكانها تحمل مكافآت سلطانية ولما أخلت الروسيا بالعهود بعد ذلك ولم تراع ما اشترطته الدولة عليها صدرت الاوامر السلطانية لوالي مصر بتجهيز الجيوش اللازمة لامداد الجيش السلطاني وبينما هو يهتم بذلك صدر الامر بعزله سنة ١١٢٦ ﻫ وولي بعده عبدي باشا وفي مدته حصلت واقعة القاسمية وكان الباشا يتحزب لهم وغرضه من ذلك قتل الامير قيطاس بك الذي كان رئيس الفقارية لان الحل والعقد كان بيده فقتله يوم العيد فانتقل النفوذ للقاسمية بعد ان كان للفقارية ثم عزل عبدي باشا عن مصر ونقل الى الروم ايلي وتولى بعده الكتخدا علي باشا المعروف بالازميرلي وقبل وصوله مات ابراهيم بك أبوشنب فعين مكانه اسمعيل بك من أمراء الفقارية وصار الامير أحمد بك دفتردارا وفي سنة ١١٢٩ ﻫ طلبت فرقة عسكرية الى دار الخلافة فأرسلها الوالي صحبة أحمد كاشف وكانت الفتن قائمة بين الامراء وبين ابن ابرهيم بك أبوشنب طلبا للرياسة ثم أرسله الوالي لتوصيل الخزينة الى استانبول ليتخلص منه فقام عند ذلك أحد الامراء المدعو اسمعيل بك باطماعه بقصد الانفراد بالاحكام وفي خلالها عزل علي باشا عن مصر (١١٣٢ ﻫ) وتولى مكانه أمير حج الشام رجب باشا فلما حضر سجن علي باشا وشدد عليه في الحساب وأخيرا قتله بغير ذنب وصادر أمواله وظهر الامراء المختفون وسعى الباشا سرا في الايقاع بين محمد بك واسمعيل بك ليتخلص منهما أو من أحدهما على الاقل وثارت العسكر واتفق الامراء على عزل رجب باشا فأنزلوه من القلعة محقرا بعد مائة يوم من حكمه (١١٣٣ ﻫ) وتولى مكانه نشانجي محمد باشا المنفصل عن الصدارة ولما وصل أخذ يدقق في الحساب وطالب رجب باشا بالباقي طرفه من حساب الضربخانه وحرض إسمعيل بك على القاسمية فشتت شملهم قتلا وتشريدا ونصب أمراء الفقارية على الأعمال ثم عزل سنة ١١٣٨ ﻫ وولي مكانه علي باشا المورهلي ولما حضر وأعلنت ولايته أخذ سلفه يحرض الفقارية على القاسمية فقامت الفتنة بين الحزبين ولعب الوالي اللاحق والوالي السابق ادوارا في الفتنة ثم انجلت بابقاء امارة الحج في حزب الفقارية والدفتردارية في القاسمية وانفصل بذلك الخصام وأعاد الفقارية محمد باشا النشانجي الى الولاية فاضطر علي باشا الى السفر من مصر ولم تمض أيام بعد ذلك حتى انتصر حزب القاسمية وطالب محمد باشا بالحساب وألزمه بترك القلعة وفي خلال ذلك وجهت الدولة ولاية مصر الى بكر باشا (١١٤١ ﻫ) وفي ولايته قتل القاسمية ذوالفقار بك فقام مماليكه يقتلون كل من وجدوه في طريقهم من القاسمية واشتدت الفتنة وظهرت بينهم أحزاب أخرى وفي خلالها جلس السلطان محمود خان الاول على دست الخلافة (١١٤٣ ﻫ) فعزل بكر باشا عن مصر وولي مكانه عبدالله باشا الكفورلي وكان لا بأس به مدحه الشعراء لحسن أعماله وفي أيامه قتل جركس بك وتولى عثمان بك مشيخة البلد وفصل بكر باشا عن مصر سنة ١١٤٤ ﻫ وولي مكانه والي البصرة محمد باشا السلحدار فوصل القاهرة سنة ١١٤٥ ﻫ ولم تطل أيامه حيث عزل سنة ١١٤٦ ﻫ وتولى مكانه عثمان باشا الحلبي فقدم من طرابلس ونصب علي بك ذوالفقار شيخا للبلد وغير في مأموري الحكومة بالوجه القبلي والبحري وفي أيامه ادعى أحمد السوداني من مجاوري الأزهر النبوة فنصحه العلماء ولما لم يرتدع أمر به فقتل وحدث من ذلك تأويلات وأقاويل كثيرة أزعجت أصحاب العقول السخيفة ثم عزل هذا الوالي سنة ١١٤٧ ﻫ وتولى

بعده

بعده محافظ جدة بكر باشا فتشبث هذا الوالى فى اصلاح عيار النقود على غير طائل وظهر وباء الطاعون فمات به خلق كثير وأعقب ذلك فتنة بين الاحزاب بسبب قتل محمد بك قيطاس قتل فيها خلق كثير وانتهت بانزال بكر باشا من القلعة وعزله (١١٤٩ ﻫ) وحضر مكانه الأمير مصطفى أغا أمير اخور وبقى الى سنة ١١٥٢ ﻫ ثم نصب بدله سليمان باشا ابن عظم الشامى وكانت الفتن قائمة على قدم وساق بين الأمراء فقتل بها منهم كثير وحرض الامراء على الوالى طائفة الينكجرية فعزلوه سنة ١١٥٣ ﻫ وتولى بعده على باشا ابن الحكيم ولما حضر نصب ديوانا بميدان القلعة وبعد قراءة الفرمان خطب على الجميع خطبة وجيزة بليغة قال فيها انه حضر لانصاف المظلوم من الظالم وكانت مدته ذات أمن واطمئنان وعزل فى أواخر رجب من سنة ١١٥٤ ﻫ وتولى بعده يحيى باشا ولم يحصل فى مدته ما يستحق الذكر ثم فصل فى سنة ١١٥٦ ﻫ وتولى بعده محمد باشا اليدكجى ومنع الناس من تعاطى التبغ فثارت العساكر بجمع الامراء وأخذ بحسابهم وحصلت من ذلك أمور يطول شرحها جمع فيها كثيرا من الاموال المتأخرة وعزل سنة ١١٥٨ ﻫ وولى بعده محمد راغب باشا رئيس الكتاب وفى أيامه ثارت العساكر وقتل فى الثورة خليل بك أمير الحاج وعلى بك الدمياطى وهرب آخرون وانتصر الدمياطية وأنزل محمد راغب باشا بالقوة من القلعة وعزل فى أواخر سنة ١١٦١ ﻫ وسافر بحرا فى السفينة التى أحضرت خلفه كور أحمد باشا (١١٦٢ ﻫ) وكان عالما محبا للعلماء أزال كثيرا من المنكرات وشيد كثيرا من الاماكن الخيرية ثم فصل سنة ١١٦٤ ﻫ وتولى بعده شريف سيد عبد الله باشا وحكم سنتين ثم نقل الى ولاية حلب وتولى بعده محمد أمين باشا (١١٦٦ ﻫ) ولم تطل أيامه فمات بعد شهرين من ولايته وتولى بعده مصطفى باشا (١١٦٧ ﻫ) وفى مدة ولايته جلس السلطان عثمان خان الثالث على كرسى الخلافه (١١٦٨ ﻫ) وفى ولايته أراد الاقباط عمل احتفال كاحتفال المحمل لزيارة القدس فعارض بعض العلماء ذلك وحصلت أمور من الرعاع يطول شرحها انتهت بمنع الاحتفال المذكور وعزل مصطفى باشا وتولى على باشا ابن الحكيم ثانية (١١٦٩ ﻫ) فسار فى حكمه سيرا حسنا ونشر لواء الاحسان وعم فضله كل انسان ففرح الناس من ولايته وفى خلال ذلك توفى السلطان عثمان وجلس السلطان مصطفى خان الثالث (١١٧١ ﻫ) ففصل على باشا عن مصر وتولى بعده مصطفى باشا الصدر وصرف بعد سنتين وتولى بعده أحمد كامل باشا (١١٧٤ ﻫ) وكان غيورا عفيفا ضرب على أيدى أصحاب الاطماع ومنعهم من النهب فقاموا عليه لذلك وعزلوه وأجلسوا سلفه مصطفى باشا وكان لم يبارح مصر بعد (١١٧٥ ﻫ) الا أن الدولة لم تقبل ذلك فعينته لولاية حلب ووجهت ولاية مصر لبكر باشا ولكن لم تطل أيامه فعاجلته الوفاة بعد شهرين وتولى مكانه حسن باشا ثم عزل بعد قليل وتولى مكانه حمزة باشا (١١٧٩ ﻫ) وفى مدته أخذ الامير بلوط قبان على بك مملوك وصهر ابرهيم بك كتخدا يتداخل فى الامور وصار ينفى وينصب من أراد فتعصب الامراء واتفقوا مع العربان وشيخهم همام وبعض مشايخ هوارة وهاجوا القلعة وحصلت منهم أمور كثيرة انتهت بعزلهم للوالى وحبسه فى قصر يوسف بالقلعة واستمرت المنازعات مع ذلك بينهم وأخذ على بك الكبير المذكور يستعمل دهاءه وشجاعته حتى قبض على مشيخة البلد بمصر وصارت له الرياسة العمومية على مصر والحجاز والشام فداخله الطمع وشمخ بأنفه وتاقت نفسه الى نوال مركز أعلى من ذلك وكانت الدولة تولت محمد

راقم باشا على مصر (١١٨١ ﻫ) ثم عزلته وولت مكانه محمد باشا الارفلي (١١٨٢ ﻫ) وفي خلال ذلك تمكن أعداء على بك الكبير المذكور من الوشاية عند جلالة السلطان وبينما كان على بك يجهز جيشا مؤلفا من ١٢٠٠٠ مقاتل ليرسله مساعدة للدولة في الحروب التي قامت وقتئذ بينها وبين الروسيا في عهد الامبراطورة كترينة الثانية حسب الأوامر الواردة له من دار الخلافة قالوا عنه انه يرغب الانضمام الى الروسيا لتساعده على الاستقلال بمصر فأرسل السلطان أمرا الى محمد باشا الأرفلي والى مصر بقتل على بك الكبير وارسال رأسه الى القسطنطينية فلما علم على بك بالخبر تربص لحامل الفرمان وقتله عند وصوله واتفق مع باقي البكوات وأعلنوا جميعا استقلال مصر وأمروا الوالي بأن يخرج في الحال وشرع على بك في الاستعداد لمقاومة الدولة وأخذ ينظم الادارة ويقلل الضرائب عن الاهالي لاستمالتهم اليه وخطب له على المنابر وضربت النقود باسمه ثم عزم على افتتاح بلاد الشام بتحريضات الروسيا وعقد مع الأميرال الكسيس أورلوف (Alexis Orloff) قائد العمارة الروسية بالبحر الابيض المتوسط اتفاقا بذلك ومعاهدة هجومية ودفاعية ضد الدولة ثم سار الأميرال المذكور بالعمارة الروسية الى سواحل الشام لمساعدة على بك وكان على بك كتب الى صديقه الشيخ طاهر عمر أمير عكا بقصده وطلب منه المساعدة فبلغ الدولة ذلك فأصدرت أمرا الى والي دمشق بارسال جيش لمنع جنود عكا من معاضدة على بك الكبير فسار ذلك الجيش وقاتل جيش على بك والشيخ طاهر ما بين جبل لبنان وطبرية فأوقع بهما وردهما على أعقابهما الا أن جيش على بك استولى على غزة والرملة ونابلس وغيرها كما سيأتي (١١٨٤ ﻫ) وفي خلالها عزلت الدولة محمد باشا الأرفلي عن مصر وولت مكانه أحمد باشا والي الحجاز فحضر وسكن بدرب الجماميز بعد أشهر قلائل وتولى مكانه خليل باشا وغلت الاسعار في تلك الأيام بسبب حروب على بك الكبير ومملوكه محمد بك أبو الذهب مع الشيخ هامان رئيس قبيلة الهوارة وفي جهات مكة عند ما جرد تجريدته التي أرسلها لمحاربة الشريف أحمد بن سعيد وانتصر عليه وولى مكانه الشريف عبد الله بن حسين بن يحيى بن بركات (١١٩٤ ﻫ) وقد صرف على بك على تلك التجريدات نحو مليون وربع من الجنيهات تقريبا ثم أرسل على بك مملوكه محمد بك أبو الذهب على رأس جيش مؤلف من ثلاثين ألف مقاتل فاستولى به على كثير من بلاد الشام في مدة قليلة من يد أولاد ابن العظم ثم لما أمره أن يتعدى الحدود ويستولى على البلاد العثمانية وفهم أبو الذهب خبث منويات سيده وخاف سوء العاقبة اتحد سرا مع الدولة ضد على بك وتحالف مع الامراء المرافقين له وأقسموا على المصحف ثم جمع محمد بك أبو الذهب من الشام رجالا ضمهم الى جيشه وعاد الى مصر لمحاربة على بك من قبل السلطان ولما أراد على بك مقاومته عند المكان المعروف ببياضة انهزم والتجأ الى عكا واستولى محمد بك أبو الذهب على مصر ثم ان على بك الكبير المذكور عاد في السنة الثانية بقوة مؤلفة من ثمانية آلاف مقاتل بقصد امتلاك مصر ارتكانا على بعض مكاتبات وصلته من بعض رجاله بها ولما وصل بجموعه الى الصالحية قابله محمد أبو الذهب بجيشه الجرار وحاربه وهزم جيشه وجرح على بك الكبير في الواقعة جرحا بليغا فدخل عليه محمد بك أبو الذهب في خيمته وقبل يده ونقله الى مصر وخصص له الاطباء لمداواة جراحه ولكن لم يفد ذلك شيئا فمات بها بعد أيام قلائل (١١٨٧ ﻫ) وبموت على بك انتهت الرياسة لمحمد بك أبو الذهب الا انه لم يفرح بها طويلا حيث عاجلته الوفاة بعد

بضعة

بضعة أشهر نال في خلالها من السلطان التقاليد وتنازع السلطة بعده ابراهيم بك ومراد بك وهما من مماليكه واسمعيل بك الى أن نالها الاولان أخيرا فانفردا بالحل والعقد وفي خلالها توفي السلطان مصطفى خان الثالث الى رحمة ربه وجلس مكانه السلطان عبد الحميد خان الأول فصرف خليل باشا عن ولاية مصر لولاية جدة وولي مكانه مصطفى باشا النابلسي (١١٨٨ هـ) وكانت السلطة في ولايته لابراهيم بك ومراد بك وليس له من الولاية الا الاسم فقط ولذا لم يتمكن من اجراء عمل ما ثم عزل سنة ١١٩٠ هـ وتولى بعده محمد عزت باشا الكبير وفي أيامه ثار المغاربة بالازهر وحصل من ثورتهم مقتلة كبيرة واستبدا ابراهيم بك ومراد بك بالاحكام تماما وأكثرا من الظلم وجباية الاموال حتى أفقرا الأهالي وكانت الحروب بينهما وبين اسمعيل بك رئيس أمراء وجه قبلي لا تنقطع فينتصر بعضهم تارة وينهزم أخرى وصارت القاهرة وقلعتها وضواحيها كميدان حرب دائم وفي خلالها مات محمد عزت باشا الكبير وتولى بعده رائف اسمعيل باشا والي جدة (١١٩٣ هـ) ووصل الى مصر والاحوال على ماهي عليه من الاضطراب واشتدت المنافسات بين الاحزاب وبعضها ثم تعصب البكوات على الوالي المذكور وأنزلوه من القلعة معزولا (١١٩٤ هـ) فولت الدولة بدله ملك محمد باشا المعروف بيكن الحاج وفي خلال ذلك تغلب ابراهيم بك على مصر وبعث شريكه مراد بك بجيش لاذلال حسن بك ورضوان بك وغيرهما من أمراء الصعيد فحاربهم ثم صالحهم وأخذ منهم الرهائن وعاد ودعت الدولة ملك محمد باشا للصدارة (١١٩٦ هـ) وولت مكانه الشريف علي باشا المعروف بالقصاب وبعد قليل عزلته وولت بدله الوزير محمد باشا السلحدار المعروف بالصوغانجي فوصل الى ثغر الاسكندرية في شهر شعبان (١١٩٧ هـ) وفي أيامه كانت الحروب قائمة بين البكوات واقتتل ابراهيم بك مع مراد بك لاختلاف حصل بينهما وسببه مصالحة الاول لامراء الوجه القبلي ثم تمرد مراد بك وعزل الوالي وولى نفسه سنة ١١٩٩ هـ بعد أن تصالح مع ابراهيم بك وعمت البلوى مصر بسبب الطاعون الذي ظهر بها وكانت الدولة ولت يكن محمد باشا الشريف وحضر مصر في محرم سنة ١٢٠٠ هـ والاحوال فيها غير مرضية بسبب المصادرات والمظالم والتعدي ولما بلغ الدولة تمرد البكوات عليها وطغيانهم أرسلت جيشا مع الدونانمة العثمانية تحت قيادة القبودان حسن باشا الجزائرلي الى ثغر الاسكندرية لردعهم فلما وصلت أخبارها خاف البكوات وطلبوا من الوالي التوسط بينهم وبين القبودان باشا فلم يقبل فارسلوا وفدا من العلماء منهم شيخ الجامع الأزهر الشيخ أحمد العروسي والشيخ محمد الأمير والشيخ محمد الحريري ومعهم غيرهم من الامراء للتوسط في الأمر وأرسلوا معهم الهدايا الفاخرة الا أن ذلك لم يجد نفعا وعند ذلك سار مراد بك بعسكره الى فوة لمصادمة القبودان باشا وكان انتقل ببعض المراكب الخفيفة الى رشيد ودخل النيل ولما اقتتل الطرفان انهزم المصريون وعادوا على أعقابهم ثم وصل القبودان باشا بجيشه وأسطوله الخفيف الى مصر كامر في المقدمة واستولى على بيوت الامراء وأموالهم وساق فرقة مع عبدي باشا أحد قواده لتعقب الامراء الذين فروا الى الصعيد مع ابراهيم بك ثم عزل محمد باشا السلحدار وولى مكانه عبدي باشا المذكور ويسميه الجبرتي وغيره بعابدي باشا وكان القبودان باشا يتعقب البكوات بالصعيد فأخذ عبدي باشا ينظر في أحوال البلاد مدة سنتين ثم صرف وولي مكانه اسمعيل باشا التونسي كتخدا حسن باشا القبودان ومنح رتبة الوزارة ثم عاد القبودان باشا

Digitized by Google

من الصعيد واهتم في ايجاد بعض مراكب حربية لمصر ثم سافر الى القسطنطينية قال الجبرتي ما ملخصه وفي أربع عشرة من شهر ذي الحجة الحرام سنة ١٢٠١ عمل حسين باشا ديوانا بالقصر وحضر عنده عابدي باشا والمشايخ وسائر الامراء وقرأ عليهم المراسيم التي حضرت من الدولة وفيها طلب حسن باشا الى الديار الرومية بسبب حركة السفر الى الجهاد وان الموسقو زحفوا على البلاد واستولوا على القريم وغيرها والثاني فيه ذكر العفو عن ابراهيم بك ومراد بك من القتل وركب الامراء لوداعه وفي يوم السبت ثالث عشريه سافر من مصر الى ان قال ورجع مراد بك بعد أربع سنين وجعل اقامته بقصر الجيزة وعمل له ترسخانة عظيمة وطلب صناع آلات الحرب من المدافع والقنابر والبنب والجلل والمكاحل واتخذ بها أيضا معامل البارود خلاف المعامل التي في البلد وأحضر أناسا من القليونجية ونصارى الاروام وصناع المراكب فأنشؤا له عدة مراكب حربية وغلايين وجعلوا بها مدافع وآلات حرب على هيئة مراكب الروم صرف عليها أموالا عظيمة ورتب بها عساكر وبحرية وأدر عليهم الجماكي والارزاق الكثيرة وجعل عليهم رئيسا كبيرا رجلا نصرانيا وهو الذي يقال له نقولا بنى له دارا عظيمة بالجيزة وأخرى بمصر وله عزة وأتباع من نصارى الاروام المرتبين عسكرا ولا يدري أحد لاي شئ هذا الاهتمام ولاي حاجة انفاق هذا المال في الخشب والحديد واعطائه للاروام واختلفت آراء الناس في ذلك فمن قائل ان ذلك خوفا من خشداشينه وقائل مخافة من العثمانية كما تقدم في قضية حسن باشا والبعض يظن خلاف ذلك وليس غير الوهم والتخيل الفاسد وبقيت الات الحرب جميعها والبارود بحواصله حتى أخذ جميعه الفرنسيس ويقال انه كان بحواصل الترسخانة من جنس الجلل أحد عشر ألف جلة اه ولما جلس السلطان سليم خان الثالث (١٢٠٣ هـ) أقر إسمعيل باشا التونسي على مصر وكانت أحوال البكوات باقية على حالتها يسيؤن المعاملة ويظلمون الاهالي وسفنهم تسطو على مراكب الفرنج حتى تمادت الشكوى من دولهم للباب العالي وللارتباك الذى كانت فيه الدولة بمسائل البلجراد لم يمكنها أن تعمل شيئا فصرفت إسمعيل باشا نقلا على ولاية مورة وولت مكانه محمد عزت باشا (١٢٠٥ هـ) وفي أيامه اشتد الغلاء بمصر ومات فيه خلق كثير ومات في هذا الوقت الصدر الاعظم حسن باشا الجزائرلي ووجهت الصدارة ثانية الى يوسف باشا (١٢٠٦ هـ) فاسرع أمراء مصر بتقديم الهدايا الى الصدر الجديد وبعثوا بها مع كتخدا الجاويشية صالح أغا وكتب الوالي مكتوبا للدولة يلتمس لهم فيه العفو عن جرائمهم السابقة ولما وصل المندوب المذكور صادف عزل يوسف باشا من الصدارة وتوجيهها الى ملك محمد باشا فصدر فرمان العفو عنهم ثم صرف محمد عزت باشا عن مصر وتولى مكانه صالح باشا القيصرلي (١٢٠٩ هـ) فوصل في ٢٤ محرم من السنة المذكورة وأعقبه ورود خبر توجيه مسند الصدارة الى محمد عزت باشا وكانت الاحوال بمصر مضطربة وحصل انه تعدى أحد البكوات المدعو محمد بك الالفي على عائلة الشيخ الشرقاوي فاجتمع العلماء وقفلوا أبواب الازهر واشتد الامر وزادت تشكيات الاهالي وعزل الوالي وتولى مكانه السيد أبو بكر باشا الطرابلسي (١٢١١ هـ) وكان السبب في قصر مدة ولاية الوزراء بمصر تغلب الامراء والصناجق والعساكر على أمور الحكومة حتى وصلت أعمالهم الى عزل من أرادوا عزله ممن لا يرضخ لافعالهم وأقوالهم وولاية من أحبوه ولما وصل الوالي الجديد الى مصر وجد الخلل مستحكما في كل اداراتها والبكوات

Digitized by Google

مستبدين بالامور مفرطين فى ظلم العباد ونهبهم فكثرت الشكوى ورفعت سفراء الدول مذ كرتهم الى السلطان سليم خان الثالث كما سيأتى فى محله وكان ذلك من الاسباب التى أطمعت الحكومة الفرنساوية فى امتلاك البلاد فارسلت الجنرال نابليون بونابارت بجيوشها وأساطيلها الى ثغر الاسكندرية فتمكن لذلك من الاستيلاء على القطر المصرى واضطر السيد أبو بكر باشا الوالى المذكور الى الهرب الى غزة مع إبراهيم بك وكان ذلك فى يوم السبت ١٧ صفر من سنة ١٢١٣ هـ

﴿ الفصل السادس عشر ﴾

﴿ استيلاء الفرنساويين على الديار المصرية ﴾

(١٢١٣ - ١٢١٦ هـ ١٧٩٨ - ١٨٠١ م)

قد سبق الكلام على حوادث اغارة الجنرال نابليون بونابارت بجيوشه الفرنساوية على وادى النيل فى صحيفة ٦٤٦ من الجزء الاول من هذا الكتاب ولما كانت أقوال المؤرخين فى هذا الباب كثيرة متخالفة رأينا من المفيد أن نذكر لمعا من أقوالهم لتمام الفائدة فنقول اتفق أغلب المؤرخين على أن السبب الذى حمل دولة فرانسا على ارسال جيوشها الى مصر هو طمعها فى امتلاك هذه الديار لاهمية موقعها الجغرافى ووفرة حاصلاتها ولكونها أجود مركز تجارى وأهم نقطة للمواصلات بين آسيا وأوروبا وبامتلاكها تتمكن بكل سهولة من تهديد الدولة الانكليزية فى الهند الشرقية وكانت تنتهز كل الفرص لتنفيذ هذا المقصد حتى إنها أظهرته فى مدة محاربة الدولة العلية للروسيا زمن امبراطورتها كترينه الثانية فى الوقت الذى كان أظهر فيه على بك الكبير العصيان على السلطان ونادى باستقلال مصر عن الدولة كما تقدم وذلك ان الحكومة الفرنساوية تشبثت وقتئذ فى عقد اتحاد مع الروسيا تجيز لها فيه الاستيلاء على القسطنطينية نظير أن تستولى هى على الديار المصرية لان الدولة الانكليزية خصيمتها كانت فى ذلك الوقت مشتغلة بحرب استقلال أمريكا ولهذا أشار المسيو دوسارتين (M. de Sartines) وزير لويز السادس عشر على الحكومة الفرنساوية بتجهيز أسطول قوى وجيش كبير للاستيلاء على وادى النيل الا أنه لما وجد أن أحوال المالية الفرنساوية وقتئذ لا تساعده على ذلك اضطر أن يعدل عن تلك السياسة ويسلك مسلكا آخر ثم لما رأت فرانسا فيما بعد أن أحوال الديار المصرية صارت الى الارتباك والتعقيد والاضطراب الذى مر بك ذكره من حركات المماليك البكوات وكثرة مظالمهم وتعدياتهم ونهبهم الاموال هبت لاظهار نيتها الاولى واجتهدت فى اخراجها من القوة الى الفعل وبمجرد حصول التعدى من البكوات المصرية على بعض التجار الاوروباويين كما تقدم أخذت تحرك سفراء الدول فى الاستانة حتى ساقتهم لرفع شكوى من حوادث مصر للسلطان سليم خان الثالث وطلبوا فيها من جلالته منع هذا التعدى ولما كانت أحوال الدولة وقتئذ فى اضطراب زائد لقيام أوجاقات اليكجرية بالثورات فى داخل استانبول وفى خارجها واشتغال السلطان بوضع نظام جديد للجندية لم يمكنه أن يفعل شيأ ما يرضى به السفراء وكتب المسيو شارل ماجلون Magellon قنصل فرانسا فى مصر تقريرا مشحونا بالشكوى الشديدة من أحوال مصر وأرسله لدولته وطلب منها فيه اتخاذ الطرق الفعالة وكان ذلك بلا شك بايعاز منها

Digitized by Google

فصادف تقريره هذا عضدا قويا في باريس من الجنرال بونابارت وكان وقتئذ عاد من محاربا ته التي قام بها مع ممالك أوروبا وأزال في أثنائها جمهورية البنادقة بمعاهدة كامبوفورميو التي عقدها مع دولة النمسا وضم بها قسما عظيما من سواحل البحر المتوسط الابيض لبلاده فأخذ نابليون يحرض حكومته ويعدد لها الفوائد والمكاسب التي تنالها من الاستيلاء على وادي النيل حتى اجتذب بتحريضاته المذكورة معظم أعضاء الحكومة لرأيه فقرروا الحملة وجهزت فرانسا له جيشا مؤلفا من ٤٠٫٠٠٠ مقاتل وضعته تحت قيادته وفوضت له أمر انتخاب القواد الذين رغب أن يكونوا معه فانتخب بونابارت الجنرالات كليبر (Kléber) وديزكس (Desaix) ورونير (Regnier) وداماس (Damas) واندريوسي (Andreossy) ومارمونت (Marmont) وجونو (Junot) ومينو (Menou) لقيادة فرق البيادة والجنرال مورات (Murat) لقيادة السواري وكافاريللي (Cafferalli) وبرتييه (Berthier) لقيادة فرق المهندسين والجنرال دومارتين (Daumartin) لقيادة الطوبجيه وأخذ معه أيضا كثيرا من العلماء والمهندسين والصناع ثم أقلع بهم من طولون على اسطول جسيم جهزله يتكون من ٤٠٠ سفينة بين حربية ونقالة وكانت الاساطيل تحت قيادة الويس أميرال فرانسوا بول كونت دوبرويس (Brueys) ومعه أربعة أميرالات آخرين وكان خروجهم في يوم ١٩ مايو من سنة ١٧٩٨ م وسارت تلك الاساطيل تخترق عباب البحر حتى وصلت الى مالطة واستولت عليها ثم قصدت ثغر الاسكندرية فوصلته في أول يوم من شهر يوليو من السنة المذكورة وتملكته بلا قتال تقريبا (في محرم ١٢١٣ هـ) ثم نشر نابليون على أهالي البلاد المصرية نشرة يدعوهم بها الى الاستسلام [1] من مطالعتها تعلم

(١) بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله لا ولد له ولا شريك له في ملكه من طرف الجمهور الفرانساوي المبني على أساس الحرية والمساواة السرعسكر الكبير بونابارت أمير الجيوش الفرانساوية يعرف أهالي مصر جميعهم انه من زمان مديد والصناجق الذين تسلطنوا في البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرانساوية ويظلمون تجارها بأنواع البلص والتعدي فحضرت الآن ساعة عقوبتهم وأخرنا من مدة عصور طويلة أن هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الاباظا والجرجستان يفسدون في الاقليم الاحسن الذي لا يوجد في كرة الارض كلها مثله فأما رب العالمين القادر على كل شئ فقد ختم على انقضاء دولتهم يا أيها المصريون قد يقولون لكم انني ما نزلت في هذا الطرف الا بقصد ازالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفترين انني ما قدمت اليكم الا لكيما أخلص حقكم من يد الظالمين وانني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه محمدا والقرآن العظيم وقولوا أيضا لهم ان جميع الناس متساوون عند الله وان الشئ الذي يميزهم عن بعضهم فهو العقل والفضائل والعلوم فقط وليس عند المماليك من العقل والفضل والمعرفة ما يميزهم عن الآخرين ويستوجب انهم يتملكون وحدهم كل ما تحلو به حياة الدنيا فحيثما يوجد أرض مخصبة فهي مختصة بالمماليك وكذا الجواري الاجمل والخيل الاحسن والمساكن الاشهى فهذا كله لهم خاصة فان كانت الارض المصرية التزام المماليك فليظهروا الحجة التي كتبها الله لهم ولكن رب العالمين هو رؤف وعادل على البشر بعونه تعالى من اليوم فصاعدا لا يستثنى أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية فالعقلاء والفضلاء والعلماء منهم سيدبرون الامور وبذلك يصلح حال الامة كلها وسابقا في الاراضي المصرية كانت المدن العظيمة والخليجات الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال منها ذلك كله الا الطمع وظلم المماليك أيها القضاة والمشايخ والائمة ويا أيها الشربجية وأعيان البلد قولوا لامتكم ان الفرنساوية هم أيضا مسلمون خالصون واثباتا لذلك قد نزلوا في رومية الكبرى وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان يحث النصارى على محاربة الاسلام ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكوالريه الذين كانوا يزعمون ان الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين ومع ذلك فالفرنساوية في كل

مقاصده

مقاصده الظاهرة وبعد ان استولى نابليون على الاسكندرية تقدم بجيشه الى القاهرة فقابله مراد بك بجموعه عند الرحمانية الا انه لم يثبت امام الجيوش الفرنساوية وتعقبه نابوليون حتى لحق به عند بشتيل بالقرب من أوسيم بمركز امبابه من أعمال الجيزة وحدثت هنالك بينهما واقعة عظيمة انتهت بانهزام مراد بك مع جيشه وفرهاربا الى الصعيد ودخل الفرنساويون مصر وصاروا يعطون أوراقا بالامان لمن سالمهم (١) ثم خرج نابليون يتعقب جيش ابراهيم بك والوالى لوقابجى أبو بكر باشا الذى أخذ بنة قهقرا الى طريق الصالحية فلحقه وهزمه وفر ابراهيم بك والوالى الى جهة الشام وعاد بونابارت الى مصر واستولت رجاله على أملاك البكوات وأموالهم وأغلظت المعاملة مع عائلاتهم حتى اضطروهم لان يفدوا أنفسهم بالأموال وكان ذلك كل مرغوب الفرنسويين فافتدت زوجة مراد بك نفسها بمائة وخمسة وعشرين ألف ريال ودفع غيرها من النساء مبالغ وافرة ليتخلصن من جورهم ولم يقف الفرنساويون عند ذلك الحد كما كانوا يدعون بل أكثروا من نهب الاهالى وقتلوا منهم خلقا كثيرا وغير ذلك من الاعمال الفظيعة وصارت جواسيسهم من الاخلاط يخبرونهم عن ودائع الامراء وخباياهم فكثر هجومهم على البيوت ونبشوا الاراضى وهدموا الحيطان واتسع نطاق الفتن وتحير الناس فى أمرهم وقد وصفهم المرحوم الشيخ عبد الله الشرقاوى فى كتابه تحفة الناظرين بقوله ان حقيقة حال الفرنساوية الذين حضروا الى مصر انهم فرقة من الفلاسفة اباحية

وقت من الاوقات صاروا المحبين الاخلاصين لحضرة السلطان العثمانى وأعداء أعدائه أدام الله ملكه وبالعكس المماليك امتنعوا من طاعة السلطان غير ممتثلين لامره فما أطاعوا أصلا الا لطمع أنفسهم طوبى ثم طوبى لاهالى مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلو مراتبهم طوبى أيضا للذين يقعدون فى مساكنهم غير مائلين لاحد من الفريقين المتحاربين فاذا يعرفوننا بالاكثر يتسارعوا الينا بكل قلب لكن الويل ثم الويل للذين يتحدون مع المماليك ويساعدونهم فى الحرب علينا فما يجدون طريقا للخلاص ولا يبقى منهم أثر

(المادة الاولى) جميع القرى الواقعة فى دائرة قريبة بثلاث ساعات من المواضع التى يمر بها العسكر الفرانسوى يجب عليها أن ترسل للسرعسكر بعض وكلاء من عندها كيما يعرفوا المشار اليه انهم أطاعوا وانهم نصبوا السنجاق الفرنساوى الذى هو أبيض وكحلى وأحمر (المادة الثانيه) كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوى تحرق بالنار (المادة الثالثه) القرية التى تطيع العسكر الفرنساوى الواجب عليها نصب السنجاق الفرنساوى وأيضا نصب سنجاق السلطان العثمانى محبنا أدام الله بقاءه (المادة الرابعه) المشايخ فى كل بلد يختمون حالا جميع الارزاق والبيوت والاملاك متاع المماليك وعليهم الاجتهاد الزائد لكى لا يضيع أدنى شئ منها (المادة الخامسه) الواجب على المشايخ والقضاة والائمة انهم يلازمون وظائفهم وعلى كل واحد من أهالى البلد أن يبقى فى مسكنه مطمئنا وكذلك تكون الصلاة قائمة فى الجوامع على العادة والمصريون بأجمعهم يشكرون فضل الله سبحانه وتعالى على انقراض دولة المماليك قائلين بصوت عال أدام الله اجلال السلطان العثمانى أدام الله اجلال العسكر الفرنساوى لعن الله المماليك وأصلح حال الامة المصرية تحريرا بمعسكر اسكندرية فى ١٣ من شهر مسيدور سنة ٦ من اقامة الجمهورية الفرنساوية أعنى أواخر شهر محرم سنة ١٢١٣ هجرية صحيفة ٤١٢ جزء ٧ تاريخ جودت طبع سنة ٢٨٨

(١) صورة وريقة التأمين التى كان بونابارت يعطيها الى أهالى مصر

من معسكر الجيزة خطابا لاهل مصر اننا أرسلنا لكم فى السابق كتابا فيه الكفاية وذكرنا لكم اننا ماحضرنا الا بقصد ازالة المماليك الذين عاملوا الفرانساوية بالذل والاحتقار وأخذوا مال التجار ومال السلطان ولما حضرنا الى البر الغربى خرجوا الينا فقابلناهم بما يستحقون وقتلنا بعضهم وأسرنا بعضهم عندنا وهرب بعضهم ونحن فى طلبهم حتى لا نبقى منهم أحدا بالقطر المصرى وأما المشايخ والعلماء وأصحاب المرتبات والرعية فيكونون مطمئنين وفى مساكنهم مرتاحين اه ص ٤١٦ جزء ٧ جودت

Digitized by Google

طائفة يقال لهم نصارى قاتوليقية يتبعون عيسى عليه السلام ظاهرا وينكرون البعث والدار الآخرة وبعثة الانبياء والمرسلين ويقولون ان الله واحد لكن بطريق التعليل ويحكمون العقل ويجعلون منهم مدبرين يدبرون الاحكام يضعونها بعقولهم ويسمونها شرائع ويزعمون أن الرسل محمدا وعيسى وموسى كانوا جماعة عقلاء وان الشرائع المنسوبة اليهم كناية عن قوانين وضعوها بعقولهم تناسب أهل زمانهم ولذا جعلوا فى مصر وقراها الكاردواوين يدبرون ما يناسب أهل البلاد بحسب عقولهم وكان فى ذلك رحمة بأهل مصر فانهم جعلوا من جملة دوانها جماعة من المشايخ وصاروا يراجعونهم فى بعض أشياء لا تليق بالشرع والسبب الذى أوجب لاهل مصر وقراها بعض الانقياد اليهم عجزهم عن مقاومتهم بسبب هرب المماليك الذين معهم آلات القتال وانهم عند قدومهم كتبوا كتبا وفرقوها فى البلاد وذكروا فيها انهم ليسوا نصارى لانهم يقولون ان الله واحد والنصارى تقول بالتثليث وانهم يعظمون محمدا ويحترمون القرآن وانهم يحبون العثمانلى ولم يأتوا الا لطرد المماليك الظلمة لانهم نهبوا أموالهم وأموال تجارهم ولا يتعرضون للرعايا فى شئ لكن لما دخلوا لم يقتصروا على نهب أموال المماليك بل نهبوا الرعايا وقتلوا جملة من الناس لما قامت عليهم أهل مصر بسبب طلبهم تقريد غرامة على البيوت وقتل منهم ما يقرب من الالف وهتكوا بعض الاعراض فى مصر وقراها فان كل قرية حاربتهم نهبوا أموالها وقتلوا رجالها وأخذوا نساءها وقتلوا من علماء مصر نحو ثلاثة عشر عالما ودخلوا بخيولهم الجامع الازهر ومكثوا فيه يوما وبعض الليلة الثانية وقتلوا فيه بعض علماء ونهبوا منه أموالا كثيرة وسبب وجودها فيه ان أهل البلد ظنوا ان العسكر لا يدخله فخزنوا فيه أمتعة بيوتهم فنهبوها ونهبوا أكثر البيوت التى حول الجامع ونشروا الكتب التى فى الخزائن يعتقدون ان بها أموالا وأخذ من كان معهم من اليهود الذين يترجمون لهم كتبا ومصاحف نفيسة اهـ

وذكر الجبرتى فى حوادث سنة ١٢١٣ المذكورة أن رجلا مغربيا يقال له الشيخ الكيلانى كان مجاورا بمكة والمدينة فلما شاعت الاخبار باستيلاء الفرنساوية على مصر صار يعظ الناس ويحرض على الجهاد فانضم اليه نحو ٦٠٠ رجل فلما وصلوا ينبع انضم اليه جماعة منها ثم ركبوا البحر الى القصير فانضم لهم جمع من الهوارة والمغاربة والترك وأهل القرى ثم انكفأ بهم الكيلانى الى جرجا وبقربها حصلت بينه وبين الجيوش الفرنساوية جملة مواقع ومناوشات غير انها انتهت بدون طائل اهـ ولما كانت العلاقات بين دولة انكلترة وفرانسا منقطعة من عهد قيام الامة الفرنساوية على ملكها لويز السادس عشر حتى حاكموه وأعدموه فى سنة ١٧٩٢ م (١٢٠٧ هـ) وأعقبها المحاربات التى حصلت فى طولون بين الطرفين صارت انكلترة من ذلك الوقت تنظر الى حركات فرانسا ومحاربات بونابارته فى ايطاليا وأوستوريا وانتصاراته على الاخيرة فى كاستليون وأركول وريفولى ومحوه لجمهورية البنادقة وضمه لكثير من أملاكها الساحلية الى بلاده كما بعين الاضطراب والبغضاء حتى انه بمجرد انتشار خبر التجهيزات الحربية التى قامت بها فرانسا من جمع الجيوش وتسليح الاساطيل أوجست من ذلك خيفة على هندها ومستعمراتها الشرقية فأسرعت باصدار الأوامر المشددة الى الأميرال جون جرفيس أرل سان ونسنت (John Jervis) القائد العام لاساطيلها فى البحر المتوسط الابيض وكان راسيا ومشددا بالدونمة فى قادس وأمرته بمراقبة حركات

الدونمة

الدونمنا الفرنساوية التي أقلعت من طولون فبعث في الحال وكيله الاميرال هوراتيونلسون لهذه المهمة على رأس أسطول مركب من ١٤ سفينة حربية يحمل بعضها ٧٢ مدفعا وبعضها ٨٢ عليها ٦٩٧٠ ملاحا لاقتفاء أثر الدونمنا الفرنساوية وفوّض له أمر منعها من الاغارة على أي فرضة كانت فسار يخترق بها عباب البحر باحثا على الدونمنا الفرنساوية كما ذكرناه في تاريخ الدولة العلية بالجزء الاول حتى وجدها راسية امام ساحل أبوقير كما مر يقودها الاميرال برويس وكانت مركبة من ١٤ سفينة كبيرة يحمل بعضها ٧٦ مدفعا وبعضها ٨٦ عدا أكبرها المسماة أوريان فكان بها ١٢٤ مدفعا وأربع فرقاطات بكل واحدة ٤٠ مدفعا وبها جميعا ١٠٫٠٠٠ ملاح فهجم عليها وحاربها حتى تدمرت كما تقدم (أول أغسطس ١٧٩٨ م - ١٩ صفر ١٢١٣ ﻫ) وسنزيد ذلك بيانا ان شاء الله في تاريخ انكلترة بالجزء الثالث ولما بلغ بونابارت هذا الخبر عند عودته من الصالحية اضطرب له وتكدر ولكنه أظهر الجلد كعادته لأن انكسار الدونمنا صير الحالة الفرنساوية التي تحت قيادته في مقام حرج ومع كل ذلك فانه أخذ يقوي مركزه في الديار المصرية وهدم لذلك كثيرا من الابنية الفاخرة والآثار النفيسة التي كانت حول القلعة وزاد البناء على بدنات باب العزب بالرميلة وكان الفرنساويون غيروا في اثناء ذلك كثيرا من معالم القلعة ومحوا ما كان بها من آثار الحكام والعلماء ومعالم السلاطين وما كان معلقا على الابواب من الاسلحة والدرق والبلط والحراب الهندية وهدموا قصر يوسف صلاح الدين ثم شددوا في طلب النقود من أهالي البلاد وضربوا الضرائب الفاحشة فارتبكت أحوال الاهالي من شدة المعاملة وزاد كربهم ثم لما علم نابليون بونابارت ان الدولة العلية أخذت تسعى في استرجاع مصر واخراجه منها بالقوة رغما عن المساعي التي أجراها الموسيو روفين (Ruffin) سفير فرانسا لدى الباب العالي لاقناع الدولة وجعلها تعتبر حركات بونابارته حبية لاعدوانية لان الدولة وقتئذ عدت ذلك بمثابة اعلان حرب من فرانسا عليها وسجنت السفير روفين المذكور في يدي قلله مع باقي الفرنساويين المقيمين في القسطنطينية كالعادة في ذلك ثم أخذت تجهز جيوشها وأساطيلها وعقدت لذلك معاهدات دفاعية مع دولتي الروسيا وانكلترة على يد مندوبها المسمى عصمت بك أحد الصدور العظام وعاطف أفندي رئيس الكتاب وعليه وصلت الدونمنا الروسيه من البحر الاسود الى الاستانة وكانت مركبة من خمسة قباقات كبيرة وست فراقيط وعدة سفائن صغيرة وانضمت اليها الدونمنا العثمانية وكانت تحت قيادة فدري بك وكانت مركبة من ثلاثين سفينة حربية ثم أقلع الاسطولان سوية من البوغاز وقصدا بحر الادرياتيك واستوليا على البلاد التي كانت فرانسا واضعة يدها عليها هناك بمساعدة تبه دلنلي على باشا وبعد أن تم لها ذلك شكلت الدولة والروسية هناك جمهورية مكونة من عدة جزائر يونانية عرفت بجمهورية الجزائر السبع وبعثت الدولة وقتئذ الى أحمد باشا الجزار والي عكا ان يبعث جيشا لاحتلال العريش وكان نابليون بونابارت صمم على افتتاح بلاد سوريا وزحف عليها بقسم عظيم من جيشه (أول فبراير ١٧٩٩ م) وافتتح غزة ويافا وأماكن أخرى وعامل رجالها الذين سلموا اليه معاملة وحشية تأباها المدنية التي تدعيها دول أوروبا حيث انه قتلهم بعد التسليم ومثل بهم ولما حاصر عكا حبطت مساعيه فيها وخابت آماله أمامها اذ صدته الجنود العثمانية بقوتها المشهورة وكانت العمارة الانكليزية والعثمانية تساعدان الجيش

العثماني بحرا فكسر نابليون وارتد على أعقابه ولما سمعت بذلك باقي البلاد انقضت على جيشه من كل جانب فاضطر الى التقهقر وترك سوريا عائدا الى القاهرة وفي أثناء عودته قاسى هو وعسكره من العذاب ألوانا فكان العطش والوباء يحاربانه من جهة والعمارة الانكليزية والعرب والعثمانيون يتعقبانه برا وبحرا يفتكون بجيشه قتلا ونهبا ولم يصل الى مصر حتى كادت أرواحهم تفارق أبدانهم ولم يمكث بونابارت بعد ذلك كثيرا حتى جاءه خبر وصول البوارج العثمانية والانكليزية والروسية المتفقة على اخراجه من الديار المصرية الى مينا أبي قير لتعضيد الحملة العثمانية التي خرجت فيها تحت قيادة السرعسكر كوسه مصطفى باشا فانزعج لذلك وأسرع لملاقاتهم بقوة مؤلفة من ستة آلاف مقاتل فالتقى بهم ودارت رحى الحرب بين الطرفين فتقهقر أولا عسكر بونابارت ثم اغتنم قائدهم اشتغال العساكر العثمانية بتحصين بعض المواقع وسار بفرقته من ورائهم واستولى على طابيتهم المسماة أبوخور فانذعر العثمانيون من ذلك واضطروا الى التقهقر وبذلك فاز الفرنساويون وقبضوا على المعسكر بما فيه ووجدوا السرعسكر كوسه مصطفى باشا مجروحا فأسروه هو وولده والتجأ الباقي الى السفن ورجع بونابارت الى مصر بالاسرى ثم بعد قليل وردت عليه رسائل من فرانسا تستدعيه اليها لتسكين الاضطرابات التي قامت بها الاحزاب ضد الموسيو باراس (Barras) أحد أعضاء الدركتوار لسوء تصرفه في أمور الجمهورية فكتم الامر وكاشف عليه الكونترالاميرال غانتوم (Ganthéaume) رئيس أركان حرب الاساطيل الفرنساوية ليعد له سفينتين تنقلانه مع حاشيته الى فرانسا وولى الجنرال كليبر منصبه ثم سافر خفية الى فرانسا على فرقاطة تدعى موبرون (Muiron) قبودانها لارو (Larue) تخفرها فرقاطة أخرى تدعى كوريز (Corrèze) في ٢١ ربيع أول سنة ١٢١٤ هـ - (٨ اكتوبر ١٧٩٩ م) وكان الاميرال اسميث الانكليزي لما بلغه خبر سفر بونابارت اقتفى أثره بفرقة من أسطوله ولكنه لم يلحقه وأخذ الجنرال كليبر يهتم في تنظيم الاحوال لاكتساب ثقة الاهالي وجمع الاموال للصرف منها على الجنود ثم أرسلت الدولة العثمانية جيشا آخر الى دمياط مؤلفا من ثمانية آلاف مقاتل على السفن الحسين العثمانية التي كانت عادت من مياه أبوقير عقب واقعة أبوخور ترافقهم بعض المراكب الانكليزية وبينما كانت السفن تخرج الجيش هاجمه الفرنساويون فاضطرت المراكب أن توقف انزال باقي العساكر ولما لم يتمكن العثمانيون من انزال جنودهم هناك أمرت الدولة الصدر الاعظم يوسف ضيا باشا بالتقدم بجيشه من جهة الشام فتقدم واحتل العريش بعد أن كسر الفرنساويين هناك فارتاع الجنرال كليبر من ذلك وعينت الدولة صالح باشا الولاية مصر في رجب (١٢١٤ هـ) وكان الجنرال بونابارت مال الى الصلح قبل فراره من مصر وأرسل رشيد أفندي أحد كتاب الديوان الهمايوني الذي كان أسر مع كوسه مصطفى باشا في واقعة أبوخور للتوسط واشترط عليه ان يكون الصلح بين فرانسا والدولة رأسا وبذلك يخرج من مصر في مدة أربعة شهور ولما كان طلبه هذا مغايرا المنطوق المعاهدة الدفاعية التي عقدتها الدولة مع الروسيا وانكلترة أرسلت السردار يوسف باشا ان يبلغ الفرنساويين عدم امكان المصالحة على ذلك الوجه الا بالاشتراك مع الدولتين المشار اليهما وأعاد الصدر الاعظم مصطفى رشيد أفندي المذكور بذلك فسلم المحررات الى الجنرال كليبر الذي بقي وكيلا لبونابارت كما مر ففرح كليبر لذلك وأسرع بتحرير جواب القبول على شرط أن

ينسحب بعساكره من مصر عن طريق رشيد والاسكندرية فى مدة ٤٥ يوما وأن يخرج بكافة مهماته وجنده وماقبضوه من الاموال وأن يدفع لهم قدر من المال يستعينون به على السفر وغير ذلك من الشروط وأرسلها مع رشيد أفندى المذكور وجماعة من الفرنساوية فقبل الصدر الاعظم ذلك بعد مراجعة الاميرال اسميث قائد الاساطيل الانكليزية وكان حضر وقابل الصدر الاعظم وفاوضه فى هذا الامر بحضور مصطفى أفندى رشيد دفتردار الصدر الاعظم وراسخ مصطفى أفندى ثم زحف الصدر بجيشه البالغ عدده أربعين ألف مقاتل الى مابين الخانقاه السرياقوسية والمطرية وكان رافقه الميرالاى دوغلاس (Douglas) الانكليزى وبعض ضباط انكليز آخرين بصفة أركان حرب وبعض الفرنسويين الملتجئين اليه ثم ان الجنرال كليبر تعلل بعدم امكانه انفاذ شروط الصلح بدعوى ان الانكليز لاتمكنه من السلوك فى البحر ومكث مدة وهو يخادع الصدر وكان فى خلالها يتجهز لقتال الجيوش العثمانية والانكليزية ثم هاجم مقدمة الجيش العثمانى الذى بالمطرية بغتة وكان العثمانيون لايتوجسون شرا لاعتمادهم على الصلح الذى عقدت مقدماته فى العريش فانكسر العثمانيون وانهزمت المقدمة واضطر الصدر الاعظم أن يعود الى بلبيس ومنها الى الصالحية وأخذ يجمع عساكره المنهزمة ولما تقدمت الفرنساويون الى الصالحية تقهقر الصدر بانتظام حتى وصل غزه ثم عاد الجنرال كليبر بعد ذلك وقصد الدخول الى مصر فمنعه رجال الالفى وحصلت بين الطرفين حروب يطول شرحها خرب فيها الفرنساويون كثيرا من مبانى مدينة القاهرة بالمدافع التى أطلقوها من القلعة وحصل للاهالى ضنك شديد وأخيرا حصل الصلح وعاد البكوات الى الصعيد بشروط معلومة وأخذ الفرنسيس يهتمون فى جمع الاموال بالقوة وفى يوم ٢١ محرم من سنة ١٢١٥ بينما كان الجنرال كليبر يمشى فى بستان المنزل الذى كان يسكنه فى الازبكية وثب عليه رجل حلبى وضربه بخنجر فقتله وكان هذا القاتل يدعى سليمان الحلبى فقتلوه بعد أن عذبوه عذابا أليما وذلك بعد أن حاكموه محاكمة دقيقة سعوا كثيرا فى أثنائها لمعرفة المحرض له على ذلك وقال هذا القاتل انه أتى من الشام وأقام ثلاثين يوما فى رواق الشوام بالجامع الازهر عند جماعة سماهم فأحضرهم الفرنساويون وقتلوهم وأقيم بعد كليبر على قيادة الجيش الجنرال مينو الذى اجتهد فى بناء القلاع وتعمير السور من باب النصر الى باب الحديد وجعل الفرنسيس جامع الحاكم قلعة وهدموا قواصره وجعلوا منارته برجا وهدموا أكثر بيوت الحسينية وبولاق وتغيرت الاحوال وهاجر كثير من أهل البلد وفى تلك الاثناء أظهر الجنرال مينو الاسلام وسمى نفسه عبدالله وتزوج بنت أحد كبار المصريين قال الجبرتى واستقر عوضه فى السرعسكرية فاقام عبدالله جاك منو وهو الذى كان متوليا على رشيد من قدومهم وقد كان أظهر انه أسلم وتسمى بعبدالله وتزوج بامرأة مسلمة وقلدوا عوضه فى قائمقامية بليار اه وقد وجد الفاضل على بك بهجت مترجم ديوان المعارف صورة عقد الزواج فى قيودات محكمة رشيد الشرعية فأدرجناه بحروفه لتمام الفائدة (١) وقد أخبرنى

(١) صورة العقد بحضر كل من مولانا العلامة السيد أحمد الخضرى المفتى الشافعى ومولانا الشيخ محمد صديق النائب والمفتى الحنبلى ومولانا السيد محمد غرا النائب والمفتى المالكى والسيد أحمد بدوى نقيب الاشراف حالا والامير محمد بدوى جوربجى سردار مستحفظان وأحمد آغا جاويش مستحفظان والحاج أحمد جاويش العسال والحاج

محمود اللوبى المغربى وابراهيم الجمال الرزاز والحاج محمد مينو وعبد الله بربير والحاج بدوى الشناوى وازون اسمعيل السلانكلى وعلى جاويش كتخدا البيك دام كمالهم

بعد ان أقر واعترف منو باشا صارى عسكر القطر المصرى حالا بصريح لفظه وفصيح نطقه بكلمتى الشهادتين وهما أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله عارفا معتقدا معناهما ومصدقا بمضمونهما تاركا الدين النصرانية والاديان الردية على الترتيب والولاء واعادة التشهد واستيفاء الشروط المعتبرة فيهما شرعا طائعا مختارا من غير اكراه ولا اجبار وبمقتضى ذلك صار له ما للمسلمين وعليه ما عليهم وظهر منه الرغبة والحب للمسلمين والميل اليهم وسمى نفسه عبد الله باشا وأشهد على نفسه الجماعة المذكورين بجميع ذلك اشهادا شرعيا ثم بعد ذلك رغب عبد الله باشا المذكور فى تزوجه بامرأة مسلمة فخطبها خطبة شرعية وأجيب الى ذلك بعد ابراز الفتيا شريفة لفظ سؤالها ما قولكم دام فضلكم فى رجل أحب الاسلام وأهله ورغب فيهما تاركا الدين النصرانية ناطقا بكلمتى الشهادتين مصدقا على الوجه الاكمل ثم أراد أن يتزوج امرأة مسلمة على كتاب الله العظيم وسنة نبيه الكريم فهل يجوز له حينئذ التزوج بها والعقد عليها بشروطه الشرعية أفيدوا الجواب بأدناه. الحمد لله حيث كان الحال ما شرح فى السؤال فيجوز للرجل المسلم المذكور خطبة المرأة المسلمة والعقد عليها بشروطه الشرعية والله أعلم كتبه العبد الفقير أحمد الخضرى الشافعى لطف الله به وبأدناه الحمد لله حيث أقر الرجل المذكور بالشهادتين بشروطهما الشرعية فيجوز له أن يعقد على المرأة المسلمة عقدا شرعيا مستوفيا الشرائطه الشرعية والله سبحانه وتعالى هو الموفق كتبه الفقير محمد صديق الحنبلى عفى عنه وبأدناه الحمد لله حيث رغب الرجل المذكور فى الاسلام ونطق بكلمتى التوحيد جاز له أن يتزوج المرأة المسلمة وأن يعقد عليها العقد الشرعى بشروطه الشرعية والله أعلم كتبه الفقير محمد غرا المالكى غفر له وعفى عنه فبحضر كل من ذكر أعلاه زوج عبد الله باشا المذكور بمخطوبته زبيدة المرأة بنت محمد البواب التى كانت زوجا للسليم أغا نعمة الله وطلقها وانقضت عدتها منه شرعا على كتاب الله العظيم وسنة نبيه الكريم وصداق جملته ألف ريال اثنان معاملة ومائة دينار ذهبا محبوب المعجل لها من ذلك المائة دينار المذكورة أقبضها الوكيلها الحاج حسين ابن السيد محمد الموقت فقبض منه ذلك عددا بالمجلس معاينة من ذكر أعلاه وعليه الخروج من عهدة ذلك لها شرعا والباقى ألف ريال الاثنان حلان لها عليه بموت أو فراق زوجها له بذلك وعقد نكاحها عليه وكيلها الحاج حسين الموقت المرقوم باذنها له فى ذلك بشهادة كل من أخيها لامها السيد على الحمامى بن حسن البواب والسيد أحمد وشقيقه السيد ابراهيم المكلف كل منهما ابنى السيد سليمان النقرزان تزويجا شرعيا فقبله للزوج المرقوم وكيله الحاج أحمد شهاب حسبما وكله صريحا بالمجلس بشهادة شهوده المذكورين وعلى عبد الله باشا الزوج المذكور القيام لزوجته المذكورة فى كل سنة تمضى من تاريخه أدناه بقضاء كسوة أقمشة شتاء وصيفا الائقين بحالهما القيام الشرعى وثبت ذلك لدى مولانا أفندى به لما ان ثبت لديه معرفة زبيدة المذكورة المعرفة الشرعية التى لا جهالة معها شرعا بشهادة كل من شهوده وكيلها المذكورين ثبوتا شرعيا وحكم بموجبه حكما شرعيا فى الخامس والعشرين من رمضان سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف

(صورة الاتفاق) ولديه بحضر كل من مولانا الشيخ أحمد الخضرى المفتى الشافعى ومولانا الشيخ محمد صديق النائب المفتى الحنبلى ومولانا السيد محمد غرا النائب والمفتى المالكى والسيد أحمد بدوى نقيب الاشراف والامير محمد بدوى جربجى سردار مستحفظان وأحمد آغا جاويش مستحفظان العسال والحاج محمود اللوبى المغربى وابراهيم الجمال الرزاز والحاج محمد مينو وعبد الله بربير والحاج بدوى الشناوى وازون اسمعيل السلانكلى وعلى جاويش كتخدا البيك ولوى جوسف وبكتور جليان صارى عسكر حاكم ولاية الثغر ولوى اوجست دروى رئيس طائفة عسكرية وكتخدا صارى عسكر الآتى ذكره فيه وجان فرنسوا لوى لوبكه مهندس وميقاتى الجيش الفرنساوى ولوبرى وانولى باش حكيم الفرنتينة دام كمالهم صدر التوافق والتراضى بين الحاج حسين ابن السيد محمد الميقاتى الوكيل الشرعى عن زبيدة المرأة بنت السيد محمد البواب الثابت معرفتهما وتوكيله منها فيما يذكر فيه بشهادة كل من أخيها لامها السيد على الحمامى بن حسن البواب والسيد أحمد وشقيقه السيد ابراهيم ابنى السيد سليمان النقرزان الثبوت الشرعى وبين الحاج أحمد شهاب الحاضر معه بالمجلس القائم فى ذلك بوكالته الشرعية عن عبد الله باشا منو صارى عسكر القطر المصرى حالا الثابتة صريحا بالمجلس وبتصديقه على ذلك التصديق الشرعى وهو زوج زبيدة الموكلة بموجب كتاب الزوجية المسطر بمحكمة الثغر المؤرخ بخامس عشرى شهر تاريخه أدناه على شروط تكون وتوجد بين عبد الله باشا منو وبين زوجته زبيدة باقرار الوكيلين المذكورين

Digitized by Google

حضرته انه وجد صورة العقد المذكورة مشطوبة شطبا يكاد يجعل قراءتها مستحيلة وانه قاسى فى قراءتها عناء شديدا

ولما كانت دولة انكلترة لا يهدأ لها حال بسبب احتلال الفرنسيس لمصر لما لها فى ذلك من المصالح خصوصا الانتهاء مفتاح طريق هندها وأملاكها الآسيوية أسرعت بارسال عمارة حربية مؤلفة من ١٧٠ مركب تحت قيادة الاميرال جورج الفانستون لورد كيث (George Elphinstone, Lord Keith) وانضم الى السير سيدنى اسمث وعلى العمارة المذكورة ١٥٠٠٠ مقاتل يقودها السير رولف ابركرومبى (Sir Rolph Abercromby) ورفقته من القواد الجنرال جون مورى (John Moore) والجنرال هتشنسون (Hutchinson) وغيرهما وعرجت هذه القوة فى طريقها على ميناء مرمريس ليقرر رؤساؤها خطة الحالة مع الاوردى الهمايونى الذى تجهز مع الدونانمة العثمانية المركبة من ٦٠ سفينة شراعية تحت قيادة القبودان حسين باشا ثم أقلعت العمارة الانكليزية ولم تقف امام الاسكندرية لمناعة حصونها فقصدت أبوقير وأخرجت الجيش هناك على ٣٢٠ صندل (٢ مارس ١٨٠١ م) وبينما كان الفرنسويون والانجليز يتقاتلون وصل القبودان باشا بالمراكب

الشرط الاول منها أن زبيدة الزوجة أقامت وأذنت زوجها المذكور وكيلا عنها فى سائر ماتملكه يدها الآن وفيما توجد لها من المال يتصرف لها فى ذلك بحسن نظره السعيد (الثانى) ان عبد الله باشا منو الزوج المذكور أقر بأن كامل ماهو تحت يدها من متاع ومصاغ وحلى فهو ملك لها بمفردها (الثالث) عبد الله باشا منو الزوج المرقوم أعطى لوكيلها الحاج أحمد شهاب المذكور مائة محبوب كل واحد منها بمائة وثمانين نصف فضة فى نظير صداق زوجته المذكورة وان الحاج أحمد شهاب سلم جميع ذلك ليد وكيلها الحاج حسين المذكور فسلمها ذلك عددا بالمجلس وذلك على حسب عادة عقودات المسلمين (الرابع) ان الزوج المذكور شرط على نفسه انه ان حصل بينه وبين زوجته فراق يدفع لها ألف ريال اثنان معاملة فى نظير فراقه لها وكل ما كان تحت يدها وقت ذلك يكون جميعه ملكا لها حسب عادة دفع مؤخر صداق المسلمين (الخامس) ان زبيدة الزوجة المذكورة ان كانت تطلب طلاقها من زوجها المذكور بحسب شرع المسلمين لم يكن لها من الالفين ريال المذكورة ولا نصف نصفه ماعدا ماتحت يدها من مصاغ وغيره فهو لها (السادس) زبيدة لم تزل وارثة فى كل ما كانت ترثه شرعا (السابع) ان زبيدة أقرت بنفسها انه ان مات زوجها المذكور وهى فى عصمته تأخذ من ماله الالفين ريال المذكورة وليس لها موارثة ولا طلب فى تركته وذلك فى نظير ارثها الشرعى حسب رضاها بذلك (الثامن) انه ان مات الزوج المذكور وخلف أولادا من زوجته المذكورة وهم قصر يقام عليهم رجلان ناظران وصيان واحد فرنساوى والثانى ابن عرب يتصرفان فى أموالهم بحسب المصلحة فى طريقة الفرنساوية وطريقة المسلمين (التاسع) ان الزوجة المذكورة ان ماتت وخلفت أولادا من زوجها المذكور فى حياته يكون أبوهم هو الوكيل الشرعى على أولاده وعلى مالهم (العاشر) الناظر الوصى الفرنساوى المذكور فى الشرط الثامن يقام من طرف حكام الفرنساوية الموجودين فى بر مصر وقت ذلك والناظر الوصى الثانى يقام بحسب عادة المسلمين وان حصل نزاع بسبب اختلاف تقام القضية على يد الحاكم الشرعى ان كان ببر مصر أو ببر الفرنساوية (الحادى عشر) عبد الله باشا منو وزوجته ان ماتا جميعا وخلفا أولادا تكون أولادهما تحت حماية الجمهورية الفرنساوية والزوجين المذكورين يقصدان من فضل الحكام الخمسة التى ببلاد فرنسا أن يكونوا نظارا على أولادهما وان الزوج والزوجة أقروا واعترفا برضاهما على هذه الشروط المذكورة على يد وكيلهما الاقرار والاعتراف الشرعيين الصادرين منهما بالمجلس بحضرة من ذكر أعلاه وانهما التزما بهذه الشروط لنفاذها وقت الاحتياج اليها من غير اكراه ولا اجبار التزاما مرضيا وثبت ذلك لدى مولانا افندى ثبوتا شرعيا وحكم بموجبه فى سابع عشرى رمضان سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف ما

نسختان متطابقتان

Digitized by Google

العثمانية الى أبوقير وأخرج فيها الجيش وكان عدده ٧٠٠٠ عسكرى فانضم الى جيش الانكليز وحاربوا الفرنساويين وهزموهم وانحاز الجنرال منو الى ثغر الاسكندرية بعد أن قتل من جيشه عدد عظيم وحاصره الانكليز والعثمانيون فيها وقطع الانكليز عليه المواصلات بداخل القطر وذلك بأن قطعوا الجسر الفاصل بين الملاحة وبحيرة مريوط فأصبح محاطا بالماء من كل جانب والجنود العثمانية والانكليزية حوله وانحاز جانب من الفرنسيس الى الرحمانية وتحصنوا بقلعة كانوا بنوها هنالك فتوجه القبودان باشا مع القائد الانكليزى ببعض المراكب الخفيفة الى الرحمانية وكانت المدفعيات تحت قيادة القبودان ستيفنسون (Stevenson) وفتحوا فى طريقهما رشيد وفوة وهزموا الفرنسيس فى كل نقطة واستولوا على قلعتهم المذكورة وكانت تبعد ١٧٠ ميل عن البحر قال جودت باشا فى تاريخه وفى خلال ذلك تقدم جيش السردار يوسف ضيا باشا من العريش وقصد مصر وبعث قوتين فى مقدمته الاولى تحت قيادة جرخه جى طاهر باشا والثانية تحت قيادة السرعسكر محمد باشا وتلاقيا مع القوة التى كانت تحت قيادة الجنرال بليار (Bellierd) وهزموها فتقهقر بليار الى مصر وأخذ يحصن القلعة اهـ ثم حبس الفرنسيس فى القلعة كثيرا من العلماء من ضمنهم الشيخ السادات والشيخ الامير والشيخ محمد المهدى والشيخ خليل والشيخ عبد الله الشرقاوى صاحب تحفة الناظرين الذى قال فى كتابه المذكور ان سبب حبسهم خوف الفرنساويين من قيام أهل البلد عليهم كما وقع منهم سابقا فمكثنا فى القلعة مائة يوم من تسعة ذى القعدة الى أواخر صفر سنة ١٢١٦ هـ اهـ وكان الفرنسيس فى خلال تلك الحركات يجندون كثيرا من النصارى سكان مصر لاتمام النقص فى طوابيرهم لحفظ قوتهم التى كانت أخذت فى الانحطاط وكانوا فقدوا أكثر من نصفها ولما قربت جيوش السردار يوسف باشا أخذ بها جهاالفرنساويون من يوم الى آخر بدون طائل ولما وصل القبودان باشا والأميرال الانكليزى بالجيوش وبالمراكب الحربية الخفيفة تضايق الفرنسيس وحصل لهم اليأس وكانوا ينتظرون وصول المدد من فرانسا بفروغ صبر وكانت الاخبار أتت اليهم تبشرهم بوصول المدد اليهم على أسطول عليه الأميرال غانطوم (Ganteaume) وكان ذلك الأسطول يتركب من سبعة قباقات حربية كبيرة مشحونة بالذخائر وعليه خمسة آلاف عسكرى يرى الآن هذا الاسطول اضطر أن يعود ثانية الى طولون فرارا من عمارة المانش الانكليزى التى شاهدته من بعد وكانت تحت قيادة الأميرال السير هارفى (Sir Harvey) وكان ذلك فى شهر يناير من سنة ١٨٠١ م فلما يئس الجنرال بليار اضطر أن يطلب الصلح والانسحاب فأجيب طلبه وعين السردار يوسف باشا مندوبا بديعى عثمان بك وعين القبودان باشا آخر يدعى اسحق بك وأتى من طرف الانكليز السير سدنى أسميث (Sidny Smith) فاجتمعوا مع مندوبين من طرف الفرنسيس وبعد مداولات أظهر فيها الفرنساويون التجلد والقوة قبلوا باخلاء مصر فى مدة خمسة عشر يوما على شروط اتفق عليها ذكرها المؤرخون وهى مذكورة أيضا بالجزء الثالث من الجبرتى [1] ولما صدق عليها السردار والقبودان باشا والقائد الانكليزى والجنرال بليار

(١) ملخص المعاهدة التى أمضيت بين الفرنساويين من جهة وبين الانكليز والعثمانيين من جهة أخرى فى ١٦ صفر الخير سنة ١٢١٦ هـ (٢٥ يونيو ١٨٠١ م) وهى تتضمن احدى عشر شرطا منها ان الجيش الفرنساوى يلزم

Digitized by Google

٢٥ يونيو (١٨٠١ م) خرج الفرنساويون من مصر وذهبوا الى الجيزة وكانوا زهاء ١٣٧٣٤ نفر ثم توجهوا منها يوم الاربعاء ٤ ربيع الاول من سنة ١٢١٦ هـ الى رشيد وأبي قير صحبة حسين باشا القبودان وعساكر كثيرة من العثمانيين والانكليز وأنزلوهم هناك في المراكب وامتلأت مصر بالعساكر العثمانية وبعض العساكر الانكليزية ودخل الصدر الاعظم مع أركان حربه وهم ابراهيم باشا والي حلب وابراهيم باشا والي ديار بكر ومحمد باشا أبو مرق وطاهر باشا الارنؤد وغيرهم ومن أمراء مصر ابراهيم بك الكبير والطنبورجي وعثمان بك البرديسي والالفي والمحروقي والسيد عمر مكرم وغيرهم وذلك يوم الخميس في موكب عظيم عليهم أبهة الجمال وهيبة الكمال وامتلأت قلوب أهل مصر فرحا لكثرة ما وقع لهم من طائفة الفرنسيس من أخذ أموالهم وقتل رجالهم وهدم بيوتهم وغير ذلك من المظالم وفي أثناء ذلك وصلت فرقة انكليزية الى القاهرة عددها ستة آلاف عسكري تحت قيادة الجنرال بردان كانت أرسلتها انكلترة من جنودها بالهند على طريق البحر الأحمر مددا للجنرال ابركرومبي وكان وصولها من طريق القصير الا أنها أتت بعد انسحاب الجيوش الفرنساوية من القاهرة فسافرت الى اسكندرية وحضرت وقائع هناك لأن الجنرال مينو كان مصرا على الدفاع عن معه من الجنود البالغ عددهم عشرة آلاف عسكري فشدد الانكليز والعثمانيون عليه الحصار ودخلت مدفعيات صغيرة الى الميناء من خلف المدينة بواسطة البحيرة تحت قيادة القبودان سيدني اسمث واستيفنسن وأطلق الجنرال هتشنسون المدافع والبنادق على الفرنساويين وحصلت واقعة هائلة قتل فيها كثير من الجنود العثمانية والانكليز واستعد السير سدني اسمث لضرب المدينة بالمدافع من البحر فاضطر الجنرال مينو عند ذلك لقبول التسليم والسفر

أن يخلوا القلاع ومصر ويتوجهون على البر بمتاعهم الى رشيد وينزلون في مراكب ويتوجهون الى بلادهم وهذا الرحيل ينبغي أن يسرع به وأقل ما يكون في خمسين يوما وأن يساق الجيش من طريق مختص ويلزم أن يقوم لهم سر عسكر الانكليز والمساعد بجميع ما يحتاجونه من نفقة ومؤنة وجمال ومراكب والمحل الذي يبدأ منه السير يكون بالتراضي بين الجمهور والانكليز والمساعد وكامل الامتعة والانفال تتوجه في البحر ومعهم جيش من الفرنساوي لاجل الحراسة ولا بد من كون المؤنة التي تترتب لهم كالمؤنة التي كانوا يعطونها لجيش الانكليز ورؤسائهم وعلى رؤساء عساكر الانكليز وحضرة العثمنلي القيام بنفقة الجميع والحكام المتقيدون بذلك يحضرون لهم المراكب ليسفروهم الى فرانسا من جهة البحر المحيط وأن يقدم كل من حضرة العثمنلي والانكليز أربع مراكب للعليق والعلف للخيل التي يأخذونها في المراكب وأن يسير وامعهم مراكب للمحافظة عليهم الى أن يصلوا الى فرانسا وان الفرنساوية لا يدخلون مينا الا مينا فرانسا والامناء والوكلاء يقدمون لهم ما يحتاجون اليه نظر الكفاية عساكرهم والمدبرون والامناء والوكلاء والمهندسون الفرنساوية يستصحبون معهم ما يحتاجونه من أوراقهم وكتبهم ولو التي اشتروها من مصر وكل من أهل الاقليم المصري اذا أراد التوجه معهم فهو مطلق السراح مع الامن على متاعه وعياله وكذلك من داخل الفرنساوية من أي ملة كانت فلا معارضة له الا أن يجري على أحواله السابقة وجرحى الفرنساوية يتخلفون بمصر ويعالجهم الحكماء وينفق عليهم حضرة العثمنلي واذا عوفوا توجهوا الى فرانسا بالشروط المتقدم ذكرها وحكام العثمنلي يتعهدون من عصر منهم ولا بد من حاكمين من طرف الجيشين يتوجهان بمركبين الى طولون فيرسلون خبرا الى فرانسا ليطلعوا حكامها على الصلح وسائر الرسوم وكل جدال وخصام صدر بين شخصين من الفرنساوية فلا بد أن يقام شخصان حاكمان من الطائفتين ليتكاما في الصلح ولا يقع في ذلك نقض عهد الصلح وعلى كل طائفة من العثماني والفرنساوي أن تسلم ما عندها من الاسرى ولا بد من رهائن من كل طائفة واحد كبير يكون عند الطائفة الاخرى حتى يتوصلوا الى فرانسا أه ص ١٨٣ جزء ٣ جبرتي

Digitized by Google

بجنوده الى فرانسا وأرسل من طرفه مندوبا للمخابرة (٢ نوفبر ١٨٠١ م) فعقدت شروط الانسحاب كمنطوق شروط بليار ثم نزل بعسكره فى المراكب شيأ فشيأ وعاد الى بلاده وخلت منهم البلاد وأراح الله منهم العباد بعد أن تصرفوا فى مصر ثلاث سنين وشهرا ثم بعد ذلك بقليل أمضى على أسعد أفندى سفير الدولة فى باريس مقدمة الصلح الذى انعقد بين فرانسا والدولة ثم بعد أن قبض الصدر الاعظم يوسف ضيا باشا على زمام الاحكام فى القاهرة أخذ يرتب نظام الادارة المصرية وفى خلالها كانت المماليك البكوات تحاول التسلط لاعادة نفوذهم وكان عثمان بك البرديسى ومحمد بك الالفى مقيمين بجنودهما بالجزيرة ومعسكر الانكليز عصر العتيقة وأخذ القبودان حسين باشا يتباحث مع الصدر الاعظم يوسف باشا فى تدبير طريقة لردع المماليك ولما أحس المماليك بذلك التجأ كبراؤهم للانجليز فتوسطوا لهم عند الصدر ومنعوه من اجراء مقاصده ليكون لهم بذلك من يعتمدون عليه فى مصر عند الحاجة ولله فى خلقه شؤن وكان الامر صدر للجنود الانجليزية من الأميرال الأكبر اللورد كيث بالانسحاب من مصر ثم توسط القبودان باشا لدى الصدر الاعظم فطلب من السلطان تولية خسرو باشا كتخدا القبودان باشا المذكور على مصر فصدر الفرمان بذلك وكانت توليته اياها فى يوم ١٢ جمادى الاولى من سنة ١٢١٦ هـ

﴿الفصل السابع عشر﴾

﴿العائلة المحمدية العلوية الخالية﴾

(أول أمرها من سنة ١٢٢٠ هجريه)

﴿محمد على باشا الكبير﴾

(١٢٢٠ - ١٢٦٤ هـ)

كانت ولادة هذا الرجل الكبير والبطل الشهير بمدينة قوله من أعمال مقدونية سنة ١١٨٢ هـ وكان والده يسمى إبراهيم أغا من ضباط تلك المدينة ولما توفى والده تركه فى سن لا يتجاوز الأربع سنوات فكفله عمه ثم مات عمه بعد ذلك بمدة يسيرة فتكفل به حاكم المدينة المذكورة ورباه عند أحد أصدقاء والده فشب على حب استعمال السلاح وتزوجه وهو فى الثامنة عشرة من العمر باحدى قريباته وكانت ذات يسار فكان ذلك مبدأ ثروته واشتغل بالتجارة ونجح فيها خصوصا فى تجارة التبغ التى هى أعظم حاصلات بلدته ثم لما تعين القبودان كوجك حسين باشا بالدونمة السلطانية لاخراج الفرنساويين من مصر كما سبق فى صحيفة ٦٥٧ من الجزء الاول من هذا الكتاب كتب الى جوربا جى مدينة قوله حسين أغا بارسال عدة من العسكر فارسل مائتى جندى مع صهره محمد على أغا هذا صحبة الدونمة التى أقلعت الى مصر سنة ١٢١٤ هـ وبعد اخراج الفرنساويين من الديار المصرية (١٢١٦ هـ) ترقى محمد على الى رتبة سرجشمه أى رتبة البكباشى وصار قائد فرقة ثم توظف فى معية محمد خسرو باشا عندما قلدته الدولة ولاية مصر كما مر ولم يزل محمد على يتقدم بكفاءته الى أن ارتقى الى رتبة أميرلوا فظهر حينئذ اقباله وعلا نجم سعده حتى خاف منه

خسرو

خسرو باشا وأراد الفتك به عقب انهزام تجريدة عثمان بك البرديسي ومحمد بك الألفي في دمنهور وكانا أرسلا لمحاربة العصاة من المماليك ولكن من حسن حظ محمد علي باشا أن قامت العساكر على الوالي المذكور لتأخير صرف مرتباتهم حتى ألجؤه الى الفرار وقلدوا طاهر باشا قائدهم ولاية مصر ولما عجز عن أداء مطلوبهم قتلوه ورغبت البكجرية تولية أحمد باشا والي جدة وكان أتى مصر ليسافر منها الى محل مأموريته وكان ذلك على غير رضا محمد علي وكان أحمد باشا المذكور تمكن من الاستيلاء على قلعة الجبل الا أن محمد علي تمكن بما اتصف به من المهارة وحسن السياسة بعد ان اتحد مع الامراء والرؤساء من اخراج أحمد باشا من القلعة ثم حصلت بعض وقائع أخرى مع خسرو باشا بجوار دمياط تمت بمحاصرة البرديسي له فيها وأسره (١٢١٨ هـ) وتسليمه بعد ذلك الى إبراهيم بك الكبير ولما بلغ الدولة ما حصل أرسلت علي باشا الجزائرلي (الطرابلسي) لولاية مصر مكان خسرو باشا ولكنه بعد استلامه الاحكام أساء التدبير حتى وقع في أيدي الكولمان فقتلوه ثم ولت الدولة خورشيد باشا واستمر الاضطراب سائدا مع ما بذله خورشيد باشا المذكور من المساعي الى أن صدرت الاوامر السلطانية بعد حدوث أمور ووقائع يطول شرحها بتولية محمد علي باشا على الديار المصرية في شهر صفر من سنة ١٢٢٠ هـ طبقا المرغوب أعيان وأمراء البلاد الذين طلبوا من الدولة ذلك بما أرسلوه من العرائض وأخذ محمد علي بعد توليته يسعى بكل الطرق في تسكين الاضطرابات وقطع دابر الفتن واستمالة قلوب المشايخ والعلماء وأصحاب الكلمة ولما بلغ أمر تولية محمد علي باشا الى خورشيد باشا امتنع من الاعتراف به وتحصن بالقلعة فالتزم محمد علي باشا بمحاصرته فيها بالجنود الارنؤد فازداد الارتباك وكانت الدولة ترى ان وجود هذه الفتن المستمرة بمصر مخل بالامن لانها طريق الحرمين الواجب المحافظة عليه ومن الضروري اعادة النظام الى مصر لتأمين هذا الطريق فأرسلت فرمانا بعزل خورشيد باشا مع من يدعى صالح أغا القبوجي باشي ولما بلغه الى خورشيد باشا لم يمتثل حتى حضر القبودان سيد عبد الله رامز باشا بالدونانما العثمانية وبلغ الامر لخورشيد باشا المذكور وبعد تردد خرج من القلعة وركب مركبا من بولاق وأقلع من هذا القطر واستلم محمد علي باشا الولاية بلا معارضة ثم انه في سنة ١٢٢١ هـ أتى مرسوم سلطاني بعزل محمد علي باشا عن مصر وتوليته ولاية سلانيك وجعل موسى باشا واليا بدله على مصر وحضر موسى باشا بالاسطول الى القطر فكتب العلماء والوجوه وأمراء الجند محضرا الى الدولة وأرسلوه صحبة إبراهيم بك أكبر أنجال محمد علي باشا يلتمسون فيه بالاجماع بقاء محمد علي باشا واليا لما رأوا فيه من حسن الادارة والطاعة للدولة وعليه أصدر السلطان سليم خان الثالث فرمانا بابقائه في الولاية (شعبان ١٢٢١ هـ) وتعين ابنه إبرهيم بك دفتردارا وكان الذي حسن للدولة عزل محمد علي باشا من مصر هي دولة الانكليز ليتمهد الامر لحليفها محمد بك الالفي ويتسنى لها مساعدته وكان الالفي سافر الى انكلترة قبل ذلك واتفق معها انه هي ساعدته على نوال مرغوبه الذي أخصه ازالة نفوذ البرديسي خصمه وظهيره محمد علي باشا ان يتنازل لها عن سواحل مصر الواقعة على البحر المتوسط الابيض وعن ميناء الاسكندرية الا أنه بعد قليل من الزمن توفي محمد بك الالفي المذكور ولم يتمكن من نوال شيء قال العلامة الشيخ عبد الرحمن الجبرتي في تاريخه عن رحلة الالفي الى بلاد الانكليز انه غاب بها سنة وشهورا وقد تهذبت أخلاقه بما اطلع عليه من عملة بلادهم وحسن سياسة أحكامهم

Digitized by Google

وكثرة أموالهم ورفاهيتهم وصنائعهم وعدلهم في رعيتهم بحيث لا يوجد فيهم فقير ولا مستجد
ولا ذو فاقة ولا محتاج وقد أهدوا له هدايا وجواهر وآلات فلكية الى أن قال ومن أنواع الاسلحة
الحربية أشياء كثيرة وقال أيضا انه كان آخر من أدركنا من الامراء المصريين شهامة وصرامة ونظرا
في عواقب الامور اه وبعد موته بأيام قلائل توفي عثمان بك البرديسي رئيس الامراء المصريين
قال الجبرتي سمي بالبرديسي لأنه تولى كشوفية برديس بقبلي فعرف بذلك الى أن قال فلما سافر الالفي
الى بلاد الانكليز تعين رئيسا على خشداشينه مع مشاركة تشتك بك الذي عرف بالالفي الصغير وكان
ظالما غشوما طائشا سيء التدبير وقد أوجده الله جل جلاله وجعله سببا لزوال عزهم ودولتهم
واختلال أمرهم وخراب دورهم وتشتيت جمعهم ولم يزل على خبثه حتى مرض ومات بمنفلوط
ودفن هناك اه وبموت هذين الاميرين استتب الامر لمحمد على باشا حتى أصبح بلا معارض تقريبا
وفي خلال ذلك اتحدت الدولة العثمانية مع نابليون بونابارت بمهارة سفيره الجنرال سباستيان ونشأ
عن ذلك قيام دولة الروسيا واعلانها الحرب على الدولة العثمانية واتفقت انكلتره معها ودخلت
دونانمتها الدردنيل تحت قيادة السير جون دوكورث (Duckworth) وأخذت تهدد دار
الخلافة أياما ورفضت الدولة جميع اقتراحاتها كما مر في الجزء الاول من هذا الكتاب ولما خاف
الاميرال المذكور سوء العاقبة خرج مسرعا بالدونانما الى البحر الابيض المتوسط ولحقه من قلاع
الدردنيل وقت خروجه خسائر جمة وفي أثنائها أصدرت الدولة الاوامر الى محمد على باشا بأخذ
الاحتياطات اللازمة والمحافظة على الثغور المصرية خوفا من أن تدهمها أساطيل دولة انكلتره وكان
العزيز وقتئذ يسعى في مسالمة الامراء والاتفاق مع ابراهيم بك الكبير وجاهين بك وغيرهما وكانت
انكلتره لما لم تنل مقصدها من الاستانة عزمت على مهاجمة الديار المصرية لتنفيذ مقصدها في مصر
بالقوة وهو المقصد الذي كانت تسعى اليه من أمد مديد وتهيئ له الفرص والاسباب

حملة انكلترا على الديار المصرية — انه في ١٧ مارث من سنة ١٨٠٧ (محرم سنة
١٢٢٢ هـ) ظهرت امام ثغر الاسكندرية دونانما انكليزية مركبة من ١٧ مركبا حربيا ومعها
غيرها من السفن الحاملة للعساكر فحصل من ذلك دهشة عظيمة لسكان البلد قال الجبرتي وفي تاسع
محرم وردت مكاتبات مع السعاة من ثغر الاسكندرية وذلك يوم الخميس وقت العصر وفيها الاخبار
بورود مراكب الانكليز وعدتهم اثنان وأربعون مركبا فيهم عشرون قطعة كبارا والباقي صغارا
فطلبوا الحاكم والقنصل وتكلموا معهما وطلبوا الطلوع الى الثغر فقالوا لهم لا نمكنكم من
الطلوع الا بمرسوم سلطاني فقالوا لم يكن معنا مراسيم وانما مجيئنا لمحافظة الثغر من الفرنسيس فانهم
ربما طرقوا البلاد على حين غفلة الى أن قال ولما انقضت الاربعة وعشرون ساعة التي جعلها
الانكليز أجلا بينهم وبين أهل الاسكندرية وهم في الممانعة ضربوا عليهم بالقنابر والمدافع
الهائلة من البحر فهدموا جانبا من البرج الكبير وكذلك الابراج الصغار والسور فعند ذلك طلبوا
الامان فرفعوا عنهم الضرب اه وعند ذلك خرج من الدونانما الى البر نحو سبعة آلاف عسكري
تحت قيادة الجنرال فريزر (Freser) ولم يكن بالاسكندرية في ذلك الوقت غير بضع مئين من
الجنود تحت قيادة أمين أغا من ضباط الاستانة ولم يتعرض الضابط المذكور لمنع خروج العسكر
الى البر ولا لتقدمهم نحو المدينة بل قبل العار وسلم نفسه هو ومن معه من العساكر بلا مقاومة
أصلا وبهذه الكيفية استولى الجنرال الانكليزي على هذه المدينة الشهيرة بدون أن يفقد أحدا

من

Digitized by Google

من عساكره وفى ذلك الوقت كان محمد على باشا فى الصعيد مشتغلا بمحاربة الكولمان ولم يكن يخطر بباله أن دولة قوية مثل الانكليز تهجم على بلاده بلا سبب فلذلك انزعج من هذا الامر جدا وأسرع بعقد الصلح مع الكولمان وعاد فى الحال الى القاهرة للنظر فى أسباب الدفاع عن القطر المصرى أما الجنرال الانكليزى فانه بعدان استراح أياما واستطلع الاحوال واستعد بما يلزم سير بعض عساكره الى رشيد ليحصل على موقع داخل القطر ويكون له بسببه المؤنة والخيول اللازمة لعساكره وكانت العساكر التى سارت الى رشيد ألفى جندى بينها كثير من محكى الفرنسيس وبينهم مائتا بحرى وكان حرس رشيد يتركب من بضع مئين تحت قيادة رجل اتصف بالشجاعة والصداقة يسمى على بك وكان ذلك من حسن حظ محمد على باشا ولما علم هذا الضابط الغيور بقرب مجىء الانجليز استعد للمدافعة بجمعه القليل ولأجل قطع خط رجعة العدو بالمرة أمر بنقل جميع المراكب والصنادل التى كانت بقرب رشيد الى الشاطىء الآخر وأمر العساكر فاختفوا داخل المنازل وان لا يبدوا بحركة أصلا حتى يأمرهم ولما رأى الانجليز ان ليس بالمدينة من يدافع عنها ظنوا ان السكان والجنود تركتها لعدم مقدرتها على المدافعة كما حصل بالاسكندرية وكان الانكليز اعتراهم التعب من السير فدخلوا البلدة مطمئنين بلا مبالاة وانتشروا فى الطرق يمشون على محلات يلتجئون اليها للاستراحة وألقى كثير منهم السلاح ونام فى الاسواق فلما رأى ذلك على بك المذكور وتحقق من التمكن منهم خرج عليهم بقليل من العساكر وأطلق النار على كل من واجهه منهم فحصل لهم من ذلك دهشة وفشل واختباط عظيم وابتدأت العساكر الكامنة فى المنازل باطلاق البنادق أيضا على عساكر العدو وكانوا يطلقونها من الابواب والشبابيك والاسطحة وبعد قليل من الزمن فرت الفرقة العسكرية الانكليزية هاربة بلا نظام الى جهة الاسكندرية بعد ان قتل منها اللواء الحكمدار وكثير من الضباط ومائة جندى وأخذ منها ١٢٠ أسيرا ومدفعان أما الهاربون فمازالوا يجدون فى السير لا يلوون على شئ حتى وصلوا الاسكندرية

وكان محمد على باشا وصل الى القاهرة اثناء ورود أخبار انتصار على بك فى واقعة رشيد المذكورة ولما بلغه خبر تجديد الاغارة من الانكليز على البندر المذكور أسرع فى ارسال الامداد اللازم اليه أما الجنرال فريزر فاعترته الدهشة والوجل مما حصل للفرقة الانكليزية فى رشيد ولذلك جهز سرية أخرى وأرسلها الى ذلك البندر وكانت مركبة من ٣٠٠٠ جندى معها ستة مدافع وأربع قطع من الهوان تحت قيادة الجنرال استوارت (Stewart) ولما وصلت الى رشيد فى ٨ ابريل من سنة ١٨٠٧ ألقت عليها الحصار ووضعت بطريتين على تل بناحية أبومندور واستولت على قرية الحماد ووضع هذا القائد فيها خمسة بلوكات لوقاية الخلف ثم ابتدأ فى ضرب النار ومكث الضرب أسبوعين بلا ثمرة وفى نهايتها تعجب الفريقان من المدد الذى أتى على حين غفلة من طرف المرحوم محمد على باشا ففرح المحصورون وكان هذا المدد يتألف من ١٥٠٠ من السوارى ومن ٤٠٠٠ من البيادة وانقسمت هذه القوة الى فرقتين كانت الاولى وهى الصغيرة تحت قيادة حسن باشا واتخذت موقعها امام الحماد المتقدمة والفرقة الكبيرة تحت قيادة الكيخيا واتخذت موقعها فى برمبال وكان عساكر الفرقتين يشاهدون بعضهم بعضا وفى الصباح هجمت فرقة حسن باشا على موقع الانجليز الذى بالحماد ولكنها انقهرت وتعقبتها فرقة من العدو ولكن السوارى المصريين

Digitized by Google

شتتوا شملها ثم اجتمعت فرقة الكيخيا بفرقة حسن باشا البلا وكان الجنرال استوارت أخذ عساكر قره قول الجهادو خمسة بلوكات أخرى وجعلها قوة واحدة بلغ عددها ٨٥٠ جندى ووضعها تحت قيادة الميرالاى ماكلاود (Macloed) وكان هذا الميرالاى يظن انه ليس فى مواجهته الا فرقة حسن باشا ولكنه رأى فى الصباح عندما أراد الهجوم ان جميع الجيش المصرى اجتمع فى مواجهته فداخله الرعب وأمر عساكره بالقهقرى الا انه غلط فى تقهقره لتجزئة قوته الى سريات كانت أول سرية منها مركبة من ثلاثة بلوكات تحت قيادة البكباشى مور (Moore) والثانية تحت قيادته وكانت مؤلفة من بلوكين من ابقوسيا والثالثة من خمسة بلوكات ومدفعين تحت قيادة البكباشى وجلستر (Vaglester) ومن سوء ادارته أيضا لم يسير تلك السريات مع بعضها بل جعلها منفصلة عن بعضها بمسافات بعيدة لا يمكنها أن تنجد بعضها بعضا ولذلك انتظرت السوارى المصرية سرية البكباشى مور حتى انفصلت من السريتين الاخريين وأحاطت بها من كل جانب فأفنتها عن آخرها ولم ينج من القتل منها الا من أسر وهو البكباشى مور مع قليل من الانفار ولما صار الميرالاى مكليور (Maclear) على مسافة نحو نصف ميل أحس بغلطه فى التحرك فأراد أن يرجع ويجتمع مع سرية البكباشى وجلستر فأحاطت به السوارى المصرية من كل مكان حتى اضطر الى تشكيل قلعة من المائتى نفر الذين صدبهم السوارى المصرية الا أن عساكر البيادة المصرية أطلقت عليهم النار فدمرت صفوفهم وقتل الميرالاى مكليور المذكور فأخذ القيادة اليوزباشى ماكى (Mackay) وصمم على اقتحام وسط المصريين كى يلتحق باخوانه فوقع وسط النيران ولم يصل الى البكباشى وجلستر الا بنفر قليل أما البكباشى وجلستر فانه دافع بشجاعة مع الخمسة بلوكات التى كانت معه لكنه اضطر فى آخر الأمر الى أن يسلم نفسه مع من بقى معه بلا شرط هذا أما الجنرال استوارت فانه لما رأى ما حل بجيشه أخذ فى تسمير ثقوب (فليات) المدافع الكبيرة وحرق الجبه خانة التى كانت لجيشه وعاد مهزوما الى الاسكندرية مع من بقى معه من جنود التجريدة وعددهم ألفا نفس وبعد هذه الصدمة الثانية التى أصابت الانكليز امام رشيد صمم الجنرال فريزر على أن لا يهجم مرة ثانية حتى يأتيه الامداد من انكلترة وداخله الرعب من هجوم عساكر محمد على باشا على الاسكندرية فاشتغل لذلك بتحصينها وحمله الخوف على نفسه وعلى من بقى معه فقطع سد أبو قير وبذلك أغرق جميع أطراف المدينة وانعدمت نحو ٤٠ بلدة فأصبح الهجوم عليه من الصعب جدا

وكان محمد على باشا فى تلك الاثناء توجه الى الرحمانية ثم قصد دمنهور ليقف بنفسه على حركات الانجليز وهناك علم انهم أصبحوا فى موضع يصعب الوصول اليه فأخذ فى تقوية وتحصين الاماكن خصوصا مدينة القاهرة ولما مضى الصيف ولم يأت امداد الى الجنرال فريزر كاتب محمد على باشا فى أمر الصلح وحصلت المداولة فى تخلية الاسكندرية ثم ان الجنرال فريزر سار وقابل محمد على باشا فأكرم وفادته ثم أرسل من طرفه الى دمنهور الجنرال شربلد (Charbold) نائبا عنه. فاستقر الرأى على خروج عساكر الانكليز بشرط رد جميع اسراهم اليهم فقبل بذلك محمد على باشا وفى ١٤ سبتمبر ركبت العساكر الانكليزية المراكب وأقلعوا من الاسكندرية بعد ان تركوا الاربع فراقيط العثمانية التى كانت راسية بالاسكندرية وكانوا استولوا عليها حين مجيئهم

Digitized by Google

عند مجيئهم فكانت مدة بقاء الانكليز بالقطر المصرى ستة أشهر الاثلاثة أيام ولما انقضى أمر الانكليز وارتحلوا بمراكبهم من الديار المصرية التفت محمد على باشا الى تنظيم الاحوال فكان من أول أعماله انه سلم المصالح المصرية للترشحين من ذوى الكفاءة من ذوى قرباه وكان ذلك من حسن تبصره وجودة معرفته لأن بهم قد اشتد أزره واستقام أمره ولما تحسنت الامور بحسن التدبير والسياسة مالت اليه قلوب الامة المصرية بتمامها ثم شرع فى تخليص القطر من الانحطاط الذى أصابه فسن للاصلاحات قوانين معتدلة وأوفد على مصر كثيرين من انحاء العالم لنشر لواء العمران وبث روح الحضارة ورتب الضرائب على أحسن نظام وأحدث نظام تمغة المنسوجات وغيرها من الضرائب الخفيفة ليمكنه الحصول على الاموال اللازمة لاتمام تلك الاصلاحات (١٢٢٣ هـ) ولما كان الجيش كثير التذمر كعادته ويريد ضباطه أن يكون لهم مشاركة فى الحكم وهى العادة القبيحة التى أودت بالديار ظهرت الاضطرابات بين الجنود فتمكن من اطفائها بنى رجب أغا رأس الفساد فى الجيش وقطع دابر ثورة ياسين بك أحد أمراء الجيش ونفاه الى قبرس ثم أصدر أمرا باصلاح سد أبى قير الذى كسره الانكليز واصلاح الحصون والقلاع المتخربة الموجودة بثغر الاسكندرية وبالسواحل المصرية وتشييد أخرى حتى بلغ عددها بالسواحل ٢٦ حصنا وسلحها بنحو ٦٢٧ مدفعا و ٦٥ هوانا ثم جدد حصونا أخرى فى أبى قير للمحافظة على السد فأصبحت سبعة وسلحها بنحو ١٥٩ مدفعا وثمانية هوانات وأحدث غير ذلك من الاصلاحات والاستحكامات

اعداد الاساطيل بالبحر الاحمر لمحاربة الوهابية وقتل عسكر الكولمان — بينما كان محمد على باشا مهتما فى اصلاح شؤن البلاد المصرية استفحل أمر العرب الوهابية (1) بالاقطار الحجازية واستولوا على الحرمين الشريفين وقطعوا الطريق على الحجاج والقوافل وكان قيامهم بدعوى مناقضة للسنة الاسلامية وبدعة مخالفة للآثار المحمدية كما سبق الكلام عليهم فى تاريخ الدولة العلية ولما جلس السلطان محمود خان العدلى على التخت أصدر فرمانا (١٢٢٤ هـ) بتأييد

(1) كان ظهور الوهابية فى سنة ١٢٠٤ هـ ومؤسس مذهبهم الخبيث يدعى محمد بن عبد الوهاب وأصله من المشرق من بنى تميم وكان من المعمرين لانه عاش قريبا من مائة سنة حتى انتشر منه ضلالهم وكانت ولادته سنة ١١١١ هـ وهلك ١٢٠٦ هـ وكان أبوه رجلا صالحا من أهل العلم وكذا أخوه الشيخ سليمان وكان أبوه وأخوه ومشايخه يتفرسون فيه أن سيكون منه زيغ وضلال لما يشاهدونه من أقواله وأفعاله ونزعاته فى كثير من المسائل وكانوا يوبخونه ويحذرون الناس منه فحقق الله فراستهم فيه لما ابتدع ما ابتدعه من الزيغ والضلال الذى أغوى به الجاهلين وخالف فيه أئمة الدين وتوصل بذلك الى تكفير المؤمنين فزعم ان زيارة النبى صلى الله عليه وسلم والتوسل به و بالانبياء والاولياء والصالحين وزيارة قبورهم شرك وأن من أسند شيأ لغير الله ولو على سبيل المجاز العقلى يكون مشركا نحو نفعنى هذا الدواء وهذا الولى الفلانى عند التوسل به وغير ذلك وأتى بعبارات مزورة و زخرفها ولبس بها على العوام حتى تبعوه وألف لهم فى ذلك رسائل حتى اعتقدوا كفر أكثر أهل التوحيد واتصل بأمراء المشرق أهل الدرعية ومكث عندهم حتى نصروه وقاموا بدعوته وجعلوا ذلك وسيلة الى تقوية ملكهم واتساعه وتسلطوا على الاعراب وأهل البوادى حتى تبعوهم وصاروا جندا لهم بلا عوض وصاروا يعتقدون أن من لم يعتقد ما قاله ابن عبد الوهاب فهو كافر مشرك مهدر الدم والمال وكان ابتداء ظهور أمره سنة ١١٤٣ هـ وابتداء انتشاره من بعد سنة ١١٥٠ هـ وألف العلماء رسائل كثيرة للرد عليه حتى أخوه الشيخ سليمان و بقية مشايخه وكان ممن قام بنصرته ونشر دعوته من أمراء المشرق محمد بن سعود أمير الدرعية ولما مات محمد بن سعود قام بها ولده عبد العزيز بن محمد بن سعود ثم ولده سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود اهـ ملخصا من الفتوحات الاسلامية لابن دحلان

Digitized by Google

محمد على باشا على ولاية مصر كما هى العادة عند جلوس سلطان جديد على التخت العثمانى ولما كان اطفاء فتنة الوهابية من المسائل المهمة جدا أصدر أوامره الى محمد على باشا أيضا باعداد تجريدة لمحاربة الوهابيين وتخليص مكة والمدينة من أيديهم فصدع محمد على باشا بالأمر وأخذ يجهز القوات اللازمة لهذه الحملة ولما لم يكن له فى ذلك الوقت عمارة بحرية بالبحر الاحمر وليس به سفن يمكن استئجارها غير بعض سفائن صغيرة لشريف مكة غالب بن مساعد وكان متحدا مع الوهابيين فلهذا أصدر محمد على باشا أمره بانشاء ١٥ سفينة بالبحر المذكور وأمر بقطع ما يصلح لبنائها من أشجار التوت والنبق وغيرهما من الوجه القبلى والبحرى وعين المأمورين لذلك ولما تم قطعها أحضرت بساحل بولاق وكان أنشأ هناك دار صناعة ومعامل مختلفة فهذا ابتداء إنشاء ترسخانة بولاق (١٢٢٤ ﻫ) ولما تم صنعها نقلوها قطعا منفصلة على الجمال الى السويس وهناك هيؤها تماما وشيد بالسويس مبانى لصناعة السفن أنشأ بها أربع سفن جسيمة من نوع الابريق (وهى سفن بساريتين وقلوع مربعة) واحدى عشرة سفينة أخرى من نوع السكونة (وهى سفينة بسارية واحدة لها قلوع مربعة ونصف سارية ذات قلوع مخروطية) ثم توجه العزيز بنفسه الى السويس لمشارفة ما بها من السفائن سنة ١٢٢٥ ﻫ وهناك أمر بضبط ما بها من المراكب وما بغيرها من سواحل البحر الاحمر لاستعمالها فى حملة الوهابية وكان بمصر وقتئذ جيش يبلغ ٢٥,٠٠٠ مقاتل جميعهم من الباشبوزوق الذين كانت الدولة جمعتهم تحت قيادة الصدر الاعظم يوسف ضياء باشا لما أرسلته لاخراج الفرنسويين من مصر فتمكن محمد على باشا من أن ينتخب من هذا الجيش قوة للمدافعة عن مصر تبلغ ٨٤٧٢ جنديا من المشاة و ١٧٠٧ من الطوبجية للقلاع والحصون وجعل منه أيضا قوة أخرى متحركة عددها ١٨٣٣٣ مقاتلا انتخب منها ٦٠٠٠ من المشاة وألفين من الطوبجية ومثلهم من السوارى للحملة الحجازية المذكورة وجعل لقيادة هذا الجيش البطل الشهير ولده طوسون باشا ثم خرج الجيش وعسكر بقرب قبة العزب وفى خلال ذلك نمى اليه ان جماعة من المماليك تواطؤا على الفتك به عند عودته من السويس فخرج منها ليلا على غير ميعاد وأسرع فى السير حتى دخل مصر ولما تحقق من انه لا يأمن من فتك المماليك به خصوصا اذا خلت البلاد من العسكر دبر مكيدة ليقطع بها دابرهم ويهلكهم عن آخرهم ولاجل تنفيذ هذا الغرض دعاهم (١٢٢٦ ﻫ) الى القلعة لحضور تقليد ولده طوسون باشا سر عسكرية جيش الحجاز وعقد موكبا لهذا القصد فلما اجتمعوا بالقلعة بدت منه اشارة اتفق عليها مع الذين وكلهم بالفتك بهم فأغلقت الابواب سريعا وأطلقت عليهم عساكر الارنؤد البنادق من أبراج القلعة وكانوا كامنين هناك ولما هم المماليك بالهرب لم يتمكنوا لضيق المكان وهول الموقف وصعوبة المرتقى على الاسوار فسلموا أنفسهم للقضاء حتى قتل أغلبهم حيث كانوا وتتبع العسكر من اختفى منهم بجهات القلعة فقتلوهم عن آخرهم واقتفوا كذلك آثار من بقى منهم بالقاهرة والارياف وفتكوا بهم ونهبت دورهم واستولى الارنؤد على أموالهم وأنعم العزيز ببيوتهم بما فيها على خواصه والمقربين اليه وأراح الله البلاد والعباد من شر هذه الطائفة الباغية وان كان يلام المرحوم محمد على باشا على عدم تفرقته بين المسىء والبرىء منهم ولكن لم تكن هناك وسيلة أخرى يمكن بها التخلص من هؤلاء الفسدة أحسن من ذلك

Digitized by Google

حرب الوهابية (١٢٢٦ – ١٢٣٤ ﻫ) تعرف هذه الحرب أيضا بحرب الست سنوات وحاصلها انه بعد أن اطمأن بال المرحوم محمد باشا من خوف حدوث ثورة بالبلاد أصدر الاوامر بقيام الجيوش لحرب الوهابية تنفيذا لاوامر الدولة العلية وعلى ذلك سافرت تلك الجيوش تحت قيادة نجله طوسون باشا الى ينبع (شعبان ١٢٢٦ﻫ – ٣ سبتمبر ١٨١١م) ولما تكامل عددها تقدمت لحرب الوهابيين فاستخلصت من أيديهم المدينة المنورة ومكة المشرفة ثم ان رئيسهم سعود استجاش وأتى في جمع كثير وتلاقى مع العسكر المصرى في جهات الصفراء والجديدة ووقع بين الطرفين قتال شديد بحيث اضطر طوسون باشا الى الهزيمة ونهب العرب كل ما كان مع الجيش من المعدات والذخائر ولما عاد الجيش المصرى الى ينبع أرسل طوسون باشا الى أبيه وأعلمه بالخبر فجهز له جيشا آخر ولما وصل تقدم به على الوهابيين وكانوا تحت قيادة فيصل بن سعود فقهرهم في عدة مواقع واستولت العساكر على ما كان بيدهم من الاماكن وملكوا الصفراء والجديدة وغيرهما بلا قتال (١٢٢٧ ﻫ) وارتحل سعود الى الطائف ثم الى الدرعية واستولى المصريون على المدينة المنورة وكان استردها سعود وأرسل محمد على باشا بخبر هذا الفتح الى دار الخلافة العثمانية وأرسل مع رسله مفاتيح مكة والمدينة وجدة فكان لذلك أحسن وقع وقد أراد محمد على باشا مشارفة القتال بنفسه تشجيعا للقائمين به فسار بنفسه الى الحجاز وقبل خروجه من مصر قبض الشريف غالب على عثمان المضايفي أمير الوهابية على الطائف وبعثه الى مصر مقيدا بالحديد فأرسله الباشا الى دار السلطنة فقتلوه هنالك ولما وصل محمد على باشا الى مكة صرف الشريف غالب بن مساعد عن ولاية الحرمين الشريفين لما تحقق فيه من الميل الى الفتنة ثم قبض عليه وعلى عائلته وأرسل الكل الى مصر ومنها نفته الدولة الى سلانيك فبقى فيها الى أن توفى (١٢٣١ ﻫ) وولى محمد على باشا مكانه ابن أخيه الشريف يحيى بن سرور بن مساعد وفى محرم من سنة ١٢٢٩ ﻫ بعثوا الى القسطنطينية مبارك بن مضيان الذى كان أميرا على المدينة المنورة من طرف الوهابية فطافوا به في شوارعها ليراه الناس ثم قتلوه وعلقوا رأسه أياما ثم ان محمد على باشا بث سراياه في جهات تربة وبشه وبلاد غامد وزهران والعسير لقتال طوائف الوهابية وقطع دابرهم ثم تتبعهم بنفسه (شعبان ١٢٢٩ ﻫ) الى أن وصل الى تلك الديار وقتل كثيرا منهم وأسر وخرب ديارهم وفى شهر جمادى الاولى من السنة المذكورة مات سعود أمير الوهابية وقام بالامارة بعده ولده عبد الله ولم يكن في الكفاءة كأبيه ثم عاد محمد على باشا الى مكة فأدى فريضة الحج الشريف وبينما هو يستعد لفتح ما بقى بيد الوهابية من الاقطار العربية اذ بلغه خبر مهم ألزمه العودة الى مصر مسرعا فعاد اليها في رجب من سنة ١٢٣٠ وترك بمكة حسن باشا نائبا عنه أما الامر الذى اضطره للعودة فهو أنه لما فتحت جنوده المدينتين المشرفتين كان أرسل مفاتيحهما الى الاستانة مع خازنداره لطيف بك وقد سعى هذا الرجل عند أرباب الدولة للايقاع بسيده عله ينال حظا وتعهد لهم بخلعه من منصبه ان ساعدته الدولة وكان أرباب الدولة يتوجسون شرا من محمد على سيما وان أعداءه كان كثر عددهم خصوصا بعد قتله للمماليك كما سبق فلهذا صادفت أقواله آذانا صاغية وقلوبا بحب الانتقام طافحة وأنعم السلطان على هذا المفسد برتبة الباشاوأرسلوه الى مصر وبيده خط سلطانى بتقليده الولاية المصرية فلما وصل مصر أخذ يجتمع على بعض رجالها وأظهر لهم الفرمان وكان ذلك في غياب محمد على باشا بالاقطار الحجازية

Digitized by Google

ولما اتضح أمره خاف رجال محمد على باشا سوء العاقبة وعودة الفتن التي لم تلتئم جروحها بعد وأسرع محمد لاظ أوغلي كتخدا محمد على باشا ونائبه بمصر مدة تغيبه بالقبض على لطيف باشا المذكور وقتله وكانت الدولة العلية أرسلت الى ثغر الاسكندرية في الوقت المذكور اسطولا عثمانيا كعادتها اذ ذاك ليؤيد الوالي الجديد ان احتاج لذلك هذا ولما حضر محمد على باشا الى مصر أخذ يقوي الثغور ويجهز المعدات الحربية وأمر نجله طوسون باشا بان يعقد شروطا بينه وبين أمير الوهابية عبد الله بن سعود تقضي بان يرد الوهابيون جميع ما سلبوه من الحجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم مع بقائه أميرا ببلاده بشرط الطاعة لمحمد على باشا ولما تعاهد الطرفان على ذلك وكانت قوة الوهابيين اضمحلت عاد طوسون باشا الى مصر فقوبل فيها باحتفال عظيم ثم توجه الى ثغر الاسكندرية لمقابلة والده هناك وبعد قليل من الزمن أصيب بمرض لم يمهله الا بضع ساعات ومات الى رحمة ربه ونقلت جثته الى القاهرة فدفنت قرب الامام الشافعي رضي الله عنه

ولما رأى الوهابيون في أنفسهم القدرة على القتال بعد ذلك نكثوا بالعهود واستعد محمد على باشا لقتالهم وأعد السفن ببولاق مصر لحمل الجنود بالنيل الى مدينة قنا لتسير من هناك الى ثغر القصير وجعل على هذه القوة ولده إبراهيم باشا (١٢ شوال ١٢٣١ هـ — ٣ سبتمبر ١٨١٦ م) ثم ركبوا أسطول البحر الاحمر الى ينبع ولما اجتمعت الجيوش هناك تقدم بها إبراهيم باشا الى الدرعية (١٢٣٢ هـ) وبعد حصارها أياما سلمها عبد الله بن سعود زعيم الوهابيين على غير شرط ثم قبض عليه وعلى أتباعه وبعث به وبكثير من أمراء الوهابية الى مصر فاتى في ١٧ محرم ١٢٣٤ هـ وصنعوا له موكبا حافلا ليراه الناس وأركبوه على هجين وازدحم الناس للتفرج عليه ولما دخل على محمد على باشا قام له وقابله بالبشاشة وأجلسه بجانبه وحادثه ومما قال له ماهذه المطاولة فقال الحرب سجال قال وكيف رأيت ابني إبراهيم باشا قال ماقصر في شيء وبذل همته ونحن كذلك حتى كان ماقدره الله تعالى فقال له الباشا انا أترجى فيك عند مولانا السلطان فقال المقدر يكون ثم ألبسه خلعة وانصرف الى بيت اسمعيل باشا ببولاق وكان بصحبة عبد الله بن سعود صندوق صغير مصفح فقال له الباشا ماهذا فقال هذا ما أخذه أبي من الحجرة أصحبه معي الى السلطان فأمر الباشا بفتحه فوجدوا فيه ثلاثة مصاحف من خزائن الملوك لم ير الراؤن أحسن منها ومعها ٣٠٠ حبة من اللؤلؤ الكبار وحبة زمرد كبيرة وغير ذلك ثم أرسلوا عبد الله بن سعود الى دار السلطنة فقتلوه عند الباب الهمايوني وقتلوا أتباعه أيضا في نواح متفرقة وعوتهم انتهى أمر الوهابية ثم عاد إبراهيم باشا الى مصر بجميع عساكره وأنعم عليه السلطان بلقب والي مكة فعظم قدره وارتفعت منزلته (٢١ صفر ١٢٣٥ هـ)

الاصلاحات والترقيات — اعلم أنه بعد ان فرغ محمد على باشا من طائفة الوهابية ببلاد الحجاز التفت الى تنظيم واصلاح القطر المصري فقطع دابر الاشقياء وأمن السبل وأخذ في تمهيد وتحسين سير التجارة برا وبحرا واهتم على الخصوص بامر الزراعة اذ عليها مدار الثروة بمصر فامر بحفر ترعة الاشرفية وهي التي سميت بالمحمودية فيما بعد وكان مكانها ترعة قديمة ولكنه لم يجعل فمها في مكان فم الترعة القديمة عند ناحية الرحمانية بسبب ماتراكم امامه من الاتربة والرمال بل جعله عند ناحية قرية العطف التي ترقت حالتها من ذلك الوقت وصارت مرسى للسفائن التجارية الآتية من داخل البلاد وخارجها وجعل مصب هذه الترعة بالمينا الغربية قريبا من مصب الخليج القديم الذي

كان

كان بأنهامن النيل زمن دولة البطالسة وأوصل مياه الترعة المذكورة الى ثغر الاسكندرية وكان غرضه من هذه الترعة سهولة نقل تجارة مصر الصادرة والواردة زيادة عن فائدتها لرى الاراضى فصارت المراكب تحمل المتاجر من مينا الاسكندرية واليها داخل هذه الترعة بدلا عن السير فى البحر الملح الكثير الخطرات خصوصا فى زمن الزوابع وكان يتعذر على القياسات والنقائر والمراكب النيلية السفر من الاسكندرية الى رشيد ودمياط أغلب السنة وكانت لا تخلو سنة من غرق بعضها وضياع البضائع والناس وكلف بهذا العمل مهندسين فرنساويين وهما كوستا (Costa) وماسى (Massé) ثم أخذ فى تطهير الترع وانشاء الجسور وترميم القناطر وشق الجداول فانصلح بذلك أمر الرى فى كثير من انحاء القطر وزادت فيه الزراعة ومن أشهر الاعمال التى عادت على الرى بالفوائد القناطر الخيرية التى قام العزيز بتشييدها على رأس الدلتا سنة ١٢٥١ هـ بعد أخذ رأى باشمهندسه الشهير لينان باشا (Linand de Bellefond) لان مياه النيل بعد وصولها الى رأس الدلتا المذكورة تجرى فى فرعى رشيد ودمياط وتذهب الى البحر الملح بدون أن يستفيد منها مقدار عظيم من أراضى القطر فى الوجه القبلى والبحرى خصوصا المرتفع منها حتى فى زمن الفيضان ولهذا رأى من الضرورى بناء تلك القناطر على عرض الفرعين المذكورين عند أول تكونهما جهة بطن البقرة وأن يجعل لها أبوابا من الحديد تغلق وتفتح عند الاقتضاء وبهذه الطريقة يمكن صرف المياه وتوزيعها الى حيث يشاء ومتى كان الفيضان قليلا تسد القناطر كلها فترتفع المياه الى الصعيد فتسقى أراضيه ثم لا يصرف منها الا ما يلزم لرى الوجه البحرى وقد عهد بنائها الى المهندس الشهير موجيل بك الفرنساوى (Mougel) ولما صار الاحتفال ببنائها وضع العزيز الحجر الاول بنفسه كما هى العادة (١٨٣٥ م) وصار العمل فيها بجد ونشاط الى أن تمت على أحسن نظام سنة ١٨٤٧ وبلغت مصاريفها نحو مائة مليون من الفرنكات وقد عاد بناء هذه القناطر على القطر بالفوائد الكثيرة التى لا تقدر وصارت أراضى الوجه القبلى والبحرى تروى بانتظام ولاهتمام محمد على باشا بأمر الرى تفكر فى خزن مياه النيل لوقت الحاجة وأخذ يبحث عما يلزم لذلك وسأل عن حقيقة بحيرة موريس الموجودة بالفيوم التى استخدمها القدماء لهذا الامر ليتخذها خزانا وأمر لينان باشا بالبحث عن التدابير اللازمة لذلك وأرسلها كتشف أمر هذه البحيرة الاكتشاف الاول وعين موقعها القديم وعمل حساب مقايستها التقريبية الا أنه نظرا لكثرة ما تحتاجه من المصاريف عدل محمد على باشا عن هذه الفكرة مؤقتا واهتم بأمر فتح الترع الكثيرة التى جعل معظمها صالحا للسير السفن طول السنة فانتفعت بها الاهالى لرى أراضيهم ونقل محصولاتهم

ولما رأى ان انتظام الضرائب لا يكون الا بعرفة مقدار الارض المزروعة من أراضى القطر ليربط على كل جهة ما يناسبها من الضرائب عين ولده ابراهيم باشا لهذا الامر الخطير (١٢٣٦ هـ) فأتمه وقرر على كل فدان مبلغا معينا فعرف الناس ما عليهم بعد ان كان مجهولا واستراح الفلاح من عناء ذلك نوعا وجعل لمشايخ البلاد على كل مائة فدان خمسة أفدنة سميت مسموح المشايخ لا يدفعون عليها ضريبة فى مقابلة ما يتبرعون به للاغراب وأبناء السبيل وبعض الحكام من المأكل وقسم القطر المصرى الى أقسام ادارية سميت مديريات وجعل على كل منها حاكما يعرف بالمدير وقسم المديريات الى أقسام وعين لكل منها مأمورا يعرف بناظر القسم ومما ساعد به الزراعة أيضا ان أدخل

Digitized by Google

عصر نباتات مختلفة منها نبات النيل جلبها من جهات الهند وأحضر من يحسن زراعتها وصناعتها ومنها الافيون أتى به وبمن يزرعه من آسيا الصغرى ثم أكثر من غرس الاشجار الكبيرة الى ما يشبه الاحراش تلطيفا لحرارة الهواء واكثار الاخشاب ومنها وهو أهمها القطن أتى به فى سنة ١٢٣٦ هـ من بلاد الهند على يد رجل أوروبى اسمه شوميل (Chomel) وأتى بالصنف المعروف بالسيلانى منه من جزيرة سيلان وببذور القطن الشجرى ولما علم نجاح هذه الاشياء حمل الناس على زرعها وأنشأ معامل كثيرة فى أكثر جهات القطر حتى فى مديرية دنقلة لانتشار الصناعة كمعامل الغزل والطرابيش التى كانت بفوة وغيرها ومعمل لصناعة الشمع ومذبحا عموميا فأبطل بذلك الذبح فى البيوت والاسواق وأوجد كثيرا من الحدائق وغرس فيها أشجار الرياحين والفواكه منها حديقة الازبكية وكان مكانها بركة مضرة بالصحة فجففها وغرس فيها صنوفا من الاشجار فأصبحت من أحسن المنتزهات وابتنى القصور والسرايات لاقامته فى مصر والاسكندرية وفى بعض عواصم المديريات ومن آثاره مطبعة بولاق الأميرية التى انتشرت بها المؤلفات العلمية ورخصت أثمانها وكان بها من العمال أربعمائة عامل وطبع بها باللغة العربية والتركية كثير من الكتب المصنفة فى السياسة والجغرافية والأدب وفن الحرب وغير ذلك ونظم التلغراف الهوائى بين مصر والاسكندرية لنقل الاخبار (١٨٢٦ م) وكان هذا التلغراف تحت ادارة الموسيو كوست وفى سنة ١٨٣٥ م أصدر أمرا بمنع خروج الانتيقات من مصر وبتأسيس دار للعاديات بمنزل الدفتردار وفى السنة التى بعدها طلبت انكلتره من محمد على باشا مد طريق حديدى من القاهرة الى السويس لنقل المتاجر وتسهيل المواصلات فأجاب الى ذلك وأخذت حكومته فى مدارك الادوات اللازمة لها

فتح سيوة (١٢٣٥ هـ) — لما عزم العزيز محمد على باشا على توسيع تخوم الديار المصرية جهز تجريدة مركبة من ١٣٠٠ جندى وجعلها تحت قيادة حسن بك الشماشرجى ووجهه لفتح واحة سيوه واخضاع سكانها فقصدها بهذه الجنود واجتمع سكانها لمقاومته فانتشب القتال بين الطرفين وبعد مضى ثلاث ساعات انهزموا وطلبوا الامان واعترفوا بالطاعة والانقياد والخضوع للحكومة المصرية (١٥ جمادى الاولى من سنة ١٢٣٥ هـ) فأصبحت تلك البلاد من ذلك الوقت تابعة لمصر وأظهر حسن بك الشماشرجى فى هذه الحملة الحزم والعزم وساعد الموظفين الاوروباويين الذين أرسلهم العزيز لاستكشاف تلك البلاد واستطلاع أحوالها وكان منهم الموسيو لينان دو بلفوند (Limant de Bellefond) والموسيو رتشى (Ricci) من أطباء فرنسه ومن مهرة المصورين والموسيو دروفتى (Drowetti) والموسيو فردياني (Frediani) ورسموا خريطة هذه البلاد وصوروا ما شاهدوه فيها من الآثار وخرابات معبد أمون الشهير

انشاء المدارس — لما شعر محمد على باشا بحاجته الى رجال وموظفين للادارة وأن ليس بالبلاد من ذلك أحد لان أهل البلاد لم يكونوا يعتنون بتربية أولادهم تربية حقيقية وجه عنايته لرفع شأن بلاده معنويا وحسيا من جهة وللحصول على رجال يقومون له بالاعمال التى يريدها من جهة أخرى فأسس مدارس كثيرة ومكاتب عديدة فى أغلب انحاء القطر [1] وأدخل فيها أولاد

(١) منها مدرسة المهندسخانة ببولاق (مايو ١٨٣٤ م) ومكتب الزراعة بشبرى (أغسطس ١٨٣٦ م) ومدرسة الالسن بالازبكية (يونيو ١٨٣٦ م) ومدرسة الاجزاجية بالحكيمخانة بالقلعة (نوفبر ١٨٢٩ م)

Digitized by Google

مماليكه وأبناء خدمة الحكومة ولما أراد إدخال أبناء الاهالى وجد منهم نفورا وعدم ارتياح لذلك فأمر بأخذهم قهرا وكان كل هؤلاء التلامذة يأكلون ويشربون ويأخذون ملابسهم وأدوات تعليمهم مجانا ويبيت غالبهم بالمدارس ولا يسمح لهم بالخروج الا فى أيام الجمع وكانت لهم مرتبات نقدية شهرية تختلف قلة وكثرة حسب المدارس وأنشأ ادارة عمومية للمعارف سنة ١٨٣٦ م جعل على نظارتها مصطفى مختار بك فكان أول مدير للمدارس بمصر ثم خلفه أدهم باشا (١٢٥٥ هـ) ونقل على الجهادية سنة ١٢٦٥ هـ وأعيد ثانية فى تلك السنة وبقى مدير المدارس الى سنة ١٢٦٦ هـ وبهذه الكيفية بث روح التربية بين الاهالى حاذيا حذو الممالك المتمدنة وبالجملة فقد أخذت مصر فى أيامه نشأة عظيمة وسارت فى زمن قليل الى طريق العمارية ودخلت فى عصر جديد من التمدن وكان أسس قبل ذلك دار رصد فى بولاق وكان بدء الرصد بها فى سنة ١٨٤٦ م وفى خلال ذلك عزم على توسيع بلاده من جهة الجنوب بافتتاح السودان وكان قصده على الخصوص ابعاد جنود الارنؤد عن القطر لما كان يعرفه فيهم من شراسة الاخلاق وعدم الطاعة فدس من أدخل فى ذهنهم ان بلاد السودان هى معدن الذهب ليرغبوا فيها وقد كان ذلك فانه بمجرد اصداره أمر التجهيزات لهذه الحملة لبوا دعوته بكل ارتياح

فتح بلاد السودان – لما عزم محمد على باشا على توسيع تخوم مملكته بضم ما جاورها من البلاد الجنوبية سيما وانها كانت تابعة لمصر منذ العائلة الثانية عشرة الفرعونية ادعى ان القبائل النازلة

ومدرسة المعادن بمصر القديمة (مايو ١٨٣٤ م) والمكتب العالى بالخانقاه (يوليو ١٨٣٦ م) ومدرسة الطب (١٨٢٥ م) ومدرسة المحاسبة بالسيدة زينب (فبراير ١٨٣٧ م) ومدرسة الصنائع (مارس ١٨٣٩ م) وغيرها من المدارس والمدرسة التجهيزية بأبى زعبل تأسست فى اكتوبر سنة ١٨٣٦ والغيت فى يناير سنة ١٨٤٢ ومدرسة المبتديان بالسيدة زينب تأسست فى يناير سنة ١٨٣٩ والغيت فى أغسطس سنة ١٨٥٠ ومدرسة المبتديان بأبى زعبل تأسست فى اكتوبر سنة ١٨٤٤ والغيت فى نوفمبر سنة ١٨٤٩ ومكتب أسيوط تأسس فى مايو سنة ١٨٣٢ والغى فى سنة ١٨٤٩ ومكتب أبوتيج تأسس فى مايو سنة ١٨٣٣ والغى فى سنة ١٨٤١ ومكتب صنبو تأسس فى مايو سنة ١٨٣٣ والغى فى ابريل سنة ١٨٣٩ وتحول الى أسيوط ومكتب ملوى تأسس فى مايو سنة ١٨٣٣ وألغى فى ابريل ١٨٣٥ ومكتب منفلوط تأسس فى مايو ١٨٣٣ وألغى فى نوفمبر ١٨٤١ ومكتب اخميم تأسس فى مايو سنة ١٨٣٣ وألغى فى سنة ١٨٣٩ ومكتب جرجا تأسس فى مايو سنة ١٨٣٣ وألغى فى اكتوبر ١٨٤١ ومكتب سوهاج تأسس فى مايو سنة ١٨٣٣ وألغى فى اكتوبر ١٨٤١ ومكتب طهطا تأسس فى مايو ١٨٣٣ وألغى فى اكتوبر ١٨٤١ ومكتب الرحمانية تأسس فى يونيه ١٨٣٧ وألغى فى اكتوبر ١٨٤١ ومكتب النجيله بشبراخيت تأسس فى فبراير ١٨٣٧ وألغى فى نوفمبر ١٨٤١ ومكتب دمنهور تأسس فى مايو سنة ١٨٣٧ وألغى فى مايو سنة ١٨٣٧ بالاحالة على مكتب الرحمانية ومكتب أبيار تأسس فى فبراير سنة ١٨٣٧ وألغى فى نوفمبر سنة ١٨٤١ ومكتب المحلة الكبرى تأسس فى فبراير ١٨٣٧ وألغى فى اكتوبر سنة ١٨٤١ ومكتب زفتى تأسس فى فبراير سنة ١٨٣٧ وألغى فى اكتوبر سنة ١٨٤١ ومكتب شربين تأسس فى فبراير سنة ١٨٣٧ وألغى فى مايو سنة ١٨٣٨ ومكتب طنطا تأسس فى فبراير ١٨٣٧ وألغى فى نوفمبر ١٨٤١ ومكتب قوص تأسس فى فبراير سنة ١٨٣٧ وألغى فى اكتوبر ١٨٤١ ومكتب الجعفرية تأسس فى فبراير سنة ١٨٣٧ وألغى فى اكتوبر ١٨٤١ ومكتب نبروه تأسس فى فبراير سنة ١٨٣٧ وألغى فى اكتوبر سنة ١٨٤١ ومكتب أشمون جريس تأسس فى فبراير سنة ١٨٣٧ وألغى فى اكتوبر ١٨٤١ ومكتب شبين الكوم تأسس فى فبراير سنة ١٨٣٧ وألغى فى اكتوبر سنة ١٨٤١ ومكتب منوف تأسس فى فبراير سنة ١٨٣٧ وألغى فى اكتوبر من السنة المذكورة بالاحالة على مكتب اشمون جريس ومكتب ميت غمر فتح فى فبراير ١٨٣٧

Digitized by Google

جنوبي مصر دائبة على الاخلال بالنظام وتكدير كاس الراحة كما هي عادة الفاتحين وأظهر أيضا انه يرغب توسيع أبواب الرزق والثروة لانصاره من الاتراك والارنؤد وغيرهم من الذين تغلب بهم على المماليك الكوله مان وان قصده استئصال بقية المماليك الذين كانت لهم سيادة على جهات دنقله وعلى بعض جهات السودان والاستيلاء على معادن سنار الذهبية التي طارذ كرها في جميع الاقطار وكثرت فيها الاقاويل والاخبار فجهز في سنة ١٢٣٤ هـ - ١٨١٩ م جيشا من الارنؤد يتألف من ٣٤٠٠ من المشاة و ١٥٠٠ من السوارى وبطاريتين مركبتين من ٢٤ مدفعا ومن نحو خمسمائة نفر من قبيلة البقارة معهم شيخهم المدعو عابدين كاشف ويقال ان محمد على وعده بأن يوليه على دنقله وجعل ابنه إسمعيل باشا قائدا عاما على هذه القوة وأرفقه بصهره أحمد بك الدفتردار زوج نظلى هانم كريمته فتوجها بالجيوش المذكورة على المراكب النيلية الى الحدود ومن هنالك تقدما ودنقله وهزم إسمعيل باشا المماليك في واقعة كورتى (نوفمبر ١٨٢٠) ثم امتلك في زمن قليل بلاد النوبه ثم استولى على بلاد سنار وكان الملكها السيادة على جميع بلاد السودان الشرقى وكانت تعرف وقتئذ بالسلطنة الزرقاء وتحصل إسمعيل باشا على مقدار عظيم من التبر والرقيق وكان محمد على باشا أرسل تجريدة أخرى الى السودان بعد خروج تجريدة إسمعيل باشا مع ولده ابراهيم باشا ولكنه لم يتيسر له الزحف على دارفور وبرفولانه بعد ان التحق بأخيه إسمعيل باشا في سنار وسار معه الى جبال الفنج الواقعة جنوبي سنار لاخضاع جهاتها وكانت مستقلة يحكمها أمير يسمى المانجل ادريس بن عدلان يعترف لسلطان سنار بالطاعة الاسمية فقط اذ فاجأ ابراهيم باشا المرض فرجع الى القاهرة ثم وصلت جنود اسمعيل باشا

وألغى في ديسمبر سنة ١٨٤٦ بالانتقال على مكتب الزقازيق ومكتب المنصورة تأسس في فبراير سنة ١٨٣٧ وألغى في اكتوبر ١٨٤١ ومكتب المنزلة فتح في فبراير سنة ١٨٣٧ ونقل الى فارسكور في مارس ١٨٣٨ ومكتب صهرجت فتح في فبراير سنة ١٨٣٧ ونقل في السنة بعينها الى مكتب ميت غمر ومكتب فارسكور تأسس في ابريل سنة ١٨٣٧ وألغى في يناير سنة ١٨٤٠ ومكتب محلة دمنه تأسس في فبراير سنة ١٨٣٧ والغى في السنة المذكورة لاحالته على مكتب المنصورة ومكتب العزيزية فتح في ابريل سنة ١٨٣٧ وألغى في اكتوبر سنة ١٨٤٩ ومكتب الزقازيق فتح في ابريل سنة ١٨٣٧ وألغى في اكتوبر سنة ١٨٤١ ثم أعيد في ديسمبر سنة ١٨٤٤ وألغى في ابريل سنة ١٨٤٩ ومكتب بلبيس تأسس في فبراير سنة ١٨٣٧ وألغى في اكتوبر سنة ١٨٤١ ومكتب كفور نجم فتح في ابريل سنة ١٨٣٧ وألغى في اكتوبر سنة ١٨٤١ ومكتب بنها تأسس في فبراير سنة ١٨٣٧ وألغى في يناير سنة ١٨٣٨ ومكتب قوله فتح في فبراير سنة ١٨٣٧ وألغى في اكتوبر سنة ١٨٤١ ومكتب قليوب فتح في فبراير سنة ١٨٣٧ وألغى في اكتوبر سنة ١٨٤١ ومكتب حلوان تأسس في ابريل سنة ١٨٣٧ وألغى في نوفمبر سنة ١٨٤٠ ومكتب الفيوم فتح في فبراير سنة ١٨٣٧ وألغى في ابريل سنة ١٨٣٨ ومكتب بوش تأسس في فبراير سنة ١٨٣٧ وألغى في اكتوبر سنة ١٨٤١ ثم أعيد في يناير سنة ١٨٤٢ والغى في ابريل سنة ١٨٤٩ ومكتب بنى سويف فتح سنة ١٨٣٧ وألغى في سنة ١٨٤٠ ثم أعيد في سنة ١٨٤٢ وألغى في سنة ١٨٤٩ ومكتب الفشن فتح في فبراير سنة ١٨٣٧ وألغى في نوفمبر سنة ١٨٣٨ نقلا على مكتب المنية ومكتب المنيه تأسس في فبراير سنة ١٨٣٧ وألغى في اكتوبر سنة ١٨٤١ ومكتب بنى مزار فتح في فبراير سنة ١٨٣٧ وألغى في سبتمبر سنة ١٨٣٧ ومكتب قنا فتح في فبراير سنة ١٨٣٧ وألغى في اكتوبر سنة ١٨٤١ ومكتب فرشوط فتح في فبراير سنة ١٨٣٧ وألغى في مارس سنة ١٨٣٩ ومكتب اسنا فتح في فبراير سنة ١٨٣٧ وألغى سنة ١٨٤١ اهـ نقلا عن كتاب الاحصاء الجارى تأليفه بمعرفة حضرة الفاضل أمين بك سامى ناظر مدرسة المبتديان ودار العلوم

الى

Digitized by Google

الى جبال دنكار على البحر الازرق وكان مع هذه الجيوش أسطول صغير مركب من عدد عظيم
من المراكب النيلية يحمل العدد والسلاح ومعه جملة زوارق صغيرة يسهل حملها اذا صادف
الاسطول صخور أو شلالات تعوقه عن المسير وهو محذور ربما كان يترتب عليه عدم نجاح الحملة
وبعد أن تمت هذه الفتوحات وجد اسمعيل باشا نقطة اتصال النيل الابيض بالنيل الازرق النازل
من بلاد الحبشة أنها أعظم وأهم تلك البقاع وأحسنها أخذ فى تحصينها وأسس على رأسها مدينة
الخرطوم وهى على مسافة ٣٠٠٠ كيلومتر من مصر وعلى ارتفاع ٣٩٠ مترا من سطح البحر المالح
(١٢٢٨ ﻫ - ١٨٢٢ م) وكانت قبلا لا تحتوى الا على عشرة بيوت فقط وتابعة لبلاد
سنار وفى خلال ذلك وقع الوباء فى عسكره حتى أفنى جملة منه فاستأذن إسمعيل باشا والده فى العودة
الى مصر فماطله فتوجه الى شندى وطلب من حاكمها المسمى ملك النمر بعض طلبات منها أن يدفع له
مل ء سفينة صغيرة ذهبا ونحو ألف عبد وغير ذلك وأخذت العساكر المصرية ترتكب أقبح الافعال
بتلك الجهة كما هى عادتهم فى تلك الازمنة فضجرت الأهالى ودبر النمر وقومه عليهم مكيدة
للايقاع بهم وذلك بأن عرض على اسمعيل باشا أن أهل البلد يرغبون فى اقامة الافراح للباشا فرحا
بقدومه ودعاه الى قصر كان قد أعده وجعلوا حوله قشا كثيرا قالوا انه للمواشى والحيوانات وبعد
تناول الطعام واجراء الالعاب امام الباشا نام هو ومن معه فى ذلك المنزل وبينما هم نيام أضرم النمر النار
فى ذلك الهشيم ومنه سرى الى المنزل فاحترق عن فيه وظن النمر أنه بهذا الغدر السيء والتدبير الوحشى
قد تخلص من مخالب مصر وكان أحمد بك الدفتردار وقتئذ بجهات كردفان يحارب حاكمها المدعو
المقدوم مسلم وهو من قبل سلطان دارفور فلما بلغه ذلك الخبر حضر فى الحال لأخذ الثار وانقض
على بلاد شندى انقضاض الصاعقة وقتل من أهلها نحو خمسة عشر ألف نفس انتقاما لقتلهم اسمعيل
باشا وأحرق مدينة شندى ثم تقدم وثبت سيادة الحكومة المصرية على بلاد سنار وكردفان وجعل لها
ادارة منتظمة ولم يزل محمد على باشا يمده بالرجال والمال حتى اتسعت بذلك الفتوحات المصرية وجعل
مدينة الخرطوم قاعدة لحكومة تلك البلاد وبنى فيها دار صناعة واسعة وعمل بها أماكن ومعامل
للنجارة والحدادة والقلفطة وبنيت فيها المراكب من خشب السنط وكانت فى مبدا الأمر مخمة
كسفن تلك البلاد ومن وقتئذ صارت الخرطوم محطة لعموم التجارة السودانية وجعل للولاية بها
عثمان بك ثم عزل وتعين بعده محو بك (١٢٢٩ ﻫ) فأحسن السيرة وأصله من السناجق ثم عزل
وتعين بعده خورشيد أغا ورقى الى رتبة الباشا وعرف باسم السنارى ١٢٤١ ﻫ (١٨٢٦ م)
وكان مشهورا بحسن الادارة والاستقامة فأحبته الاهالى وتمكن من مد الفتوحات فاستولى على
فاشوده وغيرها وهو الذى أدخل ببلاد السودان صناعة سقف البيوت من الآجر بدل الجلد والقش
الذى كان يستعمله الاهالى هناك من القديم ثم فصل وخلفه فى الحكمدارية أحمد باشا المعروف بابى
ودان سنة ١٢٥٣ ﻫ (١٨٣٧ م) فأحسن معاملة الامراء السودانية وكانت معاملته هذه سببا لنفاذ
مقاصده فى ادارة شؤن البلاد واصلاح أحوالها ونظم مدينة الخرطوم وقسم مقاطعات السودان
الى أخطاط وجعل للاخطاط أقساما وقسم هذه الى مديريات وعين لكل مديرية منها حدودا
وضم اليها العرب الرحالة القاطنين فى وديانها وبذلك انتظمت ادارتها ونقل اليها من مصر كثيرا
من الحيوانات الانيسة والنباتات النافعة والبذور النادرة فتحسنت بذلك الزراعة فى هذه البلاد

Digitized by Google

ونشر فيهم أيضا أصول الصناعة فتقدمت التجارة واستخدم معاتيقه فى دار الصناعة وجعل منهم ملاحين فى السفن الاميرية التى أخذ عددها يزداد يوما فيوما حتى نسبت اليه تجارة الخرطوم وقصد هذه المدينة فى أيامه بعض التجار الاورو باويين لتعاطى التجارة وفى زمن المرحوم محمد على باشا توافد العلماء من كل الجهات الى دياره مصر وانسال السياحون اليها تسوقهم الفائدة التى ينالونها من استقراء الآثار التاريخية ومشاهدة الأحوال الطبيعية وتقودهم سهولة البحث والنظر وتيسر الكد والدأب للاستطلاع على أحوال الأقاليم السودانية الجديدة واشتدت عزائمهم لما كانوا ينالونه من كامل الرعاية وحسن اللقاء من العزيز رحمه الله ومن علماء الفرنج الذين أرسلهم الى استطلاع أحوال الأقاليم جون ريموند باشو (Jean Raymond Pacho) ذهب الى الواحات و برتى (Parthey) الى بلاد النوبة وأمعن ويلكنسن (Wilkinson) فى الصحراء الشرقية وذهب ارنبرج (Ehrenberg) مع همبريخ (Hemprich) الى سواحل البحر الأحمر وكونج (Koenig) الى بلاد كردفان وفى سنة ١٨٢٧ م سافر لينان بك الشهير لاكتشاف النيل الابيض والبحث على معادن الذهب و زادت تجارة السودان بالمواصلات التى حصلت مع بلاد أواسط افريقية فكثر فى الخرطوم توارد التبر و ريش النعام والعاج والصمغ واستخدم العزيز أيضا كثيرا من علماء المعادن للبحث عن أجودها فى أراضى مصر والسودان منهم الموسيو بريانى (Boreani) بارح الخرطوم فى فبراير من سنة ١٨٣٨ ومعه ألف جندى واشتغل بالبحث عن الذهب واستخلاص شذراته فى مجارى السيول وكوستكى (Kostki) وتردد مرارا على الطريق التى بين الخرطوم والابيض و روسجر (Russeger) سافر الى جهات البحر الازرق حتى بلغ بلدة فيض اوغلى للبحث عن معادن الذهب أيضا (١٨٣٨ م) وغيرهم من العلماء كثير ولما رأى العزيز تناقض الأقوال فى شأن هذه المعادن عزم على السفر بنفسه الى الاقطار السودانية فسافر (١٢٥٤ هـ - ١٨٣٨ م) اليها على طريق دنقلة ثم قصد الخرطوم مارا بطريق صحراء بيوضه وهناك أمر بالغاء الاسترقاق لما رأى من فظاعته وقسوة الجلابة وأرسل رسلا تعلن ذلك رسميا فى جميع البلاد و بعد ان زار سنار قصد جبال قولى لمشارفة أعمال الارسالية التى بعثها لاكتشاف معادن الذهب هناك وكان يرافقه فى هذه الرحلة من العلماء والباحثين الموسيو لوفيفر (Lefèvre) والموسيو دارنو (D'Arnaud) والموسيو لمبير (Lambert) وقضى الاول نحبه إثر حمى أصابته أما دارنو فاهتم باكتشاف شواطئ نهر طومات الواقع فى جهات دار برطات وجبل دول وذهب لمبير الى كردفان للبحث والتنقيب أيضا ثم بعد أن نظم العزيز شؤن البلاد السودانية وشاهد أحوالها بنفسه عاد فى نهاية السنة المذكورة الى مصر ولم يجد فى سياحته هذه ما كان يتمناه من الظفر بمعادن الذهب ولكن عاد بفرمه هذا على علم الجغرافيا بأجل الثمرات حيث أرسل بعد عودته عدة ارساليات لاكتشاف منابع النيل والوقوف على أصله لأن ذلك طالما أتعب العلماء فى سالف الايام كما هو معلوم فقصد العزيز أن يناله من ذلك شرف الذكر وعظيم الفخر فأرسل التجريدة الاولى من الخرطوم تحت قيادة البكباشى البحرى سليم افندى قبودان و برفقته سليمان كاشف ورجل فرنسوى يدعى تيبو (Thibaut) وأربعمائة عسكرى من الالاى الاول والثانى البيادة وكانا يقيمان فى سنار فسافرت هذه التجريدة على خمس ذهبيات فى كل ذهبية منها

مدفعان

مدفعان ومعها ثلاث ذهبيات أخرى وزورقان و ١٥ سفينة تحمل الميرة والذخيرة اللازمة لمدة ثمانية شهور وكان سفر هذه التجريدة في ١٦ نوفمبر من سنة ١٨٣٩ م وعودتها في ٣٠ مارس من سنة ١٨٤٠ بعد ان وصلت الى جزيرة شنجير الكائنة على بعد ٥٠٠ فرسخ جنوبي الخرطوم ولم يتأت لهم تجاوز هذا المحل بالسفن لموانع اعترضتها في طريقها ولذلك اهتم رؤساؤها بالاستفهام والاستعلام من سكان تلك الاطراف عن أصل النيل الابيض فأخبروهم انه ينبع من بحيرة موجودة على بعد ٣٠ يوما وهي مسافة يبلغ طولها ١٥٠ فرسخا من جزيرة شنجير المذكورة ولما عادت التجريدة كتب سليم قبودان رحلة ضمنها تفاصيل هذه السياحة وألحق بها جداول تتعلق بالارصادات الجوية فكانت أول مؤلف معتبر حصل عليه العلماء فيما يختص بداخلية افريقية ثم سافر سليم قبودان المذكور رئيسا للتجريدة الثانية التي بعث بها العزيز لاتمام هذا الاكتشاف في ٢٣ نوفمبر من سنة ١٨٤٠ م ورافقه من علماء الفرنج درنو (D'Arnaud) وسباتير (Sabather) وفرن (F. Verne) وكان سفرها هذه المرة في نهر صوبات وتقدمت حتى وصلت الى الدرجة الرابعة ونصف من العرض الشمالي ثم اضطرت الى العودة للخرطوم لهبوط المياه وعدم امكان التقدم الى الامام (٢٠ يناير ١٨٤١ م) ومع هذا فان همة العزيز لم تفتر عن الرغبة في معرفة منابع النيل وجهاته فانه أرسل تجريدة ثالثة جعل عليها سليم قبودان المذكور فسافرت في ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٤١ م على عشر سفن مسلحة بالمدافع الصغيرة ورافقه أيضا العلماء المذكورون وبصحبتهم أربعمائة عسكري إلا أن أحمد باشا الشهير بابو ودان حكمدار السودان وقتئذ فعل مع هذه التجريدة ما يناقض اشارة الامير حيث قصر في مساعدتها بكل ما تحتاجه فتسبب من ذلك عدم نجاحها ولم تصل الى أكثر مما وصلته في المرة الثانية واضطرت الى العودة بأمر العزيز ورسم موسيو درنو خريطة مجرى النيل من الخرطوم الى أبي حمد وكانت همة محمد علي باشا موجهة على الخصوص لازدياد نفوذه وتوسيع أملاكه بالاقطار البعيدة ليعلو ذكره ويشتهر أمره وينال من الصيت والثروة ما رغب فيه كل فاتح أولا ثم توسيع دائرة المتاجر والمكاسب امام أهل بلاده ثانيا ولما كان مأمورو الحكومة أخذوا يسيئون معاملة أهالي الجهات السودانية حدث من ذلك بعض ثورات بين قبائل الهدندوة في جهات كسله ولما كان محمد علي باشا يخشى أمر الاضطرابات جدا لانها تعوقه عن مرغوبه عزل أحمد باشا أبو ودان عن السودان (١٢٥٧ هـ ١٨٤٢ م) ونصب مكانه أحمد باشا المنيكلي الذي تمكن بحذقه من اطفاء نيران تلك الثورة واصلاح الاحوال ثم فصل سنة ١٢٦١ هـ وتعين مكانه خالد باشا واهتم هؤلاء الحكام مدة حكمهم بتنظيم أحوال السودان وتشييد دعائم الامن بها واعلاء كلمة الحكومة المصرية بين أهاليها وأكثروا من صناعة السفن والزوارق والصنادل النيلية لتسهيل النقل والمواصلات بين بلادها وكانت تلك السفن من أعظم الاسباب في نجاح الاكتشافات العديدة التي تحصل عليها العزيز محمد علي باشا في تلك الديار وعادت على العلوم الجغرافية وغيرها بالفوائد التي لا تحصى والمزايا التي لا تستقصى

نظامات الجيوش والمدارس العسكرية — لما عزم محمد علي باشا على ايجاد جنود على النظام الحديث المتبع بدول اوربا وكانت ظهرت له فوائده بعد أن تمهدت له السبل لذلك أمر

بتأسيس المدارس الحربية لتخريج الضباط فأسس مدرسة حربية بقصر العيني فتحت في يوليو من سنة ١٨٢٥ م وأخرى للسواري بالجيزة جعلها في سراي مراد بك فتحت في ابريل سنة ١٨٣١ م تحت نظارة الجنرال فارين بك (Varin) ومدرسة للطوبجية بطره فتحت في السنة المذكورة تحت نظارة الكولونيل الاسبانيولي المسمى سغيره (Seguera) ومدرسة للبياده بالخانقاه فتحت سنة ١٨٣٢ نقلت الى دمياط بعد سنتين من تأسيسها ثم نقلت الى أبي زعبل وفتح مدرسة أخرى للبيادة في بابار مديرية جرجا سنة ١٨٣٢ لم تمكث الاسنتين وأسس أوجاقا لتعليم البروجية وضاربي الطبول العسكرية (ترمبيته) ١٨٢٤ م ثم ألغي بعد سنة ووزعت أنفاره على الاسلحة وفتح مدرسة للموسيقى بالخانقاه سنة ١٨٢٧ م واستحضر لهذه المدارس أساتذة من الاستانة وفرانسا بمعرفة قنصل فرانسا ومنهم الموسيو ميمو (Mimaut) وكان تلامذة هذه المدارس من مماليكه وأبناء خدامه أولا وقد نبغ منهم جملة رجال خدموا البلاد أجل الخدم يذكرها لهم التاريخ على مدى الدهور سيما في المحاربات التي قام بها محمد علي باشا في كثير من الجهات ولم يمض على تأسيس هذه المدارس أربع سنوات حتى تمكن المشار إليه من تأسيس النظام العسكري الجديد سنة ١٨٣٧ وجعل عساكره من الاهالي المصريين وهي أول مرة قام فيها المصري بالمدافعة عن بلاده بهيئة عسكرية بعد ان دخلت هذه البلاد في حوزة الاجانب لانه في زمن حكم الفرس واليونان والرومان ودول العرب وبني أيوب والمماليك لم يحمل مصري قط سلاحا للمحاماة عن وطنه بل كانت جيوشهم من جنس الدولة الحاكمة واستحضر العزيز لتعليمهم وتدريبهم عدة ضباط بين فرنسويين وطليانيين وغمر الكل باحسانانه ومن ضمن هؤلاء الضباط الموسيو ماري (Marey) والمسيو براكس (Prax) والمسيو شيدوفو (Chedufeau) حكيم باشي الجيش الذي نظم الاسبتاليات العسكرية والجنرال بويه (Bouillet) أحد قواد نابليون بونابارت أحضره من فرانسا قنصلها بمصر المدعو دروفتي (Drovetti) سنة ١٢٤٠ هـ (١٨٢٤ م) وقد قام هؤلاء الضباط بانفاذ مقاصد العزيز في تعليم وتدريب الجند على الهيئة الحديثة حتى صاروا بعد زمن قليل يحاكون جيوش أوروبا انتظاما ومهارة وخلف الجنرال بويه هذا في وظيفته الكولونيل سيف (Selve) الذي عرف فيما بعد بسليمان باشا الشهير بالفرنساوي فكانت له في تعليم الجيش النظام الجديد اليد البيضاء

وقد تكلم كل من الدكتور كلوت بك (Clot) الطبيب الفرنسوي الشهير الذي خدم العزيز في تأسيس المدارس الطبية والمستشفيات في تاريخه الذي طبع في بروكسل سنة ١٨٤٠ وكذا المسيو فيلكس مانجان (F. Mangin) في تاريخه عن مصر المطبوع بباريس في سنة ١٨٣٩ عن عسكرية محمد علي باشا ومدارسه الحربية المذكورة وغيرها من التأسيسات الحديثة ويظهر من رواياتهما أن عدد تلامذة المدارس الحربية بلغ ١٦٧٠ تلميذا كان منهم بمدرسة البياده ٨٠٠ وبالطوبجية ٣٠٠ وبالسواري ٣٠٠ وبالموسيقى العسكرية ١٥٠ وبمدرسة الطب البيطري ١٢٠ وان مصروفات المدارس المذكورة بلغت وقتئذ ١٠٠٠٠ ليرة هذا خلاف ما كان يصرف على تلامذة الرسالة المصرية باوروبا وهي التي كان يقصد بها تذليل صعاب الأمور بمن نبغ من تلامذتها وقد نجح في مشروعه لحسن قصده لانه قد أمكنه بعد عودة من تعلم

منهم

منهم أن يؤسس فى القاهرة معامل لصناعة الأسلحة وصب المدافع وصناعة جميع ما تحتاجه الجيوش من العدد والذخائر الحربية وكانت تلك المعامل تحت مناظرة عملة من مهرة الفرنج وأسس المدارس الحربية مطبعتين فى طره والجيزة جعلهما لطبع الكتب والقوانين باللغة التركية والعربية لنشر المعارف على رجال عسكريته

ولما عزم المشار اليه فى تلك الاثناء على ايجاد سفن حربية بالبحر المتوسط الابيض وكان المرحوم السلطان محمود خان أهداه سفينتين حربيتين تعهد له بعض تجار الفرنج باحضار ما يلزم منها فأوصاه باحضار بعض سفن حربية من نوع الفرقاطة والقرويت والابريق تكون على شكل السفينتين اللتين أهديتا اليه من جانب الحضرة السلطانية وبعد قليل أتاه بعض تلك السفن وكانت صنعت بتريسته ومرسيليا وليفورن وجنوه فانتخب لها القبودانات من سفن التجار الاتراك والاسكندرانيين وجعل ملاحيها من المتطوعة كما أوجد بها بعض ضباط فرنساويين وطليانيين لتعليم البحارة وتدريبهم وأسس على الشاطئ الشرقى من الميناء الغربية جهة خط الصيادين بالاسكندرية معامل للحدادة والنجارة والقلفطة وغيرها للقيام بما تحتاجه السفن الحربية وكان رئيس المهندسين لهذه الاعمال يدعى شاكر افندى الاسكندرى وألحق بها رجلا آخر من الأهالى يدعى الحاج عمر وهو من مشاهير المعلمين جعله رئيسا للانشاء وعمارة السفن واتفق أن حضر الى مصر فى ذلك الوقت (١٢٣٦ ه) رجل فرنساوى يدعى المسيو بسون (Besson) أصله من قبودانات المراكب الحربية الفرنساوية ولما وجد العزيز يهتم بانشاء السفن عرض له بطلب الخدامة والمعيشة تحت ظله فجعله ملاحظا للسفن الجارى انشاؤها لمصر ببلاد أوروبا ثم أوجد المشار اليه ادارة خاصة للاساطيل المصرية جعل رئاستها صهره محرم بك مع بقائه محافظا للثغر الاسكندرية فكان أول باشبوغ تعين للعمارة المصرية وجعل لمناظرة بناء السفن متوظفا يدعى الحاج أحمد أغا وابتاع العزيز أيضا عدة سفن شراعية لنقل المهمات والذخائر خصصها فى مبدا الامر لجلب الاخشاب اللازمة لدار صناعته الجديدة من سواحل بلاد الاناضول ثم أسس بعد حرب مورة الآتى ذكرها مدرسة للبحرية فتحت فى شهر ستمبر سنة ١٨٣١ وأدخل بها أولاد المماليك وأبناء خدامه كما عين بهم المدارس الحربية وجلب لهم معلمين من أوروبا هما القبودان أنطون بنانسى (Antoine Banansy) والقبودان كاملو موسكانى (Camillo Moskani) وجعل معهما محمد بك الشهير بالترجمان والدإبراهيم باشا توفيق فكان لهذين المعلمين اليد البيضاء فى تعليم كثير من التلامذة الذين اشتهروا فيما بعد بالبسالة والاقدام والصدق فى خدمة حكومته وبينما كان العزيز يهتم بالاصلاحات الداخلية كعادته اذ صدر له فرمان من السلطان محمود خان بان يبعث فرقة من أساطيله وقدرا من العساكر المصرية لمساعدة الدولة فى اخضاع الثائرين من الروم ببلاد موره

حرب مورة — اعلم أنه بينما كان محمد على باشا مشتغلا بأمر الترقيات فى مصر كانت الدولة العلية العثمانية مشتغلة بمحاربة تبه دلنلى على باشا والى يانيا لمعه رداءطاعتها كما مر بك فى تاريخ الدولة بالجزء الاول من هذا الكتاب ولم تمض على اخضاعه عدة أيام حتى اشتعلت نيران الثورة اليونانية ببلاد موره (فبراير سنة ١٨٢٢ م – ١٢٣٦ ه) فاسرعت

Digitized by Google

الدولة الى سوق الجيوش والاساطيل لاخماد لهيبها فلم يزدها ذلك الا اشتعالا وسببه قيام أهل أوروبا عامة باسعاف الثوار بالمال والرجال ليتخلصوا من التابعية الاسلامية وكان هذا على غير رضاء دولهم فى ظاهر الأمر وكان المحرض الاكبر لهذه الثورة الجمعيات العديدة التى تشكلت بانحاء أوروبا وهى المسماة بجمعيات محبى اليونان وقد تطوع فيها كثير من المشاهير مثل وشنطون نجل محرر أمريكا واللورد بيرون الشاعر الانكليزى الشهير وغيرهما وللاسباب المذكورة وغيرها تغلب الثائرون على الجيوش العثمانية فى عدة وقائع وأصاب الاساطيل السلطانية الخفيفة المعينة للمحافظة على جزائر الارخبيل خسائر جسيمة كما سبق فى تاريخ الدولة لهذا أرسل السلطان محمود خان أمرا الى محمد على باشا يطلب منه ارسال اسطوله للمساعدة على تأديب الثائرين وتخليص الاسطول العثمانى الذى أضحى كالاسير بمياه البانيا ولما ورد فرمان السلطان لم يسع محمد باشا الا الطاعة فكتب فى الحال أمرا الى صهره محرم بك محافظ الاسكندرية وباشبوغ الدونتما المصرية بتجهيز الاسطول (١) فأعد محرم بك أربع عشرة سفينة حربية بما يلزمها من الجنود والقبودانات وأقلع بها الى دار الحرب (٢) وجعل شاكر افندى السابق الذكر مهندسا للاسطول المذكور كما جاء فى دفاتر قبودات الدونتما القديمة المصرية ولم يبق بثغر الاسكندرية غير ثمان سفائن حربية فقط للمحافظة بها على السواحل المصرية وأخذ العزيز يهتم بتجهيز أسطول آخر من السفن الجديدة التى تاتى اليه تباعا من بلاد أوروبا ولما وصل محرم بك بالاسطول المذكور الى مياه كريد تلاقى فى الجهة الشمالية منها بسبع عشرة سفينة تجارية رومية تهاجم سفينة تجارية عثمانية فهجم على سفن الاروام واستولى على ثلاث منها وولى الباقى الادبار وتخلصت تلك السفينة العثمانية ثم تقدم الى بحر الارخبيل حسب الاوامر وبعد ذلك بشهر أرسل محمد على باشا اسطولا آخر يتركب من ١٨ سفينة تحت قيادة طبوزأوغلى قبوجى باشى محمد أغا للالتحاق بالدونتما العثمانية التى كانت تحت قيادة البطرونه مختار بك وأمره انه متى انضمت كل هذه السفن الى بعضها ومعها اسطول محرم بك تذهب لتخليص الاسطول العثمانى المحصور بجهة پرويزه وكان يقوده القبودان نصوح زاده على بك وقد حصل ذلك وبعد اخراج الاسطول المذكور أخذت الدونتما المصرية مع الاساطيل العثمانية تطارد مراكب الاشقياء من اليونانيين فاحرقت منها كثيرا ثم عادت أساطيل مصر الى الاسكندرية لاصلاح ماتلف

---

(١) وهذه صورة الامر المذكور قد علم لكم أنه أحيل تأديب وتربية الاروام الثائرين على الدولة العلية على عهدتى وبما أن السفن الحربية التى جرى استعدادها للغاية الآن قد بلغت أربع عشرة سفينة ولو أن قيادتها عائدة على الا أنه لكثرة أشغالى قد عينتكم بدلا عنى لقيادتها فتوكلوا على الله تعالى وأسرعوا بالاقلاع بها للجهة المقصودة وأدوا الخدمة اللازمة عليكم فى هذه المأمورية بحسب ماتقضى عليكم حقوقها المقدسة وقد تحرر صورة من هذا الامر الى مطوش قبودان الذى تعينت سفينته بمعيتكم ٩ ٢٤ رمضان سنة ١٢٣٦ مترجم من الامر التركى المقيد بقيودات البحرية القديمة

(٢) وقبودانات السفن المذكورة هم فندقلى أحمد قبودان وقوله لى مطوش قبودان واستانه لى نورى قبودان وارنبوط خليل قبودان وكريدلى حسن قبودان وبدوملى السيد على قبودان وكريدلى اسمعيل قبودان وأورولى مصطفى قبودان المعروف ببشكاكى وچشمه لى مصطفى قبودان وبوزجه أطه لى حسين قبودان واسكندرانى على قبودان ولازلى عمر قبودان وازميرلى قره أوغلى قبودان وبدروملى على محمد قبودان

منها (١٢٣٨ هـ) وفي سنة ١٢٣٩ (٦ مارس ١٨٢٤ م) أصدر السلطان فرمانا الى محمد على باشا بتعيين ولده إبراهيم باشا واليا على جزيرة كريد وموره ومنحه تمام الحرية في الاعمال بهما لاعادة النظام وفرمانا آخر بارسال نجدة مصرية للمساعدة على حرب اليونان المذكورة قال الفاضل لطفي أفندي في تاريخه لما وصل الخبر الى الاستانة بان محمد على باشا سيرسل بعض أورطة من عساكره الجهادية الى موره صدر أمر الدولة الى خسرو باشا قبودان الدونانمة العثمانية بمياه اليونان وكان طلب العودة الى الاستانة لاصلاح ماتخرب من سفنه الحربية بالاقلاع الى مينا الاسكندرية لاصلاح سفنه فيها وأخذ مايلزم من الذخائر الحربية والمؤنة منها ولمساعدة محمد على باشا على نقل الجيوش المصرية الى بلاد موره وكان وصوله الى مينا الاسكندرية في ٢٨ الحجة وكان حضر قبله ببضعة أيام الى بوغاز الاسكندرية ثلاث سفن من حراقات اليونان دخلت منها واحدة الميناحتى وصلت امام طابية صالح وأشعلت نارها بقصد احراق الاسطول المصري الراسي امامها ولما شاهدها حفظة القلعة المذكورة أطلقوا عليها المدافع وأرسلت المراكب المصرية بعض زوارقها بالمدافع فهجمت عليها وأطفأت نارها ولما رأت السفينتان اليونانيتان الباقيتان التيقظ الحاصل هربتا سريعا ولما علم محمد على باشا أمر أميرال عمارته محرم بك وكتخداه بلال أغا بان يخرجا بخمس سفائن حربية لاقتفاء أثر الحراقتين اليونانيتين المذكورتين وخرج بعدهما محمد باشا بنفسه في قرويت يدعى جناح بحرى ومع هذا لم يمكن القبض على السفينتين المذكورتين ولما وصل خسرو باشا وبلغه الخبر تأسف لعدم مصادفته في طريقه للسفن المصرية وخصوصا سفينة محمد على باشا وأراد الاقلاع بنفسه حالا للبحث على السفن المصرية فمنعه وكلاء الحكومة المصرية الذين أسرعوا في اصلاح السفن ومداركة مايلزم للدونانمة العثمانية من الادوات والذخائر الان القبودان المذكور أرسل القائد الثاني بعشرين سفينة حربية عثمانية فذهب بها حتى سواحل الاناضول ثم قفل راجعا فوجد العزيز قد عاد الى الاسكندرية ولما بلغ محمد على باشا ما أجراه القبودان باشا سرجدا منه وأكرم وفادته وأظهر تمام الرضوخ لما تأمر به الدولة مهما كان (١) فأبلغ القبودان باشا ذلك للباب العالى رسميا فورد له مكتوب الشكر والثناء على محمد على باشا لخدماته الجليلة التي أداها أولا وثانيا وقيامه باصلاح دونمتها وتجهيزه الجيوش لمساعدتها وأمره السلطان بتبليغ ذلك لمحمد على باشا بالنيابة عنه وفي ٣ ربيع الاول من سنة ١٢٣٩ (١٠ يوليه ١٨٢٤ م) أقلع الاسطول العثماني المذكور ثم أقلع بعده الاسطول المصري تحت قيادة محرم بك وكان مجموع السفن المذكورة ٩٩ سفينة منها ٦٣ بين حربية ونقلية و ٣٦ تجارية استؤجرت لنقل العدد والذخائر وكان عدد الجيش المصري ١٧٠٠٠ جندي بيادة و ٧٠٠ سواري وأربع بطاريات طوبجية ومدافع أخرى للقلاع والجبال وكان هذا الجيش تحت قيادة ولده البطل الشهير ابراهيم باشا الكبير وبعد ان مرت هذه الاساطيل على رودس أقلعت الى موره فوصلتها في رجب من سنة ١٢٤٠ هـ

(١) قائلا اني بصفة كوني خادما لولي نعمتي صاحب الشوكة السلطان المعظم أعلمك يا أخي الباشا أنه ليس للدولة العلية فقط أن تطلب جبه خانه أو قومانيه (زاد) أو مهمات للدونانمة العثمانية بل يمكنها أن تطلب جميع ما تريد فاني مستعد للقيام به وفاء بحق الدين والملة وأن ذلك عندي من الامور المعتنى بها واني لا أتأخر عن بذل نفسي في سبيل تقوية شأنها واعلاء كلمتها ورفع قدرها اهـ من تاريخ لطفي أفندي

Digitized by Google

ونزلت الجيوش منها قرب قلعة متون فهرب اليونانيون الذين كانوا يحاصرونها ثم انضم الجيش المصري للجيش العثماني وابتدأت الحركات العسكرية وأخذت الاساطيل تجول في تلك المياه حتى دمرت كثيرا من سفن الثائرين وقلاعهم وفي شهر شعبان من سنة ١٢٤١ هـ (١٨٢٦) بينما كان الجيش يحاصر قلعة ميسولونكي تقدم سرچشمه حسين بك أحد رؤساء البحرية المصرية ببعض سفنه الخفيفة وهاجم الاستحكامات المشيدة على الجزيرة الصغيرة الواقعة امام المدينة المذكورة واستولى عليها فسهل بذلك على الجيش الهجوم على ميسولونكي التي فتحت عنوة (١٥ رمضان) وغنم منها العثمانيون غنائم لاتحصى ولم تنته سنة ١٢٤٢ حتى تمكن ابراهيم باشا بمهارته من اخضاع الثوار واسترداد جميع بلاد موره وقلاعها الا ان سفن اليونان كانت لاتزال تعيث في جزائر الارخبيل وفي خلال ذلك عزل خسرو باشا من البحرية لخلاف وقع بينه وبين ابراهيم باشا وتعين عزت باشا قبودانا مكانه وجعل جنكل أوغلي طاهر باشا قائد الدونما العثمانية التي تحت امرة ابراهيم باشا بمياه موره وكانت تتألف من ٣٧ سفينة وذهبت هذه الدونما الى ميناء ناوارين في ١٨ شوال من سنة ١٢٤٢ هـ ثم حضر محرم بك بالدونما المصرية وكانت تتركب من ١٦ سفينة الى الميناء المذكورة أيضا وبذلك صارت السفن العثمانية والمصرية والتونسية والجزائرية البالغ عددها ٥٣ سفينة جميعها بميناء ناوارين تحت أمر ابراهيم باشا وعدد مدافعها ١٠٨٨ مدفعا وبعد ذلك حصلت واقعة ناوارين التي ألبست أوروبا ثوبا من العار لايبلى

احراق الدونما بناوارين — سبق الكلام في تاريخ الدولة بالجزء الاول عن استنجاد اليونان بدول أوروبا وقيام انكلتره وفرانسا والروسيا بمساعدتهم لنوال استقلالهم وارسالهم الاساطيل لذلك فكانت أساطيل انكلتره تحت قيادة السرادوارد كودرنجتون (Codrington) وأساطيل الثانية تحت قيادة الكونترأميرال ريني (Rigny) وأساطيل الثالثة تحت قيادة الكونترأميرال هيدين (Heiden) عددها جميعا ٢٦ سفينة كبيرة تحمل ١٢٦٦ مدفعا وحاصرت هذه السفن أساطيل الدولة على غير عداوة سابقة وأخذت المخابرات بين قواد الأساطيل وابراهيم باشا دورا عظيما كما سبق شرح ذلك في محله ولما لم تحصل نتيجة وكان القوم على اتفاق لتدمير الدونما الاسلامية دخلت الدونمات المتحدة الميناء يوم ٢٧ صفر من سنة ١٢٤٣ هـ (٢٠ اكتوبر سنة ١٨٢٧ م) ولم تعارضها الاساطيل العثمانية ولامنعتها القلاع لعدم وجود سبب ظاهر للعداء ولتمسك الدولة بالاعمال الودية وبعد ان أخذت تعبيتها أطلقت قنابلها فجأة على المراكب العثمانية بلا إعلان حرب كما جرت العادة بين الدول فأتلفت جميع السفن العثمانية والمصرية حرقا وتدميرا كما مر ولما لم تذعن الدولة لمطالب الدول الاوروباوية المذكورة اتفقت على إنهاء هذه المسئلة بالقوة وتجهزت لذلك فتكفلت انجلتره بالاعمال البحرية وفرنسا بالاعمال البرية وعينت لذلك جيشا يتألف من ٢٤٠٠٠ مقاتل وتخابروا مع محمد على باشا بواسطة قناصلهم في مصر بأن يسحب جيوشه وكتبوا معه اتفاقا في ٣ أغسطس ١٨٢٨ م (غاية الحجة ١٢٤٣ هـ) على اخلاء شبه جزيرة موره [1] وأرسل محمد على باشا صورة هذه الشروط لولده ابراهيم باشا فلما قرأها

(١) أولا بأنه يهدوا الى مصر باعادة جميع الاسراء من يونان وغيرهم ثانيا ان يتعهد الاميرال الانكليزي باعادة جميع

اغناط

Digitized by Google

اغتاظ منها جدا لانه رأى ان ثمرة أتعابه قد ضاعت سدى ولم يمكنه الامتناع عن تنفيذ هذا التهديد
عمارات الدول له بحرا وجيش فرانسا برا فأصدر الاوامر لكافة الفرق التى كانت بداخل موره بالعودة
الى الثغور لبرحلوا الى القطر المصرى وأرسل سليمان بك الفرنساوى الذى كان مع آلايه بمدينة
تريبولنسا بهدم قلاعها وأسوارها والعودة الى الساحل ثم عادت الجيوش المصرية مع ابراهيم باشا
الى مصر وعاد معه محرم بك باشبوغ الدونمنا أيضا (١) وأخليت بلاد اليونان من عسكر مصر تماما
واحتلها الفرنساويون ثم عقدت الدول المذكورة مؤتمرا فى لندره ١٦ نوفمبر من سنة ١٨٢٨ م
ودعت الدولة العلية للاشتراك فيه فلم تقبل لئلا يعد اشتراكها اقرارا منها على مافعلته الدول
المذكورة التى أقرت فى المؤتمر المذكور على استقلال موره وجزائر سيكلاده وعلى ان يعين لها أمير
مسيحى تنتخبه الدول الثلاث يكون تحت حمايتها وضمانتها وان يدفع للباب العالى سنويا
خراجا قدره ٥٠٠,٠٠٠ غرش فلم تقبل الدولة العثمانية بذلك واستمرت الحرب ثم أعلنت الروسيا
الحرب على الدولة وانتهت بانتصار الروسيا للضعف الذى أصاب الدولة من طول تلك الحروب
والثورات كما تقدم فى تاريخها وأخيرا اضطر الباب العالى الى طلب الصلح والتصديق على المعاهدة
التى عقدتها معه الروسيا المعروفة بمعاهدة ادرنة (١٤ سبتمبر سنة ١٨٢٩) واعترف فيها
باستقلال جميع بلاد اليونان استقلالا تاما

تجديد الدونمنا المصرية وانشاء دار صناعة الاسكندرية — بعد ان بارحت الجنود
المصرية بلاد موره أخذ محمد على باشا يهتم فى اتمام ما كان شرع فيه من الاصلاحات وكان من أول
اعماله الشروع فى توسيع واصلاح ميناء الاسكندرية كما سبق فى المقدمة لقلة عمقها وعدم كفايتها
للسفن التى تضطر ان ترسو بعيدة عن الشاطئ مما يجعل شحن واخراج البضائع منها يتكلف مصاريف
كثيرة فأحضر الكراكات من أوروبا ولما أتت أخذوا فى تعميق الميناء فتم بعد قليل من الزمن
وجعل لها ادارة مخصوصة سميت بادارة ليمان رئيس وجعل نظارتها الضابط يدعى بوزجه أطه لى
مصطفى جاويش فكان أول رئيس ليمان لميناء الاسكندرية ولما كانت الدونمنا الاصلية أحرقت
فى واقعة موره كما مر اهتم العزيز بايجاد سفن جديدة أخرى لتعزيز قوته البحرية فوجه عنايته أولا

الاسرى من مصريين وخلافهم مع السفن التى أخذها فى الحرب ثالثا ان تخلى الجيوش المصرية شبه جزيرة موره
فى أسرع وقت وينقلها الى مصر بسفنه الى الاسكندرية رابعا ان تكون السفن المصرية فى حالة ذهابها وايابها
مخفورة بسفن فرانسا وانكلتره خامسا ان لا يجبر اليونان المقيمون بمصر على تركها ماداموا غير مكرهين على البقاء فيها
وكذلك من يريد العودة مع المصريين باختياره لا يمنع عن ذلك سادسا يجوز لابراهيم باشا أن يترك فى موره عددا من
العساكر لا يزيد عن ١٢٠٠ نفر للمحافظة على متون وقرون وناوارين وبتراس وكستيل أما باقى النقط الاخرى
فلابد من الجلاء عنها بدون امهال اهـ من مجموعة المعاهدات

(١) محرم بك هذا أصله من قوله ولما اتخذ الديار المصرية وطنا ثانيا له استخدمه محمد على باشا فى كثير من مهام
الحكومة ولجميل سيرته وحميد خصاله زوجه بكريمته تفيده هانم ولكن عاجلتها الوفاة بعد زمن قصير وكان العزيز
جعله محافظا لمدينة الاسكندرية فأحسن ادارتها ثم لما شكل عمارته الاولى أحال عليه ادارتها فقادها بوظيفة باشبوغ
أول فى حرب اليونان من سنة ١٢٣٦ الى ١٢٤٣ ولما عاد مع ابراهيم باشا الى مصر بقى فى وظيفته محافظا
لثغر الاسكندرية حتى يوم وفاته (١٢ محرم سنة ١٢٦٤) فأسف عليه الناس وكان محبا لعمل الخير أعتق
الكثير من جواريه ومماليكه وأحسن عليهم بالاحسانات الجزيلة وشيد لهم المنازل العديدة لسكناهم

Digitized by Google

لتشييد دار صناعة مهمة مع ما تحتاجه من المعامل والمصانع (١) لانشاء وترميم السفائن وكان الشروع في ذلك سنة ١٢٤٢ هـ وأشغل العساكر في بنائها وتمت سنة ١٢٤٥ وشحنها بالآلات والأدوات وأحضر لها في سنة ١٨٣١ م من مدينة طولون مهندسا ماهرا يدعى سريزى (Cerisy) جعله باشمهندسا ورقاه الى رتبة البكوية وكان بدار الصناعة المذكورة خمسة قزاقات أى مزلقانات لصناعة السفن واهتم سريزى بك المذكور مع الحاج عمر مهندس الترسانة القديمة بتعميق البحر من ناحية الترسانة الجديدة حتى صيراه في عمق كاف لرسو أكبر السفن الحربية ورتبوا لها الصناع من كل نوع وكانوا تحت ملاحظة الحاج عمر المذكور وكان لهذا الرجل استعداد ومعرفة طبيعية غريبة في بناء السفن وقد تمكن في السنة الاولى من انشاء سفينة من نوع القباق وجلب العزيز كثيرا من شبان المصريين من جميع المديريات لتعليمهم صناعة عمل السفن ومايلزم لها من الآلات ووزعهم على المعامل فاختص كل جماعة منهم بفرع من فروع انشاء السفن ونبغ كثير منهم في هذه الأعمال حتى بلغوا درجة عظيمة وحصلت مصر بهم في زمن قليل على عدة سفن حربية عوضت بها أساطيلها التى فقدت في واقعة نوارين بل وزادت قوتها البحرية أضعاف ما كان لها وشيدت عدة من السفن المسماة نصف قرصان أو ميزه قرصان فتوفرت لديها أسباب النقل والحمل وخصصتها بنقل ما يلزمها من الاخشاب وغيرها وكان بعضها يشتغل بالتجارة والحاصل ان صناعة انشاء السفن بالاسكندرية وصلت لدرجة تضارع في الجودة والمتانة سفن أعظم البلاد الاروباوية وصار في امكان مصر صناعة كل ما تحتاجه سفن الدونانما ولما تحصل العزيز على تصريح من الحضرة السلطانية بجزيرة قطع الاخشاب اللازمة من غابات الاناضول عين لذلك الصناع والعمال تحت امرة كل من الحاج حسن بك نجار باشى دار الصناعة والسيد أحمد أحد عمالها وبذلك صار بالاسكندرية القدر اللازم من الاخشاب وكان المشتغلون بانشاء المراكب واصلاحها يبلغ عددهم ٨٠٠٠ نفس من الاهالى الذين تخرجوا على أيدى مهرة المعلمين من الاوروباويين واتقن منهم نحو ١٦٠٠ صناعة انشاء السفن فاستغنت بذلك مصر عن ابتياع السفن من الخارج وفتح العزيز أيضا مدرسة لتعليم نحو اثنى عشر ألفا من الجنود الاعمال البحرية أخذهم من كل المديريات وكانوا يقيمون على الساحل بجوار طواحين الريح الموجودة للآن بالشمال الشرقى من رأس التين وجعلوا لهم فوق البر مراكبا بصواريها وشراعاتها لتعليمهم استعمال الشراعات وغيرها وكان ذلك تحت رياسة الموسيو بيسون بك (Besson) ولما تدربوا وزعوهم على السفائن الحربية فانتظمت طوائف السفائن وصارت نظاماتها تحاكى النظامات البحرية بالاساطيل الاوروباوية ونقل ما كان بتلك السفن من الملاحين الغير النظاميين الى سفنه المسماة ميزه قرصان التى جعل لها

(١) وهاك أسماء الورش والمصانع بدار الصناعة المذكورة

١ ورشة التيالة لعمل الحبال	٦ ورشة الدكمخانة لصب الآلات	١١ ورشة النجارين لصناعة النجارة اللازمة للسفن
٢ ورشة الحدادين لصناعة الحديد	٧ ورشة البويه لصناعة الدهانات	١٢ ورشة الطلومبات لصناعة الطلومبات
٣ ورشة القلوع لعمل الشراعات	٨ ورشة المخرطة لعمل البكرات وغيرها	١٣ ورشة القلافطية لقلفطة السفن
٤ ورشة السوارى لصناعة الساريات	٩ ورشة الترزية لعمل السناجق والاعلام	١٤ ورشة البورغوجية لثقب الاخشاب
٥ ورشة البصل والنظارات لعمل ذلك	١٠ ورشة الفلائك لصناعة الزوارق	١٥ مخازن الذخائر والمهمات الحربية

ادارة

ادارة خاصة تحت رياسة محمد قراقيش قبودان ثم خلفه فيها محمد راشد بك ثم بوغجه أطه لى أوزون أحمد قبودان وأدخل جملة تحسينات فى المدرسة البحرية التى أنشأها سنة ١٢٤١ وجعلها تحت نظارة حسن بك القبرسلى وكانت المدرسة المذكورة بأحدى السفن الحربية ثم قسمت هذه المدرسة الى فرقتين جعلت كل واحدة منهما بسفينة وتعين لنظارتها كنج عثمان بك وسبب ذلك ان العداوة كانت استحكمت حلقاتها بين حسن بك السابق الذكر وبين عثمان باشا سرعسكر الدونمة فانتهز الناظر المذكور فرصة خروج التلامذة يوم الجمعة ومرور السرعسكر بزورقه فأحرق جبخانة المدرسة بقصد قتل السرعسكر فهلك هو ولم يصب السرعسكر بضرر ثم سافرت احدى الفرقتين بسفينة شبرجهاد ومعها قرويت عليه برغلى أحمد قبودان واريق آخر قاصدة جزيرة كريد ولما كانت على مقربة من الجزيرة قابلها غليون روسى وكانت الحرب قائمة بين الدولة والروسيا فأطلق الغليون القنابل على السفن المذكورة بقصد أسرها فتمكنت شبرجهاد لسرعة سيرها من الهرب وأسر الروس القرويت المذكور (١٢٤٣ هـ) وقد نبغ من هذه المدرسة البحرية كثيرون اشتهروا فى الاعمال والحروب البحرية (١) كما اشتهر بعضهم فى حسن العمل عند ما نقلوا الى ادارات أخرى وفى تلك الاثناء انتخب العزيز بعض ضباط البحرية وأرسلهم الى فرانسا وانكلتره لاتمام علومهم بهما وممارسة الفنون الحربية على أساطيلهما وأصحبهم بكتب التوصية على يد قنصلى فرانسا وانكلتره وكان الذين أرسلوا الى فرانسا حسن افندى الاسكندرانى وشنان افندى ومحمود افندى نامى الملقب بجركس والى انكلتره عبد الحميد افندى ويوسف آكاه افندى وعبد الكريم افندى ولما أتموا علومهم عادوا الى مصر فوظفوهم بالسفن الحربية وكلفوهم بترجمة القوانين والنظامات المستعملة بعمارات الدولتين المذكورتين كما سبق فى مقدمة هذا الكتاب وكان العزيز أرسل أيضا الى أوروبا تلميذين آخرين لتعلم فن انشاء السفن وهما حسن افندى السعران سافر الى فرانسا ومحمد افندى الاستانبولى سافر الى انكلتره ولما أتقن هذان التلميذان ما أرسلا لاجله عادا الى الاوطان فوظفا فى دار صناعة الاسكندرية مكان سريزى بك الذى استقال لتعصب تجار الفرنج عليه وهم الذين كانوا تعهدوا بشراء السفن لمصر من معامل أوروبا بالاثمان الباهظة لانهم لما رأوا تقدم الوطنيين فى صناعة السفن نسبوا حرمانهم هذا لصداقة سريزى بك المذكور وقيامه بما عهد اليه ومع ذلك فان أولئك التجار لم ينجحوا فى تحويل نظر العزيز عن مقصده

(١) وممن عثرنا على أسمائهم منهم خير الدين قبودان وعبد اللطيف قبودان وأحمد نورى قبودان الملقب بالجوخدار وحسين شرين قبودان وجعفر مظهر قبودان وحافظ خليل قبودان وهؤلاء ترقوا فيما بعد الى رتبة الباشوية وحافظ قبودان مصطفى وبرغه لى أحمد قبودان ومصطفى قبودان الكريدلى وحاجو قبودان وحافظ قبودان الشيرازى وبودرملى أحمد خوجه قبودان وعارف قبودان واسمعيل قبودان الكريدلى وأمين قبودان الملقب بالطويل وبوزجه اطه لى خليل قبودان وخورشيد قبودان وهدايت محمد قبودان وبابا سليم قبودان وأحمد شاهين قبودان وخورشيد قبودان الملقب بأبى قصاده ومحمد راشد قبودان وسليم قبودان ومرجان قبودان وبيل قبودان وابراهيم قبودان الملقب بقره كوز وعثمان قبودان الملقب بقباح وعثمان قبودان الملقب بالبوقى وسليمان قبودان الملقب بالبيرقدار ومصطفى قبودان الملقب بالبلاوجى وبوغجه اطه لى أمين قبودان وبوغجه اطه لى سليمان قبودان ومطوش قبودان وغيرهم ممن لم نعثر على أسمائهم

Digitized by Google

حيث صارت الترسانه بعد استقالة سريزي بك وسفره ناجحة فى أعمالها كما كانت بل ازدادت همة مهندسيها الوطنيين عن ذى قبل واجتهد حسن بك السعران ومحمد بك الاستانبولى فى العمل بجد ونشاط واتقان حتى بلغت العمارة المصرية درجة وأهمية عظيمتين جدا وكان المرحوم محمد على باشا جعل عثمان بك نور الدين سرعسكرا على الدونمنا المصرية منذ سنة ١٢٤٣ ﻫ وقد بذل هذا الرئيس الماهر قصارى جهده وعنايته فى اكمال التعليمات وتنظيم قواعدها بما كان يصدره دائما من الاوامر على رجال البحرية لتطبيق القوانين على التعليمات واهتم قبودانات السفن بتنفيذ هذه الاوامر بالدقة حتى بلغ النظام بالاساطيل المصرية فوق ما كانت تتطلع اليه الآمال وكان يخرج بالسفن سنويا زمن الصيف لاجراء المناورات وتدريب الجنود على الحركات البحرية الحربية مدة ثلاثة شهور حتى وصلت العمارة المصرية درجة رفيعة جدا وأصبحت تماثل عمارة الدولة العلية فى العدد والعدد ولبس القطر المصرى بها حلة الفخر حيث لم يرمثلها جميع الدهر سيما عندما بنى المنار الموجود الآن برأس التين وازداد به الامن على السفن الصادرة والواردة الى مينا الاسكندرية وكان المباشر لبنائه المهندس الشهير مظهر باشا وجعل ارتفاعه ستين مترا ونوره يشاهد من ١٦ ميلا بل أكثر من ذلك وبينما كان العزيز مشتغلا بهذه الاصلاحات قامت الحروب الشامية الآتى ذكرها

الحروب الشامية — قال بعض المؤرخين ان سبب هذه الحروب الدولة الفرنساوية لانها هى التى حرضت محمد على باشا على القيام بتوسيع مملكته من الجهة الآسيوية لينال بذلك الاستقلال وتشتغل الدولة العثمانية بما يمنعها عن المداخلة فى مسئلة بلاد الجزائر التى احتلتها فرنسا سنة ١٢٤٦ (١٨٣٠ م) وقال آخرون ان الدولة العلية لما وعدت محمد على باشا ولاية البلاد اليونانية وحالت الظروف دون تنفيذ وعدها وأعطته جزيرة كريد مكافأة له على صداقته ومساعدته تطلع المشار اليه لبلاد الشام بدلا عن موره والتمس من جلالة السلطان محمود خان ضم بلاد الشام الى مصر بدلا عما استرد منه من بلاد اليونان فرفضت الدولة ملتمسه ثم بعد قليل عنّ له أن يطالب عبد الله باشا والى عكاء بمال له فى ذمته بقى له من المبالغ التى كان أقرضه اياها عقب عصيانه على الدولة سنة ١٢٣٧ ﻫ (١٨٢٢ م) وكان السلطان محمود أرسل على هذا الوالى جيشا لتأديبه تحت قيادة درويش باشا والى دمشق وكان عبد الله باشا التمس من محمد على باشا أن يتوسط بينه وبين الدولة على يد الامير بشير حاكم لبنان فعفت عنه الدولة اكراما لمحمد على باشا واعادته الى ولاية عكا بشرط أن يدفع لها ٦٠,٠٠٠ كيسة مقدما ولما لم يكن مع الوالى المذكور كل هذا المبلغ اقترض نحو خمسه من محمد على باشا ولم يقم بسداده فى ميعاده فلما كانت حروب موره اضطر محمد على باشا الى المال ليصرفه فى التجهيزات العسكرية فطلب ذلك المبلغ من عبد الله باشا الذى جاوبه بجواب لم يرضه محمد على ومما زاد الخلاف أيضا بينهما مساعدة عبد الله باشا المهربى البضائع من الجمارك المصرية الى حدود الشام واعانته للفارين من فلاحى مصر على ترك أوطانهم الاصلية والاقامة بالجهات الشامية ولما رفع محمد على باشا هذه القضية الى الباب العالى أجابه أن الشام ومصر كلاهما من الولايات السلطانية بحيث يستوى لدى السلطان أن رعاياه يقيمون فى أيتهما شاؤا فكاتب محمد على باشا والى عكا مرة ثانية فى رد رعاياه الملتجئين اليه فأجابه بجواب شديد اللهجة فتغير خاطر محمد على باشا من ذلك جدا وشرع من وقتئذ

Digitized by Google

فى عمل المعدات العسكرية (١٢٤٧ هـ) وبعد قليل سافرت القوة المصرية وكانت تتألف من ستة آلايات من البيادة ومثلها من السوارى و ٤٠ مدفعا صغيرا وعدة من مدافع الحصار وكل ما يلزم من الذخائر والمأكولات والمياه العذبة لقلتها بين مصر والشام سائرة من طريق العريش وكان على هذا الجيش أشهر قواده مثل أحمد باشا المنكلى وسليم بك الحجازى وسليم بك المنسطرلى وحسن بك المناسترلى وغيرهم ثم جهز جيشا آخر وأرسله مع ولده ابراهيم باشا وجعله القائد العام وسافر بطريق البحر مع ضباط أركان الحرب وهم عباس حلمى باشا وسليمان باشا الفرنساوى وابراهيم باشا يكن المعروف بالصغير وبحرى بك رئيس الكتاب ومصطفى أغا برير وابراهيم أغا الجوخدار وخرجوا على أسطول مصرى مؤلف من ١٦ سفينة حربية و ١٧ سفينة نقلية وكان القائد لهذا الاسطول عثمان نور الدين باشا وذلك فى غرة جمادى الاولى من سنة ١٢٤٧ هـ (١٨٣١ م) وبعد خمسة أيام وصل الى حيفا ونزل بها ولما تكامل ورود العسكر تقدموا واستولوا فى زمن قليل على غزة ويافا ثم سار الى عكا وحاصرها ثم حضر المستر بيزابوث قنصل انكلترة فى بيروت وتقابل مع ابراهيم باشا فى خيمته ولامه كثيرا على هذا العمل وحضوره بهذا الجيش الى الشام بلا تصريح من الدولة العثمانية وقال له ان هذه الاعمال لا توافق عليها دول أوروبا مطلقا وفى مقدمتهم انكلترة فاغتاظ ابراهيم باشا سرا وجاوبه بقوله انى حضرت بهذا الجيش بامر والى مصر لاستخلاص هذه الديار انتقاما من واليها عبد الله باشا الجزار فاذا كان هذا لا يوافق الدولة البريطانية فعليها بمخابرة والدى بمصر ثم قام وتركه وشدد الحصار على عكاء وأمر سرعسكر الدونانمة المصرية بضرب القلاع بحرا فتقدم بالاسطول (دسمبر ١٨٣١ م) وصف سفنه حول حصون عكاء تصفيفا عسكريا وكان الاسطول يتركب من تسع سفن حربية وهى الفرقاطة كفر الشيخ وعليها القبودان برسيك الانكليزى والفرقاطة الجعفرية وقبودانها رغمه لى أحمد قبودان وعليها علم السرعسكر والفرقاطة البحيرة وعليها عبد اللطيف قبودان (وهو الذى تولى نظارة البحرية فيما بعد) وتحمل علم القائد الثانى للاسطول الريالة مصطفى مطوش باشا والفرقاطة رشيد وعليها السيد على قبودان والفرقاطة شير جهاد وعليها نورى قبودان والفرقاطة مفتاح جهاد وعليها مصطفى قبودان الجزائرى والفرقاطة دمياط وعليها هدايت محمد قبودان والقرويت بومبه وعليه بيجان قبودان والقرويت رهبر جهاد وعليه على رشيد قبودان الجزائرى وكان بهذه السفن ٣٨١٠ ملاحين و ٤٨٤ مدفعا وأخذت هذه السفن فى اطلاق المدافع على حصون عكاء طول النهار فلم تصبها بضرر يذكر لمتانتها ثم رست مع باقى سفن الدونانمة التى لم تشترك فى الحرب وفى خلال ذلك التقت فرقة من الاسطول المصرى وكانت تتجول فى تلك المياه بالدونانمة العثمانية التى كانت تحت قيادة خليل باشا رفعت بين جزيرة رودس وشواطئ الاناضول ولما علم عثمان نور الدين باشا بذلك أقلع بباقى الدونانمة لمطاردة السفن العثمانية التى دخلت ميناء مرمريس فاكتفى بمحاصرتها وبقى على ذلك حتى أمره ابراهيم باشا بالعودة الى اسكندرية فعاد ووصل محمد على باشا ضباطها بما طيب خاطرهم وذلك فى ٨ شوال من سنة ١٢٤٨ وفى هذه السنة احترقت الفرقاطة الجعفرية قضاء وقدرا وهى راسية امام هويس المحمودية وفيها استولى ابراهيم باشا على عكاء بعد حصارها ستة شهور وقبض على واليها عبد الله باشا الجزار وأرسله الى ثغر الاسكندرية فقابله محمد على باشا بالاكرام والاعزاز

ولما وصل خبر سقوط عكاء الى الدولة اندهش رجالها لظنهم متانة حصونها وانها لا تؤخذ ولذلك اهتمت الدولة باسباب صد ابراهيم باشا الذى أرسل فرقة عسكرية تحت إمرة حسن بك المناسترلى الى بلاد الساحل فاستولى على صيدا وصور وبيروت وطرابلس وباقى الثغور ثم بعد ان تمكن ابراهيم باشا من عكاء توغل بجيشه فكان كلما وصل بلدا أو نزل على قبيلة سلمت اليه بلا حرب وساقت الدولة عليه جيشا تحت قيادة السرعسكر حسين باشا فحصلت بينه وبين ابراهيم باشا وقعات شديدة بقرب حمص وبمضيق بيلان بالقرب من بعلبك ثم انهزم الجيش العثمانى ولما علم السلطان محمود خان بما حصل لجيشه مال الى المسالمة فراسل محمد على باشا فى ذلك فأجاب بالقبول بشرط ان الارض التى استولت عليها جنوده تبقى له فتوقف السلطان فى قبول هذا الشرط واستعان بدول أوروبا بعد ان رفض وساطتها فى مبدإ الامر وبدأ بمكاتبة الروسيا فى ذلك وكانت غاية ما تتمناه التداخل فى أعمال الدولة فتعرضت دولة فرانسا لمعاكستها وذلك مساعدة منها لمحمد على باشا وتشجيعا له فرجع السلطان لحل المشكلة بنفسه وجهز جيشا آخر تحت قيادة الصدر الاعظم محمد رشيد باشا فتلاقى مع جيش مصر عند قونيه ولما التقى الجمعان انهزم جيش محمد رشيد باشا بعد أسره واستولى ابراهيم باشا على عشرين مدفعا وكثير من الادوات والذخائر الحربية ثم تقدم ابراهيم باشا حتى وصل بجيشه الى كوتاهيه وعند ذلك طلب السلطان وساطة أوروبا وطلب المساعدة من الروسيا بالفعل وعقد معها اتفاقية هنكار اسكله سى المشهورة فأرسلت عشرين ألف عسكرى الى بيكوز بساحل البوسفور وأسطولا بالبحر الاسود ليكون تحت تصرف الدولة ولما أبلغ الجنرال مورافيف (Mouravieff) ذلك الى سفير فرانسا الموسيو دوفارين (Varennes) أظهر هو وسفير انكلترة للسلطان وخامة التصريح لعساكر الروسيا بوضع قدمها بأراضى الدولة وتداخلا فى الامر رسميا وبعد مخابرات عقدت الدولة مع ابراهيم باشا معاهدة كوتاهيه سنة ١٢٤٨ ﻫ (١٨٣٣ م) وكان من شروطها أن يتقلد محمد على باشا ولاية الشام ومصر ويتقلد ولده ابراهيم باشا ولاية اطنه والحجاز وبذلك اجتمع لمحمد على باشا بلاد مصر والشام والسودان والحجاز وجزيرة كريد ثم أراد محمد على باشا ادخال أهل كريد تحت النظام العسكرى فلم يرضوا وخلعوا الطاعة فأرسل عليهم عثمان نور الدين باشا سرعسكر الدونمنا المصرية بقوة عسكرية لاخضاعهم فتمكن بعد ان تعهد لرؤسائهم بعدم وصول الاذى اليهم الا أن محمد على باشا لم يرض بذلك ورأى ان لا بد من قتل رؤساء الفتنة ولهذا بقى عثمان نور الدين باشا متحيرا بين أمرين صعبين الاول كونه تعهد للكريديين بعدم وصول الاذى اليهم والثانى تشديد العزيز فى اعدام رؤساء الفتنة أما عثمان باشا فانه آثر الاستقالة والهرب عن البقاء فى خدمة مصر (١)

(١) عثمان نور الدين باشا هذا أصله من جزيرة تمديلى ولحق بالديار المصرية فادخله محمد على باشا فى مدارسه الحربية ثم بعد ان تم الدراسة فيها بعثه الى بلاد فرانسا لاتمام التعليم فاتقن فيها الفنون الحربية البحرية وعاد الى اسكندرية فألحقه ببحريته ولما ظهر للعزيز اجتهاده ولياقته واستعداده عينه سرعسكرا على الدونمنا المصرية سنة ١٢٤٣ ﻫ بدلا من صهره محرم بك الذى انفرد بعد ئذ باعمال محافظة الاسكندرية ولما كان صاحب الترجمة من أمهر رؤساء البحر لقبه العزيز برئيس رجال البر والبحر وكان لا يناديه الا بلفظة ولدى عثمان ولا يكتب له الا بها حتى انه بنى له منزلا خصوصيا فى غربى سراى رأس التين على ساحل الميناء لتكون اقامته به على مقربة من السراى الخديوية ومن سفن الدونمنا الموضوعة تحت إمرته الى أن حصلت الحوادث التى تسبب منها هربه واختلف الرواة فى أسباب موته فقالوا انه مات مسموما

ورکب

وركب سفينة مصرية صغيرة وأقلع من جزيرة كريد بدون أن يعلم أحد بقصده ولما وصل الى جزيرة سد الى ردالسفينة ثم توجه الى الاستانه وتوفي بها وعين محمد على باشا بدله على رياسة الدونمة مصطفى مطوش باشا (١٢٤٩ ﻫ ١٨٣٣ م) وجعل بيسون بك الفرنساوى وكيلا له عليها وعين مصطفى بك الكريدلى الملقب بيشا كاكى بوظيفة رياله (أى كونترأميرال) ثم أرسل يأمر باعدام رؤساء الثورة فى كريدو بادخال شبان الجزيرة بالعسكرية قهرا فاشتعلت فيها نيران الفتنة ثانية وامتدت الى أكثر جهاتها وبقيت كذلك الى أن أعيدت الجزيرة للدولة هذا أما الدولة العثمانية فانها لما رأت انحطاط منزلتها امام الدول وانتصار جنود محمد على على جنودها شرعت فى تنظيم جيوشها وتجهيز أساطيلها فعززتها بالسفن الجسيمة التى شيدتها لذلك وأخذت تحث الشاميين على خلع طاعة محمد على باشا فساعدتها المقادير وذلك ان محمد على باشا لما قصد ادخال شبان أهل الشام فى عسكريته قامت عليه جميع أهالى البلاد واشتعلت نيران الفتن واتسع الخرق وأخذ محمد على باشا يمد ولده ابراهيم باشا بالجيوش والاموال ثم توجه هو بنفسه الى الامير شبل العريان أمير جبل لبنان واتحد معه فتيسر له اخماد الثورة والقبض على رؤسائها وجرد الاهالى من الاسلحة فهدأت الحال فى الظاهر وظن محمد على انه قد تمكن بذلك من الشام فما كان من شبل العريان شيخ الدروز المذكور الا أن خلع رداء الطاعة ونصب شباك الحيل لصيد عساكر مصر وتحصن بجباله وصار يقاتلهم حتى أفنى الكثير منهم فاضطر ابراهيم باشا الى استمالة طائفة الموارنة اليه فساعدوه حتى أطفأ نار الفتنة وأعاد الطمأنينة وكان محمد على باشا فى تلك المدة يكرر الطلب بعد الطلب من الدولة بأن تجعل ولايات مصر والشام والحجاز لاولاده من بعده فمال السلطان لاجابته فى مصر والحجاز وان تكون ولاية الشام له مدة حياته فقط الا أن محمد على باشا لما تم له تسكين الاضطرابات الشامية قام بخاطره الوصول الى غاية أرفع مما كان يطلبه فخاطب الدول رسميا بواسطة قناصلهم فى مصر طالبا الاستقلال وتحديد بلاده فعارضه القناصل فى ذلك بصورة ودية وأقنعوه حتى قبل بما كان طلبه أولا من أمر الوراثة وفى خلال ذلك سافر الى السودان لمشاهدة معدن الذهب كما تقدم ذكر ذلك فى أخبار السودان وتركت الدول وشأنها فى المسئلة المصرية (١٢٥٤ ﻫ) وكانت الدولة العلية تمكنت من تنظيم جيوشها فجهزت جيشا عظيما تحت قيادة السرعسكر حافظ باشا وأرسلته الى الجهات الشامية فأخذ هذا الجيش فى بناء الاستحكامات تجاه معسكر الجنود المصرية فكتب ابراهيم باشا الى والده يعلمه بذلك ويستشيره فيما يصنع وكان الباشا قد عاد من الاقطار السودانية فكتب اليه يحذره من قتال العثمانيين الا على الارض التى يحتلها عساكره وبعد ذلك بقليل تقدمت العساكر السلطانية الى جهة نصيبين (نزيب) وهناك التحمت الحرب بين الطرفين واشتد القتال وانجلت بانهزام حافظ باشا وتقهقره بجيوشه الى مرعش (١٢٥٥ ﻫ) وفى ذلك الوقت توفى السلطان محمود خان وجلس السلطان عبد المجيد خان وفى تلك المدة استولت الدونمة العثمانية التى كانت بمياه قبرس تحت قيادة خليل رفعت باشا على ثلاث سفن حربية مصرية منها الفرقاطة كفر الشيخ وقرويتان ولكن تمكن أحد القرويتين المدعو تمساح من الهرب والوصول الى ثغر الاسكندرية فأخبر بضياع المركبين ولما كانت المخابرات فى المسئلة المصرية جارية بين الدول تم الاتفاق بين الروسيا وبروسيا وانكلتره وفرانسا والنمسا على التداخل

الفعلى لحلها وأخبروا الباب العالى بأن لا يعمل شيأ الا باطلاعهم وكانت فرانسا مساعدة لمحمد على باشا وانكلتره معاكسة له خوفا من اتساع ملكه وأن لا تضيع منها عدن (١) المتسلطة على مدخل البحر الاحمر وكانت اشترتها من مشايخها قبل ذلك بقليل بستة آلاف ليره (١٨٣٩ م ١٢٥٥ هـ)

وفى أثناء ذلك أصدر السلطان عبد المجيد خان فرمانا لمحمد على باشا بالعفو عما سلف وجعل ولاية مصر وراثية فى عائلته وولاية عكا له مدة حياته وأرسله مع رفعت بك أحد رجال الدولة وبعد سفره أرسل خسرو باشا الصدر الاعظم أمرا الى دالى مصطفى باشا الاميرال الثانى للدونانما العثمانية الراسية فى جناق قلعة يأمره بالقبض على أحمد فوزى باشا القبودان العام وهو المشهور بفرارى أحمد فوزى باشا وقتله لعداوة بينهما وقد اتفق ان القاصد الحامل لهذا الامر لما وصل الى جنق قلعة قابل أحمد فوزى باشا المذكور فظن انه مصطفى باشا فسلمه الامر فلما قرأه وشاهد فيه حتفه أضمر السوء وطوى الخبر على عواهنه ونزل الى الدونانما واتفق أيضا مرور السفينة التى كان بها رفعت بك ولما تقابلا أخبر رفعت بك الباشا رسميا بجلوس السلطان عبد المجيد وتعيين خسرو باشا الصدارة العظمى فأرسل فوزى باشا من يحمل مبايعته ومبايعة أمراء الدونانما الى الخليفة ويهنئ الصدر الاعظم بالمنصب كما هى العادة وذلك ليصرف الانظار عما أضمر فعله ثم أقلع بالدونانما قاصدا تسليمها الى محمد على باشا والاشتراك معه فى العصيان وكانت الدونانما تتألف من ٩ غلايين كبيرة و ١١ فرقاطة و ٥ قراويت وأباريق بها ١٦١٠٧ من الملاحين وخمسة آلاف جندى برى ولما كان القبودان برودس أرسل كتخداه بمكتوب سرى الى محمد على باشا يخبره بما عزم عليه ولما وصل الكتخدا قابله محمد باشا بالترحيب وأرسل فى الحال أحد أخصائه على سفينة تدعى النيل الى رودس ليبلغ القبودان باشا سروره مما راسله بخصوصه كل ذلك حصل قبل وصول رفعت بك الى اسكندرية ولما تقابل رسول محمد على باشا مع فوزى باشا أقلعت الدونانما العثمانية من رودس ووصلت الى ثغر الاسكندرية وكانت الدونانما المصرية خارج البوغاز لاجراء التمرينات تحت قيادة السرعسكر مصطفى مطوش باشا ثم دخلت الدونانمتان الميناء معا ولما علم جنود الاساطيل العثمانية بالامر وكانوا يجهلونه حتى ذلك الوقت هرب بعضهم على الصنادل الى الاستانة ليلا وكان رفعت بك أتى قبل ذلك ببضع أيام وبدخول الدونانما العثمانية فى قبضة مصر تغير شكل المسئلة المصرية ودخلت فى دور أكثر أهمية من ذى قبل وكان ذلك من سوء تدبير رجال الدولة وفى مقدمتهم الصدر الأعظم وحسن حظ محمد على باشا الذى صمم على ابقاء بلاد الشام كلها له فعارضته انجلتره بدعوى ان أهاليها غير راضين بالبقاء تحت ادارة مصر واذا تقرر بقاؤها لمصر فيوشك ان يثوروا ويحدثوا من المشاغب والقلاقل ما لا ترضاه أوربا وربما كان مانعا لها من انفاذ مقاصدها الخفية ووافقتها الدول الاخرى على ذلك وألحوا على محمد على باشا باجلاء عسكره عن بلاد الشام فأبى وأمر أسطوله بالاستعداد وأنزل بحريته بالسفن العثمانية فصارت عساكرها بذلك نصفهم من المصريين والنصف الآخر من عساكرها الأصليين وفى تلك الاثناء أرسل محمد على باشا قرويت دمنهور وعليه مرجان قبودان ببعض مكاتيب الى

(١) عدن هى من أشهر فرض جزيرة العرب كانت تابعة قديما للحكومة الامامية الزيدية وفى سنة ١٥٦٨ م (٩٧٦ هـ) حاصرها خير الدين قبودان مرارا ثم استولى عليها أخيرا باسم الدولة العلية وبعد ذلك بزمن استبد أميرها المدعو قاسم بالبرتقاليين فانجدوه وبقيت على حالة الاستقلال الى أن ابتاعها الانكليز من مشايخها

Digitized by Google

سلانيك لتحريك الارنؤد على الدولة ولما اطلع رجالها على الامر قبضوا على تلك الاوراق وعزموا أيضا على القبض على السفينة المذكورة وبينما كان بعض الاروام يتكلم فى ذلك سمعهم ضابط مصرى يقال له غضنفر قبودان وكان يعرف الرومية فعاد وأخبر قبودان السفينة المصرية بذلك فأقلعوا فى الحال وعادوا الى اسكندرية ولما رأت الدولة استعداد محمد على باشا للمقاومة بالصورة المذكورة صممت على ارجاعه بالقوة وأخذت تتداول مع الدول الاوروباوية فى هذا الخصوص وأرسل كل من انكلتره والنمسا أساطيلهما مع أسطول الدولة وكان الاول تحت قيادة السير روبرت استوبفرد (Stopford) والثانى تحت قيادة الارشيدوق شارلس مترهدريق والثالث تحت قيادة بلداوين ولكر الانكليزى المستخدم بالبحرية العثمانية الى سواحل سوريا وسار بالبر جيش عثمانى ثم استولت الاساطيل المذكورة على بيروت وصيدا ويافا وعكا وأتى الاميرال نابير ببعض سفن انكليزية الى ثغر الاسكندرية واطلع محمد على باشا على ما صممت عليه الدول فرأى محمد على باشا بعد الامعان ان الاولى له الاذعان الى آرائهم فأمر بغوص يوسف بك ناظر خارجيته بعقد اتفاق مع الاميرال المذكور فعقد معه اتفاقا فى ٢٧ نوفمبر من سنة ١٨٤٠ م (١) مضمونه قبول اقتراحات الدول واخلاء بلاد الشام ورد أسطول الدولة اليها ثم أرسل مصطفى رشيد باشا الصدر الاعظم فرمانا سلطانيا الى محمد على باشا بولايته على البلاد المصرية وان تتوارثها ذريته من بعده وصدقت الدول على ذلك ومن شروط هذا الفرمان (٢) ان تدفع مصر الى الدولة سنويا ستين ألف كيسة وان لا يزيد عدد الجيش

(١) صورة الوفاق المنعقد بين الكومودور نابير قائد قوات جلالة ملكة بريتانيا البحرية الراسية سفنها قبالة الاسكندرية من جهة وسعادة بوغوص يوسف بك ناظر خارجية سمو نائب السلطان والى مصر المرضى من سموه من جهة أخرى ومحرر وممضى فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٤٠ (البند الاول) حيث ان الكومودور نابير بصفته المذكورة احاط علم سمو محمد على باشا بما أبدته الدول من التوصية به الى الباب العالى لأجل اعادته فى ولاية مصر بطريق التوارث ولما رأى سموه ان فى هذه المناسبة وسيلة تسمح بتوقيف مضار الحروب المنتشئة تعهد سموه باصدار أوامره الى ولده ابراهيم باشا بمباشرة الانجلاء عن سوريا فى الحال، وبتسليم الاسطول العثمانى حال وصول التحريرات الرسمية اليه من لدن الباب العالى مؤذنة بتوليته مصر بطريق التوارث على حين هى لم تزل ومازالت مكفولة له من قبل الدول (البند الثانى) يعين الكومودور نابير بارجة من بوارجه فتكون رهينة أوامر الحكومة المصرية لتقل الى سوريا المأمور الذى يعينه سمو محمد على باشا لاجل ايصال أوامره ويعين قائد القوات البريتانية سير ستوبفورد من قبله هو أيضا ضابطا يلاحظ تنفيذ هذه المهمة (البند الثالث) بالنسبة لما سبق ايراده يتعهد الكومودور نابير بتوقيف الاعمال العدوانية من قبل القوات البريطانية ضد الاسكندرية وباقى الممالك المصرية ويرخص فى الوقت نفسه للسفن الابحار قصد نقل الجرحى والمرضى وباقى العساكر المصرية التى تريد الحكومة المصرية ارجاعها الى بلادها بحرا (البند الرابع) من المعلوم أن للعسكرية المصرية أن تنجلى عن سوريا بمدافعها وأسلحتها وخيولها وذخرتها وأمتعتها وكل ما كانت تتألف منه المهمات العسكرية بوجه عموى وتحرر من هذا الاتفاق صورتان أصليتان

اه قاموس القضاء والادارة الامضاآت نابير (Napior) بوغوص يوسف بك

(٢) صورة الخط الشريف الهمايونى المانح محمد على ولاية مصر بطريق التوارث تحت شروط معلومة مؤرخ فى ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ الموافق ٢١ ذى القعدة سنة ١٢٥٦

رأينا بسرور ما عرضتموه من البراهين على خضوعكم وتأكيدات أمانتكم وصدق عبوديتكم لذاتنا الشاهانية ولمصلحة بابنا العالى فطول اختباركم وما لكم من الدراية بأحوال البلاد المسلمة ادارتها لكم من مدة مديدة لا يتركان لنا ريبا بأنكم قادرون بما تبدونه من الغيرة والحكمة فى ادارة شؤن ولايتكم على الحصول من لدنا الشاهانى على حقوق جديدة

Digitized by Google

المصرى عن ١٨٠٠٠ عسكرى يكون زيهم ونظامهم كالمتبع فى جيش الدولة وانه يجب على كل

فى تعطفاتنا الملوكية وثقتنا بكم فتقدرون فى الوقت نفسه احساناتنا اليكم قدرها وتجتهدون ببث هذه المزايا التى امتزتم بها فى أولادكم وبمناسبة ذلك صممنا على تثبيتكم فى الحكومة المصرية المبينة حدودها فى الخريطة المرسومة لكم من لدن صدرنا الاعظم ومنحنا كم فضلا على ذلك ولاية مصر بطريق التوارث بالشروط الآتى بيانها متى خلا منصب الولاية المصرية تعهد الولاية الى من تنتخبه سدتنا الملوكية من أولادكم الذكور وتجرى هذه الطريقة نفسها بحق أولاده وهلم جرا واذا انقرضت ذريتكم الذكور لا يكون لاولاد نساء عائلتكم الذكور حق أيا كان فى الولاية وارثها ومن وقع عليه من أولادكم الانتخاب لولاية مصر بالارث بعدكم يجب عليه الحضور الى الاستانة لتقليده الولاية المذكورة على ان حق التوارث الممنوح لوالى مصر لا يمنحه رتبة ولا القابا أعلى من رتبة سائر الوزراء والقابهم ولا حقا فى التقدم عليهم بل يعامل بذات معاملة زملائه وجميع احكام خط نا الشريف الهمايونى الصادر عن كلخانة وكافة القوانين الادارية الجارى العمل بها أو تلك التى سيجرى العمل بموجبها فى ممالكنا العثمانية وجميع العهود المعقودة أو التى ستعقد فى مستقبل الايام بين بابنا العالى والدول المتحابة يتبع الاجراء على مقتضاها جميعها فى ولاية مصر أيضا وكل ماهو مفروض على المصريين من الاموال والضرائب يجرى تحصيله باسمنا الملوكى ولكى لا يكون أهالى مصر وهم من بعض رعايا بابنا العالى معرضين للضار والاموال والضرائب غير القانونية يجب أن تنظم تلك الاموال والضرائب المذكورة بما يوافق حالة ترتيبها فى سائر الممالك العثمانية وربع الايرادات الناتجة من الرسوم الجماركية ومن باقى الضرائب التى تتحصل فى الديار المصرية يتحصل بتمامه ولا يخصم منه شئ ويؤدى الى خزينة بابنا العالى العامرة والثلاثة الارباع الباقية تبقى لولايتكم لتقوم بمصاريف التحصيل والادارة المدنية والجهادية وبنفقات الوالى وبأثمان الغلال الملزومة مصر بتقديمها سنويا الى البلاد المقدسة مكة والمدينة ويبقى هذا الخراج مستمرا دفعه من الحكومة المصرية بطريقة تأديته المشروحة مدة خمس سنوات تبتدئ من عام ١٢٥٧ أى من يوم ١٢ فبراير سنة ١٨٤١ ومن الممكن ترتيب حالة أخرى بشأنهم فى مستقبل الايام تكون أكثر موافقة لحالة مصر المستقبلة ونوع الظروف التى ربما تجد عليها ولما كان من واجبات بابنا العالى الوقوف على مقدار الايرادات السنوية والطرق المستعملة فى تحصيل العشور وباقى الضرائب وكان الوقوف على هذه الاحوال يستلزم تعيين لجنة مراقبة وملاحظة فى تلك الولاية فينظر فى ذلك فيما بعد ويجرى ما يوافق ارادتنا السلطانية ولما كان من اللزوم أن يعين بابنا العالى ترتيبا لسك النقود لما فى ذلك من الاهمية بحيث لا يعود يحدث فيها خلاف لا من جهة العيار ولا من جهة القيمة اقتضت ارادتنا السنية أن تكون النقود الذهبية والفضية الجائز للحكومة مصر ضربها باسمنا الشاهانى معادلة للنقود المضروبة فى ضربخانتنا العامرة بالاستانة سواء كان من قبيل عيارها أو من قبيل هيئتها وطرزها ويكفى أن يكون لمصر فى أوقات السلم ثمانية عشر ألف نفر من الجند للمحافظة فى داخلية مصر ولا يجوز أن تتعدى ولايتكم هذا العدد ولكن حيث ان قوات مصر العسكرية معدة لخدمة الباب العالى كاسوة قوات المملكة العثمانية الباقية فيسوغ أن يزاد هذا العدد فى زمن الحرب بما يرى موافقا فى ذلك الحين على انه بحسب القاعدة الجديدة المتبعة فى كافة ممالكنا بشأن الخدمة العسكرية بعد ان تخدم الجند مدة خمس سنوات يستبدلون بسواهم من العساكر الجديدة فهذه القاعدة يجب اتباعها أيضا فى مصر بحيث ينتخب من العساكر الجديدة الموجودة فى الخدمة حالا عشرون ألف رجل ليبتدئوا الخدمة فيحفظ منها ثمانية عشر ألف رجل فى مصر وترسل الالفان لهنا لاداء مدة خدمتهم وحيث ان خمس العشرين ألف رجل واجب استبدالهم سنويا فيؤخذ سنويا من مصر أربعة آلاف رجل حسب القاعدة المقررة من نظام العسكرية حين سحب القرعة بشرط أن تستعمل فى ذلك مواجب الانسانية والنزاهة والسرعة اللازمة فيبقى فى مصر ثلاثة آلاف وستمائة جندى من الجنود الجديدة والاربعمائة يرسلون الى هنا ومن أتم مدة خدمته من الجنود المرسلة الى هذا الطرف ومن الجنود الباقية فى مصر يرجعون الى مساكنهم ولا يسوغ طلبهم للخدمة مرة ثانية ومع كون مناخ مصر ربما يستلزم أقمشة خلاف الاقمشة المستعملة للبوسات العساكر فلا بأس فى ذلك فقط يجب أن لا تختلف هيئة الملابس والعلائم التمييزية ورايات الجنود المصرية عن مثلها من ملابس ورايات باقى الجنود العثمانية وكذا ملابس الضابطان وعلائم امتيازهم وملابس الملاحين وعساكر البحرية المصرية ورايات سفنها يجب أن تكون مماثلة لملابس ورايات وعلائم رجال ناوسفننا وللحكومة المصرية أن تعين ضباطا برية وبحرية حتى رتبة الملازم أما ما كان أعلى من هذه الرتبة فالتعيين اليها راجع لارادتنا

من

من يتولى مصر الحضور الى الاستانة ليتقلد الولاية من يد الحضرة السلطانية وغير ذلك من القيود وتاريخ هذا الفرمان ٢١ ذى القعدة من سنة ١٢٥٦ هـ (١٣ فبراير ١٨٤١ م)

ولما عادت الدونمة العثمانية هرب فيها بعض ضباط من بحرية مصر منهم سليمان قبودان الرودسلى وبصدور هذا الفرمان وتسليم الدونمة انقشعت تلك الغيوم وخضعت الحكومة المصرية لمتبوعها الافخم وسلطانها الاعظم وعادت الروابط الى ما كانت عليها من قبل وانتهت المشكلة الشامية

قوة محمد على باشا العسكرية فى العهد المذكور — أجمع كل الذين تكلموا عن جنود مصر أثناء تلك الحوادث انها بلغت سنة ١٨٣٩ م ٢٧٦،٦١٦ جنديا (١) وبلغ ما كان يصرف عليهم ٣٣،٥١١،٥٠٠ من الفرنكات ومن الاعمال العسكرية التى أوجدها المرحوم محمد على باشا أيضا الاستحكامات العديدة التى شيدها بانحاء مصر تحت مراقبة المهندس الفرنسوى مسيو جليس بك و وضعت فيها المدافع والآلات الكافية ورتبت لها الجنود اللازمة وسنت لها القوانين والنظامات حتى أصبحت البلاد فى منعة كافية لمقاومة من يقصدها بسوء

الشاهانية ولا يسوغ لوالى مصر أن يبتنى من الآن فصاعدا سفنا حربية الا باذننا الخصوصى وحيث ان الامتياز العظى بوراثة ولاية مصر خاضع للشروط الموضحة أعلاه ففى عدم تنفيذ أحد هذه الشروط موجب لابطال هذا الامتياز والغايه للحال وبناء على ذلك قد أصدرنا خطنا هذا الشريف الملوكى كى تقدروا أنتم وأولادكم قدر احساننا الشاهانى فتعتنون كل الاعتناء باتمام الشروط المقررة فيه وتحمون أهالى مصر من كل فعل اكراهى وتكفلون أمنيتهم وسعادتهم مع الحذر من مخالفة أوامرنا الملوكية واخبار بابنا العالى عن كل المسائل المهمة المتعلقة بالبلاد المعهودة ولايتها لكم اهـ قاموس القضاء والادارة

ثم صدر فرمان آخر فى التاريخ المذكور عهد به لمحمد على باشا والى مصر ولاية مقاطعات النوبة ودارفور وكردفان وسنار وجميع توابعها وملحقاتها الخارجة عن حدود مصر ولكن بغير حق التوارث وبعض شروط أخرى

ثم صدر فرمان آخر بتاريخ غرة يونيو سنة ١٨٤١ يؤيد فرمان الامتياز والوراثة السابق ذكره ومنح والى مصر فيه أن يرقى الضابطان البرية والبحرية حتى رتبة أميرالاى أما الترقى لما فوق هذه الرتبة فيطلب من الذات الشاهانية لتصدر بذلك أوامرها الملوكية بمنح الرتب

(١) منها ألاى غارديا كان فى حمص رجاله ١٣٧٢ نفرا وألاى طوبجية بياده فى الاسكندرية كان به ٢٣٤٩ نفرا وألاى ثانى طوبجية بياده به ١٩٤٩ نفرا وألاى طوبجية سوارى فى حمص ٩٢٢ نفرا وأربع بلوكات طوبجية متفرقة فى مكا ٣٣٧ نفرا وأورطة طوبجية فى الحجاز ٣٧٩ نفرا وألايات البيادة الغارديا كان بها ٨١٢٨ نفرا وألاى غارديا سوارى به ٧٩٦ نفرا وألاى زرخ ٨٤٤ نفرا مجموعهم ١٧١٧٦ نفرا أما عساكر البيادة فكانت ٣٥ ألايا بها من العساكر ٩٠٤٩٥ نفرا و ١٥ ألاى سوارى بها ١٠١١٤ نفرا وأربع أورط امدادية فى القاهرة بها ٣٩٨٠ نفرا وألايين بالطجية فى عكا بهما ٨١٢ نفرا وأورطة مهندسون فى عدليب بها ٧٥٨ وأورطة بلطجية فى الاسكندرية بها ٨٠٨ أنفار و بلوك لغمجية فى القاهرة به ٩٤ نفرا و ١٦ بالكا موزعة فى الاقاليم بها ١٦٧١ نفرا وعساكر خفر القاهرة ٢٨٥ نفرا وعساكر جحجية بمصر القديمة ١٨٥ نفرا وألاى السر عسكرية ١١٥٢ نفرا وأورطة امدادية بطرابلس بها ١٦٤١ نفرا وأورطة بدنقله بها ٨٥٥ نفرا وبلوكين إمدادية بالحجاز بهما ٢٠٠ نفر وكذا بلوك من حاملى القرابانات به ١٠٦ أنفار فمجموع العساكر المنتظمة التى كانت تحت السلاح اذ ذاك خلاف الرديف على ماذكره كلوت بك فى تاريخه ١٣٠،٣٠٢ ومجموع رجال الباشبوزق ٤١،٦٧٨ نفرا وعساكر الرديف والعربان الذين كانوا بمصر والاسكندرية ودمياط ورشيد وبولاق ٤٧،٨٠٠ نفر وكان بمدارس الطوبجية والسوارى والبيادة والبحرية ١٢٠٠ تلميذ وكان بالورش ١٥٠٠٠ عامل الجميع ٢٣٥،٩٨٠ نفرا واذا أضيف اليهم جنود الدونمة المصرية البالغ عددهم ١٩،٥٣٩ نفرا وجنود الدونمة العثمانية التى سلمت لمحمد على باشا البالغ افرادها ٢١،١٠٧ كان الجميع ٢٧٦،٦١٦ نفرا

ولما كان من الهبات الالهية التى وهبها الله لمحمد على باشا معرفته قدر المعارف مع عدم ممارسته لها أرسل فى سنة ١٢٦٠ هـ أنجاله الى باريس ومعهم سبعون طالبا وأنشأ لهم هناك مدرسة مستقلة ليتعلموا بعد اتمام دروس هذه المدرسة الفنون العسكرية وغيرها ولم تزل الارساليات تذهب الى فرانسا ثم تحضر الى مصر وينتظم طلابها فى الادارات العسكرية والاعمال الهندسية كانشاء المبانى والترع والقناطر والحصون وادارة المصانع والمعامل المختلفة مثل معامل الزيوت والصابون والشمع والعطريات وتكرير السكر والاسلحة النارية والبيضاء والحياكة والتجليد وصناعة الورق وغير ذلك مما يطول تعداده وقد شرح ذلك كله المسيو ريكالده الطلياني فى تقرير حرره بهذا الخصوص

القوة البحرية فى عهد محمد على باشا — سبق القول فى المقدمة وعند الكلام على تجديد الدونما المصرية وإنشاء دار صناعة الاسكندرية بما كان للمرحوم المشار اليه من العناية فى ذلك حتى أصبحت أساطيل مصر كأعظم ما يكون ولما مات الاميرال الثانى بسيون بك الفرنسوى تولى بعده الموسيو هوسار بك (Haussar) وكان استقدمه محمد على باشا لتعليم ولده الأمير محمد سعيد باشا الفنون البحرية ولما أحرز سعيد باشا من ذلك نصيبا تعين قبودانا على قروبت دمنهور برتبة صاغقول أغاسى وجعل فى معيته الموسيو كنيك واليوزباشية عرفان قبودان (صار أخيرا باشا وتوفى) وذو الفقار قبودان (وهو ذو الفقار باشا ناظر الخارجية سابقا) والمرحوم والدى سيرهنك قبودان بوظيفة مفردات (١٢٥٦ هـ) ولما توفى مصطفى مطوش باشا سرعسكر الدونما المصرية [1] بعد ذلك بسنتين نصب محمد على باشا ولده محمد سعيد باشا مكانه سرعسكرا عاما على الدونما المصرية وسوار يا بالغليون المسمى بنى سويف وصار هوسار بك المذكور أميرالا ثانيا ومعه اليوزباشى منويلى (Manueli) مترجما له وكان أغلب رؤساء الدونما يوظفون فى ذلك الوقت فى مصالح دار الصناعة مدة اقامة الدونما فى ميناء الاسكندرية وأمر محمد على باشا اذ ذاك بعمل حوض فى الترسانة وأحال هذا العمل على مظهر باشا وبهجت باشا وكانا قدما حديثا من أوروبا وضم اليهما لينان بك ثم موجيل بك وهو الذى قام بانشاء الحوض المذكور وكان تمامه سنة ١٢٦٠ وعاد هذا العمل على سفن مصر والسفن الاجنبية بالفوائد العظيمة وفى هذا الوقت استعملت الجنازير والسلاسل فى السفن المصرية بدل الاحبال (١٢٥٧ هـ) فترقت بذلك حالة السفن وقد عثرت على أسماء سفن مصر ومقاساتها وأبعادها فى الوقت المذكور محررة بيد المرحوم حسن باشا الاسكندرانى عند ولده صاحب السعادة محسن باشا فأوردتها هنا كالآتى اتماما للفائدة

(١) مصطفى مطوش باشا هذا أصله من قوله وكانت صناعته قبودانا للمراكب الشراعية التجارية ولما قدم الى الديار المصرية استخدمه محمد على باشا فى دونمته وكان يثق به ويعلم مقدار معارفه البحرية فجعله كوكيل للدونما التى بعث بها لمساعدة الدولة فى حرب موره (١٢٣٦ هـ) وحضر واقعة ناوارين (١٢٤٣ هـ) ثم جعل رئيس اميرالا للدونما التى أرسلت لضرب عكا تحت قيادة عثمان نور الدين باشا (١٢٤٧ هـ) ثم جعله محمد على باشا سرعسكرا على الدونما المصرية بدلا من عثمان باشا (١٢٤٩ هـ) وكان لصاحب الترجمة ولدان أحدهما يسمى صفر بك والآخر صالح بك فألحقهما محمد على باشا فى المدارس البحرية واستخدمهما فى الدونما وزوج صاحب الترجمة ولده صالح بك بابنة المرحوم حسين باشا والى الجزائر الذى اتخذ الاسكندرية دار اقامة بعد احتلال فرانسا البلاد وقد بقى صاحب الترجمة رئيسا على الدونما المصرية الى أن توفى سنة ١٢٥٩ هـ

سفن

Digitized by Google

(سفن الغليون المعروفة بالقباق)

أسماء قبودانها زمن سرعسكرية سعيد باشا	أسماء السفن	نمرتها	جهة انشائها	تاريخ نزولها البحر	الطول من القام الى القام	مقدار الجزء الداخل بالماء من المؤخر	مقدار الجزء الداخل بالماء من المقدم	ارتفاع ما بين ٢ جى بطريه الى الكوكرنه	ارتفاع ما بين ١ جى بطريه الى ٢ جى بطريه	ارتفاع ما بين القرينة الى ١ جى بطريه	عرض البطارية الاولى	طول القرينة	ارتفاع البوردو عن الكوكرنه	عدد وعيارات المدافع: الكوكرنه		٢ جى بطريه		١ جى بطريه		جملة المدافع	الطائفة
				سنة	بوصه قدم	بوصه قدم	بوصه قدم	بوصه قدم	بوصه قدم	بوصه قدم	بوصه قدم	بوصه قدم	بوصه قدم	عدد	اقه	عدد	اقه	عدد	اقه	عدد	نفر
برزجه اطه لى خليل بك	المحلة الكبرى	١	اسكندرية	١٢٤٦	٢٠٠٫٠	٢٣٫٠	٢٢٫٠	٧٫٠	٧٫١	٢٥٫٩	٤٨٫٦	١٧١٫٣	٤٫٦	٣٢	١٢	٣٤	١٢	٣٤	١٢	١٠٠	١٠٣٤
طاهر قبودان	المنصورة	٢	»	١٢٤٦	٢٠٠٫٠	٢٣٫٠	٢٢٫٠	٧٫٠	٧٫١	٢٥٫٩	٤٨٫٦	١٧١٫٣	٤٫٦	٣٢	١٢	٣٤	١٢	٣٤	١٢	١٠٠	١٠٣٤
جركس محمود قبودان	الاسكندرية	٣	»	١٢٤٧	٢٠٢٫٠	٢٣٫٠	٢٢٫٠	٧٫٠	٧٫١	٢٥٫٩	٤٨٫٦	١٧١٫٣	٤٫٦	٣٢	١٢	٣٤	١٢	٣٤	١٢	١٠٠	١٠٣٤
حافظ خليل قبودان	أبي قير	٤	»	١٢٤٧	١٨٦٫٠	٢١٫٠	٢٠٫٠	٧٫٠	٧٫٠	٢٣٫٠	٤٥٫٦	١٦١٫٠	٤٫٦	٣٤	١٢	٣٠	١٢	٣٠	١٢	٨٤	٧٣٦
شنان قبودان	مصر	٥	»	١٢٤٨	٢١٢٫٠	٢٤٫٦	٢٣٫٠	٧٫٠	٧٫١	٢٦٫٠	٥٠٫٠	١٧٧٫٦	٤٫٦	٣٤	١٢	٣٦	١٢	٣٦	١٢	١٠٦	١٠٩٧
عثمان بك قاح	عكاء	٦	»	١٢٤٨	٢١٢٫٠	٢٤٫٦	٢٣٫٠	٧٫٠	٧٫١	٢٦٫٠	٥٠٫٠	١٧٧٫٦	٤٫٦	٣٤	١٢	٣٦	١٢	٣٦	١٢	١٠٦	١١٤٨
عثمان نوتى بك	حمص	٧	»	١٢٤٩	٢٠٢٫٠	٢٣٫٠	٢٢٫٠	٧٫٠	٧٫١	٢٥٫٩	٤٨٫٦	١٧٧٫٣	٤٫٦	٣٢	١٢	٣٤	١٢	٣٤	١٢	١٠٠	١٠٣٤
حسين شيرين بك	بيلان	٨	»	١٢٥٠	١٩٥٫٠	٢١٫٦	٢٠٫٦	٧٫٠	٧٫١	٢٤٫٠	٤٧٫٠	١٦٧٫٠	٤٫٦	٣٦	١٢	٣٠	١٢	٣٠	١٢	٨٦	٩٠٠
ازميرلى محمد قبودان	حلب	٩	»	١٢٥٣	٢٠٣٫٠	٢٣٫٠	٢٢٫٠	٧٫٠	٧٫١	٢٥٫٩	٤٨٫٦	١٧١٫٣	٤٫٦	٣٤	١٢	٣٤	١٢	٣٤	١٢	١٠٠	١٠٣٤
عبد اللطيف بك	الفيوم	١٠	»	١٢٥٤	٢٠٢٫٠	٢٣٫٠	٢٢٫٠	٧٫٠	٧٫١	٢٥٫٩	٤٨٫٦	١٧١٫٠	٤٫٦	٣٢	١٢	٣٤	١٢	٣٤	١٢	١٠٠	١٠٣٤
الامير محمد سعيد باشا	بنى سويف	١١	»	١٢٥٤	٢٠٠	٢٣٫٠	٢٢٫٠	٧٫٠	٧٫١	٢٥٫٩	٤٨٫٦	١٧١٫٠	٤٫٦	٣٤	١٢	٣٤	١٢	٣٤	١٢	١٠٢	١٠٣٤
حرق قبل اتمامه كاسيذكر	دمشق	١٢	»	....	....	....	....	....	....	....	....	....	..	..	..	..	..	..	..	..	....

Digitized by Google

الفرقاطـــه والقرويت

الطائفة	جملة المدافع	عدد وعيار المدافع: البطارية		عدد وعيار المدافع: الكوكرته		طول القرينة	عرض البطارية	ارتفاع ما بين القرينة الى البطارية	ارتفاع ما بين البطارية الى الكوكرته	من الكوكرته الى أعلى البوردو	مقدار الجزء الداخل في الماء من المقدم	مقدار الجزء الداخل في الماء من المؤخر	طول السفينة من القائم الى القائم	تاريخ انزالها البحر	جهة انشائها	نوعها	أسماء السفن	أسماء القبــودانات
نفر	عدد	عدد	اقه	عدد	اقه	بوصه قدم	بوصه قدم	بوصه قدم	بوصه قدم	بوصه قدم	بوصه قدم	بوصه قدم	بوصه قدم	سنة				
٥٥٨	٦٤	٣٢	١٢	٣٢	٩	١٥٨,٦	٤٥,٠	٢٢,٥	٧,٠	٤,٦	١٥,٠	٢٠,٠	١٨٣,٠	١٢٥٢	اسكندرية	فرقاطه	منوف	عثمان نوتي قبودان
٤٧٠	٥٦	٢٨	١١	٢٨	٧	١٣٥,٠	٣٦,٦	٢١,٠	٦,٦	٤,٦	١٨,٠	١٩,٣	١٥٠,٠	١٢٤٥	اسكندرية	«	دمياط	محمد هدايت قبودان
٥١٠	٦٠	٣٠	١٤	٣٠	١٤	١٤٣,٠	٤١,٠	٢١,٠	٦,٩	٤,٦	١٨,٠	١٩,٠	١٦٤,٠	١٢٤٤	تريسته	«	رشيد	السيد علي قبودان
	٦٠	٣٠	١٢	٣٠	١٢	١٤٦,٠	٤١,٥	٢١,٥	٦,٨	٤,٦	١٧,٥	١٩,٢	١٤٥,٠	١٢٤٠	ليفورن	«	الجعفريه	رغمه لي أحمد قبودان
٥١٠	٦٠	٣٠	١١	٣٠	١١	١٤٠,٠	٣٩,٦	١٨,٠	٦,٩	٤,٢	١٥,٠	١٩,٠	١٦٢,٠	١٢٤٢	ليفورن	«	شبرجهاد	نوري قبودان بك
٥١٠	٦٠	٣٠	١١	٣٠	١١	١٤٤,٠	٣٩	٢١,	٦,٧	٤,٦	١٨,٦	١٦,٢	١٦٧,٠	١٢٤٥	تريسته	«	البحيرة	كاورخو رشيد قبودان
							عرض الكوكرته	ارتفاع من القرينة الى الكوكرته										
١٨٦	٢٨			٢٨	١٢	١١٦,٠	٣٢,٠	١٧,٠		٤,٢	١٤,٦	١٧,٣	١٣٠,٠	١٢٤٦	اسكندرية	قرويت	طنطا	دلي خسرو قبودان
١٨٦	٢٦			٢٦	١٢	١٢٩,٠	٣٩,٠	١٩,٣		٥,٧	١٦,٣	١٦,٥	١٤٨,٠	١٢٥٤	اسكندرية	«	دمنهور	مرجان قبودان
	٢٨			٢٨	١٢	١١٨,٠	٣٣,٠	١٧,٥		٤,٥	١٥,٠	١٣,٦	١٣٠,٠	١٢٣٦	جزائر الغرب	«	واسطه جهاد	دلي محمد خورشيد قبودان
١٨٥	٢٤			٢٤	٧	١٢٣	٣١,٦	١٧,٦		٤,٦	١٣,٦	١٣,٦	١٣٠,٠	١٢٣٨	جنوه	«	جناح بحري	زنتيل قبودان (وكانت معدة لتعليم التلامذة)
١٨٥	٢٤			٢٤	٧	١٠٣,٤	٢٧,٩	١٤,٣		٥,٠	١٣,٦	١٣,٦	١٠٩,٠	١٢٤٣	مرسيليا	«	بلنك جهاد	
٢٠٠	٣٠			٣٠	٧	١٢٨,٥	٣٢,٠	١٨,٥		٥,٨	١٥,٦	١٦,٦	١٣٥,٠	١٢٤٢	«	«	رهبر جهاد	علي رشيد قبودان
٣٠٠	٤٥			٤٥	١٢	١٣٠,٠	٣٩	١٩,٤		٥,٧	١٦,٥	١٧,٥	١٤٠,٠	١٢٤٠	تريسته	«	بومبه	بيجان قبودان

Digitized by Google

القراويت والاباريق والكواتر

الطائفة	جملة المدافع	عدد وعيار المدافع		طول القرينة	عرض الكوكرته	ارتفاع ما بين القرينة والكوكرته	ارتفاع البوردو	مقدار الجزء الذى فى الماء من المقدم	مقدار الجزء الذى فى الماء من المؤخر	الطول من القائم للقائم	تاريخ انزالها البحر	جهة انشائها	أسماء السفن	نوعها	أسماء قبودانتها
نفرات	عدد	عدد	أقه	بوصه قدم	بوصه قدم	بوصه قدم	بوصه قدم	بوصه قدم	بوصه قدم	بوصه قدم	سنة				
١٨٥	٢٤	٢٤	٧	١١٦٫٠	٣١٫٣	١٥٫٦	٤٫٦	١٤٫٠	١٣٫٠	١٢٤٫٠	١٢٤١	جنوه	جهاد بيكر	قرويت	حسن أباظه قبودان
٠٠٠	٢٤	٢٤	٧	١١٨٫٠	٣١٫٥	١٦٫٠	٤٫٦	١٤٫٥	١٤٫٠	١٢٥٫٠	١٢٣٨	اسكندرية	فوه	قرويت	مرجان قبودان
١٨١	٢٤	٢٤	٧	١١٧٫٠	٣٠٫٥	١٥٫٠	٤٫٦	١٤٫٠	١٣٫٠	١٢٤٫٠	١٢٤١	اسكندرية	شاهد جهاد	قرويت	ابرهيم قبودان
٨٩	٨١	١٨	٧	٩٥٫٥	٢٦٫٦	١٣٫٠	٤٫٦	١٠٫٠	١١٫٠	١٠٠٫٠	١٢٤١	مرسيليا	سمند جهاد	أبريق	أحمد شاهين قبودان
٨٩	٢٤	٢٤	٧	١١٠٫٠	٣١٫٠	١٥٫٥	٤٫٦	١٤٫٠	١٣٫٥	١٢٢٫٠	١٢٣٨	أمريكا	بادئ جهاد	أبريق	. . . . .
٨٩	١٨	١٨	٧	١٠٩٫٥	٢٦٫٠	١٣	٤٫٦	١١٫٠	١١٫٠	١٢١	١٢٣٩	....	غزة ٢	أبريق	الياس قبودان
٨٨	١٨	١٨	٧	٩٥٫٢	٢٦٫٠	١٣٫٠	٤٫٦	٨٫٠	١٠٫٠	٩٩٫٠	١٢٤١	مرسيليا	شهباز جهاد	أبريق	حسن الارنؤد قبودان
٠٠	٢٤	٢٤	٧	١٠٥٫٦	٢٦٫٠	١٢٫٦	٤٫٠	٨٫٠	١١٫٠	١١٠٫٠	١٢٤٤	ليفورن	صاعقة	غولت	طاهر قبودان
٨٨	١٦	١٦	٥	٩٨٫٠	٢٦٫٠	١٢٫١٠	٤٫٠	٨٫٠	١١٫٠	١٠٣٫٠	١٢٤٢	مرسيليا	تمساح	غولت	. . . . .
٥٢	١٢	١٢	٢	٦٩٫٥	١٣٫٠	١٠٫٥	٢٫٦	٨٫٣	١٠٫٣	٧٨٫٠	١٢٥٤	اسكندرية	غولت جديد	كوترغزة ٢	ميرهنك قبودان
٥٢	٠٦	٠٦	درهم ٣٠	٦٥٫٠	٠٧٫٠	٢٣٫٤	٤٫٠	١٠٫٣	١٢٫١	١٧٥٫٠	١٢٥٠	انكلتره	النيل	فرقاطة تجارية	. . . . .

وتتبع هذه السفن ثلاث بواخر أخرى وهى وابور برواز بحرى صنع سنة ١٢٦٦ ووابور أسيوط سنة ١٢٦٢ ووابور جيلان بحرى سنة ١٢٦٥ ووابور الشرقية وسمى فيما بعد بفرقتين بحر سر ورصنع سنة ١٢٦٤ ثم ركبت آلاته بلندره ووابور رشيد وهو قرويت صنع سنة ١٢٦٢ وسفائن التجارة الاميرية وهى سفن للنقل وغيرها ولم تكن ضباط هذه السفن وقبودانتها تبقى فى سفينة واحدة بل كانت تنتقل من سفينة الى أخرى بحسب الترقيات وظروف الاحوال وغير ذلك كما هو معلوم

Digitized by Google

ولما كان المرحوم محمد على باشا يهتم بمجاراة أروبا فى أعمالها الحربية والتجارية وظهر استعمال البخار فى سفنها أمر دار الصناعة بعمل بواخر حربية فشيدوا له فى زمن قليل بعض البواخر منها النيل وأسيوط ورشيد وجيلان خصصها للسفر على التوالى ما بين الاسكندرية والاستانة بريدا عرعلى بعض الموانى العثمانية وجعل لها ادارة خاصة سماها بالقومبانية المصرية (١٢٦٤ ه)

ولما انتظم سيرها عادت منها منافع ومكاسب كبيرة ثم لما أتمت دار الصناعة إنشاء فرقاطة الشرقية أمر فأرسلت الى انكلتره لتركيب آلاتها البخارية وكلف بذلك ناظر الترسانة وقتئذ محمد بك راغب المعروف بالاستانبولى وأرسل معه ٢١ نجارا من دار الصناعة ليتقنوا صناعتهم هناك مدة تركيب آلات الفرقاطة المذكورة وكانت قوة الآلات المذكورة تقدر بقوة ٥٥٠ حصانا ثم عادت فى السنة المذكورة وفى هذه السنة تعين خسرو بك الذى كان ناظرا لشون الغلال باسكندرية وكيلا لتفتيش الدونمنا وأعيد حسين شيرين بك لغليون بيلان وتعين القائمقام البحرى محمد رشيد بك منعهد السنبلاوين ناظرا لسفائن التجارة الاميرية بدلا عن محمد قراقيش قبودان الذى نقل الى الترسانة ثم جعل رشيد بك مفتشا للدونمنا والحاصل ان الاصلاحات التى أدخلها العزيز بدار الصناعة وكذا عنايته الموجهة لتقدم البحرية جعلاها فى درجة عظيمة جدا قال المرحوم الشيخ خليل بن أحمد الرجبى الشافعى الشاذلى فى تاريخه الذى ألفه عن أعمال الوزير محمد على باشا ما ملخصه ان السفن التى صنعها باسكندرية هى مراكب بكل غرض وافية منها مراكب الحرب الشهيرة وما بها من العساكر والميرة مشحونة بآلات الحرب والقتال مملوءة بالجبخانات وكل ما لزم لوقت النزال فله أيده الله من الغلايين العظام ما يسر الناظر ويشرح الصدور ويريح الخاطر والفرقطون الذى أنشأه باسكندرية قد احتوى على كل معنى رقيق فى الصناعة البهية كامل المعانى محكم المبانى متين الى الغاية جليل السير فى اللجج به من آلات الحرب وعدد الطعن والضرب من البارود والمكاحل والبنب والمدفع الذى هو اصد العدو كافل ثم انه بعد تمامه وإحكامه وانتظامه أرسله الى جهة الانكليز فصفحوه من سائر جوانبه بالنحاس وحذوه بذلك استجلابا بالخاطر نحوهم وطلبا للتودد اليه دون الناس فأتموا صناعة ذلك الفرقطون الكبير وبقى كل قابو دان اليه بالتعظيم والاجلال يشير وله غير ذلك من المراكب الجليلة المقدار التى بلغت غاية الاكثار والاشتهار ما يقارب الستين وأما النقائر والمعلى منها فشئ كثير والامر فيه بادشهير وحاصل الامر أن المراكب الحربية الكبار مع الاواسط والصغار بالسوية نحو مائة مستعدة كاملة الادوات والعدة فهى زينة للنظار وبهجة للابصار وصادة للاعداء من الفجار قولا معروفا بغير انكار وقد ظهر للعيان واشتهر عند جميع العامة والاعيان ما صنعه من الهمة الكبيرة والقوة والحماسة الشهيرة من ارساله تلك المراكب مشحونة بالابطال ملآنة بالذخائر من سائر المأكولات وأنواع الغلال والارز والاسمان والزيتون والزيت والاجبان والبن وجميع ما يلزم لطول الازمان مع البارود والجبخانات ما كثر جدا وازداد معناه وتوجيه ذلك كله الى مدائن اقليم كريد نحو كنديا وخانيا وغيرها حرصا عليهم من كيد كل عنيد وذلك فى وقت هيجان الروم وخروجهم ونقضهم طاعة الخليفة وشقاق علوجهم فأرسل حضرة الصدر العلى صاحب العز والفخر الجلى أتباعه وامراءه بصحبتهم إشراقه حسن باشا طاهر عليه الرحمة والرضوان وأفاض على برزخه محاسن

تلك المآثر ولم يزل حضرة الصدر العلي كل وقت يتحدهم بالرجال والذخائر مالا يحصيه كتب ولادفاتر ولولم يكن منه وفقه الله هذا الصنيع لتملكت الروم مدائن الجريد وحل بالمؤمنين هنالك الهول الشديد وكذلك فعل أيضا بناحية جزيرة قبرس المعلومة فأرسل هنالك عساكره مثل ماصنع بالجريد فهي من الروم مأمونة فلله درذلك الصدر كامل المجد عالي القدر فقد صرف على هذه المآثر مالا يحصى من النقود الخارجة عن الحد لقمع كل عدو ثائر فأطال الله بقاءه عريق الفخار ولابرح محاطا بالعناية حامي الديار وقد خرجت عدة المراكب وآلات البحرية الحربية والنيلية عن الحسبان فانها جاوزت الالوف هذا كله مشاهد ومعروف اه وقد بلغ عدد تلامذة المدرسة البحرية في سنة ١٢٦٣ هجرية ٢٣١ تلميذا

سفر المرحوم ابراهيم باشا لاوروبا — قد كان ألم بابراهيم باشا مرض باطني فأشار عليه الاطباء بزيارة أوروبا تبديلا للهواء وترويحا للنفس فسافر في شهر سبتمبر سنة ١٨٤٥ م (القعدة ١٢٦٣ ه) على باخرة فرنسوية تدعى كرو وكان يصحبه في سفره هذا الجنرال سليمان باشا الفرنسوي ومحمد بك قفطان أغاسي والموسيو بونفور ترجمان محمد على باشا والموسيو فرنك حكيم باشي فقصد اولا حمامات بلدة سان جنايو من ايطاليا ثم سار منها الى فلورنسه وليفورن وجنوه وسافر من هنالك على احدى السفن الحربية الى طولون فقوبل هنالك بالاحترام وأطلقت له السفن الراسية هنالك المدافع وقابله المركيز دي لافاليت من قبل ملك فرانسا وكثير من قواد الاساطيل ومحافظ المدينة ثم قصد مرسيليا وبعد ان زار جميع معاملها واستعرضت امامه الجيوش الفرنسوية سافر الى بلدة فرنيه الواقعة على جبال البرانس الفاصلة لفرانسا عن اسبانيا للاستحمام بمياهها ثم قصد باريس فقوبل بها أحسن مقابلة وزار سراي الانفاليد وحيا فيها رجال الحرب والمتقاعدين ثم زار قبر نابليون الاول وبعد ان أقام بباريس أياما سافر الى انكلترة عن طريق ديب وبورتسموث فقابله الاميرال تشارلس أوجل من طرف الحكومة ثم سافر الى لندن (يونيه ١٨٤٦ م) فقابلته الملكة فكتوريا بالترحاب وشاهد كثيرا من جهات برطانية ودور صناعتها ومعاملها ثم عاد من فرضة جيبرت على باخرة انكليزية تسمى افتجر عن طريق جبل طارق وأحضر معه عدة مهندسين لاستخدامهم في المعامل والفبريقات التي أنشئت في الديار المصرية وعرج عند عودته على اشبونه وقادس ومالطة ثم وصل الى الاسكندرية يوم ١٣ جمادى الاولى سنة ١٢٦٤ ه (٢٣ أغسطس ١٨٤٦ م) وقابله هنالك سرعسكر الدونمة أخوه سعيد باشا وجميع قناصل الدول الاجنبية هذا أما المرحوم محمد على باشا فكان ذهب في شهر يوليو من السنة المذكورة الى دار الخلافة لتقديم فرائض الطاعة للحضرة الشاهانية وليظهر لاوروبا حسن نيته واخلاص طويته للجانب الخلافة العظمى ويزيل من فكر رجال الدولة ما كان علق به من سوء الظن به فقوبل مقابلة حسنة ثم عاد الى مصر في يوم ٤ أغسطس من السنة المذكورة وبعد ذلك بسنة أي في سنة ١٨٤٧ م ظهر الوباء في القطر المصري فأشار الاطباء على ابراهيم باشا بالسفر ثانية الى مالطة وايتاليا فأقلع في ٩ اكتوبر ثم سافر محمد على باشا بعده أيضا الى مالطه ومنها الى نابل لما أصابه من المرض ولمقابلة ولده ولما كان هنالك بلغه خبر قيام أهالي فرانسا بالثورة على ملكهم لويز فليب

Digitized by Google

(Louis-Philippe) وخلعهم اياه ومناداتهم بالجمهورية فتكدر من ذلك لما كان بين الاثنين من تمام الارتباط والمودة ثم ازداد عليه المرض وتوالى الضعف على قواه العقلية حتى التزم الاطباء بارجاعه الى القطر المصرى فعاد الى الاسكندرية فى أواخر مارث من سنة ١٨٤٨ وحضر بعده نجله ابراهيم باشا وأقام محمد على باشا بسراى رأس التين ومعه أمهر الأطباء لتمريضه والقيام بأمره أما ابراهيم باشا فعاد الى القاهرة وعقد ديوانا تحت رئاسته لادارة أحوال الحكومة مدة مرض والده وأخبر بذلك الباب العالى الذى أرسل فى ١٥ يوليه من السنة المذكورة فرمانا مع أحد رجال الدولة المسمى مطلوب افندى بتولية ابراهيم باشا مكان والده الى أن يتم شفاؤه

﴿ ابراهيم باشا ابن محمد على باشا ﴾

(من ١٨ شعبان الى ١٣ الحجة من سنة ١٢٦٤)

لما ضعفت قوى محمد على باشا العقلية من الشيخوخة واعتزل الاعمال معتكفا بسراى رأس التين وتقلد ولده ابراهيم باشا أمر مصر بالنيابة عنه سافر مع المندوب السلطانى المذكور الى الاستانة فى ٧ رمضان من سنة ١٢٦٤ على غليون بنى سويف وكان قبودانه حسين بك شرين للمثول امام الحضرة السلطانية واستلام فرمان الولاية وكان يصحبه فى سفره هذا كامل باشا زوج أخته وأمير اللواء أدهم بك مدير ديوان المدارس وحسن بك حيدر وكان يخفره سفينتان حربيتان مصريتان هما غولت جديد وقبودانها المرحوم والدى وسمند جهاد قبودانه الياس قبودان (١) ولما وصل الى رودس حملته الى الاستانة سفينة حربية عثمانية تدعى المحمودية وبعد ان نال الفرمان السلطانى عاد الى مصر وقرئ الفرمان باحتفال فى ديوان الغورى بالقلعة (٢٧ شوال سنة ١٢٦٤ ﻫ) وقد فرح الناس بذلك خصوصا الجنود لما كانوا يأملونه فيه من الخير وقد اهتم المرحوم ابراهيم باشا من أول ولايته بالاصلاحات فأتم استحكامات السواحل على الصفة التى أسسها عليها والده وشحنها بالعساكر والاسلحة وآلات القتال وتفقد بنفسه السواحل المذكورة من اسكندرية الى دمياط ورتب أحوالها بمعرفة جليس بك (Galice) باشمهندس الاستحكامات وقتئذ وشيد أيضا استحكامات القناطر الخيرية والعطف وأبى حماد ورمبال والعريش والسويس والقصير وما يلزم لحفظ الآبار والعيون بها وورد فى كتاب المسيو جركى الفرنسوى ان جليس بك وجد وقت اقامة الاستحكامات المذكورة بالاسكندرية وضواحيها ٨٩٦ صهريجا مبنية جميعها بالحجر متصلة كلها ببعضها يأتى اليها الماء من خليج كبير يشق ثغر الاسكندرية ويمتد الى بحيرة مريوط ووجد غير ذلك من الآثار وقد عثرت بين أوراق قديمة من أوراق المرحوم حسن باشا الاسكندرانى مدير

---

(١) غرقت هذه السفينة فى هذا السفر بصادمتها الصخور فى مضيق جزيرة ساقز بجوار رأس غيانه يوم ١١ شوال من سنة ١٢٦٤ ﻫ ونجت طائفتها ومهماتها ومدافعها ثم حوكم ضباطها بالمجلس العسكرى البحرى فحكم على قبودانها بالعزل لمدة سنتين مع انزاله ثلاث درجات وعلى محمد قبودان والملازم محمد قبودان من ضباطها بالسجن فى اللومان لمدة خمس سنوات وصدق ابراهيم باشا على الحكم اهـ من جريدة الوقائع المصرية سنة ١٢٦٤

Digitized by Google

دار الصناعة فى سنة ١٢٦٤ على كشف مبين لتلك الاستحكامات وما بها من المدافع والذخائر ولفائدته أدرجته هنا كما ترى

مدافع	أهوان	خنابر	أسماء الطوابى	مدافع	أهوان	خنابر	أسماء الطوابى	مدافع	خنابر	أسماء الطوابى
..	..	..	استحكامات الاسكندرية	٢٠	٢	١	طابية السلمية	..	..	استحكامات رشيد
٥٧	٠٦	٢	طابية الفنار	٤٠	٩	١	طابية المكس	٦	١	طابية النى
١	..	١	« « الصغيرة	٩	١	١	طابية القرية	٦	١	« العباسى
٦١	١٤	٣	« التراب	٥٦	٤	٢	طابية أم قبيبه	٥	١	« الطواجنية
١٣	١٠	١	طابية الاسبتالية الجديدة	١٤	١	١	طابية الملاحة القديمة	٣	..	« المنزلاوى
٢٥	..	١	« الاسبتالية القديمة	٣٤	١	١	« الملاحة الجديدة	١	..	« محل الشركة
٥٧	٧	٢	« الأطه	١٣	..	٢	طابية صالح اغا	١٤	١	برج رشيد
١١٠	٦	١	قلعة برج الظفر	٨	..	١	طابية باب سدره	١٨	١	قلعة البوغاز
٦	٦	١	طابية ظهر منزل الفرنسيس	٩	٢	١	« كوم الدماس	١٠	١	الطابية الشرقية
٨	..	١	طابية المفحمة	..	..	..	استحكامات أبوقير	١٠	١	« الغربية
٩	..	١	طابية مسلة فرعون	٤٨	٣	٢	قلعة أبوقير	..	..	استحكامات البراس
١٠	..	١	طابية قبور اليهود القديمة	٤٧	٣	١	طابية كوم الشوشه	٦	١	قلعة البراس
٢٠	..	١	« قبور اليهود الجديدة	٢٤	٢	١	طابية كوم العجوز	..	..	استحكامات دمياط
١٨	١	١	طابية برج السلسلة	١٠	..	١	طابية السدغرة ١	٢٠	١	القلعة القديمة
٦	..	..	طابية باب شرقى	١٠	..	١	« السدغرة ٢	١٠	١	الطابية الشرقية
١٠	١	١	طابية كوم الناظورة	١٠	..	١	« السدغرة ٣	١٠	١	الطابية الغربية
٣	..	١	طابية الدخيلة	١٠	..	١	« السدغرة ٤	..	..	....

وأمر المرحوم ابراهيم باشا أيضا دار صناعة الاسكندرية ببناء ٢٥٠ شالوبة (نوع مدفعية) تحمل كل واحدة منها مدفعين لحفظ البوغازات والاشاتيم وورد فى الوقائع المصرية سنة ١٢٦٤ ان طول الشالوبة الواحدة من الشالوبات المذكورة وهى التى تحمل مدفعا واحدا ٤٨ قدما وعرضها ١٣ قدما وارتفاعها خمسة أقدام وطول الواحدة من التى تحمل مدفعين ٥٨ قدما ونصف قدم وعرضها ١٤ قدما ونصف قدم وارتفاعها خمسة أقدام ونصف قدم وكان رحمه الله مصمما على تخطيط طريق عسكرى من الاسكندرية الى أبى قير ورشيد لسهولة نقل العساكر والآلات الحربية الى تلك الحصون عند الحاجة كما كان مصمما أيضا على ايجاد كثير مما يعود بالمنافع على البلاد وأهلها اذا لم تعاجله منيته (١٣ الحجة من سنة ١٢٦٤) وكان رحمه الله متوسط القامة ممتلئ البدن أشهل العينين مستطيل الوجه والانف حسن الصوت لايهاب الموت شجاعا مقداما ذا بطش واقتدار محبا لعسكره لايميز نفسه عنهم خصوصا فى الاسفار وخلفه بعد وفاته ابن أخيه الحاج عباس حلمى باشا الاول وكان جده يعزه ولذلك اعتنى بتربيته وولاه كثيرا من فروع الحكومة لتدريبه وترشيحه للاحكام

ولذا كان عارفا بالامور واقفا على دقائق أحوالها من قبل الولاية وكان بالاراضى الحجازية لما توفى عمه فجاء مسرعا لاستلام أحكام البلاد

﴿ عباس حلمى باشا الاول ابن طوسون باشا ابن محمد على باشا ﴾

١٢٦٤ - ١٢٧٠ هـ

لما قبض عباس باشا على زمام الولاية المصرية كنطوق الفرمان السلطانى وجد الامور ممهدة والاحوال موطدة والنظام مستتبا والراحة متوفرة وذلك لحسن الخطة التى اختطها جده وعمه فسار على طريقهما فأحسن سياسته وحافظ على النظام واستتباب الامن والراحة فى البلاد بقطع دابر المفسدين وقطاع الطرقات حتى أمن الناس شرورهم ثم وجه عنايته لتسهيل طرق التجارة فمهد طريق السويس بالحجارة وبذلك سهل سفر العربات عليه كما سهل نقل الامتعة وبريد الهند والصين ثم أمر موجيل بك باشمهندس القناطر الخيرية التى كان انشاؤها وقتئذ قد قارب التمام بعمل ما يلزم لسهولة مرور المراكب التجارية النيلية فصدع بالامر وشكل لذلك لجنة من المهندسين منهم حماد بك وعلى مبارك بك وعلى بك ابراهيم وغيرهم فقر رأيهم على عمل الآلات المسماة بالارغانات فسهل مرور المراكب من الاهوسة والقناطر وأتم أيضا الاستحكامات والطوابى والقلاع التى كان شرع فى بنائها من قبل رئيس هندسة الاستحكامات جليس بك المذكور وجعل لها الشكنات العسكرية والاسبتاليات وطواحين الهواء والمعامل والمخازن ثم ملأها بالآلات والصناع والمعلمين حتى أصبحت وافية وللرام كافية وشيد أيضا كثيرا من المبانى والقصور الفاخرة مثل سراى العباسية التى كان يضرب بجمالها المثل وقصرا برأس التين جعله لمجلس التجارة وغير ذلك مما يطول شرحه واستخدم الموسيو ماريت (Auguste Mariette) وكلفه بالبحث عن الآثار القديمة فاكتشف مدافن العجول بسقاره (١٨٥٠ م) وغيرها بعد ذلك ومن هذا الوقت زادت أهمية دار التحف المصرية واشتهرت بين علماء الآثار وعمل فى عصره العالم الفاضل محمود باشا الفلكى أول تقويم أى نتيجة سنوية

وفاة المرحوم محمد على باشا - كانت وفاة المرحوم المشار اليه بسراى رأس التين باسكندرية فى يوم ١٣ رمضان من سنة ١٢٦٥ هـ (٢ أغسطس سنة ١٨٤٩) ونقلت جثته الى القاهرة ودفن بمسجده الذى شيده بالقلعة باحتفال لم يسبق له مثال وقد تكدرت الامة جدا لوفاته لانه هو الذى أنقذ مصر من أيدى الجهل ورفعها بقريحته المتوقدة الذكية وأفكاره العلية الى درجات المدنية وصيرها فى مكان عظيم من الأهمية وكان رحمه الله من أكبر رجال العصر فتاريخ عمله شاهد على درجته

الاعمال العسكرية فى زمن المرحوم عباس باشا - لما جلس عباس باشا على تخت مصر اهتم كثيرا باعلاء شأن القوة العسكرية وكان أول ما أمر به فى ذلك أن جعل أخذ الجنود من كل الطبقات بلا فرق فكل فتى بلغ سنه سن النظام المقرر يطلب للجندية بطريقة تشبه القرعة النظامية

Digitized by Google

ثم أدخل على نظام الالايات بعض التغييرات فجعل الألاى الواحد خمسة آلاف عسكرى أعنى قدر الاثنين مما كان قبل ثم أوجد فرقا للهجانة لم تكن من قبل بين الجيوش المصرية وجعل أورطتين للمهندسين والكوبريجية عليهم ضباط كان أحضرهم المرحوم عمه ابراهيم باشا من بلاد فرانسا بواسطة الموسيو ساباتيه (Sabatier) قنصل فرانسا بمصر وكان من هؤلاء الضباط الموسيو موتى بك (Motté) الذى صار فيما بعد رئيسا للاستحكامات (١٨٥٦ م) ودو برناردى بك (de Bernardi) وجاك بك (Jacques) الذى صار فيما بعد مأمورا لعامل الحوض المرصود وغيرهم وقد اتقن هؤلاء الجنود كيفية مد الجسور لعبور الانهر والخلجان وعمل الالغام والحيل العسكرية وقد عاد ذلك على الجيش المصرى بالفوائد وكان عدد الجيوش المصرية فى زمنه كما يأتى ٩٨,٤١٤ من الرجالة عليهم ٣٤٢٤ ضابطا و ٧٦٠٠ من السوارى عليهم ٤٠٠ ضابط و ٩١٤٩ من الطوبجية عليهم ١٥٤ ضابطا و ٦٧ من ضباط أركان الحرب ونحو ١٣٥ حكيما وجراحا معهم ٨٨ أجزاجيا وتمورجيا كل هذا خلاف عساكر البمبائة المعروفين بالباشبوزوق وكان يبلغ عددهم ٤٣٧٧ وكان يتبع هذا الجيش نحو ١٠٦ من الكتاب الملكيين وغير ذلك

السودان المصرى فى العهد المذكور — لم تمض على جلوس عباس باشا على الاريكة المصرية أيام طويلة حتى دبت عقارب الفتن بينه وبين الامراء من أقاربه وبعض كبار رجال الحكومة الذين خدموا المرحوم جده محمد على باشا الخدم الجليلة ولا يستغرب ذلك فى بلاد لم تألف جيدا بعد معنى الحكومة النظامية والادارات الترتيبية ولا يزال قسم عظيم من سكانها يشتهى عودة الايام الخالية لسوء أمره وبعلوقدمه غير حاسب للايام حسابا ثم ان عباس باشا لما خاف من معانديه ومبغضيه أبعدهم عن مصر كل من اشتبه فى أمره وكان منهم يوسف كامل باشا صهر المرحوم محمد على باشا وكانى باشا وسامى باشا الكبير وصبحى بك وغيرهم سافروا الى دار الخلافة ونال أكثرهم هناك الوظائف ومنهم أيضا خالد باشا حكمدار السودان الذى انفصل سنة ١٢٦٥ وتعين بدله عبد اللطيف باشا البحرى وفى أيامه أنشئت مدرسة بالخرطوم وعين لها ناظرا رفاعة بك العالم الشهير وكان أبعد أيضا من مصر لاسباب لا نعرفها وقد أحسن عبد اللطيف باشا الادارة فى السودان وأنشأ دوانا بالخرطوم للحكمدارية وبجانبه مسكنا له ثم فصل سنة ١٢٦٧ ﻫ ونصب مكانه رستم بك ورقى الى رتبة باشا وكان قبل ذلك رئيسا لمجلس أحكام السودان بالخرطوم ولكن لم تطل أيامه فى الحكمدارية فعاجلته الوفاة فى السنة المذكورة وتعين بعده إسمعيل حقى باشا المشهور بابو جبل وفى مدته هاجم الاحباش جهات القلابات فصدهم بالجيوش المصرية وشتت شملهم ثم فصل وتعين مكانه سليم باشا الخربوطلى وكان مديرا لسنار ولم يمكث طويلا وتعين مكانه على سرى باشا الارنؤدى (١٢٦٩ ﻫ) ولما لم يحسن التصرف عزل لسنة وتعين مكانه على باشا جركس (١٢٧٠ ﻫ) وكان لا بأس به فبقى حكمدارا الى أوائل حكم سعيد باشا ولم يلتفت عباس باشا الامر الاكتشافات بالجهات السودانية ولم يرسل لذلك الارساليات كما كان يفعل المرحوم محمد على باشا بل كان ما فعله من ذلك أنه أرسل المسيو دو جوتبرج (De Gottberg)

Digitized by Google

للنظر فيما به يسهل عبور الشلالات وأمره أيضا بانشاء طرق المواصلات فى الصحراء الشرقية والسبب فى امتناعه من ذلك تخوفه من وفود الاجانب بكثرة الى بلاد مصر

المدارس والمعارف فى عهد عباس باشا — كان من أول أعمال هذا الامير أن أمر باقفال غالب المدارس التى شيدها جده ولم يبق منها الا ١٤ مدرسة وهى مدرسة السوارى بالجيزة ومدرسة الطوبجية بطره ومدرسة البحرية باسكندرية ومدرسة المهندسخانه ببولاق والمكتب العالى بالخانقاه ومدرسة الالسن بالازبكية ومدرسة المبتديان بالسيدة زينب ومدرسة الطب البيطرى بالقاهرة ومدرسه الصنائع ببولاق ومدرسة المبتديان بابى زعبل ومدرسة أسيوط ومكتب الزقازيق ومكتب بوش ومكتب بنى سويف وجعل عبده شكرى باشا مديرا للمدارس بدلا عن أدهم باشا الذى نقل مفتشا للمهمات الحربية ثم لنظارة أوقاف الحرمين (٢٦ ج ١٢٦٦ هـ) وليته اكتفى بالغاء ما أقفله من المدارس بل انه بعد ذلك أبطل كثيرا منها وانتقى من بين طلبتها من اتصفوا بالنجاح واللياقة وأدخلهم مدرسة حربيـة وسماها بالمفروزة وجعلها بالعباسية وأحال على المرحوم على مبارك بك انتقاء المعلمين لها فرتب نظام الدروس فيها واختار ما يليق من كتب التدريس فنجحت نجاحا عظيما وكانت عنايته بهـذه المدرسـة تفوق الحصر فارتقت بها المعارف فى أول حكمه وكثرت بسببها المؤلفات فى كل فن وطبعت فى المطابع الحجرية ونبغ منها رجال خدموا المصالح واشتهروا فى أعمالهم بحسن الادارة ومع ذلك لم يطل عمرها فأصابها الاهمال كما أصاب غيرها لانه رحمه الله أبطل كثيرا من صنوف الجيش فلم يبق منه الا القليل وأبطل أيضا الورش والمعامل للاقتصاد وبذلك أخلى سبيل كثير من معلمى الاوروباويين واجتهد فى اخراجهم جميعا من المملكة ورفض جميع الرخص والمنح التى كانت تعطى لهم ولهذا لم يثن عليه كتابهم فيما كتبوه عنه

الطرق الحديدية بالديار المصرية — سبق الكلام على المساعى التى بذلتها دولة انكلترة لدى جده محمد على باشا بخصوص مد سكة حـديدية من القاهرة الى السويس (١٨٣٧ م) لتسهيل نقل بضائع الهند والشرق الاقصى والبريد وكان محمد على باشا أجاب الطلب لما يعود عليه من المنافع فعقـد مع احـدى الشركات الانكليزية شروطا وبعـد ان أحضرت بعض القضبان والآلات تخوف من ذلك فصرف النظر عن هذا الامر بالكلية واستعملت تلك القضبان فى الطريق الذى أنشئ بناحية طره بين الجبل والنيل لنقل الاحجار اللازمة للقناطر الخيرية وبقيت التجارة والبريد الانكليزى يحمل على الجمال كما كان الى القاهرة ثم ينقـل الى ثغر الاسكندرية فى سفن النيـل ولما تولى عباس باشا سعت انجلترة كثيرا فى مد السكة الحديدية المذكورة وكان الباب العالى يعارض معارضة شديدة ويحدث صعوبات جمة بخصوص انشاء الطرق الحديدية بديار مصر لاسباب منها انه كان يخشى عواقب المداخلات الاوروباوية فى شؤن بلاد كبلاد مصر لا تقوى بعد على الوقوف فى سبيل تداخل أوروبا ومنها ان دولة فرنسا كانت تمانع فى ذلك لان القائم به شركة انجليزية ومع هذا فقد تمكنت انجلترة بما بذلتـه من المساعى من نوال تصريح الباب العالى فصـدر الفرمان السلطانى مصرحا لوالى مصر بذلك وعليـه أجاز عباس باشا للشركة الانجليزية مد الطريق الحديدى بين اسكندرية ومصر

وكان

Digitized by Google

وكان يباشر العمل مهندس انجليزي يدعى استيفنسون (Stephenson) وكان القائم باعمال الطريق المذكور هم العساكر البحرية المصرية

حالة البحرية في زمن عباس باشا الاول ـ لما اشتغل عساكر البحرية في اقامة جسور الطريق الحديدي المذكور حدث من ذلك ان أوقفت جميع السفن الحربية المصرية عن الحركة وربطت بجانب بعضها وتعطلت أيضاً أعمال دار الصناعة وسبب ذلك كما يؤكده قوم نفور كان بين المرحوم عباس باشا وبين عمه سعيد باشا الذي كان سرعسكرا للاساطيل المصرية لسعاية الواشين أصحاب المقاصد السافلة الذين نجم عن سعايتهم تعطيل عضو من أهم الاعضاء التي لا تقوم مصر بدونها واستحكمت العداوة بين الاثنين حتى ان عباس باشا بث العيون على سعيد باشا الاخباره بحركاته وسكناته سواء كان بمصر أو في أبعاده وأمر أيضا بتكسير الغليون المسمى بالمنصورة بعد أن تم اصلاحه وتجهيزه (١٢٦٥ هـ) فزاد بعد ذلك الانحطاط في البحرية وعلم الكل بكراهية الوالي لها ونفوره منها ووقعت العداوة أيضا بين رجالها وأخذوا يدسون الدسائس لبعضهم فخاف الكثيرون سوء المنقلب وارتحل بعضهم الى القسطنطينية مفضلين مهاجرة الاوطان كما سبق في المقدمة ولما خرج السلطان عبد المجيد خان للسياحة في جزائر الارخبيل (١٢٦٦ هـ) سافر عباس باشا على باخرة الشرقية الى جزيرة رودس لمقابلة جلالته وهنالك قدم الفرقاطة المذكورة هدية فضمت الى العمارة العثمانية وسميت مخبر سرور وفي سنة ١٢٦٧ هـ (١٨٥٠ م) نالت مسئلة انشاء قنال السويس أهمية عظمى وتحدث بشأنها أرباب السياسة وعين عباس باشا لينان بك ومعه كل من المهندسين سلامة افندي وابراهيم رمضان افندي ومسيو ارنود (Arnaud) لاخذ ميزانية الطريق التي سيفتح فيها القنال المذكور ولما سن السلطان عبد المجيد القانون المسمى بالتنظيمات الخيرية سنة ١٢٦٨ هـ وصار تعميمه بالممالك العثمانية أصدر أمره لوالي مصر بذلك فتوقف عن قبوله في ابتداء الامر وحصلت أمور يطول شرحها وأخيرا اضطر لان يقبله وكان من نتائجه منع الحكم الاستبدادي فتقيدت الحكومة المصرية به زمنا وكان أمير تونس امتنع أيضا أولا عن قبول تلك التنظيمات ثم نصحه عباس باشا فقبلها كما سبق بالجزء الاول

مساعدة مصر للدولة في حرب القريم ـ لما حدث الخلاف بين الدولة العلية العثمانية ودولة الروسيا بخصوص الاراضي المقدسة للاسباب التي سبق ذكرها في الجزء الاول من هذا الكتاب أصدر السلطان عبد المجيد خان أمرا الى عباس باشا الاول يطلب منه ارسال نجدة للجيوش العثمانية كما تقتضيه فرمانات الامتياز فأصدر عباس باشا أمره بذلك (٢٧ رمضان سنة ١٢٦٩ هـ) وبتجهيز الجيوش والاساطيل وكانت وقتئذ دار الصناعة لا عمل فيها فاسرعوا في جمع العمال والصناع ولما استعدت الاساطيل جعلت تحت قيادة الاميرال حسن باشا الاسكندراني وجعل مصطفى بك الذي تعين لاصلاح السراي الخديوية بالاستانة وكيلا له وجعل عليها سليم باشا سردارا وكانت النجدة المصرية تتألف من ١٢ بطارية من الطوبجية والاي من السواري عليهم اللواء جعفر صادق باشا ومن سبعة الايات من المشاة عليهم اللواآت اسمعيل حقي باشا الكردي المعروف بأبي جبل وابراهيم باشا جركس وعلي شكري باشا ومن ضباطهم

Digitized by Google

حسين بك جركس وسليمان بك الارنؤد وسليم بك طوب صدالى وأحمد بك وكانت القوة المذكورة تبلغ ٢٠٠٠٠ مقاتل ولما استعرضهم عباس باشا خطب فيهم مشجعا منهضا الهممهم واعدا متوعدا ثم اقلعوا فى أول شوال من سنة ١٢٦٩ فى سفن العمارة المصرية وكانت تتألف من ثلاثة قباقات بكل واحد منها مائة مدفع ومن أربع فراقيط بكل واحدة ٦٠ مدفعا ومن ثلاثة قراويت بكل واحد منها ٢٤ مدفعا ومن باخرتين بكل باخرة ١٢ مدفعا وكان من ضباط هذه السفن سنان بك وبوغجه اطه لى خليل بك وعثمان بك بوني والمرحوم والدى سرهنك قبودان وخورشيد قبودان ومرجان قبودان وأحمد شاهين قبودان ومحمد خورشيد قبودان و زينل قبودان وحسن قبودان الارنؤد وطاهر قبودان وعبد الحميد بك الديار بكرلى وصالح قبودان ولما وصلت هذه القوة الى الاستانة فى منتصف القعدة حضر السرعسكر محمد على باشا والقبودان محمود باشا ومحمد باشا مشير الخاصة الهمايونية واستعرضوا الجيش وعملت لهم مادبة من قبل الحضرة السلطانية ثم سافروا الى حدود الروملى عن طريق وارنه وجعل معظم الجيش المصرى بسلستره وهنالك شيد المصريون الحصن الشهير المسمى بطابية العرب وهى التى أمكن بها صد هجوم الروس سنة ١٢٧٠ عند هجومهم عليها تحت قيادة الجنرال مونجيقوف (Montschikoff)

حركات الاساطيل المصرية اثناء الحرب المذكور — لما وصلت الاساطيل المصرية الى دار الحرب قسمها القبودان باشا على فرق الدونما العثمانية فالحق فرقاطة دمياط ووابور بروز بأسطول عثمان باشا وأقلعت معه (١٢٧٠ هـ) قاصدة سينوب وهنالك فاجأها الاسطول الروسى مع الاميرال ناشيموف (Nachimof) وهاجمها وأحرقها يوم ٣٠ نوفبر سنة ١٨٥٣ كما تقدم فى تاريخ الدولة واحترقت معه فرقاطة دمياط المذكورة وكانت باخرة بروز وهى عائدة من سينوب لا تعلم شيأ عن خبر دمار الاساطيل العثمانية وقابلتها باخرة حربية روسية لخادعتها برفع علم عثمانى وأخذت تشير اليها بالاشارات البحرية فلما قربت منها أبدلت العلم العثمانى بعلم روسى وأخذت تطلق عليها القنابل بشدة فقابلتها بالمثل الا أن قنبلة روسية أصابت آلتها فعطلتها عن الحركة فأسرها الروس وأخذت الى سواستبول هذا أما باقى السفن المصرية فانضم منها فرقاطتا رشيد وشيرجهاد وفرو شاجناح بحرى وجهاد بيكر وغوليت الصاعقة الى اسطول الدولة المعين للمحافظة على جزائر الارخبيل ثم انضمت الفرقاطتان المذكورتان الى أساطيل البحر الاسود وفى خلال ذلك تعين المرحوم والدى سرهنك قبودانا للشيرجهاد ورقى الى رتبة البكباشى فاقلع بها الى باطوم ثم اشتركت دولتا انجلترة وفرانسا فى الحرب مساعدة للدولة على الروسيا ودخلت أساطيلهما البحر الاسود كما سبق ذكره بالجزء الاول واشتركت السفن المصرية التى بالبحر الاسود تحت قيادة حسن باشا الاسكندرانى مع سفائن الدول المتفقة فى نقل الجيوش من وارنه الى القريم التى صارت مركزا للاعمال الحربية وبقيت بعد ذلك تقاتل الاعداء مع الاسطول العثمانى الذى كان تحت قيادة الفريق أحمد باشا القيصرلى وفى تلك الاثناء توفى عباس باشا الاول مقتولا فى ١٨ شوال ١٢٧٠ (١٥ مايو ١٨٥٤ م)

قتل عباس باشا الاول وسببه — قال الرواة ان سبب هذه الحادثة هو ان المرحوم

عباس

Digitized by Google

عباس باشا كانت له حاشية للخدمة الخصوصية يقال لهم أبيج أغاسيه كان أكثرهم حائزا لرتبة قائمقام وكان جعل لرئاستهم أحد غلمانه الاخصاء المسمى خليل درويش بك وعرف فيما بعد بحسين بك الصغير وقد أساء هذا الرئيس معاملة الابيج أغاسيه المذكورين فأطالوا عليه ألسنتهم سيما وانه كان صغير السن وصاروا كلما عبر عليهم يرمونه بأقوال قبيحة وألفاظ شائنة فشكاهم الى المرحوم عباس باشا فأمر بجمعهم داخل السراى وأمر حسين بك المذكور بجلدهم ثم جردهم من ثيابهم الرسمية وألبسهم لبدا وزعابيط وأرسلهم لخدمة الخيول بالاسطبلات فعز ذلك على مصطفى باشا خزنه دار عباس باشا لانهم من كبار خشداشينه فسعى بكل جهده لدى الامير ليعفو عنهم فلم يمكنه ولما توجه المرحوم عباس باشا الى قصره في بنها وكان معه أحمد باشا يكن وابراهيم باشا الالفي ترجاهما الخزندار المذكور في طلب العفو عن خشداشينه المذكورين فلما التمسا منه ذلك أصدر أمرا بالعفو عنهم وردهم الى مناصبهم كما كانوا ثم ذهبوا جميعا الى بنها ليرفعوا واجب شكرهم للامير ولكنهم أضمروا له السوء لما حصل لهم وأخذوا يدبرون مكيدتهم ثم تواطؤا مع غلام من خدمة السراى يدعى عمر وصفي وكان من عادة المرحوم عباس باشا عند نومه أن يقوم على حراسته اثنان من الغلمان وفي ليلة ١٨ شوال كان القائم بحراسته اثنين يدعى أحدهما شاكرا وكان المتآمرون اتفقوا معهما على الفتك بسيدهم ولما أقبلوا فتحا لهم الباب فدخل الابيج أغاسيه على الامير وهو مستغرق في نومه ولما أرادوا الفتك به استيقظ وقصد الهرب ولكن الخائن عمر وصفي منعه وأعاده اليهم فتكاثروا عليه وقتلوه وأوعزوا الى الغلامين بالهرب لتتم الحيلة فهربا في تلك الليلة وكتم الباقون الخبر الى اليوم الثاني ولما لم يستيقظ الامير في ميعاده دخل عليه أحمد باشا يكن وابراهيم باشا الالفي فوجداه مقتولا فاخفيا الخبر ونقلوا جثته الى القاهرة على عربة هذه هي الرواية التي يتداولها الناس عن موت عباس باشا ويقول بعض الخاصة انه مات فجأة والله أعلم ثم اجتمع الذين يميلون الى عباس باشا تحت رئاسة الالفي ابراهيم باشا واتفقوا على استدعاء نجله ابراهيم الهامي باشا وكان بأوربا ليولوه على مصر ويمنعوا عمه محمد سعيد باشا أكبر أولاد المرحوم محمد على باشا عن الولاية ولو بالقوة وكتبوا سرا الى اسمعيل سليم باشا محافظ الاسكندرية وقتئذ أخبروه بما عزموا عليه وأوصوه بالتيقظ والسهر على الثغر حتى يحضر الهامي باشا ولما وصل المكتوب الى اسمعيل باشا خاف عاقبة الامر ولعلمه بنص الفرمانات قصد من ساعته محمد سعيد باشا صاحب الحق بالولاية لكونه أرشد العائلة وكان بسراى القباري وأخذ معه أورطة من العساكر ولما أخبره شكره على صداقته وذهب معه الى سراى رأس التين وأعلن الامر رسميا وهنالك أجريت حفلة الجلوس وأطلقت المدافع ثم سافر سعيد باشا الى القاهرة بصحبه أمراء عائلته وهو والامير اسمعيل باشا والامير عبد الحليم باشا والامير مصطفى فاضل باشا والامير أحمد ابراهيم باشا وغيرهم ولما وصلوا وقصدوا الذهاب الى القلعة بلغهم ان برنجي ألاي بياده الموجود فيها تحت قيادة محمد شكيب بك (الآن باشا وهو العضو الوطني بمصلحة الدومين) مصمم على الممانعة حتى يحضر الهامي باشا (١) من أوروبا لاستلام الولاية كالاتفاق المعقود بين رجال

(١) كانت ولادة هذا الامير سنة ١٢٥٣ ورباه أبوه جميل التربية فشب على كرم الاخلاق ومحاسن الشيم ولما زار دار الخلافة سنة ١٢٦٩ أكرم السلطان الغازي عبد المجيد خان وفادته ومثواه وزوجه بابنته منيره سلطان فنال بذلك شرف مصاهرة آل عثمان وفي خلال اقامته بدار السعادة تعين عضوا في مجلس وكلاء الدولة ولكن لم تطل أيامه حيث عاجلته الوفاة بجهة أوسكدار في نضرة شبابه وسنه ٢٥ سنة وذلك سنة ١٢٧٧ ونقل جسده الى القاهرة ودفن بها رحمه الله رحمة واسعة اهـ قاموس الاعلام بتصرف

Digitized by Google

حزبه فتوجه الامير أحمد ابراهيم باشا بنفسه وأقنع رجال الالاى المذكور بوخامة العاقبة اذا هم استمروا على عنادهم فسلموا وفتحوا الابواب وصعد سعيد باشا وتمت له رسوم التولية وانتهت الازمة ثم استعرض الجيوش وكان يقودها أحمد باشا الطوبجى ناظر الجهادية يومئذ ثم ان سعيد باشا طلب شكيب بك وطيب خاطره وشكره على صداقته لعائلة سيده وأراد ان يبقيه فى قيادة ألالايه فأبى وقدم استعفاءه قائلا انى لا أخدم الا عائلة سيدى فزادت منزلته عند الامير ولم ينس مكروه وأما ابراهيم باشا الالفى محافظ مصر فانه عزل عن منصبه وأمر بأن لا يبارح منزله

(محمد سعيد باشا بن محمد على باشا)

١٢٧٠ - ١٢٧٩

لما استتب الامر وارتقى محمد سعيد باشا على الاريكة المصرية كانت حروب القريم قائمة على ساق وقدم والجيوش والاساطيل المصرية مشتركة فيها مع باقى أساطيل وجيوش الدول المتفقة كما سبق بيانه وأراد سعيد باشا اظهار ولائه للدولة فأرسل نجدة مصرية أخرى على البواخر العثمانية التى استقدمها لذلك وكانت أربعة ثم سافر محمد سعيد باشا الى دار الخلافة واستلم فرمان التولية من يد السلطان عبد المجيد خان وحضر الى الاستانة مدة وجوده بها سنان بك وكيل الامير الال المصرى حسن باشا ليقدم الى مولاه رسوم التبريك عن الجنود المصرية التى فى ساحة القتال وبينما كان سنان بك عائدا الى كوزلوه حيث يعسكر الجيش المصرى لتبليغه سلام سعيد باشا وامتنانه منه استشهد سليم فتحى باشا فى ميدان القتال وكان قائد الجيش المصرى فتعين بدله أحمد باشا المنكلى وانضم الى أركان حربه الميرألاى على مبارك بك فسافرا من مصر الى ميدان الحرب وبينما كان حسن باشا الاسكندرانى عائدا الى الاستانة لاصلاح بعض سفن العمارة المصرية هبت عليه ريح شديدة وانتشر ضباب كثيف منعهم من دخول البسفور رغم ألقتهم الامواج والارياح فى الجون الشرقى لمدخل البوسفور المعروف عند الملاحين بيلنجى بوغاز فاصطدمت سفينتاه وهما مفتاح جهاد والنصرة وانكسرتا وغرق حسن باشا (١) وسنان بك وجميع ضباط السفينتين وعساكرهما البالغ عددهم جميعا ١٩٢٠ ولم ينج منهم سوى ١٣٠

وقد كابدت العساكر المصرية والجيوش المتحدة فى هذه الحروب الاهوال من شدة البرد الذى حصل فى شتاء عامى ١٨٥٤ و ١٨٥٥ م ومن تفشى الامراض التى أهلكت كثيرا منهم هذا فضلا عما أصابهم من الجوع والتعرض لثلوج تلك البلاد والابخرة المنتنة المتصاعدة من جثث القتلى والحيوانات وغير ذلك وفى خلالها توفى الامبراطور نيقولا الاول (١٨٥٥ م) وجلس مكانه

(١) حسن باشا الاسكندرانى هذا جركسى الاصل وهو من معاتيق المرحوم محمد على باشا الكبير أدخله فى المدارس الحربية ثم أرسل الى أوروبا ضمن التلامذة الذين أرسلوا لدراسة العلوم بفرنسا وبعد اتمام دروسه عينه محمد على باشا بسفن الدونمة فأظهر مهارة وهمة وما زال يترقى الى ان صار رئيسا للدار الصناعة باسكندرية ثم تعين باشبوغا للدونمة وأخيرا قاد الاسطول الذى تعين لحرب القرم وسباستبول سنة ١٢٦٩ هـ بوظيفة أميرال أول وحضر كثيرا من الوقائع أظهر فى خلالها الشجاعة والمعرفة الى أن توفى سنة ١٢٧١ هـ رحمه الله رحمة واسعة

Digitized by Google

ولده اسكندر الثانى ثم حصلت موقعة عظيمة بين الجيوش المتحدة والروس فى سيواستبول كانت الدائرة فيها على الروس واستولت جيوش فرانسا على قلعة ملاكوف فاضطر الروس الى ترك سيواستبول وفروا منهزمين ودخلت العساكر المتحدة المدينة واستولوا على حصونها وبعد ذلك تخابرت الدول فى الصلح وعقدت مؤتمرا فى باريس حضره مندوبان عن كل دولة من الدول المتحدة وهى انكلترة وفرانسا والدولة العثمانية والنمسا وروسيا وسردينيه ومندوبان عن الروسيا وبعد المداولة أياما أمضيت شروط الصلح متضمنة ٣٤ شرطا منها ان يكون للدولة العثمانية نفس الامتيازات التى لباقى دول أوروبا من جهة القوانين والنظامات السياسية وان تكون مستقلة تماما فى ممالكها كغيرها من دول أوروبا وأن لا يصرح للسفن الحربية بالجولان فى البحر الاسود ماعدا الروسيا والعثمانية فان لهما حقا فى أن يكون لهما به قليل من المراكب الصغيرة الحربية وان يكون للدول المتفقة حق مراقبة هذه الشروط كما سبق فى تاريخ الدولة وبذلك انتهت تلك الحروب التى لم يكن لاقتناصها داع سوى المطامع والغايات وعادت الدونمة المصرية بالعساكر الى اسكندرية بعد ان نال ضباطها وعساكرها النياشين من الدولة اعترافا بحسن خدمتهم ولما عادوا بعد هذه السفرة الطويلة أمر سعيد باشا فأخلى سبيلهم وتوجهوا الى بلادهم وأخلى سبيل أكثر الضباط أيضا

ثورة العربان بالفيوم — انه فى سنة ١٢٧٠ هـ ثارت العربان فى جهات الفيوم بزعامة عمر المصرى شيخ العربان فجرد عليهم سعيد باشا قوة مركبة من ثلاث فرق الاولى تحت قيادة حسين باشا المعروف بابو صباع والثانية تحت قيادة اسمعيل باشا الفريق والثالثة قادها سعيد باشا بنفسه وانضم الى الحكومة قبيلة أولاد على من عربان البحيرة وكان مع هذه التجريدة بطاريتان من المدافع ولما لم يقو العربان على الدفاع تشتت شملهم بعد أيام وعادت السكينة الى ربوعها وقبض على كثير من مشايخهم وسجنوا فى ليمان ترسانة الاسكندرية وكان سبب ذلك ان سعيد باشا أراد ادخال أولادهم ضمن الجنود المصرية كبقية السكان أماهم فانهم يأبون ذلك كل الاباء لامتيازات قديمة تحصلوا عليها وراعتها كل الدول التى حكمت مصر ولعدم حيازتهم لاراضى زراعية كبقية الاهالى وغير ذلك ولا زالوا على هذا الامتياز الى الآن

الاصلاحات فى العهد المذكور — لما عاد سعيد باشا من دار الخلافة أخذ يدير الامور بدراية تامة وعزيمة صادقة مجتهدا فى رفع منار الحضارة وشأن البلاد فسن كثيرا من النظامات المفيدة وعدل الضرائب وأخذ الاطيان من الملتزمين وردها الى أربابها وسن للاطيان لائحته المشهورة بالسعيدية (٢٤ ذى الحجة ١٢٧٤ هـ) وجعل للمعاشات نظاما بديعا فحفظ للمتوظفين بذلك حقوقهم وحثهم على النشاط والصدق فى العمل وأصلح ترعة المحمودية وأنشأ ميدان الاسكندرية وأتم الطريق الحديدى بين مصر والاسكندرية وهى التى كان شرع فى عملها المرحوم عباس باشا الاول وأنشأ خطا حديديا آخر بين القاهرة والسويس وأتم الموصلات التلغرافية فسهل بهذه الاعمال نقل التجارة والركاب (١٨٥٧ م) واعتنى بأمر بوغاز الاسكندرية فأمر بوضع العلامات الثابتة على صخرتيه المعروفة احداهما بالفار والاخرى بالقط ووضعت ثلاث علامات أخرى فى البحر احداها فى الجهة الغربية من المدخل عند طابية العجمى والاثنتان

الآخرتان على صخور بوغاز أبو عكر ووضع ثلاث علامات أخرى ثابتة فى البر بجهات أم قبيبة والسراديب والعمائر وعلى طابية المكس وبهذه العلامات سهل الدخول الى الميناء والخروج منها ولما كان يهتم أيضا بأمر تحصين البلاد أمر ببناء القلعة السعيدية على رأس الدلتا عند مفترق النيل وكان ابتداء العمل فيها فى يوم الاحد الموافق ٢٣ من جمادى الثانية سنة ١٢٧١ وجعل لها حصونا واستحكامات عظيمة تمتد من شاطئ فرع دمياط الى شاطئ فرع رشيد وكانت هذه الحصون وأبراجها تعد وقتئذ من امتن وأشهر الاستحكامات وجعل فيها كثيرا من الثكنات العسكرية والمخازن الحربية وجعلها بحيث يصلها المدد والاقوات بسهولة من بلاد مصر كما يسهل عليها ارسال المدد الى كافة الثغور المصرية عند الحاجة ولما كانت هذه الديار محصنة طبعا فى أثناء زيادة النيل بالارادة الازلية ولا يمكن تعدى العدو عليها الا عند التحاريق لامكانه السير فى أى طريق استحسن المرحوم سعيد باشا أن يشغل هاتيك البقاع بالحصون الحصينة والقلاع المتينة بحيث لو طمع طامع فى الدنو من هذه المواضع صد عنها بواسطة اطلاق المياه من عيون تلك القناطر وبذلك يمكن منع العدو عن الحملة والهجوم وتصبح عاصمة البلاد آمنة من الحوادث والخطوب متباعدة عن الوقوع فى مهاوى المصائب والكروب ولما تمت عمارتها شحنها بالمدافع والاسلحة المختلفة والآلات الحربية ورتب لها الجنود والمقاتلة وكانت عنايته بها تفوق الوصف وكان موتى بك (Motté) الضابط الفرنسوى هو المباشر لهذه الاستحكامات ثم عينه سعيد باشا رئيسا لعموم الاستحكامات المصرية وجعل السيد بك مجدى مأمورا لاشغال القلعة السعيدية كما عين محمد بك المرعشلى باشمهندسا للقلاع السعيدية المذكورة

غرق الامير احمد ابراهيم باشا (١٢٧٤ هـ) — اختلفت أقوال الرواة فى أمر هذه الحادثة وقد اقتطفنا من أقوالهم ما يأتى وهو انه فى اليوم الاول من شوال من سنة ١٢٧٤ هـ (١٤ مايو ١٨٥٨م) بينما كان هذا الامير عائدا من اسكندرية الى مصر وكان ذهب اليها لتهنئة سعيد باشا بحلول عيد الفطر وكان هو والامير عبد الحليم باشا وخير الدين باشا محافظ القاهرة ورابع يدعى رأفت بك وحاشية الاميرين فى عربة من عربات السكة الحديدية وكانت قنطرة كفر الزيات لم تتم بعد فكانوا ينقلون عربات السكة الحديدية من شاطئ الى آخر بواسطة سفينة بخارية تحمل العربات ولما أنزلت العربة التى بها الامراء المشار اليهم سقطت فى البحر وقال بعض الرواة ان ذلك كان بايعاز من المرحوم سعيد باشا وقال آخرون بل حدث سهوا ولكل مرجحات لا فائدة من ذكرها وغرق بذلك أحمد باشا وآخرون معه وأما الامير عبد الحليم باشا فانه نجا بمساعدة مملوكه وبمعرفته بالسباحة

السودان المصرى فى العهد المذكور — اعلم ان سعيد باشا فى أول حكمه وجه أخاه الأمير عبد الحليم باشا للتفتيش على ادارات السودان وجعله حاكما لجميع تلك الاقاليم مع بقاء على باشا جركس حاكمه وكيلا له ولما وصل الى مركز الحكمدارية فحص الشؤن والاحوال ونظر فى كافة الاعمال فأصلح المعوج منها بقدر الامكان وضم بعض المديريات الى بعضها لتقليل عددها حتى جعلها أربعة فقط فجعل دنقله وبربر مديرية واحدة وكردفان وجهاتها مديرية والخرطوم ونواحيها وسنار مديرية والتاكه وأطرافها مديرية وبعد ان نظم المديريات المذكورة عاد الى مصر

مبقيا هنالك وكيله المذكور ثم أراد سعيد باشا ان يحذو حذو والده محمد على باشا الكبير و ينهج منهجه فتوجه لزيارة تلك البقاع بنفسه على طريق العطمور (١٢٧٣ هـ) وكان بمعيته راغب باشا ونوبار باشا وأخوه اركيل بك والموسيو دولسبس وغيرهم مثل الدكتور رابانه (O. Abbate) وهو أول من لاحظ اهتزاز البارومتر فى صحراء كروسكو وكتب كتابا عن هذه الرحلة سماه الكلام على افريقية الوسطى و رحلة صاحب الفخامة سعيد باشا الى السودان ولما وصل الامير المشار اليه الى الخرطوم (١٦ ينايرسنة ١٨٥٧ م) قدمت اليه الاهالى عرائض التظلم من كثرة الضرائب فرثى لحالتهم ورفع عنهم المتأخر منها وخفض مقدارا كثيرا من الضرائب حتى صيره الى ربع المقرر وسن لتلك البلاد نظاما مخصوصا لاصلاحها ولتنفيذ تلك الاصلاحات فى أوقاتها أبطل وظيفة الحاكم العام وقسم السودان الى خمس مديريات مستقلة الادارة عن بعضها وهى سنار وكردفان والتاكه وبربر ودنقله وجعل للبحر الابيض مديرا خاصا فكان مديرو تلك المديريات يخاطبون نظارة المالية والداخلية بمصر رأسا وجعل اركيل بك مديرا للخرطوم وسنار معا وأمر بانشاء محطة عسكرية على نهر صوبات لمنع الاتجار بالرقيق ومطاردة النخاسين وأنشأ أيضا محطات فى صحراء كروسكو لتوصيل الاخبار والبريد بسرعة ثم عاد الى مصر عن طريق دنقله وأمر الموسيو موجيل (Mougel) المهندس بالبحث عن الوسائل التى يترتب عليها تقريب المسافة وتقليل مشقة الاسفار فيما بين وادى حلفا والخرطوم اما بانشاء طريق حديدى واما بشق خليج للملاحة فرأى هذا المهندس ان أحسن الطرق لذلك هو انشاء طريق حديدى ولكنه لم ينفذ لكثرة النفقات التى كان يستلزمها انجازه ولما توفى اركيل بك مدير الخرطوم بالخرطوم سنة ١٢٧٤ هـ تعين مكانه الضابط حسن بك سلامه وأحيل عليه أيضا قيادة آلاى الخرطوم ثم صرف عن السودان وتعين بدله سنة ١٢٧٧ محمد بك راسخ الطوبجى وكان سيئ التصرف والسيرة فكثرت الشكاوى من الاهالى فى حقه وحق غيره أيضا من حكام السودان ولهذا رأت الحكومة ان أحسن وسيلة لمنع الحيف عن الاهالى ابطال استقلال المديرين فى مديرياتهم وجعلهم تابعين لادارة واحدة وكان سعيد باشا فى ذلك الوقت (١٢٧٩) متغيبا بأوربا وكان اسمعيل باشا ابن أخيه نائبا عنه بمصر فشكلت الحكمدارية العمومية ثانية وجعل موسى حمدى باشا حكمدارا عاما للسودان وهو من رجال العسكرية وكانت له معرفة تامة بأحوال السودان لانه تقلد بها وظائف زمن أحمد باشا أبوودان ولما قبض على ادارتها سن نظاما جديدا للضرائب وعدل فى حكمه فاحبته الاهالى رغما عن ميله الشديد لجمع المال وفى أيامه ثارت بعض فرق عسكر الارنؤد التى بالسودان وكان غائبا بمصر فأقبل سريعا وقهرهم بجهات شلال عبكا وأعادهم الى الخرطوم فسكنت الفتنة ومن أعمال سعيد باشا التى عادت على العلم بالفوائد الجمة ان أرسل المرحوم محمود بك الفلكى الى دنقله لرصد كسوف يشاهد هنالك فاغتنم هذا العلامة تلك الفرصة وعين ٤٢ موقعا فلكيا فى المسافة الكائنة بين أسوان ودنقله ولما رأى العلماء اكرام سعيد باشا لهم أخذوا يفدون الى بلاد السودان وتوغل كثير منهم بأقاصيها مكتشفين مرتادين حتى أصبحت مسئلة غموض منابع النيل قريبة الحل ومن تلك الرحلات الرحلة الالمانية وسافر فيها كثير من العلماء الى السودان الشرقى واقليم كردفان وكان من أعضائها منزنجر (Munzinger) واستيدنر (Steudner) وبارمن (Beurmann) وكنزلباخ (Kinzelbach) وغيرهم

Digitized by Google

ومنهم أيضا انتينورى (Antinori) ولوجان (Lejean) والست تين (Tinne) والست تريمو (Tremaux) والبارون درنيم (Baron d'Arnim) وبياجيا (Piaggia) وهو أول من دخل بلاد نيام نيام من أهل أوربا وكان منهم رجل فرنسوى عرف بالكونت ولعله البارون المذكور وقد صدرت من هذا الرجل أعمال غير مرضية بجهات كوفيت وأم ديب فسعى موسى حمدى باشا حتى رده الى مصر وأشهر هذه الرحلات رحلة السير صمويل بيكر (Samuel Baker) (١٨٦١م) وكان معه كل من القبودان سبيك (Speke) وغرانت (Grant) وكانا سافرا من زنجبار فى ٢٨ يوليو سنة ١٨٦٢ تحت رعاية سعيد باشا أيضا وقصدا منابع النيل حتى وصلا الى بحيرة البرت وظهر من سياحتهما أن النيل الابيض هو النيل الحقيقى وانه يخرج من بحيرة أوكريوه التى سميت فيما بعد فيكتوريا نيانزا وان النهر الازرق الذى منبعه من بين الثلوج المحيطة بجبال القرابيس الاعبارة عن نهر صغير بالنسبة للنيل الحقيقى المذكور ولما عاد هؤلاء السياحون الى مصر كان توفى سعيد باشا وجلس مكانه اسمعيل باشا فأكرم وفادتهم (١٨٦٣ م) ولما قصوا عليه نتيجة اكتشافاتهم أخبرهم بعزمه على قطع دابر تجارة الرقيق من أواسط السودان وبعزمه على متابعة الاكتشافات باواسط أفريقية خدمة للعلم

المدارس فى عهد سعيد باشا — لما ولى سعيد باشا كان بالقطر المصرى أربع مدارس كبيرة فقط ومع ذلك فانه لم يهتم بها بل زاد هذا النقص نقصا بابطاله ديوان المدارس وكان مديره وقتئذ عبدى باشا شكرى (٢٥ ربيع الاول ١٢٧١ هـ) وألغى أيضا مدرسة المهندسخانة التى كان يديرها المرحوم على مبارك باشا وأرسله بعية أحمد باشا المنيكلى الى حرب القريم كما مر ثم الغى مدرسة المفروزة (١٢٧١ هـ) وفتح مدرسة للعربية بقلعة القاهرة (١٢٧٢ هـ) جعلها تحت نظارة رفاعه بك ثم الهمه الله وحاسب نفسه على ذلك فأعاد فتح مدرسة المهندسخانة ثانية ببولاق (١٢٧٤) وسميت بالمهندسخانة السعيدية ثم نقلها الى القلعة السعيدية وسميت بعدئذ بالمدرسة الحربية ولما قصد السفر الى السودان صرف جميع عساكر الجيش (١٢٧٣ هـ) لخوفه من أن يثوروا عليه مدة غيابه وجمع عموم الضباط من أول رتبة البكباشى الى رتبة الاسران وشكل منهم مدرسة بالقلعة السعيدية وجعل لها الاساتذة والمأمورين ولما عاد من السودان أعاد الجيش ثانية كما كان ولما كان متخرجا من مدرسة البحرية كان يميل بطبعه الى تعزيز القوة البحرية فاحيا مدرستها بعد الاندراس وانتخب لها جملة من نجباء التلامذة (١٢٧٦) وجعل لادارة هذه المدرسة أحمد طوش قبودان أحد رجال البحرية وكان تلامذة هذه المدرسة يمرنون يوميا فى فرقاطتى شير جهاد ورشيد ولما أريد اصلاح السفينتين المذكورتين سافر تلامذة البحرية بهما للفرنول بانجلترة ومعهم القبودان فريدريك بك

البحرية فى عهد سعيد باشا — لما عادت الدونمنا المصرية من حرب القريم كما مر أمر العزيز باصلاح سفنها وانشاء سفن أخرى جديدة حربية ولما كان تقوية البحرية المصرية لا يروق فى عين بعض الدول البحرية الاوروباوية وربما أضر بنفوذها الذى اكتسبته بالاستانة بعد حرب القريم أشارت على السلطان بمنع مصر من تقوية أساطيلها وبالغت فى تخويفه من ذلك مظهرة أن والى

مصر

مصر كان رئيس الاساطيل والده واذا تمكن من تقوية أساطيله أضر بصوالح الدولة ومزاحمتها فى البحار ولما كانت الدولة تخاف من عودة مثل ما حدث مدة المرحوم محمد باشا مالت الى هذه النصائح المزخرفة الظاهر المبنية على المنافع الذاتية فى الباطن فنع السلطان والى مصر المشار اليه من اصلاح السفن قائلا بعدم الحاجة الى ذلك اذذاك فكان فى ذلك ضياع القوة الحربية المصرية بتمامها لان سعيد باشا المار ذكره رأى فيما بعد ان أغلب السفن الحربية التى كانت راسية امام دار الصناعة تحتاج الى اصلاح جسيم وانها اذا تركت تلفت تماما فأمر بتكسيرها ومبيع أخشابها واحراق الغير الصالح منها وأخلى سبيل أكثر ضباطها وأدخل بعضهم فى وظائف ملكية وعلى الخصوص فى مطابخه الواسعة ثم لما جدد مصلحة الانجرارية فى النيل ابتاع لها كثيرا من البواخر النهرية واستخدم فيها بعض أولئك الضباط والجنود وكان للمصلحة المذكورة نحو ٤٠ باخرة و ٨٢ صندلا وهى كما يأتى بيانها أدناه

عـدد	قوة الآلات	مقدار انغماسها		الفحم الذى تحرقه فى الساعة	متوسط ما تحرقه من الفحم	مقدار ما تسعه مخازنها من الفحم	الملاحين	أسماء البواخر		النفرات	عساكر خصوصية
	حصان	بوصه	قدم	قنطار	قنطار	قنطار	عدد			عدد	عدد
٠١	١٤٠	٠٢	٠٥	٨٧,٠	٢٢	١٢٠٠	٦٣	وابور مصر الكبير	للخدمة والمأموريات الخصوصية	٤٩	٠٠
٠١	٠٨٠	٠٣	٠٣	٠٠٠	١٣	٠٨٠٠	٥٥	« الصيرة		٣٧	٠٠
٠١	٠٦٠	٠٦	٠٣	٨٧,٠	٠٩	٠٤٥٠	٤٢	« المحلة نمرة ١		٢٥	٠٢
٠١	٠٤٠	٠٦	٠٢	٠٠٠	٠٨	٠٤٠٠	٣٢	« السعيدية		٢٠	٠١
٠١	٠٤٠	٠٦	٠٢	٠٠٠	٠٨	٠٤٠٠	٣٢	« النيل		٢٠	٠١
٠١	٠٤٠	٠٦	٠٢	٠٠٠	٠٨	٠٤٠٠	٢٠	« المحمودية		١٣	٠١
٠١	٥٤٠	٠٦	٠٣	٠٠٠	٠٨	٠٣٥٠	٣٧	« بنى سويف		١٦	٠١
٠١	٠٤٠	٠٦	٠٣	٠٠٩	٠٨	٠٣٥٠	٢٩	« الجيزة		٢١	٠١
٠١	٠٨٠	٠٣	٠٣	٠٠٠	١٣	٠٨٠٠	٠٠	« الشرقية	مستعمل للجر والاشغال الاخرى	٠٠	٠٠
٠١	٠٨٠	٠٣	٠٣	٠٠٠	١٣	٠٨٠٠	٠٠	« الغربية	»	٠٠	٠٠
٠١	٠٦٠	٠٤	٠٣	٠٢٥	١٢	٠٥٠٠	٠٠	« المنشية	»	٠٠	٠٠
٠١	٠٨٠	٠٥	٠٤	٠٠٠	١٣	٠٠٥٠	٠٠	« رشيدش	»	٠٠	٠٠
٠١	٠٣٠	٠٠	٠٣	٠٠٠	٠٦	٠٢٥٠	٠٠	« نمرة ٤	»	٠٠	٠٠
٠١	١٤٠	٠٨	٠٢	٨٧,٠	٢٢	١٥٠٠	٠٠	« قنا		٠٠	٠٠
٠١	١٤٠	٠٧	٠٢	٨٧,٠	٢٢	٠٩٠٠	٠٠	« الروضه		٠٠	٠٠
٠١	١٤٠	٠٦	٠٤	٨٧,٠	٢٢	١٢٠٠	٠٠	« المنيا		٠٠	٠٠
٠١	١٤٠	٠٣	٠٤	٧٧,٠	٢٢	١٢٠٠	٠٠	« المسعودية الكبير		٠٠	٠٠
٠١	١٤٠	٠٦	٠٤	٨٧,٠	٢٢	١٥٠٠	٠٠	« دمياط		٠٠	٠٠
٠١	١٤٠	٠٦	٠٤	٨٧,٠	٢٢	١٥٠٠	٠٠	« رشيد		٠٠	٠٠
٠١	١٠٠	١١	٠٢	٨٧,٠	١٩	٠٨٠٠	٠٠	« طهطا المستجد		٠٠	٠٠
٠١	٠٨٠	٠٣	٠٣	٠٠٠	١٣	٠٨٠٠	٠٠	« الفيوم		٠٠	٠٠
٠١	٠٨٠	٠١	٠٣	٠٠٠	١٣	٠٢٥٠	٠٠	« طيرسعيد الكبير		٠٠	٠٠
٠١	٠٦٠	٠٣	٠٣	٠٠٠	١٢	٠٢٥٠	٠٠	« طهطا نمرة ٧		٠٠	٠١
٠١	٠٦٠	٠٤	٠٣	٠٢٥	١٢	٠٢٥٠	٠٠	« السودان		٠٠	٠٠
٠١	٠٨٠	٠٥	٠٤	٠٠٠	١٣	٠٥٠٠	٠٠	« مسير		٠٠	٠٠
٠١	٠٦٠	٠٢	٠٤	٠٢٥	١٢	٠٢٥٠	٠٠	« شبراخيت		٠٠	٠٠
٠١	٠٤٠	٠٤	٠٣	٠٠٨	٠٥	٠٢٥٠	٠٠	« الرفاص نمرة ١		٠٠	٠٠

Digitized by Google

تابع ماقبله

عدد	قوة الآلات كنه	مقدار انغماسها في الماء		ما تحرقه حلقاتها في كل ساعة من الفحم	متوسط ما تحرقه من الفحم	مقدار ما تسع مخازنها من الفحم	المناور	أسماء البواخر		القمرات	قاعات خصوصيه
	حصان	بوصه	قدم	قنطار	قنطار	قنطار	عدد			عدد	عدد
٠١	٠٤٠	٠٦	٠٣	٠٠٠	٠٨	٠٤٠٠	٠٠	وابور مصر الكبير « مدشرخير		٠٠	٠٠
٠١	٠٤٠	٠٦	٠٣	٠٠٠	٠٨	٠١٩٠	٠٠	« اسكندرية		٠٠	٠٠
٠١	٠٨٠	٠٣	٠٣	٠٠٠	١٣	٠٨٠٠	٠٠	« الدقهلية	تسلمت كلها فيما بعد لادارة البوسته لاستخدامها في نقل البريد	٠٠	٠٠
٠١	٠٤٠	٠٦	٠٣	٠٠٠	٠٨	٠٤٠٠	٠٠	« ساعى خير		٠٠	٠٠
٠١	٠٤٠	٠٦	٠٣	٠٠٠	٠٨	٠٣٥٠	٠٠	« بنها		٠٠	٠٠
٠١	٠٤٠	٠٦	٠٣	٠٠٠	٠٨	٠٣٥٠	٠٠	« فوه		٠٠	٠٠
٠١	٠٤٠	٠٦	٠٣	٠٠٠	٠٨	٠١٩٠	٠٠	« طلخا		٠٠	٠٠
٠١	٠٤٠	٠٦	٠٣	٠٠٠	٠٨	٠١٩٠	٠٠	« القمارى		٠٠	٠٠
٠١	٠٤٠	٠٦	٠٣	٠٠٠	٠٨	٠١٩٠	٠٠	« مصر الصغير		٠٠	٠٠
٠١	٠٤٠	٠٦	٠٣	٠٠٠	٠٨	٠١٩٠	٠٠	« بولاق		٠٠	٠٠
٠١	٠٢٠	٠٣	٠٣	٠٣٧	٠٥	٠٠٥٠	٠٠	« العطف		٠٠	٠٠
٠١	٠١٦	٠٨	٠١	٠٥٠	٠٣	٠٠٨٠	٠٠	« طير سعيد الصغير		٠٠	٠٠
٠١	٠٦٠	٠٠	٠٠	٠٢٥	١١	٠٧٠٠	٠٠	« شبرى	صار تغريقهما بجهات أبو الغيط لسد قطع حصل بالنيل	٠٠	٠٠
٠١	٠٦٠	٠٠	٠٠	٠٢٥	١١	٠٧٠٠	٠٠	« فارسكور		٠٠	٠٠

جدول عدد الصنادل وحمولتها

عدد الصنادل	حمولة كل صندل بالاردب	طول كل صندل بالقدم	عرض كل صندل بالقدم	مقدار انغماس كل صندل		ملحوظات
				بوصه	قدم	
٢٥	١٦٥٠	١٢١	٢١	٤	٤	
٠٦	١٢٠٠	٠٩٤	٢٤	٤	٤	
٢٤	١٠٠٠	١٢٠	٢٠	٩	٣	
١٥	٠٧٠٠	٠٨٦	٢٤٫٢	٥	٣	
٠٥	٠٦٥٠	٠٨٧	١٨	٠	٤	
٠٢	٠٥٥٠	٠٦٥	١٨	٦	٤	
٠٣	٠٥٣٠	٠٦٤	١٨	٦	٤	
٠١	٠٩٠٠	٠٩٤	٢٣	٧	٣	
٠١	٠٨٠٠	٠٨٩	٢٠	٦	٥	
٨٢						

صنادل حمولة ١٦٥٠ اردب	صنادل حمولة ١٠٠ اردب	صنادل حمولة ٧٠٠ اردب	صنادل حمولة ١٥٠ اردب
٥	٢٦	٢٨	٢

الواحد وستون صندلا المذكورة أعلاه تسلمت للبوسته لاستخدامها مع العشرة وابورات السابق ذكرها في أعمال البريد

Digitized by Google

ثم أصدر أمره الى حافظ خليل باشا ناظر البحرية وقتئذ بابتياع زرخين وأربع بواخر حديدية تكون كالتي لشركات الملاحة التجارية فلما اشتروها سميت بالحجاز ونجد والقباري وجدة وجعلت للبحر الاحمر كما جعل بواخر الجعفرية والسعيدية والتمساح للبحر الابيض المتوسط وابتنوا له أيضا باخرة سميت فيض جهادلر كوبته خاصة ثم لما كثرت البواخر وكانت تحتاج للاصلاح والدهان من قاعها سنويا وان ارسالها لاوربا يكلف مصاريف كثيرة أمر أحد مهندسي الفرنسويين ببناء حوض كبير ومزلقان جسيم بالاسكندرية فأخذ في العمل بجانب جامع سيدى المجاهد الذي بناه لطيف باشا مذ كان ناظر الترسانة (١٢٥٥ هـ) وكان طول المزلقان المذكور ٤٥٠ قدما وعلى رأسه آلة بخارية تسحب السفن وهدموا أربعة مزلقانات من المزلقانات القديمة التي أنشئت في عهد ساكن الجنان محمد على باشا وأخذ أنقاضها للمزلقان الجديد وفي أثناء العمل مات الفرنسوى المذكور فاستحضرت البحرية مهندسين من الانكليز ولكنهما لم يتما العمل لخلاف حصل بينهما وبين الادارة البحرية ولم يسع حافظ خليل باشا ناظر البحرية في متابعة العمل الذي أهمل بالمرة بعد ان صرفت عليه المصاريف الكثيرة وفصل حافظ باشا من نظارة البحرية (١٢٧٣ هـ) وتعين مكانه حافظ مصطفى باشا وتعين حسين بك الرودسلي وكيلا للبحرية وخليل بك ونجه اطه لى ناظر الترسانة (١٢٧٨ هـ) ولما صدر فرمان سلطاني في أول فبراير من سنة ١٨٥٧ م بانشاء الشركة المجيدية استخدم سعيد باشا جميع بواخر البحر الابيض والبحر الاحمر في نقل البضائع والبريد من الثغور المصرية الى أساكل الدولة ببحر الروم والبحر الاحمر فعادت من ذلك فائدة كبرى وكان أرسل فرقاطة رشيد الشراعية الى بلاد الانكليز لجعلها بخارية ولما وجدوها غير صالحة باعوها هنالك وفي سنة ١٢٧٤ ابتاع من أمريقا سفينة حربية من نوع القرويت دعيت سواح البحر ثم أرسلها الى انكلترة فجعلوها فرقاطة سميت محمد على وكان سعيد باشا يركبها في أكثر أسفاره قبل اتمام فيض جهاد ثم رأى من الواجب لترقي الملاحة والتجارة البحرية اصلاح فرضة السويس وبناء رصيف لها لسهولة الشحن والتفريغ فعين لجنة من المهندسين اختارت لجوة في البحر هنالك تحت جبل عتاقة وقالت بوجوب انشاء رصيف (مواص) طوله ٤٠٠ متر وقدرت نفقته بنحو ٢٠٠,٠٠٠ ليره مصرية وعهد أيضا الى شركة تسمى شركة دوسو (Dussaud) انشاء حوض كبير في السويس لاصلاح ما به من السفن المصرية (١٨٦٢) وقدرت مصاريفه بنحو ٣٥٢٠٠٠ ليره انكليزية ولم يتم هذا الحوض الا في زمن المرحوم اسمعيل باشا

النظامات العسكرية في عهد سعيد باشا — من أظهر الصفات والاميال التي اتصف بها سعيد باشا ميله الشديد للعسكرية وترقيتها بجميع فروعها ومع ذلك لم تكن طريقة جمع الجنود على نظام وقوانين مرعية بل كانوا عند الحاجة لزيادة الجيوش أولا كما ل نقصانها يستعملون طريقة وقتية كما يتراءى لهم ويخصصون على كل مديرية قدرا معلوما من الجنود وكان عمد ومشايخ البلاد يستعملون لذلك طرقا وأساليب يأباها العدل فمن ذلك انهم كانوا كثيرا ما يقبضون على المارة أو الزوار لادخالهم ضمن العدد المطلوب خلاف ما يستعملونه من الغش والاحتيال وأخذ أموال الناس والانتقام من أعدائهم حتى كانوا يؤجرون بعض النساء والرجال يبكون خلف المقبوض عليهم ليوهموا الحكام انهم من أقاربهم وغير ذلك من الحيل الشيطانية التي كثيرا ما يستنبطها أهل مصر

Digitized by Google

فرارا من العسكرية لأنه من أصعب الامور وأكرهها لديهم الدخول بالجندية وأظن ذلك لاسباب منها بقاء الجندي في الخدمة طول حياته تقريبا وكثرة ما يناله من المشاق والتحقير في ذلك الوقت ومنها ان جميع الدول الاجنبية التي حكمت مصر لم تدخل أبناء مصر في العسكرية بل كان القائم بها أفرادا من جنس الدولة الحاكمة كما مر بك فلهذا بعد عهدهم بالعسكرية وصاروا ينفرون منها ظنا وان الدفاع عن أرض مصر ليس في صالحهم بل هو في صالح الدولة الحاكمة لانهم فقدوا استقلالهم من زمن طويل وغير ذلك مما لا يخفى على اللبيب ولما أراد المرحوم محمد علي باشا أول موجد للجيش من المصريين أن يجند منهم جنودا كانوا يفرون من ذلك ويحتالون بكل أنواع الحيل حتى لا يؤخذون للجندية فكان الكثير منهم يفقأ احدى عينيه أو يقطع بعض أعضائه للاعفاء من الجندية ولما جعل منهم رديف اسنة ١٢٥٥ اثناء حروبه في بلاد الشام وعم ذلك الشريف والوضيع منهم قال بعضهم في ذلك

عملوا بيوات علينا * وكلامهم مشوه من اعترض عليهم * فوق الجسر مشوه
صاحب الذقن * من أعلى القصور قشوه وأمرد الذقن * قدام الطابور مشوه

ولما رأى سعيد باشا ان الخدمة العسكرية قاصرة على الفقراء والضعفاء أصدر أمره بجمع أولاد العمد والمشايخ وأقاربهم (١٢٧٢ هـ) ليتساوى الكل في الخدمة العسكرية والاحتياجات الوطنية وعرف هذا الامر بلمة أولاد العمد ثم أصدر أمرا آخر بجمع عساكر مستجدة أخرى وهو بالجيزة دعي بلمة الجيزة (١٢٧٤ هـ) وآخر وهو بالقباري ودعي بلمة القباري (١٢٧٥ هـ) وآخر وهو في ميت بره ودعي بلمة ميت بره (١٢٧٦ هـ) وغير ذلك وبلغ عدد الجيش المصري في أول حكمه ٤٥٧٤٢ عسكريا معها من الخيول ٥٨٢٧ رأسا ومن البغال ١٨٣٠ رأسا ومن المدافع ١٢٠ مدفعا وكان هذا الجيش يتركب من ألاى من الطوبجية مكون من أربعة حذاآت ولكل حذاء أربع بطاريات ومن هذه الحذاآت أربع بطاريات طوبجية سواري واثنتا عشرة بطارية طوبجية بياده ولكل حذاء بكباشي واحد ولكل حذاءين قائمقام وكان يقود هذه القوة أولا فاضل باشا الدرملي ثم لما انتقل على البياده خلفه على حمدي باشا ومن ألاى من طوبجية السواحل كان موزعا على اسكندرية ورشيد ودمياط والقلعة السعيدية وكان يتألف من ٣٥٠٠ جندي تحت قيادة حسين باشا الطوبجي ومن ألاى الطوبجية الحصار وكان مخصصا للقلعة السعيدية ويتألف من ١٩٥٠ جنديا تحت قيادة الميرالاى كوله علي بك وجعل الايات السواري الاربعة على أصناف فكان نصف ألاى منها يلبس الزرد والنصف الآخر يلبس الدروع وألاى يحمل المزاريق يقوده سليم باشا الجزائري وألاى ثالث يحمل القربينات والرابع يعرف بألاى الدال قلنج وكان تحت قيادة علي باشا شكري وكان كل ألاى من الايات السواري المذكورة يتركب من ١٢٣٠ جنديا معه ١٢٠٠ حصان وكانت الايات البيادة ثمانية كل ألاى يتألف من ٢٦٤٠ جنديا وعلى كل الايين أميرلواء وكان للحرس أورطتان خصوصيتان تعرفان باورطتي المعية تتألفان من ١٦٤٠ جنديا وكان بالجيش أيضا أورطة للهندسين تتألف من ٨٥٠ نفرا يقودها سليمان قبودان البحري وأورطة للكورجية وتتألف من ٨٥٠ نفرا أيضا تحت قيادة محمد أفندي خير وتسعة ارادي من الباشبوزوق وأورديان من

العسكر

العسكر الغير النظامية المعروفين بالعزب عدده ـما مع الباشبوزوق ٣٢٠٠ وكان كل اوردى منهم يعسكر فى الغالب باحدى المديريات الآتية وهى قناوجرجا وأسيوط والفيوم وبنى سويف والمنيا والبحيرة والجيزة وكان عليهم على باشا القوله لى بوظيفة سرجشمه ثم خلفه اسمعيل باشا أبوجبل ثم بعد تقليل عددهم جعل عليهم ضابط يدعى بكتاش اغا وفى سنة ١٢٧٣ صرف سعيد باشا هذا الجيش بأجمعه ولم يبق منه الا ثلاث بلوكات من السوارى وبلوكين من الطوبجية وست اورط من المشاة أخذ معه منها أورطتين عند سفره الى السودان وأبقى الاربع أورط الاخرى بالقاهرة والاسكندرية وبنى سويف ثم جمع عموم الضباط العسكريين وجعل منهم مدرسة بالقلعة السعيدية وسبب ذلك خوفه من حدوث ثورة بالبلاد يقوم بها الجيش مـدة غيابه بالسودان كما مر وجعل لنظارة المدرسة المذكورة الميرالاى على بك المعروف بسيواستبول وبعد عودته من السودان أوجد خمسة الايات من المشاة والايا من طوبجية الميدان وآخر من طوبجية السواحل والايين من السوارى وفرق باقى الضباط على الضبطيات والمحافظات والمديريات وكان الامير حليم باشا ناظر الجهادية فى أول حكم سعيد ثم خلفه مصطفى باشا الكريدلى ثم اسمعيل سليم باشا المعروف بالفريق وكان سليمان باشا الفرنسوى سردارا على الجيش ولما عاد الضباط الذين كانوا أرسلوا الى فرنسا لاتمام الفنون العسكرية جعل من بينهم شريف بيك ومراد بك وعلى شريف بك وحنفى افندى العشماوى أركان حرب للسردار سليمان باشا وبعد وفاة هذا السردار (١٢٧٦) تعينوا القيادة الأورط والالايات بالجيش ويقال ان نابليون الثالث امبراطور فرانسا بعد ما فرغ من حروب ايطاليا كان يحسن لسعيد باشا اجراء بعض أمور تخالف رغبة متبوعه الافخم فنجم عن ذلك تعكير كأس السياسة بين التابع والمتبوع (١٢٧٧ هـ) ولذلك جمع سعيد باشا الجيوش ثانية وأعاد اليها الضباط وكان غالبهم خارج الخدمة وبعضهم بمصالح الحكومة ونظم ٤٥ اورطة من البيادة وعشرين بطرية من المدافع والايين من طوبجية السواحل وستة الايات من السوارى وخمسة عشر اورديا من الباشبوزوق واردبين من الشايقية وثلاثة ارادى من العربان واردبين من لابسى القاووق وكانوا يعرفون باسم دلاتيه ثم قاد هذا الجيش العرمرم وذهب فعسكر به عربوط وأقام هنالك نحو ثلاثة شهور أجرى أثناءها جملة مناورات حربية وكان عدد هذا الجيش ٦٤٠٠٠ جندى علم ذلك من عدد الارغفة التى كانت تصرف من مخبز القبارى يوميا ثم لما انقشعت ظلمات النفور وعادت أحوال السياسة كما كانت صرف هذا الجيش باجمعه ورتب اورطتين جديدتين كانت عساكرهما من حديثى السن وعلمهم القراءة والكتابة ثم نظم سنة ١٢٧٨ أربع اورط امدادية ثم جعلها اثنتى عشرة اورطة ثم صرفهم مبقيا اربع أورط من البيادة وثلاثا من السوارى وبطرية واحدة من الطوبجية السوارى وأخرى من الطوبجية البياده وهى القوة التى بقيت الى آخر أيامه وكان رحمه الله لا يفرله قرار الا مع عساكره المذكورة قائما فى وسطهم ملازما لهم فى أكثر أوقاته ورقى منهم الكثير الى أعلى الرتب وكانت تعرض عليه القضايا والمهمات وأكثر ما يتعلق بشؤن البلاد وهو بينهم لا يفارقونه أين حل أو ارتحل وكان كثير التنقل بهم من مصر الى الاسكندرية ثم الى مريوط وباب العرب وقصر النيل والقلعة السعيدية وكان دائما يغير أزياءهم الى أشكال مختلفة وقد ألبسهم أفخر الملابس من قطنية وصوفية ومخيش بالقصب ومحلى بالفضة والذهب وعلى طرابيشهم

Digitized by Google

الفرحيات وكانت مناظر فرسانه المدرعة والمزردة تشبه الى حد ما جنود أوربا التى كان يميل جدا الى
جعل هيئة عساكره تشبه عساكرها ولذلك فانه ابتاع قدرا عظيما من البرانيط الفرنجية قصد
الباسها للجنود فخاف سوء العاقبة من استعمالها وبقيت هذه البرانيط بمخازن القلعة حتى زمن
المرحوم اسمعيل باشا ولكثرة ما كان يصرف على الجنود خصوصا اضطرت الحكومة فى آخر عهده
الى الاستقراض فاستدانت نحو ثلاثة ملايين من الليرات ولما كانت فرمانات الامتياز وقتئذ
لا تصرح لحكومة مصر بالاستدانة من الخارج خاف عاقبة الامر وأصدر الاوامر المشددة ببذل
المجهود فى تسديد تلك الديون حتى انه صرح ببيع أثاث قصوره وسراياته وكثير من أملاكه
وعقاراته الخصوصية ابتعادا عن مخالفة الدولة صاحبة السيادة وشماتة المراقبين لهمن العائلة
الخديوية وغير ذلك مما ذكرناه ومع هذا فلم يتمكن من تسديد تلك الديون وترك معظمها بعد
وفاته ولعله تذكر أيضا أن الديون مجلبة لدمار الممالك تجعل صاحبها سيدا بما توجبه من مداخلته
والكل يعلم أن معظم الضعف الذى أصاب ممالك الشرق فى الوقت الحاضر سببه ديون الاجانب
فلا حول ولا قوة إلا بالله

مساعدة سعيد باشا لنابليون الثالث فى حربه مع المكسيك — رأينا من المناسب قبل
الكلام على هذه المساعدة الالمام ببعض أسباب تلك الحروب فنقول إنه فى سنة ١٨٦٠ ميلادية
كان رئيس جمهورية المكسيك هو المسيو جوارز (Juarez) وفى مدته سعى بعض الاحزاب فى
اقامة الحكومة الملوكية بدل الجمهورية فحدث من ذلك ثورات داخلية ولما كانت المكسيك مديونة
لانكلترة وفرنسا واسبانيا فى مبالغ وافرة ورأت الدولة المذكورة أن قد أصاب ماليتها العسر لما هى
فيه من الثورة أخذوا يطالبونها بديونهم ملحين وشددوا النكير فى ذلك فكتب جوارز للدول
المذكورة يطلب منها مهلة فحسبوا أن هذا من باب المحاولة وطلبوا منه الكفالة على ذلك ولما كان
لنابليون الثالث مقاصد سياسية فى محو الجمهورية من المكسيك وتقرير الملوكية بها اتفق مع
انكلترة واسبانيا على ان يحاربوا المكسيك سوية لاطفاء الثورة بها واصلاح حالها ورد النظام اليها
وكانت الولايات المتحدة مشتغلة اذ ذاك بحرب الغاء الرق فلم يمكنها المداخلة وبعد قليل انسحبت انكلترة
من الاتفاق وتبعتها اسبانيا وأما نابليون فلم يرجع عن عزمه وأرسل سنة ١٨٦١ العمارة الفرنساوية
تحمل الجيوش الى المكسيك تحت قيادة الجنرال بازين (Bazin) ولما ظهر الضعف على
الجنود الفرنسوية طلب نابليون من المرحوم سعيد باشا أن يمده ببعض الجنود السودانية لما كان
بينهما من المودة ولم يستأذن سعيد باشا الباب العالى فى ذلك وأرسل أورطة سودانية تتألف من
١٥٠٠ جندى عليها البكباشى جبرة الله محمد أفندى السودانى والصاغ ألماس أفندى محمد وأبحر
هؤلاء الجنود على وابور حربى فرنسوى (١٨٦٢ م) ولما مات هناك البكباشى المذكور خلفه فى
قيادة الاورطة المذكورة ألماس محمد أفندى ورقى الى رتبة البكباشى وبقيت هذه الاورطة هناك نحو
أربع سنوات وقد فنيت كلها تقريبا بالامراض والحرب ولم يعد منها سوى ضباطها و ٣٠١ من
أنفارها وقد أبلت فى الحرب المذكور بلاء حسنا هذا ولما بلغ الباب العالى الخبر اعترض على حكومة
مصر لان اشتراكها فى حرب بين دولتين أجنبيتين بغير مصادقة الدولة العثمانية يعد من حكومة
مصر المعتبرة جزأ من الدولة العثمانية اعلان حرب منها على المكسيك وهذا مخالف للعهود الدولية

وارسل

وأرسل الصدر الاعظم يوسف كامل باشا الى مصر مكاتيب شديدة اللهجة وقد أخذت المخابرات فى هذه المسئلة دوراعظيما الى آخر عهد محمد سعيد باشا

الشروع فى فتح ترعة السويس — قد سبق الكلام على هذه الترعة فى تاريخ الدولة بالجزء الاول ونذكر الآن الاسباب التى دعت سعيد باشا لمنح امتياز فتحها فنقول انه لما تولى سعيد باشا الاريكة الخديوية خاطبه الموسيو فردينند دولسبس قنصل فرنسا (Ferdinand de Lesseps) فى أمرها وكانت له به ألفة من قبل ثم ألح فى الطلب ذاكراً منافعها الجمة وان مصر وحكومتها ينالان من ذلك من العز والسعادة مالا يقدر ومن كثرة الحاح دولسبس وترغيبه وبما أبداه نابليون الثالث امبراطور فرانسا من حث سعيد باشا أيضاً على موافقة دولسبس مال سعيد باشا الى الايجاب سيما وانه كان يرى ان الترعة المذكورة تصبح حداً فاصلاً بين مصر والدولة صاحبة السيادة التى يخشى بأسها فاصدر أمراً بمنح الشركة الغير المعلومة الاعضاء وهى التى ألفها دولسبس التزام فتح القنال المذكور (٣٠ نوفمبر ١٨٥٤ م) ثم اتفق الطرفان على تعيين لينان باشا وموجيل بك لرسم أراضى البرزخ وعمل الميزانيات اللازمة وتحديد محل الترعة وتعيين الاراضى التى تحتاجها وتقدير تكاليفها وغير ذلك واهتم سعيد باشا بكل ما فى وسعه لانجاز الاعمال التمهيدية ثم اجتمعت اللجنة المختلطة ونظرت فى تلك الاعمال وعقدت شروطاً لذلك (٥ يناير ١٨٥٦ م) ومما جاء فيها أن والى مصر لا يصدر أمره بالشروع فى حفر الترعة المذكورة الا بعد ترخيص الباب العالى وان الشركة تتعهد بعمل ترعتين احداهما بحرية لمرور السفن من البحر الابيض الى البحر الاحمر مارة فى برزخ السويس وتكون الثانية نيلية لمرور السفن من النيل الى الترعة المالحة المذكورة وان ما يلزم للترعتين من الاراضى وكان ملكا للحكومة المصرية تتنازل عنه للشركة بلا مقابل وما كان مملوكا للاهالى فان الشركة تدفع ثمنه بمساعدة الحكومة المصرية وقبل سعيد باشا أيضاً ان يساعد الشركة بعشرين ألف عامل تكون تحت يدها على الدوام حتى ينتهى فتح الترعة وغير ذلك من المساعدات ثم أصدرت الشركة أسهما قيمتها ٢٠٠ مليون فرنك فابتاع سعيد باشا من هذه الاسهم باسم الحكومة المصرية ١٧٦٫٦٠٢ ثم ابتدأت الشركة فى العمل على ساحل البحر الابيض المتوسط (٣ ابريل سنة ١٨٥٩) كل ذلك وحكومة فرانسا لا تفتر طرفة عين بواسطة سفيرها فى الاستانة عن بذل المساعى الجمة لجعل الباب العالى يصادق على فتح الترعة المذكورة ولما نجحت مساعى دولسبس فى ذلك وفى بيع السهام وشرع فى الاعمال واشتهر هذا العمل وعلمت الدولة الانكليزية ما لوالى مصر وقتئذ من الميل لاتمام هذا المشروع وابرازه الى عالم الظهور بمال مصر ورجالها وكان هذا الامر ينافى نواياها السياسية التى من أهمها منع كل دولة أوروباوية قوية من الاستئثار بعمل عظيم فى مصر أخذت فى المعاكسة واقامة العراقيل ونشرت جرائدها مقالات عديدة تطعن فيها على هذا المشروع وتعارض فى انجازه وتقول بعدم نجاحه وامكان عمله وغير ذلك وأخذت تخابر الباب العالى على يد سفيرها بالاستانة ليسعى جهده فى توقيف العمل وتغيظت من والى مصر حتى انها أعدت سفنها الحربية لتذهب الى الاسكندرية مهددة وحصلت المخابرات بين الباب العالى ومصر فى هذا الشأن وكثر الخوف فى الديار المصرية حتى ان قنصل فرانسا الموسيو سباتيه (Sabatier) كتب (٣٠ يوليو ١٨٥٩) الى الفرنسويين المقيمين فى برزخ السويس يشير عليهم بمبارحته

Digitized by Google

وان كل من تأخر عن الرحيل لا يلوم الا نفسه وكثر اللغط فى شأن قدوم الأساطيل الانجليزية ومما زاد الخوف وأقلق الافكار ان الدولة العثمانية كانت غير راضية عن فتح القنال وليت الدولتين العثمانية والانجليزية تجمعتا فى مساعيهما ومنعتا شق هذا القنال الذى شق المرائر وجلب المصائب والرزايا على هذه البلاد التعيسة ثم توسط نابليون الثالث فى الامر بالطرق السياسية وتخابر مع الدول فهدأت الاحوال وتذللت بعض المصاعب وكان العمل مع ذلك مستمرا ولم يأت يوم ١٨ نوفمبر من سنة ١٨٦٢ الا وقد شقت الشركة القنال المذكور حتى وصلت الى بحيرة التمساح كل هذا ولم تحصل الشركة على فرمان التصريح من الباب العالى اكتفاء بتصريح والى مصر وهو مما لا يسمح به القانون الدولى ولكن من يقرأ ومن يسمع ولهذا ندد كثير من الكتاب بقولهم ولو أن فتح هذا القنال يعود على شركات الملاحة ودول التجار بالفوائد العظيمة لتقريبه الطريق بين أوروبا والممالك الشرقية وهو أمر يشكر عليه سعيد باشا ولكن كان الواجب عليه النظر مع حكومته فيما يعود على بلاده من المنافع والمكاسب التجارية والسياسية الحقيقية لان القنال فى أرض مصر وفتح بعمال مصر وأبنائها وكان لابد من ذكر ذلك فى عقد الشركة قبل أن يصدق ويصرح ولا يحق لاحد ما أن يمانعه فى ذلك

وفاة سعيد باشا — كانت وفاة محمد سعيد باشا بثغر الاسكندرية فى يوم ٢٧ رجب من سنة ١٢٧٩ هـ وعمره ٤٢ سنة ومدة حكمه ثمان سنوات وتسعة أشهر وكان رحمه الله جوادا كريما عادلا له فراسة ومعرفة بأمور كثيرة حاز نصيبا من المعارف عفيفا دينا زار قبر المصطفى سنة ١٢٧٧ واستصحب معه ١٢ بلوكا من البيادة و ٩٠٠ جنديا من السوارى ونصف بطارية من الطوبجية ورافقه كل من كامل باشا ومحمد راتب باشا وطلعت باشا وسليم باشا وابراهيم باشا وعبد الله باشا وعلى باشا أخو شريف مكة المكرمة وزكى باشا وكيل الشريف وغيرهم وعاد بعد شهر وستة أيام وخلفه فى الولاية ابن أخيه اسمعيل باشا

﴿ اسمعيل باشا ابن ابراهيم باشا ابن محمد على باشا ﴾

١٢٧٩ – ١٢٩٦ هـ

كان مولد اسمعيل باشا سنة ١٢٤٦ وتربى تربية علمية حسنة فى مدارس فرنسا مع اخوته أحمد باشا الاكبر ومصطفى باشا فاضل الاصغر وتقلب فى مدة سلفه سعيد باشا فى ادارات الحكومة المصرية فاختبر أحوالها بنفسه ولما انفرد بالحكومة بذل جهده فى تحسين البلاد فارتقت الى درجة لم يسبق لها مثيل فى هذه البلاد كما سنبينه فى مواضعه لانه صرف قصارى الهمة والعزيمة فى امتداد نطاق التجارة والزراعة والصناعة وملأ أراضى مصر بالترع والطرق الحديدية والخطوط التلغرافية حتى أوصلها الى بلاد السودان وأجرى المياه العذبة فى شوارع القاهرة وثغر الاسكندرية فى أنابيب حديدية على يد شركات أجنبية واضاء شوارع مصر واسكندرية بالأنوار الغازية ووسع معامل السكر التى كان سلفه أسسها بالوجه القبلى وأسس معامل الورق ببولاق بجانب المطبعة الأميرية التى أدخل فيها كثيرا من الاصلاحات وجلب لها أحسن الآلات حتى أضحت من

احسن

Digitized by Google

أحسن المطابع وترجمت في أيامه الكتب العديدة من اللغات الافرنجية الى اللغة العربية لالتفات الناس الى تحصيل العلوم وصرح في سنة ١٢٨٦ بتأسيس جمعية لنشر المعارف في البلاد بمساعى المرحوم عارف باشا جعلت تحت رعاية ولى عهد الحكومة توفيق باشا اعظاما لشأنها وقد أفادت هذه الجمعية فائدة جليلة بما طبعته من المؤلفات المهمة القديمة في كل العلوم العربية وأنشأ الكتبخانة الخديوية التي بدرب الجماميز وجمع فيها أنفس المؤلفات بين عربية وتركية وفارسية وغيرها واعتنى بدار التحف المصرية اعتناء عظيما وعين لادارتها (١٨٦٣ م) ماريت بك (Mariette) المؤرخ الشهير والحاصل أن مصر دخلت في أيامه في دور التمدن الغربي الحديث واتسعت بها موارد الثروة واتفق أن قامت في أول أيامه الحروب الداخلية بممالك امريقا المتحدة وبذلك انقطع ما كان يرد منها من الاقطان الى انجلترة فتهافت طلابه على مصر فأثرى الناس من ذلك وأكثروا من زراعته

زيارة السلطان عبد العزيز خان لمصر — انه في السنة الاولى من تولية المرحوم اسمعيل باشا قدم مولانا السلطان عبد العزيز خان لمصر زائرا كما سبق في الجزء الاول فاحتفل به الخديو احتفالا لم يسبق له مثيل وفي مدة اقامته بثغر الاسكندرية صلى الجمعة بجامع سيدى الاباصيرى في مقصورة خصوصية كما هي العادة وأقام بالقاهرة في سراى المرحوم محمد على باشا التي بالقلعة وصلى الجمعة بجامع محمد على باشا بالقلعة داخل مقصورة أيضا وضعت بجوار المنبر وخرج لصلاتها في موكب عظيم سار فيه بين يديه الامراء والذوات العظام على الاقدام وكانوا أعدوا لجلالته مقاصير أخرى بالمسجد الحسيني وبالمسجد الزينبي فلم يصل فيهما لانه لم يقم بالقاهرة الاسبعة أيام زار أثناءها أشهر الامكنة ثم عاد الى دار الخلافة وقدم له الخديو وابورفيض جهاد هدية ليكون له يختا خصوصيا فقبله وسمى من يومئذ بالسلطانية وأوصى الخديو بلونذره على وابورا آخر لكوبته دعاه المحروسه كما أوصى بعض معامل فرنسا فبنواله سفينتي مصر والغربية

المعارف في عهده — لما جلس المرحوم اسمعيل باشا لم يكن بمصر من المدارس الأميرية الاثلاث فقط ولما كان يعرف قيمة العلوم لحسن تربيته كما سبق وأن سعادة الأمم مرتبطة بترقيها في المعارف وجه عنايته والحق يقال الى هذا الامر وأنشأ كثيرا من المدارس بمصر والاسكندرية ومدن الاقاليم حتى بلغ عدد ما أنشأه منها ٤٣ مدرسة [1] جمع فيها من شبان القطر عددا وافرا

---

(١) مدرسة الطب والولادة وكانتا مدرسة واحدة فوسع نطاقها وفصلهما عن بعضهما سنة ١٨٦٤ والمدرسة التجهيزية تأسست ١٨٦٤ م ومدرسة اسكندرية تأسست سنة ١٨٦٤ ومدرسة المبتديان تأسست ١٨٦٣ والمهندسخانة تأسست ١٨٦٦ والطب البيطرى تأسست ١٨٦٧ ثم ألغيت سنة ١٨٧٩ ومدرسة المحاسبة التابعة للحربية تأسست سنة ١٨٦٧ وألغيت سنة ١٨٧٣ ومدرسة الزراعة التابعة للحربية تأسست ١٨٦٧ وألغيت سنة ١٨٧٥ ومدرسة المساحة والمحاسبة تأسست ١٨٦٨ ومدرسة الحقوق تأسست ١٨٦٨ ومدرسة الفنون والصنائع تأسست ١٨٦٨ ومدرسة التلغراف العربي تأسست ١٨٦٨ وألغيت سنة ١٨٦٩ وعدة مكاتب متنوعة تأسست في سنة ١٨٦٨ وألغيت سنة ١٨٧٢ ومدرسة الفنون العسكرية تأسست سنة ١٨٦٨ وألغيت سنة ١٨٧٢ ومدرسة طنطا تأسست سنة ١٨٦٨ ومدرسة أسيوط تأسست ١٨٦٨ وفرقة الرسم بالمدارس الملكية تأسست سنة ١٨٦٩ وألغيت سنة ١٨٧٩ وفرقة النقاشين تأسست سنة ١٧٦٩ وألغيت سنة ١٨٧١ ومدرسة

Digitized by Google

هذا خلاف المدارس الحربية التى أنشأها ونظمها وجعلها كمدارس فرانسا فى النظام وبذلك أعاد الى مصر التى كانت مركزا للعلوم والفنون كما يعلمه كل من له المام بالتاريخ أفخر ما كانت فقدته من أسباب السعادة ومدحه الكتاب على ذلك ولقبوه بمعيد مجد مصر ويعلم من الاسانيد الكتابية ان تلامذة المدارس المنتظمة بلغت زمن المرحوم محمد على باشا ٣٠٠٠ تلميذ فقط أما فى زمن هذا العزيز فقد زاد عددهم عن ستين ألفا ما بين سنتى ١٨٦٣ و ١٨٧٣ وبلغ فى هذه السنة الاخيرة ٨٩٨٩٣ تلميذا واذا قابلنا هذا العدد على سكان القطر وقتئذ البالغ عددهم ٥٢٥٠٠٠٠ نفس بحسب الاحصاء الرسمى خص كل عشرة آلاف نفس ١٧٣ تلميذا وهذا وان قل بالنسبة لاكثر بلاد أوروبا لكنه يعد نجاحا عظيما بالنسبة لبلاد مصر وعين أدهم باشا مديرا للمدارس وناظر اللاوقاف (٥ ش ١٢٧٩) ثم فصل فى ٩ صفر سنة ١٢٨٠ وأحال المدارس على شريف باشا الذى كان يومئذ رئيسا لمجلس الاحكام وفى ٢٢ الحجة سنة ١٢٨٤ عين على مبارك باشا مديرا للمدارس والاشغال ثم فصل سنة ١٢٨٧ وعين مكانه بهجت باشا (٢٤ ج) وجعل على مبارك باشا على نظارة الاوقاف وفى ٢٢ صفر من سنة ١٢٨٨ أعاد على مبارك باشا مديرا للمدارس والمكاتب مع بقائه على الاوقاف ونصب بهجت باشا على الاشغال العمومية ثم فى ٢١ ج سنة ١٢٨٩ جعل البرنس حسين باشا ناظر المدارس والاوقاف والاشغال والمكاتب الأهلية وعين على مبارك باشا مستشاراله وفى ٢٠ جمادى الثانية من سنة ١٢٩٠ تعين مصطفى رياض باشا ناظر المدارس ثم فصل عنها فى ١٠ محرم سنة ١٢٩٠ وتعين مكانه ثابت باشا (١٠ ربيع الثانى) ثم فى ٢٤ رجب سنة ١٢٩١ فصل ووجهت نظارة المعارف والاوقاف الى البرنس طوسون باشا وتعين ثابت باشا مستشاراله وفصل فى ٢٨ رجب سنة ١٢٩٢ ثم وجهت الى منصور باشا وفى ٢٧ جمادى الاولى من سنة ١٢٩٣ أعاد رياض باشا على نظارة المعارف ثم فصله فى ١٢ شوال سنة ١٢٩٤ ونصب مكانه اسمعيل أيوب باشا ثم صرفه فى ٢٨ شعبان سنة ١٢٩٥ وأعاد اليها على مبارك باشا وفصل فى ١٥ ربيع الثانى سنة ١٢٩٦ وأعاد اليها ثابت باشا فبقى وزيرا لها حتى تنازل اسمعيل باشا عن الاريكة الخديوية وكان فى انشاء هذه المدارس فائدة كبرى لا تقدر حيث نبغ منها كثيرون أفادوا البلاد واستفادوا هذا خلاف ما كان باوربا من التلامذة المصريين الذين يرسلون

اللسان المصرى القديم تأسست سنة ١٨٧٠ وألغيت سنة ١٨٧٥ وفرقة عمليات المرور تأسست سنة ١٨٧٠ وألغيت سنة ١٨٧٢ والمدرسة السنية للبنات تأسست سنة ١٨٧٣ ومدرسة بنى سويف تأسست سنة ١٨٧٢ ومدرسة المنية تأسست سنة ١٨٧٣ ومدرسة القربية تأسست سنة ١٨٧٢ ومدرسة الجمالية تأسست سنة ١٨٧٣ ومدرسة باب الشعرية تأسست سنة ١٨٧٤ ومدرسة السيدة زينب تأسست سنة ١٨٧٣ ومدرسة شيخون تأسست سنة ١٨٧٤ ومدرسة بولاق تأسست سنة ١٨٧٢ ومدرسة العقادين تأسست سنة ١٨٧٣ ومدرسة النحاسين تأسست سنة ١٨٧٢ ومدرسة العميان والخرس تأسست سنة ١٨٧٥ ومكتب الحبانية تأسس سنة ١٨٧٢ ومدرسة رشيد تأسست سنة ١٨٧٦ ومكتب الامام الشافعى تأسس سنة ١٨٧٨ ومدرسة عابدين تأسست سنة ١٨٧٩ ومدرسة مصر القديمة تأسست سنة ١٨٧٩ ومدرسة القشن تأسست سنة ١٨٧٩ ومدرسة قلم الترجمة تأسست فى سنة ١٨٧٨ ومدرسة دار العلوم تأسست سنة ١٨٧٣ ومدرسة الحسينية تأسست فى سنة ١٨٧٣ اهـ من كتاب الاحصاء للفاضل أمين بك سامى ناظر مدرسة المبتديان ودار العلوم

سنويا على مصاريف الحكومة امالا كمال معارفهم أولتلقى العلوم بالمدارس المختلفة هنالك فكانت فوائدها على الديار جمة ومنافعها مهمة اذ أوجدت لها من بنيها عددا كبيرا من الرجال أصحاب الاستعداد خدموها فى اداراتها المختلفة ولا تزال أعمال خدماتهم تذكر وتشاهد للعموم الى الآن فتشكر

ثورة أحمد الطيب فى قاو ـ ظهر فى أول حكم الخديو اسمعيل باشا فى بلدة قاو من أعمال مديرية جرجا رجل يدعى أحمد الطيب أصله من الصعيد الاعلى يزعم انه شريف جعفرى و يدعى العلم والولاية والمكاشفات فالتف عليه كثيرون فى زمن قليل وصار يطعن على الحكومة وأعمالها ويرمى الحكام بالمروق من الدين وحدث أن اشترى أحد الاقباط هنالك جارية وحاول تنصيرها فأظهرت الامتناع فأغلظ عليها فلما علم أحمد الطيب بذلك قام لتخليص الجارية المذكورة وتبعه كثيرون من أخلاط مديريتى جرجا وأسيوط ولما خلص الجارية كما أراد لم يقف عند هذا الحد بل جاوزه وادعى المهدوية فاستفحل أمره وخافت الحكومة من ثورة شديدة تكون عليها وأمر الخديو بتوجيه قوة عسكرية عليه وهى أورطتان ومدفعان وكان على الاورطة الاولى البكباشى محمد بك شكرى وعلى الثانية البكباشى فرج افندى الذكر وعلى الاورطتين القائمقام محمود بك طاهر (الآن باشا) وتعين جاهين باشا قائدا عاما على القوة المذكورة فسافرت الى قاو على بواخر النيل ولما وصلت انضم اليها فرقة من عساكر الباشبوزوق كانوا تحت قيادة رفاعة أغا ورافقها أيضا المرحوم محمد فاضل باشا مفتش وجه قبلى وقتئذ وهو المعروف بالدرملى وقصد الجميع الشيخ أحمد الطيب وجموعه واشتبكت المعركة بين الطرفين من الساعة العاشرة عربية نهارا و بعد ساعة انهزم الثائرون وقتل زعيمهم أحمد الطيب المذكور وقتل أحد عساكر الباشبوزوق وزال أثر الثورة بالمرة و بقيت العساكر هنالك ثلاثة أيام حفظا للامن وقتل فى هذه المعركة كثير من الثائرين وخربت بيوتهم وسلبت أموالهم ونفى عدد وافر منهم الى البحر الابيض مدة حياتهم ثم عفا الخديو عن باقيهم

البحرية فى عهد الخديو اسمعيل باشا ـ سبق الكلام فى مقدمة هذا الجزء عن الاصلاحات التى أدخلها اسمعيل باشا فى الادارة البحرية من أول جلوسه واهتمامه باعلاء شأن دار صناعة الاسكندرية وذلك بأن أعاد ورشها ومعاملها وجمع لها الصناع من أطراف البلاد وجدد فيها كثيرا من الآلات والمسابك حتى أصبحت تكفى لاحتياجات البواخر المصرية واستغنت عن كثير مما كانت تحتاجه من البلاد الاجنبية وكان على البحرية يومئذ أحمد باشا الجوخدار ووكيله مصطفى بك التوصيلى ومدير دار الصناعة مصطفى بك جركس ثم عين أحمد باشا المذكور مديرا لقلم المشتروات الذى أنشئ حديثا فكانت جميع مصالح الحكومة تطلب منه ما يلزمها من البلاد الاجنبية فيشتريه لها بالمناقصة وبذلك توفر للحكومة مبالغ عظيمة ووجهت نظارة البحرية الى عبد اللطيف باشا (١٢٨٠ ﻫ) وجعل محمد راتب بك ناظرا للترسانة وأوصت الحكومة بعض معامل انكلترة وفرانسا بان تشيد لها اسفنا حربية ولما وصلت تلك البواخر اختار لها عبد اللطيف باشا من رجال البحرية الملغاة من يرى فيهم الاهلية وصدر أمر الخديو أيضا بانشاء فرقيطة حربى بالاسكندرية ولما أتموه أنزل الى البحر باحتفال كما جرت العادة حضره الخديو بنفسه وسمى هذا

Digitized by Google

القرويت لطيف باسم ناظر البحرية وشرعوا في بناء قرويت آخر حربي وفي بناء منزل الديوان البحرية وعمروا مسجد سيدي المجاهد القريب من الميناء وأجريت اصلاحات أخرى مفيدة ونعين بعض ضباط البحرية في ادارات تابعة للبحرية مثل بحري قبودان فانه تعين مأمور المشتروات الوقتية وجعل مكانه بعد وفاته (١٢٨١ ه) اليوزباشي مصطفى قبودان عرفي ونصب شاهين قبودان مأمورا لفلائك وصندل الديوان والبكباشي خلف الله قبودان مأمورا لورشة النبالة وما يتبعها من البراطيم والشمندورات والمخاطيف والجنازير والاحبال والمقص وغيرها من الاشياء الباقية من الدونمنا القديمة ثم لما أبدل المقص المذكور بآلة الونش الحديدي الكبير (١٢٨٨ ه) الذي جعل لرفع الاثقال تعين له محمد الدكش قبودان الذي تعين فيما بعد بادارة الميناءات والفنارات مع مديرها ميكلوب باشا وفي تلك الاثناء ابتاع لطيف باشا ناظر البحرية سبع سفائن شراعية جعل رباناتها من قبودانات المراكب الشراعية التجارية واستخدمها في نقل الاخشاب والاحطاب اللازمة للبحرية والعسكرية من الاناضول وكان ذلك من أحسن الاعمال وأفيدها لمصر ولما وصلت المراكب التي أوصت عليها الحكومة الخديوية من بلاد أوروبا أمر الخديو بنقل فرقاطة الابراهيمية ووابورسمنود من البحر الابيض الى البحر الاحمر عن طريق رأس عشم الخير وكان ذلك قبل فتح القنال فسافر الاول سنة ١٢٨١ ه تحت قيادة مصطفى بك العرب وعرج في طريقه على زنجبار فأكرم سلطانها السيد ماجد ابن السيد سعيد من بالسفينة المذكورة من المصريين وأهدى قبودانها سيفا مجوهرا وأشياء أخرى وأرسل معه مكتوبا ودياً الى الخديو مصر وكتب الخديو له يشكره على ذلك [1] وسافرت الثانية في سنة ١٢٨٢ تحت قيادة سليمان قبودان حلاوة كما مر بالجزء الاول ثم لما وصل مصطفى بك الى السويس جعل باشبوغا لعموم السفائن فيها وكان على قبودان الديب مأمورا لادارة الحوض ولما رقي مصطفى بك العرب الى رتبة اللواء جعل

(١) الملك المعظم والسلطان المفخم سلطان زنجبار صانه الله تعالى من الاكدار سلام يسفر عن اخلاص المودة سناه وثناء يخبر عن صدق المحبة لفظه ومعناه وتحيات تتمسك بنفحاتها المحافل وتتمسك باذيالها نسمات الشمائل الى حضرة خلاصة الاماجد الاكارم وينبوع المحامد والمكارم مفخر الملك والعليا وانسان عين الدين والدنيا من أشرقت صفحات الايام بنور اقباله واتفقت كلمات الانام على شكر خلاله وقرت بسعوده النواظر وترنحت بوجوده أعواد المنابر فكأنها الغصون النواضر الاجل الاكرم الاسعد الامجد الافخم المشار اليه أعلاه حرس الله علاه ولازالت ثغور الملك بمعاليه باسمه ورياح السعد في نواديه ناسمه وعيون الخطوب عن سدته نائمه وغيوث السرور على ساحته دائمه آمين وبعد فقد وصل الى مشرفكم الكريم وتلقيته بما ينبغي له من التكريم فحصل لي مزيد المسرة بصحة مزاج تلك الحضرة وأخبرني أيضا مصطفى بك قبودان سفينتنا الابراهيمية أنه لما وصل الى جهة مملكتكم المحمية حظي من جنابكم العالي بحسن التشريف وحصل له غاية المساعدة ونهاية التلطيف وشرح لدي ما ناله هناك من صنوف الالتفات والاسعاد وأوصل الي أيضا من طرفكم الشريف فرسين كريمتين من الصافنات الجياد فأحاط بي من السرور والابتهاج بما أبديتموه من معالي هممكم ولاسيما ماتكرمتم به من تشريف تلك السفينة بقدوم قدمكم ما يقصر في وصفه اللسان ويقصر عن تعريفه بنان البيان ويضيق عنه نطاق التعبير ولا ينفسح له مجال التقرير والتحرير فشكر الله تلك الهمم العوالي وأبقاها ما دامت الايام والليالي وهذا المحب بحمد الله في صحة وعافية ونعمة من الله تعالى وافية ولازال مشمول القلب بالود اليكم مشغول اللسان بالثناء عليكم محافظا على صدق الموالاة والوداد مواظبا على حسن المصافاة ومزيد الاتحاد والمرجو أن يتصل ذلك بين الطرفين على الدوام وكل ما يلزم من هذا الجانب فهو رهين الاشارة والسلام ما حرر في شهر محرم الحرام سنة ١٢٨٢ ه من المحب المخلص اسمعيل بن ابراهيم بن محمد علي اه من الآثار الفكرية

وكيلا

Digitized by Google

وكيلا للبحرية بدلا عن مصطفى بك التوصيلي الذى نقل الى مصلحة الانجرارية بدار صناعة بولاق بدلا من محمد بك مهدى البحرى (١٢٨٢ هـ) وتعيين جمالى بك باشبوغا بدله بالسويس وقبودانا لفرقاطة شير جهاد وفى سنة ١٢٨١ هـ أمر الخديو بفتح مدرسة للبحرية وانتخب لها عبد اللطيف باشا من أولاد ضباط البحرية ٢٢ تلميذا وجعلها أولا فى زرخ غمرة واحد ثم نقلت الى وابور النيل الذى سمى بعد ئذ بالفيوم لتكون تحت نظارة قبودانه محمد بك الرودسلى وكان يعلمهم بعض العلوم البحرية ثم لما وصلت فرقاطة شير جهاد الى السويس نقلت المدرسة المذكورة اليها وتعين للتدريس بها مصطفى قبودان شاهين ونبغ من المدرسة المذكورة طلبة استخدمتهم الحكومة فى بواخرها المستجدة ثم فصل لطيف باشا من البحرية وصار شاهين باشا ناظرا للجهادية والبحرية معا وأوصى الخديو أحد معامل فرانسا على عمل ثلاث مدرعات حربية واحد معامل النمسا على مدرع رابع وأمر ناظر البحرية بفتح مدرسة بحرية يدرس بها ما يدرس بالمدارس البحرية بأوروبا فصدع بالامر وانتخب لها من فيهم اللياقة من المدارس الملكية الاميرية وهم الحائزون على المعلومات الابتدائية وكنت من ضمنهم وجعلت تحت نظارة مكيلوب بك الانجليزى وكان استقدمه الخديو ليكون معلم فن الملاحة للامير ابراهيم باشا رابع أنجاله ولما أرسل الامير المذكور الى أوروبا جعل مكيلوب بك ناظر المدرسة البحرية المذكورة وكان يدرس فن الملاحة وسير السفائن وكان وكيله عبد الرزاق بك يدرس اللغة الانكليزية وعلى التاريخ والطبيعة وعلى سلامة أفندى يعلم علم الهيئة والجغرافيا ويعلم ابراهيم أفندى رسم خرط البحار ومصطفى بك صادق الرياضة والجبر وعلم المثلثات المستقيمة والكروية واليوزباشي عثمان افندى طلعت استعمال السلاح والقوانين العسكرية والمسترجبسون فن الطوبجية والسيف البحرى والارمه والمستر أوبرايم فن الطوربيد البحرى وسليمان أفندى زهدى اللغة التركية والخط وكانت مدة الدراسة بها ثلاث سنوات موزعة على الكيفية الآتية

السنة الأولى	السنة الثانية	السنة الثالثة	ملحوظات
جزء أول من فن الملاحة	جزء ثاني من فن الملاحة	الآلات البخارية	
استعمال الكرة الصناعية	الكائنات الجوية	مناورة بحرية	
علم الطبيعة	فن الطوبجية البحرية	لغة انجليزية	
حساب المثلثات الكروية	لغة انكليزية	جغرافيا	
جغرافيا	جغرافيا	التاريخ البحرى	
خرط البحار	تعليم السلاح	القوانين البحرية	
تعليم السلاح	القوانين البحرية	خرط البحار	
فن المدافع	خرط البحار	مسائل بحرية	
فن الارمه	فن المدافع	تطبيقات	
تعليم الجذاف	تعليم الجذاف	تعليم السلاح	
تعليم سير الفلائك	سير الفلائك بالشراع	فن المدافع	
تعليم السباحة	تعليم الارمه	تعليم الارمه	
اللغة التركية	استعمال الكرة السماوية	اللغة التركية	
القوانين العسكرية	اللغة التركية	القوانين العسكرية	
لغة انكليزية	القوانين العسكرية	فن الطوربيد	
....	فن الطوربيد	....	

Digitized by Google

واستمر التعليم بهذه المدرسة على هذا المنوال أربعة أعوام تقريبا وكانت نظارة البحرية تعتنى بها كثيرا وتهتم بشأنها وأمر رحمه الله أيضا فانتخبوا أربعة من التلامذة أرسلوا الى البلاد الانكليزية يتعلم اثنان منهم فن انشاء السفن وهما حسن فريد افندى وحشمت افندى ويتعلم الاثنان الآخران وهما محمد أنيس افندى ومحمد عارف افندى عمل الآلات البخارية كل ذلك بقصد توسيع نطاق البحرية المصرية ولما تعلم المذكورون ما أرسلوا لاجله عادوا الى بلادهم وألحقوا بادارة الصناعة ثم انه فى أواخر سنة ١٨٦٨ لما قرب انتهاء فتح قنال السويس شيدت الحكومة أربعة فنارات على سواحل البحر الابيض عند رشيد ودمياط والبرلس وبورسعيد وشكلت للفنارات ادارة خاصة وأحالت رياستها على مكيلوب بك المذكور وجعلت سليمان حلاوة أفندى القبوذان (١) مدرسا لفن الملاحة وحل المسائل الفلكية بالمثلثات الكروية بالمدرسة البحرية ثم ان مكيلوب بك اجتهد حتى تمكن من اضافة أعمال مينات مصر الى الفنارات وكانت ادارة ميناء الاسكندرية لغاية سنة ١٨٧٠ ميلادية خارجة عن الادارة المذكورة ورئيسها محمود قبوذان كله يوسف وكان مكيلوب يسعى كثيرا فى ضمها الى بقية الموانى ويعارضه لطيف باشا الذى كان خلف شاهين باشا على البحرية ثم انتهى الامر بحصول مكيلوب على مرغوبه وأنعم عليه الخديو برتبة أمير اللواء وسن للفنارات والموانى نظاما خاصا هذا وكان بالبحر الاحمر أربع منارات أيضا بجهات زفو بيا والزعفران

(١) ولد سليمان حلاوه ببلدة قصر بغتة ادمن أعمال المتوفية سنة ١٢٣٥ ﻫ ثم ألحق وهو فى العاشرة من عمره بمدرسة الاسكندرية الاميرية ولما تعلم بها القراءة والكتابة والمعلومات الابتدائية ألحق بمدرسة الطوبجية (١٢٤٧ ﻫ) فتلقى بها العلوم الرياضية ونال رتبة جاويش ثم باشجاويش ولبراعته جعلوه معلما الفرقة من التلامذة مع استمراره على تلقى العلوم وكان من معلميه وقتئذ المرحومان مظهر باشا وبهجت باشا وفى سنة ١٢٥٠ نال المترجم رتبة الملازم وفى سنة ١٢٥٣ عينوه بمدرسة البحرية مدرسا للهندسة والحساب وكان مع ذلك يتلقى العلوم البحرية وكان من معلميه اثنان من الاجانب أحدهما تليانى والآخر مالطى وقد ظهر عليه فى كل هذه الادوار استعداد غريب ومهارة فائقة ولما رأى ان علم الملاحة انما مبناه قوانين المثلثات المستقيمة الاضلاع والمثلثات الكروية أخذ يطبق علم الملاحة على هذه القوانين حتى برع فى فنون الملاحة وتقدم فيها جدا ثم لما مات المعلمان الاوروباويان المذكوران أحيل عليه تعليم فنون الملاحة وعلم الحساب أيضا ولحذاقته ومهارته كان يلقى على التلامذة القضايا النظرية والعملية بطريقة بسيطة ويبرهن لهم عليها بكيفية سهلة مفهومة فاستفادوا وبرعوا ثم عينته الحكومة مع غيره لاكتشاف حدود مصر من جهة الغرب وتعيين الابعاد التى يمكن للسفن الاجنبية الدنو منها فعمل لذلك خريطة متقنة ثم عين مرة أخرى لاكتشاف المراقئ التى فى السواحل المذكورة فذهب ورسم لذلك خريطة أخرى ثم فى سنة ١٢٧١ لما ألغيت المدرسة البحرية جعل المترجم ضمن ضباط بغت فيض جهاد وأحالوا عليه تصحيح ساعات الكرنومتر ثم عينوه لتقدير حساب الاسفار به أيضا وفى تلك المدة نال الرتبة اليوزباشى وفى سنة ١٢٨٢ نال رتبة الصاغقول اغاسى وجعل قبودانا بالباخرة سمنود ثم رقى الى رتبة البكباشى وأمرته الحكومة بالذهاب الى بلاد الانكليز لاصلاح بعض آلات باخرته وان يأخذ معه حجاجا من فقراء المغاربة كانوا تخلفوا بمصر وتوصيلهم الى بلادهم وقد كابد فى هذه السفرية صعوبات شتى لانتشار الوباء بين أولئك الحجاج ورفض كل الموانى انزالهم بها ولما أخرجهم الى بلادهم وأصلح باخرته أمر بالدوران حول قارة افريقية لايصال الباخرة المذكورة مدينة السويس فقام بذلك خير قيام ثم فى سنة ١٢٨٧ نقل الى المدرسة البحرية التى كان يديرها مكيلوب بك الذى نقل الى ادارة الفنارات أما المترجم فاحالوا عليه هناك تدريس الفنون البحرية والفلكية فأفاد التلامذة فائدة عظيمة وألف فى فن الملاحة كتابا يسمى الكوكب الزاهر فى فن البحر الزاخر ثم تقلب فى عدة وظائف الى أن أحيل على المعاش سنة ١٣٠٠ وكانت وفاته سنة ١٣٠٣ رحمه الله رحمة واسعة

Digitized by Google

والاشرفى وأبى كيزان ولما كانت هذه الفنارات قليلة بالنسبة لكثرة صخور البحر المذكور وأخطاره أمر الخديو فشيد أخرى سهلت بها الملاحة بالبحر المذكور وهى فنار رأس الغريب (١٨٧١ م) وفنار صخور الاخوين الشمالية (١٨٧٣ م) ثم فنار جزيرة شدوان (١٨٨٩ م) ولما مات مكيلوب باشا خلفه موريس بك ورقى الى رتبة باشا واستقل الاميرال بلوندلد بادارة ميناء الاسكندرية ثم جمعت المصلحتان فصارتا ادارة واحدة

ولما كان شاهين باشا ناظرا للبحرية أتى من فرنسا الحوض العوام الذى كان أوصى عليه الخديو (١٨٦٨ م) ويعرف هذا الحوض بالدولى وقد بلغت تكاليفه ١٢٦٫٣٣٦ جنيها مصريا وطوله ٤٦٣ قدما وعرضه ٧٩ قدما وعمقه ١٧٫٦ قدما وزنته ٣٫٨٠٠٫٠٠٠ من الكيلوغرامات وبه آلتان بخاريتان قوة كل منهما ٢٥ حصانا وله بابان يفتحان ويغلقان حسب الارادة وفتحات بالجوانب وغير ذلك وهو سهل الاستعمال كما يعلمه أرباب الملاحة (١) ولما تم بناء فرويت الصاعقة أنزل أيضا باحتفال ثم أرسل الى مدينة طولون تحت قيادة ابراهيم بك عربكرلى لتركيب آلاته البخارية وكان يصحبه باخرة الجعفرية وبها تلامذة المدرسة البحرية للتمرين وكان بها أيضا بعض طوائف المدرعات المصرية التى تم بناؤها بمدينة طولون المذكورة سنة (١٨٦٨ م) ولما اعيد لطيف باشا لنظارة البحرية بالسنة المذكورة باشر أعماله بما كان متصفا به من النشاط والصدق ثم أمره الخديو بالسفر الى سلانيك للوقوف على معدن الفحم الحجرى الذى أمر السلطان بان مصر تستغله فسافر على فرويت لطيف وكان قبودانه محمد بك الرودسلى ٢٠ ابريل ١٨٦٨ م ولما وصل الى سلانيك بحث فى أمر المعدن المذكور هو ومن معه من المأمورين وأخذوا منه كمية للتجربة وفى عودته عرج على قوله وطاشيوز والاستانة العلية ثم عاد الى ثغر الاسكندرية ولما اطلع المهندسون على الفحم المذكور وجدوه لا يصلح لعدم نضجه وكانت مصر قبل ذلك بحثت كثيرا على معادن الفحم بسواحل البحر الاحمر فلم تعثر على شىء منها وذلك لاشاعة القول بوجود هذا الفحم ببلاد اليمن على مقربة من ساحل البحر الاحمر جنوبى مخا ولكن يظهر أن مأمورى الاجانب الذين عينوا لهذا الامر كانت لهم مقاصد فى اخفاء ذلك لتتمتع بلادهم بالربح الوافر كما هو معلوم وأرسلت البحرية فرويت لطيف الى انكلترة لاصلاحه مع قبودانه سليمان بك أبى داود وعاد فى ٥ مايو سنة ١٨٦٩ وكانت أرسلت قبل ذلك فرقاطة محمد على لاصلاح مراجلها فى مالطه مع سواريها والذى المرحوم سرفنك بك ثم فى سنة ١٨٧٢ أرسلت الحكومة ستا من بواخرها وهى الشرقية والدقهلية والبحيرة والرحمانية والفيوم وشبين الى لوندرة لاصلاحها وتغيير آلاتها وجعلها من الطرز الحديث وأرسلت أيضا فى تلك السنة باخرة المحروسة لاصلاحها وزيادة طولها ٤٠ قدما وتغيير مراجلها

(١) متى أريد ادخال سفينة بهذا الحوض لاصلاحها تفتح الطاقات الجانبية المذكورة فيدخل الماء فى صناديق عظيمة متينة فى جوانب الحوض فيهبط الحوض الى قاع الماء فتدخل السفينة الحوض حينئذ وتثبت باخشاب تعرف بالمناطيل ثم ينزح الماء من الصناديق المذكورة بالآلتين البخاريتين المذكورتين فيخف ثقله فيطفو على وجه الماء بالسفينة وبذلك يتمكن الصناع من اصلاح تمامها ومتى انتهى العمل منها تفتح الطاقات ثانية فيدخل الماء فى الصناديق فيهبط الحوض الى قاع البحر فيخرج السفينة وعلى الحوض العوام من الحوض الحجرى بمميزات منها امكان نقله من ميناء الى أخرى وسهولة هبوطه وصعوده وقلة مصاريفه وغير ذلك

Digitized by Google

وكان بها قاسم باشا ولما أصلحت عادت الى القسطنطينية وكنت يومئذ من ضباطها ولما عدنا ترقى قاسم باشا الى رتبة فريق وجعل وكيلا للبحرية (١٨٧٣ م) ورقى محمد كامل باشا الى رتبة اللواء وجعل قبودانا للمحروسة وفي هذه السنة احتفل الخديو بزواج أنجاله الامراء محمد توفيق باشا وحسين باشا وحسن باشا وكان احتفالا باهرا جدا دام شهرا من الزمان بحيث ضربت الامثال بفخامته وذكرنا باعراس بوران وبنت طيلون وغيرهما مما ورد ذكره في التاريخ وأنعمت الحضرة السلطانية على كل منهم برتبة الوزارة ثم أدخل الخديو أنجاله المشار اليهم ضمن الوزراء ليتمرنوا على الاعمال فجعل ولده الاكبر محمد توفيق باشا رئيسا لمجلس النظار والداخلية والامير حسين باشا ناظرا للمدارس والاوقاف والاشغال العمومية والامير حسن باشا ناظرا للجهادية والامير طوسن باشا ناظرا للبحرية بدلا من لطيف باشا الذي اشتهر بالسعي في ترقية البحرية المصرية (١) ومنصور باشا للمالية وجعل مصطفى باشا العرب مديرا لوابورات البوستة الخديوية وموسى بك ناظرا لدار الصناعة وتعين مكانه في وابور المحروسة جمالي بك الذي كان سواريا لشير جهاد بدلا عن مصطفى بك كحولك الذي كان خلف محمد رائف بك الذي ترقى الى رتبة اللواء وتعين باشبوغ السفائن الحربية بالبحر الاحمر وناظرا لدار صناعتها بدلا من محمد باشا الرودسلي (٢) الذي توفي (١٨٧٥ م) وفي سنة ١٨٧٤ انتقلت فرقاطه شير جهاد من بورسعيد الى الاسكندرية وتركها المرحوم والدي وتعين باشمعاونا للبحرية

(١) لطيف باشا هو من معاتيق المرحوم محمد علي باشا الكبير والي مصر ولما بلغ عمره ١٩ سنة أدخله المدارس الاميرية ثم نقل الى مدرسة البحرية التي كانت تحت ملاحظة القبودان كاملو (١٢٤١ ﻫ) وباتمام دروسه فيها عين قبودانا في احدى البوارج الحربية التي كان الخديو جددها عقب ضياع سفنه في ناوارين وحضر صاحب الترجمة واقعة عكا (١٢٤٦ ﻫ) وكان وقتئذ سواريا على فرقاطة البحيرة ثم أخذ يترقى حتى صار مفتشا على دار صناعة الاسكندرية ثم عين ناظرا لدار صناعة بولاق وفي سنة ١٢٦٢ ﻫ نصبه محمد علي باشا مفتشا على الاقاليم الوسطى وأمره بضبط رجل شقي كان زعيما لعصابة من اللصوص كانوا ينهبون مشحونات المراكب التي تقف على السواحل ويفرون بها هربا الى الجبال فاخذ لطيف باشا يبحث عليه حتى وقف على أمره بأنه يأوي الى امرأة تسكن البراري فاطمعها بالمال لتعلمه به بواسطة علامة وهي أن توقد نارا فيرى دخانها من بعد وقد كان وضبط الرجل بالقوة وحوكم في ديوان الحقانية الذي أنشأه محمد علي باشا وجعل لنفسه حق الحضور فيه عند الاقتضاء وفي سنة ١٢٦٥ عين المترجم حكمدارا للسودان ثم فصل منه وصار يتقلب في كثير من الوظائف الملكية الى سنة ١٢٨٠ التي عين فيها ناظرا للبحرية ثم فصل سنة ١٢٨٤ وأعيد اليها ثانيا سنة ١٢٨٨ وبقي فيها الى سنة ١٢٩٠ ثم نقل منها عضوا في المجلس الخصوصي حتى الغي في سنة ١٢٩١ ثم اعتزل الاعمال طلبا للراحة وتوفي سنة ١٣٠٢ مأسوفا عليه

(٢) محمد باشا الرودسلي أصله من عائلة من جزيرة رودس وحضر منها مع أخيه سليمان الى الديار المصرية فادخلهما أحد معارفهما في المدرسة الاميرية ثم تمما العلوم في المدارس البحرية وذلك في عهد ساكن الجنان محمد علي باشا ثم صارا من ضباط السفن الحربية ولما أعاد محمد علي باشا أسطول الدولة العلية بعد انتهاء المسئلة الشامية هرب سليمان قبودان المذكور مع من هرب باقي الاسطول الى الاستانة وخدم في بحريتها أما صاحب الترجمة فبقي مستخدما بسفن الدولتين المصرية يتنقل من سفينة الى أخرى وفي سنة ١٨٥٤ سافر ضمن ضباط احدى البوارج الحربية التي أرسلها المرحوم عباس باشا الاول لمساعدة الدولة في حرب القريم وبعد انتهائه وعودة الاساطيل صار المترجم يترقى الى أن جعله المرحوم سعيد باشا قبودان سفينته الخصوصية وبقي نائلا الرعاية الى أن جعل قبودانا للباخرة النيل ولما أنشئوا المدرسة البحرية في أوائل حكم الخديو اسمعيل باشا جعلها لطيف باشا ناظر البحرية في وابور الفيوم تحت رئاسة المترجم وكان قائما بتعليم تلامذتها أحسن قيام ولما نقلت الى السويس في وابور شير جهاد صار المترجم يسافر بالبريد ضمن وابورات البوستة الخديوية ثم أحيل عليه نقل الجيوش الى جزيرة كريد في ثورتها سنة ١٢٨٣ فقدمت في حقه شكوى لعدم قيامه

وأرسل وابور رشيدى تحت قيادة عبد اللطيف قبودان ترك الى بورسعيد ليكون فيه قره قولا ثم لما نصب طوسون باشا ناظرا على المعارف والاوقاف فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٧٤ وجه الخديو نظارة الجهادية الى البرنس حسين باشا وأحال عليه نظارة البحرية وصارت من وقتئذ نظارة البحرية يتولاها ناظر الجهادية والحاصل ان القوة البحرية بلغت يومئذ درجة عظيمة وهاهى السفن التى كانت تتكون منها القوة المذكورة

﴿ السفن الحربية وغير الحربية التى كانت فى زمن المرحوم اسمعيل باشا ﴾

(ركائب خصوصية)

طول	عرض	عمق	انخفاض القعر عن الماء من القدام	انخفاض القعر عن الماء من الوراء	ما يصرف من الفحم فى ٢٤ ساعة	حمولتها	مقدار ما تسع من الفحم	قوة آلاتها	سرعتها بالميل	نوع معدنها	مدافعها عيار لبره	مدافعها عدد	جهة عملها	أسماء البواخر
قدم	قدم	قدم	قدم	قدم	طن	طن	طن	حصان	ميل		عيار لبره	عدد		
٤٤٧	٠٤٣	٠٢٩	١٦	١٨	١٩٠	٣٥١٧	١٠٠٠	٨٠٠	١٦	حديد	٢٤	٨	لوندرة	المحروسة
٣٧٦	٣٩٫٦	٢٤٫٦	١٨	٢٠	٠٩٠	٣٩٢٤	٠٧٠٠	٦٠٠	١٢	»	٢٤	٦	تولون	مصر
٢٩٥	٠٣٧	٠٣٠	١٥	٢٠	٠٧٥	٣٦٠٠	٠٥٠٠	٥٠٠	١٠	»	١٢	٤	تولون	الغربية

﴿ البوارج الحربية ﴾

طول	عرض	عمق	انخفاض القعر عن الماء من القدام	انخفاض القعر عن الماء من الوراء	ما يصرف من الفحم فى ٢٤ ساعة	حمولتها	مقدار ما تسع من الفحم	قوة آلاتها	سرعتها بالميل	نوع معدنها	مدافعها عيار	مدافعها عدد	جهة عملها	أسماء البوارج
قدم	قدم	قدم	قدم	قدم	طن	طن	طن	حصان	ميل		عيار	عدد		
٢٩١	٠٣٦	٢٩	١٣	٠١٦	٥٥	١٧٦٣	٣٤٠	٤٠٠	١١	حديد وخشب	٢٨	١٢	امريكا	فرقاطة محمد على
٢٥٧	٠٤٣	٣٠	١٨	٠٢٠	٧٠	٢٤٣٤	٥٠٠	٤٥٠	٠٨	خشب	٢٨	١٢	تريسته	فرقاطة شير جهاد
٢٢٠	٠٣٥	٢٢	١٦	٠١٨	٤٨	١٢٥٠	٣٠٠	٣٠٠	١٠	خشب	٠٦	٧٣	اسكندرية	قرويت لطيف
١٧٨	٢٥٫٦	١٤	٩٫٦	١١٫٦	٢٤	٠٤٥٥	١٧٠	١٥٠	١٠	خشب	٠٥	٤٠	انكلترة	مدفعية الخرطوم
١٤٩	٠٢٥	١٤	٠٩	٠٩٫٦	١٥	٠٣٠٠	١٠٠	٠٧٠	٠٤	مدرع ب ٤	٠٨	٢٤	انكلترة	دارعة دنقلة
٢٢٥	٠٣٤	٢٠	١٥	٠١٧	٤٦	١١٥٠	٣٠٠	٣٢٠	١١	خشب	٠٨	٢٤	اسكندرية	قرويت الصاعقة
١٦٣	٠١٧	١٥	٠٧	٠١٣	٢٢	٠٤٧٨	١٨٠	٠٨٠	٠٨	خشب	٠٧	٤٠	انكلترة	مدفعية سنار
١٤١	٠٢٤	٠٩	٠٥	٠٠٩	١٠	٠٠٨٨	٠٢٦	٠٦٠	٠٦	مدرع	٠٢	٧٠	فرانسا	زورق نمرة ١
١٣٠	٠٢٤	٠٦	٠٣	٠٠٤	٠٦	٠١٧٧	٠٢٥	٠٥٢	٠٦	مدرع	٠٢	٧٠	فرانسا	زورق نمرة ٢

بواجب الخدمة فيها وبقى قبودانا فى البوارج الخديوية الى ان صار قبودانا الوابور الغربية وسافر به فى أوائل سنة ١٨٧٤ بمعية العائلة الخديوية الى الاستانة وهناك نال رتبة اللواء وجعله الخديو قومندانا عاما على سفن البحر الاحمر فأقام فى سراى القومندانية يؤدى خدمتها الى أن توفى فى أوائل سنة ١٨٧٥ م

Digitized by Google

﴿ طرادات وسفن النقل ﴾

طول	عرض	عمق	الغاطس بالعمورة من المقدم	الغاطس بالعمورة من المؤخر	ما تصرفه من الفحم في ٢٤ ساعة	حمولتها	مقدار ما تسعه من الفحم	قوة آلاتها	سرعتها بالميل	عدد الآلات وقوتها		مادة السفن	محل عملها	أسماء البواخر المذكورة
قدم	قدم	قدم	قدم	قدم	طن	طن	طن	حصان	ميل	عدد	قوة	معدن		
١٩٧	٢٧	١٢٫٦	٦٫٧	٠٦٫٩	٣٠	٠٣٥٢	١١٥	١٤٠	٠٩	٢	٠٥	حديد	انكلترة	الطور رفاس
٢٤٥	٢٧	٠١٧	١٢	٠١٢	٣٨	٠٦١٤	٣٢٤	٢٦٠	١١	٤	٢٥	خشب	»	أسوان دولاب
٢٤٥	٢٧	٠١٧	١٢	٠١٢	٣٨	٠٦١٤	٣٢٤	٢٦٠	١١	٤	٢٥	»	»	شندى »
١٧٢	٢٥	٠١٦	١٢	٠١٣	٢٤	٠٤٠٠	١٣٠	٢٥٠	٠٦	٢	٠٥،	»	اسكندرية	أسيوط »
٢٣٠	٣٠	٠٣٠	١١	٠١٣	٣٠	٠٦١٠	٣٢٠	٢٥٨	١٠	٣	٠٥،	حديد	انكلترة	الجعفرية رفاس
٢٩٢	٧٧	٠٣٠	٢٠	٠٢٣	٢٤	١٢٧٦	٣٠٠	١٥٠	٠٦	٢	١٠	خشب	»	سمنود »
١٥٥	٢٥	٠١٨	٨٫٩	١٢٫٩	١٢	٠٢٨٨	٠٩٥	٠٨٥	٠٨	٢	٠٥	حديد	»	نور الهدى »
١٥٠	٢٥	٠١٧	٨٫٦	١٢٫٦	١٢	٠٢٨٨	٠٩٠	٠٨٠	٠٧	٢	٠٥	»	»	مخبر
١٢٦	٢٢	٠٠٩	٧٫٥	٠٠٨	١٧	٠٣٠٩	٠٥٠	١٠٠	٠٧	٢	٠٥	»	»	عجمى

ويتبع ذلك باخرتان للخدمة في الترسانة تسمى الاولى برقة وقوتها ٣٢ حصانا والثانية محمدية وقوتها ٢٥ حصانا وزفاسان وبعض الكواتر والصنادل

﴿ سفن شراعية ﴾

طول	عرض	عمق	حمولة	أسماء السفائن	أسماء قبوداناتها
قدم	قدم	قدم	طونيلاطه		
١٠٧٫٠	٢٨٫٠	١٨٫٠	٠٥٠٠	بريك نمرة ١	مصطفى قبودان مرستاكى الكريدلى
١٢٥٫٠	٢٩٫٠	١٨٫٠	٠٦٥٠	» » ٢	حسن قبودان حسن الكريدلى
١٣٦٫٠	٢٩٫٠	٢٤٫٠	٠٩٥٠	» » ٣	محمد قبودان على الرودسلى
١١٥٫٠	٢٨٫٠	١٨٫٠	٠٦٥٠	» » ٤	محمد قبودان البدن الاسكندرانى
١١٠٫٠	٢٦٫٠	١٥٫٠	٠٦٤٠	» » ٥	محمد قبودان مصطفى القلاوظ الكريدلى
١٢٠٫٠	٢٨٫٠	١٨٫٠	٠٥٢٠	» » ٦	محمد قبودان صوان الاسكندرانى
١٨٩٫٠	٣٨٫٠	٢٧٫	٢٠٠٠	» » ٧	حسن قبودان عبادى

المجلس العسكرى البحرى — لما كانت السفن لا تخلو في غالب الاوقات من حدوث بعض عوارض تصيبها امام من الزوابع أو المصادمات أو غير ذلك وكانت القوانين البحرية تقضى بتحقيق تلك الحوادث ومحاكمة كل من تقع عليه مسؤولية من جنود البحر وضباطه شكلت نظارة البحرية مجلسا بحريا مستدعيا النظر في ذلك ولم يكن هذا المجلس من قبل وكان رئيسه المير آلاى البحرى عبد الحميد بك (١٢٨٤ هـ) وأعضاؤه ينتخبون من قبودانات البوارج الأميرية التي تكون راسية بميناء الاسكندرية ومن كبار مأمورى دار الصناعة وكانت أول قضية نظرت فيه قضية ضياع باخرة السعيدية وحاصلها انه في أول نظارة لطيف باشا على البحرية صدمت سفينة فرنسوية باخرة السعيدية صدمة قوية فأغرقتها داخل ميناء الاسكندرية بالمكان المعروف بميناء الانجليز ولم يتيسر

Digitized by Google

اخراج تلك الباخرة بعد ذلك وكان قبودانها يسمى على قبودان كوتره (١٢٨١ ﻫ) وفى سنة ١٢٨٢ ﻫ غرق وابور محمد سوارية سليمان قبودان الكريدلى بالبحر الأحمر من ملاطمته لشعب بجهة سواكن يعرف بساق عنب وغرق معه قبودانه المذكور واثنان من ضباطه هما سليمان قبودان وعمران قبودان وعدد كثير من ملاحيه وبينما كانت السفن المصرية بجزيرة كريد زمن المرحوم اسمعيل باشا أثناء ثورتها سنة ١٢٨٣ ﻫ غرقت باخرة نور الهدى سوارية حسن قبودان على ساحل اكروتير بينما كانت ذاهبة الى خانية وفى سنة ١٨٧٢ غرقت باخرة أسوان سوارية محمد سراج قبودان أثناء ذهابها من سواكن الى مصوع لصادمتها صخرا ونجت معظم طائفتها وفى السنة المذكورة أيضا غرق القرويت الشراعى نمرة ٢ وكان قبودانه يدعى حسنا كى الكريدلى امام مدينة اضاليه بزوبعة شديدة بينما كان يجلب أحطابا للجهادية وغرق معه أغلب طائفته واثنان من تلامذة المدرسة البحرية وفى سنة ١٢٨٥ بينما كانت باخرة الشرقية سوارية عبد اللطيف قبودان ترلك مارة امام قره برون القريب من ازمير تصادمت مع باخرة قليوب المصرية سوارية محمد قبودان الجزائرى فغرقت وفى سنة ١٨٧٩ م بينما كانت الباخرة سمنود ذاهبة الى جزيرة سان موريس القريبة من مدغشقر تنقل آلات معمل للسكر كانت ابتاعتها احدى الشركات الانجليزية من الدائرة السنية هبت عليها زوبعة شديدة فأغرقتها وكان قبودانها مالطيا يدعى لوسكو ومعه القبودان على بخيت أفندى وقد نجيا ونجا معهما كل الطائفة لوجود سفينة انجليزية كانت قريبة منهم وبينما كانت فرقاطة محمد على راسية امام صالى بازار بالبوسفور فى شهر محرم سنة ١٢٩٤ صادمتها باخرة انكليزية تحمل غلالا فغرقت الباخرة الانكليزية وأصاب الفرقاطة المذكورة بعض أضرار أصلحت بالاستانة ودفعت الشركة التابعة لها السفينة المذكورة قدرا من المال حسب القوانين البحرية وفى شهر ربيع الاول من السنة المذكورة احترق قرويت لطيف بالبحر الأحمر وكتب مصطفى باشا الغرب مدير وابورات البوسطة الخديوية وكان قائما باعمال قاسم باشا وكيل البحرية الذى سافر مع السفن المصرية مدة حرب الدولة مع الروسيا تقريرا وافيا (١) أبان فيه سبب احتراق القرويت المذكور وقد أدرجناه أسفل الصحيفة لتمام الفائدة

(١) فى ١٧ مارث سنة ١٨٧٧ عرفت وكالة قومندانية السويس ان وابور لطيف حال حضوره من مصوع للسويس وهو بالبعد من فنار الزعفران بستة أميال وبالبعد من ساحل أفريقية بسبعة أميال أحرق وأتلف بسبب النار التى ظهرت من قزانانه وان طاقمه والنفوس التى كانت فيه حضرت مع وابور انكليزى الى السويس ولمعرفة حدوث هذه الحالة المحزنة كانت بأى كيفية وتحقيق ما اذا كان أحد مسؤلا فى هذا الخصوص من عدمه كنت استأذنت وسافرت الى السويس ولدى السؤال والاستفهام عن الكيفية من السيد قبودان شرف سوارى الوابور المذكور ومحمد عريف قبودان مفرداته وسائر ضباطه وطاقمه قالوا انه فى حال ما كان قادما للسويس بالبعد عن فنار الزعفران بستة أميال وعن شاطئ أفريقيا الذى كان امامه بسبعة أميال وبصادفته فى هذا الحال مرور وابورين انكليزيين وإعماله المناورة اللازمة حال مرورهما ظهر بغتة من أحد قزاناته لهيب وشب فى قرات الكوبرته وظهرت شعلة من جهة المدخنة بارتفاع باعين ومع بذل الجهد فى اخماده بواسطة الجرادل والطلومبه ما أمكن بل كان اللهيب يتزايد كلما صبت عليه المياه حتى التهب صارى الوسط وعربات الستة عشر مدفعا بالتى كانت بالكوبرته ولحقت النيران الجوانب العلوية منها والاربعة وعشرين صندوقا انتيقه جبخانه وأحاطت بكافة أطراف المراكب وصارت الطلومبة وغيرها عديمة التأثير وقد شوهد ان صناديق الانتيقة كانت تحترق فتفرقع وتنسف كالبارود فحولت الدفة على الاسكله لاجل الوصول الى البر قبل بوقت وبعد ان مشت المركب طول مركبين أو ثلاثة أطلق الماء مهندس البخار بدون اذن

Digitized by Google

ايجاد ادارة البوسطة الخديوية — كان الخديو اسمعيل باشا من يوم جلوسه موجها عنايته لانماء المواصلات البحرية ولذلك أمر بانشاء شركة بحرية كبيرة دعاها بالقومبانية العزيزية بعد ان أبطل الشركة التى كانت تأسست مدة سعيد باشا وتعرف بالمجيدية وجعل أموال هذه الشركة الحديثة مقسمة الى سهام كى يتمتع الكل بفوائدها فابتاع الاغنياء قدرا عظيما من أسهمها وخصص لها أولا سبع بواخر وهى الحجاز ونجد والقبارى وجدة بالبحر الأحمر والنيل والجعفرية وأسيوط بالبحر الابيض المتوسط وأوصى على انشاء بواخر جديدة ببلاد الانجليز وتعين مصطفى بك الطوسيلى وكيل البحرية مديرا لهذه الشركة وكانت السفن المذكورة تتردد على أهم ثغور الدولة بالبحرين الابيض والاحمر وعلى بلاد اليونان (١٢٨٠ هـ) ولما أتت السفن الجديدة الى ثغرى الاسكندرية والسويس جعل حسين شرين باشا مديرا عموميا للشركة المذكورة وعاد مصطفى بك الطوسيلى الى وكالة البحرية واستدعت الحكومة جميع ضباط البحرية الذين كانوا بالمصالح الاخرى أو فى المعاش واستخدمتهم بتلك البواخر وجعلت طوائفها من عساكر البحرية القديمة فانتظمت ادارتها وأحوالها وأسفارها انتظاما عظيما وأقبل عليها التجار والمسافرون اقبالا اغاظ الشركات الاجنبية الاخرى فنمى ايرادها وطارصيتها وكان المرحوم اسمعيل باشا لما رأى كثرة أرباحها أراد أن يكون ذلك لحكومته خاصة يتمتع به هولا غير فابتاعت الحكومة أسهم الشركة من المساهمين ولو بقيت فى أيديهم لاعانت كثيرا على تعريف الناس فائدة الاشتراك فى العمل والسعى وراء المنفعة ثم جعلت لها الحكومة مصلحة أميرية سمتها مصلحة وابورات البوستة الخديوية وتعين مصطفى باشا العرب مديرا لها وللانجرارية فى سنة ١٨٧٣ م واستخدم فى مدته كثيرا من القبودانات النمساويين والتليانيين والمالطيين وحرم أهل الاستحقاق والجدارة من خدمة بلادهم ومن المضحكات المبكيات ان يقال ان سبب ادخال الاجانب فى هذه المصلحة هى المنافسة التى كانت بين قاسم باشا ومصطفى باشا فلا حول ولا قوة إلا بالله ولما حل الاجانب محل الوطنيين نقل من بقى من الوطنيين الى السفن الحربية ولم يبق منهم فى مصلحة البوستة الا القليل وصار فندريقو باشا مفتشا عاما أو مستشارا كالة فى الاعمال لا يقطع فى أمر الا بعد أخذ رأيه ولما انتظم البريد وتزايدت

فبقيت المركب فى محلها وفى الحال سرت النيران فى أطرافها وصار يتعسر ذهاب أحد من المقدم الى المؤخر وبالعكس ولذا صار انزال طاقم المركب وعساكر الستة عشر مدفعا رباوالاربعمائة وثمانين نفرا ركابا الذين كانوا موجودين بالفلائك وقد أخذت فلائك الوابورين الانكليزيين السابق ذكرهما بعض الركاب من سطح البحر والبعض من جهات المركب التى لم تصلها النيران وفى اخر الامر ألقى بنفسه الى البحر سوارى الوابور وضابطانه وصف ضابطانه المبرعنهم عند البحرية بالكلدكليان وبعد نقل الجميع بالفلائك الانكليزية الى مراكبهم احترقت كافة ارمة المركب المذكورة ونفقت والتهمت تكنتها النيران وبقيت مع المياه وتلفيات الانفس هى عشرون نسمة منهم تسعة بحرية وستة طوبجية ربة عاقبهم البكباشى احمد افندى أسعد الطوبجى وواحد سعاوون وواحد يوزباشى وأسباب تلفهم ان الوابور لم كان فى الحركة قبل ان يقف قطع البكباشى المذكور بسيفه احبال احدى الفلائك التى كانت فى المؤخر ونزل هو والانفار فيها فجاءت تحت الرفاس وتلفت وتلفوا هم أيضا وقد علم من اخبار وابورانكليزى لمحافظة السويس انه فى الساعة السابعة من صباح اليوم الثانى فرقعت جبه خانة المركب المذكورة وتلفت ما كان باقيا من التكنة وفى أثناء ذلك صدر امر لسعادة مكيلوب باشا مدير الفنارات والليمانات المصرية بتحقيق الكيفية وامر المخلص بعودته الى اسكندرية فى ١٢ ربيع اول سنة ١٢٩٤ مصطفى العرب

علاقاته

Digitized by Google

علاقاته بمصلحة وابورات البوسته الخديويه ضمت مصلحة وابورات البوسته الخديويه للبوسته المصريه وفى ١٨٧٩ أضيف الحوض العوام الى مصلحة وابورات البوسته الخديويه وكانوا شيدوا لهذه المصلحة فوريقه عظيمة بدار صناعة الاسكندريه لعمل ما تحتاجه السفن من الاصلاح وكان حوض السويس وضع تحت ادارة مصلحة وابورات البوسته الخديويه أيضا من سنة ١٨٧٥ ميلاديه وقد بلغت عدد وابورات هذه المصلحة فى عهد الخديو اسمعيل باشا كما فى الجدول الآتى

﴿وابورات القومبانية العزيزية التى سميت فيما بعد بالبوسته الخديوية التى كانت بالبحر المتوسط الابيض من ابتداء تشكيلها وأسماء القبودانات الذين تعينوا لها أولا﴾

طول السفينة	عرض السفينة	عمقها	مقدار جزئها الغاطس من القدام	مقدار جزئها الغاطس من الخلف	مقدار ما تحرقه من الفحم فى كل ٢٤ ساعة	حمولتها	مقدار ما تسعه مخازنها من الفحم	قوتها بالحصان	سرعتها فى الساعة	نوعها	أسماء البواخر	أسماء ورتب القبودانات الذين تعينوا لها فى أول تشكيلها
قدم	قدم	قدم	قدم	قدم	طن	طن	طن	حصان	ميل	المعدن		
٠٢٢٥	٠٣٥	٠٢٦	٠١٥	٠١٦	٠٠٢٤	١٠٢٣	٣٦٠	٢٥٠	١٢	حديد	البحيرة برفاص	قائمقام مصطفى بك لاغودا كى
٢٦٩٫٨	٠٣٥	٠٢٤	٠١٧	١٧٫٦	٠٠٣٨	١١٨٠	٢٤٠	٣٥٠	١١	«	الدقهلية «	قائمقام مرهنسك بك
٠٢٦٩	٠٣٣	٠٢١	٠١٦	٠١٨	٠٠٣٦	٠٩٦٥	٤٤٧	٢٥٠	١١	«	طنطا «	بكباشى سليمان قبودان أبوداود
٠٢٧٠	٠٣٥	٠٢٥	٠١٥	٠١٧	٠٠٢٥	٠٩٩٠	٣٨٠	٣٠٠	١٠	«	قليوب «	بكباشى محمد قبودان الجزايرى
٢٦٨٫٦	٠٣٤	٠٢٨	٠٢١	٠٢٢	٠٠٣٢	١٠٣٣	٣٨٨	٣٠٠	١١	«	الرحمانية «	بكباشى محمد راشد قبودان
٢٧٦٫٧	٣٦٫٨	٢٤٫٢	٠١٩	٠٣٠	٠٠٢٤	١١٦٠	٢٤٠	٣٥٠	١١	«	الشرقيه «	قائمقام جمالى بك
٠٢٣٢	٠٣١	٢١٫٨	٠١٦	١٧٫٦	٠٠٢٠	٠٨٦٤	٢٥٥	٢٠٠	٠٩	«	المحلة «	بكباشى أحمد قبودان الترك
٢٣٥٫٧	٢٩٫٧	١٣٫٢	٠١٤	١٤٫٥	٠٠١٥	٠٦٧٦	١٨٢	١٦٠	١٠	«	شبين «	بكباشى ابراهيم قبودان واصل
٢٥١٫٢	٣٠٫٤	١٦٫٩	٠١٧	٠١٨	٠٠٢٢	٠٦٣٨	١٧٥	١٨٤	٠٦	«	الزقازيق «	بكباشى مصطفى قبودان مرعسكر
٠٢٨٨	٠٢٤	٠٢٣	٠١٥	٠١٣	٠٠٣٤	١٠٨٠	٤٥٠	٣٠٠	١١	«	الفيوم بدولاب	قائمقام محمد بك الرودسلى
					قنطار							
٢١٩٫٦	٠٣٠	٠١٧	٠١٥	٠١٦	٠٢١٫٦	٠٦٢٦	١٨٠	١٤٠	٠٧	«	دمنهور برفاص	بكباشى محمد كامل قبودان
٢٥٧٫٦	٣٠٫٨	١٦٫٩	١٥٫٦	٠١٧	٢٣٫١٣	٠٧٩٨	٢٢٠	٢٠٠	٠٧	«	المنيا «	بكباشى كل اسمعيل قبودان
٠٢٥٠	٠٣٢	٠٢٤	١٧٫٦	٠١٩	٣٠٠٠	١٠٦١	٣٣٥	٢٠٠	٠٩	«	دسوق	بكباشى عثمان قبودان بغمانا كى
٠٢٢٦	٠٢٨	١٥٫٦	٠١١	٠١٢	٢٣٫١٠	٠٦٢٦	١٤٨	١٢٥	٠٩	«	مسير	بكباشى خورشيد قبودان
٢٢٦٫٨	٠٢٨	١٥٫٦	٠١١	٠١٢	٢٤٤	٠٦٢٦	١٦٠	١٢٥	٠٩	«	الصيلة	بكباشى مصطفى قبودان طوقماق
٢٢٥٫٢	٠٢٣	١٤٫٨	٠١١	٠١٢	٢٢٫١٣	٠٥٠٩	١٥٠	١٢٥	٠٩	«	المنصورة	بكباشى حسين رحمى قبودان

ثم نقل كثيرون من قبودانات هذه البواخر الى السفن الحربية من بعد سنة ١٢٨٣ ﻫ وترقى غيرهم لقيادة البواخر المذكورة

Digitized by Google

﴿وابورات القومبانية العزيزية التي سميت بالبوستة الخديوية بالبحر الأحمر﴾

طول السفينة	عرض السفينة	عمقها	مقدار جزء الغاطس من المقدم	مقدار جزء الغاطس من المؤخر	مقدار ما تصرفه من الفحم في ٢٤ ساعة	حمولتها	مقدار ما تسعه مخازنها من الفحم	قوة ماكينتها	سيرها في الساعة	جنسها	أسماء البواخر	أسماء ورتب القبودانات الذين تعينوا لها في أول الامر
قدم	قدم	قدم	قدم	قدم	طن	طن	طن	حصان	ميل	معدن		
٠٢١٩	٣٠٫٣	١٧	٠١٥	١٦	٢٠٫٦	٦٢٦	٢٥٠	١٤٠	٠٧	حديد	الحديدة	بكباشي عمر قبودان حجازي
٠٢٨٠	٢٨٫٦	١٦	٠١٤	١٥	٢١٫٤	٦٠٩	٢٠٥	١٢٠	٠٧	»	ينبع	بكباشي عمر قبودان الطويل
٠٢١٨	٠٢٨	١٦	١٥٫٦	١٧	٢٤٫٥	٩١٧	١٩٠	٠٩٠	٠٧	»	القصير	صاغقول اغاسي زينل قبودان
١٩٧٫٦	٠٢٣	١٨	٠١٢	١٣	٠١٧٫	٤١٠	١٨٠	٠٩٠	٠٧	»	مصوع	صاغقول أغاسي قاسم قبودان العجوز
٠٢٤٥	٢٢٫٦	٢٣	١٧٫٦	١٠٩	٣٩٫٣	٧٥٠	٤١٠	٣٠٠	١٠	»	كفت	قائمقام علي بك شكري
٠٢٥٠	٠٢٩	١٦	٠١٤	١٥	٠٢٢	٦٠٩	٢٥٠	١٥٠	٠٨	»	الحجاز	بكباشي عبد الله قبودان
٠١٩٥	٠٢٢	١٧	٠١٣	١٥	٠٢٤	٩٠٠	١٨٥	٠٨٥	٠٦	»	سواكن	« حسن قبودان جركس
٠١٩٨	٠٢٣	١٦	٠١٥	١٦	٠٢٠	٦٠٠	٢٥٠	١٤٥	٠٧	»	نجد	« مصطفى قبودان العنتبلي الكبير
٠٢١٠	٠٢٣	١٦	٠١٤	١٦	٠٢١	٦٠٠	٢٤٥	١٥٠	٠٨	»	جدة	« محمود سلام قبودان

مصلحة البريد — لما تأسست ادارة البوستة بمصر سنة ١٨٦٥ م زادت أهمية بواخر البوسته الخديوية بحملها المراسلات من الديار المصرية الى الفرض التي تمر عليها وكانت أعمال البريد قبل سنة ١٨٦٥ موكولة الى عهدة رجل يدعى الموسيو ميراتي (Merati) وبعد وفاته عهدت الاعمال الى حفيده المدعو شيني (Chini) وكان لهذه الادارة امتيازات داخل القطر مثل نقل ما يتعلق بالسكة الحديدية بلا مقابل فكانت أعمالها مترقية منتظمة ازاء مكاتب البوسطات الاجنبية التي كانت بمدن مصر الان اجرة النقل بها كانت عالية فكان ما يؤخذ على الخطاب المرسل من القاهرة الى الخرطوم مثلا سبعة غروش ونصفا ولما كانت سنة ١٨٦٤ واتسع نطاق التراسل والتخاطب رأت الحكومة المصرية وجوب ابتياع ادارة البوسطة من شيني المذكور وكانت وكلتها اليه لمدة في مقابلته قدر معلوم يدفع له سنويا ففي أول سنة ١٨٦٥ ابتدأت أعمالها تحت مناظرة الحكومة ومباشرتها وجعلت لادارتها موزي بك (Muzzi) وفتحت لها مكاتب في أكثر الجهات التي تمر عليها بواخر البوستة العزيزية ولما انعقد مؤتمر برن سنة ١٨٧٤ تقرر فيه جعل البلاد المصرية ضمن الاتحاد البريدي العام وأخذت الحكومة الخديوية تسعى في اقفال مكاتب البوستة الاجنبية من بلادها بحيث لم تمض سنة ١٨٨٨ م حتى ألغيت المكاتب الاجنبية التي بمصر بعد مشارطات أبرمت مع الحكومات التابعة لها تلك المكاتب ولم يبق منها الآن سوى البوسطة الفرنسوية بالاسكندرية وبور سعيد وكان مدير البوسطة اذ ذاك الموسيو الفرد كليار (Alfred Caillard) ثم لما انتقل الى الكمارك خلفه فيها هلتون باشا (F. Halton) الذي لما تعين لرياسة قومسيون السكة الحديدية خلفه فيها سابا باشا

بناء مينا السويس واصلاح مينا الاسكندرية — سبق القول في المقدمة بالجزء الاول الماعا الى هذه الاصلاحات ونريد الآن ذكرها بما يحتمله المقام من التفصيل فنقول انه في السنة الاولى من حكم الخديو اسمعيل باشا انتهى بناء الحوض الجري بميناء السويس وطول هذا الحوض ٤٠٣ أقدام انكليزية وعرضه ٩٨ قدما وعمقه ٢٦ قدما ومدوا عليه طريقا حديديا لسهولة الشحن والتفريغ وكان نقل البضائع من الاسكندرية الى السويس وبالعكس ترتب منذ سنة ١٨٤٢ م وما زال ينتظم وترقى حالته بعد ذلك ويكثر الوارد اليه والصادر منه

حتى

Digitized by Google

حتى احتيج الامر لتوسيع نطاق المواصلات بين البلاد الآسيوية وبين مصر عند ذلك دعت الضرورة (١٨٥٦ م) لانشاء مرفأ كبير بالبحر الاحمر تحتمى فيه السفن عند الحاجة وتقام على جوانبه المبانى اللازمة لسهولة الشحن والتفريغ والتخزين فأمر المرحوم سعيد باشا لينان بك مدير الاشغال العمومية بالبحث عن مكان مناسب لذلك ما بين السويس والقصير كما ذكرناه وبعد النظر فى ذلك تقرر انشاء مرفأ بالسويس وبناء الحوض الجرى المذكور وشرعوا فى البناء سنة ١٨٦٦ وتم سنة ١٨٧٤ م وجعلوا المرفأ مرفأين سمى أحدهما مينا ابراهيم وجعل للبواخر الحربية ومسطحه ١٦ هيكتار أى ١٦٠,٠٠٠ متر مربع وجعل الثانى للسفن التجارية ومساحته ٢٣٠,٠٠٠ متر مربع وجعلوا امام المرفأين من جهة البحر رصيفا من الأحجار جعلوا به فتحة عرضها مائة متر لدخول السفن وخروجها وبجانبيها فنارات وطول رصيف الميناء الحربى ٥٥٨ مترا وطول رصيف ميناء التجارة ١٥٢٨ مترا ويفصل الاثنين عن بعضهما رصيف عرضه ١٠٠ متر وطوله ٥٥٠ مترا جعل عموديا على الفتحة المذكورة هذا اما اصلاح ميناء الاسكندرية فهو أنه لما قرب فتح قناة السويس ورأت الحكومة انه ربما انتقلت أهمية اسكندرية التجارية الى بورسعيد بعد فتح القنال واتفق ان بعض الشركات الاجنبية كان طلب من الحكومة ان تتعهد باصلاح مدخل ميناء الاسكندرية وبناء مراس لوقاية السفن وأرصفة ترسو عندها للشحن والتفريغ على البر مباشرة ولما كان أحسن هذه الطلبات وأوفقها شروطا للحكومة شروط مسيو غرنفيلد (Greenfield) وشركائه من رعايا دولة بريتانيا العظمى أحالت عليه الحكومة انشاء ميناء الاسكندرية سنة ١٨٦٨ فى مقابلة مبلغ قدره ٢,٥٠٠,٠٠٠ ليرة مصرية (١) وفى أول مايو سنة ١٨٧١ شرعوا فى العمل وكان أوله بناء جسر كبير يعرف بكاسر الأمواج طوله ٢٨٨٨ مترا منها ٥٧٣ من رأس التين الى الجنوب الغربى والغرب و ٢١٥ تمتد بانحناء و ١٧٠٠ مترتمتد الى الجنوب الغربى وجعلوا به فتحة للسفائن الشراعية بين طرف هذا الجسر ورأس التين وأتموه فى ديسمبر سنة ١٨٧٣ وأتموا انشاء المولص والارصفة فى أوائل سنة ١٨٨٠ م وطول هذا المولص أو الجسر ١١٤٠٠ متر من الجهة الجنوبية الغربية و ٩٧٠٠ من الجهة الشمالية الشرقية ومتوسط عرضه ١٣٠ قدما وطول المولص المتصل بالترسانة ٧٦٠ قدما وعرضه ٢٠٠ قدم ولا يخفى أن ترعة المحمودية تفصل أرصفة الميناء عن بعضها فجعلها قسمين تضمهما قنطرة متحركة قائمة على الترعة المذكورة وهذه القنطرة تفتح فى أوقات معينة ليتيسر لسفن النيل الذهاب الى البحر وطول الارصفة التى فى شمالى مدخل الترا كى ١٦٥٠ مترا وبهذه المبانى انتظمت الميناء وسهل على السفن نقل البضائع وتفريغها بالمخازن التى بنيت على الارصفة المذكورة ومن تمام النظام أيضا أن جعلوا فوق الارصفة

(١) كانت الشروط تشتمل على المواد الآتية (أولا) بناء جسر لكسر الامواج ومنع تأثيرها عن الميناء طوله ٢٣٤٠ مترا كله من الاحجار والصخور الصناعية الجسيمة ويبتدئ من رأس التين (ثانيا) بناء مولص أى رصيف من الاحجار الصلبة يبتدئ من رصيف محطة القبارى الى حوض الترسانه طوله ١٠٢٠ مترا (ثالثا) بناء أرصفة أخرى تبتدئ من رأس المولص المذكور وتنتهى عند الحوض المذكور (رابعا) تطهير الميناء بالكراكات ليسهل على المراكب التجارية الكبيرة الرسو على المولص مباشرة اهـ من أعمال الجمعية الجغرافية الخديوية

Digitized by Google

نحو ١٥٠ شمعة أوعامودا من الحديد على شكل المدافع لتربط بها السفن أحبالها عند رسوها ثم أنشئت فوق الارصفة مبان عظيمة لمصلحة الكمارك ثم ديوان سنة ١٨٨٥ م وقد عادت كل هذه الاعمال على الحكومة والتجارة بالفوائد الجمة

اصلاح الشرطة — لما كان الخديو اسمعيل باشا يصرف همته فى التشبه بالممالك المنتظمة الاوروباوية رأى من الواجب أيضا تشكيل قوة من الشرطة يعهد اليها أمر حفظ الامن بداخل البلاد فالغى سنة ١٢٨٠ ﻫ طائفة القواسة من عموم الضبطيات والقره قولات والاقاليم وذلك بأن جمعهم وأرسلهم الى السودان ليكونوا بها جنودا والقواسة جنود بغير انتظام محكون كان جلهم من الاتراك الاشداء وجعلت الحكومة بين الشرطة الجديدة نفرا من أهل أوروبا غالبهم من ايتاليا لكثرة الاجانب بمصر وانتخبت الحكومة لتنظيم الشرطة ضابطين طليانيين هما الموسيو كارليسمو (Corlesimo) والمركيز نيجرى (Marquis Negri) وعهد اليهما تنظيم ادارتها أيضا وشكلوا كذلك أورطتين عرفتا بالمستحفظين للخفر بالقره قولات أورطة بمصر وضع عليها البكباشى يعقوب سامى أفندى وهو المنفى بسيلان الآن وأخرى بالاسكندرية وعليها البكباشى السيد أفندى قنديل وكانت الشرطة وأورطتا المستحفظين تابعة للضبطيات والمديريات

مساعدة الخديو فى اطفاء ثورة العسير — لما اشتدت الفتن ببلاد اليمن وتغلب الائمة عليها لاهمال الدولة العثمانية أمرها وعدم تيقظها عينت الوزير قانصوه باشا واليا عليها سنة ١٠٣٩ ﻫ ثم قدمها ومعه جيوش كثيرة ودخل مكة وقبض على أميرها الشريف أحمد بن عبد المطلب بن الحسن بن أبى نمى ثم قتله خنقا وولى امارة مكة للشريف مسعود بن ادريس بن الحسن ثم توجه الى اليمن ووقع بينه وبين الائمة حروب كثيرة وآخر الامر وقع بينه وبينهم صلح وهدنة ثم انقضى الامر باخراجه من اليمن كرها (١٠٤٥ ﻫ) فكان آخر الوزراء باليمن وصار أهل اليمن يخرجون الاتراك منها ويوقعون بهم (١٠٤٨ ﻫ) واستقر أمر اليمن لائمة صنعاء ثم ضعف أمرهم وكثرت الفتن بينهم حتى كان فى كل قطر من اليمن امام كل هذا ولم تلتفت الدولة العثمانية الى اليمن الا فى سنة ١٢٦٥ حينما علمت بتضعضع أحواله وتفرق كلمة سكانه فاستولت على تهامة فى دولة السلطان عبد المجيد ابن السلطان محمود ثم استولت على أعلاه تدريجيا وأخذت فى تنظيم ادارته ومد نفوذها فى انحائه وفى عهد السلطان عبد العزيز قام أمير العسير محمد بن عائض (١٢٧٩ ﻫ) بالثورة على الدولة وقصد الاستيلاء على تهامة اليمن فقاومه باور على باشا متصرف الحديدة وصد أعماله الا أن بعض البنادر بقيت فى قبضته فطلب السلطان من الخديو اسمعيل باشا ارسال بعض الجنود للتغلب على ذلك الثائر فصدع بالامر وأرسل ثلاث أورط من المشاة وبعض المدافع والخيالة وكانت هذه الجنود تحت قيادة المرحوم الميرالاى اسمعيل صادق بك ولما وصل الى جدة عقدوا اليها عزت حتى باشا مجلسا جمع فيه الشريف عبد الله باشا وبعض أمراء العسكرية واسمعيل صادق بك قائد الجنود المصرية المذكورة وبعد المداولة تقرر سوق الجنود المصرية والعثمانية من جهة قنفدة وتمكن الجنود بعد قتال طويل من تسكين الفتنة وقدم محمد بن عائض الطاعة فتوسط له اسمعيل باشا وعفا السلطان عنه وجعله قائمقام سنجق العزيزية باليمن ثم عادت الفرقة المصرية ظافرة مشكورة

العمل

العمل وأنعم الخديو على قائدها برتبة اللواء مكافأة له على ما أظهر من الشجاعة وحسن التدبير وتوسط الخديو أيضا فأنعم السلطان على أمير العسير المذكور برتبة الميرميران ولما أجاب الباب العالى ملتمس اسمعيل باشا أرسل للامير المذكور يبشره بذلك ويظهر له التودد فى أواخر شعبان من سنة ١٢٨٢ فى مكتوب بليغ من انشاء المرحوم عبد الله فكرى باشا (١)

مساعدة الخديو للدولة فى حرب الجبل الاسود وكريد — انه فى أوائل جلوس اسمعيل باشا على الاريكة الخديوية قامت الثورة بالجبل الاسود وسببها ان البرنس ميركو والد امير الجبل الاسود نيقولا ساعد ثوار هرسك (١٨٦٢ م) وحرضهم على المقاومة فساقت الدولة الجيوش على الجبل الاسود لتمرد أميره المذكور ودخل السردار عمر باشا بقود جيشا قويا بلاد الجبل وعند ذلك اذعن أميره لطلبات الدولة (٣١ اغسطس سنة ١٨٦٢) كما تقدم ذلك فى تاريخ الدولة ولما سافر المرحوم اسمعيل باشا الى دار الخلافة لاستلام فرمان الولاية وتقديم واجب الشكر للخليفة طلبت الدولة منه ان يعزز جيوشها التى بالروملى بجنود من مصر خوفا من ازدياد الاضطراب عليها بتلك

(١) من خديوى الاقطار المصرية وما والاها من الاقاليم السودانية الى حضرة الامير الكبير ذى الحسب الشهير محمد باشا بن عائض قائمقام صنجق العزيزية اليمانية دامت معاليه وسعدت أيامه ولياليه غب سلام يفوح عرف الثناء فى أثنائه ويلوح لطف الولاء من أرجائه احمد اليكم الله سبحانه وتعالى على نعم تدوم بالشكر وتوالى وأسأله انا ولكم ولجميع المسلمين دوام السلامة وحسن الحال فى الدنيا والدين وأطالعكم بحسن مودة تألفت عليها الخواطر وصفت لبسها انوار عدلت عليها الظواهر وقد كنت طالعتكم أولا بما اقتضته اخوة الاسلام وأوجبته رغبتى فى اتحاد كلمة الموحدين على الدوام ومحبتى لبقاء البيوت القديمة مشيدة الاركان مصونة الجوانب من أن تطرق الى ساحة حماها صروف الزمان وعرفتكم أنكم اذا ارتئتم مما قيل فيكم من عدم المطاوعة وأثبتم ما توسمته فى حسن نيتكم من البقاء فى دائرة المتابعة فانى متعهد لكم بما هو أنفع وأحرى ومتكفل بأن توجه اليكم رتبة أمير الامرا فلما أظهرتم ما أعلم فيكم من الطاعة الحقيقية وأشهرتم خلوص الطوية لجانب الدولة العلية السلطانية ترتب على أن أفى بما وعدت وأقنى أثر ما تعهدت ليتحقق لديكم من بعد أن اسمعيل كان صادق الوعد فكاتبت دار الخلافة العلية بما هو الواقع من عدم الخلاف واستملت لكم من جانب السلطنة السنية أعطاف الالطاف وحررت اليكم ثانيا بالبشارة بحصول ما سبقت اليه الاشارة والذى أوجب تأخر ما ذكر للآن عن ناديكم انها هو تأثير ما نقل فيكم مما أوغر الصدور وأوعر سهل الامور فما زلت أكرر مراجعتى فى نفى شائبة الشبهة من جهتكم وأعيد المكاتبة فى اثبات حسن نيتكم وبراءة ساحتكم حتى تحقق لدى السلطنة ما انتم عليه من حسن الحال وزال من النفوس آثار ما سبق من القيل والقال فصفت الآن لكم القلوب وتم بحمد الله تعالى الامر المطلوب ووردت لنا من الباب العالى مكاتبة رسمية تعلن الحاقكم بتلك الرتبة البهية بعنوان الباشاوية وصدر فى ذلك فرمان سلطانى عزيد الاعزاز وقد بعث به على الفور الى حضرة الباشا والى الحجاز ليبادر بارساله اليكم ومن قريب يكون الفرمان بمشيئة الله لديكم فهنأ بها رتبة بهر فضلها ورفعة فاخرة أنت أهلها ومحلها ومكرمة يشرف ببهجتها النادى ونعمة تسر الاحبة وتسوء الاعادى وان لكم عندى محبة تقرب على بعد ديارها ومودة تدوم ان شاء الله على عهد استمرارها وصفاء لا يألف التكدر حماه ووفاء لا يعرف التغير مرماه فانى أحب ذوى المجد القديم وأراهم أهلا للوداد والتكريم وأنافس فى موافاتهم على تنائى جهاتهم وأرغب فى مصافاتهم على اختلاف حالاتهم وأغنى دوام خيرهم ولا أقيسهم على غيرهم تلك سجية جبلت عليها ومزية وفقنى الله اليها وسنة ألفتها منذ عرفتها وشنشنة كلفت بها وما تكلفتها فكونوا واثقين بدوام مودتنا اليكم وليكن لنا أيضا مثل ذلك لديكم وقد بعثت اليكم ثانيا أحمد افندى اليمنى ليشافهكم بالسلام منا ويبلغكم بعض تفاصيل المودة الحقيقية عنا والله يوفقنا للخير والسداد ويدوم بنا على منهج الرشاد ويبقينا جميعا على أحسن حال بجاه شفيع الامة ونبى الكمال آخر شعبان سنة ١٢٨٢ الآثار الفكرية صحيفة ٦١

الارجاء فارسل الخديو فى الحال فرقة مركبة من الايين تحت قيادة اللواء المرحوم على غالب باشا بعد عودته من السودان وكان ذهب اليه صحبة القواسة الذين مرذ كرهم وكان على الالاى الاول حسين بك عاصم وعلى الثانى خورشيد بك عاكف ولما وصلت هذه العساكر الى الاستانة استعرضت امام الحضرة السلطانية بميدان بيقوز ثم سافرت الى جهات مناستير عن طريق سلانيك ولما كانت أحوال ولايات البلقان وقتئذ تزداد اضطرابا وقيام حكومة الصرب تعترض على اتفاقية مؤتمر الاستانة (١٨٦٢ م) الذى قرر بقاء العساكر العثمانية ببلادها فى بلغراد وسمندره وفتح الاسلام وشيانس وألزمت الاهالى المسلمين من سكانها ببيع كافة املاكهم الى أهاليها ومهاجرة البلاد فى أقرب زمن وكانت الدولة رفضت اخراج جنودها من الصرب رفضا تاما الا ان اشتعال نار الثورة بكريد اضطرها لقبول مطالب الصرب أخيرا خوفا من ثورة عامة بالروملى ولما زاد لهيب الثورة فى كريد بالدسائس اليونانية والتحريضات الاجنبية وكانت جنود الدولة موزعة بالجهات التى يخشى من قيامها طلب المرحوم السلطان عبد العزيز من المرحوم اسمعيل باشا ارسال بعض الفرق المصرية للمساعدة فى تسكين فتنة كريد أيضا فلبى الطلب وأرسل أربعة الايات وهى الالاى الحادى عشر ويقوده خالد بك والالاى الثالث ويقوده اسمعيل كامل بك والالاى السابع ويقوده راشد حسنى بك والالاى السادس ويقوده راشد راقب بك وأربع بطاريات جبلية بذخائرها وكان يقود هذه القوة الفريق شاهين باشا ومعها اللواء اسمعيل صادق باشا وكان على فرقة أركان الحرب القائمقام على بك الجبرى والبكباشى عبد القادر افندى والملازمين عمر افندى رشدى وصالح طاهر افندى وسافرت هذه الجنود فى ربيع الاول من سنة ١٢٨٣ هـ على عشر بواخر مصرية هى فرقاطة محمد على قومندانية قاسم بك والغربية قومندانية فوزان بك الفرنسوى (Voisin) والجعفرية قبودانية موسى قبودان والشرقية قبودانية جمالى بك وأسيوط وعليها نوفل قبودان والفيوم وعليها محمد بك الرودسلى والدقهلية وعليها المرحوم والدى سرهنك بك والمحروسة وعليها افندر يقوب بك ونور الهدى وعليها حسن قبودان وقليوب وعليها أحمد قبودان ترك وأبقى الخديو بعض هذه البواخر بكريد للمساعدة فى نقل الجيوش الى النقط العسكرية وكانت تلك البواخر تحت قومندانية قاسم بك ونقلت أيضا الى كريد العساكر المصرية التى كانت بمناستر ثم حدثت واقعة عظيمة بين الثوار والجنود المصرية فى جهة يقال لها أبوقرون جرح فيها اللواء اسمعيل صادق باشا جرحا بالغا فنقل الى مصر وعزل شاهين باشا عن قيادة الجند وتولاها مكانه الفريق اسمعيل سليم باشا ناظر الجهادية وأشيع بين ضباط الجيش المصرى ان سبب هذا التغيير شكوى القائد العام العثمانى من تداخل شاهين باشا مع العصاة فى أمور تمس حقوق الدولة كما سيأتى ولما حضر الفريق اسمعيل باشا اتفق مع قائد الجيش العثمانى على خطة ثم حدثت واقعة ارقاديا وكانت من أعظم الوقائع انهزم فيها الثوار هزيمة منكرة بخسائر جسيمة وقد أظهرت العساكر المصرية فى هذه الواقعة إقداما وشجاعة خلدت لهم ذكرا حسنا سيما الالاى السادس فأحسن الخديو على قائده راشد حسنى باشا برتبة اللواء وأرسل للجيش خطابا بليغا من انشاء العالم الفاضل المرحوم عبد الله فكرى باشا وكان مديرا لقلم التحريرات والعرضحالات بالمعية السنية عدحهم فيه

ويظهر

ويظهر سروره من شجاعتهم (١) وفى تلك الاثناء ترقى قاسم باشا الى رتبة اللواء وجعل أميرالاعلى السفن المصرية ونصب مكانه المرحوم والذى سرهنك بك وأنعم عليه برتبة الميرالاى لما أبداه من الاعمال المفيدة لسهولة نقل الجيش وهى شق ترعة عند مكان يدعى سوية لتسهيل انزال الجنود فى الفلايك ومنها تصعد الى السفن فتنقلها الى مدينة أسفاكية وسبب ذلك انكسار مرسى الفلايك التى كانت هنالك وكان بواسطتها تنزل الجنود الى السفن فلما كسرت أصبح انزال الجنود الى السفن متعذرا جدا الا بالترعة المذكورة وأرسل اليه الخديو مكتوبا يظهر له فيه امتنانه من أعماله (٢٤ رمضان ١٢٨٤ هـ) ثم عينت الدولة مصطفى نائلى باشا مأمورا فوق العادة للبحث عن أسهل الطرق والامور الموصلة لاخماد الثورة فى زمن قريب ولما وصل تقدمت الجيوش من كل جهة الى قلب الجزيرة تطارد الثوار فى كل مكان وكانت البواخر الحربية العثمانية والمصرية تحت قيادة الفريق ابراهيم باشا المورهلى تنقل الجيوش على سواحل الجزيرة للتضييق على الثوار فى كل جهة

(١) الى من باشر واقعة ارقادى من الضباط الجهادية وأفراد العسكر المصرية سلام من الله وتسليم ورضوان كريم يهدى لاولكم وآخركم ويسدى لأموركم وآمركم لازلتم محفوظين من الله بنصره محفوظين بأمره غالبين على عدوكم بقهره متقلبين فى نعمته وبره ولا انفكت عزائمكم فى كروب الحرب عزائم وصوارمكم فى قطوب الخطوب بواسم وأعلامكم للنجح والتمكين علائم وايامكم للفتح المبين مواسم ورياح القهر والدمار على عدوكم سمائم ونسمات النصر والفخار فى رواحكم وغدوكم نواسم وبعد فمازلت أتشوق من أخبار شجاعتكم مايسر الخواطر وأتشوف من آثار براعتكم مايقر النواظر واثقا بعزمكم وحزمكم فى المضايق مبتهجا بما أبديتموه من حسن السوابق حتى ورد فابور الشرقية من طرف حضرة الباشا ناظر الجهادية بيوميات الوقائع العسكرية مشتملة على وقعة ارقادى وتفصيلاتها وما كان من رسوخ اقدامكم وثباتها واقدامكم فى جهاتها واقتحامكم مضايق حصونها واستحكاماتها وتسخير مستعصماتها وتدمير اشقياء العصاة وكماتها حتى زلزلت صياصيها وذللت نواصيها ودنا لكم قاصيها ودان عاصيها فهكذا تكون رجال الجهاد وابطال الجدال والجلاد وهكذا تفتح الحصون ويبرز سر النصر المصون وفى ذلك فليتنافس المتنافسون فقد اسفر لكم بحمد الله وجه التهانى واثمر فيكم بعون الله غرس الامانى وأبديتم ماثبت للعساكر المصرية من حسن الشهرة فى الامور العسكرية فحصل لى من الانس والسرور بهذه البشارة مالاتقدر الالسن ان تصف مقداره ولايتسع له مجال الاشارة وتأيد فيكم حسن انظارى وظهرت ثمرات أفكارى وتحققت أنكم بعد الآن بعون الله الكريم لاتزالون عن هذا الطريق القويم ولاتزالون فى تأييد مالكم من المجد القديم وقد شاع حديث نصرتكم بين الاهل والديار وسارت الركبان بمحاسن هذه الاخبار كما نقلته صحائف الوقائع الى جميع الاقطار فانشرحت صدور أهلكم واخوانكم وفرحت بكم جميع أهل بلدانكم وابتسمت ثغور أوطانكم وافتخرت باحاديث شجعانكم وارتاحت أرواح الشهداء من أقرانكم والمأمول فى ألطاف الله العلية وبركات السلطنة السنية ثم فى حميتكم الملية وغيرتكم الوطنية ان يزول حال الاختلال عن قرب وينتهى أمر القتال والحرب ويطيع الجميع ويسهل كل صعب منيع وتعودوا لوطننا العزيز ظافرين بالنصر والتعزيز وقد قرب حصول الامل ونجاح العمل ومضى الاكثر وبقى الاقل والحرب للرجل العسكرى والبطل الجرى سوق عظيم وموسم كريم تشترى فيه غوالى المعالى باغالى العوالى وتنال فيه منازل الاكارم فى ظلال السيوف الصوارم ويدرك الفخر الصادق بمرامى المدافع والبنادق وقد علمتم ان الشجاعة وان كانت تبلغ الآمال لاتقصر الآجال كما ان الجبن وان كان يورث العار لايؤخر الاعمار وانما هى آجال محدودة وأنفاس معدودة لاتقبل التغيير ولاالتقديم ولاالتأخير والشجاعة صبر ساعة ثم ينكشف الغبار وتسفر الاخبار ويتناقل حديث الشجعان ويخلد فى تواريخ الزمان فدوموا على ابداء الاجتهاد وقوموا بأداء حقوق الجهاد واثبتوا على الشجاعة والاقدام وثبات القلوب والاقدام وانجزوا بمعونة الله تمام هذا المرام وكما جودتم براعة المطلع فاحسنوا براعة الختام

Digitized by Google

ثم عينت الدولة المشير البحري الحاج وسيم باشا قومندانا عاما على البوارج الحربية المعينة لحصر الجزيرة وأعلنت دول البحار بذلك (١٢٨٤ ﻫ) وبينما كانت السفن العثمانية تتجول حول الجزيرة تلاقى وابور عزالدين سوار به حسن بك بباخرة للروم تدعى إركادى كانت تنقل الذخائر والاسلحة من بلاد اليونان لثوار الجزيرة خفية فأطلقت الباخرة العثمانية عليها النار بعد ان طلبت منها التسليم قرب ساحل قيوكر بو وفرت الباخرة اليونانية المذكورة الى الساحل وخرجت منها طائفتها بعد أن القت بها النيران فأسرع البحارة العثمانيون وأطفؤا النار ثم أخذوها الى الاستانة وأصلحوها هنالك وأضيفت على الاساطيل العثمانية وبعد ذلك هدأت الفتنة بكريد نوعا (١٢٨٤ ﻫ) وبعد ذلك بقليل توفى الفريق المصري اسمعيل سليم باشا عقب مغص اعتراه في يوم واحد وأشيع بين الضباط المصريين انه مات مسموما لتناوله من حلواء أتت اليه من مصر ونقلت جثته الى مصر ودفن باحتفال وعين الخديو مكانه الفريق عبد القادر باشا الطوبجي الا أنه لم يمكث هنالك طويلا حيث تعين محافظ المصوع التي أحيلت ادارتها وقتئذ الى الخديوية المصرية بفرمان سلطاني (١٢٨٣) وتعين مكانه بكريد محمد راتب باشا السردار ولما طال زمن الثورة أتى الى كريد الصدر الاعظم عالي باشا للنظر في أسباب ذلك فعزل عمر باشا عن قيادة الجيش العثماني لتراخيه في الحركات العسكرية وسوء سلوكه ونصب بدله حسين عوني باشا فسكنت الثورة في زمن قليل ثم عقدت دول أوروبا في باريس مؤتمرا لمسئلة كريد عينت الدولة فيه فؤاد باشا مأمورا من قبلها ولما أخذت الفتنة عادت الجيوش العثمانية والمصرية الى الاوطان واحتفل الخديو اسمعيل باشا بقدومهم احتفالا شائقا وأقام لها الولائم بالعباسية بمصر

مساعدة اسمعيل باشا للانجليز في حرب الحبشة — لما صعد تيودورس ملك ملوك الحبشة على تختها سنة ١٨٥٥ م كان المستر ولتر بلودن (Plowden) قنصلا للانكليز في الحبشة وقد توصل هذا القنصل الى الاندماج ضمن خدمة هذا الملك الخصوصيين لما آرب لدولته في ذلك واستمر المستر المذكور في الخدمة حتى قتل في ثورة داخلية سنة ١٨٦٠ وفي سنة ١٨٦٢ أرسلت ملكة انكلترة القبطان كامرون (D. Cameron) مكان المتوفى وأصحبته بجملة هدايا ولما وصل أراد تيودورس أن يرسل الى انكلترة سفارة و بعث بذلك مكتوبا فلم تلتفت نظارة خارجية انكلترة الى مكتوبه فاغتاظ من ذلك (١٨٦٣) واشتد غضبه لما لم تجاوبه حكومة فرانسا أيضا على مكتوب بها اليها وكان عين له سفيرا ينوب عنه لدى الدولة الفرنسوية فلم تعترف به وعند ذلك قبض على من ببلاده من الاوروباويين من تجار وقسوس وغيرهم وكان منهم مستر كامبرون قنصل الانجليز المذكور فاغتاظ كل من فرانسا وانجلترة وخاطبتاه في ذلك فلم تفلحا وأخيرا أرسلت انجلترة مأمورا يدعى المستر فلود (Flod) سنة ١٨٦٦ لاطلاق سراح المسجونين فرفض تيودورس طلبها وعزمت الحكومة الانكليزية على تخليصهم بالقوة الا أنها استعانت قبل ذلك بالخديو اسمعيل باشا فكتب الى تيودورس كتابا من انشاء المرحوم عبد الله فكري باشا [1] (اكتوبر ١٨٦٧)

---

(١) ما كتب من الخديو اسمعيل باشا الى الملك تيودورس سلطان الاقاليم الحبشية بعد الديباجة — بعد التحيات الزاهرة والتسليمات الباهرة والسؤال عن الخاطر الكريم والدعاء بدوام العز والتكريم أرى لما بيننا من

Digitized by Google

ينصحه فيه ويخوفه بأس انجلترة وان عناده وبال عليه فلم يلتفت الى ذلك فساقت انكلترة عليه جيشا عظيما تحت قيادة الجنرال روبرت نابير (Robert Napier) فى سبتمبر من سنة ١٨٦٧ م وكان هذا الجيش يتألف من ١٤,٦٨٣ جنديا يتبعه ٢٨,٠١٦ من الخدمة ومعه ٣٦,٠٩٣ من حيوانات النقل والخيل و ٤٤ فيلا وسافرت هذه القوة على أسطول مركب من ٢٣٥ سفينة شراعية و ٩٤ باخرة حربية وغير حربية بقودة الاميرال ترين (Tryon) ثم نزل هذا الجيش بفرضة زولا وأمر الخديو عبد القادر باشا محافظ مصوع اذذاك بمساعدة الجيش البريتانى فى كل ما يحتاجه فارسل عبد القادر باشا بعض سناجق الباشبوزوق الى زولا وجعل جمالى بك قومندان فرقاطة شيرجهاد باشبوغا للبواخر المصرية الست التى خصصت لمساعدة الانجليز بالبحر الاحمر وهى كفيت والتاكه وشندى وأسوان والطور وشيرجهاد وأخذت السفن المذكورة تنقل له ما يلزمه من الاقوات من السويس وصرحت مصر أيضا لكثيرين من تجارها وأهاليها بمرافقة الحملة المذكورة فشرح ذلك صدر الحكومة الانجليزية وأعلنت شكرها للخديو ثم انتصرت الجيوش الانكليزية على الاحباش واحتلت مدينة مجدله ولما رأى تيودورس انه واقع فى يد أعدائه لا محالة أطلق على نفسه طبنجة فمات قتيلا أما الانجليز فانهم لم يقيموا بالحبشة طويلا فعادوا الى بلادهم سنة ١٨٦٨ وذلك خوفا من انتقاض البلاد عليهم بأجمعها لانها كانت وقت دخولهم على خلاف فى الرأى مع تيودورس وأخذ الانجليز معهم عند خروجهم ابن النجاشى وكان حديث السن وأدخلوه مدارس بلادهم ليتربى على أخلاقهم ويكون فيما بعد عندهم كسلاح يقاتلون به الحبشة أو مسوغ يجيز لهم المداخلة فى أمورها ولكن قدر الله ومات ذلك الصبى بعد سنين قلائل

حقوق الجوار ولصوق الدار بالدار أن من الواجبات العينية واللازمات المرعية ابداء النصيحة كما اقتضى الحال والاشارة عليكم بما فيه الخير والسلامة فى الحال والمآل وقد تحقق الآن عندنا بوجه اليقين الخالى عن الظن والتخمين أنه لما طالت مدة الحبس بذلك الطرف على قنصل الانكليز ورفقائه المسجونين رأت حكومة الانكليز أن من الواجب عليها واللازم المهم لديها استعمال الحالة الجبرية فى استخلاصهم بالقوة العسكرية رعاية لمن فى حمايتها ووقاية لشرف دولتها ولذلك لزمها قطع روابط الحب مع حضرتكم والاعلان بالحرب على جهتكم وها هى جهزت عليكم من أجل ذلك جيشا كبيرا وعسكرا كثيرا وافر العدد مستكمل الآلات والعدد ولا يخفى على فطنتكم وحسن خبرتكم أن دولة الانكليز من قديم الزمان مشهورة بالشجاعة والقوة والبأس والسطوة وما كان سكوتها الى هذا الوقت كل هذه المدة المديدة والاعوام العديدة الا تباعدا من الشر ورغبة فى بقاء الصلح والخير وأملا فى اطلاقهم بغير قتال والافراج عنهم بحسن الحال فاذا لم تحصل على هذا المرغوب فلا بد لها من اشتعال نار الحروب واستعمال القوة الجبرية والحالة القهرية بما لا يخفى سوء عاقبته وشر نتيجته ولا بد أن يكون قد أحاط علمكم بما صنعته الدولة المذكورة فى بلاد الهند وفى بلاد الصين مع كثرة أهاليها وسعة أراضيها وبعد نواحيها ثم انا بيننا وبين هذه الدولة مودة قديمة وعلائق محكمة ومحبة قوية وهذه العساكر والجنود عند دخولها الى جهتكم يكون مرورها بالضرورة من أراضى الحكومة المصرية ولا سبيل لمنعها من المرور وصدها عن القصد المذكور الا بالمبادرة من حضرتكم الى اطلاق المحبوسين المذكورين وتسريحهم الى بلادهم مسرورين قبل اشتعال نار القتال واشتداد الاهوال وتلف الرجال وضياع النفوس والاموال فلذلك دعتنى المحبة الوفيرة وصفاء السريرة وحقوق الجيرة أن أنصح لحضرتكم فى هذا الامر وأشير عليكم بالتباعد من ذلك الشر فان أردتم الخير لكم ولبلادكم والسلامة وحسن العاقبة فاقبلوا هذه النصيحة الودادية والاشارة الحبية وأسرعوا باطلاق القنصل المومى اليه وباقى المحبوسين المذكورين وأرسلوهم الى جهة مصوع أو الى آخر حدود حضرتكم

Digitized by Google

الاحتفال بفتح ترعة السويس – سبق الكلام على هذا القنال الذى أوصل البحرين ببعضهما فى صحيفة ٧٦١ من الجزء الاول وكذا فى تاريخ المرحوم محمد سعيد باشا وماله من الاهمية وغير ذلك ونقول الآن ان كثيرين من ملوك مصر سعوا فى توصيل البحرين ببعضهما كما ورد فى التاريخ منهم سيتى الاول أحد ملوك العائلة التاسعة عشرة فانه سعى فى توصيل النيل بالبحيرة المرة التى كانت تتصل فى زمنه بالبحر الاحمر وقال استرابون (Estrabon) وغيره ان رمسيس الثانى هو أول من سعى فى هذا الامر وكان ذلك فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد تقريبا وقال غيره ان نيخاو الثانى أحد ملوك العائلة السادسة والعشرين احتفر فى سنة ٦١٠ ق م ترعة سبق الكلام عليها فى مقدمة هذا الجزء وكان امتدادها ٦٢ ميلا رومانيا أى ٥٧ ميلا انجليزيا ولما امتلك دارا الاول ملك الفرس الديار المصرية أمر سنة ٥٢٠ ق م بجرف الرواسب الرملية التى كادت تسد هذه الترعة وتوسيعها ولا تزال آثارها باقية الى الآن بالقرب من الشلوفه وقال هيرودوت ان طول الخليج الموصل بين البحرين كان مسيرة أربعة أيام وعرضه كاف لمرور سفينتين من أكبر السفن فى آن واحد بكل سهولة وهو يتفرع عن فرع النيل الذى يصب عند مدينة بيلوزه ويتجه شرقا حتى يصل الى البحر الاحمر اهـ وروى دسيلون ودبودور الصقلى أن بطليموس الثانى لم يهمل أمر هذه الترعة وكذا حصل الاعتناء بالمواصلات المذكورة فى زمن الرومان ثم أهملت الى أن فتح العرب البلاد فحصل الاتصال بخليج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وفى زمن أبى جعفر المنصور أمر بردم هذا الخليج لقطع المواصلات عن المدينة عندما ثار أهلها وأراد هرون الرشيد توصيل البحرين المذكورين ببعضهما فنهاه جعفر وزيره عن ذلك وقال له يا أمير المؤمنين ان خرق السويس خرق فى الاسلام ثم فى عهد السلطان مصطفى خان الثالث العثمانى خطر بباله أن يعيد اتصال البحر الاحمر والابيض كما كانا قديما وكلف البارون دوطوت (Tott) الفرنسوى بدرس هذا المشروع ولم يتم لموت السلطان ولما احتل الفرنسويون الديار المصرية فى أواخر القرن

آمنين مطمئنين مع التكرم باخبارنا عن ذلك النبادر باخبار الدولة الانكليزية رجاء أن نحجز عساكرها عن التقدم اليكم والسير عليكم فانهم اذا دخلوا حدودكم ونزلوا بلادكم بهذه الجيوش الكثيرة والجموع الغزيرة والادوات الكاملة والمدافع الهائلة والاسلحة النارية والعدد الحربية والآلات العسكرية يلحق جهة حضرتكم من ذلك الامر خطوب عظيمة وكروب جسيمة وأحوال ذميمة كما أن من المعلوم بالضرورة أنه ان حصل تلف لهؤلاء المحبوسين فلا يكون ذلك موجبا لتأخير حركة الانكليز بل يكون موجبا لاشتداد غيظهم واحتداد غضبهم وتقوية عزمهم على السير عليكم لاجراء الانتقام الشديد والعقاب المزيد والامور الفظيعة والاهوال الشنيعة مما لا ينبغى تحريره ولا يحسن ذكره وتسطيره فان قبلتم النصح والوداد واخترتم مسالك الرشد والسداد صيانة للاموال والارواح ورعاية لبقاء الصلح والصلاح فذلك ظنى فى درايتكم وحسن سياستكم وأولى من خراب البلاد واتعاب العباد واشتداد الامور وامتداد الشرور والوقوع فى كل أمر محذور أما ان خالفتم وأخلفتم الظن وأردتم ابقاء المذكورين بعد هذا فى السجن فاعلموا أن لا بد للانكليز من أن يدوسوا أرضكم بهذه الجنود الحاضرة والقوة الوافرة والشدة الباهرة والصولة القاهرة فعند ذلك لا تنفع الندامة ولا تمكن السلامة وتكون الفرصة قد فات زمانها وانقضى أوانها وتعذر امكانها ونضطر نحن أيضا الى ان نزول ما عندنا من المودة اليكم وتكون حينئذ معهم عليكم لمخالفتكم نصيحتنا وعدم قبولكم اشارتنا والعاقل يختار خير الامور ولا يلقى نفسه فى الشرور وقد قمنا بواجب النصيحة وبقى القبول وذلك منكم غاية المأمول ونهاية المسئول ٢٥ جمادى الآخرة سنة ١٢٨٤ من الآثار الفكرية

Digitized by Google

الثامن عشر الميلادى اهتم نابليون بونابارت بأمر اتصال البحرين ببرزخ السويس وجاب جهات البرزخ المذكور بنفسه وعين لذلك لجنة من المهندسين منها المهندس الشهير بطرس لابي (Pierre Lapie) فرأوا خطأ فى حسابهم أن البحر الاحمر يعلو عن البحر المتوسط الابيض بثلاثين قدما ولذلك أشاروا بعدم مناسبة فتح هذه الترعة فقال نابليون عند ذلك ان هذا العمل الخطير الذى لم يساعدنى الوقت على انفاذه سيأتى يوم ربما نالت فيه الدولة العثمانية فخر فتحه ومن وقتئذ بقى أمر هذا الاتصال موقوفا الى ان قدم الموسيو فرديننددولسبس وتحصل على رضا محمد سعيد باشا بفتحه (٣٠ نوفمبر ١٨٥٤ م) كما سبق وعينت الحكومة من قبلها لينان بك وموجيل بك لرسم أرض البرزخ المذكور وعمل الميزانيات اللازمة وتحديد محل الترعة والارض اللازمة لها وتقدير التكاليف وعدد العملة وغير ذلك فكلف المذكوران بكل عمل من ذلك طائفة من المهندسين المصريين ولما تمت الاعمال المذكورة تعينت لجنة أخرى مؤلفة من مهندسى دول أوروبا العظام وهى فرانسا وانكلترة والنمسا واسبانيا وايطاليا وهولانده وبروسيا وانضم الى هذه اللجنة اثنان من رؤساء البحرية احدهما من فرانسا والآخر من انكلترة لامتحان ما قرره المهندسون المصريون (٣٠ اكتوبر ١٨٥٥ م) وبعد ان نظرت هذه اللجنة فى المسئلة المذكورة بكل وجوهها عقدت مصر الشروط النهائية مع الشركة التى يرأسها المسيو دولسبس (٥ يناير ١٨٥٦ م) ومن شروط هذا الاتفاق أن يكون لمصر خمسة عشر فى المائة من صافى ربح القنال فى مقابلة الاراضى التى تنازلت عنها والمساعدات التى قامت بها وغير ذلك وتعهد سعيد باشا فى اتفاق آخر عقد فى ٢٠ يوليوسنة ١٨٥٦ بتقديم العمال والفعلة اللازمين لحفر الترعة بشرط أن تدفع الشركة لهم أجورهم ولما نجح الموسيو دولسبس فى مشروعه وابتدأت الاعمال فى فتح القنال سعى الانكليز فى عرقلة مساعى دولسبس بتحريض الدولة العثمانية تارة وتارة باظهار عدم أهميته وفائدته كما سبق ولما كان للدولة الانكليزية النفوذ الاول بدار الخلافة اعترض الباب العالى على هذه الاعمال التى صرح بها والى مصر لشركة لا تعلم أعضاؤها على مباشرتها العمل قبل أن يقرعليه وهو صاحب السيادة وكان دولسبس تعهد بالحصول على تصديق الدولة وأنه ليس لسعيد باشا فى ذلك شأن وقد كادت مساعى الدولة تنجح فى ابطال هذا المشروع لولا تغلب سياسة فرانسا بالاستانة وبقيت المخابرات زمنا طويلا الى أن ارتقى الخديو اسمعيل باشا على الاريكة المصرية (١٨٦٣ م) وكان قد تم كثير من الاعمال التى كانت جارية فى حفر القنال ولما أظهر الخديو المشار اليه للشركة عدم استحسانه لتكليف أهالى مصر بحفر القنال لان ذلك معطل لاعمالهم الخصوصية وأعمال البلاد كما أشار لذلك الصدر الاعظم على باشا فى المكتوب المدرج بصحيفة ٧١٧ من الجزء الاول اضطرب سيرها ووقع النزاع بين الشركة والحكومة الخديوية ودارت المخابرات بسرعة بين الباب العالى ومصر ودولتى فرانسا وانكلتره سيما ولم يكن صدر الفرمان السلطانى بالتصريح للشركة بعمل القنال الى ذلك الوقت وقد قضت بعد ذلك سياسة الخديو اسمعيل باشا أن يتخذ الامبراطور نابليون الثالث حكما فى الموضوع ليفصل النزاع القائم بين مصر والشركة الفرنسوية قال العالم الفاضل المرحوم على مبارك باشا فى الخطط التوفيقية ان هذا التحكيم أوقع الحكومة المصرية فى بحور الدين وأهوال السياسة الدولية وألجأها الى أن تسير فى سياستها الداخلية والخارجية وفى ادارة

Digitized by Google

مصالحها الكلية والجزئية على سنن يخالف سننها القديم اهـ أما امبراطور فرانسا فانه حكم للشركة طبعا وأعطاها الحق فيما تدعيه فاصدر حكمه فى ٦ يوليو سنة ١٨٦٣ بعد ان استشار بعض أهل الدراية بالاحكام القانونية وانتدب خديو مصر نوبار باشا وأرسله الى باريس حتى يطلع الذين كانوا ينظرون فى هذه النازلة على اعتراض مصر و يوقفهم على دخائل المسئلة ولكن لم يفد ذلك وكان الحكم أن تدفع الحكومة المصرية الى الشركة على سبيل التعويض لعدم قيامها باحضار العمال ٣٨,٠٠٠,٠٠٠ فرنك وفى مقابلة تركها للاراضى التى كانت رخصت لها الحكومة المصرية باحيائها و زراعتها ٣٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك وفى مقابلة تخلى الشركة عن الترعة الحلوة وفوائدها ١٦,٠٠٠,٠٠٠ فرنك وغير ذلك بحيث دفعت مصر الى الشركة نحو ٨٤,٠٠٠,٠٠٠ فرنك وذلك عبارة عن ٤,٤٦٤,٠٠٠ ليرة ولم ينظر نابليون ولا الذين استشارهم الى أن خديو مصر منح الشركة عمل القنال وتنازل لها عن مقدار عظيم من الاراضى بلا مقابل وجعل أهالى القطر كعبيد لها وغير ذلك ولكن والحق يقال إن هذه المساعدات التى منحها والى مصر عفوا أصبحت حقا للشركة وهى تعرف أن تحافظ عليه وتدافع عنه بكل الوسائل أما حقوق الشرق فمهما كانت أسبابها وثيقة وشروطها متينة تصبح أثرا بعد عين لتفريطه وجهله والحاصل أنه بعد أن توفر المال لدى الشركة وتحصلت على الفرمان السلطانى بمساعى فرانسا كما تقدم اجتهدت فى فتح القنال ثم فى شهر مارث من سنة ١٨٦٩ م زار الخديو اسمعيل باشا القنال وركب باخرة مزينة بجميع أعلام الدول ومر فيه من طرف الى آخر فأعجبه مارآه ثم سافر على باخرة المحروسة الى أوروبا وزار عواصمها ودعا ملوكها وأعاظم رجالها لحضور الاحتفال بفتح الترعة رسميا ولما عاد الى مصر أخذ فى الاستعداد لاستقبال مدعويه بكرم حاتمى وأمر فشيدوا له تياترو بديعا وهو الاوبرا الخديوية وأرسل فأحضر له مشهورى المشخصين والمشخصات من أوروبا وأقام كثيرا من القصور الفاخرة بمصر وجهات القنال وأصلح الطريق المؤدى الى الاهرام وغير ذلك مما يضيق عنه النطاق ثم أخذ المدعوون بالوفود على مصر وكان بعضهم يأتى فى بواخر يرسلها لهم الخديو أو الشركة وبعد قليل أصبحت فرضة بورسعيد مشحونة بأنواع وأجناس المراكب والبوارج والبواخر وأجرى الاحتفال رسميا فى ١٧ سبتمبر من سنة ١٨٦٩ م والذين شاهدوا ذلك الاحتفال من الملوك هم أوجينى زوجة نابليون وامبراطورة فرانسا (Eugénée) والامبراطور فرانسوا جوزيف (François Joseph) ملك النمسا والبرنس فردريك (Fréderic) ولى عهد بروسيا وكثير من العظماء والامراء وكان الاحتفال فى غاية الابهة والجمال مارأى الناس مثله فى حسن الاتقان وكمال المعدات الا ما سمعوا به فى القصص الموضوعة والروايات المخترعة وبلغ ماصرف عليه ١,٤١١,١٩٣ ليرة انكليزية وكانت مصر فى غنى عن صرف هذا المبلغ الجسيم و ياليته صرف بالبلاد و بين أهلها بل دفع للاجانب لانه ثمن أشياء أتت من بلادهم ليتمتع بها أمراؤهم فى أرض الفراعنة ولكن الامر بيد الله فلا لوم ولا عتاب

المحاكم المختلطة بالديار المصرية — كانت جميع القضايا التى تحدث ما بين الأهالى والاجانب فى زمن ولاية المرحوم محمد على باشا تنظر و يحكم فيها بالمحاكم الشرعية والأهلية بهذه الديار طبقا للقواعد الامتيازات الاجنبية فى الممالك العثمانية ثم لما كثر التجار فى الممالك العثمانية

Digitized by Google

شكلت الدولة نظارة مخصوصة للتجارة (١٢٦٤ هـ ١٨٤٨ م) واضطرت أن تجعل مجلسا مختلطا نصف أعضائه من العثمانيين والنصف الآخر من الاجانب ليحكم في المسائل التجارية بين الرعايا والاجانب على اختلاف جنسياتهم أما الدعاوى الاخرى فكانت تحكم فيها المحاكم الاهلية وعلى ذلك كانت الاحكام سائرة في الديار المصرية ولما كثر توارد الاجانب الى مصر أخذ القناصل يتداخلون في القضايا التي تقع بين رعاياهم وبين الاهالي بغير أن يحصل اعتراض ما من أصحاب الشأن في الحكومة المصرية وبذلك تمكن القناصل مع طول الايام واهمال مصر حقوقها وتفريطها في أمر رعاياها من جعل دوائرهم كمحاكم تفصل في كثير من القضايا التي تحدث بين رعاياهم وبين الاهالي واستمر الحال على ذلك الى ان ارتقى اسمعيل باشا الى مسند الخديوية فسعى في أن يعيد الى المحاكم الاهلية ما كان لها من الامتياز السابق الذي تؤيده الاوامر السلطانية فوجد العراقيل والاعتراضات الشديدة من قناصل الدول ودعواهم في ذلك سوء ادارة المحاكم الاهلية وعدم استقلالها وهو اعتراض وان كان في غاية الحقانية والصدق الا انه اعتراض ظاهري كما لا يخفى على اللبيب لانه لو فرض وكانت المحاكم المصرية بالغة حد الاتقان والاستقلال لاختلق القناصل المذكورون اعتراضات أخرى يتنصلون بها من جعل رعاياهم خاضعين لقوانين بلاد شرقية اسلامية ثم أمر الخديو نوبار باشا بالبحث عما به يمكن حل هذا المشكل الجسيم فاعمل الباشا المذكور فكرته أياما ثم قدم لسموه تقريرا وافيا في سنة ١٨٦٧ م بين فيه جميع الامتيازات القنصلية وقال بعدم موافقة حالتها التي كانت عليها وقتئذ لأن تلك الامتيازات سنت لهم وقت ان كان عدد الاجانب في البلاد قليلا وكانت الامتيازات المذكورة مختصة بأمر مبادلة التجارة فقط وان القناصل توسعوا في معانيها حتى جعلوا أنفسهم محامين لرعاياهم ليخلصوهم من الجرائم التي يرتكبونها مع الاهالي وطلب في تقريره اعادة الأمر الى ما كان عليه سابقا والا تتشكل محكمة مختلطة كالمحاكم التجارية المختلطة المذكورة التي في الممالك العثمانية وان تكون الاغلبية فيها للمصريين واستحسن نوبار باشا وضع قانون لذلك على نسق قانون نابليون والقوانين الاوروباوية فقبل الخديو اسمعيل باشا ذلك التقرير بكل ارتياح وأخبر به القناصل رسميا وشرعت الحكومة المصرية تتخابر في شأنه مع الدول الاخرى زمنا طويلا وظهر من بعضها أثناء ذلك عدم ارتياح وامتنعت اليونان من قبوله بالكلية ثم ألح الخديو في الامر وتشكلت في باريس لجنة لنظره تحت رياسة الموسيو دوفيرجي (E. Duvergier) رئيس قسم شورى الحكومة (١٨٦٧ م) وبعد المداولة رأت اللجنة المذكورة ضرورة إنشاء المحاكم المذكورة بلا توسع في نطاقها ثم استمرت المداولة بين الحكومة الخديوية وبين الدول الاوروباوية حتى قامت حرب سنة ١٨٧٠ م بين فرانسا وبروسيا فتوقفت المخابرات زمنا طويلا ثم لما توجه الخديو اسمعيل باشا كعادته السنوية الى دار الخلافة تداول في هذا الامر مع وزراء السلطنة وعقد هنالك مجلس (١٨٧٢ م) تحت رياسة الموسيو فيليب فرنسيس (Philip Francis) قنصل انكلترا العام في مصر وقاضي المحكمة العليا البريتانية بها والموسيو تريكو (Tricou) قنصل فرانسا الجنرال وعينت ايطاليا موسيو جاكوني (Giaccone) وحضره نوبار باشا وبعد المداولة حرروا تقريرا (١٥ فبراير ١٨٧٣ م) بايجاد المحاكم المذكورة لمدة خمس سنوات على سبيل التجربة وقرروا أن تحكم تلك المحاكم في المواد المدنية والجنائية ولكن اتفق عقب ذلك

سقوط وزارة نوبار باشا وتشكيل وزارة برأسها المرحوم شريف باشا فكتب منشورا الى القناصل طلب فيه ان المحاكم المختلطة المذكورة تنظر فقط فى الاحكام المدنية حتى تحصل التجربة فى المدة التى تقررت وعند تجديد مدتها مرة أخرى ينظر فيما اذا كان من المناسب أحالة مواد الجنايات عليها أم لا هذا وقد اتخذت فرانسا هذا البلاغ حجة لها ورفضت فيما بعد جعل الاحكام الجنائية من اختصاص تلك المحاكم وقانون هذه المحاكم مأخوذ من قانون نابليون مطبق على نوع ما على بعض قوانين البلاد والشريعة الاسلامية واعلم أن هذه المحاكم وان كانت سببت اضرارا جسيمة لبعض الاهالى لجهلهم بالاحوال القانونية فيما يتعلق بالمعاملات مع الاجانب وانتقلت بسبب ذلك وبسبب عدم وقوف قضاتها الاجانب على أحوال الاهالى والبلاد وقوفا تاما وعدم معرفتهم بأنواع الحيل التى يستعملها بعض الاجانب مع الفلاحين خصوصا للاستيلاء على ثروتهم بحكم هذه المحاكم وغير ذلك من الامور الا أنها على ما بها أحسن من محاكم القناصل بكثير ومن الغريب أن اللغة العربية التى هى لغة البلاد وان كانت احدى اللغات الرسمية التى يجوز الترافع بها أمام تلك المحاكم قد أهملت فيها بالكلية ولم نسمع بحصول الترافع بها امامها الا فيما ندر

تأسيس مجلس الشورى — لما كان اسمعيل باشا من عهد ماولى الخديوية المصرية دائبا فى ترقية أحوال البلاد لاح له أن من أهم الامور وأكثرها فائدة للبلاد هو تأسيس مجلس شورى يكون أعضاؤه من أهل البلاد وكان قبل ذلك شكل مجلسا خصوصيا وجعل أعضاءه من كبار رجال حكومته وأناط به النظر فى جميع المشروعات التى كان يرى لزوم ايجادها بمصر وكان يرأس جلساته بنفسه فى الغالب وأعضاء هذا المجلس هم الذين قرروا تأسيس مجلس الشورى المذكور حسب رغبته وكانوا قد وضعوا له لائحة أساسية لانتخاب أعضائه ولائحة نظامية فى بيان حدوده ووظائفه وأعماله وصدرت أوامره باعتماد ذلك وقد رأينا من الواجب أن نورد هنا نص الامر العالى الصادر بذلك لانه يعتبر أول خطوة خطتها البلاد فى طريق الشورى وها هو بعد الديباجة

(قد تقدم عقد المجلس الخصوصى تحت رياستنا للنظر فى كيفية انتخاب الاعضاء التى يتركب منها مجلس شورى النواب الذى تقرر لدينا تأسيسه وافتتاحه فى ديارنا هذه المحروسة بعون الله وعنايته المحفوفة بالطافه ورعايته أملا فى حصول ما يترتب عليه من المزايا السنية والفوائد الوطنية والتوسع فى دوائر المعمورية والمدنية كما هو جلى للعيان غنى عن البيان وقد تم تنظيم اللائحة الاساسية على ما تقرر استنسابه وتحقق استصوابه وحيث كان من اللزوم بمقتضى البند الخامس عشر من اللائحة الاساسية المذكورة أن يكون لمجلس شورى النواب المشار اليه لائحة تحتوى على بيان حدوده ونظاماته وأعماله وكيفية ادارة أشغاله جرت المفاوضة فى ذلك بالمجلس الخصوصى تحت رياستنا أيضا وكمل تنظيم لائحة الحدود والنظامات المذكورة عالاح استحسانه وموافقته وها هى صورة كل من اللائحتين المذكورتين وتحتوى الاولى على ثمانية عشر بندا والثانية تشتمل على واحد وستين بندا كما سيأتى بيانه وأصدرت أمرى هذا اليكم لاعتمادهما والعمل على موجبهما وبالله التوفيق والهداية الى أقوم طريق)

وافتتح الخديو المجلس المذكور بنفسه فى يوم ١٠ رجب من سنة ١٢٨٣ (١٩ نوفمبر ١٨٦٦) وألقى عند ذلك خطابا (١) كما هى العادة ذكر فيه ميله الى ترقى الامة والبلاد وغير ذلك وأصدر

(١) من المعلوم أن جدى المرحوم حين تولى مصر وجدها خالية من آثار العمار ووجد أهلها مسلوبى الامن والراحة فصرف الهمم العالية لتأمين الاهالى وتمدين البلاد بايجاد الاسباب والوسائل اللازمة الى ذلك حتى وفقه الله تعالى لما

ايضا

Digitized by Google

أيضا لكل عضو من أعضائه أمرا بتعيينه فى ذلك المجلس لمدة ثلاث سنين شمسية (٢) أشار فيه الى ماتؤمله البلاد من الاعضاء باجتماعهم وابداء آرائهم واجاب الاعضاء بخطاب حوى مختصر تاريخ البلاد وما نالته من السعادة والتقدم والارتقاء فى عهد العائلة المحمدية العلوية وشكروا فيه المآثر الخديوية الاسماعيلية بمنح البلاد حقوق الشورى التى يبقى ذكرها على توالى الازمان

أراد من تأسيس عمارية الاقطار المصرية وكان والدى مونا له ونصيرا فى حياته فلما آلت اليه الحكومة المصرية اقتفى أثر أبيه فى اتمام تلك المساعى الجليلة بكمال الجد والاجتهاد لو ساعده عمره لكملها على أحسن نظام ثم انقلبت أحوال مصر بعدهما الى أن قدر الله تعالى تسليم زمام ادارة حكومتها الى يدى ومن حين تسلمته لهذا الآن رأيتم دوام سعيى واجتهادى فى اكمال ماشرعا من المقاصد الخيرية بتكثير أسباب العمارية والمدنية أعانني الله على ذلك وكثيرا ما كان يخطر ببالى ايجاد مجلس شورى النواب لان من القضايا المسلمة التى لا ينكر نفعها ومزاياها أن يكون الامر شورى بين الراعى والرعية كما هو مرعى فى أكثر الجهات ويكفينا كون الشارع حث عليه بقوله تعالى وشاورهم فى الامر وبقوله تعالى وأمرهم شورى بينهم فلهذا استنسبت افتتاح ذلك المجلس بمصر تتذاكر فيه المنافع الداخلية وتبدى به الآراء المفيدة تكون أعضاؤه متركبة من منتخبى الاهالى ينعقد بمصر فى كل سنة مدة شهرين وهو هذا المجلس المقدر بعناية المولى فتحه فى هذا اليوم على يدنا الذى أنتم فيه أعضاء منتخبون من طرف الاهالى وانى أشكر الله على ماوفقنى لهذا الامر المبرور وواثق من فطانتكم بحصول النتيجة الحسنة من حسن المداولة فى المنافع الداخلية الوطنية وفقنا الله تعالى لما فيه منفعة للجمهور وعلى الله الاعتماد فى كل الامور اهـ من القانون المطبوع ببولاق آخر شعبان سنة ١٢٨٣

(٢) قدوة الوجوه المعتمدين والاعيان المنتخبين فلان الفلانى من البلد الفلانية بالقسم الفلانى بمديرية كذا زيد اقباله ودام كماله قد علم آل الوطن العزيز وفهم أهل الفطن والتمييز دوام شغف فؤادنا واشتغال أفكارنا بما فيه معمورية بلادنا هذه وسعة منفعة ديارنا ومايقدم أهلها فى مدارج التمدن ويصعدهم فى معارج التمكن وقد علمت ان ترتيب مجالس الشورى الوطنية مما يعود على ديارنا هذه بمزيد المزية كما جرت فى سائر الدول المتمدنة وشوهد بين جميع الملل المتمكنة فان تلاحق الافكار وتصادق الآراء والانظار يستنتج ثمرات الالباب من أغصانها ويستخرج محسنات الصواب من أفنانها وقد رأيت فى أهل وطننا المبارك بحمد الله تعالى وتبارك من مزيد الاهلية والاستعداد مايكون عونا على حصول هذا المراد فلذا رسمت بترتيب المجلس المذكور وانشائه وأصدرت لائحة مخصوصة فى كيفية انتخاب أعضائه بحيث يكونون من وجوه أهل وطننا لينوبوا عن سائر أهالى مدائننا وبلداننا وقد كمل أمر الانتخاب الآن ممن يصلح لهذا الشان وأنت ممن انتخبوا لهذا الخصوص وصدق عليهم فى قرار القومسيون المخصوص وعرض ذلك بواسطة سعادة رئيس المجلس الينا فقوبل بقبوله واستحسانه لدينا فأصدرت هذا اليك اعلاما بأنك ممن حاز شرف الامتياز بالعضوية فى ذلك المجلس مجلس شورى النواب الوطنية وذلك بمدة ثلاث سنين شمسية حسبما تقرر فى اللائحة الانتخابية وكلكم أصحاب روية وأهلية وأرباب فطنة جلية وكمال معرفة بالمصالح الداخلية والمنافع المحلية فأملى فى سمو أفكاركم وعلو أنظاركم أن يكون فى اجتماعكم هذا مايزيد أوطاننا به فلاحا وتقدما وتجارى به غيرها من الممالك المعمورة والمدائن المشهورة اصلاحا وتحسينا فتمعنوا فى النظر الصائب وتبينوا الفكر الثاقب وتذاكروا فيما يتعلق بهذا المجلس من المصالح الداخلية والمواد التى ترى الحكومة أنها من خصائص هذه الشورى الوطنية وأدوا وظائف هذه الجمعية على وفق حدودها وأبدوا من شرائف الآراء لبهية خير موجودها وتبصروا بما فيه اعتلاء أقدارنا بأقطارنا واجتلاء أوطاننا بأوطارنا ومزيد الرفاهية لاهاليها وساكنيها على وفق المطلوب وانتظام حال الزراعة والتجارة والصناعة فيها على أحسن أسلوب نسأل الله دوام التوفيق وبلوغ الآمال وحسن الحال والمآل فهو مولى الخير ومولى الكمال فى رجب سنة ١٢٨٣ اهـ من صحيفة ١٠٠ ج ٥ منتخبات الجوائب

Digitized by Google

وقد أدرجناه أسفل الصحيفة لتمام الفائدة (١) ولما أراد المرحوم شريف باشا تعريف الاعضاء

(١) صورة جواب النواب — بعدما تشرفنا بالاصغاء لتلاوة الخطبة الجليلة الجامعة جوامع الكلم الجميلة . نبادر الى الاعتراف بما حوته بغاية الانشراح وكمال الارتياح ونقول ان الذى قطفناه من زواهر الاخبار التاريخية وعرفناه من سوافر آثار الديار المصرية انها كانت فى الاعصار الخالية رافلة فى حلل المفاخر الحالية وان بقية الاقطار كانت تستمد من نيل معارفها الوافر معترفة بأنها مغترفة فى الاصل من نيل عوارفها الزاخر لكن لتداول أيدى من لم يحسن تدبير ملكها من الملوك السالفين تناوبتها نوائب الزمن وتناولتها أيدى المحن حينا بعد حين فاندرست معالمها الباهرة وانطمست آثار مفاخرها الزاهرة ولعبت بها أيدى الدهور وتكاثرت فيها الحروب والشرور حتى رجعت القهقرى وأصبح غيرها من الممالك فى أنواع التمدن متقدما وملكها متأخرا وقاسى أهلها من الذلة والمسكنة ما صاروا به فى غاية الحقارة والمهنة البينة الى أن أراد الله أن يعيد شبابها بعد الهرم ويجدد ما كان من بنيان محاسنها قد انهدم وينقذ أهلها من هذه المهالك وينظمها فى سلك أحاسن الممالك فشرفها بمجد العزيز جنتمكان محمد على باشا فأعاد لها من العمارية ومحاسن الآثار الاصلية ما كان تلاشى أفرغ قلبه وقالبه فى اصلاح حالها وأعمل سديد رأيه وشديد عزمه فى اعادة جمالها وكمالها حتى زاح عنها تلك الوخامة وألبسها حلل الشهامة والفخامة وأحكم فيها معالم التمدن غاية الاحكام وأقام بها دعائم العدل بين الانام ودون فيها دواوين المعارف المتسقة وجمع بها أصناف المآثر المفترقة وجدد فيها القوانين العسكرية وأنشأ بها دوارس المدارس العلمية والحكمية حتى ظهرت بعد الخفاء وأزهرت أفنانها بزهور الصفاء وعاد اليها من البهاء والبهجة ما كانت فقدته فى سالف الايام وانتظمت مصالحها الاهلية والملكية بحسن تدبيره أحسن نظام مع ما قارنه به من غرائب الصنائع الفائقة وعجائب الآثار الرائقة مما شوهد لنا جميعا وتبوأ أبناه بيتا من العز رفيعا فضلا عما أورثنا به الغنى الاتم والفخار الاعم من الاستحكامات الملكية واحكام العمليات الوطنية العائدة بعظيم النفع الى عموم الرعية حتى بذلك حسدت مصرنا الامصار وصرنا بحمد الله متقدمين فى درجات العمارية والفخار الى أن خاننا فيه الدهر وسقانا بفراقه كأس القهر وانتقل الى دار النعيم فى جوار رحمة ربه الكريم ومن ألطاف الله الخفية وارادته الخير بالديار المصرية أن ولى عليها بعده أكبر أولاده وأجلهم قدرا وأمضاهم عزما وأعظمهم فخرا الصدر الهمام والليث المقدام مولانا المرحوم جنتمكان ابراهيم باشا والد حضرة أفندينا فسلك سبيل أبيه وبنى على تأسيساته الباهرة ما حسنته مساعيه وأخذ ينشئ ما يكمل به رونق الوطن ويجدد من العمارية والآثار الجليلة ما بقى على ممر الزمن من انشاء المجالس الحقانية وتكثير الرجال الحربية والاستحكامات الملكية وغير ذلك مما عقدت به نيته وأضمرته طويته فحسدتنا الايام عليه فلم تمتع بعز حكومته الا قليلا حتى نقله الله اليه ثم تولى على الاقطار المصرية وولايتها من لم يراعوا تلك المآثر العظيمة حق رعايتها ففترت همة مصر السابقة وضعفت حركة تقدمها الفائقة الى أن نفحتنا النفحات الالهية وأسعفتنا العناية الربانية بالحضرة الاسماعيلية وأعطى القوس باريها لطفا من الله بهذه الديار ومن فيها وتولاها العزيز بن العزيز بن العزيز ذلك الجناب الافخم والداور الاكرم فقام فى تنظيم أمورها على ساق وقدم وشمر عن ساعد الجد والاجتهاد فى تجديد ما انهدم واحياء ما انعدم وأخذ يداوى تلك العلل ويسد ما تخلل بعد أبيه من الخلل وسعى فى مقاصد أبيه وجده باذلا فى موجبات التقدم والتمدن الوطنى غاية جهده شاغلا باله بأقصى أنواع العمارية مديرا فكره فيما يستدعى لهذه الاقطار كل الرفاهية فأبدى من ذلك ما لم يكن فى الحساب وزادها من البهجة وأسباب الثروة ما لم تره فى سالف الاحقاب ورتب ملكها أحسن ترتيب ونظم عقده فى سلك غريب باسلوب عجيب ومن تمام عناية رب العالمين أن ألهم سلطاننا الاعظم ولا غرو بأن الملوك من الملهمين حصر وراثة الحكومة على التأبيد فى نسل اسمعيل بان يتولاها أكبر أولاده بعد عمره المديد فيا لها من فكرة جليلة رائقة أسست فى هذه الديار من دواعى العمارية الاسباب الفائقة واستلزمت تحسيننا لاحوالها وتأميننا لحالها واستقبالها أطال الله عمر سلطاننا المهاب وذلك دعاء ان شاء الله مستجاب ثم ازدادت الهمم الاسماعيلية بصرف أفكاره الخيرية العلية فيما يعلى قدر هذا الوطن ويرقى انتظام حاله على أسنى

ما يجب

ما يجب عليهم عمله أثناء المجلس وكيفية المداولات والمناقشات ظهر من بعض الاعضاء ما يضحك ويبكي في آن واحد وذلك لعدم معرفتهم ماهي المجالس الشورية ويظهر انه كان للخديو المشار اليه في تشكيل هذا المجلس نوايا لم تظهرها الايام وقال بعض الكتاب الاوربا ويين ان تشكيل مجلس الشورى في الديار المصرية أتى قبل أوانه وانه عبارة عن أمور ظاهرية

الجيش في عهد الخديو اسمعيل باشا ـ ان المرحوم الخديو اسمعيل باشا من أول حكمه وجه عنايته الزائدة الى ترقية شأن الجندية وترتيبها على الهيئة الفرنسوية ففي أوائل سنة ١٢٨٠ هـ رتب ثمانية ألايات من البيادة وألايين من السوارى وألايا واحدا من الطوبجية البيادة والسوارى ثم أرسل الى فرنسا خمسة عشر ضابطا (١) من أمهر الضباط من كل الاسلحة صحبة الجنرال برنسو ومعهم أحمد بك عبيد بصفة مترجم لمشاهدة التعليمات العسكرية الفرنسوية والوقوف على استحكاماتها ومناوراتها العمومية التي أجراها الاوردي المقيم في شالون تحت قيادة المارشال مكماهون وكان عدد ذلك الاوردي ٨٠,٠٠٠ من الجنود وكان سفر الضباط المذكورين على فرقاطة شبرجهاد وقبودانها مصطفى بك العرب ولما رست بهم السفينة على مرسيليا احتفل بهم ضباط فرنسا واطلعوهم على كثير من الاعمال العسكرية ثم عادوا ومعهم جملة مؤلفات عسكرية من قوانين ونظامات وغيرها من أنواع الاسلحة والملابس وشرع الخديو في تنظيم جيشه على نظام جيش فرنسا وأمر بترجمة قوانينها العسكرية ثم طلب منها ان ترسل له بعض الضباط لترتيب المدارس الحربية المصرية فأرسلت له سنة ١٨٦٤ م بعض ضباط تحت رياسة الكولونيل ميرشير (Mircher) ومعه ثلاثة ضباط آخرون هم رباتيل (Rebatel) ولارمي (Larmée) وبولاد (Polard) وألحق بهم دوبرناردي بك (DeBernardi) وكان مستخدما بمصر من عهد المرحوم سعيد باشا وأمر الخديو بنقل المدرسة الحربية التي كانت بقصر النيل الى العباسية وقسموها الى أقسام بياده وسوارى وطوبجية ومهندسين حربيين وأركان حرب وجعلوا لهذه المدارس ادارة خاصة بها لزيادة

سنن ومن كمال همته السنية وتمام رأفته ورحمته بالرعية وشفقته بدوام راحتهم وتمام رفاهيتهم اقتضت ارادته العلية انشاء مجلس شورى أهلية وطنية لما يعلم من أن جمع الآراء في أمور العالمين والمداولة في مصالح الرعية مع عقلاء الوطنيين من مقتضيات حسن النظام وموجبات كمال الالتئام وتمام راحة الانام ففوض انتخاب أعضاء ذلك المجلس لعموم الاهالى حتى يكون ما يحكم فيه من الامور واقع مألوفهم وعرض جميع ذلك الى حضرة الوالى تبرئا من غوائل المقدورية وتوفير الدواعي العدالة العمومية فكنا نحن المنتخبين من سائر الجهات المصادفين عوسم مولد الحضرة الخديوية أسر الاوقات واذ كان انشاء هذا المجلس الانيق من أجل المساعي الحميدة وأتم نعمة أسداها ولى النعم الى عبيده فمن الواجب الاهم الشكر لتلك الحضرة العلية والتباهي بتلك المنقبة البهية ورفع أكفنا آناء الليل وأطراف النهار بالدعوات في أجل الاوقات وسائر الحالات أن يخلد على قطرنا هذا بدوام سعود أفندينا الافخم وولى عهده حضرة محمد توفيق باشا الاعز الاكرم وكذا بقية الانجال الفخام ولا يحرم جميعنا من حسن انظارهم ونفائس محاسن أفكارهم بجاه خاتم الرسل الكرام عليه أفضل الصلاة وأتم السلام

(١) وهم شاهين باشا وابراهيم باشا السوارى وعلى بك رضا الطوبجى وعلى بك وهبى ويوسف بك صديق ومحمد بك رضا ومحمود بك سامى واسمعيل بك أيوب وعبد القادر بك حلمى ومصطفى بك فهمى وعثمان بك غالب وأحمد أفندى حمدى وحسن أفندى مظهر ومحمد أفندى

Digitized by Google

الاعتناء وكان يرأسها أولا الفريق سليم باشا الجزائري ثم ميرشير بك المذكور (١٨٦٥ - ١٨٧١ م) ثم خلفه الجنرال كارولى نونسى برتبة لواء (١٨٧٢ - ١٨٧٣ م) وفى هذه الاثناء جعل سليمان بك نجاتى مأمورا لادارة المدارس المذكورة وعبد الرحمن ذهنى افندى وكيلا لها (١٨٦٦ - ١٨٦٧ م) ثم جعل الوكيل المذكور معاونا بالادارة المذكورة (١٨٦٨ - ١٨٧١ م) وخلف نجاتى بك باور بك (١٨٧٣ - ١٨٧٤ م) ثم أعيد نجاتى بك لادارتها مرة أخرى (١٨٧٤ - ١٨٧٦ م) وكان لكل مدرسة من تلك المدارس ناظر مستقل تابع لعموم ادارة المدارس الحربية وكان تلامذة هذه المدارس ينتخبون من بين تلامذة المدارس الملكية الثانوية والعالية وقد نبغ منهم كثيرون اشتهروا باعمارفهم العسكرية والهندسية فكانوا أمهر ضباط خرجتهم مدارس مصر الحربية هذا وقد أدرجنا ذيل الصحيفة عدد تلامذة كل مدرسة من هذه المدارس وأسماء الذين تولوا نظارتها على التعاقب (١) وكان للحكومة فى العهد المذكور مدارس عسكرية أخرى أقل من هذه اهمية كان القصد من انشاء بعضها فى الظاهر جعل الاهالى يميلون من أنفسهم للانخراط فى سلك العسكرية مثل مدرسة الخطرية وكان لا يشترط فى قبول تلامذتها الا صحة الجسم وقوته ومعرفة القراءة والكتابة العربية وكانت بالقلعة ولم تمكث هذه المدرسة زمنا طويلا وكان بها من التلامذة ما يزيد عن الثلثمائة تلميذ وكان يقصد من بعضها تنوير عقول صف ضباط الجيش بالمعلومات الابتدائية مثل مدرسة صف الضباط التى تأسست سنة ١٢٩١ هـ وقد أفادت هاتان المدرستان وأمثالهما فائدة عسكرية عظيمة فى الفتوحات التى قام بها الخديو المشار اليه فى وسط افريقية وفى اكتشافاته الجغرافية المهمة التى سيأتى ذكرها ولما كان المرحوم قاسم باشا وزير الجهادية تقدمت الجندية المصرية على العموم تقدما عظيما فى المعارف بما أوجده من مدارس الالايات التى كان يدرس بها الضباط القوانين والتعليمات العسكرية وألزم كل من لم يكن منهم يعرف القراءة والكتابة بتعلمهما وجعل مكافأة لمن يتقدم منهم فى ذلك وكذا لكل من يؤلف أو يترجم كتبا

(١) كان عدد تلامذة مدرسة البياده فى أول تأسيسها ٤٩٠ تلميذا وجعل لنظارتها أولا محمد بك أمين (١٨٦٤ - ١٨٦٥ م) ثم خلفه دوبرناردى بك (١٨٦٥ - ١٨٦٨ م) ثم منصور افندى حسن (١٨٦٨ - ١٨٧٠ م) ثم محمد افندى رعنا (١٨٧٠ - ١٨٧١ م) ثم جعل لها مدير وادارة وهم على التعاقب محمد افندى كامل (١٨٧١ - ١٨٧٤ م) ثم ابراهيم أفندى عاصم (١٨٧٤ - ١٨٧٧ م) ثم محمد افندى صاع (١٨٧٧ - ١٨٧٩ م) وبلغ عدد تلامذة مدرسة الطوبجية فى أول تأسيسها ٢٨٠ تلميذا كانوا ينتخبون من تلامذة مدرسة المهندسخانة وتعين لها الموسيو لارى (١٨٦٤ - ١٨٧٨ م) ورقى فيها الرتبة الميرألاى وبلغ عدد تلامذة مدرسة السوارى فى أول تأسيسها ١٦١ تلميذا وتعين لنظارتها الموسيو بولار السابق الذكر (١٨٦٤ - ١٨٦٨ م) ثم خلفه باور بك وكان وكيلا له (١٨٦٨ - ١٨٧٦ م) ثم ألحقت بادارة عموم المدارس وبقيت بلا ناظر واستمرت كذلك حتى ألغيت سنة ١٨٧٩ م أما مدرسة أركان حرب فانها لما أنشئت سنة ١٢٨٢ هـ (١٨٦٥ م) وانتخبوا تلامذتها من أمهر تلامذة المدارس الحربية والمهندسخانة ومدارس الحكومة الاخرى فكان عددهم أولا ١٠٥ تلامذة جعلت تحت ادارة مرشير بك (١٨٦٤ - ١٨٦٥ م) ثم تعين لها شعانه بك عيسى (١٨٦٦ - ١٨٦٧ م) ثم خلفه فيها الموسيو رابنيل (١٨٦٧ - ١٨٦٨ م) ثم أعيد عليها مرشير بك ثانية (١٨٦٨ - ١٨٧٠ م) وبقى بها الى أن سافر الى بلاده أثناء حرب المانيا مع روسيا فاحيلت على لارى باشا وبقى عليها الى أن ألغيت فى سنة ١٨٧٩ م

عسكرية

Digitized by Google

عسكرية ولذلك أقدم الضباط على التأليف والترجمة وكانت العلوم التي تدرس بالمدارس العسكرية تتناول كل العلوم المهمة التي تدرس في مدارس أوروبا يعلم ذلك من الجدول الآتي المشتمل أيضا على أسماء المعلمين

دروس ومدرسي المدارس الحربية سنة ١٢٩٢

مدرسة أركان حرب

علوم	أسماء الاساتذة
قسموغرافيا	اسمعيل بك
كيميا	كستنبل بك
استحكامات	خفاجي بك
ابنية عسكرية	
طبوغرافيا	
فن طوبجية	عبد الرحمن بك على
ميكانيكا	عامر بك
فن عسكرية	سعيد أفندي نصر
طبيعه	مصطفى افندي نصر
تطبيق الجبر على الهندسة	لطيف أفندي سليم
جغرافيا	رمضان أفندي
قوانين عسكرية	خليل أفندي كامل
استحكامات خفيفة	أحمد أفندي زكي
هندسة وصفية	أحمد افندي نجيب
جبر	لطيف أفندي سليم
مثلثات مستقيمة	
خط رقعة	حسن أفندي نجيب
فرنساوي	مسيو لوز
انكليزي	محمد أفندي سليمان ومسيو بورك
نمساوي	موسيو إبليخ

مدرستي الطوبجية والمهندسين

علوم	أسماء الاساتذة
كيميا	كستنبل بك
استحكامات قويه	خفاجي بك
ابنيه عسكريه	
فن طوبجيه	عبد الرحمن بك
طبوغرافيا	
فن عسكريه	سعيد افندي نصر
ميكانيكا	علي بك سعد
مثلثات مستقيمه	
جغرافيا	رمضان أفندي
طبيعه	يوسف أفندي عباد
قوانين طوبجيه	حسن أفندي رأفت
قوانين پياده	علي أفندي ذهني
رسم طبوغرافيا	علي أفندي رشدي
رسم عملي	
رسم منظور	محمود أفندي زكي
استحكامات خفيفة	أحمد أفندي زكي
جبر	لطيف أفندي سليم
فرنساوي	موسيو لوز، سعيد أفندي نصر
انكليزي	الموسيو بورك
نمساوي	موسيو إبليخ

Digitized by Google

﴿تابع دروس ومدرسي المدارس الحربية سنة ١٢٩٢﴾

مدرسة البيادة

علوم	أسماء الأساتذة
هندسة وصفية مثلثات مستقيمة	سيد احمد أفندي
استحكامات خفيفة	محرم أفندي شوكت
تركي	عبدالله أفندي وطاهر أفندي
فن اشاره	محمد أفندي توفيق
قوانين عسكريه	ضباط المدرسه
طبوغرافيا	بكير أفندي شوقي
حساب جبر	عبد الرحيم أفندي
جغرافيا	أحمد أفندي حلمي
عربي	الشيخ محمد المنيلي الشيخ عبد الحافظ
رسم عملي	علي أفندي رسمي
مبادي حساب	أحمد أفندي قدري
هندسه عاديه	محمد أفندي ناصح
رسم نظري	محمود افندي شوكت
خط رقعه	محمد أفندي حسن
نمساوي	الموسيو ابلبيغ
انكليزي	مستر بورك محمود أفندي سليمان وخليل أفندي زكي
فرنساوي	رمضان أفندي موسيو لوريز أحمد أفندي حلمي
حبشي	مخايل أفندي

مدرسة السواري

علوم	أسماء الأساتذة
حساب طبوغرافيا مثلثات مستقيمة مستويات رقية	محمود أفندي فهمي
استحكامات خفيفة	محرم افندي شكري
هيئة ظاهره	محمد أفندي سعيد
تركي	علي أفندي حلمي
فن اشاره	محمد أفندي توفيق
قوانين سواري	ضباط المدرسة
جبر هندسة وصفية هندسة عاديه	علي أفندي رشدي
جغرافيا	محمود أفندي حسني
عربي	الشيخ محمود العالم
رسم نظري	محمود افندي شوكت
نمساوي انكليزي فرنساوي حبشي	خوجات مدرسة البياده

ولما عاد الضباط الذين كانوا أرسلوا الى فرنسا تأسس في الجيش المصري قلم لاركان الحرب انتخبوا ضباطه من المعدودين العارفين باللغات الاجنبية وجعل لرئاسته الكلونيل تشارلس پومري أستون (Stone) أحد ضباط الولايات المتحدة الامريقانية الذين استقدمهم الخديو من بلادهم وكان الغرض من انشاء هذا القلم تدريب الضباط المصريين على الاعمال الحربية من جهة ومن الاخرى القيام باعمال الارساليات والاكتشافات التي عقدت النية وقتئذ على اجرائها بأقاليم السودان وقد استفاد الجيش المصري من تأسيس هذا القلم فائدة

كبيرة

Digitized by Google

كبيرة وترقت بها خالته وفي هذا الوقت حضر الى مصر بقية الاورطة السودانية المصرية التي كان أمدّ بها سعيد باشا نابليون في حربه مع بلاد مكسيكا كما سبق وأنعم الخديو على ضباطها وجنودها بالرتب والنياشين ومدحهم على سيرتهم وشجاعتهم

ولما انتصرت ألمانيا على فرنسا وظهر للعيان براعة الالمان في التعبية والنظامات العسكرية بما يفوق الفرنسويين بكثير وكانت العسكرية المصرية على مثال عسكرية فرنسا أمر الخديو بتعديل الجيش على النظام الالماني الذي ذاع صيته فترجمت القوانين وتعدلت الملابس وغيرت الاسلحة وبقي الجيش على هذا النظام حتى وقت ثورته وكان الخديو اسمعيل باشا يهتم في زيادة القوة العسكرية حتى انه في سنة ١٨٧٣ جعلها تتألف من أربع فرق تتركب كل فرقة من أربعة ألايات من البيادة وألايين من السواري وألاي من الطوبجية وجعل أورطتين من المهندسين وثلاثة ألايات من طوبجية السواحل وادارة خاصة لأركان الحرب والمهندسين الحربيين وعدة بلوكات للصنائعية وعمال المعامل والجبه خانات كل هذا خلاف العساكر المستحفظة التي بالمدن والاقاليم وعلى ذلك كان الجيش المصري يتألف من الفرق التي بالجدول الآتي

﴿ قوة الجيش القديم أي قبل يوم ٢٦ يونيو سنة ١٨٧٣ ﴾

فريق	لواء	ميرالاي	قائمقام	بكباشي	صاغ	يوزباشي	ملازم أول	ملازم ثاني	صف ضباط وعساكر	خيول	مدافع	تلامذة		الملحوظات
١	٢	٤	٤	١٦	١٦	١٢٨	١٢٨	١٢٨	١٦٠٠٠	٠٠٦٠	٠٠٠	٠٠٠٠	فرقة حرس مركبة من ٤ ألايات بياده	(الفريق راشد باشا حسني)
١	٢	٤	٤	١٦	١٦	١٢٨	١٢٨	١٢٨	١٦٠٠٠	٠٠٦٠	٠٠٠	٠٠٠٠	برنجي فرقة « « «	(« عثمان باشا رفقي)
١	٢	٤	٤	١٦	١٦	١٢٨	١٢٨	١٢٨	١٦٠٠٠	٠٠٦٠	٠٠٠	٠٠٠٠	٢ جي فرقة « « «	(« اسمعيل باشا كامل)
١	٢	٤	٤	١٦	١٦	١٢٨	١٢٨	١٢٨	١٦٠٠٠	٠٠٦٠	٠٠٠	٠٠٠٠	٣ جي فرقة « « «	(« محمد خسرو باشا)
١	٢	٤	٤	١٦	٠٨	٠٤٨	٠٤٨	٠٤٨	٠٤٠٠٠	٤٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠٠	٤ ألايات سواري	(« ابراهيم باشا الفريق)
٠	١	٤	٤	١٦	١٦	٠٦٤	٠٦٤	٠٦٤	٠٦٠٠٠	٣٢٠٠	١٦٠	٠٠٠٠	٤ « طوبجيه بريه	(علي باشا رضا)
٠	١	٣	٣	٠٦	٠٦	٠٤٠	٠٥٠	٠٥٠	٠٣٤٠٠	٠٠٢٦	٠٩٠	٠٠٠٠	٣ « « سواحل	(خورشيد باشا)
٠	٠	٠	١	٠٢	٠٢	٠١٦	٠١٦	٠١٦	٠١٨٠٠	٠٠٠٥	٠٠٠	٠٠٠٠	أورطتين مهندسين	ميرالاي أحمد بك ثابت
١	٣	٦	٥	١٠	٠٦	٠١٤	٠١٦	٠٠٨	٠٠٣٠٠	٠٠٣٠	٠٠٠	٠٠٠٠	قلم أركان حرب	(الجنرال استون باشا)
٠	١	١	٤	٠٥	٠٣	٠٠٦	٠٠٩	٠١١	٠٠٠٨٠	٠٠١٨	٠٠٠	٠٠٠٠	« مهندسي الحربية	(مرعشلي باشا)
٠	١	٠	٠	٠١	٠٢	٠٠٤	٠٠٦	٠٠١	٠٠٤٥٠	٠٠٠٥	٠٠٠	٠٠٠٠	بلوك الصنائعية	(نينو باشا)
٠	٠	١	٠	٠٢	٠٢	٠٠٤	٠٠٨	٠١٢	٠٠٦٠٠	٠٠٠١	٠٠٠	٠٠٠٠	ورشة الترزيه	(ابراهيم بك شوق)
٠	١	٠	٠	٠٢	٠٤	٠٠٥	٠٠٦	٠٠٨	٠٠٣٥٠	٠٠٠٦	٠٠٠	٠٠٠٠	« الجبه خانات	(حسين باشا الطوبجي)
٠	٠	٠	١	٠٢	٠٢	٠٢٤	٠٢٤	٠٢٤	٠٣٠٠٠	٠١٢٠	٠٠٠	٠٠٠٠	مستحفظين بياده وسواري	
٠	٠	٠	١	٠٠	٠١	٠٠٤	٠٠٦	٠٠٨	٠٠٥٠٠	٠٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠٠	بوليس	
٠	٠	٠	١	٠١	٠٠	٠٠٢	٠٠١	٠٠١	٠٠٠٠٠	٠٠٠٠	٠٠٠	٠١٠٠	مدرسة أركان حرب	
٠	٠	٠	٠	٠٠	٠٠	٠٠٠	٠٠١	٠٠١	٠٠٠٠٠	٠٠٠٠	٠٠٠	٠٠٢٥	« المهندسين الطوبجية	
٠	٠	٠	١	٠٠	٠١	٠٠٢	٠٠٠	٠٠١	٠٠٠٠٠	٠٠٠٠	٠٠٠	٠١٢٥	« السواري	
٠	٠	٠	١	٠٠	٠٠	٠٠٢	٠٠٠	٠٠١	٠٠٠٠٠	٠٠٠٠	٠٠٠	٠١٠٠	« الطوبجيه	
٠	٠	٠	٠	٠١	٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠	٠٠٠٠٠	٠٠٠٠	٠٠٠	٠٠٤٠	« الطب البيطري	
٠	٠	٠	٠	٠١	٠١	٠٠٢	٠٠٢	٠٠٢	٠٠٠٠٠	٠٠٠٠	٠٠٠	٠٤٠٠	« البياده	
٠	٠	٠	٠	٠١	٠١	٠٠٤	٠٠٤	٠٠٤	٠٠٠٠٠	٠٠٠٠	٠٠٠	٠٣٠٠	« الخطرية	
٠	٠	٠	٠	٠١	٠١	٠٠٦	٠٠٦	٠٠٦	٠٠٠٠٠	٠٠٠٠	٠٠٠	٠٨٠٠	« الكبرية أي مدرسة أولاد الجنود	
٦	١٨	٣٥	٤٢	١٣١	١٢٠	٧٥٩	٧٧٩	٧٧٨	٨٤٥٣٠	٧٦٥١	٢٥٠	١٨٩٠	....	

وليعلم أيضا ان هذا الجيش خلاف جيش السودان البالغ قدره ١٥ أورطة وكان موزعا في جهات دارفور وسنار ومديريات خط الاستواء وكردفان والتاكه وهرر وبربرة ومصوع وسنهيت وسواكن وخلاف العساكر الغير النظامية التي كانت بانحاء

Digitized by Google

السودان وكانوا أربعة آلايات وخلاف الآلاى الذى بهرر والاربع أورط المتفرقة بجهات سنهيت ومصوع وبربرة وسواكن و بخلاف أرادى الباشبوزوق الاتراك والسودانية المعروفين بالشايقية الذين كانوا بالسودان أيضا البالغ مقدارهم ١٨ أوردبا تقريبا

وفى أثناء نظارة البرنس حسين باشا للجهادية والبحرية وضع لارمى بك تصميم انشاء البوليجون وشرعت أورطة المهندسين فى بنائه تحت مباشرة لارمى بك وخفاجى بك و بعد انتهائه أوجدوا فيه عدة مدارس أخرى للتمرين منها مدرسة لتعليم ضباط الطو بجية الرمى بالمدافع ومدرسة لتعليم ضباط البياده الرمى بالبنادق ومدرسة للصف ضباط ومدرسة لتعليم التلغرافات العسكرية ومدرسة للاشارة وجعلت فيه كتبخانة عسكرية جلب لها كثير من المؤلفات المتنوعة فى فنون الحرب ودار تحف للاسلحة المختلفة من قديمة وحديثة وأخذ الجيش المقيم بالقاهرة من يومئذ يتمرن على اطلاق النار فى البوليجون المذكور

ومن التأسيسات العسكرية المفيدة التى قام بها المرحوم اسمعيل باشا ايجاد المجلات العسكرية لتثقيف عقول الضباط ووقوفهم على التجددات العصرية والاختراعات الحربية التى تظهر بانحاء العالم المتمدن ومن ذلك انه أمر فأوجدوا جريدتين عسكريتين مهمتين كانت احداهما تدعى بجريدة أركان حرب الجيش المصرى والأخرى بالجريدة العسكرية المصرية وكان يقوم بتحريرهما أصحاب الدراية والعلوم من ضباط المصريين وقد ورد فى العدد الثالث من هذه الجريدة الاخيرة الصادر فى غرة شعبان سنة ١٢٨٢ بيان الغرض من تأسيسها ننقله عنها تبصرة للطالع وتنبيها للقارئ وهو ان من جملة الترتيبات السديدة والتنظيمات المفيدة التى سمحت بها العواطف الرحيمة وجنحت اليها الطباع الكريمة من لدن حضرة اسمعيل باشا خديو مصر الأفخم من أول تقليده بالرتبة الخديوية فى الديار المصرية بقصد نشر المعارف والعلوم وتنوير الاذهان والفهوم فى جيل الشبان الحادثين فى هذا العصر من أبناء مصر (أطال الله بقاه ورضى عنه وأرضاه) انه قد اقتضت مروأته وتعلقت عنايته باحداث هذه المجموعة العلمية الدورية المسماة بالجريدة العسكرية المصرية بحيث تنطبع وتنتشر بوجه الانتظام على طرف حكومته العلية اذ كان الغرض الاصلى منها أن تنتشر بالخصوص على سائر الضباط الجهادية وضباط الصفوف والعساكر بالجيوش المصرية وعلى تلامذة المدارس الحربية ولا تختص بالاشتمال على بنود تتعلق بأنواع العلوم والفنون العسكرية المحصلة عند الملل المتأخرين والأمم المعاصرين فقط بل يندرج فيها أيضا فوائد جليلة وارشادات جميلة مما لابد منه لكل انسان متمدن ولا بأس به لكل حاذق متفنن من المعارف النافعة والفنون المتنوعة مع ما ينضم لذلك من تحلية هذه المجموعة بادراج يوميات محصل ما يحصل فى سائر أقطار الدنيا من الحوادث الكبيرة البوليتيقية أى السياسية والوقائع الشهيرة العسكرية وتظهر هذه الصحيفة المنتظمة فى كل شهر مرة فهى شهرية قرية فكل من أراد من المستخدمين البحرية وضباط الجيوش المصرية وغيرهم من أصحاب المعارف الخصوصية وأرباب المناصب العلمية أن يودع فيها فائدة مناسبة من معلوماته أو نادرة مقبولة من تأليفاته ليساعد المعتنين بها على دوام تحريرها و يجاهد مع الرفقاء فى سبيل العلم والمصلحة التامة على تمام تسطيرها فليوجه من فضله الى حضرة ناظر عموم المدارس المصرية ما استنسب ادراجه فى ضمن سطورها أو استصوب استيداعه فى طى منشورها حيث كان المعول الاعلى على حضرته فى عموم ادارة أمورها اهـ

Digitized by Google

المصانع والمعامل الحربية وغير الحربية فى عهد الخديو اسمعيل باشا - بلغت العناية التى بذلها هذا الخديو فى ترقية وانتشار الصنائع والفنون بالديار المصرية مبلغا عظيما جدا وورد فى كتاب الكوكب الدرى فى الاستقراء المصرى المطبوع ببولاق سنة ١٢٩٠ المتضمن الاحصاء العام الذى عمل فى السنة المذكورة وصف تلك المعامل وعددها وما كانت تعمله وسنذكر هنا طرفا من ذلك لضيق المقام فنقول انه لما كثر الاختلاط مع الامم الاوروباوية زادت متاجر مصر وابتاع الاهالى والحكومة قدرا عظيما من الآلات البخارية المختلفة مثل آلات النسيج وكبس القطن وحلجه وعمل السكر وشيد الخديو فى دوائره الخصوصية كثيرا من معامل السكر البخارية بمديريات الوجه القبلى واستجلب الآلات الجديدة لمطبعة بولاق وأنشأ معملا بخاريا لصناعة الكاغد ببولاق ومعملين لعمل الجوخ أحدهما ببولاق والثانى بشبرى وبلغ عدد الصناع بهما يومئذ ١٦١٢ عاملا وكان يصرف منهما للعساكر البرية والبحرية وأنشأ أيضا معملا للطرابيش والبطانيات بفوة وأصلح أيضا معمل الغنداق الذى باسكندرية ووسع نطاقه حتى كان ما يستهلك فيه سنويا لعمل الاسلحة أكثر من ٤٣,٠٠٠ أقة من المعادن بين مسبوك ومطروق ونظم ورش الحوض المرصود حتى بلغت درجة وافية بالمراد فكانت تصب فيها المدافع وتصنع الادوات والآلات الحربية للجيش وشيد أيضا بطره معملا لعمل الاسلحة المسدسة أى الششخانة وخرط المدافع وأخرى لصب المدافع وأخرى للبنادق وغيرها مثل معامل الخرطوش ومقذوفات المدافع وأصلح مصانع البارود حتى اشتهر ذكر ذلك فى أطراف المسكونة ولما بلغ أمرها المولى محمد بن عبد الرحمن سلطان مراكش بعث لمصر بعض الصناع من بلاده ليتعلموا فنى الطباعة وصناعة البارود ولما وصلت مكاتيب السلطان المشار اليه الى الخديو اسمعيل باشا أجابه بقبول طلبه فى كتاب لطيف حرره المرحوم عبد الله باشا فكرى (١)

(١) أعز الله أنصار الملك المعظم السلطان الجليل المفخم ذروة هامة المجد الشامخ وغرة جبهة الشرف الباذخ محيى مآثر المعالى وحسنة الايام والليالى وحلية العصر الحالى ومن به يفتخر على الزمن الخالى عز الاسلام وكنز الانام وزينة الايام وخلف السلف الكرام أمير المؤمنين بالديار المغربية لازالت محفوظة بالعناية الربانية أدام الله تعالى دولته وأمد بتأييده صولته ولازالت أعلامه منصورة بالله خافقة كقلوب عداه ولابرحت الدنيا ممتعة بدوام علاه آمين بعد سلام تترادف بركاته وتترى نفحاته وتتوالى على ذلك النادى الكريم غدواته وروحاته نحمد اليكم الله على نعمه الوافرة ومننه الباهرة وآلائه الزاهرة ونسأله لنا ولكم دوام التوفيق لما فيه رضاه بجاه سيدنا محمد حبيبه الاعظم ومجتباه صلى الله تعالى وسلم عليه وعلى آله وصحبه وجميع المنتمين اليه هذا وقد سرت بورود مشرفكم الكريم المتضمن لزوم المطبعة لذلك الجناب الفخيم وما يحتاجه المخصوص الوارد بشأنها من مزيد التمرين والتفهيم وذلك لما فيها من الاعانة على طلب العلم الشريف وتعليمه وتسهيل السبيل فى نشره بين البرايا وتعميمه وصيانة كتبه الشريفة من تحريف الكاتبين وتقريب تناولها الى أيدى الراغبين والطالبين وهذا دليل ظاهر وبرهان باهر على مزيد عنايتكم فيما فيه المصلحة العامة ورعايتكم لما يعود على الناس بالفائدة التامة واهتمامكم بأمر العلم الكريم وأهله وقيامكم بما يجب من حق فضله فتع الله ببقائكم الملك والعليا ونفع بوجودكم وسعودكم الدين والدنيا وقد أرسلنا الموما اليه الى دار الطباعة وأكدنا على مأمورها بارائه كل ما يلزم لهذه الصناعة والاعتناء بتمرينه على استعمال أدواتها وتوقيفه على كيفية ادارة آلاتها وسائر كيفياتها ثم ورد مشرفكم الباهر على يد الثلاثة المعلمين فى صنعة البارود المراد تعليمهم صنعة التدريج ورعايتهم حتى يتحصلوا على هذا الغرض المقصود فأرسلناهم الى الباشا وكيل ديوان الجهادية المصرية فى الحال ووصيناه برعايتهم والاعتناء بتعليمهم كل ما يلزم لتلك الصنعة من الاعمال والاشغال وأخذها عن أهلها المتقنين وأربابها الماهرين

Digitized by Google

السودان فى عهد الخديو اسمعيل باشا — حصل ببلاد السودان المصرى مدة حكم المرحوم الخديو اسمعيل باشا جملة حوادث وأعمال مهمة كانت نتيجتها توسيع السودان المصرى بما انضاف اليه من الاقاليم والنواحى وكان حاكم السودان عندما ارتقى اسمعيل باشا على الاريكة المصرية هو موسى حمدى باشا وفى سنة ١٢٨١ هـ (١٨٦٥ م) حدث أن ثارت عساكر الآلاى الرابع من المشاة السودان وانضم اليهم بعض الجنود الذين كانوا معسكرين فى التاكا وذلك لسوء ادارة الحكام وعدم صرف الجوامك لاولئك الجنود مدة ثمانية عشر شهرا فنهبوا كثيرا من أموال الخلق وخربوا القرى واتفق وفاة موسى حمدى باشا بالخرطوم فى أوائل سنة ١٢٨٢ هـ فقام وكيله عمر فخرى بك بالنيابة عنه وأرسل جيشا تحت قيادة اللواء حسن باشا قائد عساكر السودان العام وسارت قوة أخرى مع الضابط آدم بك من مركز ولدمدنى تقصد الثوار الذين تمكنوا من هزيمة الجيشين المذكورين وتمردوا على ضباطهم أيضا وقتلوا منهم نحو ٤٢ ضابطا وكثيرا من السكان وورد فى كتاب عن السودان طبع حديثا ان الذى حرض عساكر الآلاى المذكور رجل أمريكى يدعى اندروب بمساعدة رجل يدعى الشيخ الحسنى من أعوان السوء هناك وفى تلك الاثناء تعين جعفر صادق باشا حكمدارا لعموم السودان فقصدها من طريق العطمور وتعين جعفر مظهر باشا وكيلا له وسافر من سواكن بقوة عسكرية لاخماد الفتنة المذكورة وأرسل الخديو أيضا شاهين باشا نائبا عنه للنظر فى أحوال السودان من ملكية وعسكرية اما جعفر صادق باشا فلم يبق فى السودان الا قليلا وتعين وكيله جعفر مظهر باشا حكمدارا عاما وبذل همته حتى أطفأ ثورة التاكه (١٢٨٢ هـ) ورد الى الاهالى ما أمكن رده من الاشياء التى كان نهبها منهم العسكر عند ثورتهم ثم التفت الى أحوال السودان بالتعديل والاصلاح ومن ذلك انه قسمه الى ثلاثة أقسام فجعل الاول وكان يتركب من دنقله وبربر تابعا للنظارة الداخلية بمصر مباشرة وجعل مديريات الخرطوم وكردفان وسنار وفيضاوغلى والبحر الابيض ومديرية فاشودة تابعة لحكمدارية السودان التى مقرها الخرطوم والقسم الثالث وهو السودان الشرقى وكان يتركب من مديريات سواكن ومصوع والتاكه وماجاورها من الجهات تابعا للخرطوم أيضا وانشأ بالمديريات المذكورة عدة مدارس لتهذيب الاهالى وأوجد بها محاكم للفصل فى القضايا التى تقع بين الاهالى وأصلح دار صناعة الخرطوم التى كان أنشأها أحمد باشا أبو ودان ومن الحوادث التى وقعت فى ولايته أيضا ان ظهر رجل يعرف بالشيخ الجعلى بجهات سنار اتصف بالصلاح فاعتقده الناس لسذاجتهم والتف حوله كثير من الدراويش للتبرك به كما هى عادة أهل السودان ولما خاف الوالى من عاقبة هذا التجمع ومن شأن هذا الشيخ أخذ يبحث عن طريقة يلافى بها أمره فقام بنفسه مستصحبا بعض المأمورين وبلوكا من العساكر ثم دخل على الشيخ المذكور وبعد ان حياه وكلمه فى شأن هذه الجموع تخلى عنهم بكمال الرضا فأخذه الباشا المذكور معه الى الخرطوم وأسكنه فى تكية هناك وأرسل على الدراويش فرقة من الجنود يقودها آدم باشا السودانى وكان تعين قائدا عاما لجيش السودان بدل حسين باشا المذكور فقبض على البعض منهم

المتفننين حتى يتحصلوا على البراعة فى أشغال تلك الصناعة هذا والمرجو مواصلة المراسلة على الدوام وكل ما يلزم من هذا الجانب فهو رهين الاعلام والمسؤل لنا ولكم من الله الكريم المتعال دوام حسن الحال وحسن المآل بجاه رسول الرحمة ونبى الكمال حرر فى شوال سنة ١٢٨٣ اهـ صحيفة ٥٥ من الآثار الفكرية

وبذلك انفض هذا الجمع الذى لو أهمل أمره لكان أضر بالحكومة هناك ولما كان المرحوم اسمعيل باشا ساعيا بجهده فى توسيع أملاكه بجهات السودان ومد نفوذه وسلطته بها كان التمس من الدولة العثمانية أن تحيل عليه ادارة قائمقاميتي مصوع وسواكن وكانتا من ملحقات ولايتى الحجاز واليمن من وقت ان فتحتا سنة ٩٦١ على يد أوزدمر باشا فقبلت الدولة ملتمسه وصدر بذلك فرمان سلطانى فى ١٢ محرم من سنة ١٢٨٣ (١٨٦٦ م) وتقرر فيه أيضا مقدار ما تدفعه مصر للدولة فى مقابلة ذلك سنويا وقد ساعد هذا التنازل مصر على مد سلطتها الى سواحل الحبشة حيث استولت على جهات زولا وإضافتها على حكمدارية شرقى السودان ثم استخدم الخديو بعض ضباط وعمال بين أمريقانيين وأوروباويين لاجراء الاكتشافات فى جهات السودان وسواحل البحر الاحمر وعزم قبل اتمام قنال السويس على مد حكمه الى الاقاليم الجنوبية وخطر بفكره سنة ١٨٦٥ م أن ينشئ خطا حديديا بالاقطار السودانية المذكورة تقريبا للمسافات وتسهيلا للتجارة والمواصلات وعهد الى المستر ووكر (Walker) والمستر برى (Brey) النظر فى ذلك وإنشاء خط بين أسوان والخرطوم أولا ثم عين سنة ١٨٦٧ م اسمعيل مصطفى باشا الفلكى للنظر فى انشاء خط حديدى بين سواكن وشندى فرسم الطريق فقط وتعطل المشروع كما تعطل مشروع خط أسوان والخرطوم وعهد الى السير صمويل بيكر (Samuel Baker) سنة ١٨٦٩ م اكتشاف الجهات الكائنة قرب منابع النيل الابيض وضمها الى الحكومة المصرية فخرج مع قوة مصرية كانت ذاهبة الى جهة اقليم خط الاستواء ثم زحف بها هذا الرحالة حتى بلغ بلدة جوندكرو والبلاد الواقعة على بعد درجتين من العرض الشمالى وبذلك امتد نفوذ مصر الى تلك الاطراف وأعلن رسميا بالحاق المقاطعات الاستوائية بالحكومة المصرية (١٨٧١ م) وأسس الرحالة المذكور باسم مصر أيضا نقطة عسكرية لمنع تجارة الرقيق منها نقطة كبيرة سميت بالتوفيقية واستمال الى مصر أيضا متيزا ملك أوغنده وكان جعفر مظهر باشا حكمدار السودان يساعده ويمده بكل طلباته ولكن لذكائه وبعد نظره بالامور كان يرى أن فى تفويض أمر اكتشاف جهات السودان الى أجنبى خطرا على مصر حتى انه كتب بذلك تقريرا وأرسله الى الخديو يبين له مضار ذلك ويشير عليه بان يكون المكلف بأمر اكتشاف الجهات المذكورة ضباطا مصريين من أركان حرب الجيش المصرى فلم يسمع الخديو لقوله ولهذا الرجل من جليل الاعمال وصائب الافكار ما يخلد له ذكرا حسنا فى التاريخ منها أن حسن باشا حلمى الملقب عند أهل السودان بالجويسر كتب له يستأذنه مذ كان مديرا لكردفان فى غزو دار فور فرد عليه جعفر مظهر باشا يقول يا حسن باشا (قال صلى الله عليه وسلم الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها) فاقتنع وامتنع وفى حكمدارية جعفر باشا مظهر هذا رغبت الحكومة المصرية ابطال تجارة الرقيق من الاقطار السودانية (١٢٨٣ ﻫ) وكانت تجارة السودان وتجارة مصر فى عهد محمد على باشا محتكرة لسد الحكومة وكان جعل لها الاشوان والمخازن تجمع فيها المحصولات بانواعها ثم تبيعها الحكومة بمعرفتها الى التجار ثم لما حصل الاتفاق بين دول أوروباو محمد على باشا ورفع يده عن الاختصاص بالتجارة (١٢٥٦ ﻫ) وأخذ تجار الاوروباويين من وقتئذ يعاملون الاهالى رأسا فأقام فى السودان عدة بيوت تجارية مثل بيت أحمد العقاد وأبى عمورى وفرج البصيلى والخواجه غطاس وبكولك على وخليل الشامى وجيليو وامبرواز وغيرهم وأخذوا فى توسيع

Digitized by Google

تجارتهم بأطراف البلاد فشكل كل منهم قوة مسلحة من الزنوج المعروفين بالبازنجر بعثوها الى بلاد الدنكا والشلك بجهات مديرية فاشوده واتخذوا لهم فيها مشارع (١) وشيد كل واحد منهم فى مشارعه مراكز مخصوصة تسمى بالديوم واحدها ديم يجمع فيها جنوده المسلحة وتجارته التى يجلبها من مشارعه وينقلها الى الخرطوم على سفنه وبذلك صار لهم نفوذ وسطوة عظيمة فى تلك الجهات ولما عاد السير صموئيل بيكر من سياحته الاولى وانتشر خبر استفحال تجارة الرقيق بتلك المشارع صمم الخديو اسمعيل باشا على الاستيلاء على تلك الديوم والمشارع فى مقابلة تعويضات تدفع الى أصحابها لمنع تجارة الرقيق وأمر جعفر مظهر باشا بذلك فاتفق مع أصحابها على نيف ومائة ألف ليرة مصرية وكتب التجار المذكورون الى وكلائهم بتسليمها الى الحكومة وعين الحكمدار المذكور لاستلامها محمد أغا البلالى والسر بيادة على كاشف المعروف بكجول وعلى واليوزباشى محمد افندى لبيب وبعث معهم بعض الجنود لمساعدتهم فقبل بعض الوكلاء التسليم وامتنع البعض وكان من هؤلاء الزبير رحمت وكان وكيلا ليبت أبو عمورى وحرض غيره من وكلاء التجار على الامتناع عن التسليم للحكومة واتفق مع تابعه رابح وقاما على مندوبى الحكومة فقتلاهم وقتلا أيضا نحو ١٥٠٠ جندى من عساكرهم وكانت الحكومة وقتئذ شكلت مديرية بحر الغزال وسافر السير صموئيل بيكر ثانية الى تلك الجهات ووصل فى سفره الى بحيرة فيكتوريا نيانزا قال بعض كتبة الفرنج لما انفرد الزبير اشتغل بالتجارة مع عمه بجهة شكا وبحر الغزال فاشتهر من يومئذ وصار رئيسا لتجار الرقيق وبنى لنفسه فى شكا قصرا باذخا كقصور الملوك ورتب له حراسا وجعل على أبوابه الاسود المقيدة بالسلاسل ونظم له جيشا من البازنجر بالسلاح الكامل لمطاردة واقتناص الرقيق فصارت بلدة شكا من أشهر مراكز تجارة الرقيق يقصدها التجار من أطراف البلاد وقال سلاتين باشا فى كتابه المسمى النار والسيف فى السودان ما ملخصه وفى تلك الاثناء خرج شاب اسمه الزبير من مدينة الخرطوم ومضى الى بلاد النيل الابيض وبحر الغزال فاتجر فى الرقيق والعاج حتى أثرى وتسلط على بلاد بحر الغزال بجده ومواقدامه وصار من أشهر رجال السودان وجعل يتقدم نحو بلاد دارفور وكتب الى سلطانها يقول ان الزنوج عبدة الصنم يحل للمسلمين استعبادهم فاجابه السلطان بقوله لقد أصبت ولذلك يحل لنا استعباد العبيد باعة الخيل مشيرا بذلك الى الزبير نفسه لانه من الجعليين الذين يقول أهالى دارفور انهم من باعة الخيل اه ولما أحست الحكومة الخديوية بتزايد نفوذ الزبير وتعاظم صولته رأت لزوم اخضاعه منعا للقلاقل التى ربما تحصل فى المستقبل منه فبعثت جيشا ظاهره الاستيلاء على دارفور وكانت مستقلة وقتئذ وباطنه اذلال الزبير فلما بلغ الزبير قدوم ذلك الجيش تجهز لقتاله وأوقع به وقتل قائده ثم خاف سوء العاقبة فارسل الى الخديو يعتذر عما حصل ويطلب العفو فقبل الخديو منه ملتمسه ملافاة للأمر وجعله مديرا لبحر الغزال فكان هذا مبدأ ظهور

---

(١) المشارع هى الاماكن التى كان يتخذها التجار ببلاد السودان لتجارتهم ويشيدون لهم فيها الديوم وهى كاستحكامات يصنعونها على شكل مربع من عروق أشجار السنط والكتر والحراز بارتفاع متر تقريبا فى سمك متر ونصف يقيم التاجر بداخلها مع حراسه المحكمين المسلحين وكانت بنادقهم فى العادة من ذات الطلقتين ومعهم الذخائر الكافية ويرسلهم بالاموال ليبتاعوا من أثمنه لمشترى السن والريش والرقيق من داخل السودان ومنها تتصدر تجارتهم الى الخرطوم والى الجهات التى يقصدونها

Digitized by Google

الزبير (١٨٧٠ م) وفى تلك الاثناء عين الخديو رجلا سويسريا يدعى منسنجر (Munzinger) محافظا لمصوع وكان هناك قنصلا لفرنسا من سنة ١٨٦٢ م وقد اهتم المذكور بتوسيع أملاك مصر فى أطراف السودان الشرقى تنفيذا لمقاصد الخديو فتم على يديه فى سنة ١٨٧٠ الحاق بلاد البوغاسى وبركه والقضارف بمصر ثم رافقه فى تعيين الحدود بين الحبشة والجهات المذكورة أحمد حمدى افندى أحد ضباط أركان الحرب (الآن باشا) وبعد ذلك بقليل أدخل أيضا فى حوزة مصر الوديان الشرقية التى تنصب الى الهاما ياه بلاد الحماسين ثم نقل أحمد حمدى افندى الى التاكة مع علاء الدين باشا لتعيين النقطة التى تقيم بها الحامية المصرية بام ديب وعين الخديو الميرآلاى يوسف بك سرور للتفتيش على تلك الجهات والنظر فى أحوالها العسكرية وعزل جعفر مظهر باشا عن السودان (١٢٨٨ ﻫ) وعين مكانه محمد ممتاز باشا وهو من ضباط السوارى المتخرجين من مدرسة المفروزة وعزل بعد سنة لسوء تصرفه وكان معنى بك الشامى مدير اعمال الخرطوم طعن فى سيرته وبأنه يأخذ الرشوة فلما وصل ممتاز باشا الى مصر أمر الخديو بتحقيق الشكوى وفتشوا منزله فلم يجدوا به أموالا ثم ردوه الى الخرطوم وهناك زجوه فى السجن فبقى فيه حتى مات بعد ان فقد بصره ويروى عنه انه لما كان وكيلا لحكمدار السودان وكان حسين باشا خليفة السودانى يسىء معاملة أهالى بربر حتى انهم كرهوه وفر كثير منهم الى مصر وقدموا فى حقه الشكاوى للحكومة كان ممتاز باشا المذكور كلما أتاه من يشتكى من حسين خليفه يقبض عليه ويرده اليه يفعل به كما يشاء وفى ولاية ممتاز باشا حصل ان طعن بعضهم فى الدين الاسلامى فى نشرة عربية وذيل النشرة بتوقيع رئيس قسس الكاثوليك بالخرطوم فغضب الاهالى وكادوا يبطشون بالقسس لولا تداخل الحكومة بعد ان علمت بأن ناشر تلك الورقة آلة حركتها يد الاغراض ولما مثل الفاعل امام ممتاز باشا أطلقه بلا محاكمة فزاد هذا فى سخط الاهالى على الحكومة وعدوه من الادلة على كفر جميع البيض وفى ولاية ممتاز باشا هذا أيضا حارب السير صموئيل بيكر باشا مع قبيلة يقال لها باري ايتيسر له اخضاع العشائر المجاورة لها لتظاهرهم بالتمرد والعصيان ثم رتب ببلادهم نقطا عسكرية واحتل بلاد أونيورو وخلع ملكها المدعو كاباريجا وولى بدله آخر يدعى ريونجا وأنشأ هناك محطة عسكرية بجهة يقال لها ماسندى ولما أخلص النصح فى خدمة مصر عينه الخديو حاكما عاما على المقاطعات الاستوائية فبقى عليها الى سنة ١٨٧٣ م ثم استعفى وعند عودته كتب كتابا يعلم منه انه ترك خلفه حكومة وضعت على أساس مكين وان الاهالى تدفع الضرائب على أكمل نظام وجد الله على طرد صيادى الرقيق من تلك الجهات

وفى سنة ١٢٩٠ ﻫ (١٨٧٣ م) تعين اسمعيل أيوب باشا حكمدارا للسودان ولما مر البرنس اف والس ولى عهد انكلتره بالديار المصرية عند ذهابه الى الهند أثنى امام الخديو على الكولونيل[1] غردون ثناء جميلا وأشار عليه بمناسبة تعيينه مكان صموئيل بيكر باشا ولما كان

(١) ولد شارلس جورج غوردون Charles George Gordon فى مدينة ولويش من أعمال انكلتره سنة ١٨٣٣ م وانتظم فى سلك العسكرية بعد ان درس علومها فى المدارس الحربية (١٨٥٢ م) وكان من طبعه ميالا للقاء الاهوال والصبر على المكاره وقد اشتهر بالشجاعة فى حروب اسكوتلانده وكان جده شهد المواقع العظيمة وكان أبوه ضابطا فى الطوبجية البريتانية وارتقى فيها الى رتبة فريق وحضر غوردون حصار سباستبول

الخديو يسعى فى ان تكون علائقاته مع انجلترا ودية محضة لتساعده على ادراك أمانيه ولكى لا تقف له فى طريق فتوحاته بجهات أفريقية طلب غوردون من بلاده وعينه مدير المقاطعة خط الاستواء وعزم الخديو (١٨٧٤ م) على النظر فى أحوال السودان نظرا دقيقا وقسم بلاده الجنوبية الى قسمين أولهما السودان الحقيقى وآخر حدوده فاشوده جنوبا وجعله تحت ادارة حكمدار السودان والثانى أقاليم خط الاستواء وهو ما كان جنوبى فاشوده وجعل ادارتها فى يد الكولونيل غردون الذى مد سطوة الحكومة الخديوية باتجاه بحيرة أوكريوه وأسس المحطات لضبط السفائن التى تتجر بالرقيق واشتغل من كان يؤخذ منها ويعتق بحراثة الاراضى والقيام بشؤون الفلاحة ثم ان غردون غير مقاصده دفعة واحدة بلا سبب معلوم وعدل عن الحاق أوغنده بمصر بل وأرسل الدكتور ادوارد شنيتزر (Schnitzer) الالمانى الذى عرف أخيرا بأمين باشا مندوبا [1] من طرفه الى السلطان امتيزا ليفهمه نوايا غوردون ورغباته وأنه يعترف له باستقلاله فى بلاده كطلبه والخضوع الاسمى لمصر فسار ادوارد المذكور وقابله فى مكان يدعى خور كفو وأدى مأموريته (١٨٧٥ م) وورد فى كتاب ألفه بعض كتاب الانكليز عن غوردون والمهدى طبع سنة ١٨٨٥ م أن غوردون باشا قال إن تجارة الرقيق فى السودان ضاربة أعراقها فى بدن الشعب حتى صارت منهم كالنقى من العظام وليس فى السودان أحد خالى الغرض منها وليس فيهم من يحب ابطالها وان حالة الرقيق هناك أحسن كثيرا من حالته فى الهند الغربية بامريقا ولذلك فان ابطال التجارة بالرقيق دفعة واحدة غير عادل لان كثيرين منهم يفضلون العبودية على الحرية كما علم بالتجربة فانه حرر كثيرين من رق العبودية فكانوا يرفضون الحرية من تلقاء أنفسهم اهـ ثم ان غردون ترك السودان وعاد الى مصر وطلب من شريف باشا وكان رئيس النظار وقتئذ أن يخبر الخديو برغبته فى الاستقالة فقبل استعفاءه ثم عاد الى أوربا (١٨٧٦ م)

وقد اطلعنا فى كتاب طبع بمصر فى مطبعة جريدة الاهرام ليس عليه اسم مؤلف على رواية غريبة حدثت مدة ولاية غردون على مقاطعة خط الاستواء ولذلك أردنا اثباتها هنا افادة للقراء حتى لا يفوتهم أغرب ما قيل فى هذا الموضوع وهى ان الحملات العسكرية المصرية كانت تسافر اثر بعضها الى قلب افريقية لبث النفوذ المصرى بين قبائلها وسكانها وكانت تلك القبائل تقابلهم

(١٨٥٥ م) وأظهر فيه شهامة حتى شهد له بها كبراء ضباطه وفى سنة ١٨٦٠ م سافر الى حرب الصين وكانت له بها وقائع تشهد له بالبراعة والشجاعة والفنون الحربية وبقى فى الصين الى سنة ١٨٦٥ م ثم عاد الى انكلترة وفيها ارتقى الى رتبة الكولونيل فى الجيش البريتانى وكان لقب من قبل سلطان الصين سر عسكر وفى سنة ١٨٧١ تعين قومسيرا من طرف دولته فى لجنة نهر الطونة المختلطة وفى سنة ١٨٧٤ م مدحه البرنس أوف ولس ولى عهد انكلترة عند المرحوم اسمعيل باشا وأشار بتعيينه مكان السر صموبل بيكر حكمدارا لمقاطعات خط الاستواء المصرية فصدرت أوامر العالية بتعيينه كما ذكر ثم استقال سنة ١٨٧٦

(١) ولد الدكتور ادوارد شنيتزر (أمين باشا) فى نيس Neisse من أعمال سيليسيا فى ٢٨ مارس سنة ١٨٤٠ ودرس فى مدارسها الى سنة ١٨٥٨ ثم درس الطب فى برسلو وبرلين سنة ١٨٦٤ ثم سافر الى تركيا وخدم بمعية حقى باشا الى سنة ١٨٧٣ بجهات أرمينيا والشام وبلاد العرب وأظهر اسلامه وتسمى من وقتئذ أمين افندى ثم توجه الى نيس سنة ١٨٧٥ للاشتغال بالتاريخ الطبيعى ثم دخل الخدمة الطبية فى مصر سنة ١٨٧٦ وبعثه الخديو اسمعيل باشا الى الخرطوم والحق مع الكولونيل غوردون ضابطا طبيا لمقاطعة خط الاستواء وكان له المام باللغة الفرنساوية والانكليزية والطليانية والتركية والعربية

بالحفاوة

Digitized by Google

بالمفاوة والخضوع وفي سنة ١٨٧٢ شخصت احدى هذه الحملات المصرية عن طريق اوغنده الى زنجبار وهناك استقبلت بالايناس وأظهر اهالى السكان ميلهم إلى الحكومة المصرية وقابل قائدها ملك زنجبار فأكرم مثواه وأظهر له شديد رغبته في مصافاة الحكومة المصرية وانه يريد الاستظلال بالعلم العثماني المصري على شرط أن يكون صاحب امتياز يضمن له حقوقه وحقوق عائلته ورعاياه وأخبره انه يخطب باسم أمير المؤمنين وسلطان العثمانيين في كل بلاده ثم عقد مع القائد المصري معاهدة [1] ليعرضها على حكومته متضمنة دخول مملكة زنجبار تحت حماية مصر بشرط ان يكون لها إزاء الدولة العثمانية نفس الحقوق التى لمصر ثم قفل القائد المذكور راجعا إلى مديرية خط الاستواء بعد ان أناب عنه في زنجبار أحد الضباط المصريين ولم تكن حكومة مصر تعلم بشئ من ذلك أصلا ولم توعز اليه بشئ من هذا القبيل ولما اطلع غوردون حاكم مقاطعة خط الاستواء على تلك المعاهدة اغتاظ جدا إلا أنه كتم غيظه خوفا من سقوط مملكة تطلع اليها عيون الانكليز في يد مصر ومازال يضمر المكيدة لذلك القائد حتى أوقعه في ورطة ثم دبر هو وقومه طريقة لافساد تلك المعاهدة فسنوا للخديو ان يهادى ملك زنجبار بهدية ثمينة وأخبره ان ملك زنجبار قام في وجه النفوذ المصري وأسر جماعة من التجار المصريين وانه أي غوردون أرسل جندا لاستطلاع أخبارهم فقابلهم ملك زنجبار بأشد ما يكون من العداء ثم حصرهم في احدى النقط حتى اصبحوا على شفير الهلاك وان القصد من ارسال الهدية خلاص ذلك الجند فانطلت على المغفور له اسمعيل باشا هذه الحيلة وأرسل هدية ثمينة أصحبها بكتاب منه إلى ملك زنجبار ثم إن غوردون أرسل الهدية مع سائح انكليزى يدعى مستر لوكس وحجز الكتاب والمعاهدة عنده وكتب لملك زنجبار كتابا يحذره فيه من وضع مملكته تحت الحماية المصرية وغير ذلك وبهذا اكتسبت انكلترة مودة ملك زنجبار باموال مصر وعدل هذا الملك عن محالفتها ثم انسحبت الجنود المصرية من تخوم زنجبار بدعوى انهم أطلقوا من الاسر اه ملخصا ومما يؤيد هذا القول ان صدق قائله أن غوردون باشا صار بعد ذلك لا يولى أعمال خط الإستواء الا لغير مصرى

[1] المادة الاولى تكون مملكة زنجبار تحت الحماية الاسلامية العثمانية المصرية ويكون الملك محصورا بالتوارث بين ذرية الملك الحالى أو بين أعضاء أسرته وبالجملة ان امتياز الملك في مملكته يكون شبيها بامتياز سمو الخديوى اسمعيل باشا وأسرته في مصر (المادة الثانيـة) ترسل الحكومة المصرية موظفين من قبلها ليقوموا بتأليف هيئة الحكومة في زنجبار وبتنظيم المالية والجند طبقا للنظامات المتبعة في الحكومة المصرية ولا يجوز تعيين مصرى لاية وظيفة كانت اذا وجد وطني يقدر على القيام بها (المادة الثالثة) ترسل الحكومة المصرية مندوبين من أصدقائها ورجالها الخبيرين ليؤيدوا كل النظامات التى تسن في مملكة زنجبار بشأن انشاء نظارات مالية وداخلية وحربية ونظارة معارف ونظارة أشغال ويكون التلامذة المتخرجون في مدارس المملكة مقدمين على غيرهم في الترشح للوظائف ولا يجوز لمصر ان تطلب عساكر من زنجبار الا اذا حدثت حرب دينية بين أمير المؤمنين وعدو آخر فيطلب هو نفسه حينئذ جنودا من زنجبار ثم ان علائق مملكة زنجبار وصلات شؤنها كلها مع الدول الاجنبية يكون عقدها وحلها على يد نظارة الخارجية المصرية (المادة الرابعة) لا يجوز للحكومة المصرية ان توظف في مملكة زنجبار أحدا من الاجانب الغير المسلمين الا اذا كانوا من رعاياها فلا بأس حينئذ من منحهم وظائف (المادة الخامسـة) ان جميع الاموال التى تجبى من مملكة زنجبار تنفق في شؤنها وما بقى بعد ذلك يؤخذ الى الخزانة المصرية وتكون مصر ملزمة بصرف كل أزمة مالية أو حربية تصيب مملكة زنجبار (المادة السادسة) ينفذ مفعول هذه المعاهدة بعد اطلاع خديوى مصر عليها واصدار أمر بقبولها اه من صحيفة ٢٨ السودان المصرى والانكليز

Digitized by Google

فتح دارفور — قبل الكلام على هذا الفتح نريد الالمام بملخص تاريخ هذه البلاد اتماما للفائدة فنقول ان دارفور أى بلاد الفور هى بعض بلاد التكرور وأهاليها عرب وزنوج يتكلمون جميعهم بلغة محرفة عن العربية وديانتهم الاسلام وكانت هذه السلطنة تمتد بقارة أفريقية من شرقيها الى غربيها وكان حاكمها سلطانا مستبدا له من الاحتفالات والعوائد الغريبة ما ليس فى بلاد غيره من ذلك انه لا يكلم أحدا مطلقا بدون ترجمان واذا بصق فيجمع حاشيته بصاقه بأيديهم واذا كبا به فرسه وهو راكب أو سقط عنه التزم كل فرد من حاشيته أن يفعل مثله واذا اعطس تعاطس كل من كان فى حضرته وكان له حرس مؤلف من النساء العجائز ثم انه فى القرن الثامن عشر الميلادى تقلص ظل سلطنة دارفور عن مقاطعات النيل الابيض وخسرت بلاد كردفان وما يليها (١٧٧٠ م) ثم استردتها بعد ذلك بخمس سنوات وبقيت تابعة لها الى ان فتحها أحمد بك الدفتردار سنة ١٨٢٢ م كما تقدم ذكر ذلك فى تاريخ ساكن الجنان محمد على باشا ويقال ان أصل سلاطينها من الطنافرة عرب تونس هاجروا بلادهم فى القرن الرابع عشر الميلادى ونزلوا فى بلاد برنو وودای وبلغ اثنان منهم السند الغربى من جبل مرة وهما اخوان يسميان عليا وأحمد ثم انتقل أحمد الى بلاد دارفور ولما بلغ ملكها خبر قدومه وكان من عبدة الاصنام قربه اليه وأحسن مثواه ثم جعله مدبرا لامورها فأحسن السياسة وأصلح البلاد فأحبه الاهالى وملكوه عليهم بعد موت ملكهم ولما بلغ ذلك الطنافرة الذين فى برنو وودای تقاطروا الى بلاد دارفور وسكنوها وانقرض مع طول الزمن أهلها الاصليون حتى لم يبق منهم الا القليل فى غربى البلاد وكان يحكمهم أمير يدعى السلطان أباريشة ويلقب بالجاموس الاصفر وقد حكم أحمد المذكور عدة سنوات تقدمت فيها البلاد واعتنق أهاليها الدين الاسلامى ثم بعد موته خلفه ولده موسى وخلف موسى ابنه أحمد بكر وسمح هذا للاجانب بدخول بلاده ظنا منه انهم يساعدونه على اصلاحها وخلف أحمد بكر ابنه محمد دورا وكان له مائة أخ قتل خمسين منهم ثم قتل ابنه الاكبر لانه خاف أن يخرج عليه وخلفه ابنه عمر ليلى وقتل فى حرب مع وداى وخلفه عمه أبو القاسم فقتل فى الحرب أيضا وخلفه أخوه محمد تراب وكان شجاعا باسلا عزم فى أخريات أيامه على توسيع مملكة دارفور وارجاعها الى حدها الاول فقام بجيش لهورجاله فاتحا الى ان بلغ أم درمان وحاول أن يعبر النيل فعجز عن ذلك ثم مات مسموما وخلفه أخوه عبد الرحمن ولما عاد الى دارفور وجد ابن أخيه اسحق تسلطن فثارت بينهما حروب قتل فيها إسحق واستتب الامر لعبد الرحمن وعبد الرحمن هذا هو الذى بعث سنة ١٧٩٩ يهنئ نابليون بونابارت بتغلبه على الديار المصرية وكتب له نابليون يطلب منه أن يرسل اليه ألفى عبد من الاقوياء يشتريهم بأمواله (١) وفى أيام عبد الرحمن هذا انتقل كرسى المملكة من بلدة القبة الى الفاشر ولما مات نصب مكانه ابنه

(١) الى سلطان دارفور رقم ١٢ ميسيدور من سنة ٧ بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله الى سلطان دارفور عبد الرحمن وصل الى كتابكم وفهمت معناه ولما وصلت قافلتكم كنت متغيبا ببلاد سوريا بالمعاقبة أعدائنا ومحوهم وأرجوكم أن ترسلوا الى مع أول قافلة ألفى عبد من السود يكون عمر الواحد منهم ازيد من ١٦ سنة ويكونون أشداء أقوياء وانى أشتريهم بمالى وأطلب منكم أن تأمروا قافلتكم بالحضور الينا سريعا وان لا تتوقف بالطريق وسأنفذ أوامرى بحمايتها فى كل مكان (الجنرال الامام بونابارت) معرب من صحيفة ١٦ من التقرير العام عن مديريات السودان المصرى والبحر الاحمر وخط الاستواء المطبوع بمعرفة قسم المخابرات بانكلترة سنة ١٨٨٤

محمد

Digitized by Google

محمد الفضل وكان طفلا فجعلوا رئيس الخصيان قيماله ثم استقل هذا الفتى بالملك لما كان له ثلاث عشرة سنة من العمر وأول شئ فعله انه حرر قبيلة أمه وحرم أخذ العبيد منها ثم أفسد المفسدون بينه وبين رئيس الخصيان فثارت بينهما حروب تمت بانتصاره والقبض على رئيس الخصيان وقتله ثم توفى السلطان محمد الفضل هذا (١٨٣٨ م) وخلفه ابنه حسين فبذل جهده فى اصلاح مملكته ولكن أصابه مرض كف به بصره (١٨٥٦) فاشرك أخته زمزم فى الملك معه وكانت سيرتها غير حميدة لكثرة اسرافها وميلها الى الترف فأنفقت معظم دخل السلطنة فى قصرها وكانت ولايات بحر الغزال تابعة لدارفور وتؤدى اليها الجزية من العبيد والعاج واذا تأخرت عن أدائها زحف عليها سلاطين دارفور ونهبوها وتبيع المسلوب من العبيد والعاج للتجار المصريين وتأخذ بدلا عنها الاسلحة والامتعة الاخرى وكان بقصر السلطان حسين فقيه اسمه محمد البلالى من البلالية سكان ودانى وبرنو قربه السلطان المذكور اليه واعتمد عليه فغاظ ذلك زمزم أخته ووزيره أحمد شطا واضطراه الى ابعاده فأتى الخرطوم وأغرى الحكومة بالاستيلاء على بحر الغزال وحفرة النحاس لانهما خرجتا من قبضة سلطان دارفور فأرسلته الحكومة مع الجنود المصرية للاستيلاء عليهما فنشبت الحرب بينه وبين الزبير رحمت ودارت الدائرة عليه الا أن الزبير خاف سوء المنقلب فأحسن الى رجاله وترضى الحكومة وأقنعها بان البلالى هو الذى اعتدى عليه فعفت الحكومة عن الزبير ملافاة للامر وجعلته مديرا لبحر الغزال فحسن الزبير لحكمدار السودان اسمعيل أيوب باشا وقتئذ الاستيلاء على سلطنة دارفور كلها وتطوع لذلك وابتدأ بالزحف فى أوائل سنة ١٨٧٣ هذا وقد ورد فى رواية أخرى انه لما كان اسمعيل أيوب باشا حاكما على السودان وقع خلاف بين الزبير وبين ملك دارفور السلطان حسين بخصوص عربان قبيلة الزيادية الذين كانوا خرجوا عن طاعة مملكة دارفور منذ سنة ١٢٨٠ ه ثم التجؤا اليها ثانية فرارا من سطوة الزبير (١٢٩١ ه - ١٨٧٤ م) الذى حسن للخديو فتح هذه البلاد لمصر وعضدته الحكومة الخديوية لاسباب اقتضتها سياستها ثم قامت الحروب بين الطرفين وتقدم الزبير بجنوده سنة ١٨٧٣ فتلاقى مع جيش دارفور المؤلف من ٣٠ ألف مقاتل وكان يقوده الوزير أحمد شطا فهزمه الزبير وقتل قائده المذكور ثم هزم لها جيشا آخر كان أرسله سلطانها تحت قيادة المقدوم سعد النور وقتل القائد المذكور أيضا ولحسن طالع الزبير كان الامير حسب الله يطمع فى مملكة دارفور بعد وفاة أخيه السلطان حسين الذى كان أوصى بالملك من بعده لولده السلطان ابراهيم ولهذا فان الامير حسب الله اغتنم فرصة وقوع الحرب بين الزبير وبين سلطان دارفور المذكور وأخذ يتخابر مع الزبير سرا كما يقال ووقع بينهما الاتفاق على أن الزبير يضمن للامير حسب الله ملك دارفور وهو فى نظير ذلك يساعده على قتل ابن أخيه السلطان ابراهيم المذكور وقال سلاتين باشا فى كتابه النار والسيف فى السودان أنه تلاقى برجل من علماء دارفور فأخبره أن السلطان حسين قال له فى آخر أيامه إن الزبير ورجاله سيكونون آلة فى يد الحكومة المصرية لثل عرشه وكان يطلب من الله أن لا يحدث ذلك فى أيامه فكان كما قال اه هذا ولما بلغ السلطان ابراهيم خبر انكسار جيشه الثانى أخذ يجهز جيشا ثالثا وطلب الامير حسب الله من ابن أخيه السلطان ابراهيم أن يقود هو الجيش الثالث لحرب الزبير فاستكبر السلطان ابراهيم هذا الامر من عمه حتى يقال انه قال له من هو الزبير

Digitized by Google

حتى تذهب اليه يا عمى بنفسك فقال له الامير حسب الله بلسان التصنع والمداهنة اعلم أيها السلطان أن انهزامنا مرتين امام الزبير قد أوقع فيه الغرور وجعله يطمع فى الاستيلاء على بلادنا واعلم أيضا اننا محصورون الآن بين عدو بن فصر خلفنا وهذا الزبير امامنا فسمع السلطان لعمه بقيادة الجيش وبذلك تمت له الحيلة وعمل على هزيمة الجيش الذى يقوده فلما انهزم الى الفاشر وبلغ السلطان ابراهيم خبر انهزام الجيش أخذ يجهز جيشا آخر للدفاع عن بلاده ولم يكن يعلم بما هو حاصل بين عمه وبين الزبير وقاد هذا الجيش بنفسه باغراء حسب الله المذكور الذى كان يتوقع فى كل وقت الفرصة فى قتل السلطان ابراهيم ليخلو له الجو ويتولى الملك كما وعده الزبير

ولما تقدم السلطان ابراهيم بجيشه وصحبته أولاده والتحم الحرب بين الطرفين قتل السلطان ابراهيم وأولاده فانهزم الجيش (٢٥ رمضان سنة ١٢٩١) ثم اجتمع بعض الامراء على الامير حسب الله وقلدوه السلطنة عليهم فسار بهم وبمن تبعهم من الجند الى غربى دارفور وأقاموا فى جبل طره وهو على مسافة يومين الى الشمال الغربى من الفاشر فحاصره هناك الزبير بمدة ثلاثة شهور ثم وقع الاتفاق بين حسب الله وبين الزبير على أن يدفع حسب الله الى الحكومة المصرية ١٠٠,٠٠٠ ليرة خراجا سنويا وتكون مملكة دارفور تابعة لمصر بشرط أن يكون السلطان حسب الله هو الحاكم عليها وأولاده من بعده وعلى ذلك نزل السلطان حسب الله من الجبل وتقابل مع الزبير وكانت الجيوش المصرية احتلت الفاشر (تندلتى) ووصل اليها اسمعيل أيوب باشا حكمدار السودان بجيشه وكان يزحف على دارفور من الشمال (١٢٩١ ه) ولما عرض الزبير عليه الاتفاقية المذكورة رفض قبولها وأخبره بأن خديو مصر يريد مقابلة السلطان حسب الله وتبرأ الزبير من تبعة نقض العهد وأخبر السلطان حسب الله بأنه لم يزل على عهده وبعد ذلك قابل السلطان حكمدار السودان فاقنعه بالذهاب الى مصر ولما وصلها لم يصرح له بالعودة الى بلاده وكانت تلك حيلة فلا حول ولا قوة الا بالله وبذلك زال استقلال دارفور وأسكنت الحكومة حسب الله وعائلته وأتباعه العديدين بمصر وأجرت عليهم المرتبات حتى انقرض غالبهم الآن ولما رأى الزبير رحمت أن النصر قد تم على يديه وأن الحكومة المصرية انتفعت بخدمته طلب منها أن تولية الحكم على دارفور مكافأة له فأبت قال صاحب كتاب الحديد والنار فى السودان انه بعد ان فتحت الجنود المصرية بلاد دارفور عهدت بحكومة وادارة الجهات الجنوبية منها أى دارا وشكا الى الزبير وذلك بناء على أمر المغفور له الخديو اسمعيل باشا الذى منحه فى آن واحد رتبة الباشاوية وقد كان من الزبير فى أيام ولايته أنه كان يشكو كثيرا من فداحة الضرائب على الاهالى ولذلك طلب من المغفور له اسمعيل باشا أن يأذن له بالتوجه الى القاهرة ليقدم له بذاته واجبات الانتماء وصدق العبودية فأذن له بذلك فسافر للحال وبعد ذلك بزمان قليل بارح اسمعيل باشا أيوب بلاد دارفور مستبقيا فيها حسن باشا حلمى بصفة مدير عام لها أما الزبير باشا فقد عين قبل سفره الى القاهرة ابنه سليمان نائبا عنه وأمره بالتوجه الى شكا وفى هذه الاثناء عين غوردون باشا حكمدارا عاما للسودان بدلا عن اسمعيل أيوب باشا فشرع فى التوغل بداخل البلاد لتفقد أحوالها ووصل فى رحلته الى بلاد دارفور التى كان ابتدأ أهلها بالنزوع للثورة ضد أسلوب القسوة التى كانت تعاملهم بمقتضاها الحكومة وكان قيامهم هذا باغراء وتحريض زعيم كرسى هذه البلاد السلطان هرون سيف الدين وقد أراد غوردون

باشا

Digitized by Google

باشا أن يظهر للناس فى ذلك الاقليم ليتمكن بظهوره وحسن تداخله من تسكين الخواطر المضطربة اهـ وروى صاحب كتاب السودان المصرى والانكليز ان هرون المذكور كان صنيعة للاوروباويين فكان المحرض له على ذلك رجل يدعى فريدريك روسى أصله قنصل لالمانية بالخرطوم ثم وظفه غوردون وكيلا عنه فى جهات النيل الابيض ثم مديرا لدارفور وقد تمكن حسن باشا حلمى من ردع هرون واعادة الامن الى دارفور ويقال أيضا ان الحكومة المصرية لما لم تنل الزبير مرغوبه صمم على المروق من طاعتها ثم جمع أعوانه ومحالفيه تحت شجرة بين شكا والابيض وتعاهدوا جميعا على أن يكونوا يدا واحدة ويلبوا طلبه عند الحاجة فجمع منهم حينئذ نحو مائة ألف ليرة وقصد مصر بعد ان أناب عنه ابنه سليمان طمعا فى نوال طلبه من الحكومة بمساعدة اسمعيل صديق باشا المفتش الذى انتشرت أخبار مكانته لدى الخديو فى انحاء السودان فلما وصل قابله أمراء وأعيان مصر بالاكرام والبشاشة ثم لما أراد العودة الى السودان لم يؤذن له فى ذلك وبقى فى القاهرة كمحجور عليه وعينت له الحكومة المصرية راتبا شهريا لا يقل عن مائة ليرة فبقى بها الى الآن وحصل له مدة الاحتلال الانكليزى ماسيأتى ذكره

وبينما كانت الجيوش المصرية توسع الاملاك الخديوية بالاقطار السودانية من جهة الجنوب الغربى تنازلت الدولة العلية للخديو عن مدينة زيلع وملحقاتها فضمت الى الخديوية المصرية فى مقابلة مبلغ تدفعه مصر سنويا قدره ١٣٣٦٥ ليرة مصرية وتاريخ هذا التنازل شهر جمادى الثانية من سنة ١٢٩٢ (١٨٧٥ م) وكانت زيلع قبلا تابعة للواء الحديدة ولما أتى الفرمان السلطانى بذلك أرسل الخديو اليها الجنود اللازمة تحت قيادة محمد رؤف باشا وأنعم على أمير زيلع أبو بكر باشا برتبة الميرميران وبعث أيضا الى بربره حامية أخرى على قرويت الصاعقة تحت إمرة اللواء البحرى رضوان باشا الذى عين محافظا لها (١) وعزم الخديو من وقتئذ على فتح هرر

فتح مدينة هرر — لما ذهبت الجنود المصرية الى زيلع واحتلتها كما سبق أخذت تستطلع أحوال هرر وتتعرف مسالكها ولما تمت لها المعدات سارت فرقة منها تحت قيادة رؤف باشا فى يوم ١٨ سبتمبر سنة ٧٥ وكانت مؤلفة من خمس أورط من المشاة ونحو ٢٣٦ من الباشبوزوق ومدفعين جبليين ترافقها بعض ضباط أركان الحرب تحت رياسة البكباشى محمد أفندى مختار وهو الذى صار باشا فيما بعد فتقدمت هذه الحملة ووصلت بعد قليل الى مدينة هرر بحيث لم يأت اليوم الحادى عشر من شهر اكتوبر من السنة المذكورة حتى خفق العلم المصرى فوق قصر أمير هرر

(١) رضوان باشا هو كريدى الاصل نبغ بالمدرسة البحرية ثم ألحق بسفن الدونمة ثم نقل الى سفن النيل فى عهد المرحوم سعيد باشا ثم تعين قبودانا ثانيا بباخرة أسيوط بالبحر المتوسط الابيض برتبة صاغ قول أغاسى منذ كان عليها قاسم باشا ثم لما نقل هذا الى فرقاطة محمد على نقل المترجم معه قبودانا ثانيا ورقى لرتبة البكباشى وكان بها فى حرب كريد (١٢٨٣) ثم نقل قبودانا ثانيا الى وابور المحروسة ثم الجعفرية ثم رقى الى رتبة قائمقام (١٢٨٤) ثم جعل مفردات لوابور المحروسة (١٢٨٥) ورقى لرتبة الميرالاى ثم عين قبودانا للقرويت الصاعقة وسافر به الى البحر الاحمر ولما أعطى السلطان ادارة زيلع وبربره الى الحكومة المصرية تعين مأمورا لبربره فاعتنى باصلاح ادارتها وتنظيم شؤونها وشيد بها بعض المبانى ووضع قواعد لتعاطى التجارة فى مواسمها هناك فانسرت من ذلك القبائل لما كانوا يجدون فيها من التسهيلات ورافق مكيلوب فى سفرته الى نهر جوبا وبلدة كسمايو كامو ثم رقى الى رتبة الفريق وأحيل على المعاش سنة ١٨٧٩ ثم احالت عليه الحكومة مأمورية اخلاء هرر لما تركتها مصر فى سنة ١٨٨٥ ثم توفى وترك له بين أقرانه ذكرا حسنا

السيد محمد عبد الشكور وأرسل المرحوم رؤف باشا تقريرا الى ناظر الجهادية بمصر بكيفية هذا الفتح أدرجناه بحروفه لما فيه من الفوائد (١) وكان رؤف باشا أمن ذلك الامير على حياته وطلب

(١) تعرض لسعادتكم انه بتاريخ ١٧ سبتمبر سنة ١٨٧٥ عرض منا للاعتاب عن قيامنا من زيلع بقصد فتح الدروب وتنفيذ أوامر ولى نعمتنا حسب التعليمات الجليلة الصادرة لما فقمنا من زيلع فى يوم السبت ١٨ سبتمبر سنة ٧٥ و بيومها بتنا فى محطة تختى وفى الاحد ١٩ منه قمنا من هناك و بتنا فى محطة أوجاجر وفى يوم الاثنين ٢٠ منه بتنا فى محطة ولع ولع وفى يوم الثلاث ٢١ منه قمنا من محطة ولع ولع ووصلنا الى محطة داداب وفى يوم الاربع ٢٢ منه قمنا من محطة داداب ووصلنا الى محطة ددب عيسى وفى يوم الخميس ٢٣ منه قمنا من محطة ددب عيسى ووصلنا الى محطة هدسا وفى يومها حضر لنا الاوجاس رو بلى قارح شيخ مشايخ عربان عيسى وسومال وأبدى لنا دخوله تحت طاعة الحكومة الخديوية هو وكافة قبائل عيسى والسومال فشيدنا هذا اليوم وخلعنا على الاوجاس المذكور وكبار قبائله الخلع السنية احسانا من لدن المكارم الخديوية وفى يوم الجمعة ٢٤ منه قمنا منها ووصلنا الى محطة أبى بكر على وفى يوم السبت ٢٥ منه قمنا من محطة أبى بكر على ووصلنا الى محطة علان بر وفى يوم الاحد ٢٦ منه قمنا من محطة علان بر ووصلنا الى محطة مير كوهلى وفى يوم الاثنين ٢٧ منه قمنا من محطة مير كوهلى ووصلنا الى محطة جحا وفى يوم الثلاء ٢٨ منه قمنا من محطة جحا ووصلنا الى محطة عرمالى بحن وفى يوم الاربعاء ٢٩ منه قمنا من محطة عرمالى بحن وسرنا مسافة ساعة ثم وقفنا لداعى المطر وفى يوم الخميس ٣٠ منه قمنا من محطة عرمالى بحن ووصلنا كونه وفى يوم الجمعة أول اكتوبر أقمنا بمحطة كونه لداعى انحراف مزاجى يومها وتعب الجمال وفى يومها وردلنا جواب من أمير هرر بالطاعة فكتبنا له رده وفى يوم السبت ٢ منه قمنا من محطة كونه ووصلنا الى محطة بوصة وفى يوم الاحد ٣ منه قمنا من محطة بوصة ووصلنا الى محطة جلديسة وهى آخر حدود عيسى والسومال وفى جميع هذه المحطات لم يكن الدرب صعبا الا فيما بين محطة أبى بكر على ومحطة مير كوهلى ومن بعدها قمنا من جلديسه فى يوم الثلاثاء ٥ منه ووصلنا الى محطة جرجره وهى أول حدود الجالا التولى وفى يوم الاربعاء ٦ منه وصلنا الى محطة الشيخ شار بى وهناك حضر لنا الحاج يوسف نجل الامير محمد عبد الشكور أمير هرر والقاضى عبد الله بن عبد الرحمن قاضى ثانى مدينة هرر والحاج يوسف من أعيان البلدة والسيد أحمد نقيب الاشراف ومحمد عبد القادر ترجمان ديوان الامير ومعهم جواب بالطاعة فاستقبلناهم كما هو لازم وخلعت عليهم الملابس السنية من لدن المكارم الخديوية وفى يوم الخميس ٧ منه قمنا من محطة الشيخ شار بى ووصلنا الى بلدة بالاوه وفى يوم الجمعة ٨ منه قمنا من محطة بالاوه وعند وصولنا الى أفتوح وجدنا جما غفيرا مجتمعا من قبائل التولى والجالا الاوخلافهم ومع كونهم بدوا وأعجاما لا يستهزئ بهم العاقل فى الحروب لانهم أولو شوكة يتمكنون المضايق والدربندات ويبادرون بالحرب كانهم منقادون لاصول عسكرية منتظمة فضلا عن كونهم خيالة و بيادة متسلحين بالقسى والنبال والمزاريق والدرق فعاملناهم بالحسنى ونصحناهم وفهمناهم ما ينبغى تفهيمه لهم حسب التعليمات الكريمة الصادرة لنا من الاعتاب فلم يثمر ذلك فيهم ولا عجب فى ذلك اذ الجهل يؤدى الى الهلاك فن بعدما كلت أفكارنا من نصحهم وتحقق لنا عدم اطاعتهم وتصميمهم على المحاربة حاربناهم يومها وكانت مقتلة صغيرة لم تمكث الا ساعتين وثلاثة وأربعين دقيقة ونعم ماحصل حيث انه بتسليط النيران الشديدة عليهم من كل جهة أمسوا اليلة طائعين وأعطيت لهم بيارق الحكومة وفى يوم السبت ٩ منه قمنا من محطة أفتوح وعند وصولنا الى ابجو وجدنا أكثر من كان متحدا مع أمير هرر وهم نحو سبعة وثلاثين ألف نفر منهم خيالة و بيادة مسلحون بالمزاريق والقسى والنبال قاطعين الطريق شاهرين لنا علامة الحرب متملكين للدربندات فأرسلنا اليهم ننهاهم عن بغيهم وطغيانهم فأبوا الا القتال وأرادوا أن يهجموا علينا بغتة فاجبرنا على قتالهم ولما سلطنا عليهم النيران هلك منهم كثير ولم تمس عليهم تلك الليلة حتى أرسلوا نساءهم طالبين للامان فأمرناهم باحضار رؤسائهم وهما البوكورى والبوكو واباأعنى أكبر مشايخهم وزمن القتال كان سبع ساعات وعشر دقائق وفى يوم الاحد ١٠ منه قبل قيامنا حضر لطرفنا كل من عثمان بارو وعلى كارو رؤساء قبائل الجالا التولى وطلبوا الامان لانفسهم وقبائلهم فأعطيناهم بيارق الحكومة ونصبت فى حللهم وبالهام محاربة حيث كان عليها تمام كل أمر فقد اعتبر بها من لم يعتبر ونفعتنا نفعا عظيما ولولاها لحصل لنا تعرضات كثيرة فى الطريق

لما الخلع من مصر ثم ارتاب منه فقتله ولذلك هاجت القبائل وسدوا الطريق ما بين زيلع وهرر فاصبح
الجيش المصري وقائده رؤف باشا كالمحصور وعند ذلك سارت من مصر على وجه السرعة أورطتان
معهما بطارية من المدافع على باخرة المحروسة تحت قيادة الميرالاي محمد بك النادي وعين الخديو عمر
عزمي باشا مندوبا عاليا لتحقيق أسباب هذه الثورة وكنت وقتها من ضباط باخرة المحروسة ولما
وصلت هذه الجنود الى زيلع وعلمت القبائل بها تشتتوا فعاد الامن الى ما كان عليه قبلا وتمكن

وفي يوم الاثنين ١١ منه قمنا من محطة سيبو وعند وصولنا الى محطة شكورجه أخبرنا بأن أمير هرر رغب مقابلتنا
في هذه النقطة فوقفنا هناك بقصد الاستراحة وانتظار الامير المذكور وفي الحال أرسلنا بيارق الحكومة مع
حسن افندي حلمي بكباشي معاون وعبد الله أفندي فوزي صاغقول أغاسي أركان حرب وصار نصبهما بمعرفتهما على منزل
الامير وأحد أبواب المدينة حيث الساعة واحدة بعد الظهر من يوم الاثنين ١٢ رمضان المبارك سنة ٩٢
الموافق ١١ اكتوبر سنة ١٨٧٥ وبعدها ببعض دقائق حضر لنا الامير مع الضابطين المذكورين ومعه
أعيان المدينة والقضاة فقوبل بغاية الرحب والسعة وشيدنا اليوم المذكور وأفيض على الامير والقاضي الاول
المدعو عبد الله بن أحمد الخلع السنية احسانا من لدن المكارم الخديوية وبعد الاستراحة توجهنا معه ودخلنا مدينة
هرر حيث الساعة ثلاثة وأربعون دقيقة بعد الظهر وصحبتنا العساكر الخديوية وهاك بيان القبائل الذين أطاعوا
وطلبوا الدخول في حماية الحكومة الخديوية

عدد القبائل					
٤	الجالا قدلي	جميعهم	٣٠	ماقبله	
١٢	الجالا الا	»	٣	الجالا بورا	جميعهم
٣	الجالا بارتري	»	٣	بعهويه	»
٣	الجالا بابلي	»	٦	الجالا جاربسو	»
٧	الجالا بيه	»	١٢	الجالا زهومن	»
٢	جري	»	٨	الجالا بتو وهي بأكملها	»
٣٠			٦٢	قبيلة	

وغير ذلك جميع المسلمين بأبقات أرجو به سواء كانوا منها أو مهاجرين بها وقد أفضنا على الامير محمد ثمانمائة ريال ومائتي
ريال لنجله ومائة ريال لعائلته وجريه كل ذلك احسان من لدن المراحم الخديوية وان كان يستغرب انه في وقت
قريب بهرور نا أطاع الحكومة الخديوية مقدار جسيم بدون محاربة فاعرض وأقول ان السبب في ذلك أمران
الاول هو حسن طالع ولي نعمتي الثاني هو ان أمراء هذه الجهة خاصة يحتكرون زراعة البن ولا يعطون رخصة لاحد
أن يزرع هذا الصنف لئلا يفتنن ويخرج عن حد طاعتهم ولما كان ذلك معلوما للناصر انخبر كل من حضر من المشايخ
والاهالي ان الخديوي الاعظم دام عزه يريد عمارة بلادكم وتأمين الدرب ويأمركم أن تكثروا من زراعة البن والموز
والتمبان وهو صنف نبات مخدر قليلا ومتى سمعوا منا هذا التنبيه يتوجهون ويخبرون غيرهم من القبائل فارغبتهم
في زراعة هذه الاصناف وبالاخص صنف البن كل من حضر وسمع منا ذلك يدعو بدوام العز والنصر للساحة الخديوية
ثم أعرض وأقول على حسب ما تراءى لي ان هذه البلاد بها خيرات كثيرة من صنف المأكول فان جميع ما يزرع في
المحروسة من الحبوب موجود هنا وبهذه الرخصة وزراعة الاهالي البن تكون بعد ثلاث سنوات ذات ايراد عظيم من
صنف البن وان وافق على حسب ما هو مشاهد لي إما ان التجارة تكون من طرف الميري والتجار يشترون بالعملة وإما ان
تكون نصف الاثمان بضاعة والنصف الآخر عملة لاجل تداول العملة في يد الاهالي لان وجود العملة في يد الاهالي
ومعرفتهم اياها هي السبب الموجب لميلهم للحكومة وحب وطنهم فان الغني ثقيل عاله لا يتحرك ويمتثل لاوامر
الحكومة بخلاف الفقير وعلى كل حال فالذي يستصوب تصدر لنا منه التعليمات

هذا وأرجو من مراحم ولي نعمتي ارسال سرجين فضة لاعطاء واحد منهما الامير هرر وجملة طاقات قصب على أحمر
لتفصيلها جلاليب لمشايخ الجالا وخلانهم واعطاء جانب لحريم الامير ومن يستحق وكذا مقدار من الشيلان العادة

Digitized by Google

عمر عزمي باشا من اجراء مأموريته ثم اتفق مع أبي بكر باشا أمير زيلع على تنظيم أحوالها ثم عاد الى مصر ونقل محمد رؤف باشا الى السودان وعين بعده محمد نادى باشا محافظا على تلك البلاد ورقى الى رتبة لواء وفي مدته رسم ضباط أركان الحرب هنالك خريطة مفصلة عن هذه البلاد أفادت كثيرا وان كان ينقصها كثير من الصحة والضبط فسببه نقص الاستعلامات الجغرافية وغيرها

تجريدة نهر جوبا وجهات قسمايو — لما أتم الخديو توسيع أملاكه السودانية من الجهة الجنوبية وأعلن رسميا بأن البلاد التي حول غندكرو دخلت في حوزة مصر وان البلدة المذكورة دعيت بالاسماعيلية وان الكولونيل غوردون صار حاكما لخط الاستواء (١٨٧٤ م) ليتم ما كان شرع فيه السير صموئيل بيكر باشا من مد نفوذ مصر حوالى بحيرة فكتوريا نيانزا عزم على ارسال تجريدة الى بلاد الصومال الجنوبية لادخال البلاد الواقعة على نهر جوبا المذكور في قبضة مصر حتى يتيسر له ايصال أملاكها هناك بالها من جهات خط الاستواء فجهز لذلك تجريدة عسكرية مركبة من بطارية من الطوبجية وبلوك من السوارى وأورطة من البياده جعلها تحت قيادة الكونترأميرال ماكيلوب باشا (Mac Killop) والكولونيل لونج بك (Chaille Long) ومعهم من ضباط أركان حرب اليوزباشي حسن افندى واصف (الآن بك ومدير الجيزة) ورأس المشاة البكباشي حسين افندى فهمي والطوبجية السيد افندى عاكف والسوارى البكباشي فرحات افندى منيب وأقلعت هذه القوة من السويس في يوم ١٧ فبراير من سنة ١٨٧٥ م ولما وصلت الى بلدة الدوبار القريبة من بربرة عسكرت هنالك ريثما تأخذ أهبتها وتستكمل معداتها ثم انتقلت الى أربع بواخر وهي فرقاطة محمد على سوارية على بك شكرى ونزل بها مكيلوب باشا ووكيله عبد الرازق بك ولونج بك وقرويت لطيف سوارية أحمد أمين قبودان المعروف بالتركى (مفتش وابورات البوسته الآن) ونزل معه رضوان باشا محافظ بربره وباخرة دسوق سوارية حسن قبودان الصغير وكان بها الفحم اللازم للبواخر الاخرى وطنطا سوارية محمد قبودان موسى وبها بقية العساكر ولما وصلت هذه التجريدة الى رأس حافون نزل القائد العام ومعه أركان حربه واستدعى جميع رؤساء القبائل ودعاهم للانتماء الى الحكومة المصرية فأجابوه الى ذلك طائعين فخلع عليهم وركز العلم العثماني المصرى هنالك ثم بارح ذلك المكان ولم يبق به حامية ومازال يتقدم ويركز الاعلام المصرية حتى وصل بلدة براوه شرقي نهر الجب وكانت تابعة لحكومة زنجبار فأرست البواخر المصرية هنالك ثم نزلت نصف القوة المصرية الى البر ومعها مكيلوب باشا الذى طلب مشايخ القبائل فلما حضروا عرض

الجمر وكذا أربع ساعات ذهب تكون واحدة منها مزينة بفص أو بفصين وحيث ان أمير هرر متضح يقينا انه طائع وصادق للحكومة الخديوية فان استصوب لدى الاعتاب يكون وكيلا لحكمدار يتنا وحيث ان أربعة عشر ضابطا حصل منهم غاية الصداقة والاجتهاد في أثناء السفرية ومقابلة الاعداء مع انه لا يظن ان هناك مأمورية اصعب من هذه المأمورية لما شاهدناه من التعب أرجو أن يحسن لكل منهم برتبة احسانا من لدن المراحم الخديوية وقد وعدناهم في أثناء الحركات بالعرض للاعتاب ونوالهم الشرف والامر مفوض هذا ومدينة هرر بها ثلاثون ألف نفس والعساكر التي معنا الآن ليست كافية لحفظ البلدة فى الضرورى حضور أو رطتين من العساكر المنتظمة وبطارية طوبجية بدون متراليوز لوضعها بالمحطات والقبائل وان وافق أيضا يرسل للناموسيق وان كانت من السودان يكون أحسن تحريرا فى ١٨ رمضان سنة ١٢٩٢ التوقيع محمد رؤف باشا اهـ من جريدة أركان حرب سنة ثالثة

علیهم

عليهم أمر الانتماء الى مصر وأفهمهم ما في ذلك من الفوائد لهم فأجابوا بالقبول لما رأوه من القوة المصرية التي هالتهم وأدهشتهم بحركاتها الحربية التي أجرتها امامهم ولم يكونوا شاهدوا ذلك قبلا وجعل لهم محافظا وحامية مركبة من بلوك من البيادة ثم تقدم هذا القائد حتى وصل الى فم نهر جوبا المذكور وأراد السير فيه بالثلاثة الا أن الامواج صدته وغرق بعض الفلائك والعساكر ولما أخذ ما يلزمه من مياه الشرب عاد الى قسمايو التي اندهش أهلها لما رأوا هذه التجريدة وأقبلوا في زوارقهم سائلين من اين أتت وما المقصود من حضورها فاخبرهم القائد بان القصد اكتشاف نهر الجب ليس الا وانه لا خوف عليهم فزال عنهم الوجل والخوف وبعد ثلاثة أيام نزلت العساكر الى البر فسارت نحو النهر وأخذ الكولونيل لونج بالاكتشاف في النهر ورافقته على زورق بخاري على مسافة ١٥٠ ميلا تقريبا ورسم اليوزباشي حسن افندي واصف مجرى النهر المذكور ثم ان بعض مشايخ البلاد المذكورة استصرخ بالسيد برغش سلطان زنجبار لان الحكومة المصرية تريد الاستيلاء على بلادهم وفي تلك الاثناء أتى مكتوب من محافظ بلدة براوه المصري بانه هو ومن معه من الحامية حصرتهم القبائل ونكثوا العهود وخانوا المواثيق فأمده القائد بقوة على احدى البواخر ولما كان لهم الباخرة المذكورة قارب الفراغ سافرت أولا لمشتري الفحم من زنجبار ولما وصلت استدعى سلطانها قبودانها ولما قابله سأله السلطان عن سبب حضور جند المصريين فاجاب بأن حضورهم هو لاكتشاف تلك الجهات وأخبره بمسئلة الفحم فصرح له بمشتراه وأمره بسرعة القيام من الجزيرة وترك البلاد التي احتلوها قبل أن يتفاقم الامر لانه سيعلم دولة انكلتره بما حدث لانه هو وبلاده تحت حمايتها ولما وصلت الى براوه أخذت تطلق المدافع والبنادق تهديدا للمحاصرين الذين فروا في الحال وعاد الامن الى ربوعه وأخبر السيد برغش سلطان زنجبار الدكتور جون كركالرس (Dot. John Kirkalors) قنصل جنرال برطانية هنالك بما كان فأرسل القنصل المذكور مدفعية انكليزية للوقوف على حقيقة الامر وتقابل قبودانها مع مكيلوب باشا فتحادثا سوية ثم عادت المدفعية الى زنجبار وأخبر القنصل حكومته رسميا بما كان وأرسل مكيلوب باشا من طرفه عبد الرزاق بك الى زنجبار فبعث خبرا بالتلغراف الى المعية السنية بمصر أعلمها فيه بما حصل وكان الخديو أرسل فدريقو باشا مفتش عموم وابورات البوسته الخديوية يومئذ للتفتيش على النقط التي احتلتها هذه الحملة ولما عاد قال بان المواصلات بين النقط العسكرية هنالك صعبة وكانت المخابرات جارية بين الخديو ودولة انكلترة ولما لم يقو على معارضتها واثبات حقوقه سيما وان مصر كانت في حرب مع الحبشة أمر مكيلوب باشا بالعودة هو ومن معه من العساكر وكان اللورد دربي أرسل الى الخديو كتابا شديد العبارة بان فعل مصر هذا يعتبر تعديا على بلاد تحميها برطانية (١٨٧٦ م)

المشاكل مع الحبشة — لما ألحقت الحكومة الخديوية بأملاكها بلاد البوغوس وبركة والقضارف والوديان الشرقية التي تصب اليها مياه الحماسين على يد منزنجر باشا محافظ مصوع كما سبق ارادت تعيين حدود تلك البلاد بينها وبين الحبشة وقصدت الاستيلاء على بعض مقاطعات الحماسين ليسهل على الخديو تنفيذ غرضه بمد طريق حديدي بين مصوع والخرطوم على طريق كسله والتاكه فجرد لذلك تجريدة جعلها تحت قيادة ارندروب بك (Arendrup) وكان على البيادة منها رستم بك

Digitized by Google

ناجى وعلى الطوبجية اسمعيل افندى راجى البكباشى ورافقهما من مصوع بعض ضباط أركان الحرب تحت رياسة البكباشى دورهولس ومعه الملازم أحمد افندى رفعت ولما وصلت الى بلدة سعدزجة الواقعة على طريق اسمرة انضمت اليها أورطة سودانية أتت من سنهيت وكان الطريق بين سعدزجة ومصوع تشغله جنود مصرية أخرى وفى ٢ اكتوبر من سنة ١٨٧٥ م صدر الامر بسفر بعض ضباط من أركان الحرب بينهم البكباشى دنسن الاميريكانى والبكباشى عمر افندى رشدى (بك ومدير المنية الآن) والملازمين حسين افندى رفقى وأحمد افندى شريف وأحمد افندى نظمى وسافر هؤلاء الضباط من السويس على باخرة سنار قبودانية برفولجو بك النمساوى ولما وصلت الى مصوع سافرت توا الى سعدزجه من طريق أسمرة ولما رأى نجاشى الحبشة تحول المصريين فى بلاده للاغارة أمر ولدا نكيل حاكم الحماسين بالرجوع الى دواربه وهى نقطة فيها جامع شيده العثمانيون كانت احتلها عساكر السلطان سليمان سنة ٩٦١ ﻫ ثم سافرت العساكر المصرية من سعدزجه الى دواربه ثم الى بلدة جودوفلاسى وكان كلما تقدمت العساكر المصرية تتقهقر الاحباش خديعة منهم ولما اجتمعت الجنود المصرية تقدم البكباشى دورهولس بعفرزته الى سنجا نيت للمحافظة على أهلها ومن فيها من قسيسى أوروبا ثم تقدمت فرقة جودوفلاسى تقصد عدوة بعد ان تركت بها بلوكين مع عمر افندى رشدى ثم نزلت ببلدة عدخاله وهناك انضم اليه بقية الجند المصرى وسارت أربعة بلوكات مع الصاغ عطا افندى الى جونديت وأرسل أرندروب بك مكتوبا بالعربى الى ملك الحبشة يوحنا يطلب منه جعل خورالجاش وهو نهر المارب حدا فاصلا بين أملاك مصر والحبشة وأرسل المكتوب مع رجلين هما الشيخ حق الدين من أكابر مسلمى بلدة دواربه والنائب أحمد من أهالى مصوع وكانت له علاقات خصوصية مع ملك الحبشة فلما وصلا قيدهما الملك بالحديد وسجنهما ثم بلغ أرندروب بان الحبشة يستعدون للهجوم عليه من ثلاث جهات فصمم على أن يبدأهو بالهجوم قبل مهاجمتهم له وقسم قوته الى قسمين تقدم هو بالقسم الاول منهما وجعل القسم الآخر وقدره سبعة بلوكات تحت قيادة رستم بك ناجى ومعه البكباشى أحمد افندى فوزى وفرقة من الطوبجية عليها البكباشى اسمعيل افندى راجى وكان معهم أراكيل بك (Arakel) محافظ مصوع ولما وصل أرندروب الى جونديت أرسل يأمر رستم بك بالتقدم فى الصباح للالتحاق به وترك بلوكين بنقطة عدخاله مع البكباشى دنسن والبكباشى عمر رشدى افندى وبعد ان سار رستم بك ثلاث ساعات ورد خبر الى عدخاله بأن قوتى رستم بك ناجى وأرندروب بك قتلتا الواحدة بعد الاخرى تماما لان قوة الحبشة التى هاجمتهم كان عددها نحو ٧٥,٠٠٠ مقاتل يقودها الملك يوحنا بنفسه وبعد هذه المذبحة أقام ملك الحبشة بجونديت وأرسل فرقة لمحاصرة عدخاله ثم بعث كتابا يدعو حامية عدخاله المصرية الى التسليم [1] فجاوبه البكباشيان دنسن وعمر افندى رشدى بانهما أرسلا كتابه الى القائد العام ببلدة سعدقلاى وهما فى انتظار الجواب وكانا يقصدان بذلك اطالة الزمن ليتمكنا من الانسحاب خفية الى قياخور فتم لهما ذلك والتحقا بحاميتها الذين أصبح

(١) من المؤيد من الله يوحنا ملك ملوك الحبشة وما يليها الى ضباط العساكر المصرية بعدخاله بعد السلام يقول مخاطبا لكم انكم تعديتم على بلادنا واعلموا ان هذا لما لم يكن من أنفسكم فيقتضى تسليم السلاح وان شئتم الاقامة ببلادى فلكم ذلك على الرحب والسعة والا ردكم الى أوطانكم سالمين ﴿

Digitized by Google

عـددهم ٦٠٠ عسكرى ولما تحقق ضباط مصر عـدم امكان حفظ قباخور المذكورة تركوها وعادوا الى بعرزه التى كانت فيما سبق الحد الفاصـل بين الحبشة ومصر أما دورهوليس فانه لما بلغه خبر ملاشاة القوة المصرية رجع عن معـه بكل سرعة الى مصوع مخبرا بما حصـل وكان الخديو فى أثناء ذلك أمر مونزنجر باشا حكمدار شرقى السودان والبحـر الاحمر بان يجرد على بلاد الحبشة عسكرا آخر يذهب به من طريق تاجورة الى بلاد شووا ومنها الى غندار فأخـذ أربعة بلوكات من البيادة وبطارية من الطوبجية وأبحـر من مصوع فى باخرة الزقازيق وقبودانها البكباشى محمد أمين توفيق افنـدى ولما وصلت الباخرة المذكورة الى تاجورة وأخرجت بها العساكر أمرهـم بالسير أماهو فانه خرج عند رأس جيلا جيفو القريب من جونة قبة الخراب الواقعة على بعد ١٥ ميلا غربى تاجورة (٢٧ اكتوبر سنة ١٨٧٥) وسار قاصدا بلدة أوسا الكائنة بجوار بحيرة أسال وهناك تلاقى مع عسكره وقابله ابن الشيخ محمد الحدة أمير تلك البلاد وكان يظهر الموالاة للحكومة المصرية ويضمر السوء لمونزنجر باشا لانه بعد أن قدم له كل ما يلزم من المؤن والهدايا هجـم ليلا بجنوده على العساكر المصرية فقتل أولا مونزنجر باشا وزوجتـه شرقتلة ثم أخذ يقتل فى العساكر التى دافعت عن نفسها دفاع الابطال ولما كانت قليلة بالنسبة للاعداء قتل منها عـدد كبير وتمكن من بقى من الهرب والانسحاب الى تاجورة بعد ان لاقت من الصعوبات ما لا مزيد عليه ومع ذلك فقـد تمكن الضابط محمد افندى عزت بشجاعتـه وإقدامه من ارجاع الجنود بنظام ورسم الطريق الذى عاد منـه لامكان محاصرة المكان الذى حدثت فيه الواقعة المذكورة عند الاقتضاء ولما ذاعت أخبار هـذه الهزيمة تعين عبد القادر حلمى باشا لتحقيق أمرها وأسبابها فتوجه الى تاجورة وزيلع وبعد ان درس حقائقها قدم تقريرا بما علمه ولما قرأه الخديو تأثر من ذلك تأثرا شـديدا وعزم على محاربة الاحباش

حرب الحبشة - لما حصل ما تقـدم رأى الخـديو ان أحسن الطرق لرد شرف العسكرية المصرية الذى أهانه الاحباش والانتقام منهم على ما فعلوه مع مأمورى مصر وجنودها هى سوق الجند على الحبشة مع ان المصريين هم الذين تعدوا أولا على الاحباش بلا سبب شرعى نعم ان ملك الحبشة كثيرا ما أساء الى المسلمين المقيمين ببلاده وجرت عادة المسلمين التوسل بمصر من القديم لرفع الاذى عنهم الا أن ذلك كان يمكن حسمه بالطرق الودية أولى من حرب عادت على مصر بالوبال والاهوال وأفقدتها كثيرا من جنودها ونخبـة رجالها لانها حصلت بلا تدبر ولا امعان فكر ولا يظن القارئ ان الحبشة كانت فى هـذا الوقت كما كانت زمن ان حاربها الانجليز منحـلة الروابط مشـتتة الضوابط لا فان الاحباش بعـد حرب الانجليز لهم كان انضم رؤسهم الى بعضهم واتحدوا نوعا وذلك بمساعى النجاشى حنا كاسا ملكهـم فى ذلك الوقت ولكثرة معاركتهم لعساكر مصر تحزبوا وحصلوا على الكثير من الاسلحة النارية الجيدة وغير ذلك هذا ولما صمم الخديو على الحرب أمر نجله الامير حسين باشا وكان وزيرا للجهادية والبحرية اذ ذاك بتجهيز الجيش فصدع بالامر وتعين محمـد راتب باشا سردار الجيش قائدا عاما للجيوش الحرب وجعل ضباط أركان الحرب من المصريين والامريكان الذين فى خدمة مصر وكانوا تحت رئاسة الجنرال لورنج باشا وكان فقـد احدى يديه فى حرب امريقا ولذلك اشتهر بأبى ذراع وكان من هؤلاء الضباط القائمقام دولايلك والبكباشى ابراهيم افنـدى لطفى والبكباشى طورنابرن

Digitized by Google

والبكباشي عمر افندى رشدى ودورهواس واليوزباشي صورماني والملازم عبد الرحمن افندى محمد ومحمد افندى عزمى وأحمد افندى رائف وجعل محمد بك رفعت رئيس قلم تركى ديوان الجهادية كاتبا خصوصيا للسردار ومحمد على باشا حكيم باشى القصر العينى رئيسا لاسبتاليات الميدان . هذا وكان الجيش الذى جهز لهذه الحملة يتركب من ثلاثة لواآت وقواده هم عثمان رفقى باشا وراشد رافم باشا واسمعيل كامل باشا ومعهم أيضا خمسة الايات أخرى سميت بالايات السفرية الأول يقوده عثمان بك غالب والثانى محمد بك جبر والثالث زكريا بك والرابع راشد كامل بك والخامس عثمان نجيب بك ويتبعهم أيضا اورطتان من البيادة على الاولى البكباشى على افندى رأفت وعلى الثانية مصطفى افندى مأمون والاى من السودانيين عليه خورشيد بك عا كف وثلاث أورط من السوارى على الأولى البكباشى أحمد أفندى عبد الغفار وعلى الثانية البكباشى مصطفى أغا وعلى الثالثة البكباشى راشد أفندى حلمى وسبع بطاريات من الطوبجية تحت قيادة اسمعيل بك صبرى على أربع منها البكباشى أحمد افندى سعيد ومن بطارية ساروخ حربى عليها عباس افندى وهى وبطارية واحدة من مدافع كروب للميدان عليها محمد افندى نجاتى ومثلها للصحراء من عيار ١٢٠ سانتى وأروطة مهندسين عليها البكباشى على افندى السماع وفرقة للنزل عليها القائمقام مصطفى بك خلوصى وكان مركزها مصوع والقائمقام أحمد بك عرابى والبكباشى على افندى الروبى وجعلا على الحملة وكان مع هذا الجيش نحو ١٨٠٠٠ من الخيول والبغال والجمال وجعل المرحوم على غالب باشا مأمورا لتسهيل سوق الجيوش بميناء السويس وأمر المرحوم قاسم باشا وكيل البحرية بسوق كل السفن والبواخر الاميرية الموجودة بثغر الاسكندرية الى البحر الاحمر وجعل محمد كامل باشا قبودانا للباخرة الغربية وقاد قاسم باشا المحروسة بنفسه وكنت من ضباطها وأخذت السفن تنقل الجيوش من السويس الى مصوع وبعد ان أوصلت باخرة المحروسة أورطتين وبطارية من المدافع الى زيلع امدادا لرؤف باشا عادت لنقل الجيوش كبقية السفن الاخرى ثم سافر محمد راتب باشا السردار مع أركان حربه الى مصوع على باخرة الدقهلية (٨ ذى القعدة ١٢٩٢ ﻫ) وكان صدر أمر الخديو بسفر ثالث أنجاله الامير حسن باشا لمرافقة الحملة تشجيعا للجنود وتدريبا له على خوض معامع الحروب (١١ الحجة سنة ١٢٩٢ - ٢٩ دسمبر ١٨٧٥ م) وكان بصحبه الميرلاى يوسف شهدى بك (الفريق ناظر الحربية السابق) وزهراب بك (وكيل الحربية الحالى) والبكباشى محمد افندى نسيم وبدر بك الحكيم وغيرهم من ضباط أركان الحرب ثم سافر من مصوع هو والسردار القائد العام وضباط أركان الحرب (١٦ الحجة) ومعهم العساكر بين مشاة وخيالة وطوبجية يقصدون بلاد الحبشة مارين على جهات بانقص وبعرزه وعدرسه وقياخور حتى وصلوا قرع فى ٣ محرم سنة ١٢٩٣ بعد أن تركوا بعض الجند فى النقط المذكورة لحفظ خط المواصلات بين الجيش ومصوع وعسكر الجيش فى قرع المذكورة وأقام حوله الاستحكامات اللازمة وادخر الذخائر والمؤن اللازمة له وقد كان دخول العسكر المصرى بلاد الحبشة على ما كان عليه من القوة والاستعداد موجبا لمسارعة الكثيرين من الاحباش الى الدخول فى حماية الحكومة المصرية فدخل بجرو عمدة عدخاله ومعه نحو ستين من جنوده ثم عمدة جودفلاسى ثم دجاج ولد نكايبل حاكم الحماسين مع جيشه البالغ عدده نحو الالفى نفر فانعم على الجميع بالخلع المصرية

Digitized by Google

وقدم حاكم الحماسين المذكور للامير المرحوم حسن باشا والسردار وابعض القواد جلة هدايا ثم قدم عدة من أعيان وأهالى جهات اكاوكزاى واكامواالحماسين وماجاورها من القرى والبلاد لطلب الدخول تحت حماية الحكومة الخديوية فقوبلوا بالاكرام وأنعم عليهم بالخلع ثم دخل حاكم عمامى ويدعى شوم عمامى سجنو وآخرين منهم والطصفاى ولد ولد فراش وغيرهم وكانت الجواسيس توافى الجيش المصرى كل يوم باخبار جيش الاحباش ومن ذلك أخبارهم ان النجاشى ينوى مهاجمة المصريين يوم الثلاثاء الذى اعتاد المحاربة فيه تيمنا به وتبركا بطالعه وقد كانت محاربته لجيش ارندروب بك ورستم ناجى بك فى اليوم المذكور وأخبر السردار الخديو بذلك فصدر منه الامر تلغرافيا باتخاذ الطرق المؤدية الى منع وقوع المحاربة فى اليوم المذكور وان كان هذا الاعتقاد فاسدا ثم عادت الجواسيس وأخبرت بتحرك ملك الحبشة مع جيشه فى يوم الثلاثاء الموافق ١١ صفر من سنة ١٢٩٣ وعلى ذلك استعدت العساكر المصرية وأخرج السردار باشارة الجنرال لورنج الامريكانى رئيس أركان حربه سبع أورط من الرجالة وارطتين من الخيالة وثلاث بطاريات من المدافع الجبلية وأربع مدافع صغيرة وتسعة صواريخ حربية الى ميدان القتال البعيد عن الاستحكامات بمسافة ٣٥٠٠ متر تقريبا فجعلت القوة المذكورة خورا كان هناك خلفها وكان المصريون شيدوا فى قرع فى أول الامر استحكاما ثم تركوه وشيدوا آخر غيره لانه أكثر من الاول موافقة وبقى فى الاستحكام الجديد أى الثانى بعد خروج القوة المذكورة للقتال بطارية كروب وأرطتان من البيادة وبطارية أخرى أما الاستحكام القديم أى الأول فكان خاليا من الجند فلم يكن به سوى الخيام والحراس وقصد العدو فى أول الامر محاربة الفرقة التى بطابية قياخور تحت قيادة عثمان رفقى باشا ولما لم يجد منها حركة وانها فى استحكام منيع وقادرة على اهلاكه بالمقذوفات عدل عن مهاجمتها وقصد قوة السردار وأخذ فى مهاجمتها وبعد معركة قصيرة شديدة اختل نظام الاورط المصرية لاحاطة الاحباش بها سريعا من الخلف من داخل الخور السابق ذكره ومن الجنبين والامام ولم تمكن سرعة الاحباش وجسارتهم السردار من تشكيل مربع يقاوم به هجومهم العنيف حتى يأتيه المدد فانهزم المصريون شر هزيمة تكون وأسر الاحباش كثيرا منهم وقتل فى الواقعة راشد راقم باشا ومحمد على باشا الطبيب ومحمد بك جبر وتسعة من ضباط الالوف وغيرهم من الضباط والعساكر واستولى الاحباش أيضا على ذخيرتهم وأسلحتهم ولم تمكن المرحوم حسن باشا والسردار وأركان حربهما والخيالة وبعض الجنود المشاة من الوصول الى القلعة الجديدة الابعد ان رأوا الهلاك عيانا ولما التجؤا اليها أغلقوا بابها وأمروا الطوبجية باطلاق المقذوفات على الاحباش وكانوا يقتفون أثر الفارين وقد فتكت تلك المقذوفات بكثير من الجنود المصريين الذين تخلصوا من الواقعة وكانوا يقصدون القلعة المذكورة للالتجاء اليها كغيرهم وفى يوم الخميس ١٣ صفر سنة ١٢٩٣ ه عاود الملك الهجوم بجيشه بقصد الاستيلاء على القلعة المذكورة فارتد خائبا وروى من شاهد ذلك من أسرى المصريين ان الاحباش لما عادوا من امام قلعة قرع الجديدة منهزمين كانت تلوح على وجوههم علامات الحزن وأخذ نساؤهم فى البكاء والنحيب على مافقدوه من الرجال فى هذه الحروب وكانوا أضعاف قتلى المصريين لان المقذوفات والمهلكات النارية قتلت منهم عددا كبيرا وقد عاب رجال الحرب قائد هذه الحملة

Digitized by Google

ورموه بالخطا فى حركة الميدان التى قام بها ومقابلته جيوش الحبشة العديدين بالكيفية التى فعلها بقولهم ان تعبيته كانت مخالفة بالمرة لفن الحرب حيث لم يعمل اكتشافات دقيقة ولم يرتب الطلائع اللازمة للقوة الزاحفة بل تحرك كأنه فى ميدان غير ميدان الحرب وعبر خور كان هنالك وجعله خلف جنوده حتى صار الخور حائلا دون خط رجعته الى القلعة وكان عليه لما رأى جيوش الحبشة أخذت تتحرك يمينا وشمالا الاسراع بتشكيل قوته على هيئة مربع اماراتب باشا فقد تنصل من مسؤلية هذه الهزيمة عند عودته لما مثل بين يدى الخديو وقال له ان سموكم أخذتم على المواثيق والايمان باننى فى جميع حركاتى أستشير الجنرال لورينج الامريكانى وقد عملت بما أمرتم فكانت النتيجة كما ترون فلم يتكلم الخديو بشئ وقال الفاضل محمد رفعت بك فى كتابه جبر الكسر فى الخلاص من الاسر وقد ظننت انه اذا حصلت هزيمة لعساكرنا المحاربة أدركهم عساكر الاحتياط بالمدد كما شاهدت ذلك فى محاربة كريد فأكون مابين ذلك قد تمكنت من العود الى القلعة غير ان الامر كان بخلاف ذلك اذ لم يكن لعساكرنا مدد ولا احتياط على حسب القواعد الحربية اه ولما انتشر خبر موقعة قرع وما أصاب الجنود المصرية بها وقع الرعب واستولى الخوف على الاورط والبلوكات التى كانت بالطريق والمعسكرة على الانفراد لحماية الطريق بين مصوع ومركز الجيش وتمارض بعض الضباط ليتخلصوا من التقدم فلما علم السردار راتب باشا بذلك وان الخوف مثبط لهمة العساكر قاتل لاقدام الجنود سيما فى ميدان القتال أمر بالقبض على أولئك الضباط وكان منهم البكباشى صالح افندى سرى وحاكمهم وقتل بعضهم رميا بالرصاص وذكر الفاضل محمد بك رفعت ان ملك الحبشة استدعاه وسأله بواسطة الترجمان عن أسباب حضور الجيش المصرى فقال له ان القصد هو تبادل التجارة بين الحبشة والمصريين وأخذ يسرد الاسباب فأظهر النجاشى يوحنا رغبته فى الصلح وقال له هل عندك ختم فتكتب لنا جوابا بالصلح فقلت نعم ولكن أخذه الآسر فأمر الملك حينئذ باحضار الختم وقد حصل وكتبت مسودة خطاب عن لسان الملك الى جناب البرنس حسن باشا بعكس مرغوب الملك من جهة كونه طلب تحريره عن لسانى وذكرت فيه مامعناه

(اننى كنت أود استمرار علاقات المودة بينى وبين والدكم الافخم ولكن حال دون ذلك تمويهات منجر باشا محافظ مصوع وبثه الاكاذيب حتى اننى على ذلك حضور ارندروب بك وحضوركم وكان ما كان فى وقعتى جندت وقرع من هدر الدماء بين الفريقين وهذا أمر لا يرضى الله ولا الناس ولم ندر ماهو المقصد والمرام من حضوركم بالجنود الى بلادنا فالاولى أن ترسلوا مندوبا من عندكم أو نرسل مندوبا من عندنا للمفاوضة فى شأن الامر الذى نحن فيه)

وبعد ختامه أخبرت الكاتب بأن من الاوفق أن يكون الخطاب مرسلا من قبل الملك ومختوما بختمه اذلا يجوز لى تحرير مثل هذا الكتاب بما انى أسير واذا أراد الملك كتابة منى علاوة على ذلك فلا مانع وألزمت الكاتب تفهيم الملك كل ذلك وقد عرض فى الحقيقة كلامى على الملك فاستحسنه ووافق عليه ونقلت مسودة كتابى على قرطاس بخط كاتبهم بدون تغيير فيها ولا تبديل ولا محو ولا اثبات ثم عرض على الملك فختمه بختمه ومحل الختم عنده جبين القرطاس أما ختمه فمصنوع من فضة وهو كبير الدائرة ومنقوش فيه بالحبشية والعربية هذه العبارة وهى (يوحنا ملك ملوك الحبشة وما يليها) وحررت منى كتابا تركى العبارة الى جناب السردار بما شاهدته من حال جيوش الحبشة من حيث وفرتها وكثرتها وما لاح لى من هذا القبيل مع الاختصار وختمته باستلفات نظره الى ضرورة حسم

هذه

Digitized by Google

هذه المشكلة بالحسنى اهـ وقد فتح هذا الخطاب باب المداولات في الصلح وعاد الملك الى غندار ثم تعين من قبل الجيش المصري على افندى الروبى بكباشي السوارى ودارت المخابرات في شأن الصلح بشرط ان الاحباش يردون الاسلحة المصرية التى وقعت في يدهم وان تكون التجارة متبادلة بين الطرفين فامتنع ملك الحبشة عن رد الاسلحة قائلا ان جنوده ليست منتظمة حتى يتسنى له أن يسترد منهم ماسلبوه وان ماعكنه رده هو خمسمائة بندقية على الاكثر وبعد ذلك بقليل تقرر الصلح وأذن الملك بعودة الاسرى (٢٧ ربيع الاول سنة ١٢٩٣) وتبادلت الهدايا بين الخديو وملك الحبشة وعاد البرنس والسردار وكثير من الجيوش الى مصر

غردون والسودان المصري — وفي أثناء الحرب بين مصر والحبشة عينت الحكومة جملة من ضباط أركان الحرب جعلتهم تحت رياسة الميرالاى لوكت بك (Lockett) (١) وأرسلتهم الى مصوع لرسم خرائط تلك الجهات فرسموا خريطة عمومية للبلاد الواقعة بين مصوع وبلاد الحبشة وكان ذلك من أهم وأفضل مااشتغل به ضباط الجيش المصري وكتب الجنرال استون عن هذا العمل رسالة علمية قرئت في الجمعية الجغرافية المصرية وفي شهر فبراير من سنة ١٨٧٧ استدعى الخديو اسمعيل باشا الجنرال غوردون لخدمة الحكومة المصرية مرة ثانية فعلق الجنرال غوردون قبوله الخدمة على ان يكون حكمدارا لعموم الاملاك المصرية بالسودان فاجيب طلبه وكانت العساكر المصرية بالاقطار السودانية المذكورة قليلة وبعض نواحيها خالية منها لان مصر لما ساعدت الدولة في حربها مع السرب والروسيا أرسلت قسما عظيما من جنودها امدادا فبقى السودان قليل الجنود ولذلك انتشبت نيران الثورة في جهات دارفور وقال صاحب الرسالة الانجليزية المسماة السودان والمهدى ان الذى كان يحرض أهالى دارفور على شق عصا الطاعة على الحكومة هو الزبير رحمت باشا برسائله التى كان يرسلها الى حلفائه هنالك حتى بلغ عدد الثائرين أكثر من عشرة آلاف ولم يكن عند غوردون باشا وقتئذ الا شرذمة صغيرة من العساكر المصرية وأقام في الخرطوم شهرا أصلح فيه دوائر الحكومة كما يحب ويشتهى ثم سافر الى دارفور على ناقة مستصحبا معه ستمائة من الاتراك الباشبوزق ولما وصل الى الفاشر دخل محلة العصاة وحده وترك أتباعه وحراسه على مسافة منها وكان المجموع فيها ثلاثة آلاف عبد مسلحين فخاطب رؤساءهم وطلب منهم التسليم وهو يمزج الجد باللين وبذلك سلموا اليه وأطاعوه وفي مقدمتهم سليمان بن الزبير فنصبه غوردون باشا حاكما على بحر الغزال بأمر الحضرة الخديوية وقفل غوردون باشا راجعا الى الخرطوم اهـ وروى ميسيداليا بك (Messedaglia) في خطابه الذى بعثه بتاريخ ١٥ دسمبر سنة ١٨٨٧ الى الجمعية الجغرافية الخديوية انه لما تعين الجنرال غوردون باشا حكمدارا عاما على السودان والبحر الأحمر ومديريات خط الاستواء (١٨٧٧) كانت نيران الفتنة مشتعلة بدارفور والذى قام بأمرها رجل يدعى محمد هرون من قبيلة تدعى فيلاتا مطالبا بالملك وسمى نفسه بالسلطان محمد هرون الرشيد الصادق السعيد المنصور بقوة الله المؤيد برسول الله وبعث من طرفه أناسا يحرقون أملاك

(١) وهم القائمقام لمبيغ بك والملازم أول مصطفى افندى رمزى (الآن قائمقام بالجيش) والملازمين ثوانى شقيقى يوسف أفندى ضيا وحسين افندى رمزى (الآن الاول ميرالاى والثانى قائمقام ياوران للحضرة الفخيمة الخديوية) والملازم اسمعيل افندى صبرى

Digitized by Google

الأهالي الخاضعين للحكومة المصرية وكان مديردارفور وقتئذ محمد امام الخبيري وكان غوردون باشا رقاه الى رتبة باشا وكان له ثلاثة اخوة في وظائف الحكومة معه وهم حمزة بك الخبيري وكان مديرا للفاشر واحمد بك النور الخبيري مديرا على الغرب ومحمود امام بك الخبيري رئيس مجلس مديرية الفاشر المحلي وفي مدة هؤلاء الحكام لم تنصلح أحوال تلك الجهات وفقد منها الامن والنظام ولهذا عين غردون باشا عليها حسن حلمي باشا بدلا عن محمد امام الخبيري المذكور وجعل ضابطا جركسيا يدعى زكريا بك حلمي مديرا للفاشر ورئيسا لعموم الجيش بها وأمرهما بمحاربة هرون فلم ينجحا في أول الامر لأن هرون تمكن في مدة قليلة من جمع عدة قبائل حول الفاشر وحاصر قلعتها واستولى في ليلة مطارة على كافة الابار التي حولها وفي أثناء ذلك صمم غوردون باشا على السفر الى دارفور بنفسه فوصل الى الفاشر في ١٦ يونيو وكان معه حرس عدده ٣٥ نفرا ووجد القلعة محاصرة فدخلها على حين غفلة حتى بهت من كان فيها لمشاهدته بينهم وفي الحال تغيرت الاحوال وانسحب الثوار الى الجبل فسير عليهم غردون حملتين احداهما تحت قيادة زكريا بك المتقدم والاخرى تحت قيادة حسين حلمي باشا فلم يفلحا في اخضاع الثوار ثم أذن لحسن حلمي باشا باجازة طويلة يقضيها بمصر وعين مكانه رجلا يدعى فردريك روسي (Frédéric Rosset) وكان تاجرا في الخرطوم ووكيلا لقنصل الماينيا بها وكان غردون بعث من الخرطوم رومولي جسي (R. Gessi) التلياني على رأس جيش صغير الى بحر الغزال وبعد ثلاثة أيام من وصول جسي الى الفاشر اتفق موت فردريك روسي المذكور فجأة ثم سكنت فتنة هرون وعاد الامن الى ربوعه وفي ٢٢ دسمبر من سنة ١٨٧٨ عين غردون باشا مسيد البابك مديرا لداره وقومندانا للجيش بها وكان يصحبه رجل يسمى شارل ريجولي (Charles Rigolet) تعين وكيلا للمديرية شاكا ولما وصل مسيد البابك الى داره وجد أهاليها على طاعة الحكومة الخديوية وانما تغيظهم من معاملة جنود الباشبوزوق ومأموري التحصيل والمشايخ لهم ولكي يقف على حقيقة أمرهم وطلباتهم أظهر لهم في أول الامر انه سائح ثم علم انهم جميعا يشتكون من هرون وأعماله فاجتهد في طرده وابعاد الباشبوزوق وفي تلك الاثناء ظهر سلطان آخر بكردفان يدعى محمد صباحي وحاول اخضاعها فقصده غردون باشا بنفسه وأمر مسيد البابك أن يسافر مع القوة العسكرية التي معه لمساعدة جيسي في بحر الغزال فسافر من بارا ولما وصل وجد جيسي باشا تمكن من قهر سليمان بن الزبير فأمره غردون باشا بالعودة الى دارفور فعاد الى داره في أواخر ابريل وكان غردون باشا قد تمكن أيضا من قهر الصباحي وأسره ثم ألغي مديرية شاكا وبعث بمن معه من الجنود الى داره ثم غير وبدل في المأمورين فجعل (٨ مايو سنة ١٨٧٩) شارل ريجولي المتقدم الذكر مديرا لداره وسعيد بك مديرا للفاشر ونور بك عنقر مديرا لكلكل وأمر امليانى (Emiliani) مأمور مركز الكولي بالتوجه الى دارفور ثم بعد ذلك بقليل عين سلاتين بك مديرا لداره بدلا من محمد بك خالد المشهور بزقل اهـ بتصرف وقال حضرة محمود افندي طلعت في كتابه غرائب الزمان في فتح السودان ما ملخصه انه في أواخر شهر شعبان من سنة ١٢٩٥ (أغسطس ١٨٧٧ م) حضر محمد باشا امام الخبيري (وهو من أعيان السودان الذين أنعم عليهم غوردون باشا بالرتب ورقاهم الى أعلى المناصب) وكان مديرا لعموم غرب دارفور الى كردفان ونزل ضيفا على من يقال له الياس باشا سر تجار كردفان وتكلم بمجلس كان به بعض أعيان تجار تلك الناحية وكان بينهم أحمد المتمهدي فقال الخبيري ان الدولة

الانكليزية

الانكليزية لما رأت ظلم الترك بالسودان أرسلت من طرفها غوردون باشا بصفة حكمدارا للسودان في الظاهر ولكن في الحقيقة لاجل أن يريح أهالي السودان من الترك وظلمهم وقد ابتدأ باخلاء دارفور منهم (مراده بالترك هنا كل مصري سواء كان تركيا أو مصريا أو عربيا) ثم قال لهم وسيتبع ذلك في عموم السودان فكونوا مستيقظين فها قد ترك عموم دارفور رفائمة على قدم وساق تجار بمن بقي منهم فلما سمعوا ذلك قابلوا قوله بالاستحسان واتفق ان الثورة حصلت على يد محمد أحمد المتمهدي فساعده من كان موجودا بذلك المجلس عن طيب خاطر حتى قويت شوكته وادعى المهدوية وكان من أمره ما سيأتي ذكره في محله اه وذكر الفاضل محمد محسن بك الكاتب الثاني للمندوب العالي السلطاني بمصر في كتابه دليل افريقية ما ترجمته ان الخديو اسمعيل باشا لما دعا غوردون باشا للخدمة ثانيا في الحكومة المصرية سنة ١٨٧٧م نصبه حكمدارا عاما على ادارة عموم السودان وتوابعها فعاد الى الخرطوم ولكنه لم يسر في ادارتها كما كان يفعل أولا فلم يفتح ويضم أو يغنم بلدا والجهات الغربية للحكومة الخديوية بل ابتدأ في هذه المرة بتضييق الادارة المصرية التي كان وسع نطاقها في المرة الاولى فترك بلاد هرر وتخلى عن إقليم أونيوره وترك محطات أوربدوجاني وأم رولي وماسندي وكورنته وفاويره واعتبر الحدود المصرية العثمانية جنوبا بسواحل نهر سومرست وقسم الاقطار الاستوائية الى قسمين اه ومما يستدل به على ان نية غردون لم تكن في الصفاء مثلها في المرة الاولى ما رواه صاحب السودان المصري والانكليز بعد ان ذكر مدارس الخرطوم الاميرية والاهلية ومساعي غردون في اعدام مصالح دولته هناك من انه أصدر أمرا بالغاء المدارس الاميرية بدعوى انها تكلف الحكومة المصرية نفقات طائلة لا وجوب لها وقال أيضا انه حاول اقفال مدارس الاهالي ومدارس الكاثوليك ولكنه لم يفلح وأمر أيضا فأبطل ارسال الطلبة الناجحين بمدارس الحكومة بالخرطوم الى مصر بعد ان عزل جميع الموظفين منهم اه وقال غيره انه بعد ان أقام غوردون باشا في الخرطوم أياما سافر الى بربر ودنقله وهناك بلغه ان الحبشة سيهاجمون سنار فعاد الى الخرطوم مسرعا فاتضح له كذب الاشاعة ثم ذهب الى بوغوس ليصلح بين الاهالي ولما عاد الى الخرطوم أتاه أمر تلغرافي بحضوره الى مصر للمداولة معه في أمر مالية السودان فسافر في الحال وبقي في القاهرة شهرا ثم عاد الى الخرطوم من طريق سواكن وبربر ولما تحقق عدم استطاعته الانفراد بادارة السودان كله لان بلاده بعيدة المدى شاسعة الاطراف وان وجوده في كل مكان منها أمر شاق جدا قسم المديريات الاستوائية الى قسمين سمى الاول منهما مديرية خط الاستواء وجعل مركزها بلدة لاو وعهد بادارتها الى أمين باشا (الدكتور شنيتزر) وجعل الموسيو جسي (Jessi) التلياني الجنس مديرا على القسم الثاني الذي سماه مديرية بحر الغزال وتمكن جسي المذكور من اكتشاف جميع الاراضي الكائنة في انحاء مديريته وأحسن معاملة الاهالي وعودهم على الاعمال العسكرية وساعدهم على مد المراكب وانشاء السفائن للاتجار فهال أمره الجلابين لان ذلك مذهب لنفوذهم مضيع لمكاسبهم وأرادوا أن ينزعوا سطوته ثم تجمعوا تحت رياسة سليمان بن الزبير لمقاتلته فكان هذا هو الداعي لقيام سليمان ومجاهرته بشق عصا طاعة الحكومة وقال سلاتين باشا في كتابه النار والسيف في السودان ان الزبير باشا كان عين ابنه سليمان نائبا عنه في جهات بحر الغزال فلما رأى ان الحكومة المصرية أبقت اباه في القاهرة اغتاظ

وجمع أربعة آلاف من رجاله وخيم بهم امام دارة وعزم على مناواة الحكومة وأشار عليه رجاله ان يقبض على غوردون باشا و يستقل به اباه ثم يستقل فى البلاد وكان غوردون على أربع ساعات من دارة اه ووجه عليه غوردون بعض الجنود تحت قيادة جيسى المذكور فتقاتلا قتالا شديدا ثم انتصر عليه وقتله ووجدوا معه رسائل عديدة من الزبير باشا والده تدل على مداخلته معه واشتراكه فى تلك الثورة قال صاحب كتاب غوردون والمهدى فى السودان وبسبب ذلك حكم على الزبير باشا بالاعدام ولكن عفا الخديوعنه وأبقى مرتباته تجرى عليه من الحكومة المصرية وقال محمود افندى طلعت فى صحيفة ١٠٠ من كتابه غرائب الزمان فى فتح السودان ماملخصه لما عصى سليمان بن الزبير باشا على الحكومة وصارت ترسل اليه الجيوش وهو يكسرها و يبدد شملها واخيرا أرسلت اليه جيشا تحت قيادة القائمقام مصطفى بك عبدالله فقاتله سليمان وشتت شمل جيشه واستولى على كثير من الاسلحة والجبه خانات والمهمات ولما أعيا الحكومة أمره أرسل غوردون للخديو تلغرافا و يقال ان الخديو لما ورد اليه هذا التلغراف أمر الزبير باشا ان يكتب كتابا لولده بأن يقدم الطاعة للحكومة ولما وصل هذا المكتوب لغردون وأوصله لسليمان التزم بأن يمتثل أمر والده و يقدم الطاعة للحكومة فجمع رؤس عساكره ومن ضمنهم رابح وألزمهم بتقديم الطاعة فأجابوا جميعا الا رابح المذكور فانه تخلف وسار سليمان ومن رافقه حتى وصلوا مركز المديرية وبوصولهم قبض عليهم جميعا فيهم سليمان ولد الزبير وقتلوهم صلبا ونهبت أموالهم وأمتعتهم وأسلحتهم و بقى رابح يحارب بجنوده الى ظهور المهدى وانتهى أمر رابح بأن ملك مملكة برنو وهو مقيم فيها للآن الى ان قال ولما قتل سليمان بن الزبير ومن معه قال الحكمدار بأن هذا الامر ورد من خديو مصر بالاعدام وهذا جميعه ناشئ من أعمال الحكمدار الذى يريد جعل النفرة عامة بين سكان السودان عموما والحكومة المصرية مع استمالة الاولين لجانبه ولو بارتكاب أفظع الاعمال اه وروى سلاتين باشا فى كتابه النار والسيف فى السودان رواية أخرى عن قتل سليمان المذكور ولما كانت تخالف ماذكرناه أدرجناها لتمام الفائدة قال لما كان غوردون على أربع ساعات من بلدة دارة النازل فيها سليمان و رجاله تقدم مع رجلين من رجاله وأسرع اليها ومر بين جنود سليمان فجأة وكانوا مصطفين ثلاث صفوف وجعل يحييهم يمينا و يسارا ودخل الحصن بغتة فاطلقت المدافع ترحيبا به قبل ان ينتبه الضباط الى ماعولوا عليه ثم أرسل واستدعى قواد ذلك الجيش فجاءه نور عنقره وسعيد حسين وتبعهما سليمان بن الزبير فحيوا التحية المعتادة فأمر لهم بالسكائر والقهوة وسألهم عن أحوالهم ووعدهم خيرا ثم صرفهم وأبقى سليمان عنده فأخبره بما بلغه عنه ونصحه ان لا يصغى الى مشيرى السوء الذين يسوّلون له الخروج على الحكومة وحذره عواقب ذلك و بعد حديث طويل سامحه عما فرط منه وسمح له بالرجوع الى رجاله ثم استدعى سعيد حسين وسأله عما يراه من أمر سليمان فقال له انه غير راض ولا يزال عازما على مناواة الحكومة فعينه مديرا على شكا وأمره ان يذهب اليها حالا عن يشاء من الرجال ثم استدعى نور عنقره وسأله عما يراه من أمر سليمان فقال انه محاط برجال فاسدى الرأى فلا يصغى الى مشورة الصادقين فعينه مديرا فى غربى دارفور وأطلقه ليذهب اليهما حالا عن يشاء من الرجال و بلغ سليمان ان رئيسى جيشه أطاعا الحكومة وعينا مديرين فعنفهما على ذلك وذكرهما بما نالا من فضل أبيه فقالا له لولا نا ما نال أبوك شيأ مما ناله من الاسم والمنزلة وافترقا عنه

على

على هذه الصورة من الجفاء فنجح غردون فى تفريق شمل سليمان ثم أرسل اليه ثانية وأبان له خطر الحالة التى هو فيها وحثه على الخضوع للحكومة ووعده خيرا وأمره ان يذهب الى شكا برجاله و ينتظره فيها فامتثل وذهب اليها وجاءها غوردون بعد ذلك ولما آنس خالدا الى السكينة عينه مديرا على مديرية بحر الغزال وأعطاه لقب بك ففرح بهذا اللقب وعاد الى بلاده ولما وصل سليمان الى بحر الغزال نشر فى البلاد انه عين مديرا لها وأرسل يستدعى اليه ادريس بك الابتر وكان الزبير قد عينه وكيلا عنه فى بحر الغزال وهو دنقلاوى فأشار عليه أصحابه ان لا يلبى دعوة سليمان ثم خاف العاقبة فهرب الى الخرطوم ووشى بسليمان وقومه وصدقت وشايته فعين ادريس هذا مديرا لبحر الغزال بدلا من سليمان بن الزبير وأرسل اليها بالجنود فثارت الحرب بينهما ودارت الدائرة على سليمان أخيرا ووشى به أعداؤه الدناقلة وأوغر واصدر جسى باشا قائد الحملة عليه وأقنعوه انه لا يزال عاملا على الثورة فأمر بقتله وكان عبده رابح قد قدر له ذلك ونهاه عن التسليم وحضه على الابتعاد عن الحكومة والايغال فى البلاد بكلام يدل على شدة دهائه وحسن نظره فى العواقب قال انك انا وأت الحكومة بعد ان حذرتك العواقب فلا تتوقعن منها عفوا اذا صرت فى قبضتها اما أنا فسؤلى الانفصال عنكم بعد ان شاركتكم فى السراء والضراء هذه السنين الطوال ولكننى لا أسلم نفسى لجسى وان كان أوربيا لان الدناقلة محيطون به وهو مطواع لهم ثم ذكرهم بالعداوة القديمة بين الجعليين والدناقلة وأشار عليهم بالذهاب غربا وفتح بلدان جديدة أو رفع شكواهم الى الحضرة الخديوية والى غوردون باشا وطلب العفو منهما وقال انهم ان لم يقبلوا رأيه الاول ولا الثانى اضطر الى الانفصال عنهم رغما عنه فانفصل وجرى لهم بعد ما جرى اه وقد كان المرحوم اسمعيل باشا كثيرا ما يأمر عمال ادارة السودان بالاصلاح ولذلك فانهم بذلك أقاموا الابنية الجسيمة بكثير من مديرياتها وصنعوا المعامل والمخازن والمدارس سيما فى مديرية الخرطوم فكانت بها مدرسة عظيمة نبغ منها كثير من الاهلين وعدة معامل وفوريقات ارتقت بها الصنائع فى تلك الجهات ومصانع لاصلاح الاسلحة والادوات الحربية وعمل البارود وتوفرت فيها معدات النقل بحرا بالبواخر العشر النيلية التى بعثها اليها قبل ذلك ومن هذه الاصلاحات أصدار أمره الى الجنرال غردون سنة ١٢٩٤ (١٨٧٧) بانشاء دار صناعة نيلية فاهتم هذا لذلك كثيرا وجاءت من أحسن المبانى ثم بنيت فيها المعامل والورش المختلفة وبلغ عدد العمال بها ٤٥٠ نفرا خلاف الكتاب والملاحين والقبودانات وأمر فشيدوا بها ثمان بواخر و بذلك أصبح عدد البواخر ١٦ باخرة خلاف الصنادل والقياسات والسفائن وكانت لا تنقص عن ٣٠٠ مركب أكبرها يحمل ١٥٠٠ اردب وأصغرها يحمل ٥٠٠ اردب وعين مصطفى باشا الطوسيه لى أحد رجال البحرية ناظرا لها (١) ومازال غوردون باشا وهو والى

(١) أصل هذا الاميرال من طوسيه بولاية قسطمونى بالاناضول ألحقه والده بمدارس الحكومة ثم نقل الى المدرسة البحرية التى كانت بغليون عكا نمرة ٦ فتعلم علومها ثم رقى ضابطا فى سفن الدونانما ولما نال رتبة اليوزباشى جعل ياورا لعبة الامير محمد سعيد باشا منذ كان سرعسكرا على الدونانما ثم التحق بفرقاطة الشرقية سوارية حافظ خليل بك عندما أرسلت الى لندرة لتركيب آلاتها البخارية ولما عادت عين قبودانا للوابور نمرة ١١ بالنيل ولما تولى محمد سعيد باشا رقى الى رتبة صاغقول اغاسى (١٢٧٠ هـ) وجعل معاونا أولا بنظارة البحرية و بعد ثلاثة شهور رقى الى رتبة بكباشى وعين فى الخدمات الملكية ثم فى سنة ١٢٧٧ أحيل على المعاش وفى سنة ١٢٧٩ اعيد الى الخدمة فى أول

Digitized by Google

السودان يواظب على عمل الاكتشافات الجغرافية كرغوب الخديو ومن ذلك انه أرسل الكولونيل ميسن (Mason) (١٨٧٧ م) لرسم بحيرة البرت نيانزا فرسمها وطبعت فى مكتبة أركان حرب ثم التفت الى انفاذ مشروعات من مقتضاها ترتيب سير السفن فى النيل والوابورات فى البر حتى لا تكون شلالات السودان عقبة فى طريق الملاحة والأسفار وليسهل قطع دابر النخاسة والرقيق الذى لبث غوردون يراقبه ويوقع بتجاره حتى ضجر أهالى السودان لضياع أرباحهم من تلك التجارة الرابحة وأصبحوا يبغضون مأمورى الحكومة ويكرهونهم كراهة شديدة قال من له اطلاع باحوال تلك البلاد انه مع ماصرفه غردون من الاجتهاد لاستتباب السلم والامان لانتظام أحوال البلاد فانه لم يصل الى مارغب بالتمام بل كانت الاعمال الظاهرة تخالف ماتكن البواطن فى ذلك وقال جبرائيل بك حداد فى صحيفة ١٦ من تاريخ الحرب السودانية ان سياسة غوردون فى السودان لاتخلو من محل للانتقاد والملام ولا يسع المنصف أن ينكر أنها آلت من قبيل منع النخاسة الى ابتعاد قلوب الاهالى عن الحكومة المصرية ونفورهم منها ووجدهم عليها اه ولما كان شهر يوليو من سنة ١٨٧٩ م حضر غوردون الى مصر وكان المرحوم توفيق باشا ارتقى على الاريكة الخديوية فامر غوردون بالسفر الى الحبشة لتسوية مسئلة الفرضة التى كان النجاشى يطالب مصر بها فسوى الخلاف تسوية مؤقتة وبعد عودته قدم استعفاءه نهائيا وذهب الى بلاد الانكليز

الاكتشافات التى صنعها الضباط المصريون فى العهد المذكور — لما تم فتح دارفور (١٨٧٤ م) أصدر الخديو أمرا الى الجنرال استون رئيس عموم أركان الحرب بتجهيز ارسالية عظيمة لاكتشاف أراضيها وأراضى كردفان فعين الجنرال المذكور فرقتين من الضباط جعل الاولى تحت رئاسة الكولونيل كولستون (Colston) ومعه الصاغ أحمد افندى حمدى والملازمين عمر افندى رشدى (عمر بك مدير المنيا الآن) ومحمد افندى ماهر (ماهر باشا محافظ مصر الآن) ويوسف افندى حلمى وخليل افندى فوزى والدكتور بفوند (Pfund) العالم الطبيعى وسافرت من القاهرة فى دسمبر سنة ١٨٧٤ على النيل فوصلت الابيض فى ١٢ يونيه من سنة ١٨٧٥ وفى الطريق مرض الكولونيل كولستين مرضا شديدا فقاد الحملة الماجور بروت (Prout) ورقى الى رتبة كولونيل وبقيت هذه الفرقة فى الاكتشافات ورسم الخرائط مدة ثلاث سنوات فرسمت خريطة كردفان بالتفصيل وخريطة جبل مرة بدارفور والطرق الواصلة اليها وخريطة لجهات مكركة ونيام نيام وملحقاتها وجهات خط الاستواء ثم تعين الملازم محمد ماهر

حكم اسمعيل باشا وعين مديرا لقلم قضايا الترسانة ببولاق والفوريقات والعمليات وفى سنة ١٢٨٠ رقى لرتبة قائمقام وعين وكيلا للاصرية ثم فى سنة ١٢٨١ رقى لرتبة ميرالاى وجعل ناظر الضمان الدائرة السنية أى مصلحة الوابورات والمراكب التابعة لها وفى سنة ١٢٨٢ عين ناظرا للانجرارية بدلا من محمد مهدى بك ثم فى سنة ١٢٨٤ عين مفتش العموم وابورات القومبانية العزيزية وخلفه فى الانجرارية ابراهيم بك جركس ثم عين وكيلا للقومبانية المذكورة ثم نقل ثانية لنظارة الانجرارية ثم مأمورا لعمارات فوريقات أرمنت والمطاعنة وخلفه فى نظارة الانجرارية شعبان بك ثم نقل الى فوريقات مطاى وابوقرقاص وفى سنة ١٢٨٩ عين مديرا لاسنا وفى سنة ١٢٩٠ عين محافظ الدمياط ثم مفتشا بالمالية ثم مأمورا لعمارات الروضة وفى سنة ١٨٧٥ عين محافظ السواكن وفى سنة ١٨٧٦ جعل مدير التاكه وفى سنة ١٨٧٧ عين ناظر الدار صناعة الخرطوم وفيها رقى الى رتبة اللواء وفى سنة ١٨٧٩ أحيل على المعاش وبقى قليلا ثم توفى

افندى

Digitized by Google

افندى مديرا لبورو اللاوكه بخط الاستواء واستمر فيها الى سنة ١٨٧٨ ثم الحق باركان حرب الجيش وكانت هذه الفرقة أمرت بان تنضم الى الفرقة الثانية التى قامت معها من القاهرة فى يوم واحد تحت رياسة الميرالاى بوردى (Purdy) التى أمرت بالتجول بلاد دارفور وكان برافق الميرالاى المذكور القائممقام ميسن (Mason) والملازمين محمود افندى صبرى (محمود صبرى باشا مدير المنوفية الآن) ومحمد افندى سامى وسعيد افندى نصر وخليل افندى حلمى والدكتور محمد افندى أمين واثنى عشر نفرا بين صف ضباط وعساكر وتقدمت من دنقله جنوبا حتى وصلت الى تندلتى أى الفاشر ولها من الاعمال شئ كثير ولكن لم يظهر منها سوى خلاصة وجيزة نشرها ميسن بك وفى سنة ١٨٧٥ أرسل الخديو الموسيو متشل (Mitchell) الاميركانى مع الموسيو أميليانى (Emiliany) التليانى لاكتشاف المعادن التى بجهات الحمامات الكائنة بين مدينتى قنا والقصير وفى سنة ١٨٧٧ م بعث الخديو المستر برتن (Burton) لاكتشاف المعادن التى عدين فى خليج العقبة وقد رافق برتن فى سفرته الثانية كل من الموسيو مارى (Marie) المهندس والرسام لكاز (Lacaze) فجمع برتن مجموعة عظيمة تختص بعلم الآثار القديمة وارفقها بجملة صور ونقوش وأرسل غير ذلك من الرجال الى جهات أخرى فافادت أعمالهم هذه علماء الجغرافيا الا أن مصر التى صرفت عليهم الاموال الطائلة لم تستفد من أعمالهم ما يقوم برد تلك المصاريف

الامتيازات الخديوية واميال اسمعيل باشا السياسية والمعاهدات التى عقدها مع الدول

ـ لما زار السلطان عبد العزيز مصر فى أول ولاية اسمعيل باشا (١٢٧٩) ورأى هذا من مولاه ميلا الى جهته ورغبة فى ترقى شأن مصر سنحت له فكرة الحصول على امتيازات يعلو بها على من سبقه من ولاة مصر ويقرب بها من الاستقلال التام ويحصر ملك مصر فى ذريته من بعده وقد نجح فى كل ذلك كما سيأتى وأكبر شئ ساعده على نوال قصده مابذله من النقود الوافرة وقدمه من التحف والطرائف النفيسة لرجال الدولة وأصحاب الحل والعقد باوروبا وقد كانت الامتيازات المذكورة سببا لزيادة نفوذ الاجانب بمصر ومنافعهم بقدر ماعادت على الدولة صاحبة السيادة بالخسارة وضعف النفوذ اذ بذلك خرجت مصر من قبضتها خروجا لا يرجى زواله الا كما يرجو العليل الذى أشرف على الموت عود الصحة اليه وكان من هذه الامتيازات الفرمان الذى صدر فى ١٥ ذى الحجة سنة ١٢٨١ باضافة جهات مصوع وسواكن والتاكه الى حكومة مصر فى نظير مبلغ سبعة آلاف وخمسمائة كيسه تدفع سنويا الى الدولة العثمانية وقد كان الخديو يسعى أيضا كثيرا فى جعل الامبراطور نابوليون الثالث راضيا عنه ليساعده على ما يبتغى من الامتيازات وكان توسط فى ذلك أحد قواد نابوليون المدعو فلورى (Fleury) وكان مديرا لاصطبلاته ولذلك كانت الصلات متواردة من الخديو الى الجنرال المذكور بلا انقطاع ولما حدثت مسئلة الخلاف بين مصر وشركة فتح ترعة السويس رأى الخديو أن يجعل نابوليون حكما بينه وبين الشركة طمأنينة انه ينصف حكومة مصر فخاب ظنه كما سبق ومن الطرق التى استعملها الخديو لنوال قصده أيضا انه زاد من تلقاء نفسه مقدار الخراج الذى تدفعه مصر سنويا وفى تلك المدة كان مساعدو الخديو الذين غمرهم بانعاماته يسعون له فى الاستانة وأوروبا لينال قصده وقد نجحوا فى المهم من ذلك حيث صدر له فرمان فى ١٢

محرم سنة ١٢٨٣ بحصر حكومة مصر في ذريته بعد ان كانت تقلد لاكبر أولاد محمد علي باشا وآخر في ١٢ صفر سنة ١٢٨٣ بخصوص توارث الحكومة الخديوية (١) فتذمر لهذا الامر الامير عبد الحليم باشا ابن محمد علي الكبير ومصطفى فاضل باشا أخو الخديو ووقعت المنافسة بين الكل وذهب عبد الحليم باشا وفاضل باشا الى استامبول للاحتجاج على ضياع حقوقهما الثابتة فلم يفلحا واشترى الخديو جميع أملاكهما الموجودة في مصر ليمنع بذلك علاقتهما من القطر وسافرت عائلاتهما الى دار الخلافة للتوطن بها ثم ان مصطفى فاضل باشا اجتمع عن فر من شبان العثمانيين الى أوربا لم ينجح في مطالبه وأخذ يطعن في سياسة الحكومة العثمانية وفي أعمال عالي باشا وفؤاد باشا وكانا السبب في حرمانه من حقوقه المصرية وكان هو وحزبه يطبعون في لوندره وباريس نشريات تهم ضد الدولة ثم ان مصطفى باشا عاد الى القسطنطينية وجعل من أعضاء المجالس العالية (١٥ ربيع الآخر سنة ١٢٨٦) بعد ان عفا السلطان عنه ثم جعل وزير العدلية فصار بذلك من الوكلاء وفي تلك الاثناء كان المرحوم اسمعيل باشا سعى جهده في نوال لقب أسمى من لقبه الذي كان لا يتعدى اذ ذاك غير والى مصر اذ لا بد له عما ناله من الامتياز من عنوان أرقى يعرف به مشعرا بالاستقلال والسلطان ومما أطلق يد المرحوم اسمعيل باشا في حكومة مصر تماما الفرمان الذي سعى جهده في نواله وهو الصادر له في ٥

(١) وهذه صورته بعد الديباجة أما بعد فانه لاجل كل تأمين لتوارث ولاية مصر الجديدة الذي تعينت أصوله بفرمان آخر منا هذه المرة يلزم أن تكون كيفية تشكيل الوصاية اللازمة لادارة أمور الولاية متى انحلت وكان الولد الوارث صغيرا وصبيا على الوجه الآتي وهو انه اذا انحلت الولاية وكان الوارث الذي هو أكبر الاولاد الذكور غير بالغ سن الثماني عشرة سنة فلا يؤخر اصدار فرمان احالة الولاية له انما اذا كان لحين بلوغه سن الثمانية عشر أقام له الوالي السالف من طرفه لاجل ادارة أمور الولاية وصيا ورتب له كيفية وصاية وحررت مختومة وصيته منه ومن اثنين من الامراء المصرية المستخدمين شهادة وظهر اجراؤها فذلك الوصي وأعضاء الوصاية يباشرون ادارة أمور الولاية ويعرضون اعتابنا العالي بيان الكيفية ليحصل الابقاء والتصديق على ذلك بفرمان عال من طرف دولتي العلية وإذا انحلت الولاية وكان الوالي ما أقام هكذا وصيا ولا رتب أعضاء الوصاية فيقتضي اذ تركيب أعضاء الوصاية من الذوات الموجودين في المأموريات التي هي الداخلية والجهادية والمالية والخارجية ومجلس الاحكام المصرية وسردارية العساكر المصرية وتفتيش الاقاليم وحالا ينتخبون منهم وصيا على الوجه الآتي وهو على أن الذوات الموجودين في المأموريات المذكورة يتداولون متذاكرين فيما بينهم بانتخاب الوصي فالذي منهم يقع عليه الانتخاب باتفاق الجميع أو باتفاق أكثر الآراء يقام وصيا لكن اذا كان نصف المأمورين المذكورين بدأ او النصف الآخر بدغيره فحينئذ يقام من الاثنين المختلف عليهما وصيا من كانت مأموريته أهم ومقدمة على مأمورية الآخر ذكرا في ترتيب المأموريات المبتدا بها من الداخلية كما ذكر آنفا وحالا الوصي مع الذوات الباقين اعضاء الوصاية يباشرون ادارة أمور الولاية ويعرضون عن ترتيب الوصي وتركيب أعضاء الوصاية مضبطة لطرف سلطنتي السنية لكي يصير التصديق بفرماني الشريف ثم ان الوصي وأعضاء الوصاية المرتبين من طرف الوالي فبالطبع لا يجوز تبديلهم ولا تغييرهم قبل ختام مدة الوصاية كما أنه لا يجوز في مدة الوصاية تبديل وتغيير الوصي المنتخب ولا الاعضاء انما اذا توفى أحد منهم بتلك المدة فباتفاق وانتخاب الباقين يرتب غيره واحدا من المأمورين المصرية وان توفى أيضا بتلك المدة الوصي الموجود على الوجه المحرر ينتخب واحد غيره من أعضاء الوصاية وعوضا عن ذلك العضو يصير أيضا انتخاب واحد من المأمورين المصرية وينضم الى الاعضاء والوارث الصبي المذكور بعد بلوغه سن الثمانية عشر يكون قد صار رشيدا وفاعلا مختارا فيباشر حينئذ بنفسه ادارة أمور الولاية كسلفه وعلى هذا صار القرار وصدرت أيضا ارادتي الملوكية في هذا الخصوص سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف اهـ منقول بحروفه من منتخبات الجوائب صحيفة ٩٣ جزء خامس

Digitized by Google

صفر سنة ١٢٨٤ ومضمونه أن يكون لخديو مصر جميع الادارة الداخلية فيكون له النظر فى أمر اصلاحها بما يوافق حالتها بلا تقييد بمراجعة الدولة الا فى أحوال مخصوصة ثم صدر له فرمان فى ربيع أول سنة ١٢٨٤ (٨ يوليو ١٨٦٧ م) أنعم عليه فيه السلطان بلقب خديو ولم ينل ذلك أحد قبله من ولاة مصر قال المرحوم محمود فهمى باشا فى البحر الزاخر فى تاريخ العالم وأخبار الاوائل والاواخر فى صحيفة ١٩٩ من الجزء الاول ثم طلب اسمعيل باشا من الباب العالى أن يكون لمصر سفراء ونواب فى جميع دواوين الممالك الاجنبية فرأى الباب العالى أن مقصده الاصلى هو الاستقلال من الممالك التركية العثمانية فرفض طلبه هذا ولم يقبله فأوغر اسمعيل باشا فى صدره الغضب وهدد ديوان الاستانة بأخذ عساكره من جزيرة كريد أو يستحوذ على تلك الجزيرة ان لم تمنح طلباته اه وقد شاع بين بعض رجال العسكرية المصرية الذين كانوا فى حملة كريد المذكورة انه لما حصل هذا الخلاف أوعز الخديو سرا الى شاهين باشا الذى كان قائد العساكر المصرية فى كريد أن يعمل فيها على ترغيب الاهالى الى الانضمام لمصر فأخذ شاهين باشا يزور رجال الاكليروس فى المعابد وينثر عليهم الذهب والعطايا المصرية سرا وغير ذلك من الاعمال ولما اطلع رجال الدولة هنالك على ما يفعله شاهين باشا شددت على الخديو بتغيير ذلك القائد فاستدعاه الى مصر مضطرا ونصب مكانه ناظر الجهادية اسمعيل سليم باشا المشهور بالفريق كما تقدم ثم بعد انتهاء ثورة كريد وعودة الجيوش لمصر اشتدت الدسائس الاجنبية وزاد الخلاف بين الخديو والباب العالى حتى أوشكت الحرب أن تشتعل بينهما وانتشرت الاخبار بعزم الدولة على ارسال أساطيلها وجيوشها الى السواحل المصرية وشرع الخديو فى اجراء الاستعدادات الحربية فأنشأ على السواحل من اسكندرية الى بورسعيد عدة طوابى وقلاع ورمم القديم منها وابتاع نحو مائتى مدفع ضخمة من معمل ارمسترنغ وسلح بها تلك القلاع واستخدم عدة من الضباط الامريكانيين لقيادة الجيش المصرى عند اللزوم وابتاع أيضا نحو مائتى مدفع من معمل كروب كل ذلك كان يأتى مصر سرا وعين بعض الضباط لتعيين نقط حصون تقام على ساحل خليج السويس حتى ان الحكومة المصرية اتفقت مبدئيا مع بعض الاجانب على انشاء الحصون المذكورة كل هذا حصل بينما كان الخديو يستعد للاحتفال بفتح القنال وقال صاحب صفوة الاعتبار فى صحيفة ١١١ من الجزء الرابع ما ملخصه وقد شدد اسمعيل باشا الالتحام بفرانسا وانكلترة بما جعله آخذا طريق الاستقلال بالمرة عن الدولة العثمانية ولما فتح خليج السويس ودعا له ملوك أوروبا من غير توسط الدولة العثمانية مما زاد الشبهة فى دعوى الاستقلال تحقق من زائريه ان المقصد لا يتم له فتغيرت سيرته من وقتئذ وعاد لمصافاة الدولة العثمانية اه ولما تحققت الدولة ان سير المرحوم اسمعيل باشا مخالف لما كانت ترجوه منه وانها انخدعت لما منحته الامتيازات السابقة وان سعيه للحصول عليها ليس الا وسيلة يتمكن بها من خلع سلطتها أرادت معالجة هذا الامر بما يمكن من الحكمة والسداد لانه لم يعد فى امكانها سلخ الامتيازات التى أعطتها لاسمعيل باشا سيما وان أوربا قد اعترفت بها وصادقت عليها فأصدرت له فرمانا فى ٢٤ شعبان سنة ١٢٨٦ (٣ نوفمبر سنة ١٨٦٩) جمعت فيه مآل الفرمانات السابقة وحتمت عليه تخفيض الجيش المصرى الى ٣٠,٠٠٠ عسكرى وأن يبطل التجهيزات الحربية والطوابى والاستحكامات ويكف عن مشترى الاسلحة ويلغى الشروط التى عقدها مع معامل انكلترة وأمريكا ويهمل صناعة المدرعات الحربية

التى كان أوصى عليها دورصناعات أوروبا (وابتاعت الدولة بالفعل الاربع مدرعات التى كانت صنعت بطولون من أعمال فرانسا وتريسته من أعمال النمسا على ذمة مصر) وان لا يتداخل بعد فى الامور السياسية الخارجية ولا يقترض أموالا من بنوك أوروبا وان يعرض ميزانية مصر وفائة السنوية على الباب العالى وغير ذلك فتوقف الخديو فى أول الامر عن قبول هذا الفرمان فألحت عليه الدول المتحابة مع الدولة العثمانية بقبوله وأتى الفرمان يحمله أحد عظماء الدولة وهو سرور افندى وقرئ امام الخديو بكيفية غريبة لم يحضرها أحد من ذوات وأعيان الحكومة كالعادة وأطلقت المدافع ولم يعلم أحد أسبابها الا بعد مدة (٩ نوفمبر ١٨٦٩) وكان الخديو يسعى بكل الطرق فى التخلص من القيود والشروط التى ذكرت فى الفرمان المذكور حتى تمكن بواسطة مساعديه من الحصول على فرمان آخر فى ٧ رجب سنة ١٢٨٩ يبطل ما كان من التقييدات المذكورة ذكر فيه ان تلك التقييدات أورثت بعض صعوبات ومشكلات فى اكمال وسائل عمارية مصر وان توقيف حركة تنظيمات وعمارية مصر بتنفيذ المساعدات والامتيازات الممنوحة لها مفسد ما لا يوافق أساس المقاصد الملوكية فلذا تعلقت الارادة السنية السلطانية بابقاء المساعدات والامتيازات المذكورة فى فرمان ٥ صفر سنة ١٢٨٤ كما كانت وفى ٢٢ رجب سنة ١٢٨٩ نال فرمانا آخر أذن له فيه باستقراض مبالغ من الخارج وذكر فيه انه اذا تراءى فيما بعد لزوم استقراض من الخارج فى أى وقت ما لعمارية الولاية المصرية كان له ذلك بشرط أن يكون القرض على قدر اللزوم وباسم الحكومة المصرية من غير استئذان من الدولة وفى غرة جمادى الاولى من سنة ١٢٩٠ هـ (١٨٧٤) نال فرمانا شاملا ومؤكدا لسائر الفرمانات التى أعطيت سابقا الى متولى الخديوية المصرية ومنح فيه امتيازات أخرى جديدة (١) ولما كانت غاية المرحوم اسمعيل باشا من نوال كل هذه الامتيازات ايجاد دولة مصرية قوية واسعة الاطراف

(١) وهذه صورته بعد الديباجة .... فمن المعلوم لديكم أنكم استدعيتم منا جمع الخطوط الهمايونية والاوامر الشريفة السلطانية التى صدرت من منذ توجيه الخديوية الجليلة بطريق التوارث الى عهدة والى مصر الاسبق محمد على باشا المرحوم الى يومنا هذا سواء كانت بخصوص تعديل توارث الخديوية المصرية أو بخصوص اعطاء بعض امتيازات حسبما استوجبها موضع الخديوية وأمزجة الاهالى وطبائعها الخصوصية وجعلها فرمانا واحدا مع التعديلات اللازمة فى أحكامها والتفصيلات المقتضية فى عباراتها بشرط أن يكون هذا الفرمان الجديد قائما مقام الفرمانات السابقة وأن تكون الاحكام المندرجة فيها معمولا بها ومرعية الاجراء على الدوام والاستمرار فقد قورن استدعاؤكم هذا بمساعدتنا الجليلة الملوكية وها نحن نذكر ونبين لكم أحكامها على الوجه الآتى

لما تحقق لدينا أن تعديل أصول توارث الخديوية المصرية التى صار تعيينها بالفرمان العالى الصادر فى اليوم الثانى من شهر ربيع الاول من شهور سنة ١٢٥٧ الموشح أعلاه بالخط الهمايونى وتبديلها باصول حصر الوراثة الخديوية فى أكبر أولاد خديو مصر بطريق سلسلة النسب المستقيم بان يصير تخصيص مسند الخديوية الجليل وتوجيهه الى أكبر أولاد الخديو المذكور وبعده الى أكبر أولاد هذا الاكبر المذكور وهكذا على النسب المستقيم المذكور على الدوام يكون مستلزما لحسن ادارة الخديوية المصرية وجالبا لاستكمال سعادة أحوال أهاليها وسكانها هذا مع ما حصل لدينا من استحسان مساعيكم الجميلة المصروفة فى استحصال معمورية الاقطار المصرية المهمة الجسيمة ورفاهية أهاليها وحصول وثوقنا بكم واعتمادنا الكامل عليكم ولاجل أن يكون دليلا باهرا على ذلك قد أجرينا تعديل توارث الخديوية المصرية وتعيين وصايتها على الطريق الآتى بيانها وهى أن خديوية مصر الجليلة وملحقاتها وجهاتها المعلومة الجارية ادارتها بمعرفتها مع ما صار الحاقها بها أخيرا من قائمقاميتى سواكن ومصوع

مستقلة سيما وان نوال ذلك ليس بالامر المستحيل عليه بما له من الانصار الذين يسعون في مقاصده آناء الليل وأطراف النهار بدار الخلافة في مقابلة ما ينهال عليهم من الاموال الوافرة وقد نال بذلك جل ما يبتغي وهو الاستقلال الداخلي وحصر الوراثة في أكبر أولاده أما أوربا فلتغريرها بالحكومات

وملحقاتهما يصير توجيهها بعدكم على الطريق المار ذكرها الى أكبر أولادكم الذكور وبعده الى أكبر أولاد من يكون خديويا على الاقطار المصرية من أولادكم واذا انحلت الخديوية المصرية بأن لا يكون للخديو ولد ذكر يصير توجيهها الى أكبر اخوته الذكور واذا لم يوجد له أخ بقيد الحياة فالى أكبر أولاد الاخ الاكبر وهكذا تتخذ هذه الاصول قانونا مستمرا وقاعدة مرعية أبدية في توارث الخديوية المصرية ولا يصير انتقال الوراثة الخديوية الى الاولاد الذكور المتولدة من أولادكم الاناث أصلا

ولاجل تأمين أصول توارث الخديوية المصرية سنذكر صورة تشكيل الوصاية المقتضية في ادارة أمور الخديوية فيما اذا انحلت الخديوية وكان الوارث الذي هو أكبر أولادكم الذكور صغيرا وصبيا وهي ان الخديوية المصرية اذا انحلت وكان أكبر أولادكم الذكور أعني الوارث صغيرا وصبيا بان يكون عمره أقل من ثماني عشرة سنة ولو انه يصير خديويا بالفعل حسب استحقاق الوراثة في الحال بصدور فرمان من طرف السلطنة السنية بتوليته على الخديوية لكن اذا كان الخديو السالف عين ونصب وصيا ورتب هيئة وصاية لاجل ادارة أمور الخديوية لحين بلوغ الخديو اللاحق الصبي الى سن الثماني عشرة سنة وكتب منه وصاية بذلك وختم عليه هو وختم أيضا اثنان من الامراء المصرية المأمورين باحدى المأموريات المصرية على طريق الاشهاد وأجرى الوصاية هكذا فالوصي مع هيئة الوصاية المذكورة يأخذ زمام الادارة في الحال وبعد ذلك تعرض الكيفية الى الباب العالي ويصير التصديق على ذلك الوصي وهيئة الوصاية من طرف الدولة العلية بفرمان عال ويبقى الوصي وهيئة الوصاية على ما هم عليه لحين البلوغ وأما اذا انحلت الخديوية ولم يعين الخديو السالف وصيا ولا رتب هيئة الوصاية على الوجه المذكور تتشكل هيئة الوصاية من الذوات المأمورين على الداخلية والجهادية والمالية والخارجية ومجلس الاحكام المصرية وسردارية العساكر المصرية وتفتيش الاقاليم ويصير انتخاب وصي في الحال من هؤلاء المأمورين على الوجه الآتي ذكره وهو انه في تلك الساعة تصير المذاكرة والمداولة ما بين هؤلاء الذوات في حق انتخاب وصي منهم فاذا حصل اتفاقهم أو اتفاق أكثرية آرائهم على تسمية وجعل ذات منهم وصيا تعين ذلك الذات وصيا على الخديوية واذا اختلفت الآراء بان رغب نصفهم في تعيين ذات والنصف الآخر في تعيين ذات آخر يكون إجراء وصاية الذات المأمور على المأمورية المهمة والمقدمة في الذكر من تلك المأموريات أعني المأمور على المأمورية المقدم ذكرها على الترتيب المحرر آنفا من الداخلية الى آخره وتتشكل هيئة الوصاية من الذوات الباقية بعده ويباشرون ادارة الامور الخديوية مع الوصي وتعرض الكيفية بضبطة من طرفهم الى طرف سلطنتنا السنية ويصير التصديق عليها بالفرمان الشريف وكما انه لا يجوز تبديل الوصي وتغيير هيئة الوصاية قبل ختام مدتها في الصورة الاولى أعني فيما اذا كان تعيين الوصي وترتيب الوصاية وتركيب أعضائها بمعرفة الخديو السالف فكذلك في الصورة الثانية أعني فيما اذا كان انتخاب الوصي بمعرفة المأمورين المذكورين لا يجوز تبديل الوصي ولا تغيير هيئة الوصاية ولا أعضائها في تلك المدة واذا توفى أحد من أعضاء هيئة الوصاية في ظرف تلك المدة يصير انتخاب واحد من المأمورين المصرية بمعرفة الباقين وتعيينه بدل المتوفى واذا توفى الوصي في تلك المدة يصير انتخاب واحد من أعضاء هيئة الوصاية بمعرفتهم على الوجه السابق وجعله وصيا وانتخاب واحد من المأمورين المصرية والحاقه بأعضاء هيئة الوصاية بدل الذي نصب وصيا وبمجرد بلوغ الخديو الصبي الى سن الثماني عشرة سنة صار رشيدا وفاعلا مختارا فيباشر هو بنفسه ادارة أمور الخديوية المصرية مثل سلفه وهذا حسب ما تقرر لدينا واقتضته ارادتنا الملوكية ولما كان تزايد عمارية الخديوية المصرية وسعادة حالها وتأمين رفاهية الاهالي والسكان وراحتهم من أهم المواد الملتزمة المرغوبة لدينا وادارة المملكة الملكية والمالية ومنافعها المادية وغيرها المتوقف عليها تأسيس واستكمال وسائل الرفاهية وأسبابها عائدة على الحكومة المصرية فنذكر بيان كيفية تعديل الامتيازات وتوضيحها بشرط بقاء كافة الامتيازات المعطاة قديما وحديثا من طرف الدولة العلية الى الحكومة المصرية واستمرار جريانها خلفا عن سلف وتلك الكيفية هي انه لما كان ادارة المملكة بكل الصور والحالات سواء

Digitized by Google

الاسلامية وسعيها فى تفريق كلمتها وتشتيت شملها ولم يتعذر عليه أصلا نوال تصديقها على ذلك لانه فى مصلحتها مكبرا نفوذها وبهذه الوسائل تحصل على فرمان بتاريخ جمادى الثانية من سنة ١٢٩٢ باضافة مدينة زيلع وملحقاتها على الاملاك المصرية فى مقابلة دفع ١٥,٠٠٠ ليرة عثمانية سنويا الى الخزينة السلطانية وكانت أضيفت اليها قبل ذلك مصوع وسواكن كما سبق وبذلك أصبح كل ما تدفعه مصر للدولة سنويا مبلغ ٧٥٠,٠٠٠ ليرة عثمانية بعد أن كان ٤٨٠٠٠٠ ليرة ثم لما أخذ بمد فتوحاته بافريقية الوسطى اجتهد فى امالة دولة الانكليز اليه لتساعده فى سياسته الاستعمارية فاظهرت له الود وحسن النية ولكن لما كانت دول أوروبا لا تساعد مملكة شرقية الا وتستفيد منها فائدة تربو بكثير على تلك المساعدة عقدت معه فى ١٨ مايو سنة ١٨٧٣ اتفاقية لتسهيل مراسلات البريد ما بين البلاد المصرية والانجليزية ومستعمراتها وكان النائب عن حكومة الانجليز الكولونيل أدورد ستانتون (E. Stanton) وعن الخديو المرحوم شريف باشا ناظر

كانت ادارتها الملكية أو المالية أو كافة منافعها المادية وغيرها هى من المواد العائدة على الحكومة المصرية والمتعلقة بها ومن المعلوم ان أمر ادارة أى مملكة كانت وحسن نظامها وتزايد معموريتها وثروة أهاليها وسكانها لا يتيسر الا بتوفيق معاملاتها وتطبيق إجراآتها العمومية بالاحوال والمواقع وأمزجة الاهالى وطبائعها فقد أعطيناكم الرخصة الكاملة فى اعمال قوانين ونظامات داخلية على حسب لزوم المملكة وكذا لاجل تسهيل مشيئة وتسوية كافة المعاملات سواء كانت من طرف الحكومة أو من طرف الاهالى مع الاجانب وترقى وتوسيع الصنائع والحرف وأمور التجارة وأمور الضبطية مع الاجانب قد أعطيناكم الرخصة الكاملة فى عقد وتجديد المقاولات مع مأمورى الدول الاجنبية فى حق الكمرك وأمور التجارة وكافة المعاملات الجارية مع الاجانب فى أمور المملكة الداخلية وغيرها بصورة لا تستلزم اخلال معاهدات الدولة العلية البولتيقية وكذا لكون خديو مصر حائز التصرفات الكاملة فى الامور المالية قد صار اعطاء المأذونية التامة له فى عقد استقراض من الخارج بلا استئذان من الدولة العلية فى أى وقت يرى فيه لزوما للاستقراض بشرط أن يكون باسم الحكومة المصرية وكذا لكون أمر المحافظة وصيانة المملكة الذى هو الامر المهم والمعتنى به زيادة عن كل شئ من أقدم الوظائف المختصة بخديو مصر فقد أعطيناه الرخصة الكاملة فى تدارك كافة أسباب المحافظة وتأسيسها وتنظيمها بنسبة الحاجات الزمن والموقع وكذا فى تكثير أو تقليل مقدار العساكر المصرية الشاهانية بلا تحديد على حسب الايجاب واللزوم وكذا أبقينا لخديو مصر الامتياز القديم فى حق اعطاء رتبة ميرالاى من الرتب العسكرية واعطاء رتبة ثانية من الرتب الديوانية بشرط ان المسكوكات الجارى ضربها بمصر تكون باسمنا الملوكى وأن تكون اعلام وصناجق العساكر البرية والبحرية الموجودة فى الخطة المصرية كاعلام وصناجق سائر عساكرنا الشاهانية بلا فرق وبشرط عدم انشاء سفن زرخ أى مدرعة بالحديد فقط بدون استئذان لا غيرها من السفن الحربية فانها جائز انشاؤها بلا استئذان ولاجل اعلان المواد المشروحة أعلاه وتأبيدها أصدرنا لكم أمرنا هذا الجليل القدر من ديواننا الهمايونى بمقتضى ارادتنا الملوكية وصار توشيح أعلاه بخطنا الهمايونى واعطاؤه لكم متمما ومكملا ومعدلا ومصرحا للخطوط الهمايونية والاوامر الشريفة الصادرة لحد هذا التاريخ سواء كان فى تأسيس وترتيب وراثة الحكومة المصرية أو فى تشكيل هيئة الوصاية أو فى ادارة الاوامر الملكية والعسكرية والمالية والمنافع المادية والمواد السائرة بشرط أن تكون الاحكام المندرجة بهذا الفرمان الجديد نافذة وباقية ومرعية الاجراء على ممر الزمان وقائمة مقام أحكام الفرمانات السالفة على ما اقتضته ارادتنا الملوكية فيلزم أن تعلموا قدر لطف عنايتنا الملوكية وأداء شكرها بصرف جل هممكم فى حسن ادارة أمور الخطة المصرية واستكمال أسباب وقاية امنية الاهالى المتوطنة بها واستحصال راحتهم على حسب ما جبلتم عليه من الشيم المرغوبة والغيرة والاستقامة وما اكتسبتموه من الوقوف والمعلومات فى أحوال تلك الحوالى والاقطار وان تراعوا اجراء الشروط المقررة فى هذا الفرمان الجديد وأداء المائة وخمسين ألف كيسة التى هى ويركو مصر المقطوع سنويا بأوقاتها وزمانها الى خزينتنا الجليلة الشاهانية على الترتيب والقاعدة المرعية فى ذلك تحريرا فى سنة ١٢٩٠ اهـ من كنز الرغائب صحيفة ٢٠٣

الحقانية

العثمانية والخارجية وقد اشتملت هذه الاتفاقية على ثلاثة فصول بها ٢٨ بنداً ذكر فى الفصل الاول منها البنود الخاصة بالمراسلات الخارجية وفى الفصل الثانى البنود الخاصة بمراسلات البوسطة الانكليزية بين الاسكندرية والاستانة وفى الفصل الثالث البنود الخاصة بمرور كيا اس البوسطة الانكليزية بالقطر المصرى ولما انعقد مؤتمر برن سنة ١٨٧٤ تقرر فيه ادخال مصر ضمن دائرة الاتحاد البريدى العام وقد ساعد ذلك الحكومة المصرية على الغاء مكاتب البوسطات الاجنبية من بلادها (١٨٧٥) بموجب اتفاقيات خصوصية عقدتها مع حكومات أوربا ولم يبق من هذه المكاتب العديدة سوى المكتب الفرنسوى بالاسكندرية وبورسعيد وألغت الحكومة المصرية أيضا بوسطتها من الاستانة وكانت لها هنالك بوسطة منذ سنة ١٨٦٩ ومن المنافع التى عادت على انجلترة أيضا فى مقابلة ودادها المذكور لمصر ان ابتاعت من الخديو سنة ١٨٧٥ (١٢٩٢) ما كان لحكومته المصرية من أسهم قنال السويس وقدرها ١٧٦٫٦٠٢ بسعر السهم الواحد ٥٦٢ فرنكا و٦٢ سنتيما فيكون ثمن الكل ٤١٢٫٧٩٧٠٠٠ فرنكا و ٨٤ سنتيما أى أربعة ملايين ليرة انكليزية وكانت ارباح هذه الاسهم مرهونة لشركة القنال لمدة خمس عشرة سنة وظلت الحكومة المصرية تدفع فوائدها للحكومة الانكليزية من يومئذ الى غاية سنة ١٨٩٤ م ولما انتشر خبر هذا البيع امتعضت فرنسا وأظهرت جرائدها تغيظا وحنقا لان ذلك يزيد نفوذ انكلترة بمصر ولو وضعت هذه السهام فى المزايدة العلنية لساوت أضعاف أضعاف ذلك ثم لما عارضه اللورد دربى بلائحته الشديدة اللهجة التى بعثها اليه بخصوص مسئلة سواحل نهر الجب بزنجبار واضطر ان يرجع الحملة التى كان بعثها الى تلك الاطراف كما مر سعى فى التقرب من دولة الروسيا فزاد علاقاته السياسية معها بواسطة قنصلها الجنرال فى مصر الموسيو دولكس وصادف ذلك فى الزمن الذى كانت دولة الروس قائمة فيه تطرق أبواب المسئلة الشرقية بجمعيات الصقالبة التى روجت بضاعتهم فى أكثر ولايات الدولة العلية بشبه جزيرة البلقان وكان الخديو كلما وجد بالاستانة يزور سفير الروسيا هنالك وبقى سر تلك الزيارات مكتوما حتى ان بعضهم اتهم الخديو بتهم لا نخالها صحيحة وقد ورد فى رسالة طبعت باللغة الفرنسوية والتركية باستانبول اسمها مسؤليت تضمنت ما فعلته قناصل الروسيا وعمالها من المكر والدسائس فى الممالك العثمانية لتحريض الرعية على العصيان على الدولة وكانت هذه الرسائل تحوى كثيرا من المحررات السرية التى تبودلت بين بعض قناصل الروسيا وغيرهم أثناء الحرب وقبلها وبها أيضا اثنان وعشرون تلغرافا سرا محررة بالارقام صادرة من قناصل الروسيا بالاستانة واشقودره وراغوزة وموستار و بوسنه سراى و بلغراد وسلانيك وفيوم الى جمعية الصقالبة فى ويانة وعدة رسائل أخرى تلغرافية من مركز الجمعية الاصلية فى بطرسبورغ الى جمعية ويانة بما آل المذاكرات التى جرت فى الجمعية الاصلية وفروعها و بيان وارداتها ومصاريفها وجواب أمير الجبل الاسود الى أحد أمراء الروسيا وصورة مكتوب من الموسيو اغناتيف سفير الروسيا بالاستانة الى الخديو اسمعيل باشا (1) يحرضه

(1) ترجمة المكتوب المرسل من الموسيو اغناتيف بك أوغلى بتاريخ ١٨ مايو سنة ١٨٧٢ الى الخديو أعرض شكرى من أجل التحريرات التى تعطفتم فخامتكم بارسالها من القاهرة بتاريخ ٨ مايو سنة ١٨٧١ وأبادر باخطاركم ان الملاقاة التى وقعت بين ذاتكم الفخيمة و بين قنصل حضرة الامبراطور المقيم بمصر بلغت

Digitized by Google

فيه على معاداة الدولة والانضمام سياسيا الى امارات البلقان حتى ينال مرغوبه وغير ذلك فان صدقت هذه الاقوال ولا نظنها صادقة أصلا كانت هذه من أكبر المضار التى قصدبها المرحوم اسمعيل باشا الاستقلال عن الدولة العثمانية مع ان المعروف عنه وسمعه جمع من الاعيان انه كان يحب ان يرى الدولة قوية عزيزة الجانب وان كان هو يسعى فى الاستقلال خفية سيما وان دولة الروسيا لا يمكنها مساعدته فى أمر الاستعمار بافريقية امابقية ماورد فى الرسالة المذكورة فنظن انه موضوع والواضع له جمعية الصقالبة نفسها لقصد ارهاب الدولة وتشويش أفكار رجالها وبث روح العصيان بين شعوبها ومما يثبت محبة اسمعيل باشا للدولة وان النفور كان بينه وبين السلطان عبد العزيز وبعض رجال الدولة فقط مبادرته بارسال الجيوش لمساعدة الدولة فى تسكين الثورات التى ظهرت بشبه جزيرة البلقان وذلك بعد ان جلس السلطان مراد على كرسى السلطنة وأعلن ذلك رسميا (١) وان كان يروى عن بعض رجال الدولة اذ ذاك انه قال ان الخديو اسمعيل وان كان أظهر الولاء بسرعة ارسال الجيوش لمساعدة الدولة الا انه يساعد سرا الولايات الثائرة بالنقود مرضاة للروسيا وهو قول لم يتحقق أصلا ويكفى لدحضه استمرار ارسال الجنود والمعدات الحربية من مصر الى جيشها هناك هذا وفى خلال الحرب العثمانية الروسية انتهزت انجلترة الفرصة وعقدت معاهدة مع اسمعيل باشا لمنع ابطال تجارة الرقيق بدون وساطة الباب العالى وتعين لوضع شروطها من قبل الحكومة الخديوية المرحوم شريف باشا ومن قبل دولة بريتانيا الموسيو فيفيان (Vivian) وصار التوقيع عليها (٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ م) وقد كلفت هذه المعاهدة مصر أموالا طائلة وأوقعتها

محسوبكم وان المعلومات التى عرضتها بتاريخ ١٥ نيسان أعطيتم لها معنى ضد ملاحظة العاجز بالمرة فهذا استوجب تأسفى الوافر فاذا أمكن تذكر معلوماتى المذكورة فى الوقت الذى ذكرتها فيه بحضور فخامتكم يتضح مقصد الحقير وهو ان المصالح الشرقية قد ابتدأت تدور على محورها اللائق وعليه أعرض تبريكى لان أوروبا كانت فى غاية التعب من المحاربة الاخيرة والافكار العمومية فيها مائلة الى المسالمة والمصالحة فلهذا كان كل من تجارى على اخلال الصلح والمسالمة يجد عموم أوروبا عليه ففى هذه الحالة اذا وجدت الدولة العلية من كل جهة قوة تمكنها فمن غير سبب معقول وحجة اذا قامت بجنودها على مصر فهل لا يكون فى ذلك خير ومنفعة لفخامتكم واذا وقعت حركة مثل هذه فى حكومة فخامتكم وأشيع بين العالم قيام الدولة العثمانية باطماعها عليكم فلا تكون محاربتها لكم الا مدة بعض أيام فقط وهل تظنون ان الدول الذين يعتقدون أننا نسعى فى ايجاد اختلالات فى الشرق لا يتداخلون فى هذه الحالة وعند ذلك نطلب مداخلتنا التى لا تصادف موانع بالكلية ومع ذكر وبيان ذلك أبادر بتعريفكم بصراحة أفكار حكومة الامبراطور فى هذا الباب هو انه لاجل الوصول الى اجراء تصوراتنا يلزمكم البقاء مدة أخرى فى حال سكون وان تتسلحوا وتتداركوا المعدات اللازمة لمحاربة طويلة وتعقدوا المعاهدات الدفاعية والهجومية مع اليونان والصرب والملكتين واعلموا أن معاونتنا لكم فى هذا الباب لا شبهة فيها ودوموا على منازعة ومعارضة حكومتكم المتبوعة رويدا رويدا وفى حال اصرار الباب العالى على الادعاء فى المناسبات التى تقع بينه وبين مصر يحصل نوال الموفقية ولما يرى وزراء السلطان ثباتكم تزداد حدتهم وغضبهم ويظهر بالطبع من ذلك حادث وعند ذلك تفهم مصر وتصدق صداقة الروسيا فصداقتنا ليست كصداقة فرانسا الان فرانسا ما حببت لحدكم محاربة الدولة العثمانية اكتفت بمساعدتها معنويا فقط وتركته فى مخالب انتقام العثمانيين اه صحيفة ١٢١ من مسؤليت

(١) (صورة تلغراف الباب العالى) من المقدرات الالهية قد وقع اليوم باتفاق عمومى خلع السلطان عبد العزيز وجلوس حضرة السلطان مراد خان الخامس الوارث الشرعى على تخت السلطنة العثمانية فنسأل جناب الحق تعالى أن يشملنا بيمنه واسعاده فى ٧ جمادى الاولى سنة ١٢٩٣ اه صحيفة ٢٨٩ جزء خامس من كنز الرغائب

في

فى مشاكل كانت فى غنى عنها هذا بصرف النظر عما فيهما من المحاسن بابطال هذا الاسترقاق المنافى لاصول الشرع الشريف وقد أدرجنا صورتها هنا ليقف عليها المطالع (١) وكان من أول ما استلزمته

(١) لما كان من أقصى آمال كل من حكومتى جناب ملكة بريتانيا العظمى وايرلاندة المتحدة وحضرة خديو مصر التعاون فى ابطال ومنع بيع الرقيق بالكلية وكانا قد صمما على عقد معاهدة للوصول لهذا الغرض حصل الرضا والاتفاق بين الواضعين إمضاءهم أدناه المأذونين بهذا الشأن على تدوين البنود الآتية وهى (بند ١) حيث إنه سابق صدور لائحة من الحكومة الخديوية بمنع بيع الرقيق السودانى والحبشى فى الجهات التابعة لها فتتعهد الحكومة المشار اليها بأن تمنع منعا كليا من الآن فصاعدا ادخال العبيد السودانيين والحبشيين باراضى القطر المصرى وملحقاته سواء كان بطريق البر أو بالبحر المار من تلك الاراضى وبأن تعاقب باشد الجزاء على مقتضى القوانين المصرية الجارى العمل بها أو بموجب ماسيأتى بيانه بهذه المعاهدة كل من وجد متعاطيا بيع الرقيق السودانى أو الحبشى مباشرة أو بواسطة غيره وكذلك تتعهد بان تمنع اخراج الرقيق السودانى أو الحبشى خارج القطر المصرى وملحقاته منعا مطلقا مالم تحقق وتثبت صحة عتقه أو حريته ولا بد أن يذكر بورقة العتق أو بالباسبورط الذى يعطى لاؤلئك السودانيين أو الحبشيين من طرف الحكومة المصرية قبل خروجهم بانهم أحرار ويمكنهم أن يتولوا أمر أنفسهم كيف شاؤا بلا قيد أو شرط ما (بند ٢) كل شخص يوجد بأرض مصر أو بحدودها أو بالجهات التابعة لها بوسط افريقيا متعاطيا بيع الرقيق السودانى أو الحبشى مباشرة أو بواسطة غيره تعتبره الحكومة المصرية هو ومن يكون مشتركا معه بمنزلة السارقين القاتلين فان كان من تبعتها يحاكم امام مجلس عسكرى والا تحال حالا محاكمته على المجالس المختصة بذلك وترسل لها المحاضر المحررة من الجهة العليا من جهات الحكومة المصرية فى المحل الذى ثبت فيه حصول التجارة وكافة الاوراق والمستندات الدالة على جنحته للحكم فيها بمقتضى قوانين الحكومة التى يكون تابعا لها مادامت هذه القوانين تجيز ذلك وما يوجد من الرقيق السودانى أو الحبشى بأيدى أى تاجر كان يصير اعطاؤه حريته ومعاملته بمقتضى المدون ببند ٣ الآتى والذيل المؤشر عليه بحرف (ا) المتمم لهذه المعاهدة (بند ٣) نظرا لكون اعادة الرقيق السودانيين أو الحبشيين لبلادهم بالثانى سواء كانوا منزوعين من أيدى المتجرين فيهم أو معتوقين يتعذر حصولها وينشأ منها اما هلاكهم من التعب أو من الفاقة أو وقوعهم فى ربقة الرق ثانيا تستمر الحكومة بأن تجرى معهم الاجراآت السابق اتخاذها عرفنها فى حق الرقيق ومذكورة فى الذيل المؤشر عليه بحرف (ا) المحكى عنه (بند ٤) تستعمل الحكومة المصرية سطوتها على قدر الاستطاعة لمنع ما يجرى من المقاتلات بين قبائل افريقيا الوسطى بقصد الاستيلاء على الرقيق وبيعه وتتعهد بأن تعامل معاملة القاتلين كل من يوجد متعاطيا بيع الاولاد أو جلبها فان كان المرتكبون لذلك من تبعة الحكومة المصرية تصير محاكمتهم امام مجلس عسكرى والا تحال محاكمتهم على المجالس المختصة بالحكم وترسل لها المحاضر والاوراق والمستندات للفصل فى الدعوى بمقتضى قانون بلادهم كما هو مذكور ببند (٢) (بند ٥) تتعهد الحكومة المصرية بنشر أمر خصوصى يرفق بهذه المعاهدة ويكون من مقتضاه منع بيع الرقيق بالكلية فى أرض مصر من ابتداء تاريخ يتحدد بالامر المشار اليه وتخصيص نوع الجزاء الذى يترتب على من يخالف منطوقها (بند ٦) لاجل زيادة الوثوق من منع بيع الرقيق السودانى والحبشى بالبحر الاحمر ترتضى الحكومة المصرية بأن السفن الانجليزية تجرى التفتيش والبحث والقبض عند اللزوم على أى مركب تكون متعاطية تجارة الرقيق من السودان أو الحبش وتسليمها لاحد مراكز الحكومة المصرية القريب من محل الواقعة أو للمركز الاوفق لاجل الحكم على تلك المركب بما يلزم وكذلك يصير ضبط أى مركب مصرية تحقق فيها شبهة وجود رقيق بها للبيع أو تكون تعاطت بيع الرقيق فى أثناء سفرها واجراء التفتيش وضبط الرقيق يكونان بخليج عدن وفى ساحل بلاد العرب وبالجهة الشرقية من افريقيا وبمياه سواحل مصر والجهات التابعة لها ما يوجد من الرقيق سودانى أو حبشى بأى مركب مصرية ويضبط بمعرفة المراكب الانجليزية لدى التفتيش يبقى تحت اذن الحكومة الانجليزية وهى تتعهد باجراء ما يقتضى لحصوله على تمام الحرية أما المركب وشحنتها وطقم بحريتها فيصير تسليمها الاقرب مركز من مراكز الحكومة المصرية لمحل الواقعة أو للمركز اللائق لاجل توقيع الحكم عليها بما يلزم فاذا لم يتيسر لقبودان المركب الانجليزية تسليم ما يكون صار ضبطه من الرقيق لمحل تابع لحكومة الانجليز أو اذا دعت الضرورة فى مصلحة

هذه المعاهدة من الخسائر لمصر ان استدعى الخديو الجنرال غوردون باشا (١٨٧٧م) ثانية وعينه حاكما عاما للسودان ودارفور والمقاطعات الاستوائية لينفذ شروط تلك المعاهدة ويقطع دابر النخاسة وتجارة الرقيق ويصلح شؤنها كما قدمناه وقد أتى غوردون لذلك ما يشكر عليه من الاعمال وان كان مزجها بالسياسة ولما امتدت حكومة مصر على سواحل بلاد الصومال عقدت انجلترة معها معاهدة بتعيين قناصل لها بالجهات المذكورة وبأن لا تتنازل لدولة أخرى عن أرض أو حقوق هنالك وبان لا تحتكر شيأ من أنواع البضائع والسلع وبان تعامل رعايا انجلترة وسفنها هنالك معاملة دولة

الرقيق سوداني أوحبشي لتسليمهم للحكومة المصرية فالحكومة المشار اليها تتعهد بناء على طلب قبودان المركب الانجليزي أو الضابط الذي يستنيبه لذلك أن تقبل الرقيق سوداني أوحبشي وتعطيهم حريتهم وتمنحهم عين الامتيازات التي تمنحها للرقيق السوداني أو الحبشي المضبوط بمعرفة جهاتها كذلك تقبل الحكومة الانجليزية من جهتها بان أي مركب انجليزية سائرة ببندرة انجليزية في البحر الاحمر أو في خليج عدن أو في ساحل بلاد العرب أو في المياه الداخلة بالقطر المصري أو في الجهات التابعة لهم توجد منه اطبية التجارة في الرقيق سوداني أوحبشي يصير تفتيشها وحجزها وضبطها بمعرفة الحكومة المصرية آغا المركب بشحنها وطقمها بحريتها يصير تسليمها الاقرب جهة من جهات الحكومة الانجليزية لاجل توقيع الحكم عليها وما يصير ضبطه من الرقيق سوداني أوحبشي تعطى لهم الحرية بمعرفة الحكومة المصرية وتبقى متولية أمره اذا حكم بعدم صحة الحجز أو الضبط أو اقامة الدعوى من المجلس المختص بالحكم فالحكومة التابعة لها المركب التي أجرت ذلك تكون ملزومة بان تعطى تعويضا لائقا بحسب الاحوال لحكومة المركب التي صار ضبطها أو اقامة الدعوى عليها (بند ٧) يكون اجراء العمل بمقتضى هذه المعاهدة في القطر المصري ابتداء من تاريخ توقيع الامضاء عليها وفي ملحقات الحكومة المصرية بافريقيا العليا وبسواحل البحر الاحمر من بعد مضى ثلاثة شهور من ذلك التاريخ بناء عليه فقد تحررت هذه المعاهدة بتاريخ ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ ووقعت عليها امضاء وأختام الواضعين أسماهم فيه أدناه الامضاء شريف الامضاء فيفيان

صورة نسخة ذيل للمعاهدة التي عقدت بين حكومة بريتانيا العظمى وبين الحكومة المصرية في ٤ أغسطس سنة ٧٧ بشأن ابطال تجارة الرقيق

ان الجاري لحد الآن هو أن الضبطية هي المناطة بكل ما يتعلق بالرقيق من نحو عتقهم وتربية الاطفال منهم وما يشابه ذلك فمن الآن يترتب بكل من محافظتي مصر واسكندرية قلم مخصوص لهذا الغرض ويناط بكل ما يتعلق بالرقيق في المدينتين المذكورتين من نحو عتقهم وغيره أما في الاقاليم فالقسم الذي يترتب لذلك يكون تحت ملاحظة مفتشي العموم ويكون للقلم المذكور دفتر يتقيد به بغاية التفصيل جميع الوقائع التي تختص بالرقيق المعتوق وفي حالة ما اذا تقدمت شكوى من بعض القنصلاتات أو من أفراد العامة فعلى القلم المذكور أخذ الاستعلامات اللازمة عن تلك الشكوى فاذا ظهر من الاستعلام أحقيتها ترسل القضية لجهة اختصاصها لكي يجرى فيها مقتضى الاصول المقررة للعتق أما ان كانت الشكوى مقدمة من نفس العبد فعلى القلم بعد ثبوت شكواه أن يعطيه ورقة عتق من دفتر قسيمة يكون مخصصا لهذا الشأن وكل من أخذ من معتوقه ورقة عتقه أو منعه أو اشترك في منعه من الحرية بوسائط اغتصابية أو غشية يعامل معاملة من اتجر في الرقيق على الحكومة أن تقوم بلوازمات العبيد والمعتوقين فالذكور منهم يستخدمون بحسب الاحوال أو بحسب اختيارهم إما في الزراعة أو في الخدامة المنزلية أو في العسكرية والاناث يستخدمن إما في محلات للحكومة أو في منازل معتبرة أما الاطفال منهم فيستمر ادخالهم ان كانوا ذكورا في مدارس أو في معامل الحكومة وان كانوا اناثا فيدخلن في المدارس المخصصة للاناث هذا وكل ما يتعلق بتربية هؤلاء الاطفال يكون محولا للاحظة والتفات محافظي مصر والاسكندرية الواجب على كل منهما المخابرة مع نظارة المعارف في شأن ما يستحسن اجراؤه في حقهم من التربية الذكور الذين يوجدون بالارياف يصير وضعهم بمعرفة مفتشي الاقاليم في مكاتب البنادر أما الاناث فيصير ارسالهن لمصر والمعتوق من الرقيق الموجود بالسودان يصير استخدامهم برغبتهم اما بالزراعة أو بالخدامة المنزلية أو بالعسكرية تحرر هذا التذييل بالاسكندرية في ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ العمل بمقتضاه من تاريخ اجراء العمل بموجب المعاهدة الاصلية الامضاء شريف الامضاء فيفيان

ممتازة وفى مقابلة ذلك تعترف انجلترة لمصر بامتلاك كهاتك الاصقاع وغير ذلك من المنافع التى تعرف دولة كانجلترة الاستفادة منها وقد أدرجنا المعاهدة المذكورة بذيل الصحيفة كعادتنا تعميما للفائدة (١)

مساعدة اسمعيل باشا للدولة فى حرب الصرب — لما ظهرت الثورات بجهات شبه جزيرة البلقان التابعة للدولة بتحريضات الروسيا وطلبت الدولة المساعدة من مصر كما هى العادة أصدر المرحوم اسمعيل باشا أمره الى نجله الامير حسين باشا وكان ناظر الجهادية والبحرية بتجهيز اللازم لذلك وكانت الجيوش المصرية عائدة وقتئذ من مصوع عقب حرب الحبشة فجهز منها قوة جعلها تحت قيادة الفريق راشد حسنى باشا وجعل اللواء اسمعيل كامل باشا قائدا ثانيا لها وأرسل معهما بعض ضباط منهم القائمقام أحمد نير بك والقائمقام محمود فهمى بك والصاغ حسن افندى

(١) انه لما أراد كل من حكومة دولة الانكليز والحكومة الخديوية المصرية عقد اتفاق ما بينهما بخصوص اقرار دولة الانكليز على تسلط الحكومة الخديوية بالنسبة لتبعيتها الى الدولة العلية على سواحل بلاد السومال لغاية رأس حفون رخصت حكومة دولة الانكليز جناب الموسيو ويفيان قنصل جنرال الدولة المشار اليها بالقطر المصرى والحكومة الخديوية المصرية دولتلو شريف باشا ناظر خارجيتها بعقد الشروط الآتية وهى (بند ١) مع حفظ وابقاء الاشتراطات المنوه عنها بالبند الخامس من هذه المقاولة تتعهد الحكومة الخديوية بأنه من تاريخ تنفيذ هذه الشروط ومن تاريخ اقرار حكومة دولة الانكليز رسميا على تسلط الحكومة المصرية على أراضى سواحل السومال تبقى مينة بولهار ومينة بربرة بصفة مينتين ممتازتين اذا لم يكن مبق اتخاذ التدابير اللازمة لغاية الآن لذلك وكذلك تتعهد الحكومة الخديوية بأن لا تعطى فى هاتين المينتين أى احتكار أو أى التزام كان لاحد ما ولا ترخص باجراء شئ مما يعطل حركة التجارة فيهما وان لا تأخذ عوائد كمرك على البضائع الواردة اليهما زيادة عن خمسة فى المائة وعلى البضائع الصادرة الى جهتى تاجوره وزيلع وكذلك فى سائر مين سواحل بلاد السومال زيادة عما هو جارى أخذه فى مينتى بولهار وبربرة بشرط أن يكون تبعة دولة الانكليز وتجارتها وسفنها معاملين كتبعة دولة ممتازة فى جميع جهات تلك البلاد التى تدخل تحت تسلط الحكومة المصرية (بند ٢) يتعهد حضرة خديو مصر الافخم عن نفسه وعمن يخلفه بان لا يرخص باعطاء أى قطعة كانت من هذه البلاد التى تدخل فى حوزة حكومته بطريق الوراثة الى أى دولة كانت من الدول الاجنبية (بند ٣) يكون لدولة الانكليز الحق فى تعيين مأمورى قنصليات فى جميع المين والجهات الموجودة على ساحل البلاد المذكورة ويكون مأمورو القنصليات السابق ذكرهم متمتعين بجميع الامتيازات والمعافاة وسائر المزايا المعطاة والتى يمكن اعطاؤها الى سائر مأمورى قنصليات أى دولة ممتازة ولا يسوغ تعيين مأمورى قنصليات من أهالى تلك البلاد أو من أهالى البلاد المجاورة لها (بند ٤) أما من خصوص تجارة الرقيق وأمور الضبط والربط فى بحرية تلك البلاد فالحكومة الخديوية تتعهد بمنع تصدير رقيق من الجهات المذكورة وتمنع تجارته كما فى سائر أقطارها وأن تلاحظ أمور الضبط والربط فيها لغاية بربرة وكذلك ليس على الحكومة الخديوية من الآن لغاية ما تنتظم أمور ادارتها فى جميع الجهات من بربرة الى رأس حفون سوى أن تلتزم باجراء جميع ما فى امكانها لمنع تجارة الرقيق وحفظ أمور الضبط والربط وقد قبلت الحكومة الخديوية أن تكون سفن الانكليز أيضا مأمورة بملاحظة منع تجارة الرقيق وان تضبط وترسل الى المجالس المختصة بهذا الامر جميع السفن التى تراها مشتغلة بهذه التجارة أو تكون مشبوهة بالاشتغال بهذه التجارة فى جميع السواحل الموجودة بالسومال التابعة للقطر المصرى (بند ٥) تعتبر هذه الشروط متممة و واجبة التنفيذ عندما تتعهد جلالة الحضرة الشاهانية الى حكومة دولة الانكليز تعهدا رسميا تاما بأن لا تعطى بأى وجه كان الى أى دولة كانت من الدول الاجنبية أدنى قطعة من سواحل بلاد السومال أو من سائر البلاد التى أدخلت فى حوزة الحكومة المصرية وصارت جزأ من ممالك الدولة العلية المعطاة الى الحكومة المصرية أو أى قطعة من القطر المصرى أو من البلاد التابعة له بطريق الوراثة الى أى دولة كانت أجنبية وعلى ذلك صار عقد هذه الشروط ووضع كل من الطرفين امضاه تحريرا باسكندرية فى ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧ امضا امضا

فيفيان شريف

كامل واليوزباشى محمد افندى رجى وعبد المجيد افندى من ضباط أركان حرب وكانت القوة المذكورة تتركب من الالاى الثانى من الحرس البيادة بقوده الميرالاى يوسف شهدى بك ومن الالاى الثالث من الحرس البيادة بقوده زكريا بك ومن الالاى الرابع من الحرس أيضا بقوده الميرالاى عثمان بك نجيب ومن بطاريتين من مدافع كروب يقودهما القائمقام حسن بك همت وكان عدد رجال هذه القوة ٧٠٤٥ جندا بأقلع بعضهم أولا من الاسكندرية على بواخر المحروسة والشرقية والرحمانية فى يوم ١٨ جمادى الثانية من سنة ١٢٩٣ هـ ولما وصلت قابلها أحمد طلعت باشا كاتب ديوان خديو وكان بالاستانة بعثه الخديو لتصفية تركة أخيه المرحوم البرنس مصطفى فاضل باشا المتوفى يوم ٤ القعدة سنة ١٢٩٢ ثم أبقاه وكيلا عنه هنالك ثم سافرت العساكر المذكورة الى حدود الصرب وبقى المرحوم قاسم باشا وكيل البحرية مأمورا لسرعة ارسال العساكر المصرية الى دار الحرب ولما عادت السفن المصرية الى الاسكندرية نقلت باقى القوة المصرية تحت ملاحظة اللواء محمد كامل باشا فوصلت المحروسة الى سلانيك وكنت من الضباط الذين رافقوه ولما وصلنا سلانيك وجدنا فرضتها ملأى بالاساطيل العثمانية والفرنسوية والالمانية والنمساوية والتليانية والانكليزية واليونانية وكان اجتماعها بسبب قتل الاهالى قنصلى فرانسا والمانيا فى جامع هنالك يسمى جامع الساعتلى لتداخلهما فى أمر فتاة نصرانية أظهرت الاسلام كما سبق فى تاريخ الدولة وكان قاسم باشا وكيل البحرية حضر اليها على وابور شبين لمقابلة العساكر المصرية فأخذنى بعيته وبقيت أركان حرب له طول مدة حرب الصرب والروسيا ولما عادت البواخر المصرية عين الخديو فرقاطة محمد على يقودها القبودان ابراهيم بك عربكيرلى لتكون مع قاسم باشا فرفع عليها علمه وحيته جميع السفائن الحربية الراسية بسلانيك وزاره أمير الاى‍ها كالعادة ولما التقت عساكر الطرفين انتصر العثمانيون فى كل المواقع على الصربيين الذين كان يقودهم القائد الروسى جرنابيف وأظهرت العساكر المصرية البسالة والشجاعة ولما بلغ الجناب الخديو ذلك أنعم على القواد والضباط بالرتب ورفع درجة المرحوم اسمعيل باشا كامل الى رتبة الفريق ورقى كل من يوسف شهدى باشا وزكريا باشا وعثمان نجيب باشا الى رتبة اللواء وجعل مكانهم لقيادة الالايات على بك فهمى وخورشيد بك نعمان وحسين بك مظهر

وفى خلال ذلك خلع السلطان مرادخان الخامس لاعتلال صحته وجلس مكانه مولانا السلطان الغازى عبد الحميدخان الحالى (١١ شعبان ١٢٩٣ هـ - ٣١ أغسطس ١٨٧٦ م) وأعلن الصدر الاعظم محمد رشدى باشا المشهور بالمترجم الولايات العثمانية بذلك وأرسل الى الخديو يعلمه بذلك تلغرافيا كما جرت العادة (١) وكانت الهدنة تقررت بين الدولة والصرب بتداخل

(١) حيث ان جناب السلطان مرادخان الخامس لم يفق من عارض المرض الذى ابتلى به من يوم جلوسه على سرير السلطنة السنية خلع خلعا شرعيا وحيث كان أخوه جناب السلطان عبد الحميدخان الثانى ولى العهد وقع بموجب القانون العثمانى فى هذا اليوم وهو يوم الخميس الموافق ١١ شعبان سنة ١٢٩٣ جلوس مولانا المشار اليه أعنى السلطان عبد الحميدخان الثانى على سرير السلطنة السنية فنرجو من المولى سبحانه وتعالى أن يجعل جلوسه هذا سبب الخير والسعادة فيلزم اطلاق المدافع فى الاوقات الخمسة وتنوير المنارات والمدوار بن الميرية على ماجرت به العادة اهـ من كنز الرغائب جزء خامس

الروسيا وبقيـة دول أوربا وكان ذلك عقب واقعـة علكسناج الشهيرة كما سبق فى تاريخ الدولة العثمـانية واعتزل رشدى باشا وخلفه فى الصدارة مدحت باشا (٤ ذى الحجة ١٢٩٣) ثم عادت العساكر المصرية الى دار الخـلافة (١٦ دسمبر ١٨٧٦) وكانت دول أوروبا وقتئذ تداخلت كنصوح ترغب من الدولة اصلاح حال ولايات البلقان والروملى فقبلت الدولة منهم ذلك باخلاص وحسـن طوية وأوقفت الحركات العسكرية فى كل الجهات ولكن لما كانت أسباب هذه الاختـلالات بل المحرض الاكبر لقيام الثورات هى دولة الروسـيا لما تضمره من النوايا العـدائية والمقاصـد الخفية ضد الدولة طلبت عقـد مؤتمر أوروبى بالاستـانة للنظر فى مسائل ولايات البلقان وكانت دول أوروبا تساعدها على أغراضها تسكينا لهياج الافكار العمومية ببلادها وكانت الدولة العلية ترغب حل تلك المسائل أى اصـلاح الولايات المذكورة كما يقولون بالمسالمة والطـرق الودية فعقد المؤتمر وعينت الدولة مندوبين من طرفها لحضوره وقبـل أن يقرر شيأ ما تقريبا حشدت دولة الروسيا جيوشها على حدود بلاد المملكتين والاناضول ولما أتم المؤتمر أعماله وعرض قراره رسميا للدولة شكل مولانا أمير المؤمنين السلطان عبـد الحميد خان مجلسا عاما من الوزراء والموظفـين وغير الموظفـين والعلماء ورؤساء الاديان المختلفـة والاعيان فى شهر ربيع الثانى من سـنة ١٢٩٤ هـ فأقر هذا المجلس على رفض القرار المذكور لان المدون فيه مذكور بتمامه فى القانون الاساسى الذى سنه مولانا السلطان لعموم الامة العثمـانية (٧ ذى الحجة سنة ١٢٩٣) بلا فرق ولا استثناء وأرادت الدول تسوية الخلاف بالطرق السـلمية لكنها راعت مصلحة الروسـيا أكثر لانها طلبت فى بلاغها الذى أرسلته الى الباب العالى أن تنزع الدولة السـلاح فقط دون الروسيا فطلبت الدولة أن يكون نزع السلاح منها ومن الروسيا فى آن واحد ولما لم تقبل الروسيا انقطعت العلاقات السياسية بين الدولتين وأعلن الحرب رسميا فى يوم ١١ ربيع الآخر من سنة ١٢٩٤ هـ (٢٥ ابريل سنة ١٨٧٧) كما تقدم فى تاريخ الدولة وطلبت الدولة من الخديو المساعدة العسكرية كنص الفرمانات

مساعدة الخديو للدولة فى حرب الروسيا — لما أتى تلغراف الصـدر الاعظـم بطلب المساعدة أمر الخديو فأعدوا جيشا عظيما جعلت قيادته لثالث أنجاله الامراء وهو المرحوم حسن باشا وكان يرافقه اللواء على رضا باشـا والزبير رحمت باشا وبلوقس بك الالمـانى وزهـراب بك وتورنا برن بك والكونت صورمانى وميكايلين بك ويعقوب سامى بك ومحمـد نسيم بك ومن الاطباء بدر بك ودرزار يلى بك وغيرهم من الكتاب والمأمورين وجعـل له بلوك خفر من تلامذة المدرسة الحطربية تحت قيادة الصاغ خليل افنـدى عفت (صار باشا وكان مدير الدقهلية) وكان ضـباط أركان الحرب تحت رياسة مورى بك وبينهم الصاغقول أغاسيه عبد الرزاق افندى نظمى ومصطفى افنـدى صدقى واليوزباشى خليل افندى كامل والملازمين روبى افندى فهمى ومحمد افندى زهرى (الآن لواء مساعد ادجوتانت جنرال قسم عربى السردارية) وأحمد فائق افندى (الآن بك مدير جرجا) وحسـين افندى فوزى ومصطفى افنـدى رمزى (الآن قائمقام بالجيش) ومحمد افنـدى أمين ومصطفى افنـدى كامل وعبد الرحمن افندى رشـدى ومحمد افندى رجى ويوسف افنـدى ضيا وحسين افنـدى رمزى (الاول من الاخيرين الآن ميرألاى والثانى قائمقام من ياوران الحضرة الخـديوية) وعلى افندى حيدر (الآن بك ووكيل مديرية الحـدود) وحسن افنـدى حارث

Digitized by Google

(الآن بك ووكيل مديرية المنوفية) وكان من الاطباء أحمد حمدى بك وفوزى بك وأحمد افندى خلوصى ومحمد درى بك وأحمد افندى حافظ وغيرهم أما الجنود الذين أرسلوا فكانوا الالاى البياده قيادة طه بك لطفى والالاى الثالث من الحرس بقوده راشد بك كمال والالاى الاول من الحرس أيضا يقوده محمد شوقى بك وأربع بطاريات من المدافع يقودها حسن بك حسنى المعروف بالترك واسمعيل بك صبرى والايان من السوارى هما الالاى الاول من الحرس يقوده محمود بك سامى والالاى الثانى منه يقوده أحمد بك عبد الغفار وأرطه من المهندسين عليها البكباشى على أفندى السماع فكان الجميع ١١٫٥٣٠ جنديا وأرسلت الدولة أسطولا عثمانيا مشكلا من دارعتى مسعودية وأورخانية وفرقاطتى السليمية وخداوندكار تحت قيادة الفريق حسين باشا الكريدى لمرافقة البواخر المصرية الحاملة للجنود خوفا عليها من تعدى سفن الروسيا المتجولة فى البحر المتوسط أما السفن المصرية فكانت محمد على ومصر والرحمانية والغربية والشرقية والبحيرة والدقهلية وكان سفر هذه القوة فى يوم ٢٨ جمادى الاولى سنة ١٢٩٤ وكنت باورا حربيا القاسم باشا وكيل البحرية الذى قاد هذه البواخر ولما وصلت الجنود الى الاستانة أقلعت من هناك رأسا الى وارنه حيث انضمت الى الجنود المصرية التى كانت فى حرب الصرب وكان يقودها راشد حسنى باشا أما الامير المرحوم حسن باشا فانه بعد ان أقام باستانبول أياما سافر الى وارنه ثم سافر الى شمنى وقابل السردار عبد الكريم نادر باشا القائد العام ولما عادر تب خطوط الدفاع حول وارنه ولما عبرت جنود الروسيا نهر الطونة بلا مقاومة تذكر وعزل عبد الكريم باشا ونصب مكانه محمد على باشا وتقدم بالجيوش لصد الروس رافقته بعض الفرق المصرية والتقت مع الروس بجهات صارى نصوحلر (شعبان ١٢٩٤ ﻫ) وأظهر المصريون هناك البسالة والشجاعة حتى انطلقت الالسنة بالثناء عليهم ثم أمر محمد على باشا فعادت الجنود المصرية الى وارنه لسبب لا يزال مجهولا وأمرها فتقدمت من جهة بازارجق من أعمال دوبروجه وبعث حسن باشا قوة مع راشد حسنى باشا واللواء زكريا باشا المدافعة عن بازارجق ولما وصلت تقدم منها آلايان مع زكريا باشا وآلاى من الطوبجية وآخر من السوارى وانضمت اليهم بعض الجنود الشاهانية وفرقة المعاونة واتخذوا الاماكن اللازمة امام قوة الروسيا التى كانت بتلك الجهات تحت قيادة الجنرال سيرمان (Zimmemanr) وفى أواخر الحجة سنة ١٢٩٤ أمر البرنس حسن باشا قومندان الفرقة راشد حسنى باشا بأن يجرى كشفا عسكريا يتعرض فيه للعدو فرتب الهجوم من قولين جعل الايمن تحت قيادة طه باشا والايسر تحت قيادة زكريا باشا ثم تقدمت القوة على هذا الترتيب فقابلت مقدمة الجيش الروسى وابتدأ ضرب النار من الجهتين واستمر أكثر من نصف النهار ولما انكشفت قوة الروس اتضح انها تنوف عن ٢٠٫٠٠٠ مقاتل وعلى ذلك رأت القوة المصرية عدم المقدرة على مقاومتها فرجعت بانتظام وفى أثناء ذلك استشهد اللواء زكريا باشا وأصيب البكباشى مصطفى أفندى صبرى بجرح مات منه واستشهد أيضا نحو ثمانية ضباط آخرين وبعض العساكر وجرح نحو ٢٠٠ عسكرى تقريبا ولما وصل خبر ذلك الى البرنس حسن باشا أصدر أمره الى راشد حسنى باشا بالعودة الى وارنه وقد استنسبنا درج هذا الامر بذيل الصحيفة كما جرت عادتنا اتماما للفائدة (١) ولما عادت القوة المصرية

(١) باورخديو وفريق ٢ جى فرقه — أحيط علم سعادتكم انه من قبل كم يوم حصلت مناوشات جزئية

وآنم

الى وارنه أقامت بها حتى عقد الصلح بين الدولة العلية والروسيا وليس لها من الاعمال فى هذه الحرب الكبيرة الا ما تقدم ذكره ويقال ان الخديو كان يسعى فى ان لا يبارح جيشه وارنه لمقاصد لم تعلم جيدا ومن المساعدات التى قام بها الخديو أيضا أثناء هذا الحرب ان شكل لجنة بمصر لجمع ما يتبرع به أهل المروءة والحمية اسعافا للجيوش السلطانية ومساعدة للجمعية الخيرية العثمانية المسماة بجمعية الهلال الاحمر وقد جمع من ذلك أموال طائلة لم يصل منها الى الاستانة الا نحو النصف على ما يقال ومن مساعداته أيضا ان اتخذ بجوار قصره الذى بأميركون بالاستانة اسبتالية عظيمة لمعالجة جرحى الجيش ومرضاه وعهد بادارتها لاطباء مصريين وجعل أيضا بواخر محمد على والغربية والرحمانية وطنطا ودسوق والدقهلية والمحلة تحت إمرة نظارة بحرية الدولة لمساعدتها فى نقل الجيوش والمهاجرين وسلحتها الدولة بالمدافع ولما عقد الصلح (١٥ مارس سنة ١٨٧٨ م) عادت الجيوش المصرية الى بلادها على السفن المصرية وعاد أيضا البرنس حسن باشا على وابور المحروسة وأنعم مولانا السلطان على عموم الضباط والعساكر المصرية البرية والبحرية بعلامات الامتياز والنياشين ولما كان فيضان النيل فى السنة المذكورة غير واف وخيف من القحط ولم ترو أراضى الوجه القبلى دعا الخديو أعضاء مجلس شورى النواب لاتخاذ التدابير اللازمة والنظر فى حالة البلاد (٢٤ ربيع الاول سنة ١٢٩٥) ولما اجتمعوا بشرهم فى مقالة الافتتاح بانتهاء الحرب وبقرب عودة الجيوش المصرية وقد ذكرنا فى ذيل الصحيفة هذه المقالة وجواب أعضاء المجلس عليها (١)

مع العدو الذى جاء وتجمع فى قرد الياس وجابر أو رمان الكائنة على بعد ساعتين من بازارجق فلاجل استكشاف قوته أمس تاريخه صار اخراج قوة من العساكر المصرية الشاهانية مركبة من ثمانية طوابير ومقدار من السوارى وبطاريتين طوبجية وعندما تحركت أربعة طوابير من هذه القوة من بازار قرد الياس والاربعة الباقين من عين جابر أو رمان على طريق كلنجك هجم من عساكر العدو على جناحنا الايسر قدر عشرة طوابير وعشرة مدافع وعلى جناحنا الايمن ثمانية طوابير وثمانية مدافع وصار تقسيم الاربعة الايات سوارى التى كانت موجودة مع هذه الطوابير على الجناحين فولانه صار امتداد المحاربة بشدة من الساعة الخامسة الى الساعة العاشرة لكن للثبات والشجاعة التى أظهرتها عساكرنا اضطر العدو للتقهقر بعدما قتل من عساكره قدر أربعمائة نفر وجرح ثمانمائة وقد عادت عساكرنا الى مراكزها ولوانه حضر أثناء ذلك اثناعشر طابور ابياده واثناعشر مدفعا لامداد العدو ولكن لم تحصل محاربة نظرا لاقتراب وقت الغروب وبما أن أصل مقصدنا هو استكشاف قوة العدو ومعرفة مقدارها فلمناسبة اتساع موقع بازارجق وكون قوتنا هى الثلث بالنسبة لقوة العدو قد أصدرنا أمرنا بانحيازهم الى قرية دربند وأول ما أظهر البسالة فى هذه المحاربة هو سعادة اللواء زكريا باشا وقد أصيب برصاصة فى نديه الايمن اثناء اعطائه القومانده اللازمة للعساكر ونال شرف ارتشاف كوثر الشهادة هو وستة يوزباشية وملازمون ومائة وواحد وأربعون نفرا ولا غرو انهم خلدوا أسماءهم وشهرتهم بصفحات التواريخ وقد تزينت صدور كل من القائمقام خورشيد بك بسمى واثنين يوزباشيه وثلاثة ملازمين وواحد وسبعين نفرا بنياشين الجراح وحق لهم الفخر والمباهاة بذلك وبما ان الاقدام والشجاعة التى اظهرتها عساكرنا المصرية الشاهانية فى هذه الواقعة من الامور التى تستحق الذكر صار اخطار سعادتكم لاعلان هذا النصر المبين على كافة الالايات والاورط مع كمال الشكر اه من قيودات القومندان راشد حسنى باشا

(١) نبدى لكم الممنونية من اجتماعنا بالمجلس فى هذا العام ونخبركم بأنه بالنظر للشراقى الذى حصل فى هذه السنة بسبب تقصير النيل أكثر من كل سنة من السنين التى وقع فيها شراقى نتجت اضرارات وخسائر كثيرة للاهالى حتى ان معظم مديريات الوجه القبلى ماززرعوا شيأ وانما بعض الاهالى زرعوا جانبا قليلا من النبارى بالآلات والشواديف وهذا لا يعد شيأ بالنسبة لاصل الزمام وبما ان حصول الشراقى انما هو من الامور القهرية ومن الضرورى أخذ

Digitized by Google

لتعلم منهما حالة البلاد وقتها سيما وان فى ذكر أمثال هذه الاشياء فوائد لاتخفى خصوصا على المشتغلين بفن التاريخ ثم بعد ذلك استعفى عبد الله عزت باشا من رئاسة شورى النواب وخلفه السيد أبو بكر راتب باشا الذى كان عضوا بالمجلس الخصوصى

تنازل اسمعيل باشا عن الاريكة الخديوية ـ ان المسلك الذى سلكه هذا الخديو فى ادخال مدنية أوروبا بمصر والنهج الذى نهجه للحصول على أسباب الترف العصرى والثروة وكذا الاعمال التى قام بها مثل بناء المعامل والمصانع المختلفة وتسيير التجريدات العسكرية الى الاقطار السودانية لتوسيع أملاكه ومد نفوذه كما سبق وبناء البساتين والحدائق الغناء والقصور الشاهقة والدور اللطيفة التى زينها وفرشها بابدع النقوش وأفخر الرياش والاثاثات المجلوبة من أرض الافرنج بأعلى الاثمان واقامة الملاهى العديدة التى كان يستحضر اليها سنويا من أوربا أمهر المشخصين والمشخصات والترع التى شقها فى انحاء المديريات والطرق والشوارع والانوار التى أوجدها بمدينتى القاهرة والاسكندرية

الاحتياطات والتدابير اللازمة فيما يقتضى من العمليات التى باجرائها تتأتى فوائد بحيث اذا كان لاسمح الله يحصل شراقى مثل هذا العام يمكن تخفيف الضرر نوعا فيقتضى النظر والمذاكرة فى ذلك بالمجلس ونعلمكم بأن الحكومة متشكرة لكم للمساعدات التى حصلت منكم فى مسئلة مصاريف لوازم الحرب على انه وان كان لم يزل باق شئ من تلك المصاريف لكن الذى تحصل من المبالغ التى تقررت بالعام الماضى بمجلس الشورى لهذا القصد مع ماوقع بجمعية طنطا كل ذلك موجب للتشكر لكم وحيث بحمد الله قد انتهى الحرب فالمأمول حضور العساكر المصريين لهذا الطرف عن قريب وتقر أعيننا برؤيه أولادنا جميعا وبكونهم أدوا ما وجب عليهم من الخدمة للدولة العلية وعنانه بالقرار الصادر من مجلس الشورى فى العام الماضى ذكر بأنه عند انعقاد المجلس فى هذه السنة يتقدم له حساب ايراد وصرف الاعانة فيطلب من قومسيون الاعانة بيان ذلك كما انه يطلب من الجهادية والبحرية بيان صرف ما استولوا عليه من تلك النقود من القومسيون المذكور ولايخفاكم انه بالعام الماضى كان حصل اتفاق يتعلق بمسئلة المالية لكن الايرادات ماتحصلت بأكملها بحسب ماتبين ولكون الحكومة كما يلزمها مراعاة الاهالى وتحصيل الايرادات بوجه الامكان وصرف ماهو مقتضى من المصاريف فهكذا يلزمها النظر فى تأدية حقوق الداينة حتى لايقال بان قصدها عدم ايصال حقوقهم اليهم وبهذه المناسبة يكون حصل مراعاة استيفاء حقوق كل جهة فقد ترتب قومسيون مخصوص وسينظر فى هذه المسئلة وبالاقرار على مايتراءى موافقة اجرائه بالطبيعة تنتظم الاحوال بالنسبة للاستحصال على الايراد بحسب امكان البلاد وانتظام سير أمور الحكومة وتأدية حقوق أرباب الديون فى أوقاتها والله الموفق الى مافيه الخير والاصلاح

جواب أعضاء المجلس عن نطق الخديو المعظم

قد تشرفنا بافتتاح المجلس بحضور سعادة الخديو الاكرم وحظينا بالمثول بين يدى سيادته الكريمة وزاد ابتهاجنا بتوجيه انظاره العلية وحسن الالتفات الينا وأصغينا الى المقالة الجليلة وشكر والاعتراف بالعجز عن الاتيان ببعض مايجب من التشكر لنعمه المترادفة على هذا القطر وأهله ونعرض بأنه فى الحقيقة حصل من شراقى هذه السنة ضرر كبير للاهالى والضرورة موجبة لرؤية الاعمال التى تلزم للتحفظ والاحتياط من مثل هذا الامر المهول مع دقة النظر أيضا فى حال الاهالى الذين مسهم هذا الضرر نظرا لاحتياجهم للمساعدة وسننظر فى كل ذلك والذى يرد بأفكارنا القاصرة يعرض للمسامع الزكية أما مصاريف لوازم الحرب فبالنظر لكون تلك الحرب ملية فالمساعدة بقدر الامكان فرض متعين على جميعنا وحيث انتهى الحرب وأمضيت شروط الصلح نرجو المولى جل شأنه ان تحصل الراحة وتنصلح الاحوال وتحضر العساكر المصرية عن قريب ونحظى برؤية أولادنا جميعا الذين أدوا ما وجب عليهم من الخدمة للدولة العلية وحفظوا شرفهم وناموسهم العسكرى وبحسب ماأشير بالمقالة الكريمة ننظر فى ايراد وصرف الاعانة وأما مسئلة المالية فالمأمول انه فى هذه الدفعة يحصل تسويتها بحالة مستحسنة للجميع حتى بذلك يستحصل على الايراد بحسب امكان البلاد وحسن سير أشغال الحكومة وتأدية حقوق جميع أرباب الديون وايصالها اليهم فى أوقاتها ونبتهل الى المولى عز وجل فى أن يديم لنا بقاء سعادة الخديو الاعظم ممتعا بأنجاله الكرام عمرا مديدا وأمدا بعيدا انه على مايشاء قدير وبالاجابة جدير اهـ

على

على الخصوص حتى فاقتنا كثيرا من مدن أوروبا والهبات والصلات والهدايا والانعامات المتنوعة التي كان يتحف بها الملوك والامراء وأهل السياسة والقلم ورجال الدولة بأوروبا ومصر والاستانة وبالاختصار جميع الاسرافات والتبذيرات التي فعلها لحظوظه وشهواته أو التي صرفت في سبيل الاصلاح المذكور سيما ما صرفه عند فتح قنال السويس وفي الاحتفال بتزويج أنجاله الامراء وغير ذلك مما لا يحصى ولا يحصر اضطر طبيعة الى الاستدانة والاستقراض من الخارج وليت أن استدانته كانت من ممالك ترجو خير مصر ومنفعتها أوليتها كانت من رعاياه أو بفوائد قليلة على الاقل بل كانت لسوء الحظ بربا فاحش ومن دول لا ترغب الا في عرقلة مساعيه وتثقيل مصر الاسيفة بالديون الفاحشة حتى يتسنى لتلك الدول في يوم من الايام أن تتداخل في أعمال مصر صيانة لحقوقها كما حصل وليت هذه المبالغ صرفت في داخل البلاد أو على أهل البلاد بل استجلبت بها أشياء وأدوات ومحرمات من أوروبا ولم تستفد منها البلاد الا ما لا يذكر ومما ساعد الخديو على اجراء مشتهياته عدم وجود مجالس مستقلة بالبلاد تناقشه أو تراقب أعماله أو توقفها عند حد ومن الغريب أنه لم يتجاسر أحد من حاشيته أو من كبار رجاله أن ينصحه نصحا مؤثرا خوفا عليه وعلى البلاد من أن يحل بها ما تكره مع وجود كثيرين منهم اتصفوا بالعقل والنظر في العواقب فلا حول ولا قوة إلا بالله وكأن سير الخديو على ما ذكرنا بعضه حبب للاهالي تقليده لأن الناس كما يقال على دين ملوكهم فاستدان كثير من الاعيان والذوات الاموال بالفوائد الفاحشة ورهنوا عليها عقاراتهم ولما لم يمكنهم سدادها وقعت أملاكهم في يد الاجانب كما وقعت البلاد وانكبوا على الشهوات والمظالم حتى خسروا الدارين وباؤوا بغضبين غضب الخالق وغضب المخلوق ولما كثرت الديون وفوائدها وتعسر على حكومة الخديو أداؤها وامتنعت أوروبا عن تسليفه ابتكر له رجاله الذين غمرهم باحساناته وعمال السوء من حاشيته طرقا يتحصل بها على الاموال وهي أنهم فرضوا على الاهالي ضرائب متعددة تحت أسماء مختلفة لا تزال أنواعها وأسماؤها مسجلة في دفاتر سيئات الوقت المذكور (1) وقد بلغت عشرات أمثال ما كان يؤخذ من الاهالي في عهد سلفه وكانت الضرائب المذكورة قاصرة على الاهالي فقط لامتناع الاجانب من أدائها فلهذه الاسباب وما انضاف اليها من ظلم عماله وجبروته وبطشه بكثيرين على غير ذنب معروف وما علم عنه من السعي في الانفصال عن الدولة العثمانية كرهته الخاصة والعامة بعد ان كانت القلوب مجمعة على ولائه في أول حكمه هذا ولو أراد الله سبحانه وتعالى ورزق الخديو المشار اليه حاشية خالصة السريرة تحب البلاد حقيقة لامكنها على الاقل تخفيف ما أتاه من الويلات وربما قدرت على منعه تماما سيما وأنه كان سامحه الله من أحسن من تولوا مصر عقلا وسياسة وتهذيبا وقد كثر كرب الاهالي من معاملة المأمورين لهم جباة الاموال بالاقاليم حيث كانوا يستعملون في جبايتها كل الوسائط القهرية حتى اضطر المزارعون للاقتراض من مرابي اليهود والاروام وغيرهم الذين كانوا يتجولون بينهم بفوائد باهظة وكانوا يرهنون مزروعاتهم قبل حصادها ويرهنون أو يبيعون ما يمتلكونه من حلي وأطيان وغيرها وبذلك أصبح

(1) وها هي أشهر الضرائب المذكورة السدس تذاكر شخصية عوائد أغنام عوائد ملح ويركو الصنائع عوائد قبانة مصاريف سهام عوائد عسكريه عوائد خفر ترم الاعانة مصاريف النيل العونة المقابلة عوائد نغفة عوائد ترعة الابراهيمية عوائد الورد عوائد أخملة والدلالة عوائد المواشي وغير ذلك

Digitized by Google

كثير من العائلات أسرى للمرابين الذين أصبحوا أغنياء عصرهم فكم سمعنا ورأينا من هؤلاء المرابين الفاسدى الذمة من أضحى بعد الفاقة المدقعة على القناطير المقنطرة من الاموال والآلاف من الافدنة وأصبحت حالة الفلاح شاقة تعيسة هذا أما ايرادات الحكومة فلم تكن تكفى لسد العوز مع أنها زادت عن الخمسة عشر مليونا من الليرات سنويا ولما رأى الخديو ما وصلت اليه الحالة من التأخر والارتباك وتأفف الاهالى استخدم اثنين من الانكليز هما المستر اكتون (Acton) والمستر بنيل (Pennel) فى نظارة التجارة والزراعة التى أحدثها فى ذلك الوقت وجعل لرئاستها المرحوم اسمعيل راغب باشا (١٨٧٥ م) ثم ألغيت هذه النظارة بعد قليل لانها لم تأت بالفائدة المطلوبة ثم شكل مجلسا عاليا لاصلاح حالة المالية بأمر أصدره فى ١١ مايو سنة ١٨٧٦ وجعل لرئاسته رجلا طليانيا يدعى سيالوجه (Scialoja) كان ناظر المالية بايطاليا فكان من أعمال هذا المجلس المهمة اصدار ميزانية عمومية للحكومة حصرت فيها ديون مصر فكانت ٩١,٠٠٠,٠٠٠ من الليرات المصرية فائدتها سبع فى المائة ثم أصدر عقب ذلك أمرا بتشكيل صندوق الدين العمومى (١٢ مايو ١٨٧٦) بناء على طلب الدول الاوروباوية حفظا لحقوق الدائنين من رعاياهم وجعل فيه لكل دولة من الدول المذكورة عضوا يعتبر من مالية مصر فكان للنمسا الموسيو دوكريمر (De Cremer) ولفرانسا الموسيو دوبلنير (De Bligniers) ولايتاليا الموسيو بارافيللى (Baravelli) ولانكلترة المستر كاب بارنج (Cap. Baring) وجعل لصندوق الدين المذكور سلطة تكاد تكون غير محدودة فى مراقبة المالية المصرية ثم عين الخديو المستر اكتون المذكور رئيسا لادارة صندوق الدين الذى تخصصت له ايرادات مديريات الغربية والمنوفية والبحيرة وأسيوط وكذا ايرادات دخولية مصر والاسكندرية وجمارك اسكندرية والسويس ودمياط ورشيد وبورسعيد والعريش وكذا ايرادات السكك الحديدية والتبغ والملح ورسوم الترام المطرية والهويسات والسفن التى تسير بالنيل لغاية وادى حلفا وكذا ما يتحصل من كبرى قصر النيل وقد بلغ مجموع ذلك ٧٩٠,٨٤٥,٥ ليرة مصرية يضاف اليه ٦٨٤,٤١١ وهو ما يتحصل من أراضى الدائرة السنية يدفع ذلك أجمعه عند تحصيله وبذلك أصبح المبلغ المخصص لسداد الديون المذكورة ٦,٤٧٥,٢٥٦ ليرة مصرية وكان ذلك بمقتضى أمر عال أصدره فى ٧ مايو من سنة ١٨٧٦ ثم صدر أمر عال (٢٥ مايو ١٨٧٦) بتوحيد كل الديون المصرية وتصرح فيه لاسمعيل صديق باشا ناظر المالية بان يفعل ذلك بمعرفة البنك الفرنسوى المسمى كنتوار ديسكونت وفروعه فاعترض الماليون عموما والانكليز منهم خصوصا على ذلك حتى اضطر الخديو لالغاء هذا الامر ثم طلب الخديو من انكلترة وفرنسا أن يعينا مندوبين لفحص المالية المصرية فعينت انكلترة المستر جورج غوشن (Goschen) وفرنسا الموسيو ارمون جوبرت (Joubert) ولما حضرا الى مصر فى ١٤ اكتوبر من السنة المذكورة أخذا ينظران فى دفاتر المالية ويدققان فى المصروفات والايرادات وعند ذلك وقع المرحوم اسمعيل صديق باشا ناظر المالية فى ارتباك وخاف المسؤلية وسوء العاقبة فصار ينفوه بما يمس بكرامة الخديو والذى لما علم بذلك أضمر الشر لناظر المالية عقابا له على ما صدر منه ثم زاره فى بعض الايام كعادته معه ولم يظهر له أدنى تكدر منه واستصحبه معه فى عربته الى سراى الجيزة وكان بها الامير حسن باشا الذى

Digitized by Google

أمر حرس السرايا من الجنود بالقبض على ناظر المالية كامر والده ثم أنزلوه الى باخرة كانت مستعدة في النيل لنفيه الى دنقله ثم ذهب الخديو الى سراى عابدين وجمع أعضاء المجلس الخصوصي وقال لهم إن سوء ادارة المفتش في الحكومة هي التي انتجت هذا الارتباك المالى وأنه لذلك استحسن ابعاده الى دنقله وبعث اليه بمحافظ القاهرة في ذلك الوقت فاخبره وهو في الباخرة بما أقر عليه المجلس الخصوصي وقال له أيضا إنه لو دفع قدرا من أمواله لتسوية المالية المصرية خففت عنه عقوبة النفي وجعلته باسيوط بدل دنقله فاجابه بانه لا يمتلك شيأ فاقلعت به الباخرة الى دنقله فات بها وقد اختلف في أمر موته فمن قائل انه مات حزنا بعد وصوله الى دنقله بايام ومن قائل انهم أماتوه خنقا والقوه في النيل أو دفنوه على شواطئه وأن سفر الباخرة الى دنقله تعمية للافكار وهو رأى الجمهور ويستدلون على ذلك بان أحد ياوران الخديو المسمى اسحق بك وهو الذى وكل اليه أمر خنقه قطعت اصبعه عند قيامه بما أمر به ورآه الناس كذلك وقال المستر ماك كوان (J. Carbille Mc. Coan) أحد أعضاء البرلمان الانكليزى في الوقت المذكور وكان وكيلا للخديو بلندره في كتاب ألفه عن تاريخ الخديو اسمعيل باشا إن المفتش اسمعيل صديق باشا بعد وصوله الى سراى الجيزه أمر الخديو به فخنق بمعرفة ملاحى الباخرة التى أعدت له بمساعدة أحد البكوات الياوران بحضور البرنس حسين باشا ثم أقلعت الباخرة بجثته الى الوجه القبلى وألقيت في النيل على مسافة من القاهرة اه وبعد وفاة المفتش أمر الخديو فصودرت أمواله وعقاراته بدعوى انه جمعها بطريقة غير شرعية هذا والتفت الخديو في ذلك الوقت الى كبار عماله ورجال حكومته فغمرهم بالانعامات والرتب ليجذبهم اليه ويبعدهم عن السعاية والوقيعة في حقه وغير وبدل في الوظائف فجعل ثانى أنجاله الامير حسين كامل باشا ناظر المالية ومحمد ثابت باشا وكيلا له وكانت لجنة التحقيق المذكورة قد أتمت أعمالها وصرحت بأن مالية البلاد المصرية غنية وقادرة على دفع أرباح وديون مداينيها ولكنها عاجزة عن القيام بما يطلب منها سداده من الديون وفوائدها الفادحة واقترحت توحيد الديون وجعلها دينا واحدا وان يخصص لها بعض الايرادات ويجعل لها مراقبين خصوصيين يلاحظون جباية الايرادات المذكورة وصرفها في سبيل تسديد الديون وقد تمكنت اللجنة المذكورة من انقاص قيمة ديون الحكومة وفوائدها فبعد ان كانت واحدا وتسعين مليونا من الليرات أصبحت ٥٩ مليونا فقط وبعد ان كان متوسط فائدة المائة بها ٧ أصبح ٦ ولما قبلت الدول بذلك صدر أمر عال في ١٨ نوفمبر من سنة ١٨٧٦ م بتعيين مفتشين عموميين على المالية المصرية أحدهما انكليزى وهو الموسيو رومين (Romaine) والآخر فرنساوى وهو البارون دومالاريت (Baron de Malaret) فشرعا في تنظيم الديون واصلاح المالية ومراقبة حساباتها وفصلا من دين الحكومة دين الدائرة السنية التى كانت يومئذ تحت نظارة المرحوم حسن راسم باشا وكذا دين السكك الحديدية وميناء الاسكندرية وغيرها فأصبح مجموع دين الحكومة ٥٩,٠٠٠,٠٠٠ ليره كما سبق وأخذ كل من المستر غوشن والموسيو جوبرت ينظران في تحويل ديون الدائرة السنية بالنيابة عن موكليهما من حاملى سندات استقراض الدائرة المذكورة وعين الخديو أيضا الجنرال ماريوت (Mariott) مفتشا عموميا على السكك الحديدية وميناء الاسكندرية والمستر اسكريفنر (Scrivener) مديرا لعموم الجمارك وبذلك أمن أصحاب الديون على أموالهم

Digitized by Google

الآن أوربا وجدت بابا واسعا لجهة عندما تريد المداخلة فى أعمال مصر والضغط عليها وسبب ذلك الديون كما قلنا فهى أصل المصائب وجرثومة الضياع ولما ظهر بعد قليل للعموم ان مصر يستحيل عليها القيام بما تعهدت به لان أوربا لم توافق على انقاص مقدار الفائدة بل أبقتها كما هى وسيلة لانفاذ مآربها فيها عند ذلك قامت الدول الاوروباوية وأكرهت الخديو على تعيين لجنة عالية مختلطة لتحقيق حالة المالية المصرية بجميع أجزائها ولم يسع الخديو الا القبول فتشكلت فى ٣٠ مارس من سنة ١٨٧٨ م تحت رئاسة الموسيو فردينان دولسبس ووكالة المستر رفرس ولسن (Rivers Wilsoon) ورياض باشا وكان أعضاؤها الموسيو بارافيللى الطليانى والمستر بارنج الانجليزى والمسيو دوبلنير الفرنسوى والمسيو دوكريمز النمسوى وظهر لها من الابحاث ان بعض المديريات أرسلت ايراداتها الى ديوان الخاصة الخديوية لا الى المالية وكان ذلك من أكبر الاسباب التى جعلت تلك اللجنة تشك فى اخلاص نوايا المرحوم اسمعيل باشا وميله لسداد الديون فأخذت تعرقل مساعيه وتوقف اطماعه كما أخذ هو بمهارته فى ملاطفة وملاينة أعضائها ولكنه لم ينجح هذه المرة لان الدول صاحبة الدين اضطرته لان يتنازل هو وعائلته للحكومة عن أملاكهم الخاصة لتسديد بعض تلك الديون فقبل وأصدر بذلك أمرا بتاريخ ٦ اكتوبر سنة ١٨٧٨ فصارت تلك الاملاك تعرف بالدومين أى أملاك الميرى ومع ذلك فانه لما تحقق ان أوربا لا تزال تحقد عليه أراد التقرب منها فشكل وزارة مختلطة تحت رئاسة نوبار باشا جعل فيها ناظرا انكليزيا للمالية وهو المستر ريفرس ويلسون وآخر فرنسويا للنظارة الاشغال العمومية وهو الموسيو دوبلنير وجعل رياض باشا ناظر الداخلية وراتب باشا للجهادية والبحرية وعلى مبارك باشا ناظر اللاوقاف والمعارف العمومية ووكيلا لنظارة الاشغال العمومية (٢٨ أغسطس ١٨٧٨) وجعل تلك الوزارة مسؤلة عن أعمالها كما هى بالدول المنتظمة وأوجد الشورى فى البلاد وان رأى الاغلبية هو الذى يعمل به وغير ذلك من الاصلاحات التى لم تستفد منها البلاد لانها لم تكن فيما نظن يقصد بها الاصلاح الحقيقى ومع هذا فقد أفادت بعض الفائدة وقد أوردنا فى ذيل الصحيفة صورة ما كتبه الخديو فى ذلك الى نوبار باشا (١) الذى أعلم قناصل دول أوربا بذلك رسميا وأرسل لكل واحد منهم صورة من

---

(١) وزيرى العزيز — إنى أطلت الفكر وأمعنت النظر فى التغييرات التى حصلت فى أحوالنا الداخلية والخارجية الناشئة عن تقلبات الاحوال الاخيرة وأردت فى وقت مباشرتكم المأمورية تشكيل هيئة النظارة الجديدة التى فوضت أمرها اليكم أن أؤكد لكم ما توجه قصدى اليه وثبت عزمى عليه من اصلاح الادارة وتنظيمها على قواعد مماثلة للقواعد المرعية فى ادارات ممالك أوروبا * وأريد عوضا عن الانفراد بالامر المتخذ الآن قاعدة فى الحكومة المصرية سلطة يكون لها ادارة عامة على المصالح تعادلها وتوازنها من مجلس النظار يعنى أنى أروم القيام بالامر من الآن فصاعدا باستعانة مجلس النظار والمشاركة معه * وعلى هذا الترتيب أرى أن اجراء الاصلاحات التى نبهت عليها يستلزم أن تكون أعضاء مجلس النظار بعضهم لبعض كفيلا فان ذلك أمر لازم لا بد منه * يجب على مجلس النظار أن يتفاوض فى جميع الامور المهمة المتعلقة بالقطر ويرجح رأى أغلبية أعضائه على رأى الاقل عددا فيكون حينئذ صدور قراراته على حسب الاغلبية وبتصديق علينا أقرر الرأى الذى تكون عليه الاغلبية * يتعين على كل ناظر من النظار أن يجرى قرارات المجلس المصدق عليها مما فى الادارة المنوطة به * تعيين المديرين والمحافظين ومأمورى الضبطيات يكون بالمداولة بين الناظر التابعين هم لادارته وبين رئيس المجلس وما يستقر عليه الرأى يعرض علينا بواسطة رئيس المجلس لاجل تصديقنا عليه * الناظر الذى يكون المأمورون وأرباب الوظائف السالف ذكرهم تحت ادارته مباشرة له الحق فى توقيفهم عند الاقتضاء عن اجراء وظائفهم وذلك بعد اتفاقه مع رئيس هيئة النظار

كتاب

Digitized by Google

كتاب الخديو ثم صادق الخديو على لائحة قدمها له مجلس التفتيش الاعلى (١) باجراء الاصلاحات

وأما انفصالهم من وظائفهم فلا يكون الا بعد اتفاق الناظر التابعين له مع رئيس المجلس والتصديق عليه منا * النظار أن ينتخبوا المأمورين من ذوى المناصب العالية اللازمين لادارتهم وأن يعرضوا ذلك علينا للتصديق عليه وأما الوظائف الصغيرة فيكون تعيين المستخدمين اللازمين لها بخطاب أو قرار من ناظر الديوان * أعمال كل ناظر تجرى فى الامور التى تكون من خصائصه لا غير وأرباب الوظائف والمستخدمين فى كل فرع من فروع الادارة لا يتلقون الاوامر الا من رئيس المصلحة الذين هم مستخدمون بها وتابعون لها ولا تجب عليهم طاعة أمر غيره * ينعقد مجلس النظار تحت رياستكم لانى فوضت هذا التنظيم الجديد الى عهدتكم وجعلت مسؤليته عليكم * وانى أرى أن تشكيل هيئة نظارة حائزة لهذه الخصوصيات ليس مخالفا لعوائدنا وأخلاقنا ولا لآرائنا وأفكارنا بل موافقا لاحكام الشريعة الغراء وبتعميم ترتيب محاكم الحقانية يكون فيها الكفاية لحاجات هيئتنا الاجتماعية والمساعدة على تتميم مقاصدنا الحقيقية ونياتنا الخيرية * وانى معتمد عليك فى اجراء الاصلاحات التى صممت عليها مؤملا أن تكفل للبلاد جميع التأمينات التى لها الحق فى انتظارها والحصول عليها من حكومتنا ٢٨ اغسطس ١٨٧٨ الموافق غرة رمضان سنة ١٢٩٥ اه من صحيفة ٥٢ القسم الاول ديكريتات سنة ١٨٧٨

(١) ان من واجبات ديوان التحقيق أن يبحث عن أسباب الاصلاح الذى تقتضيه الحال ويظهرها للعيان ولكن لا بد لنا من الزمن الكافى لاستيعاب ما جمعنا من الايضاحات وبيان ما ينبغى من التفاصيل لاستكمال تنظيم المالية على أن ما وقف علمنا من الاسباب المانعة لتعميم الثروة وتوفر واردات الخزينة ومن الوسائل الموجبة لانتظام الادارة ما نستعين به الآن على بيان الاصول التى يترتب عليها اجراء الوظائف العمومية على محور الاستقامة بما يوافق منطوق الاوامر الخديوية الصادرة بتشكيل ديوان التحقيق وبناء على ذلك رأينا أنه ينبغى ان لا يؤخذ من الضرائب الا ما تعين بقانون منشور فى مجموعة رسمية وأن يكون اجراء الاحكام القضائية مرعيا بحيث تصير قوانين الرسوم والضرائب عمومية لا يعفى منها أحد من سكان الديار المصرية من أى جنس كان . وان يجعل جباة الاموال أى مأمورو التحصيل تحت ادارة نظارة المالية ويعين لهم فى أماكنهم مفتشون تناط أمورهم بالادارة الداخلية . وان يصلح شأن المحاسبة العمومية وقلم تنظيم البرنامج أى الموازنة وتتخذ الوسائل الاحتياطية لسد ما يمكن أن ينشأ عن قلة فيض النيل من الخلل والنقص فى بعض السنين وينفذ قانون المالية على وفق البند العاشر من الامر الصادر فى ٢ مايو سنة ١٨٧٦ بحيث يتيسر للحكومة أن تجمع ضرائبها فى الاوقات الملائمة للطالبين غير مهتمة بآجال الاستحقاق ويشكل مجلس مستقل ترفع اليه الدعاوى المتعلقة بتحصيل الاموال ومجلس آخر اصيانة الوطنيين من اعتداء المأمورين وتلغى الرسوم اليسيرة التى يصعب جمعها أو تخذله الوسائل الظلمية ويعوض ذلك بزيادة تلحق بالضرائب الموضوعة على بعض الارضين أو بضرائب جديدة تكون أوفر حاصلا وأيسر تحصيلا . وتعدل ضرائب الاملاك ويعين لتحصيلها أوقات معلومة من السنة وكذلك رسوم الجمرك وكيفية تحصيل ضرائب الملح والتبغ وتقسيم مياه الترع وينظم قانون اجراء الاشغال العمومية بحيث لا يلزم التسخير الا فيما يترتب عليه نفع عمومى . وتنظم الخدمة العسكرية وتعين لها مدة محدودة ويكون اجراؤها بالقرعة الشرعية

وان جملة ما يطلبه ديوان التحقيق من الجناب الخديوى المعظم أن يعين جميع أملاك الدوائر المتقررة لسد الخلل الواقع فى موازنة المالية وبيان هذه الاملاك (أولا) أملاك الدائرة السنية والخاصة بعد وفاء فائدة الدين المتعلق بهما (ثانيا) أملاك الدوائر المعينة فى اللائحتين اللتين قدمهما الديوان الى الحضرة الخديوية وهى الاملاك البالغ دخلها ٦٤٦ و ٤٠٠ جنيه (ليرة مصرية) (ثالثا) الابنية المختصة بالدوائر المشار اليها البالغ دخلها على ما ثبته الحضرة الخديوية ٧٧٦ و ٢١ جنيه (رابعا) ما فاتنا ذكره فى اللائحتين المرفوعتين فى طى هذا العرض من الاملاك التى فى المدن أو فى الريف وتناط ادارة جميع ذلك بديوان منسع الحقوق بضبط دخل الاملاك وبيعها أو يستدين عليها قرضا لوفاء الديون المتعلقة بالحكومة أو بالدوائر اه ملخصا من صحيفة ٣٨١ جزء ٦ كنز الرغائب

Digitized by Google

بأمر عال صدر منه فى شهر أغسطس المذكور (١) وكانت اجراآت الحكومة المصرية الى ذلك الوقت بيد الخديو وأسا فصارت من يومئذ تجرى بواسطة مجلس النظار المذكور وتنحى عن أعمال الحكومة كل الامراء أنجاله وجعل المسيو بارافللى مفتشا لعموم الايرادات والمصروفات الاميرية (١٤ دسمبر ١٨٧٨) مع حفظ وظيفته فى رئاسة صندوق الدين العمومى وجعل المستر فتس جيرالد (Fitz Gerald) مفتشا لعموم الحسابات والموسيو جول بلوم (Jules Blum) وكيلا للمالية ولما كانت الحكومة يلزمها فى ذلك الوقت استقراض النقود لتسوية بعض ديونها صدر أمره بعد موافقة نظاره باجراء سلفة قدرها ٨٫٥٠٠٫٠٠٠ جنيه من الموسيو روتشيلد ترهن عليها أملاك الدومين المذكورة وجعل الموسيو بترون والموسيو روسيل ورستم باشا أعضاء لادارة الاطيان المذكورة التى عرفت بأملاك الميرى (٣٠ يناير ١٨٧٩) هذا وأخذت هذه النظارة الجديدة المختلطة تصلح المختل من حسابات المالية وتسوى مرتبات المستخدمين والموظفين وكان تذمر الامة المصرية التى أفاقت من نومها فوعا ازداد يوما فيوما ضد أعمال الخديو والموظفين الاوربا وبين الذين أتى بهم من أوروبا وسهل لهم ولدولهم بأعماله المذكورة طريق المداخلات فى أعمال الحكومة المصرية وكانت مرتبات المستخدمين الملكيين والعسكريين وكذا مرتبات الجيش البرى والبحرى لم تصرف منذ شهور حتى اضطر ضعفاء الحال منهم الى الاستدانة وبيع ما يمتلكون ومما زاد الحالة ارتباكا ان النظار المذكورين قرروا الاقتصاد من نفقات الجيش فاخرج بذلك عدد عظيم من الضباط من وظائفهم ولم يكن لهم طريق آخر للعيشة غير العسكرية التى تربوا فى احضانها مع ان الموظفين الاجانب الذين فى خدمة مصر كانوا يجلبون أقاربهم وأصحابهم من بلادهم ويخلقون لهم الوظائف بالراتب الكثير ولو أدى ذلك لاخلاء سبيل عدة من أبناء البلاد الذين لا يعرفون لهم وطنا سواها ناهيك ان المصرى لا يميل كثيرا الى الهجرة طلبا للرزق فى بلاد أخرى مادامت بلاده تفيض لبنا وعسلا بينما يتمتع الاجنبى بخيراتها ولما وصلت الحالة الى هذا الحد انضم الذين يسخطون عليها الى بعضهم وعرفوا بالحزب الوطنى ولم يكن لهذا الحزب والحق يقال هم الا اشباع البطون الجائعة لان حالة البلاد واخلاق سكانها تجعلهم فى معزل تماما عن التعصبات السياسية والمذهبية ولما انتشرت أفكار هذا الحزب انخرط تحت لوائه جمع من العلماء

(١) وقفت على لائحة ديوان التحقيق فرأيتها مفصلة تفصيلا وانى وان منعكم ضيق الوقت من استيعاب عدة مسائل لشاكر لكم ولرفقائكم الذين ساءنى سفرهم قبل ان أثنى عليهم مشافهة فأتقدم اليكم ان تبلغوهم شكرى . اما نتائج لائحتكم فاوافق عليها ولا بدع فى ذلك فهى النتائج التى عنيت بها رغبة فى نفع بلادى وبقى على الاهتمام باجراآتها وقد وطنت على ذلك نفسى علما بأن بلادى لم تعد من افريقية وانما هى من أقسام أوروبا فلا مندوحة لنا عن اطراح الخطا القديم وسلوك السنن الملائم لحالتنا الاجتماعية وعندى انكم سترون فى أمرنا عما قريب تغيرا مهما يحدث بسهولة غير منتظرة فان غاية مارومه الاستقامة واحترام القانون ولكن ينبغى لنا ان لا نعتمد على القول الذى لا يؤيده الفعل وانى عازم على طلب حقائق الامور وقد ابتدأت ذلك مثبتا به صدق عزمى بان كلفت نوبار باشا أن يشكل لى وزارة وقد لا يرى لهذا الامر شأن عظيم ولكن اذا توفرت شروط إنفاذه يصدر عنه استقلال الوزارة وليس ذلك بالشئ اليسير فانه علة التغير الاساسى المطلوب بل هو فيما أرى أحسن دليل لاثبات عزمى على انفاذ قراركم وقد ازمعتم الرحيل ورجاؤنا انكم ستعودون الينا عما قريب على انى أروم ان تسيروا وأنتم على يقين من أن سعيكم الذى لا قيم فيه صعوبة ومناء سيثمر خيرا فان الغرس يثمر والثمر ينضج سريعا فى هذه الارض القديمة اه من كنز الرغائب

والضباط

Digitized by Google

والضباط والموظفين وقاموا يطالبون بالاصلاحات وبجعل الحكومة نظامية مقيدة مع تقليل نفوذ الاجانب الذى أودى باستقلال البلاد وكانت أقوال هذا الحزب وعدد رجاله كل يوم فى ازدياد ولما ضاقت الاحوال بالضباط لعدم صرف مرتباتهم المتأخرة وافتقر الكثير منهم بل مد يده للسؤال حتى صار يضرب يومئذ بعوزهم المثل اجتمع منهم عدد عظيم نحو الاربعمائة وقدموا العرائض الى الخديو ملتمسين منه صرف مرتباتهم فأحالهم على النظار ثم اجتمعوا تحت رئاسة ضابط منهم اشتهر بالجراءة واستقلال الفكر وهو البكباشى لطيف بك سليم وكان معلما بالمدرسة الحربية فخطب فيهم خطبة بليغة حماسية وشجعهم على السعى بلا تخاذل حتى ينالوا مرغوبهم ثم ساروا الى نظارة المالية وتبعهم نحو ألفى جندى وكان ذلك فى يوم ٢٥ صفر سنة ١٢٩٦ (١٨ فبراير ١٨٧٩ م) وتقاطر الناس من كل صوب لينظروا ماذا يكون من أمرهم فقبضوا على نوبار باشا وأهانوه وهو والمستر ريفرس ويلسون ناظر المالية وألزموهما بصرف مرتباتهم ووقع الهرج والمرج والغط والتزاحم حتى خيف من حدوث فتنة كبيرة وحضر الخديو بنفسه الى نظارة المالية وأخذ ينصح المتجمهرين فاندهش الضباط لما رأوه بينهم وتفرقوا وسكنت الفتنة وأمر جنابه النظار فصرفوا مرتبات الجنود فى الحال واستعفى كل من نوبار باشا ورياض باشا تخلصا من المسؤولية ولم يستعف الوزيران الاجنبيان وجعل الخديو نجله الاكبر المرحوم محمد توفيق باشا رئيسا لمجلس النظار وقد دار على ألسنة الخاصة ان قيام الجنود بهذه المظاهرة كان من تدبيرات الخديو لانه لما رأى تداخل الاجانب فى أعماله سيما من ولاهم النظارة أراد التخلص منهم بسبب لا يردوهو ارادة الامة التى يعرف الاجانب مقدار ارادتها وقد تأيدت هذه الرواية من مصادر كثيرة جديرة بالاعتبار منها ان الخديو أوعز الى المجلس الذى جمعه من الاعيان وأعضاء الشورى بوضع قانون مالى عام يتمكن به من الغاء القرارات السابقة التى أقر الخديو عليها مضطرا ولما اجتمع المجلس المذكور فى يوم ١٠ ربيع الآخر من سنة ١٢٩٦ وحضر جمعيته الحافلة جميع العلماء الاعلام والذوات الفخام والمأمورين الكرام ووجوه البلدة وأعيان المملكة ومعتبرى الاهالى اقر الجميع على لائحة عرفت باللائحة الوطنية اشتملت على ثلاثة أقسام الاول فى تسوية الايرادات والثانى فى تسوية الديون والثالث فى تسوية مصروفات الحكومة وقد أدرجناها بأسفل الصحيفة اتماما للفائدة كعادتنا (١) ولما عرضوا هذه اللائحة العمومية على سمو الخديو أصدر عليها ارادته السنية الى المشير محمد شريف باشا بتاريخ ٧ ابريل سنة ١٨٧٩ بوجوب اجراء المواد المندرجة فيها ثم عزل الخديو

(١) صار اطلاعنا على المشروع المتقدم من سعادة ناظر المالية ووجدناه لا يوافق لوطننا فلاجل سد الخلل وتدارك الامر قبل فواته فن بعد المذاكرة بيننا رأينا وجوبا أن نقدم مشروعا حافظا لحقوق العموم داخلا وخارجا مع احترام الشرائع المقدسة والقوانين المؤسسة وها هو المشروع المذكور مرفق مع هذا ولكون هذا المشروع ما صار اعماله وتحريره الا بعد حصول علم اليقين لدينا بان ايرادات مصر هى كافية لسداد الديون المطلوبة من الحكومة حسبما هو موضح بالمشروع المذكور فلاجل ذلك نحن عن أنفسنا ونيابة عن أبناء وطننا صممنا جزما على بذل كل مجهودنا فى تأدية ديون الحكومة وبذل كافة ما فى وسعنا وطاقتنا فى اجراء ذلك وبذا صار ختم هذا اعلانا بتصديق ذلك وباننا متحدون اتحادا تاما قولا وفعلا فى الاجراء تحريرا بمصر يوم الاربع ١٠ ربيع الآخر سنة ١٢٩٦

محل الاختام

Digitized by Google

الوزيرين الانكليزى والفرنسوى وأصدر أمراعاليا آخر بتاريخ ١٦ ربيع الآخر

(القسم الاول فى تسوية الايرادات) ـ بمشروع نظارة المالية مقدر الايرادات بمبلغ ٩٤٠١٤٧٥ ليرة مصرى بما فيه ايراد المقابلة ومستنزل من ذلك المبلغ قيمة ايراد المقابلة البالغ قدره ١٫٤٠٨٫٤٩٣ ليرة مصرى نظرا لابطالها ومضاف على الايرادات قيمة الامتياز السابق خصمه لاربابه لغاية سنة ١٨٧٦ لاعادة ربط الاموال كما كانت قبل المقابلة ثم ومستنزل مبلغ أربعمائة وسبعين ألف ليرة وكسور قيمة المائة ثلاثة المقتضى اعطاؤها لمن دفعوا المقابلة لغاية سنة ١٨٧٨ ثم ومضاف على الايرادات ١٥٠٫٠٠٠ ليرة مصرى ايراد جديد على الاطيان العشورية * وحيث ابطال المقابلة يترتب عليه حرمان أربابها من امتيازاتها المسموح لهم بها بمقتضى قانونها فيوافق وجوب استمرارها على ما هى عليه حسب قانونها الغا الاسكونت المستحق خصمه فى سنة ١٨٧٦ على ما دفع ويدفع من سنة ١٨٧٧ لغاية ١٨٨٥ على الاطيان العشورية والخراجية يجرى خصمه وتنزيله من المربوط على تلك الاطيان فى سنة ١٨٨٦ باعتبار المائة خمسة للمساواة بأرباب الديون * وبذلك صارت الايرادات المقررة للحكومة بالمدة من سنة ١٨٧٩ لغاية سنة ١٨٨٦ هى كالموضح بالجداول نمرة ١ ونمرة ٢ على الاساس المتخذ لذلك بمشروع نظارة المالية وهذه الايرادات يمكن تحصيلها لان المتحصلات الواردة فى سنة ١٨٧٧ تبلغ ٩٫٣٠٠٫٠٠٠ ليرة مصرى عدا ما فى ذلك مصروفات الجهات التى كان معتادا خصم مصروفاتها من ايراداتها مثل السكة الحديد والمحاكم الشرعية وبعض جهات وبهذا المشروع صار اعتبار مصروفاتها ضمن مصروفات الحكومة العمومية بمعنى ان الايرادات الموضحة بجداول نمرة ١ ونمرة ٢ هى ايرادات خام

(القسم الثانى فى تسوية وتسديد ديون الحكومة) ـ (سلفة روتشلد) هذه السلفة تفضل على ما هى عليه حسب الكونتراتو المعمول عنها بمعرفة نظارة المالية (دين السكة الحديد الممتاز) هذا الدين يفضل على ما هو عليه حسب المنصوص عنه بالدكريتو الصادر فى شهر نوفمبر سنة ١٨٧٦ (الدين المتحد) هذا الدين يعطى عليه فوائد قدرها ٦ فى المائة فى السنة وأمورتسمان منتظم المائة مائة بمبلغ ٤٦٠٠٠ ليرة سنوى الغا يحجز من الفوائد المذكورة سنوى المائة واحد على ما يتبقى منه من ابتداء سنة ١٨٧٩ لغاية سنة ١٨٨٥ وقيمة المائة واحد المذكورة يجرى مشترى سندات بها من هذا الدين بالاسعار الحاضرة لغاية المائة سبعين والسندات التى يجرى مشتراها يصير اعدامها بمعرفة صندوق الدين العمومى واذا وجدت الاسعار عالت عن المائة سبعين فيكون الاطفاء بالقرعة حسب المنصوص من ذلك بالدكريتو الصادر فى شهر نوفمبر سنة ١٨٧٦ ثم فى سنة ١٨٨٦ تعطى الفوائد البالغ قدرها ٦ فى المائة سنويا لحاملى السندات من دون استقطاع ويكون الاطفاء من ابتداء سنة ١٨٨٦ بالقرعة المائة مائة بواقع خمسة أثمان فى المائة على ما يتبقى من هذا الدين وبيان تسديدات ذلك موضح بجدول نمرة ٥ ومشترى السندات الموضحة هو بخلاف المبالغ الواردة بجدول نمرة ٥ التى هى أيضا لازم مشترى سندات بها (السلف الصغيرة وهى سلفة سنة ٦٤ وسلفة ٦٥ وسلفة سنة ٦٧) هذه السلف تفضل على ما هى عليه بفوائدها ومددها حسب المنصوص عنها بالدكريتو الصادر فى شهر نوفمبر سنة ١٨٧٦ وتتسدد دفعاتها السنوية من ايرادات المقابلة حسب الموضح بالجدول نمرة ٣ (دين السنديكاتو الفرنساوية ومقاولين مينة اسكندرية) هذه الديون يبلغ مقدارها ٤٩٧٠٠٠٠ ليرة استرلينة من ذلك ليرة ٤٤٠٠٠٠٠ للسنديكاتو ومرهون عليه حصص المائة خمسة عشر فى تأسيس قنال السويس ومرهون عليه أيضا مصلحة مياه اسكندرية وسندات دين متحد بمبلغ ٤٫٦٠٠٫٠٠٠ ليرة ومبلغ ٥٧٠٫٠٠٠ ليرة مطلوب مقاولين مينة اسكندرية ومرهون عليه سندات دين متحد بمبلغ ٢٠٠٠٠٠ ليرة وكيفية تسديد ذلك هى أولا مبيع حصص التأسيس المحكى عنه بمعرفة الحكومة ودفع الثمن للسنديكاتو وقد تقرر ثمنها الآن بوجه التقريب مليون ليرة ويمكن ان يزيد من ذلك ثم ان مصلحة مياه اسكندرية التى صار مبيعها بمبلغ ٣٠٠٫٠٠٠ ليرة يعطى ثمنها أيضا للسنديكاتو وبذلك يكون الباقى للسنديكاتو مبلغ ٣٫١٠٠٫٠٠٠ وباضافة مبلغ ٥٧٠٫٠٠٠ مطلوب مقاولى المينة تصير الجملة ٣٫٦٧٠٫٠٠٠ ليرة هذا يجرى سداده فى مدة خمس سنوات ونصف بفوائد المائة خمسة فى السنة من ابتداء سنة ١٨٧٩ وتسديد ذلك من فوائد وأمورتسمان فى ظرف هذه المدة يكون أولا من قيمة قبونات ٦٫٦٠٠٫٠٠٠ ليرة دين متحد الذى يصير

سنة

سنة ١٢٩٦ (٨ ابريل ١٨٧٩) الى شريف باشا باحالة رئاسة مجلس النظار لعهدته مع نظارتى الداخلية والخارجية وبتعيين اسمعيل راغب باشا لنظارة المالية وشاهين باشا

ابقاؤهم بطرف السنديكانو بنوع الضمانة ثانيا من باقى ايرادات المقابلة ودفعيات ذلك موضحة بجدول نمرة ٤ و بنهو الخمس سنوات ونصف يصير ارتداد سندات ٦ر٦٠٠ر٠٠٠ ليرة الضمانة لصندوق الدين العمومى و بمعرفته يصير اعدامها (مطلوب جرنفلد مقاول مينة اسكندرية عن الاشغال التى أجراها من سنة ١٨٧٧) هذا الدين يبلغ تقريبا ٥٠٠ر٠٠٠ ليره ومرهون عليها ايرادات المينة فيفضل على أصله رهينته انما الفوائد تكون خمسة فى المائة فى السنة بدل عشرة والاصل والفوائد تتسدد من ايرادات المينة لحين الانتهاء (ديون الدائرة السنية) من حيث ان أطيان وأملاك الدائرة السنية قد صار التنازل عنها للحكومة والمخصصات الخديوية لا يمكنها الآن القيام بوفاء التعهدات المربوطة فى الكونترانو الرقيم ١٢ يوليو سنة ١٨٧٧ فالحكومة تضمن دفع المائة واحد سنوى على ماينبقى من الديون المذكورة وهذه الضمانة تبطل متى كانت ايرادات الدائرة تسمح باعطاء ٧ فى المائة على ديونها وقيمة دفعيات المائة واحد موضحة بجدول نمرة ٦ وادارة الدائرة تكون على حسب الكونترانو المعمول عنها انما تكون تحت ملاحظة مجلس النظار (دين الخاصة) هذا الدين يفضل على أصله حسب الكونترانو المعمول عنه ودفعياته السنوية من فوائد وأمور تسمان تدفع من ايرادات الحكومة حيث المخصصات لا الآن ماتسمح بتسديد ذلك وقيمة الدفعيات السنوية موضحة بجدول نمرة ٦ (الديون المطلوبة الى بيت المال وصندوق الايتام والمكاتب الاهلية) هذا الدين يبلغ ٤٦٨٠٠٠ ليرة مصرى يجرى تشغيله لاربابه بفوائد المائة خمسة فى السنة من سنة ١٨٧٩ وتلك الفوائد يبلغ مقدارها ٢٣٤٠٠ ليرة سنوى يجرى دفعه من المصاريف المقررة للحكومة الواردة بجدول نمرة ٦ لحين ما يمكن دفع المال الاصلى و بما أنه من ضمن ذلك المبلغ جانب مطلوب للايتام والارامل بصندوق الايتام هذا مع معرفة مقداره يجرى صرفه لاربابه فى أوقات الامكان (الدين المطلوب الى بابانو مقاول الترعة الاسماعيلية) حيث ان هذا الدين مرهون عليه ايرادات الترعة الاسماعلية فيفضل على أصله والفوائد التى تستحق للمذكور البالغ قدرها سنويا ١٤٠٠٠ ليرة حسب المقدر بمشروع نظارة المالية تدفع من ضمن المصاريف المقررة للحكومة الوارد بجدول نمرة ٦ (الدين المدفوع باسم سهام الرزنامه) حيث ان هذا الدين مدفوع بمقتضى قانون فيحفظ الحق المعطى لاربابه بالقانون المذكور لحين ماتسمح ايرادات الحكومة بدفعه (ديون الحكومة السائرة) هذا الدين مقرر فى مشروع نظارة المالية بمبلغ ٥١٥٩٠٠٠ ليرة مصرى بعد التنزيلات المذكور عن تنزيلها ومضاف على ذلك المبلغ ٢٤١٠٠٠ ليرة مصرى فوائد مستحقة لغاية ٣١ دسمبر سنة ١٨٧٨ بالمائة خمسة فى السنة جملة ذلك ٥ر٤٠٠ر٠٠٠ ليرة مصرى فهذا يكون تسديده بالكيفية الآتية وهى أولا بتعيين قومسيون مخصوص لتحقيق المقتضى تحقيقه من تلك الديون ثانيا متأخر الماهيات والمعاشات والاجرية لغاية سنة ١٨٧٨ يصرف بالكامل من نقود سلفة روتشلد وما يبقى يصير توزيعه على ارباب الديون وعلى أى الحالات لا يمكن أن يكون التوزيع بأقل من خمسة وخمسين فى المائة على فرض وجود ماهيات ومعاشات وأجرية بقيمة الديون والخمسمائة ألف ليرة المقررة لذلك بمشروع نظارة المالية واذا كان أقل من ذلك فكامل الزيادة يصير توزيعها على أرباب الديون علاوة على الخمسة وخمسين فى المائة ثالثا احتساب الفوائد لغاية ٣١ دسمبر سنة ١٨٧٨ على الخلاصات تكون بالمائة ١٢ فى السنة بالموافقة لاحكام الخلاصات احتراما لها وذلك اعتبارا من التواريخ المحكوم بها بالخلاصات وفوائد باقى المطلوبات التى تكون بدون خلاصات تكون باعتبار خمسة المائة فى السنة من تواريخ استحقاقاتها لغاية ٣١ دسمبر سنة ١٨٧٨ على المبالغ التى يستحق عليها قانونا فوائد وما ينبقى من المطلوبات بعد دفع النقود الباقية من سلفة روتشلد وهذا الباقى الذى يتجاوز من مبلغ ١٧٥٥٠٠٠ ليره مصرى عبارة عن ١ر٨٠٠ر٠٠٠ ليرة استرلينه هذا يكون سداده فى مدة أربع سنوات ونصف من ابتداء سنة ١٨٧٩ بفوائد خمسة المائة فى السنة بضمانة ماهو متبقى من ايرادات المقابلة والامور تسمان يبتدئ من سنة ١٨٨٠ أما سنة ١٨٧٩ فتدفع الفوائد فقط من نقود سلفة روتشلد ومقدار الدفع السنوية موضح بجدول نمرة ٣ ويعطى أيضا تأمينا لباقى الديون السائرة المقتضى امتدادها علاوة على باقى ايرادات المقابلة جميع أملاك وأطيان الميرى

Digitized by Google

لنظارة الجهادية وزكى باشا لنظارة الاشغال العمومية وذو الفقار باشا لنظارة الحقانيـة ومحمد ثابت باشا لنظارة المعارف العموميـة والاوقاف وعمر لطفي باشا لتفتيش عموم الاقاليم بحري وقبـلي (١) ولما أبلغ شريف باشا القناصـل الجنرالية خبر تشكيل الوزارة على الصورة المذكورة وأن الخديو أمر بزيادة الجيش كما كان قبـل شق ذلك على دولتي انكلتره وفرانسا لانهما اعتـبرتا أعمـال الخديو هـذه عدوانية فسعيا الى الانتقام منـه بكل ما لديهـما من الوسائل وخابرتا دولة المانيا والروسـيا

الغير المرهونة ولم تكن لازمة للبرى التى يصير توضيح بيانها فى المستقبل بكشف يعمل عن ذلك فيما بعد بمعرفة الحكومة بصير تعيين قومسيون لبيعها ومن قيمتها يصير سداد الباقى من هذا الدين أولا ولو قبـل حلول مواعيـده وتوفير الفوائد * حيث ان قوبون الدين المستحق فى أول مايه سنة ١٨٧٩ للآن لم يستكمل فى صندوق الدين ونقص استكماله ٨٠٠٠٠٠ ليره تقريبا وايرادات المقابلة نظرا الصـدور منشورات المالية بعـدم تحصيلها متأخر عليها نحو مبلغ ٢٠٠٠٠٠ ليره مقتضى دفعه فى أول مايو السنة المذكورة أيضا فى اجراء مشروعنا هذا وترتيب الهيئة الآتى القول عنها كل ما نقص من هذه المبالغ نكون ملزومين بتأديتـه من الايرادات لغاية تكميل فوائد الاثنـين ونصف فى المائة للدين المتحد فى مدة ثلاثين يوما من تاريخ ترتيب هيئـة النظارات أما النصف فى المائة المقتضى اطفاؤه من سندات الدين المتحد بالمشترى فيكون اجراؤه من أول ايرادات ترد من الجهات المرهونة لهذا الدين من بعد سداد قيمة الاثنين ونصف فى المائة الفائض (القسم الثالث فى تسـوية مصروفات الحكومة) ـ حيث مصروفات الحكومة وهى ويركو الاستانة ومخصصات الحضرة الخـديوية والفاميليا وفوائد سـهام قنال السـويس وماهيات ومصروفات جميع الاقالـيم والدواوين والمصالح عدا فى ذلك فوائد مطلوب بانو ومطلوب الاوقاف وبيت المال والمكاتب الاهليـة لا تتجاوز عن مبلغ أربعة مليون ليره مصرى وقـد صار اعتبار تلك المصاريف فى سنة ١٨٧٩ بمبلغ ٤٠٧٦١٣٤ ليره استرلينه ومن ابتداء سنة ١٨٨٠ تكون بواقع ٤١٠٢٥٦٤ ليره استرلينه ومندرج ذلك بجدول نمرة ٦ بحيث انه يمكن اعمال توفـيرات من ذلك من دون أن يحصل منها توقيف فى ادارة الاشـغال وذلك قياسا على ما كان مرتب صرفـه فى سـنة ١٨٧٧ اه ولهذه اللائحـة خاتمة تحتوى على الفروقات الظاهرة ما بين مشروع المالية وما بين مشروع الجمعيـة ويليها الجداول الستة ومن أراد المراجعة فليراجع مجموعة ديكريتات سنة ١٨٧٩ صحيفة ٧٨ ـ ٨٠

(١) انى بصـفة كونى رئيس الحكومـة ومصر بأرى من الواجب على أن أتبع رأى الامـة وأقوم باداء ما يليق بها من جميع الاوجه الشرعية لكنى لما نظرت السير الذى كانت عليه النظارة السابقة حصل لى غاية الاسف من أن ذلك السير كان على غير رضا الملة والاهالى حتى نشأ عنـه اضطراب ونفور سرى فى جميع القلوب وحركها وكانت قبـل ذلك فى غاية الهـدو والسكون وطالما أخبرت النظار ووكلاء الدول ونبهتهم على تلك المحوظات فـلم يتيقظوا لها ولم يلتفتوا اليها وزيادة عن ذلك فان النتيجة التى حررها ناظر الماليـة وأظهر بها ان القطر فى حالة العـدم وأبطـل العمل بمقتضى القوانين المعتبرة وتجارى فيها على الحقوق الثابتة كانت سببا لتغيير قلوب الامة ونفورها من هيئـة النظارة كل النفور وحقق لى ذلك المحضر الذى تقـدم لى فى هذا الخصوص فاجابة لما عرض على بذلك وبالنظر لثبوته عنـدى قـد كلفتكم بتشكيل هيئـة النظارة بناء على الارادة الصادرة فى ٢٨ أوغـطس سـنة ١٨٧٨ وأن تكون تلك النظارة مشكلة من أعضاء أهليين مصريين يتبعون فى سيرهم الطرق المنصوص عليها فى الارادة المذكورة وأن يحفظوا على مأموريتهم كل التحفظ اذ أنهم مكلفون بالمسؤلية لدى مجلس الامة الذى سيجرى انتخاب أعضائه وتعيين مأموريه بوجـه كاف للقيام بتأدية ما يلزم للحالة الداخليـة ومرغوب الامة نفسها ولتجتهد النظارة قبـل كل شئ فى أن تستعد لاستحضار قوانين مماثلة للقوانين الجارى عليها العمـل فى أوروبا مع مراعاة عوائد الاهالى وأخـلاقهم وما يلزم لهـم ولتلتفت أيضا تلك النظارة كل الالتفات لتنفيذ ترتيب المالية الذى رتبه عمد القطر وأعيانه وحصل التصديق عليه منى ولا تتأخر عن اجراء اللازم فى ايجاد مصلحة لتفتيش الايراد والمصرف لانها هى التأمـين اللازم للقطر والمنافع المرهون عليـه ومنصوص عنها فى الارادة الصادرة فى ١٩ نوفمبر سـنة ١٨٧٦ هـذا ولعلى بحسن إخلاصكم لخدمة الوطن فلا أشك فى أن تستعينوا على تلك المأمورية بالرجال المشهود لهم مثلكم بالامانة والاحترام لدى الجميع لتتم بكم المقاصد المؤدية الى التمدن والعمارية التى أريد ان يقترن بها اسمى فى ٧ ابريل سنة ١٨٧٩ التوقيع اسماعيل

Digitized by Google

واوستوريا وايتاليا فأقام الجميع الحجة على ذلك بمحررات أرسلوها الى الحكومة قال ابن دحلان في كتابه المسمى بالفتوحات الاسلامية انه لما ظهر على اسمعيل باشا كثرة ديون أخذها من الدول الاجنبية وأنفقها في غير حقها تشاور أهل الديون على انهم يضبطون خراجات مصر ومحصولاتها لاجل استيفاء ديونهم فلما أحس بذلك أراد أن يجعل له عصبية يمنعهم بها فتداخل مع العلماء وأهل مصر وعقد بينه وبينهم عهودا ومواثيق على أن الامور كلها تكون بيد العلماء والاهالي ويشاورتهم فلما أحس الانكليز والفرنسيس وغيرهما بانعقاد هذه العصبية سعوا في خلعه اه وقد لعب الموسيو تريكو (Tricoup) قنصل جنرال فرانسا والمستر فرنك لاسلس (Lasseles) قنصل انكلترة في هذه المسئلة دورا سياسيا مهما ثم طلبا بامر دولتيهما من اسمعيل باشا أن يعتزل الاريكة الخديوية فأبى ذلك كلية وأخذ يستعد لدفع ذلك بالقوة واجتمعا به قبل العزل بليلة وأخذا يلحان عليه في التنازل لابنه وولي عهده محمد توفيق باشا فأبى بحجة ان الباب العالي لا يجيزله ذلك فقال له قنصل فرنسا انك قد خالفت الباب العالي في نحو عشرين أمرا فعلام لا تخالفه في هذا الامر أيضا فقال له اسمعيل باشا اذكر لي أمرا واحدا منها إن استطعت أما الموسيو تريكو فخانته ذاكرته حينئذ ووقف صامتا فقال المستر لاسلس أما يجدر بسموكم ان تظهر واشيأ من استقلالكم عن الباب العالي فأجابه قائلا وما الفائدة من هذا الاستقلال اذا كان أول ثمرة من ثماره التنازل عن كل ما بيدي من السلطة فدهش المستر لاسلس من هذا الجواب المفحم ثم استمرا في الالحاح بلين الكلام تارة وقسوته أخرى حتى كاد الامر يفضي الى اشهار الحرب عليه من الدولتين المذكورتين كل ذلك وهو مصمم على الامتناع الابأمر متبوعه الاعظم ارتكانا على ان الحضرة السلطانية لا تقبل المداخلة من دول أوربا في أعمال مصر الداخلية كما هو القانون الدولي وكانت الدولة العثمانية تخلصت قبل ذلك بمدة يسيرة من حروبها مع الروسيا ومشاكلها الداخلية العديدة التي كانت الروسيا أثارت غبارها قبل تلك الحرب المشؤمة التي أضاعت منها عدة بلاد من أملاكها بآسيا وأوربا كما هو معروف فلما طلبت منها دولتا انكلترة وفرنسا انزال اسمعيل باشا عن الاريكة الخديوية أرادت في أول الامر حمايته وان كانت في الحقيقة تتمنى ذلك ولكنها لما رأت انضمام باقي الدول الاوربوية الى الدولتين المذكورتين في هذا الطلب وعلمت ان لا مناص لها من انفصاله والافضل رغما عنها بتعصب دول أوربا حفظا لناموسها وسلطتها ومنعا لما عساه أن يطرأ من اتحاد الدول عليها أسرعت وأرسلت أمرا بالتلغراف الى اسمعيل باشا تعلمه بانفصاله عن ولاية مصر وكان ذلك في يوم الخميس الموافق ٦ رجب سنة ١٢٩٦ ﻫ (٢٥ يونيو ١٨٧٩ م) وأمرا آخر الى ابنه محمد توفيق باشا بتوجيه مسند الخديوية اليه

هذا وقد شاع يومئذ بين رجال الحكومة أمر غريب وهو عزم الخديو اسمعيل باشا على ان يتنازل لاحد أنجاله وحرمان أكبرهم وولي عهده كمقتضى الفرمان السلطاني وذلك لاسباب لم يصرحوا بها حتى أشاعوا أيضا بأنه يسعى في الايقاع بولي عهده ولما علم قنصل انكلترة بذلك أخذ كل الاحتياطات اللازمة لحماية المرحوم توفيق باشا من بطش والده ويقال انه في مقابلة ذلك عاهده سرا عند دولته أن يجتهد في ترويج المصالح البرطانية بالديار المصرية ويقبل مساعدة انكلترة له ويستشيرها في كل المعضلات وغير ذلك مما أشاعوه وقد أخبرت بعض الجرائد الفرنساوية بذلك حتى قال بعضها ان الامير حليم باشا يسعى في نوال مركز الخديوية بمساعدة فرانسا وان الباب العالي

Digitized by Google

مرتاح لذلك ونشر بعض تلك الجرائد أيضا صورة معاهدة قال انها التى عقدها الانكليز مع توفيق باشا وهذه الاقوال لم يؤيدها شئ للآن ويقال أيضا ان قنصلى انكلترة وفرانسا أبلغا اسمعيل باشا على يد شريف باشا بأنه اذا لم يتنازل لاكبر أنجاله صدر الفرمان باسم عبد الحليم باشا فاضطر الى التنازل

محمد توفيق باشا ابن اسمعيل باشا ابن ابراهيم باشا ابن محمد على باشا

١٢٩٦ - ١٣٠٩ هـ

الفصل التاسع عشر

أسباب ومقدمات الثورة العرابية والاحتلال البريطانى

لما ورد تلغراف الصدر الاعظم خير الدين باشا التونسى المعلن بانفصال اسمعيل باشا عن الاريكة الخديوية وتولية ولده الاكبر محمد توفيق باشا كانت أحوال البلاد مضطربة بسبب المشاغل الاهلية والمشاغب الدولية والمصائب السياسية الناجمة عن سوء الادارة الماضية التى أحدثت التداخل الاجنبى فى أمور البلاد الداخلية بسبب المصاعب المالية التى فصلنا أسبابها ولما كان المرحوم توفيق باشا ممن اتصفوا بالذكاء والفطنة ويعلم جيدا ما وصلت اليه البلاد من الانحطاط بسبب سوء الادارة ومطامع الحكام ويتمنى من صميم فؤاده اصلاح الاحوال ومداواة عللها أخذ ينظر فى ذلك نظر الخبير فاطمأنت الخواطر وأخلدت الى الامل بانحسام المشاكل ولما كان يخاف من الدسائس التى كانت ولا شك تعرقل سيره فى طريق الاصلاح سهل لجناب والده سبيل الاقامة خارج البلاد فبارح مصر فى يوم ١١ رجب من سنة ١٢٩٦ وأخذ معه عائلته وأتباعا عديدين وقدرا وافرا من الاموال التى كان ادخرها لنفسه وكان لوداعه بمحطة السكة الحديدية احتفال جسيم أثر على الحضور تأثيرا حتى أبكى الكثيرين ولما آن سفر القطار تشكر لجمهور الحضور وصافح البعض ثم التفت الى نجله المرحوم توفيق باشا وأوصاه بوصية مؤثرة دالة على قدره وجودة عقله وهاهى منقولة عن كتاب مصر للمصريين (لقد اقتضت ارادة سلطاننا المعظم أن تكون يا أعز البنين خديوى مصر فاوصيك باخوتك وسائر الآل براو اعلم انى مسافر وبودى لو استطعت قبل ذلك ان أزيل بعض المصاعب التى أخاف أن توجب لك الارتباك على انى واثق بحزمك وعزمك فاتبع رأى ذوى شوراك وكن أسعد حالا من أبيك) ثم أقلع من ثغر الاسكندرية على يخت المحروسة بقصد مدينة نابل من مدن ايطاليا وأكرم ملك ايطاليا وفادته وأسكنه بقصر بديع من قصوره لما كان بينهما من المودة السابقة وأجرت عليه الحكومة المصرية مرتبا شهريا يتقاضاه من خزينتها هذا ولما جلس المرحوم توفيق باشا واستلم زمام الاحكام قدمت الوزارة استعفاءها جريا على القواعد المألوفة فى مثل هذا التغيير فقبل الخديو استعفاءها وشكل وزارة جديدة برياسة المرحوم شريف باشا (١٣ رجب) وكان على نظارتى الداخلية والخارجية وجعل اسمعيل أيوب باشا لنظارة المالية وعلى غالب باشا لنظارة الحربية ومصطفى فهمى باشا لنظارة الاشغال العمومية ومحمود سامى باشا لنظارة المعارف والاوقاف ومراد حلمى باشا لنظارة الحقانية وبعث للوزارة منشورا (١) أبان فيه خطته التى يرغب السير عليها فيما يتعلق بسياسته رعا

(١) ان العناية الالهية سلمت زمام الحكومة المصرية الى يد نا فضلا منه واحسانا فقد تشرفنا بأمر شريف بذلك من

Digitized by Google

ينوى عمله من الاصلاحات ففرح الناس والوزراء بذلك وكان أول ما اهتم الوزراء بنظره الديون السائرة قصد تسويتها ونظروا فيما خصص للعائلة الخديوية من المرتبات رغبة فى التوفيق بين ايرادات الحكومة ومصروفاتها فجعلوا للحضرة الخديوية سنويا ١٠٠،٠٠٠ ليرة مصرية ولوالده ٣٠،٠٠٠ ولما رفع اليه القرار بذلك تنازل لوالده عن ٢٠،٠٠٠ ليرة تضم الى مرتبه وألغى ما كان خصص لوالدته وحرمه وقدره ٥٥،٠٠٠ ليرة فأنزلت بذلك مرتبات العائلة الخديوية من ٣٠٠،٠٠٠ ليرة سنويا الى ٢٤٥،٠٠٠ كل ذلك اقتصادا منه لمساعدة المالية بعد ان أنهكها الاسراف وفى أوائل شعبان أصدر أمرا الى ناظر الجهادية بعدان تداول فيه مع الوزراء بصرف عشرة آلاف جندى من الجيش العامل وبذلك صار الجيش يتألف من ١٢،٠٠٠ جندى فقط ومما نظرت فيه الوزارة أيضا ايجاد مصلحة للتاريع لمساحة أطيان القطر وصدر بذلك أمر عال تاريخه ١٠ اغسطس سنة ١٨٧٩ وبقيت هذه المصلحة الى سنة ١٨٨٠ ثم استبدلت بلجنة تشكلت تحت رئاسة محمد رستم باشا وعضوية كل من محمود بك الفلكى ورسو بك وموسيو كولفن ولغط الناس بخصوص تأخير صدور الفرمان السلطانى سيما وقد صدر بجرائد أوروبا منشور الباب العالى الى الدول الذى بين فيه كيفية تنازل اسمعيل باشا واضطراره لالغاء فرمان سنة ١٨٧٣ مع حفظ ما للبلاد المصرية من امتيازات الاستقلال وأوجس أولياء مصر من هذا الامر خيفة ونهضت دول أوروبا كعادتها فى كل ما من شأنه الحط من مقام الدولة العثمانية بالاعتراض على ذلك المنشور حتى يروى ان انكلتره وفرنسا صممتا اذ ذاك على المناداة باستقلال مصر استقلالا تاما اذا لم يرجع

متبوعى الافخم وسلطانى الاعظم نصره الله فهذه نعمة لا يؤدى شكرها الا بحسن القيام باداء وظائف ذلك المقام وهذا انما يكون بتوفيقه تعالى فعلى السعى والاجتهاد فى تمشية مصالح العباد وادارة أمور الحكومة على محور الاستقامة وانى أعلم أن المقام صعب لكنى بحسن اخلاصى وما رأيته من حسن القبول من الناس جميعا خصوصا من سكنة الديار المصرية عموما ومن المأمورين كافة أعتقد ان ذلك الصعب يهون ويحصل التيسير * ولعلمى أن الحكومة الخديوية يلزم أن تكون شورية ونظارها مسؤلين فانى اتخذت هذه القاعدة للحكومة مسلكا لا أحول عنه فعلينا تأييد شورى النواب وتوسيع قوانينها لكى يكون لها الاقتدار فى تنقيح القوانين وتصحيح الموازين وغيرها من الامور المتعلقة بها وبحسب مقتضيات الاحوال صار انتخاب هيئة جديدة بمعرفتكم وتحت رياستكم وانى معتقد فى مأمورى الحكومة المصرية الصدق والاستقامة ومؤمل بانهم يسيرون فى المستقبل بالسيرة المرضية ويعرفون أن أعظم الغنى غنى النفس وأعلى الشرف شرف العفة وأغلى الحلى حلية الاستقامة وأقوم الطرق طريق الحق والعدالة فأول ما يجب المبادرة اليه من الامور هو دفع المشكلات المالية التى هى منشأ الصعوبات كلها فيلزم بذل المساعى المقتضية فى اندفاعها لايصال الحقوق الى اربابها مع ملاحظة مصاريف الحكومة وهذه المسئلة وان كانت صعبة بسبب المضايقة الحاصلة لكنى أؤمل حصول التخلص منها باستعمال التدابير الحسنة ولا شك انكم تبذلون فى ذلك جهدكم بالاتحاد مع سائر النظار ويجب علينا اصلاح المحاكم والمجالس لانها هى ملجأ أرباب الحقوق وبها يأخذ الضعيف حقه من القوى وينجو الرشيد من جور الغوى ويجب علينا أيضا دوام السعى فى تعميم التربية العمومية لتنوير أذهان الاهالى بتحسين حال المدارس وتنسيق نظامات مفيدة لها على الوجه المرغوب وأيضا يجب الاهتمام بالاشغال العمومية النافعة وتوسيع دائرة الزراعة لانها منبع الغنى فى القطر المصرى وأيضا التجارة مما يلزم الاعتناء بشأنها والسعى فى تكثيرها واعطاء كمال الحرية لها هذا مع الاهتمام باصلاح ما يلزم اصلاحه من أصول الادارة فى جهات الحكومة بأجمعها واراحة العباد على قدر الامكان بهذه أظنها سبل الرشاد ومناهج العدل والسداد ومسالك تدبير الممالك فى كافة الاقطار والامل أن تصرفوا هممكم فى رؤية أمور الحكومة بتحدى القلوب متفق الافكار وفقنا الله لما فيه الخير والصلاح انه ولى التوفيق

فى ٣ يوليو ١٨٧٩ اهـ صحيفة ١٠٢ قسم أول دكريتات التوقيع

محمد توفيق

Digitized by Google

الباب العالى عن عزمه من نزع بعض امتيازات مصر ولا يخفى انهما هما وغيرهما من دول أوربا دائبان عاملان فى فصل ممالك الدولة عنها ليتسنى لهما عند الفرصة التهام تلك الممالك بلا معارض وكانت وزارة خير الدين باشا هى المعارضة فى أمر الفرمان والحاصل انه بعد مخابرات طويلة بين الدول والباب العالى واعتزال خير الدين باشا الصدارة العظمى وتوجيهها الى أحمد عارفى باشا صدر الفرمان السلطانى بتولية المرحوم توفيق باشا الخديوية المصرية (١) لكنه حصل به تعديل

(١) الدستور الاكرم والمعظم الخديوى الافخم المحترم نظام العالم وناظم مناظم الامم مدبر أمور الجمهور بالفكر الثاقب متمم مهام الانام بالرأى الصائب ممهد بنيان الدولة والاقبال مشيد أركان السعادة والاجلال مرتب مراتب الخلافة الكبرى مكمل ناموس السلطنة العظمى المحفوف بصنوف عواطف الملك الاعلى خديوى مصر الحائز لرتبة الصدارة الجليلة فعلا الحامل لنيشاننا الهمايونى المرصع العثمانى ونيشاننا المرصع المجيدى وزيرى سمير المعالى توفيق باشا أدام الله تعالى اجلاله وضاعف بالتأييد اقتداره واقباله انه لدى وصول توقيعنا الهمايونى الرفيع يكون معلوما لكم انه بناء على انفصال اسمعيل باشا خديوى مصر فى اليوم السادس من شهر رجب سنة ١٢٩٦ ﻫ وحسن خدامتكم وصداقتكم واستقامتكم لذاتنا الشاهانية ولمنافع دولتنا العلية ولما هو معلوم لدينا من ان لكم وقوفا ومعلومات تامة فى خصوص الاحوال المصرية وانكم كفؤ لتسوية بعض الاحوال الغير المرضية التى ظهرت بمصر منذ مدة واصلاحها وجهنا الى عهدتكم الخديوية المصرية المحدودة بالحدود القديمة المعلومة مع الاراضى المنضمة اليها المعطاة الى ادارة مصر توفيقا للقاعدة المتخذة بالفرمان العالى الصادر فى ١٢ محرم سنة ١٢٨٣ ﻫ المتضمن توجيه الخديوية المصرية الى أكبر الاولاد وحيث انكم أكبر أولاد الباشا المشار اليه فقد وجهت الى عهدتكم الخديوية المصرية ولما كان تزايد عمران الخديوية المصرية وسعادتها وتأمين راحة كافة أهاليها وسكانها ورفاهيتهم هى من المواد المهمة لدينا ومن أجل مرغوبنا ومطلوبنا وقد ظهر ان بعض أحكام الفرمان العلى الشأن المبنى على تسهيل هذه المقاصد الخيرية المبين فيه الامتيازات الحائزة لها الخديوية المصرية قد نشأت عنها الاحوال المشكلة الحاضرة المعلومة صار تثبيت المواد التى لا يلزم تعديلها فى هذه الامتيازات وتأكيدها وصار تبديل المواد المقتضى تبديلها وتعديلها واصلاحها فاتقرر اجراؤه الآن هو المواد الآتية وهى ان كافة واردات الخطة المذكورة يكون تحصيلها واستيفاؤها باسمنا الشاهانى وحيث ان أهالى مصر أيضا من تبعة دولتنا العلية وان الخديوية المصرية ملزمة بادارة أمور المملكة والمالية والعدلية بشرط أن لا يقع فى حقهم أدنى ظلم ولا تعد فى وقت من الاوقات فخديوى مصر يكون مأذونا بوضع النظامات اللازمة للداخلية المتعلقة بهم وتأسيسها بصورة عادلة وأيضا يكون خديوى مصر مأذونا بعقد وتجديد المشارطات مع مأمورى الدول الاجنبية فى خصوص الجمرك والتجارة وكافة أمور المملكة الداخلية لاجل ترقى الحرف والصنائع والتجارة واتساعها ولاجل تسوية المعاملات السائرة التى بين الحكومة والاجانب أو الاهالى والاجانب مع أمور ضابطة الاجانب بشرط عدم وقوع خلل فى معاهدات دولتنا العلية البولوتيقية وفى حقوق متبوعية مصر اليها وانما قبل اعلان الخديوية المشارطات التى تعقد مع الاجانب بهذه الصورة يصير تقديمها الى بابنا العالى وأيضا يكون حائز التصرفات الكاملة فى أمور المالية لكنه لا يكون مأذونا بعقد استقراض من الآن فصاعدا بوجه من الوجوه وانما يكون مأذونا بعقد استقراض بالاتفاق مع المدائنين الحاضرين أو وكلائهم الذين يتعينون رسميا وهذا الاستقراض يكون منحصرا فى تسوية أحوال المالية الحاضرة ومخصوصا بها وحيث ان الامتيازات التى أعطيت الى مصر هى جزء من حقوق دولتنا العلية الطبيعية التى خصت بها الخديوية وأودعت لديها لا يجوز لاى سبب أو وسيلة ترك هذه الامتيازات جميعها أو بعضها أو ترك قطعة أرض من الاراضى المصرية الى الغير مطلقا ويلزم تأدية مبلغ ٧٥٠ ألف ليرة عثمانية الذى هو الويركو المقرر دفعه فى كل سنة فى أوانه وكذلك جميع النقود التى تضرب فى مصر تكون باسمنا الشاهانى ولا يجوز جمع عساكر زيادة عن ثمانية عشر ألفا لان هذا القدر كاف لحفظ أمنية ايالة مصر الداخلية فى وقت الصلح وانما حيث ان قوة مصر البرية والبحرية هى مرتبة من أجل دولتنا العلية يجوز أن يزاد مقدار العساكر بالصورة التى تستنسب حالة كون دولتنا العلية محاربة وتكون رايات العساكر البرية والبحرية والعلامات المميزة لرتب ضباطهم كرايات عساكرنا الشاهانية ونياشينهم ويباح لخديوى مصر أن يعطى الضباط البرية والبحرية الى غاية رتبة أمير الاى والملكية الى الرتبة الثانية ولا يرخص

Digitized by Google

كطلب الدولة وهذا التعديل كما يظهر لمن يطلع على الفرمانين المذكورين المدرجين باسفل صحائف هذا الجزء ينحصر في أمرين مهمين هما التصريح للخديو بعقد مشارطات واتفاقيات مع الدول الاجنبية انما يشترط تقديم صورتها قبل اعلانها للباب العالي و بشرط عدم اخلالها بحقوق الدولة السياسية طبيعة كما هو مصرح به في الفرمانين المذكورين وثانيهما ان لا يؤذن بعد بعقد استقراض بأي وجه من الوجوه الا اذا كان لتسوية أحوال المالية المصرية الحاضرة ليس الا ويكون ذلك بالاتفاق مع المداينين الحاليين أو وكلائهم ثم ورد الفرمان الى مصر في ٢٦ شعبان سنة ١٢٩٦ (١٤ اغسطس ١٨٧٩ م) يحمله صاحب الدولة علي فؤاد بك باشكاتب المابين الهمايوني وبصحبه ابراهام باشا قبو كتخدا مصر في الاستانة وتلي رسميا بقاعة الغوري بالقلعة كما هي العادة وعمل له احتفال اعظم ما حضره الامراء والعظماء والذوات والاعيان ونواب المهمين من كل الطبقات وكذا قناصل الدول ثم استعفت وزارة شريف باشا (٣٠ شعبان) فصدر أمر عال بالغاء وظيفة رئيس مجلس النظار وصار الخديو بنفسه هو الذي يرأس المجلس وصار كل وزير مسؤلا عن أعمال نظارته وتقرر أيضا ان كل المسائل المهمة التي كانت تنظر في مجلس النظار سابقا يعقد لها مجلس مؤلف من رؤساء الادارات التابعة لذلك الناظر للنظر فيها وجعل منصور باشا للنظارة الداخلية وعلي حيدر باشا للمالية وذو الفقار باشا للحقانية ومصطفى فهمي باشا للخارجية ومحمد مرعشلي باشا للاشغال العمومية وعثمان رفقي باشا للجهادية والبحرية وعلي ابراهيم باشا للمعارف العمومية الا ان هذا الترتيب لم تطل مدته لانه بعد قليل استدعي رياض باشا من أوروبا ورفع عند وصوله الى مصر لسمو الخديو لائحة ببيان تنظيم الادارة المصرية كما يراه ولما عرضها على الخديو استحسنها وأصدر له أمرا (٢١ سبتمبر سنة ١٨٧٩) بتشكيل وزارة جديدة تكون تحت رئاسته فصدع بالامر وشكل وزارة صار هو فيها وزيرا للداخلية بالاصالة وللمالية موقتا وجعل عثمان رفقي باشا للجهادية والبحرية ومصطفى فهمي باشا للخارجية وعلي مبارك باشا للاشغال العمومية وحسين فخري باشا للحقانية وعلي ابراهيم باشا للمعارف العمومية ومحمود سامي باشا للاوقاف وكان قبل ذلك بسبعة عشر يوما صدر أمر خديوي بتعيين مفتشين يراقبان أمور المالية المصرية أحدهما فرنسوي وهو الموسيو دوبلنير والآخر انجليزي وهو الماجور بارنج ثم اتفقت الحكومة المصرية ودولتا انجلتره وفرنسا على يد تفصيل ما بمصر وهما الموسيو موبخ والمستر ادوارد ماليت (١٥ نوفمبر) بأن لا يكون للمراقبين المذكورين حق المداخلة في المصالح الادارية والمالية وصدر أمر عال بتحديد اختصاصاتهما ثم صرح لهما فيما بعد بحضور جلسات مجلس النظار وهو امتياز غريب في بابه اذ جعل لهما الحق في الاشراف على كل أعمال الحكومة مع أن أعمالهما

الخديوي مصر أن ينشئ سفنا مدرعة الا بعد الاذن وحصول رخصة صريحة قطعية اليه من دولتنا العلية ومن اللزوم رعاية كافة الشروط السالفة الذكر واجتناب وقوع حركة تخالفها وحيث صدرت ارادتنا السنية باجراء المواد السابق ذكرها قد أصدرنا أمرنا هذا الجليل القدر الموشح أعلاه بخطنا الهمايوني وهو مرسل بصحبة افتخار الاعالي والاعاظم ومختار الاكابر والافاخم علي فؤاد بك باشكاتب المابين الهمايوني ومن أعاظم رجال دولتنا العلية الحائز والحامل للنياشين العثمانية والمجيدية ذات الشأن والشرف ٩٤ حرر في تاسع عشر شهر شعبان المعظم سنة ١٢٩٦ من هجرة صاحب العزة والشرف اه صحيفة ١٠٤ من مجموعة منشورات ودكريتات سنة ١٨٧٩

Digitized by Google

لا تتعدى مراقبة الامور المالية ثم التفت النظار بهمة وعزم فأوجدوا كثيرا من الاصلاحات منها
جعل الاموال الاميرية على أقساط مقررة تدفع فى أوقات معينة من السنة وترقية مرتبات الموظفين
والمستخدمين وزيادة عددهم بحسب ما يلائم كل ادارة وتشكيل لجنة علمية للنظر فى أمر التعليم
جعلت تحت رئاسة على باشا ابراهيم ناظر المعارف (٢٧ مايو سنة ١٨٨٠) وأعضاؤها
المرحوم عبد الله فكرى باشا ولارميه باشا وسالم سالم باشا ودوربك وروجرس بك وفيدال بك
فاجتمعت مرارا وعدلت فى بروغرامات التدريس ووسعت نطاق التربية والتعليم فى البلاد ثم قدمت
تقريرا بذلك صدقت عليه الحكومة التى جعلت المال المخصص لميزانية المعارف ضعف ما كان
عليه وأبلغت ميزانية نظارة الاشغال العمومية الى ٦٠٠,٠٠٠ ليرة مصرية وجعلتها نظارة مستقلة
وبذلك أمكن النظر فى طرق الرى الذى هو أساس الثروة بالبلاد وانشاء القناطر والترع والجسور
وغير ذلك والحاصل ان البلاد انتعشت بهذه الاصلاحات ودخلت فى دور جديد وتناسى الناس أيام
الشقاء الماضية تقريبا ولما شاهد المرحوم توفيق باشا آثار هذه الاصلاحات طلب لرياض باشا رتبة
المشيرية من الدولة المتبوعة فأجابت طلبه بلا تأخير ولما كان منطوق المادة ٢٢ و ١١ من الامر
العالى الصادر فى ١٨ نوفمبر ١٨٧٦ بخصوص تسوية ديون الحكومة يقضى بتأليف مصلحة
مختلطة للسكك الحديدية وميناء الاسكندرية لان ايراداتها خصصت فيما خصص لسداد الديون
المصرية صدر فى ٢٣ سبتمبر سنة ٧٩ أمر عال بتشكيل الادارة المذكورة وجعل المستر لجرر
الذى كان قبل مديرا للسكك الحديدية وميناء الاسكندرية رئيسا لها عوضا عن الجنرال ماريوت
المتوفى وجعل المرحوم على صادق باشا الذى كان مديرا لعموم الجمارك من أعضائها وصدر أمر آخر
فى ٦ يناير سنة ١٨٨٠ بالغاء المقابلة وأوامر أخرى بالغاء كافة الضرائب الدنيئة مثل العوائد
الشخصية ورسوم القبانة والصيارفة ورسوم الارضية التى كانت تؤخذ بالاسواق الريفية والرسوم
المتحصلة من طائفة الغجر ورسوم بيع المواشى بمصر والاسكندرية والسويس وضريبة الاثنين
فى المائة المضاف الى رسوم الاملاك المخصص للأمورى تحصيلها ورسوم تسجيل العرائض والضمانات
والرسم المضاف الى رسوم القبانة ورسوم الدلالة ورسم علم الخبر ورسم الدخولية على الاصواف
ورسم تحقيق الاختام ورسم السمسرة ورسم دخولية الاوانى الفخارية ورسم جلود السلخانات
والرسم المتحصل من ايجار ما يبنى فى الاراضى الخراجية والعشورية ورسم قبانة اللحوم ورسم حراسة
القطن بمديرية البحيرة ورسم سراكى الشيالين وأصحاب الكارات فى الاسكندرية ورسم تربية
الاغنام والماعز فى مصر والاسكندرية ورسم ختم دفاتر القبانة ورسم السفن المشحونة رملا من
جهة الرمل الى الاسكندرية ورسم كيل الحبوب بالقليوبية والبحيرة ورسم الغيطان ومبيع
الفخار فى دمياط وغير ذلك من الضرائب التى كانت وجدت فى عهد الخديو السابق اسمعيل باشا لما
ضاقت به الحيل فى جمع النقود وامتنعت أوروبا عن تسليفه ما باها فارتاحت الاهالى من أثقال تلك
الجبايات والرسوم التى كانت تؤخذ قرشا قرشا من المحتاجين بعد التعب الشديد لتصرف بلا حساب
وفى غير مواضع شرعية كما تقدم ولما أزيلت هذه الضرائب بل الضربات النمس الوزراء من المرحوم
توفيق باشا أن يجول فى انحاء القطر جريا على العادة المألوفة عند تولية كل أمير جديد سيما وان الاهالى
كانوا يتمنون رؤيته منجولا ليقوموا له باظهار الولاء والاخلاص على ما منحهم من جليل النعم وخفف

Digitized by Google

عنهم من النقم فسافر على البواخر النيلية فى يوم ١٠ صفر سنة ١٢٩٧ (٢٢ يناير سنة ١٨٨٠ م) وقصد الصعيد أولا وزار أكثر بلاده الشهيرة وفعل كذلك بالوجه البحرى وقد قابلته الاهالى جميعا بمزيد السرور وأقاموا الزينات والافراح فى كل مكان مر أو حل به ثم عاد الى القاهرة وفى اليوم الرابع من شهر مايو من السنة المذكورة أصدر قبل سفره هذا بيوم أمرا بابطال أوراق البون المعروف ببون حليم باشا (١) وجعل للامير المذكور فى مقابلة ذلك ١٥٠٠٠ ليرة مصرية مرتبا سنويا

قانون التصفية (٢) - قرر مجلس النظار فى ١١ يناير من سنة ١٨٨٠ تشكيل لجنة خصوصية للنظر فى مبادئ أعمال التصفية جعل مرجع أعمالها منحصرا فى ناظر المالية وكاتم أسراره الثانى وكان الخديو وقتئذ رغب ان تكون أعمالها قاصرة على تصفية أموال الزمن الماضى واقامة حد فاصل بين الماضى والحاضر حتى لا تكون حكومته مسؤلة عن شئ مما مضى ولكى لا يذكره التاريخ بانه هو السبب فى اثقال كاهل مصر بتلك الديون التى أضاعت استقلالها كالدين السائر والدين المنتظم فقبلت أوروبا ذلك ولما قدم المفتشان الانجليزى والفرنسوى من أوروبا تطما الائحة لتسوية الدين المنتظم وقدماها للحكومة فى ١٧ يناير من سنة ١٨٨٠ (٥ صفر سنة ١٢٩٧ ﻫ) ثم تخابرا مع الحكومة طويلا لتسوية الديون الاخرى وأخيرا أصدر الخديو أمرا فى ٣١ مارث من سنة ١٨٨٠ بتشكيل لجنة التصفية وبها أعضاء من دول المانيا والنمسا

(١) لما ترك الامير عبد الحليم باشا العقار المصرية باع جميع أملاكه للخديو اسمعيل باشا بحجة كتبت فى ٢٨ ذى القعدة من سنة ١٢٨٢ (١٤ ابريل ١٨٦٦) وفى مقابلة هذا البيع تعهد له الخديو بدفع رأس مال القرض الذى استقرضه الامير المذكور وقدره ٧٠٠٠٠٠ ليرة انكليزية على شروط دونت فى الحجة المذكورة ثم باع حليم باشا أيضا للخديو المشار اليه جميع أملاكه المنقولة التى عالكها فى القطر المصرى بحجة ثانية امضاها كلاهما بالاستانة فى ١٢ ربيع الآخر من سنة ١٢٨٧ (١١ يوليو ١٨٧٠) ذكر فيها ان الخديو والخزينة المصرية بالتضامن يدفعان للامير عبد الحليم باشا كل سنة ٦٠٠٠٠ ليرة لمدة أربعين سنة متوالية من تاريخ التوقيع على الشروط المذكورة بشرط ان خزينة مصر تسلمه ٨٠ سندا على المالية قيمة كل سند منها ٣٠٠٠٠ ليرة انكليزية وتكون السندات بلا فائدة ويكون دفع قيمتها فى كل ستة أشهر ولا يكتب عليها اسم صاحبها وتكون كلها على شكل واحد ونوع واحد وانما يقيد عليها مدة الاستحقاق اﻫ

(٢) لما قصدت الحكومة المصرية تسوية ديونها وشكلت لجنة التحقيق العليا السابق الكلام عليها وجدت أن مصاريف الحكومة ومصاريف الخديو اسمعيل باشا متداخلة فى بعضها تداخلا لا يمكن معه معرفة الفرق بينهما ولا مقدار المنصرف والمسدد من الايرادات بالضبط الشافى ولذلك قدمت اللجنة المذكورة تقريرا فى ٨ ابريل سنة ١٨٧٩ أوضحت فيه عدم امكانها القيام باداء جميع تقاسيط الديون المنتظمة بأنواعها وعمل تصفية للديون الغير المنتظمة بتمامها فى آن واحد وقالت أيضا انه لاجل امكان توزيع ايرادات الحكومة الجائز التصرف فيها على مدا ينيها بوجه العدل والانصاف يلزم وضع قانون للتصفية يكون مرعى الاجراء فى حق جميع أصحاب الديون وأن يكون معتبرا لدى المحاكم المختلطة ولما حصلت المخابرة بين الحكومة ودول المانيا والنمسا والمجر وفرنسا وانكلترة وايطاليا أعلنت فى الحال بقبولها مبدئيا بذلك القانون وحرروا به قرارا متحدا وختموه بالاختام المنقوش عليها العلامات المخصوصة بدولهم فى ٣١ مارث من سنة ١٨٨٠ وأمضى عليه قناصل الدول المذكورة الجنرالية الذين بمصر وأصدر الخديو أمرا بتشكيل قوميسيون التصفية لتحقيق الحالة المالية بأسرها مصرحا له باستماع ما يبديه له أولوا الشأن وتخصيص ما يمكن تخصيصه من الايرادات لارباب الدين المنتظم والدين السائر مع مراعاة ابقاء التصرف التام للحكومة فى المبالغ الضرورية لتأمين واستدامة سير مصالحها العمومية بالاتفاق مع مجلس النظار والمفتشين العموميين اﻫ

Digitized by Google

وفرنسا وبرطانيه العظمى وايتاليا ورئيسها السير ريفرس ولسون وعينت الحكومة من قبلها بطرس بك غالى (اليوم بطرس باشا وناظر الخارجيه) ولما قبلت الدول المذكورة بالامر الخديوى المذكور شرعت لجنة التصفية فى أعمالها التمهيدية (١٧ ابريل) وحصلت فى خلال ذلك مخابرات بين المفتشين الماليين ولجنة التصفية فيما يجب تقريره بخصوص الدين الممتاز والدين الموحد والتعيينات ومتأخرات كوبونات الموحد والقروض القريبة الآجال وبيان اجمال الدين غير المنتظم ولائحة أخرى متضمنة ديونا متنوعة واستمرت اللجنة تسوى هذه الاعمال وتسن لنفسها قانونا مدة تنيف عن ثلاثة شهور يحصل فيها تبادل خواطر وآراء بشأن المالية المصرية وكان لمسئلة المرحوم الامير حليم باشا شأن عظيم بعد ان خصصت له الحكومة المرتب السنوى المذكور وكان الامير طلب الحضور الى مصر ليعرض بنفسه قضيته على اللجنة فأبى الخديو ورجال حكومته ذلك وانتصرت للامير حليم وقتئذ بعض جرائد أوروبا وهى التى كان يمدها بأمواله وقالت كيف يمنع عم الخديو السابق وابن المرحوم محمد على باشا الكبير من المجىء الى بلاده الاان العالمين بسر المسئلة كانوا يعضدون المرحوم توفيق باشا لان السياسة التى اتبعها الصدر السابق خير الدين باشا فى مسئلة تغيير فرمان سنة ١٨٧٣ م أظهرت نية الدولة نحو الخديو واضطرته الى ترويج سياسة دولتى انكلترة وفرنسا والاعتماد عليهما ثم انه فى يوم ١٠ شعبان من سنة ١٢٩٧ (١١ يوليو سنة ١٨٨٠ م) أتمت لجنة التصفية أعمالها وأنهت قانونها (١) وصدق عليه الجناب الخديو بسراى رأس التين فى يوم ١٧ يوليو المذكور

وقد اعترفت الدول بهذا القانون كسابق وعدها لانه أعظم الضمانات لحفظ حقوق الدائنين من الاجانب وقد احتفلت الامة يوم التصديق على هذا القانون وكان الواجب عليها اظهار الحزن لا الفرح نعم لا ننكر أن بهذا القانون تسوت الديون وقلت فائدتها وانتظمت المالية وغير ذلك الا انه هدم أعظم ركن من استقلالها وزيادة على ذلك فانه لم يرد ضمنه شىء لا بخصوص قرض الروزنامه الاهلى ولا قرض المقابلة ولم يفرض لهما من الفوائد مثل بقية الديون الا النزر اليسير ولما عاد الخديو من الاسكندرية الى القاهرة تظاهر الناس امام سراى عابدين بمظاهر السرور لالغائه كثيرا من الضرائب والرسوم وأرسل المستر ادوارد مالت وكيل انكلتره السياسى الى الارل غرانفيل (Earl Ganville) ناظر خارجية حكومته كتابا أثنى فيه على الاصلاحات التى أتمها الخديو وما أصدره رياض باشا من الاوامر بمنع استعمال الكرباج كآلة لاكراه الفلاح على تسديد الاموال وأبان تحسن حالة الفلاح وانقطاع الظلم وتسديد الضرائب عن طيب نفس واستعداد الاهالى لدفع ما عليهم من الاقساط فى آجالها المقررة ولما كان تكاثر منح الرتب من لدن الجناب الخديو يستلزم زيادة المرتبات كالمتبع فى العسكرية أصدرت نظارة الداخلية أمرا قررت فيه أن الرتب

(١) وهذا القانون يحتوى على خمسة أبواب (الباب الاول) فى الدين المنظم وفيه البنود المختصة بالدين الممتاز والدين الموحد والاحكام المشتركة بين الدين الممتاز والدين الموحد وبالسلف القصيرة المواعيد وبوظائف مأمورى صندوق الدين (والباب الثانى) يحتوى على البنود المتعلقة بالدائرة السنية (والباب الثالث) يحتوى على البنود المختصة بالدين السائر (والباب الرابع) يحتوى على البنود المختصة بالمقابلة (والباب الخامس) يحتوى على البنود المختصة بأحكام عمومية وجداول بينت فيها حسابات التسويات

Digitized by Google

الملكية لا توجب زيادة المرتبات وانما هى للمنعم عليه حلية شرف ودرجة امتياز فقط ولما رأى كثير من العقلاء وأرباب المناصب ان الحكومة انحرفت عن جادتها القويمة وأنها تهاونت كثيرا بحقوق الاهالى وأن النفوذ الاجنبى انبثت عروقه فى كل الادارات فمن تهاونها انها لم تجعل المقابلة التى دفعها الكثير من أرباب الاطيان كبقية الديون فى قانون التصفية مع انها أخذت منهم سلفة كما هو مبين فى لائحتها التى سنها المجلس الخصوصى نددوا عليها وانضم الى هؤلاء المنددين كثير من رجال الامة فساء ذلك رئيس وزارة الوقت المذكور فبث العيون خلف المذكورين لتطالعه بأقوالهم ومجتمعاتهم وبلغه عن لسان أحد هؤلاء العيون ان شاهين كنج باشا جمع جمعية فى حلوان حضرها جمع من الذوات والضباط وأكثر فيها من التنديد بأعمال الحكومة بطريقة مهيجة واتفق ان كتبت فى ديوان المالية عريضة ضد الحالة الراهنة نسبت الى أحد مترجمى المالية وكان من الذين يمقتون ادارة الحكومة وعلى ذلك أخرجت الحكومة من سلكه وظيفيا بعض من قويت فى حقهم الشبهة وأبعدت آخرين فى مأموريات بعيدة ثم طلبت محاكمة الفريق شاهين باشا فادعى انه حماية ايطاليا ولا تجوز محاكمته الأمام محاكمها مع ان الحكومة لا تعلم عن هذا الانتماء شيأ قبل هذا الوقت والظاهر ان المرحوم اسمعيل باشا هو الذى سعى له فى ذلك لينجيه من مخالب الحكومة لانه كان من أخلص رجاله فسافر الى أوربا خوفا من البطش به ولما لم يطلب تذكرة مرور عند سفره ارتكانا على حمايته التى تداخل فى شأنها قنصل ايطاليا عدت الحكومة ذلك منه خروجا عن طاعتها وبعد أن تداول مجلس النظار فى الامر صدر أمر خديوى فى ٦ رجب من سنة ١٢٩٧ (١٤ يونيو ١٨٨٠) بتجريد الباشا المذكور من رتبه وألقابه وصفاته الرسمية ومحو اسمه من دفاتر الجيش المصرى وان لا يمكن فيما بعد من العودة الى الديار المصرية وأبلغته الحكومة هذا القرار رسميا وهو على ظهر الباخرة قبل سفره ثم أقام فى نابولى الى ان مات بعد قليل . قالت جريدة الديبا فى عددها الصادر فى شهر يوليو من سنة ١٨٨٠ بعد أن تكلمت عن شاهين باشا كثيرا انه كان من أكبر العاملين على عزل ولسن ودى بلنير فى السنة الماضية وانه من مشروع المكافحة أوروباوان البندين الاولين من هذا المشروع يقضيان بسد بور تسعيد وترعة السويس وانه بعد مبارحة الخديو اسمعيل باشا الديار المصرية تظاهر شاهين باشا بأنه وكيله فى عقاراته وذلك لنصب الدسائس والمكايد ولما وقف رجال الحكومة على ذلك أظهر أنه ينتمى الى دولة ايطاليا ولما لم تصدقه الحكومة فى قوله ذهب القنصل الى نظارة الخارجية وأخبر مصطفى فهمى باشا بأن ملك ايطاليا قبل شاهين باشا فى تبعة ايطاليا وعلى ذلك لا تجرى عليه أوامر الخديو وانه سيسافر الى نابولى فى أول باخرة تقوم الى ان قالت وهذه أول مرة رضيت فيها دولة بقبول أحد رعايا الدولة العثمانية بلا اعلان حكومته من قبل ومعلوم ان ذلك لا يجوز بناء على القانون الذى أصدره الباب العالى فى سنة ١٨٦٩ وقبلته دول أوروبا اه هذا وقد اشتهر الخديو توفيق باشا بالميل الشديد الى تعضيد المعارف والتربية العمومية والى العمارية والحرية والصلاح فشيد وأصلح عدة جوامع ومساجد وبث بين أبناء البلاد روح الحرية فتألفت قلوبهم نوعا ووجهوا انتباههم الى ما فيه صالحهم ولما لم يرق ذلك فى أعين أرباب الاغراض من الاجانب وغيرهم بثوا بزور الفتن سيما وان الحرية التى منحها الخديو للامة تساعدهم على مرغوبهم وأخذت الاقوال تذاع عن الوزراء والخديو بما لا يرضى الامة وراجت سوق الدسائس واختلط الناس بضباط

Digitized by Google

الجهادية أكثر من قبل فأوغروا صدورهم حتى أخرجوهم عن حدهم وبسبب ذلك ظهرت الحوادث الشنيعة والفتن المريعة المعروفة بالمسئلة العرابية التي أودت بما بقي لمصر من الاستقلال ومما يجب التنبيه اليه ان الحكومة تصرفت في تلك الاثناء تصرف رعونة ولو أراد الله وأبعد أهل الدسائس لأمكن ملافاة المسئلة المذكورة من أول ظهورها كما يتضح لك مما يأتي

الحوادث العرابية — اختلف الناس في أسباب هذه الحوادث فمنهم من نسبها الى يد اجنبية ومنهم من نسبها الى ثورة الخواطر الخفية التي ملأت قلوب الشعب الذي كان يتذمر اتماما هو حاصل فدس ذووا الاغراض بذور الدسائس بين أفراد الامة وصاروا يوغرون صدورهم حتى اشتعلت نيران العصبية والغيرة بين أحزابهم فقاموا يطلبون من الحكومة التخلص من ربقة الاجنبي بمساعدة الجيش الذي انضم أكثر ضباطه الى زمرة ما يسمى بالحزب الوطني قال الفاضل المرحوم على مبارك باشا في صحيفة ٥٧ من الجزء التاسع من الخطط ما ملخصه وكانت هيئة النظار سائرة في الطريق الجادة ناشرة ألوية العدل والتسوية بين القوى والضعيف والرفيع والوضيع فاستوجب ذلك اثارة الحقد في صدور أرباب الاغراض فتقولوا على هذه الهيئة وطعنوا فيها واختلط كثير منهم بضباط العسكرية فأوغروا صدورهم وألقوا في آذانهم انهم الاحق بتعديل القوانين والتصرف في الحكومة حيث انهم أهل الوطن وأصحاب القوة وحسنوا لهم ما صنع بعضهم من الثورة السابقة التي لم يعاقبوا عليها فتعصبوا وتمكن منهم الغرور وكان رئيسهم أحمد عرابي (١) أحد أمراء الالايات وقتئذ فاستمال سائرهم وعاقدهم على مضادة الحكومة اه وقال الموسيو هنس ريزنر (Hans Reisener) في صحيفة ٢٠ من تأليفه ما ملخصه انه ليس من البعيد

(١) أحمد عرابي المشهور رجل بدوي الاصل ولد في سنة ١٢٤٨ على رواية وفي أخرى أن ولادته كانت سنة ١٢٥٧ في قرية هرية رزنة من أعمال مديرية الشرقية وهي على ميلين من الزقازيق ولما ترعرع علمه والده مبادئ القراءة والكتابة ثم سلمه الى رجل قبطي يسمى ميخائيل غطاس كان صرافا في البلد لتمرينه على الكتابة والاعمال الحسابية ومكث معه خمسة أعوام أحسن فيها القراءة والكتابة وبعض الحساب ثم بعثه أبوه الى الجامع الازهر لطلب العلم (١٢٦٥ هـ) ومكث فيه أربع سنوات تعلم أثناءها بعض الشئ من اللغة والفقه والتفسير ولما عاد الى بلدته التحق بالعسكرية لما أخذوا أولاد العمد الى العسكرية في عهد المرحوم سعيد باشا (١٢٧١ هـ) ولمعرفته بالقراءة والكتابة والحساب ترقى الى درجة بلوك أمين بالاورطة الرابعة من الاي المشاة الاول وعرف في ذلك الوقت بالشيخ أحمد عرابي لصلاحه وتفقهه في الدين ثم رقي الى رتبة ملازم (١٢٧٣ هـ) والى رتبة يوزباشي (١٢٧٤ هـ) والى رتبة صاغ وبكباشي (١٢٧٦ هـ) ثم صار قائمقام (١٢٧٧ هـ) وبعدها اعتزل الخدمة العسكرية ثم عاد اليها في أوائل حكم المرحوم اسماعيل باشا (١٢٧٩ هـ) واستمر في الجيش الى أن وقعت بينه وبين المرحوم الفريق خسرو باشا الجركسي خصومة أدت الى محاكمته بمجلس عسكري حكم عليه فيه بالسجن بضعة أيام الا أنه رفض الحكم وطعن في أعضائه فأمر الخديو عند ذلك بابعاده من الخدمة العسكرية ومن هذا الوقت صار يبغض الجراكسة بغضا شديدا ثم توسط له بعض أصحاب الخير فألحق باشغال دائرة الحلمية وفي وقت وجوده بها اقترن بابنة مرضعة المرحوم الهامي باشا وكانت أخت حرم الخديو المرحوم توفيق باشا من الرضاعة وبذلك توصل لان يعفو الخديو عنه ويرده الى درجته العسكرية بأحد الالايات (١٢٩٢ هـ) ومن هذا الوقت أخذ يجمع كلمة الضباط ويؤلف بين قلوبهم بما كان يظهر لهم من الاسف على حرمانهم وضياع حقوقهم ولما كان على جانب من الفصاحة ومعرفة بالاحاديث النبوية والاقوال المأثورة كانت أقواله تؤثر في الضباط لانهم أجهل منه بكثير في هذا الباب ولما ولى المرحوم توفيق باشا الخديوية ترقى المترجم الى رتبة أميرالاي (١٢٩٦ هـ) وهي السنة التي قام فيها بحركته المشهورة وفعلته المشؤمة

Digitized by Google

تصورا أن يكون عرابى نفسه مأجورا على عمله ولكنه من المحقق الثابت ان انكلترا لولم تساعده لما وصل أبدا الى مثل ذلك النفوذ كما انه من الثابت أيضا انه قد كان لهذا الاخير علاقات سرية مع الباب العالى اه وقال أحمد عرابى نفسه فى القسم الاول من تقريره ان الجيش المصرى كان مؤلفا من اثنى عشر ألايا وفى مدة رئاسة عثمان باشا رفقى أريد تقليل الجيش الى ستة ألايات وكان ذلك فى سبتمبر من سنة ١٨٨١ وكان الميل حينئذ الى التعصب الجنسى فى أشد حالة ولذلك كنت ترى ان كل الوظائف والرتب والنياشين والمكافآت تعطى للاجانب الذين هم الشراكسة ثم الاتراك والمتولدون وغيرهم وأما المصريون الحقيقيون فكانوا محرومين من كل هذه المناصب وبالكاد كنت ترى وطنيا متقلدا احدى الرتب والالقاب السامية وعندما ابتدأ ناظر الجهادية فى انتخاب الجيش صار يرفت أغلب المصريين ويولى الشراكسة الذين هم مماليك العائلة الخديوية والمنتسبون اليها نوعا والاتراك أيضا وما كان يعطى أحد المصريين مركزا الا لمن احتاج اليهم لاتمام العدد فصعب ذلك جدا على الاهالى وأثر بهم أشد التأثير وأضرم نار البغض فى قلوبهم ضد هؤلاء الاجانب المترئسين عليهم وعند ذلك اتى إلى بيتى عدد كثير من الضباط بينما كنت غائبا عن منزلى فى وليمة أحد أصحابى وهو أحمد حجاج فأرسلوا رسولا واستدعونى من الوليمة المذكورة فلما حضرت أظهروا الى ما عندهم من الغضب فأخذت فى اخماد غضبهم وأشرت عليهم أن يقدموا عريضة للحضرة الخديوية يلتمسون بها المساواة وتعيين أحد المصريين ناظر الجهادية اه وكان من أكبر أسباب هذه الحركة قانون القرعة العسكرية الذى وضعه عثمان رفقى باشا فى ٢٣ شعبان من سنة ١٢٩٧ هـ (٣١ يوليو ١٨٨٠ م) حيث يؤخذ من فحواه منع الترقى من تحت السلاح اذ تقررت فيه مدة الخدمة العسكرية تحت السلاح بأربع سنوات فقط وهى غير كافية للحصول على معلومات عسكرية تؤهل الى الترقى وانه بعد مضى هذه المدة يتوجه العسكرى الى بلده ويبقى رديفا خمس سنوات واحتياطيا ست سنوات فتذمر من ذلك عرابى ورفقاؤه الذين ترقوا من تحت السلاح ورأوا أن هذا القانون لم يعمل الا نكاية بالوطنيين وحرمانهم من الترقى وبهذه الاقوال وغيرها تمكنوا من استمالة قلوب الكثيرين من الضباط وصف الضباط والعساكر وكانت العداوة بين على فهمى وعبد العال حلمى وأحمد عبد الغفار من أمراء الالايات وبين عثمان رفقى ناظر الجهادية قد اشتدت وكان على فهمى قائدا لالاى الحرس الخديوى وكان الخديو يسأله فى كل ما يتعلق بالاحتفالات العسكرية وغيرها الا ان الخديو لما رأى حرج الموقف أظهر التودد كثيرا لامراء الجيش ليستميلهم اليه وان كان يبغضهم باطنا لما كان يصدر منهم من سيئ الافعال ولما كانت هذه الاعمال منافية للقوانين العسكرية وان أمر الاحتفالات والمناورات لابد وان يؤخذ فيها رأى ناظر الجهادية سيما وان على فهمى وأمثاله كانوا كلما لاحت لهم فرصة عند الخديو أو عند غيره يطعنون على رفقى باشا اشتدت عداوة هذا لضباط الجيش وصار كلما قابل على فهمى أو أمثاله أطال لسانه عليهم بالتعنيف واللوم ثم اجتمع على فهمى وعبد العال وأحمد عبد الغفار بمنزل عرابى ليلا للنظر فى أمر منع تنفيذ قانون القرعة المذكور وفى طريقة الحصول على ما يضمن لهم وللضباط المساواة والترقى فتحالفوا على ان يكونوا كرجل واحد فى تنفيذ ما عزموا عليه وجمع كل منهم ضباط ألايه واعلمهم بما اتفقوا عليه مما هو فى صالحهم وحرضوهم على مناواة الجراكسة بعد ان حلفوهم على السيف والمصحف وأخذوا عليهم العهود والمواثيق بأن يكونوا يدا

Digitized by Google

واحدة في مشروعهم الوطني والمحافظة على أرواحهم ولما تم ذلك حرر الضباط تقارير وقدموها الى أمراء الألايات وبناء على ذلك حرر الامراء المذكورون عريضة وقدموها لمجلس النظار طلبوا فيها بالنيابة عن جميع الضباط اقالة ناظر الجهادية واستعملوا في العريضة المذكورة ألفاظا شديدة فانعقد مجلس النظار تحت رئاسة الخديو وتقرر رفيه احالتهم محاكمتهم على مجلس عسكري عال وتعهد ناظر الجهادية بان لا ينجم عن ذلك أقل خطر تخشاه الحكومة ولما انعقد ذلك المجلس بقصر النيل وحضر فيه الضباط المذكورون كان معهم بعض ضباط الالاي الاول الذي يقوده علي بك فهمي ليكونوا كالعيون يخبرون اخوانهم بما يحصل ولما سجن الامراء الثلاثة ونصب ناظر الجهادية بدلهم على ألاياتهم أسرع جواسيس عرابي وأخبر واضباط ألايه بما حصل فهاجوا وماجوا وقام محمد عبيد افندي البكباشي مستصحبا جنود الالاي وهجم على ديوان الجهادية بقصر النيل فهرب أرباب المجلس ومن جملتهم عثمان رفقي باشا وكسر العساكر الزجاج والنوافذ وأتلفوا التربات وأخرجوا الميرألايات من السجن وعادوا بهم الى قشلاق عابدين واجتمعت الالايات الثلاثة في ميدان عابدين والتمس عرابي من الخديو العفو عنه وعن رفيقيه وارجاعهم الى ألاياتهم كما كانوا وعزل عثمان رفقي باشا عن نظارة الجهادية فقبل الخديو ذلك وأصدر أمرا في ٧ ربيع أول من ١٢٩٨ (٦ فبراير ١٨٨١ م) باستبدال عثمان رفقي بمحمود سامي باشا المعروف بالبارودي مع بقاء نظارة الاوقاف على عهدته وكتب عرابي الى قنصلي انكلتره وفرانسا يتظلم من تصرف الحكومة فورد عليه الجواب من قنصل فرانسا (Baron de Ring) البارون دي رنك يمدحه على ثبات عزيمته ويشجعه في سلوكه فعد الناس ذلك من القنصل تحريضا الى عرابي واستغرب العقلاء من عرابي ذلك لانه كان يشكي من وطأة الاجانب ولما اعترضت الحكومة مطامعه تظلم الى الاجانب وقال عرابي في تقريره ما ملخصه وكتبت كيفية المسئلة تماما لحضرة قنصلي انكلتره وفرنسا وبقية وكلاء الدول الفخام عما جرى والتمست منهم التبصر في أمرنا والمساعدة اللازمة في مثل هذه الظروف ولما داخل السرما لم يتصدر أمر الخديو بالمساواة الى ان قال وتمثلت بين يدي الخديو فأمرني كما أمر علي فهمي أن أذهب الى كل من قناصل دولتي انكلتره وفرنسا وانا نظهر لهما كوننا متكفلين وضامنين للراحة العمومية والمحافظة على الاوروباويين وعلى أموالهم فتوجهت امتثالا لامره مع أخي المذكور وأوضحت لهما أن لا يقلقا أصلا اهـ وبعد ان سكنت حادثة قصر النيل المذكورة تولى الميرألايات الثلاثة الخوف فأكثروا من التحفظ على أنفسهم من بطش الحكومة حتى صار كل من أراد منهم الانصراف الى بيته يستصحب معه حرسا من ألايه وخصصوا بعض الضباط يطالعونهم في السر بما يقال عنهم أو يدبر لهم من المكايد وصاروا يعقدون مجالس سرية ليلا في منزل عرابي ويقررون بينهم ما يقصدون فعله ومن ذلك انهم اقترحوا على نظارة الجهادية ثمانية أمور وهي صرف نقود بدل التعيينات التي كانت تؤخذ من شون الجهادية لاجل شرائها بمعرفتهم من الخارج (الثاني) عدم استقطاع مرتبات الضباط والعساكر في مدة الاجازات التي تعطى لهم اذا لم تتجاوز الثلاثين يوما واذا تجاوزت هذه المدة يستقطع نصفها فقط (الثالث) أن يؤخذ من الضباط والعساكر نصف أجرة في السكة الحديد سواء كان معهم تذاكر رسمية أو لم يكن (الرابع) ابطال ورشة الخياطين وصرف اثمان الملابس نقدا ليصير ابتياعها

Digitized by Google

من الخارج بمعرفة الالايات (الخامس) ارجاع أحمد بك عبد الغفار الى منصبه (هو قائمقام سوارى وكان عثمان رفقى باشا قد طرده من الخدمة بسبب مشاجرة حدثت بينه وبين أحمد خلوصى بك الميرألاى) (السادس) عدم جواز الترقى العسكرية من قبل الخديو ومالم يسن لذلك قانون مخصوص يجرى العمل على مقتضاه (السابع) زيادة مرتبات جميع الضباط والعساكر وكان هذا الطلب بمقتضى عرائض كتب صورها عرابى وأرسلها الى جميع الالايات ليوقع عليها الضباط وتقدم بمعرفتهم للحكومة (الثامن) سن قانون يشمل حالة الترقى والتقاعد والمكافآت والاجازات وتسوية حالة الاستيداع فقبل الخديو هذه الطلبات جميعها وأصدر أمرا فى ٢٠ ابريل من سنة ١٨٨١ م بزيادة مرتبات الضباط والعساكر البرية والبحرية وأمرا آخر بتشكيل قومسيون عسكرى للنظر فيما يلزم ادخاله بالجيش من التعديلات والنظامات والقوانين (١) وشرع هذا القومسيون يعدل فى النظامات والقوانين العسكرية ارضاء لخاطر الحزب العسكرى من جهة ولان بعض هاته الطلبات كان عادلا من الجهة الاخرى وفى تلك الاثناء أخذت شوكة عرابى فى الازدياد ونفذت كلمته فى الجيش بعمومه ثم تجاوزته الى الكثير من العمد والاعيان والعلماء بما كان ينشره بينهم من القول بانقاذ الوطن مما حل به من الدمار والبوار وغير ذلك من الاقوال التى تجتذب القلوب وتنقاد لها الضمائر كرها سيما وان ما رأته الامة من تداخل الاجانب فى أعمالها وتصرف بعض العمال المصريين تصرفا ينافى الذمة والوطنية كان أيقظ لديها حب الاستقلال بالامر والسير فى جادة العدل والصدق الا ان ما تظاهر به بعض الناس من المظاهر القبيحة والطيش لحب الانتقام وجر المنفعة الشخصية والسير مع الاهواء النفسانية كل ذلك أغضب قسما كبيرا من عقلاء الامة حتى صاروا يكرهون الحزب العسكرى ويتمنون خذلانه ويعملون على تشتيته كما ستقف على بعض ذلك فيما يأتى وكان عرابى يطلب من مجازبيه أن يساعدوه على انفاذ مقاصده وكان يطعن على أعمال وزارة رياض باشا التى كانت وقتئذ ويرميها بامور منكرة ولذا كان يسعى فى اسقاطها فلما شاع الخبر استدعى الخديو اليه عرابى ومحمود سامى وسألهما عن الخبر فانكراه ولم يلح عليهما فى طلب البيان الحقيق اجتنابا للشر وقيل وقتئذ ان الخديو كان ميالا فى السر الى ابعاد رياض باشا عن الوزارة ولكن لما رأى ان الحزب العسكرى خرج عن الحد وأخل بالنظام العسكرى كان غير راض عن الحالة خصوصا وانه بينما كان فى مصيفه بثغر الاسكندرية حصل ان صدمت عربة أحد تجارها الوطنيين عسكريا فأماتته فحمله رفقاؤه من العسكر الى الجناب الخديوى والتمسوا منه النظر فى أمره ولما كان ما فعلوه تم بجماقتهم وكان الواجب عليهم مراجعة ضباطهم فى ذلك أمر بمحاكمتهم فى مجلس عسكرى لخروجهم عن حد القانون ولما حوكموا ورأى المجلس وجوب عقابهم تداخل فى الامر عبد العال حلمى بك أميرالالاى السودانى وألزم محمود سامى باشا ناظر الجهادية أن يشكو الى الخديو من قساوة الحكم فتكدر الخديو من ذلك وعلم ان محمود سامى باشا

(١) وكان أعضاء هذا القومسيون أفلاطون باشا واستون باشا والجنرال غولد سميث ومحمد مرعشلى باشا وراشد حسنى باشا واسمعيل كامل باشا ولارمى باشا وبلوتس باشا وخالد باشا ومحمد رضا باشا ومحمد كامل باشا ودوبرناردى بك ومحمد شوقى بك وأحمد عرابى بك وحسن مظهر بك ومحمد خلوصى بك وعبد الرحمن سليم بك وسليمن يسرى بك وفرهاد بك ومحمد نسيم بك

Digitized by Google

متحد مع الحزب العسكري ففصله عن نظارة الجهادية قال عرابي في تقريره ما ملخصه وكنا نظن ان ذلك العفو حقيقي واذا ببذر الشقاق والعداوة والفتنة باق في أرض القلوب وذلك ان يوسف كمال بك وكيل دائرة الخديو أوعز الى بعض جاويشية الالاى من السودانيين بمخالفة ضباطهم ثم قام ابراهيم أغا وأمر فرج بك الزيني أن يقوي العساكر على قتل ضباطهم فقبضوا عليه وأحضروه الى الألاي فوجدوا معه ورقة من ابراهيم أغا مختومة بخاتمه يقول فيها انها صادرة بناء على أمر الخديو وقد اطلع على ذلك محمود سامي باشا ونظرت القضية بمجلس عسكري وحكم على فرج بك بانزاله الى رتبة بكباشي ثم صدر أمر الخديو بارساله برتبه الى مصوع ثم قام بعده على لبيب وسليم صائب واجتهدا في اجراء الاعمال ذاتها وانكشف أمرهما فحكم عليهما وأرسلا الى السودان ولما طال الامر أمر محمود سامي باشا أن يقدم استعفاءه فقدمه اه ولما استقال محمود سامي تعين مكانه داود باشا يكن في ١٩ رمضان من سنة ١٢٩٨ وأصدر داود باشا منشورا وزع على الآلايات بمنع اجتماع الضباط في المنازل والتفرغ الى مباشرة الاعمال العسكرية وان كل من تكلم منهم مع آخر في الامور السياسية يحبس بالقلعة وكان داود باشا يتفقد انفاذ هذه الاوامر بنفسه لحرج الحالة وبث عبد القادر باشا مأمور ضبطية القاهرة العيون على منازل رؤساء الحزب العسكري لمنع اجتماعهم فوقع الرعب في قلوبهم حتى صاروا لا يتركون الايام والذهاب الى بيوتهم وبعد عودة الخديو من الاسكندرية أصدرت الجهادية أمرا بنقل آلاي القلعة وأميره ابراهيم بك حيدر الى الاسكندرية مكان الالاي حسين بك مظهر فاضطرب الحزب العسكري لهذا الامر وأشاع كذبا بأن القصد من هذا النقل هو اغراق عساكر آلاي ابراهيم بك بالنيل عند كفر الزيات وتجهز عرابي لعمل مظاهرة أخرى بالجيش وأرسل الى الخديو ونظارة الجهادية في ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ يقول بأن العساكر ستأتي الى سراي عابدين ليطلبوا مطاليبهم من الحضرة الخديوية وكتب لقناصل الدول يعلمهم بذلك وان لا يخافوا على رعاياهم البتة وان كل شيء سيتم بالهدء لان الغاية شريفة يقصد بها طلب تحرير البلاد واصلاح أحوالها واجتهد الخديو في منع ذلك وبذل النصائح لكافة ضباط الآلايات ليوقف انفاذ ما عزم عليه عرابي فلم يجد ذلك نفعا بل اجتمعت عساكر الالايات في ميدان عابدين تحت قيادة عرابي في يوم الجمعة الموافق ١٥ شوال من سنة ١٢٩٨ وانضم اليهم الالاي على فهمي وكان أقسم للخديو قبل ذلك انه سيدافع من داخل السراي عند مسيس الحاجة واجتمع خلق لا يحصون حول العساكر واضطربت المدينة ثم أشرف الخديو على الجيش من سلاملك السراي وطلب عرابي فتقدم امامه وهو شاهر سيفه وحوله أركان حربه فأمره الخديو باغماد سيفه والترجل عن ظهر جواده ففعل وسأله الخديو عن أسباب حضوره بالجيش فقال انه ولي طلبات عادلة فسأله الخديو وما هذه الطلبات فقال اسقاط الوزارة وتشكيل مجلس النواب وزيادة عدد الجيش والتصديق على قانون العسكرية الجديد وعزل شيخ الاسلام فقال له الخديو ان هذه الطلبات ليست من خصائص العسكرية وبينما الخديو يتحادث معه بذلك أشار القناصل عليه بالدخول داخل السراي خوفا مما عساه أن يحدث عن تلك المخاطبة وكان القناصل والوزراء وكثير من الذوات داخل السراي وصار السير أوكلن كولفن (AuéklondColvin) المراقب العمومي في المالية وقنصل انكلتره باسكندرية المستر كوكسون (Chas. A. Cookson) وقنصل النمسا

Digitized by Google

رسلا بين الخديو وعرابي وأخيرا قال قنصل الانكليز لعرابي ان ما طلبته هو من خصائص مولاك وطلب تشكيل مجلس النواب من متعلقات الامة فقال له عرابي انى نائب عن الامة فى تنفيذ الطلبات بواسطة هؤلاء العساكر الذين هم من أولادها واخوتها فهم القوة التى ينفذ بها كل ما يعود على الوطن بالمنفعة والصلاح وقال أيضا انا لا نتنازل عن هذه الطلبات ولا نبرح من هذا المكان ما لم تنفذ وبعد كلام طويل نصح القنصل الموما اليه الخديو بأن يجيب مطالب عرابي فأجابها فانصرفت العساكر وكاف الخديو شريف باشا بتشكيل وزارة جديدة فتوقف أولا ثم ألح عليه الاعيان ورجال العسكرية فقبلها على شرط ان يتعهد رؤساء الحزب العسكري بالامتثال للاوامر فتعهدوا له بذلك وتشكلت الوزارة (١٤ سبتمبر سنة ١٨٨١) وصار شريف باشا رئيسا لمجلس النظار وناظرا للداخلية ومصطفى فهمي باشا للخارجية وحيدر باشا للمالية واسمعيل أيوب باشا للاشغال العمومية ومحمود سامي باشا للجهادية والبحرية وقدرى باشا للحقانية ومحمد زكى باشا للمعارف والاوقاف وجعل بطرس غالى بك باشكاتبا لمجلس النظار وبقى خليل باشا يكن وكيلا للداخلية وبلوم باشا وكيلا للمالية وتيكران بك باشكاتبا للنظارة الخارجية وتعين حسين بك واصف باشكاتبا للنظارة الحقانية وبقى روسو بك مديرا لعموم الاشغال بنظارة الاشغال وأفلاطون باشا وكيلا للجهادية ثم صدرت الاوامر الخديوية فى ٢٢ سبتمبر من سنة ١٨٨١ بالتصديق على القوانين العسكرية الجديدة الخمسة وهى قانون الاجازات العسكرية البرية والبحرية وقانون تسوية حالة الضباط المستودعين وقانون معاشات الجهادية البرية والبحرية وقانون القواعد الاساسية وقانون الضمائم والامتيازات والاعانات العسكرية وكان من أول اعمال وزارة شريف باشا انها سنت قانونا جديدا لمجلس النواب ولما تم وصدق عليه الخديو صدر الامر بانتخاب النواب فشرع فى انتخابهم بالمدن والقرى على الصفة المذكورة فى القانون الصادر فى ٢١ رجب من سنة ١٢٨٣ وعزلت الحكومة ارضاء للحزب العسكري بعض الموظفين منهم عبد القادر حلمى باشا مأمور ضبطية مصر واستبدلته بأحمد باشا الدرەملى وتعين عمر لطفى باشا محافظا للاسكندرية وكان المرحوم شريف باشا رأى أن من الضرورى لتهدئة الافكار ابعاد رؤساء الحزب العسكري عن العاصمة فاوعز الى عرابي بالذهاب مع آلايه الى رأس الوادى من أعمال الشرقية والى عبد العال بالذهاب مع الايه السودانى الى دمياط فامتثلا وسافرا وأجريت لهما عند سفرهما بمحطة مصر احتفالات عظيمة لم يسبق لها مثيل وخطب عبد الله نديم أفندى وحسن الشمسى أفندى وغيرهما خطبا حضا فيها العسكرية وعموم الاهالى على التمسك بعروة الاتحاد والمحافظة على شرف البلاد وكان بعضهم ينثر الازهار على العساكر ويفرق عليهم أنواع الحلوى وقام الناس أيضا بالمحطات بمظاهرات احتفالية هذا

وقد كانت الدولة العثمانية صاحبة السيادة فى كل هذا الوقت ساكنة ساكتة حتى كأن ما هو حاصل حاصل ببلاد لا يهمها أمرها فلم يكن لها علم فيما نعرف بالحوادث الحاصلة بمصر الا بما يرد اليها من القاهرة من التلغرافات الملفقة غالبها ولما انتبهت أفكار رجالها لذلك تداخلت تداخلا فعليا وأرسلت وفدا برئاسة حضرة المشير على نظامى باشا من ياوران الحضرة السلطانية وكان وصوله فى يوم عشرة اكتوبر من سنة ١٨٨١ م وقابلت الحضرة الخديوية هذا الوفد بالاكرام الا أنهم لم يطلعوه على حقيقة ما هو حاصل لمقاصد خفية ولذلك بقيت النتيجة من ارساله عقيمة سيما وان الحركات العسكرية

كانت أخذت فى السكون وقتها و بلغ رئيس الوفد الخديو سرور مولانا السلطان بما بذله من الهمة فى حفظ الامن واقرار الراحة و زار أعضاء الوفد بعض الدواوين وكذا الالاى الثانى وأميره طلبه بك عصمت فى قصر النيل و بعد ان أقيمت للوفد الولائم الفاخرة ومتع أعضاؤه انظارهم ببعض المناظر البهجة عاد الى الاستانة مجبور الخاطر وقال عرابى فى تقريره بينما كانت الاحوال جارية كما ذكر أرسل السلطان الوفد العثمانى تحت رياسة على باشا نظامى لكى يبحث فى الاحوال والمظالم التى كانت جارية فى مصر وقبل وصول الوفد المذكور بيومين صدر أمر بذهاب الالاى حكمدارية الى التل الكبير والالاى الذى تحت حكمدارية عبد العال بك الى دمياط وذلك بقصد ابعادنا وعدم اطلاعنا على حقيقة الاحوال ولما وصل على باشا نظامى وأراد اصلاح الاحوال رفض ذلك حضرة الخديو مدعيا أن الطلبات التى طلبتها الجهادية هى موافقة وعادلة وهو قد منحها رضاه وأظهر أيضا سروره فان الالايات العسكرية فى غاية الطاعة اهـ وبعد سفر الوفد أصدر الخديو أمرا فى ٢٦ محرم سنة ١٢٩٩ (١٨ ديسمبر سنة ١٨٨١) بتعيين محمد سلطان باشا رئيسا لمجلس شورى النواب فاجتمعت أعضاؤه وفتحه الخديو بنفسه باحتفال وألقى على أعضائه خطابا كان له أشد التأثير ووضع شريف باشا لهذا المجلس قانونا جديدا جعل فيه للنواب حق النظر فى القوانين والمصروفات العمومية وأنه لا ينفذ قانون ولا يوضع نظام مالم يقر عليه المجلس ثم صرفت وزارة شريف باشا العناية فى تنظيم كثير من الامور ومنها المعارف العمومية لاحتياج البلاد الى نشرها احتياجا لا ينكر فشكلت لها مجلسا عاليا جعلت أعضاءه من أصحاب الاطلاع الواسع وهم اسمعيل أيوب باشا وقدرى باشا وحسين فهمى باشا ومحمود بك الفلكى وعلى بك فهمى ومنها مسئلة موظفى الحكومة وترقياتهم وشكلت للنظر فى ذلك لجنة عهدت اليها بتحضير قانون لذلك ثم التفتت الى أمر المحاكم الاهلية وكانت من أشد ما تحتاجه البلاد لكمال نظامها ووضعت لذلك لائحة صدر بانفاذها أمر عال فى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٨١ وكان الخديو أرسل قبل هذا التاريخ بيومين من طرفه ثابت باشا ليقدم بالنيابة عنه فرائض الشكر لمتبوعه الاعظم على ارعودة على نظامى باشا واعلم أنه بالنسبة لحركة الافكار فى ذلك الوقت خرجت بعض الجرائد عن الدائرة الضيقة التى رسمتها لها الحكومة فى قانونها فالغت جريدتى الحجاز واجبت أى مصر الفرنسوية بسبب أن الاولى طعنت فى الاجانب والثانية خرجت عن حد الآداب التحريرية فى التعبير عن الحضرة النبوية ومن الحوادث أيضا أن تولى المرحوم الشيخ الانبابى مشيخة الجامع الازهر بدل المرحوم الشيخ العباسى وكان ذلك فى ١٩ محرم سنة ١٢٩٩ (١١ دسمبر ١٨٨١ م) وتعين عرابى باشا وكيلا لنظارة الجهادية ارضاء للعسكرية بدلا عن أفلاطون باشا هذا وأما لجنة شورى النواب التى تعينت لمراجعة قانون مجلس النواب الاساسى فانها أقرت على أكثر بنوده الا ما تعلق منها بميزانية الحكومة فان اللجنة رأت ان للمجلس تمام الحق فى مراجعتها والاعتراض عليها عند اللزوم ولذلك ردت القانون لمجلس النظار الذين أرادوا أن يغيروا بعض ملاحظات النواب أما النواب فلم يقبلوا وأصروا على مطالبهم وهنا لعب أصحاب الاغراض ومن تابعهم من جهلة المصريين ومغفليهم أدوارا مهمة فكانوا يوعزون الى النواب والحزب العسكرى سرا بالمقاومة والى بعض النظار بعدم التسليم ثم أعاد النظار القانون الى النواب وأصحبوه بكتاب جاء فيه ان قنصلى فرنسا وانكلترة يريان ان لا حق لمجلس

النواب

النواب فى طلب تقرير الميزانية ولكنهما مع ذلك يقبلان المخابرة فى هذا الشأن بشرط ان يتم الاتفاق بين النواب والحكومة على سائر بنود القانون المذكور فرفض مجلس النواب تداخل الدولتين وله الحق فى ذلك ولكن غاب عن النواب انهم فى مصر وأن قانون التصفية الذى اعتبر كأنه وفاق بين الحكومة المصرية والدول يمنع أن يمس أى شئ يتعلق بأمر المالية من الفصول المقررة لتسوية الديون العمومية وأرسل مجلس النواب من طرفه لجنة مؤلفة من ١٥ عضوا الى الخديو تطلب انفاذ ما قرروا واستعفاء الوزارة فمرت فى طريقها على منزل شريف باشا وطلبت منه جوابا نهائيا فأبى فذهبت الى الخديو وسألته مطالبها فوعدها الى الصباح وانصرفت وفى بعدها شريف باشا على الخديو مع قنصلى فرنسا وانكلترة وقال انه مصر على رأيه فلا يوافق على تحويرات النواب وقدم استعفاءه فاستدعى الخديو لجنة النواب وكلفها أن تختار رئيسا للوزارة فامتنعت بأن حق اختيار رئيس النظاره للحضرة الخديوية دون غيره فألح عليهم فى ذلك قصد ان يحسم باختيارهم كل خلاف فأبوا ثم استدعاهم فى اليوم الثانى وأخبرهم بأن اختياره وقع على محمود سامى باشا فأظهروا ارتياحهم واستحسانهم فاستدعاه وقلده الرئاسة فى ١٣ ربيع أول ١٢٩٩ هـ (٢ فبراير ١٨٨٢ م) وجعل أيضا على نظارة الداخلية وصار أحمد عرابى ناظر الجهادية والبحرية وعلى صادق باشا للمالية ومصطفى فهمى باشا للخارجية والحقانية وعبد الله فكرى باشا المعارف وحسن باشا الشمريعى للاوقاف ومحمود فهمى باشا للاشغال وفى عهد هذه الوزارة حدثت أكبر الملاحم وأشهر الوقائع بتاريخ مصر الحديث بل بتاريخ العالم الاسلامى أجمع اذ حدث من أفعال رجالها الذين من الحزب العسكرى هذا الانقلاب الجسيم الذى أودى بما بقى للبلاد من الاستقلال نسأل الله حسن العاقبة وكتب عرابى رسميا بذلك الى الفروع والجيش (١) ونشر نشرة غير رسمية عليهم أيضا (٢)

ولما كانت دولة بريتانيا العظمى تنظر من القديم الى الديار المصرية بنظر الاهمية لكونها

(١) لله الحمد فقد نلنا بعونه المراد ووصلنا الى نقطة بها حفظت البلاد وأمنت من غوائل كل معاند مضاد وأعتقت العباد من ربقة الاستعباد وبذلت المصاعب وماذلك الا بصدق عزيمتكم ووثيق ارتباطكم ومتين اتحادكم ودوام تحببكم وائتلافكم وقد ولبت الآن نظارتكم كما كنتم تتمنون وقبلتها على ما تعلمون من شاق المتاعب والاوصاب اعتمادا على حول الله وقوته وثقة بحسن اخلاصكم وطهارة طويتكم فأنا أوصيكم لاتمام النجاح بملازمة ماجبلتم عليه من السكينة وحسن الاستقامة والمحافظة على صدق الاخاء ومنابذة العدوان والشقاق بان يكون الواحد هو الكل والكل هو الواحد وتمسكوا بقوله تعالى انما المؤمنون اخوة وبقوله عليه الصلاة والسلام المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا انظروا للكبير منا نظر الولد لوالده وللصغير منا نظر الوالد لولده متعاضدين على اتمام الاصلاح معضدين للحضرة الخديوية الفخيمة بالوثوق الوطيد والحب الاكيد واغتنموا رضائى بحسن المعاشرة بينكم وبزلائكم حتى لا يكون لحاسد عليكم من جهة يشوه بها وجه صفائكم واستجابوا سرورى بتذكركم قول النبى عليه أفضل الصلاة وأتم السلام لاصحابه لا يشاك أحدكم بشوكة الا واجد ألمها وانى وان كنت متحققا ذلك منكم الا أنى لتأكيد الطمأنينة قد أصدرت هذا السعادتكم حتى من بعد تلاوته وتفهيمه لعموم ضابطان وعساكر الجهادية توكيل سعادتكم اؤمل اتباع الاجراء بمقتضاه ١٧ را سنة ١٢٩٩ غير رسمى

(٢) حيث ان مسند نظارتى الجهادية والبحرية الجليلتين قد أحيل على مهدتنا من طرف حضرة الجناب الخديوى المعظم بارادة سنية موشحة بتاريخ ١٥ را سنة ١٢٩٩ نمرة ١١ فاعتقادى ووثوقى بمساعدة حضرتكم وحضرات

Digitized by Google

طريق هندها ومستعمراتها الآسيوية استخدمت سياستها من تاريخ فتحها البلاد الهندفي منع كل تعد من الخارج على هذه الديار حتى إنها اتحدت مع الدولة العثمانية على حرب نابليون بونابارت عندما استولى على القطر المصري وأخرجته منه عنوة في سنة ١٨٠١ م كما مر ثم سعت كثيرا في عرقلة المساعي لمنع فتح قنال السويس لان رجالها وكبار سواسها كانوا يعلمون أن فتحه يجلب على ديار مصر المصاعب السياسية والمشاغب الدولية ويقع بسببه الخلاف بين عموم الدول التي لها مستعمرات في المقاطعات الآسيوية حتى صرح كثيرون منهم بتلك المصاعب وأظهروا للعالم جهرا بأنه اذا فتح القنال المذكور اضطرت انجلترة الى اتخاذ المركز الاول لها في مصر للمحافظة على تجارتها ومستعمراتها فقال هنري جون تمبل لورد بلمرستون (Palmerston) المتظاهر بمحبة الدولة العلية العثمانية في البرلمان الانكليزي قبل الشروع في فتح القنال انه اذا وصل البحر الابيض بالبحر الاحمر بواسطة قنال السويس اضطرت انجلترة الى امتلاك مصر وكتب جس اندرو براون رامسي لورد دالهوسي (Dalhousie) والى الهند في تقريره عن سنة ١٨٥٥ ان فتح قنال السويس لا يمكن أن يؤجل الى مالانهاية ولذلك لا يتسنى لانكلترة ان تضمن حفظ سيادتها التجارية في العالم الا اذا حازت مركزا قويا في مصر ليكون بذلك قنال السويس تحت سلطتها وغير ذلك من الاقوال التي جعلت انكلترة من يوم فتح القنال تراقب حركات الديار المصرية مراقبة تامة وتخشى أن عسى ابدا التعدي من احدى الدول الاجنبية فأوجدت من عظماء رجالها السياسيين عددا كبيرا في المراكز المصرية من يوم قيام المشكلة المالية واتفقت مع دولة فرنسا صاحبة المصالح الكثيرة بمصر على التداخل في الشؤن المصرية لضمانة تلك الصوالح والمحافظة على مركز الخديوية حتى لا يمسه سوء من أي وجه كان كما سبق ولذلك لما ظهرت الحركة العرابية اضطرت أن تحافظ على ذلك المركز من تعديات القائمين بتلك الحركة واتفقتا على ذلك ولو باستعمال القوة ومع ذلك فقد صرحت جرائد انكلترة وقتئذ وفي مقدمتها جريدة الاستاندرد الصادرة في أول سبتمبر سنة ١٨٨١ عن سياسة انكلترة في مصر فقالت ان مصر هي مهمة لنا غاية الاهمية لانها أحسن وأقصر طريق يوصل الى الهند ولا نسمح لاية دولة من الدول الكبرى أن تستولي على مصر استيلاء حربيا فاننا نفضل مكافحتها على الرضا بهذا ومع اننا اعتبرنا مصالح الدول الاخرى اعتبارا مقدسا مادامت هذه المصالح لم تضر بسلامة مملكتنا الحاضرة أو المستقبلة وعلى هذا المبدإ وعلى هذه السياسة أشركنا فرنسا معنا في ادارة مالية مصر ولكن لا يصح أن نشركها معنا في حكم مصر بالقوة الحربية اذا اقتضت الحال وجود القوة العسكرية نعم اننا لا نعارض في وجود عساكر السلطان المعظم فيها ولكن اذا رضي أي وزير انكليزي بحضور جيش فرنسوي مع جيش انكليزي كان هذا خطأ فاحشا يضر ببلادنا ضررا بليغا اهـ ثم لما اشتدت الحركة قامت دولتا فرنسا وانكلترة وأرسلتا اللائحة (١) على

الضباط والصف ضباط والعساكر في القيام بواجبات هذا النظارة مع الاستمرار في تمشية أحكامها على المحور اللائق الموافق لنص أحكام القوانين العسكرية قد جرأني على قبول هذا المسند الجليل حالة كوني عالما بما أنتم عليه من وثوق حضرة الجناب الخديوي بنا ولهذا لزم تحريره لحضرتكم اخطارا بما ذكر ولكي يصير اعلانه على كافة ضباطان وعساكر الالاي ادارة حضرتكم وفقنا الله واياكم لما فيه الخير والصلاح والنجاح افندم ٩٠ رسمي

(١) اللائحة المقدمة من قنصلي فرانسا وانكلترة الى الخديو توفيق باشا في يوم الاحد ٢ ربيع الاول سنة ١٢٩٩ وهي بصفة خطاب من الوزارة الخارجية الى القنصل الجنرال بمصر

Digitized by Google

يدقمه لهما الى الجناب الخديو برغبة دولتهما فى مساعدته ومساعدة حكومته للتغلب على المصاعب المتنوعة التى تزيد الارتباك والقلق فى القطر المصرى وان الدولتين على وفاق واتحاد تام فيما يتعلق بمصر وغير ذلك من التصريحات التى لما اطلع عليها الباب العالى كتب ناظر خارجيته يومئذ عاصم باشا الى سفراء الدولة فى عواصم أوروبا بان يبلغوا وزراء خارجياتها اعتراض الدولة على لائحتى الدولتين فرنسا وانكلتره (١) وبان تداخلهما يعد تعديا على سيادة السلطنة العثمانية التى تعارض فى

حضرة القنصل الجنرال كلفنا كم غير مرة أن تخبروا الجناب الخديو وحكومته من رغبة حكومتى فرانسا وانكلتره فى مساعدته ومساعدة حكومته للتغلب على المصاعب المتنوعة التى تزيد الارتباك والقلق فى القطر المصرى فان الدولتين على وفاق وطيد واتحاد تام فيما يتعلق بمصر لاسيما بعد حدوث الحوادث الاخيرة أخصها صدور الامر الخديوى بجمع مجلس شورى النواب مما أوجب المخابرة بين الدولتين واعادة النظر فى شؤن اتفاقهما المذكور وبناء على ذلك نرجوكم أن تصرحوا الآن للجناب الخديو أن حكومتى فرنسا وانكلتره ترى بان وجوب تأييد جنابه فى الخديوية وفقا للاحكام المقررة فى الفرمانات السلطانية التى قبلتها الدولتان قبولا رسميا اعتبارا انها وحدها تكفل الآن وبعد الآن استمرار السلم والسكون وتوجب توسيع نطاق الثروة والعمارة فى البلاد المصرية مما فيه مصلحة الحكومتين المذكورتين المتفقتين على الاشتراك فى السعى الى دفع كل ما من شأنه أن يحدث فى مصر ارتباكا أو يخل بنظامها وأحوالها سواء كان هذا الخلل وهذا الارتباك ناشئين من أسباب خارجية أو داخلية ولا ريب عندنا ان هذا التصريح العلنى المبين لمقاصد الحكومتين يمنع حدوث ما عساه يطرأ على حكومة الجناب الخديو من الاخطار وان حدث فالحكومتان لا تترددان فى دفعه ولا تحجمان عن صده وفى أمل الدولتين ان الجناب الخديو يعرف كنه المعرفة ما فى هذا التصريح فتتحقق له الثقة والقوة اللتان لا بد له منهما لادارة أمور القطر المصرى محل التوقيع

(١) لائحة مصطفى عاصم باشا وزير الخارجية الى سفراء الدولة العلية لدى الدول العظيمة احتجاجا على اللائحة المذكورة — يا حضرة السفير لا يخفى عليكم ان قنصلى انكلتره وفرنسا الجنرالين بمصر قد أبلغا أخيرا الى حكومة الحضرة الخديوية معلومات على نسق واحد وذلك طبق الاوامر التى وصلت اليهما من دولتيهما فتصرف القنصلين المومى اليهما مع وجود الفرمانات السلطانية التى أرسلها الباب العالى فيما يتعلق باحوال مصر والافادات التى أبلغتها أخيرا المأمورية العلية الى الخديو يدل على ان التأمينات التى صرحت بها الدولة العلية السلطانية غير مرة لم تقدر حق قدرها ولهذا السبب لا يمكننا ان نخفى التأثر الاليم الذى شعرنا به من هذا الامر فبناء عليه رأينا انه لا بد لنا من ان نعرض على مدالة الدولة البريطانية الحقانية بعض معارضات فى هذا الامر فنقول ان غاية متمنى الدولة العلية السلطانية بالاخلاص هو انه تؤكد دائما المنح والامتيازات التى خصت بها مصر وبهذه الواسطة راغبة فى راحة تلك البلاد وامنيتها ونجاحها فان جميع مساعينا متوجهة لهذه الغاية ونحن معتقدون انه من المستحيل أن يكون قد ظهر أدنى علامات مادية أو معنوية تدل على عكس ما ذكرناه فالذى بعث على التبليغات المتقدم ذكرها من الدولتين المشار اليهما عن بعض أحوال مصر الخفيفة هو من متعلقاتها الداخلية ولا شئ يدل على ان هذا الفعل الاجماعى الذى أبداه القنصلان المذكوران لدى حضرة خديو مصر جرى على وجه الانصاف وخصوصا ان مصر هى قطعة من الممالك التى فى حوزة الحضرة العلية السلطانية التى فوضت السلطة فى مصر الى الخديو لغاية أن يحافظ على الامنية وعلى الراحة العمومية وعلى حسن ادارة البلاد والحاصل ان الحقوق المتقوية بسيادة الخديو لهذه الغاية هى من خصائص الباب العالى وحقوقه ووظائفه أيضا ولو فرضنا انه لزم اجراء فعل كالذى فعله القنصلان المذكوران لكان يلزم قبل كل شئ مشاورة الدولة التى لها السيادة على تلك المملكة وان تبتدئ الدولتان بمصر حتى به على هذا الوجه لا غير وبناء على ذلك نعتقد انا محقون فى ان نعتبر فعل الدولتين المذكورتين لدى الخديو رأسا لا يخلو من شائبة ما فلذا اضطر الباب العالى الى أن يبحث من السبب الذى أغرى الدولة البريطانية ودولة فرنسا بأن تأتيا أمرا تحسبه الدولة العلية السلطانية تعديا على حقوق سيادة الحضرة السلطانية على مصر وقد أرسلنا أيضا هذه الملاحظات الى سفير الدولة العلية بباريس فالمرجو

Digitized by Google

هذا التداخل وان المحافظة على سعادة القطر وراحته هي من حقوق الباب العالي وحده وغير ذلك من الاعتراضات وقد أخذت المخابرات من يومئذ بين الباب العالي والدول في مسئلة مصر المذكورة دوراعظيما

وبعد ذلك قدم سفراء المانيا والروسيا وأوستريا وايطاليا الى مصطفى عاصم باشا ناظر الخارجية لائحة صرحوا فيها باسم دولهم انهم يرومون ابقاء الاحوال المؤسسة الآن بمصر على أصول القوانين الاوروباوية وعلى أصول فرمانات السلاطين العظام ومن رأيهم ان الاحوال المؤسسة المذكورة لا يمكن تعديلها الا باتفاق بين الدول العظام والدولة العلية التي لها السيادة على مصر وبناء على ذلك حصلت عدة مذاكرات بين أعضاء البرلمان البريطاني صرح فيها المستر غلادستون رئيس الوزراء في جوابه عن سؤال السيراستافورد هنري نورثكوت (Stafford Northcote) رئيس حزب الشمال في يوم ٨ فبراير سنة ١٨٨٢ قائلا ان مداخلة انكلتره وفرانسا في أحوال مصر هي مداخلة سياسية وحقوقية يعني فيما يتعلق بالاحوال المالية والمحاكم المختلطة وهو أمر سائغ لهما منذ عهد قديم غير أن من الواجب علينا مراعاة بقية الدول في ذلك فانهم غير مستثنين من مصالح مصر وعلى هذا فان دولة الملكة لم تر ان أعمال المانيا والروسيا وأوستريا وايطاليا في تقديمهم لائحة الى الدولة العلية من الامور التي تجاوزوا فيها حقوقهم الثابتة أومرادهم بها احداث عوائق واني أعتقد بسبب هذه الاحوال المرتبكة جدا ان الجميع يرتاحون لابقاء التعهدات المبرمة بين مصر والدول وهي التي قبلها الباب العالي وبموجبها فرض لانكلتره وفرنسا في مصر بعض وظائف تؤمننا على وجود حكومة مرضية فيها اه

هذا ولما وجهت رئاسة النظار الى محمود سامي باشا البارودي وتعين عرابي باشا ناظرا للجهادية فرح أغلب أهالي القطر وأوفدوا من المديريات وبعض المدن الوفود الى الجناب الخديوي لتقديم شكرهم وسرورهم من هذا التعيين وحدثت عدة مظاهرات سرورية أما الاوربيون فظنوا ان جعل عرابي باشا ناظرا للجهادية هو للايقاع بهم وخلق الاضطرابات فلذلك استولى عليهم الخوف والفزع الشديد وأخذ أغلبهم في مهاجرة القطر المصري قال المرحوم محمود فهمي باشا وكان ناظرا للاشغال العمومية في الوزارة المذكورة في تاريخه البحر الزاخر ولما استلم عرابي مسند نظارة الحربية والبحرية سعى في ترقية كثيرين من رفقائه الضباط وفرق قانون الضمائم والمعاشات بطريقة جمعت القلوب على ولائه وجبر الخديو توفيق باشا على ترقية نحو من أربعمائة لم يراع في ذلك قانونا ومن الذين رقاهم الى رتبة اللواء عبد العال وعلي فهمي وطلبه عممت وخرق حرمة القانون العسكري الذي جبر شريف باشا الخديو على التصديق عليه ومع كونه في نظارة الجهادية فانه كان يتداخل في جميع أشغال الحكومة حتى تلفت ادارة الدواوين وفي مدته فقدت النظامات والقوانين من العسكرية وصار لا طاعة لاحد لمن فوقه من العساكر والضباط ورفت من دوان الجهادية من شاء وأبقى من شاء واستبد بحركاته وسكناته وكل من كان له مظلمة من الناس في النواحي القبلية

من سعادتكم والحالة هذه ان تذاكروا في هذا المعنى ناظر الخارجية وتبسطوا له هذا الامر على ما ترونه مناسبا للمقام وتبينوا له اننا محقون في أن نطلب منه ايضاحات وتأمينات تخرج الدولة العلية السلطانية من المقام الصعب التي قامت فيه الآن بسبب ما حدث أخيرا في مصر اه التوقيع

والجهات يفد على عرابى بهداياه ليقضى له أشغاله ويبلغه نواياه وكذا فى القاهرة توارد على منزله الستات والهوانم ليؤدوا الى حماته الهدايا والمغارم لقضاء أشغالهم وجبر حالهم حتى امتلأ بيته بالهدايا والنقود وكان ولم يزل يدعى الفقر وامتلأ بيته من أهل المنامات وكثر الدجل وضرب الرمل اه ثم فى أول مارث سنة ١٨٨٢ استعفى الموسيو دوبلنير ودعى الى فرنسا العدم سرور وزرائها من مسلكه فتعين بدله الموسيو بريديف (Léon Brédif) مراقبا عموميا وكانت وزارة محمود سامى باشا وضعت لائحة لمجلس شورى النواب فصدق عليها المجلس وصدر أمر الخديو بتنفيذها فى ٦ جمادى الاولى من سنة ١٢٩٩ ه (٢٥ مارث ١٨٨٢م) ففرح الاهالى بذلك وأقاموا احتفالات عمومية واشتركت فيها معهم العسكرية وحض فيها خطباء ذلك الوقت وفى مقدمتهم عبد الله نديم أفندى الناس على الطاعة والائتلاف وغير ذلك ولما صفا الوقت للعسكرية تعدى الأراذل منهم على كثير من أهل الشرف والناموس وكل من اعترض على أفعالهم فتذمر الناس سرا من ذلك ولم يقو واحد على اعلان استيائه وكل من تفوه بذلك انذر أو ألقى فى السجن ثم انفض مجلس النواب بحضور النظار وكانت الاعمال التى قررها فى التئامه منحصرة فى تقرير قانونه الاساسى ولائحته الداخلية ولائحة الانتخاب وتوزيع الضرائب وربط التقاسيط على آجال ملائمة لزمن الحصول ووضع نظام للرى ولما مثل أعضاؤه بين يدى الخديو أعطى كلا منهم الامر المؤذن بتعيينه عضوا لمدة خمس سنوات ولما كانت الاختصاصات التى حصل عليها النواب بالقانون الجديد تمنع مداخلة فرنسا وانجلتره فى كثير من أمور البلاد وتغل يدى قنصليهما عن العبث بأحوالها كما أرادوا قدم قنصلاهما الى الحكومة الخديوية لائحة يعارضان فيها اختصاص مجلس النواب بتقرير الميزانية وطلبا أن تكون الواردات المخصصة لوفاء الدين خارجة عن اختصاص المجلس ووافقت بقية الدول على هذه اللائحة وكانت دولة المانيا فى أثناء هذه الحوادث متفقة رأيا مع النمسا والروسيا وايطاليا وورد فى صحيفة ١٣٠ من الكتاب الازرق لعام سنة ١٨٨٢ ان الكونت مونستر (Münster) سفير المانيا فى لوندره صرح الى الارل غرانفيل (Earl Granville) ناظر خارجية بريتانيا فى ٣ مايو أن البرنس بسمارك (Bismark) يرى بقاء حالة مصر على ما كانت عليه بقدر الامكان واذا اقتضت الضرورة أى تداخل فتداخل الدولة العثمانية أكثر قبولا لدى الدول وزيادة على ذلك فان البرنس بسمارك لا يود أن يسمع باحتلال انكليزى أو فرنسوى أو مشترك إذ أن ذلك فى اعتقاده يؤدى الى صعوبات بين فرانسا وانكلتره اه ولكن يظهر أن هذا التصريح لم يكن يرضى انجلتره لانها تسعى من زمن فى احتلال القطر المصرى خوفا عليه من أن يسقط فى يد دولة تهابها كما تقدم ولذلك باح مكاتب التيمس البرليني فى تلك الاثناء فى العدد الصادر فى أوائل ابريل سنة ١٨٨١ بالاقوال السرية التى قالها البرنس بسمرك وهى أنه عند انعقاد مؤتمر برلين طلب البرنس بسمارك من الموسيو وادنجتون (Waddington) أن تستولى فرنسا على تونس وقال أيضا ان البرنس بسمرك عندما رأى دزرائيلى لورد بيكنسفيلد (Beaconsfield) قال له ان الاتفاق مع الروسيا أولى من معاكستها فالاحسن ان تتركها تفعل ما تبدو لها فى الاستانة وأما أنتم فتستولون على مصر فى مقابلة رضا كم بهذا ولا يظن ان فرنسا تغتاظ من ذلك كما يتوهم فانها فى مقابلة ذلك تستولى على تونس أو سوريا وقال مكاتب التيمس أيضا وكنت أظن أن هذا الكلام

Digitized by Google

لا يعتد به غير ان البرنس بسمارك أعاد الموردسالسبورى والموسيو وادنجتون ولكن لم يجبه اللورد سالسبورى بشئ مالانه لم تكن للبرنس بسمارك وقتئذ معلومية بمعاهدة قبرص التى عقدتها انكلتره مع الدولة العلية (١٨٧٨ م) أما الموسيو وادنجتون فأجابه قائلا انه ليس لفرنسا غاية فى تونس وانها لا تسمح لاية دولة بالتمكن منها والضرر بأملاكها فى الجزائر اه وبعد ذلك بزمن قليل ظهرت مسئلة الضباط الجراكسة فكانت المثيرة للخطوب والمشاكل التى وقعت بالديار المصرية كما يظهر لك من ذكرها فيما يأتى

لا يخفى ان الترقيات التى أجراها عرابى فى الجيش كانت على غير قانون ولم يتبع فيها العدل لانه فضلا عن كونه أحرم الضباط الجراكسة من الترقى فانه أمر بالحاق الكثير منهم فى الالاى السودانى الذى تشكل لتقوية جيش السودان والمستعد للسفر لمحاربة المهدى الذى أخذت شوكته وقتئذ تتقوى على الحكومة فى تلك الاطراف فتغيرت خواطر أولئك الضباط وأيقنوا بالشر وبلغ عرابى أنهم تكاتفوا فيما بينهم وعزموا على تقديم شكوى فى حقه أو نصب مكيدة له فأمر بالقبض عليهم حتى بلغ عدد المقبوض عليهم ٤٢ ومن جملتهم عثمان رفقى باشا ناظر الجهادية السابق وألقى الكل فى السجن بقشلاق عابدين مهانين مهددين قال عرابى فى تقريره ما ملخصه ولما دعى راشد افندى أنور للاتحاد معهم رفض لكونه رجلا حرا فكافأنى حالا وأخبر طلبة باشا الذى كان جاريا فكتب طلبة الى الجهادية والى محمود سامى باشا رئيس النظار والى الخديو وأيضا جرت محاكمة هؤلاء الشراكسة اه ولما حوكموا فى المجلس العسكرى الذى عقد تحت رئاسة راشد حسنى باشا الفريق صدر عليهم الحكم جميعا بالنفى الى أقاصى السودان ورفع الى الخديو للتصديق عليه ولما كان هذا الحكم شديدا لانه كالحكم بالاعدام تداول الخديو فى أمره مع وكلاء دولتى انكلتره وفرنسا ثم استبدل الحكم المذكور بابعادهم من القطر المصرى الا ان مجلس النظار أصر على تنفيذ الحكم الاول فوقع الخلاف بين النظار والخديو وصدر من رئيس النظار فى مخاطبته مع الخديو بهذا الخصوص كلام خرج فيه عن حدود الادب والحشمة فتغير خاطر الخديو منه أما رئيس النظار فانه جمع زملاءه وبعد ان تداولوا فى الامر طويلا أقروا على طلب انعقاد مجلس النواب بغير اذن من الخديو (فى ١٢ مايو سنة ١٨٨٢) ليعرضوا المسئلة عليه وعقد النظار مجلسهم فى ذلك اليوم وحضره بعض النواب وكان معهم رئيسهم سلطان باشا وبعد المداولة توجه سلطان باشا مع بعض النواب الى الخديو وسألوه اجابة طلب النظار فأبى فانصرفوا وقصد سلطان باشا قنصلى انكلتره وفرنسا وأطلعهما على ما حصل ثم أعاد النظار اجتماعهم ثانية وأقروا على الاستعفاء ولكنهم توقفوا اليعلموا من يكون مسؤلا عما يحدث لانهم تكفلوا بحفظ الراحة وأوفد النواب لجنة منهم الى الخديو تسأله صرف المشكلة باستعفاء رئيس النظار وابقاء باقى الوزراء فقبل الخديو وكلف مصطفى فهمى باشا بقبول الرئاسة فامتنع ولذلك عادت المسئلة الى صعوبتها الاولى واشتد الاضطراب وطلب الموسيو دوفريسينه (DeFreycinet) رئيس وزارة فرنسا من الحكومة البرطانية أن ترسل الدولتان الى المياه المصرية أساطيلهما المحافظة على حقوقهما فقبلت انجلتره وأصدرت الاوامر الى أساطيلها بالاستعداد للسفر الى ثغر الاسكندرية ولما كانت دولة انكلتره تخشى كثيرا مداخلة فرنسا فى المسئلة المصرية مداخلة تخشى عواقبها أصدرت أمرها الى قنصلها بتسوية

الخلاف

Digitized by Google

الخلاف تسوية ودية فقابل قنصلا فرنسا وانكلترة الخديو ونصحاه بالاتفاق مع نظاره فقبل وانفرجت الازمة وساد السلام فى الظاهر أياما ونفى الضباط المذكورون الى سوريا ومن هنالك ذهبوا الى القسطنطينية وعاد النظار الى دواوينهم كما كانوا وأرسلت الحكومة منشورا الى المحافظات والمديريات بزوال الخلاف قال الموسيو هنس رزنر فى كتابه عن المسئلة المصرية ولكن لم ينشرح صدر الموسيو فرسينيه من هذا الحل ولا من خطة وكيل فرنسا فى مصر كما يتضح من التلغراف الذى بعثه اليه فى ١٦ مايو وأبلغه أيضا الحكومة انكلترة اهـ (١) ثم تقابل قنصل انكلترة وفرنسا بالخديو وأبلغاه خبر قدوم الاساطيل الى اسكندرية (١٩ مايو ١٨٨٢ م) وكانت الاساطيل الانكليزية تحت قيادة الويس أميرال بشمب سيمور (T. Beauchamp Seymour) والفرنسوية تحت قيادة الكونتر أميرال كونراد (Conrad) وبعد ذلك أتت أيضا عدة سفائن حربية لدول من أوربا للمحافظة على رعاياهم وفى تلك الاثناء أرسل الباب العالى الى الدول منشورا طلب منها فيه اعادة أساطيلها من القطر المصرى وانه سيرسل الى مصر وفدا مؤلفا من بعض رجال الدولة وان حكومة جلالة السلطان ترى انه اذا اقتضت الضرورة انزال عساكر الى مصر فلا ينزل اليها الا العساكر الشاهانية ولا حاجة لمساعدة الجيش الفرنسوى أو الانكليزى وأوعزت حكومة انكلترة الى سفيرها فى الاستانة بأن يخبر الباب العالى أن مقصدها من ارسال الاساطيل حفظ حالة مصر على ماهى عليه ليس الا وانه اذا تسرعت تركيا الى العمل منفردة فان عملها يضر بالحالة الحاضرة فى مصر ثم طلبت انكلترة وفرنسا على الخصوص من الباب العالى أن يرجع عن أى تداخل بالقوة وقالتا ان ارجاع أسطوليهما لا يتم الا بعد ان تعود الى مصر راحتها وتستتب فيها النظام وبعد وصول الاساطيل أخذ عرابى يهيئ أسباب الدفاع ويقوى الاستحكامات وفى أثناء ذلك نشر السير ادوارد مالت منشورا على قناصل حكومته فى القطر المصرى يخبرهم فيه بما كان ويبين لهم السياسة التى يجب عليهم اتباعها وان وصول السفن ليس فيه ما يوجب تكدير العلائق فان قدومها انما هو بطريق المسالمة وبصفة ودية وحذا حذوه فى ذلك قنصل فرنسا وبعد أيام قدم قنصل فرنسا وانجلترة بلاغا نهائيا الى الجناب الخديو يطلبان فيه اسقاط نظارة محمود سامى باشا وخروج عرابى باشا من القطر المصرى مع حفظ رتبه ومرتباته ونياشينه وأن يقيم عبد العال حلمى باشا وعلى فهمى باشا فى الارياف بجهات لا يخرجون منها وله ما أيضا مرتباتهما ونياشينهما أما النظار فانهم أبوا القبول وقالوا انه لا علاقة للدول الاوربا وية معنا فان شئن شيأ فليتخابرن مع الدولة العلية صاحبة السيادة على مصر وأظهروا الاستعداد للمقاومة قال عرابى فى تقريره إن اللائحة كانت بناء على رأى ارتآه سلطان باشا غير جازم به كما صرح بذلك غير مرة الى ان قال وعدم قبولها فى مجلس النظار لا لاجل حفظ وظائفنا ولكن حرصا على حقوق البلاد التى فوضت لعهدتنا وأمانتنا وأما جناب الخديو

(١) أخشى ان الصلح الذى تم لا يؤدى الى نتائج مستمرة وكنت أفضل ان ينتهز الخديو فرصة وجود الدونتما فيستعمل سلطته ويسقط النظارة ويشكل هيئة حكومة جديدة ممن يثق هو بهم كشريف باشا مثلا وكنت أود صدور عفو عام عن القواد وأمراء الالايات الذين لهم يد فى هذه الحوادث مع بقاء رتبهم بشرط أن لا يعينوا فى وظائف وكان يجب تلافى المسئلة بمثل هذا التدبير الذى ان نجح كان به حسم المشكل ولكن هل فى الامكان حصوله بعد ان وقع ما وقع أرجو ان تفيدونى تلغرافيا عن قبولكم هذا الرأى من عدمه وتعريفى الاسباب التى دعتكم الى تعضيد الاتفاق الحالى بدون عرضه على اهـ نقلا من الكتاب الازرق الباب السابع صحيفة ٢٢١ سنة ١٨٨٢

Digitized by Google

فقد قبلها ولما كانت هذه المسئلة من المعضلات واختلف فيها بين الخديو والنظار عقد على ذلك جلسة بديوان النظارة وتقرر فيها طلب أعضاء مجلس النواب للنظر فيما اختلف فيه وتسوية المسئلة بوجه مرضى اه وبذلك انقطعت المخابرات بين القناصل جميعا والوزراء وقطع المراقبات المستر كولفن والموسيو بريديف علائقهما مع النظار وسعى سلطان باشا رئيس مجلس شورى النواب في تخفيف شرائط البلاغ ملافاة للامر فقبل القنصلان وامتنعت الوزارة محتجة على لائحة الدولتين فكلف الخديو محمد شريف باشا بتشكيل وزارة جديدة فتوقف لجاء قنصل فرنسا وأطلعه على تلغراف ورد اليه من الموسيو فرسينيه يقول فيه انه يأمل أن يقبل شريف باشا رئاسة الوزارة وانه يعضده بكل جهده فاشترط شريف باشا قبوله أن يقبل عمر لطفي باشا محافظ اسكندرية يومئذ نظارة الجهادية وأن تنفذ الجهادية لائحة الدولتين فسئل عمر باشا فأبى معتذرا وأصر الحزب العسكرى على رفض اللائحة وأعلن انه لا يقبل الاعرابى ناظر الجهادية وانه اذا امضت اثنتا عشرة ساعة ولم يرجع الى منصبه لا يكون مسؤلا عما يحدث فزاد الارتباك والخوف وأصر شريف باشا على عدم قبول تشكيل الوزارة فاضطر الخديو أن يعيد عرابى كما كان (١) وقال عرابى فى تقريره انه فى صباح ليلة استعفاء النظار حضر لمنزلى حضرات قناصل جنرالية دولة الروسيا والنمسا والمانيا وايتاليا وكلفونى بأن أعطيهم كلمتى بحفظ الاوروباويين جميعهم وأموالهم القاطنين فى القطر المصرى فاعتذرت لهم بأنى استعفيت من الخدمة فلم يقبلوا عذرى بل أجابونى بأنهم يثقون بقولى وان جميع المصريين يطلبون كفالتك للاوروبيين فانهم يحترمونهم غاية الاحترام فلو نوقى بان رجال العسكرية لا يفعلون شيأ يخل بشرفهم العسكرى وان الاهالى يكرمون نزلاءهم فاعطيت حضراتهم كلمتى بحفظ جميع الاوروبيين القاطنين بالقطر المصرى وحفظ أموالهم كما أحافظ على نفسى وعلى أولادى ومالى لحين تشكيل هيئة حكومة فانصرفوا مطمئنين اه قال المرحوم محمد فهمى فى الجزء الاول من البحر الزاخر وفى هذه الوقت طلب عرابى ثلاثة أشياء (أولها) إعادة بلاغ الدولتين وانسحاب أسطوليهما من مياه الاسكندرية (ثانيها) وضع قانون أساسى مبين فيه حدود كل من الخديو ووزرائه (ثالثها) قطع المخابرات والعلاقات مباشرة مع الدولتين ومع عموم الدول الا بواسطة الباب العالى ومن كثرة إلحاح ماليت قنصل انكلترة على الحكومة الإنكليزية وحثها وتحريضها فى هذا الوقت المناسب خابر المستر غلادستون رئيس الوزارة الانكليزية سرا وقال له لا عكن التداخل فى هذه المسئلة الا اذا قامت جماعة الجهادية وظهر قيامهم للدول إذ يكون هذا الوقت هو وقت الدخول وإجراء العمل حسبما ترغبونه ثم صرح غلادستون فى مجلس اللوردات أن دولته لا بد لها من تأييد كلمة الخديو توفيق باشا بالنسبة لما أظهره فى حق الدولة البريطانية من الصداقة والاخلاص اه

هذا وطلب سفيرا انجلترة وفرانسا فى الاستانة من الباب العالى أن يتداخل فى مصر باسم

(١) صورة الارادة السنية التى صدرت باعادة عرابى باشا ولو أنكم استعفيتم ضمن هيئة النظار التى استعفت لكن مراعاة لحفظ الراحة والامنية استصوبت بقاءكم على نظارة الجهادية والبحرية وأصدرنا أمرنا هذا لكم لتعلموه وتبادروا باجراء ما فيه انتظام أحوال العسكرية بالطريقة الكافلة لحفظ الامنية العمومية على الوجه المرغوب كما هو مقتضى ارادتنا اه من الوقائع المصرية

Digitized by Google

أوربا تداخلا غير مطلق بل معين الحدود وأن يأمر عرابى وسائر زعماء الحزب العسكرى بالذهاب الى الاستانة ويظهر من هذه القيود ان الدولتين كانتا لا ترغبان فى مداخلة الدولة العثمانية فى مصر حقيقة أما طلبهما ذلك فهو لينفيا عنهما الممانعة فى التعرض للدولة صاحبة السيادة من المداخلة فى بلاد تابعة لها حدث بها ما يخل بالراحة وليقفا أيضا على استعداد الدولة لذلك والا لو كانتا ترغبان حقيقة مداخلتها لما اشترطتا عليها هذه الشروط الثقيلة سيما وان استقلال مصر الداخلى مؤيد بالفرمانات السلطانية ومصادق عليه من دول أوربا كما هو معلوم وانهما بانفرادهما لا يمكنهما مقاومة أوربا مجتمعة مهما كانت عليه من القوة ولكن قاتل الله الاطماع والشره أما بقية دول أوربا فكانت مترددة فى تأييد سياسة فرنسا وانجلتره ولذلك طلبت عقد مؤتمر فى الاستانة للنظر فى أمر مصر فوافقتها انجلتره وفرنسا اللتان أعلنتا انهما لا يطلبان الا بقاء العلم العثمانى فى القطر المصرى وبعد مداولات ومخابرات طويلة صمم الباب العالى على التداخل بما له من الحقوق التى لا تنكر وأرسل المشير مصطفى درويش باشا معتمدا ساميا وكان بمعيته السيد أحمد أسعد افندى وقدرى بك وغيرهما وقال عرابى فى تقريره عن ذلك ما ملخصه وبتفقده أى درويش باشا أحوال العسكرية تحقق له ان العسكرية محافظة على الطاعة والانتظام وبناء على ذلك طلب من الحضرة السلطانية نحو مائتى نشان لضباط الجيش مكافأة لهم وطلب لى أيضا النشان المجيدى من الطبقة الاولى اه وقال أيضا ان ثابت باشا الذى أرسل الى الاستانة فى شهر نوفمبر سنة ١٨٨١ ليغير أفكار رجال الدولة من جهة العساكر المصرية توصل الى تغيير أفكار الذات السلطانية فأشيع فى دوائر الاستانة ان العساكر المصرية خرجت عن الطاعة وانهم يريدون تشكيل دولة عربية وانى متفق مع الانكليز على ذلك فكثر اللغط واذا بحضرة الشريف السيد أحمد أسعد وكيل الفراشة الشريفة بالمدينة حضر الى مصر فأرفقته بعريضة تبرأت فيها مما نسب الى وللجيش بغير حق وورد لى من سيادته جواب بقبول تلك العريضة مع طلب محافظتى على الطاعة استجلابا للرضا الحضرة السلطانية اه ولكن قبل أن يتمكن المعتمد العثمانى من تنفيذ ما لديه من الاوامر اضطربت الاحوال جدا وهبطت أسعار القراطيس المصرية هبوطا فاحشا وكثر مهاجرة الاوربا ويين رغما عن تصريحات عرابى بضمانه للامن والراحة خصوصا وانه كان أشيع ان قواد الاساطيل الاجنبية عقدوا شروطا مع التجار اتوريد الميرة لسفنهم لمدة ثلاثة شهور وقال عرابى فى تقريره وفى تلك الليلة حصلت مذاكرات ومحاورات فى حالة البلاد وما كانت عليه فى الازمنة الماضية وما حصل فيها من النكبات وما أريق فيها من الدماء كل ذلك نتيجة الحكم الاستبدادى وفى الحالة التى وصلت اليها البلاد وفى أمر اللائحة التى قبلها الخديو فالكل أجمع على طلب خلع الخديو اذا لم يرفض قبول اللائحة المذكورة وانصرف المجلس اه وخرج الحزب العسكرى عن حدوده وأخذ يصرح بخلع الخديو توفيق باشا واجلاس الامير عبد الحليم باشا مكانه وكان لهذا الامير بمصر فى ذلك الوقت شيعة تروج مقاصده وتنشر على الناس محامده وكانت صلاته وأمواله تنهال عليهم ليصلوا الى الغرض وعند ذلك استدعى الخديو قنصلى فرنسا وانكلترة وأبلغهما تهديدات الحزب العسكرى له وطلب منهما ابلاغ ذلك حكومتيهما رسميا ويظهر ذلك بأجلى بيان من المكتوب الذى أرسله السير ماليت الى اللورد غرنفيل ونشر فى الكتاب الازرق الصادر فى سنة ١٨٨٢ وبناء على ما ذكر صرح المستر غلادستون رئيس الوزارة الانجليزية ان انكلترة تريد تأييد كلمة الخديو

Digitized by Google

توفيق باشا لما أظهر من الحكمة والحزم والمحافظة على حقوق الدول وامتيازات مصر وسعادة رعيته وراحة النزلاء من الاوروباويين وغيرهم وقال الموسيو هنس رزنر في صحيفة ٢٥ من كتابه عن المسئلة المصرية انه في ٣ يونيه صرح الموسيو دوفرسينيه لمجلس النواب بقوله قد توجهنا الى ثغر الاسكندرية مع الدولة الانكليزية ولم يكن سفرنا اليها بقصد احتلالها عسكريا كما أحب أن تعتقدوا ذلك ولكن لحماية رعايانا واستثمنا اداعلى عدم قبولنا مطالب زعماء الثورة التي انتشرت في تلك البلاد ولنبرهن لي الخصوص بأن فرنسا وانكلترة كانتا متحدتين واني لم أرق منبر الخطابة لابين الطرق التي يجب السير عليها ولكن هنالك أمر الا أوافق عليه الا وهو تداخل فرنسا عسكريا في مسئلة مصر وقد قلت في ١١ مايو وكررت في مقدمة خطبتي الاولى ان الغرض الذي يجب أن نجعله دائما نصب أعيننا انما هو بقاء الامتيازات والاجراآت الممنوحة لمصر بمقتضى الفرمانات المعلومة لاوروبا وهذه القاعدة التي نرومها لانقبل أي حل كان اه والحاصل ان خوف الاوروباويين عموما قد ازداد كثيرا من تصرف الجهادية وسوء معاملتهم لهم حتى إن سكان الاسكندرية منهم تسلحوا بايعاز من قناصلهم للمدافعة عن أرواحهم عند الحاجة رغما عما يعلمونه من ان الاساطيل حضرت الى ميناء الاسكندرية لحمايتهم ووافقهم أيضا قائد الاسطولين على التسلح واتفق كل من المستر كوكسن قنصل انكلترة في الاسكندرية مع باقي القناصل هنالك على طريقة دفاع أوروباوي اسكندرية عن أنفسهم واستمدوا في ذلك آراء بعض ضباط الاساطيل الاجنبية ولما بلغ ذلك القناصل الجنرالية أنكروه ولم يستحسنوه ودامت الاحوال تزداد صعوبة واضطرابا حتى ظهرت حادثة ١١ يونية الآتية الذكر

حادثة ١١ يونيه – بينما كانت أحوال الديار المصرية في اضطراب والخوف مستوليا على قلوب النزلاء من هياج الرأي العام المصري ومن أقوال الجرائد الاجنبية التي كانت تثير الاحقاد بين الاجانب والمصريين لاختلاف مشاربها وغاياتها في المسئلة المصرية وكثيرا ما اختلقت الاخبار المفزعة ولا ننسى أيضا لهجة الجرائد المصرية في ذلك الوقت حيث كانت تروي الاخبار بصورة تدل على المخاوف في المستقبل وتترجم المقالات الموافقة لمشربها عن الجرائد الاوروباوية قام الرعاع من أهل الاسكندرية على الاوروباويين وحصلت تلك المذبحة التي نشأ عنها انقلاب الرأي العام الاوروبي على مصر والقائمين فيها بدعوى الوطنية والمطالبة بالحقوق المفقودة وقد ذكر هذه الحادثة كل من كتب عن تاريخ الثورة المصرية كصاحب مصر للمصريين وصاحب تاريخ مصر الحديث وصاحب البحر الزاخر وغيرهم فلخصنا من أقوالهم ما يأتي وهو انه بمجرد حصول خصام بين رجل حمار مصري ومالطي جرح فيه الحمار وانتصر لكل قوم من أبناء ملته تجمهر بعض الرعاع من الوطنيين وقصدوا الايقاع بالفرنج ومما زاد حنقهم ان الاجانب كانوا يطلقون النيران من الشبابيك على كل مار من الوطنيين بلا تفريق بين مذنب وغير مذنب وقبض المتجمهرون على من لا قوة في طريقهم من النزلاء فقتلوا منهم عددا كبيرا وقتل من الاهالي عدد أكثر وجرح في هذه الحادثة كثير من كبار الاجانب منهم قنصل اليونان وقنصل الانكليز وقنصل ايطاليا ووكيله وقنصل الروسيا وغيرهم وأمر عمر لطفي باشا محافظ الثغر يومئذ الاميرالاي سليمان سامي داود أن يبعث بالجند لمنع الاهالي فتوقف حتى يأمره عرابي باشا ناظر الجهادية ولما أتاه الاذن سار المحافظ أمام الجنود ففرق

المتجمهرين

المتجمهرين وكانوا كسروا كثيرا من المخازن ونهبوها وعند الغروب هدأت الاحوال وسكن الاضطراب وقبضت الحكومة على كثير ممن وقعت عليهم شبهة القيام بالثورة وذكر الموسيو هنس رزنر هذه الحادثة فقال ما ملخصه ان أحد المالطيين أخا خادم القنصل الانكليزى كوكسن كان ركب عربة سائقها وطنى وظل طول نهاره ينتقل من قهوة الى أخرى وأخيرا انتهى ركابه ونزل بقهوة أحد المالطيين أبناء جلدته فتبعه السائق الى القاعة يطلب منه دفع أجرته على تلك المشاوير الطويلة فجاد سخاء المالطى السكران بمبلغ ٢٥ سنتيما (غرش صاغ) قذفها الى السائق الذى لم يبش لها طبعا فابتدأت المجادلات العنيفة فما كان من المالطى الا أن أشهر مديته بغتة وطعن بها هذا المسكين فى بطنه فسقط ميتا شهيد الظلم والاستبداد فجاء رفقاؤه ومعارفه لامساك القاتل المجرم ومنعه من الفرار لياقى عقاب ماجنته يداه فكان نصيبهم هم الآخرون ان سقط أغلبهم فى هذا الزحام الكثيف قتلى وجرحى من يد يونانيين مسلحين بغدارات كانت فى ركن من المكان اصحبتهم بصاحب القهوة المالطى فأطلقوا الرصاص على هؤلاء المنكودى الحظ فهنالك كنت ترى تراكم القتلى والجرحى على الصعيد مخضبين بالدماء ولا مساعد ولا معين وبعدها صارت المعركة عمومية حيث قام المالطيون الساكنون بالقرب من ذلك المكان وفتحوا الابواب والمنافذ وأطلقوا النار على الجمهور وبينهم عظم القتال وعم وأخذ فى الازدياد وأطلق العنان للمصريين فانفجر بركان غيظهم وحنقهم من مثل تلك المعاملات السيئة والاضطهادات المذكورة التى تحملوها زمنا مديدا وأخيرا سار وامع التيار فاستمرت المقاتلة بضع ساعات صدرت فى أثنائها أوامر عرابى الى قائد القوة العسكرية باعادة النظام وفى أقل من لمح البصر ابتدأت القوة العسكرية فى العمل فرجع الهدء والسكينة وأعيد النظام بفضلها اه هذا وفى صباح ١٢ يونيه اجتمع القناصل وخاطبوا درويش باشا المندوب السلطانى بلهجة شديدة ثم عقد مجلس فى سراى الاسماعيلية بالعاصمة حضره الخديو ودرويش باشا وشريف باشا وكثير من وكلاء الدول وتقرر فيه ما يوجب الامن والراحة وان يمتثل عرابى لما يصدر له من الخديو وأخذ درويش باشا على عهدته تنفيذ الاوامر الخديوية بالاشتراك مع عرابى ورضى وكلاء الدول بذلك وأرسلت بعض الفرق العسكرية الى الاسكندرية وتعينت لجنة بأمر الخديو تحت رياسة عمر لطفى باشا المحافظ بها مندوبون من طرف القناصل لتحقيق أمر المذبحة ومعرفة السبب فيها ولكن هذه اللجنة انحلت سريعا قبل الوقوف على الحقيقة لان قنصلى فرنسا وانكلترا امتنعا عن مشاركة أعضائها بناء على ما ورد لهما من دولتيهما من الاوامر القاضية بعدم التداخل فى أى عمل يختص بالبحث عن أسباب حوادث ١١ يونيه المذكورة قال بعض كتاب الفرنج ان الحزب العسكرى وغيره من الوطنيين كان يرمى الظنون ويتقول فى أمر المذبحة حتى قالوا ان محافظ الثغر يومئذ كان عالما بأمرها من قبل ولم يتخذ الاحتياطات لمنعها الامر خفى وقالوا أيضا ان شريط التلغراف الذى أرسل لمحافظ الاسكندرية بهذا الخصوص اشتراه بعض كبراء الاجانب بمبلغ عظيم من المال وغير ذلك ولكن ظنياتهم وأقوالهم هذه لم تحققها الايام وفى ١٣ يونيه سافر الخديو بنفسه الى ثغر الاسكندرية ومعه درويش باشا وبوصوله زاره قناصل الدول مظهرا لهم أسفه على ما حصل ووعدهم باخماد الفتن واستتباب الامن والراحة ولما كان من بقى من نزلاء الاوربايين بمصر لا يزال يتخوف كثيرا عينت دول أوربا بعض بواخرها لنقل من يريد

المهاجرة منهم مجانا وأمرت انجلترة قنصلها العام بمصر وهو السير ادوارد مالت بأن يكون بالاسكندرية ليبقى ملازما للخديو

وقد كانت الوزارة المصرية لم تشكل بعد من يوم ان قدم محمود سامى استعفاءه وامتناع من عرضت عليهم من قبول رئاستها كما سبق ولهذا بعد ان سافر الخديو الى الاسكندرية استدعى اليه المرحوم اسمعيل راغب باشا في يوم ٢١ يونيه وكلفه بتأليف وزارة فقبل وصار أيضا ناظرا للخارجية وكان أحمد رشيد باشا للداخلية وأحمد عرابى باشا للجهادية والبحرية وعلى باشا ابراهيم للحقانية وسليمن أباظه باشا للمعارف ومحمود باشا الفلكى للاشغال وحسن باشا الشريعى للاوقاف وعقب ذلك سافر قنصل انجلتره العام وقنصلها باسكندرية الى أوربا وبقى المستر كارترايت (W.Cartwright) نائبا عن انجلتره بمصر وحصلت مداولات ومبادلات آراء بين الدول والباب العالى بخصوص المسئلة المصرية وألحت انكلتره بعقد المؤتمر فى الاستانة وأصرت الدولة العلية على رفض عقده ووافقتها المانيا واستوريا وايتاليا والروسيا ثم انحازت ايتاليا الى انكلتره وقال الموسيو هنس رزنرفى كتابه أما تركيا فكان يصعب على أى انسان فهم سياستها بل وما الذى عزمت عليه اذ انها أهدت الى الخديو هدية ثمينة مرصعة بالماس وكذا أنعمت على عرابى باشا بالنيشان المجيدى الاول ولما استفهم اللورد دوفرين سفير انكلتره بالقسطنطينية من وزير خارجيتها عن الدواعى التى أوجبت منح عرابى هذا الامتياز أجابه بردمجزبهم اه ومما يؤيد هذا القول وأن سياسة الدولة كانت مضطربة انها غيرت فى تلك الاثناء ثلاثة من الصدور أما الصدور فهم سعيد باشا حيث أقيل وتعين بدله عبد الرحمن نور الدين باشا الذى لم يبق أزيد من ٧٦ يوما ثم أعادت سعيد باشا ثانية ولم يمكث أكثر من ١٣٨ يوما حيث تولى بعده أحمد وفيق باشا الذى لم يمكث الا ثلاثة أيام وأعادت سعيد باشا ثالثة هذا وكانت دول أوربا مهتمة اهتماما شديدا بمسئلة مصر حتى ذات المصالح القليلة بها منهن ولذلك حرر المسيو دوجيرس (Giers) وزير خارجية الروسيا لسفراء دولته لدى دول أوربا لائحة مهمة بشأن المسئلة المصرية فى ١٨ يونيو من سنة ١٨٨٢ ولما كان المطلع عليها يمكنه الوقوف على ظواهر السياسة الدولية فى ذلك الوقت استنسبنا ادراجها فى أسفل الصحيفة منقولة عن الكتاب الازرق الانجليزى لتمام الفائدة (١) وأخيرا

---

(١) (أولا) الاتفاق الاوروبى هو النقطة الاولى التى يجب الاعتماد عليها اذ لا يعمل الا بما يقضى به (ثانيا) يجب الاهتمام الممكن ببقاء الاحوال على أصولها (ثالثا) من الواجب أن تكون السياسة الاوربية هى المجيزة هذا الامر دون سواها وعليه فيقتضى أن يسجل المؤتمر الوقائع كاثبات من قبل أوروبا للحقوق العمومية فى مصر (رابعا) اذا لم تتمكن السياسة الاوروبية من ذلك وجب أن يحال الامر الى حكم الاتفاق الاوروبى فهو يرى ما يقتضى ويقضى بما يرى (خامسا) اذا أصر الباب العالى على عدم انضمامه الى المؤتمر وجب أن تتخذ الدول الواسطة الاضمن لاجابته الى ما يجزم به (سادسا) اذا مست الحاجة للتداخل الفعلى كان تداخل الحضرة السلطانية أحق وأسلم ولكن على وجه النيابة عن أوربا وبعد اتخاذ الضمانات الضرورية حتى لا تتعدى حدودا معلومة (سابعا) اذا أبت الحضرة السلطانية وتصدت للتداخل انكلترة وفرانسا مشتركتين أو منفردتين وجب أن يتم ذلك باتفاق الدول وبالوكالة عنهن وبموجب شروط محدودة ولا بأس من تذكير تداخل فرنسا فى سوريا والاستفادة منه ولعل الدول تصحب العارين بلجان خصوصية (ثامنا) خاتمة التداخل يجب أن تكون اعادة الاحوال الى أصولها على ان هذا النظام لا يخلو من الشوائب التى عرفت بالاختبار ولعلهن يعمدن الى اصلاحها بما يلاحظ منزلة الحكومة المصرية مقابل أوروبا وما اضطرت اليه من الاعمال ولا بأس من اتخاذ الفرصة المناسبة لادخال بعض التغييرات التى يسلم بها الفريقان ولو كان

انعقد المؤتمر بالاستانة فى يوم ٢٤ يونيه وكان يتألف من مندوبى الدول الست الاوروباوية وبقيت الدولة العلية على امتناعها فلم تشترك فيه وفى الجلسة الاولى منه وقع المندوبون المذكورون على بروتوقول (١) كالعادة فى المؤتمرات السياسية بأنهم لا غاية شخصية مطلقا لدولة من دولهم فى عقد هذا المؤتمر وانهن لا يبغين زيادة نفوذ بمصر أو حيازة أرض أو مال أو غير ذلك مما يزيد فى نفوذ احداهن ولكن من نظر الى أعمالهم وجدها تخالف أقوالهم ولهذا نطلب لهم ولدولهم من الله حسن العاقبة على ما فعلوا ويفعلون باسم الانسانية وكانت انكلترة ترى انه يستحيل اعادة الامن فى مصر بدون قوة فعالة فلهذا أصدرت الاوامر الى الاميرال سيمور والمواقف بأساطيله امام الاسكندرية بالاستعداد للاعمال الحربية الهجومية كما أصدرت أوامر بتجهيز الجيوش اللازمة لحرب عرابى باشا وكانت تحض دول أوربا على مساعدتها فى ذلك حتى يكون عملها سبرا منهن أما الدول فكانت على حذر من دخول انكلترة الديار المصرية لئلا يؤدى تداخلها الى عمل يكرهنه ثم أقر مندوبو الدول فى جلسة المؤتمر على ارسال لائحة مشتركة الى الباب العالى (٢)

من الواجب احترام ما اتفق عليه من العهود أما شوائب المراقبة المشتركة بين فرنسا وانكلترة فقد برهنتها الاعمال وبقاؤها خطأ واملها يحسن أن تبدل المراقبة من ثنائية الى دولية فبذلك تزداد أهميتها الادبية وقايتها من سوء تصرف المعتمدين فان لجنة التصفية والمحاكم المختلطة هى دولية وقد أتت بنتائج حسنة ولعلهن يستحسن حصر المراقبة ضمن حدود تتكفل بوقاية المصالح الاجنبية دون تداخل فى نظامات البلاد فلتعتمد المناظرة بكل ما تقدم فى المؤتمر هذا واقبل الخ ما ١٨٦ يونيه سنة ١٨٨٢

التوقيع
جيرس

(١) صورة البروتوقول الذى وقع عليه معتمدو الدول فى الجلسة الاولى لمؤتمر الاستانة الذى عقد فى ١٤ يونيو سنة ١٨٨٢

ان الحكومات التى وقع وكلاؤها بالنيابة عنها على ذيل هذا البروتوقول تتعهد أنها لا تقصد البتة اغتنام أرض ما ولا الحصول على امتياز ما ولا أن يكون لرعاياها من الامتيازات التجرية ما لا يستطيع أن يناله غيرهم من رعايا أى الدول فى مصر وذلك فى أية مسئلة حصل التوافق عليها بسببها واشتراكها فى المخابرات لتنظيم أمور تلك البلاد

التواقيـــــع

للروسيا	لفرانسا	لاوستوريا	لالمانيا	لانكلترة	لايطاليا
أونو	ماركز دى نوائل	بارون كاليس	كونت هتسفلد	دوفرين	الكونت كورتى

(٢) حصل التوافق بيننا فى هذا اليوم على اللائحة التى يجب عرضها على الباب العالى المبينة كيفية تداخل الجنود العثمانية التى سترسل الى مصر وتحديد الشروط التى يجب العمل على مقتضاها وهذا نصها

بعد ان اعترفت الدول الاوروبية بوجوب المسارعة الى معالجة علل مصر الحاضرة بالدواء العاجل الناجع قررت فى المؤتمر الذى عقده وكلاؤها أن يلجأ الى سيادة الجناب السلطانى ويسأل أن يتداخل فى مصر وأن يساعد الخديو بارساله اليه قوة كافية من الجند لاعادة الامن والنظام الى البلاد وانقاذ مصر من الفوضى التى تمكنت فيها ونشأ عنها اهدار الدماء وخراب ألوف من بيوت الاجانب والمسلمين وتضرر كثير من مصالح الاجانب والوطنيين * وسيكون من شأن الجنود العثمانية بمصر أن تؤيد وجوب احترام الحقوق السلطانية عليها وتعيد للخديو سلطته ويكون من شأنها أيضا أن تشرع فى اصلاح حال العسكرية بمصر وفق الاصول يتفق عليها فيما بعد اتفاقا عموميا ويتم ذلك على شريطة ان لا يكون هذا التداخل موجبا لمس الترقيات النافعة التى نفذت فى نظام مصر المدنى والادارى والقضائى على غير مخالفة لما تقضى به الفرمانات السلطانية * والدول الاوروبية واثقة كل الوثوق فى التجائها الى الجناب الشاهانى ببقاء ما هو مقرر لمصر على حاله فى مدة وجود الجنود العثمانية فيم ممتنة ان حقوق مصر والامتيازات الممنوحة لها بمقتضى الفرمانات السابقة لا تمس البتة ولا يمس أيضا شئ من الاصول المقررة لادارة الاحكام فيها ولا من العهود والمواثيق

Digitized by Google

يطلبون فيه منه ارسال جنود عثمانية الى مصر لاخماد الفتنة فأبى اعتمادا على تقارير درويش باشا الذى قال فيها التعليس فى مصر ما يوجب ذلك وهى فرصة ثمينة قد أضاعتها ولا نعلم ما الذى افتكره رجال الدولة فى ذلك الوقت حتى امتنعوا عن التداخل العسكرى ولا نظن انهم أصابوا فاتخذت انكلتره هذا الرفض ذريعة لتداخلها بالقوة لاعادة الامن وتأييد سلطة الخديو كدعواها ولما كانت لا تعدم حيلة للتداخل أخذ الاميرال سيمور ينتحل الاسباب مهما كانت طفيفة لمباشرة العدوان فادعى ان الجهادية يحصنون القلاع والاستحكامات ويجمعون أحجارا جهة المكس لسد البوغاز وهذا أمر مهين لشرف دولته مهدد لاسطوله وكان الامر صدر اليه بأنه اذا لم يمتنع المصريون عن اجراء ذلك أطلق القنابل على حصونهم (١) وكانت السفن الانجليزية مدة وقوفها أمام الاسكندرية تقيس اعماق المياه وتستطلع الاستحكامات ليلا بالضوء الكهربائى ونهارا بالنظارات وان كانت الاعماق والاستحكامات وما بها من المدافع كل ذلك معلوم لديهم من رصد فى تقارير عمالهم بمصر ثم ان المستر كارت رايت تقابل مع راغب باشا وأعلمه بالاوامر التى صدرت الى الاميرال سيمور فأجابه راغب باشا بأنه ليس هنالك ما يوجب العداوة وقال له اذا وجد الاميرال الآن من يحاول سد باب الميناء لهم أن يقبضوا عليه لمجازاته وكانت الحضرة السلطانية أرسلت وقتئذ الى لورد دوفرين سفير انكلتره منير بك رئيس ترجمة المابين يخبره بأنها أمرت الحكومة المصرية بعدم الاستمرار فى تحصين الاسكندرية ولذلك فانها تطلب منها ايقاف الاستعدادات الحربية فى الاسطول البريطانى فأجابه السفير بعدم امكان اجابة السلطان على هذا الطلب قبل ان يبلغ الامر لحكومته وبعثت الحضرة السلطانية تلغرافا للخديو تلقى فيه المسؤلية الناشئة عن عدم منع التحصينات عليه وعلى نظاره أما فرنسا فانها أظهرت يومئذ عدم مقدرتها على اتباع انكلتره فيما تفعله لانها لا تريد أن تتحمل مسئوليات عظيمة حتى ان الموسيو فريسينه قال لسفير انكلتره فى باريس كما ورد بالكتاب الازرق الرسمى انه أمر الاميرال الفرنسوى بمبارحة مياه الاسكندرية حينما يستعمل رفيقه الانكليزى القوة الفعلية لان هذا العمل يكون بمثابة اشهار الحرب على الحكومة المصرية وبمقتضى القوانين لا يمكن لاى مملكة الشروع فى أى عمل عدوانى الا بعد مصادقة مجلس نواب امتها

الدولية ولا من أعمال التسوية التى نجمت منها وتقررت فى شأنها * أما مدة استقرار الجيش العثمانى فى مصر فتكون ثلاثة أشهر ما مدا اذا طلب الخديو تمديدها الى أجل تتفق على تحديده الدولة العلية مع الدول الاوربية وحكومة مصر وتعين قادة هذا الجيش بالاتحاد فى الرأى مع الجناب الخديوى أما مصاريف هذا التجريدة فعلى نفقة مصر وستعين مقاديرها باتفاق يحصل بين الدولة العلية والدول الست الاوربية وحكومة مصر * واذا أجابت الحضرة السلطانية دعوة الدول كما هو أملها فكيفية تنفيذ الاحكام السابقة الذكر تتم بتوافق يحصل بعد الآن بين الدولة العثمانية والدول الست الاوربية اهـ فى ٦ يوليو سنة ١٨٨٢

(١) امنعوا كل عمل من شأنه سد القنال الموصل للمينا واعلموا أنه اذا شرع فى أى تمكين أو تحصين جديد او وضع مدافع على استحكامات فيجب عليكم أن تعلموا القائد العسكرى أنه بيدكم أوامر تخولكم منع ذلك بل وتأمركم بهدمه كله وأن تخبروا المدفعيات أن تركن الى السكون فى حالة عدم الامتثال غيرأ نكم قبل استعمال القوة تعلنون الضمان الكافى الى النوتية والاهالى ومراكب الدول الاخرى الحربية بعدم التعرض لهم كما أنه يلزم قبل الشروع فى أى عمل عدوانى أن تدعوا الاميرال الفرنساوى بالاشتراك معكم فيه أما اذا رفض فلا تؤخروا اجراآتكم هذه بل تنفذوها اهـ الكتاب الازرق نمرة ١٧ صحيفة ٩٢ و ١٠٤

وبذلك

Digitized by Google

وبذلك قضت فرانسا على مصالحها فى مصر وخالفت سياسة اتبعتها مدة قرن كامل وارتكبت أكبر خطأ سياسى فى تاريخها واتهم الكثيرون من الفرنساويين الموسيو فرسينيه بالخيانة كعادتهم ولكن للحوادث العرابية وسياسة الدول الاوروباويه فيها اسرار لم تنكشف غيومها الآن وكان رجال فرنسا فى خلال ذلك يترددون فى سياستهم فتارة يعلنون بعدم قبولهم تداخل الدولة العثمانية عسكريا فى مصر ويقولون انه اذا تداخلت منعوا نزول عسكرها الى مصر بالقوة وتارة يظهرون انهم سيشتركون مع انكلترة فى كل الحركات السياسية والحربية اذا اقتضت الحالة ذلك ثم أظهروا فى آخر الامر عدم امكان التداخل قال الموسيو هنرى بانسا (Henri Pensa) فى كتابه المسمى مصر والسودان المصرى ما ملخصه بتصرف ان السياسة الفرنساوية فى خلال ذلك كانت مهملة فى الامور الخارجية الا ما كان منه ضرر على ذات فرانسا حتى ان أغلب الحملات التى قامت بها الحكومة فى جزائر الاوقيانوس وتونس وغيرها كانت بالحاح كبير على مجلس النواب لنوال تصديقه وقد تغيرت فى خلال الحوادث العرابية أربع وزارات فى فرانسا الاولى وزارة جول فيرى (Jules Ferry) (١٩ سبتمبر سنة ١٨٨٠ – ١٤ نوفمبر ١٨٨١) والثانية وزارة غامبيتا (Gambetta) (١٤ نوفمبر ٨١ – ٢٧ يناير سنة ١٨٨٢) والثالثة وزارة فرسينيه المذكورة (٢٧ يناير – ٧ أغسطس ١٨٨٢) وأبدلت فى أثنائها ثلاثة قناصل جنرالية بمصر الاول البارون دورنج لانه كان يحرض عرابى باستحسانه أعماله والثانى الموسيو مونج (Monge) لكونه خالف فى سياسته الرسمية مسلكه مع العرابيين والثالث الموسيو سيانكفتس (Sienkiewiczy) وكان الموسيو فرسينيه طلب من مجلس النواب الفرنساوى فى ٢٩ يوليه من سنة ١٨٨٢ تخصيص مبلغ قدره ٩,٤١٠,٠٠٠ فرنكات لان المسئلة المصرية قد وصلت لدرجة الخطارة وصار يخشى على قنال السويس ويلزم تجهيز ثمانية آلاف جندى فرفض المجلس هذا الاقتراح باربعمائة وسبعة وعشرين صوتا ضد ٧٥ لان أعضاء المجلس رأوا ان سياسة الموسيو فرسينيه غير ثابتة بما أنه قال فى يوم الاقتراح ان فرنسا لا تود ان تتداخل فى المسئلة المصرية بالقوة وانما طلب هذا المبلغ لاستعماله عند الضرورة فى المحافظة على قنال السويس مع أن مؤتمر الاستانة كان قرر المحافظة على القنال باتفاق الدول أجمع فاضطر الموسيو فرسينيه الى تأجيل طلبه هذا الى مرة أخرى ولم يلح على المجلس فى الطلب مع أنه قبل ثمانية أيام أى فى يوم ١٩ يوليو لما قدر المجلس مبلغ ٧,٨٣٥,٠٠٠ فرنكات بناء على طلب الاميرال جوريجيبرى (Jaureguibrry) باسم الحكومة صرح فرسينيه امام المجلس بلزوم التداخل فى المسئلة المصرية بالقوة فلهذا أقر المجلس على صرف المبلغ باربعمائة وأربعة وعشرين صوتا ضد ٦٤ أما رفضه الاخير لطلب الموسيو فرسينيه فكان لما شاهده فيه من التردد فى المسئلة المصرية وتغييره سياسة التداخل فيها بالقوة فحصلت ازمة وزارية سقط فيها فرسينيه يوم ٧ أغسطس المذكور وشكلت وزارة الموسيو دوكلرك (du Clerc) الذى لم يظهر فى المسئلة المصرية سياسة الحزم لان بريطانية العظمى كانت تداخلت بالقوة فى المسئلة المصرية ومن يومئذ انهزمت فرانسا سياسيا فى مصر اه ولما اشتد الخلاف بين الاميرال سيمور والحكومة المصرية تداخل قناصل الدول فى الاسكندرية بينه وبين الجهادية لتعديل الكتاب الذى كتبه طلبه باشا للاميرال وتلطيفه وقرروا

Digitized by Google

بان يرسلوا الى الاميرال لائحة بذلك فارسلوها اليه فى يوم ٧ يوليو المذكور (١) واستلفتوا انظاره الى الضرر الذى يلحق أهالى المدينة من أجانب ووطنيين اذا استعمل القوة فاجابهم فى اليوم نفسه بالجواب المذكور بأسفل الصحيفة (٢) الذى ختمه بقوله انه اذا استمر الجهادية على التحصين فانه سيقوم بتنفيذ ما كتبه الى المحافظ حرفا بحرف ولما ورد اليهم جواب الاميرال اجتمع القناصل ثانية وأخذوا يحاولون اقناع أولى الشأن من رجال الجهادية فلم ينجحوا وأخيرا بعث الاميرال سيمور فى ١٠ يوليو من سنة ١٨٨٢ خطابا الى طلبه باشا قومندان عسكر الاسكندرية يقول له فيه انه جارى تركيب مدافع فى طوابى صالح والمكس وقايتباى وانه يطلب ازالتها كما يطلب انزال كل الاسلحة الموجودة فى طوابى الاسكندرية من العجمى الى برج قايتباى وانه اذا لم يفعل ذلك ضرب الطوابى بمدافعه فاجابته الحكومة المصرية فى مساء اليوم المذكور بقولها انها لم تعمل شيأ ما يستوجب اعتداء الاسطول الانكليزى على ثغر الاسكندرية وانها محافظة على شرفها ومقامها لا تقبل مطلقا تنزيل المدافع الموجودة فى الطوابى وانها تلقى مسئولية النتائج الوخيمة التى ستنتج من ضرب الاسكندرية على المعتدى بغير سبب وبدون اعلان حرب وغير ذلك وكان المستر كارترايت وكيل قنصل انجلترة

---

(١) لائحة قناصل الدول الاوروبية الى الاميرال سيمور * ان لرعايانا مصالح مهمة فى الاسكندرية ولهم فيها أملاك واسعة وعقارات كثيرة والمتخلفون منهم من المهاجرة كثيرون وهو ما دعانا أن نتقدم اليكم ونسألكم هل اقتنعتم من جواب الحكومة المصرية على سؤالكم المتعلق بتحصين القلاع أم لا فان كان الثانى فاننا نستطيع ان نطلب تعديل الجواب المذكور بحيث يرضيكم ويقنعكم واذا كنتم لا ترضون بذلك ولا تريدون ان تقتنعوا بأمر ما فنرجوكم ان تنبؤنا عن المهلة التى تتركونها للرعايا قبل الشروع فى القتال ليتمكنوا من الرحيل وانما نخطركم ان اطلاق المدافع سينشأ عنه كيف كانت الحال ضرر عظيم يلحق بسكان المدينة من نصارى ومسلمين ولا بد من ان تتهدم به أبنية عديدة للاوربيين وبودنا لو انكم ترفعون الى حكومتكم ملاحظاتنا هذه قبل ان تنفذوا أوامرها ٩٨ ٧ يوليو ١٨٨٢ التواقيع

بارون كوصجك	دى لكس	دى مارتينو	بارون ساورما	دى فورج
للنمسا	للروسيا	لايطاليا	لالمانيا	لفرنسا

(٢) لائحة الاميرال سيمور الى قناصل الدول الاوروبية الجنرالية بالاسكندرية

تلقيت فى هذا اليوم الكتاب الذى انفقتم على ارساله الى وتفضلتم فيه بالاستفهام منى عما اذا كنت قد ارتضيت بجواب طلبه باشا على كتابى الذى أرسلته اليه بالامس ثم تكرمتم ومرضتم أن تتوسطوا فى الامر بحيث أحصل بوساطتكم على جواب يرضيني فأشكر لكم كثيرا هذه العناية وأجيب على خطابكم بقولى انى أنفذ ارادتكم اذا كان لكم لدى الموما اليه من النفوذ والسلطة ما تستطيعون به ان تحملوه صادقا فى اجرا آته وان يبطل عاجلا أشغال التحصين وتقرير الاستحكامات التى شرع فيها ولا أرى جواب الموما اليه بالكتابة كافيا فى حملى على الاقتناع عما يقول وعلى الوثوق بما أكده لى فى جوابه من انه يجيب طلبي ومهما تكن عبارة هذه الكتابة فانها لا تكفيني بالنظر الى المصالح المهمة التى عهد بها الى وأخبركم انى ما أعلنت قط عن عزمى على رمى الاسكندرية بنار المدافع واذا اقتضت الحاجة لذلك فانى أوجه قوتى على القلاع والاستحكامات فقط وبذلك لا أرى من موجب لخوفكم من انهدام منازل الاوربيين وغيرهم وسارفع الى حكومتى أمر الملاحظة التى أبديتموها فى العبارة الاخيرة من خطابكم ونبهتمونى اليها واذا استمر الجهادية على أشغال تحصين القلاع والاستحكامات فانى أنفذ فى الحال ما كتبت اليهم به محافظا على كل حرف من حروف تلك الكتابة وكيف كانت الحال فانى قبل الشروع فى العمل أعلن عنه ولا أباشر اطلاق المدافع الا بعد أربع وعشرين ساعة من تاريخ الاعلان ٩٨ كتب فى السفينة انفنسيبل عينا الاسكندرية فى ٧ يوليو سنة ١٨٨٢ التوقيع بوشان سيمور

قابل

قابل الجناب الخديوى وأعلنه رسميا بعزم الاميرال سيمور على مباشرة الحرب صباح يوم الثلاثاء الموافق ١١ يوليو وألح عليه أن يترك سراى رأس التين ويلجأ الى سراى الرمل ففعل وكتب رسميا الى درويش باشا المندوب العثمانى بالمحافظة على حياة الخديو وألقى عليه التبعة اذا أصابه مكروه وأعلن المذكور أيضا الاميرال سيمور ودرويش باشا وراغب باشا رسميا عبارحة رجال الوكالة الانكليزية القطر اشارة الى قطع العلائق وأعلن الارل غرانفيل ناظر خارجية انكلترة سائر الدول بذلك أيضا ثم سافر الاسطول الفرنسوى الى بورسعيد تاركا بالاسكندرية سفينتين من سفنه وفى ذلك اليوم عقد الخديو مجلسا حضره درويش باشا وقدرى بك من الوفد العثمانى والنظار وجمع كبير من الاعيان والذوات وتذاكروا فى أمر البلاغ النهائى المذكور وقرروا ارسال عبد الرحمن بك رشدى ناظر المالية وأحمد رشيد باشا ناظر الداخلية ومحمد كامل باشا وكيل البحرية وتغران بك من المعية السنية الى الاميرال سيمور ليبلغوه رسميا ان الطوابى لا يجرى فيها أعمال حربية ولم يوضع بها أسلحة مستجدة وان الموجود بها قديم من عهد محمد على باشا حتى ان أخشابها أكلها السوس وانه يمكنه مشاهدتها ان أراد ذلك ومع هذا فانه ارضاء لخاطره ينزلون المدافع الثلاثة الكبيرة التى بالطوابى فأبى الا انزال كافة المدافع وانه يسمح للعساكر المصرية انما هى التى ترفع المدافع عوضا عن العساكر الانكليزية ولما عاد المذكورون وأخبروا بما حصل أقر المجلس ان انزال المدافع الموضوعة منذ ٥٠ سنة بلا موجب حربى عار كبير لا يمكن تحمله وانه متى ضربت المراكب على الطوابى تجاوبها الطوابى بالمثل انما تكون المجاوبة بعد أن يطلق العدو خمس أوست مقذوفات من سفنه وانصرف المجلس على ذلك وعرض الخديو ودرويش باشا ما تقرر على الباب العالى .

الحرب والاحتلال — اعلم انه فى الساعة السابعة من صباح يوم الثلاثاء ٢٢ شعبان من سنة ١٢٩٩ (١١ يوليو ١٨٨٢ م) أطلقت العمارة المدرعة الانكليزية الراسية امام الاسكندرية وعددها ١٤ سفينة بين مدرعة ومدفعية (١) المعقود لواؤها للاميرال سيمور مدافعها على طوابى ساحل الاسكندرية وهى طابية رأس التين والفنار والاطه وقايتباى وبرج السلسلة وصالح أغا وباب العرب وأم قبيبة والقمارية والمكس والناموسية ومرسى القناة والمرابط والعجمى وبعد ان قذفت مدافع الانجليز ١٥ مقذوفا شرعت الحصون المذكورة فى اطلاق مدافعها واشتدت نيران الحرب بين الطرفين مدة عشر ساعات ونصف ولما كانت هذه الطوابى قديمة وغير متينة تهدم جميعها وسقطت مدافعها واحترقت مخازن بارودبعضها ولم تصب المدرعات البريطانية بضرر يذكر قال القومندان كاسبار غودرويش الامريكانى فى تقريره الرسمى المطبوع عن الحرب المذكورة وكان مشاهدا لها ان تلفيات جنود البوارج الحربية

(١) أسماء السفن الانجليزية سلطان (Sultan) سوبرب (Superb) الكسندره (Alexandra) انفنسبل (Invincible) مونارك (Monarch) بنيلوب (Penelope) انفلكسيبل (Inflexible) تمرير (Teméraire) والمدفعيات بيكون (Beacon) كوندور (Condor) بيترن (Bittern) سجنوت (Cygnet) ديكوى (Decoy) هيلكون (Helicon).

Digitized by Google

الانكليزية في يوم ضرب الاسكندرية كانت قليلة جداً فلم يعت فيها سوى ستة عساكر وجرح ٢٧ فقط ولم يحصل بالسفن الا ما لا يذكر من الاضرار أما الطوابي التي هي من الطراز القديم ففقدان كت عن آخرها وتخربت أسلحتها وقتل فيها من الجنود ما لا ينقص عن ٥٥٠ شخصا وجرح قدر هذا العدد تقريبا ورمى ضباط القلاع بالجهل لتركهم علامات مواقع الصواعق مرفوعة فكانت سببا لاحتراق مخازن البارود ولجودة تصويب وضبط القاء المقذوفات التي كانت تلقيها المدرعات وقت الضرب اه وبعد سكوت المدافع توجه عرابي مع النظار وعرضوا على الخديو ما حصل وقال عرابي اذا كان الغرض هدم الطوابي فقد تهدمت واذا كان الغرض غير ذلك فما العمل فعقد الخديو مجلسا حضره درويش باشا وبعد المداولة تقرر انه اذا أعادت السفن اطلاق المدافع ترفع الطوابي الاعلام البيضاء علامة طلب الكف عن القتال والمسالمة ثم يتوجه طلبه باشا على زورق ويقابل الاميرال سيمور ويخبره بأن الحكومة المصرية ليس بينها وبين انكلتره ما يوجب تكدير الصلات فضلا عن الحرب بل انها دائما محافظة على حقوقها وحقوق رعاياها واذا كان الغرض ازالة المدافع منها فانها قد تهدمت الطوابي جميعها وتكسرت المدافع وليس عندنا قوة تدفع المراكب بل ولا تريد حربا فتوجه المذكور صباح يوم ١٢ يوليو وقابل باور الاميرال وأخبره بما استقر عليه رأى الخديو والمجلس فقال له الباور ان الاميرال يطلب احتلال ثلاثة مواقع متجاورة وهي طابية العجمي والمكس وباب العرب ليجعلها مراكز للجيش الانجليزي وانه يطلب بذلك أمرا من الخديو في الساعة الثالثة بعد الظهر وان تأخر الامر المذكور عن الوقت المعين فانه يستأنف الضرب ثانية ويأخذ تلك المواقع قهرا فرجع طلبه باشا وبلغ الخديو ما حصل فعقد المجلس وتقرر فيه اخبار الباب العالي بذلك لان الفرمانات السلطانية لا تجيز لخديو مصر مطلقا أن يتنازل عن اية قطعة من أراضي مصر وعاد طلبه باشا لابلاغ الاميرال قرار المجلس ولكن لما كانت المدة التي قررها الاميرال غير كافية لاخباره بالقرار المذكور لم يذهب طلبه باشا لمقابلة الاميرال هذا ولما رأى الجيش عدم استطاعة رجال الحصون على المقاومة وعلموا ان التسليم المطلوب الاميرال يعقبه احتلال الجيش البريطاني المدينة صمموا على اخلائها وزعوا الفرسان في انحائها لمحافظة على الامن وأمر الناس بالخروج على الفور فخرجوا أفواجا والاضطراب ملء قلوبهم والاندهاش مستول عليهم حتى كان الرجل منهم لا يلتفت الى أولاده والمرأة لا تسأل عن طفلها والاطفال تصيح والنساء تبكي والمنظر يفتت الاكباد وأمر سليمان داود أمير الالاي العساكر والرعاع بحرق المدينة فأخذوا يحرقون وينهبون وكان ذلك على غير رضا عرابي وبلا أمر من النظار قال عرابي في تقريره ما ملخصه انه لما أشيع ان المراكب ستجرى الضرب على المدينة لتدمها خرج من كان باقيا فيها وخرجت العساكر بأولادها وزوجاتها بغير انتظام فأمرت عبد بك أحد أمراء الالايات بجمع عساكر الالايه وبان يمنع العساكر من الخروج ووقفت بنفسي في باب شرقي أمنع العساكر وقيل لي ان سليمان سامي بك مع جانب من العساكر في حالة جنون وانه يريد حرق البلد فأرسلت له حالا بالحضور فحضر ومعه بلوكان من غير المنتظمين فسألته عما انسب اليه من انه يريد حرق البلد فأنكر اه ولكن المدينة كانت في مساء الاربعاء شعلة نار وكان الخديو مقيما في سراى الرمل ومعه نحو الخمسين من الذوات والاتباع والحاشية واجتمع حول السراى نحو ٥٠٠ نفر من عرب البحيرة قيل ان ابراهيم بك توفيق مدير البحيرة وقتئذ أرسلهم لمساعدة الخديو والمجاهدة فاضطرب

الجهادية

الجهادية من تجمعهم فصرفهم الخديو كاصرف العساكر والخيالة الذين بعثهم سليمان بك سامى وهم الذين أشيع عنهم وعن احاطتهم بالسراى انهم يريدون الفتك بالخديو وقد تخلف من هؤلاء الجنود ٢٥٠ جنديا من الخيالة معهم أحد البكباشية وانضموا الى معية الخديو ليكونوا فى خدمته وطوع أمره ثم ذهب عرابى الى جهة المحمودية وأخذ يجمع عساكره ثم توجه الى عزبة خورشيد الواقعة على مسافة ٥٠٠٠ متر من محطة السكة الحديد وهناك أخذ فى تشييد الطوابى والمتاريس وجعل معسكره العام فى كفر الدوار ثم أرسل عرابى يرجو الخديو الانتقال الى القاهرة وأرسل له قطاره المخصوص فلم يقبل وفضل البقاء بالاسكندرية خوفا على نفسه وفى يوم ٢٦ شعبان (١٣ يوليو) حضر زهراب بك من الاسكندرية وأخبر الخديو بخروج جنود عرابى من المدينة وان الاميرال سيمور عزم على انزال جنود بحرية برأس التين وانه يدعوه الى سفينته ليكون فى مأمن ففضل الخديو الاقامة بسراى رأس التين هو وعائلته وحاشيته ومعه درويش باشا ونزل الاميرال سيمور وبعض جنوده للسلام عليه ثم قصده بعد ذلك بعض وكلاء الدول وهنؤه بالسلامة وأنزل الاميرال بعض الجنود لخفارة السراى والمدينة لاطمئنان المتخاف فيهما من الاهالى واتضح من يومئذ ان الحرب الذى أقر عليه المجلس العمومى المنعقد فى يوم ١٠ يوليو تحت رئاسة الخديو كان على غير رأيه وان وافق ظاهرا لانه بعد ستة أيام من خروج عرابى من الاسكندرية بعث الخديو اليه تلغرافا يلقى عليه مسؤلية الحرب ويخبره بحصول الصلح ويأمره بالحضور الى الاسكندرية للمكالمة وكتب راغب باشا رئيس النظار لكافة مأمورى الحكومة يخبرهم بحصول الصلح ويأمرهم بابطال التجهيزات الحربية وذلك بعد ان كتب راغب باشا للاميرال سيمور يخبره بأن الخديو عزم على عزل عرابى من وظيفته (١٧ يوليه) وأرسل الخديو أيضا كتابا الى عرابى بمعنى ماتقدم وقد أدرجناه بذيل الصحيفة افادة للقراء (١) أما عرابى فانه امتنع عن الحضور للاسباب التى ذكرها فى جوابه المدرج بأسفل الصحيفة (٢) ولما وصل الى عرابى كتاب الخديو بعث بتلغراف

---

(١) كتاب الخديو الى عرابى باشا — اعلموا أن ماحصل من ضرب المدافع من الدونمة الانكليزية على طوابى اسكندرية وتخريبها انما كان السبب فيه استمرار الاعمال التى كانت جارية بالطوابى وتركيب المدافع التى كما كان يصير الاستفهام عنها كان يصير اخفاؤها وانكارها والآن قد حصلت المكالمة مع الاميرال فأفاد بأنه ليس للدولة الانكليزية مع الحكومة الخديوية أدنى خصومة ولا عداوة وان ماحصل انما هو فى مقابلة ما كان من التهديد والتحقير للدونمة وانه اذا كان بيد الحكومة الخديوية جيش منظم وممتثل ومؤتمن فهو مستعد لتسليم مدينة اسكندرية اليها ولذلك اذا حضرت عساكر شاهانية فالحكومة الانكليزية تحترمهم وتسلم اليهم المدينة فقد تحقق من هذا ان الدولة الانكليزية ليست محاربة مع الحكومة الخديوية وانه تقرر من جميع الدول المعظمة فى المؤتمر بأنه لا يصير مس امتيازات الحكومة ولا حريتها ولا مس حقوق الدولة العلية بل هى تبقى ثابتة لها كما كانت وأن يصير ارسال عساكر شاهانية لاجل استتباب الراحة بمصر فلذلك يلزم أن تصرفوا النظر عن جمع العساكر وعن كافة التجهيزات الحربية التى تجرونها بوصول أمرنا هذا وتحضروا حالا الى سراى رأس التين لاجل اعطاء التنبيهات المقتضية الشفاهية على حسب أمرنا هذا وما استقر عليه رأى مجلس النظار ما ١٧ يوليو سنة ١٨٨٢

(٢) جواب عرابى باشا الى الخديو — مولاى — فى شريف علم مولاى المعظم ان المحاربة التى وقعت بيننا وبين الانكليز انما تسببت عن طلبات من الاميرال الانكليزى وبلغت مسامع عظمتكم وعرضت على مجلس نظاركم المنعقد تحت رئاسة سموكم بحضور كثير من ذوات البلاد المنتخبين ودولتلو درويش باشا نائب الحضرة السلطانية

Digitized by Google

الى يعقوب سامى باشا وكيل الجهادية يأمره بأن يعرض على المجلس مسئلة بقاء الخديو فى الاسكندرية ومسئلة الامر التلغرافى المذكور وكذا مسئلة المناوشات الحربية الحاصلة من الجيش الانكليزى ضد الجيش المصرى بجهات حجر النواتية لانه يستدل منها على عدم حصول الصلح فعقد يعقوب باشا مجلسا عموميا فى ديوان الداخلية جمع فيه وكلاء النظارات ورؤساء المصالح والعلماء والاعيان والرؤساء الروحانيين وغيرهم وعرض عليهم ما أمره به عرابى فأخذوا يتداولون فى الامر وقام فى المجلس عدة ضباط وطعنوا على الخديو بأنه باع البلاد والتجأ الى الاعداء وغير ذلك من أقوال السخف والطيش ثم استقر رأيهم على ارسال وفد الى الاسكندرية ينظر فى حقيقة الامر ويطلب من الخديو والنظار العودة الى مصر عاصمة البلاد فان كانوا مطلقى السبيل أجابوهم الى ذلك وان كانوا مكرهين على البقاء تحت حفظ العساكر المحاربة للبلاد فيعود الوفد الى مصر ويخبر المجلس بالحاصل فتألف الوفد من على مبارك باشا ورؤف باشا والشيخ على قابل والسيد أحمد بك السيوفى وسعيد بك الشماخ وتوجهوا الى الاسكندرية ثم عادوا وبقى فيها على باشا مبارك وأحمد بك السيوفى وأخبروا ان الخديو أصدر أمرا بعزل عرابى بعد ان كتب راغب باشا الى الاميرال سيمور فى ١٧ يوليو يخبره بأمر الخديو كما تقدم لان عرابى لم يكف عن التأهب والتجهيز واعداد وسائل الدفاع ولذلك صار يعتبره وحده مسؤلا عما يحدث وأصدر الخديو أمرا أيضا الى وكيل الجهادية بمصر

ولما تحقق عند جميعهم ان هذه الطلبات مضرة بالحكومة الخديوية ومخلة بشأن البلاد قر رأيهم على معارضة طلب الاميرال ولو أدى ذلك الى الحرب وبناء على ذلك قرر المجلس المذكور لزوم زيادة خمسة وعشرين ألف عسكرى وصدرت الاوامر الى المديريات بطلبهم وقرر المجلس أيضا انه لا تطلق المدافع من جهتنا الا بعد اطلاق خمسة مدافع من السفن الانكليزية ولما ابتدأت السفن باطلاق النيران على مدينة الاسكندرية لم تقابلها الا بعد عشرين طلقة ولم يكن عندنا قبل وقت الضرب أدنى استعداد لاستمرار الاوامر بعدم الاستعداد ثم بعد ذلك أعلن حضرة رئيس مجلس النظار وناظر خارجية حكومتكم الى جميع جهات الادارة بان تجعل البلاد حربا مع الانكليز وأنها صارت تحت الاحكام العسكرية كلها وحكم القانون زمن الحرب فبهذه الاسباب يا مولاى تكون حكومتكم الخديوية المصرية محاربة لدولة الانكليز بوجه الحق والشرع ولم يحصل من الحكومة ولا من عساكرها أدنى تحقير ولا ازدراء بالدونانمة كما هو معلوم لدى عظمتكم وانما كان الحرب بعدوان من الانكليز على الحكومة التى لم يبد منها أدنى شئ يستوجب الحرب فان كان الاميرال فى مخابرته مع سموكم أظهر انه عدل عن المحاربة الى المسالمة فذلك بعد وقوع الحرب بعد طلبنا الصلح وسعيا فى تجديد العلاقات ولا يجوز أن يكون انكار الحرب بالمرة وتبرؤا من العدوان بعد وقوعهما ولا شك فى أنى أوافق على أفكار سموكم فى الميل الى الصلح مع حفظ شرف البلاد والحكومة وان كان الاميرال يريد تسليم المدينة لجيش حكومتكم المنظم بعد ان تخربت بمدافع السفن الانجليزية هدما وحرقا فها هو جيشها المنظم الذى لم يقع منه أدنى أمر يخل بنظامه مستعد لان يستلمها بعد براح المراكب عن مياه الاسكندرية والمحافظة على شرف حكومتكم الوطنية ينبغى الاستمرار على الاستعداد العسكرى كما وافق ذلك رأى سموكم أولا حتى تفارق المراكب السواحل المصرية خوفا مما عسى أن يحدث من قبيل ما سبق فقد صارت الحادثة الماضية برهانا جليا على ان الوعد بالمسالمة من الانجليز لا يمكن كل الثقة به وانما هو لاجل شغلنا عن الاستعداد واقتراح مطاليب مضرة بمصالح البلاد وانى كنت أتمنى أن أمثل بين يدى عظمتكم لابداء هذه الملحوظات لكن من الاسف انه تحقق عندى من الاكتشافات الحقيقية ان مدينة الاسكندرية مشغولة الآن بعساكر الانكليز فمن المعلوم عند مولاى أنه لا يمكننى الحضور لتلك المدينة لهذا السبب فاذا حسن لدى مولاى فليصدر أمره السامى بحضور حضرات النظار أو سعادة رئيس مجلس النظار الى مركز الجيش للمداولة فى هذا الامر لنكون على بينة من الحقيقة حتى يمكننا بعد ذلك صرف العساكر وترك التجهيزات الحربية والحضور الى المدينة والامر لمن له الامر افندم ١٨ يوليو سنة ١٨٨٢

بخبره بذلك و بابطال التجهيزات فعقد المجلس العمومى ثانيـة واجتمع فيـه نحو خمسمائة نفس بينهم بعض أمراء العائلة الخديوية ومعهم شيخ الجامع الازهر وقاضى مصر ومفتيها والشيخ السادات والسيد البكرى وكثير من العلماء والاعيان والذوات و بطـرك الاقباط وحاخام اليهود وبعد المداولة طويلا استقر رأيهم على وجوب استمرار الدفاع ولم يكن فى إمكانهـم أن يفعلوا غير ذلك وقتئذ لئلا يحـل بهم العقاب من الحزب العسكرى وكتبوا تلغرافا للحضرة السلطانيـة بما حصل وأخـذ عرابى يتحصن فى كفر الدوار وأرسلت فرق من الجنود الى جهات الصالحيـة والاسماعيلية والسواحل وأوقف المجلس أيضا انفاذ الاوامر الخـديوية فى جميع جهات القطر الداخلية بدعوى ان الخديو فى قبضة العدو وانه خرج عن مقتضيات الشرع الشريف وتشكل فى مصر مجلس عرفى بديوان الجهادية أعضاؤه بطرس باشا غالى وكيـل الحقانية وحسين باشا وكيل الداخليـة ويعقوب سامى باشا وكيل الجهادية وأحمد نشأت باشا ناظر الدائرة السنية ولما تمت خطوط الدفاع بكفر الدوار هاجـم عرابى باشا ضواحى الاسكندرية واستعد الانجليز لمقاومته وانتشب القتال بين الفريقين وكان الحرب سجالا وأخـذ بعض المهاجرين يعودون الى الاسكندرية وفى أواسط شهر أغسطس استعفت وزارة راغب باشا فشكل الخديو وزارة جديدة رئيسها شريف باشا وكان ناظرا للخارجية أيضا وكان رياض باشا للداخلية وعمر لطفى باشا للجهادية والبحرية وحيدر باشا للمالية وعلى مبارك باشا للاشغال العمومية وخيرى باشا للمعارف وحسين فخرى باشا للحقانية ومحمد زكى باشا للاوقاف وأصدر الخـديو عفوا عن الضباط المنفيين بتهـمة المؤامرة ضد العرابيـين فعادوا الى الاسكندرية وأعلن الخديو أيضا بعصيان عرابى غير ان أوامره كانت لا تأثير لها إلا فى الاسكندرية فقط لان أوامر الحزب الوطنى ونواهيـه هى التى كانت سائرة بين الاهالى وقال عرابى فى تقـريره أما الرأى العام فجميع الذوات والعلماء وأعيـان البلاد كانوا يأتون بدون انقطاع فى كفر الدوار وحتى فى رأس الوادى وكل يجود بما عنـده من الرأى وعـاذكر تكون الامة المصرية على اختـلاف مذاهبها اما محاربة بالحق والقانون أو عاصـية باغيـة بالقوة والقهر اهـ وفى خـلاله أخذت الجيوش الانكليزية تفد الى الاسكندرية لمحاربة عرابى حتى بلغوا ومئـذ ١٤٠٠٠ من المشاة وثلاث فـرق من الفـرسان و ٩٤٠ من الطوبجية عليهم ٣٢ ضابطا ومعهم ٢٦ مدفعا و ٥٤٠ مهندسا وتسعة آلاف من الجيوش الهندية وعـدد عظـيم من خدمة الجسور والتلغـرافات والسكك الحـديدية وكان يقود هذا الجيش الجنرال ولسـلى (Garnet Wolseley) أما جيش العرابيين فى كفر الدوار فكان نحو ٣٠٠٠٠ بـين جنـود منتظـمة وعـربان ومتطوعـين وقـد صـدهـذا الجيش الجيش الانجلـيزى فى عـدة وقعات لان المتاريس والاستحكامات التى أقامها العرابيون عـلى خطوط الدفاع بين مـلاحـة أبوقـير وملاحـة مربوط من الرمـلة البيضاء الى كفر الدوار جعلت هـذا الخط منيعا وقد ازدادت الصعوبات على أهالى الاسكندرية والجيش الانكليزى بعد ماسد عرابى ترعة المحمودية وقطع مياهها عن الاسكندرية حتى اضطر قنصل الانجليز أن يخبر زملاءه من قناصل الدول بمنع عود رعاياهم الى الثغر لقلة المياه به وكانت أهالى القطر تساعد جيش عرابى بكل احتياجاته طوعا أو كرها فاجتمع للجهادية نحو ٨٠٠٠ من الخيل والبغال و ٤٠٠٠ من الجمال والبقر والجاموس أما الاغنام فشئ كثير وقـد تبرع كثير من الاهالى عن طيب نفس وقال عرابى

Digitized by Google

فى تقريره حتى إن من جملة المتبرعين دائرة دولتلو رياض باشا وخيرى باشا مع كونهما غائبين عن مصر وجميع دوائر العائلة الخديوية وأقام عرابى لذلك نزلا فى كفر الدوار وفى التل الكبير وفى كفر الزيات وكان على نزل كفر الزيات يوسف شهدى باشا وكنت بمعيته مع طائفة فرقاطة محمد على ولما وصل الجنرال ولسلى ثغر الاسكندرية نشر نشرة قال فيها انه لم يأت الى مصر الا لتأييد سلطة الخديو وانه يحترم دين الاهالى وعوائدهم ويطلب من الاعيان مساعدته على قمع العصاة وغير ذلك وقد أدرجناها بأسفل الصحيفة كعادتنا (١) ونشرت معية الجناب الخديو أيضا منشورا قالت فيه ان العساكر الانكليزية نائبة عن الخديو فى اعادة الامن والراحة الى البلاد وهى تدعو الامة الى مسالمتهم وتقديم ما يحتاجون اليه وقد أدرجناها بأسفل الصحيفة أيضا (٢) وفى تلك الاثناء

(١) يعلن الجنرال ولسلى قائد الجيوش الانكليزية ان الدولة البريطانية لم تقصد بارسال التجريدة العسكرية الى القطر المصرى الا تأييد سلطة الجناب الخديو فجنودنا لذلك لا تقاتل الامن كان شاكى السلاح خالعا الطاعة للخديو أما سائر الاهالى الذين يكونون فى هدء وسكينة فلا يمسهم أذى بل سيحترم دينهم وتصان مساجدهم وعائلاتهم وما يلزم للجيش من زاد وغيره يؤدى ثمنه ولذلك تدعو الاهالى الى تقديم ما يحتاج اليه الجيش ثم ان الجنرال قائد الجيوش يسر كثيرا وينشرح صدرا من زيارة مشايخ البلاد وغيرهم ممن يود المساعدة فى قمع العصيان والقاء القبض على العصاة الذين عصوا الجناب الخديو أمير البلاد وواليها الشرعى المعين من لدن الحضرة السلطانية فى الاسكندرية فى ١٩ أغسطس سنة ١٨٨٢ الامضا . الجنرال غارنت ولسلى قائد الجيوش الانكليزية فى الديار المصرية

(٢) ارادة خديوية سنية صادرة من المعية السنية لكافة أهالى وسكان القطر المصرى ليس بخاف ما أقدم عليه أحمد عرابى وشيعته الضالة من الافعال المغايرة والتشبثات الفوضوية التى أخلت بنظام القطر وأضعفت الثقة به بل أورثته الخسائر والاضرارات الجسيمة ولاسيما بانضمام الجيش المصرى اليه واتحادهم معه فى البغى والمجاهرة بالعصيان لحكومتنا الخديوية حتى ارتبكت الاحوال وخيفت العاقبة فبادرت الممالك العظيمة بانعقاد المؤتمر الدولى فى الاستانة للنظر فى المسئلة وتقرير ما به حلها وبعد البحث والمذاكرة فى ذلك قد استقر رأيهم على اتخاذ الطرق التى يلزم عليها عودة سلطتنا الخديوية وتأديب هؤلاء الخارجين لتستتب الراحة وتزول أسباب المفاسد حرصا على عمارية القطر واحترازا مما عسى أن يلم به من الدمار ولما كانت الدولة البريطانية الانكليزية لها به المنافع الكبرى ماليا وماديا ولا سيما بالنظر الى قنال السويس الذى هو طريقها الوحيد للخطة الهندية المهمة فقد أخذت على عهدتها وتحت امرتها التداخل الفعلى لقمع هؤلاء المفسدين ومحو آثار الفتن دون أن تمس بحقوق السلطنة السنية ولا الامتيازات المصرية ولتحققنا أن نيتها ومساعيها فى الظاهر والباطن ليس الا الاصلاح ولا غاية لها فى الاستيلاء على البلاد ولا الفتك باهلها لعداوة دينية ولا غير ذلك مما يذيعه العصاة تنفيرا منهم للعامة وتبغيضا لهم فى الامة الانكليزية على حسن مقاصدها المذكورة ولا يزال العاصون على حالهم من المقاومة وتجسيم الحال المؤدى لزيادة الخراب حتى اعتبرتهم السلطنة السنية عصاة مخالفين للاحكام الشرعية فاستدراكا للامر ومراعاة للمصلحة العامة قد رخصنا لحضرة القائد العمومى للجيش الانكليزى بالتحول نحو جموع العصاة واستعمال الوسائط القاهرة لتبديد شملهم وسرعة القبض على رؤسهم لمقاصتهم بما يستحقون من أشد العقاب وبما أن العساكر الانكليزية يعدون فى هذه الحالة نائبين عنا فى قطع دابر المفسدين وتخلية البلاد منهم ليعود الامن والراحة ويزول الشقاء عن العباد ومن كانت هذه صفتهم فانهم جديرون بالمعاونة والمساعدة ولا ريب من جهتهم بوجه من الوجوه فينبغى أن لا يرهب منهم أحد ولا يظن فيهم سوأ أو مكروها وأن لا يعاملوا بما يستوجب المنافرة بل على كل مصرى يحب وطنه ويخشى خرابه أن يعاملهم لقاء حسن نياتهم بالاكرام اللائق بهم ولا يتأخر أحد عن مساعدتهم فى تقديم ما ربما يحتاجونه من المؤنة والعلوفة باثمانها السائرة التى هم مستعدون لادائها فورا فمن فعل كذلك فقد وفى ما يجب عليه من حقوق الوطنية الصادقة واستوجب رضا الله ورضانا عنه فضلا عما يراه منهم من المكرمة ومن أبى وخالف وقابلهم بالمكابرة الوحشية التى لا تجديه نفعا فقد عرض نفسه للتهلكة التى نهى الله عنها وتحققنا أنه من العصبة الباغية فأمره كأمرهم هذا واننا نحذر الناس كافة من سكان البنادر والبلدان وبالاخص

استدعت

استدعت الدولة من مصر مندوبها درويش باشا فسافر مع حاشيته وبعد أن هاجم الجنرال ولسلي جيش عرابي ورأى متانة استحكاماته وانه لو أراد الاستيلاء عليها لخسر خسارة كبيرة وجه قوته على العرابيين من جهة قنال السويس وكان يرافق جيشه كثير من ضباط مصر ورافقه أيضا سلطان باشا المساعد له ولما تحول الانجليز الى ثغر السويس واستولوا عليه خطر للعرابيين سد القنال منعا للسفن الانجليزية من المرور وخاف دولسبس من انطماس أثره فاتخذ وسيلة يدفع بها عن الترعة شر العرابيين فتظاهر بمقاومة الانكليز محتجا على حلولهم السويس فانصرف ذهن عرابي باشا الى ان الموسيو دولسبس انحاز اليه ويقال ان محررات دولسبس الى حكومة فرانسا هي التي جعلتها تتخذ الحيادة طريقها بعدما اشتركها في كل المداخلات الابتدائية بما كان يظهر لها من خطارة الحركة العرابية وقيام الامة المصرية بأسرها وانه يعسر على الانكليز الانتصار وكان دولسبس من جهة أخرى يخاطب عرابي باشا تلغرافيا بخصوص احترام ترعة السويس ويقول له انه مادامت المراكب الحربية البريطانية لم تتخذها ميدانا للحرب فاحترامها يجعل سياسة باقي الدول الاوروباوية مائلة اليه وغير ذلك من الاقوال التي لولاها لاتبع عرابي باشا كما يقال نصيحة قنصل الروسيا الذي قال له ان أردت النجاح فأول عمل تجريه عند قيام العدوان سد القنال ولما وصلت المراكب الحربية الانكليزية الى مدينة الاسماعيلية (٢٢ اغسطس سنة ١٨٨٢) وتم احتلالها القنال وأطلقت المدافع على جهة نفيشه كتب عرابي الى الموسيو دولسبس يقول انه مادامت الترعة اتخذت ميدانا للحرب فقوانين الحرب تقضي عليه باعتبارها كذلك فرد عليه دولسبس بأن يفعل ما يسوغه له قانون الحرب لوثوقه بعدم قدرة عرابي على سد القنال بعدما احتلته الاساطيل الانكليزية وكان عرابي كتب الى الاستانة يقول عما ان الانكليز خرقوا نظام حيادة قنال السويس فقد صارت مصر مضطرة الى سده وتعطيله ثم أصدر أمره الى راشد حسني باشا ومندانخط الشرق والى محمود فهمي باشا باشمهندس عموم الاستحكامات بسد الترعة الحلوة الاسماعيلية والقنال إن مكنتهم الاحوال الحربية فلم تمكنا الامن سد الترعة الحلوة فقط وأقام الجنرال ولسلي في الاسماعيلية وبعد أن أتته الامدادات من الهند شرع في الحركات العسكرية واشتبك الانكليز مع جيش العرابيين في جهات المسخوطة والمحسمة في ٢٣ أغسطس فاقتتل الفريقان قتالا شديدا اشتركت فيه العربان مع العرابيين وبعد قليل اضطر راشد حسني باشا وخالد باشا الى التقهقر (٢٥ أغسطس) وأخذ محمود فهمي باشا أسيرا ويقال انه هو الذي سلم نفسه لما

المحروسة عن المهاجرة من بلادهم وانحيازهم لجانب العصاة طوعا أو كرها منهم فيدهمونهم بما دهموا به أهل اسكندرية عندما خدعوهم على تخليتها في أقل برهة وبخروجهم تمكن البائون المنافقون من نهب المدينة وحرق أهم جزء فيها بغتة فليعتبر العاقل بغيره

فعلى علمائها وذوات عمدها ومشايخ البلاد ووجهائها وتجارها الذين نتوسم فيهم الخشية والسكينة والاخلاص الحقيقي لجانب الحكومة وبمزعليهم وطنهم وأهلهم الخبرة بالعواقب أن يذعنوا ويمتثلوا لاوامرنا هذه وينظروها بعين النصيحة المحضة لصالحهم وصالح القطر ويلزموا العامة باتباعها كي لا ينزعجوا ويكونوا آمنين مطمئنين على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم من قبل العساكر الانكليزية فلا يمسهم ضرر ولا يلحقهم كدر ماداموا مجتنبين للعصاة وهذا ما اقتضته ارادتنا . اه

رآه من فشل العرابيين وورد فى الصحف الانكليزية ان فرق الجيش البرطانى بعد ان حلت فى المحسمة وتحصنت فيها تجمع العرابيون بقوة مؤلفة من الاثنين من المشاة وثلاث بطاريات من المدافع وعدد كثير من العربان وهجموا على مواقع الانكليز بامرة راشد باشا حسنى وبينما كان القتال جاريا جاء الامداد الى راشد حسنى باشا على قطار مخصوص وكان قد سبق ذلك ان تشدد العرابيون وكروا على الانكليز كرة واحدة أبعدتهم قليلا عن المواقع التى كانوا قد استولوا عليها ولكن القادة الانكليز هجموا ثانيا على العرابيين وألجؤهم الى الانهزام واتفق ان محمود باشا فهمى وصل الى ساحة القتال ساعة الانهزام ولم يكن بمعيته الا خادمه ففاجأه الخيالة الانكليز وألقوا القبض عليه وسيق ثانى يوم الى الجنرال ولسلى فسأله الجنرال عما اذا كان ممن ولوا الادبار تاركين المعسكر بعد الموقعة أو ممن دخلوا فى الاسر قهرا فأجابه انى أسير واست منهزما اه ثم انتقل عرابى الى التل الكبير وأتاه من مصر على فهمى باشا مع باقى الجيش وأخذ يحشد الجنود ويقيم الحصون هنالك قال موسيو هنس رزرفى كتابه نقلا عن الكتاب الازرق الرسمى ما ملخصه انه بعد ما طلب الباب العالى من انكلترة اخراج عساكرها من اسكندرية قائلا ان وجود الخديو والمشير درويش باشا فيها كاف لاعادة النظام جاوبه الارل غرانفيل ناظر خارجيتها بان عرابى جمع جيوشه بهيئة عدوانية فى كفر الدوار فلذلك أمرنا الاميرال سيمور بانزال رجاله فى المدينة أولا لكى يحافظ على شخص الخديو وثانيا ليعيد الامن والنظام ولكن فى علمكم اننا لا نريد قط احتلال القطر المصرى وانما أعمالنا هذه كلها لحفظ سيادة الباب العالى وحقوق سمو الخديو على مصر بما أن جلالة السلطان غير مهتم بذلك اه فعندئذ صمم الباب العالى على ارسال جيش عثمانى الى مصر وأعلن أعضاء المؤتمر ببلاغ أرسله اليهم فى ٢٨ يوليو من سنة ١٨٨٢ بأن الدولة العثمانية تقبل ارسال جنودها لاحتلال مصر ولكنها تشترط جلاء العساكر الانكليزية عنها عند وصول الجنود العثمانية اليها فأجاب اللورد دوفرين بالقبول بناء على ما ورد اليه من حكومته ولكن قبل الكلام فى ذلك يصدر الباب العالى منشورا يعلن فيه الامة المصرية بعصيان عرابى وبناء على ذلك أصدر الباب العالى منشورا باعتبار عرابى عاصيا ونشر منه فى جميع الجهات نحو ثلاثين ألف نسخة (١) وكان العرابيون ينشرون

---

(١) البيان نامه الرسمية الصادرة من الباب العالى بارادة سيدنا ومولانا السلطان المعظم أمير المؤمنين خليفتنا الاعظم اشعارا لجميع المسلمين بأن الافعال التى أجراها عرابى وأعوانه ورفقاؤه فى مصر مخالفة لارادة الدولة العلية السلطانية ومجحفة بمصالحها ومضرة بمصر ومغايرة لمصالح المسلمين وبناء على ذلك تقرر ان عرابى وأعوانه (عصاة) (بغاة) وبهذه الصفة تجرى معاملتهم

لكن معلوما للجميع ان الخديوية المصرية هى مودعة من طرف حضرة ملجأ الخلافة العظمى الاشرف لدى عهدة استئهال حضرة فخامتلو دولتلو محمد توفيق باشا وفاقا للاحكام المأذونية الممنوحة بالاوامر العلية السلطانية ولما كان حضرة الخديو المشار اليه وكيلا مطلقا للسلطنة السنية فى ادارة الامور المصرية كانت أوامره مطاعة والسلوك بما يخالفها موجبا للمسؤلية والحال ان عرابى باشا خلافا لصريح الاحكام القانونية صار سببا لسوء التعرض لوظائف الحكومة وسلب أمنية المملكة والاخلال بالراحة ولوقوع مضار وفقدان فوائد شتى على كثير من الاهالى مالا ونفسا وصار سببا فى نهاية الامر لوقوع مداخلات عسكرية خارجية فى مصر أما تطرق دولة انكلترة المحبة القديمة للسلطنة السنية الى درجة اطلاق المدافع على الاسكندرية فكان الباعث اليه التجهيزات التى جرت فى استحكاماتها وعدم الامنية من أن تمس أساطيل الدولة المشار اليها الراسية فى مرساها هدفا لحركات وتعرض المدافع التى كثر مقدارها فى تلك الاستحكامات على أن

فى

في ذلك الوقت في جرائدهم وغيرها أخبار وقائعهم مع الجيش بكيفية مضحكة ولسوء البخت ان أغاب

الحكومة السنية قد كررت أوامرها بترك التجهيزات وتعطيلها لكي لا يكون سبيل للاساطيل الانكليزية لايقاع التعرض وتعددت النصائح المشفقة المقبولة المطوية على كثير من الادلة المقنعة تثبيتا لوخامة العمل الذي ينتج من عكس المسلك فلم يطع عرابي باشا هذه الاوامر ولم يمتثل لتلك الوصايا الزواجر ولما ابتدأت الاساطيل المذكورة بحركات التعرض على المدينة أظهر ان المقابلة الواقعة من الاستحكامات كانت على شكل دفاع ضروري والحال انه قد ظهر وثبت من حركات عرابي باشا ان مقصده الاصلي انما هو ايقاع المملكة في نزاع واختلال والقاء الاهالي في تباين واختلاف توصلا لمنافعه الذاتية الغير المشروعة لانه لو كانت نيته وفكره على غير هذا الامل لما كان أولا جعل سببا وأبدى استعدادا لاحوال من شأنها ان تجلب على الاسكندرية شديد صدمات تلك الاساطيل وكان الاجدر به أن يصغي للاوامر والنصائح التي أمرته بالتوقي من هذه الكوارث وكان ثانيا اعمل الفكر في عدم الاستطاعة الشروط لزومها بحسب الشرع والمسلم بها عند كل فرد مع قطع النظر عما يلزمهم في مبحث المقابلة للاساطيل من الاسباب العديدة والشرائط المهمة ولكان توقى سبب اراقة دماء كثيرين من البشر بلا موجب ترويجا لمقصده وأمله ولما جلب على الخطة المصرية مداخلة عسكرية أجنبية وألقى الدولة العلية في الموقع المشكل الذي هي فيه اليوم أما تصديه لحصر محل اقامة الحضرة الخديوية مرة ثانية عقيب اطلاق المدافع على الاسكندرية فانه كان مبدأ المداخلة العسكرية حيث أوجب الحال على أميرال الاساطيل أن يخرج الى البر عسكرا لاجل استحصال الامنية ثم ان الدولة تكرمت بارسال هيئة مرخصين مؤلفة من حضرة درويش باشا أحد المشيرين ولبيب أفندي رئيس محكمة التمييز وأسعد افندي أحد السادات الكرام ووكيل الفراشة الشريفة وقدري افندي بقصد جلب عرابي باشا الى دار السعادة لتجري عليه التنبيهات والتلقينات بنوع أبلغ وازيد ليقلع عن المسلك الغير المستقيم الذي سلكه في مصر ولكي تحل المسألة المصرية حلا ملائما درأ به اسباب وقوع المداخلة الاجنبية ولئلا يترك سبيل يضطر الدولة اضطرارا مؤلما لاعمال قوة جبرية نحو أولئك الافراد الذين اختاروا طريق الغفلة وسلكوا مسلكا غير معقول من غير تمييز لحقيقة الحال أعني من غير تصور وادراك للضرار التي تلم ببلادهم وبالدولة من المسلك الذي سلكوه فلم تأل هذه الهيئة جهدا في سبيل اجراء مأموريتها متشبثة بكافة الوسائل والاساليب وطالما أبلغت عرابي باشا المومأ اليه نصائح شتى دينية شرعية وعقلية وزمانية فلم يلق للطاعة سمعا وكان جوابه القطعي النهائي دالا على ثباته في مسلكه معلنا باستعداده لمقابلة كل من تخطى الى الخطة المصرية أجنبيا كان أو غير أجنبي وعدم قبول عساكر الدولة العلية اذا قدمت الى القطعة المصرية كما تحقق ذلك من التقرير الرسمي المشترك المتقدم من طرف هيئة المرخصين المار ذكرها أما انتصاب عرابي باشا من تلقاء نفسه الحصر وتشكيله هيئة ادارية وتصديه للسلوك ضد الحكومة المحلية فمقدار درجة عدم مشروعيته ووخامة عاقبته أمر لا يحتاج الى الدلائل والبينات وهنا أمر واضح جدا وهو انه كلما ازدادت درجة استمرار عرابي باشا وأعوانه في المسلك الذي باتوا يشتغلون به اليوم وقد ألبسوه لباس المشروعية ستر المقاصدهم المضرة مثابرين على تغرير افراد الناس الغير الواقفين على الحقائق يستميلونهم لمتابعتهم بتبشيرات رعاعية تزداد بنسبة ذلك تشبثات دولة انكلترة للمحافظة على اعتبارها العسكري وتتوسع بالطمع أيضا دائرة الغوائل السياسية الملمة بالدولة العلية والحاصل ان نتيجة الحال لا تكون أدنى فائدة للخطة المصرية التي هي الجزء المهم والمتمم للممالك المحروسة السلطانية بل تكون مضرة بها وتكون الدولة على الاطلاق غير سالمة من المحاذير ومع ان حركات عرابي باشا التي عددناها أعلاه أعني الحركات التي أوقعها قبل ان تتهدد الاساطيل الانكليزية مدينة الاسكندرية ولا سيما تفوهاته بالتهيؤ لمقابلة عساكر الدولة العلية بمقاومة مسلحة كانت داعية لشدة مجازاته ولكن بناء على مراجعته للحضرة الخديوية والتجائه للعفو السلطاني والمراحم السنية الملوكانية ومن جهة أخرى بناء على ما وقع لدرويش باشا باسم العساكر المصرية من التأمينات والمواثيق الرسمية في سبيل الطاعة للسلطنة السنية وتجديد الارتباط والصداقة للحضرة الخديوية وهي المواثيق والتأمينات التي نشرت قبلا في أوراق الحوادث استنادا على اشعار درويش باشا المشار اليه قد شملت تضرعات عرابي باشا ومسؤلاته بعين العاطفة العلية وقرن ذلك أيضا بالمساعدة بتلطيفه بالنيشان العالي بناء على الانهاء الرسمي المتقدم من طرف درويش باشا المشار اليه ليكون باعثا له على تزايد الامنية وتجديد الانقياد والصداقة ولكن المومأ اليه لم يعرف قدر هذه الالطاف

Digitized by Google

الناس كان يصدقها الجهله وعدم معرفته بشأن الحروب وعلى ذلك كانت ترد على عرابي ورجاله تهاني النصر من كل الجهات واليك مثالا من الاخبار التي نشرتها جرائدهم عن واقعة المحسمة وهي التي خذلوا فيها كما تقدم قالت جريدة الطائف كانت الحرب بها بين المتحاربين وأحاطت مراكب الانكليز بعساكرنا في المحفوظة امام الاسماعيلية في يوم الجمعة ١٠ شوال سنة ١٢٩٩ بعد ان أذاقهم عساكرنا كأس المنون يوم الخميس وكان في وسط عساكرنا ستة آلاف نفر يشتغلون في الاستحكامات فلما نزلت عليهم مقذوفات العدو تشتتوا وتخللوا العساكر فعاقوهم عن الحركة وعلا صياحهم في وجوه العساكر فلم تتمكن من الضرب لامتلاء الميدان بهم حتى فاجأهم العدو برجاله فلم يجدوا بدا من الرجعة اه وقال رئيس أركان حرب الجيش المصري الشرقي في تلغراف أرسله الى يعقوب سامي باشا نهنئ سعادتكم بما حصل من الظفر في هذا اليوم على العدو في ميدان الحرب بين المحفوظة والاسماعيلية وذلك ان العدو خرج يوم تاريخه (١٠ شوال) من الاسماعيلية بأربع أورط من البيادة وأربعة مدافع جبلية وكثير من السواري فتوجه في الحال عبد القادر بك بالايه وأورطة من الاي علي بك ومحمود أفندي الرشيدي بأورطة من السواري وبعد ان قابلتهم بلوكات الحفر والمدفعيات وبلوكات السواري أمدتهم العساكر وانتشر العربان واستمر الحرب من الصباح لساعة تاريخه فتزلزلت أقدام العدو ورجع الى الخلف اه هذا ولما قرأ عرابي باشا نشرة الباب العالي بعصيانه في جريدة الجوائب نمرة ١١٠٠ الصادرة في يوم الثلاثاء ٢٩ شوال سنة ١٢٩٩ وقع في قلبه اليأس لان بجنه الكبرى كانت بدعوى انه قائم بالمدافعة عن حقوق الدولة العلية في مصر فتشاور مع صديقه الحميم عبد الله نديم واتفقا على اخفاء ذلك عن الجند وفي رواية انه جمع مجلسا وتلا عليهم تلك النشرة فارتأى أكثرهم وجوب الاستمرار على الدفاع وذهب آخرون الى أن التسليم أسلم ولكن ترجح رأي الاولين وقد وصلت النشرة المذكورة الى يد كثير من ضباط الجيش وغيرهم فشاع ذكرها وانكسرت القلوب وعم الخوف وانحلت عزائم فرق عديدة كانت تستعد لمساعدة العرابيين متطوعة من ذلك طائفة أهل كريد وكانوا عزموا على التطوع في جيش عرابي لعلمهم بحسب ماشاع ان هذه الحرب برغبة الحضرة السلطانية ولم تكن هذه النشرة السبب الوحيد في صرف الوجوه والقلوب عن عرابي وحزبه وان كانت هي السبب الاقوى بل كان الخديو ومن انحاز اليه وأغلب الكبراء والاعيان والحكام وأصحاب العقول بعدا كسوف عرابي ويجتهدون في احباط مساعيه وكانت المكاتيب تأتي من اسكندرية من سلطان باشا وغيره الى عمد البلاد وأعيانها مانة لهم على مخالفة عرابي وأعوانه وان كل من ساعده دخل تحت طائلة العقاب

الجليلة وقد رشكرها بل استمر على الافكار السقيمة الغير المشروعة وعلى اعلان البغي والعصيان فمن ثم كانت النتيجة الطبيعية للاحوال والحركات المشروعة أنه دعا ذاته بذاته للحكم عليه بكونه باغيا عاصيا ويلزم أن يعلم أيضا أن حضرة الخديو هو من اركان الدولة العلية وامناء السلطنة السنية ومعتمديها الفخام وأن المحافظة على نفوذه واعتباره أمر لازم ووقاية ما حازه من الامتيازات والاقتدار بموجب أحكام الفرمانات العلية أمر ملتزم وأن الحركات التي تجاسر عرابي باشا على اجرائها معه هي مغايرة بالكلية لرضا الدولة العلية فالآن لكي يحيط الجميع علما بأن صفة البغي التي اكتسبها عرابي باشا انما هي نتيجة عملها وان محفوظية نفوذ حضرة الخديو المشار اليه وامتيازاته هي مقررة لدى الدولة وملتزمة قد تحرر هذا الاعلان في ٢٤ أغسطس (آب) سنة ١٨٨٢ اه

وارسل

وأرسل الخديو أيضا إلى مدينة بورسعيد وفدا مؤلفا من سلطان باشا وفريد باشا وزكي بك وعثمان بك وغيرهم لدعوة الاهالى للطاعة وكلفوا أيضا بالتنقل فى البلاد لهذا القصد وغير ذلك مثل مساعدة الجنرال ولسلى وامداده بكل ما يلزمه من المعلومات والاحتياجات وأخذ عرابى يحصن جهات التل الكبير باقامة متاريس وطوابى تمتد من الصالحية والدار البيضاء حتى جبل عتاقه ليتيسر بها المدافعة عن البلاد بلا خسارة عسكرية كبيرة وبلغ مقدار ما جمعه عرابى بتلك الجهات ٣٠,٠٠٠ جندى نظامى غير البدو والمتطوعين معهم نحو ٧٠ مدفعا وفى أثناء ذلك أمضت دولة الانكليز مع الدولة العثمانية معاهدة حربية (١) بخصوص ارسال عساكر عثمانية الى مصر لتساعد الجنود الانجليزية على قمع الثورة تحت شروط منها أن يكون دخول العساكر العثمانية من رشيد أودمياط أوأبى قير ومنها أن يكون مقدار الجيش العثمانى ستة آلاف فقط ومنها أن يبارح الجيشان مصر فى وقت واحد وغير ذلك من الشروط وكان سبب عقد هذه الشروط مع الدولة خوف انجلترة من قوة عرابى من جهة وان تحفظ لنفسها بذلك حقا من جهة أخرى وهو حق التداخل واشترطت بانه لا يتم عقد المعاهدة المذكورة الا بعد أن تصدر الحضرة السلطانية منشورا بعصيان عرابى كما تقدم وكان ذلك محاولة منها الا انها كانت تسعى فى الانفراد الا اذا اضطرتها الاحوال الى قبول مساعدة الدولة وكانت هذه الشروط الثقيلة عقبة فى طريق مداخلة العثمانيين ومساعدا لترويج سياسة الانفراد التى تطلبها انجلترة التى كانت جرائدها تلح عليها بالانفراد فى تأييد سلطة الخديو وبعد أن استعد الجيش الانجليزى وعلم مقدار العرابيين ومواقعهم بواسطة عيونه هجم الجنرال ولسلى وكان عدد جيشه ١٥,٠٠٠ مقاتل معهم ٦٠ مدفعا على العرابيين جهة القصاصين فى ٢٨ أغسطس فقاوم العرابيون مقاومة تذكر ولعلها هى الوحيدة فى هذه الحرب كلها ثم انهزموا وجرح قائدهم راشد حسنى باشا وتولى بعده القيادة على باشا الروبى ويفهم من تقرير أرسله اللورد ولسلى عن هذه الواقعة مقدار مقاومة المصريين (٢) أما جرائد العرابيين فقد طنطنت بها كثيرا كعادتها وعدتها انتصارا لا يعادله انتصار قالت جريدة الطائف ... وعندما بلغ الخبر عرابى باشا اقسم ليذيقنهم عذاب الهون وقام من كفر الدوار الى رأس الوادى وحضر من مصر على باشا فهمى وتم ترتيب الجيش ومواقع الاستحكام برأس الوادى

(١) أولا ينبغى ان تكون النجدة العثمانية مؤلفة من ستة آلاف جندى وان لا يضيف الباب العالى اليها عددا آخر الا بمجاورة انكلترة والاتفاق معها على الزيادة (ثانيا) يجب أن يكون حلول الجنود العثمانية فى رشيد أوأبى قير أودمياط وان يكون خروجهم الى المواقع التى تدعى اليها من أحد هذه الثغور (ثالثا) يكون جلاء الجيشين الانكليزى والعثمانى من وادى النيل فى زمن واحد (رابعا) لا يقوم الجيشان بالاعمال الحربية الا بعد اجماع القائدين العموميين على ما يجب ان يكون موضع العمل (خامسا) يجب ان ينضم الى الجيش العثمانى ضباط من أركان حرب الانكليز والى الجيش الانكليزى ضباط من أركان حرب العثمانيين اه صحيفة ٢٠٣ ج ٥ مصر للمصريين

(٢) قال الجنرال ولسلى عن واقعة القصاصين ان العرابيين هجموا على مركز الانكليز فى القصاصين وكانوا مؤلفين من ثمانى فرق من المشاة معززة باثنى عشر مدفعا ولم يكن الانكليز أكثر من فرقتين ونصف فرقة من المشاة وفرقة من الخيالة ولم يكن معهم أكثر من خمسة مدافع فحملوا على العرابيين واندفعت عليهم فرقة الخيالة فاعملت فيهم السلاح الابيض فاندحروا تاركين فى ساحة القتال ذخائرهم ولكنهم تمكنوا من استرجاعها بعد ان خيم الظلام اه

Digitized by Google

في ٢٤ ساعة وفي صباح ذلك اليوم عقد مجلس حربي تقرر فيه هيئة الهجوم على العدو ثم في ليلة الاثنين سهر على باشا فهمي في تهيئة العساكر وتعيين النقط واعطاء التعليمات وفي الصباح وقفت العساكر على هذا الترتيب في الجناح الايمن بعد الترعة الاسماعلية أورطة من البيادة وأورطة من السواري وجانب من العرب وفي هذا الجناح من يسار الترعة ثلاث اورط من البيادة خلفها مدفعان واورطة امداد وهذا الجناح تحت حكمدارية أحمد بك فرج وفي القلب ثمان مدافع من الكروب خلفها ثلاث اورط من البيادة ثم ستة مدافع امداد وهذا القلب تحت حكمدارية على باشا فهمي والطوبجية تحت حكمدارية حسن بك رأفت وفي الجناح اليسار ست اورط من السواري تحت حكمدارية أحمد بك عبد الغفار بصحبها أورطتان من البيادة ومدفعان تحت حكمدارية عبيد بك ثم تقدمت أورطة اخرى من السواري وسارت في الصباح الى جهة العدو تكشف حاله وتناوشه وفي الساعة اثنين من يوم الاثنين ١٣ شوال ابتدأت مدافع مقدمتنا تضرب مقدمة العدو وسار هذا الجيش تحت قومندانية راشد باشا حسني وقد شغلت بيادة الميمنة نحو ٦٠٠ متر وشغل القلب نحو ٣٠٠ متر وشغلت الميسرة نحو ١٠٠٠ متر ثم سار الجيش في الفضاء المتسع ومقدمتنا من السواري والطوبجية تضرب مقدمات العدو وتزحزحها عن مراكزها وبعد ان استراحت العساكر قاموا قاصدين جهة العدو الى أن بقي بين الجيشين ٤٥٠٠ متر وهنالك وضعت مدافعنا القلبية على شكل نصف دائرة محيطة بعسكر العدو وامتد سوارينا في هيئة شرخية حتى شغلت ألفي متر واستعنا بالله وكبرنا وجدلنا وابتدأت مدافعنا بتحية القدوم بصوت عال الى أن قال فجاوبتها مدافعهم بشدة ثم أخذت النيران ومدافع العدو تضرب في نقط متفرقة واذذاك ارتج الجبل وزلزلت الارض وغابت الشمس واستحال حصر القنابل التي عطرها الجند في ساحة بساطها الانسان الى أن قال فأعمت أفواه المدافع افواهها حتى ملئت رجالنا حماسة وعزما وأرسلت الرصاص الحار على الامة الباردة وجاوبتها مشاة العدو ببنادقها وكلما تحول العدو لنقطة تحولت عليه الرجال والمدافع ومع كونه كان في متاريس حصينة فان المدافع والقنابل أخرجته منها وقطعت عليه المدافع خط الوصول الى المعسكر فثبت ولكن بقدر ما عدم نصف رجاله وفي خلال انسياب نيران البيادة والطوبجية أخذت السواري تدافع ميمنة العدو وحفظا لخط رجعتنا ثم امتدت المدافعة وهجم أحمد بك عبد الغفار على العدو الى أن قال ورأيت راشد باشا حسني راكبا جواده في نقطة حول العدو وعليه امدانعه وهو ثابت لا يحرك رأسا ولا يلتفت لجهة بل هو مشغول بالنظارة ينظر بها مرمى الرصاص والقنابل ثم يأمر بتحويل الضرب للجهة التي يرى العدو فيها ثم دخل الليل وأطلق كل مدفع من مدافعنا ٣٠٠ قنبلة ورمى كل رجل من رجالنا ٥٠ دستة من الرصاص الى أن قال وعندما اشتد الظلام هجمت سوارينا على سواري العدو وغير ذلك من الاقوال الدالة على ثبات الجنود المصرية وخفة حركتها كما زعم وورد في تقرير لوكيل الجهادية ان العساكر المصرية غنموا من جيش العدو غنائم كثيرة من ضمنها ٧٠ رجلا انكليزيا وعددا وافرا من الخيول الافرنجية ومقادير كثيرة من الاسلحة وانهم دفنوا من قتلى الانكليز الى يوم كتابة التقرير ٨٠٠ قتيل وكانت خسائر العساكر المصرية ٦٠ قتيلا والجرحى ٨٥ اه وورد في الجرائد الانجليزية انه قتل من المصريين في تلك الواقعة ٢٥٠ ومن الانجليز ٥٤ جنديا فقط وكان انتصار الانكليز هذا واستيلاؤهم على المسخمة بعد الخطوة الاولى نحو التل الكبير وكان

الاختلاف

الاختلاف وعدم النظام سائدا بين العرابيين فلم تكن الجنود تطيع أوامر رؤسائها ولم يكن الرؤساء يعرفون ما يفعلون وأغلبهم يتودد الى عرابى ظاهرا او بعضهم براسل الجيش الانجليزى أو يفر ملتجئا اليه وغير ذلك ومما زاد هذه الحالة ارتباكا وانحلالا انوزع الانجليز على معسكر عرابى جريدة الجوائب التى بها منشور الباب العالى بعصيان عرابى فارتخت المفاصل وانحلت العزائم وانقطع الرجاء وجهر الناس بالمخالفة كما سبق فكان ذلك من أكبر أسباب نجاح الانكليز فى جهات التل ان لم يكن هو السبب الوحيد وبعد ان رسم ضباط الانجليز خطة الهجوم على متاريس التل الكبير أخذوا فى مخادعة العرابيين ولما عزموا على الهجوم تقدم جيشهم فى الساعة الرابعة ونصف على الحساب الافرنكى بعد منتصف ليلة ١٢ سبتمبر سنة ١٨٨٢ هاجما على حصون العرابيين فلم يقف العرابيون امامه أكثر من عشرين دقيقة واستولى الانكليز على حصون التل وغنموا ما فيها من المدافع وقتل من جيش العرابيين نحو ٢٥٠٨ جنود وأسروا نحو ألفين وغنموا أيضا جميع المؤن والذخائر وفر عرابى الى القاهرة بعد ان سعى فى رد المنهزمين فلم يفلح وقال فى تقريره وقبل أن نتمكن من انشاء المتاريس عاجلتنا العساكر الانكليزية والهندية وهاجمتنا السوارى ومعها الطوبجية والسوارى التى تطير معها أينما طارت وعلى حين غفلة فى ظلام الفجر اشتعلت نيران الطوبجية والبيادة المهلكة من الطرفين مقدار ساعتين ثم أتت فرقة سوارى وطوبجيتها من وراء الجيش فكان ذلك سببا لخذلانه وتشتته فى يوم الاربع ٢٩ شوال ١٢٩٩ (١٣ سبتمبر ١٨٨٢ م) ولما حصل هذا الخذلان توجهت من الجبل الى بلبيس وسوارى الانكليز على مقربة منى وهنالك تقابلت مع على باشا الروبى فتوجهنا الى الشاطئ ومن هنالك ركبنا وابور السكة الحديدية وتوجهنا الى مصر فوجدنا أهل المجلس جميعه فى ديوان الجهادية وحضرات البرنسات أيضا حضروا بالديوان وبعد المداولة والتيقن بأن دولة الانكليز لا تريد الاستيلاء على مصر تقرر انه حيث الامر كذلك فلا يلزم مدافعة اه وقال محمود فهمى باشا فى تاريخه البحر الزاخر وفى نفس الليلة التى استعد فيها الانكليز للهجوم على التل الكبير كتب على بك يوسف الى عرابى وكان فى المقدمة يخبره بعدم حركة العدو وأوقربه من الموقع وانه لا يخشى من شئ فقعد عرابى طول الليل مع الفقراء فى الصيوان الذى كان منصوبا لجلوسه فيه ومعه أولاد الشيخ عبد الجواد يذكرون الى آخر النصف الاخير من الليل وعند قرب الفجر ناموا جميعا وما يشعر عرابى الا ومقذوفات مدافع الانكليز داخلة فى صيوانه والعساكر هاربة ومبددة فى كل جهة فجاء على الروبى وقال انج بنفسك والاقتلت فما لحق أن يلبس هدومه وركب حصانا وأسرع فى الجرى ومازال مدبرا حتى وصل محطة مينا القمح ونزل فى وابور الركاب وسار الى القاهرة ولبس فى منزله هدومه وتوجه الى ديوان الجهادية وأخبر وكيل الجهادية ومجلس الشورى بهزيمة التل الكبير وفراره وفرار الضباط والعساكر من بعد واقعة استمرت عشرين دقيقة واستولى الانجليز على ما كان فى التل الكبير من ذخائر وأسلحة ومؤنات وغير ذلك من اعانات الامة المصرية اه وقال الضباط الذين كانوا بجيش عرابى أقوالا يعلم منها انه قبل هجوم الانكليز على التل الكبير ورد الخبر من على بك يوسف الشهير بخنفس قومندان مقدمة الجيش الى عرابى يخبره بعدم وجود حركة فى الجيش البرطانى فأصدر على باشا

Digitized by Google

الروبى نشرة لعموم الجيش يأمره فيها بجعل نقط الخفر كالعادة أى خفض عدد جنودها وأصدر أوامر أخرى بعد ظهر اليوم المذكور بنقل مراكز بعض الالايات والطوبجية وأن يكون بعضها مكان البعض الآخر ليكونوا فى المعسكر بحسب ترتيبهم فأخذت تنتقل ولما كان امتداد المعسكر طويلا لم يمكن لاغلب الالايات والطوبجية أن يصل الى مركزه لدخول الليل فاضطر الى الوقوف فى الطريق حتى الصباح وفى الليلة المذكورة هجم الانكليز على التل الكبير فاستولوا عليه كما قلناه وأخذوا يطلقون مدافعهم على العساكر المصرية التى كانت فى الطريق خارج خطوط الدفاع فاختل النظام وألجأ أغلبهم إلى الفرار ومعهم ضباطهم وكان عرابى لما وصل إلى مصر أراد اقامة خط دفاع بجهات العباسية فخاطبه أحد الضباط بقوله انك بجهلك وسوء تدبيرك قد أحرقت الاسكندرية وتريد الآن أن تحرق مصر أيضا فاذا لم يكن لك فيها ما يهمك فاعلم ان لنا فيها نساء وأطفالا وأملاكا لانسلم بضياعها لتنفيذ الاغراضك وختم قوله بأنى أقول لك ذلك بالاصالة عن نفسى وبالنيابة عن جميع الضباط الحاضرين فلاترج منا مساعدة ويكفى ما جرى فرجع من وقتها عرابى عن عزمه ثم سار الانكليز إلى القاهرة فدخلوها بلا ممانع وبحالة سلمية واستلموا ثكناتها وقلعتها وتم بذلك احتلالهم للقطر المصرى فى يوم الجمعة ١٥ سبتمبر ١٨٨٢ قال السير جارنت ولسلى قائد الجيش الانكليزى فى رسالة برقية أرسلها من الاسماعيلية إلى نظارة حربية انكلترة بتاريخ ١٣ سبتمبر ما ملخصه قد هجمنا على مواقع عرابى المنيعة وكان جيشه مؤلفا من ٢٠,٠٠٠ نفر من العساكر المنتظمة و ٢٥٠٠ من الخيالة و ٧٠ مدفعا وستة آلاف من البدو والعساكر الغير المنتظمة وكان الجيش الانكليزى مؤلفا من ١١,٠٠٠ نفر شارعين الاسنة و ٢٠٠٠ نفر متسلحين بالسيوف و ٦٠ مدفعا ولما رأيت أن الهجوم على مواقع العرابى المنيعة فى وقت النهار يكون سببا فى حصول خسائر وتلفيات جسيمة لنا عزمت على الهجوم عليه فى الفجر قبل طلوع النهار وقطعت فى أثناء الظلام الدامس الستة أميال التى كانت بين معسكرى وبين مواقع العصاة وكنت أعطيت تعليمات للسوارى وبطريتين من طوبجية السوارى الذين كانوا على ميمنتى بالهجوم على العصاة بعد بزوغ النهار وكان على ميسرة السوارى فرقة تحت رئاسة الجنرال جرهام (Graham) ومعها الحرس تحت رئاسة دوك كانوت (Duke of Connaught) وعلى ميسرتهم أيضا كان يوجد سبع بطاريات يعنى ٤٢ مدفعا ويتلو ذلك فرقة أخرى وفرقة من الهنود فى جنوب الترعة وعلى هذا النظام هجم الجيش عموما وقد أظهر الالاى الارلاندى خصوصا اقداما وبسالة فى الهجوم واستولينا الآن على استحكامات العصاة ومهماتهم ولست أعلم عدد المدافع التى استولينا عليها بالتمام غير اننا استولينا على مقدار وافر منها واستولينا على جملة قطارات ومهمات وذخائر ومؤنة وفر العصاة هاربين ألوفا ألوفا ورموا أسلحتهم عندما أدركهم سوارينا وكانت خسائرهم جسيمة جدا وجرح الجنرال ولس (Willis) جرحا خفيفا ثم بين أنه جرح ثلاثة من أمراء الالايات وحملت السوارى على بلبيس وتوجه الجيش الهندى إلى الزقازيق وفر عرابى راكبا حصانا وقد جرح راشد باشا فى رجله وعلى فهمى فى فخذه فى واقعة يوم السبت اه

هذا ولما وصل الجنرال ولسلى مع أركان حربه ومعه أيضا محمد سلطان باشا الى القاهرة نزل

بسراى

Digitized by Google

بسراى عابدين وبعث بالجنرال افلن وود (E. Wood) الى كفر الدوار فسلمه العرابيون هنالك الاستحكامات والاسلحة ثم استلم باقى حصون بورسعيد ورشيد أما حامية أبى قير فتوقفوا عن التسليم فبعث اليهم الخديو يوسف شهدى باشا فسلموا ولم تسلم حامية دمياط الا فى ٢١ سبتمبر وكان عرابى سلم نفسه فادخله الانكليز هو وطلبة ومحمود سامى سجن العباسية وأمر سلطان باشا فقبضوا على كثيرين وألقوهم فى السجن وسجنوا أيضا ضباط الجهادية فى أضيق السجون وأصعبها وكثرت الوشايات والسعايات وأخذ أصحاب الاغراض والغايات يشون باخصامهم حيث اتسع لهم المجال فامتلأت السجون بكثير من العلماء والتجار والكبار والاعيان والموظفين والضباط من كل طبقة واختفى كثيرون من أرباب الشأن فى الثورة مثل سليمن سامى داود ومحمد عبيد وعبد الله نديم وغيرهم وداخل الرعب قلوب الكثيرين قال عرابى فى تقريره ما ملخصه وعند غروب ١٤ اكتوبر رأت عساكر السوارى الانكليزية والهندية فرفعت لهم الرايات البيضاء وتوجه رضا باشا (قائد فرقة العباسية المؤلفة من ٣٥ ألف عسكرى) لمقابلة الجنرال لو (Lowe) وكذلك أرسلت محافظ مصر ابراهيم بك فوزى لمقابلة الجنرال أيضا وبعد الغروب بساعة ونصف حضر ابراهيم بك فوزى المذكور وأخبرنى بأن الجنرال لو يريد مقابلتى فى العباسية وكذلك قومندان فرقة عسكر كفر الدوار كان حضر فى هذا اليوم الى الديوان فجاء تلغراف من قومندان فرقة العباسية بأن جناب الجنرال المذكور يريد مقابلته فى هذه الساعة فتوجهنا جميعا الى طرف الجنرال لو بالعباسية وكذلك حسب طلب جنابه أرسلت له الميرالاى الذى فى القلعة وهو على بك يوسف ولما تقابلت أنا وطلبة باشا مع الجنرال قال الجنرال هل تقبلون جميعا أن تسلموا أنفسكم أسرى للدولة الانكليزية فقلنا نعم على شرط أن نكون فى ذمة دولة الانكليز وشرفها ثم خلعنا سيوفنا وسلمناها ليد الجنرال المذكور نيابة عن القائد العمومى الجنرال ولسلى وقلنا له قد سلمنا سيوفنا وأنفسنا الى ذمة انكلتره وشرفها فصوت أولادنا وصوت الانسانية يطالب انكلتره وكل انكليزى بحقوقنا وجنابكم بالنيابة عن الحكومة الانكليزية وعن كل انكليزى فقبل منا ذلك وقد قبض أيضا على جميع الضباط من رتبة البكباشى فصاعدا وبعض الصاغات واليوزباشية والملازمين وعلى كثير من العلماء وأعضاء مجلس النواب والاعيان والتجار والعمد وغصت بهم السجون فى مصر والمديريات والاسكندرية اه وقد بلغ عدد من سجن فى هذه المسألة نيفا و ٢٩٥٠٠ نفس وفى ٢٥ سبتمبر ١٨٨٢ عاد الخديو توفيق باشا الى مصر فاحتفلوا به احتفالا عظيما واصطف له الجيش الانكليزى من محطة السكة الحديد الى سراى عابدين واستعرض امامه بالميدان هنالك وتوافد الامراء والعلماء والاعيان والعمد الى السراى المتهنئة وزينت العاصمة بالانوار وبعد ثلاثة أيام تشكلت عدة لجنات لتحقيق أمر العصيان ومحاكمة المتهمين (١) وخوفا من تحامل أعضاء لجنة التحقيق على عرابى

(١) لجنة التحقيق التى تشكلت تحت رياسة اسمعيل ايوب باشا أعضاؤها على غالب باشا ويوسف شهدى باشا ومحمد زكى باشا وسعد الدين بك ومحمد حمدى بك ومصطفى راغب بك وسليمان يسرى بك ومصطفى خلوصى بك ومحمد مختار بك والمحكمة العسكرية التى تشكلت لمحاكمة مرتكبى جريمة العصيان والتعدى على السلطة الخديوية تحت رياسة محمد رؤف باشا أعضاؤها ابراهيم باشا الفريق واسمعيل كامل باشا وحسين عاصم باشا وخورشيد باشا اللواء الطوبجية سابقا وسليمان نيازى باشا وعثمان لطيف باشا وأحمد حسنين باشا وسليمان نجاتى بك والمحكمة العسكرية

Digitized by Google

ورفقائه عين الانجليز باللجنـة المذكورة المير آلاى شارلس ويلسون (Sir C. W.Wilson)
والويس فنصـل بين وأرسـل المستر بلونت (WilfredBlunt) الانكليزى صـديق عرابى
والمشجع له على أفعاله من ابتداء الحركة كلا من المستر برودلى والمستر نابيير المحاميين بمصاريف من
طرفه للمدافعة عن رؤساء الثورة وقدم لهما عرابى تقريره مفصـلا عن الحوادث المذكورة من أولها
الى آخرها ومما وردفيه عن الامة الانجليزية والمصرية قوله الامة التى فيها نصراء الانسانيـة الامة
الحـامية عن المظلومـين الامة المحـررة لرقاب العباد المستعبدين الامة المحافظة عـلى اتباع الحق
والقوانين مع مصر البلاد التى لاينكر أحد ما تجرعه أهلها من غصص الاستبداد البـلاد التى طالما
سـفكت دماء أهلها بغير وجـه شرعى ولا حكم قانونى البـلاد التى عـدت حكامها من دون رب
العـالمين البلاد التى كانت تظن ان لامنقذ لها من جب الظالمين ولاموصل لها الى فضاء الانسانية الا
دولة انكلـتره الشفوقة على النوع الانسانى فخاب أملها وبعـد ان قرب أبناؤها من فم ذلك الجب
وظنت انها ناجيـة جاءها الحرس الانكلـيزى فأوقع القبض على من خرج من الجب اهـ وقـد
تكلمت الجرائد الانكلـيزية عن تلك المحـاكمة فقالت التيمس اذا لم تكن سياسـة الذين يحاكمون
عرابى مبنية على الاختصار والايجاز فى محاكمته أوصرف النظر عنها لابد أن تبدى لنا محاكمته أمورا
عجيبة وتكون فصـلا غريبا فى التاريخ السياسى فقـد أفاد مكاتبنا ان المستر برودلى تحصـل على
أوراق كثيرة تشتمل على صورة ما جرى من المخـاطبات والمحررات من بدء الحركة الى يوم القاء القبض
عليه ومن المعلوم ان حكومتنا تحصلت على أوراق مشابهة لهذه الاوراق الى ان قال فاذا صحت هذه
المحررات لابد أن تؤثر تأثيرا جسيمـا فى العلاقات بين الباب العالى وبين حكومة مصر الجـديدة اهـ
وفى أثنائها انتدب المسـتر يورك (York) فى المجلس على تسليم انكلـتره عرابى للمتوظفين المصريين
فأجاب المسـتر غلادستون قائلا لاشـك أنه لايمكن تنفيذ الحكم عليـه بدون تصـديق الحكومة
الانكليزية أولا وفى تلك الاثناء حضر لورد دفرين (Lord Dufferin) معتمدا من قبل دولة انكلتره
للنظر فى المسئلة المصرية ولم يكن ذلك عن رضا من الباب العالى فنظر أولا فى اجرا آت مجالس التحقيق
ومنع التعدى عن العرابيين ثم أخذ يجتمع بالخديوى وبالوزراء ويتداول معهم طويلا فى كل المسـائل
ثم بعـد ان درس أحوال البلاد وبحث بنفسه فى الامور كتب بذلك تقريره المشهور وبعثه الى
اللورد غرنفيل ناظر خارجية انكلتره شرح فيه حالة مصر السياسية ومسئلة قنال السويس والجيش
والجندرمة والنظامات الداخلية والمحاكم القضائية والمالية والمعارف والميزانية والرى والتاريخ
وغـير ذلك وفى تلك الاثناء أرسـل طوسون بك متصرف مدينة قوله يقول انه قبض على حسن موسى
العقاد وسليمان داود اللذين اشتركا فى احراق مدينـة الاسكندرية وكانا فرا بعد واقعة التل الكبير

التى تشكلت فى الاسكندرية تحت رياسة عثمان نجيب باشا أعضاؤها رضوان باشا ويوسف باشا ومصـطفى باشا العرب
وحسـين واصف باشا وعلى بك وهبى وحسـين مظهر بك وأما اللجنـة التى تشكلت فى الاسكندرية لتحقيق مواد
السرقـة والقتل والنهب والحريق تحت رياسـة عبد الرحمن باشا رشدى أعضاؤها كازيير آرا وأحمد بليغ أفندى
والموسـيو كليار وأحمد أمين بك وحماد بك وابراهـيم بك فؤاد والموسيو فاشيه دى مونولون ولجنـة طنطا التى
تشكلت تحت رياسة محمود باشا الفلكى أعضاؤها لطيف بك سليم وجبرائيل أفندى كحيل وشفيق بك منصور والموسيو
شكونى وكانت أحكام اللجان المذكورة جميعها عرفية اهـ

الى

الى بنغازى برا ومن هناك سافر بحرا الى بلدة قندية من جزيرة كريد ولما أتى بهما قال سليمان داود أثناء محاكمته بأن عرابى كان أمره بأن يحرق مدينة الاسكندرية ويقتل الخديو ولذلك تأخرت محاكمة عرابى وطالت مدتها بسبب اتهامه بحرق الاسكندرية لما يحتاجه التحقيق من الوقت فطلب أحد أعضاء البرلمان الانجليزى (٢ دسمبر سنة ١٨٨٢) الاسراع فى محاكمته فرد عليه المستر غلادستون بقوله ان تحقيقات المحاكمة لاتتم قبل أواخر الشهر الحالى ثم استقر الرأى على صرف النظر عن محاكمة عرابى فى المسئلة المذكورة ثم لما تمت المحاكمة صدر الحكم على عرابى ورفقائه بالاعدام وكان المستر بلونت المدافع عن عرابى ورفقائه والمبرر لاعمالهم كما تقدم حضر الى مصر وتقابل مع اللورد دوفرين وسعى هو وغيره فى ابطال حكم الاعدام بالنفى المؤبد لان الانجليز الذين يدافعون عنه امام المحكمة برؤه هو ورفقاءه من تهمة مذبحة الاسكندرية واحراقها ثم تحصلوا على أمر خديوى باستبدال ذلك الحكم بالنفى المؤبد خارج القطر (١) ولما رأى مصطفى رياض باشا ذلك استعفى من نظارة الداخلية لانه لم يكن راضيا عن الكيفية التى حوكم بها عرابى ورفقاؤه (٢١ محرم سنة ١٣٠٠) فخلفه المرحوم أحمد خيرى باشا وروى مكاتب التيمس انه ظهر للمستر برودلى المحامى عن حسن موسى العقاد ان الاميرة زينب هانم شقيقة الامير حليم باشا كانت أرسلت الى حسن موسى العقاد المذكور مبالغ وافرة بحوالات على يد وكيلها عثمان فوزى باشا لاجل ان يدفعها لكبار رجال الحزب الوطنى حتى يكونوا مع حليم باشا الان حسن موسى العقاد أخذ تلك المبالغ بأجمعها وأقنع جماعة من الحزب بهدايا خفيفة ومواعيد عرقوبية ثم أصدرت المجالس العسكرية الحكم على باقى الضباط المشتركين فى الثورة بنفى بعضهم الى خارج القطر وبعضهم داخله بمدد مختلفة وصدر الحكم على على الروبى وحسن موسى العقاد بالنفى مدة عشرين سنة فى مصوع وعلى سليمان داود بالاعدام لثبوت تهمة حرق الاسكندرية عليه مع انه ولاشك مشارك لغيره فى هذا الامر وبعد صدور هذه الاحكام استولت الحكومة على أملاك ومنقولات رؤساء الحزب ونفتهم مع عائلاتهم الى جزيرة سيلان فسافروا وخفرهم بعض جنود مصر وضباطها وتنفذ حكم الاعدام على سليمان داود فى ثغر الاسكندرية هذا وبعد ما أعلن عرابى بحكم المجلس العسكرى وبأمر الخديو بابدال حكم الاعدام بالنفى روت جريدة التيمس عن مكاتبها فى القاهرة ان المستر برودلى المحامى عن عرابى اجتمع به مليا فى السجن وأخبره بأن انكلترة جعلت مقره ومقر رفقائه الستة سيلان فقال مستهزئا ان هذا النفى يسرنى لان سيدنا

(١) (أولا) الحكم الصادر على كل من أحمد عرابى وطلبة عصمت وعبد العال حلمى ومحمود سامى وعلى فهمى ويعقوب سامى المقتضى جزاؤهم بالقصاص وقع تبديله بالنفى الى الابد من الاقطار المصرية وملحقاتها (ثانيا) هذا العفو يبطل ويقع اجراء الحكم على كل من أحمد عرابى وطلبة عصمت وعبد العال حلمى ومحمود سامى وعلى فهمى ومحمود فهمى ويعقوب سامى المذكورين بالقتل اذا رجع الى الاقطار المصرية وملحقاتها ويتلو ذلك مادة التنفيذ الذى نيط به كل من ناظر الداخلية وناظر البحرية والحربية وقد صدر بذلك ثلاثة أوامر الاول فى تاريخ ٢٢ محرم ١٣٠٠ (٣ ديسمبر ١٨٨٢) فى شأن عرابى والثانى فى تاريخ ٢٦ منه فى شأن طلبة عصمت وعبد العال حلمى ومحمود سامى وعلى فهمى والثالث بتاريخ ٢٩ منه بشأن محمود فهمى ويعقوب سامى وبعد ان صدرت عليهم الاحكام ارتأى مجلس النظار أن تضبط أملاكهم المنقولة وغير المنقولة وأن يعين لهم مقابل ذلك راتب سنوى كاف لمعيشتهم فصدر بذلك أمر عال فى ١٤ ديسمبر من تلك السنة اهـ مصر للمصريين

آدم لما هبط من الجنة نزل فيها وكان عرابى طلب فى أول الامر ان يكون منفاه جبل طارق أو قبرس وقال هذا المكاتب ان عرابى كتب مكتوبا الى المستر بلنت عزيزه وحبيبه فى لوندره بتاريخ ٢٣ نوفمبر قال له فيه انى أريد ان أسكن مع أولادى دمشق الشام وأتعهد بأنى أتجنب الامور السياسية ولكن اذا أبت الدولة العلية ذلك فحينئذ اختار لندره وأتعهد أيضا بأن لا أتداخل فى أمور سياسية أبدا مادمت غائبا عن وطنى اما الرتبة التى جردت منها فلا تهمنى لانى ما قبلتها الا كراهة لا اختيارا وكتب كتابا آخر الى صاحب جريدة التيمس سلمه الى مكاتبه فى القاهرة فنشره المكاتب ومما جاء فيه انى سأترك مصر وأنا آمن على مستقبلها واثق بأن انكلتره لا تتأخر فى اجراء الاصلاحات التى ثار الاهالى للحصول عليها وعن قريب نسمع ان المراقبة الانكليزية والفرنساوية قد ألغيتا ولما كنت مصرى الوطن كانت جميع أعمالى مبنية على اجراء الاصلاحات فيه وحيث ان سوء بختى لم يساعدنى على اتمام مرغوبى هذا فالمأمول ان انكلتره لا تنسانى بعد ان تتم ما باشرته أنا فترخص لى فى ان أعود الى وطنى ثم أخذ يشكر المستر غلادستون رئيس وزراء انكلتره واللورد غرانفيل ناظر الخارجية واللورد دفرين سفير انكلتره فى الاستانة والمستر مالت قنصلها الجنرال بمصر والمستر بلنت حبيبه وغيرهم اهـ ومن أغرب ما كان يشاهد فى خلال الحركة العرابية وفود الكثيرين من كبار الكتاب وأرباب السياسة على القطر من انحاء أوروبا لزيارة عرابى باشا ورجال حزبه ويكتبون عنه وعن دعوته ومقاصد حزبه فى جرائدهم الفصول الطنانة فمنهم من كان يطعن فى فعلته ومنهم من كان يمدحها وأظهرت أكثر الجرائد الانكليزية إعجابها بمبادئ الحزب الوطنى المصرى وكذا كثير من الجرائد الفرنساوية ومن كان منها منددا لم يلبث طويلا حتى غير منهجه فأصبح الرأى العام الفرنساوى ميالا للعرابيين منتصرا لدعوتهم وأظهر بالفعل عدم رغبته فى تداخل فرانسا فى مصر تداخلا عسكريا ولا يستبعد ان الانقلاب الذى حصل فى سياسة وزارة فرانسا أخيرا كان منشؤه تأثير الرأى العام فيها وكان كل من السير وليم جريجورى (W. Gregory) والدكتور صابونجى صاحب جريدة النحلة التى تنشر بلندره والمستر ولفرد بلنت وغيرهم ممن كانوا يترددون على عرابى وحزبه يكتبون الفصول والمقالات الطويلة فى مدح مبادبه ويستلفتون نظر أرباب السياسة البرطانية الى مساعدته لبلوغ مقاصده وكان بين المستر بلنت المذكور وعرابى باشا مودة كبيرة حتى انه بعد عودته الى انكلتره صار يكاتب عرابى باشا على الدوام وقد عثرنا على صورة كتابين صادرين من عرابى الى المستر بلنت المذكور فاستنسبنا درجهما (١) ليرى المطالع درجة تلك المودة بينهما وكيف خدع عرابى وتورط

(١) من القاهرة فى غرة ابريل سنة ١٨٨٢ حضرة صديقنا الصادق ومحبنا الذى انا باخلاصه واثق الماجد الاكرم حر الافكار صائب الانظار المستر ولفريد بلنت أنجح الله مساعيه الحسنى وحقق نواياه الفضلى بعد حمد الله القاهر كل قوى جبار ومؤيد الحق لاهل الحجى والابصار فالذى نحيط علمكم به هو انه وصلنا كتابكم بتاريخ ١٠ مارس فتهللت بوروده وانشرح صدرى بوفوده ولا شك ان كل حر ينشرح عندما يرى رجالا من الاحرار مثلكم صادقين فى أقوالهم ومخلصين فى أعمالهم وعازمين على تنفيذ نواياهم العليا الفائدة النوع الانسانى عموما وأهل وطنهم خصوصا ولما فضضت كتابكم استدللت منه على شغفكم ببث الحرية للنوع الانسانى وانكم مشمرون عن ساعد الجد والاجتهاد فى تأييد مصالح أمتكم الانكليزية حيث انكم تعرفون انه لا يمكن تأييد هذه المصالح فى الشرق ولا سيما فى مصر الا بمد يد المساعدة للمصريين حتى ينالوا الحرية وبذا يستمال كل فؤادهم عند الفوز بمرادهم ولا غرو فى ذلك فان الواجب على الانكليز الاحرار أن يساعدوا القوم الباذلين عنان الكد لاستقلال

في الامر لجهله بأساليب السياسة امام رجل له فيها وفي أبواب الدهاء قدم راسخة هـذا ومن أساليب

بلادهم وصلاحها ونجاحها ولانشاء حكومة مبنية على العدل والانصاف ولاريب ان مساعيكم الباهرة الجديرة بالثناء تجعل لكم ذكرا حسنا وصيتا شهيرا عند أهل وطنكم ولاسيما عند ما تتضح لهم الهمم التي بذلتموها لازهاق الباطل واماطة اللثام عن الاكاذيب التي نشرها أصحاب الغايات أما من جهتنا فنحن لكم من الذاكرين الشاكرين على حسن خدمتكم نحو مصر وانكلترا التي نؤمل انها تكون من أعظم المساعدين لنا على توطيد النظام التام على أساس الحرية اقتداء بالامم الحرة المتمدنة وان شاء الله سنرى مساعيكم مكللة بالفوز وقد اعتبرنا وصولكم الى وطنكم سالمين غانمين فألا حسنا على القوة والنجاح ثم اننا نشكر لكم ما تفضلتم به علينا من النصيحة وعلى هذا نحيط حضرتكم بأننا باذلون غاية ما في وسعنا للمحافظة على الهدو والسكينة والنظام فاننا نرى ان تأدية ذلك من أهم واجباتنا ولذا بذلنا الجهد لدرك هذا الغرض ونؤكد لكم ان الامور سارة فان السلم مستول على البلاد ونحن باذلون الطاقة مع اخواننا المحبين الوطن في مراعاة حقوق القاطنين في أرضنا بصرف النظر عن جنسيتهم مع مراعاة واعتبار جميع العهود نامات والمواثيق الدولية ولانسمح لاحد بمسها مادامت أوربا متمسكة بعهودها ومحافظة على عقودها ومراعية للعلاقات الودية معنا أما من جهة تهديدات كبار صيارفة أوروبا فنحتملها بالحزم والثبات فاننا نرى ان تهديداتهم لاتضر الا بأنفسهم وبالدول التي تنقاد وراء ضلالاتهم ومطمح نظرنا انقاذ أهل بلادنا من الرق والعبودية والظلم والجهل ورفع شأنهم الى ذروة المعالي حتى يتيسر لهم منع اعادة الاستبداد الذي كان سببا في دمار مصر وبوارها وهـذه الاقوال هي أفكار كل مصري فطن حر محب لوطنه اهـ ﴿ أما الكتاب الثاني فهو

من القاهرة في ٦ ابريل ١٨٨٢ حضرة صديقنا الصادق والخل الوفي المستر ولفر بلنت بعد حمد الله والثناء عليه بما هو أهله حيث شاء فخولنا الحرية والاصلاح ووفقنا الطرق الفلاح والنجاح نحيط علمكم الشريف بانه وصلنا كتابكم الثاني بعد ان أرسلنا اليكم رد جوابكم السابق وانتهز هذه الفرصة السعيدة لاعيد لكم خالص تشكراتي وأنشر عبيق الثناء عليكم بسبب أعمالكم المأثورة ومساعيكم المشكورة فاني أرى انه الواجب علي وعلى كل ذي ذمة طاهرة وسريرة خالصة بل الواجب على الورى قاطبة أن يشكر واصنعكم الجميل ومسعاكم الجليل وكانه بحصول المنافع والفوائد بين الافراد تتمكن بينهم عرا الوداد كذلك الحال بين الامم وكذا كانت غاية بغيتنا احكام الوداد تأييدا للصالح المشتركة بيننا وبين الدول التي نحن مقيدون لها بالمواثيق فانه بواسطة هذا الوداد يتيسر للذين لهم حق في بلادنا ان يتمتعوا بثمرة المعاهدات والمواثيق التي نرى ان الواجب علينا مراعاتها والذب عنها فاذا انحلت عرا الوفاق وتمكن النفور والانشقاق لايضر ذلك بنا فقط بل يضر أيضا بجميع الدول الاخرى ولاسيما مملكة بريتانيا العظمى ولايخفى على كل سياسي ثاقب العقل غزير الفضل الفوائد التي تعود على انكلترا من التحابب معنا ومساعدتنا على مشروعنا أما من جهة قلم المراقبة فكن على يقين من اننا لانتصدى له في تأدية وظائفه حسب الحقوق المخولة له بموجب المعاهدات الدولية ولم يكن في نيتنا ولا في نية أي انسان كان في هذه البلاد مس حقوق المراقبين أو التعدي على أية معاهدة دولية كانت أو المروق عنها فاذا كان نواب الدول في هـذه البلاد أمناء في مأموريتهم ومتيقظين لمصالح دولهم تعين عليهم مساعدتنا في مشروعنا الاهلي الوطني حقيقة وان ظهروا بالافعال ماوعدونا به من الاقوال أي بان يطابقوا بين أفعالهم وأقوالهم وقد عزمنا على بذل ما في طاقتنا لجعل لانتمام فمابين الامم المتمدنة ببث المعارف والاستظلال بظلها الوارف وتأييد الاتحاد والنظام وانصاف كل انسان من الظلام ولاشي ينيئنا عن هذا العزم الموافق مقدار حبة أو دانق فلا تؤخرنا التهديدات ولاترعبنا التهويلات ولاتلين الا للاميال الودية التي نعرف قيمتها أما من جهة هدو البلاد فلم يتكدر صفاؤه وقد بذلنا الجهد لتنقيتها من الآثار الذميمة التي تخلفت من الحكومات السابقة أما من جهة الاشاعة التي سألتم عنها فأرسلنا لكم جوابا بالتلغراف على يد الشيخ صاحبكم ومن نزه نفسه عن الهوى رأى بطلان كل ما شاع في أوروبا عن زيادة مصاريف العسكرية فان ميزانية العسكرية لم تزد بارة واحدة ولم تنقص قرشا واحدا عما قرر في ٢١ ديسمبر سنة ١٨٨١ وقت وزارة دولتلو شريف باشا وبناء على هذا كن على يقين بان الاشاعات التي كلفتم

Digitized by Google

السياسة ما أرسله بلنت لصديقه عرابى وهى عدة نسخ من النشرة التى أصدرتها جمعية السلام الانجليزية فى لوندره بتاريخ ٢١ يونيه من سنة ١٨٨٢ تحت إمضاء رئيسها المستر جوزيف بيس (Joseph W. Pease) وكاتم أسرارها المستر هنرى ريشارد ولاهمية ما ورد فيها عن المسئلة المصرية أدرجنا ترجمتها بالحرف الواحد بذيل الصحيفة لتمام الفائدة (١) ثم شكلت الحكومة لجنة عسكرية تحت رياسة طه باشا لمعرفة من تداخل فى الحركة العسكرية من غيره من ضباط العسكرية وأصدر الخديو فى ٢٤ اكتوبر سنة ١٨٨٢ أمرا بالعفو عن الضباط الذين من درجة ملازم ويوزباشى

نفسكم بذكرها لم يشعها الا من لم يتحر الحقائق ويسوءنا أن نرى جرائد أوربا المتمدنة تنشر دائما هذه الاكاذيب ونطلب منه تعالى أن يرشد أرباب سياسة أوروبا الى الحق ليطلعوا ويقفوا على حقيقة حال بلادنا حتى يخدموا بلادهم وبلدنا بتقوية عرا الوفاق والمصافاة ونطلب منه تعالى أن يجعلنا نتمتع ببركة السلم والوفاق الودى والسلام ختام ما الامضاء

أحمد عرابى

(١) أصدقائى الاعزاء

يستحيل على أصدقاء السلام ان لا يراعوا ويعيروا الاهتمام الاحوال الحاضرة بمصر فان المراكب الحربية الاوربية موجودة باسكندرية وبدلا عن معاونتها فى حفظ السلام قد أدت بتحريضها غيرة الاهالى الوطنيين الى حصول ثورة ذبح فيها كثير من النفوس مع انتشار الهرج والمرج والهول بالمملكة ونخشى ان مصر نفسها تكون على وشك وقوعها فى اختلال السلطة اختلالا عموميا مستطيلا مع انه مشاهد حصول ما يكون أشد تهلكة فى المستقبل وسببه اطماع الدول الاوربية المتناقضة المحبة لنفسها وهذه الارتباكات نشأت من الخروج تدريجا عن دستور عدم التداخل فى المصالح الداخلية للممالك الاخرى الذى حافظنا عليه على الدوام والظاهر ان رجال السياسة البريطانيين قد أوقفوا خطر هذه الاعمال عندما صار استدعاؤهم للتداخل فى المصالح المصرية وفى سنة ١٨٧٥ لما أرسلت الحكومة البريطانية المستر استيفن كيف (M. Stephen Cave) بناء على رغبة الخديو السابق اسمعيل باشا لفحص مالية مصر طبع لورد دربى فى ذهن ذلك الفاضل أن يلتفت حتى لا يصدر منه وعد ما باتخاذ أى عمل من الاجراآت سواء كان بالاستشارة أو بدونها يستبين منه رغبة التداخل بدون اقتضاء فى مصالح مصر الداخلية ومن سوء الحظ لم يصر مراعاة هذا الاحتياط على ممر الزمان وصار امتداد تداخل حكومتنا والحكومات الاخرى زيادة فزيادة حتى انتقلت فى الحقيقة مراقبة المصالح المصرية من الوطنيين الى أيدى الاجانب وصار اجراء ذلك بمراقبات وقومسيونات أوقعت الامة بدون علمها أو رضاها فى مسؤليات جسيمة أشد خطرا لانها صارت مسؤليات متصلة بالامم الاخرى والماعلم لنا من اللوائح البرلمانية الموثوق بها أنه موجود أكثر من ألف وثلثمائة أجنبى مستخدما فى فروع المصالح المصرية العديدة يبلغ مجموع مرتبهم ٣٧٣٧٠٤ جنيهات وجد انه ليس من الغريب عصيان المصريين الوطنيين ضد هذا النظام الناقل للسلطة الرسمية والنفوذ والقوى ومكاسب حكومتهم الى أيدى الاجانب ومن سوء الحظ ان صفة التداخل قد تغيرت أيضا تدريجا وبعدما كان فى الاصل مقصودا ان يكون نصيحة ومساعدة ودية صار أمرا وتهديدا أهاج غيظا مرا ومقاومة منظمة وقد تنبأت الحكومة الحالية بهذا الخطر وجحدت كليا رغبة عملها على استقلال مصر

وقد ذكر لورد جرنفيل فى رسالته الباهرة المؤرخة فى ٤ نوفمبر سنة ١٨٨١ الالفاظ الآتية وهى (لكن مفهوم ما جليا ان انكلترة لا ترغب وجود وزارة متحزبة فى مصر اذ من رأى حكومة جلالة الملكة ان الوزارة المتحزبة المؤسسة على مساعدة دولة أجنبية أو على النفوذ الشخصى لوكيل سياسى أجنبى لا تكون مفيدة للملكة المديرة لها ولا للمملكة المظنون بقاء الوزارة فائدتها وانما هى فقط تصد الاهالى عن اطاعة ملكهم اطاعة حقيقية وتحدث دسائس معاكسة ومخلة بنفوذ الدولة) ومن سوء الحظ ان قواعد السياسة المذكورة لم يتمسك بها ولذا ترى الاضرار التى تنبأ بها جناب لورد جرنفيل وكان يسترحم الانقاذ منها قد حصلت بحالة جسيمة ثم ان الاحتجاجات المبنى عليها سياسة التداخل هذه هى الآتية

فقط مستثنيا منهم من قررت اللجنة اشتراكه فى الثورة وأنعم بنياشين مختلفة الدرجات على ٥٣ ضابطا من ضباط الجيش الانكليزى وأنعمت الحكومة الانجليزية على الجنرال ولسلى قائد الجيش الانجليزى العام بلقب لورد أوف كيروا اى لورد القاهرة وقال المستر غلادستون فى خلال لمجلس النواب بأنه يؤمل عقد معاهدة مع مصر غايتها الاصلية ان تدفع مصر مصاريف الاثنى عشر ألف جندى الذين يحتاونها موقتا مع تعيين زمن الاحتلال والنهج على منوال سابقة احتلال انكلترة بلاد فرانسا بعد حرب واترلو ولم يقل بأنه اذا كان عزم على عقد معاهدة أخرى بخصوص مستقبل ادارة مصر واذا كان يطلب من الدول الاشتراك فى ذلك أم لا وقال أيضا فى مجلس النواب قد طلب منى ان أبين تبوئنا المصر فأقول اننا تبوأنا مصر فى ١٤ سبتمبر ومن ذلك الوقت كانت الحكومة مشتغلة بنقل الذخائر والعساكر ولم نبق بمصر الا من كان بقاؤه ضروريا وشرعنا فى نقل العساكر الى بلادهم فى ١٤ اكتوبر واستمر نقلهم حتى ٨ نوفبر وبعد ان كان جيشنا بمصر نحو ٢٣٠٠٠

(أولا) انه من المهم لانكلترة أن تحافظ على طريقها الهند من قنال السويس غير انه من المؤكد ان أرداً طريقة للمحافظة على هذا الطريق هى تحريض الاهالى المارهذا الطريق البحرى بارضهم على العداوة الشديدة ضدنا بسبب سياسة التداخل فى أمورهم بالاستبداد وعلى ذلك فنغويهم على العبث به غيظا وانتقاما (ثانيا) انه من الضرورى حماية أرواح وأملاك الرعايا البريطانية المقيمين بمصر ولكن أليس من الواضح تماما ان أرواح وأملاك الرعايا البريطانية بدلا من أن تصير حمايتها قد وقعت فى الهلاك بسبب سياسة التداخل والتهديد (ثالثا) من البين الذى لا غموض فيه ولا اشكال ان بعض رجال مملكتنا استعملوا نقودهم فى البونات المصرية وانه من الضرورى حماية أرباحهم (وهذا سبب أقوى للتداخل من غيره من الاسباب) واننا نحاسس بكل قوة على اقامة الحجة ضد هذا المبدا ونتعشم بقرب الزمن الذى فيه توضح هذه الامة العظيمة توضيحا قطعيا انه اذا أراد رجال مملكتنا أن يدخلوا فى مضاربات تجارية نقدية فى ممالك أخرى للحصول على مكسب لهم يتعين عليهم اجراء ذلك تحت مسؤليتهم الخاصة ولا يتوقعون بذل دماء ومال الامة باجمعها لحماية نقودهم وجميع ديونهم .

ويمكن أن يقال بل قيل غالبا ان المراقبة تعود بالفائدة على مصر وان الوكلاء الانكليزية والفرنساوية هم كفء للتصرف فى مصالحها الداخلية عن المصريين أنفسهم فمن الجائز أن يكون ذلك حقيقيا ويكون سيباقو بالقبول مساعدتهم مساعدة ودية عندما يستلزم الحال غير ان ذلك لا يكون حجة لاستعلاء أنفسنا عليهم وسلب كامل حكومة مملكتهم تقريبا اذ لا يمكن تدريب الناس على الاستقلال ومساعدة أنفسهم بجعلهم فى حبال تقودها الاغراب وليس لنا أن نتفوه عما ينبغى اجراؤه وسط بحر مملوء بالارتباك والتهلكة وليس من المعقول أن يتوقع منا أن نشير بطريقة للانقاذ من العراقيل التى وقعت فيها الامة بسبب عدم مراعاتهم الاصول التى أوصينا بها وحافظنا عليها ولا شك ان أحسن حل لهذه الصعوبة أن تقر دول أوربا فى المؤتمر المقبل على قانون خال عن الغرض وان ترجع عن تداخلها فى مصر وتتركها سليمة من مقاتلات مطامعهم النزاعية وعلى كل حال ندعوكم أيها الاصدقاء الاعزاء أن تنضموا معنا فى تجديد اقامة حجتنا ضد سياسة التداخل التى أدت الى ارتباكات ألمت بنا الآن ومهما نبهم أمر أو حصل شك فيه فلا يبهم علينا مطلقا ان تلك السياسة قد خابت من كل الوجوه فقد أثارت الغضب الشديد فى مصر وقادت الى اعدام حياة وأملاك الاوروباويين وجعلت نظام مصر التجارى باكمله فى اختلال وارتباك وأحدثت معظم المسائل المرتبكة بين السلطان والدول الغربية ونبهت غيرة الامم الاخرى ووضعت جميع من يخصهم هذا الامر فى موضع صعب خطر يكاف أغلب أفكار رجال السياسة الاوروباويين بايجاد طريقة للنجاة منه »

تحريرا فى لندن بشارع بنو برودغرة ٣٧ بجمعية السلام « ٢١ يونيه سنة ١٨٨٢ بالنيابة عن اللجنة

(الرئيس) يوسف وليام بيس — (السكرتير) هنرى ريشارد

Digitized by Google

جندي صار الآن ١٢٠٠٠ واذا تقرر ذلك فقد وصلنا الى هيئة جديدة وقتية لانه ليس مقصودنا ابقاء جيش الى أمد غير معين فى مصر اهـ ثم خفضت انجلتره جيش الاحتلال المذكور فجعلته ٦٧٦٣ جنديا (يونيو من سنة ١٨٨٣) وسلمت قيادته للجنرال استيفنسن (Stephenson) ولما كانت الخسائر التى تكبدها تجار الاجانب والوطنيين وقت حريق الاسكندرية لم تسوا الحكومة أمرها ولم تعوض على أربابها حصل بينها وبين قناصل الدول مفاوضات انتهت بتأليف لجنة فى اسكندرية للنظر فى طلبات الذين يستحقون التعويض لما تكبدوه من الخسائر أثناء ذلك وفى ٣ يناير من سنة ١٨٨٣ صدر عفو خديوى عن جميع أهالى القطر المصرى المتهمين بمشاركة العرابيين وأمر آخر فى ١٥ صفر بالعفو عن ضباط الجيش وعدم حرمانهم من معاشاتهم اذا استحقوا منها شيأ وبذلك زالت تأثيرات تلك الفتنة المشؤمة وارتفع عن الناس خوف التهمة ثم اشترك بعض الاعيان مع سلطان باشا وبعثوا الى لورد ولسلى سيفا ليكون تذكارا على انتصاره على العصاة وبعثوا مع السيف كتابا عربيا كتب بخط جميل على رق غزال يتضمن الشكر له ولدولته فبعث من طرفه جوابا الى السير ماليت الوكيل السياسى والقنصل الجنرال فى مصر لينوب عنه فى تبليغ شكره الى سلطان باشا ورفقائه وقد أدرجنا هذا الجواب باسفل الصحيفة كعادتنا اتماما للفائدة (١)

الاصلاحات فى عهد المرحوم توفيق باشا بعد الاحتلال — انه بعد ان استقامت للخديو الاحوال وعادت السكينة الى ربوعها كان من أول مداخلات الانجليز فى أحوال البلاد ارسال لورد غرانفيل ناظر خارجيتهم الى سفراء انكلترة فى الاستانة وباريس وبرلين وويانة ورومية وبطرسبورغ (٣ يناير ١٨٨٣) لائحة مشتملة على مبنى سياسة انكلترة الجديدة فى مصر وكان بودنا ادراجها بأجمعها ولولا انها طويلة جدا فلذا استنسبنا ذكر ما لها باسفل الصحيفة لاهميتها فى هذا الباب ولاشتمالها على الاعمال الادارية التى تنوى انجلتره عملها بمصر فمن شاء مراجعتها بأجمعها فليراجعها بكتاب مصر للمصريين مثلا (٢) وقد أخذت المخابرات عن هذه

(١) ان ناظر الخارجية أرسل الى بواسطة ناظر الجهادية السيف الذى أهداه الى أهالى القطر المصرى وانى أرجوكم أن تقدموا شكرى وامتنانى لسعادة سلطان باشا رئيس مجلس النواب ولاعضائه وكذلك لاهالى القطر المصرى على ما برهنوا عليه من استحسانهم للخدامات التى أدتها التجريدة التى سلمتنى قيادتها جلالة الملكة وانى أقبل هذا التذكار النفيس بكل امتنان وافتخار ولا أعتبره تذكارا لعملنا الذاتى بل أعده ثناء على الجيش الانكليزى وقد ازداد سرورى بالطريقة الاختيارية التى طرزوا بها هذا العمل وان حسن نصوص النميقة المرسلة مع هذا السيف لبرهان قاطع على ان مقاصد التجريدة قد تمت مع النجاح وعلى ان نتيجة أعمالها قد جلبت ميل أهالى القطر المصرى واستحسانهم وانى أشعر بالعجز عن تقديم ما يجب من الشكر والامتنان لسعادة سلطان باشا ثم الى كل من اشترك فى تقديم هذا التذكار المعتبر بواسطة سعادته ولى مزيد الامل بأن المساعدة التى قدمتها دولة انكلترة فى مدة الحوادث الاخيرة تكون واسطة لتأييد نجاح الشعب المصرى وسلمه فى المستقبل اهـ الامضاء الجنرال ولسلى

(٢) (١) السفر فى خليج السويس ان انكلترة ترى ان حرية السفر فيه فى أيام السلم أو الحرب تكون مطلقة وانه يعين وقت معلوم لمرور السفن الحربية فيه وقت الحرب ولا يسوغ أن يحصل فيه أدنى مناوشات حربية الا اذا كان ذلك لوقاية مصر وكذلك لا يسوغ بناء استحكامات فيه أو فيما يليه (٢) المحاكم المختلطة والتعديلات اللازم اجراؤها فيها (٣) المحاكم الاهلية والاصلاحات التى ينبغى للخديوان يجريها فيها (٤) الغاء قلم المراقبة للاقتصادات المالية وكون المالية لا تمس شيأ من حقوق المداينين (٥) ادامة اجراء النظامات المتعلقة ببيع الرقيق (٦) تشكيل قوة عسكرية فى مصر لوقايتها من تعدى احدى الدول (٧) تشكيل مجلس من أهل مصر للنظر فى مصالح البلاد الادارية فهذه المواد السبع هى ملخص اللائحة المذكورة اهـ ما

اللائحة

اللائحة دورا عظيما بين الباب العالى ودول المانيا وأوستريا وايطاليا والروسيا وفرانسا حصل فى خلالها ان أشار الانكليز على الخديو باتباع ماورد فى تقرير لورد دفرين فانصاع الخديو لذلك آمنا مطمئنا ولم يخطر فى باله اذذاك ابداء المعارضة أو التوقف أصلا لصفاء سريرته وكرم أخلاقه وثوقه من أن المحتلين لا يريدون للبلاد الا أن تكون فى أعلى درجات الارتقاء ثم بارحونها مزودين بالشكران كما صرحوا بذلك رسميا وبما أخذ عليهم من المواثيق التى يعلمها الكل ولما رأت الدولة الانجليزية مقدرتها على ارضاء فرانسا سعت فى الغاء المراقبة الانكليزية الفرنساوية على المالية قصد الانفراد بالعمل فكبر ذلك على رجال فرانسا وفى مقدمتهم الموسيو دوكلرك (Duclerc) رئيس الوزراء وناظر الخارجية حيث قال فى مجلس النواب يوم ١٥ يناير ١٨٨٣ عند شرحه المسئلة المصرية انه لما كانت دولة انكلترة أرادت أن تتصرف وحدها اضطرت فرنسا الى أن تعيد لنفسها حرية العمل الى أن قال انه يرجو من المجلس أن يوافق على منهاج الحكومة كما انه يرجو من أوربا ذلك أيضا وقد وزعت الحكومة على المجلس الكتاب الاصفر الذى يحتوى على المحررات التى كتبتها دولة فرانسا فى المسئلة المصرية واتضح منها انها كانت داعما تلح على ابقاء أحوال مصر المقررة على ماهى عليه وان جواب اللورد غرنفيل على تلك المحررات يتضمن جزم انكلترة بعدم مداومة اجراء نفوذها الخبرى (كذا) فى مصر وقد يتضح أيضا من المحررات المذكورة ان الموسيو دوكلرك كتب رقيما الى دولة انكلترة بتاريخ الرابع من الشهر المذكور قال فيه انه لا يمكنه أن يعترف ان كبح العصاة يوجب الغاء المراقبة وغيرها من الدوائر المختلطة المقررة فى مصر وان منهاج انكلترة يوجب على فرنسا أن تعيد لنفسها حرية العمل اه ولكن انى لهم مقاومة السياسة الانجليزية فكم رأينا وكم سمعنا ما اعترى السياسة الفرنسوية من الهزيمة امام السياسة الانجليزية وحصل من ذلك أن تهيج الرأى الفرنسوى واعترض وأكثر من الصخب والصياح كعادته فلم يجد ذلك نفعا وألغيت المراقبة المذكورة فعلا وقدم الموسيو دى فورنج وكيل فرنسا السياسى لائحة الى الحكومة الخديوية أقام فيها الحجة على الغائها المراقبة (٢١ يناير) ومما قاله فيها حيث انه لا يحق لمصر الغاء المراقبة فهى مسؤلة عن العواقب المالية التى تتسبب من هذا الالغاء ثم رحل المراقب الفرنسوى مسيو ليون برديف الى بلاده وصدر الامر الخديوى فى ٤ فبراير سنة ١٨٨٣ بتعيين المستر أوكلاند كولفن (Auckland Colvin) مستشارا ماليا للحكومة المصرية ولما كان قانون مجلس النواب أكبر عقبة فى طريق انفاذ المشروعات الانجليزية لما اشتمل عليه من اختصاصات النواب التى تخول لهم الاشراف على جميع أعمال الحكومة وعدم انفاذ مالا يوافق منها ألغوا المجلس وقانونه وابدلوه بمجلس شورى صدر بتشكيله الامر العالى فى ٢٣ جمادى الآخرة سنة ١٣٠٠ (١ مايو ١٨٨٣) وقانونه يحتوى على تشكيل المجالس الآتية (أولا) مجالس للمديريات يكون لكل منها حق تقرير رسومات فوق العادة لصرفها فى منافع عمومية استلزمتها حالة المديرية انما لا تكون قراراتها قطعية الا بعد تصديق الحكومة عليها (الثانى) الجمعية العمومية ومن اختصاصاتها انه لا يجوز ربط أموال جديدة أو رسوم على منقولات أو عقارات أو عوائد شخصية فى القطر الا بعد عرضه على الجمعية العمومية واقرارها عليه (الثالث) مجلس شورى القوانين وخص بالنظر فى القوانين التى تسن حديثا قبل نشرها وذكر فى نظامانه بان لا يجوز اصدار

قانون أو أوامر تشتمل على لائحة أدارية عمومية مالم ينظر فيه هذا المجلس لاخذ رأيه والحكومة مخالفة رأيه انما عليها اخباره بالاسباب التي اضطرتها للعدول عن رأيه بحيث لا يترتب على ذلك جواز مناقشته في الموضوع (الرابع) مجلس شورى الحكومة ولم تحدد وظائفه وتتبين أوجه اختصاصاته ولم يفتح للآن ثم اعتنت الحكومة بامر اصلاح حالة القضاء والمحاكم فكانت المحاكم التي أنشئت من عهد ساكن الجنان محمد على باشا أشبه بمحاكم مختلطة وكانت قضايا الانكحة والمواريث والمبايعات والوصاية على القصر من اختصاصات المحاكم الشرعية أما القضايا الاخرى مدنية كانت أو تجارية فكانت تنظر في محاكم خاصة بها وكانت تنقسم الى ثلاث درجات محاكم ابتدائية ولها فروع في كل مديرية ومحافظة وتعرف باقلام القضايا ومحاكم الاستئناف ومجلس الاحكام ومقره العاصمة وكان لهذا المجلس الحق في الغاء قرارات المحاكم الاخرى ثم لما رأى الخديو اسمعيل باشا ان هذه المحاكم لا تفي بالمراد نظرا لما الكثرة توافد الاجانب واستيطانهم بمصر وحدوث المشاكل العديدة بينهم وبين الاهالي أوجد المحاكم المختلطة كما تقدم وكانت الحكومة المصرية رأت مافي المحاكم القديمة من النقص والخلل فشكلت في سنة ١٨٨٠م لجنة عهدت اليها وضع القوانين اللازمة للمحاكم الاهلية ولما أتمت عملها وأرادت تشكيلها حالت الحوادث العرابية دون تنفيذها الى أن أتت وزارة شريف باشا بعد الثورة في ١٤ يونية من سنة ١٨٨٣ فشكلت المحاكم المذكورة وصدر بذلك أمر خديوي الا انها لم تعم اولا في جهات القطر لعدم مساعدة الاحوال المالية فاقتصروا اذذاك على إنشائها بالاقاليم البحرية فقط هذا وقانون هذه المحاكم مزيج من القانون الفرنسوي والطلياني والبلجيقي مطبق بعضه على الشرع الاسلامي وفي كثير من بنوده مخالفة صريحة لاخلاق الاهالي ودينهم مما لا يكون في بلاد أخرى لها شريعة تامة تناسب الزمان والمكان كالشريعة الاسلامية الغراء ومن الاصلاحات أيضا تشكيل فرقة عسكرية تعرف بالجاندرمة لتحافظ على الامن بالبلاد سلمت قيادتها لاحد ضباط الانجليز وهو بيكر باشا (Valentine Baker) وكان قبل في خدمة الدولة العثمانية ثم جعل أيضا مفتشا عاما للبوليس (١٨٨٢ م) وكان جنود الجاندرمة يومئذ ٢٠٠٠ من الخيالة و ٣٠٠٠ من المشاة ورجال البوليس ١٩٣٠ نفرا بينهم نحو ٨٠٠ أوربي وكان على البوليس والجندرمة خلاف بيكر باشا عدة ضباط من الانجليز منهم الكلونيلات كولس بك وهرفي بك وجونسون بك وفنيك بك وشارلس بيكر باشا وفي سنة ١٨٨٣ داهم القطر الهواء الاصفر وكان أول ظهوره بدمياط ومنها امتد الى داخل القطر واتخذت الحكومة التحوطات الصحية الواجب عملها في مثل ذلك واعتنت بأمر الصحة والنظافة ولما كانت ممالك اوربا تخاف من سريان هذا الداء اليها من مصر لكثرة مخالطتها التجارية مع مصر أرسل بعض دولها أطباء للبحث عن ماهية هذا المرض وكيفية سريانه وفتكه وعلاجه وكان من هؤلاء الاطباء الدكتور كوخ الالماني والدكتور سميسون الانجليزي والدكتور تريو الفرنسوي وقد بلغ مقدار من ماتوا بهذا الوباء بحسب التقريرات الرسمية نيفا وستين ألف نسمة هذا ولما أرادت انكلترة تغيير خطتها في مصر عينت قنصلها العام السير أدوارد مالت سفيرا لها في برلين وجعلت مكانه بمصر السير افلين بارنج (Sir Evelyn Baring)

خضر

خضر فى سبتمبر من سنة ١٨٨٣ وكان قبل مدير المالية الهند بعد انفصاله من عضوية صندوق الدين المصرى (٢٢ يونيه سنة ١٨٨٠) وكانت وقتئذ ثورة المهدى فى السودان قد اشتد أمرها بعد فقد جيش هكس باشا (Hicks) (١ اكتوبر ١٨٨٣م) كما سنذكره فى محله فدخلت المسئلة السودانية فى دور خطير وأشارت يومئذ الحكومة الانكليزية على مصر بالتخلى عن السودان فلم يقبل المرحوم شريف باشا رئيس النظار ذلك اصلا لعدم لزومه وقال بامكان اخضاع السودانيين وأن فى ترك السودان المصائب الكبرى على مصر وقد حققت الايام قوله ولكن سياسة انجلتره ومنافعها وقتئذ كانت ترغب ذلك وبقى شريف باشا مصرا على رأيه لأسباب منها ان مصر لا يحق لها أن تتنازل عن مقدار شبر من أرض مصر والبلاد الخاضعة لها ومنها ان التنازل يزيد فى الثورة ويشجع القائمين بها وغير ذلك ومما جعل شريف باشا متمسكا برأيه هذا هو ان المرحوم توفيق باشا أشار عليه بقبول التخلى عن السودان ومنها ان المحتلين يريدون ان الوزراء يقبلون نصائحهم بلا تردد أو معارضة كما يعلم من صورة استعفاء شريف باشا الذى أدرجناه بأسفل الصحيفة (١) وكلف الخديو نوبار باشا بتشكيل وزارة جديدة بشرط قبول ما أشارت به انكلتره وهو اخلاء السودان وابقاء سواكن للحكومة فقبل (١٠ يناير سنة ١٨٨٤) وصار نوبار باشا رئيسا للنظار وناظر الحقانية والخارجية ومحمد ثابت باشا للداخلية وعبد القادر حلمى باشا للحربية والبحرية ومصطفى فهمى باشا للمالية وعبد الرحمن رشدى باشا للاشغال العمومية ومحمود باشا الفلكى للمعارف العمومية ثم استدعت الحكومة غردون باشا بناء على مشورة انجلتره وكلفته بالسفر الى السودان لاخلائه من الموظفين والجنود المصرية وارجاعهم الى مصر وفى تلك الاثناء قابل الموسيو وادنجتون سفير فرانسا فى لوندره لورد غرنفيل وذاكره فى مسئلة السودان ومن جملة ما أخبره به بناء عن رأى دولته انه يلزم أن تبقى الاقطار السودانية تابعة لمصر بالصفة التى أسستها الفرامانات السلطانية فى أيام المرحوم محمد على باشا لانه لا يمكن لدولة فرنسا ان ترى مملكة مجاورة لمستملكاتها بافريقية على أصول جديدة اه ورأت الدولة العلية السلطانية يومئذ ان المسألة المصرية يلزم أن تكون مسألة تشترك فيها جميع الدول وقال لورد غرانفيل فى خطاب تلاه فى مجلس النواب فى شهر فبراير من سنة ١٨٨٤ ان الخرطوم لما كانت مفتاح مصر كان من الضرورة انها لا تقع تحت أيدى المتمهدين وقال أيضا جوابا عن سؤال لورد سالسبرى انه ليس للسودان أهمية لانكلتره ولا للهند ولا لمصر وانه ليس فى عزم انكلتره أن تلحق مصر بها ولكن عزمنا الوطيد هو ان لا نخرج عساكرنا منها قبل أن نؤسس فيها حكومة وطيدة راسخة وكذلك لا يمكننا أن ندبر مصالح مصر فى لندره ولكن نرسل اليها رجالا أهل دراية وممارسة ومن المحتمل ان

(١) بعد الديباجة ـ قد اقترحت علينا دولة مملكة انكلترة المعظمة أن نخلى السودان وليس لنا حق فى فعل ذلك لان هذه الولاية من مستملكات الدولة العلية التى فوضت وقايتها الى عهدتنا وقد طلبت دولة المملكة أيضا أن نقتدى بنصائحها بدون مذاكرة فيها ولا يخفى ان هذه الاقتراحات مخالفة لفحوى النظامات الشورية الصادرة فى ١٨ من شهر أغسطس سنة ١٨٧٨ التى نص فيها على ان الخديو يجرى أحكام البلاد باشتراكه مع النظار فبناء على ذلك نضطر هنا الى أن نطلب من مقامكم العالى أن تقبلوا استعفاءنا لانه لا يمكن لنا والحالة هذه أن ندير البلاد على أصول شورية ما.

التواقيع

ظروف الاحوال تحوجنا الى أن نزيد مداخلة فى أحوال مصر ومع هذا فان هذا الامر لا يغير تصريحاتنا الاساسية المبنية على بقاء مصر كما هى بالنسبة الى علاقتها مع الدولة العلية اه

ولما كانت الحكومة الانجليزية لم تتداخل بعد فى ادارة مصر الداخلية بصورة فعلية ثم عن لها الآن ان تتداخل عينت المستر كليفورد لويد (Clifford Lloyd) وكيلا لنظارة الداخلية عن رتب عظيم وكان رجلا جافى الطباع حاد المزاج قال عنه صاحب مصر للمصريين انه أدخل فى وظائف الحكومة المصرية عددا كثيرا من مجانسيه وكان منه أن تطاول بعد ذلك الى الاستبداد بالرأى والاستقلال فى العمل بانفاذ ما يريد واجراء ما يشاء من غير استشارة مجلس النظار فوقع بينه وبين نوبار باشا رئيس النظار من أجل ذلك خلاف شديد واستحكمت النفرة بينهما بحيث كاد رئيس النظار أن يستعفى من منصبه اه ولما حدث الخلاف المذكور تداخل السير افلن بارنج فى أمره واستقر الرأى على بقاء نوبار باشا فى منصب رئاسة النظار وبقاء المستر كليفورد لويد فى وكالة الداخلية مشروطا عليه أن لا يتجاوز حدود وظيفته وكان ذلك أمرا موقتا لانه بالرغم عن حصول هذه التسوية بقيت النفرة متمكنة بين الرئيس والوكيل ولهذا أرسل نوبار باشا صهره تغران باشا وكيل الخارجية يومئذ الى انكلتره ليكلم المستر غلادستون رئيس وزارتها فيما يأتيه وكيل الداخلية المذكور من التعديات التى أدت الى نفور زائد بينه وبين الموظفين الوطنيين ثم سافر السير بارنج الى لندره ويقال ان سفره يومئذ كان بطلب حكومته للاستعلام منه عن ذلك وبعد أيام قلائل استعفى كليفورد لويد من منصبه بايعاز من حكومته ثم اجتهد نوبار باشا فى عزل من بقى فى نظارة الداخلية من الموظفين الانكليز قصد أن لا يكون للوكيل السابق اثر فيها وكان استعفى أيضا محمد ثابت باشا ناظر الداخلية لانه لم يقبل أن يكون آلة فى يد كليفورد لويد وأحيلت نظارة الداخلية موقتا على نوبار باشا ثم أحيلت نهائيا على عبد القادر باشا حلمى ناظر الحربية والبحرية (٢٧ مارث سنة ١٨٨٤)

وكان وقتئذ مر على الانكليز فى مصر عامان ولما رأى الباب العالى وفرنسا ان انجلتره آخذة مع الزمن فى تثبيت قدمها فى مصر فتحا باب المسئلة المصرية وكان ذلك فى عهد وزارة جول فرى الفرنسوية (Jules Ferry) وقامت الجرائد الانكليزية تحرض حكومتها على وضع حمايتها على مصر فاستاء الباب العالى جدا لظهور هذا المقصد الجديد من خلف الحجاب وأخذت المخابرات بينه وبين الدول دورا عظيما ولم تهدأ الافكار الا بعد ان أعلنت وزارة غلادستون رسميا عدم صحة هذا الامر هذا وكانت المالية المصرية قد أصابها فى خلال تلك الحوادث عسر من كثرة المصروفات فاقترحت الحكومة الانكليزية (١٨٨٤) عقد مؤتمر للنظر فى مسئلة مصر المالية فقبلت الدول هذا الاقتراح الا فرنسا فانها انفردت فى رفضه وعدم الموافقة على عقده فى بادئ الامر وطلب الباب العالى أن لا يكون بحث المؤتمر قاصرا على مسئلة واحدة فى مسائل مصر بل يجب أن يتناول سائر الاعمال الجارية فى مصر فمانعت انجلتره فى ذلك ووافقتها بعض الدول وكانت انكلتره وقتئذ صرحت (يناير ١٨٨٤) بناء على طلب دولة النمسا والمجر أنها لا تنوى قط ضم مصر الى ممتلكاتها أو وضع الحماية عليها وقام لورد دربى بعد ذلك فى مجلس النواب البرطانى مؤكدا تلك التصريحات قائلا ان السبب الوحيد لتأخير جلاء جيوشنا عن مصر هو مسئلة حرب السودان ومع ذلك ففى أقرب مناسبة سنفى عما وعدنا به لاننا قلنا علنا بأن دخولنا الى تلك الديار ليس بقصد المكث بها ثم انفقت

المانيا واوستريا وايطاليا والروسيا والدولة العلية على عقد المؤتمر المذكور في لندره وجعلوا سفراءهم هنالك نوابا عنهم وكان رأسهم أرل غرنفيل ناظر خارجية انجلترة وكان أول اجتماعهم في يوم ٢٨ يونيه من سنة ١٨٨٤ وقد أفاد هذا المؤتمر مصر كثيرا لانه تقرر لها فيه ميزانية أصلية وتقرر فيه أيضا انه اذا مضت ثلاث سنوات من تاريخ قرار المؤتمر واستمرت المالية المصرية معرضة لخطر الافلاس تشكل لجنة دولية مالية لتنظر في المسئلة وترفع أيدى الانكليز من العمل ومما استفادته مصر من المؤتمر المذكور أيضا اتفاق الدول فيه على أن الاوروباويين القاطنين الديار المصرية يجب عليهم دفع عوائد المبانى وعوائد التمغة اسوة بالمصريين وأخذت الحكومة في مصر من وقتئذ تهتم باصلاح أحوال ماليتها سالكة مسلك التوفير فألغت كثيرا من أقلام الحكومة وعزلت كثيرا من المستخدمين المصريين خوفا من تشكيل اللجنة الدولية التى هدد المؤتمر الانجليز بانعقادها اذا لم يحصل نجاح في المالية وبما اتخذ من التدبيرات لم تمض سنتان حتى ظهرت نتائج الاصلاح المالى وكان السير ادكار فنسنت (Edgar Vincent) تعين مستشارا للمالية بدل السير اوكلند كلفن الذى رقته دولته وجعلته ناظرا لمالية الهند فأخذ المستشار الجديد يبذل غاية جهده في تقليل النفقات ما أمكن لاصلاح المالية وكانت ايرادات الحكومة في سنة ١٨٨٣ تبلغ ٨,٣٥٠,٠٠٠ جنيه مصرى ونفقاتها العادية ٨,٦١٧,٠٠٠ جنيه والغير العادية ٥٧٤,٠٠٠ جنيه فيكون النقص ٩٣٠,٠٠٠ وبذلك كانت حالتها قريبة من الافلاس وشرع المستشار أيضا في استبدال معاشات المتقاعدين فاستبدل الكثير منهم معاشاتهم اما بمبلغ من النقود أو أطيان توازى ثمنها قيمة المعاش المستبدل ثم رأت الحكومة بعد ذلك ان استبدال المعاشات لا يكون الا بأراض أميرية فقط سواء كانت من أراضى الدومين أو الاملاك الحرة لتخفيف قرض روتشلد السابق الكلام عليه وبذلك تضرب على الاراضى المعطاة في نظير المعاش خراجا سنويا لان أراضى الدومين التى بالمديريات الغير مرهون ايرادها الصندوق الدين لا تدفع الدومين عنها خراجا فزادت بذلك الايرادات نوعا

ثم رأت الحكومة الانكليزية وقتئذ ان ترسل من طرفها مندوبا عاليا آخر الى مصر لينظر في المسائل المالية وأحوال الادارة الداخلية ليطمئن قلبها ويستريح بالها مما تخشاه من مداخلة الدول الاوروباوية فأرسلت في أوائل سبتمبر من سنة ١٨٨٤ (القعدة ١٣٠١ ه) لورد نورتبروك (Lord Northbrook) ثم قدم مصر وبرفقته قاض مسلم من قضاة الهند يدعى سميع الله خان انتخبه ليكون شريكا له في المهمة التى عهد بها اليه فأخذ هذا المندوب في الاهتمام بما أتى من أجله وهو انقاذ الجنرال غوردون الذى كان بعث الى الخرطوم لاخلاء السودان من الحاميات والموظفين المصريين وكان المهديون حاصروه في الخرطوم ومنعوا عنه المواصلات مع الخارج وفى تقرير تسوية وقتية لعلاقات مصر مع السودان وايجاد طريقة لضمان قرض يعقد لاداء تعويضات الذين أصابتهم الخسائر من تجار الفرنج وغيرهم أثناء الثورة العرابية والبحث في الوسائل الصحيحة لارضاء خواطر الدول الحرية بأن يجعل في مصر ادارة مستقلة بذاتها لذلك فأخذ يطوف البلاد المصرية شمالا وجنوبا ويقابل رجالها ووزراءها ويستطلع أفكارهم وزار أيضا القاضى الهندى العلماء والفقهاء وحادثهم طويلا في أمر البلاد ثم بعد ان قضى المندوب المذكور أياما في مصر عاد الى بلاده (٢٨ اكتوبر) وكان مما أشار به الغاء جيش مصر واستبداله بجيش من رجال الشرطة ويقصد من ذلك

ظاهرا توفير المبلغ المقرر لهذا الجيش للخزينة المصرية الأان الحكومة عارضته في قصده هذا فقبل اعتراضها وتقرر تخفيض الجيش الى ثلاثة آلاف جندي ليقتصد بذلك ١٥٠٫٠٠٠ جنيه وقدم لحكومته تقريرا مطولا لم يحز قبولا كما رواه صاحب مصر للمصريين وصاحب تاريخ مصر الحديث وغيرهما ومع ذلك فان مصرا تبعت من التقرير المذكور أشياء كثيرة منها اصلاحات المالية لما اشتد العسر المالي بها ورأت انها لا تقوى على القيام بعمار بفها الكثيرة ما تبذله من النفقات واتخذت لذلك عدة طرق عادت عليها بالفرج بعد الضيق منها وقيف استهلاك الدين وقتيا الامر الذي عارضت فيه الدول وفي مقدمتهم فرانسا واحتجت ورفع وكلاؤها في صندوق الدين دعواهم الى المحاكم المختلطة في القاهرة وكان لذلك رجة عظيمة ولكن ما لبثت ان سقطت الدعوى واندفع الاحتجاج بالحكمة التي تمكنت بها الحكومة من القيام بتعهداتها وهو سرعة استدانة ثمانية ملايين ونصف من الجنيهات (١٨٨٥ م) دفعت منها تعويضات الاسكندرية وسددت بالباقي العجز الذي حصل في ايرادات السنين السابقة ثم استدانت مليوني جنيه أيضا للاصلاح الري وفي سنة ١٨٨٦ لما نقصت مصاريف السودان دخلت المالية المصرية في دور جديد من الرواج خصوصا لما قبلت الدول في السنة المذكورة اجراء تسوية جديدة للدين الممتاز والدين الموحد ودين الدومين ودين الدائرة السنية فتغيرت كيفية الاستهلاك بما يناسب أحوال مصر وفي سنة ١٨٨٧ زادت الايرادات كثيرا بالغاء زراعة التبغ البلدي من بلاد مصر والغاء الرفاتي بين مصر و بلاد الدولة العلية واحتكار التنباك لمدة عشر سنوات بشرط ان يدفع المحتكر للحكومة نصف الارباح متى زادت المقطوعية السنوية عن ثلاثين ألف كيلو غرام هذا غير مبلغ رسم الاحتكار وغير ذلك من الموارد التي زادت بها ايرادات الجارك ولما كان للمرحوم اسمعيل باشا وعائلته مبالغ على الحكومة وكانت تسويتها تعود عليها بالربح تخابرت معه بخصوص تسويتها فقبل وجعل بالتوكيل عنه وعن عائلته شخصا يدعى المستر ماريوت من كبار رجال الانجليز (Mariott) وكانت تلك المطالب تبلغ ٥٫٠٠٠٫٠٠٠ من الليرات المصرية وأصلها الاموال التي أنفقها هو وعائلته على الاراضي التي تخلى عنها للحكومة المصرية فتضمنت بها والمرتب الذي تقرر له عند تنازله ومكافأة مالية على تركه للحكومة بقية الاراضي والسرايات والقصور بما فيها من الاثاث والامتعة الثمينة التي استولت عليها الحكومة (١٨٨٠ م) وعن الدواب التي استولت عليها الحكومة عند استيلائها على الاراضي التي تركها لها وغير ذلك وقد ربحت المالية من هذه التسوية ما يزيد عن ٢٢٫٠٠٠ جنيه مصري سنويا وأعطت الحكومة لاسمعيل باشا وعائلته أطيانا من أملاكها عاقيمته ٢٫٢١٠٫٠٠٠ خص الخديو منها ما يساوي ٥٦٠٫٤٠٠ جنيه مصري اما ما تبقى له وللامراء والاميرات أنجاله فانه صرف لهم نقدا وأوراقا مالية

ومن الاصلاحات التي تمت في المدة المذكورة أيضا تشكيل مصلحة الصحة العمومية وكانت هذه المصلحة من عهد المرحوم سعيد باشا يرأسها كلوتشي باشا (Cloutcci) (١٨٦٠ - ١٨٧٥) ثم خلفه فيها نوروتسي بك (Nourotci) وكانت يتبعها مصلحة الكرنتينات ثم انفصل مجلس الكرنتينات عن مجلس الصحة العمومية فأضحى كل منهما ادارة خاصة ولما صدر الدكريتو الخديوي في ٨ فبراير من سنة ١٨٨٦ بتشكيل مصلحة للصحة العمومية بمصر المحروسة تكون

تابعة

تابعة لنظارة الداخلية جعلوا فيها لجنة صحية تتشكل من ستة أعضاء تحت رئاسة الرئيس للنظر والبحث في كافة المسائل المختصة بأمر الصحة العمومية (٢٧ دسمبر ١٨٩١) وقد أجرت هذه المصلحة عدة اصلاحات ضرورية اقائدة البلاد فحسنت حالة المستشفيات القديمة وشيدت غيرها وأوجدت لها صيدليات حسنة في عموم الاقاليم وغير ذلك وتعين لادارتها العامة أولا جرين باشا ثم خلفه روجرس باشا (٢٧ دسمبر من سنة ١٨٩١)

ومن الاصلاحات المهمة أيضا الري وتعميمه وهي من أمهات المسائل التي اعتنى بها المرحوم محمد علي باشا كما سبق لشدة لزومها للبلاد مصر وكان من أجل تسهيل الري شق ترعة عظيمة تعرف برياح الشرق أو الرياح التوفيقي وتخرج من عند القناطر الخيرية بجوار الرياحين القديمين وهما رياح المنوفية ورياح الغرب واعلم انه لما انتظمت نظارة الاشغال العمومية وصارت نظارة مستقلة في زمن الخديو اسمعيل باشا وضع مهندسوها من وطنيين وفرنسويين عدة مشروعات جسيمة لتحسين حالة الري بالبلاد وجعله على قاعدة عادلة الا انه لم ينفذ معظمها للعسر المالي ثم لما تعين عليها المرحوم علي مبارك باشا أخذ يهتم في تنفيذ الكثير من المشروعات القديمة والحديثة كترميم المباني واصلاح ما يحتاج للاصلاح من الترع الكبيرة والصغيرة وانشاء القناطر والسدود الكثيرة التي ورد ذكرها في تقريره المقدم منه عن أعمال سنتي ١٨٨١ و١٨٨٢ ووسع أيضا وقتئذ نطاق مصلحة التنظيم واصلاح الطرق ولما استقال روسو باشا الفرنساوي من نظارة الاشغال تعين مكانه الكولونيل سكوت مونكريف (Scott Moncreff) (٢٢ يناير ١٨٨٤) وقد أخذ هذا المهندس في اجراء ما به تحسين حالة الري في القطر المصري وكتب عن ذلك تقريرا طويلا بالاعمال اللازم من الاعمال لاصلاح ترع القطر وقناطره ووزع اجراء تلك الاعمال على خمس سنوات مقبلة فأقرت الحكومة عليه وزادت في ميزانية الاشغال مبلغا وافرا وخصصت لاصلاح الري مليون ليرة كما سبق ولم يكن يعرف عنها هذا الكرم في الايام السابقة وهو ما ساعد عمال الانجليز على اتمام كل مشروعاتهم في زمن وجيز ومن الترع التي تم انشاؤها في هذا العهد المذكور ترعة بني عامر بالشرقية بقصد ايصال مصرف أبي الاخضر بترعة أم سلمة واتصال هذه ببحر مويس وترعة بجهة شبين القناطر لاتصال الترعة الشبينية بترعة الاسماعيلية وترعة جديدة تصل ترعة فارسكور بالبحر الصغير وترعة على الشاطئ الايسر لفرع رشيد بجهة العطف لري الاطيان الواقعة بين النيل وبحيرة ادكو ثم الترعة النوبارية لري الاراضي البائرة التي وهبتها الحكومة للاهالي بقصد زرعها وهي التي صدر بها أمر عال (١٨٨٤) هذا أما القناطر فمنها قنطرة موازنة افم بحر مويس وهو يس يفصل ترعة الشرقية وسد بينها وقنطرة موازنة بفم ترعة المنصورة وآخر بترعة البوهية وقنطرة بترعة أم سلمى وغير ذلك من الاصلاحات وهذه الاصلاحات وان أفادت مصر كثيرا كما هو الحق وكانت سببا في احياء قدر وافر من الاطيان الا أنها كانت غالية الثمن على مصر وتعين لهذه الاعمال عدة من المهندسين مثل المستر جارستن (Garstin) والمستر ويلككس (Willcocks) والمستر فوستر (Foster) والكابتن براون (Brown) والميجر روس (Ross) وغيرهم وكانوا بوظيفة مفتشين للري في المديريات وقد بذل هؤلاء المفتشون الجهد بمساعدة مهندسي الوطنيين حتى أضحت مصلحة الري الآن من أهم المصالح وأكثرها منفعة لمصر ومما يذكر فيقر وبالشكر في هذا الباب أن الحكومة

Digitized by Google

ألغت تسخير الاهالي في حفر الترع وعمل الجسور كما كان يحصل سابقا وجعلت ذلك في مقابلة أجرة معلومة وكان هذا الالغاء بصدور أمر عال من المرحوم توفيق باشا في ١٩ ديسمبر سنة ١٨٨٩ م (١٣٠٧ هـ) وبذلك تخلص المصريون من أثقل حمل كان أبناؤهم يئنون تحته من عهد الفراعنة ووضعت الحكومة للري قانونا خاصا به لا يزال العمل بموجبه للآن

ولما كانت أعمال الري لا تزال محتاجة لمبالغ كثيرة غير ما صرف صدر أمر خديوي سنة ١٨٨٦ بتخصيص مبلغ مليون جنيه لتصرف في سبيل أعمال الري الصناعية وتعين الكولونيل وسترن (J. H, Western) مديرا عاما لهذا العمل ومعه ثلاثة من مهندسي الانجليز غيره وهم المستر ريد (Ried) والمستر دمستر (Dempster) والمستر الجي (Algie) وكان أول ما شرعوا فيه تقوية القناطر الخيرية لاحتياجها الى ذلك وكان روسو باشا مدير عموم الاشغال قال في تقرير له سنة ١٨٨٣ صدق عليه المرحوم علي باشا مبارك ناظر الاشغال وقتئذ ان القناطر الخيرية لا يتيسر استعمالها لحجز كميات جسيمة من المياه الا اذا صار تجديدها لا ترميمها وقد أصاب في قوله لانه بعد اصلاحها احتاجت الى الترميم ولا يزال تصرف عليها الاموال الكثيرة للآن سنويا ومما أجرته النظارة المذكورة غير ما ذكر انشاء هويس بجهة المنصورة وآخر على بحر القاصد بالغربية وتوسيع عدة ترع بمديرية الشرقية ولكن بالاكثار من شق الترع وتحويل مياه النيل اليها قل الماء بالنيل قال السير كولن منكريف الشرعنا في توزيع المياه على الترع بواسطة القناطر الخيرية لم يبق في النهر الا القليل من الماء حتى تعسرت الملاحة فيه مدة أربعة أشهر تقريبا والآن قد انتهى عمل ترعتين صالحتين للملاحة احداهما تتجه الى العاصمة من المنصورة ودمياط والأخرى الى الاسكندرية وانتهى عمل هويس الترعة الثانية (١٨٩١) وبذلك وجد خط صالح للملاحة يبلغ طوله سبعين ميلا في وسط الدلتا تتفرع منه ثلاثة خطوط ملاحية طولها ٤٣ ميلا منها ٣٠ ميلا تكفي لسفر السفن الكبيرة وبترعة شبين التي هي أحد الفروع الملاحية القديمة الطويلة ثلاثون ميلا لسير السفن الكبيرة أيضا وجار الآن بناء أربعة هويسات جديدة جهة البراري ذات بوابات كبيرة لتسهيل الملاحة اهـ

ومن الاصلاحات التي لا تنكر فائدتها أيضا السكك الزراعية التي صدر بانشائها أمر عال في ٢٦ فبراير من سنة ١٨٩١ حيث سهل بها النقل وانتشر بين البلاد الامن ومن الاصلاحات والتجديدات التي تمت في عهد المرحوم توفيق باشا واقتضتها ظروف الاحوال انشاء المحاكم الجزئية في أنحاء القطر وانارة بعض المدن الريفية بزيت البترول ومد اسلاك التليفون بالمدن الكبيرة وانشاء عدة خطوط حديدية وشراء كثير من الوابورات وعربات السكك الحديدية وتخفيض أجر النقل في السكة الحديدية والتلغرافات مما عاد على الاهالي بالتسهيلات وعلى المصلحة بزيادة الايرادات وتوسيع نطاق البوستة بالاتفاقيات الدولية التي عقدت بين الحكومة وباقي الدول وادخال الاصلاحات الجمة فيها فزادت ايراداتها وعظمت أعمالها حتى أصبحت تفوق نظيراتها في كثير من الممالك الاوروباوية

ومن الاصلاحات المفيدة المهمة أيضا تنظيم حالة السجون وقد جعلت لها الحكومة ادارة خاصة عهدت برئاستها للدكتور هنري كروشنك باشا الانجليزي (Henry Crookshank) (١٨٨٣) فأوجد لها نظاما بديعا وشيد منها عدة بجهات القطر وأدخل فيها صنائع كثيرة لتشغيل

المسجونين

المسجونين حتى لا يكونوا مدة سجنهم بلا عمل وليتعودوا على حب الكسب وترك أسباب الفساد ومن الصنائع التى أدخلت بها عمل الحصر وغزل القطن وعمل الاحذية وأطقم الخيل وغير ذلك وكان هذا النظام أول موجد له بمصر المرحوم محمد على باشا فيما كان يعرف باسم الاصلاحية الا أنه كان ناقصا كثيرا سيما وقد أهمل مدة من خلفه على أريكة مصر وأرادت الحكومة فى ذلك الوقت وضع قانون عام للجرائد والمطابع والمطبوعات لما رأته من التنديد بأعمالها الجارية على غير نظام سيما الجرائد الاجنبية وعلى الاخص الفرنساوية منها واهتمت بذلك كثيرا وأرسلت الى باريس تغران باشا والى لندره المستر ويست لمخابرة حكومتيهما فى شأن ذلك فرفضت فرنسا الا بشرط محاكمة أصحاب تلك الجرائد بالمحاكم المختلطة أما انجلتره فانها أظهرت ارتياحا لذلك والحمد لله على ماتم لانه لو نجحت الحكومة فى مشروعها لاصبحت الجرائد المصرية الآن مقيدة تقييدا لا ترى الحق منه الا من سم الخياط والفضل فى هذه المسئلة لغيرها عائد بلا شك على اشتباك مصالح أوروبا بمصر وامتيازاتها التى وان كانت عادت على مصر فى بعض الاحيان بالمضار الا أنها افادتها كثيرا

وفى سنة ١٨٨٥ أرسلت الحكومة الانجليزية الى مصر مندوبا عاليا لدرس الاحوال المصرية ووضعها على قاعدة تناسب المصالح البريطانية ولما اعترضت الدولة العثمانية على ذلك أجابتها انجلتره بأنه آخر مندوب انجليزى يأتى مصر وهذا المندوب هو السير درومند ولف (H. Drummond Wolff) فقصد الاستانة أولا ليتفق مع الباب العالى على ما يختص بأمورية وكان هذا اللورد من المشهورين عنهم الميل للدولة العثمانية وبعد ان تشرف بمقابلة مولانا السلطان أخذ يتباحث مع كل من الوزير ين محمد كامل باشا وعاصم باشا بخصوص مصر وكان أقصى آمال الدولة العثمانية أن تضرب لانكلترة أجلا للخروج من مصر ولكن حصل فى خلال ذلك قيام أهالى الروم ايلى الشرقية وطلبهم الانضمام الى امارة البلغار فارتبكت الدولة وأعلنتها الدول كعادتها بلزوم عقد مؤتمر فى الاستانة للنظر فى هذه المشكلة الحديثة التى حركتها الدسائس الاجنبية فى الوقت الذى قامت فيه الدولة لتسوية المسئلة المصرية فأسقط السلطان صدارة سعيد باشا ووجه مسند الصدارة الى كامل باشا وعقد المؤتمر وحسمت النازلة بأن قبلت الدولة بلا اكراه احالة ادارة الروم ايلى الشرقية على أمير البلغار وكان ذلك من حسن نظر مولانا السلطان وبصيرته بالعواقب كما يعلمه كل واقف على حالة الدولة امام أوروبا سيما فى الوقت المذكور هذا وكانت المخابرات توقفت طبعا بين الباب العالى والسير درومند ولف ثم عينت الحضرة السلطانية كامل باشا ومحمد عارفى باشا لاستئناف المخابرات معه فتمت بوضع أساس لاصلاح الادارة المصرية تكون به قادرة على السير وحدها من غير رقيب وان تعقد مع السودانيين تسوية ملائمة لهم عند الامكان وأن لا ترسل الى مصر جنود عثمانية بل ينظم الجيش المصرى وأن تستمر الفرمانات السلطانية نافذة مرعية كما كانت ومتى تم تنفيذ هذه الاصلاحات جميعها خرج الجيش الانكليزى من مصر وكتب بذلك اتفاقية بين الطرفين ترى صورتها بأسفل الصحيفة (١) (٢٤ اكتوبر ١٨٨٥) وعينت الدولة مع السير درومند ولف

(١) اتفاقية ٢٤ اكتوبر من سنة ١٨٨٥ المذكورة (أولا) ترسل كل من الدولة العثمانية وانكلترة مندوبا عاليا الى مصر (ثانيا) يتفق المندوب العالى العثمانى متفقا مع جناب الخديوى أو مع من يعينه هو لهذا الغرض المبين فى الوسائط النافعة لتسكين السودان وتفاوض المأمور ان والخديوى فى جميع التدبيرات التى يمكن بها تعديل الاحوال المصرية عموما ويكون اجراؤها برضا الجميع (ثالثا) يباشر المندوبان العاليان ومعهما الخديو

مندوباً عالياً عنها هو الغازي أحمد مختار باشا ولما حضر الى مصر وكان حضوره بعد مضي شهر من حضور المندوب الانجليزي أخذ يجتمع به ويبادله النظر والرأي في جلسات كانت تعقد تحت رئاسة المرحوم محمد توفيق باشا ثم وضع الغازي مختار باشا لائحة لتنظيم الجيش المصري قال فيها بتأليف الجيش المصري من ١٦٫٣٠٠ جندي منهم ٢٠٠٠ لحماية سواكن و ٤٠٠٠ يكونون بالوجهين القبلي والبحري و ١٠٫٣٠٠ للدفاع عن الحدود المصرية وقال ان وادي حلفا لا يصلح أن يكون حد التخوم بل يجب التقدم الى مديرية دنقلة وجعل نفقات هذا الجيش ٣٥٠٫٠٠٠ جنيه مصري ثم وقع اختلاف بين المندوبين بخصوص مسئلة ضباط الجيش المصري فكان من رأي الغازي مختار باشا أن يكون الضباط اتراكاً ومصريين كما كان سابقاً وخالفه السير درومندولف وأوجب انتخابهم من الانكليز ولم يقتصر الغازي مختار باشا في تقريره على الجيش بل ضمنه أقوالاً أخرى تختص بفروع الادارة المصرية ولما رفعه الى الدولة اعترضت عليه دولة انكلترة ورفضته بجملته وخصوصاً قول الغازي بأن الاولى أن يستخدم المال الذي تصرفه الحكومة المصرية من خزائنها على جيش الاحتلال في الجيش الوطني وقد كان أصحاب النظر يرون حتى قبل حضور المندوبين الى مصر ان انجلترة سترفض ولا شك كل رأي يرتئيه المندوب العثماني لامور منها حب الاستئثار بأمور مصر ومنها ان كل ما يقرره المندوبان والخديو ومن يعينه يجب أن يكون باتفاق الجميع كالوارد بالاتفاقية المتقدمة ولما سقطت وزارة غلادستون المعروفة بوزارة الاحرار (١٨٨٥) وتولت وزارة الماركيز سلسبوري (Marquis of Salisbury) المعروفة بوزارة المحافظين استدعت انكلترة معتمدها من مصر وبقي الغازي أحمد مختار باشا وسقوط وزارة غلادستون يشعر بأن انجلترة غيرت خطة سياستها في المسئلة المصرية ووجدت مسوغاً لحل رباط الاتفاقية السابقة كما يعلم مما يأتي ثم ألح الباب العالي بواسطة سفيره في لوندره رستم باشا على سلسبوري بأن يعين زمناً لانجلاء العساكر الانكليزية عن وادي النيل (يناير ١٨٨٧) فأرسلت انكلترة وقتئذ السير هنري درومندولف ثانية الى الاستانة (فبراير) وبعد أن تشرف بمقابلة السلطان أخذ يتذاكر مع كامل باشا وسعيد باشا ثم طلب من الصدر الاعظم كامل باشا أن يكون أساس المخابرات على أربعة أمور وهي (أولاً) استقلال مصر تحت سيادة الجناب السلطاني والغاء العهود والامتيازات القنصلية (وثانياً) أن تكون حالة مصر من قبيل الحيادة على مثال بلاد البلجيقا (ثالثاً) حرية المرور من قنال السويس زمن الحرب والسلم (رابعاً) اخلاء انجلترة لمصر بعد أن تجمع الدول على وجوب ذلك أما الدولة فلم يكن منها الا رفض هذه الشروط رفضاً باتاً لاجحافها بحقوقها بالمرة طالبة قبل كل شيء تحديد زمن

اصلاح وترتيب العساكر المصرية (رابعاً) ينظر المندوبان العاليان مع الخديو في جميع فروع الحكومة المصرية ويمكن لهم أن يدخلوا التعديلات التي يرونها لازمة في كل ما هو داخل في دائرة الفرمانات السلطانية (خامساً) يقع الاعتراف من طرف السلطنة العثمانية بجميع المعاهدات العمومية الاجنبية التي عقدت مع الحضرة الخديوية وذلك اذا لم تكن مخالفة للامتيازات المضمنة في الفرمانات السلطانية (سادساً) عندما يرى المندوبان العاليان ان هناء الحدود استقر وصارت سيرة الحكومة المصرية مستحسنة وأمرها ما مخايقدم كل منهما تقريراً الى دولته لعقد الاتفاق باخلاء العساكر الانكليزية البلاد المصرية في وقت مرضي (سابعاً) يقع امضاء هاته المعاهدة في ظرف خمسة عشر يوماً وتكون مبادلتها ممضية في القسطنطينية اهـ

الانجلاء

الانجلاء وكتبت الدولة عن ذلك الى انكلتره المحرر المذكورة صورته بأسفل الصحيفة (١) وبعد مخابرات بين السير ولف والمركيز سلسبورى عرضت الدولة الانكليزية اتفاقا آخر جعلته أساسا للمخابرة (٢) ثم اقترحت الدولة بعض شروط رامت ادخالها على ما سيعقد من الاتفاق بين الدولتين وأهمها أن الدولة العلية هى التى يحق لها دون سواها ارسال جيش الى القطر المصرى لاعادة الراحة اليه لدى حدوث فتنة فأظهر ناظر خارجية انكلتره الميل الى النظر فى ذلك وكان مندوب انكلتره يطلب من وكلاء الدولة فى الباب العالى قبول الحيادة واستئناف الاحتلال الانجليزى أما الدولة فطلبت أن تستبدل لفظة الحيادة بلفظى أمنية البلاد وقال ناظر خارجية انكلتره فى جوابه انه متى توفر هذان الشرطان يعنى الحيادة واستئناف الاحتلال فان انكلتره تسحب عساكرها من مصر فى زمن معين وان عدم تصديق الدول على الوفاق الجديد يمنع الحصول على أمنية البلاد واذا اتفقنا على اخلاء مصر بدون تصديق الدول فنكون قيدنا أنفسنا وأطلقنا الحرية التامة لبقية الدول ولما كانت سياسة الروسيا تضاد كل اتفاق يحصل بين انجلتره والدولة العلية كما أن سياسة انجلتره تضاد ذلك بين الروسيا والدولة العلية لتبقى منفردة تقابل فى ذلك الاثناء مسيو نليدوف (Nelidow) سفير الروسيا فى الاستانة

(١) انه طبقا للوفاق المبرم ٢٤ اكتوبر من سنة ١٨٨٥ بين الباب العالى ودولة بريطانية العظمى قد أنجز المندوبان العاليان اللذان توجها الى مصر مأموريتهما ورفعا تقاريرهما ومنها يظهر ان الامن قد استتب فى ربوع السودان على قدر الامكان وان الجيش المصرى قد تألف حسبما سمحت به ميزانية البلاد وان الادارة المصرية جارية على محور النظام ماعدا الادارة المدنية والمحاكم وماذلك الا بالنظر للامتيازات القنصلية وطبقا للبند الخامس من الوفاق المتقدم الذكر سيبحث مجلس وزراء (الاصل وكلاء) الدولة ويؤيد فى الوقت ذاته المعاهدات المبرمة بين الجناب الخديو والدول العظام مادامت لا تجحف بالامتيازات التى حصل عليها القطر المصرى بمقتضى الفرمانات الشاهانية ولاجل اعادة الجيش المصرى الى عدده الاصلى البالغ نحو ثمانية عشر ألف جندى مع اجراء الاقتصاد فى فروع الميزانية المخصصة لمصروفات الادارة العمومية ولاجل النظر فى الطرق اللازمة لازالة سوء التصرف الحالى الناتج عن الامتيازات القنصلية والمعدود من الموانع الجسيمة لحسن رفاهية الاهلين حصل الاتفاق على الشروط الآتية لسحب العساكر الانكليزية من القطر المصرى وهى (أولا) ان دولة جلالة الملكة تسحب عساكرها من مصر والبلاد التابعة لها بعد عام ونصف من تاريخ هذا الوفاق (ثانيا) ان عددا قليلا من الضباط الانكليز الكائنين فى الجيش المصرى يبقون فى مصر ويبارحونها فى مدة عام واحد من تاريخ الانجلاء ويشغل مكانهم فى الجيش المصرى ضباط عثمانيون (ثالثا) ان ادارة الحكومة المصرية تابعة مضمونة من الدولة العلية التى تحفظ لنفسها الحق فى التداخل العسكرى فى تلك البلاد لحماية سلطة الجناب الخديوى واعادة الامن اليها عند اختلاله واذا حصلت فيها مداخلة من الخارج فعساكر الدولة العلية تصدها بالاشتراك مع العساكر الانكليزية (رابعا) بما ان مصر والسودان لا يمكن بقاؤهما منفصلين عن بعضهما بالنظر للروابط الطبيعية الموجودة بينهما وبما ان السودانيين لا يمكنهم رفض الطاعة الواجبة عليهم نحو جلالة السلطان المعظم عندما يجدون العضد من عدله السامى فالدولة العلية ستطلب من الجناب الخديوى أن يختار الوقت المناسب لاعادة السودان تحت حكم الحكومة المصرية اه

(٢) (أولا) تبقى مصر كما هى حسب نصوص الفرمانات السلطانية (ثانيا) يبقى خليج السويس على الحيادة وتضمن الدول سلامة مصر (الثالث) تبقى العساكر الانكليزية فى مصر مدة ثلاث سنوات وعند انقضائها يلبث الضباط الانكليز فى رئاسة الجيش المصرى سنتين (الرابع) لا تخرج انجلترا عساكرها من مصر بعد ختام السنة الثالثة من التوقيع على هذا الوفاق اذا حدث اضطراب جديد فى مصر داخليا كان أم خارجيا (خامسا) يحق لانكلترا احتلال مصر بمساعدة العساكر العثمانية اذا وقع اختلال بها أو خشى أن ترسل دولة أجنبية عساكرها الى مصر (سادسا) تستدعى الدولة العلية وانكلتره بقية الدول للتصديق على هذا الوفاق وتطلبان من الدول اجراء بعض التعديلات فى المعاهدات الدولية المخولة للاجانب فى مصر جملة امتيازات اه

Digitized by Google

مع السير درومندولف وسأله عن سير المخابرات فقال له اذا قبلت الدولة العلية المطالب فانها تعرض على الدول للتصديق عليها فقال نليدوف للسير ولف ان سياسة الروسيا في مصر سائرة على حفظ الحقوق السلطانية ومنع بقية الدول من الاعتداء على تلك الحقوق والروسيا تعتبر بقاء انكلتره في مصر بصورة غير قانونية خير من ابرام وفاق مستديم يكون من أحكامه الاجحاف بحقوق الحضرة السلطانية وقال له أيضا ان الجناب السلطاني اذا منح دولة الانجليز حق استئناف الاحتلال فيكون قد تنازل لها عن جانب من سيادته على مصر ثم اتفقت انجلتره مع الدولة على شروط منها أن تبقى انجلتره بمصر فرقة من جنودها لاخضاع السودان والدفاع عنه وأن تخرج انجلتره عساكرها من مصر بعد مضي ثلاث سنوات من تاريخ التوقيع على المعاهدة الا اذا حصل في مصر ما يستدعي بقاءها كاغارة خارجية أو ثورة داخلية فانها تبقى به مدة سنتين أخريين ثم تجلي تماما كما يجوز لها احتلاله هي والدولة العلية اذا حدث به ما يستدعي ذلك وغيرها من الشروط التي وردت بالوفاق المذكور المدرج بأسفل الصحيفة (١) ثم وقع كل من كامل باشا الصدر الاعظم وسعيد باشا

(١) بعث الجناب السلطاني المعظم وجلالة ملكة انكلتره وايرلاندا وامبراطورة الهند طبقا لاحكام الوفاق المبرم في القسطنطينية بتاريخ ٢٤ اكتوبر سنة ١٨٨٥ مندوبين عاليين الى القطر المصري وعلى أن كلا منهما قدم تقريره الى دولته عما شاهده من أحوال وادي النيل فقد استحسن الجناب السلطاني المعظم وملكة انكلترا الفخيمة أن يبرما وفاقا جديدا طبقا لاحكام اتفاقية ٢٤ اكتوبر المنوه عنها فعين جلالة السلطان محمد كامل باشا الصدر الاعظم الحائز على نيشان الامتياز العالي الشان والنيشان العالي العثماني المرصع من الصنف الاول والنيشان المجيدي من الصنف المذكور والحائز لنياشين عديدة من الدول الاجنبية ومحمد سعيد باشا وزير الخارجية الحائز للنيشان العالي العثماني المرصع من الصنف الاول والنيشان العالي المجيدي من الصنف المذكور ومع جملة نياشين أخرى حازها من ملوك أوروبا مأمورية خصوصية تتعلق بالمسألة المصرية وعينت جلالة ملكة بريطانيا العظمى وامبراطورة الهند الفخيمة جناب السر هنري درومندولف مستشار جلالتها في مجلسها الخاص الحائز لنيشان الصليب الاكبر ونيشان سان ميشيل وسان جورج والنيشان العالي من صنف الباث في ذات المأمورية بخصوص مصر وبناء على المأمورية التي فوضت لعهدتهم اتفقوا على ما هو آت

(المادة الاولى) تبقى الفرمانات السلطانية المرعية الاجراء في القطر المصري محفوظة على الدوام ما خلا في الاحوال التي يدخل عليها بعض التعديل بموجب الوفاق الحاضر (المادة الثانية) يتضمن القطر المصري جميع الاراضي المنصوص عنها في الفرمانات السلطانية (المادة الثالثة) تستدعي الدولة العلية جميع الدول الموقعات على معاهدة برلين للتصديق على وفاق يضمن حرية الملاحة في قنال السويس وتعترف الدولة العلية بأن يكون القنال المذكور حرا على الدوام ومفتوحا في زمن الحرب والسلام لسير جميع السفن الحربية والبواخر التجارية على اختلاف اعلامها بشرط أن تقوم بدفع عوائد المرور وتخضع لقوانين مصلحة القنال الحاضرة والمستقبلة وتتعهد الدول بعدم احداث عوائق لحرية سيرها واخرى وقت الحرب وباحترام جميع الاملاك والمحلات المختصة به ويكون من أحكام ذات الوفاق أن لا يسوغ لاحدى الدول أن تبني قلاعا على ضفاف القنال أو أن تجري عليه أعمالا عدوانية ما لم تكن على بعد مسافة ثلاثة اميال بحرية أي خمس كيلومترات ونصف من بورسعيد والسويس ثم يتعين على وكلاء الدول السياسيين الذين يوقعون على هذا الوفاق أن يراقبوا تنفيذ بنوده ومتى طلب أحدهم اجتماع البقية تداركا لمنع حوادث تتهدد طمأنينة القنال فيلزم الاجتماع تحت رئاسة مأمور مخصوص يعينه جلالة السلطان الاعظم أو الخديوي المعظم للبحث والتحري عن حالة الخطر ويشيرون بعد ذلك الحكومة المصرية لاتخاذ الوسائل التي من شأنها أن تحمي حرية المرور فيه وفي أي حال من الاحوال يجتمع وكلاء الدول في مصر مرة في كل عام لمراقبة تنفيذ ما تقدم (المادة الرابعة) عدا ان أحوال السودان قد أقلقت الخواطر في القطر المصري الذي لم تستتب فيه الراحة حتى الآن من جراء الحوادث

Digitized by Google

ناظر الخارجية على الوفاق وملحقاته ووقع بجلالة ملكة انكلترة فصدقت عليه وبعثت به الى السير
درومند واف فى الاستانة ولما كان هذا الوفاق لايناسب سياسة بعض دول أوربا وعلى الخصوص
دولتى الروسيا وفرنسا الساعيتين فى ايجاد المشاكل التى تربك الحكومة الانجليزية كما علمت بعث
الموسيو فلوران وزير خارجية فرانسا بلائحة الى الدول قال فيها ان السير هنرى درومند ولف

السياسية التى طرأت عليه وهذا من شأنه أن يقضى باتخاذ تداركات فوق العادة لطمأنينة التخوم وحفظ الراحة
والامن فى داخلية وادى النيل فبناء عليه يسوغ لانكلترة أن تدافع عنه وتتولى رئاسة تنظيماته العسكرية وهى تبقى
لاجل هذه الغاية ذاتها عددا كافيا من جنودها وتستمر فى ملاحظة أحوال الجيش المصرى بوجه العموم أما الشروط
المتعلقة بانسحاب الجنود الانكليزية من القطر المصرى وزوال مراقبة انكلترة لاحوال جنديته فيصير بانهاء
الاحكام المدرجة بالمادة الخامسة من هذا الوفاق (المادة الخامسة) ينبغى على انكلترة أن تسحب عساكرها من القطر
المصرى عند انقضاء مدة ثلاث سنين من تاريخ هذا الوفاق ولكن اذا حدث فى ختام هذه المدة ما يهدد مصر بالخطر
سواء كان من الداخل أو من الخارج وقضت الضرورة بتأخير جلاء العساكر الانكليزية عن مصر فيتعين عليها
اخلاؤها عند زوال الخطر وبعد مرور عامين من حصول الانجلاء تعتبر أحكام البند الرابع ملغاة وعند انجلاء العساكر
الانكليزية عن وادى النيل يتمتع القطر المصرى بالامتيازات التى تنتج من استتباب الراحة فى ربوعه ولدى التصديق على
هذا الوفاق يطلب من الدول العظام أن تمضى تعهدا تعترف بمقتضاه بعدم مس الاراضى المصرية وبموجبه لايجوز لاية
دولة أن تنزل فيه عساكرها بأى حال من الاحوال الا فى الظروف المبينة فى القانون الملحق بهذا الوفاق ولكن يجوز
للدولة العلية أن تتصرف بما لها من الحقوق باحتلال عساكرها وادى النيل اذا حدثت به دواع توجب الخوف من
حصول الهجوم عليه من الخارج أو اذا اختل فى داخليته الامن وامتنعت الحكومة الخديوية من تتميم واجباتها نحو
الحضرة العلية السلطانية أو توقفت عن اجراء تعهداتها الدولية أما دولة انكلترة فيتاح لها أن ترسل عساكرها فى
الظروف المبينة أعلاه لاحتلال القطر المصرى متخذة الاحتياطات اللازمة لازالة الاخطار عنه ويتعين عليها اذ ذاك
ان تراعى كل المراعاة حقوق السلطة السائدة وينبغى على العساكر الشاهانية أو الانكليزية أن تتخلى عن القطر اذا
احتلته وذلك متى زالت الاسباب التى قضت بداخلها أما اذا طرأ ما عاق الدولة العلية عن ارسال جنودها الى وادى النيل
متى تقوضت فيه دعائم الامن فيجوز لها أن ترسل من قبلها نائبا عاليا يقيم به مادامت فيه العساكر الانكليزية متحدا مع
قائدها العام وكلما قضت الاحوال أن ترسل احدى الدولتين بعساكرها تعين عليها أن تشعر الثانية بذلك طبقا لاحكام
هذا الوفاق (المادة السادسة) متى وقعت الدولتان المتعاقدتان على هذا الوفاق تعين عليهما أن يحيطا بها علما بقية الدول
الموقعات على عهدة برلين والتى أبرمت عهودا مع خديوية مصر واستدعائها للتصديق على هذه (المادة السابعة)
يلزم أن يوقع على هذا الوفاق من جلالة السلطان وملكة انكلترة فى مسافة شهر واحد اعتبارا من تاريخ التوقيع على هذا
أو قبل هذا اذا كان الامر ممكنا وبناء عليه قد وقع على هذا كل من المأمورين الواضعين أختامهم فيه أدناه اهـ
تحريرا بالاستانة العلية فى ٢٢ مايو سنة ١٨٨٧ التواقيع

واف وكامل وسعيد

ملحق (أولا) اذا حدث ما عاق حرية المسير فى قنال السويس يسوغ للدول الموقعات على هذا الوفاق المبرم
بتاريخ هذا اليوم أن تسير من عساكرها فى القطر المصرى بقصد العبور من بحر الروم الى البحر الاحمر (ثانيا) لا يسوغ
لاحدى هذه الدول أن تسير من عساكرها فى مثل هذه الحالة أكثر من ألف جندى فى آن واحد وبقتضى أن يكون
مرورها بطريق السرعة الكلية (ثالثا) عندما تضطر احدى الدول لان تسير بعساكرها فى القطر المصرى يلزمها
أن تشعر بذلك محافظ الميناء التى تنزل منها جنودها وذلك بواسطة قنصلها الجنرال قبل مباشرتها الامر بمسافة ٢٤ ساعة
وهو ملزوم بملاحظة مرور العساكر المذكورة التواقيع

كامل وسعيد ودرومند ولف

حاشية يصرح الموقعون بذيله أن يعتمدوا النسخة المحررة باللغة الفرنساوية فى هذا الوفاق تحريرا فى ٢٢ مايو
سنة ١٨٨٧ اهـ من الكتاب الازرق

والوزراء العثمانيين وقعوا على وفاق بخصوص مصر مضاد لمصالح الدولة العلية والجمهورية الفرنساوية ودول أوربا بالرغم عن أنهم وعدوا فرانسا بعدم ابرام أقل وفاق قبل اشعارها مقدما وقال ان في ذلك الوفاق خطأين (أولا) ان الدولة العلية تبيح لانكلترة بأن تشاركها في السيادة على وادي النيل (والثاني) ان انكلترة لم تحدد ميعادا معلوما لانتهاء مدة احتلالها في القطر المصري وانذرت دولة الروسيا الدولة العلية بقولها اذا صدق الباب العالي على الوفاق المذكور فجميع المعاهدات التي تضمن سلامة الاراضي العثمانية تصير ملغاة واحتجت فرانسا أيضا وقدم سفيرها الموسيو مونتبلو (Montebello) وكذا سفير الروسيا الموسيو نيليدوف الى الباب العالي الانذار بالوعيد اذا صدق الجناب السلطاني على الوفاق المذكور ووعداه في تحريريهما بمساعدة الدولة في كل النتائج التي تترتب على عدم تصديق الحضرة السلطانية على الوفاق المذكور (١) فاجتمع المرخصون العثمانيون بالسير درومندولف وتذاكروا مليا واضطر الباب العالي أن يطلب من انكلترة اطالة مهلة التصديق على الوفاق فرفضت انكلترة طلبه ثم طالت المخابرات والمكاتبات في هذا الموضوع الذي انتهى بالرسالة التلغرافية التي أرسلها ماركيز سالسبوري الى السير وليام وايت (W. A. White) سفير انكلترة بالاستانة قال فيها ان رستم باشا سفير الدولة العثمانية في لوندرة طلب تعديل الوفاق المبرم بخصوص مصر والذي استقبحته فرانسا والروسيا فرفض ماركيز ساليسبوري هذا الطلب مصرحا بأن احتلال عساكر الانكليز للقطر المصري سيلبث الى أن تحقق انكلترة بأن الحكومة المصرية صارت قادرة على مداركة كل خطر يتهددها سواء كان من الخارج أو من الداخل وقد أرادت انكلترة بذلك الوفاق أن تحمي مصر من مثل هذا الخطر فعارضت الدولة العلية ذلك فصارت هي وحدها مسؤلة عن امتداد أجل احتلال العساكر الانكليزية لوادي النيل اه والحاصل انه من وقتئذ توقفت المخابرات في هذه المسئلة وطرحها الانجليز من فكرهم ظاهرا واهتموا بانفاذ ما أشار به رجالهم في تقاريرهم من الاصلاحات التي تعود عليهم بالنجاح في المسئلة المصرية وكانوا في خلال ذلك تمكنوا من عقد اتفاق مع فرانسا بخصوص حيادة قنال السويس السابق الكلام عليها بصحيفة ٦٦ من هذا الجزء

هذا ولنعد الى ذكر حوادث مصر الداخلية فنقول انه في شهر يوليو من سنة ١٨٨٦ بعث الجناب الخديوي يوسف شهدي باشا مفتش عموم أقلام القرعة العسكرية مندوبا فوق العادة الى الحدود بجهات وادي حلفا لمخابرة مشايخ السودان في مسئلة مبادلة التجارة والوقوف على

(١) عزمت دولة فرنسا عزما أكيدا على رفض التغيير الذي سيحدث للقطر المصري من اجراء ابرام الوفاق الانكليزي العثماني الجديد واذا صدق عليه فالجمهورية الفرنساوية تصرف مزيد اهتمامها لحماية مصالحها التي يتهددها الخطر بسبب اختلال الموازنة في البحر المتوسط وتضطر الى أخذ التدابير اللازمة واذا امتنع الجناب السلطاني من التصديق عليه فأنا سفير فرنسا الموقع بذيله مرخص من قبل حكومتي باعطاء التأمينات الكافية للحضرة السلطانية وبأن أؤكد للدولة العلية بان دولة فرنسا تحمي العثمانية من كل النتائج التي تترتب على عدم تصديق الحضرة السلطانية على الوفاق المذكور ومن حيث لم يبق موجب للجناب السلطاني في التردد في هذه المسئلة فان رفض التصديق على الوفاق يسر عموم الاسلام و يوطد دعائم الوفاق بين الدولة العلية والجمهورية الفرنساوية ولاشك ان العظمة السلطانية ترى من المناسب احكام ملاءمتها مع فرنسا واستحسان سياستها المنزهة عن المطامع والاغراض المضرة بمنافع العثمانية

في ٢٢ يونيه سنة ١٨٨٧ مونتبلو

Digitized by Google

أفكارهم من حيث ثورة المهدى الاّن مأمورتيه لم تأت بفائدة تذكر وقد ورد فى الرقيم الرابع والعشرين الصادر من السردر ومندولف الى مركيز سالسبورى ان كلا من الجناب الخديوى ودولتلو مختار باشا أرسلا يوسف شهدى باشا عم افقتى الحوادى حلفا المخابرة قبائل السودان العصاة وقد علمت ان الصلات التجارية عادت الى سابق مجراها مع السودان وقال فى رقيمه الثلاثين ان الحضرة الخديوية ودولتلو مختار باشا انتخبا يوسف شهدى باشا وأرسلاه الى التخوم السودانية فبعث منها بتقارير الى الحضرة الخديوية تضمنت مااحتوت عليه تقارير الدوائر العسكرية الانكليزية من ان الاحوال فى السودان آخذة فى الهدو والراحة ولا يخشى من حصول اعتداء الا من قطاع الطرق وهذا أمر كثير الحصول فى البلاد الغير المتمدنة وان التجارة بين مصر والسودان عادت الى سابق مجراها اه وفى ٣ فبراير من سنة ١٨٨٧ حضر رسول سودانى يدعى الشيخ دفع الله خوجال من قبل أمراء كردفان ومعه عريضة الى الجناب الخديوى يطلب بها انقاذ تلك البلاد من الضيق واعادة الاقطار السودانية الى حوزة الحكومة الخديوية فتشرف بمقابلة الخديو والغازى مختار باشا والجنرال استيفنسن قائد جيش الاحتلال فوعدوه باجابة طلبه متى سمحت الاحوال واستقال عبد القادر حلمى باشا من نظارة الداخلية والحربية لخلاف حصل بينه وبين السردار السير غرنفيل باشا (Sir Grenfell) ورجال الداخلية وعهدت النظارتان بعده الى مصطفى فهمى باشا ناظر المالية الذى خلفه فيها محمد زكى باشا مدير عموم الاوقاف وخلفه فيها عثمان غالب باشا وقد كانت أحوال نوبار باشا الاتسر الخديو فى تلك الدفعة وان سياسته قد تغيرت عما كانت عليه حتى خرج فى بعض أقوال معه عن الحد فلذلك عزله من رياسة مجلس النظار (٧ يونيه سنة ١٨٨٨) عزلا يكفى من يريد الوقوف على صفته ومقدار النظر فى أمر الخديو اليه حيث قال له (انه بناء على ماوقع فى جلسة المجلس بالامس وما هو الا تكرار ما حدث أكثر من مرة من التباين فى الآراء بما رأيت منه استحالة بقائك فى منصبك فلهذا قد فصلتك من وظيفتك وعهدت برئاسة الوزارة وتشكيل هيئة جديدة الى صاحب الدولة رياض باشا) وكتب الى رياض باشا كتابا لطيف العبارة يعده فيه بتعضيده فى الاعمال ويذكره بان الحكم فى مصر يكون باتحاد الخديو مع الوزراء وعشار كتهم وقد أدرجنا الكتاب المذكور باسفل الصحيفة كعادتنا (١) فصار رياض باشا رئيس النظار وناظر الداخلية والمالية ومصطفى فهمى باشا الحربية والبحرية وذو الفقار باشا الخارجية ومحمد زكى باشا

---

(١) انما اتصفتم به من الغيرة الوطنية والاخلاص لنا قد دعانا الى أن نطلب منكم القيام بتأليف هيئة نظار جديدة وليكن فى علمكم اننا لانتأخر مطلقا عن تعضيدكم ومساعدتكم المساعدة الحقة الصادرة فى الاعمال المهمة السامية التى دعوناكم لادائها وان ماجاء فى أمرنا الصادر بتاريخ ٢١ سبتمبر سنة ١٨٧٩ هو المنهج الذى نروم اتباعه والسير على مقتضاه وليس هناك من عظيم حاجة الى تذكيركم باهم ماتضمنه ذلك الامر من المواد الاساسية وهى ان حكمنا واجراءه يكون مع مجلس نظارنا وبواسطته وان نعهد اليكم رئاسة هذا المجلس مع ابقاء الحق لنا فى الرئاسة على جلساته بذاتنا كلما رأينا لذلك لزوما وان نرفع كلمة الاستقامة والاصلاح وحسن الترتيب والاقتصاد فى جميع ادارات القطر والسعى فى ايجاد الرفاهية واحياء التقدم فى جميع انحاء البلاد حسا ومعنى فهذه مقاصدنا التى نبتغيها وان شاء الله تعالى يتسنى لنا الحصول عليها بمساعدتكم وفى ذلك نعتمد كل الاعتماد على فطنتكم وهمتكم ونشاطكم وغيرتكم التى برهنتم لى عليها مرارا وكن أيها العزيز واثقا بمحبتنا لكم اه تحريرا بسراى رأس التين
نقل من مجموعة الاوامر العالية صحيفة ١٣٤ الامضاء محمد توفيق

Digitized by Google

للاشغال العمومية وحسين فخري باشا للحقانية وعلى مبارك باشا للمعارف (٩ يونيه ١٨٨٨)
ولما علم الناس بما كتبه سمو الخديو الى رئيس نظاره فرحوا جدا بالوزارة الجديدة سيما وان رياض
عدة مشروعات مهمة حال دون تنفيذ بعضها الحوادث العرابية وأتى ما تم منها بأجزل الفوائد
وأشهر الاعمال مدة هذه الوزارة أن الحكومة أجرت لمدة معلومة بشروط معينة لشركة
رأسها أحد أغنياء الاسرائيليين يسمى سوارس سكة حديد حلوان وصرحت لها بتوسيع
نطاقها فجعلت الشركة المذكورة محطة جهة باب اللوق بدل ان كانت محطتها العمومية جهة
القلعة ومدت لها خطا حديديا مارا وسط بعض الشوارع وبذلك ترقت أحوال مدينة حلوان وابتنى
الناس بها المنازل اللطيفة والقصور والجملة سيما القصر الخديوى الذى كان المرحوم توفيق باشا
كثيرا ما يقيم به ولما كانت حالة الاهالى المالية تستدعى الالتفات وان الخديو المرحوم توفيق باشا لم
يتأخر مطلقا فى ايجاد كل ما يعود على الاهالى بالرفاهية والنعيم أصدر أمره بالغاء عوائد الدخولية
والقبانة والذبيح والحلة والدلالة من أكثر بلاد الوجهين البحرى والقبلى فانسر الناس ودعوا له بخير
وحصل أيضا من أسباب ترقى التجارة ان صرحت الحكومة بأمر عال لجماعة من أغنياء الوطنيين
بتأليف شركة للملاحة فى النيل دعيت بالتوفيقية وسبب ذلك كثرة توارد سياحى الفرنج الى مصر
سنويا لمشاهدة آثارها والتمتع بلطيف هوائها شتاء لان ما حدث من الحوادث بمصر نبه أهل أوروبا
لمشاهدة مصر أكثر من قبل وكان بالنيل قبل ذلك شركة انجليزية تعرف بشركة كوك وأولاده
تشكلت فى عهد الخديو الاسبق اسمعيل باشا فزادت بهما الملاحة بالنيل سهولة وكثر عدد الزوار
والسياحين خصوصا وانه فى عهد الخديو توفيق باشا اكتشف مدير ودار التحف المصرية كثيرا من
الآثار القديمة (١٨٩٠) مما زاد فى شأن دار التحف المصرية هذا وقد كانت نفوس الناس تتوق
من قديم الى تأسيس مجالس بلدية بكل مدن القطر العظيمة تنظر فى تحسين حالة المدن صحيا وتجاريا
ولما علم الخديو المرحوم توفيق باشا ووزرائه لاجراء الاعمال النافعة طلب أهل الاسكندرية تأسيس
مجلس بلدى لهم فوافقتهم الحكومة عليه الا أن قانونه أتى مجحفا جدا بحقوق الوطنيين حتى لم ينتخب
منهم بين أعضائه الا النزر اليسير وبقيت الاغلبية للاجانب مما لا يكون فى بلد أخرى أصلا ومن قانون
المجلس المذكور ان يكون بين أعضائه كل من محافظ الاسكندرية والنائب العمومى بالاستئناف
المختلط ومدير عموم الجمارك ورئيس نيابة المحكمة الاهلية ومفتش الصحة ومفتش رى القسم الثالث
وستة تختارهم دائرة الانتخاب وثلاثة ينتخبهم تجار الصادرات ومثلهم ينتخبهم تجار الواردات واثنان
ينتخبهما أصحاب الاملاك ومن حسنات توفيق باشا العديدة أيضا ان صدر منه أمر فى تلك المدة بأن
يخصص مبلغ ٢٥٠٠ جنيه مصرى سنويا للاصلاح شأن الكتبخانة الخديوية (١٨٨٩)
فترقت بذلك حالتها جدا وتمكنت من مشترى وطبع كثير من المؤلفات المفيدة ولما كانت المحاكم
الاهلية أتت بالفوائد العظيمة بالوجه البحرى وكان تعميمها بالوجه القبلى يتوقف على مساعدة
المالية ومعرفة فوائدها بالوجه البحرى وقد توفر هذان الامران صدر الامر العالى بتشكيلها
بالوجه القبلى أيضا (٢٩ يونيه ١٨٨٩) فقابل أهالى الصعيد ذلك بالارتياح والسرور

ولما استعفى السير ادجار فنسنت المستشار المالى (١٨٨٩) صدر أمر خديوى بتعيين
السير الون بالمر (Elwén Palmer) مكانه وقد اهتم هذا المستشار بتحسين مالية البلاد التى

هى

هي أهم شئ يجتهد الانجليز في تحسينه وانماء ايراداته حتى يطمئن بال أرباب الديون من الاوروباويين فلا يطلبون من حكوماتهم المداخلة لتأمين حقوقهم وقد تمكن هذا المستشار بمساعدة الحكومة من تحويل الدين الممتاز فتوفر بذلك للحكومة مبلغ وافر ثم اهتمت الحكومة في تخفيف بعض الضرائب وتعديل بعضها (١٨٩٠) وعرضت على مجلس شورى القوانين مسئلتي تقسيط الاموال وتقرير عوائد الدخولية وألقى رياض باشا على أعضائه خطبة نفيسة افتتحها بالاعتذار للاعضاء من تكرار البحث في موضوعين هما مسئلة تقسيط الاموال وكون سير هذا التقسيط مرضيا أم لا ومسئلة تقرير عوائد الدخولية وما جرى فيهما من الخلف بين المجلس والحكومة واستطرد الكلام بالمناسبات الى ذكر الاموال العمومية وما جرى من الاصلاحات منذ تولية الخديو توفيق باشا ولما كانت الخطبة المذكورة شاملة لوصف الحالة التي كانت عليها مصر قبل ذلك وما أجرى فيها بعد من الاصلاحات رأينا ضرورة ذكرها بأسفل الصحيفة ليطلع عليها حضرات القراء (١)

(١) ان تولية مولانا الخديو كانت مبدأ تاريخ حياة جديدة لمصر والمصريين فأول ما فهمناه وقتئذ انا خرجنا من الظلمات الى النور ومن الظلم القاسر الى العدالة المطلقة ومن الاستبداد المحض الى الحرية الحقة . كان كل اهتمام الحكومة السالفة أن تخترع طرق جلب الاموال من الاهالي أيا كانت الوسائل لا يعنيها عاش الناس أو ماتوا وكلكم يتذكر أنها لم تكتف في زمن من الازمنة بالضريبة التي قررتها بل زادت عليها ضرائب متعددة كالسدس والثمن والمقابلة والاسهم وما أشبه ذلك مما يختص بالاطيان فضلا عن انها اذا رأت بلدا عاطلة قد تلفت أرضها تحمل ما يكون عليها على أرض قريبة منها أو بعيدة فلا يمضي زمن حتى تعود الارض الخصبة عاطلة لكثرة ما تحمل من المطالب وربما هاجرها أهلوها واني أضرب لكم على ذلك مثلا . أول مأمورية توليتها في البلاد هي مديرية الجيزة ولما توجهت اليها في سنة ٧٣ رأيت ان بلدا يقال لها ترسه قد تلفت أرضها وعجز أصحابها من زراعتها فكان من أمر الحكومة اذذاك انها حملت الاموال التي كانت تحصل عليها منها البلاد أخرى كناحية بلد الزمر فعظم عندي هذا الامر واجتهدت في البحث عن طريقة تخفف ويلات هذه البلاد التي تدفع عما لا تزرع منها شبرا أو قيراطا وتوصلت بعد ذلك الى أن أهل البلد التي تلفت أرضها يعفون من نير السخرة ليتمكنوا من الاشتغال باصلاح أراضيهم حتى تستعد للزراعة وجعلت ذلك مخرتهم المكلفين بها وما زالوا يجتهدون حتى صلحت الارض ولولا ذلك لما مضى زمن حتى نشاهد تلك البلاد الرائجة قد حملت مطاليبها على غيرها . وعلى هذا الحال كان سير الحكومة المصرية وقتئذ الذي كان من نتيجته اليوم انا نؤدي كل سنة نحو خمس ملايين من الجنيهات كالجزية المفروضة ولم تكن وظيفة الرجال الذين يختفي بأسمهم وسطوتهم اذذاك (وقد كان من العدل أن تنتفع بهم البلاد) الا انهم يرسلون الى المديريات فيمكثون الازمنة الطويلة لا هم لهم الا تشجيع الحكومة في طلب الاموال . هذا من حيث الارض في ذاتها أما ما كان يضرب على حاصلاتها فتلك أمور فظيعة لا أظنكم تجهلونها ومن نسيها فليذكر أيام خاف باشا (الله يرحمه) حيث كان يكلف كل يوم باختراع سيئة تسيل في مجراها دماء الاهالي من تلك المظالم فمن يقارن بين تلك الحالة وما وصلنا اليه الآن (وان الباعث على حضوري الآن هو النظر في طريقة تضمن راحة الاهالي واصلاح الادارة بعد اجماعنا على تخفيف تلك المصائب ثم ازالتها) يظهر له الفرق بين ما كنا عليه وما صرنا اليه . أما الضرائب التي كانت تلقى على عواتق الاشخاص كالفردة وما أدراك ما الفردة فقد بلغت في زمن الحكومة السابقة ٣٠٠٠٠٠٠ جنيه سنويا فضلا عن عوائد المصالح التي كان يدفع فيها الشخص تسعة قروش صاغا وغيره الآن كما رون ثم هي لم تكن توزع بوجه يقبله العقل ومثل عوائد الارز والقبانة والطوائف وعقد الملابس وعوائد الاعتاب وعوائد النخيل وما كان يضرب على الاطيان التي تزرع نخيلا زيادة على الضريبة الاصلية وكيف كانت بدلية العسكرية ورسوم المشيخة التي زعموا انها وضعت بناء على التماس مشايخ وعمد بلاد الوجه البحري فصدر وقتئذ أمر عال يقضي بتحرير تقارير العمد والمشايخ على ورق تمغة وان يكون رسم هذه الوظائف من ٢٥ الى ١٥٠ جنيها وكلكم خبير بأن مثل هذه المبالغ كان يوزع على الاطيان

Digitized by Google

ومن الاصلاحات المقرونة بالشكران صدر أمر خديوى بتسوية الديون المطلوبة من الاهالى

فيؤخذ اختلاساً وظلماً من الفلاح المنكود الحظ . هذا كله كان مع اختلال الادارات وإعوجاج سير المصالح وارتكاب العمال ولا أطيل الشرح فى هذا فلست ببعيد من أمره فضلاً عن اختلال الاحكام فى القضايا بين الناس فتذهب الاموال والانفس فريسة الاغراض والمطامع بل ان رجال المظاهر لم يكونوا آمنين على أنفسهم فيبيتون وقلوبهم راجفة . تعلمون انى فى تلك المدة تقلدت وظائف سامية وتقلبت فى مأموريات مهمة وفى أثنا ثها مضت على مدة لاتقل عن ستة أشهر لا أخرج الى باب دارى فيها ولا يصل الى أحد ولو كان أقرب الناس لى * ماسبب ذلك * سكوت * وعلى ذلك الحال كانت معاملة أمثالى بل أشد من ذلك كان . كان مجلس النواب وقتئذ آلة صماء يتخذ لتنفيذ المظالم والتوقيع على السيئات لا يستدعى الا عندما تكون فكرة أبرزتها المطامع ويفض حيث ينتهى الامر فاين تلك الحال مما أنتم عليه الآن توضع بين يديكم المشروعات فتبحثون فيها بغاية الحرية غير محابين ثم لكم من الاعتبار والاحترام بين هيئة الحكومة ما أنتم جديرون به فلذلك أكرر وأقول اننا منذ تولى جناب خديوينا المعظم حق لنا أن نقول (خرجنا من الظلمات الى النور) ولما سعدت البلاد بتولية مولانا الخديو الحالى واطمأنت القلوب أخذنا ننظر فى ازالة تلك المظالم شيأ فشيأ وكان من ذلك اننا أزلنا رسوم المشيخة التى كانت من أفظع السيآت ونظمت طريقة مشيخة البلاد التى كانت تتخذ وقتئذ حبائل لنهب أموال الاهالى ووسيلة الى خراب ديارهم وسعينا فى تخليص المالية من مخالب الارتباك ومعلوم ان انتظام المالية روح الحكومات وأس عمران الهيئات الاجتماعية وحقنت الدماء بعد ان كانت مهدرة وسمعت شكوى المظلوم ونظمت طريقة التقاسيط بعد ان كان الفلاح يدفع وما حسابه الا يوم الحساب وتجاوزت الحكومة فى سنتى ٧٩ و ٨٠ عن كثير من المتأخرات شفقة ومرحمة بالاهالى وكيف ان الحكومة السابقة رجعت عما تنازلت عنه بسبب اصابة الاراضى بالشرق بعد سنتين زعما منها انه ظهر لها عدم استحقاق أولئك المساكين للشفقة التى كانت عاملتهم بها فى الوهم ولا أطيل الحديث فى هذا الموضوع فانتم به أدرى وبالجملة فقد تركت الوزارة فى المدة الاولى وعندنا مبلغ احتياطى ١٠١٣٠٠٠ جنيه فتبين لكم ان تولية مولانا محمد توفيق باشا جاءت رحمة من الله تعالى أنقذتنا بها العزة الالهية فنحن نشكره على ذلك فقد قال الله تعالى ولئن شكرتم لازيدنكم . ومن باب التحدث بنعمة الله أذكر لحضراتكم ما وصلت اليه أحوالنا الاخيرة من التحسين ولا حرج على فى ذلك فقد قال الله تعالى وأما بنعمة ربك فحدث . كثيراً ما كنت أسمع من بعض أعيان البلاد فى المدة التى لم أكن أباشر فيها أشغال الحكومة المصرية عبارات الرضا عن وجود السخرة على عاتق الفلاح ذلك لان البلاد ألفتها من قديم الزمن حتى كأن الله ضرب على أهلها الشقاء الدائم ولكن كان يتملكنى الاسف منها اذا تذكرت عيشة هؤلاء فى هذه التعاسة المميتة فلما أن عدت الى الاشتغال بمهام الحكومة أخذت فى الاسباب حتى وفق الله وأزلنا عن البلاد عار هذه الحالة الفظيعة وأقول انها لو كانت فى بلاد غير هذه البلاد لاقاموا لها كل عام تذكاراً جليلاً يكون من أجل الاعياد . وأتذكر انى كنت قد وعدت حضراتكم وقتئذ انه لو صادقت فرنسا على تحويل الدين لامكننا ان نستعمل فائدة هذا التحويل ولا نحتاج الى تحميل الاهالى شيأ من العونة التى قدرت وقتها وقد مكننا الفرص من استعمال مبلغ ثمانين ألف جنيه من فائدة تحويل الدين التى حصل عليها اقرار الدول فى هذا العام من أصل مبلغ المائة وخمسين ألف جنيه الذى فرض ابتداء على الاراضى توصلاً الى الاتفاق على المقاولات العمومية التى نتجت من ازالة السخرة ونظراً لان الحكومة باذلة جهدها فى تخفيف ما على عاتق الفلاح هان عليها ان تقتصد فى نفقاتها وقامت بدفع مبلغ السبعين ألف جنيه مضافة على المبلغ الناتج من التحويل وكان ذلك من ميزانية مصاريفها المخصصة لها ومضت هذه السنة والاهالى خال من دفع شئ فى مقابلة ازالة السخرة فكان بذلك وفاء ما وعدت به حضراتكم ولا زلت واثقاً بأن الحكومة ستتمكن بأى الطرق تكون من اعفاء الاهالى ان تحملهم منها شيأ فى المستقبل . وفضلاً عما تقرر فى أذهانكم فان أعمال السخرة لم تكن قاصرة على وسائط الرى وحفظ الجسور وانشاء القناطر وما أشبه ذلك بل كانت تشمل كل الاعمال العمومية حتى ان الفقير الذى لا يملك قوت يومه يصبح ويمسى ويقضى طول حياته فى الشقاء والذل الى غير ذلك من الاتلاف التى كانت تحيط بالمزروعات والاراضى اذ لا هناك من يحفظها من ان تضيع تحت أرجل المحضرين فن لم يرا الرحمة من غيره لا يرحم غيره . ولم يقتصر الامر على مثل هذه الفوائد بل ان الحكومة سعت أيضاً فى ازالة

للحكومة وغالبها متأخر من أموال الاطيان (١٨٩١) وتنازلت الحكومة لعديمي الاقتدار عن مبالغ

كثيرة من الضرائب المتفرقة ففي أول سنة ٩٠ تجاوزت عن مبلغ ١٢٦٠٠٠ جنيه صدر بها أمر عال وضعت فيه البيانات الكافية عن متفرقات ضرائب كانت ولا شك على الاهالي ولا بد انكم اطلعتم عليها منشورة في الجرائد الرسمية وغيرها . أسلفت لحضراتكم ان الحكومة المصرية السابقة كانت ماهرة في اختراع الاساليب الجالبة للاموال وذكرت لكم أمر الفردة ورسم عادار بأفكاركم انها باقية عندما تسمعون ذكر البطاطا (أي عوائد الرخص) فأريد الآن ان أبين لكم الفرق بين الحالتين كانت الفردة (أي الويركو) لغاية سنة ٨٩ مبلغ ١٥٠٠٠٠ جنيه سنوية جزية على أهالي القطر فادخلت سنة ٩٠ الاوفد أزيل منها بأمر خديوي مبلغ ٧٠ ألف جنيه وبقي منها عليهم ثمانون ألفا وبتنفيذ الامر العالي بخصوص البطاطا أمكننا ان نخفض هذا الباقي الى أربعين ألف جنيه فكانت النتيجة انه من ابتداء هذا العام الى الآن أصبح مبلغ المائة وخمسين ألف جنيه أربعين ألفا فقط . وكان عدد الممولين قبلا ثلثمائة ألف نفر فأصبح عددهم الآن ٦٠٠٠٠ فقط بل ان مدينة القاهرة كانت تدفع وحدها سنويا مبلغ ٣٢٠٠٠ جنيه وقد صار المقرر عليها عشرة آلاف فقط . هذا ما تقرر لديكم وعلمه الخاص والعام فلا سبيل الى انكار شئ منه ومن الذي تقرر الغاؤه في هذه الاثناء أمر عوائد الاغنام والشعاري وأصناف أخرى يبلغ ما يؤخذ عليها الآن ستين ألف جنيه فمن يتصور كنه هذا التحسين رعا أسرع الى فكره ان هذه المشروعات قد مست جانب المالية المصرية ولكن مع كل هذا أقول لحضراتكم ان المبلغ الاحتياطي الذي في صندوق الدين يشتغل بفائدة متجددة مستمرة لما ان تناوصل الآن الى تسعمائة ألف وستة آلاف جنيه ولدى الحكومة مبلغ احتياطي أيضا قدره ١٢٨ ألف جنيه . وقد توليت زمام الوزارة وعلى الاهالي كثير من المتأخرات من الاموال والعشور ولم يكن ثم سبيل الى الزام الحكومة على ترك شئ منها ولا تأخير طلبها وبالفعل كان صاحب الارض يطالب بما عليه في عامه وبالمتأخر عليه وربما كان تراكم هذه المتأخرات لديه وسيلة الى فقره ويؤل الامر الى عجزه عن القيام بالمطاليب وتكون العاقبة تجريده من العقار والدار فرأينا من الاصلاح أن نوقف أولا سير التحصيل ثم نعين لتحقيق هذه المتأخرات والبحث عن أسبابها رجالا ممن تولوا وظائف سامية ولهم الخبرة التامة بالاعمال والاحوال وبعد اجراء هذه الوسائل عدلت طريقة تحصيل هذه المتأخرات بعد أن تجاوزت الحكومة عن مبلغ ١٦١٠٠٠ جنيه . هذا ولم تقتر همة الحكومة في أثناء ذلك عن اجراء اصلاحات كثيرة تعد من الامور الجوهرية في وسائل ترقية الامم فقد نزلت أجرة البوستة والتلغرافات ووسعت نطاق السكك الحديدية وأنشأت من أعمال الري ما ضمنت به مستقبل الاراضي وهي تبحث الآن عن ابراز كثير من المنافع العمومية العائدة على البلاد بالرغد والسعادة وان شاء الله يكون ما في نيتها من الاصلاحات في زمن قريب دون أن تحمل الاهالي شيأ من نفقاتها . هذا الى ما أبشركم بما عزمت الحكومة عليه في أمر ضريبة بدلية العسكرية فان النية منصرفة الآن الى محوها بالكلية عن عاتق الاهالي حتى لا نسام شبان البلاد بما يشبه البيع والشراء فمن تصيبه القرعة العسكرية يشرف بخدمة الوطن ومن لا تصيبه عاش بين يدي والديه قرير العين (نقول وما دام اسم بدلية العسكرية موجودا فالناس بعيد من أن تعتقد ان في الخدمة شرفا وفخارا) وان لم تكن اليوم كحالتها في السابق . أيها السادة أصبحت الآن ألتفت يمنا وشمالا منذهشا متعجبا كأني في حلم لا أعلم اذا تخصصت في خاطري ما وصلت اليه أحوال النامن السعادة منذ تولى خديوينا الحالي فلا عجب اذا كررت هذه الكلمة بينكم مرارا (أنا أخرجنا من الظلمات الى النور) ليس ببعيد عليكم ما كنتم تشاهدون من حالة الفلاح وهو يرسف في قيود الديون ويجر في ذيول الاعسار والفاقة والذل من كثرة الضرائب وهو الآن طيب الخاطر منعم البال لا يخشى مزعجات تلك المظالم ولا يخاف غائلة الحاكم . وكان المار بطريق البنك العقاري والمحكمة المختلطة يرى الالوف ملقاة في جوانبهما مكبة الرؤس عليها سمات الخسف والذل فيفارقهما الرجل يوم يجرد من أملاكه ويصبح لا يملك نقيرا ولا قطميرا فأناشدكم الله ماذا تشاهدون اليوم من حالتهم أليس قد أصبح البنك ولا هنا لثمن يقصده من الاهالي الا لابتياع أرض وشراء دار أما تبدلت حالة أولئك الذين كانوا لا يقصدون المحكمة المختلطة الا لبيع أراضيهم وعقاراتهم وصاروا يقصدونها اليوم لتسجيل ما يشترون بأضعاف ما كانوا يبيعون منذ أعوام قليلة اما كلكم تشهدون بأن أثمان الاراضي قد ضوعفت المثل والمثلين في زمن يسير (نعم نعم) لا شك ان اعترافكم واعتراف الجميع الآن بما وصلنا اليه مما يبعث بنا الاجزال شكر المنعم وولي النعم . أصبح كل فرد من المصريين حرا في أعماله لا يتعدى الكبير على الصغير ولا يستهين العظيم

Digitized by Google

وافرة فابتهجت الاهالى سرورا وتحسنت حالة الفلاح ونفض عنه غبار الاعسار وفى السنة المذكورة أيضا طلبت الدولة العثمانية من الحضرة الخديوية تحويل صرف بعض من مبلغ الخراج الذى تدفعه مصر الى الدولة سنويا الى بنك روتشلد (Rotschild) فقبل الخديو وأصدر أمرا فى ٣٠ مارس سنة ١٨٩١ بقبول مصر ذلك وانها التزمت على الدفع لمدة ستين سنة تبتدئ من ١٠ ابريل من السنة المذكورة وقد أدرجنا الامر المذكور بأسفل الصحيفة لاهميته (١) وكانت الحكومة شكلت لجنة للنظر فى المكاييل والموازين والمقاييس وكلفتها وضع طريقة يجرى العمل عليها لتعدد المستعمل منها بمصر ودخول الغش والغبن عليه فاختارت لذلك الطريقة الاعشارية المترية لضبطها وسهولتها وصدر بها الامر العالى (١٠ ابريل سنة ١٨٩١) ومن وقتئذ اتبعت مصالح الحكومة الطريقة المترية الاعشارية فى حساباتها

ولما ظهر بالمحاكم الاهلية ما يدعو الى اصلاحها وادخال بعض النظامات فيها طلبت انجلتره

حقيرا ولا الامير فقيرا وبدلت تلك الاحكام الاستبدادية بالعدالة واعتبار الحق والواجب فى كل شئ ولكن أقول بلا محاباة ولا مداهنة ان مرجع كل هذه الاصلاحات التى أصبحنا نفتخر بها عائدة الى ملاذ الجناب الافخم خديوينا المعظم فهو والحق أقول أعظم الناس شفقة على الاهالى وأحلمهم مرحمة وأسبقهم الى اغداق الخير على البلاد بعز عليه ان يرى جزئية من الجزئيات لا تنطبق على أمياله الشريفة فلندع لسموه بطول البقاء ودوام الاقبال (دعاء وتهليل وفرح وتأمين) اه

(١) نحن خديو مصر – بناء على ما صدر من الباب العالى من ابرام عقد فى ٥ مارس ١٨٩١ بين حكومة صاحب الجلالة الجناب السلطانى الشاهانى وبين الخواجات ن . م روتشيلد وأولاده بلوندره والخواجات روتشيلد اخوان بباريس والبنك العثمانى السلطانى بخصوص قرض عنوانه القرض العثمانى بفائدة ٤ فى المائة على ويركو مصر وبخصوص القيام بتسديد السندات التى مازالت متداولة من سندات قرض الدفانس العثمانى المعقود فى عام ١٨٧٧ واتباعا للامر السلطانى الصادر فى ٢٥ وجب سنة ١٣٠٨ نعلن بهذا اننا نتعهد للخواجات روتشيلد وأولاده الذين عينوا الثانى الامر السلطانى المشار اليه بأن ندفع لهم فى لوندره من تاريخ ١٠ ابريل سنة ١٨٩١ مبلغ ٢٨٠٦٢٢ جنيها انجليزيا و ١٨ شلنا و ٤ بنسات وبذلك يكون هذا المبلغ خالصا مما هو مخصوص له الآن بواسطة تسديد سندات الدفانس كما يتضح ذلك من العقد المشار اليه آنفا

وبناء على ذلك تدفع الحكومة المصرية سنويا فى مدة ستين سنة تبتدئ من ١٠ ابريل أعنى لغاية استهلاك القرض الجديد الذى بفائدة ٤ فى المائة المذكور الى الخواجات ن . م روتشيلد وأولاده فى لوندره مبلغا لا يجوز تخفيضه وقدره ٢٨٠٦٢٢ جنيها انكليزيا و ١٨ شلنا و ٤ بنسات ويخصم هذا المبلغ من ويركو مصر الواجب علينا وعلى خلفائنا فى الحال والاستقبال دفعه الى الحكومة الشاهانية العثمانية

ويدفع هذا المبلغ ذهبا فى المواعيد المحددة فى الجدول الآتى ويكون الدفع الاول فى ١٠ يونيه سنة ١٨٩١

صدر بعصر القاهرة فى ٣٠ مارس ١٨٩١ (١٠ شعبان سنة ١٣٠٨) الامضا

محمد توفيق

بيان الدفعات

		بنس	شلن	جنيه انكليزى
١٠ يونيه	من كل سنة	٠٠	٠٠	١٠٠٠٠
٣١ يونيه	«	٠٠	٠٠	٩٥٠٠٠
١٠ سبتمبر	«	٠٠	٠٠	٢٠٠٠٠
٢٥ سبتمبر	«	٠٢	٠٩	١٥٣١١
٣١ ينار	«	٠٠	٠٠	١١٦٠٠٠
١٠ مارس	«	٢	٩	٢٤٣١١

تعيين

Digitized by Google

تعيين مراقب يسعى فى اصلاح المعوج من أمرها وقد وافق المرحوم توفيق باشا على هذا الطلب وعارض النظار كثيرا ولكنهم قبلوا أخيرا واشترط رياض باشا أن يكون تعيينه لسنة واحدة فقط بأمل استخدام معارفه فى اصلاح المحاكم وتعين لذلك المستر جون سكوت (John Scott's) وهو من أرباب الاطلاع الواسع وذوى الخبرة وقد شرع المستشار فى زيارة المحاكم وتفقد أحوالها والبحث فيما تحتاجه من النظام وكان من أول أعماله ان أشار بتعيين فاضلين أجنبيين انجليزيين فى محكمة الاستئناف الاهلى ووضع تقريرا عن حالة المحاكم جاء فيه وجوب استقلال القضاء واقامة مراقبين على نظام المحاكم وسير القضاة ولما قدمه الى الوزارة نشأ عنه اختلاف سيما لانه لم يحدد فيه المراقبة ولا اختصاصات المراقبين فرفضه رياض باشا وكتب فخرى باشا ناظر الحقانية تقريرا آخر بين فيه رأيه فى سير المحاكم والاصلاحات الواجب ادخالها عليها فظهر بذلك الخلاف فى الرأيين ثم صدر قرار من مجلس النظار فى ٢٢ يناير سنة ١٨٩١ بعقد لجنة لدرس التقريرين واعطاء الرأى فيهما وقد اختلف أعضاء اللجنة المذكورة فى الرأى لان البعض منهم أقر على عدم صلاحية التفتيش الموجب عزل قضاة الاستئناف كما ورد بتقرير المستشار القضائى ولان ذلك يقلل من استقلالهم ويؤثر على أفكارهم فى الاحكام فى حين ان القضاء يوجب الاستقلال فى الذمة والرأى ورأى البعض الآخر الفوائد فى المراقبة القضائية بشرط أن لا تؤثر على استقلال القضاة وقالوا اذا كان لا بد من المراقبة فالاحسن تشكيل لجنة دائمية يكون لها حق المراقبة والاهتمام بشؤون المحاكم الجزئية والابتدائية وتقييد باختصاصات يكون من جلتها عزل قضاة المحاكم الابتدائية وترقيتهم عند الاقتضاء وقد كان هذا الاختلاف فى الرأى مما شجع قنصل انجلترة العام على أن يطلب من المرحوم توفيق باشا عند عودته من سياحته الصعيدية تعيين السير سكوت مستشارا لنظارة الحقانية كما سبق فتوقف رياض باشا وعزم على الاستعفاء لولا أن أمره الخديو بالبقاء ثم تقرر فى جلسة النظار التى عقدت فى يوم ١٤ فبراير تحت رياسة الجناب الخديوى تعيين السير المذكور مستشارا (١٥ فبراير سنة ١٨٩١ — ٦ رجب ١٣٠٨) ولما كان هذا التعيين مخالفا لما رآه فخرى باشا فى تقريره قدم استعفاءه بعد أيام وتعين بدله ابراهيم بك فؤاد ورقى الى رتبة الميرميران أما رياض باشا فانه قدم استعفاءه أيضا رغما عن الحاح الكثيرين عليه بالبقاء وقال فى صحيفة استقالته انه لاعتلال صحته أصبح لا يستطيع القيام بمهام المأمورية المهمة التى هو مكلف بها فقبل الخديو استعفاءه وكلف مصطفى فهمى باشا بتشكيل وزارة جديدة (٢٤ مايو ١٨٩١) فقبل وصار أيضا ناظر الداخلية وعبد الرحمن رشدى باشا للمالية ومحمد زكى باشا للاشغال والمعارف وحسين فخرى باشا للحقانية ويوسف شهدى باشا للحربية والبحرية وتغران باشا للخارجية وعين محمد شريف باشا وكيلا للخارجية وأحمد شكرى باشا وكيلا للداخلية وصار السير كتشنر باشا مفتشا لعموم البوليس مكان شارلس بيكر باشا الذى أحيل على المعاش (ابريل سنة ١٨٩١) مع بقائه بوظيفة ادجوتانت جنرال للجيش المصرى فترقى البوليس فى زمنه وتحصل رجاله على عدة امتيازات عسكرية ثم التفتت الحكومة بارشاد المحتلين الى مصلحة بيع الملح فجعلت له وللنطرون المستخرج من وادى النطرون مصلحة خاصة تحت نظر المستر هوكر (Hocker) (١) (١٩ يوليو سنة ١٨٩١) فقلب

(١) وجهت الحكومة المصرية عنايتها الى مملاحات القطر المصرى من قديم الزمان خصوصا زمن المرحوم الخديو

نظامها القديم وسن لها قانونا جديدا فرخصت قيمة الملح وامتنع الاهالى لذلك عن تحمل مشقة تهريبه تقريبا فانسر الاهالى من ذلك وازداد ايراده للحكومة وشيد أيضا لاستخراج النطرون معامل جديدة ثم تنازلت الحكومة فيما بعد عن حق استخراجه الى شركة أجنبية (١٨٩٧ م) ومن الاصلاحات التى تمت فى عهد المرحوم توفيق باشا أيضا انشاء فرع حديدى بين الفيوم وسنورس والغاء رسوم الرخص التى كانت تؤخذ من الاطباء والصيدلية والقوابل وتخفيض أجرة المراسلات داخل مدينة القاهرة وغيرها من المدن العظيمة ولما انعقدت الجمعية العمومية افتتحها الخديو بنفسه وألقى على اعضائها خطابه كالعادة وبشرهم باقرار حكومته على الغاء كسور الضرائب واعفاء كافة الاماكن التى لا تزيد قيمة ايجارها السنوى عن خمسمائة قرش من عوائد الاملاك وكان فى ذلك رحمة كبيرة للفقراء وبالجملة فان كل هذه الاصلاحات التى كانت اقصى أمانى الخديو توفيق باشا قد تمت فى عهده وارتقت بها البلاد ارتقاء عظيما

المعارف فى عهد الخديو توفيق باشا ـ لما كان المرحوم توفيق باشا تربى تربية علمية جيدة كان شديد العناية بترقية المعارف بمصر فكثيرا ما ساعد بنفسه على انتشارها وكثيرا ما حض الوزراء والافراد على ذلك ومهد السبل لترقية شأن أبناء البلاد حتى انه قبل ان يتولى الخديوية كان انشأ بجوار قصره بالقبة مدرسة عظيمة يصرف عليها من أمواله وقد تخرج منها عدة من الشبان وبعد أن كان عدد المدارس الاميرية فى أول عهده ٣٣ مدرسة أمر على باشا ابراهيم وكان ناظرا للمعارف بفتح مدارس جديدة أخرى وبينما كان يهتم فى ذلك ظهرت الحوادث العرابية فحالت دون تنفيذ تلك المقاصد الحسنة ومرت أيام نظارة محمد زكى باشا (١٤ سبتمبر ١٨٨١ الى ٢ فبراير ١٨٨٢ م) وعبد الله باشا فكرى (١٠ فبراير ١٨٨٢ الى ٢٦ مايو ١٨٨٢) وسليمان باشا أباظه (٢٠ يونيه ١٨٨٢ الى ٢٧ اغسطس ١٨٨٢) وأحمد خيرى باشا (٢٨ أغسطس ١٨٨٢ الى ٢٢ مايو سنة ١٨٨٣) ومحمد قدرى باشا (٢٤

الاسبق اسمعيل باشا فان العناية بها كانت كثيرة وقد ورد فى كتاب الكوكب الدرى فى الاستقراء المصرى المتضمن نتيجة الاحصاآت التى أجرتها نظارة الداخلية بتاريخ ٤ ربيع أول سنة ١٢٩٠ (أول مايو ١٨٧٣) ان الملاحات الشهيرة اثنتا عشر ملاحة وهى ملاحات دمياط ورشيد وعزبة الحاجة بفارسكور والبلامى بالمنزلة والبرلس بالغربية وبرنسا واسكندرية وهوارة وبورسعيد والاسماعيلية والسويس وكان يستخرج منها سنويا ٧٢٣١١ إردبا وكان عدد المواشى التى استخدمت لنقل الملح عليها ١٣٦٨ رأسا والفعلة المستعملون فى استخراجه ٦٨٥ نفرا هذا خلاف الملح الذى كانت تستخرجه الحكومة من ملاحتى زاوية ودارة قريبا من سواكن فقد بلغ المستخرج منه نحو ٣٠ مليون قنطار وكان يتصدر منه الى جدة وعدن والهند أربعة ملايين قنطار قيمتها نحو مليون من الفرنكات هذا وكان مبيع الملح فى الديار المصرية على الاهالى جاريا بصورة غير مرضية الى أن اعتنت الحكومة فى عهد الخديو توفيق باشا بأمره وجعلت له ادارة مخصوصة كما تقدم وقال المرحوم على مبارك باشا مذ كان ناظرا للاشغال العمومية فى تقريره عن سنتى ١٨٨١ و١٨٨٢ لما كان تقدم هذه المصلحة المهمة متوقفا على اتمام المشروعات التى حصل التصميم عليها فى سنة ١٨٨٠ قد بذلت الحكومة طرفا من العناية فى اتمامها فأنشأت فى سنة ١٨٨١ اثنتين وثلاثين شونة بالاقاليم لصيانة الملح وحفظه وأصلحت بعض أشوان قديمة وأعدمت جملة ملاحات صغيرة لا فائدة منها وازداد عدد الخفراء فبلغ ٤٢٦ نفرا بعد أن كان ٣٤٧ نفرا فى سنة ١٨٨٠ اه واعتنى بأمره أيضا رياض باشا فى وزارته (١٨٨٨ — ١٨٩١) اعتناء زائدا

مايو

مايو ١٨٨٣ الى ٧ يناير ١٨٨٤) ومحمود حمدى باشا الفلكى (٢٩ يناير سنة ١٨٨٤ الى ١٩ يوليو سنة ١٨٨٥) وهى على حالتها القديمة ولما تعين عبد الرحمن رشدى باشا ناظرا للاشغال والمعارف (٢٠ يوليو ١٨٨٥) التفت اليها بمساعدة وكيله يعقوب ارتين باشا وقال فى تقريره الذى قدمه عن حالة المدارس اذ ذاك ما ملخصه أن المدارس التى مضى على النظام الذى كانت عليه الى ماقبل هذا العام نحو العشرين سنة مع كونها أنتجت ولا تزال تأتى للبلاد بفوائد لا تنكر ومزايا تذكر فتشكر يظهران قد الم بها منذ عهد ليس ببعيد ما أوقفها عن السير فى طريق التقدم حتى أخذ بعض الناس يسلقها بالسنة حداد وجعلها عرضة للطعن والانتقاد ورشقها بسهام اللوم الشديد وفوق اليها أسنة القدح والتنديد ولما فوضت ادارتها الى عهدتنا رأينا من الوجوب علينا ان نبحث عن العلل التى بعثت على انحطاطها فى أعين بعض الناس فظهر لنا بعد البحث الدقيق أن بها جملة أمور قابلة للطعن فأخذنا على أنفسنا أن نزيل تلك الاختلالات ونقوم هذه الاعوجاجات اه وذكر اللورد دوفرين فى تقريره الذى رفعه الى لورد غرانفيل عقب الاحتلال فصلا عن المعارف قال فيه انه من الغنى عن البيان ان كلا من مساعينا لمنح مصر ادارة حسنة تحيط مالم ننظر نظرا دقيقا فى كل فروع المسائل التى تتألف منها تلك الادارة وتخصص كلا منها عما يلائمه فليس للمصريين حق فى التشكى من وجود عدد وافر من الاوروبيين فى الادارات اذ كان من المستحيل فى الوقت الحاضر وجود وطنيين نائلين كل الصفات المرغوبة والتهذيب المطلوب للقيام بالمصالح المسلم زمامها للاجانب لضرورة الحال فان كان يرغب التخلص من هذا التشكى الشرعى فلا وسيلة لذلك الا بان تأخذ الحكومة المصرية بعزم ثابت وطوية سليمة أمر تهذيب الجيل الجديد اه ثم ذكر المدارس الموجودة يومئذ فى القطر المصرى وهى المذكورة بأسفل الصحيفة (١) ثم قال اذا أمعنا فى هذه البناية المتسعة الجامعة مشتملات التهذيب والمتوجة بالجامع الازهر

---

(١) (أولا) الجامع الازهر وهو مدرسة جامعة يدرس بها علم الكلام والفقه والنحو والمنطق وآداب اللغة العربية وبه من الطلبة نحو ثمانية آلاف طالب على ثلثمائة أستاذ (ثانيا) المدارس التى أنشأها مرسلو الاجانب وتحلهم ويبلغ عددها ١٥٢ مدرسة تحوى ١٢٤٤٧ طالبا منهم ٦٤١٩ أو ٥٢ بالمائة من المصريين وخزينة الحكومة تدفع معينات سنوية لبعض هذه المدارس (ثالثا) (مدارس الحكومة وتنقسم على الوجه الآتى). (١) مدارس بسيطة ابتدائية منشيدة فى مدن وقرى القطر المصرى ويبلغ عددها ٥٣٧٠ وتحوى ١٣٧٥٥٣ طالبا أو جزأ من ٤٠ من عدد سكان القطر ويعلم فيها قراءة وحفظ القرآن الشريف غيبا ويزاد فى بعضها تعليم الخط والحساب (٢) مدارس أولية عالية ويوجد منها ٢٧ تحوى ٤٦٦٤ طالبا فاحداها فى العاصمة ونفقتها داخلة فى ميزانية نظارة المعارف وتحوى ٦٤٨ طالبا وهى مثال للمدارس الموجودة والمنوى انشاؤها فى مراكز المديريات والقرى الكبيرة ومدى التعليم بها أربع سنوات فى خلالها يتقوى الطالب فى قراءة القرآن الشريف وكتابة اللغة العربية وعلم الحساب وفى غضون السنة الاخيرة منها تعطى له مبادئ التاريخ والجغرافية ومبادئ لغة أجنبية (انكليزية أو فرنساوية أو المانية) حسب رغبة الطالب والخط الاوروبى ويترقى الطالب من هذه المدارس الى المدرسة التجهيزية فى القاهرة ومن هذه يتدرج الى المدارس العليا ونفقة المدارس الاولية قائمة من ايراد بعض الاطيان فى الوادى وهى التى وهبها حضرة الخديو الاسبق اسمعيل باشا لهذه الغاية وتؤدى من وزارة الاوقاف والاحسانات الخصوصية (٣) المدارس التجهيزية فى مصر تحوى ٢٩٢ طالبا يتدرج منها الى المدارس العليا ومدى التعليم بها أربع سنوات فى خلالها يتعلم الطالب لغة أجنبية والعربية والرياضيات والطبيعيات والكيمياء والتاريخ الطبيعى والتاريخ العام والجغرافيا والخط العربى والافرنجى والتصوير وفى ست مدارس أولية

Digitized by Google

المنتشر صيته فى آفاق الارض خيل لنا ان المصريين هم الشعب الاكثر تهذيبا على سطح الكرة
ولكن من نكد الطالع نرى الحال بالعكس فالولد المصرى يبلغ الحلم صغيرا وله قابلية خاصة لتعلم
اللغات والرياضيات لكنه متى وصل الى درجة محدودة فى التقدم لا يمشى نمو عقله تمشى نمو جسمه
فى ادراك العلوم العالية وان الزواج الباكر هو أحد العلل الرئيسية التى تقطعه عن اطراد رضاعة
ألبان المعارف وكم من الطلبة تراهم جالسين على مقاعد التعلم وهم حاملون على مناكبهم أحمال
الزواج وان ضعف البصر مانع آخر لنجاحهم وهنالك أيضا علة يجب مداواتها فانهم يستخدمون
فى التعليم قوة الذاكرة الى حد الافراط ويغفلون عن تمرين بقية القوى العقلية وطريقة التعليم فى
الجامع الازهر جافة وغروسها فى العقول عقيمة لا تثمر فائدة ولا نتاجا حين العمل وقلما ينبغ تلميذ من
الصفوف الاولى فى مدارس الحكومة بانتهاء مدة دروسه الى درجة تؤهله للانتقال الى مدرسة
أعلى على انه ينتقل اليها لينوب مناب الخارج منها وعلاء الفراغ فتكون النتيجة انه يباشر دروسا
عالية حالة كونه لم يتم دروسه السابقة ثم قال ان المدرسة التجهيزية هى الوحيدة التى يؤخذ منها
التلامذة للمدارس الصنائع والفنون وهى غير كافية لسد الطلب ولكن يمكن سد هذا الخلل موقتا بأخذ
تلامذة مدرسة الصنائع والفنون من تلامذة مدارس المرسلين الاجانب لانهم أنجح من تلامذة
مدارس الحكومة لكن الوزارة عارضت ذلك حتى الآن بقولها ان تلامذة مدارس الاجانب
لا يتقنون اللغة العربية كما يتقنون باقى الفنون وبما ان مدرسة المهندسخانة ومدرسة المساحة
ومدرسة الصنائع ذات بغية واحدة أعنى اخراج مهندسين وميكانيكيين فلربما أفاد ادماجها فى سلك
واحد تحت ادارة واحدة ومدرسة الحقوق التى يجب ان ينتقى منها القضاة وأرباب المجالس
مشيدة على أسس غير ملائمة لمقتضيات القطر وبما ان المجالس الوطنية والمجالس العدلية من
المسائل الوافرة الاهمية فيجب توسيع هذه المدرسة بزيادة عدد أساتذتها وانتقاء عدد وافر من
تلامذة مدارس الحكومة والاجانب وادخالهم فيها ويجب تنظيم مدرسة الالسن على أساس يوصل
الى نوال العدد الاكبر من المترجمين والمستخدمين الثانويين لمصالح الحكومة فان أكثر المترجمين

ينشأصف ويعلم به علوم المدرسة العليا على مدى سنتين (٤) مدارس الصنائع والفنون وهى (ا) مدرسة الطب
وتحوى ١٧٦ طالبا ويلحق بها مدرسة الصيدليات وطلبتها سبعة ومدرسة القوابل وطالباتها عشرون
(مديرها فرنسوى)(ب) مدرسة سائر الفنون (المهندسخانه) وتحتوى على خمسين طالبا (ت) مدرسة المساحة وتحتوى على
٣٩ طالبا (ث) مدرسة الفنون والصنائع وتحتوى على ٥١ طالبا (مديرها فرنسوى) (ج) مدرسة
الشرع (الحقوق) وتحتوى على ٣٧ طالبا (مديرها فرنسوى) (ح) مدرسة اللغات وتحتوى على ٢٣
طالبا (مديرها فرنسوى) (خ) مدرسة المعلمين وتحتوى نحو ٦٠ طالبا (مديرها فرنسوى) (د) مدرسة
الفعلة وتحتوى على ٧٩ طالبا وهى تحت ادارة مدرسة الفنون والصنائع ويندمج بها تلامذة المدارس الاولية الذين
لم تظهر منهم أهلية للدروس العالية (ذ) مدرسة العميان والخرس وتحتوى على ٧٥ طالبا من الجنسين (ر)
مدرسة البنات وكان لهن سابقا مدرستان احداهما للعائلات الذوات والثانية لعائلات الفقراء لكنهما اندمجتا سوية
وتحوى ٣٠٠ طالبة (ز) المدرسة العسكرية فى القاهرة (مديرها فرنسوى) (س) المدرسة البحرية
فى اسكندرية وزيادة عن ذلك يوجد باوروبا ٤٩ شابا مصريا مرسلين من مدارس الصنائع والفنون لاتمام دروسهم
والحكومة المصرية تنفق على أربعين منهم والتسعة الآخرون ينفقون من طرف أهاليهم وهم موزعون كما يأتى
٤٧ فى فرانسا وواحد فى انكلترة وواحد فى سويسرة ويتعلم ١٤ منهم الطب و١٠ الشريعة و٢ الهندسة و٢
الهندسة الآلية و٨ يتجهزون للدخول فى مدرسة البيطرة و١٣ يتجهزون للدخول فى مدرسة الطب اهـ

الرسميين

الرومبين فى الوقت الحاضر من السوريين الذين برعوا بسبب حسن التعليم الذى تلقوه فى مدارس المرسلين الاميركان والفرنسويين والالمان فى سوريا وقد تقادم عهد الكتب المستعملة فى المدارس العالية وماذلك الا لتأخر ترجمتها ونشرها باللغة العربية ومما يحتاج اليه القطر مدرسة زراعية لانه زراعى صرف فمحصولاته تبلغ سنويا نحو ١٥ مليون جنيه ولاريب ان هذا الايراد ينمو جدا اذا استخدمت الطرق العلمية فى التسميد وتبديل المزروعات وطلبة هذا العلم المنتقون من أصحاب الاطيان فى المديريات يستطيعون تمرين أنفسهم واختبار دروسهم فى الدوائر الزراعية الواسعة كالدائرة السنية والدومين ومن أهم ما تحتاجه مدارس الحكومة مفتشون مهرة فاذا عين هؤلاء تحت رئاسة مفتش عام بارع زالت أكثر عيوب الطريقة المستعملة الآن على انه ولو تعين هؤلاء لما أمكنهم أن يراقبوا كل مدرسة الامرة فى السنة لان المدارس بالقطر تزيد عن ستة آلاف ويكون من واجبات المناظرين ان يلاحظوا تعيين الاساتذة ولا يقبلوا غير البارعين منهم وان يناظروا امتحان التلامذة ولا يدعو تلميذا ينتقل من صف الى أعلى أو من مدرسة الى أرقى منها ما لم يتحققوا انه بلغ غاية الارب ويكون من خصائص المفتش ان يرفع عن عاتق الحكومة نفقات الذين لا يتبين له ان عندهم أهلية لتلقى العلوم العالية ومن شؤن المفتش أيضا أن يزور مدارس الاجانب ليضيف الى علومها علوما أخرى من شأنها ان تؤهل تلامذتها للدخول فى مدارس الحكومة العليا أو فى مدارس الصنائع والفنون فان لم تكن طريقة التفتيش حسنة فكل القوانين والترتيبات مهما كانت هيئتها علمية ودقيقة تعتبر عديمة الجدوى وعانى شاهدت عيانا قصب السبق الذى ناله البلغار والارمن فى مدرسة (روبرتس تريتين كولج) بجوار الاستانة أرانى شديد الغيرة لتحصيل مثل تلك النتائج بادخال سننها فى القطر المصرى واخال ان أمل التقدم ضعيف طالما ان العامة تتعلم اللغة الفصيحة العربية لغة القرآن كما فى الوقت الحاضر حالة كونها لا تتعلم اللغة العربية الدارجة لان نسبة اللغة المصرية الدارجة الى لغة القرآن كنسبة الايطاليانى الى اللاتينى والاغريقى الحديث الى الاغريقى القديم وعربية الفلاح لغة قائمة بنفسها وقواعدها خاصة بها واذا لم تؤخذ هذه الاحتياطات الضرورية للحصول على النتائج الفعلية فى المدارس العديدة التهذيبية التى أشرت اليها فيستمر الجيل الجديد كسابقه غير صالح لخدمة وطنه سواء كان للقيادة فى العسكرية أو فى الصنائع أو فى الخدمات العمومية وتظل عبارة مصر للمصريين كما كانت اسما بلا مسمى اه ببعض تلخيص نقول وعلى ما فى هذه العبارة من الاعتراضات التى لا تخفى على اللبيب سعى كثيرون من أدباء الانجليز فى جعل اللغة العربية الدارجة هى لغة المخاطبات والمكاتبات والمراسلات ومن هؤلاء المستر و بلبام ويلككس المفتش بنظارة الاشغال العمومية وقد وقع قوله فى ذلك عند علماء وأدباء المصريين موقعا غير مقبول واعترضوا عليه اعتراضا شديدا فمن ذلك قولهم ان اهمال اللغة الفصحى اضاعة للدين وعلومه وكذا اضاعة الجنسية التى فى المحافظة عليها عز الامة ومنها ان اللغات الدارجة بمصر مثلا كثيرة فلغة الصعيد الدارجة غير لغة البحيرة وهما غير لهجة كثير من أقاليم مصر واذا لا يعرف أى لغة يجب السير عليها وغير ذلك من الاعتراضات الحقة المسلم بها ثم لما وجهت نظارة المعارف الى على مبارك باشا (١١ يونيه سنة ١٨٨٨) وجه عنايته المشهورة لزيادة تحسينها ومهد سبل انتشار المعارف

بالمدارس الاميرية التي فتحت في زمن نظارته وعددها ٥٢ مدرسة مختلفة بانحاء القطر (١) ولما شعر الناس بالحاجة الى التعليم لان الجهل مرتعه وخيم فهو الذي جر على هذه البلاد الاحن وابتلاها بصنوف المحن التمس الناس بجميع جهات القطر بطلبات قدموها ومحاضر حرروها فتح المدارس ببلادهم وتعهد الكثيرون منهم بالقيام بمصاريف تلك المدارس ولما رأت الحكومة ذلك قررت انشاء خمسمائة مدرسة جديدة تفتح تدريجيا كل سنة حتى قال يعقوب ارتين باشا عن تلك النهضة العلمية في كتابه المسمى القول التام في التعليم العام ومن الامور الجديرة بالذكر هو أن الاهالي لاشتغالهم بمستقبل بنيهم وتعليمهم التعليم الصحيح وتعويدهم على التربية الحقة تراهم لا يالون بالنفقات فيدخلون أولادهم مدرسة المبتديان بالناصرية والقسم الابتدائي من المدرسة التوفيقية والحال أن المصروفات المدرسية فيهما أزيد بكثير منها في غيرهما من المدارس الابتدائية وذلك لظنهم أن التعليم والتربية فيهما ينبغي أن يكونا أحسن منه في غيرهما بما أن المصاريف المدرسية فيهما أزيد بكثير من غيرهما اﻫ وفي ١٩ ديسمبر من سنة ١٨٨٨ صدر أمر عال بتشكيل لجنة استشارية بنظارة المعارف تؤلف من أهل العلم والفضل للنظر في مشروعات القوانين واللوائح المختصة بالتعليم وغيره مما من شأنه تحسين حالة المدارس وتسهيل طرق التعليم وقد أقرت هذه اللجنة على عدة اصلاحات لو روعي العدل في إنفاذها لاتت بفائدة عظيمة وعلى ذلك كنا لا نرى للامة طريقة أحسن واسلم من الاهتمام بأمر التعليم بنفسها بواسطة جمعيات تؤلف لذلك يساعدها أهل اليسار من البلاد ولا يصح الاعتماد على الحكومة في كل أمر فلا يحك جلدك مثل ظفرك ولما كان بعض مدارس الحكومة تابعا لمصلحة الاوقاف اتفقت مع نظارة المعارف في سنة ١٨٨٩ على ان تدير هي تلك المدارس نظير مبلغ قدره ٤١٠٠ جنيه مصري تدفعه الاوقاف للمعارف سنويا وبذلك انتظمت مدارس الاوقاف وقررت الحكومة أيضا الغاء ادارة الارسالية المصرية باوروبا وتقرر ان تعطى نفقة لا تزيد عن ٢٥٠٠ فرنك سنويا للطلبة المرسلين من قبلها المجاورة بالمدارس العالية و ٢٠٠٠ فرنك سنويا لكل تلميذ يتلقى باوروبا الدراسة التجهيزية وتقرر ان لا يرسل في المستقبل الى أوروبا على نفقة الحكومة الا تلامذة يختلف عمرهم بين عشر سنوات و ١٢ سنة ليكون لديهم الزمن الكافي لاتمام دروسهم هناك ومضار هذا القرار عديدة منها ان التلميذ المصري متى التحق بمدارس أوروبا

(١) المدرسة الحربية الجديدة تأسست في سنة ١٨٧٩ وسيأتي الكلام عليها ومدرسة المنصورة تأسست في سنة ١٨٨١ مدرسة قليوب تأسست في سنة ١٨٨١ مدرسة الجيزة تأسست سنة ١٨٨٣ مدرسة طوخ تأسست في سنة ١٨٨٣ المدرسة التوفيقية بشبرا تأسست سنة ١٨٨٠ مدرسة دمياط تأسست في سنة ١٨٨٨ مدرسة السويس تأسست سنة ١٨٨٨ مدرسة سوهاج تأسست في سنة ١٨٩٠ مدرسة بورسعيد تأسست سنة ١٨٩٠ المدرسة المحمدية تأسست سنة ١٨٩١ مدرسة عباس ببولاق تأسست في سنة ١٨٩١ مدرسة محمد علي في السيدة زينب تأسست في سنة ١٨٩١ مدرسة الزراعة في الجيزة تأسست في سنة ١٨٩١ مدرسة السنبلاوين تأسست سنة ١٨٩١ مدرسة قنا تأسست في سنة ١٨٩٠ مدرسة اسنا تأسست في سنة ١٨٩٠ مدرسة ادفو تأسست في سنة ١٨٩١ مدرسة الابراهيمية تأسست سنة ١٨٩١ مدرسة بلبيس في سنة ١٨٩١ مدرسة أسوان تأسست في سنة ١٨٨٩ مدرسة الفيوم سنة ١٨٨٨ مدرسة دمنهور تأسست سنة ١٨٨٣ مدرسة شبين الكوم تأسست سنة ١٨٨٣ مدرسة الزقازيق تأسست سنة ١٨٨٣ اﻫ من كتاب الاحصاء لحضرة الفاضل أمين بك سامي

Digitized by Google

وهو بهذا السن قبل ان يتمكن من دراسة لغته الاصلية جيدا وقبل ان يعرف شيأ من عوائد واخلاق ودين وطنه ينقلب أجنبيا متى عاد فيكون ضرره فى الغالب أكثر من نفعه وغير ذلك من الاضرار التى لا تخفى على البصير ومن أراد زيادة ايضاح فيما تم بنظارة المعارف اذ ذاك فعليه بكتاب يعقوب أرتين باشا على التعليم العام بمصر المطبوع بباريس سنة ١٨٨٩ وكتابه على المعارف العمومية بمصر طبع باريس سنة ١٨٩٢ وكتابه القول التام فى التعليم العام المطبوع بمصر وتقارير المعارف السنوية والتقارير التى يرفعها جناب لورد كرومر وكيل دولة بريطانيه السياسى بمصر الى دولته سنويا ولما تولى محمد زكى باشا نظارة المعارف (١٤ مايو سنة ١٨٩١) وضع للمدارس قانونا داخليا عاما يشمل واجبات نظار المدارس والمدرسين والضباط والتلامذة والعقوبات التأديبية وقبول التلامذة بالمدارس وغير ذلك وقد تحور هذا القانون مرارا وما زالت المعارف آخذة فى الترقى والتحسين بهمة القابضين على زمامها

البحرية فى عهد الخديو محمد توفيق باشا — سبق الكلام فى مقدمة هذا الكتاب على أحوال البحرية فى الوقت المذكور ولكن نزلت بها بعد ذلك نوازل أتت على وجودها فأردنا ذكرها هنا وذكر الاسباب التى عجلت باضمحلالها والغاء أوجاقها وقفل أبوابها وبيع سفنها فنقول انه لما عقدت الحكومة الخديوية معاهدة منع تجارة الرقيق من انحاء بلادها التى كانت تمتد اذ ذاك بداخل أفريقية وعلى ساحل البحر الاحمر والمحيط الهندى كان للبحرية من هذا العمل الشأن الاول بالمحافظة على سواحل البلاد المصرية للقيام بما تعهدت به مصر من منع التجارة المذكورة ولا يتأتى لها ذلك الا بالمحافظة على دوام حياة أوجاق البحرية المصرية وترقيته كالجارى بالممالك الاخرى الا ان الذين تولوا البحرية كان أغلبهم من غير العارفين بطرق الارتقاء الحاصل فى العالم البحرى الاوربى فكنت ترى جسم البحرية المصرية مكونا من هيئة عسكرية حربية فى الظاهر ولكنه كان فى الحقيقة فاقد النظام الحربى تماما فلا قوانين مدونة ولا نظامات موضوعة ولا تعليمات حربية جارية بين جنوده مع ان روح الحياة التى تقوى ذلك الجسم وتحفظه من الزوال تستمد قوتها من تلك الضروريات وكان كلما سأل همم خبير ايجاد ذلك قالوا بالاكتفاء بالقوانين التى وضعها قدماء رجال البحرية المصرية سنة ١٢٤٢ هجرية لاساطيل ساكن الجنان محمد على باشا باللغة التركية مع ان معظم ضباط البحرية المصرية وقتئذ لم يكونوا على جانب عظيم من معرفة اللغة التركية هذا على فرض ان ما بتلك القوانين العتيقة لم يتغير فيا بالك بها اذا كانت نسخت بسبب تغير شكل وهيئة السفائن التى بعد أن كانت تسير بالشراع صارت تسير بالبخار وبعد ان كانت تصنع من الخشب صارت تشيد بالحديد وغير ذلك من التبديلات والترقيات التى حصلت فى جميع الاسلحة والآلات الحربية والأدوات البحرية التى وضع لكل منها قوانين ونظامات حديثة على مقتضيات الزمان فاذا نسبنا ذلك لجهل الرؤساء بما تجدد من السفن الحربية وغيرها كنا مخطئين لاننا كنا نشاهد الكثير من أساطيل دول البحار تزور سنويا الفرض المصرية وتتبادل قوادها الزيارة مع قواد سفن مصر الذين كانوا يشاهدون بانفسهم ما بتلك السفن من النظامات وحتى لم يهتم أحد منهم بترجمة بعض المؤلفات البحرية الاوربية مع ان الكثيرين من ضباط البحرية كانوا يطلعون على المؤلفات الحديثة التى

وضـعها أو ترجها ضباط الاساطيل العثمانية ولقد كانت عاقبة هذا الاهمال مشؤمة وكأن هؤلاء الرؤساء أعداء للتقدم حتى كان بعض العارفين يرى ان شركات الملاحة العادية ارقى منها وبعد أن مضى على السفن المصرية عدة سنوات وهى على ما علمت من التأخر والاهمال تلفت اجزاؤها لعدم تعهدها بالاصلاح فى الوقت اللازم فانحط شأنها بعد تلك الخدم التى قامت بها مدة الفتوحات السودانية وفى حروب مصر مع الحبشة ومدة حرب الدولة العلية للصرب والروسيا فى زمن الخديو الاسبق اسمعيل باشا ولما رأت ادارة البحرية ان اصلاح تلك السفن أصبح بالاهمال يحتاج لمبالغ وافرة ليست متوفرة لديها ابان عسرها المالى اضطرت الى ربط أغلبها داخل الميناء وكان وكيل البحرية المرحوم قاسم باشا عزل من منصبه بامر الخديو اسمعيل باشا لخلاف وقع بينه وبين موريس بك مأمور خفر السواحل الآن المرحوم توفيق باشا رده الى وكالة البحرية ثانيـة وكان فى ذلك الوقت محمد كامل باشا قومندانا للوابور المحروسة (١٢٩٦ هـ) وموسى بك قومندانا الفرقاطة محمد على وناظرا لدار صناعة الاسكندرية (١٨٨٠ م) وكان المؤلف برتبة قبودان ثان للدارعـة دنقله المقيمـة فى خفارة ميناء بورسعيد وبعـد قليل أحيل موسى بك على المعاش وخلفـه فى فرقاطة محمد على البكباشى احمد شفتر قبودان وفى نظارة الترسانه القائمقام محمـد امين توفيق بك ولكنه لم يلبث طويلا حيث عـين مأمورا بحريا بحبة على رضا باشا الذى جعـل محافظ السواحل البحر الاحمر وفى خـلالها وقعت مسئلة بيلول التى تقـدم ذكرها وقتل فيها بعض الطليانيين فعينت الحكومة لجنـة تحت رئاسـة ابراهيم رشدى باشا وعـلاء الدين باشا محافـظ مصوع وبعض رجال العسكرية وأمـين توفيق بك من قبـل البحرية لتحقيقها وسافـرت على وابور الجعـفرية قبودانيـة على بك شكـرى (١) لوقوع الحادثة المذكورة فى ملحقات الحكومة المصرية وقد اتضح لهم من التحقيقات ان مشايخ بلاد عصب كانوا نصحوا للضابطـين ومن معهـم من العساكر الطليانية بعـدم التجول فى داخلية البلاد فـلم يذعنوا لنصحيتم ماقصـدا منهما احداث أمر تستفيد منه حكومتهما ثم عادت اللجنة ولم تتم أحداً بجناية وفى أثنائها باعت وكالة البحرية فرقاطة شبرجهاد وباخرة شندى (١٨٨٠ م) فتأسف رجال البحرية على ذلك وتطـيروا منه سيما وانه كان فى الامكان اصلاح فرقاطة محمـد على بنفقة قليلة ونجم من ذلك تنديد ضـباط البحـرية بأعمال الرؤساء وقـدم بعضهم تقارير سرية الى نظارة الجهادية والبحرية شرحوا فيها الحالة السيئة التى وصلت اليها البحرية التى بلغت فى زمن ساكن الجنان محمـد

---

(١) عـلى بك شكرى أصـله من بلدة بيبان من أعمال مديرية البحـيرة وكانت ولادته فى حارة المغاربه باسكندريه سنة ١٢٤٥ هـ ولما بلغ من العمر تسع سنوات ألحق بمدرسة رأس التين الاميرية (١٢٥٤ هـ) وتعلم فيها مبادئ العلوم ثم فى سنة ١٢٦١ انتخبه حسن باشا الاسكندرانى للدرسة البحرية التى كانت يومئذ بغليون عكا المعروف بنمرة ٦ فتمم فيها فنون البحرية على القبودان أنطون الثليانى وكان الامـير محمد سـعيد باشا يحضر فيها دروس البحرية أيضا ثم رقى المترجم الى رتبة اسبران ولحق بسفن الدونمانمة سنة ١٢٦٤ هـ ثم تعين ضابطا بغليون بنى سويف مذ كان قبودانه الامير سـعيد باشا وصار بعـدئذ ينتقل من سفينة الى أخرى ويترقى حتى صار قبودانا لوابور كفيت سـنة ١٢٨٣ وسافر به عـدة سفريات بالبحر الاحمر ومدة حمـلة الانكليز على الحبشة وفى سنة ١٢٨٧ عهد اليه الخديو اسمعيل باشا بمأمورية نقل ست بواخر من الشـلالات لتوصيلها الى الخرطوم فقام بهذه المأمورية أحسن قيام فأحسن اليه برتبة قائمقام ثم أحسـن اليه برتبة الميرالاى سنة ١٢٨٨ وتعين قبودانا لفرقاطة محمـد على عندما تعينت لمأمورية قسماو بوعمية مكيلوب بك السـابق الكلام عليها (١٨٧٥ - ١٨٧٧) وفى سـنة ١٨٧٩ جعل ملاحظا لسفن الميرى بالسويس وفى سنة ١٨٨٢ أحيل على المعاش

على

على باشا مبلغا عظيما من التقدم وينوا فيها ببعض الاصلاحات التي تحتاجها ليعود اليها بعض مجدها وقد أوردنا صورة تقرير من تلك التقارير بأسفل الصحيفة ليطلع عليه القراء ويحيطوا علما بكيفية أوسع بما كانت عليه حالة البحرية في الوقت المذكور (١) وكانت آمال أولئك الضباط تذكير أولياء

(١) قد كانت لنا في عهد ساكن الجنان محمد علي باشا بحرية عظيمة وصلت الى درجة قربت بها مصر ان تعد من الدول البحرية ذات الدرجة الثانية فكانت الترسانة الموجودة الآن بثغر الاسكندرية صالحة لان تبني في زمن واحد ثلاث مراكب من ذات البطاريتين أي من نوع القباق وذلك من حسن تقدم فرقة الصنابعية العسكرية التي كانت تشكلت تحت مراقبة مهندسين مصريين حازين جليل هذا الفن ودقيقه من الترسانات الاوروباوية حتى وصلت هذه الفرقة (الذي كان عددها يفوق الاربعة آلاف) الى درجة اعتبرها بها مهندسو ترسانات أوروبا من الطبقة الاولى وحتى وردعنها جملة مدائح طويلة في التواريخ الاوروباوية . على انه بعد هذه الدرجة الرفيعة والشان العظيم وبعد ان وصل عدد المراكب الحربية الى ما فوق الاربعة وستين مركبا خلاف السفن النقالة طرأت عليها الطوارئ فصارت في حالة الاندراس والاضمحلال ولم يبق منها في الترسانة سوى أسمائها في الدفاتر ثم حصل تغيير كلي في هيئة السفن فتبدل الشراع بالبخار وتدرعت جوانب السفن بالحديد وصار مشترى بعض سفن تجارية الا انه لطول مدة الاستعمال حصل بها وبقزاناتها عدة تخريبات ولكن للاسف ما كان يمكن تعميرها وتصليحها بالترسانة لان الفابريقات المصرية كانت من الطرز القديم على حين ان أمثالها في الترسانات الاوروباوية سارت في ميدان الاختراع والتحسين شوطا بعيدا وتقدمت في طريق الابتداع والتقدم أمدا مديدا فصارت الفابريقة التي كانت تشتغل بخمسمائة نفر تشتغل بالبخار بثلاثين فقط مع السهولة والسرعة وزيادة على ذلك عدم وجود صنابعية بمصر للتشغيل فبكل ذلك كان باعثا على عدم اصلاح أي خلل في قزان اي مركب فكانت تترك وتعتبر غير صالحة ثم تباع وهكذا خسرت مصر جملة مراكب حربية كان يمكن اصلاحها بمبالغ قليلة وذلك لو اتبعت المقرر في جميع البحريات وهو أن قزانات المركب البخاري يلزم تغييرها كل ست سنوات ولو جارت الدول الاجنبية في ادخال التحسينات والاختراعات بالترسانة خطوة بخطوة وجعلت الصنابعية من الجهادية بدلا عن الملكية التي تبلغ يومية الجار منهم مثلا زيادة عن أربعين قرشا أي نحو ماهية خمسة عشر جهاديا الامر الذي لو كان حصل لما كان تكلف كل من قروبيت الصاعقة وقروبيت لطيف نحو مائة وأربعين ألف ليرة سوى ثمن الاسلحة مع انه يمكن مشترى مثل أحدهما من الخارج بمبلغ لا يزيد عن أربعين ألف ليرة بكافة أسلحته وآلاته . وليس هذا فقط هو الخلل فان الادارة البحرية والتعليمات الحربية بها ليست على أساس لانها مكتفية بالقوانين والتعليمات القديمة التي صارت بلا شك بحكم الحال والزمان ملغاة ومنسوخة . وهذه أوروبا سنت لبحرياتها قوانين ورتبت لها نظامات حديثة موافقة وملائمة لانواع المدرعات المستجدة والاختراعات المبتدعة وأما عندنا فالقديم على قدمه . فهذه النهاية المحزنة التي وصلت اليها البحرية بتمام بعد عزها ومجدها حملتني بصفتي وطني وبصفتي بحري في آن واحد ان أقدم هذه المذكرة شارحا فيها كيفية علاجها من هذا الداء بعد ملاحظة ان يكون الاصلاح تدريجيا اذ الميزانية لا تساعد على بذل مصروفات كبيرة دفعة واحدة وذلك انه يقتضي

(أولا) قلب فابريقات الترسانة على الصورة الجديدة ولو في كل عام واحدة حتى بعد خمس أو ست سنوات نرى عندنا ترسانة صالحة للبناء وتعمير المراكب بمبالغ زهيدة (ثانيا) تشكيل بلوكين صنابعية وتوزيعهم على كافة الصنائع بحسب اللزوم فان مصاريفهم لا تزيد عن مصروفات طائفة مركب واحدة وبذلك يكونون في مدة تغيير الفابريقات قد تحصلوا على درجة نستغني بها عن الصنابعية الملكية (ثالثا) تعمير المراكب الموجودة بالتدريج وتغيير قزاناتها وما لا يصلح منها للتغيير يكون من ضمن مراكب القرهقول المعينة لاجراء المراسيم البحرية داخل الميناء وتتعلم به العساكر المستجدة مبادي التعليمات البحرية (رابعا) سرعة ترجمة وتنقيح القوانين البحرية لارجاع النظام البحري الذي اندثر بالكلية وصار اسما بلا جسم (خامسا) اصلاح حال المدرسة البحرية وترتيبها على نمط المدارس الحربية البحرية الاجنبية (سادسا) فتح مدرسة ميكانيكية بحرية لعدم الاحتياج الى مهندسين أجانب (خصوصا ان المركب الحربي في سائر الدول لا يجوز أن يكون به مهندسون أجانب في وقت الحرب) ولاجل مسايرة الاختراعات الجديدة مثل ان المراكب التي كانت تحرق في الاربع وعشرين ساعة تسعين طونيلاتة فحم

Digitized by Google

الامور بأهم ما تحتاجه الديار للمحافظة على سواحلها من جهة ومن جهة أخرى السعي وراء رد الحياة الى تلك الادارة التي نشأ بعضهم فيها وصرف جزأ عظيما من سني شبابه في الاسفار الخطيرة التي عادت على الاوطان بعد النفوذ على الساحل الافريقي وقد أفاد هذا التقرير فائدة مهمة اذا وجد قلوبا واعية اذ ذاك حيث صدرت الاوامر الى البحرية بتشكيل لجنة لتنقيح القوانين ووضع الجديد منها واصلاح بعض السفن ولكن لما كان

ما كل ما يتمنى المرء يدركه * وتأتي الرياح بما لا تشتهي السفن

قامت الحركة العرابية وأعقب ذلك الغاء البحرية بالمرة وبيعت بواخرها وسفنها كما سبق في المقدمة وكما سنبينه

وفي أثناء ذلك أصلح قرويت الصاعقة وجعل لتمرين تلامذة المدرسة البحرية وصار البكباشي السيد شرف افندي قبودانا له وعينوني له مأمورا للبطارية ومعلما لفني الحرب والطوبجية البحرية (٢٩ مايو ١٨٨١ م) وتعين معنا البكباشي علي افندي قبطان الديب مأمورا لتعليم فن الارمه واستعمال الشراع وبعد ان تمت معدات السفينة المذكورة أقلعت بالتلامذة وكنت أنا بها وبعد تمرين دام شهرا ونصفا عدنا (١٢٩٨) ثم أمر القرويت المذكور بالسفر الى السويس للمحافظة على سواحل البحر الاحمر (٢٤ نوفمبر ١٨٨١) ولما توقف قبودانه عن السفر تعين لقيادته المرحوم والدي سرهنك بك وكان اذ ذاك بوظيفة باشمعاون للبحرية وفي خلالها تشكل مجلس حربي تحت رئاسة

صارت الآن تحرق أقل من خمسة وعشرين ولا تخفى فائدة مثل هذه الاختراعات التي يلزم ادخالها عندنا في الحال (سابعا) اصلاح هيئة ملابس العسكرية البحرية وتنظيم مددها مثل ملابس عساكر البحريات الاخرى لانها الآن غير موافقة للصنعة البحرية ولا تحمل المدة المقررة لها (ثامنا) تشكيل قومسيون حربي من ضباط البحرية اللائقين لممارسة التعليمات الجديدة اللازمة مع احضار كافة الكتب المستعملة في سائر البحريات الحربية لينتخب منها ما يصلح للتعليمات عندنا وبذلك تتقدم الضابطان وتنتشر المعارف البحرية في عهد قريب (تاسعا) تعيين مركب أو اثنين لتمرين الضابطان والعساكر والتلامذة على كيفية السير بالشراع وخلافه ولو شهرين في السنة خارج البوغاز أو في ساحل القطر لعدم الكلفة كما هو جار واما في جميع البحريات وكلما لزم للمراكب الحربية عساكر أو خلافه يؤخذون من المراكب المذكورة (عاشرا) تتميم طواقم الخمس مراكب الحربية الموجودة بالبحرية بعد تعميرها بشرط ان يكون التطقيم بحسب القوانين البحرية حتى يمكن اجراء التعليمات بها دواما وتمرين الضابطان والعساكر على التعليمات الحربية البحرية كي يتأتى في المستقبل تطقيم مراكب كبيرة منهم بشرط ان تكون التعليمات بحسب النظامات المستجدة مع اعادة مدافع وابورات الحرطوم وسنار والطور التي كانت فصلت عنها (حادي عشر) اتمام الآلات الحربية في المراكب واحضار ما يلزم من الاسلحة المستجدة مثل الساروخ الحربي البحري والمدافع الصغيرة المصنوعة لمنع فلائك التوربيد وهي التي على شكل المتراليوز توضع في بوردو المراكب لكل مركب أربعة على الاقل (ثاني عشر) وضع فنار كهربائي لكل مركب من الفنارات النقالى الصغيرة الحجم المخترعة جديدا لغرض انارة الافق واجراء الاكتشافات واستعمال الاشارات ورؤية المراكب وفلائك التوربيدو في ظلام الليل — ثم انه مستعمل في بحريات الدول مراكب صغيرة من أنواع الجانبوتات أي المدفعيات التي تحمل الواحدة منها ٦ أو ٤ مدافع وتؤدي مأمورية مركب حربي كبير من المأموريات العادية كحفظ السواحل والقره قولات وخلافه مع رخص ثمنها وقلة مصاريفها الان ثمن الواحدة لا يزيد عن ٢٥ ألف ابره عافيه ثمن الاسلحة وطائفة لا تزيد عن ٨٠ نفرا وتحرق في كل ٢٤ ساعة أربع أو خمس طونيلاتات فقط عندما تكون مكينتها من الطرز الجديد ومع مراعاة تغيير المراكب المذكورة لبعضها بعضا في المأمورية ودخولها بالاحواض مرتين في السنة أو بالاقل مرة واحدة في السنة تحصل من ذلك فائدتان مهمتان الاولى حفظ المركب وصيانتها للغاية خصوصا اذا كانت المأمورية في بلاد حارة الثانية تمرين الطائفة على التعليمات والسفريات البحرية فمن المناسب جدا مداركة أمثال هذه المراكب للقطر وبذلك تعود البحرية المصرية زاهية زاهرة وتصير باهية باهرة ه

أحمد محي ترق البحريه

Digitized by Google

الفريق راشد حسنى باشا لتحقيق الشكوى المرفوعة من ضباط البحرية فى حق وكيلها قاسم باشا (١) الذى أحيل على المعاش بعد ذلك بقليل وصرف النظر عن التحقيق وخلفه فى وكالة البحرية محمد كامل باشا وصار تعيين حسين فهمى بك قومندانا بباخرة المحروسة وفى منتصف صفر من سنة ٩٩ تعينت وظيفة قبودان ثان لفرقاطة محمد على وبعد عودة الصاعقة من البحر الاحمر تعين المرحوم والدى ناظرا لمصلحة الانجرارية والترسانة النيلية بدل أحمد باشا حسنين (٢) الذى اختص بمصلحة

---

(١) قاسم باشا هذا أصله من مورة حضر الى الديار المصرية صغيرا عقب عودة الجيوش منها بمعية ابراهيم باشا الكبير ثم لحق بالمدارس الاميرية (١٢٥٥ هـ) وبعد ان تعلم العلوم الابتدائية نقل الى المدرسة البحرية فتلقى علومها على القبودان انطون التليانى وأحمد قبودان مطش ثم رقى ضابطا بالدونما (١٢٦٥ هـ) وفى سنة ١٢٧٠ نقل الى سفن النيل وجعل قبودا ناثانى بواخرها برتبة ملازم وصار يترقى فيها الى أن نال رتبة الصاغقول أغاسى (١٢٧٥ هـ) وجعل قبودانا لباخرة أسيوط بالبحر الابيض المتوسط ثم رقى لرتبة البكباشى فى ٢٣ ربيع آخر ١٢٧٦ هـ) وعين قبودانا للفرقاطة محمد على بعد اصلاحها بانكلترة وفى ١١ جمادى الاولى سنة ١٢٨٠ رقى بامر الخديو اسمعيل باشا الى رتبة قائمقام وفى ١١ جمادى الآخرة من السنة المذكورة جعل ميرالايا حيث كانت أسفاره وقتئذ جميعها بمعية الخديو ثم لما اشتعلت نيران الثورة فى جزيرة كريد (١٢٨٣) بعثه الخديو بفرقاطته مع باقى السفن لتوصيل الجيوش المصرية لمساعدة جيش الدولة بها فبقى فى ميناء سودة باشبوغا على البواخر المصرية مدة الحرب ورقى الى رتبة اللواء (٨ رجب ١٢٨٣) المذكور وعين وقتئذ والدى المرحوم مير هنلك بك قومندانا على الفرقاطة محمد على الحاملة علم المترجم ثم بعد عودة الجيوش (١٢٨٤ هـ) عين المترجم قبودانا للباخرة المحروسة المخصوصة لركوب الجناب الخديو بدلا من فدريكو باشا وصار يسافر بالركاب العالى الى كل جهة يقصدها ثم فى سنة ١٢٩٠ سافر بها المترجم الى لوندره لتطويلها وتغيير مراجلها وكنت وقتئذ ضمن ضباطها ثم بعد العودة رقى المترجم الى رتبة الفريق (٥ ربيع الآخر ١٢٩١ هـ) وجعل وكيلا لنظارة الحربية وخلفه فى قومندانية المحروسة محمد كامل باشا وفى مدة حرب مصر للحبشة قاد المترجم وابور المحروسة كما حيث كان قومندانها كامل باشا معينا قومندانا لباخرة الغربية واشتغلت الباخرتان مع باقى البواخر الخديوية فى نقل الجيوش المصرية الى مصوع ثم بعد ذلك عين المترجم سنة ١٢٩٣ مأمور السوق الجيوش المصرية فى حرب الصرب والروسية حيث جعلت تحت امرته البواخر المصرية المعينة فى هذه المأمورية وكنت معاونا له طول هذه المدة وبعد العودة عاد الى الوكالة ثم فى سنة ١٢٩٥ عزل من البحرية بسبب شكوى قدمها فى حقه موريس بك مأمور خفر السواحل الى الوزارة المختلطة بدعوى ان المترجم تعدى على خفير المصلحة المعين على باب ديوان البحرية وفى سنة ١٢٩٦ أعيد لوكالة البحرية ثانيا بأمر الخديو محمد توفيق باشا وفى سنة ١٢٩٧ فصل عنها عقب أعمال المجلس الحربى الذى تشكل لتحقيق الشكوى التى تقدمت فى حقه من كثيرين من ضباط البحرية ثم نسب له الاشتراك فى الحوادث العرابية وأخيرا صدرت الاوامر الخديوية باحالته على المعاش فى وزارة راغب باشا (١٢٩٨ هـ) وفى مساء الخميس (١٩ رمضان سنة ١٣١٥ انتقل الى رحمة ربه فى القاهرة فدفن بما يليق به من الاحترام رحمه الله رحمة واسعة

(٢) أحمد باشا حسنين أصله من قرية منية حبيب من أعمال مديرية الغربية وخرج به أبوه صغيرا وأدخله مدرسة رأس التين الاميرية سنة ١٢٤٩ هـ وبعد ان تعلم فيها مبادى العلوم دخل المدرسة البحرية التى كانت باحدى سفن الدونما (١٢٥٤ هـ) وكان وقتئذ بلغ سن الثامنة عشرة وبعد ان تمم علوم البحرية فيها رقى الى رتبة ملازم ثان بسفن الدونما وفى سنة ١٢٦٦ عين لوابور فيروز ركوبة المرحوم عباس باشا الاول بحر النيل ورقى لرتبة ملازم أول ثم فى زمن المرحوم محمد سعيد باشا بلغ رتبة الصاغقول اغاسى وجعل قبودانا للباخرة جاى مرح المعدة لركوبة الوالى وبقى فيها يترقى الى سنة ١٢٨٠ وفيها نال رتبة ميرالاى وصار قبودانا للركوبة الخديو اسمعيل باشا بالنيل وسافر فيه عدة أسفار مع أكابر الاورباويين لجهة الشلالات ووادى حلفا وأخيرا رقى الى رتبة اللواء الرفيعة وأحيل عليه أشغال نظارة وابورات الانجرارية (١٨٧٧ م) وفى سنة ١٨٨٠ انفصلت ادارة الانجرارية من الركائب الخديوية بالنيل وبقى هو ناظرا على وابورات الركائب وتعين المرحوم والدى مير هنلك بك ناظرا لترسانة

Digitized by Google

بواخر الركائب الخديوية وأرسلت الصاعقة لخفارة بورسعيد مكان الدارعة دنقلة التى ذهبت الى السويس وتعين لقيادتها مصطفى افندى العنتابلى ثم غرقت الدارعة المذكورة عند سفرها الى مصوع بجوار رأس كسار وأنقذت جنودها باخرة الجعفرية (١٨٨٤) ثم لما احتل الانجليز البلاد تعين عمر لطفى باشا ناظرا للبحرية والجهادية فى وزارة شريف باشا وأسندت وكالة البحرية الى المرحوم حسين شرين باشا (١) الذى لم تطل أيامه فيها حيث توفى بمرسيليا أثناء ذهابه الى فرانسا لتغيير الهواء كاشارة الاطباء (١٨٨٢) ولما أحيل بعض ضباط البحرية على المعاش والاستيداع عقب ما نسب اليهم من الاشتراك فى الثورة تعين لوكالة البحرية مصطفى باشا العرب الذى شرع فى كسر ومبيع معظم البوارج الحربية والنقلية وكذا موجودات دار الصناعة كما مر فى المقدمة ثم ألغيت البحرية وأحيل الوكيل المذكور على المعاش وأنعم عليه برتبة الفريق (٢) (١٨٨٣) فكان آخر

بولاق وبواخر الانجرارية (١٨٨١ م) وبقى المترجم قائما بخدمته فى النيل الى أن رقى الى رتبة الفريق وأحيل على المعاش (١٨٨٩) وخلفه على وابورات الركائب على بك عبادى ثم توفى المترجم وهو فى المعاش سنة ١٨٩١ م تاركا حسن الذكر

(١) حسين شرين باشا هذا جركسى الاصل من معاتيق ساكن الجنان ابراهيم باشا الكبير الحقه وهو صغير بمدرسة قصر العينى سنة تأسيسها (١٨٢٥ م) وبعد ان تعلم فيها العلوم الابتدائية انتخبه العزيز محمد على باشا ضمن التلامذة المنتخبين للدرسة البحرية فى سنة ١٨٢٨ فدرس علومها ثم لحق ضابطا بسفن الدونانما التى أنشأها العزيز (١٨٣١) ونال فى سفنها رتبة اليوزباشى (١٢٤٧) ورقى فى سنة ١٢٥٠ الى رتبة صولقول اغاسى وفى سنة ١٢٥٣ رقى الى رتبة صاغقول اغاسى وفى سنة ١٢٥٥ صار بكباشى وقبودانا لاحدى الفرقاطات وفى سنة ١٢٥٨ رقى الى رتبة القائمقام وجعل قبودانا لاحد القباقات وخدم فى مصالح أخرى ثم رقى الى رتبة الميرألاى (١٢٦٣) وجعل قبودانا للغليون الذى سافر به المرحوم ابراهيم باشا الى الاستانة لاستلام فرمان الولاية وكان المترجم يميل الى عمل الخير حتى انه أزال غضب العزيز عن الضباط الذين غرقت سفينتهم بجوار جزيرة ساقز عند سفرها الى استامبول ثم فى سنة ١٢٧٩ أحسن عليه الخديو اسمعيل باشا برتبة الميرميران الرفيعة وجعل مديرا لعموم القومبانية العزيزية التى شكلها بدلا عن القومبانية المجيدية فقام المترجم بتنظيمها وترتيب ادارتها أحسن قيام ثم جعل بعد ذلك مديرا لعموم الجمارك (١٢٨٩) وخلفه فيها صفر باشا وصار يتقلب فى المصالح الملكية الى ان أحيل على المعاش ولما أتى دور الثورة العرابية انتخبه الخديو توفيق باشا لوكالة البحرية سنة ١٨٨٢ ولكن لم تطل أيامه فيها حيث أصابه مرض عضال وأشار عليه الاطباء بتغيير الهواء فسافر الى فرانسا ولما وصل الى ميناء مرسيليا توفاه الله فترك ذكرا حسنا

(٢) مصطفى باشا العرب هو ابن المرحوم السيد على المصرى ولد فى بلدة دركى من أعمال المنوفية سنة ١٢٢٨ هـ ونشأ بمدارس الحكومة وتخرج من المدرسة البحرية (١٢٤٥) ورقى اسبرانا (١٢٤٦) ولحق بفرقاطة فود ثم نقل الى فرقاطة رشيد ورقى ملازما ثانيا بقرويت التمساح (١٢٤٨ هـ) ونال رتبة الملازم أول سنة ١٢٥٠ ورتبة يوزباشى ثانى (١٢٥٥) ويوزباشى أول (١٢٦٥) ثم تعين بوابور فيض جهاد ولا زال يترقى الى ان أنعم عليه محمد سعيد باشا برتبة الصاغقول أغاسى (١٢٧١ هـ) ثم عين قبودانا للقرويت سباح البحر (١٢٧٤) وتوجه به الى انكلترة لاصلاحه وجعله فرقاطة وسمى بمدئذ بمحمد على وعاد به سنة ١٢٧٦ هـ وأنعم عليه برتبة البكباشى (١٢٧٧) ثم عين قبودانا للباخرة النيل (١٢٧٨ هـ) وسافر بها الى انكلترة لاصلاحها ولما وصلها وجدت انها غير صالحة للاصلاح صدر أمر الخديو بعمل باخرة أخرى من الحديد فسميت بالنيل وهى التى سميت فيما بعد بالفيوم ولحقت بالبواخر الخديوية ودعى المترجم من انكلترة ونصب قبودانا للباخرة فيض جهاد ولما أهدى الخديو اسمعيل باشا هذه الباخرة للسلطان عبد العزيز خان جعل المترجم قبودانا للدارعة ابراهيمية التى سميت شير جهاد وأنعم عليه برتبة قائمقام (١٢٧٩ هـ) وسافر بها الى سواحل فرانسا والى عدة فرض من البحر المتوسط الابيض وأنعم عليه الخديو برتبة ميرألاى (١٢٨٠ هـ) والنشان المجيدى الثالث ثم أصدر أمرا بسفر الفرقاطة

رئيس

Digitized by Google

رئيس تولى وكالة البحرية ولم يبق من بواخر الدونتما المصرية الا الجعفرية وقبودانها عبد الرحمن كامى بك بالبحر الاحمر والصاعقة وقبودانها بروليجو باشا بيور سعيد وفرقاطة محمد على وقبودانها محمد أمين باشا باسكندرية وكانت السفن المذكورة تابعة لمصلحة الفنارات والليمان ثم باخرة المحروسة وقبودانها حسين فهمى باشا وهى تابعة للمعية السنية كما مر وفى سنة ١٨٨٤ بينما كان وابور طنطا وقبودانه أحمد مسلم بك ذاهبا الى سواكن لنقل ذخائر الى بيكر باشا اصطدم بصخر فغرق وأنقذت جنوده باخرة المحلة

ولما سافرت الجنود الانجليزية والمصرية فى سنتى ١٨٨٤ و ١٨٨٥ لمقاتلة السودانيين قامت البواخر النيلية بنقل الجنود المذكورة وما يلزمها من الذخائر والادوات وكانت السفن المذكورة بأسفل الصحيفة (١) هى التى تنقل الجنود والذخائر الى جنوبى الشلال الاول

وبعد انتهاء التجريدة المذكورة شيدت سرداريه الجيش المصرية بعض بواخر من ذات العجلة الخلفية فى النيل جعلتها لطلباتها الخصوصية وقد استغنت الحكومة عن بعض بواخرها النيلية فابتاعتها شركة كوك وأصلحتها وأضافتها الى سفنها التى كثر عددها وفى تلك المدة أحيل المرحوم

المذكورة الى السويس عن طريق رأس منتم الخير فقادها المترجم وعرج فى طريقه على فرض الغرب الاقصى وعلى انكلترة وبعد ان أصلح فيها ما تحتاجه الفرقاطة من الاصلاح أقلع منها ودار بها حول قارة افريقية مارا على جزائر قنارياوسنت هيلانه ورأس منتم الخير ولما وصل الى زنجبار تشرف بسلطانها السيد ماجد الدارعة المصرية وأهدى قبودانها المذكور سيفا مجوهرا واشياء ثمينة وأعطاه خطابا وبعض الهدايا الى الجناب الخديو وهنأه فى الخطاب على وصول الدارعة الى تلك البلاد وتودد اليه بعبارات المحبة كما مر فى بابه ثم بعد وصول الدارعة الى السويس اتفق ظهور حريق بوابور دسوق (١٢٨٣) فابتكر المترجم طريقة تغريق الباخرة فى عمق مناسب فانطفأت منها النار ثم أخرجت ثانية وفى خلالها أصيب المترجم بمرض فى عينه اليسرى فارسله الخديو اسمعيل باشا على نفقة الحكومة الى فينا عاصمة النمسا للمعالجة وبعد شفائه وعودته أحسن عليه برتبة اللواء (١٢٩٤ ﻫ) وقلد وكالة البحرية وأحسن عليه بالنشان المجيدى الثانى (١٢٨٦ ﻫ) ونال من ملك ايطاليا وسام سنت لازار وموريس ثم أهداه ملك ايطاليا وسام كردون ايطاليا (١٢٦٩ ﻫ) وفى سنة ١٢٨٩ عين مديرا لعموم ادارة وابورات البواخر الخديوية بدلا عن صفر باشا وفى مدة حروب الروسيا أحيل عليه أعمال وكالة الحربية لتعيين وكيلها قاسم باشا فى مأمورية سوق الجيش المصرى فى الاستانة وفى سنة ١٨٨٠ أحيل على المعاش ثم فى سنة ١٨٨٢ قلد وكالة البحرية بعد وفاة المرحوم حسين شرين باشا وبقى الى ان باعت الحكومة معظم بواخرها وانقاض دار صناعة الاسكندرية ثم أحيل المترجم على المعاش سنة ١٨٨٤ بعدما أحسن عليه الخديو برتبة الفريق ولم يلبث فى المعاش طويلا حيث عاجلته الوفاة فى يوم ٨ ربيع الاول ١٣٠٣ (١٨٨٥) وشيعت جنازته باحتفال لائق رحمه الله

(١) وهى (الفيوم) وعليها محمد قبودان مصطفى (والغربية) وعليها أحمد قبودان (والمحلة نمرة ١) وعليها موسى قبودان (ومسير) وعليها ابراهيم قبودان سكوتى (والرقاص نمرة ٢) وعليه محمد قبودان الباجورى (وبنى سويف) وعليه محمد قبودان وصفى وكلها كانت فوق الشلال أما التى كانت تحت الشلال فخمسة عشر وابورا وهى باخرة (مصر الكبير) وعليها على قبودان عندليب (والعزيزية) وعليها محمد قبودان حبيب (والسودان) وعليها أحمد قبودان فخرى (والمسعودية) وعليها عبد الله قبودان درويش (وطهطا المستجد) وعليها مصطفى قبودان عاطف (ونمرة ٤) وعليها على قبودان الحلبى (وقنا) وعليها محمد قبودان على (ودمياط) وعليها محمد قبودان خطاب (وجاى فرح) وعليها القبودان خليل رشدى (والمنيا) وعليها محمود قبودان بهجت (والبحيرة) وعليها سليمان قبودان سيد أحمد (والنصرتيه) وعليها سليمان قبودان خاقى (وشبرخيت) وعليها أحمد قبودان خورشيد (وطيرسعد) وعليها على قبودان الزغبى (ونمرة ١١) وعليها على قبودان النبلى

Digitized by Google

والدى على المعاش (١) وأحيلت ترسانة بولاق على نظارة الاشغال العمومية التى أخذت فى بيع بعض بواخرها ولم يبق من مصالح السفائن التى فى النيل سوى مصلحة وابورات الركائب الخديوية ووجهت ادارتها الى الميرالاى على بك عبادى وبتبعها خمس بواخر هى فيض ظفر وفيض ربانى وفيروز وزينة البحرين وهيماوبقى بالبحر المتوسط الابيض والبحر الاحمر بواخر البوستة الخديوية وأحيلت ادارتها على المستر روف (F.B. Rouff) بدل هالتون باشا الذى نقل بقومسيون السكة

(١) والدى المرحوم سرهنك بك هو ابن عبد الله افندى الكريدى بن على أغا كانت ولادته فى قضاء ريتمو من أعمال كريد أحضره ابراهيم باشا الكبير مع كثير من شبان جزيرة كريد مذ كانت تابعة للحكومة المصرية عقب الثورة التى قامت فيها اذ ذاك وكان سنه لما حضر الى مصر لا يتجاوز السادسة ثم الحقه محمد على باشا بمدرسة الجهادية بقصر العينى سنة ١٢٤١ ورقى فيها أونباشى سنة ١٢٤٥ ثم الى جاويش سنة ١٢٤٦ وفيها نقل على المدرسة البحرية برتبة مساعد ثان بفرقاطة الجعفرية ثم نقل مع المدرسة الى فرقاطة البحيرة سنة ١٢٤٧ برتبة مساعد أول فى مدة حرب الشام وبعدئذ نقل الى قليون نمرة ٣ وفى سنة ١٢٤٨ نقل الى غوليت الصاعقة وأحسن عليه برتبة ملازم ثان (١٢٤٩) وبرتبة ملازم أول (١٢٥٠) وتعين بغليون نمرة ٤ (١٢٥١) وفيها رقى الى رتبة يوزباشى واقترن بابنة القائد عمر قائد بنى سليمان الجزائرى الذى اتخذ ثغر الاسكندرية وطنا ثانيا له كما ذكر فى صحيفة ٣٦٩ من الجزء الاول من هذا الكتاب وخدم فى فرقاطة منوف (١٢٥٣) وبغليون نمرة ٩ الى سنة ١٢٥٥ ثم نقل قبودانا ثانيا الى قرويت دمنهور بمعية سعيد باشا وتعين لغليون عكا (١٢٥٦) وفى سنة ١٢٥٧ عين بمصلحة الابنية ببنى سويف ثم أعيد الى الدونمه بغليون نمرة ١٢ (١٢٥٨) وفيها نقل لغليون نمرة ٧ ونقل قبودانا ثانيا لغليون نمرة ٨ وفى سنة ١٢٦٤ جعل قبودانا أول لمدفعية غوليت جديد وأنعم عليه برتبة الصاغقول أغاسى وسافر بمعية ابراهيم باشا عند سفره الى دار الخلافة لاستلام فرمان الولاية وبعد عودته جعل سوارى بفرقاطة النيل فى سنة ١٢٦٦ ثم عين بعد ذلك مع طوائف البحرية لعمل جسر السكة الحديد بين مصر والاسكندرية ثم بعد ثلاث سنوات جعل قبودانا لفرقاطة رشيد ولما تجهزت الاساطيل لحرب القريم عين قبودانا ثانيا لغليون الفيوم نمرة ١١ وسافر الى البحر الاسود وفى خلال الحرب عين قبودانا بالفرقاطة شير جهاد وكانت أمرت بالسير على سواحل القوقاز وبعد عودة العساكر والاساطيل عين مأمورا لشون المهمات البحرية وبعد ذلك قبد مستودعا بالمالية ثم بعد سنة عين مأمورا لمطابخ سعيد باشا وبعد سنتين ونصف أحيل على المعاش ثم فى أوائل حكم اسمعيل باشا أعيد الى الخدمة الاميرية (١٢٧٩) وعين ناظر القلم دعاوى ضبطية اسكندرية وفى سنة ١٢٨١ عين عضوا بمجلس الضبطية ثم نقل الى القومبانية العزيزية وعين مأمورا لينبع البحر مدة الحج وبعد عودته جعل قبودانا بالباخرة قليوب وصار يسافر بها الى الاستانة وتصادف انه فى سنة ١٢٨٢ شب حريق هائل فى القسطنطينية فتوجه بنفسه وساعد فى اطفائه وبلغ ذلك مسامع جلالة السلطان عبد العزيز فأثنى عليه امام الخديو اسمعيل باشا فأنعم عليه بالنشان المجيدى الرابع وكتب له كتابا أظهر فيه ممنونيته منه فى ١٩ جمادى الاولى سنة ١٣٨٢ نمرة ١٨ سائرة وصورته هى الآتية

(رفعتلو سرهنك قبودان سوارى وابور قليوب) — ان الحريق الهائل الذى حصل بقضاء الله وقدره بالاستانة العلية استلزم شدة أسف وتألم العموم وعا انه علم من إشعار قومبانية الاستانة ومن اخبار سائر الناس انكم أبديتم وجودكم مع الانفار البحرية فى إطفاء الحريق المذكور بواسطة طلمبات الوابور سواريتكم وأبرزتم مساعى الغيرة الزائدة حسبما تقتضيه الذمة والانسانية والحمية فغيرتكم الصادقة فى هذه الحركة فى الحقيقة صار تقديرها حق قدرها واستحسانها كلية ولهذا قد أحسنا عليكم بالنشان المجيدى من الدرجة الرابعة ليكون أثرا علنيا على ما استجلبتموه من محظوظيتنا والتفاتنا فيلزم أن تبذلوا الجهد فى تأدية الخدامات الاميرية وفى سائر الاحوال والخصائص المسائلة لذلك حتى تخصصوا على زيادة توجهاتنا والتفاتنا ولما لوحيتكم بازدياد قدركم وحيثيتكم بين الاقران والامثال قد حررنا أمرنا هذا وأصدرناه اليكم ١٩ اسمعيل

الحديدية

الحديدية (١٨٨٧ م) ومن وقتئذ انفصلت مصلحة بواخر البوسطة الخديوية عن ادارة البوستات المصرية ثم استغنت الحكومة أيضا عن باخرتى الجعفرية والطور فأوقفتهما فى السنة المذكورة وباعتهما فى سنة ١٨٨٨ وفى سنة ١٨٩٢ باعت أيضا فرقاطة محمد على وفروت الصاعقة وأحالت قبودانيهما محمد أمين توفيق باشا (١) وبروليجو باشا النمساوى ومن معهما

ثم أحسن عليه برتبة القائمقام (٩ رجب سنة ١٢٨٢) وجعل قبودانا بالباخرة الدقهلية وبعد قليل اشتعلت نيران الثورة بكريد وقام الخديو اسمعيل باشا بمساعدة الدولة فبعث اليها بالجيوش وعين بعض البواخر وكانت باخرة الدقهلية من ضمن ما تعين لنقل الجيوش وبقيت مرافقة للجيوش فى سواحل الجزيرة المذكورة ولما كانت تنقل بعضهم من جهة سوباالى اسفاكيا مع سفن الدولة علت الامواج واشتدت الرياح فتكسرت الاساكل الخشبية الموضوعة لانزال الخيول والمهمات منها الى الصنادل والفلائك فحصل عطل وكانت الضرورة قاضية بسرعة توصيلها الى تلك الجهة فاخترع المترجم فتح ترعة واصلة الى البحر فأدخلت الفلائك والصنادل فيها وتمت بسهولة فسهل بذلك النقل فشكره ابراهيم باشا الموردلى قائد الاسطول العثمانى ومصطفى زلى باشا قائد الجيش العثمانى وغيرهما ولما بلغ ذلك مسامع الجناب الخديو أنعم عليه برتبة مير ألاى وذلك فى ٢٢ رمضان سنة ١٢٨٣ ونصبه قومندانا على فرقاطة محمد على الحاملة لعلم الاميرال قاسم باشا وأصدر للترجم أمرا رفيعا أظهر فيه العواطف والارتياح وهاهى صورته بالحرف الواحد

عزتلو سرهنك بك — انه بمطالعة جرنال الوقائع الوارد لنا من طرف سعادة قاسم باشا هذه الدفعة رقم ١٦ رمضان سنة ١٢٨٣ علم لدينا تفصيلات المناورة التى اجريتموها فى أثناء نقل العساكر من جهة سوبا الى اسفاكيه حال وجود أمواج بكثرة فى الساحل وتشتت الاساكل التى عملت وتعذر نقل الحيوانات وفضلا عما هو محقق ومعلوم عندنا من مهارتكم فى الفنون البحرية وصداقتكم فى الخدامات التى تؤدونها فان حسن غيرتكم هذه قد استلزمت كال ممنونيتنا ولذا قد وجهنا لحضرتكم رتبة المير الاى الرفيعة وعينا كم سوار بالفرقاطة وابور محمد على وقد تحرر منافى تاريخه الى نظارتنا البحرية وادارة القومبانية العزيزية المصرية والباشا المومااليه بذلك وأصدرنا أمرنا هذا اليكم اعلانا بممنونيتنا فليعلم لكم ذلك ﴿

التوقيع

اسمعيل

وبعد عودة العساكر من كريد صدر له الامر بالقيام الى جزيرة مالطة لتعمير فرقاطة محمد على وتغيير مراجلها فقام بهذه المأمورية خير قيام ثم سافر بعد ذلك بمعية الخديو الى تريسته وطولون وغيرهما من موانى البحر الابيض المتوسط وفى سنة ١٢٨٨ عين سوار بالفرقاطة شيرجهاد التى كانت معينة لخفارة بورسعيد وفى سنة ١٢٩١ عاد بها الى اسكندريه لاجل التعمير فعين باشمعاون النظارة البحرية ثم أحسن عليه بالنيشان العثمانى الرابع وفى سنة ١٢٩٩ سافر مأمور سفرية بوابور الصاعقة للمحافظة على سواحل البحر الاحمر وبعد انتهاء المأمورية عين ناظرا لدار صناعة بولاق والانجرارية وفى خلالها كانت الحملة الانجليزية والمصرية على السودان سنة ١٨٨٤ و ١٨٨٥ فبذل المترجم الهمة فى تشهيل النقليات العسكرية بوابورات الانجرارية وفى سنة ١٣٠٥ أحيل على المعاش ثم توفى الى رحمة الله تعالى فى ١٦ القعدة سنة ١٣١٤ وشيعت جنازته باحتفال رسمى سار به العساكر البرية والبحرية وبعد مواراته التراب أطلقت بنادقها ثلاث مرات ﴿

(١) محمد أمين توفيق باشا هذا ولد بمصر (١٢٥٩ ﻫ) من والده محمود أفندى توفيق الذى كان معاونا بالديوان الخديو فى مهد ساكن الجنان محمد على باشا ثم الحقه أبوه بالمكاتب الاهلية فتعلم فيها العلوم الابتدائية ثم لحق بمحافظة مصر بقلم تركى تحت ملاحظة المرحوم أحمد خيرى باشا مذ كان كاتبا به ولما فتح المرحوم سعيد باشا المدرسة الحربية بالقلعة تحت رياسة رفاعه بك الحق بها المترجم تلميذا (١٢٧٢ ﻫ) فدرس بها العلوم العسكرية وغيرها ثم لما فتح سعيد باشا المدرسة البحرية فى اسكندرية انتقى ضمن التلامذة المنقولين اليها من المدارس الحربية (١٢٧٦ ﻫ) فدرس علومها على المرحوم أحمد مطوش قبودان وسافر لاجل التمرين بفرقاطة شيرجهاد الى الغربول تحت قيادة قدري بكو بك وبعد تمام دروسه رقى الى رتبة اسبران بفرقاطة سياح البحر الذى كان ابتاعه سعيد باشا ركوبتها الخصوصية ثم نقل الى

Digitized by Google

من الضباط على المعاش ونقلت المدرسة البحرية الى باخرة المحروسة التى أحيل قومندانها حسين فهمى باشا (١) على المعاش ١٨٩٧ وأحسن عليه برتبة الفريق وخلفه لقيادة المحروسة على بك عبادى مع بقائه بادارة الركائب الخديوية فى النيل ورقى الى رتبة اللواء وقد تمت مصلحة خفر السواحل فى زيادة سفنها وبواخرها وجعل عليها الميرالاى ميدلماس بك (A.C. Middlemass) مديرا بعد وفاة موريس بك فى حرب سواكن ١٨٨٣ مدة حملة هيكس باشا

الجيش الجديد – انه بعد هزيمة العرابيين فى واقعة التل الكبير (١٢ سبتمبر ١٨٨٢) واحتلال الجيش الانكليزى لمصر عرضت مسئلة الغاء الجيش المصرى بتمامه وتنظيم جيش جديد فتذاكر النظار والخديو فى هذه المسئلة فكان من رأى المرحوم خيرى باشا مهردار الخديوى يومئذ وغيره ممن يفتكرون فى العواقب ان الغاء الجيش المصرى يترتب عليه لزوم وجود قوة أخرى فى البلاد لحفظ الامن فيها وهذا لاشك يجعل ضرورة اطالة زمن الاحتلال حتى يتم تدريب الجيش

باخرة فيض جهاد برتبة الملازم ولما أهدى المرحوم الخديو الاسبق اسمعيل باشا الباخرة المذكورة الى السلطان عبد العزيز عين المترجم ببواخر القومبانية العزيزية (١٨٦٤) ورقى الى رتبة ملازم أول ثم نقل الى فرقاطة محمد على ورقى الى رتبة يوزباشى (١٨٦٥) ثم تعين لباخرة المحروسة وسافر بمعية الخديو الى فرانسا لحضور معرض سنة ١٨٦٨ ثم نقل بعد عودته الى قرويت لطيف وسافر فيه صحبة ناظر البحرية عبد اللطيف باشا الى سلانيك وبعض ثغور الاناضول للبحث على معادن الفحم الحجرى التى كان اسمعيل باشا يبحث عنها ثم سافر به بعد ذلك الى انكلترة تحت قيادة سليمان بك أبوداود وفى سنة ١٨٧٠ رقى المترجم الى رتبة صاغقول أغاسى وعين قبودان ثانيا للقرويت المذكور وفى سنة ١٨٧٢ رقى الى رتبة الصاغقول أغاسى وعين قبودانا ثانيا للباخرة الغربية وفى سنة ١٨٧٤ رقى الى رتبة البكباشى وجعل قبودانا للاحدى بواخر البوستة الخديوية بالبحر الاحمر وخدم فى نقل الجيوش مدة حرب الحبشة وفى مدة حرب الروسية جعل قبودانا ثانيا الفرقاطة محمد على التى قادها ابراهيم بك عربكيرلى ثم فى خلالها جعل قبودانا للباخرة دسوق التى عينت لمساعدة بواخر الدولة فى نقل العساكر والمهاجرين وبعد ذلك عين بأمر الخديو توفيق باشا منـدوبا بحريا بمعية على رضا باشا محافظ سواحل البحر الاحمر لمنع بيع الرقيق والتفتيش على أعمال المحافظات ورقى الى رتبة القائمقام (١٨٨٠) وعين ناظر الدار صناعة الاسكندرية ثم عين عضوا فى القومسيون الذى تشكل تحت رياسة ابراهيم باشا رشدى لتحقيق مسئلة قتل الرسالة التليانية بجهات بيلول من أعمال مصوع ثم عين فى زمن الحوادث العرابية قومندانا للباخرة الجعفرية ومأمورا على سفائن البحر الاحمر ورقى الى رتبة الميرالاى فى ٢١ أكتوبر سنة ١٨٨٢ وبعد ذلك عين قومندانا للفرقاطة محمد على وفى سنة ١٨٨٧ رقى الى رتبة اللوا وفى سنة ١٨٩٢ أحسن عليه بالنشان المجيدى ثم أحيل على المعاش عندما تقرر مبيع الفرقاطة المذكورة وله سيرة حسنة لدماثة أخلاقه وكانت وفاته بمصر ليلة الجمعة ٢١ شعبان سنة ١٣١٥ (١٣ يناير سنة ١٨٩٨) فشيعت جنازته بما يليق بمقامه رحمه الله رحمة واسعة

(١) حسين فهمى باشا هذا كانت ولادته فى مدينة الفيوم (١٢٥٩ هـ) وكان والده المسمى محمد صدقى بك القبرصلى من رجال العسكرية المصرية فالحقه بالمدارس الاميرية فتعلم فيها العلوم الابتدائية ثم لما تشكل سعيد باشا المدرسة الحربية بالقلعة تحت رئاسة رفاعه بك الحقه والده فيها (١٢٧٢) ثم نقل الى المدرسة البحرية (١٢٧٦) فتمم فيها علومه البحرية على المرحوم أحمد مطش قبودان وسافر بفرقاطة شبرجهاد للتعليم الى انكلترة مع التلامذة تحت قيادة قدريقو بك ثم بعد ذلك رقى ضابطا وتعين بوابور رفيض جهاد برتبة اسبران ثم نقل الى فرقاطة محمد على ورقى فيها ملازم ثانى (١٢٨١) وبعدها بسنة حضر وابور المحروسة ركوبة الحضرة الخديوية من انكلترة فانتخب المترجم من ضمن من انتخبوا له ورقى الى رتبة الملازم أول ثم الى رتبة اليوزباشى (١٢٨٦) ثم أحسن عليه برتبة الصاغقول أغاسى (١٢٨٩) ثم عين بأمر الخديو قبودان ثانى للوابور وأحسن عليه برتبة الصاغقول أغاسى (١٢٩١) ثم رقى فيه أيضا الى رتبة البكباشى ٦ صفر

Digitized by Google

الجديد وتنظيمه كما ينبغي فخالفه في رأيه آخرون وكان منهم ناظر الداخلية وناظر الحربية وانضم الخديو توفيق باشا الى رأيهم وذلك لشدة حنقه على الجيش المصري انتقاما منه على الثورة التي قام بها وبذلك ترجح رأي القائلين بالغاء الجيش فأصدر الخديو المرحوم توفيق باشا أمرا في ٣ القعده من سنة ١٢٩٩ (١٧ سبتمبر ١٨٨٢) بالغاء الجيش المصري الغاء تاما وصرف عموم العساكر التي جاهرت بالعصيان الى بلادها وابقاء الضباط وكبار قادة الجيش لمحاكمتهم ثم أصدر أمرا آخر بالغاء القوانين العسكرية القديمة وهي التي كان الخديو صدق عليها في وزارة محمود سامي باشا كما تقدم واذن لناظر الحربية والبحرية بأن يطبق مؤقتا في حق الضباط وصف الضباط البريين والبحريين أحكام الامر العالي الصادر بتاريخ ٢٥ ذي الحجة من سنة ١٢٩٦ في شأن نفقات انتقال الموظفين الملكيين الى حين وضع قانون جديد للعسكرية وصدر أمر آخر بالغاء الامر الصادر بتقرير مرتبات الضباط والصف الضباط والعساكر البرية والبحرية وأن تعاد مرتباتهم الى ما كانت عليه قبل صدور الامر العالي المؤرخ في ٢١ جمادى الاولى من سنة ١٢٩٩ وأن تلغى جميع الزيادات التي أضيفت الى رواتب الاستيداع ومعاش التقاعد وبينما كانت الحكومة المصرية مشتغلة بتقرير وتوطيد الراحة والقبض على من اشترك في الثورة ومكافأة الذين ساعدوا الجيش الانكليزي في اطفاء لهيبها وفد لورد دوفرين (Lordof Dufferin) معتمدا من قبل دولته للنظر في أمر مصر ووضع تقرير بذلك (٢٥ ذي الحجة من سنة ١٢٩٩) ولما درس أحوال البلاد رأى من الواجب ايجاد جيش وطني منظم قال عنه ما يأتي لقد أفضت في رسالتي السابقة المؤرخة بتاريخ ١٨ نوفمبر من سنة ١٨٨٢ عند الكلام على نظام الجيش المصري والجندرمة والبوليس فلم تكن بعد حاجة لاعادة الافاضة في النتائج التي انتهى اليها ولا خفاء أن مصر الاصلية تحدها الصحارى من ثلاث جهات فلهذا لا ينبغي أن تكون القوة العسكرية فيها وافية العدد حتى قال كثير من الناس انها لا تحتاج الى قوة عسكرية مطلقا . ولكن يحتمل حدوث بعض أمور تستلزم ان يكون في البلاد بعض الفرق المتمرنة والمتدربة على الفنون العسكرية وطالما سمعنا بان قراها كانت منبتا للدجالين والمتعصبين الذين يدعون برسالة فائقة الطبيعة ويهتمون باقناع السذج الذين لا يتأخرون عن أن يصدقوهم وبالاستقراء يتولد عن ذلك هيجان ديني لا يلبث أن يمتد خطبه ويتسع خرقه ان لم تتخذ على الفور القوة اللازمة للقبض على زعيمه وتبديد شمل أنصاره كما حدث ذلك أكثر من مرة . وهنالك من جهة أخرى العربان الذين

(١٢٩٣) وقائمقام ١٦ شعبان (١٢٩٧) وفي أول ظهور الحوادث العرابية صدرت الاوامر الخديوية بتنصيب محمد كامل باشا على وكالة البحرية وتعين المترجم قومندانا لوابور المحروسة مكانه وأحسن عليه برتبة المير ألاي (١٨٨٤) وبعد ختام الحوادث واحالة مصطفى باشا العرب على المعاش أحيل على المترجم ادارة توكيل البحرية فبقي فيها الى أن صدرت الاوامر بلغوها واستقل بقومندانية المحروسة التي تتبعت ميزانيتها من يومئذ الى المعية السنية وأمر الخديو بعمل المترجم ياوراله مع بقائه قومندانا على ركوبته المذكورة ثم أحسن عليه برتبة اللواء في ١٧ القعدة سنة ١٣٠١ ثم رقي في ٢٤ شعبان سنة ١٣١٤ الى رتبة الفريق وأحيل على المعاش وفي مدة الثلاث والثلاثين سنة التي خدمها في هذه الباخرة من سنة ١٢٨٢ الى ١٣١٤ سافر عدة سفريات الى جميع مين البحر المتوسط الابيض والى لوندره وفي البحر الاحمر ونال في خلالها مدالية حرب الروسية (١٢٩٥) والنجمة المصرية (١٣٠٠) ومداليتي الامتياز الذهب والفضة (١٨٩٣) والنشان المجيدي الثالث (١٣٠٠) والعثماني الثالث (١٣٠٢) والمجيدي الثاني ١٣٠٨ وعند احالته على المعاش كتب له الجناب العالي أمرا مدح فيه خدماته الصادقة

Digitized by Google

كثيرا ما يقلقون راحة البلاد وربما تغرهم أنفسهم الى أن يطرقوا أغنى المدن المصرية حتى القاهرة نفسها اذا علموا أنها خالية من القوة العسكرية ولكن يجب أن تكون هذه القوة ساكنة غير أن مجرد استخدامها يعتبر دليلا على أن الادارة قصرت في تلافي بعض الخطوب بطريقة فعالة على حين كان يجب أن يستدركها . وعندي أن تنظيم جيش مؤلف من ستة آلاف رجل يكفي للقيام بالغاية التي أشرنا اليها ويجب أن يكون هذا الجيش مصريا محضا أي نعم ان من كان في مركز سمو الخديو ولاسيما بعد الكوارث الحديثة يميل كل الميل الى استئجار قوة عسكرية تحوطه كما كان دأب الحكام الشرقيين في سائر الاعصار ولكن ليس من لزوم لمثل هذه الاحتياطات . أما الجيش ولو أنه منتظم بطريقة تستدعي الارتكان عليه في القيام بمطالب الحكومة الشرعية فلا يلزم أن يكون تنظيمه بطريقة تجعله كآلة عمياء للجور والظلم بل يجب تأليفه بطريقة يعلم منها القابضون على زمام الاحكام انه لم ينتظم ليستخدم في المقاصد الاستبدادية المؤسسة على مبادئ الظلم . وأنه وان يكن من الواجب للوصول الى هذه الغاية منع استخدام العنصر الاجنبي سواء كان من الالبانيين أو الاناطوليين أو غيرهم الا أنه لا يترتب على ذلك أن يبعد من الخدمة من كان من الاتراك المصريين مترشحا لنوال رتب سامية في العسكرية بل من الحكمة أن تقوى صفوف عساكر الفلاحين الضعفاء بعنصر قوي مجرب وذلك بأن ينتظم معهم أبناء أولئك المحاربين الباسلين الذين حملوا راية المغفور له محمد علي باشا من مصر الى قونيه وبناء على مجرد ارادة الخديو ووزرائه ارادة مطلقة سيجعل الجيش المصري مدة من الزمن تحت قيادة جنرال انكليزي ويعين بعض ضباط انكليزيين أيضا في بعض الفرق ولعمري ان لزوم اتخاذ هذه الطريقة لا يحتاج الى دليل وبرهان ولا يمكن أن تلام الحكومة المصرية عليه اذا كان من نيتها ترتيب جيش قوي فعال أكثر من تلك القوة التي بعد ان أقدمت بادئ بدء على الفتك برؤسائها برهنت أنها غير قادرة على الذب عن الدعوى التي كانت متمسكة بها وكانت علة لعصيانه ومن المعلوم أن عيب الجيوش المصرية كان ناشئا عن عدم كفاءة الضباط فمن الضرورة حينئذ ازالة ذلك العيب بواسطة رجال ذوي كفاءة واستعداد في الامور العسكرية يعلمونهم ويكونون قدوة لهم أما القيادة العليا للجيش فتبقى على الدوام الى سمو الحضرة الخديوية ولكن لا يكون وجود الانكليزيين حائلا دون ترقي الوطنيين أو مانعا لهم من تولي الرتب السامية واختير أن تقسم البيادة المؤلفة من ثماني أورطات الى لواءين ولا تستخدم الضباط الانكليز الا في أحدهما فقط بمعنى أنه يخصص من الثماني اورط أربع ينال فيها المصريون جميع الوظائف ويكون قائدها العام جنرالا مصريا وأما الاربع الباقية فيكون أمراء آلاياتها وقائمقاماتها من الانكليز ويلحق بها أيضا ثلاثة من الضباط الانكليز للاستعاضة بهم مؤقتا عن يتغيب أو يعرض من أولئك الموظفين فيها . وعلى هذا النمط تجري خدمة الطوبجية التي ستؤلف تحت امرة أميرالاي انكليزي من أربع بطاريات اثنتان منها مركبتان من ١٢ مدفعا يكون لكل منهما ضابطان انكليزيان والاثنتان الاخريان المركبتان من ثمانية مدافع يتولى أمرهما ضباط مصريون . وسينتظم فريق السواري من خمسمائة فارس يتولى الوظيفتين الاولى والثانية فيه قائدان انكليزيان ويعين انكليزي آخر بوظيفة دونهما وستؤلف أورطة من مائتي رجل لركوب الهجن وأورطة أخرى من مهندسي الاستحكامات وأن يرفع راتب العسكري من عشرين الى ثلاثين غرشا في الشهر . أما الضباط الانكليز فسيكون استخدامهم

بمقتضى

بمقتضى اتفاق يشترط فيه الزامهم بتعلم اللغة العربية وتأدية امتحان فيها بعد زمن تحدد مدته فى تلك المواثيق ويكون مجموع الضباط الانكليز ٢٧ ضابطا وهاك بيان القوة التى يتألف منها الجيش المصرى ٥٦٠ من السوارى ٤٦٤ الطوبجية معهم ٢٠ مدفعا أربع بطاريات ٢ ٤٧١ بياده ثمان اورط ٢٠٥ هجانه ١٠٤ مهندسون ١٠٢ طوبجية سواحل ومجموع ذلك ٦١٤٧ بين ضباط وأنفار وفى هذا التقرير من الاقوال الحكيمة ما لا يخفى على البصير ولكن لسوء الحظ لم يعمل بكل ما جاء فيه الا وقتيا ثم أهمل بعضه وألغى البعض الآخر كما تعلمه مما يأتى وعلى ذلك صدر أمر عال بانشاء الجيش الجديد (ديسمبر سنة ١٨٨٢) وأرسلت الحربية اللواء يوسف شهدى باشا الى المديريات لجمع العساكر من مواليد سنة ١٢٧٨ على مقتضى قانون قرعة سنة ١٢٩٦ الموضوع فى مدة المرحوم عثمان رفقى باشا وصدر أمر أيضا بان يكون الجنرال السيرافلن ودسردارا للجيش المصرى (Sir Evelyn Wood) ورئيس الاركان حربه رتبة فريق فأخذ هذا فى انتقاء الضباط الانكليز وكانوا جميعهم من المنتظمين فى سلك الجندية الانكليزية العارفين باللغة الفرنساوية على مقتضى شروط حررها معهم قد استنسبنا ذكرها بأسفل الصحيفة اتماما للفائدة كعادتنا فى ذلك (١) ثم انتخب من الضباط المصريين الذين لم يتداخلوا فى الثورة ومن الذين انتخبتهم لجنة الانتخاب التى شكلت تحت رئاسة طه باشا كما سبق فأدخلهم فى الاورط الجديدة وفى فرق الطوبجية والخيالة والهجانة وقسم الجميع الى لواءين جعل لقيادة اللواء الاول الجنرال

---

(١) شروط دخول ضباط الانكليز فى الجيش المصرى • يلزم ان ضباط الانكليز الذين يدخلون فى العسكرية المصرية يكون لهم المام بالكتابة والقراءة فى اللغة الفرنساوية ويلزم أيضا أن يعطوا امتحانا ابتدائيا فى العربى الدارج المتعارف من بعد مضى سنة شهور من دخولهم العسكرية وامتحانا آخر بعد اثنى عشر شهرا * الضباط الذين يعطون الامتحان الثانى بشرف يدفع اليهم مائة جنيه مكافأة * يسوغ للضابط الانكليزى أن يترك العسكرية المصرية بناء على طلبه بعد أن يخبر بذلك قبل ثلاثة أشهر مقدما ويأخذ استحقاقه لآخر يوم خدامته فى العسكرية واذا استغنت الحكومة المصرية عن خدمته فيعلن قبل ثلاثة أشهر ويعطى له مكافأة شهر عن كل سنة أمضاها فى خدامات العسكرية سواء كان مستخدما على حسب هذه الشروط أولا والمكافأة لا تكون فى أى حالة أقل من ماهية ثلاثة شهور * الضابط الذى يرفت من الخدمة باقرار السردارية بناء على سوء سلوكه لا تعطى اليه مكافأة وانما يعطى له مصاريف السفرية لحد انكلتره أو الهند على حسب مقتضيات الاحوال * لكل ضابط الحق بحسب دواعى المصلحة أن يأخذ فى كل سنة اجازة شهرين بدون استقطاع أو تنقيص ماهيته وعلى أى حال لا تتجاوز الاجازة عن شهرين فى كل سنة انتهت أو ابتدأت فى خدامات الحكومة المصرية سواء كان الضابط مستخدما على هذه الشروط أم لا * فى حالة مرض أى ضابط يسوغ للسردار أن يعطيه اجازة مرض على حسب ما يراه موافقا ويستنسبه * ماهية الضابط الآتى من انكلترة أو من أى محل آخر الى مصر تبتدئ من أربعة عشر يوما قبل وصوله الى مصر وتوقيف الماهية يكون بعد أربعة عشر يوما بعد ان يركب وابور البحر أو بعد انتهاء شروط دخوله فى الخدمة ويعطى لكل ضابط يترك الخدمة المصرية ٣٠ جنيها متى كان متوجها الى انكلترة و ٥٥ جنيها علاوة لكل ضابط يكون عائدا الى الهند ولا تعطى هذه المبالغ الا اذا قدم الضابط شهادة دالة على انه أخذ تذكرة الوابور واذا انتهت خدمة الضابط لمناسبة مرض اعتراه فى خدمة الحكومة المصرية يعطى اليه ماهية ثلاث شهور مكافأة ولكن لا ينبغى ان هذه المكافأة مع الماهية التى أخذها سابقا تتجاوز ماهية سنتين * كل ضابط انكليزى يكون له حصان ويكون مشتراه من طرفه يعطى عليقه باقرار السردار وتصديق ناظر الحربية * كل ضابط مستخدم يعتبر فى التجربة مدة ثلاثة شهور واذا استغنى عن خدماته بعد انتهاء هذه المدة تكون الشروط الموضحة أعلاه ملغاة الاجراء ما عدا مصاريف السفرية والمرتبات والعليقة

Digitized by Google

سيرغرنفل باشا (Sir F. W. Grenfell) وجعل معه من الضباط الانجليز هانباربك (H. Parr) وشرمسايدبك (H. Smith) وهولداسمث بك (A. S. Wynne) وونبك (H. E. Chermside) وجعل اللواء الثانى تحت قيادة يوسف شهدى باشا وجعل معه من الضباط المصريين عبد الرحمن بك سليم وخورشيد بك سمى وحسين بك المرعشلى والفى بك يوسف وشكلوا أيضا أورطة سودانية جعلت قيادتها الضابط انجليزى يدعى هنتربك (A. Hunter) وأورطة أخرى من الاتراك جعلت قيادتها الى جرنت بك وجعلت الطوبجية تحت قيادة الميرالاى دنكن بك (F. Duncan) وقسم الخيالة تحت قيادة تيلربك (J. C. Tyler) وبذلك أمكن الاستعاضة بالعساكر المصرية عن العساكر الانجليزية التى كانت تحرس السراى الخديوية والمبانى العمومية ثم نظموا أورطة تعرف باورطة الاساس جعلوا عليها أيضا بعض ضباط الانجليز وعين السردار عدة ضباط من الانجليز جعلهم أركان حرب له وغير ذلك ومما أوجده هذا السردار الذى خدم مصر بصداقة وذمة لا ينساهما المنصفون من الجنود نشرة عسكرية دعيت بالاوامر العسكرية لنشر كل ما يتعلق بأحوال الجيش من تعليمات وتنقلات وإجازات وتعيينات ومحاكمات وغيرها وترجم من الانجليزية عدة قوانين لادخالها بالجيش المصرى وقد مدحت الجرائد الانجليزية على الجنرال وود وقالت بعضها ان من الواجب على هذا القائد ان ينظر فى أمرين أولهما تمرين جيشه على الفنون العسكرية وثانيهما ان يعامل ضباط وافراد الجيش معاملة لائقة من حيث مراعاة أميالهم وأخلاقهم ليتم بذلك النظام هذا وجعل السردار للسردارية ادارة خاصة أناط بها كل أعمال نظارة الحربية وأحدث غير ذلك من الادارات كادارة اللوازمات ويتبعها مخازن الجيش والذخائر الحربية وأبقى أقلام نظارة الحربية تابعة لناظر الحربية كما كانت وجعل للجيش ادارة طبية وادارة بيطرية وغير ذلك من الاصلاحات التى هى فى حد ذاتها مفيدة مهمة كما هى باوربا ولما انتظم الجيش المصرى واستعرضه السردار امام الحضرة الخديوية وشهدت له قواد جيش الاحتلال بالكفاءة خفضت انجلترة عدد جيشها من مصر فجعلته ٦٧٦٣ جنديا (أغسطس ١٨٨٣) ولما سيرت انجلترة جنودها بصحبة العساكر المصرية على السودان لتخليص الجنرال غوردون (١٨٨٤ - ١٨٨٥) تحت قيادة لوردولسلى زيد فى عدد الجيش المصرى وقد ساعد الجيش المصرى الجيش الانجليزى فى الحملة المذكورة مساعدة استحق عليها شكر ومدح اللورد المذكور وقد نال فخرا عظيما فى واقعة كورتى (١٦ ديسمبر ١٨٨٤) هذا وفى أوائل ابريل من سنة ١٨٨٥ م استعفى الجنرال وود من سردارية الجيش المصرى فعين الخديو بدله الجنرال فرنسيس غرنفل باشا وجعل شرمسيد بك حكمدارا لسواكن لازدياد الاضطرابات بأطرافها وأمرته الحكومة بأن يتوسط باسمها لدى ملك الحبشة لانقاذ الجنود المصرية التى يحاصرها المهديون كما سيأتى ثم نقل شرمسيد الى الحدود قائدا برتبة لواء (٢٠ اكتوبر سنة ١٨٨٦) وجعل مكانه على سواكن وتسون باشا (٥ مايو سنة ١٨٨٦) وهو من موظفى نظارة الحربية وفى تلك الاثناء وضع قانون جديد للقرعة العسكرية وصدر الامر العالى بالعمل بمقتضاه (٩ جمادى الثانية ١٣٠٢ - ٢٦ مارس ١٨٨٥) وجعل يوسف شهدى باشا مفتشا عاما للقرعة العسكرية وقال السيردرومندولف فى رقيم له بعثه الى مركيز سالسبورى انه لما رفض تقرير مختار باشا وطلب

وقتها

وقتها منه تغيير تقريره وامتنع فبناء على امتناعه نظم الضباط الانكليز الجيش المصري على حالته الحاضرة اه أما التنظيم الجديد فهو انهم ألغوا وظيفة قومندانى اللواءين من الجيش وجعلت كل أورطة من الاسلحة قائمة بذاتها يتبع بعضها قومندان قسم المحروسة وهى الوظيفة التى جددت بدل وظيفة اللواء الملغاة وبعضها حاميات سواكن والحدود التى وضعت تحت قيادة محافظى سواكن والحدود ثم سافر يوسف شهدى باشا مفتش عموم القرعة للتفتيش على أعمال المجالس المذكورة بعد انفصاله من وظيفة اللواء وسافرت معه وظهر لنا أثناء ذلك بعض ملحوظات استدعت وضع ذيل لقانون القرعة العسكرية وصدر بتنفيذه أمر عال (١١ جمادى الثانية ١٣٠٣هـ - ١٧ مارث سنة ١٨٨٦) وفى خلالها كانت المخابرات جارية بين انكلتره والباب العالى بخصوص تسوية المسئلة المصرية قال السير درومندولف فى رقيم له الى مركيز السبورى ان الصدر الاعظم سألنى عن عدد الجنود التى يؤلف منها الجيش المصرى وان رأيه أن يكون مؤلفا على الاقل من سبعة عشر أو ثمانية عشر الفا فاجبته بأن مالية البلاد لا تحمل نفقة هذه الكمية من العدد فضلا عن كونه غير لازم بالنظر لوجود نحو سبعة آلاف عسكرى بين جندرمه وبوليس وهذا القدر كاف لحفظ النظام الداخلى المعهود الى القوة المدنية وأما العساكر الجهادية فوجودها لحماية البلاد من الاعتداء الخارجى والحال أن فى الاوقات العادية يكفى لحماية القطر نصف العدد الذى ذكرتموه لفخامتكم الى أن قال وسألنى أيضا عن السبب الذى حال دون قبول المشروع الحربى الذى قدمه دولتلو مختار باشا وعما اذا كان ينبغى تعديله الآن فأجبته أن ذلك يستلزم الاستيلاء على دنقله وهذا مخالف للبند الثانى من الوفاق وبخلاف ذلك فان دولة الغازى طلب ارسال جيش جرار لا تستطيع البلاد أن تقوم بنفقته ويوجد موانع أخرى خلاف هذه منها انى قبل ابرام الوفاق المذكور طلبت غير مرة أن ترسل الى مصر عساكر سلطانية عثمانية لقمع ثورة السودان فرفض الجناب السلطانى ذلك اه وبعد هذه المحررات التى يطول شرحها تقرر جعل الجيش المصرى عشرة آلاف مقاتل فاستدعى السردار بناء على ذلك فى سنة ١٨٨٦ نيفا و ٥٧٠٠ جندى نظمهم فى الجيش ثم شكل المجلس العسكرى العالى المستديم وجعله تحت رئاسة زهراب باشا لمحاكمة كل من استعمل غشا أو تحايلا فى أعمال القرعة العسكرية ثم انه فى شهر مايو من سنة ١٨٨٦ عين الخديو يوسف شهدى باشا مندوبا عاليا من قبله لمخابرة مشايخ الحدود بحلفا وحملهم على مسالمة الحكومة المصرية والانقياد اليها ومخابرتهم أيضا عن اعادة التجارة مع السودان لان الكساد الذى أصاب تجارة السودان جعل الحكومة المصرية تلتفت لذلك فقام فى أثنائها أحد ضباط الانكليز وهو الكولونيل جروف (Grove) وقدم تقريرا ذكر به ان فتح التجارة مع السودان ليس بالامر المهم ويقول أيضا ان امر اعادة التجارة مع السودان يصعب تقريره مادامت الدراويش مستمرة على مهاجمة الحدود المصرية وفى ذلك الوقت جعل ونجت بك رئيسا لادارة القرعة بدلا من يوسف شهدى باشا وتعينت أنا وكيلا له بوظيفة مساعد للادجوتانت جنرال فى أعمال القرعة برتبة بكباشى ولما تشكل قلم المخابرات جعل ونجت بك مديرا له وجعل زهراب باشا مكانه فى القرعة العسكرية وجعل الميرالاى محمد نسيم بك رئيسا للمجلس العسكرى العالى المستديم ومن أخبار الحربية أيضا ان جعل كتشنر باشا محافظا لسواحل البحر الاحمر (٧ سبتمبر ١٨٨٦) وأحيل قلم السودان على قلم

Digitized by Google

المخابرات وجعل اللواء محمد مختار باشا مساعد الادجوتانت جنرال بالقسم العربي بالسردارية وعين هولدسمث باشا (Holled Smith) قومندانا للحدود بدل سرمشيد باشا وبعد قليل تعين ودهوس باشا (J. H. Wodhouse) محافظا لمديرية الحدود وجعل هولدسمث باشا محافظا لجهات سواكن (١٣ سبتمبر) ولما كانت أحوال السودان تحتاج للعناية بها لاخماد ثورتها طلب السردار غرنفل باشا زيادة عدد الجيش المصري فأجيب طلبه وبلغ الجيش وقتئذ نيفا و (١٤٥٠٠) مقاتل وصدر أمر خديوي بجعل الجنرال كتشنر باشا بوظيفة ادجوتانت جنرال بدل بار باشا الذي كان بوظيفة ادجوتانت جنرال منذ سنة ١٨٨٥ م ثم أحيل عليه أيضا تفتيش عموم البوليس (١٨٩١) ولما تعين اللواء محمد مختار باشا رئيسا للمجلس العسكري العالي جعل محمد بك زهري مساعدا لادجوتانت جنرال بالقسم العربي مكانه ثم لما عينت الدولة البريطانية السير غرنفل باشا في جيشها (مارس سنة ١٨٩٢) أصدر سمو الخديو عباس باشا أمرا بجعل الجنرال كتشنر باشا سردارا للجيش المصري برتبة فريق وجعل رندل باشا بوظيفة ادجوتانت جنرال وستل باشا مفتشا عموميا للبوليس وسموا نطاق قلم المخابرات وجعل ونجت بك مديراله وأوجدوا بالحربية قلما يقال له قلم السكرتير المالي جعلوا لرئاسته جاكسون بك (H. W. Jackson) ثم خلفه أوليري بك (W. E. O' Leary) وجعل روجرس بك (J. Rogers) مديرا لقلم التعيينات وغوردون بك (W. Gordon) مديرا لادارة المهمات وأضافوا اليه أمر الجبخانات وقسم الهندسة وجعلوا الميرالاي مكسويل بك (J. G. Maxwell) بوظيفة كاتم لاسرار الحربية وجعلوا جالوي بك (F. J. Gallwey) طبيبا عاما للجيش وأحالوا عليه المستشفيات العسكرية ولما انتقل محمد مختار باشا الادارة الخاصة الخديوية أعيد فضلي بك لرئاسة المجلس العسكري العالي وكان تعين مأمورا للجبخانات ولما استعفى هولدسمث باشا من محافظة سواكن جعلوا مكانه لويد باشا (G. F. Lloyd) ١٨ سبتمبر ١٨٩٤ وجعلوا هنتر باشا محافظا للحدود ١٨ سبتمبر سنة ١٨٩٤ وفي أثنائها تعين زهراب باشا وكيلا لنظارة الحربية ورقي كل من محمد زهري باشا وأحمد فضلي باشا الى رتبة لواء وجعل الاخير منهما مكان زهراب باشا في رئاسة القرعة العسكرية ولما استعفى لويد باشا خلفه في محافظة سواكن برسونز باشا (C. G. B. Parsonis) ولما أقرت الحكومة على اعادة فتح السودان المصري في أوائل سنة ١٨٩٦ زادت عدد الجيش فجعلته ثمان عشرة أورطه بياده وخمسة بلوكات هجانة وست أرط خيالة وخمس بطاريات طوبجية غير أورط انشاء السكك الحديدية التي أخذوا يعدها كلما تقدموا ليسهل نقل الجنود والذخائر والى هنا انتهى ما أردنا ذكره مجملا من أخبار العسكرية الجديدة التي شكلت بمصر بعد الغاء الجيش القديم وما حدث فيها من التغييرات المهمة ولما كانت المدارس الحربية من أهم أركان الجيش أردنا ذكر أحوالها مجملة أيضا تنويرا للقراء .

المدارس الحربية — لا يخفى أنه لما ارتبكت أحوال المالية المصرية سنة ١٨٧٩ وقرر مجلس النظار يومئذ وجوب توفير شيء من نفقات الجيش ألغت الحكومة جميع مدارسها الحربية التي أوجدتها في أول حكم الخديو الاسبق اسمعيل باشا الا أن المرحوم توفيق باشا أصدر أمرا بعد ذلك باعادة تشكيلها اذ لا غناء للجيش عنها وجعلت تحت نظارة اللواء لارمي باشا

الفرنسوي

الفرنسوى وألحقوا بها ٨٠ تلميذا وقسمت الى أربعة أقسام وجعلوا دراسة القوانين والتعليمات العسكرية على ثلاثة أقسام قسم للبيادة وآخر للسوارى وقسم للطوبجية وكان بكل فرقة من هذه الفرق بعض تلامذة يدرسون أعمال أركان الحرب والمهندسون العسكريون كانوا ينتخبون من أرقى طلبة الفرق المذكورة ورتب لذلك البروجرام اللازم وذكرت فيه العلوم والمواد التدريسية فكانت العلوم التى تدرس بموجبه علم المستويات الرقية والجبر والرياضة والهندسة الوصفية والهندسة العادية والحساب العادى والمثلثات المستقيمة والكيمياء والطبيعة والجغرافيا والقسمغرافيا والرسم العملى والرسم النظرى واللغة العربية والانكليزية والفرنساوية وحسن الخط وفن الطوبجية والاكتشافات العسكرية وفن الاستحكامات والطبوغرافيا العسكرية وقوانين البيادة والطوبجية والسوارى وتعليم ركوب الخيل وتعين لتدريس ذلك مايلزم من المدرسين(١) ثم لما أمر الخديو محمد توفيق باشا بتشكيل لجنة عسكرية (٢١ جمادى الاولى من سنة ١٢٩٨) للنظر والبحث فى القوانين والنظامات العسكرية والترتيب الذى عليه المدرسة الحربية لايجاد ماينبغى اجراؤه فيها من التعديلات سنت اللجنة المذكورة قانونا للمدارس الحربية وصدر الامر الخديوى بتنفيذه (٢٦ اكتوبر سنة ١٨٨١) وكان ذلك فى وزارة شريف باشا وكان محمود سامى باشا وقتئذ ناظرا للجهادية والبحرية فجاء هذا القانون بأحسن التعديلات اللازمة (٢) وقبل أن يحصل تنفيذ هذه النظامات اشتعلت نيران الثورة العرابية فحالت دون تنفيذها وبقيت المدرسة الحربية سائرة على نظامها السابق حتى انتهاء سنة ١٨٨٧ حيث أدخل فيها النظام الجديد وعين لها السردار غرنفيل باشا البكباشى هوليوت (Huleatt) قومندانا ووضع لها كويرك بك (J. O. Quirk) مذ كان نائبا عن الادجوتانت جنرال نظامها الداخلى وازداد عدد التلامذة يومئذ حتى بلغ ٩٠ تلميذا وقسمت الى أربع فرق وبتبعها فرقة للسودانيين وجعلت الدراسة نوعين دروس مشتركة لجميع التلامذة ودروس مرتبة على حسب الفرق فالمشتركة هى القوانين والتعليمات العسكرية والجغرافية واللغة الاجنبية والطبيعة والكيمياء والرسم والخاصة هى الطبوغرافيا والاستحكامات والتمرينات فى الطوبجية والسوارى والجنباز والشيش ثم لما ازداد عدد الجيش زادت السردارية عدد التلامذة حتى أبلغتهم ٢٠٠ تلميذ وقسموا

(١) وهم عبد الرحمن بك على ومحمد افندى كامل وبكير افندى شوقى وابراهيم افندى مزنى وعبد الله افندى نصرت وحسن افندى لمبى وعثمان افندى عفت ومحمد افندى حلمى وعبد الباقى افندى حلمى والمستر ديكسون والموسيو بونديه وحسن افندى بخيت والشيخ محمد الربانى

(٢) فكان يحتوى على تسعة أبواب بها ٧٦ مادة بها جميع ماتحتاجه المدرسة من الاصلاحات (الباب الاول) يحتوى على مايختص بمستخدمى المدارس الحربية (والباب الثانى) يحتوى على مايختص بكيفية قبول التلامذة ومدة اقامتهم بها وتقسيمهم الى فرق (والباب الثالث) يحتوى على مايختص بالعلوم اللازم تدريسها (والباب الرابع) يحتوى على مايختص بمجلس معارفها (والباب الخامس) يحتوى على مايختص بالامتحانات وترتيب درجات التلامذة (والباب السادس) يحتوى على مايختص باشغال التلامذة العلمية ومايتعلق بالمدرسين والمساعدين (والباب السابع) يحتوى على مايختص بالتعليمات العسكرية والتعليمية (والباب الثامن) يحتوى على مايختص بالخدمات الداخلية فى المدرسة وبالضبط والربط والمكافآت والعقوبات (والباب التاسع) يحتوى على مايختص بالادارة فى المدرسة الحربية

Digitized by Google

الى ثمانى فرق ولما تعين المستر براين (H. E. Brian) بوظيفة معلم أول للمدرسة ومدرس لعلم الرياضة والجبر واللغة الانكليزية (٥ ستمبر ١٨٨٩) أصدر السردار أمرا (٩ يناير ١٨٩٠) مبينا الاختصاص كل من القومندان والمعلم الاول فكان اختصاص القومندان النظر فى كل ادارة المدرسة وكان اختصاص الثانى النظر فى بروجرامات وجداول التدريس ومايخص التعليم ونقح البروجرام القديم بحيث جعلت العلوم والفنون التى تدرس فى المدرسة بكيفية تناسب الظروف واحتياجات الجيش والعلوم المذكورة هى الحساب والجبر والهندسة العادية والجغرافيا والتاريخ والرسم وحسن الخط واللغة العربية والانكليزية والفرنساوية وفن الاستحكامات والطبوغرافيا العسكرية وقوانين البيادة ثم الجمباز وتمرينات الطوبجية والسوارى ثم تعين القائمقام دون بك (B. D. A. Donne) قومندان أورطة الاساس قومندانا للمدرسة ولما انتهت مدته خلفه القائمقام فريث بك (H. C. Frith) (٩ ابريل ١٨٩٣) وفى اثناء ذلك توفى لارمى باشا ناظر المدرسة فصدر أمر السردار كتشنر باشا بتعيينى مكانه ناظر المدرسة المذكورة (ستمبر ١٨٩٣)

ولما انتهت مدة فريث بك المذكور من خدمة الجيش المصرى نصب مكانه أوليرى بك (٢١ اكتوبر ١٨٩٥) الذى تعين بعد قليل سكرتيرا ماليا للحربية (١٨٩٦) ومن ذلك الوقت لم يتعين للمدرسة قومندان لاشتغال الجيش باسترداد السودان وقد ترقى من المدرسة منذ توليت نظارتها الى نهاية سنة (١٨٩٧) نحو ٣٥٢ ضابطا بالجيش منهم ٢١ فى الطوبجية و ٣٣ فى السوارى و ٩ فى الهجانة و ٢٧٨ للبيادة و ٥ للبوليس و ٤ للبحرية و ٢ لادارة التعيينات العسكرية

السودان المصرى وحروب المتمهدى — اعلم انه لما استعفى غردون باشا فى أول حكم المرحوم الخديو توفيق باشا من حكمدارية السودان (نوفمبر ١٨٧٩) كما تقدم أصدر الخديو أمرا بتعيين محمد رؤف باشا مكانه (مارس ١٨٨٠) وأمرا آخر يشمل التعليمات التى رأت الحكومة وقتئذ لزوم وضعها لادارة تلك الاقطار الشاسعة وقد أدرجناها بأسفل الصحيفة لاهميتها كما هى عادتنا وهى تشتمل على اصلاح المالية والادارة الملكية ومنع تجارة الرقيق وغير ذلك (١) وكان غوردون باشا تمكن فى مدة ولايته من ابطال بيع الرقيق وشدد فى ذلك جدا حتى انه عاقب

(١) انه نظرا لثقتنا بما أنتم متصفون به من الاهلية لاداء المأمورية المهمة المفوضة لامانتكم والحالة هذه لانرى لزوم اسهاب فى شرح وتفصيل ما يجب اتخاذه واجراؤه من الوسائط والاعمال المؤدية لنجاح مأموريتكم التى نحن ناظرون اليها بعين الاهمية وهى تقدم وانتظام أحوال مملكة واسعة مثل السودان وبذل مايجب من المساعى للوصول الى توطيد أسباب عمارها وتمدن ورفاهية أهاليها بتوسيع نطاق دائرتى التجارة والزراعة اللتين هما أعظم منابع الثروة العمومية انما نرى من اللزوم استجلاب دقة نظركم الى بعض مواد مهمة وهى الآتى ذكرها (أولا) مالية السودان وكما لا يخفى ان اللفظة المالية تشمل كافة مايلزم ويمكن تقريره وتحصيله من الاموال والعوائد بطريقة لا يتأتى منها الاضرار بحالة الاهالى ولا الاجحاف بحقوق الخزينة وكذا تقدير مايلزم من المصاريف بالنسبة لحالة البلاد واحتياجاتها بشرط أن تكون كافلة لحسن ادارة المصالح العمومية بصورة منتظمة وعلى هذا فأول واجب عليكم هو تنظيم ميزانية مستوفية من كافة ايرادات ومصروفات الحكمدارية ببيان أنواعها أو مفرداتها بغاية الضبط والدقة وحصر مايكون موجودا من الديون بأنواعها وأسماء أربابها وكيفية الوصول الى سدادها هذا ومن اللزوم أن الحكومة

كثيرا

كثيرا من النخاسين بعضهم بالسجن والبعض بالقتل قال حضرة جبرائيل جداد افندي في كتابه المسمى تاريخ الحرب السودانية ان كل عادة تمكنت في بلاد لا تقلع منها دفعة واحدة من غير مقاومة ونفور وهياج ممن تمكنت فيهم طبقا لما فطرت عليه الطباع من الارتياح الى القديم المألوف والنفور من الجديد غير المألوف ولو لم يكن بذلك صالح فكيف ومعظم الصالح متوقف عليه ولهذا لم تخل سياسة غوردون في السودان من محل للانتقاد والملام ولا يسع المنصف ان ينكر انها آلت من قبيل منع النخاسة الى ابتعاد قلوب الاهالي عن الحكومة المصرية ونفورهم منها وحقدهم عليها اهـ ولما سافر رؤف باشا الى مقر وظيفته مر بأكثر مراكز الحكومة لتفقد الاحوال وكان يصحبه الميرألاى محمد مختار بك بوظيفة أركان حرب له وأبدلت الحكومة أيضا حكام الاقاليم فعينت القائمقام محمد بك اسكندر مديرا لكردفان وعلي بك رائف مديرا للفضارف ورجب بك صديق مديرا للتاكه وحسين بك شكري مديرا لسنار وابراهيم بك الصبان مديرا لبربر ثم شرع محمد مختار بك ومعه بعض الضباط في اجراء الاكتشافات ووضع الخرائط لجهات بربروقوز رجب وكسلا وعطبره والقلابات والقضارف بشرقي السودان وتوغلوا في جهات لم تطأها قبلهم قدم سائح مثل جهات البازات الداخلة والخارجة وخور الخاش وغيرها ولما عادوا الى الخرطوم سار الضابطان علي افندي زكائي وعلي افندي خيري الى سنهيت لمساعدة البعثة الاكتشافية التي مع راشد كامل باشا فومندان حدود الحبشة تحت رئاسة البكباشي محمد عزت افندي وكانت مكلفة برسم خريطة حدود الحبشة من مصوع الى جبال رهينة الواقعة قبلي نهر الرهد بقليل ولما تمت الخرائط المذكورة بعثوها الى الجنرال

تكون عالمة بكافة أحوال السودان اجمالا وتفصيلا وبالمثل أنواع الضرائب والعوائد وسائر الاموال المقررة والجاري تحصيلها وكيفية استعمالها وصرفها فينبغي أن ترسلوا صورة من هذه الميزانية الى نظارة المالية واستمرار ذلك سنويا وأن تقدموا الى النظارة المشار اليها في كل ثلاثة شهور حساب ايرادات ومصروفات الحكمدارية بالبيان الكافي وذلك كالجاري بكافة مصالح الحكومة وبما ان كافة ما يتعلق بالمواد المالية والحسابية مرجع الامر فيه هو الى نظارة المالية فجميع ما يقتضيه الحال من المخابرات والاستئذانات في هذا الشأن يكون خاصا بالنظارة المشار اليها (ثانيا) الادارة الملكية يلزم تنظيمها واجراؤها على صورة تلائم أحوال تلك البلاد أما ما يختص بهذا القسم من المخابرات وما يتراءى لزوم تغييره وتبديله من المواد والنظامات ذات الاهمية وعزل وتنصيب أرباب المناصب الرفيعة مثل المديرين ووكيل الحكمدارية وما يتعلق بالادارة الملكية والاحوال الداخلية مما من شأنه استحصال أوامرنا عن جميع ما ذكر من هذه الانواع فينبغي أن تكون المخابرة عنه مع نظارة الداخلية وأما ما يتعلق بالامور القضائية سواء كانت شرعية أو نظامية فتجرونه على قواعده المتبعة والحالة هذه انما ما يختص بهذا القسم من المخابرات أو ما ترون لزوم اجرائه من الاصلاحات يجب أولا المخابرة عنه مع نظارة الحقانية ثم ان الرخصة التي كانت ممنوحة لاسلافكم بتنفيذ ما يصدر من الاحكام شرعية كانت أو سياسية في المواد القضائية الحقوقية والجنائية قد أبقيناها لعهدتكم أيضا ما عدا أحكام القصاص الواجب استحصال أوامرنا عنها (ثالثا) القسم العسكري من المهم عند وصولكم الى مركز الحكمدارية ان توجهوا انظاركم والتفاتاتكم الى تنظيم واصلاح الحالة العسكرية حسبما يقتضيه احتياج تلك البلاد لتوطيد الامن والنظام العام بكافة أنحاء المملكة خصوصا تقوية حدود الحبشة والمحافظة عليها في الحالة الراهنة مع ما يترتب عليه الامن والاطمئنان للوقاية من وقوع أدنى مهاجمة على هذه الحدود لانكم عارفون جيدا بأفكارنا وأفكار أعضاء حكومتنا في هذه المسئلة وهي اننا لا نقصد أي تجاوز كان على جيراننا ولا نريد أي فتوح جديدة انما جل قصدنا المدافعة بغاية البسالة اذا وقع أدنى تعد على حدودنا فهذه الافكار هي التي تكون أس أعمالكم في ترتيب وتنظيم عسكرية السودان مع مراعاة اجراء القانون العسكري وكافة ما يتعلق بهذا القسم من المخابرات والاستئذانات هو خاص بنظارة الجهادية هذا ومع بقاء حيازتكم الرخصة المعطاة لاسلافكم بتنفيذ أحكام القانون العسكري في الجنايات وسائر الاحوال حسب ما تصدر

Digitized by Google

استون رئيس أركان الحرب فدرجها فى الخريطة العمومية التى كان يباشر عملها من النتائج المتحصلة فى مدة الثمانى عشرة سنة التى انقضت فى الفتوحات والاكتشافات والمباحث العلمية والمراجعات الفنية ولما أتم محمد رؤف باشا التفتيش على مراكز السودان الشرقى وأصلح ادارتها قصد الخرطوم بصحبه محمد لبيب بك وكان قومندانا لموقع أم ديب ولما أخذ فى تنفيذ الاصلاحات المتقدمة الذكر اعترضه عقبات كثيرة حيث لم يكن يعلم شيأ عن ثورة الافكار فى السودان وأن أحوالها على وجه العموم كانت وقتئذ مضطربة والكثير من الاهالى تركوا زراعتهم وعمدوا الى تحصيل معايشهم بالسطو والسلب وبيع الرقيق خفية حتى تعسر على رجال الحكومة جباية الخراج ووجد عساكر الباشبوزوق والشايقية وغيرهم من الجنود المحكمة يستعملون القسوة فى معاملة الاهالى الذين نفروا من ادارة الحكومة وتمكن الحقد فى قلوبهم عليها وصاروا يتوقعون بابا للفرج أو مناصا يمكنهم من شق عصا طاعتها قال الموسيو هنس رزنر فى كتابه وكان الاوروباويون والمصريون مبغوضين عند الاهالى على السواء اذ كانوا كأنهم يتسابقون الى إفساد أخلاق السودانيين واضطهادهم لهم بغير حق الى أن قال وانا نورد هنا الحوادث الآتية التى أمرها معلوم فى تلك الاقطار وذلك ان دى ملزاك (de Malzac) الفرنساوى الذى كان موظفا سابقا فى السفارة الفرنساوية بأثينا كان مكاعلى الاتجار بالرقيق على رؤس الاشهاد مع ان هذا الامر كان منعه الخديو كل المنع وروى هوجلن (Heuglin) ان دى ملزاك هذا وجد ذات يوم أحد العبيد بجانب جارية من محظياته فصلبه على شجرة كان زينها بجماجم بعض السودانيين وجعله دون مبالاة غرضا للغدارته ومن أمثال ذلك ماروى من ان جون بتريك (John Patrick) قنصل انكلترة بالخرطوم عزل عن منصبه لكونه كان يتعاطى تجارة الرقيق وكذا بندر (Binder) النمساوى كان يروج هذه المهنة ترويجا فلا غرابة اذا ازداد سخط مثل هذه القبائل اهـ ومع ما اتخذه رؤف باشا من الأوامر والتأكيدات بمنع ذلك لم يجد نفعا لظهور المشاكل المالية فى مصر التى أعقبتها الثورة العرابية التى أحدثت اختلال النظام واستكمال الفوضى وتداخل اليد الاجنبية فتضعضعت أحوال الحكومة وضعفت قوتها العسكرية فى السودان وهى التى ألزمت هذا الحكمدار الجديد الى عزل كثير من الجند بدعوى انقاص النفقات مع طرح الربع من رواتب الموظفين والعسكريين فكان هذا داعيا الى تشديد العزائم

به مضابط المجالس العسكرية فان حكم العزل أو تنزيل رتبة أو رفى الضباط جميع ذلك لابد من العرض عنه لطرفنا بواسطة نظارة الجهادية (رابعا) من المعلوم ان مسئلة منع تداول بيع الرقيق هى فى غاية الاهمية أولا لان بيع الرقيق أمر مخالف للانسانية ومخل باحترام بنى آدم المنصوص عليه بالتكريم ثانيا من الواجب المتعين علينا ايفاء شرائط المعاهدة المعقودة بين حكومتنا الخديوية والحكومة الانكليزية فى ابطال تجارة الرقيق ولو أن ما نعلمه ونثق به من أفكاركم فى هذه المسئلة وما أنتم عازمون عليه من المساعى الحميدة لمحو آثار هذه التجارة الذميمة لا يستوجب تكرار التأكيد اغارا بنا من الواجب علينا أيضا اثبات ما نحن عليه من شدة العزم والثبات فى هذه المسئلة لتوقفوا أعمالكم فيما تتخذونه من الوسائط المؤثرة والاحتياطات اللازمة لذلك لكى لا يسمع من الآن فصاعدا بحصول أمر مغاير من هذا القبيل فى كافة البلاد والطرق المودوعة تحت ادارتكم هذا وحيث ان الاقطار السودانية بعيدة عن مركز الحكومة الخديوية ومن الاقتضاء الوقوف على الوقوعات المهمة التى تحصل سواء كانت بالحدود أو بخلافها فتبادرون بالاخبار منها بوقت وقوعها الى طرفنا والى نظارة الداخلية بالتلغراف وبناء عليه أصدرنا أمرنا هذا لكم للعلومية والاجراء على مقتضاه كما هو مطلوبنا ٩٤ اهـ من مجموعة الدكريتات

والثورة

Digitized by Google

والثورة التى قامت بها الاهالى تحت زعامة الشيخ محمد احمد بن عبد الله الشهير بالمهدى ولما بلغ الحكومة الخديوية ذلك رأت لزوم تقسيم السودان الى قسمين لتسهل مراقبة أحواله وأصدر الخديو أمرا بجعل شرقى السودان المكون من مديريات التاكه وسواكن ومصوع وسنهيت والقلابات وما يتبعها ادارة قائمة بنفسها منفصلة عن الحكمدارية وأضاف اليها محافظة ع وم سواحل البحر الاحمر وتعين عليها علاء الدين باشا مديرا عاما (٨ محرم ١٢٩٩ الموافق ٣ نوفمبر ١٨٨١) واعتنت الحكومة اعتناء زائدا بأمر حدود الحبشة فوضعت فيها الحاميات الكافية وكان المهدى لما ظهر نشر على الاهالى عدة مكاتيب يدعوهم فيها الى الانضمام الى دعوته ويحذرهم مخالفته ويحرضهم على خلع نير الحكومة المصرية ولما علم رؤف باشا بهذه المكاتيب وهول عليه الامر من حوله من الرؤساء الذين أظهروا جبنا شديدا حتى قيل انه أظهر ما لا يليق بحاكم مثله وبعد المفاوضة عزم على مداركة الامر قبل استفحاله فأرسل من طرفه محمد بك أبا السعود وأمره بأن يأتيه بمحمد أحمد الى الخرطوم وكان خبر ذلك وصل الى المهدى فلما أتاه أبو السعود بك وطلب منه التوجه معه الى الخرطوم ليبرئ نفسه مما نسب اليه قال له ألى تقول هذا القول وأنا رسول من الله وانا هو المهدى الموعود به وفى قول آخر انه قال له وأنا سيد البلاد بنعمة الله ورسوله فقال له أبو السعود ان كنت كما تدعى فلماذا تعصى الحكومة وأنت تعلم انها حكومة اسلامية فأجابه انها ليست كما تقول ولو كانت اسلامية حقيقة لما ضربت المكوس والخراج على رقاب المسلمين فقال له أبو السعود انى أنصحك أن لا تتصدى لمقاومة الحكومة والا فتكت بك عساكرها فأجاب ان بنادق العساكر لا تضربنى ولا باتباعى وغير ذلك من الاقوال التى شاع ذكرها ثم عاد أبو السعود الى الخرطوم مضطربا وأخبر رؤف باشا بما سمعه ورآه فأرسل رؤف باشا ضابطين وفرقتين من الجند بهما ٣٠٠ نفر ومدفع وسار معهما أبو السعود بك المذكور فسافروا على النيل فى باخرتين الى جزيرة آبا وقال رؤف باشا للضابطين من يأتينى به منكما أرقيه الى رتبة البكباشى فكان هذا سبب حبوط مساعيهما لانهما اختلفا فيمن تكون له القيادة وكان محمد أحمد لما بلغه قدوم العساكر المذكورة أوعز الى شيعته بقتلهم وان من فعل ذلك أثابه الله ثوابا عظيما ولما وصلت الجنود الى البر وخرجوا من الباخرتين واقتربوا من البلد الذى يقيم به المهدى أخذوا يطلقون البنادق على الاكواخ ووجد أحد الجنود رجلا يحيط به جماعة من الرجال فظنه المهدى فهجم عليه وقتله ولكن لم يكن الرجل كما يظن لان المهدى كان مع أتباعه مختبئين فى الهشيم ولما لاحت له الفرصة داهم الجند بغتة وأعمل فيهم السيف فقتل منهم نيفا و ١٢٠ نفرا وهرب الباقون تاركين سلاحهم ونجوا سباحة الى البواخر وكان أبو السعود فى انتظارهم لانه لم يجسر على النزول الى البر وأطلق من فى السفينتين مدفعا فافر المهدى ومن معه وعاد أبو السعود بك مع من بقى من الجنود الى الخرطوم وكان محمد أحمد جرح فى ذراعه فأشار عليه عبد الله التعايشى وزيره بأن لا يخبر بذلك أحدا ولما انتشر خبر انتصار المهدى وكان الناس فى ريبة لعلمهم بعدم قدرته على مناواة الحكومة مالوا اليه لانه بعد قليل أصدرت الاوامر بسفر عشر بواخر وثلاثة آلاف جندى مع عشرين مدفعا لحصر جزيرة آبا والقبض على المهدى وأتباعه فسارت البواخر والجنود تحت قيادة على بك أبو كوكة وكان ذلك فى ابان فيضان النيل فحصرت البواخر الجزيرة وصوبت المدافع أفواهها اليها ومع ذلك فقد عادت التجريدة المذكورة بلا فائدة وشعر المهدى وأصحابه بالضعف عن المقاومة

Digitized by Google

وكان التعايشي نصح المهدي بالابتعاد عن الخرطوم مركز قوة الحكومة فقبل نصيحته وأذاع بأن النبي صلى الله عليه وسلم أمره بالاقامة في جبل ماسه لتلقي الاوامر الالهية وبأن يخرج الى الضفة الغربية على زوارق مصنوعة من الصفيح (الفلين) وان لاخوف عليه من قنابل البواخر حتى يهبط الى الشاطئ بسلام وكان الشاطئ يبعد عن الجزيرة بنحو خمسة أميال فاطاعوا اشارته وحملوا عيالهم وذخائرهم على تلك الزوارق وهبطوا جميعا آمنين وبعد ان تحصن هناك جعل له من وقتئذ أربعة خلفاء أولهم عبد الله التعايشي وثانيهم علي ولد حلو من قبيلة الدغيم ورابعهم محمد الشريف من أقاربه ولم يعين الثالث ويقال انه عرض ذلك على الشيخ السنوسي (١) فأنكره ولم يقر عليه هذا ولما قصد المهدي جبل ماسه مع جماعته أرسل محمد سعيد باشا مدير كردفان جيشا قدره ١٤٠٠ مقاتل لاقتفاء أثره وكان المهدي التجأ الى جبل الغدير الكائن في الشمال الغربي من فشوده مستنجدا بأهله وبذلك لم يتمكن سعيد باشا من قتاله ثم جمع راشد بك الكردي مدير فشوده ٢٤٠٠ مقاتل من العساكر النظامية والشلوك واستصحب معه كيكوم بك زعيم قبائل الشلك وقصد المهدي فالتقى به وقاتله فكانت الغلبة للمهدي وقتل راشد بك وأكثر عساكره النظامية (٩ دسمبر ١٨٨١) واستولى المهدي على أسلحتهم وذخائرهم ولما انتشر خبر ذلك عمت الفتنة جميع انحاء السودان وكان اتباع المهدي

(١) الاستاذ السنوسي هو القطب الشهير العلامة الكامل المكمل العارف بالله تعالى السيد محمد بن علي السنوسي من ذرية الحسن المثنى ابن الامام الحسن سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم ولد سنة أربع أو خمس ومائتين وألف بصحراء مستغانم من أعمال الجزائر ونشأ بها وطلب العلم بمدينة فاس واشتغل بالطريقة الدرقاوية ثم رحل الى مكة المشرفة ولقي بها العارف بالله تعالى الاستاذ أحمد بن ادريس وأخذ عنه وبرع في الطريق وأقام ملازما للعبادة والعلم والارشاد وبنى زاوية بجبل أبي قبيس ثم رحل الى الجبل الاخضر من أرض طرابلس الغرب سنة ١٢٥٥ وبنى بتلك الجهات جملة زوايا وأقام حتى ولد له ولداه السيد محمد المهدي سنة ١٢٦١ والسيد محمد الشريف سنة ١٢٦٣ وفي تلك السنة عاد الى مكة فأقام في زاويته بجبل أبي قبيس نحو سبع سنين مشتغلا باقراء الحديث والفقه فشاع صيته وهرع اليه الناس للتلقي عنه ثم رحل عائدا الى الجبل الاخضر فلما سمع برحلته عباس باشا الاول والي مصر اذ ذاك بنى له زاوية بخارج القاهرة عند الشيخ القالي بجهة باب الحديد لكنه لم ينزل بها وانما نزل في نواحي كرداسة بالجيزة فهرع الناس لزيارته والتبرك به وسار نحو المغرب الى الجبل الاخضر المذكور فنزل بمحل عرف بالغزيات (بالغين المعجمة) وهو قصر قديم فبناه وأصلحه وسماه العزيات (بالعين المهملة) وأقام به مدة سنتين وفي تلك المدة أرسل بعض تلامذته الى محل بالصحراء يسمى الجغبوب على مسافة عشرة أيام من العزيات وثلاثة أيام من سيوة فبنوا له به زاوية انتقل اليها سنة ١٢٧٣ فأقام بها لنشر الطريق والعلم والارشاد الى الله وانتفع به كثير من عرب البادية بتلك الجهات كثيرهم وصلح حالهم على يديه وفشا فيهم العلم والصلاح ثم توفي في ٩ صفر سنة ١٢٧٦ وله مؤلفات كثيرة منها ايقاظ الوسنان في العمل بالسنة والقرآن والسلسبيل المعين في الطرائق الاربعين والمنهل الرائق في الاسانيد والطرائق والشموس الشارقة في أسماء مشايخه المغاربة والمشارقة وقام بعده بنشر اعلام العلم وتربية المريدين وارشاد السالكين ولده وخليفته السيد محمد المهدي السنوسي الحسني ومعه أخوه السيد محمد الشريف السنوسي وجماعة من الطلبة والمشايخ بناحية الجغبوب المذكورة ثم انتقل سنة ١٣١٣ الى واحة الكفرة الواقعة على مسافة ٣٠ يوما الى جنوب سيوة لاسباب سياسية وابتعادا مما نسب اليه من حث القبائل على الخروج على الدولة العثمانية وشيد فيها زاوية صارت دار اقامته الآن وله عدة زوايا في الغرب ومصر وجزيرة العرب معدة للعبادة وتعليم العلم والقرآن وضيافة الواردين والمترددين وقد تجاوز الحد والاسبق من أموال زاويته الموجودة بسيوة وما يتبعها من شجر الزيتون والنخل مع مواصلته بالرعاية والبر والعناية وقد انتشرت طريقته بين أهالي الغرب وجهات السودان الآن انتشارا عظيما

اخذوا

أخذوا يطوفون على القبائل يدعونهم الى الجهاد فقامت قبائل الشلوك والكبابيش فى شمال كردفان وقبائل روفاوى والبشرية بين بربر وسواكن على الحكومة وفى تلك الاثناء أخذ المهدى يهيئ المعدات الحربية ويسن للناس سننا وشرائع ضمنها منشورا كبيرا أورد ملخصه صاحب كتاب السودان المصرى فنقلناه عنه لتمام الفائدة (١)

ولاية عبد القادر حلمى باشا — لما علمت الحكومة باشتداد الثورة فى السودان وكان ذلك فى ابان الحوادث العرابية أصدر الخديو أمرا بتشكيل نظارة جديدة للسودان (٢) جعلها تحت رياسة عبد القادر حلمى باشا (٢١ ربيع الثانى ١٢٩٩ — ٢١ فبراير ١٨٨٢) لاتخاذ التدابير اللازمة فى المسئلة السودانية وملافاتها فنتج أما محمد رؤف باشا فانه عزل من ولاية السودان وقام جيجلر باشا النمسوى (Giegler) مقامه بالخرطوم وكان قبل ذلك مديرا لبحر الغزال حيث خلفه لبتن بك الانجليزى أما جيجلر فانه أخذ فى مقاتلة الثوار وتقوية حراس المدن البعيدة فارسل قوة قدرها ٥٠٠ مقاتل مع الكاشف صالح أغا لتقوية حامية سنار البالغ عددها ٢٥٠٠ جندى تحت قيادة مديرها حسين بك شكرى وكان السودانيون هاجموها واضطر واقائدها الى الالتجاء بعساكره داخل القشلاقات وقد تمكن صالح أغا المذكور من الوصول اليها بعد معركة شديدة انتصر فيها على العدو ورفع الحصار عن سنار وبعث جيجلر باشا أيضا قوة مؤلفة من ٦٠٠٠ مقاتل

---

(١) (أولا) تحريم التبغ ومعاقبة شاربه بأى شكل بجلده ٨٠ سوطا وحبسه مدة أسبوع (ثانيا) منع الاذكار لانها بدعة فان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه لم يفعلوها وانه كان يجلس مع أصحابه كأن الطير على رؤسهم (ثالثا) ابطال عهود الطريقة والرقية والشعوذة وصناعة الكيمياء وكل أعمال الدجالين والمشعوذين وقصاص من يرتكب شيأ من ذلك على مقتضى نص الآية انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فسادا الآية (رابعا) العدول عن ترك النساء تخرج من البيوت وترك التزين والتبرج وابطال ليالى الرقص والغناء ومن فعلت ذلك أدبت بجلدها ٢٧ سوطا ثم تزداد العقوبة كلما عادت الفاعلة فى فعلها ولجت فى طغيانها حتى تعاقب بحلق شعر رأسها (خامسا) كل سب كان فيه تخديش للناموس يعاقب عليه صاحبه ثمانين جلدة وحبس أسبوع (سادسا) كل لعن أو شتم نحو يا كلب أو يا خنزير يعاقب لافظه بالعقوبة نفسها المتقدمة الذكر وهى تحل أيضا بمن يسب حيوانا أو جمادا وبالجملة لا يجرى اللعن والسباب على لسان الا تحق العقوبة على لافظهما (سابعا) كل لفظ شوه وجه الادب ورزعزع ظل النزاهة يعاقب صاحبه بالعقوبة الآنفة اه

(٢) صورة الامر العالى الصادر بتشكيل نظارة السودان تحت رياسة عبد القادر حلمى باشا نحن خديو مصر انه مراعاة لاستكمال شرائط الانتظام فى ادارة عموم السودان وتمكين الضبط والربط فيها واستدعاء ذلك جعلها ادارة واحدة لتأييد ارتباطها بمركز حكومتنا وبناء على ما عرض لطرفنا من مجلس نظارنا أمرنا بما هو آت (أولا) قد جعلت ادارة جهات عموم السودان بما فيها مديرية شرقى السودان ومحافظة سواحل البحر الاحمر ومديرية هرر وزيلع وبربر وتجرة حكمدارية واحدة (ثانيا) تتشكل نظارة جديدة بعنوان نظارة الاقاليم السودانية وملحقاتها ويكون مركزها بمصر القاهرة ما صدر بتاريخ ٢١ فبراير سنة ١٨٨٢ توفيق

وفى شهر ابريل من سنة ١٨٨٢ صدر أمر آخر تقسم فيه السودان الى أربعة أقسام الاول يسمى حكمدارية اقليم غرب السودان ومركزها الفاشر ويتبعها دارفور وكردفان وشكا وبحر الغزال والثانى يسمى حكمدارية اقليم وسط السودان ومركزها الخرطوم ويتبعها سنار وبربر ودنقلة وفشودة وخط الاستواء الثالث حكمدارية اقليم شرقى السودان ويتبعها التاكا ومحافظة سواكن ومصوع الى باب المندب الرابع حكمدارية عموم هرر ويتبعها زيلع وبربرة ومركزها زيلع

Digitized by Google

تحت قيادة يوسف باشا الشلالى وعبد الله ولد دفع الله لمقاتلة المهدى بجبل الغدير ولكن لما وصلت الى جهة كاوا هرب منها ٥٠٠ جندى دنقلى وانضموا الى المهدى ثم وصل يوسف باشا مع باقى الجيش الى فاشوده وأخذ يحارب الدراويش وحصل انه فى مساء ٧ يونيه من سنة ١٨٨٢ هجم العدو على رجاله وهم نيام فقتل منهم عددا كبيرا وقتل معهم يوسف باشا وعبد الله ولد دفع الله فكان انغلاب يوسف باشا بهذه الصورة الضربة القاضية على سلطة الحكومة فى تلك الاطراف واعتقد السودانيون من يومئذ بصحة دعوى المهدى فزاد ميلهم اليه واعتقادهم به وصاروا يقدسون أقواله ويطيعون أمره طاعة عمياء وفى تلك الاثناء قام رجل يدعى الشريف أحمد طاهر مدعيا انه وزير المهدى وجمع له عصبة بالقرب من أبى حراس فتوجه جيجلر باشا عليه بقوة على باخرتين وطلب منه التسليم فأبى فساق عليه الصنجق يوسف أغا الملك فهزمه الشريف ثم عاد جيجلر باشا الى أبى حراس وجمع قوة ثانية من العساكر المنتظمة وعساكر الباشبوزق والشكرية تبلغ ٢٥٠٠ مقاتل جعل قيادتها العبد الكريم باشا أحد أمراء القبائل فهاجم بهم أحمد طاهر المذكور فهزمه وقتله وبعث برأسه الى الخرطوم وفى تلك الاثناء بعث الياس باشا أحد أغنياء تجار كردفان بابنه عمر الى المهدى ليخبره بحال الابيض وزين له الاستيلاء عليها وكان محمد سعيد باشا مدير كردفان يفكر بانه لابد للمهدى من الزحف عليه فأخذ يستعد للحصار فشيد الحصون والمتاريس وحفر الخنادق حول الابيض وكان لدى سعيد باشا من الجنود ستة آلاف معهم اثناعشر مدفعا ولكنه لم يدخر الاقوات الكافية لحصار طويل ظنا منه ان الحكومة لابد من أن تنجده ثم أقبل المهدى على رأس جيش يبلغ ٦٠٠٠٠ مقاتل ولما اقترب من الابيض خرج اليه أكثر الاهالى وكان وعدهم بان من أقفل منهم بابه وخرج اليه فهو آمن قال سلاطين باشا فى كتابه وكان المهدى كاتب تجار الابيض وكانوا على جانب عظيم من الثروة وهم من أدرى الناس بضعف الحكومة فانحاز كثيرون منهم اليه ولاسيما الياس باشا أغنى تجار كردفان وكان قبلا مديرا عاما لها وعزل من منصبه وكان بينه وبين أحمد بك دفع الله ضغائن وأحمد بك هذا هو أخو عبد الله ولد دفع الله الذى قتل مع يوسف باشا الشلالى كما تقدم وكان صديقا لمحمد باشا سعيد مدير الابيض فخاف الياس باشا أن يوقعا به اذا انتصرا على المهدى فجعل يجمع الاتباع سرا لينحاز بهم اليه ووافقه بعض التجار خوفا من ان المهدى يأخذ أموالهم ويسبى نساءهم اذا كانت الغلبة له وسر العلماء بقيام واحد منهم لمناواة الحكومة وتوقعوا أن يتسلطوا على البلاد كلها تحت رايته إن هو تغلب عليها وطرد الاتراك منها اهـ ولما حاصر المهدى الابيض أرسل رسلا من طرفه الى محمد سعيد باشا يدعوه الى التسليم فقتل رسله فحنق المهدى لذلك جدا وهجم على المدينة بجموعه فصده محافظوها مرتين وقتلوا منهم ألوفا كثيرة وكان ممن قتل محمد أخو المهدى ويوسف أخو الخليفة عبد الله التعايشى وغيرهما من الامراء فتضعضعت أحوال المهدى بذلك حتى قال البعض انه لو اتبع سعيد باشا يومئذ مشورة أحمد بك دفع الله وخرج فى اثر المهدى ورجاله لقتلهم وأثخن فيهم وانقرض اسم المهدى وبدعته ولكن ارادة الله لا تغلب ثم ابتعد المهدى عن حصون الابيض وبقى محاصرا لها

ولما وصل عبد القادر حلمى باشا الى الخرطوم (١١ مايو ١٨٨٢) أخذ يقوى حصونها ويزيد فى حاميتها ويطارد الثوار بعزم وحزم فانتصرت قوة من الجيش المصرى على الثوار بقرب

كشجل

Digitized by Google

كشجيل ورفعت الحصار عن البركة وتغلب جلر باشا على الثوار بقرب سنار وتغلبت فرقة مصرية أخرى على الشيخ رجحة فى أولادمنرج واستقدم عبد القادر باشا راشد كامل باشا محافظ حدود الحبشة الى الخرطوم ثم أرسله الى فشوده ومعه قوة عسكرية ولما هاجمها السودانيون قصدتهم حاميتها مرارا ولكنهم لم يتركوا حصارها ولوا نتصرت فرقة مصرية أخرى فى شاوقره وهاجم الشيخ مدبومن عمال المهدى بلدة شكا وأبادها ولما اجتمع لدى عبد القادر باشا ١٣,٠٠٠ مقاتل بعث بنجدة الى الابيض قدرها ألفا مقاتل فقابلها عرب الجوامعة فى الطريق وهزموها ولم ينج منها سوى مئتين وكان العرب يشددون الحصار على بارا وفى أثناء الحصار شبت النار فيها فاحترقت مخازنها ولما لم يبق لحاميتها شئ من القوت اضطروا الى التسليم لعبد الله ولد النجومى (ديسمبر ١٨٨٢) ولما بلغ ذلك المهدى فرح وأطلق مائة مدفع فارتعبت من ذلك حامية الابيض وفى أثنائها هجم أحد مشايخ المهدى المدعو جابجو على تل حونا فى بحر الغزال واستباحها ثم بعث عبد القادر باشا نجدة ثانية الى الابيض تحت قيادة على بك لطفى فهزمها الثوار بالقرب من مكان يدعى الكو ولما رأى عبد القادر باشا اشتداد الحالة طلب من مصر نجدة فأرسلوا اليه خمسة آلاف عسكرى ولما اشتد أمر الحصار بحامية الابيض وعدمت الاقوات ولم يتمكن عبد القادر باشا من نجدتها كما سبق كتب محمد سعيد باشا فى يناير سنة ١٨٨٣ للمهدى يعرض عليه تسليم الابيض فقبل فسلمها بعد حصار دام خمسة أشهر وقال سلاطين باشا فى كتابه انه بعد أن دام الحصار خمسة أشهر وقل القوت وغلت الاسعار حتى صارت الفرخة بأربعين ريالا ومات أكثر السكان والعساكر جوعا اضطر سعيد باشا ان يسلم وكان عازما ان ينسف مخازن البارود قبل التسليم ولكن الضباط توسلوا اليه ان لا يفعل خوفا على من بقى حيا من نسائهم وأولادهم ووعده المهدى قبل التسليم انه لا ينااله شئ من الاذى هو وضباطه وأرسل اليهم محمد بن العربى بالجبب المرقعة التى يلبسها الدراويش فلبسها هو ومحمد بك اسكندر القومندان ونسيم افندى وأحمد بك دفع الله ومحمد بك حسن وغيرهم فخرجوا الى المهدى فقابلهم جالسا على جلد المعزى شأن الاتقياء الزهاد فقبلوا يده فقال انه عاذر لهم على مقاومتهم لانهم لم يكونوا يصدقون دعوته ثم حلفهم يمين الطاعة وقدم لهم تمرا وماء وطلب منهم ان يتركوا نعيم الدنيا ولا يهتموا الا بالحياة الاخرى وغير ذلك من الكلام ثم نهبت جنود المهدى الابيض ولم يتركوا السكانها شيأ وكانوا يجلدون ويعذبون لكى يدلوا على الاماكن التى أخفوا فيها أموالهم وكتب سعيد باشا تقريرا عن تسليم الابيض وأرسله الى الخرطوم مع رسول فأخبر أحد الموقعين عليه واسمه يوسف منصور المهدى واعتذر له هو ومحمد بك اسكندر على ختمهم اياه فقبل عذرهم وأرسل لوقته من قبض على الرسول وأحضر له التقرير وشاع حينئذ أن النبى (صلى الله عليه وسلم) ظهر للمهدى وأخبره بهذا التقرير واغتنم المهدى تلك الفرصة وقتل جميع الموقعين عليه من الضباط الا يوسف منصور ومحمد بك اسكندر وجعل الاول قومندانا على المدافع والثانى معلما لجنوده ولما اشتدت الثورة فى مقاطعة دارفور بذل مديرها سلاتين باشا جهده فى اخمادها فلم يستطع وقال عند ذلك فى كتابه ان أكثر رجاله خانوه ولما يئس من المدد وأعياه وأعيا رجاله الجوع اضطر الى التسليم وكان فى دارة قاعدة دارفور رجل ذو بيت ضابط غنى جدا اسمه زغل بك وكان من أقارب المهدى فكاشف بعض اخصائه بالانحياز اليه فاستدعاه سلاتين باشا وقرره فأقر بذلك ناسبا ميله الى المهدى

الى ما بينهما من النسب ولكنه قال انه لم يزل أمينا فى خدمة الحكومة فطلب منه سلاتين باشا أن يحمل له رسائل الى الخرطوم وأن يبذل جهده لمنع المهدى عن الزحف على دارفور الى أن تصل الحملة التى أرسلتها الحكومة المصرية لتأييد سلطتها فى السودان فان نجحت الحكومة فسلاتين باشا يشفع به عندها والا فيسلم البلاد للمهدى أما الرسائل التى أرسلها معه سلاتين الى الخرطوم فوصف فيها أحوال البلاد بالاختصار ثم حلف زغل بالطلاق أن يكون أمينا فيما اؤتمن عليه ثم سار الى الابيض فاطلق له المهدى مائة مدفع ترحيبا به وشاع حينئذ ان بلاد دارفور رسلمت كلها للمهدى فلم تبق حاجة للزحف عليها فصار المهدى يهتم ببلاد النيل وبعث الامراء الى جهات مختلفة وفى جملتهم عثمان دقنه وهو نخاس من سواكن بعثه الى شرقى السودان لعله يعرقل الحكومة المصرية ويمنعها عن ارسال حملة اهـ وكان عبد القادر باشا خرج وقتئذ من الخرطوم بجيش وقصد المسلمية فانتصر على الثوار فى جهة تسمى ما تولك ثم فى يناير سنة ١٨٨٣ قصد سنار لطرد الدراويش الذين كانوا تحت قيادة ابن المكاشفى منها وكان ترك امام الخرطوم جانبا من الجيش تحت قيادة حسين باشا مظهر فانتصر فى واقعتين على الدراويش انتصارا كاملا فى مشرع الداى ورفع الحصار عن سنار وتغلب صالح بك على أحمد المكاشف المذكور فى جبل سنجيدى وبينما كان عبد القادر باشا ظافرا منصورا حتى كاد يلاشى أمر الثورة صدرت اليه الاوامر بالعودة الى القاهرة على غير سبب معروف وتعين بدله أولا سليمان باشا نيازى ثم صدرت الاوامر الخديوية فى ٢٠ مارس سنة ١٨٨٣ بالغاء نظارة عموم السودان وبتعيين علاء الدين باشا حكمدارا لعموم السودان وملحقاته وجعل راشد كامل باشا حكمدارا للسودان الشرقى والبحر الاحمر وايجاد ادارة خاصة باشغال السودان وملحقاته فى رئاسة مجلس النظار وكان عليها ابراهيم توفيق باشا ثم خلفه أحمد شكرى بك ١٨٨٣ ولما كانت أعمال عبد القادر باشا العسكرية بالسودان وتجهيزاته الحربية وحفره الخنادق واقامته الحصون والمعاقل حول الخرطوم بسرعة وانتصاراته الباهرة المذكورة وأوامره العسكرية المتتابعة التى كان يصدرها القواد حاميات الجهات المتباعدة للمدافعة عن نقطهم حتى تمكنوا من صد هجمات القبائل الثائرة اطمأنت خواطر الأهالى فى الخرطوم وتحققوا أنه من ذوى المهارة والخبرة بأساليب الادارة فوفدت عليه كثير من القبائل وأظهرت الولاء للحكومة على رؤس الاشهاد ولما علم المهدى ذلك وأن عبد القادر باشا ينوى طرده من كردفان خاف جدا حتى صار يظهر ذلك فى خطبه ومن ذلك خطبة ذكرها صاحب كتاب السودان المصرى والانكليز وقد استنسبنا ذكرها هنا لما فيها من الفائدة وهى بحروفها

ليس بين رجال الحكومة التى أناويها وأصليها حربا عوانا رجل كعبد القادر باشا كثير الدهاء والحيل فضلا عن الشجاعة والمعرفة التامة بالفنون الحربية مما جعل النصر حليفه فى مواطن كثيرة من مواطن الحرب والنزال ومما يجعلنى أضرع الى الله تعالى بأن يكفينى وأصحابى شر عبد القادر باشا واحتم على كل المؤمنين الذين دخلوا فى دعوتى وانتظموا فى سلك تابعيتى بأن يجتنبوا القيام فى الجزيرة بأية مشاغبة تضطرهم الى الوقوف فى ساحات الحرب مع عبد القادر باشا وانى أوصيهم بكتمان دعوتى وعدم الظهور بتعاليمى وآدابى فى الجزيرة مادام عبد القادر باشا متوليا على السودان وقابضا على زمام أحكامه وليواظب كل أصحابى على رفع أصواتهم

بعد كل صلاة بهذه الدعوة (اللهم ياقوى ياقادر اكفنا عبد القادر) هذا ما فاه به المهدى على رؤس الاشهاد ولا يخفى ما فيه من الدلالة على مبلغ ما أصاب المهدى من الفشل باعمال عبد القادر باشا وكيف انه كان يحسب لهذا الرجل حسبانا كبيرا اه وكان عبد القادر قبل عودته من الخرطوم كتب تقريرا وافيا أبان فيه بماله من الخبرة والدراية ما يجب على الحكومة عمله وقال صاحب السودان المصرى والانكليز ما ملخصه واتذكر أن المهدى قال لى يوما بعد سقوط الخرطوم ما معناه لو كانت الحكومة جرت على الخطة التى رسمها لها عبد القادر باشا لما قدرت على بسط نفوذى فى السودان ولا استوليت على الخرطوم أما هذه الخطة فلخصها انه لا يجب تسيير حملة على المهدى فى كردفان لانها غير مضمونة الفوز لعدة وجوه منها ان لدى المهدى من المقاتلة عددا كبيرا يستطيعون مع مواقع البلاد الطبيعية أن يهلكوا أعظم قوة تدخل بلادهم ومنها انه يلزم الحملة نحو ٢٥ ألف جندى لحفظ خط الرجوع وهذا غير ممكن لان مجموع عساكر الحملة لا يتجاوز هذا العدد وانها اذا سارت وليس لها خط اتصال تمكن العدو من حصرها وإبادتها بسهولة ومنها ان أنصار المهدى يحاربون الآن رغبة فى الثواب ويعدون قيامهم وجهادهم من فروض الدين فهم لا يهابون الموت ويقاتلون مستميتين لاحراز الشهادة فاذا لقوا الحملة وقدرانها فازت عليهم وهو أمل ضعيف فذلك لا يكون الا بعد أن تفقد أكثر من نصف مقاتلتها ولا داعى الى ذلك لان الحكومة لا تعتاض عن خسائرها من المال فضلا عن الرجال من مقاطعة كردفان التى هى فى قبضة المهدى ثم انه اذا عدلت الحكومة عن تسيير الحملة الى كردفان ترتب عليها أن تبذل قصارى الجهد فى اطفاء نيران الثورة المستعرة فى الجزيرة واستئصال جرثومة القلاقل منها وهو أمر يمكن الحصول عليه بعد ٦٠ يوما من مفارقة سيرها فاذا توطد الامن فى الجزيرة وعادت المياه الى مجاريها وجب على الحكومة أن تقيم الحصون على حدود كردفان وتضع الحاميات الدفاعية لمنع تقدم الدراويش الى السودان المتوسط ومديريات النيل الاعلى فان ذلك يمنع سريان نار القلاقل ويحصرها فى السودان الغربى وأما قلاقل السودان الشرقى فتنفذ الحربية المصرية على تسكينها من جهة سواحل البحر الاحمر ورب معترض يقول ماذا كانت الفائدة فى ترك السودان الغربى يمرح فيه المهدى وأنصاره فنجيبه ان المهدية عبارة عن فوضى وقد فرح السودانيون بها لانها تخلصهم من نير الحكومة وقد أفلحوا فى الخلاص من هذا النير ولكنهم استجاروا من الرمضاء بالنار لان وطأة المهدى ستكون عليهم أشد من وطأة الحكومة كثيرا وان موارد اليسار ستنضب فى السودان الغربى وهب انها لم تنضب فهى لا تقوم بنفقات الامم الملتفة حول المهدى وعليه فلا يمضى زمن طويل حتى يشعروا بالضيق وتنقسم تلك القبائل الى قسمين أحدهما يكون الجنود والثانى الاهالى وحينئذ يعجز الفريق الثانى عن تقديم ما يكفى الفريق الاول فيدفعه الى الظلم والاعتساف فيصبح متظلما مستغيثا ولا سبيل للمهدى الى غل يد الجور المتكفلة بحمايته والذود عن حياضه لانه لو فعل لثارت عليه الجنود وانفضت من حوله ومن ثم تتولد العداوة والاحن بين الفريقين ويمسى الاهالى يطلبون الخلاص من جور المهدية ولا سبيل لهم الى نيل هذه الامنية الا بظاهرة الحكومة ومو الاتها فيسهل عليها حينئذ قهر المهدى بقوة يسيرة وخسارة طفيفة هذا ملخص رأى عبد القادر حلمى باشا ولكن الحكومة لم تجنح الى العمل به اه وقال صاحب الكتاب المذكور أيضا لما انفصل عبد القادر حلمى باشا من حكمدارية السودان وخلفه

المرحوم علاء الدين باشا عولت الحكومة على تسيير حملة هكس باشا الى كردفان أما ابن المكاشفي فبعد ان فرّ من وجه عبد القادر باشا شخص الى البحر الابيض وعسكر عند نقطة الجبلين على ضفة النيل الابيض وأخذ يوالي غاراته الشعواء على أطراف مديرية الخرطوم فلم تر الحكومة بدا من تسيير حملة السودان اليه بقيادة اللواء حسين مظهر باشا وهو من الضباط المصريين الاذكياء ذوي الشجاعة والبأس وكان يشدد النكير على الحكومة لتعويلها على حملة هكس باشا وكان رأيه فيها لا يختلف عن رأي عبد القادر باشا وبلغني انه رفع تقريرا الى الحكومة الخديوية أبان فيه سوء نتائج الحملة وهو لا يختلف كثيرا عن تقرير عبد القادر باشا السابق ذكر خلاصته الا انه ذيله بنظرة في مستقبل السودان جاء فيها ما معناه لا يجهل أحد أن السودان هو مصرف التجارة المصرية وان ما نالته الديار المصرية من سعة الثروة منذ ضمته اليها أمر لا ريب في صحته وفضلا عما تقدم فان السودان عموما والخرطوم خصوصا هو المتسلط الطبيعي على النيل الذي هو حياة مصر ومصدر غبطتها وهنائها وعليه فان اهمال أمر السودان وتركه تحت رحمة المهدي لا يبعد أن يأتي معه يوم تقع فيه السودان في يد دولة من الدول اللاتي يطمحن الى ابتلاعه وهن على ما نعلم ساهرات لا يغمض لهن جفن واذا وقع السودان في يد احداهن باتت مصر تحت رحمة تلك الدولة المالكة للسودان وأمسى النيل في قبضة يدها وتصرفها ولا تخفى نتائج ذلك على أحد وختم كلامه بقوله ان تسيير حملة على المهدي يصير بمثل هذا الامر وشيك الحصول داني الوقوع اه ولنرجع الى ما كنا بصدده من سيرة الحملة فنقول انها كانت مؤلفة من ١٢ ألف مقاتل من الجنود النظامية سارت من الخرطوم الى نقطة الكوة وهاجمت أمراء المهدي كولد كريف وغيره من الذين كانوا يناوشون مراكز الحكومة في البحر الابيض وأظهر قائدها المذكور من الحكمة ما ضمن له الفوز على العدو وسرح عسكرا ضبط مدينة شاة واستردها من الدراويش ثم سارت الحملة بحرا الى الجبلين وهنالك التقت بابن المكاشفي ونشبت الحرب بينهما مدة ثمانية أيام اسفرت عن هلاك جيش ابن المكاشفي ثم قفلت الحملة راجعة الى الكوة وبعد ان مهدت الطريق عادت الى الخرطوم

حملة هكس باشا وهزيمته — اعلم انه في مدة ولاية عبد القادر باشا على السودان أرسلت الحكومة من مصر الكولونيل ستيورت (Stewart) الى السودان ليرفع لها تقريرا عن أحواله وما يجب لاطفاء ثورته وبعد تأدية ما أمر به عاد الى مصر في شهر ابريل من سنة ١٨٨٣ مارا بسنار والقضارف وكسلا وسنهيت ومصوع وكانت الحكومة أخذت ترسل من مصر الجيوش الى سواكن وعينت علي رضا باشا حكمدارا لعموم هرر وملحقاتها مكان محمد نادي باشا وجعلت الميرالاي حسين مظهر بك وكيلا لحكمدارية عموم السودان (يوليو سنة ١٨٨٣) وسليمان نيازي باشا حكمدارا لشرقي السودان وسواحل البحر الاحمر بدلا من راشد كامل باشا الذي عين أميرا للالايين الاول والثاني الموجودين بالسودان وجعلت محمد مختار بك محافظ المصوع وقومندانا للعساكرها ومحمد توفيق بك من موظفي حكمدارية عموم شرقي السودان محافظا لسواكن بدلا من راسخ بك ثم عينت الجنرال هكس باشا (M. G. W. Hicks) (١) رئيسا لاركان حرب عموم الجيش

(١) الماجور جنرال هكس باشا هذا كان من ضباط المعاشات وأصله من الجيش الهندي الانجليزي لحق بجيش بومباي سنة ١٨٤٩ وخدم في بنغاله (١٨٥٧ — ١٨٥٩) ولحق بحملة روح الكند تحت قيادة

Digitized by Google

المصري بالسودان فوصل الخرطوم في ٥ مارس سنة ١٨٨٣ ولما صممت الحكومة على ارسال جيش لاسترداد مدينة الابيض كتب هكس باشا الى الحكومة يقول انه لا يحمل مسؤلية هذه الحملة الا اذا كانت له القيادة العامة عليها فاجابته الحكومة الى ما طلب وأمرت علاء الدين باشا حكمدار الخرطوم بمرافقته وأرسلت الى هكس مددا من القاهرة معه ستة مدافع من طرز نوردنفلد ثم أردفته بفرق أخرى من العساكر المصرية الذين كانوا تحت قيادة عرابي وعبد العال وغيرهما من رؤساء الثورة العرابية قال الموسيو هنس رزران العشرة آلاف مقاتل الذين أرسلتهم الحكومة بقيادة هكس باشا لم يكونوا من ذوي الاهلية والكفاءة وان كل من رأى هذا الجيش عند مبارحته القاهرة يتحقق من عدم نجاح المأمورية التي عهدت اليه فان معظم جنوده كانوا يقاتلون قبل ذلك بزمن غير بعيد مع العصاة الذين كانوا تحت الراية العرابية حتى استلزم الامر ان يؤخذوا في الاغلال والقيود للسفر على الوابورات مشيعين بعويل النساء والاطفال اه وأرسلت الاوامر الى سلاتين باشا بجمع العساكر في الفاشر وكان بلغ هكس باشا ان بضعة آلاف من المهديين بقيادة الامير أحمد المكاشف قد تجمعت في جهة كاوا القريبة من جزيرة آبا فخرج اليهم بفرقة وانتصر عليهم وقتل أحمد المكاشف وعددا من قواده ورجاله فكان لهذه الواقعة تأثير حسن في ارجاع ثقة أهالي سنار والخرطوم بالحكومة وبعدئذ طلب هكس زيادة الجيش للحملة على كردفان ولما لم يجب قدم استعفاءه في ٢٣ يوليو ١٨٨٣ ثم أجيب الى طلبه فاسترجع استعفاءه وسار علاء الدين باشا الى شرق السودان فاستحضر أربعة آلاف جمل وفي أواخر اغسطس تمت كل المعدات واجتمعت الحملة في أم درمان واستعرضها هكس باشا وكانت تتألف من سبعة آلاف من المشاة وأربعمائة من الباشبوزوق الخيالة ومائة جندي مدرعين بالدروع الفولاذية وأربعة مدافع من طرز كروب وستة مدافع نوردنفلد وعشرة من المدافع القصيرة وكان من قوادها سليم بك عوني والسيد بك عبد القادر وابراهيم بك حيدر ورجب بك صديق وكان الباشبوزوق بقيادة خير الدين بك وعبد العزيز بك ووالي بك وملحم بك ويحيى بك وكان على الطوبجية والسواري عباس بك وهبي ويتبع هذه الحملة ٥٥٠٠ جمل وخمسمائة حصان وكان معها من الضباط الافرنج الكولونيل فركوهار (Farquhar) بصفة رئيس لاركان الحرب والماجور سكندروف (Seckndorff) وورنر (Warner) وماسي (Massey) والمستر أيفانس (Evans) بصفة رئيس للمخابرات واليوزباشي هرلت (Herlth) وغيرهم وكان رافقها من مكاتبي الجرائد الاوروباوية مكاتب التيمس والدالنيوز والغرافيك وفي ٩ سبتمبر بارحت الحملة أم درمان وفي ٢٠ منه وصلت الى الدويم وهناك اجتمعت بعلاء الدين باشا أما هكس باشا فكان لا يزال في الخرطوم وقبل خروجه أرسل تلغرافا الى القاهرة بمسير الحملة مبينا الصعوبة التي سيلاقيها في طريقه نظرا للحرارة وقلة المياه وكان من رأيه ان يسير الجيش من الدويم الى الابيض عن طريق بارة وطول هذا الطريق ١٣٦ ميلا أقيمت على طوله امرا كز بها جنود لحفظ خط

الجنرال ببني وحضر مدة وقائع مع جيش فاروزشاه بجهات بارلي وكان أيضا بالجيش الذي قاده اللورد كلايد في حرب بني مارد بجهات دوندبا كبربا وحضر واقعة الاستيلاء على قلعة نوكسار وغيرهما من الوقائع ورافق الحملة التي حاربت الحبشة تحت قيادة اللورد نابير وفي الاستيلاء على مجدله ونال رتبة الميرالاي وعليها ترتب له المعاش من الحكومة الهندية وفي سنة ١٨٨٢ قدم الى مصر وعينه الخديوي رئيسا لاركان الحرب بالسودان وقائدا عاما لجيوشه

Digitized by Google

الرجعة الى الدويم فيفتح أولا باره وبعد الاستراحة بها يخرج على الابيض فلما جاء الدويم تفاوض مع علاء الدين باشا فى ذلك فقال له علاء الدين باشا انه أرسل من جاس له خلال الديار فاخبره ان طريق بارة قليلة المياه وان أحسن طريق للابيض يمثل هذه القوة الكبيرة هو طريق خور أبو حبل والرهد جنوبا لكثرة مياهها وان طولها وان كان ٢٥٠ ميلا الان منها مائة ميل يسير بها الجند بكل راحة لسهولتها وكثرة مياهها وان ما بقى منها توجد به المياه أيضا فاقتنع هكس بذلك وأقر على مسير الحملة عن طريق خور أبو حبل ثم تقدموا ولما وصلوا واشات استولوا على آبارها (٢٤ سبتمبر) وأنشؤا بها مركزا عسكريا وكان الجنود منذ خروجهم من الدويم يفتكرون فى العواقب الوخيمة التى ستحل بهم وكان سيرهم على شكل مربع متأهب للقاء العدو فى مقدمته الادلاء فالطلائع فالضباط العظام وأركان الحرب ثم المربع وفى داخله الذخائر وكانت دواب الحمل جاعت وخارت قواها حتى مات كثير منها فى الطريق وفى ٣٠ سبتمبر وصلت الحملة الى قرية تسمى رزيقة تبعد ٣٠ ميلا عن الدويم ثم حدث خلاف بين هكس وعلاء الدين بشأن خطة السير فكان من رأى علاء الدين باشا ان النقط العسكرية فى خط الاتصال لا حاجة اليها لانها تقلل عدد الجيش وخالفه هكس باشا بان ذلك لابد منه لحفظ خط الرجعة وبعد مداولات ترجح رأى علاء الدين اما محمد أحمد المهدى فانه لما علم بمسير الجيش المذكور عليه جمع جموعه وحرضهم على الصدق فى القتال وعسكر بهم قرب شجرة كبيرة بضواحى الابيض لملاقاة المصريين ثم وصلت التجريدة الى الرهد فى ٢٠ اكتوبر وبعد ان استراحت بها ستة أيام تقدمت تقصد كشجيل وبينما هى تخترق غابة وقد أضلت الطريق أحاط بها المهديون من كل جانب وأبادوها عن آخرها بحيث لم ينج منها الا نفر قليل وقد ورد فى كتاب السودان المصرى والانكليز أقوال يستدل منها ان موظفى الحكومة فى السودان كله خاصتهم وعامتهم بيضهم وسودهم كانوا يرون ان فوز حملة هكس على المهدى فى انحاء كردفان يعد من رابع المستحيلات وان الكثيرين منهم ومن التجار المصريين والسودانيين والاوروباويين حتى الموسيو هنزل قنصل دولة النمسا والمجر فى الخرطوم عرضوا رسميا للحكومة المصرية ولسمو الخديو عدة مرات يلتمسون العدول عن تسيير الحملة ولكن معروضاتهم لم تحز قبولا لاسباب سياسية وقال فى صحيفة ٢٣٩ من كتابه وما كادت الحملة تفارق الدويم حتى ظهر فى الخرطوم منشور بتوقيع المستر باور قنصل الانكليز فى الخرطوم جاء فيه ان جنود حملة هكس باشا من جنود عرابى الذين تمردوا على الحكومة الخديوية وان حكومة جلالة الملكة تسعى لاراحة تلك الحكومة من مفاسدهم ولا سبيل الى ذلك غير ارسالهم الى المهدى وغير ذلك من الاقوال التى لا نخالها صحيحة لان أحوال السودان واشتداد الثورة يومئذ فى أطرافها اضطر الحكومة الخديوية الى تسيير الجيوش لاطفاء نيرانها وقال سلاتين باشا فى كتابه وقد أخطأت الحكومة المصرية فى ظنها ان هكس ورجاله لعشرة آلاف يستطيعون أن يخمدوا الثورة ويقهروا المهدى بعد ان تغلب على كردفان كلها وأخذ الاسلحة من حاميتها وضم جيوشها الى جيوشه ووصف جنود هكس وسيرها وصفا يدل على أن الخوف كان مستوليا على نفوسها وان هكس نفسه سار سير المستقتل وفر رجل من جيشه ومضى الى المهدى وأخبره عما فيه من الخلل وما يلاقيه من العناء أثناء الطريق من قلة الماء فوثق المهدى بالغلبة وقال لرجاله إن النبى (عليه السلام) ظهر له ووعده بعشرين ألفا من الملائكة يقبلون لنجدته وكانت

Digitized by Google

الحكومة المصرية فقد أكدت لهكس باشا انه يجد نجدة فى أثناء الطريق قدرها ستة آلاف مقاتل ويجد أناساً يهدونه الى الماء فلم يجد غير جنود الاعداء تترصده فى سيره فخارت عزائم جنوده وجعل المصريون منهم ينادون مصرفين باسمى زينب دى الوقت وقتك فجيبهم السودانيون ده المهدى المنتظر ده المهدى المنتظر ثم هجم عليهم أكثر من ١٠٠,٠٠٠ من رجال المهدى دفعة واحدة ودخلوا المربع فلم يثبت امامهم الا الضباط الاوروباويون وفرسان الاتراك فانهم بقوا فى مواقفهم الى أن قتلوا عن آخرهم وقطع رأس هكس باشا ورأس البارون سكندروف وأرسلا الى المهدى والذين نجوا من رجال هكس باشا وسلموا أسلحتهم لم يسلموا من القتل اه وقال غيره انه بعد ان فارق هكس ورجاله الدويم عقدوا مجلسا حربيا للنظر فى مسئلة المحافظة على خط الرجعة فقر رأيهم على عدم ترك جندى واحد فى الخلف فكان هذا عين الخطا وأرسل هكس باشا رسالة برقية بتاريخ ١٧ اكتوبر يقول فيها (نحن الآن على مسافة ٢٠ ميلا من نوارلى وانى متأسف لانى لم احفظ خط الرجعة فقد أفادنى حاكم السودان ان العرب سيقطعون عنا الذخيرة والزاد ويحيطون بنا من كل ناحية بعد ان نوغل جيشنا فى البلاد وزد على ذلك ان برك المياه ستجف فلا يمكننا استقاء الماء الا بحفر الآبار وصحة العساكر جيدة والحر شديد اه وهى آخر رسالة وردت منه ويظهران الادلاء الذين كانوا معه خانوه فقادوه الى غاب وعر عسر المسالك بقى فيه مع الجيش ثلاث ساعات حتى قطعوه ولم يخرجوا منه حتى لقوا العدو يحيط بهم فصف هكس باشا جيشه على هيئة مربع وقاتل الاعداء طول النهار فانهزموا وباتت العساكر فى ساحة القتال وفى صبيحة اليوم الثالث من نوفمبر قام هكس للقتال وفرغ الماء من جنوده ولكنهم ثبتوا على العطش والقتال ثبات الابطال حتى قتل عدد عظيم من الفريقين ودارت الدائرة على العدو ثم باتت العساكر ليلة ثانية فى ساحة القتال وفى اليوم الرابع سار وانحو أربع ساعات فقابلهم العدو بنيران شديدة وكان الظمأ يقاتلهم وكان الطريق وعرا حتى ان هكس باشا لم يقدر على استخدام مدافعه ولم يتمكن من صف جيشه على ما يرام لكثرة الاشجار فتفرقت جنوده وأحدق العدو بهم من كل جانب فبددوهم وقتل قادته وقيل ان علاء الدين باشا ذبح فى بدء الحركة وأما هكس باشا فكان آخر من قتل وقد قال صاحب كتاب السودان المصرى والانكليز ان حسين مظهر باشا كتب فى ذلك اليوم ما يأتى أنا حسين مظهر باشا من الذين تخرجوا فى مدارس مصر الحربية وأنا الآن قائد الفرقة الثالثة من الجيش المصرى فى السودان وقد وصلنا الى هذا الموضع (شيكان) منذ ثلاثة أيام ومنذ أمس فقدنا الماء وصنف البطيخ الصغير فبلغ منا الظمأ فى هذا اليوم مبلغه ونيران العدو تهطل علينا كالمطر وقد هلك أكثر دواب حملنا وهلك أكثر عساكرنا واختل النظام وتمرد الجنود على الضباط وهم هائجون منذ أمس يطلبون قتل الجنرال هكس ونحن وسعادتلو محمد علاء الدين باشا نجتهد فى اخفائه عنهم أنفة من أن يقال ان ألوفا من المصريين قتلوا رجلا أجنبيا بينهم لاسباب سياسية وانى أكتب هذه السطور والموت محدق بنا من كل جهة ولا أمل لنا فى الحياة الى غد الاثنين الا اذا لم يهاجمنا العدو وجرعة الماء بيننا الآن أندر من الكبريت الاحمر وقد كنت أود التطويل ولكن طرأ على ما اضطرنى الى ترك الكتابة والتأهب للموت ومفارقة هذه الحياة وأختم هذه النبذة بالاسف ليس على حياتى بل على ألوف من أبناء وطنى ماتوا باستسلام حكومتهم الى أعدائهم فوا أسفاه ثم وا أسفاه اه وروى ايضا

Digitized by Google

صاحب الكتاب المذكور ما ملخصه انه في صباح يوم الاثنين ثالث محرم أمسك الدراويش عن اطلاق النيران وبعد شروق الشمس ركب المهدي واستدعى الامير عبد الرحمن النجومي بخيله ورجاله وأمره بالهجوم على الحملة من جهة الجنوب وأمر يعقوب أمير الراية الزرقاء بالهجوم من جهة الشمال الشرقي وموسى حلو أمير الراية الخضراء بالهجوم من الجنوب الغربي فهجم الجميع وفتكوا بالجنود وأخذ هكس يصرخ بأعلى صوته ويقول أنا هكس الانكليزي خذوني أسيرا فابتدره فارس بطعنة وهكذا كان هلاك حملة الجنرال هكس اه وروى سلاتين باشا أنه كان وقتئذ محافظا على بلاد دارفور حكمدار يته ولكن لما بلغه ما حل بهكس باشا وجيشه أيقن بالضياع فاضطر الى التسليم وكتب الى المهدي يعرض عليه التسليم بشرط أن يرسل واحدا من أقاربه يسلم له البلاد وان يؤمن من فيها على دمائهم فعين المهدي الامير زغل المتقدم ذكره مدير العموم بلاد الغرب فسلم له سلاتين في ٢٣ دسمبر سنة ١٨٨٣ وورد في صحيفة ٢٠ من كتاب السودان المصري والانكليز عن سلاتين باشا انه تدين بدين الاسلام وختن نفسه قبل ثورة المهدي بزمان وسمى نفسه باسم عبد القادر فلم يصدقه الاهالي ولم ينصاعوا لارشاده بل ظلوا مقيمين على السكينة واللهو الى ان قام المهدي بدعوته وثار على الحكومة اه وبعد انكسار جيش هكس باشا واستيلائه على الابيض أرسل الى المهدي وفدا يعرض عليه التسليم فقام عليه الجنود والموظفون فوطن نفسه على ارسال وفد كان برئاسة محمد بك خالد زغل وكيل مديرية دارة وابن عم المهدي فتلقاه المهدي بالترحيب والاحتفال وكان المهدي كتب الى ابن عمه محمد خالد المذكور يحرضه على القيام بدعوته في دارفور ومصالحة جنود الحكومة على الشروط التي عرضها سلاتين باشا ولما تم الامر سافر سلاتين باشا لمقابلة المهدي في جهة تسمى الرهد قال صاحب الكتاب المذكور في صحيفة ٣٢٥ وفي غضون اقامة المهدي في الرهد قدم عليه سلاتين باشا من دارفور وكان مكرما عند المهدي لانه سلم دارفور بلا مقاومة كما قدمنا فأرسل المهدي مندوبا للقائه خارج البلدة وقرأ عليه سلام المهدي الذي لولا انحراف صحته لكان خرج الى لقائه بنفسه وكان سلاتين باشا يومئذ راكبا جوادا وحاملا نبالا كان يقذفها في الجو أثناء المقابلة ويقسم بالله انه يرمي أعداء المهدي بنباله ويقول هكذا يكون قتالي عن راية الامام المهدي المنتظر وكان ينتصب شوقا الى نعيم الجنان وحنينا الى ميادين القتال لشرب كأس الشهادة والفوز بهذه الامنية التي لا يتمنى انصار المهدي غيرها ولما مثل بين يدي المهدي بالغ في اكرامه والتفت الى أصحابه وقال لهم ان عبد القادر سلاتين هذا من الاخوان الصادقين فصادقوه ولا تنفروا منه ومد سلاتين باشا عينه الى المهدي وقال له بايعني كما بايعت السابقين الاولين من أنصارك فتبسم سرورا وبايعه البيعة العامة ولم يبايعه البيعة الخاصة كما سأله وبعد ذلك أنزله في أكواخ بجوار منزل الخليفة عبد الله التعايشي الذي وكل اليه مراقبته السرية وايقافه على دخائل أمره وكان المهدي والتعايشي لا يظهران له غير الوثوق به فأرسل اليه التعايشي جواري وغلمانا لخدمته وكانوا في الحقيقة عيونا عليه الى أن كان من أمره وقيام أولئك الارقاء عليه وضبط الكتاب الذي كان يريد ارساله الى غوردون في الخرطوم ما سنذكره اه ولما بلغت أخبار ضياع جيش هكس باشا الى مصر اضطربت الحكومة ولحق الكثيرين من الناس الكدر والاحزان وأخذت سطوة المهدي تنتشر في جميع انحاء السودان وأرسل المهدي الامير كرغساوي على بحر الغزال ومعه ستة آلاف مقاتل وكان مديرها يومئذ

Digitized by Google

لبتن بك (Lupton) الذى لم يكن معه أكثر من ٥٠٠ جندى وبقية جنوده كانت متفرقة فى انحاء المديرية ففاجأه ألف نفر من جيش الامير كرغساوى المذكور وقبضوا عليه وكان الامير كرم الله قد أحاط بثكنة العساكر وأسر من فيها من الجنود بغير قتال واستولى على جميع مخازن الاسلحة والذخائر وأمسك كل من فى المديرية وبعث بمنشور وقع عليه لبتن بك الى جميع قواد الحاميات يأمرهم فيه بالتسليم لجماعة الامير كرغساوى فانصاعوا كلهم ولم يبدوا أقل مقاومة وأرسل الامير المذكور لبتن بك وبقية الموظفين الى المهدى فأكرم وفادتهم ولبث لبتن بك مرافقا للمهدى الى ما بعد سقوط الخرطوم فعين رئيسا لورشة ملح البارود فى أم درمان ولكنه مات فى حوالى سنة ١٨٩١ وقصد الامير كرغساوى المذكور مدينة (لادو) عاصمة خط الاستواء وهاجمها حتى وصل الى داخل شوارعها بعد حروب شديدة ولكن القائمقام سليم بك هزمه منها وتمكن أمين باشا من دفعه عن تلك البلاد بعد ما أذاق الدراويش خسائر وافرة واضطر الامير كرغساوى الى العدول عن مقاطعات خط الاستواء

وفى خلال ذلك أى قبل مبارحة جناب هكس باشا الخرطوم كان عثمان دقنة (١) الذى تكلم عنه سلاتين باشا كامر قد شخص الى المهدى وبايعه فكتب له المهدى منشورا الى أهل السودان الشرقى يشرح لهم فيه ضعف الدين الاسلامى وما أصاب أهل السودان من الظلم والحيف وطلب منهم القيام بنصرته وقال لهم انه أرسل من قبله الشيخ عثمان بن أبى بكر دقنة لسواكن نائبا عنه وطلب منهم مبايعته ونصرته وبشرهم بما آتاه الله من النصر والاستيلاء على كردفان فتمكن عثمان دقنة بذلك من تهييج أهالى شرقى السودان والتف عليه منهم عدد وافر بجهات سنكات وبلغ توفيق بك محافظ سواكن أمره فتوجه اليها بنفسه وكان توفيق بك استقدم رئيس قبيلتى الشعياب والنوراب وسألهما أن يكونا دليليه فى الطريق وان يعيناه على امساك عثمان دقنه فأجاباه الى سؤله ولكنهما بعد وصول توفيق بك الى سنكات هربا ولحقا بعثمان دقنه ثم طلب توفيق بك عثمان دقنة اليه فلم يحضر وبعد قليل وصل اليه كتابان من المهدى يقول له فيهما انه لما كان المصريون أقل رتبة واعتبارا فى عينى من المسيحيين واليهود والكافرين وجب أن يسلموا جميع الاسلحة والذخيرة وباقى مهمات الحكومة الى عثمان دقنة وزيرى وقال الرسل لتوفيق بك انك ان لم تمتثل لهذا الامر فسننفذه بحد السيف فوقع توفيق بك فى حيرة عظيمة وتحصن بالستين نفرا الذين كانوا معه داخل ثكنة سنكات المذكورة

واقعة سنكات — لما كان توفيق بك محافظ سواكن محاصرا فى سنكات زاد عدد النوار تحت امرة عثمان دقنة حتى بلغوا ١٥ ألف مقاتل فحاصروهم بسنكات وطوكر وهى على

(١) عثمان دقنة هذا أصله من قبيلة صغيرة تدعى الدقناب تنتسب الى قائد تركى كان أبعده السلطان محمود خان العدلى من الاستانة وحبسه فى سواكن منذ قرن فتزوج هذا القائد امرأة حبشية ورزق منها أعقابا ذكور سمى نسلهم بقبيلة الدقناب وكان آل عثمان يعدون من وجوه سواكن وكان ثلاثة من أعمامه حازوا الرتبة الثالثة من الحكومة المصرية وكان له أملاك كثيرة فى سواكن استولت عليها الحكومة وهم من الاولاد الشيخ المرغنى وكان المترجم كثير التردد على القاهرة بتجارة العاج والريش فعرفه فيها الكثيرون من تجارها وكان رأس ماله يبلغ ٣٠ ألف جنيه وفى مدة توظيف الاوروباويين فى السودان قبضوا على قافلته لسبب وجود رقيق فيها فحكموا عليه بالاعدام بعد ان صادروا أمواله فتمكن من الهرب بعد ان قاتل رجال الحكومة ثم جاء القاهرة وعرض مظلمته للمغفور له الخديو الاسبق اسمعيل باشا فلم تسمع وعاد بدون طائل فأصابه الفقر وبقى الى ان صدع بدعوة المهدى وقام لينتقم من الذين ظلموه اهـ

Digitized by Google

مسافة ٤٥ ميلا من سواكن ووصل خبر حصارها الى مصر فعزمت الحكومة على تجهيز قوة لخلاص طوكر أولا ثم سنكات ثانيا وأصدر الخديو أمرا بتعيين حسين واصف باشا حكمدارا على السودان الشرقى وسافر الى سواكن وأرسل محمود باشا طاهر بجيش مؤلف من ٥٠٠ مقاتل من سواكن الى الترنكيتات (٣ نوفمبر ١٨٨٣) ومعه القومندان منكريف (Moncrieff) من البحرية البريتانية وانضم الى هذه القوة بعد وصولها سبعمائة نفر من الجنود السود تحت قيادة قاسم بك الذى قتل فى واقعة طماى ثم نزلت هذه الجنود من السفن وسارت فى الصحراء قاصدة طوكر وبعد سير عشرة أميال وصلت الى مكان يدعى السيتراب والتقت بجموع عثمان دقنه فهزمها وشتت شملها وقتل القومندان منكريف وولى محمود باشا طاهر الادبار والتجأ الى السفن فى الترنكيتات ثم عاد مع من بقى من الجيش الى سواكن وصدر أمر الخديو بتشكيل مجلس حربى فى سواكن تحت رئاسة حسين عاصم باشا لمحاكمة محمود باشا طاهر على فراره واستمرت المحاكمة الى ان حصلت هزيمة بكر باشا الآتى ذكرها فصرف النظر عن محاكمته وبقى عثمان دقنه حول سواكن يوالى الغارة عليها ليلا ونهارا فارسلت الحكومة عليه حملة أخرى بقيادة البكباشى كاظم أفندى فالتقى بها عثمان دقنه فى جبل تكمريت وقتلهم اولم ينج منها غير عدد قليل وفى خلال ذلك أشارت انكلترة على الحكومة المصرية بترك السودان واستقدام جميع الجيوش والموظفين (٢٠ نوفمبر ١٨٨٣) فتوقف المرحوم شريف باشا رئيس الوزراء عن قبول هذا الامر كامر فأرسل يومئذ لورد غرانفيل محررا الى السير بارنغ (اللورد كرومر) يقول فيه لاريب اننى فى غنى عن ان استلفتكم الى انه من المسائل المهمة التى تتعلق بادارة شؤن مصر واستتباب الامن فيها الذى هو من واجب حكومة جلالة الملكة مادام احتلال الجنود الانكليزية الموقت موجودا ان تكون على يقين ان النصائح التى تعطى من قبلكم للجناب الخديوى قياما بواجباتكم معمول بها فيلزم ان تعلموا النظار وحكام الاقاليم صراحة انه مادامت المسؤلية الآن على عاتق انكلترة فحكومة جلالة الملكة مضطرة لان تكون على يقين من نفاذ السياسة المرسومة لذلك فمن اللازم إذن على النظار والحكام ان يتخلوا عن وظائفهم اذا لم ينصاعوا لتلك السياسة اه وعليه استقالت وزارة شريف باشا وتشكلت وزارة نوبار باشا فأقرت على ترك السودان قال صاحب كتاب السودان المصرى ما ملخصه انه لما علم أهالى الخرطوم بقرار الوزارة النوبارية تجمهروا امام مكتب التلغراف وهم يضجون بالويل والثبور وكتبوا عريضة طويلة الى جلالة السلطان عبد الحميد خلاصتها انهم يقطعون كل علائقهم مع الحكومة المصرية ويسألون جلالته عودة احتلال العساكر الشاهانية لموانى البحر الاحمر التى تنازل عنها جلالته الى الحكومة المصرية وارسال مائة ألف عسكرى لاعادة السودان باسم حكومة الجناب السلطانى فاذا أجابهم جلالته الى ذلك عمدوا الى موافقة مسيو البيرمار كوبيب التاجر الفرنساوى فى الخرطوم على اقتراض عشرة ملايين جنيه من الماليين الفرنساويين فيخصص منها أربعة ملايين لنفقات الجنود من دار السعادة الى الخرطوم ولمد السكة الحديد من سواكن الى المدينة المذكورة وتعهد عشرون تاجرا بجلب ٣٠ ألف قنطار من العاج فى كل سنة من ايراد بحر الغزال وخط الاستواء وبعد ان أرسلت تلك العرائض البرقية أوقفها المأمورون فى إحدى المحطات فأخذ الناس ينزحون عن الخرطوم اه وفى

خلالها

خلالها عرض الجنرال غوردون نفسه للخدمة لاخلاء السودان وقبلت الحكومة المصرية استخدامه (٢٦ يناير ١٨٨٤) واتخذت انكلتره وقتئذ على نفسها صيانة الموانى البحرية فى البحر الاحمر وعينت الاميرال هيوت (Sir W. Hewett) قائدا على المدفعيات التى ساقتها الى سواكن واستلم قومندانية الدفاع عن تلك السواحل وفى خلالها عهدت الحكومة الى الزبير باشا بتجنيد بعض السودانيين للسفر بهم الى السودان عن طريق سواكن وأرسل الزبير باشا خطابا من طرفه الى عربان سواكن يدعوهم الى الطاعة وقد اعترضت جمعية منع الرقيق فى لونده على استخدام الزبير

حملة بيكر باشا — لما وصلت أحوال السودان الى ما علمت عين الخديو الجنرال بيكر باشا مفتش عموم البوليس مع عساكر البوليس والجندرمة لخلاص البلاد المحصورة فى شرقى السودان وقبل سفر هذا الجيش استعرضه الخديو ثم أصدر أمر البيكر باشا بتاريخ ١٧ صفر سنة ١٣٠١ صرح له فيه بأن يكون مطلق التصرف فى اطفاء ثورة تلك الجهات وقد أوردنا صورة هذا الامر باسفل الصحيفة اتماما للفائدة (١) فسافر اليها يوم ١٨ ديسمبر وكان سبقته الميرالاى سرتوريوس بك (Sartorius) رئيس أركان حرب والميرالاى عبد الرزاق بك وموريس بك وغيرهم من الضباط ولما وصل أصدر بعض الاوامر الى حسين واصف باشا حكمدار شرقى السودان فحصل بينهما اختلاف فيمن يكون له الرياسة فأراه بيكر باشا أمر الجناب الخديو المخول له التصرف المطلق فاستعفى حسين واصف باشا من الوظيفة وقبل استعفاؤه وعاد الى مصر وخلفه سليمان نيازى باشا ثم توجه الجنرال بيكر مصحوبا بالاميرال هيوت الى مصوع ليحالف رؤساء قبائل العرب والحبشة ضد الثائرين بقصد تسهيل طريق لانسحاب حامية الخرطوم عن طريق كسلة وكانت الحامية المذكورة وقتئذ تحت قيادة الكولونيل كوتلجن وكان حفر حول الخرطوم خندقا طوله ١٤٠٠ متر فلما وصل بيكر باشا مصوع (٣١ ديسمبر ١٨٨٣) أرسل من حاميتها بعض العساكر السودانيين الى سواكن تقوية لجيشه واستعاض عنهم فى مصوع بعساكر مصرية ولما عاد الى

(١) حيث انباعينا لكم بمأمورية اطفاء الثورة القائمة بالجهات الكائنة بين بربر وسواكن وحفظ خط المواصلة بين هاتين النقطتين وهذا بناء على ما هو معلوم ومشهور منكم من الهمة والاستعداد فى الامور العسكرية فقد رأينا لزوم الايضاح لكم بوجه الاجمال من أفكارنا فيما يتعلق بالحركات التى تستدعيها مأموريتكم المذكورة وهو انه من لوازم هذه المأمورية ان تستعملوا أولا كافة الوسائل السلمية والطرق السياسية بقصد اجتلاب قلوب مشايخ العربان على اختلاف قبائلهم للطاعة والانقياد قبل استعمال القوة وحيث ان العساكر الجندرمة الموجودة الآن بسواكن سينضم اليهم أورطة سودانيون تحت قومندانية الزبير باشا الذى لكم الرياسة عليه مباشرة فلا شك فى انه يسهل عليكم اجتناء ثمرات ما للباشا المومى اليه على القبائل السودانية من النفوذ المشهور ولقد رخصنا لكم فى هذه المأمورية باستعمال القوة الملكية والعسكرية فى جميع انحاء السودان التى تصلون اليها كما اننا صرحنا لكم بتنفيذ أحكام الاعدام التى تصدر من المحاكم العسكرية على رجال العسكرية أو من المجالس الاعتيادية على رجال الملكية ولكم أيضا أن تضعوا تحت الاحكام العرفية كل مدينة أو اقليم يرى لكم لزوم وضعه تحت هذه الاحكام وأن تجروا مقتضاها هذا ما اقتضته ارادتنا فيما يختص بالاعمال التى ستكون ادارتها بيدكم ولنا الثقة التامة فى استعدادكم وفى اخلاصكم الثابت لنا كان مأمولنا الحصول على أكبر المزايا وأحسن النتائج من المأمورية الموكولة لعهدتكم ا ه فى ١٧ ص سنة ١٣٠١ (٢٨ دسمبر سنة ١٨٨٥) من مجموعة الاوامر والدكريتات صحيفة ١٨٦ التوقيع محمد توفيق

سواكن أخذ يستعد للقتال وفي يناير سنة ١٨٨٤ وردت لهم رسالة من قائد حامية طوكر شرح فيها حالتهم الخطرة وقال اذا لم تأتهم النجدة بعد ثلاثة أيام اضطر الى التسليم للثوار فصمم بيكر باشا على انقاذ طوكر أولا فخرج من سواكن بحرا ونزل على الترنكيتات وكان جيشه يتألف من ٣٦٥٦ نفرا منهم ٣٠٠ من سوارى مصرى و ١٥٠ سوارى ترك و ٥٦٠ من جندرمة اسكندرية و ٥٠٠ من جندرمة مصر و ٤٥٠ من سودانية مصوع و ٤٢١ من سودانية سنهيت و ٤٢٩ من بيادة الاتراك و ٦٧٨ من السودانية الذين مع الزبير و ١٢٨ من الطوبجية معهم ستة مدافع ومع هذا الجيش نحو أربعين جنديا من البوليس الافرنج وتقدم به يوم ٢ فبراير وفي ١١ منه شرع في الزحف نحو طوكر وكان سيرهم عاديا وليس على شكل مربع وكانت المدافع في المقدمة والخيالة في الجوانب وبينما هم على هذا الشكل الغير منتظم داهمهم الدراويش وكانوا مختبئين فأسرع بيكر باشا في وضع رجاله على هيئة مربع ووقف هو وأركان حربه مع طليعة الخيالة في ميسرة الجيش الا ان الوقت كان غير كاف لاتمام التعبية قال صاحب كتاب السودان المصرى ما ملخصه وكان عثمان دقنه قسم جيشه الى أربع كتائب جعل كل كتيبة إزاء زاوية من زوايا المربع وأقام هو في كتيبة خامسة إزاء مقدمة المربع ولما دنت الحملة من الكمين الامامى صاح عثمان بأنصاره قائلا هلم الى الشهادة والفوز بقرب الله تعالى في دار البقاء فانقضت جنوده على الحملة بجلبة وصياح يصم الآذان وفعل مثلهم بقية الكتائب اه فحال العدو بين بيكر باشا وبين عساكره ولكنه حمل ببطانته على الاعداء واخترق صفوفهم وأتى الى المربع فقتل من حاشيته كثيرون من جلتهم عبد الرزاق بك الرئيس الوطنى لاركان حرب الجنرال وطاهر بك الصاغ الذى حضر معه من الاستانة وموريس بك الذى كان بجانب المدافع والقبودان فورستيه ولكر (Forestier-Walker) والضابط كورل (Corroll) وغيرهم ولما وصل الى المربع تحت نيران البنادق وجد العدو قد دخل المربع وقضى الامر ولم تبق في اليد حيلة لدفع المصاب ويقال ان الطوبجية لم تطلق مدافعها الاطلقة واحدة ثم ولت الادبار مع باقي العساكر الذين حل بجميعهم الرعب وثارت الجمال مذعورة ونفرت في جوانب البيداء تدوس من صادفها من العساكر وكنت ترى الدرويش يهجم على المئات من العساكر ولا يبالى حيث لم يجد امامه أحدا يقاومه حتى خيل اليهم أنهم ابطال زمانهم والحاصل ان العساكر المنهزمة قصدت طريق الترنكتات والعدو يتعقبها ويقتل كل من أدركه منهم وكان انهزامهم بغير انتظام ولا ترتيب ما عدا عساكر مصوع السودانيين فانهم تقهقروا بهيئة منتظمة حتى شهدت لهم الكتاب بالبسالة والشجاعة وعاد بيكر باشا وخاف العدو من مدافع الاسطول الذى كان في ميناء الترنكتات فرجع عن المنهزمين عند وصولهم الى الحصن ولم يكن في ميناء الترنكتات مدفع واحد ومنذ ذلك تتبع العدو باقي الجيش لذبحه عن آخره عند وصوله الى الميناء وبعد ذلك اتضح ان عدد الذين قتلوا في هذه الواقعة بلغ ألفي نفر منهم ٩٦ ضابطا وقتل من عساكر الزبير السودانيين ٤١٠ ومن أورطة اسكندرية ٤٩٦ ومن الاتراك والتليانيين عدد غفير والمظنون ان معظم القتلى قتلوا وقت الهزيمة وسميت هذه الواقعة بواقعة التب ولما انهزم بيكر باشا بهذه الصفة صدر أمر الخديو بالعفو عن محمود طاهر باشا وعقب ذلك سلم توفيق بك مدينة سنكات بعد ما قاوم مقاومة دلت على شجاعته ولكن الدراويش أبادت قوته بتمامها وقتل هو ثم سلمت

Digitized by Google

طوكر أيضا الى عثمان دقنة وغنم فى هذه الوقائع جميع الاسلحة والذخائر والدواب واشتهر أمره وعلت منزلته بين الدراويش وفى غضون ذلك ظهرت دعوة المهدى حول كسلا وثار الاهالى فيها وقتلوا ثلثمائة جندى وضباطهم وبعث عثمان دقنة أميرا من قبله يدعى مصطفى هدل وحصر كسلا

صورة غوردون باشا الى السودان ـ لما قبلت الحكومة الخديوية استخدام الجنرال غوردون باشا لاخلاء السودان قدم من انكلترة يصحبه الكولونيل ستيورت (Stewart) كاتم أسراره ورئيس أركان حربه بعد ان أرسل له لورد غرنفيل أمرا أدرجنا صورته بأسفل الصحيفة (١) واحتفل الانجليز بوداعه فى اندرة احتفالا عظيما وقالت الجرائد وقتئذ ان لورد ولسلى حمل له صندوقه الى عربة القطار ولورد غرانفيل قطع له تذكرة السفر ودوق كامبردج فتح له باب العربة ولما وصل الى القاهرة (٢٥ يناير ١٨٨٤) تقابل مع السير بارنج (لورد كرومر) الذى زوده بما يلزم من التعليمات والنصائح وقال له ان الحكومة الانكليزية قد فوضت اليك أمر اخلاء السودان وانها تطلب منك اعادة حكم الامراء الذين كانوا يحكمون فيه عند ما فتحه محمد على باشا وأجازت لك ابقاء العساكر حتى يسهل عليك اخلاؤه وغير ذلك هذا ولما تقابل مع الخديو توفيق باشا سلمه أمرا بتعيينه حاكما للعموم السودان وفوض له أمر اخلائه من العساكر والموظفين وكل من يرغب من أهاليه المجىء الى مصر وان ينشئ حكومة منظمة فى كل مديرية اذا أمكن وقد عثرنا على صورة هذا الامر فى صحيفة ٥٥٠ من مجموعة جرنال الجنرال غوردون فى الخرطوم تأليف اجمنت هيك (Egmont Hake) فادرجنا تعريبه بالحرف الواحد فى اسفل الصحيفة لتمام الفائدة (٢) وكان المرحوم توفيق باشا يهتم كثيرا فى تخليص المصريين الذين بالسودان مما هم فيه

---

(١) سيدى ـ ان دولة الملكة تريد ان تسافروا بدون تأخير الى مصر حتى تحرروا تقريرا فى الاحوال الحاضرة فى السودان والتدابير التى يقتضى اجراؤها التأمين الاستحكامات المصرية الموجودة هناك ولتأمين السكان الاوروباويين الذين فى الخرطوم فيلزمكم والحالة هذه ان تتأملوا فى هذه القضية ثم تخبرونا بالوسائط التى يلزم اتخاذها لمباشرة اخلاء داخل السودان ولتأمين ادارة سواحلها التى تحت سيادة الحكومة الخديوية وفى خلال ذلك يلزمكم دقة نظركم بصورة خاصة فى التدابير الفعالة اللازم اتخاذها فى ان اخراج المأمورين المصريين من داخل السودان لا يكون سببا فى اعادة بيع الرقيق وستتلقون أوامركم من وكيل الملكة وقنصلها العام فى القاهرة سر افلن بارنغ وبواسطته أيضا ترسلون اليه تقاريركم ويمكنكم أيضا ان تقبلوا مأموريات أخرى مما ترى الحكومة الخديوية من المناسب تفويضه اليكم وعند ذلك يكون تبليغ هذه الاوامر اليكم بواسطة الوكيل المشار اليه ويكون بمعيتكم لمساعدتكم فى مأموريتكم الكولونيل ستوارت ثم عند وصولكم الى مصر تتوجهون الى سر بارنغ وتقع بينكما المذاكرة فى هل يقتضى الحال ان تتوجهوا بنفسكم رأسا الى سواكن أو الخرطوم أو ترسلون الكولونيل ستوارت عوضا عنكم ١٨ يناير سنة ١٨٨٤ اه من الجوائب

(٢) من خديو مصر الى سعادة غوردون باشا

لا يخفى عليكم ان استدعاءكم الى هذه الديار وذهابكم الى السودان انما هو بقصد اخلاء تلك الاماكن وانسحاب جيوشنا مع مستخدمى الحكومة الموجودين هناك وكذا جلب من يريد الحضور معهم من السكان مع جميع متعلقاتهم ولى الثقة التامة بأن سعادتكم تعتنون كل الاعتناء فى اتمام هذه المأمورية باستعمال أحسن الطرق والوسائط التى يظهر لكم ضرورة عملها لحفظ تلك الجيوش والمستخدمين والسكان والتجار سواء كانوا من الاهالى أو من الاجانب الذين يريدون الحضور معكم وبعد تمام هذه المأمورية تتخذون الاحتياطات اللازمة لتكوين حكومة قوية فى مديريات السودان ليستمر فيها النظام ويؤمن من وقوع الكوارث التى تتأتى من أمة جاهلة تركت ونفسها

Digitized by Google

من الضيق حتى انه قال للبارون دى مالورتى (Baron de Malortie) لم يكن فى استطاعتى ان أبدى دليلا عن حسن مقاصدى بأحسن من تعيين غوردون باشا حكمدارا عموميا ومنحه كل السلطة فى عمل ما يراه ضرورىا بالاصابة الغرض الذى ترمى اليه حكومتى وحكومة جلالة الملكة حتى انى قلدته نفس السلطة المخولة لى وتركت له الحكم على الحالة الراهنة ولاريب فى ان ما يستطيع اتيانه من الاعمال أحسن ما يكون وقد قبلت سلفا ما يمكن أن يقترحه من الوسائل الى ذلك اذ ما يراه حسنا من التصرفات يكون الزاميا بالنسبة الينا ثم انى بعد أن جعلت عظيم ثقتى بهذه الكيفية فى هذا الباشا لم أشترط عليه الا شرطا واحدا وهو أن يبذل عنايته فيما فيه طمأنينة العناصر المتمدنة من أوروبين ومصريين وها قد أصبح الآن الرئيس المفوض رافقه حسن آمالى فى هذه المأمورية التى هى من الخطارة والاهمية بمكان فان قلبى يذوب عندما أفكر فى الالوف الكثيرة من رعاياى المخلصين الذين تكفى غلطة منه لهلاكهم وانى لا اشك فى انه سيبذل كل ما فى وسعه لحقن دماء أكثرهم على الاقل فان نجح بعون الله فى اخلاء الخرطوم وأهم موانى السودان الشرقى فلله الشكر مدى الدهر على رعيتى التى ترتعد فرائصها من توقع ما يخشى حصوله بعد حين أما قولى لك انه ينجح فى مشروعه فهو من قبيل المجازفة منى فى الكلام كثيرا فان امامه قوات أكثر منه عددا وأهوالا غير أنا نرجو الخير وأما هو فيمكنه أن يعتمد على أصدق مساعدة وأسرع معونة منى أنا وحكومتى بقدر ما تصل اليه يد الامكان اه هذا وقد صرح المستر غلادستون امام البرلمان بأن الحكومة الانكليزية تأخذ على عاتقها كل مسؤلية المأمورية التى ألقيت مقاليدها الى غوردون باشا أدبيا وسياسيا وكذلك صرح لورد غرنفيل امام مجلس اللوردات بما يقرب من ذلك (١٩ فبراير) وفى أثناء تلك المدة راجعت نظارة الحربية المصرية دفاترها فعلمت منها ان الموجود بالسودان بين دنقله وغوندكرو من العساكر النظامية ٢١,٠٠٠ معهم ٨٤ مدفعا مختلفة العيار وبكثير من المدن والقرى مخازن ملأى بالآلات والذخائر الحربية ولما تذاكرت فى كيفية ارجاع هذه الجنود والذخائر علمت انه يلزم لذلك على الاقل نحو ستة آلاف جمل وان أحسن طريقة لنقلها تكون الى مصوع عن طريق شمالى الحبشة أما اذا كان النقل بواسطة النيل فيلزم لذلك على الاقل ١٣٠٠ سفينة هذا خلاف السفن التى تلزم لارجاع المأمورين والاهالى المصريين الذين يرغبون العودة الى أوطانهم واعلم انه كان يوجد للحكومة فى ذلك الوقت بدار صناعة الخرطوم نحو ١٦ سفينة بخارية وأكثر من ٣٥٠ شراعية بين سفينة وزورق وقد وقعت كل هذه الاشياء فى يد السودانيين كاستعلمه مما يأتى ثم سافر غوردون باشا الى محل مأموريته (٢٧ يناير) عن طريق عطمور أبو حمد وبربر وشندى وأعلن للاهالى فى طريقه صراحة باباحة تجارة الرقيق وأوراهم ان الحكومة المصرية لا تعارضهم فى ذلك لان السودان أصبح دولة مستقلة عن مصر وان المهدى جعل سلطانا على كردفان ولما وصل الى الخرطوم قابله العموم

بلاحا كم وانى معتمد كل الاعتماد على نباهتكم وحراء تكم اللتين اليهما وجهت انفاذ هذه المأمورية بالطريقة المرغوبة ٥

فى ٢٧ يناير سنة ١٨٨٤ اه من جرنال الجنرال غوردون فى الخرطوم محل الختم (محمد توفيق)

فيها

فيها بالفرح والسرور ووقعوا على يديه وقدميه يقبلونها مخاطبهم قائلا انى قد حضرت لتخليص السودان بمفرده ولم أجئ محفوفا بالجنود بل اتكلت على معونة الله فلا أحارب الا بسلاح العدل ولكن معلوما انه من الآن فصاعدا لا يكون فى البلاد عساكر باشبوزق يعيثون ويفسدون فوقع كلامه موقع الاستحسان عند الاهالى واستتبت الراحة فى الخرطوم نوعا ثم أحرق علانية كل دفاتر الحكومة وآلات الجلد وألف مجلسا من أعيان الاهالى وأطلق سراح معظم المسجونين فأظهر الاهالى له الميل حتى ظن انه فاز بالغرض ثم بعث الى مصر جانبا من حامية الخرطوم المصريين وكان يريد أن يجعل كل حامية الخرطوم من العساكر السودانية وغير ذلك من الاعمال التى عملها قصد استمالة الاهالى اليه ثم بعد قليل ظهر له عكس ما كان يرجوه حيث عاد الثوار الى ما كانوا عليه من التعديات وسفك الدماء ولما تعسر عليه تنفيذ الاوامر المعطاة له قال بلزوم بقاء الحكومة المصرية فى السودان بقاء حقيقيا بحيث تكون صاحبة السيادة عليه وان تعين هى فيه الحاكم العمومى وحكام المديريات وأن تكون مصر للسودان بمنزلة محكمة عليا وقال انى أرغب رغبة شديدة فى اخلاء الجيوش والموظفين عن السودان لا تركه مرة واحدة وأن يغير الفرمان الذى أنا حامل له بآخر يبقى لمصر المراقبة الادبية والسيادة على السودان وانى مع ابداء هذا الطلب أرى من الواجب على بادئ بدء ان أقول لكم ان مراقبة الحكومة المصرية المراقبة الادبية على السودان ستكون بمنزلة من تعود عليه المسؤلية وأن لا يؤثر أحد على التعيينات التى تعينها الوزارة المصرية أقل تأثير اذ أن مركزها أعلى من ذلك وانى على يقين من أن تنفيذ السياسة التى عرضتها آنفا ليس من ورائها أقل خطر على حكومة جلالة الملكة ولا على الحكومة المصرية وانها توطد بعض التوطيد ثقتنا فى مستقبل الاقطار السودانية ولما وصل هذا التقرير واطلعت عليه دولة الانجليز لم تقبل منه ذلك لمنافاته لخطتها فى المسئلة السودانية ثم ان غوردون أراد الاستعانة بمن له دراية تامة باحوال السودان فطلب أن يرسل اليه الزبير باشا وتكرر منه الطلب بالحاح فعارضته جرائد انجلتره وحكومتها فى ذلك ولم تسمع أيضا السمو الخديوى بقبول هذا الطلب وبعد ذلك كتب غردون الى حكومته بوجوب كسر شوكة المهدى قبل اخلاء السودان وقال لو امتلك المهدى الخرطوم تجاوزها الى حدود مصر وأقلق راحة الحكومة الخديوية مدة طويلة فيجب قهره لتؤمن غوائله ثم طلب من حكومته أيضا ان تمده بمائة ألف ليرة خلاف ما أخذه معه من حكومة مصر وان تبعث بمائتى جندى من الهنود الى وادى حلفا وضابطا انكليزيا الى دنقله يتظاهر بأنه قادم للتفتيش على المحلات المناسبة لحلول الجيوش القادمة وغير ذلك من الافكار والاقوال ولما تضايق غوردون باشا من عدم اجابة مطالبه اقترح تسليم السودان الى الدولة العلية صاحبة البلاد وكانت انكلتره وتشتد تخابر الباب العالى ليتنازل لها عن السودان الشرقى فرفض الباب العالى طلبها رفضا باتا وبقيت مسئلة السودان تزداد ارتباكا

وفى تلك الاثناء أرسل غوردون باشا الكولونيل ستيورت برسالة ودية الى القبائل الساكنة على سواحل النيل الابيض وأصحبه بمائة جندى وعشرة من السودانيين على باخرتين ولما وصلوا الى بلدة الشيخ طوخ ابراهيم البعيدة عن الخرطوم بنحو ستين ميلا وجدوا فيها ٢٥٠٠ مقاتل من قبيلة البقارة توعدوهم بالقتل وكان الشيخ طوخ ابراهيم المذكور بالابيض وأرسله المهدى ليمنع

تقدم الكولونيل ستورت ولما يئس الكولونيل من نوال شئ عاد الى الخرطوم ثم أرسله غوردون ثانية الى البلاد المجاورة للخرطوم فلم ينجح فى هذه المأمورية أيضا وكان القصد من هاتين المأموريتين استمالة القبائل النازلة بتلك البلاد الى مصر وترك دعوة المهدى وبعد ذلك بأيام قليلة شرع العصاة فى محاصرة الخرطوم قال سلاتين باشا فى كتابه ما ملخصه ولما بلغ غوردون باشا الخرطوم نشر منشورا جعل فيه المهدى سلطانا على كردفان وبعث اليه بالهدايا وطلب منه اطلاق الاسرى وأباح النخاسة ولو كان مع غوردون قوة تحمى ظهره لرضى المهدى بذلك ولكن لما بلغه انه جاء الخرطوم وحده استغرب أمره واستخف به فرد له الجواب يدعوه فيه الى التسليم وكان عبد الله التعايشى طلب من المهدى أن ينشر على العموم نشرة يعلمهم بها بأنه خليفة ليمنع بذلك كيد الحاسدين له من الامراء فنشر عليهم منشورا بهذا المعنى (١) فصار عبد الله التعايشى من وقتئذ الآمر الناهى فى كل الامور وكان أهالى الخرطوم يظنون ان غوردون باشا انما جاءهم ليخرج منها بالحامية فرابهم أمره وفشا داء الخيانة فى ضباط جيشه فحاكم بعضهم فى مجلس عسكرى وقتلهم ومن العقبات التى صادفها غوردون باشا أثناء وجوده بالخرطوم ما رواه صاحب كتاب السودان المصرى والانجليز قال ان غوردون قابل فى الخرطوم عدة صعوبات منها انه وجد مقاومة من الجمعية الوطنية التى كانت تشكلت بالخرطوم تحت رياسة من يدعى أحمد أفندى العوام وكان منفيا بسبب الاشتراك فى الثورة العرابية فعزم غوردون باشا على تفريق جموعها فاستدعى اليه أحمد أفندى العوام ومنحه الرتبة الثانية وراتبا عظيما وعينه سكرتيرا له ولكن العوام رفض قبول المنصب والوظيفة وقال لغوردون انه لا يقصد غير سعادة مواطنيه فأخذ غوردون يحاول إقناعه فلم يفلح ورجع العوام وكتب فى النشرة الاسبوعية التى كان يصدرها كل ما جرى له مع غوردون باشا وقال ان غوردون قال له ان المصريين شعب لا يعرف معنى الاستقلال ولا يسرى فى عروقه دم وطنى يدفعه اليه وكان من رأى رجال هذه الجمعية فصل السودان عن مصر فصلا مؤقتا ريثما تتخلص من مصر والزام الدولة العثمانية بتسكين ثورة السودان وبقاء العساكر الشاهانية فيه وفى سواحل البحر الاحمر لا تفارقه الا بعد حل المسئلة المصرية ثم مالت الجمعية الى الالتجاء لدولة أجنبية وبالفعل خابرت الموسيو هربين قنصل فرانسا فى الخرطوم ولكنه مات مع رجال البعثة التى بعثها غوردون باشا مع الكولونيل استيوارت والمستر فرنك بيو ير قنصل انكلترة بالخرطوم على سفينة تجارية لمقابلة حملة لوردولسلى (١٠ سبتمبر ١٨٨٤) وكان غوردون باشا تغلب على الجمعية وقتل رئيسها المذكور

وورد فى صحيفة ٢٨٥ من الكتاب المذكور ما ملخصه انه لما وصل كتاب غوردون باشا وهديته الى المهدى جمع حوله الامراء وتلاه عليهم وكتب ردا ظاهره التعظيم وباطنه التوبيخ والوعيد

---

(١) بسم الله الرحمن الرحيم اعلموا أنصارى ان نائب الصديق (أبى بكر) أمير جنود نا المشار اليه فى رؤيا النبى هو السيد عبد الله بن السيد محمد الله هو منى وأنا منه فاكرموه كما تكرمونى واخضعوا له كما تخضعون لى وثقوا به كما تثقون بى واعتمدوا على كل ما يقول ولا تشكوا فى عمل فان كل ما يعمله انما يعمله بأمر النبى أو بأمرى واذا أراد الله ونبيه شيئا فليس علينا الا الطاعة ومن ارتاب فى ذلك فهو كافر جحود الى ان قال الخليفة عبد الله هو أمير المؤمنين وهو خليفتى ونائبى فثقوا به وأطيعوا أوامره ولا ترتابوا فى شئ مما يقول اهـ من كتاب النار والسيف فى السودان

(١) ثم خطب المهدى فى قومه وتلا عليهم الكتابين وقال هل من رجلين يبيعان حياتهما من الله تعالى ويذهبان بكتابى هذا الى غوردون فبرز له ألوف فأمر بالاقتراع فأصابت رجلين من خدام المهدى أحدهما يدعى محمد أحمد الصافى والآخر يدعى أحمد فرح فسارا حتى بلغا مدينة الخرطوم وأوصلا الجواب الى غوردون وكان غوردون ورد عليه كتاب آخر من عوض الكريم باشا ابن أبى سن زعيم قبيلة الشكرية لامه فيه على قدومه الى الخرطوم بغير جنود وأخبره ان دعوة المهدى انتشرت فى كل أنحاء السودان ولم يلتفت الناس لما جاء به غوردون من الخدعة السياسية وانه أى عوض الكريم باشا لم يدخل فى تلك الدعوة وقد ذهب بقبيلته فامتنعوا فى صحراء دره كما امتنع ابن أبى جن بقبيلة الجدة فى وادى العطش لعدم قبوله دعوة المهدى وكان المهدى وقتئذ قد قسم جنوده الى ثلاثة أقسام وجعل كل قسم منها تحت امرة خليفة من خلفائه الثلاثة وجعل الخليفة عبد الله رئيسا عليهم وأعطاه راية زرقاء وأعطى الخليفة عليا ولد حلو راية خضراء والخليفة محمد شريف راية حمراء وهى راية الاشراف ولما انقضى شهر رمضان ادعى المهدى أن النبى ظهر له وأمره بفتح الخرطوم فأمر امراءه كلهم بالحملة عليها ولما قرب المهدى بجيوشه من الخرطوم جاءه محمد شريف استاذه الذى طرده من حلقته وهو تائب فرحب به وأكرم مثواه اهـ وكتب المهدى الى غردون كتابا يقول له فيه سلم تسلم أنت ورجالك وانى أنا المهدى الحقيقى وان أبيت التسليم حاربتك واعلم أن رجالى أكثر من رجالك فان حاربتك دارت الدائرة عليك وكرر النصيحة بالتسليم اما غوردون باشا فلم يجاوبه بشئ هذا ولما رأت الحكومة الانجليزية أن غردون أصبح محصورا لا يمكنه فعل شئ بعثت جيشا لانقاذ حاميات شرقى السودان تحت قيادة الجنرال جيرالد جراهم

حملة الجنرال جراهم وواقعة الطيب وطماى — لما وصل الجنرال جراهم الى سواكن انضم اليه بيكر باشا وأركان حربه ومن معه من الجنود المصرية وبعد ان تداولا طويلا صمم جراهم على اتباع خطة بيكر للوصول الى طوكر مع أن الخبر كان وصل الى سواكن بسقوطها فى يد المهدويين وسارت الجنود الى فرضة الترنكيتات وكانت تتألف من ٢٨٥٠ من البيادة و ٧٥٠ من الخيالة و ١٠٠

(١) انك تقول ان لا قصد لك غير حقن الدماء وفتح طريق الحج لزيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم ونسيت ماسفكته من الدماء بالامس وهل ظننت اننا نجهل مالك من الايادى السوداء فى اثارة القلاقل فى أنحاء دارفور والنيل الاعلى لغرض واحد وهو ايقاع السودان فى مهاوى الفوضى بغية ضمها الى الاملاك الانكليزية والفرق ظاهر بين مساعيكم السابقة وبين أمرنا الحاضر فاننا لا نبغى ملكا ولا جاها ولا شيأ من حطام الدنيا وغاية ما نسعى اليه هو أن نجدد لهذه الامة ما اندرس من معالم دينها التى لا ريب فى أن تقويضها كان بسعيك وأعمالك التى لا ينكر فسادها أحد وأما فتح طريق الحج فانه خديعة منك وتظاهر بحماية الدين الاسلامى مع انك لا تؤمن بحرف مما جاء فى هذا الدين وقد سمع هذا القول منك غير مرة أيام توليك على الحكمدارية منذ أعوام وعليه فاذا كنت ممن يشفق على المسلمين فانطق بالشهادتين كما فعل عبد القادر سلاتين باشا مدير دارفور ودبتري مجاداه وغيرهما من المسيحيين الذين صار لهم مالنا وعليهم ما علينا فاذا فعلت ذلك صدقناك بأنك مشفق على المسلمين غيور على مصالحهم ثم تقول ان جلالة الملكة سعت الى سلخ بلادنا من حكومة الترك وعينتك حاكما علينا مستقلا وانك تزف البنا هذه البشرى ولم تعلم أنها تسومنا بذلك خسفا لا يحتمله أبى النفس وبعد ذلك استطرد الى ذكر اعتراف جلالة الملكة بسيادة المهدى على السودان الغربى فانكر عليها ذلك ورفض اعترافها بهذه السيادة وأنكر أيضا سيادتها على مسلمى الهند وافريقية ونصح لغوردون عن اخلاء الخرطوم وأنذره بزحف جيوشه عليها اهـ

Digitized by Google

من الطوبجية معهم ١٤ مدفعا ومن ٨٠ من المهندسين الملوكية الانجليز وكان يرافق هذا الجيش
١٥٠ جنديا من بيادة البحرية الانجليزية أرسلهم الاميرال هيوت قائد السفن الانجليزية الراسية امام
سواكن وقبل أن يقاتل هذا الجيش العصاة تقرر في مجلس حربي ارسال مكتوب للعربان بالنصيحة
ليرجعوا عن غيهم وأرسل هذا المكتوب مع الميرالاي هرفي بك فوضعه على عصا في المكان الذي حدثت
فيه واقعة الطيب الآتية الذكر ولما لم يأت الكتاب المذكور بنتيجة تقدم الجنرال مع جيشه وكان
مشكلا اياه على شكل مربع وفي وسطه الجمال بمواشيها وكافة مهمات وذخائر الجيش وكان العدو قد
تحصن في جهات طماي بالقرب من مكان يدعى الطيب ومعه مدافع كروب التي كان غنمها من
المصريين ولما اقترب مربع الانجليز منهم خرج عليه جماعة من الخنادق من خلف المتاريس فانقضوا
عليه كالنسور فتعجب الانكليز من شجاعتهم وعدم اكتراثهم بالموت فأبادوهم بالرصاص وكانت
قتلاهم على مسافة عشر خطوات فقط من المربع ومازال جيش الانكليز يتقدم حتى امتلك حصنهم
بعدما أعياه قتال العرب وجرح وقتل من الانكليز عدد كبير ولما دخلوا الحصن رأوا قرية الطيب
وآبارها فتقدموا اليها واقتفى فرسان الانكليز أثر الفارين من العرب وكان مشاتهم يكمنون لهم في الوعور
والادغال ويذعرون خيولهم ويطعنونهم برماحهم وبحرابهم ولا تقدر فرسان الانكليز على الوصول
اليهم لقصر سيوفهم ولذلك استجلب الانكليز نحو ستمائة حربة من حراب الاعداء وسلحوا فرسانهم بها
في تلك الواقعة وقتل من الانكليز في الطيب ثلاثون وجرح مائة وخمسون وقدرت خسائر العرب بالفين
وثلثمائة قتيل ثم قامت جنود الانكليز من الطيب في صباح اليوم الثاني قاصدة طوكر فوصلت اليها
ولم تقابل في طريقها أحدا من الاعداء ووجدت المدينة خالية منهم ليس فيها سوى ٧٠ رجلا سلموا
المدينة بلا قتال ثم بلغ الجنرال جراهم (٢ مارث) ان الدراويش قد تجمعوا في قرية يقال لها الدبة واقعة
على مسافة خمسة أميال من طوكر فلما قصدها بجيشه لم يجد فيها أحدا وغنم منها مدفعا و ١٥٠٠
بندقية وذخائر كثيرة ومهمات حربية أتلفها بأجمعها ثم عاد الى سواكن واتفق مع الاميرال هيوت
على مخابرة القبائل بالصلح فأرسلوا إلى عثمان دقنه والى سائر المشايخ فأجابهم عثمان دقنه بانه لا يسلم
أصلا وانه لابد من القتال فقصده الجنرال بجيشه في وادي طماي (١١ مارس) ولما كان في الطريق
أرسل فرقة من الفرسان لاستطلاع أخبار العدو ثم تقدم بالجيش جاعلا اياه على شكل مربع اتقاء
مفاجأة العدو وجلادته الشديدة الدالة على شجاعته ثم ظهر العرب على بعد فردهم بكرات المدافع
وبعد أن بات في الطريق وهو على حذر من أن يهجم عليه العرب ليلا تقدم في الصباح ثم بعث
الخيالة للاستكشاف ولما شاهدت العرب أمرت بالعودة الى ميسرة الجيش ثم ظهر المهدويون
في عدد عظيم بعد ان ظن الجنرال جراهم أنهم ولوا الادبار وعندئذ أمر المربع بالوقوف واطلاق
القنابل اما العرب فانهم ثبتوا ثبات الابطال ولم يتزحزحوا من أماكنهم ولما رأى أمراؤهم أن
رجالهم خافوا من قنابل الانكليز جاءوا في مقدمتهم وجردوا سيوفهم وصاحوا صيحة واحدة واختاروا
الموت في القتال عن العيش في الهزيمة فاشتدت قلوب رجالهم وجاءوا معهم وأطلقوا رصاصهم على
المربع وتقدم الانكليز لملاقاة العرب حتى اقتربوا منهم فهجم ضلع المقدمة عليهم بحراب البنادق
وأسرع في المسير وأما بقية أضلاع المربع فلم تجسر ان تتبعه لاشتغالها بدفع حملات العرب التي
أحاطت بها فاضطرت الجنود الانجليزية ان تمشي الهوينا فانفصل ضلع المقدمة عن المربع فتمكن

العدو

Digitized by Google

العدو من خرقه بقلوب لا تهاب الموت ثم وقف ضلع المقدمة وحاول القواد أن يصلوه بالمربع فلم يمكن لان العرب كانت التصمت بالانكليز حتى اضطروهم الى التقهقر وتركوا مدافعهـم وكثيرا من ذخائرهم التي غنمها العرب وقتل العرب بعسكر الانجليز فتكا ذريعا وقد اندهش قواد الانجليز من مهارة العرب وسرعتهـم في الطعن اما المربع الثاني فانه أخذ في اطلاق رصاصـه على العرب ورغما عن هجماتهم عليه تمكن من التقرب من المربع الاول وحماه وبذلك تمكن المربع الاول من التشكيل ثانية وهاجم المربعان العرب ففتكا فيهم وصداهم عن التقدم وبذلك استرجع الانكليز المدافع التي كان غنمها العرب منهم ثم تقدم الجنرال جراهم الى آبار طماى حيث كان الظمأ قد اشتد بالعساكر والخيول ثم عاد الى حصنه وكان العرب فروا قبل ذلك الى رؤس الآكام وبلغت خسائر الانكليز في هذه الواقعة خمسة ضباط و ١٥٠ نفرا وجرح ثمانية ضباط و ١٢٠ نفرا اما قتلى العرب فكانت كثيرة جدا وبعد ذلك قفل الجيش راجعا الى سواكن

ولما كان عثمان دقنه هو بطل هذه الوقائع والمحور الذي تدور عليه أعمال العرب الحربية بتلك الاطراف أعلن الاميرال هويت بأن من يأتيه بعثمان دقنه حيا كان أو ميتا فله خمسة آلاف ريال ولما كان هذا الامر يحط من شأن العسكرية الانجليزية صدر الامر بالغائه فألغى وفي ٢٥ مارس تقـدم الجنرال جراهم بجيشه حتى وصـل بلدة طـمانيب ولم يقابله العدو فأحرقها وعاد الى سواكن ثم بارح سواكن ولم يبق بها الا بضع مئات لحمايتها من الدراويش وفي تلك الاثناء اشتدت الحالة بحامية كسلا وعدموا القوت وذلك لمحاصرة قبائل الهنـدندوة لها وكان قائد عساكرها المدعو عفت بك يكرر الطلب بالنجـدات ولما كان يتعذر على الحكومـة إنجاده لكثرة القبائـل العاصية وشدة بأسها تقرر ارسال مندوبين أحدهما من قبل الدولة الانكليزية والثاني من قبـل الحكومـة المصرية الى نجاشي الحبشة حنا كاسـه ليعقدا معه معاهـدة يخرج بها حاميات جهات عديب وسنهيت وغـيرها من الحصار ويعودوا الى مصر مارين ببلاد الحبشة بمساعـدة جنودها فتعين الامير ال هيوت من قبـل انكلترة ومازون بك محافظ مصوع بالنيابة عن الحضرة الخـديوية وقبل وصولهما اشاعت الاخبار بسقوط كسلا ثم عقدا مع النجاشي معاهـدة بتاريخ ٣ يونيه سـنة ١٨٨٤ مقتضاها تخليص الحاميات المصرية من الحصار بمساعـدة جنود النجاشي بشرط ان يستولي الاحباش على ما بتلك المدن من الآلات وذخائر الحرب وان يسلم خديو مصر وملك الحبشـة المجرمين الذين يفرون الى بلادهما وان يساعد خديو مصر على تعيين قسس الحبشـة من مصر كما هو حاصل ويسـتولي ملك الحبشـة على بلاد بوغوس التـابعة لمصر وغير ذلك وأنه لو حدث فيما بعد خلاف بين خديو مصر وملك الحبشة فتكون ملكة الانجليز حكما فيه بينهما وقد أوردنا صورة المعاهدة المذكورة بذيل الصحيفة كعادتنا نقلا عن كتاب قاموس القضاء والادارة (١) هذا

(١) انعقدت المعاهدة بين جلالة ملكة المملكتين المتحـدتين بريطانية العظمى وايرلاندا وسلطانة الهند وجـلالة يوحنا نجاشي الحبشـة والبـلاد التابعة له الذي أقامه مولاه عز وجـل ملكا على صهيون والجناب العالي محمـد توفيق خـديو مصر وذلك انه لازالة الخلاف الحاصل بين يوحنا نجاشي نجاشية الحبشة ومحمد توفيق خديو مصر ولاقرار السلم بينهما قد اتفق الثلاثة على عقد معاهـدة يجب عليهم وعلى ورثائهم وأخلافهم مراعاة أحكامها وقد تم عقد هذه المعاهدة عن يد الاميرال السـير وليام هيوت رئيس عموم المراكب الانكليزية في الهند الشرقي وقد استنابته جلالة ملكة

ولم تأت المعاهدة المذكورة بكل الفائدة المطلوبة ثم شاع بعد قليل خبر سقوط الحاميات المصرية المحاصرة وأصبحت أحوال شرقي السودان في هرج ومرج

واعلم انه بعد عقد المعاهدة المذكورة مع ملك الحبشة أرسل الملك حنا كاسه جيشا بقيادة الرأس دهنشوم فأنقذ حامية القلابات في ٢٨ فبراير سنة ١٨٨٥ وأرسل جيشا آخر بعد ذلك الى الجيرة فأنقذ حاميتها أيضا (يوليو ١٨٨٥) وأنزل عساكرهما الى مصوع عن طريق بلاده وأما حاميات أمديب وسنهيت فانهما رأتا ان لا طاقة لهما على نجدة كسلة وخافتا من الحصار فانسحبتا الى مصوع فدخلتاها الاولى في ١٠ ابريل سنة ١٨٨٥ والثانية في ١٩ منه وأما مصوع فقد احتلها الايطاليان في فبراير سنة ١٨٨٥ وأما هرر وزيلع وبربره فقد أرسلت الحكومة رضوان باشا البحري فأخلاها في فبراير سنة ١٨٨٥ وسلم هرر الى أمير من سلالة الامراء الذين حكموها قبل دخولها في حوزة الحكومة المصرية ثم ما سارت الجنود المصرية عنها حتى زحف عليها الملك منليك ملك الحبشة الحالي من شوة فأخذها بلا قتال ولا تزال بيد الحبشة أما زيلع وبربره فقد سلمهما رضوان باشا للانكليز ولا تزالا بيدهم الى اليوم تابعتين الى محافظ عدن وأما كسلة فانها بقيت

الملكتين المتحدتين بريطانيا العظمى وارلانده وسلطانة الهند وعن يد جلالة نجاشي نجاشية الحبشة الذي لم يستنب أحدا وسعادة مازون بك محافظ مصوع الذي استنابه جناب خديو مصر المعظم وقد عقدوا هذه المعاهدة بعد الاتفاق على أحكامها (م ١) ابتداء من تاريخ التوقيع على هذه المعاهدة يجوز لكافة البضائع ومنها السلاح والذخائر ان تنقل من والى الحبش على طريق مصوع (م ٢) ابتداء من غرة سبتمبر سنة ١٨٨٤ الموافق اليوم الثامن من ماسكرام سنة ١٨٧٧ ترد الى جلالة نجاشي نجاشية الحبشة البلاد المعروفة ببلاد البوغوس وعند اخلاء جيش الخديو المعظم محامى كسالا وعمديب وسنهيت ترد كذلك الى جلالة نجاشي نجاشية الحبشة وتصير ملكه الابنية الموجودة في بلاد البوغوس التي هي الآن ملك الجناب الخديو المعظم وترد لجلالته مع هذه الابنية كافة الذخائر ومهمات الحرب التي تكون حينئذ فيها لتكون أيضا ملكه (م ٣) يتعهد جلالة نجاشي نجاشية الحبشة بأن يسهل لجيش الجناب الخديو المعظم الانسحاب من كسالا وعمديب وسنهيت واجتيازا تيوبيا الى مصوع (م ٤) يتعهد الجناب الخديو المعظم بمنح كافة التسهيلات التي يحتاج اليها جلالة نجاشي نجاشية الحبشة في أمر تعيين قسس حبشيين في اتيوبيا (م ٥) يتعهد جلالة نجاشي نجاشية الحبشة والجناب الخديو المعظم بأن يسلما لبعضهما المجرم أو المجرمين الذين يفرون من بلاد أحدهما الى بلاد الآخر للتخلص من المعاقبة (م ٦) يتعهد جلالة نجاشي نجاشية الحبشة بتحكيم جلالة ملكة انكلترا في تسوية كل خلاف عساه أن يحصل بينه وبين الجناب الخديو المعظم فيما بعد التوقيع على هذه المعاهدة تستصدق على هذه المعاهدة جلالة ملكة بريطانية العظمى وارلاندا وسلطانة الهند وجناب خديو مصر المعظم ثم ترسل الى ادوا في أقرب ما يمكن من الوقت — بعد ان عملت هذه المعاهدة بادوا في الثالث من يونيو سنة ١٨٨٤ الموافق ٢٧ من جونفت سنة ١٨٧٦ قد وقع عليها وختمها بأختامهم السير وليام هيوت بالنيابة عن جلالة ملكة بريطانيا العظمى وارلاندا وسلطانة الهند وجلالة نجاشي نجاشية الحبشة بالنيابة عن نفسه وسعادة مازون بك بالنيابة عن جناب خديو مصر المعظم ختم جلالة النجاشي

الامضا هيوت الامضا مازون

وافقنا وصدقنا على المعاهدة المبينة آنفا بعد الاطلاع عليها والنظر فيها وتكون أحكامها مرعية الاجراء بأكملها وللاعتماد قد تحرر هذا موشحا بتوقيعنا عليه

تحريرا في سراي عابدين ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٨٤ الامضا محمد توفيق

بأمر الحضرة الخديوية رئيس مجلس النظار وناظر الخارجية

الامضا نوبار

تحت

تحت الحصار وعـزا الملك وحناعن نجـدتها وكانت النجـدات تأتي المحاصرين من أم درمان ومن عثمان دقنه ومع ذلك فقـد كان في وسعها اطالة مدة الحصار لقوة استحكاماتها ولولا ان الزاد نفـد منها وأكل الناس اللحوم المحرمة ويئسوا من النجدة فاضطروا الى التسليم بعد ان صبروا صبر الكرام وذلك في ٢٩ يوليو سنة ١٨٨٥ وأما مديريات خط الاستواء فكانت المواصـلات بينها وبين جميع أملاك الحكومة الخديوية منقطعة فاضطر نوبار باشا الى اصـدار أمر الى مديرها أمين باشا بتاريخ ٢٧ مايو سنة ١٨٨٥ أطلق له فيه حرية العمل فيما يتخذه من الوسائل وأشار اليـه بأخذ ما يلزمه من النقود من السر جون كيرك (Sir John Kirk) قنصل جنرال انكلترة في زنجبار ولاهميـة هذا الامر في المسائل السودانية أدرجناه في أسفل الصحيفة لتمام الفائدة (١)

تشديد الحصار على غوردون باشا في الخرطوم — لقـد تعجب الناس من أعمال محمد أحمد المهـدي وتصرفاته في أمر محاصرة الخرطوم بعد ان عـلم الغرض من مأمورية غوردون باشا وهو اخلاء عموم السودان من الجنود والمأمورين المصريين واعادة حكم الامراء وهو الامر الذي يسعى اليـه المهـدي ولكـن يظهر انه كان يريد الزام غوردون والمأمورين المصريين والجنود باتباع دعوته ومبايعتـه بالمهدية ولو بسـفك الدماء وانه يخشى ان يأخذ المصريون لدى عودتهم المهمات والذخائر والامتعة التي كانت الدراويش تحارب من أجلها كما قضت به شرائع المهـدي الذي أثرت دعوته في عقول أغلبهم وأرسـل غوردون وهو محاصر رسالة الى السر صموئيـل بيكر (٨ ابريل ١٨٨٤) يقول له فيها انه عنـده من المؤن والذخائر ما يكفيـه خمسة أشهر وان المحاصرين له يبلغ عـددهم ٥٠٠٠ ولما بلغ غوردون ان الحكومة الانكليزية لا تنوي ارسال جنودها لاغاثتـه بعث الى السر صموئيل بيكر يقول ألا يقرضنا أغنياء الانكليز والامريكيين ٢٠٠,٠٠٠ ليره فنستأجر بها ألفين أو ثلاثة آلاف من جنود الدولة العليـة وترسلهم الى بربر ثم بعث برسالة برقية الى السر افلين بارنج يقول فيها علمت منك أن قصدك أن لا تعد تابنجدة الى هنا أو الى بربر وأمسكت عن الزبير فلذلك أراني حرا أن أفعل بحسب مقتضيات الاحوال فـأخـذ الثورة اذا استطعت والا فاني أذهب الى خط الاسـتواء ويبقى العار على الذين أهملوا حامية سنار وكسلا وبربر ودنقـلة عالماحق العلم انه لا بد لكم من محاربة المهدي وقهره في ظروف وعرة وأحوال عسرة اذا كان قصـدكم حفظ السـلام والطمأنينة في القطر المصري وقال مسيو هنس رزنر في كتابه وأعقب غوردون ذلك بعبارات التقريع على السـير ملت وكولفن والسـير شارلس ديلك الذين يتهمهم غوردون بانهم سبب هـذه

(١) مصر في ١٣ شعبان سـنة ١٣٠٢ (٢٧ مايو سـنة ١٨٨٥)
الى سعادة أمين باشا حاكم جوندوكرو ان ثورة السودان اضطرت حكومة الجناب العالي الخديوي الى ترك هذه الجهات وبناء على ذلك فليس في استطاعتنا أن نبعث اليكم بأقل مدد ومن جهـة أخرى فنحن لا ندري ماهي الحالة التي صرتم اليها أنتم ومن معكم ولهذا يتعذر علينا رسم الخطة التي يجب أن تتبعوها وهذه الرسالة التي ستصلكم من طريق زنجبار بواسطة السر جون كيرك قنصل جلالة الملكة فكتوريا في زنجبار نقصد بها ان نترك لكم حرية العمل بمقتضى ماترونه موافقا لحالتكم وانما نجيز لكم أن تحصلوا على النقود اللازمة لكم بواسـطة حوالات على السر جون كـيرك وأكرر لكم القول بأنكم مطلقوا الحرية في عملكم حتى تحصلوا أنتم ورجالكم على الوجـه الاحسن من الحالة التي أنتم فيها وأحسن طريق تتبعونها اذا كنتم مصممين على مبارحة جوندوكرو هي الطريق الموصلة الى زنجبار فاذا اعتمـدتم على الرحيل أو البقاء فاخبرونا بها

رئيس مجلس النظار
نوبار باشا

Digitized by Google

الاحوال المحزنة ثم كتب اليه السير بارنج ينصحه بمبارحة الخرطوم والعودة الى مصر فغضب غوردون من هذه الفكرة وكتب اليه يقول انه لا يمكنكم استدعائى من هنا وانه يستحيل على اطاعتكم الا اذا بارح جميع المستخدمين المصريين هذا المكان فانى عينت منهم فى عدة وظائف وصار وابذلك معلومين لدى المهدى ومحل انتقامه فبأى وجه أقابل العالم لو تركتهم وتعلقت باذيال الفرار اه وهى همة وشفقة عظيمة من غردون أثابه الله عليها ولما علم الضباط والجنود بالخرطوم نية الحكومتين الانجليزية والمصرية وشاهدوا قوة المهدى ونفوذه مال بعضهم سرا الى معاضدته ليأمن على نفسه ومن ذلك انه لما أراد غوردون خلاص حامية بلدة حلفاية قاومه عرب الشايقية بخيانة اثنين من الباشاوات السودانيين كان أرسلهما تحت قيادة الكولونيل ستيوارت فهربت عساكرهما وجرح ستيوارت (١٦ مارث) وهرب سكان حلفايه فرارا من القتل وثار الباشبوزق وتمردوا ولما ظهرت ادانة الباشين المذكورين ضربهما غردون بالرصاص ثم تمكن غوردون من تخليص حامية حلفاية ثم ثارت البلاد التى بين بربر والخرطوم واشتد الامر على غردون الذى لما رأى ان الزاد قارب الفراغ من الخرطوم أباح للذين يريدون الخروج منها أن يخرجوا وقال سلاتين باشا فى كتابه ولو فعل ذلك قبل ان يقل الزاد لامكنه أن يحفظ المدينة الى حين وصول النجدة ولكن شفقته على المستضعفين أوردته وجنوده المهالك وفى تلك الاثناء حاصر العصاة بربر فأرسل مديرها حسين باشا خليفة رسالة برقية (٢٠ ابريل سنة ١٨٨٤) الى مصر يقول فيها ان الاهالى فى هرج ومرج والعصاة محدقة بنا من كل جانب فاهتمت الحكومة بامر بربر واتفق الماجور كتشنر باشا مع قبائل العبابدة على انقاذها وأرسل المستر كوزى (Cuzzi) وكيل قنصلاتو انكلترة فيما يقول انهم صاروا على أسوا حال وأعقب ذلك برسالة برقية يقول فيها انه خرج من بربر قاصدا كروسكو وان حلفاء المهدى دخلوا بربر من جنوبها وشرقها وأما حسين باشا خليفه فبقى محصورا فى السراى وكان غردون يتهم كوزى المذكور باسقاط مدينة بربر بالخيانة وبعدما استفحل أمر العصاة فى السودان وانحلت شوكة الحكومة المصرية فى أطرافها تنبهت الحكومة الانكليزية الى ضرورة انقاذ غردون لئلا تتهم بالجبن فارسل ارل غرنفيل ناظر خارجيتها الى المستر اجرتون (Edwin H. Egerton) فى القاهرة بتاريخ ٢٣ ابريل يأمره بارسال رسالة برقية بالارقام الى غوردون يسأله فيها عن القوة اللازمة لخلاصه من الخرطوم وعن مقدارها وطريقها الى الخرطوم وزمان ارسالها ففعل وفى أوائل مايو ابتدأ الانكليز فى التجهيزات الحربية وبعد أيام صدرت الاوامر الى جيش الاحتلال بشترى ١٢,٠٠٠ جمل للحملة وكانت بعض أورط الجيش المصرى الجديد سافرت الى أسوان ولحقها باقى الاورط تحت قيادة الجنرال غرنفل وفى ١٩ ابريل قتل المهديون حامية شندى بينما كانت تحاول الوصول الى بربر وبعث مصطفى بك ياور (الآن باشا) مدير دنقلة رسالة برقية يطلب من الحكومة ان تمده بالرجال فأجابته بعدم امكان ارسال المدد وانه اذا لم يستطع مقاومة العصاة برجاله فليهجر المدينة فأبى أن يترك مركزه وبعث ثانية يطلب من الحكومة مددا ويقول اذا أنجدتمونى بسبعة آلاف عسكرى فانى أعود فافتح السودان وكان غردون بعث له (شعبان سنة ١٣٠١) بكتاب يستعلم فيه منه عن مكان عساكر الامداد وهذه صورته الى (مدير دنقله) — الخرطوم وسنار فى غاية الحفظ وحامله محمد أحمد يعطيكم الاخبار فبوصوله عندكم أعطوه كامل حوادث

جهة وجود عساكر الامداد ومقدارهم والخرطوم به ثمانية آلاف عسكرى والنيل أخذ كثيرا فى الزيادة وسلموا رافعه مائة ريال مجيدى من الميرى فى ٢٨ ش سنة ١٣٠١ غردون ولما سقطت بربر قوى أمر المهدويين وترددت رسلهم بين حلفا ودنقلة وكروسكو يحضون القبائل على العصيان ثم أخذت القوة العسكرية الانجليزية فى الزحف على الخرطوم

حملة الانكليز على الخرطوم لتخليص غوردون باشا ــ لما رأت الحكومة الانكليزية ضرورة تسيير حملة الى الخرطوم لانقاذ غوردون جهزت الجيوش وأعدت المعدات وشيدت كثيرا من الصنادل والزوارق البخارية للتسير فى النيل وبذلت الحكومة الانكليزية والمصرية ما فى وسعهما السرعة إرسال الحملة فأرسلت الحكومة الخديوية من بواخرها النيلية ستا الى ما فوق الشلال الاول وجعلت ١٥ أخرى تسير ما بين أسيوط وأسوان واستجلبت من انجلترة عدة من بحارة كندا وافريقية لمعرفتهم بالملاحة فى الانهر والبحيرات ولما استعدت التجريدة عهدت قيادتها الى لوردولسلى وكان عددها ١٥٠٠٠ مقاتل من كل الاسلحة وانضم اليها الجيش المصرى الجديد وفرق من جيش الاحتلال وكانت الاوامر المعطاة الى لوردولسلى من حكومته هى أولا تخليص غوردون باشا والكولونيل ستيورت ومتى تم له ذلك لا يتوغل فى أراضى السودان خطوة سواء كان لانقاذ كسلا أو سنار أو غيرهما لأن رأى الحكومة الانكليزية هو أن تستقل السودان عن مصر وتعود حدود القطر المصرى الى وادى حلفا وثانيا أن يؤسس حكومة فى الخرطوم خصوصا والسودان عموما تدبر أمورها بعد انسحاب حامية الخرطوم وأعلنته حكومته فى ختام التعليمات أن الحكومة المصرية تعين مبلغا كافيا من النقود الى من يتعهد بادارة أمور السودان وحفظ الراحة فيه لمنع التعدى عن أراضى مصر وتنشيط التجارة بين البلادين ومنع الاتجار بالرقيق منعا تاما وبينما القوة المذكورة سائرة شاع مجىء أسطول غوردون الى شندى ومنها الى بربر لاحراقها ثم تقدم كتشنر باشا وكان فى مقدمة الجيش لاستطلاع أحوال السودانيين وعلم اطلاق سفن غردون الثلاث على بربر وأرسل خبرا بذلك قال فيه أيضا ان الباخرة التى فيها الكولونيل ستيورت رفيق غوردون شحطت بين الشلال الرابع والخامس فانقض عليه الاعداء وقتلوه هو ومن كان معه وكان يرافقه أيضا المستر فرنك بور (Frank Power) قنصل انكلترة فى الخرطوم ومكاتب التيمس والموسيو هربن (Herbin) قنصل فرنسا فيها (١٨ سبتمبر ١٨٨٤) وطلب من هؤلاء الثلاثة أن يسيروا الى دنقله ويكتبوا تقريرا عن حالة السودان الحقيقية والسعى فى إنقاذ غوردون والاهالى المصريين وبعد ضرب بربر عادت السفينتان الباقيتان الى الخرطوم مع خشم الموس باشا ثم لما وصل لوردولسلى الى وادى حلفا عهد الى فرقة المهندسين بعد سكة حديدية بين حلفا وسرس على مسافة ٣٠ ميلا ولما وصل الى دنقله سلم لمديرها مصطفى باشا ياور نيشانى سان جورج وسان ميشيل المنعم عليه بهما من ملكة الانكليز مكافأة له على خدماته فى حفظ دنقلة وجهاتها فصار من يومئذ يلقب بالسير مصطفى ياور ثم وردت رسالة من غوردون الى لوردولسلى تاريخها ٤ نوفمبر يقول فيها انه لا يقدر على حفظ الخرطوم اكثر من أربعين يوما ويشير عليه بالمجىء برجاله عن طريق امبوكول فالتمه فأسرع لوردولسلى لذلك فى السير خوفا من سقوط الخرطوم فجدت العساكر فى السير برا وبحرا ولما وصل كورتى (١٦ ديسمبر) قسم جيشه قسمين جعل القسم الاول منه تحت قيادة الجنرال أرل (G. Earle) وكان يتألف

Digitized by Google

من ٢٢٠٠ نفر معه ٢٨٠٠ جمل و ٤٠٠ حصان وأمر بالسير في طريق النيل ومعاقبة الذين قتلوا الكولونيل استيورت فسار الى أبو حمد لفتح طريق العطمور لسهولة النقل وجعل القسم الثاني تحت قيادة الجنرال سير هربرت ستيورت (Sir Herbert Stewart) وأمره بفتح طريق الخرطوم المارة بالمتمة وكان هذا القسم يتألف من ٢١٠٠ نفر معه ٢٠٠٠ جمل فسار الجنرال ستوارت (٣٠ ديسمبر) في فرقة من الجند لاستكشاف أحوال الآبار الواقعة في عطمور بيوضه ثم زحف على المتمة فوصل آبار جكدول (١٢ يناير) وبارحها بعد يومين تاركا فيها حامية قليلة وبعد يومين وصل الى شلال أبي طليح وبعث طليعة للاستكشاف فعادت وأخبرت بوجود خيام وأعلام للدراويش معسكرة على مسافة ميلين غربي تلك الآبار فأمر الجنرال بالمبيت هناك وفي اليوم الثاني جعل جيشه على شكل مربع وأمر رجاله أن يترجلوا ويتركوا مطيهم في الزريبة مع باقي دواب الحملة وترك لحراستها ١٥٠ جنديا وتقدم بالمربع لامتلاك الآبار لان الماء لا يلبث أن ينفد من معسكرهم وبعد مسيرة ساعة هجم عليه الدراويش فصدهم وبعد تقهقرهم استولى على الآبار المذكورة وثاني يوم استقدم من كان بالزريبة وفي ١٧ يناير بارح آبار أبي طليح تاركا سرية صغيرة لحمايتها وقصد المتمة حيث ينزل على النيل الى الخرطوم وكانت العساكر قد أعياها تعب النهار وسهر الليل وهلك من الجمال عدد وافر والحاصل ان الجيش أصبح في حالة سيئة وفي صباح يوم ١٨ منه وجد أن النيل يبعد عنهم ستة أميال والمتمة الى جنوبهم ولم يكد الجيش يقف حتى سمع أصوات طبول السودانيين آتية نحوه من المتمة كانهم عالمون بقدومه فاخذ الجيش يتقدم حتى صار على أربعة أميال من النيل ثم أمر الجنرال ببناء زريبة وحال العدو بينه وبين النيل وأخذ يطلق النار عليه من خلف الاشجار والصخور وقبل أن تتم الزريبة اشتدت نيران العدو فشكل الجنرال المربع ثم وقف خلف المدافع وبيده النظارة يراقب حركات العدو فأصابته رصاصة جرح منها جرحا بليغا مات به وكان بجانبه المسترسن جلرهربرت (St. Leger Herbert) فأصيب هو أيضا برصاصة مات بها ففي الحال تولى القيادة الكولونيل سير شارلس ولسن (Sir Charles Wilson) رئيس قلم المخابرات وسار المربع قاصدا النيل مهاجما السود ببسالة غريبة فردهم منهزمين بعد جهد جهيد وأدرك المربع النيل آخيرا وعسكر على ضفته وفي الصباح أقبلت العساكر التي كانت في الزريبة ثم انتقل الجيش الى قرية جنوبي المتمة تسمى القبة وقد بلغت خسائر الانجليز عددا كبيرا وبعد قليل رأى الانكليز العلم المصري يخفق على ثلاث بواخر قادمة في النيل من جهة الخرطوم فعلموا ان غوردون أرسل هذه البواخر لنقل العساكر الى الخرطوم فلما وصلت وجدوا بها ٢٥٠ جنديا من الباشبوزق وأربعة مدافع فانضموا اليهم لمساعدتهم واذا بباخرة أخرى وصلت من الخرطوم بالمهمات والذخائر وكان بالبواخر التي وصلت من الخرطوم خشم الموس باشا ومن الضباط الكبار محمد نصحي بك (الآن باشا) ومحمود بك طلعت وأحضروا معهم كتبا عديدة من غوردون وأخبروا ان الخرطوم في ضنك شديد واذا لم تصلها النجدة يخشى من سقوطها وكتب غوردون يقول ان رجلا يسمى فرج باشا السوداني وكان غوردون رقاه الى وظيفة مهمة في الخرطوم وسلمه قيادة قسم من الحامية قد خانه سرا وهو الآن يخابر الاعداء ليسلم لهم المدينة وقال انه قادر على الفرار بنفسه ولكنه لا يحب أن ينجو وحده ويترك الحامية للهاجين

(٢١ يناير

(٢١ يناير سنة ١٨٨٥) عند ذلك تجهز السر شارلس ولسون وسافر الى الخرطوم فى مراكب
غوردون بعد ان أصلح آلاتها اللورد شارلس بريسفورد (Lord Charles Beresford)
الميرالاى البحرى الذى كان رافق الحملة (٢٤ يناير) واستصحب معه عشرين جنديا من
الانكليز وما ئتين من السودانيين وثانى يوم صدمت الباخرة التى كان فيها ولسون صخرا فوقفت يوما
بتمامه ثم استمروا فى السير وبعد قليل رأوا رجلا من قبيلة الشايقية يناديهم من الشاطئ الشرقى
ويقول ان الخرطوم قد سقطت منذ يومين فلم يصدقه ولذلك تقدم هو ومن معه بالباخرتين حتى قربوا
من جزيرة توتى القريبة من الخرطوم فأطلق عليهم السودانيون المدافع ثم نظر ولسون الى الخرطوم
فرأى جنود المهدى تمرح فيها واعلامه تخفق فوق حصونها فعاد بالباخرتين وقد لامه ضباط
الانكليز على تأخره وعدم ذهابه حال وصول مكاتيب غوردون قال سلاتين باشا فى كتابه النار
والسيف ما ملخصه وكان غوردون قد أرسل خمس سفن من سفنه البخارية الى المتمة بقيادة خشم
الموس وعبد الحميد ولد محمد لكى تنتظر الجيوش الانكليزية فيها وكان وانقاذ النجدة تأتيه ولهذا
لم يقتتر بما عنده من الزاد فلما أبطأت النجدة وكاد الزاد يفرغ من الخرطوم وكان المهدى علم ان
طليعة الجنود الانكليزية التقت بجنوده فى أبى طليح وقتلت منهم ألوفا وفى جملة الذين قتلوا موسى
ولد حلو أخو الخليفة وغير ذلك خاف العاقبة واجتمع بقواده وقر قرارهم على بذل المجهود فى فتح
الخرطوم قبل وصول الجنود الانكليزية وخرج هو وخلفاؤه وقطعوا النهر وجعل يحث رجاله
على الجهاد ويعدهم بفردوس النعيم وأمرهم أن لا يصيحوا بل يهاجموا المدينة صامتين حتى لا يشعر
بهم أحد ثم قفل راجعا ففعل رجاله بأمره وباغتوا الخرطوم صباح يوم ٢٥ يناير وأعملوا السيف
فى أهلها فانحلت عزائم الجنود ورموا سلاحهم من أيديهم وفتحت أبواب المدينة ودخلها
الدراويش وهجموا على سراى الحكومة ووضعوا السيف فيمن فيها ولاقاهم غوردون على سلم
الديوان وقال لهم أين سيدكم المهدى فطعنه واحد منهم برمح فخر على وجهه ولم يفه بكلمة
ثم جروه الى ساحة السراى وقطعوا رأسه وأرسلوه الى المهدى فقدموها اليه فى منديل
وأوروها الى سلاتين باشا وقال لهم المهدى كنت أود أن تأتونى به حيا مدعيا انه كان يأمل أن
يسلمه للانكليز ويستبدل به أحمد عرابى فيساعده على فتح مصر اه هذا ولما سقطت الخرطوم
أرسل المهدى المكاتيب للاقاليم والاطراف يخبرهم بفتح الخرطوم وقد عثرنا على صورة الكتاب
الصادر منه بذلك الى عامله على بحر الغزال وخط الاستواء فأدرجناه بحروفه (١) وبعد سقوط الخرطوم

(١) بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد المفتقر
الى الله محمد المهدى بن عبد الله الى حبيبه وعامله كرم الله بن الشيخ محمد تولاه الله بلطفه وحرسه بعين عنايته آمين منا لكم
جزيل السلام ورحمة الله وبركاته ثم أعرف الحبيب انه بمقتضى وعد الله الوفى ولطفه الخفى قد صار فتوح مدينة
الخرطوم بعون الحى القيوم وذلك يوم الاثنين الموافق ربيع آخر سنة تاريخه بعد انفلاق الصبح بواسطة أنصار الدين فقد
استعدوا واقتحموا الخندق توكلا على رب العالمين فلم يكن قدر ربع ساعة أو أقل الا وحل بأعداء الله ما حل من قطع
دابرهم عن آخرهم وحصارهم مع شدة استعدادهم وفى أول الصدم ولوا الادبار منهزمين بين يدى جند الله الانصار
ظانين السلامة بدخولهم الحيشان وغلق أبوابها فاتبعوهم ضربا بالسيوف وطعنا بالرماح حتى كثر الصياح واشتد
الانين وجندلوهم فى الحين ثم استحصلوا على الباقين الذين غلقوا الابواب خشية من نزول العذاب فأخذوا وقتلوا تقتيلا
ولم تبق لهم بقية الا القليل من الموالى والذرية وأما عدو الله الغردون فعلى قدر ما أنذرناه ولاطفناه بأن يرجع وينيب الى

Digitized by Google

جاء الدراويش الى فرج باشا السودانى وسألوه أن يدلهم على الخبايا التى فيها نقود غوردون وباقى تجار الخرطوم فأقسم لهم انه لم يكن عند غوردون نقود وأنه لا يعرف أين خبأ التجار أموالهم فقالوا له أنت تكذب ومرادك أن تحرز النقود كلها لنفسك لأنه إذا لم يكن عند غوردون نقود ولا فضة فمن أين اصطنع كل هذه النياشين الفضية فان لم تدلنا على كنوز غوردون والتجار قتلناك فعاد وأقسم لهم قسمه الاول وقال ان النياشين التى ترونها هى رصاص وليست فضة فان الفضة قد نفدت من غوردون منذ زمان طويل وكان فى أواخر أيامه يعامل الناس بالورق عوضا عن النقود (١) ثم ذكرهم بما صنع معهم من المعروف بفتحه لهم أبواب المدينة وتسليمهم اياها فهجم عليه أحدهم وضربه بسيفه فقتله هذا أما السير شارس ولسن فصادفه فى عودته صعوبات وكسرت باخرته فبعث زورقا الى المعسكر الانكليزى فى أبى كرى وبقى هو فوق الصخور فسار اللورد شارلس برسفورد فى باخرة وأنقذه بعد صعوبة شديدة

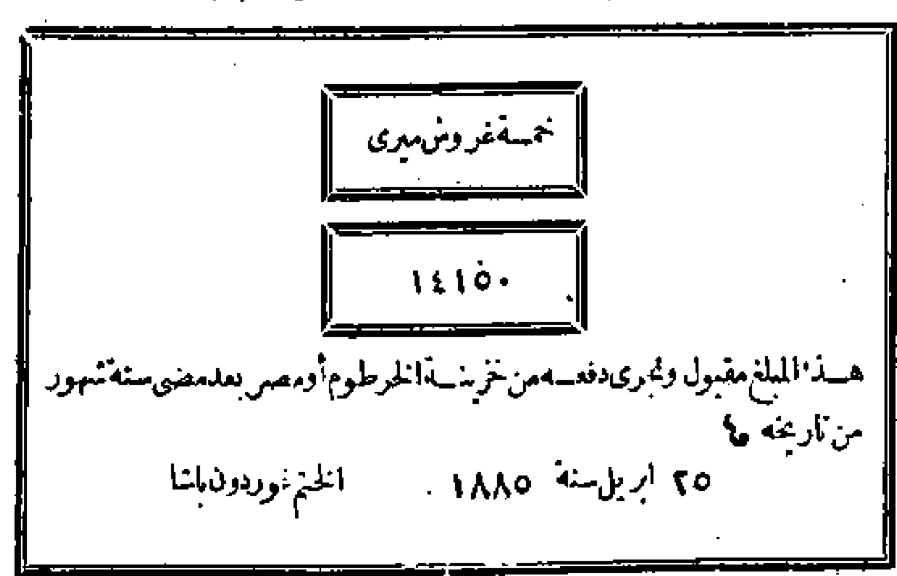
اما فرقة الجنرال أرل فانها بعد ان سافرت من كرتى على خط النيل ووصلت الى كربكات الكائنة قرب جزيرة دلكه بعد المشاق (٩ فبراير) علمت أن السودانيين قريبون منها فأمر الجنرال ببناء زريبة وبينما كانوا يهتمون بذلك أقبل العدو من الشلال فصف الجنرال جيشه على هيئة قولين متوازيين وتقدم على العدو وأحاط به ولكن مركز العدو كان حصينا وبعد مناوشات بالبنادق استصوب الجنرال الهجوم وأمر جنوده بتركيب السنج فتمكنوا من اخراج السود من خلف الصخور وتقدم الجنرال الى كوخ صغير كان هنالك ليعلم ما بداخله فوثب عليه أحد العصاة ورماه برصاصة فى رأسه ثم ضربه بالبندقية فوقع قتيلا يتخبط فى دمه واستلم بعده الجنرال بركنبرى (G. Brackenbury)

الله فلم يكن يفمل لسبوق شقاوته وزيادة غباوته حتى بلغ أجله منتهاه وحصد بالندامة ما زرعه من خطاياه وأسكنه الله دار غضبه التى ساءت مستقرا ومقاما فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين فويل لمن كانت النار جزاه وهنيا لمن كانت الجنة مسكنه ومأواه جعلنا الله واياكم من الفائزين آمين ورضا الاكبر وعظم خبر المستقر وقد فاز بالشهادة عشرة من أصحابنا فى هذا الفتوح ولم يصب من الباقين شئ من جراح أو نكبة وذلك الفضل من الله وما النصر الا من عند الله وحده فاشكروا الله على نصرة الدين فافعلوا أنتم كذلك والسلام ١٢ ربيع أول سنة ١٣٠٢

الامضا وختم عامل المهدى على بحر الغزال وخط الاستواء

الحقير كرم الله

(١) وها هى صورة قائمة من تلك القوائم منقولة عن كتاب المهدى والانكليز المطبوع بلندره سنة ١٨٨٥



خمسة غروش ميرى

١٤١٥٠

هذا المبلغ مقبول ويجرى دفعه من خزينة الخرطوم أو مصر بعد مضى ستة شهور من تاريخه

٢٥ ابريل سنة ١٨٨٥ . الختم غوردون باشا

قيادة

قيادة الجيش وأمر العساكر بالهجوم على الأعداء فهزمهم و بذلك انتهت الواقعة وكان قتلى الانجليز غير الجنرال ارل اثنين من أعاظم الضباط وسبعة عساكر أما الجرحى فأربعة ضباط و ٤١ جنديا كذا ورد في أخبارهم وكان اللورد ولسلي أرسل الجنرال بولر (Sir Redvers Buller) ليستلم قيادة الجيش مكان الجنرال ستيورت بعد قتله وأمره بفتح المتمة وكان الانكليز أرسلوا جيشا آخر تحت امرة الجنرال براهم الى سواكن لفتح طريق بربر ومد طريق حديدي ولم يتمكنوا من مد قطعة منه الا بعد المشاق العديدة حيث كانوا يقاتلون في أثناء العمل عربان قبيلة الهدندوه وفي أوائل مايو من سنة ١٨٨٥ جاء لورد ولسلي الى سواكن وتفقد موقعها وحصونها ثم لما رأت انجلترا ان محاربتها السودانيين قليلة الجدوى سيما وان أهل السودان قاموا بأجمعهم قررت اخلاء البلاد السودانية من عساكرها وقالت بعض جرائدها ان ذلك كان لاسباب استدعتها سياستها الخارجية فأصدر لورد ولسلي الى جميع الفرق الانكليزية الاوامر بالانسحاب من السودان فقلق أهالي دنقلة خصوصا لهذا الامر حيث كانوا عائشين في راحة تحت حكم حكام مصر وهاجر منهم ومن أغلب الجهات السودانية الى مصر عدد كبير خوفا من الاضطرابات الحاصلة في السودان ولما خافت مصر على حدودها من مهاجمات عساكر المهدي أرسل المرحوم توفيق باشا أخاه المرحوم الامير حسن باشا الى الحدود السودانية (٢٥ فبراير سنة ١٨٨٥) لمخاطبة رؤساء القبائل الثائرة ودعوتهم الى الطاعة فلبث في الحدود بجهات حلفا زمنا (١) ثم عاد على غير طائل و يظهر مما رواه البعض اذ ذاك ان مأموريته هذه لم تكن ترضي الحكومة الانجليزية ولما احتلت العساكر الانجليزية سواكن ابقوا فيها العدد اللازم من الجنود للدفاع عنها وتحصن الجيش المصري في وادي حلفا وكروسكو واسوان للدفاع عن مصر وقام الجنرال غرنفل باشا الذي خلف الجنرال سرافلن وود في سردارية الجيش المصري فأنشأ هناك الحصون اللازمة وعين نقط الدفاع ولما تم ترك السودان للدراويش كان المهدي لا يزال في حصن أم درمان يجهز جيوشه و يعد معداته لافتتاح الديار المصرية ولما جاءه عثمان دقنه مهنئا بخروج الجيوش الانكليزية أهداه سيفا وجدد معه التحالف قال سلاتين باشا لما بلغ المهدي ان الانكليز تركوا السودان طابت نفسه وأيقن ان البلاد صارت له وجمع رجاله وقال لهم ان الله نقب ما مع الانكليز من القرب فانسال الماء منها وماتوا عطشا اه وقد استبقى المهدي كثيرين من

---

(١) الامير حسن باشا هذا ولد سنة ١٨٥٥ والتحق في مدرسة الانجال (١٨٦٣) و بعد ان ربي فيها سافر مع اخوته لاكمال التعليم في مدارس أوروبا و بعد اتمام التعليم رجع الى مصر فالحقه والده في الوظائف العسكرية وكان ميالا اليها بطبعه ثم بعثه مع الجيوش المصرية في حرب الحبشة (١٨٧٥) كما سبق وبعد عودته قاد الجيش المصري في حرب الروسيا (١٨٧٧) واحرز في خلالها أرفع نشانات من الدولة ولما عاد منها قوبل في مصر باحتفال شائق ثم سافر مع جناب والده المرحوم اسمعيل باشا الى نابولي (١٨٧٩) و بقي في أوروبا الى أن أذن له بالعودة الى مصر (١٨٨٣) وبعثه أخوه الخديو السابق المرحوم توفيق باشا مرة قبلها الى البلاد السودانية كما مر رفوق العادة لتطويع أهاليها (١٥ فبراير ١٨٨٥) وبعد رجوعه من هذه المأمورية توجه الى دار الخلافة وهناك شرفه جلالة مولانا السلطان بتقليده وظيفة ياورجنابه الملوكي وفي أثنائها أذن السلطان للخديو الاسبق اسمعيل باشا بالاقامة في سراي أميركون بالاستانة فحضر اليها مع عائلته و بعد قليل أصيب الامير حسن باشا بمرض لم يمهله طويلا فمات في يوم ٢٢ مارث سنة ١٨٨٨ وأمر جلالة السلطان بنقل نعشه الى مصر حسب وصيته فنقل على باخرة عثمانية وجاء معه أحد قرناء الحضرة الشاهانية ودفن في مشهد النبي دانيال في ثغر الاسكندرية باحتفال باهر

Digitized by Google

ضباط مصر وحكامها الذين كانوا معه غردون وبجهات انحاء السودان وكان ممن استبقاه حسين باشا خليفه وجعله أميرا على عربان العبابدة الا أنه انتهز الفرصة بعد قليل وفر الى مصر فرتبت له الحكومة المعاش اللازم وفى تلك الأثناء كتب شرمسيد باشا الى الملك يوحنا ملك الحبشة يعرض عليه عشرة آلاف بندقية فى مقابلة انقاذه حامية كسلة ولكن أتى هذا الأمر متأخرا حيث سقطت كسلة بعد حصار طويل وذبح الدراويش حاميتها ثم انسحبت العساكر المصرية من سنهيت الى مصوع فدخلها الأحباش وأخلى المصريون أيضا هرر وعادوا الى زيلع وعينت الدولة الانجليزية من قبلها حاكما لهرر كان تقدم وتسلم جميع المبانى وأملاك الحكومة المصرية هناك وكانت شيأ كثيرا ثم وصلت حامية القلابات مع البكباشى سعد أفندى رفعت الى مصوع ومرض المهدى مرضا شديدا ولم يعبأ أحد بمرضه لانه كان يدعى أن النبى عليه السلام أخبره بأنه سيفتح مكة والمدينة وبيت المقدس ثم يموت فى الكوفة وقال سلاتين باشا فى كتابه ولما اشتد مرض للمهدى بالحمى المحرقة قال لمن حوله ان النبى اختار الخليفة عبد الله التعايشى ليخلفنى بعد موتى فأطيعوه كما كنتم تطيعونى ثم تشهد ووضع يديه على صدره وأسلم الروح (١) وكان الخليفتان الآخران وأقارب المهدى حضورا فبايعوا الخليفة عبد الله فوق جثته الى أن قال وكان المهدى يأمر بالزهد فى الدنيا وينهى

---

(١) محمد أحمد المهدى هذا ولد فى قرية تسمى الخناق بالقرب من الشلال الثالث سنة ١٨٤٣ ميلادية وقيل انه ولد بجزيرة ارقو من أعمال دنقله من عائلة فقيرة تدعى انها من الاشراف الحسينية وكان أبوه فقيها فعلمه القراءة والكتابة وسار به الى الخرطوم وهو صغير فمات أبوه فى الطريق ولما عظم شأن ابنه بنى له قبة على قبره تسمى اليوم بقبة السيد عبد الله ويقال ان محمدا أحمد حفظ القرآن الشريف وهو فى سن الاثنتى عشرة سنة ولما أراد عمه ان يعلمه حرفته وهى بناء المراكب وكان ساكنا بالقرب من سنار قضربه ذات يوم ففر من عنده وأتى الخرطوم وعكف على درس علم التفسير ثم مضى الى بربر وانتظم فى حلقة محمد الخير فأتم دروسه ثم عاد الى الخرطوم وانتظم فى حلقة الشيخ محمد شريف ابن الشيخ نور الدائم ابن الشيخ الطيب من شيوخ الطريقة السمانية فأخذها عنه ثم انتقل الى جزيرة عبة (أوابا) فى النيل الابيض ومكث فيها خمسة عشرة سنة منقطعا الى العبادة ومطالعة الكتب الدينية فانتشر خبره بالصلاح والورع فتقاطر عليه الطلبة وكان بعضهم يعيش من زرع الارض ومن الصدقات ثم حصل بينه وبين شيخه محمد شريف خلاف فاخبر محمد أحمد تلامذته ان الشيخ محمد شريف طرده بتاتا وانه عازم على الالتجاء الى الشيخ القريشى وهو أيضا من شيوخ الطريقة السمانية وكان بينه وبين الشيخ محمد شريف مناظرة شديدة ولما بلغ ذلك الشيخ محمد شريف استدعى محمدا أحمد ووعده بالصفح فأبى قائلا انى لا أريد أن تتدانى لمنفلاوى مثلى وذهب الى الشيخ القريشى فرحب به فاشتهر ما دار بينه وبين شيخه الاول واستعظمه الناس ثم أذاع محمد أحمد انه انفصل من شيخه المذكور لانه وجده يخالف الشريعة والسنة فاستصوب الكثيرون فعله هذا وبلغ صيته بلاد دارفور ولما عاد محمد أحمد الى بيته فى آباجاءه الزوار من أطراف البلاد بالهدايا فقبلها منهم شاكرا وفرقها على الفقراء زهدا فدعى بالزاهد ثم جاء بلاد كردفان وألف رسالة دعا بها المؤمنين الى تطهير البلاد من مفاسد الحكام ووزعها على أخصائه سرا ولما مات الشيخ القريشى بنى له محمد أحمد قبة على قبره وأتاه وقتئذ عبد الله بن محمد التعايشى (سمى بالتعايشى نسبة الى قبيلة من البقارة) وانتظم فى طريقته وأقسم له بيمين الطاعة وكان اسم محمد أحمد قد اشتهر بانه عازم على تطهير الارض من المفاسد وأطلعه التعايشى على أحوال القبائل واستعدادهم للقيام على الحكومة بأقل اشارة وكان محمد أحمد تزوج بعدة من بنات المشايخ ذوى الجاه والنفوذ وذلك رغبة فى اشتداد ازره وتعزيز نجدته وحزبه لمطامع فى نفسه قال سلاتين باشا فى كتابه ولما علم ان الاهالى يكرهون الحكومة لشدة وطأتها عليهم سيما بعد ان عين غوردون باشا الياس باشا السودانى مديرا عاما على كردفان وكان كثير من السودانيين يعدون أنفسهم أحق منه بهذا المنصب انتهز محمد أحمد

عن

عن الملا نوقد أبطل الرتب والمناصب وساوى بين الفقراء والاغنياء واختار الجبة المرقعة لباسا فصارت لباس كل اتباعه ولكنه خالف كل ذلك فعلا وجمع بين المذاهب الاربعة المالكي والشافعي والحنفي والحنبلي بالغاء أكثر ما اختلفوا فيه واختار بعض آيات من القرآن وفرض على الناس حفظها وتلاوتها كل صباح وسهل الزواج بتقليل المهر فانه جعل مهر البكر عشرة ريالات ومهر الثيب خمسة ومن طلب أكثر من ذلك أو قبل أكثر من ذلك أخذت أمواله كلها وأبطل ولائم الاعراس والسكر والرقص واللعب والسباب ومن خالف ذلك فقصاصه الجلد وأبطل أيضا فريضة الحج إلى مكة ومن شك في أنه المهدي المنتظر أو خالف أمرا من أوامره قطعت يده ورجله اليسرى وشاهدان يكفيان لذلك وان لم يوجد شاهدان ادعى أن النبي ظهر له في الحلم وأخبره بجريمة المجرم فيحكم عليه بغير محاكمة وأبطل كل كتب السنة والتفسير وحرق كل الكتب التي فيها شيء يخالف ما أمر به وهذا ما عمل به جهارا أما في بيته وبيوت خلفائه وأمرائه وأقاربهم فلم يرا الا الانغماس في كل ضروب الخلاعة والسكر وأنواع الملاذ اه وقد ذكر صاحب السودان المصري والانكليز فصلا عن مذهب المهدي وأصوله فقال فيه ان مذهبه كان مستنبطا جله من المذاهب الاربعة التي أصلها من الكتاب والسنة وذلك بانه كان عمد الى مذهب الامام وحذف منه كل تشديد في أمر العبادات كالوضوء والغسل ثم انتقل الى الحدود (العقوبات) فحذف منها كل تخفيف ورفق وأضاف اليها تشديدات الائمة الثلاثة وأما النكاح والطلاق (الشخصيات) فاقتبس فيهما من مذهب الامام مالك ومنع زواج البالغة بلا ولي ولا مهر مما أجازه الامام أبو حنيفة وحكم بطلاق امرأة الغائب بعد سبعة شهور اذا لم يترك لها ما تنفقه في حاجاتها الا اذا كانت غيبة الزوج في مواطن الجهاد فيكتب اليه القاضي ويحدد له موعدا يحمل زوجته اليه في خلاله وبعد مضي الاجل يحكم القاضي بطلاقهما منه وقضى على رجل قتل آخر رآه مع امرأته أن يؤدي بينة بانهما كانا عاكفين على حرام فعجز المتهم عن تأديتها فأنفذ فيه عقوبة القذف أولا ثم عقوبة القتل ثانيا وأما المعاملات (القضايا المدنية) فسار فيها على مذهب الامام أبي حنيفة وأضرب عن تحليف الشاهد مع قبول الطعن الشرعي في عدالته ولما تولى التعايشي أشار بعدم قبول الطعن في الشاهد مع تحليفه الايمان على المصحف الشريف وكان يقضي برد المطلقة بالثلاث الى مطلقها قبل أن تتزوج بغيره اذا كان طلاقها قبل حلول دعوته وزعم ان هاتفا من قبل الله عز وجل هتف به وكلمه قائلا ليس عليكم في الدين من حرج ردوا طالقة الثلاث الى زوجها الاول الخ وقضى أن لا تقام دعوى

فرصة حركة النفوس المذكورة ورأى انه لا يمكنه ان يجمع كلمة الاهالي الا على مسئلة دينية لاختلاف شعوبهم وعصبياتهم فادعى انه المهدي المنتظر اه وكتب الى أصحابه وخلانه من الدراويش والفقهاء في أواخر ابو سنة ١٨٨١ بأنه سيكون مهديا بعد سنتين وانه سيحكم بالعدالة والانصاف في الدنيا ويقيم قائمة الاسلام ويطهر الدين والبلاد من الاتراك والمصريين والاوروباويين وغير ذلك وصادف ان مدير فشوده لما بلغه وفرة ثروة محمد أحمد وعلو منزلته أرسل يطلب منه مبلغا عظيما من المال مدعيا انه يطلبه اعانة للمدير فأبى دفع المال فكتب اليه المدير يتهدده وبالفعل أرسل العساكر لتنفيذ ما هدده به ففتك بهم المهدي بمجموعه تم في شهر رمضان من سنة ١٢٩٨ (أغسطس ١٨٨١) جاهر بدعواه المهدية وتبعه ألوف من أهل السودان وكان الشيخ محمد شريف قد أخبر رؤف باشا بمقاصد محمد أحمد ولكن رؤف باشا حمل ذلك على ما بينهما من العداوة وهذا وبعد ذلك حصل من المهدي ما ذكر من أفعاله الخائنات

Digitized by Google

مظلمة على أحد عمال الحكومة فى إبان سلطتها على السودان وكل دعوى قبل سقوط الابيض لا تسمع الا اذا كانت دعوى ميراث أو أمانة اهـ وفى تلك المدة سلمت مدينة سنار للدراويش الذين كانوا يحاصرونها بقيادة الامير عبد الكريم وولد النجومى وحصلت أيضا واقعة جنس الآتى الكلام عليها

واقعة جنس — بلغ الجنرال غرنفل باشا سردار الجيش المصرى ان أتباع المهدى قدموا الى الحدود المصرية لتحريض القبائل المسالمة للحكومة على شق عصا الطاعة فبعث بفرقة من الجند المصرى الى جنوبى حلفا (أغسطس ١٨٨٥) وأرسل معها ملحم شكور بك كاتم أسراره لتفهيم الاهالى ان قصد الحكومة المدافعة عنهم وعن بلادهم ومنع تعدى الثائرين من نهب القرى فسافرت القوة المذكورة من عكاشة على باخرتين ومرت على مشايخ البلاد الواقعة على ساحلى النيل وأفهمتهم بالامر ثم نزلت بحصن فى بلدة كوشه وأخذ محمد الخير الخوجلى عامل المهدى بجهتى دنقلة وبربر يحرض المشايخ على العصيان فلم تمض أيام حتى ثارت العرب وتجمعوا حول كوشه وأخذوا يطلقون المدافع على الحصن الذى فيه العساكر (١٦ ديسمبر ١٨٨٥) وفى ٣٠ منه صمم السردار على مهاجمة العدو وطرده من نواحى حصن كوشه فقسم قوته الى قسمين أرسل احدهما تحت إمرة الجنرال بتلر (Butler) الى بلدة جنس فسار مسافة ثلاثة أميال يقطع أرضا عسرة ولما ظهر له العدو أطلق عليه المدافع على مسافة ١٥٠٠ متر ولم يتمكن من اصابته لاختفائه خلف الروابى والآكام وكان يتقدم نحو العساكر الذين هاجموه فأخذوا يطلقون عليه بنادقهم حتى انهزم ووصل الجيش أخيرا الى جنس وأحرق بيوتها أما القسم الثانى فكان تحت قيادة الكولونيل هوج (Hughes) من الجيش الانكليزى وتقدم به الى أبى صارى حيث تجمع السودانيون فساق عليهم سرية من العساكر الانكليزية والسودانية وحصل بين الطرفين واقعة شديدة انهزم فى نهايتها المهديون واستولى الجيش على مدفعين وجرح فيها البكباشى حسن أفندى رضوان (الآن بك ومدير بنى سويف) وفى هذا الزمن صرحت انكلترا لايطاليا باحتلال مصوع تحت شروط اتفق عليها الطرفان وانسحبت الجيوش المصرية منها وكذا من زيلع وبربره فاحتلتهما الجيوش الانكليزية وأنيط أمر الحكومة فيهما بحاكم عدن ولما رأى الفرنسويون ذلك أخذوا فى توسيع أملاكهم فى جهات أوبك (١) واحتلوا تاجوره وغيرها من تلك السواحل التى كانت معدودة من أملاك مصر

(١) لا يخفى ان معظم السواحل التى تشكلت منها مستعمرة أوبك المذكورة كانت معدودة من أملاك الخديوية المصرية فلهذا رأينا لزوم الشرح أدوارها هنا بقدر ما يسع المقام فنقول انه من عهد ما اتخذت دولة انكلترة مدينة عدن (١٨٣٩ م) محطة لسفنها الذاهبة والآتية من هندها الشرقية وفرنسا تبحث على نقطة نظيرها فى تلك الاطراف فاومرت الى مسيو هنرى لامبرت Henri Lambert قنصلها فى عدن بانفاذ مقصدها فابتاع مينا أوبك الواقعة فى حون تاجوره من خليج عدن مع ما حواليها من الاراضى البالغ مساحتها ٢٥ ميلا مربعا من مشايخها سنة ١٨٥٥ وقال آخرون ان سبب ذلك ان فرنسا بعد ان تحققت من نجاح الموسيو فرديناند دولسبس فى فتح قنال السويس اهتمت بان يكون لها فى تلك الاطراف محطة وملجأ لسفنها فى طريق مستعمراتها الشرقية ثم لما علمت انكلترة بالامر أصدرت أوامرها الى محافظ عدن فاحتل جزيرة بريم الواقعة فى مضيق باب المندب خوفا من ان فرنسا تحتلها (١٨٥٧) ثم فى سنة ١٨٦٢ عقد مسيو شيفر Scheffer معاهدة امتلاك مينا أوبك المذكورة وروى البعض ان الفرنسويين بعد عقدهم معاهدة الامتلاك المذكورة أهملوا ميناء أوبك زمنا طويلا الى ان طلب منليك الثانى ملك

احتلال

احتلال ايطاليا لمصوع — قد استحسنا قبل أن نتكلم على هذا الاحتلال ذكر كيفية وجود ايطاليا فى تلك السواحل فنقول انه لما انتهت دول أوروبا من انفاذ معاهدة برلين طمحت انظارها الى أفريقية فوسع بعضها مستعمراته هنالك واتخذ البعض مستعمرات جديدة ولذلك لم ترد دولة ايطاليا سيما وانها تسعى فى ان تكون من الدول العظمى أن تتأخر عن غيرها فى هذا الخصوص فوجهت مطامعها الى انشاء مستعمرة لها فى سواحل بلاد الدناقيل على البحر الاحمر ولما كانت تلك السواحل معدودة من أملاك الحكومة الخديوية انتهزت فرصة الارتباكات المالية التى أشغلت مصر فى المدة المذكورة وتداخلت مع بعض المشايخ واحتلت احدى جزر تلك الجهة (١٨٧٩ م) ويقال ان الخديو الاسبق اسمعيل باشا ساعدها معنويا على تنفيذ مقصدها هذا ولما بلغ علاء الدين باشا محافظ مصوع وقتئذ ذلك أخبر الحكومة فأصدرت له أمرها تلغرافيا بالتحرى والبحث فأرسل اثنين من ضباط أركان الحرب وهما البكباشى عبدالله افندى فوزى (الآن باشا) واليوزباشى مصطفى افندى رمزى (الآن بك) على وابور سنار المعين لخفارة ميناء مصوع الى جهة عصب لتحقيق المسئلة بطريقة سرية وبعد ان تأكدوا من الامر علموا أيضا ان الطليانيين شيدوا بعض المبانى هنالك وأوجدوا بمرسى عصب سفينة حربية دائمية وغير ذلك ولما عرضت هذه البعثة خريطة اكتشافها على الحكومة اعترضت مصر على عمل ايطاليا رسميا وأجابت هذه بانها اشترت جزيرة عصب وما حولها من سلطان دنكلى لخزن الفحم لسفنها المتجولة فى تلك المياه (١٨٨٠ م) وبعد ان استمرت المخابرات بين الحكومتين زمنا انقطعت من غير أن يتم شئ فيها ومع ذلك فان حقوق مصر على تلك البلاد لا ينكرها الا كل من يعتقد فى نفسه القوة ويهرب من عدالة الشرائع سيما وانه فى الوقت المذكور قدم الجنرال استون باشا الامريكانى رئيس أركان حرب الجيش المصرى تقريراضافيا وافيا أبان فيه بدلائل لا ترد بين تاريخية وسياسية حقوق مصر على تلك البلاد المذكورة ولما تعين على رضا باشا الطوبجى محافظا لتلك الجهات فى السنة المذكورة أمرته مصر بالبحث والنظر فى هذه المشكلة مع مشايخ تلك الجهات فقدم تقريرا بما عمله وقد روت جريدة ايطاليا الصادرة بتاريخ ١٤ آغسطس سنة ١٨٨٩ خبر هذا الاحتلال بقولها انه فى ١١ مارس من

شوا فى سنة ١٨٧٧ من المارشال مكماهون Mac Mahon رئيس جمهورية فرنسا اذ ذاك أن يساعده على مبادلة التجارة بين فرانسا والحبشة فاخذ رئيس الجمهورية بأهمية هذا الطلب واستمرت المخابرات فى هذه المسئلة طويلا الى أن ارتقى الموسيو جريفى Grévy رئاسة الجمهورية فحصل الاعتناء بأمر طلب منليك (١٨٨١) وزادت أهمية ميناء أوبك من وقتئذ خصوصا بعد احتلال الانكليز لمصر وفى سنة ١٨٨٥ لما تركت مصر أملاكها السودانية وسعت فرانسا دائرة مستعمرتها المذكورة وأضافت اليها ميناء تاجوره حتى أصبح لها فى تلك السواحل ما مسطحه ٣٨٦٠ ميلا مربعا بها من السكان نحو ٢٥,٠٠٠ نسمة فمن ثم حولت انكلترة ابصارها الى جهات اوبك حيث خافت على هرر والحبشة فسألت فرانسا فى ذلك التقدم فقالت لها انها لا تريد المساس بهرر فانبنى على ذلك ان عقدت فرانسا مع انكلترة معاهدة سنة ١٨٨٨ تقررت بها حدود مستعمرتها المذكورة وجعلت قرية كالة الغربية من زيلع ورأس جيبوتى الحد الفاصل بين مستعمرتها المذكورة والاراضى المصرية التى احتلها الانكليز فى السواحل الصومالى ثم فى سنة ١٨٩٧ عقدت فرنسا مع منليك ملك الحبشة معاهدة نالت بها امتياز انشاء الخطوط الحديدية داخل البلاد الحبشية لترويج التجارة ومن هذه المستعمرة أخذت بعض الحملات الفرنساوية تتقدم الى داخلية السودان فى الوقت الحاضر

Digitized by Google

سنة ١٨٧٥ اشترى القومندور روباتينو (Rubattino) الايطالى من بار يحان سلطان راحيتا فى البحر الاحمر جون آصاب أو عصب وجزيرة درما كابمبلغ ٤٧٠٠٠ جنيه انجليزى دفعته الحكومة الايطاليـة من خزينتها فلما اتصل هـذا الخبر الى علم الحكومة المصرية أقامت الحجـة وقالت انها تعارض الدولة الايطالية فى احتلال هذا الموقع لمالها من حقوق السيادة على سلطنة راحيتا بمقتضى فرمان ١٢ محرم سـنة ١٢٨٣ (١٨٦٦) الذى أحالت به السلطنة العثمانيـة ادارة محافظة مصوع وملحقاتها على الحكومـة المصرية ثم طلبت من حكومـة ايطاليا اصدار أوامرها بالجلاء عن جون آصاب فى أقـرب زمن فأجابتها الحكومـة الايطاليـة بجواب تفنـد فيـه ماتعزوه الى نفسهـا من الحقوق السياسـية على تلك السلطنة وأنها لو كانت تعلم أن جون آصاب من ملحقات الخـديوية المصرية لعملت بما تقضى به عليها الظروف وقتئـذ (انظر الكتاب الاخضر فى المحرر المقـدم الى الوزير منسينى Manzini فى ١٢ يونيو سنة ١٨٨٢) وفى السـنوات العشر التى تلت هذه الحادثة لم تبـد الحكومـة المصرية اعـتراضا ولكن لما شرع الموسيو روباتينو فى أواخر عام ١٨٧٩ فى انشاء مركز تجارى با ٓصاب تداخلت الحكومـة الانكليزية فى الامر واسـتفسرت منه عن مشروعـه وقد أفضت هاته الحادثة الى تبادل المخابرات السياسية بين الحكومتين الانكليزية والايطاليـة ولكن هـذه المخابرات كانت عقيمـة النتيجة وأما مقصد ايطاليا فى احتلال جون آصاب وجزيرة درما كما فيعـلم صراحة من الرسالة الآتية التى بعث بها الشـفاليه ماكيافيلى (Machiavelli) الوكيل السياسى لدولة ايطاليا فى مصر القاهرة بتاريخ ٢٦ سبتمبر سنة ١٨٨١ وهى مدونة فى الكتاب الاخضر وفى مؤلف الموسيو كيالا (Chialla) أحد أعضاء مجلس السناتو المعنون باسم مصوع وهـذا نصها مختصرا

سألنى دولتـلو شريف باشا عما اذا كانت الحكومة الايطاليـة تعتبر جهات راحيتا تابعـة لها فبادرت الى اجابته بالنفى وقلت له ان مقصـدنا ينصرف الى احـترام النظام الموجود فيها أعنى تأييد شوكة السلطان باريحان صاحبها فقال دولته وماهى مصلحة ايطاليا من تفضيل وجود هـذه السلطنة بقبضة شيخ مستقل على أن تكون تابعة لحكومة مصر فأجبتـه أن الاتفاقيات الودادية المبرمة مع هذا الشيخ واستحالة التسليم بمزاعم الحكومة المصرية فيما يتعلق ببلاده من الامور التى تحملنا على تأييد حقوقه خصوصا وانناندون ذلك نجعل حقوقنا على جون آصاب عرضة للعـدوان فقبل منى دولة شريف باشا هذا الكلام بتمام اللطف والارتياح اهـ

وفى جلسة مجلس نواب ايطاليا التى انعقدت بتاريخ ٧ دسمبر سنة ١٨٨١ قال الموسـيو منسينى ما يأتى مضت بضـعة شهور والمخابرات دائرة فى مسـئلة آصاب حيث حاولت الحكومة المصرية التى كان كـبير نظارها وقتئذ دولتلو رياض باشا أن تحتل بغتة أراضى راحيتا وهى الموقع البحـرى القـريب من آصاب احتـلالا عسكريا فأقام قومندان السـفينة اتورى فيراموسكا (Fieramosca) الحجة على ذلك ثم اتفقت مع وزير البحرية على ارسال أوامر صريحة الى سفننا الحربيـة بمنع نزول الجنود المصرية فى راحيتا ولكن على شرط ان يكون هذا المنع عقب اتخاذ وسائل الحسنى والاقناع وبتجنب وقوع معركة بحرية بين سفننا وسفن بريطانيا العظمى وقد أتى هذا الحزم بالنتائج التى كانت منتظرة منه حيث عـدلت حكومة مصر عن انزال جنودها فى أراضى

راحيتا

Digitized by Google

راحيتا ومع هذا فقد طرأت صعوبات جديدة فى أواخر سنة ١٨٨١ حينما بعث قومندان الدارعة الانكليزية دراغون (Dragon) من عدن رسالة تلغرافية قال فيها ان المسيو بيانكى (Bianchi) القومسير الايطالى فى آصاب روى له فى ٩ ديسمبر أنه أبرم عهدة مع سلطان راحيتا اعترف فيها هذا الامير بوجود أراضى بلاده ومن ضمنها راحيتا تحت حماية الحكومة الايطالية وفى الواقع أن السلطان باريحان المذكور قد أبرم مع هذه الحكومة بتاريخ ٢٠ سبتمبر اتفاقية تكفل له ولخلفائه من بعده مساعدة وحماية ايطاليا فى مقابلة تعهده بجملة أمور من أهمها عدم تنازله عن شئ من أراضى بلاده لدولة أجنبية ثم تبودلت المراسلات والمخابرات بعد ذلك بين انكلتره وايطاليا وقد أخذت هذه المراسلات جزأ عظيما من الكتاب الاخضر المقدم الى مجلس النواب الايطالى فى سنة ١٨٨٤ وفى ١٥ فبراير سنة ١٨٨٢ اتفقت انكلتره مع ايطاليا على التصريح العلنى الذى ينبغى أن تفوه به الحكومة الايطالية على الملا انتعلم حقيقة نواياها فى البحر الاحمر وقد أوردناه بأسفل الصحيفة ليطلع عليه القراء (١) وقد فسر الموسيو منسينى هذا التصريح فى ١٢ يونيو سنة ١٨٨٢ بقوله ان الواجب على ايطاليا توقى كل احتلال فى سلطنة راحيتا عاجلا أم آجلا لما يكون فيه من الخطر والاضرار بمصالحها أكثر مما فى الاستيلاء العثمانى المصرى اه ثم بعد ذلك بزمن قليل احتجت ايطاليا على الحكومة المصرية بخصوص قتل بعض رجالها فى جهات بيلول واتهمت مشايخها بذلك وطلبت من الحكومة المصرية تحقيق ذلك على يد مندوب من طرفها وآخر طليانى فأرسلت الحكومة ابراهيم رشدى باشا من قبلها الى عصب على باخرة الجعفرية ورافقه علاء الدين باشا وبعد عمل التحقيق اتضح عدم ادانة المشايخ لانهم نصحوا المقتولين من ضباط وعساكر ايطاليا بعدم التجول فى داخل البلاد فلم يقبلوا منهم النصيحة كما تقدم الان المندوب الطليانى لم يقتنع بذلك وعلى هذه الصفة انتهت التحقيقات ثم خشيت الحكومة المصرية من تمادى تعدى الطليان على أراضيها فأسست فى السنة المذكورة نقطة عسكرية فى بيلول جعلت فيها ١٥٠ عسكريا وشيدت لهم حصنا صغيرا وبقيت هذه القوة هنالك الى يناير سنة ١٨٨٥ حينما أشارت انكلتره على ايطاليا باحتلال مصوع وبعد ذلك بعثت ألف جندى الى جهات بيلول القصاص الذين قتلوا رجالها هنالك ولما لم يجدوا القتلة أخذوا يوغلون فى بلاد الحبشة فأرسل اليهم يوحنا ملك الحبشة قائدا من قواده لطردهم من بلاده فالتقى بهم فى جهة يقال لها دوغالى وأثخن فيهم وكانوا خمسمائة جندى فلم ينج منهم الا بعض الجرحى عادوا الى مصوع وأخبروا بما جرى لهم فى هذه الواقعة التى يسميها البعض أيضا بواقعة صحاتى (٢٥ يناير ١٨٨٧) ثم بعد ذلك لما قامت حكومة ايطاليا تضرب الرسوم على جميع السكان من وطنيين وأجانب فى مصوع توقف الفرنساويون والسويسيون واليونانيون فى دفع تلك الرسوم وكانوا جميعا تحت حماية قنصل فرنسا لعدم وجود وكلاء آخرين فيها لباقى الدول

(١) تعترف حكومة ايطاليا فيما يختص بها بسيادة الباب العالى ومصر على ما يبقى من سواحل البحر الاحمر الغربية جنوبى وشمالى آصاب ومع ذلك فانه لما كانت الحكومة الايطالية مضطرة بتعهداتها السابقة الى تذليل الصعوبات التى رعاياها فيها سلطان راحيتا بخصوص آصاب فالمأمول من الباب العالى ومصر أن يحترما مركز هذا الحاكم ويسعيا فى حفظه وابقائه على ما هو عليه بشرط ان لا يتنازل لاحد ما عن أجزاء أخرى من بلاده وتتعهد الحكومة الايطالية من جهة أخرى بعدم السعى فى توسيع نطاق أراضى آصاب مما يلى حدودها الحالية

Digitized by Google

وأخذت هذه المسئلة دوراً عظيماً حيث قامت الحكومة الفرنساوية تعارض حكومة ايطاليا سياسيا وقالت لها ان مصوع هى جزء من ممالك الدولة العثمانية والعهود المخولة امتيازات للاجنبيين هى مرعية فيها ثم سعت فرانسا أيضا فى اغراء حكومة اليونان على موافقتها فى هذا الاعتراض وسارت بقية الدول الاوروباوية فى هذه المسئلة كسيرها المعروف فى جميع بلاد الشرق حيث كانت سياستهم فيها مساعدة لحكومة ايطاليا على تأييد مطامعها الجديدة فلم تلبث حتى أظهرت انكارها تبعية مصوع للدولة العلية العثمانية بالمحررين اللذين أرسلهما السنيور كرسبى (Crispi) الى سفراء ايطاليا فى جميع عواصم أوروبا بتاريخ ٢٥ يوليو سنة ١٨٨٨ وقد استنسبنا درجهما فى أسفل الصحيفة لتمام الفائدة (١) ولما فيهما من التلاعب السياسى والكلام الشديد الذى استعمله الوزير

(١) (المحرر الاول) ان الجنرال الايطاليانى رئيس الجيوش فى مصوع قرر فى ٣٠ مايو ضريبة على جميع أصحاب العقارات وعلى جميع التجار الموجودين فيها سواء كانوا من الوطنيين أو الاجنبيين بقصد صرف ما يتحصل من هذه الرسوم على انشاء الشوارع العمومية وتنوير المدينة بالغاز وغير ذلك وأصدر أمراً آخر بتاريخ ١ يوليه بتقرير رسوم رخصة على جميع من يتعاطى تجارة المسكرات أو غيرها من المواد الالتهابية فلم يذعن لهذه الاوامر نحو ثلاثة وعشرين تاجراً من هؤلاء التجار فتوقفوا عن القيام بدفع هذه الرسوم ومن هؤلاء التجار فرنساويان وواحد من بلاد سويسرا و ٢٠ يونانيا وهم منتمون لعدم وجود قنصل لهم فى مصوع الى وكيل فرنسا وهو الوكيل الاجنبى فيها فأيدت حكومة فرنسا دعواهم وقالت ليس للايطاليانيين حق فى تقرير هذه الرسوم على الاهالى الفرنساويين وعلى من كان تحت حماية فرنسا بأن كان منتميا اليها واستشهدت على ذلك بالعهود المخولة امتيازات للاجنبيين فان هذه العقود والعهود مرعية فى مصوع ولا بأس من المناظرة والمناقشة فى هذه القضية ولا بأس من التسليم مؤقتا بهذا الغرض الذى احتج به أخصامنا وان لم نعتقد بصحته ولم نصدقه فنقول هل وجود العهود يقضى علينا بعدم تقرير رسوم بلدية على الرعايا الاجنبيين أو المنتمين لاية دولة من الدول الاجنبية ما لم تحصل على رضا حكوماتهم ودولهم فالجواب لا أظن ذلك وعلينا أن ننظر فى الامور الجارية فى هذا الخصوص فى الاقاليم العثمانية مثل بوسنة وهرسك وقبرس والبلغار وهذا على فرض وجود العهود نامات المخولة امتيازات للاجنبيين ولقناصلهم ومراعاتها فى مصوع ولكننا لا نذهب هذا المذهب ولا نعتقد هذا الاعتقاد فان سلطة تركيا فى مصوع غير مسلم بها ولم تنتظم للوطنيين فيها محاكم ومجالس شرعية بل نزيد ونقول بأنه لو وجدت فى مصوع المعاهدات المخولة امتيازات للاجنبيين بسبب سيادة تركيا المدعى بها وبسبب ادارة المصريين لها فقد ألغيت وبطلت منذ تبوئنا مصوع وإنشائنا ادارة منتظمة فيها ومتى اشتملت أمة غربية ادارة مملكة شرقية فلا لزوم لمراعاة العهود نامات المخولة امتيازات للاجنبيين وقد أنشأنا فى مصوع ادارة منتظمة بكفالات وضمانات تتكفل بالنظام والنزاهة عن الغرض مدة ثلاث سنين مضت ومن الغريب ان جميع اليونان الذين تأخروا عن سداد الضرائب المحلية باغراء المغرين وافساد الذين لا لزوم الى ذكرهم استعانوا بالعدل الايطاليانى وذاقوا حلاوته وقبلوا أحكامه بدون معارضة ومما يحسن التنبيه عليه هو أن حكومة اليونان لم تتخذ قبل انحيازها الى آراء حكومة فرنسا هذه العهود والمواثيق المخولة امتيازات للاجنبيين أساسا لدعواها اهـ

(المحرر الثانى) ان ايطاليا تبوأت مصوع فى ٥ فبراير سنة ١٨٨٥ فى ظروف جديرة بأن تذكر وهى انه لما استفحلت غوائل الثورة المهدوية وخشى من زحف المتمهديين على مصر أمرت الحكومة المصرية بتجميع عساكرها بأن استدعت حاميتها الموجودة فى الجهات القاصيه وعلى أن مصوع كانت خارجة عن خط الدفاع الذى اتخذته الحكومة الخديوية كان من المتعين عليها الاخلاء منها ولما طلب من تركيا تبوؤ تلك الجهة أبت وامتنعت وبسبب امتناعها رفضت وغضت الطرف عن الحقوق التى كان يمكنها أن تدعى بها على هذه النقطة المهمة فى البحر الاحمر وان كانت هذه الحقوق هى غير حقيقية أما الممالك المحابة ففضلا عن انه لم يخامرها أسف ولا حسد انشرحت لما رأت ايطاليا مستولية عليها فان استيلاءها عليها هو كفالة وضمانة على النظام والتمدن على سواحل البحر الاحمر فايطاليا فى مصوع بناء على تبوئها لها تبوأ حقيقيا وبناء على موافقة ومطابقة ذلك للقضيات القانونية

المذكور

المذكور فى محرر به فى حق فرانسا الذين لو كانا صدرا فى غير هذا الزمن لانبنى عليهما اشتعال نيران الحرب بين الدولتين ولكن انقضى ذلك الزمن وتداخلت دول التحالف الثلاثى ومعهم انكلتره وساعدوا ايطاليا فى المسئلة وانتهت المناقشات والمجادلات باجماعهن على ترك ايطاليا فى مصوع وتعلقت مسئلتها بذيول المسئلة المصرية وتعاهدت انكلتره مع ايطاليا بخصوص شرقى أفريقية بعدة اتفاقيات كان آخرها اتفاقية ٥ مايو سنة ١٨٩٤ وهى التى اكتسبت بها ايطاليا حق الاستيلاء على هرر وأراضى واسعة على سواحل البحر الاحمر وبلاد السومال الى نهر جوبا وجعل فيها النيل الأعلى بين أملاك ايطاليا والكونغو ولكن الحوادث التى طرأت بين ايطاليا والحبشة الآتى شرحها حالت دون تنفيذ ما ترب ايطاليا فى استعمار تلك الجهات فبقيت المقاطعات المذكورة من حقوق ايطاليا على صفحات الخرائط وفى طى المعاهدات الى الآن منتظرة الظروف التى تجعل ايطاليا قادرة على استعمارها اياها أو التنازل عنها الى غيرها

وكان المهدى لما امتدت سلطته وعظم شأنه هدد الاحباش واسترد منهم بعض المواقع ولما قام التعايشى بعد وفاة المهدى استطال على الاحباش لما فعلوه مع السودانيين قبل ذلك وفى ٩ مارس سنة ١٨٨٩ نشبت الحرب بين الملك يوحنا وبين الدراويش فتغلب يوحنا عليهم أولا واستاق سباياهم ثم هزم هزيمة منكرة وقتل الدراويش من جيشه أزيد من عشرة آلاف مقاتل وقتل هو فى الواقعة وعند ذلك ظن الطليانيون ان قد خلا لهم الجو ومهدت السبل لامتلاك بلاد الحبشة فسموا مستعمرتهم من يومئذ اريتريا (Erythrée) وكانوا يثقون بمنليك ملك شوى احدى ممالك الحبشة لانه أحسن الى رؤادهم فشدوا أزره واعترفوا به ملكا وأهدوا اليه عشرة آلاف بندقية وكثيرا من الميرة وعقدوا معه فى اشيالى معاهدة ورد فى أحد بنودها أن يكون تحت حماية

واذا قيل هل طرأت حادثة منذ ذلك الوقت تخل بما لنا من الحقوق فالجواب من ذلك انه لم يحدث شئ من هذا القبيل فان تركيا أرسلت الى الدول منشورا لم يظهر له أثر ولا خبر أما فرانسا التى نظرت بعين الحسد والغيرة الى امتداد نفوذنا فى البحر الاحمر والتى تمادت على بذل المساعى المستمرة للاضرار بسلطتنا هناك استندت على الكلام الذى قاله سفير ايطاليا فى باريس للمسيو فرى وزير خارجية فرنسا فى أثناء محادثة ودية جرت بينهما وقد كان كلام السفير هذا من عند نفسه وتلقاء ذاته وكان متكلما به باسمه وهى انه اذا تبوأت دولة تبوأ فعالا حسب بند ٣٥ من قرار مؤتمر برلين فهذا يكون تبوأ مصوع فاتخذت فرنسا هذا الكلام حجة علينا وقد أحطنا علم الدول الكبرى بتبوئنا لمصوع بأن أرسلنا تلغرافين الى سفراء ايطاليا أحدهما بتاريخ ١٣ فبراير سنة ١٨٨٥ فاعلاناتنا فى شهر فبراير سنة ١٨٨٥ كانت كافية لاحاطة علم الدول بامتلاكنا لها ووفت مقدما بالامور الرسمية الصورية المتعين على كل دولة حسب بند ٣٤ من قرار مؤتمر برلين ان تجريها عندما تستولى على أية جهة من ساحل أفريقيه أو تدخلها تحت حمايتها وتركيا قبلت ورضيت بالامور الواقعية التى خرجت الى حيز الفعل ونختم كلامنا قائلين انه بناء على ما تقدم ذكره وسبق الكلام عليه فحكومة ايطاليا مقتنعة بأن تبوأ مصوع هو بالنظر الى الظروف التى حصل التبوؤ فيها وبالنظر الى مراعاة فحوى شروط قرار مؤتمر برلين موافق ومطابق للشروط الشرعية المرعية الواجب توفرها فى الامتلاك الشرعى الذى لا ينازع فيه وورد فى هذا المحرر بان الشكاوى لم تأت من تركيا بخصوص الغاء العهود وامتيازات الاجنبيين بل ان هذه الشكاوى هى كالعادة الجارية آتية من فرنسا التى قارت فى جذب اليونان وجعلها ضمن دائرتها فهذه الشكاوى هى من فرنسا التى تظهر بانها تعتبر تقدم ايطاليا السلمى يضعف قوتها كان قارة افريقيا ليست واسعة لسد مطامع جميع الدول اهـ من الكتاب الاخضر

Digitized by Google

ايطاليا ولا بخابر الدول الاجنبية الا بواسطتها وكان ذلك فى النسخة الطليانية فقط أما النسخة الحبشية من المعاهدة المذكورة فلم يكن بها ذلك أصلا ولما علم به أنكره كل الانكار ولم يقبله وحصلت مخابرات طويلة فى هذا الخلاف انتهم الطليانيون فيها فرانسا وروسيا بتحريض منليك على مناوأتهم ولما تيقن منليك من خبث نية الطليان أخذ من ذلك الحين يعبي الجنود ويتدارك الاسلحة والذخائر حتى اجتمع تحت رايته ٧٠٠٠٠ مقاتل وبينما كانت المخابرات والمناقشات دائرة على معاهدة اشيالى المذكورة سقطت وزارة الموسيو كريسبي (Crispi) وقامت وزارة دي روديني (Di Rudini) وكان أعضاؤها يكرهون التوغل فى أفريقية ويميلون الى الاقتصاد فى النفقات الحربية فبعثوا لجنة تحقق فى مستعمرتهم المذكورة فلم تجد فيها ما يقابل بالنفقات الكثيرة التى أنفقت عليها فاستدعى الجنرال غندلفى (Gandalvi) قائد جنود المستعمرة وأرسل الجنرال باراتيرى (Baratieri) بدلا عنه وهو مشهور بالبسالة ومن كبار الكتاب فحارب الدراويش وقهرهم وأصلح شؤن المستعمرة الايطالية من كل وجه وكان الجنرال بلديسيرا (Baldissera) والجنرال غندلفى قد سعيا فى تجنيد كثير من الاهالى فلم يفلحا لترفعهما وضباطهما عن الجند أما الجنرال باراتيرى فنجح لانه عاش مع الجند كأنه واحد منهم ولما عاد الموسيو كريسبي الى الوزارة ثانية (ديسمبر سنة ١٨٩٣) أقر على فتح كسلا وأمر الجنرال باراتيرى بذلك ففتحها بعد ان هزم الدراويش (١٦ يوليو سنة ١٨٩٤) وأقام لذلك الطليان الاحتفالات وكان منيلك وقتئذ مشغولا بالحروب الداخلية وعند عودته أثار رؤساء البلاد وحثوه على محاربة الطليانيين خوفا من ان امتلاكهم لكسلا يسهل عليهم امتلاك بلاد الحبشة كلها ويقال ان رأس منغاشيا أحد الامراء أتى الى منليك خاضعا وكان قبل ذلك قد استحكم النفور بينهما وطلب منه أن علكه على بلاد تجره فقال له أتكون ملكا بلا مملكة اذهب واطرد الطليانيين من البلاد أولا ثم ننظر فى طلبك فتوجه واجتمع برأس الولا فكان معهما من الجنود ١٢٠٠٠ مقاتل ثم زحف الاثنان على الطليانيين البالغ عددهم ٣٦٠٠ مقاتل كلهم من الافريقيين المجندين بينهم ٦٥ ضابطا و ٤٢ جنديا من الطليانيين فدارت الدائرة على الاحباش فانهزموا (١٨٩٥) وبذلك وسع الطليانيون أملاكهم وضموا اليها بلاد تجرة واغامى وشيدوا فيهما الحصون وبعث رأس منغاشيا ورأس مكونن يطلبان الصلح من الطليانيين فعقد بينهما الا انهما عادا فانضما (نوفمبر سنة ١٨٩٥) الى منليك وقاما معه لحرب الطليانيين ثم بعد أيام قلائل أقبلت جنود شوى الى جهة يقال لها امبا الاجى وأحاط عشرون ألفا منها بجنود الماجور توسيلى (Tosselli) وكان عددها ٢٤٠٠ فلم يسلم منها سوى ثلثمائة وقتل توسيلى فدفنه رأس مكونن مع سائر الضباط بالاكرام ويقال انه قتل من الاحباش فى تلك الموقعة نحو ٣٥٠٠ ثم أقبل منليك بنفسه يقود جيشا يتألف من نحو ٧٠٠٠٠ مقاتل وحاصر حصن مكالى وكان به ضابط يدعى غاليانو (Galliano) معه ١٥٠٠ نفر فحاصرهم منليك الى ان فرغ ماؤهم ثم سلموا فردهم الى ادغرات سالمين وعاث منليك بجنوده فى مستعمرة الطليانيين وعند ذلك جرت المخابرة فى شروط الصلح وأصر منليك على حذف البند السابع عشر من معاهدة اشيالى القاضى بجعل بلاد الحبشة تحت سيادة ايطاليا وعلى رجوع الطليانيين الى تخوم مهم الاولى فلم يقبل الموسيو كريسبي ذلك وأمر الجنرال باراتيرى بمحاربة منليك فتقدم

المذكور

المذكور بجيش عدده ١٧,٠٠٠ مقاتل نحو بلاد عدوه ثم قسمه ثلاثة أقسام جعل على الاول الجنرال داو رميدا (Da Bormida) وعلى الثانى الجنرال اريموندى (Arimondi) وعلى الثالث الجنرال البرتونى (Albertone) وقبل اشتباك القتال جمع باراتيرى مجلساً حربياً وتشاور فى الامر فقصر القرار على مناجزة الاحباش وتقدمت الاقسام الثلاثة ثم أحاط الاحباش بفرقة الجنرال البرتونى فتغلبوا عليها وكان الجنرال داو رميدا يتبعها فأحاط به الاحباش أيضا قبل أن يصل الجنرال أريموندى لنجدته فدارت الدائرة على الطليانيين (أول مارث ١٨٩٦) وخسروا خسارة عظيمة وقتل منهم أزيد من خمسة آلاف جندى وأسر الاحباش نحو ثلاثة آلاف أسير واستولوا على جميع أسلحة الطليانيين وذخائرهم وعلى ٧٢ مدفعا وجرحوا الجنرالين وهما داو رميدا واريموندى وأسروا الجنرال البرتونى وعددا كبيرا من الضباط فاضطر الجنرال باراتيرى عند ذلك الى التقهقر بباقى عسكره الى جهة اديكى الواقعة على مسافة ٧٠ كيلومترا من عدوه ويعتذر الطليان عن نكبتهم هذه بان الجنرال البرتونى أخطأ المكان الذى أرسل اليه أولا لوجود مكانين باسم واحد وهو قول غير مقبول عند رجال الحرب حتى لو صح والحقيقة ان عسكر الطليان لم تبلغ بعد فى القوة والنظام العسكرى ما بلغته عساكر الدول الاخرى وكذا ضباطهم كان ينقصهم كثير من الدربة والمهارة الحربية كما حققه أهل الانصاف

ولما وصلت أخبار هذه الواقعة المشؤمة الى بلاد ايطاليا مادت البلاد واضطربت وخيف من الثورة فسقطت وزارة كريسبى وخلفتها وزارة روديني واضطر الطليانيون أن يعودوا الى تخومهم القديمة فى مستعمرتهم الجديدة وأضحى مركزهم فى بلاد الحبشة حرجا فقررت وزارتهم الجديدة تقوية حاميتها فبعثوا بجنود أخرى اليها وعزل الجنرال باراتيرى من القيادة العامة وبعثوا بلجنة تحقيق عسكرية وعينوا الجنرال بلديسيرا قائدا عاما ومن يومئذ اشتهر منليك ملك ملوك الحبشة وزوجته تونى التى شاركته فى تلك الحرب فى انحاء العالم الاوربى وبعث الروسيا وفرانسا وانكلترة اليه بعثات بالهدايا وعقدوا معه المعاهدات لتمكين الروابط بينهم وبينه وأقر واجميعا وفى مقدمتهم ايطاليا باستقلال الحبشة وكانوا لا يعترفون لها بذلك من قبل وعزمت ايطاليا على ترك كسله لمصر ثانية وكان الجيش المصرى قد تقدم تحت قيادة السردار كتشنر باشا وفتح دنقلة ثم تخطاها الى بربر فتخلت ايطاليا عن كسله ودخلتها الجنود المصرية (ديسمبر ١٨٩٧) تحت امرة اللوا برسونز باشا (C·S. B. Parsons Pacha) محافظ وقومندان قسم سواكن ويظن ان حكومة ايطاليا تتنازل عن مصوع أيضا لعدم قدرتها على تحمل نفقات المستعمرات التى تحتاج الى القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والى الرجال المحنكين وغير ذلك

خلاص أمين باشا واقاليم خط الاستواء — سبق الكلام على أمين باشا هذا وخدمته للحكومة المصرية فى السودان مدة قضى معظمها حاكما على المقاطعات الاستوائية التابعة لمصر فتمكن من المحافظة على الامن فيها مدة قيام المهدى ولما ضايق المهدويون لبتن بك (Lupton) مدير بحر الغزال (١٨٨٤) أخذ يكاتب أمين باشا ويطلعه على الخطر المحدق بمديريته ظنا منه ان أمين باشا ربما يتوصل بذلك الى مساعدته وذلك أثناء محاصرة الدراويش الذين

Digitized by Google

بعثهم المهدى تحت إمرة الامير كرم الله لفتح بلاد بحر الغزال وأخيرا سقطت المديرية المذكورة فى يد الدراويش الذين قتلوا كل حامية بلدة بور لمقاومتها لهم (١٦ ديسمبر ١٨٨٤) وتقدم الامير كرم الله ولما تضايق أمين باشا وسدت عليه المنافذ صار يرسل مكاتباته عن طريق اوغندا ولكن الكثير منها أختفى قصدا بسبب عداوة ملك أوغندا للانجليز وقتله الاسقف الانكليزى (١٥ نوفمبر ١٨٨٥) ولما بلغ الحكومة المصرية ذلك كتب نوبار باشا رئيس وزراء الوقت المذكور الى أمين باشا محررا بتاريخ ٢٧ مايو سنة ١٨٨٥ فوض اليه فيه أمر الانسحاب الى زنجبار عن طريق أوغانده أو البقاء فيها كما تقدم ذكر ذلك ثم وصلت من أمين باشا مكاتيب أخرى عن طريق أوغنده أيضا (٢٦-فبراير ١٨٨٦) ولما اطلع عليها الدكتور يونكر الالمانى (Junker) وكان ضيفا عند السير جون كرك (John Kirk) قنصل انكلترة فى زنجبار أرسل لوقته أخبارا الى أوروبا بضرورة ارسال حملة لتخليص أمين باشا لحرج مركزه (٥ ديسمبر ١٨٨٥) فاهتمت الدولة الانكليزية والمجامع العلمية باوربا بامر أمين باشا واختارت انكلترة لهذه المهمة المستر ستانلى السائح الشهير لخبرته بأحوال أواسط افريقية (١) وجمع له أحد رجال الانجليز ٣٠,٠٠٠ جنيه قال الكولونيل شل لونج بك فى كتابه ان انكلترة لم تكلف المستر ستانلى بهذه المأمورية الا لاغراض سياسية كانت ترمى اليها من القديم هذا ولما وصل ستانلى الى بلاد الانكليز قالوا له ان الدولة الانكليزية ستبذل كل ما فى وسعها لاغاثة أمين باشا وخلاصه من جهة ومن الاخرى لاخلاء مديريات خط الاستواء من العساكر والموظفين المصريين وأخذوا يباحثونه فى الطرق التى يسلكها للوصول بكل سهولة الى أمين باشا لأن الطرق الموصلة الى المكان المذكور القريب من بحيرة البرت نيانزا شمالى خط الاستواء

(١) المستر استنلى (Stanly) هذا أصله انكليزى واشتهر بمعلوماته الجغرافية ولما لم يكن له من يستند عليه فى بلاده هاجر الى امريكا وهو صغير فاستخدم بادارة جريدة النيويورك هيرالد باجرة قليلة ثم ترقى فيها الى أن صار مكاتبا سيارا لها وفى مدة الخمس عشر سنة التى أقامها فى امريكا نال شهرة فى التحرير وتزوج بفتاة محبة للسياحات وصادف انه فى سنة ١٨٧٤ اتفقت مصلحتا جريدتى نيويورك هرالد والتلغراف على تسيير حملة الى داخلية افريقية على مصروفاتهما لاستطلاع أحوال البلاد السودانية الواقعة بين شرقى القارة الى غربيها فكلفوا استانلى بذلك فقبل بكل سرور ورحل الى السياحة ثم سافر من زنجبار فى ٢١ سبتمبر ١٨٧٤ وجال فى داخلية البلاد وفى ٦ ابريل سنة ١٨٧٥ تمم رحلته حول بحيرة فكتوريا نيانزا التى اكتشفها الكبتن اسبيك (Speke) سنة ١٨٦٤ ثم وصل الى مملكة أوغندا وكان ملكها أمتيزا وقتئذ علاقات دائمية مع الكولونيل غوردون وكان الملك يعترف بأن غوردون وكيل سمو الخديوى فى المقاطعات الاستوائية وقد تمكن استانلى من تنصير الملك امتيزا المذكور وكان استانلى يتمنى أن يكون أول المكتشفين لتلك البلاد وبحيراتها ولكن سبقه اليها من اشتهر قبله فى نوال فخر الاكتشافات ثم أخذ استانلى يحرض بكتاباته الجمعيات الدينية لتسفير المرسلين الى تلك البلاد لتنصير أهاليها وبالفعل نجح حيث قامت بعد قليل تلك الجمعيات وجمعيات أخرى علمية بتسيير عدة ارساليات الى تلك البلاد ولكن الملك امتيزا لم يثبت فى الديانة المسيحية بل ارتد الى ديانته الوثنية وطرد الكثيرين من الاجانب وقتل فى خلالها عدة من القسس منهم الاب هننكتون (Hannengton) وكان امتيزا يومئذ يعترف بالسيادة لمصر وقال شل لونج بك وفى أثناء سياحة استانلى المذكور سعى فى رفع العلم الانكليزى فى تلك البلاد ولكنه لم ينجح وانما بعد عودته من السياحة كاشف انجلترة بآرائه فقبلتها بلا اعتراض وسعت فى امتلاك تلك الجهات اهـ وقد استولت على ساحلها الذى كان تابعا لحكومة زنجبار حتى تمكنت من الاستيلاء على أوغندا بالاتفاقيات التى عقدتها مع المانيا سنة ١٨٨٦ و ١٨٩٠ وتنازلت لالمانيا نظير ذلك عن جزيرة هلغولاند (Hélgoland) وأمرت المانيا الماجور ويسمن (Wissman) بتحويل أنظاره الى طريق بحيرة تنجانيكا

Digitized by Google

خمس وهى طريق الحبشة من مصوع وطريق شوا من عصب وطريق مساى من ممباره وطريق اوغندا من امام زنجبار وطريق نهر الكنغو وكانت الجرائد تشير باتباع أقصرها وهو طريق مساى ولكن استانلى اختار طريق الكنغو وبعد ان تجهز بالمدات والاوامر سافر الى مصر فصدر أمر الخديو باعطائه عشرة آلاف ليرة من مالية مصر ومائة جندى من السودوسلمه الأوامر اللازمة لامين باشا (٥ جمادى الاولى سنة ١٣٠٤) وسافر ستانلى أولا الى زنجبار (فبراير ١٨٨٧) وهنالك عقد محالفة مع تيبوتيب أمير العرب بالنيابة عن ملك البلجيك مؤداها ان يرفع الامير المومى اليه راية ولاية الكونغو الموضوعة تحت حماية الملك المشار اليه فوق شلالات استانلى ويمنع قبائل البدو فى تلك الانحاء من التعدى على استانلى وجماعته وان يقدم له الرجال والامدادات اللازمة لهذه الخدمة كل ذلك نظير مبلغ معلوم اتفقا عليه وبعد انتقائه الرجال والادلاء من زنجبار سافر بحرا على طريق رأس الرجاء الصالح فوصل بلدة بنانا من أعمال الكونغو فى ١٨ مارس ومنها ركب بواخر شركة ولاية الكونغو وسار بها فى النهر المذكور مع رجال حملته ولما وصل بلدة ليوبولد فيل ركب بواخر وزوارق أخرى وسافر فى نهر أرويمى (يونيه) ثم قصد بحيرة فيكتوريا نيانزا برا وفى أثناء الطريق نزل فى بلدتى كيلينكا لونكاو يومبويا بعض رجال التجريدة وقد كتب استانلى فى خلال رحلته هذه عدة مكاتيب لاصحابه يصف لهم مالاقاه من الصعوبات وقد عثرنا على صورة كتابين من الكتب المذكورة كتب أحدهما الصديقه المستر بروس (Brose) (١) يصف له فيه الغاب الكبير الذى مر منه بعد مبارحته نهر نيبوكو وكتب الثانى الى السير وليم ماكنن (W. Mackinnan) رئيس شركة شرقى أفريقية الانكليزية التى اشتركت فى مأمورية استانلى المذكورة (٢) يصف له فيه إقليم أبيورى فأدرجناهما بأسفل الصحيفة لتمام الفائدة

---

(١) عزيزى بروس — تصور غابا أثيثا يقطر ماء متلبدا بالانجم والرتم والعوسج تحت ظل أشجار أنواعها تفوق الاحصاء لا يخرقها نور الشمس علوها من مائة قدم الى مائة وثمانين وقد تكاثفت فى أرضها الاشواك كالعليق والقتاد والهوى والوهاد متعرجة فى أرجائها تجرى فيها أحيانا أنهر كبيرة وارسم على لوح فكرك هذه الاجمة الوسيعة الشجراء المتعاقبة عليها كل أطوار الحياة النباتية بين درجتى الانحلال والنمو وبين الفسيل والدوحة فترى هنا شجرة قديمة معلقة فوق رأسك كما بشجرة تتداعى للسقوط وتكاد تهبط عليك فتحطمك وهنالك أخرى ساقطة فى خط عرضى تسد عليك السبيل والنمل والهوام والحشرات من كل الاجناس والانواع والاقدار تطن وتفح وتكش وتخف وتصر حولك والقرود والشمبانزى فوق رأسك تضحك وتتواثب والطيور تهدر وتصرصر وتصفر وتهدر وتقعقع وتسجع بأصواتها الغريبة والحيوانات تزأر وتعوى وتهر وتموء وتضغب وتحجل وترى حراجل الافيال تهرول وتعدو على الجانبين وجيل الخنزفرات الاقوياء الابدان السمر الالوان كامنين وراء سوق الاشجار الضخمة فى الزوايا المظلمة كاصنام جامدة أو كجذوع يابسة بأيديهم الحراب المسمومة موجهة نحوك ليرموك بها على غرة والامطار تتدفق شآبيب ويعاليل رذاذا وودقا ووابلا أكثر أيام السنة والهواء حامل جراثيم الحميات الوبيلة والغيام منتشر نهارا والظلام مدلهم ليلا ثم تصور غابة كهذه ممتدة من يلمبوت الى بترهيد (أى من أول انكلترا الى آخرها) فاذا استطعت أن ترسم فى فكرك صورة كهذه أمكنك معرفة بعض ما كابدناه فى هذه الرحلة الهائلة اهـ

(٢) كنا ورجالنا عجافا كهيا كل عظام وانحط عددنا من ٣٨٩ الى ١٧٤ وقد يئس أكثرنا من الحياة لان الارزاء الفادحة والدواهى الهائلة كانت قد توالت علينا وتعاقبت حتى ظننا أن لا نهاية لهذا الدوح الشاسع ولم يصدق رجالنا الافريقيون أنا سوف نرى سهولا ومواشى ونصل الى بحيرة نيانزا ونرى الرجل الابيض (أمين باشا) بل كانوا لا يعبؤن بالحجج والبينات ولا يكترثون بكلامنا اللطيف فان الجوع والآلام المبرحة كانت قد ذهبت بصبرهم

Digitized by Google

ثم لما بلغ استانلي البحيرة ولم يسمع شيأ عن أمين باشا وقومه أعيته الوسائل فعزم على أن يقفل راجعا ولما وصل الى أيبيوري بنى صرحا سماه فورت بودو ومن هناك أرسل مفرزة تحت قيادة الملازم ستيرس ليأتي بالسفينة والذخائر والامتعة والقبطان نلسن (Nalson) والطبيب بارك وكان ترك كل ذلك ببلدة كيلنكالونكا كما سبق ولما أتى عاد استانلي الى البحيرة (ابريل ١٨٨٨) ثم أرسل المستر جيفسن (Jephson) في السفينة الى موقف مصوا الواقع في أقصى تخوم منحصر أمين باشا وذلك بناء على رقيم ورد له من المومى اليه أثناء غيابه اذ كان قد بلغه قدوم رجل أبيض الى طرف البحيرة الجنوبي فحل استانلي في نفس المحل الذي كان قد وصل اليه في ديسمبر سنة ١٨٨٧ وفي ٢٩ ابريل ١٨٨٨ ظهرت له السفينة المسماة بالخديو تسير على مياه البحيرة وبعد برهة أتى المحلة أمين باشا نفسه والسنيور كاساتي (Casati) والمستر جيفسن المذكور ولا تسل عن عواطف الحبور والابتهاج التي سادت حينئذ على هذين الرجلين الفاضلين في هذا اللقاء الغريب بعد مغامرات واخطار تعدل هولها الابطال ففرح استانلي وتبادل مع أمين باشا الاحاديث والمسامرات ثم سلمه الاوامر وعرض عليه ثلاثة أمور اما أن يعود هو وعساكره الى مصر واما أن يكون محافظا للمقاطعات الاستوائية من طرف الجنيفه وله في مقابلة ذلك ألف وخمسمائة لبرة سنويا ويمنح رتبة جنرال والثالث انه في حالة ما اذا كانت حاميات خط الاستواء ترفض الرجوع معه الى مصر فله أن يجند بعض الرجال من حوالي بحيرة فكتوريا ليرافقوه في العودة ثم بعد أيام نقل استانلي محلته الى مكان أوفر ملاءمة أما أمين باشا فأبى الرجوع مع استانلي ومغادرة رجاله والاقليم الخصيب الذي كان سائدا عليه وصرف استانلي الشهر كله في محاجته واقناعه بالعود معه لكن على غير طائل حتى كاد ييأس ولأن النفقات والمشقات التي كابدها الاجلة تذهب ادراج الرياح ولما رأى استانلي تردد أمين باشا وضياع الزمان عبثا خطر على باله الماجور بارتلوت (Barttelot) وسائر رجال التجريدة الذين كان قد تركهم في يامبويا فعزم على الاياب اليهم لعله يلاقيهم قادمين في الطريق نفسه فودع أمين باشا وترك معه المستر جيفسن وتعاهدا على ان الباشا يخبر قومه بمقاصد استانلي ومراحله ثم سار استانلي برجاله الزنجباريين ولم يأخذ معه الا كمية قليلة من الزاد والامتعة فجد في السير حتى بلغ قلعة فورت بودو في ٨ يونيو سنة ١٨٨٨ وبوصوله أعطى الاوامر اللازمة لقواده وهم الملازم ستيرس (Sterese) والقبطان نلسن والدكتور بارك وأخذ يضرب مع أنصاره البالغ عددهم ٢١٢ نفرا في ذلك الدغل الهائل الى أن وصل بعد ثمانية أيام الى كيلينكالونكا وبعد شهر بلغ أوغار وهناك تحصل على قوارب ركبها في النهر واجتمع ببقية رجاله ولما وصل بونالايا

وبددت آمالهم ادراج الرياح ففسدت أخلاقهم وانحطت آدابهم فباعوا أسلحتهم وثيابهم بقبضة سنابل حنطة أو ببضعة حبوب ذرة وفروا بصناديق الامتعة وغيرها فلبثنا في ايبيوري ثلاثة عشر يوما نسمع أجوافنا بالتهام الدجاج والماعز والموز وخبز الحنطة والبطاطة الخ وكنا لا نزال بعيدين عن البحيرة ١٢٦ ميلا ولكن لما كانت قد تجددت قوانا عاتنا ولنا من الزاد لم نعبأ بهذه المسافة الباقية وبعد ان سدل علينا الظلام بجوف الكابة ١٦٠ يوما شاهدنا في الختام أنوار الغزالة تتألق على تلك الحقول النضرة والطبيعة متوشحة بمطارف الجمال حتى كدنا لا نصدق ما نراه بعيوننا ولم يدر في خلدنا اننا سنظفر برؤية أقاليم خضراء كهذه فتواثب الرجال سرورا ودوت تلك الاقطار بأصوات الهتاف والتهليل وفضت الاوفاض تعدو باحمالها على تلك البقاع كأنها استأنفت ما كان لها من النشاط والجذل في يوم رحلتها الاول اه من كتاب قلادة النحر في غرائب البر والبحر

الواقعه

الواقعة على مسافة بضع مراحل عن يامبويا تلاقى بالمستر بونى (Bonny) أحد رجال الماجور بارتلوت مع شرذمة قليلة من رجاله فأخذ يقص عليه أخبار النازلة التى أصابت بارتلوت وقيام الرعاع عليه وفتكهم به فى ١٩ يوليو سنة ١٨٨٨ وانه هو أى بونى والمستر جمسن (Iameson) ذهبا الى بنغاله لاستخدام حمالين آخرين ثم أصاب جمسن المذكور مرض الحمى فمات بها وبقى هو بمفرده فاغتم استانلى بهذه الاخبار حيث فقد أربعة من قواده الحمسة الذين عهد اليهم قيادة مؤخر تجريدته البالغ عددها ٢٧٥ نفرا ولم يقابل منهم الا بونى و ١٧ نفرا معهم قليل من الذخائر والامتعة وغيرها فكتب استانلى فى الحال الى تيبوتيب رئيس العرب وطلب منه ان يدركه بالرجال والمدد ثم بعد ذلك أوغل فى ذلك الدوح المرة الثالثة حتى وصل الى صرح بودو بعد صعوبات جة فوجد رجاله ما كثين ولما لم يبلغه خبر عن أمين باشا ولا عن المستر جيفسن اضطربت أفكاره فرحل بعد ثلاثة أيام الى البحيرة وجاز سهول أبيبو برى وبطاح البار يغا المرة الخامسة وكانت الاهالى هناك عرفوا استانلى فأمدوه بالاقوات ولما بلغ البحيرة أتاه رقيم كان بعثه اليه المستر جيفسن ورسالتين من أمين باشا يخبرانه فيها انهما فى أسر العساكر الثائرة عليهما وأن المهديين يعيثون فى ذلك الاقليم فسادا تحت قيادة الامير عمر صالح الذى بعثه التعايشى للاستيلاء على مديريات خط الاستواء وقد استولوا فعلا على مدينة لادو فصبر استانلى لهذا الخبر ولكن لما كان الدراويش قد استظهروا على ضباط أمين باشا العصاة رأى هؤلاء الضباط انهم فى حاجة الى مهارة الباشا العسكرية فأطلقوه من الاسر غير ان سلطته كان قد تقاصر ظلها ثم سار مع المستر جيفسن والسنيور كاساتى الى وادلاى ولما تقدم الدراويش جنوبا فر أمين باشا ورفيقاه الى تور بخو البعيدة عن محلة استانلى بنحو مرحلتين ثم بعد قليل تلاقى الجميع مع استانلى المرة الثانية ودارت بينهم المحاورات والابحاث ثانية بخصوص العودة واطلع استانلى أمين باشا على عدة مكاتيب كان أخذها معه من خارجية انكلترة ومن ضمنها كتاب أرسله أمين باشا الى انكلترة سنة ١٨٨٦ يقول فيه انه يكون سعيدا الان بعيد مقاطعات خط الاستواء لانكلترة أولاى مملكة أخرى تحميها فاستاء أمين باشا لما اطلع على ذلك وقال لاستانلى ان الانكليز أخطؤا فى نشر كتابى هذا لانه كان خصوصيا لهم فالذى يخالج فكر المصريين فى ذمتى عندما يطلعون على كتابى هذا وبعد مؤامرات ودسائس ومكايد من قبل العساكر المصرية وضباطهم عزم استانلى وأمين باشا وجماعتهما المتحدون على الاياب سوية فرحلوا من كافالى فى ١٠ ابريل سنة ١٨٨٩ وكان عدد اللفيف الراحل معهما ١٥٠٠ نفس بينهم النساء والشيوخ والاولاد وبعدما كابدوا عدة مشقات يطول شرحها وصلوا فى أول شهر ديسمبر الى ميسكى وهى قرية تبعد عن الساحل أربع مراحل فتواردت عليهم فيها رزم الرسائل والمخاطبات ولما بلغت التجريدة زنجبار أمست موكبا حافلا عظيما وفى ٤ ديسمبر قابلهم الماجور وسمن المأمور الالمانى فى ميناء بغامويو فرافقهم الى الميناء وكانت المدينة مزدانة بالاعلام وقابلهم فيها القواد والكبراء والاعيان من قبل أمبراطور المانيا وملكة انكلترة وملك البلجيك والمجامع العلمية ثم أطلقت المدافع تبشيرا بقدومهما وفى المساء أدب الماجور وسمن مأدبة أنيقة لضيفيه سقط فى خلالها من شؤم الطالع أمين باشا من طاقة الردهة العليا المرتفعة عن الاراضى نحو ٢٠ قدما فأغمى عليه وتهشم لكنه أخذ يتعافى تدريجا تحت عناية الدكتور بارك

والطبيب الالماني ثم بعد ذلك رفض استانلي الحضور الى مصر وخير البقاء في خدمة الالمان بجهات زنجبار وحضر استانلي مع المصريين الى مصر واحتفلوا بعودته احتفالا اعظما وأدبت الحكومة المصرية مأدبة رسمية اكراما له وألف عن رحلته هذه كتابا سماه ظلمات أفريقية أما أمين باشا فانه عاد ثانية الى خط الاستواء لاستحضار سن الفيل وغيره من الاشياء التى كان ادخرها هنالك ولكنه بعد قليل قتل بالقرب من شلالات استانلي وهو ذاهب الى غربي أفريقية ومعه ٢٠ طنا من العاج واختلف الرواة في سبب قتله ويقال ان أوراقه كلها وحوادث رحلته الى آخر سنة ١٨٩٢ محفوظة عند رجل بالجيبي ولما رأت انكلترة أن المانيا قد أرسلت روادها مع الدكتور بترس لاستكشاف جهات خط الاستواء لانشاء مستعمرة فيما طبق نصائح أمين باشا لتصل بها بين مستعمرتي كامرون وزنجبار خشيت انكلترة من توغل المانيا فطلبت من الشركة البريطانية التى أنشئت سنة ١٨٨٥ تحت رئاسة السر وليم ما كنون ان تقوم بعهودها السياسية التى ارتبطت بها معها فشكلت في الحال حملة في مدينة ممباسا تحت قيادة الضابطين جاكسن (Iackson) وجاج (Jage) فوصلت هاته الحملة في ١٤ ابريل سنة ١٨٩٠ الى منجو قاعدة بلاد أوغنده ثم بعد قليل حصل اتفاق بين المانيا وانكلترة (يوليو سنة ١٨٩٠) من مقتضاه ان الاولى تعترف للثانية اعترافا صريحا بحقوقها السياسية على مجرى النيل الاعلى ورأت الشركة ضرورة انشاء سكة حديدية من ممباسا على الاقيانوس الهندي الى بحيرة فكتوريا نيانزا يبلغ طوله ٧٥٠ ميلا وحصلت بينها وبين الحكومة البريطانية عدة مباحثات أعلنت في خلالها الحكومة البريطانية الشركة على انها ستتخلى عن أوغنده في أواخر سنة ١٨٩٢ ثم لما سقطت وزارة لورد سلسبوري وقامت بعدها وزارة غلادستون تغيرت سياسة القائلين بترك أوغنده وكلفت الحكومة الانجليزية السير جرالد برتال (G. Portal) قنصلها العام بزنجبار بالذهاب الى أوغنده وتقديم تقرير عن أحوالها وقد كان ذلك وصادق المستر غلادستون على جميع مشتملات هذا التقرير ومنها انزال علم الشركة في أوغنده ورفع العلم الانكليزي في مكانه وقد تم هذا في ابريل سنة ١٨٩٣ ثم بعثت الماجور مكدونلد (Macdonald) ببعض الجنود وأخذ يتقدم نحو النيل الاعلى وابتدأت هنالك أعمال السكة الحديدية المنوي ايصالها بالسكة الحديدية السودانية المصرية وبسكة حديد رأس الرجاء الصالح

باقي حوادث السودان — اعلم أنه لما استقل المهديون بالسودان المصري تشبهوا بالممالك الاخرى فخطبوا للمهدي وخليفته فوق المنابر وضربوا النقود بأسمائهم فمنها ماضرب في سنة الهجرة وهي هجرة المهدي على زعمهم ومنها ماضربوه بعد ذلك وكتبوا على إحدى وجهيها أم درمان وتحتها ١٣٠٤ ه وهي سنة استقلالهم وفي أعلاها رقم واحد يقصدون به السنة الاولى من سلطتهم وعلى الوجه الآخر مايشبه الطغراء العثمانية عليها لفظة مقبول يريدون بذلك ان تلك النقود مقبولة عند حكومتهم وأخذوا من ذلك الوقت يتعاملون بها قال سلاتين باشا انه بعد ان تربع الخليفة عبد الله التعايشي في دست الخلافة التفت الى بيت المال فطرد منه أحمد ولد سليمان امينه لانه كان يوزع الاموال على أقارب المهدي بغير حساب ونصب مكانه ابراهيم ولد عدلان

وهو

Digitized by Google

وهو رجل خبير بضروب المكاسب فنظم أساليب الدخل والنفقة وأكثر الموارد على أنواعها وضرب الريالات مازجا فضتها بالنحاس ولما توقف التجار عن قبضها هددهم الخليفة فاضطروا الى التعامل بها ولكنهم رفعوا الاسعار ودعا الخليفة قبيلته وأسكنها في أم درمان وقصد بذلك أن يأمن بها غدرات الزمان ثم تغير الخليفة على ولد عدلان فقتله ونصب خلافه على بيت المال وسار بقتل الموسر بن على أقل هفوة ليصادرهم في أموالهم وفي أوائل حكمه سعى الى جلب قلوب الشعب فأظهر انه سائر في خطة المهدي فبنى على قبره مقاما كبيرا وهو بناء مربع طوله ١٢ مترا وعلوه ١٠ أمتار وسمك جدرانه متران وفوقه بناء مسدس ارتفاعه خمسة أمتار وفوق ذلك قبة ارتفاعها نحو ١٣ مترا وزين جدرانه من الداخل وعلق فيه ثريا كبيرة كانت بدار الحكومة في الخرطوم وقام ببناء ذلك بناؤن مصريون وقد خدم السعد الخليفة في أول حكمه حيث قامت رجاله بحروب تذكر في سبيل المهدية مستبسلين عن غيرة دينية واعتقاد راسخ اهـ ومن أشهر حوادث هذه المدة ان ولد النجومي وهو من أشهر قواد الدراويش سار الى سنار بأمر التعايشي ففتحها (أغسطس ١٨٨٥) وكان على حصارها الامير عبد الكريم وهو من أقارب المهدي فدفعته حاميتها فلما فتحت وعاد مع ولد النجومي الى أم درمان (سبتمبر) عزله الخليفة عن قيادة الجنود السودانية وجعلها تحت إمرة اخيه الامير يعقوب لانه نسب إلى عبد الكريم الخيانة في حرب سنار وزجه في السجن مكبلا في الحديد فبقي فيه حتى مات (٢٥ دبسمبر ١٨٨٦) ومنها تسليم حامية كسلا الى الدراويش وكانوا محاصرين لها كما مر فقتلوا الكثيرين من حاميتها وأرسلوا منها ستة آلاف جمل محملة بالاموال والارزاق الى أم درمان وقلد التعايشي كلا من ولد النجومي وعثمان دقنه ومحمد الخير وأبو عنجر رتبة أمير الامراء وبعث الاول على إمارة بربر ودنقلة والامير أباجر حاعلى إمارة كسلا وجعل عثمان دقنه أميرا على شرقي السودان وفي تلك الاثناء تعدى بعض السودانيين على الاحباش وأخربوا كنيسة من كنائسهم ثم التجؤا الى القلابات بعد ان أسر الاحباش منهم عدة ولما بلغ الخليفة التعايشي ذلك أرسل مكتوبا الى يوحنا نجاشي الحبشة يطلب منه اعادة الاسرى وتعيين مقدار الفدية التي يريدها عنهم وبعث في نفس ذلك الزمن قوة من الدراويش مع الامير يونس الى القلابات وأمره أن يحصنها ليرد الاحباش ان قصدوها بسوء ثم ظهر بعد ذلك بالقلابات رجل ادعى النبوة وسمى نفسه بالمسيح عيسى والتف عليه خلق كثير فتضايق الامير يونس وبلغ الخبر التعايشي فأمر الامير أبو عنجر وهو من أكبر القواد لان جيشه كان يتألف من ١٥,٠٠٠ من حملة البنادق و ٤٥٠٠ من حملة الرماح والنبال و ٨٠٠ فارس بقتال ذلك الرجل ومحاربة الاحباش فلما وصلها مع فرقة من جموعه قبض على عدة أمراء الظهور تآمرهم على قتل يونس ثم أمره الخليفة بقتلهم فقتلهم

وبعد أن أعاد أبو عنجر السكينة في القلابات سار بجيشه نحو رأس عادل من أمراء الحبشة وقهره في واقعة حصلت بينهما واستولى على مهمات الاحباش وذخائرهم وأسر زوجة رأس عادل المذكور وابنته وفتح مقاطعة أمحره واستولى على غندار وأحرقها وعاد إلى القلابات ظافرا بالسبايا والغنائم وبعثها الى أم درمان وأمره التعايشي أن يزيد في حصون القلابات قائلا انه رأى في منامه انه يحارب الاحباش ولكن المنية عاجلت أبا عنجر فمات وعمره لا يتجاوز ٣٢ سنة وخلفه الامير زكي طومال وكان النجاشي يوحنا ملك الحبشة لما بلغه خبر تعدي الدراويش على بلاده سار

بجيش عظيم الى القلابات للانتقام فلما وصلها قسم جيشه الى فرقتين وهجم على المدينة من جهتين فاستولى على جهة منها وأخذ يقتل بأهلها ويجمع الغنائم أما القسم الآخر فكان يهاجم الحصون وفي خلالها أصيب ملك الحبشة برصاصة فقتل (٩ مارس ١٨٨٩) فدارت الدائرة على الاحباش وتقهقروا وعسكروا على مسافة نصف يوم من القلابات ولكن الدراويش تبعوهم وباغتوهم هناك فهربوا وتركوا امتاعهم للدراويش فغنموه ووجدوا من جملة الغنائم تاج النجاشي يوحنا وهو مصنوع من الفضة محلى بالذهب وسيفه وكتابا مرسلا اليه من ملكة الانكليز والمعاهدة التي كان عقدها معه الاميرال هيوت ومازون بك فحملوا كل ذلك غنيمة الى أم درمان وقد ذكر الكونت استانولى في تقريره تفاصيل هذه الواقعة فقال انها حدثت في المتمة في ١٠ مارس ١٨٨٩ بين الدراويش والاحباش وقد سقط النجاشي يوحنا فيها جريحا بجرح خطر وهو يتقدم عسكره لاغتصاب القلعة التي شيدها الدراويش هناك وقال انه قد خيم يومئذ ضباب كثيف مكن الدراويش من قتل كثير من الحبشان أما النجاشي فقد نقل الى معسكره ثم مات في اليوم الثاني وان الدراويش في ليلة ١٢ الشهر المذكور حملوا على مضارب الحبشان فقتلوا كل من فيها ولم يبقوا على أحد وان الملك منليك ملك شوا لما بلغه هذا الخبر تقدم بقسم من جنوده فاحتل احدى مدائن الحبشة ثم انضم اليه خلق كثير حتى بلغ عدد جنوده ١٣٠٠٠٠ مقاتل وعند ذلك نادى بنفسه ملكا وزحف بجيشه الى احدى مدائن الحبشة المقدسة ليتوج فيها ثم أرسل كتابا الى ملك ايطاليا يخبره فيه بموت النجاشي وبكل ما جرى وبانه عازم على ارسال بعثة اليه الى رومة لتقديم عبارات المودة بالنيابة عنه هذا أما التعايشي فقد نجح في قمع الثورات الداخلية والايقاع بالثائرين في كل مكان وفي ١٩ ابريل سنة ١٨٨٧ تخلص حسين بك الهنساوى احد الضباط المصريين وكان في اسر الدراويش وحضر الى سواكن عن طريق الحبشة ولما كان أميرا على الالاى الخامس وحكمدارا لخط النار في حصار الخرطوم اتهم بأنه قصر في الدفاع أوله يد في سقوط الخرطوم فشكلت نظارة الحربية بمصر مجلسا عسكريا لمحاكمته فظهرت براءته مما نسب اليه وبذلك رتبوا له معاشا

واقعة سرس وحوادث سواكن — بلغ شرمساند باشا قومندان الحدود (٢٧ ابريل سنة ١٨٨٧) بأن قوة من الدراويش وصلت الى سرس يقودها أمير يدعى نور الكنزى فسار اليها بفرقة مؤلفة من خمسمائة مقاتل فهزم نور المذكور وقتل في الواقعة وبعد ذلك عاد شرمساند باشا الى مصر وتعين مكانه هولدسمث باشا (٢٣ مايو ١٨٨٧) وفي شهر أغسطس من هذه السنة قتل المهديون صالح بك شيخ قبيلة الكبابيش في جهات آبار الحس وفي شهر اكتوبر حصلت بعض وقائع صغيرة بين فرقة مصرية كان يقودها ودهوس باشا وبين المهديين بالقرب من عبكة وفي ١٦ ابريل سنة ١٨٨٨ عين ودهوس باشا محافظا لمديرية الحدود وقومندانا للجيوش فيها

أما من خصوص سواكن فانه لما كان كتشنر باشا محافظا وقائدا لعساكرها تجمع الدراويش تحت قيادة عثمان دقنه في جهات هندوب وقصدوا مهاجمة سواكن فسار اليهم بفرقة مصرية وناوشهم القتال (١٧ يناير سنة ١٨٨٨) ولقي منهم مقاومة عنيفة وأصيب بجرح بالغ اضطره للعودة الى مصر للمعالجة ولذلك عادت الفرقة المذكورة ولم تنل من خصمها ما تبتغي

ولما

ولما خيف من بطش عثمان دقنه بسواكن ولما شرع المصريون فى اقامة الحصون حول سواكن وفى أثناء ذلك حصل قتال بين المهديين والمصريين قتل فيه الكولونيل تاب (W. R. Tapp) قومندان الاورطة الثالثة المصرية (٤ مارس) وبعض العساكر ولما شفى الجنرال كتشنر باشا من جراحه عاد لمركزه فى سواكن (١٤ مارس) وكانت المداولة فى خلالها حاصلة بين الوكالة البرطانية والجنرال دورمر (J. C. Dormer) قائد جيش الاحتلال والجنرال السير غرنفل باشا سردار الجيش المصرى بخصوص اخلاء سواكن لاشتداد أمر المهديين الذين شرعوا فى حصارها وبعد مداولات اقروا بلزوم حفظها وتعيين الكولونيل هولد سميث باشا قومندانا ومحافظا لجهاتها (١٣ سبتمبر ١٨٨٨) بدلا عن الجنرال كتشنر باشا الذى دعى الى مصر وعين ادجوتانت جنرال للجيش المصرى بدلا عن بار باشا المستعفى وكان المهديون قد تحصنوا بالخنادق المنيعة حول سواكن تحت امرة عثمان دقنه ولما خرج بعض الفرسان المصريين لاجراء الاكتشافات اطلق عليهم المهديون وعلى سواكن المدافع والبنادق بشدة حتى اضطروا للعودة بعد ان قتل بعضهم فطلب هولد سميث باشا النجدة من مصر ولما كان الجيش المصرى يومئذ لا يتجاوز عدده ٩٤٠٩ جنود طلب السردار من الحكومة زيادة عدده فوافقت على ابلاغه ١٢٠٩٥ مقاتلا وبذلك تيسر له امداد سواكن بثلاث أورط سافرت اليها من أسوان عن طريق القصير وأرسل الانجليز اليها أيضا فرقة من جنودهم (ديسمبر ١٨٨٨) ولما وصل السردار الجنرال غرنفل باشا الى سواكن بعث بالكشافين تحت قيادة الجنرال كتشنر باشا لاستطلاع أحوال عثمان دقنه وجيشه ثم قاد الجنرال غرنفيل الجيش بنفسه وهاجم الدراويش الذين كانوا متحصنين على مسافة قريبة من الطابية المسماة بالجيرة فأخرجهم منها بعد أن دافعوا دفاع الاسود وتعرف هذه الواقعة بواقعة الجيرة (٢٠ ديسمبر) وكان يساعد العساكر المصرية والانجليزية فى هذه الواقعة عدة بواخر انجليزية من أسطول البحر المتوسط كانت راسية فى داخل المينا وبلغت خسارة المهديين ٥٠٠ قتيل ولم يفقد من الجيش الانكليزى والمصرى سوى ستة أنفار وبلغت جرحاهما ٤٢ جريحا ثم زادت الحامية الحصون حول سواكن خوفا عليها ثم عاد الجنرال غرنفل مع الجيش الانكليزى (٤ ينايرسنة ١٨٨٩) بعد اجراء الاكتشافات الحربية على السواحل أما الجنرال كتشنر باشا فانه بعد ان أتم بناء الطوابى المسماة منصور وهاشين وطماى عاد أيضا (٢٥ يناير ١٨٨٩) ثم حضر الى سواكن مشايخ قبائل الهلايب وهم من البدو المحالفين للحكومة المصرية وطلبوا من هولد سميث باشا المساعدة ضد الثوار فأعطاهم سلاحا ثم استدعيت المهديين حول سواكن وضد من والى مصر من القبائل فانضم عربان الهدندوة والفوا عصبة ضد من خرج على الحكومة من البدو وأظهر مشايخهم فى سواكن رغبتهم فى ذلك وحصلت بينهم وبين الثوار عدة مقاتلات كانت الحرب فيها سجالا ثم سافر عثمان دقنه (٧ اكتوبر سنة ١٨٨٩) من طوكر الى أم درمان وأناب عنه أميرا يدعى أبو جريجر فكان سفر دقنه فرصة مناسبة لمصر حيث قاد هولد سميث باشا العساكر المصرية وهجم على الدراويش فى طوكر فأجلاهم عنها واحتلتها العساكر المصرية وبينما كانت تلك الحوادث تجرى فى جهات سواكن ظهر ولد النجومى فى الحدود بجلفا

Digitized by Google

حوادث ولد النجومي وواقعة طوشكي — اعلم أن التعايشي لما انتصر في كثير من حروبه مع المصريين والانجليز تاقت نفسه الى فتح القطر المصري ووثلاه الغرور الى حد انه أرسل ثلاثة مكاتيب مع رسل له أحدها لمولانا السلطان والثاني للملكة الانكليز والثالث لخديو مصر يدعوهم جميعا الى التسليم والاذعان لسلطانه ولما استشار بعض رجاله (أوائل ١٨٨٩) بخصوص التجريد على مصر وصفوها له ووصفوا له القاهرة وقصورها وغياضها وأموالها فتاقت نفسه الى فتحها واختار لهذا الفتح عبد الرحمن ولد النجومي لشهرته بالمهارة والاقدام ثم جهزه بجيش جله من الجعليين والدناقلة ممن جاوروا حدود مصر وجعلت دنقلة مركزا لحركة هذا الجيش وجعل يونس ولد الدغيم أميرا على دنقلة ثم بعث كتابا آخر الى مصر فيه الانذار والوعيد وبعث برأس النجاشي يوحنا الى يونس أمير دنقلة على أن يرسلها الى وادي حلفا تهديدا للمصريين وأمر ولد النجومي بالزحف على مصر فخرج من دنقلة ومعه ٨٠٠٠ مقاتل وفي ٢٢ يونيو من سنة ١٨٨٩ وصل الى سرس فانضم اليه الامير عبد الحليم بجموعه ومازال يتقدم نحو الشمال حتى تلاقى مع الجيوش المصرية المعسكرة على الحدود وكان يقودها ودهوس باشا وحدثت بين الجيشين مقاتلة صغيرة ببلدة ارجين وهي على ثلاثة أميال الى الشمال من حلفا (٢٠ يوليو ١٨٨٩) كان الفوز فيها للمصريين ولما تم للسردار نقل الجيش الى الحدود سافر مع أركان حربه وسافرت أيضا بعض فرق جيش الاحتلال الى أسوان وكان ولد النجومي لايزال يتقدم مع جموعه وكتب اليه السردار يدعوه الى التسليم فأجابه بالرفض وقسم السردار الجيش الى قسمين جعل معظمه يسير على البر الغربي للنيل والآخر على البر الشرقي وكان ولد النجومي يسير بجيشه على البر الغربي وتناوش الطرفان مرارا ثم وصل السردار الى طوشكي وهي قرية صغيرة على البر الشرقي بين كروسكو وحلفا على بضعة أميال من هيكل أبي سمبل شمالا وفي صباح ٣ أغسطس سنة ١٨٨٩ بعث طلائعه للاكتشاف ولم تكد هذه الطلائع تشرف على معسكر الدراويش حتى رأوهم هاجمين كالجراد فتقدم السردار بالجيش وكان قد علم بما عليه جموع ولد النجومي من الجوع والعطش فانتشب القتال بينه وبينهم ولم تمض ساعات حتى انهزم الدراويش بعد ان قتل منهم نحو ١٢٠٠ وأسر منهم نحو ٤٠٠٠ بينهم كثير من النساء والاولاد وغنم المصريون أعلامهم وسيوفهم ورماحهم وأشياء كثيرة من ذخائرهم وكان بين قتلاهم ولد النجومي نفسه وعدة من أمرائهم وهرب عثمان الازرق وعلي ولد سعد وحسن النجومي ومبرغني سوار الذهب وغيرهم من الامراء ولم يفقد الجيش المصري سوى ٢٥ قتيلا وكانت جرحاه ١٤٠ جريحا وأرسل السردار بتاريخ ٤ اغسطس سنة ٨٩ يصف هذا القتال من أوله الى آخره وصفا مطولا وقد أوردناه هنا لتمام الفائدة قال بناء على نتيجة الاستكشاف الذي عمل يوم ٢ الجاري بمعرفة البكباشي بيتش أمرت جميع العساكر الراكبة تحت قيادة الاميرالاي كتشنر باشا بعمل الاستكشاف يخرجون لاجله من توشكي في صباح يوم ٧ الجاري وتوجهت بنفسي معهم مصحوبا بأركان حربي وكان الغرض من ذلك اظهار قوة امام العدو وقطع المواصلة بينه وبين كشافيه والوقوف على أخباره ومعرفة ماذا كان معسكر النجومي باقيا في المكان الذي كان فيه فلما صرنا على مقربة من الدراويش ضبطنا بعض الهجانة فعلمنا منهم بأن النجومي قام في ذلك الوقت قاصدا جهة الشمال وحقيقة بعد برهة وجدنا العدو في حالة السير فلما أحس بنا

تقدمت رجاله المتسلحة بالبنادق الى الامام وأطلقت النار على السوارى فأمرت اللوا كتشنر باشا بنصب السوارى خلف تل صغير واقع على مسافة نصف ميل من شمال معسكر العدو وترتيب خط نار من الهجانة وهم وقوف على أقدامهم ثم استولينا على نقطة ثانية مع الامل فى جذب العدو لجهة الشمال ولكننا تركناها بعد ذلك وتبوأنا نقطة أخرى خلفها على مسافة تسعمائة يردة من جهة الشمال ولما تبالغ من تقدم العدو بقوة أرسلت الى توشكى طالبا حضور الفرقة الاولى من البيادة المؤلفة من الاورط السودانية التاسعة والعاشرة والثالثة عشرة ومدفعين من الطوبجية السوارى وقد استمر اطلاق النار من السوارى والهجانة وهم على أقدامهم على شرذمة الدراويش وكان الدراويش يقومون بالتدريج وفى الساعة ثمانية ونصف صباحا برزت رجال العدو المتسلحة بالحراب فى قوة كبرى مصطفين فى الجهة الشمالية من المعسكر رافعين عددا كثيرا من الرايات فاحتشدوا خلف شرذمة جبتهم ثم تقدموا بسرعة فالتزمنا بالانسحاب الى الوراء وحل العدو سريعا فى نقطتنا التى تركناها فتبوأنا نقطة أخرى تحت تل واقع على بعد ميلين تقريبا من الجهة القبلية الغربية من توشكى وكان العدو مستمرا على التقدم علينا بثبات ولكن فى الساعة التاسعة وصل مدفعان من الطوبجية السوارى فأوقفت نيرانهما تقدم العدو وحولت بالتدريج خط سيره الى الشمال الغربى فمرت قوته جميعها من امامنا على مسافة نحو ألفى يردة فى جمع كثيف ولم تزل الطوبجية تلقى عليه نيرانها بتأثير كلى وقد لاحظنا وقتها انه فى ظل تقدم العدو كان جم غفير من توابع معسكره وجماله سائرين الى المرتفعات من الجهة الشمالية الغربية واختفوا سريعا عن العيان فاتضح لنا من ذلك أن العدو لابد أنه كان قاصدا جهة ابريم لضرب خيامه فيها فأرسلت عند ذلك الى توشكى طالبا حضور الفرقة الثانية من البيادة المؤلفة من الاورط المصرية الاولى والثانية والاورطة الحادية عشرة السودانية وبطارية الميدان الثانية المصرية ثم ضمت الفرقتان مقدما مع بعضهما وجعلنا تحت قيادة اللواء ودهاوس باشا ومعه بصفة قومندان للفرقة الاولى القائمقام هنتر بك وبعدها دعوت اللوا كتشنر باشا الى تحريك العساكر الراكبة خيول مقدمة العدو للتمكن من فرقته الكبرى اذ أنها كانت مستمرة على السير الى جهة الشمال تحت حماية المتسلحين منهم بالبنادق والحراب فاستولى الباشا المشار اليه بالتعاقب على عدة نقط فى الجهة اليمنى القصوى وبهذه الكيفية نجح فى اتمام المقصود لانه أوقف سير الدراويش وكانت فرقتنا الاولى البيادة قد وصلت فى الساعة العاشرة صباحا وحلت فى النقطة التى كانت موجودة من قبلها فيها الطوبجية والسوارى والهجانة كل منهما على أقدامه وهذه النقطة عبارة عن سلسلة كثبات صخرية على بضعة أربعة أميال من النيل وشاغلة مسطح ألفى يردة من الشمال الى الجنوب تقريبا وفى أثناء ذلك كان رجال الدراويش المتسلحون بالبنادق والحراب قد استولوا على بعض تلال صخرية مقابل نقطتنا وعلى مسافة ثمانمائة يردة منا فتقووا فيها سريعا وغرسوا عددا وافرا من الرايات فوق هذه التلال التى كانت قد امتلأت رؤسها بالذين بيدهم بنادق ومن خلفهم احتشد الذين معهم الحراب فرغبة فى اعدام جناحهم الايسر بالنار أمرت اللواء ودهاوس باشا بملاحظة البيادة الى اليمين فما كاد رجالهم المتسلحون بالحراب يرون امتداد خط الاورطة التاسعة حتى أسرعوا تحت قيادة الامير عبد الحليم بالهجوم فى قوة عظيمة على الجهة اليمنى من نقطتنا فتقدموا بعزم واحد لكنهم قتلوا عن بكرة أبيهم بنار هذه الاورطة

تحت قومندانية القائمقام لويد بك فبعد أن أمددت الاورطة نفسها ببلوك من الاورطة الثانية برئاسة البكباشى مرتير أمرتها بالتقدم وتبوء جهة اليسار من نقطة الدراويش وأمرت فى الوقت نفسه جميع العساكر بالتقدم فى آن واحد مع توجه الجناحين الى الامام بالسرعة للاحاطة بباقى النقطة فهجمت الاورطة العاشرة السودانية بثبات واقدام تحت قيادة القائمقام رون بك على القلب وطردت الدراويش من المرتفعات ثم جلتهم خسائر جسيمة عندئذ تقهقرهم من الجهة التى كانوا محتمين فيها وراء التل واستولت على عدد كبير من راياتهم أمامين الاعداء الافق وهو عبارة عن تل منفرد فهجمت عليه الاورطة الثالثة عشرة السودانية وقد كان عدد الدراويش حاملى البنادق فى تلك الجهة بالغا حدا كبيرا حتى انه ترتب على ذلك انخذال وقتى فقتل من الاورطة اثنا عشر عسكريا وجرح منها ثلاثة وخمسون فى بضع دقائق فأظهر القائمقام كستر عند ذلك من الشجاعة ما استنهض به همة رجاله فالتحموا جسما بجسم مع الدراويش فهجم عليهم هؤلاء مرارا عديدة بشجاعة القنوط وقد رأينا عندها أن معظم قوة الدراويش كانت منحصرة فى هذه الجهة والقلب وقد قتل منهما أكثر أعاظم أمراء البقارة والجعليين ووجدنا جثث عبد الحليم وواد جبارة ومكين وغيرهم من الامراء اتضحت لنا حقيقتهم فيما بعد ووجدنا أيضا وراء الجهة اليسرى من قلب نقطة الدراويش ما ينيف عن الالف منهم موتى وقد كان للطوبجية المجتمعة تحت قيادة الميرالاى رندل بك والاورطة الاولى المصرية تحت امرة القائمقام كولس بك والاورطة الثانية المصرية تحت قيادة القائمقام شكسبير بك والاورطة الحادية عشرة السودانية وقائدها القائمقام ليد مكدونلد بك اليد الطولى فى المساعدة ماديا على الاستيلاء على يسار نقطة الدراويش وذلك بالقاء النيران المتتابعة على مجموع الدراويش التى كانت محشودة من الخلف وقد انضمت الاورطة الاولى الى الاورطة الثالثة عشرة عند الهجوم الانتهائى على هذه النقطة واستوليا فيها على أكثر من ثلاثين راية وقد كانت القيادة فى هذا الهجوم بيد القائمقام هنتر بك لجرح بحربة فى ذراعه عند التحام الفريقين يدا بيد على قمة التل وفى أثناء هذه الحركات كانت السوارى والهجانة على يمين خطنا تمنعان بنيرانهما الدراويش من ارسال المدد الى نقطتهم الاولى أو الهجوم علينا من الجنب فلما رأى الدراويش اننا استولينا على نقطتهم الاولى تقهقروا فى وسط سهل واسع قاصدين أرضا مرتفعة فى جهة الغرب وفى تلك اللحظة كان ولد النجومى راكبا حصانا ومجتهدا فى جمع شمل دراويشه المتفرقين فأشار الىّ عليه أحد الاسرى فأمرت الاى الهوسار تحت قيادة القائمقام أرون والسوارى المصرية تحت قومندانية البكباشى بيتش بالهجوم عليهم وفى الوقت نفسه تقدمت الهجانة بسرعة وأطلقت النار من قريب على جناح العدو المتقهقر وكذلك تقدمت الطوبجية السوارى الى اليسار بحركة دورت نعل حتى وقفت على مسافة مرمى الصلقوم وقد كان الدراويش وصلوا عندها بعدد قليل من الرايات الى الحلول فى نقطة أخرى قريبة غربى نقطتهم الاولى وعلى مسافة ألفى يردة منها أى فى الجهة التى كنا شاهدنا توابع المعسكر وجمال الحملة ذاهبين اليها فى ابتداء الواقعة وفى الظهر أمرت الاورطة الحادية عشرة السودانية وعلى جناحيها الاورطتين المصريتين الاولى والثانية وأسندتهما بالاورطتين السودانيتين العاشرة والثالثة عشرة وبالاورطة التاسعة السودانية على الجناح الايمن من الخلف بالتقدم على هذه النقطة وقد كانت الطوبجية قد ضربتها من قبل بمدافعها فتقدمت الاورطة

الحادية

الحادية عشرة بغاية الثبات على نقرة طبولها وصوت بوريها ولكن الدراويش قد كانوا تكبدوا كثيرا فلذا لم يبدوا الا معارضة خفيفة ثم فروا هاربين من التلال سريعا فتبعتهم السوارى المصرية بعدما دارت من جهة الجناح اليمين ولما وصلنا الى المرتفعات وجدنا معسكر العدو فى الجهة المنخفضة تحتها فاستولينا عليه وعلى كمية وافرة من الطبول والحراب والسيوف والسروج والزرد ولوازم الخيام وغيرها بعد قتل عدد من الدراويش داخل المعسكر وخارجه

أما بقية قوة الدراويش ففرت منهقرة الى جهة الجنوب الغربى واقتفت السوارى آثارها فى الصحراء على مسافة أكثر من ثمانية أميال من توشكى فلما رأيت الخيل قد هلكت تعبا والعساكر وهنت عزائمهم مما اعتراهم من المشقة والعطش فى هذا اليوم الطويل الذى أبلوا فيه بلاء حسنا أمرت بايقافهم عن اقتفاء أثر العدو فى الساعة الثانية بعد الظهر وقبل ذلك رأت السوارى جملا محملا يحاول الهروب وحوله نحو العشرين درويشا فظن فى الاول انه حامل مدفع فأطلقت السوارى المصرية النار عليه وبان من كان حوله فولوا من نار السوارى الذين على أقدامهم فتقدم هؤلاء اليه ولما صاروا على مقربة منه ببضعة يردات نهض الدراويش بسرعة وهجموا عليهم بعزم أكيد فجرحوا بعضا منهم ولكنهم قتلوا عن آخرهم فاتضح بعدها ان الجمل كان حاملا جثة ولد النجومى وكان ملازموه أى حراسه جمعوا شملهم حوله وماتوا عليه فجئ بجثته الى المعسكر وتحقق هنالك معرفته بواسطة كثير من قبيلته نفسها ثم عادت جميع العساكر الى المعسكر فوصلوا اليه فى الساعة الخامسة بعد الظهر وقد قتل فى هذه الواقعة من الدراويش ألف وخمسمائة رجل وأسر منهم أكثر من ثلاثة آلاف وفيهم عدة من الجرحى اهـ

ولما بلغ خبر هذا النصر الخديو المرحوم محمد توفيق باشا بعث الى السردار بهنئه بكتاب رقيق العبارة أوردنا صورته بأسفل الصحيفة (١) وبعد انتهاء القتال جمع السردار قتلى هذه الواقعة من

---

(١) سعادتلو باشا حضرتلرى

ليس يخاف على ذواتكم يا سردارنا العزيز ان أهم ما يفتخر به الانسان فى هذا العالم هو الذكر الجميل على العمل الجليل وأى ذكر أجمل مما يكتسب فى ارخاء عنان البسالة وتثبيت قدم الشجاعة ومد يد الغيرة وحفظ حد الحمية لقمع العدو ودفع الصائل وردع الباغى وصدع المتعدى وقد علمت من اطلاعى على تقرير سعادتكم حرفيا مع ما عرضه على مسامعنا شفاها حضرة البكباشى على بك حيدر المعهود اليه رفع ذلك التقرير الينا أنكم ولله الحمد نلتم كل هذه المزايا المحترمة فى واقعة توشكى التى جرت فى يوم ٣ أغسطس سنة ٨٩ حتى فزتم بنشر لواء النصر وبسط بسط الفوز كما علمت أيضا انه اشترك فى نيل تلك المزايا مع سعادتكم جميع من كانوا مشمولين بقيادتكم العامة من الامراء العسكرية والضباط الكرام والعظام ومن دونهم الى النفر من الافراد العسكرية المصرية والانكليزية (وأخص منهم الاى الهوسار الذى مد يد المساعدة لعساكرنا المصرية هذه المرة أيضا كما حصل منه فى سواكن) وغيرهم من القسم الطبى والملكى من الذين زين التقرير بتضمن بيان أسمائهم فضلا عما سيتزين بها من صحف التاريخ وحيث أوجب كل ذلك عندى من السرور والانشراح والشكر والارتياح أضعاف ما حصل عند تلقى الاخبار التلغرافية التى وردت قبل مع القيام بواجب الحمد والشكر لله عز وجل على منة السلامة ومنحة النصر فقد حررت هذا لسعادتكم بصورة خصوصية تقديرا لما بذلتموه من جزيل الصداقة وجميل الهمة وانى أثنى الثناء الجميل على رجال الجيش الكرام الذين قاموا بواجباتهم المحترمة حق القيام مؤملا من همتكم تبليغ ذلك اليهم على الانفراد وانى أسأل الله تعالى أن يوفقنا دواما لما فيه خير البلاد آمين ؟

١٩ الحجة سنة ١٣٠٦ و ٢١ أغسطس سنة ١٨٨٩

Digitized by Google

الجنود المصرية وجعلهم فى مدفن واحد وبنوا فوقه بناء نقشوا عليه باللغة العربية حفرا ما يأتى (شيد هذا الاثر تذكارا لواقعة طوشكى التى حصلت فى ٦ الحجة سنة ١٣٠٦ هـ وانهزم فيها جيش العصاة السودانى المرسل تحت امرة عبد الرحمن ولد النجومى فتشتتوا بعد قتل أميرهم وكان الجيش المصرى تحت قيادة سعادة السردار غرنفل باشا وفى هذا القبر دفنت جثث العساكر المصرية الذين استشهدوا وهم بالميدان) وقد كانت هذه الهزيمة الضربة القاضية على نفوذ التعايشى وتعاظمه بالسودان وقال سلاتين باشا فى كتابه ما ملخصه ان نجم سعد التعايشى مال الى الافول بعد واقعة طوشكى مع الجيش المصرى التى قتل فيها ولد النجومى والامراء الذين معه وألوف من رجالهم وأسر من بقى منهم وبلغ عدد القتلى والجرحى والاسرى ستة عشر ألفا ثم واقعة طوكر التى دحر فيها عثمان دقنه وغير ذلك وبظهر أن غرض الخليفة الآن الاحتفاظ بما عنده وأخذ يوصى أمراءه أن يلزموا خطة الدفاع اه ولما ساح الخديو محمد توفيق باشا سياحته الثانية (١٨٩٠ م) فى الوجه القبلى لتفقد أحوال الأهالى أرخى لسياحته العنان حتى بلغ وادى حلفا فعاين معاقلها وحصونها واستعرض الحامية فسر من نظامها وركب الى مكان واقعة طوشكى ووقف أمام قبر شهدائها يتأمل ما أظهر جنده من البسالة فى ذلك القتال الذى كان فاتحة النجاح للمصريين وخذلان الدراويش حيث عرفوا به قدرهم ووقفوا عند حدهم

وفاة الخديو محمد توفيق باشا — كان رحمه الله قبل أن يمرض صحيح الجسم قوى البنية ظاهر الصحة ثم اعترته ليلة الجمعة أول جمادى الثانية من سنة ١٣٠٩ (يناير ١٨٩٢) قشعريرة فاشتكى الى طبيبه الخصوصيين وهما عيسى حمدى باشا وسالم سالم باشا فأشارا عليه بملازمة مخدعه وقررا بانه أصيب بمرض كان انتشر اذ ذاك ويعرف بالنزلة الوافدة وبعد أربعة أيام أحس بالعافية وأراد النهوض من المخدع الى خارج قصره بحلوان فأشيرعليه بالبقاء حتى يحصل على كمال الشفاء وقدر الله أن فاجأته النكسة فى اليوم الخامس ولما اشتد عليه المرض قلق أطباؤه واستدعوا آخرين وهم الدكتور كومانوس بك والدكتور هيس فلما عاينا حالة المرض أثبتا على الفور انه مصاب بذات الرئة على اثر تلك النزلة الشديدة وان حالته خطرة فاجتمع الوزراء والامراء والاعيان بالقصر كل ذلك وأغلب الناس لايدرون بما هو حاصل لاميرهم ثم اشتد به المرض كثيرا ولم تمض الساعة السابعة وربع من مساء يوم الخميس السابع من شهر يناير حتى فارق هذه الدنيا وفى الحال انتشر نعى الفقيد فى أطراف القطر وسارت به الاسلاك البرقية الى عواصم البلاد الاجنبية وأعلن رئيس النظار دولتنا العلية العثمانية بذلك واستدعى ولى عهد الخديوية المصرية جناب الخديو الحالى عباس حلمى باشا الثانى أطال الله بقاءه وكان فى ويانا عاصمة النمسا يتلقى دروسه هو وشقيقه الامير محمد على باشا وورد منه على رئيس النظار خبر بالبرق يبدى فيه شديد حزنه وانه على أهبة الحضور ويوصيه بالسهر على أعمال الحكومة (١) وورد أيضا رسالة برقية من الصدر الاعظم جواد باشا

(١) ان خبر وفاة سيدى و والدى قد أدهشنى وهذا مصاب عظيم ليس بالنسبة لعائلتى وحدها بل بالنسبة لجميع القطر المصرى أيضا فنى وصلتنى منكم الاخبار الاكيدة من الوابور الذى سيصير تحضيره فى ترستة أسافر بلا تأخير وأخبركم بالتلغراف من ساعة السفر وانى على يقين من أن الاعمال تستمر سائرة الى حين وصولى على أحسن محور بهمة عطوفتكم ورفقائكم ٨ ينايرسنة ١٨٩٢ محبكم عباس

بما

بما صدرت به الارادة السلطانية فى ذلك (١) ثم تقاطر الناس من كل الجهات ونكست الاعلام فى الثكنات ودور القناصل وباقى الاماكن ايذانا بالحداد وقررت هيئة الحكومة طريقة احتفال تشييع الجنازة وان تكون من سراى عابدين بعد أن تنقل من حلوان ثم سارت الجنازة فى منتصف الساعة التاسعة عربية من يوم الجمعة باحتفال عظيم جدا سارت فيه الجيوش وأرباب الرتب وذووا الصفات من ملكيين وعسكريين وأجانب بهيئاتهم وصفاتهم الرسمية وكانت عساكر جيش الاحتلال مصطفة على الجانبين من السراى الى آخر طريق العفيفى وبعد ان صلى على الفقيد فى مقام سيدنا الحسين رضى الله عنه سار وابه حتى واروه التراب رحمه الله رحمة واسعة وكان رحمه الله رحيما بالامة رؤفا كريما على الرعية جيد السجايا كريم الطوية سليم النية محبا لذوى قرابته وعائلته كثير الحلم تقياشيد وأصلح كثيرا من المساجد والجوامع وعنى بتشييد أركان الدين وتقويم دعائمه وأصلح حالة الاوقاف الخيرية والاهلية وغير ذلك مما امتازت من أعماله وهو الذى جعل مصلحة الاوقاف ادارة خاصة تابعة له رأسا خوفا عليها من عبث يصيبها وفصل ناظرها من هيئة النظار وأصدر بذلك أمرا عاليا لرئيس النظار بتاريخ ٢٥ ربيع أول سنة ١٣٠١ (٢٣ يناير ١٨٨٤) وقد أوردناه بأسفل الصحيفة (٢)

(خديونا الحالى عباس حلمى الثانى أدام الله أيامه ١٨٩٢)

هو الامير الجليل والشهم النبيل عباس حلمى باشا الثانى ابن المرحوم محمد توفيق باشا ابن المرحوم اسمعيل باشا ابن المرحوم ابراهيم باشا ابن المرحوم محمد على باشا الاكبر كانت ولادته فى غرة جمادى الآخرة من سنة ١٢٩٢ (١٤ يوليه ١٨٧٤) وبعد ان أتم دروسه الابتدائية بمدرسة الامراء الخصوصية بمصر أرسله المرحوم والده الى بلاد السويسرة أولا فتلقى العلوم بها ولما أكملها أرسله الى مدينة ويانه حيث ألحقه بمدرسة شهيرة هناك لا يلتحق بها الا أولاد الامراء والكبراء وبينما كان مشتغلا بدروسه بما عهد فيه من النشاط والاهتمام أتاه هذا النبأ المحزن فسارع بعودته هو وحاشيته الى مصر هذا ولما وصل تلغراف الصدر الاعظم جواد باشا الى صاحب العطوفة مصطفى فهمى باشا رئيس النظار بعث تلغرافا باشا ناظر الخارجية الى كافة وكلاء الدول السياسيين فى القطر المصرى يعلمهم بتبوئ الخديو افندينا المعظم عباس حلمى باشا الاريكة الخديوية (السبت ٩ يناير

(١) بناء على ما عرضنا على الحضرة الشاهانية بأنه من مقتضى فرمان وراثة الخديوية المصرية قد آلت الخديوية الى حضرة عباس حلمى باشا أكبر أولاد المرحوم محمد توفيق باشا وانه لحين ما يصل حضرته الى مصر تكون ادارة الحكومة بواسطة عطوفتكم بالاشتراك مع هيئة النظار قد صدرت الارادة بذلك فلزم الاخطار ٨ يناير سنة ١٨٩٢
جواد صدر أعظم

(٢) حيث ان الاوقاف لا يخلو الحال فيها عن ثلاثة أنواع أى اما أن تكون خيرية محضة أو مشتركة بين خيرية وأهلية أو أهلية فقط وبانقراض مستحقيها تصير خيرية وفى كل هذه الانواع من الوجوب أن تكون الاحكام المختصة بمسائلها بالتطبيق للاحكام الشرعية وبتلك المناسبة لا تعلق لها ولا ارتباط بالنظارات الموكول لها رؤية الامور الادارية والسياسية كما تقدم حصول المداولة مع دولتكم بهذا الشأن وبناء عليه اقتضت ارادتنا أن تجعل ادارتها قائمة بذاتها غير تابعة لنظارة من النظارات والاوامر التى تصدر عن شؤنها بصيرتها فيها مباشرة من لدنا والذى نعينه لادارتها يسمى مدير عموم الاوقاف وقد عينا محمد زكى باشا لهذه الوظيفة وصدر له أمر ثان فى تاريخه بما يلزم اجراؤه وأصدرنا هذا لدولتكم العلومية
محمد توفيق

١٨٩٢) بكتاب متحد المعنى والعبارة أوردنا صورته بأسفل الصحيفة (١) وكان سمو العزيز بارح مينا تريستة على باخرة نمسوية وصلت الى مينا الاسكندرية فى صباح يوم السبت الموافق ١٦ من شهر يناير وبصحبته شقيقه الامير محمد على وكان فى انتظاره بالمينا أربع بوارج حربية انجليزية حيته باطلاق المدافع ونشر الرايات وحيته كذلك جميع السفن الراسية فى الميناء وكان بانتظاره على رصيف المينا أمراء العائلة الخديوية والوزراء وكبار الموظفين والبارون هيدلر قنصل جنرال النمسا والمجر لتقديم مراسيم التحية ونزل بسراى رأس التين فاستقبل العلماء وضباط الجيش المصرى وجيش الاحتلال والقناصل ورجال المحاكم الاهلية والمختلطة وموظفى الحكومة والاعيان ثم ركب مركبته قاصدا محطة السكة الحديدية وكان الازدحام شديدا على جانبى الطريق ولما تحرك القطار الذى يقله اطلقت المدافع ايذانا بمبارحته الثغر وبعد ظهر ذلك اليوم وصل بالسلامة الى محطة القاهرة فقوبل بدوى المدافع وتهليل الجموع ثم سار الى سراى عابدين حيث كان فى ميدانها عساكر جيش الاحتلال والجيش المصرى ومع كل قائده الاكبر ولما وصل حفظه الله استقبله البرنسات والنظار وعارف بك سكرتير دولة الغازى مختار باشا بالنيابة عنه لانحراف اعترى صحة دولته يومئذ وكبار رجال المعية السنية وأظهر الجناب العالى مزيد ارتياحه ثم وقف لاستماع تلاوة التلغراف الشاهانى الصادر من الصدر الاعظم وبانتهاء تلاوته أطلق من قلعة الجبل مائة مدفع ومدفع وعزفت الموسيقى بالسلام السلطانى وكان الجناب الخديوى فى أثناء ذلك واقفا واضعا يده على الرأس تعظيما للحضرة السلطانية وفعل كذلك جميع الحاضرين ثم عزفت الموسيقى بالسلام الخديوى وصاحت الجنود ثلاثا بكلمة (أفندمز چوق يشا) ثم قدم تغران باشا ناظر الخارجية الى جنابه العالى حضرات القناصل وبعد هاذهب البهو الكبير المعد للتشريفات فاستقبل العلماء وكان النظار قدموا استعفاءهم كالعادة فلم يقبل وأقرهم على ما كانوا عليه وبعث الى صاحب العطوفة مصطفى فهمى باشا ارادة سنية بذلك (٢) وفى يوم الاثنين ١٨ يناير استقبل الجناب العالى وكلاء الدول السياسيين بسراى عابدين وألقى الموسيو أورتيجادى مورييجون قنصل جنرال دولة اسبانيا أقدم القناصل خطابا جمع فيه بين التهانى والتعزية وأجابه الجناب العالى شاكرا ممتنا ثرا

وكان جنابه العالى لما تبوأ الاريكة الخديوية بعث بالتلغراف الى دار الخلافة يعرض شكره وامتنانه ودعواته الخيرية على مقام الخلافة العظمى فورد له الرد من ثريا باشا باشكاتب المابين الهمايونى (١٦ يناير ١٨٩٢) بحظوظية وارتياح الحضرة العلية السلطانية وفى ٢٥

(١) (بعد الديباجة) انه ليحزننى أن أنبئكم بوفاة مولاى الفخيم الجناب الخديوى محمد توفيق باشا توفى رحمه الله فى مساء اليوم السابع من هذا الشهر بقصر الحلوانى اثر مرض لم يمهله سوى بضعة أيام وانى عواصلتكم بهذا المصاب الذى حل بالبلاد أتشرف بابلاغ جنابكم ان الجناب الخديوى المعظم عباس حلمى باشا قد تبوأ الاريكة الخديوية خلفا للساكن الجنان والده الفخيم طبقا للفرمانات الشاهانية العالية وتفضل سيدى بقبول فائق احترامى ٩ يناير سنة ١٨٩٢

ناظر الخارجية تغران

(٢) قد اقتضت ارادتنا بقاء هيئة النظار الحالية التى تحت رئاستكم كما كانت وغاية أملنا ادارة شؤن حكومتنا بصورة مرضية باتحادكم واتفاقكم مع رفقائكم وأصدرنا لكم أمرنا هذا ليكون معلوما لكم ولتبليغه لحضرات النظار فنسأل الله المستعان أن يوفقنا جميعا لذلك آمين ١٧ يناير ١٨٩٢ غرة ١ عباس حلمى

يناير

Digitized by Google

بناء استقالة كل من صاحبي السعادة محمد ثابت باشا رئيس الديوان الخديوي وعلى ذى الفقار باشا سر تشريفاتي من منصبيهما فقبل منهما ورتبت أقلام المعية السنية ترتيبا جديدا فجعل دومارتينو باشا مديرا للاقلام الافرنجية ومحمود باشا فهمي مديرا للاقلام العربية ومحمود شكري باشا مديرا للاقلام التركية ومحمد على بك رئيسا للقلم العربي والعرضحالات وعين الدكتور كومانوس بك طبيبا خاصا للحضرة الخديوية بدلا عن الدكتور سالم باشا وأقيل الدكتور عيسى حمدى باشا من وظيفة طبيب العائلة الخديوية وتعين أحمد مظلوم باشا محافظ عموم القنال رئيسا للتشريفات ثم أقسم الجيش يمين الطاعة للحضرة الخديوية كما هي العادة المتبعة فى الممالك المتمدنة من انه عند جلوس الملوك والامراء على كرسي الممالك يقسم لهم الجيش يمين الطاعة وأصدرت نظارة الحربية الاوامر لجميع الجنود لاداء ذلك اليمين فاجتمعت فى صباح يوم الثلاثاء الموافق ٢٦ ينايرسنة ١٨٩٢ فى ساحة عابدين ثم وقف يوسف شهدى باشا ناظر الحربية اذ ذاك والسيرغرنفيل باشا سردار الجيش المصرى الى جانب حضرة صاحب الفضيلة الشيخ الانبابي شيخ الجامع الازهر الذى عهد اليه سمو الخديو بتحليف هذه اليمين ووقف ضباط أركان حرب الجيش حولهم على شكل دائرة وأصدر السردار الاوامر فترجل قواد الاسلحة عن خيولهم وتقدم كل ضابط امام فرقته وقرأ الجميع اليمين بصوت جهورى وقد أوردنا صورة اليمين المذكور بأسفل الصحيفة لتمام الفائدة (١) ثم استعرض السردار الجيش امام الخديو وتم هذا الاحتفال الذى لم يسبق له مثيل فى عهد الخديوية المصرية

ولما كان ميعاد انعقاد الجمعية العمومية قد أقبل افتتحه جنابه العالى بخطاب لطيف ومما جاء فيه انه أمر بالغاء ضريبة العونة وتنقيص ثمن الملح والغاء رخصنامة الحرف والصنائع (٢)

---

(١) أقسم بالله ثلاثا وبكتبه المنزلة عموما وبرسله وذمتي وشرفي واعتقادى أن أكون صادقا مخلصا أمينا للحضرة الفخيمة الخديوية ولحكومتها السنية مطيعا لجميع أوامرها الكريمة ولجميع الاوامر الحقة التى تصدر الى من رؤسائي منفذا لارادة جنابه العالى فى البر والبحر داخل وخارج القطر معاديا لمن يعاديه ومسالما لمن يسالمه مدافعا عن حقوق بلاده محافظا على سلاحي لا أتركه من يدى لعدو قط حتى أذوق الممات والله على ما نقول وكيل اه

أما صيغة اليمين الذى قاله الضباط الانجليز فهو

أعلن بشرفي باعتبارى ضابطا وذا شرف انني فى خدمتي للحضرة الفخيمة الخديوية أثناء مدة شروط خدمتي الحالية والتالية ان تجددت أقوم بأداء الواجبات التى تعهدا لى باخلاص وأمانة وأخلص وأبذل غاية جهدى فى بث وتقوية شعائر الولاء والاحترام لذات جنابه العلية ولعائلته الكريمة فيمن يكون تحت امرتى اه

(٢) يسرنا أن نعلمكم فى اجتماعنا اليوم أول مرة بحضرا نكم انا مع غيابنا عن ديارنا كنا نتتبع أعمالكم بكمال الاهتمام مفتخرين بوجود هيئة فى القطر تنوب عن أهاليه فكونوا على يقين من أن غاية مقصدنا المحافظة على امتيازات هذه الهيئة المرتبط بها نجاح مصر ومستقبلها ولذلك كان من أول ما اهتممنا به أن جمعنا كم حولنا ويسرنا أن نبشركم فى أول اجتماعكم هذا بأننا بالاتفاق مع هيئة حكومتنا قد قررنا الغاء الضريبة التى كنتم وافقتم على ربطها فى جلستكم المنعقدة فى ١٥ ديسمبرسنة ١٨٨٩ فى نظير الغاء العونة بتمامها وتنقيص ثمن الملح والغاء عوائد رخصنامات الصنائع واننا نقوم الآن بواجب مقدس فنذكر ان الفضل فى اتخاذ هذه الاجراآت التى من شأنها تخفيف الاحمال عن عاتق الاهالى انما هو راجع لحسن ادارة وحكمة ساكن الجنان والدنا الابر ولما بذله من الحزم والثبات فى تدبير ايرادات الخزينة واستعمالها بغاية الاقتصاد واننا سنسير على المنهج الذى اختطه لنا وأملنا انه بعون الله ومعاضدة الامة تكون مساعينا وأعمالنا عائدة على مصر بالسعادة والرفاهية ان شاء الله اه من صحيفة ٤٤ مجموعة أوامر سنة ١٨٩٢

Digitized by Google

وعقب استلام سموه زمام الاحكام أهدت الدول العظيمة لجنابه أسمى وساماتها كما منحه مولانا السلطان نشان لياقت وكثرت الروايات بخصوص الفرمان الشاهانى وتأخر صدوره

الفرمان الشاهانى — قدم من دار الخلافة العظمى فى أول ابريل من سنة ١٨٩٢ المشير أحمد أيوب باشا يحمل فرمان التولية فقوبل بما يليق به من الاكرام وكانت سفارة انكلترة فى الاستانة لاحظت أن الفقرة المختصة بحدود الديار المصرية ليست كالموجودة فى الفرمان الصادر الى ساكن الجنان محمد توفيق باشا فلما عرضت ذلك على نظارة خارجية لندرة كتبت الى السير بارنج (لورد كرومر) بمخابرة الحكومة الخديوية واستلفات انظارها الى هذا الامر وحصل من ذلك عدة مخابرات بين الحكومة وبين السير بارنج والمركيز دورفرسو (de Reverseaux) والموسيو كويانذر (Koyander) وكيلى فرنسا والروسيا بمصر من جهة وبين الحكومة الخديوية والباب العالى من جهة أخرى فنشأ عن ذلك تأخير تلاوة الفرمان أياما ولما انتهت الازمة ورد تلغراف من الصدر الاعظم (٨ ابريل ١٨٩٢) بابقاء ادارة شبه جزيرة طور سينا فى عهدة الخديوية المصرية على الطريقة التى كانت بها من عهد الخديو الاسبق اسمعيل باشا وضم جهات ضبا والويلج والعقبة والوجه إلى ولاية الحجاز ثم احتفل بقراءة الفرمان فى ميدان سراى عابدين بحضور أمراء العائلة الخديوية والوزراء والفضلاء والعلماء وقضاة المحاكم المختلطة والاهلية وكبار رجال المصالح وأعيان الوطنيين والاجانب وبعد تلاوته وتلاوة تلغراف الصدر الاعظم انفض الجمع وهدأت الافكار وقد أوردنا صورة الفرمان والتلغراف بأسفل الصحيفة تليطا للمهمامن شاء (١)

(١) الدستور الاكرم والمعظم الخديوى الافخم المحترم نظام العالم وناظم مناظم الامم مدبر أمور الجمهور بالفكر الثاقب متمم مهام الانام بالرأى الصائب ممهد بنيان الدولة والاقبال مشيد أركان السعادة والاجلال مرتب مراتب الخلافة الكبرى مكمل ناموس السلطنة العظمى المحفوف بصنوف عواطف الملك الاعلى خديو مصر الحائز لرتبة الصدارة الجليلة فعلا الحامل لنيشاننا الهمايونى المرصع المجيدى ولنيشاننا العثمانى من الطبقة الاولى وزيرى سمير المعالى عباس حلمى باشا أدام الله اجلاله وضاعف بالتأييد اقتداره واقباله

انه لدى وصول توقيعنا الهمايونى الرفيع يكون معلوما لكم انه بناء على ماقضى به الله من انتقال جنتمكان محمد توفيق باشا خديو مصر الى رحمته تعالى واعلاما بجليل التفاتنا ونظرا الى حسن خدامتكم وصداقتكم واستقامتكم لذاتنا الشاهانية ولمنافع دولتنا العلية ولما هو معلوم لدينا من أن لكم وقوفا ومعلومات تامة بخصوص الاحوال المصرية وانكم كفء لاصلاحها وجهنا الى عهدتكم الخديوية المصرية المحدودة بالحدود القديمة المبينة فى الفرمان الشاهانى الصادر بتاريخ ٢ ربيع الثانى سنة ١٢٥٧ هجرية والمبينة أيضا فى الخريطة الملحقة بالفرمان المذكور مع الاراضى المنضمة اليها طبقا للفرمان الشاهانى الصادر بتاريخ ١٥ ذى الحجة سنة ١٢٨١ هجرية وذلك بمقتضى ارادتنا الشاهانية الصادرة فى ٧ جمادى الثانية سنة ١٣٠٩ ولانكم أكبر أولاد جنتمكان الخديو المتوفى وجهت الى عهدتكم الخديوية المصرية توفيقا للقاعدة المقررة بالفرمان الشاهانى الصادر فى ١٢ محرم سنة ١٢٨٣ القاضى بأن الخديوية المصرية تؤول الى أكبر الاولاد البكر فالبكر * ولما كان تزايد عمران الخديوية المصرية وسعادتها وتأمين راحة أهاليها ورفاهيتهم هى من المواد المهمة لدينا ومن أجل مرغوبنا ومطلوبنا كنا وجهنا فرماننا شاهانيا لتحقيق هذه الغاية الحميدة بتاريخ ١٩ شعبان سنة ١٢٩٦ الى جنتمكان والدكم بتوليته الخديوية المصرية وضمناه المواد الآتية ان جميع ايرادات الخديوية المصرية يكون تحصيلها واستيفاؤها باسمنا الشاهانى وحيث ان أهالى مصر أيضا من تبعة دولتنا العلية وان الخديوية المصرية ملزومة بادارة أمور المملكة الملكية والمالية والعدلية بشرط أن لا يقع فى حقهم أدنى ظلم ولا تعد فى وقت من الاوقات فخديو مصر يكون مأذونا بوضع النظامات اللازمة الداخلية المتعلقة بهم وتأسيسها بصورة عادلة وأيضا يكون خديو مصر مأذونا بعقد وتجديد المشارطات مع مأمورى

ثم استقال السردار غرنفل باشا من وظيفته فصدر الامر العالى بتعيين اللواء كتشنر باشا مكانه برتبة فريق ثم أصدر أمرا آخر بادخال بعض التغييرات بالمعية السنية فسميت الاقلام باسماء دواوين فصار يقال ديوان عربى خديوى وديوان تركى خديوى وهلم جرا

ولما رأى مولانا السلطان حسن الخطة التى انتهجها سمو العباس أهدى اليه النيشان العالى العثمانى المرصع واحتفل بتسليمه على يد الغازى أحمد مختار باشا المندوب العالى السلطانى بمصر (٢٥ صفر سنة ١٣١٠) ولما كان من صفات العباس الحنو على الامة والميل لكل من يعلى شأنها وشاهد منه ذلك الناس عموما من أقواله وأفعاله قامت طائفة من محبى الخير منهم وشكلوا جمعية سميت بالجمعية الخيرية الاسلامية تحت رعاية سموه لاعانة فقراء المسلمين وتعليم أبنائهم وجعلت لها قانونا واعترفت الحكومة بها رسميا (١٥ جا سنة ١٣١٠) وايراد هذه الجمعية

الدول الاجنبية بخصوص الجمرك والتجارة وكافة أمور المملكة الداخلية لاجل ترقى الحرف والصنائع والتجارة واتساعها ولاجل تسوية المعاملات السائرة التى بين الحكومة والاجانب والاهالى والاجانب مع أمور ضابطة الاجانب بشرط عدم وقوع خلل بمعاهدات دولتنا العلية البوليتيقيه وفى حقوق متبوعية مصر لها ولكن قبل اعلان الخديوية المشارطات التى تعقد مع الاجانب بهذه الصورة يصير تقديمها الى بابنا العالى وأيضا يكون حائزا التصرفات الكاملة فى أمور المالية لكنه لا يكون مأذونا بعقد استقراض بوجه من الوجوه وانما يكون مأذونا بعقد استقراض بالاتفاق مع المداينين الحاضرين أو وكلائهم الذين يتعينون رسميا وهذا الاستقراض يكون منحصرا فى تسوية أحوال المالية الحاضرة ومخصوصا بها وحيث ان الامتيازات التى أعطيت لمصر هى جزء من حقوق دولتنا العلية الطبيعية التى خصت بها الخديوية وأودعت لديها فلا يجوز لاى سبب أو وسيلة ترك هذه الامتيازات جميعها أو بعضها أو ترك قطعة أرض من الاراضى المصرية للغير مطلقا ويلزم تأدية مبلغ ٧٥٠ ألف ليرة عثمانية الذى هو الويركو المقرر دفعه فى كل سنة فى أوانه وكذلك جميع النقود التى تضرب فى مصر تكون باسمنا الشاهانى ولا يجوز جمع عساكر زيادة من ثمانية عشر ألفا لان هذا القدر كاف لحفظ أمنية بلاد مصر الداخلية فى وقت الصلح ولكن حيث ان قوة مصر البرية والبحرية مرتبة كذلك من أجل دولتنا يجوز أن يزاد مقدار العساكر بالصورة التى تستدعى فيها حالة دولتنا العلية محاربة وتكون رايات العساكر البرية والبحرية والعلامات المميزة لرتب ضباطهم كرايات عساكرنا الشاهانية ونياشينهم ويباح لخديو مصر أن يعطى الضباط البرية والبحرية الى غاية رتبة أميرالاى والملكية الى الرتبة الثانية ولا يرخص لخديو مصر أن ينشئ سفنا مدرعة الا بعد الاذن وحصول رخصة صريحة قطعية اليه من دولتنا العلية ومن اللزوم المحافظة على كل الشروط السالفة الذكر واجتناب وقوع حركة تخالفها وحيث صدرت ارادتنا السنية باجراء المواد السابق ذكرها قد أصدرنا أمرنا هذا الجليل القدر الموشح أعلاه بخطنا الهمايونى وأرسلناه تحريرا فى ٢٧ شعبان المعظم سنة ١٣٠٩ من هجرة صاحب العزة والشرف

(٢) ترجمة تلغراف دولتلو فخامتلو الصدر الاعظم جواد باشا الى الجناب الخديو المعظم بتاريخ ٨ ابريل سنة ١٨٩٢

معلوم لدى جنابكم العالى ان جلالة مولانا السلطان الاعظم كان قد صرح للحكومة المصرية بوضع عدد كاف من الجند بجهات الوجه والمويلح وضبا والعقبة الواقعة على شواطئ الحجاز وكذلك فى بعض جهات من شبه جزيرة طورسينا بسبب مرور المحمل المصرى ولما كان جميع هذه الجهات غير مبينة أصلا فى خريطة سنة ١٢٥٧ المسلمة الى جنتمكان محمد على باشا المبينة بها الحدود المصرية لذلك أعيد الوجه أخيرا الى ولاية الحجاز بمقتضى ارادة شاهانية كما أعيد اليها ضبا والمويلح وضمت العقبة كذلك الآن الى الولاية المذكورة أما من جهة شبه جزيرة طورسينا فهى باقية على حالتها وتكون ادارتها بمعرفة الخديوية المصرية بالكيفية التى كانت مدارة بها فى عهد جدكم اسمعيل باشا ووالدكم محمد توفيق باشا

Digitized by Google

من مبالغ يدفعها أعضاؤها سنويا ومما يتبرع به أهل الخير من المسلمين وأسست الجمعية المذكورة أربع مدارس ابتدائية بمصر والاسكندرية وطنطا وأسيوط وفي أواسط السنة المذكورة قام خلاف بين أعضاء مجلس ادارة طائفة الاقباط الاورثوذكسيين وبين بطريركهم بخصوص مسئلة الاوقاف الكنائسية والاصلاحات التي يريد الحزب الناجم منهم ادخالها على قانون مجلسهم الكنائسي اما أعضاء المجلس المذكور فاعترضوا على ذلك بأن البطريرك وتوقفوا عن ادخال أي تغيير كان لان ذلك يقلل من نفوذ البطريرك والقسوس ويحط من سيطرتهم فقام لذلك الهرج والمرج بين أفراد الطائفة وأغلق الرهبان أبواب البطركخانة وخاف عقلاؤهم من حدوث انقسام في الطائفة فقرروا أخيرا بمجلسهم لزوم ابعاد البطريرك وهو الانبا كيرلس الى دير براموس وابعاد مطران الاسكندرية انبا يؤنس لدير بولا بالجبل الشرقي ولما طلب أعضاء مجلسهم ذلك من الحكومة صدر به الامر العالي بناء على قرار مجلس النظار منعا للاضطراب (٣١ أغسطس ١٨٩٢).

وزارة رياض باشا — انه بعد عودة مصطفى فهمي باشا رئيس النظار من أوروبا أصيب بالنزلة الوافدة فلزم البيت أياما لايخرج ولما طال تغيبه عن حضور المجلس بعث اليه الجناب العالي محمود شكري باشا وكافه بتقديم الاستعفاء فاستعفى واستدعى الجناب الخديوحسين فخري باشا وكافه بتشكيل وزارة جديدة فاعترض لورد كرومر باسم الحكومة البرطانية على ذلك ثم حصل الاتفاق على تكليف رياض باشا بتشكيل الوزارة فتم الامر وصدر الامر العالي بها (١٩ يناير ١٨٩٣) وكان رئيسها ناظر الداخلية ومحمد زكي باشا للاشغال العمومية والمعارف ويوسف شهدي باشا للحربية والبحرية وتغران باشا للخارجية وبطرس غالي باشا للمالية وأحمد مظلوم باشا للحقانية ثم استقال زكي باشا من نظارة المعارف فأحيلت على رئيس النظار وزادت الحكومة الانجليزية عدد جيشها المحتل فبعد ان كان ثلاثة آلاف جندي فقط أصبح أكثر من خمسة آلاف على اثر ما حصل من الخلاف الشديد حين تكليف فخري باشا بتشكيل الوزارة كما تقدم

وكان عامة الاقباط متهيجة ساخطين لابعاد بطريركهم فالتمس بعضهم من رياض باشا اعادته من منفاه ولما نظر في مسئلتهم بنفسه استصدر أمرا عاليا باعادة البطريرك والمطران من منفاهما وكان لعودتهما احتفال قام به الاقباط في تلك الاثناء وحضر الى ثغر الاسكندرية (١٥ فبراير) اسطول البحر المتوسط الفرنساوي وكان يتألف من ٢٢ بارجة بين مدرعة ونسافة تحت قيادة الكونتر أميرال دورلودوت دي ايسار (Dorlodot des Essarts) وزار قائده مع عدة من أركان حربه الخديو المعظم في القاهرة فاحتفل سموه بلقياهم أعظم احتفال ولما كان مولانا العباس سافر الى الاسكندرية في ذلك الوقت كعادته السنوية في كل صيف ناب دولة رياض باشا رئيس مجلس النظار عن الحضرة الفخيمة الخديوية باحتفال كسوة الكعبة المشرفة يوم السبت ٢٠ شوال سنة ١٣١٠ (٦ مايو ١٨٩٣) بحضور الوزراء والامراء والاعيان والاهالي على جاري العادة كما ناب أيضا عن سمو الخديوي باحتفال قدوم المحمل في يوم الاثنين ٨ ربيع الاول سنة ١٣١١ (١٨ سبتمبر من السنة المذكورة) وكان أمير الحج في السنة المذكورة محمد نصحي باشا

زيارة الجناب العالي لدار الخلافة — لما كانت الفرمانات السلطانية تقضي بأن كل من

يتولى الاريكة المصرية يذهب الى دار السعادة لاستلام الفرمان بنفسه وتأدية واجب الاحترام للذات الشاهانية وكانت الحوادث المصرية لم تمكن سموه من الذهاب الى الاستانة لتأدية هذا الواجب عزم على السفر الى دار الخلافة وأصدر أمرا لرياض باشا بأن ينوب عنه مدة تغيبه ثم سافر على باخرة الفيوم (٦ يوليو) وسار معه الغازى أحمد مختار باشا وكان تعين لاستقبال سموه كل من رائف باشا وشاكر باشا وابراهيم باشا من الياوران العظام وقابله مولانا السلطان استقبال الاب لابنه عاطف عن جليل الرعاية وفائق الالتفات وعلق بيده على صدره نشان الامتياز العالى وكان كثير من أعيان المصريين وذواتهم قصدوا الاستانة فى خلال ذلك فنالوا فى ظل السياحة الخديوية من التعطفات الشاهانية ما ألهج ألسنتهم بالشكر وكانت الامة المصرية عن بكرة أبيها فرحة مستبشرة من تمكين الارتباط بين الخديوية المصرية والمتبوع الاعظم وبعد ان مكث سمو الخديو الى السابع والعشرين من شهر يوليو استأذن بالسفر فأذن له وأقام له الاسكندرانيون الزينات والاحتفالات الشائقة الفائقة ولا تسل عن قدمها من كل انحاء القطر لمشاهدة الطلعة الخديوية

ولما تقدمت ميزانية سنة ٩٤ (دسمبر سنة ١٨٩٣) لمجلس شورى القوانين كما هو مقتضى قانونه وبحث فيها كعادته انتقد أعضاء المجلس على أكثر أوجه الميزانية المذكورة وقدموا تقريرهم بذلك الى الحكومة وذكروا فى مقدمته ما آلت اليه حالة الاهالى من الضنك كما يستدل من رهنهم لاكثر من مليون فدان من الاراضى خلاف الرهن الغير المسجل بالمحاكم وان ديونهم تبلغ نحو عشرين مليونا من الليرات وطلبوا فى تقريرهم توسيع نطاق المعارف وعمل بعض الاقتصادات من مصروفات بعض المصالح للوصول الى تخفيف الضرائب عن الاهلين وغير ذلك فتوجه رياض باشا بنفسه الى مجلس شورى القوانين ومعه بقية النظار والمستشار المالى (١٤ جمادى الثانية من سنة ١٣١١) ولما انعقد المجلس قام الوزير رياض باشا وتلا جواب الحكومة على تقرير المجلس ولما كان هذا الجواب بمثابة تاريخ تعلم منه حالة الحكومة سابقا وما وصلت اليه وما أدخل عليها من الاصلاحات رأينا من الضرورى ذكره بأسفل الصحيفة بأكمله (١) افادة للقراء ولانه من أنفس الآثار التى يعتنى بها المؤرخ

(١) بعد ان اطلعنا على التقرير الذى قدمتموه وفحصنا ما أبديتموه فيه من الآراء والملحوظات فيما يتعلق بميزانية الحكومة عن سنة ١٨٩٤ قد حضرنا أمامكم فى هذا اليوم (أولا) لنبدى لحضراتكم تشكرا ثناء على الهمة التى بذلتموها فى فحص وتدقيق هذه الميزانية (ثانيا) لاعلامكم بآرائه وقرينه الحكومة فى هذا الشأن علمنا من مطلع التقرير أن أساس ما بنى عليه من الاحكام هى الارقام المستدل بها على مقدار الديون والرهونات التى على الاهالى المسجلة فى سجلات المحاكم أما ان الاهالى عليها ديون ولها عقارات مرهونة فهذا لا ينكره أحد كما أنه لا ينكر أيضا ان هذا ولا شك من طبيعة التعامل العام السارى بين الامم انما الذى نتردد فيه ونقول انه لا بد أن يكون هناك بعض المبالغة أو نوع عدم تحقيق تخلله بعض السهو والغلط فى الاستكشاف والتقدير فهو جسامة هذه الارقام والقول بأن ديون ومرهونات الاهالى التى كانت فى سنة ١٨٧٦ الى سنة ١٨٨١ اثنا عشر مليون جنيه قد بلغت فى هذه المدة الاخيرة الى مبلغ فوق العشرين مليونا ففى الحقيقة ان جسامة هذه الارقام مما يدهش الاذهان وجديرة بالتحقيق والتحرى حتى تظهر صحتها للعيان وهذا ما نوت الحكومة أن تفعله مع غاية التدقيق وأما ما بنى على هذه الارقام من الاستدلال على أن حالة الاهالى قد ساءت وأن الضيق والفقر أخذ فى الازدياد فتلك ما اندهلنا وترددنا من جسامة أرقام الديون والرهونات الواردة بالتقرير حقيقة قد يصعب علينا أن نقول ان حالة الاهالى قد وصلت الى هذه الدرجة من الفقر والضنك ولا نريد بذلك أيضا أن نقول ان حالة الاهالى على العموم قد بلغت الى حد الكمال من الثروة والرفاهية

Digitized by Google

وفى ٢٥ سبتمبر تعين محمد ماهر باشا محافظ الاسكندرية وكيلا للنظارة الحربية والبحرية بدلا من المرحوم على غالب باشا وخلفه فى المحافظة المذكورة ابراهيم نجيب باشا وحدث مابين وكيل

مع الاعتراف حقيقة بهبوط أسعار المحصولات هبوطا فاحشا من ذى قبل أى من منذ عشر سنوات مضت انما لانتردد فى أن نقول كما سبق لى اعلانه وايضاحه امام هذا المجلس من منذ أربع سنوات مضت تقريبا ان حالة الاهالى والحكومة معا آخذة فى التحسين والتقدم من يوم الى يوم من ابتداء تولية المغفور له توفيق باشا وانه من ذلك الوقت أى من ابتداء سنة ١٨٧٩ ميلادية ابتدأت أن تتغير الاحوال وتتبدل الشؤن ودخلت الحكومة والقطر معا فى عصر جديد بل فى دور سعيد وتيسر للحكومة من وقتها أن تلم شعثها وتنظم أحوالها وتسعى فى كل مايؤل الى رفاهية الاهالى وسعادتهم بحيث أصبحت حكومتنا تجارى الحكومات المنتظمة العادلة حتى انه بلغ ماتوفر لها من المال النقدى وكان محفوظا فى البنك العثمانى فى ذلك الوقت مايقارب المليون ونصف من الجنيهات وبهذه الكيفية كان من باكورة أعمالها أنها أجرت جملة تنظيمات واصلاحات سواء كان فى ادارة الحكومة أو فى شؤن الاهالى وخفضت وأزالت من عاتق الاهالى كثيرا من الاحمال التى كانت تئن تحت ثقلها الامة المصرية ولوانه تخلل هذا السير بعض الوقوف وذلك بسبب المصيبة العظمى والطامة الكبرى التى داهمتنا وهى الثورة العسكرية المشؤمة وتداعت بواسطة الجيش الانكليزى كما تعلمون انما انكبدنا من الغرامات والتعويضات ومالتفرع عن ذلك من أنواع الخسائر بالطبع وضع ماليتنا فى حالة اضطراب وضيق ومع ذلك استمرت الحكومة على سيرها هذا فى طريق التقدم والاصلاح ولو كان حثيثا وماوصلنا الى سنة ١٨٨٩ ميلاديه الاوكانت أحوالنا المالية قد نمت وترقت والحكومة ابتدأت فى مباشرة مشروعاتها التى كانت توقفت منها برهة من الزمن ولاشك أنه من هذا الوقت والحكومة الخديوية لم تأل جهدا فى أن تتخذ كل الوسائط لتخفيف أثقال الاهالى حسب امكانها واستطاعتها وخلاصة القول أنه من بعد كل ماحصل من الغاء جملة عوائد ورسومات وغيرها يبلغ مقدارها مايقارب المليون جنيه ورفعها عن عاتق الاهالى وماحصل من التنظيمات والاصلاحات والترقيات فى عموم القطر والحكومة وماحصل من تخفيف ضرائب وجه قبلى بما يبلغ مقداره تقريبا أربعمائة وسبعة وعشرين ألف جنيه ومن بعد الغاء العونة وتحسين حالة الرى بما صرف عليه من المبالغ الباهظة وصرف مايقارب المليون جنيه على الاعمال الهندسية التى عملت فى الوجه القبلى لاجل منع حدوث شراقى عند تقصير فيضان النيل وشوهد فى السنة الماضية نتائجها المفيدة ولا حاجة بنا الان نشرح ونفصل لكم ذلك كله لانكم تعرفونه حق المعرفة فبعد ذلك كله أظنكم تعذروننا اذا لم نقل ان حالة أهالينا لم تحسن من ذى قبل وليست سائرة فى طريق التقدم والسعادة من يوم الى يوم وانها والحالة هذه فى تلك الدرجة من الضيق والفقر وعلى كل حال فان الحكومة الخديوية ليس لها شغل شاغل ولا أمر يهمها الا التفكر والتدبر فيما يؤل منه الفائدة والمنفعة للاهالى واصلاح وتحسين أحوالهم ولاتتأخر فى أى وقت من الاوقات من اجراء وتنفيذ ذلك كلما استطاعت وهذا هو الامر الوحيد الذى وضعته نصب عينيها وانا أيها السادة الكرام على تمام الوثوق بأن كلا منكم يعلم ويعتقد صدق نية واخلاص طوية هيئة الحكومة الخديوية وبالاخص ماهى عليه من الشعائر الوطنية وانها لاتنصرف عن هذا الاثر العظيم ولاتتحول عن الاستمرار فى هذا السير المستقيم حتى تبلغ أهالينا حظها الاوفر من الاصلاحات والترقيات المؤدية للراحة والرفاهية وازدياد الثروة العمومية وانما نقر ونعترف أنه لايكون ذلك الا باتحادنا معكم ومساعدتكم ومعاضدتكم لنا أنتم وعموم الاهالى لانه لاشك فى أن يد الله مع الجماعة وكما قال سبحانه وتعالى (وتعاونوا على البر والتقوى) ومع كل ذلك فحاشا وكلا أن نجعل لنفسنا أدنى تأثير بل المؤثر فى الحقيقة هو الحق جل وعلا فالواجب علينا هو اخلاص النية واتباع خطة الاعتدال والاستقامة فى كافة أمورنا والمولى عز وجل هو الموفق للصواب

(باب المستخدمين) قد تأملنا وتروينا طويلا فى هذه المسئلة ويصعب علينا حقيقة أن لانشارككم فى بعض ماأبديتموه من الملاحظات سديدا الا أنه لايعزب عنكم ظروف الاحوال وأحكام الزمان التى وضعتنا فى هذه الحالة الغير الطبيعية ومع ذلك لابد أن نعترف بانه يوجد بعض ضمن هؤلاء الموظفين الكبار الاجنبيين الذين يتناولون مرتبات عالية قد أتوا بخدامات مهمة عادت على البلاد بالمنفعة وأما من جهة الحكومة فلاشك كما هو ليس بخاف عليكم أنها لم تأل جهدا فى وقت من الاوقات فى السعى والاهتمام فى توظيف الاهلين بدل الاجانب كلما استطاعت وكلما ساعدها الوقت والحال وكلما تأكد لها أن الوطنى يمكنه أن يقوم مقام الاجنبى ونتمنى أن لايمضى زمن طويل حتى يزداد عدد

الحربية

الحربية المذكور وسعادة السردار تباين فى مسئلة الادارة الحربية طال النزاع فيها وانتهت بتحكيم جناب وكيل دولة انكلترة السياسى فى القطر المصرى

المصريين فى الوظائف العالية وعلى أى حال فكل ناظر من النظار مسؤل عن كافة أمور نظارته ماليا واداريا فلا شك أنه يلزمه أن يراعى الملحوظات التى أبديتموها فيما اذا كان هنالك وظائف مكررة أو هنالك ماهيات زائدة عن الحد أو لا فائدة منها واجراء مايقتضى من ذلك كما أنهم مكلفون قبل كل شئ بأن لا يصرفوا فى نظاراتهم شيأ فى غير محله وبناء على ذلك لاشك أن كلا منهم يهتم ويجتهد فى تطبيق كل ما أبديتموه من الملاحظات فى هذا الباب انما يوجه التدريج وبصورة لايتأتى منها أدنى خلل لسير المصلحة العمومية والا فالكل متوافقون معنا على هذا الرأى

(المصاريف السرية والنثرية والعمومية والسائرة والغير منظورة مع مصاريف انتقال المأمورين) هذه المصاريف لابد لها علم بحضراتكم من مراجعتكم أبواب الميزانية العمومية أنها متفرقة فى كل النظارات ومخصصة لامور وأشياء مختلفة وهى على أنواع كثيرة يعسر من أول وهلة من غير بحث وتروفى دقائقها الاتيان بمحو أو اثبات فى شئ منها وعا أنه كما لا يخفى على حضراتكم أن كل ناظر مسؤل عن عمله وعما يصرفه من المصاريف فى نظارته وكل ذلك موكول لعهدته فلاشك انه لا يتأخر عن ابقاء أو اجراء مايجب من محو وازالة ما يجده من ذلك غير ضرورى وغير مفيد للمصلحة من بعد الفحص والتنقيب وما نقوله من هذا الباب نقوله فيما يتعلق بمصاريف انتقال المأمورين كما هو وارد بالتقارير

(التياترو) ان المبلغ الذى تريدون توفيره من مصاريف التياترو لا أظنه شيأ كثير الاهمية ولاشك انه بوجود هذا التياترو يحصل بعض حركة يتأتى منها بعض أخذ وعطاء فى الاشياء الصغيرة والامور الجزئية لا تخلو من المنفعة وانما ماقلتموه من لزوم مساعدة الحكومة لايجاد تياترو عربى فلا نتأخر عن موافقتكم عليه

(الاشغال العمومية) تعلمون حضراتكم ان الحكومة الخديوية لم تضن لغاية الآن بصرف كل مالزم لاصلاح حالة الرى فى القطر والحمد لله فقد قرن عملها هذا بالنجاح وما صرفته لم يضع هباء منثورا بل بواسطته قد ازدادت كمية الاطيان المزرعة وزيادات المحصولات بكيفية عوضت علينا بخس أثمان المحصولات فعلى هذا لا تظن أنه يوجد واحد منا غير ممتن مما أتت به مصلحة الرى من الاعمال والمنافع التى تشكر عليها واما ما أبديتموه من الملاحظات بشأن تنزيل خمسين ألف جنيه من المخصص لمصاريف المبانى بالمدن من ميزانية هذه المصلحة بدون أن يمس ماهو مقرر بها للاعمال الرى والحال أن أغلب محلات دواوين الحكومة بالمديريات والمراكز والمحاكم والاسبتاليات والمكاتب فى حالة سيئة لايتأتى تركها على ماهى عليه بل فى جهات كثيرة كثير من محلات المحاكم والمراكز والمكاتب وغيرها مأخوذ بالاجرة وكذلك يوجد أعمال من المبانى العمومية يترتب على اجرائها فوائد كثيرة فالنظر لهذه الاحوال التى تعد من الضروريات أظن ان حضراتكم توافقوننا على اجراء مثل هذه الاعمال التى هى من أكبر المنافع العمومية ومن ضروريات الحكومة وأما ماهو واجب من زيادة التدقيق والتروى فى أنه لا يعمل شئ من المبانى مالم تتحقق فائدته او التدقيق فى كيفية وصحة التكاليف أن لاتكون زيادة عما هو لازم والنظر أيضا فى مسئلة المقاولات فكل ذلك نشاركم الرأى فيه انما حيث ان كل ذلك من الامور الادارية فلا نتأخر أن نبحث فيها ونتخذ مايكون الاصلح للمصلحة العامة والاوفر بالنسبة للمصاريف

(نظارة الحربية) أظن انه لا حاجة بنا لبيان درجة أهمية الجيش ووجوده فى حالة منتظمة انما نظرا لكون الحالة التى عليها هذا الجيش للآن بالنسبة لحالة الحدود تعد تقريبا حالة سفرلا حالة حضر فيلزمنا حينئذ زيادة التروى والتدبر قبل أن نتخذ أى قرار كان فى كيفية مصاريفه ولهذا فى السنة القابلة ان شاء الله سنبحث ونتدقق فى تلك المصاريف وان وجد ان هنالك زيادة يمكن تنزيلها بدون اخلال بنظامه فلا نتأخر عن اجرائه •

(ادارة البوليس) لاتظنوا أيها السادة ان الحكومة أهملت البحث والنظر فى ميزانية هذه المصلحة بل قد فحصتها واشتغلت بها ولما هو معلوم عندها من أن عدد أنفار البوليس الموجود الآن ليس بقدر الكفاية بالنسبة لما هو محتاج اليه الامن فقد زادت عليه فى هذه السنة القابلة ٣٣٢ نفرا ويبلغ مقدار نفقاتهم ٣٧٢٤ جنيها وصار توفير مبلغ ١٢٢٥ جنيها من مربوط ميزانية سنة ١٨٩٣ الماضية من أصل هذه الزيادة انما الاولى لكم ان هذا كل ما كان يمكن أن نفعله نحو هذه الميزانية وهذه المصلحة الا أنه مالا يدرك كله لايترك كله وضرورة

زيارة الخديو المعظم بلاد الحدود ـ لمولانا الخديو عباس باشا شغف زائد بالسياحة والوقوف على الاحوال والاعمال بنفسه شأن الحريص على ملكه الراغب فى ترقى أحوال أمته ولذلك رغب فى السفر الى الحدود ونظر جيشه المدافع عنها بذاته ليطمئن خاطره واستصحب معه وكيل الحربية

الاحوال تقضى علينا بالتأنى والتروى قبل أن نأتى بشئ من الاعمال وبالاخص بالنسبة الى مثل هذه الادارة الموكول اليها المحافظة على الامن العام ولا بد أن يسهل علينا فى ظرف السنة القابلة أن نبحث بحثا مدققا فيما يمكن ادخاله فيها من الاقتصاد والتعديلات والاصلاحات بدون الاخلال بحسن سيرها •

(مصلحة عموم السجون) هذه المصلحة ولو أنها كلفت الحكومة مبالغ كثيرة الى الآن الا ان الحق يقال انها أتت بفوائد جمة وخدمت خدمة مهمة من تحسين أحوال السجون والمسجونين تشكر عليها حتى صارت بيوت السجون التى صار بناؤها واستعدادها مجددا تكاد تضاهى أمثالها فى أعظم البلاد المتمدنة وهذه المصلحة مشتغلة دائما بنوع خصوصى فى بناء وتجديد ما تدعو اليه الحالة من بيوت السجون وتنظيم أحوال ما هو موجود منها الآن وبالاخص اشتغالها بادخال أنواع الصنائع فى دائرة السجون لتشتغل بها المسجونون وهو ما ينتج عنه فوائد ومنافع عميمة سواء كان ماديا أو معنويا وهذه الفوائد لاشك لا تنال الا بواسطة وجود ادارة مخصوصة بالسجون وعلى ان المبلغ الذى تتكلفه هذه المصلحة من مركزها العمومى الذى أشرتم الى الغائه هو قليل فى جانب ما تأتيه هذه المصلحة مما ذكر من الخدامات المهمة بالنسبة لتحسين السجون وتخفيف ويلات المسجونين فلا إخالكم لا توافقون على هذا الرأى بعد ما علمتم فوائد هذه المصلحة

(مصلحة خفر السواحل) حقيقة لا ننكر ان هذه المصلحة فى غاية الاهمية من جهة منع التهريب الذى يترتب عليه حفظ ايرادات الكمارك وازديادها وهى قد دخلت فى نظام جديد فى زمن قريب وغاية الاعتناء من أن نشاركم فيما أبديتموه من جهة البحث والتدقيق فى كيفية مصاريف هذه المصلحة وتوظيف من أمكن من الضباط الاهليين الذين تحت الاستيداع وكل ذلك بدون خلل فى سير هذه المصلحة

(مصاريف جيش الاحتلال) اننا نشعر مثل كل مصرى بالاحساسات الطبيعية المنبعثة منها ورغباتكم وأمانيكم فى ازالة مصاريف جيش الاحتلال من الميزانية لكنكم تعرفون حضراتكم مثلنا ظروف الاحوال التى قضت علينا بها وعلى ان هذه المصاريف كانت سنة ١٨٨٥ ميلادية مائتى ألف جنيه وتنازلت بالتدريج حتى صارت من مدة مبلغ خمسة وثمانين ألف جنيه فهذا الاعتناء من الامل بأن هذه المصاريف تنقص تدريجا الى أن ينتهى أثرها بالمرة بواسطة انجاز دولة بريطانيا العظمى مواعيدها الاكيدة لنا بالاخلاء اغما أكبر واسطة وأقواها للوصول الى هذه الامنية هى التزامنا خطة الاعتدال والحكمة واجتنابنا كل ما فيه شائبة الغلو والتطرف فى أقوالنا وأفعالنا والمثابرة على العمل بجد ونشاط مع التعاون والتعاضد فيما بيننا لما فيه الاصلاح والتقدم وليس على الله بعسير أن يتمم مقاصدنا

(المطبعة الاميرية) لم يفت على الحكومة ما أبديتموه فى هذا الشأن وهذا الفكر حتى انها سبقتكم اليه وأصدرت منشورا مؤكدا لكافة المصالح بمنع طبع أى شئ كان من مطبوعاتها الا بهذه المطبعة الاميرية وتنفذ فعلا

(مجلس بلدية الاسكندرية) ان الفائدة من وجود مجالس بلدية بالمدن هى كبيرة جدا لانها تمكن الاهالى من الاشتغال بأمور مدينتهم واصلاحها وترشحهم للاهتمام بنظر مهامهم بأنفسهم وتجعل المساواة بين الافراد فى الضرائب والعوائد وعلى هذا المبدإ تأسس المجلس البلدى باسكندرية وحضرتكم تعلمون أن هذه المدينة هى والحالة هذه المركز الوحيد لتجارة عموم القطر ونقطة الاتصال المعول عليها فيما بيننا وبين الممالك الاوروباوية حتى بهذه الواسطة توسع نطاق التجارة والزراعة والصناعة اللاتى هى السبب الوحيد فى ازديادثروتنا ورفاهيتنا وبناء على ما لهذا المركز من الاهمية قد تقاطرت اليه الشعوب الاوروباوية من كل جانب وسكنته قديما وحديثا حتى صارت هذه المدينة مسكونة مأهولة بالوف منهم بل يوجد فيها منهم ألوف من العائلات قد استوطنتها من زمن بعيد واستولدت بها بطون متشعبة وصار لهم بها أملاك وعقارات جسيمة بحيث يمكن أن يطلق الآن على هذه العائلات انها مصرية محضة لولا محافظتها على جنسيتها الاصلية بحيث صار الناظر الى هذه المدينة لا يتردد من أول وهلة فى أن

وكان

وكان كلما حل بمكان تظاهر له السكان بأنواع التعلق بما دل على عظيم ميلهم اليه ولما وصل الى الحدود تفقد استحكامات أسوان وكروسكو وحلفا واستعرض حامياتها العسكرية وتطرق فى ذلك نظر المنتقد فأبدى عنها السعادة السردار من الملحوظات ما رآه سموه ولما كانت تلك الملاحظات مما لا يرضاه السردار قدم

بعدها فى عداد المدن الاوروباوية وفى الحقيقة صارت تتباهى على ثغور البحر المتوسط فكل هذا الاجتماع وهذا الاختلاط قد تسبب عنه لاشك اتحاد المنفعة التى هى أساس كل الاعمال ومدار الثروة والعمارية فالحق يقال انه لم يتأت من هذا الاجتماع والاختلاط اتحاد المنفعة بين الوطنى والاوروباوى فقط بل حدث عنه أيضا ترقيات مادية ومعنوية جمة كان من تأثيراتها اشتراك فى الافكار والحاسيات فيما يؤول منه الفائدة على المدينة وسكانها وكل ذلك حقيقة من شأنه أن يسرنا جميعا فبالنظر الى هذه الاحوال والمناسبات لا يمكننا الا شك ان نقيس هذه المدينة المهمة التى امتازت فى سائر أحوالها بسائر مدن القطر فاذا علم لكم ذلك نقول ان وجود مجلس بلدى باسكندرية صار من ضروريات مدينتها وأما ما ظهر لنا فيه الآن من بعض الخلل فلا يعاب وأمر مستدرك لانه كما لا يخفا كم أنه حديث النشأة وكل أمر فى مبدئه صعب وينبدر ان لا يطرأ عليه فى سيره بعض من الاشكالات وبناء على ما لهذا المجلس من الاهمية وبالنظر لما تأمله الحكومة والاهالى معا من الفوائد التى تعود على المدينة فالحكومة الخديوية صارفة كل مساعيها فى ازالة كل ما من شأنه ان يلقى العثرات فى طريق نجاحه حتى يأتى بالفائدة المقصودة وكذلك بناء على ما دلت عليه التجربة أن قانون الانتخاب الحالى يحتاج الى بعض التعديل لاجل توسيع نطاق حقوق الانتخاب عما هو عليه الآن وهذا الامر أيضا ستشتغل به الحكومة وتجرى ما تقتضيه الحال ويكون فيه امتنان العموم

(مصلحة الدومين) أى مصلحة الاملاك والاراضى الاميرية حقيقة كل منا يتمنى عدم وجود عجز فى ايرادات هذه المصلحة ولا ننكر أيضا ان ادارة هذه المصلحة الزراعية فى البلاد والقرى هى لاشك فى حالة انتظام واقتصاد وأنه لا يمكن أن يقال ان المصاريف الزراعية فى تفاتيشها أزيد مما يلزم لخدمة الزراعة كما هو جار عند سائر المزارعين بل حقيقة نقول انها فى حالة لا يتأتى اقتصاد شئ منها والا كان ذلك سببا لتأخير الزراعة وان الاراضى التى تزرعها وتخدمها على نمتها تحسنت واستصلحت ومقدار محصولاتها ازداد وأخذ فى الازدياد والاستصلاح من يوم الى يوم وكل الذوات المتولين هذه الادارة هم من نخبة الرجال الذين يوثق بهم ويعول عليهم ومعهود فيهم كل نشاط وكل هذا مما يعطينا الامل أنه لا يمضى زمن قليل حتى ان هذا العجز يمحى وحضراتكم تعلمون انه فى كل سنة يباع ويعطى لارباب المعاشات بطريق الاستبدال مقادير جسيمة من أطيان هذه المصلحة وأما التداخل فى أمر ادارة ومصاريف هذه المصلحة مباشرة فلا شك انكم تعلمون أنه محظور علينا بداعى ما نحن مرتبطون به من القيود والشروط التى لا حاجة بنا للاتيان بها هنا

(مصلحة الغاء الرقيق) لا نتردد فى أن نشترك معكم على أن هذه المصلحة قد سقطت عما كانت عليه من أهميتها الاولى والمبلغ المقرر لها والحالة هذه فى الميزانية يمكن أن يكون فيه زيادة من الضرورى حتى ان الحكومة الخديوية لم يفت عليها ملاحظة هذا الامر اذ بدأت فى أن تبحث فيه وانما نأسف على أنه لا يمكننا والحالة هذه أن نتخذ قرارا قطعيا باحالة هذه المصلحة على البوليس وعلى خفر السواحل بادئ بدء لاشك ولا شبهة فى أن الامة المصرية والحكومة المصرية هى الامة والحكومة والبقعة الوحيدة فى العالم الاسلامى التى يحق لها بل لها الحق فى أن تفتخر بأنها توصلت الى محو آثار الرق من أرضها بما تكلفته من العناء وما صرفته من خالص مالها من المبالغ الباهظة لخدمة الانسانية لا غير وهذه المنحة لا بد أن تخلد لها الذكر الجميل فى صحائف تواريخ الامم وتزيد قدرها فى نظر العالم المتمدن فاظن ان الواجب علينا فى هذه الحالة هو الاعتناء بالمحافظة على هذا المبدأ الغامع ذلك لا نقول لكم ولا نكلفكم بصرف شئ من الاموال يكون فى غير محله أو فى غير لزومه حاشا وكلا فبالنظر الى هذه المسئلة من هذه الوجهة نقول فى الواقع ونفس الامر انه قد سدت أبواب جهة الورود من الخارج من كل ناحية حتى انه من منذ ما يقرب على الثمان سنوات بل أكثر لم يتمكن أحد من ادخال رقيق داخل القطر وان كان ظهر فى أثناء هذه المدة شئ من ذلك فهو لا يعتد ولا يعبأ به كلية ومع ذلك لم يهمل مجازاة مرتكبيه فى الوقت والحال قانونيا وأما داخلية القطر ففى الحقيقة لم يبق شغل لهذه المصلحة الا اعطاء أوراق الحرية لمن يطلبها من الرقيق الذين هم فى حقيقة الامر احرار بمقتضى القوانين سواء أخذوا تلك الاوراق أو لم يأخذوها

Digitized by Google

استعفاءه ثم رده وحصل من ذلك مفاوضات بين لورد كرومر ونظارة خارجية لوندرة والوزارة المصرية وكثرت الاشاعات واختلفت الاقوال وسافر رياض باشا مع محمود شكرى باشا الى الفيوم لمقابلة سمو الخديو الذى أصدر عقب ذلك ارادة يشكر بها الجيش والضباط ويثنى عليهم وعلى السردار

انما نقول اننا ولاشك لانقدم على هدم ما بنيناه بأيدينا وأظن انه متى علم لكم ذلك توافقون على هذا الرأى فبناء على هذا المبدإ تعدكم الحكومة الخديوية بانها تستمر على البحث والتنقيب فى هذه المسئلة وفحصها باطرافها كما بدأت به ومتى تأكد لها ان هناك مبالغ يستحق حذفها وتنزيلها من ميزانية هذه المصلحة أو تعديلها بأى صورة كانت فلا تتأخر أن تجريه فى السنة القابلة ان شاء الله تعالى

(المبالغ المقتصدة أو المتوفرة) اننا متفقون معكم كل الاتفاق على التأسف من وجود هذه المبالغ بدون استعمالها فيما يعود من الفائدة انما نعدكم بأن نبذل كل ما فى وسعنا للوصول الى استعمال تلك المبالغ فيما يعود بالنفع على البلاد مثل عمل الخزانات بأسوان ويتيسر بواسطتها تدبير توزيع مياه النيل وزراعة أراضى الصعيد مزروعات صيفية وزيادة تحسين حالة الجهات البحرية

(المعارف العمومية) لم أبالغ أيها السادة الكرام اذا قلت انى أول من يفتخر ويباهى حقيقة بسرعة انتشار العلوم والمعارف والتربية العمومية عندنا وعظم المسافة التى قطعناها فى هذه المدة الوجيزة فى طريق التقدم والنجاح وعما وصلت اليه حالة المدارس والمكاتب وكيفية التدريس والتعليم من الترقى والانتظام الآن ذلك لايمنعنى من أن أشاركم فى الرأى بأن أقول انه اذا نظرنا لاحتياجات البلاد ونسبتها للعصر الحاضر ونسبتها لما حدث عند أهالينا من النشأة الجديدة والرغبة الشديدة لتحصيل العلوم والمعارف مما وصلنا اليه ماهو الاشئ زهيد واننا فى غاية الاحتياج الى جملة اصلاحات وبالاخص فيما يتعلق بانتشار التعليم الاولى بين طبقات الاهالى فى البلاد والقرى لاننا نعلم جميعا انه ليس واسطة لترقى الامة غير التربية والتعليم والحكومة الخديوية ناظرة الى هذه المسئلة بعين الاهمية والاعتبار حتى انه بصفتى ناظر المعارف قد طلبت هذه السنة علاوة ستة عشر ألف جنيه على ميزانية المعارف ولو أنى لم أتحصل على الكل وهذا الضرورة الحكومة لتسوية ميزانيتها العمومية حتى يمكنها أن تتحصل على مبلغ مناسب لتخفيف الضرائب انما قد استحصلت على علاوة اثنى عشر ألف جنيه وهذا ليس بقليل بالنسبة لسنة واحدة ومن هذا يظهر لحضراتكم أن ادارة المعارف سارية فى طريق النجاح والتقدم حتى انه دخل فى مدارسنا ومكاتبنا هذا العام ألف وخمسمائة تلميذ زيادة عن العام الماضى وكذلك قد قررنا اعادة مدرسة الصنائع بالمنصورة والاربع مدارس الاخر التى كانت ألغيت فى العام الماضى واننا متشبثون بفتح بعض مكاتب أخر من جديد وسنشرع فى هذه السنة فى تنفيذ مشروع المرحوم على باشا مبارك الذى كان أهمل المتعلق بانشاء خمسمائة كتاب للتعليم الاولى بالقرى والبلاد لانتشاره بين طبقات الاهالى ولتكون أنموذجا لسائر أمثالها وانى لا أخالكم الا توافقونى على هذا لانه هو الحقيقة انما من الواجب على أن أملى لكم بدون أدنى تردد بأنه مهما فعلت ومهما ساعدت وصرفت الحكومة على توسيع نطاق التربية والتعليم حسب احتياجات الاهالى وحسب مقتضيات العصر لا يتأتى لها كلية الوصول الى الدرجة المطلوبة من ترقى البلاد ماديا ومعنويا ما لم تمد اليها يد المساعدة من الاهالى عموما والاغنياء خصوصا سواء كان بالمال أو بالاعمال وكافة البلاد المتمدنة ما وصلت الى ماهى عليه الآن من درجة التقدم واتساع نطاق التعليم والتربية الا بمساعدة ومعاونة الاهالى عموما ولولا ذلك لما كان حصل عندها شئ من هذا الترقى فاللازم علينا جميعا أن نضع هذا الامر المهم نصب أعيننا وأن نحث الاهالى وننصحهم ونشوقهم على هذا العمل الخيرى العائدة منفعته عليهم خاصة سواء كان بكتاباتنا أو بخطاباتنا ومن كل ماذكر يلزم أن تكونوا مطمئنى البال من جهة المعارف والتربية لانى أؤكد لحضراتكم بأن التعليم والتربية لابد ان لاتكون سارية وجارية بصورة تلائم وتوافق عوائدنا وآدابنا وحاسياتنا الوطنية وبالله التوفيق

(الجامع الازهر) هذه المدرسة الكلية الدينية الوحيدة فى العالم الاسلامى كل منا يعلم ما لها من الاهمية والاعتبار عند كافة الامم الاسلامية المنبثة فى أقطار العالم شرقا وغربا ولذلك فان الحكومة الخديوية من مبدإ تأسيسها الى وقتنا هذا نظرت لها بعين هذا الاعتبار ومنحتها فى كل الاوقات ما استطاعت من المساعدات وكذلك

(١) وبعد عودة جنابه العالى الى المحروسة تعين محمد ماهر باشا محافظا لعموم القنال بدلا من أحمد شكرى باشا (١٥ فبراير) وخلفه فى وكالة الحربية زهراب باشا وأنعمت جلالة الملكة على الجنرال كتشنر باشا بنشان سن ميشيل وسن جورج وصار يلقب سير وفى ١٩ شعبان ١٣١١ (٢٥ فبراير) ورد تلغراف همايونى للجناب العالى الخديو يبشره بأن الحضرة السلطانية أهدته قصرا بديعا للاقامته بالاستانة فأجاب على ذلك بالشكر والامتنان

وزارة نوبار باشا — فى ١٥ ابريل سنة ١٨٩٤ رفع صاحب الدولة رياض باشا استعفاءه الى الجناب العالى فقبله وعهد الى صاحب الدولة نوبار باشا بتأليف وزارة جديدة فقام بما عهد اليه فكان هو رئيسا وناظرا للداخلية ومصطفى فهمى باشا للحربية والبحرية وحسين فخرى باشا للاشغال والمعارف العمومية وبطرس غالى باشا للخارجية وأحمد مظلوم باشا للمالية وابراهيم فؤاد باشا للحقانية وتعين أحمد شكرى باشا وكيلا للداخلية بدلا من محمود رياض باشا المستعفى هذا وكانت الحكومة عزمت على اقامة معرض وطنى للصنائع بالاسكندرية تنشيطا للمصنوعات والصناع المصريين ولما تمت معداته افتتحه الجناب الخديو بنفسه (٢٢ ابريل) وهو أول معرض أقيم فى القطر المصرى عرضت فيه أغلب المصنوعات المصرية ومن الحوادث فى تلك المدة ان اعتصب عمال الفحم (٢١ مايو) فى بورسعيد وكان لاعتصابهم تأثير كبير تعطلت بسببه البواخر المارة من القنال حتى اضطرت الحكومة الى التداخل فى الامر وسبب ذلك ما يفعله معهم رؤساؤهم من الحيف عليهم فى أجورهم ولما تم الاعتصاب وضعت لهم الحكومة قانونا يسيرون

الحكومة الخديوية الحالية سارت على هذه الخطة بعينها بل انها تعد من أول واجباتها المحافظة على هذه المدرسة العظمى ومد يد المساعدة اليها ماديا ومعنويا ولهذا فان الحكومة مائلة كل الميل لمشاركتكم فى مقاصدكم نحو هذه المدرسة العظمى التى هى مطمح أنظار العالم الاسلامى وهى عازمة على الاتحاد مع مولانا الاستاذ الاجل شيخ الجامع وبعض المتبحرين من أفاضل العلماء لدرس حالة هذه المدرسة بالاتفاق والنظر فى الاصلاحات التى ترى لزوم ادخالها فيها مما يكون ملائما ومطابقا لقواعد الدين المنيف حتى تتم منفعتها وتكثر فائدتها والحكومة مستعدة لان تمدها بما تستطيعه من المال

(الخاتمة) أيها السادة الكرام يلزمنا قبل أن نتمم الكلام وقبل الانصراف من هذا المقام أن نعترف جميعا بما عليه الجناب العالى الخديو المعظم من شديد الميل والمحبة لسعادة أهل بلاده وبأن أفكاره ومساعيه العالية على الدوام متجهة ومنصرفة لما فيه الخير والنفع العميم وزيادة ترقى واصلاح أحوال البلاد والامة المصرية عموما بحيث ان ما يأتى لنا أو يخطر ببالنا جميعا من الافكار وسائر الاعمال من هذا الطريق المحمود ما هو الا مقتبس من آرائه الصائبة وأفكاره النيرة التى هى بلا شك روح جسم الامة والحكومة ولذلك نرفع أكف الضراعة والابتهال الى المولى المتعال بأن يمن علينا بطول حياته وأن يجعل كافة أعماله الجليلة ومقاصده الخيرية مقرونة بالفوز والفلاح متمتعا بكمال الصحة والعافية وخير كلمة نختم بها هذا المقال هى (فليعش خديوينا المعظم)

(١) الى سعادة السردار

قبل أن أترك الوجه القبلى للعودة الى مصر أريد أن أشكر ما أظهرتم من العناية وحسن الالتفات للجيش عند زيارتى الحدود وأؤيد حسن رضائى الذى ابديته لكم من جهة حسن حالة الجيش ونظامه وانى لمسرور من أن أهنئ الضباط الذين رأسوه مصريين كانوا أو انكليزا وانى لمرتاح ايضا بأن أقدر الخدمات التى أدتها الضباط الانكليز لجيشنا حق قدرها واملنا أيها السردار أن تعلنوا أمرنا هذا للضباط والعساكر

تحريرا بالفيوم فى ٢٦ يناير ١٨٩٤ عباس حلمى

Digitized by Google

عليه بجميعهم من ضياع حقوقهم وبذلك عادوا الى أعمالهم (١٠ ديسمبر) آمنين مطمئنين
وفي مدة تغيب الحضرة الفخيمة الخديوية باسكندرية ترأس نوبار باشا على حفلة سفر المحمل
الشريف وهو الذي سلم زمام جمل المحمل الى المرحوم شاكر باشا أمير الحج وذلك بحضور الوزراء والعلماء
والاعيان كما هي العادة وكان ذلك في صباح يوم الخميس ١٩ ذي القعدة سنة ١٣١١ وهذه
هي ثاني مرة قام بها نوبار باشا نائبا عن الجناب العالي الذي هو نائب مولانا الخليفة في رئاسة
ركب الحج الشريف الى بيت الله الحرام ومن هذا يستدل على دماثة أخلاق الشعب المصري
وبعده عن التعصبات

ولما كان سمو مولانا العباس عزم على الذهاب الى الاستانة لتقديم فريضة الولاء للحضرة
السلطانية وصدر له الاذن بالتصريح من لدن جلالتها أبحر في ٢٢ يونيه على يخت المحروسة بعد أن
أصدر أمر اعاليا لنوبار باشا بأن يكون نائبا عن سموه مدة تغيبه وقد نال سموه في دار الخلافة من
الرعاية والاحتفاء شيأ كثيرا وأنعم مولانا السلطان على شقيقه الامير محمد على باشا بالنيشان العثماني
وبعد ان أقام مولانا العباس في الاستانة أياما طلب التصريح له بالسفر الى أوروبا لتغيير الهواء
فأذنت له الحضرة السلطانية فبارح الاستانة على يخت المحروسة الى مدينة البندقية فوصلها في ٢٠
يوليه وزار بعض جهات ايطاليا والسويسرة والمانيا وهولنده ثم عاد الى القطر المصري بالسلامة
في ١٤ سبتمبر ــ ومن الحوادث الشهيرة التي حصلت مدة وزارة نوبار باشا ان باعت الحكومة الى شركة
أجنبية قدرا عظيما من أطيان الوجه البحري يعرف بتفتيش بسنديله بثمن هين وكانت قامت شركة
وطنية لمشترى هذا التفتيش فتعرقلت مساعيها ولم تنجح ومنها ان مصلحة منع بيع الرقيق التي
يرأسها شيفر بك (Charles Schæffer) ألقت القبض على جماعة من أعيان ووجهاء البلاد
بدعوى أنهم اشتروا وباعوا رقيقا وهم المرحوم على شريف باشا رئيس مجلس شورى القوانين ومحمود
الشواربي باشا عضو شورى القوانين وحسين واصف باشا وعبد الحميد بك الشافعي واحالتهم مع
النخاسين والجواري والمشترين على مجلس عسكري عال شكل لها كتهم الاعلى شريف باشا فانه
ادعى الانتماء الى حكومة ايطاليا ثم صدر حكم المجلس على عبد الحميد بك الشافعي وغيره من النخاسين
بالسجن المدد مختلفة وتبرأت ساحة شواربي باشا وحسين واصف باشا وكان لهذه الحادثة تأثير كبير في
القطر لان المتهمين فيها من كبار القوم ثم عفا الجناب العالي عن عبد الحميد بك الشافعي (٢٧
اكتوبر ١٨٩٤) اما على شريف باشا فلم يثبت انتماؤه لايطاليا وهو وان كان أقر رسميا بمشترى
الرقيق ولكن صدر أمر بصرف النظر عن محاكمته واستقال من رئاسة مجلس الشورى وخلفه فيه
عمر لطفي باشا

ومنها ان نوبار باشا رفع في يوم ٣ نوفمبر تقريرا الى الجناب العالي يطلب فيه الغاء نظام
البوليس ووظيفة مفتشه العام وتعيين مستشار للداخلية بناء على ما طلبه اللورد كرومر من
التغيير في نظارة الداخلية وبعد مداولات طويلة وأخذ ورد أصدر الخديو أمره بانفاذ ذلك وتعين
المستر غورست (J. L. Gorst) مستشار اللداخلية ووضعت مسؤلية الامن العام على
المديرين والمحافظين وسمي قلم البوليس بقلم النظام ومنها ان صرحت الحكومة لشركة بلجيكية
أجنبية بانشاء ترمواي كهربائي في العاصمة (يناير ١٨٩٥) ومنها اصابة نوبار باشا بكسر في رجله

Digitized by Google

أزفزعه من ثور بغتة بينما كان يتعهد مزروعاته بجهة شبرى فحمل الى منزله ولازم الفراش أياما وهو يشكو الآلام حتى أصبح فى حاجة الى تبديل الهواء فسافر الى أوربا التماسا للصحة (مايو)

وفى ١٢ فبراير من سنة ١٨٩٥ رزق الجناب العالى بالاميرة أمينة هانم من محظيته له وفى ١٩ منه (٢٤ شعبان ١٣١٢) احتفل بسراى القبة العامرة بعقد زواجه على صاحبة الدولة والعفاف الاميرة اقبال هانم والدة المولودة المشار اليها وقام باجراء صيغة العقد الشرعية صاحب السماحة عبد الله جمال الدين أفندى قاضى الديار المصرية ومن الحوادث أيضا انه حصلت مشاجرة بين ثلاثة من عساكر البحرية الانكليز وبعض من سوقة مدينة الاسكندرية فرفعت دعواهم الى المحاكم وكثر تقول الناس فى مسئلة المحاكمة وأخيرا طلبت الوكالة البريطانية اصدار أمر عال بتشكيل محكمة مخصوصة تحكم فيما يقع بين الاهالى وضباط وعساكر جيش الاحتلال أو بحرية المراكب الحربية الانكليزية الراسية فى إحدى الموانى المصرية فصدر الامر بذلك (٢٥ فبراير ١٨٩٥)

وفاة الخديو الاسبق اسمعيل باشا - فى ٣ مارث سنة ١٨٩٥ (٦ رمضان ١٣١٢) نقل السلك البرقى خبر وفاة المغفور له الخديو الاسبق إسمعيل باشا بسراى أمير كون فى دار الخلافة حيث يقيم بعد ان صرح له جلالة أمير المؤمنين بالاقامة فيها هو وعائلته كامر ثم نقلت جثته من الاستانة على الباخرة توفيق ربانى إحدى بواخر البوسته الخديوية ودفنت بجامع الرفاعى (١٣ مارس) باحتفال عظيم لم يسبق له مثال مشى فيه الجناب العالى وأمراء العائلة الخديوية وجميع رجال الحكومة والقناصل الجنرالية وكل أرباب الحيثيات والمظاهر وكانت وفاته بمرض السرطان أصابه فى أمعائه ومعدته وقلبه وكان رحمه الله من كبار رجال العصر ذا بأس وصولة واقدام شهدت له بذلك أعماله التى سردناها فى تاريخه وكان شديد الحافظة قوى الذاكرة التى خانته سنة ١٨٧٥ حينما باع الاسهم التى لمصر فى قنال السويس وكان من صفاته أنه يتطير من يوم الخميس فلا يعمل فيه عملا ذا شأن وكان حسن الغرائز واسع المدارك قوى البداهة لا تفوته بادرة الا استدركها رحمه الله

وفى ٢١ مارس سنة ١٨٩٥ وصل الى القاهرة سلاتين باشا النمساوى (١) الذى كان مديرا

(١) سلاتين باشا هذا نمساوى الاصل ولد ببلاد النمسا سنة ١٨٥٨ وشب على محبة الاسفار والاقدام على الاخطار فقدم بلاد السودان سنة ١٨٧٤ سائحا وهو فى الثامنة عشرة من عمره فبلغ دارفور وفى تلك الاثناء حدثت فى انحائها ثورة فمنع حكمدار الخرطوم الاجانب من الدخول الى السودان خوفا على حياتهم فعاد سلاتين الى الخرطوم والتقى هناك بأمين باشا (الدكتور شنتيزلر) الذى تولى مديرية خط الاستواء بعد ذلك وكان الجنرال غوردون اذذاك حكمدار المديريات خط الاستواء فاستأذناه بالقدوم عليه فأذن لهما فسارا اليه فى لادو مركز الحكمدارية المذكورة ثم بعد ذلك عاد سلاتين باشا الى بلاده بعد موت من أهله وتعين ملازما فى الجيش النمساوى ثم لما عاد غوردون باشا الى السودان وصار فيها حكمدارا عاما كتب الى صاحب الترجمة سنة ١٨٧٨ يستقدمه الى الخرطوم فسافر اليها مسرعا فعينه مفتشا ماليا يجول فى السودان ينظر فى شكوى الناس ثم رقاه حتى صار مديرا على دارفور كما ذكرناه فى بابه ولما انكسر جيش هكس باشا وتحقق قرب سقوط مديريته كردفان بعث الى المهدى وسلمه البلاد فاستقدمه الى الابيض وقابله فى الرهد بالصورة السابق ذكرها ثم ضمه الى التعايشى فصار من ملازميه ثم رافقهم فى مسيرهم على الخرطوم وحصارها فلما سقطت الخرطوم وقتل غوردون وتوفى المهدى وخلفه التعايشى بقى سلاتين فى جملة الملازمين له وقال عنه صاحب كتاب السودان المصرى والانكليز انه كان يقضى أوقاته فى رفع صوته بكلمة الشهادتين بطريق لم يعرفها الدراويش من

Digitized by Google

الحكومة بدارفور وأسره الدراويش سنة ١٨٨٤ تمكن من الفرار من قبضة التعايشى من أم درمان بمساعدة ونجت بك مدير قلم المخابرات والبارون هيدلر (Heidler) قنصل جنرال النمسا فى القطر المصرى

ولما كانت دواعى الارتباط تزداد وثوقا بين مصر والاستانة من يوم تولى مصر أفندينا عباس باشا الثانى عزم حفظه الله على التشرف بمقابلة الحضرة السلطانية فى هذه السنة أيضا فسافر الى الاستانة فى ١٥ يوليو على يخته المحروسة ولما وصلها احتفل به مولانا أمير المؤمنين احتفالا اعظميا وقلده نيشان خاندان آل عثمان وهو أكبر نياشين الدولة ولم يتقلده الا امبراطور المانيا من الملوك وأعضاء العائلة السلطانية فقط وقد قابل أهالى القطر المصرى ذلك بالسرور وعظيم الارتياح لما لهم عموما لتوثيق روابط الائتلاف بين مصر ودار الخلافة

وزارة مصطفى فهمى باشا الثانية — لما عاد نوبار باشا من أوروبا (٦ نوفبر ١٨٩٥) رفع الى الجناب العالى استعفاءه لسبب انحراف صحته فقبل سموه ذلك وعهد الى مصطفى فهمى باشا تشكيل وزارة جديدة فقام بما عهد اليه (١٢ نوفبر) وكان هو رئيسها وناظر الداخلية وتعين حسين فخرى باشا للاشغال العمومية والمعارف وبطرس باشا غالى للخارجية وأحمد مظلوم باشا للمالية وابراهيم فؤاد باشا للحقانية ومحمد عبانى باشا للحربية والبحرية ومن أشهر الحوادث فى عهد هذه الوزارة ان عقدت الدولة الانجليزية مع مصر معاهدة جديدة لابطال بيع الرقيق وسبب ذلك نقص مواد وشروط ضرورية لم توجد فى المعاهدة القديمة وقد أدرجنا صورتها بأسفل الصحيفة اتماما للفائدة (١) وعلى ذلك صدر فى ٢١ يناير سنة ١٨٩٦ أمر عال بمنع الاسترقاق

قبل وهى تشبه ترتيل الانغام اللاتينية من مد الصوت وخفضه ورفعه وكان كوتشى الايطالى ينتقد عليه فى ذلك ويقول يلزم لسلاطين ارغن كى يتم به رونق الصلاة التى يقيمها البلاونهارا على باب التعايشى اه وكان لابس ثياب الدراويش وهى المرقعة والعمامة يقضى نهاره واقفا عند باب التعايشى يقرأ القرآن وينتظر أمره واذا ركب مشى فى ركابه والتعايشى تارة يرضى عنه وطورا يغضب عليه فان رضى خلع عليه الخلع وأهدى اليه الهدايا واذا غضب ضايقه وبقى كذلك حتى بلغت أخباره أقاربه فى بلاد النمسا وكانبوه وأخذوا يسعون فى تخليصه فوضعوا مبلغا من النقود فى قنصلية النمسا بمصر فتعاونت القنصلية مع قلم المخابرات المصرية وكانت تعلم به وبأحواله فاعتنى مديرها ونجت بك بأمر انقاذه وانفذ اليه بعض العرب المعلومين لديه والعارفين بدخائل السودان وبذلك تخلص سلاتين من أسر المهدى يوم ٢٠ فبراير سنة ١٨٩٥ قاطعا صحراء بيوضة ثم عبر النيل الكبير ومنها الى أبو حمد وسار فى عطمورها الى أن وصل أسوان فى صباح ١٦ مارس سنة ١٨٩٥ وقطع هو والعرب المسافة من أم درمان الى أسوان بباقى ٢٥ يوما ولما عاد ألف كتابا سماه النار والسيف فى السودان وصف فيه أحوال المهدى والتعايشى ومايعرفه عن تلك البلاد ﻫ

(١) حيث ان النصوص العمومية من المعاهدة المعقودة بتاريخ ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ بين الحكومتين الانكليزية والمصرية بشأن منع الاسترقاق والنخاسة والاوامر العالية المختصة بها جعلت محلا للشك فيما اذا كان من الممكن معاقبة مشترى الرقيق بصفته فاعلا أصليا أو شريكا للمتجر به لتسببه فى هذا الاتجار وتشويقه له * وحيث من المقتضى اتخاذ كافة الطرق اللازمة للوصول الى ابطال الاسترقاق والنخاسة * وحيث انه قد حان الوقت الذى يمكن فيه تخويل قضاة المحاكم الاهلية حق النظر والحكم فى مواد الجنح والجنايات المتعلقة بالاسترقاق والنخاسة الجارى نظرها الآن أمام المجالس العسكرية * وحيث من الضرورى جمع كافة النصوص المتعلقة بالاسترقاق والنخاسة * فقد قررت حكومة جلالة ملكة بريطانيا العظمى من جهة وحكومة الحضرة الفخيمة الخديوية المصرية من جهة أخرى تحوير المعاهدة المذكورة المؤرخة ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ بادخال التعديلات

والعقاب

والعقاب عليه ولائحة لملاحظة السفن المصرية المارة فى البحر الاحمر لتعاطى التجارة المذكورة وكان بعض الاعيان التفت الى ما يرقى أمر الزراعة بمصر اذ علم امدار المعيشة فشكلوا جمعية

والاضافات اللازمة فيها وكذلك اتفق الموقعان على هذه المعاهدة بما لهما من الرخصة فى ذلك على ابدال المعاهدة القديمة المعقودة فى ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ بالمعاهدة الآتية

(المادة الاولى) تتعهد حكومة الحضرة الفخيمة الخديوية بأن تمنع كلية ادخال الرقيق الابيض أو الاسود أو الحبشى المعد للبيع فى الاراضى المصرية وملحقاتها ومروره منها بطريق البر أو البحر وتتعهد كذلك بمنع اخراج الرقيق المذكورين من الاراضى المصرية أو من ملحقاتها منعا كليا الا اذا ثبت لها بها قطعيا انهم احرار أو معتقون ويتوضع بأوراق العتق أو الجوازات التى تعطيها اليهم الحكومة المصرية قبل سفرهم ان لهم حق التصرف فى أنفسهم تصرفا مطلقا بغير تقييد وصار الاسترقاق والنخاسة ممنوعين فى الحال والاستقبال فى كافة الاراضى المصرية وملحقاتها

(المادة الثانية) تتعهد الحكومة المصرية بنشر قانون يشتمل على كافة ما يقع مخالفا لنصوص المعاهدات والاوامر العالية المختصة بمنع الاسترقاق والنخاسة وعلى العموم كافة الجنح والجنايات المتعلقة بها والعقوبات التى يلزم تطبيقها وينص فى هذا القانون على معاقبة مشترى الرقيق ويقتضى نشره فى بحر الستة أشهر التالية لتاريخ التوقيع على هذه المعاهدة التى تعتبر جزأ متمما لها

(المادة الثالثة) كل ما يقع مخالفا لنصوص القانون المنوه منه فى المادة الثانية يحال الحكم فيه بصفة انتهائية اذا كان المتهم تابعا للمحاكم الاهلية على محكمة تشكل من خمسة قضاة من محكمة الاستئناف الاهلية يكون اثنان منهم على الاقل من الاجانب ويستمر الحكم فى الجنح والجنايات التى تقع فى الثغور وسواحل البحر الاحمر والمنطقة البحرية المبينة فى المادة السابعة والاراضى المصرية فى جنوب اسوان بمعرفة المجالس العسكرية وتتعهد الحكومة المصرية بأن تنشر فى ظرف ستة أشهر من تاريخ التوقيع على هذه المعاهدة أمرا عاليا ببيان الاجراآت التى تتبعها المحكمة المخصصة والمجلس العسكرى فى تحقيق تلك الدعاوى والحكم فيها

(المادة الرابعة) اذا لم يكن المتهم من رعايا الحكومة المصرية فيسلم فى الحال لاجل محاكمته الى المحاكم المختصة بذلك مع المحاضر التى تقدم من السلطة العليا المصرية التابعة اليها الجهة التى ضبطت فيها المخالفة وكافة المستندات الاخرى والاشياء المثبتة للجريمة

(المادة الخامسة) لكل رقيق موجود فى الاراضى المصرية حق فى حريته التامة المطلقة وله أن يطلب أوراق عتقه متى أراد ذلك

(المادة السادسة) على الحكومة المصرية أن تستعمل كل ما يكون لها من النفوذ على قبائل أفريقيا الوسطى لمنع المحاربات التى تحصل بينهم للحصول على الرقيق وبيعه

(المادة السابعة) تقبل الحكومة المصرية رغبة فى الوصول الى ابطال الاسترقاق والنخاسة بالكلية بأن كل مركب مصرية تتاجر فى الرقيق وتكون حمولتها أقل من خمسمائة طونولاته يمكن تفتيشها والبحث منها وضبطها اذا اقتضى الحال بمعرفة الطرادات الانكليزية وكذلك كل مركب مصرية حمولتها بهذا القدر يشتبه فيها بوجه حق بانها معدة لهذه التجارة أو اتجرت فى الرقيق أثناء السفر الذى قوبلت فيه ويمكن حصول التفتيش أو الضبط فى المنطقة الممتدة ما بين شطوط المحيط الهندى (بما فى ذلك شطوط خليج العجم والبحر الاحمر) من بلوجستان لغاية رأس تاغلان (كليمان) وبين خط وهمى يتبع أولا خط زوال تاغلان الى النقطة المقابلة للدرجة السادسة والعشرين من العرض الجنوبى ثم يختلط بهذا العرض ويحيط بجزيرة مدغشقر من الشرق على مسافة عشرين ميلا من جهتيها الشرقية والشمالية الى أن يقطع خط زوال رأس العنبر ومن هذه النقطة تحد المنطقة بخط منحرف يتصل بشاطئ بلوجستان بعد أن يمر فى البحر على مسافة عشرين ميلا من رأس الحد * كل ما تضبطه الطرادات الانكليزية من الرقيق فى مركب مصرية يبقى تحت تصرف الحكومة الانكليزية التى تتعهد باتخاذ الطرق الفعالة بضمانة حريتهم وتسلم المراكب بما فيها من البضائع والملاحين الى الاقرب أو الاوفق من جهات الادارة المصرية لمحاكمتها

Digitized by Google

للمفاوضة فى ذلك فأقرت على انشاء معرض سنوى للازهار والنباتات والخضراوات وعرضوا ذلك على الحكومة فأقرت عليه وساعدته مساعدة مالية وفى ٢٥ يناير ١٨٩٦ افتتحه

امام المجلس العسكرى المنصوص عنه فى المادة الثالثة ومع ذلك فى كل الاحوال التى يرى فيها قومندان الطراد الذى ضبط المركب المتاجرة فى الرقيق انه يستحيل عليه ايداع الارقاء المقبوض عليهم فى محل انكليزى أو رأى بسبب ظروف أخرى انه من الاوفق ومن صالح هؤلاء الارقاء أن يسلموا الجهات الادارة المصرية فتتعهد الحكومة المصرية بناء على الطلب الذى يقدم لها من قومندان الطراد أو من الضابط الذى انتدبه لذلك بأن تقوم بشؤن الارقاء المضبوطة وتضمن لهم حريتهم وكافة الامتيازات الاخرى الممنوحة للارقاء الذين تضبطهم الحكومة المصرية وتقبل الحكومة الانكليزية من جهة أخرى بأن كل سفينة حاملة للعلم الانكليزى وجدت متجرة بالرقيق فى المنطقة المصرية المذكورة يمكن تفتيشها وضبطها أو حجزها بمعرفة جهات الادارة المصرية ولكن يشترط تسليم السفينة بما فيها من البضائع والملاحين الى أقرب سلطة انكليزية للمحاكمة بها وتحرر الحكومة المصرية الارقاء المضبوطين ويبقون تحت تصرفها واذا رأت المحكمة المختصة بالنظر فى دعوى الرقيق انه لم يكن محل للقبض على السفينة وحجزها واقامة الدعوى على المتهمين فتلزم الحكومة التابعة لها الطراد بأن تدفع للحكومة التابعة لها المركب المقبوض عليها تعويضا ملائما للظروف

(المادة الثامنة) يسرى مفعول هذه المعاهدة من تاريخ اليوم الذى يصير فيه واجب التنفيذ كل من القانون المتعلق بالجنايات والجنح المختصة بالرقيق وقانون الاجراآت التى تتبع امام المحاكم المختصة بالنظر فيها اللذين تعهدت الحكومة المصرية كما تقدم بنشرهما فى بحر ستة أشهر من تاريخ عقد هذه المعاهدة وتبطل المعاهدة المعقودة فى ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ والاوامر العالية المختصة بها من يوم العمل بهذه المعاهدة ولكن يستمر سريان المعاهدة الاولى والاوامر العالية المختصة بها لحين حلول الميعاد المذكور وبناء على ماذكر أمضى الواضعان امضاءهما على هذه المعاهدة ووقع كل منهما عليها بختمه اهـ عمل بمصر فى ٢١ نوفمبر ١٨٩٥

المعتمد السياسى لدولة بريطانيا العظمى
ووكيلها وقنصلها الجنرال بمصر
كرومر

ناظر خارجية حكومة الحضرة الفخيمة الخديوية
بطرس غالى

ملحق حرف (أ) وهو جزء متمم للمعاهدة المعقودة بين حكومتى مصر وانكلترة فى الحادى والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٨٩٥ * تستمر الحكومة كما فى السابق على ابقاء ادارة مخصوصة لمنع النخاسة وتكلف هذه الادارة بكافة ما يتعلق بالارقاء وبعتقهم وتبقى لها مراقبة أقلام الرقيق المشكلة بالمديريات والمحافظات وتقوم هذه الاقلام بكافة ما يتعلق بالارقاء وبعتقهم ويمكن انشاء أقلام جديدة لاعتاق الرقيق اذا اقتضى الحال ذلك ويكون تحت تصرف ادارة منع الرقيق قوة مخصوصة للمحافظة على طرق الصحراء وسواحل البحر الاحمر وعلى العموم كافة المواقع التى يمر منها الرقيق الى القطر المصرى اما لجلبه اليه أو لمروره منه وعلى ادارة منع الرقيق أن تلاحظ مراعاة الدقة فى تطبيق القوانين واللوائح بالاسترقاق والنخاسة وأن تبحث عن الجانين وتستحضرهم امام المحكمة المختصة مع تقديم الادلة المثبتة للجريمة

ملحق حرف (ب) مصر فى ٢٨ اكتوبر سنة ١٨٩٥ الى سعادة بطرس باشا غالى ناظر الخارجية تعهدت الحكومة المصرية بأن تقوم باحتياجات الارقاء والمعتقين بمقتضى ملحق حرف (أ) المتمم للمعاهدة المعقودة فى ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ بين حكومتى مصر وانكلترا بشأن منع النخاسة وقد اتفقنا على أن الحكومة البريطانية تعدل عن الاشتراط فى المعاهدة الجديدة اذا تعهدت الحكومة المصرية من جهتها بأن تدفع لمأوى الرقيقات المعتقات اعانة سنوية قدرها ثمانمائة جنيه مصرى ومن المعلوم أن الحكومة المصرية لا تدفع هذا المبلغ اذا اتفقت الحكومتان على أنه لا لزوم لهذا المأوى وانى أرجو سعادتكم التفضل باخبارى اذا كانت الحكومة المصرية تقبل هذا الحل وأنتهز هذه الفرصة لتبليغ سعادتكم فائق احترامى

الامضاء
كرومر

الجناب

الجناب العالى بذاته وكان أقيم فى حديقة الازبكية وبرأس لجنته دولة البرنس حسين كامل باشا عم الجناب الخديوى فكان أول معرض أقيم لذلك فى الديار المصرية وتقرر ان يكون هذا المعرض سنويا

اعادة فتح السودان — بينما كان الناس فى أواخر شهر رمضان المعظم يستقبلون عيد الفطر (١٣١٤) وردت على مصر اشارة برقية من انجلتره بتجهيز حملة لاعادة فتح السودان لمناسبة الاحوال لهذا الفتح وأشيع ان الغرض من التجريدة المذكورة مساعدة الطليانيين الذين أصبح مركزهم حرجا امام الدراويش بعد هزيمة الاحباش لجيوشهم وأشاع البعض ان القصد من التجريدة منع الفرنسويين من التقدم الى جهات النيل وعلى ذلك صدر قرار وزارى بعد أخذ رأى الحضرة الخديوية (١٣ مارس ١٨٩٦) بارسال الجنود المصرية للاقطار السودانية فسافرت اليها تباعا عن طريق النيل وألحقت حاميات سواكن بعساكر الحملة وخلفتها هنالك عساكر هندية وانجليزية وطلبت الحكومة من صندوق الدين مبلغ ٥٠٠,٠٠٠ ليرة مصرية من المبالغ الاحتياطية المودعة لها فيه للقيام بهذا العمل الجسيم فقبل أعضاء الصندوق جميعهم الا العضوين الفرنسوى والروسى فلم يثن ذلك من عزم الحكومة وأخذت المبلغ غير ملتفتة الى معارضة العضوين المذكورين الذين أقاما الحجة على الحكومة يخطئانها فى عملها وبأن لا حق لها فى أخذ أى مبلغ كان الا بمصادقة جميع أعضاء الصندوق لان كل واحد منهم ينوب عن جميع أصحاب الدين ورفع بعض أصحاب الديون دعوى على صندوق الدين والحكومة معا امام المحاكم المختلطة يطلبان فيها ان يسترد الصندوق ما أخذ منه ولما كانت الحملة المصرية فى احتياج الى بواخر نيلية حربية ابتاعت مصر من انجلتره عددا منها وحملت قطعها الى وادى حلفا وهنالك صار تركيبها ولما تجهزت الذخائر والمعدات قاد السردار السير كتشنر باشا الجيش وكان كلما تقدم مد الطريق الحديدى لتسهل عليه المواصلات ونقل الجنود والذخائر وجعل لحراسته بعض فرق الفرسان والهجانة والبدو كما عين حراسا لحماية الآبار التى بالصحراء الشرقية ولما وصل الخط الى بلدة الكرمة (مايو) استولى الجيش على عكاشة (٣٠ منه) وأخذ يتقدم منها رويدا رويدا وأوصل السكة الحديدية الى آبار أم البقول (أول يونيو) ولما كان عسس الدراويش يجتهد فى قطع المواصلات ومنع عمال السكة الحديدية من العمل تقدم السردار بالجيش الى بلدة فركة وهزمهم وغنمت العساكر منهم كثيرا من الاسلحة والطبول والجمال والخيل وغنمت أيضا نحو ٥٠٠ رأس من الماشية

ملحق حرف (ث) نظارة الخارجية نمرة ٣٧٨ مصرفى ١٠ نوفمبر سنه ١٨٩٥ الى جناب اللورد كرومر الوكيل السياسى لجلالة ملكة بريطانيا العظمى

بخطابكم المؤرخ ٢٨ أكتوبر سنة ٩٥ تفضلتم بتذكيرى أن الحكومة المصرية قد تعهدت بمقتضى نصوص ملحق حرف (أ) المتمم للمعاهدة المعقودة فى ٨ أغسطس سنة ١٨٧٧ بين حكومتى انكلتره ومصر بشأن منع الاتجار بالرقيق بأن تقوم باحتياجات الارقاء المعتقين وانما اتفقنا قريبا على أن تعدل حكومة جلالة الملكة عن هذا الاشتراط فى المعاهدة الجديدة اذا تعهدت الحكومة المصرية من جهتها على دفع اعانة سنوية قدرها ثلثمائة جنيه مصرى الى مأوى الرقيقات المعتقات وانكم تريدون جنابكم أن يضاف على ذلك انه اذا اتفقت الحكومتان على أن لا لزوم لبقاء هذا المأوى لا تدفع الحكومة المصرية هذا المبلغ فعليه أحيط علم جنابكم بوصول تحريركم وأتشرف بابلاغ جنابكم بأن الحكومة المصرية تقبل دفع مبلغ ثلثمائة جنيه مصرى على الشروط المتقدم ذكرها وأرجو من جنابكم قبول فائق احترامى

الامضا
بطرس غالى

Digitized by Google

وعدة مراكب شراعية ووجدت في بيت مالهم نحو ١٦٠ اردبا من الذرة وأسرت ١٣٠ نفسا بين رجال ونساء وتقدمت السواري الى بلدة سوارده فاحتلوها وبعد ذلك شرع الجيش في مد السكة الحديدية الى كوشه واشتغل بنقل الوابورات من الشلالات وكان مرض الهيضة الآسيوية الذي انتشر بمصر في تلك السنة وصل الى الجيش فأمات منه قدرا كبيرا لكنه لم يمكث الا أياما قليلة ولما بلغت السكة الحديدية كوشه أرسلت الحضرة الخديوية تلغرافا الى السردار تمدحه على نشاطه وتطلب اليه ان يعلن أسفها العموم الجيش على ما حل به من الموت والتعب وكان ذلك قبل سفرها الى أوروبا وقد أدرجنا صورة هذا التلغراف بأسفل الصحيفة ليطلع عليه من شاء (١) وأرسل السردار لسموه بشكره على ذلك وبلغه شكره وسرور جميع الجنود ثم اجتازت السفن الحربية الشلالات وقد نال الجيش من ذلك ومن انشاء الطريق الحديدي من التعب والنصب ما لا يمكن وصفه وكانت العواصف المحرقة والامطار الغزيرة لا تنقطع حتى ان السيل جرف الطريق الحديدي على مسافة ٢٠ ميلا بين سرس والمرات فاجتهد السردار في اصلاحها ثم عاد الجيش الى الزحف واجتازت البواخر شلال حنك وهو الشلال الثالث وتقدم السردار بالجيش الى الكرمة في البر الشرقي فوجدها خالية من الدراويش لانهم لجؤا الى الحفير وتحصنوا فيه بجيوشهم وسفنهم الشراعية وكان معهم وابور بخاري فبعث المدرعات عليهم وأخذت تطلق قنابلها وساعدتها المدفعية البرية حتى أغرقوا باخرة الدراويش فانتهز الدراويش ظلام الليل وهربوا الى دنقله وعند ذلك احتل السردار بجيوشه المكان المذكور (٢٠ سبتمبر) وغنمت العساكر المصرية منها كثيرا من الذخائر والحبوب ووجدوا بها ٢٧ مركبا مشحونة بالحبوب ثم زحف الجيش الى بلدة الزورة فوصلها في ٢٢ سبتمبر وكان معسكر الدراويش بمكان يعرف بالديم يبعد عنها بستة أميال وكانت المدرعات المصرية قد وصلت في سيرها الى دنقله فوجدتها خالية فغنمت منها عدة مراكب وعادت الى الحفير ثم سيرها السردار ثانية الى دنقله لاستطلاع مراكز الدراويش فوجدتهم مجتمعين في الديم فتقدم الجيش اليهم في ٢٣ سبتمبر والمدرعات أمامه فلما وصلت أطلقت عليهم المدافع ولما قرب الجيش تقهقر الدراويش الى التلال الواقعة غربي الديم فهاجمهم السواري والهجانة والطوبجية السواري فاضطروا الى الهروب قاصدين أم درمان وبربر ودخل باقي الجيش الديم وهي بلدة متسعة كان شيدها الدراويش فغنم الجيش منها كل ما وجده من الذخائر ومن ضمنها ثلاثة مدافع وعدة بنادق وسيوف وحراب ووصلت المدرعات دنقله واحتلتها ورفعت العلم المصري عليها ودخلها الجيش ظافرا (آخر سبتمبر سنة ١٨٩٦) ولما ورد تلغراف احتلالها

---

(١) رأس التين في ٦ أغسطس سنة ١٨٩٦

سعادة السردار بكوشه — انى آسف على وفاة الملازم ثاني جمعة أفندي زاهر وتجدد ظهور الهيضة الوبائية وأهنئكم أنتم وجميع ذوي الشأن على اتمام السكة الحديد الى كوشه والامل ان تبلغوا الجميع أني أقدر المشقات التي تحملوها حق قدرها وكذلك النشاط الذي أبدوه أثناء الحر الشديد والوباء وسأسر عندما يبلغني أن الوابورات اجتازت الشلالات سالمة وقبل سفري الى أوروبا الفائدة صحتي أرغب ان أعرب لكم ولاركان حربكم وللجنود على اختلاف أسلحتها عن ارتياحي الى النشاط والبسالة اللذين أظهروهما في مقابلة العدو والحر والوباء وأؤكد لكم مداومة اشتراكي بالحاسيات معكم وستكون أفكاري دائما عندكم واني أطلب منه تعالى ان يمنحكم كل نجاح وفوز على العدو ويهبكم السلامة من الكوليرا والمرض عباس

أطلقت

أطلقت المدافع من قلعة العاصمة تبشيرا بفتحها ومن الغنائم التي غنمها الجيش درع من الزرد وخوذ من الفولاذ من أسلحة الصليبيين وسيف عليه كتابة بالقلم الفرنساوي القديم وآخر عليه شعار ملوك الانكليز القدماء وفي ١٣ اكتوبر عاد السردار مع أركان حربه الى القاهرة فاستقبل في محطتها باحتفال عظيم وأولم له الجناب الخديوي وليمة فاخرة في اليوم الثاني بسراي رأس التين باسكندرية وأنعم عليه بالنشان العثماني الاول وعلى قواد الحملة بنياشين أخرى مكافأة لهم على عملهم ومدح السردار الجيش المصري في تقريره بقوله جربت هذه التجربة في الجيش المصري فوجدته متصفا بصفات البسالة والاقدام والصبر على الشدائد والاتعاب مع تمام المحافظة على النظام وقد أظهر رجاله من الهمة والنشاط في كثير من الاعمال الشاقة والاحوال الصعبة ما يؤهله لكل مدح حتى كان بعض العساكر المصرية يخفون ما بهم من المرض والتعب ولا يبالون بتقرح أقدامهم من المشي ليلحقوا باخوانهم الذين سبقوهم الى ساحة القتال اه وكتب المستر هيليارد اتروج (A Hilliard Atteridge) مكاتب جريدة الديلي كرونكل الانجليزية وكان مرافقا للحملة كتابا مطولا سماه (Forwards Khartoum) أي الزحف على الخرطوم شرح فيه حوادث هذه الحملة وأكثر من المدح في السردار وأركان حربه وقواد الفرق وأثنى على العساكر المصرية ثناء كثيرا وقال لورد كرومر قنصل انجلترا العام بمصر في تقريره الذي رفعه الى المركيز سلسبري عن أحوال مصر انه لما فتحت مديرية دنقلة قسمت اداريا الى أحد عشر قسما برأس كل قسم مأمور عسكري أو مفتش من الضباط برتبة يوزباشي ويعاونه ضابط من البوليس برتبة ملازم وبعض من نخبة رجال البوليس وسمي قائد الجيش العام حاكما للمديرية وعين معه بعض الموظفين الاداريين ليعاونوه على اتمام واجباته الرسمية ثم قسمت أيضا عسكريا الى أربعة أقسام برأس كلا منها قائد عسكري مسؤل عن ادارة الاقسام التي تقع ضمن دائرة اختصاصه امام حاكم المديرية وأهم ما تحتاج اليه مديرية دنقلة الآن هو ان يكون فيها سكان فقد كان عدد سكانها ٥٨,٠٠٠ نفس في يناير سنة ١٨٩٧ منهم ٤٠,٠٠٠ من الاناث والاطفال فزادوا في السنة الماضية ١٩,٠٠٠ نفس منهم ٦٠٠٠ من بالغي الرشد مع ان الحرب كانت قائمة على ساق وقدم والمديرية عرضة لغارات الدراويش وتبلغ مساحة الاراضي التي تصلح للزراعة فيها ٧٩,٠٠٠ فدان والذي يزرع منها أقل من ٢٠,٠٠٠ فدان اه وبعد فتح دنقلة صدرت الاوامر الخديوية بعمل مداليات من الفضة لتوزيعها على الجنود تذكارا للانتصار المذكور وسميت بمدالية السودان ونقش على أحد وجهيها نقش كتب في أسفله لفظ استرجاع السودان والوجه الآخر اسم سمو الخديو عباس حلمي الثاني وتاريخ عملها وهو ١٣١٤ هـ وجعل لتعليقها شريط من الحرير الاصفر في وسطه خط أزرق علامة على نهر النيل المار في أرض مصر الصفراء وجعلت لها مشابك عليها أسماء الوقائع تعطى لكل فرد حضرها وهذا الوسام هو ثاني وسام عمل في الديار المصرية في عهد العائلة الخديوية لان الاول صنع في عهد الخديو السابق المرحوم محمد توفيق باشا عقب الحوادث العرابية وهو على شكل نجمة من البرونز منقوش على ظهرها حرفين بالافرنجية هما (M. T.) وهما الحرفان الاولان من اسم الخديو محمد توفيق باشا وعلى الوجه الآخر صورة أبي الهول والهرم ومحاطة بدائرة منقوش عليها بالعربي والانكليزي لفظة الخديوية المصرية والسنة التي عملت فيها وهي ١٨٨٢ م

Digitized by Google

وفى أواخر شهر يونيه من سنة ٩٧ قاد السر كتشنر باشا السردار الجيش المصرى وتقدم به من دنقلة الى الامام عن طريق النيل واستولى اللواء هنتر باشا بفرقته على أبى حمد فى ٧ أغسطس بعد سفر شاق قطع فيه نحو ١٣٢ ميلا وفى هذه الموقعة قتل الكولونيل سدنى بك (Sidney) قائد الاورطة العاشرة السودانية والبكباشى فتز كلارنس (Fitz Claronce) من الاورطة المذكورة ونحو ٢٧ نفرا من عساكرها وجرح ٦١ نفرا ولما فتحت أبو حمد أخلى الدراويش بربر من تلقاء أنفسهم على غير انتظار ولجؤا الى شندى والمتمة وكانت المتمة الى عهد قريب عاصمة قبيلة الجعليين الموالين للحكومة فاستفادت الحملة من ذلك . وفى ١٩ نوفمبر تم اتصال خط السكة الحديد الممتدة من حلفا الى أبى حمد فى العطمور وعمل فى هذا الخط سبع محطات سميت نمرة ١ ونمرة ٢ الخ واحتلت بعض الفرق بربر فى ١٢ سبتمبر وبعد ان عبرت المدفعيات الشلال الخامس بعث السردار اثنتين منها الى المتمة للاستكشاف فلما وصلتا الى قرب الشلال السادس أطلق عليهما الدراويش النار من حصونهم التى شيدوها بجهات المتمة فعادتا بعد الوقوف على مراكز العدو . وبعد قليل فتح الطريق بين سواكن وبربر وسارت فيها القوافل على عادتها القديمة وابتدأ السردار فى مد السكة الحديدية من أبى حمد الى بربر وبعد احتلال بربر بأشهر اقتنع التعايشى بأن الجنود المصرية ستنوى الزحف الى عاصمته فاعتمد على الدفاع وجمع معظم جيشه فى أم درمان وحشد بعض فرق من الدراويش فى شندى والمتمة والاماكن التى على ضفتى النيل عند شلالات سبلوكه

وفى ٢٥ دسمبر سنة ١٨٩٧ استلمت الاورطة السادسة عشرة المصرية وبطارية من الطوبجية بحضور برسونز باشا محافظ سواحل البحر الاحمر وسواكن مدينة كسلة من الجيش الايطالى الذى كان احتلها احتلالا وقتيا كما سبق بحسب منطوق الاتفاقية التى عقدت فى ١٥ ابريل سنة ١٨٩١ بين الحكومة الانجليزية والطليانية (لم نعثر على نصوصها) فسر أهالى كسلة بالجنود المصريين سرورا شديدا ثم بعث السردار بعض الفرق الى الدامر على رأس نهر عطبره واسترد عدة أماكن حربية من يد الدراويش بمساعدة العساكر الوطنيين هناك الذين كانوا قبلا فى خدمة الطليانيين وأوصى السردار برسونز باشا بالمحافظة على حدود الحبشة

ثم بلغ السردار ان التعايشى جهز جيشا من دراويشه تحت قيادة الامير محمود للتعرض له أثناء تقدمه على أم درمان فعزم على مهاجمته وجمع معظم الجنود المصرية فى بربر ثم تقدم بها الى نقطة كنوز ثم الى رأس الهودى وطلب النجدة من الجنود الانجليزية فاستقر الرأى على امداده ببعض أورط وبعد قليل سافر اليه أربع أورط وهى كامرونهايلندرس وسيفورث هيلندرس ولنكولوشير وووركستر تحت قيادة الجنرال جتاكر (Generale Gatacre) وقال لورد كرومر فى تقريره عن ذلك هذا واذا مست الحاجة الى نجدات أخرى أمكن ارسالها على جناح السرعة ولكن لا استصوب ارسال جنود انجليزية الى السودان أكثر مما يحتاج اليه منها نظرا الى رداءة الهواء وصعوبة نقل الزاد والمهمات فيما وراء السكة الحديدية . ومن الغريب ان معظم نجاح الاعمال الحربية فى السودان يتوقف على وسائط السرعة والنقل أكثر مما يتوقف عليها فى أكثر البلدان اهـ

واقعة العطبرة — لما عزم التعايشى على الهجوم وساق قوة من دراويشه تحت قيادة

الامير

Digitized by Google

الامير محمود الى المتمة كما قلنا تقدم السردار بالجيش المصري والانجليزي الى رأس نهر عطبره وعسكر به في أم ضبيعه ثم أخذ يستعد للحرب و بعث بالطلائع براو بحرا الاستطلاع حركات الدراويش فبلغه ان الامير محمودا عبر النيل بجيشه الى شندي وتقدم به نحو نهر عطبرة وعسكر على ضفته على بعد ٣٠ ميلا شرقي أم دابية وانه أقام زريبة كبيرة وشيد داخلها الحصون والحفر للمدافعة وذلك باشارة عثمان دقنه الذي أرسله التعايشي لمساعدة الامير محمود وان جيشه يبلغ ١٦٠٠٠ مقاتل منه نحو ٣٠٠٠ فارس مسلحين بقربينات رامنتون (وهذه أول مرة حملت فيها اسواري الدراويش أسلحة نارية) ونحو ٨٠٠٠ مسلحين بالبنادق والباقي بالسيوف والحراب وان معهم عشرة مدافع وفي يوم الخميس ٧ ابريل سنة ١٨٩٨ تقدم السردار بالجيش الى أبي غدار وفي اليوم التالي صباحا هاجم معسكر الامير محمود المذكور و بعد قتال شديد فازت عساكرنا على الدراويش فوزا مبينا وأسرت الامير محمودا وقد أوضح كثير من الضباط الذين شهدوا الموقعة ان الجيش سار مساء يوم الخميس المذكور من أم دابية و بعد ساعتين استراح الى الساعة الواحدة صباحا ثم ابتدأ في الهجوم على الزريبة المتحصن فيها الدراويش وكان الجيش يتألف من أربع بطاريات طوبجية و ١٢ مدفعا من نوع مكسيم و بعض السواريخ الحربية وثلاثة لواآت بيادة عدا الملحقات التي كان بها السواري والامداد وكانت الطوبجية تحت قيادة الاميرالاي لونغ بك (E. J. Long) وموجودة في الجناح الايمن أما مدافع مكسيم فقد توزعت على الجناحين والوسط وكان اللواء الانجليزي تحت قيادة الجنرال جتاكر وموجود في الجناح الايسر وكان يتركب من ثلاث أورط وكان اللوا آن السودانيان تحت قيادة مكدونالد بك (H. A. Macdonald) ومكسويل بك (J. G. Maxwells) وموجودان أحدهما على اليسار تعضده عساكر لويس بك (D. J. Lewis) الاحتياطية والآخر عن يساره أما السردار وأركان حربه فكانوا بين اللواءين الهاجمين والامداد في النقط الاخرى وبهذه الصورة تقدم الجيش ولما صار على مسافة قريبة وقف وأصدر السردار أوامره بالاستعداد للهجوم فخطبت قواد الفرق على العساكر بالتشجيع وفي الساعة السادسة وربع أطلقت الطوبجية القنابل على زريبة الدراويش فدمرتها تدميرا وقتلت منهم عددا عظيما ثم ظهرت فرسان الدراويش عن يسار الاجة مولية الادبار من نيران المدافع و بعد نصف ساعة كان فيها الدراويش ساكنين يسمع منهم دوي الرصاص ثم انقطع وفي الساعة السابعة كفت السواري عن اطلاق النار ونفخ في البوق بالزحف الى الامام واشتغلت العساكر في اطلاق البنادق تمهيدا للطريق ولم يمض الا القليل حتى دمرت أورطة كمرون هيلندرس والاورطة التاسعة السودانية الزريبة تماما ومهدتا الطريق وكان على بعد نحو ثلاثين ياردة فقط من الزريبة سور حصين وعندها حصل الالتحام والاصطدام وصار الحرب بالسلاح الابيض فكان منظرا هائلا وقد نكلت عساكرنا بالدراويش تنكيلا شديدا فكثر جرحاهم وقتلاهم ومن سلم منهم تشتت في الفيافي الى ماوراء النهر وفي الصحراء الجنوبية وفي مقدمتهم عثمان دقنه الذي هرب مع جموع خيالة الدراويش فاقتفى أثرهم لواء لويس باشا والسواري والطوبجية الراكبة وأسر من الدراويش نحو أربعة آلاف أسير بينهم الامير محمود الذي وجد مختبئا وكادت العساكر تقتله ولكنه قال أنا الامير محمود فقبضوا عليه وكان لاسره نتيجة فرح بين الجنود الانجليزية والمصرية وهذه الواقعة

من أهم الوقائع السودانية بل لم يحصل مثلها من تاريخ الحوادث السودانية قال أحد أفاضل الضباط ان معسكر الامير محمود كان عبارة عن حفر مركبة من ثلاثة خطوط خلف بعضها جعلت الاتربة الخارجة منها دروة لها وكسيت بقطع من أخشاب الدوم بحيث كان عمق الحفرة مع ارتفاع الدروة يسمح للمقاتل خلفها أن يضرب النار مرتكزا وخلف تلك الخطوط مكان السكنى الامير محمود وهو محاط بثلاثة خطوط أخرى بها الدراويش المخصوصون لحراسته وكانت حيواناتهم موضوعة بداخل حفر أيضا وكان جميع المعسكر محاطا بزريبة على شكل بيضوى مصنوعة من قطع الاشجار وقدرت قتلى الدراويش بنحو أربعة آلاف قتيل

وقد اوضح السردار مجمل هذه الواقعة فى تلغرافه الذى أرسله الى الجناب الخديوى وفيه يقول حصل الهجوم على مراكز الامير محمود المحصنة بنجاح تام وتوضيح ذلك انى زحفت الليلة الماضية من أم دابية فوصلت مع الفجر الى مسافة ميل واحد من تلك المراكز ثم تقدمت الى مسافة خمسمائة ياردة منها وعند ئذ ابتدأنا فى اطلاق المدافع عليها وكان اطلاق أول مدفع فى منتصف الساعة السابعة من الصباح وفى الساعة ٧ وخمس وأربعين دقيقة أخذ الجيش اهبته للقتال ووقف موقف الهجوم وكان الجناح الايسر من الجيش المهاجم مؤلفا من ثلاث فرق انجليزية ثم زحف مجموع الجيش بشدة عظيمة وساق امامه الدراويش الذين كانوا متحصنين فى الزرائب والاستحكامات إلى جهة النيل وكانت خسائر الدراويش جسيمة جدا لانهم ثبتوا فى مواقف الدفاع ولبثوا يضربون الرصاص حتى وصلنا قريبا من حصونهم وقد أخذ محمود أسيرا وفى هذه اللحظة تقتنى البطارية الرابعة بمدافع مكسيم اثر الفارين أما خسائرنا فقاصرة على قتل اليوزباشى أوركهاوت من أورطة كامرون هليندرس والملازم جيوم من بطارية سيفورت وجرح الماجور رنا بيير واليوزباشى فندلى من فرقة هليندرس والكولونيل مارى (وجرحه خفيف) واليوزباشى مالك لاجلند واليوزباشى بيلى والملازم طومسن والملازم فندلر من فرقة سيفورت والكولونيل فرنر والملازم بوكسر من فرقة لنكولسن والملازم جرير من فرقة وارويك وهذا ما حصل تقريبا بالنسبة لضباط الفرق الانجليزية أما خسائر الصفوف فسيرسل شرحها بعد ولم يقتل ضابط انجليزى من الجيش المصرى ولكن جرح منهم اليوزباشى والنى جرحا بليغا والملازم هارلى والبكباشى شكلتى ووالتر بجروح خفيفة والعناية بالجرحى زائدة وسأرسل لكم رسالة أخرى فائقة الشرح حينما أقف على بقية الاخبار وفى اليوم الثانى ورد التفصيل بأن جملة من قتل من الجيش المصرى ٥١ ومن جرح ٣٣٥ ومن اللواء الانجليزى ثلاثة قتلى من الضباط وعشرة من العساكر وتسعة جرحى من الضباط وتسعين من العساكر وأما قتلى الدراويش فبلغت ثلاثة آلاف بينهم كثيرون من الامراء وكانت غنائم الجيش عشرة مدافع وكمية وافرة من البنادق ونحو مائة راية وعدد عظيم من طبول الحرب والاسلحة البيضاء والماشية وما شاكل ذلك ووجد المصريون بين الغنائم تاجا للامير محمود مصنوعا من الجلد ومرينا بريش نفيس فعلم من ذلك ان قواد التعايشى كان لهم تيجان يلبسونها وقت اللزوم وقد بعث مولانا الخديو وملكة الانجليز وامبراطور المانيا يهنئون السردار على انتصاره وقرئت تهانيهم على الجيش فقابلها بالدعوات ثم عاد السردار بالجيش إلى بربر واشتغل بمد الطرق الحديدية وباتمام بناء الثلاث بواخر الحربية الجديدة وهى السلطان والشيخ والملك التى جلبها من انجلترا

وفى خلال ذلك عرض السير ميخائيل هكس بيتش ناظر مالية انكلتره (٧ يونيه ١٨٩٨) على مجلس نوابها صورة قرار بتنازل انكلتره لحكومة مصر عن مبلغ الثمانمائة ألف جنيه التى كانت اقرضتها اياها لحملة السودان فى عام ١٨٩٧ حينما امتنع صندوق الدين عن التصريح لمصر بأخذ مايلزمها من النقود للحملة المذكورة وأشار الى نجاح تلك الحملة نجاحا عظيما والى تجديد تجارة السودان حيث المديريات السودانية تعود الى الحياة شيأ فشيأ قال ولا جرم ان الزحف على الخرطوم سيكون أعظم مشقة من كل ماجرى حتى الآن ولكن القوات التى يقودها سعادة السردار السير هربرت كتشنر باشا مستعدة لجميع الطوارئ وسيكون عدد الجنود الانكليزية هذه المرة أكثر عدد رآه أهل السودان فيها حتى الآن ثم ان الجيش المصرى قد تحسن تحسينا عظيما وفارق الدراويش اقدامهم ولكنه لا ينتظر أن نبقى فى الخرطوم حامية عظيمة من الانكليز زمنا طويلا بلا هذا والحكومة الانكليزية لا تنوى مباشرة أعمال أخرى بعد فتح الخرطوم تستغرق نفقات عظيمة لفتح المديريات الواقعة قبلى الخرطوم ولكن أسطول المدفعيات يسير فى حملات لازالة كل حائل فى سبيل التجارة فى النيل كله ورأيه انه اذا حسنت علائق الوداد مع القبائل الساكنة غربى الخرطوم أمكن فتح بلادها للتجار وجنت مصر وبريطانيه العظمى المنافع العظيمة من تجارتها وقد حسب نفقات الزحف على الخرطوم بمبلغ ٧٥٠,٠٠٠ جنيه وهى نفقات يعسر على مصر دفعها فصادق المجلس على هذا القرار باتفاق ١٥٥ صوتا ضد ٨١ اه وقررت بعد ذلك نظارة حربية انجلتره ارسال ثمان أورط انجليزية و بطاريتى مدافع وأورطتى سوارى وبلوك من المهندسين الى السودان لمساعدة الجيش المصرى فى فتح أم درمان وجعلت لقيادة هذه القوة كلا من الجنرال ووكب (Wauchope) والجنرال ليتلتون (Lyttelton) وأخذ السردار يستعد للسير و بعث لورد سالسبرى رسالة برقية الى لورد كرومر بمصر فى ٢ أغسطس من سنة ١٨٩٨ بين له فيها ما يفعله السردار بعد فتح الخرطوم فقال ان حكومة جلالة الملكة لا تقصد بعد احتلال الخرطوم أن تعمل الاعمال الحربية العظيمة التى تستغرق النفقات الكثيرة لاحتلال المديريات السودانية القبلية بل تأمر السردار بارسال حملتين احداهما فى النيل الابيض والاخرى فى النيل الازرق وقد سمحت لك بأن تؤلف قوتى هاتين الحملتين على مايرى بمشاورة السردار ثم يقود السردار هربرت كتشنر حملة البحر الابيض بنفسه الى حد فشودة و يأخذ معه عددا قليلا من العساكر الانكليزية اذا اتفقت أنت واياه على مناسبة ذلك وأما الضابط الذى يقود حملة البحر الازرق فيسير الى حد الشلال الذى يبتدئ عند روسيرس على مايظن ولكن لا يجوز له أن ينزل جنودا لتسير فى البر الى ماوراء المكان الذى تصل اليه البواخر فى البحر الازرق فاذا التقى فى طريقه نقط الاحباش قبل وصوله الى روسيرس وجب عليه أن يكف عن المسير عندها و يخبر بما يرى و ينتظر الاوامر واذا لقيت حملة من الحملتين مأمورين فرنسويين أو حبشا فلتجتنب كل قول أو فعل يفيد اعتراف الحكومة الانكليزية لفرنسا أو للحبشة بحق امتلاك جزء من وادى النيل اه

هزيمة التعايشى ودخول الجيش أم درمان — اعلم انه لما وصلت هذه الاوامر للسردار كان الطريق الحديدى بلغ جهات عطبرة وتم بناء البواخر الحربية الثلاث ولهذا أمر السردار بسرعة تجهيز المعدات وامتداد الخطوط التلغرافية الى الامام مصاحبة لطلائع الجيش ثم أخذوا

Digitized by Google

في ارسال الآلات والادوات الحربية والمؤن والذخائر الى النقط الامامية بكل سرعة وأتت الاورطة الخامسة المصرية من سواكن الى بربر بطريق البر وأتت أيضا الاورطة الثامنة عشرة من مصر وشرعت الجنود الانكليزية تتقدم من بلادها وتسافر رأسا الى معسكر العطبرة على السكك الحديدية والتحق بأركان حرب السردار كل من البرنس أوف تك والبرنس كرستيان وعدة ضباط انكليز والتحق بالحملة أيضا عدة مكاتبين للجرائد الانكليزية فقط ثم أمر السردار بتقدم السرايا المصرية برا تحت قيادة الجنرال هنتر باشا الى النقط الامامية وكان يقودها كل من مكدونالد بك ولويس بك ومكسويل بك ثم تبعتها الالوية الانجليزية بحرا وعسكرت في مكان يدعى مغاتيا ثم ركب السردار مع أركان حربه احدى البواخر النيلية وقصد سبلوكة فوجد فيها حصون الدراويش الا انها خالية ليس بها أحد ووجد ان البواخر تستطيع عبور شلالاتها بسهولة فأمر عدة مدفعيات من أسطول الحملة بالعبور والتقدم لعمل الاكتشافات وكان الجيش بأجمعه وصل الى جهة تدعى وادحبد (٢٣ اغسطس) ثم حشد السردار جميع الجيش على ضفة النيل الغربية وكان عدده ٢٢٠٠٠ مقاتل وهنالك استعرضه وكان بينه وبين أم درمان يومئذ أربعون ميلا ثم أمر بتقدم السرية الاولى تحت قيادة هنتر باشا وساق بعدها باقي السرايا يتبع بعضها بعضا

قال مكاتب رويتر في أخباره انه صعد في اليوم المذكور على ذروة صخر ونظر الى البلاد المحيطة بسبلوكة فرأى وادي النيل ممتدا امامه ومغطى بالنباتات الزاهرة الرائعة ونظر غربا فرأى الصحراء على بعد صفراء اللون تلمع من نور الشمس وتمكن بواسطة المنظار من رؤية سرية هنتر باشا تزحف الى الامام والمطر ينهمل عليها وفي الجهة الشمالية رأى جبال الرويان تناطح السماء وهي سلسلة جبال صخرية يخترقها النيل عند سبلوكة وفي خلالها لمح جماغفيرا من الهاربين من أم درمان بجمالهم وقطعان أغنامهم وحالهم تمثل الهلع والجزع ثم في يوم ٢٦ أغسطس احتلت البواخر الحربية جزيرة صغيرة امام جبل الرويان وكانت كتائب العرب الموالية لمصر تسير على ضفة النيل اليمنى ولما وصل الجيش بلدة الهجير عسكر فيها امام جبل الرويان والتحق به هنالك السردار وأركان حربه وكان الجنرال رندل باشا قادما على احدى المدفعيات وبينما هو سائر قرب شندي أصيبت باخرته بخرق في جانبها فنفذ الى داخلها الماء ولما مالت على جانبها طلبوا بها البر ولكنهم قبل الوصول اليه غرقت منهم ولم يظهر منها سوى مدخنتها وساريتها ونجا رندل باشا هو ومن معه وخرجوا الى البر حتى مرت باخرة الظافر فركبوها الى المعسكر ثم تقدم الجيش وعسكر في وادي عبيد بمحل كان معسكرا للدراويش من قبل ومن هنالك أخذ السردار يستطلع حالة الاراضي المجاورة برا وبحرا ثم تقدم وجعل جزيرة بالنيل مستودعا للذخائر والمؤن واقامة المستشفيات ولذلك استغنى عن حفظ خط المواصلة ثم رتب كيفية الزحف على أم درمان فجعله على شكل خط مؤلف من الالوية وعين لكل لواء مركزه وأمر بالتقدم الى الجنوب وأمر قائد الاسطول بالتقدم فأقلع بسفنه ملك والفاتح والناصر ووصف مكاتب رويتر صورة ذلك الزحف قال انه في يوم الثلاثاء ٢٩ أغسطس زحف الجيش بعد الظهر بألوية مزدوجة وكان الليل مطيرا جدا فسار اللواء المصري بقيادة لويس بك في طريق الصحراء واللواء الانكليزي الذي يقوده الجنرال وكوب عن يساره حذاء النيل وكانت المدفعيات تحمي ميسرة الجيش والفرسان والطوبجية تحمي ميمنته وكان منظره مؤثرا جدا

والمشاة

والمشاة وعددهم ١٥ ألفا يزحفون فصيلة فصيلة مستعدين أن يصطفوا للحرب لدى أول اشارة والمدفعيات تجارى الجيش فى سيره مجاراة عجيبة وفرسان الانكليز والهجانة فى طليعة الجيش وبعد مسيرة عشرة أميال وقف الجيش ليستريح ولكن فرسان الانكليز ظلوا سائرين واحتلوا هضبة الشيخ الطيب وكان الاعداء قد جعلوها مركزا للاستطلاع لان الواقف عليها يرى ضواحى الخرطوم وأم درمان والنيل على مداه والناظر بالمنظار يرى محل التقاء البحر الابيض بالبحر الازرق وهو محل ذو شأن فى التاريخ وفى صباح الاربعاء استطلع الفرسان مدينة أم درمان نفسها استطلاعا تاما واكتشف الاسطول الحربى الخنادق التى تحصن الاعداء فيها ولكونها فى منخفض من الارض كما يفعل الدراويش عادة لم يتمكن الاسطول من معرفة قوتهم بالضبط ثم أصدر السردار أمرا الى الاسطول بمباشرة اطلاق القنابل على مكان العدو فابتدأت سفنه فى الضرب وظهر من الاخبار الرسمية الواردة من السردار على رئاسة جيش الاحتلال انه أرسل المدفعيات المصرية فسارت فى النيل حتى صارت بازاء حصون الاعداء المقامة على ضفة النيل اليمنى المواجهة لحصون أم درمان فأطلقت قنابلها عليها حتى دمرتها تدميرا وغنمت مدافعها كلها ومازالت تنسفها حصنا بعد حصن حتى غادرتها اطلالا بالية وكذلك الحصون المقامة فى جزيرة توتى الواقعة بين أم درمان والخرطوم كل ذلك ولم تصب مدفعية من المدفعيات بعطب ولم يلحق بأحد من عليها ضرر وكان لمدافع هاوتزر فعل شديد وفتك ذريع وقال أيضا انى وصلت يوم الجيش المذكور الى ميل ونصف عن كررى وكانت نقط الدراويش الامامية قد تقهقرت واجتمعت على بعد ثلاثة أميال الى الجنوب الغربى أما جيشنا المحارب فكان ينتظر نتيجة اطلاق المدفعيات القنابل على جزيرة توتى فى الضفة اليمنى من النيل ولما وصل السردار الى كررى المذكورة أرسل الى عبد الله التعايشى كتابا يدعوه فيه الى التسليم ويقول له فيه ان سلمت عاملناك معاملة العدل وان أبيت وأصررت على القتال فندعوك الى الخروج من أم درمان لتكون الواقعة خارجا عنها لاننا لا نريد بالنساء والاطفال والشيوخ الطاعنين سوأ ولا نحب أن يلحقهم الضرر فلذلك نسألك أن تجعلهم خارج السور فى مكان لا تصل اليه قنابلنا أو رصاص البنادق اذ لابد لنا من الاستيلاء عليها فقبل التعايشى أن يخرج جيشه من المدينة وعسكر فيما بين أسوارها بين التلول القريبة منها وراء الجهة المعروفة هناك بخور شمبات ثم لحق التعايشى بجيشه ليلة الجمعة وبات معهم بعد أن بشرهم بالنصر وأنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره بهزيمة الكفار والرجوع الى صلاة الجمعة فى وقتها بمسجد المهدى وكان السردار فى هذه الليلة نفسها قد وصل بجيشه الى قرية عجيجة التى تبعد عن أم درمان بأربعة أميال وكان الظلام حالكا وتلك الجهة تكثر فيها الربوات والغابات بحيث يظن الخبيرون أنه لو كان التعايشى هجم فى تلك الليلة على معسكر السردار لاوقع به ولكن الله قدر النصر والسلامة لمصر فبات الجيشان ولا علم لهما بمكان بعضهما ولكن السردار كان يعلم مكان جيش العدو وقوته وفى صباح يوم الجمعة لم يشعر الجيش المصرى والانجليزى الا والدراويش يتقدمون نحوه فرقة بعد أخرى على هيئة منتظمة حتى تمكن السردار من تقدير عددهم من نظامهم بخمسة وثلاثين ألفا وكان معسكر المصريين على هيئة هلال نقطته الوسطى قرية عجيجة التى جعلها السردار مركزاله ولاركان حربه وفى طرف الهلال من جهة أم درمان

Digitized by Google

العساكر الانجليزية وآخرهم ما يلي عجيجة العساكر المصرية وبينهما جميعا العساكر السودانية ثم الطوبجية ومعهم ٦٥ مدفعا منها ٢٣ من طرز مكسيم الجميع على خط واحد ثم دخلت السوارى فى مواضعها وذكر مستر استيفنس (G. W. Steevens) مكاتب جريدة الديلى ميل فى كتابه المسمى مع كتشنر الى الخرطوم (With Kitchener to Khartoum) ان الجيش عند ما عسكر حول قرية عجيجة الواقعة على بعد ميل الى جنوب مرتفعات كررى ليلة أول سبتمبر كان يتألف من ٢٢,٠٠٠ مقاتل تقريبا وكان على شكل زاوية منفرجة وفرقة الماجور جنرال جتاكر (Gatacre) الانجليزية فى الجناح الايسر ولواؤها الثانى ليتلتون (Lyttelton) على رأس الجناح وبجانبه بطارية مدافع الميدان وكان يتألف هذا اللواء من أربع اورط وهى رايفل بريجيد ولانكشير فوزيلير ونورثمبرلاند فوزيلير وغرنادير غاردر وعلى يمينه قائد لوائها الاول وشوب (Wauchopé's) ويتألف لواؤه من أورط وربك وسيفورث وكرون ولانكولوس وخلفهما الفرقة الرماحة الحادية والعشرين وعلى يمينهما اللواء الثانى المصرى ويقوده مكسويل بك ويتألف من ثلاث اورط سودانية وهى ١٤ و١٢ و١٣ وواحدة مصرية وهى الثامنة التى كانت على رأس الزاوية وعلى يمينه اللواء الاول قيادة مكدونلد بك ويتألف من ثلاث أورط سودانية وهى ١١ و١٠ و٩ وأورطة مصرية وهى الثانية وعلى يمينه فى رأس الجناح اليمين اللواء الثالث المصرى قيادة لويس بك ويتألف من أربع اورط مصرية هى ٤ و١٥ و٣ و٧ واللواء الرابع المصرى أيضا قيادة كولينسون بك (Collinson's) ويتألف من أربع اورط أيضا هى ١ و٥ و١٧ و١٨ وكان هذا اللواء بصفة احتياط فى وسط المثلث على شمال القرية وكانت المدفعيات جميعها تشغل مراكزها على خط مستقيم وأورط السوارى والهجانة على مرتفعات كررى والجناح الايمن كان معززا بثلاث مدفعيات حربية فى النيل كما ان الجناح الايسر كان معززا بمدفعيتين أيضا فى النيل هذا أما جيش الخليفة فكانوا يقدرونه بين أربعين وخمسين ألف مقاتل مقسما الى ثلاث فرق كانت الاولى منها تحت قيادة عثمان الازرق ووجهتها مهاجمة قرية عجيجة المعسكر فيها الجيش المصرى والانجليزى وكانت الثانية تحت قيادة على ولد حلو ومعه الراية الزرقاء ورفقته ولدا التعايشى الاكبر عبد الله شيخ الدين ووجهتها الصعود فوق مرتفعات كررى لتحدق بجناح الجيش الايمن والثالثة تحت قيادة الخليفة عبد الله نفسه وأخيه يعقوب وكانت واقفة خلف جبل سرجهام وعلى ذلك كان زحف جيش المهدى اه

ولما وصل جيش التعايشى الى آخر مرمى المدافع المصرية أخذت تطلق قنابلها عليه ولم يزل الدراويش يتقدمون على جيش السردار حتى التحم جناحهم الايمن بجناح الجيش المصرى الايسر الذى يشغله السوارى الانكليزية فكاد الدراويش يفتكون بهم واستمر جناح الدراويش الايسر سائرا يتقدم نحو الجناح الايمن من الجيش المصرى الذى هو مركز السوارى المصرية فلم يلتحم به الا بعد ساعة وربع كانت العساكر الانكليزية انتصرت فيها على جناح الدراويش الايمن واستمر القتال بعد ذلك بين الفريقين خمس ساعات ولما انكسر جناح الدراويش الايمن سار الجيش الانكليزى حتى قطع عليه خط الرجعة الى أم درمان فانحصر الدراويش بين نارين ولذلك لم يسلم منهم الا القليل الذى التجأ الى الصحراء والذى دفع بالدراويش الى هذا التهور فى الهجوم حتى انحصروا بين النيران انهم

Digitized by Google

كانوا يحاولون الالتحام الكلى بجيش السردار لاستعمال السلاح الابيض الذى تعودوا الانتصار به فى وقائعهم ولما خلت الطريق من الدراويش بين عجيجة وأم درمان تقدم السردار حتى وصل الى خور شبالك ونزل للاستراحة وكان التعايشى فى هذه الاثناء قد رجع الى أم درمان فدخل منزله وضرب النقير المسمى عنده (بالبيعة) فلم يجبه أحد من حزبه ولما استبطأهم سار راجلا من أحد أبواب منزله مسافة ميل ونصف الى أن خرج من باب ام درمان الجنوبى ثم ركب فرسه وأمر نائبه واتباعه بأن يلحقوه فلحق به من لحق وبقى من بقى وممن لحق به ابنه عثمان الملقب بشيخ الدين وعثمان دقنه ويونس الدقن وغيرهم ويقال انه قد فر معه من جنوده نحو العشرة آلاف بأسلحتهم وعددهم

أما السردار فانه لم يهجم على أم درمان فى الحال لان الجيش كان ظمآن متعبا ولما استراحوا دخل السردار بجيشه أم درمان وذهب الى بيت التعايشى وسأل عنه فقيل له انه موجود فيه لانهم لم يعلموا بهروبه فأمر السردار بحصار البيت فحاصروه وبعد قليل تحقق الجيش ان التعايشى فر هاربا فى أثناء استراحة السردار وقال أحد من شاهد حرب اليوم المذكور انه لما دخل الجيش المدينة فعلت الاورطة التاسعة السودانية والعرب الموالون للحكومة من الافعال ما يحمر له وجه التمدن خجلا ويقال ان أغلب جنودها كانوا من اتباع الامير محمود ولهم معرفة تامة بأم درمان فانطلقوا فى أنحاء المدينة يعيثون فيها الفساد ينهبون ويسلبون ويفتكون ولما علم السردار بذلك أمر مشددا بمنعهم وبمراقبتهم وقد كان بيت مال التعايشى محط آمال السردار فانه أمر عند دخوله المدينة الاورطة السابعة تحت قيادة الميرالاى ابراهيم بك فتحى بالمحافظة عليه ويقول أهل أم درمان ان التعايشى لم يأخذ معه من أمواله شيأ ويقولون ان بينها كثيرا من الفضة والذهب وريش النعام وقرن الخرتيت وسن الفيل ولكن تداول على الالسنة فيما بعد أن التعايشى كان نقل أمواله ونفائسه من أم درمان الى مكان مجهول قبل ذلك بسنة من الزمان وبعد ان تفقد السردار أبنية المدينة ومعاملها أمر بجمع الاسلحة وقسمتها على جنود الجيش لتكون عندهم بمنزلة التذكار وأرسل الاخبار البرقية بانتصاره هذا الى رئاسة مجلس النظار بمصر قال انه فى فجر يوم ٢ سبتمبر هجم جيش الدراويش بأكمله تحت قيادة الخليفة بنفسه على القوة التى تحت قيادتى ولكن الدراويش اضطروا للتقهقر بعد أن تكبدوا خسائر جمة ثم بدأت بالزحف على أم درمان وعلى مسافة أميال منها هجم العدو علينا هجمة شديدة وفى هذه المرة تشتت شمل جيشه وتمزق كل ممزق واحتللنا أم درمان بعد الظهر بلا مقاومة تذكر وأما الخليفة فقد ولى الادبار وفرساننا فى أثره طاردته هم والمدفعيات ونيوفلد وابراهيم فوزى و ١٥٠ أسيرا مصريا قد خلصوا كلهم من الاسر وهم بغاية السلامة معنا وكان سلوك الجميع جديرا بالمدح والثناء وفى مساء يوم السبت سلمت بقية قوات الخليفة والاسرى كثيرون وأما خسائر الجيش فالمجاريح من الضباط المصريين تسعة توفى منهم واحد وقتل من العساكر المصرية ٣٥ والمجروح منهم ٢٧٩ وخسائر الجيش الانكليزى ثلاثة منهم الضابط غرنفيل ابن أخى الجنرال غرنفل باشا قومندان جيش الاحتلال الحالى والمستر هوارد مكاتب جريدة نيويورك هرالد وجرح سبعة ضباط وقتل ٢٤ عسكريا وجرح ١٠٣ اما خسائر الدراويش فقدرت القتلى بنحو ١٠,٤٠٠ والجرحى بنحو ١٦,٨٠٠ والاسرى بنحو أربعة آلاف

Digitized by Google

فيكون مجموع ماقتل وجرح وأسر منهم نحو ٢٠٠ر٣١ نفر وشرح مكاتب جريدة الدالى تلغراف الانكليزية هذه الواقعة فى رسالة بعث بها الى جريدته قال أصبحت وفى استطاعتى ان أبعث لكم شرحا وافيا عن اليوم الثانى من واقعة أم درمان ولا يخفا كم انه لم يكن فى الامكان ارسال ذلك فى يوم الواقعة نفسها بسبب الخطر الشديد على المراسلات فاضطررت حينئذ أن أضبط الواقعة فى مذكرتى واليكم الشرح الوافى عن حملة الدراويش الذين هاجمونا أول يوم فأصدر السردار أوامره للالوية الانكليزية بعد أن سارت الجنود المصرية والسودانية تمهد الطريق قبل ذلك والجاء العدو للتقهقر ولم يحصل فى اليوم الاول غير هذه الحركات وفى اليوم الثانى كان التعايشى برجاله مستعد اللقتال على تل عال ثم استأنف الحملة على الجنود المصرية وحينذاك اندفع كالسيل الجارف الى الامام غير أن المصريين والسودانيين قابلوهم بشجاعة وثبات يمدح عليهما أعظم الجيوش المدربة على القتال السنين الطوال وقد اصطفت الجنود المصرية على خط واحد معها الواء مكدونلد السودانى الذى كان جناحه الايمن مرتكزا على النهر والجناح الايسر واصلا الى سفح الاكمة العالية كأنهم جميعا واقفون للتمرين أو الاستعراض لا يبالون بالموت الزؤام ولم تظهر عليهم علامة ما للاضطراب والقلق حتى فى النقط التى كان الهجوم عليها قويا شديدا بل استمرت الجنود على اطلاق نيرانها بثبات غريب ومهارة فائقة بنصب رصاصها فيفتك بالعدو الذى بلغ عدده خمسة عشر ألفا وأكثر فتكاذريعا ولما كان السردار فى هذا الحين يتقدى بالزحف على أم درمان حيث الساعة ٨ صباحا وقد رأى ما هو واقع أمامه فى الجناح الايمن اضطر أن يوقف سير الجنود ويحول وجهها للاخذ بناصر الجنرال مكدونلد وقد كان الأنه بقيت الجنود المصرية والسودانية على ما كانت عليه ثباتا وشجاعة حتى ان الجندى الواحد أفرغ فى هذه المعركة ساعتئذ ١٢٠ خرطوشا وفى الواقع ونفس الامر ان الانتصار الباهر اكتسب فى تلك الساعة وانهم يأت انصرة الجنود المصرية والسودانية فى هذه المعركة الهائلة من الجنود الانكليزية سوى أورطتى (سيفورت) و (الكرونها لينسدرس) ويمكننا أن نقول بعد ذلك بكل ارتياح ان الفضل فى رد الدراويش على الاعقاب والقضاء عليهم فى ذلك اليوم هو للجنود الخديوية المصرية والسودانية وفى ذلك الوقت حملت بطارية مكسيم وأورطة الميدان الثانية والثلاثون عملا بذكر وقد كانت بالقرب من الواقعة ذروة عالية كانت عليها فئة من الدراويش تطلق الرصاص فسار اليها السردار بالجنود الانكليزية وطردها من مكانها ثم سحبت المدافع بسرعة عجيبة الى أعلى الذروة التى كانت تجاوز السهل المنبطح الذى كان ميدان القتال بين الجنود المصرية والدراويش ولما وضعت المدافع فى ذلك المكان أرسلت الى البقارة نارا حامية أصلتهم وأضرت بهم فاضطروا الى التقهقر ولكنه لم ينته القتال وقتئذ فقد حاول الدراويش أن يندفعوا مرة ثانية عن جهة الوادى غير ان الجنرال مكدونلد أمير الاى الاورطة السودانية أدار مقدمة جنوده بتحويل وجهها جنوبا وناهيك بهذا العمل الصعب فى موقعة هائلة لا كما يكون مثله وقت الاستعراض والتمرين غير أن الجنود انتظمت بسرعة غريبة مدهشة و بعد بضع دقائق كانت نيران بنادقها تنصب على الدراويش حتى اضطرتهم وهم أشجع البقارة وأقدرهم على القتال الى القهقرى فخفت بذلك وطأة هجومهم الشديدة عما كانت عليه فى أول الواقعة وكانت الجنود الانكليزية فى ساعة هذه الواقعة واقفة تشاهد القتال اذ كان العمل كله للجنود الخديوية ثم مدح شجاعة الدراويش وقال

Digitized by Google

كل ما مضى لم يثن من عزيمة رجال التعايشى الراجلين بل هو قد زادهم حماسة واقداما وكانما نيران حب الانتقام اتقدت فى صدورهم فساروا الى الامام آخذين السهل عرض وجوههم مطالبين بثار أولئك الفرسان البواسل وقد ظلوا هكذا ايلوون على شئ ويطلقون بنادقهم آنافآنا وهم زاحفون على جنودنا حتى صار الجو أقتم مغبرا بسهامهم ولكن لحسن حظنا كانت مراميهم عالية فكان رصاصهم يتطاير فوق رؤسنا بغير جدوى وكانت هذه حملة الخليفة الاخيرة تخفق فى وسطها رايته السوداء وقد أخذت مدافعنا وبنادقنا تصب عليهم نيرانا حامية حتى قطعت صفوفهم ولاسيما المدافع التى كانت على مرتفع مطل على الوادى فانها اعملت عملا لايذكر الى أن قال وكانت الراية السوداء المنقوشة ببعض الكلمات الدينية تخفق وحولها يسقط الدراويش زرافات ووحدانا صرعى بقنابل مدافعنا ورصاص بنادقنا الى أن فر الخليفة التعايشى وبقيت الراية بين رجلين لايفارقانها حتى سقطا الى أن قال ولقد استمر بعد ذلك المنظر المؤثر اطلاق النيران من جنودنا بضع دقائق حتى خلا الجو من رائحة الدراويش وكان بعضهم قد طلب الفرار وبعضهم ألقى بسلاحه الى الارض كدرا وحزنا وصار غشى الهوى ناغبر مكترث بالرصاص الذى يتبعه ولم يسلم الباغبر الغزر اليسير وبذلك تم القضاء على قوة التعايشى الى أن قال وأما نحن فحولنا وجوهنا نحو أم درمان حيث انتهت الواقعة وتم الانتصار الباهر وكانت الطريق الموصلة الى تلك المدينة فى سهل مغطى بالجثث الملتحفة بالمرقعات البيضاء وكان من ضمن القتلى أخو الخليفة ومشيره محمد يعقوب شيخ الدين والامير عثمان الازرق وقائد آخر من أعظم قواده وبعض الامراء المختلفين وأما التعايشى فقد فر كما ذكرنا آنفا واقتفت الفرسان والطوبجية أثره ولكنها لم تظفر به اه هذا ويقال ان التعايشى أرسل قسما عظيما من جنوده قبل واقعة أم درمان الى كردفان ليكونوا له نصراء فيما بعد وذلك حينما افتكر فى قوة الجيش المهاجم وعلم مقدرته وجودة أسلحته ونظامه فان صدقت هذه الرواية كانت الجنود المذكورة غير الجنود التى فرت معه يوم الواقعة قالت جريدة بولتيش كرسبندانس الالمانية يظهر ان الخليفة حارب الجنود الانكليزية والمصرية مقتنعا ان لا أمل له بالنجاح امامها وعليه لا فاها بقسم من جنوده وأبقى قسما كبيرا ليجدد به الحملة ويعيد الكرة متى سنحت له الفرصة أو ليقيم العراقيل على الاقل فى سبيل تأييد الحكم الانكليزى المصرى فاذا صح ذلك كان على جيش السردار مهمة عظيمة بعد ولم تكن معركة أم درمان وما سبقها غير بدء الحرب السودانية الحقيقية لان الحملة حاربت الى الآن على ضفاف النيل وكانت المواصلات ووسائط النقل متيسرة برا وبحرا أما الآن فلا بد لها من اختراق الصحراء بعيدة عن قاعدة أعمالها ومن احتلال كردوفان ودارفور ليبقى خط النيل فى يدها طبقا لما كان خديو مصر السابقون يفكرون فيه ويسعون فى تحقيقه وختم المكاتب رسالته بقوله انه لا يبعد من ثم أن تقوم الحملة الانجليزية المصرية بأعمال جديدة فى الشتاء القادم اه واتخذ السردار منزل الامير يعقوب أخى التعايشى الذى قتل فى الواقعة مسكنا له ورفع عليه العلم المصرى والعلم الانكليزى ثم جعل مكسويل بك قومندانا لام درمان والبكباشى بتر الذى كان حكمدار بوليس مديرية الجيزة سابقا حكمدار البوليس فيها وبعد ذلك قصد خرائب الخرطوم وتفقد رسومها الدارسة ودار صناعتها وما بها من المهمات والذخائر والادوات والاسلحة وأمر بالمحافظة عليها ثم أطلق سراح جميع المسجونين بين مصريين وغيرهم وأصدر نشرة يهنئ فيها الجنود

الانكليزية والمصرية على فوزهم العظيم و بنى على آدابهم وحسن سلوكهم فى الموقعة الفاصلة التى قضت على قوة الدراويش وأخذت بثأر غوردون ثم رفعت الراية الانكليزية والراية المصرية على الخرطوم أيضا ولما وصلت أخبار هذه الانتصارات الى مصر وأوربا وردت الرسائل التلغرافية بالتهانى الى السردار من جلالة ملكة الانكليز ومن سمو مولانا الخديو ومن جلالة امبراطور المانيا ومن كثيرين من عظماء الرجال ورقت الحكومة الانكليزية السردار كتشنر باشا الى رتبة بارون وأنعمت عليه بمبلغ عظيم قدره ٢٥٠٠٠ ليرة وأنعمت الحكومة المصرية على رجال الحملة بمرتب شهرين مكافأة لهم على أعمالهم ولما كانت القبة المقامة على قبر المهدى فى أم درمان تهدمت بقذوفات البواخر قبل الواقعة بيوم اجتمع غوردون بك ابن أخى غوردون باشا ومكسويل بك وبعض من ضباط الجيش الانكليزى أثناء سفر السردار الى فاشوده وهدموا ما بقى من القبة بالديناميت لمحو آثار المهدى بالكلية ونبشوا قبره وأخرجوا جثته ولم تكن بليت بعد ووجدوا جلد رأسه ناشفا على الجمجمة وبرأسه ولحيته بقية من الشعر ووجدوا تحت رأسه هلالا من الفضة فى وسطه نجمة من الذهب وفى عنقه سبحة وهو راقد على فروة فأخذ غوردون بك رأسه ليرسلها الى لندن لتعرض فى معرض الجماجم أما جثته فنثرت فى جوانب الصحراء وبذلك تم الانتقام لغوردون وورد فى الكتاب الازرق الانكليزى الرسمى انه لما فتحت الخرطوم قابل سفير انجلترة الموسيو دلكاسى ناظر خارجية فرنسا (٧ سبتمبر سنة ١٨٩٨) فهنأه هذا بالفوز ثم قال له وأظن ان الاسطول الانجليزى يسير فى النيل حالا الى الجنوب فاذا أصاب ظنى فلا بد أن يلتقى عما قليل بالكبتن مرشان ولذلك يحسن أن تعلم الحكومة الانجليزية انه أعطى أصرح الاوامر وأوضحها فأخبر صريحا انه انما هو رسول للتمدن ولا سلطة له أن يحكم فى مسئلة من مسائل الحقوق الخاصة بالحكومتين الانكليزية والفرنساوية وحدهما دون سواهما وحذر أن يأتى أمرا يفضى الى المنازعات المحلية ثم سأل السفير أن يخبر لورد سالسبرى بذلك وأعرب عن أمله بان يصدر الاوامر الى قائد قوات المملكة المصرية فى النيل بان لا يأتى أمرا يفضى الى منازعات محلية فيما يتعلق بمسائل الحقوق فشكر السفير الناظر على تهنئته وسأله هل جاء الحكومة الفرنساوية أخبار عن الكبتن مرشان حديثا وأين محله الآن فأجابه انه وصلنا أخبار منذ ٤٨ ساعة عن الكبتن مرشان ولكننا لا نعلم محله الآن لان تلك الاخبار وصلتنا بعد زمان طويل والارجح ان الكبتن مرشان وصل الى النيل بعد ذلك ولذلك تخشى الحكومة الفرنسوية من وقوع النزاع عند التقائه بالاسطول الانجليزى فأرسل السفير فى ذلك اليوم أى فى ٧ سبتمبر يخبر لورد سالسبرى بذلك وفى ذلك اليوم عينه أرسل المستر رنل رود (Rennell Rodd) سكرتير قنصلية انجلترة بمصر تلغرافا الى لورد سالسبرى يقول فيه ان السردار علم بعد البحث ان فى فشودة ثمانية ضباط فرنسويين وثمانين عسكريا من أهل السنغال وان الراية الفرنسوية مرفوعة عليها ويظهر ان ليس فيها أحباش ولا فى سوبات مع انه كان قد بلغنا منذ مدة انهم كانوا فى تلك الجهات وكان الخليفة قد أرسل باخرتين الى فشودة فأطلقوا النار عليها وبقيت احداهما جنوبا ورجعت الاخرى الى الخرطوم لتخبر الخليفة عما كان اه وكان السردار لما سمع من باخرة الدراويش المذكورة ان حملة فرنسوية تحت رئاسة ضابط يدعى مرشان (Marchand) احتلت فشوده خابر الوكالة البريطانية بمصر فصدرت الاوامر بما يلزم فركب فى يوم ١٠ سبتمبر

Digitized by Google

١٨٩٨ ثلاث بوارج حربية وهي الفاتح والناصر والملك وأخذ معه الاورطة الحادية عشرة والاورطة الثانية عشرة المصريتين ونحو مائة عسكرى من الانجليز وبعض مدافع وسار فى النيل حتى وصل مقابل فاشوده يوم ٢١ سبتمبر المذكور فرسا هنالك ولم يمض الا القليل حتى جاءه بعض الفرنسويين فى صندل من الحديد يسألونه من أنتم فقال لهم ثم سألهم ومن أنتم قالوا انا من رجال مرشان فلاطفهم السردار وأكرمهم وطلب منهم أن يخبروا مرشان بمجيئه وأنه يروم الاجتماع به فاما أن يأتى اليه أو يذهب هو اليه فرجعوا وكان مرشان قد بنى حصناله على خور على ضفة النيل ورفع عليه الراية الفرنسوية وأقام فيه برجاله وعددهم احد عشر أوروباويا غيره و ١٥٠ سنغاليا وغيرهم وهم يلبسون الطرابيش ومعهم خمسة صنادل من الصاج فلما عاد اليه رجاله وأخبروه بكلام السردار ركب صندلا مع بعض رجاله وجاء لزيارة السردار فأحسن السردار ملتقاه ونزل كلاهما الى السفينة المصرية بحيث اختليا مدة ثلاث ساعات ثم خرج مرشان فودعه السردار الى سلم بارجته وركب بعد قليل هو والميرألاى ونجت بك لرد الزيارة له وفى صباح اليوم التالى اختار السردار بقعة على ضفة النيل تبعد نحو مائتى باردة عن الراية الفرنسوية شمالا ونصب عليها الراية المصرية ونادت الجنود حينئذ افندينز چوق يشا ثلاثا ثم وضع أربعة مدافع بجانبها وترك الاورطة الحادية عشرة هنالك وسار ظهر يوم ٢٢ سبتمبر جنوبا مسافة ستين ميلا الى نهر صوبات فرفع الراية المصرية عليها أيضا بحفلة كالحفلة التى تمت فى فاشوده وترك فيها نصف الاورطة الثانية عشرة وقفل راجعا ويقال انه طلب من مرشان وجماعته ان يتواعه فأبوا الا بأمر دولتهم وكان السردار اقتصر كثيرا فى محادثة مرشان واقتصر على ابلاغه البلاغات الرسمية فقط ثم عاد الى الخرطوم وبعث عن ذلك رسالتين الى الوكالة البريطانية بمصر فأرسل مستر رودعنهما تلغرافين الى لورد سالسبرى أحدهما فى ٢٢ سبتمبر والثانى فى ٢٥ منه وهما

(الاول) وصلنى من السردار خبر من رنغ قبلى الخرطوم بنحو ٣١٠ أميال يقول فيه لاريب ان الجنود التى هى فى فاشوده جملة مرشان وانه ليس للحبش أثر فى جهات صوبات ولا النيل الابيض وان قبائل دنكا والشلك ساعدت الحملة ظنا منها ان رجالها انكليز ينصرون الحكومة المصرية فلما علمت انهم ليسوا كذلك قالت انها تنحت عنهم وقد طلب السردار من قبائل الشلك ان تقابله وهو يؤمل ان يصل الى فاشوده بعد ثلاثة أيام وقد فاجأ الدراويش وهم ينتظرون وصول المدد من الخرطوم للهجوم على الفرنساويين فشتت شملهم بعدما قاوموه مقاومة شديدة وغنم باخرتهم واحد عشر زورقا وهو يقول انه يفرغ الجهد فى المجئ بمرشان ورجاله معه وقد اتصل به انهم أقاموا الحصون وحفروا الخنادق فى فاشوده (والثانى) قال فيه رجعت الآن من فاشوده وقد لقيت فيها الموسيو مرشان وثمانية ضباط و ١٢٠ عسكريا وكانوا قد رفعوا الراية الفرنساوية على دار الحكومة القديمة وسكنوا فيها فكتبت اليه كتابا قبل وصولى بيوم أخبره فيه انى قادم الى فاشوده ففى الصباح التالى أى فى ١٩ سبتمبر جاءنى زورق صغير رافع الراية الفرنساوية بجواب من مرشان وفيه يقول انه وصل الى فاشوده فى ١٠ يوليو بعدما أمرته حكومته باحتلال بحر الغزال حتى ملتقاه ببحر الجبل وأيضا بلاد الشلك على الضفة اليسرى فى البحر الابيض الى فاشوده وانه عقد معاهدة مع مشايخ الشلك مقتضاها بسط حماية فرنسا على بلادهم وأرسل المعاهدة الى

Digitized by Google

حكومتـه لتصادق عليها عن طريق الحبشة وطريق بحر الغزال أيضاثم وصـف القتال الذي جرى بينه وبين الدراويش في ٢٥ أغسـطس وقال انه كان ينتظر هجومهم عليـه هجـمة أعظم من الاولى فتداركا لذلك أرسل باخرته جنو بافي طلب المدد ولكن وصولنا منعهم من اعادة الكرة عليـه فلما وصلنا الى فاشوده جاء الموسـيو مرشان والموسـيو جرمان الى باخرتنا فأخـبرتهما من فوري ان وجود قوم من الفرنساويـين في فاشوده ووادي النيـل يعد تعـديا على حقوق مصر والحكومة الانكليزية واعترضت على احتلالهم لفشوده ورفعهم الراية الفرنسوية على أملاك سمو الخديوي أشد الاعتراض فأجابني الموسيو مرشان ان الاوامر صدرت اليه صريحة باحتلال تلك البـلاد ورفع الراية الفـرنساوية على دار الحكومة في فاشوده وانه يستحيل عليـه الخروج من ذلك المكان الا بأوامر حكومته وهو ينتظران أوامرها لا تبطئ فسألته عما اذا كان يقاوم منافي رفع الراية المصرية على فاشوده وهو يعـلم ان معي قوة أعظم من قوته فتردد ثم قال انه لا يستطيع المقـاومة فرفعت الراية المصرية حينئـذ قبـلي الراية الفرنسـاوية بنحو خمسمائة ياردة على ركن منهدم من أركان الحصون المصرية القديمـة المشرفة على الطريق الوحيـد بين مكان الفرنساويين وبين داخلية البـلاد لان المسـتنقعات تحيط بمكان الفرنسـاويين من الشمـال وهي سباخ لا تعـبر وقبـل سفري من فاشوده جنو با دفعت الى الموسيو مرشان كتابا اعترضت فيـه اعتراضا رسميا بالنيابة عن الحكومة الانكليزية والحكومة المصرية على احتلال فرنسا لجزء من وادي النيل لان ذلك يكون تعـديا على حقوق الحكومتين وقلت اني لا أعترف باحتلال فرنسا لجزء من وادي النيـل وتركت في فاشوده حامية وهي عبارة عن أورطة سودانية وأربعة مدافع وباخرة مدفعية تحت أمر المـاجور جكسن وعينته قومنـدانا للمركز فاشوده ثم سرت الى صوبات ورفعت الراية عليها وأقمت نقطـة فيها في ٢٠ سبتمبر ولم أر للاحباش أثرا على نهر صوبات ولكني أثبتت ان أقرب نقطة لهم تبعد ٣٥٠ ميـلا عن ذلك النهر ووجدت بحر الجبـل غاصا بالطحالب والاعشاب فأمرت مـدفعية ان تسـير في بحر الغزال للاستطلاع متوجهة جهة مشرع الرق وعدت فلمـا مررت بفاشوده في رجوعي شمالا أرسلت الى الموسيو مرشان كتابا أقول فيه ان نقل المواد الحربية ممنوع لان البلاد موضوعة تحت الاحكام العرفيـة وجاء شيخ قبيلة الشلك وكثيرون من رجاله الى معسـكر المـاجور جكسـن وأنكر انه عقد معاهدة مع الفرنسـاويين وقد أبدت القبيلة كلها مزيد السرور بالرجوع الى طاعتنا هذا والموسيو مرشان تعوزه الذخـيرة والمؤنة وكل ما يرسل اليه لا يصله الا بعد أشهر ثم انه منقطع عن داخلية البلاد ووسائط النقل في المـاء عنده لا تفي بالمراد وليس له اتباع في البـلاد ولو تأخرنا أسبوعـين عن قطع دابر الخليفة للاشى الدراويش حملته ولم ينج منها أحد من أيديهم انتهى عن الكتاب الازرق

واعلم ان مرشـان هذا هو ضابط فرنساوي تحت إمرة مسيو ليوتارد (Liotard) حاكم عموم الكونغو الفرنسوي وكان ليوتارد بفرنسا في هـذا الوقت ولمـا علم به مكاتب احـدى الجرائد ذهب اليـه وقابله ولمـا سأله عن مرشان وحملته قال أقوالا استنسنا درجها في أسـفل الصحيفة (١) لتمـام الفائدة ولمـا عاد السردار الى الخرطوم أخـذ ينظر في أحوال البـلاد التي تم له فتحها وأرسـل

(١) قال الموسيو ليوتارد ان لادو وبحر الغزال كانتا تابعتين للحكومة المصرية من سنة ١٨٦٨ الى سنة ١٨٨٣ أي الى ما بعد واقعة هيكس باشا وتسليم سلاطين باشا. لادو لامين بك وبحر الغزال لعطون بك وللم... [illegible] (بحر الغزال المذكورة)

بعض

بعض السرايا فى البحر الازرق على البواخر المصرية لاتمام فتح بلاد سنار وجهات القلابات وسار برسوتز باشا فاستولى على القضارف بعد ان فرق جموع الدراويش المجتمعة هنالك تحت رئاسة ولد الفضل أحد قواد جيوش التعايشى ثم عاد السردار الى مصر فى يوم الخميس ٦ اكتوبر سنة ١٨٩٨ فاحتفلت الحكومة وادارة جيش الاحتلال باستقباله احتفالا باهرا وباتمام هذا الفتح العظيم عاد السودان المصرى الى مصر ولم يبق خارجا عن أملاكها القديمة بالسودان المصرى سوى كردفان ودارفور ومقاطعات خط الاستواء ومديرية بحر الغزال

ودخل احتلال الفرنسويين لفاشوده فى دور سياسى عظيم وكان مسيو هانوتو (Hanotaux) وزير خارجية فرنسا السابق كتب عن تقسيم افريقية رسالة فى مجلة باريس سنة ١٨٩٦ قال فيها انه يجب على كل فرد من الجمهور ان يعرف أنه اذا احتلت حملة مرشان مدينة فشوده فالفضل فى ذلك الا لرجال الحكومة الفرنسوية الذين وضعوا هذا المشروع منذ زمن مديد قاموا بتنفيذه بناء على الخطة التى رسموها له وكل من نزع منهم الى القول بانحطاط فرنسا وهبوط نفوذها الاستعمارى فما عليه الا أن يطرح نظره على خريطتى أفريقية وآسيا ليدرك مقدار خطئه فيما ذهب اليه من النظر والاعتقاد اه

اذ أنها قطعت فى يد المهدى ولم تفتكر انكلترة بشأنها مطلقا فى ذلك الوقت حتى سنة ١٨٨٨ أى منذ تأسيس ولاية الكونغو الحرة ولما كانت هذه الولاية مجاورة لاملاك فرنسا فى شرقى افريقية ابتدأت المخابرات معها فى أمر تسوية الحدود التى انتهت بتحديد حكومة الكونغو الى مركزها الحالى فى الاوبنجى وما وراء ها شرقا الى النيل فلذلك سارت حملتا بحيرة تشاد تحت رئاسة الموسيو بونشامب (Bonchamps) وحملة بحر الغزال تحت رئاسة مارشان وكان خروج مرشان من فرانسا فى سنة ١٨٩٦ يرافقه ثلاثة يوزباشية وهم جرمان (Germain) وباراتيه (Baratier) ومانجان (Mangin) والملازم لارغو (Largau) والترجمان لاندروان (Landeroin) والحكيم البحرى ايميلى (Emily) واثنى عشر صف ضابط فرنسوى والملازم البحرى ديه (Dyé) وأنيط هذا الاخير بنقل مدفعية فى الاوبانجى الى بحر الغزال وبعد ان جهزوا بجميع المعدات خرجوا فى أول مارس سنة ١٨٩٧ ويرافقهم مائة سنغالى من مدينة برازافيل (Brazzaville) بالكونغو ثم انقطعت الاخبار عن مارشان الى ١٧ سبتمبر وفى يونيو سنة ١٨٩٨ عرفتنا الاخبار الواردة ان حملة مرشان وصلت مشرع الرق وهى نقطة تقابل بحر الغزال ببحر الحمر وبعد ذلك اتجه مرشان الى فاشوده بعد ان عمل الاكتشافات اللازمة وظهر له منها ان مقاطعة بحر الغزال واسعة الاطراف وانها كثيرة المستنقعات وسكانها قلائل ومناخها غير صحى تتولد فيها الحميات ولكنه على أى حال تمكن من الوصول الى هناك بعد أن قطع الغابات الضخمة مرة على الاقدام ومرة على القوارب التى كانت معه ولم يصادف فى طريقه مقاومة من القبائل أو غيرها بل بالعكس كانوا يعدون اليه يد المساعدة ويأخذ منهم جمالا وقد حملوا له القوارب المذكورة والمؤن والذخائر وانه كان عنده ثلاثة آلاف رجل يحملون المعدات وهم راضون عنه وعن معاملته قال ولو أردنا عشرين الف رجل لوجدنا ذلك ميسورا وأهل بحر الغزال أقل من السنغاليين شجاعة وثباتا الا انهم مطيعون ماداموا يعاملون بالحسنى وقد مدح مرشان بقوله انه ضابط باسل قوى الارادة حر الفكر شجاع القلب لطيف المعاشرة وهو شديد الوطنية الى درجة عظيمة وان الضباط الذين تحت امرته هم خلاصة رجالنا وأفضل جنودنا شجاعة وثباتا ولا يعرف مرشان غير وظيفته ومركزه ولا يتحرك من مكانه بل يبقى فى فاشوده حتى تصدر له الاوامر من حكومته وانه تمم هذا العمل بكل نجاح باهر ومودة غريبة اه وقال مكاتب الديلى تلغراف ان الميرالاى ونجت بك مدير قلم المخابرات المصرية تعهد جنود مارشان المائة وخمسة عشر نفرا فقال انهم ليسوا من السنغال بل هم من أهالى تمبكتو ويقول الضباط الانكليز ان هؤلاء الجنود الذين أحضرهم مرشان من تمبكتو هم من أجمل الجنود التى رأوها فى افريقية اه

Digitized by Google

وقد ورد فى الكتاب الازرق انه لما اطلع لورد سالسبرى على تلغراف السير أدوارد مونسون (Sir E. Monson) سفير انجلتره بباريس وتلغراف السردار لورد سكرتيرالوكالة البريطانية بمصر أرسل تلغرافا الى سفير انجلتره بباريس فى ٩ سبتمبر ١٨٩٨ يقول له فيه اذا عاد الموسيو دلكاسى (ناظر الخارجية الفرنسوية) الى هذا الموضوع فقل له انه بعد الحوادث الحربية التى حدثت فى الاسبوع الماضى أصبحت كل الاراضى التى كانت خاضعة للخليفة ملكا للحكومة الانجليزية والحكومة المصرية بحق الفتح وان الحكومة الانجليزية ترى ان هذا الحق لا يقبل المناقشة ولكنها مستعدة ان تحل سائر المشاكل المتعلقة بالاراضى التى لادخل لها فيما تقدم حلا حبيا يبحث فيه الفريقان بتمام الحرية كما يروم سعادته فلخص السفير كلام لورد سالسبرى هذا بالفرنسوية وقابل ناظر الخارجية وأطلعه عليه فقرأه وراجعه ثلاثا ثم أجاب ان عبارة الاراضى التى كانت خاضعة للخليفة عبارة مبهمة وانه لا يعلم الى أين تمتد تلك الاراضى مع انه بذل العناية فى درس مسائل الاراضى الافريقية لما كان ناظر المستعمرات الفرنسوية ثم عاد السفير فقابله فى ١٨ سبتمبر فقال الموسيو دلكاسى انى أعلم مكان الموسيو مرشان الآن ولكن هب انه فى فاشوده كما تقول الجرائد الانجليزية فهل مراد الحكومة الانجليزية ان تفهم الحكومة الفرنسوية انه لا يحق له ان يكون هناك فأجابه السفير لا ريب عندى قط ان الحكومة الانجليزية تروم ان تكون على غاية الود والصداقة مع فرنسا ولكنها تعد فشوده من البلاد التى كانت تابعة للخليفة وصارت الآن ملك البريطانية العظمى ومصر وأما من جهة حق الموسيو مرشان ان يكون حيث هو الآن فتعلمون كما أعلم أنا ان الحكومة الانجليزية أفهمت فرنسا صريحا انها تعد دخولها الى وادى النيل الاعلى عداوة فلماذا أرسلتم هذه الحملة وأنتم تعلمون سوء العواقب التى لابد منها اذا بلغت الحملة المكان الذى بلغته فأجابه الموسيو دلكاسى ان فرنسا لم تعترف بمنطقة النفوذ الانجليزى فى وادى النيل الاعلى بل ان الموسيو هانوتو اعترض عليها جهارا فى مجلس الشيوخ وكذلك الموسيو كورسل سفيرنا كتب الى لورد كمبرلى يعترض عليها لما قال السر ادوارد جراى ما قاله فى ٢٩ مارس سنة ١٨٩٥ على انه ليس هناك حملة تسمى حملة مرشان بل مرشان من الضباط التابعين للموسيو ليوتار فان فرنسا عينت الموسيو ليوتار مندوبا على نهر الاوبنجى الأعلى سنة ١٨٩٢ وأمرته أن يحافظ على مصالحها فى الشمال الشرقى ولما كان مرشان تابعا فقد تلقى كل أوامره منه وأعاد الموسيو دلكاسى قوله للسفير مرارا انه ليس هناك حملة لمرشان ورجاله حتى رسخ فى ذهن السفير من كلامه ان مراده هو ان الموسيو ليوتار أرسل مرشان ففعل ما فعل لان فرنسا فعلت فعل الاعداء فسأله السفير عن الزمان الذى أرسله ليوتار فيه فأجابه ان ذلك كان منذ سنتين فقال السفير ولكن الحكومة الانجليزية أبانت لفرنسا وبين قبل ذلك بزمان طويل انها تعد دخولهم الى وادى النيل عداوة لها فأجابه ناظر الخارجية ان مصر كانت قد فقدت السودان سنة ١٨٩٣ وان فرنسا حذت فى مسيرها الى النيل حذو انجلتره فى فتح مديرية خط الاستواء ثم ذكر أسبابا أخرى من هذا القبيل وعاد فاستدرك عليها قائلا ولكن لا محل للمناقشة بينى وبينك قال السفير فوافقته على ذلك ثم أبنت له بصريح العبارة انه اذا كان الموسيو مرشان قد احتل فشوده فقد أمست الحال محفوفة بالاخطار لان الحكومة الانكليزية لا توافق البتة على بقائه فيها ولا ترضى ان تتنازل مصر عن

حقها

حقها فى استرجاع كل البلاد التى كانت خاضعة للخليفة وأصلها من أملاك كها تم قلت له والواجب يقضى على أن أتكلم بتمام الحرية وانه لا يمكن ان يكون الاتفاق على هذه المسئلة بالاخذ والعطاء فصغى الى بمزيد الانتباه ثم أجابنى جوابا فحواه انه اذا كانت الحكومتان تتناقشان فى هذه المسئلة بالسكينة وكانتا ترغبان عن اخلاص فى اجتناب النزاع فلا ريب انهما يحلانها حلا سلميا مرضيا أما فرنسا فانى أعلم علم يقين انها لا تريد الخصام بل كل رفاقى النظار يتمنون مثلى دوام حسن العلائق بيننا وبين انجلترة فاذا كان هذا ما تريدونه أنتم أيضا (وأنا مرتاب فيه لما ظهر لى من كلام الجرائد الانجليزية) فلا خطر فأجبته ان الحكومة الانجليزية لا تريد مخاصمة فرنسا ولكن لا أرى فائدة من اخفاء الحقيقة عنه وعدم اظهار اخطارها له وان الحكومة الانجليزية قد عزمت عزما ثابتا أن لا ترجع عن الحصول على حقوقها وقد تحاميت ذكر كل عبارة تشم منها رائحة التهديد وأما فى سوى ذلك فانى أفرغت جهدى حتى أظهر له باجلى بيان وأصرح عبارة انه يستحيل علينا أن نسمح ببقاء الفرنسويين فى فاشوده اه ومن أمعن النظر الى هذه الاقوال والى لهجة الجرائد فى هذه المسئلة والى أقوال الموسيو ليوتا ر يظهر له ان مسئلة أعالى النيل وفاشوده طويلة المباحث وربما استغرقت زمنا طويلا حتى يتم الاتفاق عليها بين الدولتين فلهذا استنسبنا ختام هذا الفصل بأمل العودة اليه ان شاء الله فى تاريخى فرنسا وانجلترة اذا حدث بينهما ما يقتضى العودة لاستيفاء ما يتم فى هذه المسئلة التى أخذت أهمية عظيمة فى الوقت الحاضر

هذا ومما يجب التنبيه عليه انه لما أشار ناظر خارجية فرنسا أثناء كلامه مع سفير انكلترة الى أن فاشوده ليست من الاملاك الانكليزية بل هى كانت تابعة لمصر وأنه ليس مع انكلترة توكيل رسمى عن مصر للمطالبة بحقوقها فى هذه المسئلة عند ذلك أرسل ناظر خارجية مصر الى وكيل دولة انكلترة السياسى بمصر محررا يرجوه فيه ان تنوب حكومته عنها فى المطالبة بحقوق مصر على فشوده وقد أدرجنا صورة هذا المحرر ليقف عليه القراء (١) أما ملخص ما حصل فى مسئلة فشوده بعد ذلك فهو ان الحكومة الفرنساوية عادت بالخيبة والخذلان وتنازلت عن مدعياتها فى مسئلة فشوده وأمرت مرشان باخلائها على غير شرط

الكوليرا فى القطر المصرى — ورد فى الفصل السابع من تقرير مصلحة الصحة العمومية عن الكوليرا التى تفشت فى القطر المصرى فى سنتى ١٨٩٥ و ١٨٩٦ انها ظهرت أولا فى طرسوس من بلاد آسيا الصغرى فى ٢٤ مايو سنة ١٨٩٥ ثم أخذت تنتقل فى تلك البلاد الى أن دخلت الحجاز ثم مصر أخيرا اما الحكومة المصرية فقد اتخذت لذلك الاحتياطات اللازمة كعادتها فأقامت عدة مراكز للحجر الصحى منها مركز الطور وهو لجميع الحجاج على الاطلاق ومنها مركز رأس ملعب وجعلته للحجر الثانى على الحجاج المصريين فقط وفى نخل للحجاج القادمين بطريق البر وفى عيون موسى وغيرها وعلم من التقارير الرسمية التى وردت من الطبيب المرافق للمحمل المصرى فى تلك

(١) ان حكومة مولاى الخديو لم تغفل قط أمر استرجاع السودان كما تعلمون جنابكم لان السودان مصدر حياة القطر المصرى ولم تنسحب الحكومة المصرية من تلك البلاد الا مكرهة بحكم الضرورة فالغاية المقصودة من فتح الخرطوم تضيع فائدتها اذا لم تسترد وادى النيل الذى ضحت لاجله مصر ضحايا عظيمة ولعلم الحكومة المصرية ان بريطانية العظمى وفرنسا تتفاوضان الآن فى مسألة فاشوده فوضت الى ان أكلف جنابكم مساعدتنا لدى لورد سالسبرى حتى يعترف لمصر بحقوقها التى تتنازع فيها وترد اليها جميع المديريات التى كانت محتلة لها قبل ثورة محمد أحمد المهدى اهـ بطرس غالى

السنة ان الكوليره ظهرت في ٢٦ يونيه أثناء السير بين مكة المكرمة والمدينة المنورة وانها كانت شديدة الفتك ولما وصلوا المدينة توفي بها أمير الحج محمد خسرو باشا في يوم ٢ يوليو سنة ١٨٩٥

وكان أول ظهور هذا الوباء بثغر دمياط ثم سرى كعادته إلى أغلب بلاد مصر واهتمت الحكومة باتخاذ الاحتياطات الصحية لمنع انتشاره واتفق ان أصيب به اول شهر يونيو أحد مجاوري رواق الشوام بالجامع الازهر ولما بلغ خبره قسم الضابطة توجه طبيب القسم ومعاون البوليس الى الجامع وطلبوا انفصل المصاب الى المستشفى ليعالج فيه فأبى رفاقه ذلك وقاوموا رجال الحكومة ورجوهم بالطوب عند ما استعملوا القوة لاخذه قهرا وكان محافظ مصر محمد ماهر باشا وحكمدار البوليس كولس باشا حضرا هنالك فاضطرا أن يأمرا العساكر باطلاق الرصاص على الطلبة ارهابا لهم فأصيب به خمسة مات منهم ثلاثة وقبضوا على كثير من الطلبة وساقوهم الى السجون ثم أصدرت الحكومة قرارا أبعدت به منهم ستين طالبا كلهم من رواق الشوام لانهم هم الذين قاوموا رجال الحكومة وحاكمت منهم ١٣ واقفلت رواق الشوام لمدة سنة وكافأت المحافظ بالنشان العثماني الثاني اعترافا منها بحسن صنيعه هذا ومازال الوباء بمصر يحصد الاعمار حتى شهر سبتمبر وكان عدد من مات به بحسب التقدير الرسمي ١٧١٣٢ نفسا وفي شهر أغسطس سافر الجناب الخديوي الى أوربا قصد تغيير الهواء بعد ان أناب عنه رئيس النظارة طوفتلو مصطفى فهمي باشا ثم عاد باليمن والاقبال إلى ثغر الاسكندرية في أول اكتوبر

ولما كانت الحكومة ترى اختلالا ونقصا في أعمال مصالح بيت المال وصممت على ايجاد نظام يصلح من أمرها صدر أمر عال (١٩ نوفمبر) بأن لا يكون لبيت المال فيما بعد تداخل في أمر التركات وان تلغى أقلامه وكل الرسوم التي كانت مقررة له وان تشكل مجالس حسبية في القطر المصري لتنصيب الاوصياء والوكلاء على الورثة القصر او الغائبين وغير ذلك ومن الحوادث أيضا وقوع خلاف كبير بين مجلس شورى القوانين والحكومة بخصوص الميزانية وذلك بان اعترض مجلس الشورى على بعض فصول الميزانية فقامت بينه وبين الحكومة ضجة كان الفوز له فيها لوساعده قانونه الاساسي ومنها أيضا ان الحكومة رأت بعد المسافة بين دار التحف المصرية وبين المدينة مما يصعب معه الامر على الزوار والمتفرجين سيما وان السراي التي بها التحف يخشى عليها من الحريق وغير ذلك مما يقولونه فأقرت على بناء دار تحف جديدة احتفلت بشق أساسها على الارض الواقعة بحري قصر النيل في يوم ٧ يناير وأقامت لذلك حفلة كبيرة ولما أتى يوم طلعة المحمل احتفل به رسميا كالعادة يوم ١٠ القعدة من سنة ١٣١٣ (٢٣ ابريل ١٨٩٦) في ميدان محمد علي وحضر الاحتفال مولانا الخديو وسلم زمام المحمل الشريف الى أمير الحج الفريق عبد الحليم عاصم باشا السمرباور وكان ذلك بحضور النظار والامراء والعلماء وجمهور الاهلين ثم في يوم الاثنين تفضل مولانا الخديو فتوجه الى محطة العباسية لتوديع ركب المحمل وأميره وهي أول مرة ودع فيها خديو مصر ركب الحج الشريف بنفسه يوم سفره ولذلك ابتهج الناس بما حصل من مولانا الخديو

الاغاثة العسكرية العثمانية — لما قام الخلاف بين دولتنا العثمانية وحكومة اليونان بخصوص مسئلة جزيرة كريد وبلغ التشامخ من حكومة اليونان ان أرسلت بفرقة من عساكرها الى كريد مع الكولونيل فاسوس (Vassos) وغير ذلك مما يخالف ما يدعونه حقوق الدول وقواعد

الملل وتداخلت دول أوربا في أمر الخلاف واضطرت الدولة العلية الى القيام بالاستعدادات العسكرية وحشد الجيوش على الحدود اليونانية مما هو معلوم ومفصل فى الكتب التى وضعت فى هذا الحرب وانقطعت العلائق بين الحكومتين قام اليونان العديدون الذين بالبلاد المصرية وأخذوا فى جمع الاعانة مساعدة لحكومتهم فعند ذلك ثارت الحمية فى نفوس المصريين فألفوا فى القاهرة لجنة كبرى تحت رياسة صاحب الدولة مصطفى رياض باشا لجمع الاعانة للعساكر الشاهانية وجعلت لها لجانا فرعية فى سائر بلاد القطر فتبرع الاهالى على اختلاف طبقاتهم وملالهم بقدر عظيم من المال مما دل على تعلق أهل مصر بالسلطنة العثمانية تعلقا شديدا وكان كلما تجمع لدى اللجنة الكبرى قدر من المال أرسلته الى دار الخلافة للجنة الاعانة العسكرية هناك وبلغ ما تبرع به المصريون وأميرهم زهاء الثمانين ألف ليرة عثمانية

ردم خليج القاهرة - خليج القاهرة هو خليج ضيق يخترق القاهرة من الجنوب الى الشمال تقريبا اوله عند الحنايا المعروفة بالعيون امام جزيرة الروضة وآخره خلف العباسية شمالا وكانت العادة انه متى بلغ النيل فى فيضانه ستة عشر ذراعا كسر واسد على فمه فجرى الماء فيه وكان ذلك باحتفال كبير ومهرجان عظيم يحضره رسميا بعض رجال الحكومة ويجرى فيه من الالعاب النارية والقصف والخلاعة بالسفن شئ كثير وقد اختلف المؤرخون فى الذى احتفر هذا الخليج أولا قال المقريزى ان الذى حفر الخليج هو طوطيس بن ماليا أحد ملوك مصر الذين سكنوا مدينة منف وهو الذى قدم ابراهيم الخليل صلوات الله عليه الى مصر فى أيامه وبعده جدده اندروماوس الذى يعرف بابليا أحد ملوك الروم بعد الاسكندر بن فلبش المجدونى وسارت فيه السفن وذلك قبل الهجرة النبوية بنيف وأربعمائة سنة وبعد ما جدده عمرو بن العاص لما فتح مصر فى عام الرمادة وأقام فى حفره ستة أشهر وجرت فيه السفن تحمل الميرة الى الحجاز فسمى خليج أمير المؤمنين يعنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ولم يبين مبدأه ولا اتجاهه ولا البلاد التى مر عليها ثم ذكر فى ظواهر القاهرة أنه فى سنة مائة وخمسين هجرية أمر الخليفة أبو جعفر المنصور بردمه فردم وانقطع السير فيه وقال فى موضع آخر وفم هذا الخليج لم يكن هو الموجود الآن ولم أدر اين كان فى الجاهلية وأظن أن اوله كان عند مدينة عين شمس أو بحيريها اه وقد تكلم المرحوم على باشا مبارك فى صحيفة ١١٤ من الجزء الثامن عشر من كتابه الخطط الجديدة عن الخليج وروى أقوال استرابون وهيرودوط وكثير من المؤرخين ثم قال وقد بعد النيل عن مدينة عين شمس فبالضرورة انتقل فم الخليج الى حيث كان النيل ولا مانع من أنه بعد ان ظهرت الارض التى بنيت فوقها القاهرة وقريه أم دنين امتد الخليج الى نحو هذه الجهات حسبما اقتضاه الحال ثم لما أخذت العرب بلاد مصر اشتغل عمرو بن العاص بتعديل الخليج وجعله صالحا للملاحة ولا يبعد أنه جعل فمه قريبا من الفسطاط من بحريها اه وقال لورد كرومر فى تقريره الاخير عن ردم الخليج ما يأتى أفضى مد الترم واى الكهربائى فى شوارع القاهرة الى ردم الخليج وهو ترعة قديمة كانت تمر سابقا فى قسم من القاهرة وكان يحتفل بفتحها كل سنة عند ارتفاع النيل احتفالا يظن ان أصله عتد الى أيام فتوحات العرب الاولى غير ان هذه الترعة أهملت منذ سنوات بسبب الاصلاحات التى تمت فى الرى فصار الاحتفال بفتح الخليج مجرد صورة فقط ثم ان مصلحة الصحة ألحت على الحكومة مرارا فى وجوب ردم الخليج ولما فشت

الكوليراسنة ١٨٩٦ لم يفتح وقتيا وكان يظن ان الاهالى يستنكرون ردمه وابطال الاحتفال به فلذلك لم يشدد فى الامر كما يقتضى غير انه ظهر على مر الايام ان اهتمام الاهالى ببقائه مبالغ فيه وعليه قر القرار فى السنة الماضية على ردمه وشرع فى ذلك حتى امتلأ وأصبح الآن سكة عمومية ولم يبال أهالى القاهرة بردمه أقل مبالاة بل ان أصحاب المنازل المبنية على جانبيه ربحوا كثيرا بزيادة أثمان أملاكهم اهـ هذا وصدر أمر عال بردم الخليج فى أول فبراير سنة ١٨٩٧ واعتبر مكانه من المنافع العمومية مع نزع ملكية العقارات أو أجزاء العقارات المقامة فوقه بالطريقة القانونية ومنحت الحكومة امتيازا جديدا الى شركة الترامواى الكهربائية بالعاصمة بأن تمد خطوطها الى الاهرام بشرط ان تردم الخليج المذكور على مصروفها وتمد فوقه خطوطا توصلها بباقى خطوطها المارة بمصر العتيقة الى العتبة الخضراء والسيدة زينب والقلعة وبولاق والعباسية وقررت الحكومة ابقاء الاحتفال الذى كان يصنع لفتح الخليج لانه انما يفعل فى الحقيقة لوفاء النيل ولانه مرتبط باعياد المصريين وفرحهم بوفاء النيل الذى بوفائه يجب ربط الخراج على أطيان مصر كما يخرج بذلك اعلام شرعى من المحكمة الكبرى وقد احتفل بذلك فى السنة التى ردم فيها كالعادة وناب عن الحضرة الخديوية فيه صاحب السعادة مصطفى فهمى باشا رئيس النظار وفى هذه السنة (١٨٩٧ م) أحصت الحكومة سكان القطر المصرى واتضح منه انهم يبلغون ٩٫٧٣٤٫٤٠٥ نسمة على التفصيل المذكور بأسفل الصحيفة (١)

بيع بواخر البوستة الخديوية – فى ١٩ يناير سنة ١٨٩٨ باعت الحكومة المصرية الى شركة الخواجات آلن والدرسن (Allen Alderson) وفرنكو (Franco) بواخر البوستة الخديوية وكان البيع المذكور فجأة لم يعلم به أحد من قبل ولم تساوم بها الحكومة شركة من شركات الملاحة ولم تعلنه فى جرائدها وعلم من الشروط التى عقدتها المالية مع المشترين ان المباع لهما هو جميع البواخر الخديوية (٢) وما يتبعها بالاسكندرية والسويس فبالاسكندرية الحوض العوام والحوض الجرى المعروف بالحوض الخيرى وملحقاته من الماكنات والآلات ومستودع الفحم وفاوريقة السفن السابق الكلام عليها والمخازن والجسور المعروفة بالمواليص وسقائف التصليحات وملحقاتها ومحلات ادارة المصلحة وتوابعها وكل الادوات المتعلقة بها من زوارق بخارية وغير بخارية كالمواعين والصنادل والروافع وغير ذلك وبالسويس الحوض الجرى وملحقاته وآلاته ومسكن المدير الذى هو ديوان قومندانية السويس والمكاتب والمخازن المشيدة بجانبه والمعامل

(١) ظهر من التقرير الابتدائى عن تعداد الانفس الذى عمل فى سنة ١٨٩٧ أن سكان القطر المصرى هم ٩٫٧٣٤٫٤٠٥ منهم ٨٫٩٧٨٫٧٧٥ مسلمون و ٦٠٨٤٤٦ أقباط منهم طوائف مختلفة وارثوذكس ٥٣٤٧٩ وكاثوليك ٥٦٣٤٣ وبروتستانت ١١٨٩٤ ويهود ٢٥٫٢٠٠ وأديان أخرى ٢٦٨ واما بحسب الجنس فبلغ الذكور ٤٫٩٤٧٨٥٠ والاناث ٤٫٧٨٦٥٥٥ وبحسب الجنسية فالمصريون الاصليون ٩٫٠٠٧٧٥٥ والعربان المتحضرون ٤٨٥٫٣٠٣ والعربان الرحل ٨٨٦٧١ والاجانب والنزلاء ٢١٢٥٢٦ والسوريون ونحوهم ٤٠٢٥٠ وبحسب التابعية اليونانيون ٣٨١٧٥ والطليانيون ٢٤٤٦٧ والانكليز ١٩٥٥٧ والفرنساويون ١٤١٥٥ والنمساويون ٧٢١٧ والباقون عثمانيون وهم ٩٫٦٣٠٫٩٣٤

Digitized by Google

المجاورة له والسقائف المعروفة بالبواكى وكذا الاراضى والبنايات الموجودة فيها ادارة وتكميل السويس والمساكن التابعة لها والمخازن العمومية المتعلقة بها وميناء البواخر الصغيرة و بالجملة كل ماهو موجود ومتعلق بالمكان المسمى بالانصارى فى مدينة السويس وما يتبع ذلك من زوارق تجارية وشراعية وصنادل وآلات رافعة وغيرها كل ذلك بمبلغ لا يتجاوز المائة وخمسين ألف ليرة مصرية وذكر فى تلك الشروط أيضا ان هذه الشركة تتعهد بأن تبنى فى ظرف أربع سنوات من تاريخ هذا البيع حوضا جديدا عواما يسع أكبر البواخر وحددت فى الشروط مقدار الرسم الذى تأخذه الشركة من البواخر التى تدخل فى الحوض المذكور وغيره لاصلاحها وتعهدت الحكومة للشركة بأن تعطيها مبلغ ستة آلاف جنيه فى كل عام بعنابة مساعدة لها المدة خمسة عشرة سنة من تاريخ عقد البيع نظير تعهد الشركة للحكومة باستمرار سفر بواخرها أسبوعيا بين الاسكندرية والاستانة وموانى سورية وسواكن تحت راية البوستة المصرية الحالية المستعملة فى البواخر حالا وتتعهد أيضا بنقل البريد المصرى بدون مقابل فى كل الخطوط التى تذهب اليها بواخر الشركة وقد لهج الناس بهذا البيع وتكلموا فيه طويلا لما فيه من الغبن على الحكومة وقد اعترض الباب العالى رسميا على هذا البيع

الخزان — لا يخفى ان مسئلة خزن مياه النيل فى زمن الفيضان للانتفاع بها فى زمن التحاريق من المسائل المهمة جدا ولذلك اشتغل بأمرها كثير من الدول التى حكمت مصر ومنهم قدماء المصريين الذين كانوا يبذلون الجهد فى منع جريانه وحجزه كما هو معروف باقامة السدود والرصف فى مجراه ومن ذلك ان امنمحعت أول ملوك الدولة الثانية عشرة أنشأ بحيرة كبيرة فى الفيوم دعاها اليونان بحيرة موريس وتكلم عنها هيرودوت وديودور الصقلى واسترابون وغيرهم وقال المستر كوب وبت هوس الامريكانى (Cope white House) فى مقالة له مترجمة عن نسخة عربية قديمة كانت عند الكاردينال

﴿ تابع العلامة ٢ الموجودة بصحيفة ٥٥٨ ﴾

أسماء البواخر	حمولة بالطونيلاطة	قوة آلاتها بالحصان البخارى	أسماء البواخر	حمولة بالطونيلاطة	قوة آلاتها بالحصان البخارى
برنس عباس	٢٠٢٧ $\frac{٣٤}{١٠٠}$	٧٥٠	الفيوم	١٠٧٠	٣٠٠
توفيق ربانى	٢٠٢٧ $\frac{٣٤}{١٠٠}$	٧٥٠	المحلة	٨٦٤ $\frac{٣٤}{١٠٠}$	٢٠٠
القاهرة	٢٠٢٧ $\frac{٣٤}{١٠٠}$	٧٥٠	شبين	٦٧٧ $\frac{٦٧}{١٠٠}$	١٦٠
الشرقية	١١٦٠	٣٠٠	مسير	٦٢٦ $\frac{٦٦}{١٠٠}$	١٢٠
الدقهلية	١١٠٨	٣٠٠	الجيلة	٦٢٩ $\frac{٦٦}{١٠٠}$	١٢٠
الرحمانية	١٣٠٠	٢٠٠	—	—	—

مازارين(Mazarin) (وزير فرنساوى) لما كان يوسف عليه السلام وزيرا أولا بمصر وفى قبول
لدى سيده الملك الريان بعد أن بلغ (أى يوسف) من العمر ما ينوف عن المائة سنة غارمنه ندماء الملك
وأمراء المملكة بتنفيس نظر الصولته ومحبة سيده الملك له فقالوا للملك أيها الملك العظيم ان يوسف قد
صار الآن كهلا ومعارفه قد قلت وجاله قد اضمحل وأحكامه قد اختلت وآراؤه قد اعتلت فقال الملك
اقترحوا عليه عملا على قبول التجربة ولما كان الفيوم فى ذلك الزمان يسمى بالهون أى البركة وكان
مستعملا لقبول وصرف مياه الصعيد بدون انتظام تشاور الندماء فيما بينهم واقترحوا على يوسف أن
يحول مصب النيل عن البركة ويصفى ماءها ليكون محلها اقليم يزيد فى ايرادات المملكة فوافق الملك
على اقتراحهم وطلب يوسف أمامه وقال له أنت تعرف مقدار حبى لابنتى وان الوقت الذى يجب
على فيه أن أهديها اقليما من المملكة لتكون سيدة عليه قد حان وحيث لم يكن عندى أرض تفى
بالمقصود سوى أرض الهون المغمورة بالمياه لقربها من تخت مملكتى واحاطة الصحراء بها من جميع
الجهات حيث تكون ابنتى مستقلة مصونة فأريد أن أهديها اياها فهل لك أن تصلحها فقال يوسف اى
نعم أيها الملك المعظم ومتى تريد أن يتم ذلك لانه سيتم بعون الله القادر على كل شئ فقال له الملك خير
البر عاجله فاذذاك أوحى الله الى يوسف بحفر ثلاث ترع الاولى من الصعيد والثانية من الشرق
والثالثة من الغرب فجمع يوسف العملة وحفر ترعة المهنا من الاشمونين الى اللاهون ثم حفر
ترعة الفيوم والترعة الشرقية مع ترعة أخرى بالقرب منها تسمى ترعة بنى حامد كانت غربيها
وبهذه الكيفية تصرفت المياه من الهون وحينئذ جمع جيشا من العملة فقطعوا شجيرات الطرفاء
وخلافها التى كانت نابتة هنالك ونقلوها بعيدا ولم يأت وقت صعود النيل الا والبركة صارت أرضا
صالحة للزراعة فلما زاد النيل دخل الماء من فم ترعة المهنا وسار فيما بطول وادى النيل لحد اللاهون
ثم اتجه نحو ترعة الفيوم ودخلها بمقدار عظيم حتى ملأها وبهذه الكيفية تحولت البركة الى أرض
تروى من النيل وعلى هذا احضر الملك الريان وبمعيته ندماؤه الذين كانوا أشاروا عليه بان يقترح
على يوسف هذا العمل فلما رأوا نتيجة عمله تعجبوا من مهارته وقوته الاختراعية وصاحوا قائلين أى شئ
يستوجب العجب أصرف البركة واتلاف النباتات المضرة أو تحويل سطحها الى غياض نضرة
وحينئذ قال الملك ليوسف فى كم من الزمن صيرت هذا الاقليم فى الحالة العظيمة التى أراها فأجاب
يوسف فى سبعين يوما ولما سمع الملك هذا التفت الى ندمائه وقال أظن ان انسانا آخر لا يقدر أن يعمل
هذا العمل فى ألف يوم ومن هذا الوقت تغير اسم الهون أى البركة بالفيوم اهـ وقال آخرون ان
لفظة فيوم مشتقة من الكلمة القبطية فيوم التى معناها بحر او بركة وهو الاصح وقد تحسنت
أراضى الفيوم بكثرة نماتها حتى امتدحها الفراعنة والبطالسة والرومان وخلفاء الاسلام رضى الله
عنهم ثم أصابها التقهقر والانحطاط بسبب الاهمال ووجد بعضهم فى أحد التواريخ العربية
بخصوص الخزان ما يأتى انه فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله العلوى بلغه خبر أبى على محمد بن الحسن
ابن الهيثم البصرى وما هو عليه من الاتقان فى فن الهندسة فتاقت نفسه الى رؤيته ثم نقل له عنه
انه قال لو كنت بمصر لعملت فى نيلها عملا يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة ونقص
فقد بلغنى انه ينحدر من موضع عال هو فى طرف الاقليم المصرى فازداد الحاكم اليه شوقا وسير اليه
سرا جملة من المال ورغبه فى الحضور فسار نحو مصر ولما وصلها خرج الحاكم للقائه والتقيا

Digitized by Google

بقربة على باب القاهرة المعزية تعرف بالخندق وأمر بانزاله واكرامه واحترامه وأقام ريثما استراح وطالبه بما وعد به من أمر النيل فسار ومعه جماعة من الصناع المتولين للعمارة ليستعين بهم على هندسته التي خطرت له ولما سار الاقليم بطوله ورأى آثار من تقدم من ساكنيه من الامم الخالية وهي على غاية من احكام الصنعة وجودة الهندسة وما اشتملت عليه من أشكال سماوية ومثالات هندسية وتصوير معجب تحقق ان الذي يقصده ليس ممكنا فان من تقدموا في العصور الخالية لم يعزب عنهم علم ما علمه ولو أمكن لفعلوه ففترت همته ووصل الى الموضع المعروف بالجنادل قبلي مدينة أسوان وهو موضع مرتفع ينحدر منه ماء النيل فعاينه وباشره واختبره من جانبيه فوجد أمره لا يمشي على موافقة مراده وتحقق الخطأ والغلبة عما وعد به وعاد خجلا ومنخذلا واعتذر بما قبل الحاكم ظاهره ووافقه عليه ثم ان الحاكم ولاه بعض الدواوين فتولاها رهبة لا رغبة وتحقق الغلط في الولاية فان الحاكم كان كثير الاستحالة مريقا للدماء بغير سبب أو باضعف سبب فأجال ابن الهيثم فكرته في أمر يتخلص به فلم يجد طريقا الى ذلك الا اظهار الجنون والخبال فاعتمد ذلك وشاع وذاع ولم يزل على ذلك الى ان تحقق وفاة الحاكم وبعد ذلك بيسير أظهر العقل وعاد الى ما كان عليه واستوطن قبة على باب الجامع الازهر أحد جوامع القاهرة وأقام بها متنسكا واشتغل بالتثقيف والنسخ والافادة اهـ

وفي زمن ولاية ساكن الجنان محمد علي باشا وجه عنايته في أمر البحث عن أحسن الطرق لتوفير مياه النيل وأمر باشمهندسه الشهير لينان باشا بان يتخذ التدابير اللازمة لجعل بحيرة موريس خزانا كما استعملها القدماء فاكتشف المهندس المذكور هذه البحيرة وعين بنفسه موقعها القديم وعمل مقايسة تقريبية عن الاشغال التي تلزم لها ونظرا لكثرة المصاريف رجع محمد علي باشا عن فكرة استعمالها ثانية كخزان وأمر بتشييد القناطر الخيرية (١٨٥١) وبعد ذلك التفت لينان باشا الى جبل السلسلة حيث ظهر له أنه مناسب لان يبنى فيه قنطرة أخرى للموازنة ويعمل بجوارها أيضا قنطرة فم لترعة جانبية ولكن نظرا لجسامة المصاريف عدل العزيز عن هذا العمل أيضا ثم ان الخديو الاسبق المرحوم اسمعيل باشا كلف بهجت باشا باعادة البحث في مشروع لينان باشا فلم يستحسن أفكاره ونظرياته في هذا الامر فسأل اسمعيل باشا السير جون فاولر (Sir John Fowler) المهندس الانجليزي وكان مستشار المدالطرق الحديدية المصرية عن رأيه في مسئلة خزن مياه النيل فقال له السير المذكور يا مولاي ان النيل يأتيك اليوم بوجهه فلا تعمل فيه عملا يوجب أن يعطيك به ظهره فصرف الخديو من يومئذ النظر عن هذا المشروع ثم انه في عهد المرحوم الخديو السابق محمد توفيق باشا زار الموسيو دولاموت (de la Motte) الفرنسوي بلاد النوبة (١٨٨٠) مع المهندس كوتريل (Cotterill) واشتغل بمسئلة الخزان وافتكر أنه ينشئ سدا على النيل في جبل السلسلة وان تكون المنطقة التي قبلي جبل السلسلة خزانا تخزن فيها مياه النيل وقدرت المصاريف اللازمة لذلك بمبلغ أربعة ملايين ليرة مصرية ويسع الخزان المذكور من الماء سبعة آلاف مليون مترمكعب ثم اشتغل بذلك أيضا مسيوجاكيه (Jacquet) الفرنسوي باشمفتش القناطر والسدود سنة ١٨٨٢ وكتب تقريرا عدد فيه مزايا الخزان وحصرها في خمس مزايا رئيسية وهي (أولا) تخفيف غائلة فيضان النيل (ثانيا) تخفيف مضار الفيضانات الواطية وذلك

Digitized by Google

انه اذا علم من الاخبار الواردة من الخرطوم مثلا ان النيل سيكون ضعيفا فى السنة المقبلة فانه يجتهد فى تخزين مياه كثيرة فى أوائل زمن الفيضان ثم يصرف جزءا منها عند قرب انتهائه وبهذه الكيفية يمكن زيادة الفيضان زيادة صناعية كما هو حاصل الآن بصرف أحواض الوجه القبلى حيث انه فى حين الصرف يراعى ان ذلك الصرف يرفع سطح ماء النيل لاتمام الرى اللازم فى بعض مناطق الوجه البحرى (ثالثا) زيادة المسطحات التى تزرع صيفا فان المانع من توسيع نطاق تلك الزراعة التى عليها مدار ثروة القطر المصرى التجارية هو قلة الماء فى زمن الصيف خصوصا زراعة الارز الذى هو أنفع واسطة لاصلاح الارض التالفة (رابعا) احياء أراض كثيرة بغسلها أولا بالماء لتطهيرها من الاملاح بعض التطهير ثم زرعها بالارز ثم بغيره من المزروعات (خامسا) تغريق شلال أسوان حتى يمكن للمراكب أن تعبره فى أى وقت شاءت بلا خطر وهى مزية عظمى لانه بواسطتها يمكن أن تكون الملاحة حرة سهلة بين مصر وشلال وادى حلفا

وفى هذه السنة قام المستر كوب ويتهوس الامريكانى المذكور واشتغل بخزان وادى الريان وأشار بتجديده وخابر الحكومة فى ذلك مظهرا لها الفائدة التى تعود عليها وقد اجمعت أفكار الكثيرين من المهندسين باستحسان هذا المشروع ولكن الحكومة لم ترض يومئذ أن تشتغل بهذا الامر للعسر المالى ومع ذلك فان السير اسكوت منكريف كاف الكولونيل ويسترن (Western) مدير الاعمال الصناعية اذ ذاك بأن يفحص مشروع المستر كوب ويتهوس فنظر فيها وعمل عنها مقايسة تقريبية ولكن لاختلاف وتباين آراء المهندسين وللصعوبة المالية أجلت الحكومة النظر فى المشروع المذكور وأخذت نظارة الاشغال تتم اصلاحات الرى المنوية وكان مسيو روسو باشا (Rousseau) كتب تقريرا (٢٤ ابريل ١٨٨٣) عن الرى اعتمده المرحوم على مبارك باشا ناظر الاشغال يومئذ ومما ورد فى هذا التقرير ان نظارة الاشغال تستخدم الآن مياه النيل بحسب سيرها الذى تتبعه والحالة هذه عند دخولها فى نفس أرض مصر بعد أن تجاوز شلال اسوان وقد كانت هذه النظارة تود لاصلاح شؤن الزراعة بالوجه القبلى أن تتكلم عن بعض مسائل قديمة العهد فيما يتعلق بانشاء حياض كبيرة بجهة كوم امبو وفى نقط أخرى متعددة امام تلك الجهة لتكون تلك الحياض منظمة لحركة مياه النيل الا انه نظرا لعدم استيفاء الاكتشافات الاولية وعدم الوثوق حينئذ بنتائج هذا المشروع رؤى انه لا يناسب ابرازه من القوة الى الفعل اه واشتغل بعد ذلك بأمر الخزانات مسيو باروا (Barois) ومسيو برونت (Prompt) العضو الفرنسوى فى السكة الحديدية الذى أشار بعمل عدة سدود فوق الشلالات لتخزين المياه لتكون المقاومة متساوية ويمتنع كل خطر يتصور حدوثه لو اختل احد السدود وكتب أيضا مسيو شارل كوتارد (C. Cotard) رسالة فى الطرق التى بحثت فيها جمعية المهندسين الفرنسويين فى باريس (١٥ فبراير ١٨٨٤) ثم لما تم معظم الاصلاحات المنوية منذ زمن طويل نظرت الحكومة (١٨٨٩) الى مسئلة الخزانات فكلفت مستر ولكوكس مع جماعة من أفاضل المهندسين الوطنيين ببحث مشروع مسيو دولاموت المتعلق بانشاء خزان فى بلاد النوبة وغيره فقام أولئك المهندسون بما عهد اليهم وبحثوا بحثا نشر نتيجته مستر ولكوكس فى تقرير انكليزى طبع فى أوائل سنة ١٨٩٤ اشتمل على نتائج أبحاث أربع سنوات وقد ألحقه مستر جارستن وكيل نظارة الاشغال العمومية بتقرير وصف فيه عموم

النقط

النقط التي تليق لذلك وتكلم عن مزايا كل طريقة وعيوبها وما تكلفه كل سد من المصروفات وما يعود على الحكومة وأرباب الاطيان من المكاسب وقال ان أصلحها عنده هو سد يبنى في شلال أسوان ويكون منسوب ارتفاع الماء فوقه ١١٤ مترا ويتلوه في المناسبة والمنفعة سد في بلدة كلبشة ويكون منسوب الماء امامه ١١٨ مترا ثم سد في جبل السلسلة بحيث يكون منسوب الماء فيه ١٠١ مترا ثم خزان وادى الريان حيث يكون منسوب الماء فيه ٢٧ مترا وغير ذلك من الايضاحات الهندسية وتكلم عما يتصوره البعض من الاخطار العديدة التي تحدث من عمل السدود مثل تعرض القطر المصرى للهجمات العسكرية الاجنبية التي ربما تجعل زمام السد في قبضة الهاجم فيضر ذلك بالقطر المصرى ضررا عظيما وتتعطل فيه الزراعة ومثل حدوث الزلازل أو ان بناء السد ربما يكون رديئا فينكسر السد دفعة واحدة فيحدث منه طوفان عظيم يتلف كل أراضى القطر المصرى من أسوان الى القاهرة ومثل ان مياه الخزان ستكون راكدة وربما ينسبب عن ذلك تعفن فيها فيحصل منها تسمم مياه القطر المصرى وتصبح غير صالحة للاستعمال وبعد ان أتى على كل هذه الاخطار فندها واحدة فواحدة ثم عينت الحكومة لجنة من مشاهير المهندسين الاوروباويين للنظر في مشروع الخزان أحدهم انجليزى وهو السير بنيامين بكر (Sir Benjamin Baker) مهندس ترعة مانشستر وثانيهم فرنسوى وهو مسيو بولى (Polet) المفتش العام للرافئ والسدود في فرانسا وثالثهم طليانى وهو السنيور طوريشلى (Torricelli) استاذ الهندسة الزراعية في ايتاليا وأطلقت لهم حرية البحث في كل الجهات وبحثوا أيضا في الاحوال التي بها يمكن تأسيس سد شمالى وادى حلفا صالح لان يكون خزانا والاحوال التي يمكن بها عمل خزان في وادى الريان وفحصوا التصميمات والرسوم والمقايسات التي عملت لكل تصميم من التصميمات المختلفة وفي مسائل الصحة العمومية بعد تخزين كمية عظيمة من المياه كل ذلك لانتخاب تصميم من التصميمات المذكورة وبعد البحث اختلفوا رأيا وبذلك عادوا الى بلادهم ثم أقرت الحكومة على بناء الخزان في أسوان وأن يجعل ارتفاعه أقل مما قدر له قبلا لكى لا يتلف هيكل انس الوجود وعينت السير بنيامين بيكر مستشارا لنظارة الاشغال العمومية مدة انشاء الخزان وجعلت مرتبه ألفى جنيه في السنة (١٨٩٧) ثم عقدت الحكومة مع المستر جون ايرد (J. Aird) وشركائه (٢٤ فبراير ١٨٩٨) مقاولة بناء الخزان بمبلغ مليونى جنيه انكليزى فيبنى في جهات أسوان قناطر وكذا في أسيوط على حسب الرسوم التي اختارتها نظارة الاشغال العمومية وتقرر أن يتم هذا العمل في مدة خمس سنوات ثم يسلم للحكومة وتدفع الحكومة المصرية للشركة ٧٨,٠٠٠ جنيه مصرى كل ستة أشهر مدة ثلاثين سنة فيكون كل ما تدفعه الحكومة في تلك المدة ٤,٧٠٠,٠٠٠ جنيه وروى ان الجناب العالى الخديو شكر السير الن بالمر المستشار المالى والمستر جارستون وكيل نظارة الاشغال على سعيهما في انفاذ هذا العمل المفيد لرى أراضى البلاد المصرية

بيع اطيان الدائرة السنية — من أهم الحوادث التي حصلت في شهر ابريل من سنة ١٨٩٨ اتفاقية حصلت بين شركة انكليزية فرنسوية مصرية وبين الحكومة المصرية على شراء جميع أملاك الدائرة السنية صفقة واحدة بمبلغ ٦,٤٣١,٥٠٠ جنيه مصرى ولما كانت أطيان هذه الدائرة من أهم منابع الثروة التي تركها الخديو الاسبق المرحوم اسمعيل باشا للحكومة في زمن

Digitized by Google

الارتباكات المالية كما سبق فى أبواب هذا الكتاب بموجب كشوف مرفقة بمشارطة ٣٠ يوليو سنة ١٨٧٧ رأينا من المهم ذكر صورة اتفاقية البيع التى حصل التوقيع عليها بين الطرفين المتعاقدين فى يوم ٢١ يونيه من سنة ١٨٩٨ بأسفل الصحيفة (١) ولما كانت المادة ٥٥

(١) رياسة مجلس النظار (شروط بيع الدائرة السنية) بين جناب السر ألوين بالمر المستشار المالى لحكومة الجناب العالى الخديوى المصرح له بقرار من رئاسة مجلس النظار من جهة و بين كل من مستر كاسل بلوندره ومسيو قطاوى بباريس ومسيو كرونيه بباريس أيضا ومسيو سوارس بمصر القاهرة باعتبار أن هؤلاء الاربعة المتعاقدين يطلق عليهم فى هذا العقد اسم المشترين من جهة أخرى انه من حيث بلغ دين الدائرة السنية فى ٣١ دسمبر سنة ١٨٩٧ مبلغ ٦٥٤٣١٥٠٠ جنيه ومن حيث ان الحكومة المصرية ترغب بيع الاطيان التى يتكون منها الرهن المخصص لذلك الدين بكل ما فيها من المعامل والسكك الحديدية الزراعية والادوات والمخازن والورش والبيوت والمبانى من جميع الانواع والآلات الثابتة والمتحركة والمزروعات والمواشى والنقود الموجودة فى الخزينة والديون المقتضى تسديدها وعلى العموم كل ما يأتى توضيحه باعتبار أنه ملك للدائرة السنية وحيث ان الحكومة المصرية تعهدت من جهة أخرى بعدم تسديد دين الدائرة السنية قبل يوم ١٥ اكتوبر من سنة ١٩٠٥ ولكنها تستطيع استعمال زيادة الايرادات السنوية فى استهلاك السندات وكذلك المبالغ المتحصلة من مبيع الاراضى الى ما قيمته ٣٠٠٠٠٠ جنيه سنويا قد تم الاتفاق على ما يأتى أدناه

(المادة الاولى) — يتعهد المشترون بواسطة هذا العقد وعلى مقتضى الشروط الموضحة بعد بشراء جميع أملاك الدائرة السنية بمبلغ ٦٤٣١٥٠٠٠ جنيه يخصم منه قيمة السندات التى تكون قد دفعت اما بالشراء أو بالاقتراع أو بأية وسيلة أخرى من ٣١ دسمبر سنة ١٨٩٧ الى اليوم الذى يصير فيه البيع نهائيا ومن جهة ثانية تضاف على المبلغ المشترى به المبالغ التى تكون الحكومة المصرية قد اضطرت الى دفعها للدائرة السنية بسبب العجز (اذا حصل عجز) الذى يحتمل وقوعه فى المبلغ الضرورى لدفع أرباح دين الدائرة السنية منذ ٣١ دسمبر سنة ١٨٩٧

(المادة الثانية) — ان الثمن المشترى به سيدفع بمقتضى القانون الى الحكومة المصرية أو الى ادارة الدائرة السنية يوم ١٥ اكتوبر سنة ١٩٠٥ تلقاء استلام المشترين أو الشركة التى يؤلفونها فى مقابلة الاستيلاء نهائيا على جميع أملاك الدائرة السنية بشرط أن تكون خالية طبقا للقانون المصرى من كل أمر مثل رهن أو غيره بحيث يكون للمشترين أو للشركة التى تتألف منهم حق الملكية النهائية المطلقة التى لا منازع فيها

(المادة الثالثة) — يوضع دفتر معاينة تثمن فيه كل قطعة من الاراضى التى تتكون من مجموعها أطيان الدائرة السنية بحيث يكون التثمين مناسبا لمجموع القطع وهى القيمة المعتبرة كأنها مبلغ دين الدائرة السنية المستلزم دفعه فى ذلك الوقت و بعد وضع دفتر الشروط والمعاينة السالفة الذكر أى بعد أول يوليو سنة ١٨٩٩ تستطيع الحكومة المصرية بمقتضى الشروط الآتية الزام المشترين أو الشركة التى تتألف منهم باستلام جملة قطع من أطيان الدائرة السنية تنتخبها الحكومة بنفسها الى ما توازى قيمته ٣٫٧٠٠٫٠٠٠ جنيه تدفع على المثال الآتى ٣١٠٠٠٠ جنيه انكليزى فى ٢ ينايرسنة ١٩٠١ ٣١٠٠٠٠ جنيه انكليزى فى ٢ ينايرسنة ١٩٠٢ ٣١٠٠٠٠ جنيه انكليزى فى ٢ ينايرسنة ١٩٠٣ ٣١٠٠٠٠ جنيه انكليزى فى ٢ ينايرسنة ١٩٠٤ ٣١٠٠٠٠ جنيه انكليزى فى ٢ ينايرسنة ١٩٠٥ و بعد دفع النصف الاول من كل هذه الدفعات يمكن باختيار المشترين أو الشركة التى تتألف منهم دفع النصف الباقى على أقساط سنوية متساوية ولا يجوز أن يحل ميعاد الاخير منها عقب ١٥ اكتوبر سنة ١٩٠٥ وأما باقى أملاك الدائرة السنية فسيدفع ثمنه بالمقدار والشروط المحددة فى المادة الاولى و بعد خصم الدفعات التى تم تسديدها وفى حالة ما اذا لم تكن الحكومة قد دعت المشترين قبل أول ينايرسنة ١٩٠٠ الى دفع أثمان بعض قطع من أطيان الدائرة السنية كما هو مبين فيما سبق فلا يجوز اجبارهم على دفع أى شئ قبل ١٥ اكتوبر سنة ١٩٠٥ كما جاء فى المادة الاولى فيما عدا مبلغ الخمسمائة ألف جنيه الذى سيرد ذكره بعد

من

Digitized by Google

من قانون التصفية تقضى بان ما يحصل من البيوع والاجارات المشترط تصديق مجلس الدائرة الاعلى

والمشترين أو الشركة التى تتألف منهم الحق فى رفض استلام قطع من أطيان الدائرة السنية التى تدلهم عليها الحكومة مقابل دفع قيمتها وفى هـذه الحالة يجوز للحكومة أن تبيع فى المزاد العمومى قطع الاراضى التى يكون المشترون رفضوا شراءها على المثال المتقدم ولكن على شرط أن يكون ثمن هـذه الاراضى مساويا على الاقل للتقدير المبين فى دفتر الشروط والمعاينات وأن تخصم هذا الثمن من مبلغ الشراء العمومى المحدد فى المادة الاولى

(المادة الرابعة) — اذا وجد مجلس ادارة الدائرة السنية فى كل وقت سابق على يوم ١٥ اكتوبر سنة ١٩٠٥ فرصة لبيع قطع من أراضى الدائرة للغير فلا يجوز للحكومة الرضا بهـذا البيع والموافقة عليه الا بشروط يتفق عليها بالاتحاد مع المشترين أو الشركة التى تتألف منهم

(المادة الخامسة) — ان المشترين أو الشركة التى تتألف منهم يتعهدون بان يبيعوا فى ظرف سبع سنوات من تاريخ استيلائهم على الاراضى قطعا من أراضى الدائرة أو الاراضى كلها بحيث يتم التراضى فى البيع على وجه يضمن لهم ربحا صافيا قدره ٢٠ فى المائة على الاقل من المبلغ الذى دفعوه ثمنا لتلك القطع أو لاملاك الدائرة كلها

(المادة السادسة) — للحكومة الحق فى نصف الارباح الصافية التى يكتسبها المشترون أو الشركة التى تتألف منهم كما هو مبين بعد دفع جميع مصاريف فوائد سندات الدين وبقية المصاريف المدفوعة عنها والفوائد لغاية ٥ فى المائة على المبالغ التى دفعت لتكون منها رأس المال المنقسم الى أسهم أو غيره ويمسك حساب تفصيلى كامل يمكن لنظارة المالية أن تفتش عليه وتراجعه بواسطة مندوبها فى كل وقت لائق

(المادة السابعة) — يودع المشترون أو الشركة التى تتألف منهم فى أول أغسطس سنة ١٨٩٨ على سبيل الامانة فى نظارة المالية مبلغ ٥٠٠٠٠٠ جنيه انكليزى ضمانة تنفيذ مواد هذا العقد الدقيق ويبقى هذا المبلغ مودعا فى نظارة المالية ويأتى بفائدة قدرها ٣ فى المائة سنويا تدفع فى ٣١ ديسمبر و ٣٠ يونيو من كل سنة الى سنة ١٩٠٥ واذا لم يدفع المشترون هذا المبلغ فى الميعاد المبين يعتبر هذا العقد لاغيا ولا معول عليه

(المادة الثامنة) — اذا لم يقم المشترون أو الشركة التى تتألف منهم بشراء الذى هو موضوع هذا العقد تماما فى ١٥ أغسطس سنة ١٩٠٥ أو اذا لم يدفعوا المبالغ التى يحق للحكومة الحصول عليها منهم مقابل تسليمهم بعض قطع من الاراضى كما هو مبين فى المادة الثالثة من هـذا العقد يكون لها الحق فى أخذ مبلغ ٥٠٠٠٠ جنيه من المبلغ المودع لديها ولا يجوز للحكومة أن تطالب بتعويض ما غير هذا عن عدم القيام بتنفيذ مواد هذا العقد لا من المشترين ولا من الشركة التى تتألف منهم أما مبلغ ٤٥٠٠٠٠ جنيه الباقى بعد ذلك فلابد أن يعاد اليهم بتمامه ومع ذلك فى استطاعة الحكومة بدلا عن هـذا الدفع أن تتنازل للمشترين أو للشركة التى تتألف منهم عن قطع منفصلة من أطيان الدائرة بقيمة ٤٥٠٠٠٠ بحيث يكون هـذا الثمن موافقا لتقدير دفتر الشروط والمعاينة المذكور فى المادة ٣ وهذا التنازل يعمل على وجه يضمن للمشترين أو الشركة التى تتألف منهم ملكيتها ملكية نهائية مطلقة خالية من التعهدات كالرهونات وما أشبه فاذا تم الشراء طبقا لمواد هذا العقد بالتمام فعلى الحكومة أن تدفع للمشترين أو للشركة التى تتألف منهم مبلغ التأمين وهو ٥٠٠٠٠٠ جنيه من حصتها فى الارباح التى تخصها كما هو مبين فيما سبق

(المادة التاسعة) — رسوم نقل التكليف فى مبيع أملاك الدائرة السنية للمشترين أو للشركة التى تتألف منهم تعتبر تحت الحساب كالعادة المتبعة فى نقل تكليف أملاك الدومين

(المادة العاشرة) — يمكن للمشترين أن يشكلوا باقتضى القانون الانكليزى شركة تأذن لها الحكومة المصرية بالانتفاع من الاملاك التى هى موضوع البيع وجميع ما يتعلق بها من الاشغال والمشروعات ولهذه الشركة أن تشتغل بالاشغال أو المشروعات المماثلة لما تقدم سواء كانت هاته المشروعات عبارة عن توسيع نطاق الموجود منها أو عن أشغال جديدة ترتبط بتلك الاملاك ولها أن تقترض النقود اللازمة لها وتصدر السندات الضرورية لمصلحة المشروع وتشكيل شركات أخرى منفصلة عن الاولى اذا رأت فائدة فى ذلك لاجل جميع المشروعات المختلفة أو جزء منها ونقل كل أو جزء من الاشغال أو المشروعات المشار اليها أو جزء من أملاك الدائرة السنية أو كل أملاك غيرها تحصل عليها فيما بعد الى الشركة أو الشركات التى تشكل على المثال المتقدم ويجب أن يكون رأس مال الشركة فى كل حال ٥٠٠٠٠٠ جنيه على الاقل يشترك فى دفعها أناس مقتدرون وبتشكيل شركة على هذا المنوال ونقل هذا العقد باسمها يكون المشترون خالين من كل مسؤلية تنشأ عن مواد هذا العقد

Digitized by Google

عليها الا ايصح ولا ينفذ الا اذا اتحدا المراقبان رأيا على موافقتها وكان المراقب الفرنسوى أظهر التوقف في تنفيذ البيع ذكرت المالية في اتفاقية البيع ان تسليم أملاك الدائرة الى الشركة لا يكون الا في سنة ١٩٠٥ حيث تنتهى مدة المراقبة المقررة على الدائرة السنية ويظن الكثيرون من المشتغلين باعمال الدائرة السنية المذكورة انه عند انقضاء هذه المدة لو حصلت حوادث أفضت لتجديد المراقبة كالمنصوص عليه في المادة ٥٤ من قانون التصفية ربما حصل تأجيل أو تأخير في مسئلة التسليم ولا يعلم الا الله ماذا يكون اذ ذاك

البنك الوطنى — من الحوادث الشهيرة التى حصلت في هذه المدة أيضا أن أصدرت الحكومة المصرية في ٢٥ يونيه من سنة ١٨٩٨ أمرا خديويا بتشكيل شركة مساهمة مصرية رأس مالها مليون جنيه انجليزى بقصد انشاء بنك مصرى اتفقت على كيفية انشائه من قبل فقامت عقب ذلك عدة لجان لبيع الاسهم ببلاد انكلترة وفرنسا والقطر المصرى فأقبل الناس على الاكتتاب أيما اقبال لثقتهم بهذا البنك لان الحكومة معضدة له ولم يأت يوم الثلاثاء الموافق ١٢ يوليو حتى زاد المبلغ الذى اكتتب به سكان مصر من أهالى وأجانب عن خمسمائة وعشرين ألف ليرة كان منها بالاسكندرية ٣٦٠,٠٠٠ وبالقاهرة ١٦٠,٠٠٠ ومن أسباب اقبال الناس على شراء أسهم هذا البنك غير ما ذكر علمهم بانه سيكون مع الحكومة أوسع نطاقا في المستقبل عن باقى البنوك اذ يصبح ارتباطه بالحكومة أشبه بارتباط البنك العثمانى في الممالك المحروسة الشاهانية مع الحكومة بل ربما فاقه في الاهمية المالية وتعين لادارة هذا البنك السير بالمر المستشار المالى في الحكومة المصرية وهو ممن اشتهر بالبراعة في الاعمال المالية وعلى أثر انتقال السير بالمر الى البنك الوطنى حصل تغيير كبير في هيئة الموظفين فتعين المستر غورست مستشار الداخلية مستشارا للمالية وجعل متشل بك مدير خفر السواحل مستشارا للداخلية

(الفصل العشرون)

البواخر المصرية والملاحة في الوقت الحاضر

سبق الكلام على البحرية المصرية وما وصلت اليه من التقهقر ثم العدم فلم يبق لها من سفنها بعد ان باعت بواخر البوستة الخديوية سوى سفن وبواخر مصلحة خفر السواحل ويخت المحروسة والركائب الخديوية بالنيل وباخرتى البحيرة ومخبرا التابعتين لنظارة الحربية بالبحر الاحمر وأسطول النيل الحربى الذى أوجده الجنرال كتشنر باشا سردار الجيش المصرى لفتح السودان وسبع بواخر أخرى بالنيل تابعة لنظارة الاشغال والبواخر التابعة للفنارات وادارة البوستة المصرية في النيل أما سفن مصلحة خفر السواحل فانها أخذت تكثر من عهد مديرها السابق مدلماس بك (A. E. Middlemass) وهو الذى سعى في جعل من يستخدمون في هذه المصلحة من ضباط البحرية والحربية على صفتهم العسكرية

(المادة الحادية عشرة) — يكون للحكومة المصرية الحق في تعيين مدير في مجلس ادارة الشركة التى يكونها المشترون والتى يمكن نقل هذا العقد اليها وفى حالة وفاة أو استعفاء المدير الذى تعينه الحكومة يكون لهذه الاخيرة الحق في كل وقت أن تعين من يخلفه وقد تم توقيع الطرفين المتعاقدين على هذا العقد في ٢١ يونيو سنة ١٨٩٨ اهـ

وصدر

Digitized by Google

وصدر أمر خديوى بذلك (٢١ يناير ١٨٩٢) وبجواز نقل صف الضباط والعساكر البحرية الى مصلحة خفر السواحل وبان الضباط البحرية والبرية الذين ينقلون اليها يكونون تحت طلب الحربية والبحرية مع حفظ رتبهم العسكرية وان تكون ترقياتهم بحسب القوانين العسكرية بمعرفة نظارة الحربية والبحرية وخدماتهم تحسب كخدمة عسكرية وتصرح فى هذا الامر أيضا لمفتش عموم خفر السواحل بأن يسن اللوائح التى يرى لزوم سنها بعد الاقرار عليها من ناظرى البحرية والحربية وغير ذلك مما جعل المصلحة المذكورة على شكل بحرية عسكرية تقريبا ثم لما تعين متشل بك مديرا لها بعد استعفا سدلماس بك (١٨٩٦) أحالت الحكومة على تلك المصلحة كثيرا من الاعمال فاتسع نطاقها وازدادت أهميتها فى البر والبحر وصدر أمر خديوى ١٣ يناير (١٨٩٧) باعتبار مفتشى المصلحة المذكورة الذين من الدرجة الاولى والثانية من مأمورى الضبطية القضائية أثناء تأدية وظائفهم المتعلقة بأمر التهريب واعتنى هذا المدير بأمر تقدم بحريته حتى انه لما وجد أن عدد تلامذة المدرسة البحرية التى بوابور المحروسة غير كاف سعى فى ايجاد مدرسة بحرية لمصلحته خصوصا وأن الاعمال الملاحية سواء كانت فى البحر الابيض أو الاحمر أو فى النيل تحتاج الى معارف وفنون بحرية وأن سفن الحكومة المصرية سيما بواخر مصلحة خفر السواحل الآخذة فى الزيادة تحتاج دائما الى عمال كثيرين خبيرين بتلك الاعمال على اختلافها وان التجارة المصرية كلما اتسعت احتاجت الى توسيع نطاق المواصلات البحرية وكل ذلك محتاج بالطبع الى زيادة الملاحة هذا وان سفن الحكومة التى فى البحر الابيض والاحمر والنيل هى أيضا تعد واسعة العمل كثيرة العمال وهى بالطبع تفتقر الى وجود منبع مخصوص يخرج منه البحريون الذين يقومون بخدمة السفن ولا منبع الا المدرسة البحرية فلهذا التمس المدير المذكور من سمو الخديو المعظم التصريح له بانشاء مدرسة بحرية فى مصلحته بدلا عن المدرسة الموجودة فى وابور المحروسة ولما كان مولانا الخديو يميل الى كل ما يرقى شأن البلاد حساً ومعنى أجاب ملتمسه بكل ارتياح وعليه انشأ فى احدى بواخر مصلحته المسماة ديب البحر مدرسة بحرية انتخب لها ستة تلامذة ممن حازوا المعارف الابتدائية وتعين اليوزباشى محمود بهجت افندى قبودان مدرسا لفن الملاحة والعلوم الرياضية بها وآخر انكليزى لتعليم اللغة الانكليزية والفنون البحرية الاخرى (أوائل سنة ١٨٩٧) وقبل عودة مولانا الخديو من ثغر الإسكندرية زار المدرسة المذكورة وأظهر سروره الى متشل بك ويقال انه حفظه الله أشار عليه بان يضيف اليها قسما آخر لتعليم الملاحة النيلية لشدة لزوم ذلك كما لا يخفى ونطلب من الله أن تكون هذه المدرسة على صغرها وقلة علومها أساسا يبنى عليه فى المستقبل ما كان أعظم من الرفعة البحرية فى ظل مولانا الخديو عباس باشا الثانى انه سميع مجيب

﴿البواخر الحربية وغير الحربية التابعة للحكومة المصرية وهي التي تتألف منها البحرية المصرية لغاية سنة ١٨٩٨﴾

﴿بواخر المعية السنية بالبحر الابيض المتوسط وبالنيل﴾

	[illegible]	قائمقام	بكباشي	صاغقول اغاسي	يوزباشي	ملازم أول	ملازم ثاني (كلكان)	مهندس	تلامذة مهندسخانة (ميكانيكية)	جورنال (كتبة)	جرجيه جوزجيه وغيرهم وانبارجي	امام	تلامذة	قلفاط وكرجي وبرنقوز	صف ضباط وجرية
باخرة المحروسه (١)	١	١	٢	٢	٤	٣	٣	٤	٦	٢	٣	١	٥	٣	١٩٤
طوائف بواخر النيل	٠	٢	٢	٢	٢	٢	١	٣	٢	٣	١	٠	٠	٦	١٦٢

(سفن الركائب الخديوية بنهر النيل ومقاديرها)

أسماء البواخر	قوة الماكينه	عرض		طول		أسماء قبودناتها
	حصان	وصه	قدم	وصه	قدم	
فيض ظفر	١٢٠	٦	٢٠	٦	٢٣٥	حسين بك لطفي
فيض رباني	١٤٠	٣	٢٠	١٠	٢٠٣	
فيروز	١٢٠	٨	٢١	١٠	٢٠٠	محمد قبودان صبحي
زينة البحرين	٩٠	٥	١٦	٦	١٧٢	عثمان قبودان هنو
هيهيا	١٠٠	٣	٢٠	٢	١٩٧	سليمان قبودان مكي
ذهبية ضياء البحر	(شراع)	٧	١٩		٠٤٤	
نسيم النيل	٣٠	٦	١٢		٨٠	(بني بمصلحة الركائب سنة ١٨٩٢)

(طوائف بواخر نظارة الحربية بالبحر الاحمر)

	قائمقام	صاغقول اغاسي	يوزباشي	ملازم أول	ملازم ثاني	مهندس درجة أولى	مهندس درجة ثانية	مهندس درجة ثالثة	مهندس درجة رابعة	صف ضباط وعساكر
باخرة البحيرة	١	٠	١	١	٢	١	١	١	١	٤٣
باخرة مخبر	٠	١	١	١	٠	٠	١	١	١	٢٠

(١) ويتبع باخرة المحروسة باخرة جديدة أخرى لركوب الحضرة الخديوية تدعى صفاء البحر

﴿بواخر أسطول النيل المستجد﴾

أسماء البواخر	نوعها	طول بالقدم	عرض بالقدم	غاطسها في الماء	الملاحين	السلاح
				قدم	نفر	
الظافر	ذات عجلات خلفية	١٤٠	٢٤	٢	٤٨	بكل باخرة من هذه الثلاث مدفع واحد سريع الضرب من عيار ١٢ رطل ومدفع من نوع هاوتزر وثلاثة
الناصر		١٤٠	٢٤	٢	٤٨	مدافع من نوع مكسيم وفنار كهربائى للاكتشاف
الفاتح		١٤٠	٢٤	٢	٤٨	وساروخ حربى
الملك	ذات عجلات برعية	١٤٠	٢٣	٢	٤٧	بكل باخرة من هذه الثلاث مدفع من نوع هاوتزر ومدفعان قطر الواحد منهما ٧٥ ملميترا وأربعة
السلطان		١٤٠	٢٣	٢	٤٧	مدافع مكسيم وفنار كهربائى للاكتشاف وساروخ
الشيخ		١٤٠	٢٣	٢	٤٧	حربى

ويتبع هذا الاسطول خمس بواخر كدفعيات أيضا وهى أبوطليح والمتمه وطماى والتيب والبرنس عباس وبكل واحدة منها مدفع كروب من قطر ٩ سنتيمترات ومدفعان من نوع نوردنفلد وساروخ حربى وبكل باخرة تسعة عمال لادارتها

ولخدمة البريد بالنيل ١٣ باخرة أخرى منها عشر فوق الشلالات وهى عبكة وعكاشة وسمنه وحنك وامبيجول وكيبار ودال وتجور ونجمة النوبة والطاهرة وثلاث تحت الشلالات وهى ابزيس والكسندره ووترللى وعدد خدمة السفن المذكورة نحو ١٢٠ نفرا

﴿باخرة مصلحة الفنارات﴾

اسم الباخرة	قومندان أول	قومندان ثانى	مهندس أول	مهندس ثانى	ضابط درجة ثانية	ضابط درجة ثالثة	رؤساء وملاحين
عايده	١	١	١	١	١	١	٣٦

﴿الفنارات المصرية بالبحر الابيض المتوسط﴾

أسماء الفنارات	الموقع	عروض شمالية	أطوال شرقية	سنة بناء الفنار	عدد الخدمة	ملحوظات
		° ′ ″	° ′ ″			
اسكندرية	رأس التين	٣١ ١١ ٤٣	٢٩ر٥١ر٤٠	١٨٤٨	٤	
البرزلام	فى طرف الجسر من الجنوب الغربى	٣١ر١٠ر١٠	٢٩ ٥٠ ٣٠	١٨٧٦	٣	
القبارى	فى طرف المولص	....	....	١٨٧٧	٣	
العجايده	بقرب برج العرب	٣٠ر٥١ر٠٠	٢٩ر١١ر١٠	١٨٧٣	٨	
رشيد	عند مصب النيل	٣١ر٢٩ر٣٠	٣٠ر١٩ر١٠	١٨٦٨	٥	
البرلس	رأس البرلس	٣١ر٣٥ر٢٠	٣١ر٩٠ر٠٠	١٨٦٨	٥	
دمياط	عند مصب النيل	٣١ر٣١ر٤٠	٣١ر٥١ر٠٠	١٨٦٨	٥	
بورسعيد	على ساحل البحر فى غربى جسر البرزلام	٣١ر١٥ر٤١	٣٢ر١٨ر٤٥	١٨٦٩	٦	

Digitized by Google

﴿الفنارات المصرية بالبحر الاحمر﴾

أسماء الفنارات	الموقع	عروض شماليه	أطوال شرقيه	سنة بناء الفنار	عدد الخدمة	ملحوظات
		° ′ ″	° ′ ″			
فنار السويس الاعلى	على الساحل الشمالى من خليج السويس	٢٩,٥٧,٢٠	٣٢,٣٢,٤٥	١٨٨٠	٣	
الكريك	على مصب السويس	٢٩,٥٧,٠٠	٣٢,٣٤,٢٠	١٨٨٥	٣	
زينوبيا العوام	على مينارولا الجديدة	٢٩,٥٣,٣٠	٣٢,٣٢,٤٥	١٨٥٦	٩	
زعفران	على رأس زعفران	٢٩ ٦ ٣٠	٣٢,٣٩,٤٠	١٨٦٠	٩	
رأس الغريب	على رأس الغريب	٢٨,٢٠,٤٠	٣٣,٠٦,٠٠	١٨٧١	٩	
الاشرفى	على بوغاز جوبال	٢٧,٤٨,٠٠	٣٣,٤٣,٠٠	١٨٦٢	٤	
شدوان	فى جنوب جزيرة شدوان	٢٧,٢٦,٥٣	٣٤,٠٢,٢٢	١٨٨٩	٤	
الاخوين	صخور الاخوين الشمالية	٢٦,١٨,٥٠	٣٤,٥٠,٣٤	١٨٨٣	٤	
أبو الكيزان	على رصيف الكيزان	٢٤,٥٦,٠٠	٣٥,٥١,٠٠	١٨٦٣	٤	
فنار مدخل البوغاز	»	»	»	١٨٨٨	٧	

﴿بواخر وسفائن مصلحة خفر السواحل﴾

أسماء السفن	حموله	سرعتها	طول القرينة	عرض الوسط	عمق من الكوكرته الى القرينة	تاريخ البناء	صنف السفينة	ملحوظات
	طونيلاطه	ميل	بوصه قدم	بوصه قدم	بوصه قدم	سنة		
نور البحر	١٢٨,٩٣	١٤	١٨٠, ٠	٢٣, ٣	١٣, ٣	١٨٨٤	بخارى	
عباس	١٣٢,٤٥	١٣	١٨٢, ٦	٢٢, ٠	١٤, ٩	١٨٩١	»	
ظريف	٢١,١٠	١١	٩٧, ٦	١٦, ٠	١٢,	١٨٨٥	»	
ورده	٢٩,٠٠	١١	١٠٠,	١٦, ٠	٩,	١٨٨٦	»	
سريع	٠٧,٦٣/١٠٠	١٠	٦٨,	١١, ٨	٧, ٢	١٨٨٦	»	
نسيم	٣٩,٤٣/١٠٠	١٠	٦٩,	١٣, ٨	٧, ٢	١٨٨٥	شراع	
النيل	١٧,	٠٩	٥٩, ٦	٩, ٨	٤, ٦	١٨٩٠	بخارى	
بحر سرور	١٧,	٠٩	٥٦, ٩	٩, ٨	٤, ٦	١٨٩٠	»	
رفاس	٠٣,٤٨	٠٠	٠٠٠٠	٠٠٠٠	٠٠٠٠	١٨٩٥	»	
قطيرة نمرة ١	٤٤,١/٢	١٠	٥٩	١٥, ٦	٨, ٠	١٨٧٧	شراع	
بسيل	٢١,١/٢	٠٧	٥٠, ٣	١٢, ٦	٣, ٩	١٨٨٥	»	
مبروكه	٢٠,١/٢	٠٧	٦٠, ٠	١٤, ١٠	٤,	١٨٩٠	»	
غزاله	٢١,	٠٧	٥١, ٠	١٣, ٦	٤,	١٨٩٠	»	سير السفن الشراعية يقدر بقوة الريح
النمر	٢١,	٠٧	٥١,	١٣, ٦	٤,	١٨٩٠	»	
طير البحر	٢١,	٠٧	٥١,	١٣, ٦	٤,	١٨٩٠	»	
سولا	١٠,	١٢	٠٠,	٠٠,	٠,	١٨٩٥	»	

طوائف

Digitized by Google

﴿ طوائف سفن مصلحة خفر السواحل كالوارد بميزانيتها في سنة ١٨٩٨ ﴾

اسماء السفن	قومندان	صاغ	يوزباشي	ملازم أول	ملازم ثاني	مهندس أول	مهندس ثاني	مهندس ثالث	مهندس صول	باشمهندس	تيمل	صول	باش ريس عسكري	ريس عسكري	ريس خرجي	عسكري	نفر ملاحين	التشري	جملة
نور البحر	١	٠	١	١	١	١	١	١	٠	١	١	٠	١	١	٢	١٢	٢	٥	٣١
عباس	١	٠	١	١	١	١	١	١	٠	١	١	٠	٠	١	٢	١٢	٢	٦	٣٢
ظريف	٠	١	٠	١	٠	٠	١	١	٠	٠	٠	٠	٠	١	٠	٥	١	٣	١٤
ورده	٠	١	٠	١	٠	٠	١	١	٠	٠	٠	٠	٠	١	٠	٥	١	٣	١٤
سريع	٠	٠	٠	١	٠	٠	١	٠	٠	٠	٠	٠	٠	١	٠	٣	١	٢	٩
نسيم	٠	٠	٠	١	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	١	٠	١	٠	٧	٠	٠	١٠
النيل	٠	٠	٠	٠	١	٠	٠	١	٠	٠	٠	٠	٠	١	٠	٢	٠	٢	٨
مخبر سرور	٠	٠	٠	١	٠	٠	٠	١	٠	٠	٠	٠	٠	١	٠	٢	١	٢	٨
استيم المش غرة ١	٠	٠	٠	٠	١	٠	٠	٠	١	٠	٠	٠	٠	٠	١	١	١	٢	٧
« غرة ٢	٠	٠	٠	٠	١	٠	٠	٠	١	٠	٠	٠	٠	٠	١	١	١	٢	٦
طير البحر	٠	٠	٠	٠	١	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	١	٠	٥	٠	٠	٧
القمر	٠	٠	٠	٠	١	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	١	٠	٥	٠	٠	٧
غزاله	٠	٠	٠	٠	١	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	١	٠	٥	٠	٠	٧
مبروكه	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	١	٠	٦	٠	٠	٨
بسيل	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	١	٠	٥	٠	٠	٧
زولا	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	١	١	٥	٠	٠	٧
﴿طائفة أشغال الفلايك﴾																			
اسكندرية	٠	٠	٠	٠	١	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٢	١	١٠	٨	١٠٥	٠	٠	١٣٠
بورسعيد	٠	٠	٠	١	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٥	١٠	٥٠	٠	٠	٦٦
السويس	٠	٠	٠	٠	٠	٠	١	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٣	١	٢٠	٠	٠	٢٥
رشيد	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	١	٠	٤	٠	٠	٥
البرلس	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	١	٠	٥	٠	٠	٦
المنزله	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	١	٤	٧	٣٧	٠	٠	٤٩
دمياط	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	١	٤	١	٢٤	٠	٠	٣٠
الاسماعيلية	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	١	١	٤	٠	٠	٦
القصير	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	١	٤	٠	٠	٥
قطيرة غرة ٢	٠	٠	٠	١	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	٠	١	٠	٥	٠	٠	٧
الجملة	٢	٣	٤	٩	١١	٢	٥	٦	٢	٢	٢	٣	٤	٤٣	٣٦	٣٣٩	١١	٢٧	٥١١

ويتبع هذه المصلحة بالمدرسة البحرية يوزباشي واحد وستة تلامذة بباخرة ديب البحر كما سبق

أما سفن النيل التابعة لنظارة الاشغال فانها سبع بواخر كبيرة وهي المسعودية ومسير والنصرتية

وطواف والرقيب والقاهرة وطهطا وخمسة رفاسات صغيرة تعرف بنمرلها

Digitized by Google

الفصل الحادى والعشرون

القوة البرية بالديار المصرية

طريقة الدفاع عن القطر المصرى

كان بودنا أن نكتب شيأ عن طريقة الدفاع فى القطر المصرى مدة دول الفراعنة ولكننا لم نعثر فى كل ماوقفنا عليه من الكتب الا على شذرات لاتفى بالمراد وقد استنبنا منها ذكر ما يأتى وهو مارواه مؤرخو العرب عن ذلك قال المقريزى قال ابن عبد الحكم لما أغرق الله آل فرعون بقيت مصر بعد غرقهم ليس فيها من أشراف أهلها أحد ولم يبق بها الا العبيد والاجراء والنساء فاتفق من بمصر من النساء أن يولين منهم أحدا وأجمع رأيهن أن يولين امرأة منهن يقال لها دلوكة بنت زبا كان لها عقل ومعرفة وتجارب وكانت فى شرف منهن وموضع وهى يومئذ بنت مائة وستين سنة فخافت أن يتناولها الملوك فجمعت نساء الاشراف وقالت لهن ان بلادنا لم يكن يطمع فيها أحد ولا يمد عينه اليها وقد هلك أكابرنا وأشرافنا وقد ذهب السحرة الذين كنا نقوى بهم وقد رأيت أن أبنى حصنا أحدق به جميع بلادنا فأضع عليه المحارس من كل ناحية فانا لانأمن أن يطمع فينا الناس فبنت جدارا أحاطت به على جميع أرض مصر كلها المزارع والمدائن والقرى وجعلت دونه خليجا يجرى فيه الماء وأقامت القناطر والترع وجعلت فيه محارس ومسالح على كل ثلاثة أميال محرس ومسلحة فيما بين ذلك محارس صغار على كل ميل وجعلت على كل محرس رجالا وأجرت عليهم الارزاق وأمرتهم أن يحرسوا بالاجراس فاذا أتاهم آت يخافونه ضرب بعضهم الى بعض الاجراس فيأتيهم الخبر من أى وجه كان فى ساعة واحدة فنظر وافى ذلك فمنعت بذلك مصر ممن أرادها وفرغت من بنائه فى ستة أشهر وهو الجدار الذى يقال له جدار العجوز بمصر وقد بقيت بالصعيد منه بقايا كثيرة فملكتهم ثلاثين سنة اه وقال صاحب العقد الثمين فى صحيفة ٢١٢ عند ذكره حوادث نقطانب الاول أول ملوك العائلة السمنودية المتممة للثلاثين ان مدته كانت هيجانا واضطرابا لان دولة الفرس كانت متعلقة الآمال مشتغلة البال باسترجاع مصر اليها الى أن قال فجهز التجهيزات الحربية الهائلة واستعد للدفاع فكانت العساكر المصرية تحت قيادة (خابرياس) اليونانى وكان معسكرا بها على ساحل بحر الطينة بعد ان حصنه بالمتاريس والاستحكامات والخنادق التى سميت باسمه بعد الحرب اه فيتضح مما تقدم على مافيه ان الدفاع عن القطر المصرى قديم وقد اعتنت به كل الدول التى حكمت مصر بعد قدماء المصريين الى ان كان حكم المرحوم محمد على باشا الاكبر ومن أتى بعده من سلالته فأقاموا بها من الاستحكامات والقلاع ما يأتى ذكره

اعلم ان أهم نقطة الدفاع المعتنى بها من القديم فى هذه الديار هى النقط الواقعة على حدودها الثلاثة الشمالية والجنوبية والشرقية وكانت الخطوط الشمالية أهمها لوقوعها على سواحل القطر الممتدة على البحر الابيض المتوسط ولقربها من الدول البحرية المشهورة منذ القدم بقوة الاساطيل

Digitized by Google

وأما الخطوط الواقعة على الحدود الجنوبية فأهمها النقطة القريبة من شرقى شاطئ النيل وغربيه وكذا النقط التى على سواحل البحر الاحمر التى يخشى عليها من أساطيل العدو ولكونها سهلة المواصلة مع داخل القطر فكان أهم نقطة الدفاع هى المقامة على ثغور مصر كما سبق فى الكلام على الثغور المصرية اما التى بالحدود الشرقية فأهمها ما كان مقاما منها على دروب التجارة التى تطرقها القوافل بين القطر والبلاد الآسيوية هذا أما الحدود الغربية فلا يخشى عليها الأنها تعد من القديم كاستحكامات طبيعية لوجود صحراء لبيبة القديمة العديمة الماء المشابهة لبحر من الرمال وقد كانت الدول التى حكمت مصر من القديم بين فراعنة وفرس ويونان ورومان وعرب واكراد ومماليك وجراكسة تعتنى بأمر هذه الخطوط لاهميتها العسكرية فشيدوا على نقطها المهمة كثيرا من المعاقل والحصون والقلاع التى يشاهد آثارها واطلالها الآن وكانوا يعلؤنها بالآلات الحربية وبالجنود ولم يكن هذا الاعتناء قاصرا على القوة البرية فقط بل كان يشمل البحرية ولذلك اهتموا أيضا بصناعة السفن الحربية كما سبق فى المقدمة وماذلك الا ليمنعوا بها العدو بحرا من الدنو الى السواحل المصرية من جهة وللمحافظة على التجارة البحرية المصرية المنتشرة فى سائر البلاد المتاخمة للقطر من الاخرى واستمر الحال على ذلك حتى ارتقى المرحوم محمد على باشا كرسى الولاية المصرية فوجه عنايته لامر الدفاع عن البلاد وشيد فى نقط كثيرة من تلك الخطوط عدة حصون وقلاع واستقدم من فرنسا مهندسين لذلك مثل جاليس بك الذى عهد اليه عمل الاستحكامات والنظر فى اتخاذ طرق الدفاع وبناء اللازم من الحصون على الحدود المصرية وبعد ان نظر هذا الرجل فى الامر مع رجال العسكرية المصرية قدم تقريرا وافيا بما رآه ذكر فيه آراءه على خطوط الدفاع المذكورة وما يلزم لها من الحصون والقلاع لتكون وافية بالمراد فقال ان أهم خطوط الدفاع عن الحدود الشمالية ثلاثة الاول خط الساحل ويحتاج الى اقامة حصون قوية يمكن بها المدافعة عنه وصد هجمات الاساطيل التى تقصد البلاد بسوء والثانى لا يحتاج لشئ لانه معزز طبيعة بالمستنقعات والبحيرات الموجودة فيه وهى بحيرات المنزلة والبراس وادكو ورشيد وأبوقير ومريوط واما الخط الثالث فيمكن الدفاع عنه عند اللزوم باقامة بعض استحكامات خفيفة على المسالك الواقعة بين البحيرات المذكورة وهذه المسالك هى التى توصل خط الساحل بالوجه البحرى وداخل القطر ومنها يمكن صد العدو اذا تغلب على خط الساحل وقصد دخول القطر وقال أيضا بلزوم اقامة بعض الحصون على الحدود الشرقية بجهات الصالحية لوقوعها على طريق سوريه المعتاد وجهات الاسماعيلية لوقوعها على طريق وادى التيه الذى يوصل مصر ببلاد العرب وجهات السويس لأنها فرضة مصر على البحر الاحمر وبجهات أخرى على البحر الاحمر كالطور والقصير وغيره من ساحل عيذاب والعقبة التى اتخذ فيها القدماء الحصون ولم يذكر شيأ مهما عن الحدود الجنوبية لان السودان كان تم اذ ذاك فتحه وضمه الى مصر ولما صدق العزيز على رأى المهندس المذكور أخذ فى عمل الاستحكامات اللازمة واصلاح القديم منها وبقى العمل بها جاريا الى عهد المرحوم عباس باشا الاول كما ذكرناه فى فصول هذا التاريخ فأصلحت قلعة الجبل وأقيمت بعض مواقع عسكرية أخرى فى جهات العباسية من ضواحى مصر ولما تولى سعيد باشا سار فى طريق والده أبى الفتوحات فانتخب بنظره الصائب امام جزيرة روضة البحرين موقعا من أهم المواقع الدفاعية لانه أعظم نقطة للتحصين ولانه يمكن أن يصل المدد منها الى كافة الثغور بالسهولة واستصوب أن يشغله بالحصون

Digitized by Google

الحصينة والقلاع المتينة بحيث لو طمع طامع فى الدنو من هذه المواضع صد عنها بالقوة بواسطة المياه المنصرفة من عيون القناطر لما أنه يترتب على ذلك فى زمن التحريق اندفاع الماء الى ما حول القلاع من المجارى والخنادق وانتشاره منها الى أبعد مسافة يشغلها عسكر العدو ثم عززها بالمدافع والاسلحة والجنود وهى المعروفة بالقلعة السعيدية وقد وصفها المرحوم الفاضل صالح بك مجدى وكان وكيلا لاشغال الطوابى بها فى قصيدة لطيفة حوت كل اصطلاحات فنون الاستحكامات هذا وبقيت كل الحصون المذكورة على حالتها التى كانت عليها سنة ١٨٧٢ حين أمر الخديو الاسبق المرحوم اسمعيل باشا باصلاح ما كان منها على السواحل المصرية الشمالية لتكون صالحة لوضع المدافع الضخمة فأصلحت اصلاحا طفيفا (١٢٨٧ هـ) ثم ركب بها مدافع من نوع ارمسترنغ من عيار عشر بوصات وتسع بوصات وسبع بوصات وكانت العناية بها يومئذ زائدة بالنسبة لمنويانه السياسية فجعل لها ادارة خاصة عرفت بقلم الاستحكامات عهد برئاستها المرحوم محمد باشا الارعشلى ولما قصد إقامة بعض الحصون على برزخ وخليج السويس حرضت الدول وفى مقدمتهم فرانسا الباب العالى وخوفته من ذلك لمنافعها الذاتية فصدر فرمان بمنعه فامتنع وذكر الكولونيل بيشر (Becher) حالة الدفاع فى القطر المصرى فى ذلك الوقت فى رسالة طبعت فى باريس سنة ١٨٧٣ تسمى عبارة جنسه طريقة الدفاع العسكرى عن القطر المصرى وهى موجودة فى مكتبة نظارة الحربية بمصر

وذكر كثير من الكتاب خطوط الدفاع التى كانت فى حدود القطر الشمالية قبل تدمير حصون الاسكندرية (١١ يوليو سنة ١٨٨٢) فقالوا انها كانت تحتوى على عدة حصون وقلاع وطواب منها ما هو على بعد ٣٠،٠٠٠ متر الى الغرب من العجمى وكانت ثلاث قلاع وهى النحوس وبرج أبوصير وقلعة ابوصير وبعد الواحدة عن الاخرى ١٦٠٠ متر أما الدفاع عن ثغر الاسكندرية بحرا فكان يومئذ يمتد على مسافة ١٧١٧٠ مترا من قلعة قايتباى الى العجمى ومن حصونه حصن المرابط بالجهة الغربية ازاء البوغاز المنسوب اليه وهو على الجزيرة المسماة به فكان به أربعة مدافع ضخمة من طراز ارمسترنغ من عيار ثمان بوصات واثنان من عيار تسع بوصات وثلاثون من النوع المسمى أوبوس قديمة وخمسة هوانات وخلف هذا الحصن حصن آخر على الرأس الغربى من الفرضة يعرف بحصن العجمى وهو قليل الاهمية لقدم بنائه والى الغرب من هذا الحصن طابية الدخيلة تبعد عنه ٣٦٠٠ متر ثم طابية باب العرب وهى على بعد ٢٨٠٠ متر الى شرق الدخيلة وعلى بعد ٢٠٠ متر من طابية المكس الجديدة والى الشرق منها بنحو ألفى متر طابية المكس القديم وهى على مرتفع من الارض وعلى الساحل فى المكان المعروف بمرسى القناطر وهذه الطوابى الثلاث معدة للدفاع عن مدخل البوغاز الغربى المعروف ببوغاز المرابط والبوغاز العمومى وكان بطابية المكس المذكورة ٣١ مدفعا من المدافع القديمة منها أربعة من ذوات العيار الكبير وعلى طول المرفأ القديم حتى البحيرة الداخلة له عدة متاريس واستحكامات منها طابية القرية المعروفة أيضا بالطابية اليسرى الكبرى وتبعد عن المكس القديم بنحو ٥٢٠ مترا الى الشرق وبها خمسة مدافع وطابية ام قبيبة وهى الى الشرق على بعد ١٤٠٠ متر وبها ١٨ مدفعا وبرج مستدير فيه مدفعان وقلعة صالح أغا القديمة وهى على بعد ٤٠٠ متر الى شرق أم قبيبة والطوابى المذكورة كلها

مسلطة

مسلطة على المرمى ومسلحة بستة وخمسين مدفعا معظمها من النوع القديم المسمى اوبوس
وفي الجهة الاخرى من المرفأ عند منتهى شبه جزيرة فاروس بالقرب من رأس اونستوس المعروف برأس التين قلعة الفنار وهي مشرفة على الميناء الداخلة وعلى البوغاز من جهة الشرق ومحتوية على مساكن خشبية تسع ألفي جندي ومعززة بأربعة وعشرين مدفعا قديمة منها خمسة من نوع ارمسترنغ أحدها قطره عشر بوصات ويزن ١٨ طنا وأربعة قطر الواحد منها تسع بوصات ويزن ١٢ طنا وعلى الشاطئ الشمالي من رأس التين المذكورة عدة بطاريات أخرى مسلحة بسبعة عشر مدفعا بعضها من ذوات العيار الكبير وعند منتهى خط هذه البطاريات مدفع واحد من نوع ارمسترنغ قطره ثمان بوصات وفي الجهة الشرقية من هذا الخط طابية تعرف بالاطة وهي تبعد ٢٣٠٠ متر عن الفنار الى الشرق واستحكام قائم على رصيف متصل باليابسة بخندق ضيق تدخله مياه البحر وبه بعض مدافع قديمة ومدفع واحد ارمسترنغ من قطر عشر بوصات وعند منتهى خط الشبه جزيرة المذكورة برج يعرف ببرج قايتباي وبقلعة فاروس أيضا وهو مبني بالحجر يسع اثني عشر مدفعا ويشرف على متسع البحر ومعد لحماية مدخل الميناء الشرقية ويشترك معه في ذلك الحصن المعروف بطابية فاريلبون وهو على رأس شبه جزيرة ضيقة في الجهة الاخرى من الفرضة شمالي محطة الرمل ويمتد الى داخل البحر يحميه برج آخر هنالك يعرف بطابية السلسلة المسماة قديما رأس لوشياس

هذا أما الدفاع عن ثغر الاسكندرية برا فكان بواسطة سورها العربي القديم الباقي بعضه للآن جهة باب رشيد وباب سدره وباب السوري ويحميه عدة متاريس أو استحكامات قائمة على مرتفعات مطلة على بحيرة مريوط وترعة المحمودية والطريق الحديدية وعليها أبنية هي بقايا الحصون التي أنشأها الفرنساويون حول المدينة مدة حملة بونابارت (١٧٩٨ - ١٨٠١م) وكانت معززة من الخارج بطابيتين تعرف احداهما بطابية كافاريللي المعروفة اليوم بحصن نابليون أو كوم الناظورة والثانية بطابية كرتيين أو كوم الدكة ومتراس كايو بازه المعروف بقلعة باودا أما اليوم فالطابيتان الاولتان وهما كوم الناظورة وكوم الدكة قائمتان في قلب المدينة لقيام البناء من حولهما وأهميتهما الحربية مفقودة لعدم الاهتمام بهما وعدم وجود أسلحة جيدة فيهما على سعتهما والاولى منهما مطلة على داخل المرفأ القديم حاكمة عليه لارتفاعها وعند باب العرب استحكامات تعادل طوابي المكس ارتفاعا وتسد لسان الارض الواقع بين الملاحة وبحيرة مريوط وهي واقعة الى ما وراء المقطع القديم الذي خرقه الانكليز سنة ١٨٠١ عند محاصرة الجنرال منو ليدخلوا به مياه البحر الى البحيرة فغرقت يومئذ قرى كثيرة وتحولت الى صحراء واسعة يابسة والى مستنقع مضر بالصحة أما خط الدفاع الذي على الساحل بين طابية السلسلة وأبوقير فانه في غاية المناعة بالطوابي المشيدة عليه وهي طابية المنظرة الواقعة الى شرقي طابية السلسلة بنحو ٢٩٤٢٨ مترا والى شرقيها ببعد ٣٩٠٠ متر طابية تسمى التوفيقية والى شرقيها ببعد ١٨٠٠ متر طابية تعرف باسم كوسه باشي والى الشرق منها ببعد ٨٦٤ مترا قلعة أبوقير والى الجنوب الشرقي منها ببعد ٢٤٥٠ مترا طابية الرمل وفي جهة الشرق من هذه الطوابي سد أبوقير وهو معزز بأربعة أبراج لحمايته ويعرف الاول ببرنجي برج وهي تبعد عن الرمل ٢١٠٠ متر ثم الى شرقيها ببعد ٨٠٠ متر ايكنجي برج ومنه الى الشرق ببعد ١٩٠٠ متر

Digitized by Google

٣ بجى برج والى الشرقية ببعد ١٢٠٠ متر ٤ بجى برج وعلى آخر السد من جهة الشرق ببعد ٣٠٠٠ متر توجد طابية تعرف بالكوم الاحمر وببعد ٣٢٠٠ متر عنها الى الشرق طابية المعدية هذا وغير ماذكر فان ساحل ادكو حتى رأس رشيد معزز بتسع طوابى تسمى الاولى هلالية الكلخ وهى على بعد ٢٨٠٠ متر الى شرقى بحيرة المعدية والثانية المعدية ثم طابية الكلخ وهى تبعد ٢٥٠٠ من شرقى الاولى والرابعة هلالية ادكو والخامسة طابية ادكو والسادسة هلالية العلائم والسابعة طابية العلائم والثامنة هلالية النفر والتاسعة طابية النفر وكل واحدة منها تبعد عن الاخرى بنحو أربعة آلاف متر والى غربى هذه الطوابى بنحو أربعة آلاف متر بوغاز رشيد وعليه من الغرب طابية غرب البوغاز ومن الشرق طابية شرق البوغاز ويبعدان عن بعضهما بنحو ثمانمائة متر وهنالك استحكام آخر يعرف بقلعة قايتباى واقع على منتصف المسافة بين مدينة رشيد وطابيتى البوغاز السابقتين وطابية أخرى فى أبى منذور وهى قائمة على تل عال جنوبى رشيد ولما كانت المسافة بين رشيد والبرلس البالغ طولها ٥٧٠٠٠ متر كلها مستنقعات وتعد من الموانع الطبيعية لم تبن عليها استحكامات وعلى رأس بحيرة البرلس طابيتان الاولى تسمى طابية غرب البرلس وهى تبعد ٥٦٢٠٠ متر من شرقى رشيد والى الشرق ببعد ٨٠٠ متر طابية شرق البرلس وهى على بعد ١١٢٥ متر الى الشرق من طابية فنار البرلس وفى المسافة التى بين الفنار المذكور وبوغاز جمصه طابيتان الاولى تعرف بالعباس وهى على بعد ١٩٨٠٠ متر الى الشرق من فنار البرلس والى الشرق منها بنحو ١٤١٧٥ متر طابية القرعة ثم الى شرقى بوغاز جمصه المذكور بنحو ١١٨٠٠ متر طابية جمصه والى شرقيها بنحو ١٢٤٠٠ متر برج يعرف باوجنجى برج والى الشرق بنحو ٤٠٠٠ متر برج يعرف بايكنجى برج والى شرقيه بنحو ٤٢٠٠ متر البرج الاول

أما بوغاز دمياط فيحميه طابيتان عظيمتان هما طابية غرب البوغاز وطابية شرقيه والمسافة بينهما لا تزيد عن ٥٩٠ مترا وهنالك طابية أخرى تعرف بالعزبة وهى قديمة على الشكل المعروف فى فن الاستحكامات بالبستيون أى كثير الاضلاع أقامها الفرنسويون وبداخلها جامع وقشلاق ومخازن وفى المسافة التى بين دمياط وبورسعيد وطولها ٦١١١٠ أمتار طابيتان الاولى تعرف بطابية الديبة وتبعد عن شرقى طابية شرقى بوغاز دمياط بنحو ٣٢٥٥٠ مترا والى شرقيها بنحو ١٣٢٧٠ مترا طابية تعرف بالجميل وهى على أشتوم الجميل وأغلب هذه الطوابى هلالية الشكل قليل منها رباعى وكانت كل واحدة منها مسلحة بثلاثة مدافع من نوع ارمسترنغ وستة مدافع من النوع القديم المسمى أوبوس مختلفة العيار الا قلعتى قايتباى وأبومندور برشيد فكانت مدافعهما قديمة وقد أهملت هذه الاستحكامات بأجمعها تقريبا بعد وقائع سنة ١٨٨٢ حتى تخربت الآن

أما خط الدفاع بالحدود الشرقية فهو عبارة عن قلعة قديمة بالعريش وأخرى مثلها بالعقبة ولم يقم استحكامات فى حدود القنال سوى الطوابى الترابية التى شيدها العرابيون فى حوادث سنة ١٨٨٢ بجهات التل الكبير والصالحية وآثارها ظاهرة للآن ولما أخرجت الحكومة المصرية جنودها من السودان فى سنة ١٨٨٥ شيدت بعض نقط حربية فى وادى حلفا للدفاع عن حدود القطر من هجمات الدراويش فشيد السردار غرنفيل باشا معسكرا كبيرا اعتمد على ساحل النيل

Digitized by Google

الشرقى طوله ألفى متر وأقام حوله خمس طواب منها فى جهة الجنوب بقرب ساحل النيل طابية حميت طابية نمرة واحد والى الشمال طابية أخرى عرفت بطابية نمرة خمسة وعلى شرق المعسكر على كيلومتر واحد ثلاث طواب عرفت بنمرة ٢ و ٣ و ٤ وبعدها عن بعضها واحد وكلها على شكل مضلع وأقاموا على بعد ربع ساعة من طابية نمرة خمسة الى الجنوب طابية التوفيقية والى الجنوب منها ببعد ساعة طابية أخرى عرفت بطابية الخور والى الجنوب منها طابية جمس وعلى نحو ٣٣ كيلومترا من حلفا الى الجنوب طابية سرس ولما فتح السردار كتشنر باشا دنقله وبربر أقام فى الحدود الجديدة بجهات دنقله وكورتى ومروى وأبو حمد وبربر والدامر بعض الحصون وخصص لخفارة آبار جكدول التى فى عطمور بيوضة قبائل الجعليين الخاضعين للحكومة الخديوية

الطرق الحديدية — اعلم ان السكك الحديدية أصبحت فى الوقت الحاضر من أهم طرق المواصلات وانفع أسباب تقريب المسافات كما لا يخفى فكلما اتسع نطاقها فى بلاد ازداد رواج سلعها التجارية وهى فضلا عما لها من المنافع التجارية والانتقالية وايجاد الامن والعمارية بالبلاد التى تمر بها فائدة رئيسية فى نقل الجيوش ومعداتهم الى الاماكن البعيدة فى أقصر زمن لهذا رأينا من الضرورى ذكر السكك الحديدية المصرية فى باب الكلام عن قوة مصر العسكرية فنقول جميع السكك الحديدية التى بمصر تابعة للحكومة المصرية ماعدا بعض خطوط شيدتها الشركات على السكك الزراعية وهى المعروفة بالسكك الضيقة وأول هذه الخطوط الخط الممتد من القاهرة الى اسكندرية ويعرف بالخط الطوالى وطوله ٢٠٨ كيلومترات و ٧٤٠ مترا ويمر بقليوب وبنها وطنطا وكفر الزيات ودمنهور وكفر الدوار وسيدى جابر ويتفرع منه عدة فروع منها خط من بنها الى الزقازيق وطوله ٣٤ كيلومترا و ٩٨٣ مترا ويمر على شبلنجه وميت القمح والزنكلون وخط من بنها الى ميت بره وطوله ١١ كيلومترا و ٢٦٥ مترا وخط من طنطا الى دسوق ويمر بمحلة روح وقطور وقلين وشباس وخط من طنطا الى زفتى وطوله ٤٤ كيلومترا ويمر بمحلة روح والسنطه وخط من طنطا الى المنصوره ومنها الى دمياط ويمر بمحلة روح والمحلة الكبرى وسمنود وطلخا والمنصورة وشربين وفارسكور وكفر البطيخ وخط من شربين الى بيلا وطوله ٢٩ كيلومترا ويمر بسنديله وبلقاس وخط من طنطا الى اشمون وطوله ٦٢ كيلومترا ويمر بتلا وشبين الكوم وشنوان ومنوف وسمادون وخط من ايتاى البارود الى مصر وطوله ١٢١ كيلومترا ونصف ويمر بكوم حماده وكفر داود والخطاطبه ووردان وأوسيم وامبابه وخط من دمنهور الى الرحمانية وطوله ٢٠ كيلومترا ويمر بسنهور وخط من المرابعين الى قلين ويمر بسخا ومحلة موسى وقلين وخط من الصالحية وفاقوس الى أبو كبير ويمر على فاقوس والغابه وأبو كبير وخط من المنصوره الى مصر عن طريق الزقازيق وبلبيس ويمر على السنبلاوين وأبو الشقوق وأبو كبير والزقازيق وبلبيس وشبين القناطر وقليوب وشبرا ثم مصر وخط من الزقازيق الى السويس ويمر على التل الكبير والقصاصين والمحسمة والاسماعيلية وجنيفة والسويس ومنها الى الحوض وخط ضيق من الاسماعيلية الى بورسعيد ويمر بالقنطرة ورأس العش وهو تابع لشركة القنال وخط من كوبرى الليمون بمصر الى المطرية والمرج وطوله ١٤ كيلومترا ويمر بسراى القبة والمطرية وعين شمس والخطوط المذكورة كلها بالوجه البحرى

خطوط الوجه القبلى — بالاقاليم القبلية خط واحد عظيم ممتد من القاهرة الى بلدة نجع حمادى وفى النية مده الى أسوان وهو يمر بامبابه والجيزة والبدرشين والعياط وبوش وبنى سويف وببا

Digitized by Google

والفشن ومغاغه وبنى مزار وقلوصنا وسمالوط والمنية والروضه وملوى وديروط ومنفلوط وأسيوط وأبوتيج وطهطا وطهطا وسوهاج وجرجا وبرديس وفرشوط ونجع حمادى وطوله ٥٥٦ كيلومترا و ٢٨٤ مترا ويتفرع منه عند الواسطة خط الى مدينة الفيوم وأبوكساه ويمر بالعدوة والفيوم وابشواى وطوله ٦١ كيلومترا وأربعة أمتار ويخرج خط آخر من الفيوم الى سنورس وطوله ١١ كيلومترا و ٧٦٨ مترا

الخطوط الحديدية بالسودان — كان الشروع فى مد الخطوط السودانية بالسودان سنة ١٨٧٧ م فى عهد الخديو الاسبق اسمعيل باشا بقصد توصيلها الى الخرطوم وكانوا يريدون مد الخط الاول منها من حلفا الى بلدة كوه مارا على الشاطئ الشرقى من النيل وقدروا طوله وقتئذ بنحو ٢٥٧ كيلومترا وكان التصميم انه متى وصل الى كوه يعبر على قنطرة حديدية حتى يصل الى بلدة أم البقول بعدان يمر على ثمان محطات منها حنك ودنقلة الجديدة ودنقلة العجوز وطوله ٣٤٩ كيلومترا ثم يمد من أم البقول الى شندى عن طريق صحراء بيوضة مارا بخمس محطات منها أبوحلفا وجبل النوس ومن هنالك يمتد الى البحر الاحمر عن طريق كسلة ومصوع وشرع العمال فى العمل وصرف عليه نحو ألفى الف ليرة مصرية ومع ذلك لم ينته منه شئ يذكر فاضطر الخديو لايقاف هذا المشروع الجليل لسبب ارتباك المالية المصرية ثم لما قامت ثورة المهدى وساقت انكلترا الجيوش لاستخلاص الجنرال غوردون باشا مدت الحكومة خطا حديديا من وادى حلفا الى عكاشه طوله ٨٠ كيلومترا (١٨٨٤ م) ولما عادت الجيوش واتخذت الحكومة فى وادى حلفا خطوط الدفاع أهمل خط عكاشه المذكور ثم لما تقرر اعادة فتح السودان وابتدأ الجيش فى الزحف على دنقله (١٨ مارس سنة ١٨٩٦) أخذ السردار الجنرال كتشنر باشا فى مد السكك الحديدية لسهولة المواصلات فوصلت الى آبار المرات (٥ مايو ١٨٩٦) ثم الى آبار أم البقول أو امبجول ثم الى عكاشه (٢٦ يونيه) ثم الى كوشه (٤ أغسطس) وفى ٢٩ أغسطس هطلت الامطار فخربت منها نحو ١٢ ميلا فاعيد اصلاحها ثم وصلت الى بلدة الكرمة وتبعد عن حلفا نحو بنحو ٢٠٥ أميال تقريبا (أول مايو سنة ١٨٩٧) ثم بعد فتح دنقله مد السردار طريقا آخر من حلفا الى أبوحمد وتم عمله فى ١٩ نوفبر من السنة المذكورة ومن أبى حمد الى بربر وتم فى أوائل مارث من سنة ١٨٩٨ ومنها الى بلدة الدامر على نهر عطبره

القوة العسكرية المصرية

اعلم ان القوة العسكرية بالديار المصرية كان معتنى بها من عهد دول الفراعنة كما يعلمه كل من طالع التاريخ فكانت القوة العسكرية تعد عندهم من أول مراتب الامة وأعظم فرقة من فرق الملة اذ كانت عليها حراسة المملكة ولهذا كانت الحكومة تهب الجنود قسما كبيرا من الاراضى يستغلونها ليصدق دفاعهم عنها والذود عن حياضها وكانت الاراضى العسكرية معفاة من سائر المطالب الميرية وكان لكل جندى نحو ستة افدنة هذا خلاف ما كان يصرف له من الغذاء والعدة وقد بلغت الجيوش المصرية فى زمن هيرودوت ٤٢٠,٠٠٠ مقاتل وقد أجمع المؤرخون على أن الجيوش المصرية بلغت فى مدة العائلة الثامنة عشرة وهو زمن ارتفاع شأن مصر ٦٠٠,٠٠٠ من المشاة ونحو ٢٤,٠٠٠ من الفرسان و ٢٧,٠٠٠ من العربان المسلحة بالحراب وقد زادت هذه القوة مدة سيزوستريس الاكبر الذى اشتهر بالفتوحات وادخل تحت طاعته بلاد النوبة والحبشة وسنار وبلاد العرب والشام وبابل ونينوى وقطعة كبيرة من آسيا الصغرى وبلاد فارس وجزيرة قبرس وعدة من جزائر الارخبيل

وكان

وكان الملوك هم القادة للجيوش فى ميادين الحرب ثم أخذت قوة مصر بعد ذلك فى الانحطاط فالغيت الجيوش الاهلية واستبدلت قوانينها العسكرية وصار جنودها من الشعوب الاجنبية فى مدة حكم الفرس واليونان والرومان والعرب والاكراد والمماليك فلم يكن المصريون محاملين السلاح لحماية عن وطنهم بل كانت جيوش هؤلاء الفاتحين هم الذين يؤدون الخدمة العسكرية فى الديار المصرية حتى زمن ولاية ساكن الجنان محمد على باشا لانه رحمه الله من يوم ان جلس على كرسى الولاية المصرية أوجد فيها جيشا عظيما منظما من الاهالى كما ذكرناه فى تاريخه ثم اقتدى به بنوه من بعده الى يومنا الحاضر كما ذكرناه فى تاريخ كل منهم

نظام الجيش المصرى — كان أول من أدخل النظام الجديد فى الجيش المصرى هو افندينا المرحوم محمد على باشا الاكبر صاحب المآثر الجليلة الكثيرة كما تقدم وكان من حسن نظره فى العواقب وجودة سياسته أنه لما عزم على ذلك خاف من ثورة تكون بين الجند الاتراك والالبانيين وغيرهم المشكل منهم الجيش المصرى حسدا منهم وتمردا على إدخال نظام يمقتونه لانه مخالف لمداركهم الكاسدة الفاسدة سيما وأنه يعلم جيدا ان الدولة العثمانية اعتراها الفشل وثارت عليها جنودها مرارا حينما اهتمت بادخال النظام الجديد فى جنديتها كما ذكرناه فى تاريخها بالجزء الاول فلذلك رأى من الصواب ان يكون تنظيم الجيش الجديد وتدريبه فى مكان بعيد عن قاعدة الديار المصرية حتى لا يعلم به أولئك الجنود فاختار مدينة اسوان لبعدها عن الانظار حتى اذا تم له ما أراد أمكنه بالجيش الجديد قمع كل عصيان من الجند القديم وقد وفقه الله لما أراد لحسن نيته وطيب سريرته وقد وقفنا على كلام فى هذا المعنى جدير بالاعتبار دال على ما حصل للمصريين اذ ذاك من الفرح بهذا الجيش الجديد وهو وان كان غير جامع لكل ما يجب أن يقال فى هذا الشأن الا أنه مع ذلك مفيد لكل من يريد الوقوف على افكار الناس فى ذلك الوقت والكلام للمرحوم الشيخ خليل بن أحمد الرجبى الشافعى فى تاريخه الذى ألفه عن المرحوم محمد باشا الكبير وهو محفوظ بالكتبخانة الخديوية قال فى مقالته السابعة

اعلم أيها الناظر فى هذا المرقوم العارف بقضايا المنطوق والمفهوم ان الملة المحمدية اشرف الملل قد شرفها الله وصانها عن مواطن الزلل لا يضاهى شعارها ولا يضطرب منارها ولا يطفأ نورها ولا تغرب شموسها ولا تأفل بدورها ومن المعلوم ان لها قوانين وشروطا ولكل شرط وقانون حدا مضبوطا ولها أركان معلومة مقررة مفهومة ولكل ذلك أساس كبير وأصل محقق بغير نكير لابد لها من وجوده مستديما إما بالفعل وإما بالقوة تنويها برفعة قدرها وتكريما واجب أن يدوم إحكامه ومتحتم شرعا ان تتبين لعيان أحكامه وحكامه وهو الجهاد فى الطغاة من البغاة والفجار ونحو فرق الخوارج الضالين وجميع المفسدين فى الارض من الفاسقين لابد من اقامة هذا الامر والا تسلط زيد على عمرو ولا يمكن اهماله فى سائر الاوقات تارة بالفعل وتارة بوجود الاستعدادات قال تعالى وجاهدوا فى الله حق جهاده أمر بهذا محمدا وكافة القادرين من عباده وقال تعالى وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وقال جل وعز ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص الى أن قال فى وصف الوزير محمد على باشا الكبير انه أمعن نظره فى أهل هذا الوادى فوجدهم لا يجيبون فى مواطن الحرب من ينادى لا يمنعون عدوا يفاجئهم ولا يصدون مغيظا يفجعهم لا يدرون ما الشجاعة ولا يقدرون على الصبر لحظة من ساعة لا يمكنهم صيانة أماكنهم ولا يدفعون من رام خراب مساكنهم مع أن القطر مشحون بالعدد الكثير ومملوء بمئين من الالوف فهم الجماء الغفير فى عدد الرمل والحصى لا يحصرون

بطريق الاستقصا فلما رآهم أفندينا بهذه الشؤن وعلى صفات لا يقبلها ذوو الهمم المؤمنون
تدارك فسادهم وطلب ان يروج كسادهم وأحب انقاذهم من الجبن ومذمته واخراجهم من ذل
الهون بعلى همته فأرسل الى القرى والبلاد وجمع الشبان أولى القوة الشداد وأمر أن يجيؤا من
كل جهة بعدد ليجتمع منهم ما يكون صالحا للمدد وقصد أن يعلمهم طرائق الحرب ويوقفهم على
ادراك كيفيات الطعن والضرب وصمم على هذا الامر الجسيم وجزم بأن يجعل لهم من قمع
الاعداء أوفى قسيم وأحضر رؤس أهل التعاليم والرجال العارفين بهندسة الفراسة والتفهيم
وأمرهم بتعليم أولئك الشبان أنواع الحروب وكيفية تفاصيل ضرب مكاحل النيران وأرسل
الى عظيم أتباعه من لا ينفك عن اغراضه واتباع أوضاعه المستديم على حبه العاكف على
وده وقربه محمد بيك كتخداى حضرة أفندينا سابقا دام علاه فخاطبه أفندينا فى تجهيز هذا المعنى
وان يكون متوليا اقامته وتشييد ذلك المبنى وأمره أن يصقل سيف عزيمته وينتضى حسام رأيه
وسورة شهامته وأكد عليه وأبرم وفوض اليه الحكم فيما يلزم فاشتهر ذلك عند العالم وحدثه
عليه عقلاء بنى آدم وظهر للخاص والعام أن ذلك اذا تم من أكبر الانعام وتأملت الاذكياء فى
ثمراته وفوائده ومحاسن فنونه وفرائد عوائده فالتزم ذلك حضرة الامير الجليل وقام بكل اللوازم من
كثير وقليل وذهبت الرسل الى البلاد والقرى لاحضار الشبان وحثوا المسير وأحسنوا السرى
وتوجه حضرة محمد بيك الى ثغر أسوان فأقام به متفردا فى العصر والاوان وأحضر عنده كبار المعلمين
وأرباب المعارف الذين باتقان النظام عالمين وحضرة الصدر العلى ذى العز والفخر الجلى يرسل اليه
كل ما لزم له الحال وجميع ما يحتاجه بتلك الجهات والمحال وفى كل حين يرسل له الاوامر ويحضه
على تجهيز ذلك الشأن فيمتثل ويبادر ووالى عليه ارسال الشبان أنواعا وأجناسا متواصلين اناسا
يتلون اناسا فوسموا باسم العساكر الجهادية واشتهروا بذلك فى هذا الاسم ونعت الشهرة السنية
وجعلهم فى مكان رحيب فسيح خصيب وأقام لهم المؤنة وأكثر لهم أنواع المعونة وأعطى كل رجل
مكحلة بارود محكمة القوام حتى استعد للحرب أولئك الاقوام ولزمتهم الرؤساء للتعليم وساستهم بالتدرب
على هذا الامر الجسيم وشددوا عليهم فى اتقان تلك المعانى والمدارك ليكونوا من أرباب الحروب
والمعارك وجعلوهم صفوفا صفوفا وعلموهم الضرب أشكالا وصنوفا واستداموا معهم مجتهدين
وبتفهيمهم الدقائق مجدين تارة صفوفا وتارة دوائر والحرب لا يزال على تلك الصفات دائر
والصفوف اشكال مختلفة والدوائر كذلك وكلها منسجمة مؤتلفة صناعات فى أشكال الحروب عجيبة
ونكات فى فنون الفراسة غريبة بحيث اذا وقف منهم صف وهو مائة انسان وحاربوا بتلك الصناعة
فلا يلاقيهم الالف من الفرسان واذا سار منهم ألف رجل للحرب لا يثبت تجاههم من الآلاف
الكثيرة أحد كان من الشرق أو من الغرب لانهم على قوانين معلومة موصوفة مركوزة وراسخة
فيهم ومعروفة لا تختل صفوفهم ولا تضطرب صنوفهم ولا يتأخر رجل عن رجل يفعل القليل
منهم ذلك والجل ولا زال يجاهد فى تدربهم وتخلقهم بصناعة الحروب ويجربهم كل يوم صباحا ومسا
مستروحا بأنهم ومستأنسا حتى حصل الغرض الاكمل بقدوم حضرة السيد الافضل صاحب
السيف والقلم وأمير الجنود والعلم الشجاع الغضنفر والهزبر القسور مولانا وسيدنا ابراهيم باشا
نجل الصدر العلى ذى العز والفخر الجلى فلما قدم تمت بقدومه الامور وساسهم بتدبيره المأثور
ولازم ادمان تعليمهم وأكثر عنايته بتدبيرهم حتى اتقنوا هذه الصناعة وربحت تجارة تلك

البضاعة وأحكموا المقصود والغرض وتحققوا بعرفان ما أوجبه عليهم وافترض وبقى لهم ذلك طبعا واخلاقا حتى ألفوه بل أثمر بواجبه كأسادها قا وأقاموا شعار الشجاعة وانضموا عليه به وفاقا وساد البيض والسمر على كل من سواهم وزادوا وفاقا وكثر جمعهم والتأم مع السياسة والحماسة شملهم ومازال حضرة افندينا ابراهيم باشا يسوسهم بتدبيره ويحثهم على التعليم بحقائق فنونه وتحريره ضابطا لهم الضبط الكامل حتى انتظم الامر بالعرفان الشامل فقد قام بذلك أتم القيام ولازم تعريفهم تلك القوانين وأكد لهم الالزام فهو ابقاه الله أكبر عضد لهم وأعظم من أعانهم على ذلك ودلهم وهذه الحالة من أعظم الاحكام وأكبر المفاخر ولله القائل كم ترك الاول للآخر اه

وذكر مسيو ادوارد غوين (Edouard Gouin) فى تاريخه العسكرى المطبوع فى باريس سنة ١٨٤٧ المسمى مصر فى القرن التاسع عشر كلاما طويلا عن عسكرية محمد على باشا ومحاربانه شرح فيه ادوارها وترقياتها وهو موجود بالمكتبة الخديوية فمن شاء فليراجعه هذا وجعل المرحوم المشار اليه حق الرياسة العليا على الجيوش المصرية برية كانت أو بحرية لنفسه وجعل أنجاله قواد الجيوش فكان المرحوم طوسون باشا قائدها فى حرب الوهابيين وقادها ابراهيم باشا فى حرب مورة والشام وقادها اسمعيل باشا فى السودان وكان ناظر الجهادية ينوب عنه فى الادارة العمومية العسكرية ثم قاد الجيوش المصرية المرحوم سعيد باشا كما ذكر فى تاريخه وجعل المرحوم اسمعيل باشا قيادة الجيوش المصرية لانجاله الامراء فكان الامير حسين كامل باشا ناظر الجهادية وقادها الامير حسن باشا فى حروب الحبشة والروسيا كما تقدم ثم جعل اسمعيل باشا قيادة الجيش قائدا عاما يعرف بالسردار وبقى الامر على ذلك حتى الغاء الجيش القديم وتشكيل الجيش المصرى الجديد (١٨٨٣) الذى أدخلت عليه النظامات العسكرية الانكليزية فأفادته نظاما واتقانا بعد الخلل الذى أصابه فى الحوادث العرابية وأصبح ناظر الحربية رئيسا عاما على الادارة العمومية الحربية والسردار هو القائد العام للجيش تحت اذن القائد الاعظم وهو الحضرة الفخيمة الخديوية مباشرة ويلى السردار فى قيادة الجيش الادجوتانت جنرال وهو وكيل السردار ورئيس أركان حرب عموم الجيش ويتبعه أركان حرب السردار وهم الضباط العظام المترأسين على أقلام الادارة العسكرية بسردارية الجيش وهم كمساعدين للادجوتانت جنرال فى الاقلام العسكرية

طريقة جمع العساكر — تؤخذ العساكر اللازمة للجيش المصرى بحسب قانون القرعة الصادر بتاريخ ٩ جمادى الثانية من سنة ١٣٠٢ هـ (٢٦ مارس ١٨٨٥ م) وجعل هذا القانون كل مصرى تابع للحكومة المصرية مكلفا شخصيا بالخدمة العسكرية بلا تمييز بين حالته وديانته ومدة هذه الخدمة كما ورد فى الامر العالى الصادر فى ١٤ شوال سنة ١٣٠٦ هـ (١٢ يونيه ١٨٨٩ م) خمس عشرة سنة الا من أعفاهم القانون المذكور من أداء الخدمة العسكرية والمدة المذكورة موزعة كما يأتى ست سنوات فى الجيش العامل وخمس سنوات فى البوليس وأربع سنوات فى الرديف وبالقانون أيضا ان كل من قضى خدمة العسكرية بالجيش أو البوليس ودعت الضرورة لابقائه فى الخدمة المدة الثالثة يزاد مرتبه مكافأة له على ذلك وان الذين يقضون المدة الاولى اذا زاد عددهم عن القدر اللازم للبوليس يبقى الزائد منهم فى الجيش العامل مدة الخدمة المقررة لهم فى

البوليس ووردفى المادة الخامسة من قانون القرعة انه عند الحاجة لجمع كافة عساكر الرديف للخدمة فى الجيش فلا يكون ذلك الا بأمر الحضرة الفخيمة الخديوية

تركيب الجيش - يتألف الجيش المصرى الآن من ١٨ أورطة من البيادة منها ١٢ من المصريين وست من السودانيين ومن عشر أورط من السوارى ومن بطارية واحدة من السوارى ومن أربع بطاريات جبلية ومن ثلاثة بلوكات من الطوبجية المحافظين ومن ثمانية بلوكات من الهجانة نصفهم من السودانيين وأورطتين من البيادة لاشغال السكة الحديدية السودانية ومن قسم طبى وآخر للعملة ولكل أورطة من البيادة ثلاثة ضباط بكباشية وضابط واحد برتبة صاغقول أغاسى وستة يوزباشية وستة برتبة ملازم أول واحد عشر برتبة ملازم ثان و ٧٩٢ بين صف ضابط وعساكر هذا فى الاورط المصرية أما السودانية فعدد ضباطها كما فى الاورط المصرية الا أن صف ضباطها وعساكرها يبلغون ٨٠٢ ولكل أورطة من الجنسين قائد برتبة قائمقام ولها تسعة موظفين ملكيين وست عربات و ١٨ بغلا للعملة أما البنادق المسلح بها الاورط المذكورة فجميعها من صنف هنرى مرتينى

أما جيش الاسلحة الراكبة فيقوده ضابطان كل منهما برتبة قائمقام وهو يتركب من عشر أورط من السوارى لكل أورطة قائد فى رتبة بكباشى معه يوزباشى واحد واثنان برتبة ملازم أول ومثلهما برتبة ملازم ثان و ١٤٨ بين صف ضابط وجندى ويتبع كل أورطة أربعة موظفين ملكيين و ١٤٢ حصانا وأربع عربات لنقل ذخائرها وقسم الهجانة من الاسلحة الراكبة يقوده ضابط برتبة قائمقام معه أربعة بكباشية واثنان برتبة صاغقول اغاسى وهو يتألف من ثمانية بلوكات أربعة عساكرها مصرية ومثلها عساكرها سودانية فالمصرية منها أربعة يوزباشية وأربعة ملازمين اول وخمسة ملازمين ثوانى معهم ٤٠٠ بين صف ضابط وجندى ولهم ٤١٢ هجينا وللسودانية أربعة يوزباشية وأربعة ملازمين أول وخمسة ملازمين ثوانى معهم ٢٠٠ بين صف ضابط وجندى ولهم ٢٠٦ جمال وسلاح هذا القسم هو السيف والمزراق والقربينة من صنف هنرى مرتينى اما الطوبجية أى المدفعية فيقودها ضابط برتبة ميرالاى وتتألف البطارية السوارى منها من ستة مدافع وقائدها برتبة قائمقام معه ستة ضباط و ١٥٤ بين صف ضباط وجندى ولها ١٣٣ حصانا اما بطاريات الميدان فلكل بطارية منها قائد وستة ضباط وتتركب من ١٦٠ بين صف ضابط وجندى ولها ٣٢ حصانا و ٣٢ بغلا و ٢١ جملا وبلوكاطوبجية المحافظة عليهما قائد برتبة قائمقام معه بكباشى واحد وصاغقول اغاسى واحد واربعة يوزباشية وثمانية ملازمين أول وثمانية ملازمين ثوان وتتألف من نحو ٤٩٥ بين صف ضابط وجندى وبلوكاتها قابلة للزيادة والنقصان بحسب الظروف ويتبعهم ١٥ موظفا ملكيا والمدافع التى معهم هى من صنف كروب وبجتان السريعة الاطلاق هذا اما قسم أركان حرب عموم الجيش فعليه ثلاثة كل منهم برتبة أميرلواء وسبعة كل منهم برتبة أميرالاى وأربعة كل منهم برتبة قائمقام وأربعة بكباشية واثنان كل منهم برتبة صاغقول أغاسى وخمسة يوزباشية ويتألف هذا القسم من ٣٧٧ بين صف ضابط وجندى ومعهم ٣٥ حصانا أما العساكر المخصصة للمحافظة ببلاد النوبة فيقودها ضابط برتبة ميرالاى معه قائمقام واحد وبكباشى واحد وثلاثة يوزباشية وقسم دنقلة عليه قائد برتبة أميرلواء واثنان برتبة ميرالاى وثلاثة برتبة قائمقام وخمسة بكباشية وواحد برتبة صاغ وثلاثة

يوزباشية

Digitized by Google

يوزباشية ويتألف من ٩٠٠ بين صف ضابط وجندى ومعه من الخيول ٢٥ وقسم سواكن عليه قائد برتبة لواء معه ثلاثة بكباشية واثنان برتبة صاغ و يوزباشى واحد وملازم اول واحد وملازم ثان واحد ويتبعه قسم كسله

أما طوبجية القلاع ومهندسو الحرب فتابعان لقسم الحوض المرصود المعروف أيضا بقسم الاشغال الحربية وهو تحت رئاسة ضابط برتبة قائمقام معه ثلاثة بكباشية وخمسة ضباط و يتألف من ٣١ بين صف ضابط وجندى ونحو ٧٥ موظفا ملكيا وهذا خلاف حاميات شبه جزيرة طورسينا وهى مقيمة بقلعة نخل وقلعة النويبع ومحطة الطور يرأسهم ضابط برتبة قائمقام معه عشرون موظفا وثلاثون عسكريا

وللجيش قسم طبي تحت رئاسة طبيب برتبة ميرالاى معه أربعة بكباشية ونحو ٤٢ طبيبا عسكريا وقسم طبي بيطرى تحت رئاسة طبيب برتبة قائمقام معه بكباشى واحد وستة أطباء بيطرية

واما الموسيقات العسكرية فهى تابعة لقسم عسكرية المحروسة وتتألف من خمس موسيقات اثنتان منها للبيادة و واحدة للاسلحة الراكبة و واحدة للحدود و واحدة لسواكن وعلى الجميع مفتش برتبة بكباشى وعلى كل موسيقى رئيس وتتألف موسيقى البيادة من أربعين شخصا وموسيقى السوارى من أربعة وثلاثين شخصا وأما موسيقى سواكن والحدود فتتألف كل واحدة منهما من واحد وعشرين شخصا

جدول بيان الجيش المصرى النظامى كما هو الآن أى فى سنة ١٣١٦ (١٨٩٨)

ضباط	صف ضباط وعساكر	توابع وموظفين ملكية	خيول وبغال وجمال	مدافع	عربات للنقل	أصناف العسكرية
٢٥	٣٧٧	•	٣٥	»	»	قسم أركان حرب عموم الجيش
٦	١٠٠	•	٥	»	»	قسم النوبة
١٦	٩٠٠	•	٢٠	»	»	قسم دنقله
٨	١٥٠	•	١٠	»	»	قسم سواكن
٣٢٢	٩٥٠٤	١٠٤	٢٠٤	•	٧٢	أوست عشرة أورطة بيادة مصرية
١٦٨	٤٨١٢	٥٩	١٠٨	»	٣٦	٦ أورط بيادة سودانية
٦٢	١٥٠٣	٤٤	١٤٣٨	•	٤٠	١٠ أورط سوارى
١٧	٤٠٠	•	٤١٦	•	•	٤ بلوكات هجانه مصرية
١٦	٢٠٠	•	٢٠٦	•	•	٤ بلوكات هجانه سودانية
٦	١٥٣	•	١٣٠	٦	•	١ بطارية سوارى
٢٨	٧٣٢	•	٣١٤	٣٢	•	٤ بطاريات طوبجية
١٢	٤٩٢	•	١٢	١٨٢	•	٣ بلوكات طوبجية للمحافظة
١٨	٧٠٩	•	١٢	•	•	١ أورطة لاشغال السكك الحديدية السودانية
٦٦	١٦٥٠	•	٤٥٠٠	•	•	أقسام الحملة ومأمورى المراكز والادارة وتوابعهم
٥٦	٢٨٨	»	»	»	»	القسم الطبي
٧	٣٠	»	»	»	»	القسم البيطرى
٨٣٣	٢٢٠٠٠	٢٠٧	٧٤١٠	٢٢٠	١٤٨	الجملة

Digitized by Google

ويتبع هذه القوة فرق العربان الغير المنظمين وهي تتألف من نحو ١٥٢١ نفر عليهم واحد وعشرون رئيسا أما أسلحة الجنود النظامية فجميعها من بنادق هنري من تيني أما جنود الحملة وأورطة السكة الحديدية وكذا العربان فأسلحتهم من بنادق رامنطون والطوبجية مسلحة بمدافع كروب ومدافع سريعة الضرب ومدافع مكسيم وأنابيب الساروخ الحربي هذا خلاف الملحقات الموجودة في مصر وقسم المحروسة والمدرسة الحربية وتوابع المهمات والتعيينات وبلوكي البيادة وأورطة السواري التابعين للحرس الخديوي وأورطة الخفر الثانية لقسم الضبط أي البوليس واذا أضيف الى هذا العدد جميع عساكر الامدادية القديمة الذين فرزتهم مجالس القرعة بعموم مديريات القطر في سنة ١٨٨٩ و١٨٩٠ و ١٨٩١ وسجلتهم في قوائم العسكرية القديمة في سن يختلف بين خمسين وأربعين سنة وعساكر قسم النظام أي قسم البوليس وخفر السواحل فيكون الموجود بالقطر المصري من الجنود كالآتي بيانه

ضباط	صف ضباط وعساكر	
٨٣٣	٢٢٠٠٠	الجيش العامل
٢٤٣	٥٢٣٦	البوليس بعموم المدن والمديريات ماخلا العساكر الاجانب منهم
١٣٦	١١٥٥	جنود خفر السواحل لغاية سنة ١٨٩٨
١٢١٢	٢٨٤٩١	الموجود تحت السلاح
٢٥٠ بالاستيداع	١٩٧٥٠	عساكر الامدادية القديمة الموجودين تحت الطلب وهم بين سن خمسين واربعين
١٤٦٢	٤٨٢٤١	المجموع الكلي

﴿ يقول المتوسل بجاه المصطفى الفقير اليه تعالى محمود مصطفى خادم التصحيح بالمطبعة العامرة ببولاق مصر القاهرة ﴾

تم الجزء الثاني من حقائق الاخبار عن دول البحار تأليف صاحب الشمائل المرضية والمدارك السامية العلية سعادة اسمعيل بك سرهنك ناظر المدارس الحربية بلغه الله كل امنية ولعمري إنه لكتاب طابق اسمه معناه وجمع من المحاسن واللطائف فوق ما المرء تمناه في عهد الطلعة الداورية الخديوية العباسية أيد الله ملك دولته ووالى إنعامه على رعيته ملحوظا بنظر من عليه جميل أخلاقه يثني سعادة وكيل المطبعة الاهلية محمد بك حسني في أوائل شعبان المعظم سنة ١٣١٦ من هجرته صلى الله عليه وآله وسلم

﴿ تم الجزء الثاني ويتلوه الجزء الثالث وأوله تاريخ فرنسا ﴾

Digitized by Google

حقائق الأخبار

عن دول البحار

تأليف

الفريق إسماعيل سرهنك باشا

الجزء الثالث - القسم الأول

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٣٤١ هـ ١٩٢٣ م

Digitized by Google

Digitized by Google

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)

(استدراك واعتذار)

لقرائنا الكرام

ظهر الجزآن الأول والثاني من كتابي «حقائق الأخبار عن دول البحار» قاصدا سد الثلمة في المؤلفات التاريخية المصرية في لغتنا الشريفة العربية بشأن تاريخ الدول البحرية ذات الشأن في توسيع نطاق الحضارة والمدنية وتغلبت بقوة الأيمان والعزم الصادق علي تلك العقبات التي كانت تحول بيني وبين عملي الذي عليه أقدمت وفيه شرعت فتوفقت. وبينما أنا أهيء معدات الجزء الثالث لانجاز طبعه ونشره اذا بالحالة العامة السياسية قد تغيرت وكانت سدا منيعا بيني وبين شدة عزيمتي وان لم تزعزع شيئا من عقيدتي نحو الخدمة الوطنية التي شرعت فيها بحسن نية وخالص طوية

ولما كانت الحالة العامة لم تعد الآن الي صفوها، وتحتم علي المؤرخ النزيه التمهل في البت في مصيرها، اردت برا بوعدي اصدار القسم الأول من الجزء الثالث الذي تم طبعه من قبل حرصا علي الفائدة سائلا الحق جل وعلا ان يعينني علي اتمام طبع الملازم الباقية من الكتاب بأقرب سانحة ممكنة في جو صاف يحقق آمال البلاد، لتتبوأ مقعدها السامي بين العباد، مثنيا علي مواطني الأمجاد الذين قابلوا عملي بالترحاب، والشكر المستطاب، والله يوفقنا جميعا الى طريق الصواب انه علي مايشاء قدير، وهو نعم المولي ونعم النصير .

الفريق اسماعيل سرهنك

«١» اردت بعد هذه الفترة أن أعيد الكرة في اتمام طبع بقية هذا الكتاب فأبلغتنا دار الطباعة الاميرية انها ألغت نماذج حروف الطبع القديمة التي يراها القاريء الكريم الآن ماثلة أمامه ووضعت حروفا جديدة بدلها تخالف رسم هذا الطبع فأصبح الاستمرار فيه متعذرا بالشكل الجديد لتباين الرسم والقاعدة القديمة ولذا أصدرنا هذا القسم الأول من الجزء الثالث ونسأل الله التوفيق لأصدار القسم الثاني من هذا الجزء بالوضع المناسب

Digitized by Google

فهرست الجزء الثالث

القسم الأول

من حدائق الأخبار عن دول البحار

Digitized by Google

Digitized by Google

Digitized by Google

وقد قررنا ثمن الكتاب جميعه

على الوجه الآتى

الجزء الاول والثانى **١٢٠** قرش صاغ

القسم الاول من الجزء الثالث

٢٥ قرش صاغ



Digitized by Google

Digitized by Google



الجزء الثالث

تأليف

(الميرالاى اسمعيل بك سرهنك ناظر المدارس الحربية)

(حقوق الطبع محفوظة للمؤلف)

(الطبعة الاولى)

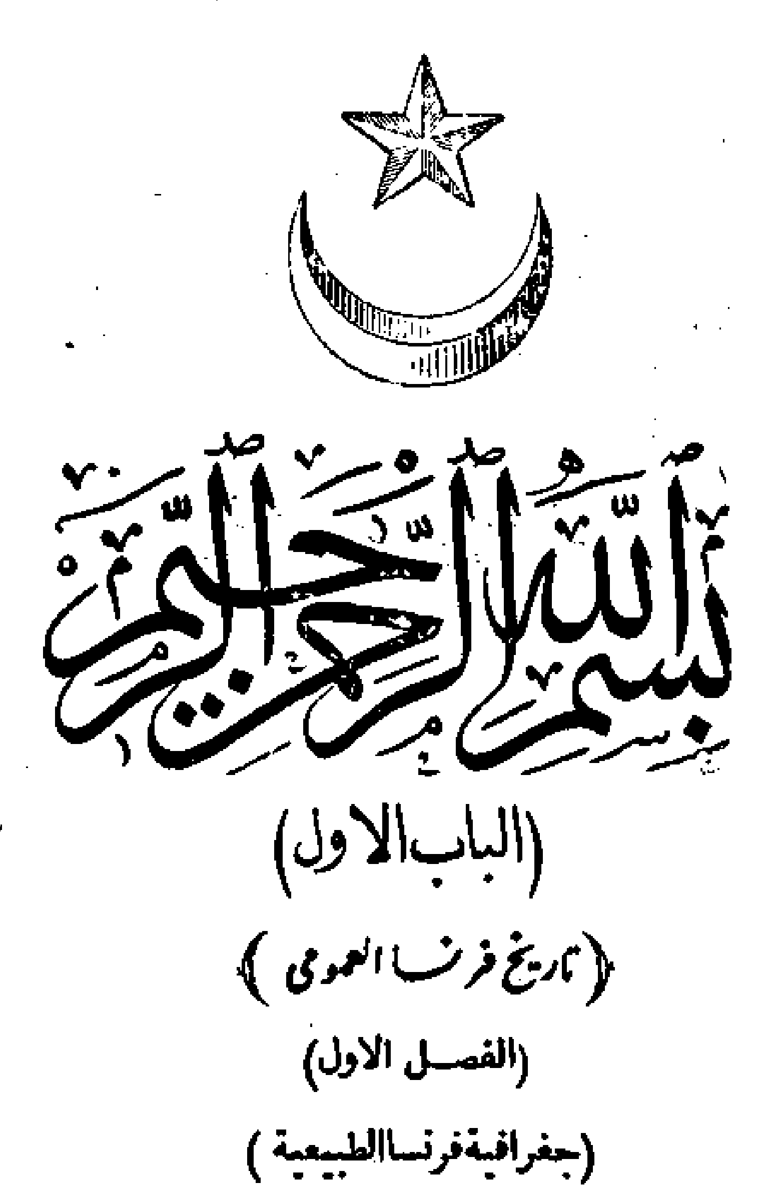
بالمطبعة الاميرية ببولاق مصر المحمية

سنة ١٣١٦

هجريه

(بالقسم الأدبى)

Digitized by Google



(الباب الاول)

﴿تاريخ فرنسا العمومي﴾

(الفصل الاول)

(جغرافية فرنسا الطبيعية)

فرنسا هي من أوسع الممالك الموجودة في أواسط قارة أوربا وتحد من الشمال بالخليج الانجليزي المعروف أيضا ببحر المانش وبمقاطعات فلندر من بلاد بلجيقه وشرقا بجبال فوسج الجنوبية وبلاد بافاريه وبادن من بروسيا وبحيرة جنبره أو جنيفه ببلاد سويسره وبجبال الالب التي تفصلها عن سويسره وايطاليا وجنوبا بالبحر المتوسط الابيض وجبال البرانس التي تفصلها عن اسبانيا وغربا بخليج غسقونيا المسمى ببحر فرنسا وبالمحيط الاطلسي ومساحتها تبلغ الآن ٥٢٨٫٥٧٧ كيلومترامربعا وكانت فرنسا تعرف قديما باسم جليقية أو الغالة (Gaules)

وليست حدود فرنسا الآن هي التي كانت لها عندما كانت تعرف باسم جليقية قديما لانها بعد سقوط الدولة البونابارتيه أولا سنة ١٨١٥ م وسقوطها ثانية سنة ١٨٧١ خسرت حدودها الطبيعية بالجهة الشرقية والجهة الشمالية والفاصل بينها الآن وبين الجهتين المذكورتين خط صناعي اقامته أيدي السياسة أما عدد سكانها فيبلغ حسب التعداد الاخير ٣٨٫٥٠٠٫٠٠٠ نسمة

أما جبال فرنسا فانها كثيرة مختلفة ومع ذلك يمكن حصرها في أربع سلاسل وهي سلسلة جبال الالب (Alpes) ويتفرع منها جبال اقليم روفنسه ومنها الالب البحرية ثم ألب مقاطعة دفنيه وتشتمل على جبال ويزو (٣٨٤٠ مترا) وجبال طابور (Thabor) وغيرها ثم ألب اقليم سافوا ومن جبالها جبل سنيس (Cenis) وسن برنار الصغير والجبل الابيض (Mont Blanc) وهو

اعلى

Digitized by Google

أعلى جبال فرنسا وارتفاعه ٤٨١٠ أمتار ثم سلسلة جبال جورا (Jura) وثانيا جبال فرنسا العليا الوسطى ومن جبالها جبل افيرنى (Auvergne) وجبل دور (reDo) ودوم (Dôme) وبلومب (Plomb) وغيرها وجبال سيفين (Cévennes) ومنها جبل (Mézene) ميزنك بمقاطعة لاهجدولك وجبل مورفان (Morvan) وجبل ساحل الذهب باقليم برغونيا وجبال ارغون (Argonne) واردين (Ardenne) باقليمى شامبانيا ولورين ثم جبال فوسج (Vosges) (١٣٦٦ مترا) وهى على حدود بلاد الالزاس ثالثا سلسلة جبال البرانس (٣٢٩٠ مترا) ومن جبالها قنة الجنوب وسلاندوغيرها رابعا سلسلة جبال الوسط وهى تابعة لجبال ابنين (Apennine) ومن جبال فرنسا أيضا جبال قرسقه وأشهرها جبل لاروتندو (Rotondo) وسنتو (Cinto) واعلم ان جبال فرنسا على ٤ ومياهاثلة المنظر وحشيته تتوجها الثلوج الدائمة وتكثر الغابات ببعضها الا أن أغلبها صخرى خال من الاشجار وهى قليلة الانبات والسكان على ارتفاع معلوم أما أوديتها فانها عميقة خصبة وافرة الحاصلات والسكان هذا وجزيرة قورسقه من البلاد الجبلية الكثيرة الغابات أيضا ومع ذلك فان قسمها الشرقى منخفض كثير المستنقعات

أما أنهار فرنسا فتنقسم الى أربعة منحدرات مائية هى منحدر بحر الشمال ومنحدر المانش ومنحدر المحيط الاطلسى ومنحدر البحر المتوسط الابيض وأشهر الانهار والنهيرات التابعة للمنحدرات المذكورة هى الآتية نهر موزيل (Moselle) ويصب فيه نهر مورت وهو من النهيرات التى تصب فى نهر الرين ونهر موز الاعلى ويروى مدينة سيدان ويصب فيه نهر آخر يسمى سمبر ونهر اسكو الاعلى ويخترق سهول فرنسا الشمالية ومن النهيرات التى تصب فيه اسكارب وليس (Scarpe et Lys) والانهار المذكورة تصب فى بحر الشمال ونهر سوم (Somme) ونهر السين وطوله ٧٧٦ كيلومترا وهو ينبع من بلاد ساحل الذهب بفرنسا ويخترق سهولا نضرة ووديانا خصبة ويشق مدينة باريس ويمر بمدينة روين ويصب فى البحر عند مدينة هافر فى جونة عرضها نحو ١٣ كيلومترا الا أنها كثبانا تعوق الملاحة وهو أشهر انهار فرنسا فى حركة التجارة وأشهر النهيرات التى تصب فيه هى أوب (Aube) ويون (Yonne) ومارن (Marne) وواز ويصب فى هذا الاخير نهر اسن (Aisne) واور (Eure) ثم نهر اورن وكلها تصب فى بحر المانش ومن أنهار فرنسا أيضا نهر فيلين (Vilaine) ونهر لوار العظيم وطوله ١٠٤٠ كيلومترا وينبع من جبال سيفين ويخترق النجد الاوسط من فرنسا مارا باودية عميقة ويروى مدينة أورليان ثم يتجه غربا مارا أواسط سهول عظيمة ومن المدن التى يمر بها نانت وسن نازر حيث يصب فى البحر والملاحة فيه معدومة تقريبا العدم بقاء مياهه على حالة واحدة وهو يفيض كثيرا من سقوط الامطار ومن أشهر نهيراته نيفر (Nièvre) ولواريه (Loiret) وشير (Cher) واندر (Indre) وفيين (Vienne) ويصب فى هذا الاخير نهرا كروز (Creuse) وماين (Mayenne) ثم نهر شارنت (Charente) ونهر غارون وينبع من جبال البرانس ويروى مدينة طلوشه حيث يتصل مع الترعة الجنوبية ثم يتسع واديه وينعطف غربا ويروى بوردو وهناك تبتدئ الملاحة فيه وله عند مصبه جونة عظيمة تعرف باسم جيروند ومن نهيراته اريج (Ariège) وطارن ويصب فى هذا الاخير نهر جرس (Gers) ولوت ودردونى (Dordogne) الذى يصب فيه

Digitized by Google

أيضا نهيرا كوريز (Corrèze) وأدور وجميع الانهار المذكورة تصب فى المحيط الاطلسى ونهراود (Aude) وهيرولت (Herault) ونهر الرون وطوله ٨١٢ كيلومترا وينبع من جبل سن غوتار ببلاد السويسره وتحدث منه بحيرة جنيرة ويشق مدينة ليون حيث يصب فيه نهر سون (Saone) ثم يخترق جنوبا واديا جبليا وهو أعظم انهار فرنسا بالنسبة لكثرة مياهه ولارتفاع الجبال التى تحيط بحوضه الا ان الملاحة فيه صعبة لسرعة تياره وتراكم الطين فى مصبانه ثم نهير وار ومن نهيرات الرون نهيرا ين (Aine) وسون (Saone) ويصب فى هذا الاخير نهيرات دوب (Doube) وأيزير ودروم واردبش (Ardéche) وسورج ودورانس وغارد وجميع هذه الانهار تصب فى البحر المتوسط الابيض وغير ماذكر من الانهار والنهيرات توجد ٨٦ ترعة طولها معا ٢٣٥٠ ميلا وهى توصل بين أكثر الانهر وتساعد على سهولة المواصلات ونقل الحاصلات وأشهر بحيرات فرنسا هى بحيرة اغرنديو وبحيرة دانسى (D'annecy) وبورجيه (Bourget) فى مقاطعة سافوا وبحيرة ليمان (Léman) وجنيرة الواقعة على حدود سويسره وبها أيضا عدة مستنقعات قريبة من ساحل البحر لا أهمية لذكرها

وأما الخلجان فكثيرة منها الخليج المانش وهو بالشمال ويعرف عند الانجليز بالخليج الانجليزى وهو خطر الملاحة والى الغرب خليج آخر يسمى بخليج بسكاى وهو أيضا خطر الملاحة خصوصا فى أيام الزوابع ثم خليج ليون ويخرج من البحر المتوسط الابيض

وأشهر الجزائر التابعة لفرنسا هى جزائر أويسانت (Ouessant) وسنت (Seint) وبيل ايل ونوارموتيه (Noirmontier) ويو (Yeu) ورى (Ré) وأوليرون (Oleron) وكلها جزائر صغيرة ساحلية بالمحيط الاطلسى ثم جزائر هيير (Hyères) وليرين (Lérins) وجزيرة قورسقه العظيمة وكلها فى البحر الابيض المتوسط أما جزيرة قورسقه فطولها ١١٠ أميال وعرضها ٥٠ ميلا وبها سلسلة جبال ارتفاع رؤسها العليا ٩٠٦٠ قدما ويبلغ سكان هذه الجزيرة ٢٧٢٠٠٠ نسمة ومن مدنها أجاكسيو التى ولد فيها نابليون بونابارته كما سيأتى

وأكثر سواحل فرنسا الشمالية تعلوها أو تقرب منها كثبان أما سواحلها الجنوبية فانها صخرية خطرة على الملاحة ومرافئها الامينة قليلة ماعدا التى فى مقاطعة بروفنسه وعلى سواحل فرنسا ثلاثة بوغازات شهيرة الاول بوغاز كاليه وهو بينها وبين انجلتره الثانى بوغاز أبرطون وهو بينها وبين جزيرة رى الثالث بوغاز انتيوش وهو بين جزيرة رى المذكورة وجزيرة أوليرون وأرض فرنسا على العموم خصبة وافرة الحاصلات فهى تعد من أجمل وأخصب أراضى أوربا وذلك لحسن موقعها الطبيعى وأفضل أراضيها خصوبة هى الشمالية حيث تكثر زراعة الحبوب وفى مقاطعة شامبانيا وبرغونيا كروم جيدة وفى جهة الجنوب الغربى سهول رملية عديمة النبات وأما مناخها فانه جيد معتدل على العموم صحى خالص الهواء مناسب للصحة ولكن الجهات الشمالية شتاؤها شديد البرد حتى يتجمد نهر السين بقرب باريس ويمكث البرد فيها نحو نصف السنة تقريبا وهواؤها فى الاماكن المتوسطة معتدل نقى يقوى الابدان أما الجهات الجنوبية فهواؤها حار والشتاء فيها قصير

ومن نباتاتها التين والكمثرى والخوخ والصنوبر والخور والصفصاف والبلوط وأدخل فيها الرومانيون الكرز والكرم من المشرق والزيتون من آسيا وقد أدخل فيها أيضا البرتقال والليمون

والتوت

والتوت الأبيض من بلاد الهند والتوت الاسود من آسيا الصغرى والمشمش من ارمينية والخوخ من بلاد فارس واللوز والجوز والبطيخ من آسيا والرمان من افريقيه وحيث كانت أكثر أراضيها مخصبة كان يجنى منها كثير من أنواع الحبوب والجذور والبقول المغذيه للانسان والحيوان خصوصا تفاح الارض ويخرج بها أيضا الكلأ والبنجر ويصنع منه أكثر سكر فرنسا وأنواع العنب التى يستخرجون منها الانبذة العظيمة التى أشهرها نبيذ برغونيا وخرشمبانيا وخر بردو وينبت بها أيضا شجر الزيتون والحبوب التى يستخرج منها الزيت الجيد والقنب وبها الكتان والتبغ والعقاقير النافعة فى الطب والصباغة ومنها القلى وحشيشة الدينار ونحو ذلك وبها غابات واسعة تصلح أخشابها البناء السفن والوقود والعمارة المنزلية ولصناعة أثاث البيوت وأمتعتها وغير ذلك ويكثر بها نوع من شجر البلوط يعرف بالفلين ويكثر فى غابات أردين واورليان وغيرها

وأما معادن فرنسا فكثيرة أيضا ففيها الفضة والرصاص والتوتيا والزنجفر وأنواع الرخام والجص والفحم الحجرى والملح والحديد والنحاس والقطران والذهب وهو قليل وبها أنواع أحجار البناء الجيدة وحجر الطبع وحجر الطاحون وحجر الزناد وعدة أحجار نفيسة وبها التراب الكبريتى والزاجى وروح التوتيا المسمى بالخارصينى والانتيمون والمغنيسا ومعادن الشب والزاج الاخضر وبها نحو ٢٤٠ ينبوعا معدنيا مختلفا وبها أيضا امياه ملحية يستخرج منها ملح الطعام ومع ذلك فهذه المعادن المذكورة قليلة بالنسبة لغيرها من البلاد حتى تضطر فرنسا الابتياع قدر عظيم منها أخصها الفحم الحجرى والحديد وأما حيواناتها فى فرنسا فكثيرة أيضا ففيها الخيل والبغال والحمير والبقر والمعز ومنه نوع يقال له ماريئوس جيد الاصواف وهو مجلوب اليها من بلاد الاندلس وقد جلب اليها الماعز من بلاد التبت والغنم الظريفة والخنازير وبها من الحيوانات البرية الدب والذئاب والثعالب والقطاط الوحشية والخنازير الوحشية والايل والمعز الوحشية والسنور البرى والظباء والاراوى والارانب البرية والسنجاب وعناق الارض وكلب البحر وغيره من الحيوانات الموجودة فى أكثر البلدان وفيها من الطيور النسر والعقبان والصقر والبازات والحجل والسمان والقمر وغيرها وتكثر بها أسماك البحار والانهر والاصداف والنحل ودود القز

(الفصل الثانى)

(الثغور البحرية بفرنسا)

لفرنسا على بحر المانش وخليج بسكاى المعروف أيضا بخليج غسقونيا وعلى سواحل البحر المتوسط الابيض عدة ثغور وفرض ومرافئ أصلحت الكثير منها حتى صيرته من أعظم نوعه وجعلت بعضها ثغورا حربية وبعضها تجارية فازدادت بذلك المتاجر فى بلادها داخلا وخارجا وهذه الفرض هى الآتية مرتبة كما تراه

فرض فرانسا على البحر المتوسط الابيض — طولون (Toulon) وهى فرضة حربية من الدرجة الثانية وحصونها من الدرجة الاولى واقعة على بعد ٩٣٠ كيلومترا من الجنوب الشرقى لباريس

Digitized by Google

وهي بمقاطعة بروفنسه وتبعد عن شرقي مرسيليا بنحو ٣٠ ميلا وعلى مدخل خليجها حصون منيعة وعدد سكانها ٧٠،٥٠٩ أنفس وبها عدة ينابيع عذبة وضواحيها خصبة الاراضي وبها دار صناعة شهيرة ومعامل حربية بحرية يصنع فيها أنواع المدرعات والسفائن الحربية والادوات العسكرية البحرية وبمعاملها المذكورة أكثر من عشرة آلاف عامل وبها مدارس عسكرية بحرية ودار للعدلية وأخرى للمجلس العسكري البحري العالي ومركز ادارة رسم خرط البحار ومدرسة لهذا الفن ومتحف بحري وكثير من المتنزهات والابنية المفتخرة ومستشفى للبحرية وفي الساحل الغربي من مدخل الميناء معامل لشركة تدعى فورج أوشانتيه الشهيرة وهي من أشهر المعامل التي تصنع البواخر والبوارج الحربية والمدرعات وكان الخديوي الاسبق المرحوم اسمعيل باشا شيد فيها المدرعات التي أخذتها منه الدولة العثمانية سنة ١٨٦٩ كما تقدم ويقال ان هذه المدينة اسسها الرومان وكانوا يسمونها وقتئذ تيلومارتيوس (Telo-Martius) وفي القرون المتوسطة أغار عليها العرب ثم تحصنت حالتها في سنة ١٣١٩ م ثم شرع لويس الثاني عشر في توسيع نطاقها وتم ذلك في عهد فرنسوا الاول وقد اشتهرت في عهد هنري الرابع هذا وكان الغرض الاصلي من بناء حصونها وقايتها من إغارات لصوص البحر وفي أيام لويس الرابع عشر اشتهرت تلك الحصون بمتانتها ومنعتها وقد تحقق ذلك في سنة ١٧٠٧ م عندما هاجمها الدانيماركيون والانجليز باساطيلهم بحرا وبجيش بري تحت قيادة البرنس أوجيني (Eugène) ودوق سافوا (Duc Savoie) وفي سنة ١٧٩٣ استولى عليها الانجليز والاسبانيول باساطيلهم وكان يقودها القبس اميرال اللورد هود (Samuel Hood) وأزلوا بها حيشا بر يا ثم طردهم منها نابليون بونابارت الذي اكتسب أول شهرته بذلك وأسلها للسيف والنهب انتقاما منها لان الملكيين من سكانها كانوا هم الذين أوقعوها في يد دولة الانجليز ومنها سافر نونا بارت عند قيامه لقيادة الحملة الفرنسوية على مصر سنة ١٧٩٨ ثم ان نابليون الثالث وسعها وزاد في معاملها التجارية

مرسيليا (Marseille) — هي فرضة تجارية حصينة تبعد ٨٦٣ كيلومترا عن باريس و ٣٥١ كيلومترا عن ليون وتتصل بهما بطرق حديدية وهي أعظم ثغر تجاري بفرنسا بلغ عدد سكانها سنة ١٨٨١ م ٣٦٠،٠٩٩ نسمة وهي من أجمل المدن وأفخمها وأحسن الثغور وأعظمها أمامها على جزيرة راتونو (Ratonneau) الواقعة على بعد أربعة كيلومترات الى الجنوب حصون وبطاريات للدفاع عنها يسع ميناها الجسيم ألفا ومائتي سفينة وتجارتها منتشرة في جميع بلاد الدنيا بها معامل ومصانع عديدة منها ماهو لصناعة الصابون وتكرير السكر وعمل الكبريت وأدوات الحديد والنحاس ومنها ماهو لعمل السغارات والاقمشة وخلافها وموضع الحجر الصحي بها يعد من أجمل متنزهات أوربا وبها محاكم مدنية وتجارية ودور للعلوم ومدارس للطب والاقرباذين ومدرسة لتعليم اللغة العربية الدارجة وبعض اللغات الشرقية ومدارس للتجارة ورصدخانة ودار تحف تحوي شيأ كثيرا من الصور القديمة والنباتات ومواد التاريخ الطبيعي ومكتبة عظيمة وغير ذلك من الابنية العظيمة وعيناها ترعة واسعة مقسمة الى أحواض كبيرة ترسو بها السفن على أرصفة لسهولة شحنها وتفريغها ولها مواصلات تجارية تربطها مع كل ثغور العالم تقريبا بواسطة سفن عديدة أشهرها شركة ميساجري الفرنسوية وتمتد خطوط الملاحة المذكورة الى

ايطاليا

ايطاليا وصقلية ومالطة وبلاد اليونان والاستانة العلية وثغور البحر الاسود وبلاد الجزائر والاسكندرية والسويس وعدن ومدغشقر وموزمبيق وجزيرة موريس واديلائيد وملبرن وسدنى وكلومبو وبوندشيرى ومدراس وكالكوتا وسنقافوره وبتاوى ومانيلا وسايغون وبلاد تنكين وهنغ كنغ وشنغهاى ويوقوهاما وتونس وطرابلس ومراكش وأمريقا وهذه المدينة أقدم مدن فرنسا بناها طائفة من الفوسيين سنة ٥٤٨ قم وفى رواية أخرى بناها الفينيقيون سنة ٦٠٠ قم ونزلها قوم من الاغريق النازحين وهم من يونيا ببلاد اليونان وأصلهم من فوسيا فى آسيا الصغرى وكان الفينيقيون اتخذوها ملجأ لهم من انتقام الملك شيروس ثم دعيت مسيليا (Massilia) وعرفت بقونية فوسيين نسبة الى الطائفة التى شيدتها تحت قيادة رجل منهم يقال له بروتوس (Protos) أو بروتس ثم نزلتها طائفة أخرى سنة ٥٤٢ قم فنجحت وترقت وبذلك أصبحت مزاحمة لقرطاجنه وحليفة لروميه ومنها قامت نزلات شكلت امارات نيس وانتيب وغيرهما على البحر المتوسط الابيض وبقيت هذه المدن تابعة لها مدة من الزمن وقد اشتهر ملاحو هذه المدينة باسفارهم التى أجروها فى نحو سنة ٣٥٠ قم بحر بلطيق وعلى سواحل أفريقية حتى وصلوا بلاد سنغال ولما خاف سكانها من الاقوام المجاورين لهم اضطروا الى دعوة الرومانيين للدخول فى بلاد الجلاقة (١٥٣ - ١٢٥ قم) وبقيت مرسيليا مستقلة بعد استيلاء الرومان على جليقية ونظرا لدخول مرسيليا فى حزب بومبيوس حاصرها سيزار وامتلكها سنة ٤٩ قم ولما دخلت فى حكم الرومان ارتقت مدارسها حتى صارت تلقب باثينا الجديدة واعتنق سكانها الديانة المسيحية فى القرن الثالث الميلادى ثم لما استفحل أمر القبائل المتوحشة باور باهاجموها ودمروها وفى القرن التاسع الميلادى دخلت تحت حكم بوزون (Boson) ملك بلاد ارل الذى حماها من هجمات العرب الذين كانت اساطيلهم تغدو وتروح اذ ذاك بالبحر الرومى ثم فى سنة ١٢١٤ م قامت بها جمهورية فى قسمها الأسفل وبقى قسمها الأعلى تابعا لاحد الاساقفة ثم دخلت تحت حكم امارة بلاد بروفنسه فى القرن الثالث وفى سنة ١٤٢٣ م خربها الفونس الخامس (Alphonse V) ملك اراغونيا ثم أصلحها الملك رينى ملك انجو (René d'Anjou) سنة ١٤٧١ وفى سنة ١٤٨١ انضمت هى وبروفنسه الى مملكة فرنسا وفى سنة ١٥٢٤ قاومت الامير البربونى الذى أراد اخضاعها ولما حدثت الحرب الدينية حدثت بها أيضا عدة مواقع دموية ولم تخضع الى هنرى الرابع الا فى سنة ١٥٩٦ وقد جردها لويس الرابع عشر من امتيازاتها (١٦٦٠ م) وفى سنة ١٧٢٠ لما انضمت لحزب جوروندان (Girondins) ساقت عليها الحكومة الفرنسوية قوة وأذاقت أهلها الهوان ولما كانت تجارتها جميعها بحرية لم ترتق الا فى زمن التجديد والاصلاح وبعد احتلال فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠ وفتح قنال السويس (١٨٧٠) حازت مرسيليا أهمية عظيمة بين ثغور البحر المتوسط الابيض

انتيب (Antibes) - هى فرضة بولاية الب مارتيم على البحر المتوسط الابيض مستحكمة وميناها عميق سهل المرسى يحميها رصيف صناعى عليه فنار من الطبقة الاولى وهى تبعد ١٥ ميلا عن نيس الى الجنوب الغربى سكانها ٦٨٥٠ نسمة وبها معامل للطيوب تستخرج من الورد والياسمين المعروف بالعسرى وزهر البرتقال وغيرها من الازهار التى تكثر فى الحقول المجاورة لها ومن

Digitized by Google

حاصلاتها الفواكه والزيت والروائح العطرية والسمك المملح والخمر أسسها الفوسيون سكان مرسيليا سنة ٣٤٠ ق م وسميت وقتئذ انتى بوليس (Anti-polis) ثم وسعها الرومان وبقيت زمنا متقدمة معدودة من المراكز الحربية وكان بها دار صناعة بحرية مشهورة في القرن السادس وفي سنة ١٢٥٢ م حصنها فرنسوا الاول وهنري الرابع ثم استولى عليها شرلكان ونهبتها جنوده سنة ١٥٣٦

ست (Cette) — فرضة بحرية تبعد ٢٨ كيلومترا عن مونبليه (Montpellier) الى الجنوب الغربي وهي قصبة مقاطعة هيرول واقعة على ترعة بين مستنقع تو (Thau) والبحر المتوسط الابيض سكانها ٣٤٧١٦ نسمة وميناها أمين يسع أربعمائة سفينة وهي محصنة تحصينا من الدرجة الاولى وبها منارة لهداية السفائن ومدرسة للبحرية ومصايد للسمك وتجارتها رائجة وبها معامل لاستخراج العرق والنبيذ الجيد وتخرج منها سفن الى مرسيليا وبلاد الجزائر وتونس وغيرها من ثغور البحر المتوسط الابيض والذي شيدها هو لويس الرابع عشر بين سنتي ١٦٦٦ و ١٦٧٨ م وكانت تدعى سيتيوم (Sitium) أو سيتيوس مون (Sitius mons) وبها حمامات بحرية وعدة مدارس ومكتبة عظيمة وقنطرة فاخرة فوق قناة تو السابقة الذكر

نيس (Nice) — مدينة حصينة على ساحل البحر المتوسط الابيض وقاعدة عمالة ألب البحرية تبعد عن باريس نحو ١٠٩١ كيلومترا الى الجنوب الشرقي بها من السكان نحو ٦٧٠٠٠ نسمة وبها قسم من الادارة البحرية ومجلس تجاري وكتبخانة ومدرسة للبحرية ودور لقناصل الدول ومناخ هذه المدينة معتدل وموقعها جميل ولهذا يقصدها الاغنياء في فصل الشتاء وبها معامل لنسج الاقمشة الحريرية واستخراج الاعطار والانبذة والزيوت ولها مينا تجارية عظيمة وقد شيد هذه المدينة أهل مرسيليا تذكارا لانتصار انتصروه على احدى الامم القديمة ثم اشتراها الرومان وجعلوها دار صناعتهم البحرية ببلاد الغالة وقد استولى عليها العرب في القرن العاشر الميلادي حينما كانت لهم السلطة والنفوذ بالبحر المتوسط الابيض ثم في القرن الثاني عشر صارت نيس قاعدة امارة وقد احتلتها عساكر شارلكان (Charles Quint) سنة ١٥٣٨ وبهذه المدينة كان عقد المتاركة بينه وبين فرنسوا الاول في السنة المذكورة بواسطة البابا بولس الثالث (Paul III.) وفي سنة ١٥٤٣ م التمس فرنسوا الاول المساعدة من السلطان سليمان القانوني فأرسل لنجدته أسطولا عظيما مركبا من مائة سفينة حربية تحت قيادة خير الدين باشا باربروس فحاصر نيس كما سبق ذلك مفصلا في تاريخ هذا السلطان ثم دخلت نهائيا في حوزة الفرنساويين سنة ١٧٩٢ وصارت اذ ذاك قاعدة مقاطعة الألب البحرية وفي سنة ١٨١٤ ردت الى مملكة سردينيه ثم في سنة ١٨٦٠ صارت للفرنساويين نهائيا

هذا ومن الثغور الصغيرة بفرنسا بورت فاندر (Port Venders) وهو ثغر لمدينة صغيرة من أعمال مقاطعة البرانس الشرقية بها من السكان ٢٠٠٠ نسمة وهو مركز حربي وثغر على البحر المتوسط الابيض ولها أرصفة جميلة وفي سنة ١٧٨٨ م أصدر لويس السادس عشر أمره بان ترسو الفرقاطات الحربية على المدينة المذكورة وتجارتها الانبذة والعرق والثمار والفحم الحجري والحبوب والاصواف وتمر عليها سفن البريد الذاهبة الى الجزائر وكانت هذه المدينة تابعة لاسبانيا زمنا طويلا ثم تنازلت عنها الفرنسا سنة ١٦٥٩ م ثم أخذها الاسبانيول واستردت منهم ثانية

Digitized by Google

سنة ١٧٩٤ ومنها بورت بوك (Port Bouc) وبورت ميو (Port Miou) وبورت كاسيس (Port Cassis) وغيرها

ولفرنسا غير ما ذكر فرض أخرى في جزيرة قرسقه أهمها ما يأتي - (أجاسيو) (Ajaccio) ويقال لها اياتسو أيضا وهي ثغر واقع على الشاطئ الغربي من الجزيرة وتبعد ١١٤٠ كيلومترا عن باريس الى الجنوب الشرقي سكانها ١٧٠٠٠ نفس تأسست سنة ١٤٣٥ م وهي أجمل مدن الجزيرة بها حصون منيعة ومرفؤها جيد يدخله أعظم السفن الا أنه عرضة للرياح الغربية وعلى شاطئ البحر بها عمود من الصوان قطعة واحدة يعلوه تمثال أقيم سنة ١٨٦٩ م للامبراطور نابليون الاول لانه ولد في هذه المدينة ويشتغل أهلها بلقط المرجان وصيد سمك السردين ولها تجارة واسعة في الزيت والخمر خصوصا وفيها مدارس وتياترو ومكتبة تحتوى على ١٣٫٠٠٠ مجلد وبستان نباتات ومن مبانيها دير قديم للبسوعيين وكنيسة جميلة أنشئت في القرن الحادي عشر للميلاد ويشاهد السياح فيها الجرن الذي عمد فيه نابليون الاول والبيت الذي ولد فيه وفي قاعة الاستقبال منه صورة متقنة جدا للامبراطور المذكور صورها جيرار الشهير وكانت مدينة أجاسيوم القديمة (Ajacium) مبنية على مسافة كيلومترين من الحالية الى شمالها

باستيا (Bastia) - هي ثغر على الساحل الشمالي الشرقي من الجزيرة المذكورة تبعد ١٢٤ كيلومترا عن أجاسيو الى الشمال الشرقي سكانها نحو ١٩٥٧٢ نسمة وهي مشيدة على جبل وأسواقها ضيقة ولها حصن وفرضة صغيرة وهي أوسع مدن قورسقه تجارة وفيها أكبر مجالس الجزيرة وتجارة أهلها في الجلود والخمر والزيت والشمع والفواكه اختطها ليونيلو لوملينو (Leonello Lomellino) الجنوى سنة ١٣٨٣ م وكانت تدعى قديما منتينوم (Montinum) وبقيت تابعة لحكومة جنوه نحو ٤٠٠ سنة ودخلت في قبضة الانكليز عدة مرات ففي سنة ١٧٤٥ م استولوا عليها ثم أكرهوا على تسليمها بعد ذلك بسنة وفي سنة ١٧٤٧ م أغار عليها النمساويون والطليانيون فردوا ثم لما ضمت قورسقه الى فرنسا سنة ١٧٦٩ استولى عليها الانكليز تحت قيادة الاميرال هود (Admiral Hood) سنة ١٧٩٤ بعد حصار طويل ولم يقيموا فيها الا زمنا قصيرا وردها الى فرنسا ثانيا

الثغور الغربية والشمالية بفرنسا - (برست) (Brest) - هي ثغر حربي بساحل برطانية الصغرى بمقاطعة فنستير تبعد ٦٠٠ كيلومتر عن باريس الى الغرب سكانها ٨٩٨٥٠ نسمة وهي أهم مراكز البحرية الفرنسوية وأول ثغورها العسكرية والبحرية باوربا حصونها من الطبقة الاولى والمدينة مشيدة على قمة وسفح جبل وبعض شوارعها مائل جدا حتى لا يمكن السير فيها الا مشيا على الاقدام ويجري وراء الجبل المذكور نهر عميق ضيق الى المينا يفصل البلدة الواقعة على ضفته اليسرى عن رسناقها الواقع على الضفة اليمنى ويوصل بينهما بجسر من الحديد ارتفاعه ٢٣ مترا وله باب مغلق يفتح لعبور السفن الحربية وطول فرضتها ٢٢ كيلومترا وعرضها أحد عشر وتسع أكثر من مائتي سفينة حربية وبدار صناعتها التي تبني فيها أكبر المدرعات والاساطيل أحواض ومعامل الصناعة ما يلزم للمدرعات والسفن الحربية الاخرى من الادوات والآلات وفوق مصب النهر السابق ذكره قلعة قديمة عليها مرتفع يفصل دار الصناعة عن المدينة والتجارة بهذه المدينة رائجة

Digitized by Google

وأهم أصنافها الحنطة والجور وغيرها ويخرج من برست اسلاك برقية تربطها بأمريقا وفى سنة ١٧٩٤ م حاصرها الاميرال هو (Admiral Richard Howe) وفاز فى واقعة أوشانت (Uchant) البحرية القريبة منها على أساطيل فرنسا

شربرغ (Cherbourg) — هى ثغر من ثغور فرنسا البحرية المهمة بولاية المانش تبعد ٣٧١ كيلومترا الى الشمال الغربى من باريس و١١٥ كيلومترا عن جنوبى بورتسموث وسكانها نحو ٣٨,٥٤٥ نسمة وهى عند مصب نهر يدعى ديفت (Divette) ولها مرفأ على رأس بارزمبنى على سد عظيم طوله ميلان يتعرج شرقا وغربا مؤلفا من خطين غير متساويين يتحدان بزاوية وقد شرع فى عمل ذلك سنة ١٧٨٤ وتم سنة ١٨٥٤ م وبلغت نفقاته ٦٧,٣٠٠,٠٠٠ فرنك وبالسد مرفأ يسع أربعمائة سفينة عظيمة وفى كل طرف منه مدخل عرضه ألف بارده والمينا التجارية واقعة الى الجنوب قرب مصب ديفت المذكور ولها ترعة بحرية طولها ٦٥٦ بارده وعرضها ٥٥ بارده تنتهى بأرصفة طويلة ذات سدود أما المينا الحربية فوقعها الى الشاطئ الغربى ولها ثلاثة حياض أحدها خارج وطوله ٩٨٤ قدما وعرضه ٧٥٤ قدما والثانى الى الشمال متصل بالسابق والثالث الى الغرب وهو أكبر من السابقين وهذه الحياض منقورة فى الصخر الصلد والاول انشأه نابليون الاول وتم سنة ١٨١٣ م وسمى باسم الامبراطور ومارى الويزا والثانى ابتدئ فيه فى نفس السنة المذكورة والثالث يدعى فرضة نابليون الثالث وهو مبنى من الحجر الجبوبى (الغرانيت) طوله ١٣٧٧ قدما وعرضه ٦٠٠ قدم وشرع فى بنائه سنة ١٨٣٦ وتم سنة ١٨٥٨ م وبلغت نفقاته ١٦,٠٠٠,٠٠٠ فرنك وهو يسع نحو خمسين سفينة جسيمة واحتفل باتمامه باحتفال عظيم حضرته ملكة الانجليز وأقيم فيه تمثال لنابليون الاول وفيها أيضا غير ذلك من الحياض الصغيرة منها الحوض المعروف بحوض نابليون الثالث تنزلق على جوانبه الثلاثة السفن بعد اصلاحها وترميمها وحول المينا مخازن ومعامل وثكنات عسكرية ومخازن للبارود وأخرى للادوات الحربية والمدينة والمينا محصنتان تحصينا منيعا من الدرجة الاولى وعلى السد حصن قوى به مدافع ضخمة وعلى الساحل استحكامات وقلاع بها ما ينيف عن ثلاثة آلاف مدفع وليس بالمدينة متنزهات ولا ملاعب جميلة وبها تمثال للدوق برى أقيم سنة ١٨١٤ وبها مكتبة جامعة ومدرسة كلية ومكتبة خاصة بمؤلفات الاساطيل البحرية وصناعة السفن وبها أيضا ادارة للبحرية وأخرى للطوبجية ومحكمة تجارية وبحرية ومدرسة لرسم خرط البحار ومدارس ابتدائية بحرية ومتحف للتاريخ الطبيعى ومن صادراتها الامريكا البيض والدجاج ولانجلترة الماشية والزبدة وبها معامل لتكرير السكر والملح ونحو نصف سكانها يشتغل فى دار الصناعة البحرية وكانت هذه المدينة فرضة بحرية فى أوائل القرن العاشر وكانت تدعى باللاتينية سيزاريس بورغوس (Cesaris burgus) وكاروبورغوس وشيربورغوس وكانت تدعى فى القرون الوسطى كاروسبور (Carusbur) ودخلت فى يد الانجليز مدة ادورد الثالث (Edouard III) وتقلبت عليها يد الدول كثيرا الى أن دخلت فى قبضة فرنسا سنة ١٤٥٠ م وفى الحرب المعروفة بحرب السبع سنوات استولى الانجليز عليها وهدموا ما بها من المعامل البحرية والحربية وأحرقوا سدود المينا وما بها من السفن وفى سنة ١٦٦٥ م جعلها لويس الرابع عشر ملجأ للسفن الحربية واستمر ترميمها واتقان استحكاماتها ومعاقلها

حتى

حتى سنة ١٨٦٥ وحسبت النفقات التي صرفت في ذلك فبلغت ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ ليرة انجليزية وتشتد الانواء بها حتى انها كثيرا ما تضر بابنيتها وسفنها

دنكرك (Dunkerque) - ثغر حصين بولاية نور وأبعد المدن الفرنساوية الى الشمال واقعة على مضيق كاله او دوفر تبعد ٣٠٥ كيلومترات عن باريس وحصونها من الدرجة الثانية وسكانها ٣٧,٣٢٨ نسمة وبها مجلس للتجارة ومدارس متعددة ومتحف ومكان للتاريخ الطبيعي ومكتبة تحتوي على ١٢,٠٠٠ مجلد وبفرضتها التجارية على الدوام بواخر تسافر الى لندره وروتردام والدانيمارقه والنرويج وثغور الروسيا وبوردو والجزائر ومن صادراتها الزيت والحبوب والزنجفر وبها أربعة أحواض عوامة ودار صناعة تشتمل على معامل للحديد وغيرها والتجارة فيها رائجة جدا وبها معامل لصناعة الصابون وسكر البنجر ودبغ الجلود وغيرها ويشتغل أهلها بصيد الاسماك ولهم فيها أزيد من مائة مركب ويقال ان سبب بنائها كنيسة بناها كاهن يدعى سن الوا (St. Eloi) في القرن السابع للميلاد دعيت كنيسة دون (Dunes) فأقام الصيادون حولها أكواخا صغيرة للصيد فدعاها الفلامانديون دون كرك (Dune-Kurke) ثم حصنها شارل الخامس بقلعة وأحرقها الانكليز سنة ١٣٨٨ ثم استولوا عليها واسترجعها الفرنسويون سنة ١٥٥٨ م وفي سنة ١٥٥٩ استولى عليها الاسبانيون ثم طردوا منها سنة ١٦٤٦ ثم استولى عليها الاسبانيون ثانية سنة ١٦٥٨ واستخلصها منهم الفرنسويون وسلموها لاوليفر كرامويل (Oliver Cramwell) بمعاهدة مخصوصة ثم باعها شارل الثاني ملك الانجليز للويز الرابع عشر ملك فرنسا سنة ١٦٦٢ بمبلغ ٥,٠٠٠,٠٠٠ فرنك ثم قوى لويز الرابع عشر وسائط دفاعها وفي سنة ١٦٩٥ حاول الانكليز احتلالها فردوا عنها وبعد صلح أوترخت (Utrecht) هدمت حصونها وردمت ميناها (١٧١٣ م) ولكن أعيد تحصينها بعد ذلك الى ان هدمت في صلح اكس لاشابيل (Aix-la-chapelle) ثم رممت ثانية سنة ١٧٨٣ وبعد ذلك بعشر سنوات حاصرها دوق يورك (Duke of York) (١٧٩٣) فصادف فشلا ولكونه اسقط رأس جان بارت الملاح الشهير أقيم له فيها تمثال من البرونز سنة ١٨٤٥ م

ديب (Dieppe) - ثغر بمقاطعة السين الاسفل تبعد ١٦٨ كيلومترا عن باريس الى الشمال الغربي واقعة فوق مصب نهر ارك على بحر المانش تبعد ٥٢ ميلا عن هافر الى شرقي الشمال الشرقي سكانها ٢١٥٨٥ نسمة وهي مركز تجارة مهم وفيها نادي للتجارة ومدارس متعددة ومعامل للتبغ ومدرسة للصناعة وميناها جيد وبها حمامات بحرية والمدينة ذات منظر عظيم ومحاطة بأسوار قديمة وبها قلعة قديمة وعدة ينابيع وفي جوارها قناة ماء وبها عدة ابنية معتبرة ومدرسة للاشتراكيين ومدرسة للبحرية ومكتبة تحتوي على ٧٠٠٠ مجلد وبناء قوطي صنع سنة ١٢٠٠ م ومعمل لبناء المراكب وآخر لصناعة الاحبال ومعامل لصناعة آلات السفن وأدواتها وهي موردة لبواخر البريد الى نيوهفن (New haven) من أعمال انكلتره وقد حصنت عائلة شارلمان سواحلها البحرية بحصون عظيمة في القرن العاشر ومنها أقلع الدوق غليوم (William) عندما توجه للاستيلاء على انكلترة سنة ١٠٦٦ م وبعد أن خربها فيليب أوغسطس (Philippe Augusts) استولى عليها الانكليز وبقيت تحت سلطتهم حتى

سنة ١٤٣٣ وأطلق عليها الانكليز والدانيمارقيون المدافع سنة ١٦٩٤ وهي أول فرضة احتلها الالمانيون في حرب سنة ١٨٧٠ وقد أخذ أهلها منذ سنة ١٣٦٥ بارسال بعثات بحرية الى شواطئ غربي افريقية لتوسيع نطاق التجارة وأسس ملاحوها مدينة كيبك في كنادا بامريقا واكتشفوا جزائر قنار باومر كز ديب جيد للتجارة وبها غير ماذكر معامل للمنسوجات القطنية ولتصفية السكر ولعمل أدوات العاج والقرون والصدف ولما كانت ديب وطنا للاميرال دوكسن الشهير (Duquesne) أقامت له المدينة المذكورة فيها تمثالا في سنة ١٨٤٤

هاُفر (Havre) - ثغر مهم بولاية السين السفلي يبعد ٢٢٥ كيلومترا عن باريس الى الشمال الغربي وهو أول ثغر تجاري بعد مرسيليا واقع على بحر المانش عند مصب نهر السين سكانه ١٠٥,٥٤٠ نفسا ويتصل ببقية مدن فرنسا بالسكك الحديدية مثل كل الثغور وبه مركز للبحرية ومحكمة ونادللتجارة وجملة مدارس وبهذه المدينة كنيسة شاهقة تدعى نوتردام وكثير من الفنادق والحمامات البحرية ويتردد على ميناها مراكب تجارية من أغلب بلاد العالم وقد بلغت المراكب التي دخلت ميناها وخرجت منها سنة ١٨٧٨ م ٦٤٩١ سفينة محمولها ٢,١٩٢,٧٧٨ طنا وأسس هذه المدينة فرنسوا الاول (François I) سنة ١٥١٧ م ولذلك سميت مدينة فرنسوا وحصل بهذه المدينة عدة وقائع بين البروتستانت واضدادهم وأطلق عليها الاسطول الانجليزي تحت قيادة اللورد بر كلس (Berkeley's) القنابل سنة ١٦٩٤ م وفي سنة ١٧٥٩ ضربها أسطول الاميرال جورج بردجس رودني (George Bridges Rodney) وكانت حصونها القديمة من الدرجة الثالثة فهدمت سنة ١٨٥٤ وشيد خلافها منيعة

لوريان (Lorient) - فرضة حربية واقعة على جون مور بيهان فوق مصب نهر اسكورف على المحيط الأطلسي تبعد ٥٢٥ كيلومترا الى الجنوب الغربي من باريس عدد سكانها ٣٥١٥٥ نسمة وهي معدودة من المواقع الحربية البحرية ذات الدرجة الثالثة في فرنسا وبها أحواض ودار صناعة وأرصفة ومخازن عظيمة ومعامل للحديد والاحبال والآلات البخارية وغيرها وبها بوليجون لتمرين الطوبجية البحرية على الرمي بالمدافع ومكتبة عظيمة ومدارس للطوبجية والهندسة البحرية ودور لتمريض الملكيين والعسكريين وتجارتها واسعة لاسيما في الاسماك المملحة المعروفة بالسردين وقد اتخذتها شركة سفن بلاد الهند مركزا لها من سنة ١٦٦٦ م فصارت مورد التجارة الشرق ولذلك سميت في سنة ١٧١٩ أوريان ومعناه الشرق وبها تمثال من البرونز لاحد ضباط البحرية عندهم يدعى هنري بيسون (Bisson) أقيم سنة ١٧٤١ م

غرافلين (Graveline) - ثغر حصين بالشمال خلف دونكرك على البحر الشمالي سكانه ٨٥١٦ نسمة ويخرج منها كثير من سفن الصيد فلهابها ما تحتاج اليه وتتجر مع انكلترة في البيض والفواكه وبها معامل لتجهيز السمك المملح وعمل أدوات السفن ودار صناعة عسكرية ودعيت هذه المدينة غرافلين باسم ترعة حفرها أمير بلاد فلندر كانت تعرف بترعة الكونت غرافلين وضمت الى فرنسا سنة ١٦٥٩ م ومن وقتئذ صار تحصينها

كالي (Calais) - وتدعى قديما كاليسيوم وكاليتوم (Calesium) هي ثغر واقع على بحر المانش تبعد ٢٩٧ كيلومترا عن باريس الى الشمال تجاه مدينة دوفر بينهما

Digitized by Google

٣٢ كيلومترا وهي مكان الحط والاقلاع بين فرنسا وانكلترا لا تنقطع بينهما سفن الركاب وحصونها من الدرجة الاولى وبها آثار قديمة وكنيسة شهيرة وقصر كان بناه ادوارد الثالث ملك الانجليز (Edouard III) وبها منار لهداية السفن وسدود الصيد وموقع للسماكين ومحكمة ونادلتجارة وجرك ومدارس ومتحف وغيرها وأكثر تجارتها في السمك وعدد سكانها ١٢٨٤٣ نفسا وقد حازت هذه المدينة درجة عظيمة في نهاية القرن الثاني عشر واستولى عليها ادوارد الثالث المذكور سنة ١٣٤٧ م بعد حروب دافع فيها أهلها أحد عشر شهرا ثم ردها منهم الدوق دوجيز (Duc du Guise) سنة ١٥٥٨ م ثم استولى عليها الاسبانيون سنة ١٥٩٥ ثم عادت الى فرنسا سنة ١٥٩٨م

بايون (Bayonen) — ثغر حربي واقع في الجنوب الغربي من فرنسا عند ملتقى نهر نيف (Nive) بنهر ادور (Adour) على بعد ستة كيلومترات من ساحل البحر وهي مركز تجاري مهم عدد سكانها ٢٧,٤١٦ وحصونها من الطبقة الاولى وبها دار صناعة حربية والمدينة في غاية الجمال منظرا وبها معامل للسكرات والسكر والزجاج ومكتبة ومنتدى مالي (بورصه) ومدرسة بحرية ولها تجارة واسعة مع اسبانيا وصادراتها الخشب والقطران والفلين ولحم الخنزير المملح والشكولاتا والمسكرات وفي القرون المتوسطة استولى عليها الانجليز مدة هي وبلاد اكتيانة ثم ردت الى شارل السابع سنة ١٤٥١ م وقاومت الاسبانيين والانجليز سنة ١٨١٤ فلم يتمكنوا من الاستيلاء عليها أصلا

روشفور سورمير (RochefortSur-Mer) — ثغر بحري وقصبة مقاطعة شارنت السفلى (Charente) تبعد ١٥ كيلومترا عن مصب نهر شارنت و ٤٧٤ كيلومترا عن باريس سكانها ٣٨٩١٢ نفسا وهي كبيرة حصينة ومركز الدائرة الرابعة البحرية ومن المدن الحربية الأولى وفيها محكمة ابتدائية وأخرى تجارية ومحكمة بحرية ومدرسة كلية ومدارس للملاحة وتخطيط البحار والطب البحري ودار صناعة كبيرة ومستودعات لخشب بناء السفن ومستشفيات وحصون ومنار بس منيعة وساحة جميلة ومنتزهات فسيحة ظريفة وفنادق للبحرية ومكتبة فيها نحو عشرة آلاف مجلد وبستان نباتي وعدة جمعيات علمية وغير ذلك من الابنية والمصانع وكان بها مكان لنفي المجرمين ثم ألغي (١٨٥٢) وتجارتها رابحة في الحبوب والملح والعرق والنبيذ والسمك المملح وخلافها وأدوات صيد الاسماك والحيتان التي يستخرج منها الزيت وهي حسنة البناء فسيحة الشوارع مستقيمة الطرق التي تنتهي كلها الى ساحة عسكرية كبيرة فيها عين ماء وأشجار مرتبة وبفرضتها العسكرية تكون حركة المد والجزر عشرين قدما تقريبا وتسع فرضتها التجارية السفن التي حمولها التسعمائة طن وكانت روشفور في القرن الحادي عشر الميلادي عبارة عن حصن مبني على صخر ومن ذلك اسمها القديم عند الفرنج روبيفورتيوم (Rupefortium) وقد استولى عليها الانكليز في القرن الثالث عشر ثم أخذها الفرنسويون زمن شارل السابع وفي سنة ١٨٦٦ حفر شارل التاسع مياهها وحصنها ومنها أقلع نابليون الاول الى انجلترة بعد هزيمته في واترلو (Waterloo) سنة ١٨١٥م وتسليمه الى القبودان ميتلند (Maitland) ربان السفينة المسماة (Bellerophon) بيل رفون وروشفور وطن عدة رجال اشتهروا في الملاحة عند الفرنسيس

Digitized by Google

منهم غاليسونير (Galissonnière) ولاتوش (Latouche-Freeville) واودبير (Audebert)

لاروشيل (La Rochelle) - وكانت تسمى قديما روبيلا وسانتونوم بورتوس (Rupella, Santonum portus) وهى فرضة بحرية بولاية شارنت السفلى تبعد ٤٧٧ كيلومترا عن باريس الى الجنوب الغربى واقعة على المحيط الاطلسى سكانها ٢٠,٥٨٣ نسمة وهى حصينة جدا بها الادارة الطوبجية والمهندسين الحربيين ومجتمع زراعى وأدبى ومكتبة ودائرة التاريخ الطبيعى وبستان النباتات وبها فندق عظيم ومكان للاسلحة وحمامات بحر وميناها فى غاية الاتقان ودار صناعتها عظيمة ومعاملها متقنة وبها حوضان كبيران وتتجر فى الانبذة والملح والمشروبات الروحية والحديد والجبن والزبد والسردين وأدوات الصيد والقلوع والاقمشة الصوفية وخلافها ولما تزوجت اليانوره (Eleanor) بهنرى الثانى ملك انجلتره كانت مدينة لاروشيل من ضمن مهرها وبذلك ألحقت بأملاك الانكليز وقد استردها لويز الثامن من الانجليز سنة ١٢٢٤م ثم ردت اليهم ثانية (١٣٦٠) بمقتضى معاهدة بريتينى (Bretigny) وفى سنة ١٣٧١م ثارت عليهم وفتحت أبوابها للفرنسويين الذين كانوا تحت قيادة غوسكلان (Guesclin) ثم ان دوق أنجو حاصرها سنة ١٥٧٢م وسلمت اليه بصلح شريف وبعد موت هنرى الرابع أرادت ان تستقل وتصير جمهورية ولما أراد الكاردينال روشيليو مهاجمتها سنة ١٦٢٧ بنى جسرا حول ميناها لسدها على الانجليز ولا تزال آثار هذا الجسر تظهر وقت الجزر وبعد أن حاصرها الفرنسيس ثلاثة عشر شهرا سلمت أثناءها سطول الانجليز بان فى إمدادها الا انه بالنسبة للقحط الذى حصل بها فتحت أبوابها للفرنسويين وفى سنة ١٦٢٨م صدر مرسوم ملوكى بمنح سكانها عفوا تاما عاما وأذن لهم باجراء المذهب البروتستانتى ضمن بناء معلوم وجاء فيه أيضا هدم الاستحكامات ماعدا المطل منها على البحر وتجريد السكان من الاسلحة ومعدات القتال واخراج جميع الاغراب الذين ليس بيدهم تصريح من الملك وغير ذلك وفى مدة لويس الرابع عشر أصلحت الاستحكامات التى كان هدمها روشاليو

أغون (Agon) - فرضة صغيرة بمقاطعة المانش عدد سكانها ١٥٠٠ نسمة تؤخذ منها الآلات اللازمة لسفن صيد الاسماك وبها سوق كانت له سابقا أهمية كبيرة فى التجارة وخلافه

امبلوتوز (Ambleteuse) - فرضة عظيمة بولاية بادو كالى واقعة على بحر المانش تبعد خمسة أميال عن بولونيا الى الشمال أخذها هنرى الثامن ملك انجلتره سنة ١٥٤٤م وحصنها ثم استردها هنرى الثانى ملك فرنسا (١٥٤٩) ونزل بها جمس الثانى ملك انجلتره عند فراره من بلاده سنة ١٦٨٩ م ولما صمم نابليون الاول على مهاجمة انجلتره سنة ١٨٠٤ حاول اصلاح ميناها لتعوم فيها السفن المفرطحة القاع التى كان صنعها الخبط فى مسعاه وعسكر بجوارها جيش بولونيا وأقام بها تذكارا من الحجر (١٨٠٥) وقد تأخرت أحوال هذه البلدة فلم يبق فيها من السكان الآن الا نحو ٩٠٠ نفس

بورت بسان (Port-en Bessin) - فرضة صغيرة تجارية على بحر المانش عدد سكانها ١٠٢٠ نسمة تجارتها فى الاسماك وبها على مصب نهر دروم عدة حمامات بحرية

Digitized by Google

راسكوف (Rascoff) - فرضة صغيرة بمقاطعة فنستير على ساحل المحيط الاطلنسي سكانها ٤٠٠٠ نفس وهي ذات تجارة رابحة ولاسيما في شراب الروم وحب العرعر والشاي والمنسوجات والخشب وفيها نزلت ماري استوارت (Marie Stuart) ملكة فرنسا وايقوسيا حينما أتت لتتزوج بفرنسوا دوفين (François Dauphin) الذي صار فيما بعد ملكا باسم فرنسوا الثاني

بورت لويس (Port Louis) - ثغر بحاري في ولاية موربيهان (Morbihan) بيعد ستة كيلومترات الى جنوب لوريان وهو على مصب نهر بلافيه (Blavet) على المحيط الاطلسي سكانه ٣٢٦٢ نسمة وميناء محصنة بقلعة متينة وبها مستشفى للبحرية وتتجر في الاسماك المملحة والبذور وبها حمامات بحرية مشهورة وميناها أسسها لويز الثالث عشر سنة ١٦٣٥ م وسميت في عهد الجمهورية الاولى ببورت ليبرتيه (Port-Liberté)

بوردو (Bordeaux) - وكانت تدعى قديما بورديغاله (Burdigala) وكان العرب يسمونها بردال وهي ثغر مهم وقاعدة ولاية جيروند (Gironde) واقعة على الضفة اليسرى من نهر غارون (Garonne) على بعد ٩٦ كيلومترا من مصبه وعلى بعد ٥٧٨ كيلومترا عن باريس الى الجنوب الغربي وهي من أشهر المدائن البحرية التجارية بفرنسا على ساحل البحر الاطلسي سكانها ٢٢١٣٠٠ نسمة وبها محكمة وبورصة للتجارة وفرع البنك الفرنسوي وهي مركز الفيلق الثاني عشر الفرنسوي منذ سنة ١٨٧٢ وفيها معامل للتبغ ومجتمع على وادبي وطبي وبها ساحات كثيرة ومنتزهات مختلفة ومحل للتصوير ومعرض للآثار التاريخية ومعرض للتاريخ الطبيعي ومكتبة عمومية تحتوي على نحو ١٤٠٠٠٠ مجلد وبها كثير من المدارس وأهميتها التجارية عظيمة جدا ومیناها جيد وأمين يسع نحو ألف ومائتي سفينة وتزدحم فيها دائما السفائن الآتية من امريكا وانجلتره وغيرها وبفرضتها تبنى على الدوام سفن كثيرة ومن معامل هذه المدينة معامل للحديد ونسج القطن وتصفية السكر واستخراج الكنياك والخل وعمل الحبال والآلات الموسيقية وخرجير ونبذ الاحمر والابيض يصدر كله منها وينسب اليها وينقل الى أكثر البلدان وهو من الخمور المشهورة ويمكن السفر منها الى البحر الابيض المتوسط بحرا بترعة تسمى ترعة لنجدوك وقد هاجم القوط والوندال والعرب والنورمانديون هذه المدينة بعد سقوط المملكة الرومانية جملة مرات وضمها كلوفيس (Clovis) الى مملكة الفرنج واستخلصها من العرب شارل مارتيل (٧٣٥ م) وعند انقراض العائلة الكرلونجيه صارت قاعدة لدوقية اكيتانيه ثم ضمت الى فرنسا لما تزوجت أميرتها اليانور دوجين (Eleanor de Guienne) بلويس السابع وبعد طلاق الاميرة المذكورة وتزوجها بهنري بلنتاغونيت النورمندي الذي صار فيما بعد ملكا لانجلتره باسم هنري الثاني انتقلت اكيتانيه لانجلتره وجعلها ادوارد الشهير بالأمير الاسود مقام بلاطه وكانت بوردو آخر ما خضع لشارل السابع ملك فرنسا سنة ١٤٥١ م ومن ذلك الوقت أعيد بناؤها بطريقة محكمة وهي الآن من أظرف مدن أوربا وفي الثورة الأولى الفرنسوية كانت المقر الاول للجيرونديين وفي أيام نابليون أصابتها اضرار عظيمة بحصرها برا وفي سنة ١٨١٤ اشتهرت بامانتها للويس الثامن عشر

البوربونى وبها آثار رومانيـة وهى مسـقط رأس عدة من مشاهـير فرنسا منهـم مونتسكيو (Montesquieu) وريشارد الثانى (Richard II.) ملك انجلتره وغيرهما

بولونيه (Boulogne) — هى فرضة من ولاية بادوكاله (Pas-de-Calais) تبعد بنحو ٢٥٤ كيلومترا عن باريس الى الشمال الغربى واقعة على مصب نهر ليان (Liane) فى بحر المانش وبينها وبين بلدة كالى السابقة ١٩ ميـلا وحصونها من الدرجة الثانيـة وسكانها ٤٤٨٤٢ نفسا وابنيتها جيدة وتجارتها الخارجية تكون على الاكثر فى السمك والخمر والفحم الحجرى والسمن والكتان والصوف والحرائر وبها مبان لادارة الجرك وبورصـة تجارية ومحكمة ومدرسة لرسم خرط البحار وحمامات بحـرية وابنية أخرى شهيرة وتردمينا ها سـنويا أكثر من ثلاثة آلاف سـفينة أسسها الرومان سنة ٥٠ ق م وركب منها كل من الامبراطور كلودوادريان (Claude et Adrien) عنـد حملتهم على انجلتره وحصنها شارلمان وأغار عليها النورماندون فى القرن التاسع الميـلادى واستولى عليها فى القرون الوسطى أمراء مختلفون حتى اتصلت بفليب الطيب (PhilippeleBon) دوق برغونيا (١٤٣٠م) وفى سـنة ١٤٧٧ ضمها لويس الحادى عشر الى فرنسا وفى سـنة ١٥٤٤م أخذها هنرى الثامن (Henri VIII) ملك انجلتره ثم أعادها الفرنسا سنة ١٥٥٠ فى مقابلة مليونين من الفرنكات وفى سـنة ١٨٠١ م أعد بها نابليون بونابارت تجريدة عظيمـة ليتمكن من معاكسـة التجارة الانجليزية ثم صرف التجريدة المذكورة سنة ١٨٠٥ كما سيأتى مفصلا فى هذا التاريخ ان شاء الله

نانت (Nantes) — ثغر واقع عند مصب نهر لوار (Loire) يبعد عن باريس ٣٩٦ كيلومترا الى الجنوب الغربى عدد سكانه ١٢٤٣١٩ نسمة وهو واسع التجارة حسن المبانى وبه مركز الاوردى الحادى عشر وقوة بحرية وطوبجيـة ومـدارس متعددة ونادللتجارة (بورصـه) وجمعية علمية ومكتبـة مفتخرة ودار تحف للتاريخ الطبيعى والآثار القـديمـة وهذه المدينة تتصل بباقى مدن فرنسـا الداخليـة بالطرق الحـديدية وفيها كثير من المعامل التى تصنع أدوات المراكب وفرضة واسعة تمتد على أكثر من ألفى متر وتسع أكثر من مائتى سفينة جسيمة وبها تشيد السفن وتدعى الفرضـة أيضا بسـنت نازير (St. Nazaire) وكانت الرومان تدعـوها بورتوس نامنيتـوم (Portus Namnetum) وفيها تزوج لويز الثانى عشر بآنا البرطانية (Anne deBretagne) (١٤٩٩م) وهى عاصمـة دوقيـة برطانية وكونتية نانت وتم بها النورماندون سنة ٨٣٤ و ٨٥٣ و ٨٥٩ وقاومت الانجليـز سنة ١٣٤٣م

روان (Roanne) — ثغر عظيم من مقاطعة لوار على ضفة نهر لوار اليسرى يبعد ٤٢١ كيلو مترا عن باريس وقد أضحت الملاحـة به الآن سهلة للغاية وسكانه ٦٥٠٠٠ نسمة به متنزهات جميلة ومحكمة ودائرة للتجارة ومـدارس مهمة ومكتبة عظيمة وجمعية للزراعـة ومعامـل لانواع الاجواخ والاصواف وغـيرها ومصانع ومـدابغ ومعامـل لنسج القطيفة وهـذه المدينة مستودع لبضائع ليون والمدن الجنوبية وفى جوارها معادن للرصاص والفحم الحجرى وغربها سكك حديدية وفيها آثار رومانيـة وميناها واسع وبها جسر حجرى طوله ٢٢٠ قـدما مبـنى على سبع قناطر وكانت عاصمة مقاطعـة روانز (Roannez) وفقدت أهميتها فى القرن الخامس عشر ثم عادت اليها سنة

١٥٦٦ م صارت دوقية يحكمها الامير كاود جوفيه (Claude Gouffier) ثم استردها دوق فوياد (Feuillade) وزادت ترقيا الآن لزيادة صادراتها التجارية وقد أضرت بها فيضانات نهر لوار كثيرا

سن مالو (Saint Malo) – ثغر بحرى يبعد نحو ٣٧٦ كيلومترا عن باريس واقع على خليج سن مالو سكانه ١٢٠٠٠ نفس ويحيط بها أسوار منيعة وتتصل مع القارة بجسر طوله مائتا متر وله مينا أمين واسع فيه حوض كبير لوقاية السفن من المد والجزر لان المياه هنالك ترتفع وقت المد نحو ٤٥ قدما ووقت الجزر تنحسر تماما حتى يظهر قاع البحر فتسير فيها الماشية ويحمى مدخل المينا عدة جزر عليها قلاع وبه محكمة تجارية ومدرسة بحرية ومكتبة مفتوحة ومخازن للتبغ وفنادق وحمامات بحرية ومعامل لصناعة الاحبال والاسلاك التلغرافية البحرية وتجارة هذه المدينة مع انجلترة متسعة ويشتغل أهلها بصيد الاسماك وبها ولد شاتوبريان (Chateaubriand) العالم الحكيم الفرنسوى وله تمثال فى أحد مبانيها وكان تأسيس هذه المدينة بالقرن الثامن الميلادى وسميت بذلك نسبة الى سن مالو أول اساقفتها وقد دمرها الانجليز بالقنابل فى سنى ١٦٩٣ و١٦٩٥ و١٧٥٨ و١٧٥٩ وتأسست فيها شركة الملاحة الفرنساوية المعروفة بشركة الهند البحرية ووصلت الى درجة عظيمة من الثروة وقد أمد أهلوها لويس الرابع عشر بثلاثين مليونا من الفرنكات ليستعين بها على ضرب أعدائه (١٧١١ م)

سن كاست (Saint-Cast) – فرضة بحرية صغيرة على بحر المانش سكانها ألف نفس وقد حاول الانجليز النزول اليها فى سنة ١٧٥٨ فردهم عنها دوق دغوليون (Daiguillon)

سن فاليرى أن كو (Saint Valery-en -Caux) – فرضة بحرية صغيرة على بحر المانش سكانها ٤٦٠٠ نفس وفيها حمامات بحرية ومعامل للسمك المملح لانه يصاد فيها بكثرة وأغلب تجارتها منه وبها معامل لاستخراج الفلى

سان فاليرى سور سوم (Saint Valery-sur-Somme) – فرضة صغيرة على نهر سوم واقعة عند مصب النهر المذكور على بحر المانش سكانها ٤٥٦٠ نفسا لها تجارة مهمة وبها مدرسة للبحرية ومعامل لصناعة الادوات والآلات اللازمة للسفائن ويشتغل سكانها بصيد الاسماك وبها حمامات بحرية وكانت قديما مستعمرة رومانية وفيها على ساحل البحر برج سجن فيه أمير بلاد أرل فى القرن الحادى عشر ومنها أقلع غليوم الفاتح (Guillaume le conquérant) عندما قصد الاستيلاء على انجلترة سنة ١٠٦٦ م وشرعوا فى تحصين هذه المدينة من سنة ١٤٢٢ م

هذا أما فرض فرنسا فى بلاد الجزائر وتونس فقد سبق ذكرها فى تاريخهما بالجزء الاول فليراجعه من شاء ولفرنسا عدة ثغور وفرض بكل مستعمراتها الخارجية قد اتخذت فى أغلبها معامل وأحواضا لاصلاح أساطيلها

Digitized by Google

الفصل الثالث

الامم والشعوب التى تشكلت منهم الامة الفرنسوية

١٦٠٠ - ٢٩٥ ق م

اعلم أن هذه الامة كانت تدعى قديما بالغول أو الغاله (Gaulois) كما كانت بلادهم أى فرنسا تعرف باسم بلاد الغاله وأخبارهم التاريخية تمتد الى نحو ١٦٠٠ عام قبل الميلاد الا أن اخبارهم فى تلك الاعصر القديمة مبهمة سقيمة تكاد أن لا تعلم تماما قال المؤرخون إن أقوام الغول القدماء كانوا مكونين من جملة قبائل مختلفة الى أن قالوا وكان عدد قبائلهم يتجاوز الثلثمائة قبيلة وأساس هذه القبائل ينقسم الى ثلاثة أقسام الاول يدعى سلت (Celtes) أو غول وأصلهم من أواسط آسيا هاجروا أولا الى بلاد اليونان ثم انتقلوا الى ايطاليا وتقدموا بقارة أوروبا غربا حتى وصلوا الى ساحل المحيط الاطلسى فأقاموا هنالك على سواحل الانهر فصاروا بذلك أول الامم التى سكنت أرض فرنسا الحالية فسميت لذلك بلاد الغالة وكانوا قبائل كثيرة اشتهروا بالشوكة والشجاعة والجراءة والتولع بالغزوات الحربية والتوغل فى البلاد البعيدة حتى قال بعض المؤرخين إن طائفة منهم قد تجاسرت على ركوب البحر فى زوارق وعبرت بها بحر المانش ونزلت فى جزيرة برطانيه واستوطنت فيها وبهم عمرت هى وما جاورها من الجزائر والقسم الثانى الاقوام التى اختلطت بالغاليين من قبائل أخرى وكانوا يسكنون من قبل الجهة الجنوبية من هذه المملكة ويعرفون باسم أيبر (Ibères) أو باسك (Basques) ويظن أنهم أقوام من شمال افريقية ومنهم بقية فى جنوبى فرنسا بسفح جبال البرانس يتكلمون بلغتهم الى الآن وقد بقى الباسك من أقدم القرون متمردين فى أوطانهم الجبلية المذكورة ولم يستطع القرطاجنيون ولا الرومان ولا الغوط ولا العرب ولا الفرنسويون أن يحدثوا تغييرا فى صفاتهم وأخلاقهم وهم معتدلو القامة قويو البنية أشداء سريعو الحركة وأكثر همة من الاسبانيين

والقسم الثالث أقوام الكنعانيين أى الفينيقيون الذين لما وصلوا بحرا الى سواحل فرنسا الجنوبية دخل بعضهم الى بلاد الغوليين واختلط بهم ثم أتى بعد هؤلاء اليونان بحرا أيضا ونزلوا على السواحل البحرية الجنوبية واتخذوا لهم فيها بعض نزلات واليهم ينسب تأسيس مدينة مرسيليا أو ماسيلية فى نحو سنة ٦٠٠ ق م كما مر ويقال ان هذا الاسم مركب من كلمتين يونانيتين هما ماسة ومعناها كبة وليا ومعناها صيادين أى كبة صيادين ثم اتخذوها محطة لسفنهم الصغيرة التى كانوا يتجولون بها فى تلك الحقبة العصرية على سواحل أوروبا الجنوبية وقال ليون جرين (Léon Guérin) صاحب تاريخ بحرية فرنسا إن ركوب البحر علم بين الشعوب القديمة التى سكنت أراضى فرنسا الغربية منذ ١٣٠٠ عام قبل الميلاد لان بعضهم تمكن بذلك من عبور بحر المانش وسكن جزائر برطانيه وارلنده وعمروها ثم لما وصل الفينيقيون الى السواحل الجنوبية من بلاد الغالة شيدوا هنالك مستعمرة ولما اختلطوا بأقوام الغالة أخذ عنهم الغاليون صناعة بناء السفن ويقال إن الفينيقيين المذكورين ادعوا أنهم هم أول من فتح معادن جبال سفين (Cévennes) واشتغل بها وبعد مضى زمن طويل وصل الى تلك السواحل سفن الاغريق فحلوا محل الفينيقيين واستحوذوا على

Digitized by Google

مستعمراتهم وكان ذلك مدة القتال الذي حدث بين الامتين ثم أقام الاغريق عدة مستعمرات أخرى على الساحل الجنوبي وأدخلوا فيها حضارتهم ثم وصل الى تلك السواحل سفن أخرى لطوائف من اليونان يسمون فوسيين (Phocéens) لان أصلهم من فوسية من أعمال آسيا الصغرى وأسسوا مدينة مرسيليا وكان الفينيقيون اتخذوها قبلهم ملجأ لسفنهم وأسست الطوائف المذكورة عدة مدائن أخرى منها انتيب ونيس ونالت سفنهم في تلك السواحل الشهرة البحرية ثم خلفهم فيها القرطاجنيون ولكن أهل مرسيليا تمكنوا من نوال الاستقلال وصارت لهم علائق تجارية بحرية مع أهل رودس وساموس وغيرهم من الاقوام التي اشتهرت يومئذ في سلوك البحار وذكر مؤرخو الانجليز عوائد الغاليين القدماء وملابسهم وأطعمتهم فقالوا انها كانت خشنة كسائر الأمم القديمة ووصفوهم بالحماسة والحدة والشجاعة والكرم والسخاء والقيام بحق الضيافة وقالوا انهم كانوا يكرمون جدا من نزل بجوارهم غاضين الطرف عن أصله وفصله وكانوا ينتصرون لكل من استغاث والتجأ بهم وقالوا إن أسلحتهم كانت من أنواع البلطات والحراب وكانوا يتسربلون بالدروع وعلى رؤسهم الخوذ وتراسهم كبيرة جدا تسترهم من الرأس الى القدم وكان لنسائهم الحرية في اختيارهن أزواجالهن وكن يأتين رجالهن بالمهر كالعادة المتبعة عند الفرنج للآن وكان الأب اذا أراد أن يزوج ابنته يدعو جهورا من الشبان الى مسكنه فتخرج عليهم الابنة وبيدها كأس ملآن بالخمر فمن تناوله الكأس من الحاضرين يكون لها عريسا وكان للرجل التسلط المطلق على المرأة وعلى أولاده وله حق التصرف في حياتهم جميعا وكانوا عند موت كبير العائلة يحرقون معه كل ما كان عزيزا لديه حتى الحيوانات ويطرحون معه أيضا بعض المكاتيب ظنا منهم ان الميت المحرق يستطيع أخذها معه الى أقاربهم المتوفين وقالوا عن ديانتهم انها كانت تشبه أديان أهل الشرق كالهنود وغيرهم حيث ان عادة احراق جثث الاموات مأخوذة عن الهنود وكان لهم عقائد غريبة ومذهبهم يعرف بالدرويدسم نسبة الى كهنتهم الدرويد (Druides) وكان لهؤلاء بعض تعاليم حسنة فكانوا يعلمون بالثواب والعقاب بعد الموت ويحرضون شعبهم على تربية الاولاد تربية حسنة وعلى عمل الخير ويقولون ان من أقرض صاحبه مالا في هذه الحياة الدنيا يأخذه في الحياة الاخرى ومن قتل نفسه لاجل صديق له يلاقيه في العالم الآخر وان الآباء في عيالهم هم بمنزلة أرباب وملوك وكان البعض منهم يعلم تناسخ الارواح وغير ذلك من التعاليم

وقال آخرون ان أقوام الغالة القدماء كانوا على جانب عظيم من البسالة ومحبة الاستقلال والحرية لا يرضخون لمن يأتي بلادهم بالذل والعبودية فكانوا يحبون الغزوات والحروب فلذلك خاف سطوتهم وبأسهم أكثر الامم المجاورة لهم حتى الرومانيين الذين كانت دولتهم قد توطدت أركانها وبسبب تولع أمة الغالة بالتوغل في البلاد البعيدة أغاروا على بلاد ايطاليا عدة مرات بين سنتي ١٤٠٠ و ٥٨٧ ق م فأغاروا على رومية وأحرقوها سنة ٥٩٠ ق م ثم عبروا جبال الالب الشامخة وعاثوا بجهات نهر الدانوب ثم دخلوا أراضي اليونان وأعملوا في أهلها السيف والنهب حتى خربت بلادهم (٢٧٩ ق م) ثم دخلوا آسيا واتخذ بعضهم هنالك منازل ومستعمرة لهم فسميت تلك الاراضي بغلاطية نسبة الى الغالة هذا وكانت هذه الامة الحربية محكومة بعدة ملوك صغار يقتسمون أراضي بلاد الغالة فيما بينهم وكان أقوى هؤلاء الملوك شوكة ملوك البيتوريجيين الذين هم ملوك مدينة بورج

Digitized by Google

ثم ملوك الارورنيين باقليم أورنيا ثم ملوك الارواسيين بمدينة اوتون ثم ملوك السيتونيين فى مدينة سنس ثم ملوك السواسونيين بمدينة سواسون ثم ملوك الرعونيين بمدينة رعمس وملوك النروانيين بشمالى فرنسا وملوك النرويين بمدينة نربون وغير ذلك وكان هؤلاء الملوك حكاما فى الظاهر فقط لان السلطة والنفوذ الحقيقيين كانا للدرويديين الذين هم أمناء دين تلك الامة وكانوا يتخذون غابات شجر البلوط الغبياء المظلمة معابد وهيا كل لهم وكانوا كثيرا ما يقربون فيها القرابين من الآدميين لمعبودهم المريخ لزعمهم أن الآلهة لا تسر الا بالدم وكان لكهنتهم الحل والعقد والسطوة العظيمة على الشعب ويتلوهم فى الدرجة الاعيان ثم العامة وقد استمروا على هذا المذهب الى أن دخلت بلادهم الديانة المسيحية فى زمن حكم الرومان كما سيأتى

(الفصل الرابع)

دخول الجلالقة تحت حكم الرومان وظهور أمة الفرنج

٢٩٥ ق م - ٢٤١ م

سبق الكلام على مهاجمة الجلالقة مملكة ايطاليا واحراقهم رومية واستيلائهم على الكثير من بلاد ايطاليا الشمالية واستمرارهم على حرب الرومان حتى كادوا يهدمون أركان دولتهم ولما أحس الرومان بوخامة العاقبة أخذوا يتجهزون للانتقام من أعدائهم المذكورين فاكثروا الهجوم على بلادهم وانتصر عليهم أولا القنصل ديسيوس (Decius) فى واقعة سانتنوم (٢٩٥ قم) وفيها انكسر الجلالقة كسرة منكرة ثم استمرت الحروب بين الطرفين بلا انقطاع حتى هاجمهم القنصل دولابيلا (Delabella) وقتلهم (٢٨٣ قم) ثم انقسمت قبائلهم (٢٣٢ قم) وبعد قليل عزم قسم الشرق منهم على مهاجمة الرومان فجمعوا جيشا عدده ٥٠٠,٠٠٠ مقاتل من المشاة وعشرين ألف خيال وقصدوا أبواب رومية فقابلهم القائد كلوديوس (Clodius) بجموعه فهزمهم ثم حاربهم أيضا مارسيلوس (Marcellus) سنة ٢٢٣ قم فكسر شوكتهم وكانت رومية يومئذ تحارب جمهورية قرطاجنه ثم لما دخل قائد القرطاجنيين انيبال (Annibal) الشهير بلاد الجلالقة للهجوم على ايطاليا التف حوله كثير منهم للانتقام من الرومان فتقدم أنيبال بتلك الجموع وقطع جبال الالب من المكان المسمى الآن سن برنار الصغير وكان يخشى من خيانة الجلالقة الساكنين فى تلك المعابر الضيقة ولكنهم لما علموا أيضا بأن أنيبال يقصد محاربة أعدائهم الرومان ساعدوه فتمكن من المرور بفرسانه وافياله وجنوده فى مدة خمسة عشر يوما ومع ذلك فانه اضطر لقتال قبيلة من قبائل الجلالقة كانت قاومته فى سيره وكان بعض قبائل الجلالقة بقى محافظا على عهده مع الرومان خلا تلك القبيلة التى حاربت أنيبال فانها جاهرت بعد أيام بالعصيان على رومية وانضمت الى جيش أنيبال الذى تقدم بجموعه وحارب الرومان وفتح تورينيوم وهى تورين ثم كسر القنصل سيبون (Scipion) وكان راجعا بقسم من جيشه من بلاد الجلالقة لصده وهو منحدر من جبال الالب وحصلت بينهما معركة تيسين (Tessin) الشهيرة (٢١٨ قم) التى فاز فيها أنيبال

Digitized by Google

ثم استمر أنيبال يحارب الرومان و ينتصر عليهم الى أن فازت رومية على قرطاجنة أخيرا كما شرحناه فى الجزء الاول من هذا الكتاب

ثم عاد الرومان الى حرب الجلالقة الى أن تمكنوا من طردهم من البلاد التى كانوا استولوا عليها بايطاليا وضموها الى بلادهم وعرفت باسم بلاد الجلالقة الالبية الجنوبية ومن يومئذ صارت جبال الالب الحد الفاصل بين أملاك الجلالقة وأملاك الرومان (١٩١ ق م) ولما تعدت بعض قبائل الجلالقة على مستعمرة مرسيليا وكانت معاهدة للرومانيين مدة الحروب البونيقية استغاث المرسيليون بالرومان فأمدوهم بجيش عظيم تحت قيادة القنصل أوبميوس (Opimius) فأخضعهم وجعلهم رعايا للمرسيليين الذين كانت لهم فى سلوك البحار شهرة عظيمة ولهم عدة سفن يترددون بها على كثير من ثغور البحر المتوسط الابيض وثغور غربى اسبانيا والبرتقال وسواحل برطانيه

وفى سنة ١٢٥ ق م استغاثت مرسيليا بالرومان من تعدى قبائل السلفيين عليهم فأرسل الرومان الجنود لاعانتهم فهزمت السلفيين (Salves) واستولوا على بلادهم وأقاموا فيها أول مستعمرة لهم (١٢٣ ق م) ومن ذلك الوقت أخذ الرومان يمدون فتوحاتهم فى بلاد الجلالقة حتى صيروها ولاية تابعة لهم (١٢١ ق م) وبعد ثلاث سنوات أسسوا أيضا مستعمرة ناربون (Narbonne) الشهيرة ثم بعد واقعة اكس التى اتحدت فيها سفائن مرسيليا مع سفائن الرومان ودخلت مصب نهر الرون لمساعدة ماريوس (Marius) قوى نفوذ الرومان فى بلاد الجلالقة وفى منتصف القرن الاول قبل الميلاد قامت الحروب بين الادويين (Edues) سكان اقليم برغونيا والسيكانيين (Séquanes) سكان اقليم الالزاس الاعلى فاستنجد السيكانيون بالجرمانيين النازلين خلف نهر الرين فانجدوهم بجيش يتألف من ١٢٠٠٠٠ مقاتل تحت قيادة قائد يدعى أريوفيست (Arioviste) فعبر هذا القائد النهر المذكور وهزم الادويين ولما طلب من السيكانيين نظير مساعدته لهم ثلث أراضيهم امتنعوا واتحدوا مع الادويين أعدائهم ضد الجرمانيين فحاربهم القائد المذكور جميعا وهزمهم واستولى على أراضيهم (٦٠ ق م) وتقدم فى فتوحاته بسرعة حتى تاخم مملكة الرومان و بذلك انعدم استقلال الجلالقة تماما ولما بلغ يوليوس قيصر (Jules César) خبر هذا التعدى أرسل فى الحال رسولا من قبله الى أريوفيست يطلب منه الرجوع مع جموعه الجرمانيين الى تخومه فى الشاطئ الايمن من نهر الرين اذا كان يحب السلام مع رومية فأجاب أريوفيست الرسول بكل عظمة وشمم قائلا ان تغلبى على هذه الايالة الجليقية هو بنفس الحق الذى تغلبت به رومية على ولاياتها التى لها ببلاد الجلالقة والا فانى أفتخر بملاقاة القيصر فى ميدان القتال (٥٨ ق م) فلما نقل هذا الجواب الى يوليوس قيصر زحف بجيش جرار وحارب الجرمانيين وهزمهم فى سهول الالزاس وشتت شملهم بعد أن قتل منهم فى الواقعة نحو ٥٠٠٠٠ مقاتل أما أريوفيست فانه مات عقب ذلك من شدة ما لحقه من العار وعزم قيصر من وقتئذ على أن يلحق بلاد الجلالقة بالمملكة الرومانية وكانت قبائل الجلالقة الشمالية عقدوا اتحادا فيما بينهم ضد الرومان وجهزوا جيشا قدره ٣٠٠٠٠٠ مقاتل فاضطر يوليوس قيصر أن يفتح عليهم حربا عوانا تمكن فيه من فتح بلادهم بتمامها وفتح بها ثمانمائة مدينة أباد من أهلها

Digitized by Google

نحو مليونين ما بين أسير وقتيل وصيرها اقليما من الاقاليم الرومانية الصرفة (٥٠ ق م) ولذلك منحته دولته الانعامات الكثيرة والهبات الوافرة ورفعت قدره وشأنه

وورد في تاريخ البحرية العام لمؤلفيه بواسميل (Boismêlé) وريشبرغ (Richebourg) ما ملخصه انه في خلال تلك الفتوحات قصد يوليوس قيصر عبور بحر المانش ليخضع جزيرة بريطانية لما اشتهر عنها يومئذ من خصوبة الارض ووفرة الحاصلات فشيد على سواحل فرنسا الغربية بعض سفن كسفن الرومان المعروفة باسم ناوى (Nave) وهذه السفن فضلا عن أن إنشاءها في غاية البساطة فانها سهلة الاستعمال فنقل بها جيوشه الى الجزيرة المذكورة (٥٤ ق م) بقصد الاستيلاء عليها كما سبق ولكن لما كانت تلك السفن مصنوعة من أخشاب غير متينة لم تقو على مقاومة الزوابع فغرقت عن آخرها ولما علم أهل بريطانيه بذلك هاجموا يوليوس حتى اضطر أخيرا الى أن يعقد معهم هدنة ثم ترك الجزيرة عائدا الى بلاد جليقية وهناك جهز أساطيل أخرى وعبر المانش ثانية فتمكن من اخضاعها ومن أساطيل الرومان تعلم أهالي جليقية فن انشاء السفن قال المؤرخ جيسيرو (Cicero) إن السفن التجارية الرومانية في الوقت المذكور كانت تسمى سيبيا (Cybea) وهي مشتقة من سيبوس (Cibus) ومعناها المؤن وقال غيره من المؤرخين ومنهم فاليريوس (Valerius) أو فاليرمكسيم (Valère Maxime) المعاصر للامبراطور طيبر إن سفن الرومانيين في الوقت المذكور كانت على شبه سفائن قرطاجنة غليظة ضعيفة الانشاء عالية المؤخر والجوانب ومع ما كانت عليه من العظم لم تكن تصلح لمصادمة الامواج والانواء والعواصف وكان لها صفان أو ثلاثة صفوف من المجاذيف وذلك بحسب طبقاتها أما مقدمها (بروتها) فكان به درع من الفولاذ أو الحديد على شكل رأس حيوان وكانت سفائنهم الحربية على ظهرها (كوكرتها) ابراج غير ثابتة تستخدمها الجنود كترس تحميهم من النبال والسلاح وبكل سفينة أخشاب يضعونها كجسر للعبور عليها وقت الهجوم على سفن العدو اهـ

ولما تم استيلاء الرومان على فرنسا أسسوا مدينة ليون سنة ٤٢ ق م وسموها لوغدونوم (Lugdunum) وجعلوها مركز الحكومة هناك ومع ذلك لم تستطع رومية أن تقبض على زمام أمة الجلالقة زمانا طويلا حيث ظهرت بينها الثورات العديدة بسبب قبح سيرة الحكام وشهواتهم النفسانية ومن ذلك أن قام في سنة ٦٩ ميلادية ثائر يدعى كلودوس سفيليس بثورة في بلاد الجليقية ونادى بالاستقلال وأجلس يوليوس سابنوس امبراطورا وقد تقدم الكلام على بعض هذه الثورات في تاريخ الرومان بالجزء الاول وفي تلك الاثناء دخلت الديانة المسيحية بلاد الجلالقة وكان دخولها أولا الى مدينة ليون (١٥٥ م) ثم بنيت فيها كنيسة سنة ١٧٧ م بناها مبعوثون مسيحيون أتوا اليها من ازمير مع رئيس لهم يدعى بوثين (Pothin) وقد لاقى هؤلاء المبعوثون في نشر الديانة المسيحية هناك عدة صعوبات وقتل منهم كثير في خدمتها ونشرها الى أن استتب أمرها أخيرا ثم أسس القديس مرتان (Martin) مذهب الرهبان في بلاد الجلالقة ولما جلس قسطنطين على التخت الروماني ساعد كثيرا على إعلاء شأن المسيحية في بلاد جليقية ثم لما أخذت الدولة الرومانية في الانحطاط للاسباب التي سبق الكلام عليها في الجزء الاول أغار عليها قبائل شمالي أوروبا المتبربرة وهم الغوط والوندال وغيرهم واستولوا على أكثر بلادها وجددوا لهم عدة ممالك

Digitized by Google

عرفت بعمالات البرغونيين والوزيغوطيين والونداليين والجيديين والهيروليين وغيرهم ومن هؤلاء من كان يريد التخريب والنهب ومنهم من كان يريد التوطن والعمار ثم وقعت مملكة الغالة فى سنة ٢٤١ ميلادية تحت تسلط أمة الفرنج كما سيأتى

أمة الفرنج قبل كلوفيس (٢٤١ – ٤٨١ م) – قال المؤرخون إن أصل الفرنج الذين هم أشهر الامم المغيرة على مملكة الغالة أو جليقية قبائل من الشرق كانوا قد هاجروا من آسيا من زمن غير معلوم تماما ونزلوا فى شمالى أوروبا ببلاد الجيقيا من تخوم جرمانيا الغربية ولم يكونوا فى الحقيقة جمعا ملة واحدة بل يظن أنهم كانوا قبائل حربية متعاهدة مع قبائل أخرى من بلاد جرمانيا ولم يطلق عليهم اسم الفرنج الا سنة ٢٤٠ م وهذا الاسم يدل على غرض الاجتماع لاشتقاق هذا اللفظ من كلمة معناها الحرية هذا وأشهر قبائل الفرنج السكبير (Sicambres) والشيروسك (Chérusques) والكات (Cattes) والبروكتير (Bructéres) والسليان (Saliens) وكان لهم نظام خاص يتبعونه ويعملون بموجبه يسمى ساليك (Loi Salique) وكانت قبائلهم تشن الغارة على بلاد الجيقيا ثم جاءوا الى بلاد اسبانيا وخربوها وأغاروا على أفريقية الطنجية فهزمهم بروبوس (Probus) الرومانى الشهير (٢٧٧ م) ولما أعز جوليان (Julien) دولة الرومان عاد فعاد له أذن للفرنج الساليين سنة ٣٥٨ م بالتوطن على نهر موزفصاروا من يومئذ محافظين لنهر الرين ومحامين عن بلاد الغالة وألحق منهم عددا عظيما فى العسكرية الرومانية ولما كانت بلاد الغالة متضجرة من سوء تصرف الغاصبين المتغلبين عليها بلاحق وكانت هى واسبانيا فى الزمن المذكور تئن تحت حكم رومية قام مكسيميان (Maximien) الظالم وأخرج اسبانيا من حكم الرومان فى زمن قسطنطين ابن جوليان فاضطر قسطنطين أن يحاربه وأخيرا تحصن بمدينة آرل (Arles) لتحمى حكمه الذى أشرف يومئذ على الدمار ولكن بعد قليل وقع الفشل بين هؤلاء الاقوام العصاة فتحزبوا على بعضهم وأمرت رومية على جنودها هنالك قائدا أميناً يدعى الكونت قنسطانس فهزم مكسيميان حتى أفضى به ذلك الى أن قتل نفسه (٤١١ م) ولما انتزع قسطنطين اسبانيا من مكسيميان المذكور اختفى خوفا من المعاقبة التى ذاق شرها بعد ذلك بعشر سنوات وذلك انه بعد أن صار سيد بلاد الغالة الجنوبية والوسطى وهزم جيش سيده هنوريوس وهزمته جيوش هنوريوس اضطر اخيرا الى تسليم نفسه لاعدائه فارسلوه الى الامبراطور هنوريوس (Honorius) لكنه قتل قبل وصوله الى مدينة رافين (٤١١ م) وعقب موت قسطنطين حدثت عدة ارتباكات داخلية استوطن فى خلالها ثلاث قبائل جرمانية أراضى الغالة منهم البورغونيون (Burgondes) الذين نزلوا فى الجهة الشرقية وأقاموا لهم مملكة بين اقليم سكانيزو جرمانية العليا تحت رئاسة من يدعى غندكير (Gondicaire) (٤١٣ م) ومنهم الويزيغوط (Visigoths) أى الغوط الغربيون وكانوا نازلين على شواطئ نهر الدانوب بايطاليا تحت رئاسة الاريك (Alaric) فأخذوا يتقدمون نحو الغرب مع رئيس لهم يدعى اوتلف (Ataulf) ودخلوا بلاد الغالة الجنوبية وأسسوا لهم هنالك حكومة وجعلوا لهم ملكا يدعى تيودوريك الاول (Théodoric I.) ثم امتدت هذه المملكة الى خلف جبال البرانس واستولت على بلاد اسبانيا (٤١٩ م) ولكن أقاليم

Digitized by Google

اكتيانها الثلاثة التى كانوا استولوا عليها انتهى أمرها بان انتقلت الى حكم أمة أخرى جرمانية تدعى بالفرنج وكانت شرعت فى التغلب على بلاد الغالة الشمالية فى الوقت المذكور

هذا وكانت قبائل الوندال (Vandales) المتوحشة قد تجاوزوا أيضا حدود الغالة وعاثوا فى اسبانيا ثم مات أميرهم غندريك (Gunderic) وخلفه جنسريك (Genseric) (٤٢٨ م) وكان بونيفاس (Boniface) الرومانى حاكم أفريقيه وشى به رجل يدعى ايتيوس عند بلاقيديا (Placidie) نائبة السلطنة الشرقية وأرسل الى بونيفاس سرا يخوفه غضب الملكة ويوعز اليه بان يتخلص منها بالعصيان ولما كان بونيفاس المذكور لا قدرة له على أن يدافع عن عنده من الجيوش استعان بالوندال فاغتنم ملكهم جنسريك هذه الفرصة للدخول فى هذا الاقليم فعبر مضيق هرقل (٤٢٩ م) بأربعين ألف مقاتل وهاجم بلاد أفريقية الرومانية أى موريتانية (الجزائر وتونس) حتى أدخلها فى قبضته ثم جهز أساطيل عظيمة استولى بها على صقلية وقرصقة وسردينية وجزائر باليار وكانت سياسة جنسريك أهيب من أسلحته ومن ذلك انه حرض الغوط الغربيين (الوزيغوط) على محاربة رومانى المغرب كما حرض الاستروغوط أى الغوط الشرقيين على محاربة رومانى المشرق وتعاهد أيضا مع أتيلا (Attila) رئيس الهون الذى لقبه المؤرخون ببلاء الله لما فعله من تدمير العباد وتخريب البلاد حتى كان يتمدح بان الكلأ لا ينبت فى محل مر حصانه فأخذ أتيلا يتقدم بجموعه الكثيرة الهمجية الى أملاك رومية الشرقية وأخضع عدة منها حتى وصل مقاطعة تراقية أوتراس فاضطر امبراطور الشرق تيودس الثانى (Théodose II.) الى مسالمته وأن يدفع له جزية سنوية قدرها ٢٠٠,٠٠٠ من الذهب ثم بعد أن أخضع أتيلا الامبراطورية الشرقية بهذه الصورة أغار فى سنة ٤٥١ م بجيش مؤلف من ٦٠٠,٠٠٠ مقاتل على بلاد الغالة البلجيقية وحرق مدائنها ثم وصل الى نهر لوار وحاصر مدينة أورليان فسلمتها له قبائل الالان التى كانت مقيمة اذ ذاك على نهر لوار تحت حماية الامبراطورية الغربية بعد أن دافع عنها الاسقف أنيانوس المسمى سنت أنيان (Saint Aignan) مدافعة شديدة ولذلك ينسب له الفضل فى نجاة بلاد الغالة من الهون وقال المؤرخ سيزار كانتو (César Cantu) فى تاريخه العام ما ملخصه إن الجنرال الرومانى آيتيوس (Aetius) الذى كان يحكم جهات الغالة الغربية استعان على الهون بالوزيغوط والفرنج والبرغونيين وغيرهم وبعد أن جمعهم ظهر بهم امام مدينة أورليان عندما شرع الهون فى استباحتها وهجم عليهم على حين غفلة حتى اضطرهم لترك غنيمتهم ورأى أتيلا أن النجاة فى الهرب فتقهقر بجيشه ولكن أدركه آيتيوس فى سهول كتالونيا بين مدينتى شالون وميرى على نهر السين وحصلت هنالك بينهما واقعة عظيمة كان النصر فيها لايتيوس المذكور وبذلك نجت بلاد الغالة من حكم الهون وطال عمر السلطنة الرومانية عدة سنوات

ملوك الفرنج قبل كلوفيس — كانت أمة الفرنج فى ابتداء أمرها منقسمة الى عدة قبائل لكل منها أمير صغير والكل يخضعون لامير كبير ومن أشهر هؤلاء الامراء فراموند (Pharamond) وكان ابتداء حكمه سنة ٤٢٠ م وانتهاؤه سنة ٤٣٠ م وهذا الامير يعتبره عدة من مؤرخى

أوروبا أنه أول ملك للفرنج وان كان وجوده مشكوكا فيه وقال بعضهم أن انتخابه رئيسا للفرنج كان سنة ٤٢٠ وقالوا انه حكم سبع سنوات في مدينة تريوه (Trèves) ببلاد ألمانيا وهو الذي استولى على جزء من مملكة فرنسا وسن لقومه القانون المعروف بالسالي وجعل من أحكامه منع النساء من وراثة تاج مملكة الفرنج وقد أتبع ذلك في فرنسا الى الآن وكان فراموند يرى في ذلك أن أمم الفرنج الحربية بالطبع متعودون على أن ملكهم لا يكون الا قائدا عسكريا فتأبى نفوسهم أن ينقادوا الى حكم امرأة من جهة ومن جهة أخرى كان يخشى أن النساء ربما تزوجن بملك أجنبي من الملوك المجاورة للمملكة فينتقل التاج الى الاجانب وبعد موت فراموند هذا خلفه كلوديون

كلوديون (Clodion) - تولى الحكم من سنة ٤٣٠ الى سنة ٤٤٨ م وكان يلقب بكثير الشعر لانه كان يرخي شعره فيطول ويسترسل ويأمر أمراء العائلة الملوكية بتطويل شعرهم ليكون ذلك علامة على قوتهم وشوكتهم وهذا الملك هو أول من أخذ في توسيع دائرة سلطنة الفرنج حيث أكثر الاغارات في بلاد الغالة وفتح في أول حكمه مدينتي كمبري (Cambrai) وتورني (Tournai) وأنزل عساكره الى سواحل نهر سوم فطرده منها جنود الجنرال الروماني آيتيوس (Aetius) ثم لما رأى كلوديون بعد ذلك اشتغال الرومانيين بقتال الامم المتبربرة التي كانت أغارت على بلاد أوروبا تقدم بجموعه وتغلب على مدينتي ارتواس وميانس وبعث ابنه لحصار مدينة دواسون ونزل هو بعساكره على سواحل نهر موزا وفي أسفل نهر الرين على رواية ثم توفي وخلفه ميروفي أحد أقاربه

ميروفي (Mérovée) (٤٤٨ - ٤٥٦ م) - لما تولى هذا الملك على أقاليم شمال نهر سوم اتفق حضور أتيلا ملك الهون بجيوشه الجرارة المتوحشة من مملكة المجار واغارته على بلاد الغالة مخربا البلاد ومدمرا العباد فاضطر ميروفي أن يتعاهد مع آيتيوس القائد الروماني ومع تيودريك (Théodoric) ملك الوزيغوط لدفع هذا العدو القتال وحاربوه في أورليان كامر واتصروا عليه جميعا في واقعة كتالونيا المذكورة (٤٥١ م) حيث قتل فيها الملك تيودريك وبذلك انهزم الهون من البلاد وقصد أتيلا بلاد ايطاليا فاستدعت حكومتها الجنرال الروماني آيتيوس للدفاع عنها من هجمات الهون الا أن أعدائه وشوا في حقه للامبراطور والنتيانوس الثالث (Valentinien III) فقتله (٤٥٤ م) فكان ذلك من الاسباب التي ساعدت ميروفي على توسيع ممالكه وتوطيد أركان حكومة الفرنج في بلاد الغالة الشمالية وكان موته سنة ٤٥٦ وقال البعض انه أول أمير دعا نفسه ملكا وتولى مكانه ابنه شلدريك الاول

شلدريك الاول (Childeric I) (٤٥٦ - ٤٨١ م) - لما تولى الملك أساء السيرة فكان يفجر بنساء أصحابه من العساكر فأبغضه الفرنج وطردوه وانقادوا للكونت الروماني ايجديوس (Ægidius) رئيس العساكر الا أنه لم يحسن السير فيهم ولما شق عليهم حكمه ورأى ذلك شيعة الملك المطرود سعوا في ارجاعه لمنصبه فحملوا ايجديوس على الافراط في السفاهة حتى صار مبغضا عند الفرنج الذين قاموا يسعون في التخلص من هذا الروماني فطلبوا شلدريك وكان ببلاد تورنج (Thuringes) ملتجئا اليها فعاد الى بلاده ومعه باسينا (Basine) ملكة

Digitized by Google

بلاد تورنج المذكورة التي كان أغواها أثناء اقامته عند زوجها فتزوجها وولدت له كاوفيس الذي صار له شأن في الحكم بعده أما شلدريك فانه عدل في حكمه الاخير حتى أنسى رعيته ما حصل منه في زمن شبوبيته وقوى ميلهم للحرب ورد وإحل نهر لوار التي كان أخذها قبل ذلك الوزيغوط من السكسون (Saxons) والبريتون (Bretons) فحاربهم واستولى منهم على كولونيا وتريو ولورينه ومدينتي بوويس وباريس وفي عودته من هذه الغزوات مات سنة ٤٨١ م ودفن بمدينة تورنيه (Tournai) وفي سنة ١٦٥٤ م وجد قبره ووجد به عدة أشياء غريبة منها خل مصنوع من الذهب وأسلحة وألواح وكرة من البلور الصخري وخاتم من الذهب عليه اسمه وعلامته ولا تزال هذه الاشياء في بعض متاحف فرنسا الآن وخلفه ابنه كاوفيس الذي ينسب اليه المؤرخون تأسيس المملكة الفرنساوية وعدوه أول ملوك الدولة المروفنجيه

(الفصل الخامس)

الدولة المرونجيه

٤٨١ - ٧٥٢ م

كاوفيس (Clovis) ٤٨١ - ٥١١ م - يعرف جميع الملوك الذين خلفوا ميروفي السابق الكلام عليه من عائلته بالدولة المرونجية (Mérovingiens) نسبة اليه وهي العائلة الاولى التي تبوأت تخت مملكة فرنسا على أن جميع المؤرخين لا يجعلون ابتداء مملكة الفرنج الامن منذ أن تبوأ تختها كاوفيس الاول هذا أي من سنة ٤٨١ م وكانت أراضي بلاد الغالة يومئذ منقسمة الى أربع حكومات (الاولى) حكومة الرومانيين وكان ينوب عنها الكونت سياغريوس (Syagrius) ابن ديجيديوس (Dégidius) وكان يحكم على أعظم جزء من الاقاليم الوسطى بين نهر سوم ولوار بالنيابة عن الامبراطورية الشرقية (الثانية) حكومة الارموريقيين (Armoriques) والابرطونيين الذين استقلوا بالاقاليم الساحلية بعد خروجهم عن حماية الرومان (الثالثة) حكومة البرغونيين وكانت تمتد من مدينة بال الى البحر الابيض المتوسط ومن تودري الى جبال الالب وكان يحكمها أولاد غندبوق (Gondioc) فكان غندبود (Gondebaud) يحكم مدينة جنيره وغندمار (Gondemar) مدينة ويانه وغوديجيزيل (Godegisile) مدينة بزانسون (Besançon) وشلبريك (Chilpéric) كان ملكا على مدينة ليون بلقب بطريق الرومانيين فكانت شوكته أقوى من اخوته (الرابعة) حكومة الوزيغوط السابق الكلام عليها وكانت المنازعات بين هؤلاء الاقوام شديدة فأخذ كاوفيس يحاربهم و يفتح بلادهم فحارب أولا البطريق سياغريوس المذكور وهزمه تحت أسوار مدينة سواسون التي كانت مركز اقامة بطارقة الرومان (٤٨٦ م) فالتجأ سياغريوس بعد الهزيمة الى الاريك (Alaric) ملك الوزيغوط على حدود اسبانيا فجد كاوفيس في طلبه الى أن قتله في مدينة سواسون

Digitized by Google

وأضاف ما كان للرومان فى بلاد الغالة الى أملاكه وانعدمت بذلك حكومة الرومان من الغالة بعد أن بقيت تحت أيديهم ما ينوف عن خمسمائة عام فامتد بذلك حكم كاوفيس الى مدائن رمس وتريوه وتغور برغونيا ثم تزوج كاوتيلده (Clothilde) البورغندية بنت أخى غندبود ملك البرغونيين (٤٩٣ م) ولما كانت هذه الاميرة تدينت بالدين المسيحى فكانت تسعى دائما فى ادخال زوجها فى الديانة المسيحية ولكنه كان يتوقف عن اجابتها واخيرا رخص لابنه البكرى أولا بالتعمد ثم نذر لما خرج لمحاربة الجرمانيين الذين قدموا الشن الغارة عليه أنه اذا انتصر عليهم اعتنق الديانة المسيحية فلما انتصر عليهم فى واقعة تلبياك التى هى الآن زولبيخ (Zulpich) بالقرب من كولونيا (٤٩٦ م) ودفعهم الى ماوراء نهر الرين تنصر وتعمد فى مدينة رمس مع عائلته وجنوده واعيان دولته وهذا التنصر سهل عليه فتح وسط مملكة الغالة ومغربها لان أهلها كانوا كاثوليكيين فمالوا اليه فكان كاوفيس هو الملك المسيحى الوحيد فى ذلك العصر حتى لقبوه ببكر الكنيسة بينما انحاز غيره من الملوك كاروامؤرخو الفرنج الى مذهب اريوس (Arius) (١) وذكر جماعة من المؤرخين أن أول ظهور الزجاجة المقدسة المسماة أمبول (Ampoule) (٢) كان فى يوم تعمد كاوفيس الذى قلده كل أهل فرنسا فى اعتناق النصرانية ثم لما عزم هذا الملك على توسيع مملكته أوجد أسبابا وعللا مختلفة يتداخل بها فى أعمال أمراء الفرنج الذين كانوا فى جهات كولونيا وتروان وكمبريه ومينة ومورين وبذلك تمكن من الاستيلاء على بلادهم وأمر بقتلهم محتجا بحجج مختلفة مع أنهم كانوا من أقاربه فلامه المؤرخون على عمله هذا ثم فى سنة ٥٠٠ م حارب غندبود ملك برغونيه وهو عم الاميرة كاوتيلده زوجته وألزمه بحمل الخراج اليه لكونه قتل أبا كاوتيلده وتغلب على مملكته الوراثية وكان هذا الانتصار سببا فى انحطاط المملكة البورغندية ودخولها فى القرن التالى تحت حكم الفرنج

ولما تقوى كاوفيس بانتصاراته على البرغونيين طمع فى فتح أملاك الوزيغوط فى جنوب نهر

(١) ولد آريوس هذا ببلاد ليبيا أو القيروان سنة ٢٧٠ م ونشأ فيها ثم انتقل الى الاسكندرية وترشح للرتب الكهنوتية وكان له مذهب خاص فى الديانة المسيحية كان يخفيه الى أن توفى أسقف الاسكندرية أكيلاس وخلفه أسقف آخر يدعى اسكندر (٣١٣ م) فأخذ الاسقف الجديد يعلم الناس بأن الكلمة هى ابن الله مساو للاب وان له طبيعة وذاتا واحدة مع الاب فعارضه آريوس يومئذ وأظهر مذهبه قائلا ان هذا التعليم هرتقة فى المسيحية كهرتقة سابليانوس لان المسيح غير مساو للاب فى الجوهر والعظمة وانه مخلوق بارادة الاب وحادث غير أزلى وانه حال كونه أكمل خلق الله كان بحسب اختياره المتوق ذا طبيعة يتغير يمكنه اتيان الفضيلة والرذيلة لكنه اعتنق الصلاح والفضائل فأشركه الله من أجل أعماله الصالحة بطبيعته الالهية مجللا اياه بهذه الالقاب اى كلمة وابن وحكمة فقامت عليه القسس وخالفوه واشتد أمر الخلاف فأمر الملك قسطنطين امبراطور الروم يومئذ بالتئام مجمع فى نيقيه (٣٢٥ م) وحضره الكثير من الاساقفة والرهبان وآريوس نفسه وبعد مباحثات طويلة قرر المجمع مذهب آريوس وأمروا بحرق كتاباته بعدما أوسعوه ضربا ثم طردوه وبعد زمن عاد قسطنطين وصدق مذهب آريوس وأمر باعادته الى الاسكندرية فاحتقره القسس بها فهاجر الى القسطنطينية ومات فيها مسموما سنة ٣٣٦ ولم يعدم مذهبه بل انتشر بين أقوام القوط والونداك والبرغونيين واللومباديين وامتد الى سنة ٦٦٠ م ثم ترك ثم تجدد بعد ذلك اه من الدائرة

(٢) أمبول كلمة لاطينية اطلقت على قارورة الزيت المقدس الذى يزعم الفرنسويون انه عند مسح كلوفيس ضاع من الزيت بعضه فجاء الملائكة بزيت آخر فى زجاجة صغيرة سميت امبول ومن يومها صاروا يستعملون هذا الزيت فى مسح ملوك فرنسا عند تتويجهم اه

Digitized by Google

لوار وكانت حكومة الغوط الغربيين يومئذ تحت سلطة القسس الذين كانوا يعادون لملاعدة كاوفيس حيث يعتبرونه الحامي عن دين المسيح فجمع جمعية شندمارث (ميدان المريخ) وهي الجمعية التي كانوا يجمعون فيها في شهر مارث من كل سنة للمذاكرة فيما فيه مصلحة ومنفعة الملة وحرضهم على حرب الوزيغوط واقسموا جميعا على أن لا يحلقوا لحاهم الا إن غلبوا هؤلاء الوزيغوط فزحف بجنوده وحارب الاريك الثاني (Alaric II) ملك الوزيغوط وانتصر عليه في واقعة ويله (Vouille) وقتله بيده في مدينة بواتيه (Poitiers) سنة ٥٠٧ م وضم بلاده ومدينة تولوز الى أملاكه ثم شرع في طرد الوزيغوطيين خلف جبال البرانس ولكن تيودريك (Théodoric) ملك الاستروغوط ساعدهم بجيش عظيم صد به كاوفيس أمام نهر ارل فترك كاوفيس للوزيغوط اقليم سبتمانيا ثم تولى عليهم دمالاريك (D'Amalaric) ابن الاريك ملكا وما بقي لهم من الاملاك ألحقه بمملكته الفرنجية وعاد كاوفيس الى مدينة تور فأرسل له انستاس (Anastase) أمبراطور المشرق يهنئه بالنصر وأنعم عليه برتبة البطريقية ولقب القنصلية والتشريف وتاج من الذهب وحلة أرجوانية فاكتسب بذلك الشرف واحترمته أهل الغالة وأطاعته وسكن كاوفيس بعد ذلك في قصر الامبراطور يوليان الذي كان بناه خارج مدينة لوتيس (Lutice) وهي باريس التي اتخذها فيما بعد مقر الحكومة ودار الاقامة (٥٠٨ م) واختلط من يومئذ الفرنج بالاهالي الاصليين وتغلب اسم الفرنج على كل سكان بلاد الغالة فسميت بلادهم فرنجية ثم أبدلت الكاف أو الجيم بالسين فصار اسمها فرنسا ومات كاوفيس بباريس سنة ٥١١ بعد أن حكم ٣٠ سنة ودفن في كنيسة سن جنوبو وهو من أشهر ملوك هذه الدولة وكان شديد الميل للاساقفة ويعتني بهم فلقبوه عند تنصره بالملك الشديد التدين بدين النصرانية ثم أطلق هذا اللقب على خلفائه من ملوك فرنسا الى الآن وكان موصوفا بالقسوة وحب الانتقام حتى أضاع بذلك بهجة فضائله لانه قتل عدة من أقاربه وقتل عسكريا ببلطة لاساءته الادب في حقه يوم تقسيم الغنائم حيث وجد الملك اناء مفتخرا فطلبه من أصحابه ليهديه الى القديس ريمي أسقف مدينة رمس فاتفق الفرنج على اعطاء هذا الاناء للملك فبينما هم كذلك اذ برز جندي من بين الصفوف وضرب الاناء ببلطة فكسره وقال للملك لا حق لك الا فيما أصابك بالقرعة فصمت الملك ولم يزل حاقدا عليه حتى مضى حول ثم مر للتفتيش على أسلحة الجند فوجد أسلحة الجندي المذكور قذرة فطعنه ببلطة فلق رأسه وقال لا كذا كسرت الاناء وخلف كاوفيس أربعة من أولاده الذكور أولهم تيري (Thierry) وكان ولده قبل زواجه بكلوتيلده وثانيهم كلوتير (Clotaire) وثالثهم كلودومير (Clodomir) ورابعهم شلدبرت (Childebert) فاقتسموا البلاد بينهم ونتج من ذلك أربعة ممالك متفرقة هي

(المملكة الاولى) تولاها تيري الاول وتعرف باسم أوستراز يا أو مملكة المشرق وكانت تشمل جميع الاراضي الواقعة خلف نهر الرين وقسما عظيما من الاراضي التي بينه وبين نهر موز وقاعدتها مدينة متز (Metz)

(والثانية) مملكة كلودومير وتعرف باسم نستريا أو مملكة المغرب وكانت تشتمل على سولونيه (Sologne) وبوس (Beauce) وبلزوا (Blesois) وغاتينس (Gatinais)

وانجو ومين (Maine) وقاعدتها مدينة أورليان ولذا كان يعرف كلودمير بملك أورليان

(والثالثة) مملكة شلدبرت ملك باريس وكانت تشتمل على مقاطعات باريس وميلون (Melun) وشرتر (Chartres) وبرش (Perche) ونورمنديا وبرطانية الصغرى

(والرابعة) مملكة كلوتير ملك سواسون وكانت تشتمل على بيكارديا (Picardie) وارتواز وفلندر حتى البحر المحيط ولما كانت ممالك هؤلاء الاخوة متداخلة في بعضها كان الملك منهم اذا أراد أن يتجول في مملكته لزمه أن يخترق مملكة أخيه وكان المنتظر أن ينشأ بينهم ذات يوم الفشل والشقاق ولكن حكمة والدتهم كلوتيلده جعلتهم يتحدون زمنا وقد نشأ من هذا التقسيم خلل كثير كما ستراه مسطورا فيما بعد وعد المؤرخون ملك باريس ثاني ملوك فرنسا وحصروا في أيامه حوادث ممالك اخوته وقد اقتدينا بهم منعا للتشتيت ذهن القارئ والله المستعان

شلدبرت الاول (Childebert 1) ٥١١ - ٥٥٨ م - إنه بعد موت كلوفيس والده بأربع سنوات صارت مملكة أخيه تيري ملك متز عرضة لاغارات الدانيمارقيين والسكسونيين الذين قدموا بجموعهم تحت قيادة رئيس لهم يسمى شوشيلايكو (Chochilaico) ويشتهر أيضا باسم كوشيلياك (Cochiliac) وغوتيلاك (Gotilac) وكان هؤلاء المغيرون يركبون على سفن لهم خفيفة يحملونها على ظهورهم عند اللزوم فدخلوا بها نهر موز حتى وصلوا حوالى مدينة ليبج فأرسل عليهم تيري ملك متز المذكور جيشا بحريا تحت قيادة ابنه الشاب تيودبرت (Théodebert) وكان سنه يومئذ لا يتجاوز اثني عشر سنة فحمل عليهم وبددشملهم وأراح بلاد أبيه من شرهم (٥١٦ م) وقال المؤرخون إن مبدأ انقياد أهالي باويره لفرنسا حصل في زمن حكم تيري المذكور

استيلاء الفرنج على برغونيه - لما مات غندبود ملك برغونية وعم كلوتيلده ملكة الفرنج خلفه ابنه سجسموند (Sigismond) سنة ٥١٦م ولما تمت له البيعة تعدى على جزء من مملكة برغونية وكان هذا الجزء يؤل بالوراثة الى كلوتيلدة فأساء هذا التعدي أولادها فتحالف كل من شلدبرت ملك باريس وكلودمير ملك أورليان وكلوتير ملك سواسون وحاربوا سجسموند محاربة طويلة دامت سنة ونصفا فانتهت بأن قبض كلودمير على سجسموند وألقاه مع امرأته وأولاده في بئر (٥٢٤ م) ولما جلس غوندمار (Gondemar) أخو سجسموند على كرسي بورغونية صالح الاستروغوط وتجهز لدفع الفرنج الذين كانوا داهموه ثانية فلم يفلح هو أيضا حيث أسره الاخوة المذكورون وذلك بعد أن قتل أحدهم وهو كلودمير في الواقعة واتحد شلدبرت مع كلوتير واقتسما مملكة أخيهما المتوفى ثم ضما أيضا مملكة برغونية الى مملكتهما (٥٣٤ م) وكانت برغونيه يومئذ تحتوي على دوقية برغونية ومقاطعة فرنش وإقليم بروفنه وبلاد السويسره وساقوه وغيرها

استيلاء ملك أوستراز ياعلى بلاد الاستروغوط - لما كانت الاخوة تحارب ملك برغونية لم يشترك تيري ملك متز مع اخوته في هذه الحروب وكان موته سنة ٥٣٤م فخلفه ابنه تيودبرت

Digitized by Google

وكان من أعماله أن ضم الى أملاكه مدينتى مرسيليا وأرل وسائر ما كان علكه الاستروغوط وكان الاستروغوطيون بايعوا وتيج (Vitiges) ونصبوه ملكا عليهم بدل ملكهم تيودات (Théodat) الذى قتله أحد الغوطيين اغتيالا فتخلى وتيج المذكور عن بلاد الاستروغوط الى تيودبرت سنة ٥٣٦ م فى نظير اعانته له عند حربه مع بليزير (Bélisaire) قائد جيوش يوسطنيان (Justinien) امبراطور المشرق وقد أقر الامبراطور بعد ذلك تيودبرت على تلك البلاد نظير تعاهده معه ولكن تيودبرت نقض العهد وهاجم مدينة جنوة ونهبها وعبر جبال الالب وحارب أخصامه (٥٤٦ م) وفى أثناء اشتغال أعمامه بمحاربة الوزيغوط قصد تيودبرت محاربة الامبراطورية البوزنطية والتغلب على القسطنطينية ولكن عاجلته الوفاة بينما كان يتجهز لذلك (٥٤٧) فخلفه ابنه تيودبلد (Théodebald) الذى ضم جيشه الى جيش المانيا مساعدة لايطاليا سنة ٥٥٢ م ضد أعدائها من الروم وبذلك اكتسب تيودبلد الشرف فى انتصار ايطاليا (٥٥٣) ولكنه لم يعش طويلا بعد ذلك فمات ولما لم يعقب ذرية استولى على ممالكه كاوتير ملك سواسون بعد تزوجه بزوجته فكبرت بذلك مملكة كاوتير

فتوحات شلدبرت فى اسبانيا — فى خلال الحوادث السابقة كان شلدبرت وأخوه كاوتير مشتغلين بمحاربة الغوط الغربيين وهى الحروب التى امتدت من سنة ٥٣٤ الى ٥٥٤ م قال سيزار كانتو (Cantu) فى تاريخه ما ملخصه ان الاريك ملك الوزيغوط كان متزوجا بأخت شلدبرت وكاوتير وهى الاميرة كاوتيلده وكان يؤذيها لعدم اعتناقها مذهب آريوس فلما انهزم الاريك رجعت هذه الاميرة الى اخوتها الذين أغاروا على بلاد الاريك حتى وصلوا مدينة طليطلة واستولوا على جزء من بلاد اسبانيا فيه مدينة سرقسطة التى قام أهاليها يدافعون عنها مدافعة الابطال ولكنهم اضطروا أخيرا الى التسليم لشلدبرت ملك باريس وقدموا له ثوب المقدس سن فنسان وكانت له عندهم منزلة رفيعة وأهدوه أيضا بعض قطع من خشبة الصليب الاصلى اه ولما عاد شلدبرت من اسبانيا ظافرا شيد كنيسة سن جرمان بباريس ووضع فيها ثوب سن فنسان المذكور وجميع الذخائر التى جاء بها من سرقسطه ثم أخذ يطالب أخاه كاوتير بنصف مملكة تيودبلد وجرد عليه ولكنه مات قبل نهاية الحرب (٥٥٨) ودفن فى كنيسته المذكورة ولما لم يكن له خلف من الذكور ورثه أخوه كاوتير فى مملكته طبقا للقانون التالى فكان هذا أول دخول فتوحات أولاد كاوفيس تحت حكم ملك واحد

كاوتير الاول (Clotaire I) ٥٥٨ — ٥٦٢ م — لما اجتمعت ممالك أولاد كاوفيس تحت حكم هذا الملك وكانت تمتد من جبال البرانس الى جبال بوهيميا ومن بحيرة سويسره الى البحر المتوسط الابيض اكتسب الملك قوة وثباتا ولم تقع فى مدة هذا الملك بعد استقلاله بالاحكام وقائع وحوادث تستحق الذكر سوى خروج ابنه المسمى كرامنه (Chramne) عن طاعته والتجائه الى كناو او كونوبر (Canao au Conobre) كونت بلاد برطانية الصغرى الذى لم يكن وقتئذ خاضعا للفرنسا فجرد عليه كاوتير جيشا وهزم ولده فى واقعة سنجاجيا (Séngagea) على ساحل البحر وكان فى امكان كرامنة النجاة فى سفينة كانت راسية على الساحل ولكنه قصد تخليص

Digitized by Google

زوجته وأولاده ولما وصل الى العشة التى كانوا قد التجؤا اليها الا اختفاء بها لحقه والده وأحرقه وأمانه هو وهم بلهيب النار ثم عاش كلوتير بعد ذلك سنة كئيبا حزينا ومات فى مدينة كمبين (Compiégne) سنة ٥٦٢ وقال عند موته ما أعظم ملك ملكوت السموات حيث قهر بالموت أعظم ملوك الارض ولما لم يعين من يخلفه على المملكة من أولاده الاربعة اقتسموها بينهم فكانت هذه القسمة الثانية كالقسمة الاولى غير عادلة أيضا وكانت على الترتيب الآتى وهو تملك كاربرت (Charibert) على باريس وتملك غنتران (Gontran) على اورليان وبرغونيا وأخذ سجبرت (Ségebert) مملكة أوستراز يا وأخذ شلبريك (Chilperic) مملكة سواسون وبهذا التقسيم تفرقت بلاد اكيتانه وصار قسم من برغونيا واقليم مرسيليا لملك اوستراز يا وصار اقليم لموسين وبيارن وطولوز لشلبريك واقليم سنتونجه (Saintonge) وبوردليس (Bordelais) ومعظم اكيتانه لملك باريس ولم يبق لملك اورليان الا اقليم ارل فكانت هذه القسمة سببا لظهور فتن جديدة ومصائب شديدة

كاربرت (Charibert) ٥٦٢ – ٥٦٦م – لما جلس هذا الملك على تخت باريس انهمك على الفسق والملاذ حتى احتقره رعاياه وحرمه أسقف باريس بكنيسة سن جرمان منع الاسرار وفى عهد هذا الملك أخذ رؤساء القصر الملوكى الذين لم يكونوا قبلا الا مجرد خدم يتداخلون فى أعمال الحكومة فقويت شوكتهم حتى استولوا على النفوذ الملوكى ولم تطل أيام كاربرت فمات فى سنة ٥٦٦ م ولما لم يعقب ذكرا ورثه فى مملكته اخوته وحصل بينهم نزاع فى تقسيم الاراضى الشمالية بغربى بلاد الغالة المسماة نوستريا أو نوستريا وملكها شلبريك أما أوستراز يا فلم يتغير فيها شئ واتخذ غنتران ملك أورليان مدينة شالون دارا لاقامته وتلقب بملك برغونيا ولم يتفقوا أيضا فيمن يتولى على باريس ثم اتفقوا على أن تكون هذه المدينة لهم جميعا على الشيوع وأن لا يسوغ للواحد منهم أن يدخلها الا برضا الآخرين ومع ذلك لما كانت هذه المدينة داخلة فى أقاليم نوستريا كانت غالبا تحت حكم شلبريك ولهذا عده المؤرخون خامس ملوكها

شلبريك الاول (Chilperic I) ٥٦٦ – ٥٨٤م – بينما كان الخلاف قائما بين الاخوة المذكورين كان قد تقدم أتى أقوام من جهات آسيا يدعون بالافار (Avars) (١) فدخلوا جرمانيا وشنوا الغارة على أراضى فرنسا الى خلف نهر الرين (٥٦٦ م) فقام سجبرت ملك اوستراز يا بصدهم ولكنه وقع أسيرا فى أيديهم ثم افتدى نفسه منهم بمال جسيم وفى أثناء ذلك طمع

(١) هى أمة بربرية أصلها من جبال اورال والتاى ولها قرابة بالهون والمجر وكان ظهورها أولا فى شمال كوقاف بعد ظهورا لها فى نواحى نهر دون وبحر الخزر وكان سبب خروجها من بلادها هجمات الصينيين عليها سنة ٥٥٢ م ثم عبرت نهر الدون وتوطنت على شواطئ الطونة وحاربت الامبراطورية البوزنطية وأخذت منها بلاد بنونيا وداسيا (٥٨٢ م) وكان قائدها يدعى القدير خان ثم استولوا على دالماسيا ودخلوا بلاد جرمانيا وتوغلوا فى تورنجه ودخلوا ايطاليا فخاربوا بها الفرنج والابرديز وبسطوا سلطتهم على الصقالبة وأخضعوا البلغار حتى وصلوا البحر الاسود وكان ملوك القسطنطينية يحملون اليهم خراجا ثم استظهر عليهم عساكر القسطنطينية تحت أسوارها (٦٣٦ م) مدة ملكها هرقل اه من الدائرة

شلبريك الاول وهجم على مدينة رمس وأخذها ولما تخلص سجبرت من أيدى الاعداء طرد النوستريين من ممالكه وتغلب على سواسون وأسر منها تيودبرت ابن أخيه شلبريك ولكنه أعاد ما كان افتتحه من البلاد لاصحابها ليوجد الصلح بين الامة وبين قرابته ثم تزوج سجبرت المذكور بالاميرة برونهوت (Brunehaut) وتزوج شلبريك الاول بأختها غلسوينت (Galswinthe) وهما ابنتا أتاناجلد (Athanagilde) ملك الوزيغوط وقد دنس شلبريك حكمه بارتكابه الدسائس والمكايد ومن ذلك أنه خنق زوجته غلسوينت وهى على فراشها ليتزوج بامرأة اشتهرت بالجمال تدعى فريدغنده (Frédégonde) كانت خادمة لزوجته وكان يهواها من قبل وهى التى قتلت زوجته القديمة المسماة أودوبره وقتلت أيضا أولاده الذين ولدهم منها (٥٦٧ م) ثم نشأ بين هذه الملكة الجديدة وبين الاميرة برونهوت أخت غلسوينت عداوة شديدة وانضمت اليها عداوة الاخوين وقامت بينهما حروب اتفق فيها شلبريك مع أخيه غنتران ملك اورليان وأغارا على مملكة أخيهما سجبرت فهزمهما سجبرت واستولى على كرسى مملكة شلبريك وحمل البرغونيين على نقض معاهدة النوستريين واقتفى آثار أخيه شلبريك بعزم شديد ولما كاد يأسره قتله اثنان من جواسيس فريدغنده يوم قيام أهل نوستريا بالتنصيب ملكا عليهم فى مدينة وترى

ولما بلغ خبر موته جنوده تبددوا وتركوا ولده شلدبرت الثانى وأمه برنهوت فوقعا بين يدى شلبريك ولكن نباهة غنتران أنقذتهما من شر فريدغنده وكان غنتران المذكور سفاكا للدماء أيضا فقد قتل عدة أمراء ليصفو له الجو واستمر غنتران يدافع عن شلدبرت الثانى حتى انه أحضره ذات يوم واعتنقه بحضور الجيش وقال ان ابن أخى هذا صار من الآن ابنى أما شلدبرت هذا فانه كفر بنعمة عمه غنتران فيما بعد وغدر به حيث استولى منه على نصف اقليم مرسيليا وضمه الى النصف الذى كان معه فاغتاظ غنتران من ذلك واتفق مع شلبريك وزوجته فريدغنده ثانيا وأعلنا الحرب على ابن أخيه المذكور ثم حصل الصلح (٥٨٣ م) وعادت الراحة الى فرنسا ولكن فريدغنده لما كانت لا تريد الصلح وتميل الى سفك الدماء ذبحت زوجها شلبريك فى مدينة شيلس سنة ٥٨٤ م بعد عودته من الصيد واتهم المؤرخون لندرى (Landry) وزيره ورئيس قصره بذلك لانه كان عشيق ونديم الملكة فريدغنده وكان الناس يلعنون شلبريك لظلمه وبغيه وسماه المؤرخ سن غرغوار دوتور (Saint Grégoire de Tours) هيرود عصره أى طاغيته وغروده ولكن الشاعر فرتونا الذى ينسب الى هذا الملك كل فخر حتى قال ليت سائر بلاد المغرب تكون فداه وخلفه ولده كلوتير الثانى فى كرسى نستريا

كلوتير الثانى (Clotaire II) ٥٨٤ – ٦٢٨ م – جلس هذا الملك وعمره اذذاك أربعة أشهر فنازعه أقاربه فى المملكة لطعنهم على نسبته لابيه وكذلك رعيته أنكرت حقوقه حتى ظهر أنه سيقاسى شدائد عظيمة ولكن أمه فريدغنده الشديدة البأس السفاكة للدماء مانعت دونه حتى ظفر باعدائه وقبضت على زمام المملكة بالنيابة عنه وكان الشقاق مستحكما بين ملوك برغونيا واسترازيا فاضطربت فيها الحوادث وقامت المشاجرات المضجرة التى لم تبطل كلية فى مدة حكم هؤلاء الامراء حيث كان كل منهم ينازع الآخر كرسيه ومملكته وكثرت بذلك

الذنوب

Digitized by Google

الذنوب وشنيع القبائح التي أنتجها طمعهم وذلك أنه ظهر يومئذ متغلب جديد يدعى غندوالد (Gondovald) وكان ابن كلوتير الاول من السفاح وكان أبوه قد اعترف به أولا ثم أنكره فأوى الى القسطنطينية وتمتع بالشرف والاحترام الذي كان يناله هناك أمراء الغرباء ثم اتفق غنتران بوزون (Gontran Boson) أمير أوستراز يا مع آخر يدعى الجنرال مومولوس (Mummolus) البرغوني وذهب يبحث عنه ليعارض به شلبريك وغنتران لما كان بينهم من الشحناء ولكن غندوالد المذكور لم يظهر و يطلب حقوقه الا بعد موت شلبريك ملك نوستريا وتحزب معه على ذلك ديدير (Didier) دوق طولوز وولاه على بلاد الغالة الجنوبية وفي أثناء ذلك تصالح غنتران مع شلدبرت القليل الثبات وانضما لبعضهما وحاربا غندوالد وهزماه ثم حاصره لودجزيل معاون ملك برغونيا في مدينة كومنج (Comminges) وكان مومولوس يدافع فيها وقد أمل أخيرا أن يتخلص من خيانته بتسليم تلك المدينة وتسليم غندوالد المتغلب المذكور لملك برغونيا ولكنه لم يبلغ مأموله لكونه مات عقيب قتل غندوالد بيسير وذبحت أهالي كومنج بأسرهم (٥٨٥ م) ثم هدمت المدينة واستأصلت بتمامها ولما وجد الملك غنتران ان عساكره منصورة على الثغور أمرهم بالدخول قهرا في أراضي الوزيغوط وسير عدة من مراكب الفرنج الى غاليسيا وبعد حروب طويلة انتصرت جيوش غنتران ثم صالح القوطيين (٥٨٦ م) وبعد ذلك سعى غنتران في اطفاء نيران الفتن وايجاد المساواة في المصالح فعقد لذلك مشارطة قرب مدينة لنجر (Langres) تعرف بمشارطة اندلوط (Andelot) (٥٨٧م) بين غنتران وشلدبرت وبرنهوت وأمراء الاستراز يين والبرغونيين وبهذه المشارطة تعينت حدود المملكتين وحقوق الملكات والامراء وغير ذلك وبعد ذلك بقليل مات غنتران المذكور سنة ٥٩٣ فنظمته الكنيسة في سلك القديسين لصلاحه وميله الى خدمة الدين والاستقامة والعدالة وقال عنه المؤرخون انه وان كان ملكا عفيفا الا أنه لم يكن من ذوي النهى فلذا رأى من الواجب عليه أن ينفذ مع الصداقة ما أوصته به زوجته أوستر يجيلده عند وفاتها بان يقتل طبيبين كانا يعالجانها ولم تبرأ من مرضها ولما لم يعقب غنتران ذرية ورثه في مملكته شلدبرت الثاني (Childebert II) ابن سيجيبرت (Sigebert) وعند ذلك قام كلوتير الثاني يطالب بحقه في الميراث فوقعت الحروب بين شلدبرت وبينه (٥٩٥ م) فكان النصر فيها أخيرا لشلدبرت بالقرب من سواسون ولكنه لم يعش بعد ذلك طويلا حيث مات في السنة المذكورة وعمره ٢٥ سنة واقتسم ولداه بلاده وملك ولده الاكبر تيودبرت الثاني (Théodebert II) مملكة أوستراز يا واتخذ دار اقامته مدينة رمس وملك ولده الاصغر تييري الثاني (Thierry II) مملكة برغونيا واتخذ دار اقامته شالون وبذلك اجتمع بفرنسا ثلاث ملوك عمر الواحد منهم أقل من ١٢ سنة وكان التصرف في الحقيقة اغماه وللملكتين فريدغنده و برنهوت ثم وقعت العداوة بين الملكتين المذكورتين وقامت حروب شديدة (٥٩٦ م) استولت في خلالها فريدغنده على مدينة باريس ولكنها ماتت بعد سنة على فراشها كما قيل ولامها المؤرخون على ما ارتكبته من المآثم والذنوب الكثيرة

وكانت الحروب التي أوقدت نارها الاميرة برنهوت في داخلية البلاد بين الاخوة ثم أمرها بوقعتين أهرق فيهما كثير من الدماء وهما واقعتا تول وتولبياك (Toul et Tolbiac) انتصر

Digitized by Google

فيها تيبرى الثانى ملك برغونيا على تيودبرت ملك أوسترازيا (٦١٢ م) ولما أخذ أسيرا الى أخيه قطع رأسه فى مدينة شالون و بذلك صار تيبرى ملكا على سائر حكومات غنتران وشلدبرت ثم ان تيبرى المذكور هم بمعاملة ابن عمه بما عامل به أخاه ولكن الموت فاجأه (٦١٣ م) ونسب بعضهم موته الى برنهوت بأنها دست اليه السم وكان له أربعة أولاد من السفاح أرادت برنهوت جعل أحدهم المسمى سيجبرت الثانى (Sigebert II) ملكا على أوسترازيا فلم تفلح لان الفرنج المشرقيين كانوا يكرهونها لميلها الى سفك الدماء ثم أرادت برنهوت محاربة أمراء أوسترازيا وبذلت جهدها فى التغلب عليهم فلم يمكنها حيث انهم هزموها بجموعهم المتحدة فى وافقتى نسطوريا وبورغندى وأسروها وأحضروها أمام الجيش الذى كان مجتمعا فى صورة مجلس حكم على أعمالها فاتهموها بانها قتلت عشرة ملوك من الافرنج وأميرين من رؤساء القصر وكثيرا من مشاهير الرجال ولما اعترفت بذلك حكم عليها بالقتل على أشنع صورة مع انها ابنة وأخت وعمة وأم وجدة وأم جدة كثير من الملوك وأمر كاوتير فأبقوها قبل الموت ثلاثة أيام وهى عرضة لعبث العساكر والجلادين ثم ربطوها من ذراعها ورجلها فى ذنب فرس جموح يجرها فقطعها اربا اربا سنة ٦١٣ م قالوا ومع ما كانت عليه برنهوت من الرذائل فانها كانت شجاعا وأحدثت كثيرا من الامور العامة النفع كالمبانى والجسور التى لم تزل الى الآن تسمى باسمها

ولما صار كاوتير الثانى حاكما على جميع فرنسا بلا مزاحم (٦١٣م) تولى بنفسه حكم نستريا واعانه على ادارتها غندلون (Gondolon) رئيس السراى وقلد حكومة أوسترازيا و برغونيا لولده الشاب المسمى داغوبرت (Dagobert) وجعله تحت رعاية كل من سن ارنولف (Saint Arnulf) مطران مدينة متز و بيبن دولاندن (Pépin de Landen) الملقب بالهرم رئيس السراى وكانت وظيفة رؤساء السراى يومئذ قابلة للتولية والعزل فجعلها كاوتير الثانى لهم مدة حياتهم لانه كان يحترمهم و يجلهم ثم آل الامر الى أن صارت رياسة السراى وراثية وقد صار كاوتير ذا ثروة عظيمة من الغنائم التى غنمها من الامراء أقاربه الذى أمر بقتلهم ولما كانت العظمة المؤسسة على القبائح لا أمل بدوامها اجتهد كاوتير فى الاستعانة بالدين والقوانين ليثبت بذلك دعائم ملكه فشكل مشورة كونسيل الشهيرة (١) وكانت الحروب مع ايطاليا انتهت بعد تلك المهادنات العديدة بصلح مجيد من

(١) مشورة المطارنة بباريس هى أول مشورة تشكلت لعموم المملكة دخل فيها المطارنة حيث كان أهل تلك المشورة محتاجين لمعارفهم لترتيب القوانين الموافقة للرابطة الاجتماعية ببلاد الفرنج وبتأثير معارفهم القوية على قلوب الاهلين أصبح الخشن والطماع منهم يميلون الى العدل والمروءة وصاروا يعتبرون القوانين التى عليها أسماء المطارنة وخطوطهم كأنها قوانين الكنيسة أى أحكام دينية وصار هؤلاء المطارنة فى أعين الحكام الذين هم أرباب المشورة كناية عن وكلاء الامة الغالبة و بهذه الجمعية ترتب قانون دائم للمملكة مشتمل على الحكمة والتدبير وكيفية انتخاب الاساقفة وفوض فيه للاساقفة المنتخبين أن يحكموا ولو حكما سياسيا على سائر القسس كما تقتضيه الاحكام الشرعية ووعدوا الرعايا برفع الغرامات الجديدة عنهم اجابة لسؤالهم ورخصوا لاهل المرتبات بالرجوع الى أملاكهم التى كانت قد أخذت منهم مدة الحروب الاهلية ومنعوا القضاة من الحكم على أحد بالعقاب سواء كان حرا أو عبدا الا بعد سماع كلامه و بالجملة فان السلام العمومى دخل ضمن هذه القوانين التى حكمت بالقتل على كل من تعرض لها بنقض — ثم تجدد نوع آخر من المشورات وهو أن يجتمع رؤساء العساكر ورؤساء القسيسين للمذاكرة فى شأن مصالح الدولة والكنيسة ولذلك كانت هذه المشورة تسمى باسمين أحدهما كونسيل أى مشورة القسيسين والثانى شان دومارس أى مشورة الاهالى وذلك كالمشورة التى انعقدت بمدينة باريس سنة ٦١٤ فترتب عليها تضييق شوكة الملوك وتمكين حكومة القسيسين والزام كبار المملكة برد ما سلبوه اهـ

شروطه

شروطه أن يدفع اللومبارديون كل سنة جزية مقدارها ١٢٠٠٠ صلدى (٦٠٥ م) ومازالوا يدفعونها الى أن تخلصوا منها سنة ٦١٣ م برشوة وهدايا أعطوها الوزراء كاوتير الذى مات سنة ٦٢٨ م وأعقب ولدين أحدهما داغوبرت المذكور الذى خلفه فى الملك وكاريبرت (Caribert) ووصف المؤرخون كاوتير الثانى هذا بالمهارة والحكمة والكرم والبشاشة ولقب بكاوتير الاكبر واشتهر بوضعه القوانين والنظامات المذكورة وفى زمنه بعث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم (٦٠٥ م)

داغوبرت الاول (Dagobert I) ٦٢٨ - ٦٣٨ م - كان داغوبرت هذا قبل وفاة أبيه كاوتير الثانى ملكا على أوسترازيا منذ ست سنوات فلما مات أبوه ساعدته الظروف على أن يبايعه أهل نستريا وبرغونيا ومن أعماله انه حارب (٦٣٢ م) صقالبة الالمان وكان لهم يومئذ حاكم فرنجى يسمى سيمون كان قد أنقذهم من حكم الافاريين فانتصر داغوبرت عليهم كما انتصر على السكسون والبريتون وكان أخوه كاريبرت قد هرب الى مملكة اكيتانه حيث بويع بعد قليل ملكا عليها بتصديق أخيه (٦٣٠ م) واتخذ مدينة طولوشه دار الملك وكان متزوجا بابنة دوق غسقونيا المسمى آمند وكان له منها ثلاثة ذكور هم شلدريك (Childéric) وبوغيس (Boggis) وبرترند (Bertrand) ولما مات كاريبرت سنة ٦٣١ خلفه فى كرسى اكيتانه ولده الاكبر شلدريك ولكنه مات مسموما على ما قيل بامر وخديعة عمه داغوبرت فأراد داغوبرت أن يضيف اكيتانه الى بلاده ويحرم ولدى أخيه فقام الغسقونيون بتحريض ولدى كاربرت المذكورين وبذلك أكرهوه على ترك اكيتانه وجعلها دوقية تدفع له الخراج (٦٣٦ م) وتولى عليها بوغيس وهو أصل دوقاتها الذين حكموا هذا الاقليم الى آخر عهد هذه الدولة

واستفحل ملك داغوبرت وعظم شأنه حتى أصبح قصره كقصر ملوك القسطنطينية عزا ومجدا وامتازت دولته بأصحاب الاستعداد والنشاط من الوزراء والاساقفة فمن الوزراء ببين دولندين الذى كان رئيس سراى استرازيا وأصل ملوك الدولة الثانية من دول فرنسا ومن الاساقفة كاربرت وارنول ومازى وآن واشتهر فى أيامه أيضا مارى آلدى الذى صار أمين دار الضرب وبيت مال المملكة لبراعته فى فن صياغة النقود والحلى حتى انه صاغ له بالصب كرسيا من خالص الذهب وكانت منطقة هذا الحبر من الذهب مزينة بالجواهر النفيسة وقال المؤرخون ان منشأ هذه الثروة التى كانت اذ ذاك عامة فى دواوين ملوك فرنسا هى من التجارة مع أهل الشرق ومن الغنائم التى غنموها من حروب الفرنج مع أهل ايطاليا ومن أعمال هذا الملك المشكورة تنقيحه القوانين القديمة وتشييده سنة ٦٢٨ كنيسة سن دنيس الفاخرة وكذا دير سن دنيس وجعل البيرق الملوكى راية له وكانت وفاته فى سنة ٦٣٨ بمدينة ابيناى ودفن فى كنيسة سن دنيس وأعقب ولدين أحدهما سجبرت وكان قد قلده فى حياته حكومة أوسترازيا وجعل ببين دولندين الهرم وصيا عليه وكلوفيس الثانى وكان قلده نستريا وبرغونيا تحت وصية كل من أمه ننتلده (Nantilde) وايغا (Œga) رئيس السراى ورمى مؤرخو أوروبا داغوبرت المذكور بالخلل وعدم انتظام الطباع حيث انه جمع فى آن واحد بين ثلاث نسوة وهو لا يجوز عندهم وقالوا أيضا انه كان منهمكا فى الشهوات واللذات فقويت بالضرورة شوكة رؤساء السراى وتلاشت شوكة الملوكية تقريبا وكان منصب

رؤساء السراي موجودا من مبدا السلطنة وحاصل ما يتعلق بنفوذهم ان هؤلاء الرؤساء لم يكونوا في مبدا أمرهم المباشرين لامور سراي الملك وقضاته فيها ثم قويت شوكتهم على وجه السرعة وكانوا بسبب تلك الوظيفة يركن الملك اليهم ويثق بهم وكان نصيبهم من عطاياه أوفر من نصيب غيرهم من الامراء فعظمت مزاياهم وازدادت عن غيرهم فلما ازدادت شوكتهم قوة صار يسهل عليهم التطاول على ساداتهم

كلوفيس الثاني (ClovisII) ٦٣٨ - ٦٥٦ م - لما مات والد هذا الملك تركه هو وأخاه سجيبرت صغيري السن كما سبق فكان سن أكبرهما ثمان سنوات وسن أصغرهما خمس وكانت أوائل سني حكمهما في هدء واطمئنان والفضل في ذلك لحزم الوزير ابغا وبيبين وخلوهما من الاغراض ثم لما اخترمتهما المنية على التعاقب (٦٣٩ م) و (٦٤٠ م) أقام كبار المملكتين مقامهما ثلاثة من أرباب الطمع وهم ارشنوالد (Erchinoald) في نستريا وفلافات (Flavent) في برغونيا وغرموالد (Grimoald) ابن بيبين في أوسترازيا ولما مات سجيبرت سنة ٦٥٠ م طمع غرموالد في مملكته وأراد أن يقلد ولده على أوسترازيا ويحرم الوارث الحقيقي وهو داغوبرت الثاني ابن سجيبرت الثاني وكان قد نفي وهو طفل الى ارلنده وعجز في أخذ أبراجها ولكن غرموالد لم ينجح حيث قام كلوفيس الثاني وحاربه وهزمه (٦٥٦ م) وقبض عليه وأمر بوضعه في السجن مدة حياته ولم يدع الامير المنفي ليتولى ملك أبيه بل قام الاهالي وبايعوا كلوفيس فاجتمعت له الممالك الثلاث وهي نستريا وأوسترازيا وبرغونيا وصارت وزارة هذه الممالك المذكورة للرئيس ارشنوالد فلما قويت بذلك شوكته سعى في تقوية الشوكة الملوكية بخفض درجة كبار الملتزمين أصحاب الاقطاعات ورفع منزلة الرعايا الاحرار وقد كانوا أذلاء تحت نير هؤلاء الملتزمين الذين هم طائفة الاعيان ثم لما وقع القحط والغلاء بفرنسا مدة حكمه أنفق كلوفيس المذكور جميع خزائنه على فقراء الاهالي ولما نفدت أخذ صفائح الفضة التي كان والده داغوبرت جعلها على قبر سن دنيس ووزعها على الفقراء فمال الناس اليه ثم مات سنة ٦٥٦ وله من العمر ٢٦ سنة وأعقب ثلاثة أولاد هم كلوتير الثالث وشلدريك الثاني وتيري ولقب المؤرخون كلوفيس المذكور بلقب فنيان أي الكسلان لأنه سلك مسلك الجبن والكسل وفي عصر هذا الملك فتح عمرو بن العاص عامل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مصر والاسكندرية سنة ٦٤٠ م

كلوتير الثالث (Clotaire III) ٦٥٦ - ٦٧٠ - لما مات كلوفيس الثاني لم يقسم الوزير ارشنوالد المملكة بين أولاده الثلاثة لانه أراد منع ما يترتب على المقاسمة من المصائب وخشي أيضا من اعادة الوزارات الثلاثة كما كانت أولا ويظهر من قول المؤرخين انه لم يقع بين ارشنوالد وبين الملكة ست باتيلده (Bathilde) أم الملك وهي انجليزية الاصل أدنى خلاف بل استمرا متوافقين في الاحكام وقد سلكت الملكة في ادارة المملكة مسلك الكياسة وحسن السياسة ولما مات الوزير ارشنوالد سنة ٦٥٩ م تولى بعده ابروان (Ebroin) منصب الوزارة ولكنه لم يسلك مسلك سلفه ولو أنه احترم في مبدا أمره حكومة الملكة باتيلده الا أنه استولى على زمام جميع الاحكام وبعد ما تحملت الملكة باتيلده مرارة الحكم عشر سنوات سئمت من أعمال الوزير المذكور

Digitized by Google

فرحلت الى كنيسة شيلوس التى بنتها لتتعبد فيها وقد تجرأ هذا الوزير على نفسه بعض الرعية لجوره واعتسافه وظلمه واجحافه ثم مات كاوتير الثالث سنة ٦٧٠ م وله من العمر ١٧ سنة ولم يعقب ذرية وفى أوائل حكمه كان الجالس على كرسى الخلافة الاسلامية على بن أبى طالب رضى الله عنه

شلدريك الثانى (Childéric II) ٦٧٠ - ٦٧٣ م - لما مات كاوتير الثالث ولم يعقب ذرية كما سبق ولى الوزير ابروان بعده تيبرى الثالث (Thierry III) ثالث أولاد كاوفيس الثانى من غير ان يستشير فى ذلك أحدا من رجال المملكة وكان تيبرى المذكور الى ذلك الوقت منفيا فى ديرسن دنيس ولما كان الوزير المذكور يؤمل بقاء الشوكة لنفسه حرم شلدريك الثانى ملك أوستراز بابكرى كاوفيس الثانى من الوراثة فقام عند ئذ كبار المملكة على ابروان وسجنوه وولوا شلدريك ملك أوستراز بامكانه وخلعوا تيبرى الثالث و بعد أن حلقوا شعوره كما هى عادتهم نفوه الى ديرسن دنيس وقال المؤرخون ان الذى أغرى البرغونيين على التحزب لشلدريك الثانى هو أسقف أوتون المدعو سن ليجير (Léger) ومع ذلك فان ليجير المذكور لم يجن ثمرة مما كان يسعى اليه لانه سقط من عين الملك وصار مبغضا عند كبار المملكة حيث اتهموه بتكوين عصبة يقصد بها ابطال الحكم الملوكى باتفاقه مع هيكتور بطريق مرسيليا فقتل هذا البطريق بأمر الملك شلدريك وقبض على سن ليجير وحبس مع خصمه ابروان فى ديرلوكسوى (Luxeuil) ولما صفت الايام لشلدريك انهمك فى اللذات والفسق فسقط من أعين الرعية وكانت عاقبته أن قتله شاب فرنسوى يدعى بوديلون (Bodillon) فى غابة ليورى سنة ٦٧٣ م وسبب ذلك أن الملك كان عاقب الشاب المذكور بالضرب بالمقارع على ذنب خفيف اقترفه وأعقب هذا الملك ولدا يسمى شلديريك دانيال (Daniel) فسجن فى أحد الاديار وعرف فيما بعد بالقس دانيال

تيبرى الثالث (Thierry III) ٦٧٣ - ٦٩٠ م - لما قتل شلدريك قام كبار نستريا و برغونيا وأعادوا تيبرى الثالث ملكا عليهم ولما تربع فى دست المملكة أخرج ابروان من سجنه وأعاده الى الوزارة لأنه هو الذى كان أجلسه أولا على سرير الملك وحرم شلدريك الثانى كما مر ولما عادت لابروان الشوكة أخذ يظهر قبيح الافعال فقتل عدة من كبار المملكة لما كان فى صدره منهم من الغل والحقد عليهم وكان منهم القديس ليجير اسقف أوتون السابق الذكر حيث ادعى عليه ان له يدا فى قتل شلدريك الثانى فخرج لذلك أهالى استرازيا عن طاعة نستريا تحت رياسة الوزير وولفوالدو كان هرب اليها وأرسل هذا الوزير رسلا الى جزيرة ارلانده يبحثون فيها عن داغوبرت الثانى (Dagobert) ابن سجيبرت الثانى وكان نشأه اليها غريموالد سنة ٦٥٦ م كما سبق ولما أحضروه سنة ٦٧٤ م ولوه على المملكة ولكن اسوء بخته حدثت فتنة بعد توليته بأربع سنوات قتل فيها (٦٧٩ م) فاجتمعت ممالك الافرنج كلها تحت حكم تيبرى الثالث غير أن مملكة استرازيا التى كانت أهاليها تميل الى الاستقلال خشية حكومة ابروان السفاك خلعت ربقة الطاعة وولت أمورها رئيسى الثورة وفيوه مابدوقى الفرنج وهما مرتين (Martin) بن كاوداف و بيبين السمين أوهرستال (Pepin le Gros ou de Heristal) وهو الابن الاصغر لسن ارنولد (Saint Arnould) قس مدينة متز و رئيس العصبة الارستقراطية فلما بلغ ابروان ذلك ذهب

لقتالهما وحمل أهل أوستراز يا على مبايعة تيبرى الثالث ومات مرتين وهو يحارب سنة ٦٨٠ م ثم قتل ابروان بعد ذلك بسنة قتله هرمانفروا (Hermanfroi) أحد الاعيان الذين كانت سلبت أموالهم ولما لم يكن أرباب الالتزامات بمملكة نستريا مسرورين من تيبرى ولا من الرؤساء الذين خلفوا ابروان لسوء معاملتهم لهم طلبوا من الدوق بيبن دوهرستال حمايتهم فاجتمعوا مع جموعه وهجموا على تيبرى وانتصروا عليه فى واقعة عند مدينة تسترى (Testry) سنة ٦٨٧ م واضطروه لان يولى بيبن هرستال منصب رياسة القصر الملوكى فصار بيبن من هذا الوقت حاكما حقيقيا فى المملكة الفرنسوية واحترمته جميع الحكومات المجاورة لشجاعته ثم مات تيبرى الثالث سنة ٦٩٠ م وأعقب ولدين وهما كاوفيس الثالث وشلدبرت الثالث

كاوفيس الثالث (٦٩٠ – ٦٩٥ م) – قد ترتب على واقعة تسترى المذكورة وموت تيبرى الثالث انقلاب كبير فى الدولة المروفجية لأن الاوستراز يين كانوا يزعمون أن اسم فرنج لا يطلق الا عليهم ويرون ان النستريين لا سيما أهل اكيتانيه هم من الرومان لجد دواعوائد قدماء الفاتحين العسكرية وترتيباتهم السياسية ودعاويهم المختلفة مع ان النصر فى واقعة تسترى المذكورة كان للارستقراطيين الذين تمكنت بها شوكتهم ولكن بيبن راعى رؤساء النستريين الذين هم من حزب الاهالى وهو حزب المنصب الملوكى حتى انه زوج ابنه غريموالد (Grimoald) بارملة برتير أحد الرؤساء المذكورين المسماة انستروده وأجلس كاوفيس الثالث على تخت أبيه تحت كفالته وبقى هو رئيسا للقصر مختصا بالحكومة الملوكية ولم تطل مدة هذا الملك حيث مات سنة ٦٩٥ وله من العمر أربع عشرة سنة

شلدبرت الثالث (Childebert III) ٦٩٥ – ٧١١ م – تولى الملك بعد موت أخيه كاوفيس الثالث وعمره اثنتا عشرة سنة وحكم ١٧ سنة تحت كفالة بيبن هرستال المذكور الذى استبد بأمر المملكة حتى انه لم يبق للملك سوى اللقب وبعض اختصاصات ملوكية وضم ممالك أوستراز يا ونوستريا وبرغونيا الى مملكة واحدة وروى ان شلدبرت المذكور كان من ذوى الدراية والخبرة بأمور الملك ولو كان التصرف بيده لأصلح الدولة وكانت وفاته سنة ٧١١ م وكان يلقب بالصالح لصلاحه

داغوبرت الثالث (٧١١ – ٧١٨ م) – لما جلس داغوبرت مكان أبيه كان هو أيضا فى كفالة بيبن هرستال وتحت تصرفه وكان بيبن جعل مقاطعة أوستراز يا خالية عن ملك يحكمها بقصد أن تكون لعائلته ولكن الحروب التى حدثت من سنة ٦٨٧ الى ٧١٢ م مع القبائل المجاورة لنهر الرين خصوصا الفرنساويين والالمانيين منهم منعته من اتمام قصده ولما تمكن من كسرهم تعكر صفا معيشته فى آخر حياته بما جرى من المناظرة بين بلكترودا (Plectrude) زوجته الشرعية والبناده معشوقته ووالدة ابنه شارل مرتيل ثم انه قتل ابنه غريموالد زاده كدرا على كدر فأوصى بمنصبه من بعده لحفيده وأقام زوجته الشرعية وصية عليه ومات بيبن هذا سنة ٧١٤ وأعقب ولدين هما شارل مرتيل المذكور وشلدبرند وروى المؤرخون ان بيبن كان جامعا لما يلزم لولاة الامور والابطال من الصفات والخصال الجيدة فكان لا يفوقه

احد

أحد في استمالة العقول والتسلطن عليها فانه في مدة السبع والعشرين سنة التي حكمها على فرنسا أعاد فيها سنة النظام والعدل وقالوا أيضا ان ابنه شلدبرندهو الجد الثالث لروبرت لفورت أى القوى أصل ملوك الدولة الثالثة ولما مات بين ألفت بلكترودا شارل مرتيل في السجن لاتهامها اياه بالمداخلة في قتل أخيه غرموالد ثم توجهت الى نستريا وسعت لدى كبارها وداغوبرت الثالث في ان يعيد واتيودبالد بن غريموالد من السفاح خليفة لجده بين هرستال في رياسة القصر فنالت ماأرادت ولما كان تيودبالد هذا صغير السن كانت بلكتروده هي الحاكمة الحقيقية على مملكة نستريا بصورة أنها كفيلة الملك وكفيلة الرئيس معا فشددت في حكمها على المملكة تشديدا أغضب أخيرا أشراف المملكة حتى انهم طردوا تيودبالد وجدته ونصبوا رنفروى (Rainfroy) رئيسا للقصر (٧١٦ م) ثم مات داغوبرت الثالث المذكور سنة ٧١٨ وأعقب ولدا رضيعا يسمى تيرى الذى سمي من يومئذ تيرى روشيل فولى الفرنسويون شلبريك الثاني المسمى دانيال

شلبريك الثاني (٧١٨ – ٧٢٠ م) – سبق القول بأن شلبريك هذا كان منعكفا في دير باسم دانيال ولما دعاه رنفروى رئيس القصر لتولى المملكة كان له من العمر ٤٢ سنة وكان حق المملكة أن تكون لتيرى الرابع ابن داغوبرت المتوفى وفى تلك الاثناء قام أهل استرازيا وولوا عليهم شارل مارتيل دوقا وسعى شارل هذا في أن يحوز منصب أبيه بين هرستال بكامله وهو رياسة استرازيا ونستريا وبرغونيا فأخذ يهاجم شلبريك دانيال فقاومه الرئيس رنفروى ولكن شارل مرتيل استظهر عليه أخيرا بالقرب من كمبريسس (Cambrésis) سنة ٧١٨ م وفي سواسون (Soissons) سنة ٧١٩ وهرب شلبريك الى اقليم اكيتانه ملتجأ لاميرها أود (Eudes) وكان دوق استرازيا أجلس على كرسيها أميرا كان يدعى انه من الدولة المروفنجية وتسمى باسم كلوتير الرابع مع انه لا تعرف له نسبة الى الآن وأعلن هذا الامير على رؤس الاشهاد بتولية شارل مارتيل على الممالك الثلاثة ولكن لم يمكث هذا الملك الصورى الاسبعة عشر شهرا ثم مات وبعد موته أرسل شارل مارتيل الى شلبريك الثاني وأحضره من اكيتانه وبايعه على انه ملك على جميع مملكة الفرنج فسر بذلك وظل شارل مارتيل يلي البلاد بصفته كبير وزرائه ولم يلبث شلبريك المذكور ملكا الامدة سنتين تقريبا ثم مات سنة ٧٢٠م فعندذلك دعا شارل مارتيل راهبا من دير شلس وقلده المنصب الملوكى وسماه تيرى الرابع وقال انه ولد داغوبرت الثالث وبينما كانت وزراء الدولة المروفنجية يستبدون بالاحكام على هذا الوجه كان العرب تحت قيادة موسى بن نصير قد أخضعوا بلاد الاندلس وطرقوا أبواب بلاد فرنسا وكان في عزم موسى افتتاح بلاد أوروبا قاطعا جبال البرانس من الجانب الواحد فيحارب و يفتح بلاد الغالة و بلاد لومبارديا من ايطاليا و بعدأن يفتح رومية العظمى عاصمة النصرانية وقاعدتها حينئذ يذهب من الجانب الثاني الى جرمانيا ويأخذ مدنها ثم يتبع مجرى الدانوب و يفتح بلاد جرمانيا الجنوبية والمجر حتى البحر الاسود ومن هنالك يتقدم الى عاصمة القياصرة الشرقية ومملكة الروم ثم ينتقل من أوروبا الى آسيا الصغرى ولكن طارق بن زياده ولاه كان اشتكاه الى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك فدعاهما الاثنين اليه وحصل لهما ماسبق ذكره في الجزء الاول وكل ذلك ورد في مؤلفات الفرنج

Digitized by Google

تيري الرابع (٧٢٠ - ٧٣٧ م) - لما جلس هذا الملك على سرير الملك كان عمره سبع سنوات أو ثمانية وكان يسمى تيري روشيل نسبة الى الدير الذي أخرج منه وفي تلك الاثناء تزوج شارل مارتيل بابنة جليلة من عائلة كبيرة من بافييره (Bavière) تدعى سنيشلد (Sénéchilde) ورزق منها ولدا سماه غريفون (Grifon) وكان شارل مرتيل هذا مستبدا بالوزارة أيضا مقتفيا اثر أبيه بيبين في الطمع فلحقه لذلك من الاخطار أكثر مما لحق والده ونال من الفخار ما لم ينله أبوه حيث صد الاغارات الاجنبية ومنع الفتن الداخلية فهزم غير مرة الافريزون والسوابيين من قبائل الالمانيين وكذا السكسونيين وغيرهم حتى اضطرهم لحمل الخراج لدولة الفرنج وأقطع الضباط والعساكر الذين ساعدوه في حروبه المذكورة أراضي الاديار والقسس فتعصب عليه الاكليروس وحكموا عليه بالهلاك وكان العرب قد توغلوا في بلاد جليقية وقطعوا جبال البرانس ودخلوا فرنسا قاصدين أن يملكوها ويستولوا على باقي ممالك أوروبا فلما وصلوا مدينة بواتيه (Poitiers) خرج شارل مارتيل لحربهم خوفا من غائلتهم

هذا وقبل الكلام على هذه الغزوة رأينا ان نذكر شيأ من حروب العرب لفرنسا فنقول انه لما لم يجد موسى بن نصير فسحة من الزمن لفتح هذه البلاد أراد من تولى بعده من أمراء العرب ان ينجز ما كان عزم عليه من تكميل الفتوح فابتدأوا ببلاد الغالة التي منها بلاد سبتمانيا قال صاحب قرة النفوس والعيون وكانت الاسباب التي أفضت بالغوطيين الى التغلب على بلادهم من الفشل والشقاق متحكمة بين الاصناف المختلفة من أهالي سلطنة الفرنج المروفنجية وكانت جميع البلاد من نهر لوار الى ما توغل خلف نهر الرين منقادة لكرلوس مرتيل دوق أوستراز يا وكان كافلا للملك تيري الرابع ملك نستريا وكان حاكما على تلك البلاد بوصف كونه رئيس السراية وكان يحكم على أقاليم اكتينيا الثلاثة وعلى بورونة أمير من نسل الملك قلوبس يقال له أودوس وكان كبار برغونيا لا ينقادون لاحكام الملوك بسبب هذا الفشل والشقاق وأول اغارة عظيمة وقعت من المسلمين في شمال جبال البرنات كان رئيس عساكرها الامير زمعة وكان أوفر حظا من سلفه الحر حيث فتح مدينة نربونه وأنزل بها قبيلة من العرب وبعد ان بذل جهده من غير طائل في اذلال الامراء المستقلين الذين كانوا يحكمون سبطمانيا الى ان هزمه دوق اكتينيا وقتل امام مدينة تولوزه وكان ذلك سنة ٧٢١ فتولى بعده حمزة وفتح مدينتي كركسونه ونيمس وسلب في بعض غزواته أموال مدينة اوتون وهي من مدن برغونيا وذلك سنة ٧٢٥ م لكن جبره أودوس على ان يرجع الى نهر أودو بمجاوزة نابيا وحصل بعد ذلك بيسير خطر عظيم يزعج بلاد فرنسا وكان حاكم اقليم سلتبرين باسبانيا المسمى أبا النندي أراد ان يستقل بنفسه عن الخليفة هشام بن عبد الملك فتزوج بالاميرة لنباجيا بنت دوق اكتينيا فبعث له الخليفة نائبه عبد الرحمن فحاصره في مدينة بويسردة حتى قتل نفسه ووقعت زوجته المذكورة في أيدي المسلمين وأرسلت الى سراي الخليفة بدمشق فانظر كيف ذهبت بنت افرنجية من بنات ملوك النصارى لتزاحم حسان الاماء الجركسيات والحبشيات على قلب رجل من أبناء العرب اهـ قال صاحب نفح الطيب في صحيفة ١٠٩ من الجزء الاول قدم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي من قبل عبيد الله بن الحبحاب صاحب افريقية فدخل الاندلس سنة ثلاث عشرة ومائة وغزا الافرنجة وكانت له فيهم وقائع وأصيب عسكره في رمضان سنة أربع عشرة في موضع يعرف ببلاط الشهداء وبه عرفت الغزوة

Digitized by Google

وقال صاحب الفتوحات الاسلاميه فى صحيفة ١٤٩ من الجزء الاول ان هشام بن عبد الملك كان قد استعمل عبيدة بن عبد الرحمن السلمى على افريقية والاندلس فاستعمل عبيدة على الاندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى فغزا الفرنجة وأوغل فى أرضهم وغنم غنائم كثيرة الى أن قال وفى غزوته الثانية ببلاد الفرنج قتل هو ومن معه شهداء وتسمى جهة الواقعة التى قتل فيها بلاد الشهداء وعند الفرنج بواقعة بواتيه اه

واقعة بواتيه — لما أغار العرب بقيادة عبد الرحمن الغافقى عامل الخليفة هشام بن عبد الملك على الاندلس على بلاد فرنسا ووصلوا الى مقربة من مدينة بواتيه خرج اليهم شارل مارتيل بجموعه العديدة فالتقاهم ما بين مدينتى تور و بواتيه و بعد وقائع هائلة بين الجانبين ظفر بهم وشتت شملهم وقتل منهم على ما ذكر مؤرخوا الفرنج نحو ٣٠٠٠٠٠ نسمة (٧٣٢ م) وعقب هذا الانتصار لقبه كبراء المملكة بمارتيل اشارة الى أن ضرباته شديدة كضربات المطرقة قال صاحب تاريخ الوافى ما ملخصه انه فى خلافة هشام بن عبد الملك بعد ان حارب العرب اود (Eudes) حاكم اكيتانه هو ومن معه من الغوط والسكسونيين والفرنساويين تجاوزوا البرينات فاتحين جنوب فرنسا وحلوا بنربون (Narbonne) وكركسونه (Carcassonne) وما حول بورضو ودخل كثير من سكان تلك البلاد فى الاسلام من كارونه الى رودان وكان ذلك فى عهد عبد الرحمن الوالى فى اسبانيا وهذا الامير لما رأى النصر من جهته عزم على فتح بقية فرنسا ومن بعدها أوروبا كلها فجهز عسكرا غفيرا (١١٣ ﻫ — ٧٣١ م) وقطع البرنات ورودان كما ذكر وألقى الحصار على ارلس (Arles) وفتحها عنوة وقتل خلقا كثيرا وتجاوز نهرى كارونه ودردونيه من جهة المحيط وهما اللذان يصبان فى خليج بورضو والتقى بعساكر اودالثانية فانه كان قد هزمه أولا وفتك بهم وقتل منهم ما لا يعد وامتدت من هناك عساكر المسلمين فى ايالات اكتانيه مثل بريقرد وصانطنج وبواطو وضرب عبد الرحمن مضاربه أخيرا أمام طورس ولنس وقطع بعض العساكر بوركونية وحلوا أمام مدينتى ليون و بزنزون الشهيرتين الى أن قال ولما رأى الفرنساويون ما حل بهم من الخراب والدمار انتخبوا كارلوس من أمراء البلاط الملوكى المستحق بنسب بيقوس وكان كارلوس مقداما ذا دهاء وفطنة محبوبا من أصحابه مرهوبا من أعدائه وكان أهل فرنسا يتساءلون مذعورين ماهذا الذل طالما سمعنا قوة العرب وكنا نخشى مجيئهم من جهة المشرق فما بالهم فتحوا اسبانيا وأتونا من نحو المغرب أنتركهم يأخذون بلادنا وهم أقل عددا منا وسلاحهم أقل من سلاحنا و بكلام مثل هذا يجرئون بعضهم بعضا أما كارلوس (قارله) فبعد ان أجاب طلب الاهالى أمرهم أن لا يعارضوا العرب ولا يخاطروا وابدوا ثم قال ان هؤلاء القوم هم كنهر جار لا يمكن توقيف مائه وحب الغنى والجدة ضاعف جراءتهم والجراءة تغلب الكثرة فدعوهم يكتفون من النهب حتى اذا ما اكتفوا يعثرون بحركاتهم و يكون ذلك سببا للاختلاف بينهم ثم جمع عساكره وقد وصلت أهالى جرمانيه وغيرهم لمساعدته وركب على الاعداء فوجدهم فى وسط فرنسا ما بين مدينة طورس و بواطير وكان وصوله اليهم بغتة لجيشه مخفيا عن انظارهم بسلسلة جبال ثم انقض عليهم والتقوه بجراءة متساوية واشتبكت جيوش المشرق والمغرب للقتال وكان ذلك القتال موقوفا

Digitized by Google

عليه تغير هيئات الامور فى أوروبا وبقيت الحرب سبعة أيام وكانت فى الستة الايام الاولى خفيفة والوجه فيها للعرب أما اليوم السابع فامتد فيه الطعان واشتعلت النيران وتصادم الفريقان وأظهر الجرمان شجاعة ومقدرة لا مزيد عليهما وقد ساعدهم على ذلك عظم أبدانهم وانجلى القتال عن هزيمة العرب وقتل عبد الرحمن فانكفأت جيوشهم الى الخيام بحالة كئيبة ووقع النزاع فيما بينهم وجردوا السلاح على بعضهم بعضا وأخذ كل من الامراء والقواد وأتباعهم بالفرار ولم يبق منهم أحد الى الصباح ولما نظر النصارى انقطاع الصوت فى خيام الاعداء ظنوا ذلك حيلة ولكنهم وجدوه بعد التحقيق صحيحا ولم يتركوا وراءهم من السلب الا قليلا فانتشر خبر هذا الانتصار فى كل أوروبا وعادت العساكر الجرمانية مكللة بالظفر ورجع ابودالى مأموريته وكان ذلك آخر ما افتكر العرب بفتح فرنسا اه هذا وكانت وفاة تيرى الرابع سنة ٧٣٧م وعمره لا يتجاوز احدى وعشرين سنة

فترة فى الملك — (٧٣٧-٧٤١) — لما مات تيرى الرابع لم يقلد شارل مارتيل أحدا من الامراء كرسى المملكة بل بقى هو مستبدا بالامر ومال الناس اليه لاشتهاره بالنصرة التى انتصرها على العرب وبالنصرة التى انتصرها على جميع أعداء الدولة الافرنجية ولذلك خطر ببالة أن يغتصب الملك ويتلقب بلقب الملوك ولكنه لما لم يصل لمراده ترك الكرسى خاليا واستمر حاكما بلقب دوق الفرنجة وكان اسم شارل طار فى الآفاق وتحدث الناس بشجاعته وانتصاره على العرب ولذلك أرسل له البابا غرغوار الثالث (Grégoire III) رسولا يقول له ان منقذ بلاد النصارى (أى شارل المذكور) قد اعتبرناه أيضا حامى الكرسى المقدس (أى كرسى الباباوات) ومدبر الممالك النصرانية وسبب ذلك فيما يقال ان هذا البابا كان قد خشى من لويتبراند (Luitprand) ملك اللومبرديين أن يسطو على رومية فاستعان بشارل مارتيل ولقبه فى مكاتباته بالقاب التعظيم والتفخيم غير أن شارل لم يهنأ بهذه الالقاب زمنا حيث وافته منيته بعد قليل سنة ٧٤١ م وعمره خمسون سنة وترك ادارة المملكة لاولاده وهم كرلومان وبيبين الملقب بالقصير وغريفون ودفن بمحفل عظيم فى مقبرة الملوك بديرسن دينيس

شلدريك الثالث — (Childéric III) ٧٤٢-٧٥١ م — قلنا انه لما مات شارل مارتيل ترأس على مملكة الفرنج أولاده فتولى كرلومان (Carloman) وزارة استرازيا وتولى بيبين القصير وزارة نستريا ثم اتفق الاثنان على تولية شلدريك الثالث هذا وهو آخر ملوك الدولة المروفنجيه ولقب بالابله أو المعتوه (L'insensé) ولم يكن له من الملك الا الاسم فقط كسائر ملوك المروفنجيه الذين تقدموه فى ذلك القرن وكان زمام الملك بيد الوزيرين المذكورين الملقبين وقتئذ بحاكمى القصر الملوكى ثم ان كرلومان اعتزل الاعمال السياسية بعد ان قهر الباقاريين والالمانيين وأهل اكيتانيه وترهب فى كنيسة (٧٤٧ م) تاركا لاخيه بيبين الحكم على المملكة بتمامها فكان يحكمها بماله من الرهبة والنفوذ كما كان أبوه من قبله ثم خطر بباله أن يخلع شلدريك الملك الصورى فأرسل الى البابا زكريا (Zacharie) يسأله الفتوى بقوله هل يليق أن يجلس على سرير فرنسا أمراء ليس واماو كالاصورة وليس لهم من ذلك الا مجرد الاسم فأجابه البابا المذكور أن الاولى

والاليق

والاليق أن يجلس عليه من بيده عنان الملك حقيقة فعند ذلك أمر بيبين بحلق شعور شلدريك وسجنه فى ديرسن برتين (٧٥١ م) فمات به بعد ثلاث سنوات وعمره عشر سنوات وانقرضت به الدولة المرونجيه الاولى ولقب بيبين نفسه ملكا ولم يترتب على هذا الانقلاب أدنى فتنة أو اضطراب

ذكر بعض عوائد الفرنساويين واخلاقهم فى المدة المذكورة — قال المؤرخون ان تولية الملك عندهم كانت بالوراثة وزعم آخرون انها كانت بالانتخاب وأما كيفية مبايعتهم للملوك فهى انهم كانوا يجتمعون فى ميدان وهم متسلحون ثم يرفعون من يريدون توليته على ترس و يطوفون به فى المعسكر ثلاث مرات والجموع تهلل له وبذلك تتم له البيعة وكان الملوك عندهم فى الاصل عبارة عن رؤساء حربيين فكانت لهم الكلمة على الجيوش والحق فى تقسيم الغنائم التى كانت تقسم بالقرعة وكان للملوك حق اشهار الحرب وعقد الصلح وضرب المغارم وهم الذين يقلدون أرباب الوظائف العسكرية والملكية وكانت أموال الملوك عبارة عن أرض وغابات وماشية واصطبلات وأرقاء وكانت الامة منقسمة الى ثلاث مراتب الاولى الاحرار والثانية المتوسطون فى الحرية أى العتقاء المتمتعون بنصف الحرية والثالث الارقاء أى المجردون عن الحرية وكانوا يباعون فى الاسواق كالماشية وربما كان بعض الاحرار أو المتوسطين فى الحرية يبيع نفسه اقضاء ما عليه من الديون أو فى حب الدين وكانت العسكرية تتألف من مشاة فقط ولم يكن للملكة يومئذ عسكر منتظم بل انه عند مسيس الحاجة يصير كل انسان جنديا وكانت أسلحتهم السيف والحربة والبلطة ذات الحدين والعصا والرمح وأسلحة المدافعة الترس وكان ضياعه عارا شديدا كما كان الامر عند أهل اسبارطة ببلاد اليونان وكان كل من يرجع القهقرى من الجنود أمام العدو فى الحرب يعاقب بالقائه فى الوحل وكان القضاة عندهم اذا لم يجدوا وقت القضاء براهين تكفى لاصدار الحكم يرجعون الى عدة أمور منها (حرب الدويل) أى المقاتلة بين الاثنين المتخاصمين فمن قتل منهما كان هو المذنب ويقولون لذلك ان الله تعالى لا يظلم بريئا

(الفصل السادس)

﴿ الدولة الثانية الكرلونجية ﴾

٧٥٢ - ٩٨٢

ببين القصير (Pepin le Bref) ٧٥٢ - ٧٦٨ — انه بعدان نال بيبين غرضه وظفر بسياسته وتغلب على كرسى المملكة بايعه الفرنساويون على عادتهم فى ذلك وجعلوه ملكا عليهم وصار بذلك أول ملوك الدولة الكرلونجية (Carlovingiens) ثم انه سعى فى توطيد منصبه بشئ دينى فأحيا عادة المسح الملوكى التى أحدثها نبى الله شمويل للملوك بنى اسرائيل وكان قد أحياها قبله بعض ملوك الغوط باسبانيا فذهب الى بونيفاس (Baoniface) أسقف مدينة ميانس وهو الذى أدخل بلاد جرمانيا فى دين النصرانية وكانت له شوكة دينية عظيمة فمسح جبهته بزيت مقدس ثم لبس التاج

Digitized by Google

فى مدينة سواسون فى موكب عظيم لم يسبق له نظير فى تاريخ فرنسا وفى أول حكمه استولى على بلاد سبتمانيا واربونه وكانت فى أيدى عرب إسبانيا منذ سنين عديدة ثم أكره السكسونيين على الاعتراف بسيادته وافتدوا أنفسهم بثلثمائة فرس قدموها اليه واتفق فى تلك الاثناء ان استولف (Astolphe) ملك اللومبارديين تغلب على مدينة رافين وأخذ يهدد رومية فخاف البابا اسطوفان الثانى (EtienneII) خليفة زكريا على تخته فأتى مسرعا إلى عاصمة فرنسا واستغاث بالملك بيبن فتلقاه بمزيد الترحاب والتكريم وبعد ان ألبسه البابا التاج بيده لقبه بلقب محامى رومية وحكم بأن كل من تصدى لانتخاب ملك من غير عائلة بيبن لا يعد من أهل الكنيسة الرومانية فنجح بيبن حيث كان هذا من أعظم الاسباب فى تأييد شوكته (٧٥٣ م) وفى السنة التالية خرج بيبن فى مقدمة عساكره الى ايطاليا مع البابا اسطوفان المذكور وحاصر استولف المذكور بمدينة بافى (Pavie) ولما ضايقه استأمن وقبل بالشروط التى وضعها له بيبن وتنازل عوجبها عن الاراضى التى كان تغلب عليها وردها الى البابا وعاد بيبن الى بلاده ثم نقض استولف المذكور ذلك الميثاق وزحف على رومية فأسرع بيبن الى نجدتها سنة ٧٥٥ م وفتح عمالة رافين (Ravenne) وجعلها هى وبنتابولس (Pentapole) تحت سلطة البابا وأعطى بعد ذلك للكنيسة ثغرا تكون قهرا عن قسطنطين الرابع امبراطور المشرق وبذلك أصبح البابا اسطوفان يعد فى زمرة الملوك وتأيدت شوكته الملوكية من يومئذ وفى سنة ٧٦٠ م أشهر بيبن الحرب على اكيتانه وكانت قد استقلت تحت سلطة ملكها ويفر (Vaifre) ابن دونالد فاستمر القتال بينهما ثمان سنين وكانت حربا عوانا ولم يتمكن ملك فرنسا مع ذلك من فتحها الا بعد أن دبر على قتل ملكها (٧٦٨ م) ولما مات استولف ملك اللومبارديين السابق الذكر وخلفه ديدير (Didier) (٧٥٦م) أراد التغلب على بلاده ثانية وملاشاة حزب فرنسا من ايطاليا فخلع دوقى اسبوليه (Spolète) وبنيوان (Bénévent) وهما الدوق البوان (Alboins) ولويتبراند (Luitprand) لكونهما بايعا بيبن فبعث البابا بولص الاول (Paul I) الذى تولى بعد اسطوفان الثانى يخبر بيبن بذلك وبأن ملك لومبارديا اجتمع بسفير امبراطور القسطنطينية الذى رجع من فرنسا من غير أن ينال شيأ من مراده وانهما اتفقا على أن سفن سيسليا (صقليه) تسير لمحاصرة مدينة اترنت لاخراج الدوق لويتبراند المذكور منها واعادتها الى حكم القيصر قسطنطين الرابع امبراطور الشرق وان جيشا من جيوش القيصر يذهب الى ايطاليا لمساعدة ديدير ملك اللومبارديين على أخذ مدينة رافين وطلب البابا من بيبن أن يبذل الهمة فى تنفيذ شروط المعاهدة الاولى ويرشده الى الاحتراس مما تدعيه دولة القسطنطينية حيث كانت تسعى فى استرجاع شوكتها بايطاليا وكان بيبن وقتئذ مشغولا فى حرب اكيتانه السابق الكلام عليه وفى سنة ٧٦٥ م لحق البابا خوف شديد من تجهيزات دولة القسطنطينية للحملة على ايطاليا سيما لما بلغه خبر انضمام سفن صقلية الى سفن اليونان البالغ عددها ٣٠٠ سفينة وأنها تقصد الهجوم على رومية تحت قيادة ستة من البطارقة ثم شن الغارة بعد ذلك على سواحل بلاد بروفنسه ولما أخبر البابا بيبن بذلك اجتهد حتى أحبط مساعى الامبراطورية الشرقية وبذلك تأيدت شوكة البابا ولم تطل أيام بيبن بعد ذلك حيث اشتد به داء الاستسقاء وانتقل من مدينة سنتوس الى دى رسن مرتان بمدينة تور ثم الى دى رسن دنيس وهنالك لما شعر بدنو أجله قسم ممالكه (٧٦٨م) بين ولديه كرلوس وكرلومان (Carloman)

فاعطى

Digitized by Google

فأعطى مملكة نستريا وبرغونيا الكرلوس وأعطى مملكة استرازيا الكرلومان الذى مات سنة ٧٧١ وترك الملك بأجمعه لاخيه كرلوس

شرلمان أى كرلوس الاكبر (Charlemagne) ٧٦٨ – ٨١٤ م – لما مات ببين اجتمعت عظماء الفرنج فى جمعية شندمابه وأقروا على قسمة المملكة بين ولدى ببين كما تقدم وبعد قليل اشتعلت نار الشقاق بين هذين الاخوين وذلك فى مدة حربهم مالاهل اكيتانه الذين قاموا الاخذ الثار تحت إمرة هونلد (Hunauld) ودوقا كيتانه ويفر المتوفى سنة ٦٨٩ غير أن شرلمان تمكن من اخضاعهم وفر هونلد يبحث عن مكان يلتجئ اليه ثم ظهرت العدواة الخفية بين الاخوين بامتناع كرلومان من الذهاب مع أخيه الى الحرب المذكور فتعكرت كاس السياسة بينهما ولكن لم يقع بذلك حروب بينهما وأخيرا تصالحا وكتب شرلمان الى البابا اسطوفان الثالث (Etienne III) الذى خلف بولص الاول يخبره بذلك وفى خلال هامات كرلومان (٧٧١ م) فجأة وترك ولدين فحرمهما شرلمان من حقوقهما فى الملك واتفقت جمعية استرازيا على تسليم التاج لشرلمان فالتجأت زوجة المتوفى مع أولادها الى ديوان ديدير ملك اللومبارديين ملتمسة منه أن يأخذ لها بحق ولديها فى المملكة من شرلمان فأجاب مطلبها وسعى فى ذلك كثيرا الا أنه لم ينجح وضم شرلمان مملكة أخيه الى مملكته ثم اثيا وصار ملكا على كل فرنسا ثم غزا السكسونيين وانتصر عليهم وبعد رجوعه أتت اليه مكاتيب من البابا ادريان الاول (Adrien I) الذى خلف اسطوفان الثالث (٧٧٢ م) ومن مطران مدينة رافين يقولان له فيها ان ديدير ملك اللومبارديين لما لم يمكنه أن يستميل البابا الى الرضا بتتويج الاميرين ابنى كرلومان زحف بجيوشه وتغلب على امارة رافين وقصد مهاجمة رومية وغير ذلك فزحف عند ذلك شرلمان بجيش جرار على ايطاليا وحاصر ديدير فى مدينة بافى وذهب هو مع فرقة من جيشه الى رومية فاحتفل به البابا ووعده شرلمان بأن يقره على الاراضى التى كان ببين وهبها له فارتاح البابا بذلك جدا ثم عاد شرلمان الى جيشه فوجده فتح المدينة فقبض على ديدير ملك اللومبارديين ونقله الى فرنسا مع ولدى أخيه كرلومان وسجنهم فى دير هناك وتتوج ملكا على لومبارديا بمدينة مونزا القريبة من ميلان (٧٧٤ م)

العرب وشرلمان – قال صاحب كتاب قرة النفوس والعيون بسير ما توسط من القرون عن حرب شرلمان لعرب اسبانيا (٧٧٨ م) فى صحيفة ٢٨ من الجزء الثانى ما ملخصه وهاوفى بحفظ ناموس هذا الملك العظيم أن عدة من امراء المسلمين جاؤا اليه من اسبانيا ستريور أى التى وراء جبال الالب فقابلوه فى مدينة (بدربورن) ليطلبوا منه الحماية فانظر كيف خضع لهذا الملك نواب أعدائه الذين كانوا عفر دهم منغصين على فرنسا بمجاورتهم لها ومانعين من انتشار دين النصرانية فى الشمال والجنوب والسبب فى مجيئهم اليه هو أن القيام الذى ترتب عليه انفصال اسبانيا من خلافة المشرق لم ينقض الا وقد الحق الخلل بمصالح جم غفير من المسلمين ومذاهبهم وعقائدهم وكان بعض امرائهم له ارتباط سرى بدولة العباسية ببغداد وكانوا بذلك همتهم فى جمع الناس على عقيدة واحدة فأساء الظن بهم عبد الرحمن بن معاوية على عادته من سوء الظن بالناس فيما يتعلق بالسياسة وكان من أهل الاعتزال وهو الذى أحدث الخلافة فى قرطبة وكان قد ظهر عن قريب رجل شديد الغيرة على الملة الاسلامية نهى الناس أن يدفعوا العشر

للامير بصرفه فى قتال المؤمنين الذين ببلاد المغرب وهو عبد الرحمن المذكور فكل من كان له دخل فى خروج أولاد يوسف أو وافق على ابن مغيث والى أفريقية فيما كان شارعا فيه لاجل الخليفة العباسى غضب عليهم عبد الرحمن الاموى وحكم بقتلهم جميعا ومن المعلوم أنه كان منهم ابن العربى وأبو طاهر وكان الاول أميرا على سرغوسة والثانى على هو بسكة وكانت امارتهما مجرد صورة ظاهرية ففرا الى مدينة بدربورن وحضرا عند شرلمانيا وطلبا أن يحميهما من الامير الذى يظلم رعيته النصارى وعرضا له أنهما يدخلان فى حكومته مع المدائن التى أخذت منهما عن قريب والمدائن التى لم تزل معهما وكان لهما اسوة فى ذلك بالامير سليمان حيث دخل تحت حماية بيبين ابريف بالطوع والاختيار فأجابهما ووقع التعاهد بينهم ويمكن أنه بحث فى هذه المعاهدة التى تعد من الغرائب فى ذلك العصر عن طريق يتمم به ما كان شرع فيه جده كرلوس مرتيل من طرد المسلمين واجلائهم عن بلاد أوربا ورأى أن فى ذلك فرصة لا تخيب فيما سعيه وهى أن يأمن على الثغر الجنوبى من اغاراتهم العديدة الخطرة فعقد جمعية شديدة بمدينة شستوليا واجتمع فيها احرارا كثيرا بالاوستراسيين وخرج من هذه الجمعية جيشان قصدا جبال البرنات ثم ان الجيش الذى كان يقوده شرلمانيا دخل اسبانيا وتغلب على مدينة عبلونة ووصل امام سرغوسة واما الجيش الثانى الذى أرسل الى قتالونيا فلا يدرى هل وقع بينه وبين مدينة برسلونة قتال أو فتحت له أبوابها علاوة بمقتضيه حق الحماية التى عليها الفرنسا منذ سبع وعشرين سنة ثم ان سرغوسة قاومت عساكر شرلمانيا وكان يحميها عبد الملك بن عمرو كان من الشجاعة بمكان فانه قتل ولده بيده لكونه رأى أن همته قد فترت وحميته قد خمدت فى وقت خطر اه وروى مؤرخو العرب أن الفرنج انهزموا على نهر ابرة وأما كتاب الوقائع السنوية من الرهبان فانهم يقولون انما بادر الفرنج بالرجوع لما عرض لاوستراز يامن الخطر حيث اغار عليها السكسونيون ثانيا ويمكن أن الذى حمل شرلمان على الرجوع من هذه الحرب ما بلغه من خبر العصبية التى كان كونها لوب الثانى (Loup II) دوق غسقونيا ضده وعند عودته من اسبانيا هجم البسكيون على مؤخرة جيشه فى مضايق جبال البرانس وضايقوه وقتلوا كثيرا من شجعانه وقواده وكان منهم رولند (Roland) ابن أخى شرلمان ثم ان شرلمان حاربهم وقبض على لوب المذكور وقتله هو وابنه شرقلة

واعلم أن غزوات شرلمان باسبانيا وان لم يترتب عليها كبير فائدة الا أنها أكسبت فرنسا عدة أراض وبلاد وهى التى بين نهر ابرة وجبال البرانس قال صاحب كتاب نفح الطيب فى صحيفة ١٥٥ من الجزء الاول وخاطب عبد الرحمن قارله (شارل) ملك الفرنج وكان من طغاة الفرنج بعد أن تمرس به مدة فأصابه صلب المكر تام الرجولية فمال معه الى المداراة ودعاه الى المصاهرة والسلم فأجابه للسلم ولم تتم المصاهرة اه ثم ان فتوحات شرلمان فى جنوب جبال البرانس كانت تشبه فتح برطانيه وكان أقوام الباسك المقيمين وراء الجبل تخلصوا من حكومة الفرنج بعد واقعة رنسيو (Roncevaux) الشهيرة ثم دخلوا ثانية تحت حكم الحكومة الاسبانيه وصارت عاصمتهم عبلونه منقادة لخليفة قرطبة وكذلك برشلونه وكان يحكمها فى ذلك الوقت أمير يدعى سعدا ومع ذلك فان أمراء الفرنج بالثغور حملوا سكان بعض اقليمى أراغون وكتالونيه على مبايعة شرلمان فبايعوه ووقعت مدينة جيرون تحت حكمه (٧٨٦)

واستمر

واستمر بعض حكام المسلمين يحترمون حكومة شرلمان المتاخمة لهم بدون أن يرضى الكثير منهم الدخول فى حماية ملك الفرنج ولا فى حكومة عبد الرحمن الداخل الاموى وفى أيام هشام الاول الذى خلف أباه عبد الرحمن الداخل قام أبو عثمان وكان أكبر ولاة بلنسية وقمع الخوارج من امراء سرقسطه وبرشلونه وطركونه وأدخلهم فى طاعة هشام ثم سار حتى وصل الى بلاد فرنسا وتجهز من المسلمين جيشان لقتال نصارى استريه (Estrées) والغاله وكان يقود الجيش الاول أمير يدعى عبد الواحد فخرب بلاد استرغة ولوغو وكان يقود الثانى قائد يدعى عبد الملك واسترد هذا الجيش مدينة جيرونه المذكورة ثم تجاوز جبال البرانس لاخضاع أهالى غوطيه واكيتانه وكان أهل جنوب الغاله أعنى اكيتانه يعتمدون فى سلامتهم على غليوم دوق طولوشه غير أن العرب هزموه (٧٩٣ م) وخربوا مدينة اربونه وجميع بلاد سبتمانيا بلا مقاومة تذكر قال صاحب نفح الطيب فى صحيفة ١٥٨ م من الجزء الاول وبعث هشام العساكر مع عبد الكريم بن عبد الواحد الى البة والقلاع سنة ثمان وسبعين بعد المائة ومع أخيه عبد الملك بن عبد الواحد الى بلاد جليقيه فانتهى الى استرقه فجمع له ملك الجلالقة واستمد بملك البشكنس ثم خام عن اللقاء ورجع ادراجه واتبعه عبد الملك وكان هشام قد بعث الجيوش من ناحية أخرى فالتقوا بعبد الملك وأثخنوا فى البلاد واعترضهم عساكر الفرنج فنالوا منهم بعض الشئ ثم خرجوا سالمين اه ولما مات هشام (٧٩٦م - ١٨٠ هـ) ونهض ولده الحكم اشتعلت نيران الحرب الداخلى فى اسبانيا فوجه جميع قوى المملكة الى أعمامه الخارجين عليه وأما الفرنج والاستريون فانهم مروا من ثغر الشمال (٧٩٧ م) وكان الفونس الثانى (Alphonse II le Chaste) ملك استوريا (Asturies) شن الغارة على العرب حتى وصل لشبونه وأرسل الى شرلمان بعض الغنائم ودخل تحت لواء طاعته وفى تلك الاثناء كان تقدم الفرنج واستردوا مدن جيرونه ولريده وبملونه وأرسل الحكم أميرا يدعى سعدا أمير برشلونه الى مدينة اكس لاشابيل ليعقد مع شرلمان مشارطة الهدنة وتأسى به الامير حسن والامير طاهر قال صاحب نفح الطيب ولما كثر عبث الفرنج فى الثغور بسبب اشتغال الحكم بالخارجين عليه سار بنفسه الى الفرنج سنة ست وتسعين فافتتح الثغور والحصون وضرب النواحى وأثخن فى القتل والسبى والنهب وعاد الى قرطبة ظافرا اه

هذا وتحارب شارلمان مع السكسونيين وهم قبيلة جرمانية كانت ساكنة بشواطئ نهرى وزير والب وقد استمر هذا الحرب مدة ٣٣ سنة (٧٧٢ الى ٨٠٥) حدث فيها عدة وقائع بين الطرفين ولكن لم ينته أمرهم منها الا بقتل الجزء الاعظم من هذه الامة وبلغ من ضرب رقابه منهم أربعة الآف ونقل ضعافهم الباقين الى مقاطعتى بلجيقه وأسوج ونكس صنمهم الشهير المسمى أرمنسول (Irminsul) الذى كان على جبل أهرسبورغ المحصن وكان يمثل رجلا مسلحا على نسق الجرمانيين رمزا الى معبود الحرب أو الى أرمينيوس وهدم القلعة التى كانت مقامة لصيانته وبعد ذلك اعتنق بعض السكسونيين دين النصرانية ثم حارب الافاريين وكانوا أصحاب شوكة وسلطنة فى وسط أوروبا فانتصر عليهم فى بانونيا سنة ٧٩٦ وأخضعهم اخضاعا تاما سنة ٧٩٩م وحينئذ اعتنقوا الدين المسيحى وحارب أيضا غيرهم من الامم المنبربرة بأوربا وبذلك كله امتدت حدود دولة شرلمان الى شواطئ نهر أولنورن فى بلاد ايطاليا والى شواطئ نهرى راب ووستول من بلاد جرمانيا

Digitized by Google

تولية شرلمان الامبراطورية الغربية – لما تولى البابا لاون أوليون الثالث (Léon III) سنة ٧٩٥ م تعصب عليه أولاد البابا أوربان الاول سلفه ولما قويت شوكتهم عليه استمد شرلمان وذهب اليه أخيرا فتلقاه شرلمان بما يليق بمقامه من التكريم وبعد أن فاوضه في الامر عاد الى رومية وتجهز شرلمان وقصد رومية بعد أن رتب ما يلزم لحماية الثغور الشمالية وسواحل المحيط (٨٠٠ م) وبينما كان شرلمان يصلي بكنيسة رومية في يوم عيد الميلاد اذ أقبل البابا ووضع على رأسه تاجا من الذهب قائلا بأعلى صوته هو والكهنة والاهالي اللهم أدم وانصر شرلمان قيصر الرومانيين العظيم لانه يميل الى العدل والصلح أما شارلمان فانه قابل ذلك بالشكر والسرور ومن هذا الوقت اعاد شارلمان سلطنة المغرب بعد أن مكثت ٣٢٤ سنة وهي عرضة لعبث الامم المتبربرة قالوا ولما تلقب شارلمان بلقب امبراطور ازدادت شوكته اعتبارا أكثر مما كان لها أولا ولما أدرك شرلمان عظم هذا اللقب ورأى انه انتظم في سلك القياصرة جدد العهود والمواثيق على جميع رعيته ممن جاوز سنه اثنتي عشرة سنة بأنهم يبقون على الامانة والصداقة له

بحرية فرنسا في عهد شارلمان – يمكن القول بحق أن البحرية في فرنسا لم تظهر الا في عهد هذا الامبراطور لانه بعد ان ولى ولده بيبين ملكا على ايطاليا ادعى أهل البنادقة أنهم من رعية الامبراطورية الشرقية فلا يدينون له بالطاعة وأرسل أوبليريوس (Obelerius) أمير البنادقة أخاه بياتوس (Beatus) ليعرض الكيفية على بلاط القسطنطينية فاضطر بيبين لان يغزوهم بحرا فجهز عمارة حربية ليدخلهم بها تحت الطاعة ولكن أهل البندقية هجمت على هذه العمارة وبددتها في البحيرات وكان استيلاؤه على اقليم دلماسيا سبب القيام المشاجرة بين شرلمان ونيقفور الاول (Nicéphor I) امبراطور القسطنطينية الذي أرسل سنة ٨٠٦ م سفنا حربية تحت قيادة البطريق نسيتاس ليسترجع بها الاقليم المذكور ولكن لم يحدث من ذلك الا عقد المهادنة بين رئيس العمارة المذكورة وبين ملك ايطاليا ثم فسخها بواص والي جزيرة كفالونيا بتغلبه على ثغور دلماسيا البحرية ثم ذهب ليدافع عن سفنه بخليج البنادقة وأراد أن يعقد معاهدة مع بيبين ملك ايطاليا فمنعه دوق البنادقة من ذلك خوفا من وقوع بلاد البنادقة في قبضة الفرنج فرجع بواص بسفنه الى كفالونية ومع ذلك فان بيبين ألزم البنادقة بدفع جزية سنوية وبعد ذلك عقد شرلمان وامبراطور القسطنطينية معاهدة تخلى بموجبها شرلمان لدولة القسطنطينية عن البندقية (٨١٢ م) وكان النائب عن نيقفور في عقد المعاهدة البطريق ارسفيوس هذا وكان اغلب الدوقيات الخاضعة لفرنسا ببلاد ايطاليا عدة سفن حربية حتى ان الخليفة هرون الرشيد لما بعث بهديته لشرلمان أمر هذا الامبراطور كاتب سره المدعو ارشميلد أن يهيئ في ثغر بيزه سفنا لنقل تلك الهدية الى أقرب مينا من فرنسا قال المؤرخون وكان شرلمان يميل الى خدمة المسيحية في بلاد المشرق فحسن سياسته مع الخليفة المذكور وطلب منه قبل أن يترقى الى رتبة القيصرية أن يكون جميع زوار بيت المقدس من النصارى تحت حماية الخليفة وكنفه لانه صاحب بلاد فلسطين وأمير المؤمنين قالوا وكان لهذا الخليفة شهرة عظيمة قرعت جميع الاسماع وملأت من بلاد المشرق سائر البقاع وكان يميل الى الملاطفة وتحسين السياسة بينه وبين شرلمان أعظم ملوك أوروبا ولذلك سعى في مراضاته وأرسل اليه مفاتيح مقام سيدنا عيسى عليه السلام ودعاه الى أن يعتبر هذا المزار في جملة حكومته وقد وافق وصول رسل الخليفة مجيء رسل أمير القيروان

ابراهيم

Digitized by Google

ابراهيم بن الاغلب وكان استقل عن خلافة بغداد فتلقى شارلمان رسل الاسلام فى أسفل جبال الالب وكان يومئذ راجعا من رومية وعلى رأسه تاج القيصرية وكان من هدايا الخليفة اليه فيل تعجب منه الفرنج وساعة كبيرة دقاقة ذات عجل مصنوعة بغاية الاتقان حتى انها أدهشت من رآها من الفرنج وشطرنج بديع الصنعة وغير ذلك من التحف وهذا يثبت ان فنون المشرق كانت فى ذلك العصر أرقى من فنون أوروبا وقال مؤرخوا العرب وكان هرون مجتهدا فى نشر العلوم وتقدم المملكة وعقد التصابب مع كارلوس الكبير ملك فرنسا وأرسل اليه سفراء وهدايا لائقة به ومن بينها ساعة على دواليب وكانت من النوادر فى أعين أهل المغرب وقتئذ وكانت من المعدن تسير على دواليب كالساعات الحاضرة وتقسم الوقت الى اثنى عشر جزأ وفيها اثنتا عشرة كرة كل كرة بجزء تسقط الى صحن من فضة وينفتح لها اثنا عشر بابا يدخل بها اثنا عشر فارسا كل فارس لساعة وكانت فوق ذلك تدل على ارباع القمر وأيام الجمعة قال صاحب الوافى فى صحيفة ٨٩ من الجزء الاول وقيل ان هرون عرض على شارلمان القدس وأهدا مقاليد القبر الا أن هذا بعيد عن التصديق لما للبيت المقدس من الاحترام عند المسلمين وهو علو من الجوامع فلا يسمحون به للافرنج اه

ولما ظهرت أمة النورمان على سواحل المحيط الاطلسى وأغاروا على بلاد فريزه (Frise) تيقظ شرلمان وأخذ يستعد لحماية السواحل فاتخذ فى كل من مدينتى غند وبولونيا دار صناعة ومخازن للاخشاب لعمارة السفن الحربية وأنشأ بهما أساطيل تتألف من سفن صغيرة أعدها لحفظ السواحل وبعضها للتمكث على أفواه أنهار جرمانيا وفرنسا ومع كل هذه الاحتراسات فان نفس شرلمان لم تطمئن حيث كان يتفكر كثيرا فيما وقع من الامة المذكورة من التخريب فى جميع بلاد الغالة وفى احراقهم مدينة اكس لا شابيل قاعدته ولم يكن الغرض من الحرب فى البحر المحيط الا حماية الشواطئ من عبث النورمان أما فى البحر المتوسط فكان الامر بخلاف ذلك لان أهل جزائر بليار طلبوا منه المعاونة سنة ٧٩٩ م ليتخلصوا من حكم خلفاء قرطبة وقد دلت تواريخ العصر المذكور على ان أرمنجارد (Ermengard) قونت مدينة أمبورياس (Ampurias) احدى مدائن كتالونيه دفع العرب عن جزيرة ميورقه (٨١٣ م) حيث هجم عليهم على حين غفلة واغرق من أسطولهم ثمان سفن وأخذ منهم نحو خمسمائة أسير وبعد قليل أرسل بيبين ملك ايطاليا أسطولا الى جزيرتى قورسقة وسردينية (٨٠٦) تحت قيادة ادهمارقونت جنوة لمحاربة العرب المسلمين الذين كانوا فيهما وحصلت بينهما عدة وقائع هلك فيها القونت المذكور ثم ان بورشارد أحد أمراء شرلمان حارب العرب وانتصر عليهم انتصارا بحريا سنة ٨٠٧ م وأخذ منهم ١٣ سفينة كان بها كثير من اسرى النصارى وورد فى الجزء الاول من تاريخ بحرية فرنسا للموسيو ليون غورين ان شارلمان شيد عدة سفن كبيرة فى بولونيا وعند مصب الانهر وأرسلها لحماية التجارة الفرنسوية وقال غيره من مؤرخى البحرية انه قبل اكتشاف امريقا لم يكن لفرنسا فى البحرين المحيطين بها الا بلاد فلندر وبروفنسه يصلحان بوضعهما للتجارة البحرية أحداهما فى طريق سفن الشمال وبها ثلاثة أنهار تجرى فيها السفن واصلة الى المحيط الاطلسى وبواسطتها كانت توزع محصولات الشمال فى أقاليم أوستراز يا الغالية وجرمانيا وبالاخرى نهر الرون وكانت سفن اليونان التجارية وكذا سفن الرومان الحربية تتردد على هذا النهر من زمن طويل وكان هذا الاقليم دون غيره من الاقاليم أسهل مسلكا

Digitized by Google

وأقرب بالنسبة الى تجارة آسيا بخلافه من غير تلك الجهة لان البلاد الواطية كانت لم تزل غابة سبخة وكانت بلاد الشمال لا تبعث اليه الفراء والمعادن كما فى الازمنة المتأخرة بل كانت المعادن تصل اليه بواسطة أرباب الصيال وكانت مدن مرسيليا ونيس قد فقدتا عزهما وثروتهما وكان شرلمان يوصى أرباب الاقطاعات بأن يكون فى اقطاعاتهم أرباب حرف وصنائع واعلم ان الاعمال التى قام بها شرلمان فى البحر بة هى آخر أعماله لانه فى خلالها أحس بضعف وعدم قدرة على تحمل المشاق فاستقر بعاصمته مدينة اكس لاشابيل التى كان يميل الى هوائها ومياهها ويرغب فى تزيينها وبها مات فى ٢٨ يونيه من سنة ٨١٤ م وله من العمر ٧٢ سنة وانقرض فى حياته أغلب عائلته ولما كانت أحوال بناته غير مرضية تنغص مدة شيخوخته وكان أشرك معه فى المملكة ابنه لويس الذى لم يبق له غيره وأعطى له التاج الامبراطورى بجميع ماله من الممالك والاقاليم ماعدا ايطاليا فانه أبقاها لبرنارد (Bernard) وهو ابن ولده بين من السفاح (٨١٣ م) وكانت الدولة الفرنسوية وقت شرلمان تشتمل على سائر بلاد الغالة وجزء من بلاد المانيا وايطاليا واسبانيا وكان شرلمان هذا أشهر ملك ظهر فى أوروبا من وقت سقوط الدولة الرومانية الغربية الى سقوط الدولة الشرقية وقد أسس فى باريس مدرسة جامعة لسائر العلوم وكان يصرف أكثر أوقاته فى مطالعة العلوم واكتساب المعارف وكان مجلسه محفوفا بالعلماء وكان يناظرهم ويجادلهم وكان يتكلم باللاتينى وله معرفة باللسان اليونانى

لويس الاول - (٨١٤ - ٨٤٠م) - لما مات شرلمان تنبأ اغرسيوس أسقف مدينة روين بأقوال على المملكة الفرنسوية أظهر فيها فراسة سياسية على مستقبلها تشبه أخبار أنبياء بنى اسرائيل ولما كان هذا الاسقف مشهورا بين أبناء عصره بالمكاشفة استنسبنا درج أقواله المذكورة فى أسفل الصحيفة كما رواه مؤرخو الفرنج (١) لأن الكثير منها وقع بعد العهد المذكور

(١) قال يأتى على السلطنة زمن تندرس فيه امعالمها وتمحى آثارها ومعظم ذلك يكون من أهلها حيث تقع فيها الحروب بينهم ويحاصر كرسيها وتطؤه أقدام الاعداء ويحصل الخروج عليه من جميع الجهات ويصير عرضة للدمار والخراب ويسلب الاجانب أموال ماجاوره من المدائن ويدنسون كنائس القديسين ويجردون قبور الحواريين ويأتى لحمايتها من بلاد الغرب أناس يحلقون رؤسهم الا انهم يسبونها ويحصل فى هذا الزمن جدب عظيم ووباء كبير وتجهل الارض التى هى أم الناس بمحصولاتها ويقسو قلبها على أولادها حتى كأنها زوجة أب لا أم حقيقية فمنذ ذلك يدفع بعض النصارى الخراج لنصارى آخرين وتنزع الشفقة والرأفة من قلوب الناس وظهور هذه المصائب انما يكون فى الوقت الذى يتعاظم فيه القسوس ويداخلهم التكبر والتعالى ويتصرفون فى أموال الكنيسة حتى كأنها أموالهم فاذا بامواز ينتها وزخارفها تصرفوا فى التزاماتها كيف شاؤا وتصير الاديار دارسة والكنائس قفرة ويسلب أمناء الدين أنواع البخور المعدة للمحراب المقدس ولا يوفون بخدمهم وتنهدم الهياكل الدينية وتتفرق قسوسها وتفتضح أبكارها ويأتى على سواحل البحر أمم مجهولة يذبحون أبناء النصرانية ويخربون أريافهم ويسترقون منهم من ينجو من القتل ويذهب أشراف الرومان أسارى فى البلاد الاجنبية وتسلب أموال رومية لكثرتها ويحصل بها حريقة تحرقها وتقوم ذرية الاغاربيين فى المشرق وتسلب أموال المدن البحرية وليس هناك من تكون له قدرة على طردهم منها الان ملوك الارض يكونون يومئذ على غاية من الفاقة والفقر ويظلمون رعاياهم وتمحى آثار سلطنة الفرنج الرومانية ويجلس على الكرسى القيصرى ملوك وتأخذ جميع الاشياء فى الرداءة والقبح وتزداد فى ذلك بالتدريج ويتقوى الخدم على ساداتهم ويصير كل انسان لا يعتمد الا على سيفه ولا يتذكر أحد القوانين القديمة بل يسلك كل على ماتسول له نفسه من الخبث والايذاء ويصير العدل والانصاف فى حيز النسيان ويستحيل القضاء الى الظلم اهـ

ولما

ولما تولى لويس المذكور الملقب بين أهل عصره بحليم الطبع (Le Debonnaire) وعند من أتى بعدهم بالحليم المستضعف اتصف بما يستدعيه هذان اللقبان من الخصال الجيدة والصفات الذميمة فقد كان ضعفه ظاهرا حتى في الامور التي تقضي التشديد فانه مع تشديده في اصلاح أحوال القسيسين خر غير مرة على أقدام البابا وأساقفته وكان أعظم مصيبة عليه ميله بالطبع الى فعل الخير من غير أن يودع فيه الله تعالى قوة كافية لازالة الضرر فأذن في أول حكمه للسكسونيين بأن يرجعوا الى أوطانهم وكانوا قد انتقلوا الى فرنسا بأمر أبيه شرلمان ثم لما توج البابا اسطفان الرابع لويس هذا وزوجته ارمانغارد (Ermengard) في مدينة رمس (٨١٦ م) وهي التي رزق منها بثلاثة أولادهم لوتير (Lothaire) وبيبن ولويس قام في السنة الثالثة من حكمه وقسم في مجلس جمعه بمدينة اكس لاشابيل ممالكه بين أولاده الثلاثة المذكورين فأشرك معه في الامبراطورية ابنه البكرى لوتير وجعل ابنه بيبن ملكا على اكيتانه وتوابعها وابنه لويس ملكا على باويره وتوابعها ولما علم ابن أخيه برنارد (Bernard) وكان ملكا على ايطاليا بهذه القسمة خرج عن طاعة لويس (٨١٨ م) لانه كان يزعم ان تاج السلطنة ينبغي أن يكون للفرع الاكبر سنا فيكون موروثا له من جده شرلمان بانتقاله من أبيه له فلما أظهر العصيان جرد عليه لويس وحاربه وانتصر عليه بجوار مدينة شالون سورسون ولما قبض عليه فقأ عينيه وعيون أصحابه الذين وافقوه على القيام والخروج عن الطاعة وكان من بينهم بعض الاساقفة ثم مات متأثرا فيما بعد ثم لام لويس نفسه على ما فعل وأراد أن يكفر عن ذنوبه فجمع مجلسا لذلك بقصره بمدينة اتني (Attigny) سنة ٨٢٢ وأجرى التكفير بعلة عظيمة تحط بالمرتبة الامبراطورية حتى نتج عند ذلك ان أولاده ورعاياه صاروا لا يحترمونه من يومئذ

وبعد هذه الحادثة بثلاث سنوات وهب ولده لوتير حكومة ايطاليا فذهب لوتير الى رومه وهنالك ألبسه البابا بسكال الاول (Pascal I) التاج الملوكى (٨٢٣ م) وبعد هذا التتويج ببضع أشهر قتل أهالى ايطاليا رئيسين من رجال الكنيسة لانهما اشتهرا بالميل للامبراطورية واتهموا البابا بهذا الامر فبرأ نفسه بحلف اليمين بحضرة وكلاء لويس وبعد قليل مات بسكال وخلفه أوجين الثانى (Eugène II) (٨٢٤ م) ولكن لم تطل أيامه وخلفه في كرسي البابوية غرغوار الرابع (Grégoire IV) وسافر الى فرنسا لمنع الخلاف الواقع بين الملك لويس وأولاده فلم يوفق لذلك فأعطى الحق لاولاد الامبراطور وعاد الى مقر وظيفته كما سيأتي شرح ذلك في محله وكان هذا البابا أظهر أيام انتخابه عدم الميل للامبراطورية ومع ذلك فانه بعد ان رد الامم التى قامت على الامبراطورية الى الطاعة وحارب سكان مقاطعة برطانيه خدم الدين المسيحي بنشره بين سكان سواحل بحر بلطق وعين في البلاد المجاورة للدانيمارقه مطرانا ارقاه البابا المذكور فيما بعد الى رتبة سامية ولقبه بنائب البابا

وللارتباك الحاصل بالمملكة اذ ذاك لم يتمكن الملك لويس من صد عرب الاندلس الذين أغاروا على بلاده قال مؤرخو العرب انه لما جلس عبد الرحمن الاوسط (٢٠٧ هـ - ٨٢٢ م) على كرسي قرطبة غزا لاول ولايته جليقية وأبعدوا أطالوا المغيب ورجع غانما ثم أغزى حاجبه عبد الكريم بن عبد الواحد الى ألبه والقلاع فخرب كثيرا من البلاد وانتسفها وفتح كثيرا من حصونهم وصالح بعضها على الجزية

هذا وقد عرض لويس يومئذ نفسه للمصائب من وقت ما تزوج بغيرزوجته ارمانغارد المذكورة أم أولاده الثلاثة وذلك أن أرباب الطمع من خاصته خافوا أن ينزل عن سرير المملكة فحملوه على أن يتخذ قرينة أخرى ودلوه على أجل بنات الامبراطورية وأشهرهن وهي الاميرة جوديت (Judith) ابنة الكونت ويلف (Œelff) من أعيان باويره فتزوج بها وكانت على جانب عظيم من الخصال الحميدة فرزقت منه بولد يسمى شارل أو كرلوس (٨٢٣) وسعت من يومئذ في أن تجعل له مملكة يستقل بحكمها كاخوته من أبيه فنجحت وذهب لويس الى مدينة رومية (٨٢٩ م) وكتب هناك وثيقة تتضمن تلقيب شارل بلقب ملك المانيا فتغيرت بذلك قسمة سنة ٨١٧ م فكان ذلك سببا لايقاظ الفتن الداخلية

الحروب الداخلية — لما بلغ أولاد لويس ما فعله والدهم مع شارل المذكور خلعوا رداء طاعته وقاموا عليه سنة ٨٢٩ م وألزموا جوديت أن تعتزل وتقيم بدير سنت راديغوند (Sainte Radegonde) في بواتيه وأسروا والدهم المذكور غير أن ابنه لويس الثالث ملك باويرملما أمده الالمان ذهب لانقاذ والده وأعاده الى سرير ملكه (٨٣٢ م) ثم ثاروا عليه ثانيا فجرد جيشا وسار لمقاتلتهم وكانوا قد اجتمعوا في الالزاس فقابلهم في سهول روتفلد قريبا من كولمار (Colmar) وكان البابا باغرغوار الرابع أتى الى ميدان القتال ليمنع سفك الدماء بين أبناء النصرانية وبعد أن تقابل مع الامبراطور تخلى الجيش عنه فأوقع ذلك الريبة والشك في سيرة هذا البابا بالنسبة للامبراطور ثم ان الامبراطور السيء البخت قال للنفر الباقين في طاعته وكانوا قد حضروا امام خيمته في الصباح اذهبوا الى أولادي فاني لا أحب أن يفقد أحد منكم حياته من أجلي ثم سلم نفسه لاعدائه هو وزوجته وابنه شارل (يونية ٨٣٣ م) فقبض عليه ابنه البكري لوتير وسجنه أولا في كنيسة سنت سيلارد بمدينة سواسون ووضع أخاه شارل الصغير في دير وحلق شعور جوديت وسجنها في قلعة تورتون (Tortone) ثم عرض لوتير على أبيه أن يخلع رداء الامبراطورية ويعترف بأنه هو السبب في جميع النكبات التي أصابت الدولة فاعترف بذلك وكتبوا ذنوبه في قائمة كبيرة وهو يبكي ولما عظم شأن لوتير بعد أن تولى الامبراطورية وأظهر التعاظم على أخويه بيبن ولويس تحركت عندهما عوامل الغيرة والغيظ فقاما عليه وطلبا منه اعادة أبيهما الى ما كان عليه من الحرية والاستقلال وانضم اليهما الامراء وتحزبوا جميعا وحضروا بجموعهم متسلحين فخاف لوتير وهرب الى برغونيه ولولا ذلك لوقعت حرب شديدة وبهذا أعادوا الامبراطور السابق الى منصبه (٨٣٥ م) وقلده الاساقفة السيف ولكنه لم يعمل بما تستدعيه شوكته فلم يجاز أحدا بما فعل بل صفح عن أعدائه الذين ندموا على ما وقع منهم في حقه وأحضر وازوجته جوديت من منفاها وحضر ولداه بيبن ولويس امامه وخرا على قدميه فعفا عنهما وأقرهما على مملكتي اكيتانه وباويره أما لوتير فانه بقي عاصيا وانتصر على القائمين عليه في واقعة شالون ولكنه اضطر أخيرا الى أن يطلب من أبيه الصفح فعفا عنه

ثم انه في سنة ٨٣٧ م عقد لويس مشورة في مدينة اكس لاشابيل قسم فيها مملكته ثانية بين أولاده لابطال ما كان يدعيه لوتير لنفسه من الحقوق من جهة ومن الاخرى لمكافأة لويس

ويبين

و بين على مافعـلاه ومع ذلك فقد ترتب على هذه القسمـة غضب أولاده في السمر ثانيـة حيث نال اخوهـم شارل ابن جوديث حصـة كبيرة وفي اثناء ذلك مات بـيـين فجأة (٨٣٨ م) وازداد غيظهم لمـا جعـل الامبراطور أخاهـم شارل وارثا لاكيتانه وأجلسـه على كرسيها وحرم أولاد بيين الكثيرى العـدد من ميراث أبيهم لاكثار نصيب شارل أصـغر أولاده الذكور وهو الذى اصطفاه من بينهم فجـدد تقسيم المملكة سنة ٨٣٩ م وأعطى لوتير أكبرهـم المانيا وايطاليا وأعطى شارل فرنسا بتمـامها من غربي نهرى موز والرون وأعطى لويس مملكة باويرة وإقليم بروفنسه و بعض أقاليم واقعـة بين نهرى الرين وموز غيرأن لويس لم يرض بذلك وأشهر الحرب على أبيـه وكان الاكيتانيون قائمين عليه متعصبين لاولاد بيين فبايعوا أكبرهـم ملكا عليهم وسموه بيين الثانى وبذلك اجتمع على لويس الاول بومشـذابنه وحفيده يحاربانه في آن واحد ولما كان لا يقدر عليهم امعاقال على مشهد من الناس قد صفحت عن ولدى لويس ولكن ليعلم أنه كان هو السبب الذى أفضى بى الى الموت وكان الامبراطور لويس ذهب بجيش لمحاربته ولكنه مات كدا في أحـدى جزائر نهر الرين سـنة ٨٤٠ م وقال المؤرخون عن الاضـطرابات التى حدثت في أيام الامـبراطور المذكور انها لم تكن ناشئة عن ضعفه وعدم حزمه وانما هى لسوء حظه بحيث لو حصلت في زمن غيره ممن بلغ الغاية في البراعة والقوة لعسر عليه أن يمنع انتشارها وانتشار ماحدث منها من الاختلالات وفساد الاحوال حتى كان لويس يقول عن افراط الجيش في الرفاهيـة والزينة ان هذا من قبـل الجنون ألم يكفهم تعريض مهجهم لخطر الحروب فير يدون اغناء العدو من سلبهم ويجعلون له بذلك قدرة على دوام الحرب معهم

شارل الثاني - (٨٤٠ - ٨٧٧ م) - ويلقب بالاصلع (Le Chauve)

صعد على سرير الملك أثناء المنازعات التى سفك فيها كثير من الدماء في بلاد فرنسـا فقد استمر على الحرب مع ابن أخيـه بيـين الثانى ملك اكيتانه وكان أبوه أعطاه ممالكه وكانت هـذه الحـرب بفـرنسا الغربيـة أما فرنسا الشرقية أى التى جهـة جرمانيا فكان لويس الباويرى الملقب أيضا بالجرماني ينازع فيها أخاه لوتير وكان لوتير شديد الرغبة في نوال الرياسة العامة على باقي الملوك الكرلونجية وبسبب هذا الزعم تحزب عليه أخواه لويس الجرمانى وشارل الثانى الاصلع المذكورين وكانت بينه وبين ابن أخيه بيين ملك اكيتانه الذى كان محتاجا لاعانته وحمايته له معاهـدة اتفاق ولما بلغ لوتير خبر موت أبيه رحـل من ايطاليا مع جموعه وقصد فرنسا لتنفيذ منويا ته في ادخال جميع اجزاء الامبراطورية تحت حكمه فقصـد نهر الرين وكان أخوه لويس هنالك على حالة بين الرجاء والخوف و بعث من طرفه رسلا الى فرنسـا الغاليه ليستميل اليه ملتزمى نستريا وسلك في تلك الاثناء مع أخيه شارل الاصلع مسلكا حسنا وتشفع اليـه في ابن بيين قائلا انه يصلح لخـدمة الامبراطور ثم بعد ذلك قامت حروب شديدة بين شارل الاصلع وأخيه لوتير حول مدينة أوكسيره (Auxerre) انتهت بواقعة فنتنت (Fontanet) (٨٤١ م) وكانت الدائرة فيها على لوتير وحليفه بيين وقتل من جيشهما مائة ألف من الفرنسويين على ماقيل وعقدت بينهما مشارطة فردون (Verdun) (٨٣٤ م) وبهـذه المشارطة قسمت المـملكة تقسيمـا أخيرا لم ينل فيه شارل شيأ يذكر مع ما ناله من الانتصار على أخيـه لوتير كما سبق فلم يبق لنفسـه الا اقليم اكيتانه ونستريا وتنازل باختياره عن جرمانيا لاخيه لويس وعن بلاد ايطاليا

لاخيه لوتير ولقبه بالامبراطور ولما كان هؤلاء الملوك الثلاثة غير أهل للقيام بادارة ممالكهم كما قام بها قبل التقسيم جدهم شارلمان أخذوا فى استعمال وسائط غير مناسبة واجرا آت مضرة رديئة ظانين أنها توطد أركان سطوتهم وقواعد ممالكهم وسنوا شرائع وقوانين أنت بلادهم بنوائب عديدة ودواه كثيرة لاسيما حينما تزايدت سطوة اشرافهم وبينما كانت أحوال فرنسا مرتبكة اذ بأهل الشمال المتبربرين المعروفين بالنورمنديين انقضوا على سواحلها يخربون وينهبون بينما كان المسلمون يهاجونها من جهات جبال البرانس

النورمنديون بفرنسا — كانت اغارة النورمنديين على فرنسا سنة ٨٤٣ م وكانوا تحت قيادة قائد منهم يدعى هوشيرى (Hochery) وكان معهم عمارة جسيمة مركبة من أكثر من ستين سفينة ولما وصلوا الى سواحل فرنسا الغربية أخرجوا جيوشهم الاسكندناوية فأغارت على مدن نانت وطور وأورليان وبردو وروان وغيرها وعند ذلك تجهز الملك شارل وخرج للقائهم وبعد حروب تغلب عليهم بالمال لا بالسلاح (٨٤٥ م) وطردهم الا انهم عادوا ثانية سنة ٨٥٥ بعمارتهم وجيوشهم واستمروا على التخريب وتمكنوا من ادخال أساطيلهم فى نهر السين وهاجموا باريس وحرقوا منها عدة أماكن منها كنيسة سن جنفيف وقد نجم عن تخريباتهم هذه مجاعات شديدة أعقبتها أوبئة وطواعين قاسية جدا ونازلهم دوق فرنسا المدعو روبرت (Robert) الملقب بالقوى فصدهم الا انه قتل وهو يحاربهم (٨٦٥ م) وبذلك استحق هو وعائلته شكر الامة فولت ابنه المسمى اود (Eudes) الملك بعد ذلك بقرن ثم جلس أولاده على كرسى مملكة فرنسا كما سيأتى هذا وفى تلك الاثناء كان العرب يغزون بلاد الفرنج من جهة جبال البرانس ومن سواحل البحر المتوسط الابيض الشمالية واستولوا على كثير من القلاع والمدن والجزائر ووجدوا بها من الغنائم شيأ كثيرا وكان محمد بن عبد الرحمن صاحب الاندلس يوالى ارسال الجيوش مع ابنه المنذر الى جهات البرانس فاضطربت حدود فرنسا الغربية والجنوبية (٢٤٨ - ٢٥٢ هـ) حتى اضطر شارل الاصلع الى عقد مهادنة مع صاحب الاندلس (٨٦٤ م) التزم فيها بأن لا يعود الى اعانة من يخرج عن طاعة الخليفة الاموى وبذلك سكن الاضطراب فى فرنسا نوعا

ثم لما مات الامبراطور لوتير الاول (٨٥٥ م) ملك ايطاليا اقتسم أولاده الثلاثة ممالكه على مقتضى ما كان قرره هو فى مشورة مدينة ليبج سنة ٨٥٤ م فصار لويس الثانى امبراطورا وملكا على ايطاليا وصار شارل ملكا البرغونيا وبروفنسه وتملك أصغرهم لوتير الثانى على بلاد لورين وكانوا كأبيهم يكرهون بعضهم كما كان هو يكره اخوته ثم لما مات لويس المذكور سنة ٨٦٩م تغلب شارل الثانى على بلاده الا ان أخاه لويس الجرمانى اضطره بعد ذلك بسنة الى تقسيمها معه فانتهز شارل الاصلع فرصة اشتغالهما بالامر وتغلب على الجهات الغربية الكائنة بين نهرى موز وشيد ولما مات الامبراطور لويس الثانى المذكور سنة ٨٧٥ م انتهز شارل الاصلع الفرصة وعبر جبال الالب ودخل ايطاليا وطلب من البابا يوحنا الثامن (Jean VIII) ان يتوجه امبراطورا فتوجه فى يوم عيد ميلاد السنة المذكورة وعزم أيضا على أن يجرد أولاد أخيه من ممالكهم ليوسع مملكته فعارضه أخوه لويس الجرمانى وأعلن عليه الحرب وأغار على فرنسا سنة ٨٧٦ م الا انه مات

Digitized by Google

عقب ذلك بقليل وتقاسم أولاده الثلاثة مملكته فملك كرلومان (Carloman) بلاد باويره والثغور الشرقية النمسوية وملك شارل دوسواب بلاد السويسره والالزاس وملك لويس مملكة سكسونيا وكان شارل الاصلع قد طمع أيضا في جعل أولاد أخيه لويس الجرماني تحت كفالته ولكن لم تطل أيامه فمات سنة ٨٧٧ م عقب داء عضال وفي رواية انه مات مسموما سمه طبيبه المدعو سدسياس اليهودي وكان نديمه أيضا وكانت الامة تكره شارل المذكور وتحتقره بسبب ماوقع بينه وبين النورمنديين من الشروط المورثة للعار والفضيحة ومما فعله أيضا وعاد على مملكته بالضعف انه ملك الامراء الاراضي التي كان أعطاها لهم على سبيل الالتزام فصاروا بها كملوك صغار وترتب على هذا عود الحكومة السيادية أي الالتزامية ومما فعله أيضا أنه أباح توارث الامراء والاعيان وهو شيء لم يكن معهودا من قبل ببلاد فرنسا ولما لم يبق من أولاد شارل الاصلع الا ولده لويس الثاني الملقب بالالكن خلفه على سرير الملك

لويس الثاني الملقب بالالكن - (٨٧٧ - ٨٧٩ م) - كان هذا الملك في مدة والده يلقب بملك اكيتانه ولما بلغه موت أبيه بادر بالانعام على أحبابه ففرق عليهم دورا وقونتيات واقطاعات طامعا أن يكون له حزب عظيم يعادل في نفوذ الكلمة كبار ملتزمي الاقاليم الا أن رؤساء الدور والقونتيات غضبوا من ذلك غضبا شديدا حيث وجدوا لهم أقرانا يعادلونهم فاجتمعوا عصبة واحدة تحت رئاسة الامبراطورة ريشلده (Richilde) فاضطر لويس من الخوف أن يقيم بقلعة كومبينيه وطلبوا منه عقد مشورة لوضع قانون نظامي للملكة فقبل ووعد باصلاح جميع المفاسد ولما استمال الاعيان بالعطايا توجه في مدينة رمس (Rems) وأكد لهم وعوده بقوله أنا لويس الذي صرت ملكا بعون الله وانتخاب الامة أتعهد قدام الكنيسة وجميع أرباب وظائف الدولة بأني أحافظ على جميع القوانين والشرائع التي رتبها أسلافنا للامة التي فوض أمر حكومتها الي حسبما انحطت عليه آراء أمنائي وبموجب أحكام أسلافي التي لاتنقض اه وقد منعت الحوادث المخيفة التي كانت بايطاليا يومئذ البابا يوحنا الثامن من الحضور لتتويج الامبراطور لأن المسلمين كانوا احتلوا مقاطعة أوترنته وحملوا الاهالي على دفع الجزية لهم واتهم الكثير دوق بلاد أسبوليتيه (Spolete) بأنه تحالف مع العرب وحصلت أمور أخرى اضطرت البابا للخروج من ايطاليا والقدوم على مدينة ارل فقابله مطرانها روستنغ بالترحيب وكان البابا نبني الدوق بوزون أكبر أمراء فرنسا ليساعده في مسئلة ايطاليا وكان البابا طلب من لويس ملك فرنسا احمل السلاح لانقاذ رومة ولما لم يجب الامبراطور طلبه اضطر للاستعانة بحامين آخرين فسعى في استمالة لويس ملك سكسونيه ووعده بالتاج الامبراطوري الذي به يكون جميع ملوك النصارى رعية له ولكن هجوم النورمنديين ومعاكسة الفرنسويين له منعاه عن مبارحة أقاليمه فعند ذلك عزم البابا على الصلح مع دوق اسبوليتيه حتى تساعده الفرص

وقد تسبب عن العطايا الوافرة التي وهبها لويس الثاني للاعيان خلو الخزانة من النقود فضعفت المملكة وانحطت وصار الكرسي الفرنساوي مجردا من رونقه وقوي نفوذ أصحاب الاقطاعات حتى صاروا كمستقلين في التزاماتهم وأخذوا يظلمون العباد ومازالت سطوتهم تنمو بعد ذلك حتى صاروا

Digitized by Google

فى الغالب يقاتلون ملوكهم و ينجعون وكان لويس ملك سكسونيه تعاهد مع لويس الالكن ملك فرنسا بشروط عقدت ببلدة فوورون سورموز واقتسما بذلك بلادلورين على مقتضى أحكام مشارطة مرسان واشترطا أن تكون بلاد كل منهما تحت كفالة الآخر لتبقى لاولادهما قاصدين بذلك حمايتهم مدة صغر سنهم من المتعدين الا أن ملك سكسونيه لم ينل ثمرة المعاهدة المذكورة حيث اخترمت المنية ولده وجنى ثمرتها أولاد لويس الالكن لانه لما فاجأته المنية فى مدينة كمبينه (Compiegne) سنة ٨٧٩ م اقتسم ولداه لويس وكرلومان اللذان من زوجته المسماة انسغارده (Ansgarde) المملكة من بعده وكانت زوجته الثانية أدبلائيد (Adelaide) حاملة فوضعت ولدا سماه الثامى شارل وعرف فيما بعد بشارل لوسمبل أى المغفل

لويس الثالث وكرلومان - (٨٧٩ - ٨٨٤ م) - لما خلف هذان الاخوان أباهما فى المملكة تعصب عليهما أحد الامراء المدعو جوزلين والتف حوله عصبة كبيرة تقصد حرمانهما من تخت المملكة متعللة بأن أمهما انسغارده كانت مطلقة من أبيهما فلم يراع أهل تلك العصبة حقوقهما كما لم يراعوا حقوق حمل الملكة أدبلائيد التى وضعت بعد قليل وعرضوا تاج فرنسا على لويس السكسونى الذى أقبل الى مدينة وردان ليأخذ المواثيق على رؤساء العصبة وفى تلك الاثناء اجتمع بعض الصادقين من الملتزمين الراغبين فى حفظ المملكة لاولاد لويس الالكن وألزموا هوج الراهب فألبس الاميرين الشابين لويس وكرلومان تاج المملكة وبذلك انتهت المشكلة وقبل لويس السكسونى الجزء الذى وهبوه له من بلاد لورين وحكم الاخوان المذكوران معا بكل اتحاد ووفاق فكان لويس يحكم على فرنسا ونستريا وكرلومان يحكم على برغونيا واكيتانه وفى اثنائه اتهم البعض الامبراطورة زوجة لويس الثانى بأمور نسبوها اليها مع براءتها فنفى الدوق بوزون الذى كان حائزا لاكبر المناصب عنها تلك التهمة وأثبت براءتها بالمقاتلة المسماة بالدويل كما كانت العادة اذ ذاك فكافأته على ذلك بتزويجه من ابنتها المسماة ارمنغرده ملكة بروفنسه وكان خطبها سابقا امبراطور القسطنطينية ولما أظهرت الاميرة المذكورة الامتناع لصغر مقام بوزون بالنسبة الى مقامها اجتمع أساقفة برغونيا القديمة وبروفنسه وأساقفة ارل فى منتيليه ورأوا أنه لابد للكنيسة والرعية من حكام يقوم بمصالحهما فعرضوا تاج مملكة بروفنسه على بوزون فقبله منهم فشكروه على تحمل اعباء مملكتهم ومسحه مطران اورليان المسحة الملوكية فى مدينة ليون ولقب من يومئذ بملك أرل وبروفنسه قال مؤرخو الفرنج انه من يومئذ صار لاقليم الرون حكام يحمونه من العرب لان بنى الاغلب كانت أساطيلهم ملأت البحر المتوسط الابيض وفتحت جزيرة صقلية وكثيرا من بلاد ايطاليا خصوصا فى عهد ابراهيم بن أحمد الاغلبى المعاصر لملكى فرنسا المذكورين فانه أرسل اساطيله مع حافده زيادة الله ابن ابنه أبى العباس عبد الله وفتح عدة بلاد وقلاع من صقلية وساحل بلرم و بعث أبنه أبا محرز باساطيل فضايق بها رمطة فأعطاه أهلها الجزية ثم عبر بهم الى عدوة البحر وسار فى بر الافرنج فقتل وسبى ورهب منه الفرنجة وقال مؤرخو العرب ان ابراهيم بن أحمد هذا شيد الحصون والمحارس على سواحل البحر و بنى سورسبتة وكانت النار يوقد فى ساحل سبتة للنذير بالعدو فيصل ايقادها الى ثغر الاسكندرية فى ليلة واحدة

Digitized by Google

ولما صار بوزون ملكا امتنع من مبايعة ملكي فرنسا ولم يذعن لهما بالسيادة فجردا عليه وحاصراه في مدينة ويانة باقليم دوفينه فهزماه ولما انهزم بايع لامبراطور جرمانيا الذي أبقاه حاكما على بلاده فحكمها بالهدو والطمأنينة الى انه مات سنة ٨٨٨ م وقد اشتهر لويس الثالث بغزو النورمنديين الذين خربوا المملكة حيث ترك محاصرة ويانة وذهب لقتالهم فانتصر عليهم في واقعتين في سهل سوقورت (Soucourt) في ولاية ويمو (Vimeu) وقتل منهم نحو تسعة آلاف نفس ومحارب أيضا لويس وأخوه مع أمراء الاسرة الكرلونجية رغبة في التغلب على الاقاليم الباقية في حكمهم ثم مات لويس سنة ٨٨٢م وكانت وفاته عقب سقوطه من فوق ظهر جواده ولما انفرد كرلومان بالملك رشا النورمانديين بالاموال لحملهم على الرجوع الى أوطانهم لعدم مقدرته على مقاومتهم ولم تطل أيامه بعد ذلك حيث أصيب بسهم كان قد راشه بعض اتباعه ليصيد به خنزيرا بريا كان كرلومان يريد صيده (٨٨٤ م) قال المؤرخون ان كرلومان خاف على هذا الصياد الغشيم من القتل لانه لم يكن بقصده بسوء فقال ان قاتلي ليس هو الصياد بل هو خنزير وحشي فدل ذلك على حسن اخلاقه وعدله زيادة عما كان له من الصفات الجيدة وبعد موته ورثه في الملك أخوه شارل الملقب بالمغفل ولما كان عمره يومئذ لا يتجاوز الخمس سنوات بايع الامراء شارل السمين بن لويس الجرماني ليحكم حتى يبلغ شارل سن الرشد ولما كان لويس الثالث وكرلومان يحكمان سوية جمع كبراء الامة عظامهما ودفنوهما في قبر واحد بدير سن دنيس

شارل السمين (٨٨٤ — ٨٨٨ م) — لما مات كرلومان وانتخب الفرنساويون شارل السمين كما سبق كانت المملكة وقتئذ عرضة لاغارات النورمانديين ولما كان شارل السمين هذا ملكا على ايطاليا وجرمانيا لقب بامبراطور بلاد المغرب ولعل هذه الالقاب هي التي حملت أرباب الاقطاعات على انتخابه لاجتماع البلاد التي كانت تحت حكم شارلمان الى مملكة واحدة وحصل أنه في السنة الاولى من حكم هذا الملك على فرنسا (٨٨٥ م) تغلب النورمانديون تحت قيادة قائدهم رولون (Rollon) على مدينة روان وهزموا جيش فرنساويا ثم تقدموا لمحاصرة مدينة باريس فدفعهم عنها غستان وأود كونت فبرنسا وأخوه روبرت ولد اروبرت الشجاع وحوصروها مدة ثلاثة عشر شهرا مع الشجاعة والبسالة ثم طلبوا الاعانة من شارل السمين وكان وقتئذ في ايطاليا فأسعفهم بجيش صحبة هنري دوق سكسونيا ولكنه لما لم يقدر على محاربة النورمانديين اشترى منهم رفع الحصار عن المدينة المذكورة (٣٠ نوفمبر ٨٨٦ م) وأباح لهم فيما كتب من الشروط نهب ما حولها من الاقاليم وبهذا العمل الذي دل على الجبن والنذالة قام أهل المانيا وايطاليا على شارل السمين وعزلوه في المجلس العمومي الذي عقدوه بمدينة تريبور (Tribur) سنة ٨٨٧ م وانتخب الجرمانيون بدلا عنه أرنولد (Arnould) وهو ابن كرلومان من السفاح وصارت امبراطورية المانيا من وقتئذ انتخابية ثم بعد ذلك أصاب شارل السمين المذكور الضعف في جسمه وعقله ثم فارقه خدمه حتى اضطر الى السعي في طلب التعيش عند ابن أخيه ارنولد الذي خلفه في الامبراطورية كما سبق ثم مات بعد ذلك (٨٨٨ م) قال بعض المؤرخين ان هذا الملك لم يتلقب بشارل الثالث مع انه كان ثالثهم وعلل ذلك بعضهم بأنه انما كان في الحقيقة وصيا عن شارل المغفل ونائبا عنه كما قلناه

Digitized by Google

أود دوق فرنسا (٨٨٨ – ٨٩٨ م) – قد نشأ من تهاون شارل السمين وعزله تمزق امبراطوريه شارلمان مع ما كانت عليه من الانساع فانفصل منها بلاد برغونيا وايطاليا وجرمانيا حتى لم يبق لخلفائه من بعده غير مملكة فرنسا ولما كان شارل السمين المتوفى هو آخر ذرية شارلمان تصدى جم غفير من الامراء الملتزمين لتطلب التاج الملوكى فاتقدت نيران الفتن بين الامراء لان عمر شارل المغفل الوارث للتاج كان يوم وفاة شارل السمين ثمان سنين ثم اتفق أمراء الاقطاعات اخيرا على تقليد المملكة لاود كونت باريس لما اتصف به من الشجاعة والبسالة والشهرة فى دفع النورمانديين عن عاصمة البلاد فأجلسوه على سرير المملكة وحرموا شارل المغفل بن لويس الالكن ولكن هذا الانتخاب لم يحصل من عموم أهل فرنسا بل تخلف كثيرون منهم عنه فلم يرضوا بولاية المذكور الذى اشتهر فى السنة الثانية من حكمه لانتصاره على النورمانديين الذين كانوا يحاولون تخريب مملكة فرنسا مع أنه لم يكن معه غير أربعة آلاف فارس (٨٨٩ م) وقتل منهم نحو عشرة آلاف وتعقبهم حتى مقاطعة برطانيه ثم ان شارل المغفل لما بلغ سنه الخمس عشرة سنة قام يطالب بكرسى اجداده فوقع بينه وبين أود المذكور حروب كان النصر فيها الاود ومع ذلك فانه تنازل لشارل عن المقاطعات الواقعة بين نهرى السين وموز وابقى لنفسه جزأ من بلاد فرنسا وهو الواقع بين نهر السين وجبال البرانس ثم حكما فرنسا سوية الى ان مات أود سنة ٨٩٨ ولم يعقب أود اولادا لم يعش بعده الا زمنا قليلا فقام أخوه روبيرت الذى امتاز معه فى حصار باريس وأخذ ينازع شارل المغفل تاج فرنسا .

استيلاء العرب على سواحل فرنسا الجنوبية – ورد فى التاريخ أن عرب اسبانيا وافريقية عادوا بسفنهم الى نهب اقليم بروفنسه فى ذلك الوقت (٨٨٨ م) قال صاحب تاريخ القرون المتوسطة ان مؤرخى ذلك العصر لم ينصوا الا على اغاراتهم على أكبر مدن هذا الاقليم وهما مرسيليا وارلس وقد نهبت أولاهما مرتين فى سنوات قلائل على ماذكره راهب سنت برتين الذى مع بعده عن هذه المدينة بمائتين وخمسين فرسخا جمع ما اشتهر فى شأنهما من المبالغات اه وذكر مؤرخو العرب أن أساطيل ملوك قرطبة وأساطيل الاغالبة كانت هى التى تغزو فى الوقت المذكور جزائر أوروبا وسواحلها ولكنهم لم يذكروا خبر استيلاء العرب على سواحل جنوبى فرنسا بكيفية مفصلة وقال مؤرخو الفرنج ان انتخاب بوزون ملكا لبروفنسه كان القصد منه حماية تلك البلاد من هجمات العرب ولما مات عاد المسلمون ثانية الى سواحل فرنسا ولم يكن ذلك منهم لخربوها بل كان قصدهم الاستيطان فيها كفاتحين (٨٨٨ م) وقد ذهب المؤرخ لويتبرند (Luitprand) الى أن استيطان المسلمين فى امبراطوريه شارلمان انما كان بقذف الرياح لهم على تلك السواحل وزعم أن عشرين رجلا من العرب سافروا من اسبانيا فى مركب صغيرة فقذفتهم الرياح على ساحل بروفنسه فهجموا على قرية فركسينت (Fraxinet) واستولوا عليها وكانت هذه القرية حصينة منيعة مستندة الى غابة متسعة سميت باسم هؤلاء المغاربة النازلين بها الذين رأوا انها تليق لأن تكون موطنا للصائلين وساعدتهم الظروف حيث كان أهالى تلك البلاد قائمين على بعضهم فدعوا غيرهم من العرب الطوائف ووعدوهم بسهولة الفتح فصاروا يتزايدون فى كل يوم حتى كثر واجدا بتلك البلاد ولا يعرف ما اذا كان عرب بروفنسه نقلوا ديانتهم وقرآنهم الى سواحل فرنسا وتزوجوا بنساء من تلك البلاد كما

قاله بعض قدماء المؤلفين أولا فان مؤرخي الاسلام لم يعرفوا فتح العرب لبروفنسه أصلا وكذلك كتاب الوقائع السنوية من الفرنج لم يعرفوا في شأنهم الا بعض أمور غير متتابعة ولا منتظمة وقال بعضهم ومن العجب أنه لم يمكننا أن نذكر اسم أحد من رؤساء هذه الجمهورية العسكرية التي مكثت في جزء من بلادنا نحو قرن تقريبا ولم يتحولوا عنها الا في سنة ٩٧٢ وقال علماء تاريخ الطب من الفرنسويين ان العرب لما احتلوا مدينة مونبليه (Montpellier) أسسوا بها مدرسة الطب الباقية الى الآن كما أسسوا غيرها من المدارس وقال غيرهم ان عرب فركسنيت جاوزوا جبال الالب البحرية سنة ٩٠٢ م وأفزعوا ايطاليا بحرق عدة مدن بها ولما نزلوا بجبال الالب عرفوا لها منفعة عظيمة لهم لانهم وجدوها واسطة في الاغارة على ايطاليا وبرغونيا بل ومقاطعة سوابه ومكثوا هنالك نحوا من خمسين سنة وقالوا ان نزول المسلمين بجبال الألب كان مانعا غير متوقع من تنجيز مقاصد ملوك البرغونيين التي نازلوها من بعضهم في شأن ايطاليا وأعان كل الاعانة في حل المذهب الالتزامي بمملكة ارل

شارل الثالث الساذج او المغفل (٨٩٨ - ٩٢٣) - سبق الكلام بأن شارل هذا حرم من تولي سرير ملك أجداده مرتين في صغره ولما بلغ سن الرشد تحزب له قوم من الشرفاء وتوجوه في مدينة ريمس سنة ٨٩٣ م ولما مات أودس سنة ٨٩٨ كما سبق استقل شارل المذكور بالمملكة وتوجه فولكس أسقف مدينة ريمس كما توجه قبل ذلك بخمس سنوات وبعد قليل حارب النورمانديين الذين قدموا بأساطيلهم تحت قيادة رولون أو هرولف (Rollon ou Hrolf) ودخلوا بها نهر السين حتى وصلوا الى الجسر المسمى بونت دولارش (Pont de Larche) وتجمعوا اجتماعا عظيما في سنة ٩١١ م امام مدينة شارتر (Chartres) ولما لم يقو عليهم شارل صالح زعيمهم المذكور على أن يسلطه على كل نستريا بشرط أن لا يتعدى على ملكه الخاص وان تكون له أيضا سيادة على برطانية فتم للنورمانديين بذلك الاستيطان في دوقية نوستريا وسميت تلك الاقاليم من حينئذ نورمنديا وكان ذلك على مقتضى المشارطات التي وقع عليها الطرفان بمدينة سن أكلير على نهر ابت (Saint-Clair-sur-Epte) واختلف المؤرخون في هذه المشارطات فمنهم من قال انها عار على مثل هذا الملك ومنهم من قال انها فعل سياسي أما النورمانديون فانهم تنصروا وبعد ذلك تزوج رولون المذكور بالاميرة جيزيله (Gizèle) بنت ملك فرنسا وأقام في دوقيته مطمئنا ينظر في مصلحة البلاد والعباد ثم شرع لقومه قوانين وشرائع جعلت بلاده أحسن أقاليم فرنسا وقد استتب الامن اثر ذلك مدة في فرنسا واجتمع في شارل الساذج ما كان لبعض أجداده من الفضائل الحربية حيث جمع كل تيجان الممالك التي كان يملكها شرلمان وذلك انه لما مات آخر وارث لهذا الامبراطور العظيم من السلسلة الجرمانية وهو لويس الشاب (Louis le Jeune) أخذ منه شارل الثالث اقليم لورين فقط الا ان أرباب الاقطاعات استظهروا عليه لضعف حكمه وتكبر وزيره المسمى هاغانون (Haganon) فقاموا عليه وولوا روبرت (Robert) دوق فرنسا وأخو الملك أود ملكا عليهم سنة ٩٢٢ م الا أن شارل أراد أن ينتقم منه فجرد عليه في السنة الثانية وهجم عليه بقرب مدينة سواسون وقتله بيده ولما هلك روبرت جمع ابنه المسمى هوغ الاكبر (Hugues le Grand) الجيوش وتحارب مع شارل فانتصر عليه (٩٢٣ م) وعزم على تولية صهره المدعو راول (Raoul) دوق برغونيه

Digitized by Google

ملكا على فرنسا وبينما هو يسعى فى ذلك التجأ شارل الى هر برت الثانى (Herbert II) كونت بلاد فرماندوا (Vermandois) احدى مقاطعات فرنسا الا أن هر برت قبض عليه وحبسه فى قلعة بيرون حتى هلك سنة ٩٢٩ م وترك ابنا يعرف بلويس دوترمير أى الاجنبى لانه من الاميرة أوجين (Ogine) أخت ملك انجلترة وكانت اخذته معها الى بلادها ثم آل أمره الى ان تولى كرسى فرنسا كما سيأتى

راول (٩٢٣ - ٩٣٦ م) - لما لم ير هوغ الاكبر فى نفسه لياقة لتولى المملكة أجلس صهره راول أور ودلف دوق برغونيه على تخت فرنسا فقام عند ذلك عدة من الامراء وفى مقدمتهم هر برت كونت فرمندوا يعارضونه ويطلبون لانفسهم التاج الملوكى فحاربهم وظهر عليهم وبقى اقليم لنجدوك عاصيا حتى مات شارل الساذج ولم يخضع الا سنة ٩٣٢ م ومن أعمال الملك راول هذا أنه قاتل كثيرا من الامم المتبربرة كالمجر والبلغاريين وغيرهم حين اكتسحوا فرنسا سنة ٩٢٦ م وحارب أيضا النورمانديين حين أغاروا على اقليم ليموزين (Limousine) ولما أراد راول أن يجتذب قلوب أرباب الاقطاعات ويعيش معهم بالصلح والمسالمة تخلى لهم عن أغلب أراضى الالتزام الملوكى فلم يبق له منها الا القليل وتنازل للكونت هر برت دوفرمندوا عن مقاطعة اللورين ومدينة لاون لير بل بذلك اطماعه لان الكونت المذكور كان أخرج من السجن شارل الثالث سنة ٩٢٧ م ليهدد به راول فلما نال ما كان يبغيه أعاده الى السجن ثانيا ولشجاعة راول وبسالته كان أهلا للجلوس على كرسى المملكة ثم مات سنة ٩٣٦ ولم يتول أحد الملك بعده مدة خمسة شهور كان يدير الاحكام فيها هوغ الاكبر كونت باريس وكان فى قدرته الاستيلاء على التاج الملوكى الا انه استصوب رأى كبراء الامراء الذين دعوا لويس الرابع بن شارل الساذج المعروف بالاجنبى فحضر من انجلترة وسكنت بحضوره الفتن التى كانت قائمة فى الدولة كما قلناه

لويس الرابع دوترمير (D'outre-Mer) ٩٣٦ - ٩٥٤ م - قال المؤرخون لما توفى راول فى أول يوم من سنة ٩٣٦ م بقى كرسى المملكة خاليا من ملك مدة أشهر وكان متحيرو مملكة فرنسا تؤرخ الوثائق العمومية بهذه الصيغة الغريبة وهى (من موت راول وتولى المملكة عيسى ابن مريم عليه السلام الى أن يأتى ملك آخر) وقد ظهر لهم ان هذا الملك المنتظر هو هوغ الاكبر دوق فرنسا ونستريا وقونت باريس وأورليان وكان يلقب أيضا بريس الرهبان لانه كان بيده ديرسن مرتان بمدينة تور ودير سن دنيس ودير سن جرمان بباريس وكان أقوى أمراء المملكة شوكة وكان يمكنه بسهولة أن يتغلب على كرسى المملكة لكنه أبى ذلك واتفق مع كبار الملتزمين على أن يبعثوا فى طلب لويس بن شارل الثالث من انجلترة التى ذهب اليها مع أمه أوجين كما سبق

ولما دعى لويس دوترمير هذا لتولى المملكة كان سنه وقتئذ ست عشرة سنة فاطمأن خاطر هوغ لان التصرف فى المملكة سيكون له الا أن لويس لما تربع على الكرسى سعى فى التخلص من هوغ ولما علم هوغ بذلك أخذ يكيد له المكايد فاظهر هوغ ميله الى اوتون الاول المعروف بالكبير (Othon le Grand) امبراطور المانيا وحرضه على الاستيلاء على اقليم لورين ثم أقبل الامبراطور

Digitized by Google

بجيشه ودخل بلاد لورين لخاربه لويس فلم ينجح وقبل أن يخرج من هذه الحرب قامت عليه النورماندبون لجردعليهم قوة مؤلفة من ثمانمائة مقاتل لصد أساطيلهم التي دخلت نهر السين مع رئيسهم اريك (Eric) وكان هوغ يساعد النورمانديين ثم تمكن النورماندبون من القبض على لويس وسلموه لهوغ الذي ألقاه في السجن (٩٤٥ م) وبعد ان مكث في السجن سنة أخلى سبيله على أن يرد للنورمانديين ملكهم الشاب ريشارد الاول ابن الدوق غليوم المعروف بذى السيف الطويل وان يتنازل لهوغ عن قونتية لاون التي لم يبق من اقطاعات التاج الملوكي غيرها ومع ذلك فان الحرب تجددت بعد قليل بين هوغ وسيده الملك لويس وساعد لويس كل من صهره الامبراطور أوتون وكونرادا المعروف بالباسفيك أي محب الصلح كونت بلاد فلندر وغيرهما وكانت هذه الحرب نحو أربع سنوات انتهت باسترجاع لويس قونتية لاون سنة ٩٥٠ م وفي هذه السنة أغار المجار المتبربرون على أقاليم فرنسا حتى وصلوا الى الطرف الجنوبي من مملكة برغونيه وهنالك حاربهم كما حارب العرب النازلين في إقليم بروفنسه حتى كاد يمحقهم عن آخرهم وقال صاحب تاريخ القرون الوسطى وكان هوغ طلب قبل ذلك الاعانة من دولة القسطنطينية لقهر عرب بروفنسه لانها كانت هي من بين دول النصرانية دولة بحرية قوية ويمكن لسفنها أن تقاوم أساطيل المسلمين بحرا وتعاهد معها على تدمير عرب بروفنسه بشرط تزويج بنته الاميرة برته من حفيد رومانوس الاول قيصر الدولة البوزنطية فأرسلت القسطنطينية عدة سفائن حربية حصلت بينها وبين سفن المسلمين عدة وقائع في جون سيمرستان وكانت نهايتها تغلب السفن اليونانية على اغربة المسلمين والذي ساعدها على الانتصار النيران الاغريقية الشهيرة التي كانت تقذفها على سفن المسلمين وبعد ذلك تمكن هوغ من التغلب على حصن فركسينيت الذي تركه العرب (٩٤٢م) حين رأوا أن الصبر قد سد عليهم اه وكان موت لويس الرابع بجوار مدينة رمس سنة ٩٥٤ م سقط من فوق فرسه بينما كان يقتفي أثر ذئب وذلك بعد أن حكم ١٨ سنة وأعقب ولدين هما لوتير وكان أشركه معه في الحكم سنة ٩٥٢ وهو الذي تولى بعده وشارل الملقب بدوق باس لورين

لوتير (٩٥٤ - ٩٨٦) - لما جلس لوتير على تخت المملكة بعد أبيه لم يشرك أخاه شارل معه كالعادة القديمة المتبعة في فرنسا فاتخذ هوغ هذا الامر فرصة مناسبة للتشويش على لوتير وجمع الآراء العامة على شارل فاضطر لوتير أن يعطي أخاه دوقية برغونيه واكيتانيه وتوفي هوغ الاكبر بعد ذلك بسنتين (٩٥٦ م) فخلفه ابنه الاكبر هوغ كابيت (Capet) في دوقية فرنسا وكونتية باريس وكان عمره اذ ذاك عشر سنين فنال لدى الملك الحظوة ولما غضب البابا يوحنا الثاني عشر (Jean XII) على اوتون الاكبر امبراطور جرمانيا ولى لوتير هذا امبراطورا سنة ٩٦٣ م فحدثت من ذلك عداوة شديدة بين هذين الامبراطورين وسعى أوتون في أن يتفق مع شارل أخي لوتير وكان شارل يحقد على أخيه لما سبق ذكره وتنازل أوتون لشارل عن دوقية اللورين التزاما ولما علم لوتير أن أخاه صار من أتباع أوتون أغار على أوتون في مدينة اكس لاشابيل فهرب أوتون (٩٧٨ م) ثم وقعت الحرب بينهما تحت أسوار مدينة سواسون واضطر أوتون بعد هزيمته لان يتنازل عن اقليم لورين للوتير ولكن لما علم لوتير أنه لا يكتسب شيأ من محصولات هذا الاقليم رده اليه سنة ٩٨٠ م

وقد نتج عن هذه المسئلة حرب عظيم بين لوتير وأخيه شارل الذى كان سنه قد بلغ ٢٤ سنة ثم مات لوتير سنة ٩٨٦ وخلفه ولده لويس وكان عمره لا يتجاوز تسع عشرة سنة

لويس الخامس (٩٨٦ - ٩٨٧ م) - لما انتقل الملك الى لويس الخامس المعروف بالكسلان (Le Faineant) بعد موت أبيه كتبت الاميرة أماولدة لويس الى أمها الامبراطورة أولاتيد زوجة لوتير الثانى ملك ايطاليا تخبرها بالامر وقالت أن أمراء الفرنسيس بايعوها وابنها وآتوها العهود والمواثيق على الانقياد والطاعة وقد كانت تهنئ نفسها بنوالها حظا من المنصب الملوكى ثم بعد قليل هجرها ولدها لما بلغه عنها من الاقوال التى قذفتها بها ألسنة الاعداء من الخوض فى عرضها وكانوا اتهموا فى ذلك أسقف مدينة لاون ولم يتمكن لويس من الانتقام منه ولا من أمه لموت لويس بعد ذلك بقليل (٩٨٧ م) بينما كان يحاصر مدينة رمس وترك عقابهما لعمه شارل دوق اللورين قالوا ولا يستحق أن يلقب هذا الملك بلقب الكسول الذى أطلقه عليه المؤرخون سيما وان مدته كانت قصيرة جدا بحيث لا يمكن الحكم عليه أنه كان يستحق هذا اللقب الذميم الموجب للمعرة والفضيحة ويقال ان موته كان بسم سقته له زوجته الملكة بلانش وانقرضت بموته الدولة الكرلونجية التى تملك منها على فرنسا ١٣ ملكا مدتهم جميعا ٢٣٦ سنة وتولت الحكم دولة جديدة ومع ذلك فكان المستحق لتاج فرنسا عمه شارل دوق لورين السفلى بن لويس الاجنبى حسبما اقتضاه حق الوراثة ولكن لبغض الفرنسو بين له بسبب حروبه معهم عشر سنوات اشاعوا يوم موت لويس أن هوغ كابيت لما شيد كنيسة القديس والبرى أتاه ذلك القديس فى المنام وقال له انك تلى الملك أنت وذريتك الى سابع جيل يعنى الى الابد وأشاعوا أيضا حينما بلغهم موت لويس الذى لم يكن له ذرية ترثه فى الملك أنه عين هوغ كابيت دوق فرنسا المذكور للخلافة على المملكة من بعده وانه أشار على الملكة بلانش بأن تتزوج بهذا الدوق وصار الناس يلهجون بذلك وقوى هذه الاشاعة تردد عمه شارل وحيرته فى أمر الملك لانه بعد أن صار دوقا لمدينة لاون الملوكية لم يجسر على تولى المملكة بل أغلق على نفسه أبواب هذه المدينة وانتظر كما نقل عنه أنه ينحط رأى العامة على تقليده غير انها اجمعت على انتخاب هوغ كما سيأتى

أسباب اضمحلال الدولة الكرلونجية - قال المؤرخون ان سبب اضمحلال هذه الدولة نشأ أولا عن تقسيمها الى عدة ممالك فكانت بها ممالك فى اللورين وجرمانيا وايطاليا وأرلس وبروفنسه وكلها متباينة متخالفة حتى لاشتها الاطماع بالفتن الداخلية وثانيا أن أصحاب الالتزامات وهم دوقات وكونتات (١) الاقاليم كانوا كلما كبر نفوذهم واتسعت اقطاعاتهم يطمعون فيما هو

(١) كان يلقب حاكم الاقليم بلقب دوق وحاكم المدينة بلقب قونت وكان منشأ هذه الالقاب مدة الدولة الاولى ثم تمكن أربابها من حق الحكم فى التزاماتهم حتى صارت متوارثة وقويت شوكتهم بما اغتصبوه على التدريج من الالتزامات الملوكية ولما شرهوا تحصلوا على أكثر من ذلك فكان كل واحد منهم فى التزامه حاكما حقيقيا مستقلا ثم اخترعوا لهم القابا كالملوك وكان الملتزمى الدوقيات والقونتيات اتباع فصارت السيادة سلسلة ممتدة من الدوق مثلا الى ادنى الاتباع وكثير منهم جحدوا نعمة الملوك وأثاروا عليهم حروبا وتبعهم فيها اتباعهم وكان هؤلاء الملتزمين قلاع يتحصنون فيها او يحارب بعضهم بعضا ووصل استبدادهم الى أن كل عروس يتزوج بها كل تابع لهم لا تدخل عليه الا بعد ان تعرض على الدوق لان ذلك كان من تمام حق السيادة وغير ذلك من أنواع الظلم والجبروت التى أورثها بلاد فرنسا العار

Digitized by Google

أعظم مما نالوه من الاقطاعات والمقاطعات فنشأ عن اطماع هذه الطائفة الارستقراطية المصائب العظيمة لاخلالهم بقوانين المملكة في توسيعهم دائرة انتخاب الملوك فتجاوزوا بها العشيرة الملوكية فزادت اطماع ذوي النفوذ منهم وثالثا اغارة الأمم المتبربرة على بلاد فرنسا كالنورماندين والصقالبة والمجار الذين نغصوا عيش الملوك بهجماتهم هذا غير اغارات العرب على المملكة من جهات الجنوب والغرب فكل ذلك عجل بانقراض هذه الدولة

حالة الفرنساويين في عهد الدولة الكرلونجية — كان الفرنسويون في عصر هذه الدولة على درجة مناسبة من الحضارة وان كان ينقصهم كثير من الامور فكانوا لا يعرفون المداخن في منازلهم فكانوا يضعون النار في وسط الحجرات ويجعلون للدخان منافذ في السقف ويجلسون حولها للتدفئة وكانوا يستعملون للاضاءة الزيت وخشب الراتنج وكان امراؤهم يستعملون الشمع المعتاد وشمع العسل وكان يندر وجود النبيذ بالبلاد لعدم غرسهم الكروم فكان النبيذ يباع عند الصيادلة كأنه علاج وكانت ملابسهم يومئذ الصوف الخشن النسيج وكانت لغتهم اللاطينية ثم قامت مقامها اللغة الرومنسية وهي لغة مركبة من لغة الفرنج ولغة اللاطين ومنهما تولدت اللغة الفرنسوية الحالية وكانت المجالس التي يعقدها الملوك تتشكل من جميع الامراء في يوم عيد الميلاد أو يوم عيد الفصح وتدوم أسبوعا وعلى ابهتها كانت قليلة النفع وكان شرلمان رتب قضاة مخصوصين للفصل بين الناس ولما تولى خلفاؤه المملكة ضعفت شوكة القضاة لأن طائفة الملتزمين تغلبت على حق فصل الدعاوى بين الاهالي فصاروا يحكمون بالقتل وغيره وكانت الايرادات التي يأخذها الملك هي عشر ما يحمله التجار وهدايا الاشراف ومال الجمارك والمرور على القناطر ودخول وخروج الثغور وما يؤخذ على المعادن وغيرها وكانت المعاملة بالسبائك الذهبية والفضية غير مضروبة أما السكة فلم تكن مستعملة الا في التجارة وكانت عبارة عن صلديات من الذهب والفضة ثم تغيرت قيمتها في الدولة الثالثة وكان للفرنسويين في جيوشهم الخوذة والدرع والقوس والسهم وفي مدة هذه الدولة كثرت الخيالة وكان الملتزمون هم الذين يدفعون مصاريف الجنود الذين يحاربون تحت لوائهم

البحرية في عهد الدولة المذكورة — لم تكن للحكومة الفرنسوية في العهد المذكور سفن مخصوصة بل كان لامراء المقاطعات التي على السواحل بعض السفن يصرفونها في حاجاتهم ومصاريفها من أموالهم وأغلب السفن كانت للتجار ثم لما جلس شرلمان شيد بعض السفن التي تمكنا منها في عهده للمحافظة بها على الانهر لمقاومة النورماندين واستعملها ضد هجمات أساطيل العرب بالاندلس

(الفصل السابع)

﴿الدولة الثالثة وهي دولة الكابتيين﴾

٩٧٨ — ١٣٢٨ م

هوغ كابيت (٩٨٧ — ٩٩٦ م) — هوغ كابيت هذا هو رأس هذه الدولة وهو ابن هوغ

Digitized by Google

الاكبر حفيد روبرت الملك بن روبرت القوى وقد نالوا جميعا رتبة دوقية فرنسا وكونتية باريس فكانوا أقوى ملتزمي المملكة ولما كان هوغ كاسلا فيه يبغض الدولة الكرلونجية أراد أن يستأصل عشيرة شرلمان ويقتلعها من المملكة الفرنسوية ولما قلده عماله وشيعته المنصب الملوكى فى مدينة نيون وألبسه المطران أوليرون تاج الملك فى مدينة رمس سعى فى حرمان شارل الاول دوق لورين عم لويس الكسلان من الملك وكان أمراء الاقطاعات من الفرنسيس يلومون شارل المذكور على رضائه أولا بأن يكون تابعا الملك جرمانيا بلقب دوق لورين وعند ذلك قام يطالب حقه الشرعى وحضر بجيش جرمانى وسار هوغ لقتاله ولما وقعت الحرب بينهما انهزم شارل وأسره هوغ فى مدينة لاون سنة ٩٩١ م ثم مات شارل بعد أسره بسنة فثبت الحكم من يومئذ لهوغ وقد تضاربت روايات المؤرخين فى حق هوغ وشارل فمنهم من يقول فى هوغ انه كان عاصيا اغتصب سرير الملك من غير أن يكترث بتحريمات الكنيسة ومنهم من قال ان عدم نجاح شارل هو من الحكمة الالهية التى قد قيضت من هو أحسن منه وأليق للجلوس على تخت فرنسا وغير ذلك من الاقوال ثم لما قبض هوغ كابيت على الاحكام بلا منازع انضمت دوقية فرنسا الى اقطاعات التاج الملوكى فعظم شأن المنصب الملوكى لان هوغ كان دوق فرنسا وكونت الجوو ورين المجتمعتان وكذلك كانت أمارات فلوا وشارتر وكونتيات سنليس وو كسين ومينه باقية تحت سيادته الالتزامية ومع ذلك فلم تصف الايام لهذا الملك لقيام كثير من الناس عليه حتى ان بعض من ولوه كانوا يحاربونه ولما اغتاظ من ارنولد أسقف رمس لتقويته حزب العصاة بعد ان تصالح معه عزله فى جمعية وجعل فى محله رجلا يدعى جربرت وهو راهب من مدينة أوريلان كان مؤدبا لولده روبرت ولما أراد هوغ كابيت أن يجعل الحكم من بعده فى عقبه أدخل معه فى الحكم القسيسين باستماله رئيس طائفتهم بأن رد اليه الاديار التى كانت انتزعت منه وبالهدايا والاملاك ذات الغلة الوافرة وحسن المعاملة مع أعدائه بأن سلك معهم مسلك الحلم والكرم وترك للامراء ما كانوا تغلبوا عليه من المقاطعات وملكهم اياها فصارت من وقتئذ وراثية لاعقابهم على سبيل الالتزام ثم أشرك معه فى الحكم ولده روبرت كما فعل الملوك من قبله ليأمن عدم خروج المنصب الملوكى من عشيرته وأعاد للاديار الموجودة فى انحاء المملكة امتياز الانتخاب الحر وكان ألغى من عهد شارل الاصلع ومات هوغ فى باريس يوم ٢٤ اكتوبر سنة ٩٩٦ م تاركا المملكة فى هدوء وسكون ودفنت عظامه فى كنيسة سن دنيس وخلفه من بعده ابنه روبرت الآتى

روبرت الثانى (٩٩٦ – ١٠٣١ م) – سبق القول بأن والد هذا الملك كان أشركه معه فى الملك وتتوج مرتين الاولى فى أورليان سنة ٩٨٨ م والثانية فى سنة ٩٩١ ويعرف بالتقى وقد عده المؤرخون أفضل ملك تولى على فرنسا بعد سن لويس وقد تكدر صفو عيشه من أول حكمه لانه تزوج سنة ٩٩٥ م بالاميرة برته (Berthe) بنت عمه كونراد ملك برغونيا ولما كانت من أقاربه أمره البابا غرغوار الخامس بفراقها وفسخ هذا النكاح الذى كان كالحرام وفعل الفاحشة الا انه وان كان متمسكا بالدين لم يرض الانقياد لامر البابا فحكم عليه البابا بالحرمان لان هذا الزواج كان على خلاف قوانين الكنيسة فى تلك الايام وكان هذا أول حرمان حكم به فى فرنسا والحق فى ذلك الحكم ملكته فترتب على هذا الحكم وقوع الرعب والفزع فى قلوب سائر الناس حتى

صاروا

Digitized by Google

صاروا يتباعدون عن الملك كأنه مصاب بالطاعون ولم يبق حوله الا بعض الخدم ومع ذلك كانت قلوبهم ملوأة بالقلق والفزع وبطلت الوظائف الدينية من المملكة بتمامها وانقطعت التقديسات وصار لا يمكن دفن الموتى فى الارض المقدسة ولا دق النواقيس بالكنائس وألقيت التماثيل التى كانت بها واقتلعت من أساسها وجعل عليها ستار أسود وبالجملة صار منظر المملكة بشعا مهولا فاضطر روبرت أن يقاتل البابا واستمر القتال بينهما ثلاث سنوات وأخيرا آل أمره الى أن فارق الاميرة برته المذكورة وتزوج بالاميرة قسطنسه (Constance) ابنة غليوم تلفير (Guillaume Taillefer) كونت طولوشه (٩٩٨ م) وكانت بارعة فى الجمال ولكنها متكبرة شرسة الاخلاق تناقضه فى جميع أموره وتعارضه فى كل ما يفعله حتى انه التزم أن يبذل الصدقات للفقراء مرابقة صدا ان الله يوفقها الى حسن السير ومن أعمال هذه الاميرة انها أحدثت فى ديوان روبرت فتنة مع الاكيتانيين الذين أتوا معها ثم اعتزلت النصرانية فكانت أول من فعل ذلك بفرنسا وقد رزق منها بأربعة أولاد أولهم هوغ الذى مات سنة ١٠٢٥ م وثانيهم هنرى الذى ورث أباه وكان فى حياته شريكاله فى الحكم عن غير رضا الملكة (١٠٢٧ م) وثالثهم روبرت وقد سعت الملكة فى الانتقام من زوجها فحرضت ولديها الصغيرين على القيام على أبيهما فحاربهما حتى انقاداله ثم صفح عنهما (١٠٣٠ م) وكان روبرت يسعى كثيرا فى توسيع مملكته فحارب أخاه الذى كان مستوليا على اقليم برغونيا لينزع منه هذا الاقليم وقد دامت هذه الحرب ١٤ سنة من ١٠٠٢ الى ١٠١٥ م فتمكن روبرت فى آخرها من اضافة برغونيا الى أملاكه بعد موت هنرى الكبير (١٠١٥ م) وقد عارض روبرت الامبراطور كونراد الثانى على مملكة ارل على غيرطائل وفى أواخر حكمه تحدث كثير من الامم المسيحية بأن الساعة قد اقتربت ولذلك مال الناس الى تشييد الكنائس والمعابد وأبدعوا فى بنائها بالزخارف وبينما كان الناس منهمكين فى ذلك قدم أربعون حاجا ورمندياً فى سنة ١٠٠٠ م من القدس ونشروا اخبارا فى فرنسا وغيرها مؤداها أن الحاكم بأمر الله الفاطمى صاحب مصر والشام انتهك حرمة قبر المسيح فى مدينة القدس وخربه فاتهم الناس اليهود بأنهم هم الذين أغروه على ذلك لان ملوك الاسلام لم يفعلوا معهم مثل ذلك فيما سبق فانقضوا عليهم فى أنحاء أوروبا كلها وقتلوا منهم عددا كبيرا بعد أن أذاقوهم من العذاب ألوانا ومن ذلك أنهم حرقوا منهم بفرنسا ١٣ شخصا من أورليان بلا ذنب (١٠٢٢ م) ثم مات روبرت فى مدينة ميلون سنة ١٠٣١ م وعمره ستون سنة وترك التاج لولده هنرى الاول وقد أثر موت روبرت فى رعاياه فقالوا لقد كنا أحرارا تحت حكم روبرت وغير ذلك من أقوال المدح وكان روبرت يستحق المدح لجيد خصاله فقد كان يدعو كل يوم على مائدته ألف رجل من الفقراء وكان يغسل لهم أرجلهم فى يوم الخميس المقدس وهى عادة عندهم وكان يعالجهم اذا مرضوا ويقال انه هو أول من استعمل مسح جزء من ابدان المرضى المصابين بالامراض الخبيثة يوم موكب التقديس الذى كان يفعله بعض ملوك فرنسا ويقول الملك منهم حين مسحه قد مسح بك الملك عافاك الله وشفاك ولروبرت هذا قصائد دينية معروفة عند الاكليروس

هنرى الاول (١٠٣١ — ١٠٦٠ م) — لما جلس هنرى على التخت بعد أبيه نازعته الملكة قسطنسة بل وسعت فى حرمانه منها ثم قصدت أن تشرك معه فى الامر ابنها روبرت فقامت بذلك حروب داخلية وساعد أود (Eudes) كونت بلاد شامبانيا الملكة حتى اضطر هنرى لطلب المساعدة

Digitized by Google

من روبرت الاول الملقب بالعفريت (le Diable) أمير نورمنديا فأمده بالجنود التي أخضعت والدته لرأيه بعد هزيمتها قرب مدينة ميلون سنة ١٠٣٢ م فماتت بعد ذلك بقليل وقيل حزنا على ما أصابها وبعد ذلك تنازل هنري لروبرت المذكور عن عدة أقاليم فامتدت نورمنديا بذلك الى مسافة عشرين ميلا عن باريس ثم صفح هنري عن أخيه روبرت ومنحه دوقية برغونيا بالرضا والتسليم وبقيت هذه الدوقية في أعقاب روبرت الى ان انقرضوا اعوت فليب دوروفر (Philippe de Rouvere) سنة ١٣٦١ م ثم ان روبرت دوق نورمنديا اتهم بأنه تحصل على الامارة بقتله أخيه الاكبر ريشارد الثالث فاحتج روبرت على هذه التهمة وبعد أن أكره دوق برطانيه على الخضوع له صمم على أن يتوجه لزيارة بيت المقدس وجعل ابنه غليوم وكان من السفاح ولي عهده في الملك وقبل الامراء هذا الانتخاب وحلفوا له يمين الطاعة ثم سافر روبرت الى القدس ولكنه مات في الطريق سنة ١٠٣٥ م ولما بلغ امراء نورمنديا خبر موته رفضوا انتصيب غليوم دوقا عليهم بدعوى أنه من السفاح فالتجأ غليوم الى هنري الاول فأعانه هنري وأرجع له ملك أبيه نظير مساعدة والده روبرت الاول له في المنازعات التي كانت بينه وبين أمه قنسطنسه كما سبق ولما ارتفع ذكر غليوم بما فتحه من الفتوحات داخل هنري الحسد من ذلك وساعد أحد أقاربه على التغلب على نورمنديا ثم شرع بعد ذلك في فتح هذا الاقليم لنفسه وكان أود خرج على هنري الاول ليأخذ منه نصيبه من ميراث أبيه ولكن هنري تغلب على أود المذكور وقبض عليه وسجنه ثم صفح عنه وأخرجه من السجن ورأسه على الجيش الذي بعثه لمحاربة غليوم دوق نورمنديا المذكور وبعد حروب يطول شرحها انتصر غليوم فيها عدة مرات انهزم أود (١٠٥٤ م) وقتل معظم جنوده وانتهت هذه الحروب بمعاهدة روان (Rouen) (١٠٥٥ م) التي نالت فيها نورمنديا فوائد كثيرة منها قبول هنري عدم التداخل في أعمال نورمنديا فيما بعد وفي مدة تحول من هذا الاقليم عدة من الامراء والشجعان ونزلوا ايطاليا الجنوبية واشتهروا هنالك وأسسوا بفتوحاتهم مملكة الصقليتين أي سيسيليا ونابولي التي سيأتي ذكرها في تاريخ ايطاليا ان شاء الله وفي تلك الاثناء أصيبت بلاد فرنسا (١٠٤٣ - ١٠٥٩ م) بقحط شديد أعقبه طاعون دام مدة طويلة حتى خربها تقريبا ولما انفصل هنري الاول من زوجته الاولى ماتيلده ابنة الامبراطور كونراد الثاني ولم يعقب منها ذرية التزم بالتزوج بالاميرة أنا الروسية بنت جاروسلاف (Jaroslaf) دوق روسيا ويقال انه انما تزوج بهذه الاميرة الاجنبية خشية أن يقع فيما وقع فيه أبوه من المصائب وفي عصر هذا الملك أوجدت الكنيسة التي كان لها النفوذ الاعظم اذ ذاك قانونا عاما يعرف بمهادنة الله (١٠٤١ م) وجعلت جزاء من يخالف هذه المهادنة التي نهت عن الحرب والقتال وسائر الشرور التي كانت تحصل بين أمراء الاقطاعات الحرمان من الكنيسة وبذلك انقطعت من البلاد الشرور ثم مات هنري الاول المذكور سنة ١٠٦٠ م من علاج تعاطاه اثناء مرضه وخلفه في التخت ابنه الاكبر فليب الاول من زوجته أنا الروسية المذكورة ولصغر سنه جعل صهره بودوان الخامس (Boudoin.) قونت بلاد فلاندروصيا عليه فاجتهد بودوان في تربيته وتعليمه وتهذيب أخلاقه

فليب الاول (١٠٦٠ - ١١٠٨ م) - كان سن هذا الملك لما تولى الملك لا يتجاوز السبع سنوات ولما كانت الملكة أمه غريبة قام بودوان في الحكم بالنيابة عنه الا

انه

أنه لم يقم بواجباته فى حق مكفوله لانه ساعد دصهره غليوم دوق نورمنديا على التغلب على تاج مملكة انجلتره (١٠٦٦ م) قال موسيو دروى فى تاريخه العمومى ما ملخصه لما عزم غليوم على الشروع فى حملته المشهورة على انجلتره زار سيده فليب الشاب فى بلدة سن جرمان والتمس منه المساعدة وكان اللازم منعه خوفا من أنه اذا ظفر يكون للدولة جار قوى الشوكة واذا خاب فى مشروعه تكون فرنسا عرضة لعداوة ظاهرة مع انجلتره فأظهر مستشار والملك ونوابه التراخى فى الاذن له الا أن غليوم قام بمشروعه الذى تتوج بالنجاح وكان أعد فى ثمانية شهور نحو ٤٠٠ سفينة كبيرة وألف سفينة للنقل وأنزل بها ٦٠,٠٠٠ مقاتل وطلب حماية البابا اسكندر الثانى الذى أذن له بالاستيلاء على انجلتره ثم أقلع من مصب نهر ديف (Dives) ونزل انجلتره وتغلب على تاجها (١٠٦٦ م) ومما فعله هناك انه ألزم أهلها باستعمال اللغة الفرنسوية والعوائد الفرنسوية ثم لما مات بودوان سنة ١٠٦٧ م استقل فليب بالاحكام وكان سنه ١٥ سنة وكان ذا كتب خبرة وعلما الا انه كان يميل الى التنعم والرفاهية والخلاعة حتى صارت من دأبه ولما عظم ملك غليوم ورأى فى نفسه الكفاءة للخروج على سيده فليب ملك فرنسا انقطعت الملاقات بينهما (١٠٨٧ م) وسبب ذلك كلمة مزاح وقعت من فليب الاول حيث قال لغليوم متى تضع حملك لانه كان جسيما كثير الشحم حتى كان لذلك لا يجلس الا على الفراش فأجابه غليوم بقوله سألد واذهب الى باريس ومعى عشرة آلاف رمح تكون لى كالشموع (لان النساء عندهم كن اذا انقطع عنهن نزول الدم ذهبن الى الكنيسة بموكب فيه الشموع ليبارك لهن هناك القسيس) وكان لغليوم بواعث أخرى تحمله على التشكى من فليب لان فليب لما أخذته الغيرة من عظم شوكة غليوم الذى كان دوقا نورمنديا وتابعا له صار دائما يغرى عليه أعداءه حتى انه فى سنة ١٠٧٥ م ساعد الان الثالث (Alain III) دوق برطانية الذى أكره غليوم على رفع الحصار عن بلدة دول (Dol) احدى بلاد فرنسا ونفهقر بخسارة جسيمة ولما ثار روبرت أكبر أبناء غليوم على والده فى نورمنديا ساعده فليب أيضا (١٠٧٤ - ١٠٧٧ م) فكل هذه الاسباب دعت غليوم لان يوفى بما قاله لفليب وطلب غليوم من فليب أن يعيد له اقليم فكسين الذى رجع للمملكة فى عهد شوبيته فلما رفض فليب جرد غليوم عليه الجيوش وزحف بها على الاقليم الحاصل عليه النزاع وقصد حصار باريس واستولى فى طريقه على مدينة مانت (Mantes) وأحرقها ولما كان يفعل ذلك سقط من فوق جواده على خرائبها فتألم ومرض ونقله أتباعه الى روان ثم الى ديرسن غرفيس فمات به سنة ١٠٨٧ م

وقد جلب فليب على نفسه المنازعات مع الكنيسة لان ايراده الخاص كان غير كاف لمصاريفه فشرع فى زيادة الايراد ببيع الوظائف والرتب المخصوصة بالكنائس فلما بلغ البابا غرغوار السابع ذلك امتلأ غضبا وطلب من فليب أمرين اما الكف عما يفعل واما أن يوقع الحرم الكنائسى عليه ويخلعه من المملكة فخاف فليب وعدل عن بيع الوظائف وكان فليب تزوج بابنة فلوران كونت هولنده المسماة برته ورزق منها بعدة أولاد ثم غضب عليها وحبسها فى قلعة مونتريل (Montreuil) وقصد أن يتزوج بأما (Emma) ابنة روجير الصقلى ولما لم ينتظر حضورها تزوج بالاميرة برتراد (Bertrade de Montfort) وكانت مشهورة بالجمال وزوجة ثالثة لفولك (Foulques) كونت بلاد انجو وذلك بعد أن انتزعها من

زوجها بعالل واهية ثم جعلها ملكة مكان برته التي طلقها وفارقها على خلاف الشريعة ثم خرج عليه كونت انجو المذكور وضم اليه أيضا كونت بلاد فلندر زوج أم برته وأشهر عليه السلاح انتقاما منه على ما فعل الان الكنيسة تداخلت وأوقفت الحرب وقررت حرمان فليب وتكفيره ثلاث مرات (١٠٩٤ - ١٠٩٦ - ١٠٩٩م) ومنع البابا فليب من استعمال العلم الملوكي حتى يترك برتراد ويتوب عن ذنبه فأظهر فليب الخضوع للبابا محافظة على تخته ومع ذلك فانه استمر مع برترادو توجها ملكة في مدينة ترنوا ورزق منها بأربعة أولاد الا انهم اعتبروا أولاد سفاح وماتت الملكة برته من حزنها في السجن في تلك الاثناء ولما ظهرت الحروب الصليبية واشتغل هذا الملك بأمرها والتشجيع عليها سمح له البابا أوربان الثاني ببقائه مع برترادحتى نهاية عمرها

الحروب الصليبية - سبق الكلام في صحيفة ١٤٤ من الجزء الثاني على هذه الحروب بتفصيل كاف ومع ذلك فلتعلقها بفرنسا ورجال فرنسا تعلقا يعرفه كل مطلع على التاريخ رأينا من الموافق توفية الكلام هنا على بعض ما اختص منها بفرنسا فنقول نقلا عن كتاب مسيو انطوان سوار (Antoine Suard) يظهر أن مجاهدة أهل الصليب مع أهل الاسلام ليأخذوا منهم بيت المقدس هي أول حادثة أخرجت الامم المسيحية الاوربا وية من بحر الغفلة التي كانوا منغمسين فيها مدة أحقاب ونتج منها تغييرات كبيرة في حكوماتهم وأخلاقهم ولكون هذه الاماكن المشهورة مسكنا لبعض الافاضل المشاهير وهي أصل منبع العبادة مالت الامم النصرانية من ابتداء القرون الاولى الى الرغبة في زيارة هذه البلاد التي عينها لهم الله سبحانه وتعالى لموارثة بني اسرائيل ولان عيسى بن مريم ولد فيها ومثل هذا الحج العظيم لابدله من الاسراف وكثرة التعب وشدة الخطر فصار التقديس عندهم هو كل ما اشتمل على الاخطار لانهم يعتقدون انه مكفر لعظم سيآتهم وفي آخر القرن العاشر وابتداء القرن الحادي عشر الميلادي ظهر في أوروبا على حين غفلة قول انتشر عند جميع الناس وازدادت به رغبة الحجاج المتعبدين على وجه عجيب وذلك الرأي هو أنهم تخيلوا ان الالف سنة كافية لقيام الساعة على ماذكره مارى حنا ونشأ عن هذا الزعم الفاسد خوف وفزع عظيم عند سائر النصارى حتى ان الكثير منهم تركوا أموالهم وأملاكهم وعيالهم وذهبوا سريعا الى بيت المقدس لظنهم ان عيسى بن مريم عليه السلام سيظهر قريبا للحكم بين الناس وكان الخلفاء من بني العباس والفواطم من بعدهم في مدة ما كانت بلاد القدس تحت حكمهم يسهلون على النصارى الذهاب الى بيت المقدس لما ان ذلك كان عندهم من التجارة ذات الربح العظيم حيث كان يدخل في بلادهم قدر عظيم من النقود ولكن لما فتحت دولة الاتراك السلجوقية بلاد الشام (١٠٧٦ م) وجد حجاج النصارى أنفسهم عرضة للتنغيص والاساءة من تعدياتهم لان السلجوقيين اتخذوا سياسة جديدة أغمضوا فيها الطرف وتغافلوا عن مساعدة حجاج الفرنج وحصلت تعديات كثيرة على الرهبان والزوار والحجاج الذين عند عودتهم ملؤا أوروبا بأقاصيص عناتهم وبالغوا فيها الى درجة جلبت انظار البابا غرغوار السابع حتى تصور ان العالم المسيحي أجمع رأيه على سلخ الاراضي المقدسة من يد الاسلام الا ان حربه مع هنري الرابع بسبب تقليد البابوية ألجأته الى تأخير النظر في مسئلة بيت المقدس اه ولا يخفى ان دولة العرب في هذا العصر كانت قد تجزأت الى دول عديدة وإمارات متنوعة وأخذت الفتن تظهر فيما بين تلك الممالك من الاندلس الى المشرق الاقصى ومن قفار بلاد العرب الى قفار أفريقية

فقسد

Digitized by Google

وفسد نظام الاحكام واختلت سياسة الولايات فكان الواحد ينقض ما ابرمه الآخر ويلاشى العامل ما شيده المستعمل فانتهز الفرنج هذه الفرص سيما وان تشكيات الحجاج المذكورين وجدت باوروبا آذاناصاغية واعتقد البابا سلفستر الثانى (Sylvestre II) وجوب المناداة بالجهاد ضد الدولة الفاطمية لتحرير بيت المقدس من سلطتها قال موراطورى (Muratori) المؤرخ الشهير انه فى سنة ٩٨٦ م كتب مطران راوين المسمى جربرفى الذى تقلد منصب البابوية وتسمى سلفستر الثانى مكتوبا لجميع النصارى باسم كنيسة القدس وكان هذا المكتوب بليغا فصيحا يهيج القلوب ويثير العواطف فيه تحريض الناس على المسير منسلطين الى مدينة القدس ليخلصوها من ظلم المسلمين فهاجت أفئدة بعض أهالى جمهورية بيشه (Pise) وجهزوا سفنا حربية ساروا بها الى المسلمين بأرض الشام وقد بثت غزوتهم الاحزان والاشجان ببلاد المشرق اهـ وذكر وكيت فى تاريخه انه فى سنة ١٠١٠ م ظهر قول جديد فى أوروباوهو أن الملل النصرانية يجب عليها أن تنضم الى بعض لتطرد المسلمين من أرض القدس وبذلك يفهم أن الآراء التى حملت الناس على الحروب الصليبية التى كانت من قبيل الهوس والجنون قد ظهرت شيأ فشيأ على التدريج وعلى ذلك لا ينبغى للانسان أن يعجب من أن الناس كافة خرجوا للمعاهدة الصليبية حين نشر البابا أوروبان الثانى رايات الصليب لان عقولهم كانت مستعدة لذلك من قبل وقال انكتيل (Anquetil) فى تاريخ فرنسا ان بدء هذه الحروب كان فى عهد فليب الاول وذلك أن راهبا يدعى بطرس الناسك (Pierre l'ermite) من بلدة اميان من اقليم بيكارديا سافر سنة ١٠٩٤ لزيارة بيت المقدس فغضب واحتد مما رآه وشاهده هناك فعاد يحمل الشكوى من بطريرك الروم فى القدس ولما عرضها على البابا أوربان الثانى وشرح له ما شاهده ووصف له صورة ما يقع من الاسلام فى حق النصارى على وجه يثير الغيرة والحمية وبالغ فى الوصف حتى استفز البابا على الاسلام أمره البابا بالطواف فى جميع دول النصارى ليحمل سائر ملوك النصرانية على القيام عصبة واحدة على المسلمين فذهب هذا الراهب وتجول وصار يخطب بفصاحته التى اشتهر بها حتى ألقى الحماس والحمية فى نفوس جميع الناس ملوكا وأساقفة نساء ورجالا ولما أضرم وعظه فى جميع العقول نيران الحمية قطى مجمع مدينة بوزنطيه وكان بها أكثر من ثلاثين ألف شخص بأن أقوال هذا الراهب الهام الهى ووحى ربانى ولما عرضوا ذلك على مجمع قسيسى أكليرمنت سنة ١٠٩٥ وكان حضره من الناس عدد أكثر من المجمع الاول صاح من به جميعا قائلين هذا أمر الله فانتشرت هذه الحمية بين سائر الناس على اختلاف مراتبهم وخرج الكثير لهذا الحرب لاعتقادهم انه شريف كالعبادة وأجمع المؤرخون على أن عدد من حمل الصليب فى هذه الغزوة كان ستة ملايين من المحاربين وكان الصليب علامة يتميز بها كل من تقدم لهذا الحرب المقدس فلذلك تسمى بحرب الصليب وباع أغلب الناس ممتلكاتهم للصرف على هذا الجهاد وقال كل من المؤرخ دوكنج (Du Cange) والمؤرخ جيبرت (Gibert) ان الخصوصيات (١) والمزايا التى أعطيت من قبل الكنيسة لمن دخل فى هذه المجاهدة كانت سببا لزيادة المجاهدين اهـ وقد اشتهر برياسة الحرب الصليبية الاولى

(١) أولا كان المحاربون فى تلك الغزوات لا يطالبون بديون ماداموا من أهل الحرب المقدس (ثانيا) كانوا معافين من ربح الدراهم التى اقترضوها (ثالثا) كانوا معافين من الجرائم والغرامات دواما أو لاجل معلوم (رابعا) كان يباح لهم أن

Digitized by Google

من الفرنساويه هوغ كونت دوفرماندوا وهو أخو الملك فليب الاول وروبرت دوق نورمنديا وريموند دوسن جيل (Raymond de St Gilles) وروبرت كونت بلاد فلندر وغودفروا دوبوليون (Godefroy de Bouillon) دوق بلاد لورين السفلى وأخواه أوستاش وبودوان (Boudoin) وايتين كونت بلوا (Etienne) وروترو (Rotrou) كونت دوبرش وغيرهم وشاركهم كثير من أمراء أوروبا مثل البرنس بوميند (Bœmond) بن روبرت غسكار دوق كلابريا وعمه تنكريد (Tancrède) ثم سافرت هذه الحملة فى ١٥ اغسطس سنة ١٠٩٦ وكانت مقدمتها تتألف من ستين ألف مقاتل ثم لحقها بطرس الناسك بقوة أخرى مؤلفة من ٤٠,٠٠٠ ثم سافرت بعد ذلك قوة عددها ٢٠٠,٠٠٠ وكان الجميع على غير انتظام وليس معهم ما يكفى من الزاد والمؤنة وغيرهما من لوازم السفر لاعتقادهم أن احتياجاتهم تأتى اليهم من السماء بلا تعب ولما علموا خطأهم عزموا على التعيش من البلاد التى يمرون عليها بالنهب والسلب فجلبوا الذلك على أنفسهم عداوة الاهالى الذين انقضوا عليهم وقتلوا منهم عددا كبيرا فنقص عددهم حتى لم يبق منهم الا شرذمة قليلة ثم لما وصلت مقدمة هذا الجيش بعد العناء الشديد الى القسطنطينية قابلهم امبراطورها الكسيس بالترحاب ظاهرا ثم نقلهم الى ساحل آسيا على مراكبه ولما توغلوا فى البلاد قابلتهم جنود السلاجقة وأوقعت بهم واستولت على مضاربهم وذخائرهم ولم ينج منهم الا القليل وكان بطرس الناسك عاد الى القسطنطينية متشكيا من عدم انتظام الصليبيين وعدم طاعتهم ولما بلغه اخبار ضياع جيشه أقسم بانه لا يرجع عن عزمه ولما وصلت باقى فرق الجيش الى القسطنطينية سار معها وقد تكدر الامبراطور الكسيس من هذه الجنود لما ارتكبوه من المفاسد فى بلاده فمنع اجتماعهم مع بعضهم وعجل بنقلهم الى ساحل آسيا (١٠٩٧ م) وكان عددهم يبلغ ١٠٠,٠٠٠ فتقدموا وحاصروا أزنيق وقاتلهم ملكها قلج ارسلان الا أنهم هزموه واستولوا عليها وقتلوا من فيها من المسلمين ونهبوا أموالهم واضافها الكسيس الى بلاده ثم تقدموا الى انطاكية وبها باغيسيان من امراء السلجوقية فأخذوها عنوة وقتل باغيسيان ثم ساروا الى المعرة فاستولوا عليها وقتلوا سكانها ثم زحفوا الى حمص فصالحهم صاحبها جناح الدولة واستولى بقدوين على مدينة الرها وملطية ثم سار غودفروا دوليون الى بيت المقدس وكان به رجل يعرف بافتخار الدولة عاملا للعبيديين ملوك مصر لان بيت المقدس كان بأيديهم انتزعوه من خلفاء بنى العباس وكان المستعلى بأمر الله العلوى يومئذ خليفة بمصر فقاتلهم افتخار الدولة بمن معه من الجنود الا أنه هزم ثم استولوا على عسقلان وكان الافضل أمير جيوش مصر خرج من مصر لقتالهم فهزم وعاد مع خواصه الى مصر وحاصر الفرنج بيت المقدس أربعين يوما ثم ملكوه فى ٢١ شعبان سنة ٤٩٢ ه

يعطوا أراضيهم لمن شاؤا من غير اذن ملتزمهم الذى أقطعها لهم (خامسا) كانت ذواتهم وامتعتهم فى حماية مارى بطرس فكانت الكنيسة تنزل سهام الغضب والمقت على جميع من كان يتعرض لهم بسوء أو يبحث عن مشاجراتهم ماداموا مشتغلين بالحرب المقدس (سادسا) كانوا يتمتعون بجميع مزايا القسيسين فلم يكن يجب عليهم الحضور بالمحاكم المدنية وانما كان يحكم عليهم بالافتاآت الدينية (سابعا) كانوا اذا ارتكبوا ذنبا يسامحون مسامحة كلية وتغفر ذنوبهم لانهم كانوا يعتقدون ان أبواب السماء مفتحة لهم ولا يطلب منهم كفارة لخطاياهم لان كفاراتهم هى دخولهم فى المجاهدة الصليبية التى كانت ملائمة لطباعهم وشهواتهم حيث كانوا يحبون الحرب حبا جما وغير ذلك

واعلموا

وأعملوا السيف فى سكانه أسبوعا وقتلوا بالمسجد الاقصى ما يزيد عن سبعين ألفا كانوا التجؤا اليه ولما سئموا من كثرة القتل والذبح الذى دنسوا به فخار نصرتهم شرعوا فى تشكيل حكومة لهم به وولوا غودفروا دو بليون ملكا على مدينة القدس هذا وقد ترتب على هذه الغزوة الصليبية انقاذ فرنسا من جماعة كثيرة من أهل البطالة والصيال وتخلص ملوكها من عدة أمراء كانوا يناصبونهم العداوة فتمت الشوكة الملوكية فيها بعد الانحطاط ولما كان الأمراء المذكورون باعوا أملاكهم للاستعانة بها على التجهيز فتحت الطريق الذى نجى البلاد من الاستعباد ومن فضائل هذه الحرب أيضا ان قد ترقى التمدن والتأنس ببلاد فرنسا لما جلبه أهل الصليب معهم من الشرق من أنوار المعارف والعلوم والفنون واتسعت أيضا دائرة التجارة بعد هذه الغزوات وعرف أهل أوروبا أيضا فضيلة القوانين والترتيبات النافعة وانتظمت ببيت المقدس ثلاث جمعيات دينية وعسكرية انتشرت نورا فى بلاد أوروبا وصار أربابها معادلين للملوك بثروتهم وشوكتهم (الاولى) جمعية الاسعاف والضيافة وتنسب الى القديس يوحنا وعرف اتباعها فيما بعد بفرسان مالطة (الثانية) جمعية الاعيان التوتونية (الثالثة) جمعية الهيكليين وبذلك قويت شوكة الباباوات الدينية لان البابا لما كان رئيس النصرانية كان هو مدبرها ومرشدها وسائسها ولكن الباباوات أسرفوا وتغالوا فى رياستهم هذه حسب مقتضيات الاحوال والاعمال وأدخلوا أنفسهم بلا مقتض فى أفعال الملوك وجاوزوا الحدود فى حكمهم الذى مكث قويا مدة طويلة وكان حقهم ان يقتصروا على الامور الدينية فقط

ووجد أيضا فى الحروب الصليبية شعار لكل الامراء وذلك انه لما كان الجيش المعد لتلك الغزوة عدده عظيما ومن ملل مختلفة لزم أن يكون لكل قوم شعار يميزهم عن بعضهم حتى يعلم كل فرد لواء أميره اذ الامير نفسه كان متدرعا بالحديد فلا يعرف الا بالشعار فابتدعوا لذلك بعض علامات مميزة اتخذوها شعارا وكانت تدل فى الغالب على أنواع السلاح وكانت تنقش على الخوذة أو الدرقة ثم آل أمرها الى أن صارت طراز شرف ومجد ثم صارت وراثية فى فرق الجنود وكانت وفاة فليب الاول فى سنة ١١٠٨ م اثناء الحرب الصليبية الاولى بعد أن حكم ٤٨ سنة وخلفه فى الملك ابنه لويس السادس وكانت التزامات التاج الملوكى فى عهده أقاليم بيكارديا وايل دوفرنس واورليان وأقاليم برى وكان اشتراه من أحد الامراء الذين اشتركوا فى الحرب الصليبية

لويس السادس الملقب بالسمين (Le Gros) (١١٠٧-١١٣٨) - قال المؤرخون ان الملكة برترادزوجة فليب الاول كانت تسعى فى آخر حكمه فى حرمان ابنها لويس السادس هذا من الملك ويقال انها دست له سما تولد له منه داء لازمه طول حياته لتولية ابنها الثانى المدعو فليب كونت بلاد منتو ولما تولى لويس هذا أخذت تحرض عليه ملتزمى البلاد أصحاب المعاقل القاصلة لخط المواصلات فكان أهالى تلك المعاقل يقبضون على المسافرين ويسجنونهم حتى يقوموا بدفع مبالغ جسيمة للخلاص من السجن فكانت قوانين النظام مزدرى بها عند هؤلاء الصوال قطاع الطرق الذين فقدت بهم البلاد الأمن العام وكان أكثرهم يتطلع الى امتلاك سرير الملك فلما أبوا الاعتراف له بالتبعية والسيادة عليهم حاربهم ودام الحرب عشر سنوات وكان بينهم ملتزم مونتمورانسى (Montmorency) وملتزم منتليرى (Montlhéry) وكبار قصر روشفور (Rochefort)

Digitized by Google

وكونتا كوربيل (Corbil) وبومنت ثم نصب الملك سوغير (Suger) رئيس أساقفة دير سن دنيس وزيرا أولا للحكومة ولصدقه في خدمته حض طائفة الكهنة على مساعدة الملك والامة مساعدة قلبية فعلية لمقاومة الاشراف والملتزمين الذين كانوا يستعبدون سكان التزاماتهم فأخذ هؤلاء الاهالى فى الاجتماع لانقاذ أنفسهم من حكم الملتزمين وتعاهدوا وتحالفوا فيما بينهم على التعاون والتعاضد وجعلوا على كل جمعية بلدية أميرا يجمعهم بضرب النواقيس متى احتاج اليهم ويمشى أمامهم رئيسا عليهم تحت البيرق البلدى فانضم هؤلاء الى الملك ولما قوى بهم أمره أرغموا الملتزمين على منحهم الحرية الشخصية والاستقلال وبذلك تخلصوا من حكم الملتزمين الذين انحطت منزلتهم من ذلك الوقت ولقب المؤرخون لويس هذا بمحرر المقاطعات وأبى الاهالى واستمر لويس محافظا على النظام العام وأزال المضار وأصلح العيوب ووطد سلطة التاج بين رعاياه وأحدث المحاكم ورتب رسوم تجميل العساكر وهو أول من قطع عرق ظلم حكومة الاشراف التى كانت أضعفتها الحروب الصليبية كما سبق ولما كان أغلب الاشراف باعوا قبل سفرهم حق سيادتهم على الاهالى للاهالى وضاعت أموالهم فى تلك المجاهدات اضطروا الى تجديد أموالهم بالظلم الآن هذه الحروب المعروفة بحرب تحرير المقاطعات حالت بينهم وبين بغيتهم

الحرب بين لويس والانجليز — لما عاد روبرت الثانى دوق بلاد نورمنديا المعروف بقصير الفخذ من الاراضى المقدسة قبض هنرى الاول ملك الانجليز عليه طمعا فى دوقية نورمنديا وعند ذلك هرب ابنه غليوم كليتون واستغاث بلويس ملك فرنسا وطلب منه المساعدة على نوال دوقية نورمنديا ولما أراد لويس السعى فى ذلك وقعت الحرب بينه وبين هنرى الاول وانتهت بانهزام لويس فى سهول برنويل (Brenneville) سنة ١١١٩ م وفى ادباره كاد يقع اسيرا فى يد أحد رجال الانجليز حيث قبض على لجام فرسه وصاح قائلا قد أخذ الملك فقال له لويس مع السكون لا يؤخذ الملك أبدا ولو فى لعب الشطرنج وضربه ببلطة فسقط ميتا ثم تصالح لويس مع هنرى مضطرا الا ان العداوة بقيت كامنة فى صدره بسبب هزيمته لأن هنرى الاول ملك انجلترة حرض صهره هنرى الخامس امبراطور المانيا على حرب لويس ولما علم لويس ذلك أبرز بيرق الجهاد الفرنساوى(١) الملوكى المسمى أوريفلام (Oriflamme) ونصبه فى دير سن دنيس فاجتمع حوله جمع كثير زاد عدده عن مائتى ألف مقاتل وعقدوا جمعية تحت رياسة الملك لتدبير ما يفعلونه ولما علم امبراطور المانيا باجتماع هذا الجيش العرمرم فزع منه واشتد وجله فعاد الى بلاده بلا حرب هذا ولما قتل غليوم كليتون (١١٢٨ م) المتقدم الذكر زال النزاع بين فرنسا وانجلترة ثم ان هنرى الاول زوج ابنته الوحيدة المسماة ماتيلده (Mathilde) من جوفروا (Geoffroy Plantagenal) قونت بلاد أنجو سنة ١١٢٧ م فتقوى بذلك ملك انجلترة لاتحاده مع نورمنديا وأنجو ودخلت بذلك احدى مقاطعات فرنسا تحت النفوذ البرطانى

(١) كان هذا العلم لدير سن دنيس ولما كان الملك خاضعا لهذا الدير بالنسبة لما كان واضعا يده عليه من أراضى هذا الدير كان اذا وقعت حرب حمل هذا العلم الذى صار بذلك العلم الملوكى وكان هذا العلم مصنوعا من القماش الاحمر النارى ولم يكن به نقوش ولا صور وكان مشقوق الاسفل من ثلاث جهات وكان مزينا بشراريب من الحرير الاخضر معلقا فى رمح مذهب اه

Digitized by Google

وفى خلال ذلك تعدى كونت بلاد أوفرنى (Auvergne) على أسقف كليرمنت (١١٢١ م) فسار اليه لويس وأخضعه وفى سنة ١١٢٧ حمل على اخصامه الذين كانوا ينازعون الاملاك التى تركها شارل الطيب كونت بلاد فلاندر بعد أن قتل فى ثورة فقسمها عليهم بما يقتضيه نظره وكذا هزم أمورى المتفورى كونت أوركس لما أراد أن يأخذ رتبة رياسة القضايا والاحكام والشرف بالتوارث وأيضا هزم كونت شمبانيا الذى كان متحزبا عليه مع ملك الانجليز (١١٣١ م) وكذا قبض على توماس دومارل (Thomas de Marle) الذى اشتهر بقطع الطريق وسجن كثيرا من التجار فى قصره المشيد فى مكان حصين بجهة كونسى (Concy) الواقعة شمالى نهر السين ثم نقلوا الى مدينة لون فمات فيها

ومن آثار لويس السادس هذا الدير العظيم المسمى ديرسن فكتور ومما ساعد به الدين أيضا حمايته لخمسة من الباباوات أتوا اليه ملتجئين به فأكرم مثواهم وهم أوربان الثانى وكان انتخب فى بلدة تركينى (Tarquinies) المعروفة الآن بترشينا (Turchina) بينما كانت رومية فى يد البابا أكليمنصو الثالث الذى انتخب بغير حق بل بتعضيد هنرى الثالث امبراطور المانيا وبسكال الثانى وكان توقف فى تتويج هنرى الخامس امبراطور المانيا (١١١٠ م) وجيلاس الثانى (Gélase II) الذى خلعه القنصل شنسيوفرنجيبانى بالاتفاق مع هنرى الخامس وانتخبا وضاعنه غريغوريوس الثانى وكاليكست الثانى (Calixte II) الذى انتخب فى سنة ١١١٩ م نيقولا الثانى ومنع من الدخول الى رومية واينوسان الثانى (Innocent II) الذى طرد من رومية وبينما كان الملك مشتغلا بتربية ابنه الثانى المسمى لويس الشاب أو الاصغر للفرق بينه وبين ابنه وتدريبه على الاعمال ليجلس بعده على التخت وكان ألبسه التاج على يد البابا اينوسان الثانى المذكور قصد غليوم التاسع دوق اكيتانه زيارة قبر القديس سن جاك دوكمستل باسبانيا وكان أوصى قبل سفره بالحكم لابنته اليونوره من بعده وأن تكون تحت وصية لويس السادس على شرط أن تتزوج بابنه لويس الشاب فقبل لويس ذلك بكل سرور ولما مات دوق اكيتانه فى سفره المذكور سنة ١١٣٧ عقد لويس لابنه على اليونوره فى مدينة بوردو ودخلت أملاكها بذلك تحت حكم التاج الفرنسوى هذا وكان موت لويس ملك فرنسا فى السنة المذكورة ويقال انه لما حضرته الوفاة قال لاولاده اعلموا يا أولادى أن أعباء المملكة ثقيلة لا يظهر الحساب عليها الا بعد الموت وترك من الاولاد خلاف لويس الصغير الذى خلفه فى الملك عدة منهم روبرت أصل اسرة دروس التى خرج منها ملوك برطانيه وبطرس الذى هو أصل اسرة كورتانى التى خرج منها بعض امبراطرة القسطنطينية وقد اشتهر عصر هذا الملك بظهور كثير من الافاضل منهم القديس برنارد الشهير راهب كليرفيل اشتهر بفضائله وأفعاله الحميدة وعلومه ومعارفه فصار الحاكم المتصرف فى أهل عصره وبطرس يبلار دوغليوم شامبو وغيرهم من العلماء الذين نشروا العلوم والمعارف بين أبناء فرنسا

لويس السابع الشهير بالشاب – ١١٣٧ – ١١٨٠ م – سبق الكلام بأن لويس هذا تزوج بابنة دوق اكيتانه وبينما كان مقيما فى مدينة بواتيه مركز دوقيته بلغه خبر موت أبيه فحضر مسرعا وجلس على تخت فرنسا وقد اتسعت مملكته بهذا الزواج حيث أضيف لفرنسا أراضى دوقية غويانه وغسكونيا وسنتونج وبواتو وبيارن وكانت هذه زوجته المذكورة

Digitized by Google

وبعد جلوسه بأربع سنوات حصل بينه وبين البابا اينوسان الثانى خلاف بخصوص انتخاب كاهن يدعى بطرس دولاشاتر مطرانا لمدينة بورج ولما عارضه الملك فى هذا الانتخاب استعان البابا بتيبوت الثالث (Thibaut III) كونت شمبانيا فجرد لويس على هذا الكونت وحاربه سنة ١١٤٢ فحنق البابا وعاقب لويس بالحرمان الدينى لانه استعمل فى الحرب قساوة شديدة منها انه أضرم النار فى مدينة وترى (Vitry) احدى بلاد مقاطعة مارن ولما فر الناس منها والتجؤا الى كنيستها امتدت النار الى الكنيسة المذكورة وأحرقت من فيها من رجال فرنسا ولم يراع حرمة هذا المكان الذى كان به ما يزيد عن ألف وثلثمائة نفس أما لويس فانه أحس بقبح ما ارتكبه ولما ضاق صدره من لوم نفسه عزم على أن يكفر عن هذا الذنب الذى حصل قهرا عنه فأراد اعانة الصليبيين لانهم كانوا نفدوا كثيرا من فتوحاتهم التى فتحوها فى الحملة الاولى بالشام وساعده على هذا القصد كاهن يدعى سن برنارد الذى أدخل بحسن فصاحته فى هذا المشروع أيضا امبراطور المانيا كنراد الثالث وكان لويس قليل الحيلة والتدبير فنصحه وزيره الماهر سوجير (Suger) الشهير بالعدول عن السفر وأعلمه بأن بقاءه فى المملكة ضرورى جدا لتعضيد النجاح الحاصل فى البلاد فلم يسمع وصمم على السفر

وكان لويس هذا بدء فى الحرب التى هاجت بين امراء بلاد بلوا (Blois) وانجو بخصوص مقاطعة نورمنديا وسبب هذه الحرب أن هنرى الاول كان يميل لابن أخته المسمى استيفان (Étienne) أحد أمراء العائلة النورمندية حتى انه لقبه منذ صغره بالالقاب الشريفة وولاه مقاطعة فى نورمنديا ثم لما توفى هنرى الاول عن غير وارث ذكر وتزوجت ابنته الامبرة ماتلده بجيوفرى (Geoffrey) فونت بلاد انجو جرت أمور أفضت الى جلوس استيفان المذكور على تخت انجلتره (١١٣٥ م) ثم قام حزب فى انجلتره لنصرة الامبراطورة ماتلده ابنة الملك هنرى الاول وساعدها على العودة الى بلاد انجلتره سنة ١١٣٩ وساعد لويس السابع ملك فرنسا جيوفرى المذكور على الحصول على دوقية نورمنديا وفى خلالها انكسر استيفان وقبض عليه (١١٤١) فخضع أكبر قسم من البلاد للحزب المنتصر الا انه بسبب كبرياء ماتلده وشدة عنفوانها أجلسوا مكانها أخاها من السفاح المدعو روبرت فهزمته وأسرته وأعيد استيفان الا انه فى موقعة ولتون سنة ١١٤٣ انتصر أخو ماتلده المذكور وهزم استيفان واستمرت الحرب وسنة ١١٥٣ وصل هنرى ابن ماتلده بجيش جرار الى انجلتره وانتصر على استيفان فتوسط قواد الامة فى أمر الصلح ومما ساعد على ذلك موت أكبر أولاد ملك انجلتره المذكور فجأة وأبرمت معاهدة ونشستر (١١٥٣ م) تقرر فيها أن استيفان يبقى ملكا الى حين وفاته وان هنرى أكبر أولاد جيوفرى من الاميرة ماتلده يكون وارثا لاستيفان فى تخت انجلتره كما سيأتى شرح ذلك فى تاريخ انجلتره ان شاء الله

الحملة الصليبية الثانية — تقدم الكلام على الحملة الصليبية الاولى وما كان من استيلاء الفرنج على بيت المقدس واتخاذهم اياه دار مملكة واستمرارهم على حرب المسلمين لان المسلمين كانوا وقتئذ فى فتنة واختلاف ومما استولوا عليه فى هذه الحملة صيدا (١١١٥ م) وساعدتهم عمارة سيجورد (Sigurd) النورويجى عليها بحرا كما ساعدهم ميخائيل دوج البنادقة عند حضوره لزيارة القدس بعمارته على فتح عسقلان وصور ثم اجتمع أصحاب القدس وانطاكية وطرابلس وغيرهم من أمراء

الفرنج

الفرنج وحاصروا بجنودهم دمشق فخرجت عليهم رجال تاج الملك فظفرت بهم ومن يومئذ استيقظ المسلمون واجتمعوا على محاربة الصليبيين الذين تعدوا على بلادهم ففى سنة ١١٣٣ م تقدم شمس الملك اسمعيل بن نورى صاحب دمشق وملك حصن بانياس (١) من يد الفرنج بالقوة والاقتدار وسار المسترشد العباسى من بغداد بعساكره لمحاربتهم وحاربهم أيضا التركمان بطرابلس فظفروا بهم وأغار شمس الملك اسمعيل عليهم جهة طبرية وفى سنة ١١٣٤ م أوقع دانشمند صاحب ملطية بالفرنج الذين بالشام وفى سنة ١١٣٥ م سارت عساكر عماد الدين بن زنكى من حلب وحماة تحت قيادة أسوار نائب زنكى وحاربهم بنواحى اللاذقية وفى سنة ١١٣٦ م أخذ منهم شهاب الدين محمود بن نورى صاحب دمشق مدينة حمص وقلعتها وفى سنة ١١٣٧ م حصر عماد الدين بلدة بعرين (٢) فوقع بينه وبين الفرنج قتال شديد انتهى بفتح بعرين والمعرة (٣) وكفرطاب (٤) وفتح زنكى امارة جوسلين الثانى سنة ١١٤٥ م فخاف الفرنج من عودة بيت المقدس الى يد المسلمين فاستغاثوا بنصارى أوروبا فقام سن برنارد المتقدم الذكر وأخذ يخطب فى الجموع ويضرم نيران التعصب وكان قلب لويس السابع مرتجفا مقشعرا من هول احراق الكنيسة التى مات بها عدد عظيم من الناس كما سبق فاضمر من وقته أن يكفر عن سيآته لما أتاه من المنكر بحرق الكنيسة المذكورة بحرب المسلمين فى الارض المقدسة ويترأس هو على عسكره التى جهزها الى ذلك ووضع على صدره الصليب الاحمر فى مجمع بلدة ويزيلى (Vezelay) سنة ١١٤٦ م واشترك فى هذه الحرب أيضا كنراد امبراطور المانيا رغما عن اشتغاله بتأديب الامراء الخارجين عليه ثم جهزهم البابا بالحراب والعصا والعلم وكانت عندهم بمنزلة آثار البركة تنصرهم فى حروبهم ثم سار لويس يقود ثمانين ألف مقاتل واجتمع بالامبراطور كنراد فى مدينة متس وكان مع لويس زوجته البنوره وعدد عظيم من الامراء ولما اقتربوا من القسطنطينية اشتبهوا فى صدق امانويل امبراطورها ورموه بالميل مع قلنج ارسلان سلطان السلاجقة بقونية فلم يقابله امبراطور المانيا ولما قابله ملك فرنسا تبرأ الامبراطور امانويل مما نسب اليه وبعد أن عبرت الجيوش المضيق وزحفوا نحو فلسطين أضلتهم ادلاء امانويل ويقال ان ذلك عن قصد فتاهوا فى القفار ومات منهم خلق كثير ثم وصلوا الى بلاد ليديا وهناك ركب كنراد البحر بقرب افسوس عائدا الى القسطنطينية واستعار منها بعض سفائن ثم قصد فلسطين بحرا أما لويس فانه ركب البحر من ابطاليا مع جنوده وقصد انطاكية ومنها الى فلسطين وتقابل هناك مع امبراطور المانيا فجمعا ما بقى من جنودهما الا أنه بالنسبة لما حصل منهما من عدم النظام والاتفاق وعدم طاعة الجنود لرؤسائهم أنتج لهما الخسارة الكلية فقفل كنراد راجعا مع بقية

---

(١) بانياس هى الآن قرية بناحية الشعرة من قضاء القنيطرة من لواء حوران على نحو ستين كيلومترا من دمشق وحصنها المنيع واقع على أكمة مخروطية يبلغ ارتفاعها من ١٠٠٠ قدم وبجوار هذه المدينة آثار قديمة وقد كانت بانياس من أعظم مدن سوريه اه من الدائرة

(٢) بعرين بلدة حسنة بين حلب وحماة قد اشتهرت فى أيام الصليبيين بحصنها الذى أنشئ فى النصف الثانى من القرن الخامس للهجرة والآن قد دثرت ولم يبق لها أهمية تذكر اه من الدائرة

(٣) المعرة بلدة بولاية حلب الآن وكانت تعرف زمن الرومان باسم خاليس وتنسب الى النعمان بن بشير وخرج منها كثير من العلماء وبها قبر العالم الشهير أبى العلاء المعرى

(٤) كفرطاب بلدة بين المعرة وحلب قد اضمحلت الآن من سابق عهدها اه من قاموس الاعلام

عساكره الى أوروبا وبعد سنتين عاد لويس أيضا خائبا لاغنا كل من أشار عليه بهذه الحرب وفى رجوعه أسره فرصان الروم ثم أنقذه منهم روجار الثانى (Roger II) ملك صقلية وعاد الى بلاده عن طريق ثغر سن جيل (Saint-Gilles) الواقعة على نهر الرون وبذلك انتهت الحملة الصليبية الثانية

ضياع الاقاليم التى كان أخذها لويس لما تزوج بالينورة — قلنا ان لويس لما ارتحل الى الغزوة الصليبية الثانية استصحب معه زوجته فلامه أهل عصره على استصحابه لها وقد اشتبه أثناء الحرب المذكورة فى أمانتها وعفتها وتقوت عنده أسباب خيانتها الفراشه وبمجرد رجوعه الى بلاده أخبر بذلك سوجير وزيره وكان النائب عنه مدة غيبته وطلب منه ان يكتم الامر مراعاة للظروف ومع ذلك فان الملكة أليونوره أظهرت التشامخ والازدراء بزوجها فاحتدم الخصام بينهما حتى طلب كل منهما الانفصال من صاحبه واستأذن الملك مجمع بلدة بوجنسى فى طلاقها متعللا بمانع القرابة التى بينه وبينها فسمح له بذلك فطلقها (١١٥٢ م) ولما رأت الينوره ان كل الاكابر والملوك أولى القدرة والشوكة يسعون فى زواجها رضيت بهنرى بلاتاجنت (Henri Platagenet) قونت انجو ودوق نورمنديا بأن يكون لها زوجا وكان هنرى المذكور ولى عهد انجلتره فأضاف الى اقليميه اللذين بفرنسا الاقاليم التى ورثتها الينوره المذكورة وهى التى تقدم ذكرها ثم لما صار فيما بعد ملكا لانجلتره باسم هنرى الثانى سنة ١١٥٤ م انتقلت تلك الاقاليم الى انجلتره فرأى هنرى نفسه اذ ذاك ذا قوة وقدرة وكأنه ملك لفرنسا أيضا وقد تولد عن ذلك عداوة بين البلادين مكثت مدة طويلة كانت مشؤمة على فرنسا وأهم سبب حوادث هذه العداوة نشأ من أن لويس آوى توماس بكت (Thomas Beket) أسقف مدينة كانتوربرى (Cantorbéry) عنده وكان نفى من انجلتره لانه ساعد الملكة الينوره على عصيانها الآتى لما صارت زوجة لهنرى حسدها نساء البلاط الملكى وكانت قتلت الاميره روزمند احداهن فألقت الرعب فى قلب أهل القصر الملكى وحركت أولادها وهم هنرى وجيوفرى وريشارد على أبيهم ولما مل هنرى أعمالها سجنها فى دير سنة ١١٨٩ م وبقيت مسجونة حتى جلس ابنها ريشارد الملقب بقلب الاسد على تخت الملك هذا وكان ملك فرنسا زوج فى سنة ١١٥٨ ابنته مرغريت من هنرى ابن ملك انجلتره وقد تزايدت التزامات ملك انجلتره فى فرنسا أيضا حينما زوج ابنه الثالث غفروا (١١٦٦ م) بوارثة دوقية برطانية لانه كان يحكم هذه الدوقية بالنيابة عن الزوجين لصغرهما ثم مات لويس سنة ١١٨٠ بداء الفالج وخلفه فى الملك ابنه فليب وكان من زوجته الثالثة ابنة اليكس دوق شمبانيا

فليب الثانى أغسطس — (١١٨٠ – ١٢٢٤) كان لويس ولى ابنه فليب هذا المملكة فى مرض موته وكان سنه يومئذ ١٥ سنة ولما مات والده أراد كل من أمه وأعمامه اقتسام المملكة معه لكنه تمكن بعد من الاستقلال بما أظهره من الاجتهاد والغيرة والكفاءة فمنعهم من التغلب على ميراثه ولقب هذا الملك بلقب اغسطس (Auguste) قال بعضهم ان سبب ذلك أنه ولد فى شهر اغسطس وقال غيرهم سبب ذلك سمو وعلو كمالاته وبعد بجلوسه تزوج بايزابيلا دهينوت (Isabelle de Hainaut) بنت بودوين قونت بلاد هينوت وابن أخى فليب دوق فلندروكان فليب الثانى ألزم فى أول حكمه دوق برغونيه باعادة ماسلبه من حلى الكنائس واصلاح ما أفسده فقبل

Digitized by Google

الدوق مضطرا ولما كانت مدينة باريس قد اتسعت وامتدت قبل حكمه الى أطراف الجزيرة المسماة بالمدينة وكانت غير مبلطة الطرق كثيرة القاذورات حتى فسد هواؤها وكثر بها داء الجذام شرع فليب في تنظيفها وتبليط أزقتها وحاراتها وأقام حولها اسوارا عظيما وعزل بيوت المصابين بالجذام وجعل عليهم ملاحظين تمنعهم من الاختلاط مع الناس وسن قوانين شديدة لتهذيب الاخلاق فجعل عقابات شديدة على من يحلف زورا ويغتاب الخلق وعلى من يلعب القمار وعلى مبتدعي العقائد الباطلة وقتل منهم عددا كبيرا وشدد في أمر المحافظة على الدين وكان الجهل متسلطا على عقول الكثير من أهل البلاد حتى أورثهم حمية جاهلية نشأ عنها سفك الدماء وانصرفت أذهان المتدينين منهم للايقاع باليهود لعدهم اياهم أعداء طبيعيين للدين النصراني ثم أعملوا فيهم السيف وقتلوا منهم عددا عظيما (١١٨٠ - ١١٨٢ م) وأصدر فليب أمرا بنفيهم من مملكة فرنسا لأن الناس كانوا أكثروا من الشكوى لافراط اليهود في الربا وكان حكم الملك عليهم بالنفي ظنا منه أن نفيهم يجبر الامة الفرنساوية على الاشتغال بالتجارة ولم يكن يشتغل بها وقتئذ الا المرابون من اليهود وأمهلهم ثلاثة شهور للخروج من أراضي مملكته ومما يعاب عليه أيضا أنه نشر براءة المدينين من رعيته لليهود بشرط أن يدفعوا خمس الدين لخزينة الملوكية فاكتسب بذلك عار الابد وان كانت عاقبة فعله جيدة بالنسبة للتجارة

الحرب بين فرنسا وانجلترة ـ لما أظهر كونت فلندر العصيان على فليب اغسطس سنة ١١٨٥ جرد عليه وحاربه حتى اضطره لترك أرتوا (Artois) وغيرها من الاراضي الالتزامية وبذلك قام الخلاف بينه وبين ملك انجلترة هنري الثاني المعروف بالكبير (١١٨٧ م) وأدى الخلاف الى الحرب بسبب مسئلة وراثة التخت البرطاني التي كانت مشتعلة نارها بين هنري الثاني وأولاده وبعد موت ولدي هنري وهما الاميران هنري وجيوفري رأى ريشارد أكبر أولاد هنري الثاني المذكور أن اباه يميل الى أخيه يوحنا الكس خطيب الاميرة ادلايس أخت فليب اغسطس ملك فرنسا وكانت تلك الاميرة قد أدخلت في دائرة الملك هنري الثاني مع انه رفض تزويجها بابنه يوحنا المذكور ولذلك انحاز ريشارد الى الملك فليب وخر على قدميه طالبا حمايته ومساعدته في نوال حقوقه وجعل له من الغنيمة كل أملاك أبيه في فرنسا فزحف فليب بجيوشه واستولى على مدن مين وتورواميوا زمن هنري الثاني (١١٨٨ م) وكان ابنه ريشارد يحارب مع الفرنساويين فعزم هنري على قتال ابنه والملك فليب اغسطس عند مدينة تورى وفي تلك الاثناء وردت الاخبار باستيلاء صلاح الدين الايوبي على بيت المقدس ففزع الملكان لذلك سيما وان رؤساء الصليبيين بالمشرق طلبوا منهما المساعدة فتصالحا بشرط أن يدفع هنري الثاني الى فليب عشرين ألف مارك ويسلم اليه الاميرة ادلايس ويأمر الامراء أتباعه بأن يبايعوا ولده ريشارد بولاية العهد ويحلفوا له يمين الطاعة فقبل هنري ثم اتفقا على السفر سويا لتخليص بيت المقدس الا أن هنري تراكمت عليه الغموم والاحزان فأصيب بمرض عضال مات بسببه (١١٨٩ م) فجلس ابنه ريشارد مكانه ومن يومئذ أخذ يستعد للحملة الصليبية مشتركا مع فليب ملك فرنسا

الحملة الصليبية الثالثة ـ ان الكلام على هذه الحملة وان كان تقدم في الجزء الثاني الا أننا رأينا من الفائدة ذكرها هنا بتفصيلات لم تذكر هناك فنقول ـ انه بعد الحملة الثانية الصليبية

استنجد شاور وزير العاضد لدين الله العلوي بالفرنج لاخراج أسد الدين شيركوه من مصر فأرسل الملك نور الدين الامير صلاح الدين فانتصر على شاور وحز رأسه كما سبق ثم نال رتبة الوزارة وأخرج الفرنج من أرض مصر وقطع خطبة العاضد لدين الله وخطب للخليفة المستضيء العباسي في مصر (٥٦٧ ﻫ - ١١٧١ م) واستولى على قصر العبيديين بما فيه ونال الخلعة من الخليفة ثم تسلطن بعد ذلك وحارب الصليبيين وانتصر عليهم في عدة وقائع منها واقعة الرملة (١١٧٧ م) وواقعة حطين الشهيرة المعروفة عند الفرنج بواقعة طبريا (٥٨٣ ﻫ - ١١٨٧ م) وأسر فيها عددا كبيرا من أمرائهم منهم جي دولوزينيان (Guy de Lusignan) ملك القدس المعروف في تواريخ العرب باسم جفري وربنولد دوشاتيليون (Renaulde Chatillon) المعروف في تواريخ العرب باسم ارناط (Irnat) ثم استحضرهما وطيب خاطر دولوزينيان وحده وكان في قلب صلاح الدين حقد على رينولد لغدره بجماعة من المسلمين في حال الصلح وكان أقسم انه اذا ظفر به قتله فلذلك قتله بيده ثم فتح صلاح الدين صيدا وبيروت وعسقلان واستولى على الرملة والداروم وغزة وبيت جبريل والبترون وغيرها ثم نازل القدس الشريف (٥٨٣ ﻫ - ١١٨٧ م) وضايقه بالحصار فاضطر الفرنج الى طلب الأمان فأمنهم واستلم البلد (٢٧ رجب) وكانت ليلة المعراج فارتفعت الاصوات بالتهليل والضجيج وقد مر ذكر ذلك في الجزء الثاني وأمهل الفرنج أربعة أيام للرحيل قالوا وفي اليوم الخامس مر النصارى بعسكر المسلمين واذا بملكة بيت المقدس ورفيقاتها قد أقبلن وعليهن ألبسة رثة للاسترحام فخرج صلاح الدين من خيمته وتقدم اليهن ووجه اليهن كلاما رقيقا يشجعهن ويسليهن ثم استفسر عن حاجاتهن فأجبنه ان اهتمامهن لم يكن لنوال أرض أو بيوت أو أمتعة بل لان يرد اليهن آباءهن وأزواجهن واخوتهن وأولادهن فأجاب صلاح الدين طلبهن وأحسن اليهن وتصدق على الايتام والفقراء وترك لهم بعض الفدية المعينة وقد أجمع المؤرخون على مدحه لذلك ولما وصلت اخبار انتصارات صلاح الدين هذه الى أوروبا قام الخطباء بها يحرضون دول الفرنج على حرب الاسلام وتجهز للغزوة الثالثة فليب أغسطس وريشارد الاول ملك انجلترا الملقب بقلب الاسد (Richard Cœur de Lion) وفردريك الاول امبراطور المانيا وضرب ملك فرنسا على أهالي بلاده أموالا للاستعانة بها على مصاريف هذه الحملة تعرف بالعشر الصلاحي (نسبة الى صلاح الدين) وفرضها على عموم الطبقات على اختلاف مراتبهم ماعدا أهل الصليب المقاتلين

ثم لما استعدوا اخرجوا سنة ١١٨٩ م يقصدون بلاد فلسطين وكان معهم مائتا سفينة مشحونة بالعساكر والعدد وأرسوا على صور وكانت باقية بايدي الصليبيين ثم أخذوا يتقدمون برا على عكا والاساطيل تتبعهم بحرا قال مسيو ليون جورين في تاريخه البحري ان تلك الاساطيل كان معظمها للدانيمرك بين وجمهورية بيزه ولما وصلوا عكا حصروها برا وبحرا وبعد عدة حروب استولى عليها ملك فرنسا (١١٩١ م - ٥٨٧ ﻫ) وقال المؤرخ الانجليزي بيتر بارلي (Peter Parley) في تاريخه اتحد فليب مع ريكاردوس ملك انجلترة الملقب بقلب الاسد سنة ١١٨٩ وقام الاثنان بجيش جرار وجاآ سورية لنجدة الصليبيين ولما وصلا الى جزيرة صقلية وقع بينهما شقاق ومنافرة أفضت الى افتراقهما ثم ان فليب أغسطس أتى سورية وكان له يوم مجيد في أخذ عكا ثم قفل راجعا الى فرنسا اه وقال دروي (Duruy) في تاريخه

العمومي

العمومي ما ملخصه ان الشقاق الذي وقع بين ملكي فرنسا وانجلترة أخر نجاح هذه الحملة التي لم يكن منها نتيجة الا أخذ مدينة عكا وبعدها سئم فليب مما أصابه من المرض الشديد ورأى عدم الفائدة من هذه الحرب فرجع الى فرنسا سنة ١١٩١ على سفن استأجرها من جنوة فوجد مملكته زاهية زاهرة اه أما ريشارد قلب الاسد فانه عرج بجنوده وأساطيله في ذهابه على جزيرة قبرس وافتتحها وأسر ملكها المسمى اسحق ثم أقلع من قبرس قاصدا عكا فنزلها ثم طلب عسقلان والمسافة بينهما مائة ميل قال جبون المؤرخ الانجليزي وقطعوا هذه المسافة بين حرب مشتعلة ووقعة متصلة دامت أحد عشر يوما ووافاه صلاح الدين بثلثمائة ألف مقاتل وانتشبت بينهما حروب هائلة وقيل انه في واقعة أرسوف حيث انتصر الفرنج لاح لصلاح الدين أن قلب الاسد يقاتل راجلا فأرسل له فرسا ركبه ووجد الفرنج من عسقلان في طلب القدس وكادوا يستولون عليها لولا قيام قائم الشقاق بين زعمائهم فعجزوا عن القتال وبعد ذلك أخذ ريكاردوس وصلاح الدين يتراسلان ويتخابران في شأن الصلح وترك هذه الحروب المهلكة ثم عقدت هدنة لمدة ثلاث سنوات (٢ سبتمبر ١١٩٢ م — ٢٢ شعبان ٥٨٨ ﻫ) ومن شروطها أن يسمح في خلالها للمسيحيين أن يزوروا القدس في أي وقت أرادوا بدون دفع جزية وان تهدم قلعة عسقلان وأن يافا وصور والبلاد الساحلية الواقعة بينهما تبقى بيد الفرنج وتقرر فيها أيضا تسمية هنري قونت شمبانيا ملكا للقدس فرضي صلاح الدين بذلك وسافر ريكاردوس الى أوربا بحرا كذا ورد في كتب الفرنج قال ابن دحلان في صحيفة ٣٢٧ من الجزء الاول من كتابه وكان من جملة من حضر عند صلاح الدين من رسل الفرنج باليان بن بارزان الذي كان صاحب الرملة ونابلس ومن جملة ما قال لصلاح الدين ما عمل أحد في الاسلام مثل ما عملت ولا هلك من الفرنج مثل ما هلك منهم هذه المدة ولما انفصل أمر الهدنة أذن صلاح الدين للفرنج في زيارة بيت المقدس فزاروه وعادت كل طائفة الى بلادها ورجع ملك انجلترة الى بلاده بحرا اه وبعد ذلك بقليل مات صلاح الدين وحصلت التجريدة الصليبية الرابعة ولكنها انحصرت أعمالها في محاربة ملك الروم في القسطنطينية (١٢٠٣ م) كما سيأتي

وفي هذا الوقت أي في سنة ١١٩٠ كتب جي دولوز ينيان ملك القدس مرسوما الى تجار مرسيليا يشتمل على الترخيص بارسال قناصل للقدس لرؤية وفصل جميع الدعاوى التي تحدث بينهم قال المرحوم علي مبارك باشا في صحيفة ٧٧ من الجزء الرابع عشر من خططه وقد تكلم العالم دساسي في الجزء الثاني من كتابه الانيس المفيد عن العالم مرانءلي تاريخ دخول القناصل الديار المصرية وغيرها من بلاد المشرق وعلى كيفية دخولهم فقال كان ببلاد الشام في سنة ١١١٧ م قنصل من بلاد ونديق وانه حصلت معاهدة بين البندقانيين والملك العادل سلطان مصر سنة ٦٣٦ هجرية الموافقة لسنة ١٢٣٨ م وقال ان القناصل ترتبت بمصر قبل سنة ٦٨٠ ﻫ وفي تلك السنة جرت معاهدة بين الملك المنصور أبي الفتح قلاوون وبين الملك الفونس ملك بلاد ارجون وجزيرة صقلية وذكر جملة معاهدات حصلت في هذا التاريخ على أمور تتعلق بالتجارة لرعايا الطرفين وعلى حوادث البحر وعلى ما كان يلزم من المساعدات للمراكب الغرقى وعلى لصوص البحر والاسارى من الجهتين وعلى الدعاوى التي كانت بين التجار وعلى الهاربين والحجاج وعوائد الديوان من الجمرك ونحوه

Digitized by Google

وعوائد أخرى ثم تكلم أيضا على شروط عقدت بين الجنويين وسلطان مصر الملك المنصور وولده الاشرف وسنذكر بعضها فيما بعد

استيلاء فرنسا على بعض مقاطعات انجليزية — بينما كان ملك انجلترة يحارب المسلمين في بلاد فلسطين اذ تغلب فليب أغسطس على اقليم وكسين وجزء من نورمنديا مع أنه كان قد تحالف مع ريكاردوس وأقسم على الانجيل قبل سفرهما للحرب الصليبية أنه لا يغير على بلاده مدة غيبته ولهذا ذهب فليب الى رومة وطلب من البابا سلستين الثالث (Silestin III) أن ينقذه من هذه اليمين لكن البابا رفض التماسه فعاد الى فرنسا مصمما على محاربة ريكاردوس في أول فرصة فساعدته الظروف حيث ان يوحنا سنتير (San Terre) أخا ريكاردوس استعمل حيلة ينال بها تاج انجلترة ودوقية نورمنديا فساعده فليب على عمله وخضع يوحنا المذكور لملك فرنسا وتغلب على املاك ريشارد التي في فرنسا وعند عودة ريشارد الى بلاده انكسرت مراكبه عند مدخل بحر الادرياتيك فأسره ليوبولد الاول دوق أوستريا المنصب من قبل الامبراطور هنري السادس وكان ريشارد قد أهان هنري وضربه مدة وجوده في فلسطين فسلمه هذا الدوق للامبراطور هنري قال مؤرخوا الانجليز انه بقي أسيرا في بلدة تريفل (Trifels) ثلاثة عشر شهرا ولم يخلص من أسره حتى فداه قومه بمبلغ ١٢,٥٠٠,٠٠٠ فرنك (فبراير ١١٩٤ م) وكان اطلاقه في الوقت الذي ظن فيه أخوه يوحنا وفليب ان مشروعهما متوج بالنجاح ثم ان ريشارد سار بجيش الى نورمنديا وحارب فليب وفاز عليه وأعاد الاراضي التي كان أخذها منه ملك فرنسا بعد الواقعة التي حصلت بقرب جيزور (Gisors) (يناير ١١٩٩ م) وتداخل البابا انوسان الثالث (Innocent III) بينهما وفصل الخلاف وألزمهما بالصلح وعقدت بينهما معاهدة قضت بأن كل ملك يبقى في أملاكه الاصلية ثم توفي ريشارد من نبلة أصابته وهو يحاصر قلعة في نورمنديا بعد أربعة شهور وخلفه أخوه يوحنا سنتير على تخت انجلترة (١١٩٩ م)

لما جلس يوحنا على تخت انجلترة قام أرتور (Arthur) دوق برطانيا الصغرى وابن جيوفري (Geoffrey) يطالبه بهذا التاج مدعيا انه هو صاحب الحق في وراثته بعد عمه ريشارد وانحاز لدعوته مدن انجو وتورين ومين ودخل فليب ملك فرنسا بجيش جرار في نورمنديا لمساعدة أرتور المذكور وكان يوحنا سنتير حاصر بلدة مين وتغلب عليها وهدم أسوارها ولكنه لما رأى قوة المقاومين أشد من قوته مال الى التقرب من ملك فرنسا وعرض عليه مسئلة زواج ابنة أخته الاميرة بلانش دوكاستيل (Blanche de Castille) بلويس ابن ملك فرنسا بشرط أن ترث هذه الاميرة أملاكه التي له في فرنسا عند عدم وجود من يرثها وجعل صداقها ٣٠,٠٠٠ مارك مع مدينة افرو (Evreux) وملحقاتها فقبل فليب ذلك وتم عقد معاهدة وتخلى عن معاضدة أرتور الذي اضطر لان يعترف باحترام حق يوحنا على مملكة برطانيه (١٢٠٠ م) وفي خلالها طلق يوحنا زوجته المسماة جان دوغلوستر (Jeanne de Glocester) وتزوج بايزابيلا ابنة دايمار (Daymar) قونت بلاد انغولم (Augoulems) لشغفه بحبها فاشتكت عائلة الزوجة المطلقة لفليب أغسطس الذي استدعى لذلك يوحنا الديوان باريس (١٢٠٢ م) فلم يلتفت يوحنا الطلب ملك فرنسا وعند ذلك

عضد فليب طلبات الامير ارتور وزحف بجيوشه وحاصر الملكة اليونوره والدة يوحنا فى مدينة ميريو (Mirebeau) فأسرع يوحنا وقاد جيشه لخلاص والدته وهزم ارتور وأسره وقتله بيده فى قلعة رُوان ورمى جثته فى نهر السين (١٢٠٣م) قال أهل التاريخ ان قتل يوحنا المذكور لابن أخيه ارتور دوق برطانية الذى كان ولى عهد ريشارد الاول كان طمعا منه فى أقاليمه التى استولى عليها بعد قتله ولما امتنع يوحنا من الانقياد لحكم رجال البير (١) عندما دعاه اليه فليب لاقامة الدعوى قامت عليه بواتو ونورمنديا وانتهز فليب فرصة هذه المخالفة الصادرة من ملك الانجليز وزحف بجيوشه وأخذ منه أقاليم نورمنديا وانجو وبرطانية وتورين وجزأ كبيرا من بواتو وضمها الى أملاكه (١٢٠٤م) واضطر يوحنا أخيرا الى التنازل عن طلباته فيها وعقد الصلح مع ملك فرنسا وخرج عليه بعد مدة أمراء انجلترة لانه سن لهم قانونا يدعى بالشرطة العظمى (Grande Charte) ثم سعى فى ابطاله فدعوا لويس بن فليب وجعلوه ملكا عليهم (١٢١٦) ثم لما مات يوحنا فى هذه السنة توجوا من بعده ابنه هنرى الثالث ملكا عليهم وبقى لويس يحارب المقاومين له الى أن انهزم فى واقعة لنكولن (Lincoln) وبارح انجلترة عائدا الى فرنسا مع بقية جيشه (١٩ مايو ١٢١٧م) وانهزمت العمارة الفرنساوية أمام كالى فى الوقت المذكور كما سيأتى ذكر ذلك مفصلا فى تاريخ انجلترة

الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٢ – ١٢٠٤) — لما كانت الامم المسيحية فى العهد المذكور مشتغلة بالتعصبات العمياء ومائلة الى حرب المسلمين وكان ذلك مما يقوى شأن رؤساء الدين انتهز البابا انوسان الثالث فرصة ميل النفوس ورغبتها لهذا الامر وأخذ يحث ملوك الفرنج وأمراءهم على اعادة الحرب فأعرضوا عنه ورفض فليب اغسطس الاشتراك أيضا فى الحرب كما رفضه أوتون الرابع امبراطور المانيا فأرسل البابا من طرفه كاهنا يدعى فولك (Foulques) أخذ يعظ الناس بالجهاد فقبل بودوان (Baudnin) كونت فلندره واشترك معه عدة أمراء منهم بونيفاس مركيز مقاطعة مونفرات ورضيت أيضا حكومة البنادقة وجهزت أسطولا جسيما مؤلفا من ٤٨٠ سفينة قادها الدوج هنرى داندالو بنفسه وبعد ان كان الغرض من هذه الحملة خلاص بيت المقدس تغيرت وجهتها الامور واقتضاها الحال وصار غرضها تغيير الدولة الرومية التى بالقسطنطينية بدولة رومانية لاطينية ثم أقلع الصليبيون على أسطول البنادقة (١٢٠٢م) واستولوا فى طريقهم على مدينة زارا ثم قصدوا القسطنطينية وحاصروها وأخذوها بعد أن طرد

(١) البير (Pair) لفظ يرد ذكره كثيرا فى تاريخ فرنسا وله عدة معان بحسب أزمنة التاريخ أولها انه كان يطلق من هذا العائلتين الاولتين على كل رجال الحرب والشجعان وفى سنة ٨٥٦م أمر شارل الاصلع بأن كبراء المملكة لا يحكم عليهم الا من مجلس مؤلف من رجال الحرب المذكورين — ثانيا كان هذا اللفظ يطلق فى زمن الاقطاعات على النواب المتساوى الدرجة المخول اليهم الحكم على أنفسهم بأنفسهم وكان الاثنا عشر نائبا التابعون لملك فرنسا مباشرة يؤلفون مجلسا مخصوصا يتركب من ستة منهم وستة من الكهنة — ثالثا من أول حكم فليب الجميل كان لملوك فرنسا ما لهم من السلطة أن يوجدوا مجالس من هؤلاء البير ويمنحوهم ما يرغبون من الامتيازات بحيث يكونون مثل أصحاب الاقطاعات فى الدرجة فكان لهم حق الجلوس فى مراكز القضاء وفى تتويج الملوك وان ينوبوا عن الامراء الاقدمين عند غيبة أمراء العائلة المالكة وغير ذلك — رابعا وبعد ذلك صار هذا اللفظ يطلق زمن التجديد (Restauration) على أعضاء مجلس الاعيان الذى تشكل سنة ١٨١٤م للنظر فى كل ما يختص بالقوة التشريعية بجانب مجلس المبعوثان وكانوا يبقون فى مراكزهم طول حياتهم وتنتقل وظائفهم منهم الى أولادهم الذكور فقط ودام الحال على ذلك الى أن أبطل هذا المجلس سنة ١٨٤٨

Digitized by Google

منها الامبراطور الكسيس انجلوس الثالث ونصبوا ابن أخيه الكسيس الملقب بالصغير مكانه (١٢٠٣م) فأخرج هذا أباه من السجن وبذل للصليبين مقابلة ذلك أموالا طائلة فغضب عليه رعاياه وخلعوه بعد ستة شهور من حكمه وقتله دوكاس مورتزوفيل (Murtzuphile) وجلس مكانه باسم الكسيس الخامس (١٢٠٤م) غير أن الصليبين خلعوه بعد بضعة أشهر لانه أشهر عليهم الحرب واستولوا على القسطنطينية ثانية تحت قيادة بودوان كونت فلندر المذكور الذي جعلوه امبراطورا وبه قامت الدولة الامبراطورية اللاطينية وعين أمراء جيشه ملوكا على مقاطعات الامبراطورية الجديدة التي لم تمكث الا ٥٨ سنة كامل

الحرب الصليبية الالبية — اعلم أنه في عهد فليب اغسطس هذا ظهرت عقيدة جديدة في الديانة المسيحية ببلدة ألبي من أعمال فرنسا الجنوبية وعرف أتباعها في تاريخها باسم البيجوا (Albigeois) حرمت ما عليه الفاتيكان من المطامع والمفاسد وجحدت سيادة البابا بالكلية وطعنت في صلاة القداس وعبادة التماثيل وانتشرت هذه العقيدة بين طوائف ألبي (Albi) النازلة حول مدينة البي بجنوب فرنسا فعد البابا انوسان الثالث أرباب هذه العقيدة الزائغة هراتقه أي خوارج مارقين من الدين واعتبر مقاومتهم فرضا وسياسة فرتب أولا في تلك الاقاليم محكمة للقصاص والتفتيش في الامور الدينية وهي المسماة بمحكمة الانكزيسيون (Inquisition) فأحدثت هذه المحكمة عدة مظالم استأ منها رعوند السادس (Raimond VI) الملقب بالشيخ كونت طولوز ودافع عن الالبيين فقامت من ذلك بينه وبين البابا مشاحنة اتهمه فيها بقتل القاصد الباباوي بطرس الكستلاني (Pierre de Castellan) مع ان القاتل له هو أحد خدمة الكونت المذكور عندما اغتاظ من شدة ما حصل منه من الوقاحة في حق سيده الكونت (١٢٠٨ م) فحرم البابا الكونت رعوند المذكور وقومه ونادى عليه بحرب صليبية ولم يكن وقع التحريض في مملكة فرنسا الى ذلك العهد الا على غزوة دينية يحمل فيها الصليب على المسلمين فلما أعلن البابا ذلك اجتمع في مدينة ليون جيش جرار في سنة ١٢٠٩ م عهدت قيادته لسيمون منتفور (Simon de Montfort) وقد دنس هذا القائد رونق شهرته بالشجاعة بما أظهره من المطامع التي سفك بسببها دماء كثيرة ارضاء لهذا البابا وجرد رعوند من أملاكه واستولى هو عليها وبعد موت سيمون سنة ١٢١٨ خرج ابنه المدعو أموري وشن غارة الحرب الدينية على الالبيين مع ان الدين لا يأمره الا بالصلح وبقي رعوند المذكور مصمما على أن لا يأذن بالتفتيش على رعاياه وتعذيبهم فحكم عليه البابا بالعقاب فدافع عن نفسه دفاعا طويلا وأخذت منه أملاكه ثانية ثم انتهى أمره بالانتصار على أعدائه وعاد الى أملاكه بعد ان دامت تلك الحروب من سنة ١٢٠٧ الى ١٢٢٢ م وقد مدح المؤرخون ملك فرنسا الذي أرسل ولده لقتال المارقين ولم ينتهز فرصة نكبة رعوند كونت تولوز ويستولي على أملاكه

الحرب الثانية بين فليب أغسطس وانجلترة — بينما كانت الحرب الدينية المذكورة قائمة بفرنسا عضد البابا أنوسان الثالث اصطفان لنغتون لرئاسة أسقفية كنتربري من أعمال انجلتره فمنعه يوحنا ملكها عن ذلك فحصل بين البابا وبينه خلاف شديد حتى حرمه البابا وأوقف القسيس عن اقامة الصلاة في بلاد انجلتره وعهد الى فليب اغسطس ملك فرنسا انفاذ حكم خلع ملك

انجلتره

انجلتره فجهز فليب الجيوش والاساطيل وعددها ١٧٠٠ سفينة فخاف يوحنا وخضع لاوامر البابا وجعل أملاكه تحت حماية الكرسى الرومانى (١٢١٣ م) فأمر البابا ملك فرنسا بالعدول عن الهجوم على انجلتره لانها أمست للكنيسة فغضب فليب سرا ولكنه أطاع أمر البابا أما ملك انجلتره فانه أخذ يستعد للانتقام من ملك فرنسا فجهز عمارة قوية وألحق بها أساطيل فلندر وجعلها تحت قيادة ارل سلسبورى (Earl Salesbury) ونشر اخبار ميله لحرب فرنسا واتحد مع قونتات فلندر وبولونيا وتولوز ومع أوتون الرابع امبراطور المانيا على تقسيم ممالك فليب أما فليب فانه تقدم بجيشه الذى كان جمعه بأمر البابا الى كونت فلندر وحاصر مدينة غاند (Gand) براو كان أخرج أسطوله المركب من ١٧٠٠ سفينة من السين وحاصر ميناء دانتزيج (Dantzig) ثم أقبلت أساطيل انجلتره وفلندر السابق الكلام عليها والزمت فليب برفع الحصار عن دانتزيج بعد أن خسر نحو ٣٠٠ سفينة من سفنه بعضها أخذه الانجليز الى بلادهم وبعضها أحرق فى الواقعة ثم نزل الانجليز الى البر لحرق الباقى ومع ذلك فان ملك فرنسا لم ينثن عزمه عن القتال بل زحف بجيشه لملاقاة جنود المخالفين عليه والتقى بهم بجوار جسر بوفين (Bouvines) (٢٧ يوليو ١٢١٤ م) وكان جيش الامبراطور أوتون يتألف من ١٥٠٠٠٠ مقاتل فصدهم فليب بقوته القليلة التى لا تبلغ نصف قوة أعدائه ولما اشتد القتال وقع ملك فرنسا من فوق فرسه فجرح ووطئته الخيل وكاد الامبراطور أوتون أن يقع أسيرا ثم تمت النصرة لفرنسا وبين الذين أسروا كثيرا من أعدائهم كان منهم فيرند (Ferrand) كونت فلندر ورونود (Renaud) كونت بولونيا وارل سلسبورى أما أوتون فانه سافر بغتة الى بلاده وأعرض عن فرنسا بالكلية فكان هذا سببا فى انحطاط شوكة هذا الامبراطور وفى السنة التالية زحف على الدانيمارقه وفتح همبرغ فحرمه البابا ثانية فاضطر الى ترك الملك سنة ١٢١٥ م أما يوحنا ملك انجلتره فانه بعد خيبته فى هذه الواقعة اضطر الى عقد هدنة مع ملك فرنسا لمدة خمس سنوات ودفع غرامة حربية قدرها ٦٠٠٠٠ مارك وفقد كونتيتى فلندر وبولونيه ولما عاد الى انجلتره قامت عليه كونتات انجلتره فخصهم نظام الحرية وهى أساس الحرية الموجودة عليها انجلتره الآن ثم بعد قليل أراد فسخ نظام الحرية المذكورة وعضده البابا أنوسان الثالث الذى أقاله من اليمين الذى حلفه عند تأسيس ذلك النظام فاندهش البارونات من خديعته لهم ودعوا لويس ز وج الاميره بلانش دوكاستيل وبايعوه ملكا على انجلتره فأخذ هذا الامير يتجهز بالاساطيل والجنود بمساعدة والده فليب اغسطس ثم أقلع لويس بهم من بلدة كاليه ونزل فى سندويج وهنالك قابله البارونات وساعدوه فنجح فى أمره سريعا وفى خلال لهامات يوحنا سنتير (١٢١٦ م) فانضم البارونات الى طاعة ابنه هنرى الثالث الصغير وانجلى لويس عن لندره عاصمة انجلتره بعد أن عقد مع أهلها هدنة ولما انتهت مدتها سعى فى نوال شئ ولكن اجتهاده كان بغير ثمرة لان الاسطول الانجليزى هزم الاسطول الذى كان جمعه لويس فى سنك بور (Cinq-Ports) وانهزم جيشه أيضا بجوار لنكولن (Lincoln) ثم عقد الصلح بين الطرفين وسلم لويس الحصون والقلاع الى هنرى الثالث وتنازل له عن تاج انجلتره وعاد لويس الى بلاده وجدد فليب معاهدة الصلح مع الانجليز لمدة أربع سنوات أخرى

وكانت وفاة فليب أغسطس فى مدينة مانت (Mantes) يوم ١٤ يوليو سنة ١٢٢٣ وسنه ٥٩ سنة وقد استحق لقب اغسطس أى العظيم لكثرة فتوحاته ومعارفه السياسية ومن مبانيه بمدينة باريس كنيسة نوتردام الشهيرة وقصر اللوفر الشهير والاسواق العمومية المسماة بالهال وأسوار مدينة باريس و بلط شوارعها وشيد بها دفترخانة لوضع دفاتر المملكة ومينا فاتسعت تجارتها بذلك وله غير ذلك من المبانى وفى أيام هذا الملك تقدم فن النحت والتصوير والعمارة الغوطية وانتظم مجمع العلماء بباريس ووقف عدة عقارات على المارستانات وخلفه فى الملك ابنه لويس الثامن

لويس الثامن الملقب بقلب الاسد (Cœur de Lion) (١٢٢٣-١٢٢٦م) — لما جلس هذا الملك سار على طريقة أبيه فى السياسة وعزم على طرد الانجليز من مملكته فأشهر حربا على هنرى الثالث ملك انجلتره وتمكن فى زمن قريب من طردهم من جهات ليموج (Limoges) وبريجو (Périgueux) واونيس (Aunis) وغيرها ومن كل ما كانوا عليكونه أمام نهر غارون بأرض فرنسا (١٢٢٤ م) وكان فى امكانه أن يأخذ منهم ما بقى خلف هذا النهر وهو اقليم غسقونيا وبوردو ولكن اقتضى الحال أن يوجه عساكره لقتال الخوارج الالبيين بجهات لنج دوق (Langue d'oc) لانه فى سنة ١٢٢٥ م قرر المجلس الكنائسى الذى انعقد بمدينة برج وضع الحجر على الكونت رعوند السابع دوق تولوز وان تكون أملاكه للويس الثامن ملك فرنسا فتقدم لويس المذكور بجيوشه الجرارة سنة ١٢٢٦ م نحو بلاد لنج دوق وامتلك جميع أماكنها المهمة عند تولوز ولاشتداد الشتاء اضطر الى الرجوع على عقبه وأصيب فى رجوعه بمرض الجذام ببلاد اوفرنى (Auvergne) ومات بها سنة ١٢٢٦ وعمره اذ ذاك ٣٩ سنة وهو أول ملك لم تفعل له المسحة الملوكية من هذه العائلة وأوقف عند موته أوقافا كثيرة على أكثر من ألفى مستشفى للمصابين بالجذام الذى انتقل بالعدوى الى عسكره وعم مملكة فرنسا كما يشهد بذلك عدد المارستانات التى وجدت فى العهد المذكور وقد رزق لويس الثامن هذا من زوجته بلانش ابنة ملك كستيله أحد عشر ولدا لم يعش منهم بعده الاخمسة وهم لويس التاسع الذى خلفه وروبرت الذى هو أصل عشيرة ارتوا (Artois) والفونس وهو أصل عشيرتى بواتو (Poitou) واوفرنى وشارل وهو أصل عشيرتى انجو ومين (Maine) وبروفنسه ونابولى وايزابلا التى ترهبت وشيدت الدير المشهور باسم لونج شامب (Longchamp) القريب من باريس وبعد موت لويس الثامن هذا بثلاث سنوات مات جنكيزخان ملك التاتار الشهير وخلفه ولده اقطاى خان الذى استولى فى أيامه هولاكو على مدينة بغداد (١٢٥٨م) وأزال منها الخلافة العباسية

لويس التاسع (١٢٢٦ - ١٢٧٠ م) — يعرف هذا الملك أيضا لدى الفرنسويين بسنت لويس (Saint-Louis) أى القديس لفضائله وأعماله جلس وعمره احدى عشرة سنة ولذلك أقيمت والدته المسماة بلانش دى كستيله نائبة عنه وكانت هذه الاميرة على جانب عظيم من النشاط والعفة تمكنت بحسن تدبيرها وحزمها من اخضاع جميع أشراف المملكة الذين أشهروا السلاح على ولدها الملك الصغير ليخرجوا من تحت حكمه وأطفأت الفتنة التى أثارها أهل مدينة باريس على أرباب جمعيات العلوم وسكنت حركة القسس الذين طلبوا الاستقلال بأنفسهم وانعزالهم بالكلية عن الدولة الفرنساوية وكان أكبر الاشراف الذين اجتمعوا على تعكير كأس

Digitized by Google

الراحة فى ابتداء حكم هذا الملك هم عمه فليب كونت بولونيه وريمون السابع كونت تولوز وتيبولت الرابع (Thiboult) كونت شمبانيه وغيرهم وكانوا يزعمون اجراء الاصلاح ونوال جميع الامتيازات التى كانت لاجدادهم ثم ألغيت فى المدة السابقة فجردت بلانش جيشا للمحافظة على تاج ولدها وبعد وقائع تمكنت من امالة تيبولت كونت شمبانيه الى جانبها وكان فى مدة زوجها يظهر الميل الى بلانش فجعلته قائدا على عموم الجيش وعندئذ تغير وجه الحرب والزم الاعيان كونت شمبانيه المذكور بأن يرد اليكس (Alix) ملكة قبرص الى بلادها وكان يريد الاقتران بها ولكنه امتنع لكونها مولودة فى الشرق وفى خلال ذلك أفرجت بلانش عن فيرند البورتغالى (Ferrand) زوج الاميرة جان كونتة فلندر (١٢٢٧م) وكان مسجونا فى برج لوفر ولما التزم فيرند طاعة بلانش وصداقتها اضطر الثائرون لتقديم الطاعة فخمدت نار الثورة أياما ثم أشعل فليب عم الملك وكونت بولونيا نيران ثورة أخرى أشد من الاولى طمعا فى نوال تخت فرنسا ولكنه خاب فى سعيه حيث انهزم أمام كونت شمبانيه ببلاد برطانيه وتم الامر بخضوع فليب ورتب له معاش سنوى وخضع أيضا بطرس موكلير (P. Mouclere) كونت برطانيه وهو الابن الرابع للويس السمين وبذلك انتهت هذه الحروب وتمكنت بلانش بعد ذلك من عقد مهادنة مع هنرى الثالث ملك انجلترة لمدة ثلاث سنوات وكل هذا لم يشغل بلانش عن تربية الملك لويس التاسع ابنها بل ربته وعلمته ألسنة عديدة وتواريخ مفيدة وآدابا جمة ولما بلغ سنه ١٩ سنة زوجته بالاميرة مرغريت ابنة ريموند بيرنجير (R. Bérenger) كونت بروفنسه (١٢٣٤ م) وبهذا الزواج أمنت مخالفة الكونت المذكور لولدها ثم لما بلغ سن لويس الحادية والعشرين وصار أهلا لان يتصرف فى ملكه بنفسه لبلوغه رشده سلمته زمام الاحكام (١٢٣٦ م)

لويس التاسع والخلاف بين البابا وامبراطور المانيا – اعلم انه فى سنة ١٢٤٠ م كان اشتهر سن لويس هذا بعدله وانصافه وتنبهه للمملكة وطارصيته وفى خلالها ظهر خلاف بين البابا غرغوار التاسع وبين فريدريك الثانى امبراطور المانيا لتأخر الامبراطور عن مساعدة الصليبيين وعدم اجابته لطلبات البابا الذى أصدر أمرا بعزل الامبراطور وطرده وكفره وعزم البابا على اجلاس الامير روبرت شقيق لويس التاسع ملك فرنسا على تخت المانيا فعارضه سن لويس فى ذلك مظهرا المحافظة على أصول العدل والانصاف أما الامبراطور فانه استعد لمقاومة البابا المذكور وذهب اليه بجيش وضايقه برومية وبعد ان أهانه وأذله ألزمه أن يخرج من رومية قهرا ووضع فريدريك يده على كل أملاك الكرسى الرومانى ثم بعد ذلك ذهب الى القدس ونجح فى سفرته حيث عقد صلحا بدون حرب مع الملك الكامل الايوبى ملك مصر تحت شروط معلومة منها استرجاع مدينة القدس مع بعض البلاد المجاورة للصليبيين كما سيأتى ولما أراد فريدريك ان يتوج نفسه ملكا على مدينة القدس اعترضه البابا المذكور ومنع الاكليروس عن تتويجه فالتزم فريدريك أن يتناول التاج من فوق قبر المسيح ويتوج نفسه بيده فحرمه البابا ثانية وبهذا السبب انتشبت الحروب مرة ثانية بينه وبين ابطال البابا سال فيها الدماء كسواقى الماء وسنأتى على شرح ذلك فى تاريخ المانيا ان شاء الله

واقعة تليرغ (Taillebourg) ١٢٤٢م – لما تزوج الفونس أخو سن لويس بالاميرة جان ورينة كونتة تولوز قلده سن لويس حكومة بواتو على حسب وصاية والدة الاميرة جان فعارض

Digitized by Google

ملتزمو بواتو هذا العمل ولما كانت بواتو هذه مرتبطة من القديم ببلاط انجلترة ترأس على الثورة التي قامت فيها أمير يدعى هوغ العاشر المعروف بلوسنيان (Lusignan) كونت بلاد دولامارش وهو ابن أخي غي ملك القدس وكان ذلك بايعاز زوجته الملكة ازابيلا وكان تزوج بها بعد موت زوجها يوحنا سنتير وهي أم هنري الثالث ملك انجلترة وكانت تسعى في اعادة الاملاك التي كانت لتاج انجلترة بفرنسا الى ابنها هنري المذكور فاضطر سن لويس عند ذلك أن يجرد الجيوش لمساعدة أخيه الفونس وعبر هنري الثالث بحر المانش بجيش لمساعدة الملتزمين المذكورين وغيرهم من أمراء اسبانيا الذين ثاروا معهم فقابلهم سن لويس وهزم ملك الانجليز في مدينة تلبورغ المذكورة ١٢٤٢ وهزم كونت دولامارش احدى مقاطعات فرنسا وأخذ منه التزامات كثيرة واضطره الى الاعتراف له بالسيادة أما كونت تولوز فبعد أن أراد تجديد العصيان خابت مساعيه فخضع للملك وأقسم اليه بأن لا يعود الى العصيان وجدد له البيعة والتزم هنري الثالث بعقد هدنة لمدة خمس سنوات (مارث ١٢٤٣ م) وبهذه المعاهدة انتقلت اكيتانيه الى ملك فرنسا وانقرض من يومئذ بها استقلال الاعيان والملتزمين وأخذت أحوال الملتزمين تضعف وبذلك تقوت حكومة فرنسا خصوصا لما تزوج شارل أخو سن لويس كونت انجو ومين بالاميرة بياتريكس (Béatrix) ابنة ووريثة ريمون برانجر الرابع آخر كونتات بروفنسه (١٢٤٦ م)

الحرب الصليبية السابعة (١٢٤٨ - ١٢٥٤ م) — سبق الكلام على هذه الحملة في الجزء الثاني من هذا الكتاب ولكن لما كان سن لويس هذا هو الذي أثارها وترأس عليها سماوات مؤرخي الفرنج أطنبوا في شرحها رأينا من المفيد أن نستوفي الكلام عليها معتمدين على ما ورد عنها في كتب الفرنساويين فنقول انه بعد أن تغلب اللاتينيون على ملك الروم بالقسطنطينية سافرت من أوروبا تجريدة خامسة في سنة (١٢١٦م) تحت قيادة اندريو الثاني (Andreo) ملك المجار وكان يرافقها عدة من الفرنساويين والجرمانيين فاجتازوا البحر بأساطيلهم ثم أرسوا على عكا ونزلوا فيها فقابلهم حكام سورية من أمراء المسلمين وقاوموهم أشد مقاومة وخرج اليهم الملك العادل من مصر بعساكرها ونزل نابلس وقاتلهم في عدة وقائع حتى أوقف تقدمهم ثم وقعت بين الفرنج انشقاقات واختلافات فرقتهم عن بعضهم وعاد ملك المجر المذكور الى بلاده بلا طائل ثم توقفت حركة الصليبيين الى أن أنهم تجددت في سنة ١٢١٨ م على ثلثمائة سفينة مشحونة بالعدد والرجال فتشددت عزائمهم وكثر طمعهم في الاستيلاء على الديار المصرية مصدر قوة المسلمين فجهزوا جيشا عظيما قاده جان دوبرين (Jean de Brienne) ملك القدس ثم نزل بأسطوله وجنوده على دمياط وحاصرها واستولى عليها وقتل وأسر من بها وجعل جامعها كنيسة عند ذلك بنى الملك الكامل مدينة المنصورة كما سبق ذلك في الجزء الثاني وحصن الفرنج دمياط ثم لما أتت النجدات للملك الكامل من الشام والشرق مع الملك الاشرف والملك المعظم عيسى هاجم الصليبيين برا وبحرا حتى تضعضع أمرهم فخاطبهم الملك الكامل في طلب الصلح تحت شروط مفيدة لهم ولكنهم رفضوها بتكبر واستمروا منتشرين على شواطئ النيل فحاصرهم المسلمون وقطعوا عليهم قطعا من ترعة المحلة أغرق جميع الاراضي التي تفصل مراكزهم عن دمياط فباتوا يشكون الجوع والغرق وندموا على رفضهم المعاهدة ولما ضعف أمرهم بقلة الوسائط اضطروا أن يتنازلوا للمصريين عن أملاكهم

Digitized by Google

فى مصر ليسمحوا لهم بالرجوع الى فلسطين وعند ذلك كلف البابا غريغوار التاسع فردريك الثانى امبراطور المانيا بالنهوض لمساعدة الصليبيين فأبطأ وأهمل وحصل بينهما ما سبق ذكره وفى تلك المدة حدثت انقسامات بين أمراء المسلمين فى الشأم ومصر فاضطر الملك الكامل ناصر الدين ابن سيف الدين سلطان مصر بعقد معاهدة مع الامبراطور فردريك المذكور الذى قدم الى عكا بأربعين ألف مقاتل وأرسل يستدعيه اليه واعدا اياه بالتنازل له عن القدس ثم عقد بينه وبين الملك الكامل المعاهدة السابق الكلام عليها وما جاء فيها مفصلا ان القدس ويافا وبيت لحم والناصرة وتوابعها تكون فى أيدى المسيحيين وتحت تصرف أحكامهم وأنه يسوغ لكل من الامتين المختار بين اجراء رسوم دينهما هنالك بكل حرية وبدون معارضة بشرط أن تبقى أسوار القدس خرابا وأن لا يعمرها الفرنج وأن لا يتعرضوا الى قبة الصخرة ولا الى الجامع الاقصى ويكون الحكم فى الرساتيق الى حاكم المسلمين وأن يكون لهم من القرى ما هو على الطريق من عكا الى القدس هذا ولم يستحسن عامة الصليبيين أعمال فردريك المذكور فلم يقبلوا شروطه ومعاهدته هذه لاعتبارهم اياه محروما ومرفوضا من قبل البابا حتى ان بطريرك اللاتين بالقدس رفض الحضور فى احتفال تتويجه هنالك فدفر دريك بيده وأخذ التاج عن قبر المسيح ووضعه على رأسه كامرثم عاد الى بلاده

هذا وبعد ان تمكن الصليبيون من استرداد عدة أراض أثناء الثورات والاختلالات التى كانت حاصلة بين أمراء الاسلام ظهر جنكيزخان الفاتح المغولى الشهير وتقدم بجيوشه التتار بافتتاحا البلاد العجمية والعربية وغيرها مدوخا الشعوب بها فأقلق بغاراته أهاليها فترا كضت قبائلها مهزومة أمامه ومن جملتها قبائل خوارزم الذين كثروا ببلاد الشام وتغلبوا عليها وفتحوا القدس ونهبوها وكادت غاراتهم تصل الى الديار المصرية ولكن عساكر الملك الصالح أيوب سلطان مصر كسرتهم سنة ١٢٤٦ م فعادوا الى مواطنهم على ساحل بحر الخرز وكان التتار هاجوا بجموعهم بلاد البلغار ودوخوا كثيرا من بلاد المجار والنمسا فارتعبت منهم باقى ممالك أوروبا حتى ان فردريك الثانى ملك النمسا وآخر كورعائلة بامبرغ (Bamberg) لما بعث الى سائر ملوك أوروبا يدعوهم الى مخالفته لصد هجمات التتار لم يجد من يلتفت اليه ويلبى طلبه وصادف فى خلالها قيام الروم وخلعهم طاعة حكومة اللاتين بالقسطنطينية حتى أصابها الضعف فاستغاث ملكها بودوان الثانى بالبابا اينوسان الرابع والتمس منه المساعدة لتسكين الاضطراب ولكن البابا كان مشتغلا بحروبه مع ملك النمسا فلم يمكنه مساعدة بودوان ولما تضايق البابا من حروبه المذكورة ترك رومية وقصد فرنسا وعقد فى مدينة ليون مؤتمرا عاما دعا اليه عدة أساقفة وكثيرا من أمراء الصليبيين الذين كانوا حضروا العرض ما أصابهم من الضعف وحضره أيضا بودوان ملك القسطنطينية ونواب ملك النمسا المدافعة عن ملكهم فى التهم الموجهة عليه من البابا ففى الاجتماع الاول الذى عقد يوم ١٨ يونيه سنة ١٢٤٥ م افتتح البابا المؤتمر وعرض عليه أربع مسائل وهى مسئلة التتار بأوروبا ومسئلة ثورة الروم بمملكة القسطنطينية ومسئلة غزوات الخوارزمية بالارض المقدسة ومسئلة الاضطهاد الذى تعمده فردريك الثانى ملك النمسا فقرر المجمع ثلاثة أمور أولا لزوم اعانة ملك القسطنطينية وتخليص قبر المسيح بتجديد حملة صليبية سابعة وان البابا والاساقفة يقدمون عشر مداخيلهم للنفقة على هذه الحملة كما أن باقى القسس يقدمون نصف عشر مداخيلهم لذلك وأصدروا فى الحال المنشورات

Digitized by Google

اللازمة لتجهيز الجنود لهذه الحملة وثانيا عزل فردريك الثانى ملك النمسا أما ملك النمسا هذا فان المجريين قاموا عليه فيما بعد لخارجهم الى أن قتل فى احدى الوقائع يوم ١٥ يونيه سنة ١٢٤٦ م وثالثا أن يلبس المطارنة أثوابا لونها أحمر علامة على استعدادهم لسفك دمائهم فى حفظ الكنيسة ثم بعد انتهاء جلسات المؤتمر المذكور أرسل البابا الى لويس التاسع ملك فرنسا يطلب منه المساعدة على الحملة الصليبية المذكورة فأجاب طلبه هذا وكان اعترى سن لويس مرض خطر فى سنة ١٢٤٤ فنذر انه ان شفى منه سافر الى أرض القدس محاربا واراد الله أن شفى من هذا الداء فلزمه الوفاء بنذره فحمل الصليب بعد ان استعد وسافر سنة ١٢٤٨ م ولم يكترث بنصائح وزرائه ومشيريه خصوصا توسلات أمه التى أبقاها نائبة عنه على المملكة مدة غيابه وكان جيشه خمسين ألف مقاتل وركب البحر من ثغر ايج مورت (Aigues-Mortes) (١٢٤٨ م) وكانت أساطيله ١٨٠٠ أسطول ابين كبير وصغير كلها من نوع الشوانى والغليوط المعروف بالطريدة وغير ذلك (١) وكان معه اخوته الثلاثة ومعظم أتباعه من الامراء والملتزمين ولما وصل جزيرة رودس أمضى فيها فصل الشتاء ولما أقبل الربيع أقلع الى مصر وكانت اذ ذاك أقوى ممالك الاسلام ثم أرسى على دمياط سنة ١٢٤٩ م قال المرحوم على مبارك باشا فى صحيفة ٤١ من الجزء الحادى عشر من الخطط انه لما وردت مراكب الفرنج البحريين الى دمياط بعث ملكهم الى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل كتابا فلما قرئ الكتاب على السلطان وقد اشتد به المرض بكى واسترجع فكتب القاضى بهاء الدين زهير بن محمد الجواب اه ولما كان الكتاب والجواب لهما شأن فى المقام رأينا أن نذكرهما فى أسفل الصحيفة (٢) لتمام الفائدة وكان السلطان حصن

(١) قال كترمير (Quatremère) فى ترجمة كتاب السلوك الطرائد جمع طريدة وهى مركب برسم حمل الخيل وأكثر ما يحمل فيها أربعون فرسا والشوانى جمع شانى أوشينية نوع من المراكب يجذف بمائة وأربعين مجذافا وفيها المقاتلة والجذافون ويسمى الغراب أيضا ويقال أخذ من العدو شانيا أو عشر شوان ويقال الحراقات والشوانى والحراقات جمع حراقة ويقال الحراريق وهى سفن فيها مرامى النار وقد يعبر عن السفينة بقطعة فيقال ركبوا البحر فى ثلاثين قطعة من أساطيلهم والاسطول كلمة رومية اسم للمراكب الحربية المجتمعة ويستعمل اسما للسفينة الواحدة فيقال وصله بعشرة أساطيل وجهز لى مائة وثمانين أسطولا وكان معهم سبعون أسطولا من غربان وشوان ومن أسماء المراكب أيضا البطسة وجمعها بطس يقال جهز الفرنج بطسا متعددة وجعلوا على سوارى البطس ابراجا ووجدوا بطسة فيها ثلثمائة من الفرنج وبطسة كبيرة تشتمل على ميرة وذخيرة ومن أسماء المراكب أيضا العشاريات يقال رميت العشاريات بين يديه اه

(٢) كتاب ملك فرنسا الى السلطان — أما بعد فانه لم يخف عليك أنى أمين الامة العيسوية كما أنه لا يخفى على أنك أمين الامة المحمدية وغير خاف عليك أن عندنا أهل جزائر الاندلس وما يحملونه الينا من الاموال والهدايا ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء ونستأسر البنات والصبيان ونخلى منهم الديار وأنا قد أبديت لك ما فيه الكفاية وبذلت لك النصح الى النهاية فلو حلفت لى بكل الايمان وأدخلت على الاقسوس والرهبان وحملت قدامى الشمع طاعة للصلبان لكنت واصلا اليك ومقاتلك فى أعز البقاع عليك فاما أن تكون البلاد لى فيا هدية حصلت فى يدى واما أن تكون البلاد لك والغلبة على فيدك العليا ممتدة الى وقد عرفتك وحذرتك من عساكر حضرت فى طاعتى تملأ السهل والجبل وعددهم كعدد الحصى وهم مرسلون اليك بأسياف القضا اه

بسم الله الرحمن الرحيم وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين أما بعد فانه وصل كتابك وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك فنحن أرباب السيوف وما قتل منا فرد الا جددناه ولا بغى علينا باغ الا دمرناه ولو رأت عينك أيها المغرور حد سيوفنا وعظم حروبنا وفتحنا منكم الحصون والسواحل وتخريبنا ديار الاواخر منكم

مدينة

مدينة دمياط وجمع ما يلزم من السلاح والذخيرة والرجال وجعل على الساحل جيشا من الخيالة رئيسهم يدعى الامير فخر الدين لمنع الصليبيين من الخروج الى البر وأغلق بوغاز النيل ومع هذا فقد خرج الفرنسيس وهجموا وانهزم فخر الدين بمن معه ودخل دمياط مرعوبا فخاف الاهالى والعساكر فتركوا المدينة هاربين فدخلها سن لويس بجموعه بلا ممانع واستولى على ما فيها ولولا خوف الفرنسيس من اتباع المنهزمين لدخلت مصر فى قبضتهم لانه لم يكن بها حينئذ جيش غير هذا الجيش ولكن قضى الله بذلك لامر يعلمه وأقام الملك ينتظر حضور أخيه بمن معه من العساكر وأما نجم الدين أيوب فبعد ان أفاق من دهشته وتفكر فى الامور نزل بمكان مدينة المنصورة وجعل الاستحكامات بينها وبين الترعة المسماة بالبحر الصغير وجمع من جهات القطر ما تعظم به القوة وتتم به المدافعة وفى أثناء ذلك اشتد مرض السلطان ومات فأخفت زوجته شجرة الدر موته خوفا من فتور همة الجيش عن الحرب وذلك باتفاقها مع رئيس الجيش عز الدين أيبك وتعاهدا على الاخفاء حتى يحضر ولدها الملك المعظم توران شاه من ديار بكر ثم أقبل جيش الفرنسيس من البر الشرقى الى البحر الصغير واجتازه بالقوة وسار حتى دخل المنصورة ومعه الكونت ارتوا أخو الملك الذى لما انفرد عن باقى الجيش هزمه المسلمون وفرقوا جمعه فأرسله الملك ليجمع الفارين وفى خلالها اجتمع أهالى المنصورة فى المقبرة الاسلامية وقاتلوا الفرنسيس الذين بداخل المدينة فأفنوهم عن آخرهم وفيهم أخو الملك وكانت فرق الفرنسيس الباقية متفرقة بعضها نازل فى البر البحرى وبعضها فى البر القبلى وبهذا الانتصار قوى أمر المسلمين واجتمع شملهم وأخذوا يناوشون فرق الفرنسيس ولولا ذلك لاخذ الفرنسيس مصر ثم قدم الملك المعظم توران شاه وتقلد أعباء الملك ثم تقاتل الفريقان قتالا شديدا هلك فيه خلق كثير وأرسل توران شاه قسما من جنوده الى مراكب الفرنسيس وكان بها ذخيرتهم وما كلهم فاستولى عليها فوقع جيشهم فى شدة من الجوع وأصابتهم الامراض وركب المسلمون أقفيتهم وعبر الفرنسيس البحر الصغير على قنطرة من خشب كانوا صنعوها ثم التقى الفريقان عند فارسكور وكانت فيها الواقعة الكبرى وانتصر المسلمون انتصارا باهرا وأسروا سن لويس ومن معه من الرجال ثم عاد المسلمون فرحين الى المنصورة وقبل ملك الفرنسيس الشروط التى اشترطها المسلمون عليه (١٢٥٠ م) وكان من مقتضاها أن يخرج من مصر بلا شرط وان يدفع تظير خلاصه من الاسر ألف ألف وزنة من الذهب (١٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك) وان تكون الهدنة بين الامتين عشر سنوات وعلى هذا سلم دمياط وخرج يقصد الشام ومعه نحو ستة آلاف من جنوده وهم الذين بقوا له وأقام فى جهات عكا أربع سنوات مشتغلا ببناء وتقوية الحصون التى كانت بأيدى الصليبيين هناك وبعد أن سكن الفتن التى كانت بين أمراء النصارى عاد الى بلاده قال المسيو نيقولا نوتوويتش (Nicolas Notovitch) فى كتابه المسمى أوروبا ومصر

والاوائل لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ولا بد أن تزل بك القدم فى يوم أوله لنا وآخره عليك فهنالك تسيء الظنون وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون واذا قرأت كتابى هذا فتكون فيه على أول سورة النحل أتى أمر الله فلا تستعجلون وتكون على آخر سورة ص ولتعلمن نبأه بعد حين ونعود الى قول الله تعالى وهو أصدق القائلين كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين وقول الحكماء ان الباغى له مصرع وبغيك يصرعك والى البلاء يقلبك والسلام اه من الخطط التوفيقية جزء ١١

Digitized by Google

المطبوع في باريس سنة ١٨٩٨ أن أول معاهدة عقدت في الامتيازات الاوروباوية هي معاهدة سنة ١٢٥١ م التي عقدها لويس التاسع ملك فرنسا مع سلطان مصر حيث نص فيها أن يكون لفرنسا قنصل دائمي في ثغر الاسكندرية وأن يكون لكل من مدن مرسيليا واربونه ومونبليه قناصل في مدن السواحل المصرية والشامية و يكون لهم مراكز تجارية وفي كل مركز قنصل محلي واذا حصل خلاف بين بحرية السفن الفرنجية وتجارهم يفصل فيه بمعرفة قاض مخصوص تعينه الحكومة المصرية أو ينتخبه المتخاصمان واذا وجد في أحد الثغور عشرة نزلاء من فرنج مرسيليا يحق لهم أن ينتخبوا قنصلا على نص قانون فرنسا القائل باتباع عوائد البلاد المصرية الاسلامية الى أن قال ثم بعد ذلك بقليل صار عموم التجار المسيحيين تحت مناظرة قناصل فرنسا في مصر وفي البلاد التابعة لها لانه كان يطلق على عموم الاوروباويين ومشذ لفظة فرنج اهـ

﴿ استطراد مهم ﴾

ابتداء امتيازات الفرنج في الشرق الاسلامي

هذا وعلى ذكر امتيازات الاجانب بالشرق رأينا من المهم ايراد بعض نصوص المعاهدات الخاصة بذلك وهي التي كتبت بين بعض ملوك مصر وملوك أوروبا معتمدين في ذلك على قول الثقات مما تيسر لنا الوقوف عليه في مؤلفاتهم لان مسئلة الامتيازات من المسائل المهمة التي تضاربت فيها أقوال المؤلفين وأغراضهم فنقول قال الموسيو بلان (Belin) ترجمان سفارة فرنسا في القسطنطينية في مقالات نشرها بالمجلة الاسيوية الفرنسوية سنة ١٨٦٠ و ١٨٦١ م ان المعاهدات التي كانت بين الخلفاء و بين الذميين من نصارى و يهود وخلافهم بالشرق هي أول العهود من نوعها بين المسلمين والمسيحيين وقال صاحب كتاب نظام الامتيازات (Régime des Capitulations) المطبوع في باريس سنة ١٨٩٨ م في صحيفة ٢٦ نقلا عن العالم هوت فوي (Hautefeuille) صاحب كتاب تاريخ القانون البحري الدولي ان شارلمان كان أول من أرسل القناصل الى بلاد العرب ودخلوا فلسطين في القرن الثامن الميلادي وتعاهد شارلمان مع الخليفة هرون الرشيد ولكن لم تصل الينا نصوص تلك المعاهدة غير أن أهمية الاسفار البحرية التي حصلت بين الامم الاوروباوية بعد اغارة برابرة الغرب جعلت لهم علاقات بحرية مع ممالك الشرق ولذلك يحق للانسان أن يظن أن أولئك الامم كان لهم قناصل بالثغور المهمة لتلك الممالك من قبل عهد شارلمان المذكور وقال غيره يحق أن يقال ان الامتيازات الاوروباوية في الشرق تبتدئ من عهد الصلح الذي عقد بين السلطان صلاح الدين الايوبي و بين الصليبيين حيث أباح لهم فيه أن يستوطنوا مصر وقد جاء منهم عدة تجار وأقاموا بالمحلة المعروفة بالموسكي من القاهرة حيث قنطرة الخليج المسماة بقنطرة الموسكي التي بناها عز الدين أحد أقرباء صلاح الدين (١١٩٣ م) وذكر المعلم ميشيل اماري (Michele Amari) في كتابه الذي جمعه من دفترخانة فلورنسه بخصوص المكاتبات الرسمية التي تبودلت بين حكام جمهورية بيشه (Pis) وفلورنسه و بين خلفاء الموحدين بتونس ونوابهم بنواحيها و بين هؤلاء الحكام وسلاطين مصر من المماليك مثل برسباي وقايتباي وقانصوه الغوري والمعاملات التجارية بين رجال فلورنسه و بيشه الذين كانوا يترددون على مصر وتونس ونصوص

بعض

Digitized by Google

بعض المعاهدات المذكورة التى سنتكلم عليها ان شاء الله تعالى بتاريخ ايطاليا وقال المرحوم على مبارك باشا فى صحيفة ٧٧ من الجزء الرابع عشر من الخطط التوفيقية عند كلامه على مدينة فوه انها كانت فى القرن الخامس عشر الميلادى من أعظم المدن المصرية بعد القاهرة كما ذكر ذلك العالم النباتى بلون (Pierre Belon) الفرنساوى الذى ساح فى الديار المصرية بعد تغلب الدولة العلية عليها بخمس عشرة سنة قال العالم المذكور انه كان بمدينة فوه المذكورة عدة قناصل للدول الفرنجية كما كان ذلك فى الاسكندرية ونحوها من مدن مصر الشهيرة القريبة من البحر وكانوا كالرهائن عن الدول الخارجية قال خليل الظاهرى فى الكلام على الاسكندرية وبه أى ثغر الاسكندرية قناصل هم كبار الافرنج من كل طائفة رهينة كلما حدث من طائفة أحدهم ما يشين فى الاسلام يطالب منه اه وذكر دساسى فى الجزء الثانى من كتابه الانيس المفيد نقلا عن العالم مران بخصوص تاريخ دخول القناصل الديار المصرية وغيرها من بلاد المشرق قال كان ببلاد الشام فى سنة ١١٧ ١ ميلادية قنصل من بلاد وندق وأنه حصلت معاهدة بين البندقانيين والملك العادل سلطان مصر سنة ست وثلاثين وستمائة هجرية (١٢٣٨ م) وان القناصل ترتبت بمصر قبل سنة ستمائة وثمانين هجرية وفى تلك السنة عقدت معاهدة بين الملك المنصور أبى الفتح قلاوون و بين الملك الفونس الثالث (Alphonse III le Magnifique) ملك بلاد أرجون وجزيرة صقلية وتكلم عن جملة معاهدات عقدت فى هذا التاريخ وعلى أمور خاصة بالتجارة بين رعايا الطرفين وعلى حوادث البحر وعلى ما كان يلزم من المساعدات للراكب الغرقى وعلى لصوص البحر والاسارى من الجهتين وعلى الدعاوى التى كانت بين التجار وعلى الهاربين والحجاج وعوائد الديوان من الجرك ونحوه اه ومما يؤيد قول القائلين بأن الامتيازات والمعاملات مع الاوروباويين كانت من أوائل القرن الثانى عشر ما ذكر فى صورة المعاهدة المبرمة فى صفر سنة ٥٦٨ هـ الموافق ٢٥ سبتمبر سنة ١١٧٣ م بين جمهورية بيشه والسلطان صلاح الدين الايوبى وهى المذكورة بأسفل الصحيفة (١) وكانت وظائف قناصل

---

(١) (بسم الله الرحمن الرحيم) هذه صورة الوفاق الذى أبرمه صلاح الدين سلطان بابل مع جمهورية بيزا بواسطة الديرانه والوزير المرسل اليه من قبل القناصل يقول فيه صلاح الدين ان الاحكام الآتى ذكرها يجب أن تكون نافذة فى عموم سلطنتى و ينبغى أن يحاذر الجميع من مخالفة أوامرى فى كافة مملكتى وعلى جميع رعاياى أن يراعوا الاتفاق الصادر عنى ويحترموه لان كتابتى واجبة الاعتبار فى أيدى البيزانيين وحال ابرامى هذا العقد والوفاق أنا صلاح الدين كانت السنة ١١٧٤ لميلاد سيدنا عيسى الموافقة لعام ٥٦٩ للهجرة النبوية صلى الله على صاحبها وسلم اذ فى السنة المرقومة حضر الى بلاطنا الملوكى ذى العظمة والعدل حضرة الديرانه وميليتى رسولا مكرما من قبل قناصل بيزا وأحضر معه الكتب من قنصلاتو الجمهورية المشار اليها فاستمعنا أقواله من فمه وتلونا الكتب التى أحضرها ففهمنا منها أن البيزانيين راغبون فى ولائنا واطاعة أوامرنا والمجىء الى مملكتنا كما فى الماضى وقد فهمنا أيضا من الرسول الموى اليه ومن الكتب المذكورة انه أى الرسول المذكور حضر باسم قناصل بيزا وجمهوريتها بحيث اعتبرنا ان لسانه لسانهم وأيديه أيديهم وان كل ما أجريناه نحن صلاح الدين معه يكون جاريا نافذا بتمامه و بما ان تحقق لدينا انه حضر باسم جميع قناصل بيزا وجمهوريتها أدخلناه الى بلاطنا الملوكى وسألناه من السبب الذى ألجأ القناصل والجمهورية لارساله الينا وعما يريد منا فأجابه بكلام يعود لشرفنا ولشرفهم و يكون سببا للولاء والسلم فيما بيننا فتكلم الرسول بكلام نذكره لكم وأجبناه عما أجبناه فنذكر جوابنا لكم وقد أثبتنا كل ذلك فى عقد يحفظونه فى أيديهم كشهادة بيننا و بينهم تثبت الوفاق الذى قررناه فيما بيننا

ومن مقتضى الوفاق المذكور انه اذا حدث أمر مخل من رعاياى أنا صلاح الدين فى الديار البيزانية أو من البيزانيين فى

Digitized by Google

الفرنج يومئذ منحصرة فى حماية تجار البر والبحر من رعاياهم ومراقبة المعاهدات المتعلقة بالتجارة وما أشبه ذلك وفى اجراء الاحكام على رعاياهم واعطاء المعلومات اللازمة لدولهم وذكر فى الخطط

ممالكى يرجع كل منا الى الوفاق المذكور كأنه شاهد علينا الزمن طويل ذلك ماسبب حضور الرسول المشار اليه الى بلاطنا الملوكى مراعاة لمصلحة التجار الذين يجيئون الى بلادنا ويحضرون معهم أصناف السلع والبضائع ويؤدون عليها الرسوم ..... (غير مقروء نظر القوانين العثمانية فى كتاب جنسكى) نعم ان الرسوم التى كانت تحصل على الاخشاب والحديد والزفت كانت تبلغ عادة تسعة عشر بالمائة غير أن البيزانيين التمسوا منا تخفيض هذه الرسوم فخفضناها الى عشرة بالمائة على الاصناف المذكورة والى عشرين بالمائة على الغلال بلا زيادة ولا نقصان أما سائر البضائع التى تباع فى الجمرك فتؤدى عليها نفس الرسوم التى كانت تؤدى قبلا على أن فى جميع هذه المعاملات والخصوصات المذكورة يقتضى معاملتهم معاملة حبية وتحصيل الرسوم منهم بطريقة لائقة ودية فلا يعطون شيأ لاحد من موظفى الجمرك كبيرا كان أو صغيرا ولا يلحق بهم ضرر ولا تهان بضائعهم بصورة تستوجب عليهم بيعها بأبخس الاثمان واذا أرادوا شراء مؤنة لسفنهم أو لغير هذا القصد لا يؤخذ منهم شئ من الرسوم الا ما كان من العدل تحصيله منهم

ولا يبدى بحقهم ما يوجب قلقهم وتضررهم واذا جاء وقت اقلاع سفنهم لا تؤخذ منهم القلوع ولا الدفات ولا خلافها من أوائل سفنهم وليس لخفير الجمرك ولا لشاحنى البضاعة ولا لارباب الزوارق أن يطلبوا منهم دفع شئ خلاف ما يصادق عليه أقدم التجار العيسويين أو الدونا (هكذا) التى كفلها المؤمنون

وقد رجونا بأن نسمح لهم بفندق يتخذونه لهم وقاية لقنفياتهم وأشخاصهم كما انهم التمسوا أن نفرد لهم حماما فسمحنا لهم به فيدفع الجمرك عنهم كل شئ بحيث اذا توجهوا يوما للاستحمام لا يمكن الغريب منهم من التوجه اليه ولا أن يكون فيه أحد سواهم أما الكنيسة التى كانت تخصنا وأعطيناهم اياها فهم يملكونها كذى قبل واذا توجهوا اليها لا يكدرون لا فى ذهابهم ولا حال وجودهم فيها ولا يجوز حصول ضجيج واضطراب داخل الكنيسة يمنعهم من سماع كلام الله حسب شريعتهم

وقد التمسوا أن يكون لديهم فى فندقهم ميزان لاستعماله فى أمورهم فيزنون ما يشترون وما يبيعون فسمحنا لهم فى اقتنائه لعلمنا أن التاجر لا يستطيع أن يشترى ويبيع بغير عدل فاذا اشترى واشيأ من مكان ووزنوه غير انهم فوجدوه أقل زنة ينبغى حينئذ العمل بوجب ارادتنا وهى أن ترد اليهم أموالهم وأن يعاملوا بكمال العدل

وشكوا الينا أن جماعتنا يأختون منهم بضائعهم ولا ينقدونهم ثمنها الا بأنقص مما ساموها فيبخسون أثمانها ثم يعدلون عنها فأصغينا لهذه الشكوى وأمرنا ان كل بضاعة ابتاعها رعايانا وجماعتنا وجب عليهم أخذها بما تساويه من الثمن دون تنزيل شئ منه وان كل ما تم شراؤه برسم بلاطنا الملوكى (هكذا) يثمن بداءة ذى بدء حيث لا يتضررون فيسلمون بضائعهم برضاهم مراعاة لجانب العدل واذا أراد عمالنا ترحيل أحد من رعايانا مع البيزانيين لا يجرى ذلك الا برضاهم ومجرد ارادتهم وقد أمرنا عمالنا عن الماضى والمستقبل أن لا يتداخلوا فى الدعاوى التى تنشأ بين التجار بغير رضائهم وأن لا يصدروا قضية ما على التجار قصد توقيفهم من أعمالهم كى لا يشكوا من عدم سيرهم على المنهج القويم ويتضررون من عدم احقاق الحق أو من تكديرهم لان ارادتنا القطعية تقضى بوجوب معاملتهم بمنتهى العدل والحق ان فى أعمالهم الماضية والحاضرة وان فى جميع أمورهم المستقبلة

ثم طلب البيزانيون منا أن نرخص لهم فى جر سفنهم الى البر فسألناهم عن مقدار الرسوم الواجبة للجمرك فى مثل هذه الحالة واذا تحقق لدينا ان الجمرك يأخذ ليرتين (لعل الليرة هنا عقام الفرنك الواحد) على جر السفينة الى البر وليرتين على اعادتها الى البحر وأربعة ليرات على الدفعة ولما كان البيزانيون يشكون من جسامة هذه الرسوم وكان فى علمنا ذلك سيما لما يتكلفونه من عظيم النفقة فى سبيل ما ذكر فقد أعفيناهم من جميع الرسوم المنوه عنها على حين لم تعف منها أمة سواهم

وقد شكوا الينا أن بعض الناس يبتاعون منهم بضائع فيأخذونها الى بيوتهم ثم يردونها بعد اتلافها وابخاس قيمتها حال كونهم قد عاينوها قبل ذلك وفحصوها مدققا فسمعنا شكواهم من هذا القبيل وأمرنا عمالنا بأن لا يلحق بالتجار ضرر بسبب ما ذكر اذا حدث أمر مثل الذى أوجب شكواهم وألزمنا كل من يتبع شريعتنا بأن يحكم بالعدل والمساواة بين العيسوى وجماعتنا بلا استثناء بينهم

التوفيقية صورة مشارطة صلحية عقدت بين الجنويزيين وبين السلطان المنصور قلاوون الصالحي وولده السلطان الاشرف في ١٣ مايو سنة ١٢٩٠ م وسنذكرها في أسفل الصحيفة (١) هي ومعاهدة أخرى

وقد شكى البيزانيون الينا بأن حال وسق سفنهم يطلب العملة المشتغلون في الوسق والخدمة ما ليس يستحق لهم ويتلفون البضائع بدون أن يعود من ذلك منفعة للجمرك فأمرنا القضاة والامراء والمأمورين والمحتسبين ورؤساء الادارات بأن لا يسمحوا لاحد أن يجلب للبيزيين ضررا في كل ما كان داخلا في اختصاصاتهم كي لا يوجه لبلاطنا الملوكي عتبا أو لوما وكي لا تلقى الرهبة في أسواق التجارة بسبب سوء المعاملة

ثم التمسوا التماسا من مقتضاه انه اذا توفى بيزاني في احدى بلادنا أو ترك نقودا وأموالا يأخذها رفقاؤه ليسلموها الى أهله وذويه في بلده على أن يحرر من أخذ هذه المتروكات كتابا أو يعطى كفالة يقضيان عليه بتسليم جميع الاعيان المتروكة الى أهل المتوفى فسمحنا لهم بما ذكر لان بذلك أمرت الشريعة الغراء والى كذا يشير العدل

ورجوا البيزانيون أن نمنع جماعتنا من الاضرار بهم بحرا ومن مقاومتهم والاجحاف بحقوقهم فسمعنا ما يشكونه من هذا القبيل وأمرنا رؤساء سفننا وأميرالبحر بأن لا يستولوا أبدا على الاسلحة الموجودة في السفن البيزانية وان لا يبدوا بحقهم معاكسة أصلا بل يغيثونهم ويحمونهم ما استطاعوا وطلبوا منا أن نعفيهم من أداء الرسوم على النقود الذهبية والفضية التي يجلبونها من بلادهم وأن نكتفي بأخذ الرسوم على ما يبتاعونه من البضائع فقط قصد تصديرها فأجبنا سؤالهم وعفونا عن سيآتهم ونسينا كل خلاف كان بيننا وبينهم قديما لما اعتقدناه من شديد ميلهم في موالاتنا والتودد الينا واطاعة أوامرنا

وبناء على ذلك أمرنا عملاءنا في جميع بلادنا بأنهم حال سماعهم تلاوة تحرير اتناهذه واطلاعهم عليها ينقادون اليها ويطيعون أحكامها تمام الانقياد والطاعة وان من خالف منهم أمرا من أوامرنا كان شخصه وأمواله عرضة للدعوى

ولقاء تعطفنا تناهذه وعد البيزانيون وأبرموا وفاقا معنا بأنهم يحمون ممالكنا برا وبحرا مرا وعلنا عزيد الامانة والسرعة وأن لا يعضدوا أعداءنا علينا وأن لا يتلفوا بلادنا وقلاعنا الواقعة في المشرق والمغرب وتعهدوا بأن لا يحضروا معهم لا برا ولا بحرا من كان قاصدا الحاق الضرر ببلادنا ولا أن يرافقوا من كان قاصدا محاربتنا ومعاصرة أراضينا ولا أن يسعوا في ضرر التجار من جماعتنا وخيانتهم وغشهم بل أن يحافظوا على من رافقهم من تجارنا محافظتهم على أنفسهم ويحمونه وأن لا يسلموه للاعداء

وقد اتفقنا على أن يجلبوا من بلادهم كل ما كان لازما من أسلحة وحديد وخشب وزفت وغير ذلك من حاصلات ديارهم مما ير بدون جلبه الى ممالكنا

وتحرر هذا الوفاق بيننا وبينهم ايذانا بوقوع الوفق والسلم التامين فيما بيننا وليكون معلوما بأنهم اذا أخلوا بشئ مما اتفقنا عليه بضمن اتفاقنا هذا بحكم العدل فلا نرعى له ذمة ولا نعمل به وبعد ان ربطت شروط هذا الوفاق تليت على الرسول المشار اليه فسمعها ووعى أحكامها وأقسم اليمين الكافلة لانفاذ ما وقع الاتفاق عليه بحضرة الاسقف والقسس وأخذ الكتاب الممضى منا في ذلك جميعه وتم تحرير ما ذكر وجرى ما سبق شرحه في مدينة بابل (بالقرب من مصر العتيقة) في الخامس عشر من شهر صفر الموافق للخامس والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١١٧٣ بشهادة شهود مرقص بطريرك الاسكندرية وبابل والنوبة وصوبا والاسقف ميخائيل والقس هومودبو قس مصر وحرر بيد أبوالخير بن هومودبو القس المذكور اهـ من قاموس القضاء جزء ٥ صحيفة ٩٨

(١) أقول وأنا البرت أسبينولا رسول البوزسطا وذكر كان والقباطين أوبرت اسبينولا وكرات دوريا والمشايخ وأصحاب الرأى والمشورة كمون الجنوية أحلف بالله والله والله العظيم وحق المسيح وحق الصليب المقدس وحق الانجيل المقدس الاله الواحد وحق الست مريم وحق الاربعة أناجيل لوقا ومتى ومرقس ويوحنا وصلواتهم وتقديساتهم وحق الصوت الذي نزل من السماء على نهر الاردن فزجرهم وحق الآباء والمعمودية وحق الانجيل المقدس وحق ديني ومعبودي انني ألتزم لمولانا السلطان الملك المنصور السيد الاجل العالم العادل سيف الدنيا والدين سلطان مصر والشام وحلب وسلطان اليمن والحجاز وسلطان بيت مكة البيت العالي أعزه الله تعالى سلطان القدس والبلاد المقدسة وبلاد الساحل وفتوحات المسلمين وفتوحات سلطان طرابلس الساحل الى طرابلس المغرب سلطان الشرق والغرب سلطان الملوك ملك سائر العرب والعجم سلطان جميع الاسلام قلاوون الصالحي وولده السلطان الملك الاشرف صلاح

Digitized by Google

عثرنا عليها فى كتاب صبح الاعشى للقلقشندى لاهميتها فى هذا الموضوع الذى التزمنا بسطه للقراء بحسب ما تسمح به الظروف وليكون انموذجا يعرف منه صورة المعاهدات فى ذلك الزمن قال القلقشندى عقدت معاهدة (١) بين الملك الاشرف صلاح الدين خليل ابن الملك المنصور سيف الدين قلاوون وبين دون جا كم (Jayme II ou Jacques) الرى دراغون صاحب برشلونه فى بلاد الاندلس على يد رسله عنه وعن أخويه وصهريه الآتى ذكرهم فى صفر سنة ٦٩٢ ﻫ

الدنيا والدين خليل انه يحفظهم وينصرهم عن رسوم البوزسطا والقباطين والمشايخ كمون الجنوية المذكورين وجميع الجنوية أنهم يحفظون ويحترمون ويكرمون جميع المسلمين رعاية مولانا الملك المنصور وولده الملك السلطان الاشرف الذين يجيؤن الى بلاد مولانا السلطان والذين يخرجون من بلاد مولانا السلطان من سائر البلاد والاقاليم من بلاد الفرنج والروم والمسلمين من الرسل والتجار وغيرهم سالمين ومكثورين فى السفن والمراكب والطرائد والشوانى وغيرها من المراكب والبضائع والنفوس وأموالهم ومماليكهم وجواريهم فى مراكبهم فى البر والبحر وفى جميع أماكن كمون الجنوية وما يفتحونه من البلاد ويحكمون عليه فى تاريخ هذه الهدنة وما دامت الليالى والايام والشهور والسنوات والاعوام دائما وأن جميع الجنوية يكرمون ويحترمون ويحفظون جميع المسلمين الذين يحضرون الى بلاد مولانا السلطان والذين يخرجون ويسافرون منها فى البر والبحر لا يتعرضون اليهم ولا يمكنون من التعرض لهم بأذية ولا ضرر ولا عدوان لا فى نفس ولا فى مال لا فى مجيئهم ولا فى رواحهم ويكونون آمنين مطمئنين فى نفوسهم وأموالهم وأرواحهم من جميع الجنوية وممن تحت حكم كمون الجنوية على ما تقدم ذكره وأنهم يحفظون جميع التجار المسلمين وغيرهم الذين يسافرون فى مراكب الجنوية وغيرهم رائحين وجائين فى جميع الاماكن التى بكمون الجنوية وغيرهم من بلاد الفرنج وبلاد الروم وبلاد المسلمين ويكون من يسافر من المسلمين معهم ومع غيرهم محفوظين آمنين مطمئنين لا يتقوى عليهم أحد ولا يؤذيهم فى سفرهم ولا فى مقامهم ولا سكناهم وان سافر أحد من المسلمين فى مراكب غير مراكب الجنوية من أعداء الجنوية أو غيرهم لا يتعرضون لأحد من المسلمين وان أخذوا عدوهم يكون المسلمون جميعهم محفوظين آمنين فى نفوسهم وأموالهم ومماليكهم وجواريهم فى رواحهم ومجيئهم ولا يعوقهم الجنوية بسبب أحد ولا يأخذون المسلم عن غيره ولا يطلبونه بدين ولا بدم ان لم يكن ضامنا ولا كفيلا استقرت هذه الفصول وهذا الصلح وهذه الشروط بين مولانا السلطان الملك المنصور وولده الاشرف وبين البوزسطا والقباطين والمشايخ والمشورين من أصحاب الرأى والمشورة كمون الجنوية المذكورين وحلف على ذلك البرت اسبينولا الرسول المذكور بحضور بونفالش أسطورلاو دانيال تنكر يدوافر بخسيكر روب ورتريو كنجراو رافرا القنصل وتنكر يدفليرى وكتب بتاريخ ثالث عشر مايو سنة ألف ومائتين وتسعين من مولد عيسى عليه السلام

وكتب بين السطور بالفرنجى نسخة ذلك سطرا سطرا وكلمة كلمة وكتب الرسول خطه أعلى هذه الهدنة بالفرنجى بيده والكاتب بالفرنجى بين السطور المعروف بالحاكم (القاضى) بلنجى الجنوى كاتب الرسول وكون الجنويه (نسخة خط الاسقف الذى حلف الرسول) حلف الرسول المذكور البرت اسبينولا ومن حضر صحبته من القناصلة وتجار الجنوية على نسخة هذا اليمين والصلح والفصول المشروحة فيها بتاريخ رابع عشر ايار سنة ستة آلاف وسبعمائة وثمانية وتسعين (من تاريخ الدنيا) بحضورى وأنا الفقير الحقير بطرس أسقف مصر والانجيل المطهر بين يدى ويدى الرسول وهو واقف مكشوف الرأس وكتب ذلك بخط يدى شهادة عليهم بأنهم حلفوا باليمين العظيمة على الانجيل والصليب بحضور من يضع خطه من الكهنة والرهبان (نسخة خطوط من حضر هذا الحلف) حضرت ذلك وشهدت به وكتبته ارسانى الرئيس بدير القصر حضرت ذلك وشهدت به وكتبته الشرف مناحضر ذلك وشهد به ميخائيل الراهب من طور سيناء وبعد ذلك بالفرنجى خطوط جماعة بونفاس القنصل الجنوى انسكير صاحب السفينة التجار دانيال شمار التجار رافرا القنصل المحتشم دينير ركة تنكر تحررت هذه الفصول المذكورة فى يوم الاحد ثانى جمادى الاولى سنة تسعة وثمانين وستمائة أحسن الله خاتمتها وقرأ ما فيهما من القلم الفرنجى المنقول الى العربى شمس الدين عبد الله المنصورى وترجم عليه لتحقيق التعريف والشهادة بصحته سابق الدين الترجمان وعز الدين ايبك الكبكى الترجمان فى التاريخ المذكور اﻫ من صحيفة ٨٠ من الجزء ١٤ من الخطط التوفيقيه

(١) استقرت المودة والمصادقة بين الملك الاشرف وبين حضرة الملك الجليل المكرم الخطير الباسل الاسد الضرغام

Digitized by Google

(عود) هذا ولما بلغ سن لويس وهو بفلسطين خبر موت أمه بلانش دى كستيل (١٢٥٣م)

المفخم المبجل دون جاكم الريدراغون وأخويه دون فلدريك ودون بيدرو وبين صهريه الذين طلب الرسولان الواصلان الى الابواب الشريفة عن مرسلهما الملك دون جاكم أن يكونا داخلين فى الهدنة والمصادقة وان يلزم الملك دون جاكم منهما بكل ما التزم به عن نفسه و يتدرك أمرهما وهما الملك الجليل المكرم الخطير الباسل الاسد الضرغام دون شانجه ملك قشتالة وطليطلة وليون و بلنسية واشبيلية وقرطبة ومرسية وجيان والغرب الكفيل بملكة اراغون وبرتقال والملك الجليل دون الفونش ملك برتقال من تاريخ يوم الخميس تاسع عشر صفر سنة اثنتين وتسعين وستمائة الموافق لثلاث بقين من جنبر سنة ألف ومائتين اثنتين وتسعين لمولد السيد المسيح عليه السلام وذلك بحضور رسل الملك دون جاكم وهما المحتشم الكبير رمودعار موندا لحاكم عن الملك دون جاكم فى بلنسية ورفيقه المحتشم العهدة ربعون المان قرارى برجلونة الواصلين بكتاب الملك دون جاكم المختوم بختم الملك المذكور المقتضى معناه انه حملهما جميعا أحوالهم ومطلوبهم وسأل أن يصدقا فيما يقولانه عنه فكان مضمون مشافهتهما وسؤالهما تقويم قواعد الصلح والمودة والمصادقة والشروط التى يشرطها الملك الاشرف على الملك دون جاكم وانه يلتزم بجميع هذه الشروط الآتى ذكرها ويحلف الملك المذكور عليها هو وأخواه وصهراه المذكورون ووضع الرسولان المذكوران خطوطهما بجميع الفصول الآتى ذكرها بأمره ومرسومه وان الملك دون جاكم وأخويه يلتزمون بها وهى استقرار المودة والمصادقة من التاريخ المقدم ذكره على ممر السنين والاعوام وتعاقب الليالى والايام برا وبحرا سهلا ووعرا قربا وبعدا وعلى أن يكون بلاد السلطان الملك الاشرف وقلاعه وحصونه وثغوره وممالكه وموانى بلاده وسواحلها وبرورها وجميع أقاليمها ومدنها وكل ما هو داخل فى مملكته ومحسوب منها ومنسوب اليها من سائر الاقاليم الرومية والعراقية والمشرقية والشامية والحلبية والفورية واليمنية والحجازية والديار المصرية والغرب وحد هذه البلاد والاقاليم وموانيها وسواحلها من البر الشامى من القسطنطينية والبلاد الرومية الساحلية من طرابلس الغرب وسواحل برقة والاسكندرية ودمياط والطينة وغزة وعسقلان ويافا وارسوف وقيسارية وعثليث وحيفا وعكا وصور وصيدا وبيروت وجبيل والبترون وطرابلس الشام وانطرسوس ومرقيا والمرقب وساحل المرقب وبانياس وغيرها وجبلة واللاذقية والسويدية وجميع الموانى والبرور الى ثغر دمياط وبحيرة تنيس وحدها من البر الغربى من تونس واقليم افريقية وبلادها وموانيها وطرابلس الغرب وثغورها وبلادها وموانيها وبرقة وثغورها وبلادها وموانيها الى ثغر الاسكندرية ورشيد وبحيرة تنيس وسواحلها وبلادها وموانيها وما تحويه هذه البلاد والممالك المذكورة والتى لم تذكر والمدائن والثغور والسواحل والموانى والطرقات فى البر والبحر والصدور والورود والمقام والسفر من عساكر وجنود وتركمان وأكراد وعربان ورعايا وتجار وشوانى ومراكب وسفن وأموال ومواش على اختلاف الاديان والانفار والاجناس وما تحويه الايدى من سائر أصناف الاموال والاسلحة والامتعة والبضائع والمتاجر قليلا كان أو كثيرا قريبا كان أو بعيدا برا كان أو بحرا آمنة على الانفس والارواح والاموال والحريم والاولاد من الملك دون جاكم ومن أخويه وصهريه المذكورين ومن أولادهم وفرسانهم وخيالتهم ومعاهديهم وعمائرهم ورجالهم وكل من يتعلق بهم وكذلك كل ما سيفتحه الله تعالى على يد الملك الاشرف وعلى يد أولاده وعساكره وجيوشه من القلاع والحصون والاقاليم فانه يجرى عليه هذا الحكم وعلى أن يكون بلاد الملك دون جاكم وبلاد أخويه وصهريه ومما لكه المذكورة فى هذه الهدنة وهى بلاد أرغون وأعمالها وبلادها صقلية وجزيرتها وبلادها وأعمالها ربولية وأعمالها وبلادها جزيرة مالطة وقوصرة وبلادها وأعمالها ميورقة ويابسة وبلادها واربودان وأعمالها وما سيفتحه الملك دون جاكم من بلاد أعدائه الفرنج المجاورين له بتلك الاقاليم آمنين من الملك الاشرف وأولاده وعساكره وجيوشه وشوانيه وعمائره هى ومن فيها من فرسان وخيالة ورعايا وأهل بلاده آمنين مطمئنين على الانفس والاموال والحريم والاولاد فى البر والبحر والصدور والورود وعلى الملك دون جاكم هو وأخواه وصهراه أصدقاء من يصدق الملك الاشرف وأولاده وأعداء من يعاديهم من سائر الملوك الفرنجية وغير الملوك الفرنجية وان قصد الباب برومية أو ملك من ملوك الفرنج متوجا كان أو غير متوج كبيرا كان أو صغيرا أو من الجنوية ومن البنادقة ومن سائر الاجناس على اختلاف الفرنج والبيوت بيت الاخوة الداوية الاسبتارية والروم وسائر أجناس

Digitized by Google

وكانت قائمة بالحكم فى فرنسا بالنيابة عنه تجهز للعودة الى بلاده وسبب موتها المصائب والاحزان التى

النصارى مضرة بلاد الملك الاشرف بمحاربة أو أذية عنهم الملك دون جاكم هو وأخواه وصهراه ويردونهم ويمرون شوانيهم ومراكبهم ويقصدون بلادهم ويشغلونهم بنفوسهم عن قصد بلاد الملك الاشرف ومواني وسواحله وثغوره المذكورة وغير المذكورة ويقاتلونهم فى البر والبحر بشوانيهم وعمائرهم وفرسانهم ورجالتهم وعلى انه متى خرج أحد من معاهدى الملك الاشرف من الفرنج عن شروط الهدنة المستقرة بينه وبينهم ووقع ما يوجب فسخ الهدنة لا يعينهم الملك دون جاكم ولا أحد من أخويه ولا صهريه ولا خيالتهم ولا فرسانهم ولا أهل بلادهم بخيل ولا خيالة ولا سلاح ولا رجالة ولا مال ولا نجدة ولا ميرة ولا مراكب ولا شوانى ولا غير ذلك وعلى انه متى طلب الباب برومية وملوك الفرنج والروم والتتار وغيرهم من الملك دون جاكم ومن أخويه أومن صهريه أومن بلادهم انجادا ومعاونة بخيالة أو مال أو مراكب أو شوانى أو سلاح لا يوافقهم على شئ من ذلك لا فى سر ولا جهر ولا يعين أحدا منهم ولا يوافقه على ذلك ومتى اطلعوا على ان أحدا منهم يقصد بلاد الملك الاشرف بمحاربة أو مضرة يعرف الملك الاشرف بخبرهم وبالجهة التى اتفقوا على قصدها فى أقرب وقت قبل حركتهم من بلادهم ولا يخفيه شيأ من ذلك وعلى انه متى انكسر مركب من المراكب الاسلامية فى بلاد الملك دون جاكم أو بلاد أخويه أو بلاد صهريه أن يخفروهم ويحفظوا مراكبهم وأموالهم ويساعدوهم على عمارة مراكبهم ويجهزوهم هم وأموالهم وبضائعهم الى بلاد الملك الاشرف وكذلك اذا انكسر مركب من بلاد دون جاكم وبلاد أخويه وصهريه ومعاهديه فى بلاد الملك الاشرف يكون لهم هذا الحكم المذكور أعلاه وعلى انه متى مات أحد من تجار المسلمين ومن نصارى بلاد الملك الاشرف أو ذمة أهل بلاده فى بلاد الملك دون جاكم وبلاد أخويه وصهريه وأولاده ومعاهديه لا يعارضوهم فى أموالهم ولا فى بضائعهم ويحمل مالهم وموجودهم الى بلاد الملك الاشرف ليفعل فيه ما يختار وكذلك من يموت فى بلاد الملك الاشرف من أهل مملكة الملك دون جاكم وبلاد أخويه وصهريه ومعاهديهم فلهم هذا الحكم المذكور أعلاه وعلى انه متى عبر على بلاد الملك دون جاكم أو بلاد أخويه وصهريه ومعاهديه رسل من بلاد الملك الاشرف قاصدين جهة من الجهات القريبة أو البعيدة صادرين أو واردين أو رماهم الريح فى بلادهم يكون الرسل وغلمانهم ومن يصل معهم من رسل الملوك أو غيرهم آمنين محفوظين فى الانفس والاموال ويجهزهم الى بلاد الملك الاشرف وعلى ان الملك دون جاكم وأخويه وصهريه متى جرى من أحد من بلادهم قضية توجب فسخ المهادنة كان على كل من الملك دون جاكم وأخويه وصهريه طلب من يفعل ذلك وفعل الواجب فيه وعلى ان الملك دون جاكم وأخويه وصهريه بفسح كل منهم لاهل بلاده وغيرهم من الفرنج انهم يجلبون الى الثغور الاسلامية الحديد والبياض والخشب وغير ذلك وعلى انه متى أسر أحد من المسلمين فى البر والبحر من مبدأ تاريخ هذه المهادنة من سائر البلاد شرقها وغربها أقصاها وأدناها ووصلوا به الى بلاد الملك دون جاكم وبلاد أخويه وصهريه ليبيعوه بها فيلزم الملك دون جاكم وأخويه وصهريه فك أسره وحمله الى بلاد الملك الاشرف وعلى انه متى كان بين تجار المسلمين وبين تجار بلاد الملك دون جاكم وأخويه وصهريه معاملة فى بضائعهم وهم فى بلاد الملك الاشرف كان أمرهم محمولا على موجب الشرع الشريف وعلى انه متى ركب أحد من المسلمين فى مراكب بلاد الملك دون جاكم وأخويه وصهريه وحمل بضاعة معه وعدمت البضاعة كان على الملك دون جاكم وعلى أخويه وصهريه ردها ان كانت موجودة أو قيمتها ان كانت مفقودة وعلى انه متى هرب أحد من بلاد الملك الاشرف الداخلة فى هذه المهادنة الى بلاد الملك دون جاكم وأخويه وصهريه توجه ببضاعة لغيره وأقام بتلك البلاد كان على الملك دون جاكم وعلى أخويه وصهريه رد الهارب والمقيم ببضاعة غيره معه الى بلاد الملك الاشرف مادام مسلما وان تنصر يرد المال الذى معه خاصة ولمملكة الملك دون جاكم وأخويه وصهريه فيمن يهرب من بلادهم الى بلاد الملك الاشرف هذا الحكم المذكور أعلاه وعلى انه اذا وصل من بلاد الملك دون جاكم وبلاد أخويه وصهريه ومعاهديه من الفرنج من يقصد زيارة القدس الشريف على يده كتاب الملك دون جاكم وختمه الى نائب الملك الاشرف بالقدس الشريف يفسح له فى الزيارة مسموحا بالحق ليقضى زيارته ويعود الى بلاده آمنا مطمئنا فى نفسه وماله رجلا كان أو امرأة بحيث ان الملك دون جاكم لا يكتب لاحد من أعدائه ولا من أعداء الملك الاشرف فى أمر الزيارة بشئ وان الملك دون جاكم يحرس جميع بلاد الملك الاشرف هو وأخواه وصهراه من كل مضرة ويجتهد كل منهم من ان أحدا من أعداء الملك الاشرف لا يصل الى بلاد الملك الاشرف ولا يجدهم على مضرة بلاد الملك الاشرف ولا رعاياه وانه يساعد الملك الاشرف فى البر والبحر بكل ما يشتهيه ويختاره وعلى أن الحقوق الواجبة على من يصدر ويرد ويتردد من بلاد الملك دون

Digitized by Google

ألمت بها من يوم أسر ولدها فى مصر ثم أقلع من عكا ووصل الى فرنسا سنة ١٢٥٤ بعد أن غاب عنها ست سنوات مفتخرا بما أصابه فى هذه الغزوة من الآلام والاوجاع والمشقات فقابله أهل بلاده بالفرح والابتهاج وبعد وصوله وضع قوانين عادلة ونظامات دلت على حسن ادارته ومن ذلك انه رتب أربع محاكم عين فى كل واحدة منها موظفا من طرفه يقال له بالى (Balie) ومعناه يحكم والسيف بيده لتقام فيها دعاوى من ظلمهم الملتزمون وأدخل فى مجلس المشورة الاهلى (بارلمان) رجالا من المشهود لهم بالمعارف والاهلية ورتب قوانين نهى فيها عن الحروب الداخلية وعن فصل الدعاوى بالمقاتلات الا فى بعض صور استثناها وأحدث للمحاكم عدة ترتيبات مستحسنة للتشريع وفصل الدعاوى سموها نتائج العدل والانصاف ووسع القوة الملكية وخفض القوة السيادية الالتزامية وشرع للتجارة قوانين تحميها وتذب عنها وغير ذلك .

سياسة سن لويس مع انجلترة ومع البابا — كان هذا الملك يميل الى مسالمة الانجليز حتى أنه لما تحقق من أن الاملاك الانجليزية التى أخذها فليب أغسطس كان أخذها بغير حق ردها الى هنرى الثالث باختياره وهى ليموسين وبيريغورد وكرسى بمقتضى معاهدة الصلح النهائية التى عقدها معه فى سنة ١٢٥٩ م وعلى ذلك تنازل هنرى عن دعواه فى مقاطعة نورمنديا وأنجو ومين وتورين وبواتو ودفع هنرى هو وبارونانه لملك فرنسا مبلغا عظيما من المال كتعويض عن الاملاك التى ردتها فرنسا اليهم

هذا وكان للامبراطور فردريك الثانى ولد من السفاح يدعى منفريد (Monfrede) وكان متغلبا على مملكة نابلى وصقلية وكان البابا اوربانوس الرابع سعى فى خلعه حتى خلعه وعرض على سن لويس تخت نابلى سنة ١٢٦٢ فرفضه عن حكمة غير أن أخاه شارل أمير أنجو قبله بغير حق وبغير رضا سن لويس الذى كان يرغب فى خروج شارل المذكور من فرنسا أما شارل فانه لما وصل الى ايطاليا أشهر الحرب على أعداء البابا فان المؤرخون انه لما مات فردريك الثانى امبراطور المانيا قام ولده من السفاح المدعو منفريد وذبح أخاه الامبراطور كونرادين وجلس محله على سرير مملكة نابلى وسيسليا وكان الباباوات يكرهون عائلة سوابه الملوكية كراهة شديدة فلم يكفهم عدم اعترافهم لهذا الولد بالملك بل اجتهدوا فى البحث عن أن يجدوا له خصما ذا شوكة قوية يخلعه عن الملك وانحط رأيهم لاجل هذا الغرض على شارل كونت أنجو أخى سن لويس ملك فرنسا وقلدوه حكومة نابلى وسيسليا لكونهم سماسرة التزامات الكنيسة فحصل لشارل النجاح فى مشروعاته التى سعى فيها وذلك أنه قتل منفريد فى واقعة كانت بينهما وجلس شارل على سرير المملكة فقام الامير كونرادا ابن أخى الامبراطور فردريك يطالب بحقه فى ملك نابلى فقبض شارل

جاكم وأخويه وصهريه الى ثغرى الاسكندرية ودمياط والثغور الاسلامية والممالك السلطانية لسائر أصناف البضائع والمتاجر على اختلافها تستمر على حكم الضرائب المستقرة فى الديوان المعمور الى آخر وقت ولا يحدث عليهم فيها حادث وكذلك يجرى الحكم على من يتردد فى البلاد السلطانية الى بلاد الملك دون جاكم وأخويه وصهريه تستمر هذه المودة والمصادقة على حكم هذه الشرائط المشروحة أعلاه بين الجهتين على الدوام والاستمرار وتجرى أحكامها وقواعدها على أجمل الاستقرار فان الممالك بها قد صارت مملكة واحدة وشيأ واحدا لا ينقض بموت أحد من الجانبين ولا بعزل وال وتولية غيره بل تؤبد أحكامها وتدوم أيامها وشهورها وأعوامها وعلى ذلك انتظمت واستقرت فى التاريخ المذكور أعلاه اه من صبح الاعشى للقلقشندى نسخة دار الكتب الخديوية المصرية

Digitized by Google

أميرا أنجو عليه وأمر به فقتل صبرا وهو آخر عائلة سوابه ووارث تاج الملك بها وقد أظهر هذا الامير الشاب عند قتله جلادا حفظا لمقامه ولم يظهر أدنى تذلل فكان بذلك يستحق أن لا يعامل هذه المعاملة السيئة الذى دنس بها شارل أنجو الفخر الذى اكتسبه فى حروبه بايطاليا وقد أوصى الشاب كونراد وهو بين يدى الجلاد بوراثة ملك نابلى لبطرس أمير اراغون (الذى صار فيما بعد ملك أراغون وكان متزوجا بابنت منفريد) ثم نزع الكفوف التى كان يلبسها فى يديه وألقاها بين الاهالى وطلب منهم أن يسلموها لبطرس المذكور لتكون أمارة شاهدة له بأنه وهب له حقه فى التاج أما بطرس فحمله الطمع وحب الانتقام عن الاساءة التى لحقت المنصب الملوكى بقتل الامير كونراد على أن يشهر السلاح ليستولى على مملكة نابلى وصقلية ومن ذلك الوقت اضطرمت نيران الحرب والمشاجرات بين عائلتى أراغون وأنجو بخصوص تاج نابلى

حملة سن لويس الصليبية الثانية — اعلم أنه بعد عودة سن لويس هذا من فلسطين بنحو خمس عشرة سنة زحف الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ملك مصر بجيش جرار على بلاد فلسطين وكان أمر الصليبيين قد ضعف فيها فأخضع ما بها من المدن والحصون التى كانت لا تزال بيد الفرنج وأسر كثيرا منهم ثم قصد انطاكية فحاصرها وامتلكها وقتل منها خلقا كثيرا وأسر كذلك ثم ساق الاسرى جميعا الى البلاد المصرية ولما وصلت هذه الاخبار الى أهل أوروبا ساءهم ذلك فنهض سن لويس ملك فرنسا وكان لم يزل مصمما على العودة الى بلاد المشرق متى بدت له الفرصة للانتقام من المسلمين على ما حصل به من الخيبة والخذلان فى المرة الاولى كما علمت ولما تجهز أقلع بجيش عرمرم على أسطول عظيم يتألف من ٣٠٠ سفينة وبصحبته أولاده الثلاثة وكثير من عائلته وابن أخيه شارل ملك نابولى وسيسليا وقصد أولا شطوط أفريقية لينتقم من التونسيين قبل مسيره الى فلسطين بدعوى أنهم أقلقوا أمنية الملاحة فى البحر المتوسط الابيض وان سفنهم أكثرت من التعدى على السفن الفرنساوية وغيرها وانهم كانوا يسلبون أكثر الذخائر والمعدات التى كانت ترسل من أوروبا اسعافا للصليبيين فى فلسطين حتى أمسى الحصر عسير السلوك بسببهم وانهم كانوا يمدون المصريين بالخيل والرجال ولما وصلت سفنه الى الساحل الافريقى حاصر مدينة تونس (١٢٧٠ م) وضيق عليها ولكن كانت نتيجة هذه المجاهدة عليه أشأم من السابقة حيث أصيبت جنوده من كثرة الحر والظمأ بأمراض وبائية فتكت بهم فتكا وخسر امام المدينة المذكورة نصف جيشه فى أقل من شهر وأصيب هو بمرض مات به فى السنة المذكورة فعقد رؤساء جيشه مجلسا قرروا فيه أولا لزوم استمرار الحصار والمحاربة وبعد مناوشات مالوا الى عقد الصلح وترك البلاد وعادوا الى بلادهم ومعهم جثة ملكهم وعاش بعده هذا الملك مارستانا وكان أسسه ليأوى اليه الثلثمائة أعمى الذين كان المسلمون فقئوا أعينهم مدة محاربتهم ببلاد مصر وقد اتصف هذا الملك بالتدين والثبات ووفور العقل والشهامة ولقب بالقديس لما كان عليه من الفضائل ورزق من زوجته مرغريت بتسعة أولاد منهم فيليب الذى جلس بعده وروبرت كونت كليرمونت (Clermont) الذى صار أصلا للعشيرة البوربونية فى اقليم بوفيزيس (Beauvaisis)

فليب الثالث الملقب بالجسور (١٢٧٠ — ١٢٨٥ م) — بويع فليب هذا بالملك

تحت

تحت أسوار تونس يوم مات أبوه ومع انه كان مريضا استمر مع عمه شارل ملك الصقليتين على محاربة المسلمين فانتصر عليهم بعض النصر ثم تهادن مع أبي عبد الله محمد المستنصر الحفصي صاحب تونس لمدة عشر سنوات وكان من ضمن مواد المعاهدة أن يرحل الفرنج عن تونس وان تعفى المتاجر التي تنقل اليها من فرنسا من العوائد الجركية وأن تعامل الرعايا المسيحيين بحرية تامة اسوة الاهالي الوطنيين ولا يعترض للفرنج عند قيامهم بالشعائر الدينية وغير ذلك قال ابن خلدون وبعث مشيخة الفقهاء لعقد الصلح مع الفرنج عيال أغدقه لهم صاحب تونس وقال فكتور دروى في صحيفة ٣٩٣ من الجزء الاول من تاريخه والتزم المسلمون بدفع جزية الى ملك صقلية اه وقال غيره وقد تقرر الصلح (ربيع أول ٦٦٩ هـ) على ان السلطان المستنصر بالله الحفصي يخضع لشارل انجو ملك صقلية ويدفع له جزية سنوية ويدفع أيضا مصاريف الحرب البالغ مقدارها ٢٢٠,٠٠٠ وزنة من الذهب ونظير ذلك ينسحب الصليبيون من البلاد التونسية فقبل الطرفان الشروط وامضاها كل من ملوك فرنسا وصقلية ونافار ونزل الصليبيون بمراكبهم وأقلعوا الى بلادهم وصادفهم في أثناء عودتهم عواصف شديدة أغرقت أكثر سفنهم ثم ان ملك صقلية نزل في بلاده ومعه صندوق داخله قلب الملك لويس التاسع بصفة ذخيرة ووضعه في كنيسة مونتريال القريبة من مدينة سالرنو أما فليب الثالث ملك فرنسا فاستمر في سيره الى بلاده ومعه جثة والده وأخوه المدعو تريستان (أي الحزين) الذي كانت ولادته في مدينة دمياط ولما وصل الى باريس احتفل بدفن جثة والده في مدفن ملوك فرنسا وبذلك انتهت الحروب الصليبية ولم يبق في يد الصليبيين بالشام سوى مدينة عكا مع بعض المدن المجاورة لها ثم بعد ذلك بخصوصة جرد الملك الظاهر بيبرس جيشا عظيما وهاجم أولا حصن الاكراد فامتلكه ثم نازل عكا ففتحها (٦٧٠هـ) وزالت من وقتئذ أخبار الصليبيين وانقرضوا عن بكرة أبيهم قال بيتر بارلي في تاريخه العمومي وكان عدد من مات وقتل من الصليبيين في حروبهم جميعها من باب التقريب خمسمليونين ونصف اه هذا وكان فليب الثالث على غير ما كان عليه أبوه بالمرة فكان غير مهذب ولا متصف بالعلوم وكان ضعيف العزم ميالا الى الخرافات ومع انه كان يمكنه أن يرث عمه في حكم الصقليتين بعد موته سنة ١٢٧٥ م الا انه أهمل ذلك فاتفق البابا غرغوار العاشر مع الكونت ريموند صاحب طولون واقتسما أملاك عمه بينهما كما سيأتي هذا ولما مات أخواه بلا عقب ضم أملاكهما اليه فاتسعت أملاك فرنسا وفي سنة ١٢٧٤ لما مات هنري ملك نفار وكانت زوجته فرنساوية التجأت الى فليب الثالث هذا المدافع عن حقوقها فأكرم مثواها ولما بلغت ابنتها سن البلوغ زوجها بابنه وولي عهده فانضم بذلك لفرنسا تاج نفار

الصقليون وفرنسا — سبق الكلام بأن البابا اوربانوس الرابع والبابا كلمنت الرابع ساعدا شارل أخا سن لويس وعم فليب الثالث هذا على جلوسه على تخت نابلي وصقلية فلما عاد من حرب تونس سار بين رعيته بالمظالم فنفر وامنه ومن كانوا معه من الفرنسويين فقاموا عليه يوم عيد الفصح تحت رئاسة رجل يقال له يوحنا دي بروسيدا (Jean de Procida) وكانت بينهم حرب تعرف في كتبهم بواقعة قداس المساء الصقليه قتلوا فيها أكثر من ثمانية آلاف نفس من الفرنسويين سنة ١٢٨٢ وكان أهل صقليه اتفقوا فيما بينهم على أن يجعلوا علامة الشروع في قتال الفرنسويين

Digitized by Google

ضرب النواقيس ومتى حصل انقضوا على الفرنسويين ومن يومئذ انقسمت المملكة الى مملكتين فتولى صقلية بطرس الاول الاراغوني وبقي شارل دانجو على نابولي فقط

حرب اراغون — لما حصلت مذبحة قداس المساء المذكورة قامت الحروب بين شارل ملك نابل والدون بدرو المعروف ببطرس الثالث ملك اراغون لتحريضه أهالي صقلية على الفتنة المذكورة التي لما علم بها البابا مرتين الرابع أصدر حكما بعزل بطرس الاراغوني المذكور وأعطى تاج مملكته لفليب الثالث ملك فرنسا فقبله لولده الثاني المسمى شارل وتجهز لحرب اسبانيا المشتملة على امارة اراغون وكان الفرنسويون مستاؤن من مذبحة قداس المساء المذكورة فدخل فليب بجيشه الى اسبانيا من جهة لنجدولك ونهب منها عدة مدن وتغلب على بلدة غارون بعد أن حاصرها ثلاثة شهور الا أن أعماله الحربية الاخرى لم تنجح لان أساطيله التي جهزها من سيليا وزبون تحت قيادة الاميرال غليوم دولوديف (G. de Lodéve) وكانت خمسة وعشرين غرابا دمرها الاميرال روجر دولوريا (Roger de Loria) (١) قائد أساطيل اراغون وأسر قائدها المذكور (١٢٨٥ م) وأسر أيضا الاميرال الثاني للاسطول الفرنسوي المدعو انجيراند دو بياول (EnguerranddeBailleul) وكانت الامراض تفشت في جيش فليب فاضطر لذلك الى العودة الى فرنسا ولما وصل الى مدينة بربنيان مات بها بالحمى المحرقة (٦ اكتوبر سنة ١٢٨٥) وعمره ٤١ سنة فتأسفت عليه رعيته لانهم كانوا يحبونه لما سنه من القوانين التي منع بها الامة من القيام بحرب داخلية وهو أول من نظم في سلك الاشراف من ليس منهم فانه منح صائغا يقال له راوول رتبة الاشراف وفي الشهر الثاني من موته مات خصمه بطرس الثالث الاراغوني بنفس الداء الذي مات به فليب

فليب الرابع الملقب بالظريف ١٢٨٥ - ١٣١٤ م - بويع له في مدينة بربنيان (Perpignan) وعمره يومئذ ١٧ سنة ولقب بالظريف لما كان عليه من الملاحة والجمال وقد اشتهر قبل موت أبيه في الحرب مع ملك اراغون وهو الحرب الذي امتد من سنة ١٢٨٤ الى ١٢٩١ وقد سعى فليب هذا في أوائل حكمه حتى أغلق أبواب هذا الحرب وكان الفونس الثالث تولى مملكة اراغون بعد وفاة والده بطرس الثالث وكان يجتهد في أن يرد أخوه جمس الثاني مملكة صقلية لامارة انجو وساعده ادوارد الاول ملك انجلترة على ذلك الا أن مساعيه خابت وبقيت صقلية مستقلة عن مملكة نابل وكان هذا السعي بعد الحرب الذي كان بين اسرة انجو وملك فرنسا وأسر فيه ملك ايطاليا وتم الامر أخيرا باكراه الفونس ملك أراغون على امضاء عهدة صلح مجحفة بصوالحه (١٢٩١ م)

الحرب بين فليب وادوارد الاول ملك انجلترة — قال المؤرخون انه مع ماننه ادوارد الاول الملقب بذي الساقين من المساعي في مسئلة اعادة صقلية الى أمراء انجو كان فليب

(١) يعرف هذا الاميرال باسم لوريا (Lauria) ويدعى أيضا روجير دولوريا وكذا دولاوريا وهو قائد أساطيل بطرس الثالث الاراغوني ولد في صقلية وكان لوريا حاد الطبع غدارا لا مثيل له في شجاعته وكان يميل للقرصنة وعقله عقل أكبر رجال البحر وقد انتصر على الاميرال بروفنسال غليوم كرنوت (Provençal GnillaumeCornut)

ملك فرنسا يطمع في نوال الفوائد من انجلتره فانتهز فرصة اشتغال ادوارد بأحوال اسكتلنده وشرع في التغلب على مقاطعة اكيتانه متخذا الشحناء التي وقعت بين بحارة انجلتره و بحارة النورمانديين في مينا بايون (Bayonne) سببا لنوال قصده ونشأ عن ذلك ان وقعت حرب شديدة بين بحرية الطرفين وسبب ذلك ان أسطول الانجليز المشكل من ستين سفينة هاجم مائتي سفينة نورمندية كانت ذاهبة لنقل الانبذة من احدى الثغور فدمر معظمها فطلب فليب الملك ادوارد بصفته دوقا لاكيتانه كي يحضر أمامه للمحاورة بما وقع من رعاياه (١٢٩٤ م) فأرسل ادوارد أخاه ارموند ارل لنكستر بالنيابة عنه ومع ذلك فان فليب استولى على اكيتانه وأعلن بعصيان ادوارد بحجة انه لم يحضر بنفسه و جرده عن أملاكه التي له بفرنسا وضمها الى أملاكه فاضطر ادوارد عند ذلك لاشهار الحرب على فرنسا و بقيت عامين انتهز خلالهما الاسكتلنديون الفرصة وقاموا على ادوارد (١٢٩٧ م) مع انهم كانوا خضعوا له قبل ذلك ولما ثاروا رأسوا عليهم أميرا منهم يدعى وليم ولاس وطردوا الانجليز من مملكتهم بعد أن هزموهم شر هزيمة فاضطر عند ذلك ادوارد لان يطلب من خصمه بوساطة البابا بونيفاس الثامن الصلح ولما كان ادوارد محالفا الدوق بلاد فلندر احتل ملك فرنسا هذه الدوقية أيضا بعد حرب سنذكره ثم أمضيت معاهدة الصلح بين فليب الرابع وملك انجلترة المذكورين سنة ١٢٩٩ وبمقتضى هذه المعاهدة تزوج ادوارد الاول بالاميرة مرغريت أكبر أخوات فليب وخطب ملك انجلتره لابنه وولي عهده ادوارد ازابيلا ابنة فليب وكانت طفلة عمرها لا يتجاوز الست سنوات

حرب فليب مع بلاد فلندر — قال المؤرخون ان سبب هذه الحرب هو فليب الرابع لانه كان يريد أن يزوج ابنه لويس بابنة غي دودامبير (Guy de Dampierre) كونت فلندر وكانت مخطوبة لولي عهد انجلتره ابن ادوارد الاول المذكور ولذلك استحضر فليب الى ديوانه كونت فلندر المذكور وابنته وسجنهما في برج قصره (١٢٩١ م) وبعد قليل أفرج عن الاب وحجز الاميرة رهينة لديه ولشدة ما أصابهما من الاكدار ولمنعهما من الزواج بولي عهد انجلتره وكانت تهواه ماتت من الغم وعند ذلك استشاط والدها غضبا من هذه المعاملة السيئة وأعلن الحرب على مولاه فليب المذكور ودعاه للمبارزة وكان المحرض لكونت فلندر على ذلك ادوارد ملك انجلتره لما كان بينه و بين ملك فرنسا من الخلاف كما سبق فاضطر فليب أن يجرد جيشا عظيما بلغ عدده ٦٠,٠٠٠ مقاتل ودخل به مقاطعة فلندر واستولى على عدة مدن بها ثم هزم خصمه في واقعة فورنس (Furness) ١٢٩٧ م واستولى على جزء من تلك البلاد وعقد مع فلندر هدنة لمدة شهرين ثم جعل أجلها سنتين مؤملا وقوع الصلح التام وبالفعل تصالح مع ملك انجلتره وعقد المعاهدة السابق الكلام عليها (١٢٩٩ م) وبمقتضاها صار صهرا لادوارد الذي تخلى عن حليفه صاحب فلندر وتركه في قبضة ملك فرنسا كما أن هذا تخلى عن محالفيه الايقوسيين فانتقم منهم ادوارد هذا ولم تمكث هدنة فلندر مدة طويلة لان جاك دوشاتلون (Jacques de Chantillon) الذي عينه فليب حاكما على فلندر استبد وظلم في حكمه فثار الاهالي عليه سنة ١٣٠٢م فاضطر ملك فرنسا أن يحاربهم ثانية ولكنه انهزم في واقعة كورتري (Courtray) التي قتل فيها كونت ارتواس المدعو روبرت (Robert d'Artois) هو ونحو ٢٠,٠٠٠ مقاتل ونخبة من أشراف

Digitized by Google

فرنسا وكان من غنائم أهل فلندر نحو أربعة آلاف زوج من ركابات الخيل المذهبة وغير ذلك مما عرضوه فى موكب نصرتهم وبعد ذلك بسنة جرد عليهم فليب جيوشا عظيمة قادها بنفسه فانتصر عليهم فى مدينة مونان بويل (Mons-en Puelle) سنة ١٣٠٤ م بعدان قاسى أهوالا كاد يقتل فيها وهلك فى هذه الواقعة من الفلمندين ما ينيف على ٢٥,٠٠٠ مقاتل وبهذه النصرة دخلت بلاد فلندر بأجمعها تحت تصرف فرنسا نهائيا

الشقاق بين فليب والبابا بونيفاس الثامن — من أشهر الحوادث التى حصلت فى مدة هذا الملك النزاع الذى قام بينه وبين البابا بونيفاس الثامن وكان منشأ هذا النزاع البراءة التى أصدرها هذا البابا طعنا فى فليب وسيرته ونهى بها الاكليروس عن تأدية أموال لفليب عن شئ من أملاك الكنيسة بدون اذن البابا والاعوقبوا بالحرم وتهدد بالحرم أيضا الامبراطرة والملوك والامراء الذين يطلبون ذلك وكان فليب فرض على أملاك الكنيسة أموالا لم تكن من قبل فقاوم فليب تلك البراءة مقاومة شديدة نشأ عنها رجوع البابا عن أمره والرضا بدفع الاموال فى فرنسا كالسابق وبعد ان أصدر البابا البراءة التى منح بها المغفرة لكل الذين يزورون المعابد فى رومية يوم عيده الجبيلى سنة ١٣٠٠ م اشتد الخصام بينه وبين ملك فرنسا وقال بعضهم ان اشتداد الخصام نشأ من أن البابا رتب الجرائم على قسوس فرنسا وتقوى هذا النزاع من دعوى بونيفاس هذا أنه يحكم على الملوك والرعايا على حد سواء سياسيا كما يحكم دينيا حتى أنه فى سنة ١٣٠١ حاول عقد مجمع من أساقفة فرنسا فى رومية للفحص عن سيرة الملك فليب ليثبت أن من لم يعتقد خضوع فليب للبابا فى الامور السياسية والدينية معا فهو كافر ملحد الا أن البابا لم ينجح لان الامة الفرنسوية قاومت هذا الادعاء وعضدت ملكها وجاهرت ثلاث مقاطعات من فرنسا بأن الملك ليس خاضعا لاحد وأنه فى الامور الدنيوية خاضع لله وحده فتقوى الملك بالرعايا ومنع الاساقفة من الحضور فى مجمع رومية فلم يجتمعوا وفى سنة ١٣٠٢ م أصدر البابا براءة تثبت بها ادعاآته المذكورة وقرر أن للكنيسة سيفين روحيا وزمنيا وان السيف الزمنى خاضع للروحى وأن الملوك الذين ليس لهم الا السيف الزمنى هم خاضعون للبابا الذى بيده السيف الروحى ثم طلب حضور أساقفة فرنسا ثانية والا عوقبوا بالحرم فأمر فليب بحجز أملاك كل من يغيب عن ابرشيته وعقد مجمعا عاما فى ليون للحكم على البابا وانحاز الى هذا المجمع مدرسة باريس الكلية وعدد كبير من الاساقفة فحرم عند ذلك البابا الملك فليب وحكم مجمع فرنسا بأن البابا مجرم مارق عن الدين وأرسل ملك فرنسا كلا من القائدين غليوم دونوغاريت (Guillaume de Nogaret) وسيرا كولونا (Sciarra Colonna) الى رومية لالقاء القبض على البابا واحضاره الى مجمع ليون فأخذا معهما نحو ثلثمائة من أشراف ايطاليا الحانقين على البابا ثم هجموا عليه بمحل اقامته وقبضوا عليه وعلى ماله من الجواهر والاوراق وسجنوه ولكن بعد ثلاثة أيام أنقذه من أيديهم جماعة من حزبه وأخذوه الى رومية ولكنه لم يبق بعد ذلك طويلا لانه مات بعد مضى ٢٤ يوما (١٣٠٤ م) لما اعتراه من الانزعاج ثم انعقد مجمع الاساقفة لانتخاب بابا جديد فاختلفت آراء المنتخبين وعظم الشقاق بينهم فتداخل فليب وحملهم على انتخاب اكلمنت الخامس (Clement V) الذى اختار مدينة أفنيون (Avignon) مقرا له ولم يعلم سبب نقله الكرسى البابوى قال البعض ان نقل الكرسى

البابوى

البابا وى سببه اختلال أحوال ايطاليا وميل الشعب الرومانى الى العصيان وقال الآخرون ان فليب هو الذى أشار عليه بجعل مركز البابا وية فى دائرة مملكته ليكون قريبا منه وبقيت هذه المدينة مقرا للباباوات الى سنة ١٣٧٧ م وكان أول شئ فعله هذا البابا بعد جلوسه حل الملك من الحرم واقامة عشر كردينالات من الفرنساويين ثم أنا كلمنت صرح فى المجمع الذى انعقد فى فينا (١٣١٠ م) بطلان ما اتهم به بونيفاس من المروق من الدين

ايقاع لويس بالهيكليين (Templiers) ـ الهيكليون فرقة تنظمت أولا كجنود لحماية بيت المقدس وقت الحروب الصليبية واكتسبوا شهرة عظيمة حتى انهم جذبوا الى حزبهم عدة من الامراء والاغنياء المدافعين عن الدين فصاروا أغنياء أصحاب شوكة فحسدهم الكثيرون على نعمتهم وصاروا يرمونهم بذنوب كثيرة ثم وشى بهم البعض عند فليب ملك فرنسا ولما كان هذا الملك يميل الى جمع الاموال ليسد بها احتياجاته المالية الكثيرة ألقى القبض على كثيرين من عظماء هذه الطائفة وألقاهم فى السجون المظلمة (١٣ اكتوبر ١٣٠٧ م) وصادرهم فى أموالهم وأملاكهم الموجودة فى فرنسا وادعى عليهم أنهم أهل أوثان ملحدون وعذبهم تعذيبا شديدا ليعترفوا بما ارتكبوه من الجرائم قال بعض المؤرخين انه أحرق منهم ٤٦ شخصا وكان احراقهم ببطء تعذيبا لهم وقد دافعوا عن أنفسهم بقدر الاستطاعة ومع ذلك فقد أثبت عليهم الملك الجناية وأرغم البابا على المصادقة على القرار القاضى بالغاء هذه الطائفة فأصدر برأة فى المجمع القسيسى الذى جمعه فى ويانه (١٣ ابريل ١٣١٢ م) بتدمير هذه الطائفة من كافة جهات أوروبا وأنعم بأراضيهم على طائفة فرسان القديس يوحنا المقيمين بجزيرة رودس ونفذ فليب قرار البابا هذا بكل قساوة وأحرق منهم عدة فزالت هذه الطائفة بعد أن بقيت ١٩٤ سنة وكان فى مقدمة الذين أحرقوا رئيس الطائفة المسمى جاك دومولاى (Jacques de Molay) ويقال ان جاك هذا قال وهو فى موقد النار ان الملك وقاضيه البابا يموتان بعد بعضهما ويقفان بين يدى الله أما الملك فبعد أربعين يوما وأما البابا ففى أثناء السنة وقد كان كذلك حيث مات البابا كلمنت الخامس فى ٢٠ ابريل ومات فليب ملك فرنسا فى ٢٩ نوفمبر من سنة ١٣١٤

وكان هذا الملك من أشهر ملوك فرنسا ولحسن طالعه صارت سلطنته التى امتدت ٢٩ سنة من أجل السلطنات فى مملكة فرنسا وقد لامه المؤرخون على ما فعله بطائفة الهيكليين وقالوا ان لفظة ظالم تقال حقيقة لمثل هذا الملك وتصلح له دون غيرها من الالقاب فانه زيادة عما ذكر أتعب رعاياه بكثرة الضرائب والجرائم بل ويستحق أن يلقب بالزغلى لما أنه كان يخس وزن المعاملات ولم يكن ينعم على رعاياه ببعض الحقوق الا ليتوصل الى مقاصده الذاتية وكان يجعل حقوقهم آلة لانه مع ما كان عليه من جودة القريحة والرأى السديد كان طماعا جبارا حتى قالوا انه لم يفعل خيرا لمملكته بل تركها فى حالة عادت عليها بالانحطاط وقد أعقب هذا الملك ثلاثة أولاد ذكور حكموا بعده بالتعاقب وأعقب أيضا بنتا تدعى ايزابلا وهى التى تزوجها ادوارد الثانى ملك انجلترة كما مر

لويس العاشر الملقب بالعنيد (Louis X le Hutin) (١٣١٤ - ١٣١٦ م) ـ جلس هذا الملك بعد أبيه على تخت فرنسا وهو أكبر اخوته وكان يلقب وعمره عشر سنوات بملك اقليم نوارة الذى ورثه عن أمه ولم يعلم سبب تلقيبه بالعنيد أو المتكبر لاننا لا نشاهد فى أخباره شيأ يستحق به

Digitized by Google

هذا اللقب وقد اشتهر حكم هذا الملك بثلاث حوادث محزنة منها تجرؤه على قتل زوجته قالوا وسبب ذلك انه داخله شئ من الارتياب من زوجته مرغريت دى برغونيا (MargueritedeBourgogne) فسجنها فى قلعة غيلارد (Gaillard) ثم لما جلس على سرير الملك أمر بصلبها ان صابت فى سجنها وذلك ليتزوج بالاميرة كليمنس المجاريه (Clémence de Hongrie) ابنة شارل مارتيل ملك بلاد المجر فتم له ذلك (١٣١٥ م) والحادث الثانى قتله انغرند دوماريني (Enguerrand de Marigny) وكيل مصالح المالية ظلما فى صورة عدل وسبب ذلك أن عمه المسمى شارل كونت بلاد فالوا (Charles comte de Valois) كان يبغض وكيل المالية المذكور لانه كان من الذين حرضوا على الايقاع بالهيكليين فاتهمه بالاختلاس من الخزينة وانه أثقل الاهالى بالمغارم وغش النقود الملوكية ولما كان الكونت المذكور نفوذ تام عند الملك صدق الملك ضعفا منه على الحكم الذى صدر بقتل الوكيل المذكور مع اعتقاده براءته وقالوا ان شارل المذكور لم تطمئن نفسه من تداخله فى أمر هذا القتل بل داخلتها الريبة والخوف من ارتكاب الخطيئة فصار يتصدق على الفقراء وأمر المنوطين بتفريق الصدقات أن يقولوا للكل فليدع الله لانغرند دوماريني ولشارل دوفالوا حتى ان الملك نفسه أوصى حين موته بمال جسيم لعائلة ماريني

ومن جيد أعمال لويس هذا أنه منح عدة أقاليم نظامات حسنة وأصدر أمر العتق الذى جعل فيه للاسرى الحق فى أن يشتروا عتقهم بالدراهم فربح من ذلك كثيرا وامتلأت خزائنه بالاموال وصرح لليهود الذين كانوا منفيين خارج المملكة بالعودة الى أملاكهم بشرط أن يدفع كل فرد منهم مبلغا من المال فعاد كثيرون منهم فامتلأت خزائن الملك بالاموال ولذلك رأى فى نفسه القدرة على اشهار الحرب على بلاد فلندر لانهم نقضوا معاهدة أبيه معهم ولكنه لم ينجح فى غزوته كما سترى قال المؤرخون والحادثة الثالثة المشؤمة التى حصلت فى عهد هذا الملك هى تجريدته التى خرج بها بقصد الفلمند لاجبارهم على دفع الخراج الذى توقفوا عن دفعه وبينما كان يحاصر مدينتهم المسماة كورتري (Courtray) تغير الجو واشتدت الرياح والزوابع وكثرت الامطار فاضطر الى رفع الحصار والعودة الى بلاده تاركا فى الاوحال ما كان معه من العربات وكثيرا من العدد والعدد ثم وصل الى فرنسا مع بقية جيشه بعد كل مشقة ولم تطل أيامه بعد ذلك فمات فى شهر يونيه من سنة ١٣١٦ قالوا ان لويس العاشر هذا كان يريد الخير لبلاده ولكن لم يتم بفعله يعنى أن ميله للخير كان أقوى من فعله له ومع ذلك فانه وضع قوانين ترتب عليها أمن حرية الكنائس ومزايا للاشراف وسعادة للاهالى ونشر أوامر تتعلق بمساعدة أرباب الفلاحة وقد ترك زوجته كلمنس المجاريه حاملة ولما كانوا ينتظرون زمان وضعها ليعلم من الوارث لتخت المملكة خلا الكرسى عن ملك فعينوا فليب الخامس أخى الملك المتوفى وكيلا على المملكة ثم وضعت الملكة غلاما يسمى يوحنا بوسطوم فصار وارثا للمملكة

يوحنا الاول بوسطوم (Posthume) ١٣١٦ م — لم يعش هذا الملك الا ثمانية أيام وكان القائم بنيابة الملك اذ ذاك كونت بلاد بواتيه فلما مات يوحنا كان حق الوراثة لاخته جنه ابنة لويس العاشر فطلب دوق بورغونيه التاج لها ولما كان القانون السالى لا يجوز ذلك عقد فليب الخامس مجلسا عموميا للنظر فى الامر فقرر هذا المجلس الذى كان مؤلفا من القسوس والاشراف والاهالى لزوم اتباع القانون السالى من عدم دخول النساء فى وراثة التخت وبذلك انتقلت وراثة

Digitized by Google

المملكة الى فليب الخامس (يناير ١٣١٧م) لكونه أقرب الذكور الى لويس العاشر

فليب الخامس الملقب بالطويل (١٣١٦ - ١٣٢٢ م) - لما حصل انتخاب هذا الملك ألبس التاج رسميا فى سنة ١٣١٧ م وقد تعرض له عدة من ملتزمى المقاطعات أولى الشوكة كان من جملتهم أمراء من العائلة الملوكية منهم أخوه شارل الرابع وأودا الرابع دوق برغونية وأرادوا منعه من الاستيلاء على المملكة الا أن فليب صانعهم وقابلهم بالحسنى ثم سعى حتى زوج ابنته من دوق برغونية المذكور وأعطاه فى جهازها قونتية برغونية وكانت له قبل أنه يتولى الملك وأخذ فى صداقها من أودمقاطعة نوارمع قونتيتى شمبانيه وبريه ومن وقتئذ صار يلقب بالملك فقط واجتهد كثيرا فى جلب قلوب الرعايا اليه فأكثر من العتق اقتداء بأسلافه من ملوك فرنسا الذين صيروا أمر العتق عاما لضرورة الجأتهم لذلك ولكونهم أرادوا به اضعاف قوة الاعيان فأصدر أوامر ملوكية على صورة الامر الذى أصدره سلفه لويس العاشر ومن نصوصها أن الانسان حر من أصل فطرته ولما كانت المملكة تسمى مملكة الافرنج أى الاحرار فينبغى أن يتحقق فيها مدلول هذا الاسم فلذلك أمرنا أن ينعم بالعتق على جميع من فى الولايات على شروط متضمنة للعدل والانصاف فنفذت تلك الاوامر الملوكية حالا فى جميع البلاد الخاضعة له وكان هذا العمل حاملا لاغلب الاشراف على الاقتداء بالملك خصوصا لما ينشأ عن العتق من الاموال الجسيمة فبادروا بعتق مستعبديهم وخلت أغلب أقاليم فرنسا من الاسترقاق وأعطيت لكل معتوق وثيقة الحرية وكانت تلك الوثائق ترخص لهم فيما بعد فى فعل أربعة أشياء عظيمة القدر لديهم لم يكن مصرحا لهم قبل بفعلها بلا استئذان وهذه الاشياء تعلم من صورة الوثيقة المذكورة بأسفل الصحيفة (١) وهى وثيقة أعطيت سنة ١٣٧٦ م لسكان مدينة مونبروطون كما ورد فى تاريخ اقليم دوفينه

وقد أصدر هذا الملك أمرا بطرد اليهود الذين كان سلفه قد أرجعهم الى فرنسا وقال المؤرخون ان فليب الخامس هذا طرد اليهود من فرنسا لكونهم اتهموا بالقاء السم فى الآبار والصهاريج الاهلية وكان ذلك باتفاقهم مع المصابين بداء الجذام ومسلمى غرناطة الذين كانوا يخشون اغارة طائفة البسطوريه وهم فرقة قوية كانت تثير الفتن فى مملكة فرنسا وقد أضمروا على ما يقال أن يضعوا السم فى مياه فرانسا لتدمير جميع أهلها وكانت الحروب يومئذ قائمة بين أهالى غرناطة بسبب انه لما أخذها الامير أبو الجيوش واستولى على سلطانهم بها ساءت سيرته وسيرة وزيره ابن الحاج وكان بنوادريس بن عبد الله بن عبد الحق أمراء على الغزاة عالقة وكان كبيرهم عثمان بن أبى العلاء فداخل أبا الوليد اسمعيل من بنى الاحمر فى الخروج على السلطان أبى الجيوش نصر وتناول

(١) (أولا) ابطال حق التصرف فى ذواتهم ببيع أوهبة أوغير ذلك ثانيا رخص لهم أن يوصوا لمن يشاؤا بأموالهم وما ملكت أيديهم أو يعطوها لمن شاؤا بوجه آخر من الوجوه الشرعية فاذا مات أحدهم من غير ايصاء انتقلت أمواله وأملاكه لورثته الشرعيين كغيرهم من الاهالى الاحرار ثالثا الفرد والخدم التى كان يجب عليهم تأديتها لملتزميهم صارت مبينة محدودة بعد أن كانت سابقا باختيار بمطلقة يعنى ان الملتزم كان قبل ذلك يكلف أتباعه بما يشاء ويريد رابعا رخص لهم أن يتزوجوا بمن شاؤا بعد أن كان لا يجوز لهم أن يتزوجوا بغير أمر ملتزميهم وبدون اذن منهم اهـ من صحيفة ٢٤٩ من اتحاف الملوك الالباء

Digitized by Google

الامر من يده لضعفه وضعف بطانته أقر بابنه فعزم أبو الوليد على ذلك واعتقل أبا الجيوش وبايعه الناس وثار عبالقة سنة ٧١٧ هـ الرئيس أبو سعيد فزحف اليه أبو الوليد الى غرناطة وهزم عساكره وثارت أهل المدينة بأبي سعيد وأحيط به وصالحهم على الخروج الى وادي آش فلحق بها ودخل أبو الوليد اسمعيل الى غرناطة فأصل بهم الذمه ولبنيه ملكا جديدا وسلطانا فسيحا ونازله الملك الفونس بغرناطة سنة ٧١٨ هـ ١٣١٨ م فكسر أبو الوليد جيوشه وتردد الى بلاده مرات غازيا وبذلك اتخذ كثير من قومه بعض البلاد الفرنساوية دارا اقامة لهم

وقد أثبت فليب الخامس هذا بما رتبه من الترتيبات لحماية المملكة الفرنساوية لعموم الامة النجاح واشتغل أيضا بتعديل المعاملات النقدية وترتيب وحدة الموازين والمكاييل لما يترتب عليهما من راحة الرعية ولكن عاجله الموت بعد مرض دام معه ستة شهور (١٣٢٢ م) فمنعه من تنفيذ ما كان عزم عليه من الاصلاحات وكان يعد من أحسن ملوك فرنسا بأفعاله التدبيرية وترتيباته السياسية غير أنه ظلم اليهود وأوقع بهم لانه لما أمر بطردهم من المملكة أراق دماء الكثيرين منهم باشارة البابا يوحنا الثاني والعشرين (Jean XXII) وقتل عدة أشخاص أيضا اتهموا بالبدع والسحر قصاصا على هذه الافعال فنشأ من ذلك حرب كبير مع الالبيين القاطنين بالجزء الجنوبي من بلاد فرنسا قال المؤرخ فرنسوا فالى (Velly) ان فليب الخامس كان من الافاضل العظام مستقيم الحال بدون سخافة متدينا وفيا بوعده متيقظا ماهرا حازما شهما لين العريكة خاليا عن الحدة وهوى النفس محلى العقل بالفضائل رقيق الطبع رزينا محبا لاهل العلوم والمعارف وكان يدعوهم الى قصره ويعتبرهم ويميزهم عن غيرهم اهـ ولما لم يعقب ولدا خلفه أخوه شارل الرابع

شارل الرابع الملقب بالظريف (C. Le Bel) ١٣٢٢ – ١٣٢٨ – جلس على التخت بعد وفاة أخيه بلا معارض وكان وقتئذ كونتا لبلاد مرشيه وتلقب أيضا بملك بلاد نوار لانه ورث حنة ملكة نوار وكانت الخزينة الفرنساوية خالية من المال لاسراف الحكومة أيام سلفه وسوء ادارة الماليين واختلاسهم ولذلك عاقبهم وكان أغلب المستخدمين في المالية يومئذ من أهالي ايطاليا ولمبرديا فأبعدهم الى بلادهم بعد ان صادرهم في أموالهم فعادوا فقراء كما كانوا وفعل هذا الملك في الداخلية من الامور السياسية والمحاسن التدبيرية ما خلد له الذكر الحسن فقد اشتهر بكثير من الاوامر التي براهينها القاطعة دلت على ميله لحماية التجارة وتأمين الاهالي وكان يعشق العدل والانصاف ومن ذلك انه حكم على بارون جزرتجوردانه (Ile en Jourdain) بالموت باجماع ديوان مدينة باريس لما جاوزه هذا البارون الحد في المظالم الشنيعة مع أنه كان من أشرف العشائر ومتزوجا بابنة أخي البابا يوحنا الثاني والعشرين ولهذا وغيره لقبه أهالي فرنسا بالعادل ومن يومئذ ظهر نفوذ الحكومة على الاشراف وصارت تجبرهم على اطاعة أوامرها وقد حكم هذا الملك أيضا على بعض الرهبان بالقتل لاتهامهم بالاعمال السحرية التي كانت شائعة في بلاد فرنسا في العصر المذكور وهذا مما يدل على أن أهالي فرنسا يومئذ كانوا في حالة الجهل بعيدين عن المعارف والفنون التي كانت أخذت تزهر وتزهو بين أهالي ايطاليا اذ ذاك

استيلاء شارل على غيانة من الانجليز – بينما كان ادوارد الثاني ملك انجلترة يشتغل باطفاء الثورة التي قامت ببلاده تحت رئاسة طوماس (Thomas) أرل لنكستر

Digitized by Google

(Earl of Lancaster) بخصوص مسئلة غافستون (Gavaston) أحد أعيان مقاطعة غويين الذي دعاه ادوارد الثاني الى انجلتره وأكرمه ولقبه بأرل بلاد كورنويل وزوجه بابنة أخيه جلس شارل الظريف على تخت فرنسا فلم يتمكن ادوارد الثاني من حضور رسم تتويجه لان ملك انجلتره المذكور كان يعد من أتباع التزامات التاج الفرنسوي فاتخذ شارل عدم حضوره سببا لان يجرد على دوقية غويين (Guyenne) احدى مقاطعات فرنسا الواقعة بالجنوب الغربي للاستيلاء عليها فاستولى منها على مدينة لاروشيل (La Rochelle) فمال ادوارد الى مسالمة شارل عند ذلك وأرسل زوجته ازابيلا أخت شارل ملك فرنسا الى باريس (١٣٢٥ م) للمخابرة في عقد الصلح على شرط ترك غيانه لفرنسا الا أنها ما وصلت أخذت في دس الدسائس ضد زوجها بقصد خلعه وساعدها أخوها شارل على ذلك ثم عادت الى انجلتره (١٣٢٦ م) مصحوبة بكثير من رجال الانجليز أصحاب أرل لنكستر الذين كانوا هربوا الى فرنسا بعد قتل الارل المذكور وكانت جمعتهم اليها وأمرت عليهم شابا اسمه روجر مورتيمر (Roger Mortimer) وكان قر رأيهم على خلع ادوارد فهيجت بهم حربا داخلية انتهت بخلع ادوارد المذكور وقتله ولما جلس ادوارد الثالث على كرسي انجلتره أعاد اليه ملك فرنسا دوقية غويين المذكورة بعد ان دفع غرامة مقدارها ٥٠٠٠٠ ليره (١٣٢٧ م) ثم مات شارل الظريف (٣١ يناير ١٣٢٨ م) ولم يعقب ذكورا ولذا انقرض به الفرع الاول من الدولة الثالثة المعروفة بالكابتيه قال المؤرخون ان موت هذا الملك أنتج نتائج عظيمة لفرنسا لان والداه اللذان كانا له ما تا قبل موته فلم يبق من هذا الفرع الاول المذكور ذكر يرث المملكة وكان أقرب من يرث التاج من الذكور هو كونت فالوا (Valois) وهو فليب بن شارل بن لويس الهادي وحكم ديوان المشورة الملكية الجديدة المركب من وكلاء الاقاليم بمنع النساء من لبس التاج وبذلك حرمت بنات لويس هوتين وبنات لويس الطويل وبنات شارل الظريف من الحكم فلم تتمكن ازابيلا ملكة انجلتره وبنت فليب الظريف من أن تتولى المملكة ولذلك طلبت لابنها ادوارد الثالث ملك الانجليز تاج فرنسا ونشأ عن طلبها هذا الحرب العظيم المعروف بحرب المائة سنة

اخلاق وعوائد الفرنسويين والوظائف التي وجدت في عهد الفرع الاول من الدولة الكابتيه

- في عهد هذه الدولة اشتهرت طائفة الاشراف أو الفرسان (الشفالية) شهرة عظيمة وصار لهم مزيد الاعتبار وكان يطلق على نسائهم فقط اسم دام (أي سيدات) وكانت الاسلحة التي يستعملونها زمن السلم هي الخوذة والترس والزرد والدرع وكفوف الحديد ويستعملون أسلحة أخرى في زمن الحرب والمهاجمة وهي الخنجر والسيف والبلطة والدبوس وكانوا يستعملون هذه الاسلحة في الملاعب المعروفة عندهم باسم تورنوا (Tournois) أي البرجاس ولا يعرف للالعاب التي أحدثها الشفالية تاريخ معين وقد استحالت هذه الالعاب الى القتال على سبيل الجد وكان يشترط فيمن أراد الاندماج في سلك طائفة الشفالية أن تكون تربيته مبتدأة من أول طفوليته ففي سن السابعة يلزم أن يدخل في خدمة أحد مشاهير الطائفة بصفة غلام ثم ينتقل من خدمته الى أعلى منها حتى يبلغ سن ١٤ سنة فيترقى الى منصب سلحدار ووظيفته فيها أن يلبس سيده ملابسه ويحمل سلاحه ويلاحظه في القتال ولما يبلغ الحادية والعشرين من عمره يتهيأ بالصيام

Digitized by Google

والسهر وغيرهما من ترييضات العبادة لمحفل يعرف بالا كولادأى المعانقة وبعد أن ينتهى المريد بالترييضات الدينية المذكورة يذهبون به الى الكنيسة لابسا ثيابا بيضاء وترسم مرسل فى عنقه ويدعون سائر أقاربه وأصحابه وجميع شفالية الخط ونساء الاعيان وبناتهم ليلبسنه المهاميز المذهبة وسائر عدة الحرب ثم يدنونه من أقدم طائفة الشفاليه ويقلده سيفا يأخذه من فوق المحراب وبعد أن يضربه على كتفه بصفحة سيفه ضربة خفيفة يعانقه ويقول له باسم الله والعذراء وسن دنيس جعلتك شفاليه ثم يأخذ عليه العهد بذلك

وقد أحدث فليب الثانى الملقب باغسطس جندا مجكا يبقيه تحت السلاح زمن السلم وكان الفرنساويون قبل زمنه لا يعرفون الحركات العسكرية وانما كنت ترى المقاتلة يحاربون بعضهم بعضا بدون انتظام وكان المشاة يحاربون بالقوس والمقلاع والرمح وقد أوجد فليب أغسطس أيضا منصب رئاسة الجيوش ومنصب أمير الامراء أما منصب الاميرالية لرئاسة عموم الجيوش البحرية فأحدثه فى فرنسا الملك سن لويس قال موريس لوار (Mourice Loir) فى صحيفة ٩ من كتابه المسمى البحرية الفرنساوية ان لفظ أميرال لم يعلم بفرنسا الا زمن الحروب الصليبية أخذه الفرنساويون عن العرب الذين كانوا يطلقونه على رؤساء أساطيلهم بقولهم أمير الماء فجعل فى فرنسا لقبا لرؤساء البحرية وأول أميرال لقب به هو فلوران دوفارين (Florent de Varennes) (سنة ١٢٧٠ م) وجعلوا فى ابتداء الامر بفرنسا أميرالا لكل ولاية بحرية مثل نورمنديا وبرطانية وغويين (Guyenne) وبروفنسه وكان أميرال بروفنسه يعرف بأميرال الشرق وأحيانا يكون والى الولاية أى المقاطعة هو الاميرال أيضا وأميرال نورمنديا كان يلقب بلقب أميرال فرنسا ولما كان زمن فرنسوا الاول كان بفرنسا أميرالية عديدين اه وقال مورخو الفرنج ان أول استعمال بيت الابرة (البوصلة) فى فرنسا كان سنة ١٢١٠ م وكانت تسمى يومئذ مارينير اومارينت (Mariniere ou Marinette) وقد وردفى عدة مؤلفات أن العرب هم الذين اخترعوها ومنهم أخذها الفرنج وقال بعضهم ان العرب أخذوها عن الصينيين بواسطة أسفارهم فى أقاصى الشرق وقد تقرر فى عقول الكثيرين بأن ذلك الاختراع هو للعرب وان أوروبا تناولته من الصين بواسطتهم وعلى كل حال فان العرب استعملوا بيت الابرة قبل باقى أمم أوربا وأخذها الفرنساويون عنهم نحو سنة ١١٥٠ واستعملوها قبل ان استعملها أمم أوربا الاخرى

﴿ الفصل الثامن ﴾

(الدولة الرابعة المعروفة بالفرع الفلواسى (Valois) من الدولة الكابيتيه)

(١٣٢٨ م - ١٥٨٩ م)

فليب السادس دوفالوا - ١٣٢٨ - ١٣٥٠ م - لما مات شارل الرابع ثالث أولاد فليب الظريف ولم يعقب ذكورا كاخوته انقرض الفرع الاول من الدولة الكابيتيه فأجمع لذلك أشراف المملكة على مبايعة فليب كونت دوفالوا المذكور لانه أقرب أمير من العصبة فهو ابن عم شارل الرابع لانه ابن شارل دوفالوا أخ فليب الظريف وكان ادوارد الثالث ملك انجلتره

Digitized by Google

يطالب بتاج فرنسا بدعوى أن له الحق فيه لكونه ابن الاميرة أزابيله أخت شارل الظريف ومع ذلك فان فليب دوفالوا جلس على كرسى فرنسا وكان عمره يومئذ ٣٤ سنة طبقا لحكم القانون السالى القاضى بحرمان النساء من وراثة التاج الملوكى ولم يحضر ادوارد الثالث ملك انجلتره رسم التتويج لانه لم يعترف بحق التابعية لملك فرنسا بالنظر لاقليم غوين وكان التاج وقتئذ تبع مقاطعات وهى بيكارديا وايل دوفرنس واورليان وبرى وتورين ونورمنديا ولنجدوق وشمبانيا ولورينه ولم يتملك فليب مملكة نواره كاسلافه لعدم وجود حق له فيها فردها على بنت عمه الاميرة جنه بنت لويس دوهوتين (Louis de Htin) فتلقب زوجها كونت افروكس بلقب ملك نوار

واتفق أنه بعد جلوس فليب هذا ثار أهل فلندر وخلعوا رداء طاعة لويس الثانى كونت فلندر فطلب المساعدة من ملك فرنسا فأمده بجيش عظيم قاده فليب بنفسه وحارب الثوار محاربة كبيرة حتى كاد يقع أسيرا فى يدهم ولكنه تغلب عليهم أخيرا وهزمهم فى واقعة كسيل (Cassel) سنة ١٣٢٨ م وقتل منهم نحو ثلاثة عشر ألف محارب فانقادوا الكونتهم لويس الثانى المذكور ثم استعرض الجيش وأوصى كونت فلاندر المذكور وصية أبان له فيها لزوم معاملة الاهالى بالعدل وقد استحسنا ذكرها فى أسفل الصحيفة لتمام الفائدة كما دتها فى كل ما تهم معرفته (١)

حرب المائة سنة بين انجلترة وفرنسا — قال المؤرخون أنه بعد انتصار فليب دوفالوا على الفلامنديين كتب الى ادوارد الثالث ملك انجلتره (١٣٣٠ م) يدعوه الى الحضور الى بلدة اميان لانه من أتباع تاج فرانسا التوليه دوقية غوين وأن يكون فى التشريفات مكشوف الرأس بلا تاج ملوكى ولا سيف ولا مهماز وأن يجثو على ركبته بحضور ملوك نوارو جه (٢) وميورقه ودوقيات بوربون وبرغونيا ولورين وغيرهم فاضطر ادوارد الى اجابة هذا الطلب مؤديا رسوم الاحترام لفليب لانه كان على غير استعداد للحرب معه الا أنه اتخذ الاحتياطات السرية مع مجلس مملكته بأن لا يسلم حقوق نفسه لكونه ملكا مستقلا وأن يحافظ عليها عند سنوح الفرص وبعد قليل وقع خلاف بين روبرت الارتوازى وملك فرنسا سببه أن الاميرة ماهوت (Mahaut) عمة روبرت أخذت منه كونتية ارتواز فحاول ارجاعها عن ذلك بواسطة ملك فرانسا فلما لم ينجح مضى الى انجلتره مستجيرا بادوارد الثالث وحرضه على محاربة ملك فرانسا فتلقاه ادوارد ولقبه بكونت رتشموند (١٣٣٣ م) وكان ادوارد يحقد على ملك فرانسا للاسباب السابق ذكرها ومما زاد غيظه أن فليب أعلن خيانة روبرت الارتوازى المذكور وأنه ألد أعداء المملكة وأمر الملتزمين بأن لا يقبلوه فى أراضيهم متوعدا من خالف أمره بالمصادرة فى التزاماته فعد ادوارد ملك انجلتره هذا كاعلان حرب فأخذ يستعدلها

(١) قال فليب بحضرة الامراء الملتزمين يا ابن عمى اعا جئت هنا اجابة لسترجيك اياى وربما كنت أنت السبب فى العصيان لاهمالك فيما يجب عليك لرعاياك من العدل ولا أريد الان البحث فى مثل ذلك ولقد ألجأتنى الى انفاق مصاريف كثيرة وكان لى الحق فى طلب عوضها منك الا أنى أبرأتك منها وأعدت بلادك الى طاعتك آمنة مطمئنة فاحذر أن تحوجنا الى العود الى مثل ذلك ثانية فاذا كان سوء ادارتك يحوجنى الى الرجوع مرة أخرى راعيت مصلحة نفسى دون مصلحتك اهـ

(٢) جه (Tchéque) هى مقاطعة من بلاد بوهيميا

وانضم اليه الفلامندريون تحت قيادة رئيسهم جاك ارتويلد (Artweld) الذي آثارهم على فرنسا ثانية فخلعوا طاعة كونت فلاندر الذي أهمل وصية ملك فرانسا وظلم رعاياه وأشار جاك المذكور وروبرت الارتوازي على ادوارد ملك انجلترة بأن يلقب نفسه ملك فرانسا فأعلن ادوارد ذلك سنة ١٣٣٧ م بدعوى أنه ابن بنت فليب الجميل واعترف الفلامندريون بسيادته الالتزامية عليهم ثم عبر ادوارد خليج المانش على اسطول جسيم ونزل في فلاندر وأغار منها على فرنسا وكان ذلك ابتداء حرب المائة سنة ١٣٤٠ م المذكورة

أشهر حوادث الحروب المذكورة — أنه في سنة ١٣٣٩ م بعثت فرانسا أسطولا مؤلفا من عدة سفن نورمندية وبيكاردية وبرطانية وجنوزية تحت قيادة الاميرال هوغ كريت (Quieret) الى سواحل انجلترة لتخريب ثغورها البحرية فأحرقت مينا بلموث وغيرها وفي فصل ربيع سنة ١٣٤٠ م قصد ادوارد الثالث بلاد فلاندر على أسطول قوي يتألف من ٢٦٠ سفينة حربية وبعض مراكب صغيرة وجيش ضخم فلما بلغ فليب خبره أرسل أسطولا فرنساويا مركبا من ٤٠٠ سفينة تحت قيادة هوغ المذكور ليمنع ملك الانجليز من النزول الى مقاطعة فلندرة فانتظر الاميرال الفرنساوي الانجليز عند مصب نهر شيلت ثم وصل الاسطول يوم ٢٢ يونيه وفي صباح اليوم الثاني هجم ادوارد على الفرنساويين وامتدت الواقعة الى الغروب ثم انهزم الفرنساويون بعد أن خسروا نحو ٣٠,٠٠٠ مقاتل وتغلب الانجليز على الاسطول الفرنساوي ودمروا سفنه وكانت الخسائر الانجليزية قليلة بالنسبة للفرنساوية قال فكتور دروي أن ضياع الاسطول الفرنسوي في هذا الحرب ناشئ من كون قواده لم يكونوا متدربين على القتال ولم يكن لهم المام تام بالحروب البحرية وقال ليون غورين نقلا عن فرواسار الفرنساوي أن الواقعة المذكورة كانت أول محاربة جسيمة بحرية حدثت في العصر المذكور بين أساطيل فرنسا وانجلترة وأن ادوارد الثالث كان أعد سفنه للحرب وجعل أقواها في الامام ورتب طوائفها فوضع حاملي السهام في كل جانب منها وجعل بين كل فرقتين من حاملي السهام فرقة من حاملي الاسلحة الاخرى وكانت سفن الانجليز على صفين ولم يذكر أحد من المؤرخين شيأ عن تلك الصفوف هل كانت مستقيمة أو منحنية وقال روبرت دوافسبوري (Avesbury) وغيره ان سفن الاسطول الفرنسوي في هذه المحاربة لم تكن على صفين كما زعم كل من يونفيس لابليني ولابيروس (Lapérouse) ثم بعد بضع أسابيع دخل ادوارد يقود جيشا مؤلفا من ٢٠٠,٠٠٠ مقاتل وحاصر مدينتي طورني (Tournoy) وسنت اومير (Saint-Omer) ثم اضطر الى رفع الحصار عنهما لان الجيش الفرنساوي كان انتصر على روبرت أحد قواد الجيوش الانجليزية بالقرب من مدينة سنت اومير المذكورة (١٣٤٠ م) ولذلك عقد ادوارد هدنة مع ملك فرنسا لمدة سنة وذهب مسرعا للنظر في أمر أهل ايقوسيا وكانوا قاموا على ملكهم الذي ولاه هو عليهم وبعد مضي سنة مات يوحنا الثالث دوق برطانية (١٣٤١ م) فقام النزاع بين شارل دو بلوا (de Blois) وجان دومونتفورت (deMontfort) بخصوص وراثة دوقية برطانية المذكورة فعضد ملك فرنسا دعوى شارل دو بلوا لانه ابن أخيه وعضد ادوارد ملك انجلترة كونت دو منتفورت وفي تلك

المدة

المدة تغلب شارل على مدينة نانت (١٣٤١ م) وأسر كونت مونتفورت وأرسله الى باريس فقامت الاميرة جان (Jeanne) زوجة كونت مونتفورت المذكور ودافعت عن مدينة هنبون (Hennebon) حتى ورد اليها المدد من ادوارد على ٤٦ سفينة ثم حضر اوارد بنفسه وبدون أن يعمل شيأ عقد هدنة مع فرنسا المدة ثلاث سنوات (١٩ يناير ١٣٤٣ م) وفي سنة ١٣٤٥ م عادت الحرب فاشتعلت نيرانها بين ملك انجلتره وملك فرنسا في ثلاث جهات دفعة واحدة ونزل ادوارد بعساكر جرارة عند ساحل نورمنديا وكان عرج بأسطوله على شربرغ (Cherbourg) ووجدها حصينة فتقدم بجيشه المذكور الى مدينة روان وأرسل قسما من عساكره للهجوم على القرى الواقعة في جوار باريس ولما بلغ ذلك فليب ملك فرنسا واجه جيش عدوه بجيش أكثر منه عددا وتغلب عليه فتقهقر الانجليز الى فلندر وتعقبهم ملك فرنسا وحصلت بينهما واقعة كريسي (Crécy) الشهيرة (٢٦ اكتوبر ١٣٤٦ م) باقليم بيكارديا كان النصر فيها للانجليز وهلك من الجيوش الفرنساوية نحو ثلاثين ألفا منهم ألف ومائتين من طائفة الفرسان أي الشفالية (Chevaliers) وأحد عشر من الامراء والملوك منهم شارل كونت النسون (Alençon) ملك بلاديجه وهو أخو ملك فرنسا ويوحنا ملك بوهيميا ويقال أن نجاح الانجليز في هذه الواقعة نشأ من استعمالهم المدافع وهي أول مرة استعملوا فيها المدافع في حروبهم وكان فم تلك المدافع أوسع من أسفلها فكانوا يرمون النار بست كال في آن واحد وقالوا وكانت العساكر الفرنساوية تزيد المحاربة بالاسلحة النارية وقتئذ ولكن لكبر نفوس أمرائهم رأوا أن استعمال الاسلحة التي تقتل من بعيد مناف لشجاعتهم وكان ابن ادوارد يحارب في هذه الواقعة وسنه ١٥ سنة فكان يقتحم الاخطار وأبوه خلفه لا يعينه ويقول دعوه يكتسب شوكة وخبرة وقد اشتهر هذا الامير في مملكة فرنسا وعرف بالامير الاسود لسواد درعه أما فليب فقتل جواده تحته في الواقعة وجرح جرحين اضطراه لترك ميدان الحرب ولما وصل الى قصر ابروية القريب من مدينة اميان صاح على البواب قائلا افتح الباب هكذا الدهر يفعل بفرنسا

استيلاء انجلترة على مدينة كاليه — لما تم للانجليز النصر في واقعة كريسي المذكورة ذهب ادوارد بجيشه وحاصر مدينة كاليه فأظهر سكانها شجاعة وصلابة وصبرا على الحصار سنة كاملة وقد امتاز كل من يوحنا أمير مقاطعة وبانه (J. de Vienne) واستاش دوسن بيير (Eoustache de saint Pierre) وخمسة آخرين من أهل المدينة بالبسالة والصداقة فبذلوا مهجهم لانقاذ أبناء بلدهم وكان الانجليز اشترطوا عليهم أن يحضروا اليهم بقمصانهم وفي أعناقهم الحبال وبأيديهم مفاتيح المدينة ويسلموا أنفسهم للانجليز فأجابوا الى ذلك وخلصوا أبناء بلدهم قال خوري دوسانجات (Curé de Sangate) في كتابه غير المطبوع الذي ألفه سنة ١٥٩٥ م الموجود بكتبخانة دار صناعة فرنسا تحت نمرة ٢٢٦ لما حاصر الانجليز بلدة كاليه أظهر أهلها صداقتهم وحبهم لفرنسا فاضطروا أن يدافعوا عن بلادهم مدافعة عظيمة الى أن تقوت عليهم الانجليز برا وبحرا فالتزموا الى التسليم وقال القس دوشوازي (L'abbé de Choisy) في الجزء الاول من تاريخه عن فليب دوفالوا سنة ١٦٨٨ م ان فليب ملك فرنسا تأسف على سكان كاليه لانهم بعد مدافعتهم طردهم الانجليز مع نسائهم وأطفالهم فلذلك

Digitized by Google

أصدر أمرا ملوكيا في ٨ سبتمبر سنة ١٣٤٧ بمنحهم جميع الاموال والمواريث التي تحصل وتؤول الى الملك بأي سبب كان وذكر القس المذكور صورة هذا الامر نقلا عن كتاب خوري سانجات المذكور وقد أوردناه بأسفل الصحيفة معربا من تاريخ بحرية فرنسا لتمام الفائدة (١)

وفي سنة ١٣٤٨ توسط البابا أكليمنص السادس بين ملك فرنسا وملك انجلتره وعقد بينهما هدنة لمدة عشرة أشهر وأصيبت فرنسا في السنة المذكورة بمجاعة شديدة وأعقبها طاعون جارف عرف بالطاعون الاسود عم جميع بلاد الدنيا الخرب فرنسا وأهلك ربع أهلها ويقال ان عدد الاموات بلغ كل يوم في مستشفى باريس المسمى أوتيل دوديو (أي بيت الله) خمسمائة نفر

هذا وقد خففت مصائب فليب بامتلاكه اقليم دوفينيه لان أميره المدعو همبرت الثاني لم يعقب ذرية فلذلك جعل فليب دوفالوا أصغر أولاد فليب دورليان وريثاله وأخذ منه تعويضا قدره ١٢٠ ألف فلورين ذهبا (١٣٤٣ م) واشترط أن كل بكري من أولاد ملوك فرنسا يلقب بالدوفين ويحمل أسلحة هذا الاقليم الممتازة عن أسلحة فرنسا ومن ذلك الحين صار بحكمها بكر أولاد ملك فرنسا ويلقب بالدوفين وامتلك ملك فرنسا أيضا مدينة مونبليه باعها له جايم الثاني (Jayme) ملك جزيرة ميورقة (١٣٤٩ م) وكان فليب هذا قد أخذ ضرائب على الملح لاضطراره للنقود ثم قرر سنة ١٣٤٤ م حجز الملح في مخازن المملكة محتكراله ولما كان اسم الملح في اللغة الفرنساوية مشتركا بينه وبين القانون السالي سمى ملك انجلتره فليب سخرية منه ملك القانون السالي أي الملحي فرد عليه فليب بقوله وأنت تاجر الصوف لانه كان يتجر مع الفلمنكين في الصوف تجارة عظيمة ومات فليب دوفالوا المذكور سنة ١٣٥٠ م قريبا من مدينة شرتر وله من العمر ٥٧ سنة وأعقب ولدين هما حنا الذي ملك بعده وفليب دوق أورليان وكان قد أوصاهما بأن لا يتنازلا عن شيء ما للملك الجلتره وفي عهد هذا الملك كان أول شيوع ذكر البارود المدافع بفرنسا سنة ١٣٤٨ م وخالف البعض ذلك بقولهم انذ كره ورد في سجلات دار المحاسبة في باريس منذ سنة ١٣٣٨ م قال بيارد ومسكيا في كتابه المعنون بما معناه مسائل متنوعة لما حاصر الفونس الحادي عشر ملك قشتاله واليون العرب سنة ١٣٤٣ م اطلقوا عليه موادمفرقعة من مدافع كان يسمع لها صوت كصوت الرعد القاصف اه ومن هنا يتضح أن العرب استعملوا البارود والمدافع قبل باقي الامم الاوروباوية ومنهم نقل الى دول أوربا

يوحنا الثاني الملقب بالطيب (Le Bon) ١٣٥٠ - ١٣٦٤ م - جلس هذا الملك بعد أبيه على تخت فرنسا وعمره ٣١ سنة وأشهرا ولما كان على جانب عظيم من جميل الصفات لقبه رعاياه بالطيب ولاشتهاره بالمهارة في الحرب والتجربة في مجالس المشورات علقت عليه الامة آمالها ولكن مدة حكمه كانت مشؤمة على المملكة كما ستراه وفي أول جلوسه اسخط الامة بضرب

١ نظرا لما بذله سكان كاليه من الجهد بحبهم الصادق لنا ولفرنسا في الدفاع عن أنفسهم ومحاربة ملك انجلتره وباقي أعدائنا الذين أخذوا أموالهم ومنقولاتهم وطردوهم خارج بلدهم أمرنا أن جميع الاموال المنقولة والمواريث التي تحصل لنا لاي سبب تكون بين أيدينا لنفرقها عليهم ولكي يمكنهم التعيش في أقرب وقت أمرنا ونأمر أن جميع الوظائف التي تخلو من الآن فصاعدا يصير تعيينهم فيها ولا يسوغ تعيين أحد خلافهم حتى يتحصلوا على ضروريا تهم وأمرنا بانه اذا صدر أمر آخر مضاد لذلك يكون لاغيا وعلى قسس لان ومطران سان دنيس ومارموستيه العمل بمقتضى هذا الامر الى الابد ولاجل ذلك وضعنا ختمنا عليه تحريرا في اميان ٨ سبتمبر سنة ١٣٤٧ (فليب بامر الملك)

Digitized by Google

عنق راول دونسل (Raoul de Nesle) رئيس الجيوش بلا محاكمة بل لمجرد اتهامه اياه بالخيانة من غير أن يثبتها عليه ثم وجه منصب رياسة الجيوش الى شارل دولاسردا (Charles de la Cerda) فاغتاظ من ذلك شارل الملقب بالقبيح (C. le Mauvais) ملك نافار وصهر الملك يوحنا وسعى حتى قتل شارل دولاسردا المذكور على فراشه (١٣٥٤ م) وبعد أن تجهز يوحنا للاغارة على بلاد شارل القبيح أخذته الرأفة عليه فعفا عنه فاغتر شارل القبيح لعدم عقابه وتجاسر على ارتكاب أمر آخر حيث أغرى ولى عهد يوحنا على الخروج عليه فاضطر يوحنا الى محاربة ابنه فسار على روان وكان ابنه دوقا على نورمنديا ثم قبض على شارل القبيح وقصد قتله الا أن ابنه لما تنازل عن مدعياته بعث يوحنا بشارل الى باريس ثم سجنه فى قلعة حصينة من قلاع بيكارديا سنة ١٣٥٥ م ثم نقله الى غيرها فلما بلغ ادوارد الثالث ملك انجلترة ذلك استاء منه وصمم على حرب يوحنا ووجه على فرنسا جيشا تحت قيادة ابنه ادوارد الملقب بالامير الاسود وكان هذا الجيش يتألف من ثمانية آلاف مقاتل

واقعة بواتيه وأسر يوحنا ملك فرنسا — لما دخل الامير الاسود بالجيش عن طريق بوردو ووصل الى بورجيس ورفع يوحنا ملك فرنسا الحصار عن قلعة برتويل (Breteuil) احدى قلاع بلاد نوارة قصد بجيشه منع تقدم الانجليز فى بلاده وكان عدد الجيش الفرنسوى ٥٠,٠٠٠ مقاتل ومن قواده أولاد الملك الاربعة و ٢٦ دوقا وكونتا و ١٤٠ أميرا من أمراء الملتزمين فلما رأى الامير الاسود كثرة الجيش الفرنسوى تحصن فى بلدة بواتيه (Poitier) مستعدا للدفاع فهجم عليه ملك فرنسا (١٩ سبتمبر ١٣٥٦) هجمة شديدة الا أنه هزم هزيمة منكرة وتشتت شمل الجنود الفرنسوية من كثرة النبال التى أمطرها عليهم الانجليز حتى لم يبق فى ميدان الحرب الا فرقة واحدة كانت تحت قيادة الملك يوحنا نفسه ومعه أحد أولاده فوقع أسيرا بعد أن فقد من جيشه العرمرم ١١,٠٠٠ نفرا وعددا كبيرا من الاشراف قالوا ان سبب انهزام الفرنسويين فى واقعة بواتيه هذه عدم الترتيب والنظام وقلة التدبير ولان الملك ترك ما يلزم لمثله من قيادة الجيش وجعل نفسه كاحد الضباط حتى وقع أسيرا هو واحد أبنائه وصارت هذه الهزيمة أشأم على فرنسا من واقعة كريسى السابق ذكرها وقالوا أيضا ان يوحنا لم يظهر تأثرا مما حل به من النكبات بل قال للانجليز عند أسره كان ظنى أن يكون عشاؤكم الليلة عندى ولكن قضى الدهر بغير ذلك وبأنى أتعشى عندكم أما الامير الاسود فانه عامل ملك فرنسا بكل احترام وأخذه معه الى مدينة بوردو ثم بعثه الى انجلترة سنة ١٣٥٧ م فقابله فيها ملك انجلترة مقابلة حسنة وأسكنه سراى سافوا القديمة

قيام ولى العهد نيابة الملك فى فرنسا — بعد عودة الفرق المنهزمة الى باريس تقلد الدوفين شارل الحكم بالنيابة عن أبيه وشرع فى اصلاح ما خربه الانجليز وعقد معهم هدنة لمدة سنتين (١٣٥٧ م) وفى سنة ١٣٥٨ قامت عصبة تدعى بالجاكرية (Jacquerie) (١)

(١) قال البعض ان لفظة جاكرية نسبة الى الثوار من جاك وهى الخوذة الحديد التى كان يلبسها بعض الجنود وقال البعض انها منسوبة الى جاك كال رئيس أولئك الثوار وقال آخرون ان الامراء أطلقوا هذا الاسم على أولئك الثوار احتقارا لهم اه

Digitized by Google

رجالها من العوام (Bourgeoisie) فثاروا فى طلب اعادة بعض الحقوق التى فقدوها وكان الثوار تحت قيادة اسطوفان مرسيل (Etienne Marcel) حاكم باريس ورئيس التجار بها وروبرت لوكوك (R. le Coq) أسقف ليون وهجموا على سجن باريس وأخرجوا منه شارل القبيح ملك نافار وقتل الثائرون بحضرة الدوفين الذى تعسر عليه تسكين الثورة عدة من الملتزمين والاعيان فى ديوانه وألزموا الدوفين بالخروج من باريس وسلموا باريس الى شارل القبيح المذكور أما الدوفين فانه طلب من بلاد شمبانيا وغيرها من المقاطعات جنودا يقوى بها على محاصرة باريس وكان مرسيل يدافع عنها ثم قتل مرسيل اثناء الحصار ليلة ٣١ يوليو (١٣٥٨ م) قتله رجل يقال له يوحنا ميلارت (J. Maillart) ضربه على رأسه ببلطة وهو يفتح باب سنت انطوان للملك نافار فانحلت عزائم الثوار وعاد الدوفين الى باريس وقوى أمره وخمدت نيران الثورة مدة طويلة سن فيها الدوفين قوانين جديدة تمنع الحكم الاستبدادى فى فرنسا

هذا وكان شارل القبيح ملك نافار لما يئس من أمره استعان بادوارد الثالث الذى كان عقد مع يوحنا ملك فرنسا المأسور معاهدة مضرة بصالح فرنسا لما رفضها الدوفين دخل ادوارد فرنسا بجيش عظيم ومازال يتقدم حتى صار على مقربة من بلدة شارتر ولكن يقال انه تشاءم من ريح عاصف هب عليه بشدة فخرب معسكره وأهلك من جيشه ألف مقاتل ونحو ستة آلاف فرس أغرقها فى المياه فأسرع بعقد معاهدة صلح مع الدوفين شارل عند بلدة شارتر عرفت بصلح بريتينى (Bretigny) (١٣٦٠ م) وكان من أهم موادها تنازل شارل الى ملك انجلترة عن جميع ما علكه ملك فرنسا فى أقاليم بواتو وسنتونج (Saintonge) واونيس (Aunis) وأجنوا (Agénois) وبريغورد (Périgord) وليموسين (Limousin) وكرسى (Quercy) ورورغ (Rouergue) وانغوموا (Angoumois) ومدينة كاليه وكونتية بونتيو (Ponthieu) وغينا وبلاد مونترى (Montreuil) وان يرد ملك انجلترة الى ملك فرنسا جميع ما كان يملكه فى أقاليم نورمندى وتورين ومين وانجو وبرطانيه وفلندر وان ملك فرنسا لا ينازع ادوارد ولا ابنه فى حقوقهما التى يدعيانها من تملك تاج فرنسا وان يفدى ملك فرنسا نفسه من ملك الانجليز بثلاثة ملايين من الذهب المسكوك وأن يترك عند ملك انجلترة أربعين أميرا منهم اثنان من أولاده وهما دوق انجو ودوق برى كفالة لدفع هذا المبلغ الذى يدفع على ستة أقساط سنوية وأنه يصير الافراج عن ملك فرنسا بمجرد دفع أول قسط منه ووقع على هذه المشارطة كل من البرنس دوغال ابن ملك انجلترة وشارل ابن ملك فرنسا ولما دفع القسط الاول أطلق سراح ملك فرنسا وعاد الى بلاده فقابلته رعيته بالتهليل والتبجيل ثم لما عجز يوحنا ملك فرنسا من وفاء الفدية بتمامها وخشى أن يتوهم فيه أنه أعان لويس دوق انجو الذى هو ابنه الثانى أحد الرهائن على الفرار من قلعة كاليه عاد الملك الى انجلترة وسلم نفسه أسيرا كما كان وجعل ابنه الاصغر المدعو فليب دوقا لبلاد بورغندى وكان هذا الشاب حارب محاربة الابطال بجانب أبيه يوم واقعة بواتيه وأسر معه كما مر فشكل هذا الاميردوقية بورغندية التى صار امراؤها فيما بعد من ألد أعداء العائلة الملوكية فى فرنسا وقابل ملك الانجليز ملك فرنسا بالاحترام الملوكى وبعدأن

أقام هناك زمنا قليلا عاجله منيته فمات في لندره يوم ٨ ابريل ١٣٦٤ م وعمره ٤٤ سنة ودفن باحتفال عظيم وكان من أشهر الملوك شجاعة وكرما وخلوص طوية قال عند تسليم نفسه ثانية الى الانكليز اذا انعدمت الامانة والصدق من الارض وجب أن يطلب ذلك من أفواه الملوك وأعقب أربعة أولاد وهم شارل الذي ملك بعده ولويس ملك نابولي رئيس عائلة انجو الثانية ويوحنا دوق بري وفليب الجسور دوق بورغنية

شارل الخامس الملقب بالحكيم (C. le Sage) ١٣٦٤ - ١٣٨٠ م - جلس هذا الملك بعد موت أبيه على كرسي فرنسا ولقب بالحكيم لاتصافه بالحكمة والعقل والتدبير والسياسة في مداواة العلل والمصائب التي خربت مملكته ولنحافة جسمه ابتعد عن قيادة الجنود بنفسه وفي بعض الروايات انه كان يأنف من قيادة الجيش بنفسه خوفا من ان يصيبه ما أصاب أباه فانتخب لقيادة الجيش برتران دوغسكلين (Bertrand Duguesclin) أشهر رجال عسكرية بلاد برطانيه ثم رقاه فيما بعد الى رتبة أمير الجيوش الفرنساوية لشجاعته ومعارفه العسكرية وفي أول حكم شارل هذا حاول شارل القبيح ملك نوارة خلعه من التخت فحالف الانكليز على قتال فرنسا وحرك الفتنة في باريس ثم ادعى بحقوقه في دوقية برغونيا وعزم على الاستيلاء عليها فساق جيشا الى نورمنديا مؤلفا من عساكر نفاريين وانكليز وغسكونيين جعلهم تحت قيادة يوحنا دوغرايلي (Jean de Grailly) أمير بوش (Buch) عند ذلك أرسل ملك فرنسا جيشا تحت قيادة برتران دوغسكلين المار الذكر (١٣٦٤ م) وبعد قتال انتصر برتران على خصمه في واقعة كوشريل (Cocherel) وأسر أمير بوش المذكور فاضطر شارل القبيح أن يطلب الهدنة فاجيب وعقدت بين الطرفين عهدة صلح تنازل فيها شارل القبيح عن مدعياته (١٣٦٥ م)

هذا وكانت الحروب في مقاطعة برطانيه لم تنطفئ نيرانها مدة ٢٣ سنه تقريبا ثم اشتد التنازع على امارتها بين كونتية بلوا (Blois) وكونتية مونتفورت (Montfort) وكان الانكليز يساعدون يوحنا دومنتفورت على أخيه شارل أمير بلوا وأمدوه بجيش عدده أربعمائة مقاتل من الرجال وقدر كبير من الخيالة يقود الجميع قائد يدعى شندوس (Chandos) وأمد ملك فرنسا شارل دوبلوا بجيش به ألف مقاتل تحت قيادة برتران دوغسكلين لان شارل دوبلوا المذكور ابن عم غريت شقيقة فليب دوفلوا وبعد حروب دموية انتصر كونت دومنتفورت في واقعة أوراي (Auray) وجرح فيها شارل دوبلوا جرحا بليغا قتل به وأسر الانكليز دوغسكلين ثم عقدت مشارطة الصلح في مدينة غراند (Guerands) (١١ ابريل سنة ١٣٦٥ م) صار يوحنا دومنتفورت بمقتضاها دوقا لبرطانية ويرثه فيها من بعده نسله الذكور ممن يكون منهم على عمود النسب ثم فدى ملك فرنسا قائده دوغسكلين بمبلغ مائة ألف فرنك فأخلى سبيله الانكليز وعاد الى فرنسا

حملة فرنسا على قشتالة باسبانيا - كان الامير بدرو القاسي ملك قشتاله (Pèdre le Cruel) متزوجا بالأميرة بلانش البوربونيه أخت ملك فرنسا من سنة ١٣٥٣ م ثم هجرها وتفرغ لعشوقته الدونا ماريا البورتغالية (Dona Maria de Portugal) ورقى أقاربها

الى أعلى المناصب ولما كان قاسيا على الرعية وأهلك الكثيرين منهم ظلما وفي جملتهم اخوان له غير شرعيين ودس السم الى زوجته بلانش خرجت عليه الرعية في آخر الامر تحت رئاسة هنرى دوترنستامار (H. de Transtamar) وكان أخاه من السفاح واستعان هنرى هذا بشارل الخامس (١٣٦٥ م) فساعده بجيش تحت قيادة دوغسكلين وانضم الى هذا الجيش جميع القائمين على بدر والذى اضطر الى الهروب فجلس هنرى دوترنستامار المذكور على تخت قشتاله أوقسطيلية مكانه وكان البابا اوربانوس الخامس حرم بدر والمذكور وأهل مملكته لما أتوه من قبيح الاعمال فكان ذلك من أكبر الاسباب التى انكسر بها بدرو والتجأ الى البرنس الاسود فى بوردو ثم بعد قليل حرض البرنس المذكور بدر وعلى القيام لاسترجاع ملكه ووعده بالمساعدة وبالفعل قاد الامير الاسود جيشا عدده عشرة آلاف مقاتل ودخل به اسبانيا وحارب جيوش هنرى وهزم دوغسكلين بالقرب من بلدة ناجيره (Nagera) (٣ ابريل سنة ١٣٦٧ م) وأسر دوغسكلين فهرب هنرى ملتجئا للبابا وأعاد الأمير الأسود بدر والى كرسيه قال المؤرخون وقد نجم من هذه الحرب فوائد كبيرة منها ان فرنسا تخلصت من جنود كثيرين أخذهم معه الامير الاسود الى اسبانيا واستخدمهم ملك قشتاله لديه وكانت هذه الجنود من الجنود المحافظين على المدن التى تركت للانجليز بموجب مشارطة بريتينى فلما عجز الامير الاسود عن جمع النقود اللازمة لمصروف العساكر المذكورة تفرقوا فرقا وأخذت كل فرقة منهم تسلب وتنهب فقلق الناس لذلك ثم لما رأى الامير الاسود أن بدر وملك قشتاله عجز عن تأدية مصروفات الجنود المذكورة تخلى عنه وعاد الى بوردو ثم ان البابا أعان هنرى دوترنستامار على محاربة أخيه وساعده ملك فرنسا أيضا بقوة جعلها تحت قيادة دوغسكلين الذى كان تخلص من أسره الثانى فحارب بدر و وانتصر عليه فى واقعة مونتيل (Montiel) وقبض عليه وذبحه بيده (١٣٦٩ م) وجلس هنرى على تخت قشتاله و يعرف بهنرى الثانى وعقد معه شارل ملك فرنسا معاهدة دفاع وهجوم

الحرب بين شارل الخامس وانجلترة — اعلم انه قد نشأ عن التعديات التى فعلها الجنود السابق الكلام عليهم اشمئزاز وتذمر أهالى الاقاليم التى تنازلت عنها فرنسا الى انجلتره وشكوا ظلمهم الى ملك فرنسا وكان الامير الاسود يومئذ مصابا بمرض شديد وادوارد الثالث ملك انجلتره طاعن فى السن فانتهز ملك فرنسا تلك الفرصة لنقض معاهدة بريتينى ليتخلص من وطأتها وطلب الامير الاسود الى ديوانه ليجاوب على التظلمات التى رفعها أهالى الاقاليم التى كان يحكمها ولما لم يجب دعوته لمرضه زحفت جيوش ملك فرنسا دفعة واحدة على بلاد الامير الاسود الذى ذهب الى انجلتره لضعف صحته وعدم امكانه القيام بقيادة الجيش (١٣٧٠ م) وكان جيش ملك فرنسا تحت قيادة دوغسكلين الذى كان ترقى الى وظيفة مأمور مصالح فرنسا فاستولى هذا القائد بسرعة على كثير من البلاد الواقعة بين نهرى جيرونده ولوار ثم استولت العساكر الفرنسوية على مدينة بواتيه وفى سنة ١٣٧٢ كانت حامية لاروشيل الانجليزية لا تزيد عن مائة جندى فقط تحت قيادة ضابط يدعى فيليب منسيل (F. Mansel) ولما رأى هذا الضابط حرج موقفه أخبر حكومته بذلك فأرسل له ادوارد الثالث الشاب يوحنا دوهاستنغ (J. de Hasting) بجيش

واسطول

وأسطول وكان أهالى لاروشيل فتحوا أبوابها الى الجنرال دوغسكلين فدخلها ثم وصل أميرال قشتالة حليفة فرنسا بأسطوله الى لاروشيل ولما ظهرت أساطيل الانجليز أمامها فى ٢٣ يونيه سنة ١٣٧٢ وحدث بوغازها مدود ابسفن فرنسا وقشتاله وكانتا تحت قيادة الاميرال الاسبانى الاكبر أمبروسيو بوكانجرا (Ambrosio Bocanegra) الجنويزى الاصل فاشتبك القتال بين الطرفين طويلا ثم انتهى بانهزام الاساطيل الانجليزية ووقع أغلبها فى قبضة الفرنسويين وأسروا قائدها رولك بامبروك وأغلب قبودانانها فلما بلغ خبر هذا الانهزام ملك الانجليز جهز جيشا آخر مؤلفا من ٣٠٠٠٠ مقاتل وجعله تحت قيادة السير روبرت كنول (R. Knolles) دوق لانكستر ووجهه للاغارة على فرنسا فنزل من مينا كالى (١٣٧٣ م) الا انه أصابه ما أصاب الاساطيل الاولى ولم يأت بعمل ما لأن الوباء فتك به فأمات معظم جيشه ولم يبق منه الا نحو ستة آلاف جندى وحصان واحد فى بوردو وعند ذلك اضطر الانجليز الى ترك قلاع غسقونيا للفرنسويين وعقدوا معهم مهادنة ولم يبق للانجليز فى فرنسا سنة ١٣٧٤ سوى قلاع كالى وبوردو وبايونه ثم بعد موت ادوارد الثالث سنة ١٣٧٧ م بأربعة أيام نزلت أساطيل فرنسا وقشتاله المتحدة على سواحل انجلتره وكانت الاولى تحت قيادة الاميرال جان دوفين (J. de Vienne) والثانية تحت قيادة فرننده سانشى (F. Sanchez) وخربت ثغور بليموث (Plymouth) ودارموث (Darmouth) وبورتسموث (Portsmouth) وغيرها ثم نزل الاميرال جان دوفين المذكور على جزيرة وايت وخربها ودخلت أيضا الاملاك الانجليزية ببلاد غيانه وبرطانيه فى قبضة فرنسا وأضافها ملكها الى أملاكه (١٣٧٩ م) ولما كان أهالى برطانيه يكرهون فقد حريتهم ثاروا بعد قليل على شارل الخامس وأعادوا دوقهم المنفى الى بلادهم وقابلوه فى بلدة سنت مالو بالتبجيل والتكريم وفى تلك الاثناء استعفى كافة القواد البرطانيون من الجيش الفرنساوى حتى القائد دوغسكلين مراعاة لخاطر مواطنيه الا أن شارل استرضاه فقبل أن يعود الى الخدمة تحت شرط ان لا يسل سيفه على أهل بلاده

ثم بعد قليل قام الخلاف بين أهل اقليم لانغدوك لسوء تصرف دوق انجو فانتهز الانجليز هذه الفرصة وساقوا جيشا واستولوا على عدة قلاع من حدود المقاطعة المذكورة فأرسل شارل الخامس حملة تحت قيادة دوغسكلين لطردهم الا أن منيته عاجلته وهو يحاصر بلدة شاتونوف ورندون (١٣٨٠ م) وأوصى من تحته من الرؤساء بأن لا يتعرضوا بسوء لارباب الفلاحة ولا للنساء والاطفال والشيوخ وان لا يعاملوهم معاملة الاعداء وقد تعجب محافظ قلعة شاتونوف المذكورة من شجاعة دوغسكلين ولما مات دوغسكلين وضع محافظ القلعة فى نعشه مفاتيحها اعلاما بما اتفقا عليه قبل موته وهو أنه يسلمه القلعة ان لم يأته امداد ولم يعش شارل الخامس بعد قائده المذكور الا شهرين فقط ويقال ان ابن عمه شارل القبيح ملك نوار دس له السم وكان أشد أعدائه ودفن فى سان دينيس فى قبر بناه لنفسه بجانب قبر قائده الشهير دوغسكلين

هذا وقد اشتهر شارل الخامس بتنظيم الادارة البحرية وترقية علوم الملاحة بعد أن أهملها أسلافه وقد نشأ عن ذلك ان انتصرت أساطيله على أساطيل الانجليز وتقدمت التجارة البحرية فى زمنه كثيرا ولم يجمع شارل الخامس هذا مجلس المشورة الملكية التى ظهر خطرها مدة أسلافه الا مرة واحدة للشرائط الشرعية التى سموها فراش العدل ولما كان يعلم ما يترتب على طول مدة بلوغ الملوك سن

Digitized by Google

الرشد سن قانو ناجعل فيه بلوغ سن الرشد للملوك متى بلغوا السنة الرابعة عشرة من العمر ومنع زيادة مصاريف الدعاوى وجعل للمملكة جنودا محكمة دائمية بعد ان كانت الجنود تجمع عند الضرورة وأصلح كثيرا من أمور المملكة ورخص لسكان باريس بعزيمة اشتراء الالتزامات ورقى الصناعة والتجارة وأحسن تنظيم المالية وأحكم تدبيرها وتقدمت المعارف والعلوم فى عصره فشيد بدار حكومته كتبخانة مفتخرة جلب اليها كثيرا من التآليف الشهيرة فبلغ ما جمع بها تسعمائة مجلد وأسس مدرسة ومرصدا فلكيا وقد مدح المؤرخون هذا الملك الذى كان يلهج كثيرا بقوله انى لا أرى أن الملوك أسعد حالا من غيرهم الا بما عندهم من القوة والقدرة على فعل الخيرات

شارل السادس ١٣٨٠ – ١٤٢٢م – جلس هذا الملك بعد أبيه شارل الخامس وكان عمره لا يتجاوز الاثنى عشرة سنة فتولى المملكة بالنيابة عنه أعمامه الثلاثة لويس دوق انجو وبرغونية و يوحنا دوق برى (Berri) وفليب الجسور أصل العائلة البرغونية أصغر سنه و وقعت بينهم منازعات ثم اتفقوا واتصلحوا وتعين دوق انجو نائبا فى المملكة وعهد الى دوق بورغونية و بوربون حراسة المملكة و جعل دوق برى حاكما لبلاد لنغدوق وا كيتانه وقد سلك دوق انجو المذكور مسلك الظلم مع الرعية لانه بعد أن صرف أموال خزائن المملكة التى كان جمعها شارل الخامس فى التجهيزات الحربية التى أعدها للحرب مملكة نابولى لان عمته جعلته وارثا لها على تخت مملكة نابولى المذكورة وأصدر أمرا بجباية الاموال بصورة مغايرة للقواعد المتبعة فى الضرائب بالمملكة فلذلك ثار الاهالى وقامت فى باريس فرقة تسمى مليوتانية (Maillotins) أى أرباب الدبابيس دعوا بذلك لكونهم كانوا يضربون المنوطين بجمع المغارم بدبابيس من الرصاص كانت صنعت قبل ذلك للذب بها فى حرب الانجليز وكانت موضوعة بدار سلاح المدينة ولما خاف أعمام الملك من سوء العاقبة جعلوا عقابات مختلفة للثوار فارتدعوا نوعا ولما سافر دوق أنجو المذكور الى بلاده انتقلت النيابة الى فليب دوق بور غندى الذى اشتهر بقوة البأس

حرب فلاندر – لما خلع أهل فلندر طاعة أميرهم الفرنسوى جيش دوق بورغندى المذكور جيشا عظيما لمحاربة الثائرين وأخذ معه شارل السادس ودخل بلاد فلندر وحاربهم وانتصر عليهم فى واقعة بروج (Bruges) (٣ مايو ١٣٨٢م) الا أن رجلا يدعى فان أرتفلد (Van Artevelde) لبث يهيج الثوار على مداومة الحرب فاضطر الجيش الفرنسوى الى استمرار الحرب ثم انتصر عليهم فى واقعة روزبك (Rosebeke) الشهيرة (٢٧ نوفمبر ١٣٨٢ م) وهلك فيها رئيسهم ارتفلد المذكور ويقال انه مات فيها من الثوار نحو ستة وعشرين ألفا وضاع من الفرنساويين بيرقسان دينيس الملوكى وكان نجاح الفرنساويين فى هذه الواقعة من حسن تدبير أوليفيه دو كليسون (de Clisson) الذى ربا مدوغكلين وخلفه فى المنصب بوصية من الملك شارل الخامس

ولما عاد شارل السادس من هذه النصرة الى باريس أخذ ينتقم من أهاليها لخروجهم عليه فجمع سلاحهم وحرمهم من مزاياهم العظيمة وقتل كافة رؤساء حزب الثورة واتهم أعمام الملك المحامى العمومى فى البرلمان يوحنا دسمارت (J. Desmarets) بأنه من رؤساء الفتنة المذكورة

Digitized by Google

مع أنه كان بريئا مما اتهموه به ولم يكن له ذنب الا كونه عارض دوقي بري وبرغونية لتبذيرهما في مال الحكومة فقتل (١٣٨٣ م) ظلما وجبى الملك من أهل باريس غرامة قدرها ٩٦٠،٠٠٠ فرنك ثم عفا عنهم وعاقب أهالي مدائن روان (Rouen) وريمس (Reims) وتروبه (Troyes) وشالون وأورليان بما عاقب به أهل باريس فنشأ عن ذلك الحروب الداخلية التي اشتعلت نيرانها في آخر عهده

وفي سنة ١٣٨٤ م مات قونت فلندر فخلفه دوق برغونية لانه كان متزوجا بابنة دوق فلندر المذكور الوحيدة فاجتمعت له بذلك مقاطعات فلندر وارتوا وكونتيات رتيل ونفيرس وقسم من شمبانيا ثم ضم فليب دوق برغونية هذا احدى مقاطعات المانيا الى أملاكه لكونه زوجا لأكبر بنات الدوق البرت صاحب بفاريه فصار بذلك ملك فرنسا زوج بنت أخته لانه كان تزوج بازابيلا ابنة الدوق اصطفان صاحب بفاريه (١٣٨٥ م) فكان ذلك سبب الادرتبا كات التي وقعت بفرنسا فيما بعد

التجهيزات البحرية للاغارة على انجلترة — بينما كان شارل السادس هذا مشتغلا بمحاربة الفلمنديين اعانت انجلترة أهالي المقاطعات المذكورة فعزم شارل على أن ينتقم منها فأمر بتجهيز عمارة بحرية في جميع المقاطعات البحرية الفرنساوية وقسمها على امرائها وعين لذلك الاميرال جان دوفيين في نورمنديا وسن بول في بيكارديا بحيث انه بعد مضي قليل من الزمن تجهز له منها نحو ١٣٨٧ سفينة (١٣٨٥ م) وجهز في فلندره ١٠٠،٠٠٠ مقاتل ونحو ٥٠،٠٠٠ من الخيل أنزلها بالسفن المذكورة للاغارة على انجلترة قال بعض مؤرخي البحرية ومنهم ليون غورين ان هذه السفن كانت تكفي لأن تحدث منها قنطرة من مدينة كاليه الى مدينة درو (Dreux) ومع أن لويس السادس كان قريب عهد بالزواج بازابلا البفاريه كما تقدم سافر سنة ١٣٨٦ م ليقود تلك الجيوش بنفسه وانتظر دوق بري ولما أبطأ عليه أمر السفن بالسفر في فصل الشتاء فثارت عليها في طريقها العواصف والرياح الشديدة فتكسر معظمها وأحرق الانجليز منها البعض وغنموا البعض فلذلك خابت مساعيه في هذه الحالة ولكن نجح في حملته على دوق غلدر (Gueldre) والبعض قال انه لم ينجح

استقلال شارل السادس بالاحكام — لما بلغ سن هذا الملك ٢١ سنة أراد الخروج من كفالة أعمامه لانه رآهم يشتغلون بمصالحهم أكثر من اشتغالهم بمصالح المملكة فعقد جمعية دعا اليها امراء العائلة الملوكية ومالتزمي المقاطعات وأبدى لهم مرامه فرضي الجميع بذلك وباشر مصالح الدولة بنفسه (١٣٨٨ م) فوضع عدة قوانين مهمة للاحكام والعقوبات وأمر بتنظيف طرق باريس فأمنت من الوباء ومنع تجار اليهود من مجاوزة الحد في الرباء وأبعد من المدينة المصابين بالجذام وسجن في سراديب تحت الارض كل المتشردين والمتسولين وعمل ذلك وامثاله تحسنت الادارة وعم العدل بين الناس وتمتعت فرنسا براحة كانت في أشد الحاجة اليها فتمكن حبه في قلوب الرعية بما عهدوه فيه من الرحمة والانصاف هذا خلاف كونه كان يسعى في مد نفوذه وتجارته في الممالك الشرقية البعيدة ومن ذلك أنه أخذ يكاتب تيمورلنك الشهير ويرسل اليه السفراء

Digitized by Google

من رجال الاكليروس وغيرهم قال العلامة المرحوم أحمد جودت باشا في صحيفة ٢٩٢ من الجزء الثالث من تاريخه المطبوع بدار الخلافة العثمانية سنة ١٢٨٠ هـ ان من ضمن المحررات التي بعثها شارل السادس ملك فرنسا الى تيمورلنك كتابا هنأه فيه بانتصاره على يلديرم بايزيد ولكن لما كان أهالي أوروبا في العصر المذكور تائهين في بحار الغفلة و بعيدين عن أسباب الترقي ذكر تيمور في جوابه الذي بعثه الى شارل عن مظفريته المذكورة بشوقه الى توسيع نطاق التجارة التي هي السبب الاول في عمارية الدنيا وقد أدرجنا ترجمة الجواب المذكور بأسفل الصحيفة(١) اتماما للفائدة

الوقيعة بكليسون (Clisson) ١٣٩٢ م — لما شكل شارل السادس الوزارة بعد استقلاله بالاحكام جعل أوليفيه دوكليسون هذا أمور العموم الاصلاحات التي نجم عنها حصول الراحة والامن في المملكة خصوصا بعد الهدنة التي عقدها مع انجلتره لمدة ثلاث سنوات ولما كان هذا الوزير شديد الشكيمة أضمر له أعمام الملك السوء ففي ليلة ١٣ يونيه من سنة ١٣٩٢ بينما كان خارجا من الاحتفال الذي أقيم بالمكان المسمى هوتيل سان بول (Saint-Pol) هجم عليه أربعون خبالا من قطاع الطريق تحت قيادة رجل منهم يدعى بطرس دوكراون (P. de Craon) و بعد أن أثخنوه بالجراح نادى دوكراون قائلا مات كليسون وكان ذلك باغراء أقارب الملك أما دوكراون فانه فر هاربا والتجأ عند جناد ومنفورت دوق برطانيه ولما بلغ الملك ذلك غضب جدا وطلب من دوق برطانيه المذكور تسليمه دوكراون ليقتص منه فأبى أن يسلمه له فجرد شارل على أمير برطانية وقاد الجند بنفسه و بينما كان مارا في غابات منس (Mans) اذ برجل عليه أطمار بالية قام وسط الطريق وقبض على لجام حصان الملك وصاح عليه قائلا أيها الملك الظريف ابالك أن تجاوز هذا المكان واحذر أن تمر منه الى غيره فقد حصل بك الغدر فارتاع الملك لذلك واشتد غضبه وطار لبه وصار لا يعي ما يفعل واستل سيفه وأخذ يقتل من بصحبته حتى قتل أخاه دوق أورليان فتكاثر عليه الجند وقبضوا عليه فوجدوه ذاهب العقل بالمرة (١٣٩٢ م) قال بعض المؤرخين عن ذلك ان جنونه نشأ من ضربة شمس عكرت عقله وأحدثت فيه التهابا شديدا وقال آخرون بل نشأ من شربة سقتها له الملكة زوجته وقال غيرهم غير ذلك والحاصل أن عموم الاهالي كانوا يلهجون باسمه متأسفين على حال المملكة الفرنساوية وسوء حظها واستمروا يلقبونه بالمحبوب

واقعة نيكوبولي ١٣٩٦ م — سبق الكلام على هذه الواقعة عند الكلام على تاريخ السلطان يلديرم بايزيد الاول بصحيفة ٤٩٥ من الجزء الاول من هذا الكتاب ومع ذلك

(١) الامير الكبير تيمور كوركان زيد عمره

يطلب الداعي لملك فرنسا أن يتقبل من المحب ألف سلام وخير واخلاص وافر و بعد تبليغ الادعية نخبر الامير الكبير أن الواعظ الراهب المسمى فري فرنسوس وصل الى طرفنا وأوصل الينا كتابا بكم الملوكي وعرفنا قدركم الاميري الكبير واهتمامكم وعظمة شأنكم وقد سررنا من ذلك ونخبركم أيضا أننا تمكنا بجنودنا العديدة و بمساعدة الباري تعالى من قهر أعدائنا وأعدائكم و بعد ذلك أرسلت اليكم مرخصكم عدينة السلطانية المدعو فري جواني وسيعرض عليكم كل ما حصل والآن أطلب منكم أيها الامير الكبير مداومة ارسال مكاتيبكم الملوكية لنقف على أخبار سلامتكم وعافيتكم ونطلب منكم أيضا أن ترسلوا تجاركم الى طرفنا وكأننا نعزهم ونكرمهم تعززون وتكرمون أيضا تجارنا الذاهبين الى طرفكم بحيث لا يقابلهم أحد بالتعدي أو الزجر لان الدنيا تعمر بالتجار ولا أطلب منكم بعد ذلك الا أن تبقى دولتكم أياما عديدة وأعواما عديدة والسلام ٨١ صحيفة ٣٤٧ جزء ثالث جودت

فقد

فقد رأينا من المفيد استيفاء الكلام عليها اضافة لما تلقيها تاريخ فرنسا معتمدين على ما ورد في كتب الفرنسويين أنفسهم فنقول — لما عقد لازار ملك الصرب الاتفاق مع ملوك الافلاق وأمراء دلماسيا وملكي المجر والبلغار على محاربة العثمانيين في عهد السلطان مراد الاول وانتصر السلطان على جموعهم في واقعة قوصوه (١٣٨٩ م) وضم بلاد الصرب الى الدولة وجعلها ولاية ممتازة وفقد الصربيون بمثذا استقلالهم كالبلغار بين خاف سجسموند (Sigismond) ملك المجر على مملكته التي أصبحت بذلك متاخمة من عدة جهات للدولة العثمانية سيما بعد هزيمته امام العثمانيين سنة ١٣٩٣ م فأخذ يستغيث بدول أوروبا لنجدته وقام البابا بونيفاس التاسع محرضا الاوروبا وأعان سجسموند الحرب الصليبية على العثمانيين ولبى دعوته كثير من أمراء الفرنسويين وفي مقدمتهم فليب دوق برغونيه وعم لويس السادس ملك فرنسا وأرسل ابنه جان الجسور (Jean-Sans-Peur) على رأس جيش بثألف من ستة آلاف محارب أغلبهم من أعيان وأشراف فرنسا وانضم اليه حين مسيره لبلاد المجر أمراء بافاريا واستيريا وفرسان القديس يوحنا وعدد وافر من الالمانيين وكان الاميرال جان دوفيين البحري الشهير برافق هذا الجيش وكان يقود المقدمة ولما كان الامبراطور امانويل الثاني باليولوغ (Paléologues) متفقا معهم وبلغ خبر هذا الاتفاق السلطان بايزيد الأول جهز الجيوش وعبر بها بحر مرمرة وقصد ادرنه ثم تقدم وحاصر القسطنطينية وبينما كان على حصارها اجتاز جيش المتفقين نهر الطونه وحاصر مدينة نيكوبولي فالتزم السلطان أن يرجع عن القسطنطينية ويزحف بجيشه لمقابلة المتحدين وكان جيشه يتألف ويتذمن ٢٠٠,٠٠٠ مقاتل بينهم كثير من أهالي الصرب تحت قيادة أميرهم اصطفان بن لازار وغيرهم من المسيحيين الخاضعين للسلطنة العثمانية ولما التقى الجمعان تقاتلا قتالا يشيب له الطفل وقاتل جيش المتحدين مستميتا ثم انتهى الامر بانتصار العثمانيين انتصارا باهرا (١٣٩٦ م) وقتل في الواقعة الاميرال جان دوفيين المذكور (١) ونحو ألفين من أعيان الفرنسويين وأسر العثمانيون عددا كبيرا من أشراف فرنسا منهم الكونت دي نيفر (Nevers) الذي افتك هو وغيره من الاسر بمبلغ عظيم من المال قال فيكتوردوروي في تاريخ فرنسا ان السلطان بايزيد أمر فقتلوا من الاسرى عشرة آلاف ولم يستبق الا الكونت دي نيفر وعشرين من الامراء والاعيان تخلصوا بدفع الفدية وقال غيره انه لما أطلق سراح الكونت دي نيفر تقدم لحلف اليمين على أن لا يعود لمحاربة السلطان فقال له السلطان اني أجيز لك عدم المحافظة على هذه اليمين فأنت حر في الرجوع لمحاربتي اذ لا شيء أحب الي من محاربة

(١) جان دوفيين (Jean deVienne) هو اميرال فرنسوي من عائلة قديمة في برغونية دافع عن مدينة كاليه سنة ١٣٤٧ عندما غارة ادوارد الثاني ملك انجلترة عليها ثم عين محافظ المدينة هونفلور (Honflour) سنة ١٣٧٠ ثم نائبا عن الملك في مقاطعة نورمانديا السفلى ثم صار أميرالا لفرنسا ثم نزل بعسكر في انجلترة سنة ١٣٧٧ واستولى على جهة راى (Rye) من مقاطعة سوسكس (Sussex) وأحرقها ثم خرب جزيرة وايت واشترك في موقعة روزبك (Rosebecque) أمام الفلمنديين (١٣٨٢ م) وبعد ذلك بثلاث سنوات أنزل عساكره في اقوسيا (١٣٨٥ م) ورافق دوق بربون في غزوته ببلاد البربر وحاصر قرطاجة وفي سنة ١٣٩٦ رافق أشراف فرنسا الذين اشتركوا في واقعة نيكوبولي المذكورة مساعدة لملك المجر وهناك قتل مع من قتلوا من أعيان فرنسا

Digitized by Google

بجمع مسيحى أوروبا والانتصار عليهم هذا وتعد هذه المحاربة من المحاربات الصليبية الكبرى

ظهور الاختلال الداخلى فى فرنسا — لما أصيب شارل السادس بالجنون كما سبق جعلت الملكة ايزابيلا البافارية رئيسة لمجلس الوكالة الملكية وجعل دوق أورليان أخو الملك وجان الجسور بن دوق برغونية ودوق بيرى عم الملك اعضاء فيه وأخذ دوق أورليان يبذل جهده فى نزع سلطة دوق برغونيه وبيرى وفى خلال المهمات فيما بين دوق برغونيه (١٤٠٤م) خلفه ابنه جان الجسور المذكور ومن يومئذ حصل بينه و بين دوق أورليان منافرة شديدة أدت الى حدوث أمور رديئة بفرنسا قال بعض المؤرخين إن الملكة ايزابيلا كانت تميل الى دوق أورليان وكان بينهما علائق حبيه فأضمر لهما دوق برغونيه الشر وقتل دوق أورليان فى يوم ٢٠ نوفمبر سنة ١٤٠٧ ولما لم يعاقب دوق برغونيه على فعلته هذه نشأ من ذلك حرب عظيم بين البرغونيين والارمنيا كيين الذين دعوا بهذا الاسم نسبة الى رئيسهم كونت ارمنياك (Armagnac) حمو دوق أورليان الذى هو ابن دوق برغونية وسالت الدماء أنهرا فى حرب هذين الحزبين بباريس بل وبجميع بلاد فرنسا وكانت الملكة ايزابيلا والأمراء يعضدون حزب أمير أورليان أما حزب برغونية فكان يعضده اعضاء مجامع العلماء من أهل باريس وفى سنة ١٤١١ م تغلب الارمنيا كيون على باريس ولكن دوق برغونية طردهم (١٤١٢ م) وقتل كثيرا من نصرائهم فاستغاث الارمنيا كيون بانجلترة وعقدوا مع ملكها هنرى الرابع عهدا كان من شروطه أنهم يساعدون الانجليز فى استرداد املاكهم التى كانت لهم جنوبى فرنسا (١٤١٢م) فساق ملك انجلترة جيشا عدده (٤٠٠٠) مقاتل واستولى على اكيتانيه و بواتيه وانغوايم بعد حروب هزم فيها ملك فرنسا وطرد دوق برغونية من رئاسة الحكومة ورأس بدله ولى عهد فرنسا الذى كف عن الحرب (١٤١٤ م) مع انجلترة بعد موت هنرى الرابع

الحرب بين فرنسا وانجلترة — لما جلس هنرى الخامس بعد أبيه على تخت انجلترة سعى فى إشعال نار الفتنة بين القائمين بها فى فرنسا ليثبت بذلك شوكته على الاقاليم التى كانت لانجلترة بفرنسا فساعدته المقادير على مرغوبه لحصول الشقاق الداخلى بفرنسا ثم طلب أنه يتزوج بالاميرة كتربنه ابنة ملك فرنسا وأن ترد اليه كافة الاقاليم التى كانت انجلترة تنازلت عنها لفرنسا بمقتضى معاهدة برتينى فلما رفضت فرنسا طلباته قام الحرب بين المملكتين وأعد هنرى جيشا عدده ٣٠,٠٠٠ مقاتل وأقلع به من ميناسوثمبتن (Southampton) على أسطول جسيم يتألف من ١٦٠٠ سفينة ونزل على نهر السين عند هافر واستولى على مدينة هرفلور (Harfleur) (١٤١٥ م) ثم تغلب على عدة مدن من أقاليم نورمنديا ولما تفشت الامراض بين جيشه قصد الاستيلاء على مدينة كاليه ليشتى فيها فاتته الجيوش الفرنسوية وأحاطت به فى سهل ازنكورت (Azincourt) تريد قطع خط رجعته فبادر بها وانتصر عليها (١٩ اكتوبر) وخسر الفرنسويون فى هذه الواقعة عشرة آلاف جندى وسبعة من الامراء و ١٢٠ من الملتزمين وأسر الانجليز ١٥٠٠ مقاتل منهم دوق أورليان ودوق بوربون وكونتات دو (D'Eu)

وفاندوم

وفاندوم (Vendôme) وريشمونت (Richemont) فبعثهم هنرى الى انجلتره عن طريق كاليه وأنقص هنرى جيشه الى (١٠,٠٠٠) جندى

و بعد هذه الواقعة تولى دوق ارمنياك رياسة الجيوش وازداد بذلك الحزب الاورلياني وانضم اليه شارل ولى عهد فرنسا وأهينت الملكة ازابيلا واضطرت أن تعاهد دوق برغونية الذى استمر فى جاهه وسيادته مدة الحروب الانجليزية وايقاعه بحزب ارمنياك ولذلك ثارت الحرب الداخلية ثانية ودخل البرغونيون باريس وأوقعوا بالارمنياكيين فصدهم الاهالى أما شارل ولى العهد فقد نجا من هذه الفتنة تنجى دوشاتيل (Tanneguy Duchâtel) حيث أرسله الى مدينة ميلون (Melun) (١٤١٨ م) وفى خلال هذه الحوادث استولى الانجليز على مدينة روين وتقدموا حتى دنوا من أسوار باريس ثم سعى ولى العهد فى الصلح مع يوحنا الجسور دوق برغونية ودعاه للاجتماع به فى مدينة منترو (Montereau) و بينما كان ذاهبا اليها قتله جماعة ولى العهد على جسرها (١٠ سبتمبر ١٤١٩ م) أخذا بثار دوق أورليان فنشأ عن ذلك أن اتفق فليب الطويل ابن يوحنا الجسور مع الملكة ايزابيلا البافارية وألزموا ملك فرنسا أن يعاهد ملك الانجليز فقبل وتوجه الى مدينة ترواية (Troyes) وهناك عقدت بينهما المشارطة المسماة بمشارطة ترواية (١٤٢٠ م) وكان من مقتضاها ان كترينه دى فرنس بنت شارل السادس تتزوج بهنرى الخامس ملك انجلتره وأن يحكم المملكة أولا على سبيل الوكالة ثم يحكمها بطريق الوراثة للتاج وأن يعلن بأن الدوفين شارل عدو الدولة و بذلك دخل هنرى الخامس مدينة باريس مع الملك شارل السادس ودخل الاول بمظهر ولى أمر المملكة والثانى على هيئة ذليلة وأعلن هنرى بأنه ملك فرنسا وجعل ديوانه بمدينة باريس وناط بحكمها عمه دوق بدفورد (Bedford) أما ولى العهد فانه التجأ الى دوق أنجو وبذل مجهوده ليحمى تاج أبيه من تعدى الانجليز فلم يتمكن من ذلك الا بعد موت هنرى الخامس (١٤٢٢ م) واتفق أن مات أبوه شارل السادس فى السنة المذكورة ولما لم يعقب أولادا سوى الدوفين شارل قام لتخليص ملك أبيه وساعدته أهالى الاقاليم على ذلك

شارل السابع الملقب بالمنصور (١٤٢٢ – ١٤٦١ م) — جلس على التخت وعمره ٢٠ سنة وكان فى قبضة الانجليز والبرغونيين المنضمين اليهم اذ ذاك نحو ثلاثة أرباع فرنسا فلم يبق لشارل السابع هذا سوى جهات تورين (Touraine) وبلاد بوربون وليون واقليمى فورز وأوفرنى وأقليم دوفيين وقسم من لنغدوق بأقليم سنتونج (Saintonge) وبعض مدن خلف نهر لوار و بعض قصور بجبال البرانس مع مدينة بورج (Bourges) التى جعلها قاعدة لمملكته وبها لقبه الانجليز سخرية بملك بورج وروى بعضهم عن هذا الملك أنه ارتكب فى أول حكمه عيبا كبيرا لانه أقبل بكليته على الملاهى والملذات وصرف أيامه فى الفسق والشهوات وكان يهوى امرأة جميلة يقال لها أنيس سوريل (D'Agnès Sorel) كان يتردد عليها فى مدينة شنون وكان جلساؤه يتملقون اليه ويسهلون عليه تلك الاعمال الممقوتة ليحملوه على بقائه بعيدا عن جنده متعللين بالخوف عليه وأنهم يريدون المحافظة عليه وكان كل من الشجاع لاهير (La Hire) والكونت دنواس (Dunois) يتأسفان

Digitized by Google

من أعمال هذا الملك حتى يقال ان لاهير جاء اليه ذات يوم ينتظر ما يأمره به من المصالح بما أنه كان معتمده في الملك فقال له الملك ماذا ترى فيما أنا عليه من الخلاعة فأجابه قائلا أراها أنها وسيلة لذهاب المملكة

وفي خلال انهماك الملك في حظوظه ترك قيادة حروبه التي كانت قائمة بينه وبين الانجليز لرؤساء عساكره وأمرهم بمباشرة فتح الأقاليم التي سلبها الانجليز من المملكة الا أن دوق برفورت هزمهم مرتين الاولى في واقعة كرفانت (Crevant) على مسافة ١٥ كيلومترا من اوكسير (Auxerre) سنة ١٤٢٣ م والثانية في واقعة فرنول (Verneuil) على مسافة أربعين كيلومترا من افرو (Evreux) سنة ١٤٢٤م فبهذا الانهزام أشرفت دولة شارل على الذهاب فانتقل من بورج الى بواتيه وجمع فيها أرباب دولته ليتذاكر معهم في الامر وتزوج هناك بالاميرة ماريه ابنة دوق انجو وفي تلك الاثناء وقع شقاق بين البرغونيين والانجليز مكث أربع سنوات وكان سبب هذا الشقاق أن الاميرة جاكلين (Jacqueline) أميرة بلاد هنوت (Hainaut) وهولنده وزيلنده (Zélande) وفريز (Frése) بعد أن عقد لها على هربرت دوق برابنت عم دوق برغونيه تحصلت من البابا المخلوع بندكتوس الثالث عشر (Benedictus XIII) على رخصة بفسخ ذلك العقد وتزوجت بهمفري دوق جلوستر (Glocester) أخي النائب برفورد فاغتاظ فليب دوق نورمنديا من هذا الزواج لان له حق الوراثة في أراضي جاكلين من بعدها فتعرض لمنع الزواج بالقوة وقبض على الاميرة جاكلين وسجنها فقام الخلاف بين الانجليز والبورغونيين لذلك وهربت جاكلين من السجن واشتعلت نار الحرب بينها وبين فليب ثم انهزمت الاميرة جاكلين هزيمة منكرة فاضطر دوق جلوستر المذكور أن ينقاد الى قرار البابا مارتين الخامس (Martin V) الذي حكم بابطال هذا الزواج لمنع الفتنة وعاد دوق جلوستر الى انجلتره واعترفت جاكلين بان فليب هو الوارث لها وتعهدت بأن لا تتزوج مرة ثانية الا برغبته فانتهز شارل السابع فرصة هذا الخلاف وأخذ يستعد لحرب الانجليز وصمم النائب برفورد على أن يحارب شارل حربا فاصلة (١٤٢٨ م) وكان هنري الخامس ملك انجلتره توفي سنة ١٤٢٢ م فتمكنت فرنسا من التخلص مما حل بها من المصائب وزال عن أهلها ما كانوا يشعرون به من الذل والغيظ لرؤيتهم كرسي ملكهم يشغله ملك غريب قال صاحب اتحاف الملوك الالبا بتقدم الجمعيات في أوروبا في صحيفة ٩٤ ساغ للفرنساويه أن يسترجعوا ما كانوا فقدوه حتى ان أشراف فرنسا زادت هممهم الطبيعية وسلكوا مسالك الحمية لظنهم أن تعجيل موت هنري الخامس انما كان من الله تعالى شفقة عليهم حتى تساعدهم الاقدار فصاروا ينزلون الى الحروب يقودهم أبطال رؤساء بارعون أولو تجارب عظيمة وصار ملك الفرنساويه المتولي في ذلك الوقت وهو كرلوس السابع يدبر مصالح المشورة مع الحكمة والذكاء التام حتى انه انتهز بهذه الفرصة أن أخذ من الانجليز فتوحاتهم الجديدة وجردهم أيضا النشاطه من ممالكهم القديمة اه

حصار اورليان وواقعة هارنج (Harangs) (١٤٢٩ م) – لما تجهز برفورد للحرب أناب عنه مونتاغو كونت سالسبوري في الاستيلاء على مدينة أورليان التي هي مفتاح مقاطعات بري وبوربون وبواتو فحاصرها بالجيوش التي أتى بها من بلاد الانجليز وبالجنود التي

Digitized by Google

كانت لهم بفرنسا وساعده دوق بورغونيه وفليب دوق نورمنديا وكان الامير دنواس يدافع عنها بكل شجاعة حتى جرح جرحا بليغا أول سنة ١٤٢٩ فاضطر الامير كليرمون (Clermont) ابن دوق بوربون أن يخرج من المدينة بجيشه المؤلف من ألفى جندى وتركها لاهلها يدافعون عنها وقصد مهاجمة الانكليز الذين كانوا تحت قيادة السير جون فولستاف (John Falstaff). وانضم اليه عدة أمراء حتى بلغ جيشه خمسة آلاف مقاتل وهاجمهم يوم ١٢ فبراير ١٤٢٩م فى واقعة هارنج الشهيرة وكانت الواقعة بالقرب من بلدة روفرى (Rouvray) الواقعة فى طريق أورليان والسبب فى تسمية هذه الواقعة باسم هارنج ومعناه السمك المملح أن الفرنسويين استولوا فيها على سفن كانت مشحونة من هذا السمك ذاهبة الى جيوش الانكليز هذا واستمر أهالى مدينة أورليان يدافعون عنها بكل شجاعة الى أن خارت عزائمهم وتضايقوا من نقص الاقوات وعند ذلك عزموا على تسليم المدينة الى أعدائهم وفاتحوا دوق بورغونيه فى ذلك ووافق فليب دوق نورمنديا على طلبهم ولما رفض النائب برفورد طلبهم انفصل عنه فليب وأخذ جنوده وفى تلك الاثناء ظهرت حوادث دهمت الانكليز وهى وقائع جان دارك (Jeanne d'Arc) الشهيرة

جان دارك — هى ابنة رجل فلاح يدعى جاك دارك وأمها تدعى ايزابيل رومى ولدت جان دارك سنة ١٤٠٩ فى قرية دومرمى (Domremy) باقليم لورين وكانت عشيرتها فقيرة ولما صار لها من العمر ١٧ سنة أحست بأنها ألهمت من الله تعالى انقاذ وطنها من الهلاك فسارت الى شارل السابع ملك فرنسا ومثلت بين يديه (١٤٢٩ م) فى مدينة شينون (Chinon) قائلة بانها مبعوثة اليه بالهام الهى ويقال انها أقامت على ذلك حججا وحدثته باسرار لم يكن يعلمها غيره وطلبت منه جنودا لتقوم بما أمرت به وبعد أن استشار الملك وزراءه وامراءه أعطاها ما طلبته من الجيوش ثم ذهبت وراء محراب كنيسة سنت كترين دوفيربوا (Sainte Catherine de Fierbois) وأخذت السيف الذى وضعه بها شارل مارتيل على ما قيل وقادت الجيوش بعد أن أمرت العساكر بتطهير أنفسهم وحضتهم على الاستمساك بالتقوى وقصدت أورليان بجموعها الذين اصطفوا تحت لوائها لما جزموا بأن المولى سبحانه وتعالى هو الذى ألهمها ذلك وبعثها اليهم ولما وصلت الى تلك المدينة وكان معها الامير دنواس المتقدم ذكره هاجمت الانكليز وكانوا يحاصرونها ودفعتهم عنها فتقهقروا (مايو ١٤٢٩ م) ومع كونها جرحت فى الواقعة لم تنثن عن عزمها بل اقتفت أثر الانكليز وحاربتهم فى عدة وقائع وحضت الملك شارل على الحرب فخرج لحربهم وانتصر عليهم فى واقعتين الاولى فى جارجو (Jargeau) وهزمتهم فى الثانية جان دارك هزيمة منكرة فى باتاى (Patay) ووقع كل من الامير تلبوت (Talbot) واللورد سكال (Scales) أسيرين فى يد الفرنسويين ثم عادت جان دارك الى مدينة شينون فتلقاها الملك هناك بالاحترام وأخبرته بان قد أوحى اليها بأن تذهب بالملك الى مدينة رمس حيثما أتوجك هناك بيدى فارتحل الملك معها كما طلبت ولما وصل اليها فى ١٦ يوليو من سنة ١٤٢٩ م تتوج فيها ثانى يوم وكانت جان دارك واقفة بجانبه ساعة المسح الملوكى بالسلاح الكامل قابضة على البيرق الذى كانت تمسكه فى الحرب وكانت تلهج بقولها لقد كان هذا البيرق فى المشاق فهو جدير بأن يكون فى التشريفات ولما أتمت ما ألهمت به من

الاعمال وأرادت أن تعود الى أهلها امنعها الملك ورؤساؤه فهـذا عنها الماشاهدوه من أعاجيب
شجاعتها افعالت المقاومة عامة بحيث كانت تشعر باختلاط تلك الاسرار التى كانت عندها
فى أول الامر وبرزت ثانية فى زى الابطال ولكن بعض كبراء القادة وأمراء الجيش كانوا يبغضونها
سرا وأضمروا لها الحسد والضغينة فصاروا يشنعون عليها ويسيئون معاملتها ويغرون الجنود على
نبذ طاعتها ويلقبونها بالألقاب المستهجنة ويتهمونها بهتك حجابها الافتضاحها امام العموم فكانت
تردهم أقبح الرد ولا تجالس الا حرائر النساء ومصونات الابكار ولا تنام الا مع امرأة تخفرها فلم يجد
أحد فيها محلا للوم والقذف ولما أشارت على الملك بالشخوص الى باريس ليستخلصها من يد الانجليز
جرد عليها افرانقته جان دارك ولما قرب من باريس أمرها الملك بالهجوم على الاعداء فأثخنت فيهم
ثم أصابتها جراح وصرعت عدة صرعات ولما استعادت رشدها علقت درعها واستعدت ثم
سألت الملك الانصراف فأبى ووعدها باعفاء قريتها من الضرائب ومنحها رتبة جليلة وفى سنة
١٤٣٠ م انتدبها الملك الى اجلاء الانجليز عن مدينة كومبين (Compiègne) وكانوا
يحاصرونها فهاجمتهم ولكنها سقطت أخيرا فى يد أحد أوباش مدينة فندوم (Vendôme)
فسلمها للبرغونيين كاسيرة فباعوها للانجليز بعشرة آلاف فرنك (٢٤ مايو ١٤٣٠ م)
واستحضرت امام الدوق بدفورد الذى رفض معاملتها كاسيرة حرب وأمر بسجنها حالا فى قلعة جان
دولكسمبرغ فى بورفوار وقد حاولت الهرب واثبة عن حائط الحبس فلم تنجح فنقلت الى روان وهنالك
أقيمت عليها الدعوى فى ١٣ فبراير سنة ١٤٣١ تحت رياسة قس بوفيه (Beauvais)
المدعو بطرس كوشون (P. Cauchon) وكان من صنائع هنرى السادس ملك انجلترة وحاكموها
بدعوى انها ساحرة واستمر الفحص عن أحوالها عدة أشهر أظهرت فى خلالها ثباتا عجيبا ودفاعا فهما
وأخيرا حكموا عليها بالسجن الدائم ثم أرغموها على القسم بان لا ترتدى بعد ذلك بلباس الرجال ثم
نصبوا لها شركا بأن بدلوا ثيابها الا بثياب رجل فلما أرادت ترك فراشها لم تجد سوى تلك الثياب
فلبستها مضطرة فهوجمت وسيقت الى المحاكمة على ذلك وحكموا عليها بالحرق فقالت بثبات انى
استأنف حكمكم هذا الى عرش الحكيم العظيم ولكنها لما أخرجت من السجن الى المكان الذى
استوقدت فيه النار بمدينة روان فى مكان يدعى ساحة البكر خارت قواها فأنت متأوهة ولما اشتعل
اللهيب فى جسدها أخذت تدعو وتبتهل بلسان أبكى أعداءها (٣١ مايو ١٤٣١) وذرى
رمادها فى الهواء فوق نهر السين وقد لام المؤرخون الانجليز على فعلهم هذه كثيرا العدم معاملتهم
اياها كاسيرة حرب كالاموا شارل السابع لعدم اهتمامه بخلاصها مع أن بقاء تاجه الى سببه
فروسية هذه الفتاة التى ماتت شهيدة وطنها

انتصارات شارل السابع واسترداده الاقاليم من الانجليز — انه بعد حرق جان دارك كما
مر ظن النائب برفورد أن السعادة عادت للانجليز فى بلاد فرنسا فاحتفل بتتويج هنرى السادس
فى كنيسة نوتردام فى باريس كما توج فى وستمنستر الا أن تتويجه فى باريس كان على غير طائل
لان الشعب الفرنسوى كان غير راض عن ذلك وكان شارل السابع تأثر من لوم شقيقته آنيس
سورل له على تقاعده وعدم الاهتمام بأمر بلاده فجهز الجيوش وقادها بنفسه لحرب الانجليز
وكان الشجاع دنواس تقدم بمجموع من الفرنسويين حركتهم الغيرة لاخذ ثار جان دارك من الانجليز

فشدد

Digitized by Google

فشدد الحصار على مدينة شارترى (Chartrès) فسلمت اليه ثم انهزم النائب بدفورد فى واقعة لاغنى (Lagny) هزيمة منكرة (١٤٣٢ م) وفى شهر نوفمبر مات دوقة بدفورد أخت فليب الطيب دوق برغونيه فانحلت بذلك الروابط التى كانت بينه وبين بدفورد خصوصا لما قام بدفورد وتزوج ثانية من غير ما يستشير فيليب دوق برغونيه فغضب عليه وفسخ عهده مع الانجليز وتصالح مع شارل السابع وتعاهد معه سنة ١٤٣٣ ثم عقدت معاهدة أخرى بين شارل السابع وبين فيليب الطيب دوق برغونيه المذكور فى مدينة أراس (Arras) سنة ١٤٣٥ انتهت بها حروب الأرمانياكيين والبرغونيين واتحد الفريقان على الانجليز وبذلك اشترك جيشه مع جيش ملك فرنسا وهاجما مدينة باريس فطردوا عساكر الانجليز منها ودخلوها (١٤٣٦ م) وأصدر ملك فرنسا أمرا بالعفو العام عن كل المذنبين ففرح الأهالى بذلك وبايعوه ثم عقد مجلسا فى مدينة أورليان (أكتوبر ١٤٣٩ م) قرر فيه الغاء الجبايات القديمة للالتزامات ورتب قوة عسكرية منتظمة لحماية المملكة وجعل مرتباتها من الخزينة العمومية وجعل تعيين الضباط من حقوقه قال صاحب كتاب اتحاف الملوك الألبا بتقدم الجمعيات فى أوروبا فى صحيفة (٩٥) لما صار الملك كرلوس السابع حينئذ ذا شهرة عظيمة بما حصل له من النجاح فى حروب الانجليز ونصرة رعاياه الفرنساوية اجرى مالم يتجاسر أسلافه على الشروع فيه لاسيما وقد أعانه على ذلك الخوف والرعب الذى قد كان طبع فى قلوب رعاياه من أيام حكومة اعدائهم الانجليز فاحتج بأنه يلزم فى كل وقت الاحتراس من الانجليز ويلزم لذلك المحافظة على ابقاء عساكر متجهزة كافية لحماية المملكة من اغارة تقع فجاءة من هؤلاء الاعداء فسرح جميع العساكر السالفة ولم يبق منها سوى فرقة قدرها تسعة آلاف من الخيالة وستة عشر ألفا من المشاة وعين جهة تدفع فيها ماهياتهم ووزعهم بين ثغور مملكته وحصونها على حسب ما اختاره واقتضاه رأيه وجعل عليهم ضباطا لأجل حكمهم وتربيتهم فى العسكرية فصار أعاظم الأشراف وأكثرهم امتيازا يبادرون الى الدخول فى هذه الخدمة وفيها تعودوا على اتباع ملكهم والانقياد له واطاعة أوامره وتتميم مرغوباته وصاروا يعتبرونه كأنه قاسم الاستحقاق بينهم يعرف ما يستحقه كل منهم وانه ولى نعمتهم اه وفاز بهذا الجيش على الامراء الذين عارضوه فى أمر الجبايات ثم استمر شارل يحارب الانجليز من سنة ١٤٣٦ الى سنة ١٤٤٤ م محاربات متوالية انتصر عليهم فى أغلبها واسترد منهم معظم الأقاليم التى كانوا اغتصبوها فاستحق بذلك أن يلقب بالمنصور ولقبه الفرنساويون بعميد بلاد فرنسا شكرا له على صنيعه هذا وفى سنة ١٤٤٤ المذكورة عقد مع الانجليز هدنة لمدة سنتين ولكنها استمرت أربع سنوات تزوج فى خلالها هنرى السادس ملك انجلترة بمرغريت دوانجو ابنة أخى ملك فرنسا فى مدينة نانسى (١٤٤٥ م)

ولما شعر شارل السابع أن بطالة عساكره وعدم اشتغالهم بالحروب ربما نتج منه أنهم ينهبون فرنسا خصوصا وان بعضهم اجتمع للصوصية فأوقعوا الخوف فى انحاء المملكة تجهز لحرب السويسره ثم سار بجنوده ومعه ابنه الدوفين لمحاربة المدن الحرة والسويسره وكان أهاليها يومئذ فى حرب أهلية أمسى اتحادهم فيها على خطر فدهمهم الدوفين بجيشه وحاربهم وقتل منهم

Digitized by Google

ألي محارب في واقعة تعرف بواقعة سان جاك الا انه فقد عدداً عظيما من عساكره . (١٤٤٤ م)
وفي سنة ١٤٥٠ م تحسنت أحوال سويسره وعقدت الصلح مع فرنسا (١٤٥٢ م) ولما
انتهت مدة المهادنة مع الانجليز سنة (١٤٤٩ م) عزم شارل على محاربتهم وانتهز فرصة الفتن
الواقعة بين حزبي الوردتين وهما حزب الوردة الحمراء الذي أهله عائلة لنكستر وحزب الوردة البيضاء
الذي أهله عائلة يورك فتقدم بجيشه وحاربهم وانتصر عليهم في واقعة فورميني (Formigny)
سنة ١٤٥٠ واستولى على مقاطعة نورمنديا ثم أخذ منهم اقليم غويانه (Guyenne)
بعد انتصاره عليهم في واقعة كستيلون سنة ١٤٥٣ وفي سنة ١٤٥٤ استرجع
جميع ما استولى عليه الانجليز من بلاد فرنسا بالجيوش التي ساقها عليهم تحت قيادة الكونت
دنواس والأمراء بنسوبره وفواش وأرمنياك ولم يبق للانجليز من المدن الفرنسوية الا مدينة
كاليه وحدها

استطراد

مصر وملك رودس ـ قال ليون غوربن في تاريخ بحرية فرنسا انه في هذا الزمن
جلس على كرسي إمارة رودس أميرة رنسوي يدعي يوحنا بون باردولاستيك (Jean)
(Bompart de Lastic) (١٤٣٧ م) وكان اشتهر منذ صباه بالاقدام والجسارة
واقتحام الاخطار ولما كان له من العمر ١٥ سنة أسره الانجليز (١٣٨٥ م) بينما كان يدافع
عن والده ولما انتظم في سلك طائفة فرسان اورشليم (١٣٩٥ م) ترقى بعد قليل بما
أظهره من الجدارة الى منصب عظيم فيها ثم لما قبض على صولجان الحكم برودس بعد وفاة
أميرها سن جان هريتا (Saint-Jean Hérita) (٢٩ اكتوبر ١٤٣٧) علم
ان جميع جيوش بحرية ملك مصر الظاهر سيف الدين بن سعيد جقمق على قدم الاستعداد
للاغارة على بلاده فداخله الرعب الا انه لما علم أن السلطان مرادخان الثاني سلطان العثمانيين
لا يتداخل في هذه الحرب عزم على المقاومة بقدر مجهوده فسلح ثمان شوان وأربع سفن
عظيمة وعدة مراكب النقل وأنزل فيها فرقة من شجعان جنوده وأخذ في تقوية أكثار
الحصون والقلاع بجزيرة رودس وأمر قواده وأمراءه بأن يكونوا على قدم اليقظه والاستعداد
لصد كل مهاجمة وفي ٢٥ سبتمبر من سنة ١٤٤٠ م ظهرت أساطيل ملك مصر
وكانت تتألف من ثمان شوان وكثير من السفن الجيدة التسليح عليها كثير من الجنود البرية
والبحرية وطلب أمير القوة المصرية من ملك رودس المذكور باسم ملك مصر أن يعترف
بتبعية رودس للدولة المصرية مثل جزيرة قبرص وكانت مصر تزعم أن لها حقوقا قديمة على
رودس فرفض يوحنا دولاستيك المذكور الاعتراف بذلك فشرعت الاساطيل المصرية في انزال
الجنود وبينما كان جميع فرسان وأهالي الجزيرة ومعهم رئيسهم يستعدون للدفاع على الشاطئ
خرجت أساطيل النصارى وكان يقودها غليوم دولاستيك ابن عم أمير رودس من المينا مرتبة
ترتيبا حربيا ومع ما كانت عليه من قلة العدد هجمت على أساطيل المسلمين الذين التجؤا سريعا
الى خليج صغير هنالك وبعد أن كانت أساطيل المسلمين هاجمة أصبحت بعد قليل مدافعة وبعد

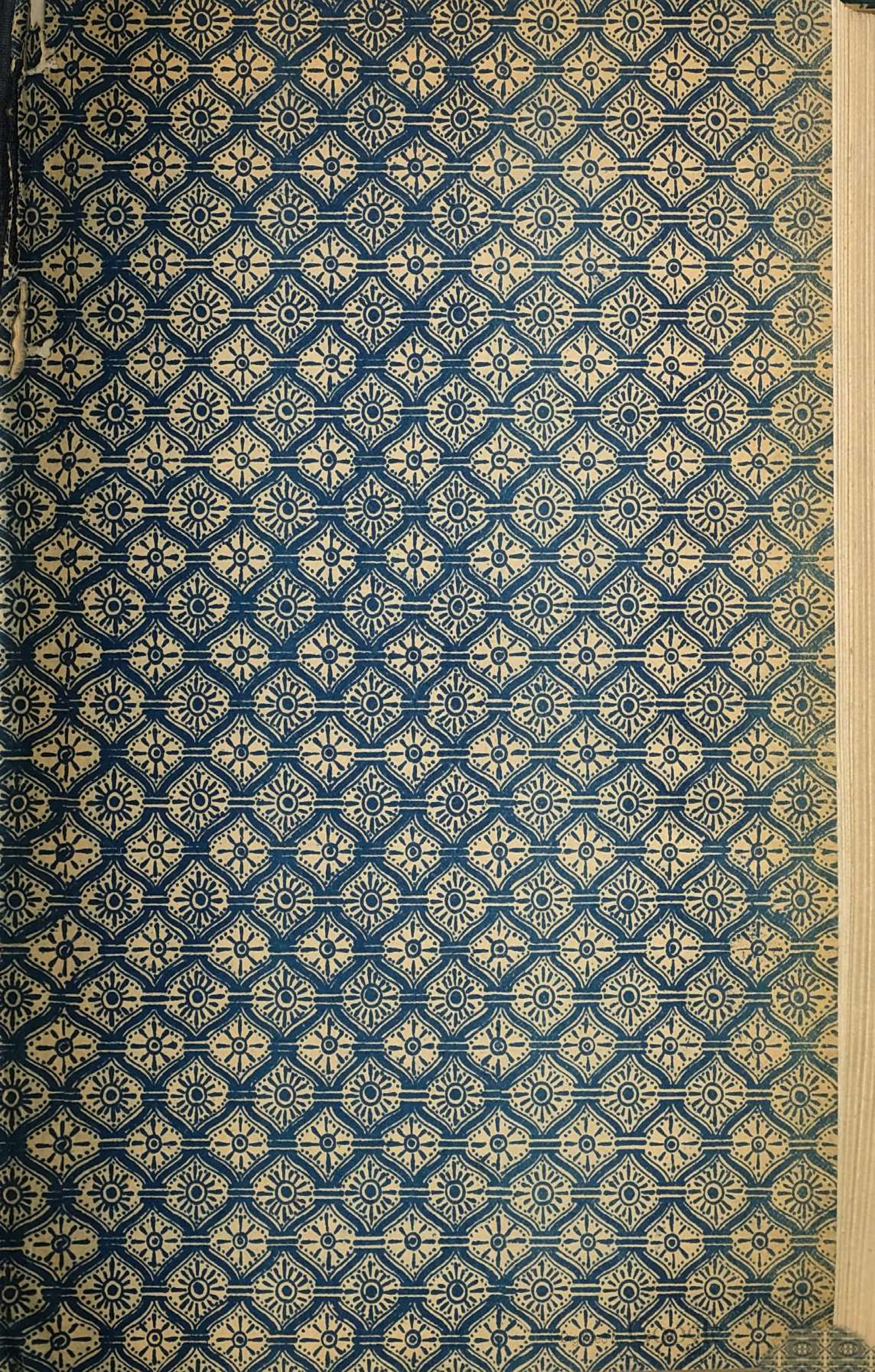
ذلك

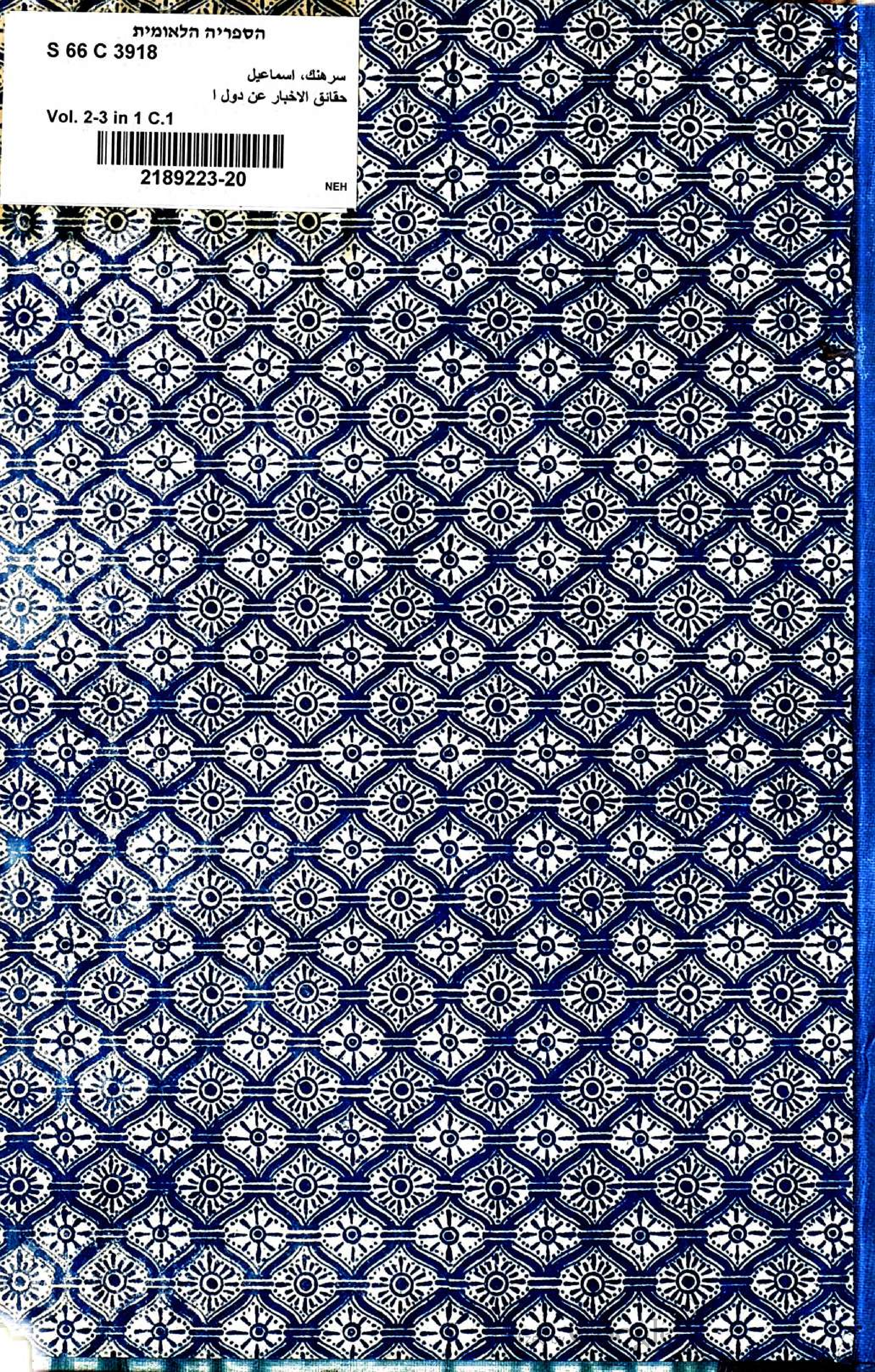
تم الكتاب

Digitized by Google

إلى هنا ينتهي الكتاب وبه يتم (١)

Digitized by Google





הספריה הלאומית
S 66 C 3918
سرهنك، اسماعيل
حقائق الاخبار عن دول ا
Vol. 2-3 in 1 C.1
2189223-20
NEH



Digitized by Google